حقيقة النظام النصيري البعثي

إعداد
أبو دجانة الشامي

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م

حقيقة النظام النصيري البعثي

إعداد

أبو دجانة الشامي

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست الكتاب :

العنوان	الصفحة
الاهداء	٦
مقدمة الكتاب	٧
الجزء الأول	٩
المبحث الأول: حقيقة الطائفة النُصيرية الباطنية (العلوية)	١٠
المبحث الثاني: حقيقة حزب البعث العربي الاشتراكي	٦٢
المبحث الثالث: حقيقة العلمانية	٧٠
المبحث الرابع: تدمير وثن القوميين	٧٧
المبحث الخامس: حقيقة الشيوعية	٩٢
المبحث السادس: بيان كفر وفساد دستور الجمهورية العربية السورية الاشتراكية	٩٧
الجزء الثاني	١٠١
المجزرة الأولى : مجزرة مدينة حماه عام ١٩٨٢م	١٠٣
المجزرة الثانية : مجزرة سجن تدمر الشهيرة عام ١٩٨٠م	١٢٦
تقرير منظمة العفو الدولية عن التعذيب في سجن تدمر العسكري	١٤٢
من المجازر الكبرى التي ارتكبها النظام السوري بحق أبناء شعبه	١٦٢
المجزرة الثالثة : مجزرة (جسر الشغور)	١٦٢
المجزرة الرابعة : مجزرة حماة الأولى التي نفذت في عام ١٩٨٠م وهي غير مجزرة حماة الكبرى التي نفذت في عام ١٩٨٢م	١٦٢
المجزرة الخامسة : مجزرة حي المشارقة ــ حلب	١٦٣
المجزرة السادسة : مجازر سجن تدمر	١٦٣
المجزرة السابعة : ذبح أهل السنة من الفلسطينيين واللبنانيين في تل الزعتر عام ١٩٧٦م على يدي الطاغية حافظ الأسد	١٦٣
بعض السجون والمعتقلات السورية التي أرتكب فيها النظام النصيري أبشع الجرائم	١٦٦
تعذيب النساء في سورية	١٦٨
النظام السوري يرمي شهدائه و جرحاه في الأودية اللبنانية	١٧٠
الجزء الثالث	١٧٤
الطاغية النصيري بشار الأسد	١٧٥

الطاغية النصيري ماهر الأسد ١٨١
ملف الخائن الطاغية حافظ الأسد ٢٠٠
الطاغية رفعت الأسد ٢٣١
الطاغية غازي كنعان ٢٤٤
المجرم جميل الأسد ٢٤٨
الطاغية آصف شوكت ٢٥٢
المجرم محمد حمشو ٢٦٦
المجرم نادر قلعي ٢٧٥
المجرم ذو الهمة شاليش ٢٧٩
المجرم إياد طه غزال ٢٨٣
الطاغية رستم غزالة ٢٩٤
المجرم نمير الأسد ٣٠٠
المجرم عاطف نجيب ٣٠٥
المجرم كمال الأسد ٣١٠
المجرم حسن مخلوف ٣١٣
المجرم محمد مخلوف ٣١٨
المجرم اللص رامي مخلوف ٣٢٧
الحرامي فواز الأخرس ٣٥٢
الجزء الرابع ٣٥٦
أولاً: شهادات السجناء في عهد الطاغية النصيري الهالك " حافظ الأسد " ٣٥٧
[الشهادة الأولى] تدمر شاهد ومشهود / بقلم: محمد سليم حماد (قضى ١١ عاماً في سجن تدمر) ٣٥٧
[الشهادة الثانية] خمس دقائق وحسب ! تسع سنوات في سجون سورية بقلم: هبة الدباغ ٤٦٥
[الشهادة الثالثة] شهادة المعتقل السابق عباس محمود عباس . ٥٦١
[الشهادة الرابعة] شهادة مهندس سوري يروي تجربة اعتقاله في تدمر . ٥٧٣
[الشهادة الخامسة] الطريق إلـــى تدمر ياسين الحاج صالح . ٥٧٩

[الشهادة السادسة] شهادة - ١١ عاما في السجن بجرم عدم الوشاية بالجار!! . ٥٨٧
[الشهادة السابعة] المعتقل السابق أصلان عبد الكريم في حديث للعدالة عن تجربة اعتقاله . ٥٩٠
[الشهادة الثامنة] شهادة العقيد توفيق الطيراوي عن العذاب الذي تعرض له في السجن ٥٩٤
[الشهادة التاسعة] شهادة خالد فاضل بعنوان "في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي" ٦٠٠
[الشهادة العاشرة] شهادة بعنوان " حمامات الدم في سجن تدمر " ٧٧١
[الشهادة الحادية عشر] بقلم السجين سابقاً / حسن الهويدي – بعنوان " تدمر في الذاكرة " ٩٥٣
[الشهادة الثانية عشر] هل سيأتون الليلة ؟ بقلم : د. جميل قدري ١٠٠٧
[الشهادة الثالثة عشر] بعض الذكريات من منزل الموتى - بقلم : آرام كربيت ١٠١٣
ثانياً: شهادات السجناء في عهد الطاغية النصيري " بشار الأسد " ١٠٢٠
[الشهادة الرابعة عشر] الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي يروي قصة معاناته في أشهر سجون دمشق ١٠٢٠
[الشهادة الخامسة عشر] واقعة أمنية سورية (المخابرات السورية تعتقل الشيخ حسين بن محفوظ (مواطن يمني) في عهد الطاغية بشار الأسد) ١٠٣٩
[الشهادة السادسة عشر] شهادة شهادة سجين جزائري حاول العبور للعراق للجهاد في سبيل الله ١٠٤٢
مصادر الكتاب ١٠٤٨

الاهداء

- اهدي هذا الكتاب لشباب الأمة الإسلامية الناشئ في سوريا ، ليعلموا حقيقة هذا النظام النصيري البعثي الكافر .
- اهدي هذا الكتاب لكل الباحثين عن الحقيقة .
- اهدي هذا الكتاب لكل المظلومين في سوريا .
- اهدي هذا الكتاب لمن لديه بقية ايمان في صدره ومازال يعمل في صفوف النظام النصيري البعثي .

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي أرسل الرسل ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، الحمد لله الذي جعل الجنة مترل المؤمنين ، وجعل النار مترل الكافرين ، وأصلى واسلم على النبي المبعوث رحمة للعامين ، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وبعد :

لقد قدر الله عز وجل أن تكون من سنن هذه الحياة الدنيا ، سنة الصراع بين الحق والباطل ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، قال الله تبارك وتعالى : [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ{٣٦} لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٣٧}] سورة الأنفال .

لقد ابتليت الأمة الإسلامية اليوم في سوريا ، بحكم النظام النصيري البعثي الكافر ، والذي يترأسه عصابة من أبناء الطائفة النصيرية (العلوية) ، حيث لعب النصيرية دور خبيث من وراء الستار بالحكم في سوريا ، قبل وصولهم بشكل مباشر إلى الحكم ، ثم تولوا بعد ذلك إدارة الحكم في سوريا علناً في عام ١٩٧٠م بقيادة حافظ الأسد – النصيري – واستمر حكمه حتى عام ٢٠٠٠م ، وبعد وفاته خلفه ابنه بشار الأسد ، ومازال إلى يومنا هذا .

لقد كان لوصول النصيرية وأذناهم البعثيين إلى الحكم ، أثر في غاية السلبية على سوريا ، حيث رسخوا مبادئ ومنهج حزب البعث الاشتراكي العلماني الكافر ، وحاربوا الإسلام وأهله ، ونشروا الفساد والانحطاط الأخلاقي ، وهبوا خيرات البلاد ، وقتلوا المسلمين وأذلوهم .

لذا كان لزاماً علينا أن نبين حقيقة هذا النظام النصيري البعثي ، ونكشف كفره وعوره وضلاله للناس ، لكي يجتنبوه ويعملوا على إسقاطه ، وإقامة نظام يحكم بالشريعة الإسلامية ، لكي يسعد الناس في الحياة الدنيا ، وتصلح معيشتهم ، ويفوزا بالنعيم في الجنة يوم القيامة .

قال الله جل في علاه : {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ }الأنعام : ٥٥ ، جاء في التفسير الميسر : ومثل هذا البيان الذي بيَّنَّاه لك -أيها الرسول- نبيِّن الحجج الواضحة على كل حق ينكره أهل الباطل؛ ليتبين الحق، وليظهر طريق أهل الباطل المخالفين للرسل . اهـ

ولقد قمنا بحمد الله وتوفيقه ، بجمع مادة هذا البحث "حقيقة النظام النصيري البعثي" لكي يطلع الناس على حقيقة هذا النظام الكافر المجرم .

ونأمل ممن لديه أي ملحوظات على هذا البحث ، أو أي إضافات عليه ، أن يقوم مشكوراً بمراسلتنا عبر البريد الإلكتروني ، وعنوان البريد الإلكتروني موجود في موقعنا "منبر المسلم" على شبكة الإنترنت .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم ، وما كان في هذا البحث من صواب فمن الله ، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان .

قال الله عز وجل : {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }الكهف : ٤٩ .

قال الله تبارك وتعالى : {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَـــوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ } إبراهيم : ٤٢ .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وآخر دعوانا ، أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه أخوكم في الله

أبو دجانة الشامي

الجـــــزء الأول

بيان كفر النظام النصيري البعثي

يحتوي الجزء الأول من هذا الكتاب على المواضيع التالية :

المبحث الأول: حقيقة الطائفة النُصيرية الباطنية (العلوية) .

المبحث الثاني: حقيقة حزب البعث العربي الاشتراكي .

المبحث الثالث: حقيقة العلمانية .

المبحث الرابع: تدمير وثن القوميين .

المبحث الخامس: حقيقة الشيوعية .

المبحث السادس: بيان كفر وفساد دستور الجمهورية العربية السورية الاشتراكية .

المبحث الأول

حقيقة الطائفة النُصيرية الباطنية (العلوية)*

بما أن سوريا اليوم تحكم من قبل أبناء الطائفة النصيرية ، لذا وضعنا هذا التعريف الخاص بالطائفة النصيرية (العلوية) .

التعريف بالطائفة النصيرية :

حركة باطنية ، سميت بالنصيرية نسبة إلى محمد بن نصير البصري النميري الهالك سنة ٢٧٠ هـ ، ظهرت هذه الفرقة في القرن الثالث للهجرة ، وهي إحدى فرق غلاة الشيعة ومذهبهم مزيج من الوثنية الآسيوية القديمة، والمجوسية، واليهودية، والنصرانية خاصة في قضية الحلول (حلول الله في جسم شخص) وزعموا وجود جزء الهي في علي وألهوه به .

حقائق عن النصيرية :

يحبون (عبد الرحمن بن ملجم) قاتل الإمام علي ويترضون عنه لزعمهم بأنه قد خلص اللاهوت من الناسوت ويخطئون من يلعنه.

مقصدهم هدم الإسلام ونقض عراه وهم مع كل غاز وعدو لأرض المسلمين، ولقد أطلق عليهم الاستعمار الفرنسي لسوريا اسم (العلويين) لأنهم يضيقون ذرعا بتسميتهم النصيريون ولان ذلك يخلصهم مما علق بهم من ذم وتشنيع وتكفير وتفتح لهم آفاقا أرحب للتقارب مع الشيعة.

موطنهم وأماكن تواجدهم:

يستوطن النصيريون جبال سوريا الغربية في اللاذقية وطرطوس وهي أهم مناطقهم وتقع في شمال غرب سوريا، محاذية لساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد انتشروا مؤخرا في المدن السورية المجاورة لهم مثل منطقة حمص التي أقاموا فيها مؤخرا عددا من المشاريع العسكرية والاقتصادية لجعلها عاصمة لدويلتهم في حال إزاحتهم عن الحكم.

كما توجد أقلية نصيرية في محافظة حلب وبعض قرى الجولان.

بعد اغتصابهم السلطة في سوريا حصل بعض التعديل في توزيعهم السكاني، إذ أن معظم قياداتهم السياسية والعسكرية انتقلت مع عائلاتها وأزلامها إلى دمشق والمدن الكبرى وأقاموا شبه مستعمرات حول مدينة دمشق في دمر ، برزة ، القدم ، المعضمية ، مخيم اليرموك ، الست زينب .

* [مصدر هذا البحث هو موقع "النصيرية" على شبكة الإنترنت بتصرف، وكذلك بعض مواقع الإنترنت] .

كما أقدم بعضهم على التزاوج من أبناء وبنات المسلمين، في غفلة من الــوعي الــديني وسعياً من بعض ضعاف النفوس للتقرب من السلطة الحاكمة، وهي زيجات باطلة شرعاً لأنها مــع كفرة . كما حصلت مثل هذه الهجرة في باقي المحافظات السورية بنسب أقل وكذلك في منــاطق الثروات الاقتصادية وتجمعات الصناعة ، في حين بقي الجبل موطنهم الأساسي ومستقر ثــرواهم ومشاريعهم الإعمارية والاقتصادية ، ويقدر عدد السكان النصيريين في سوريا بنحو ١٠% مــن السكان أي ما يقرب من مليون وسبعمائة ألف نسمة.

في لبنان يتواجد النصيريون في سهل عكار شمال لبنان وضواحي مدينة طرابلس ومعظمهم نازح من سوريا، ومن المعروف أن ولائهم التام هو للنظام النصيري وليس للبنان، ويقدر عددهم بحوالي أربعين ألف.

ولقد شاركوا في الحرب الأهلية اللبنانية كعملاء لأسيادهم وشاركوا الجيش الــسوري بقصفه لمدينة طرابلس المسلمة، وقاموا بارتكاب جرائم قتل وسلب وتهريب وترويج للمخدرات.
بالإضافة إلى وجود عدد كبير منهم في غربي الأناضول (كيليكيا ولواء الإسكندرون) ويعرفــون باسم (التختجية أو الحطابون) فيما يطلق عليهم شرقي الأناضول اسم (القزل باشيه).

ويقدر عددهم في تركيا بنحو مليوني نسمة، وقد قويت شوكتهم بتسلم إخوانهم للسلطة في سوريا، وتسلل العديد منهم ليعمل في خدمة النظام النصيري في ســوريا، وتلقــوا الأســلحة والدعم والتدريب في سوريا ليشاركوا في مؤامرات وقلاقل في تركيا.

ويعرفون في أجزاء أخرى من تركيا وألبانيا باسم البكتاشية، وهناك عدد منهم في فارس وتركستان الروسية وكردستان ويعرفون باسم (العلي إلهية).

في فلسطين يوجد ألفين نصيري يسكنون منطقة الجليل.

وفي العراق يوجد عدد قليل جدا في منطقة عانة قرب الحدود السورية وهــذه تاريخيــاً إحدى أهم معاقل شيوخ الطائفة النصيرية.

نشأة مذهبهم ومؤسسيه:

أسس هذا المذهب اللعين محمد بن نصير الذي عاش في سامراء إلى أن هلك ٢٧٠ هــ، وعاصر علي الهادي(٢١٤-٢٥٤هــ) والحسن العسكري (٢٣٠-٢٦٠هــ) ومحمد المهــدي (٢٥٥-L) وبعد وفاة الإمام الحسن العسكري ووفاة أو غيبة (كما يدعي الرافضة) ابنه محمــد المهدي استقل بزعامة الطائفة وادعى لنفسه خصائص الأئمة من أهل البيت فجمع بذلك البــاب والإمامة، وانه الممثل الوحيد والمرجع للناس من بعده، والشيعة يقولون أن المرجعية الدينية عهدت إلى أربع أشخاص هم: عثمان بن سعيد العمري- محمد بن عثمان بن سعيد- الحسين بــن روح

النوبختي - علي بن محمد السمري، وادعى النبوة والرسالة وغلا في حق الأئمة إذ نسبهم إلى مقام الإلوهية.

ليس النصيريون أول من ادعى إلوهية علي فقد سبقهم عبد الله بن سبأ اليهودي، وكذلك بيان وأبو الخطاب وهم الأصول التي اعتمد عليها ابن نصير.

أخذت النصيرية عن الخطابية أتباع محمد بن أبي زينب الكاهلي باب الإمام السابع موسى الكاظم.

المفضل بن عمر الجعفي تلميذ أبي الخطاب المخلص وتعتبر كتبه عند النصيرية مقدسة ويعتبرونه باب الإمام الثامن ويعتبرون كتابه (الهفت والاظلة) من الكتب المقدسة.

خلف ابن نصير على زعامة الطائفة محمد بن جندب.

ثم أبو محمد عبد الله بن محمد الجنان الجنبلاني (٢٣٥ـ٢٨٧) من جنبلا بفارس، وكنيته العابد والزاهد والفارسي، وعاصر الجنيد بن حبيب الخراز البغدادي الصوفي، وقد أحدث النصيريون طريقه أسموها الجنبلانية، وسافر إلى مصر، وهناك عرض دعوته على الخصيبي.

حسن بن على بن الحسين بن حمدان الخصيبي: المولود سنة ٢٦٠ هـ جاء مع أستاذه من مصر إلى جنبلا، وخلفه في رئاسة الطائفة، وترك الخصيبي مدينة جنبلا وقصد العراق ليكون تحت حماية(بني بويه) من الشيعة الغلاة الذين سيطروا على الدولة الباسية، وألف كتاب(رست باش) ويعني الطريق إلى الاستقامة وأهداه إلى عضد الدولة ابن بابويه القمي. ثم ذهب إلى سيف الدولة الحمداني في حلب ويمت إليه بصلة القرابة، وعاش في كنف الدولة الحمدانية في حلب وقدم إليه كتابين هما(الهداية الكبرى) و(المائدة). ويعتبر النصيريون سيف الدولة والحمدانيون مقدسين ومعظمين ووكلاء للخصيبي في السياسة، ودأب الخصيبي ووكلاؤه في الدين إرشاد بعض الفرق من بقية الأديان إلى دينهم وهؤلاء يبقون بصفتهم شيعة جعفرية، والذين يشاهد فيهم الكفاءة يدخلون في الطريقة الجنبلانية التي استحال أفرادها إلى الشعب النصيري. وقد انتشرت ديانتهم في العراق بمساعدة بني بويه ثم في الأهواز وفارس.

وللخصيبي وكلاء في العراق والشام وله تلاميذ من الملوك (بني بويه ـ بني حمدان ـ الفاطميين) ويسمونه بشيخ الدين.

هلك الخصيبي سنة ٣٥٨ هـ ودفن شمالي حلب، وقبره معروف باسم الشيخ يابراق.

بعد هلاكه انشأ مركزين للنصيرية الأول في حلب ورئيسه محمد علي الجلي (نسبة لقرية جلى قرب إنطاكية) والآخر في بغداد ورئيسه علي الجسري، ولكن انقرض هذا المركز بعد حملة هولاكو على بغداد.

أبو سعيد الميمون سرور بن قاسم الطبراني:(٣٥٨ ــ٤٢٧ هــ) قام بنقل مركز حلب إلى جبال اللاذقية سنة(٤٢٣هــ) وقد نافسهم الاسحاقية ومركزهم جبلة وهم فرقة تنتسب إلى أبي يعقوب إسحاق النخعي الملقب بالأحمر وله كتاب (الصراط) ادعى لنفسه البابية وهم يميلون إلى الادعاء أن عليا شريك محمد(صلى الله عليه وسلم) في النبوة. وله مقام في مسجد الشعراني معروف باسم قبر الشيخ محمد البطرني أو البطراني.

وخلف إسحاق الأحمر همام الأعسر ثم اللقيني ثم أبو ذهبية واسمه إسماعيل بن خلاد البعلبكي معاصر الطبراني وكان أيضا يسكن حلب ثم انتقل إلى جبلة واستولى عليها وقاتل النصيرية وكاد أن يقضي عليهم لولا مجيء بني هلال الذين أبعدوه إلى إنطاكية ثم قتلوه.

الأمير حسن المكزون السنجاري:(٥٨٣ ــ ٦٣٨ هــ) طلب النصيريون النجدة من الأمير السنجاري بسبب مهاجمة الأكراد والأتراك المسلمين لهم وجاء لنجدتهم سنة ٦١٧هــ في ٢٥ ألف فارس فهزم وعاد الكرة سنة ٦٢٠هــ في خمسين ألف فانتصر بعد أن كانوا يقضوا على النصيريين. وقد بقي المكزون في جبال النصيرية وألف كتبا وأشعارا لذلك يعتبرونه من أعظم مشايخهم.

وظهر فيهم عصمة الدولة حاتم الطوبالي حولي (٧٠٠ هــ) وهو كاتب الرسالة القبرصية.

وظهر حسن عجرد من منطقة أعنا، وقد توفي في اللاذقية سنة (٨٣٦ هــ).

نجد بعد ذلك رؤساء تجمعات نصيرية مثل الشاعر القمري محمد بن يونس كلاذي (١٠١١هــ) قرب إنطاكية، وعلي الماخوس وناصر نيصفي ويوسف عبيدي.

سليمان الآدني: وهو من أدنة ولد سنة ١٢٥٠هــ انتقل إلى اللاذقية وتلقى تعاليم الطائفة لكنه تنصر على يد أحد المبشرين وهرب إلى بيروت حيث اصدر كتابه (الباكورة السليمانية) يكشف فيه أسرار هذه الطائفة، وطبعه المبشرون فأسرع النصيريون لسحب هذا الكتاب من الأسواق، وكان أفضل من أطلع الناس على حقيقة الديانة النصيرية الباطلة.

تظاهر النصيريون بعد ذلك بالتسامح معه فطمأنوه ودعوه للعودة إليهم، فلما وصل انقضوا عليه وأحرقوه حيا في إحدى ساحات اللاذقية لكشفه أسرارهم كما ورد في دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي.

محمد أمين غالب الطويل: شخصية نصيرية، كان أحد قادتهم أيام الاحتلال الفرنسي لسوريا، واصدر كتاب (تاريخ العلويين) سنة١٩٦٤ م يتحدث فيه عن جذور هذه الطائفة.

سليمان الأحمد: هو أحد اكبر زعماء النصيريين وشغل منصبا دينيا في دولة العلويين التي أقامتها فرنسا(١٩٢٠ - ١٩٣٦ م)

سليمان المرشد: سنتطرق لسيرته بشكل مفصل.

أفكارهم وعقيدتهم:

جعل النصيريَّة علي إلها، وقالوا بان ظهوره الروحاني بالجسد الفاني كظهور جبريل في صورة بعض الأشخاص.

يبيحون المحرمات وأباحوا نكاح المحارم ونكاح الرجال.

يزعمون مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات سرا: يوم نام في فراشه ــ يوم بيعة الشجرة ــ ودار أم سلمة، وبيعة جهرية يوم غدير خم.

يزعمون أن الولاية أعلى من النبوة لان الإمام المعصوم مصدر الإرادة الإلهية دون وحي أو واسطة لأنه تحت تأثير الإرادة الإلهية مباشرة.

الإلوهية مثلثة عندهم كالنصارى:

أب ـــ ابن ـــ روح قدس

معنى ـــ اسم ـــ باب

الله ـــ حجاب نوراني ـــ باب

التشهد عندهم: اشهد أن لا اله إلا علي بن أبي طالب(كتاب المجموع)

في كتاب الهداية الكبرى للخصيبي أن الشمس ردت على علي بن أبي طالب وشهدت له بالإلوهية.

يعتقدون أن علي خلق محمد، ومحمد خلق سلمان، وسلمان خلق الأيتام الخمس والذين بيدهم مقادير السموات والأرض وهم:

١ــ المقداد بن الأسود الكندي:(اليتيم الأكبر) موكل بالرعود والعواصف وهو رب الناس وخالقهم(مرتبة النقباء)

٢ــ أبو ذر الغفاري: موكل بحركات الكواكب والنجوم (مرتبة النجباء)

٣ ــ عبد الله بن رواحة: موكل بالرياح وقبض أرواح البشر(مرتبة المختصين)

٤ ــ عثمان بن مظعون: موكل بالأبدان وأمراض الإنسان (مرتبة المخلصين)

٥ ــ قمبر بن كادان: موكل بالتناسل أو بنفخ الأرواح في الأبدان(مرتبة الممتحنين)

وقال فيهم المنتجب العاني في قصيدة (جذوة التوحيد)

فتلك الأبواب والأيتام تتبعهم وخلفهم نقباء سادة نجب

وأثرهم نجباء كلهم سلكوا نهج الهدى والى نيل العلا وثبوا
وبعد ذلك مختصون ترمقهم ومخلصون إلى مولاهم قربوا

هذه المراتب كانت في زمن الخصيبي تدل على درجات المعرفة في نطاق المذهب، ومعرفة هذه المراتب ظاهرا وباطنا هو ذروة العبادة وتغني عن الفروض والعبادات التي هي أغلال للجاهلين والمقصرين.

يروي النصيريون عن جعفر عن طريق المصدق الجعفي: من عرف هذا الباطن فقد سقط عنه عمل الظاهر، وإذا عرفها فهو حر سقطت عنه العبودية.

في كتاب الصراط للجعفي الذي يرويه الجلي عن الخصيبي: إذا أكمل المؤمن وبلغ المعرفة وعرف ربه وحجبه ومقاماته وأبوابه وأيتامه ونقبائه وأنجبائه ومختصيه ومخلصيه وممتحنيه فقد خرج من العبودية وصار إلى منزلة الأحرار ورفع عنه الآصار وأبيح له ما كان محظورا. ويزعمون أن من عرف الإله في ظهوره الأخير، فقد عرفه في كل ظهوراته الماضية.إلـه(اسم) ثلاثة أحرف وعلي(معنى) ثلاثة أحرف.

هؤلاء الخمسة الذين سبق ذكرهم خلقوا العالم.

علي عندهم يسكن السحاب، الرعد صوته، والبرق ضحكه.

الشماليون سكان الساحل السوري يرون انه يسكن القمر، بينما سكن الجبال يرون انه يسكن الشمس.

يؤكدون على عقد: ع . م . س (علي ــ محمد ــ سلمان).

يتظاهرون بالإسلام تقية حتى يأتي الإمام الغائب صاحب الزمان فينتقم من مخالفيهم أتباع الخليفتين أبي بكر وعمر، عندها لا يعود هناك ضرورة للتكتم.

يشبهون التقية بالثوب، وديانتهم بالبدن، ولا يغير حقيقة البدن إذا لبس أي ثوب.

إفشاء الدين عندهم خطيئة فهم يمنعونه عن أبنائهم حتى يبلغوا الرشد.

عقيدتهم سرية لا يبيحون بها لسواهم، والمرأة لا تعطى السر مطلقا، أما الرجل فيسلم السر بعد ١٨ سنة بواسطة أستاذ يتخذه والدا روحيا، يدخله في اجتماعات سرية يحضرها مشايخ الطائفة، يرتفع من درجة إلى درجة حتى يلقن سرية الديانة.

وفي تلك الجلسات يضع الشيخ أو المشايخ أحذيتهم على رأسه ويعطونه كؤوس الخمر ويهددونه بالقتل إذا أفشى السر.

عقيدتهم الأساسية تأليه علي ويتخذون من ذلك شعار: ع ــ م ــ س وعندهم علي اله أو حلت فيه الإلوهية وهذه الحروف إشارة إلى:

ع = المعنى وهو الغيب المطلق أي الله.

م = الاسم وهو صورة المعنى الظاهر أي محمد.

س= الباب وهو طريق الوصول إلى المعنى أي سلمان.

كما يعتقدون بحلول الإلوهية في البشر منذ أول الخليقة وان هناك سبعة أدوار للظهورات الإلهية اتخذت في كل دور وظهور رسولا ناطقا على النحو التالي:

الإله النبي

١ـ هابيل كان آدم هو الرسول الناطق

٢ـ شيت

٣ ـ سام نوح

٤ ـ إسماعيل إبراهيم

٥ ـ هارون موسى

٦ ـ شمعون الصفا(بطرس عند المسيحيين) عيسى

٧ ـ علي محمد

علي في نظرهم اله في الباطن وإمام في الظاهر.

يزعمون أن علي كإله ظهر لسلمان ١٢ مرة وفي كل مرة كان سلمان يسجد سجدة فتمت اثنتا عشر سجدة وهي حروف (لا اله إلا الله) وهي حروف (علي ـ محمد ـ سلمان).

يعتقدون انه كان قبلنا سبعة أدوار وسبعة آدم، وفي كل دور كان يبعث فيهم آدم، ونحن الدور الثامن، وهكذا سيبقى الوجود.

يعتقدون أن أرواح المؤمنين منهم ترتقي في الدرجات والمراتب حتى يخرج أحدهم من القمصان اللحمية ويلبس قمصان الأنواع أي النجوم، فالنجوم هم المؤمنون الصالحون.

يؤمنون بالتناسخ ويرون أن التناسخ يقع على الكافر بديانتهم حتى يجري عليه ألف موته وألف ذبحة.

يعتقدون أن الجبال هم الجبابرة والطواغيت الذين ظلموا أهل الحق (النصيرية) فمسخوا على هذه الحالة حتى ينتهي هذا الدور فيمسخوا مرة أخرى حيوانات تأكل وتشرب. ويبقى عذاب المسخ والنسخ على الكافر بدينهم حتى يظهر القائم الغائب وهو محمد بن الحسن العسكري فيرد هؤلاء في صورة الإنسانية ثم يقتلهم من جديد فتجري الأودية بدمائهم كما تجري الماء (كتاب الصراط للجعفي).

ورد في كتاب الهفت والاظلة للمفضل الجعفي:

إن الحجر والشجر والماء والملح وغير ذلك ممن لا يدب ولا يمشي ولا يطير هو ممن يتحلل من أبدان المؤمن والكافر، فما له رائحة طيبة أو مشرب صافي من أبدان المؤمنين، وأما الأشـياء ذات الرائحة النتنة والتي طعمها مر فما يتحلل من أبدان الكافرين.

يختلفون حول علي بعد تركه ثوبه الآدمي هل هو في القمر (الشمالية)، أو هو في الشمس (الكلازية).

يؤمنون أن لا دار إلا دار الدنيا، وان القيامة هي خروج الروح من البدن ودخولها بدن آخر، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والأبدان هي الجنان وهي النار.

المؤمن عندهم يتحول سبع مرات قبل أن يأخذ مكانه بين النجوم. والنصوص التي تؤكد ذلك عندهم هي:

الباب الرابع من الباكورة السليمانية يقول: أنهم كانوا قبل بدء العـالم أنـوار مـضيئة، وكواكب نورانية لا يأكلون أو يشربون أو يتغوطون.

والباب السادس من الباكورة السليمانية يقول: يعتقدون أن أرواح الشرفاء من المسلمين الراسخين في العلم تحل في هياكل الحمير، وأرواح علماء النصارى تحـل في أجـسام الخنـازير، وعلماء اليهود في هياكل القردة.

والباب السابع من الباكورة السليمانية: متى خلصنا من الكثايف البشرية ترتفع أرواحنا إلى ما بين تلك الكواكب المتلاصقة وهي درب التبان وتلبس هياكل نورانية.

يقول النصيريون عند شرب الخمر: إن هذا عبدك عبد النور شخص النار حللته وكرمته وفضلته لأوليائك العارفين بك حلالا طلقا وحرمته على أعدائك الجاحدين المنكرين لك نـصا، اللهم مولاي كما حللته لنا ارزقنا به الأمن والأمان والصحة من الأسقام وانف عنـا بـه الهـم والأحزان .

عند تعليم أحد أفرادهم الدين يعقدون جلسات:

الجلسة الأولى في تعليم الدين: تسمى السماع وفيها خمر مع نساء ثم نوم حتى السحر.

الجلسة الثانية في تعليم الدين: تسمى التعليق وفيها يتم عقد الزواج الروحي بين الأستاذ وتلميذه، وفيه عقد وعهد غليظ بعدم كشف شيء عن هذا الزواج الروحي والمـسمى (نكـاح السماع) لان كلمات الوالد الروحي أو الأستاذ بمثابة تلقيح لروح التلميذ .

الجلسة الثالثة في تعليم الدين: تسمى السماع وهي بعد سبعة أو تسعة أشهر وتعتبر بمثابة الولادة ، وبالنسبة للتلميذ هي بداية حياته والعمر الحقيقي.

وبعد سنة أو سنتين مدة الرضاع (رضاع المعرفة من الأستاذ) تؤخذ على التلميذ الإيمان الغليظة والمواثيق ويشهد على ذلك الشهود بأن لا يفشي سرا" من أسرارهم التي يبيحونها له، مع التهديد بقتله إن فعل. ويؤخر السماع إلى وقت السحر .

يرتبط فكرهم بفكرة الفيض النوراني المقتبس عن الأفلاطونية الحديثة ومذهب الصابئة الذي يقول: إن للعالم صانعا فاطرا نتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون لديهم، وهم أيضا الأرباب والآلهة والشفعاء عند الله رب الأرباب ويوجهون المخلوقات.

من كتاب الصراط للجعفي :

ممتحن / مخلص / مختص / نجيب / نقيب / يتيم / باب /

عالم سفلي

عالم علوي.

وكل مرتبة علوية تمد الأدنى منها بالنور.

في مرتبة اليتيم يصبح المؤمن ملاكا" ويرتفع عنه الأكل والشرب ويستطيع الصعود إلى السماء والنزول إلى الأرض مثلما يريد وكيفما شاء لأنه يتصور بالصورة التي يريدها.

وفي مرتبة الباب يتخلص من الصور ويصير نورانيا ويظهر له الحجاب فيعاينه ويشاهده ويطلعه على علم تكوينه.

أما الممتحنين فهم :

المقربين / الكروبيين / الروحانيين / المقدسين / السائحين / المستمعين / اللاحقين

من الأعلى ________________________ إلى الأدنى

في درجة الكروبيين يرفع عن الشخص كربه البشري لأنه عرف باريه واسمه وبابه.

أباحوا نكاح المحارم ونكاح الرجال بعضهم، فقد اخبرنا زكريا يحي بن ابن عبد الرحمن بن خاقان انه رأى عيانا محمد بن نصير وغلام له على ظهره فعاتبه بذلك فقال:

إن هذا من اللذات وهو من التواضع وترك التجبر، ورد ذلك في كتاب (المقالات والفرق) لسعد بن عبد الله القمي ص ١٠٠ ـــ ١٠١.

يملكون سجايا وميزات بنيوية تقارب جميع الطوائف العبرية والتركية من مسيحية ورومية ويهودية وغير ذلك ويستنتجون من ذلك وحدة الأديان ووحدة غايتها . ويعتقدون أن الجهلاء وذوي الغايات الدنيوية يلصقون بهم تهمة الوثنية والكفر وينسبونهم إلى أديان أخرى غير الإسلام.

عباداتهم:

العبادة عندهم نوع من الحب والطاعة والولاء لأئمتهم ورؤسائهم، وأما العبادات الظاهرية التي يؤديها المسلمون فيقابلها عندهم معرفة أشخاص أئمتهم ورؤسائهم الدينيين وأصحاب المراتب عندهم.

يعظمون الخمرة ويحتسونها، ويعظمون شجرة العنب لذلك يستفظعون قلعها أو قطعها لأنها هي أصل الخمرة التي يسمونها (النور)

يصلون في اليوم خمس مرات لكنها صلاة تختلف في عدد الركعات ولا تشتمل على سجود وان كان فيها نوع من ركوع أحيانا.

لا يصلون الجمعة ولا يتمسكون بالطهارة من وضوء ورفع جنابة قبل أداء الصلاة.

لهم قداسات شبيهة بقداسات النصارى مثل:

(قداس الطيب لكل أخ حبيب).

(قداس البخور في روح ما يدور في محل الفرح والسرور).

(قداس الأذان وبالله المستعان).

لا يعترفون بالحج، ويقولون بان الحج إلى مكة إنما هو كفر وعبادة أصنام.

لا يعترفون بالزكاة الشرعية المعروفة لدينا نحن المسلمين وإنما يدفعون ضريبة إلى مشايخهم زاعمين بان مقدارها خمس ما يملكون حتى من مهور بناتهم.

يبغضون الصحابة بغضا شديدا، ويلعنون أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

يخصون عمر بمزيد من الشتائم والنقمة ويدعون انه هو الشيطان، وهو الشجرة المنهي عنها في القرآن.

يقولون أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خص بالتنزيل، وعلي خص بالتأويل، ومن تأويلاتهم:

الجنة: تعني رجل أمرنا بموالاته وهو الإمام.

النار: رجل أمرنا بمعاداته وهو ضد الإمام.

الجنابة: هي موالاة الأضداد والجهل بالعلم الباطني.

الطهارة: هي معاداة الأضداد ومعرفة العلم الباطني.

الصيام: هو حفظ أسرار الدين.

الزكاة: يرمز لها بشخصية سلمان.

الجهاد: هو صب اللعنات على الخصوم وفُشَاة الأسرار

الولاية: هي الإخلاص للأسرة النصيرية وكراهية خصومها

الشهادة: هي أن تشير إلى صيغة (ع . م . س).

الحج : هو زيارة أئمتهم ورؤسائهم.

القرآن: هو مدخل لتعليم الإخلاص لعلي، وقد قام سلمان تحت اسم جبريـــل بتعلـــيم القرآن لمحمد.

الصلاة: عبارة عن خمس أسماء هي علي ــ الحسن ــ الحــسين ــ محمــد ــ(ومحــسن) وفاطمة ــ (ومحسن) هذا هو (سر الخفي) إذ يزعمون بأنه سِقْطٌ طرحته فاطمة، وذكر هؤلاء يغني عن الاغتسال من الجنابة والوضوء للصلاة.

ويصلون في بيوتهم صلاة تشبه صلاة النصارى، ويجتمعون في بيوت معلومـــة ويـــسمون اجتماعهم عيدا يعظهم فيه شيوخهم ويتلون عليهم بعض القداسات.

وورد في الباكورة السليمانية أن أوقات الصلوات الخمس كما يأتي: الظهـــر(لمحمـــد)، العصر(لفاطر أو فاطم أي فاطمة)، المغرب(للحسن)، العشاء(للحسين)، والصبح(لمحسن المخفي).

المذهب النصيري كله تم تحضيره وتنسيقه ونشره في بلاد فارس، وعلى أيدي أناس مـــن فارس، وهذا سر النقمة على عمر رضي الله عنه.

ويحتفل النصيريون في التاسع من ربيع الأول من كل عام بيوم مقتل عمر ويسمونه (يوم مقتل دلام لعنه الله). ومن أسماء عمر لديهم: ساكن لعنة الشيطان ـــ الشيطان ـــ ادلم.

المرأة النصيرية:

المرأة في العقيدة النصيرية ليست جديرة بتلقي الدين وتحمل واجباته.

ورد في كتاب درة الدر أن عليا قال في كتابه(الطاعة حتى تقوم الساعة) مخاطبا سلمان:

اعلم أنني ظهرت للخلق والعباد بصورة (الإنسان) حتى أبين لهم الخير من الشر، فمنـــهم من سمع النداء، ومنهم من لم يسمع النداء (وهم النساء وسائر الإناث). فمن ذلك اليوم حرمـــت على النساء المعرفة وحرمت على المؤمنين أكل لحوم الإناث من الحيوانات. لذلك يسمون فاطمة بصفة المذكر (فاطم).

ومن العوامل التي ساهمت في تعميق عقدة النقص عند المرأة النصيرية هو اعتقادهم الديني أنها لا تملك روحا، كما هي الحال لبقية الحيوانات الأخرى.

والمرأة في نظرهم نوع من المسخ الذي يصيب غير المؤمن،فهي كالحيوان لأنها مجردة عن وجود النفس الناطقة لذلك فهم يعتقدون أن نفوس النساء تموت بموت أجسادهن لعدم وجود أرواح خاصة بهن.

ولهذا السبب فهم يستبيحون الزنا بنساء بعضهم البعض لان المرأة لا يكمل إيمانها إلا بإباحة فرجها لأخيها المؤمن، وهذا يفسر لنا ظاهرة كون المرأة جزءا من الضيافة المقدمة عند الدخول في أسرار العقيدة

القيامة:

القيامة عندهم هي قيامة الإمام المحتجب صاحب الزمان ليحكم بين اتباعهم ويحقق لهم السيادة وحدهم ضد خصومهم من اتباع الخليفتين الأول والثاني ومن شايعهم.

وعندها يعلن الدين ويظهر كل خفي ومكتوم منه. وهذه القيامة هي الرجعة الكبرى والكرة الزهراء.

كيف يأتي علي: ظهور علي بن أبي طالب من الشمس قابضا على كل نفس، الأسد من تحته، وذو الفقار بيده، والملائكة من خلفه، والسيد سلمان بين يديه، الماء ينبع من قدميه، والسيد محمد ينادي:

هذا مولاكم علي بن أبي طالب فاعرفوه وسبحوه وعظموه وكبروه، هذا رازقكم وخالقكم فلا تنكروه.

الأئمة عندهم وأبوابهم وألقاب كل باب:

١علي بابه سلمان الفارسي لقبه زوربة

٢ الحسن بن علي بابه القيس بن ورقة لقبه سفينة

٣ الحسين بن علي بابه رشيد الهجري

٤ علي بن الحسين بابه عبد الله بن أبي غالب الكابلي لقبه كنكر

٥ محمد الباقر بابه يحي بن معمر بن أم الطويل الثومالي

٦ جعفر الصادق بابه جابر بن بريد الجعفي

٧ موسى الكاظم بابه محمد بن أبي زينب الكاهلي

٨ علي الرضا بابه المفضل بن عمر

٩ محمد الجواد بابه محمد المضل بن عمر

١٠ علي الهادي بابه عمر بن الفرات لقبه الكاتب

١١الحسن العسكري بابه محمد بن نصير البصري النميري مؤسس المذهب النصيري

١٢ محمد الحجة المهدي المنتظر اختفى عام ٢٦٥ هـ

رجال الدين :

رجال الدين عندهم أربعة عشر مرتبة يقسمون إلى:

خمسة عشر ألف شخص يتكون منهم العالم العلوي النوراني الكبير هم (السموات السبع – الكوكب خارج درب التبان) ويقسمون إلى:

أبواب – أيتام – نقباء – نجباء – مختصون – مخلصون – ممتحنون.

وتسعة عشر ألف شخص يتكون منهم العالم النوراني الصغير (الأرضون السبع – مجموعة كنجوم في درب التبان)

مراتبهم:

المقربون – الكروبون (الكروبيون) – الروحانيون – المقدسيون – التابعون – المستمعون – اللاحقون.

أعيادهم:

لهم أعياد كثيرة تدل على مجمل العقائد التي تشتمل عليها عقيدتهم ومن ذلك:

- عيد الغدير ١٨ ذي الحجة
- عيد الفطر ٦ كانون الثاني بعد انتهاء صوم خاص بهم عن الدسم
- عيد الأضحى ١٢ ذي الحجة بعد احتفال المسلمين بيومين، كما يحتفلون بـ ١٠ ذي الحجة باعتبارها يوم ولادة علي.
- عيد الفراش (راس السنة الهجرية) باعتبار جلوس علي في فراش الرسول.
- عيد عاشوراء ١٠ محرم ذكرى مصرع الحسين في كربلاء.
- عيد الغدير الثاني ٩ ربيع الأول (ضم الرسول للحسن والحسين في ردائه عند مباهلة النصارى.
- عيد النوروز أول الربيع مدته ستة أيام.
- عيد المهرجان ١٦ تشرين الأول.
- عيد رأس السنة الميلادية ويسمونه (القوزلة) يجتمعون وهم سكارى ويطفئون الأنوار.
- عيد ليلة النصف من شعبان يعتقدون أن التجلي الأعظم سيكون فيها.

- عيد الصليب الذي يتخذونه تاريخا لبدء الزراعة وبداية المعاملات التجارية وعقود الإيجار والاستئجار، كما أنهم يحتفلون بأعياد النصارى كعيد الغطاس، وعيد العنصرة، وعيد البربارة، وعيد الميلاد.

طوائفهم وعشائرهم:

الحيدرية: نسبة إلى حيدر وهو لقب علي.

الشمالية (الشمسية): يقولون علي في السماء يسكن الشمس، والشمس هي محمد صلى الله عليه وسلم.

الكلازية (القمرية): يعتقدون أن الإنسان إذا شرب الخمر الصافية يقترب من القمر، وينتسبون إلى الشيخ محمد بن كلازي.

الغيبية: يقولون أن الله قد تجلى ثم غاب والزمان الحالي هو زمان العودة.

أصولهم القبلية:

قبائل اليمن ـــ همدان ـــ كندة ـــ يزيد الهمزاني ـــ قبائل غسان (منهم الحسن بن مكزون وهو جد الحدادين) ـــ بهرا ـــ تنوخ.

أقسامهم:

كلبية: ويسكنون منطقة القرداحة وهناك الرشاونة، الرسالنة، النواجرة، الجلقية و القراحلة.

الخياطين: نسبة للشيخ علي الخياط ويسكنون منطقة بانياس ويشملون البساترة، الخزرجية، السوارخة، العبدية، والبغدادية.

الحدادين: نسبة للمعلم محمد الحداد ابن الأمير ممدوح السنجاري أخ الأمير محمد المكزون، وهم أصل عشائر بني علي والمتاورة و المهالبة و الدراوسة، ويسكنون منطقة جبلة.

المتاورة: نسبة لقرية حرف متور حيث نزل به المكزون ومعهم النيلاتية.

عشائر تنتسب إلى أماكن إقامتها:

الرشاونة: قرية الرشية في جبل الشعراء أو الشعرة.

الجردية: يسكنون جرود الجبال.

الفقاورة: نسبة لقرية فقرو جنوبي مصياف.

متاورة: حرف متور.

دراوسة: جبل دريوس.

عشائر تنتسب إلى صفة عرفت بها أو شخص تولى زعامتها:

الغيبية: من رضوا بما كتب إليهم من الغيب، ثم تغلب عليهم اسم الحيدرية نسبة إلى الشيخ علي حيدر الذي تولى زعامتهم.

الجرانة: حفروا أجرانا في الصخور ليدخروا الماء، ثم غلب عليهم اسم الكلازية نسبة للشيخ محمد بن كلازر من قرية كلازر التابعة لإنطاكية.

الماخوسية: نسبة للشيخ علي الماخوس الذي انشق عن الكلازية واتبع الحيدرية، والماخوسية قرية في جهات اللاذقية.

المرشدية: نسبة لسليمان المرشد من قرية (جوبة برغال) في جبال اللاذقية.

سليمان المرشد:

هو سليمان بن مرشد بن يونس، نصيري من قرية(جوبة برغال) شرقي اللاذقية كان راعي بقر، لكن الفرنسيين احتضنوه وأعانوه على ادعاء الربوبية، ادعى الإلوهية ولقب بالرب، واتخذ له رسولا اسمه سليمان الميدة وهو راعي غنم، بدأت سيرته سنة ١٩٢٠ وتزعم أبناء نحلته النصيرية ، وهم من فرق الباطنية التي تؤله علياً وتقول بالحلول وكانت الثورة في سوريا أيامها قائمة على الفرنسيين ، وانتهت بتأليف حكومة وطنية لها شيء من الاستقلال الداخلي ، فاستماله الفرنسيون واستخدموه وجعلوا منطقة النصيريين دولة داخل دولة سموها (دولة العلويين – حكومة اللاذقية) ، فقويت شوكته وتلقب بـ (رئيس الشعب العلوي الحيدري الغساني). استغلت فرنسا هذه الظاهرة أثناء احتلالها سوريا والبسوه ثيابا فيها أزرارا كهربائية وبطارية وعندما يضيئها يسجد له أنصاره ومعهم المستشار الفرنسي الذي يخاطبه بالقول يا الهي.

لم تفت الفرنسيين فرصة الاستعانة بهؤلاء الخونة أعداء الإسلام فقربوهم ومدوا لهم يد العون وأعطوه الوسائل اللازمة لذلك ، لخداع الجهلة أبناء طائفته.

كما أنهم أشاروا عليه أن يضع تحت إبطيه قطعا من الإسفنج مشبعة بالماء فإذا ضغط يديه تبدأ نقط الماء بالتساقط فيسارع أتباعه بالتمسح بهذه الماء المقدسة المباركة.

وكان يلقب أيضا بسليمان الرب أو (رب الجوبة) نسبة لقريته (جوبة برغال).

وعين سنة ١٩٣٨ قضاة وفدائيين وفرض الضرائب على القرى التابعة له ، وأصدر قراراً جاء فيه : (نظراً للتعديات من الحكومة الوطنية والشعب السني على أفراد شعبي ، فقد شكلت لدفع هذا الاعتداء جيشاً يقوم به الفدائيون والقواد). وجعل لمن أسماهم الفدائيين ألبسة عسكرية خاصة، وكان في خلال ذلك يزور دمشق نائباً عن العلويين في المجلس النيابي السوري ، ولما

تحررت سوريا وجلا الفرنسيون عنها، ترك له هؤلاء من سلاحهم ما أغراه بالعصيان، فجــردت حكومة سوريا قوة فتكت بأتباعه واعتقلته مع آخرين ، ثم اعدم شنقاً سنة ١٩٤٦.

وبعد أن قتل سليمان المرشد جاء بعده ابنه مجيب، وادعى الإلوهية، لكنه قتل أيضاً على يد رئيس المخابرات السورية آنذاك سنة ١٩٥١ واتخذ اسمه قيمة قدسية لدى النــصيريين وســم بالمجيب الأكبر ، ويرد اسمه في كثير من الصلوات الخاصة بصيغة الربوبية. . وكان أتباعهم عندما يذبحون يقولون : باسم المجيب أكبر من يدي لرقبة أبو بكر وعمر. ويقال بأن الابن الثاني لسليمان المرشد اسمه(مغيث) وقد ورث الربوبية المزعومة عن أبيه. وما زال أتباعه حتى يومنا هذا يسكنون جبال النصيرية ويقدر عدهم بحوالي مائة وخمسون ألف نسمة.

تاريخهم السياسي:

تنافس النصيريون مع الإسماعيلية في المنطقة واحتلوا القدموس لكن الإسماعيلية استعادوها.

نزلوا من جبالهم إلى السواحل أثناء حروب التتار والحروب الصليبية وتعاونوا معهــم ثم بعد اندحارهم رجعوا إلى الجبال.

كما أنهم أثناء الحروب الصليبية وغزو التتار ارتكبوا مجازر كثيرة بحــق ســكان المــدن والقرى وبمساعدة الصليبيين مما كان يجبر المقاتلين المسلمين لترك قتال الصليبيين و العودة لديارهم للدفا ع عنها.

كما أنهم حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي عدة مرات ولكنهم لم ينجحوا.

ساعدوا الصليبيين على المسلمين وقد حاول صلاح الدين إصلاحهم ببناء المساجد لهــم وكرر المحاولة الظاهر بيبرس، وقد قاتلهم السلطان سليم العثماني ودحرهم وأوصلهم إلى جبــالهم وكاد أن يبيدهم لولا طلب أهل السنة الرافة بهم ومحاولة إصلاحهم، ولكن في كل مــرة كــانوا يرجعون إلى ما كانوا عليه، وكذلك فعل إبراهيم باشا ابن محمد علي.

في عام ٧١٧ هـ هاجم النصيريون مدينة جبلة على يد زعيمهم محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وتارة يدعي انه علي بن أبي طالب فاطر السموات، وتارة يدعي انه محمد بن عبد الله صاحب البلاد، وقد كفر المسلمين وادعى أن النصيريين على حق، حملوا على جبلة فدخلوها وقتلوا خلقا من أهلها وخرجوا يقولون: لا اله إلا علي ولا حجاب إلا محمد ولا باب إلا سلمان وسبوا الشيخين.

وأمر زعيمهم أصحابه بتخريب المساجد واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين قل لا اله إلا علي واسجد لإلهك المهدي الذي يحي ويميت حتى يحقن دمك.

قاموا سنة ١٨٣٤ بثورة وهجموا على اللاذقية ونهبوها فدحرهم إبراهيم باشا واظهروا له الطاعة، ثم السلطان عبد الحميد العثماني انشأ لهم المساجد والمدارس ولكنهم كانوا يحولونها إلى إسطبلات

تيمورلنك والنصيرية:

وهذا مؤرخ العلويين (محمد أمين غالب الطويل) الذي ألف كتابه (تاريخ العلويين) عام ١٩٦٤ ، وقدم هذا الكتاب الشيخ العلوي المشهور (عبد الرحمن الخير) طبعة دار الأندلس ـــ بيروت ـــ لبنان

يقول عن تيمورلنك ما يلي:

ما قصدنا من ذكر تيمور الأعرج إلا بيان ما يتعلق من تاريخه بالعلويين، ونحن نقول أن تيمور كان علويا محضا من جهة العقيدة، فإنه عدا عن المباحث التاريخية، يوجد له أشعار دينية موافقة لآداب الطريقة الجنبلانية. وأسباب دخوله في الطريقة هو ذهاب العلوي العظيم السيد (بركة) من خراسان إلى الأمير تيمور وهو في بلدة بلخ العلوية، وقد جلس تيمور على سرير مملكة بلخ وعمره ٣٤ سنة.

وداوم التيمور الاستيلاء على البلاد، وشيخه السيد بركه يبشره بدوام فتوحاته حتى جاء لبغداد واستولى على الموصل وبنى بها مراقد الأنبياء جرجس ويونس عليهما السلام، وجاء للرها واغتسل بمحل النبي إبراهيم.

ثم جاء تيمور لحلب بغتة وأظهر مقدرة قاهرة فمنع إمكانية الفرار، وتزاحمت العساكر الغريبة في الدخول للبلدة، وكثر الازدحام إلى درجة صارت فيها الأبواب لا تتسع للهاربين والناس يدوسون بعضهم، وقد انسدت الأبواب من الأجساد ، وقتل الألوف من الناس، ودخل تيمور لحلب عنوة.

وكان أعاظم العلويين والأمراء والأشراف وخواص العلويين ملتجئين لداخل القلعة. راجع تيمور أحد قواده وهو قريب الرسول المقتول من قبل سيدي سودون ظلماً، وطلب الرخصة في أخذ الثأر فأذن له فأمعن في القتل والنهب والتعذيب مدة طويلة حتى أنشأ من رؤوس البشر تلة عظيمة وقد قتل جميع القواد، وانحصرت المصائب بالسنيين فقط.

وبعد ذلك طلب تيمور علماء أهل السنة ويرأسهم المفتي السني (ابن الشحنة)، وبعد مراضاته لأهل السنة ومذكراته العلمية معهم سأل ابن الشحنة عن الخلاف ما بين معاوية وعلي، فقال القاضي علم الدين المالكي:

(هؤلاء أي علي ومعاوية رضي الله عنهما من المجتهدين) فغضب تيمور من هذا الكلام وصرخ قائلاً: (معاوية ظالم ويزيد فاسق، وأنتم يا أهل حلب تتبعون أهل الشام الذين قتلوا الحسين) ولكن تدارك ابن الشحنة الأمر وقال لتيمور إن القاضي يتكلم بكلام لم يفهم معناه.

ثم سافر تيمور إلى الشام وهو كمصيبة سماوية. وقبل سفره جاءت إليه النصيرية (درة الصدف) بنت سعد الأنصار ومعها أربعون بنتاً بكراً من النصيريات وهي تنوح وتبكي وتطلب الانتقام لأهل البيت وبناهم اللاتي جيء بهن سبايا للشام. وسعد الأنصار هذا هو من رجال الملك الظاهر وهو مدفون بحلب وله قبر تحت قبة. فوعدها تيمور بأخذ الثأر ومشيت معه حتى الشام والبنات النصيريات معها تنوح وتبكي وينشدن الأناشيد المتضمنة التحريض لأخذ الثأر. فكان ذلك سبباً للشام بمصائب لم يسمع بمثلها وتكرر القتال بها.

كانت الشام مصونة من التعديات الصليبية، ومن بعد الصليبيين لم يطرأ خلل على رفاه الشام، وتوسعت البلدة لجسر التورة الكائن ما بين دوما وقلعة الشام، وعند استيلاء تيمور عليها اندثرت ثروتها وشهرتها المشعشعة وأفلت حضارتها وعدمت صناعتها.

قضى تيمور على مدينة الشام وتخلص ممن كان لاجئاً في القلعة ودام القتل في الخارج حتى جاء أهل حلب النصيريين واشتروا دم أهل الشام بثمن هو أحذية عتيقة حسب طلب تيمور.

وبعد إعطائهم الأمان كلفهم تيمور أن يزوجوه بنتاً من أعيان بلدهم، وعند استحضار العروس أمر أن يمروا بها في الأسواق وهي غير مستورة، وعند مخالفتهم له أجابهم: (إذاً كيف صح لكم المجيء ببنات الرسول مكشوفات؟) .

ثم سأل أهل الشام عن محي الدين العربي. فقالوا له إنه قال لهم: (يا أهل الشام معبودكم تحت قدمي) وهو فوق مزبلة، وأنهم قتلوه جزاءاً لكفره. فذهب تيمور للمزبلة وأزالها ورأى تحتها الخزائن المقصودة من كلام حضرة محي الدين فاغتنمها.

ولم ينج من قتل تيمور في الشام إلا القليل وعائلة واحدة من المسيحيين.

وأمر تيمور بقتل السنيين واستثناء النصيريين. ولكن بعده سمع أنه قتل بالغلط الرجل العظيم الشيخ أحمد قرفيص (نصيري) وعندئذ منع القتل حتى عن السنيين.

ومن بعد الشام ذهب تيمور لبغداد وقتل بها تسعين ألفاً.

وجاء تيمور للأناضول ومحى الحكومة العثمانية بعد الحرب مع السلطان بايزيد بقرب بلدة أنقرة، ثم نزل لساحة البحر على ازمير وسد البحر عليها، أي ملأ البحر تراباً. وأخذ ازمير المسيحية وقتل أهلها وبنى قلعة من رؤوس البشر بها، وبقيت الحكومة العثمانية إحدى عشر سنة بدون سلطان وتسمى تلك المدة"فاصلة السلطنة".

راجع كتاب تاريخ العلويين لمؤلفه محمد أمين غالب الطويل – المقتطفات ص٣٣٤-٣٣٩ فصل (التيمورلنك)

واستباح تيمورلنك مدينة دمشق لسبعة أيام بلياليها وكان جنوده يغتصبون النساء والعذارى حتى في المساجد، وقيل أنهم لم يبقوا ولا فتاة عذراء في دمشق حينها.

الوثيقة الأولى :

من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية رقم ٣٥٤٧ تاريخ ١٥/ ٦ / ١٩٣٦ عريضة رفعها زعماء الطائفة النصيرية إلى رئيس وزراء فرنسا يلتمسون عدم جلاء فرنسا عن سوريا ، ويشيدون باليهود في فلسطين.

نص الوثيقة :

دولة ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية

إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس ، هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم (السني) . ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل .

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين ، وإن هؤلاء اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام ، ونثروا على أرض فلسطين الذهب والرخاء ، ولم يوقعوا الأذى بأحد ، ولم يأخذوا شيئا" بالقوة ، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا .

إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري ورغبته في تحقيق استقلاله ، ولكن سوريا لا تزال بعيدة عن هذا الهدف الشريف، خاضعة لروح الإقطاعية الدينية للمسلمين. ونحن الشعب العلوي الذي مثله الموقعون على هذه المذكرة ، نستصرخ حكومة فرنسا ضمانا لحريته واستقلاله ، ونضع بين يديها مصيره ومستقبله، وهو واثق أنه لابد واجد لديهم سندا" قويا" لشعب علوي صديق ، قدم لفرنسا خدمات عظيمة .

التوقيع

إبراهيم الكنج

سليمان المرشد

محمد سليمان الاحمد

عزيز هواش

محمد جنيد

محمود جديد

الوثيقة الثانية :

الوثيقة المترجمة من الفرنسية والتي رفعها النصيريون إلى الحكومة الفرنسية بمناسبة التفاوض على منح الاستقلال لسوريا في عام ١٩٣٦م

فخامة العميد السامي

بواسطة دولة حاكم اللاذقية الأفخم

نتشرف نحن رؤساء العشائر والزعماء والنواب العلويون بعرض ما يأتي :

لقد جاءت حكومة الانتداب إلى بلادنا ونحن مستقلون عن كل سلطة في العالم بقوة سلاحنا ومنعة جبالنا. وهذا الاستقلال الغريزي دفع فريقاً منا في بادئ الأمر إلى محاربة الجيش الفرنسي احتفاظاً فيه ولكن الفريق الأكبر منا وثق بشرف فرنسا وتاريخها فوضعنا يدنا بيد الانتداب الذي قدر لنا هذه الثقة فحفظ لنا استقلالنا ونظمه .

ومن ذلك الحين أخلصنا لفرنسا إخلاصاً لا حد له . وزاد في هذا الإخلاص أن جميع المفوضين السامين كانوا يصرحون ويعدون باسم فرنسا بضمان هذا الاستقلال وحمايته وكنا نتقبل هذه الوعود والتصريحات كما نتقبل كلام الله . إذ أنه لم يخطر في بالنا قط أنه يمكن لفرنسي يمثل حكومته أن يعد ثم يحنث في وعده .

وكم كانت دهشتنا عظيمة حين رأينا الفرنسيين المسئولين لأول صدمة صغيرة يتلقونها من السوريين يتناسون جميع وعودهم السابقة ويعدون السوريين بتصريح رسمي بإمكان إلحاقنا في سوريا . كأن استقلالنا هو هبة من فرنسا تعطيها حين تريد وتمنعها حين تريد . وزاد في دهشتنا أن قضيتنا مع الأسف لم تكن أثناء المفاوضات الفرنسية السورية موضع نظر وعطف ومحافظة من الفرنسيين على شرف وعودهم بل كانت كما كتبته جميع الصحف موضع مساومة . بل كانت أكثر من ذلك عملية بيع وشراء كأننا من عبيد إفريقيا يباعون لأسيادهم دون أخذ موافقتهم وهذا أمر لم نكن نتصوره ولا في الأحلام .

تجاه ذلك رأينا أن نحدد موقفنا مع فخامتكم بصراحة متناهية لأننا أمام كارثة عظمى وعلى وشك الاستشهاد في ميدان الشرف .

إننا نطالب فرنسا العظيمة بالمحافظة على وعودها وشرف قراراتها ونزيد على ذلك أننا لا نسمح حتى ولا لفرنسا الكريمة المحسنة أن تتصرف باستقلالنا وتهبه هدية لمن تريد . متناسية إخلاصنا وتضحيتنا وثقتنا من جهة ووعودها وتأكيداتها من جهة أخرى غير مهتمة بحكم التاريخ .

سيدي

عطفاً على برقياتنا وكتبنا السابقة نتشرف بعرض ما يأتي :

إن العلويين يشكلون الأكثرية الساحقة من سكان حكومة اللاذقية يرفضون الرفض الجازم رجوعهم إلى التيار الإسلامي السوري ويذكرون فخامتكم ورجال البرلمان الفرنسي (كلمة غير معروفة) والأحزاب بتعهدات المفوضين السامين باحترام استقلال العلويين وعدم إحداث أي تغيير إلا بعد أخذ رأي العلويين وموافقتهم . وهذه التعهدات تفيد في نظرنا على الأقل كل حكومة الفرنسية بل تفيد شرف فرنسا وكرامتها .

إننا نؤكد لفخامتكم بمناسبة المفاوضات الفرنسية السورية أن كل اتفاق مع السوريين على قضيتنا مهما كان صغيراً لا يقيدنا بشيئ مطلقاً ولا نعترف به ولا بقانونية بل نعده خروجاً من قبل المفاوض الفرنسي على مبادئ فرنسا السامية وعلى وعودها بل على مبادئ الإنسانية التي تجيز لشعب أن يتحكم بمستقبل شعب آخر دون رضاه .

ونعتقد أن يستحيل على فرنسا الممثلة بأحزابها البرلمانية أن تقرر عبودية شعب صغير صديق لأعدائه التاريخيين الدينيين ولكي تتأكدوا من عمق الهوة التي تفصل بيننا وبين السوريين وتتصوروا الكارثة المفجعة التي نحن على أبوابها نرجوكم التفضل بإرسال لجنة تحقيق نيابة لتطالع على الحالة كما هي ولترى هل في الإمكان إلحاق العلويين بسوريا دون التعرض لمأساة دامية تكون لطخة سوداء في تاريخ فرنسا مع إيقاف المفاوضات الفرنسية السورية فيما يختص بالعلويين لانتهاء مهمة هذه اللجنة . ولا يمنع هذا إصرارنا السابق على ذهاب وفد منا إلى باريس ونعيد ثانية لفخامتكم إننا لا نعترف مهما كلفنا الأمر بكل حل أو تعهد في قضيتنا لا يؤخذ رأينا أو موافقتنا عليه وإذا كنتم تريدون تطبيق مبادئكم الإنسانية على الشعب السوري السني رغم عداوته لكم فلنا وطيد الأمل تطبيقها علينا نحن العلويين لأننا أصدقاء مخلصون .

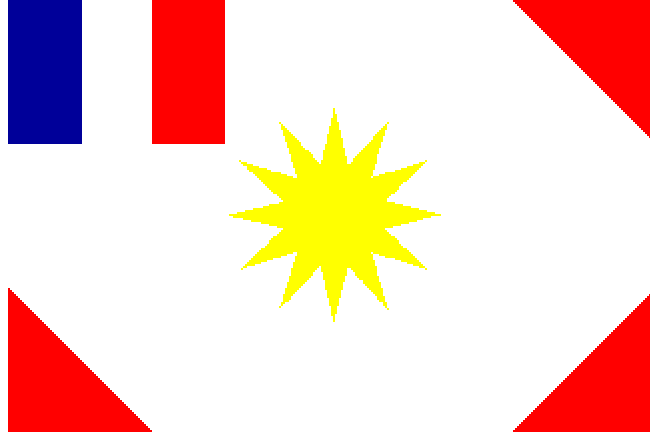
وتفضلوا يا صاحب الفخامة بقبول أخلص الاحترام

رئيس المجلس التمثيلي : إبراهيم الكنج .

أعضاء : عزيز هواش . محمد سلمان الأحمد . محمد جناد

أعضاء : صقر خير بك . يوسف الحامد

١١ حزيران ١٩٣٦م



علم دولة العلويين (١٩٢٣ - ١٩٣٠)

والطائفة النصيرية كانت وما زالت تخطط وتعقد المؤتمرات لكي تصل إلى إحكام قبضتها على بلاد الشام، وقد كشف أحد شيوخ النصيرية عن المؤتمرات السرية التي عقدها الطائفة منذ عام ١٩٦٠ في رسالته التي أرسلها إلى مجلة المجتمع الكويتية ونشرها تحت عنوان : شيخ نصيري يكشف أسرارا خطيرة عن مؤتمري القرداحة وحمص، يقول الشيخ النصيري :

في عام ١٩٦٠ تنادى مشايخ النصيرية سرا لعقد اجتماع لهم في قرية القرداحة، حضره كبار الضباط النصيريين وعلى رأسهم كل من محمد عمران ومحمد نبهان وصلاح جديد وحافظ الأسد، وكان الهدف الرئيسي من هذا الاجتماع التداول على كيفية انخراط الضباط النصيريين في صفوف حزب البعث لاستغلاله وجعله سلما للوصول إلى الحكم وفي نهاية الاجتماعات اتخذت القرارات السرية التالية:

١ــ منح محمد عمران رتبة (البابية) وتكليفه بالتخطيط للمنظمات العسكرية وكيفية توزيعها على المنظمات الوطنية لاستغلالها والتستر بها .

٢ ــ الموافقة على بقاء محمد عمران في صفوف الوحدويين من حيث الظاهر .

٣ ــ التغرير بالضباط الدروز والإسماعيليين للتعاون معهم.

٤ ــ منح عزت جديد رتبة (نقيب) في المذهب النصيري .

٥ ــ الموافقة على إحلال إبراهيم ماخوس - محل والده في رتبته الدينية.

٦ ــ تكيف المشايخ دعوة أبناء الطائفة للتضامن والتعاون وتشجيعهم للانخراط في الجيش.

هذه هي قرارات المؤتمر النصيري الأول الذي مهد للمؤتمر الثاني الذي عقد في حمص بعد ١٨ تموز ١٩٦٣ لدراسة النتائج المتأتية عن الدور الذي لعبه محمد نبهان في حوادث ١٨ تموز وأدى إلى تسريح أكثر من ٤٠٠ ضابط من أنصار عبد الناصر . ومن أهم هذه القرارات :

١ ــ ترفيع محمد نبهان إلى رتبة - نجيب - تقديرا لدوره الفعال في ١٨ تموز ١٩٦٣ .
٢ ــ منح محمد عمران الوشاح البابي الأقدس وتكليفه بمتابعة نشاطه في حقل الناصريين .
٣ ــ إعادة النظر في التخطيط الموضوع يشأن انضمام المزيد من أبناء الطائفة المثقفين إلى حــزب البعث والدخول باسم البعث في الكليات العسكرية ومؤسسات الجيش .
٤ ــ التخطيط البعيد لتأسيس الدولة النصيرية وجعل عاصمتها حمص .
٥ ــ تكليف صلاح جديد بقيادة وتوجيه العناصر النصيرية في الجيش ومنحه أرفع رتبة عسكرية (مقدم) .
٦ ــ مواصلة نزوح النصيرية من كافة قرى الريف إلى المــدن وخاصــة إلى حمــص واللاذقيــة وطرطوس .
٧ ــ منح حافظ الأسد رتبة - نجيب - وهي تلي رتبة جديد .
٨ ــ منح عزت جديد وعلي حماد رتبة (المختص) .
٩ ــ السعي لاستئصال العناصر الدرزية والإسماعيلية الموجودين في صفوف الجيش والعمل على إحلال العناصر النصيرية محلهم.
١٠ ــ تسليم القيادة المدنية السياسية إلى إبراهيم ماخوس، و إعداده ليكون رئــيس للــوزارة النصيرية الجديدة المنشودة .

وافق الجميع على هذه القرارات التي قدمها الشيخ علي ضحية من ــ الباب ــ محمــد عمران ــ ولكنني استهجنت استغلال الدين والطائفية من اجل أمور دنيويــة بحتــة وحــذرت المؤتمرين من مغبة هذا العمل، وذكرت لهم أن العرب سيتألبون عليهم في كل مكان، ونوهت لهم بأنهم مهما أوتوا من قوة لن يستطيعوا الصمود في وجه الشعوب عندما يعلنون صراحة قيام الدولة النصيرية المنشودة.

وبالرغم من هذا الموقف فقد أقرت المقترحات وانتخبوا وفدا يضم ثلاثة مشايخ هم:

الشيخ علي ضحية، والشيخ احمد سلمان الأحمد، والشيخ سليمان العلي، لنقل قــرارات الاجتماع وليقدموا التهاني لأصحاب الرتب الجديدة.

وفي اليوم التالي لوصول الوفد إلى دمشق استدعاني جديد والأسد إلى دمشق حيث تقابلنا في بيت العميد علي حماد وجرى نقاش حاد كشفت فيه كل شيء.

هذا ما نما إلينا من تخطيطهم الخبيث، وما خفي أخطر وأعظم ، وفعلا تحقق لهم معظم ما خططوا له، وهاهم يتوارثون سورية وكأنها ملك أجدادهم القرامطة.

حافظ الأسد يصدر مرسوماً جمهورياً للإفراج عن جواسيس اليهود :

والنصيرية المعاصرة ليست أفضل من سابقتها، ففي عام ١٩٧٣ انسحب الجيش السوري عن أكثر من ٣٩ قرية للإسرائيليين الذين وصلوا لمشارف دمشق ، وأصدر الرئيس السوري حافظ الأسد مرسوماً جمهورياً للإفراج عن جواسيس اليهود، فضحته بعض وسائل الإعلام وهذا نصه :

المرسوم الجمهوري رقم ٣٨٥ :

بناء على أحكام قانون العقوبات وأصول المحاكمات الجزائية وعلى المرسوم التشريعي ٤٣ بتاريخ ١٩٧١/٩/١ وعلى الأحكام المكتسبة قوة القضية المقضية الصادرة عن المحكمة العسكرية بدمشق بالأرقام ١١٣٢ /١١٥٤ بتاريخ ١٩٥١/١٠/٢٩ ، ١١٠١/٦٩ لعام ١٩٥٢ ، ٢١٤/٢ تاريخ ١٩٥٥/١٢/٢١ ، ١٩/١٨تاريخ ١٩٥٩/١٠/١٢ ، ١٠/٩ تاريخ ١٩٥٩/٥/٢، ٢٢/١٠ تاريخ ١٩٥٩/٩/٥ ، ١١/١١ تاريخ ١٩٦٠/١٢/١٠ والمتضمن الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة بعد الدغم والتبديل على ٢٣ مجرماً لارتكابهم جرم العمل لصالح المخابرات الإسرائيلية ومدها بالمعلومات،وذهاب البعض منهم إلى إسرائيل والاتصال بالمسؤولين فيها، وتناول المال من إسرائيل لقاء عمليات التجسس يرسم ما يلي :

المادة (١) يمنح المحكومون المذكورون عفواً خاصاً عن المدة المتبقية المحكومون بها من قبل المحكمة العسكرية بقراراتها رقم ١١٣٢ /١١٥٤ ، ٢٠/٢١٤ ، ١/٩ ، ١٩/١٨، ٢٢/١٠ ، ١١/١١ .

المادة (٢) لا ينشر هذا المرسوم ويبلغ من يلزم لتنفيذه .

دمشق ١٩٧٤/٢/٢٠ .

نسخة إلى المحامي العام ..... دمشق .

وزارة العدل

الرقم ٢٢٠٤

رئيس الجمهورية حافظ الأسد

١٩٧٤/٢/٢٥

وزير العدل محمد أديب نحوي

ونرى هنا أن التاريخ يعيد نفسه، فالنصيري حافظ الأسد يوقع مرسوم عفو عن الجواسيس .

فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية:

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن النصيرية القائلين باستحلال الخمر ، وتناسخ الأرواح ، وقدم العالم ، وإنكار البعث والنشور والجنة والنار ، وبأن الصلوات الخمس عبارة عن خمسة أسماء - وهي علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة - فذكر هذه الأسماء الخمسة تجزئهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلوات الخمس وواجباتها ، والصيام عندهم عبارة عن ثلاثين رجلا وامرأة ، وإن إلههم الذي خلق السموات والأرض هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهو عندهم الإله في السماء والإمام في الأرض . . . وهذه الطائفة الملعونة استولت على جانب كبير من الشام ، فهم معروفون مشهورون متظاهرون بهذا المذهب . . . فهل يجوز للمسلم أن يزوجهم أو يتزوج منهم ؟ وهل يحل للمسلم أكل ذبائحهم ؟ . . . وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا ؟ وهل يجوز استخدامهم في ثغور المسلمين وتسليمها إليهم ؟ . . وهل دماء النصيرية المذكورين مباحة ؟ وأموالهم هي حلال أم لا ؟ . . . وإذا جاهدهم ولي الأمر . . وأمرهم بالصلاة والصوم ومنعهم من إظهار دينهم الباطل - وهم يلونه من الكفار - هل ذلك أفضل وأكثر أجرا من جهاد النصارى ؟ . . وهل يعد مجاهد النصيرين المذكورين مرابطا ؟ ويكون أجره أجر المرابط في الثغور ؟ . . . ابسطوا الأمر في ذلك مثابين ؟

الجواب : الحمد لله . . .

هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى ، بل وأكفر من كثير من المشركين ، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار الترك والإفرنج وغيرهم ، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت ، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ولا بأحد من المرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا بملة من الملل ولا بدين من الأديان السالفة ، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها ، يدعون أنها من علم الباطن - من جنس ما ذكره السائل - وهو من غير هذا الجنس ، فإنهم ليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله ورسوله عن مواضعه ، إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس ما ذكر السائل ومن جنس قولهم : أن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم ، والصيام المفروض كتمان أسرارهم ، وحج البيت العتيق زيارة شيوخهم . وأن يدا أبي لهب هما أبي بكر وعمر ، وأن النبأ العظيم والإمام المبين هو علي بن أبي طالب .

ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة ، وإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين ، كما قتلوا الحجاج والقوهم في زمزم ، وأخذوا مرة الحجر الأسود فبقي معهم مـــدة ، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وأجنادهم من لا يحصي عدده إلا الله ، وصـــنفوا كتبا كثيرة مما ذكره السائل وغيره .

وصنف علماء المسلمين كتبا في كشف أسرارهم وهتك أستارهم ، وبينوا ما هم عليه من الكفر والزندقة والإلحاد الذين هم فيه أكفر من اليهود والنصارى ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام ، وما ذكره السائل في وصفهم قليل من الكثير الذي يعرفه العلماء من وصفهم ، ومـــن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولت عليها النصارى من جهتهم ، وهم دائما مع كـــل عدو للمسلمين ، فهم مع النصارى على المسلمين ، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المـــسلمين للساحل وانقهار النصارى ، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ، ومـــن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله - النصارى على ثغور المسلمين ، فإن ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين حتى جزيرة قبرص فتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فتحها معاوية بن أبي سفيان في أثناء المائة الرابعة.

فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا بالسواحل وغيرها ، فاستولى النصارى على الساحل ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره ، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك ، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله كنور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتبـــاعهم وفتحوا السواحل من النصارى وممن كان بها منهم ، وفتحوا أيضا أرض مصر ، فـــإنهم كـــانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة ، واتفقوا هم والنصارى فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا الـــبلاد . ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية .

ثم أن التتار ما دخلوا ديار الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملـــوك المـــسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم ، فإن مرجع هؤلاء الذي كان وزيرهم وهو (النصير الطوسي) كان وزيرا لهم ، وهو الذي أمره بقتل الخلفية وبولاية هؤلاء .

ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحدة، وتارة يسمون القرامطة، وتـــارة يسمون الباطنية، وتارة يسمون الإسماعيلية، وتارة يسمون النصيرية، وتارة يـــسمون الخربويـــة، وتارة يسمون المحمرة ، وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم ، كما أن اسم الإسلام والإيمان يعم المسلمين ، ولبعضهم أسماء تخصه إما النسب وإما لمذاهب وإما لبلد وإما لغير ذلك وشرح مقاصدهم يطول .

وهم كما قال العلماء فهم ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض ، وحقيقة أمـــرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين ، لا بنوح ولا بإبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا بشيء من كتب الله المنزلة ، لا بالتوراة ولا الإنجيـــل ولا القرآن ، ولا يقرون أن للعالم خالقا خلقه ، ولا بأن له دينا أمر به ، ولا أن له دارا يجزي النـــاس فيها على أعمالهم غير هذه الدار .

وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطاغين والإلهيين ، وتارة يبنونه على قـــول المجوس الذين يعبدون النور ، ويضمون إلى ذلك الرفض ويحتجون لذلك من كلام النبوات . إمـــا بقول مكذوب ينقلونه كما ينقلون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أول ما خلـــق الله العقل) . والحديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث ولفظه "إن الله لما خلق العقل فقال لـــه: أقبل فاقبل فقال له أدبر فأدبر " فيحرفون لفظه ويقولون: أول ما خلق الله العقل ، ليوافقوا قول المتفلسفة أتباع أرسطو في قوله أول الصادرات عن واجب الوجود هو العقل . وأما بلفظ ثابـــت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيحرفونه عن مواضعه، كما يفعل أصحاب رسائل (إخوان الصفا) ونحوهم ، فإنهم من أئمتهم، وقد دخل كثير من باطلهم على كثير من المسلمين ، وراج علـــيهم حتى صار ذلك في كتب طوائف المنتسبين إلى العلم والدين ، وإن كانوا لا يوافقون على أصـــول الدعوة النهائية، وهي درجات متعددة ويسمون النهاية البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم .
ومضمون البلاغ الأكبر جحد الخالق تعالى، والاستهزاء به وبمن يقر به ، حتى يكتب أحدهم أسم " الله " في أسفل رجله ، وفيه أيضا جحد شرائعه ودينه وجحد ما جاء به الأنبياء ، ودعوى أنهـــم من جنسهم طالبين للرئاسة ، فمنهم من أحسن في طلبها ومنهم من أساء في طلبها حـــتى قتـــل ، ويجعلون محمدا وموسى من القسم الأول ، ويجعلون عيسى من القسم الثاني ، وفيه من الاستهزاء بالصلاة والزكاة والصوم والحج ومن تحليل نكاح ذوات المحارم ، وسائر الفواحش مـــا يطـــول وصفه .

ولهم إشارات ومخاطبات يعرف بها بعضهم بعضا ، وهم إذا كانوا في بلاد المسلمين الـــتي يكثر فيها أهل الإيمان ، فقد يخفون على من لا يعرفهم ، وإما إذا كثروا فإنه يعرفهم عامة الناس فضلا عن خاصتهم .

وقد اتفق علماء المسلمين على أن مثل هؤلاء لا تجوز مناكحتهم، ولا يجـــوز أن يـــنكح الرجل مولاته منهم ولا يتزوج منهم امرأة ، ولا تباح ذبائحهم، وأما الجبن المعمول بأنفحتهم ففيه قولان مشهوران للعلماء كسائر الانفحة الميتة، وكأنفحة ذبيحة المجوس وذبيحة الفرنج الذين يقال عنهم أنهم لا يذكون الذبائح .

فمذهب أبي حنيفة واحمد في الروايتين انه يحل هذا الجبن لأن أنفحة الميت طاهرة على هذا القول، لأن الأنفحة لا تموت بموت البهيمة، وملاقاة الوعاء النجس في الباطن لا تنجس، ومذهب مالك والشافعي واحمد في الرواية الأخرى أن هذا الجبن نجس لأن أنفحة هؤلاء نجسة لأن لبن أنفحتها عندهم نجس. ومن لا تؤكل ذبيحته فذبيحته كالميتة، وكل من أصحاب القولين يحتج بآثار نقلها عن الصحابة، فأصحاب القول الأول نقلوا أنهم أكلوا جبن المجوس، وأصحاب القول الثاني نقلوا أنهم أكلوا ما يظنون انه من جبن النصارى، فهذه مسألة اجتهاد للمقلد أن يقلد من يفتي بأحد القولين. وأما أوانيهم وملابسهم فكأواني المجوس وملابس المجوس على ما عرف من مذاهب الأئمة، والصحيح في ذلك أن أوانيهم لا تستعمل إلا بعد غسلها، فان ذبائحهم ميتة، فلا بد أن تصيب أوانيهم المستعملة ما يطبخونه في ذبائحهم فتنجس بذلك. فأما الآنية التي لا يغلب عليها الظن وصول النجاسة إليها فتستعمل من غير غسل كآنية اللبن التي لا يضعون فبها طبيخهم أو لا يغسلونها قبل وضع اللبن فيها، وقد توضأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جرة نصرانية، فما شك في نجاسته لم يحكم بنجاسته بالشك.

ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين ، ولا يصلى على من مات منهم، فإن الله سبحانه وتعالى نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عن المنافقين - كعبد الله بن أبي ونحوه - وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد مع المسلمين ، لا يظهرون مقالة تخالف دين الإسلام لكن يسرون ذلك ، فقال تعالى : { ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون } فكيف بهؤلاء الذين هم مع الزندقة والنفاق لا يظهرون إلا الكفر والإلحاد .

وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين وحصونهم أو جندهم فانه من الكبائر وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم ، فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم ، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة ، وهم شر من المخامر الذي يكون في العسكر ، فإن المخامر قد يكون له غرض إما مع أمير العسكر وإما مع العدو ، وهؤلاء مع الملة ونبيها ودينها وملوكها وعلمائها وعامتها وخاصتها ، وهم أحرص الناس إلى تسليم الحصون إلى عدو المسلمين وعلى إفساد الجند على ولي الأمر وإخراجهم عن طاعته .

ويحل لولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة ، فلا يتركون في ثغر ولا في غير ثغر ، وضررهم في الثغر أشد ، وأن يستخدم بدلهم من يحتاج إلى استخدامه من الرجال المأمونين على دين الإسلام وعلى النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، بل إذا كان ولي الأمر لا

يستخدم من يغشه وإن كان مسلما ، فكيف بمن يغش المسلمين كلهم؟ ولا يجوز تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل أي وقت قدر على الاستبدال بهم وجب عليه ذلك .

وأما إذا استخدموا وعملوا العمل المشروط فلهم أما المسمى وأما الأجرة المثل لأنهم عوقدوا على ذلك، فإن كان العقد صحيحا وجب المسمى ، وإن كان فاسدا وجبت أجرة المثل ، وإن لم يكن استخدامهم من جنس الإجارة اللازمة فهو من جنس الجعالة الجائزة ، لكن هؤلاء لا يجوز استخدامهم ، فالعقد عقد فاسد فلا يستحقون إلا قيمة عملهم ، فإن لم يكونوا عملوا عملا له قيمته فلا شيء لهم .

لكن دماؤهم وأموالهم مباحة .

وإذا اظهروا التوبة ، ففي قبولها منهم نزاع بين المسلمين، فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام أقروهم عليها، ومن لم يقبلها ورثتهم من جنسهم فان مالهم يكون فيئا لبيت مال المسلمين، لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة لان أصل مذهبهم التقية والكتمان لأمرهم ، وفيهم من يعرف وفيهم من قد لا يعرف ، فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم فلا يتركون مجتمعين ولا يمكنون من حمل السلاح وأن يكونوا من المقاتلة، ويلزمون شرائع الإسلام من الصلوات الخمس وقراءة القرآن ، ويترك بينهم من يعلمهم دين الإسلام ، ويحال بينهم وبين معلمهم. فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة لما ظهروا على أهل الردة وجاءوا إليه قال لهم الصديق : اختاروا أما الحرب الملجية وإما السلم المخزية ، قالوا : يا خليفة رسول الله هذه الحرب الملجية قد عرفناها ، فما السلم المخزية ؟ قال تدون قتلانا ولا ندي قتلاكم ، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، ونقسم ما أصبنا من أموالكم وتردون ما أصبتم من أموالنا ، وتنزع منكم الحلقة والسلاح وتمنعون من ركوب الخيل ، وتتركون تتبعون أذناب الإبل ، حتى يرى خليفة رسول الله والمؤمنون أمرا بعد ردتكم. فوافقه الصحابة على ذلك إلا تضمين قتلى المسلمين فإن عمر قال له : هؤلاء قتلوا في سبيل الله وأجورهم على الله - يعني هم شهداء فلا دية لهم - فاتفقوا على قول عمر في ذلك ، وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو مذهب أئمة العلماء والذي تنازعوا فيه تنازع فيه العلماء ، فمذهب أكثرهم على أن من قتله المرتدون المجتمعون المحاربون لا يضمن ، كما اتفقوا عليه آخرا ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى وهو القول الأول.

فهذا الذي فعله الصحابة بأولئك المرتدين بعد عودهم إلى الإسلام يفعل بمن أظهر الإسلام - والتهمة ظاهرة فيه - فيمنع من أن يكون من أهل الخيل والسلاح والدروع التي تلبسها المقاتلة

، ولا يترك في الجند يهودي ولا نصراني ، ويلزمون شرائع الإسلام حتى يظهر ما يفعلونه من خير أو شر .

ومن كان من أئمة ضلالهم وأظهر التوبة أخرج عنهم وسير إلى بلاد المسلمين التي ليس لهم فيها ظهور ، فإما أن يهديه الله أو يموت على نفاقه من غير مضرة للمسلمين .

ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات ، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب ، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب فان جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد المسلمين وان يدخل فيه من أراد الخروج عنه. وجهاد من لا يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين ، وحفظ رأس المال مقدم على الربح .وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من الناس اشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب .

ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب ، فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم .

ولا يحل لأحد أن ينهي عن القيام بما أمر به الله ورسوله ، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وقد قال تعالى لنبيه : { يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم } . وهؤلاء لا يخرجون عن الكفار والمنافقين ، والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله ، فإن المقصود هدايتهم ، كما قال تعالى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس } قال أبو هريرة : (كنتم خير الناس للناس ، تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الإسلام) ، فالمقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان ، فمن هداه الله منهم سعد في الدنيا والآخرة ، ومن لم يهتد كف الله ضرره عن غيره .

ومعلوم أن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أفضل الأعمال ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) . وفي الصحيحين عنه أنه قال : (إن في الجنة مائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله) وقال صلى الله عليه وسلم : (رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطا مات مجاهدا وجرى عليه عمله ، وأجري عليه رزقه من الجنة ، وأمن الفتن ، والجهاد أفضل من الحج والعمرة) كما قال تعالى : {

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سـبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهـدوا في سـبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم }.

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على خير خلقه سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

[انظر الفتاوى الكبرى ٤/١٨١-١٨٣] نقلا عن السنة

فتوى الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي:

من هم النصيرية والى من ينتسبون وفي أي تاريخ نشأت هـذه الطائفـة، وفي أي بلـد تتواجد، وما هي ديانتهم، وما رأي علماء الأمة فيهم، وهل تجوز تهنئتهم بأفراحهم وتعزيتـهم في أحزانهم بمصابهم، وهل تجوز الصلاة على من مات منهم...؟

أفتونا عن هذه الأسئلة مأجورين... وجزاكم الله خيرا...

الجواب...

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى اله وصـحبه أجمعـين... وبعد

فان الإجابة على هذه الأسئلة تحتمل مجلدا ولكن سنختصر في الجواب:

النصيرية طائفة من غلاة الشيعة، نشئت في القرن الثالث الهجري، ودخل فيها طوائـف كفرية من غيرها: كالباطنية والإسماعيلية والبوذية وغيرهم من الفرق الكافرة والمنحدرة من أصل مجوسي وهي تكثر في سوريا ولها وجود في البلدان المجاورة لسوريا. وهي تُنْسبُ إلى رجل يـدعى محمد بن نصير النميري الذي ادعى النبوة وزعم أن أبا الحسن العسكري الإمام الحادي عشر من الشيعة كان ربا وانه هو الذي أرسله نبيا.

أما ديانتهم فهي تقوم على معتقدات فاسدة وطقوس بالية ملفقة من اليهودية والنصرانية والبوذية والإسلام ... ومن هذه المعتقدات الفاسدة لهذه الطائفة:

أولا:

الغلو في الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه والاعتقاد بأنه اله ورب، وانـه خلـق السموات والأرض وجميع الكائنات، ومن عباداتهم في الغلو بعلي رضي الله عنه قولهم: لا الـه إلا حيدرة الانزع البطين، ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين، ولا طريق إليه إلا سـلمان ذو القوة المتين .. وبهذا القول يتبين أنهم اكفر من اليهود والنصارى والمشركين لأنهم بعبارتهم هـذه

اسندوا الخلق والتدبير إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أما اليهود والنصارى والمشركون فإنهم مقرون بان الله تعالى الخالق المدبر المتصرف بشؤون الخلق.

ثانيا:

القول بتناسخ الأرواح: وهو أن الإنسان إذا مات خرجت روحه وسكنت بدن حيوان آخر، أما إنسان وأما حيوان على حسب سلوك الشخص الميت الذي خرجت منه، إن كان فاضلا سكنت بدن حيوان فاضل، وان كان سيئا سكنت بدن حيوان حقير كالكلاب وغيرها.. وحقيقة هذا المذهب أن الدنيا لا تخرب ولا تنتهي وانه لا بعث ولا جنة ولا نار، بل تستمر الأرواح بالتنقل من بدن إلى بدن إلى مالا نهاية، وهذا المعتقد الفاسد أخذوه عن البوذية لان من أصول مذهب البوذيين تناسخ الأرواح.

ومن الأمور المتأصلة في مذهب النصيرية شدة عدائهم للإسلام والمسلمين وبغضهم لهم، ومن شدة عدائهم للإسلام أنهم يلقبون الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإبليس الأبالسة ويليه في الإبليسية أبو بكر ثم عثمان... ويحرمون من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم لان في جواره أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وهذه الطائفة كانت محصورة في مكان في بلاد الشام لا يمكنون من الوظائف ولا من التعليم بناء على فتوى صادرة بذلك من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وما زالوا كذلك إلى أن احتلت فرنسا بلاد الشام فأخرجتهم ولقبتهم بالعلويين ومكنتهم من المناصب الهامة بالدولة.

أما رأي علماء الإسلام فيهم فهو الحكم عليهم بالخروج من الملة لما يقوم عليه مذهبهم من الشرك والقول بتناسخ الأرواح وإنكار البعث والجنة والنار..

أما تهنئتهم بأفراحهم وتعزيتهم بمصابهم والصلاة على موتاهم فهذه أمور محرمة ولا تجوز، لمخالفتها قاعدة الولاء والبراء التي هي أصل مهم من أصول التوحيد.

هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

حمود بن عقلاء الشعيبي

١٤٢١/٣/٢٥ هـ

رأي الإمام أبو حامد الغزالي فيهم:

قال الإمام الغزالي في كتابه(فضائح الباطنية) ص ١٥٦

والقول الوجيز أنه يسلك بهم (الباطنية) مسلك المرتدين في النظر في الدم والمال والنكاح والذبيحة ونفوذ الأقضية وقضاء العبادات ، أما الأرواح فلا يسلك فيهم مسلك الكافر الأصلي

إذ يتميز في الكافر بين أربع خصال المن والفداء والاسترقاق والقتل ولا يتميز في حق المرتـــد .. وإنما الواجب قتلهم وتطهير وجه الأرض منهم.

رأي الإمام مالك:

روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال : سمعت أبا عبدالله يقول ، قال مالـــك : الـــذي يشتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليس لهم اسم أو قال : نصيب في الإسلام .
السنة للخلال (٢ / ٥٥٧) .

وقال ابن كثير عند قوله سبحانه وتعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشـــداء علـــى الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاســـتوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ..)

قال : (ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه في رواية عنه بتكفير الـــروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك) . تفسير ابن كثير (٤ / ٢١٩) . قال القرطبي : (لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين) .تفسير القـــرطبي (١٦ / ٢٩٧) .

رأي الإمام احمد:

رويت عنه روايات عديدة في تكفيرهم ..

روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال : سألت أبا عبد الله عمن يشتم أبا بكـــر وعمـــر وعائشة؟

قال : ما أراه على الإسلام . وقال الخلال : أخبرني عبد الملك بن عبد الحميـــد قـــال : سمعت أبا عبد الله قال :

من شتم أخاف عليه الكفر مثل الروافض ، ثم قال : من شتم أصحاب النبي صـــلى الله عليه وسلم لا نأمن أن يكون قد مرق عن الدين) . السنة للخلال (٢ / ٥٥٧ - ٥٥٨) .
وقال أخبرني عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سألت أبي عن رجل شتم رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما أراه على الإسلام .
وجاء في كتاب السنة للإمام أحمد قوله عن الرافضة :

(هم الذين يتبرأون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويسبونهم وينتقصونهم ويكفرون الأئمة إلا أربعة : علي وعمار والمقداد وسلمان .

جهاد ابن تيمية للنصيريين وفضحه لعقائد الباطنيين

رسالة الشيخ ابن تيمية إلى السلطان محمد بن قلاوون :

رسالة الشيخ ابن تيمية إلى السلطان محمد بن قلاوون يبين فيها مشروعية حربه للباطنيين من النصيرية وإضرابهم ممن كانوا بجبال سوريا ولبنان.

خاض الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية حروباً كثيرة بعضها في مقابل التتر المتسترين بالإسلام وبعضها ضد النصيرية والباطنية الكفرة المعادين لأهل الإسلام والموالين لأعدائه من التتر والصليبيين، وبعد واقعة جبل كسروان (بلبنان) سنة ٧٠٤هـ التي هزم فيها هؤلاء المارقون كتب ابن تيمية كتاباً إلى السلطان المذكور يذكر فيها ما أنعم الله سبحانه وتعالى به على الإسلام وأهله.

في هذه الغزوة كتب ابن تيمية يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الداعي أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومن أيد الله في دولته الدين، وأعز بها عباده المؤمنين، وقمع فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين، نصره الله ونصر به الإسلام، وأصلح له وبه أمور الخاص والعام، وأحيى به معالم الإيمان، وأقام به شرائع القرآن، وأذلّ به أهل الكفر والفسوق والعصيان.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فانّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير. ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

أما بعد. فقد صدق الله وعده، ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. وأنعم الله على السلطان، وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تعهد في القرون الخالية. وجدد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية. وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق، أفضل الأولين والآخرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين والله تعالى يوزعه والمسلمين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين، ويتمها بتمام النصر على سائر الأعداء المارقين.

وذلك: أن السلطان -أتم الله نعمته- حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته، وصحة إسلامه وعقيدته، وبركة إيمانه ومعرفته، وفضل همته، وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته، ونتيجة إتباعه لكتاب الله وحكمته، ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين: من جهاد أعداء الله المارقين من الدين، وهم صنفان:

أهل الفجور والطغيان، وذوو الغي والعدوان، الخارجون عن شرائع الإيمان، طلباً للعلو في الأرض والفساد، وتركا لسبيل الهدى والرشاد. وهؤلاء هم التتار، ونحوهم من كل خارج عن شرائع الإسلام وإن تمسك بالشهادتين، أو ببعض سياسة الإسلام.

والصنف الثاني: أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون، الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة. مثل هؤلاء الذين غزوا بأمر السلطان من أهل الجبل، والجرد، والكسروان. فإن ما منّ الله به من الفتح والنصر على هؤلاء الطغام، هو من عزائم الأمور التي أنعم الله بها على السلطان وأهل الإسلام.

وذلك: أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين فإن اعتقادهم: أن أبا بكر وعمر وعثمان، وأهل بدر، وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الإسلام وعلماؤهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، ومشايخ الإسلام وعبادهم، وملوك المسلمين وأجنادهم، وعوام المسلمين وأفرادهم. كل هؤلاء عندهم كفار مرتدون، أكفر من اليهود والنصارى. لأنهم مرتدون عندهم والمرتد شر من الكافر الأصلي. ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان.

ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار، هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون، مثل أهل جزين (مدينة معروفة بالبقاع بلبنان). وما حواليها. وجبل عامل ونواحيه.

ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم (أي في النصيرية وأهل الجبل المارقين) من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم. ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان (هو السلطان الناصر بن قلاوون سلطان مصر والشام)، كان بينهم شبيه بالعزاء.
كل هذا، وأعظم منه، عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكيزخان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد، وفي قدومه إلى حلب، وفي نهب الصالحية، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله.

لأن عندهم أن كل من لم يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مرتد، ومن استحل الفقّاع (شراب يصنع من الشعير وسمي كذلك لما يعلوه من الزبد- لسان العرب) فهو كافر. ومن مسح على الخفين فهو عندهم كافر. ومن حرم المتعة فهو عندهم كافر. ومن أحب أبا بكر أو عمر، أو

عثمان، أو ترضي عنهم أو عن جماهير الصحابة فهو عندهم كافر. ومن لم يؤمن بمنتظرهم فهو عندهم كافر.

وهذا المنتظر صبي عمره سنتان أو ثلاث، أو خمس. يزعمون أنه دخل السرداب بسامراء من أكثر من أربعمائة سنة. وهو يعلم كل شيء. وهو حجة الله على أهل الأرض. فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر. وهو شيء لا حقيقة له، ولم يكن هذا في الوجود قط.

وعندهم من قال: إن الله يرى في الآخرة فهو كافر. ومن قال: إن الله تكلم بالقرآن حقيقة فهو كافر. ومن قال: إن الله فوق السموات فهو كافر ومن آمن بالقضاء والقدر وقال: إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأن الله يقلب قلوب عباده، وأن الله خالق كل شيء، فهو عندهم كافر. وعندهم أن من آمن بحقيقة أسماء الله وصفاته التي أخبر بها في كتابه وعلى لسان رسوله، فهو عندهم كافر.

هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم. مثل بني العود. فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل. وهم الذين كانوا يأمروهم بقتال المسلمين. ويفتوهم بهذه الأمور.

وقد حصل بأيدي المسلمين طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود وغيره. وفيها هذا وأعظم منه. وهم اعترفوا لنا بأهم الذين علموهم وأمروهم لكنهم مع هذا يظهرون التقية والنفاق. ويتقربون ببذل الأموال إلى من يقبلها منهم. وهكذا كان عادة هؤلاء الجبلية. فإنما أقاموا بجبلهم لما كانوا يظهرونه من النفاق، ويبذلونه من البرطيل (الرشاوي) لمن يقصدهم.

والمكان الذي لهم في غاية الصعوبة. ذكر أهل الخبرة أنهم لم يروا مثله. ولهذا كثر فسادهم. فقتلوا من النفوس، وأخذوا من الأموال، ما لا يعلمه إلا الله.

ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمر لا يضبط شره، كل ليلة تترل عليهم منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد. كانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات، ويرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفوهم ويعطوهم سلاح المسلمين، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين. فإما أن يقتلوه أو يسلبوه. وقليل منهم من يفلت منهم بالحيلة.

فأعان الله ويسر، بحسن نية السلطان وهمته، في إقامة شرائع الإسلام، وعنايته بجهاد المارقين أن غزوا غزوة شرعية، كما أمر الله ورسوله، بعد أن كشفت أحوالهم، وأزيحت عللهم، وأزيلت شبههم، وبذل لهم من العدل والإنصاف ما لم يكونوا يطمعون به، وبين لهم أن غزوهم إقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال الحرورية (الحرورية: هم

الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب وسموا كذلك لأن أول خروجهم كان ببلدة تسمى حروراء).

المارقين، الذين تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بقتالهم ونعت حالهم، من وجوه متعددة. أخرج منها أصحاب الصحيح عشرة أوجه: من حديث علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري. وسهل بن حنيف، وأبي ذر الغفاري. ورافع بن عمرو، وغيرهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال فيهم: [يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد. لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم لاتكلوا عن العمل. يقتلون أهل الإسلام. ويدعون أهل الأوثان. يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، شر قتلى تحت أديم السماء. خير قتلى من قتلوه].

وأول ما خرج هؤلاء، زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. وكان لهم من الصلاة، والصيام، والقراءة، والعبادة، والزهادة ما لم يكن لعموم الصحابة. لكن كانوا خارجين عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة المسلمين. وقتلوا من المسلمين رجلاً اسمه عبد الله بن خباب (هو عبد الله بن خباب بن الأرت -بفتح الخاء وتشديد الباء وفتح الهمز والراء المهملة وتشديد التاء-. له رؤية ولأبيه صحبة. قال في أسد الغابة: كان طائفة من الخوارج أقبلوا من البصرة إلى إخوانهم من أهل الكوفة، فلقوا عبد الله بن خباب ومعه امرأته. فقالوا له: من أنت؟ قال أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فأثنى خيراً عليهم، فذبحوه، فسال دمه في الماء، وقتلوا المرأة وهي حامل ملم منه، فقالت: أنا امرأة، ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها، وذلك سنة سبع وثلاثين، وكان من سادات المسلمين) وأغاروا على دواب للمسلمين.

وهؤلاء القوم كانوا أقل صلاة وصياماً. ولم نجد في جبلهم مصحفاً ولا فيهم قارئاً للقرآن. وإنما عندهم عقائدهم التي خالفوا فيها الكتاب والسنة. وأباحوا بها دماء المسلمين. وهم مع هذا فقد سفكوا من الدماء وأخذوا من الأموال مالا يحصى عدده إلا الله تعالى.

فإذا كان علي بن أبي طالب قد أباح لعسكره أن ينهبوا ما في عسكر الخوارج، مع أنه قتلهم جميعهم، وأن هؤلاء أحق بأخذ أموالهم. وليس هؤلاء بمنزلة المتأولين الذين نادى فيهم علي بن أبي طالب يوم الجمل: "أنه لا يقتل مدبرهم ولا يجهز على جريحهم، ولا يغم لهم مالاً ولا يسبى لهم ذرية" لأن مثل أولئك لهم تأويل سائغ. وهؤلاء ليس لهم تأويل سائغ. ومثل أولئك إنما يكونون

خارجين عن طاعة الإمام. وهؤلاء خرجوا عن شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته. وهم شر من التتار من وجوه متعددة. لكن التتر أكثر وأقوى. فلذلك يظهر كثرة شرهم.

وكثير من فساد التتر هو لمخالطة هؤلاء لهم، كما كان في زمن قازان وهولاكو، وغيرهما. فإنهم أخذوا من أموال المسلمين أضعاف ما أخذوا من أموالهم. وأرضهم لبيت المال.

وقد قال كثير من السلف: إن الرافضة لا حق لهم في الفيء. لأن الله إنما جعل الفيء للمهاجرين والأنصار {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} فمن لم يكن قلبه سليماً لهم، ولسانه مستغفراً لهم، لم يكن من هؤلاء.

وقطعت أشجارهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرقوه. فقال اليهود: هذا فساد. وأنت يا محمد تنهى عن الفساد. فأنزل الله {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين}.

وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر، وتخريب العامر، عند الحاجة إليه، فليس ذلك بأولى من قتل النفوس وما أمكن غير ذلك.

فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها، وأيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار. وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم. وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم. لأن التركمان إنما قصدهم الرعي، وقد صار لهم مرعى، وسائر الفلاحين لا يتركوا عمارة أرضهم ويجيئون إليه.

فالحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره، وإخلاء الجبل منهم، وإخراجهم من ديارهم.

وهم يشبهون ما ذكره الله في قوله: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر. ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله. فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب. يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب. ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين} (الحشر: ٢ - ٥).

وأيضاً فإنه بهذا قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز، واليمن والعراق ما يرفع الله من درجات السلطان، ويعز به أهل الإيمان.

ثم يستطرد الشيخ ناصحاً للسلطان بوجوب إقامة أحكام الإسلام فيقول:

تمام هذا الفتح وبركته تقدم مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد، وإقامة الشريعة في البلاد. فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قرى كثيرة من يقتدون، بهم وينتصرون لهم. وفي قلوبهم غلّ عظيم. وإبطان معاداة شديدة، لا يؤمنون معها على ما يمكنهم. ولو أنه مباطنة العدو. فإذا أمسك رؤوسهم الذين يضلونهم - مثل نبي العود- زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله.

ويتقدم إلى قراهم. وهي قرى متعددة بأعمال دمشق، وصفد، وطرابلس، وحماة، وحمص، وحلب بأن يقام فيهم شرائع الإسلام، والجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، ويكون لهم خطباء ومؤذنون، كسائر قرى المسلمين، وتقرأ فيهم الأحاديث النبوية. وتنشر فيهم المعالم الإسلامية، ويعاقب من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام.

فإن هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا: نحن قوم جبال. وهؤلاء كانوا يعلموننا ويقولون لنا: أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين. ومن قتل منكم فهو شهيد.

وفي هؤلاء كثير لا يقرون بصلاة، ولا صيام، ولا حج ولا عمرة، ولا يحرمون الميتة، والدم، ولحم الخنزير، ولا يؤمنون بالجنة والنار. من جنس الإسماعيلية، والنصيرية والحاكمية، والباطنية، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين.

فتقدم المراسيم السلطانية بإقامة شعائر الإسلام: من الجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، وتبليغ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في قرى هؤلاء من أعظم المصالح الإسلامية. وأبلغ الجهاد في سبيل الله.

وذلك سبب لانقماع من يباطن العدو من هؤلاء، ودخولهم في طاعة الله ورسوله، وطاعة أولي الأمر من المسلمين.

وهو من الأسباب التي يعين الله بها على قمع الأعداء.

فإن ما فعلوه بالمسلمين في أرض (سيس) نوع من غدرهم الذي به ينصر الله المسلمين

إذا يَغْشى (وَلَكَ الحَمْدُ فِي النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) وَلَكَ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى وَلَكَ الحَمْدُ عَدَدَ كُلِّ نَجْمٍ وَمَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَلَكَ الحَمْدُ عَدَدَ كُلِّ قَطْرَةٍ فِي البِحَارِ وَالأَوْدِيَةِ وَالأَنْهَارِ وَلَكَ الحَمْدُ عَدَدَ الشَّجَرِ وَالوَرَقِ وَالحَصَى وَالثَّرَى وَالجِنِّ وَالإِنْسِ وَالبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالوُحُوشِ وَالأَنْعَامِ وَالسِّبَاعِ وَالهَوَامِ وَلَكَ الحَمْدُ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُكَ وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ حَمْداً كَثِيراً دَائِماً مُبَارَكاً فِيهِ أَبَداً لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُمِيتُ وَيُحْيِي وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (عشر مرات) (أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ) (عشر مرات) (يا اللَّهُ يا اللَّهُ) (عشراً) (يا رَحْمَنُ يا رَحْمَنُ) (عشراً) (يا رَحِيمُ يا رَحِيمُ) (عشراً) (يا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ) (عشراً) (يا حَنَّانُ يا مَنَّانُ) (عشراً) (يا حَيُّ يا قَيُّومُ) (عشراً) (يا لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ) (عشراً) (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ) (عشراً) (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (عشراً) (آمِينَ آمِينَ) (عشراً) (افْعَلْ بِي كَذَا وَكَذَا).

دعاء صنمي قريش

وهو دعاء رفيع الشأن عظيم المنزلة رواه عبد الله بن عباس عن علي (عليه السلام) أنه كان يقنت به، وقال: إن الداعي به كالرامي مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بدر وأحد وحنين بألف ألف سهم وقال الكفعمي هذا الدعاء من غوامض الأسرار، وكرائم الأذكار وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يواظب عليه في ليله ونهاره وأوقات أسحاره، وهو:

(اللَّهُمَّ الْعَنْ صَنَمَيْ قُرَيْشٍ وَجِبْتَيْهَا وَطَاغُوتَيْهَا وَإِفْكَيْهَا، وَابْنَتَيْهِمَا الَّذَيْنِ خَالَفَا أَمْرَكَ وَأَنْكَرَا وَحْيَكَ، وَجَحَدَا إِنْعَامَكَ، وَعَصَيَا رَسُولَكَ، وَقَلَّبَا دِينَكَ وَحَرَّفَا كِتَابَكَ، وَعَطَّلا أَحْكَامَكَ، وَأَبْطَلا فَرَائِضَكَ، وَأَلْحَدَا فِي آيَاتِكَ، وَعَادَيَا أَوْلِيَاءَكَ وَوَالَيَا أَعْدَاءَكَ، وَخَرَّبَا بِلادَكَ، وَأَفْسَدَا عِبَادَكَ.

دعاء صنمي قريش ٥٣

اللَّهُمَّ الْعَنْهُمَا وَأَنْصَارَهُمَا فَقَدْ أَخْرَبَا بَيْتَ النُّبُوَّةِ، وَرَدَمَا بَابَهُ، وَنَقَضَا سَقْفَهُ، وَأَلْحَقَا سَمَاءَهُ بِأَرْضِهِ، وَعَالِيَهُ بِسَافِلِهِ، وَظَاهِرَهُ بِبَاطِنِهِ، وَاسْتَأْصَلاَ أَهْلَهُ، وَأَبَادَا أَنْصَارَهُ وَقَتَلاَ أَطْفَالَهُ، وَأَخْلَيَا مِنْبَرَهُ مِنْ وَصِيِّهِ وَوَارِثِهِ، وَجَحَدَا إِمَامَتَهُ، وَأَشْرَكَا بِرَبِّهِمَا، فَعَظِّمْ ذَنْبَهُمَا وَخَلِّدْهُمَا فِي سَقَرٍ! وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ؟ لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ.

اللَّهُمَّ الْعَنْهُمَا بِعَدَدِ كُلِّ مُنْكَرٍ أَتَيَاهُ، وَحَقٍّ أَخْفَيَاهُ، وَمِنْبَرٍ عَلَوَاهُ، وَمُنَافِقٍ وَلَّيَاهُ وَمُؤْمِنٍ أَرْجَيَاهُ، وَوَلِيٍّ آذَيَاهُ، وَطَرِيدٍ آوَيَاهُ، وَصَادِقٍ طَرَدَاهُ، وَكَافِرٍ نَصَرَاهُ، وَإِمَامٍ قَهَرَاهُ، وَفَرْضٍ غَيَّرَاهُ، وَأَثَرٍ أَنْكَرَاهُ، وَشَرٍّ أَضْمَرَاهُ، وَدَمٍ أَرَاقَاهُ، وَخَبَرٍ بَدَّلاهُ، وَحُكْمٍ قَلَبَاهُ، وَكُفْرٍ أَبْدَعَاهُ، وَكَذِبٍ دَلَّسَاهُ، وَإِرْثٍ غَصَبَاهُ، وَفَيْءٍ اقْتَطَعَاهُ، وَسُحْتٍ أَكَلاهُ، وَخُمْسٍ اسْتَحَلاَّهُ وَبَاطِلٍ أَسَّسَاهُ، وَجَوْرٍ بَسَطَاهُ، وَظُلْمٍ نَشَرَاهُ، وَوَعْدٍ أَخْلَفَاهُ، وَعَهْدٍ نَقَضَاهُ، وَحَلالٍ حَرَّمَاهُ وَحَرَامٍ حَلَّلاهُ، وَنِفَاقٍ أَسَرَّاهُ، وَغَدْرٍ أَضْمَرَاهُ وَبَطْنٍ فَتَقَاهُ، وَضِلْعٍ كَسَرَاهُ، وَصَكٍّ مَزَّقَاهُ، وَشَمْلٍ بَدَّدَاهُ، وَذَلِيلٍ أَعَزَّاهُ، وَعَزِيزٍ أَذَلاَّهُ، وَحَقٍّ مَنَعَاهُ، وَإِمَامٍ خَالَفَاهُ.

اللَّهُمَّ الْعَنْهُمَا بِكُلِّ آيَةٍ حَرَّفَاهَا، وَفَرِيضَةٍ تَرَكَاهَا، وَسُنَّةٍ غَيَّرَاهَا، وَأَحْكَامٍ عَطَّلاهَا، وَأَرْحَامٍ قَطَعَاهَا، وَشَهَادَاتٍ كَتَمَاهَا، وَوَصِيَّةٍ ضَيَّعَاهَا، وَأَيْمَانٍ نَكَثَاهَا وَدَعْوَى أَبْطَلاهَا، وَبَيِّنَةٍ أَنْكَرَاهَا، وَحِيلَةٍ أَحْدَثَاهَا، وَخِيَانَةٍ أَوْرَدَاهَا، وَعَقَبَةٍ ارْتَقَيَاهَا وَدِبَابٍ دَحْرَجَاهَا، وَأَزْيَافٍ لَزِمَاهَا (وَأَمَانَةٍ خَانَاهَا).

اللَّهُمَّ الْعَنْهُمَا فِي مَكْنُونِ السِّرِّ وَظَاهِرِ الْعَلاَنِيَةِ لَعْناً كَثِيراً دَائِباً أَبَداً دَائِماً سَرْمَداً لا انْقِطَاعَ لأَمَدِهِ، وَلا نَفَادَ لِعَدَدِهِ، يَغْدُو أَوَّلُهُ وَلا يَرُوحُ آخِرُهُ، لَهُمَا وَلأَعْوَانِهِمَا وَأَنْصَارِهِمَا وَمُحِبِّيهِمَا وَمَوَالِيهِمَا وَالْمُسَلِّمِينَ لَهُمَا، وَالْمَائِلِينَ إِلَيْهِمَا وَالنَّاهِضِينَ بِأَجْنِحَتِهِمَا وَالْمُقْتَدِينَ بِكَلامِهِمَا، وَالْمُصَدِّقِينَ بِأَحْكَامِهِمَا.

ثُمَّ يقول: اللَّهُمَّ عَذِّبْهُمْ عَذَاباً يَسْتَغِيثُ مِنْهُ أَهْلُ النَّارِ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. (أربع مرّات)، ودعا (عليه السلام) في قنوته

سور كتاب المجموع

السورة الأولى واسمها (الأول)

قد أفلح ، من أصبح ، بولاية الأجلح ، أستفتح بأبي عبد استفتحت بأول إجابتي بحسب قدس معنوية أمير النحل علي بن أبي طالب ، المكنى بحيدرة أبي تراب ، فيه استفتحت ، وفيه استنجحت ، وبذكره أفوز ، وفيه أنجو واليه ألجأ ، وفيه تباركت وفيه استعنت وفيه بدأت وفيه ختمت ، بصحة الدين واثبات اليقين .

قال السيد أبو شعيب محمد بن نصير ليحيى بن معين السامري : يا يحيى إذا نزلت بك نزلة بالحياة ، ودهت بك داهية بالممات ، فادع دعوة عالية خالصة مخلصة تقية نقية بيضاء علوية ، طاهرة زكية مشعشعة نورانية تخلصك من هذه القمصان البشرية اللحمية الدموية ، وتلحقك بالهياكل النورانية فقل : فيك تباركت يا دليلا بدلته ، يا ظاهرا" بقدرته ، يا باطنا" بحكمته ، يا مجيبا" ذاته بذاته ، يا مخاطبا"اسمه بصفاته ، يا هو يا كل قديم يا أزلي لم تزل يا معلل العلل ، يا مفني حركات الدول ، يا غاية الغايات ، يا منهي النهايات ، يا عالما بأسرار الخفيات ، يا حاضر يا موجود ، يا ظاهر يا مقصود ، يا باطنا" بغير عمود ، يا من أنوارك منك تشرق وفيك تغرب ومنك بدت واليك تعود ، يا من جعل لكل نور ظهورا" ولكل ظهور اسما" ولكل اسم مكانا" ولكل مكان مقاما" ولكل مقام باب . يرشد الباب منه إليه ويدخل الباب منه إليه، وأنت يا أمير النحل يا علي بن أبي طالب الدليل عليه ، والكل أنت ، هو يا هو يا من لا يعلم من هو ألا هو ، وأسألك بمسائل السين سلكون سلكا"سلك سالك سلك بما سألك به السائلون وبمرشد المرشدين ، وبعلي زين الدين والعابدين ، أن تؤلف ما بين قلوبنا وقلوب إخواننا المؤمنين ، على البر والتقوى والتقويم والعلم والدين ، نذكر حضرتك الطاهرة ، وقدرتك الباهرة ، ورحمتك الشاملة والفرض اللازم والحق الواجب هي أسرار وتذكار ، وجلال وافتخار ، وعز وانتصار ، وطلعتك الزاهرة ، وقبابك الفاخرة ، وقبة العلي ، وتاج الهدى ، والدين القيم ، والصراط المستقيم ، ومن عرف باطنه وظاهره فاز ونجا والذي قد عرفنا به سيدنا سلسل سلمان يتلى وقد دلنا إليه وأرشدنا إليه شيخنا وسيدنا وتاج رؤوسنا وقدوة ديننا ، وقرة أعيننا ، السيد عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي قدس العلي روحه ، لأن مقامه مقام الصفا ومحله الصدق والوفاء ، بسم الله وبالله وسر السيد أبي عبد الله العارف معرفة الله سر تذكاره الصالح سره أسعده الله (انتهت).

السورة الثانية واسمها (تقديسة ابن الولي)

أحسن ما يرى النائم في منامه وهو يسمع الحسن ولم ير الشخص وهو ينادي ويقول : لبيك يا أمير النحل يا علي بن أبي طالب ، يا رغبة كل راغب ، يا قديم باللاهوت ، يا معدن

الملكوت ، أنت الهنا باطنا" ، وإمامنا ظاهرا" ، يا من ظهرت فيما أبطنت ، وأبطنت فيما ظهرت ، وظهرت بالاستتار ، واستترت بالظهور ، وظهرت بالذاتية ، وتعاليت بالعلوية ، واحتجبت بالمحمدية ، ودعوت من نفسك إلى نفسك ، أنت يا أمير النحل يا علي أشرق نورك ، وأبزغ سفورك ، وسطع ضياؤك ، وتعظمت آلاؤك ، وجل ثناؤك ، بأن تأمني من شر مسوخياتك لنا ولجميع إخواننا المؤمنين من شر الفسخ والنسخ والمسخ والوسخ والرسخ والقش والقشاش انك على ذلك قدير .سر الولي ابن الولي أبي الحسين محمد بن علي الجلي علينا من ذكره السلام سره الله (انتهت) .

السورة الثالثة واسمها (تقديسة أبي سعيد)

أسألك يا مالك الملك يا أمير النحل يا علي يا وهاب ، يا أزلي يا تواب ، يا داحي الباب ، أسألك بالخمسة المصطفية ، والستة التجلية ،وبالسبعة الكواكب الدرية ، وبالثمانية حمالة العرش القوية ، وبالتسعة المحمدية ، وبالعشرة الدجاجات الذكية ، وبالأحد عشر مطالع البابية ، وبالاثني عشر سطر الامامية ، بحقهم عندك يا غاية الكلية ، يا أمير النحل يا صاحب الدولة العالية ، يا من أنت الأحد واسمك الواحد وبابك الوحدانية ، يا من ظهرت في السبع القباب الذاتية ، بأن تجعل قلوبنا وجوارحنا ثابتة على معرفتك الزكية ، وخلصنا من هذه الهياكل الناسوتية ، ولبسنا القمصان النورانية ، بين الكواكب السماوية ، نذكر حضرة شيخنا وسيدنا الأجل الأكبر الشاب التقي أبي سعيد الميمون بن قاسم الطبراني العارف معرفة الله المكثف عما حرم الذي أخذ حقه بيده من قفا أبي دهيبة ، وعلى أبي دهيبة لعنة الله وعلى أبي سعيد السلام ورحمة الله سر أبي سعيد الشاب التقي الحر الميمون بن قاسم الطبراني سره أسعده الله .

السورة الرابعة واسمها (النسبة)

أحسن توفيقي بالله وطريقي لله ، وأحسن سمعي وأسماعي من شيخي وسيدي ومرشدي المنعم الله علي كما أنعم عليه بمعرفة ع.م.س وهي بشهادة أن لا اله إلا علي بن أبي طالب الأصلع الأنزع المعبود ، ولا حجاب إلا السيد محمد المحمود ، ولا باب إلا السيد سلمان الفارسي المقصود ، وهذا ما سمعته من شيخي وسيدي ، وغايتي ومعتمدي ، ومهديني إلى طريق النجاة ، وموردني إلى ينبوع الحياة ، ومعتق رقبتي من رق العبودية ، بمعرفة كنه الذات العلية ، السيد الفاضل والطود العظيم عمي وشيخي وسيدي وتاج رأسي ووالدي الحقيقي أحمد ، وقد ألقى إلي هذا السر العظيم في سنة كذا وكذا من شهر كذا ويوم كذا منه ، وسمع أحمد من إبراهيم وسمع إبراهيم من قاسم وسمع قاسم من علي وسمع علي من أحمد وسمع أحمد من خضر وسمع خضر من سلمان وسمع سلمان من صبح وسمع صبح من يوسف وسمع يوسف من جبرائيل وسمع جبرائيل من

معلى وسمع معلى من ياسين وسمع ياسين من عيسى وسمع عيسى من محمد وسمع محمد من هدا محمد وسمع هدا محمد من رضى أحمد وسمع رضى أحمد من صفندي وسمع صفندي من بلاذري أسد وسمع بلاذري أسد من حسان الرشيقي وسمع حسان الرشيقي من محمد وسمع محمد من مرهف مصر وسمع مرهف مصر من عقد جبرائيل وسمع عقد جبرائيل من عبد الله الجوغلي وسمع عبد الله الجوغلي من إسماعيل اللفاف وسمع إسماعيل اللفاف من جعفر الوراق وسمع جعفر الوراق من أحمد الطراز وسمع أحمد الطراز من أبي الحسين محمد بن علي الجلي وسمع أبو الحسين محمد بن علي الجلي من السيد أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي وسمع السيد أبو عبد الله من شيخه وسيده أبي محمد عبد الله بن محمد الجنان الجنبلان العابد الزاهد الذي هو من بلد فارس وسمع عبد الله الجنان الجنبلان من محمد بن جندب وسمع محمد بن جندب من السيد أبي شعيب محمد بن نصير العبدي البكري النميري الذي هو باب الحسن الآخر العسكري منه السلام واليه التسليم ومن محمد بن نصير أقام النسب والدين ، وتعالى مولانا الحسن العسكري عما يقول الضالون ونطق الظالمون علوا كبيرا" سر الدين وسر أخوتنا الجليين أين ما كان منهم مكين بسرهم أسعدهم الله أجمعين وأشهد بأن الحسن الآخر العسكري هو الأول وهو الآخر وهو الباطن والظاهر وهو على كل شيء قدير.

السورة الخامسة واسمها (الفتح)

" إذا جاء نصرا لله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا" ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا" " .أشهد بأن مولاي أمير النحل علي اخترع السيد محمد من نور ذاته ، وسماه ونفسه وعرشه وكرسيه وصفاته ، متصل به غير منفصل عنه ولا متصل به بحقيقة الاتصال ، ولا منفصل عنه في مباعدة الانفصال ، متصل به النور ، منفصل عنه بمشاهدة الظهور . فهو منه كحس النفس من النفس ، أو كشعاع الشمس من القرص ، أو كدوي الماء من الماء ، أو كالفتق من الرتق ، أو كلمح البرق من البرق ، أو كالنظرة من الناظر ،

أو كالحركة من السكوت ، فإن شاء علي بن أبي طالب بالظهور أظهره ، وإن شاء بالمغيب غيبه تحت تلألؤ نوره ، وأشهد بأن السيد محمد خلق السيد سلمان من نوره وجعله بابه وحامل كتابه ، فهو سلسل وسلسبيل ، وهو جابر وجبرائيل ، وهو الهدى واليقين وهو بالحقيقة رب العالمين ، وأشهد بأن السيد سلمان خلق الخمسة الأيتام ، الكرام ، فأولهم اليتيم الأكبر ، والكوكب الأزهر ، والمسك الأدفر ، والياقوت الأحمر ، والزمرد الأخضر ، المقداد بن أسود الكندي وأبو الذر الغفاري وعبد الله بن رواحة الأنصاري وعثمان بن مظعون النجاشي وقنبر بن كادان الدوسي هم عبيد مولانا أمير المؤمنين لذكره الجلال والتعظيم ، وهم خلقوا هذا العالم من

مشرق الشمس إلى مغربها وقبلتها وشمالها وبرها وبحرها وسهلها وجبلها ما حاطت الخضران وحوت الغبرا ، من جابلقا ، إلى جابرصا ، إلى مراصد الأحقاف ، إلى جبل قاف ، إلى ما حاطت به قبة الفلك الأدوار إلى مدينة السيد محمد السامرة ، والتي اجتمع فيها المؤمنون واتفقوا على رأي السيد أبي عبد الله ولا يشكون ولا يشركون ولا في سر علي بن أبي طالب يبيحون ، ولا يخرقون له حجابا" ، ولا يدخلون إليه إلا من باب . اجعل المؤمنين مؤمنين ومطمئنين ومؤيدين مجبورين على أعدائهم وأعدائنا منصورين ، واجعلنا بجملتهم مؤمنين ومطمئنين ، مستورين مجبورين على أعدائنا وأعدائهم منصورين ، بسر الفتح ومن فتح الفتح ومن كان الفتح على يده اليمين بسر سيدنا محمد وفاطر والحسن والحسين ومحسن سر الخفي وأشخاص الصلاة وعدة العارفين علينا من ذكرهم السلام صلاة الله عليهم أجمعين.

السورة السادسة واسمها (السجود)

الله أكبر الله أكبر لله السجود ، للرب العلي الأنزع المعبود ، يا سيدي يا محمد يا فاطر ، يا قاهر ، يا نور المعنى العظيم ، وحجابه الكريم ، بك استعنت ، أعني بهذا الدار وبك استجرت ، أجرني عذاب النار ، يا عزيز يا جبار ، يا قادر ، يا قاهر ، يا خالق الليل والنهار ،الله نور السموات والأرض وهو العلي الكبير ، إليه نقصد ونشير ، عز وجل للباب قصدت ، وللاسم سجدت ، وللمعنى عبدت و سجدت ، وسجد وجهي القاني البالي لوجه علي الحي الدائم الباقي ، يا علي يا كبير ، يا علي يا كبير ، يا علي يا كبير ،يا أكبر من كل كبير ،يا مخترع شمس الضحى وخالق البدر المنير ، يا علي لك العزة ،يا علي لك الوحدة ،يا علي لك الملك ، يا علي لك الكبرياء ، يا علي لك الإشارة ، يا علي لك الطاعة ، يا علي لك الشفاعة ، يا علي لك الفطرة ،يا علي لك القدرة ، يا علي أنت صورة البقرة ، أمانك يا علي أمانك من سخطك وعذابك من بعد رضوانك ، آمنت بعجزك ومعجزك وجللت يا أمير عن العجز أن يقع بك ، آمنت وصدقت بباطنك وظاهرك ، وظاهرك أمامي ووصيه ،وباطنك معنوي لاهوت ، يا هو يا هو يا معز من أعزك وذكرك وأفردك ، يا هو يا هو يا مذل من أذلك وأنكرك وجحدك ، يا حاضر يا موجود يا غيبا" لا يدرك يا أمير النحل يا علي يا عظيم.

السورة السابعة واسمها (السلام)

سجدت وسلمت ووجهت وجهي لفاطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، بدء السلام من المعنى القديم ، على الاسم العظيم ، وسلم الاسم العظيم ، على الباب الكريم ، وسلم الباب الكريم ، على الخمسة الأيتام أركان الدنيا والدين ، السلام على الأبواب ، السلام على الأيتام ، السلام على النقبا ، السلام على النجباء،

السلام على المختصين ، السلام على المخلصين ، السلام على الممتحنين ، السلام على المقــربين ، السلام على الكروبيين ، السلام على الروحانيين ،السلام على المقدسين ، السلام على المستمعين ، السلام على اللاحقين ، فهم أهل المراتب يتقدس عالم الصفاء أجمعين ، السلام على مــن اتبــع الهدى ، واهتدى وخشي من عواقب الردى ، وأطاع الملك العلي الأعلى ، وأقر بربوبية محمــد المصطفى ، السلام على المائة ألف نبي ، وأربعة وعشرين ألف نبي ، أولهم باب وآخرهم لاحق ، السلام عليكم يا عباد الله الصالحين جمع الله شملنا وشملكم في جنة النعيم بين الكواكب السمائيين.

السورة الثامنة واسمها (الإشارة)

سبحان الله خضعت له الرقاب ، وذلت له الأمور الشداد والصعاب ، فقد ارتفع القصد والإشارة من السيد محمد المصطفى في يوم عيد الغدير خم للذي شرفه وفضله عند الله مقام عظيم ، أنا عبد المشيرين إليك يا أمير النحل يا علي يا عظيم بالتوحيد والتفريد والتتريه والتجريد لك ، يا علي يا عظيم يا أزلي يا قديم يا بارئ يا حكيم أسألك بحق الدعوة التي دعاك بها السيد محمــد وهو خارج من باب مكة، وراكب المطية البيضاء ، وهو ينادي ويقول :

الجهاد الجهاد ، الحراب الحراب في سبيل الله . وهذه إشارتي إليك يا نور النور ، يا فالق الصخور ، وزاجر البحور ، ومدبر الأمور ، بأن تسكن المؤمنين في جنتك العلياء الــتي رضــوان خازنها ، ويفوز عبد رجاها ، فإذا

بالنداء من قبل من العلا من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة ينادي ويقول : يــا حبيبي يا محمد أي عبد دعاني بهذه الدعوة بصفو قلبه وخالص يقينه نهار الخميس النــصف مــن نيسان ، أو عشية الجمعة ، أو ليلة النصف من شعبان ، أو في خمس الليل من شهر رمــضان ،أو يوم القداس ، أو ليلة الميلاد ، أو يوم عيد الغدير إلا

وجعلته من أمتي ، وسكنته جنتي ، وأسقيه بكأس رحمتي واجعله مع المؤمنين . الــذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، رفعت إشارتي بسر العين العلوية ، بسر الميم المحمدية ، بسر السين السلسلية ، بسر ع م س أول

دعائنا نشير لمعنانا ونقول بسم الله الرحمن الرحيم وآخر دعائنا نشكر من هدانا ونقــول الحق الحمد لله رب العالمين.

السورة التاسعة واسمها (العين العلوية)

بسر العين العلوية الذاتية الظاهرة الأنزعية ، بسر الميم المحمدية ، الهاشمية الملكوتية الحجابية القرصية النورانية ، بسر السين السلسلية الجبرائيلية السلمانية البابية البكرية النميرية النصيرية ، بسر ع م س .

السورة العاشرة واسمها (العقد)

أشهد أن الله حق ، وقوله حق ، وأن الحق المبين ، علي بن أبي طالب الأنزع البطين ، والنار مثوى للكافرين ، والجنة روضة للمؤمنين ، والماء من تحت العرش يطوف وفوق العرش رب العالمين ، وحمالة العرش الثمانية الكرام ، الذين هم إليه مقربون ، عدتي في شدتي وعدة كافة المؤمنين ، سر عقد ع م س .

السورة الحادية عشرة واسمها (الشهادة) والعامة تسميها (الجبل)

شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا اله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، شهادة ع م س ، أشهد علي أيها الحجاب العظيم ، أشهد علي أيها الباب الكريم ، أشهد علي يا سيدي المقداد اليمين ، أشهد علي يا سيدي أبو الذر الشمال،

أشهد علي يا عثمان ، أشهد علي يا قنبر بن كادان ، أشهد علي يا نقيب ، أشهد علي يا نجيب ، أشهد علي يا مختص ، أشهد علي يا مخلص ، أشهد علي يا ممتحن ، ويا مقرب ، ويا كروبي ، ويا روحاني ، ويا مقدس ، ويا سائح ، ويا مستمع ، ويا لاحق ، اشهدوا علي يا أهل المراتب ، ويا عالم الصفاء أجمعين ، أني أشهد بان ليس إلهاً إلا علي بن أبي طالب الأصلع المعبود ، ولا حجاب إلا السيد محمد المحمود ، ولا باب إلا السيد سلمان الفارسي المقصود ، وأكبر الملائكة الخمسة الأيتام ، ولا رأي إلا رأي شيخنا وسيدنا الحسين بن حمدان الخصيبي الذي شرع الأديان ، في سائر البلدان ، أشهد بأن الصور المرئية ، التي ظهرت في البشرية ، هي الغاية الكلية ، وهي الظاهرة بالنورانية ، وليس إله سواها وهي علي بن أبي طالب وانه لم يحط ولم يحصر ، ولم يدرك ولم يبصر ، أشهد بأني نصيري الدين جندبي الرأي ، جنبلاني الطريقة ، خصيبي المذهب ، جلي المقال ، ميموني الفقه ، وأقر بالرجعة البيضا ، والكرة الزهرا ، وفي كشف الغطا ، وجلاء العما،

وإظهار ما كتم ، وإعلان ما خفي ، وظهور علي بن أبي طالب من عين الشمس ، قابض على كل نفس ، الأسد من تحته ، وذو الفقار بيده ، والملائكة خلفه ، والسيد سلمان بين يديه ، والماء ينبع من بين قدميه ، والسيد محمد ينادي ويقول : هذا مولاكم علي بن أبي طالب فاعرفوه وسبحوه وعظموه وكبروه ، هذا خالقكم ورازقكم فلا تنكروه ، أشهدوا علي يا أسيادي ، أن

هذا ديني واعتقادي ، وعليه اعتمادي ، وبه أحيا وعليه أموت ، وعلي بن أبي طالب حي لا يموت ، بيده القدرة والجبروت ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا، علينا من ذكرهم السلام.

السورة الثانية عشر واسمها (الإمامة)

أشهدن علي أيها النجوم الزاهرة ، والكواكب النائرة ، والأفلاك الدائرة ،بان هذه الصورة المرئية المعاينة الظاهرة ، هي علي بن أبي طالب القديم الأحد الفرد الصمد ، الذي لا يتجزأ ولا يتبعض ولا ينقسم ولا يدخل في عدد،فهو إلهي وإلهكم ، إمامي وإمامكم ، وإمامكم وإمامي إمام الأئمة ، وسراج الظلمة ، حيدرة أبو تراب الظاهر بالأصلع ، الباطن بالأنزع ، الظاهر من عين الشمس ، القابض على كل نفس ، الذي له ولعظم جلال هيبته ، ولكبرياء سني برق لاهوته ، أخضعت له الرقاب ،وذلت له الأمور الصعاب ، سر إله في السماء وهو إمام في الأرض ، سر إمام كل إمام ، سر علي بن أبي طالب قديم الزمان ، سر حجابه السيد محمد وبابه السيد سلمان ، باب الهدى والإيمان ، علينا من ذكرهم الرضى والسلام.

السورة الثالثة عشرة واسمها (المسافرة)

سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، وسر السيد أبي عبد الله ، سر الشيخ وأولاده المختصين ، الشاربين من بحر ع.م.س. فهم واحد وخمسون ، منهم سبعة عشر عراقي ، وسبعة عشر شامي ، وسبعة عشر مخفي ، وهم واقفون على باب مدينة حران يأخذون بالحق ، ويعطون بالحق ، ومن يتدين بديانتهم ويعبد عبادتهم وفقه الله إلى معرفته، ومن لا يتدين بديانتهم ولا يعبد عبادتهم فعليه لعنة الله ، بسر الشيخ وأولاده المختصين ، بسرهم أسعدهم الله أجمعين.

السورة الرابعة عشرة واسمها (البيت المعمور)

والطور، وكتاب مسطور، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور، بسر طالب وعقيل وجعفر الطيار ، هم أخوة علي بن أبي طالب ، نور من نور ، وجوهر من جوهر ، وعلي بن أبي طالب منزه عن الأخوة والأخوات ، والآباء ،والأمهات ، أحدا أبدا موجود ، باطن بغير عمود ، سر فالبيت وسقف البيت وأرض البيت وأربع أركان البيت ، أما البيت فهو السيد محمد ، وسقف البيت أبو طالب ، وأرض البيت هم محمد وفاطر والحسن والحسين سر الزاوية الغامضة الخفية التي هي في نصف البيت هي محسن سر الخفي، سر صاحب البيت العلوي الشريف الهاشمي ، الذي هشم القرون وكسر الأصنام ، علينا من ذكره الرضا والسلام.

السورة الخامسة عشرة واسمها (الحجابية)

سر الحجاب العظيم ، سر الباب الكريم ، سر سيدي المقداد اليمين ، سر سيدي أبي الذر الشمال ، سر الملكين الكريمين الطاهرين ، هما الحسن والحسين ، سر الوليين هما نوفل بن حارثة وأبو برزة ، سر الصفى وعالم الصفى ، سر كل كوكب في السماء ، سر قدس العلى وسكانه ، علينا من ذكرهم الرضى والسلام.

السورة السادسة عشرة واسمها (النقيبة)

فنقبوا في البلاد هل من محيص ، نذكر أسماء السادة النقباء الذين اختارهم السيد محمد من السبعين رجلاً في ليلة العقبة في وادي منى ، أولهم أبو الهيثم مالك بن التيهان الأشهلي ، والبراء بن معرور الأنصاري ، والمنذر بن لوذان بن كناس الساعدي ، ورافع بن مالك العجلاني ، والأسد بن الحصين الأشهلي ، وعباس بن عبادة الأنصاري ، وعبادة بن صامت النوفلي ، وعبد الله بن عمر بن حزام الأنصاري ، وسالم بن عمير الخزرجي ، وأبي بن كعب ، ورافع بن ورقة ، وبلال بن رباح السنوى سر نقيب النقباء ، ونجيب النجبا ، سيدنا محمد بن سنان الزاهري ، علينا من ذكرهم الرضى والسلام .

أخي المسلم

وبعد الذي قرأناه وعلمناه عن هذه الطائفة الكافرة وما فيه من نصوص دامغة لا يمكن لأي قارئ أو باحث إلا أن يجزم بكفر هؤلاء النصيرية ووثنيتهم وعبادهم للأشخاص وغير ذلك من المعتقدات التي جاء الإسلام لمحوها .

واعلم أخي المسلم

هناك كتب ومراجع تتحدث عنهم ينبغي على كل مسلم سني قراءها وتلخيص ما فيها لأبنائه وإخوانه حتى لا يقعوا في حبائل مثل هذه الفرق الباطنية الضالة المضلة .وكل من يقصر في هذا المجال يعرض نفسه وأولاده لمستقبل مظلم يعيشونه في ظل هذه الطائفة الخبيثة .ومن تلك الكتب:

الحركات الباطنية في الإسلام للدكتور محمد أحمد الخطيب

تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة

تقرير نائب دمشق المكلف من قبل المجلس بدراسة الطوائف

دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية للدكتور عرفان عبد الحميد

إسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة

تاريخ العلويين محمد غالب الطويل

النصيرية دراسة تحليلية تقي شرف الدين
الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (الندوة العالمية)
دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة ، عبد الله الأمين.

فمثل هذه الطائفة لا تعيش وتعمل إلا في الظلام ونقلها إلى النور هو إحراق لها فقد اعتمدت خلال تاريخها الطويل على التخفي وآن لنا أن نكشف سترها .

١ـ ولهذا فالنظام النصيري الحاكم في سوريا نراه يرتجف خوفا من الإعلام الحر والانترنيت لم يدخلها إلا في مرحلة متأخرة جدا وبرقابة شديدة ونطاق محدود جدا إذ لا يبلغ عدد الأفراد المشتركين في هذه الدولة التي يقارب عدد سكانها ١٦ مليون عدد مشتركي حي واحد من أحياء عاصمة عربية حتى يبقى السوريون في منأى عن الاتصال مع العالم ومكتباته والاطلاع على ما خفي عن هذه الطائفة والطغمة الحاكمة وهذا الدين المركب من بقايا الوثنية والفارسية والنصرانية والشيعية الاثني عشرية .

٢ - ومن أساليبهم الخبيثة أنهم لو سمعوا بوجود كتاب قيم عند أحد المسلمين يتحدث عنهم ويفضح سترهم أما استعاروه من صاحبه ولم يعيدوه له بحجة أنه اتلف ، وقد يلجؤون إلى سرقة الكتاب وإحراقه فالمعلومات الصحيحة هو أكثر ما يخيف أبناء الظلام هؤلاء.

٣ - ومن أساليبهم الخبيثة توظيف بعض أبنائهم في المراكز الثقافية لإتلاف هذه الكتب أو إخفائها ليظل المسلم غير مطلع على حقيقتهم .

٤ - لا ينبغي الانخداع بدعوة المثقفين من أبناء هذه الطائفة الذين يدعون أنهم تجاوزوا معتقداتهم السابقة وتحرروا منها بحجة أنهم علمانيين أو يساريين أو مثقفين يدعون إلى التعايش مع بقية الطوائف ، فقد دلت التجارب القاطعة لمن عايشهم ولفترة طويلة من الزمن أن النصيري مهما ادعى وغير ثوبه الخارجي يبقى نصيريا"لأنه كالحرباء التي قد تغير لونها الخارجي لكنها لا تقدر على تغيير حقيقتها .

٥ - كل من تعامل مع هذه الطائفة تاريخيا كان يخطئ عندما يعتقد أنه ببناء المساجد لهم أو بتركهم يرجعون إلى جبالهم يحل مشكلتهم لكن الحقيقة أنهم كالدودة الشريطية لو استأصلت جزءا كبيرا منها ولم تقضي على الباقي استطاعت أن ترمم نفسها بعد فترة وعادت للتآمر على الإسلام والمسلمين .

٦ - من الأساليب التي اتبعوها للوصول إلى الحكم دخولهم في مختلف التيارات السياسية والأحزاب على أساس أن أي حزب يصل إلى السلطة يكون لهم به ممثلين يطلعون الطائفة ومشايخها على ما يدور به ويخططون للوصول من خلاله إلى السلطة للتفرد بها ، فكان منهم في

العائلة الواحدة في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن البعثي والناصري والشيوعي والقومي السوري والاشتراكي ، وقد استغلوا هذا الأمر ونجحوا في الوصول إلى السلطة والانفراد بها .

٧ - كما عملوا من جهة أخرى على الانخراط في صفوف الجيش والشرطة ولو بمناصب وضيعة ليشكلوا شبكة معلومات تطلع على مختلف نواحي المجتمع وتزود رجال دينهم الذين يجتمعون بشكل دوري بأكبر كمية من المعلومات ، ثم عند نجاحهم في الوصول إلى السلطة يتم ترفيع أولئك المخلصين إلى رتب عالية قفزا" ودون دورات حقيقة كما فعل الأسد الهالك بترفيع ابنه بسرعة إلى رتب تخوله الاستيلاء على السلطة في سوريا. وقد مهد الأب لذلك بالإطاحة بكل منافس محتمل من السنة أو حتى من داخل الطائفة نفسها .

٨ - لجأ القياديون من هذه الطائفة إلى الإطاحة بكل معارض واستخدموا أسلوب الاغتيال وتاريخهم أسود في هذا المجال فقد شكلوا فرقا انتحارية من سرايا الدفاع التي كان يرأسها المجرم رفعت الأسد ، أو من الوحدات الخاصة التي كان يرأسها علي حيدر ومن تلك الاغتيالات على سبيل المثال لا الحصر اغتيال كمال جنبلاط وسليم اللوزي والمفتي حسن خالد وبنان الطنطاوي.

٩ - علينا جميعاً أن لا ننسى أن هذا المجرم الذي أرخى لحيته مؤخرا ويدعي الآن الإسلام والصلاة قد شارك في المجازر التي ارتكبت بحق أبناء شعبنا المسلم في سوريا وقام بسرقة المليارات من أموال البلد وساهم في شق النفق الذي يصل بين فرنسا وبريطانيا على حساب فقر وحرمان الشعب .

كذلك فعل شقيقه والآن الوريث الجديد بأموال البترول السوري الذي لا يدخل في ميزانية الدولة وإنما يذهب إلى حسابات سرية خاصة باسمه واسم أولاده ومنهم الذي مات والتي لم يستطع والده استعادتها كلها ففقدها الشعب السوري كما فقدها من سرق تلك الأموال من هذه الطائفة .

١٠ - من أساليبهم الخبيثة الهجرة إلى المدن المجاورة أو البعيدة واتخاذهم أسماء وألقاب لا تدل على حقيقة أصلهم النصيري وإظهار الاندماج في حياة الناس لكن النصيري يبقى يعمل في السر لصالح طائفته ويبلغ السلطات عن أي موضوع يحدث قد يؤثر على مصلحة الطائفة واستمرارها في الحكم وكم من المسلمين البسطاء انخدع بأمثال هؤلاء وتكلم أمامهم دون أن يدري حقيقتهم فانتهى به المطاف مقتولا ومرميا في مكان ناء دون أن يعلم أحد به إلا ربه وقتلته . فعلى سبيل المثال قد يسكن أحدهم في مدينة حلب ويدعى (علي إبراهيم) ثم يهاجر إلى دمشق

أو دير الزور ليعرف هناك باسم (علي الحلبي) ومثل هذه الكنية لا توحي بالأصل النــصيري .
فلتكن أخي المسلم في أعل درجات الحذر .

وفي الختام أريد أن اذكر جميع الإخوة بفتوى شيخ الإسلام يرحمه الله :

ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبـات ، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب ، فإن جهاد هؤلاء مــن جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهــل الكتاب فان جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد المسلمين وان يدخل فيه من أراد الخروج عنــه. وجهاد من لا يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين ، وحفظ رأس المال مقدم على الربح .وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك بل ضرر هؤلاء من جــنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من النــاس اشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب .

ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب ، فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم .

المبحث الثاني

حقيقة حزب البعث العربي الاشتراكي

لقد اتخذ النظام النصيري من حزب البعث العربي الاشتراكي مطية له للتلبيس على الناس ، فالنصيرية لا يهمه تطبيق أهداف حزب البعث الضالة ، ولكن يهمه فقط نهب وسرقة خيرات العباد والبلاد ، لذا وضعنا هذا التعريف بهذا الحزب ، حتى لا ينخدع به الناس .

التعريف بحزب البعث :

حزب البعث حزب قومي علماني يدعو إلى الانقلاب الشامل في المفاهيم والقيم العربية لصهرها وتحويلها إلى التوجه الاشتراكي ، شعاره المعلن (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وهي رسالة الحزب ، أما أهدافه فتتمثل في الوحدة والحرية والاشتراكية .

التأسيس وأبرز الشخصيات :

في سنة ١٩٣٢م عاد من باريس قادما إلى دمشق كل من ميشيل عفلق (نصراني ينتمي إلى الكنيسة الشرقية) وصلاح البيطار (سني) وذلك بعد دراستهم العالية محملين بأفكار قومية وثقافة أجنبية .

- عمل كل من عفلق والبيطار في التدريس ومن خلاله أخذا ينشران أفكارهما بين الزملاء والطلاب والشباب .

- أصدر التجمع الذي أنشأه عفلق والبيطار مجلة الطليعة مع الماركسيين سنة ١٩٣٤م وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم (جماعة الإحياء العربي) .

- في نيسان ١٩٤٧م تم تأسيس الحزب تحت اسم (حزب البعث العربي) ، وقد كان من المؤسسين : ميشيل عفلق ، صلاح البيطار ، جلال السيد ، زكي الأرسوزي كما قرروا إصدار مجلة باسم البعث .

- كان لهم بعد ذلك دور فاعل في الحكومات التي طرأت على سوريا بعد الاستقلال سنة ١٩٤٦م وهذه الحكومات هي :

- حكومة شكري القوتلي : من ١٩٤٦م وحتى ١٩٤٩/٣/٢٩م .
- حكومة حسني الزعيم : استلم السلطة عدة شهور من سنة ١٩٤٩م .
- حكومة اللواء سامي الحناوي : بدأ حكمه وانتهى في نفس عام ١٩٤٩م .
- حكومة أديب الشيشكلي : استمر حكمه حتى سنة ١٩٥٤م .

- حكومة شكري القوتلي : عاد إلى الحكم مرة ثانية واستمر إلى توقيع اتفاقية الوحدة مع مصر سنة ١٩٥٨م .

- حكومة الوحدة برئاسة جمال عبد الناصر : ١٩٥٨-١٩٦١م .

- حكومة الانفصال برئاسة الدكتور ناظم القدسي : وقد دام الانفصال من ١٩٦١/٩/٢٨م وحتى ١٩٦٣/٣/٨م . وقد قاد حركة الانفصال عبد الكريم النحلاوي .

- منذ ١٩٦٣/٣/٨م وإلى اليوم فقد وقعت سوريا تحت حكم حزب البعث ، وقد مرت هذه الفترة بعدة حكومات بعثية هي :

- حكومة قيادة الثورة : ١٩٦٣م وفيها برز صلاح البيطار كرئيس للوزراء .

- حكومة أمين الحافظ : من ١٩٦٣م وحتى ١٩٦٦م .

- حكومة نور الدين الأتاسي : ١٩٦٦م-١٩٧٠م حيث لعبت القيادة القطرية للحزب دورا بارزا في الحكم ، وقد برز في هذه الفترة كل من صلاح جديد الذي عمل أمينا عاما للقيادة القطرية وحافظ الأسد الذي عمل وزيرا للدفاع .

- حكومة حافظ الأسد : من سنة ١٩٧٠م وإلى يومنا هذا .

- ومن الشخصيات السورية البارزة التي ظهرت في تاريخ الحزب :

- سامي الجندي : تقلد منصب وزير الإعلام بعد انقلاب ١٩٦٣م .

- حمود الشوفي : عمل سكرتيرا عاما للقيادة القطرية الأولى إلا أنه انشق وجماعته عن الحزب في آذار سنة ١٩٦٤م ، وهو الآن في العراق .

- منيف الرزاز : (أردني سني) عمل سكرتيرا عاما للقيادة القومية للحزب من نيسان ١٩٦٥م إلى شباط ١٩٦٦م .

- مصطفى طلاس : (سني) : ولد سنة ١٩٣٢م ، درس في الكلية العسكرية بحمص ، انضم إلى الحزب في سنة ١٩٤٧م وعمل رئيسا لمحكمة الأمن القومي للمنطقة الوسطى من ١٩٦٣م ، ورئيس أركان اللواء المدرع الخامس من ١٩٦٤م-١٩٦٦م ورئيس الأركان للقوات المسلحة من شباط ١٩٦٨م ونائب وزير الدفاع من ١٩٦٨-١٩٧٢م وفي آذار ١٩٧٣م وصار وزيرا للدفاع وما يزال .

- اللواء يوسف شكور : خلف مصطفى طلاس في رئاسة الأركان وهو من منطقة حمص .

- اللواء ناجي جميل : من دير الزور ، كان قائدا لسلاح الجو من تشرين الثاني ١٩٧٠م وحتى آذار ١٩٧٨م .

- سليم حاطوم : حاول أن يقود انقلابا عام ١٩٦٦م لكنه فشل في ذلك ، وقد أعـــدم في عام ١٩٦٧م .

- زكي الأرسوزي : (من لواء إسكندرون) مؤسس مع ميشيل عفلق ومنافس له .

- شبلي العيسمي : ولد عام ١٩٣٠م ، عمل وزيرا للإصـــلاح الزراعـــي ثم وزيـــرا للمعارف ، ثم وزيرا للثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٣م-١٩٦٤م ونائبا للأمين العام لحزب البعث ١٩٦٥م .

- عبد الكريم الجندي : من أنصار صلاح جديد ، انتهى منتحرا عام ١٩٦٩م .

- سليمان العيسى : (من لواء اسكندرون) منظر ومفكر وشاعر .

- أحمد الخطيب : استلم رئاسة الجمهورية من تشرين الثاني ١٩٧٠م واستقال في شباط ١٩٧١م وهي الفترة الانتقالية بين حكومة نور الدين الأتاسي وحكومة حافظ الأسد ، وقد كان عضو القيادة القطرية الموسعة من ١٩٦٥م كما استلم رئاسة مجلس الشعب لفترة قصيرة .

- يوسف زعين : مولود في البوكمال ١٩٣١م طبيب ، عمل وزيرا للإصلاح الزراعي ١٩٦٣-١٩٦٤م ، وسفيرا في بريطانيا ،وفي ١٩٦٥م انتخب عضوا في القيادة القطرية ، ومن شباط ١٩٦٦م إلى تشرين الأول ١٩٦٨م ، كان رئيسا للوزراء حتى عام ١٩٧٠م .

- جلال السيد : عضو مؤسس في حزب البعث وهو من مدينة دير الزور وقـــد تـــرك الحزب لكنه بقي نشيطا في السياسة السورية .

- عبد الحليم خدام : ولد ١٩٣٢م في بانياس ، خريج كلية الحقوق بدمشق تنقـــل في عدة وظائف حيث عمل محافظا لمدينة حماة ومحافظا لمدينة القنيطرة ومحافظا لمدينة دمشق ١٩٦٤م ووزيرا للاقتصاد ١٩٦٩م ووزيرا للخارجية من ١٩٧٠م ، ثم نائباً للرئيس حافظ الأســـد ، ثم نائباً للرئيس بشار الأسد ، وهو عضو القيادة القطرية ، ثم انشق بعد ذلك عن نظام بشار الأسد ، وغادر إلى باريس ، حيث تحالف مع جماعة الإخوان المسلمين ، وأسس معهـــم جبهـــة الخـــلاص الوطني .

- حافظ الأسد : ولد بالقرداحة من قرى اللاذقية ســـنة ١٩٣٠، تخـــرج في الكليـــة العسكرية بحمص ١٩٥٥م عمل قائدا لقاعدة الـــضمير الجويـــة ١٩٦٣م ، تخـــرج في الكليـــة العسكرية بحمص ١٩٥٥م ، عمل قائدا لقاعدة الضمير الجوية ١٩٦٣م ، وقائدا لسلاح الطيران ١٩٦٤م انضم إلى المجلس الوطني لقيادة الثورة ١٩٦٥م ، انضم إلى صلاح جديد في انقـــلاب ١٩٦٦م وصار وزيرا للدفاع من ١٩٦٦م إلى ١٩٧٠م . ومن تشرين الثـــاني ١٩٧٠م صـــار رئيسا للجمهورية بعد قيادته الحركة التغيرية التي أوصلته إلى السلطة . ولقد تولى الطاغية حافظ

الأسد حكم سوريا لما يقرب من ٣٠ سنة ، حكم خلالها سوريا بأسلوب قمعي ودموي ، ومن العجيب أن الطاغية حافظ الأسد قد أعلن عن سقوط الجولان في يوم ١٠ حزيران ١٩٦٧م ، وفي نفس اليوم ١٠ حزيران من عام ٢٠٠٠م أعلن وفاة حافظ الأسد .

- زهير مشارقة من حلب ، عين مؤخرا نائب رئيس الجمهورية لشؤون الحزب .

- غازي كنعان (١٩٤٢-٢٠٠٥م) رمز من رموز الأمن السوري ، وهو من عائلة نصيرية ، عين كرئيس للمخابرات العسكرية السورية في حمص ، ثم رئيس شعبة المخابرات السورية في لبنان مما جعله يعتبر حاكم لبنان الفعلي في الفترة من ١٩٨٢ حتى ما بعد ٢٠٠١م ، ثم عين مديرا للأمن السياسي في سورية عام ٢٠٠١م ثم وزيرا للداخلية عام ٢٠٠٤م حتى موته الغامض بتاريخ تشرين الأول ٢٠٠٥ ، حيث أعلن النظام السوري أنه انتحر ، إلا أن البعض يعتقد أن النظام السوري قد نحره ليتخلصوا منه .

- بشار الأسد : هو من أبناء الطائفة النصيرية ، ورثِ الحقد والعار والإجرام عن والده الهالك حافظ الأسد ، تولى بشار الأسد في ١ يوليو/ تموز ٢٠٠٠ رئاسة الجمهورية السورية .

- لقد اندمج في سنة ١٩٥٣م كل من (حزب البعث) و (الحزب العربي الاشتراكي) الذي كان يقوده أكرم الحوراني في حزب واحد أسمياه (حزب البعث العربي الاشتراكي).

تقييم للأفكار والمعتقدات التي يعتنقها حزب البعث :

- حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي علماني انقلابي له طروحات فكرية متعددة يتعذر الجمع بينها أحيانا فضلا عن الإقناع بها ، لقد كتب عنه كثيرا وتحدث زعماؤه طويلا ولكن هناك بون واسع بين ممارسات وأقوال فترة ما قبل السلطة ، وممارسات وأقوال فترة ما بعدها .

- الرابطة القومية عنده هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة وتكبح جماح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية حتى قال شاعرهم :

آمنت بالبعث ربا لا شريك له وبالعروبة ديناً ما له ثان

- تعلن ساسة الحزب التربوية أنها ترمي إلى خلق جيل عربي جديد مؤمن بوحدة أمته وخلود رسالتها آخذا بالتفكير العلمي طليقا من قيود الخرافات والتقاليد والرجعية مشبعا بروح التفاؤل والنضال والتضامن مع مواطنيه في سبيل تحقيق الانقلاب العربي الشامل وتقدم الإنسانية والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن بأن الله والأديان والإقطاع ورأس المال وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ .

من التوصيات العامة لمقررات المؤتمر القومي الرابع :

- تقول التوصية الرابعة : يعتبر المؤتمر القومي الرابع الرجعية الدينية إحدى المضار الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة ولذلك يوصي القيادة القومية بالتركيز في النشاط الثقافي والعمل على علمانية الحزب خاصة في الأقطار التي تشوه فيها الطائفية العمل السياسي .

- التوصية التاسعة تقول : إن أفضل سبيل لتوضيح فكرتنا القومية هو شرح وإبراز مفهومها التقدمي العلماني وتجنب الأسلوب التقليدي الرومنطيقي في عرض الفكرة القومية وعلى ذلك سيكون نضالنا في هذه المرحلة مركزا حول علمانية حركتنا ومضمونها الاشتراكي لاستقطاب قاعدة شعبية لا طائفية من كل فئات الشعب .

- أما عن الوحدة فهم يقولون ليست الوحدة العربية مجرد تجميع ولصق لأجزاء الوطن العربي بل هي التحام فصهر لهذه الأجزاء لذا فإن الوحدة ثورة بكل أبعادها ومعانيها ومستوياتها وهي ثورة لأنها قضاء على مصالح إقليمية عاشت وتوسعت وترسبت عبر القرون وهي ثورة لأنها تجابه مصالح وطبقات تعارض الوحدة وتقف في وجهها .

- وأما الاشتراكية فهي تعني تربية المواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة لكي يمكن خلق إنسان عربي جديد بعقل علمي متفتح ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة ويؤمن بقيم جماعية .

- الرسالة الخالدة يفسرونها بأن الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ترمي إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم

- هذا ويمكن ملاحظة ما يلي :

- إن كلمة الدين لم ترد مطلقا في صلب الدستور السوري أو العراقي .

- كلمة الإيمان بالله على عموميتها لم ترد في صلب الدستور لا في تفصيلاته ولا في عمومياته مما يؤكد على الاتجاه العلماني لديه .

- في بناء الأسرة لا يشيرون إلى تحريم الزنى ولا يشيرون إلى آثاره السلبية .

- في السياسة الخارجية لا يشيرون إلى أية صلة مع العالم الإسلامي .

- لا يشيرون إلى التاريخ الإسلامي الذي أكسب الأمة العربية مكانة وقدرا بين الشعوب.

- رغم مطالبة الحزب بإتاحة أكبر قدر من الحرية للمواطنين فإن ممارساته القمعية فاقت كل تصور وانتهكت كل الحرمات ووأدت كل الحريات وألجأت الكثيرين إلى الهجرة والفرار بعقيدتهم من الظلم والاضطهاد .

- القوانين في البلاد التي يحكمها البعث علمانية وحانات بيع الخمور مفتوحة ليل نهار والنظام المالي ربوي ودعاة الإسلام مضطهدون بشكل سافر .

الجذور الفكرية والعقائدية :

- يعتمد الحزب على الفكر القومي الذي ظهر وبرز بعد سقوط الدولة العثمانية في العالم العربي والذي نادت به أوروبا والذي نادى به منظر القومية العربية في العالم العربي آنذاك ساطع الحصري .

- يعتمد الحزب على الفكر العلماني إذ ينحي مسألة العقيدة الدينية جانبا ولا يقيم لها أي وزن سواء على صعيد الفكر الحزبي أو على صعيد الانتساب إلى الحزب أو على صعيد التطبيق العملي .

- يستلهم الحزب تصوراته من الفكر الاشتراكي ويترسم طريق الماركسية رغم انهيارها والخلاف الوحيد بينهما أن اتجاهات الماركسية أممية أما البعث فقومي وفيما عدا ذلك فإن الأفكار الماركسية تمثل العمود الفقري في فكر الحزب ومعتقده وهي لا تزال كذلك رغم انهيار البنيان الماركسي فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي .

- لقد كان الحزب واجهة انضوت تحته كل الاتجاهات الطائفية (درزية – نصيرية – إسماعيلية – مسيحية) وأخذ هؤلاء يتحركون من خلاله بدوافع باطنية يطرحونها ويطبقونها تحت شعار الثورة والوحدة والحرية والاشتراكية والتقدمية وقد كانت الطائفة النصيرية أقدر هذا الطوائف على استغلال الحزب لتحقيق أهدافها وترسيخ وجودها.

الانتشار ومواقع النفوذ :

- للحزب أعضاء ينتشرون في معظم الأقطار العربية ، بعضهم يعمل بشكل علني وبعضهم الآخر سري ويتفاوت وجودهم وتأثيرهم من بلد إلى آخر على حسب طبيعة البلد ونوعية حكمه .

- يحكم حزب البعث بلدين عربيين مهمين هما سوريا والعراق وقد عجز الحزب عن تحقيق الوحدة بين فصائله بل إن الصراع بين شطري البعث مستمر وعلى أشده واتهامات الخيانة بين الطرفين لا تنقضي وإذا كان هذا هو شأن الحزب في بلدين يخضعان له فهو من باب أولى عاجز عن تحقيق وحدة الأمة العربية بكاملها .

- والبعثيون يتطلعون إلى استلام السلطة في جميع أرجاء الوطن العربي باعتبار ذلك جزءا لا يتجزأ من طموحاتهم البعيدة وقد أدت بهم هذه الرغبة العارمة إلى السقوط في حمأة الإنذار المقنع والتهديد السافر والعدوان الصريح .

ويتضح مما سبق :

- أن حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي سلطوي يحاد الله ورسوله ويسعى إلى قلب الأوضاع في العالم العربي ويتخذ العلمانية وتحقيق الاشتراكية مطلبا يبرر سياسته القمعية ورسالته التي يصفها على خلاف الحقيقة بالتقدمية ويجعل من الوحدة العربية هدفا ينفذه بالضم والإرغام رغم إرادة الشعوب .

والعلاقة معه يجب أن يحكمها قول الله سبحانه : {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }المجادلة٢٢

حكم الشرع الإسلامي في حزب البعث وحكم الانتساب لهذا الحزب :

نص فتوى الشيخ أبو بصير الطرطوسي (عبد المنعم مصطفى حليمة) في حزب البعث العربي الاشتراكي وفي حكم الانتماء لهذا الحزب :

الحمد لله رب العالمين. حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي عنصري علماني، إباحي، يقوم على مبدأ فصل الدين عن الدولة والسياسة والحياة .. وهو في مبادئه وأهدافه ووسائله، ومنشئه، وكل جزئية من جزئياته يُناقض ويُعارض شرائع وتعاليم الإسلام .. وهو لم يُجلب للأمة إلا الخزي، والعار، والتخلف، والفقر، والهزائم ..!

إضافة لما تقدم كان هذا الحزب ــ ولا يزال ــ ستاراً وغطاءً لحكم الطائفة النصيرية الكافرة المارقة الخائنة في سورية .. فمارست ــ من خلال تبنيها لهذا الحزب الكافر ــ جميع أحقادها الطائفية الخبيثة بحق الإسلام والمسلمين .. وتاريخها المعاصر كله يشهد على ذلك!

وعليه فهو حزب كافر من حيث المنشأ، والوسائل، والأهداف، والتجمع .. لا يشك في ذلك من عرف حقيقة الإسلام وحقيقة هذا الحزب وأهله .. لا يجوز الانضمام إليه أو الالتحاق به أو الترويج إليه .. ومن يفعل شيئاً من ذلك طواعية من تلقاء نفسه ــ من غير إكراه معتبر شرعاً ــ طلباً للرزق والوظيفة ونحو ذلك ــ وإن كان غير معتقد لمبادئ وأهداف هذا الحزب ــ فهو كافر خارج من الإسلام إلى أن يتوب ويتبرأ ظاهراً وباطناً من هذا الحزب وأهله، مهما زعم بلسانه أنه من المسلمين؛ فعمله وواقعه يكذب زعمه ويُبطله، قال تعالى:﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ

إِيمَانه إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾النحل:١٠٦. فكل من يُظهر الكفر بقول أو فعل من غير إكراه أو مانعٍ شـــرعي معتبر .. فهو كافر وممن شرح بالكفر صدراً، وممن عليهم غضب من الله تعالى ولهم عذاب عظيم . اهـ

المبحث الثالث

حقيقة العلمانية *

(الجاهلية الحديثة)

بما أن النظام النصيري هو نظام علماني يدعو لفصل الدين عن الدولة ، لذا نـضع بـين أيديكم هذا التعريف بالعلمانية .

التعريف :

العلمانية وترجمتها الصحيحة : اللادينية أو الدنيوية ، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيداً عن الدين وتعني في جانبها السياسي بالذات اللا دينية في الحكم ، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمه العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيدا عن الدين وتعني في جانبها بالذات اللادينية في الحكم ، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمه العلم وقد ظهرت في أوربا منذ القرن السابع عشر وانتقلت إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر وانتقلت بشكل أساسي إلى مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا ثم تونس ولحقتها العراق في نهاية القرن التاسع عشر . أما بقية الدول العربية فقد انتقلت إليها في القرن العشرين ،وقد اختيرت كلمه علمانية لأنها اقل إثارة من كلمه لا دينية .

ومدلول العلمانية المتفق عليه يعني عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع وإبقاءه حبيساً في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه فان سمح له بالتعبير عن نفسه ففي الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوهما.

تتفق العلمانية مع الديانة النصرانية في فصل الدين عن الدولة حيث لقيصر سلطة الدولة ولله سلطة الكنيسة وهذا واضح فيما ينسب للسيد المسيح من قوله :(أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) . أما الإسلام فلا يعرف هذه الثنائية والمسلم كله لله وحياته كلها لله (قـل إن صـلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) سورة الأنعام : آية ١٦٢

التأسيس وابرز الشخصيات :

· انتشرت هذه الدعوة في أوربا وعمت أقطار العالم بحكم النفوذ الغربي والتغلغل الشيوعي . وقد أدت ظروف كثيرة قبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وبعدها إلى انتشارها الواسع وتبلور منهجها وأفكارها وقد تطورت الأحداث وفق الترتيب التالي :

- تحول رجال الدين إلى طواغيت ومحترفين سياسيين ومستبدين تحت ستار الاكليريوس والرهبانية والعشاء الرباني وبيع صكوك الغفران .

---

* مصدر هذا البحث شبكة الإنترنت .

- وقوف الكنيسة ضد العلم وهيمنتها على الفكر وتشكيله ا لمحاكم التفتيش واتهام العلماء بالهرطقة ، مثل:

١ -كوبرنيكوس : نشر عام ١٥٤٣م كتاب حركات الأجرام السماوية وقد حرمت الكنيسة هذا الكتاب .

٢ - جرادانو:صنع التلسكوب فعذب عذاباً شديداً وعمره سبعون سنة وتوفي سنة ١٦٤٢م.

٣ -سبينوزا : صاحب مدرسة النقد التاريخي وقد كان مصيره الموت مسلولاً .

٤ - جون لوك : طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض .

ظهور مبدأ العقل والطبيعة : فقد اخذ العلمانيون يدعون إلى تحرر العقل وإضفاء صفات الإله على الطبيعة .

- الثورة الفرنسية : نتيجة لهذا الصراع بين الكنيسة وبين الحركة الجديدة من جهة أخرى ، كانت ولادة الحكومة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وهي أول حكومة لا دينية تحكم باسم الشعب . وهناك من يرى أن الماسون استغلوا أخطاء الكنيسة والحكومة الفرنسية وركبوا موجة الثورة لتحقيق ما يمكن تحقيقه من أهدافهم .

- جان جاك روسو سنة ١٧٧٨له كتاب العقد الاجتماعي الذي يعد إنجيل أ الثورة ، مونتسكيو له روح القوانين ، سبينوزا (يهودي) يعتبر رائد العلمانية باعتبارها منهجا للحياة والسلوك وله رسالة في اللاهوت والسياسة ، فولتير صاحب القانون الطبيعي كانت له الدين في حدود العقل وحده سنة ١٨٠٤م ،وليم جودين ١٧٩٣م له العدالة السياسية ودعوته فيه دعوة علمانية صريحة .

- ميرابو : الذي يعد خطيب وزعيم وفيلسوف الثورة الفرنسية .

- سارت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل وشعارها الخبز ثم تحول شعارها إلى (الحرية والمساواة والإخاء) وهو شعار ماسوني و(لتسقط الرجعية) وهي كلمة ملتوية تعني الدين وقد تغلغل اليهود بهذا الشعار لكسر الحواجز بينهم وبين أجهزة الدولة وإذابة الفوارق الدينية وتحولت الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه .

- نظرية التطور : ظهر كتاب أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م لتشارز دارون الذي يركز على قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب وقد جعلت الجد الحقيقي للإنسان جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين ، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان

آخرها . وهذا النظرية التي أدت إلى انهيار العقيدة الدينية ونشر الإلحاد وقد استغل اليهود هـــذه النظرية بدهاء وخبث .

- ظهور نيتشه :وفلسفته التي تزعم بأن الإله قد مات وأن الإنسان الأعلى (السوبر مان) ينبغي أن يحل محله .

- دور كايم (اليهودي) : جمع بين حيوانية الإنسان وماديته بنظرية العقل الجمعي .

- فرويد (اليهودي) :اعتمد الدافع الجنسي مفسرا لكل الظواهر .والإنسان في نظـــره حيوان جنسي

- كارل ماركس (اليهودي) : صاحب التفسير المادي للتاريخ الذي يـــؤمن بـــالتطور الحتمي وهو داعية الشيوعية ومؤسسها والذي اعتبر الدين أفيون الشعوب .

- جان بول سارتر : في الوجودية وكولن ولسون في اللامنتمي : يدعوان إلى الوجوديـــة والإلحاد .

- الاتجاهات العلمانية في العالم الإسلامي نذكر نماذج منها :

١ - في مصر : دخلت العلمانية مصر مع حملة نابليون بونابرت . وقد أشار إليها الجبرتي الجزء المخصص للحملة الفرنسية على مصر واحداثها – بعبارات تدور حول معنى العلمانية وان لم تذكر اللفظة صراحة .أما أول من استخدم هذا المصطلح العلمانية فهو نصراني يدعى اليـــأس بقطر في معجم عربي فرنسي من تأليفه سنة ١٨٢٧ م .وادخل الخديوي إسماعيل القانون الفرنسي سنة ١٨٨٣م،وكان هذا الخديوي مفتونا بالغرب ،وكان أمله أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا.

٢ - الهند: حتى سنة ١٧٩١م كانت الأحكام وفق الشريعة الإسلامية ثم بدأ التدرج من هذا التاريخ لإلغاء الشريعة الإسلامية بتدبير الإنجليز وانتهت تماما في أواسط القرن التاسع عشر .

٣ - الجزائر : إلغاء الشريعة الإسلامية عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠ م .

٤ - تونس : أدخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩٠٦ م.

٥– المغرب: ادخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩١٣م.

٦ -تركيا لبست ثوب العلمانية عقب إلغاء الخلافة واستقرار الأمـــور تحـــت ســـيطرة مصطفى كمال أتاتورك ، وان كانت قد وجدت هناك إرهاصات ومقدمات سابقة .

٧ - العراق والشام : ألغيت الشريعة أيام إلغاء الخلافة العثمانية وتم تثبيت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيها .

٨ - معظم أفريقيا : فيها حكومات نصرانية امتلكت السلطة بعد رحيل الاستعمار

٩ - اندونيسيا ومعظم بلاد جنوب شرق آسيا دول علمانية .

١٠-انتشار الأحزاب العلمانية والنزاعات القومية : حزب البعث ،الحزب القومي السوري ،النزعة الفرعونية ،النزعة الطورانية ،القومية العربية .

١٤- من أشهر دعاة العلمانية في العالم العربي الإسلامي : احمد لطفي السيد ، إسماعيل مظهر ، قاسم أمين ، طه حسين ، عبد العزيز فهمي ، ميشيل عفلق ،أنطوان سعادة ، سوكارنو ، سوهارتو ، نهرو، مصطفى كمال أتاتورك ،جمال عبد الناصر ، أنور السادات (صاحب شعار لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين) ، د. فؤاد زكريا ، د. فرج فودة وقد اغتيل بالقاهرة مؤخرا ، وغيرهم .

الأفكار والمعتقدات :

¨ بعض العلمانيين ينكر وجود الله أصلاً .

¨ وبعضهم يؤمنون بوجود الله لكنهم يعتقدون بعدم وجود آية علاقة بين الله وبين حياة الإنسان .

¨ الحياة تقوم على أساس العلم المطلق وتحت سلطان العقل والتجريب .

¨ إقامة حاجز بين عالمي الروح والمادة والقيم الروحية لديهم قيم سلبية .

¨ فصل الدين عن السياسة وإقامة الحياة على أساس مادي .

¨ تطبيق مبدأ النفعية على كل شيئ في الحياة .

¨ اعتماد مبدأ الميكافيلية في فلسفة الحكم والسياسية والأخلاق .

¨ نشر الإباحة والفوضى الأخلاقية وهديم كيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية.

أما معتقدات العلمانية في العالم الإسلامي والعربي التي انتشرت بفضل الاستعمار والتبشير فهي :

¨ الطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة

¨ الزعم بان الإسلام استنفذ أغراضه وهو عبارة عن طقوس وشعائر روحية

¨ الزعم بان الفقه الإسلامي مأخوذ عن القانون الروماني .

¨ الوهم بأن الإسلام لا يتلاءم مع الحضارة ويدعو إلى التخلف .

¨ الدعوة إلى تحرير المرأة وفق الأسلوب الغربي .

¨ تشويه الحضارة الإسلامية وتضخيم حجم الحركات الهدامة في التاريخ الإسلامي والزعم بأنها حركات إصلاح .

¨ إحياء الحضارات القديمة .

¨ اقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية عن المغرب ومحاكاته فيها .

¨ تربية الأجيال تربية لا دينية .

· إذا كان هناك عذر لوجود العلمانية في الغرب فليس هناك أي عذر لوجودها في بلاد المسلمين لأن النصراني إذا حكمه قانون مدني وضعي لا يتزعج كثيراً ولا قليلا لأنه لا يعطل قانون فرضه علية دينه وليس في دينه ما يعتبر منهجا للحياة ، أما مع المسلم فالأمر مختلف حيث يوجب عليه إيمانه الاحتكام لشرع الله . ومن ناحية أخرى كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي – فإنه إذا انفصلت الدولة عن الدين بقي الدين النصراني قائما في ظل سلطته القوية الفتية المتمكنة وبقيت جيوش من الراهبين والراهبات والمبشرين والمبشرات تعمل في مجالاتها المختلفة دون أن يكون للدولة عليهم سلطان بخلاف ما لو فعلت ذلك دولة إسلامية فأن النتيجة أن يبقى الدين بغير سلطان يؤيده ولا قوة تسنده حيث لا بابوية ولا كهنوت ولا اكلريوس وصدق الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه حين قال (إن الله يزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن) .

الجذور الفكرية والعقائدية :

· العداء المطلق للكنيسة أولا وللدين ثانيا أياً كان ، سواء وقف إلى جانب العلم أم عاداه.

· لليهود دور بارز في ترسيخ العلمانية من أجل إزالة الحاجز الديني الذي يقف أمام اليهود حائلا بينهم وبين أمم الأرض .

· يقول الفرد هوايت هيو : (ما من مسالة ناقض العلم فيها الدين إلا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين) وهذا القول إن صح بين العلم واللاهوت في أوروبا فهو قول مردود ولا يصح بحال فيما يخص الإسلام حيث لا تعارض إطلاقاً بين الإسلام وبين حقائق العلم ، ولم يقم بينها أي صراع كما حدث في النصرانية . وقد نقل عن أحد الصحابة قوله عن الإسلام : (ما أمر بشيء ، فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به) وهذا القول تصدقه الحقائق العلمية والموضوعية وقد أذعن لذلك صفوة من علماء الغرب وفصحوا عن إعجابهم وتصديقهم لتلك الحقيقة في مئات النصوص الصادرة عنهم .

· تعميم نظرية (العداء بين العلم من جهة والدين من جهة) لتشمل الدين الإسلامي على الرغم أن الدين الإسلامي لم يقف موقف الكنيسة ضد الحياة والعلم حتى كان الإسلام سباقاً إلى تطبيق المنهج التجريبي ونشر العلوم .

· إنكار الآخرة وعدم العمل لها واليقين بان الحياة الدنيا هي المجال الوحيد .

لماذا يرفض الإسلام العلمانية

لأنها تغفل طبيعة الإنسان البشرية باعتبارها مكونة من نفس وروح فتهتم بمطالب جسمه ولا تلقي اعتبارا لأشواق روحة .

- لأنها نبتت في البيئة الغربية وفقا لظروفها التاريخية والاجتماعية والسياسية وتعتبر فكرا غريبا في بيئتنا الشرقية

- لأنها تفصل الدين عن الدولة فتفتح المجال للفردية والطبقية والعنصرية والمذهبية والقومية والحزبية والطائفية .

- لأنها تفسح المجال لانتشار الإلحاد وعدم الانتماء والاغتراب والتفسخ والفساد والانحلال.

لأنها تجعلنا نفكر بعقلية الغرب ، فلا ندين العلاقات الحرة بين الجنسين وندوس على أخلاقيات المجتمع ونفتح الأبواب على مصراعيها للممارسات الدنيئة ،وتبيح الربا وتعلي من قدر الفن للفن ،ويسعى كل إنسان لإسعاد نفسه ولو على حساب غيرة .

- لأنها تنقل إلينا أمراض المجتمع الغربي من إنكار الحساب في اليوم الآخر ومن ثم تسعى لان يعيش الإنسان حياة متقلبة منطلقة من قيد الوازع الديني ، مهيجة الغرائز الدنيوية كالطمع والمنفع وتنازع البقاء ويصبح صوت الضمير عدما .

- مع ظهور العلمانية يتم تكريس التعليم لدراسة ظواهر الحياة الخاضعة للتجريب والمشاهدة وتهمل أمور الغيب من إيمان با لله والبعث والثواب والعقاب ، وينشا بذلك مجتمعٍ غايته متاع الحياة وكل لهو رخيص .

الانتشار ومواقع النفوذ :

بدأت العلمانية في أوروبا وصار لها وجود سياسي مع ميلاد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م . وقد عمت أوروبا في القرن التاسع عشر وانتقلت لتشمل معظم دول العالم في السياسة والحكم في القرن العشرين بتأثير الاستعمار والتبشر .

يتضح مما سبق :

إن العلمانية دعوة إلى إقامة الحياة على أسس العلم الوضعي والعقل بعيدا عن الدين الذي يتم فصلة عن الدولة وحياة المجتمع وحبسه في ضمير الفرد ولا يصرح بالتعبير عنة إلا في أضيق الحدود . وعلى ذلك فأن الذي يؤمن بالعلمانية بديلا عن الدين ولا يقبل تحكيم الشرعية الإسلامية .في كل جوانب الحياة ولا يحرم ما حرم الله يعتبر مرتدا ولا ينتمي إلى الإسلام .

والواجب إقامة الحجة علية حتى واستتابته حتى يدخل في حظيرة الإسلام وإلا جرت علية أحكام المرتدين المارقين في الحياة وبعد الوفاة .

المبحث الرابع

تدمير وثن القوميين [*]

بما أن النظام النصيري البعثي يدعو لفكر القومية العربية ، لذا نضع بين أيـديكم هـذا التعريف بالقومية العربية .

المقدمة

" وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " ، هكذا قال النبي صـلى الله عليـه وسلم وهو يحطم أوثان الجاهلية حول الكعبة .. وها نحن أولاء نقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نستعين بالله على الإجهاز على البقية الباقية ـــ إن كان هناك بقية ـــ من ذلك الوثن ، الذي طالما عبده الملأ من الناس وألّهوه ، ذلك المسمى : بالقومية العربية .

وما دفاع بعض عبدة القومية عن دينهم هذا ، ومنافحتهم عنه ، إلا كمثل الغريق يمسك بالقشة مخافة الغرق السحيق ، ولقد أضحت القومية ومن يعبدونها جيفاً نتنة ، قد تعفنت واهترأت تحت الطين والوحل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، منذ أن وضعها الرسـول عليـه الصلاة والسلام تحت قدمه الشريف حين قال في خطبة الوداع " وإن كل أمر من أمور الجاهليـة تحت قدمي موضوع " والعجب أن نرى من يأتي ويعمل على إخراجها من تحت الطين والوحل ، لِيُقَبلُها ويدثر بها جسده .

أما زال أولئك المسخاء يؤملون في ذلك الوثن المتهالك المسمى بالقومية بعد ما جرى ما جرى ؟..ما بالهم ينحطون إلى درك عفن ومستنقع أسن يمرغون فيه وجـوههم وصـدورهم ، ثم يخرجون علينا ويدّعون النظافة والنصاعة .. عجباً لهم وأف ثم تف ، بيد أن أعجب العجب هـو ترك العجب من العجب ، ومن ثم لنقرأ معاً هذه الدراسة .

المدخل

مازال في عالمنا العربي من يريد أن يجعل الآصرة التي يجتمع عليها الناس في العالم العربي ، هي القومية العربية ، مازالوا كذلك رغم كل تلك المآسي التي أردت العرب إلى الحضيض بـين الأمم .. مازالت المساجلات على صفحات المجلات والجرائد ، وبين دفوف الكتب تناقش ، هل هي عروبة أم إسلام ؟ رغم أن الفترة الزمنية التي نجح فيها القوميون في امـتلاك أزقّـة الأمـور والحكم ، كانت ومازالت أسوأ الأحقاب الزمنية التي مرت ، وليس على الأمة العربية فحسب ،

---

[*] مصدر هذا البحث الشبكة العنكبوتية .

ولكن على كل الأمة الإسلامية فكم من الهزائم مُنِيَ بها العرب وكم من عداوات وأحقاد فيما بينهم لازالت إلى الآن تطحن الشعوب العربية المسلمة طحنا .

ما ذلك إلا جرّاء لمخالفة نص الرسول عليه الصلاة والسلام الذي يقول : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى) وقوله : (دعوها فإنها منتنة) بعد ما سمّاها جاهلية .

حال العرب قبل الإسلام

وقبل الكلام عن القومية الجديدة ومنشأها ومصابها التي جناها الناس من خلفها . يجدر بنا إلقاء نظرة سريعة على حال العرب قبل الإسلام ، لنرى كيف أحيا الإسلام أمة العرب من عدم وبالتالي فلا حياة لها إلا به ؟

فبعد أن بعد العرب عن ملة إبراهيم ــ عليه السلام ــ وبعد أن أوحى الشيطان لزعيم لهم هو عمرو بن لحيّ ، بعبادة الأصنام كان من أمر فرقتهم واختلافهم وقتالهم بعضهم بعضا ما يذهل العقل ، فهم ــ على قتالهم ــ كانت حروبهم بينهم تدوم أعواماً عديدة ، فحرب البسوس بين بني بكر وبين مرة دامت أربعين سنة متوالية ، وحرب داحس والغبراء دامت هذا العدد من السنين ، والأسباب من التفاهة بمكان والحرب التي كانت بين الأوس والخزرج والتي دامت السنين الطوال ، وحرب امرئ القيس ضد قتلة أبيه ...الخ .
وذكر ذلك يطول ويطول .

إذن فالتشرذم والتنافر والتقاتل كان سمة بارزة أدت إلى جعل الأمة العربية أمة لا يأبه بها العجم من الفرس والروم ، بل إن هذا الوضع جعل كثيراً من القبائل العربية التي على تخوم فارس تنضوي تحت لواء فارس ، وكذلك الأمر فالقبائل التي كانت على تخوم الروم والت الروم ، واليمن وما فيه من القبائل كان متقلب بين الحبش والفرس .

فالعرب فيما بينهم كقبائل ليس بينهم إلا السيف والدم بينما على غيرهم فهم إما تبع للفرس أو للروم أو للحبش . وليس لهم أي كيان سياسي أو عسكري يخافه الروم أو الفرس ــ إلا بعض الحروب القليلة مثل يوم ذي قار .. ولم يكن وضعهم الاجتماعي أحسن حالاً من الوضع السياسي والعسكري ، فكان وضع المرأة المتردي ، ووأد البنات ، وفوق ذلك وتحته عبادة الأصنام وما تخلفه من أدواء . وغيرها من الصفات التي محاها الإسلام ورفضها . فحثهم على الاعتصام والاجتماع وكان ذلك حتى قوضوا دولة الفرس والروم والقضاء على كل الصفات المذمومة ليشير بوضوح ويدل دلالة جازمة على عظمة هذا الدين .

نعم كانت هناك بعض الصفات المحمودة كالنخوة والشجاعة والكرم والمروءة ، ولكنها كانت كقطرة خير في بحر من أمواج الشر المتلاطمة .

هذه هي حالة العرب قبل الإسلام ، لا تنظيم سياسي ولا اجتماعي ولا قوة اقتصادية ولا قوة عسكرية ولا شئ من الأمور التي تخيف منهم الأمم ، فكانوا في ذيلها . وهذا لا يماري فيه أحد ولا يستطيع إثبات عكسه .

الإسلام

ثم جاء الإسلام فجعل من العرب قوة مرهوبة الجانب ، قوضت ملك قيصر وملك كسرى ، وليس أدلّ على ذلك من قول أحد الخلفاء لسحابة فوقه : " أذهبي حيث شئت فسوف يأتيني خراجك " . ثم انتشر الإسلام فيه أفواجاً فلم يفُضّل عربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح .

المؤامرة

حاول الغرب الصليبي تقويض الدولة الإسلامية عن طريق الحروب العسكرية ، فيما سمي بالحروب الصليبية ، ولكن كلها تحطمت على صخرة الإسلام القوية ، وكان لصلاح الدين الأيوبي الكردي المسلم دور عظيم في تحطيم تلك الحملات .

وأيقن مفكروا الغرب الصليبي أنه لا سبيل إلى البلاد الإسلامية والإسلام حي ينبض في عروقهم ، فبدئوا يشنون مع الحروب الاستعمارية حروباً من نوع آخر ، تستهدف هدم الإسلام في قلوب المسلمين ، فبدأ ما عرف بالاستشراق الذي كان في حقيقته عبارة عن شبكة للجاسوسية تنقل للدولة الاستعمارية الحديثة أمثل الطرق للسيطرة على بلاد المسلمين ، وتهدم دينهم بعد أن كانوا يدفعون الجزية لمدة قرون عديدة للخاقان التركي المسلم .

وعمل المستشرقون كخبراء ـ للحكومات الغربية ـ بشؤون الشرق الإسلامي ، وسيطر الغرب في القرن التاسع عشر على البلاد الإسلامية ، ولكن وجد أن الإسلام ما يزال يحرك الشعوب ، فأوحي إلى من أوحي إليه بالقومية .

أول ظهور القومية

إن أول ما ظهرت دعوى القومية في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم صارت لا يؤبه بها هناك ، لأنها ترمز إلى التخلف والرجعية عندهم ، ولكن ابتلي بها العالم العربي والأمة الإسلامية .

ولكن من الذي دعى للقومية العربية ؟ ولماذا ؟

كما ذكرنا أن القومية العربية فكرة أوروبية المنشأ . أما الذين قاموا على نقلها ونـــشرها في المنطقة العربية فهم النصارى ، فالفكرة أوروبية والتنفيذ صليبي .

أما الأهداف التي من أجلها ظهرت دعوى القومية فهي : طرد تركيا ــ دولة الخلافة ــ من المنطقة ، وتفريغ المنطقة والعالم الإسلامي من دينه بإحلال العروبة مكان الدين ، وبالتالي يمكن أن يدخل مكانه أي دين أو فكر جديد في المنطقة ، وهذا ما حدث .

أما كون النصارى هم الذين بدأوا بالدعوة لهذه الفكرة ، وكانوا هم زعماء القوميين في المنطقة ، فهذا واضح جداً كما أشار إليه معرّب كتاب " لعبة الأمم " . من أن أكثر من تـــسعين بالمائة من قادة حركة القومية العربية هم خريجو الجامعة الأمريكية في بيروت ، ويشير كـــذلك إلى أسماء زعماء القومية العربية وكلهم من النصارى ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر :

ميشيل عفلق زعيم حزب البعث العربي الاشتراكي ، وأنطون سعادة زعـــيم القـــوميين السوريين ، وجورج حبش زعيم القوميين العرب ، وقسطنطين زريق وغيرهم .

كيف بدأت الدعوة إلى القومية ؟

بدأت الدعوة للقومية العربية بجمعية الآداب والفنون سنة (١٨٤٧) وأسسها إبـــراهيم اليازجي وبطرس البستاني ، وهما من النصارى ، ثم تحول اسمها إلى الجمعية العلمية السورية ســـنة (١٨٦٨) وكانت تدعو العرب إلى الانفصال عن تركيا ، وطالما علمونا أشعار إبراهيم النـــازجي في المدارس وحتى الآن مازالت تدرس إذ يقول :

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب لقد طمى السيل حتى غاصت الركب

أقداركم في عيون الترك نازلـــة وحقكم بين أيدي الترك منتهـــب

ويقول إدورد عطية ــ أحد دعاة القومية : " كان المسيحيون يكرهون السيادة التركية ويتطلعون نحو التحرر " .

وجاء في كتاب " المجتمع العربي " الذي ألفه مجموعة مـــن الأســـاتذة في كليـــة الآداب بالجامعة اللبنانية :" إن أول حركة ذات صبغة عربية قامت في العالم العربي صد الحكم التركـــي ، واتخذت العروبة أساساً وهدفاً ، كانت جمعية سرية يتزعمها مجموعة من الـــشباب المـــسيحي في بيروت وتهدف إلى التفرقة بين العرب والأتراك ، والذي أوحى بفكرة تأسيس القومية رجل يسمى (إلياس جبّالين) من بلدة دوك مكايل ، وكان أستاذاً للغة الفرنسية في الجامعة الأمريكية ، وكان من بين الطلاب إبراهيم اليازجي ويعقوب فرهود وشاهين مكاريوس ، وكان الأســـتاذ معجبـــاً بالثورة الفرنسية .

أما أنها غربية التخطيط فيقول أستاذهم فيليب حتي ـ وهو معروف عندهم أنه مؤرخ الأجيال الذي مجده القوميون ـ يقول :" كان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج الفكري الغربي أن تولدت فكرة القومية ، واستمدت وحيها من أكثر النظريات السياسية الأمريكية ، بخلاف القومية التركية التي جاءت متأخرة عن القومية العربية ، واستمدت وحيها من الثورة الفرنسية " .

ويقول حتّي " لقد كان ظهور مبادئ القومية العربية في العقد السابع من القرن التاسع عشر على يد رجال الفكر الثوريين ، وأغلبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا في المدارس الأمريكية في بلادهم ، ومما لا ريب فيه أن القومية بضاعة غربية استوردها العالم بما فيه الشرق العربي من أوربا " أما عن التنظيم الدقيق للقومية فكان أول من اهتم به " نجيب عاذوري " النصراني في هذا القرن وكوّن جمعية " عقيدة الوطن العربي " في باريس وألّف كتاباً سماه " يقظة الأمة العربية " وفي سنة (١٩٠٧) أصدرت جريدة الاستقلال العربي .

يقول ساطع الحصري :" إن القومية العربية بدأت بنجيب عاذوري الذي يضع آماله العربية السورية في فرنسا أولاً وفي بريطانيا ثانياً " .

ثم كان بعد ذلك مؤتمر باريس الذي عقده نجيب عاذوري ، واتفق المؤرخون على اعتباره أساس القومية الحديثة فيقول عنه إميل صوصائيل :" إنه كان ـ أي المؤتمر ـ خالياً من المطالبة بالاستقلال حتى لا نحرج بعض الدول الأوروبية التي كانت تشجع الدول العربية وتمدها بالأموال ، وقد صرح الزهراوي ـ رئيس المؤتمر ـ لمراسل جريدة فرنسية : إنه ليس للمؤتمر علاقة بولايات العرب غير العثمانية ـ أي الشمال الأفريقي ـ وأشاد فيه بالمدنية الأوروبية ووزارة الخارجية الفرنسية " .

دين جديد

أما أنها دين جديد يريد القوميون أن يحلوه محل الإسلام ، فذلك واضح جداً في كتاباتهم ، ومن أقوالهم ، ومنهم من يصرح بذلك دون مواربة .

فيقول عمر فاخوري في كتابة كيف ينهض العرب : " لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العروبة مبدأ يغار عليه العربي كما يغار المسلم على قرآنه " .

وفي هذا الشأن يقول لورنس أيضاً :" وأخذت أفكر طوال الطريق في سوريا وفي الحج وأتساءل : هل تتغلب القومية ذات يوم على الاعتقاد الديني ؟ وبمعنى أصح هل تحل المثل العليا السياسية محل الوحي والإلهام ؟ وتستبدل سوريا بمثلها الأعلى الديني مثلها الأعلى الوطني ؟ هذا ما كان يجول في خاطري طول الطريق " .

ويقول جُبّ ــ المستشرق المعروف ــ وبصراحة تامة " وقد كان من أهم مظاهر فَرْنَجَة العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة والتي يشغلها المسلمون الآن ، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا ومصر واندونيسيا والعراق وفارس ، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوربا ، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دوراً مهماً في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها " ومن هنا نرى أن مساعدة حكومات الاحتلال الغربية الحكومات الوطنية ــ في الشرق الإسلامي والعربي خاصة ــ في كل المشاريع التي من شأنها تقوية الشعوبية فيها ، وعمل الحدود بين البلاد ، وإبراز تاريخ هذه البلاد ما قبل الإسلام ، وتدريسه للطلاب والتفاخر بالحضارات القديمة المصرية والأشورية وغيرها ، وجعل الاختلاف حتى في الأشياء البسيطة كغطاء الرأس والزي القومي وكل ذلك يعمق فكرة القومية في نفوس الناس .

ويستمر القوميون في الدعوة لأن تحل العروبة محل الإسلام ، فيكتب بعض القوميون الذين يتسمون بأسماء المسلمين ، فيقول محمود تيمور في مجلة " العالم العربي " عدد (١٧١) : " وأن كُتّاب العرب في أعناقهم أمانة بأن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة ــ القومية العربية ــ يزكونها بأقلامهم " .

ويقول في هذا الصدد أيضاً علي ناصر الدين في كتابه " قضية العرب " : " العروبة نفسها دين لنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من المسيحيين والمسلمين ، ولئن كان لكل عهد نبوته المقدسة فإن القومية العربية هي نبوة هذا العصر " . ويقول في مجلة العربي عدد (٢) يناير (١٩٥٩) : " القومية العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزلة وحدة الله من قلوب المسلمين " .

ويزداد التبجح والكفر في قول إبراهيم خلاص ــ البعثي السوري ــ في مجلة الجيش السوري في (١٩٦٧/٤/٢٥) أي قبل الهزيمة أو النكسة بشهر ونصف تقريباً فيقول : " والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي ، الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع ورأس المال والمتخمين وكل القيم ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ " . تعالى الله عما يقول علواً كبيرا .

فها هي أقوال وكتابات القوميين ومن أوحي لهم واضحة في أنهم يريدون أن تحل القومية محل الإسلام ، ومن هنا قامت كل الانقلابات العسكرية في المنطقة العربية منذ أول انقلاب ، تم فيها وكان في سوريا على يد حسني الزعيم ، ثم انقلاب مصر عام ١٩٥٢م ، ولقد كانت الشعارات التي ترفعها هذه الانقلابات هي القومية العربية .

وأشار مايلز كوبلاند في كتابه " لعبة الأمم " إلى أنهم قرروا أن يرفع جمال عبدالناصر في مصر شعار القومية العربية على الرغم ـــ على حد قولة ـــ من أن الشعار الإسلامي إذا رفعه جمال سيعطيه مساحة جماهيرية أكبر ، ولكنهم خافوا من انتشاره ، ولكبح التيار الإسلامي المتنامي أملوا عليه أن يرفع شعار القومية الذي ضرب به الإسلام ضربة كبيرة .

و ها هي الايكونمست البريطانية تقول في مقال عام (١٩٦٢) عنوانه " الإسـلام ضـد القومية " :

" لقد وضع العرب منذ الحرب العالمية الأولى القومية في المقـام الأول عنـدما حـاربوا الأتراك إلى جانب الانجليز من أجل التحرر ، باستثناء القلة الهزيلة من الإخوان المسلمين ، فليس هناك في العالم العربي اليوم أناس ذوي تفكير سياسي يضعون مجتمع الدولة الإسلامية فوق قوميتهم " .

وحتى الأحزاب التي تمخضت في أرض الواقع ، كل مؤسسيها وزعمائها من النصارى ، فظهرت أحزاب البعث العربي الأشتراكي ، وحزب القوميين العرب وحزب القوميين السوريين .

أما حزب القوميين العرب فخرج من الجامعة الأمريكية ، فلقد كان رئيس الجامعة دودج وقسطنطين زريق يشجعون الآراء القومية وسط الطلاب ويدفعون الطلاب دفعاً للقيام بمظاهرات ضد فرنسا باسم العروبة .

وربّى قسطنطين زريق تلميذاً قاد القوميون العرب ومازال ، هو جورج حبش .

أما القوميون السوريون ، فزعيمهم أنطون سعادة الذي قُتل ثم تولت أرملتـه القيـادة ، وبعدها جاء أسد أشقر ثم جورج عبدالمسيح .

وحزب البعث بشقيه ، صاحب الخيانات الكبيرة ، فزعيمه هو ميشيل عفلق الذي نـال من البابا وساماً رفيعاً ، وقال له البابا : " لقد فعلت ما لم تفعله جميع الجمعيات التبـشيرية طيلـة ثلاثة قرون " . وحينما عاد إلى العراق " الإله العائد " ومن المضحكات المبكيات ما حدث عندما هلك ، فقد أقيمت عليه صلاة الجنازة في كل أرجاء العراق ، وصلى أبناؤه عليه مع المـصلين ، ومن الجدير بالذكر أن صدام حسين الرئيس العراقي ـــ وهو تلميذ وفيّ للهالك عفلق يقول : إن جلسة واحدة مع الأستاذ ـــ كما كان يطلق عليه ـــ استلهم منها مدداً لمدة ستة شهور آتية .

وجدير بالذكر كذلك أن عفلق هو الذي أوعز للانجليز بتدبير الانقلاب الذي قام به أحمد حسن البكر ، وعين صداماً نائباً له ، ثم ها هو الآن ومنذ سنوات رئيساً للعراق يطحـن أهلـها طحناً ، وتعدىّ الأمر هذا الحد فاتجه إلى دول الخليج ليبتر منها الأموال تحت تهديد عـضلاته ، ثم

تدخله السافر في الكويت وتهديده المنطقة كلها بتدخل أجنبي ، خاصة وأن جيوش هذه الـدول جيوش لم تعد لقتال .

عقيدة القوميين

ولكن لماذا كانت العقيدة الشيوعية هي عقيدة كل الأحزاب ؟

كل الأحزاب القومية العربية ذات فكر اشتراكي ، وذلك لأن القومية كما ذكرنا أنفـاً جاءت لتقوض الإسلام وتخرجه من نفوس وقلوب المسلمين ، فكان لا بد مـن وجـود فكـرة عقائدية يعتنقها الناس والمجتمعات ، وذلك لأن المجتمعات لا تقبل الفراغ ، ولما كانت الرأسماليـة ليس لها توجه عقائدي ، كانت الاشتراكية هي الفكرة البديلة ، ومن ثم كانت كـل الأحـزاب القومية أحزاباً ذات توجه شيوعي ، فطالما تغنت إذاعة البعث في سوريا ليلاً ونهاراً :

آمنت بالبعث ربا لا شريك له وبالعروبة دينا ما له ثاني

فكانت الشيوعية كعقيدة هي عقيدة كل القوميين قال شاعرهم :

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

وكان شباب المقاومة الفلسطينية أيام العمل الفدائي ، الذين يتبعون جورج حبش ونايف حواتمة وغيرهم من القوميين يرددون :

إن تسأل عني فهذي قيمي أنا ماركسي لينيني أممي

وهكذا كان ديدن الشباب الذين فتنوا بالقومية العربية في الخمـسينات والـستينات ، يتفاخرون بأنهم قوميون عرب اشتراكيون تقدميون ، وكانت الأسماء المفضلة لهم هي : كاسترو ، وجيفارا ، وهوشي منّه ، وماو ، وغيرها من أسماء زعماء الاشتراكية ، بل أن بعـضهم لم يكـن يسمي نفسه إلا بأبي جهل وأبي لهب ، ولعل قصة وزير الصحة الأردني الذي كنى نفسه : بـأبي لهب معروفة .

ظلمات بعضها فوق بعض :

وكما اقتربت القومية العربية بالعداء للإسلام ، وكما هو واضح من كـلام منظـريهم ومفكريهم ، اقترنت القومية والقوميون بالعمالة للاستعمار وأعداء الأمة ، وإذا ذهبنا نـستعرض خيانات القوميين وعمالاتهم التي أظهرها الله على ألسنتهم وألسنة الذين كانوا يعملون لحسابهم ، لطال المقام وطال ولكن نذكر منها طرفاً للتدليل والاستشهاد على أن شعار القوميين المرفوع ما هو إلا دهان باطنه العمالة والخسة ، وظاهره التقدمية والثورية إلى آخر هذه الشعارات .

ففي سنة (١٩٣٩) طالبت عصبة التحرر الوطني التي أنشأها الـشيوعيون في فلـسطين بجلاء الإنجليز ، وتشكيل حكومة مشتركة بين اليهود والعرب ، وفي حـرب (١٩٤٨) تحـول

أعضاء عصبة التحرر الوطني إلى قادة عصابات مسلحة ، يذبحون الشعب الفلسطيني ، وكان في هذه العصبة توفيق طوبي وإبراهيم بكر المحامي ، وفؤاد نصار في يافا .

أما سقوط فلسطين وإعلان دولة اليهود فقد كان للقوميين العرب دور بارز في ذلك .. من ذلك :

ــ انسحاب فوزي القاوقجي بجيش الانقاذ بعد معارك ناجحة ضد اليهود مما أدى إلى نتائج سيئة وسقوط المدن الفلسطينية تباعاً .

ــ محاكمة القائد العراقي عمر علي محاكمة عسكرية بعد عودته إلى العراق بعد أن قاوم اليهود وأحدث فيهم مقتلة عظيمة ، وكانت التهمة هي التمرد على الأوامر .

ــ ثم جاءت اتفاقيات الهدنة ، والاعتراف بدولة إسرائيل ، وكان في ذلك من العمالة والخيانة ما لا يخفى على أحد لآن :

١) الأسلحة الفاسدة للجيش المصري .

٢) اعتقال الإخوان من الجبهة وإرسالهم إلى معتقل الطور .

٣) حين كان بإمكان الجيش العراقي أن يضرب اليهود رد القادة العراقيون " ما كوا أوامر إلى الجيش العراقي " .

٤) ثم اتفاقية رودس سنة (١٩٤٩) التي سلمت بموجبها أراضي فلسطين إلى اليهود . ولعل تصريح رئيس وزراء مصر في هذه الأيام بأنه لن يتناول في محادثته مع الأنجليز موضوع فلسطين لأنه رئيس وزراء مصر وليس رئيس وزراء فلسطين . أوضح دليل .

والدليل الأوضح الذي استبان بعد حرب (١٩٦٧) هو النكبة والنكسة .

فقد استيقظت الجماهير العربية في صباح الخامس من يونيو على هزيمة ما رأت البشرية لها نظيراً ، وما سجل التاريخ العسكري اندحاراً أغرب من هذا ، ثلاثة جيوش عربية ــ الجيش المصري والجيش السوري ــ ينحدرون في سويعات أمام الجيش اليهودي ، وتترك مساحات شاسعة من الأرض مازال أكثر من نصفها تحت الاحتلال اليهودي ، فعندما حوكم صلاح نصر ــ مدير المخابرات المصرية آنذاك ، سئل عن ملابسات الهزيمة ومسئولية جهاز المخابرات المصرية عن ذلك .ذكر أنهم كانوا على يقين أن الضربة الأولى ستكون للطيران يوم الاثنين الخامس من يونيو الساعة الخامسة صباحاً وقال : أبلغنا ذلك للقيادة .. وقال أيضاً : ودخلت عليه ــ يعني جمال عبد الناصر ــ فكنت أجده يقدم ويؤخر مقاطع من أغنية عبد الحليم " لأجل الربيع لأجل الحياة لأجل عشاق الحياة اضرب وقاتل " .

وقال جمال نفسه عند الاستقالة :" لقد كنا نعلم مائة في المائة أن الهجوم يوم الاثنين خمسة يونيو واتصل بي السفير الأمريكي الساعة السابعة مساء وقال لا تضرب ، واتصل بي السفير الروسي الساعة الثالثة فجراً وقال لا تضرب " . أليس عجيباً أن يطيع أوامر السفير الأمريكي على الرغم من أنه كان يقول قبل الحرب بأيام سنحارب إسرائيل ومن وراء إسرائيل ؟ وتستمر المهازل في المعركة ، فالراديو الإسرائيلي التقط برقية من عبدالناصر إلى الملك حسين قال فيها " أسقطنا ثلثي طائرات العدو ، طائراتنا فوق تل أبيب ، شد حيلك يا جلالة الملك ـ التوقيع سلمى " سلمى كان أسم عبدالناصر في الشفرة . فكانت أسلحة الجيش الأردني غنيمة لليهود ، كما كانت أسلحة الجيش المصري الذي جاءه الأمر بالانسحاب بعد إلقاء السلاح .. وغنم اليهود في ذلك أكثر من ٨٠٠ دبابة لم تسر إلا من مخازن السلاح إلى سيناء ، وعرضها اليهود في يافا على العرب ، ثم باعوا أكثر من ٤٠٠ دبابة لرومانيا .

والسؤال لماذا لا ينسحب الجيش بأسلحته ؟

ويذكر أكرم الحوراني ـ وهو من منظري حزب البعث ـ في كتابه أن جمال عبدالناصر قال له : مطلوب منا تسليم الضفة والقطاع ، وعندما رأى علامات الذهول في وجهه قال : لا بد أن نسلم الضفة والقطاع . وكان ذلك أيام الوحدة بين مصر وسوريا والتي انتهت بمأساة لا تخفى على أحد .

والكلام لا يحتاج إلى أي تعليق .

أما عن الخيانة البعثية السورية النصيرية فحدث ولا حرج ، ويذكر سعد جمعة ـ وكان رئيس وزراء الأردن في ذلك الوقت ـ في كتابة " المؤامرة ومعركة المصير " فقد طلبت الأردن من القيادة القطرية في سوريا الغطاء الجوي ـ كما كان متفقاً عليه ـ فاستلهموهم ساعة ساعة ثم راجعوهم بعد ساعة فاستلهموهم ساعة أخرى ، وكما يقول سعد جمعة : ومازلنا ننتظر الرد إلى الآن . ثم يقول إضافة إلى ذلك " ثم علمنا النبأ اليقين " أن إسرائيل أرسلت إلى سفير دولة كبرى في دمشق ـ أمريكا ـ تقول فيها إن إسرائيل تعطف على التجربة الاشتراكية العلوية فإذا التزمت سوريا الصمت فإن إسرائيل لا تمسها ، وأرسل السفير البرقية إلى القيادة القطرية فوافقت على الفور " .

فكان نتيجة ذلك أن توجهت الألوية اليهودية لاحتلال القدس والضفة الغربية ، ثم بعد ذلك استدارت إلى الجولان واحتلتها كذلك .

ويقول تشرشل الحفيد في كتابه :" حرب الأيام الست " :" في الوقت الذي كانت المدفعية السورية تلقي آلاف الأطنان من المتفجرات على الأعشاش الفارغة والقش اليابس ،

كانت جرافات البلدوزر الإسرائيلية تشق طريقها صاعدة إلى الجولان ، وقد حصل أن تعطل جنزير إحدى الدبابات فوجه قائد الدبابة مدفعها نحو الدبابات الصاعدة فدمّر ست دبابات إسرائيلية ، مما أعاق تقدم الجيش الإسرائيلي في هذا المحور ثماني ساعات " .

والأدهى من ذلك أن سفير سوريا في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة بأيدي اليهود ، بينما السفير اليهودي ينكر ذلك ويقول : لا لم ندخل القنيطرة بعد .

فهذه الكوارث إنما جرها القوميون العرب على العرب والمسلمين ، بعمالتهم التي أظهرها الله على ألسنتهم وألسنة أسيادهم .

ومازال القوميون ينقلون الأمة من سيئ إلى أسوأ ، ومن تشرذم إلى تشرذم وانحطاط أكثر بالبعث العلوي يحشد القوات أكثر من مرة على حدود الأردن ، وتنسحب بعد أن يأخذ من العرب ما يريد من أموال .

البعث العربي انشق فأصبح بعثين . البعث التكريتي في العراق والبعث العلوي في سوريا وبينهما ما لا يخفى على أحد من نزاع وشقاق وقد يصل الأمر بينهما إلى حد القتال ، مع أن مؤسس الحزب ــ كما ذكرنا ــ هو ميشيل عفلق النصراني .

جرائم القوميين :

أما عمليات الإبادة والقتل التي قام بها القوميون ضد القوميون فلا يمكن سردها كاملة ، وسنكتفي بطرف منها .

قبل نكبة يونيو (١٩٦٧) كان النشاط الفدائي قد بدأ ولما كان أول بيان للمنظمة قد استهل بالقول " إتكالاً على الله وإيماناً منا بواجب الجهاد المقدس " . فإن ذلك كان كفيلاً بأن تضيق أنظمة دول المواجهة مع إسرائيل على الفدائيين ، وراحت تطاردهم وتعتقلهم ، لأنهم إخوان مسلمون ــ كما زعم بقض الحكام القوميون ــ ولأن هذه العمليات ستكفلهم مواجهة مع العدو الإسرائيلي وهم ليسوا مستعدين لها ولا يريدونها ، أما بعد النكسة فقد اضطرت هذه الدول أن تسمح للفدائيين بعمل قواعد لهم في بعض هذه البلدان ومن أجل ألا يتجاوز العمل الفدائي الهدف المطلوب ، سارعوا إلى تأسيس ودعم منظمات مشبوهة ، فأسس حزب البعث النصيري السوري بعد النكسة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فزعيمها " جورج حبش " وأسس حزب البعث العراقي سنة (١٩٦٩) منظمة الصاعقة ، وأسس الشيوعيون منظمة قوات الأنصار ومنظمة فلسطين التي أسسها الناصريون ثم بعد ذلك توترت العلاقة بين هذه المنظمات ــ فبعد أن قام القوميون أنصار جورج حبش وغيره برفع شعارات مثل " عمان هانوي العرب " و " كل السلطة للمقاومة " و " تحرير فلسطين يبدأ بإسقاط الحكم الرجعي في عمان " وتحرش شباب

المنظمات الفلسطينية الرهيبة فيما سمّي " بمذابح أيلول الأسود " فارتكبت أبشع أنـواع القتـل والإبادة للفلسطينيين وأولهم القوميون على يد الجيش الأردني في مخيمات عمان وجرش وإربـد ، حتى فاق عدد القتلى من الجانبين عدد قتلى حرب (١٩٦٧) . وقال حبش كلمته المـشهورة :" لقد حاربت النظام الأردني بمنظمة التحرير " ولا تكاد تنتهي المأساة حتى يكتشف أن عبدالناصـر هو الذي أعطى الضوء الأخضر للسلطات الأردنية للقيام بما قامت به ، ولعل أحد أسباب ذلـك أن المنظمات الفلسطينية كانت قد خرجت في مظاهرات عارمة تندد بجمال عبدالناصر وسياساته بعد قبوله مبادرة روجرز في يوليو (١٩٧٠) .

وبعد أن انتقلت المقاومة إلى لبنان وبدأت الحرب الأهلية في لبنان بحادث الأتـوبيس في " عين الرمانة " في (١٩٧٥/٧/٣م) . ووجد الفلسطينيون أنفسهم طرفاً في الحـرب ، وبعـد أن دحرت القوات الفلسطينية والقوات اللبنانية الوطنية الكتائبيين وحلفاءهم الموارنة تدخل الجـيش السوري بقوات قوامها (٣٠،٠٠٠) ألف جندي في (١٩٧٦/٦/٥م) ودحر القوات المشتركة ــ الفلسطينية واللبنانية ــ بعد أن تخلى كمال جنبلاط عن الفلسطينيين ووقف الشيعة إلى جانـب القوات النصيرية ، وكانت بعد ذلك مذبحة تل الزعتر (١٩٧٦/٨/١٤م) . وانطلـق الموارنـة كالوحوش الكاسرة يذبحون النساء والشيوخ يبقرون الحوامل ، وينتهكون أعـراض الحرائـر ، وظهرت صورهم على شاشة التلفاز في معظم بلدان العالم وهم يشربون كؤوس الخمر احتفـالاً بالنصر على الفلسطينيين ، كل ذلك تحت مظلة الحماية السورية وقادتها القوميين .

ناهيك عن تدمير المباني والمنشآت الحيوية فدمر الجيش السوري مصفاة البتـرول الـتي كانت تمد سوريا نفسها بالمواد البترولية .

وإذا انتقلنا إلى اليمن فسوف نجد الرفاق الحمر في عدن ينقلب بعضهم علـى بعـض ، ويقاتل بعضهم بعضا حتى بلغ عدد القتلى (١٢) ألف قتيل وأكثر من (٣٠،٠٠٠) جريح ، مع أنهم جميعاً ينتمون لفكر واحد هو الفكر الشيوعي الممزوج بالقومية والتي أرسى دعائمها جـورج حبش من قبل .

وعلى صعيد المغرب العربي ، لا تزال مشكلة الصحراء قائمة بين المغرب التي تدعم جبهة البوليساريو التي تقاتل من أجل استقلال الصحراء ، وكم من الضحايا قتل من أجل ذلك .

ولو ذهبنا نسرد المخازي والمساوئ لطال المقام ونحسب أن في هذا كفاية للتدليل علـى فساد فكرة القومية من ناحية الواقع التي يعيشه القوميون .

موقف الإسلام من الدعوة إلى القومية :

من المعروف أن مبادئ الإسلام ومبادئ القوميين متباينة كلياً ، فالذي يعتبره القوميـــون مصدر القوة ، هو مصدر الضعف والخذلان عند الأمة الإسلامية ، فقوة المسلمين على اخـــتلاف أجناسهم ولغاتهم وأوطانهم هي في وحدتهم التي توجدها آصرة الدين وليس الوطن أو النسب أو اللغة أو غير ذلك من الأمور التي يلتف حولها القوميون ، وآصرة الدين هي التي كانـــت ســـبب قوتهم وعزتهم وسيادتهم للدنيا طوال قرون عديدة ، ولذا كان من غير المعقول ولا الممكن ـــ كما يقول الأستاذ المودودي ـــ أن توجد في الأمة الإسلامية قوميات على أساس الألوان والأجنـــاس واللغات والأوطان . كما لا يمكن أن توجد في داخل دولة دول كثيرة ومختلفة .

ومن كان مسلماً وأراد أن يبقى على إسلامه فلابد له أن يبطل في نفسه الـــشعور بـــأي أساس غير أساس الإسلام ، ويقطع العلاقات والروابط القائمة على أساس اللون والتراب .

ولا يمكن بقاء الرابطة الإسلامية مع نشوء الشعور بالقومية العنصرية ومن المغالطة الزعم بأن إحداها تساير الأخرى ، ولا تغايرها .

فعندما بدأ المسلمون في هذا الزمان يتغنون بالعنصرية والوطنية في كل قطر من أقطارهم متأثرين بالأوروبيين صار العربي يتغنى بالعروبة ويجعلها دينه ، والتركي يتيه إعجابــاُ بتركيتـــه ، ويحاول أن يصل يسبه إلى جنكيز خان ، وبدأ مسلمو الهند يفخرون بالانتساب إلى القومية الهندية بل منهم من يدعو للانقطاع عن ماء زمزم ، والاتصال بنهر جنجا ، وفيهم من تبعثهم أهـــواؤهم على اتخاذ (بهيم ـــ وأرجن ـــ ورام ها) أبطال الهندوس القدماء رموزاً قومية ، وليس هذا كله من هؤلاء السفهاء الراكبين رؤوسهم إلا لأنهم ما استطاعوا أن يملكوا من الحضارة مـــا يملكـــه الغرب .. وما تبينوا ما بينهما من الفرق الجذري ، لأن عيونهم كليلة عن المبادئ والحقائق ، فلا ينظرون إلا إلى السطح ، ويبهر عقولهم ما يجدونه بارزاً عليه من الفقاقيع والألوان الظاهرة ، ولا يعلمون أن الشيء الذي هو ماء الحياة للقومية وهو نفسه السم الزعاف للرابطة الإسلامية .

إنه يمكننا القول : إن الدعوة للقومية العربية أو غيرها من القوميات باطل ، ويكاد يكون معلوماً من دين الإسلام بالضرورة ، لأنها منكر ظاهر ، وجاهلية نكراء وكيد سافر للإسلام وأهله ، وذلك من وجوه أربعة :

أولاً ـــ أنها تفرّق بين المسلمين وتفضل المسلم العجمي عن المسلم العربي ، بل تفرّق بين العرب أنفسهم وتقسمهم أحزاباً ، فهي بذلك تخالف مقاصد الإسلام التي تدعو إلى الاجتمـــاع والوئام . قال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ثانياً ــ لأنها من أمر الجاهلية وتدعو إلى الجاهلية فهي تدعو إلى غير الإسلام ، وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن من نسب وبلد وجنس ومذهب أو طريقة فهو عودة للجاهلية ، والرسول صلى الله عليه وسلم حين كادت أن تنشب حرب بين الأوس والخزرج غضب وقال (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) وهو القائل (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من غضب على عصبية) .

ولا ريب أن كل ما يفعله دعاة القومية من أجل العصبية ــ وهذا يخالف الإسلام والدين ــ فهي تدعو إلى الجاهلية في كل شيء ، وهذا كله يخالف الإسلام الذي يدعو إلى التقوى والتواضع والتحاب في الله .

ثالثاً ــ القومية تؤدي إلى موالاة الكفار العرب وملاحدتهم من أبناء غير المسلمين واتخاذهم بطانة والاستنصار بهم على غير القوميين من المسلمين وغيرهم ، والقرآن يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) . والقوميون يدعون إلى التكتل حول القومية العربية فيوالون لأجل ذلك كل عربي من يهود ونصارى ومجوس ووثنيين وملاحدة وغيرهم تحت لواء القومية العربية ، ويقولون : إن نظامها لا يفرق بين عربي وعربي ، وإن تفرقت أديانهم . والله عز وجل يقول (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) وقال (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون)

بل إن دعاة القومية يقولون : أقصوا الدين عن القومية ، وافصلوا الدين عن الدولة ، والتفوا حول قوميتكم ، حتى تدركوا مصالحكم وتستردوا أمجادكم وكأن الإسلام وقف في طريقهم وحال بينهم وبين أمجادهم ، وهذا والله هو الجهل والتلبيس وعكس القضية .

رابعاً ــ لأن الدعوة للقومية تفضي بالمجتمع إلى رفض حكم القرآن الكريم لأن القوميين ــ غير المسلمين ــ لن يرضوا بتحكيم الشرع فيوجب هذا على زعماء القومية أن يتخذوا أحكاماً وضعية تخالف القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام .

وهذا هو الحاصل الآن فكل البلاد الإسلامية أستبدل الحكام فيها أحكام البشر بأحكام الشرع . وآخر هذا حدوثاً في اليمن عند الوحدة ونظرة واحدة في الدستور السابق والدستور الجديد كافية للدلالة على ذلك .

وعلى ظهر القومية تسلق من تسلق من غير المسلمين وتسلطوا على رقابهم فذبح من ذبح وقتل من قتل ومازال الأمر إلى اليوم على هذا النحو . وسيستمر إلى أن يُخلع هذا الرداء

المهترىء العفن ونقبره تحت أقدامنا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان .

وأخيراً فهذه دعوة إلى المسلمين في كل الأرض إلى نبذ قومياتهم ، والالتفاف حول الدين وحول رابطة الإسلام فهي الوحيدة التي ترفع شأنهم عرباً وعجماً كما رفعت شأن أسلافنا من قبل فسادوا الدنيا شرقاً وغرباً .

المبحث الخامس

حقيقة الشيوعية*

بما أن مؤسس الفكر الاشتراكي كارل ماركس هو نفسه مؤسس الفكر الشيوعي ، لـذا وضعنا هذا التعريف بالشيوعية حتى يعلم الناس مدى ضلال الفكر الاشتراكي الذي كانت من نتائجه الفكر الاشتراكي ، والاشتراكية هي أحد أهداف حزب البعث العربي الاشتراكي .

التعريف :

الشيوعية مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأن المادة هي أساس كل شيء ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي . ظهرت ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسدة في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧م بتخطيط من اليهود ، وتوسعت على حساب غيرها بالحديد والنار . وقد تضرر المسلمون منها كثيراً ، وهناك شعوب محيت بسببها من التاريخ ولكن الشيوعية أصبحت الآن في ذمة التاريخ ، بعد أن تخلى عنها الإتحاد السوفيتي ، الذي تفكك بدوره إلى دول مستقلة تخلت كلها عن الماركسية ، واعتبرها نظرية غير قابلة للتطبيق .

التأسيس وأبرز الشخصيات :

· وضعت أسسها الفكرية النظرية على يد كارل ماركس اليهـودي الألمـاني ١٨١٨-١٨٨٣م وهو حفيد الحاخام المعروف مردخاي ماركس ، وكارل ماركس شخص قصير النظـر متقلب المزاج حاقد على المجتمع ، مادي النزعة ، ومن مؤلفاته :

- البيان الشيوعي الذي صدر سنة ١٨٤٨م .
- رأس المال ظهر سنة ١٨٦٨م .

· ساعده في التنظير للمذهب فردريك إنجلز ١٨٢٠-١٨٩٥م وهـو صـديق كـارل ماركس الحميم وقد ساعده في نشره المذهب كما أنه ظل ينفق على ماركس وعائلته حتى مات ، ومن مؤلفاته :

- أصل الأسرة .
- الثنائية في الطبيعة .
- الاشتراكية الخرافية والاشتراكية العلمية .

---

* مصدر هذا البحث هو شبكة الإنترنت .

· لينين : واسمه الحقيقي : فلاديمير أليتش بوليانوف ، وهو قائد الثورة البلشفية الدامية في روسيا ١٩١٧م ودكتاتورها المرهوب ، وهو قاسي القلب ، مستبد برأيه ، حاقد على البشرية . ولد سنة ١٨٧٠م ، ومات سنة ١٩٢٤م ، وهناك دراسات تقول بأن لينين يهودي الأصل ، وكان يحمل اسماً يهودياً ، ثم تسمى باسمه الروسي الذي عرف به مثل تروتسكي في ذلك .

- ولينين هو الذي وضع التنفيذ وله كتب كثيرة وخطب ونشرات أهمها ما جمع في ما يسمى مجموعة المؤلفات الكبرى .

· ستالين : واسمه الحقيقي جوزيف فاديونوفتش زوجا شفلي ١٨٧٩-١٩٥٤م وهو سكرتير الحزب الشيوعي ورئيسه بعد لينين ، اشتهر بالقسوة والجبروت والطغيان والدكتاتورية وشدة الإصرار على رأيه في تصفية خصومه على القتل والنفي كما أثبتت تصرفاته أنه مستعد للتضحية بالشعب كله في سبيل شخصه . وقد ناقشته زوجته مرة فقتلها .

· تروتسكي : ولد سنة ١٨٧٩م واغتيل سنة ١٩٤٠م بتدبير من ستالين ، وهو يهودي واسمه الحقيقي بروشتاين . له مكانة هامة في الحزب وقد تولى الشؤون الخارجية بعد الثورة ثم أسندت إليه شؤون الحزب .. ثم فصل من الحزب بتهمة العمل ضد مصلحة الحزب ليخلو الجو الذي دبر اغتياله للخلاص منه نهائياً .

الأفكار والمعتقدات :

· إنكار وجود الله تعالى وكل الغيبيات والقول بأن المادة هي أساس كل شيء وشعارهم : نؤمن بثلاثة : ماركس ولينين وستالين ، ونكفر بثلاثة : الله والدين ، الملكية الخاصة ، عليهم من الله ما يستحقون .

· فسروا تاريخ البشرية بالصراع بين البرجوازية والبروليتاريا (الرأسماليين والفقراء) وينتهي هذا الصراع حسب زعمهم بدكتاتورية البروليتاريا .

· يحاربون الأديان ويتعتبرونها وسيلة لتخدير الشعوب وخادماً للرأسمالية والإمبريالية والاستغلال مستثنين من ذلك اليهودية لأن اليهود شعب مظلوم يحتاج إلى دينه ليستعيد حقوقه المغتصبة !!

· يحاربون الملكية الفردية ويقولون بشيوعية الأموال وإلغاء الوارثة .

· تتركز اهتماماتهم بكل ما يتعلق بالمادة وأساليب الإنتاج .

· إن كل تغيير في العالم في نظرهم إنما هو نتيجة حتمية لتغير وسائل الإنتاج وإن الفكر والحضارة والثقافة هي وليدة التطور الاقتصادي .

· يقولون بأن الأخلاق نسبية وهي انعكاس لآلة الإنتاج .

· يحكمون الشعوب بالحديد والنار . ولا مجال لإعمال الفكر ، والغاية عندهم تبرر الوسيلة .

· يعتقدون بأنه لا آخرة ولا عقاب ولا ثواب في غير الحياة الدنيا .

· يؤمنون بأزلية المادة وأن العوامل الاقتصادية هي المحرك الأول للأفراد والجماعات .

· يقولون بدكتاتورية الطبقة العاملة ويبشرون بالحكومة العالمية .

· تؤمن الشيوعية بالصراع والعنف وتسعى لإثارة الحقد والضغينة بين العمال وأصحاب الأعمال .

· الدولة هي الحزب والحزب هو الدولة .

· تكون المكتب السياسي الأول للثورة البلشفية من سبعة أشخاص كلهم يهود إلا واحداً وهذا يعكس مدى الارتباط بين الشيوعية واليهودية .

· تنكر الماركسية الروابط الأسرية وترى فيها دعامة للمجتمع البرجوازي وبالتالي لا بد من أن تحل محلها الفوضى الجنسية .

· لا يحجمون عن أي عمل مهما كانت بشاعته في سبيل غايتهم وهي أن يصبح العالم شيوعياً تحت سيطرقم . قال لينين : " إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء إنما الشيء الهام هو أن يصبح الربع الباقي شيوعياً " . وهذه القاعدة طبقوها في روسيا أيام الثورة وبعدها وكذلك في الصين وغيرها حيث أبيدت ملايين من البشر ، كما أن اكتساحهم لأفغانستان بعد أن اكتسحوا الجمهوريات الإسلامية الأخرى كبخارى وسمرقند وبلاد الشيشان والشركس ، إنما ينضوي تحت تلك القاعدة الإجرامية .

· يهدمون المساجد ويحولونها إلى دور ترفيه ومراكز للحزب ، ويمنعون المسلم إظهار شعائر دينه ، أما المصحف فهو جريمة يعاقب عليها بالسجن لمدة سنة كاملة .

· لقد كان توسعهم عل حساب المسلمين فكان أن احتلوا بلادهم وأفنوا شعوبهم وسرقوا ثرواتهم واعتدوا على حرمة دينهم ومقدساتهم .

· يعتمدون على الغدر والخيانة والاغتيالات لإزاحة الخصوم ولو كانوا من أعضاء الحزب.

الجذور الفكرية والعقائدية :

· لم تستطع الشيوعية إخفاء تواطئها مع اليهود وعملها لتحقيق أهدافهم فقد صدر منذ الأسبوع الأول للثورة قرار ذو شقين بحق اليهود :

- يعتبر عداء اليهود عداء للجنس السامي يعاقب عليه القانون .

- الاعتراف بحق اليهود في إنشاء وطن قومي في فلسطين .

· يصرح ماركس بأنه اتصل بفيلسوف الصهيونية وواضع أساسها النظري وهو موشيه هيس أستاذ هرتزل الزعيم الصهيوني الشهير .

- جد ماركس هو الحاخام اليهودي المشهور في الأوساط اليهودية مردخاي ماركس .

· تأثرت الماركسية إضافة إلى الفكر اليهودي بجملة من الأفكار والنظرات الإلحادية منها:

- مدرسة هيجل العقلية المثالية .
- مدرس كونت الحسية الوضعية .
- مدرسة فيورباخ في الفلسفة الإنسانية الطبيعية .
- مدرسة باكونين صاحب المذهب الفوضوي المتخبط .

الانتشار ومواقع النفوذ :

· حكمت الشيوعية عدة دول منها :

- الاتحاد السوفياتي ، الصين ، تشيكوسلوفاكيا ، المجر ، بلغاريا ،بولندا ، ألمانيا الشرقية ، رومانيا ، يوغسلافيا ، ألبانيا ، كوبا .

ومعلوم أن دخول الشيوعية إلى هذه الدول كان بالقوة والنار والتسلط الاستعماري .

ولذلك فإن جل شعوب هذه الدول أصبحت تتململ بعد أن عرفت الشيوعية على حقيقتها وأنها ليست الفردوس الذي صور لهم وبالتالي بدأت الانتفاضات والثورات تظهر هنا وهناك ، كما حدث في بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، كما أنك لا تكاد تجد دولتين شيوعيتين في وئام دائم .

· أما في العالم الإسلامي فقد استفاد الشيوعيون من جهل الحكام وحرصهم على تدعيم كراسيهم ولو على حساب الدين ، إذا اكتسحت الشيوعية أفغانستان وشردت شعبها المسلم كما تحكمت في بعض الدول الإسلامية الأخرى بواسطة عملائها .

· تقوم الدول الشيوعية بتوزيع ملايين الكتيبات والنشرات مجاناً في كافة أنحاء العالم داعية إلى مذهبها .

· أسست الشيوعية أحزاباً لها في كل الدول العربية والإسلامية تقريباً فنجد لها أحزاباً في مصر ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، والأردن ، تونس وغيرها .

· إنهم يؤمنون بالأممية ويسعون لتحقيق حلمهم بالحكومة العالمية التي يبشرون بها .

· انهيار الماركسية :

- انهارت الشيوعية في معاقلها بعد قرابة السبعين عاماً من قيام الحكم الشيوعي وبعد أربعين عاماً من تطبيق أفكارها في أوروبا الشرقية وأعلن كبار المسؤولين في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه أن الكثير من المبادئ الماركسية لم تعد صالحة للبقاء وليس بمقدورها أن تواجه مشاكل ومتطلبات العصر الأمر الذي تسبب في تخلف البلدان التي تطبق هذا النظام عن مثيلاتها الرأسمالية . وهكذا يتراجع دعاة الفكر المادي الشيوعي عن تطبيقه لعدم واقعيته وتخلفه عن متابعة التطور الصناعي والعلمي وتسببه في تدهور الوضع الاقتصادي وهدم العلاقات الاجتماعية وإشاعة البؤس والحرمان والظلم والفساد ومصادمة الفطرة ومصادرة الحريات ومحاربة الأديان . وقد تأكد بوضوح بعد التطبيق لهذه الفترة الطويلة أن من عيوب الماركسية أنها تمنع الملكية الفردية وتحاربها وتلغي الإرث الشرعي وهذا مخالف للفطرة وطبائع الأشياء ولا تعطي الحرية للفرد في العمل وناتج العمل ولا تقيم العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع وأن الشيوعي يعمل لتحقيق مصلحته ولو هدم مصالح الآخرين وينحصر خوفه في حدود رقابة السلطة وسوط القانون وأن الماركسية تهدم أساس المجتمع وهو الأسرة فتقضي بذلك على العلاقات الاجتماعية .

- اقتنع الجميع بأنها نظرية فاسدة يستحيل تطبيقها حيث تحمل في ذاتها بذور فنائها وقد ظهر لمن مارسوها عدم واقعيتها وعدم إمكانية تطبيقها ومن أكبر ناقدي الماركسية من الماركسيين أنفسهم الفيلسوف الأمريكي أريخ مزوم في كتابه المجتمع السليم ، ومن غير الماركسيين كارل بوبر صاحب كتاب المجتمع المفتوح ، وغيرهما ، يجيء جورباتشوف في كتابه البيروسترويكا أو إعادة البناء ليفضح عيوب تطبيق الشيوعية في الاتحاد السوفيتي .

وتبين بعد انهيارها أنها لم تفلح في القضاء على القوميات المتنافرة بل زادتها اشتعالاً ولم تسمح بقدر ولو ضئيل من الحرية بل عمدت دائماً إلى سياسة الظلم والقمع والنفي والقتل وحولت أتباعها إلى قطيع من البشر . وهكذا باءت جميع نبوءات كارل ماركس بالفشل وأصبح مصير النظرية إلى مزبلة التاريخ ، ثم انتهى الأمر بتفكك الاتحاد السوفيتي .

المبحث السادس

بيان كفر وفساد دستور الجمهورية العربية السورية الاشتراكية

وسوف نستعرض جزء من هذا الدستور الخبيث مع بيان الكفر والضلال الـذي فيـه ، حتى يعلم المسلمون أنهم يحكمون من قبل هذا النظام بالشرائع والقوانين الشركية والكفرية .

[المادة ١

١ــ الجمهورية العربية السورية دولة ديمقراطية شعبية واشتراكية ذات سيادة لا يجوز التنازل عن أي جزء من أرضيها ...]

لقد أقرت المادة الأولى بأن الجمهورية العربية السورية هي دولة ديمقراطية اشتراكية ، أي أنها ليست دولة إسلامية ، حيث وصف الدستور الجمهورية بمبدأين كافرين هما :

١ - مبدأ الديمقراطية الذي يقوم على مبدأ أن الحكم للشعب ، أي أن التشريع للشعب وليس لله ، بينما الشريعة الإسلامية قررت كما جاء في كتاب الله عز وجل بأن الحكم أي التشريع لله .

قال الله تبارك وتعالى : {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }يوسف ٤٠ .

جاء في التفسير الميسر : ... ما الحكم الحق إلا لله تعالى وحده، لا شريك لـه، أمـر ألا تنقادوا ولا تخضعوا لغيره، وأن تعبدوه وحده، وهذا هو الدين القيم الذي لا عوج فيه، ولكـن أكثر الناس يجهلون ذلك، فلا يعلمون حقيقته. اهـ

إن التشريع من خصائص الإلوهية ، ولا يجوز لغير الله التشريع ، فمن شرع مع الله ، فقد أدعى الإلوهية ، ومن أطاع المشرعين من دون الله ، يكون عمل بالكفر ، الذي يصير به صـاحبه كافر إذا لم يكن له عذر شرعي .

ثم أين هذه الديمقراطية المزعومة ، فنح لا نشاهد سوى القمع والاعتقال والظلم والفساد من هذا النظام النصيري البعثي .

٢ - أما المبدأ الثاني وهو الاشتراكية ، فهو مبدأ ضال لأن الاشتراكية قائمة على سـلب حق الناس في التملك الذي ضمنته لهم الشريعة الإسلامية ، حتى وإن كان هذا الـسلب لـبعض الحقوق الناس وإن قلت سواءاً كان في حق التملك أم في غير من الحقوق الاقتصادية التي تعدت عليا الاشتراكية بالظلم والعدوان .

[٢ـ القطر العربي السوري جزء من الوطن العربي.]

تقول الفقرة الثاني من المادة الأولى ، بأن القطر السوري جزء من الوطن العربي ، أي أن هذا الدستور الخبيث يريد فصل ما يعرف اليوم بسوريا عن العالم الإسلامي .

[٣ـ الشعب في القطر العربي السوري جزء من الأمة العربية يعمل ويناضل لتحقيق وحدتها الشاملة.]

تقول الفقرة الثالثة من المادة الأولى من هذا الدستور الخبيث ، بأن الشعب السوري جزء من الأمة العربية يناضل لتحقيق وحدتها ، وبهذا فإن الدستور يسعى لفصل المسلمين في سوريا عن المسلمين في العالم ، فهذا الدستور الخبيث يريد أن يجعل من المسلمين في سوريا أمة واحدة مع النصرى والزنادقة العرب ، وهذا مخالف لم نصت عليه الشريعة الإسلامية .

قال الله عز وجل : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون }الأنبياء٩٢

جاء في تفسير الجلالين حوا هذه الآية : (إن هذه) أي ملة الإسلام (أمتكم) دينكم أيها المخاطبون أي يجب أن تكونوا عليها (أمة واحدة) حال لازمة (وأنا ربكم فاعبدون) وحدون

[المادة ٢

١ـ نظام الحكم في القطر العربي السوري نظام جمهوري.]

هذا النظام الخبيث اعتاد على الكذب على الناس ، فعلى الرغم من أن نظام الحكم الجمهوري نظام خاطأ ، لأن الصواب أن يكون نظام الحكم خلافة راشدة على منهاج النبوة ، إلا أن هذا النظام قد جعل نظام الحكم وراثي ، ورثه الطاغية النصيري الهالك حافظ الأسد لأبنه بشار الأسد.

[٢ـ السيادة للشعب ويمارسها على الوجه المبين في الدستور.]

تقول هذه المادة بأن السيادة للشعب ، أي أن التشريع للشعب ، وهذا منافي للشريعة الإسلامية كما بينا سابقاً ، المشرع هو الله عز وجل ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن النظام النصيري البعثي قد نحى الشعب جانباً عن التشريع ، وجعل التشريع يتلاعب به ساسة الدولة وفق ما يتوافق مع مصالحهم الشخصية ، حيث اتضح ذلك جلياً ، عندما تم تغيير إحدى مواد الدستور بشكل سريع فيما يتعلق بالعمر المسموح به للشخص بان يتولى رئاسة الدولة ، وذلك بعد موت حافظ الأسد ، من أجل أن يتناسب مع عمر بشار الأسد الذي كان عمره يوم ذاك أقل من العمر المسموح به ، فتم تغيير تلك المادة على عجل ، وبعدها تولى بشار الأسد الحكم ، ومن هذا يتبين لنا أن الدستور مجرد لعبة بيد هذا النظام النصيري الخبيث .

[المادة ٣

١ـ دين رئيس الجمهورية الإسلام.]

كيف يدعى الدستور بأن دين رئيس الجمهورية الإسلام ، وقد حكمت سوريا من حافظ الاسد وابنه بشار لما يقرب من أربعين عاماً وما زالوا يحكمون سوريا ، وهما من أبناء الطائفة النصيرية (العلوية) الباطنية الكافرة التي تعتقد بإلوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

[٢ـ الفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع.]

تقول هذه المادة الخبيثة : بأن الفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع ، ومعنا هذا أنه هناك مصادر أخرى غير مصدر الشريعة الإسلامية ، وكما ذكرنا سابقاً بأن التشريع من خصائص الإلوهية ، وبذلك يكون الدستور قد أشرك مع الله غيره في التشريع ، وهذا مخالفة للشريعة الإسلامية ، فقد قررت الشريعة الإسلامية بأن الكتاب والسنة هما المصدر الوحيد للتشريع (أي الدستور) .

قال الله تبارك وتعالى : {مَا تَعْبُدُونَ من دُونه إلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا من سُلْطَان إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّه أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ }يوسف ٤٠ .

[المادة٧

يكون القسم الدستوري على الشكل التالي:

اقسم بالله العظيم أن أحافظ مخلصا على النظام الجمهوري الديمقراطي الشعبي وأن أحترم الدستور والقوانين وأن أرعى مصالح الشعب وسلامة الوطن وأن أعمل مخلصا أناضل لتحقيق أهداف الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية.]

لقد بلغت بهؤلاء الوقاحة بأن يقسموا بالله على معصيته ، حالهم كحال إبليس عليه لعنة الله ، فهم يريدون أن يقسموا بالله العظيم على أن يحافظوا على النظام الجمهوري الديمقراطي الذي يجعل التشريع حق للناس مع الله وكذلك السعي لتحقيق أهداف حزب البعث الكافر المتمثلة في أصنامه الثلاثة الوحدة والحرية والاشتراكية .

قال الله عز وجل ، فيما ينقله عن مقولة إبليس عليه لعنة الله : {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }ص٨٢

جاء في التفسير الميسر حول هذه الآية : قال إبليس: فبعزتك - يا رب - وعظمتك لأضلنَّ بني آدم أجمعين . اهـ

هكذا البعثيين وقحين كإبليس .

قال الله سبحانه وتعلى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ }الأنعام١١٢

جاء في التفسير الميسر حول هذه الآية : وكما ابتليناك -أيها الرسول- بأعدائك من المشركين ابتلينا جميع الأنبياء -عليهم السلام- بأعداء مِن مردة قومهم وأعداء من مردة الجن، يُلقي بعضهم إلى بعض القول الذي زيَّنوه بالباطل؛ ليغتر به سامعه، فيضل عن سبيل الله. ولو أراد ربك -جلَّ وعلا- لحال بينهم وبين تلك العداوة، ولكنه الابتلاء من الله، فدعهم وما يختلقون مِن كذب وزور. اهـ

[المادة ٨

حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب القائد في المجتمع والدولة ويقود جبهة وطنية تقدمية تعمل على توحيد طاقات جماهير الشعب ووضعها في خدمة أهداف الأمة العربية.]

أين مزاعم هذا الدستور الخبيث بأن الجمهورية ديمقراطية ، فالآن يقرر بأن حزب البعث هو المسيطر على الدولة ، ويزعم بأنه سيقودها نحو خدمة أهداف الأمة العربية ، ونحن لم نشاهد سوى السلب والنهب والقتل والدمار والخراب من النظام البعثي الكافر .

وسنكتفي بهذا القدر من مواد هذا الدستور الخبيث ، فلا داعي لأن نضيع وقتنا في تتبعه أكثر من ذلك ، فكفره وكذبه ودجله واضح .

الجزء الثاني
مجازر وجرائم النظام النصيري البعثي

محتوى الجزء الثاني من هذا الكتاب :

مقدمة الجزء الثاني
المجزرة الأولى : مجزرة مدينة حماه ١٩٨٢م
المجزرة الثانية : مجزرة سجن تدمر الشهيرة عام ١٩٨٠م .
تقرير منظمة العفو الدولية عن التعذيب في سجن تدمر العسكري .
من المجازر الكبرى التي ارتكبها النظام السوري بحق أبناء شعبه .
المجزرة الثالثة : مجزرة (جسر الشغور).
المجزرة الرابعة : مجزرة حماة الأولى التي نفذت في عام ١٩٨٠م وهي غير مجزرة حماة الكبرى التي نفذت في عام ١٩٨٢م .
المجزرة الخامسة : مجزرة حي المشارقة ــ حلب .
المجزرة السادسة : مجازر سجن تدمر .
المجزرة السابعة : ذبح أهل السنة من الفلسطينيين واللبنانيين في تل الزعتر عام ١٩٧٦م على يدي الطاغية حافظ الأسد .
بعض السجون والمعتقلات السورية التي أرتكب فيها النظام النصيري أبشع الجرائم .
تعذيب النساء في سورية .
النظام السوري يرمي شهدائه و جرحاه في الأودية اللبنانية .

مقدمة الجزء الثاني :

الحمد لله ولي المؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وبعد :

لقد كان لسيطرة النظام النصيري على الحكم في سوريا ، أثر تدميري هائل ألحقه هذا النظام النصيري بشعب سوريا ، حيث أرتكب النظام النصيري العديد من المجازر ضد الشعب السوري ، وسوف نقوم إن شاء الله بذكر بعض هذه المجازر في هذا الكتاب .

ولكن لماذا أرتكب النظام النصيري تلك المجازر ضد المسلمين في سوريا ؟ إن السبب يظهر بشكل واضح وجلي في قول الله عز وجل : {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} (٨) سورة البروج . وكذلك كان من أسباب هذه المجازر هي رغبة النظام النصيري في قمع كل من يحاول إيقاف هذا النظام النصيري عن الظلم والنهب .

نعم كان سبب هذه المجازر هو سيطرة هؤلاء الطغاة على الحكم ، قال الله تعالى : {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} (٢٠) سورة الكهف .

ولكني أبشر أخواني المستضعفين بقول الله تبارك وتعالى : {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} (٢٠) سورة الحشر ، وكذلك قول الله عز وجل : {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } (١١٠) سورة يوسف .

إن الذي سوف نذكره في هذا البحث هو فقط بعض المجازر التي أرتكبها النظام النصيري البعثي الحاقد .

نسأل الله عز وجل أن يرحم شهدائنا ، وأن ينتقم ممن ظلمهم ، وأن ينصر المسلمين ، ويعلي راية التوحيد ، إنه على كل شيئ قدير .

المجزرة الأولى : مجزرة مدينة حماه عام ١٩٨٢م

وقعت مجزرة حماة الكبرى طوال شهر شباط عام ١٩٨٢، حيث وجه إليها نظام الأسد كلاً من اللواء ١٤٢ من سرايا الدفاع، واللواء ٤٧ دبابات، واللواء ٢١ ميكانيكي، والفوج ٤١ إنزال جوي (قوات خاصة)، واللواء ١٣٨ سرايا الدفاع، فضلاً عن قوات القمع من مخابرات وأمن دولة وأمن سياسي، وفصائل حزبية مسلحة، وأعملت بالمدينة قصفاً وهدماً وحرقاً ورجماً وإبادة جماعية طوال الشهر المذكور، وحتى قتل فيها ما يزيد على ٣٠ ألفاً من سكانها .

[هذا هو نص التقرير الذي نشرته اللجنة السورية لحقوق الإنسان في الذكرى العشرين لمجزرة مدينة حماه (بتصرف يسير)] .

هل كانت السلطة مضطرة لارتكاب المجزرة و انتهاك حقوق الإنسان؟

منذ حدوث المجزرة ، ما زال السؤالان المطروحان على السلطة في سورية دون جواب شافٍ:

لماذا حدثت مجزرة حماة في شباط/ فبراير عام ١٩٨٢؟

وهل ما حصل فيها كان حفظاً للنظام أم انتهاكاً لحقوق الإنسان؟

نقلت مجلة الطليعة الصادرة في باريس بعد المجزرة تصريحاً لمسؤول رسمي سوري يعلل ما حدث في مجزرة حماة فقال: "إن حوالي ٢٠٠ مسلح نزلوا في ليل الثاني من شباط/ فبراير عام ١٩٨٢ واحتلوا المدينة، وصفّوا حوالي ٩٠ شخصاً من أتباع النظام، وسيطروا على المراكز الهامة، وأعلنوا العصيان المسلح، عند ذلك اضطرت السلطة السورية لاتخاذ قرار (بتنظيف) المدينة منهم، وإعادة الأمن إلى المدينة".

إزاء هذا التصريح يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: إذا أعلن مائتا شخص تمردهم على السلطة فلماذا إذن قتلت الدولة ثلاثين ألف إنسان؟ أليس هذا انتهاكاً صارخاً لحق الحياة؟ أليس هذا قراراً بمذبحة جماعية؟! ولماذا بهذه البساطة هدمت السلطات السورية النصيرية ثلث المدينة؟

لنفترض أن مائتي مسلح في مدينة تعداد سكانها يزيد على ربع مليون أعلنوا عصياناً مسلحاً، فهل يحق للحاكم أن يدمر المدينة على أهلها من النساء والأطفال، أو بعبارة أخرى: أن يحمل ربع مليون إنسان مسؤولية مائتين فقط؟!

ألم يكن بالإمكان أي حل آخر؟ غير قصف المدينة بالمدفعية ودكها براجمات الصواريخ؟!

أي حاكم في الدنيا ينتفض مثل هذه الانتفاضة ضد مائتي إنسان!؟ فبدل أن يلاحقهم أو يحاكمهم أو يفاوضهم، يضرب المدينة التي هم منها بالصواريخ والمدفعية والدبابات، فيقتل

الأطفال والنساء والشيوخ والمدنيين الآمنين، ويهدم المنازل على رؤوس ساكنيها؟ وتكون النتيجة ثلاثين ألف إنسان ما بين قتيل و"قتيل"، لأن النظام السوري اقتحم المستشفيات وأجهز على الجرحى فيها، ولم يفرق بين مدني أو مقاتل، بل لم يكلف عناصر الجيش والأمن أنفسهم عناء الاكتراث بمجرد السؤال: من نقتل، ولماذا؟ وما جرم الطفل الرضيع والمرأة والشيخ الطاعن في السن؟!

وجاء في تقرير طرف آخر محايد، هو منظمة العفو الدولية عن تصرفات الحكومة ما يلي:

"ويقول بعض المراقبين: إن الأحياء القديمة من المدينة ضربت بالقنابل من الجو لتسهيل دخول القوات العسكرية والدبابات خلال الطرق الضيقة، مثل حي (الحاضر) الذي محقت الدبابات بيوته خلال الأيام الأربعة الأولى من القتال. وفي ١٥ شباط/ فبراير بعد عدة أيام من قذف القنابل الشديد أعلن وزير دفاع النظام النصيري اللواء مصطفى طلاس أن الفتنة قد أُخمدت، غير أن المدينة بقيت محاصرة ومعزولة، واستمر التفتيش والاعتقال على نطاق واسع خلال الأسبوعين التاليين، وانتشرت أخبار متضاربة عن الفظائع التي ارتكبتها قوات الأمن، وقتل السكان الأبرياء بالجملة، وليس من السهل معرفة ما حدث على وجه التحديد، غير أن منظمة العفو الدولية قد سمعت عن إعدام جماعي لسبعين شخصاً خارج المستشفى المدني يوم ١٩ شباط/ فبراير، وأن سكان (الحاضر) لقوا حتفهم على أيدي سرايا الدفاع في نفس اليوم. وأن أوعية معبأة بغاز السيانيد قد ربطت بأنابيب من المطاط في مداخل المباني التي يظن أنها مساكن المتمردين. ثم فتحت فيها وقضت على جميع سكانها، وأن الناس جمعوا في المطار الحربي وملعب المدينة وفي الثكنات العسكرية وتركوا في العراء أياماً بدون مأوى ولا طعام.

إن أحداث القتل والإعدام المجاوزة للقانون التي أوردناها هنا هي مخالفة خطيرة للحق في الحياة، ذلك الحق المقدس الذي نص عليه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية (المادة ١٦): لكل إنسان الحق الطبيعي في الحياة، ويحمي القانون هذا الحق، ولا يجوز حرمان أي فرد من حياته بشكل تعسفي". (مقتطفات من التقرير الذي أرسلته منظمة العفو الدولية إلى الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٨٣)

أما أهل المدينة فهم أعلم بما حل بمدينتهم من كوارث وما لحق بأحيائها ومبانيها من دمار، وما لحق بمئات الأسر من مجازر أسفرت عن قتلها جميعاً بدم بارد لأنها من مدينة حماة.

إن القلم ليعجز عن تصوير البشاعة التي ارتكبت بها المجازر بحق نساء وأطفال رضع. ويهتز رعشة من وصف طريقة القتل التي صفي بها أفراد الأسرة الواحدة، الواحد تلو الآخر أمام أنظار بقية الأحياء: انقضوا على الوليد بيد أمه وجعلوه أشلاء .. أوبلوا بطن أمه المفجوعة

بالرصاص لكيلا تلد معارضاً، ثم اقتحمت رصاصاتهم رأس الجد العجوز وهو يتعوذ من هول ما يرى! ارتجف الفتية والفتيات الصغار وهم ينادون ماما، جدو، فجاءهم الرد رصاصات أردتهم صرعى. سقطت الأسرة في بركة من الدماء ما لبثت أن التهبت ناراً بعد نهب وسلب وتقطيع الأيدي وشرم الآذان للحصول على الحلي والمجوهرات. فهل كان الطفل الرضيع أو الجد العجوز أو الفتية والفتيات بل الأم الحامل من عداد المائتي مسلح المتمردين على السلطة والنظام؟!

لم يسلم متجر من السلب والنهب والتهديم، ولم تسلم المساجد من التدمير ولم تبق مئذنة شامخة في حماة في ذلك الشهر الحزين، بل إن كنائس حماة لم تسلم من التدمير. ثلث المدينة دُمر، من أجل تنظيف المدينة من ٢٠٠ متمرد؟!

اختفى من أهل حماة على أثر المجزرة أكثر من عشرة آلاف إنسان، مطلوب تقفي آثارهم ومعرفة مصيرهم بعد أكثر من عشرين عاماً من المجزرة الرهيبة، فهل هم من عداد المائتين، وأين هم، وما مصيرهم؟!

إن كل ما حدث في حماة عملية مدبرة، أثبتت المعلومات المدققة أن النظام النصيري كان صاحب المبادرة في افتعالها وتطوراتها تحقيقا لأهداف سياسية واضحة، واتبع في عملياته وأساليبه نهجاً لا إنسانياً، وخرق كل العهود الدولية التي التزم بها، وانتهك أبسط حقوق شعبه، ابتداءً من حق الحياة وانتهاءً بحقوق المواطنة، ولم يكن يدفعه تجاه مدينة حماة وأهلها إلا الحقد المبالغ فيه كونها كانت الأشد معارضة لنظامه.

وبتعامل النظام مع مواطنيه على أساس "إرهاب الدولة" تخلى عن التزاماته بالحفاظ على حياة المواطنين وأملاكهم وأعراضهم وشرفهم. انتهك حق الحياة المقدس الذي نصت عليه الشرائع السماوية والقوانين والأعراف الدولية.

ولم يستطع النظام أن يجد وسيلة أو حلاً يستطيع به أن يحقن الدماء، ويحل المشكلة القائمة بينه وبين خصومه سلمياً، ولو حصل هذا لأحرز نصراً أدبياً يسجل له، وليس كما هو واقع الآن: عداوات وكراهية متبادلة، وتحين لتصفية العداوات، ومحاولات مستميتة للتبرير والتسويق لما ارتكب بحق الآدميين الأبرياء العزل من أهل هذه المدينة الضحية.

إن اللجنة السورية لحقوق الإنسان، وبالرغم من انقضاء عقدين كاملين من الزمان على هذه المجزرة الأليمة، لتدعو الرئيس السوري ونظامه لكي ينأوا بأنفسهم عن النهج الدموي الخارق لكل القيم الإنسانية والعهود الدولية الذي سلكته السلطة في عهد الرئيس السابق حافظ الأسد وفي ظل نفوذ شقيقه رفعت الأسد، وتدعوهم إلى أن يحترموا حقوق الشعب السوري في الحياة

وفي حرية التعبير عن الرأي، وينأوا عن التفاخر بالقتل والسحل وانتهاك حقوق المواطنين السوريين.

وتدعو اللجنة النظام إلى فتح ملف تحقيق جاد حول ما جرى في حماة تشرف عليه جهات محايدة، تحاسب كل من ارتكب مخالفات بحق حياة المواطنين وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم، وتعيد الحقوق المغتصبة والمصادرة لأهلها.

وتدعو النظام إلى تسوية كل ما له علاقة بهذا الملف الأليم ابتداء من إطلاق سراح المعتقلين وبيان مصير المختفين من مدينة حماة، والسماح بعودة المهجرين من أهل المدينة الذين اضطروا لمغادرتها إلى جهات أخرى داخل البلد أو خارجه.

ثبت بانتهاكات حقوق الإنسان في مجزرة حماة :

لقد تميزت مجزرة حماة الكبرى بانتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان، تداخلت أشكالها ومحاورها.

ويكاد يجمع المراقبون على أن المجزرة التي كانت من أبشع أشكال العدوان على الإنسان في تاريخ سورية المعاصر، اشتملت على كل أشكال انتهاك حقوقه المعروفة. ويبقى أهم انتهاك حملته في طياتها العمل على هدم ما يتمتع به الإنسان من كرامة، وتشهد على ذلك المعاناة النفسية والمعنوية الصعبة التي عاني منها عشرات الآلاف من أبناء حماة طوال عقدين بعد المجزرة.

واللجنة السورية لحقوق الإنسان إذ تدعو إلى إصلاح ما تهدم بانتهاك حقوق الإنسان، وفي سبيل إحقاق الحق وجلب العدالة للضحايا، ومحاكمة المجرمين المتورطين في الإبادة الجماعية وارتكاب جرائم ضد الإنسانية، تُثبت فيما يلي أهم انتهاكات حقوق الإنسان في المجزرة:

أولاً: انتهاك حق الحياة

بلغ عدد ضحايا المجزرة حسب تقدير اللجنة السورية لحقوق الإنسان ما بين ٣٠ و٤٠ ألف إنسان، غالبيتهم العظمى من المدنيين .

ويصعب التأكد من العدد الكلي الدقيق للقتلى، نظراً لكبر عدد ضحايا المجازر ودفنهم في المقابر الجماعية، وصعوبة التعرف على جميع الضحايا، ولأن هناك ما بين ١٠ آلاف و١٥ ألف مدني اختفوا منذ وقوع المجزرة في عام ١٩٨٢، ولا يُعرف أفي الأحياء هم أم في الأموات.

وقد اتخذ انتهاك حق الإنسان في الحياة خلال مجزرة حماة أشكالاً مختلفة، نذكر منها:

١ - قتل الأفراد:

تواترت قصص قتل الأفراد طوال شهر كامل من المجزرة. ومعظم قصص القتل الفردي التي ثبتها الناجون في شهاداتهم وقعت في منازل المدنيين، إذ اعتادت قوات الحكومة اقتحام البيوت، وقتل من فيها، بعد محاولة النهب والاعتداء على العرض في كثير من الأحيان.

كما وردت قصص عن قتل أفراد تحت التعذيب، أو قتل فرد كمقدمة لقتل أسرته، أي لارتكاب مجزرة جماعية.

٢ - القتل الجماعي:

تعرضت كثير من الأسر لعملية قتل جماعي، سواء تحت القصف بالمدفعية الثقيلة أو في مجازر بالسلاح الخفيف. لكن أكثر المجازر الجماعية ترويعاً، ما كان يحدث في الساحات العامة، وفي المقابر. ولم تسلم من هذه المجازر حتى المستشفيات والمدارس، وكل مبنى حُول إلى معتقل في فترة المجزرة.

ويمكن القول إن مجزرة حماة كانت مجموعة من المجازر المتفرقة، التي أتت بمجملها في النهاية على نسبة تقترب من خُمس أبناء المدينة. ويروي أحد الناجين من مجزرة سريحين الجماعية، وهي واحدة من أبرز ما ارتُكب في تلك الآونة كيف سيق الناس إلى حتفهم في ١١ شاحنة وقد كُدسوا فوق بعضهم بعضاً. وجاء في شهادته "كنت ضمن أعداد كبيرة بازدحام شديد حتى كادت تتقطع أنفاسنا، وسيق بنا إلى سريحين، حيث أمرنا بالنزول فنزلنا، وكان أول ما رأينا مئات الأحذية المتناثرة على الأرض، وأدرك الجميع أنها تعني مقتل مئات المواطنين من أبناء بلدنا، وأننا على الموت مقبلون!.

فُتشنا بعد ذلك، وأُخذت منها الأموال القليلة التي معنا، وجُردنا من ساعاتنا، ثم أمرتنا عناصر السلطة بالتقدم نحو الخندق العميق الذي يمتد أمامنا إلى مسافة طويلة، وأمر قسم آخر منا بالنزول إلى خندق مجاور.

وعندما تقدمت إلى موقعي أمام الخندق، رأيت الجثث المتراكمة على بعضها البعض، يلطخها الدم الحار، وكان مشهداً رهيباً لم أستطع تحمله فأغمضت عيني، وتحاملت على نفسي خشية الوقوع على الأرض، وانطلق لساني يردد سراً في قلبي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وصرت أتذكر بعض آيات من كتاب الله عز وجل أصبر بها نفسي.

وحدث ما كان متوقعاً، وانهال علينا الرصاص الغزير، وهوى الجميع إلى الخنادق مضرجين بدمائهم. أما القسم الذي أُنزل إلى الخنادق فقد أُطلقت عليهم النار داخله".

ويضيف الراوي الذي نجا "كانت إصابتي خفيفة، وقدر الله لي أن أنجو بأن صبرت حتى خلا المكان من الجزارين، وهربت متحاملاً على جراحي، وأنقذني الله من ذلك المصير، حيث يموت الجريح تحت الجثث الأخرى".

وتواجه جهود جمع أسماء الضحايا في هذه المجازر عقبة كبيرة، لأن عدد الناجين القليل يجعل من الصعب إحصاء من قُتلوا، خاصة وأن الجنود كانوا يقتلون ضحاياهم دون إحصائهم أو تسجيل أسمائهم، وقد دُفن هؤلاء في مقابر جماعية.

ومن المجازر الجماعية التي شهدتها المدينة غير مقبرة سريحين ما يلي:

- ٤ شباط: مجزرة حماة الجديدة جنوب الملعب البلدي (١٥٠٠ ضحية).
- ٦ شباط: سلسلة مجازر حي سوق الشجرة (٥٠ ضحية)، ومجزرة دكان أحمد المسقع الحلبية (٧٥ ضحية)، ومجزرة حي البياض (٥٠ ضحية).
- ٨ شباط: سلسلة مجازر حي الدباغة، وكانت حصيلتها كالتالي: السوق الطويل ٨ ضحايا، في دكان عبد الرزاق الريس ٣٥ ضحية، في دكان عبد المعين مفتاح ٢٠ ضحية، من آل دبور ٦ ضحايا، من آل مغيزيل ٤ ضحايا، من آل القرن ٣ ضحايا.
- ٨ شباط: سلسلة مجازر حي الباشورة، وكانت حصيلتها كالتالي: من آل الدباغ ١١ ضحية، من بيت السيدة آمين ٥ ضحايا، من آل موسى ٢١ ضحية، من آل القياسة ٣ ضحايا، من آل العظم ضحيتان، من بناية الدكتور مشنوق ٣٩ ضحية، من آل الصمصام ١٣ ضحية، من آل كيلاني ٤ ضحايا. وفي مجزرة جامع الخانكان عدد كبير من الضحايا لم يُعرف معظمهم.
- ١٢ شباط: مجزرة آل المصري في حي العصيدة (٤٠ ضحية).
- ١٣ شباط: مجزرة آل الصحن في حي الدباغة (٦٠ ضحية).
- ١٥ شباط: مجزرة زقاق آل الزكار في الشمالية (٦ ضحايا).
- ٢٣ شباط: مجزرة آل شيخ عثمان في حي البارودية (٢٥ ضحية).
- ٢٦ شباط: مجزرة الجامع الجديد في جحي الفراية (١٦ ضحية).

٣- الموت بسبب الحرمان من العلاج:

قُتل كثير من الضحايا لحرمانهم من العلاج، بتركهم ينزفون حتى الموت، ومنهم من دُفنوا أحياء في المقابر الجماعية، أو تحت الأنقاض.

وقد تعمد الجنود منع المواطنين من العلاج، وقتلوهم في بعض الأحيان. إذ يروي بعض الناجين قصة المواطن الجريح فايز عاجوقة الذي أُصيب برصاصة في فخذه الأيمن ونجا من الموت في مجزرة جنوب الملعب البلدي فتظاهر بالموت حتى انصرف القتلة، ثم تسلل عائداً إلى بيته، ووجد

أنه بحاجة إلى العلاج، فأخذ يقفز على قدم واحدة حتى وصل إلى المستشفى القريب، وفي غرفة الإسعاف دخل جندي فاستنكر إسعاف مواطن عادي قائلاً إن خدمة الإسعاف يجب أن تُقدم إلى الجنود فقط، وهجم على الجريح بحربة البندقية فقتله لإرهاب أفراد الجهاز الطبي. وتكرر في هذا المستشفى شق صدور بعض الجرحى، بل وقصفت المستشفيات كما حدث في حمام الشيخ في الكيلانية ومستشفى جامع الهدى على طريق حلب ومشفى نادي الكاراتيه في الأميرية ومشفى زنوبيا في البارودية، وقُتل ١٨٥ جريحاً من نزلائها.

وبلغ الأمر بالجنود حد التركيز على الأطباء والممرضين في التعذيب والقتل، ونَهب الجنود - فيما نهبوه - صيدليات المدينة جميعها تقريباً، وعددها ٥٢ صيدلية، وسلمت صيدلية واحدة من النهب. ولعل من أبرز قصص تعذيب الأطباء وقتلهم، ما تعرض له الدكتور حكمت الخاني المختص بجراحة العيون، والمدير السابق للمستشفى الوطني بحماة، إذ سأله قائد القوة التي اعتقلته عن مهنته فأجاب: طبيب، وبدأ القائد يهمهم: طبيب! أهلاً وسهلاً!، ثم حُول إلى معتقل البورسلان حيث تعرض لأشد أنواع العذاب على الرغم من أنه لم يُسعف أحداً، وقالوا له ما دمت طبيب عيون فسنقلع عينيك، وقُلعت إحدى عينيه، ثم قُتل رمياً بالرصاص.

ثانياً: انتهاك حقوق الأطفال

١ - القتل:

قُتل الأطفال في أغلب الحالات ضمن مجازر أتت على أسرهم بالكامل، وكان يتم هذا في داخل البيوت أو أمامها، أو في ساحة الحي، وأحياناً بتفجير البيت بمن فيه.

وسُجلت حالات ارتكب فيها الجنود جرائم في غاية الفظاعة: كحمل طفل عمره ٤٠ يوماً فقط وقذفه إلى الجدار بقوة، وإلقاء بعض الأطفال من الشرفات أمام عيون أمهاتهم المفجوعات، والبدء بقتل الرضع، ثم أسرهم زيادة في التنكيل.

وقد قُتل بعض الأطفال في القصف الصاروخي ودُفنوا أحياء تحت الأنقاض، كما لفظ بعض الأطفال أنفاسهم برصاص القناصة وكان بعضهم لا يتجاوز عمره ٣ أعوام (الطفل محمد الزين من حي فراية مثلاً).

وتحتفظ اللجنة السورية بقوائم طويلة من أسماء الأطفال المقتولين، وأعمارهم تتراوح بين يوم واحد و١٥ عاماً.

٢ - قتل الأجنة:

لم يسلم من القتل حتى الأجنة في بطون أمهاتهم، وهناك العديد من الحوادث، نذكر منها ما حدث حين اقتحم جنود منزل المواطن محمد الكاش في حي البارودية، إذ بدأوا ببقر بطن زوجه الحامل وهي على قيد الحياة أمام زوجها وأطفالها السبعة وكلهم دون الخامسة عشرة من العمر. ثم أشعل الجنود النار في جرتين للغاز في البيت وقتلوا الأسرة عن بكرة أبيها حرقاً.

٣ - الموت جوعاً:

أدى الحصار المحكم لمدينة حماة ونقص الغذاء، والاختباء في الملاجئ والأقبية إلى وفاة أعداد كبيرة من الأطفال وغيرهم، ومن القصص المسجلة وفاة طفل المواطن أحمد جنيد عمره ٥ أيام، نضب حليب أمه فخرجت تبحث له عن حليب ولم تجد، وحين عادت إليه وجدته قد مات.

٣ - الإرهاب المفضي إلى الموت خوفاً أو الاضطراب:

عانى الأطفال الذين شهدوا المجازر والفظائع المرتكبة بحق أهليهم من الذعر، وأفضى ذلك إلى الموت في بعض الحالات، كما حدث بطفل من آل الشمالي يبلغ من العمر ١١ عاماً في حي الصابونية، وبطفل آخر يُدعى ماهر حلاق عمره ٩ أعوام من حي العيليات.

أما الأطفال الناجون من المجازر فتأثرت حياتهم كلها بالعدد الكبير من مشاهد القتل والدمار، وعانى كثيرون من الاضطرابات النفسية.

٤ - الإرهاب المفضي إلى العنف:

سُجلت حالات عديدة اندفع فيها أطفال صغار إلى رفع السلاح الأبيض في وجه الجنود، ومحاولة الدفاع عن أنفسهم بعد حضورهم جرائم قتل آبائهم أو أمهاتهم وإخوتهم. ووردت روايات عن استيلاء بعض الأطفال على أسلحة جنود جرحى للدفاع بها عن أنفسهم، بل وعلى قنابل يدوية، واضطرت بعض النساء إلى فعل المثل، ولهذا الأمر آثار نفسية شديدة السلبية.

ثالثاً: انتهاك حقوق المرأة

١ - القتل:

قُتلت النساء والفتيات دون تفريقهن عن الرجال، وبلغ الأمر بكثير من النساء ارتداء الثياب المحتشمة تحسباً للموت قتلاً في أي لحظة وخشية انكشافهن في حال مقتلهن. وقد قُتلت نساء دافعن عن أطفالهن، أو شرفهن.

وسُجلت حالات قتل للنساء انتقاماً منهن لصلة القرابة التي تربطهن بمطلوبين للاعتقال، وكان الانتقام جماعياً أحياناً، كما حدث في إطلاق النار على ٣٩ امرأة لجأن إلى قبو عيادة الدكتور زهير مشنوق، وفي أحيان أُخرى قُتلت نساء منفردات انتقاماً من أزواجهن المعارضين،

منهن المواطنة براءة بمنسي (٣٥ عاماً) التي قُتلت وهي نائمة مع أطفالها الخمسة، وعائدة عظم (٣٩ عاماً) التي قُتلت مع ابنها الشاب (١٩ عاماً).

ومن حوادث القتل أيضاً ما كان بدافع النهب والسرقة، وسُجلت حوادث عدة قطع فيها الجنود أيدي نساء رفضن تسليم أساورهن الذهبية قبل قتلهن. وقُتلت نساء حاولن تقديم المساعدة الطبية لجرحى ومصابين.

وكان لافتاً أن الجنود قتلوا بعض زملائهم الذين رفضوا الاشتراك في قتل النساء والأطفال في غير حادثة.

٢ - التعذيب:

استُخدم في حق النساء التعذيب الجسدي والنفسي، من تعذيب الأطفال أمام عيون أمهاتهم أو قتلهم، وتعذيب رب الأسرة قبل قتله أمام ذويه. وأما التعذيب الجسدي فكان من أساليبه الضرب حتى الموت، والإلقاء من الأماكن العالية أو الأدراج، وقُلعت عيون بعض النساء أو بُترت أطرافهن وبقين على قيد الحياة.

رابعًا: انتهاك حق كبار السن

١ - القتل:

كما هو حال باقي الفئات العمرية، كان للمسنين والمسنات نصيب من القتل في المجازر الجماعية وفي حالات اقتحام البيوت أو قصفها أو تفجيرها.

وقد فدى آباء من كبار السن أبناءهم بأنفسهم وذهبوا إلى القتل بدلاً منهم، ومن ذلك حادثة رواها ناجون من حي الحميدية في حماة، عن أب شيخ كبير في السن أمسك الجنود ابنه الشاب العشريني وبدأوا يعذبونه أمام والده، وكان الشاب وحيداً لأهله لم يُرزق والداه من الذكور سواه، بينما رُزقا ثماني بنات، فتقدم الأب باكياً يرجو الجنود أن يتركوا ابنه الوحيد ويقتلوه بدلاً منه، وقد رضي الجنود بذلك وسحبوا الأب الذي تجاوز عمره ٦٠ عاماً، فقتلوه وتركوا ابنه.

وقُتل آباء مسنون كُثُر حاولوا دفن أبنائهم، كالحاج عبد المعين الأصفر في منطقة البياض، الذي تُركت جثتا ابنيه في العراء ١٤ يوماً تحت نافذة منزله، ثم أراد دفنهما، فما كان من الجنود إلا أن قتلوه فوقهما، وهناك حوادث كثيرة غيرها.

٢ - الموت جوعاً أو بسبب المرض:

توفي الكثير من المواطنين والمواطنات كبار السن بعد إصابتهم بالهزال الشديد والمرض لنقص الغذاء أو انعدامه. ومن القصص المسجلة في هذا الصدد ما حصل مع المسن مصطفى

العزي البالغ من العمر ٧٢ عاماً، من حي بين الحيرين، إذ قتل الجنود كل أفراد أسرته وتركوه حتى مات جوعاً نظراً لأنه كفيف وعاجز، وكان الطعام يُحمل إلى فراشه.

وتوفي عدد كبير من المرضى والمسنين الذين حُرموا من العلاج المنتظم الذي كانوا يخضعون له، ولعب النقص الحاد في الأدوية تحت الحصار دوراً مهماً في ذلك.

خامساً: انتهاك كرامة الإنسان

١ - التعذيب:

مورست كل أشكال التعذيب بحق المواطنين من مختلف الأعمار، واستُخدمت كل المباني العامة والقاعات الواسعة معتقلات أو مقرات للتعذيب.

وأشرف على التعذيب ضباط كبار، ما زال بعضهم يتولون مناصب في أجهزة الأمن والدولة حتى اليوم وتمت مكافأة بعضهم وترفيعهم، بالرغم من أنهم يجب أن يُلاحقوا لارتكابهم جريمة الإبادة الجماعية.

وهناك طرق تعذيب استُخدمت بحق أفراد معدودين، كقلع العيون، وتقطيع الأعضاء، فقد ثبت أن قتيلاً واحداً على الأقل قُطع عضواً عضواً في السجن حتى قضى نحبه (عبد المجيد عرفة، مولود عام ١٩٤٢، وهو مدرس).

ولكن طرق التعذيب التي استخدمت بحق كل المعتقلين تقريباً والتي أدت إلى مقتل كثيرين، تشمل:

- الازدحام الناجم عن تكديس المعتقلين في زنازين صغيرة.
- البرد والجوع والظمأ.
- تهشيم عظام الرأس أو الأطراف بقطع حديدية (الملزمة، المكبس الحديدي).
- "كرسي سليمان" كما سماه الجنود وهو الخازوق الحديدي الذي يُجبر السجين على الجلوس عليه وهو تحت الضرب بالعصي والكابلات الكهربائية.
- "بساط الريح" أي تعليق المعتقل من يديه ورجليه في السقف مع تجريح ظهره وبطنه بالسكين وتركه حتى ينزف دمه.
- الكهرباء التي كانت تُستخدم حتى تفوح رائحة لحم المعتقل من الشيّ.
- الكي بالحديد المحمى.
- الخنق بوضع رأس المعتقل على الجدار والضغط عليه بأنبوب على رقبته حتى يموت.

وكان التعذيب يجري أمام جمهور المعتقلين المصطفين في رتل شبه عراة، وروى ناجون من المجزرة أنهم شاهدوا الدبابات تمر فوق أجساد بعض الأحياء، ورأوا كلاباً تنهش الجثث .

٢ - الاعتداء على العرض:

حاول كثير من الجنود الذين اقتحموا المدينة الاعتداء على النساء، وسُجلت حالات كثيرة جداً قُتلت فيها نساء دافعن عن شرفهن. وكان الجنود يحاولون الاعتداء على النساء وهن في أسوأ حالة نفسية، بعد رؤية أزواجهن أو أبنائهن وآبائهن يُقتلون، ولكن كثيرات قاومن بشدة.

ومن ذلك قصة أسرة من آل السواس في منطقة الباشورة، اقتحم الجنود منزلها، فقتلوا الزوج، ثم أرادوا الاعتداء على شرف زوجته، فقاومتهم مقاومة شديدة حتى يئسوا منها، فصبوا مادة مشتعلة (المازوت) عليها وفي أرجاء غرفتها وأشعلوا النار فيها فقضت نحبها حرقاً.

٣ - الاعتداء على حرمة القتلى:

منعت القوات الحكومية دفن كثير من جثث القتلى، وتركت أعداداً هائلة منها على أرصفة الشوارع وفي الأزقة والبيوت بلا دفن، مستغلة غياب وسائل الإعلام التي مُنعت من الوصول إلى المدينة المحاصرة حصاراً محكماً. وانتشرت روائح الجثث في أحياء كثيرة، ولعب ذلك دوراً في انتشار الأوبئة والأمراض، وقُتل بعض المواطنين الذين حاولوا دفن قتلاهم.

وفي نهاية المجزرة، قام الجنود بعمليات تمشيط لإخلاء المدينة من جثث الضحايا، فكانوا يرمون الجثث من شرفات المنازل لتجميعها. وأما الجثث المتفسخة فأُجبر المواطنون بقوة السلاح على حملها، فكانت أطرافها تنفصل عن الأجساد في أيدي حامليها.

وبعد مضي أسبوع على نهاية المجزرة، جلبت السلطات طلاب "الفتوة" من المناطق المحيطة بالمدينة وقراها، وأمرتهم بغسل شوارعها المغطاة بدماء القتلى وبقايا جثث الضحايا التي كانت الكلاب قد بدأت بحمل أطرافها ورؤوسها، والتجول بها، وشوهد ذلك في منطقة "الشيخ مهران".

سادساً: انتهاك حق الحرية

١ - السجن:

سُجنت أعداد كبيرة جداً من سكان المدينة، ويُعتقد أن نسبة مرتفعة من المفقودين بعد المجزرة اقتيدوا إلى السجون، حيث أُجهز عليهم.

وبلغ عدد السجون في المدينة ١٤ سجناً بينها مدارس ومرافق عامة استُخدمت كمعتقلات. والسجون هي: معتقل اللواء ٤٧، معتقل الثكنة، معتقل المطار، معتقل المحلجة الخماسية (محلجة أبي الفداء)، معتقل المنطقة الصناعية، معتقل مدرسة غرناطة، معتقل مدرسة الصناعة، معتقل معمل البورسلان، معتقل المخابرات العسكرية، معتقل الأمن السياسي، معتقل أمن الدولة، معمل الغزل، معمل البلاط، مركز الدفاع المدني.

ومورس التعذيب في السجون على نطاق واسع، وسلم بعض المعتقلين من الموت بالإفراج عنهم بعدما دفع أهلوهم رشاوى طائلة. كما شهدت سجون حماة مجازر جماعية، ومن الأخبار المسجلة للمجازر بحق المعتقلين، ما حدث في أحد السجون، إذ دخل اللواء علي حيدر (قائد الوحدات الخاصة) إلى السجن، وخاف المعتقلون في أحد المهاجع مما قد يحل بهم بعد زيارته فهتفوا بحياته، فأمر لهم بطعام وبطانيات. غير أن السجن كان تابعاً لسرايا الدفاع التي يقودها شقيق الرئيس رفعت الأسد، فجاء جنود من السرايا يحملون رشاشاتهم وصرخوا في وجوه المعتقلين بأن "لا قائد إلا الزعيم رفعت"، ثم فتحوا نيران الرشاشات على كل من كانوا في المهجع وهم نحو ٩٠ شخصاً، فقتلوهم جميعاً.

٢ - الاختفاء:

لا تُعرف مواقع المقابر الجماعية التي دُفن فيها كثير من المفقودين. ولكن حوادث معروفة شهدت جمع أعداد كبيرة من شخصيات المدينة، ومن المواطنين، وسوقهم إلى أماكن مجهولة، ولا أثر لهم حتى اليوم. ووقع كثير من حوادث الاختفاء في الأيام الأخيرة من المجزرة، في ما يُعتقد أنه محاولة من السلطات لإخفاء آثارها، وتقليل عدد الشهود.

ومن ذلك ما بدأ في ٢٦ شباط ١٩٨٢ عقب صدور أوامر يُعتقد أنها أتت من مراتب سياسية عليا، إذ شنت القوات الحكومية حملة اعتقالات واسعة لاستكمال "التحقيقات"، وقدر عدد المعتقلين في ذلك اليوم وحده (وهو يوم جمعة) بنحو ١٥٠٠ مواطن، بينهم بعض الأعيان كمفتي المدينة ورئيس جمعية العلماء فيها وعدد من المشايخ المسلمين. ولم يعد أحد من أولئك المعتقلين، وقيل إنهم دُفنوا في منطقة قرية "براق"، وقيل في قرية على طريق "محردة"، حيث وُضعوا في حفرة جماعية.

ومن ذلك أيضاً، أمر قائد سرايا الدفاع رفعت الأسد في ٢٢ شباط ١٩٨٢ بالنداء بمكبرات الصوت لإحضار جميع المشايخ ومؤذني المساجد وخدامها من المعتقلين في السجون، وكانوا حوالي ١٠٠٠ شخص، سيقوا إلى مصيرهم المجهول حتى اليوم. وهناك حوادث أخرى أسفرت عن اختفاء الآلاف، كما حدث في معتقل المحلجة الخماسية (محلجة أبي الفداء).

٣ - التهجير (انتهاك حق حرية اختيار مكان السكن):

كانت النتيجة الطبيعية لما حل بالمدينة من خراب وقتل جماعي هجرة أعداد كبيرة من سكانها. وقد هرب الكثير من سكان حماة إلى المدن الأخرى، ولكن استمرار الاعتقالات بحقهم دفع مئات الأسر الحموية إلى الهجرة من البلاد، خوفاً من التنكيل والبطش، على خلفية الانتماء الجغرافي فقط.

وقد اعتُقل أو قُتل بالتزامن مع مجزرة حماة وبعدها عدد كبير من أبناء المدينة خارجهـا، ومنهم الطلبة في المدن الأخرى، وبعض الهاربين من المجزرة، ومواطنون يقيمون خارج سورية كانوا يحاولون دخول البلاد أو الخروج منها. وكان هذا دليلاً على امتـداد المجـزرة لتـشمل جميـع "الحمويين" بغض النظر عن أي عامل آخر، من الدين أو الجنس أو العمر أو حتى مكان الإقامة.

سابعاً: انتهاك حق العبادة

لم تسلم المساجد والكنائس في مدينة حماة من الهدم والتدمير، وكان الجنود يمـلأون دور العبادة بأحمال كبيرة من المتفجرات، ثم يدمرونها. وحدث في حالة تفجير الجامع الكبير في المدينـة أن الانفجار الشديد أدى إلى تهدم قسم من البيوت المحيطة بها، إضافة إلى قـسم مـن "مدرسـة الراهبات" المسيحية القريبة.

وقد تمكن مواطنون مسيحيون من أهل المدينة من إقناع معارفهم من الضباط بعدم هـدم مسجد "عبد الله بن سلام" بعد أن كان الجنود وضعوا فيه حمل سيارتين مـن مـادة "تي إن تي" لتفجيره. وكان تدمير المساجد يشمل انتهاك حرمة المصاحف الموجودة فيها. وأما الكنائس فقـد بقيت منها أطلال تظهر بينها رسومات للعذراء والسيد المسيح عليهما السلام، وكانـت أشـهر كنيسة دُمرت هي كنيسة حماة الجديدة، التي كانت تحفة معمارية وتحولت إلى أنقاض.

ويقول سكان مدينة حماة إن الأذان لم يُسمع من مساجدها طوال ثلاثة شـهور، أحـدها شهر المجزرة، واضطر الأهالي إلى التبرع سراً بعد انتهاء المجزرة لترميم ما يمكـن ترميمـه مـن مساجدهم وكنائسهم. وبلغ عدد ما أُحصي من مساجد دُمرت تـدميراً كـاملاً ٣٨ مـسجداً ومركزاً إسلامياً، ووُجد ١٩ مسجداً مدمراً تدميراً جزئياً بعد المجزرة، وحولت السلطات بعضها إلى مرافق للاستخدام، كجامع أبي الفداء في منطقة باب الجسر الذي أُصيب إصابات خفيفـة في القصف، وحُول إلى متحف. كما حُول موقع جامع المسعود المدمر كله إلى محطة انطلاق لسيارات الأجرة على خطوط خارج المدينة.

وامتد القصف ليشمل مناطق تاريخية من مدينة حماة بما تحوي من آثار إسـلامية، وكـان أشهرها منطقة الكيلانية.

ثامناً: انتهاك حق الكسب

عاث الجنود فساداً في المحلات التجارية ونهبوها. وبعد شهر كامل من القتـل الجمـاعي واستباحة المدينة وسكانها، كان الكثير من الحوانيت مدمراً. وتبين أن بعض المحلات اسـتُخدمت كمراكز اعتقال وتعذيب وقتل مؤقتة. ومما روي أن مواطناً أعاد فتح محل لتصليح الـسيارات في الأسبوع الأول من آذار بعد انقضاء المجزرة، وهو في منطقة باب طرابلس من حي المحالبة، فوجد

فيه كميات كبيرة من الدم المتجلط إضافة إلى عشرات الأزواج من الأحذية المستعملة، وبقايا ألبسة بدلاً من آلات الدكان التي يستخدمها.

وحين تناهى الخبر إلى من بقي من نساء الحي هرعت العشرات منهن لمحاولة التعرف على آثار ذويهن الرجال، لعلهن يعرفن مصيرهم.

وبالغ الجنود في سرقة المحلات التجارية، ونهب كل ما وصلت إليه أيديهم من المجوهرات والنقود والسيارات والأثاث والأجهزة الكهربائية والسجاد والتحف، تاركين السكان المدنيين بلا شيء. وكان الجنود بعد نهب المحلات يحرقونها، فتأتي النار عليها لتحرم أصحابها من الاستفادة منها فيما بعد.

وقُدر ما نهبه الجنود من سوق الصاغة وحده بما قيمته عشرات الملايين من الليرات السورية. ولم يسلم من النهب حتى المؤسسات الحكومية، كالمصرف التجاري السوري ومصرف التسليف الشعبي. واستغل الجنود لباسهم الرسمي الذي منحهم القوة والنفوذ في تنفيذ سرقاتهم، ونهبوا المواد الغذائية ليبيعوها بعد انتهاء المجزرة.

وتشير إحصائيات غير رسمية إلى أن عملية هدم أحياء المدينة كانت واسعة النطاق، الأمر الذي يؤثر على البيوت والمؤسسات التجارية والمحلات. فأحياء العصيدة والشمالية والزنبقي والكلانية هُدمت كلياً، وهناك أحياء هُدمت بنسب أقل، كحي بين الحيرين الذي كانت نسبة الهدم فيه ٨٠ في المائة، وحي السخانة كانت نسبة الهدم فيه ٧٠ في المائة، ونال الأحياء الواقعة على أطراف المدينة نصيب أقل من الهدم، كحي طريق حلب الذي كانت نسبة الهدم فيه ٣٠ في المائة فقط.

وكان التركيز على الأحياء القديمة من المدينة، بمنازلها ومحلاتها وكل شيء فيها، حتى الآثار والأبنية التاريخية.

ويُلاحظ أن انخفاض عدد الشبان والرجال كثيراً بعد المجزرة، وارتفاع عدد النساء والأطفال الصغار في المدينة، كان أحد عوامل أزمة اقتصادية خنقت السكان. ودلالة على حجم المأساة فإن مدينة حماة التي كانت تعاني من أزمة سكنية قبل المجزرة تخلصت من هذه المشكلة بعد انتهاء المجزرة، لانخفاض عدد السكان وليس لزيادة الوحدات السكنية.

أسماء بعض من خططوا وشاركوا في مجزرة حماة :

- العقيد رفعت الأسد (قائد سرايا الدفاع - أصبح نائباً لرئيس الجمهورية)
- اللواء علي حيدر (قائد الوحدات الخاصة)
- العقيد علي ديب (أحد قادة الوحدات الخاصة)

- العقيد يحيى زيدان (كان ضابطاً في سرايا الدفاع، ثم فُرز إلى المخابرات العسكرية، وأصبح رئيس فرعها في حماة)
- العقيد نديم عباس (قائد اللواء ٤٧ دبابات)
- العقيد فؤاد إسماعيل (قائد اللواء ٢١ ميكانيكي)
- المقدم رياض عيسى (قائد اللواء ١٤٢ في سرايا الدفاع)
- المقدم وليد أباظة (رئيس فرع الأمن السياسي وأحد المحققين فيه)
- الرائد محمد رأفت ناصيف (المخابرات العامة، أشرف على التعذيب في سجن الثانوية الصناعية)
- الرائد إبراهيم الحمود (شارك في التحقيق والتعذيب في فرع أمن الدولة، والشعبة السياسية في المخابرات، وفي سجن الثانوية الصناعية)
- الرائد محمد ياسمين (قائد الفرقة الانتحارية ٢٢ التابعة لسرايا الدفاع)
- الرائد محمد الخطيب (محقق في فرع أمن الدولة آنذاك)
- عبد الله زينو (محقق في فرع أمن الدولة آنذاك)
- محمد بدور (محقق في الشعبة السياسية قتل بنفسه سبعة مواطنين تحت التعذيب على الأقل)
- محمد حربا (محافظ مدينة حماة إبان المجزرة - أصبح وزيراً للداخلية)

خاتمة :

ما زال الذي حدث في مدينة حماة في شهر شباط من عام ١٩٨٢ مأساة لم تُكشف معالمها الكاملة حتى اليوم، ولم يُعاقب الجناة الذين ارتكبوها بكل قسوة.

ويمكن تسجيل ملاحظتين على المجزرة:

أولاً: أنها لم تكن تستهدف تنظيماً سياسياً بعينه، وإنما طالت جميع فئات المجتمع في المدينة، دون تمييز بين إسلامي أو يساري أو يميني أو حتى أعضاء حزب البعث الحاكم. وينزع هذا صفة "الصراع السياسي" عن المجزرة، ويجعلها جريمة إبادة جماعية بحق المدنيين، ويؤكد هذا الحجم الكبير للضحايا الذين لا يمكن أن يكونوا كلهم منتمين إلى تيارات سياسية أو أحزاب.

ثانياً: أنها استهدفت كل من ينتمي إلى مدينة حماة، دون تفريق بين المسلم والمسيحي، ودون فرز حتى الذين كانوا متعاونين مع السلطات من أبناء المدينة، فقد قُتل الكثير ممن كانوا يعدون عملاء لأجهزة الأمن وساعدوها بالمعلومات خلال المجزرة. وحين احتدم الخلاف في أكثر

من حادثة وموطن، تبين أن قادة الحملة العسكرية على المدينة كانوا ينظرون بعين واحدة إلى جميع سكانها، بمن فيهم كبار مسئولي فرع حزب البعث الحاكم في حماة.

وبناء على المسألة الأخيرة، فإن المحامين ورجال القانون مدعوون إلى دراسة ما إذا كان ممكناً تصنيف مجزرة حماة في سياق أعمال إبادة الجنس البشري، وإلا فإنها على كل الأحوال تدخل في إطار الإبادة الجماعية المحرمة دولياً أيضاً.

لقد اتسمت المجزرة بالوحشية والقسوة التي تفوق التصور الإنساني، ولم تعبأ السلطات كثيراً بقتلاها من الجنود الذين زُج بعضهم في معركة لم يرغبوا فيها، وقُتل بعض الذين لم يتجاوبوا مع الأوامر بالشكل المطلوب. ناهيك عن الضحايا المدنيين الأبرياء الذين كانوا الهدف الأول للمجزرة.

إن تجاوز آثار مجزرة حماة، ومعالجة النتائج السلبية لما تعرض له سكانها الذين أُبيد قسم منهم إبادة كاملة، ما زال ينتظر تقصي حقائق ما حدث. ويجب أن يتوصل التحقيق الجاد والموضوعي إلى تحديد المسؤوليات في ما حدث، ومعرفة المستويات السياسية في الدولة التي تورطت في إصدار أوامر الإبادة الجماعية.

وبغير ذلك فإن ضحايا مجزرة حماة لن ينالوا حقهم في العدالة، الذي لا يسقط بتقادم الزمن . [هنا نهاية تقرير اللجنة السورية لحقوق الإنسان حول مجزرة مدينة حماه ، بتصرف يسير]

وبعد أن انتهينا من نقل هذا التقرير عن مجزرة مدينة حماه ، نود أن نقول ، إن هؤلاء المجرمون إن أفلتوا من العقاب في الدنيا ، فلن يفلتوا من العقاب يوم القيامة .

يقول الله تبارك وتعالى : {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} (٢٥ ، ٢٦) سورة الفجر .

يقول الله عز وجل : {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (٨) سورة الزلزلة .

ويقول جل في علاه : {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} (٤٢) سورة إبراهيم .

وهذه بعض صور مجزرة مدينة حماه :

مسجد حماه الكبير قبل المجزرة



مسجد حماه الكبير بعد المجزرة



حي الكيلانية في حماة قبل المجزرة



حي الكيلانية في حماة بعد المجزرة



الكنيسة الجديدة في حماة قبل المجزرة



الكنيسة الجديدة في حماة بعد المجزرة



هذا المسبح أقيم فوق بقايا عدة آلاف من الضحايا اللذين ذبحوا على أيدي النظام البعثي النصيري المجرم في مدينة أبي الفداء حماه



هذه مقالة لأحد الكتاب قارن فيها بين مجزرة حماه ومجزرة جنين في فلسطين :

حماة وجنين التوأمُ الشهيدان

هناك وجه شبه كبير بين مجزرة حماة في سورية في شباط عام ١٩٨٢، وبين مجزرة جنين في فلسطين في عام ٢٠٠٢، فالمجزرتين تنبئان عن خسة ونذالة وإجرام ، ورغم اختلاف الآمرين والمنفذين بأشخاصهم إلا أن أهدافهم واحدة ومشتركة، وهي إبادة المدنيين وتدمير بيوقمم، وقتل الروح الجهادية المقاومة للظلم والطغيان والخنوع.

وفي هذا الاستعراض أريد أن أعلن للأخوة الكرام عن فكرة إعلان توأمة المدينتين الشهيدتين.

الآمرين والمنفذين للمجزرتين

· حافظ أسد رئيس الجمهورية العربية السورية هو من أمر بتنفيذ مجزرة حماة، ووحدات جيشه الوطني العقائدي المختلفة كانت أداة تنفيذ هذه المجزرة البشعة بحق المدنين الآمنين .

· المجرم آريل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي هو من أمر بتنفيذ مجزرة مخيم جنين، وجيشه الصهيوني العقائدي بوحداته المختلفة وخصوصاً وحدة المظليين كان أداة تنفيذ هذه المجزرة البشعة بحق المدنيين الأبرياء الآمنين .

· قام جيش حافظ أسد بمحاصرة مدينة حماة بأكثر من ٣٥٠٠٠ ألف جندي، وأكثر من ٣٠٠٠ آلية ومدرعة عسكرية، مع اشتراك كثيف لسلاح الطيران وتنفيذه عشرات الطلعات الجوية لقصف وتدمير أحياء المدينة فوق سكّانها .

· بينما قام جيش شارون بمحاصرة مخيم جنين بآلاف من جنوده، ومئات من آلياته ومدرعاته، كما قام الطيران الإسرائيلي بقصف وتدمير أبنية المخيم فوق سكّانها .

· قام حافظ أسد بمجزرته في حماة ضمن سلسلة مجازر سورية ضد أبناء الشعب السوري لتثبيت نظام حكمه الطائفي، وقمع معارضة الشعب له ولنظامه، بسلاحٍ دفع الشعب السوري ثمنه ليكون موجّهاً في الأصل للعدو الصهيوني .

· بينما قام شارون بمجزرته في مخيم جنين ضمن سلسلة من جرائم النظام الصهيوني ضد أبناء الشعب الفلسطيني وليس اليهودي، لتثنيت نظام حكم الدولة الصهيونية في وجه محاولات كفاح وجهاد الشعب الفلسطيني ضد اليهود الصهاينة .

· حاصر حافظ أسد مدينة حماة وعزَلها عن العالم الخارجي تمامً طوال فترة المجزرة وما بعدها، لتسوية خراب المدينة وحفر قبور جماعية لشهدائها لإخفاء معالم وآثار جريمته البشعة، كما وقطع عنها إمدادات الغذاء والماء والكهرباء والهاتف ومنع عنها تقديم الخدمات الصحية لأهلها .

· وحاصر شارون مخيم جنين وقطع عن أهله جميع إمدادات الماء والغذاء والدواء والكهرباء .

· استمرت مجزرة مدينة حماة أربعٌ وعشرون يوماً، من ١٩٨٢/٢/٢ وحتى ١٩٨٢/٢/٢٦ أمام سمع وبصر الأنظمة العربية والعالمية ومن دون أن يتدخل أحد لوقفها، والتي فرضت على أجهزتها الإعلامية فرض تعتيم إعلامي شديد على مجزرة حماة .

· بينما استمرت مجزرة جنين لمدة ثلاثة عشر يوماً من شهر نيسان ٢٠٠٢، أمام سمع وبصر جميع الأنظمة العربية والعالمية من دون أن يتدخل أحد لوقف هذه المجزرة البشعة، أو أن يقوم بمد المحاصرين بالسلاح ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم وأعراضهم .

· قتل حافظ أسد في مدينة حماة أكثر من ٢٥٠٠٠ ألف من أبنائها، واختفى من الوجود أثر أكثر من ٢٠٠٠٠ ألف من شبابها ورجالها المفقودين، وتم تشريد أكثر من مائة وخمسين من أهلها من النساء والأطفال في المدن والقرى، وتمزقت العائلات، وتشردت العائلة الواحدة إلى أكثر من جهة.

· بينما قتل شارون بضع مئات من شباب ورجال مخيم جنين الأبطال، واعتُقل المئات من شبابها ورجالها، وفُقِدَ عدد من سكّان المخيم وشرد الباقي في أنحاء المناطق المجاورة .

· قام حافظ أسد بتفجير بيوت مدينة حماة فوق سكّانها العزّل، وبهدم ومسح أكثر من ستة أحياء من حماة القديمة بالجرّافات، حيث تم هدم حيّ الكيلانية الأثري فوق سكّانه، وحي العصيدة والزنبقي والشمالية وبين الحارين، وحي البارودية والشرقية، كما وقام بهدمٍ كامل وجزئي لأكثر من ثمانين مسجداً، كما هُدّمت بعض الكنائس .

· وقام شارون بهدم بيوت مخيم جنين فوق سكّانه الآمنين، وهدّمَ البيوت ودمّرها ومسحها من الوجود، وشرّد أهلها .

· المجرم شارون قتل لحماية كيانه وعصابته الصهيونيين، أمّا حافظ أسد فهدفه البعيد من حملته الإجرامية تلك كان لحماية كيان شارون وعصابته، وهدفه القريب تدمير أي معارضة داخلية ومحاولة قمعها وإسكاتها لحماية سلطان الحزبية الأقلية .

· مجزرة مدينة حماة في شباط ١٩٨٢، ومجزرة مخيم جنين في نيسان ٢٠٠٢ كانتا عنوان عار الأمة العربية وذلّها، ورمز تخاذلها وتآمرها ضد قضايا الأمة، ودليل تواطؤ الأنظمة الديكتاتورية القمعية مع أعداء الأمة، وتبادلها لمصالح ضيقة مشتركة معهم لضمان استمرارها في الوجود في الحكم .

· انتصر حافظ أسد على إرادة شعب معارض له، ورافض له ولنظام حكمه بالإجماع، وذلك بمساعدة أنظمة عربية وغربية غير محدودة، لم ترغب أن يكون بديل أسد أُناسٌ وطنيين أو شرفاء، ويمكن لهم أن يقلبوا الأمور رأساً على عقب، ويهددوا مصالح المستعمرين الغربيين الجُدد في المنطقة، وعلى رأس ذلك الكيان الصهيوني المزروع في قلب الأمة العربية، والمتمتع بحماية كل الأنظمة العربية المتخاذلة .

· وانتصر المجرم شارون على أحرار فلسطين، بمساعدة ودعم الدول الغربية الكاملة، وبقوة دعم الصمت العربي المخيف عن ما يفعله شارون، وحماية الجيوش العربية التي أصبحت مهمتها الأساسية حماية حدود الكيان الصهيوني من غضبة جماهير الشعوب العربية الحرّة، ومنعها

من تمكين مجاهدي الأمة الأبطال من الوصول إلى فلسطين وتأمين حدودها حتى تكون آمنة ومستقرة لليهود.

· حافظ أسد كان سبّاقاً أكثر من كل زعماء الأمة العربية المهزومين المتخاذلين، حين أغلق حدود سورية مع فلسطين في الجولان في وجه العمليات الفدائية، وجعل من الجولان واحة آمنة ينعم بها الصهاينة ومنها بالأمن والأمان . وحافظ أسد قدم أكبر خدمة للصهاينة حين عطّل مفهوم المواجهة مع العدو، حين خرج على الناس بمفهوم التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني، والذي لن يكون أبداً .

· ها نحن نعيش كل يوم مأساة جديدة من مآسي إخواننا الفلسطينيين، وعَيْون قادة العالم العربي والإسلامي تنظر . فماذا فعلوا ؟ وماذا قدَّموا ؟ أنّى التفتنا وأصَخْنَا سمعنا، وأمعنّا نظرنا، فلا نجد إلا ذلاًّ ومهانة، والعدو يسير قُدُماً لمزيد من البلاء ولمزيد من الإذلال ولمزيد من التقتيل والتنكيل، وهو يعلم أن العرب متمثلين في قادتهم ليسوا شيئاً، وأنهم حتى لم يعودوا يشكّلوا فقاقيع صابون .

· العدو الغربي والصهيوني يستعمل مال النفط العربي لدعمه حربه ضد العرب والمسلمين، وفي دعم الصهاينة في فلسطين ضد إخواننا وأهلنا هناك، والعرب يجتمعون بكل أدب واحترام مع أسيادهم ويعطونهم الضمانات بعد الضمانات بأنهم لن يستعملوا النفط كسلاح، وأنهم يقفون معهم ضد عمليات العنف والإرهاب وقتل المدنيين الإسرائيليين، ويتناسون كما النعام ويدفنون رؤوسهم في الرمال عن قتل المدنين العرب في فلسطين من أطفال ونساء وشيوخ .

· حافظ أسد وجميع الحكّام العرب يطوّرون جيوشهم وأسلحتهم لا لمواجهة العدو الصهيوني، بل لمواجهة أي تحرك شعبي للمطالبة بالحرية أو مواجهة أعداء الأمة المتربصين بهذه الشعوب، والحكّام العرب يعطون الضمانات للدول الغربية والشرقية المزودة بالأسلحة بأن هذه الأسلحة لن تُستخدم ضد الصهاينة .

· ونحن نرى وللأسف وبشكل مفضوح بأن يد الإجرام الصهيوني تحاول أن تصل إلى كل شيء، من شباب الانتفاضة الأبطال، إلى سياسيين أحرار، وبعيدة كل البعد رغم قُربِها عن رؤوس الفساد العربي، من حكّام وسياسيين وعسكريين ودبلوماسيين، ونعيش كل يوم مهزلة ومسرحية جديدة، ابتداء من ضرب بعض الأهداف العربية المجاورة للكيان الصهيوني باسم المواجهة معه، إلى مسرحية حصار عرفات لتبرير ضرب أحرار الشعب الفلسطيني الأبطال .

ماذا نقول ؟ ونحن نرى الجرح يزداد يوماً بعد يوم !

يا فضيحة الأمة العروبة والإسلامية!

ويا إسلاماه! صرخةٌ مدوية ستكون بركاناً في يوم مّا! وعسى إن شاء الله أن يكون قريباً .

شهيد

كُفّي الدُّموعَ وجهّزي خيلي . . . . . آنَ الأوانُ لكيْ أُعيدَ كرامتي

عن موقع اللجنة السورية لحقوق الإنسان

المجزرة الثانية : مجزرة سجن تدمر الشهيرة عام ١٩٨٠م

[تم نقل تفاصيل مجزرة تدمر من موقع " تدمر " الإلكتروني على شبكة الإنترنت (بتصرف يسير)]

تدمر في التاريخ

تقع مدينة تدمر على بعد ١٦٠كم شرقي مدينة حمص وسط واحة في بادية الشام، ترويها ينابيع كبريتية، وكان أول من سكنها الكنعانيون الذين عبدوا فيها إلههم (بعل)، وكان ذلك في الألف الثالثة قبل الميلاد، ثم استوطنها الآراميون من بعدهم.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد أخضعها الفرس لحكمهم، ثم استولى عليها الإسكندر الكبير المقدوني، وكانت بعد موته من نصيب السلوقيين في سورية،ولكنها بقيت بعيدة عن سيطرتهم السياسية الكاملة، ومع ذلك تأثرت بالفن الهلنسي.

وعندما فتح الرومان سورية عام ٦٤ ق.م، ظلت تدمر خارج سيطرتهم، حتى عهد الإمبراطور (تيبرسوس ١٤-٢٧م)، عندما منحها الرومان لقب "المدينة الحرة"، ثم حازت لقب (مستعمرة رومانية)، وبموجب ذلك أعفيت من الضرائب، ومنحت امتيازات كثيرة مستفيدة من وجود أباطرة عرب حكموا روما في هذه الفترة. وهكذا بدأت تدمر تتألق في التاريخ كدولة غنية لدرجة كبيرة؛ مما مهد لها أن تلعب دوراً سياسياً واقتصادياً في تاريخ بلاد الشام.

وقد انتهت دولة تدمر فيما بعد، وبقيت منطقة نائية إلى أن دخل المسلمون تدمر في السنة الثالثة عشرة للهجرة، وكان فتحها بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، صلحاً من غير إراقة دم.

القصة الكاملة للجريمة التي ارتكبها النظام الطائفي في سورية بحق الأبرياء العُزّل :

(كما رواها بعض المنفّذين)

التحضير للعملية:

في تمام الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٩٨٠/٦/٢٧ دُعيت مجموعتان من سرايا الدفاع للاجتماع بلباس الميدان الكامل، المجموعة الأولى من اللواء (٤٠)، الذي يقوده الرائد معين ناصيف (زوج بنت رفعت أسد)، والمجموعة الثانية من اللواء (١٣٨)، الذي يقوده المقدم علي ديب، وكل من المجموعتين يزيد تعداد عناصرهما على مائة عنصر.

أما مجموعة اللواء (٤٠) فقد اجتمعوا في سينما اللواء، حيث ألقى فيهم معين ناصيف كلمة، قال فيها: (راح تقوموا بهجوم على أكبر وكر للإخوان المسلمين، وهو سجن تدمر .. مين

ما بدو يقاتل؟)، وبالطبع، فلم يرفع أحد منهم يده، ثم انتقل المجموعة الموجودة إلى مطار المزة القديم، حيث التقت المجموعتان، حيث كانت في انتظارهم عشر طائرات هيلوكوبتر، وكل طيارة تتسع لـ ٢٤ راكب.

كان قائد العملية المقدم سليمان مصطفى، وهو قائد أركان اللواء (١٣٨)، وكان من جملة الضباط المشاركين: الملازم أول ياسر باكير، والملازم ألو منير درويش، والملازم أول رئيف عبد الله.

أقلعت طائرات الهيلوكبتر حوالي الساعة الخامسة صباحاً، ووصلت إلى مطار تدمر حوالي الساعة السادسة، وعقد اجتماع لضباط العملية، تمّ فيه توزيع المهمات وتقسيم المجموعات، ثم أعطي العناصر استراحة لمدة ثلاث أرباع الساعة.

في هذه الأثناء كان سجن (تدمر) هادئاً، وقد اتخذت ترتيبات مُعينة؛ مثل: إجراء تفقد للمعتقلين وتسهيل مهمة مجموعات سرايا الدفاع، فلم تكن هناك عراقيل أو اعتراض، بل كانت الشرطة العسكرية المكلفة بالحراسة مستعدة على الباب الخارجي، كما كان رئيس الحرس وشرطته العسكرية مجتمعين في ساحة السجن.

ثمّ دُعي عناصر سرايا الدفاع إلى الاجتماع؛ حيث تمّ تقسيمهم ثلاث مجموعات:

ـ المجموعة الأولى: وهي مكوّنة من (٨٠) عنصراً، وكلفت بدخول السجن، وسُميت "مجموعة الاقتحام".

ـ المجموعة الثانية: وهي مكونة من (٢٠) عنصراً، وكُلّفت بحماية طائرات الهيلوكبتر.

ـ المجموعة الثالثة: وهي مكونة من بقية العناصر، وقد بقيت في المطار للاحتياط.

ركبت مجموعة الاقتحام سيارات (دوج تراك)، وحين وصلت إلى السجن؛ انقسمت المجموعات الموجودة إلى مجموعات صغيرة، كل منها بإمرة أحد الضباط، وقد سلّم مدير السجن مفاتيح المهاجع إلى ضباط سرايا الدفاع، كما زوّدوا بمرشدين لغرف السجن وباحاته.

كان في سجن تدمر العسكري (٣٤) مهجعاً، في كل منها (٢٠ - ٧٠) معتقلاً؛ تبعاً لحجم المهجع، وقد تم تنظيم العملية بقتل المعتقلين على دفعتين: الدفعة الأولى شمل الغرف المطلّة على الباحات (١ و٢ و٣)، والدفعة الثانية تشمل الغرف المُطلّة على الباحات (٤ و٥ و٦)؛ وبسبب انخفاض المهاجع وعتمتها في غرف الباحات (١ و٢ و٣)؛ تقرر إخراج المعتقلين إلى الباحات لتنفيذ الإعدام فيهم.

وتوزّعت مجموعات سرايا الدفاع على المهاجع والباحات، وفُتحت الأبواب، وبموجب نظام السجن؛ وقف المعتقلون عند فتح أبواب المهاجع مغمضي العيون ووجوههم إلى السقف،

وقدم رئيس كل مهجع الصف (ويكون أحد السجناء، ويُطلب منه ترتيب السجناء وتنظيمهم، ويكون له نصيب أكبر من العذاب، انظر كتاب شاهد ومشهود).

ــ في الباحة رقم (١) تم إخراج نزلاء المهجعين (٥ و٦)، ونزلاء المهجع (٤)، وجُمعوا في زاوية الباحة الشمالية الشرقية.

ــ في الباحة رقم (٢) تمّ إخراج نزلاء المهاجع الثلاثة (٨ و٩ و١٠)، وجُمعوا في آخر الباحة الجنوبية الغربية، مقابل المهجع (٨) ذي الشرفة الواسعة من الأمام.

ــ في الباحة رقم (٣) تمّ جمع المعتقلين من المهاجع (١٢ و١٣ و١٦ و١٧)، في الزاوية الشرقية الجنوبية من الباحة أمام المهجع (١٢).

وهكذا تمّ تجميع المعتقلين مع أغراضهم بشكل يجعل عملية القتل والإبادة تبدأ في الباحات الثلاثة في وقت واحد.

والجدير بالذكر أن المعتقلين جميعاً خضعوا في اليوم السابق لأنواع من التعذيب الشديد الذي لم يسبق له مثيل، فقد اندفعت عناصر الشرطة العسكرية تطوف بالمهاجع، وتضرب المعتقلين بالسياط والعصي، كما أخرجوا نزلاء بعض المهاجع إلى الباحات بالتسلسل، وانهالوا عليهم ضرباً بالعصي والسياط، فأصيب الكثيرون من المعتقلين بكسور وجروح مختلفة.

بدء المجزرة الوحشية:

بعد ذلك أعطيت الإشارة البدء لعناصر سرايا الدفاع، فانطلقت الآلات النارية تصبّ وابل الحمم على المعتقلين العزل الأبرياء، وألقيت عدة قنابل ــ لا سيما في الباحة رقم (٢)، واستخدمت بعض قاذفات اللهب مع إطلاق النار الكثيف في كل من الباحات الثلاث، على حيت تعالت أصوات المعتقلين بهتافات: الله أكبر.

وخلال دقائق قليلة انتهى الأمر، لكن بعض المعتقلين في الباحة رقم (١)؛ تمكنوا من الهروب، وتمكنوا من دخول المهجع الكبير المزدوج (٤ و٥)، فتواروا فيه، فلحق بهم بعض عناصر سرايا الدفاع، فقتلوهم ومثّلوا بهم.

حين انتهت العملية في الساحات الثلاث، تجمع القتلة وانطلقوا إلى الباحات الثلاث الأخرى، ولكيلا تتكرر عملية هرب بعض الضحايا إلى المهاجع؛ قرر الضباط دخول المهاجع على المعتقلين، وقتلهم فيها.

اندفعت ست مجموعات من القتلة إلى الباحة رقم (٤)، وفيها ثلاثة مهاجع مليئة بالمعتقلين، فتوجهت كل مجموعتين إلى مهجع، وفتح الباب، وقدم رئيس كل مهجع الصف، فدخلوا عليهم، وأمروهم بالابتعاد عن الباب، ثم ألقوا على المهجع قنبلتين دفاعيتين، ثم دخلوا

عليهم، وأخذوا يُطلقون رصاصهم رشاً على الضحايا الذين ارتمى معظمهم على الأرض بين قتيل وجريح، واستمروا في ذلك إلى أن أتمّوا قتل من في المهجع.

ثم انطلقت المجموعات إلى الباحات رقم (٥ و٦)، حيث توزّعت على المهاجع الخمسة الباقية، وتم فتح الأبواب عليهم، وبُدئ بإطلاق النار على المعتقلين العُزّل.

وفي أحد مهاجع الباحة رقم (٥) اختبأ أحد المعتقلين في دورة المياه بالقرب من الباب، وحين دخلت العناصر المسلحة، وبدأت بإطلاق النار على المعتقلين العُزّل، انقضّ هذا المعتقل من دورة المياه، وتمكّن من انتزاع السلاح من أحد عناصر سرايا الدفاع، وهو الرقيب اسكندر أحمد، وأطلق عدة طلقات أدت إلى مقتل هذا الرقيب وجرح أثنين آخرين ، لكن بقية العناصر المسلحة بادرت إلى إطلاق النار على المعتقل البطل حتى استشهد.

قام بعض الضباط والعناصر بتقليب جُثث الضحايا، والتأكد من مقتلها أو الإجهاز على من فيه بقية رمق؛ حتى تلطّخت أيديهم وثيابهم وصدورهم بالدماء، مثل الملازم: رئيف عبد الله، والملازم منير درويش، والرقيب علي محمد موسى.

بقي دم الضحايا البريئة يغمر أرض السجن؛ وتجمد في كثير من الأماكن من الباحات والمهاجع، فتم تنظيف الساحات، وتم طلاء جدران السجن بسرعة لإخفاء معالم الجريمة، أما المجرمون منفذو العملية فقد عادوا إلى مطار المزة في الساعة ١٢,٣٠ ظهراً، وانصرفت مجموعة اللواء ١٣٨ إلى لوائها، كما انصرفت مجموعة اللواء ٤٠ إلى لوائها، وكان بانتظارهم الرائد معين ناصيف، حيث اجتمع بهم في السينما، وشكرهم على جهودهم، وعزاهم بوفاة الرقيب اسكندر، وقال لهم: أنتم قمتم بعمل بطولي، بعمل رجولي، ثم أمرهم بكتمان العملية، وقال لهم: ما لازم تطلع هالعملية خارج منا، يعني لازم تظل مكتومة وسرية.

وفي اليوم التالي وزعت السلطة مبلغ ٢٠٠ ليرة سورية على كل عنصر من العناصر الذين اشتركوا في هذه الجريمة.

ملاحظة:

هذه التفاصيل جاءت ضمن اعترافات الرقيب المجرم عيسى إبراهيم فياض، والعريف المجرم أكرم علي جميل بيشاني، وكلاهما علويان من سرايا الدفاع، اشتركا في محاولة فاشلة لاغتيال رئيس الوزراء الأردني السابق مضر بدران، وأدليا باعترافاتهما كاملة على شاشة التلفزيون الأردني، ونشرت في كتاب الوثائق الأردنية – ١٩٨١، والذي طبعته وزارة الإعلام الأردنية بتاريخ ١٩٨١/٢/٢٥.

هذا وقد اطلعت لجنة حقوق الإنسان التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، التي انعقدت في جنيف في دورتها السابعة والثلاثين على وقائع مجزرة تدمر، خلال مناقشتها للبند ١٣ من جدول الأعمال الخاص بانتهاكات حقوق الإنسان في العالم، ووزعت على اللجنة الوثيقة رقم (E/CN/4/1469) تاريخ ١٩٨١/٣/٤، والتي تضمّنت إفادات المشاركين في مجزرة تدمر، (عيسى إبراهيم الفياض وأكرم بيشاني). وناقشت اللجنة بجلستها رقم ١٦٣٢ تاريخ ١٩٨١/٣/٩ مضمون المذكرة وشارك في النقاش مندوبو الأردن والعراق وسورية.

بعض مجرمي مجزرة تدمر من المخططين والمنفّذين

(وكلهم من الطائفة النصيرية (العلوية))

١. حافظ أسد (رئيس الجمهورية وقت المجزرة).

٢. رفعت أسد (قائد سرايا الدفاع).

٣. المقدم فيصل غانم (مدير سجن تدمر).

٤. المقدم علي ديب ــ قائد اللواء (١٣٨) من سرايا الدفاع (من محافظ اللاذقية).

٥. الرائد معين ناصيف ــ قائد اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع.

٦. المقدم سليمان مصطفى ــ قائد أركان اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حماة).

٧. الملازم أول ياسر باكير ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظ حماة).

٨. الملازم منير درويش ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظ اللاذقية).

٩. الملازم رئيف عبد الله ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظة اللاذقية).

١٠. الرقيب محمد عمار ــ من حراس منزل معين ناصيف (من محافظ اللاذقية).

١١. الرقيب علي موسى ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظ حمص).

١٢. الرقيب همام أحمد ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).

١٣. الرقيب نزيه بلول ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حمص).

١٤. الرقيب طلال محي الدين أحمد ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة اللاذقية).

١٥. الرقيب عيسى إبراهيم فياض ــ من حراسة منزل معين ناصيف (من محافظ اللاذقية).

١٦. الرقيب بدر منصور ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).

١٧. العريف أكرم البيشاني ــ من حراسة منزل معين ناصيف (من محافظة طرطوس).

١٨. العريف إبراهيم يونس ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظة حمص).

١٩. العريف إبراهيم مكنا ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).

٢٠. العريف طاهر زباري ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).

٢١. العريف علي صالحة ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع ــ منطقة مصياف.

٢٢. العريف عبد الرحمن هدلان ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع.

٢٣. العريف ناصر عبد اللطيف ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة طرطوس).

٢٤. العريف غسان شحادة ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة اللاذقية).

٢٥. العريف حسين عيسى ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حمص).

٢٦. العريف بشير قلو ــ من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حمص)

سجن تدمر العسكري :

يقع سجن (تدمر) العسكري في أقصى الناحية الشمالية من مدينة تدمر، وعلى مفرق قصير يصلها بالطريق القادم من حمص ودمشق إلى دير الزور عبر تدمر نفسها، وهو في الأصل جزء من ثكنة عسكرية يعود تاريخا إلى زمن الاحتلال الفرنسي.

ومن المعروف أن هذا السجن الصحراوي مخصص لتأديب المنحرفين من العسكرية، ولذلك أطلق على المجموعة العسكرية فيه (سرية التأديب)، ولعل أول مرة تفتح أبوابه فيها لاعتقال سياسيين كانت حين نُقلت إليه مجموعة من قادة الإخوان المسلمين في أواخر حزيران ١٩٦٦، منهم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، د. محمود بابللي، عادل كنعان، أحمد بنقسلي، مروان حديد، جودت سعيد، وغيرهم.

ويلاحظ أيضاً، أن نصف السجن أحدث بناءً من النصف الآخر، ولعل النصف الجديد بُني بعد جلاء الاستعمار الفرنسي، وفي الستينات على الأرجح.

صورة سجن تدمر

طريق اسفلتي

مخطط سجن تدمر العسكري

مصور سجن تدمر العسكري



اعترافات بعض المشتركين في مجزرة تدمر :

(الاعترافات التي أدلى بها بعض المشتركين في مجزرة تدمر على شاشة التلفزيون الأردني)

إفادة المجرم عيسى إبراهيم فياض



س: ممكن تقدم نفسك؟

ج: عيسى إبراهيم حامد فياض، بلدتي (قويقة) تابعة لمحافظة (اللاذقية)، تاريخ الولادة ١٩٦٠، أعزب، علوي، والدي إبراهيم حامد فياض، مزارع، والدتي جميلة صقر، مربية بيت، ثقافتي: الحدي عشر، درست بقرية (قويقة) حتى الثالث الإعدادي؛ والتحقت بقرية عين العروس بمدرسة ثانوية تابعة لمحافظة اللاذقية.

تركت المدرسة، اشتغلت مع أبي، مزارع عادي لمدة سنة، والتحقت بسرايا الدفاع في ١٩٧٩/٣/١٠، وأنا الآن رقيب بسرايا الدفاع، ورقمي (٠٩٥٦٩٨٢).

س: سيد عيسى، وضّح لنا خدمتك العسكرية؛ بشيء من التفصيل.

ج: التحقت بسرايا الدفاع، بمعسكر القابون / ك دورة أغرار، ظلّت دورة الأغرار شي ٤٥ يوم، والتحقت بدورة ثانية بنفس المعسكر دورة صاعقة، استمرت حوالي ثلاثة أشهر وأكثر، وانتقلنا من معسكر القابون لمعسكر يعقوب الواقع في دمشق، كدورة قتال عادي للكتيبة لدورة يعني كتيبة مشاة، هنيك تدربنا على السلاح، على بارودة كلاشن رشاش قاذف قنابل، رمي قنابل، وتدريبات عادية؛ ككل التدريبات، أي كتيبة مشاة، استمرت هالدورة حوالي ثلاثة أشهر، رجعنا لمعسكر القابون، وهنيك عملنا مظلات حوالي ٢٥ يوم لثلاثين يوم، بعدها التحقت باللواء أربعين اللي قائده الرائد معين ناصيف زوج بنت العقيد رفعت أسد (تماضر الأسد) علوي من محافظة اللاذقية، واستريت على هالشي يعني تدريب عادي في الكتيبة ٣٠٢ بنفس اللواء مشاة حتى تمّ التحاقي بحراسة مترل الرائد معين ناصيف اللي هو قائد اللواء، عدد مجموعة الحراسة كان ٢٥ عنصر، مسؤول عنّا الرقيب أول صلاح إبراهيم، علوي وهو وجميع أفراد عناصر الحراسة علويين.

س: عيسى .. إيش المهمات اللي كُلّفت فيها أثناء خدمتك بسرايا الدفاع؟

ج: كُلّفت بمهمتين.

س: إيش المهمة الأولى؟

مجزرة سجن تدمر

المهمة الأولى: مهمة سجن تدمر في ١٩٨٠/٦/٢٦، تعرض سيادة الرئيس حافظ الأسد لمحاولة اغتيال، فجر اليوم الثاني ١٩٨٠/٦/٢٧ فيّقونا الساعة الثالثة بالليل الصبح، وقالوا لنا اجتماع في لباس الميدان الكامل مع الأسلحة، واجتمعنا بالساحة، وأخدونا إلى سينما في اللواء (٤٠)، وهناك كان منتظرنا الرائد معين ناصيف قائد اللواء، ألقى فينا كلمة، قال هدول الإخوان المسلمين ما عم بفرقوا بين مسلم علوي ومسلم سني ومسيحي، عم بيقتلوا في الشعب، وامبارح حاولوا اغتيال الرئيس، لذلك اليوم راح تقوموا بهجوم على أكبر وكر لهم؛ وهو سجن تدمر، قال مين ما بده يقاتل؟ ما حدا رفع إيده، الأمر العسكري، قال لنا اطلعوا بالسيارات، طلعنا بالسيارات، مجموعة قدرها (٨٢) واحد تقريباً، ووصلنا لمطار المزة القديم، وكان في انتظارنا مجموعة من اللواء ١٣٨؛ أحد ألوية سرايا الدفاع، إللي قائدة المقدم علي ديب ــ علوي ــ من اللاذقية، وكان موجود في انتظارنا عشرة طائرات هيلوكوبتر.

طلعنا بالطائرات بقيادة قائد أركان اللواء ١٣٨، المقدم سليمان مصطفى ــ علوي ــ، وكان معنا ضباط: الملازم أول ياسر باكير ــ علوي ــ من حماة، والملازم منير درويش ــ علوي ــ، والملازم رئيف عبد الله ــ علوي ــ، يعني الثلاثة هدول من اللواء أربعين، طلعنا بالطائرات اتجاه تدمر، وصلنا حوالي الساعة ستة ونص الصبح بنفس اليوم، وهناك نزلنا من الطائرات، وفرقونا إلى مجموعتين؛ مجموعة اقتحام؛ ومجموعة ظلّت بالمطار، المجموعة اللي راحت على السجن إجت سيارة تراك ونقلتنا للسجن، بالسجن توزعنا لمجموعات حوالي شي ستة مجموعات وأكثر، يعني كانت مجموعتي أنا حوالي أحد عشر واحد يعني، المجموع الكلي اللي تحرك للسجن حوالي ستين واحد هيك شي، مجموعتي كانت بقيادة الملازم منير درويش.

وفتحوا لنا باب المهجع يعني الباب تبع المهجع اللي دخلنا حوالي ستة لحد السبعة، قتلنا اللي فيه، كان مجموع اللي فيه حوالي ستين واحد، سمعت أنا إنه فيه قتيل أخذ بارودة من زميلي من السرايا اسمه (اسكندر أحمد) رقيب، رحت أنا لعنده وشفته، وإلا واحد بناديلي، قلت له: شو بدّك، قال اعطيني مخزن، قلت له: ليش، قال لي: في واحد لسّه مام مات، بدنا نموته، قلت له: أعطيني بارودتك، أعطيته بارودتي لزميلي بارودته كانت خربانه، أخذت بارودته، ورشّيت، يعني كان مجموع اللي رشيتهم حوالي ١٥ واحد.

ومجموع اللي قتلوا في السجن من الإخوان المسلمين كان حوالي ٥٥٠ واحد، والمجموع اللي قتلوا من السرايا كان واحد، واثنين جرحى، طلعنا عاد صار الواحد يغسل إيديه ورجليه، وفي كانوا ملطخين بالدماء، وكان الملازم رئيف عبد الله، طلعنا، سألوه للملازم رئيف عبد الله:

ليش كنت تفرق المساجين، هيك كل واحد لوحده، قال: إمبارح كانوا يقتلوا إخواننا في حلب بكلية المدفعية.

س: كيف كان يفرق بين المساجين؟

ج: يعني اللي ما مات يموته.

س: يتفقد فيهم؟

ج: آه، قلت كمان في ضابط أطلق نار على واحد ما قتل، قال له تعال مكفي عليه ما قتلت واحد من عصابة الإخوان المسلمين، فطلعنا بسيارة واحدة، ونقلتنا للمطار، وكان في انتظارنا المجموعة التي ظلت بالمطار وطيارات الهيلوكوبتر.

س: كم استغرقت المهمة هذه؟

ج: استغرقت حوالي نصف ساعة، كان في دوي قنابل، وصيحات الله أكبر، وطلعنا بالطائرات، واتجهنا باتجاه الشام لمطار المزة القديم، ومن هنيك مجموعة اللواء ١٣٨ اللي تابعة لسرايا الدفاع طلعت على لوائها، ومجموعتنا لواء ٤٠ طلعت على لوائها، كان بانتظارنا الرائد معين ناصيف اللي قال لن شكرنا على جهودنا وعزّانا بوفاة زميلنا، وقال لنا كل واحد يلتحق بعمله، فالتحقنا بعملنا.

س: إنت بيّنت لنا إيش دورك، ما بيّنت لنا أدوار زملائك اللي اشتركوا في العملية هذه؟

ج: مثلاً في محمد عمار قتل اللي قتل اسكندر أحمد، هذا الرقيب اللي قتل معنا خلّصوا البارودة قتلوه، وقالوا لي إنه رش كمان في المهجع نفسه، محمد عمار بحراسة مترل الرائد معين ناصيف ــ علوي ــ إبراهيم يونس ــ علوي ــ عريف مجند من منطقة مصياف، وكمان قال لي رشّيت ما بعرف شو رش، بس قال إنّه رشيت.

س: ما حدد عدد معين من اللي رشهم؟

ج: أبداً، ما قال لي، في (إبراهيم ماكنا) كان مع الملازم رئيف عبد الله. إبراهيم مكنا ــ علوي ــ عريف مجنّد من منطقة جبلة ــ محافظة اللاذقية كان يفرد مع الملازم رئيف عبد الله المساجين.

س: وين ذكرلك هذا الشي عن أدوارهم؟

ج: إبراهيم مكنا أنا شفته، شفته مع الملازم رئيف عبد الله في الـ .. إبراهيم يونس حكى لي بالسكن، كنت نازل أنا وياه عالبلد، حكى لي محمد عمار قال إنه قتلته.

س: طيب لما رجعتم من السجن، جى أي توجيه أمر لكم؟

ج: الرائد معين قال: إنه ما لازم تطلع هالعملية خارج منا، يعني لازم تظل مكتومة وسرية.

س: بالنسبة لسجن تدمر، كيف كان جو السجن قبل قيامكم بهذه العملية؟

ج: كان هادئ ما في أصوات، ما في شي، بعدين طلعت الأمور مرتبة قبل دخولنا، يعني ما في حدا اعترضنا بالدخول، الشرطة كانت حرس واقفة، في جماعة حرس على الباب، ورئيس حرس، وفي شرطة بالساحة. أخذوا التفقد قبل العملية، تفقد المساجين.

س: تفقد للمساجين؟

ج: قبل بدء العملية.

س: طيب رقيب عيسى، بالنسبة لزملائك في سرايا الدفاع، في حد منهم كلّف في مهمات أخرى؟.

ج: والله بعرف بمفرزتي، مفرزة الرائد معين ناصيف لحراسة منزله، اللي رافقوا السيد عبد الحليم خدام وزير الخارجية، علي موسى، رقيب.

س: وين رافقوه؟

ج: رافقوه على مؤتمر القمة العربي، بعرف علي موسى رقيب من حمص ــ علوي، بعرف همام أحمد من منطقة جبلة ــ علوي، بدر منصور ــ رقيب من منطقة جبلة ــ علوي، وعلي صالحة ــ عريف من منطقة مصياف ــ علوي، عبد الرحمن هدلان ــ علوي/ عريف، نزيه بلول ــ عريف علوي، بشير قلو وعلي موسى شاركوا في عملية تدمر.

س: شاركوا في عملية تدمر، ورافقوا السيد عبد الحليم خدام لعمان؟

ج: نعم، وفي علي صالحة وطاهر زباري، راحوا بمهمة سرية لروما وإسبانيا.

اعترافات المجرم أكرم بيشاني



س: ممكن تقدم نفسك؟

ج: أنا أكرم علي جميل بيشاني من محافظة طرطوس، قرية يحمور، مواليد ١٩٦٢، أعزب، شهادتي السادس الابتدائي، علوي، اسم أمي: حليمة يعقوب، والاثنين يقيمـــوا حاليـــاً في قريـــة يحمور.

س: إيش عملك يا أكرم؟

ج: حالياً عريف في سرايا الدفاع.

س: شو خدمتك العسكرية؟

ج: في ١٩٧٨/٣/٢٣ التحقت في صفوف سرايا الدفاع، ونُقلت إلى معسكر التدريب، وهو معسكر القابون في دمشق، وهناك التحقنا في دورتين، الأولى: وهي دورة لغة، والثانية: دورة الصاعقة، ومن بعدها نُقلت إلى كتيبة مدفعية رقمها ١٤٩، من لواء ٤٠ سرايا الدفاع، بالضبط هيك في شهر ٥، سنة ١٩٨٠ نُقلت ضمن مجموعة الحراسة، المفرزة حراسة بيت الرائد معـــين ناصيف، والمجموعة هاي حوالي ٢٥ عنصر.

س: إيش مركز الرائد معين ناصيف؟

ج: قائد، هوه معين ناصيف قائد اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع، علـــوي، مـــن قـــضاء اللاذقية، وتزوج ابنة رفعت الأسد، تماضر الأسد، والعقيد رفعت الأسد شقيق حـــافظ الأســـد، وقائد سرايا الدفاع.

س: إيش المهمات اللي كُلفت للقيام بها أثناء خدمتك في سرايا الدفاع؟

ج: كلفت في مهمتين، الأولى: هي مهاجمة سجن تدمر، والمهمة الثانية: في داخل الأردن.

س: إيش المهمة الأولى؟

ج: المهمة الأولى هي مهاجمة سجن تدمر، حيث أنه بعد محاولة اغتيال الـــرئيس حـــافظ الأسد بالشهر السادس السنة الماضية، أيقظونا بعد بيوم، يعني حثّونا من المهجع حـــوالي الـــساعة الثالثة والنصف صباحاً، وقالوا لنا اجتماع بالسينما في قاعة السينما الموجودة في اللـــواء، مـــع السلاح الميداني الكامل، وطلعنا وصلنا على السينما، كان عدد المجموعة الموجودة في السينما من اللواء ٤٠ حوالي ١٠٠ عنصر، مع ثلاث ضباط، وبعدين إجا قائد اللواء، اجتمع فينـــا وألقـــى كلمة، بعد الكلمة قال هو إنه الإخوان المسلمين قتلوا ضباط؛ قتلوا مـــشايخ؛ قتلـــوا الأطبـــاء؛ وبالنهاية حالوا اغتيال الرئيس حافظ الأسد، وهلا بدنا انكلفكوا بأول مهمة قتالية.

طلعنا بعدين من اللواء ٤٠ بسيارات، ووصلنا إلى مطار المزة، كان موجود هناك بالمطار هناك مجموعة من اللواء ١٣٨، يُقدر عددها بحوالي ١٠٠ عنصر، واللواء ١٣٨ قائده اللواء علي ديب علوي، من قضاء اللاذقية، هناك كما كان موجود (٩) طائرات هيلوكبتر، جمعونا هنـــاك

على شكل مجموعات، وكل مجموعة تسلمها ضابط، وطلعونا على الطائرات الموجـودة هنـاك، وكل طائرة تسع لحوالي ٢٤ عنصر، طلعونا من مطار المزة، كان قائد العملية هناك، يعني اللي هو قائد أركانه للمقدم علي ديب، علوي من قضاء اللاذقية، بس ما بعرف شو اسمه، أقلعنا إلى مطار تدمر، أقلعنا حوالي الساعة الخامسة، وصلنا هناك حوالي الساعة السادسة أو السـادسة وعـشر دقائق، فجمعونا هناك، وطلب قائد العملية المقدم اجتماع الضباط، جمع الضباط وقال لهم: أعطوا العناصر استراحة حوالي ثلاث أرباع الساعة، وبعد الاستراحة قسمونا على شـكل مجموعـات، فاللواء ٤٠ كان على شكل ثلاث مجموعات، وكل مجموعة استلمها ضابط الواحد بيعرف اسمـه بيقول له فلان إنته تعال، أو اللي ما بيعرف اسمه بأشر له بإيده إنّه تعال، انتقوا حوالي ٨٠ عنصر، كذلك حوالي كمان انتقوا ٢٠ عنصر لحراسة الطائرات، والباقي خلوهم على شكل احتيـاط في المطار.

بعدين اتوجهت العناصر هذا اللي انتقوهم يطلعوا حوالي ٨٠ عنصر، هذا اللـي بـدهم ينفذوا العملية داخل السجن، توجهوا على شكل مجموعات بسيارة نقلتهم إلى داخل الـسجن، بعد ثلاث أرباع الساعة من دخولهم إلى باب السجن الخارجي بدأنا نسمع صوت إطـلاق نـار دوي انفجار صوت قنابل، يقدر عدد القنابل بحوالي سبعة قنابل تفجرت هناك، ودام إطلاق النار حوالي ثلاث أرباع الساعة، كمان بعده طلع العناصر من السجن مثل ما دخلوا طلعوا على شكل مجموعات.

س: إنته كنت مع أي مجموعة؟

ج: أنا كنت مع مجموعة الاحتياط ياللي ظلت هناك بالمطار، بقي لما طلعوا العناصر مـن السجن كان فيه بعض الناس ملطخين بالدماء، ملطخين ملابسهم بالماء، بعرف أسماء ياللي تلطخوا ثيابهم بالدماء هوه الملازم رئيف عبد الله، الملازم منير درويش، الرقيب علي محمد موسى، وطلعنا كل واحد على الطائرة.

س: من اللواء ٤٠ والا؟

ج: لا.. من اللواء ٤٠ هدول، طلعنا بعدين على الطائرات مثل ما إجينا، ورجعنـا إلى مطار المزة، وصلنا لمطار المزة حوالي الساعة الثانية عشرة الظهر، منصاب معنا واحد، والشي اللي خلاني أعرف إنه انصاب معنا واحد فيه الملازم ياسر باكير من اللواء ٤٠ قال وجه كلامه لكافة العناصر إنه قائد اللواء بده يجتمع فينا هلا في السينما، إذا سأل عن الإنسان اللي انصاب قولوا له إنه طلقة مرتدة ضربت في الحائط ورجعت عليه بعدين انصاب، قلنا له ماشي الحـال، وطلعنـا بالسيارات واتجهنا اتجاه اللواء ٤٠، واجتمعنا في قاعة السينما.

س: جميعكو اتجهتوا مع بعض إنتو وأفراد اللواء ١٣٨، والا ٤٠ لوحدهم؟

اللواء ٤٠ لحاله، وهدولاك راحوا على المعسكر تبعهم، فاللواء ٤٠ ناس يعنس اللي اشتركوا من اللواء ٤٠ اجتمعوا في السينما، وإجا قائد اللواء ألقى كلمة شكر.

س: اللي هو الرائد معي ناصيف؟

ج: الرائد معين ناصيف ألقى فيهم كلمة شكر، بذكر منها إنه: إنتو قمتو بعمل بطولة، بعمل رجولة، مع العلم إنه لأول مرة بنكلفكوا بهيك مهمة، بعدين طلعنا من قاعة السينما، وأخذ كل إنسان يتحدث مع زميله، فالتقت أنا مع أحد زملائي هناك، وهو الرقيب علي موسى من مفرزة حراسة الرائد معين ناصيف، سألته لإنه هو من الجماعة اللي دلوا على السجن، إنه شلون هناك تمت العملية، قال: إنه قسمونا على شكل مجموعة كانت حوالي ٨ عناصر، وكل مجموعة تسلمها ضابط، كانوا يفوتوا على الغرفة ياللي فيها السجناء، يفتحوا الباب، ويطخوهم مباشرة بدون سؤال، بدون أي كلام، فقلت طيب هدولاك ما كانوا يستنجدوا؟، قال: كانوا يستنجدوا ويقولوا: (الله أكبر)، كانوا يقولوا لنا منشان الله، مشان محمد، مشان إمك، مشان أختك ما تقتلنا، قال لي: إنه ما كانوا يستمعوا لها الحكي هاي نهائياً.

وطخوهم وبعدين طلعوا، قلت له طيب قديش تقدر عدد القتلى ياللي داخل السجن من السجناء؟، قال لي عدد القتلى بيطلعوا ٥٠٠ إلى ٦٠٠ قتيل من السجناء، هدول ياللي في السجن، وفي اليوم التالي وزعوا لمل الناس هاللي اشتركوا، لكل الزملاء ياللي اشتركوا بالمهمة، كل واحد ٢٠٠ ليرة سوري.

س: مين تعرف من اللي اشتركوا بها العملية؟

بعرف العريف ناصر عبد اللطيف من قضاء طرطوس أو اللاذقية، ما بعرف بالضبط، علوي، بعرف العريف غسان شحادة من قضاء اللاذقية، بعرف العريف طاهر زيادي من قضاء اللاذقية، علوي، والرقيب طلال محي الدين أحمد، علوي، من اللاذقية، والرقيب نزيه بلول، علوي من قضاء حمص، والعريف حسين عيسى، علوي من قضاء حمص، والرقيب همام أحمد، علوي من اللاذقية، هدول هنه الناس اللي بعرفهم من اللي اشتركوا.

س: مين تعرف من الضباط اللي اشتركوا؟

ج: منهم الملازم رئيف عبد الله من كتيبة المشاة، التابعة للواء ٤٠ سرايا الدفاع، مقضاء اللاذقية، علوي، والملازم منير درويش، كمان من كتيبة المشاة، تابع للواء ٤٠ سرايا الدفاع، من قضاء اللاذقية علوي، والملازم أول ياسر باكير من اللواء ٤٠، كمان علوي من قضاء حماة.

س: إنته يا أكرم كشاب في بداية شبابك، شو اللي اللي ورطك في هيك مهمات، وليش اخترت سرايا الدفاع؟

ج: أولاً، فيّ أقول إنه الشي اللي خلاني أختار سرايا الدفاع هوه سوء حـالتي الماديـة، والرواتب اللي يتقاضاها جنود سرايا الدفاع أعلة من الرواتب في أي قطاعات الجـيش الثانيـة، حيث أن جندي في سرايا الدفاع يتقاضى حوالي ١٢٠٠ ليرة سوري، أما أي جنـدي في بقيـة قطاع الجيش يتقاضى حوالي ٥٠٠ ليرة أو ٦٠٠ ليرة سوري، أما بالنسبة لورطتي في هذه العملية أنه بستطيع أن أقول أنهم استغلوا ظروفي كإنسان حالتي المادية سيئة، وأغروني بالفلوس واستغلوا صغر سني، كمان استغلوا كوني عسكري مأمور، وما فيّه أرفض هيك أوامر.

ج: بالنسبة للضباط تعرف شي يعني من تميزهم عن الضباط الآخـرين، يعـني ضـباط السرايا، سرايا الدفاع، يتميزوا بشي عن ضباط آخرين في الجيش السوري؟

س: والله ما بعرف عن الضباط ككل، بس بعرف عن الضابط اللي أنا عنهد موجود.

س: اللي هوه؟

ج: الرائد معين ناصيف، موجود عنده حوالي ٨ سيارات يعني.

س: خاصة منه؟

ج: خاصة ومنه وحالته المادية كويسة يعني.

س: كيف عايش هذا الضابط اللي إنته تقوم بحراسته؟

ج: عايش إنسان مرفه يعني بشكل.

رسالة سجينة من تدمر

بسم الله الرحمن الرحيم

كم رسالة كتبناها ، كتبناها بأناتنا، بدموعنا، أرسلناها مع الأثير، علها تلقى من يسمعها.
لم نكن نستطيع إرسال حرف على ورق، فأرسلنا آهات

واستصرخنا في دجى الليل ..

ولكن من يسمعنا في ظلمتنا، ولما يتجاوز صوتنا جدرانا سوداء، وقضبانا حديدية،

رحمنا ربنا، واستطعنا إرسال هذه السطور، نلقي فيها شعاعا يعكس للعالم

ما يجري لنا، نحن القابعات في أقبية السجون، تنهال علينا ألوان العذاب

ليل نهار، ويأتينا الزبانية ثمالى ... متوحشون ...

ليتهم ظلوا يعذبونا كما بدأوا بالسياط والكهرباء، ليتهم تركوا أختنا تلفظ

أنفاسها بعد ما لاقته من العذاب ولم ينتزعوا منها عفتها، ليتنا متنا قبل هذا وكنا نسيا منسيا.

قالتها مريم العذراء دون عذاب ودون وحوش بشريه، وفي أحشائها روح من ربها، فماذا نقول نحن ؟ بماذا ندعو ؟!

نستصرخ العالم أن ينقذنا من عذابنا، ننادي بأعلى صوتنا، بكل جوارحنا، كل ذرة فينا تصرخ وتستغيث، كل قطرة دم. كل نبضة عرق، كل نفس يصعد ويهبط يصرخ وامعتصماه .. وامعتصماه..

نادت بها امرأة واحدة، فلبى رجال كثير، ونحن هنا مئات من اللواتي يسحقهن طغاة حاقدون، مئات يعذبن، يقتلن كل لحظه بألف قتلة ولا يمتن ..

ألا من معتصم ... ألا من معتصم ...ألا من مسلم ينصر نساء يسحقن .. رباه لمن النداء ؟؟

طال بنا البقاء، أياما وشهورا .. وتتلوها الشهور ودماء المجرمين تسري في عروق جنين في أحشائنا، ماذا نفعل؟..

رباه .. لم يجبنا أحد فارحمنا .. لا نريد منكم أن تنقذونا، بل هدموا علينا السجون، أفتوا لنا بقتل أنفسنا وقتل ما في بطوننا .. فلم نعد نقوى على احتمال ما بنا، لا ليل يقلنا، ولا نهار ينير ظلمة حياتنا ..

يا عالم استفق، طال بك الرقاد، طال بك الرقاد ونحن لا نعرف الرقاد ..

يا عالم استفق، لك يوم تقف فيه بين يدي الله ليسألك ربك ماذا فعلت ؟!

ماذا فعلت لمن انتهك عرضها ؟

ماذا فعلت لمن فقدت وعيها من صدمات الكهرباء ؟

ماذا فعلت لمن علقت في السقف من قدميها بعد أن نزع عنها الحجاب، وتناثرت عنها الثياب، وضربت بقضيب ثقيل من حديد، فأسلمت وعيها لربها، لا تعلم كم من الساعات هي على هذه الحال ؟

ماذا فعلت أيها العالم المسلم وأختك هناك في دولاب طويت فيه تنهال عليها السياط، تسيل دماؤها، تتورم أقدامها، تفقد صوابها ولا من مغيث . ماذا فعلت لمن عذبوا زوجها على مرآها واستغاثت دماؤه فلم يجب أحد فانفجرت لتسيل على ثيابها ؟

ماذا فعلت لمن سيقت إلى المستشفى بين الموت والحياة بعد أن نهش لحمها ستة وعشرون مفترسا متوحشا ؟

ماذا فعلت ؟ .. وماذا فعلت ؟ ..

بماذا ستجيب ؟ .. ومن أين لك أن تجيب و أنت ما تزال في الرقاد

أختكم المعذبة

ونختم ملف مجزرة سجن تدمر ، بقول الله عز وجل : {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} (٤٢) سورة إبراهيم . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تقرير منظمة العفو الدولية عن التعذيب في سجن تدمر العسكري :

[نص التقرير الصادر بتاريخ ١٣ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ رقم الوثيقة: MDE 24/014/2001 (بتصرف)] .

المقدمة :

"الحياة في تدمر أشبه بالسير في حقل ألغام؛ فقد يفاجئك الموت في أية لحظة، إما بسبب التعذيب أو وحشية السجَّانين أو المرض أو الإعدام."

[سجين سابق في سجن تدمر]

ويوصف عادة سجن تدمر في سوريا اليوم بأنه مكان "الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود" وقد اكتسب السجن هذه السمعة السيئة بسبب الأنباء المتواصلة على مدى سنوات عديدة حول ممارسة التعذيب وسوء المعاملة بصورة منهجية فيه. وفي سوريا كانت تدمر موقعاً لحضارة قديمة، ومثالاً على إنجاز وإبداع إنساني عظيم - وما زال آلاف السياح يتوافدون عليها كل عام. واليوم أصبح سجن تدمر مرادفاً للوحشية واليأس والتجريد من الإنسانية.

ويقاسي السجناء في سجن تدمر مستوى مروعاً من الوحشية. ومن الصعب التصديق بأن ضروب التعذيب والمعاملة السيئة التي يصفها هذا التقرير ما زالت تحدث في أيامنا هذه. ومع ذلك ترسم الشهادات التي أدلى بها السجناء السابقون والتي جمعتها منظمة العفو الدولية صورة ثابتة للتعذيب اليومي والأوضاع اللاإنسانية والتحطيم والإذلال المتواصلين. ويُحرم الضحايا الذين يجدون أنفسهم عاجزين إزاء هذا المسلسل من الانتهاكات من سلوك دروب العدالة أو الإنصاف.

وقد جمعت منظمة العفو الدولية شهادات من أشخاص ينتمون إلى مختلف الجنسيات اعتُقلوا بسبب صلاتهم بعدد من الجماعات السياسية المختلفة. ويضم المعتقلون في سجن تدمر سجناء الرأي وسجناء سياسيين آخرين معتقلين من دون تهمة أو محاكمة أو عقب محاكمات بالغة

الجور، غالباً أمام محكمة عسكرية ميدانية. وتعود معظم الشهادات التي استعين بها في هذا التقرير لسجناء اعتقلوا في سجن تدمر بين العامين ١٩٨٠ و١٩٩٦. بيد أن الأنباء التي وردت خلال السنوات القليلة الماضية توحي بأن الأوضاع في السجن ما زالت مروعة.

ويبدو أن سجن تدمر يهدف إلى التسبب بأقصى قدر من الألم والمعاناة والإذلال والرعب للسجناء وإخضاعهم للسيطرة المطلقة من خلال كسر شوكتهم وتحطيمهم نفسياً. ولا يُعزل السجناء بشكل تام عن العالم الخارجي وحسب، بل أيضاً يُمنعون من الاتصال بعضهم ببعض. ويشكل كل جانب من جوانب الحياة في سجن تدمر تجريداً للمرء من صفة الإنسانية.

وتصدر منظمة العفو الدولية هذا التقرير الذي يرتكز على سجن تدمر كجزء من حملتها العالمية لمناهضة التعذيب.

تطورات حقوق الإنسان في سوريا :

قامت منظمة العفو الدولية طوال عقدين من الزمن بتوثيق مجموعة من الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان في سوريا وبحملات ضدها، ومن ضمنها الاعتقال التعسفي للخصوم السياسيين، والاعتقال طويل الأجل لسجناء الرأي والتعذيب والمعاملة السيئة وعمليات القتل السياسي.

وبموجب حالة الطوارئ التي تظل سارية المفعول من دون انقطاع منذ ٨ مارس/آذار ١٩٦٣، استطاعت مختلف شُعب أجهزة الأمن اعتقال المتهمين السياسيين بصورة تعسفية ساعة تشاء ولأطول مدة تحلو لها. وقُبض على عشرات الآلاف من الأشخاص في حملات متعاقبة من الاعتقالات الجماعية الموجهة ضد المتهمين بالانتماء إلى التنظيمات اليسارية أو الإسلامية أو القومية العربية أو الجماعات السياسية الكردية أو كل من يمارس أنشطة معارضة للحكومة والسياسات التي تنتهجها. وكان بين المعتقلين المئات من سجناء الرأي. وغالباً ما تعرض المعتقلون للتعذيب أثناء اعتقالهم بمعزل تام عن العالم الخارجي طوال أشهر أو سنوات من دون تهمة أو محاكمة. وأُخفي عن آلاف عديدة من العائلات مصير أقاربها. ويخشى بعض الذين "اختفى" أحباؤهم عقب اعتقالهم من حدوث الأسوأ لهم.

ومنذ بداية التسعينيات، أُطلق سراح أغلبية السجناء السياسيين في سوريا على دفعات بموجب مراسيم عفو رئاسية أو عند انتهاء محكومياتهم. وصدر آخر عفو من هذا القبيل عن الرئيس بشار الأسد في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٠ وشمل بحسب ما ورد ٦٠٠ سجين سياسي ينتمون إلى مختلف جماعات المعارضة. ومنذ العام ١٩٩١ عندما أُعلن أول عفو، انخفض عدد السجناء السياسيين، ومن بينهم سجناء الرأي، من عدة آلاف إلى مئات. وقد رحبت منظمة

العفو الدولية بعمليات الإفراج هذه باعتبارها خطوات مهمة نحو إتاحة سبل الإنصاف عن الانتهاكات الماضية لحقوق الإنسان في سوريا.

وفي مارس/آذار ٢٠٠١، نظرت لجنة حقوق الإنسان - وهي هيئة الخبراء المكلفة بمراقبة تنفيذ العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، في التقرير الدوري الثاني لسوريا الذي كان من الواجب تقديمه في العام ١٩٨٤. ورحبت منظمة العفو الدولية علناً بقرار السلطات السورية تقديم تقريرها إلى اللجنة واعتبرت الخطوة تطوراً إيجابياً يشير إلى تزايد اهتمام السلطات السورية بتعزيز حقوق الإنسان وحمايتها.

بيد أن القلق يظل يساور منظمة العفو الدولية لأن الآليات، المنصوص عليها بموجب قانون الطوارئ للعام ١٩٦٣ التي تسهل ارتكاب انتهاكات حقوق الإنسان ما تزال قائمة بكاملها، بما فيها الصلاحيات الخاصة الواسعة الممنوحة إلى قوات الأمن خارج أي إشراف قضائي. ونتيجة لذلك، يُعرِّض أي عضو أو شخص يشتبه بعضويته في أي جماعة معارضة، نفسه لخطر التوقيف والاعتقال والتعذيب. وعلاوة على ذلك، تشعر منظمة العفو الدولية بالقلق من عدم اتخاذ أي خطوات حتى الآن من جانب السلطات لتقديم تعويض عن الانتهاكات الماضية والمستمرة لحقوق الإنسان؛ فلم تُجرَ أي تحقيقات في حوادث "الاختفاء" أو عمليات الإعدام خارج نطاق القضاء أو التعذيب والمعاملة السيئة، بما في ذلك حالات الوفاة في الحجز. ورغم ورود العديد من مزاعم التعذيب، التي ذكر بعضها الضحايا أنفسهم في المحكمة، لا يبدو أن السلطات السورية أجرت تحقيقات جادة. ورغم أن أغلبية هذه الانتهاكات جرت في الثمانينيات وأوائل التسعينيات، إلا أن الضحايا وعائلاتهم وأصدقائهم ما زالوا يعانون آثارها.

الضمانات النظرية والانتهاكات الفعلية :

يُحظر الدستور السوري التعذيب (المادة ٢٨) ويعاقب عليه قانون العقوبات بالسجن (المادتان ٣١٩ و٣٩١). ومنذ إبريل/نيسان ١٩٦٩، أصبحت سوريا أيضاً دولة طرفاً في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الذي تحظر المادة السابعة منه ممارسة التعذيب. بيد أنه رغم ورود مزاعم متكررة وثابتة حول ممارسة التعذيب، فإنه على حد علم منظمة العفو الدولية لا توجد أية حالات جرى فيها فعلاً تطبيق القوانين السورية المناهضة للتعذيب.

وتشير التقارير التي وثقتها منظمة العفو الدولية إلى أن المتهمين السياسيين قد تعرضوا في معظم الأحيان للتعذيب خلال الفترة الأولية التي تعقب إلقاء القبض عليهم أثناء احتجازهم بمعزل عن العالم الخارجي في السجون ومراكز الاعتقال في شتى أنحاء سوريا. واستُخدم التعذيب كوسيلة لانتزاع معلومات وكذلك كضرب من ضروب العقاب. فمثلاً، من الشائع تعرض المعتقلين

للتعذيب عندما يصلون إلى السجن. وتختلف المعاملة التي يتلقونها في تلك المرحلة والمعروفة باسم "حفلة الاستقبال" من سجن إلى آخر ويمكن أن تتراوح الشتائم والركل واللكم إلى أساليب أكثر قسوة، مثل استخدام طريقة أو أكثر من الطرق المذكورة أدناه.

وتتضمن أكثر طرق التعذيب شيوعاً التي تناهت إلى علم منظمة العفو الدولية الضرب على جميع أنحاء الجسم؛ والضرب على باطن القدمين (الفلقة)، و"الإطار" (الدولاب) الذي يتضمن تعليق الضحية من إطار سيارة معلق وضربه بالعصي والكبلات؛ وصب الماء البارد بصورة متكررة على جسم الضحية. وهناك طريقة أخرى تعرف بالكرسي الألماني تتضمن استخدام كرسي معدني له أجزاء متحركة يربط بها الضحية من يديه وقدميه. وينحني ظهر الكرسي إلى الخلف مما يسبب تمدداً مفرطاً للعمود الفقري وضغطاً شديداً على عنق الضحية وأطرافه. وهذا ما يؤدي إلى صعوبة في التنفس تكاد تصل إلى حد الاختناق، ويقال إنها أدت إلى فقدان الوعي وفي بعض الحالات إلى كسر الفقرات.

وفي تقرير صدر في إبريل/نيسان ١٩٩٥ ذكرت منظمة العفو الدولية أن معظم المتهمين الذين يتجاوز عددهم الـ ٥٠٠ والذين حوكموا أمام محكمة أمن الدولة العليا منذ يوليو/تموز ١٩٩٢ قد شهدوا في المحكمة بأنهم تعرضوا للتعذيب. ولا يُعرف بأن أياً منهم أُجري له كشف طبي ولا يُعرف بأن أي تحقيق قد فُتح. وفي مارس/آذار ١٩٩٧، أبلغ وزير الداخلية مندوبي منظمة العفو الدولية أن أي مسؤول مارس التعذيب أو سوء المعاملة سيمثل أمام المحكمة. وذكر أيضاً أن أي شخص تعرض للتعذيب يملك الحق في تقديم شكوى أمام قاضٍ يحيل القضية عندئذ إلى وزارة الداخلية لاتخاذ الإجراءات الضرورية. بيد أن مزاعم التعذيب التي قدمتها منظمة العفو الدولية إلى السلطات السورية ظلت من دون جواب. ولا يعرف بأن أي تحقيقات قد أجريت في هذه الحالات.

وأحياناً يبدو أن التعذيب يمارس بصورة أكثر نظامية كضرب من ضروب العقاب. وهذا ما ورد أنه يحصل في سجن تدمر حيث يعتقد حالياً أن ما بين ٦٠٠ و٧٠٠ سجين سياسي معتقلين فيه. ويبدو أن السلطات اختارت تدمر لأن بعد موقعه ونظامه القاسي يسمحان بعزل السجناء السياسيين كلياً عن العالم الخارجي أثناء تعذيبهم أو إساءة معاملتهم.

سجن تدمر العسكري :

أشار تقرير هرَّبته في العام ١٩٩٩ مجموعة من السجناء السياسيين السوريين السابقين إلى الوضع في سجن تدمر على النحو التالي :

"تدمر فريد من نوعه بين السجون السورية من حيث كونه مؤسسة عقابيــة في شــكل معسكر اعتقال - وهو مثال حي على التخويف والرعب والتعذيب والقتل، فضلاً عــن كونــه مصدر إذلال نفسي ومعنوي وجسدي (وفي تدمر) واجهنا أحداثاً وفظائع لا تصدق على مــدى سبعة عشر عاماً، اعتباراً من بداية العام ١٩٨٠ وحتى نهاية العام ١٩٩٦."

ويقع سجن تدمر في صحراء حمص على بعد قرابة ٢٥٠ كيلومتراً إلى شمال شرق دمشق. وبني سجن تدمر في البداية كثكنة عسكرية من جانب سلطات الانتداب الفرنــسية في ســوريا (١٩٢٠-١٩٤٦). وفيما بعد استُخدم كما يبدو كسجن للأفراد العسكريين المتهمين بارتكاب جرائم جنائية عادية. ومنذ مطلع السبعينيات بدأ سجن تــدمر يُــستخدم لاعتقــال الــسجناء السياسيين الذين عُزلوا كلياً عن العالم الخارجي، لكن لمدة أشهر في معظم الأحيــان. وفي ذلــك الوقت كانت المواصلات صعبة جداً، مما جعل من المستحيل على العائلات زيارة الأقارب الــذين يُرسلون إلى سجن تدمر. واعتباراً من العام ١٩٧٩ تقريباً بدأت السلطات بإرسال أعداد أكــبر من السجناء السياسيين إلى سجن تدمر الذين فُصلوا عن العسكريين المحتجزين هناك بتهم جنائية عادية. ويخضع السجن لإدارة الشرطة العسكرية، وهي قوة أمنية مسؤولة أمــام وزارة الــدفاع وقيل إن قوة من الوحدات الخاصة موكلة بحراسة السجن. وبوصفه سجناً عسكرياً لا يخضع تدمر لإشراف وزارة العدل التي تجري عمليات تفتيش للسجون المدنية.

وبحسب المعلومات الواردة إلى منظمة العفو الدولية من سجناء سابقين، يوجد في ســجن تدمر سبع باحات تضم فيما بينها نحو ٤٠ إلى ٥٠ مهجعــاً (٤×٦ أو ٨×١٢ متــر) ... و٣٩ زنزانة أصغر حجماً (تتراوح أبعادها بين متر×١،٥ متر و٣،٥×٣،٨ متر). وجميعها فوق الأرض باستثناء حوالي ١٦ زنزانة تحت الأرض تُستخدم لاحتجاز السجناء الذين يواجهــون إجــراءات تأديبية في الحبس الانفرادي. ولا توجد في أي من الزنازين تهوية كافية، لكن المهــاجع مــزودة بنوافذ مغطاة بمشابك من الأسلاك الشائكة في السقف تسمح للحراس بوضع الــسجناء تحــت المراقبة الدائمة. وبعض المهاجع تضاء بصورة دائمة ليلاً نهاراً، أما البقية فتُضاء طــوال الليــل. وبحسب معظم شهادات السجناء الذين احتجزوا هناك في الثمانينيات والتسعينيات، فإن متوسط عدد النــزلاء يتراوح بين ١٣٠ و١٥٠ في المهاجع الصغيرة وبــين ٢٠٠ و٢٥٠ في المهــاجع الكبيرة. ويبدو أن العدد انخفض بشكل ملموس في العامين أو الأعوام الثلاثة الأخيرة. وحتى عام ١٩٨٩، كانت تحتجز أيضاً النساء المعتقلات لأسباب سياسية في سجن تدمر، في قسم معــزول تماماً، ولا يُرى من قبل السجناء الرجال قط؛ ولا يُعرف ما إذا كان قد اعتقل فيه نساء في الأعوام الأخيرة.

وتفاوت العدد الإجمالي للسجناء السياسيين في سجن تدمر على مر السنين، لكن يُعتقد أن عدة آلاف مروا عبر سجن تدمر في مرحلة أو في أخرى خلال اعتقالهم. ويشير أحد السجناء السابقين إلى أن عدداً يصل إلى ٢٠،٠٠٠ سجين سياسي ربما مروا عبر سجن تدمر بين العامين ١٩٨٠ و١٩٩٠، وأن متوسط عدد السجناء المحتجزين هناك في أي وقت بعينه خلال تلك الفترة ربما بلغ نحو ٦٠٠٠ سجين. لكن منذ منتصف التسعينيات، يعتقد أن عدد السجناء السياسيين أصبح بالمئات.

وحالياً يحتجز في سجن تدمر حوالي ٦٠٠ سجين سياسي كما ورد. ويعتقد أن أغلبيتهم من المواطنين السوريين المتهمين بإقامة صلات بالإخوان المسلمين أو حزب التحرير الإسلامي أو حزب البعث الموالي للعراق؛ أما الباقون فهم عرب غير سوريين، ومعظمهم من الفلسطينيين أو اللبنانيين. ويعتقد أن أغلبيتهم محتجزين منذ الثمانينيات. ومن بينهم خالد الشمسي، وهو سوري من حماه في العقد السادس من عمره كان قد قُبض عليه في أواخر ١٩٨١ أو مطلع ١٩٨٢ وطريف حتاحت، وهو مهندس سوري من دمشق قُبض عليه في العام ١٩٨٠. وكلا المعتقلين محتجزان كما يبدو لصلتهما بالإخوان المسلمين، لكن منظمة العفو الدولية لا تعرف ما إذا كانت قد وُجهت إليهما أي تهم أو قُدّما للمحاكمة. وبحسب ما ورد نُقل طريف حتاحت إلى تدمر من سجن صيدنايا في مطلع العام ٢٠٠١.

لقد وثّقت منظمة العفو الدولية نمطاً يتم بموجبه إرسال السجناء السياسيين إلى سجن تدمر كعقاب إضافي. وتلقت المنظمة آخر أنباء هذه الممارسة في العامين ١٩٩٦ و١٩٩٨ عندما نُقلت مجموعتان من السجناء السياسيين، ومن بينهم سجناء رأي، إلى سجن تدمر من سجون لديها أنظمة أقل قسوة، بسبب رفضهم على ما يبدو التخلي عن انتماءاتهم السياسية كشرط للإفراج عنهم. وقد أُفرج عن معظم هؤلاء السجناء بين العامين ١٩٩٧ و٢٠٠٠.

ممارسة التعذيب وسوء المعاملة في سجن تدمر العسكري :

"عندما يشكل الموت حدثاً يومياً يتربص بالمرء من خلف التعذيب وعمليات الضرب العشوائية وقلع العينين وكسر الأضلاع وسحق الأصابع ... (عندما) يحدق بك الموت ولا يمكن تفاديه إلا بمحض الصدفة ... أفلا ترحب بالخلاص عبر رصاصة الرحمة؟"

[مقتطف من تقرير السجناء الذين هُرِّب من سوريا في العام ١٩٩٩م].

وعلى مدى سنوات عديدة، سجَّلت منظمة العفو الدولية نمطاً للتعذيب وسوء المعاملة يبدو أن سجن تدمر ينفرد به. وبحسب الأنباء التي تلقتها منظمة العفو الدولية، فإن "حفلات

الاستقبال" في تدمر ليست إلا بداية لمحنة طويلة. وفيما يلي وصف "لحفلة استقبال" في تـــدمر في الثمانينيات أعطاه معتقل سابق إلى منظمة العفو الدولية.

"وصلت الحافلة إلى سجن تدمر حيث كانت الشرطة العسكرية بانتظارنـــا ... وأنزلنـــا الحراس من الحافلة وهم يجلدوننا بلا رحمة وبوحشية حتى أُهكت قوانا. ففكـــوا قيـــود اليـــدين وعُصابات العينين، ثم اقتادونا إلى باحة تشرف عليها مكاتب السجن، حيث تم تسجيل أسمائنـــا. وطوال ذلك كنا نتعرض للجلد من جميع الاتجاهات. ثم اقتادونا عبر باب حديدي إلى باحة تُعرف بباحة التعذيب. وفتشت الشرطة العسكرية ملابسنا. ووُضعنا واحداً تلـــو الآخـــر في "دولاب" وتلقى كل منا ما بين ٢٠٠ و٤٠٠ ضربة على قدميه. وعندما انتهوا من ضـــربنا، أوقفونـــا في طابور واحد. وسرنا نحو السجن ونحن نمسك بملابس بعضنا البعض ومعصوبي الأعين ومطـــأطئي الرأس. ووصلنا إلى الباحة الرابعة، وفُتح باب الزنزانة ودخلنا. وظللنا نتعرض للجلد مـــن كـــل حدب وصوب إلى أن أُغلق باب الزنزانة. وكان الجميع في حالة يرثى لها، وأرجلـــهم تنـــــزف ومغطاة بالجروح، إضافة إلى أجزاء أخرى من أجسادهم. وتوفي بعض السجناء خـــلال 'حفلـــة الاستقبال' ..."

وأكد السجناء السابقون الذين نُقلوا إلى سجن تدمر بين العامين ١٩٩٦ و٢٠٠٠ أهم تعرضوا لهذا النوع من "الاستقبال". وفيما يلي مثالان فقط على العديد من الأقوال المشابهة التي سمعتها منظمة العفو الدولية.

"بعد إجراءات التفتيش والمعاينة المألوفة، سمعت صوتاً يقول : هذا جـــاهز يـــا ســـيدي. وامتدت أيدٍ قاسية وجرجرتني ووضعتني في الباحة. ثم حُشرت في "الدولاب" وأمرت بأن أضـــع يديّ بين ساقيّ، ثم مُددت قدماي ورُبطتا بحبل متين إلى قضيب حديدي لمنعي من التحـــرك في أي اتجاه وكان ذلك مؤلماً. ثم فكوا عُصابة عينيّ وبدأت عملية الجلد. وكان حارســـان يجلـــدانني في الوقت ذاته ... أحدهما صعوداً والآخر نزولاً. ووسط صرخات الألم نبدأ بعِد الجلدات؛ واحـــد اثنين ... عشرة عشرين ثلاثين ... ثم ينسى المرء العدد ويفقد تركيزه. وفي الواقع أُصيب العديد من الأشخاص بالإغماء. وبعد انتهائهم من الجلد، يفكون وثاقنا ويخرجونا مـــن "الـــدولاب". ثم يؤمر السجناء بالركض حول الباحة. وكنت أتصبب عرقاً وقدماي تلسعاني وأحس بآلام مبرحـــة في جميع أنحاء جسدي."

[شهادة أدلى بها سجين سابق اعتُقل في سجن تدمر بين العامين ١٩٩٦ و١٩٩٩م].

"بعد نزولنا من الحافلة في سجن تدمر، أُمرنا بتغطية رؤوسنا بمناشف أو رفع قمصاننا فوق رؤوسنا. ثم سرنا عبر بوابة السجن ورؤوسنا مغطاة وأيدينا مكبلة خلف ظهورنا. وخلال اليـــوم

الأول استكملنا إجراءات التسجيل. وفي اليوم التالي جُمعنا من أجل 'حفلة الاستقبال' الرسمية. وعندما جاء دوري. أمرت أن استلقي على بطني (بما أنني كنت ممتلئ الجسم تعذر حشري داخل "الدولاب"). ثم ربطوا قدميّ بقضيب حديدي بواسطة سلسلة ورفعوا قدميّ إلى الأعلى. وضغط أربعة حراس على ظهري بأقدامهم ليمنعوني من الحراك. ثم جُلدت ربما أكثر من ٢٠٠ مرة بكابل إلى أن فقدت وعيي. ولم يستطع أحد زملائي النزلاء - الذي تلقى عدد من الجلدات يفوق كثيراً ما تلقيته - المشي بعد 'حفلة الاستقبال'"

[شهادة أدلى بها سجين سابق اعتُقل في سجن تدمر في العامين ٢٠٠٠ و٢٠٠١م] .

ويظل المعتقلون يتعرضون للمعاملة السيئة طوال فترة سجنهم اللاحقة. وبحسب الأنباء، غالباً ما تمارس في سجن تدمر المعاملة السيئة التعسفية الرامية إلى تخويف المعتقلين وإذلالهم. وذكر السجناء السابقون لمنظمة العفو الدولية أنهم تعرضوا للضرب والجلد وخلاف ذلك من ضروب المعاملة السيئة طوال فترة مكوثهم في السجن.

"كانت العقوبات عديدة ومتنوعة في تدمر، ولا يحتاج المرء إلى اقتراف جرم معين كي يعاقب بقسوة. وإذا رأى الحراس عند سقف المهجع أن سجيناً يحرك يده أو ساقه أو يأتي بأية حركة أثناء النوم، يطلب من السجين المناوب "يعلِّم ذلك السجين (أي اختياره دون سواه للعقاب لاحقاً). وجرت العادة على توقيع العقوبات بعد طعام الفطور وتتراوح العقوبة عادة بين ٥٠ و٢٠٠ جلدة، تبعاً للأوضاع العامة في السجن. وأحياناً يطلب الرقيب المناوب من رئيس المهجع أو السجين المناوب أن يضع من دون سبب واضح أن "يعلِّم " السجين الموجود أمامك والسجينين الموجودين خلفك مباشرة، والسجين الموجود على يمينك والسجين الموجود على يسارك. والمجموع خمسة. وأريد أن يكونوا جميعهم جاهزين غداً'. وأدركنا جميعنا أن الأوضاع قاسية جداً وأن العقوبات ستكون قاسية للغاية. والذين يجري تعليمهم سيتعين عليهم تحمل ليلة من الأرق المؤلم تحسباً لما - سيحصل لهم في الصباح. وفي اليوم التالي، حالما تنتهي وجبة الفطور، تُؤمر المجموعة التي جرى تعليمها بالخروج من المهجع. ثم نسمع حركة فريق التعذيب: وصوت قضبان الحديد والدواليب التي تسقط على الأرض والسياط والأسلاك التي تُجرّب على الجدران وصراخ الحراس الذين يصدرون الأوامر للنزلاء. وسرعان ما نبدأ بسماع صرخات زملائنا ممزوجة بأصوات الجلدات."

[شهادة سجين سابق اعتقل في سجن تدمر بين ١٩٩٦ و١٩٩٩م] .

وفي أوقات معينة من الفترة الممتدة بين ١٩٨٠ و١٩٩٦ بلغت قسوة وشـــدة المعاملـــة المستخدمة في تدمر مستويات لا تطاق. ويبدو أن السجانين حصلوا على إذن بفعـــل أي شـــيء لفئات معينة من السجناء، بما في ذلك قتلهم عمداً. وفيما يلي وصف نمـــوذجي للعديـــد مـــن الشهادات على التعرض للتعذيب التي تلقتها منظمة العفو الدولية.

"أثبت الجنود والرقيب المسؤول أهم أصحاب أفكار مبتكـــرة جـــداً في وســـائل إذلال النـــزلاء. وإلى جانب الاعتداء عليهم بالضرب، يلجأون (أحياناً) إلى وسائل تعذيب هزلية مؤلمة مثل إجبار السجين على أكل حشرة أو صرصار أو ذبابة الخ كبديل من إجباره على لعق حـــذاء الحارس أو الرمل والغبار في الباحة 'لتنظيفها'. ومن وسائل التعذيب الأخرى إجبار سجينين اثنين على إمساك أحد النـــزلاء بيديه وقدميه وهزه عالياً في الهواء ثم قذفه حتى يقـــع علـــى الأرض. وعندما رفض أحد السجناء أن يفعل ذلك تعرض للضرب المتواصل على رأسه حتى فقد صـــوابه تماماً. وتحول الرجل المسكين إلى مهرج وتوفي بعد شهر. التصفية وهذه تصفية عن طريق التعذيب (كانت شائعة أيضاً في تدمر). فضربة واحدة على رأس السجين بقـــضيب حديـــدي أو كتلـــة خرسانية يلقيها أحد الحراس المرابطين على السطح على رأس السجناء الواقفين في باحة 'التنفس (الفسحة)' تكفي للقضاء عليهم."

[مقتطف من تقرير السجناء الذين هُرِّب إلى خارج سوريا في العام ١٩٩٩] .

وكان السجناء يتعرضون للضرب بشكل روتـــيني عنـــدما يـــدخلون إلى زنازينـــهم أو يغادرونها، أحياناً بعد إجبارهم على التعري أو عند استعدادهم للاســـتحمام. وتقـــدم وجبتـــان للسجناء في اليوم - يحصل السجناء ظهراً على كل من وجبة منتصف النهار والمـــساء، ويـــوفر السجناء إحدى الوجبتين حتى فترة لاحقة من المساء. ومن الشائع أن يتعرض السجناء للإهانات والتهديد والجلد والركل واللكم والصفع ولإطفاء السجائر على أجـــسادهم وهـــم يتـــسلمون وجبات الطعام.

'التنفس' تجربة في القسوة

كذلك يتعرض السجناء لسوء المعاملة بصورة مألوفة خلال تمارينهم اليومية (التـــنفس). ويستغرق التنفس بين ٣٠ دقيقة وساعة ويجري مرة أو مرتين في اليوم. ويُقتاد السجناء إلى باحات السجن ويؤمرون بالركض وهم حفاة القدمين بينما يقوم حراس السجن الذين يـــشرفون علـــى التمرين بجلدهم في الوقت ذاته. وأحياناً يُجبر السجناء على الاستلقاء علـــى ظهـــورهم ورفـــع أرجلهم التي تتعرض للضرب بعد ذلك، أحياناً حتى تنـــزف. وفي أوقات أخرى يُجبر الـــسجناء على الاستلقاء على بطونهم، بينما يدوس الحراس على رؤوســـهم أو أعنـــاقهم أو ظهـــورهم أو

يجلدونهم. ويتعرض المعتقلون الذين يرفضون تنفيذ الأوامر خلال فترة التمرين لأشكال أخرى من التعذيب أو المعاملة السيئة مثل "الدولاب".

"عندما حان موعد التنفس، أُخرجنا من المهجع في طوابير يضم كل منها خمسة. وعندما وصلنا إلى الباحة، يصدر إلينا الأمر 'بالجلوس على الأرض' فنجلس بسرعة على الأرض واضعين ساقاً فوق أخرى، ورؤوسنا مطأطئة وأيدينا خلف ظهرنا. وكان الذين لا يجلسون بالشكل 'الصحيح' يتعرضون للركل من السجانين كي يفعلوا ذلك. وبالطبع كان السجين يُعاقب بشدة على الإتيان بأدنى حركة. وأحياناً كنا نسمع الحارس يصرخ: ليقف فوراً الشخص الذي أتى بحركة'. وكنا عادة لا نحرك ساكناً ويأمل كل واحد منا ألا يكون الأمر موجهاً إليه. وفي النهاية يقترب الحارس من أحدنا ويركله ويضربه بعنف عقاباً له (عادة يضربه على باطن قدميه أو يضعه في 'الدولاب'). وأحياناً يقرر السجانون توقيع عقاب جماعي على كامل المجموعة ويأمروننا بالزحف على مرافقنا وركبنا إلى أن تتخضب بالدماء.

[سجين سابق اعتُقل في تدمر بين العامين ١٩٨٨ و١٩٩٢].

وتشير الشهادات الأخرى إلى أن التنفس استُخدم أيضاً لمعاقبة الذين يواجهون إجراءات تأديبية لارتكابهم ما يعتبره الحراس "مخالفات" أو لإخلالهم باللوائح (مثل التحرك أثناء الليل) أو من دون أي سبب على الإطلاق :

"يهدف وقت التنفس، أساساً إلى تنفيذ العقوبات. ويتعرف رئيس المهجع (سجين) على الذين جرى تعليمهم (للعقاب) ويُسلمهم إلى الحراس. وأحياناً عندما لا يتم تعليم أحد (في الليلة السابقة)، على رئيس المهجع أن يتحمل العقاب. وفي مرات أخرى يُطلب من رئيس المهجع إحضار أطول أو أقصر شخص في المجموعة أو إحضار شخص متزوج أو أعزب إلخ لمعاقبته. وفي معظم الحالات كانت العقوبات والتعذيب يقترنان بالإهانات والتخويف المركز على الحياة الخاصة للنزلاء أو زوجاتهم أو قريباتهم. وفي مناسبات عديدة كان يُطلب منا ممارسة التعذيب ضد بعضنا البعض وشرب ماء قذر أو تناول طعام قذر، وكنا نتعرض عموماً لضروب مختلفة عديدة من الإذلال والتخويف. ولا يتعرض السجين الذي يأتي إلى تدمر للتعذيب الجسدي والنفسي الشديد وحسب، لكنه يغادر السجن شخصاً محطماً..."

[سجين سابق اعتُقل في سجن تدمر بين العامين ١٩٨٨ و١٩٩٢] .

ويبين وصف لسجين اعتُقل في سجن تدمر من العام ١٩٩٦ إلى ١٩٩٩ أن هذه الممارسات لم تتغير في الأعوام التي مرت خلال تلك الفترة :

"بعد الفطور كنا نُستدعى بسرعة لنيل "عقوبة 'التنفس". وكنا أحياناً نـدرك أن تمـرين التنفس وشيك من صوت التحركات الصادرة من المهاجع المجاورة، فكنا نهيئ أنفسنا. وعادة كان يُطلب منا تنظيف الباحة ورشها بالماء، ولذا كنا نحمل معنا دلاء مليئة بالماء ونغـادر المهجـع إلى الفناء. وكنا نقف بمواجهة الحائط حتى يصدر الأمر بالبدء برش الماء في الباحة. وكل من يلقي الماء قبل صدور أمر الحراس بالبدء أو يبقى لديه بعض الماء في دلوه بعد صدور الأمر بوقف الـرش، يُعاقب عقاباً شديداً. وعلى الدوام كان الحراس يجلدون كل من يمر بالقرب منهم. وبعد أن ننهي أشغالنا، كنا نؤمر بالجلوس على الأرض المبللة (البادرة جداً في الشتاء والرطبة جداً في الـصيف) وأيدينا خلف ظهورنا ورؤوسنا مطأطئة على ظهر السجين الموجود أمامنا أو بمواجهة الحائط. وكنا نؤمر عادة بأن نبقى في هذا الوضع إلى أن يأمروننا بالعودة إلى مهاجعنا."

وتتضمن الأشكال الأخرى لسوء المعاملة في السجن الحرمان من النوم: إذ يجبر السجناء على الوقوف في زنزاناتهم ورؤوسهم مستقيمة وأذرعهم مرفوعة في بعض الحالات لمدة تـصل إلى أربع ساعات.

'الجميع إلى الحمام وبسرعة'

غالباً ما تُستخدم جميع جوانب الحياة العادية المألوفة في سجن تدمر لممارسـة التعـذيب وسوء المعاملة ضد السجناء. والصحة الشخصية ليست استثناء. فمثلاً، عندما يحلـق الـسجناء شعورهم، كل ثلاثة أو أربعة أسابيع تقريباً، يتعرضون للضرب أثناء انتظار دورهـم للحلاقـة، وغالباً ما تُشرط وجوههم، وبخاصة شفاههم وآذانهم وأنوفهم بموسى الحلاقة.

"في تدمر لا يجوز رؤية شعر أبداً على رؤوس النـزلاء أو وجوههم - وتحـدث كارثـة دورية كلما حان الوقت لقص الشعر بصورة جماعيـة في الباحـة. والحلاقـون هـم 'سـجناء عسكريون' (أفراد عسكريون يقضون عقوبات في سجن تدمر) ويحلقون شعر رأس كـل نزيـل بالكامل بسرعة واستهتار لدرجة أن عدداً ضئيلاً جداً من النـزلاء يفلت من الإصابة بجـروح. وأدوات قص الشعر غير حادة و'تحرث' الرؤوس حيث تُحدث شقوقاً عميقة بالطريقة ذاتها التي يحدثها نصل المحراث في قطعة أرض محروثة.

[مقتطف من تقرير السجناء الذي هُرِّب من سوريا في العام ١٩٩٩م].

كما أن الاستحمام الذي يجب أن يكون مصدر راحة وفائدة للسجناء، يُحوَّل أيـضاً إلى شكل آخر من أشكال التعذيب في سجن تدمر كما تبين الشهادتان التاليتان:

"تقع الحمامات في الباحة الأولى بينما كنا في الباحة السادسة. وكنـا نخـرج مرتـدين السراويل القصيرة من الباحة السادسة إلى الباحة الأولى التي تبعد نحو ٥٠٠ متر، وكنـا نـسير

كالبط ونحن نتعرض باستمرار للضرب على الرأس حتى نصل إلى الحمامات. وكنا نذهب إلى الحمامات في مجموعات تضم كل منها ١٢ نزيلاً. وكانت كل مقصورة استحمام تستوعب ثلاثة أو أربعة سجناء. وكان المشرف يأتي ويقول 'سأعد حتى ٢٠ وبانتهاء العد يجب أن تكونوا جميعاً قد انتهيتم من الاستحمام'. أي كامل مجموعة الـ ١٢ سجيناً. وحالما نبدأ بالاغتسال يبدأ بالعدد '١ ٢ ٣ ٥ ٧ ١٣ ٢٠، انتهى وقتكم أخرجوا جميعاً.' ثم يضعونا بجانب الجدار ويبدأون بضربنا بينما تستحم المجموعات الأخرى إلى أن ينتهي الجميع من الاستحمام - ربما ١٠٠ أو ١٢٠ أو ١٥٠ نزيلاً. ثم نعاد إلى مهاجعنا ونتعرض للضرب ونحن في طريقنا إليها."

[شهادة سجين سابق اعتُقل في سجن تدمر بين العامين ١٩٨٥ و١٩٩٥م].

"عند ذكر كلمة الحمام يربط المرء بينها وبين الماء الدافئ والصابون والاسترخاء. ليس الأمر كذلك في تدمر، فالاستحمام هناك ضرب آخر من ضروب التعذيب. وفي أحد الأيام دعينا إلى أخذ حمام وأُمرنا بأن نخرج ونحن مرتدين سراويلنا القصيرة وحالما خرجنا من المهجع وجدنا الحراس بانتظارها لمرافقتنا إلى حيث توجد الحمامات في الباحة الأولى. وكنا طوال الطريق نتعرض للجلد والركل واللكم إلى أن وصلنا إلى الباحة الأولى. ثم قُسِّمنا إلى مجموعتين، أُمرت الأولى بالركوع على الأرض والأخرى بالتوجه إلى الحمامات. وكنت ضمن المجموعة التي أُخذت إلى الحمامات ودُفع ما بين ستة وسبعة منا إلى مقصورة واحدة مزودة بدش واحد. وكان الماء شديد البرودة، لكن هذه كانت المعاناة الأقل نظراً إلى زعيق الحراس وصرخات زملائنا الذين كانوا يتعرضون للضرب أثناء انتظار دورهم للاغتسال. وحالما غادرنا مقصورات الاستحمام، جاء دورنا للتعرض للجلد على جميع أنحاء أجسادنا. وعندما انتهى زملاؤنا من الاستحمام، بعدما شعرنا أنه استغرق ردحاً طويلاً من الزمن، كان علينا تحمل رحلة العودة بالطريقة ذاتها وسط الضرب ومختلف أشكال المعاملة السيئة وكان في الحقيقة 'حمام دم'."

[سجين سابق اعتُقل في سجن تدمر بين العامين ١٩٨٠ و١٩٩١م].

ونتيجة للمعاملة الروتينية السيئة، يقال إن معظم المعتقلين في سجن تدمر يعانون كثيراً من تورم اليدين والقدمين والوجوه وانسلاخ البشرة (وبخاصة على الظهر) وتكسر الأسنان ونوبات إغماء. ويقال إن حالتهم الصحية النفسية سيئة للغاية، نتيجة المعاملة المهينة المستمرة ومشاهدة الآخرين وهم تساء معاملتهم أو سماع صراخهم وهم عاجزون عن التدخل لمساعدتهم.

أنماط التعذيب في سجن تدمر العسكري :

في الملاحظات الختامية التي أبدتها لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة عقب النظر في تقرير الحكومة السورية، لاحظت بقلق شديد "المزاعم الثابتة والمؤيدة حسب الأصول لانتهاكات

المادة السابعة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية والمنسوبة إلى الموظفين المكلفين بإنفاذ القانون. وتلاحظ بقلق المزاعم العديدة حول ممارسة التعذيب في السجون السورية وبخاصة في سجن تدمر".

كذلك سلطت شهادات السجناء السابقين الضوء على حقيقة تفاوت معاملة النزلاء والأوضاع العامة في السجن بين إدارة سجن وأخرى. وقيل إن بعض مديري السجون روَّجوا لسياسات أقسى من سواهم تجاه السجناء. وتشير شهادات السجناء بوضوح إلى أنه بين العام ١٩٨٠ والعام ١٩٩٨ اعتمد جميع مديري سجن تدمر باستثناء واحد (تولى المنصب بين العامين ١٩٨٢ و١٩٨٤) نظاماً قاسياً جداً على صعيد معاملة السجناء في تدمر، وفي هذه الفترة اكتسب السجن صورته السيئة كمكان للتعذيب وسوء المعاملة المستشريين. وخلال هذه الفترة كان أي اختلاف في المعاملة يتعلق بمجرد التركيز أو التشديد. فمثلاً في مطلع الثمانينيات كان السجناء يموتون كل يوماً تقريباً نتيجة طرق التعذيب العنيفة جداً، بينما واجه السجناء في فترات أخرى المجاعة الفعلية في أوضاع معيشية متدهورة أدت إلى انتشار الأمراض المعدية مثل داء السل الذي حصد أرواح العديدين من نزلاء السجن.

واستؤنف التعذيب في العام ١٩٩٢ كما ورد واستمر بلا هوادة طوال معظم فترة التسعينيات. وكما توضح شهادات السجناء الذين اعتقلوا في تدمر خلال التسعينيات، ظل نمط التعذيب، وإن يكن بدرجة أقل من الشدة عنه في الثمانينيات، سمة بارزة في حياة السجناء في تدمر.

وأشار السجناء السياسيون الذين أفرج عنهم في سجن تدمر خلال السنوات الثلاث الماضية إلى أن التعذيب ما زال يُمارس بصورة مألوفة. وأكد بعض هؤلاء السجناء أن المعتقلين ما زالوا يتعرضون للضرب بصورة منتظمة كلما غادروا مهاجعهم - مثلاً لتسلم وجبات الطعام أو الذهاب إلى المرحاض، أو خلال فترة التنفس. وعلاوة على ذلك ما زال السجناء يتعرضون للعقوبات القاسية لدى قيامهم بأدنى فعل غير مصرح به، مثلاً الذهاب إلى الحمام خلال الليل، أو النظر دون قصد إلى أحد الحراس. وأشارت إحدى الشهادات إلى أن العقوبات على مثل هذه "المخالفات" تتراوح عادة بين ٥٠ و٢٠٠ جلدة لكل "مخالفة" تبعاً لما إذا كان نظام السجن يمر بمرحلة أكثر تساهلاً أو أكثر صرامة.

وتشير الشهادات الأخرى إلى أنه بينما تظل الأوضاع العامة قاسية في سجن تدمر، إلا أن المعاملة تختلف من قسم إلى آخر، تبعاً لفئات السجناء وانتماءاتهم السياسية كما يبدو. ويقال إن

المحتجزين بسبب صلتهم بالجماعات الإسلامية أو حزب البعث الموالي للعراق يتحملون العبء الأكبر من أشكال التعذيب الشديد والمنهجي.

أوضاع الاعتقال :

يبدو أن سجن تدمر يدار بطريقة تهدف إلى توقيع أقصى العقوبات بالنزلاء وزيادة معاناتهم. وكما هو موضح أعلاه، فالأنشطة اليومية المألوفة - مثل الاستحمام والحلاقة وتناول وجبات الطعام - تقترن بممارسة التعذيب ويترقبها السجناء بذعر وخوف شديدين. ويُحتجز السجناء في زنازينهم من الساعة السادسة مساء وحتى السادسة صباحاً.

"يُحضر الوجبات إلينا بعض 'السجناء العسكريين' (الأفراد العسكريين الذين يقضون عقوبات بالسجن في تدمر) الذين يضعون أوعية الطعام أمام المهاجع تحت مرآى الحراس الواقفين. ثم يؤمر اثنان أو ثلاثة منا بتسلم الطعام من دون النظر إلى الحراس أو 'السجناء العسكريين'. ثم نؤمر بالجلوس قرب أوعية الطعام بانتظار أمر الحراس الذين يبدؤون بجلدنا فوراً قبل السماح لنا بأخذ الطعام إلى مهاجعنا."

وفي جميع الأوقات الأخرى يُحتجز السجناء في مهاجعهم حيث عليهم الجلوس صامتين ومن دون حراك. ويخضع السجناء للمراقبة الدائمة؛ ويرابط الحراس ليلاً نهاراً على النوافذ الموجودة في سقف المهجع لمراقبة السجناء الذين يُحظر عليهم القيام بالأشياء اليومية المعتادة جداً مثل المشي في المهجع، والذهاب إلى المرحاض خلال الليل والتحدث مع الزملاء السجناء أو مع الحراس، والنظر إلى الحراس أو عبر النافذة أو الباب. كذلك مُنعت الصلاة اليومية والصوم- على الأقل حتى العام ١٩٩٩ - كذلك كان حال المطالعة أو إعطاء دروس للزملاء السجناء. ولا يُسمح لأغلبية السجناء بزيارات عائلية. وفي الواقع لم يُبلَّغ العديد من عائلات السجناء السياسيين في تدمر بمكان وجود أقاربهم؛ ولم يعرف بعضهم بوجودهم إلا بعد عدة سنوات.

وتُقصِّر الأوضاع العامة في تدمر جداً عن الوفاء بالقواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء والتي اعتمدها الأمم المتحدة في العام ١٩٧٧. وهي تخالف جميع نصوص المبادئ الأساسية لمعاملة السجناء ومجموعة المبادئ المتعلقة بحماية جميع الأشخاص الذين يتعرضون لأي شكل من أشكال الاحتجاز أو السجن. وفي الواقع تصل الأوضاع في سجن تدمر إلى حد المعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة. فالمهاجع قذرة ورطبة وباردة في الشتاء وحارة جداً في الصيف ومليئة بالصراصير وغيره من الحشرات. ولا توجد فيها أسرة، ويُعطى كل سجين بساطاً رقيقاً وبطانيتين رثتين وقذرتين وملاءة. ويكون حيز النوم عادة ضيقاً جداً لأن المهاجع مكتظة جداً.

وأشارت بعض الشهادات إلى أنه في بعض الأحيان لم يتوفر حيز كاف للسجناء للاستلقاء على ظهورهم.

المرافق الصحية في السجن فظيعة. وفي وقت ما أُجبر أكثر من مائة نزيل على المشاركة في استعمال مرحاض واحد وحنفية واحدة ولا توجد أي مرافق لغسل الثياب وأواني الطعام.

ويقال إن الطعام غير كاف ورديء النوعية جداً. وبحسب ما ورد تتألف حصة الطعام أحياناً من بيضة واحدة مسلوقة فقط لما بين ثمانية و١٠ أشخاص وحبتين أو ثلاث حبات من الزيتون كطعام فطور لكل شخص؛ وبعض الحساء للغداء وبطاطا أو حمص مسلوق للعشاء؛ وحصة يومية مؤلفة من رغيف أو رغيفين من الخبز اليابس. أما الحصة من الشاي فهي ربع فنجان من الشاي البارد كل ٢٤ ساعة. وعند تقديم الطعام، عادة ما يكون غير مطهو جيداً؛ وتكون عادة الأدوات والأطباق (جميعها من البلاستيك) قذرة جداً، لأنه لا يتم غسلها بشكل صحيح أبداً وغالباً ما يحتوي الطعام على "أتربة" ووصف أحد السجناء الطعام بأنه في الواقع يسبب الجوع وليس الشبع.

ويقال إن الرعاية الطبية الرسمية غير موجودة بالمرة في سجن تدمر. وبحسب ما ورد فإن المعتقلين الذين يحتاجون إلى معالجة طبية، بمن فيهم أولئك الذين أصيبوا بجروح أو إصابات ناجمة عن التعذيب، لا يخضعون إلا لكشف طبيب واحد على فترات يفصل بينها عدة أشهر. وتُصاب الجروح التي تنجم عن "حلقة الاستقبال" التي تقام عند الوصول إلى السجن أو عبر إساءة المعاملة الروتينية اللاحقة بالالتهاب نتيجة الإهمال المزمن. وبالتالي، أقدم المعتقلون الذين تلقوا تدريباً طبياً على معالجة زملائهم النزلاء، كما ورد، معرضين أنفسهم و"مرضاهم" لخطر شديد، لأنه تُنزل بهم عقوبات شديدة إذا اكتُشف أمرهم. وبسبب الافتقار إلى الأدوية والمعدات، اضطر السجناء إلى ابتكار أساليب تتميز بسعة الخيال. وبحسب أحد الأطباء الذين احتجزوا في تدمر، كانت الجروح المتقيحة تعالج بالخل المستخرج من التفاح أو العنب المتخمر. وتشير بعض الشهادات إلى أن الأطباء السجناء كانوا أحياناً يجرون عمليات جراحية طفيفة بأدوات مبتكرة.

كما ورد أن النزلاء في تدمر عانوا أيضاً من ارتفاع معدل الإصابة بالأمراض الخطيرة مثل داء السل والكوليرا. وساهم الافتقار إلى المرافق الصحية الكافية وإساءة المعاملة وسوء التغذية والإهمال الطبي الذي تعرض له السجناء في تفشي العدوى. وكان السجناء المصابون بالعدوى يفصلون عادة عن الآخرين ويوضعون في مهاجع خاصة حيث تقدم لهم معالجة طبية أساسية، لكن معدلات الشفاء كانت بطيئة جداً. ويقال إن عشرات السجناء الذين أصيبوا بالمرض توفوا نتيجة عدم كفاية الرعاية الطبية والإهمال وسوء الأوضاع في السجن.

وبالنسبة للأغلبية العظمى من السجناء يتضاعف انهيار المعنويات الناجم عن الأوضاع الفظيعة وسوء المعاملة المستمرة بغياب الزيارات العائلية. ويترك الأغلبية العظمى من النزلاء، المحرومين من الدعم المادي والمعنوي الذي تقدمه لهم هذه الزيارات، لمواجهة الإذلال والتحقير اليوميين اللذين يعاملهم بهما النظام في تدمر دون أن يجدوا من يواسيهم.

حالات الوفاة في الحجز :

توفي العديدون في الحجز، أما نتيجة التعذيب أو الأوضاع القاسية أو المرض الخطير. فمثلاً، ورد أن زاهي عبادي، وهو طبيب سوري من حلب توفي في سجن تدمر في العام ١٩٩٠. وكان قد قُبض عليه مع أكثر من مائة مهني طبي في العام ١٩٨٠ عقب إضراب مدته يوم واحد قامت به في مارس/آذار ١٩٨٠ مختلف المجموعات المهنية ومن ضمنها نقابة الأطباء. وبوصفه طبيباً، دأب الدكتور عبادي على فحص زملائه النزلاء ومعالجتهم كلما أمكن في مختلف باحات سجن تدمر والرواية الرسمية هي أن زاهي عبادي توفي بعد أن نُقل للمعالجة الطبية خارج سجن تدمر، لكن زملاءه السجناء يعتقدون أنه ربما توفي نتيجة التعذيب أو أنه قُتل عمداً..

وفي فترة أحدث عهداً توفي عطية دياب عطية، وهو فلسطيني عمره قرابة ٣١ عاماً، في سجن تدمر في فبراير/شباط ٢٠٠٠. ويبدو أن السبب الأكثر احتمالاً لوفاته عدم توافر الرعاية الطبية له والأوضاع اللاإنسانية في سجن تدمر. وكان كما يبدو بحالة صحية سيئة عندما نُقل إلى سجن تدمر في العام ١٩٩٦. وكان عطية دياب عطية، وهو عضو في حركة فتح الفصيل الرئيسي في منظمة التحرير الفلسطينية التي يتزعمها ياسر عرفات، قد قُبض عليه في العام ١٩٨٩ بجنوب لبنان ونُقل إلى سوريا ولا تعرف منظمة العفو الدولية ما إذا كانت قد وُجهت إليه تهم أو جرت محاكمته، لكنه كان ضمن عشرات الفلسطينيين الذين اعتقلوا لأسباب سياسية في السجون السورية.

وتشكل عدة شهادات شاهداً على اللامبالاة المطلقة التي تنظر فيها إدارة السجن إلى حالات الوفاة في الحجز. وتزعم معظم الشهادات أن الحراس لم يستدعوا طبيباً قط للكشف على سجين يحتضر أو اشتد عليه المرض. وعوضاً عن ذلك، يأمرون النزلاء الآخرين باستدعائهم لتسلم الجثة عندما يفارق السجين الحياة. وعندما يُتوفى سجين نتيجة التعذيب، لا تجري سلطات السجن أي تحقيق أو تشريح للجثة. وعوضاً عن ذلك فكما يشير تقرير السجناء الذين هُرِّب من سجن تدمر في العام ١٩٩٩، تسعى الإدارة إلى التستر على السبب الحقيقي للوفاة :

"كلما حدثت وفاة نتيجة التعذيب، تستدعي إدارة السجن طبيباً ومشرفاً مساعداً لتسجيل تقرير طبي قد يتضمن إحدى الصيغ التالية : 'سقوط فجائي إلى الوراء في غرفة مظلمة'، أو 'نوبة قلبية' أو 'تناول عقاقير لم يصفها الطبيب أو المسؤول الصحي'".

المحاكمات العسكرية وعمليات الإعدام والقتل في سجن تدمر العسكري :

تجري محاكمة السجناء السياسيين في تدمر في محاكم عسكرية ميدانية لا تتقيد إجراءاتها بالمعايير الدولية للمحاكمات العادلة. ويمكن للمحاكم العسكرية الميدانية أن تفرض عقوبات بالإعدام وحتى العام ١٩٨٩ أو ١٩٩٠ كانت عمليات الإعدام تنفذ أيضاً بصورة منتظمة في تدمر. ويشير أحد التقارير إلى أن المحاكم العسكرية الميدانية ظلت تعمل في تدمر حتى العام ١٩٩٩م.

ولا تخضع أحكام المحاكم العسكرية الميدانية لأي استئناف ولا يستفيد الذين يمثلون أمام هذه المحاكم من الضمانات المحددة في قانون الإجراءات الجنائية.

وتتألف عادة المحاكمات أمام المحكمة العسكرية الميدانية في تدمر من جلسة واحدة يتم خلالها تلاوة بضع فقرات على السجين من محضر الاستجواب الذي أجرته الشعبة الأمنية المختصة - أي من جانب أولئك الذين أجروا الاستجواب الأولي للمعتقل عقب القبض عليه - ومن إفادة المعتقل التي غالباً ما تُنتزع نتيجة التعذيب. وعادة لا يُسمح للمعتقلين بتقديم أي شكل من أشكال الدفاع سواء بأنفسهم أو عبر محام. وذكر معتقل لبناني سابق أنه عندما مثل أمام المحكمة العسكرية الميدانية، أُبلغ أن محامياً حضر لتمثيله. لكنه قال إنه لم يعرف من هو محاميه من بين الحضور. وقال : "شعرت بأنهم جميعهم كانوا ضدي" وفي الواقع لم يتفوه المحامي الذي "يمثله" بكلمة واحدة طوال المحاكمة بأكملها.

وأبلغ طبيب سوري قُبض عليه في العام ١٩٨٠ منظمة العفو الدولية أنه مثل أمام محكمة عسكرية ميدانية في ١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨١. وعُقدت المحكمة في القسم الإداري بسجن تدمر. وقال في روايته :

"أحضرتني الشرطة العسكرية وأنا معصوب العينين إلى قاعة المحكمة وأمرتني بالجلوس على كرسي أمام هيئة المحكمة. وعندما فكوا عصابة عينيّ، سألني الضابط الذي ترأس الجلسة عن اسمي ووظيفتي، ثم نظر في بعض الأوراق الموجودة أمامه وهز رأسه وشتمني. ثم أمر الكاتب بأن يدون بأن "المتهم كرر شهادته السابقة قائلاً إنه عالج طبياً شخصاً مريضاً من "عصابات" الأخوان المسلمين". وعندها قال لي إنه سيسجنني مدة ١٥ عاماً وأمر الشرطة بإخراجي. ولم أنبس ببنت شفة أمام المحكمة ولم تتح لي أي فرصة لقول أي شيء."

وتتراوح العقوبات بين بضع سنوات في السجن والإعدام. ولا "يُبلَّغ السجناء عادة بالحكم الذي صدر عليهم، حتى وإن كان عقوبة بالإعدام. ويُعرف عن المحاكم العسكرية الميدانية أنها أصدرت عقوبات عديدة بالإعدام؛ ولا يُعرف الرقم الدقيق للسجناء الذين أُعدموا في تدمر. بيد أن بعض الأنباء تشير إلى أنه ربما أُعدم الآلاف هناك.

وبحسب العديد من الشهادات، عندما أدرك السجناء لأول مرة أن عمليات إعدام قد نُفِّذت في السجن، أصيبوا بالذهول الشديد. وتكونت لدى عدة سجناء قناعة، لا سيما الذين اعتقلوا لصلتهم بالإخوان المسلمين - أنهم سيُعدمون لأنهم سجنوا من دون تزويدهم بأية معلومات حول الأحكام الصادرة عليهم. ولاحظ السجناء أن متوسط الوقت الممتد بين المحاكمة والإعدام بلغ زهاء الشهرين. وذكر سجين سابق أنه عاش طوال أربع سنوات في خوف من إمكانية إعدامه في أي وقت. ويمكن اعتبار هذا الخوف الدائم من الإعدام بحد ذاته ضرباً من التعذيب.

وفي العام ١٩٨٠ كان سجن تدمر مسرحاً لمذبحة أُعدم فيها مئات السجناء خارج نطاق القضاء. ووقعت المذبحة في ٢٧ يونيو/حزيران ١٩٨٠، بعد يوم على محاولة اغتيال الرئيس الراحل حافظ الأسد في دمشق. إذا نُقل أكثر من ١٠٠ عنصر من سرايا الدفاع عن الثورة التي كانت في حينه تحت قيادة رفعت الأسد شقيق الرئيس وأفراد من لواء الأمن الـ ١٣٨ بطائرات الهليكوبتر إلى تدمر. وتُرك بعض منهم على أهبة الاستعداد ولحراسة الطائرات المروحية، فيما انقسم ٨٠ رجلاً إلى وحدات تتألف كل منها من ١٠ رجال ودخلوا السجن لقتل السجناء في زنازينهم ومهاجعهم. ويتراوح عدد القتلى بين ٥٠٠ و١٠٠٠ سجين وفق مختلف التقديرات؛ ومعظم الضحايا كانت لهم صلة بالإخوان المسلمين. ثم دُفنت جثثهم في قبر جماعي خارج السجن، وفي محاولة للتستر على المجزرة، ذكرت السلطات أنهم أُعدموا. وذكر جنديان سوريان اعتُقلا في الأردن في فبراير/شباط ١٩٨١ للاشتباه بمحاولتهما اغتيال رئيس وزراء الأردن، ذكرا على شاشة التلفزيون أنهما شاركا في مجزرة تدمر وأعطيا تفاصيل "العملية" وقد طلبت منظمة العفو الدولية بصورة متكررة من السلطات السورية تشكيل لجنة تحقيق في الأحداث المحيطة بالمجزرة.

وبين العامين ١٩٨٠ و١٩٩٠ ورد أن جثث الذين توفوا في تدمر لم تُسلَّم قط إلى العائلات التي يبدو أنها لم تتلق أي معلومات حول مصير أقاربها ومكان وجودهم. وتشير المعلومات التي تلقتها منظمة العفو الدولية مؤخراً إلى أنه بعد العام ١٩٩٠ بدأت السلطات تقدم معلومات إلى عائلات الذين ماتوا في تدمر نتيجة المرض، لكن ليس إلى عائلات الذين أُعدموا أو توفوا تحت وطأة التعذيب. ولم تستطع منظمة العفو الدولية التحقق من صحة هذه المعلومات، أو

الأنباء التي تحدثت عن استمرار عمليات الإعدام في تدمر بعد العام ١٩٩٠. بيد أن بعض الأنباء توحي بأن عمليات الإعدام نُفِّذت في السجن في فترة لا تعود إلى أبعد من العام ١٩٩٤.

الخلاصة :

أصبح سجن تدمر العسكري مرادفاً للمعاناة والألم. وتجرد الأوضاع في سجن تدمر الإنسان من إنسانيته وتهبط به إلى مستوى بهيمي. وهي تنتهك المبادئ المحددة في المعايير الدولية مثل القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء، وتشكل بحد ذاتها تعذيباً أو غيره من ضروب المعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة. وعلى الرغم من المزاعم الخطيرة العديدة حول ممارسة التعذيب وسوء المعاملة في سجن تدمر، تقاعست السلطات السورية عن الاستجابة للدعوات المتكررة التي أطلقتها منظمة العفو الدولية وسواها من منظمات حقوق الإنسان لإجراء تحقيق مستقل وحيادي في هذه الانتهاكات لحقوق الإنسان.

وفي التقرير الذي أصدرته منظمة العفو الدولية في إبريل/نيسان ١٩٩٥ سلطت الضوء على تمكن قوات الأمن السورية الإفلات من العقاب على اعتقال المتهمين السياسيين وتعذيبهم بصورة تعسفية، وهي مطمئنة إلى أنها لن تخضع للمساءلة عن أفعالها. وجرت إشارة خاصة إلى انعدام التحقيقات من جانب السلطات في أنباء التعذيب وحالات الوفاة في الحجز وحوادث "الاختفاء". وتكرر منظمة العفو الدولية دعوتها إلى السلطات لمحاربة ظاهرة الإفلات من العقاب بتقديم المسؤولين، على جميع المستويات، عن ارتكاب انتهاكات حقوق الإنسان إلى المساءلة وبخاصة أولئك المسؤولين طوال عقود عن ارتكاب انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان اصطبغ بها سجن تدمر.

ومن الضروري جداً أن تأمر الحكومة السورية بإجراء تحقيق كامل وحيادي ومستقل في مزاعم التعذيب وأنباء الوفيات في الحجز في سجن تدمر. ويجب إيلاء اهتمام خاص أيضاً بنظام السجن القاسي جداً وأوضاع الاعتقال الفظيعة السائدة في سجن تدمر.

ولجميع أولئك المحتجزين في سجن تدمر الحق في احترام حقوقهم الأساسية. ويُنكر عليهم هذا الحق إلى أن تتخذ الحكومة السورية خطوات حقيقية تكفل تقديم المسؤولين عن انتهاك حقوق الإنسان إلى العدالة.

"وأسوة بغيرهم لدى (سجناء تدمر) مشاعر وأحلام؛ ولديهم قصص حب، بعضها ناجح وبعضها الآخر فاشل؛ وجميعهم يتوقون إلى حياة هانئة وادعة والعودة إلى زوجاتهم وأطفالهم الذين يكبرون من دون آبائهم وإلى أمهات توفي بعضهن وفي قلوبهن حسرة لعدم رؤية أبنائهن مرة أخرى، بينما تنتظر أخريات عودتهم."

[سجين سابق]

التوصيات :

١. يجب على الحكومة السورية أن تفرج من دون قيد أو شرط عن جميع سجناء الرأي من سجن تدمر. ويجب أن تفرج فوراً عن جميع السجناء السياسيين الآخرين الذين صدرت عليهم دون استثناء أحكام في محاكمات جائرة، إذا لم تكن هناك نية في تقديمهم بسرعة إلى محاكمات عادلة بتهم جنائية معترف بها. وعلى أية حال يجب الإفراج فوراً عن جميع السجناء الذين ليسوا أفراداً في أجهزة الأمن أو نقلهم إلى سجون مدنية معترف بها.

٢. تدعو منظمة العفو الدولية الحكومة السورية إلى أن :

- تتأكد من عدم ممارسة أفراد أجهزة الأمن السورية للتعذيب أو غيره من ضروب المعاملة السيئة ضد أي معتقل؛

- تُخضع إدارة سجن تدمر العسكري وغيره من السجون لرقابة قضائية صحيحة وفعالة؛

- تنفذ المعايير الدولية المتعلقة بمعاملة السجناء وأوضاع السجون مثل القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء ومجموعة المبادئ المتعلقة بحماية الأشخاص الذين يتعرضون لأي شكل من أشكل الاحتجاز أو السجن؛

- تتخذ تدابير عاجلة لإنشاء هيئة مستقلة مؤهلة لتلقي الشكاوى للقيام بعمليات تفتيش لسجن تدمر وغيره من السجون وتقديم توصيات تتعلق بتحسين أوضاع السجون؛

- تفصل بشكل تام السلطات المسؤولية عن الاستجواب عن إدارة السجن وتقدم للأجهزة الأمنية وحراس السجون تدريباً في مبادئ حقوق الإنسان ومعاييرها؛

- تكفل لجميع السجناء الزيارات العائلية المنتظمة والمتكررة ومقابلة الأطباء والمحامين والاتصالات الأخرى بالعالم الخارجي.

٣. تدعو منظمة العفو الدولية الحكومة السورية إلى إجراء مراجعة عاجلة وكاملة لسجل سجن تدمر بهدف :

- إجراء تحقيق قضائي شامل - يُفضل عن طريق لجنة تحقيق متخصصة - في جميع مزاعم التعذيب والمعاملة السيئة. وينبغي أن تتمتع هذه الهيئة بصلاحية التحقيق في جميع الوفيات في الحجز وفي مصير جميع الذين "اختفوا" في سجن تدمر العسكري، ومراجعة المحاكمات العسكرية وعمليات الإعدام التي جرت خلال العقدين الأخيرين في تدمر. ويجب أن تنشر على الملأ النتائج

التي تتوصل إليها والتوصيات التي تقدمها. ويجب تقديم الذين تثبت مسؤوليتهم عن ارتكاب انتهاكات حقوق الإنسان إلى العدالة؛

- إبلاغ عائلات أولئك الذين توفوا في الحجز أو أُعدموا في سجن تدمر العسكري بمكان دفن أقربائها أو كلما أمكن إعادة رفاقهم إلى تلك العائلات لدفنها؛

- ضمان تأهيل وتعويض ضحايا التعذيب والاعتقال المطول من دون محاكمة أو بعد محاكمات في محاكم عسكرية ميدانية أو غيرها من المحاكمات الجائرة.

٤. تدعو منظمة العفو الدولية الحكومة السورية إلى المصادقة على اتفاقية مناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة من دون أية تحفظات وتطبيق موادها.

من المجازر الكبرى التي ارتكبها النظام السوري بحق أبناء شعبه

إن مجزرة (تدمر) الكبرى التي نفذها رفعت أسد بتاريخ ١٩٨٠/٦/٢٧؛ ليست المجزرة الأولى والأخيرة في سورية، فمنذ أن استولى حافظ أسد على السلطة عام ١٩٧٠ بالأحكام العرفية وبالحديد والنار، حتى أصبحت المجازر الجماعية أو إبادة الجنس البشري سياسة منهجية تتبعها الدولة .

ومن أهم المجازر التي أرتكبها نظام الأسد (الأب) بحق أبناء الشعب السوري :

مجزرة (جسر الشغور)

وقد اقترفت بتاريخ ١٩٨٠/٣/١٠، وقد قُتل فيها ما يزيد عن ستين مواطناً على يد الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع، وجرح في تلك المجزرة أكثر من ٢٠ مواطناً آخراً، واعتقل ما لا يقل عن مائة شخص، وهدم أكثر من ١٥ منزلاً، وأكثر من ٤٠ محلاً تجارياً .

مجزرة حماة الأولى التي نفذت في عام ١٩٨٠م وهي غير مجزرة حماة الكبرى التي نفذت في عام ١٩٨٢م :

بتاريخ ٥-١٩٨٠/٤/١٢ نفذ النظام الأسدي مجزرة حماة الأولى، حيث مشّطت قواته المدينة بفرقة مدرعة من كتيبتين من الوحدات الخاصة، قطعت المدينة عن العالم الخارجي، كما قطعت عنها الماء والكهرباء، وفتشتها بيتاً بيتاً مع الضرب والنهب، وقتلت عدداً من أعيان المدينة وشخصياتها، كما اعتقلت المئات، كما أدت المجزرة إلى استشهاد المئات من أبناء المدينة .

ومن أبرز الشهداء :

ــ الدكتور عمر شيشكلي (٤٥ عاماً)، رئيس جمعية أطباء العيون في سورية، حيث تمّ قلع عينيه .

ـ خضر شيشكلي (٨٠ عاماً): أحد زعماء الكتلة الوطنية، وصاحب (بيت الأمة) أيام العمل ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تم حرقه بحمض الأسيد .

ـ عبد القادر قنطقجي: طبيب جراحة عظمية .

مجزرة حي المشارقة ـ حلب

في صباح عيد الفطر ١٩٨٠/٨/١١ ارتكبت قوات حافظ أسد واحدة من أقبح مجازرها في حي المشارقة بحلب، حيث قتلت حوالي مائة مواطن، ودفنتهم الجرافات، وبعضهم كان ما زال جريحاً لم يُفارق الحياة .

مجازر سجن تدمر :

وقعت العديد من عمليات القتل الجماعي والفردي في سجن تدمر خلال عددت سنوات ، قدر عدد الذي قتلوا ما يقرب من عشرة آلاف سجين .

وما زالت عمليات القتل والتعذيب تمارس في سجن تدمر بداية من عهد الطاغية الهالك النصيري حافظ الأسد حتى الوقت الراهن في عصر الطاغية النصيري بشار الأسد . حيث ما زالت تمارس أبشع أنواع التعذيب ضد السجناء . إلا أن الكثير مما حصل من جرائم في سجن تدمر ما زالت غير معروفة .

هذه بعض من الجرائم التي ارتكبها النظام الطائفي بحق أبناء شعبه، وهي من باب المثال لا الحصر.

ذبح أهل السنة من الفلسطينيين واللبنانيين في تل الزعتر عام ١٩٧٦م على يدي الطاغية حافظ الأسد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، ثم أما بعد :-

هذه حلقة من حلقات خيانات الطاغية الهالك النصيري (حافظ الأسد) .. من ذبح أهل السنة من الفلسطينيين واللبنانيين في تل الزعتر عام ١٩٧٦م ..

لما بدأت الحرب الأهلية في لبنان في ١٣ / ٤ / ١٩٧٥م واستطاعت القوات الفلسطينية بالتعاون مع القوات الوطنية اللبنانية دحر الكتائبيين وحلفائهم من الموارنة ، وألحقوا بهم شر هزيمة ، وأطبقت القوات الفلسطينية وجيش لبنان العربي على معظم لبنان ، دخلت القوات السورية وقوامها ٣٠ ألف جندي لبنان في ١٩٧٦/٦/٥م وخاضت معارك طاحنة مع القوات المشتركة .

واقتحم البعث السوري لبنان ؛ لكي يبقي على امتيازات المارون التي حرمت مسلمي لبنان من حقوقهم المشروعة في قمة السلطة ، وفي مناصب الجيش والتمثيل النيابي وغير ذلك .

اقتحم البعث السوري لبنان لكي يضرب الوجود الفلسطيني ، ويؤدي المهمة التي عجـــر عنها فرنجيه والجميّل وشمعون واليهود .

وبعد تدخل النظام السوري بساعات أعلن رئيس وزراء العدو اليهودي إسحاق رابـــين عن ارتياحه العميق لخطوة النظام السوري ، وقال : إن إسرائيل لا تجد سبباً يدعوها لمنع البعـــث السوري من التوغل في لبنان ، فهذا الجيش يهاجم الفلسطينيين ، وتدخلنا عندئذ سيكون بمثابـــة تقديم المساعدة للفلسطينيين ، ويجب علينا ألا نزعج القوات السورية أثناء قتلها للفلـــسطينيين ، فهي تقوم بمهمة لا تخفى نتائجها الحقة بالنسبة لنا .

أعلن الاتحاد السوفيتي وفرنسا عن ترحيبهما بالتدخل السوري في لبنان ، كما أن الأنظمة العربية الخانقة أيدت التدخل السوري بسكوتها عن النظام السوري ، وهو يضرب مسلمي لبنان والمقاومة الفلسطينية .

وخاضت القوات السورية معارك طاحنة مع القوات المشتركة .. حتى بلغ عدد القتلـــى منذ بدء الحرب حتى يوليو ١٩٧٦م خمسون ألف قتيل ..

وقد كان هناك تنسيق بين قوات الكتائب وحلفائها وبين الجيش النـــصيري والقـــوات الإسرائيلية (بمباركة وزير الدفاع اليهودي بيريز) ..

ويقال أن ياسر عرفات صرح : بأن شارون العرب (أي حافظ الأسد) قد حاصرنا من البر ، وشارون اليهود قد حاصرنا من البحر .

بدأ حصار القوات المارونية لتل الزعتـــر في أواخـــر حزيـــران ، وســـقط المخـــيم في ١٩٧٦/٨/١٤م بعد حصار دام أكثر من شهر و نصف ، وبعد منع رجال المنظمـــة الـــصليب الأحمر من دخول المخيم .

انطلق الصليبيون الموارنة داخل المخيم كالوحوش الكاسرة ، وراحوا يذبحون الأطفـــال والشيوخ ، ويبقرون بطون الحوامل ، ويهتكون أعراض الحرائر ، وظهرت صورهم على شاشـــة التلفاز في معظم بلدان العالم ، وهم يشربون كؤوس الخمر احتفالاً بالنصر علـــى الفلـــسطينيين المسلمين ، وكانوا يعلقون صلبانهم في أعناقهم .

وتحت عنوان (أحداث لبنان) نشرت جريدة المجتمع الكويتية في عددها (٣٠٨) مقالاً يكشف حجم المؤامرة على الفلسطينيين المسلمين التي نفذها رجال الكتائب والنصيريين السوريين تحت سمع وبصر الحكام والشعوب العربية وجامعة الدول العربية : (قام الكتائبيون وحلفـــاؤهم بخطف مائة طفل وامرأة من تل الزعتر وأعدموهم بطريقة بربرية ، إذ أطلقـــت علـــيهم نـــيران الرشاشات عشوائياً بعد تجميعهم قرب مناطق تل الزعتر .. وفي جسر الباشا هتكت علوج الروم

أعراض المسلمات ، وفعلوا أشنع من ذلك في مذبحة الكرنتينا ، حيث هدموا البيوت وأبادوا الأطفال ، وسلبوا الأموال واعتدوا على حرائر المسلمات ، وما نقله القادمون من بيروت أن الأوغاد كانوا إذا اعتدوا على كرامة الأبكار من الفتيات ، تركوهن يعدن إلى أهلهن عاريات كيوم ولدهن أمهاتهن) .

فماذا فعلت الأنظمة العربية بعد هذه المذبحة الرهيبة ؟!!

عقدت مؤتمر قمة عربية ، وتم الاتفاق على إيجاد ما يسمى بالردع العربي في لبنان ، وكان في حقيقتها غطاء للوجود النصيري ، فالقوات السورية الكبيرة استمرت في احتلال وقهر أهل السنة في لبنان ، وأضاف العرب إليها بضع مئات غير السوريين ، وقد تم انسحابهم من لبنان بعد وقت قصير ..

وثمة شيء أكثر غرابة من ذلك ، لقد تعهدت الأنظمة العربية بمساعدات ضخمة تقدمها لسورية النصيرية ، كما تعهدت الأنظمة العربية بتغطية نفقات القوات السورية العاملة في لبنان ..

أليست هذه مكافأة لنظام أسد على جرائمه التي ارتكبها ضد المسلمين ؟!!

حقاً إنها مأساة .. طلب الفلسطينيون المحاصرون في لبنان فتوى من علماء المسلمين تبيح لهم أكل جثث الموتى حتى لا يموتوا جوعاً ..

ولدي من زمنٍ يسكنني .. وأنا من زمن أسكنه .. والآن تكفنه عيني .. فدعوني آكل من إبني .. كي أنقذ عمري .. ماذا آكل من إبني ؟!! من أين سأبدأ ؟!

لن أقرب أبداً من عينيه .. عيناه الحد الفاصل .. بين زمان يعرفني .. وزمان آخر ينكرني ..

لن أقرب أبداً من قدميه .. قدماه نهاية ترحالي .. في وطن عشت أطارده .. وزمان عاش يطاردني ..

ماذا آكل من إبني ؟! يا زمن العار .. تبيع الأرض ، تبيع العرض .. وتسجد جهراً للدولار ..

لن آكل شيئاً من إبني يا زمن العار .. سأظل أقاوم هذا العفن .. لآخر نبض في عمري .. سأموت الآن .. لينبت مليون وليد .. وسط الأكفان على قبري .. وسأرسم في كل صباح .. وطناً مذبوحاً في صدري ..

أليس من المؤسف بعد هذا كله أن يقبل مؤيدوا منظمة التحرير رأي قيادتهم في إعادة التعاون مع النظام النصيري السوري ، بل عاد هؤلاء يغنون لأبي سليمان حافظ الأسد في أفراحهم ..

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : النصيرية أكفر من اليهود والنصارى والمشركين ، وضرهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار

والفرنجة ، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت ، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولابكتابه ، ولا بأمر ولا نهي ولا بثواب ولابعقاب ولاجنة ولانار .. والنصيرية ملاحدة لا دين لهم ، ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة ، وكتب مصنفة ، فإذا كانت لهم مُكنة سفكوا دماء المسلمين .. مجموع الفتاوى (٣٥ / ١٤٩) .

صورة صنم الطاغية النصيري الهالك حافظ الأسد ملقى على الأرض في لبنان بعد أن تم تكسيره



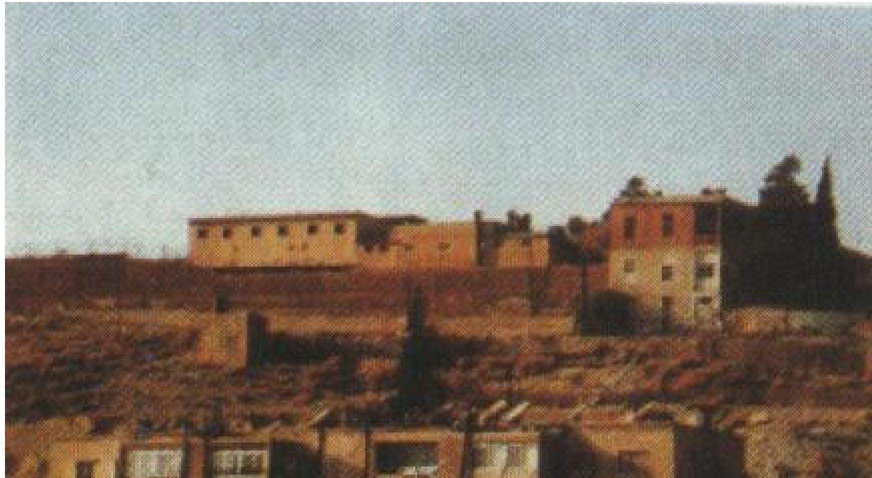
من منجزات الحكم الأسدي

بعض السجون والمعتقلات السورية التي أرتكب فيها النظام النصيري أبشع الجرائم

أ. دمشق

ـ سجن المزة العسكري: (تابع للشرطة العسكرية)، مؤلف من طبقتين، تضم الطبقة الأولى (٢٤) زنزانة، و(٦) مهاجع كبيرة، وتضم الطبقة الثانية (١٠) زنزانات انفرادية، و(٦) مهاجع كبيرة، و(٣) مهاجع صغيرة.

صورة سجن المزة



ـ سجن الشيخ حسن: (تابع للأمن السياسي)، فيه (١٨) زنزانة، في كل طابق تتصدره زنزانة جماعية، ومجموعة زنزانات منفردة.

ـ سجن كفر سوسه: (تابع للمخابرات العامة : أمن الدولة)، يتسع لأكثر من ٣ آلف معتقل، وضم أكثر من ٢٥٠ زنزانة، و١٠ مهاجع جماعية، وهو مجهز بأحدث وسائل التعذيب والتنصّت والمراقبة الإلكترونية.

ـ سجن القلعة: (تابع للأمن السياسي)، وهو قلعة رومانية قديمة، مهدد بالانهيار، حوّلت أبراجها إلى سجن للمعتقلين السياسيين، وجعل مسرحه القديم ساحة للإعدام.

ـ سجن الشرطة العسكرية.

ـ سجن القصّاع (تابع للمخابرات العامة: أمن الدولة)، مؤلف من قبو يضم ٤ غرف، و١٠ زنزانات، وفوق القبو مبنى يضم ٢٢ زنزانة انفرادية.

ـ سجن الحلبوني (تابع للمخابرات العامة: أمن الدولة)، مؤلف من ١٠ زنزانات منفردة، و٣ مهاجع جماعية، وقبو للتعذيب.

ـ سجن طريق دمشق الدولي (كان تابعاً لأمن سرايا الدفاع سابقاً)، مخصص لحالات التحقيق السريع وإعدام المعتقلين.

ـ مركز الشعبة السياسية في حي الشيخ محي الدين.

ـ سجن الطلياني مقابل المستشفى الإيطالي.

ـ سجن الروضة في حي الروضة.

ـ مركز شعبة فلسطين في حي المالكي.

ـ سجن العباسيين، شمال ساحة العباسيين.

ـ سجن مخابرات القوى الجوية.

ـ سجن المخابرات العسكرية، قرب الأركان العامة.

ـ سجن قطنا، للنساء.

ـ سجن منطقة دوما.

ـ سجن منطقة النبك.

ـ سجن قوى البادية في الضمير.

ـ معتقل القابون (تابع للمخابرات العسكرية).

ـ معتقل الوحدات الخاصة (بمنطقة أبو رمانة ـ شارع فوزي الغزّي).

ـ معتقل الفرع الخارجي.

ـ سجن الضمير الكبير، وهو من أحدث السجون.

ب. حلب

ـ سجن أمن الدولة المدني في منطقة المحافظة أمام قصر المحافظ.

ـ سجن أمن الدولة العسكري، طريق السريان قرب الجمارك.

ـ السجن المركزي، وهو سجن مدني على طريق السلمية.

ـ فرع المخابرات العسكرية، بقرب محطة بغداد.

ـ مدرسة المدفعية (الراموسة)، في منطقة الراموسة من ضواحي حلب.

تعذيب النساء في سورية

بقلم : صبرية أيوب

هو أحد أنواع المساواة بين الرجل والمرأة، في انتهاك الحقوق واستباحة الكرامة. وهو إيمان "صادق" بأن للمرأة قدرة على الاحتمال كما الرجل .

تماماً، لذلك يجب أن تخضع مثله للتعذيب، وتذوق ما يذوق من آلام الجسد ومعاناة الروح.

عوالم المرأة داخل فروع الأمن المختلفة تشابه إلى حد بعيد عوالم الرجل، إلا في بعض تفاصيلها التي تنطوي على مقدار أكبر من الإساءة والمهانة.

وفقاً لمشاهدات عدد من المعتقلين السابقين في الفروع الأمنية خلال السنتين الماضيتين، حجزت في هذه الفروع معتقلات من مختلف الأعمار والجنسيات، وفي أحيان كثيرة بصحبة أطفالهن. غالباً تستغرق عملية الاحتجاز أسابيع أو أشهر، في حالات قليلة أخرى تمتد لأكثر من سنة.

تشمل اعتقالات النساء بشكل أساسي: إما زوجات مطلوبين أو فارين خارج القطر، وهو ما ينطبق عليه وصف الرهائن بحيث يتم احتجاز المعتقلة إلى أن يسلّم زوجها نفسه أو يتم إلقاء القبض عليه، أو دخول القطر بطريقة غير مشروعة وهو ينطبق على نساء من جنسيات عربية وآسيوية مختلفة، أو العودة من المنفى، وهو ينطبق بشكل أساسي على العائدات من العراق عقب العدوان الأمريكي عليه. وقد سجلت منظمات حقوق الإنسان العديد من هذه الحالات خلال الأشهر الماضية. بالإضافة إلى حالات أخرى متفرقة، كالاعتقال بناء على تقرير مغفل أو بسبب الانتماء إلى تيار سلفي...

طبعاً تختلف طبيعة معاملة المعتقلات حسب كل حالة، ففي حين تقتصر بعضها على التحقيق وتوابعه من شتائم وإهانات، تشهد أخرى عنفاً وقسوة عبر التعذيب الجسدي بأنواعه المختلفة، هذا فضلاً عن سوء ظروف الاعتقال بحد ذاتها من حيث قذارة الزنازين أو المهاجع واكتظاظ هذه الأخيرة وتردي نوعية وكمية الطعام والافتقار إلى العناية الصحية اللازمة.

إحدى هؤلاء المعتقلات تقول: "تعايشنا في الفرع مع كائنات لا نشاهدها في الخارج، مثلاً تعرفنا على صراصير ناصعة البياض. فراشي كان يعج بمثل هذه الكائنات. وماذا أقول عن الطعام، ما يهوّن الأمر علينا قليلاً هو "الندوة"، وتعني أن باستطاعتنا – طبعاً بعد انتهاء فترة التحقيقات ونقلنا إلى المهجع في الفرع – شراء لوازمنا الأولية من الخارج، لكن المشكلة في نقودنا المودعة لدى الأمانات، والتي كانت تتبخر بقدرة قادر بين "ندوة" وأخرى وبما يفوق كثيراً مصاريف مشترياتنا.

معتقلة أخرى تقول: "كانت زنزانتي صغيرة كالقبر لا أستطيع أن أتنفس فيها، فكنت أضع أنفي على ثقب في الباب لكي أحصل على ذرة هواء، أما المهجع فقد وصفت لي أخت كانت معتقلة هناك، بأنه معد لاستقبال سبعة أو ثمانية أشخاص، ومع ذلك يحشر فيه أكثر من ٢٥ امرأة مع أطفالهن.

كما أسلفت، اعتقال النساء غالباً يكون للضغط على الأزواج، والاحتفاظ بالأطفال، للضغط على الأمهات: "كان أكثر ما يعذبنا أولئك الأطفال، يتزوون في ركن قصي، لا يكفون عن البكاء، وإذا بدرت منهم حركة، أو علا صوتهم بطلب أو شكوى، جاءهم صوت السجان كالسوط ليعودوا إلى صمتهم من جديد".

هناك أيضاً أجنّة لم تر النور، لأن أمهاتهن أجهضن خلال فترة اعتقالهن "كنت حاملاً في الشهر الثاني، استقبلت في الفرع بضربة على البطن وصفعة على الوجه، ثم انهالوا علي بالضرب بالأيدي والأرجل، لم يكن ظاهراً عليّ الحمل بعد، لم يعرفوا بذلك!! وأنا مشدوهة من الرعب والخوف، بعد أيام بدأت بالنزيف، أخبرتهم بأنني على وشك الإجهاض، لكن لم يزرني أي طبيب، حتى أجهضت".

التعذيب الجسدي للنساء لا يخرج عن الأساليب المعتادة: "كنت أراقبهم من ثقب في الجدار، جاؤوا بامرأة "مجلببة" ألبسوها بنطالاً وطرحوها أرضاً على بطنها وبدؤا بضربها على الجزء الأسفل من جسدها".

ومع ذلك، أحياناً يكون التعذيب الجسدي بالنسبة للأنثى، أرحم من الانتهاك الجنسي الذي يترك إحساساً عميقاً بالمهانة. وإن كانت أكثر من معتقلة سابقة قد أكدت بأن الانتهاك

الجنسي ليس سياسة رسمية كما هو الحال بالنسبة للضرب أو الشتم مثلاً، بل هي ممارسات فردية من بعض السجانين أو المحققين... أو الممرضين: "كان من يسمونه ممرضاً لا يفقه شيئاً من أمور التمريض أو التطبيب، لكنه يستغل حاجة المعتقلة للعلاج للتحرش بها، هناك أيضاً ما يسمونه "اختبار العذرية"، وهو وإن كان نادر الحدوث إلا أنه حصل مع بعض المعتقلات، وكان من أكثر ما تعرضن له مهانة وإذلالاً".

الحديث عن ممارسة التعذيب داخل الفروع الأمنية ليس جديداً، لكن هذا لا يعني أن القضية أصبحت أمراً مشروعاً كما بات يفكر فيها المواطن في وعيه أو لا وعيه، نتيجة الاعتياد على هذه الممارسات في الفروع واعتبارها تحصيل حاصل لعملية الاعتقال التعسفي، حتى أننا نجد هذه الفكرة مطروحة في بعض أعمالنا التلفزيونية كما شاهدنا في إحدى المسلسلات التي تعرض حالياً على شاشة التلفزيون السوري، وهو مسلسل "أحلام كبيرة"، مشهد قصير يظهر فيه الشاب حسن وهو يختطف من أمام منزله من قبل ثلاثة عناصر أمن في الفرع، يظهر حسن وهو متورم الوجه وآثار الضرب بادية عليه، المحقق يقول له، ليس لدينا شيء ضدك، كان مجرد "تقرير من مجهول" وعلينا أن نتأكد من بعض الأمور. "طبعاً المسلسل اجتماعي بحت ولا يحمل أي مدلولات سياسية، وقد تناول هذا المشهد باعتباره أمراً طبيعياً مر مرور الكرام، بدل التعامل معه أو إظهاره بشكل من الأشكال على أنه أمر مرفوض أو مخالف للقوانين. والرقابة التي سمحت بمرور هذا المشهد، تعترف ضمنياً بأن التعذيب هو من الممارسات الاعتيادية في فروعنا الأمنية، هذا على الرغم من أن مثل هكذا حديث قد يؤدي بصاحبه إلى تهمة "نشر أنباء كاذبة من شأنها أن توهن نفسية الأمة"!!.

والحديث عن تعذيب النساء لا يخرج عن هذا الإطار، لكنه يتخذ خصوصية معينة نظراً للوضع الاجتماعي للمرأة من جهة، ولأن الانتهاك يطال في أحيان كثيرة أطفالها بشكل مباشر.

بعد توقيع اتفاقية مناهضة التعذيب أوائل تموز الماضي، وبعد أن كثر الحديث عن تحجيم دور الأجهزة الأمنية وإعادة هيكلتها وكف يدها عن حقوق الناس وحرياتهم، تصبح هناك مشروعية أكبر لأحلام "وردية" بوقف هذه الممارسات اللاإنسانية داخل الفروع الأمنية المختلفة، وإخضاعها، وطبيعي أن هذه الأحلام تحتاج لتحقيقها إلى جهود مكثفة من المنظمات الحقوقية والنشطاء لتحسين ظروف الاعتقال ومنع الانتهاكات المرافقة له، إلى أن يأت الوقت الذي تتحقق فيه "المطالبات" بإغلاق هذا الملف والإفراج عن كافة المعتقلين والمعتقلات في السجون والفروع الأمنية، وإناطة أمر التوقيف والاعتقال بالأجهزة القضائية وحدها.

النظام السوري يرمي شهدائه و جرحاه في الأودية اللبنانية :

هذه الشهادة يرويها معتقل سوري سابق

رغم أن الاعتقال مأساة إنسانية إلا أن الشخص ينسى مأساته و معاناته عندما يدرك حجم المأساة التي يعاني منها الوطن بأسره و التي تفوق معاناته بعشرات المرات تحت هذا النظام الذي أباد سورية و ما حولها و حوَّلها لمستنقع آسن ينمو في المرتزقة و المجرمين و يفقد فيه المواطن كل شيء في حياته و بعد مماته.

أثناء اعتقالي في فرع المنطقة في المزَّه و خلال السنة الأولى من اعتقالي الذي دام خمس سنوات و التي نسميها سنة التحقيق فأي معتقل مهما كانت قضيته لابد له من هذه السنة فإن لم تفبرك له تهمة معينة يخرج بعد تمام السنة و إن كان محظوظاً مثلي يحول لمعتقل صيدنايا أو عدرا أو غيرهما من المعتقلات السورية ليكمل ما تحكم به المحاكم الميدانية برئاسة سليمان الخطيب جزار تدمر الرهيب الذي لا زال يصدر أحكامه حتى القرن الحادي و العشرين

جمعتني المصادفة هناك في إحدى الزنازين (الممتلئة حتى الثمالة بحيث يتناوب على البلاطة الواحدة ٤٠ ×٤٠ سم ثلاثة معتقلين اثنان وقوفاً و واحد جلسة القرفصاء) بأحد المهربين برتبة مساعد أول يخدم في لبنان اختلف مع معلمه في تقسيم عائدات التهريب فزجَّ به في زنازين فرع المنطقة لفترة قصيرة و كان هذا المساعد حانقاً على معلمه و غاضباً منه لما فعله به فأخذ يكيل له و لأمثاله من كبار الضباط اللصوص الشتائم و يفضح جرائمهم و من بين القصص المتعددة التي رواها لنا أنه كان يخدم خلال عام ١٩٩٠ في منطقة بيروت في فترة حرب الجيش السوري مع العماد ميشيل عون و كان اختصاصه قيادة ناقلات الدبابات وخلال الحرب أُعطبت أعداد كبيرة من الدبابات فكلِّف بمهمة نقل الدبابات المعطوبة من لبنان إلى سورية فسرَّ بذلك كثيراً لأن هذا يضاعف كمية المواد المهربة التي يستطيع إدخالها من لبنان إلى سورية بحيث يضع في كل زاوية من زوايا الدبابة مواده المهربة و حتى داخل حجرة القيادة بل و في فوهة الدبابة و من ثم يعاد تغطية الدبابة بغطائها الخاص و هي على الناقلة حيث كان يتم كل ذلك في مخزن متعاقد مع المعلم لتنفيذ هذه المهمة ثم تخرج ناقلة الدبابات محملة بالمهربات متجهة إلى دمشق و كانت تمر على القطع العسكرية السورية المنتشرة على الطريق و كان الشهداء السوريون وقتها يتساقطون بأعداد كبيرة في كل القطع العسكرية السورية فكانت كل قطعة بدل أن يتم نقل الشهداء بسيارات خاصة إلى دمشق تنتظر أي مركبة عسكرية سورية مارة بالقرب منها و ذاهبة إلى دمشق لتحمِّلها ما لديها من جثث الشهداء الذين جمعتهم من المناطق المحيطة بها من دون أي بحث عن هوية الجندي أو أي أوراق رسمية مجرد إيقاف سائق المركبة عند الحاجز السوري و تحميله ما لديهم من جثث دون أي وثائق و أحياناً كان المواطنون اللبنانيون يوقفون المركبات السورية لإعطائها الجثث

التي بقيت مرمية بالقرب منهم لعدة أيام دون أن يمسها أحد و طوال أيام الحرب كثيراً ما أوقفته الحواجز السورية لتحمِّله جثث لجنود سوريين استشهدوا إثناء الحرب حيث يتم وضعهم على ناقلة الدبابات و لكن صاحبنا كانت لديه مهمة أكبر و هي تفريغ المواد المهربة مباشرة بعد وصوله لدمشق فهذا ما يهمه و كان ذلك يتم لدى السماسرة الذين يتعاملون مع معلمه في مستودع أو ما يشبه ذلك و إدخال جثث لجنود سوريين سوف يسبب له الإرباك و لهم أيضاً حيث قال إنه ربما تعرف شخص ما على إحدى الجثث و هذا يعكر صفوهم بالإضافة لأن عملية تسليم الجثث في المشفى العسكري يستغرق وقتاً طويلاً و هو يريد استغلال أي دقيقة إضافية للسفر إلى أهله في قريته القريبة من القرداحة لذلك كان دائماً بعد استلام الجثث ينتظر حتى يبتعد عن مناطق القطع العسكرية و قبل أن يصل للحدود السورية ثم يقوم معاونه بإلقاء الجثث واحدة بعد الأخرى في الطرق الجبلية التي يمر بها و أحياناً يضطر لإيقاف الناقلة بطلب من معاونه لأن إحدى الجثث علقت أثناء رميها بخطاف حديدي أو ما يشبهه ليخلصها و يتابع رميها في المنحدرات و لم يكن بمفرده من يقوم بذلك بل كل سائقي المركبات السورية العسكرية لأنهم كلهم يعملون في التهريب مثله و في إحدى المرات حسب ما يروي بعد أن أنهى إلقاء حمولته من جثث الشهداء في المنحدرات الصخرية أراد أن يقضي حاجته فأوقف الناقلة و نزل منها إلى سفح الوادي و بعد أن قضى حاجته و أراد العودة للناقلة و إذ به يرى جثة لشهيد سوري رماه أحد السائقين من زملائه حديثاً و لفت نظره أن الشهيد كان يرتدي لباساً عسكرياً مموهاً جديداً و حذاء عسكري جديد فأراد أن يترع ملابس الشهيد و يأخذها و بالفعل نزع الحذاء و بدأ بترع السترة و إذ بالشهيد يتحرك بين يديه ففزع من الأمر و أخذ الحذاء تاركاً السترة و الجريح السوري في مكانه ملقى و عاد إلى ناقلة الدبابات ليكمل طريقه إلى دمشق الجريحة التي حرمها هذا النظام حتى من احتواء جثث شهدائها المظلومين .

و هذه القصة على غرابتها و قسوتها إلا أن الأغرب أن يتحدث بطل هذه القصة عن بطولاته في رمي الجثث و سرقة الجرحى و تركهم يموتون في الأودية اللبنانية في داخل سجن سوري و أمام معتقلين ضارباً عرض الحائط بأي مشاعر إنسانية و كأنه يتحدث عن رمي لنفايات و ليس عن جثث لشهداء دفعوا أرواحهم مجبرين إرضاء لنزوة مرتزقة تبحث عن ما تنهبه عند القتلى و الجرحى

غير خائف من أي محاسبة أو مسائلة لأنه ببساطة يعرف أن جميع الضباط حسب ما يقول يعلمون بكل هذا بل و كان يتندر بما فعل أمامهم و الآن يسجنوه بسبب خلاف على مواد مهربة

هذا هو واقع النظام السوري و هذا ما ربى عليه جيشه العقائدي فهل عرفتم الآن معنى الجيش العقائدي في سورية .

الجزء الثالث

ملفات طواغيت ومجرمي النظام النصيري البعثي

محتوى الجزء الثالث :

الطاغية النصيري بشار الأسد .

الطاغية النصيري ماهر الأسد .

ملف الخائن الطاغية حافظ الأسد .

الطاغية رفعت الأسد .

الطاغية غازي كنعان .

المجرم جميل الأسد .

الطاغية آصف شوكت .

المجرم محمد حمشو .

المجرم نادر قلعي .

المجرم ذو الهمة شاليش .

المجرم إياد طه غزال .

الطاغية رستم غزالة .

المجرم نمير الأسد .

المجرم عاطف نجيب .

المجرم كمال الأسد .

المجرم حسن مخلوف .

المجرم محمد مخلوف .

المجرم اللص رامي مخلوف .

الحرامي فواز الأخرس .

الملف الأسود للطاغية النصيري بشار الأسد*

الطاغية بشار الأسد هو من أبناء الطائفة النصيرية ، وقد ورثِ الحقد والعار والإجرام عن والده الهالك حافظ الأسد ، وهذه نبذة تعريفية بهذا الطاغية النصيري .

لم يكن حتى عام ١٩٩٤م أحد يسمع عن بشار الذي كان في حدود الثلاثين، وأصبح في هذه الأثناء العقيد الركن بشار الأسد! ولم يعرف هو من قبل سوى الحياة في " قصر الرئاسة " فقد كان طفلاً في السادسة من عمره عندما استولى الطاغية حافظ الأسد على السلطة عام ١٩٧٠ م؛ على رأس انقلاب عسكري أنهى سلسلة من الصراعات بين أجنحة حزب البعث العربي الاشتراكي، وقضى على البقية الباقية من الرفاق الحزبيين القدماء والقيادات التاريخية للحزب، سجنًا أو نفيًا، وقضى بشار سنوات طفولته في مدرسة " الحرية " الفرنسية في دمشق، ثم درس "طب العيون" في مستشفى تشرين العسكري في العاصمة السورية أيضًا، بين عامي ١٩٨٨ و ١٩٩٢م ورحل إلى لندن للتخصص .

وكان في منتصف فترة التخصص عندما مات أخوه باسل في حادث سيارة في عام ١٩٩٤ م فعاد إلى دمشق ..

وبينما اتخذ إعداد باسل لخلافة أبيه في الرئاسة مجراه بصورة بطيئة اعتيادية نسبيًا، كان لا بد من إعداد بشار كبديل بصورة سريعة، فمنذ الأزمة الصحية الحادة التي أصابت الرئيس السوري عام ١٩٨٣م لا تنقطع التكهنات عن حقيقة وضعه الصحي، وقد تضاعفت في الآونة الأخيرة بصورة ملحوظة.

كان على طبيب العيون أن ينتقل إلى الحياة العسكرية سريعًا في بلد يلعب الجيش فيه دورًا حاسمًا على الصعيد الداخلي .

وعلى أية حال يصعب القول بوجود خبرة عسكرية له عندما ترك التخصص في طب العيون، واستلم فور عودته إلى دمشق عام ١٩٩٤م منصب قائد كتيبة دبابات، وجاءت ترقيته سريعًا فأصبح "مقدم ركن" عام ١٩٩٧م، ثم عقيد ركن في أول أيام عام ١٩٩٩م، ضاربًا بذلك رقمًا قياسيًا في سرعة الترقيات العسكرية !! ، ومتجاوزًا الضباط الأقدمين والمحدثين في الجيش السوري، وهذا جزء من الإعداد لا يمكن تفسيره بانتساب بشار الأسد عام ١٩٩٤ م إلى الكلية

* مصدر هذا الملف المواقع الإلكترونية التالية: موقع " الجزيرة نت " وموقع " إسلام أون لاين.نت " وموقع " اللجنة السورية لحقوق الإنسان " وموقع " المنظمة السورية لحقوق الإنسان " وموقع "أخبار الشرق" وموقع "سوريا الحرة" بالإضافة لبعض المصادر الأخرى .

العسكرية في حمص، فعلى النقيض من الضباط في تلك الكلية حيث لا يستطيع أي منهم مزاولة عملين في وقت واحد، كان إعداد بشار الأسد للدور المقرر له يقتضي أن يقوم بعدد من المهام الأخرى .. على الهامش.

وكان قد تمّ ضمان الساحة العسكرية لصالحه، بإجراءات شملت التسريحات المباشرة والإحالة إلى التقاعد بالجملة خلال السنوات الماضية في صفوف كبار الضباط، ولعبت في ذلك المخابرات العسكرية دورًا رئيسيًا، وهي أحد الأجهزة المتعددة التي لا تلتقي خيوط إدارتها إلا عند رئيس الدولة نفسه .

وبشار الأسد حريص منذ عودته إلى سورية على أن يظهر في موقع من يعمل على تطوير الأوضاع بروح " الشبيبة " ، ولكن بدأت الألفية الثالثة ولم تقع الإصلاحات، في بلد قد يشير إلى أوضاعه الاقتصادية وموقعه العالمي في هذا المجال ما شهدته عملته من تدهور شديد .. وكان الدولار الأمريكي يعادل ليرة سورية ونصف الليرة عام ١٩٧٠م عندما استلم حافظ الأسد السلطة، وأصبح يعادل أكثر من ٥٠ ليرة سورية الآن .

بعد وفاة حافظ الأسد في ١٠ يونيو/ حزيران ٢٠٠٠ تم الحديث عن رفعت الأسد، عمّ بشار، الذي كان صاحب النفوذ الأكبر في سوريا في السبعينيات، وكان على رأس "سرايا الدفاع"، كما كان يهيئ نفسه لخلافة شقيقه حسب رأي المراقبين. ولتفويت الفرصة على رفعت اجتمع البرلمان السوري لتعديل المادة رقم ٨٣ من الدستور السوري التي تنص على أن سن رئيس الجمهورية ينبغي أن تكون ٤٠ سنة فتم تعديلها، خلال أسرع تغيير دستور في العالم في اجتماع استمر ربع ساعة وفي تصويت جرى خلال ثلاث ثوان أصبحت المادة ٨٣ من الدستور تنص على أن سن الرئيس يمكن أن تكون ٣٤ سنة، ولذلك تمكن بشار الأسد دستوريا من تقلد منصب رئاسة البلاد، وبالتالي يتم سحب البساط من تحت أقدام رفعت الأسد. فانتخب بشار الأسد في ١ يوليو/ تموز ٢٠٠٠ رئيسا للجمهورية السورية.

وهذه بعض الجرائم التي ارتكبت في عهد الطاغية النصيري بشار الأسد

- **الاعتقالات** : الاعتقال العشوائي دون مذكرة جلب قضائية شائع في سورية وكيفي أيضاً ، فكل جهاز أمني يتمتع بحق اعتقال المواطنين والتحقيق معهم وإخضاعهم للتعذيب والمعاملة الحاطة بالكرامة البشرية ، وقد يصل الأمر إلى إصابة الموقوفين بأمراض وعاهات مستديمة أو الموت تحت التعذيب أو نتيجة له دون أن يترتب على ذلك محاسبة أو تحقيق قضائي ، وهذه الاعتقالات تشمل النساء والأطفال ومعظم هؤلاء المعتقلون هم من أصحاب التوجه الإسلامي ، حيث تعتبر أجهزة النظام السوري الإسلاميين عدوها الأول ، فهي دائمة الترصد لهم والتنكيل بهم من كل

الاتجاهات وتقوم أجهزة الأمن والمخابرات عادة باعتقال المجموعات والأفراد سنتين أو ثلاثاً يمرون على أسوأ فروع التحقيق ويتعرضون لأشد صنوف التعذيب ثم تدينهم وتحكم عليهم بأحكام ظالمة وقاسية .

- اعتقال أقارب المعارضين : اعتقال أقارب المعارضين وأخذ الرهائن صفة أصيلة من صفات الخسة في الأجهزة الأمنية السورية ، حيث أقدمت المخابرات على اعتقال أطفال ونساء بعضهن حوامل من أجل الضغط على أقربائهن .

- معتقلون عرب في السجون السورية : يعتبر النظام السوري من أكثر أنظمة المنطقة تدخلاً في شؤون غير مواطنيه إذ يقوم بحملة غير مبررة ضد الطلاب الدارسين أو المقيمين أو الزائرين إلى سورية ، بالإضافة إلى أنه يستقبل معتقلين غير سوريين مرحلين إلى سورية للتحقيق معهم وتعذيبهم والاحتفاظ بهم . ولقد قام النظام النصيري باعتقال العديد من المجاهدين الذاهبين للعراق أثناء مرورهم في الأراضي السورية ، ويوجد حالياً العديد من المعتقلين من البلدان العربية والإسلامية والغربية مثل لبنان والصومال والجزائر وعرب الأحواز وهولندا والبحرين وفلسطين والسعودية وغيرها من البلدان .

- اضطهاد الأكراد : لا تزال السلطات السورية تضطهد الأكراد السوريين وتمنعهم حقوقهم بلغتهم وتراثهم وتمنع الاعتراف للكثير منهم بالجنسية السورية التي سحبت منهم ، ولقد قامت أجهزة الأمن باعتقال العشرات من الأكراد .

- التعذيب وسوء المعاملة : تستخدم السلطات السورية التعذيب الجسدي والنفسي والأساليب الحاطة بالكرامة البشرية بشكل منهجي وروتيني ولا سيما في فترة التحقيق الأولية التي يخضع لها المعتقل ، ويمارس التعذيب على المعتقلين بدون أن تفرق سلطات الأمن والمخابرات في ذلك بين البالغين والأحداث ويستخدم في مراكز التحقيق والتوقيف والسجون أكثر من أربعين أسلوباً معتمداً من التعذيب وكثير من المعتقلين من يفقد أحد أطرافه أو حواسه أو يصاب بعاهة مستديمة وفي بعض الأحيان يموت تحت التعذيب أو نتيجة له ولم ترد أخبار عن محاسبة العناصر أو الضباط المتورطين في التعذيب ، بل هناك تشريع يخليهم من مسؤولياتهم باعتبارهم يقومون بمهام رسمية موكلة إليهم!! .

- وسائل التعذيب المستخدمة في سجون بشار الأسد وأماكن الاحتجاز في سوريا :

أ- التعذيب الجسدي:

من أكثر وسائل التعذيب الجسدي شيوعاً في سوريا:

١ - الضرب بالعصي والكابلات المعدنية على القدمين أو مختلف أنحاء الجسد.

٢- الوضع في الدولاب. والدولاب عبارة عن إطار مطاطي خارجي لعجلة سيارة يوضع به المعتقل بحيث يتم ضربه بالعصي أو الكابلات دون أن يتمكن من الحركة.

٣- الصعق بالكهرباء.. حيث يتم وصل أسلاك كهربائية بأطراف الجسم أو في بعض الحالات إلى مناطق حساسة منه ويتم وصل الكهرباء إليها.

٤- الكرسي الألماني: وهو كرسي من الحديد المتحرك يسبب ضغطاً رهيباً على العمود الفقري مما يسبب ألماً شديداً وشللاً في الأطراف يدوم في بعض الحالات أسابيعاً.. أو يسبب شللاً دائماً.

٥- بساط الريح: وهو جهاز خشبي متحرك يربط إليه السجين من أطرافه الأربعة ويتم ثني هذا الجهاز إلى قسمين أثناء ضرب السجين بالعصي أو الكابلات.

٦- الحرق بالسجائر.

٧- الفلقة: الضرب على أرجل الموقوف ثم إجباره على الجري .

٨- التعذيب بالماء: وذلك بإنزال رأس السجين بدلو من المياه .

ب- التعذيب المعنوي والنفسي:

١- التهديد المستمر بالتعذيب .

٢- إسماع السجين بصورة واضحة لأصوات التعذيب .

٣- توجيه الإهانات والشتائم بصورة مستمرة .

٤- التهديد بالتعرض للزوجة أو الأخت .

٥- الحبس لمدة طويلة في زنزانة انفرادية .

- انتشار الدعارة في ظل حكم الطاغية النصيري بشار الأسد[1] : لم تعد مسألة الدعارة في سورية أمرا تحت السيطرة، هذا ما يؤكده الجميع دون استثناء، الناس والحكومة التي ترفض الاعتراف بذلك، فقبل سنوات كانت الدعارة تقتصر على أماكن يعرفها الجميع، مثل فنادق الدرجات المتردية، التي تنتشر على مرأى من الجميع، الملاهي الليلية التي تختتم برامجها الفنية بجمع الرؤوس التي تبحث عن بعضها دائما، الشقق المفروشة المعدة لاستقبال الليالي الحمراء، والأبطال كانوا غالبا من الأشقاء العرب. أما اليوم فان البطولة لم تعد حكرا على أشقائنا بل صار الزبون المحلي حاضرا بقوة، وأماكن الانتشار لم تعد مقصورة على مناطق محددة، خاصة مع ازدياد تنظيم المهنة بطريقة احترافية، فقد أصبحت الدعارة أشبه بالسوق

---

[1] نقلاً عن موقع " شام برس " الإلكتروني تقرير بعنوان "الدعارة في خدمة السياحة" .

السوداء،فهناك أسعار تحددها نوعية البضاعة المعروضة كعمر الفتاة أو جنسيتها أو المدة المرغوب باقتطاعها من وقتها الثمين.

وكي لا نوصف بالتجني فقد كانت وزارة الداخلية التي تنام على كتف تلك الفنادق المشبوهة في المرجة- وهي المنطقة الأكثر شهرة بالدعارة في مدينة دمشق- كانت تقوم بين الحين والآخر بإغلاق تلك الأماكن، ولكن ما هي إلا أيام قليلة وسرعان ما تعود تلك الأماكن إلى سابق عهدها بقدرة قادر. وكذلك الدوريات الأمنية التي ينظمها فرع الآداب على الملاهي الليلية أو الفنادق، لكن دون أن يكون لها أية فعالية، إذ غالبا ما تنتهي المهمة على فراش إحداهن أو بمبلغ مالي معلوم ومتفق عليه في ما يشبه الإتاوة، لقاء استمرار نشاطها، علما أن الشهادات الصحية التي تثبت خلوهن من مرض الإيدز والتي يتم طلبها من الفنانات والراقصات القادمات من الدول الشرقية لا تكفي، خاصة مع قدوم آلاف الفتيات من جنسيات مختلفة للعمل إلى سورية.

فيتامين السياحة!

تشير الإحصاءات الأخيرة لوزارة السياحة إلى تزايد أعداد السياح القادمين إلى سورية، وذلك في إطار خطة موضوعة لهذا الغرض، ويبدو واضحا أن نسبة السياح الخليجيين شهدت تحسنا ملموسا، وخاصة عقب التضييق عليهم في الدول الأوربية مما دفع بالكثيرين منهم إلى التوجه نحو سورية ولبنان، وقد عرفت القوانين السورية الكثير من التسهيلات لهؤلاء من أجل استمرار تدفقهم إلى سورية، وظهر هذا واضحا من خلال التعامل الخاص معهم على المنافذ الحدودية، والتساهل في موضوع قانون السير، وقوانين أخرى.

وكنتيجة طبيعية للامتيازات الممنوحة للسياح على اختلاف جنسياتهم، كانت الفنادق الرخيصة والنوادي الليلية والشقق المفروشة المنفلتة عن أي نوع من الرقابة، تندرج في إطار تلك التسهيلات، خاصة بالنسبة للسياح الشباب الذين يأتون في مجموعات، إذ يأتي هؤلاء من أجل المتعة، والمتعة وحدها، فتنحصر الأماكن التي يرتادونها بالملاهي الليلية وصالات الديسكو حيث يمكن لهم تأمين ما يبحثون عنه. كما ظهرت للوجود مكاتب متخصصة بخدمة السياح، فتقوم بتأمين الشقق المفروشة لهم، وخطوط الهاتف النقال، كما ترشدهم إلى أماكن السهر لقاء عمولة يقتطعونها من الطرفين، والأهم من هذا تقوم هذه المكاتب بتأمين الخادمة التي تكون عادة السيدة التي تحضر لهم فتيات المتعة. وكل هذا يتم تحت نظر الجهات المعنية التي تغض الطرف عن هذه الممارسات تحت عنوان تشجيع السياحة، لأن الدعارة هي أهم العناصر التي يبحث عنها السائح العربي أينما وجد، دون أن نتجاهل وجود أعداد قليلة من السياح العرب الذين يأتون بقصد السياحة الحقيقية واستطلاع المناطق الأثرية والطبيعية في البلد .

- الإساءة للذات الإلهية وللأنبياء وللإسلام والقرآن : انتشر في عهد هذا الطاغية النصيري التطاول على الذات الإلهية وعلى الأنبياء وعلى الإسلام والقرآن ، وذلك من قبل المسئولين والضباط والمخابرات والسجانين ، حيث لا رادع لهم ، بل يتم تحفيزهم لفعل ذلك ، ولا أدل على ذلك من تلك الحادثة المشهورة التي حدث في مسجد أبو ذر الغفاري في مدينة حمص ، حيث دخل أحد عناصر المخابرات الإجرامية كعادة لجمع المعلومات عن المصلين ، وقد تظاهر بأنه في حالة سكر ، ولقد قام بسب الأنبياء والإساءة للقرآن الكريم ، عندها قام بعض الغيورين على الإسلام بقتل هذا المجرم ، وفروا بعد ذلك إلى خارج سوريا إلى الأردن ، إلا أن النظام الأردني الخائن قام بتسليمهم للإنتربول الدولي ، الذي قام بدوره بتسليمهم للسلطات النصيرية السورية ، ولقد قامت المخابرات بعد هذه الحادثة باعتقال عدد كبير من الشباب في مدينة حمص والتنكيل بهم . وتاريخ هذا النظام في محاربة الإسلام وأهله مشهور ومعلوم للجميع .

- مصافحة بشار لرئيس إسرائيل موشيه كاتساب : من المعلوم أن النظام النصيري ينتهج منهج المتاجرة بقضية فلسطين والتبجح بأوهام جبهة الصمود والتصدي في وجه إسرائيل ، إلا أن هذا النظام النصيري مفضوح وحقيقته معروفة لدى الجميع ، ولقد كان من هذه الفضائح فضيحة مصافحة النصيري بشار الأسد لليهودي موشيه كاتساب رئيس الكيان الصهيوني الإسرائيلي ، أثناء حضوره لجنازة الهالك بابا النصارى يوحنا بولس الثاني .

- مشاركة بشار لعصابة مافيا النظام النصيري في نهب خيرات البلاد : حيث تتم عمليات النهب والسرقة تحت علم بشار بها أو بالتغاضي عنها أو بالمشاركة فيها ، وأحياناً تكون عمليات النهب والسرقة لحساب بشار مباشرة ولكن يقوم بها بعض الأوباش بالنيابة عنه ، وتهرب أموال بشار الأسد إلى حساباته البنكية في سويسرا وهذه الحسابات هي باسم بشار الأسد شخصيا ولكن لا تحمل اسم شخصي إنما حساب رقمي . ولقد أدخل بشار المزيد من اللصوص لسوريا بزواجه من أسماء الأخرس ، حيث انضمت أسماء الأخرس وبعض أقربائها لعصابة مافيا السرقة في سوريا ، وكأن سوريا لا يكفيها ما أصابها بل هي بحاجة للمزيد من الحرامية للقضاء على خيرات البلاد وتدمير ما تبقى (وإن شاء الله من خلال قرائتكم للملفات التالية لطواغيت ومجرمي سوريا سيتبين لكم مدى علاقة بشار الأسد ومشاركته لهؤلاء المفسدين في الأرض) .

- ومواصلة بشار سياسة أبيه الهالك في حماية الحدود الإسرائيلية : ما زال بشار يعمل ككلب حراسة لإسرائيل ، حيث يمنع وبكل صرامة أي محاولة لتسلل أي مقاوم إلى فلسطين أو إلى هضبة الجولان ، ولقد ذكر أحد السجناء السابقين في سجون سوريا وهو الرياضي العراقي هلال عبد

الرزاق بأن أشد أنواع التعذيب كانت من نصيب مجموعة حاولت تهريب الأسلحة لدعم الانتفاضة الفلسطينية .

- محاربته للإسلام والمسلمين : واصل بشار الكلب نهج أبيه الهالك في محاربة الإسلام والمسلمين ، حيث واصل منع تحكيم الشريعة الإسلامية ، وحكم بدل منها القوانين الوضعية ، وكذلك منع الجنود من الصلاة في أوقات العمل ، ومنع المساجين من الصلاة في السجون ، ولقد زج بكثير من علماء ودعاة المسلمين في السجون ، واعتقال الشباب المسلم في سوريا على أيدي أجهزة الإرهاب المخابراتية منتشر في كل بقاع سوريا .

هذه عبارة عن نبذة سريعة عن الطاغية النصيري بشار الأسد .

الطاغية النصيري ماهر الأسد*

هذا الملف عن القائد العسكري النصيري صانع تحرير الجولان!! العقيد الركن ماهر حافظ الأسد عضو اللجنة المركزية لحزب البعث وعضو بارز بسرقة ونهب الموارد السورية واكبر رجل أعمال في تبيض الأموال وتهريب المخدرات والرجل الأول في تهريب الآثار السورية..!

العقيد ماهر حافظ الأسد ، مواليد دمشق ١٩٦٨م .

يحمل شهادة في الهندسة بعد تخرجه التحق بالكلية الحربية وتخرج منها برتبة ملازم أول مهندس قيادي.

التحق بالفرقة الرابعة وأجرى دورات قفز مظلي وكان ملازماً لشقيقه الهالك باسل الأسد وكان باسل الأسد يشرف على تدريبه وتولى تدريباته وهو برتبة نقيب كتيبة المهام الخاصة وكانت هذه الكتيبة الانطلاقة الأولى له والتي تضم ضباط ولائهم لماهر وهم غسان بلال ملهم ميهوب وباسل العلي واحمد بشقاق واحمد العبد الله الملحق العسكري في سفارة سورية بفرنسا وغيرهم من الضباط.

الوضع العائلي : متزوج فتاة من عائلة "جدعان" وهي عائلة أصلها من محافظة دير الزور ولديه ثلاث أولاد.

صفاته الشخصية : مغامر دموي يحب الضرب متهور وسريع الغضب محب للهو والسهر ومصاحبة الصبايا ويحب إهداء من يحب سيارات فاخرة وخاصة الجنس اللطيف !! (بعض مصادرنا المقربة يقول يحب ممارسة الكيغ-بوكسينغ ولا ينهي تدريباته حتى يرى الدماء تسيل من

---

* نقلاً عن الموقع الإلكتروني "سوريا الحرة" على شبكة الإنترنت ، بتصرف .

خصمه ويمارس معه هذه الرياضة صديقه عمار ساعاتي رئيس اتحاد الطلبة ومعروف عنه من قبل ضابطه الموالين له بأنه يمتلكون افخر أنواع السيارات ولهم كلمة قوية داخل الفرقة وفي أوساط دوائر الدولة الحكومية يتكلمون باسمه الشخصي ؟!!)

له جهاز امني خاص يسمى "مكتب الأمن" يترأسه العقيد غسان بلال وله سجن خاص به يترأسه ابن عمه رئيس الشرطة العسكرية في الفرقة الرابعة المقدم هلال الأسد.

سنبدأ من أثناء وفاة باسل الأسد حيث كان جثمان الرائد المظلي باسل الأسد مسجى في مسجد السيدة ناعسة (والدة الرئيس الهالك حافظ الأسد السيدة ناعسة شاليش) وكانت الوفود اللبنانية الرسمية خاصة تزحف إلى القرداحة للتعزية بالابن الأكبر للرئيس الأسد الذي كان يحمل اسم أبو سليمان وهو الاسم الحزبي الذي عرف به قبل أن يقرر تهيئة نجله الأكبر باسل ليرثه في حكم الجمهورية العربية السورية فاعتمد تسمية أبو باسل، وكانت فرقة الأحباش اللبنانية للأناشيد الدينية تصدح بحناجرها ليل نهار ولأسبوع كامل أمضتها ((مؤاجرة)) الأسد وعائلته بفقدان الضابط الشاب الذي ذهب ضحية حادث سير مروع عند دوار مطار دمشق الدولي صبيحة يوم ممطر من شهر كانون الثاني/يناير ١٩٩٣.

كانت هتافات بعض الشباب تردد اسم الوريث البديل للأسد الأب هو نجله الثاني طبيب العيون بشار الذي جاء من لندن حيث يدرس وعلى عجل ليكون إلى جانب والده بعد أن استقر رأيه على تسميته رئيساً ووريثاً بعده، وكان هناك نفر من الشباب المتحمس خاصة بين الجنود وصف الضباط يردد اسم الضابط المحترف ماهر وهو الابن الثالث للرئيس الأسد.

ورغم أن الرئيس الأسد واجه اعتراضاً جدياً من جانب عدد من أركانه خاصة من اللواء علي حيدر قائد القوات الخاصة التي أنقذت نظامه من محاولة شقيقه الدكتور رفعت الاستئثار بالسلطة حين دخل أبو باسل غيبوبته المؤقتة الشهيرة عام ١٩٨٤، وبلغ الاعتراض حداً دفع أبو ياسر (اللواء حيدر) كي يقول في مجلس خاص: ((نحن لم نقم بالثورة كي نحول الجمهورية إلى ملكية.. ، ولن نقبل بشاب طبيب ليس له بالعسكرية ولا بالسياسة كي يكون رئيسنا المقبل)).

رغم هذا الاعتراض فإن القضية حسمت بأن بدأت تهيئة بشار للرئاسة وبدأ والده يأخذ البيعة له لتوريثه الرئاسة من بعده من أركان نظامه الذي صنعه بيديه وقبع حيدر في بيته في اللاذقية من تاريخه.

لم يكن للرئيس حافظ الأسد الذي لم يعتد اعتراضاً من احد أركانه على أي قرار يتخذه خاصة بمستوى توريث سلطته أن يأخذ بهتافات الشباب المتحمس لتولية الضابط الشاب ماهر السلطة من بعده، لكنه في أفضل الأحوال ضمن وجوده داخل السلطة الحاكمة من خلال موقعه المتدرج

من قيادة سرية دبابات (ت ٧٢) وهي كانت أفضل ما أنتجته المصانع السوفيتية يومها حتى أصبح في عهد شقيقه الذي حكم البلاد وريثاً لوالده في تموز/ يوليو عام ٢٠٠٠ قائداً للواء الرابع مجهزاً بأحدث المعدات والأسلحة ممسكاً بكل مداخل ومخارج دمشق عسكرياً وأمنياً.

وفي ذلك العام (عام ٢٠٠٠) وكانت فرقة الأحباش اللبنانية عادت لتصدح بأناشيدها الدينية التقليدية في وداع الرئيس حافظ الأسد طيلة الأسبوع الممتد من ١١ إلى ٢٠٠٠/٦/١٨ خرجت صور كبيرة للمقدم ماهر الأسد الذي ترقى سريعاً ليحمل رتبة عقيد ثم يدخل اللجنة المركزية لحزب البعث العربي الاشتراكي بعد أن سمى المؤتمر القطري الذي طال أمد انتظار انعقاده شقيقه الطبيب بشار أميناً عاماً للحزب معطياً إياه رتبة فريق ليصبح هو نفسه الرئيس والأمين العام للحزب والقائد الأعلى للقوات المسلحة العربية السورية في سنة ٢٠٠٠ بعد أن تم تعديل الدستور في إجراء ملتبس لتخفيض سن الرئيس من ٤٠ سنة إلى ٣٤ وكان عمر الطبيب يومها ٣٥ سنة، وقيل يومها أن نائب الرئيس عبد الحليم خدام كان يملك وحده التحكم بهذا التعديل وكان يكفيه سفراً كما هذه الأيام إلى باريس كي يوقع النظام كله في حيرة كان سيعجز عن الخروج منها.. لولا عبد الحليم خدام حيث كان أمل عبد الحليم خدام بان يقيم بشار الأسد إصلاحات اقتصادية لتحسين أوضاع الشعب السوري وان يقيم الحد من سرقة أموال الدول وان يوقف بشار الأسد عائلته وعائلة مخلوف من سرقة اقتصاد سورية وان يحافظ على السياسية السورية الخارجية!! وان يتعامل مع الظروف السياسية بحكمة واستشارة من هم كانوا مشاركين في قوة سورية السياسية!! ولكن بشار الأسد هدم سياسة سورية بتسرعه وتسلطه في رأيه وتسلط أفراد عائلته على قراراته السياسية وعلى موارد البلاد واقتصادها والابتعاد عن التشاور السياسي فتلاش الأمل في أن تبقى سورية قوية سياستها الخارجية و في أن يصنع الإصلاح المالي والاقتصادي وان يضع حداً لفساد أل الحاكم وان يصنع الرفاهية والرخاء للشعب السوري ولكن هذا الأمل تلاشى وازداد فساده وفساد عائلته .

عاد العميد أصف شوكت وعقيلته ابنة الرئيس حافظ الأسد السيدة بشرى إلى دمشق بعد منفى اختياري في باريس بدأ عام ١٩٩٠ أراده لهما الرئيس الأب حرصاً على مشاعر ابنه الأكبر يومها باسل الذي كان معترضاً بالأساس على زواج شقيقته من عميد الاستخبارات القوي آصف شوكت، وكان من المنطقي وبحكم الضرورة أن يكون شوكت بعد عودته اثر وفاة باسل عام ١٩٩٣ أساسياً في المحيط العائلي حيث حول الشاب بشار الأسد ليصطدم أكثر من مرة مع الضابط الشاب المتحمس ماهر الأسد الذي تولى قيادة الحرس الجمهوري الخاص بالقصر الجمهوري مع توليه زمام الأمور في الفرقة الرابعة ، خاصة بعد أن اجري شوكت حركة تنقلات

عسكرية في محيط القصر لم تعجب ماهر الأسد وعن مشاجرة كلامية بين اصف ومـاهر أمـام الرئيس حافظ الأسد حيث لم يسمح ماهر الأسد بتدخل اصف في شؤون العائلـة بعـد أن دار حديث عن رفعت الأسد فتحدثت المصادر المطلعة عن إطلاق الأسد الابن النار علـى الـصهر القوي آصف شوكت " على أثرها غادر اصف شوكت إلى باريس ليـتم علاجـه في مـشفى "فالدوكراس" في باريس وكان يمكن لهذه الواقعة أن تفعل فعلها لولا تدخل الوالدة السيدة أنيسة مخلوف لترطب الأجواء ويجري توزيع المهمات والمسؤوليات حتى لا تتكرر هذه الإحداث الخطيرة على النظام وعلى العائلة..

وبعد وفاة حافظ الأسد عقد اجتماع بين بشار وماهر واصف ووزعت الأدوار بينهم حيث تسلم ماهر الأسد مافية آل الأسد أما مافية آل مخلوف فتسلمها بشار الأسد شخصياً مافية آل الأسـد المعروفة في محافظة اللاذقية المسؤولة عن تهريب الدخان والأدوات المترلية والمخدرات من شمـال لبنان والموانئ السورية وموانئ الخاصة المعدة للتهريب في شمال اللاذقية حيث هذه الموانئ تشمل إدخال المخدرات من تركيا وإيران وأفغانستان ليتم تهريبها لاحقاً إلى أوربا وبعض الدول العربية وبعد وفاة حافظ الأسد بأربع أيام تم استدعاء جميع شباب آل الأسد إلى دمشق واجتمع معهـم بشار الأسد وأعلمهم بان شقيقه ماهر الأسد أصبح يتولى جميع قضاياهم وهو مسؤول عنهم وعن أعمالهم في التهريب والأعمال الأخرى الخاصة بهم في الدوائر الحكومية وهذه الترتيبات أثـارت سخط وغضب من أولاد عمه فواز الأسد ومنذر الأسد اللذان كانا يـسيطران علـى منـاطق التهريب في الساحل السوري وتأكيداً لتسلم ماهر ملف التهريب حيث حدثت حادثة مروعة وتم إغلاق الملف من قبل ماهر الأسد شخصياً وهي(اشتبك محمد الأسـد الملقـب بـشيخ الجبـل ومجموعته مع دورية شرطة حين حاولت اعتراضهم وتوقيف قافلة تهريب عائدة لشيخ الجبل محمد الأسد في منطقة المنضار في محافظة طرطوس فقتل على أثرها ملازم أول في الشرطة وعنصرين وتم إغلاق الملف ضد مجهول لان شيخ الجبل محمد الأسد مرتبط بعلاقة شراكة مع ماهر الأسد !!

وتولى أيضاً ماهر الأسد العلاقات المالية والتجارية مع إميل إميل لحود ورستم غزالة والتي تشمل تهريب المخدرات من لبنان وكازينو لبنان ومشاريع اعمارية واقتصادية وبنك المدينة وبنك الموارد. وفي عام ٢٠٠٠ أيضاً تسلم ملف الاتصالات السرية مع إسرائيل بواسطة الإعلامية ماريا معروف حيث ربطته مع تاجر سلاح من أصل لبناني مقيم في بريطانيا حيث جرت المحادثات والاجتماع مع الإسرائيليين في إحدى الدول العربية والذي كان ينسق الاتصالات من الجانب الإسرائيلي مـدير عام وزارة الخارجية ايتان بنتسور، ومن الجانب السوري شقيق الرئيس السوري مـاهر الأسـد. ونقلت التقارير كل الوقت إلي القدس حيث كان وزير الخارجية سيلفان شالوم في سر الأمـور،

وإلى دمشق التي كان يتلقى فيها الرسائل ويصدر منها الردود عليها ردودا قاطعة لا لبس فيهـا الرئيس الأسد بنفسه.

والآن يتبين أنه باستثناء الحقيقة، والتي نشرت لأول مرة في (معاريف) أن الرئيس السوري مستعد للعودة إلي طاولة المفاوضات دون شروط مسبقة أعرب الرئيس السوري أيضا عـن اسـتعداده لزيارة القدس. سؤال بهذا الأسلوب نقله الطرف الإسرائيلي بواسطة شقيق الـرئيس والجـواب الذي عاد من دمشق كان: (الرئيس لا يستبعد الوصول إلى القدس). وأكد بنتسور نفسه أمـس المعلومة ولكنه رفض التوسع. (الاتصالات كانت جدية جدا). ولكن بسبب الخلافات قبل وفـاة والده حافظ الأسد مع صهره اصف شوكت تم تحجيم ماهر في مسألة التفاوض مع الإسـرائيليين وكان ذلك بطلب من اصف شوكت لبشار الأسد مما زاد الخلاف بين اصف شـوكت ومـاهر الأسد حيث أصبح في سورية تيارين التيار الأول ماهر الأسد ومحمد ناصيف وتيار الثاني اصـف شوكت وفاروق الشرع وما تزال المنافسة المستعرة بين رجلي الأمن السوري القويين ماهرالأسد شقيق الرئيس الأصغر وصهره آصف شوكت تضع احدهما في مواجهة الآخر. مـصادر سـورية ولبنانية متعددة أفادت بأن اللواء آصف شوكت رئيس أجهزة المخابرات العـسكرية الـسورية اعتكف عن زيارة مكتبه في حي المزة لبضعة أيام في منتصف أيار/ مايو الماضي، مبدياً اعتراضـه على ما اعتبره حلفاً معقوداً ضده بين الرئيس بشار الأسد والمشرف على الحـرس الجمهـوري العقيد ماهر الاسد في الوقت الذي كان فيه عرضة لأشد الضغوط من الولايات المتحدة والأمـم المتحدة. ولم يعد الحوار بين الرجلين إلا بعد تدخل قوي من بشرى الأسد شقيقة الرئيس وزوجـة آصف شوكت. وفي موازاة ذلك كان رئيس الحرس الثوري الإيراني اللواء رحيم صفوي المعروف بعلاقاته الجيدة مع آصف شوكت يقود وساطة إيرانية سرية للغاية، ولأجل هذه الغايـة تعمـد الانتقال إلى دمشق. العداوة بين الرجلين بدأت في شهر آذار/ مارس عندما عمد اللواء شـوكت إلى تعزيز نفوذه عبر إجراء بعض التغييرات في المناطق العسكرية. وفي شهر نيسان/ ابريل، تلقـى العقيد الأسد من شقيقه أمراً بتسمية اللواء عبد الفتاح قدسية على رأس جهاز المخابرات الجوية، وهو ما فسره آصف شوكت على انه تعد على «حقله الخاص». العميد قدسية مقرب من عائلـة مخلوف التي تنتمي إليها والدة الرئيس أنيسة مخلوف الأسد، وكان المسؤول عن أمـن الحـرس الجمهوري بقيادة الأسد. وفي مطلع أيار/ مايو أتى الرد من قبل آصف شوكت بتعزيز سـلطات العديد من مسؤولي الاستخبارات العسكرية: رئيس وحدة مكافحة الإرهاب اللواء أمين شـرابي، اللواء هشام عثمان مدير الأمن العسكري واللواء محمد الشعار رئيس المنطقة الجنوبية التي تـضم محافظات دمشق، درعا، القنيطرة والسويداء .

لقد استطاع ماهر الأسد أن يقيم علاقات إستراتيجية ثابتة مع أركان النظام العراقي السابق.. المقيمين في دمشق ويؤمن لهم حراسة شاملة كاملة وكثيراً ما كان يزور جبهة الحدود الواسعة ٥٥٠ كلم بين سوريا والعراق ولعل أشهر زيارتين لتلك الحدود مشهود لهما بالدور الكبير كانتا حين زار الجبهة السورية – العراقية ليشرف على تمرير المقاتلين (عرباً وعراقيين) والأسلحة للقتال ضد قوات الاحتلال الأميركية للعراق، ثم حين زارها بعد ذلك للإشراف على ترتيبات إقفال هذه الحدود تلبية للطلب الأميركي بضبط الحدود تلك ومنع تسرب المقاتلين الذين يقضّون مضاجع قوات الاحتلال في بلاد الرافدين ؟ حيث بدأت الناس تتسأل عن إعدام أولادهم وعن التهم التي أبقت الكثير من أولادهم في السجون سنين طويلة من شبابهم وعن إعدام شباباً و طلاباً ثانويين لمجرد أنهم تناولوا فتة حمص مع بعض أصدقائهم أو آخرين نصبوا خيمتهم للنزهة في شواطئ طرطوس أوفي اللاذقية وكسب وصلفنة ومناطق سياحية أخرى ، ويسمحون للمجاهد الكبير والعلامة الفاضل وناصر الدين وحامي حماه الشيخ الحلبي / أبو القعقاع بإعلان الجهاد وتدريب المقاتلين على السلاح والكاراتيه وفن القتال الفردي في قلب مدينة حلب ثاني اكبر المدن السورية ؟ وفي حي الصاخور الشعبي؛ حيث كنا نجد خطب ومواعظ أبو القعقاع الحماسية تباع في المكاتب وعلى الأرصفة وأمام المساجد، مع العلم أن الشيخ المجاهد أبا القعقاع كان يستلم من عنصر الأمن المكلف ما سيقوله (كبقية خطباء سورية) قبل خطبة الجمعة، لكنه لجرأته النادرة وشجاعته الفريدة ولتفانيه في حب الجهاد ولشوقه إلى الشهادة في سبيل الله كان لا يهتم بإملاءات المخابرات والبعثيين، ولا يخاف من أحد إلا الله!!!؟

وكانت كتبه في حوزة تلاميذه الذين استشهدوا وجرحوا واعتقلوا وهم يجاهدون متسللين إلى بناء مهجور في ساحة الأمويين وسط دمشق فجر الجمعة الثاني من حزيران ٢٠٠٦ وكان بحوزتهم - إضافة لخطب ومواعظ وكتب المجاهد الأعظم أبي القعقاع - أسلحة أمريكية!! (وصلتهم من دولة مجاورة جغرافياً!!) وللعلم فإن كل الأسماء التي عرفت ممن قضوا في هذه الحوادث كانوا من المهربين والمجرمين والمطاردين والمطلوبين جنائياً وبعضهم كان مطلوباً من الأردن وفق طلب رسمي مقدم للانتربول كما فضح ذلك الأمن الأردني لكن مشيئة المخابرات في سوريا أن تجعل منهم شهداء وحكايا وبطولات تنظيم جند الشام أو غرباء الشام أو قل جند مخابرات أبو القعقاع الأسدي الذي كان يقبض على كل رأس من الشباب المتحمس الذاهب إلى الجهاد أما السيد ماهر الأسد فيكون قد ضرب عدة عصافير بحجر واحد، حيث كشفوا وتخلصوا من الشباب المسلم المتحمس للجهاد أولاً.

وبهذه التمثيلية أظهروا للعالم أجمع وللأمريكيين خصوصاً أنهم مستهدفون من الإرهـــاب العـــالمي مثلهم ثانياً لإسرائيل رسالة مفادها: أن هؤلاء هم الذين سيشعلون جبهة الجولان بعد أن استطعنا حمايتها لكم وإخمادها و إسكاتها تماماً منذ حرب تشرين وحتى الآن ثالثاً، وبرروا اســـتمرارهم في فرض قوانين الطوارئ والقوانين الاستثنائية التي ما زالت مسلطة على رقـــاب شـــعبنا المظلـــوم والمغلوب على أمره منذ أكثر من أربعة عقود.

فساد ماهر الأسد:

أما عن فساده فهي كثيرة ومقسمة داخل سوريا وخارجها والآن سنتحدث عن فـــساده داخـــل سوريا..

سنة ١٩٩٨ أقدم الرئيس حافظ الأسد بطلب من بشار وآصف بأن هنالك سيارات موزعة مـــن القصر الجمهوري وعددهم حوالي "٦٠ "سيارة ولوحات رقمية حوالي "١٠٠" تم توزيعها بـــأمر من ماهر الأسد هنالك سيارات على ملاك الفرقة الرابعة أيضا تحمل لوحات "عسكرية " موزعة على أصاحبه من ليالي الملاح الحمراء. أصدر الرئيس قراراً بسحب اللوحات الخاصة والسيارات الممنوحة من ماهر الأسد واحتج ماهر الأسد على هذا التصرف مما أدى إلى المشادة الكلامية بينه وبين والده ، وأقدم على مهاجمة آصف شوكت صهره زوج الدكتورة بشرى الأسد الذي لم يكن يوماً وحتى هذه اللحظة موافقاً على خطف آصف لبشرى والزواج منها في ايطاليا أمام والده .

وتم إبقاء "عشرون سيارة" منحها ماهر الأسد منهم لعائلة دمشقية معروفة حيث تقطن هذه العائلة في المزه فيلات قرب معهد "إعداد المعلمين" في المزه وبعض السيارات إلى قريبة زوجته وأصـــدقاء زوجته.

قام غسان بلال مدير مكتب ماهر الأسد بتقديم محمد حمشو على انه رجل أعمال ناجح وطموح وموثوق، طبعاً...موثوق هي كلمة عالمية يتداولها زعماء المافيا، لكن في مملكتنا السعيدة لدى آل الأسد هي تعني انه كتوم وخادم ممتاز لسرقاتهم ونهب ثروات البلاد !!

وبسبب غيرته من رامي مخلوف الذي أصبح اسمه مردد كثيراً وخاصةً لدى المسؤولين في الدولـــة فكان التوجه بإيجاد اسم جديد على الساحة الاقتصادية السورية فاوجد شخص يدعى محمد حمشو للمشاريع الداخلية و وميزر نظام الدين وصهره خالد ناصر قدور، يشكلون هيئة وكلاء لأعماله في الخارج !!

وكان أول مشروع بداياته مع محمد حمشو هو مشروع شركة الاتصالات "براق" وهي كبـــائن هاتفية "حصالات".

- مجموعة حمشو للاتصالات الدولية "مؤسسة تم توقيعها وافتتاحاها منذ فترة قصيرة وخاصة بعد توقيع عقد مع شركة "الثريا" للاتصالات عبر الأقمار الصناعية فهو أصبح وكليهم الحصري في سوريا.

- مؤسسة براق للدعاية والإعلان :رئيس مجلس الإدارة "إعلانات الطرقات الضوئية والالكترونية ".

- لجنة الشركات :رئيس لجنة الشركات تعنى هذه الشركات بالعلاقات المالية "البورصة" بالخارج وبيع الأسهم والتحويل العملات وتبيضها

- لجنة التخطيط والإنتاج :عضو لجنة التخطيط والإنتاج تعنى بالتخطيط والاستثمارات الخارجية والداخلية أي تسهيل أمور أي مستثمر داخل سوريا بنسبة معينة من الأرباح .

- مجموعة حمشو الدولية: رئيس مجلس إدارة مجموعة حمشو الدولية نشاط هذه الشركة في دول الخليج جبل علي استيراد وتصدير .

- شركة الشرق الأوسط للتسويق - لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات :رئيس مجلس إدارة شركة الشرق الأوسط للتسويق - التكنولوجيا المعلومات والاتصالات

- شركة سورية الدولية للإنتاج الفني : رئيس مجلس إدارة شركة سورية الدولية للإنتاج الفني .

- موقع إخباري شام برس .

- - شركة شام للدراسات الهندسية والتعهدات :رئيس مجلس إدارة شركة شام للدراسات الهندسية والتعهدات

- جبالة الاسمنت " الشرق الوسط .

- شركة جوبيتر للمشاريع السياحية : رئيس مجلس إدارة شركة جوبيتر للمشاريع السياحية .

- سلسلة مطاعم زمان الخير .

- الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية :عضو مجلس الإدارة الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية بيع واستيراد أجهزة الكمبيوتر وقطع الغيار لها .

فساد ماهر الأسد مع محمد حمشو في الدوائر الحكومية:

- قضية جمركية ألغيت بقدرة قادر وهي إدخال شاشات عرض تلفزيونية "بلازما" بشهادة استيراد على أنها قطع غيار للكمبيوتر شاشات عرض للكمبيوتر فيها ضبط جمركي وفيها غرامات مالية باهظة ومحكمة اقتصادية ولكن الغيت كافة الإجراءات.

- بيع حوالي ٢٥،٠٠٠ جهاز كمبيوتر إلى وزارة التربية بدون عروض مناقصة تم بيعها بشكل أمر من ماهر الأسد شخصياً على وزير التربية بدون عروض ومناقصة.

- إنشاء موقع "شام برس" الإخباري مع السيد علي جمالو الذي كان يعمل مصورا لدى هيئة الإذاعة والتلفزيون. والكل يعرف بأن هذا الموقع بات عبارة غطاء ودعاية كاذبة عن الشفافية والتحدث عن الفساد بشكل شفاف وموضوعية وانتقاد أجهزة الدولة ضمن المسموح به من فساد الموظفين دون الاقتراب من نقد فساد النظام وآل الحاكم، كل ذلك من أجل خداع الرأي العام العالمي بأننا لدينا صحافة حرة !!

- المارّون الآن في ساحة الأمويين في دمشق يجدون حاليا معدات بناء وبرّاكات كتب عليها "مؤسسة الخياط للتجارة والمقاولات".

ولمن لا يعلم، فإن مؤسسة الخياط ما هي إلا إحدى شركات محمد حمشو، الوهمية والتي هي ملكيتها الحقيقية لماهر الأسد ، وهي مسجلة باسم زوج شقيقة حمشو ويستعملها حمشو كغطاء لعدم لفت الأنظار في حصوله على تعهدات الدولة بعد أن كثر الحديث عن الفساد في الآونة الأخيرة.

والذي حصل أن المحافظ القديم محمد بشار المفتي لم يروقه أن مؤسسة الإسكان العسكري كانت مسؤولة عن أعمال ساحة الأمويين، لأن الموضوع فيه (رزقة) كبيرة تقف في وجهها مؤسسة الإسكان.

ولذلك، (وحسب ما صرحت به مؤسسة الإسكان لوسائل الإعلام الرسمية)، بدأ المحافظ بوضع العراقيل أمامهم، من تأخير في تسليم الدراسات أو التغيير المستمر للمواصفات.

وبدأ تقاذف التهم بين المحافظة وبين مؤسسة الإسكان عن أسباب تأخر أعمال الساحة، إلى أن (استوت) الطبخة، فأصدر المحافظ قرارا" بسحب أعمال ساحة الأمويين من يد مؤسسة الإسكان العسكري بحجة عدم الكفاءة. وقام بتعهيد كافة الأعمال إلى شركة الخياط (أي محمد حمشو)، وطبعا" حصل على (الرزقة) التي كان يسعى وراءها.

ولم تسكت مؤسسة الإسكان العسكري على المحافظ الذي كان عليه أن يحذر من اللعب مع (العسكر).

ومقارنة" مع تاريخ محمد ميرو وناجي العطري (الحافل) عندما كانا محافظين، فلا تستبعدوا أن يصبح محمد بشار المفتي رئيس وزرائنا القادم...فأنتم في سوريا الأسد !!

مهمات حمشو التي كلف بها من قبل ماهر الأسد:

١ - عقود البترول مع عدي صدام حسين تهريب البترول العراقي لبيعه بالسوق السوداء بعيدا عن قرار الأمم المتحدة " النفط مقابل الغذاء " وكانت تنقل من العراق إلى سوريا ويتم نقلها "

بواخر شحن بترول خاصة " تباع في السوق السوداء وكان فيها " مضر الأسد – وشركة المهيب وهيب مرعي - هاشم العقاد - صائب النحاس ".

٢ - بيع معدات إنارة من شركة " فليبس " من وكيلها في سوريا بسام سكر وكان شريكه عمر التاجر ابن اللواء مطفى التاجر وكان صفقة فيها الملايين من الدولارات.

٣ - غسل أموال صدام حسين وهريبها من العراق بعد اجتماعه مع عدي صدام حسين ومع رجل أعمال أردني اسمه يوسف الزعبي ومحمد ؟ ...

حيث تم إدخال المبالغ إلى لبنان وتم تبيضها وتقلها إلى بنوك أخرى عربية وتم تبيضها عبر بنك المدينة وبنك الموارد وكان المشرف الأمني على هذه العملية " العميد رستم غزالة " حيث تم إدخال مبالغ هائلة بأسماء وهمية وصفقات مشبوهة أو تسمى صفقات بدون أي أساس لها وعقود تصدير وهمية ليتم تبيض الأموال داخل هذه البنوك.

بالإضافة إلى عمليات تبيض أموال المخدرات ....

وقصص الأموال المهربة من بنك المدينة وخاصة الأموال التي سحبت وصدرت بأسماء مجهولة والأموال التي أيضا سحبت من قبل شقيق "العميد رستم غزالة " كلها أموال عراقية للبترول كانت قد تم تبيضها وبالإضافة إلى سرقة أموال مودعين بنك المدينة بالاشتراك أيضاً مع " العميد رستم غزالة " .

و بعد سقوط نظام صدام تم الاحتيال على الحكومة العراقية الجديدة بهذه العمليات حيث لم يتم التصريح عنهم وتم كشف عملية هريب أموال عراقية بعد دخولها إلى لبنان مبالغ ضخمة بطائرة خاصة وكان مشرف على هريبها محمد حمشو ولكن الأقدار شائت أن تكشفها الأجهزة الأمنية اللبنانية ويتم مصادرتها ...

محمد حمشو مسؤول عن الحسابات السرية لماهر الأسد في البنوك الأوروبية وخاصةً السويسرية ...

لديه أسهم في إحدى الشركات المالية السويسرية التي تعنى في إصدار بطاقات (ماستر كارد) " ولكن المالك الحقيقي لهذه الأسهم هو الأسد "...

أسهم في بنك سوريا والمهجر وشريك أساسي لشركة " الهرم للصرافة " مدعومة من الأسد " الصرافة والتحويل الخارجي ممنوعين في سوريا " ؟؟؟ ....

فساد تبيض الأموال:

أجبرت المؤسسة العامة للاتصالات على إرساء مناقصة "**PDN**" شبكة الانترنيت في سوريا لصالح شركة محمد حمشو بمبلغ وقدره ١٩ مليون دولار أمريكي علماً بأن كلفة المشروع دون أرباح هي

٢٠ مليون دولار وهذا ما يؤكد عملية تبيض الأموال من قبل حمشو ومعلمه ماهر الأسد. وبلغت غرامات التأخير أكثر من أربع ملايين دولار وتم التخلي عن وزير الاتصالات السابق "بشير المنجد" لأنه طالب محمد حمشو بتسديد غرامات التأخير !!

وإحدى طرق تبيض الأموال إنشاء شركة لصناعة الإسمنت في سوريا علماً بان كثير من "الشركات الألمانية" لم يتم الموافقة على عروضها فقد أعلنت مجموعة حمشو الاقتصادية السورية (وهي التابعة بملكيتها الحقيقية لماهر الأسد) عن مشروع جديد للإسمنت بطاقة إنتاجية تصل إلى مليون ونصف المليون طن سنوياً و بأن المشروع مشمل بقانون الاستثمار رقم ١٠\١ وأن رأسمال هذا المشروع يبلغ ٢٠٠ مليون دولار، ومن المقرر أن يقام في منطقة أبو الشامات قرب دمشق كما انه سيعتمد على تكنولوجيا أوروبية ويوفر ٤٠٠ فرصة عمل.

وأصبح ماهر الأسد وكيل شركات الدخان الأجنبي (مارلبورو ، كنت) في سوريا والتي تقاسمها مع خاله محمد مخلوف التي تم توزيعها مناصفة الخال.

فساده مع عضو مجلس الشعب هاشم عقاد :

أعاد ماهر الأسد علاقاته مع هاشم عقاد صديق باسل الأسد بعد أن انقطعت علاقة هاشم العقاد بالقصر الجمهوري بعد وفاة صديقه باسل.

وقد أعاد ماهر الأسد هذه العلاقة من جل تطوير علاقاته التجارية مع العراق وخاصة في مجال المحركات (محركات الدبابات والاتصالات والنفط) وبعد سنوات حصل خلاف على العمولة بين هاشم عقاد وماهر الأسد فاخذ قرار بمنع سفر هاشم عقاد إلى العراق وفتحت له ملفات كانت مغلقة ومنها بنك "بيمو" اليوناني وملف معمل المياه الغازية المبنى على أراضي تعود ملكيتها للدولة وزارة الزراعة والتي وضع يده عليها بواسطة باسل الأسد.

فساد ماهر الأسد خارج سورية:

بالنسبة لفساد ماهر الأسد خارج سوريا كانت تتم عبر ميزر نظام الدين وصهره خالد ناصر قدور، الذين يشكلون هيئة وكلاء لأعماله الخارجية ، ميزر نظام الدين هو مدير عام لمحطة إذاعية في سورية وعن طريق إميل إميل لحود ورستم غزالة في لبنان حيث تم تبيض أموال عراقية النفط مقابل الغذاء لصالح العقيد ماهر الأسد وتهريب أموال لرامي مخلوف الموظف لدى بشار الأسد وهذه الحسابات هي في سويسرا باسم بشار الأسد شخصيا ولكن لا تحمل اسم شخصي إنما حساب رقمي !!!

وقضية بنك الموارد التي لم تظهر للإعلام والتي تم التكتم عليها والضغط على وسائل الأعلام أثناء السيطرة الأمنية على لبنان حيث أقدم رستم غزالة بتبييض أموال صدام حسين وتهريبها للخراج

وكانت تقدر بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار قبل سقوط بغداد بحوالي سنة ونصف وهـذه العمليـة تم التنسيق عليها بين ميرزا نظام وبين قصي صدام حسين وبين العقيد ماهر الأسد وتمت عملية تبيض الأموال وتهريبها خارج لبنان بموافقة ماهر الأسد بعد أن كانت له النسبة الأكبر من هذه العملية وقد أديرت هذه العملية من دمشق بتوجيه من ماهر الأسد شخصياً وتم تنفيذها من قبل رستم غزالة للتغطية الأمنية والضغط الأمني بأسماء كل من طلال ارسلان وإميل إميل لحود ونقلها بأسمائهم للخارج وهم بالنهاية يمثلون العقيد ماهر الأسد وكان نصيب رستم غزالة من هذه العملية ٣ مليون دولار أميركية وشقة سكنية للسيد إميل إميل لحود في برج غزال في الاشرفية أما السيد طلال ارسلان فكان له حصة مالية وضعت في حسابه في بنك دبي وبنك سويسري تقدر بحوالي ٢,٣ مليون دولار حينها طلبت زوجة طلال ارسلان الطلاق منه لأسباب أخلاقية (وهو يمارس الجنس مع سائقه) حيث ضغط ماهر الأسد شخصيا على عائلة زوجة طلال ارسلان (عائلة خير الدين أصحاب بنك الموارد) واستدع رستم غازلة أشقاء زوجة طلال ارسلان وضغط عليهم بعدم قبولهم لطلب زوجة طلال بالطلاق منه خوفا من البوح والتكلم عن الفضائح والأسرار التي كانت تعرفها زوجته وخاصة الفضيحة الأخلاقية المنافية للطبيعة للسيد طلال ارسلان. هذه المصالحة بين طلال وزوجته لم تأت بناءً عن نخوة ماهر الأسد ورستم غزالي إنما خوفا على مصالحهم الخاصة، وعلى أسرارهم وعلى أسرار أزلامهم وسائقيهم كونهم هم بيت أسرار معلميهم بحركاتهم ومصالحهم المالية.

ماهر الأسد أحد المتورطين الأساسيين في فضيحة بنك المدينة:

تم سحب شيكات مسحوبة من بنك المدينة باسم أشقاء رستم غزالة وهم محمد عبده غزالة وبرهان غزالة وصولا إلى الدكتور ناظم غزالة حيث بدأت عملية السحب والإيداع على البنك المذكور من تاريخ ١٩-١-٢٠٠٢ وحتى ٣١-١٢-٢٠٠٢ وتجاوزت قيمة الشيكات ٨ ملايين دولار و٣٩٦ ألف دولار أميركي واستمرت عمليات الإيداع الغير معروف مصدره والسحب بعد ذلك ليصل إلى ٨٥ مليون دولار بعد موت قصي وعدي صدام حسين !!

وأقدم رئيس مجلس إدارة بنك المدينة وبنك الاعتماد المتحد، الموضوعين تحت الإدارة عدنان أبو عياش بإقامة دعوى جديدة شملت هذه المرة، إلى رنا عبد الرحيم قليلات، ورئيس جهاز الأمن والاستطلاع السابق للقوات السورية قبل انسحابها من لبنان العميد رستم غزالة وأشقائه محمد عبدو غزالة، وبرهان عبدو غزالة وناظم عبدو غزالة، وكذلك إيهاب عبد الرحمن حمية المتعامل مع المصرفين بواسطة قليلات، متهماً الأربعة بسرقة مئات الملايين من الدولارات الأميركية ومن المبالغ التي تم تحويلها إلى المصرفين والتي بلغ سقفها، بحسب الدعوى ٧٨٥،٥٨٠ مليون دولار أميركي.

وتم كشف عن ملف بنك المدينة وشقيقه بنك الاعتماد المتحد يتضمن سحوبات عبر الصراف الآلي، وحوالات وشيكات صدرت بأسماء متعددة وتم تجييرها لمصلحة أشقاء غزالة ولمسؤولين سوريين كبار في مراكز حكومية على أعلى المستويات.

بعد الانسحاب السوري من لبنان، بدأت تظهر إلى العلن الممارسات غير الشرعية التي كانت تحصل.

لوحظ في "الوقائع" التي استهلت بها الدعوى إشارة إلى "إن بعض الأسماء هم من المسؤولين العسكريين في سوريا كي لا نقول في لبنان وسوريا". واللافت أن بعض الأسماء الضالعة بقوة في السحوبات التي حصلت من المصرف تم بواسطتها شراء مجموعة كبيرة من العقارات في يوم واحد قد اختفت كلياً من الملف واللوائح التي تم تبادلها بين المصرفين ومصرف لبنان، بما في ذلك أسماء متهمة بعمليات تبييض أموال على نطاق واسع.

وتؤكد المصادر نفسها أن المعنيين بالملف، من سياسيين وأصحاب نفوذ في لبنان، المقربين من رستم غزالة وماهر الأسد واصف شوكت قد حصلوا على منافع بعشرات الملايين من الدولارات الأميركية من طريق سحوبات تم من خلالها شراء عقارات ما لبث أن أعيد بعضها إلى المصرفين بأسعار منفوخة، من دون أن يكون لهم أصلا أي ودائع أو حسابات دائنة حقيقية، فضلاً عن سرقات أموال موصوفة بمئات الملايين خرجت نقداً، وعبر بطاقات الدفع، وكانت تنتقل من حساب إلى آخر في غضون أيام معدودة بقصد التمويه.

و أن أسطولا من السيارات الفارهة من الطراز الحديث ذهب هدايا من المجموعة نفسها إلى زعماء ونافذين في سوريا !!!

وتغمز الدعوى الموثقة بأرقام حسابات لآل غزالة وقليلات وحمية، من قناة أجهزة الرقابة في مصرف لبنان التي كانت على "علم وإطلاع على مخالفات المصرفين". وتعزو ذلك إلى احتمال "أن تكون هناك ضغوط سياسية أو أمنية حالت دون تحرك مصرف لبنان عند الاقتضاء".

وتطالب الدعوى الجهات القضائية بالتحقيق مع المدعى عليهم وتوقيفهم وإعادة الأموال المسروقة وكشف الأموال التي بيضت لصالح ماهر الأسد ورامي مخلوف واصف شوكت والأموال المسروقة والمبيض التي كانت عائداتها لقصي وعدي صدام حسين التي نهبت وتبخرت في ليلة واحدة بعد مقتل أبناء صدام حسين !!

وإعادة رنا قليلات التي تم تهريبها من لبنان بعد حادثة مقتل رفيق الحريري والتي تم تهريبها عن طريق رستم غزالة عن طريق الخط العسكري ومن ثمة تم تزويدها بجواز سفر مزور غادرت به إلى

تركيا ومن ثمة إلى مصر ومنها إلى البرازيل هذه التنقلات لمطلوبة من الانتربول لا تتم إلا بتنسيق امني !

تبيض وتهريب أموال مخدرات لصالح ماهر الأسد:

كان ماهر الأسد نشيطاً في دعم وتسهيل تهريب المخدرات من لبنان إلى أوربا وكان من بين هؤلاء العملاء "يحيى شمص" المعروف بغنائه الفاحش وزعيم تهريب المخدرات اللبنانية إلى خارج لبنان وصاحب مزارع الخشخاش في البقاع التي كانت محمية من قبل ماهر الأسد شخصيا حماية أمنية وعسكرية أكثر من حماية حدودنا على إسرائيل !!!

ولم يتوقف بل استمر في التدخل في أعمار الجنوب بفرض على مجلس الجنوب أسماء مقاولين "محمد دنش" لإرساء مناقصات المقاولات عليهم بدون دفتر شروط وبأسعار خيالية وتنفيذ اسواء من السيئ وأسس شركة خاصة مع ذو الهمة شاليش وإميل إميل لحود ومع جورج معوض غزال "شركة معوض للبناء"

وأسندت لهذه الشركة بناء سد شبروق "بكسروان" بكلفة ١٢٠ مليون دولار، والحصة الكبيرة كانت للعميد ذوالهمة شاليش.. هذه هي الحماية الأمنية للبنان حماية اقتصادية لصالح آل الحاكم في سوريا..!

وكما ذكرنا في حلقة سابقة فكان ذو الهمة شاليش شريك أساسي لماهر الأسد في كسارة لبنان "كسارة فتوش" التي كانت بدون أي تراخيص وكانت أرباحها تقدر بالملايين الدولارات سنويا كون رستم غزالة له حصة فيها وكان يفرض ما تنتجه الكسارة على شركات البناء وعلى شركات أعمار لبنان مجلس الجنوب بأسعار خيالية إرضاء لصاحب الحصة الأكبر ذو الهمة شاليش.

الحقيقة مع كل ما حدث في لبنان وكل ما أفسده ماهر الأسد ورستم غزالة، دفع رفيق الحريري لفتح ملفات فسادهم مع الدكتور بشار الأسد ولكن تم التخلص من رفيق الحريري خوفاً من أن يسيطر على الأغلبية اللبنانية في البرلمان ويتم فتح ملفات فساد الحاكم وأجهزته في لبنان أن الحريري قُتل لمنعه من التحقيق في ملف "المدينة".

واستندت "فورتشن" إلى محققي الأمم المتحدة ووثائق مصرفية ومصادر أخرى للقول إن عملية اغتيال الحريري كان أحد أغراضها تغطية فضيحة "المدينة" التي ضخت من طريق الفساد والاحتيال المصرفي مئات الملايين من الدولارات إلى رسميين سوريين ولبنانيين. ونقلت عن المصادر إياها أن الرسميين السوريين واللبنانيين الذين تورطوا في الاحتيال خافوا عودة الحريري إلى السلطة وكشف دورهم في واحد من أكبر الأعمال المصرفية غير الشرعية في الشرق الأوسط.

حين تورط عملاء الاستخبار السوريون السنة الماضية في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري، كان دافعهم يبدو واضحاً: تحييد خصم للاحتلال السوري الذي استمر ٣ عقود في لبنان.

لكن محققي الأمم المتحدة ومصادر أخرى أخبرت مجلة "فورتشن" أنهم ربما تحركوا بحوافز إضافية ليضربوا ضربتهم. ذلك التفجير بالسيارة في شباط (فبراير) ٢٠٠٥، على ما تقول المصادر، ربما كان أحد أغراضه تغطية فضيحة فساد واحتيال مصرفي ضخ مئات الملايين من الدولارات إلى رسميين سوريين ولبنانيين.

وتدل الوثائق المصرفية واللقاءات مع المحققين والمصادر الأخرى على أن بعض الرسميين كانوا متورطين بشدة منذ أواخر تسعينيات القرن الماضي حتى أوائل سنة ٢٠٠٣ في خطة ابتزاز أمدهم بالنقد وبالعقارات والسيارات والجواهر، لقاء توفير الغطاء والتسهيل لنشاط غسل أموال بمليارات الدولارات في مصرف "المدينة"، أتاح لبعض المنظمات ، وموزعي "الماس الدموي" في غرب أفريقيا ولصدام حسين والعصابات الروسية، أن يخفوا مصادر دخلهم ويحولوا أموالهم إلى حسابات مصرفية شرعية حول العالم.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلت لإخفاء تفاصيل انهيار المصرف في أوائل ٢٠٠٣، تقول هذه المصادر فإن الرسميين السوريين واللبنانيين الذي تورطوا في الاحتيال خافوا عودة الحريري إلى السلطة وكشفه دورهم في واحد من أكبر الأعمال المصرفية غير الشرعية في الشرق الأوسط منذ فضيحة مصرف "الاعتماد والتجارة الدولي" في أوائل التسعينيات.

ويسأل مروان حمادة وهو وزير الاتصالات، وأحد المقربين من الحريري، وقد تعرض هو بنفسه أيضاً لمحاولة اغتيال بتفجير سيارة: "هل كانت الفضيحة أحد أسباب اغتيال الحريري؟". ويجيب: "حتماً. كان بالتأكيد أحد الأسباب المتراكمة. فلو أعيد انتخابه لكان أعاد فتح الملف، الذي تصل خيوطه مباشرة إلى (الرئيس السوري بشار) الأسد، من خلال قصر الرئاسة (اللبنانية) في بعبدا".

وقد أهتم المحققون في موت الحريري، في سجلات المصرف الخاصة بالمشتبه فيهم في سوريا ولبنان، بالنظر في ما إذا كان على الأقل بعض المتآمرين تحفزهم الرغبة في طمس دورهم في قضية مصرف المدينة.

ويضيف المصدر "إن الأمر يصل إلى أعلى المراجع في سوريا" وتشير التقارير في شأن الاغتيال إلى الاحتيال المالي، على أنه حافز محتمل. إذ في كانون الأول (ديسمبر) الماضي، انهيار مصرف المدينة: "الاحتيال والفساد وغسل الأموال قد تكون حوافز لبعض الأشخاص على الاشتراك في العمل الذي انتهى إلى اغتيال السيد الحريري".

وان حديث مسجل اهم فيه العميد رستم غزالي، العسكري السوري الأعلى رتبة في لبنان (آنذاك) الرئيس الحريري بالحديث عن الفساد السوري في لقاء مع صحيفة، منتهكاً على ما يبدو اتفاقاً للسكوت على الأمر.

وقد أمر الرئيس (الأميركي) جورج دبليو بوش في نيسان (ابريل) الماضي، بإشارته إلى التحقيق الدولي، بتجميد ممتلكات كل من تورط في جريمة الاغتيال، في الولايات المتحدة، مع أن الأمر لم يذكر أسماء.

وقد استقال الرئيس الحريري من رئاسة الحكومة، ضمن صراع السلطة الذي أعقب تمديد الأسد ولاية الرئيس اللبناني إميل لحود، حليف سوريا، في سنة ٢٠٠٤، وكان ينوي خوض معركة الانتخابات لمجلس النواب، على أساس معارض لسوريا. ويقول المقربون من الرئيس الحريري، إنه كان ينوي لدى عودته إلى السلطة، أن يعيد فتح التحقيق في انهيار المصرف. وقد ختم على ملف القضية وعلى كثر من الوثائق المساندة في قبو مصرف لبنان المركزي في سنة ٢٠٠٣، بعد تهديد غزالي، الذي يبدو أنه جنى ملايين الدولارات من الأمر لنفسه.

لقد نظر طويلاً إلى وجود سوريا في لبنان، منذ ١٩٧٦ حتى ٢٠٠٥، على أنه تحرك جغرافي سياسي يرمي إلى ضمان استقرار الجار الصغير، بعد عقود من الحرب الأهلية، وإلى اتخاذ ورقة مساومة في النزاع العربي ـــ الإسرائيلي. لكن مع الوقت تحوّل الاحتلال إلى مشروع لإنتاج المال للنخب السورية وحلفائها اللبنانيين.

ويقول عدنان عرقجي، وهو نائب سابق مؤيد لسوريا: "حين جاء السوريون إلى لبنان كانوا يريدون استرداد مرتفعات الجولان، ورأوا في لبنان وحزب الله أوراقاً يمكنهم المساومة بها. وكان علينا أن نعلمهم كيف يسرقون".

وقد استراح المحققون الناظرون في نهب مصرف المدينة في آذار (مارس) الماضي، حين أوقفت الشرطة البرازيلية رنا قليلات، أمينة السر التنفيذية السابقة في مصرف المدينة. ويعتقد أن قليلات التي أطلق سراحها بكفالة السنة الماضية، ولاحقتها حملة مطاردة دولية، لعبت دوراً أساسياً في فضيحة المصرف.

وقد اتهمها أصحاب المصرف في دعاوى قضائية، بأنها زورت أوراقاً لسحب أموال، وصرفت قروضاً مزيفة لإثراء عائلتها ورشوة مسؤولين، وحتى بعد انهيار المصرف، يقول المحققون إنها استطاعت أن تسحب من مالكه عدنان أبو عياش، وهو ثري يعمل في البناء، ويقيم في السعودية، ملايين الدولارات، بواسطة سلسلة أعمال تحويل وتبادل شيكات. ونفت قليلات التهم بعد

اعتقالها، وقالت إن أصحاب المصرف أجازوا كل أعمال التحويل، وأن غزالي ابتزها في مقابل أن يحميها.

عندما سكن غبار قضية المصرف في صيف ٢٠٠٣، وبعدما صرف المال للمودعين وصفيت الموجودات، وجد آل أبو عياش ثروتهم وقد تبخر منها ١,٥ مليار دولار. وكان هذا تحولاً مذهلاً لعائلة لبنانية كانت تمتلك إمبراطورية أعمال شاسعة.

ولكن بعدما تبادل كل من قليلات والإخوة أبو عياش التقاضي، ووضع مصرف لبنان اليد على كل ما وجده من مال ليدفع للمودعين أموالهم، بدا واضحاً أن التحقيق لن يستمر. لقد ذهب المال، ولم يبقَ سوى الأسئلة، الأسئلة التي وضع على أجوبتها ختم في قبو المصرف المركزي.

ولم ينفِ حاكم مصرف لبنان رياض سلامة في مقابلة السنة الماضية، تقارير قالت إن غزالي هدّده ليقفل التحقيق. وحصلت عائلة العميد (غزالي)، على ما يبدو أن ملفات المصرف تقوله، على أكثر من ٣٢ مليون دولار، من مصرف المدينة، بواسطة تحويل كانت تجيزه قليلات.

ولكن مع وجود مجلس نواب ووزير عدل يؤيدان سوريا، كان رئيس الوزراء آنذاك الحريري عاجزاً عن إجبار التحقيق على تخطي المرحلة البدائية التي توقفت عند ادعاء الاحتيال، سنة ٢٠٠٣.

لم تُنقل ملفات المصرف إلى وزارة العدل، إلا أخيراً، بعد مضي سنة على رحيل القوات السورية، من أجل تحقيق فعلي في أسلوب سرقة المال ومَن الذي استفاد من الرشى. ولم تظهر سوى حفنة صغيرة من الوثائق المصرفية. لكنها تميط اللثام عن حال فساد واحتيال لدى الرسميين السوريين السياسيين والأمنيين وحلفائهم اللبنانيين.

وكشفت أدلة حساسة عن اتساع أعمال غسل المال عن غير قصد، في أثناء تحقيق مكتب التحقيق الاتحادي (اف.بي.آي) الأميركي، لنصب فخ للإيقاع بتاجر سلاح على علاقة بـ "حزب الله"، ومقرها لبنان، وهي حركة تعدها الولايات المتحدة وحكومات عديدة أخرى منظمة إرهابية.

في سنة ٢٠٠٤ اتهم المدعون الأميركيون ناجي انطوان أبي خليل بمحاولة شراء نظارات ليلية وأجهزة عسكرية أخرى وشحنها من الولايات المتحدة إلى حزب الله. وظهرت علاقة أبي خليل بمصرف المدينة، حين تباهى للعملاء والمخبرين أنه يجوب العالم لجمع النقد ليسلمه إلى المصرف باسم حزب الله وعصابات روسية.

وتشير أوراق المحكمة إلى أن أبي خليل، الذي ترافع منذئذ معترفاً بذنبه، تلقى ١٠٠ ألف دولار لغسلها، من عملاء، على أنها جزء من عمولة، وقال لهم إن أكبر شحنة نقلها إلى المصرف كانت ١٦٠ مليون دولار نقداً.

لكن هذه المبالغ تبدو زهيدة أمام أكوام النقد التي غسلها المسؤولون العراقيون وشركاؤهم في إطار التلاعب ببرنامج الأمم المتحدة "النفط في مقابل الغذاء". وقد أصبح البرنامج، الذي انشأ في الأصل لأسباب إنسانية ليتيح بيع النفط وفق قسائم يمكن استخدامها لشراء غذاء ودواء، غطاء لفساد استخدمه صدام حسين وأنصاره لكسب مال غير شرعي. وفي أواخر التسعينيات من القرن الماضي، تدفق المال في الشرق الأوسط، بحصول أنصار النظام على قسائم لشراء نفط بأقل من سعر السوق.

واكتشف المحققون في شأن البرنامج فساداً منتشراً لدى مسؤولي الأمم المتحدة، وحكومات في الشرق الأوسط وشركات نفط. وذُكر اسم ابن الرئيس اللبناني لحود ورسميون ورجال أعمال لبنانيون وسوريون بارزون اتخذوا مصرف المدينة مخبأ لمالهم.

وتقدر مصادر عديدة، ومنها متهم في فضيحة النفط في مقابل الغذاء يرفض كشف اسمه لأسباب قضائية وأمنية، المال الذي حُوّل وغُسل عبر مصرف المدينة، بأكثر من مليار دولار، فيما حصل المسؤولون السوريون وحلفاؤهم اللبنانيون على عمولة نسبتها ٢٥%. ويقول المصدر إن بين الذين تلقوا المال شقيق بشار الأسد ماهر الأسد وقد طورت قليلات، حتى تحمي هذا الأمر شبكة ابتزاز، صدمت حتى المجتمع اللبناني الذي لا يستهجن بعض أساليب الأعمال المثيرة للسؤال. فقد أولمت بلا حساب لضيوف كانوا يحصلون على ساعات "رولكس"، ومنحت سيارات فاخرة إلى الأصدقاء والرسميين. وكانت شبكة الابتزاز واسعة إلى درجة أن أحد مسؤولي الأمن وصف موقف سيارات مكتبه بأنه كان في تلك المرحلة "متجر مرسيدس".

وتشير سجلات بعض المصارف إلى ١٥٥ عقاراً (فيلات وشقق وفنادق) اشترتها أو وزعتها قليلات، هي وأشقاؤها. وكان للإخوة قليلات أيضاً خمسة يخوت فاخرة و١٩٤ سيارة ودراجة نارية فخمة، ولا تسل عن الهدايا للأصدقاء والشركاء والرسميين الجشعين.

كانت قليلات والمتآمرون في مصرف المدينة، بحاجة إلى حماية، فسعوا إلى كبار المسؤولين الذين يمكنهم مساعدتهم، على ما يقول موظف سابق عند أسرة قليلات، شهد الكثير من أعمالهم.

وقال المصدر، الذي طلب كتم اسمه، لأن الأمر لا يزال خطراً ولا يناقش في لبنان بعد، إن أحد هؤلاء المسؤولين جميل السيد، المدير العام السابق للأمن العام، الذي أوقف منذ أن اشتبه في تآمره لاغتيال الحريري. (رفض السيد التعقيب).

أضاف المصدر: "تلقى رستم غزالي مالاً وسيارات وجواهر ورحلات صيد. وكان الناس يأتون وينتظرون في المكتب. وكان المهمون يتلقون شيكات. أما الأقل مرتبة مثل الألوية والضباط،

فيتلقون نقداً. هذه المسألة وصلت أعلى بكثير من غزالي. كانت طريق ماهر الأسد وغيره للاستفادة من لبنان ومن العنصر العراقي".

ويمكن إقامة رابط بين عدد من الرسميين السوريين المذكورين في تقرير ميليس، وبين مال مصرف المدينة، وفقاً لوثائق وفرها لمجلة "فورتشن" أصحاب المصرف. وصدرت لإخوة غزالي الثلاثة بطاقات صراف آلي متصل بحساب وهمي، مع حد أقصى للسحب اليومي، يبلغ ألفي دولار أميركي. وقد سحبوا كل يوم المبلغ الأقصى من كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٢ إلى كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٣، وفقاً لإحدى الوثائق. وبلغ ما سحب من نقد في سنة، ببطاقة من البطاقات الأربع ٨ ملايين دولار أميركي.

وحصل شقيق غزالي، محمد، على تحويل مالي بلغ ١,٠٩١ مليون دولار من المصرف في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٣. ويقول المحققون ومحامو أصحاب المصرف إن غزالي، ومسؤولين آخرين في أعلى السلطة قرروا خلال هذه الأشهر الأخيرة أن انهيار المصرف أمر لا مفر منه، فنشطوا بسرعة لضخ المال الباقي. ويقول أحد موظفي المصرف إنه شهد طلب رستم غزالي ٣٠٠ ألف دولار، مباشرة بعد وضع المصرف تحت إدارة المصرف المركزي. وقد أقر دفع المبلغ.

وبين العقارات المشبوهة التي ينظر المحققون في شأنها، تحويل شقة ثمنها ٢,٥ مليوني دولار من عائلة قليلات إلى صديق لمدير مكتب ماهر الأسد العقيد غسان بلال ، وهو تحويل يقول محامو المصرف إنه يرمي إلى وضع الشقة تحت إشراف ماهر الأسد. ويقول الرسميون اللبنانيون السياسيون والأميون، إن الوثائق المختوم عليها، تشير إلى مال وأملاك أكثر بكثير، حولت إلى ماهر الأسد .

ويقول وزير الاتصالات حمادة إن "كل ملف المدينة الآن لدى وزارة العدل، إلا الأجزاء الأساسية التي تخص ماهر الأسد، فهي لا تزال موجودة في المصرف المركزي، لأن الناس تخشى أن تُقتل بسببه". ومع أن مستوى التهديد لم يعد كما كان، إلا أن الوجود السوري لا يزال قائماً. ويبدي القضاة حذراً شديداً في هذه القضية (أخفقت الجهود للاتصال بماهر الأسد وآل غزالي للتعقيب على الأمر، من خلال بعض الوكالات الحكومية السورية).

وتظهر وثائق أخرى تحويلاً وصفقات عقدها المصرف لمصلحة لحود الابن (وهي تمم رفض التعقيب عليها)، ولمسؤولي أمن لبنانيين، منهم الضباط الأربعة الذين اعتقلوا السنة الماضية للاشتباه في اشتراكهم بالتآمر لاغتيال الحريري.

ويصر وزير المال جهاد أزعور، وهو صديق للحريري، على أن لبنان يستطيع الآن، بعد خروج القوات السورية من لبنان، إجراء تحقيق كامل. وهو يعتقد أن بعض القتلة تحركوا بحافز الخوف من هذا التحقيق (في قضية انهيار مصرف المدينة).

ويقول أزعور: "إن خطر إعادة فتح التحقيق قد يكون أدى إلى هذا الاغتيال. لقد وصلت خيوط مصرف المدينة إلى أعلى المسؤولين في لبنان وسوريا". ويضيف أن الحريري كان يريد متابعة التحقيق في قضية مصرف المدينة وقضايا الفساد الأخرى، وكان يمكن أن يسير في التحقيق حتى لو علم بالخطر.

ويؤكد أزعور أن "الحريري كان يريد أن يبلغ بهذا الملف الخاتمة. وكان مهتماً كثيراً بذيول الفضيحة وتفرعها. ذلك أن لها أثراً سيئاً جداً في النظام المصرفي اللبناني، وضروري أن تعالج المسألة إلى مداها من أجل إزالة هذا الأثر".

وكان من البديهي أن تمتد يد ماهر الأسد إلى لبنان حتى بات له مجموعة خاصة به في لبنان تشمل مسؤولين كباراً في حركة آمل وحزب الله والحزب السوري القومي وحزب البعث عدا شخصيات سياسية أخرى في كل المواقع السياسية والرسمية والأمنية والقضائية اللبنانية، مما خلق حالات تذمر وتمرد داخل الأحزاب اللبنانية ما زالت آثارها قائمة حتى اليوم مع استقواء أركان هذه المجموعة الخاصة بالعقيد ماهر الأسد، وبغضب سوريا رسمياً على قادة هؤلاء في أحزابهم وحركاتهم وأجهزتهم.. فضلاً عن تجاوز هذه المجموعة لرئيس الاستخبارات السورية في لبنان يومها اللواء غازي كنعان أما خلفه العميد رستم غزالة ، فنال رضى الشقيقين بشار الأسد والعقيد ماهر الأسد .

ملف الخائن الطاغية حافظ الأسد*

ولد الطاغية حافظ الأسد ٦ أكتوبر ١٩٣٠ م وتوفي في ١٠ يونيو ٢٠٠٠ م ، تولى رئاسة الجمهورية العربية السورية من ١٩٧١ إلى ٢٠٠٠ م.

تولى الطاغية حافظ الأسد حكم سوريا لما يقرب من ٣٠ سنة ، حكم خلالها سوريا بأسلوب قمعي ودموي ، ونحن الآن نعرض لجزء يسير من التاريخ الأسود للهالك حافظ الأسد .

ومن العجيب أن الطاغية حافظ الأسد قد أعلن عن سقوط الجولان في يوم ١٠ حزيران ١٩٦٧م ، وفي نفس اليوم ١٠ حزيران من عام ٢٠٠٠م أعلن وفاة حافظ الأسد ، لقد توفي حافظ الأسد في نفس اليوم الذي خان فيه الأمة حيث سلم الجولان للصهاينة بدون قتال .

وُلد حافظ الأسد في قرية القرداحة بمحافظة اللاذقية لأسرة فقيرة من الطائفة العلوية (النصيرية) كانت تعمل في فلاحة الأرض. أتم تعليمه الأساسي في مدرسة قريته التي أنشأها الفرنسيون عندما أدخلوا التعليم إلى القرى النائية و كان أول من نال تعليما رسميا في عائلته ثم انتقل إلى مدينة

* هذا الملف الخاص بالطاغية حافظ الأسد منقول من أحد المواقع على شبكة الإنترنت بتصرف .

اللاذقية حيث أتم تعمليه الثانوي و نال شهادة الفرع العلمي. لم يتمكن من دخول كلية الطب في الجامعة اليسوعية ببيروت كما كان يتمنى لتردي أوضاعه المادية و الاجتماعية لذا التحق بالأكاديمية العسكرية في حمص عام ١٩٥٢ و من ثم التحق بالكلية الجوية ليتخرج منها برتبة ملازم طيار عام ١٩٥٥م .

بعد سقوط نظام أديب الشيشكلي و اغتيال العقيد عدنان المالكي أنحسم الصراع الدائر بين الحزب السوري القومي الاجتماعي و حزب البعث العربي الاشتراكي لصالح البعثيين مما سمح بزيادة نشاطهم و حصولهم على امتيازات استفاد منها حافظ الأسد حيث أختير للذهاب إلى مصر للتدرب على قيادة الطائرات النفاثة .

وقع حزب البعث مع عدد من الأحزاب في سوريا على وثيقة الانفصال في عام ١٩٦١. سجن على إثر ذلك حافظ الأسد مع عدد من رفاقه في اللجنة العسكرية في مصر لمدة ٤٤ يوما أطلق سراحهم بعد ذلك و أعيدوا إلى سوريا في إطار عملية تبادل مع ضباط مصريين كانوا قد احتجزوا في سوريا.أبعد حافظ الأسد يعد عودته عن الجيش لموقفه الرافض للانفصال و أحيل إلى الخدمة المدنية في إحدى الوزارات لكنه ظل مرتبطا باللجنة العسكرية التي استطاعات في عام ١٩٦٢ بالتعاون مع بعض الضباط البعثيين و الناصريين الانقلاب على حكومة الانفصال.

استولى حزب البعث في انقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ على السلطة فيما عرف في أدبيات الحزب بثورة الثامن من آذار. أعيد بعدها الرائد حافظ الأسد إلى الخدمة من قبل صديقه و رفيقه في اللجنة العسكرية مدير إدارة شئون الضباط آنذاك المقدم صلاح جديد رقي بعدها في عام ١٩٦٤ إلى رتبة لواء دفعة واحدة وعين قائداً للقوى الجوية والدفاع الجوي. و بدأت اللجنة العسكرية بتعزيز نفوذها وكانت مهمة حافظ الأسد آنذاك توسيع شبكة مؤيدي وأنصار الحزب في القوات المسلحة.

قامت اللجنة العسكرية في ٢٣ فبراير ١٩٦٦ بقيادة صلاح جديد و مشاركة حافظ الأسد بالانقلاب على القيادة القومية لحزب البعث من بينهم مؤسس الحزب ميشيل عفلق ورئيس الجمهورية أمين الحافظ و تخلى بعدها صلاح جديد عن رتبته العسكرية ليتفرغ للسيطرة على حزب البعث و حكم سوريا بينما تولى حافظ الأسد وزارة الدفاع.

بدأت الخلافات بالظهور بين حافظ الأسد و صلاح جديد بعد الهزيمة في حرب ١٩٦٧ حيث انتقد آداء وزارة الدفاع خلال الحرب و خاصة القرار بسحب الجيش و إعلان سقوط القنيطرة بيد إسرائيل قبل أن يحدث ذلك فعليا بالإضافة إلى تأخر غير مفهوم لسلاح الجو السوري في دعم نظيره الأردني مما أدى لتحميل حافظ الأسد مسؤولية الهزيمة. تفاقمت هذه الخلافات مع توجه

صلاح جديد نحو خوض حرب طويلة مع اسرائيل بينما عارض حافظ الأسد ذلك لإدراكـه أن الجيش لم يكن مؤهلا لمثل هذه الحرب خاصة بعد موجة التسريحات بعد إنقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ و التي طالت الضباط السنة من غير البعثيين. و صلت الخلافات أوجها خلال احـداث أيلـول الأسود في الأردن عام ١٩٧٠ حيث أرسل صلاح جديد الجيش السوري لدعم الفلسطينيين لكن وزير الدفاع و قائد القوى الجوية حافظ الأسد امتنع عن تقديم التغطية الجوية للجيش و تسبب في إفشال مهمته. على إثر ذلك قام صلاح جديد بعقد اجتماع للقيادة القطرية لحزب البعث و التي قررت بالإجماع إقالة حافظ الأسد و رئيس الأركان مصطفى طلاس من منصبيهما. لكن حـافظ الأسد لم ينصاع للقرار و تمكن بمساعدة من القطع الموالية له في الجيش مـن الانقـلاب في ١٦ نوفمبر ١٩٧٠ فيما يعرف بالحركة التصحيحية على صلاح جديد و رئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي و سجنهما مع العديد من معارضيه.

تولى حافظ الأسد منصب رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الدفاع في ٢١ نوفمبر ١٩٧٠ ثم مالبـث أن حصل على صلاحيات رئيس الجمهورية في ٢٢ فبراير ١٩٧١ ليثبت في ١٢ مارس ١٩٧١ كرئيس للجمهورية العربية السورية لمدة سبعة سنوات بعد إجراء استفتاء شعبي ليكون بذلك أول رئيس في التاريخ السوري ينتمي إلى الطائفة العلوية. وبعدها أعيد انتخابه في استفتاءات متتابعـة أعوام ١٩٧٨ و١٩٨٥ و١٩٩٢ و١٩٩٩ وفي كل مرة كان يحصل على نسبة أصوات تقارب الـ ١٠٠% !!.

ملف سقوط الجولان الأول

يشير إدوارد شيهان في كتابه كيسنجر والإسرائيليين والعرب إلى واقعة مهمة جداً تلقي ضـوءاً كاشفاً على وضع النظام والأسد وارتباطاته..

يقول شيهان في كتابه وهو مرافق كيسنجر في مكوكياته ..

إن المخابرات الصهيونية كانت تتعمد عند عودة كيسنجر من دمشق إلى القـدس أن تدهـشه بإطلاعه على ما دار بينه وبين حافظ الأسد في دمشق كما تطلعه على مضمون الرسائل المتبادلـة بين الأسد وبين الملوك والرؤساء العرب الآخرين .

فإذا علمنا أن أغلب لقاءات كيسنجر مع الأسد كانت مغلقة.. عرفنا جواب اللغز القائم في كلام شيهان .

وهذه شهادة أحد أركان نظام سورية الذي كان للأسد فيه الكلمة الأولى فهو وزير الدفاع وقائد الطيران والمتحكم الأول في القرار آنذاك يقول سامي الجندي في كتابه كسرة خبـز ، وسـامي

الجندي هذا كان وزيراً للإعلام وعضو القيادة القطرية ومن مؤسسي حزب السلطة وهو الــذي اعترف أنه أرسل سفيراً إلى باريس في مهمة سلمية ..

لم أُخفِ أبداً أن النظام في سورية يعد لهزيمة وليس لاسترداد فلسطين نعم .. نعم.. لم تكن هنــاك أية بادرة للنصر، ولا أعني أنه كان يعد لهزيمة نفسه وإنما لهزيمة العرب الآخرين ، كي يبقى الثوري الوحيد سيد المناخ الثوري العربي (من كتاب سامي الجندي كسرة خبز) .

ثم يتطرق الجندي إلى سبب اختياره للمهمة في باريس فيقول:

اختارني ماخوس وزير الخارجية السوري لهذه المهمة وهو لم يعدم الأشخاص ولا الوسيلة للاتصال بإسرائيل.. ثارت أقاويل في باريس نفسها عن أمين منظمة الحزب التابعة لدمشق وأنا (وهنا بيت القصيد) متأكد من اتصالات جرت عن طريق أكثر من دولة ثالثة وفي أكثر من عاصمة (اتصال مع إسرائيل)... ولست بحاجة ــ بعد ذلك للقول إن إعلان سقوط القنيطرة ــ قبل أن يحــصل السقوط ــ أمر يحار فيه كل تعليل يبنى على حسن النية. إن تداعي الأفكار البسيط يربط بــين عدم وقف إطلاق النار والحدود سليمة والإلحاح بل الاستغاثة لوقفه بعــد أن توغــل الجــيش الإسرائيلي في الجولان ، إشارة هنا إلى أن اليهود عرضوا وقف النار قبل توغلهم فرفض العرض.

ونتابع أقوال السيد سامي الجندي بهذا الصدد فهي مهمة كونها صادرة عن إنسان مسئول ومهم في النظام الذي سلم الجولان.

وعندما نتتبع فصول معركة الجولان نجد أن العسكريين الذين قاوموا اليهود فعلــوا ذلــك دون أوامر أما الذين صدرت إليهم الأوامر فقد انسحبوا بناء على خطة.

ترى ما هي الخطة؟.. ونتابع.. فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون في باريس مندوب سورية جورج طعمة في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة (وذلك من خلال البلاغ ٦٦ الصادر عــن وزير الدفاع حافظ الأسد) الذي أعلن وصول قوات إسرائيل إلى مشارف دمشق بينما المنــدوب الإسرائيلي في الأمم المتحدة يؤكد أن شيئاً من كل ذلك لم يحصل .

فلماذا يصدر الأسد البلاغ المشؤوم قبل وصول القوات الإسرائيلية إلى القنيطرة بيومين؟

ولماذا يطلب الانسحاب الكيفي من الجيش؟

ولماذا يقول اللواء أحمد سويداني قائد الجيش السوري عندما سئل عن هذا البلاغ إنني كمسؤول عن الجيش لم استشر في البلاغ الذي أعلن سقوط القنيطرة، لقد سمعته من الإذاعة كغيري.. ؟ !

إن في طيات هذا الكلام كله الإجابة الشافية عن كنه خطة الانسحاب من دون قتال .

وهذه شهادة إبراهيم ماخوس وزير الخارجية السورية آنذاك.

ماخوس وأمام عدد كبير من المسئولين العرب رداً على قول أحد هؤلاء المسئولين (إنها لفاجعة كبيرة ونحمد الله أن إحدى العواصم لم تمس) . قال: وهل في ذلك غرابة لو حصل؟!.. إن الغريب في الأمر أن العواصم لم تسقط ، وإننا من جهتنا كنا عاملين حسابنا على أن دمشق ستسقط .

ويتساءل المرء.. كيف يصدق هذا الكلام والأسد يقول في أحد تصريحاته قبل بدء المعركة ونقلته (الثورة السورية ٦٧/٥/٢٠): إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول الأمريكي السادس.. إن معرفتي لإمكانياتنا يجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشل .

إن هذا الكلام لا ينسجم إلا إذا رتبنا كل ما قراناه آنفاً جنباً إلى جنب فنفهم منه نحن وغيرنا أن صاحب القرار في سورية آنذاك (والأسد على رأس ذلك القرار) كانت له ارتباطاته المسبقة التي جعلته يحرض على المعركة قبل وقوعها ثم ليتلكأ في دخولها ، ثم ليصدر البلاغ ٦٦ بسقوط القنيطرة والانسحاب الكيفي تنفيذاً لارتباطاته المتفق عليها.. والمرتبة تماماً بحيث تبدأ بعد ذلك عملية العد التنازلي في العلاقة مع الكيان الصهيوني لتصل الأمور في النهاية إلى ما هي عليه الآن.. مدريد وأخواتها .

رواية سعد جمعة رئيس وزراء الأردن آنذاك في كتابه المؤامرة ومعركة المصير صفحة ٤٥ يقول : اتصل سفير دولة كبرى في دمشق في الخامس من حزيران بمسئول حزبي كبير ودعاه إلى منزله لأمر هام في الحال ونقل له في اللقاء أنه تلقى برقية عاجلة من حكومته تؤكد قضاء الطيران الإسرائيلي على سلاح الجو المصري . وأن المعركة بين العرب وإسرائيل قد اتضحت نتائجها وأن كل مقاومة ستورث خسائر فادحة وأن إسرائيل لا تنوي مهاجمة النظام السوري بعد أن يستتب لها تأديب جمال عبد الناصر ، وبانتهاء الزعيم المصري تفتح الآفاق العربية أمام الثورية البعثية وأن إسرائيل بلد اشتراكي يعطف على التجربة الاشتراكية البعثية وخاصة العلوية إذ يمكنها أن تتعايش وتتفاعل معها لمصلحة الكادحين في البلدين ، واتصل الوسيط بقيادات البعث والنصيريين وأعلم السفير الوسيط بتجاوب كافة القيادات مع هذا التطلع .

رواية دريد مفتي الوزير المفوض في مدريد

جاء إلى سعد جمعة بمكتبه في لندن وعرفه على نفسه قائلاً قرأت كتابك المؤامرة ومعركة المصير عن جريمة تسليم مرتفعات الجولان المنيعة دون قتال والتي اقترفها جديد ــ أسد ــ ماخوس ، وأحب أن أزيدك بياناً فقال : يوم كنت وزيراً مفوضاً لسورية في مدريد استدعاني وزير خارجية إسبانيا لمقابلته صباح ١٩٦٧/٧/٢٨م وأعلمني ووجهه يطفح سروراً أن مساعيه الطيبة أثمرت

لدى أصدقائه الأمريكان بناء على تكليف السيد ماخوس البعثي النصيري ، ثم سلمني مذكرة تتضمن ما يلي : تهدي وزارة الخارجية الإسبانية تحياتها إلى السفارة السورية عبر وسيطها ، وتعلمها أنها نقلت رغبة الخارجية السورية إلى الجهات الأمريكية المختصة بأنها ترغب بالمحافظة على الحالة الناجمة عن حرب حزيران ١٩٦٧ وأنه ينقل رأي الأمريكان بأن ذلك ممكن إذا حافظت سورية على هدوء المنطقة وسمحت لسكان الجولان بالهجرة من موطنهم والاستيطان في بقية أجزاء الوطن السوري وتعهدت بعدم القيام بنشاطات تخريبية من جهتها تعكر الوضع الراهن (عن مجتمع الكراهية لسعد جمعة صفحة ١٣٠) ثم تابعوا دريد مفتي إلى لبنان وقتلوه لأنه أذاع هذا السر ولم يرض الخيانة ، ودريد ضابط بعثي سني من أريحا السورية ، نعم لقد رضيت القيادة البعثية النصيرية أن تسلم الجولان الحصين المتحكم في الأراضي المحتلة وتهجير أهله لعدة أسباب :

١ـ لا قيمة لجزء من الأرض لقاء حفاظهم على كرسي الحكم.

٢ ـ لأن الجيش معظمه من الطائفة وهم حريصون على أرواحهم أن تزهق في الحرب.

٣ ـ أن معظم الضباط السنيين المؤهلين فنياً قد سرحوا لأنهم ليسوا نصيريين لذا كان لابد من الاستجابة لطلب إسرائيل فسلمها الجولان لقاء البقاء على الكرسي .

قال لي إبراهيم ماخوس وزير الخارجية النصيري ليس مهماً أن يحتل العدو دمشق أو حتى حمص وحلب فهذه أرض يمكن تعويضها وإعادتها أما إذا قضي على حزب البعث (الذي تتستر خلفه الطائفة) فكيف يمكن تعويضه وهو أمل الأمة العربية . وجعلوا من الخيانة ذكاء ومن الخذلان نصراً ويستغرب سامي الجندي البعثي القيادي اختيار ماخوس له لمفاوضة أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في فرنسا قبل حرب حزيران ثم يقول لعله يريد توريطي ليضمن سكوتي .

إعلان سقوط الجولان قبل ٤٨ ساعة من إخلائها وفق الاتفاق النصيري الإسرائيلي :

في يوم السبت العاشر من حزيران سنة ١٩٦٧ أعلن وزير الدفاع السوري حافظ أسد الساعة ٩,٣٠ البلاغ العسكري رقم ٦٦ وهذا نصه :

إن القوات الإسرائيلية استولت على القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن ظروف غير متكافئة وكان طيران العدو يغطي سماء المعركة بإمكانات لا تملكها غير دولة كبرى ،وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الدبابات واستولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود جنودنا البواسل ، إن الجيش لا يزال يخوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن ، كما أن وحدات لم تشترك في القتال بعد ستأخذ مراكزها في المعركة .

وفي اليوم نفسه الساعة ١٢,٠٥ ظهراً أصدر وزير الدفاع الأسد البلاغ التالي : إن قتالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل مدينة القنيطرة وعلى مشارفها . وأن القوات السورية مازالت حتى الآن تقاتل

داخل المدينة وعلى مشارفها جنباً إلى جنب مع قوات الجيش الشعبي بكل ضراوة وصمود بحيث لم يتمكن العدو من السيطرة الكاملة على مدينة القنيطرة .(وهذا يناقض البلاغ السابق القائل بالسقوط) ذلك لكي يخدع الناس بأن المقاومة لازالت مستمرة وأنه لم يسلمها بموجب اتفاق . علماً أن كل ما أذيع من قتال في كل البلاغات لا أساس له من الصحة لأنها سلمت دون إطلاق رصاصة واحدة وأن كل من خالف قرار الانسحاب وقاوم حوكم على مخالفته الأوامر.

وفي يوم الأحد ١١ حزيران ١٩٦٧ أصدر وزير الدفاع السوري حافظ أسد بلاغاً جاء فيه خلال المعارك القاسية التي جرت بين قواتنا الباسلة وقوات الاستعمار الثلاثي حاول العدو اختراق خطوط دفاعنا أكثر من مرة بكل ما يملك من أسلحة وطيران متفوق وكانت قواتنا تصد تلك الهجمات المتكررة وتقصف مواقع العدو منزلة به الدمار مما يؤكد بشكل قاطع أن دول العدوان الثلاثي تساهم في المعركة وليس إسرائيل فقط وهم الآن يتمركزون في خط الدفاع الثاني الذي يبعد عن القنيطرة ٤٠ - ٥٥ كم يعني على أبواب دمشق (عن سقوط الجولان صفحة ١٧٠)

يقول الدكتور سامي الجندي أحد قادة البعث في كتابه كسرة خبز صفحة : ١٧ لست بحاجة إلى القول بأن سقوط القنيطرة قبل أن يحصل أمر يحار منه كل تعليل مبني على حسن النية .

ويقول : فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون مندوب سورية في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة وأن قوات إسرائيل وصلت إلى مشارف دمشق والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل واعترف أمامي الدكتور ماخوس وزير الخارجية النصيري أن قضية سقوط القنيطرة كانت خطة مدبرة لكي يكسب تأييد الأمم المتحدة .

يقول الدكتور عبد الرحمن الأكتع وزير الصحة السوري آنذاك : كنت في جولة تفقدية في الجبهة وفي مدينة القنيطرة بالذات عند إذاعة بيان سقوط القنيطرة وظننت أن خطأً قد حدث فاتصلت بوزير الدفاع حافظ أسد وأخبرته أن القنيطرة لم تسقط ولم يقترب منها جندي واحد من العدو وأنا أتحدث من القنيطرة ودهشت حقاً حين راح وزير الدفاع يشتمني شتائم مقذعة ويهددني إن تحدثت بمثلها وتدخلت فيما لا يعنيني . فاعتذرت منه وعلمت أنها مؤامرة وعدت إلى دمشق في اليوم الثاني وقدمت استقالتي .

رواية الملك حسين : عقدت سورية مع مصر معاهدة دفاع مشترك قبل الحرب بأيام وحذت الأردن حذوها وبموجب هذه المعاهدة أصبح الفريق المصري عبد المنعم رياض قائداً للجبهة الأردنية السورية والفريق محمد فوزي رئيساً لأركان القيادة الموحدة . وانطلاقاً من هذه المهمة طلب عبد المنعم رياض من سوريا إمداد الأردن ببعض الألوية لأن سورية تستطيع حماية جبهتها بثلث قواها يقول الملك حسين في تلك الليلة ٤ حزيران استخدمنا خطوط المواصلات العسكرية

في طلب الإمدادات من السوريين ولكنهم لزموا الصمت ومنذ الساعة التاسعة اتـصلت قيـادة العمليات بالسوريين فكان جوابهم أنهم بوغتوا بالأحداث وقمنا بطلبات متكررة لالتحاق طائرات الجيش السوري بطائرات الأردن فطلبوا إمهالهم ساعة فساعة وفي الساعة الحادية عشرة أقلعـت الطائرات العراقية من قواعدها لتنضم إلى سلاحنا الجوي وتساهم بالمهمة المشتركة ويمكـنني أن أوضح أن تأخر الطيران السوري في التدخل فوت علينا فرصة ذهبية كان يمكن أن ننتهزها لقلب الموقف لصالح العرب ولاستطعنا اعتراض القاذفات المعادية وهي في طريق عودتها إلى قواعدها بعد قصف القواعد المصرية وقد فرغت خزاناتها من الوقود وفقدت ذخيرتها وكان بإمكاننا مفاجأتها حتى وهي جاثمة في مطاراتها تملأ خزاناتها استعداداً لشن هجمات جديدة فلولا تـأخر الطـيران السوري لتبدلت نتائج المعركة وخط سيرها.

وفي الإنترنت يقول صائب بارودي وهو بعثي قومي عن حرب ١٩٦٧: دخلت سوريا المعركـة ووصلت قواتها صفد والحولة وتمركزت قوات منها بقيادة الضابط نورس طه تحـت المرتفعـات المطلة على بحيرة طبرية حتى مساء اليوم السابع وعبد الناصر يتصل بعبد الكريم الجندي ويقول له : أنا لا أثق بالآخرين يعني الأسد وجديد بوقف إطلاق النار اللعبة كبيرة وخطيرة ومـصر غـير قادرة على التحرك وصلاح جديد يرفض واتصل الجنرال الروسي بوزير الدفاع حـافظ أسـد وجديد وقال : إذا كنتم مصرين على الحرب فلابد أن تضعوا خطة وأنتم حتى الساعة لم تفعلـوا شيئاً... ووضعت خطة بمعرفة السوفييت وفي صباح اليوم التاسع موعد التحرك حـسب خطـة السوفييت أمر وزير الدفاع حافظ أسد ترك الأسلحة والتراجع الكيفي من الجبهة وترك ترسـانة حربية كبيرة لليهود مع عشرات القرى في جبل الشيخ .

رواية صحيفة النهار اللبنانية : لم تبدأ سوريا الحرب إلا صباح ١٩٦٧/٦/٦ رغم أن سورية هي سبب الحرب وهي الداعية إليها ، واقتصرت الهجمات السورية على مستعمرات (وان- تل دان ــ كرياشوف) ولم تخرج القوات الإسرائيلية للرد بسبب انشغالها بالقتال على بـاقي الجبـهات وقالت الصحيفة : لم يدخل الإسرائيليين المعارك الفعلية ضد سورية إلا يوم الخميس ٦/٨ حيـث تفرغوا لجبهتها وأضافت الصحيفة أن الإسرائيليون شنوا هجوماً شاملاً على المواقـع الـسورية وبدل أن تقصف المدافع السورية القوات الإسرائيلية المهاجمة تابعت ضرب المستعمرات المذكورة .

أما خسائر إسرائيل فكانت ١١٥ قتيلاً و٣٠٦ جريحاً .

معظم الذين تأخروا في تنفيذ أمر الانسحاب وتدمير الأسلحة أحيلوا إلى محـاكم ميدانيـة بـدل منحهم مكافآت وشهادات تقدير منهم آمر تل عزيزيات الذي استغرب صدور هذا الأمر فمـا

كان منه إلا أن ثبت أمام الطيران الإسرائيلي ثم بعد توقف الطيران صعدت إلى التـــل دبابـــات إسرائيلية فحاول تفجير الألغام كهربائياً فوجد الكهرباء مفصولة فضرب أول دبابة وآخر دبابة ثم دمر الباقي .

وحرك قواته دون أن يفجرها فوصل القنيطرة مركز قيادة الجيش في الصباح فلم يجد أحداً مـــن القيادة لقد هربوا جميعاً بأمر انسحاب رسمي ولم يجد يهودياً واحداً في القنيطرة ولما وصل دمـــشق استدعي وحوكم ميدانياً فكسرت رتبته وسرح جزاء إخلاصه ومقاومته وعدم تدمير الأســـلحة والدبابات التي لديه .

حزيران والجولان ... بعد ثلاثة وثلاثين عاماً

"أسئلة واضحة.. وإجابات مبهمة" !

١ــ لماذا سلّمت الجولان بلا حرب عام /١٩٦٧/ ، حين كان حافظ أسد وزيراً للدفاع ، وأذاع بيان سقوط القنيطرة قبل سقوطها بساعات طويلة؟

٢ــ ما الثمن الذي دفعه نظام الحكم ووزير الدفاع أحد أركانه آنذاك للشعب الـــسوري إزاء تسليم بقعة شاسعة من أرض الوطن بلا حرب؟

٣ ــ ما الثمن الذي قُبض من اليهود ، لقاء الجولان ، ومن قبضه ، وكيف؟

٤ ــ ما معنى أن يُرفَّع وزير دفاع ، سبّب لبلاده أشنع هزيمة عرفتها في تاريخها.. إلى رئيس للبلاد ، ويستمر في حكمها ثلاثين عاماً؟

٥ ــ لماذا قامت حرب تشرين عام /١٩٧٣/ بمبادرة وتخطيط من الرئيس الذي سلم الجـــولان وزيراً لاسترداد الجولان تحريرها ، ثمّ لم يحرَّر شبر منها، بل ضاعت عشرات القرى الجديدة؟

٦ ــ لماذا يُطلب تحرير الجولان ، أو إعادة تسليمها إلى الجهة التي سلّمتها من قبلُ بلا حـــرب.. لماذا يُطلب ذلك بالكلام، مجرّد الكلام ، إذا كان معلوماً لدى عقلاء البشر جميعاً ، أن القوّة التي احتلت الأرض بمدافع الدبابات ، لن تعيدها خوفاً من "مدافع الكلام"؟

٧ ــ لماذا انسحب اليهود من جنوب لبنان ، ولماذا هم مطمئنون في الجولان ، لا تفزعهم طلقـــة من بندقية صيد؟

٨ ــ إذا كان النظام الذي استولى على مقاليد البلاد بالدبابات ، قد سلّم الجولان بلا حـــرب ــ وهي ليست إرثاً له من أبيه ــ فماذا يسلّم الوريث ، إذا أخذ البلاد ومن عليها وما عليها ، مـــن بشر ودواب وشجر.. وراثة عن أبيه ؟ ومن يملك أن يقول له "لا" أو أن يسأله " لمـــاذا ".. إذا سلّم البلاد كلها ، هديّة سائغة ، أو عربون مودّة ، لجيرانه اليهود..؟

هذه الأسئلة ليست من عندنا.. فمنها ما طرحته وسائل الإعلام المختلفة .. ومنها ما طرحه أبناء شعب سورية جميعاً ، ومنها ما طرحه الواقع نفسه ..

وهاهي ذي الإجابات تترى.. ليس فيها شيء من عندنا . منها ما عرضه النظام نفسه ، عبر حناجر قادته ورموزه ، أو عبر أجهزة إعلامه .. ومنها ما عرضته وسائل الإعلام المتنوعة خارج سورية.. ومنها ما لقّنه النظام لأبواقه البشريّة "المؤدلجة والمرتزقة" فردّدته عن ظهر قلب كما حفظته.. ومنها ما جاء في معرض الجدّ.. ومنها ما جاء في معرض السخرية..

الجواب :

١ - إن الجولان لم تسلّم إلى العدوّ تسليماً عام /١٩٦٧/ بل أخذها العدوّ الغادر عنوة . وإن إذاعة بيان سقوط القنيطرة قبل سقوطها ، إنما جاء ت إنذاراً للجيش السوري المتمركز بينها وبين حدود فلسطين المحتلّة ، ليهرب وينجو بنفسه ، فلا تستولي عليه قوات اليهود مع أرضه وسلاحه ، اللذين أخذهما اليهود غنيمة حرب . فليس مناسباً عرفاً ولا ذوقا ، أن تؤخذ القوّة الضاربة لجيش سورية كله ، غنيمة حرب..!

٢ ـ أما الثمن الذي دفعه وزير الدفاع ـ الذي سلّم الجولان ـ فهو وعده بأن يخدم شعبه وبلاده طوال عمره.. رئيساً للجمهورية.. يحمل أعباء الأمّة كلها على كاهله.. دون أن يكلّ أو يملّ.. وكلما انتهت فترة حكم من فتراته ، طلب تجديد البيعة له بكميّة من التسعات الانتخابيّة ، تزيد على الكميّة التي سبقتها.. حتى ملّ الناس هذه اللعبة ، فأوعز إلى أبواقه أن ينادوا في الأسواق: " إلى الأبد.. إلى الأبد.. يا حارس البلد.." ولقد برّ السيّد "الوزير السابق " بوعده.. وخدم بلاده وشعبه " ثلاثين حجّة " رئيساً مطلقاً ، يحمل أعباء القرارات العليا والدنيا ، وتبعاتها جميعاً ، دون أي شريك.. فأيّة عقوبة أضخم من هذه وأجلّ؟

٣ ـ أما الثمن الذي قبضه شعب سورية لقاء الجولان ، فهو النصر المؤزر الذي حقّقه ضدّ دويلة إسرائيل! فلقد كان اليهود " يحلمون " بإسقاط نظام الحكم ـ بمن فيه بالطبع وزير الدفاع ـ وحين انتهت الحرب بضياع الجولان فقط ، ولم تهتز شعرة في وجه الزمرة الحاكمة " الوطنية المخلصة " عُدّ هذا نصراً مؤزراً لسورية وشعبها.. " فالأرض إذا ضاعت يمكن استردادها، أما الحكم الثوري إذا سقط فإن ذلك يعدّ كارثة لسورية، وللأمّة العربية بأسرها..".!

فأبشر يا شعب سورية الحبيب.. فأمامك انتصارات قادمة ، ـ وفقاً لهذا المنطق الرائع ـ لم تحلم بمثلها أمّة عبر التاريخ الإنساني كله! وأي نصر بديع تحققه ، أجلّ من أن ترى دبابات اليهود تتجول في دير الزور والحسكة والقامشلي.. وفي الوقت نفسه ترى حكامك الأشاوس ، على صهوات كراسيّهم ، راضين باسمين، مطمئنين..!

"وبالمناسبة.. إن أبواق النظام السوري ، خارج سورية ، يعرفون هذا المنطق تماماً ، وسمعوه من قادة الحكم ورموزه في حينه ، وهو مسجّل في سائر مكاتب الأرشيف في أصقاع الدنيا.. ومع ذلك يُصرّون على الاحتطاب في حبله.. لأسباب لا يعرفها سواهم ، وسوى النظام الذي يمجدونه ، وربّما.. ربّما بعض الدوائر المغلقة ، في أوروبا ، أو أمريكا.. أو .. تلّ أبيب! نقول: ربّما.. ولسنا متأكدين .

أما كيف قبض شعب سورية ثمن الجولان.. هدايا عينيّة.. أم نقوداً سائلة..؟ بالليرة السورية.. أم بالدولار.. أم بالشيكل..!؟ فهذا علمه عند شعب سورية نفسه ، الذي ضُيّعت بلاده ، وطُلب منه أن يضيّع عقله ، حين يصدّق أن الهزيمة البشعة ، هي نصر مؤزر..!

٤ ــ أما ترفيع وزير الدفاع ، إلى رئيس دولة ، فقد وردت الإجابة عليه آنفاً.. فمن يحقّق النصر، لابّد له من تكريم! وإلاّ لَمَ صُنعت الأوسمة ، والنياشين ، والرتب ، والكراسي..!؟

٥ ــ أما حرب تشرين " التحريريّة " فقد قامت لا لتحرير الأرض ، بل " لتحرير الإرادة "! وها قد حُررت الإرادة ــ إرادة شعب سورية بأسره ــ كأروع ما يكون التحرير..

سجناء تدمر، والمزة ، والحلبوني ، والشيخ حسن.. الذين أمضوا ربع قرن في السجون الرطبة الزنازين المعتمة.. أحرار ، في أن يسعلوا كما يشاؤون.. وأن يبصقوا من دمائهم بسبب السلّ الرئوي ما يشاؤون.. وأن يموتوا بأي مرض يحبون.. وأن يلعقوا أراضي السجون ، أو جدرانها ، من الظمأ أو الجوع ، كما يرغبون.. وأيّة حرية أروع من هذه وأجمل ، وأبدع..

ومشردو سورية ، رجالاً ونساءً.. شيوخاً وأطفالاً.. مرضى وعجزة.. أحرار كذلك في التشرد حيث يشاؤون.. في مدينة أو صحراء ، أو قرية أو غابة..

أحرار في أن يطرقوا سائر أبواب الأوطان في الدنيا ، إلاّ أبواب وطنهم..

فهل ثّمة حريّة في الدنيا ، أجلّ من هذه وأسمى!

فانعم يا شعب سورية بحرية الإرادة هذه كما تريد.. حتى تأتيك ليلة ، أو ساعة ، تعرف فيها الفرق بين إرادات الأحرار، وإرادات العبيد!

وأما ضياع القرى الجديدة من الجولان ــ في حرب تشرين التحريريّة ــ فما جاء عن عبث. بل هو مقصود ومدروس ، وذلك لتحميل العدوّ الغاصب " مسؤوليات جديدة " عن الأرض التي احتلها حديثاً ، والشعب الذي شرّده أو استعبده حديثاً.. لكي يكون الوزر في رقبته أعظم ، والحمل على كاهله أضخم ، ومسؤوليته أمام الرأي العام العالمي " أفظع "!

٦ ــ أما الإصرار على تحرير الجولان " بالكلام.. مجرد الكلام " فالسبب فيه واضح ، ذلك أن (الكلام) هو العملة الوحيدة المتداولة في (السلام)..

و" خيار سورية الاستراتيجي " هو السلام..

وإذا كان عدونا ما يزال يحتل بلادنا بالدبابات ، فهو حرّ بفهمه للسلام ، وفهمه هــذا خــاطئ بالطبع ، لكنا لا نملك أن نتحكم بإفهام العباد ونكيفها كما نشاء.. حسبنا نحن فهمنــا الخــاص للسلام..

إن المدافع والدبابات والطائرات والصواريخ.. كلها (عملات) يتداولها النــاس في الحــروب.. ونحن مالنا وما للحروب! لقد جربنا الحروب فما أجدت سوى ويلات ودماراً..! فلنصرّ علــى السلام..

ويا سلام.. ما أروع السلام!

٧ ــ أما لماذا انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان ، وهي مطمئنة في الجولان..! فالسبب واضــح بسيط كذلك..! إذ ماذا تأخذ الريح من البلاط كما يقول المثل الدارج. المقاومة اللبنانية ومــن ورائهم عاصمة لا تخاف سقوط الحكم فيها لو ضربها اليهود ــ كما فعلوا باســتمرار ــ ولــو احتلوها ــ كما فعلوا حقيقة في بداية الثمانينات من هذا القرن ــ فإذا سقطت الحكومة ، قــدم شعب لبنان حكومة سواها.. أما إذا سقطت الحكومة في دمشق ، فمن أين يأتي شعب ســورية ، بمثلها ، أو حتى بسواها!؟

وهذه النقطة الأخيرة ، هي بيت القصيد ، وهي مربط الفرس ، وهي العقدة التي وقف عنــدها النجار..

وعند هذه النقطة ، تثرثر أبواق النظام ، في سورية وخارجها:

سورية.. لا تنجر إلى حرب غير مستعدّة لها..

سورية.. هي التي تحدّد المكان والزمان الذي تحارب اليهود فيه..

القيادة السورية.. أذكى من أن تعطي عدوّها ذريعة لضربها .

ولم يقل أي بوق:

إن شعب سورية عشرة أمثال شعب لبنان..

وإن جيش سورية يعدل عشرين مثلاً أو حتى خمسين مثلاً من جيش لبنان ، عدّة وعدداً..

وإن أراضي سورية وثرواتها تعدل بمئات الأضعاف ، أراضي لبنان وثرواته..

وإنّ الشعب الذي قاوم اليهود بحرب عصابات في جنوب لبنان ، يوجد شعب مقاوم ، ومــضحّ مثله في جنوب سورية ، وشمالها ، وشرقها وغربها.. ويمكن أن يحرر الجولان بنصف الزمن الــذي تحرر فيه جنوب لبنان ، وربما بربع التكاليف ، أو حتى عشرها.. بــالنظر إلى مــوازين القــوى المتصارعة على الأرض في حرب عصابات حدوديّة..

لم يُطرح سؤال واحد من هذه الأسئلة ، من أيّ بوق داخلي أو خارجي..
لماذا؟ لأن السؤال الذي يمحق هذه الأسئلة جميعاً ، هو: وماذا يحصل إذا ضرب اليهود دمشق ، وأسقطوا نظام الحكم فيها..!؟

هنا بالطبع يدرك شهرزاد الصباح.. فتسكت عن الكلام المباح..

٨ ــ أما ماذا يسلّم الوريث ــ أو يُهدي ــ من بلادنا ، إذا وَرِثنا مع بلادنا عن أبيه ، الذي سلم قطعة من البلاد دون أن يرثها.. أمّا هذا السؤال ، فالجواب عليه ، قدمه أحمد عرابي ، لشعب مصر ذات يوم ، ولشعوب الأرض جميعاً:

"لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً.."

أما نحن فنقول: كلا والله.. حتى يدخل الخلف المرشح للحكم ، معركة تنافس حقيقي ، مع أبناء شعبه المؤهلين . فإن فاز ، فبها ونعمت. وإن فرض نفسه ، كما فعل " أب له من قبل " ، فالأيام دول . أما نحن فلن نقبل بسحق إرادتنا ، وتزييف وعينا، في الوقت نفسه.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ملف الثاني لسقوط الجولان

كان حافظ الأسد وزيراً للدفاع عندما وقعت خيانة سقوط القنيطرة واحتلال إسرائيل للجولان التي كان يطلق عليها خط ماجينو بسبب صعوبة اجتياحها من قبل الجيش المعادي، كما كان المسئول الأول عن الجيش وعن الحرب لأن الحكم كان قد استقر للثلاثي النصيري: صلاح جديد، وحافظ أسد، وإبراهيم ماخوس، بعد معارك دامية مع الناصريين، ثم مع القيادة القومية (ميشيل عفلق، صلاح البيطار، منيف الرزاز)، ثم مع ذراري أهل السنة من البعثيين، ثم مع الدروز (سليم حاطوم، حمد عبيد، فهد الشاعر).

وإذا كان صلاح جديد قد هيمن على القيادة القطرية لحزب البعث، فلقد كان الجيش من نصيب حافظ أسد وهو المتحكم الوحيد فيه لدرجة أنه ما كان يسمح للجنة العسكرية من القيادة القطرية بتفقد وحدات الجيش والإشراف على شؤون التنظيم الحزبي فيه.

وبعد وقوع الكارثة قررت قيادة الحزب في اجتماعها عزل حافظ الأسد ، وطلبوا منه أن يستقيل وكان من بين المتحمسين لمحاكمته عناصر من القيادة التي تضعه الآن في صفوف الآلهة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. غير أن صلاح جديد تراجع عن موقفه في اللحظات الأخيرة زاعماً أنه لا يجوز تحميل الأسد وحده مسؤولية ما حدث، وذلك لأن المسؤولية مشتركة، وما كان جديد يتوقع بأن هذا الضابط الذي كان يصفه بأنه (خجول ومتردد) سيبطش به في يوم من الأيام.

كان لابد من هذه المقدمة ونحن نقدم لقرائنا بعض الحقائق عن هذه الهزيمة النكــراء ودور أســد وطائفته فيها، ولنستعرض فيما يلي بعض تصريحاتــهم التي سبقت الكارثة .

النظام يقرع طبول الحرب

أدلى اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري بتصريح لصحيفة "الثورة" السورية الرسمية قــال فيه:

".. إنه لابد على الأقل من اتخاذ حد أدنى من الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ضربة تأديبية لإســرائيل تردها إلى صوابــها.. إن مثل هذه الإجراءات ستجعل إسرائيل تركع ذليلة مدحورة، وتعــيش جواً من الرعب والخوف يمنعها من أن تفكر ثانية في العدوان.

إن الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإن القوات السورية المسلحة أصبحت جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان الإسرائيلي، وإنما للمبادرة لعملية التحريــر بالــذات ونــسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي.

إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول الأمريكي السادس.

إن معرفتي لإمكانياتنا تجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بــها العدو هي مغامرة فاشلة. وهناك إجماع في الجيش السوري الذي طال استعداده ويده على الزناد، على المطالبة بالتعجيل في المعركة، ونحن الآن في انتظار إشارة من القيادة السياسية".

وفي تصريحه لصحيفة الثورة السورية ١٩٦٧/٥/٢٠ أضاف حافظ الأسد قائلاً:

"إن سلاح الطيران السوري تطور تطوراً كبيراً بعد ثورة ٢٣ شباط ١٩٦٦ من حيث الكميــة والنوع والتدريب، وأصبحت لديه زيادة كبيرة في عدد الطائرات، وهي من أحدث الطائرات في العالم وأفضلها تسلحاً، كما ازداد عدد الطيارين وارتفع مستوى التدريب".

ففي اجتماع طارئ لاتحاد المحامين العرب، عقد في دمشق، ألقى يوسف زعين رئــيس الحكومــة السورية كلمة في جلسة الافتتاح قال فيها:

"إن انحناء إسرائيل أمام الرد العربي الحاسم الآن، يجب أن لا يفسر بأنه انتصار نــهائي عليهــا، فهو ليس إلا بداية الطريق لتحرير فلسطين، وتدمير إسرائيل.. وإن الظروف اليوم هي أفضل من أي وقت مضى لخوض معركة المصير العربي. وقال: "إن الشعوب العربية ستحاسب كــل مــن يتخاذل عن الواجب".

وقال: "إن المسيرة إلى فلسطين، هي المسيرة إلى إسقاط الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية إلى الأبد".

وفي ١٩٦٧/٥/٢٣ أدلى العقيد أحمد المير قائد الجبهة السورية بالتصريح التالي:

"إن الجبهة أصبحت معبأة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل".

وقال:

"إن العرب لم يهزموا في معركة ١٩٤٨ على أيدي الإسرائيليين، بل من قبل حكامنا الخونة، وهذه المرة لن نسمح لهم أن يفعلوا ذلك".

وكان وزير الخارجية السورية الدكتور إبراهيم ماخوس من أكثر المسؤولين البعثيين ثرثرة، فبعد عودته من القاهرة أدلى بتصريح إلى وكالة الأنباء العربية السورية جاء فيه:

"إن زيارتي للقاهرة كانت لوضع اللمسات الأخيرة على الوضع السياسي العربي والدولي. وقال: إن مخططات الرجعية والاستعمار والصحف الصفراء التي دأبت على التشكيك بلقاء القوى التقدمية قد دحرت. وإن سحب قوات الطوارئ بالشكل الذي تم به يبرهن على أن لاشيء يقف في طريق الثورة، وإن تشكيك الرجعية حول وجود هذه القوات قد رد إلى نحرها" .

فضح ادعاءاتهم

١ - زعم حافظ الأسد في تصريحه ١٩٦٧/٥/٢٠ أن عدد الطيارين المسرحين من الجيش لا يتجاوز أصابع اليد.. ومن المعلوم أن عملية التسريحات كانت تتم حسب بيانات ونشرات تصدرها القيادة كل بضعة أيام أو أشهر، وكان آخر فوج من المسرحين في الشهر الخامس من عام ١٩٦٧ أي قبل الحرب بشهر واحد، وبلغ مجموع الضباط الذين سرحوا من الجيش أكثر من ألفي ضابط، وهذا العدد كاف لشل قدرات جيش دولة كبرى، وليس دولة صغرى كسورية.

وكل ضابط أو صف ضابط يعلم كذب ادعاء حافظ أسد، فسلاح الطيران بالذات سرح معظم ضباطه، ممن كانوا يتمتعون بكفاءات عالية، وأنفقت عليهم الأمة أموالاً طائلة.. وكان تسريحهم يعني إبعاد سلاح الجو عن أية معركة.

٢ - قال "أسد" أن سلاح الجو تطور تطوراً كبيراً بعد ثورة ٢٣ شباط ١٩٦٦ من حيث الكمية والنوع والتدريب وزيادة عدد الطيارين.

وقوله هذا يدل على استهتاره وقلة حيائه، فالفترة الزمنية التي زعم فيها أن سلاح الطيران تطور تطوراً كبيراً هي ما بين ١٩٦٦/٢/٢٣ و ١٩٦٧/٦/٥ فهل يكون معقولاً أن تكون سنة وثلاثة أشهر كافية لتطوير سلاح الطيران؟!.

إن هذه الفترة الزمنية غير كافية لتخريج دورة واحدة، ولو تم تخريج هذه الدورة حسب الطريقة البعثية النصيرية، فلن يكون أفرادها قادرين على خوض معركة مصيرية مع سلاح الجو الإسرائيلي فور تخرجهم.. فهناك دورات وخبرات بعد التخريج.. والأنكى من هذا كله أن وزير الدفاع

حافظ أسد الذي يزعم أن سلاح الجو السوري تطور تطوراً كبيراً خلال سنة وثلاثة أشهر هـو ضابط طيار ويعرف أهمية هذا السلاح واستحالة ما زعمه خلال الزمن الذي حدده.

وللقارئ الكريم أن يقارن بين تصريح أسد الآنف الذكر، وتصريح الجنرال "هود" قائد سلاح الجو الإسرائيلي:

وجه الصحفيون إلى قائد سلاح الجو الإسرائيلي السؤال التالي:

كيف استطاعت إسرائيل تحقيق مثل هذا النصر الحاسم بهذه السرعة الفائقة؟!.

الجواب: "لقد قضينا ست عشرة سنة نستعد ونخطط لهذه الجولة، وحققنا جهدنا في ثمانين دقيقة! لقد عشنا خطتنا، نمنا معها، أفقنا عليها، تمثلناها، هضمناها، وبالتدريج أدخلنا عليها الإصلاحات المتتالية حتى قاربت الكمال" .

وإذن فطيلة ست عشرة سنة وسلاح الجو الإسرائيلي يتدرب لاحتلال الجولان والضفة الغربية وسيناء وتدمير المطارات العربية.. ويزعم حافظ الأسد أنه صنع المعجزات خلال سنة وثلاثة أشهر!!.

٣ - كان البعثيون النصيريون من حكام سورية يتحدثون - من خلال بياناتهم وتصريحاتهم - باسم الأمة العربية، ويرون أنهم يمثلون إرادة الشعوب العربية.

ولا أدري متى أعطتهم الشعوب العربية حق تمثيلها، وكيف تم هذا الاستفتاء؟!.

ولنتحدث عن سورية التي ابتلاها الله بهم، أما مصر مثلاً فليس لهم وجود فيها:

- فالإسلاميون على مختلف هيئاتهم وجمعياتهم كانوا بين سجين وطريد.

والناصريون كل الناصريين كانوا يلملمون جراحهم بعد مذبحة تموز ١٩٦٣ وما تلاها من نكبات ومصائب لحقت بهم.

والرجعيون كما يدعون كحزبي الشعب والوطني، والانفصاليين والمستقلين انتهى دورهم منذ الثامن من آذار ١٩٦٣، ومعظمهم تم عزله مدنياً.

والبعثيون : تم عزل جناح أكرم الحوراني منذ انقلاب الثامن من آذار، ولحق بهم البعثيون الناصريون جناح عبد الكريم زهور

وفي ٢٣ شباط ١٩٦٦ تم إبعاد جناح العفالقة ميشيل عفلق، صلاح البيطار، محمد أمين الحافظ، منيف الرزاز

ولحق بهم من تبقى من الجناح الدرزي سليم حاطوم، وحمد عبيد.

والنصيريون لم تكن كلمتهم قد اجتمعت على حافظ أسد، وإنما كانوا أربعة أجنحة: عمران، ماخوس، جديد، أسد.

إذن من بقي من هذا الشعب المستضعف البائس مع النظام المستبد؟!.. إنـــهم لا يتجـــاوزن ٥ %، أما ٩٥ % من الشعب السوري فكانوا لا يأمنون على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم.

فكيف تنتصر أمة يسوسها حثالة الناس من أمثال أسد وجديد؟!.

وبعد هذا كله يزعم أسد وصحبه أن الجيش السوري قادر على مواجهة إســرائيل، والأســطول السادس الأمريكي، والأنظمة الرجعية في الوطن العربي، وعملاء الاستعمار داخل ســورية - أي ٩٥ % من المواطنين -!!.

ولندع المجال للدكتور سامي الجندي يرد على رفاقه.

قال الجندي يصف اجتماعاً لمجلس قيادة الثورة بعد الثامن من آذار:

".. ألقينا على أنفسنا أسئلة كثرة وناقشنا كل القضايا، ومن بينها القضية الفلسطينية التي كانت دائماً محور السياسة العربية الرئيسي والأساسي، وخاصة الدول المتاخمة لإســرائيل، وفي وعينــا أنــها أخطر القضايا، فهي مكمن خطر كبير، كما هي مصدر خوف جماهيري.

ولأعطي فكرة عن موقف سورية تجاه هذه القضية، يكفي أن أنوه بأن ٦٣% من الميزانية مكرس للتسلح، مما يشكل نسبة ضخمة بالقياس إلى بلد في طريق التنمية. سألنا أنفسنا هــذا الــسؤال الدقيق:

"ماذا نفعل لو هاجمتنا إسرائيل؟" طلبنا أدق المعلومات السرية لنستطيع تقييم قوة العدو وقوتنــا. وفوجئنا بالفرق الشاسع بين القوتين. وقدرنا أن الجيش السوري، رغم تسلحه الجيــد، وتمرســه وشجاعته، ليس في وضع يسمح له أن يصمد أكثر من ساعات أمام أي هجوم إسرائيلي".

وعن اجتماع قمة الدار البيضاء قال الجندي:

"حضر الزعماء العرب عدة مؤتمرات قمة، بقصد مواجهة قضية فلسطين متحدين، ومــن تلــك المؤتمرات مؤتمر الدار البيضاء، تحدثوا هناك عن تحويل مجرى نــهر الأردن، وعن عزم إســرائيل على إعلان الحرب ضدنا. أبدى كثيرون حماسة عظيمة، مكبرين الكرامة القومية، منتشين بحميــة المنطلقات الرومنطيقية، ثم جاء دور العسكريين. فقدم الجنرال علي علي عامر تقريره. فنظر كل من الزعماء إلى أخيه، في خيبة أمل كبرى! كان عليهم أن يواجهوا الحقيقة المرة. إنــــهم قــادة شعب من مائة مليون عربي مسلحين كامل التسليح!.

ثم قدم الجنرال علي علي عامر بيانه الحربي فقال:

"إذا تحملت الدول العربية مسؤولياتــها كاملة، فستصبح قواتنا معادلة لقوات إسرائيل خــلال ثلاث سنوات. فإذا شئنا التفوق عليها لزمتنا ثلاث سنوات أخرى، لأن تعادل قواتنــا لا يعــني النصر حتماً. ذلك لأن التدريب الإسرائيلي متفوق على تدريب جيوشنا. وثمة عوامــل عــدة في

صالح إسرائيل في كل معركة هي: وحدة الأرض، سهولة إدارة المعركة، سهولة الحركة. أضف إلى ذلك وحدة القيادة. ولا ننسى أبداً وسائل الاتصال الجيدة. فلتحشد إسرائيل جيوشها لا تحتـاج إلى استقدام قواتـها المسلحة من مسافة آلاف الكيلومترات".

صدّق الزعماء العرب على تقرير علي علي عامر ووقعوه ونفذ المخطط، حرفياً، خـلال سـتة أشهر، ثم نجم من جديد الخلاف بين الزعماء وعبر الإذاعات، وتوقف المخطط، حتى هذه الساعة، إذن لم يكن العرب مستعدين للمعركة .

وخلاصة رأي الدكتور سامي الجندي: أن النظام السوري الذي يقرع طبول الحرب، وهو يعلـم ضعف إعداد الجيش إنما يهدف من وراء ذلك إلى تسليم العدو اليهودي جزءاً مـن الأراضـي السورية.

يقول في كتابه "كسرة خبز":

من يعود إلى التاريخ ويقرأ مذكرات (وايزمن) يعرف أن إسرائيل لا يمكن أن تتنازل عن الجولان. لقد نبهت حكومتي منذ ١٩٦٥ إلى أنـها تنوي احتلاله. كنت أعارض دائماً في حـرب مـع إسرائيل أعرف أننا فيها خاسرون. التقارير التي كنت أحملها من لجان المتابعة سنة ١٩٦٤ يـوم كنت ممثلاً لسورية فيها ما كانت تدع مجالاً للشك في الهزيمة إذا قامت حرب. كلها كانت تؤكد أن القوة العربية لم تصل إلى نصف قوة إسرائيل. ولقد دخلنا في حرب ١٩٦٧ بأقل من نـصف قوانا وما كان أحد من المسئولين يجهل ذلك. فكيف إذن يعود الجولان بلعبة ثورية ذكية ماهرة؟!. آرائي كلها دون استثناء كانت ضد الحرب. لم أخف أبداً أن الحكم يعـد لهزيمـة لا لاسـترداد فلسطين. لم تكن هناك أية بادرة للنصر ولا أعني أنه كان يعد لهزيمته نفسه، وإنما لهزيمـة العـرب الآخرين كي يبقى الثوري الوحيد سيد المناخ الثوري العربي.

تعليق : هذا الذي قاله سامي الجندي لم ينفرد به، بل قاله عدد من الزعماء العرب الذين كـانوا يشاركون في مؤتمرات القمة العربية التي سبقت ٥ حزيران ١٩٦٧، فالزعيم السوداني محمد أحمد محجوب في كتابه "الديمقراطية في الميزان" يؤكد أن العرب في مؤتمر الدار البيضاء كانوا مـتفقين على وجوب تجنب الحرب في ذلك الحين، ويستغرب كيف تمكن الحزبيون البعثيون من استدراج عبد الناصر فأقدم بصورة مرتجلة على سحب قوات الطوارئ الدولية من قطـاع غـزة وشـرم الشيخ، ثم يضيف قائلاً:

"في رأيي أن ناصر كان حتى آخر لحظة، لا يعتقد أن الأمر سيؤدي إلى حرب فعلية، كانت خطته مناورة سياسية، ولكنه ذهب فيها بعيداً ولم تبق هناك طريقة شريفة للتراجع، وأخيراً هبت العاصفة يوم الاثنين ٥ حزيران ١٩٦٧".

وإذن فقائد الجيش ووزير دفاعه ومعه أركان الحكم كانوا يعلمون حقيقة - حسب قول سامي الجندي - أنه لن يصمد أمام إسرائيل إذا وقعت الحرب إلا ساعات قليلة، هذا إذا حاربوا فعلاً. فكيف يكون الحال إذا كان افتعال الحرب مسرحية لمؤامرة رهيبة، وهذا ما يفسر لنا بلاغ سقوط القنيطرة:

سقوط القنيطرة

أو البلاغ رقم ٦٦

السبت ١٠ حزيران ١٩٦٧، أعلن وزير الدفاع حافظ أسد الساعة ٩,٣٠ البلاغ العسكري رقم ٦٦، وهذا نصه :

"إن القوات الإسرائيلية استولت على القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن ظروف غير متكافئة، وكان العدو يغطي سماء المعركة بإمكانات لا تملكها غير دولة كبرى . وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الدبابات واستولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود جنودنا البواسل. إن الجيش لا يزال يخوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن كما أن وحدات لم تشترك في القتال بعد قد أخذت مراكزها".

وفي اليوم نفسه الساعة ١٢,٠٥ ظهراً أصدر وزير الدفاع البلاغ التالي:

"إن قتالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل مدينة القنيطرة وعلى مشارفها، وقال البلاغ: إن القوات السورية مازالت حتى الآن تقاتل داخل المدينة وعلى مشارفها جنباً إلى جنب مع قوات الجيش الشعبي بكل ضراوة وصمود بحيث لم يتمكن العدو من السيطرة الكاملة على مدينة القنيطرة".

يقول الضابط خليل مصطفى: "لاحظ التناقض، ففي الساعة ٩,٣٠ أعلن البلاغ: استولت القوات الإسرائيلية على مدينة القنيطرة، وفي الساعة ١٢,٠٥ أي بعد ساعة ونصف، يعلن بلاغ آخر: إن قواتنا ما زالت حتى الآن تقاتل داخل المدينة وعلى مشارفها!".

وغني عن التأكيد أن القنيطرة لم تسقط ولم يحارب الجيش فيها، بل كان جيش العدو بعيداً عنها، فكيف أذاع وزير الدفاع هذا البيان؟ لننقل فيما يلي بعض ما قاله المطلعون:

أولاً رواية سعد جمعة

كان سعد جمعة رئيس وزراء الأردن في حرب حزيران، وقد هداه الله سبحانه وتعالى للحق ومخططات أعداء الإسلام، وبحكم منصبه رأى واطلع على أشياء كثيرة لم يتسن لأمثالنا أن يطلع عليها.

ومن ذلك أنه تحدث - رحمه الله - عن سبب تلكؤ السوريين في خوض معركة الخامس من حزيران، وانهيار تحصينات المرتفعات السورية التي لا تقهر، ولا تقتحم، والتي هي أعظم تحصينات عرفتها المنطقة، قال رحمه الله :

"قال الراوي: ظهر الخامس من حزيران، اتصل سفير دولة كبرى في دمشق بمسؤول كبير، ودعاه إلى منزله لأمر عاجل هام!! وتم الاجتماع في الحال، فنقل السفير للمسؤول السوري نص برقية عاجلة من حكومته، تؤكد أن سلاح الجو الإسرائيلي قد قضى قضاء مبرماً على سلاح الجو المصري، وأن المعركة بين العرب وإسرائيل قد اتضحت نتائجها منذ الساعة التاسعة من ذلك الصباح، وأن كل مقاومة أرضية ستورث خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات لا مبرر لها، وأن إسرائيل لا تنوي مهاجمة النظام السوري، بعد أن يستتب لها تأديب جمال عبد الناصر! وبانتهاء الزعيم المصري، تتفتح الآفاق العربية أمام الثورة البعثية من المحيط إلى الخليج، وأن إسرائيل، من قبل ومن بعد، بلد اشتراكي، يعطف على التجربة الاشتراكية البعثية.. خاصة البعثية العلوية، ويمكنها أن تتعايش وتتفاعل معها لمصلحة الكادحين في البلدين.. وقد يكون ذلك منطلقاً نحو تسوية نهائية على أسس الأخوة الاشتراكية، ولهذا فمصلحة سورية.. مصلحة الحزب ومكاسب الثورة، أن تكتفي بمناوشات بسيطة، فتكفل لنفسها السلامة!!.

وذهب المسئول السوري، ليعرض ما سمعه لتوه على رفاق القيادة القومية والقيادة القطرية.. إلى آخر القيادات! وكانت الطائرات الإسرائيلية في تلك اللحظة تدمر المطارات السورية والطائرات الجاثمة - براحة - فوقها، مما أضفى على الموقف جو المأساة!.

وعاد الرسول السوري، غير بعيد، ليبلغ السفير استجابة الحزب والحكومة والقيادات، لمضمون البرقية العاجلة! وهكذا كان!.

غير أن إسرائيل، بعد أن انتهت العمليات الحربية في الجبهتين الجنوبية والشرقية، اتجهت بثقلها إلى الجبهة الشمالية، بعد أن مهدت لهذه الحركة المفاجئة بحرب نفسية، فسقط خط "ماجينو" السوري دون قتال! وسحبت القوات الأمامية لحماية مكاسب الثورة.. وبطولات الحاكمين في دمشق!.

وقال معلق راديو دمشق ذلك المساء: الحمد لله! لقد استطاعت قواتنا الباسلة حماية مكاسب الثورة أمام الزحف الإسرائيلي، الحمد لله الذي أفسد خطة العدو وقضى على أهدافه الجهنمية، إن إسرائيل لن تحقق نصراً يذكر، طالما أن حكام دمشق بخير!!.

وليت شعر لا تريد ولن تريد إذ ليس بالإمكان أبدع مما هو كائن!! .

ثانياً رواية دريد المفتي

ويقول سعد جمعة رحمه الله أيضاً، ومن ذكرياتي:

جاءني ذات يوم في مكتب بلندن شخص لا أعرفه، وقدم نفسه: أنا الدكتور (دريد المفــتي) مـــن دمشق.. كنت وزير سورية المفوض في مدريد أثناء حرب حزيران. لقد قرأت في كتابك "المؤامرة ومعركة المصير" عن جريمة تسليم مرتفعات الجولان لجيش الدفاع الإسرائيلي دون قتال، الــتي اقترفها ثلاثي (جديد، زعين ، ماخوس). وأحب أن أزيدك بياناً:

قال: استدعاني وزير خارجية أسبانيا لمقابلته صباح يوم ١٩٦٧/٧/٢٨ وأعلمني، ووجهه يطفح حبوراً، أن مساعيه الطيبة قد أثمرت لدى أصدقائه الأمريكان، بناء على تكليف السيد (ماخوس) وزير خارجية سورية للسفير الأسباني في دمشق.. ثم سلمني مذكرة مؤرخة في ١٩٦٧/٧/٢٧.. ومد إليّ يده بصورة المذكرة، فقرأتــها عجلاً ثم أعدتــها إليه شاكراً.. وسجلت في مفكرتي مــا بقي في الذاكرة من نص المذكرة:

"تــهدي وزارة خارجية الحكومة الإسبانية تحياتــها إلى السفارة السورية بمدريــد، وترجــو أن تعلمها أنــها قامت بناء على رغبة الحكومة السورية بالاتصال بالجهــات الأمريكيــة المختــصة لإعلامها برغبة سورية في المحافظة على الحالة الراهنة الناجمة عن حرب حزيران ســنة ١٩٦٧.. وتود إعلامها أنــها نتيجة لتلك الاتصالات، تؤكد الحكومة الأمريكية أن ما تطلبــه الحكومــة السورية ممكن، إذا حافظت سورية على هدوء المنطقة، وسمحــت لــسكان الجــولان بــالهجرة للاستيطان في بقية أجزاء الوطن السوري، وتعهدت بعدم قيام نشاطات تخريبية من ناحيتها تعكر الوضع الراهن" .

ثالثاً رواية ضابط سوري

نقل الضابط السوري خليل مصطفى بريز عن مطلعين سوريين أن اتصالات غير مباشرة جرت بين إسرائيل ونظام دمشق، وأن الذي كشف هذه الاتصالات ملازم أول في الجيش، وإليكم الرواية:

يقول الملازم أول: " .... " (أ) عضو الوفد السوري إلى لجنة الهدنة المــشتركة.. ميلــي: "إنــه استدعي إلى مكتب الدكتور يوسف زعين، رئيس الوزارة البعثية، بتــاريخ ٩ حزيــران ١٩٦٧ الساعة العاشرة ليلاً.. فوجد عدداً من أفراد لجنة الرقابة الدولية في مكتب الزعين، برفقة السفير (..) في دمشق.. فكلف الضابط المذكور بالترجمة بين رئيس الوزارة ومخاطبيه.

قال السفير: إذا لم تسحب القيادة السورية قواتــها من الجولان.. فإن القوات الإسرائيلية لــن ترتضي هدفاً بتوقف زحفها عنده إلا دمشق..

وهنا سأل الزعين: وما هي الحدود التي تريد إسرائيل الوقوف عنده فأبرز الملازم الأول المــذكور خريطته، وهنا وضع السفير عدداً من النقاط التي يجب أن يمر بــها خــط الحــدود الجديــد.. وتتوقف عنده القوات الإسرائيلية.. إذا قامت السلطات البعثية بسحب قواتــها خارجاً عنه..

.. وافق الدكتور زعين يقول الملازم الأول المترجم
ووعده السفير بتحقيق ما طلب.. وغادر الجميع مكتب رئاسة الوزراء على هذا الأمل..
يقول الضابط خليل مصطفى:
"وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي.. صدر بلاغ سقوط القنيطرة.. وفي الوقت نفسه كذلك ملأت جو الجولان الشائعات الخانقة، عن أوامر الانسحاب المزعومة، فكان الهروب الكبير، ودخلت القوات الإسرائيلية أرضنا الكريمة، راكبة إلى نزهة عسكرية دونما خوف من صدام حقيقي يشتتها أو يفنيها". (سقوط الجولان: ٣٠٦، ٣٠٧)
رابعاً رواية سامي الجندي
الدكتور سامي الجندي كان سفيراً لنظام البعث السوري في فرنسا قبل هزيمة حزيران وبعدها، ويتحدث فيما يلي عن تكليف الدكتور إبراهيم ماخوس له بإجراء مفاوضات مع "أبا إيبان" وزير خارجية إسرائيل. قال الدكتور الجندي:
قد يكون إلحاحي على نشر كل ما كتبت شعوراً بالذنب وتبريراً لنفسي، رغبة مني في أن يعرف البشر من أنا ولكنهم يرفضون رؤية كل شيء إلا الأسطورة فهي أرضى للخيال. يأتيني أصدقاء وصحفيون فنتحدث عن "عرب ويهود" و "صديقي إلياس" طويلاً وأكتشف أنهم لم يقرؤوهما وإنما ما روي عنهما من إشاعات و "أسرار" ويؤول بنا الحديث حتماً إلى ريبورتاج نشرته مجلة "الحوادث" التي أحترم أصحابها وما أحاطوني به من صداقة وود، تذكر فيه أني قابلت أبا إيبان بعد ٥ حزيران، فلقد أكد لها ذلك بعض من يريد أن أبقى السياسي وهم يعلمون علم اليقين أني رفضت رفضاً قاطعاً أن أقابله.
كل من عرفني في باريس يعلم أني كنت حينما يصطدم الأديب بالسياسي أرفض الثاني دون تردد. أنا لم أقابله لأن الفنان يرفض عهر المغلوب. إنه لا يركع ركوع السياسي. كان وزير الخارجية الدكتور ماخوس يراوغ ويحيط حديثه بهالة قدسية عن التضحية. يطلب مني أن أكون كبش الفداء، يقول: "كنت حتى الآن ودائماً الهدف الذي لا يخشى السهام، يجب أن تحاول من أجل الجولان" وكنت أعلم كما يعلم هو أن إسرائيل لن تتنازل عن حفنة تراب، فلماذا الإيغال بالذل ولماذا يختارني أنا، لماذا الاحتيال علي؟.
سال الحبر على ورق التقارير عني أكثر منه عن إسرائيل، ولقد عذلني الصديق لائماً لي أني أغفل أمر نفسي، ولكن غبائي لم يبح لي الكتمان. كنت أريد لهم الخير، ألح عليهم أن يكونوا مؤمنين حقيقيين، أن يقلعوا عن الغوغائية والدجل، روابط عاطفية كثيرة كانت تشدني إليهم، فهم جزء من شبابي، لم يستطع خيالي أن يدرك أنه كان عبثاً إلى هذا الحد. إصلاحهم كان يعني أنه لم يكن

دون جدوى، كان أسفي عليه يدفعني إلى النقد لعلي أنجو من تبكيت ضمير من يذر فتوته في أرض يباب.

كنت أنذرهم أن سبل الثورة باتت خطرة على نفسها وعلى الشعب وأنـــها ما باتت ثورة بـــل انقلاب شرذمة، أدى بـــها الغرور والأنانية والتمسك بالحكم إلى طغيان بوليسي لا هدف له ولا رجاء منه غير الخراب والتخريب والولوغ بالدم والشرف.

من يذكر الإشاعات التي كان يطلقها الحكم كلما قدمت دمشق من باريس في أمر خاص أو عام من محاولة انقلاب إلى مؤامرة وعدد المرات التي صدرت فيها الأوامر للحدود بعـــدم مغـــادرتي البلاد، يعجب لعرض الدكتور ماخوس. ولا أقدر أن إسرائيل تجهل هذه الأمور وهي التي تعلـــم كل ما تريد أن تعلم عن حكم سورية، فلم اختارني إذن؟ أليس اختياره مدعاة للعجب؟ زعـــم لي أنـــها مبادرة خاصة وأن الأمر يظل مكتوماً بيني وبينه وأنه يريد أن يقوم بلعبة ذكية "تفاجئ العالم جميعاً" وتنقذ جزءاً عزيزاً من أرض الوطن من الاحتلال وأننا لو نجحنا لسجلنا نصراً تاريخياً أهـــم من غزو "جبل طارق" على حد تعبيره وأننا نثبت للعرب أن الثورة "ليست عنيفة فحسب وإنمـــا هي ذكية أيضاً".

كنت أسمع فلا أصدق وهو يشير بيديه ويقطب ويتهيج: مسرحية حقيقية. قلت له: "ولماذا ننفرد بـــهذا العمل التاريخي؟ هل تضمن موافقة الرفاق لو وصلنا إلى حل؟".

فطلبت منه تفويضاً شخصياً يبقى سرياً إذا تعذر أن يكون جماعياً، يعرف منه الناس، فيمـــا لـــو حدث ما لم يكن في الحسبان، حسن النية التي دفعت إلى ركوب هذا المركب. فثار الدكتور قائلاً: "أنتم جيل الحزب الأول لم يعد منكم "كار" هرمتم وخرفتم وجبنتم عن تحمل المسؤولية. لم تعودوا أهلاً للتضحية، لو كلفكم الوطن العربي والوحدة العربية ومستقبل الأمة العربية الاستغناء عـــن فنجان قهوة لما فعلتم".

واصطدمنا، فلان، وأخذ يذكرني بجنرال إنكليزي اعترف بخيانته في الحرب العالمية الأولى، وأعدم من أجل تنفيذ خطة رأت القيادة ضرورة موته كي يصدق العدو التقارير الكاذبة الـــتي أرســـلها وأعيدت محاكمته بعد النصر وبرئ وأعيد اعتباره.

رأيتني بعين خيالي معلقاً في ساحة المرجة وتساءلت بيني وبين نفسي: لم؟ هل يعود الجولان علـــى جثتي؟ هل قضيته على هذه البساطة؟ من يعرف الدكتور ماخوس ولبوس البراءة التي يرتدي والتي خدعت الكثيرين لابد له من أن يذهب به الظن مذاهب شتى، وأنه يبطن غير ما يبدي، وليس هو بالذي يبادر المبادرات الخطيرة، فما هو غير صوت معلمه يغني فيطرب إذا شاء لـــه ذاك، ويـــأتي نشيده نشازاً إذا أحب له.

من يعود إلى التاريخ ويقرأ مذكرات (وايزمن) يعرف أن إسرائيل لا يمكن أن تتنازل عن الجولان. لقد نبهت حكومتي منذ ١٩٦٥ إلى أنها تنوي احتلاله. كنت أعارض دائماً في حرب مع إسرائيل أعرف أننا فيها خاسرون. التقارير التي كنت أحملها من لجان "المتابعة" سنة ١٩٦٤ يوم كنت ممثلاً لسورية فيها ما كانت تدع مجالاً للشك في الهزيمة إذا قامت حرب. كلها كانت تؤكد أن القوة العربية لم تصل إلى نصف قوة إسرائيل. ولقد دخلنا في حرب ١٩٦٧ بأقل من نصف قواها وما كان أحد من المسؤولين يجهل ذلك. فكيف إذن يعود الجولان "بلعبة ثورية ذكية ماهرة"؟!.

آرائي كلها، دون استثناء كانت ضد الحرب. لم أخف أبداً أن الحكم يعد لهزيمة لا لاسترداد فلسطين. لم تكن هنالك أية بادرة للنصر ولا أعني أنه كان يعد لهزيمة نفسه، وإنما لهزيمة العرب الآخرين كي يبقى "الثوري" الوحيد سيد المناخ الثوري العربي.

قلت له: "وما الثمن الذي ندفع بالجولان؟".

قال: "الاعتراف".

وكنت موقناً مثله وما زلت أن إسرائيل ليست حريصة على الاعتراف بها ولو شاءت لحصلت عليه، لأنه يفقدها مبرر "الدفاع" عن نفسها واحتلال أرض أخرى سنة ١٩٧٠.

لم إذن اختارني الدكتور ماخوس لهذه المهمة وهو لم يعدم الأشخاص ولا الوسيلة للاتصال بإسرائيل. ثارت أقاويل في باريس نفسها عن أمين "ثالثة" وفي أكثر من عاصمة. أليس عجيباً إذن أن يختارني أنا؟ الأمر على غاية البساطة: من أجل أن أسكت. وقد أكون من القليلين الذين يعرفون أشياء كثيرة، الوحيد الذي لم يستطيعوا توريطه في قضية الجولان، الوحيد الشاهد عليها وعلى استغاثات الدكتور ماخوس يوم طلب وقف إطلاق النار: ليدعوا دمشق، نسلم القنيطرة، ليقف الزحف.. أمر الجيش بالانسحاب.

أسئلة كثيرة ترد إلى كل الأذهان: لماذا لم يطلب الحكم السوري وقف إطلاق النار مع المتحدة والأردن ما دام الاستمرار بالقتال مستحيلاً؟.

يجيب الحكم السوري أنه كان ينوي متابعة الكفاح المسلح ولا ننس أن الحدود السورية لم تمس إلا في ٩ حزيران.

عندما نتتبع فصول معركة الجولان نجد أن العسكريين الذين قاوموا فعلوا دون أوامر. أما الذين صدرت إليهم فقد انسحبوا بناء على خطة.. ترى ما هي الخطة؟.

تم إخلاء الجولان من السكان منذ ٥ حزيران. لماذا؟.

لست بحاجة للقول أن إعلان سقوط القنيطرة قبل أن يحصل أمر يحار فيه كل تعليل نبنيه على حسن النية.. إن تداعي الأفكار البسيطة يربط بين عدم وقف إطلاق النار والحدود سليمة والإلحاح بل الاستغاثة لوقفه بعد أن توغل الجيش الإسرائيلي في الجولان ويخلص إلى الاستنتاج بوجود خطة.

فوجئت لما رأيت على شاشة التلفاز مندوب سورية في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة ووصول قوات إسرائيل إلى مشارف دمشق والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل.

قال لي الدكتور ماخوس فيما بعد أنها كانت خطة ماهرة لـ "إرعاب" العالم من أجل إنقاذ دمشق .

أقوال الجندي حجة عليه

١ - لسليم اللوزي صاحب مجلة الحوادث اتصالات مع جهات كثيرة (محلية وعالمية)، وكانت هذه الاتصالات تمكنه من كشف الأسرار التي يريد كشفها، أو تريد جهة من الجهات التي لها صلة بالحوادث كشفها.

ومن الجدير بالذكر أن اللوزي كان عدواً لحزب البعث، وبشكل أخص بعث الطائفة النصيرية ، ولقد حاول بعد احتلال جيش حافظ أسد للبنان أن يغير سياسته فكتب أكثر من مقال يثني به على المندوب السامي - أسد - لكن طاغية بلاد الشام لم يغفر لصاحب الحوادث ما كتبه عن الطائفة، ودبر قضية اغتياله بطريقة همجية وحشية، فقبل أن يطلق الجناة النار عليه أحرقوا يده التي كان يكتب بها.

وإذن فمجلة الحوادث هي التي كشفت اتصالات سورية إسرائيلية جرت بعد الخامس من حزيران، واضطر الجندي إلى الدفاع عن نفسه فكتب ما كتب.

٢ - سامي الجندي أحد٥٨٣؛ليلي على ذلك استمراره في السلطة منذ سنة ١٩٦٣ وإلى ما بعد هزيمة حزيران..

وكان خلال هذه الفترة عضواً في مجلس الثورة، كما كان عضواً في قيادة الحزب القطرية ووزيراً فسفيراً، وأبعدته السلطة بسبب صراعات أجنحة الحزب، ولو كان رجل مواقف لتخلى عن السلطة منذ مذبحة تموز سنة ١٩٦٣، أنظر إلى قوله:

"كنت أريد لهم الخير - يريد الخير لأسد وجديد -، ألح عليهم أن يكونوا مؤمنين حقيقيين، أن يقلعوا عن الغوغائية والدجل. روابط عاطفية كثيرة كانت تشدني إليهم، فهم جزء من شبابي".

٣ - لم يكشف الجندي حيثيات خبر الحوادث إلا من منطلق الدفاع عن النفس، وهنـاك أمـور أخرى لمح إليها ولم يصرح، ومن ذلك قوله:

".. ثارت أقاويل في باريس عن أمين منظمة الحزب التابعة لدمشق"، يعني أنه أجرى اتصالات مع إسرائيل".

وقوله: "وأنا متأكد من أن اتصالات جرت عن طريق أكثر من دولة ثالثة، وفي أكثر من عاصمة".

ما اسم أمين منظمة الحزب التابعة لدمشق؟!.

وإذا كان الجندي متأكداً جازماً، من هذه الدولة الوسيطة بين النظامين: السوري والإسرائيلي؟ ما اسم العواصم التي اجتمعوا فيها؟ وماذا أسفر عن هذه الاجتماعات؟ وكيف وصله الخبر؟ هل لأنه يريد الخير لهم، ولأنـهم جزء من شبابه اكتفى بالتلميح دون التصريح؟! أنظر مرة أخـرى إلى قوله:

"وقد أكون من القليلين الذين يعرفون أشياء كثيرة، الوحيد الذي لم يستطيعوا توريطه في قـضية الجولان، الوحيد الشاهد عليها وعلى استغاثات الدكتور ماخوس يوم وقف إطلاق النار: ليدعوا دمشق، نسلم القنيطرة، ليقف الزحف.. أمر الجيش بالانسحاب".

ماذا يعني بقوله: ".. الوحيد الشاهد عليهـا - أي الجـولان - وعلـى اسـتغاثات الـدكتور ماخوس..".

إذا كان يعني ما قيل في أروقة الأمم المتحدة وإذاعة دمشق، فليس هو شاهد وحيد بل يعرفه معظم الناس، وإن كان يعني قضية أخرى فلا ندري، وبالمناسبة فأسرة الجندي ينحدرون مـن أصـول إسماعيلية - يعني من الحشاشين -، وإن كان جدهم قد أسلم منذ عشرات السنين، ولعله ما زال متأثراً بالأسلوب الباطني.

الباطنية في المفاوضات السورية الإسرائيلية

بقلم محمد سرور بن نايف زين العابدين - مجلة السنة العدد ٩٢

كتب الشيخ محمد بن سرور بن نايف زين العابدين يحفظه الله ما نصه (((عندما دخلت قـوات النظام النصيري إلى لبنان في منتصف عام ١٩٧٦، كنت أعتقد اعتقاداً جازماً أن هناك مـؤامرة رهيبة تستهدف الوجود الفلسطيني في لبنان، كما تستهدف أهل السنة بشكل عام لأنـهم الجهة الوحيدة التي تشكل غطاء شرعياً للمقاومة الفلسطينية، أما أطراف هذه المؤامرة، فأهمها وأخطرها التحالف النصيري - الرافضي ممثلاً بحركة أمل وزعيمها موسى الصدر، ثم يأتي بعد ذلـك دور

كمال جنبلاط ودروزه، والموارنة، وقوات جيش الدفاع الإسرائيلي، والولايات المتحدة الأمريكية التي تقوم بدور المحرض والوسيط والمنسق وهو دور خبيث تخلط فيه السم بالدسم

كنت في هذه الفترة أكتب في مجلة إسلامية - خليجية، وكنت أصرح بهذه القناعات التي أعتقدها من خلال مقالات طويلة ومتعددة كتبتها، وأحسب أنها كانت مشفوعة بالأدلة والقرائن، وكان الناس يستغربون ما أكتبه، وحُقّ لهم ذلك: فسورية دخلت تحت غطاء الجامعة العربية، وتحت ستار حماية المقاومة الفلسطينية، وهي لا تفتأ تردد من خلال أجهزة إعلامها بأنها قلعة الصمود والتصدي للعدو الصهيوني ولقوى الاستعمار التي تحميه، ومنظمة أمل هي من صنع منظمة التحرير، بل هي التي اختارت لها هذا الاسم، وموسى الصدر كان نشيطاً في زياراته لمراكز ومنتديات أهل السنة، وكان المعجبون به كثر.

كان الشارع الفلسطيني الذي أضناه الركض وراء سراب الأمل قد وجد بغيته في أسد النصيرية، وطالما غنى ورقص في أعراسه وحفلاته على أنغام البطل أبي سليمان، وهي كنيته قبل أن يكبر ابنه باسل.

أصحاب المجلة كانوا يعتقدون بأني أحرجهم فيما أكتب، وكانت الأجواء تتوتر بيني وبينهم، وهممت غير مرة بالانقطاع عن الكتابة عندهم، غير أن المجاملة من طرفينا كانت تحتم علينا الاستمرار في التعاون.. ومرت الأيام، وثبت كل ما كنت أتوقعه، فالتحالف النصيري - الرافضي ارتكب من المجازر في المخيمات الفلسطينية ما يعجز عنه الوصف، والتنسيق بين قوات التحالف الباطني وقوات الدفاع الإسرائيلية قائم على قدم وساق، وكان هذا التنسيق يتم عن طريق الأمريكان الذين كانوا يضبطون الأدوار، ويرسمون الحدود الحمراء.

ولم أعد الوحيد الذي يكتب في الصحافة عن مخاطر الباطنيين وأساليبهم الملتوية، وعن جرائم أسد النصيرية ضد أهل السنة في بلاد الشام، وحتى بعض أصدقائه من الحكام العرب صاروا يصرحون ببعض ما ينبغي عدم السكوت عنه، ومن جبن منهم عن التصريح علناً فقد أعطى الضوء الأخضر لأجهزة إعلامه.. وفي مثل هذه الأجواء يكثر الأدعياء الذين يزعمون بأنهم كانوا يرون ذلك من قبل ويحذرون منه.

كنت ذات يوم جالساً مع المشرف العام على المجلة (وهو أحد الشخصيات الإسلامية) في مكتبه، وقطع خلوتنا وفد من منظمة فتح الفلسطينية، وهم اليوم من كبار أعوان ياسر عرفات ومساعديه، وبعد المجاملة أخذوا يتحدثون عما جاءوا من أجله، قالوا:

كنا نستغرب ونستنكر ما تكتبونه في مجلتكم ونعتبره نوعاً من التعصب الطائفي الذي لا يليق بمثلكم من الوطنيين، ولكن الأيام أثبتت أن تحليلاتكم كانت صحيحة ودقيقة، كما كانت تحالفاتنا

ضرباً من الأوهام، ولم يكن يدور بخلدنا أننا سنكون ضحية للنظام النصيري، أو لحركة أمل الشيعية التي صنعناها بأيدينا، ولا نكتمك أيها السيد الفاضل أننا أعدنا قراءة أعداد المجلة مرة أخرى بطريقة غير الطريقة الأولى.

المشرف أعجبه ما سمعه من بعض قادة فتح، وتناول أعداد المجلة، وشرع يقلب لهم صفحاتها: انظروا في هذا العدد قلنا كذا وكذا، وفي هذا العدد عرضنا صوراً من أساليب الباطنيين الملتوية، وفي هذا العدد نقلنا ما قاله علماؤنا في كتب الفرق عن الطائفة النصيرية. إن قضايا الاعتقاد محسومة عندنا، ولا مجال فيها للاجتهاد ولن نسمح للعواطف الهوجاء أن تتحكم بنا، وفلسطين لن يحررها إلا مجاهدون مسلمون صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

نظر المشرف إليَّ بعد خروج الضيوف نظرة ذات معنى، ثم حاول أن يدفعني إلى التعليق على ما سمعته منه ومن قادة فتح، ولاشك أن كلاً منا يعرف ما فعله بصاحبه، لاسيما وهو الرجل الذي كان أصحابه يطلبون منه منعي من الخوض في هذا الهذيان الذي كنت أهذي به - حسب فهمهم -.

خلاصة القول: لم أكن عرافاً ولا منجماً عندما فضحت أهداف التحالف النصيري الباطني في لبنان، وليس من طبعي الجزم بأمور وتحليلات سياسية تبدو مستنكرة عند أمثالي، ولكنني قرأت بإمعان وتدبر تاريخ الفرق الباطنية، من كتب العقائد والفرق والتاريخ، ثم قرأت فتاوى كبار علمائنا في القديم والحديث الذين عرفوا هذه الفرق، وسبروا غورها، وبينوا لنا استعدادها الدائم للتعاون والتحالف مع كل عدو للإسلام والمسلمين، ومن الأمثلة على ذلك تعاونهم مع الصليبيين الذين احتلوا القدس وما حولها، ثم تعاونهم مع التتر، وتورطهم معهم في كثير من المجازر الفظيعة، ثم مع الفرنسيين في مطلع هذا القرن.

ولعل من الأسباب التي دعتني إلى التعمق بهذه الدراسات تسلم قادة الطائفة النصيرية لشؤون الحكم في سورية منذ أكثر من ثلث قرن، عشنا - أهل الشام - خلالها حياة شاقة ليس لها مثيل في أي بلد يدين شعبه بالإسلام، ورأينا من خلال التطبيق الذي كنا من ضحاياه صوراً مشابهة للصور التي حدثنا عنها علماؤنا القدامى في فتاواهم ومؤلفاتهم القيمة، ومما يجدر ذكره أن علماءنا على مختلف مذاهبهم مجمعون على موقف واحد من الطائفة النصيرية.

النظام النصيري من جهته يعلم بما أوتي من خبث ومكر أن ذاكرة شعوبنا مثقوبة، إن لم تكن معدومة إلا من رحم ربي وقليل ما هم، وذلك لأن هذه الشعوب يعجبها البطل الذي سيرد لهذه الأمة عزتها الموؤدة، ولو كان هذا الذي يدعي البطولة ممثلاً كذاباً يجيد اللعب على حبال

متعددة، والمهم أنه يقول لا، في وقت يقول غيره من الحكام العرب نعم لكل ما يطلبه الأمريكان منهم.. ثم لا تدري هذه الشعوب المغفلة أن "لا" تصبح ألف نعم في الغرف المغلقة.

لهذا كان نظام أسد دائم الاستخفاف بذاكرة الشعوب العربية، ويحاول أن يُرسِّخ من خلال أجهزة إعلامه بأنه النظام الوحيد الذي يتعامل مع العدو الصهيوني بعزة وكرامة ولا يرضى ما يرضاه غيره من الهوان والذل والهرولة، ففي مفاوضات "شيبردزتاون" تحدثت مصادر النظام لأكثر من صحيفة عربية مؤكدة أن هذه المفاوضات ليست كالمفاوضات العربية التي سبقتها (وهنا عقدة النظام)، وسأنقل ما قيل بالنص الحرفي:

"تصر دمشق على أن يتميز اتفاق السلام السوري - الإسرائيلي شكلاً ومضموناً عن اتفاقات السلام بين إسرائيل وكل من مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية والأردن، ولازم هذا الإصرار مراحل المفاوضات السورية منذ انطلاقها في مدريد عام ١٩٩١، لكنه برز في محادثات شيبردزتاون"، وكيف برز؟ ذكر كاتب المقال إبراهيم حميدي (وهو أحد المسؤولين في مكتب وزير الإعلام السوري) أموراً كثيرة من أهمها أن الشرع لم يتخل عن بدلته الرسمية في اللقاءات الثلاثية التي عقدت، وأن الوفد السوري كان برئاسة وزير الخارجية بينما الوفد الإسرائيلي برئاسة رئيس الوزراء، وأن السوريين رفضوا أن تستأنف المفاوضات في "واي ريفر"، أو في أي مكان له علاقة بالمفاوضات العربية الإسرائيلية السابقة، ورفض الشرع مصافحة رئيس الوزراء الإسرائيلي في حفلة استئناف المفاوضات في ١٩٩٩/١٢/١٥، و ٢٠٠٠/١/٣، وأصر السوريون على تسمية لجنة السلام بلجنة "علاقات السلم العادية"، وليس لجنة التطبيع، ومثل هذا الكلام أو قريب منه قالته صحف دمشق، كما قاله أحد أعضاء الوفد السوري (آثر أن لا يذكر اسمه) لصحيفة لبنانية.

وأكتفي بتسجيل ملحوظتين على هذا الهراء:

الأولى: منذ عام ١٩٧٩ (معاهدة السلام الإسرائيلية المصرية) وسورية تردد في تصريحاتها وبياناتها الرسمية بأن السادات خائن، ثم قالت بأن ياسر عرفات الذي وقع اتفاقية أوسلو خائن ومجرم، وأفتى الشيخ أسد (!!) بأن تأجير الأرض العربية لإسرائيل كفر، وذلك في أول تعليق له على اتفاقية "وادي عربة" بين الملك حسين وإسرائيل.. وهو اليوم يسير في طريق هؤلاء الخونة فكيف يواجه شعبه، ثم كيف يواجه الشعوب العربية؟.. وبعد هذا وذاك كيف يواجه الحكام العرب الذين كان ولا يزال يتهمهم بالخيانة؟.

هذا الذي يطالب به أسد، ولن يحصل عليه ما حققه السادات منذ أكثر من عشرين عاماً، ولهذا فإن أنصار السادات في مصر يطالبون برد الاعتبار له. إذن لابد أن يقول المفاوضون السوريون: مفاوضات "شبردزتاون" تختلف عن المفاوضات المصرية والأردنية والفلسطينية لأن الشرع لم

يتخل عن بدلته الرسمية طوال المفاوضات، ولأنه لم يصافح باراك في حفلة استئناف المفاوضــات، وفي الغرف المغلقة كيف كان الحال؟!، يقول الإسرائيليون: كانت هناك أحاديث ودية، ويضيف وزير الخارجية الإسرائيلية: ولعل الشرع ندم على عدم مصافحة باراك.. هزلــت!! أهــذا هــو الخلاف بينه وبين غيره من أقرانه العرب؟!.

الثانية: الأسد يكره الحكام العرب كما أنه يكره الشعوب العربية، أما عــن كرهــه للــشعوب وللوحدة العربية، فلا يتسع هنا المجال - رغم أهميته - للحديث عنه، وأرجو أن أعــود إليــه في المستقبل القريب.

أما عن كرهه واحتقاره للحكام العرب، ففيما ذكرناه من أقوالهم دليل على ذلك، مع أنه يعــود إليهم عند الحاجة ويطلب مساعدتــهم، ولو أراد الرئيس المصري حسني مبــارك أن يتحــدث بصراحة عن كيد أسد وغدره به لكتب مجلداً، لكنه يسارع في العودة إليه طالباً مساعدته وعونه في الملمات وأقرب مثال على ذلك تــهديدات تركيا لسورية لقد كان في حالة من الذعر والهلع لا يحسد عليها وكان مستعداً للاستجابة لأي طلب يطلبه منه الأتراك، وما زال مبــارك ووزيــر خارجيته يترددان على أنقرة حتى تمكنا من إقناع الأتراك، وقدم لهم كل ما يريدونــه، وهــاهو يكافئ مبارك بعدم إخباره والتنسيق معه في أمر اتصالاته مع اليهود واتفاقه معهم على اســتئناف المفاوضات في واشنطن، أما الملك حسين فقد مات دون أن يبوح بأســرار كــثيرة عــن أســد واتصالاته المشبوهة منذ عام ١٩٧٠ بل قبل ذلك، وكان شاهداً ووسيطاً على بعضها.

نحن العاملين في حقل الدعوة الإسلامية نعتبر هذه المفاوضات مع العدو الصهيوني خيانــة ســواء جاءت من طرف مصر أو منظمة التحرير أو الأردن أو سورية، وليس من حق أي حاكم عربي أن يتنازل عن ذرة واحدة من تراب فلسطين.. وعندما جد الجد تغيرت المواقف ولم نعد نسمع شيئاً عن عنتريات ومزايدات حبش وحواتمة وغيرهما من أساطين الغواية والضلالة، أما مواقف الدعاة والجماعات الإسلامية فما تزيدها المحن والابتلاءات إلا وضوحاً ونصاعةً وثباتاً.. ليست مشكلتنا في شكل اللباس الذي كان يلبسه وزير خارجية النظام النصيري، وإنما مشكلتنا فيما ذهب مــن أجله، وفيما يفاوض عليه، وهل هو ممثل للأمة أم ممثل لدكتاتور طائفي متسلط لا يبالي إلا بكرسي الحكم الذي يجلس عليه.

ومن أجل أن نزيل الغشاوة عن أعين الذين ما زالت دعاية أسد النصيرية تجد سبيلاً إلى قلوبــهم أعددنا هذا الملف، وسوف يكتشف القارئ فيه ما يلي:

١ - الاتصالات السورية الإسرائيلية لم تنقطع منذ عام ١٩٦٧ م، وتضاعفت وتــشعبت بعــد انفراد حافظ أسد في الحكم ١٩٧٠ حيث لم يعد أحد قادراً على أن يقول له لا.

بعض هذه الاتصالات كان يجري في السر ومن غير وسيط، وشهد بذلك بعض أركان الحكم - كما هو واضح في هذا الملف -، وبعضها الآخر كان يتم بشكل غير مباشر عن طريق الأمريكان وجهات أخرى.

أجل لم تنقطع هذه الاتصالات حتى أيام حكم نتنياهو رغم مواقف النظام المتشددة ضده، وهذا وجه من وجوه وطبيعة النظام الباطني الذي يقول في العلن ما يخالفه في السر.. فهل يصدق السذج المغفلون وجود مثل هذه الاتصالات، وأنها كادت تسفر عن اتفاق لولا بعض الجوانب التي تضمن الحد الأدنى الذي يطلبه النظام السوري من أجل توقيع معاهدة السلام.

٢ - في هذا الملف دليلان على خيانة أسد وزملائه في الحكم، ولا مجال مطلقاً لحسن الظن:

الأول: إجماع الدراسات العسكرية العربية التي قدمها الجنرال علي علي عامر في أحد مؤتمرات القمة التي سبقت حرب ١٩٦٧ على أن الجيوش العربية غير قادرة على إلحاق هزيمة بإسرائيل والعكس هو الصحيح، أما الدراسات العسكرية السورية فتقول بأن الجيش السوري لن يصمد أكثر من ساعات أمام الجيش الإسرائيلي، فكيف يزعم وزير الدفاع - أسد - بأن الجيش السوري يقف على أهبة الاستعداد وسيلقن العدو درساً لن ينساه، أما زملاؤه ومساعدوه فكانوا يقولون في تصريحاتهم بأنهم سيلقون اليهود في البحر طعاماً للأسماك!!.

الثاني: إعلان حافظ الأسد عن سقوط القنيطرة مع أنها لم تسقط، وكان الجيش الإسرائيلي بعيداً عنها، ولم يكن أسد النصيرية ضحية لمعلومات خاطئة، فلقد اتصل به ضباط وغير ضباط من بينهم زميله وزير الصحة - الأكتع - من القنيطرة بل ومن غربها وأخبروه بأنها لم تسقط، فتهددهم وتوعدهم.

ورجل هذه هي صفاته، وهذا هو تاريخه الأسود ماذا ننتظر من مفاوضاته في "شيبردزتاون" وفي غيرها، وما هي الورقة التي يملك أن يهدد بها إسرائيل إذا لم تستجب لمطالبه؟!. لقد جاءت المفاوضات بعد غزل حميم بينه وبين باراك منذ اختيار الأخير رئيساً للوزراء، وجاءت بعد مفاوضات لم يعلن عن مضمونها، وبعد تنازل الأسد عن شرطه: لا مفاوضات إلا إذا أعلن باراك بالتزامه بما وصلت إليه المفاوضات أيام رابين.

إن الشعب السوري لم يستشر ولم يقل رأيه في هذه المفاوضات، فهل هذه الأرض التي يفاوض عليها أسد ملك له ولأبيه؟!، وإذا كان لابد من المقارنة بين الوفدين المفاوضين فيلاحظ أن باراك جاء إلى الحكم نتيجة انتخابات حرة لا مجال فيها للتزوير، وشكل وزارة تمثل الأكثرية في الكنيست، وهذا يعني أنها تمثل أيضاً أكثرية الرأي العام الإسرائيلي، أما أسد فقد جاء إلى الحكم بعد سلسلة من الانقلابات المعقدة والتي غدر فيها بجميع شركائه وبكل من كان له فضل

عليه، ولم يتورع دائماً عن ضرب هذا بذاك، ولو استطاع اليوم القبض على أخيه رفعت لقتله ليعبد الطريق أمام وصول ابنه بشار إلى الحكم.

ومن جهة أخرى فإن صلاحيات باراك محدودة، وهو معرض للمحاسبة أمام الكنيست ثم أمام الرأي العام الإسرائيلي، ويستطيع أي مواطن نقده ومحاسبته دون أن يخشى على نفسه من أجهزة المخابرات، ومن الأمثلة على ذلك المظاهرة الصاخبة التي شهدتها تل أبيب، وكان المتظاهرون الذين زاد عددهم على مائة ألف يهتفون ضد باراك وضد معاهدة السلام مع سورية، ومن جهة أخرى فقد أعلن باراك أنه لن ينسحب من الجولان إذا تم الاتفاق مع سورية إلا بعد إجراء استفتاء وسيذعن لنتيجة هذا الاستفتاء.

أما أسد فهو الآمر الناهي في سورية بل وفي لبنان المحتل، وبوسعه أن يعقد الصفقة التي يريدها مع إسرائيل وغيرها، ولن يسمح لأحد أن يقف في وجهه ويعارض سياسته.

وخلاصة القول: فإن الجيش السوري الذي تسيطر عليه الطائفة النصيرية غير صالح للحرب لأن الغالبية العظمى من أفراده تنتمي إلى الطبقة المسحوقة المستعبدة، والعبد الذليل ليس أهلاً للحرب، أما "الجنرالات" فهم مرتشون فاسدون. والجيش في نظرهم ليس أكثر من وسيلة للابتزاز والثراء ومن كانت هذه حاله لا يتحمل سماع ذكر الموت وكل ما يقرب منه، ولا أدري بعد ذلك ما الذي تخشاه إسرائيل، وما الذي يخيفها من هذا الجيش ومن رئيسه وصاحب أمره؟!.

سيجد القارئ في هذا الملف أيضاً خوف إسرائيل من الحال الذي ستكون عليه سورية بعد موت أسد، وما ذلك إلا لأنهم مطمئنون إليه.

ومن المفارقات التي عودنا أسد عليها الاعتقالات الواسعة التي شملت جميع المحافظات السورية، ويقدر عدد المعتقلين بالآلاف، وكل ما سمعنا به أن العدد كبير، ولم يصدر عن المعتقلين ما يستحقون عليه مثل هذه العقوبة، ولكنه الخوف من الشعب

الطاغية رفعت الأسد*

الشقيق الأصغر للرئيس الهالك حافظ الأسد وعم الرئيس السوري بشار الأسد.

يتميز رفعت الأسد ببعض الصفات منها كونه من أوائل الذين سلكوا طريق النهب والسلب من ثروة الشعب السوري ، بعد شقيقه حافظ، ومنها وصوله إلى أرقام قياسية في هذا السلب والنهب ، لم يسبقه سوى أخيه حافظ أيضاً.

---

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت .

رفعـــت قبل الثامن من آذار ١٩٦٣م :

أبوه علي سيلمان الوحش ، وقد حصل جده على هذا اللقب من حلبة المصارعة ، عندما صـــرع المصارع التركي الذي كان لا يقهر ، ولم يكن أهل القرداحة يعرفون له لقباً ، كـــانوا يعرفونـــه سليمان (فقط) ، ثم حصل على لقب الوحش ، أما علي سليمان الوحش ، فقد تعلـــم وكـــان مشتركاً في جريدة تصله بالبريد إلى القرداحة ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وكانـــت في بيتـــه خريطة للعالم ، يتابع عليها أنباء الحرب العالمية الثانية ، ولم نتمكن معرفة المكان الذي تعلـــم فيـــه علي سليمان الوحش ، وقد ورث علي عن أبيه سليمان القوة الجسدية ، وهذه القوة مع الـــتعلم ساعداه على رفع مكانته الاجتماعية في القرداحة ، ليلتحق بقبيلة الكلبية ، إحدى قبائل العلويين الأربع ، كما أنه صار من وجهاء القرداحة ، وممن يسعى إليه الناس في حل الخصومات ، وعندها اجتمع وجهاء القرداحة وقالوا له أنت : علي سليمان الأســـــد ، وليس الوحش .

ولد رفعت علي سليمان الأسد عام (١٩٣٧) ، وهو آخر أولاد أبيه ، وأمـــه . ويكبره جميـــل بأربع سنوات ، فهو مواليد(١٩٣٣) ، أما حافظ فهو مواليد (١٩٣٠م) . وكان له عشرة من الأخوة والأخوات ، حُرم الثمانية الأول منهم من التعليم ، لعدم وجود مدرسة في القرداحة يومها ، ثم أصّر أبوه على أن يتعلم الثلاثة الباقون ، وفي الثلاثينات أدخل الفرنسيون التعليم ، وفتحت في القرداحة مدرسة ابتدائية ، وتمكن علي سليمان من إدخال أولاده فيها .

في عام (١٩٤٩م) انتقلت عائلة علي سليمان الأسد كلها من القرداحة إلى اللاذقية لمدة سنة من أجل الإشراف على أصغر أبنائها رفعت ، الذي كان سيبدأ دراسته الثانوية (يعـــني الإعداديـــة والثانوية) في ذلك العام ، فاستأجروا غرفةً في أحـــد المساكن حيث راحوا يراقبـــون النـــشاط السياسي الذي راح ولدهم (حافظ) يمارسه بهمة وإقبال شديدين ، والذي لم يكونوا موافقين عليه تماماً .

ثم تابع رفعت حتى حصل على الثانوية ، ثم صار موظفاً بسيطاً في الجمارك ، يتقاضى راتباً لا يزيد عن (٢٠٠) ليرة ســـورية تعادل يومها (٥٥) دولاراً ، وخلال خدمته العسكرية الـــتي قـــضاها برتبة (عريف) وهي أدنى الرتب العسكرية ، تعرف على الملازم المجند محمد الخطيـــب ، الـــذي عامله يومها معاملة حسنة ، فكافأه رفعت فيما بعد وجعله وزيراً للتربية في السبعينات .

في عام ١٩٦٣م :

عندما قامت ثورة الثامن من آذار (١٩٦٣م) سرحت دفعة كانت في الكلية العسكرية ، التحقت بها خلال آخر عهد ديمقراطي عاشته سوريا وكان ذلك من سبتمبر ١٩٦١ م ، وحتى الثامن من آذار ١٩٦٣م ، وكانت هذه الدفعة منتقاة من الشعب السوري كافة ، حسب الكفاءة واللياقة

البدنية ، ودون اعتبار للتقرير السياسي . سـرحت هذه الدفعـة ، وجلبت دفعة بديلـة علـى عجل معظمها من المعلمين من طوائف معينة ، وكان منهم (رفعت أسـد) ، و (عبد الله طلاس) ، وغيرهم .

وتخرجت هذه الدفعـة بعد سنة ونصف فقط وسميت بدورة البعث الأولى .

من ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٠ م :

بعد تخرجه بسنة ونيف شارك في انقلاب (٢٣ شباط ١٩٦٦) في المجموعة الـتي قادهـا سـليم حاطوم واعتقلت الفريق محمد أمين الحافظ رئيس مجلس الرئاسة يومذاك بعد معركة راح ضحيتها (٢٠٠) عسـكري وهو ضعف ما خسره الجيش السوري في حرب (٥) حزيران (١٩٦٧م) .

وفي عام (١٩٦٩م) ساهم (رفعت) في القوة التي حاصرت العقيد (عبد الكريم الجندي) مـن بلدة السلمية ، قائد المخـابرات العامة يومذاك في عهد صلاح جديد ، وقتلته أو دفعتـه إلى الانتحـار عند بوابـة اللـواء السبعين .

يقول باترك سيل : كان العقيد عبد الكريم الجندي من أنصار جديد ، وهو قائد المخابرات ، ومن أعضاء اللجنة العسكرية ، وكان رفعت ([٤]) قد اكتشف أن جديد يخطط لاغتيال شقيقه حافظ ، وفي الأيام (٢٥ ـ٢٨ شباط ١٩٦٩) وقع شبه انقلاب قام به حافظ ورفعـت ، حركـت الدبابات إلى مفاصل العاصمة ، وتمكن رفعت من اعتقال سـائقي الجندي .

وأدرك الجندي عندما فقد أسطول سياراته أنه انتهى ، وبعد مشادة كلامية مع علي ظاظا مـدير المخابرات العسكرية قتل الجندي نفسه بإطلاق النار على رأسه . وبعد أسبوعين انتحرت زوجته أيضاً . وتعززت مكانة رفعت ، كذراع الأسد اليمنى ، وجزع أتباع جديد ، وكـسب الأسـد جولة هامة .

وهكذا من بين الأعضاء الخمسة المؤسـسين للجنة العسكرية : كان عمران منفياً في لبنـان (ثم اغتيل من قبل الأسد) ، وكان أحمد المير قد طرد إلى إسبانيا ، والجندي قد مات ، وبقي الأسـد وجديد يتصارعان من أجل الوصول إلى قمة السلطة .

وخلالها كان رفعت قد التحق بالدورات التالية في مدرسة المدرعات بالقابون ، وهي دورة قائـد سـرية ، ثم دورة قائد كتيبة ، ثم أعطيت له رتبـة (نقيب) وألحق بدورة (أركـان حـرب) وكان أول نقيب في الجيش السوري يلتحق بدورة الأركان ، وفي عام (١٩٧٠م) التقيت بزميله وابن دورته (النقيب عبد الله طلاس) ، وما أدري كيف حصل رفعـت على رتـب (رائـد ، مقدم ، عقيد) وكل ما عرف عنه بعد قيام أخوه بالحركة التصحيحية أنه قائد سـرايا الـدفاع ووصل تعدادها يومذاك إلى (٥٥) ألف عسكري ، فيها أحدث دبابات الجيش السوري وكانت

يومذاك (ت ٦٢) ، وفيها طائراقا العمودية الخاصة بها . ويشير العماد مصطفى طلاس في كتابه (ثلاثة شهور هزت سوريا) إلى أن الرئيس حافظ الأسد كان الشخص الوحيد الذي يتابع "عبر قنوات سرية للغاية" الشؤون الأمنية لسرايا الدفاع التي يقودها شقيقه. والقنوات سرية لأن العميد رفعت كان يسجن أي ضابط في السرايا له علاقة مع المخابرات العسكرية، الأمر الذي جعل السرايا بمثابة "غيتو خاص يصعب انتهاكه". وكانت سرايا الدفاع تحيط بدمشق ، وتحمي كرسي الحكم ، ولم تشارك في حرب (٥) حزيران (١٩٦٧م) .

رفعت أسد طالب في جامعة دمشق :

حصل رفعت على ليسانس في التاريخ ثم ليسانس في الحقوق من جامعة دمشق ، مما دفع بعض الأساتذة الشرفاء إلى الهجرة من سوريا كلها ، كي لايروا بأعينهم هذه المهازل ومن لطائف ما يرويه العماد مصطفى طلاس في كتابه (ثلاثة شهور هزت سوريا) عن العميد رفعت حين كان طالباً في قسم التاريخ بجامعة دمشق أن رئيس القسم الدكتور محمد خير فارس شكا له (لوزير الدفاع) : أن رفعت يأتي مع مفرزة من الحرس إلى الجامعة أيام الامتحان، ولا أحد يجرؤ من المراقبين أن يقول له شيئاً، فماذا أفعل؟، وكان رد العماد: [لا تفعل شيئاً لأنه لن يعمل لديكم أستاذ تاريخ!]. على أن أجمل ما يرويه العماد عن علاقة العلم بالسلطة في تلك الأيام الأمثولة التالية: [ما كاد رفعت ينهي الإجازة في التاريخ حتى تسجل في كلية الحقوق هو وزوجته لين وابنه دريد، وكانوا يقدمون الامتحان معاً في غرفة رئيس الجامعة الدكتور زياد شويكي حرصا على أمن الطلاب وأمن المعلومات، وعندما جاءهم الأسئلة مع فناجين القهوة وكتب السنة الأولى قال لهم رفعت : العمى في قلبكم... ابعثوا لنا أستاذاً يدلنا أين توجد الأجوبة لهذه الأسئلة!!!].

ومن المعروف أنه بعد حصوله على الليسانس من جامعة دمشق ، حصل على الدكتوراه من موسكو في التاريخ أيضاً ، على أطروحة عن الصراع الطبقي في سوريا ، ويعتقد أنها من تأليف أحمد داود العلوي الذي يجيد اللغة الروسية !!! .

رفعت أسد يهرب ذهب سوريا إلى الغرب :

وبدأ يلمع اسمه كثيراً بعد انتخاب حافظ أسد رئيساً لسوريا ، ورأينا الورقة المالية ذات (٥٠٠) ليرة سورية التي وقعها (رفعت) باسمه الصريح بعد أن رفض مدير البنك المركزي توقيعها ، هذه الورقة التي كان (رفعت) يطلب منها الكمية التي يريدها ، وكان مدير المصرف المركزي ينفذ طلباته مجبراً ، وقام أزلام رفعت بشراء الذهب من سوريا خلال عقد السبعينات بهذه الأوراق وأخرجه إلى حساباته في أوربا وأمريكا ، وهذا أول اسفين دق في الاقتصاد السوري ، مما أدى بعده إلى انهيار الليرة السورية .

رفعت أسـد تاجـر المخدرات الدولي :

الريشـة بلدة في أطراف سـوريا ، محاذية للمثلث الأردني السعودي السوري ، زعيمها (لورنس) الشعلان ، وهذه البلدة لا تخضع لنفوذ أي من الدول المجاورة ، حتى لا تخضع لنفوذ سوريا ، وبعض الهاربين جنائياً يصلون إليها ويحتمون بزعيمها (لورنس) فلا تستطيع الحكومة السورية القبض عليهم ، وهذه معلومات بديهية عند أبناء البادية السورية ، وسر قوة (لورنس) هي أنه شريك لكبار الضباط في الحكومة السورية ، شريكهم في تجارة المخدرات الدولية ، وعرفت مرة أحد أفراد القبيلة اشتبك مع الشرطة وأطلق عليهم النار حتى نفذت ذخيرته ، وعندئذ استطاعت الشرطة القبض عليه ، ثم ... من يصدق أنه خرج من السجن بسند كفالة (٥٠٠٠) ليرة سورية فقط !!؟؟ وعندما تعجبت من ذلك بحثت وعرفت أنه من أزلام (رفعت أسد) في تهريب المخدرات ، وبعد خروجه بساعات كان قد وصل (الريشة) حيث زعيمها (لورنس) يحميه من جميع دول المنطقة ، لأنه زعيم أكبر عصابة لتهريب المخدرات في العالم.

عرف رفعت أسد الريشة ولورنس مبكراً ، وجعل نفسه شريكاً رئيسياً له في تجارة المخدرات ، حتى ذاق طعم الملايين ، استقل رفعت في سهل البقاع اللبناني ، وسبق لورنس الشعلان في هذه التجارة ، بل صار لورنس من تلامذته ، لأن رفعت سخر سيارات الجيش وطائراته العمودية في زراعة وصناعة وتصدير المخدرات في سهل البقاع ، بل بنى ميناء قرب اللاذقية لا تعرف الجمارك السورية شيئاً عنه ولا عن البضائع التي تصدر منه أو تستورد عن طريقه ، واستمر هذا الميناء حتى أواخر التسعينات حيث قاد بشار الأسد قبل وفاة والده لواء مدرعاً استطاع أن يحتل هذا الميناء ويدمره في معركة قتل فيها من الجانبين قرابة (٥٠٠) من الجنود .

وكانت زراعة وصناعة وتصدير المخدرات في سهل البقاع تحت عيون المخابرات الصهيونية والأمريكية [انظر مجلة الإكسبرس الفرنسية التي ادعت (في عددها الصادر في شهر مايو ١٩٨٧، ص ٣٤ - ٤١) بأن هناك صلة للسلطات السورية في تجارة المخدرات اللبنانية وأن نائب الرئيس السوري رفعت أسد ضالع في تسويقها لدى شبكات التجارة العالمية. وفي شهر مايو ١٩٨٥ قامت السلطات الإسبانية بطرد القنصل العام والمسؤول الأمني في السفارة السورية بسبب انكشاف دورهم في شحنة هيروين تم مصادرتها، وادعت الصحافة يومها بأن للسفير السوري في إسبانيا (وهو شخص مقرب من رفعت أسد) دور في هذه الصفقة كذلك.

وقد نشرت مجلة الإكسبرس الفرنسية في عددها رقم (١٨٦٩) تحقيقاً مطولاً حول تورط رفعت أسد في تجارة المخدرات والأسلحة وضلوعه في عصابات سرقة السيارات من ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا عن طريق شبكة يديرها ابنه فراس. ثم نشرت مجلة إنتربيو الإسبانية تحقيقاً آخر حول صلة رفعت بالاستخبارات الفرنسية والإسبانية وعن أنشطته غير المشروعة بالتعاون مع التاجر السوري منذر الكسار في تجارة الأسلحة والمخدرات.

وبالرغم من الاحتجاج المتكرر من قبل السلطات السورية ومحامي رفعت أسد على هذه الحملة الصحفية فإن الحقيقة ظهرت في شهر أكتوبر ١٩٩٩ عندما اشتبكت القوات السورية مع حراس رفعت في ميناء يسيطر عليه باللاذقية، وكانت الأسباب الظاهرية هي أنشطة رفعت المحظورة في مجالات التهريب عبر هذا الميناء .

ميناء رفعت :

وقد مر ذكره آنفاً ، يقع قرب مدينة اللاذقية ، لا يخضع للحكومة السورية ، واستمر رفعت يهرب منه البضائع من وإلى سوريا قرابة عشرين سنة ، دون أن يتمكن أحد من ضباط الجمارك أو الأمن بشتى فروعه من دخول هذا الميناء الذي سكنت فيه عدة عوائل من أنصار رفعت الأسد .

وترسخت ظاهرة الفساد وما تفرزه من نهب وسلب ورشوة واختلاس منذ وقعت سورية الغالية بين براثن حكم قمعي وحشي منذ أكثر من ثلث قرن ، ومن الجدير ذكره أن السلطة السورية عندما حاصرت موقعاً مطلاً على البحر قريباً من اللاذقية تعود ملكيته لرفعت الأسد قائلة : إنه ميناء غير مشروع يستخدمه رفعت للتهريب ، وقاد بشار الأسد لواءً مدرعاً في حياة والده حافظ ، واقتحم هذا الميناء ودمره ، ووصلت الخسائر من الطرفين قرابة (٤٠٠) جندي .

ولما سئل رفعت عن هذا الميناء أجاب عبر المحطة الفضائية (a . n . n.) التي يملكها ولده سومر : وهل أبقت السلطات – الجناح الحاكم على حد تعبيره - شيئاً يمكن تهريبه بعد أن سلبت ونهبت كل شيء ؟ ، لقد استعصت ظاهرة الفساد في سورية على الحل ، وكيف لا تستعصي وأقطاب النظام وسدنته هم الذين يقودون حملة الفساد ؟!! ويتسابقون على نهب الثروات العامة ويبتزون المواطنين وحتى الفقراء منهم في نهب أرزاقهم وأقواتهم وما يملكون . لقد أكد الباحث السوري سمير سعيفان أن مشكلة التهرب والتهريب في سورية من الحجم الكبير جداً ، وأنها تؤثر بقوة في موارد الدولة والأداء

الاقتصادي والبنيـــة الأخلاقيـــة للمجتمع ، وقد قـــدر الباحث سعيفان حجم التهرب الضريبي في سورية بنحو خمسين مليـــار ليـــرة سورية.

الزوجـــة الـــرابعـــــة :

وفي بداية عقد السبعينات تزوج رفعت الرابعـــة وقيل الخامســـة ، وهي ابنـــة ضـــابط كـــبير شركسي من جيل أخيه حافظ ، رأى رفعت هذه الفتاة في الشارع ، وعرف بيتها واسم أبـــيها ، ولما عرف أن والدها زميل أخيه ، طلب من أخيه أن يخطبها لـــه ، فطلب حـــافظ مـــن زميلـــه الشركسي مقابلته ، ولما حضر أعلمه أن شقيقه رفعت قرر أن يتزوج ابنتـــه ، وأنـــه إن لم يوافق ، فسوف يخطفها !!! ، والأفضل أن يوافق ليتم الزواج بأمن وسلام ، وخاف الضابط الشركسي على شـــرفه وابنتـــه فوافق ، وكان ذلك .

التطهير الوطني وتخضير الصحراء :

يقول رفعت أســـد في المؤتمر القطري لحزب البعث : أيها الرفاق إن ستالين قضى على عـــشرة ملايين في سبيل الثورة الشيوعيـــة ، واضعاً في حسابه أمراً واحداً فقط ، هو التعصب للحـــزب ولنظرية الحزب ، ولو أن لينين كان في ظرف ستالين لفعل مثله ، أيها الرفاق تحتاج الأمم الـــتي تريد أن تعيش أو تبقى إلى رجل متعصب ، وإلى حزب ونظرية متعصبة ..

وفي هذا المؤتمر طرح رفعت أســـد مشروعه للتطهير الوطني وتخضير الصحراء وخلاصته : اعتقال كل معارض لسياسات الحزب ووضعـــه في ســـجن تدمـــر ، وتعذيبـــه ، مع إلقاء المحاضـــرات عليه ، ومطالبته بحفظها ومذاكرتها ، كي يغسل عقلـــه ممـــا فيـــع من أفكار تعـــادي مـــسيرة الحزب ، والاستفادة منـــه في الأشغال الشاقة وزراعة الأشجار في الصحراء . ويخضع هـــؤلاء (المعذبون) إلى امتحانات يتأكد فيها من تطهير عقولهم من كل ما يعادي مسيرة الحزب .

مذبـــحـــة تـــدمـــر الأولى :

وفي حزيران (١٩٨٠م) قام أفراد من الحرس الجمهوري بمحاولة لاغتيال حافظ أسد ، وجرح في ســـاقه ، فأرعـــد رفعت وأزبـــد وكلف رفعت صهره محمد ناصـــيف (زوج ابنتـــه تماضـــر) بتكليف مجموعتين من سرايا الدفاع ، تم نقلهم بالطائرات العمودية إلى ســـجن تدمر الصحراوي ، وتـــم إطلاق النـــار على السجناء داخل الزنازين ، فقتلوا قرابة ألف مواطن معظمهـــم مـــن الإخوان المسلمين ، من الأطباء والمهندسين والمدرسين وطلاب الجامعات ، وتم دفنـــهم جماعيـــاً بالجرافات وبعضهم مازال حياً ، كما نشـــر ذلك الصحفي نزار نيـــوف لاحقـــاً . وكما أفـــاد عناصر من سرايا الدفاع أرســـلوا للأردن لاغتيال رئيس الوزراء مضر بـــدران ، وتم اعتقـــالهم واستجوابهم على التلفزيون الأردني .

دوره في مجزرة حمـــاة الكبـــرى :

رفعـــت الأســـد قائد ميداني في مأساة حماة :

عين المجلس الأمني الأعلى للنظام في أيلول (١٩٨١م) اللواء رفعت الأسد أمراً عرفياً لمناطق حماة وحلب ودمشق ، وتسمية حماة منطقة عمليات أولى ، خاضعة للحاكم العرفي (رفعت أســـد) ، وأرسل (١٢٠٠٠) جندي من سرايا الدفاع فوراً إلى حماة . وكان المقدم علي ديـــــب [قائـــد القوات السورية التي قاتلت العراقيين جنباً إلى جنب مع الأميركيين في عام ١٩٩١] ، كان نائباً لرفعت في حماة ، يطلعه على سير العمل في حماة أولاً بأول ، حتى انفجر الوضـــع ، وصل رفعت إلى حماة ليدير عمليات القتل الجماعي وتدمير المدينة بنفسه ، والتقطت بعض مكالماته اللاســـلكية وهو في حمص .

أما في اليوم الثالث للأحداث فقد ذكر شاهد عيان أن رأى رفعت في ثكنـــة مدينة حماة المطلـــة على نهر العاصي ، وانتقل إلى جنوب الملعب البلدي ليشرف بنفسه يوم الخميس الأول من المأساة على أول مجزرة مدبرة في حماة ذهب ضحيتها (١٥٠٠) من الأبرياء [اقرأ مجزرة جنوب الملعب البلدي في موقع الشرق العربي ــ باب مشاركات] .

وكانت قوات سرايا الدفاع المقاتل الرئيسي إلى جانب الوحدات الخاصة بقيادة (علي حيـــدر) التي قتلت عشرات الألوف من المواطنين الأبرياء معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ .

وقد سبق لرفعت أســـد أن صرح مرات عديدة أنه سيمحو مدينة حماة من الخريطـــة ، وســـيبني بدلاً منها حدائق وحانـــات للخمر ، ونـــوادي للرقص . وسيجعل المؤرخين يقولون : كانت هنا مدينة تسمى (حماة) .

محاولـــة انقلابـــه على حافظ (شباط : ١٩٨٤م) :

يظهر مما سبق ، كما سبق أن عرفناه من الواقع السوري في عقد السبعينات ، أن رفعت أســـــد كان الساعد الأيمن لشقيقه حافظ وكان عونه في ذبـــح الشعب ، ونهب خيراته وثرواته ، وكان ينتظر موت أخيه ليتسلم الرئاسة بدلاً منه ، لأنه كما قيل [طالبان لا يشبعان طالب علم وطالب مال] ، ورفعت طالب مال ، والجاه وسيلة للمال أيضاً ، لذلك لم يكتف أن يكون نائباً لـــرئيس الجمهورية لشئون الأمن ، ولم يقبل أن يتسلم الحكم ابن أخيه باسل حافظ الأسد بعد موت أبيه ، وقد شاهد أخاه حافظاً يهيئ ولـــده البكـــر (باســـل) ليخلفـــه في الرئاســـة ، وبنـــاء عليـــه قـــرر رفعت أن ينقلب على أخيه ويتسلم الحكم بالقـــوة ، فحرك الدبابات وهمّ بذلك لولا أن أخاه عرف بنوايا شقيقه مسبقاً من جواسيسه في سرايا الدفاع ، فـــأحبط الانقـــلاب بمـــساعدة مصطفى طلاس وعلي دوبا وعلي حيدر الذين يكرهون رفعت كثيراً لتجبره وتكبره عليهم . كما

يتضح من كتاب مصطفى طلاس [ثلاثة شهور هزت سوريا] . وانتهت هذه المحاولة بنفي رفعت خارج سوريا بعد أن دفع له أخوه عشرات الملايين من الدولارات استدانها من القذافي .

يقول العماد طلاس في كتابه :

رفعت يعد أتباعه بالدولة العلوية :

يكشف طلاس أن رفعت كان "يدغدغ أحلام المتعصبين طائفياً بأن وعدهم أنه سيقيم الدولة العلوية هناك كما أقام اليهود الدولة العبرية في فلسطين، وكما كان غلاة المتعصبين من الموارنة يحلمون بإقامة الدويلات الطائفية التي ستدور في فلك إسرائيل قولاً واحداً ". ويبدو أن رفعت تشجع في مشروعه لعلمه أن "أميركا سوف ترحب بالفكرة لأنها مع أي تفكك للأمة العربية".

وبدأت تظهر على جدران اللاذقية عبارات تمجد شخص رفعت مثل "رفعت الأسد الشمس التي لا تغيب". وبدأ أنصاره ينصبون "الحواجز الطيارة لإشعار المواطنين أنهم موجودون بقوة على الساحة". ويبدو أن قصد رفعت من السيطرة على مسقط رأس الرئيس، بحسب العماد طلاس، أن يقول للعالم: "إذا كان أخي لا يستطيع السيطرة على المحافظة التي ولد فيها فهو بالأحرى غير قادر على السيطرة على باقي المحافظات .

حافظ ينفي أخاه رفعت :

في أواخر نيسان (١٩٨٤م) تيقن العميد رفعت أن ميزان القوى قد مال لصالح شقيقه (حافظ) فاتصل بشقيقه جميل الأسد ليمهد له المصالحة مع أخيه الرئيس. ومع أن الرئيس الأسد معروف عربياً ودولياً بأنه سيد من أتقن فن لعبة عض الأصابع فقد كان ينتظر بفارغ الصبر انهيار رفعت، وهذا لأن الأخير سيد من ابتز أخاه وغير أخيه. إذ ما إن وافق على الخروج من سوريا حتى بدأ يساوم على المبلغ الذي يحتاج إليه للإقامة شهوراً عدة خارج البلاد حتى تهدأ العاصفة. هذا مع أن الأمير(.....)[٢] كان يدفع له شهريا (٥) ملايين دولار، كما لم يقصّر معه الشيخ خليفة آل ثاني ومثله ياسر عرفات والشيخ سحيم آل ثاني...إلخ.

طلب رفعت مبلغاً كبيراً بالقطع النادر لم يكن متوافراً في المصرف المركزي، فخطر للرئيس الأسد أن العقيد القذافي يمكن أن يكون الشخص الذي يحل المشكلة ويؤمّن المال اللازم لإشباع فم أخيه وحين التقاه موفد الرئيس كان القذافي والحمد لله بمزاج حسن، وتذكر مواقف الأسد القومية في

---

[2] ذكر مصطفى طلاس بأن الأمير هو ولي العهد السعودي عبد الله آل سعود وذلك قبل أن يصبح ملك على المملكة العربية السعودية .

دعم الثورة الليبية ومؤازرها، ورد على رسالة الأسد رداً جميلاً، وتم تحويــل المبلــغ بكاملــه إلى المصرف المركزي، وأعطى الرئيس شقيقه جزءاً منه وبقي الجــزء الآخــر احتياطــا للطــوارئ الاقتصادية التي كانت تعصف بنا.

وتم تحجيم سرايا الدفاع وعُيِّن رفعت نائباً لرئيس الجمهورية مسؤولاً عن شؤون الأمن. واستمر في هذا المنصب حتى عام (١٩٩٨م) . غير أن تعيينه كان نظرياً لأن الرئيس الأسد أحرص من أن يسلّم أمنه الشخصي وأمن البلاد لرجل لا يتقي الله بوطنه ولا بأهله.

وتضمن الاتفاق أن يسافر رفعت إلى موسكو ومعه اللواءان شفيق فياض وعلي حيدر، وليطمــئن رفعت أن الطائرة لن تنفجر في الجو طلب أن يسافر معهم رئيس إدارة المخابرات الجوية اللــواء محمد الخولي .

ووافق رفعت الذي اختار أن يقبل تعهد حافظ بأن مصالحه وأرصدته سوف تحترم في حالة سحب قواته من العاصمة ومغادرة البلاد عام ١٩٨٤م (انتهى كلام طلاس) .

يقول باترك سيل : أمضى رفعت ثلاثة أيام في المشفى مع أخيه بلا نــوم ، وقد صــعق لمــرض أخيــه ، ومن سريره أرسل حافظ الأسد أمراً بتشكيل لجنة سداسية من : مــشارقة ، خــدام ، الأحمر ، الشهابي ، الكسم ، وطلاس . لتدير البلد في غيابه ، والغريب أنه لم يجعل أخاه رفعــت واحداً منهم .

واتجه قادة البلد العسكريين إلى رفعت بحثاً عن قيادة ، لأنهم رأوا أنه أفضل من يحمــي النظــام ، باعتباره شقيق الأسد ، وقد انتصر على الإخوان المسلمين ، أكبر خطر داخلي ، ورأوا فيه أنــه سوف يخلف أخاه ، ويبقى كل منهم في مكانه .

ولم يوافق كبار الضباط على هؤلاء الستة ، الذين لم يروا فيهم سوى موظفين تنفيذيين موهــوبين ،وليسوا دعائم للنظام . وبناء على تحريضهم قام الشهابي وخدام بزيارة رفعــت ، ليخــبروه أن رجلاً مثله لا يمكن إبعاده في مثل تلك اللحظات عن المجالس الحاكمة في البلد ، أما رفعت فقــال إنه يمتثل لرغبات الرئيس الذي لم يجعله أحد الستة .

ولكن سرعان ما اقتنع رفعت معهم ثم عقد اجتماعاً كاملاً للقيادة القطرية لم يغب عنــه ســوى حافظ الأسد ووزير إعلامه أحمد اسكندر الذي كان على فراش الموت . وقررت القيادة القطرية أن تجعل من نفسها بديلاً عن اللجنة السداسية ، وكانت هذه طريقة أنيقة متقنة لجلب رفعت .

ولما علم الأسد وهو في النقاهة سخط سخطاً شديداً لأن أي انحراف عن الطاعة الكاملة الخاليــة من أي تساؤل كان يثير شكوكه . فاستدعى كبار ضباطه ووبخهم على الابتعاد عن تنفيذ رغباته

الصريحة ، وبذلك فتحوا الباب لأخطار غير متوقعة : أولم يروا أن دفع رفعت إلى المقدمـــة كـــان خطة أميركية ــ سعودية لإزاحته عن الحكم ؟

ولما مرض حافظ في نوفمبر (١٩٨٣) ، وتجمع الضباط حول رفعت ، فجأة ظهرت في كل مكان في العاصمة دمشق ، صورة لرفعت تظهره في أوضاع قيادية آمرة وقد ارتدى زي المظليين .

يكبر حافظ رفعت بسبع سنين ، وكان يرغم أخاه المتمرد الأصغر على احترامه ، وكان رفعـــت يشبه حافظ في البنية الجسدية القوية ، والذكاء اللامع ، ولكنه يختلف في أنه أكثر ضـــحكاً مـــن حافظ ، وميال للمتع ومندفع ، وكريم إلى حد الإفراط ، وبينما انهمك حافظ بكرسيه مشغولاً في شؤون الدولة كلياً ، انهمك رفعت في بناء سرايا الدفاع ، كجنود مخلصين له ، وكان رفعت يمار س سلطات مطلقة ، وقد أثرى هو وأصدقاؤه الحميمون ، كما كان يذهب في مهمات سرية إلى الأصدقاء والأعداء على السواء ، ويشترك في مشاريع أخرى يحيط بها الظلام والضباب في عـــالم السياسة والتجارة في البلاد العربية .

بعض أملاك رفعت أســـد عام (١٩٩٤م) :

١ــ كازينـــو ضخـــم في إيطاليـــا .

٢ــ فنـــدق خمســـة نجـــوم في مرســـيليا .

٣ ــ مصـــــنع إســـمنت في بيـــروت .

٤ ــ دار نشـــر في باريـــز .

٥ ــ إمبراطورية إعلاميـــة في لندن ، منها قناة (a . n . n) ، وغيرها محطات راديـــو متعددة .

٦ ــ أسهم في شـــركة نفـــق بحر المانـــش بين فرنســـا وبريطانيا ، وهو من أوائل أغنياء العالم المساهمين في هذه الشركة .

٧ ــ عـــقارات ســـكنية في ســـويسرا وفرنـــسا .

٨ ــ مجمع ســـكني في إســـبانيا كلف بناؤه (٦٠) مليون دولار .

٩ــ كان يملك ميناء خاصاً في اللاذقيـــة قبل أن دمـــره بشار الأسد في عهد أبيه حافظ.

١٠ ــ طائرة خاصة أو أكثر من طائرة ، تنقله مع أفراد حاشيته في قارات العالم .

١١ــ وصلت فاتورة إقامته الشهرية مع حاشيته (١٠٠ ــ ١٥٠) شخصاً ؛ وصلت إلى خمسة مليار فرنك فرنسي ، دفعتها الخزينة السورية عدة سنوات .

١٢ ــ خســر رفعت أســد في ليلة واحدة على موائد القمار (٨) مليون دولار . في الوقــت الذي وصل فيه التضخم في سوريا إلى مائة في المائة ، وعجز المواطن الشريف عن تــأمين خبــز أولاده وطعامهم .

رفعــت أســد في نظــر بعض أنصاره الآن :

يقول الدكتور خليل أحمد الحسن أحد أعضاء رابطة الخريجين التي شكلها رفعت الأسد وأراد منها حزباً خاصاً بــه في داخل حزب البعث ، يقول :

لم تظهر خلافات رفعت مع النظام السوري في عام (١٩٨٤م) ، وإنما وصلت إلى القــشة الــتي قصمت ظهر البعير في ذلك العام ، فمنذ سنوات ورفعت يختلف مع النظام السوري بما يلي :

١ ــ لم يكن واثقاً من إخلاص الحزب للعملية الثورية التي يريدها ، لذلك شكل (رابطة الخريجين الجامعيين) من البعثيين أنصاره الذين وصل عددهم إلى (٢٢) ألفاً ، صاروا منافسين لحزب البعث ، واستمرت هذه الرابطة حتى نفي رفعت من سوريا عام (١٩٨٤م) فحلت يومــذاك . يقــول طلاس : أسس العميد رفعت الرابطة بعد نيله الإجازة في التاريخ عام ١٩٧٤، وذلك كي تكون "مظلة قانونية لعمله". وقد برر تشكيلها أمام أخيه الرئيس بجعل "متخرجي الدراســات العليــا موالين للنظام". لكن "لم يبق انتهازي أو متسلق أو متطلع إلى السلطة أو التقرب من وهجهــا إلا وانخرط فيها"، بحسب الكاتب

٢ ــ قام رفعت بعدة رحلات للاتحاد السوفياتي ، وكان يزداد كرهاً للاشتراكية في كل مرة يرى فيها الفقــر والتشرد والقهــر والظلم ، وصار يصرح بذلك حتى اعتبره الاتحاد السوفياتي عميلاً للغرب ، وطلب من الحزب الشيوعي السوري مهاجمة رفعت إعلامياً .

٣ ــ ويقول (حارث الخيــّر) وهو من أنصار رفعت بل من أزلامه : إن رفعت أســد ســيقوم بحركة تصحيحية ضــد الحركة التصحيحية التي قام بها حافظ الأســد عام (١٩٧١م) .

٤ ــ ثم يقول الدكتور خليل : جعل حافظ الأســد وأزلامــه رفعت الأســد مــسؤولاً عــن الفســاد في سوريا ، وحذروا البعثيين منــه ومن جماعة رفعت وجعلوها مساوية لجماعة الإخوان المسلمين في الخطر على النظام السوري .

وكان رفعت يعارض سياسات أخيه حافظ في عدة أمور منها :

١ــ اعتماد سوريا أكثر من اللازم على السوفيات ، وبُعدها عن أمريكا .

٢ ــ تورط سوريا في لبنان .

٣ ــ يعارض دعم المنشقين عن فتح مثل أبي موسى وأبي نضال .

٤ ــ ويعارض التحالف مع إيران ويقول ماذا يختلف هؤلاء عن الإخوان الذين قاتلناهم في سوريا ، كيف يمكن للنظام أن يتبع سياسة في حماة وأخرى مختلفة عنها في طهران !!؟هل كان الصراع ضد الإخوان المسلمين صورياً أم عقائدياً !!!؟

ويقول رفعت : إننا نتحدث عن الحرية ، ولسنا أحراراً إلا في أن نأكل ونتزوج فقط .

وفي (٢٨ /٥/١٩٨٤) أرسلت طائرة محملة بسبعين من كبار الضباط (!!!!!) إلى موسكو لفترة تهدأ فيها النفوس ، وكان من بينهم رفعت الأسد ، ولما أعلن بعضهم خوفه على النظام قال له حافظ : لا تخافوا على النظام بل خافوا على أنفسكم .

ثم تم استدعاؤهم جميعاً ماعدا رفعت ،وفي (٦/٥) وصل رفعت إلى جنيف ، وكان يرافقه أكثر من مائة ، وقيل مائتين من حراسه ومساعديه ، وهده حاشية باهظة التكاليف تكفل القذافي بتمويلها كي يبقى رفعت في الخارج .

وفي أيلول (١٩٨٤) انتقل رفعت مع بقية طاقمه ــ بعد أن عاد الكثير منهم إلى سوريا ، انتق رفعت إلى فرنسا . وظل رفعت محتفظاً بلقب (نائب رئيس الجمهورية) ، وفي (١١/٢٦) زار رفعت دمشق ، وزار القصر الجمهوري ، وركع وقبل يد أخيه ــ ولكن أخاه لم يسامحه ([٩]) .ومنع من زيارة سرايا الدفاع ، وفي المؤتمر القطري (يناير ١٩٨٥) وحضره رفعت لأنه عضو قيادة قطرية، تعرض رفعت لكثير من النقد والهجوم ، وكان بمثابة من يقف في قفص الاتهام ز وفي هذا المؤتمر منحت الصلاحية لحافظ الأسد كي يعين اللجنة المركزية كيفما يريد ، التي تنتخب القيادة القطرية .

وبعد ثلاثة أسابيع انتخب حافظ رئيساً للجمهورية للمرة الثالثة بنسبة (٩٧ر ٩٩) .

وفي مايو (١٩٨٦) قام رفعت بزيارة غير معلنة لبريطانيا ، وقد سبقه أربعة من حراسه الشخصيين مسلحين يحملون جوازات سفر مغربية ، وهبطت بعدهم طائرتان خاصتان تحملان رفعت وأفراد عائلته (زوجاته وأولاده الصغار) والخدم والحشم ورجال الأمن وكان مجموعهم أربعين شخصاً معظمهم يحمل جوازات سفر مغربية .

وصار حافظ الأسد وأزلامه يرمون كل فساد حصل في سوريا على رفعت الأسد ، وقد تبين أن هذا غير صحيح ، لأن الفساد استمر بل ازداد بعد خروج رفعت من سوريا عام (١٩٨٤م) .

وأخيراً :

والآن يحاول رفعت استلام حكم سوريا بشتى السبل ، حتى أنه عرض على الصهاينة أن يساعدوه مقابل أن يقيم معهم علاقات تطبيع كاملة ، من سفارات وتبادل تجاري وثقافي ، كما عرض نفسه على أمريكا وتعهد أن يقدم لها كل ما تريده ، كما حاول أن يكذب على المعارضة

السورية في الخارج ، ومنها جماعة الإخوان المسلمين مدعياً أنه ليس مسؤولاً عن مذبحة حماة ، وأن شقيقه حافظ هو المسؤول الأول والأخير عنها .
ومن نعم الله أن القاسم المشترك الوحيد (كما يبدو لي) بين المعارضة والنظام حالياً هو رفض رفعت أسد المجرم الذي عرف القاصي والداني جرائمه في سوريا ولبنان وغيرهما .
وأسأل الله عز وجل أن يمكن الشعب العربي السوري من هذا اللص المجرم الذي قتل عشرات الألوف ، والذي نهب مليارات الدولارات من الشعب السوري ، وأن يحجز الشعب على ثروته ويردها إلى خزينة الشعب السوري ، والله على كل شيء قدير.

الطاغية غازي كنعان*

غازي كنعان (١٩٤٢-٢٠٠٥) رمز من رموز الأمن السوري ، رئيس شعبة المخابرات السورية في لبنان مما جعله يعتبر حاكم لبنان الفعلي في الفترة من ١٩٨٢ حتى ما بعد ٢٠٠١م ، وهو حسب كل الروايات صاحب النفوذ والقرار السياسي في البلد ، جميع المسؤولون اللبنانيون الكبار يستشيرونه أو يستأذنونه في الأمور السياسية قبل اتخاذ أي قرار لان الكلمة النهائية له بطبيعة الحال ، عين غازي كنعان مديرا للأمن السياسي في سورية عام ٢٠٠١م ثم وزيرا للداخلية عام ٢٠٠٤م حتى موته الغامض بتاريخ تشرين الأول ٢٠٠٥.
غازي كنعان من عائلة نصيرية ولد عام ١٩٤٢م في قرية بحمرا قرب القرداحة بلدة حافظ الأسد في جبال النصيرية شرقي مدينة اللاذقية . وعلى نقيض العديد من التقارير ، فهو لا يمت لعائلة الأسد بأي قرابة ، متزوج وله ستة أولاد (أربعة ذكور وابنتان). قتل شقيق اللواء غازي كنعان في ظروف غامضة ، التحق بالجيش مبكرا مثل بقية الضباط النصيريين ، تقدّم بشكل سريع في الجيش وحصل على رتبة عقيد عندما عين كرئيس للمخابرات العسكرية السورية في حمص ، واستغل مركزه هذا لتجارة التهريب وحماية المهربين مقابل مبالغ مالية ، وإذا علمنا أن حمص هي من اكبر المحافظات السورية ، وتقع على حدود ثلاثة دول هي لبنان والأردن والعراق سنعرف أهمية هذا المركز الحساس وما يمكن جمعه من ثروات بفعل التهريب .
وفي عام ١٩٨٢، حل محل محمد غانم كقائد قوات الأمن والاستطلاع في لبنان وهو الاسم الذي كان يطلق على المخابرات السورية في لبنان .

* تم نقل هذا الموضوع من شبكة الإنترنت بتصرف

أثناء الحرب الأهلية اللبنانية ، جعل كنعان مركز قيادة قواته في قرية عنجر ، وغنجر هو المكان الذي هزم فيه الأمير فخر الدين المعني والي دمشق في أواخر القرن السابع عشر وسجنه في قفص . وبالإضافة لقواعد ومراكز اعتقال أخرى أسسها في غرب بيروت (على شارع السادات وفي منطقة الرملة البيضا، وطرابلس، وشتورا والحازمية .

يعود الفضل لكنعان بتضييق سوريا قبضتها على الحكومة اللبنانية نتيجة تحالفاته مع بعض الميليشيات المحلية ، في ١٩٨٣ أمر هذه الميليشيات بالتحرك لنسف اتفاقية السابع عشر من أيار بين لبنان وإسرائيل التي كان وسيطها وزير الخارجية الأمريكي السابق جورج شولز. في ١٩٨٤ نظم تمرد ٦ شباط في غرب بيروت الذي أدى إلى تعطيل الحكومة المركزية اللبنانية وانسحاب قوات حفظ السلام المتعددة الجنسيات، ومن ضمنها جنود البحرية الأمريكيين، من لبنان.

بنهاية الثمانينات ، اصبح النفوذ السوري يشمل معظم لبنان كما سيطر كنعان على اغلب زعماء الميليشيات والأحزاب ، وأولئك الذين قاوموا النفوذ السوري ولم يخضعوا له أما اغتيلوا (ومثال ذلك: الشيخ حسن خالد ، مفتي لبنان السني ، في ١٩٨٩ شمعون الابن رئيس حزب الوطنيين الأحرار الماروني) أو اختطفوا وسجنوا من قبل المخابرات السورية (ومثال ذلك: زعماء حركة التوحيد الإسلامية السنية وأعضاء الجناح العراقي لحزب البعث في منتصف الثمانينات).

أهم إنجاز لغازي كنعان في الثمانينات هو نجاحه بإغراء أحد قادة القوات اللبنانية للعمل لصالح المخابرات السورية سرا مع بقائه في مركزه كأحد القادة المسيحيين البارزين المعادين لسوريا علنا. هذا القائد المسيحي اسمه ايلي حبيقة ، وهو العميل الإسرائيلي ومنفذ مخطط شارون لمجزرة صبرا وشاتيلا عام ٨٢ أصبح الآن عميلا سوريا أو عميلا مزدوجا أو ربما منسقا بين شارون سوريا وأسد إسرائيل. والجدير بالذكر أن ايلي حبيقة بعد اجتماعه بمستعمرة نهاريا ببيغن عام ١٩٨١ عاد إلى بيروت وطلب من سامي الخطيب ترتيب لقاء مع مسؤولين سوريين ، فتم له ذلك واجتمع عدة مرات مع رفعت وجميل الأسد في دمشق وباريس ، كما انه التقى بعبد الحليم خدام في مكتبه في شهر حزيران ١٩٨٢ أي قبل مجزرة صبرا وشاتيلا بثلاثة اشهر.

ونتيجة لهذا التعاون المخابراتي نال حبيقة شهادة حسن سلوك من غازي كنعان وتوج فيما بعد نائبا في المجلس النيابي اللبناني أكثر من مرة ووزيرا أيضا.

كما استطاع كنعان أن يشق الصف المسيحي مرة أخرى باستمالته وشرائه لسمير جعجع للوقوف بوجه العماد ميشال عون المدعوم من حزب البعث العراقي.

في عام ١٩٩٠ ، وبعد هروب العماد ميشال عون إلى السفارة الفرنسية في بيروت ومن ثم إبعاده إلى فرنسا ، تمت السيطرة السورية الكاملة على لبنان ، وأصبح غازي كنعان صانع القرار السياسي في لبنان والآمر الناهي .

ووصل تدخله السافر في الشؤون اللبنانية إلى درجة أن انتخاب رئيس الجمهورية لا تتم إلا بموافقته الرسمية ، وهو الذي يرشح ويبارك .

في تشرين الأول ١٩٩٥ ، قبل أسابيع فقط من انتهاء فترة حكم الرئيس اللبناني إلياس هراوي ، حضر كنعان اجتماعا وبوجود رئيس الوزراء السابق عمر كرامي وعدد من الوزراء والنواب ، أمر كنعان الحضور بتعديل المادة ٤٩ من الدستور ، وتمديد فترة رئاسة الهراوي لثلاث سنوات أخرى .

لم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل اخذ يتصرف وكأنه ناظر مدرسة ابتدائية ، إذ رفع يده وقال للجميع وبلهجة الآمر:

التصويت سيكون هكذا ... برفع الأيدي ... ولن يكون سريا ، وهذا طبعا مخالف لأبسط القواعد الدستورية ، وصمت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير ولم يتجرأ أحد من أولئك السياسيين الصناديد حتى أن ينظر إلى عين زميله ، وانفض هذا الاجتماع مبكرا عند هذا الحد.

الطامحون للرئاسة الأولى منهم من غادر إلى الخارج مع زوجته ومنهم من اعتزل في صومعته أو بيته يشكون من التعب أو المرض .

بعد أقل من شهر اجتمع التلاميذ المطيعون تحت قبة البرلمان ومددوا للرئيس الهراوي كما أشار إليهم أستاذهم الأكبر ، ولم يكتفي كنعان بهذا بل اخذ يهيئ الأجواء ويصيغ القوانين لانتخاب رئيس جديد (دمية سورية) بعد انتهاء فترة الهراوي ، وطبعا كان له ما أراد .

بفضل انتشار عناصر المخابرات السورية في أرجاء لبنان والولاء الأعمى للأحزاب الشيعية للنظام النصيري في دمشق على أساس انهم فرقة من فرق الشيعة ، وسيطرة سوريا على طائفة الأحباش السنية ودعمها للسيطرة على الشارع السني ، والوقوف بوجه الحركات الإسلامية المناوئة ، وشرائهم لبعض السياسيين المسيحيين مثل سفاح صبرا وشاتيلا (ايلي حبيقة) وايلي الفرزلي نائب رئيس المجلس النيابي ، واختراقهم للحزب السوري القومي الاجتماعي ، بالإضافة لعملائهم من قوات الجيش والأمن اللبناني وعلى رأسهم مدير الأمن العام الجنرال جميل السيد المسؤول عن التنصت على رئيس الوزراء والنواب وكبار السياسيين ، والذي يرسل تقاريره شبه اليومية لسيده ، وبهذا اصبح غازي كنعان سيد لبنان الأول ، يعرف كل صغيرة تجري ، حتى في غرف نوم

السياسيين المعنيين ، وهو الرجل الأكثر رعبا في لبنان ، يصنع ما يحلو له ، فلا حساب ولا عقاب .

كان يصدر أوامره لاعتقال أي شخص لا يعجبه ، فالتهمة ليست مهمة ، فبإمكانه إلصاق التهمة التي يريد .

اصدر أمرا عام ٩٣ باعتقال مواطن لبناني سمع انه تحدث إلى لجنة حقـوق الإنـسان ، فـأودع السجن وتذوق طعم الضيافة البعثية ــ النصيرية ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن اجبر أن يصبح عميلا لهم .

المقربون من كنعان ينادونه بأبو يعرب وهو اسم ابنه الأكبر ، ولقـد اسـتغل نفـوذه لمـصالحه الشخصية الغير شرعية ، فتعاطى كغيره من كبار الضباط النصيريين إنتاج وتجارة المخـدرات في سهل البقاع وتهريبها ، بالإضافة لرعايته لعصابة لتزييف بعض العملات وترويجها ، ممـا اكـسبه أرباحا طائلة ، ومعظم ثروته سيولة نقدية في مصارف أمريكية وسويسرية ، ولهذا مـن الـصعب تقدير حجمها .

ونظرا لقوة نفوذه وشراسته فلا يستطيع أحد في لبنان أن يقف في وجه طموحاته التجارية ، ولكن شاء القدر أن يرتكب أحد شركائه خطأ فادحا وهو النائب السابق يحي شماس ، إذ اشترى مـن (أبو يعرب) قطعة ارض في لبنان وبالسعر الذي أراده ، وبعد حوالي عام تضاعفت قيمة الأرض ، فطلب من شماس إعادة الأرض له وبالثمن الذي دفعه ، فرفض طلبه ، وما هي إلا أسابيع حـتى القي القبض على الشريك السابق وأودع السجن عام ٩٤ بتهمة تهريب مخدرات .

كما أن مغامراته النسائية ليست اقل سوءا من أعماله التجارية ، وخيانته لأصدقائه من السياسيين الموالين له ، وعلاقاته مع زوجاتهم حدث ولا حرج ، والمعروف عنه بطشه بشركائه وإبـداعهم السجن إذا لم يكونوا خاضعين له تماما .

نجاح كنعان في إخضاع لبنان أكسبه أوسمة كبيرة في دمشق ، وكان هناك شائعات انه سيحل محل علي دوبا كرئيس جهاز المخابرات العسكرية قبل أن يعين حسن خليل.

لاشك أن دعمه المبكر لبشار الأسد، قوى نفوذه إلى حد كبير داخل النظام ، كما انـه يتمتـع بعلاقات جيدة أيضا مع عدة مسؤولون أمريكان ، وخاصة جماعة المخابرات (CIA) وقـد زار واشنطن DC عدة مرات وكانت أول زيارة له في فبراير/ شباط ١٩٩٢).

كان غازي كنعان من بين عدة مسؤولين امن سوريين استجوبهم محققون من الأمم المتحدة في إطار التحقيق في مقتل رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري يوم ١٤ فبراير/شباط. كانت لجنة

التحقيق الدولية باغتيال الحريري قد حققت مع كنعان في أيلول ٢٠٠٥ في منتجع المـــونتي روزا قرب الحدود السورية اللبنانية.

جمدت وزارة الخزانة الأمريكية في مطلع ٢٠٠٥ أصول غازي كنعان والعميـــد رســـتم غزالـــة خليفته في لبنان في خطوة قالت عنها أنها "تهدف للعزل المادي للممثلين السيئين الذين يـــدعمون جهود سوريا للإخلال باستقرار جيرانها".

قبيل حادثة انتحار غازي كنعان، صرح الرئيس السوري بشار الأسد بأن أي مـــسؤول ســـوري يثبت تورطه باغتيال رفيق الحريري سيحاكم بتهمة الخيانة.

آخر مقابلة مع غازي كنعان كانت في اتصال هاتفي مع إذاعة صوت لبنان فيها أعرب عن حزنه من المسؤولين اللبنانيين وخيبة أمله منهم ونفى اتهامات بالرشوة تداولتها محطة نيو تي في، وخـــتم المقابلة بقوله:" هذا آخر تصريح ممكن أن أعطيه" وطلب من مقدمة البرنامج ان تعطي تـــصريحه لثلاث محطات تلفزيونية لبنانية.

في صباح يوم الأربعاء ١٢ تشرين أول أكتوبر ٢٠٠٥ غادر اللـــواء كنعـــان مكتبـــه في وزارة الداخلية لمدة ثلث ساعة الي منزله ثم عاد ودخل مكتبه وبعد عدة دقائق سمع صوت طلق نـــاري وكانت الطلقة من مسدس في فمه . هذا وفق إفادة العميد وليد اباظة مدير مكتب غازي كنعان.

سرعان ما أعلن المحامي العام الأول في دمشق محمد مروان اللوجي إن التحقيق الرسمي في ظروف وفاة كنعان انتهى باعتباره حادث انتحار. حادثة انتحار كنعان هي الثانية بعد انتحـــار رئـــيس الوزراء الأسبق محمود الزعبي في مايو /أيار ٢٠٠٠م في منزله بضاحية دمر القريبة من دمـــشق، حيث كان يخضع للإقامة الجبرية بعد تهم بالفساد.

علق الجنرال اللبناني ميشيل عون علي انتحار كنعان قائلا" لقد خدم النظام السوري حتي الانتحار ".

المجرم جميل الأسد*

يعتبر جميل الأسد أقل من أخويه شهرة وذلك لأن مواهبه المتواضعة كانت تقـــصر دائمـــاً دون طموحه السياسي الكبير.

نال جميل الأسد على الشهادة الإعدادية من مدرسة بانياس وترك الدراسة وعمل موظفاً في الأمن العام براتب صغير في مركز الأمن العام في شركة نفط العراق في بانياس ثم رئيس بلدية القرداحة و ترك العمل في البلدية وتحول إلى رجل أعمال وضع مفارز مرتبطة به في المرافئ تفرض الرســـوم

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف .

على كل بيان جمركي سواء كان للتصدير او للاستيراد ثم وضع مفرزة في مرفئ طرطوس وفي منافذ الحدود السورية البرية والجوية والبحرية إلى جانب ذلك اشتغل بتهريب الدخان من قبرص إلى سوريا وجنى أموالاً طائلةً كما مارسة مهنة الابتزاز والضغوط على رجال الأعمال بفرض خوات عليهم.

وفي عام ١٩٩٢ فوجئ الجميع بحصول جميل الأسد على شهادة الدكتوراه في المحاماة من موسكو، وافتتح مكتباً للمحاماة في محافظة اللاذقية وأصبح هذا المكتب بمثابة محكمة تحلّ فيها أمور المواطنين مقابل نسب معيّنة من القضايا.

كان حافظ الأسد يعتمد بصورة كبيرة على إخوته وأقاربه (من جيله) قبل أن يتوجه الاهتمام إلى الجيل الجديد من أبناء الأسد وغيرهم من المسؤولين في الفترة ١٩٨٥ - ٢٠٠٠، فبالإضافة إلى الصلاحيات الواسعة التي حصدها رفعت في الشؤون المحلية وقيادة سرايا الدفاع ظهر اسم أحمد علي سليمان الأسد، أحد أشقاء الرئيس، في رئاسة المجلس المحلي بمحافظة اللاذقية، بينما تعينت حماة رفعت الأسد سلمى نجيب عضواً في مجلس الشعب عام ١٩٧٣، وفي نفس العام انتخب جميل كذلك عضواً في مجلس الشعب كما تم اختياره عضوا في المؤتمر القومي الثاني عشر لمنظمة الحزب الحاكم عام ١٩٧٥، (١٤) ولكن اسمه قد برز بصورة واضحة عام ١٩٨١ عندما أسس "جمعية المرتضى"، وهي جمعية طائفية تصبو إلى تنصير أبناء السنة (أي دعوتهم لاعتناق النصيرية) في الجزيرة وبادية حمص وحماة بحجة أن فلاحي هذه المناطق كانوا نصيريين وأجبرتهم السلطات العثمانية على اعتناق المذهب السني.

وقد عملت هذه الجمعية بصورة علنية وعقدت ندوات واحتفالات ومهرجانات في مختلف المناطق السورية، وفتحت مكاتب لها، ورفع يافطات في شوارع دمشق، وأصدرت وثائق وشهادات طائفية لمنتسبيها، بل إنها قامت بتسليح بعض القبائل البدوية شرقي حماة وحمص وأمدتهم بسيارات مسلحة من مستودعات سرايا الدفاع.

وانتسب إلى هذه الجمعية عدد من المسؤولين النصيريين داخل النظام. واستطاع جميل من خلال جمعيته أن ينشئ شبكة واسعة من الأتباع والمؤيدين، فكانت عشرات الحافلات تنقل مؤيديه إلى اللاذقية من شتى أنحاء القطر السوري.

ولكن جميل (الذي أصبح يلقب "قائد المسار" على غرار لقب حافظ: "قائد المسيرة") ارتكب خطأه التاريخي بتأييد رفعت الأسد في محاولته الانقلابية حيث قام عدد كبير من أتباعه بمظاهرة في قصر الضيافة بدمشق تأييداً للحركة الانقلابية.

ولذلك فإنه عندما قرر حافظ طرد شقيقه رفعت من سورية وحل سرايا الدفاع أصدر أوامره كذلك بحل "جمعية المرتضى" ومنع جميع أنشطتها.

وبتقييد نشاط "جمعية المرتضى" تحول جميل للتجارة على طريقة آل الأسد فأسس مكتباً للاستيراد والتصدير، ويحدثنا محمود صادق بصورة مفصلة عن نشاط جميل التجاري في مدينتي اللاذقية وطرطوس، حيث نظم: "عصابات مسلحة تسهر على حسن سير مصالح رئيسها، وهي عصابات منظمة بطريقة أمنية حديثة، تملك سيارات وسجوناً ومحققين ومنفذين وجهاز استطلاع ومراقبة كامل الانتشار والنمو، بل إن لديها أجهزة اتصال حديثة وأقنية بث خاصة بها. ويرأس هذه العصابات بصورة ميدانية فواز الأسد، الابن الأكبر لجميل الأسد الذي يروع مدينة اللاذقية بأساليب من الإرهاب والقتل لم تعرف المدينة شبيها لها طيلة هذا القرن.

بدأ جميل الأسد عمله باجتماع عقده مع مدراء وأصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير في اللاذقية وطرطوس طلب إليهم فيه تسليمه نسبة من دخول مكاتبهم حددها لكل واحد منهم، وهدد بمنعهم من العمل في مرفأي المدينتين إن هم امتنعوا عن تسديد ما يطلبه إليهم.

ثم زار مديري المرفأين الحكوميين طالباً إليهما باسم شقيقه رئيس الجمهورية إعطاء مكتبه الأفضلية في معاملات الاستيراد والتصدير. أخيراً استدعى موظفي الجمارك في المرفأين وهددهم إن هم اعترضوا أية بضائع يأمرهم بتمريرها دون رقابة. بعد الكلام جاءت الأفعال، فبدأت عصابات الأستاذ المسلحة عملها وشرعت تختطف هذا وتحقق مع ذاك وتبتز نقود هذا وتنتزع أرض ذاك... الخ، والسلطة تغمض عينيها كأنها لا ترى شيئاً. في النهاية بدأت عمليات العصابات تتجه نحو العدو الحقيقي للنظام، عنيت الشعب، فأخذ فواز الأسد يقتحم المقاهي ليطلب إلى روادها الانبطاح تحت طاولاتهم، ويدخل إلى فندق الميريديان وغيره من الفنادق مطلقاً النار من مسدسه أو معتدياً على الزبائن...".

وفي عام ١٩٨٦ نشرت الصحف قصة فضيحة تتلخص في حصول فواز بن جميل الأسد على موافقة السلطات السورية المختصة لاستيراد كمية كبيرة من الحديد بحجة بناء "جامع المرتضى" في اللاذقية، حيث استورد ٤٠٠٠ طن من الحديد بسعر أربعة آلاف ليرة للطن الواحد ثم باعها بسعر ١٠,٠٠٠ ليرة للطن الواحد، بعد أن اعتذر عن عدم تمكنه من بناء الجامع متذرعاً بعدم وجود قطعة أرض مناسبة.

وفي ذات العام استلم فواز الأسد وأخوه منذر تجارة الممنوعات من تهريب للدخان والمواد الكهربائية عن طريق البحر من قبرص ولبنان وزوّدوا قوارب التهريب بمدفعيات مضادة للطيران، وقد وقع في عام ١٩٨٨ اشتباك بين عصابات فواز الأسد والبحرية السورية وأطلق إثرها فواز

الأسد النار على طائرات الهليكوبتر التابعة للبحرية السورية وقدمت شكوى بحقة للرئيس حافظ الأسد وطوي الموضوع حينذاك.

كما كانت هذه العصابات مسؤولة في تأمين طريق المخدرات الذي يمر من سهل البقاع اللبناني والهرمل إلى تركيا فأوروبا.

وكان سبب سكوت حافظ الأسد واولاده النسبة من هذه العمليات التي كانت تدفع لصندوق العائلة باسم باسل الأسد حينذاك.

وعرف فواز ومنذر الأسد بتشكيل عصابات الشبيحة في الساحل السوري والمكونة من أبناء عمومهم وأقاربهم فأساروا الرعب والخوف في قلوب المواطنين في المنطقة على اختلاف طوائفهم.

ففي عام ١٩٩٢ حاول فواز الأسد اختطاف ابنة ضابط كبير من الطائفة العلوية فتدخل عمه حافظ الأسد لحل الخلاف لتجنب وقوع خلاف داخل الطائفة مما اضطر هذا الضابط إلى الهجرة هو وعائلته خوفاً على ابنته من فواز الأسد.

وعودة إلى جميل الأسد، فنتيجة سيطرته على المرافئ السورية وعلى الحدود البرية، أنشأ مايسمى بشركة الساحل للتخليص الجمركي وأجبر جميع المخلصين الجمركيين على ختم بيانات الاستيراد والتصدير من شركة الساحل مقابل ١٥٠٠ ليرة سوري عن كل بيان..!

وتمتّع جميل بالحماية الشخصية من أخيه الأكبر حافظ الأسد ومن الدولة باعتباره عضواً في مجلس الشعب ولقّب نفسه بالإمام المرتضى وعن طريق وجوده في مجلس الشعب وجمعية المرتضى شارك المواطنين السوريين في محافظة اللاذقية بأموالهم وأرزاقهم فكان بمثابة رئيساً للجمهورية في منطقته.

وتزوج جميل الأسد للمرة الثانية من السيدة أمل عزيز نعمان وأنجب منها طفلاً اسماه حيدر، وهنا دبّ الخلاف مع أولاده منذر وفواز فكتب جميع املاكه باسم ولده حيدر.

وبعد وفاته دبّ الخلاف الحاد بين الورثة إذ كانت قيمة التركة (الميراث) مايقارب خمسة ميليارات دولار في البنوك في الخارج بالإضافة إلى قصور وأراضي في فرنسا ولبنان وسوريا.

وقد سمعنا الكثير حول هذا الخلاف إذ دفعت السيد أمل عزيز نعمان إلى اللواء آصف شوكت مئات من الملايين ليحل لها هذا الخلاف. وعلى اثرها جرى إطلاق النار على منذر الأسد في منطقة المزرعة في دمشق وهرب منذر على إثرها إلى لبنان واستردته السلطات السورية بمذكرة رسمية وجهت إلى الحكومة اللبنانية منذ حوالي الشهرين.

ونشرت عدة صحف لبنانية ان ابنة جميل الأسد السيدة فلك أقامت دعوى ضد زوجة أبيها في لبنان تتهمها بسرقة الملايين من الدولارات وبعض القطع الأثرية التي كانت موجودة في منزله في منطقة "عاليه" في لبنان.

ونسائل هؤلاء بماذا سيقنعون المواطن السوري العادي الذي يتضور جوعاً وبنفس الوقت يسمع عن الخلافات الدائرة بين منذر جميل الأسد وأرملة أبيه أمل عزيز نعمان على مصير صناديق سبائك الذهب والألماس وملايين الدولارات! أتمنى أن لا نسمع أو نقرأ أن أجندة أمريكية هي وراء حيازة هؤلاء لأموال تخص بالأساس الشعب السوري لا جلاديه؟

جدير بالذكر أن جميل وأبناؤه ظلوا يتمتعون بكامل الحرية والحماية الرسمية رغم ممارسة أنشطتهم المحظورة وتعاطفهم الملحوظ مع رفعت أسد، ولم يتم التعرض لهم إلا عندما طالت حملة تصفية معارضي بشار جميل وأبناءه و٢٨ من معاونيهم من كبار المسؤولين بتهمة الفساد التي لم يكتشفها النظام إلا عندما أبدى هؤلاء تذمرهم من ترتيبات الخلافة .

الطاغية آصف شوكت*

آصف شوكت هو الشخصية الأمنية القوية وهذه الشخصية هي التي تحكم سوريا فعلياً ... اللواء آصف شوكت صهر الرئيس بشار الأسد.

ومما لاشك فيه يتساءل الكثيرون من هو آصف شوكت ولماذا هذا الاهتمام الإعلامي به..؟

ولد آصف شوكت عام ١٩٥٠ في مدينة طرطوس على الساحل السوري، ينتمي لعائلة متوسطة، وهو شخص غامض ويقال عن عائلته انه من " الرحل " وقد استوطنت في قرية "المدحلة" في محافظة طرطوس وأن معظم أهالي هذه القرية من إخواننا من "الطائفة العلوية".

عائلة آصف شوكت اندمجت مع أهالي هذه القرية وأصبحت عائلته من الطائفة العلوية وان عائلة آصف شوكت ليس لها أي تاريخ في هذه القرية !!!

في سنة ١٩٦٨ إنتقل إلى دمشق لمتابعة تعليمه العالي ودرس الحقوق و تخرج في ١٩٧٢، وبعد تخرجه وجد نفسه انه لا يحب هذه المهنة فالتحق بجامعة دمشق من جديد لدراسة التاريخ. إطروحته كانت على الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ وزعمائها الريفيين فقط. ولأسباب مجهولة أيضا ، فقد إهتمامه فجأة في الدراسة و استأجر خبيرا لكتابة الأطروحة له، ولكن اكتشف أمره من قبل أستاذه ورسب ، ولم يكن له خيار سوى أن يعيد كتابة أطروحته ليحصل على شهادته في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٦.

تطوع في الكلية الحربية أواخر سنة ١٩٧٦ وتخرج ضابط " اختصاص مشاة " سنة ١٩٧٩ والتحق في الوحدات الخاصة شارك في حوادث الصدام المسلح بين السلطة آنذاك والإخوان

---

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف .

المسلمين وكان يرأس سرية الاقتحام في الوحدات الخاصة في حوادث حماة الشهيرة وقد شاركت هذه السرية في اقتحام المنازل في حي " الحاضر " وقامت باعتقالات وتصفيات جسدية من أطفال وشيوخ ونساء !!!

بعد حادثة حماة الدموية التي نفذتها السلطة آنذاك انتقل آصف شوكت مع ضباط آخـرين مـن الوحدات الخاصة إلى شعبة المخابرات " سرية المداهمة " حيث عززت هذه السرية من ضـباط " الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع " وأصبح في كل محافظة سـرية مداهمـة تابعـة إلى " الأمـن العسكري " وأصبحت لسرية المداهمة في شعبة المخابرات شهرة قوية في كل المحافظات الـسورية من ترهيب للمواطنين و اعتقالات ومداهمات وقتل الأبرياء وكان أشهرها سرية المداهمة في دمشق التي يعمل بها آصف شوكت وأصبح من أبرز ضباطها وسرية المداهمة في حلب التي كان يرأسـها في محافظة حلب الرائد احمد العمر آنذاك ومتهم آصف شوكت بعمليات خارج سـوريا أثنـاء خدمته في سرية المداهمة ..

١ - في تشرين الأول (١٩٨٣) أصيب سفيرا الأردن في الهند وإيطاليا بجـروح بعـد هجـوم بالأسلحة النارية

٢ - في تشرين الثاني (١٩٨٣) قتل موظف أردني وأصيب آخر بجروح بليغة في أثينا

٣ - في (١٩٨٣) قتل موظف بدرجة مستشار وجرح آخر في مدريد

٤ - في آذار (١٩٨٤) انفجرت قنبلة خارج فندق عمان الدولي

٥ - وفي كانون الأول (١٩٨٤) نجا القائم بالأعمال الأردني في أثينا بأعجوبة من الموت عندما تعطل مسدس المهاجم عن العمل فجأة

٦ - وفي نفس السنة ايضا قتل المستشار في السفارة الأردنية رميا بالرصاص في بوخارست

٧ - وآخر الاتهامات الموجه ل " آصف شوكت في نيسان ١٩٨٥ هجوم على السفارة الأردنية في روما وهجوم آخر تفجير مكتب الخطوط الجوية الأردنية " عالية " في مدريد

٨ - قتل السكرتير الأول في السفارة الأردنية في أنقرة رميا بالرصاص

طبعا كان هذا الاستهداف في أنقرة هو بمثابة رسالة موجهة إلى تركيا "بعدم السماح للـسورين الهاربين من بطش النظام للأرضي التركية الهاربة" والرسالة الأقوى إلى المملكة الأردنيـة كـون الأردن كانت أبوابها مفتوحة لكل العوائل السورية التي هربت من القتل والاستبداد الأمني عليها آنذاك.

وجعلت هذه الانجازات من آصف شوكت ذو شان كبير واعتبر من الرجال الأوفياء والفـدائيين للحاكم.

فقرر الرئيس الهالك حافظ الأسد نقله إلى القصر الجمهوري "الحماية الأمنية - المرافقة الخاصة" فأوكلت إلى آصف شوكت مهمة الحماية الأمنية الخاصة للدكتورة "بشرى حافظ الأسد".

وفي منتصف الثمانينات، بدا نجم آصف شوكت بالبزوغ بين ضباط دفعته على الرغم انه لم يوكل إليه أي مركز رسمي حساس في الدولة ، سوى المهمات الخاصة !!!

وكان رجلا طموحا يعرف من أين تؤكل الكتف، ينتظر اللحظة المناسبة لأداء حركته، وجاءت هذه اللحظة عندما التقى ببشرى حافظ الأسد، وهي فتاة جميلة وذكية، تدرس الصيدلة في جامعة دمشق واصغر منه بعشر سنوات، وما يزال سبب حب هذه الفتاة الجذابة وتعلقها به لغزا لم يحل بعد.

فمؤهلاتها الأنثوية والدراسية والمادية والعائلية كانت تسمح لها أن تختار أي شاب، وخاصة بعد الارتباط المؤقت بينها وبين الدكتور محسن بلال التي انقلبت عليه الدكتورة بشرى الأسد عن فكرة ارتباطها معه وهو ذو السمعة العائلية المرموقة الطبيب الشاب والجميل وعضو مجلس الشعب آنذاك" ، ولكن حين أتت إلى سويسرا لشراء مجوهرات الخطبة التقت مع صديقة سورية لها مقيمة في سويسرا وأخبرتها عن الدكتور محسن بلال انه زير النساء ...

عادت بنفس اليوم بالطائرة التي أتت بها من دمشق وعندما حضر في اليوم الثاني الدكتور محسن بلال إلى جنيف لشراء مجوهرات الخطبة تفاجئ أن بشرى الأسد قد عادت إلى دمشق وبعدها حورب كثيرا الدكتور محسن بلال وتدخلت الدولة بترسيبه في مجلس الشعب ولكن الكثير من آهل منطقته دعمت ترشيحه ودعمت بأصواتها لإنجاحه في مجلس الشعب بعد أن هدد الدكتور محسن بلال بانسحابه من حزب البعث ومن لجنة الاغتراب في القيادة القومية في حزب البعث " كونه من العوائل التي لها شان في منطقته " حيث وكان الدكتور محسن بلال مقربا من حافظ الأسد كونه الطبيب الخاص به وحلت هذه الإشكالية من قبل الرئيس الهالك حافظ الأسد حيث اعتبر هذا الموضوع قسمة ونصيب !

رغم ذلك كله إختارت بشرى الأسد هذا الضابط الصغير ومن عائلة غير معروفة وتعليمه الجامعي هو كل ثروته وفوق هذا فهو متزوج وله أولاد !

ولكن المعروف أن شقيقها الأصغر باسل قد عارض هذه العلاقة بقوة وأعتبر شوكت رجلاً غير مناسب فهو كبير السن ومتزوج، واعتبره أيضا انه يطمع بأموالها. ومن الأسباب الأخرى التي جعلت باسل يرفض انه دون المستوى العائلي المطلوب ولا يجب أبدا أن يصبح نسيب عائلة الأسد بالرغم انه نصيري " غير مؤكد " .

عندما أصر آصف شوكت على موقفه ، أمر باسل باعتقاله ، وهكذا وضعه الأسد الـصغير وراء القضبان ثم أفرج عنه بعد فترة نتيجة إلحاح أخته وتدخل حافظ الأسد، وتكررت هذه العمليـة أربع مرات لمنعه من الاجتماع بأخته ، طبعا كانت مراقبة تحركات بشرى الأسد من قبل محمـد ناصيف رئيس الفرع الداخلي آنذاك وترسل التقارير مباشرة إلى باسل الأسد وبعد سجنه نقـل آصف شوكت إلى دائرة التجنيد العامة " شعبة تجنيد طرطوس " ولم يعد احد من أصدقائه يستطيع الاقتراب والتعاطي معه بأي حديث خوفاً على وضعه العسكري وخوفاً من باسل الأسد !!!

في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، إنتهى قلق آصف وبشرى، فبينما كان باسل يقـود سـيارته بنفسه في طريقه إلى مطار دمشق وبرفقته ابن خاله حافظ مخلوف انقلبت السيارة " كمـا يقـال بسبب الضباب – وسرعة القيادة " فقتل باسل على الفور وأصيب ابن خاله بخـدوش بـسيطة واعتبر الحادث قضاء وقدر كما أن بعض المحللين السياسيين قالوا أن "عجلة السيارة قد انفجـر وسببت بمقتل باسل الأسد " وأشاروا بأصابع الاتهام إلى رفعت الأسد الموجود في فرنسا بعـد أن شعر أن باسل هو المنافس الحقيقي له بعد موت الأسد العجوز وخاصة انه كان قد بدا بتـصفية جميع مراكز نفوذه وسجن أعوانه. كما أن هناك كان رأي ثان، أشار إلى بشرى وآصف ، فهـي أفضل وأسهل من يستطيع أن يقوم بعملية تخريب أو تفخيخ للسيارة.وهكذا أزيحت العقبة الكبرى من أمام طريقهما ولم يعد هناك من يهدد ويسجن، ولكن ما زال أمر الزواج ليس سـهلا، فـدم باسل لم يجف بعد ومؤهلات أصف لا تشجع على الزواج.

بعد سنة واحدة من مقتل باسل نفذ صبر أصف وبشرى، وقررت بشرى الهروب مـع أصـف شوكت للزواج منه وفعلا غادرت بشر الأسد وآصف شوكت سراً عن طريق تركيا إلى ايطاليـا ليعلموا من هناك الرئيس الهالك حافظ الأسد وعائلته عن زواجهم السري " عقد الزواج تم عن طريق شيخ علوي من إحدى قرى لواء اسكندرون " وتزوجا بدون موافقة والدها ولا حـتى أي فرد من عائلة الأسد واستقرت بشرى الأسد وآصف شوكت في روما لمدة شـهرين لتعـود في المناسبة السنوية لوفاة باسل الأسد إلى سوريا وكانت قد اشترت مترلا في المزة فذهبا إليه بعد أيام من عودهما إلى سوريا بأسابيع قليلة واستقرارهم في مترلهم في المزة ، فوجئ العريسان بحرس أمام مترلهما، وعندما استفسرا عن الأمر تبين أن والدها قد أرسلهم لحمايتها.

أخذت إشاعات زواجهم بالانتشار، فقرر حافظ الأسد وضع حدا للكلام فاستدعاهم إلى القصر وتمت المصالحة والمصارحة والمصاهرة وانعم عليه الأسد بمباركته وأصبحت طلبات الصهر الوحيد لا ترد .وخلال هذه الفترة، بينما كان يزيد شوكت ألفته مع العائلة، بدأ بمصادقة بشار الأسـد شقيق بشرى ، الذي عاد من لندن مؤخرا لملئ الفراغ الذي حصل بوفاة أخيه. أصبح الـرجلان

أصدقاء ومع الوقت، بدأ بشار يعتمد بشدة على آصف شوكت بأمور المرافقة والحماية. وبدا الرئيس الهالك يثق بصهره وقدراته عندها طلب منه أن يبقى بجانب بشار الأسد ويدعمه، ويساعد اللواء بهجت سليمان لتهيئة بشار الأسد خلفا للرئيس الهالك حافظ الأسد وامتثل أصف لأمر عمه .

وبحلول الـ١٩٩٨، أشيع أنه أصبح الرجل الأقوى في سوريا وهذه الإشاعات كانت تنقل من قبل العماد علي دوبا والعماد حكمت الشهابي إلى الرئيس الهالك حافظ الأسد وان آصف شوكت يتدخل بكل كبير وصغيرة وخاصة في ملفات الجيش من تنقلات الضباط وتصفيات حسابات بينه وبين بعض ضباط الحرس الجمهوري المقربين من باسل الأسد سابقا حيث تم نقلهم إلى قطع عسكرية إدارية بالتنسيق مع العميد عبد الفتاح قدسية ضابط امن الحرس الجمهوري آنذاك حيث تعاون عبد الفتاح قدسية مع آصف شوكت على أعضاء كشوف لضباط القصر والحرس الجمهوري وتقديم التقارير على هاؤولاء الضباط وعدم إخبار الرئيس الهالك حافظ الأسد عن هذه الإجراءات طبعا كلها بأوامر وموافقة ايضا بشار الأسد وأيضاً تدخل آصف شوكت في الملف الأمني والسياسي اللبناني وان أكثر من مرة رفض غازي كنعان أوامر تأتي من قبل آصف شوكت و يقال له نفذ هذه الأوامر بتوجيه من بشار الأسد.

طبعاً كل هذه المواضيع نقلت من قبل العماد علي دوبا وغازي كنعان شخصيا إلى الرئيس الهالك حافظ الأسد لكن كان في المرصاد بشار الأسد

عندها قرر كل من العماد حكمت الشهابي والعماد علي دوبا إيقاف هذه المهزلة وخاصة بعد أن أصبحت الرتبة العسكرية الأعلى غير مطاعة وان بعض من الضباط " لواء وعميد يؤدون التحية لبشار الأسد أمام كل القطعات العسكرية وان نائب رئيس الأركان آنذاك العماد علي أصلان أعطى أوامر سرية بضرورة الانصياع العسكري مهما كانت الرتبة التي يحملها من قائد فرقة إلى قائد فيلق وبعض القياديين العسكريين الآخرين لكل قرارات بشار الأسد وتم أيضاً شق ضباط بعض الوحدات المقاتلة " الوحدات الخاصة – الحرس الجمهوري – الفرقة الرابعة – " حيث نقل اللواء أمين عدرا من القائد الفرقة الرابعة إلى إدارة شعبة التنظيم والإدارة " منصب إداري " بعد تدخل ماهر الأسد في إدارة أمور الفرقة الرابعة ومشادة كلامية بين قائد الفرقة وماهر الأسد وإعطاء أوامر عسكرية لضباط ضمن الفرقة الرابعة بدون العودة إلى قائد الفرقة الرابعة وكان منصب ماهر الأسد " قائد كتيبة " أما فعلياً جعل ماهر الأسد نفسه قائد الفرقة الرابعة .

عندما تقاعد العماد حكمت الشهابي في كانون الثّاني ١٩٩٨ بعد أن طلب من الرئيس الهالك ضرورة إحالته إلى التقاعد لأنه لايمكن الاستمرار والانصياع إلى أوامر بشار الأسد ولا يمكنه أداء

التحية له "هذه الروح العسكرية الحقيقية"، وانه قد أدى عمله للدولة وان ولائه للوطن و للرئيس الهالك حافظ الأسد وليس إلى بشار الأسد وهذا الأمر ايضا حصل مع العماد علي دوبا.

وعين مكان العماد حكمت الشهابي صديق آصف شوكت العماد علي أصلان كرئيس هيئة أركان.في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٠، وعين اللواء حسن خليل الذي لأحول له ولا قوة على رئاسة شعبة المخابرات بوجود آصف شوكت نائباً ثانيا له وعين ايضا اللواء مصطفى التاجر النائب الأول لرئيس شعبة المخابرات الذي كان شريك آصف شوكت للإطاحة باللواء حسن خليل كونه كان طامحًا لتسلم رئاسة شعبة المخابرات لو لمدة أشهر أو لأيام أو لدقائق ليتمكن من الإكثار من ثروات أولاده عمر وتيسير وحسام ومضر وصفقاتهم المشبوهة في العراق وفي سوريا.

وحدثت فضيحة هزّت عائلة الأسد، فقد شن رفعت حملة دعائية ضد النظام من خلال شبكة الأخبار العربية (ANN) فأنتقد شوكت رفعت على فعله وبوجود ماهر الابن الأصغر للأسد فطلب منه أن يسكت ويكف عن انتقاده ، فان ما يحدث هو شأن عائلي لا علاقة له به ، فرد عليه شوكت انه أصبح جزءا من هذه العائلة ، وأصر ماهر على رأيه وأثنى على أخيه باسل وحسن تصرفه بمنعه من الزواج من بشرى ، فرد عليه بطريقة لم تعجبه واعتبرها غير مقبولة والمعروف عن ماهر سؤ أخلاقه فما كان منه إلا أن شهر مسدسه وأطلق النار على صهره فأصابه في معدته.

اجري لشوكت الإسعافات الأولية في دمشق ونقل إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت لإجراء جراحة عاجلة له ولكن أطباء المستشفى لم يجرؤا على ذلك لخطورة الإصابة فنصحوهم بنقله إلى الخارج، فأخذوه إلى مستشفى عسكري في ضواحي باريس.

وبدأ الخبر ينتشر إلى أن نشرته جريدة LIBERATION الفرنسية. عاد بعدها شوكت لدمشق ، وتحت وساطة الأسد تمت مصالحته مع ماهر، وبعدها بفترة قصيرة عين نائبا لرئيس المخابرات العسكرية ويقال انه هو صاحب القرار الفعلي بينما رئيسه اللواء حسن خليل يبقى الرئيس الاسمي لشعبة المخابرات السورية.

ويقال من بعض المصادر بصدد هذه الحادثة " أن الدكتورة بشرى الأسد قد اكتشفت خيانة لزوجها مع فتاة أخرى في مترل في منطقة "قرى الأسد" حيث كانت تتابعه منذ فترة بعد أن تردد لها أخبار عن علاقة مشبوهة بين آصف شوكت مع احد الفتيات.

فعندما هاجمت هذا المنزل و من معها من عناصر شقيقها ماهر الأسد أشهرت مسدسا وأطلقت طلقتين على آصف شوكت هذه القصة على ذمة راويها من المقربين من العائلة بسبب وضع عملهم !!

في يونيو/حزيران ١٠، ٢٠٠٠، توفي حافظ الأسد فجأة ! ومنذ ذلك الحين، اعتمد بشار بشدة على شوكت لتقوية النظام وحمايته، وقيل انه الرجل الأقوى في سوريا من وراء الكواليس، ومما يؤكد ذلك وقوفه مع بشار في جنازة الأسد وتقبله التعازي ، ولكن يجب أن نعلم أن آصف شوكت لم يكن معروفا بين النصيريين ولا يستند إلى أي قاعدة شعبية أو دينية فلا يستطيع أن يعتمد عليهم لدعمه فقوته مشتقة من عائلة الأسد ولاشك أن هناك الكثير من الضباط مستاءون من تقدمه السريع فهم أجدر وأقدم منه وفرصته الوحيدة للبقاء في مركزه السياسي هو تحالفه مع بشار".

فساده واستبداده بعد رحيل حافظ الأسد:

بعد رحيل حافظ الأسد كان يشغل آصف شوكت رئيس فرع امن القوات وهذا الفرع مختص بشؤون الجيش وضباطه فعلا تم ترتيب الأجواء داخل الجيش ونقل وعزل ضباط لإبعادهم عن أي حركة تقوم بها الجيش وأثناء عقد المؤتمر القطري بعد وفاة حافظ الأسد كان مشرف على وضع بعض الأسماء من القيادة المركزية والقيادة القطرية مع العقيد محمد سليمان وتم ترتيب الحزب بسرعة فائقة من ترتيب القيادة والأعضاء حيث أيدت القوى المعارضة السورية ومن بينهم التجمع الديمقراطي والإخوان المسلمين واعتبروا استلام بشار الأسد بداية للإصلاح والانفتاح السياسي كما كانت القيادة السياسية رحبت بالانفتاح السياسي حتى مع أفراد المعارضة.

وفعلا تم تهيئة هذه الأجواء بمنح كافة المعارضة والمنفيين جوازات سفر لمدة سنة ورفع أسماء المنع عن المعارضين فتحت المنتديات وازدهر بما يسمى ربيع دمشق ولكن بعد سنة ونصف بدأت معالم الاستبداد الأمني والعقلية الأمنية تسيطر على التوجه السياسي السوري والتوجه السياسي الخارجي طبعا لاننسى ايضا المصالح الخاصة بال الحاكم تم توقيف تعميم منح جوازات السفر من قبل شعبة المخابرات وملاحقة بعض عناصر المجتمع المدني وأعضاء من ربيع دمشق وأشيع بان هذه الملاحقات تمت بعد أن رفض قياديين سياسيين هذا الإصلاح والحقيقة بان العقلية الأمنية والمستبدة هي التي أوقفت هذا الانفتاح وكانت إشاعات أمنية تشيع ايضا يسمى بالحرس القديم لكن العكس هو الصحيح

الأجهزة الأمنية ومن بينهم المنتفعين من الفساد الأمني والمالي أوقفت كل الحراك السياسي الداخلي حيث الكثير من القياديين السياسيين والحزبين في سوريا كانت ضد تدخل الأجهزة

الأمنية " آصف شوكت وبعض من الأجهزة الأخرى " في الشؤون الداخلية وشؤون المـــواطنين والشؤون الخارجية .

وازداد الفساد العائلي " مخلوف – الأسد – شوكت – وغيرهم من المنتفعين مـــن آل الحـــاكم" حيث أعطيت مناقصات الغاز والبترول إلى شركات أميركية وكيلها محمد مخلوف طبعا بعد مـــا اكتشفتها الشركات الفرنسية وأعطيت كل الامتيازات إلى آل مخلوف والأسد والمنتفعين من آل الحاكم وأيضا عائلة آصف شوكت "زياد" وأشقاء آصف شوكت، وأصبحت سوريا تدار علـــى أنها "مزرعة خاصة للحاكم"..!

أحداث ١١ أيلول سبتمبر:

بعد أحداث تفجير برج التجار العالمي في أميركا توجهت الأنظار الأميركية والأمنية بملاحقة تنظيم القاعدة وبعض من التنظيمات الإسلامية الأخرى .

فكانت فرصة آصف شوكت بتقوية علاقاته مع الأجهزة الأمنية الغربية والأميركية لكن مبنيـــة على باطل وظلم حيث كان يلتقي مع شخصيات أمنية كثيراً في روما وكانت زيارته كـــثيرة إلى أوربا ومع شخصيات كبيرة أمنية غربية حيث تم تسليم ملفات " إرهابيي " إلى الأجهزة الأمنيـــة الأميركية والغربية ولكن هذه الملفات اكتشف فيما بعد بان قسم منهم متوفي والقـــسم الأخـــر موجود في دول عربية لم يغادروها وغيرها !

وسارع ايضا إلى تقديم التبرع باستقبال أي شخص معتقل في أي دولة بالعـــالم لتقـــوم أجهـــزة الاستخبارات السورية باستجوابه "فالأجهزة الأمنية السورية تستطيع أن تنطق الحجر – وان تجعل الحمار أرنب .

أزمة العراق ماقبل سقوط نظام صدام حسين ومابعد سقوط صدام حسين :

خلال أزمة العراق وبعد إعادة العلاقات الاقتصادية والانفراج السياسي بين البلدين أسس شركة خاصة مع وهيب مرعي وشقيقه المخلص الجمركي العميد المتقاعد محمد شوكت شركة تجاريـــة تعنى بعقود البترول وشحن بترول العراق المهرب " خارج نطاق النفط مقابل الغذاء " لتبـــاع في السوق السوداء واستطاع ايضا اللعب مع العارضة العراقية في سوريا والضغط عليها وهذه مـــن أسباب المقاطعة بين الحكومة العراقية الحالية وسوريا.

و استطاع أيضاً تامين بعد أنواع الأسلحة والذخائر وتهريبها إلى العراق وبيعها بأســـعار خياليـــة وأيضاً سرب معلومات عن المعارضة العراقية في سوريا وفي أوربا مقابل أموال طائلة وتم التنسيق ايضا على الضغط وأعضاء كشوف عن أسماء بعض العوائل السورية المنفية في العراق ليتمكن من " اختلاق أضابير لها تتعلق بالإرهاب " وتسليمها إلى بعض الأجهزة الأمنية الغربية.

ولقد قام اللواء آصف شوكت بتجنيد بعض المشايخ ومن يسمون أنفسهم برجال الدين لـــصالح مصالحه الأمنية والخاصة مثل احمد حسون ومحمد حبش وأبو القعقاع صنيعة اللواء حسن خلوف ومصطفى التاجر.

وبعد دخول عناصر من النظام العراقي السابق وأولادهم مثل " السبعاوي شقيق الرئيس السابق صدم حسين وأولادهم " تمت مصادرة الأموال الخاصة بالسبعاوي والسماح لابنه الـــدخول إلى اللبنان والمغادرة منها مع بعض الأموال الخاصة بهم اعتقل من قبل السلطات اللبنانية بتوجيه مـــن الاستخبارات السورية وتم تسليم ايضا السبعاوي إلى السلطات الأمنية الأميركية.

أما بالنسبة إلى أولاد صدام "عدي وقصي" تم السماح لهم بالـــدخول إلى الأراضـــي الـــسورية بالتنسيق مع احد رؤوسا العشائر العربية في الحسكة ومدير مكتب اللواء آصف شوكت "المساعد علي إسماعيل" واحد من مرافقي أولاد صدام حسين وبعد دخولهم الأراضي السورية والالتقاء مع شخص دبلوماسي من احد الدولة الغربية على أن يمنحا جواز سفر خاص في بلـــد الدبلوماســـي الذي التقى معهم وإعطائهم حق اللجوء السياسي في لد الدبلوماسي الغـــربي تم الاتـــصال مـــع الجهات العراقية والجهات الأميركية لإبلاغ أن أولاد صدام حسين موجودون في سوريا وفعلا تم إجراء صفقة بين اللواء آصف شوكت والأجهزة الأمنية العراقية والأميركية وبعد مباحثات طويلة تم مصادرة الأموال وتسفير قصي وعدي إلى العراق وإبلاغ القوات الأميركية بالتنسيق مع احـــد التابعين للآصف شوكت عن مكان تواجدهم والقصة بعدها معروفة وقد شاهدها الكـــثير علـــى وسائل الإعلام.

مقتل اللواء غازي كنعان:

بعد إزاحة اللواء غازي كنعان عن لبنان " الملف اللبناني " نهائيا ونقله إلى شعبة الأمن الـــسياسي آنذاك كانت سببها مشاحنا بين اللواء غازي كنعان وآصف شوكت حيـــث تـــدخل في الملـــف اللبناني كثيرا حتى في أيام الرئيس الهالك حافظ الأسد ويصدر الأوامر إلى اللواء غـــازي كنعـــان ولكن اللواء غازي كنعان كان يرفض هذه الأوامر وهذا التدخل السافر في الشؤون الأمنية وفي الملف السياسي اللبناني فأسس علاقة مع رستم غزالي وبداء بتنشيط علاقاته مع اللواء جميل السيد كون اللواء جميل السيد ليس على علاقة جيدة مع اللواء غازي كنعان كونه كان يتجسس علـــى السياسيين اللبنانيين وعدد مرات اشتكوا السياسيين البنانين لهذا الوضع وكانت هذه الـــشكاوي ترفع إلى الرئيس الهالك حافظ الأسد وكان يوقفها بشار الأسد كون علاقـــات جميـــل الـــسيد أصبحت أقوى بعد تسلم بشار الأسد للملف السياسي ومعه آصف شوكت وأصبح في اللبنـــان قاعدة أمنية أخرى تبعيتها لبشار الأسد .

هذه المجموعة الأمنية الموالية لبشار من بعض الضباط السوريين والضباط اللبنانيين أصـــبحت ذو نفوذ أقوى من نفوذ اللواء غازي كنعان فبدأت عمليات تبيض الأموال في البنوك اللبنانية وشراء الأسلحة لبعض المنظمات وتهريب المخدرات وعصابات المافيا وشبكات تجسس بعلم الـــسلطات الأمنية الخاصة في بشار الأسد وغيرها .

بعد مقتل رفيق الحريري ابعد حسن خليل عن شعبة المخابرات وتسلم آصف شـــوكت مـــدير الاستخبارات السورية ابعد بهجت سليمان من الفرع الداخلي ؟؟؟؟

امااللواء غازي كنعان الذي نعى في وسائل الإعلام السورية على انه مـــات منتحـــراً في مكتبـــه برصاصة أطلقها داخل فمه. و من المؤكد أن كنعان تمت تصفيته من قبل أدوات النظام الحـــاكم الذي انتهت إلى معلوماته قضية تعاونه مع رئيس لجنة التحقيق الدولية ديتليف ميليس، وتناغمـــه معه، واستعداده إلى كشف كنز المعلومات الذي لديه والمتعلق بجريمة اغتيـــال الحريـــري، إلا أن المعلومات الأخطر التي وصلت إلى النظام كانت تلك التي تفيد بترتيبات غامضة كـــان يتخـــذها كنعان، وتتعلق بالقيام بانقلاب عسكري يحمله إلى السلطة.

ومما زاد في شكوك النظام السوري وخوفه من كنعان معرفته بعلاقته الطيبة السابقة مـــع رئـــيس وزراء لبنان المغدور رفيق الحريري، واتصالاته بعبد الحليم خدام وحكمت الشهابي الموجودين في العاصمة الفرنسية باريس.

و أن كنعان، وأثناء مثوله أمام القاضي ميليس، استمع منه إلى شريط مسجل عليه آخر لقاء ضم الأسد والحريري، وكان هو حاضراً لهذا الاجتماع الذي هدد فيه رئيس النظام السوري الحريري إذا لم يقبل بقراره التمديد للرئيس اللبناني إميل لحود في ولاية ثانية. وقـــد اســـتمع كنعـــان إلى الشريط، إلا انه نفى تهديد الأسد للحريري، وقال لميليس انه، أي الأسد، يحب الحريري، وكـــان يمازحه ولا يهدده. ورغم هذا التفسير الذي أعطاه لتغطية رئيسه، إلا أنه أبدى استعداده للتعاون مع لجنة ميليس، وانه جاهز للمثول أمام أي محكمة دولية ستنظر في القضية، وجاهز أيضاً للسفر إلى الخارج إذا كان هذا السفر يساعد على الإدلاء بكل ما لديه من معلومات.

كما أن الوضع الضاغط على أركان النظام السوري قد دفعهم إلى عقد اجتماع قبل ثلاثة أيـــام ضم الرئيس الأسد وأخاه ماهر، وصهره آصف شوكت، ووالدته السيدة أنيسة. وقد تم الاتفاق في هذا الاجتماع على تسليم النجوم الأربعة ذوي الصلة باغتيال الحريري وهم غازي كنعـــان، ورستم غزالي، ومحمد خلوف، وجامع جامع.

وقد علم كنعان بالنتائج التي توصل إليها المجتمعون، وهي أنه لابد من كبش فداء لحماية النظام، وان كبش الفداء تقرر أن يكون وزير الداخلية والضباط الأمنيين الثلاثة الذين لابد من تسليمهم.

وهنا عرف كنعان أن نهايته اقتربت وانه لابد من حدوث أمر ما سيئ سيتعرض له قريباً، خصوصا بعد أن عرف أيضاً ان غزالي وخلوف وجامع قد وضعوا في الإقامة الجبرية وجرى التحفظ عليهم، وقطعت عنهم الخطوط الهاتفية، ومنعت عنهم الاستقبالات من كل نوع.

وبالإضافة إلى أن النظام السوري قرر في الاجتماع التخلص من كنعان لأنه يعــرف أن القيــادة متورطة في جريمة اغتيال الحريري، وجاهز لتزويد ميليس بالمعلومات ذات الصلة بحادث الاغتيال.

ونعود بالذاكرة إلى آخر اجتماع للحريري مع الأسد، والذي تلقى فيه التهديد إذا لم يوافق على التمديد للحود »لأن لحود هو أنا وأنا هو لحود« لتقول بأن غازي كنعان كان شاهداً على ما دار فيه، وسمع من الأسد يقول للحريري "إذا كنت فرحاناً بلبنان الذي عمرته فإني ســأهدمه فــوق رأسك في عشر دقائق، فيجب عليك أن تفهم وتسمع ما أقوله". وقد تدخل كنعان في هذا الحوار الحاد وقال للأسد: "الحريري رجل طيب، وتجاوب معك" فقال له الأســد: "مفهــوم.. فهــذا صاحبك وأنت مستفيد منه" وقد رمت المصادر شديدة الخصوصية من هذا التذكير إلى القول أن غازي كنعان وضع في دائرة الاستهداف.

ويتوقع بعض المقربين من اللواء غازي كنعان ومن المقربين من السلطات الأمنية السورية أن يكون صهر الأسد، آصف شوكت وراء تصفية كنعان، خصوصا وانه يمسك الآن بزمــام الأمــور في سورية بتأييد من والدة الأسد السيدة أنيسة، التي تتهم ولدها هذه الأيام بالضعف، وبأنه يقــول ولا يفعل، بينما يدافع الأسد عن نفسه، ويقول أن عائلته هي التي ورطته وأوصلته إلى هذه الحالة الخانقة التي هو فيها.

حيث أن حالة من الاستياء العام تسود الآن أوساط العشيرة التي ينتمي إليها اللواء غازي كنعان. ومعروف أن العلويين في سورية يتوزعون على أربع عشائر هي الكلبية، الخياطين، والحــدادين، والنمليكيين وكنعان ينتمي إلى عشيرة الكلبيين التي تشاركها الاستياء عشيرة الحدادين التي ينتمي إليها صلاح جديد، عدو الرئيس الهالك حافظ الأسد اللدود والذي قضى موتاً في أحد سجونه.

وبعد مقتل كنعان، نقلت المصادر من دمشق أن رجال المخابرات ينطلقون الآن للقــبض علــى رهيف الأتاسي شريك كنعان ومدير أعماله وأملاكه، والذي يسكن في البناية نفسها التي يسكنها وزير الداخلية المغدور في منطقة غرب المالكي بجانب مسجد سعد بن معاذ. ورهيف الأتاسي هذا لديه وكالات عامة من كنعان، والقبض عليه هو بهدف التحقيق معه للكشف عن كــل أمــلاك وودائع كنعان. كما نجا من قبضة رجال المخابرات ابن أحد أصحاب المصارف اللبنانية، المتحدر من أصل سوري، ومن مدينة اللاذقية بالذات، مسقط رأس كنعان، لأنه معروف بأنه هــو مــن هرب أموال المغدور، ويعرف كل أرقام حساباته.

وعلى صعيد أخر ، قالت المصادر إن رئيس النظام السوري يشكو كثيرا، من مواقف إحدى الدول العربية، التي يعتبر أنها تخلت عنه، خصوصا بعد أن بلغه منها بأنها نصحته كثيراً، ولم يستجب لنصائحها، وان هذه الدولة العربية لديها إحساس بأنه لا يحكم، وان هناك أشباحاً غيره هي التي تدير البلد.

وعندما زار الرئيس المصري حسني مبارك السعودية أخيرا كان الوضع السوري مطروحا في محادثاته مع الملك عبد الله بن عبد العزيز، وقد تلقى الرئيس المصري وجهة نظر العاهل السعودي التي تقول بأنه لم يعد هناك مجال للدبلوماسية الكاذبة، فالشعوب العربية أصبحت واعية وتريد من حكامها صدق الطرح وصدق القرار.

وفي الآونة الأخيرة حاول الأسد الاتصال بالرئيس الفرنسي جاك شيراك ولم يلق تجاوباً، كما حاول الاتصال بدولة عربية فلقي المعاملة نفسها، وقد نصح المحيطون بالأسد، بان يذهب هذه الأيام إلى العمرة ، فجاءه الجواب بان لجوءه لهذه الطريقة لن يفيده، إذ سيعامل كرجل عادي لا مجال للأحاديث السياسية معه.

لن ندخل في موضوع اغتيال رفيق الحريري كثيراً كون هناك لجنة تحقيق دولية وهي التي ستكشف كل الحقائق في المستقبل

فساد وسرقات اللواء آصف شوكت وعائلته:

تتكون شركة آصف شوكت (عفواً عائلة آصف شوكت) من شقيقين الأول علي شوكت وهو ضابط متقاعد عمل بعد انتهاء خدمته في الجيش مخلص جمركي لدى شركة الوهيب "وهيب مرعي" في مرفاء طرطوس بتخليص الحديد والمواد الغذائية المستوردة طبعا الحديد لمستورد من أوكرانيا يدخل نصفه تهريبا والأخر بكشوف استيراد.

و بالطبع فإن علي شوكت الآن أصبح ذو نفوذ وصاحب مؤسسة تجارية كبيرة تعنى في الاستيراد والتصدير والشحن البحري " حيث بداية نشاط هذه الشركة كانت منذ الحصار الاقتصادي على العراق وخاصة عقود توريد المواد الطبية والغذائية حيث كانت لهذه الشركة حصة الأسد من العقود

تم إنشاء شبكة تجارية بين عدي وقصي صدام حسين وشقيق آصف شوكت بعد زيارات متكرر إلى العراق ومع الوفود التجارية السورية مع وفد زيارة مصطفى ميرو للعراق حيث تم إبرام عقود سرية تعنى بتهريب البترول إلى سوريا وبيعها تحت اسم البترول السوري " والمواد الخام من البترول – والمواد المستخرجة ايضا من البترول – ووقود الطائرات " خارج معاهد النفط مقابل البترول بين شقيق آصف شوكت مع عناصر من النظام العراقي السابق "أولاد صدام حسين".

شبكة تجارية مافيوية " يديرها شقيقه، على ما يقول المقربون منه. وقد امتد نشاط هذه الشبكة إلى ما يتجاوز الحدود السورية في قبرص – اسبانيا – ايطاليا

مصنع مع شركة الوهيب " وهيب مرعي لتصنيع الحديد وهذا المصنع له نسبة فيه آصف شوكت ومضر الأسد ومجد بهجت سليمان

قبرص : مقر الشركة تعنى في المعاملات المصرفية التحويل خارج نطاق البنوك والسمسرة في البورصة العالمية "شركة مصرفية الكمسيون – تصريف – تحويل "

لها مكتب في دمشق أمام سوق الحميدية خلف مبنى قصر العدل في الطابق الأول يديره فارس عدنان إسماعيل شقيق مدير مكتب اللواء آصف شوكت ، في حلب ايضا في سوق المدينة في خان الحريري، يديرها شخص صراف مقرب من شقيق اللواء آصف شوكت، ومكتب في طرطوس واللاذقية يديره يوسف مرعي الملقب " زوزو"

شركة للشحن البحري والتخليص البحري وتأجير البواخر يديرها ابن أخيه " احمد شوكت "

ايطاليا : شركة عقارية لتأجير الشقق السكنية وبيعها يملك حوالي مائتان شقة وأبنية تجارية في ميلانو وفي روما يديرها الدكتور فؤاد ؟

اليونان : شركة بحرية فيها حوالي ٢٠ باخرة شحن " مرخصة في اليونان " تجارية للشحن " البترول – الاسمنت – الذرة والطحين – "

اسبانيا : شركة " خطوط هواتف فضائية وشركة توريد وتجارة وتوريد الأسلحة مع احد تجار الأسلحة العرب

أبنية وشقق مفروشة سياحية

جنيف حسابات بنكية في البنك bcc وبنك العربي في سويسرا له فيه أسهم مع البنوك التي كانت فيها أسهم وحسابات بنكية باموال باهظة " هذه البنوك كانت فيها حسابات باسل الأسد "

البنك السويسري التجاري هذا البنك التي يتم فيه عقد بيع صفقات البترول وهذا البنك هو الوسيط التجاري وهو الذي يقوم على تسليم البترول وقطع الأموال وتحويلها مباشرة إلى حسابات البائعين وشريكه طبعاً الدكتورة بشرى الأسد

الدكتور بشرى الأسد التي أحاولت بعد مقتل الحريري بإدخال شيك بحوزتها بقيمة ١٢ مليون دولار إلى المصارف السويسرية ولم تنجح لأن هذه المصارف رفضته لمشبوهية مصدره، ولعدم تعرض هذه البنوك إلى الأسئلة حول مصادر الأموال الواردة إليها

ولكن تم وضع هذا المبلغ في الشركة الخدمات المصرفية والتجارية السويسرية وتشغيل الأموال وهذه الشركة التي تعنى في المشاريع العقارية في جنيف وفي أوربا شقق وفيلات وقصور ويملك قسم منها بنك الفيصل

أربع محلات تجارية في السوق التجاري في جنيف الحي الغربي من جنيف

عائلته من الزوجة الأولى

تتكون من خمس أولاد والأكبر هو " زياد آصف شوكت "والمعروف على الوسط التجاري السوري في العقارات وبيع السيارات المهربة واللوحات الأمنية

زياد شوكت (٢٧ سنة) ابن آصف شوكت رئيس الاستخبارات العسكرية السورية من زوجته الأولى التي طلقها ليتزوج من بشرى حافظ الأسد، شقيقة الرئيس السوري، أصبح يسيطر الآن على عقارات وأرض مهمة في مدينة طرطوس الساحلية، ويستولي على أراض عائدة إلى الدولة ويسجلها باسمه، معتمداً بذلك على نفوذ أبيه، إلى جانب انه فرض شراكته على الكثيرين من أصحاب المحال التجارية في المدينة، وتقول المعلومات إن زياد شوكت أصبح صاحب الرقم (٣) بعد رامي مخلوف ومجد بهجت سليمان، من أبناء النافذين في النظام، والمستفيدين من مراكز آبائهم.

والمعلومات عن زياد آصف شوكت تقول أنه يقوم بعملية بيع أرقام السيارات تخصص للمخابرات لاستخدامها في أغراض تجسسية. وقد حصل على لوحات الأرقام هذه من مكتب أبيه آصف الذي يملك صلاحية أخذ لوحات لاستخدامها في الأعمال السرية، واللوحات هذه تباع لتعليقها على سيارات يمكنها السير على الطرقات السورية بدون دفع الرسوم الجمركية عليها.

وآصف شوكت له ابنة شابة تحمل شهادة في الأدب العربي ومتزوجة من نجل وزير الثقافة السورية الدكتور محمود السيد وزير التربية السابق ووزير الثقافة حيث فشل بالوزارة الأولى ولم يتم إبعاده نقل إلى وزارة الثقافة ولكن كثر الفساد وكثر تهريب الآثار والتسيب في تهريب وسرقة الآثار من المتاحف والأماكن الأثرية " لكن لمصلحة من تسرق الآثار وتهرب وتباع .. "

أما الأولاد الآخرين هم بعدهم في التعليم وليس لديهم أي نشاط تجاري سوى على بعض المعاملات البسيطة التي تسير في دوائر الدولة باسم والدهم وزوجة أبيهم

سرقة الأموال العراقية :

١ - سرقة البترول العراقي وبيعه

٢ - عقود العراقية " الغذائية – الألبسة – المواد الكهربائية والبناء – الأدوية "

٣ - سرقة أموال برزان التكريتي وحجز على أمواله في البنوك السورية ومصادرة أمــوال الــتي كانت ستحول إلى أولاده المقيمين في جنيف

٤ - سرقة أموال السبعاوي وأموال ابنه وطرد ابنه إلى اللبنان ومصادرة أمواله في بيروت وتسليمه إلى الجيش الأميركي

٥ - سرقة أموال عدي وقصي صدام حسين بعد إخراجهم إلى العراق وإرسال تقرير إلى الجــيش الأميركي عن مكان تواجدهم

٦ - مصادرة بعض الأموال والمصاغ لزوجة وابنة صدام حسين قبل مغادرهما إلى الأردن

٧ - تبيض أموال عبر بعض البنوك المتواجدة في بيروت

٨ - بيع وثائق للمقاومة العراقية عن تعدادهم وعن مراكزهم لبعض الأجهزة الأمنية الغربية

٩ - قبض الملايين من الدولارات مقابل فتح مراكز تحقيق لبعض الأجهزة الأمنية الغربية لتحقيــق مع أشخاص من العرب موقوفون لصالح دولة غربية وأجهزة أمنية أميركيــة وهــم ينتمــون إلى منظمات من تطلق عليها اسم منظمات إرهابية إسلامية " القاعدة " !!!

١٠ - بيع وتسليم ملفات وهمية إلى بعض الأجهزة الأمنية الغربية لأشخاص ســوريون وعــرب متهمون بانتمائهم إلى تنظيم القاعدة معظهم من " المنفيين منذ أكثر من عشرين سنة – ومن منهم متوفيين – ومن هم بحكم المفقودين " ؟؟ !!!!!

هذه هي حالة أبناء سوريا المتضهدين في سوريا من قبل أل الحاكم وأجهزته الأمنية التي لاتعــرف سوى حماية كرسي الحاكم حتى لو كان على حساب الشعب السوري

فساد آل الحاكم يقتل أبناء سوريا...

إرهاب واستبداد امني على أبناء سوريا الشرفاء...

حماية آل الحاكم وممتلكاته الاقتصادية...

أين أرضينا المحتلة في الجولان ؟

أين عائدات البترول من عشرات السنين ؟

أين حقوق المواطن أين أموال الشعب السوري؟

المجرم محمد حمشو*

مواليد دمشق ١٩٦٦

يحمل إجازة في هندسة الإلكترون (وقد لايحمل...)

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت .

عمله الحالي

عضو في مجلس الشعب

أعمال حرة تجارية ، سياحية ، فنية ، تسويق و اتصال...

إذا أحب احد المواطنين بالتحدث مع السيد حمشو شخصياً حتى يأخذ دورة تدريبية اطلاعية مكثفة " كيف تصبح تاجراً مميزاً - كيف تصبح ليونيراً "عليك الاتصال على هاتف المكتب ٠١١ - ٢٣١٢٢٧٠ أو على هاتفه النقال الخاص ٠٩٤ – ٢٢٣٣٤٤

السيد حمشو مولود من أسرة فقيرة أو نعتبرها من ذوي "الدخل المحدود"

والده من عائلة دمشقية يعمل موظف في وزارة التربية " أمين مستودع "

والدته من عائلة فقيرة من منطقة الساحل من قرى التابعة " القرداحة"

أما بداياته مهندس الكترونيات في إحدى مؤسسات الدولة

وكان أحد أصدقائه في الجامعة "مضر إبراهيم حويجة" حيث عمل معه في مؤسسته الخاصة ومكتبه الكائن في شارع الحمراء "مؤسسة تعنى بأجهزة الحواسب"، حيث أصبح حمشو مدير أعمال "مضر إبراهيم حويجة"،

وبعدها تم تأسيس مكتب ثاني بشارع بغداد لمعدات الاتصالات "أجهزة اتصالات ومقاسم "...

حيث اشتهر حمشو بصفقته الشهيرة التي كانت تحت غطاء ومباركة من قبل " اللواء إبراهيم حويجة مدير إدارة المخابرات الجوية " وهي تسمى المناقصة الخفية لبيع أجهزة اتصالات إلى قيادة القوى الجوية والدفاع الجوي التابعة "لوزارة الدفاع"، حيث تم وقتها رفضها من قبل إدارة "أدارة الإمداد الجوي " التابعة " للقوى الجوية " والتي كان يرأسها " اللواء مشهور عودة "وتم تقديم عقود خارجية وداخلية ولكن العقود " ألغيت " وفضت مرتين كون العرض المقدم من قبل حمشو كان مرفوض فيتم إيقاف هذه العروض امنياً وتم بيع هذه الأجهزة والمقاسم بدون مناقصة مباشرة للقوى الجوية بعد نقل "اللواء مشهور عودة من إدارة الإمداد الجوي إلى إدارة تأمين الجيش " التابعة مباشرة إلى رئيس الأركان " خارج ملاك القوى الجوية ".

اشتهر حمشو بهذه المناقصة "عفواً الصفقة " خلال حركاته التجارية والتي كانت مسيرة ومدعومة من قبل معلميه الحقيقيين "آل حويجة" .

استطاع التعرف على عمار ساعاتي "صديق ماهر الأسد، ويشغل الآن رئيس الاتحاد الوطني لطلبة سوريا وعضو مجلس الشعب" بإحدى جلساته في فندق الشيراتون المقهى الصيفي " النيرابين " يسمونه صالون الزوات ورواده من رجال الصفقات السرية بسوريا، حيث قدمه "مضر إبراهيم حويجة" على انه رجل أعمال "نشيط ومرموق" (كلمة نشيط أي معناها كريم يده مفتوحة إلى من

يحب أن يتعامل معه) وليس خز مشتي أو زلمة " إبراهيم حويجة " وتوطدت علاقاته مع عمار ساعاتي حيث بادره عمار بتقديمه إلى "غسان بلال" (مدير مكتب الأمن بالفرقة الرابعة التابعة إلى ماهر الأسد عملياً وهو يده اليمنى لماهر، وهذا المكتب مشرف على بعض دوائر الدولة، وهو مكتب امني خاص بماهر الأسد، وموقعه طريق لبنان، المكتب السابق لسرايا الدفاع المنحلة بقيادة رفعت الأسد) .

وقام بتقديمه على انه رجل أعمال وانه سيقدم له خدمات خاصة "للصالة الرياضية" الخاصة لماهر الأسد التي يمارس رياضة الملاكمة والتيكوندو مع عمار ساعتي الذي كان سيقدم مقسم خاص وبعض أجهزة الاتصالات بالصالة كهدية رمزية للصالة طبعا .... الصالة الرياضية تقع قرب القصر الجمهوري "في المالكي" المشرف عليها " منهل حجيرة "شقيق "شكيب حجيرة " الحاجب الخاص للرئيس حافظ الأسد ومشرف على بيت الرئيس على الخدم والمطبخ .

وبادر محمد حمشو بتقديم هدية إلى غسان بلال (ابن العميد علي بلال الضابط المتقاعد الذي كان نائب اللواء فوزي غازي مدير إدارة النقل العسكري وشقيقه النقيب محمد بلال ضابط في إدارة المخابرات الجوية "أمن الطائرات") مبلغ وقدره "خمسة مليون" ليرة مقابل أن يقدمه لماهر الأسد على انه رجل " أعمال نشيط ومنفتح ويحب أن يطور أعماله ضمن المعطيات الاقتصادية المتاحة بسوريا " ....

أما هدية عمار فكانت بسيطة لأنه كان يريد إرضاء غسان وماهر بتقديمه هذا المقسم وأجهزة الاتصالات للصالة الرياضية "عربون محبة للصالة الرياضية" التي يمارس فيها الرياضة مع زميله ماهر الأسد.

قبل لقائه بماهر طلب من غسان بأنه حابب أن يوسع عمله في هذا المجال وخاصة بالاتصالات ولكن رامي موجود في الساحة ولايمكن نافسته فكان طلب حمشو بإنشاء شركات أخرى. " ووعد غسان بان تكون له نسبة " ...

فقدمه غسان بلال وهو بيت أسرار ماهر الأسد "خاصةً أسراره المالية والأمنية " (ليالي الملاح الحمراء المشهور بها ماهر حيث معروف عن ماهر بان هديته إلى أي معجبة كانت سيارة أو لوحات رقمية خاصة من القصر الجمهوري) .

سنة ١٩٩٨ أقدم الرئيس حافظ الأسد " بطلب من بشار وآصف بأن هنالك سيارات موزعة من القصر الجمهوري وعددهم حوالي "٦٠ "سيارة ولوحات رقمية حوالي "١٠٠" تم توزيعها بأمر من ماهر الأسد.

هنالك سيارات على ملاك الفرقة الرابعة أيضا تحمل لوحات "عسكرية " موزعة على أصاحبه من ليالي الملاح الحمراء .

أصدر الرئيس قراراً " بسحب اللوحات الخاصة والسيارات الممنوحة من ماهر " ...

إحتج ماهر على هذا التصرف مما أدى إلى المشادة الكلامية بينه وبين والده...

و أقدم على مهاجمة " آصف شوكت صهره زوج الدكتورة بشرى الأسد الذي لم يكن يوماً وحتى هذه اللحظة موافقاً على خطف آصف لبشرى والزواج منها في ايطاليا " أمام والده .

ونتيجةً لذلك أطلق ماهر الأسد النار على صهره آصف شوكت مما أدى إلى إصـــابته وســـفره للخارج للعلاج "مستشفى فال دوكراس في باريس" ...!!

وتم إبقاء " عشرون سيارة " منحها ماهر الأسد منهم لعائلة دمشقية معروفة حيث تقطـــن هـــذه العائلة في المزة فيلات قرب معهد " إعداد المعلمين" في المزة وبعض السيارات إلى قريبة زوجتـــه وأصدقاء زوجته

تم تقديم غسان لمحمد حمشو على انه رجل أعمال ناجح وطموح وموثوق طبعاً...موثوق هي كلمة عالمية يتداولها زعماء المافيا، لكن في مملكتنا السعيدة لدى آل الأسد هي انه كتوم وخـــادم ممتـــاز لسرقاتهم ونهب ثروات البلاد ....!!

ويمكن يكون منافس آخر لرامي مخلوف الذي أصبح اسمه مردد كثيراً وخاصةً لدى المسؤولين في الدولة فكان التوجه بإيجاد اسم جديد على الساحة الاقتصادية السورية .

وكان أول مشروع بداياته مع ماهر الأسد هو مشروع شركة الاتصالات براق وهـــي كبـــائن هاتفية "حصالات".

مجموعة حمشو للاتصالات الدولية " مؤسسة تم التوقيع وافتتاحاها منذ فترة قصيرة وخاصة بعـــد توقيع عقد مع شركة الثريا للاتصالات عبر الأقمار الصناعية فهو أصبح وكلـــيهم الحـــصري في سوريا.

مؤسسة براق للدعاية والإعلان :رئيس مجلس الإدارة "إعلانات الطرقات الضوئية والالكترونيـــة ".

لجنة الشركات :رئيس لجنة الشركات " تعنى هذه الشركات بالعلاقات المالية " البورصة بالخارج وبيع الاسهم والتحويل العملات وتبيضها "

لجنة التخطيط والإنتاج :عضو لجنة التخطيط والإنتاج تعنى بالتخطيط والاستثمارات الخارجيـــة والداخلية " أي تسهيل أمور أي مستثمر داخل سوريا بنسبة معينة من الأرباح "

*مجموعة حمشو الدولية :رئيس مجلس إدارة مجموعة حمشو الدولية " نشاط هذه الشركة في دول الخليج " جبل علي استيراد وتصدير "
*شركة الشرق الأوسط للتسويق - لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات :رئيس مجلس إدارة شركة الشرق الأوسط للتسويق - التكنولوجيا المعلومات والاتصالات
*شركة براق للحصالات :رئيس مجلس إدارة شركة براق للحصالات
*شركة سورية الدولية للإنتاج الفني : رئيس مجلس إدارة شركة سورية *الدولية للإنتاج الفني " وموقع إخباري شام برس
*شركة شام للدراسات الهندسية والتعهدات :رئيس مجلس إدارة شركة *شام للدراسات الهندسية والتعهدات جبالة الاسمنت " الشرق الوسط
*شركة جوبيتر للمشاريع السياحية : رئيس مجلس إدارة شركة جوبيتر للمشاريع السياحية "سلسلة مطاعم زاد الخير "
*الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية :عضو مجلس الإدارة الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية " بيع واستيراد اجهزة الكمبيوتر وقطع الغيار لها "

فساد السيد حمشو حديثاً مع ماهر الأسد

ظهرت في الأشهر القليلة الماضية، قضية جمركية ألغيت بقدرة قادر "إدخال شاشات عرض تلفزيونية - بلازما - بشهادة استيراد على أنها قطع غيار للكمبيوتر شاشات عرض للكمبيوتر"... فيها ضبط جمركي وفيها غرامات مالية باهظة ومحكمة إقتصادية ألغيت كافة الإجراءات.

بيع حوالي ٢٥،٠٠٠ جهاز كمبيوتر إلى وزارة التربية بدون عروض مناقصة تم بيعها بشكل أمر من ماهر الأسد على وزير التربية بدون عروض ومناقصة "إنشاء موقع شام برس الإخباري" مع السيد علي جمالو الذي كان يعمل مصورا لدى هيئة الإذاعة والتلفزيون "... طبعا هذا الموقع عبارة غطاء ودعاية كاذبة عن الشفافية والتحدث عن الفساد بشكل شفاف وموضوعية وانتقاد أجهزة الدولة المسموح بها طبعاً " فساد الموظفين يسمح به " " فساد النظام وآل الحاكم ممنوع... من أجل خداع الرأي العام العالمي بأننا لدينا صحافة حرة .... "مضحكة للأسف".

المارّون الآن في ساحة الأمويين في دمشق يجدون حالياً معدات بناء وبرّاكات كتب عليها "مؤسسة الخياط للتجارة والمقاولات".

ولمن لا يعلم، فإن مؤسسة الخياط ما هي إلا إحدى شركات محمد حمشو، شريك ماهر الأسـد، وهي مسجلة بإسم زوج شقيقة حمشو ويستعملها حمشو كغطاء لعدم لفت الأنظار في حصوله على تعهدات الدولة بعد أن كثر الحديث عن الفساد في الآونة الأخيرة.

والذي حصل أن المحافظ القديم محمد بشار المفتي لم يروقه أن مؤسسة الإسكان العسكري كانـت مسؤولة عن أعمال ساحة الأمويين، لأن الموضوع فيه (رزقة) كبيرة تقف في وجههـا مؤسـسة الإسكان.

ولذلك، (وحسب ما صرحت به مؤسسة الإسكان لوسائل الإعلام الرسمية)، بدأ المحافظ بوضع العراقيل أمامهم، من تأخير في تسليم الدراسات أو التغيير المستمر للمواصفات.

وبدأ تقاذف التهم بين المحافظة وبين مؤسسة الإسكان عن أسباب تأخر أعمال الـساحة، إلى أن (استوت) الطبخة، فأصدر المحافظ قرارا" بسحب أعمال ساحة الأمويين من يد مؤسسة الإسكان العسكري بحجة عدم الكفاءة. وقام بتعهيد كافة الأعمال إلى شركة الخياط (أي محمد حمـشو)، وطبعا" حصل على (الرزقة) التي كان يسعى وراءها.

مؤسسة الإسكان العسكري لم تسكت على المحافظ الذي كان عليه أن يحذر مـن اللعـب مـع (العسكر).

ومقارنة" مع تاريخ محمد ميرو وناجي العطري (الحافل) عندما كانا حافظين، فـلا تـستبعدوا أن يصبح محمد بشار المفتي رئيس وزرائنا القادم...!! فأنتم في سوريا...

مهمات حمشو التي كلف فيها من قبل ماهر الأسد .

١ - عقود البترول مع عدي صدام حسين تهريب البترول العراقي لبيعه بالسوق السوداء بعيـدا عن قرار الأمم المتحدة " النفط مقابل الغذاء " وكانت تنقل من العراق إلى سوريا ويتم نقلـها " بواخر شحن بترول خاصة " تباع في السوق السوداء وكان فيها " مضر الأسد – وشركة المهيب وهيب مرعي - هاشم العقاد - صائب النحاس ".

٢ - بيع معدات إنارة من شركة " فليبس " من وكيلها في سوريا بسام سكر وكان شريكه عمر التاجر ابن اللواء مطفى التاجر وكان صفقة فيها الملايين من الدولارات.

٣ - غسل أموال صدام حسين وتهريبها من العراق بعد اجتماعه مع عدي صدام حـسين ومـع رجل أعمال أردني اسمه يوسف الزعبي ومحمد ؟ ...

حيث تم إدخال المبالغ إلى لبنان وتم تبيضها وتقلها إلى بنوك أخرى عربية وتم تبيضها عبر بنـك المدينة وبنك الموارد وكان المشرف الأمني على هذه العملية " العميد رستم غزالـة " حيـث تم

إدخال مبالغ هائلة بأسماء وهمية وصفقات مشبوهة أو تسمى صفقات بدون أي أساس لها وعقود تصدير وهمية ليتم تبيض الأموال داخل هذه البنوك.

بالإضافة إلى عمليات تبيض أموال المخدرات ....

وقصص الأموال المهربة من بنك المدينة وخاصة الأموال التي سحبت وصدرت بأسماء مجهولة والأموال التي أيضا سحبت من قبل شقيق "العميد رستم غزالة " كلها أموال عراقية للبترول كانت قد تم تبيضها وبالإضافة إلى سرقة أموال مودعين بنك المدينة بالإشتراك أيضاً مع " العميد رستم غزالة " .

و بعد سقوط نظام صدام تم الاحتيال على الحكومة العراقية الجديدة بهذه العمليات حيث لم يتم التصريح عنهم وتم كشف عملية تهريب أموال عراقية بعد دخولها إلى اللبنان مبالغ ضخمة بطائرة خاصة وكان مشرف على تهريبها محمد حمشو ولكن الأقدار شائت أن تكشفها الأجهزة الأمنية اللبنانية ويتم مصادرتها ...

محمد حمشو مسؤول عن الحسابات السرية لماهر الأسد في البنوك الأوروبية وخاصةً السويسرية ...

لديه أسهم في إحدى الشركات المالية السويسرية التي تعنى في إصدار بطاقات (ماستر كارد) " ولكن المالك الحقيقي لهذه الأسهم هو ماهر الأسد "...

أسهم في بنك سوريا والمهجر وشريك أساسي لشركة " الهرم للصرافة " مدعومة من ماهر الأسد " الصرافة والتحويل الخارجي ممنوعين في سوريا " ؟؟؟ ....

كما أجبرت المؤسسة العامة للإتصالات على إرساء مناقصة "**PDN**" شبكة الانترنيت في سوريا وبلغت غرامات التأخير أكثر من أربع ملايين دولار وتم التخلي عن وزير الأتصالات السابق "بشير المنجد" لأنه طالب محمد حمشو بتسديد غرامات التأخير !!

وإحدى طرق تبيض الأموال إنشاء شركة لصناعة الإسمنت في سوريا وعلماً بان كثير من "الشركات الألمانية " لم يتم الموافقة على عروضها !!!

فقد أعلنت مجموعة حمشو الاقتصادية السورية عن مشروع جديد للإسمنت بطاقة إنتاجية تصل إلى مليون ونصف المليون طن سنوياً و بأن المشروع مشمل بقانون الاستثمار رقم ١٠، وأن رأسمال هذا المشروع يبلغ ٢٠٠ مليون دولار، ومن المقرر أن يقام في منطقة أبو الشامات قرب دمشق كما انه سيعتمد على تكنولوجيا أوروبية ويوفر ٤٠٠ فرصة عمل.

نشاطات محمد حمشو القذرة .

نشط محمد حمشو بالرياضة ليكسب مؤيدين له حتى يمكنه الصعود إلى قبة البرلمان وكان من خلال دعمه المالي لنادي الوحدة ونشاطات نادي الوحدة ولم يكفيه استغلال الرياضة لمكاسبه الخاصة بدا يطمع خارجياً

بتأسيس علاقات خارجية مع بعض الشخصيات ذات نفوذ خليجي فأسس نادي السيارات السوري "رالي سوريا الدولي"

حيث استطاع استضافة رالي سوريا الدولي بدعم من ماهر علن طريق الاتحاد الرياضي العام في سوريا وقدمت لهذا العرض من رالي سوريا خدمات لوجستية وأمنية كبيرة وسياحية خاصة بالمشاركين.

وكان أغلب المشاركين من شخصيات خليجية ذات طابع خاص " امراء " مما سمح له بعلاقات جديدة على مستوى الخليج ...

استغلاله للفن أسس شركتين فنية الأولى معروفة باسم سوريا الدولية للإنتاج الفني ليتمكن من ترويج نفسه لدى الفنانين بإنتاج مسلسلات تاريخية وفكاهية ومسلسلات ناقدة طبعاً سمح له بهذه المسلسلات الناقدة للواقع السوري كي يتمكن من الصعود إلى "مجلس الشعب " حتى يعرف عنه الشفافية والديمقراطية ...

لكن كذبته لم تدوم كثيرا بعد حصل مشادات مع الممثل " باسم ياخور" ...

ممثّل سوري تعرّض لتهديد من عضو بمجلس الشعب: أمره بالتوجّه إلى الحدود لاستقبال الجيش مع "لّمة من الممثّلين"...

بيان للرأي العام من الممثل باسم ياخور:

مع مطلع العام الحالي نشب خلاف حاد بيني وبين رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب السيد محمد حمشو، بسبب تدخله المباشر في تفاصيل فنية، لأحد الأعمال المنتجة من قبل شركته الفنية (سوريا الدولية)، والتي كنت مشاركاً في إعدادها وتمثيلها وهو (بقعة ضوء).

وكنت مؤخراً قد اعتذرت عن الاستمرار في العمل به، رغم اصرار الشركة المنتجة، مبرراً اعتذاري بالتدخل السافر للمنتج في وضع قيود رقابية تضاف لقيود الرقابة الرسمية، وبتوجيهه لبعض اللوحات بشكل يتفق مع مصالحه الشخصية، وقد أجريت بعض المقابلات مع الصحف العربية أشرح فيها ماجرى، وأسباب الاعتذار.

لكن التدخل لم يقف عند حد فني أو مهني، بل طالني شخصياً عندما أقدم السيد حمشو على الاتصال بي، موجهاً لي أمراً مباشراً بالتوجه مع (لّمة من الممثلين) حسب تعبيره، إلى الحدود السورية اللبنانية، لاستقبال الجيش، وعندما أجبته أنني لست بحاجة إلى إيعازات مباشرة للقيام

بذلك، وبأنني استطيع رسم أفعالي ومواقفي بمفردي، كال لي ولأسرتي سيلاً من الشتائم المقذعة، والتي لا تناسب عضواً في مجلس الشعب ورجل أعمال معروف لبذاءتها وسوقيتها، فما كان مني إلاّ أن لجأت للصحافة لأعبر عن هذا الاقتحام السافر والمهين لشخصي، ونشرت لي لقاءات عانت الأمرين حتى خرجت للضوء، بعد التهديد والوعيد اللذين تعرض لهما من أجروا هذه اللقاءات من قبله.

ومؤخراً وبطريق الصدفة اتصل بي أحد الأشخاص بعد أن بحث باجتهاد عن رقم هاتفي، ليبلغني أنه شاهد وسمع أشخاصاً في أحد الأماكن يعرضون مبلغاً من المال على بعض المرتزقة، ليقوموا بالتعرض لي بالضرب والتشويه، وبأنه قد سمع في الحوار الدائر بينهم، ما يشير إلى وقوق السيد محمد حمشو خلف هذا الفعل، وبما أنني لست متأكداً كلياً من حقيقة هذا الأمر، لكنني أخشى أن يكون صحيحاً، ولذلك فإنني أحمل السيد محمد حمشو المسؤولية كاملة في حال تعرضي لأي اعتداء، وأبلغ الرأي العام بما جرى ويجري بيني وبينه في الفترة السابقة، كوني لا أستبعد قيامه بذلك.

دمشق في ٢٠٠٥/٧/١٢

الممثل السوري باسم ياخور

هذه مقتطفات من "رجل الأعمال والنائب محمد حمشو" ووجهه الحقيقي بعد أن خلع عن وجهه قناع الشفافية وقناع الديموقراطية حيث تبين انه إنسان " وضيع " وتعبيره لا تليق بان يكون تحت قبة البرلمان ...

مع العلم أن الحملة الأنتخابية للنائب ورجل الأعلام محمد حمشو كلفته أكثر من "٤٠٠مليون ليرة سورية "!!!

كلمات يلفظها ابن الشارع وتصرفاته تبين انه إنسان من " رجال المافيا " القتل والتهديد لغته الأساسية بالتعامل مع الناس ومنافسيه !!...

بذخ محمد حمشو :

محمد حمشو الكثير من المسؤولين الآمنين يتقربون منه وهو يتقرب منهم لأسباب إقتصادية قوية ولتقوية نشاطه بعيدا عن ظهور اسم ماهر الأسد حيث يقدم محمد حمشو هداياه الخاصة منه إلى مسؤولين الدولة .

سيارات من " موديلات متنوعة وحديثة " وهي تعتبر بالنسبة له هدية رمزية للتعارف أو هدية صداقة

ضريبة هدية محمد حمشو للمسؤولي هي كتم الأفواه وتسيير بعض المعاملات !!!

وبالنسبة لمكتبه الخاص طبعا هو لديه عدد مكاتب بس مكتبه في قرى الأسد الذي تم تقدير عفشه وديكوره

" بمبلغ مليون دولار " وهذا المكتب تم تصويره في إحدى مسلسلات الشركة الدولية للإنتاج الفني في مسلسل كان يقوم ببطولته " محمد كوسا - وباسم ياخور " .

طبعا تصويره هو نوع من حب الظهور ونوع من غرور النفس الذي يقول لدينا بالعامية الذي "لم يشبع في بيت أهله لم يشبعه مال الدنيا أبداً " ....

أما ابنه الذي لا يتجاوز من العمر ١١ سنة فلديه سيارة " فراري صفراء اللون " ولديه سائق خاص و مرافقين لحماية ابنه " بسيارة هامر اميركية "

فهو ابن الشعب ومن الشعب...

أكذوبة كبيرة يضحك بها على الشعب السوري ...

المجرم نادر قلعي*

مواليد دمشق سنة ١٩٦١

راسب سنتين في ثانوية الثقفي وخريج المعهد المتوسط التجاري في دمشق عام ١٩٨٥ يلقب بالمهندس حقيقة لانعرف متى حصل على شهادة الهندسة ومن اي جامعة تخرج ولكن معلوماتنا تفيد اتبع عدة دراسات في بريطانيا وحصل على عدة شهادات دراسية ومهنية وعضويات في جمعيات اعمال دولية وادارة شركات والده وعمل في استيراد وتجارة السيارات والعقارات.

عمله الحالي:

أعمال حرة تجارية، كومسيون، سياحية، تسويق، عضو مجلس ادارة في جمهورية سيرياتيل.

إذا أحب أحد التجار والمواطنين بالتحدث مع السيد قلعي شخصياً حتى يأخذ دورة تدريبية اطلاعية مكثفة "كيف تزيد من أموالك - كيف تضيف ملايين على المليون الاول؟".. عليك بالذهاب إلى النادي الرياضي المائي في اللاذقية او عليك السباحة إلى ميناء الصيد الذي يمتلكه في اللاذقية.

السيد قلعي مولود من أسرة دمشقية ميسورة الحال..

والده كان يعمل في تجارة العقارات واستيراد السيارات التي تحمل "لوحات مجلس الشعب ولوحات مشوهين الحرب" طبعا تعرّض والد نادر إلى خسارات مادية وكساد في الأعمال التجارية في سنة ١٩٨٤.

---

* نقلاً هن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت

والدته من عائلة دمشقية:

في بداياته تعرّف على باسل الأسد في نادي الفروسية حيث كان عمره ١٣ سنة وكان باسل الأسد يزور مترل آل قلعي لصداقته مع نادر..! وطبعاً وكانت الزيارات متبادلة وبعدها غادر إلى بريطانيا ودرس هنالك في معاهد عدة وفي هذه الأثناء بدء العمل التجاري الأول بترويج و بيع لوحات فنية وبعض القطع الأثرية في بريطانيا وكندا طبعا كله بعلم باسل الأسد.

ودعونا نتذكر حادثة مهمة حين "اكتشفت إحدى العوائل الدمشقية البسيطين في منطقة باب شرقي مجموعة من الآثار بداخل المترل حيث تم مصادرة هذا المترل من قبل عناصر المخابرات الجوية المفرزين للقصر الجمهوري مترل الرئيس وبعدها تم تهريب هذه الآثار إلى كندا حيث كان يقيم هشام قلعي شقيق نادر قلعي في كندا وكان يعمل بائع سندويش بعد ان تدهورت الأحوال المادية لوالده وتم بيع هذه القطع الأثرية في كندا واكتشفت الجمارك الكندية ببيع قطع أثرية سورية في كندا ونشرت في الصحف الكندية" انتقل شقيق نادر إلى باريس واستقر بها وافتتح بها مطعم "الرفييرا"..!

ومع ازدياد نفوذ باسل الأسد إزداد نفوذ نادر بين الضباط السورين من الأجهزة الأمنية وأبرم صفقات تجارية بينهم وكان بعض المسؤولين يتقربون من نادر على أمل التوسط والرضا عليهم. طبعاً كان لنادر لقب يردده المقربين منه ومن يعرف حقيقته من زير للنساء و...!!

توفي باسل الأسد وشاهده الكثيرون وهو يندب ويبكي حيث تحدث له احد المقربين منه "الحزن بالقلب وليس بالنواح واللطم يا نادر" بدون وعي كان جواب نادر قلعي: "اتركني بسّ حتى يشوفني بشار".

وضعف نفوذ نادرقلعي بعد وفاة صديقه باسل وبدأ بمشوار التعلق بالمسؤولين وهو، إذا صحّ الوصف، كان يعتبر من (جهابذة) لعق أحذية المسؤولين في سوريا، قبل أن يتبناه رامي مخلوف.

قبل تبني رامي مخلوف لنادر قلعي تقرب من حافظ مخلوف (الأخ الأصغر لرامي) كونه كان صديقه ايضاً. وكان حافظ ملازماً لباسل حتى اثناء وقوع حادثة وفاة باسل الأسد كان بجانبه فرافقه في مشوار علاجه من أثر الحادث الذي نتج عنه وفاة باسل الأسد.

تقرب بطل قصتنا من آل مخلوف جيداً حيث استطاع ان يستفيد من قروض ممنوحة بمبالغ طائلة ومدة زمنية طويلة لتسديد القروض من المصرف العقاري السوري الذي يرأسه "محمد مخلوف".

ونشط في مجال البترول وبمجال شركات التنقيب النفطي بمساعدة محمد مخلوف ورامي افتتح مكتب تجاري في مجال التنقيب وكان له اسهم مع شركة شل للتنقيب على النفط طبعا كان هذا لصالح محمد مخلوف .

هذه الظروف ساعدت نادر قلعي بترويج اسمه لدى عائلة الأسد مجدداً حيث بداء اسمه يسطع في بريطانيا وسويسرا وذلك عبر شركات التنقيب وعبر بيع البترول خارج منظمة الأوبك حيث كان يأخذ عمولة ٥٠ سنت على برميل النفط عبر عقود بنكية سويسرية مع شركات التنقيب الأوربية والأميركية طبعا كلها لصالح أل مخلوف وأل الأسد .

كلف بمهمة سحب الأموال المودعة لباسل الأسد بالبنوك السويسرية وكان المفوض الرسمي لحل العوائق القانونية التي وضعتها المصارف السويسرية بعد وفاة باسل الأسد حيث تم تزويج باسل الأسد بعد وفاته باحدى أقارب نادر قلعي لتستطيع نقل الأموال التي قدرت وقتها بحوالي ٣ - ٤ مليار دولار إلى بشار الأسد وحل هذا الخلاف بالتنازل عن نسبة من المبالغ المودعة لصالح البنوك السويسرية (حيث تم التنازل عن حوالي ٥٠ مليون دولار).

بعد هذه الأعمال التي قدمها إلى عائلة الحاكم أحب ان يعمل بمفرده "استكشاف الآثار" وبتهريبها وبيعها في الخارج لم يتمكن نادر قلعي بمفاتحة هذه المواضيع التجارية القذرة مع بشار الأسد للأسباب التالية:

١ - انشغال بشار الأسد مع والده المرحوم حافظ الأسد حتى يتم تهئية نفسه خلفاً لوالده

٢ - كره العقيد الدكتور المهندس محمد سليمان لنادر قلعي كون العقيد محمد سليمان لا يكن لنادر قلعي سوى الحقد يعود إلى زمن بعيد اثناء وجود العقيد محمد في روسيا لتحضير اطروحة الدكتورا في الهندسة العسكرية حيث اجرى باسل الأسد زيارة رسمية مع وفد عسكري لشراء اسلحة خاصة بالحرس الجمهوري وكان الوفد برئاسة اللواء " عبد الكريم بدور " مديرأدارة التسليح العسكري " المعروف عن اللواء عبد الكريم تربطه علاقة قوية بالعقيد محمد كون العقيد محمد هو من زكى اللواء عبد الكريم عند المرحوم باسل الأسد بضرورة تسليمه مدير أدارة التسليح وبضرورة منحه مترلاً يليق بخدماته من سرق وسمسرة لصفقات الأسلحة تم منح فيلا بقرى الأسد باسم القائد العام للجيش والقوات المسلحة عن طريق باسل طبعا إلى" اللواء المذكور" طبعاً صفقة الأسلحة لم تتم بوجود نادر قلعي حيث اكتشف نادر بوجود فرق أسعار بين روسيا وأكرانيا وجنوب أفريقيا فأبلغ بها باسل الأسد فتوقفت الصفقة وتوقفت معها سمسرت ونسبة العقيد محمد سليمان .

٣ - سيطرة ماهرالأسد على التنقيب على الأثار وتهريبها وبيعها وكون نادر لاتربطه علاقة جيدة مع ماهر وأسندت هذه الأعمال إلى رئيف قوتلي

بعد وفاة حافظ الأسد وظهور اسم رامي مخلوف رجل الأعمال الخاص لبشار الأسد بداء البحث عن شخصية موثوقة تساعد رامي مخلوف وخاصة بعد عملية النصب الكبرى التي قام بها الأستاذ

رامي "شركة سيرياتيل" على الشركة "اوراسكوم المصرية" لصاحبها نجيب ساويروس طبعاً بمباركة بشار الاسد وتم تنفيذ هذه النصبة عبر القضاء السوري للأسف وبعد مناشدة صاحب الشركة المصرية للأتصالات الخليوية لبشار الأسد صاحب فكرة التحديث و تطوير الأستثمارات في سوريا الخاصة .

وتم مصادرة أموال الشركة المصرية ووضع حارسين قضائين على الشركة الأول إيهاب مخلوف والثاني نادر قلعي.

السيد ساويروس شكك بنزاهة القضاء السوري لأنه عين شقيق رامي السيد ايهاب وصديق رامي الحارسين القضائيين؟ !!

- اسباب تلك الانتقادات مفهومة خصوصاً ان القضاء السوري هو الذي القى الحجز على اموال شركة (اوراسكوم) لمنع تهريبها ما اثار حفيظة السيد ساويروس ودفعه إلى توجيه تلك الانتقادات.

فهل القضاء السوري عادل ونزيه ؟؟!!

وهل هو ضمانة رئيسية للمستثمرين؟؟!!

إن الوثائق المتوافرة لدينا تؤكد ذلك وأنه اذا عرضت امام اي قضاء آخر فلن يكون حكمه مختلفاً سوى بأن تصادر أموال شركة سيرياتيل ويوضع رامي مخلوف وراء القضبان لأن الممارسات التي اتبعتها (اوراسكوم) لا تنسجم ابداً من اخلاقيات وسلامة العمل ولأيحق لهذه الشركة أن ترفع دعوة قضائية ضد شخص يمس عائلة الحاكم النزيه بشار الأسد.

ففي واقع الأمر فإن شركة سيرياتيل هي عبارة عن شركة من شركات بشار الأسد وأن رامي ونادر ليسا إلا سمساريين وعاملين بسيطين بهذه الشركة..!!

في بداية ٢٠٠٥ غادر رامي مخلوف ونادر قلعي إلى الصين لعقد صفقة مع شركة هاواوي للاتصالات الخليويه لشراء أجهزة تقوية ومقاسم خليوية لشركة سيرياتيل فطلب عمولة من الشركة الصينية عمولة ٢٠ بالمئة باسم رامي مخلوف واجتمعت ادارة الشركة مع رامي مباشرة وسألت كيف تطلب لنفسك عمولة وأنت صاحب الشركة ؟؟؟؟ !!!!

فتبين أن رامي مخلوف هو الصورة الخارجية للمالك الأساسي بشار الأسد وماهر الأسد و رامي مخلوف وسمساره نادر قلعي هم من يسرقون عمولة من الشركات التي يتعامل معها فتصوروا يرعاكم الله..!

إن رامي مخلوف المعروف بحنكته التجارية أراد شخصية مطابقة لشخصية نادر قلعي (انتهازية ووصولية ولا يهمّها الشرف والأخلاق) ليكون واجهة في صفقاته العديدة مثل صفقة مدرسة

الشويفات الخاصة حيث يروّج القائمون على المدرسة أنها ملك لنادر قلعي بينما هي فعليا ملكـا لرامي مخلوف.

لكن مهما تعددت الأسباب فإن إنصاف الرجال مثل نادر قلعي "لأنه نادر بين الذكور السوريين لم يحسبوا يوماً حساب أولادهم حيث سيحملون وصمة عار آبائهم إلى ما شاء الله".

ولهذا نقول له "لا تتبختر بين الناس وأنت نافشاً ريشك مثل الطاووس". فالناس كلها تعرف من أين أتيت وكيف أصبحت على ما أنت عليه. فدمشق وعائلات دمشق تتبرأ منـك، والرجـال السوريون الشرفاء الحقيقيون يتبرؤون منك.

وإذا كان هنالك أشخاصاً رفعوك لتتربع على عرش المال، فإن تاريخ دمشق سيعيدك إلى مزابلها وسيأتي يوماً ستضطر فيه إلى مغادرة وطنك لتصبح مجرد مشرد ثري بلا هوية، في بلـد غريـب تستطيع أن تمارس فيه طباعك على الملأ دون خجل.

المجرم ذو الهمة شاليش*

العميد ذو الهمة شاليش ابن عمة الرئيس بشار الأسد ورئيس الحرس الخاص به..!

اسم بدأ يتردد بكثرة في سورية في الآونة الأخيرة.

من هو هذا الرجل...وماذا يعني بروزه في المرحلة الأخيرة؟

هو ليس رجل سياسة....وأكاد أجزم أن مستوى تعليمه لايتجاوز المرحلة الإبتدائية.

ولكنه النظام الأسدي يرفع بيوتا لاعماد لها...

شاء حظ هذا الإنسان أن يكون خاله الهالك حافظ الأسد....

كان من عناصر الحماية الشخصية للديكتاتور مع كل مايعنيه هذا من امتيازات عدا عـن صـلة القربى به.

وفي السنوات الأخيرة لحكم الأسد الأول خرج هذا الرحل من طاقم أمـن الـرئيس ليتفـرغ للبزنس.

أنشأ شركة مقاولات ضخمة. وهي ضخمة إسميا فالعارفون يقولون أن رأسماله زهيد وآلياها أقل من أي شركة عادية وكادرها أقل من أن ينفذ ١% من حجم الأعمال التي تنفذها.

وقد تخصصت هذه الشركة في الأعمال الترابية أي في شق الطرق وإنشاء السدود التخزينية مثل سد زيزون الفضيحة.

* نقلاً هن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

يقال إن حجم المقاولات التي تنفذها هذه الشركة يقدر بعدة مليارات سنويا.وأن أي مشروع يزيد حجمه عن خمسين ليرة سورية يجب أن يكون من نصيب هذه الشركة.

الأسعار التي تتقدم بها شركة ذو الهمة هي الأعلى من بين الشركات المنافسة ورغم ذلك يرسى العطاء عليها لأسباب فنية .وهو عادة مايطلب من آليات المؤسسات الحكومية تنفيذ الجزء الأكبر من العمل بدون مقابل بالطبع وويل لمن يرفض. وأما الباقي فيقوم مقاولون محليون بتنفيذه بالباطن وبالمجان في أغلب الأحيان فالويل والثبور وعظائم الأمور لمن يجرؤ على مطالبة ذو الهمة بحقه.

طبعا تنفيذ المقاولات يتم بأكثر طرق الغش وقاحة وغباء ولا أهمية إن انهار السد بعد تنفيذه بخمس سنوات أو امتلأ الطريق بالحفر قبل الإنتهاء من تنفيذه فويل للمهندس في لجنة الإستلام الذي يجرؤ على القول أن التنفيذ لا يطابق المواصفات.أو يفكر مجرد تفكير برفض استلام المشروع.

ويلاحظ المراقبون في العاصمة السورية دمشق أن العميد "ذو الهمة شاليش" مرافق الرئيس بشار الأسد وابن عمته غاب عن واجهة الأحداث في الفترة الأخيرة.

وقال مراقبون، إن ابن عمة الرئيس لم يظهر معه منذ كشف صحيفة أمريكية النقاب عن ضلوع شركة يملكها مع ابن أخيه آصف عيسى شاليش في صفقات تهريب معدات عسكرية محظورة إلى العراق بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٣.

وكانت صحيفة "لوس أنجليس تايمز" الأمريكية ذكرت في ٣٠ كانون الأول ٢٠٠٣ أن شركة "اس اي اس انترناشيونال كوروبوريشن" الخاصة التي يديرها ابن عمة الرئيس السوري كانت القناة الرئيسية لنقل أسلحة ومعدات عسكرية إلى بغداد بصورة غير شرعية، حسب محفوظات عُثر عليها في العراق.

وبحسب هذه المحفوظات، فإن الشركة السورية وقعت أكثر من خمسين عقداً لتزويد الجيش العراقي باسلحة ومعدات تقدر قيمتها بعشرات الملايين من الدولارات وذلك قبيل بدء الحرب على العراق في عام ٢٠٠٣.

وقالت الصحيفة إن شركة "كامبريدج تكنولوجي انكوربوريشن" الأمريكية ومقرها ماساتشوستس (شمال شرق) باعت أربعة أجهزة كشف (سكانر) يمكن ان تستخدم في تغيير مسار صواريخ يتم توجيهها بالليزر، بناء على طلب شركة كندية في بادئ الأمر، وقد تكون أُرسلت فيما بعد إلى جامعة أردنية ثم اعيد ارسالها إلى العراق. وكان الجيش العراقي هو الشاري النهائي لكن ذلك حصل من دون علم الشركة الأمريكية، كما قالت الصحيفة. وأوردت الصحيفة أيضاً

أسماء شركات بولندية (ايفاكس) وكورية جنوبية (ارميتال كومباني) وروسية (ميلينيوم) وسلوفينية (اس تي او رافن) خرقت الحصار وابرمت عقودا مع العراق.

كما ذكرت الصحيفة أن مسؤولين كوريين شماليين التقيا إدارة شركة "اس اي اس" في دمشق قبل شهر من الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على العراق في آذار ٢٠٠٣، لبحث طريقة تسديد بغداد عشرة ملايين دولار بدل "قطع مهمة" مخصصة لصواريخ بالستية.

ومن المعرف أيضاً عن ذو الهمة بعلاقته مع الأخوة فتوش (بيير ونقولا فتوش) إذ قام بعلاقات وثيقة معهم بدات منذ عام ١٩٨٠ حيث كان يقوم بتهريب الحديد والخشب والمواد الكهربائية لمشاريع الاسكان العسكري التي يديرها أخو رياض شاليش فتوطدت العلاقة بين ذو الهمة وبير فتوش فأنشئا معاً بعض المشاريع في دولة لبنان وكانت هذه المشاريع محمية من اجهزة الأمن السوري ومن السيد المحامي نقولا فتوش النائب في المجلس النيابي اللبناني وهي:

١ - معمل ومستودعات للحديد والخشب في سهل البقاع قرب مدينة زحلة مخصصاً للتهريب تجاه الأراضي السورية ومحمية من مفرزة من المخابرات العسكرية السورية

٢ - معمل لتعبئة المشروبات الكحولية بمختلف انواعها ويقوم هذا المعمل بتزوير الماركات العالمية وبيع هذه المواد تهريباً إلى سوريا عن طريق العميد حسن مخلوف في إدارة الجمارك العامة في سوريا.

٣ - شركة للاتصالات وتقوم هذه الشركة بسرقة الخطوط الدولية وقد أشير لها منذ عاميين في الصحف اللبنانية وتدخل العميد رستم عزالي لإقفال الموضوع على اعتبار ان ذو الهمة شاليش هو ابن عمة الرئيس بشار ومرافقه الشخصي. وتسبب هذه الشركة الخسائر بملايين الدولارات للهاتف اللبناني بسبب سرقة الخطوط التي تقوم بها.

٤ - الكسّارة المعروفة في ضهر البيدر والتي أثير الجدل عنها في مجلس الوزراء اللبناني أخيراً والتي ماتزال تعمل بالرغم من إصدار الحكومة اللبنانية قراراً بإيقاف جميع الكسّارات منذ حوالي ٧ سنوات ويملك فيها ذو الهمة حصة الأسد.

هذا فيما يتعلق بمشاريع ذو الهمة في لبنان.

وعودةً إلى ملف فساده في سوريا، فقد أنشأ ذو الهمة شاليش شركةً للاتصالات عام ١٩٩٨ وشارك فيها ابن أخيه فراس شاليش الذي أدارها لعدة سنوات في مدينة حمص، وأنشأت هذه الشركة سنترال خاص للاتصالات الخارجية ووضعت يدها على عشرات الألوف للخطوط الهاتفية في مدينة حمص في حين كان المواطن محروماً من وجود هاتف خاص بمنزله وتم بيع قسم من هذه الخطوط للمواطنين السوريين بسعر ألف دولار للخط الواحد كما قامت هذه الشركة

بالاتفاق الضمني مع مؤسسة الاتصالات بحمص بتهريب المكالمات الدولية حيث جنت الملايين من الدولارات وأضاعت على الخزينة العامة الملايين من الدولارات.

وبعد دخول شبكة الهاتف الخليوي إلى المنطقة الوسطى في سوريا بدأ الخلاف بين رامي مخلوف وفراس شاليش فاتخذ الرئيس بشار الأسد جانب رامي مخلوف من الخلاف وهرب على أثرها فراس شاليش إلى قبرص حيث يعمل على استثمار الأموال المسروقة من قبله ومن قبل عمومته في الاستثمار في معامل وفنادق وعقارات في قبرص.

وطبعاً مسرحية الحكم السوري المعروفة أن وزير المالية محمد الحسين كان قد أصدر في شهر أيار ٢٠٠٥ بإلقاء الحجز الاحتياطي على الأموال المنقولة وغير المنقولة العائدة لفراس عيسى شاليش، نجل مدير مؤسسة الإسكان العسكري رياض شاليش، والأخير ابن عمة الرئيس السوري بشار الأسد وشقيق مرافقه الخاص العميد ذو الهمة شاليش.

وجاء الحجز على أموال فراس شاليش (مواليد ١٩٧٦) ومعه بدر أحمد حسن وسهيل نايف مسعود، ضماناً لمبلغ ٧٤٣ ألف دولار، إضافة إلى ٢,٤٩٨ مليون ليرة سورية، بالتكافل والتضامن بين المذكورين. ولم يُعرف كيف ترتب المبلغ المذكور على ذمة شاليش ورفاقه.

اسم شاليش معروف في عالم المقاولات في سوريا..

والمعروف اكثر ان اي مناقصة من العيار الثقيل لا بد وان تمر اولا على مكتب شاليش للمقاولات ..فإما ان يأخذها او ربما يتركها ليستفيد منها غيره

وقد علمنا من مصادر موثوقة أن ذو الهمة شاليش كان على علاقة وثيقة مع عدي وقصي صدام حسين وحين ألقي القبض عليهما في مدينة حماة السورية قبل اسبوعين من قتلهما على يد القوات الأمريكية في بغداد، إقتيدا من حماة إلى فرع الأمن السياسي في دمشق وهناك طلبا الاتصال بذو الهمة شاليش وبالسيد أبو دعبول مدير مكتب بشار الأسد ولاحظ المحققون أن أرقام الهاتف الخاصة للمذكورين موجودة في حوزة عدي وقصي صدام حسين.

ومن خلال المحادثة التي تمت بين الموقوفيين وضابط الأمن السياسي المسؤول أبلغا أن ذو الهمة شاليش وضع يده على مايقارب من مليار دولار من اموال صدام حسين فأقفل الموضوع ورحل عدي وقصي إلى الحدود العراقية ليلاقيا حتفهما بعد أيام قليلة.

وأخيراً تقدر الأموال التي يملكها ذو الهمة شاليش وأخويه (رياض وعيسى شاليش) وهم المجموعة الأفقر في عائلة الأسد بأكثر من ثلاثة مليار دولار.

فهل ستذهب هذه الأموال مع النظام السوري أم سيطالب الشعب السوري باستردادها في حال إسقاط آل الحاكم..؟

المجرم إياد طه غزال*

مواليد حلب

يحمل إجازة بالهندسة الميكانيكية جامعة حلب...

ينتمي إلى عائلة حلبية متوسطة الدخل...

تربطه علاقة عائلية فعمه المرحوم اللواء زهير غزال أمين عام رئاسة الجمهورية العربية السورية...

بعد تخرجه من جامعة حلب التحق في العمل لدى مؤسسة الإسكان العسكرية ومن ثم إلى بلدية حلب.

أدى الخدمة العسكرية الإلزامية في الحرس الجمهوري مفرغاً لدى المكتب الهندسي برئاسة الجمهورية وبعد حوالي ستة اشهر من التحاقه بالقصر الجمهوري تم نقله إلى القصر الجمهوري بحلب ليكون المسؤول عن القسم الهندسي والصيانة وبهذه الفترة كان بشار الاسد يجري دورة عسكرية في مدرسة المشاة في حلب حيث كان معظم أوقات مبيت بشارالاسد انذاك في القصر الجمهوري بحلب والقصر الجمهوري عبارة عن فيلا مؤلفة من ثلاث طوابق وبجنبها أيضا فيلا صغيرة ومحاطة بسور عادي وهذا القصر في محل الأعظمية أو مايسمى مدخل حلب أمام نادي الضباط الجديد .

وكان المسؤول عن هذا القصر مساعد أول أسمه أبو يامن وهو من عناصر المخابرات الجوية والتي كانت سابقاً تابعة إلى مفرزة المطار قبل احداث الفرع في حلب .

وبعد إنهاء اياد غزال الخدمة العسكرية تعاقد مع وزارة رئاسة الجمهورية وبالأحرى تم نقل ملاك اياد غزال من وزارة الادارة المحلية محافظة حلب إلى ملاك رئاسة الجمهورية .

وبهذا الوقت ارتبط بعلاقة وثيقة مع أبو سليم دعبول وارتبط بعلاقة قوية مع أولاده وبداء بتشكيل علاقة مصداقة مع بشار الاسد عن طريق تردده إلى الصالة الرياضية التابعة للقصر الجمهوري وكان المشرف على تركيب الاجهزة الرياضية فيها وبهذه الفترة كان العميد محمد البكور رئيس فرع المخابرات الجوية بحلب كان في وقتها مدير مكتب اللواء محمد الخولي مدير إدارة المخابرات الجوية بسوريا حيث ان إدارة المخابرات الجوية كانت المشرفة على حراسة وإدارة الشؤون الخاصة للرئيس في المكتب والمترل .

وكان صلة الوصل للتعارف مع هذه الجهات هو المرحوم اللواء زهير غزال.

---

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

وكان له أيضا صداقته الخاصة مع المرافق الشخصي لبشار الاسد محمد علي ديب الذي تــوفي في حادث سير غريب "داخل قصر الشعب!" بعد تسلم بشار الحكم في سوريا.

بعد مساعدة عمه المرحوم اللواء زهير غزال تم تعيين المهندس إياد طه غــزال مــديراً للقــصر الجمهوري بحلب وبعد تسلمه هذا المنصب بدء بالعمل في كتابة تقارير عن محافظة حلــب وعــن التجاوزات وكان يرسل هذه التقارير "المعلومات" إلى رئاسة الجمهورية وكانت هذه التقــارير لا تلقى ترحيباً من قبل المرحوم العميد عبد الله زيدان مدير مكتب العلاقات الحزبية "المعلومات" لأن العميد عبدالله زيدان لم يكن يثق به أبدا !!

و أبلغ العميد اللواء زهير بتجاوزات كان يقوم بها أثناء خدمته الإلزامية أو في أثناء وجوده بحلب. شاء القدر بأن ينتقل العميد محمد البكور إلى حلب ليتسلم مهام رئيس فرع المخــابرات الجويــة بحلب بعد أن تم تشكيل فرع بدل المفرزة فأستقبله اياد غزال بالقصر الجمهوري لعدة أشهر حتى تم ترتيب له مكان إقامة له وإلى عائلته وهنا أعطى لنفسه اياد غزال التدخل في شــؤون حلــب الصغيرة والكبيرة .

بدأت التقارير ترسل إلى مدير إدارة المخابرات الجوية ابراهيم حويجة أنذاك مــن حلــب وهــذه التقارير كانت ترسل جزء منها إلى بشار الأسد خلال "تدريبه لتوريثه حكم سوريا" بعــد وفــاة والده.

وفي سنة ١٩٩٦ قررت وزارة رئاسة الجمهورية بناء على كتب مرســلة مــن مــدير القــصر الجمهوري بحلب بأن القصر الجمهوري بحلب بحاجة إلى صيانة عامة ومع إعادة بنــاء وديكــور وفرش جديد .

تم الموافقة على هذا الكتاب في تاريخ ١٩٩٦-٣-٥ وتم تعهد هــذا الموضــوع إلى مؤســسة الإسكان العسكري ولكن هذا العقد لم يروق للسيد اياد غزال بتعهد الإسكان العسكري للقصر الجمهوري فدبرت عملية سرقة وغش في مواد البناء إلى مدير المشروع وبالإتفاق مع محافظ حلب أنذاك مصطفى ميرو فعلاً تم توقيف مدير المشروع مع عدد من المهندسين وتم توقيف المــشروع لعدة أشهر وبعدها أوكلت مهمة المشروع إلى شركة خاصة لإ نهاء هذا المشروع والشركة الخاصة كان له النسبة المفيدة بها ونسبة إلى محمد بكور كون الشركة التي تعهدت هذا المشروع عائدة إلى أحد أقارب العميد محمد بكور صاحب شركة لإعمال البناء ....

وفي فترة ظهور مصفى كلاس وآخرين "جامعي الأموال" في سوريا كان له الدور الأكبر لتفليسهم وتقديمهم للقضاء بالإتفاق مع المحافظ وذلك لضرب كل من العميد عمر حميدة رئيس فرع أمــن الدولة أنذاك ومدير الأوقاف بحلب أنذاك صهيب الشامي بعد أن تبين أن المذكورين لهم النــسبة

الأكبر بالأموال المودعة لدى جامعي الأموال في سوريا حيث كان هناك خطين في حلب إلى القصرالجمهوري هو خط صهيب الشامي وخط اياد غزال الذي بداء بالظهور حيث أراد انهاء الخط الاول للقصر الجمهوري "صهيب الشامي" وبعد تحقيق ما أراد تنفيذه تم توقيف كل من محمد كلاس ومصطفى كلاس وامينو وآخرين وكان وراء هذه اللعبة مصطفى ميروا والعميد محمد بكور واياد غزال ونصيب أستفادهم من هذه العملية ما يعادل مئة مليون ليرة سورية هذه بدايات اياد غزال بصفقاته المتوسطة.

ومن خلال زيارة قام بها بشار الاسد سنة ١٩٩٩ إلى مدينة حلب كان اياد غزال ملازماً لبشار وكون بشار أتى بجولة للمحافظات السورية رغبة من والده كان نفوذ اياد غزال قد ازداد بحلب وصلت به الأمور إلى أنه فرض على بعض التجار مبالغ مالية لزيارة بشار الأسد إلى محلاهم التجارية ومكاتبهم!!

وبعد مطالبة بعض التجار وبعض المواطنين بحلب بوضع حد للتجاوزات التي يقوم بها محافظ حلب أنذاك مصفى ميرو " يا أبو حافظ شلنا المحافظ " وتلبية لرغبة الشعب شال المحافظ وصار" رئيس وزراء"!!

إياد غزال الرجل الأول بحلب هذه الكلمة التي تردد في مكاتب الأمنيين بحلب وبعض مسؤوليها.

مجموعة اياد غزال هكذا كانت تسمى، عبد العزيز ثلجة القريب من ناجي العطري وهما متلاصقين دائماً، وعبد الغفور صابوني الذي أصبح امين الفرع الحزب ومن بعدها سفير سوريا لدى الجمهورية اليمنية وفرع الحزب الذي شكل بعد وفاة حافظ الاسد كان اياد غزال له الدور الأكبر بتشكيله .

هذا كله كان بمعرفة بشار الاسد حيث أبلغ عدة مرات من قبل مكتب العميد عبد الله زيدان بكل التجاوزات التي يقوم بها اياد غزال بحلب باسم القصر الجمهوري وحتى تم إبلاغ بشار الاسد من قبل اللواء زهير غزال عن العصابات والتكتلات التي أحدثها ايادغزال في حلب ولكن لا مجيب..!

بعد وفاة المرحوم حافظ الاسد انتقل السيد اياد إلى القصر الجمهوري ليتمكن من السكن داخل حرم القصر الجمهوري في الفيلا الصغيرة حيث كان يشغل منصب مديراً عاماً لمؤسسة الخطوط الحديدية بسوريا ومديراً للقصر الجمهوري بحلب !!!

وأجرى بشار الأسد زيارة مع زوجته إلى حلب وكان القصر الجمهوري بحلب هو مكان أقامته مما أعطت لأياد غزال الدعم القوي له في المحافظة على الصعيد الامني والحكومي والاجتماعي.

أصدر مرسوم جمهوري في سنة ١٩٩٩ بتعين اياد غزال مديراً عاماً لمؤسسة الخطــوط الحديديــة السورية ويبقى محافظاً على منصب مدير القصر الجمهوري بحلب " جمع منصبين في آن واحــد " ؟؟؟ !!!!

و الخطوط الحديدية السورية زادها فساداً مما هي عليه من فساد فهي مؤسسة لها من العمــر مــا تجاوز القرن والتي كانت مفخرة الدولة العثمانية.. وهي حالياً من أكــبر وأضــخم المؤســسات الاقتصادية إنتاجياً وخدمياً.. هذه المؤسسة بدأت بالتراجع الكمي والكيفي في السنوات الأخــيرة ولا سيما السنوات الخمس الماضية وبشكل ملفت للنظر. وبالرغم من إدارتها من قبل مهنــدس (مدعوم جداً) وصاحب صولة وجولة في محافظة حلب، إلا أنه عندما أصبح مــديراً للخطــوط الحديدية السورية تعالت تصريحاته الإعلامية بأنه سيجعلها مثالاً يقتدى للعمــل لــذلك تعــالوا لنتعرف على ما جرى لهذه المؤسسة.. وقبل الدخول في التفاصيل كان قد أثارني حوار صحفي مع وزير النقل المهندس مكرم عبيد أجرته الزميلة النور بتاريخ ٢٠٠٥/١/١٢ حول واقــع النقــل الداخلي في سورية. ذكر فيه الوزير أن طول الشبكة الحديدية قي سورية /٢٧٠٠/كم وهي من خط مفرد واحد وحجم نقل للبضائع داخل وخارج القطر /٧٠/ مليون طن. ويؤكد الوزير على تحسين البنية التحتية للخطوط الحديدية لأن قسماً كبيراً منها منفذ منذ أكثر من ربع قرن ولا بد من تطويرها، وتطوير القاطرات واستبدالها... الخ.. ومنذ شهرين بدأت روائح الفساد تخرج من أروقة المؤسسة: (صفقات مشبوهة، مشاريع وهمية، تدمير للبنية التحتيــة للمؤســسة، مئــات المحسوبيات.) الخ.. وبدأت النشرات على موقع محافظة حلب تنشر هذه الملفــات عــن الإدارة الحالية والسابقة...

هذا ما دفعنا لتقصي الحقائق والبحث عن الملفات.. وبدأت الأبواب تفتح وتغلق والوثائق تــأتي وتذهب.. وتمت المراهنة: هل أستطيع كشف الحقائق عن هذه المؤسسة أم هناك من يمنع؟ ومــع إصراري تابعت البحث والحصول على ما أريد، وعبر الصحف الرسمية كانت مقولة (اقرأ تفرح، جرب تحزن). كان الخوف يعتري كل من سألته عن الوثائق والحقيقة. ومعظم من أعطاني قال لا تذكر أسماءنا، فما زال صاحب القرار في المؤسسة هو المهندس محمد إياد غزال ولو أصبح محافظاً لحمص.

مبدئياً.. ربما سيصبح في المستقبل ذو قرار.. لذلك كان الخوف معشعشاً في العقول قبل القلوب.

ومن مبدأ قول رئيس الدولة:(لابد من مكافحة الفساد والإشارة إليه) كان هذا التحقيق:

وثائق من الصحافة السورية:

- قدمت الثورة في تاريخ ٢/٩/٢٠٠٣ الصفحة الرابعة تصريحاً لوزير النقل حول حادثة تصادم قطارين قرب بلدة تلكلخ: (العمال المتوفون أبطال وشهداء سيتم منح أسرهم تعويضات). ثلاثة عمال توفوا في حادث تصادم قطارين واعتبرهم أبطالاً وشهداء الواجب حيث بقوا في القطار (الهارب) حتى آخر لحظة، وهم يحاولون إيقافه دون جدوى (بسبب الخلل في المكابح) والتصادم أدى لوفاة العمال (آصف محمد- عيسى درويش- عبد الرحمن ديوب) الذين تمزقوا أشلاء، وجرح آخرون، وحريق دام ساعتين ونصف وأدى لخسائر مادية بقيمة /٨٠٠/ مليون ل. س.

- وفي العدد ١٢٥٧٤ في تاريخ ٣/كانون الأول ٢٠٠٤ الصفحة الأولى من جريدة الثورة كانت بعنوان (حريق كبير بقطار محمل بالفيول) قرب محطة النهر الكبير الشمالي للخطوط الحديدية، واشتعال /٢٣/ صهريج تحمل /١٧٦٠/ طن من الفيول، واحتراق خمسة دونمات حمضيات بشكل متفحم، لا خسائر بشرية. زار الموقع الوزير مكرم عبيد يرافقه المدير العام للخطوط (إياد غزال ومدير فرع اللاذقية) وصرح الوزير: إن العربة القاطرة التي تسحب القطار من النوع الحديث فتعطلت لأسباب غير معروفة..! مما أدى لتصادمها مع الصهاريج. وتم تشكيل لجنة مركزية ولجان فرعية لمعرفة قيمة الخسائر، وتعويض المتضررين وتابع الخبر: إن القطار القادم من بانياس باتجاه حلب كان (يشكو) عطلاً فنياً في المكابح. وقد أعلمت الجهات الرسمية والمعنية بهذا العطل بعد محطة النهر الكبير، حيث قاموا بإرسال عربة قاطرة لتعيده إلى المحطة لإجراء الصيانة اللازمة، وفي الطريق التقيا على بعد عدة أمتار من المحطة مما أدى إلى حصول الاصطدام وخروج بعض العربات المليئة بالفيول والاشتعال، دام الحريق /٣/ ساعات مع تدخل جهات الإطفاء. وكانت الخسائر ما بين ٥٠٠- ٦٠٠ مليون.

- وجاء أيضاً في صحيفة النور عام ٢٠٠٣- ٢٠٠٤ وتحت عنوان استبدال القاطرات الحديدية عملية تعمير أم تخريب..؟

- وفي صحيفة تشرين، العدد ٩١٩٠، تاريخ ٦/ آذار/ ٢٠٠٥، الصفحة الثانية كتبت الزميلة خديجة محمد تحت عنوان (نقل بالقطار بعيداً عن الأنظار).

- وأيضاً في مجلة الأسبوع الاقتصادي العدد صفر في تاريخ ١/ كانون الثاني/ ٢٠٠٠ الصفحة السابعة تحت عنوان (السكك الحديدية مؤسسة خاسرة بامتياز تعيش على نفقات الحكومة)، مقالات كثيرة تدل على حجم الخسائر المادية في هذا المرفق الحيوي الاقتصادي في سوريا.. تصريحات وتحقيقات.. وتنطفئ الحقيقة أمام الظلام الذي يسود العمل والعلاقات في هذه المؤسسة.

ما هي قصة المكابح؟

الوثيقة رقم (١): رقم القطار /٢٣٠٦/٣٣٣٣/ رقم القاطرة /٤٢٩/ تاريخ ٢٠٠٣/٩/١٠ السائق محمد علي بكر أمر القطار عبد الغني الذكور. في وثيقة كشف الحركة تم ذكر أن السبب في تأخير في الوصول سوء التغذية بحنفية اللجام (المكابح) الآلي.

الوثيقة رقم (٢): تقرير رئيس دائرة المراقبة في ٢٠٠٣/٤/٧ المرافق للقاطرة رقم ٧٠١ بين محطة حلب ودمشق بسفرة تاريخ ٢٠٠٣/٤/٥. وبعد فحص الخزانات الرئيسية للهواء المضغوط، ومصفاة الهواء، تبين أن هناك زيوتاً مختلفة مع الهواء حيث وجوت رواسب ذات لون أصفر لزج. وهذا يدل على وصول الزيت إلى دارة اللجام (المكابح) وهذا يؤثر على أجهزة المكابح. وكذلك تم فحص القاطرة /٧٥١/ الموجودة في مستودعات دمشق ووجد نفس الخلل. ويطابق رئيس دائرة المراقبة بالإيعاز إلى لجنة الاستلام الأولي بتدارك هذه الملاحظات، والانتباه إلى القاطرات الأخرى، وعدم استلامها إلا بعد تدارك هذه الحالة..

الوثيقة رقم (٣): القطار رقم /٣٤٤٠/ بتاريخ ٢٠٠٢/١١/١٩، السائق أحمد رشيد، القاطرة تقود /٣٧/ شاحنة حمولتها /١٧٠٥/ طن وهي نفس الحالة.. وكان الخلل في المكابح أيضاً.

الوثيقة رقم (٤): ردّ فنيعن الحالة السابقة تؤكد واقع القاطرة السيئ من حيث المكابح واختلاط الماء مع الزيت. ومما يظهره التحقيق أن عمليات الكشوفات الدورية والمنتظمة للقاطرات مفقودة..!!

من هذه الوثائق- والتي هي جزء من تقارير يومية حول واقع الميكانيك المتردين والصيانة المعدومة للقاطرات المصنعة فرنسياً والتي تم استلام /٣٠/ قاطرة منها حديثاً تظهر حالات التسيب والفساد وليس هناك رد من الإدارة ولا تحقيق لإيقاف هذا النزف المادي والبشري.. كلمات وتصريحات فقط وينتهي الوضع..!!

- ملاحظة: لقد صرح السائقون الذين سحبوا ملاحظاتهم السابقة أنهم بقوا فوق رأس عملهم كسائقين في القطار لمدة /١٩,٥/ ساعة. فهل هذا معقول؟ مع العلم أن الحد المسموح به للسائق والمرافق هو /٨/ ساعات فقط..؟

القاطرات الفرنسية تم التعاقد على شرائها منذ أيام المدير السابق غسان قدري. وتم استلامها في عهد المهندس إياد غزال، وبعد مدة تم شراء قطع تبديل لهذه القاطرات بقيمة /٧/ مليون يورو. أي ما يعادل ٤٩٠ مليون ل. س، علماً بأن العقد الموقع مع الشركة الفرنسية ينص على أنه وبعد الاستلام النهائي بـ /٥/ سنوات يمكن شراء قطع التبديل.. السؤال لماذا تم هذا الشراء ولصالح من..؟

الوثيقة رقم (٥): تم دفع مبلغ وقدره /٥٥/ ألف دولار قيمة نشر صفحة في مجلة بريطانية (BUSINESS WEEK) حوت تصريحاً وصورة لمدير الخطوط الحديد المهندس إياد غزال. لصالح من هذا المبلغ وما حقق من أرباح للمؤسسة؟ هل من المعقول أن صورة وتصريحاً بـ /٢٧٥٠٠٠٠/ ل. س.

اقرأ هذا الخبر من صحيفة الثورة عدد ١٢٦٧٧، تاريخ ١١/ نيسان/٢٠٠٥، الصفحة الثالثة للزميل منير الوادي تحت عنوان (غرامات ما بين ١٠٤ - ٢٨٠٠ل.س من ٤٢ عامل في مديرية زراعة حمص) بسبب مبرد جرار، وكسر واجهة بلور سيارة، وإصلاح باب سائق، وفقدان ١٥ ليتراً من البنزين، ونقص في خزان المازوت للسيارة. يقول الخبر معلقاً: (هذه المبالغ الهامة حين تم تغريم السائقين بها لم يذكر قرار محافظ حمص (إياد غزال) أين سيتم تحويلها أو ما هي المشاريع الضخمة التي سيتم استثمارها؟ حيث شكلت لجنة من أجلها وأعدت محضراً ولا نعلم إذا كانت هذه اللجنة تلقت أتعابها.!! وتساءلت الثورة.. هل يعقل أن المسؤولين ليس لديهم تجاوزات في صرف المحروقات وغيرها؟

خبر آخر للمقارنة ما بين /٥٥/ ألف دولار وبين التغريم لسائقي زراعة حمص.

الوثيقة رقم (٦): تم إرسال تقرير من /٢٠/ صفحة حوى /١٢/ فقرة ضمت تساؤلات موثقة بالبيانات لحجم الفساد وتدمير المؤسسة عبر علاقات شخصية وتبادل وانتفاعية نوردها بالتسلسل.

١ - كثرة المستشارين والتعاقد معهم دون مستند قانوني

٢ - استيراد عوارض خشبية غير صالحة

٣ - استيراد مدخرات وعوازل للخط الحديدي فاسدة

٤ - شراء قاطرات روسية وفرنسية وتطويرها بملايين الليرات دون فائدة ودون نتائج إيجابية والحوادث المذكورة أعلاه في الأرواح خير دليل.

٥ - تم دراسة خطوط حديدية ودفع ملايين الليرات دون القيام بأعمال التنفيذ.

٦ - شرح مفصل عن وضع الخطوط وأعطالها رغم مرور أكثر من خمس سنوات.

٧ - قضية القضبان الحديدية UIC- 60 واستيراد /٢٤/ ألف قضيب رُميت في العراء قيمتها /١٤/ مليوناً وسبعمائة وتسعين ألف يورو وضاعت كلها.

٨ - وسائل النقل الخاصة بالمديرية وعملية التوزيع وعملية الصيانة وحالة الفساد داخل المرآب. فهناك ٨ سيارات مخصصة للهيئة المركزية للوقاية والتفتيش في فرع حلب. ما عدا أصحاب الشأن في المحافظة بينما يتنقل العمال في باصات مستأجرة.

٩ - واقع الأبنية السكنية وصيانتها كشراء أبنية لا لزوم لها بقيمة /٢٠١٦٠٤٥٢٨/ ليرة وصيانة أبنية بقيمة /٢٨٣٠٧٢٢٧/ ل.س وشراء أجهزة تفتيش حقائب مسافرين لا لزوم لها بقيمة /٣٩١٠٥٧/ ألف يورو..؟

١٠ - البعثات الخارجية: كإيفاد المقربين للإدارة دون تحقيق أي منفعة علمية للمؤسسة ونضرب مثالاً على ذلك: إيفاد د. فاضل سكر لفرنسا في ٢٠٠٠/٥/٢ ثم إيفاده مرة ثانية بتاريخ ٢٠٠١/٤/٤ ثم إيفاد الكثير من المقربين حتى وصل الأمر لآذنه الشخصي للسيد إياد غزال.

١١ - تمرير صفقة لإنشاء معمل عوارض للقطاع الخاص بقيمة /٢٣٣٠٢٠٠٠٠٠/ وتكبيد المؤسسة خسائر فادحة. بينما معمل العوارض الذي هو ملك للشركة العامة لإنشاء الخطوط الحديدية يوفر هذه المادة. وقد وقف المهندس جورج مقعبري ضد هذا المشروع ورفض البيع وكذلك ممثل اتحاد العمال آنذاك عماد رعوان، وعارضا هذا الاقتراح لما فيه من هدر للمال العام فكان أن أبدل عماد رعوان برئيس اللجنة النقابية الحالي إبراهيم درويش، وكان ثمن موافقته مهمة إلى المغرب وتم الموافقة على بيع المعمل للقطاع الخاص..

الوثيقة رقم (٧): مهمة سفر إبراهيم درويش للمغرب.

ملاحظة: التقرير المذكور أعلاه حوى كل تفاصيل الفساد والتجاوز الإداري وتم توجيهه للسيد وزير النقل مكرم عبيد. وبتاريخ ٢٠٠٣/١٢/١٤ وجه الوزير كتاباً من /٣/ صفحات سجل في ديوان المديرية برقم /٢١٣/ وتاريخ ٢٠٠٤/١/١٤ سجل فيه: السيد المدير العام للمؤسسة العامة نرغب إليكم بيان الآتي، وسجل الكتاب /٢٥/ فقرة تساؤل حول واقع المؤسسة حسب التقرير المذكور والمرفق للوزير وختم كتاب السيد وزير النقل بحاشية على أن يصلنا جوابكم بالسرعة القصوى.. وحتى الآن لم يصل الجواب للوزارة.. علماً بأن وزير النقل زار المديرية بعد أسبوعين واجتمع مع مديرها العام المهندس إياد غزال ولمدة /٣/ ساعات منفردة..!!

الوثيقة رقم (٨) صرف مبلغ وقدره /٤٨/ ألف ل. س للمركز التلفزيوني بحلب بموجب القرار /١٤٢٥١/ تاريخ ٢٠٠٤/١٢/١ وذلك بسبب تغطية كافة الفاعليات والأنشطة التابعة للمؤسسة بالشكل المطلوب مما أدى إلى النفع المادي للمؤسسة..؟ التساؤل أين النفع المادي وهل التلفزيون قطاع خاص ليأخذ مكافأته أم هو عمل مؤسساتي مأجور بالمكافآت؟ ورغم ذلك معظم الأسماء لم تحصل على مكافآتها حيث تم قبضها من موظف واحد في المركز الإعلامي بحلب هو (عمر فتوح)، وذلك بطلب من مدير المركز التلفزيوني بحلب محمد علاء الدين، وتم ذلك بموافقة المدير العام المهندس إياد غزال.!.! هذا نموذج للمكافآت التي توزع وما أكثرها!!

الوثيقة رقم (٩): للعاملين في المؤسسة لباس مجاني والشراء حصراً من القطاع العام. ولكن المدير العام إياد غزال أعطى أوامره بالشراء من القطاع الخاص ومن أصدقاء له (عدنان بابللي - عدنان غليوني..) وهذا مخالف لتعليمات وأوامر رئاسة مجلس الوزراء والفواتير بمئات الألوف من الليرات..

الوثيقة رقم (١٠): بدا موقع محافظة حلب وعبر الانترنت يستقبل يومياً عشرات الشكاوى حول واقع الفساد في هذه المؤسسة، وكلها تشير إلى أسماء تبدأ من المدير العام السابق والحالي عبد المنعم. ب وكبار العاملين فيها إلى انغماسهم في الفساد.. أمثال عرفان. أو..- محمد.غ- فريزة .م- لمى.م- عدنان. ح.. والعارفون بالأمر داخل المؤسسة يقولون: إن المدير العام الجديد عبد المنعم البم هو استمرار لنفس السياسة السابقة لأنه كان معاوناً للمدير العام السابق وعلى مبدأ (تيتي تيتي متل ما رحتي متل ما جيتي)..!!

الوثيقة رقم (١١): صادرة عن أحد العاملين في المديرية

ملاحظة: هناك تقاسم للعقود في هذه المديرية كالتالي:

- كل عقود الشركات الخليجية ترسو على السيد ناظم غ، وهو أخو المدير العام السابق وهو مقيم في الإمارات.
- عقود رومانيا وروسيا ترسو على أخوه ناظم. غ أيضاً.
- عقود أوربا وأمريكا للسيد جوزيف أسود.
- عقود إيران ترسو على تاجر المجوهرات هراير.

ومن يعود إلى أرشيف العقود يشاهد الوثائق التي تثبت هذا الكلام.

- تم شراء عشرات القاطرات للحصول على عمولتها، علماً بأنه يوجد /٥٠٠/ عربة ركاب يستخدم منها فعلياً /١٠٠/ عربة والباقي متوقف لا يعمل.
- تم شراء عربة لقص الأشجار بقيمة /١٥/ مليون ل. س. وللعلم الخطوط على المنطقة الشرقية كلها حمراء ومزارع حقلية، أما المنطقة الغربية فلا حاجة لقص أشجارها.. والمعروف عن الخطوط السورية أنها عبر أراضٍ جرداء.
- هناك العشرات من العقود تم استلام موادها، ولكن اللجان المختصة لم تستلمها لعدم تطابق مواصفات العقد مثل (الأخشاب- القضبان الحديدية- عوارض الأخشاب وعوارض (البيتون)- معمل تكسير البحص التركي وغيره الكثير).

هذا غيض من فيض الوثائق التي تتوارد إلينا، وسنتابع نشرها وكشفها تباعاً، لكشف الفساد والخسائر التي أنهكت هذه المؤسسة. والتي هي حالياً بحاجة إلى إعادة تأهيل وهيكلة بما يتناسب

وحجمها الاقتصادي والخدمي للوطن. ومن خلال شعار رئيس الدولة د. بشار الأسد سنستمر كإعلام في تسليط الضوء على الفساد وصناعه وحاميه.. ومهما كان حجم صاحبه ونفوذه، فالوطن فوق الجميع كما قال رئيس الدولة. وأموال الشعب ليست حكراً لأحد.

وهذه المقولات التي يرددها رئيس الدولة بشار الاسد تم تطبيقها فوراً بسحب جريد المبكي والمضحك من الأسواق بعد كتابتها عن فساد اياد غزال وتم مكافاهتا على الشفافية التي تنطلق من أجل مصلحة الوطن بسحب ترخيصها وعدم السماح لها بالنشر مرة اخرى !!!

وبناءً على التقدم والإزدهار والإنتعاش المالي الذي حققه اياد غزال في مؤسسة الخطوط الحديدية بسوريا تم ترقيته إلى محافظ مدينة حمص حتى ينشر الفساد على مستوى أوسع في المحافظات وبعد ثلاث شهور من تسلمه لمنصبه الجديد استنجد أعضاء مجلس الشعب بالرئيس بشار الاسد من أجل وضع حداً لتجاوزات والضغط النفسي الذي سببه المحافظ الجديد على أبناء مدينة حمص وخاصةً على أبنائها الفقراء .

حيث طالب نواب عن محافظة حمص مجلس الشعب السوري، بتشكيل لجنة تحقيق خاصة للتحقيق مع محافظ حمص اياد غزال، لتهديده بطلب رفع الحصانة عن النائب زهير طراف اهامه بجرم التحريض.في جلسة وصفها غالبية النواب بأهنا مختلفة عن الجلسات السابقة.

ارتفعت حدة لهجة النواب اثناء مخاطبتهم لرئيس الحكومة وللوزراء الحاضرين . فقد صرخ بأعلى صوته النائب عن محافظة حمص زهير غنوم : (وابشاراه وابشاراه عيون الشعب كلها امل تتطلع اليك من أجل اصلاح اداري وسياسي واقتصادي شامل. وابشاراه .. الشعب يتطلع اليك بعيون ملؤها الامل لان تنهي الفاسدين والمفسدين والمتسلطين على منافذ القرار هؤلاء الذين تلاعبو بقوت الشعب وامنه وحقوقه".

وكان النائب زهير طراف عرض في مداخلته والتي كانت اقرب إلى قصة ادبية تظلمه من محافظ حمص، وشبّه المحافظة بقدر يغلي، وحين رفع عنه الغطاء، وجد الارامل والفقراء والمحتاجين واصحاب البسطات في هذا القدر وسائر المتضررين من قرارات المحافظ، منوهاً إلى ان محافظ حمص هدد برفع الحصانة عنه لانه وقف إلى جانب هؤلاء الذين يستمد منهم حصانته .الا ان اللغة الادبية والانفعال بالاضافة إلى مقاطعة رئيس المجلس المتكررة حالت دون فهم حقيقة ما تعرض له النائب طراف الذي طالب بالتحقيق مع المحافظ لانه مس بكرامته كمواطن وكعضو في مجلس الشعب. وقال عضو آخر في مجلس الشعب أن المحافظ قال لهم "خلي مجلس الشعب يحصل لكم حقوقكم" ومس بالحكومة حين سألوه لماذا لا تخدموا الاحياء الفقيرة ؟ فأجاهبم انا لست ابومنيب. وكان يقصد "محمد ناجي عطري الذي كان محافظ حمص قبل ان يرأس الحكومة"

كما نقل النائب محمد الاسعد في مداخلته وقائع اجتماع محافظ حمص مع اعضاء مجلس الشعب، بهدف مناقشة الامور الخدمية في محافظة حمص، ونقل الاسعد عن لسان المحافظ قوله : (هناك عضو مجلس شعب حضر اجتماع خاص مع المواطنين في حي جورة العرايس وبعض مسؤولي بلدية حمص ومدير الاسكان اريد ان احيله إلى المحاكم الجزائية بجرم التحريض). فرد عليه الاسعد (ليس من حقك ولاتستطيع ذلك) . عاد المحافظ وقال : (سأمنعه من حضور اي اجتماع في المحافظة) . فرد عليه الاسعد ثانية ليس من حقك ولا (نستطيع ذلك قانوناً). عاد وقال سأطلب إذن رفع الحصانة عن هذا العضو). فقال له النواب ليس من حقك ولا تسطيع ذلك) ، وطالب محمد الاسعد بتشكيل لجنة تحقيق خاصة حول هذا الامر (سيما وان عضو مجلس الشعب ممثل للشعب كله).

وحول هذا الاجتماع الذي حضره عدد من النواب منهم خضر الناعم وشحادة ميهوب ومحمود الفدعوس واحمد قشعم وحسان الدروبي وآخرين، افاد الاسعد: (كم كانت المفاجأة كبيرة ان هذا الاجتماع لم يكن له جدول اعمال، ولم يحضره اي من مدراء الدوائر الخدمية في المحافظة، فقد تحدث السيد المحافظ مطولاً عن افكار عامة وانجازات وآراء كثيرة ، ومن هذه الاراء انه سيسلم دفتر مخالفات لكل عضو في مجلس الشعب من اجل تنظيم مخالفات سير للسيارات المخالفة في المحافظة)!!!

وبعد الاستماع إلى طلب النواب بخصوص تشكيل لجنة تحقيق خاصة للتحقيق مع محافظ حمص، اقترح رئيس الحكومة محمد ناجي عطري ان يقوم باستدعائه والاستفسار منه حول ما جرى فربما يكون هناك خطا ما ، ومن ثم يرفع تقرير خلال ايام لمجلس الشعب وبعدها يتم التصويت على تشكيل اللجنة، ماجعل احد النواب الحضور يرد عليه (اليوم الخطأ من المحافظ نرجوا أن لا يكون الخطأ القادم من رئيس الحكومة) . فاعترض عليه عطري مؤنباً بالقول انه يحضر الجلسة بصفته نائب في مجلس الشعب لا بصفته رئيس حكومة .

وهذه هي ديكتاتورية بشار الاسد وزلامه في الحكم فسرقات وأموال اياد غزال التي نهبها من قود شعبنا شاءت الأقدار أن تكشف أمام شعبنا بعد عملية إفلاس هيثم الديري .

حيث تسود مدينة حلب الشمالية السورية موجة غاضبة أثر إعلان غرفة تجارة حلب إفلاس مجموعة الديري لصاحبها هيثم الديري وإخوته، بعد أن أودع مسؤولون وتجار سوريون حوالي ١٢ مليار ليرة سورية لدى المجموعة، وحصل هيثم الديري قبل إفلاسه على قروض من المصرف الصناعي بقيمة مليار ليرة وبنك الإنماء الاقتصادي بقيمة ٢٠ مليون ليرة.

وبين المودعين المتضررين بهذا الإفلاس محمد مصطفى ميرو رئيس الوزراءالسوري السابق، عضو القيادة القطرية لحزب البعث الحاكم في سورية، بمبلغ مليار ليرة، حوالي ٢٠ مليون دولار، ومن المتضررين ايضا اياد غزال محافظ حمص ٢٥٠ مليون ليرة، وصهيب الشامي مدير اوقاف حلب بقيمة مليار ليرة ايضا، ومحمد الاشتر مليارا ليرة، ومحمد صيرفي ٧٥٠ مليون ليرة، واحمد صباغ ٦٧٥ مليون ليرة وعمر حميدة ٢٥٠ مليون ليرة ، واحمد زبيدة ٢٠٠ مليون ليرة، ومحمد قدسي ٤٠٠ مليون سورية وحمدو حمال ٧٩٢ مليون ليرة ، وحسني ودادي ٦٠٠ مليون ليرة ، ووليد حمادة ١٧٥ مليون ليرة ، ووليد مشعل ٤٠٠ مليون ليرة. ونتيجة لذلك بات حوالي ٢٠٠٠ عامل يعملون في شركات المجموعة دون عمل.

ويعتبر العديد من المواطنين السوريين في مدينة حلب بأن عصابة غزال وأسياده نهبوا البلد خربوا البلد خربوا الاقتصاد رفعوا اسعار العقارات، ورفعوا ايجارات البيوت ، لعبوا بالقوت اليومي للناس.

و بعد كل ذلك يتحفنا الرئيس بشار الاسد بخطاباته وشعارته عن محاربة الفساد والإصلاح الإداري والسياسي !!!

هذا هو المهندس المعجزة إياد غزال الذي لايقيم وزنا للصهر الحبيب ،ولا لابن الخال رامي مخلوف شريك الـ (١٠%) لأن له مكانه ، ومكانته عاطفيا وماديا ، فهو مشروع وزير قادم ، ومشروع رئيس وزراء قادم ، وعين غصبا عن رئيس الوزراء ناجي العطري الذي يكنّ العداوة الشديدة له ، ومن غي علم القيادة القطرية بكاملها التي فوجئت بتعيينه محافظا ، وسمعت بتعيينه من التلفزيون والجرائد .

المذكور عاقر ، وزوجته عاقرة ، ولكن مواهبهما الفنية والتعبوية تؤهلهما للارتفاع إلى مصاف الأمراء والندماء والشركاء والحكام .

لكن شريك الـ (١٠%) ابن الخال له بالمرصاد ، والصهر الحبيب معه سوف يريانه نجوم الضهر ، لأنه لايقيم لهما وزنا ولا قيمة .والصراع قائم ، والحبل على الجرّار ، والشعب السوري الجائع والمضطهد يدفع الثمن .

المجرم رستم غزالة*

مواليد خربة غزالة محافظة درعا.

عائلته من العائلات الفلاحية البسيطة مكادحة لديه سبعة أشقاء من والدته ومن زوجة أبيه.

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

خريج الكلية الحربية في حمص..

عين برتبة ملازم في كتيبة مدرعات في إحدى القطع العسكرية المقاتلة وبعدها تم نقل هذه الكتيبة إلى لبنان في أثناء الاجتياح الإسرائيلي وشارك مع القوات السورية التي دخلت باسم الصاعقة الفلسطينية وبعدها عين ضابط امن الكتيبة ومن بعدها نقل إلى شعبة المخابرات العسكرية وتسلم رئيس مفرزة الأمن في بلدة حمانا وفي عام ١٩٨٧نقل إلى قسم البوريفاج تحت تصرف العميد علي حمود آنذاك وبعدها بسنة تقريبا نقل علي حمود ليتسلم رئيس فرع حلب للأمن العسكري وسلم رستم غزالي بعد توصية من غازي كنعان تسلم مهام رئيس قسم بيروت وفعلياً تابع إلى العميد عدنان بلال ولكن بسبب سوء التفاهم بين غازي كنعان العميد عدنان تقرب رستم أكثر إلى غازي وفي هذا الوقت برز اسم رستم على الساحة البيروتية حيث أعطى لنفسه سمعة حسنة لدماثة خلقه وطيب معشره وتعففه وهي صفات كان يتصنعها كون العقيد جهاد صافتلي رئيس مفرزة الحمراء في بيروت كان له بالمرصاد حتى كشف جهاد صافتلي عملية تهريب مخدرات من مطار بيروت ولكن كف يده بمتابعة هذا الموضوع كون المنطقة والموضوع متعلق بمرزة الضاحية المسؤول عنها العميد جامع جامع وبعدها حاول عبر العقيد عبد اللطيف فهد رئيس مفرزة اليرزة مفرزة وزارة الدفاع اللبنانية وكانت على علاقة مباشرة مع مخابرات الجيش اللبناني التي كان وقتها يرأسها ميشيل سليمان وكان جميل السيد نائب رئيس مخابرات الجيش وكان الرئيس الفعلي لهذه الإدارة وكون علاقة جميل مع غازي غير جيدة بداء يلمع اسم رستم غزال أمام القيادة السورية وتهبيط اسم جهاد صافتلي المحسوب على غازي كنعان.

رستم أيضا محسوب على اصف شوكت في إثناء صعود أسهم اصف شوكت في شعبة المخابرات تصادم اصف عدة مرات مع اللواء غازي حيث حاول اصف شوكت فرض سيطرته على اللواء غازي كنعان ولكن لم ينجح سوى بنقله إلى سوريا فتم كشف قضية تهريب الأموال السورية عن طريق مطار بيروت حيث أسندت هذه الاتهامات إلى العميد محسن سلمان والعقيد جهاد صافتلي مع الصراف محمد شومان إن هذه العملية ليست من اجل حماية اقتصادنا الوطني إنما لإزاحة العقيد جهاد صافتلي المحسوب على لواء غازي كنعان وأعوانه من رجال أعمال سوريين ولبنانيين بعد إزاحتهم من طريقهم بداء ينشط هو بتهريب الأموال السورية من سوريا مع احد التجار السوريين وبالمشاركة مع الصراف "مكتف" زادة نشاط تهريب الأموال السورية وخاصة النقد السوري إلى دول الخليج وأوربا ؟

وضمن هذه الأحداث وصل فساد العميد رستم إلى الجامعات اللبنانية والعربية بعد تسجيله بكلية الآداب قسم تاريخ بجامعة بيروت العربية وبعد تخرجه منها وحصل أيضا على الماجستير وشهادة

الدكتوراه بالتاريخ هذا إنجاز علمي وحضاري لسوريا في لبنان ليثبت لقيادته الأمنية انه مثابر على عمله وعلى دراسته وعلى تحصيل ارفع الشهادة ونسأله عن كلمتين بلغة أجنبية أخرى لا يعرف معناهم بالغة العربية حيث كانت مدرجات الكلية التي قدمة بها أطروحة التخرج " الدكتور رستم غزالة " كانت ملئية بالزهور والعناصر الأمنية مدججين بالأسلحة والشخصيات اللبنانية ووزراء ونواب والمعجبات والخ

كأن هذه الرسالة هي رسالة سلام إلى العالم رسالة محبة للعالم عبارة عن رسالة قد تم كتبتها من قبل الدكتور ؟ بس وقتها نقول الله يساعد الناس !!!

وانتقل فساده إلى الجامعة اللبنانية كلية الطب حيث تفاعلت قضية الشهادة غير القانونية التي منحتها كلية الطب في الجامعة اللبنانية للطالب ناظم عبدو الغزالي شقيق رئيس جهاز الأمن والاستطلاع للقوات السورية العاملة في لبنان سابقا العميد رستم الغزالي

وان الشقيق الآخر للعميد الغزالي المدعو برهان، وقد تجاوز الخمسين من العمر، مسجل في لوائح السنة الرابعة حقوق، في الفرع الأول لكلية الحقوق في الصنائع ، وانه قد استحصل قبل أيام، وقبيل الانسحاب السوري، على بيانات بعلاماته المدونة في السجلات ونسخا عن إفادات النجاح من سنة دراسية إلى أخرى.

لم يبق شيء لم يستبحه العميد رستم غزالة في لبنان. فحتى نيل الشهادات من الجامعة اللبنانية للمنتفعين من النفوذ السوري وأقارب "الحاكمين الفعليين" كان يتم بالتهديد وفرض الأمر الواقع.

أمثلة كثيرة عن الخروق والتهديدات والممارسات غير الشرعية في الجامعة اللبنانية وسواها من الملفات التي استفاد منها ازلام رستم غزالة والمتواطئون في عمليات الفساد والهدر معه ، في انتظار من يكشف عنها.

كثر فساد السيد رستم غزالة وخاصة بعد دخوله على عائلة الحاكم وتقربه من اصف شوكت وبداء ينفذ قررات ال الحاكم من فساد وتبيض أموال وقمريب أموال عن طريق بنك المدينة وبمساعدة أشقائه وبعض أصدقاء من داخل البنك حيث تم تبيض أموال عراقية النفط مقابل الغذاء لصالح العقيد ماهر الأسد وقمريب أموال لرامي مخلوف الموظف لدى بشار الأسد وهذه الحسابات هي في سويسرا باسم بشار الأسد شخصيا ولكن لاتحمل اسم شخصي إنما حساب رقمي !!!

وقضية بنك الموارد التي لم تظهر للإعلام والتي تم التكتم عليها والضغط على وسائل الأعلام أثناء السيطرة الأمنية على لبنان بحيث أقدم رستم غزالة بتبييض أموال صدام حسين وقمريبها للخراج وكانت تقدر بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار قبل سقوط بغداد بحوالي سنة ونصف وهذه العملية تم

التنسيق عليها بين ميرزا نظام وبين قصي صدام حسين وبين العقيد ماهر الأسد وتمت عملية تبيض الأموال وتهريبها خارج لبنان بموافقة ماهر الأسد بعد أن كانت له النسبة الأكبر من هذه العملية وقد أديرت هذه العملية من دمشق بتوجية من ماهر الأسد وتم تنفيذها من قبل رستم غزالي للتغطية الأمنية والضغط الأمني بأسماء كل من طلال ارسلان وإميل إميل لحود ونقلها بأسمائهم للخارج وهم بالنهاية يمثلون العقيد ماهر الأسد وكان نصيب رستم غزالة من هذه العملية ٣ مليون دولار اميركية وشقة سكنية للسيد إميل إميل لحود في برج غزال بالا شرفية أما السيد طلال ارسلان فكان له حصة مالية وضعت في حسابه في بنك دبي وبنك سويسري تقدر بحوالي ٢,٣مليون دولار حينها طلبت زوجة طلال ارسلان الطلاق منه لأسباب ؟؟؟!!!! حيث ضغط ماهر الأسد شخصيا على عائلة زوجة

طلا ل أرسلان (عائلة خير الدين أصحاب بنك الموارد)حيث استدع رستم غازلة أشقاء زوجة طلال ارسلان وضغط عليهم بعدم قبولهم لطلب زوجة طلال بالطلاق منه

" خوفا من البوح والتكلم عن الفضائح والأسرار التي كانت تعرفها زوجته وخاصة الفضيحة الأخلاقية المنافية للطبيعة ؟؟؟ !!! للسيد طلال ارسلان " طبعا هذه المصالحة بين زوجة طلال وطلال لم تأتي بناء عن النخوة التي موجود لدى ماهر الأسد ورستم إنما خوفا على مصالحهم الخاصة ؟؟؟؟ وعلى أسرارهم وعلى أسرار ازلامهم ؟؟؟؟ للسائقين لهم قصة مع معلميهم كونهم هم بيت أسرارهم!!! بحركاتهم ومصالحهم الاقتصادية ومصالحهم ؟؟؟

تبيض وتهريب أموال مخدرات لصالح اللواء اصف شوكت حيث تم سحب شيكات مسحوبة من بنك المدينة باسم أشقاء رستم غزالة وهم محمد عبده غزالة وبرهان غزالة وصولا إلى الدكتور ناظم غزالة حيث بدأت عملية السحب والإيداع على البنك المذكور من تاريخ ٢٠٠٢-١-١٩ وحتى ٢٠٠٢-١٢-٣١ وتجاوزت قيمة الشيكات ٨ ملايين دولار و٣٩٦ ألف دولار اميركي واستمرت عمليات الإيداع الغير معروف مصدره والسحب بعد ذلك ليصل إلى ٨٥ مليون دولار بعد موت قصي وعدي صدام حسين ؟؟؟

أملاكه التي موجودة في درعا والمزارع والاستراحة المشهورة على الطريق الدولي بين درعا والأردن سوى إنها من سرقات رستم الغزالي الأولى والتي الآن تحت وصاية شقيق زوجته !!!

حيث أقدم رئيس مجلس إدارة بنك المدينة وبنك الاعتماد المتحد، الموضوعين تحت الإدارة عدنان أبو عياش بإقامة دعوى جديدة شملت هذه المرة، إلى رنا عبد الرحيم قليلات، ورئيس جهاز الأمن والاستطلاع السابق للقوات السورية قبل انسحابها من لبنان العميد رستم غزالة وأشقائه محمد عبدو غزالة، وبرهان عبدو غزالة وناظم عبدو غزالة، وكذلك إيهاب عبد الرحمن حمية المتعامل مع

المصرفين بواسطة قليلات، متهماً الأربعة بسرقة مئات الملايين من الدولارات الأميركية ومن المبالغ التي تم تحويلها إلى المصرفين والتي بلغ سقفها، بحسب الدعوى ٧٨٥،٥٨٠ مليون دولار اميركي. حيث تم كشف عن ملف بنك المدينة وشقيقه بنك الاعتماد المتحد يتضمن سحوبات عبر الصراف الآلي، وحوالات وشيكات صدرت بأسماء متعددة وتم تجييرها لمصلحة أشقاء غزالة ولمسؤولين سوريين كبار في مراكز حكومية على أعلى المستويات.

بعد الانسحاب السوري من لبنان، بدأت تظهر إلى العلن الممارسات غير الشرعية التي كانت تحصل.

لوحظ في "الوقائع" التي استهلت بها الدعوى إشارة إلى "إن بعض الأسماء هم من المسؤولين العسكريين في سوريا كي لا نقول في لبنان وسوريا". واللافت إن بعض الأسماء الضالعة بقوة في السحوبات التي حصلت من المصرف تم بواسطتها شراء مجموعة كبيرة من العقارات في يوم واحد قد اختفت كلياً من الملف واللوائح التي تم تبادلها بين المصرفين ومصرف لبنان، بما في ذلك أسماء متهمة بعمليات تبييض أموال على نطاق واسع.

وتؤكد المصادر نفسها أن المعنيين بالملف، من سياسيين وأصحاب نفوذ في لبنان ، المقربين من رستم غزالة وماهر الأسد واصف شوكت قد حصلوا على منافع بعشرات الملايين من الدولارات الأميركية من طريق سحوبات تم من خلالها شراء عقارات ما لبث أن أعيد بعضها إلى المصرفين بأسعار منفوخة، من دون أن يكون لهم أصلا أي ودائع أو حسابات دائنة حقيقية، فضلاً عن سرقات أموال موصوفة بمئات الملايين خرجت نقداً، وعبر بطاقات الدفع، وكانت تنتقل من حساب إلى آخر في غضون أيام معدودة بقصد التمويه.

و ان أسطولا من السيارات الفارهة من الطراز الحديث ذهب هدايا من المجموعة نفسها إلى زعماء ونافذين في سوريا !!!.

وتغمز الدعوى الموثقة بأرقام حسابات لآل غزالة وقليلات وحمية، من قناة أجهزة الرقابة في مصرف لبنان التي كانت على "علم وإطلاع على مخالفات المصرفين". وتعزو ذلك إلى احتمال "أن تكون هناك ضغوط سياسية أو أمنية حالت دون تحرك مصرف لبنان عند الاقتضاء".

وتطالب الدعوى الجهات القضائية بالتحقيق مع المدعى عليهم وتوقيفهم وإعادة الأموال المسروقة وكشف الأموال التي بيضت لصالح ماهر الأسد ورامي مخلوف واصف شوكت والأموال المسروقة والمبيض التي كانت عائداها لقصي وعدي صدام حسين التي نهبت وتبخرت في ليلة واحدة بعد مقتل أبناء صدام حسين ؟؟؟

وإعادة رنا قليلات التي تم تهريبها من لبنان بعد حادثة مقتل رفيق الحريري ؟؟!!! التي تم تهريبها عن طريق رستم غزالة عن طريق الخط العسكري ومن ثمة تم تزويدها بجواز سفر مزور غادرت به إلى تركيا ومن ثمة إلى مصر ومنها إلى البرازيل هذه التنقلات لمطلوبة من الانتربول لاتتم إلا بتنسيق امني و " فهمكم كفاية "

وبعد تمكنه بعلاقات قوية مع ال الحاكم في سوريا أصبح يساعد اصف شوكت بتهريب المخدرات عن طريق عملاء اصف شوكت في لبنان ومن بين هؤلاء العملاء يحي شمص المعروف بغنائه الفاحش وزعيم تهريب المخدرات اللبنانية إلى خارج لبنان وصاحب مزارع الخشخاش في البقاع التي كانت محمية من قبل اصف شوكت ومحمية من ماهر الأسد شخصيا حماية أمنية وعسكرية أكثر من حماية حدودنا على إسرائيل !!!

ولم يتوقف رستم غزالة بل استمر في التدخل في أعمار الجنوب بفرض على مجلس الجنوب أسماء مقاولين " محمد دنش " لإرساء مناقصات المقاولات عليهم بدون دفتر شروط وبأسعار خيالية وتنفيذ اسواء من السيئ

وأسس شركة خاصة مع ذو الهمة شاليش وإميل إميل لحود ومع جورج معوض غزال " شركة معوض للبناء "

حيث أسندت لهذه الشركة بناء سد شبروق " بكسروان " بكلفة ١٢٠ مليون دولار ؟؟؟ !!!!! والحصة الكبيرة كانت للعميد ذوالهمة شاليش ؟؟؟ هذه هي الحماية الأمنية للبنان حماية اقتصادية لصالح آل الحاكم في سوريا

ذو الهمة شاليش شريك أساسي في كسارة لبنان " كسارة فتوش " التي كانت بدون إي تراخيص وكانت أرباحها تقدر بالملايين الدولارات سنويا كون رستم غزالة له حصة فيها وكان يفرض ما تنتجه الكسارة على شركات البناء وعلى شركات أعمار لبنان مجلس الجنوب بأسعار خيالية إرضاء لصاحب الحصة الأكبر ذو الهمة شاليش

لقد أصر بشار الأسد على أن يكون رستم غزالي هو بوابته في بيروت وانه هو ممثله الشخصي برغم من كل ما أفسده في لبنان من فساد مالي وامني وسياسي لماذا هذا الإصرار ؟؟؟ !!!!

الحقيقة مع كل ما حدث في لبنان وكل ما أفسده رستم غزالي فهو رئيس فرع ريف دمشق ورفع إلى رتبة لواء في شعبة المخابرات كانت لها أسبابها " معرفته بالصفقات السرية وتهريب الأموال وتبيضها لعائلة الحاكم وسرقة أموال عراقية لعائلة الحاكم وتنفيذ مهمات أمنية خاصة مرتبطة بعائلة الحاكم كمقتل " - - - - - - "

وتقدر ثروت اللواء رستم غزالة بحوالي ٤٠٠ مليون دولار اميركي " تصوروا يرعاكم الله "

نسمع من صاحب مقولة سوريا الله حاميها بان الفساد مستشري محملا الشعب تهمة الفساد وهو الراعي الأول للفساد .

المجرم نمير الأسد*

نمير هو ابن بديع الأسد أحد ابناء عموم الرئيس السوري بشار الأسد.

من مواليد القرداحة ويعد من الجيل الثالث من أسر عصابات مافيا الأسد المالكة لسوريا.

موبقات هذا الغلام هي توجيه رسالة مفادها أنه أكبر من أي قانون، وأنه قادر على الوصول إلى مايريد دون عوائق ... تحت حماية عناصر الأمن وتسهيلات من الحاكم نفسه !!

استطاع نمير الأسد منذ ان ورث ابن عمه بشار الأسد رئاسة الجمهورية أن يتزعم عصابة للسطو المسلح كان نشاطها يتركز في الساحل السوري ولبنان وهو الرجل الثاني في عصابة "الشبيحة" بعد قريبه صاحب اللقب "شيخ الجبل" !!!

شهد السوريون في آخر سنتين اقتراب نشاطات هذه العصابة من العاصمة دمشق. ويقول البعض أن أحد أسباب الاقتراب من دمشق هو عدم وجود التسهيلات لعصابة نمير الأسد على الأراضي اللبنانية كما كانت في السابق قبل انسحاب الجيش السوري.

يُشار إلى أن الرئيس بشار الأسد شنّ منذ ما قبل توليه رئاسة الجمهورية حملة على بعض أبناء العمومة المتهمين بتشكيل عصابات "مافيا" في الساحل السوري بالذات خوفاً من استيلائهم على الحكم (الورثة)، بتكليف من الرئيس السوري الهالك حافظ الأسد، الذي رآى في نشاطهم تشويهاً لسمعة الأسرة. ويخشى المواطنون سطوة هؤلاء المتنفذين، الذين يُلقبون ألقاباً مختلفة، وأحدهم معروف بلقب "شيخ الجبل" في جبال سورية الغربية.

منجزات نمير الأسد:

لم يسمع السوريون بهذا الاسم إلا منذ سنوات قليلة نظراً لسنه الذي لايتجاوز الثلاثينات من عمره.

في أيار (مايو) ٢٠٠٥ هاجمت عصابة نمير الأسد سيارة شرطة عسكرية و"حررت" سجيناً هو من أفراد العصابة.

وعلى طريقة أفلام "الأكشن" الأمريكية اعترضت ثلاث سيارات مرسيدس (شبح) تعود أرقام السيارت إلى القصر الجمهوري ولكنها في الواقع تحت تصرف عصابات يُعرفون بـ "الشبيحة" القادمين من محافظة اللاذقية سيارة سجن تابعة للشرطة العسكرية عند جسر حرستا على طريق

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

دمشق - حلب، وقامت "بتحرير" مطلوب كانت سيارة الشرطة العسكرية تنقلــه إلى المحكمــة للاستماع على أقواله.

والسيارات الثلاثة تعود لعصابة نُمير الأسد التي علمت بموضوع نقل أحد أعضائها المعــتقلين إلى المحكمة العسكرية فقامت بمتابعة السيارة العسكرية وأوقفتها عند جسر حرستا وأحاط المسلحون بها من كل جانب ثم أطلقوا سراح زميلهم الذي انضم إليهم.

وعمدت السلطات السورية فوراً إلى معاقبة قائد موقع دمشق في الشرطة العسكرية العميد ناظم درويش وحولته إلى المقر العام دون مهمة بانتظار قرار تسريحه الذي سيصدر في شهر تموز/ يوليو، كما هو متوقع. لكن السلطات الأمنية استطاعت لاحقا القبض على السجين الهارب.

وكان المدعو نمير الأسد هرب من السجن وعاد لممارسة نشاطه بالسطو المسلح علــى الأمــاكن العامة وممتلكات المواطنين. وكان قد استخدم اسم عائلته لإطلاق سراحه مدعمة بمبلــغ نــصف مليون دولار رشوة لضباط الأمن مقابل تركه "يهرب" من السجن علماً بأن الرئيس بشار علــى علم بهذا الأمر ولم يمانع هرب نمير كونه من أولاد العم!!

يجدر القول أن نمير الاسد هو رئيس العصابة التي سطت على المال في فندق الــسمير امــيس في صيف عام ٢٠٠٤ بدمشق..

وفي شباط (فبراير) ٢٠٠٥ وفي حادثة هي الأولى من نوعها في مدينة دمشق استغل أربعة لصوص حالة الأمن والاستقرار التي تعيشها سورية وقاموا باقتحام شركة الهرم للحوالات قرب مؤســسة البريد بدمشق، وسرقوا نحو ٤٣ مليون ليرة سورية تحت التهديد بالسلاح الذي كان اللــصوص يحملونه. وقد قام موقع "سوريا الحرة" الإلكتروني بتقديم عرض كامل للفيديو كليــب لعمليــة السطو والذي تم تسجيله من قبل كاميرة المصرف في وضح النهار.

وأكد السيد وزير الداخلية غازي كنعان آنذاك على الحرص الكامل لدى الوزارة لمعرفة أولئــك المجرمين، فكانت الاجتماعات المكثفة في مكتب الأمن القومي لما لهذا الموضوع من تأثير على أمن واستقرار البلد والاستثمار أيضاً وقد تمكنت من التوصل إلى معرفة الأشخاص الذين قاموا بتلــك العملية وإلقاء القبض عليهم بعد عملية اشتباك مع العصابة في الجرجانية منطقة الزبداني المكــان الذي استقرت فيه العصابة.

وعندما علم ان عملية السطو كانت تابعة لعصابة الأسد، أبلغ وزير الداخليــة غــازي كنعــان الرئيس بشار الأسد بتطورات ونتائج التحقيق والذي كان في زيارة رسميــة لــلأردن في ذلــك الوقت.

وأخبر الرئيس بشار الوزير بأنه لابد من اتخاذ الإجراءات اللازمة تجاه أي كان بغض النظر. كلام مشجع وجميل من رئيسنا المفدى لوكان صحيحاً وصادقاً. نقول هذا الكلام لأنه بعد القبض على نمير الأسد تم تهريبه من السجن بمعرفة بشار الأسد شخصياً ... وهو اليوم طليق يرزق ومـــايزال يمارس هواية السطو المسلح مابين الساحل السوري والعاصمة دمشق.

الجريمة التي حصلت أخذت اهتماماً كبيراً من وزارة الداخلية وبدأت متابعتها من كافة الوحدات الشرطية حتى وصلت معلومة مفادها أن هذه المجموعة تتواجد في الجرجانية بمنطقة الزبـــداني وفي مكان غير معروف تمت متابعة هذه المعلومة إلى أن تم الامكان من التأكد من معلومة موثقـــة أن هذه المجموعة سترسل أحد الأشخاص إلى مدينة حمص لإحضار بعض الحاجيات، وستلتقي بشخص على مفرق القصير في الساعة السابعة والنصف صباحاً.

اتصلت عناصر وزارة الداخلية برئيس فرع الأمن الجنائي بحمص وطلبت منه التواجد في المكـــان المذكور وبشكل غير معروف ومعرفة هذا الشخص أو على الأقل معرفة نوع السيارة التي سوف تحضر من حيث اللون والرقم والنوع ومتابعتها من القصير إلى دمشق أثناء العودة دون التعـــرض لسائقها.

وفي الساعة الثامنة صباحاً علم العميد محمد علي الصالح مدير إدارة الأمن الجنائي رئـــيس فـــرع الأمن الجنائي بحمص أن السيارة قد وصلت والتقت بشخص لمدة حوالي نصف ساعة ثم توجهت إلى مدينة دمشق، وتم إعطائه نوع السيارة ورقمها ولونها وهي تكسي لون ذهبي أوعز بعد ذلك بتحريك الدوريات بسيارات مختلفة على طريق حمص - دمشق وعلى كافة المفـــارق المؤديـــة إلى الجرجانية بمنطقة الزبداني، وبقيت السيارة تحت أبصار رئيس فرع الأمن الجنائي بحمـــص وكـــان برفقته ضابط آخر بسيارة أخرى حتى وصلت السيارة المذكورة إلى منطقة عدرا حينـــها تولـــت الدوريات من إدارة الأمن الجنائي متابعة هذه السيارة ومن ثم فرع الأمن الجنائي بدمشق وبشكل منسق جداً، اجتازت السيارة مدينة دمشق متوجهة نحـــو الزبـــداني إلى ان وصـــلت إلى بلـــدة الجرجانية، وكان العميد على اتصال دائم مع كافة هذه الدوريات.

وطلب العميد منه عدم التعرض إلى هذا الشخص على الإطلاق ولا يجوز بأي شكل من الأشكال أن يلاحظ أن أحداً يلاحقه ويراقبه، توقفت السيارة بعد ذلك أمام أحد الأبنية ونزل منها السائق إلى إحدى الشقق ثم خرج بعد عشر دقائق وتوجه إلى مكان آخر وأحضر معـــه أحـــد العمـــال لاصلاح شوفاج في الشقة وقبل أن ينتهي من إصلاح الشوفاج ذهب بمفرده إلى مطعم وأحـــضر مواد غذائية تقدر لستة أشخاص، ثم دخل نفس الشقة وخرج برفقة العاملين اللذين كانا بالـــشقة وبقي الطعام بنفس الشقة، طلبت من الدورية مراقبة هذه السيارة دون التعرض لـــسائقها علـــى

الإطلاق لعل هناك مكان آخر يمكن أن يتوجه إليه، توجهت السيارة إلى مدينة دمشق وتوقفت عند عدة محلات ثم استقرت في ركن الدين.

وطلب العميد بعد ذلك إحضار تلك السيارة والسائق إلى إدارة الأمن الجنائي لتدقيق وضع هذا الشخص وعلاقته بهذه العصابة وعلى الفور تبين أن هذه العصابة تقيم في نفس الشقة التي ذهب إليها هذا السائق وأنه كان بمدينة حمص بتكليف منهم.

أعلم العميد وزارة الداخلية بهذا الموضوع ونسق مع كافة الوحدات الشرطية المعنية منها وحدة المهام الخاصة، قيادة شرطة دمشق وريفها وفرع الأمن الجنائي بدمشق وريفها ومنطقة الزبداني.

وبعد ان تم إجراء دراسة كاملة عن البناء والشقة والشارع توجهت عناصر الأمن الجنائي جميعاً إلى البلدة المذكورة مساءً وانتظرت وبعد أن وضعت خطة محكمة للتعامل مع هذه العصابة الخطرة، بدأت عملية اقتحام الشقة بعد أن تم تطويق المنطقة بشكل دقيق وكامل بحيث لا يمكن أن يفر أي فرد من أفراد العصابة ولا بأي شكل من الأشكال وقد تولى قائد وحدة المهام الخاصة وعناصره عملية الاقتحام وبدأت عملية الاقتحام والاشتباك مع أفراد العصابة بعد أن طلب منهم تسليم أنفسهم وحين رفضوا وباشروا بإطلاق النار ورمي القنابل على أفراد عناصر الأمن الجنائي، قامت بتوجيه النار واستمرت العملية ساعة ونصف متصلة وبعد الانتهاء من العملية تبين مقتل اثنين من أفراد العصابة هما باسل محمد زاهد من دمشق وعمار صبرا أيضاً.

وتم القاء القبض على سائر سليمان وحسان الآغا ونمير بديع لأسد. وجميعهم لهم سوابق، وكان من نتيجة العملية جرح سبعة من عناصر الأمن واستشهاد الشرطي وسيم وردة .

بتوجيه من السيد وزير الداخلية تم تكليف وحدة المهام الخاصة لمتابعة هؤلاء المجرمين المطلوبين للعدالة وقاموا بالتنسيق مع إدارة الأمن الجنائي بوضع خطة ودراسة للمكان المتواجدين فيه وقسموا العمل إلى مجموعات اقتحام ومداهمة ومجموعة تغطية وعزل وتطويق.

وفي مساء يوم الثلاثاء وحتى صباح اليوم التالي قاموا بمراقبة مكثفة واستطلاع مستمر لتنفيذ المهمة على احسن وجه وتم تحديد الساعة السادسة صباحا من يوم الأربعاء للمواجهة وبإشرافهم مباشرة، ومن خلال مكبرات الصوت طلبوا من أفراد العصابة تسليم أنفسهم حتى يتم الابتعاد عن عمليات إطلاق النار وإزهاق بعض الأرواح الموجودة هناك، فرفضوا الانصياع لهذا الأمر، فقامت حينها مجموعة الاقتحام باقتحام الشقة حتى وصلت إلى الغرفة الموجودة فيها عناصر العصابة وتم إطلاق النار المتبادل وكانت العصابة قد ألقت بعدد من القنابل اليدوية الموجودة بين أيديهم، وأصبت ببعض الجروح بعدها تم الاشتباك المباشر وقتل اثنين من عناصر العصابة وجرح سبعة من عناصرنا واستشهد الشرطي وسيم وردة الذي أبلى بلاء حسنا مع رفاقه.

وقامت عناصر الداخلية بعدها بإلقاء القبض على الباقين وصادرت الأسلحة الموجــودة لــديهم، كانت عبارة عن ثلاث بنادق روسية و ورشاشين وأحزمة ناسفة عدد اثنين وجهاز مراقبة لاسلكي وعصا كهربائية وصناديق فيها قنابل يدوية وأجهزة خلوية متعددة، بالإضافة إلى مبلغ يقــدر بـ ٣٢ مليون و ١٣٥ ألف و ٤٢٥ ليرة سورية ونجري حالياً التحقيقات مع باقي أفراد العصابة.

لم يتم الاكتفاء بتلك المعلومات بل تابعت ذلك من خلال لقاء أفراد العصابة الموقوفين لدى إدارة الأمن الجنائي وبرفقة العميد محمد علي صالح مدير الإدارة واللواء عبد الكريم صالح مــدير إدارة التوجيه المعنوي في وزارة الداخلية وبموافقة شخصية من السيد وزير الداخلية تم القيــام بــإجراء اللقاءات التالية مع كل من:

١ - نمير بديع الأسد: قال لقد خطط لنا من قبل أشخاص في موقع المسؤولية بوزارة الداخليــة، وقمنا بالتحضير قبل أيام لتلك العملية.

٢ - محمد حسان الآغا: نفى معرفته بتلك العملية وقال انه لم يكن له أي دور في تلك العمليــة ومهمتي الوحيدة هي جلب أغراض خاصة لهم من طعام وسواه وقد تعرفت عليهم من قبل باسل محمد زاهد.

٣ - سائر سليمان قال:خططنا لتلك العملية كأي عمل يخطط له بهدف الحصول على مكاســب مادية.

وقد ساعد تتبع مكالمات هاتفية لنمير في القبض عليه وعلى أفراد عصابته قرب الزبداني. ووالــد نمير هو ابن عم الرئيس بشار الأسد، وتقول المصادر إنه توفي قبل عامين.

من جانب آخر ذكرت مصادر في وزارة الداخلية أن وزير الداخلية اللواء غازي كنعــان تلقــى تهديدات جدية تتعلق بأولاده بعد اعتقال مجموعة نمير؛ وأن وزير الداخلية أخذ هذه التهديــدات على محمل من الجد.

ولكن...بعد كل الجهود والتضحيات من عناصر وزارة الداخلية والأمن الجنائي في القبض علــى أفراد عصابة نمير الأسد تم إطلاق سراح نمير "الأسد" فقط بعد سجنه لمدة أقل من شــهر واحــد وذلك بعلم وموافقة الرئيس السوري بشار الأسد !!!

ما يصوره الشريط الذي نشره الموقع الإلكتروني "سوريا الحرة" هو عملية من عمليات المافيــا في الاستيلاء على أحد مكاتب تحويل الأموال، في بلد عربي يتمتع بالأمن والأمــان، كمــا يــصر مسؤولوه على تأكيد ذلك لشعبهم ولشعوب الأرض صباح مساء، وفيه أكثر من ستة عشر فرعاً أمنياً تحصي على المواطن أنفاسه، وتسمع دبيب النملة. ففي سورية الشقيقة، العام الماضي، جرت حادثة سرقة "مكتب الهرم" لتحويل الأموال الذي يقع في سنتر العاصمة دمشق. والشريط المنشور

صّور أوتوماتيكياً بكاميرا المكتب، ويظهر فيه "نمير الأسد" (بـ"الكاسكيت") الذي يقود عناصر المافيا التي سرقت مكتب الهرم لتحويل الأموال.

بقي أن نذكر مشاهدي الشريط بأن المجرم نمير (الأسد) حر طليق اليوم بعد أن قبض عليه وجرى تهريبه من السجن".

هذه هي سوريا بشار الأسد ، امتداداً لعائلة الأسد، أولاد العم وأولاد الخال...عصابات المافيا تنتهك ممتلكات الشعب السوري وتجني من المال الحرام مليارات الدولارات وأموالاً لاتأكلها النيران من سرقات غير شرعية كما هو حال بطل قصتنا هذا الأسبوع نمير الأسد الذي بلغت فيه الوقاحة للسطو على حرمات أهل الشام في وضح النهار على طريقة "التشليح" ومعه رشاش اوتوماتيك مستعد لتفريغه في جسد من يقف في وجهه..

والحكومة والأمن السوري يحميهم ويساعدهم ...

هذا النظام (نظام المافيا) ... لايصلح له إلا التغيير الجذري، ومن ثم، مصادرة الأموال الغير شرعية التي نهبوها من الشعبين السوري واللبناني ...وإعادتها إلى خزينة الدولة، ليستفيد منها الشعب المنهوب والمغلوب على أمره ...

المجرم عاطف نجيب*

ابن خالة الطاغية بشار الأسد

عقيد في شعبة الأمن السياسي فرع دمشق

سيكون هذا الملف حكاية لمن كان وراء دعم رؤساء البلديات في دمشق لقيامهم بأعمال فساد والضغط عليهم من اجل شركائه المقاولين الفاسدين الذين استطاعوا أن يبنوا أبنية مخالفة.

بنيت هذه الأبنية على كمية الاسمنت والحديد المسلح اقل بكثير من الكمية المتعارف عليها بإنشاء الأبنية.

خطفوا البسمة والبهجة من جيل الشباب السوري ، ومن العائلات الفقيرة في دمشق والذين دفعوا من تعبهم وعرقهم ودمائهم كل مايملكون من أموال حتى يتمكنوا من العيش تحت سقف يؤويهم !!!

لكن حلمهم قد تلاشى مع انهيار الأبنية في دمشق في حي الميدان "دف الشوك" ومازال هؤولاء الفاسدون طلقاء يمارسون فسادهم في مناطق أخرى لان شريكهم موجود في السلطة وينتمي إلى عائلة الحاكم هو بطل حلقتنا هذا الأسبوع .. العقيد عاطف نجيب !!

---

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

مواليد جبلة محافظة اللاذقية ...

والدته فاطمة مخلوف شقيقة أنيسة مخلوف و محمد مخلوف خال الرئيس بشار الأسد.

تطوع بالكلية الحربية وتخرج منها برتبة ملازم وعين مباشرة لصالح وزارة الداخلية مفرزاً إلى شعبة الأمن السياسي.

عين في فرع الفيحاء بدمشق "التحقيق والدوريات" التابع لشعبة الأمن السياسي حتى رتبة ملازم أول.

نقل إلى فرع دمشق في الشيخ محي الدين نائب رئيس قسم امن الشرطة ونائب قسم قطاعات المحافظات "العمال"، حيث كانت تربطه علاقة قوية مع باسل الأسد الذي كان ملازما دائما له أكثر من تلازمه إلى أولاد خاله حافظ ورامي مخلوف كون والدته لا ترتبط بعلاقة جيدة مع أخيها وهي على خلاف معه على أراضي في منطقة صلنفة وهذه الأراضي كانت قد استملكتها فاطمة مخلوف، سحبت منها بناء على أوامر من القصر الجمهوري وهي أراضي لأملاك الدولة "وزارة الزراعة" لكن أعيد استملاكها وأشيد عليها قصر مع منتجع صيفي خاص للسيد محمد مخلوف !!!

وفي أثناء صعود اسم عاطف نجيب وتسلمه لرئيس قسم امن الشرطة في فرع دمشق للأمن السياسي الذي ارتبط اسمه بضباط فاسدين بالشرطة ضمن أقسام ومخافر الشرطة في محافظة دمشق.

بدأ يعاقب كل ضابط مهما كانت رتبته وخاصة الرتب الأعلى منه إذ كان يعاملهم بإذلال بسبب غروره وضعف شخصيته، وأصبحت العقوبات المسلكية تفرض عليهم بشكل عشوائي من عدم ترفيع بعض ضباط الشرطة من الشرفاء الذين لم يبيعوا ضمائرهم وأنفسهم للفساد ومناصرة الظالم على المظلوم من اجل إرضاء من هو مسؤول عنهم امنيا فكانت عقوبة كل شريف النقل أو عدم الترفيع أو التسريح التعسفي ؟؟؟ !!!

وهكذا أصبحت صلاحيات عاطف نجيب أقوى من صلاحيات رئيس الفرع آنذاك العميد وجيه الذي نقل إلى الإدارة وجمد فترة زمنية.

ويذكر أنه في حادثة صهر عاطف نجيب المشهورة بين عائلة آل الحاكم زوج أخت عاطف نجيب النقيب "علي فاضل الكنج" رئيس مفرزة الشرطة العسكرية على الحدود اللبنانية السورية الخط العسكري آنذاك، وقف النقيب علي فاضل الكنج بوجه عاطف نجيب من اجل ان يبعد ظلم عاطف نجيب عن عائلة دمشقية قام باعتقال ابنها الذي يملك متجرا بسوق الحميدية حيث أراد أن يستولي على محله التجاري ويقاسمه المحل !!

ابلغ عاطف نجيب الهالك باسل الأسد بان النقيب علي فاضل الكنج يقوم بضرب أخته يوميا وأنها غادرت المترل ليلا هربا منه. وبدون استفسار أرسل باسل الأسد مجموعة من عناصر الأمن في الحرس الجمهوري بقيادة العقيد عبد الفتاح قدسية والملازم الأول سليمان سليمان آنذاك وقاموا باعتقاله من مفرزة الشرطة العسكرية ووضعه في سجن القصر الجمهوري "الطاحونة" خلف هيئة الإذاعة والتلفزيون وهو نفس السجن الذي اعتقل فيه آصف شوكت من قبل باسل الأسد.

ولم يكتف بفساده على بعض الضباط بل أصبح شريك كل رئيس قسم شرطة محسوب عليه.

وكان يقوم بتزوير ضبوط التحقيقات في مخافر وأقسام الشرطة بدمشق حيث أصبح ضبط الشرطة للظالم على المظلوم له تسعيرة من قبل عاطف نجيب.

ويوجد حادثة مشهورة هي امرأة من "بنات الليل" استغلت علاقاها مع رجل أعمال معروف باتفاق مع عاطف نجيب حيث استطاعت أن تبيّعه كل مايملك بعد أن احضر رجل الأعمال إلى قسم شرطة القصاع بجرم آداب ومجامعة امرأة خلاف الطبيعة واثبات حالة الزواج منها بصك مزور ومع عقد بيع مزور !!!

وفي محضر ضبط قسم شرطة القصاع ثبتت بهذه الوثائق المزورة بأنها زوجة هذا الرجل ويمارس معها "علاقة جنسية خلاف للطبيعة". وكان ضبط التحقيق مكتوباً ومجهزاً قبل أن يعتقل هذا التاجر السيد ....

ولم يكتف العقيد عاطف نجيب ولم تكفه الأموال التي كان يسرقها، بل أراد أن يجني أموالاً أكثر وأكثر حيث استطاع أبو جليل صاحب فندق في حي المرجة بالتقرب من عاطف نجيب وإقناعه بان الدعارة بسوريا تدر الأموال الكثيرة ولكن بدها تغطية أمنية قوية وإبعاد بعض الشخصيات التي تدير هذه الشبكة عن الساحة.

وفعلاً تم إبعاد هذه الشخصيات عبر حملة شاملة للفنادق وبيوت الدعارة بدمشق في حي التجارة سنة ١٩٩٦ وأسس عاطف نجيب شبكة دعارة اكبر من الشبكة التي كانت محصورة فقط في فنادق المرجة وبعض المنازل في حي التجارة حيث امتدت شبكة الدعارة التابعة حتى تطال حي التجارة والمزرعة وركن الدين وحي برزة المشهور عالمياً في الشقق المفروشة للدعارة التي تنتشر بكثافة بهذا الحي والذي يقطن به العقيد عاطف نجيب (بعد زواجه من ليلى العلي ابنة الفنان السيد علي أستاذ الموسيقى بجبلة والذي تزوجها عنوة من أهلها وبضغط عليها وممارسة الإرهاب والتهديد على عائلتها) و تمكن من بناء فيلا ضخمة في "برزة " على أنقاض الفيلا الخاصة في "برزة " لفنانة العرب وضباط الأمن "يسرا البدوية" و التي كانت تقام بها حفلات الليالي الحمراء والقمار للسادة ضباط الأمن حيث قدمتها يسرا البدوية هدية محبة للسيد عاطف نجيب !!

وازداد نشاطه في الفساد الاقتصادي حيث أسس شركة استيراد وتصدير تقوم باستيراد آلاف السيارات من الميكرو باص "السرفيس" وبيعها بدمشق مع رخص سير على خطوط الداخلية في دمشق.

وكانت هذه السرافيس التي تباع من قبل شركة عاطف نجيب تعمل على خط المزه وخط بـــرزة وكان يفرض على فرع المرور بان يوزعوا رخص خط سير أكثر من المسموح لها على هذا الخط !

وكان لهذه الشركة نشاط في استيراد قطع تبديل سيارات مستعملة وأجهزة كهربائية مهربة مـــن لبنان عن طريق الدبوسية كون شقيقه "النقيب عمار نجيب" الذي كان يشغل في حينـــها رئـــيس مفرزة الدبوسية للأمن العسكري ... !!

وأما فساده في محافظة اللاذقية فقد كان في مناطق جبلية ممنوع فيها إنشاء الكسارات حيث أشاد عدد من الكسارات مع شقيقه "عرفان" ومعمل رخام ايضاً وهذه الكسارات ممنـــوع ترخيـــصها صناعياً كون جميع مواقع الكسارات كانت تابعة إلى أملاك الدولة.

ووصل فساده ايضا إلى مديرة الخدمات الفنية باللاذقية عن طريق زوج أخته الثانية المهندس "علاء إبراهيم" حيث أصبحت مدارس ريف اللاذقية تبنى بمناقصة خاصة عن طريق عاطف نجيب، تم نقل علاء إبراهيم بعد فضيحة استملاك أراضي بعض القرويين الفقراء على أساس إنشاء اوتوســـتراد اللاذقية - جسر الشغور - حلب، وتم بيع هذه الأراضي لبعض الفاسدين وإنشاء اســـتراحات عليها للمسافرين.

وليس حباً من محمد مخلوف (أبو رامي) للعوائل الفقيرة المصادرة أراضيهم وإنما لإضعاف مركـــز أخته فاطمة مخلوف التي لم يكن يحبها فقد قام بمساعدتهم لدى الرئيس الهالك حافظ الأسد وابلغه بأن بأن الفاسدين يحاولون شراء أراضي الفقراء منهم بأسعار بخسة.

وفساده لم يقف عند هذا الحد، بل بدأ بتعين مهندسين رؤساء بلديات في محافظة دمشق لقاء مبلغ ٥ مليون سورية إضافة إلى راتب شهري له يقدر بحوالي مليون ليرة شهرية من كل رئيس بلديـــة معين من قبله حيث يقوم كل رئيس بلدية بمنح رخص بناء مخالفة وغض النظر على أبنية وهـــدم أبنية أخرى وعلى إقامة محلات تجارية مخالفة وكله بموافقة السيد عاطف نجيب.

وكل رئيس بلدية يقصر بدفع المعلوم الشهري يقوم بعزله حتى أن بعض رؤساء البلديات المعيـــنين بقرار المحافظ يعزلون امنياً من فرع دمشق للأمن السياسي لأنهم لم يرضخوا إلى مطالبه في الأعمال الغير مشروعة من إشادة أبنية مخالفة ودفع مبلغ شهري له..

وكان يتم عزلهم أمنياً باقتراح من عاطف إلى اللواء عدنان بدر حسن آنذاك وفي الحاضـــر يـــتم تسريحهم بموافقة اللواء محمد منصورة !!

وبعد تولي اللواء غازي كنعان شعبة الأمن السياسي قام مباشرة بنقل عـاطف نجيـب إلى وزارة الداخلية ولكن بشار الأسد ووالدته في المرصاد تم توقيف النقل ونقل من قبل الرئيس بشار الأسد شخصياً إلى فرع الأمن السياسي بطرطوس.

لم يعجبه كثيرا هذا الفرع وأسس مجموعة له داخل الفرع تواجه رئيس الفرع واللـواء غـازي كنعان حيث بداء يشهر بابن اللواء غازي كنعان الضابط المعين لدى شعبة الأمن السياسي فـرع دمشق حيث حاول كثيرا اختلاق قصص مع مجموعة من الفاسدين ضد اللواء غازي وابنه .

بعد إسناد مهام وزارة الداخلية إلى اللواء غازي كنعان بأسبوع اصدر قراراً رئاسياً بنقل عـاطف نجيب إلى فرع الأمن السياسي بدمشق ليتولى عدة مناصب منها نائب رئيس الفرع ورئيس الفرع عملياً باعتبار أن رئيس شعبة الأمن السياسي شخصيته ضعيفة وله علاقة مميزة مـع آل مخلـوف كونه من قرى حمام القراحلة وله ارتباطات خاصة مع عاطف نجيب أثناء وجوده في منصب رئيس فرع الحسكة للأمن العسكري آنذاك لأسباب شخصية.

القرار الرئاسي بنقل عاطف نجيب إلى فرع دمشق هي عبارة عن تكريمه على انجازاته التي قـدمها للوطن وعبارة عن إضعاف قرارات وزير الداخلية اللواء غازي كنعان والذي كان مسروراً بهـا جدا اللواء آصف شوكت كونه رفض مرات عديدة أن يكون اللواء غازي كنعان تحت أوامـر آصف شوكت ....!

وهذه هي الآن حادثة انهيار الأبنية في حي "دف الشوك" التي ظلم الكثير من أبناء وطننا الكادحين وشبابنا الحالمين لتأسيس منزل الزوجية وبيت أحلامهم .. إنهار كل شي مع انهيار أبنيـة وشـقق "دف الشوك" ذهبت الأحلام والأمنيات مع نثرات غبار الأبنية المنهارة ... ومصالح عاطف نجيب ابن خالة الرئيس بشار الأسد تطغو فوق كل المصالح.

هذه هي سورية الحديثة التي وعدنا بها بشار الأسد .. باتت مستنقعاً لفساد آل الحاكم...!

سوريا الله حاميها ... وبشار حراميها !!

الصدق الله يحمي سوريا من سياسة حاكمنا

الله يحمي سوريا من فساد الحاكم وعائلته

الله يحمي سوريا من الاستبداد والقتل والقمع

محاربة الفساد والإصلاح الاقتصادي فقط على الشعب الفقير ومحاربة فساد الحـاكم وعائلتـه والكف عن سرقة الموارد الاقتصادية وثروات سوريا خط احمر ممنوع التحدث عنها !!!

المجرم كمال الأسد*

هو ابن عم الرئيس السوري بشار الأسد .. أبوه اسماعيل الأسد الأخ الغير شقيق لحافظ الأسد.
هذا الملف يروي حكاية أب وكيل لشركة أجنبية تبيع معدات لمؤسسة اقتصادية حكومية يديرها الابن !!

كمال إسماعيل الأسد يشغل منصب رئيس غرفة وصناعة اللاذقية ووكيل لشركة المانية وصينية لمكنات الغزل والنسيج يحمل شهادة بالحقوق وشهادة دكتورا ... مجهولة الهوية.

فساده الاقتصادي:

عند تجديد وإشادة معمل جبلة للغزل والنسيج وبقدرة قادر كانت المناقصة من نصيب وكيل الشركة الألمانية كمال الأسد حيث تم تزويد المعمل بمكنات وتوسيع المعمل على أساس مواصفات عالمية لإنشاء المعمل، مالبث هذا المعمل على العمل والإنتاج حتى تبعثر في الهواء أثناء العاصفة الهوائية التي هبت على الساحل السوري والتي لم تتأثر بها الأبنية ولم يحدث أضرار مالية في كافة الأبنية في الساحل السوري سوى في معمل جبلة !!! فمن كان يدير هذا المعمل؟

هذا المعمل الذي يديره سامر الأسد ابن كمال الأسد الذي لا يحمل أي مؤهل علمي أو شهادة علمية حقيقية لإدارة هذه المنشأة الاقتصادية المهمة وبعد الإعصار بداء كمال الأسد بتوريد معدات جديدة من مكنات وإعادة إنشاء وترميم المعمل بدون إجراء مناقصة مع معمل جبلة للغزل والنسيج وقدر بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار طبعاً تم العقد بين سامر الأسد وشركة أبيه بدون إجراء أي مناقصة حيث رفض عدد من العاملين بوضع اسمهم ضمن لجنة تسليم المعدات والمنشأة وسرعان ماوجدوا إختلافاً بين المعدات والمكنات التي تم التوقيع عليها في العقد مع الوكيل كمال الأسد وإختلافاً في معاير الأبنية حسب المواصفات العالمية فتم نقلهم إلى معمل حماة للغزل والنسيج وتم الإستلام مع سامر كمال الأسد شخصياً.

وبعد التوقيع على محضر الاستلام والتسليم ظهرت مشكلة توقيف دفع المستحقات المالية للشركة الألمانية وعدم تسديد المبالغ التي يجب أن تسدد بعد إستلام معمل جبلة للغزل المعدات.

والسبب الحقيقي ليس بعدم التقيد بالمواصفات والعقد إنما بنسبة كمال الأسد حيث طلب إضافة مبلغ أكبر على "الكمسيون" المتفق عليه في بداية المشروع وتم حجز المبلغ ولكن الشركة الألمانية اعترضت لدى الحكومة واعترضت لدى وزارة الصناعة آنذاك وبعض إطلاع وزير الصناعة في ذلك الحين الوزير السابق عصام الزعيم على هذا الملف تم صرف المبالغ المستحقة للشركة الألمانية

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

بشكل قانوني كون كافة الشروط التي كانت موجود بالعقد قد تم تنفيذها من قبل الشركة الألمانية مما أدى بتدخل كمال الأسد شخصياً عند بشار الأسد وتلاعب رئيس الحكومة آنذاك مصطفى ميرو تم توقيف وحجز أموال عصام الزعيم ونائبه واعتبروا بأنهم مرتشين حيث وجهت تهمة قبض عمولة من الشركة الألمانية لأن هذه الشركة لم تلتزم ببنود العقد الموقع مع معمل جبلة للغزل والنسيج.

حيث أقدم عصام الزعيم بوضع كافة مستندات هذه القضية أمام القضاء وتبين تورط كمال الأسد وأبنه سامر الأسد بالإضافة إلى تورط بشار الأسد شخصياً في هذه الفضيحة حيث ألغيت هذه الدعوة مباشرة من قبل القضاء المختص وأغلقت القضية لأن المثل يقول "كرمال عين تكرم مرج عيون" ...!

أما سامر الأسد ابن كمال الأسد الذي لايحمل سوى شهادة محو الأمية وهو غير مؤهل قطعياً لأن يكون مديراً عاماً على مؤسسة إقتصادية إنتاجية كلفت الشعب المليارات لينهبها ويفلسها وينشر خبر إفلاسها في الصحف الرسمية السورية دون أن يتحرك أي ساكن.

وكان إفلاس هذه المؤسسة سببه تصدير الخيوط إلى خارج سوريا وإلى قبرص خصيصاً وبيعه بأقل الأسعار .. وبأسعار أقل من الأسعار التي تباع في السوق السورية وهذا المعيار الإقتصادي الذي كان يعتمده مدير هذه المؤسسة بحجة تامين قطع أجنبية إلى سوريا.

الحقيقة بأن المنتجات التي كانت تصدر كانت تباع إلى شركة أوربية في قبرص يمتلكها أيهم إسماعيل الأسد شقيق سامر الأسد الذي يملك شركة تجارية في قبرص ومجموعة الفنادق واسهم في البنك العربي الأوربي في قبرص وهذه الشركة كانت تشتري هذه المنتجات بأسعار منخفضة بالنسبة لأسعار الخيوط القطنية في العالم وتبيعه بأسعار اكبر من الأسعار التي تشتري بها هذه الخيوط هذه هي حالة اقتصادنا وسرقة مؤسساتنا الاقتصادية من قبل آل الحاكم .

وهذا الإفلاس الذي أذهل الشعب والإقتصاديين كون معمل غزل الخيوط القطنية في جبلة وهذه المنشأة تعتبر رابحة مئة بالمائة كون هذه الخيوط لها طلب عالمي وسوري وكان التجار السورين والصناعيين سورين في مجال تصنيع الأقمشة قدموا عرض للحكومة بعد إفلاس هذه المؤسسة بأن يديروا معمل غزل جبلة أو يستثمروها بمئات الملايين وكان إستغراب الصناعيين "مؤسسة لها طلب على منتجاتها علمياً " كيف لها أن تكون خاسرة..؟؟

ولم يكتف كمال الأسد وأولاده من سرقة أموال الدولة بل إمتدت سرقاته ونهب للمستثمرين العرب في سوريا حيث فرض على المستثمر السعودي حسن بلادن المستثمر لشاطئ افاميا حيث اجبر حسن بلادن على إدخال كمال الأسد كشريك وأعطى لكمال الأسد بناء هذا المشروع

ولكن حسن بلادن لاحظ بأن المشروع لايبنى حسب المواصفات العالمية لهذا الإستثمار الضخم فالسرقات في المواد الأولية كثرت وإنهيارات بعض الأبنية أثناء إشادة هذا المشروع باتت منتظرة، فقرر إنهاء عمل وتنحية كمال الأسد عن هذا المشروع الإستثماري مما دفع حسن بن لادن لأن يخبر بشار الأسد بالتجاوزات التي سببها كمال الأسد والخوة التي يفرضها على المشروع فكان قرار بشار الأسد صاحب شعارات محاربة الفساد والإصلاح بأن يقول لبكر بلادن على شقيقك حسن بأن يدفع مبلغ ٥٤ مليون دولار ليخرج كمال الأسد من المشروع ومن الشراكة التي فرضها كمال الأسد على حسن بلادن مع العلم أن قيمة المشروع ١٨٠ مليون دولار .

تم دفع مبلغ ٤٥ مليون دولار لكمال الأسد شريطة خروجه من المشروع وفك الشراكة مع حسن بلادن وهذه الشراكة التي بنيت على النصب وفرض الشراكة على هذا المشروع بدون دفع أي مبلغ للمستثمر...!!

وهذا هو حال الشراكات من قبل آل الحاكم على الشركات العربية والمستثمرين العرب !!!

فعلاً طبقت مقولة بشار الأسد علينا بالإنفتاح وتأمين الجو المناسب للمستثمرين في سوريا والجو المناسب هو ضرورة تأمين أفراد من آل الحاكم ليكونوا شركاء مع المستثمرين في سوريا من أجل بناء اقتصاد وطني لأولاد العم والخال.

فساده الاجتماعي والأخلاقي بحق على أبناء الوطن:

سنسوق عليكم قصة أو حكاية في كل يوم بها دراية في هذا العصر الغريب والزمان العجيب، إلا أنه آن الأوان لكشف المستور وفضح المخبوء.

وصلنا، والكلام موثوق، أن مجرما مدعوما من العدالة قام فجر يوم الأحد٢٠٠٤/٨/٨ بقتل شاب في مقتبل العمر ٢٤ عاما يدعى "مناف سليمان محلاً من قرية بجوار بلدة القرداحة - مدينة اللاذقية وتدعى "رويسة البساتنة" وذلك لسبب وجيه تأخذه العدالة بعين الاعتبار وخاصة لأمثال هذا المجرم كما جرت العادة، والسبب أيها السادة أن المغدور رفض أن يمنح أو يهب أو يدفع كإتاوة، دراجة نارية يملكها وقد كان المجرم المسكين قد استحلاها فما كان منه سوى قيامه بإطلاق ٥٠ طلقة نارية من عيار طلقات المقاومة الثورية وذلك في وضح الفجر وقد غادر المسرح منتشيا متبخترا مدعوما هذه المرة من العدالة كما في كل مرة.

المجرم ويدعى ثائر عبدالله سليمان بن وفيقة الأسد شقيقة كمال الأسد، ولكم أن تحكموا ياسادة يا كرام ؟

المذكور كمال الأسد مشكورا يقوم في كل مرة ببذل جهد وفير "يشكر عليه " في تفعيل دور العدالة النائمة من أجل الدفع بموجبات البراءة لموكله بن أخته المسكين والقذف بها في وجه كل

من لايمكّنه إدراكه من إدراك تلك الموجبات ، وباعتبار المحامي المذكور كمال الأسد خال البريء محاميا لجوقة المنتفعين واللصوص والجهلة والسذج لدى المحكمة العليا لإيصالهم إلى مواقع النفوذ أو هكذا يدعي ويقول ، من أجل أن يرتقي إلى مسرح الفعل والنفوذ ، ويصبح فـاعلا في ســاحة الحكم والقضاء ليس إلا من أجل أن يدافع عن ثلة من المظلومين أمثال بن أخته المجرم هذا الــذي هو وأمثاله كثر قد فعلوا فعلتهم النكراء وما زالوا طلقاء يختالون بفضل أمثال محامي الشيطان إلى كوكب الدكتوراه بمركب الجهل واللصوصية

ويطربنا بشار الأسد بأناشيد الإصلاح ومحاربة الفساد وتطوير نظم الاستثمار

"الوطن للجميع .. الاستثمار من اجل اقتصادنا الوطني" ولكن الواقع يقول:

"الوطن للأسد .. الاستثمار من أجل اقتصاد آل الحاكم"

هذه هي عائلة الحاكم .. كتلة من الفساد مكحلة بمليارات الدولارات .. هي أمــوال الــشعب السوري.

المجرم حسن مخلوف*

حسن مخلوف ومنافذ «السرقة» .. عصابات واستخدام سلاح... ونشر أغذية فاسدة ومخدرات

ما من دولتين في العالم إلا ويتجرأ البعض على ارتكاب جريمة التهريب على حدودهما.. وســورية ليست خارج هذه القاعدة، فحدودها مفتوحة مع لبنان والأردن وتركيا والعراق..

ولكن مايميز سورية هو أن رجل الضابطة الجمركية هو نفس الرجل الذي يقوم بتنفيذ عمليــات التهريب وتأمين الحماية والطرق السالكة والسالكة جــداً للمهــربين...إنــه أحــد أتبــا ع آل الحاكم..وفي الأخيرة تكمن الخطورة..

وهو يسوّل للمهربين أن يمارسوا أعمالهم المخلة بالقانون إما هرباً من الرسوم الجمركية أو لتمرير مواد ممنوعة.. تحت إشراف وتنظيم بطل حلقتنا هذا الأسبو ع العميد حسن مخلوف !!

هو من محافظة اللاذقية من قرية تابعة إلى قضاء الحفة وهو ليس كما يشاع من قرية أل مخلــوف عائلة حرم الرئيس الهالك حافظ الأسد وليس بقريب كم يشاع أيضاً باللواء عدنان مخلوف.

خريج الكلية الحربية حيث التزم العمل ضمن وحدات عسكرية محاربة وأثناء تــدريبات هــذه الوحدة العسكرية تلقى بعض الإصابات والشظايا "قنبلة" أثناء خطاء في التدريب في السلاح الحي انتقل إلى إدارة الجمارك عن طريق محمد مخلوف كونه تربطه بعلاقة جيد مع محمد مخلــوف عــن طريق شقيقه الذي يعمل آنذاك مدير المحاسبة لدى المؤسسة العامة للتبغ "الريجي" حيث نقل مــع

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

محمد مخلوف إلى إدارة العامة للبنك العقاري السوري في سنة ١٩٨٥ وكان مدير القروض العامة العقارية في الإدارة العامة بدمشق والسمسار الخاص لمحمد مخلوف وشقيقه الأخر الـذي يحمـل شهادة الهندسة ويعمل في مؤسسة الإسكان العسكري.

وبعدها أصبح مدير فرع عدرا والذي اشرف على بناء قصر محمد مخلوف في صلنفة على أراضي أملاك وزارة الزراعة و انتقل من ملاك وزارة الدفاع إلى إدارة الجمارك العامة حيث أنـشئ لـه قسم خاص ليكون رئيسه وهو بما يسمى الآن "المكتب السري".

وكان شديد الحزم في بداية تسلمه ولكن هذا المنصب الذي هو مراقبة على الحدود وعلى عناصر الجمارك ولم يستطيع بوقتها سوى تسهيل عمليات التهريب لبعض الشخصيات حتى يتمكن مـن يرتفع اسمه عن طريق التهريب لدى المسؤولين الأمنين والقادة حيث كانت سرايا الدفاع تجـول وتمرح وكانت سوريا مزرعة لها وكانت الوحدات الخاصة تشاركها بهذه الأعمال عبر ضباطها.

وخلال انتهاء عهد قوى سرايا الدفاع تفرغ للعمل مباشرة مع محمد مخلـوف أثنـاء الحـصار الاقتصادي على سوريا عندما كانت السمنة والمحارم والفواكه والأدوية الأجنبية والدخان والتبغ الأجنبي ممنوعة في سورية ولكن كان بوقتها محمد مخلوف مديراً عاماً لها يدخلـها بطريـق غـير مشروعة و كانت مستودعات الشركة العامة للتبغ ممتلئة بالتبغ الأجنبي المهرب ويبـاع لـصالح محمد مخلوف بكل المحافظات...!!

وعندما كان يسمح باستيراد الدخان والتبغ الأجنبي وبيعه في المحلات العامة بشكل علـني لكـن اصدر قرار مدير مؤسسة التبغ محمد مخلوف بمنع الاستيراد ومنع بيع الدخان الأجنبي في الأسواق، فنشط بيع الدخان المهرب وكان محمد مخلوف وزلمته على الحدود حسن مخلوف هم مافيا الدخان الأجنبي في سوريا قبل صعود أسماء من أل الأسد للتهريب !!!

وكانت كافة أنواع الدخان المهرب بكميات كبيرة والأدوية المهربة والسلع التموينية المهربة أيضاً من لبنان ومن قبرص متوفرة كلها عند أبو رامي عبر سمساره أبو جميل في حي المهاجرين وكانـت هذه البضائع تدخل بالشاحنات عبر الحدود السورية اللبنانية على عين يا تاجر وكانـت تكتـب عليها مرسلة للقصر الجمهوري ....

ومازال يتذكر السوريون آنذاك الحصار على الشعب السوري عندما كان الشعب يموت جوعـا بينهم أطفال ومسنّين لعدم توفر المستلزمات الطبية والأدوية الضرورية وعصابة آل مخلوف تزداد ثراء من دم هذا الشعب !!

ازدادت الشكاوي على حسن مخلوف بعد تسيبه وعدم قدرته على حماية اقتصادنا وفتح أبـواب التهريب إلى آل الحاكم على مصراعيه.

فاصدر قرار رئيس مجلس الوزراء السوري آنذاك عبد الرؤوف الكسم بتاريخ ٢٨/٠٧/ ١٩٨٦ بوقف عمل حسن مخلوف ونقله إلى وزارة الدفاع بعد أن تم توجيه كتاب من وزير التموين آنذاك علي الحاج خليل ووزير الاقتصاد محمد العمادي بان الأسواق الداخلية تتوفر بها السلع التموينية المهربة وعلى عدم ضبط المخالفات التموينية للأسعار كون كافة البضائع أجنبية مهربة.

تم طي قرار النقل بعد تدخل أبو رامي شخصيا وتدخل مصطفى طلاس وزير الدفاع برد كتاب النقل إلى رئيس الوزراء وعدم تنفيذ قرار النقل لحسن مخلوف وخاصة في أثناء هذه الظروف كان مصطفى طلاس على خلاف كبير مع رئيس الوزراء آنذاك لأسباب خاصة (؟؟).

فأصدر وزير المالية محمد الأطرش قراراً توقيف عن العمل لحسن مخلوف ولكن هذا القرار لم يطبق فكانت إحدى أسباب استقالة وزير المالية حفاظاً على كرامته وقيمه وهيبته ومكانته أمام العماليين في هذه الوزارة وأمام الشعب السوري !!!

تم تشكيل لجنة ومراقبة تهريب المخدرات مكافحة المخدرات من قبل إدارة الجمارك العامة حيث ترأس حسن مخلوف هذه الجنة ما جعله أكثر لوعة للثراء على حساب امن الشعب السوري من هذه الآفة الخطيرة حيث أسس شبكة تهريب له من داخل اللبنان مع يحيى شمص ....

أصبح حسن مخلوف بطل قومي وحامي اقتصاد سوريا على بعض الأفراد البسيطين من العسكريين المتواجدين في لبنان حيث كان يصادر فناجين القهوة وبعض السلع التموينية الخفيفة التي كانوا يأتوا بها من لبنان !!

وفي هذه الأثناء شكل لنفسه عصابة خاصة للتهريب بمعرفة محمد مخلوف ومعظمها من شباب عسال الورد وبعض الشباب من الزبداني، ولكن كانت هناك مجموعة أخرى من بعض العوائل التي تقطن في منطقة الزبداني تعيش على تهريب الأدوات الكهربائية التي لم تعمل مع عصابته ولم تعمل لحسابه فطاردها في سوريا ولبنان على أساس أنها تهرب مواد مخدرات وفعلا تم إركاع أهالي الزبداني بعد إعدام أولادهم الثلاثة في ساحة الزبداني التي كانت انتصار كبير لحسن مخلوف في هذه المنطقة التي أصبح معظم العوائل التي تعيش على التهريب في منطقة الزبداني تعمل لحساب حسن مخلوف وله ٢٠٠٠ دولار على كل سيارة تدخل إلى سوريا من الساعة ١٢ ظهرا حتى الساعة الثالثة ظهرا وأي سيارة أخرى وأي مجموعة أخرى كانت تقوم بعمليات تهريب كان يقوم بمصدرها وينادي بأعلى صوته بأنه بطل قومي لسوريا وحامي حدود واقتصاد سوريا "حاميها حرامهيا"...!!

لم يقتصر عمله على تهريب المخدرات والتبغ الأجنبي إنما على تهريب الأموال السورية أيضا والعملات الأجنبية حيث أسس له مكتب للصرافة لدى مكتب سياحي في المرجة "الشرق

الأوسط" وتحويل المبالغ الكبيرة للتجار وإدخالها إلى لبنان مما أدى إلى ضعف الليرة السورية وانخفاضها وقلتها وعدم توفر النقد السوري داخل سوريا وتوفرها في بيروت والدول الخليجية بكثافة.

وكنا سنذكر بعض أسماء التجار السوريين ولكن "أدباً والتزاماً بمبدأ الكتمان على أبناء شعبنا وتجارنا الذين استغلتهم السلطة من اجل إفقارهم وزيادة ثروات آل الحاكم قررنا عدم نشر أي اسم من هؤولاء التجار " .

واحتج كثيراً القادة العسكريين والأمنين في سوريا ولبنان على تصرفات حسن مخلوف مع العاملين من هذه المؤسسة من ضباط وأفراد وإهانتهم ضارباً عرض الحائط "القِدم العسكري" وعدم احترام الرتبة الأعلى حيث كان يقوم بتوقيف الضباط وإهانتهم بالتفتيش وأشياء أخرى وهو يقول بأنه مؤمن على حماية حدود واقتصاد سوريا والكل كان يعرف بعصابة حسن مخلوف بما تقوم من تهريب مخدرات وأموال ودخان و ....

وكانت مستودعات الدخان في حي الميدان بدمشق ممتلئة بالدخان والأدوات الكهربائية المهربة والدخان الأجنبي المهرب الذي يوزع على الأطفال ليتم بيعه في الشوارع وبيعه على الاشارت الضوئية.

وتتمتع هذه المستودعات بحماية أمنية من قبل فرع الأمن السياسي عن طريق العقيد عاطف نجيب "شريكه" في الثروة مقابل الحماية الأمنية لهذه المستودعات!!

وفي سنة ٢٠٠١ تم مصادرة سيارة تكسي والكشف عنها أثناء دخولها إلى سوريا وهي محملة بسبائك ذهب بوزن حوالي ٢٥٠ كيلوا وكانت هذه السيارة قد ابلغ عليها تاجر الذهب "جان ؟" الذي ابلغه عن كمية الذهب المهربة التي عرضت على شاشات التلفاز السوري !!!

إن هذه العملية التي عرضت على الإعلام السوري ما كانت إلا لعبة ومسرحية مفبركة مع تاجر الذهب "جان ؟" بالاتفاق مع رستم غزالي على أن قسم بيروت قد شارك بهذه العملية ليتم إدخال كمية اكبر من الكمية التي تم مصادرتها إلى سوريا ٢ طن من الذهب الذي استورد إلى ميناء لبنان وادخل إلى سوريا ونشر هذا الذهب بالأسواق السورية بعيدا عن نقابة الذهب والصائغين وبعيدا عن وزارة الاقتصاد السوري وهي اكبر عملية تهريب تمت في عهد سوريا.

و كان لرستم غزالي نسبة لإدخالها إلى لبنان والنسبة الأكبر لحامي الحدود السورية حسن مخلوف والكمية المصادرة كانت لمجموعة صغيرة لبعض تجار الذهب ليتم إظهار رستم غزالة وحسن مخلوف هم حماة للاقتصاد السوري ولكن الذي ادخل السجن السائق البسيط الذي لم يعرف بهذه المسرحية إلا بعد إدخاله السجن والحكم عليه بخمس سنوات محكمة اقتصادية.

أما بالنسبة لتهريب المشروبات الكحولية من معمل ذو الهمة شاليش في لبنان (كما ذكرنا في حلقة سابقة) حيث يقوم هذا المعمل بتعبئة المشروبات الكحولية بمختلف أنواعها و بتزوير الماركات العالمية وبيع هذه المواد تهريباً إلى سوريا عن طريق العميد حسن مخلوف في إدارة الجمارك العامة في سوريا كونه يملك نسبة كبيرة من توزيعها في سوريا وتهريبها إلى تركيا لأن إدارة توزيعها مرتبطة في شبكة حسن مخلوف لم يقتصر على استغلال الأطفال والعائلات الفقيرة في هذه الأعمال القذرة بل استغل قتل الأبرياء بمن يقف بوجهه لمصالح أمنية سورية حيث أقدم في سنة ٢٠٠٥ بملاحقة مهربين من الشباب من منطقة مضايا وقد هاجمتهم قوات أمنية على أساس أنهم مجموعة إرهابية تقوم بتهريب الأسلحة وتقوم بتدريبات عسكرية لتنفيذ عمليات إرهابية !!!

قتلوا هاؤولاء الشباب بعد أن تمت مداهمة منازلهم على أساس أنهم يمتلكون مواد متفجرة في منازلهم وأسلحة حربية ثقيلة ؟؟؟ وتطلق على اسمها اسم مجموعة من جند الشام ولم يكتشف شي أثناء مداهمة المترل. فتم جلب أسلحة ووضع ذخائر بجانب كل قتيل وجلب وسائل الإعلام السورية لتصوير هذه المشاهد وعرضها !!!

هذه المسرحية التي استغلها حسن مخلوف حيث أعطى هذه الأسماء ومكان إقامتهم وتواجدهم كونهم رفضوا العمل مع حسن مخلوف ورفضوا تهريب المخدرات وأشياء أخرى..

فأراد تصفية هذه المجموعة بالاتفاق مع اصف شوكت على أساس أنها مجموعة جند الشام المتطرفة وهذه المجموعة التي لم يكن لها وجود أبداً في سوريا إلا بعد مقتل رفيق الحريري ؟؟؟ !!!!

أما أهم المنافذ الحدودية التي يتم عبرها التهريب فهي منطقة القلمون، سرغايا، الزبداني، تلكلخ، العريضة، ميسلون، قلعة جندل، قطنا، إضافة إلى الحدود العراقية والتركية والمنافذ البحرية...وكلها بمعرفة العميد حسن مخلوف..

وأكثر هذه المناطق ضراوة فهي منطقة القلمون والزبداني كونها مناطق جبلية وعرة من الصعب التنقل فيها ووجود عدد كبير من عصابات التهريب امتهنت التهريب بقوة السلاح. بالإضافة إلى منطقة قطنا الممتدة إلى جبل الشيخ بسبب وعورة أراضيها.

وعن الوسائط المستخدمة في التهريب فإن هذه الوسائط متعددة ومختلفة حسب طبيعة الأرض ونوعية المواد المهربة، فمثلاً في المناطق الجبلية تستخدم الحيوانات كالبغال في نقل البضائع.. أما في الطرقات المستوية فيتم استخدام الآليات بمختلف أنواعها من سيارات وجرارات ودراجات نارية.. وفي البحر يتم استخدام الزوارق.

ويتم استخدام السواتر والعوائق في بعض المناطق لتسهيل أعمال التهريب كالسواتر التي كانت مقامة على الحدود اللبنانية في منطقة البقاع والتي حدت كثيراً من عمليات التهريب والتي تمت

إزالتها مطلع الشهر الفائت بعد اجتماع محافظي ريف دمشق والبقاع اللبنانية مما سبب خسائر فادحة لرامي مخلوف وشركائه بشار وماهر الأسد.

وكثيراً ما يشتبك عناصر الجمارك مع المهربين وبخاصة الذين يقومون بتهريب الأسلحة والمخدرات، تمثيلية من إخراج سوري للتضليل، وهنا يأتي دور حسن مخلوف بحكم منصبه لحل هذه المشاكل مابين المهربين وعناصر الجمارك مقابل مبالغ ورشاوي سخية تصل إلى مليون دولار في الساعة مقابل فتح الحدود للمهربين لدقائق معدودة دورن تدوينها أية سجلات جمركية !!!

هذا هو "قبضاي" الجمارك السورية العميد حسن مخلوف موظف لدى عائلة الأسد ومخلوف وشاليش يسهر ويفنى على تأمين لقمة العيش لأسياده

مسروقة من أفواه الشعب السوري مقابل تهريب السلع الممنوعة لتدفع بالعملة الصعبة لصالح نزلاء "فندق" قصر الشعب وحاشيتهم !

المجرم محمد مخلوف*

هذا الملف هو عن الخال المدلل على قلب الحاكم في سوريا، وللخال أمثال معروفة تردد في سوريا مثل "الظاهر انك مخول" !

الخال الذي دمر الاقتصاد السوري من خلال "مؤسسة التبغ – والبنك العقاري – وسرقة النفط السوري – الخ ...

انه الأسطورة الاقتصادية والإمبراطورية المالية "محمد مخلوف" (أبو رامي).

محمد مخلوف من مواليد محافظة اللاذقية "جبلة – بستان الباشا" يحمل شهادة في التجارة والاقتصاد.

الوضع العائلي :

هو الشقيق الأصغر والوحيد وترتيبه الثالث بعد فاطمة مخلوف – وأنيسة مخلوف زوجة الرئيس الهالك حافظ الأسد ووالدة الدكتور بشار الأسد،

متزوج من أربع نساء ولديه خمس أولاد من زوجته الأولى "مهنا" :

(رامي – حافظ – إيهاب – إياد – ابنتان)

الوضع المهني :

---

* نقلاً عن موقع :سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت بتصرف يسير .

كان موظفاً في شركة الطيران السورية في قسم المحاسبة التجارية وبعد تولي الرئيس الهالك حافظ الأسد السلطة في سوريا عين محمد مخلوف مديراً عاماً لمؤسسة التبغ والتنباك "الريجي" في سوريا عام ١٩٧٢ .

انطلق بالفساد من هذه المؤسسة والتي تحكم جميع العقود مع الشركات الأجنبية سواء باستيراد التبغ الخام والسجائر الأجنبية المصنعة، واستيراد الآلات والتجهيزات الصناعية للمؤسسة التبغ "كخطوط تصنيع السجائر المحلية وغيرها من مستلزمات المؤسسة "، وتصدير المنتجات السورية والتبغ السوري الخام للخارج .

وفي الوقت نفسه دخل مجال السمسرة في عقود الدولة مع الشركات الأجنبية بعد حوالي عدد سنوات .

فساده في مؤسسة التبغ والتنباك:

حصر جميع وكالات شركات السجائر الأجنبية المصنعة باسمه بدل أن تكون محصورة في مؤسسة التبغ ، شراء تجهيزات مستعملة وخطوط إنتاج لتصنيع السجائر المحلية وبيعها على أنها جديدة وبأسعار خيالية، تصدير التبغ الخام السوري الذي له صبغة ونكهة خاصة مطلوبة عالمية إلى شركة يونانية وهمية بأسعار رخيصة جدا ويتم بيع التبغ السوري في اليونان إلى شركات أجنبية بأسعار اغلي من السعر الحقيقي التي تم شرائه من مؤسسة التبغ أي بحوالي ضعفين السعر المباع إلى الشركة اليونانية ، وانعكست هذه الأسعار الرخيصة على الاقتصاد الوطني وعلى المزارعين حيث تم فرض عليهم شراء منتجات التبغ منهم بأسعار لاتكفي تكاليف زراعته .

ولم يكتف بسرقته من أموال الدولة بل فرض على التجار والوكلاء الحصريين للسجائر الأجنبية المصنعة "بدفع عمولة مالية" له فرفضوا هذه الضغوطات عليهم وتم رفع شكوى إلى رئيس الحكومة آنذاك عبد الروؤف الكسم مما دفع محمد مخلوف إلى إصدار قرار بوقف استيراد السجائر الأجنبية المصنعة عبر وكلاء وتجار وحصر استيرادها عن طريق مؤسسة التبغ حيث ايضا فرض على الشركات الأجنبية عمولة ١٠% مقابل كل كمية مستوردة من مؤسسة التبغ من الشركات الأجنبية و كون هذه الشركات كانت تعطي ١٠ % للتجار والوكلاء في سوريا وهذه الشركات تريد أن لاتخسر مبيعاتها وعقودها في سوريا ، فأصبح محمد مخلوف الوكيل الرسمي لهذه الشركات الأجنبية في سوريا تحت مظلة مؤسسة التبغ السورية رافعاً شعار (حماية الاقتصاد الوطني).

وفتح هذا القرار الباب على مسلسل "التهريب"

هذا القرار كان بالنسبة لأإفراد من آل الحاكم " طاقة الفرج " أي فتح لهم انهر من الأموال ليتم تأسيس شركات ومؤسسات مسلحة التي عرفت باسم "الشبيحة" لتقوم بتهريب هذه السجائر من الدول المجاورة ومن دول أوربية عبر "البحر – البر – الجو" على عينك يا تاجر (حاميها حراميا) !!

ولكن عسل وطمع محمد مخلوف مع الشركات الأجنبية لم يبقى كثيرا حيث فرض على الشركات الأجنبية برفع النسبة والحقيقة السمسرة أو عمولته فرفضت الشركات الأجنبية هذه الضغوطات وأرسلت شكوى إلى رئيس الحكومة السورية عبد الرووؤف الكسم آنذاك وطلب من الحكومة السورية بإلغاء العقد مع محمد مخلوف وإعادة العقود السابقة التي كانت موقعة مع مؤسسة التبغ ومع وكلاء من التجار السوريين أيضاً التي أدت إلى خسارة مؤسسة التبغ لملايين من الدولارات وكانت تحمل رسالة الشكوى استغرابها كيف تكون الوكالات " سمسرة " للشركات الأجنبية للسجائر المصنعة مع شخص وحيد في سوريا ويمنع بعض التجار من أن يكونوا هم أيضاً وكلاء لشركات أخرى أجنبية للسجائر المصنعة، وذكر ايضا كيف يمكن أن تكون كل وكالات " سمسرة " الشركات الأجنبية لشخص وهو بنفس الوقت يدير مؤسسة التبغ السورية يكون هو الوكيل الحصري للمنتجات ، وهي التي كانت بالسابق تصدر لهذه المؤسسة الحكومية حصرياً بأسعار مناسبة وإلى وكلاء لها من بعض التجار السورين وكانت الأسعار تتناسب مع مستوى معيشة المواطن ؟؟ ...

وبقيت هذه الشكوى في طي الكتمان في إدراج مكاتب القصر الجمهوري ، وبقي الحال على ماهو عليه حتى ظهر ماهر الأسد على الساحة الاقتصادية وطلب من خاله مقاسمته في الشركات الأجنبية للسجائر المصنعة بعد أن اصدر الرئيس الهالك حافظ الأسد مرسوم جمهوري يقضي وقف استيراد السجائر الأجنبية المصنعة من مؤسسة التبغ وحصر استيراد السجائر الأجنبية المصنعة بمؤسسة الأسواق الحرة "غوتا" والتي يسيطر عليها محمد مخلوف حيث أصبحت الشركات الأجنبية أغلبيتها عائدة إلى ماهر الأسد لهذه اللحظة من كتابة هذه المقالة .

وبعد هذه الشوشرة من الشركات اصدر رئيس مجلس عبد الرووف الكسم آنذاك قراراً بنقله إلى المصرف العقاري بناء على أوامر الرئيس الهالك حافظ الأسد في عام ١٩٨٥ وظناً من الدكتور عبد الرووف الكسم انه حجم محمد مخلوف في نقله لهذا الموقع .

فساده في البنك العقاري السوري:

اكتشف محمد مخلوف كنزاً جديداً في المصرف العقاري فوضع تسعيرة للقروض التي يمنحها المصرف بمقدار ١٥% ولم يمنح قرضاً لمواطن أو مقاولاً أو لأصدقائه إلا بعد حصوله على ١٥%

،وان المصرف العقاري كان قد منح عدد قروض تقدر بمليارات من الليرات السوري إلى أسمـــاء وهمية ومتوفى وعقارات وهمية لان القرض يمنح بناء على مستند عقاري أو تجاري لضمان حـــق البنك بحال عدم التسديد ، وأيضاً وضعت نسبة ١٠% لمن يطلب تأخير التسديد أو طلب تمديد مدة القرض أو تمديد مدة إعفاء القرض من الرسوم المضافة عليه .

من حوادث هذا البنك :

١ - حادثة منح قرض مبلغ ٣٥٠ مليون ليرة سورية لإقامة مشروع سياحي على ارض في مدينة الرقة في المدخل الشمالي لها عند البحيرة والواقعة تماما تحت جسر الرقة اكتشف بان الأرض هي لأملاك الدولة (وزارة الزراعة) اسم صاحب القرض متوفي

٢ - حادثة منح قرض مبلغ ٢٧٠ مليون ليرة سورية في مدينة حلب لرجل أعمال لإكمال بنـــاء مشروع صناعي لكن المفاجئ كانت بان قيمة القرض ٣٠٠ مليون القيمة الحقيقية لكن منح فترة عشر سنوات للتسديد بدون فوائد عليها

٣ - قرض بقيمة ٥٠٠ مليون ليرة سورية وكانت كفالة هذا القرض منشأة اكتشف فيما بعد أن هذه المنشأة عليها حجوزات من قبل الورثة وصاحب القرض موجود في القاهرة وقبرص .

وغيرها الكثير من القروض ... !!!

وأخر أيام فساده في البنك العقاري هو تحويل بعض مبالغ من احتياطي البنك العقاري في البنـــوك الخارجية باسمه مباشرة بدل أن تكون باسم البنك العقاري وخاصة مبلغ وقدره ٦١ مليون دولار في بنك سويس كارد

وأيضاً تجهيز بنك العقاري من حواسب بنكية وآلات الصرف الالكترونية عن طريق شركة لبنانية هو شريك لهذه الشركة حيث قدمت عروض فرنسية وبريطانية بأوصاف فنية أفـــضل وأســـعار ارخص من عقد الشركة اللبنانية لكن عرض الشركة اللبنانية بمواصفات صينية وأسعار أغلى من الشركات الأوربية كانت الأفضل تشجيعاً لزيادة أرباح محمد مخلوف

فساده في قطاعات اقتصادية حكومية ومصرفية أخرى:

١ - قطاع النفط

أسس محمد مخلوف شركة تعمل في مجال الخدمات النفطية " تامين عقود اســـتخراج الـــنفط – البحث واستكشاف عن آبار نفطية – نقل النفط الخام – حفر آبار نفطيـــة – " واســـم هـــذه الشركة (ليد للخدمات النفطية) وحصته في هذه الشركة ٥٠% والنصف الأخر باسم المهندس نزار الأسعد وحصة محمد مخلوف مسجلة باسم شقيق زوجته غسان مهنا

(شركة " ليد " مملوكة أمام دوائر الدولة إلى غسان مهنا الشريك الأول الذي يتستر ورائه محمد مخلوف والشريك الثاني نزار الأسعد ، غسان مهنا كان موظفاً سابقاً في الشركة السورية للنفط والغاز، نزار الأسعد مهندس وموظف في دائرة حكومية وله قرابة عائلية مع محمد مخلوف)

وتولت هذه الشركة جميع أعمال الخدمات في قطاع أعمال النفط بالإضافة إلى عقود استيراد معدات وتجهيزات النفط وعقود تصدير النفط ، حققت هذه الشركة أرباحاً طائلة منذ عام ١٩٨٠ .

وأسس أيضا شركة "شحن بحري" مقرها في اليونان مع طلال الزين رجل الأعمال السوري المقيم في اليونان تعنى في مجال شحن النفط والغاز والمواد الخام.

ألحقت شركات محمد مخلوف النفطية أضراراً كبرى في الاقتصاد الوطني السوري ومن هذه الأضرار أن وزارة النفط السورية قررت إنشاء معمل الغاز طرح في مناقصة عالمية وقد نجحت شركة " توتال الفرنسية " من الناحية الفنية والمالية في هذه المناقصة وكان ترتيبها الأول لكن هذه الشركة لم تلبي مطالب محمد مخلوف فتم إعادة النظر في عملية إرساء المناقصة من قبل ابن شقيقته الدكتور بشار الأسد شخصياً لتمنح المناقصة لتحالف شركات وكيلها محمد مخلوف " الشركة الكندية غير معروفة في مجال الغاز – وشركة بريطانية مملوكة من رجل أعمال سوري من عائلة (الاصفري) - وشركة اوكسيدنتال الأميركية " .

طلب وزير النفط السابق الدكتور حداد ضمانات مالية وضمانات بعدم تطبيق المقاطعة الأميركية في هذا المشروع فلم يستطع تجمع الشركات المذكورة ذات الصلة بمحمد مخلوف من تقديم الضمانات فأوقف العقد لحين تقديم هذه الضمانات وإلى الآن لم تتمكن هذه الشركات من ذلك وبالتالي أضاع محمد مخلوف على الاقتصاد الوطني مئات ملايين الدولارات نتيجة عدم استثمار الغاز المهدور في الحقول النفطية وكان من المفترض أيضاً وضع المعمل في الإنتاج !!! ؟؟؟

وعلى اثر ذلك ايضا أقيل وزير النفط من نصبه كونه رفض التوقيع على العقود إذا لم يتم تامين الضمانات !!!

شركة الفرات

هذه الشركة التي أسست في عام ١٩٨٠ و تقوم بأعمال التنقيب عن النفط واستثمار حقول النفط وكانت الحكومة السورية لها ٦٥% و٣٥ % من مجموعة شركات أجنبية كانت ترأس هذه المجموعة شركة شل الهولندية والتي كان وكيلها محمد مخلوف ،وأصبح من المعروف أن محمد مخلوف الناشط في صناعة النفط، هو المحتكر الأول لها في سورية.

ويتردد الآن في أوساط أركان النظام السوري وعائلاهم، ودائما حسب الأوساط المقربة، أن من اكبر المسؤولين عن الخيارات الصعبة التي اتخذها سورية في العراق ولبنان، كان السيد محمد مخلوف، خال رئيس النظام السوري، وابنه رامي مخلوف. فمن اجل دوام استقطاع ٢٠ ألف برميل من منح النفط العراقي اقترح محمد مخلوف الوقوف إلى جانب بقايا النظام العراقي، وإعطائهم ملاذا في دمشق، وتمكينهم من إدارة أعمال التسلل ، إعداداً وتمويلا، انطلاقا من الأراضي السورية.

وكذلك كان محمد مخلوف وراء الإصرار على التمديد ثلاث سنوات لولاية اميل لحود، الرئيس اللبناني، حماية لعلاقة الشراكة القائمة بين رامي ابن محمد مخلوف، وإميل ابن الرئيس اللبناني، والتي تشمل شركات الموبايل، والمناطق الحرة على الحدود بين لبنان وسورية.

وقد كلفت هذه الخيارات النظام السوري خسائر فادحة " سياسية – اقتصادية " أوصلته إلى ماهو عليه الآن من عزلة ومحاصرة، وشعور دائم بالتهديد . ورأت الأوساط أن أعمال محمد مخلوف وابنه رامي تعتبر من التجاوزات التي قد يدفع ثمنها رئيس النظام بحكم الروابط العائلية.

٢ - قطاع النسيج

أعلنت الحكومة السورية على إجراء مناقصة عالمية لإنشاء معمل لغزل النسيج في محافظة ادلب في عام ١٩٩٠ وقد رست المناقصة على شركة يابانية بمبلغ ١٠٤ مليون دولار وقبل توقيع العقد مع الشركة اليابانية فوجئ الجميع والقيمين على هذه المناقصة بإدخال شركة اسبانية كانت قد سقطت في التأهيل الفني والتأهيل المالي ورفعت علاماها الفنية لأعلى الدرجات بحيث رست المناقصة على الشركة الاسبانية بمبلغ ١٠٩ مليون دولار واستبدل عقد الشركة اليابانية بعقد مع الشركة الاسبانية !!!

هذه الشركة الاسبانية مملوكة لشخص سوري يعمل مع محمد مخلوف في اسبانيا وهي عبارة عن شركة وهمية وردت آلات ومكنات لغزل النسيج لمعمل ادلب للغزل والنسيج وبعد تركيب الخط الإنتاجي والمكنات وكان الاستغراب من قبل مهندسين المعمل وجميع مسؤولين المعمل بعدم حضور مهندسين الشركة للإشراف على تركيب الآلات وكانت الصاعقة والصفعة الأكبر بان جميع الآلات لم تعمل بعد تركيبها وتم الاتصال وإرسال الطلبات عبر سفارتنا في اسبانيا ولكن لا مجيب فتقدمت الحكومة السورية بدعوى على الشركة الاسبانية وتفاجئت الحكومة السورية برد الدعوة لعدم وجود هذه الشركة في اسبانيا وعدم وجود أي ممتلكات لها ولا سجل تجاري وبالتالي تقاسم محمد مخلوف مع شريكه في اسبانيا مبلغ ١٠٩ مليون دولار وبقي حال هذا المعمل على ماهو عليه وبقيت الآلات في المستودعات وبقيت أبواب المعمل مغلقة حتى الآن والأموال التي دفعت

من الحكومة السورية بدون تقديم أي ضمانات من هذه الشركة قد ذهبت إلى جيب حرامي الشعب وحرامي الشعب الأكبر الذي يحميه بشار الأسد ووالده ومحمد مخلوف !!!

٣ - قطاع الكهرباء

- إنشاء محطات توليد كهربائية في (دير علي – محردة – تشرين) بعد أن وقعت الحكومة السورية هذه المشاريع إلى شركة يونانية وروسية وأوكرانية يملكها عدد رجال أعمال سوريين شركاء محمد مخلوف بعد الإعلان عنها في مناقصة عالمية ؟؟

لكن بعد حوالي سنة انفجرت محطة تشرين لعدم قدرت تحمل عنفات توليد الطاقة الكهربائية مما أدى إلى توقف محطة تشرين عن توليد الطاقة الكهربائية ولإغلاق هذا الملف " كرمال عين تكرم مرج عيون " اتصلت الحكومة الروسية بالحكومة الروسية طالبت فيها مساعدها بخبراء روس ومكنات جديدة لتوليد الطاقة الكهربائية بالسرعة الفائقة بدون إجراء أي مناقصة وفعلا تم تركيب مكنات جديدة روسية بدل المكنات المركبة ولم تحاسب الشركة المنفذة للمشروع ولم تعاد أموال هذه المكنات التي ركبت من قبل شركة محمد مخلوف وأغلق الملف كلياً

- محطة توليد الطاقة الكهربائية في محردة: بعد حادثة محطة تشرين بأشهر توقفت مكنات التوليد في محطة محردة ولكن بدون أن تنفجر مكنات توليد الكهرباء فسارعت وزارة الكهرباء والحكومة السورية بإجراء التصليحات اللازمة بدون الاستعانة والطلب من الشركة التي قامت على تركيب هذه المولدات ولكن بعد عدد أسابيع توقفت هذه المكنات ليقرر آنذاك وزير الكهرباء ورئيس الحكومة بالعودة إلى تركيب مكنات التوليد القديمة التي كانت موجود قبل تركيب هذه المكنات " الحديثة ! " وفعلا رجعت تعمل محطة محردة على أجهزة توليد للطاقة الكهربائية القديمة التي ركبت منذ عشرات الأعوام !!

لكن بدون محاسبة أيضا وضع هذا الملف في أدراج رئيس الحكومة وفي أدراج القصر الجمهوري تحت مقولة " كرمال عين تكرم مرج عيون "

٤ - قطاع المصارف الخاصة

بعد صدور مراسيم تقضي بالسماح بافتتاح بنوك خاصة تعمل داخل الأرضي السورية ، كان محمد مخلوف معد هذا المشروع ليس من اجل الاقتصاد الوطني وليس من اجل مايردده ابن شقيقته من شعارات بضرورة الانفتاح الاقتصادي والإصلاح الاقتصادي إنما لزيادة إرباحه وفتح مجالات اقتصادية أخرى له فكل بنك أسس في سوريا وخاصة البنوك العربية واللبنانية كانت ترخص عن طريق محمد مخلوف ليكون هو أول المساهمين في البنوك الخاصة وسنقدم مثال عن

إحدى البنوك الموجودة في سوريا والتي يديرها محمد مخلوف بأمواله التي سرقها من الشعب والأمثلة كثيرة ولكن سنتطرق إلى بنك بيبلوس اللبناني:

يملك محمد مخلوف في بنك بيبلوس اللبناني ١٦٦ ألف سهم أي ما يعادل ٤١ % وصندوق زويك للتنمية الدولية ٣٠ ألف سهم وابنهرامي محمد مخلوف ٢٠ ألف سهم أي ما يساوي ٥% من إجمالي الأسهم إضافة إلى عدد من المستثمرين السوريين وهم:

- إيهاب محمد مخلوف ولديه ٢٠ ألف سهم بنسبة ٥%
- عصام خير الله أيوب ٢٠ ألف سهم
- محسن نبيه شيخ الأرض ٢٠ ألف
- نادر محمد قلعي ٢٠ ألف سهم
- عماد الشريف ٢٠ ألف سهم
- المعتز واصف الصواف عشرة آلاف سهم
- سمير أنيس حسن أربعين ألف سهم

ويبلغ رأسمال المصرف ملياري ليرة سورية وعدد الأسهم أربعة ملايين سهم وبالنسبة للأسهم من الفئة «أ» فقد تم السماح للسوريين حصرا المقيمين وغير المقيمين بالاكتتاب عليها؟؟؟ كما جاءت التعليمات للمواطنين السوريين غير المقيمين في سوريا تقديم طلبات الاكتتاب لدى بنك بيبلوس - الإدارة العامة في بيروت على أن يتم تسديد قيمة الاكتتاب بالنسبة للسوريين المقيمين بالليرة السورية ولغير المقيمين بالعملات الصعبة ونصت التعليمات على أنه لا يجوز للمكتتب من الأشخاص الطبيعيين السوريين امتلاك أكثر من ٥% من رأسمال المصرف أي ما لا يزيد على ٢٠٠ ألف سهم من أجل الحفاظ على التوازن.

ويعد هذا البنك باكورة أول تعاون مصرفي بين القطاع الخاص في كل من سوريا ولبنان وبلغ عدد المصارف الخاصة التي تم الترخيص لها حتى الآن في سوريا ثمانية مصارف!! على أن يرتفع العدد إلى نحو عشرة مصارف قبل نهاية العام الجاري .. طبعا بعد موافقة محمد مخلوف على هذه البنوك !!

إجراء تعيينات مدراء في مؤسسات اقتصادية حكومية حساسة :

يصدر محمد مخلوف أوامره لرئيس الحكومة بتعيين بعض من المدراء في مؤسسات حكومية اقتصادية حيث تم تعيين كل من :

- تعيين المدير العام للبنك العقاري
- تعيين المدير العام للبنك التجاري السوري

- تعيين مدراء للبنك العقاري في المحافظات السورية
- تعيين مدراء " غوتا" السوق الحرة السورية في المحافظات السورية دون العودة إلى مدير مؤسسة الأسواق الحرة السورية وبدون العودة إلى وزارة الاقتصاد.
- تعيين مدراء للريجي في المحافظات السورية بدون العودة إلى مدير العام لمؤسسة التبغ والتنباك وهذا أدى إلى تصادمات حادة بين الدكتور فيصل سماقية " قريب الرئيس الهالك حافظ الأسد " الحرامي الأكبر للريجي وسنخصص له حلقة خاصة.
- تعين مدير حقول رميلان النفطية في محافظة الحسكة
- تعيين مدير شركة الفرات للنفط
- تعيين مدير برامج في الشركة السورية للنفط والغاز
- تعيين مدير المشاريع في وزارة الكهرباء
- تعيين مدير منشات توليد الطاقة الكهرباء في وزارة الكهرباء
- تعيين عدد من أعضاء مجلس الشعب
- تعيين أعضاء في غرف تجارة بعض المحافظات السورية
- تعيين بعض من المحافظين في المحافظات السورية
- تعيين بعض من أمناء فروع الحزب في المحافظات
- تعين المدير العام للجمارك وبعض مدراء الجمارك في المحفظات السورية

وسنذكر حادثة عن المدير العام للجمارك السورية "غطفان الرفاعي" حيث تم توقيف المدير العام للجمارك السورية "غطفان الرفاعي" وعدد من التجار السوريين من قبل شعبة الأمن السياسي الذي كان يرأسها آنذاك اللواء الهالك غازي كنعان ، وكانت التهمة الموجهة إليهم تلاعب في البنود الجمركية وإدخال مواد مهربة إلى سوريا ، حيث اقر واعترف مدير الجمارك غطفان الرفاعي انه قد استلم مبالغ رشاوى بقيمة ٤٥ مليون دولار مقابل التلاعب في الكشوف الجمركية وادخل مواد مهربة إلى سوريا ، وان مبلغ ٤٥ مليون دولار كانت له حصة فيه وهي بقيمة ١٠ مليون دولار وان باقي المبلغ ٣٥ مليون دولار قد سلم إلى محمد مخلوف شريك غطفان الرفاعي الذي تم تعينه من قبل محمد مخلوف ، وهذه الاعترافات كانت مسجلة بصوت ومكتوبة بخط يد غطفان الرفاعي وأحيل غطفان الرفاعي وبعض التجار إلى القضاء المختص لكن بعد نقل اللواء غازي كنعان إلى وزارة الداخلية أفرج عن غطفان الرفاعي وبعض التجار بكفالة نقدية بقيمة ١٠ مليون ليرة سورية وأجريت المحاكمة وهم طلقين وبعد وفاة اللواء غازي كنعان أصدرت المحكمة المختصة قرار ببراءة غطفان الرفاعي والتجار وإسقاط التهم الموجه لهم!!!

تقدر ثروة محمد مخلوف بـــ ٨ مليار دولار !!

هذه هي عائلتك يا بشار الأسد ...

المجرم رامــي مخـلوف*

هذا الرجل الذي كتب عنه الصحفي والكاتب حكم البابا يسأل عن ذكائه وليتعلم منه السوريون ليحسنوا من أوضاعهم المعيشية أوقف حكم البابا عن الكتابة في الصحف الرسمية والتلفزيون و تم أيضا اعتقاله من قبل الأجهزة الأمنية .

عندما سأل النائب رياض سيف عن أعمال شركة الخليوي وعن مخالفالها وعن سرقتها للأمـــوال العامة وأموال الشعب اصدر قرار من قبل بشار الأسد برفع الحصانة عن النائب ريـــاض ســـيف وسجنه لمدة سبع سنوات .

الكتابة عنه لا تكفيها صفحات وكتب انه تاريخ الفساد الأسري المافيوي في سورية أنه الـــصورة ومن خلف هذه الصورة عائلة آل الحاكم .

رامي مخلوف - الجابي رقم ١ لعائلة الحاكم

الحالة الاجتماعية:

مواليد بستان الباشا - جبلة

والده زعيم مافيا البترول السوري وسارق أموال البنك العقاري السوري محمد مخلـــوف (أبـــو رامي).

ترتيبه في عائلة محمد مخلوف الابن الأول ويأتي بعده حافظ مخلوف الضابط في إدارة امن الدولـــة وشقيقه الآخر إيهاب مخلوف وإياد مخلوف .

متزوج من ابنة الفاسد المحافظ السابق في محافظة درعا ومحافظة اللاذقية ولص المدينة الرياضـــية في اللاذقية أثناء وجوده في قيادة فرع اللاذقية للحزب "وليد عثمان".

يعتبر رامي مخلوف، ابن خال بشّار الأسد، أقوى شخصية اقتصادية في سورية.

الجميع يعرف فساد آل مخلوف وفساد محمد مخلوف منذ بدء السبعينيات بعد أشهر من اســـتلام حافظ الأسد مقاليد الحكم في سورية وحرب تشرين ١٩٧٣ والمساعدات العربية لسورية من هنا كانت بداية فساد آل الحاكم ، فقسم حافظ الأسد سلطة الفساد إلى كانتونات بين آل مخلوف و آل الأسد ولكل منهم دوره وكل منهم أن يسدد لبيت آل الحاكم في سورية فـــاتورة الأربـــاح فأستلم محمد مخلوف الريجي ثم المصرف العقاري .

* هذا الملف منقول من موقع "سوريا الحرة" على شبكة الإنترنت ، بتصرف يسير .

ومهما كانت الطريقة التي يُنظر بها لرامي مخلوف، فإنه شخصية هامة في البلاد. ويقول المحللون إن الشركات الأجنبية لا يمكنها الدخول في أي معاملات بسورية دون موافقته الشخصية.
طلبت الـــ "بي بي سي" إجراء مقابلة مع رامي مخلوف ولكنه رفض هذا الطلب معلقاً بأنه لا يجري مقابلات صحفية!

بداية فساده :

أثناء دراسته الإعدادية وشح المواد الغذائية بدمشق وبعض المواد الأولية في سورية كانت مهمتـــه تهريب هذه المواد إلى سورية من لبنان وتركيا (خيوط النسيج البلوستير) وتهريب المواد الغذائية وبعض المواد الكهربائية والمواد الأساسية لبعض معامل الصناعيين .
تهريب الدخان الأجنبي بشكل قانوني عن طريق مؤسسة الريجي طبعا بمساعدة والـــده الوكيـــل الرسمي لشركات السجائر الأجنبية .
في مرحلته الثانوية دخل السوق التجاري و تدرب رامي مخلوف على يد أبيه فبدأ فساده بمؤسسة التبغ (الريجي) وبدأ يرسله أباه مع محاميه (البلشي) ليتعلم على يديه كيفية التباحـــث حـــول العمولات مع الشركات وطرق فرض الرشوة المنظمة (النسبة على الأرباح) عليهم ومن بعـــد ذلك من خلال البنك العقاري والقروض الوهمية والقروض طويلة المدة وعقود بنكية مع اكـــبر التجار والصناعيين باستثناءات خاصة بزيادة مدة تسديد القروض للبنك العقاري ومن بعد بـــداء بتامين قروض كبيرة وتسديد طويل المدة بنسبة ١٠% وبعدها زاد نشاطه في البنـــك العقـــاري بتامين قروض وهمية والاستفادة من الأموال بتشغيلها مع بعض التجارة بقروض بأسماء وهمية (منح قرض مبلغ ٣٥٠ مليون ليرة سورية لإقامة مشروع سياحي على ارض في مدينة الرقة في المدخل الشمالي لها عند البحيرة والواقعة تماما تحت جسر الرقة اكتشف بان الأرض هي لأملاك الدولة (وزارة الزراعة) اسم صاحب القرض متوفي ، منح قرض مبلغ ٢٧٠ مليون ليرة سورية في مدينة حلب لرجل أعمال لإكمال بناء مشروع صناعي لكن المفاجئة كانت بان قيمـــة القـــرض ٣٠٠ مليون القيمة الحقيقية لكن منح فترة عشر سنوات للتسديد بدون فوائد عليها ، قـــرض بقيمـــة ٥٠٠ مليون ليرة سورية وكانت كفالة هذا القرض منشأة اكتشف فيما بعد أن هذه المنشأة عليها حجوزات من قبل الورثة وصاحب القرض موجود في القاهرة وقبرص) .

الأسواق الحرة

ولكن نجم رامي مخلوف لم يصعد إلا بالتزامن مع صعود نجم باسل الأسد فقرر باسل الأسد البحث عن من يتسلم قسم الأعمال ولتطوير بنية العمل والجباية لعائلة آل الحاكم فأقترح باسل الأســـد ابن خاله رامي مخلوف كجيل شاب يجب أن يبدأ بالإمساك بزمام الأمور فخرج الـــصوص مـــن

البيضة وبدأ عمليات تنظيم تهريب الدخان والمواد الأولية من لبنان إلى سورية عبر منفذ الجديدة وكان تعيين المدير العام للجمارك يجب أن يحظى بموافقته ليسهل له عمليات التهريب وفي هذه الفترة بدأ حافظ الأسد بالتغيير الوزاري لجلب محمود الزعبي المعروف بفساده ليغطي بعض العمليات وخاصة في القطاع العام والاستيراد فعين الزعبي ١٩٨٩ رئيساً للوزراء وسيطر رامي مخلوف على شركة غوتا وبدأ عمليات المفاوضات مع شركات السجائر الأجنبية والمشروبات الكحولية الأجنبية وغيرها من المواد التي تدخل إلى الأسواق الحرة لترتيب الوكالات .

وهنا طرح رامي مخلوف مستثمر بحريني بوجوب بناء سوق حرة في المطار فأتفق رامي مع مفلح الزعبي ابن محمود الزعبي وتقدم بعرض إلى وزير النقل لاستثمار أسوق الحرة في مطار دمشق الدولي ورفض الوزير العرض وبدء بالأعداد لمناقصة عامة واتت عروض كثيرة مدعومة من شركات أجنبية ولكن اتصال حافظ الأسد كان كافياً لإيقاف العروض المقدمة من هذه الشركات والتوقيع فقط مع شركة رامي مخلوف وشركاؤه وكان العقد بقيمة مليون ليرة سورية سنوياً بدل استثمار دون تحديد المدة الزمنية وبدون تحديد المساحة فالعقد يؤهل رامي مخلوف لوضع يده على المطار بكامل مساحته مقابل هذا المبلغ الزهيد ؟

وهنا أصدر محمود الزعبي قراراه بالتصديق على السوق الحرة في المطار وإعفاءها من الرسوم الجمركية بالكامل ووضع رسوم جمركية لجميع مبيعات غوتا (السوق الحرة الجمركية) التي انخفضت مبيعاتها بشكل كبير وبدأت تكون عبئاً على وزارة الاقتصاد بخسارتها المتكررة ورفع مدير غوتا عدة طلبات لوزير الاقتصاد بمطالبته بالتعامل بالمثل بالنسبة للرسوم الجمركية وكان الرفض هو الجواب عن مثل هذه الطلبات ؟

وبعد "انتحار" محمود الزعبي طلب رامي مخلوف من مفلح الزعبي فسخ عقد الشراكة تم إعطاء مفلح الزعبي ثمن حصته ٢٠ % (عشرون ألف دولار أميركي فقط)

وطور رامي مخلوف وأخوه إيهاب أعمال السوق الحرة فأصبحت منفذاً رسمياً للتهريب إلى الداخل فكل مواطن يستطيع شراء ما يريده وإدخاله إلى سورية ورجال الجمارك يتغاضون عنه وبدأ ببناء أسواق أخرى على جميع المنافذ الحدودية السورية البرية والموانئ والمطارات ومن خلال هذه الأسواق بادرة رامي وشقيقه إيهاب بمفاوضة الشركات والوكالات الحصرية لداخل سورية على أساس أنها المنفذ الوحيد لهم في سورية وبالفعل فقد وضع يده على الكثير من الشركات التي كان وكلاؤها رجال أعمال سوريون معروفين ولكن ليس باليد حيلة فهو الوحيد المسموح له بالاستيراد وخاصة المواد الممنوعة !!

ويلاحظ المواطن السوري مثلاً بالأسواق الحرة في المنطقة الحدودية اللبنانية في ما تعرف بالجديدة كيف أن لا احد يستطيع إدخال أي شيء من لبنان إلى سورية فيصادر من الجمارك أما إذا كانت المواد التي تدخل من لبنان موجودة ضمن أكياس السوق الحرة فيضعه رجـال الجمـارك أثنـاء التفتيش على جنب ولا يكون لهم الجرأة على فتحه أو تفتيشه والحوادث كثيرة ومعروفة وقصص أصبح السوري يتندر بها .

ويقدر دخل رامي مخلوف من الأسواق الحرة والتهريب المنظم من خلالها بحـوالي ٣٠٠ مليـون دولار سنوياً وطبعاً هذه كلها مبالغ ضائعة على خزينة الدولة!

وبعد استلام بشار الأسد مقاليد السلطة أراد أن يطور الاقتصاد السوري وطلب بشار الأسد من وزير الاقتصاد السابق دراسة لتطوير الاقتصادي للاتجاه باتجاه اقتصاد السوق المنفتح ولكن وزير الاقتصاد لم يستطيع أن يكمل مهمته فواجهته عقبات كثيرة وخاصة من رامي مخلوف الذي يريد الإبقاء على الاقتصاد السوري المغلق لكي لا تتأثر تجارته وأسواقه الحرة واشتدت الخلافات فقرر بشار الأسد التخلي عن الوزير لصالح رامي مخلوف وطبعاً السبب معروف !

فبعد أن كانت عمليات السمسرة والرشاوى تدار مباشرة من رامي مخلوف من مكتبه بدمـشق حيث كان يستقبل الشركات ويتفاوض ويوقع العقود، فقد تم الاتفاق على صيغة جديدة تخفـف من رد الفعل السلبي للمواطنين وللشركات عن طريق أن يقوم رامي بفتح مكتب في دبي يقابـل من خلاله الشركات هناك بعيداً عن الأضواء والحساسية مع الشركات والتجار الآخرين، ولكن برزت مشكلة أن متابعة العمل أصبحت أضعف بسبب كون رامي خارج البلد ومتابعة المناقصات والقضايا الكبرى كانت سابقاً تحتاج لأن يقوم رامي بالاتصال بالمسؤولين الكبار من رتبة وزيـر وأعلى ودعوتهم لزيارته في مكتبه للاطلاع على آخر التفاصيل وتخطيط ماذا يمكن أن يتخذ مـن قرارات لابتزاز الشركات المنافسة، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يتم عبر الهاتف بين دمشق ودبي، لذلك طرح رامي هذه القضية على صاحب التجارة الأصلي الطبيب بشار الأسد فقام باتخاذ قرار بأن يقوم رامي باختيار المسؤول أو الوزير الذي يثق به لإدارة الشركات أو الوزارات التي لـدى رامي مشاريع كبيرة فيها، وبالتالي لا يوجد داعي لأن يحضر رامي لدمشق كون المسؤول المباشر يعرف ماذا يجب أن يفعل .

وهذا ما حصل

د. أديب ميالة :

وكان يعمل كموظف في الملحقية التجارية في السفارة الفرنسية بدمشق في التسعينات وتم طـرده بسبب تسريبه وبيعه لمعلومات وأسرار الشركات الفرنسية العاملة في سوريا إلى شركات منافسة ،

وبعد طرده من الملحقية عمل كمستشار اقتصادي لدى رئيس اتحاد نقابات العمال السيد عز الدين ناصر الذي كان الشخص القوي في سوريا حتى مجيء بشار الأسد وقام بدعم الدكتور أديب ميالة كي يصبح عضواً في الجهاز التدريسي في كلية الاقتصاد خلافاً لكل القوانين والأعراف الجامعية المتبعة وتحت التهديد بتغيير عميد الكلية إذا لم توافق لجنة تقييم أطروحة الدكتوراه على قبول تعيين الدكتور ميالة كعضو في الجهاز التدريسي .

وفي عام ٢٠٠٤ وافقت القيادة القطرية على قائمة جديدة من السفراء كانت تضم الدكتور ميالة على أساس أن يكون سفير سوريا لدى الاتحاد الأوروبي وعندما اقترحت وزارة الخارجية السورية اسمه على المفوضية الأوروبية في بروكسل وضعت السفارة الفرنسية المعلومات التي لديها عن شخصيته وفساده أمام باقي أعضاء الاتحاد الأوروبي فكان أن تم الطلب شفهياً لوزارة الخارجية بسحب اسمه كي لا يضطر الاتحاد الأوروبي برفضه بشكل رسمي .

لذلك قام أصدقاؤه الذين يسهرون معه كل يوم في مطعم جيميني في أبو رمانة يشربون الأركيلة ويلعبون الورق حتى ساعات متأخرة من الليل وهم (فراس الخولي – علي التوركماني) بطرح اسمه على رامي مخلوف الذي وجد فيه شخصية يريد أن يصل بأي ثمن ومستعد لأن يقدم كل ما يطلب منه بدون مناقشة لذلك اقترحه لصاحب التجارة بشار الأسد كحاكم لمصرف سوريا المركزي رغم أنه ليس لديه أية خبرة في أي عمل مصرفي ،وفعلاً أصدر الرئيس مرسوماً بتعيينه حاكماً للمصرف المركزي كي يلبي كل ما يطلبه منه رامي بيك ؟، السؤال الذي يخطر على البال ما الذي يطلب منه حالياً؟، هناك الكثير جداً مما يفعله الدكتور ميالة لرامي بيك ولكن أخطر قضيتين واللتين تستوجبان تدخلاً مباشرة من المجتمع الدولي لإنقاذ سوريا هما :

١ -هناك تأكيدات بأن الدكتور ميالة قد سحب قسم من الإيداعات الخارجية لاحتياطي الدولة النقدي وجلبها على شكل نقود كاش (دولارات) ووضعها في الخزنة المركزية في المصرف المركزي ، وهناك الكثير من الموظفين ممن يؤكدون أن هناك عربات ذات حراسة خاصة تأتي كل فترة للمصرف حيث يتم فتح الخزنة المركزية بأوامر من الحاكم د.ميالة ويتم نقل كميات من الدولارات إلى تلك السيارات بدون أي حساب أو وصل أو أوامر خطية وهم يقولون أن هذه هي سرقة لأموال الشعب السوري تتم من قبل رامي مخلوف وسيده بشار الأسد ، وهي أخطر ما يجري حالياً إذ يتم على الورق جعل موازنة القطع الأجنبي صحيحة عن طريق افتراض أرقام وهمية موجودة في الخزنة في المصرف المركزي لا يمكن لأحد أن يتأكد منها لذلك يطالب هؤلاء الموظفين بأن يكون هناك تحقيق دولي سريع في قضية السرقة هذه ليعاد للشعب أمواله المسروقة وتتم محاسبة السارقين الكبار .

٢ -تم استخدام حوالي مليارين ونصف دولار من احتياطات القطع الأجنبي لسوريا من أجل تخفيض سعر صرف الدولار لسعر يفوق السعر الحقيقي أو المفيد للتصدير وبدون إجراء أية دراسة لأي حد يجب التوقف عنده ويؤكد الموظفين في المصرف المركزي المطلعين على الأمر بأن هدف هذه العملية هو تخفيض قيمة الدولار لأكثر بكثير من قيمته الحقيقة من اجل بيعه للسيد رامي مخلوف الذي لديه دخل شهري هائل بالليرات السورية من شركات الخلوي ويريد تهريبه للخارج وشراء الدولار بسعر مخفض لذلك تم اختراع موضوع أن يقوم المصرف المركزي ببيع الصراف زهير سحلول كل الدولارات التي يطلبها بالسعر الذي يحدده رامي بيك ومن ثم يقوم الصراف سحلول ببيع جزء في السوق المحلي وللتجار الآخرين ويحتفظ بالجزء الأكبر لرامي بيك ويضيف هؤلاء الخبراء بان سعر صرف الدولار قد انخفض لأسباب داخلية في الولايات المتحدة انعكست على انخفاض سعر صرفه مقابل اليورو والجنية الإسترليني ولم يكن هناك حاجة لإضاعة مليارين ونصف من الدولارات لخاطر رامي بيك ؟.

وبذلك تم لرامي جمع الكثير من و شركات ووكالات أجنبية وبدأ عصر الانفتاح الاقتصادي في عهد الدردري .

فأين خطابات الإصلاح الاقتصادي ؟

وأين شفافيتك يا بشار الأسد ؟

في سنة ١٩٩٨ قررت الحكومة السورية دراسة الهاتف الخلوي وطلبت من وزارة المواصلات السلكية بإعلان مناقصة على مقاسم الهاتف الخليوي ولكن هذه المناقصة والدراسة كانت مرتبة بين بشار الأسد وماهر الأسد وتم الاتفاق الأولي بان يظهر رامي مخلوف كشريك لإحدى الشركات التي يتم الاتفاق معها من قبل رامي مخلوف ، وبالفعل غادر رامي مخلوف سورية وعقد مع شركة "اوراسكوم المصرية" لصاحبها المصري رجل الأعمال المليونير نجيب ساويروس طبعاً بمباركة بشار الأسد وتم تنفيذ هذه النصبة عبر القضاء السوري للأسف وبعد مناشدة صاحب الشركة المصرية للاتصالات الخليوية لبشار الأسد صاحب فكرة التحديث و تطوير الاستثمارات في سوريا الخاصة .

تمت مصادرة أموال الشركة المصرية ووضع حارسين قضائيين على الشركة الأول إيهاب مخلوف والثاني نادر قلعي.

السيد ساويروس شكك بنزاهة القضاء السوري لأنه عين شقيق رامي السيد إيهاب وصديق رامي الحارسين القضائيين؟ !!

- أسباب تلك الانتقادات مفهومة خصوصاً أن القضاء السوري هو الذي القي الحجز على أموال شركة (اوراسكوم) لمنع تهريبها ما أثار حفيظة السيد ساويروس ودفعه إلى توجيه تلك الانتقادات.
فهل القضاء السوري عادل ونزيه ؟؟!!
وهل هو ضمانة رئيسية للمستثمرين؟؟!!
إن الوثائق المتوافرة لدينا تؤكد ذلك وأنه إذا عرضت أمام إي قضاء آخر فلن يكون حكمه مختلفاً سوى بأن تصادر أموال شركة سيرياتيل ويوضع رامي مخلوف وراء القضبان لأن الممارسات التي اتبعتها (اوراسكوم) لا تنسجم أبداً من أخلاقيات وسلامة العمل ولا يحق لهذه الشركة أن ترفع دعوة قضائية ضد شخص يمس عائلة الحاكم النزيه بشار الأسد.
ولكن بعد لجوء شركة اوراسكوم إلى التحكيم الدولي والتهديد بحجز أموال رامي مخلوف ، أفطر إلى عقد صفقة وإعادة الأموال بمؤتمر صحفي في فندق الشيرتون في دمشق حيث أعلنت شركتا "دريكس تكنولوجيز إس إي" وشركة "اوراسكوم تيليكوم القابضة ش.م.م." عن توصلهما إلى حل ودي لخلافهما المتعلق بشركة سيريتل موبايل تيليكوم المساهمة المغفلة، المشغلة لإحدى شبكتي الهاتف الخليوي في الجمهورية العربية السورية.
وبين السيد رامي مخلوف المدير العام لشركة | دريكس تكنولوجيز إس إي" والسيد نجيب ساويرس رئيس مجلس إدارة شركة "اوراسكوم تيليكوم القابضة ش.م.م" أنهما أبرما بتاريخ ٢٠٠٣/٧/١٦ اتفاقاً تم بموجبه تسوية كافة الخلافات بينهما بشكل ودي وبشكل يضمن كامل حقوق الشركتين، وأنه تم التنازل عن كافة الدعاوى التي أقيمت أمام المحاكم السورية والأجنبية.
وفي واقع الأمر أن شركة سيرياتيل هي عبارة عن شركة من شركات بشار الأسد وأن رامي مخلوف ليسا إلا سمساراً وجابياً بسيطاً بهذه الشركة..!!
في بداية ٢٠٠٥ غادر رامي مخلوف ونادر قلعي إلى الصين لعقد صفقة مع شركة "هاواوي" للاتصالات الخليوية لشراء أجهزة تقوية ومقاسم خليوية لشركة سيرياتيل فطلب عمولة من الشركة الصينية عمولة ٢٠ بالمائة باسم رامي مخلوف واجتمعت إدارة الشركة مع رامي مباشرة وسألت كيف تطلب لنفسك عمولة وأنت صاحب الشركة ؟؟ !!
فتبين أن رامي مخلوف هو الصورة الخارجية للمالك الأساسي بشار الأسد وماهر الأسد ، و أن رامي مخلوف وسمساره نادر قلعي هم من يسرقون عمولة من الشركات التي يتعامل معها فتصوروا يرعاكم الله..!
ولماذا التخلي عن قطاع اقتصادي رابح يدر على الدولة عشرات المليارات!!
ما السر وراء التأخير في مشروع البنية التحتية لشركة إريكسون ومشاريع أخرى؟

لماذا ترفض شركات الخلوي تخفيض الرسم الشهري رغم تعليمات وزارة الاتصالات؟
تعد مؤسسة الاتصالات العامة من أربح المؤسسات الاقتصادية في سورية حيث وصلت إيراداتها في العام ٢٠٠٤ إلى أكثر من ٣٤ مليون ليرة سورية معظمها من الهاتف الثابت، ووصل عدد دقائق المكالمات الدولية إلى ٢٣٠ مليون دقيقة والقطرية إلى ٢ مليار دقيقة في حين كانت إيرادات المؤسسة من الخليوي بحدود سبعة مليارات ليرة للعام نفسه، بينما قدر وزير المواصلات أرباح المؤسسة من خدمة الانترنت بمليون ليرة سورية يومياً بالإضافة إلى أن هذا القطاع يوفر فرص عمل لأكثر من ٢٣ ألف عامل، إلا أن هذه المؤشرات أصبحت جميعها مهددة بالتراجع مع الإعلان عن تحرير قطاع الاتصالات ودخول لاعبين جدد من الفريق الخاص إلى هذا القطاع الذي بدأ مع تعهيد أدارة الشبكة الذكية لشركة **ZTM** وتعهيد الشبكة الرقمية **PDN** (**Public Data Network**) لإحدى شركات مؤسسة حمشو للاتصالات في خطوة يرى فيها مراقبون تهدف إلى التخلص مما تبقى من القطاع العام والإجهاز التام عليه، بما يضمن نقل مركز المنفعة من قطاع إلى أخر بعد أن تغير اتجاه الرياح الاقتصادية التي أخذت تدفع المراكب الخاصة شيئاً فشيئاً إلى الأمام.
يبلغ عدد المشتركين في سيرتل حالياً ١,٥ مليون مشترك وتسيطر على ٥٥% من السوق المحلية بينما تسيطر على الحصة المتبقية شركة أريبا سورية المملوكة لأسرة رئيس الوزراء اللبناني السابق نجيب ميقاتي الذي يبلغ عدد مشتركيها أكثر من مليون شخص، في حين وصلت إيرادات الخليوي في العام ٢٠٠٤ إلى أكثر من ٢٥ مليار ليرة، حصلت منها مؤسسة الاتصالات على سبعة مليارات، ومع ذلك قامت المؤسسة بفرض ضريبة جديدة على فواتير الهاتف الثابت والخليوي ضمن مايعرف باسم ضريبة الإنفاق الاستهلاكي، حيث بلغت هذه الضريبة ٢% على فواتير الثابت و٣% على فواتير الخليوي، وهو مايرتب أعباء جديدة إضافية على المواطن السوري الذي يدفع رسوماً وأجوراً للهاتف الخليوي تتجاوز ضعف ما يدفع في البلدان المجاورة رغم أن الخدمة التي تقدمها شركات البلدان المجاورة لا يمكن مقارنتها بأي حال من الأحوال مع ما يقدم من خدمات على الصعيد المحلي، ففي تركيا مثلاً يمكن بمبلغ ٣٦٠ إبقاء الموبايل الخاص ستة أشهر إرسال بالإضافة إلى ثلاثة أشهر تمديد استقبال، بينما في السوق المحلية فإن المبلغ المذكور لا يؤمن الإرسال والاستقبال أكثر من ١٥ يوم في أحسن الحالات، ورغم أن وزير الاتصالات قد أصدر قراراً في ٢٠٠٢/٩/٢٤ بتخفيض رسم الاشتراك الشهري من ٦٠٠ ليرة إلى ٣٠٠ ليرة تحت طائلة المسؤولية وإلغاء العقد إلا أن القرار المذكور بقي حبراً على ورق.

وفي جانب الهاتف الثابت عمدت إدارة المؤسسة إلى رفع الاشتراك السنوي للهاتف الثابت من ٤٠٠ ل.س إلى ٤٨٠ ليرة ورفع سعر الدقيقة من ٣٠ قرش إلى ٦٠ قرش رغم المليارات المتكدسة في خزينة المؤسسة وهو ما يطرح في الواقع أسئلة عديدة تتعلق بمستقبل هذا القطاع الذي يأتي بعد النفط في الأهمية:

• ما الذي يلزم الدولة بالتخلي عن قطاع اقتصادي رابح مثل مؤسسة الاتصالات يدر عليها عشرات المليارات سنوياً؟

• إذا كان مبرر حجب ميزة VOIP عن مشتركي المؤسسة هو التقليل من الخسائر التي يمكن أن تنجم عن الهاتف الثابت فلماذا قامت وزارة الاتصالات بإعطاء هذه الميزة لمزود الانترنت الخاص «آية» ومن حساب المؤسسة ذاتها؟

• لماذا ترفض شركات الخليوي تنفيذ ما جاء في كتاب وزير الاتصالات بشأن تخفيض الرسم الشهري من ٦٠٠ ليرة إلى ٣٠٠ ليرة على الرغم من مرور ثلاث سنوات؟

القرابة والصداقة منحتا «سيرياتيل» و«آريبا» رخصتاي تشغيل الخليوي بلا مقابل

أعلن رامي مخلوف رئيس مجلس إدارة شركة «سيرياتيل» إحدى الشركتين المشغلتين للهاتف الجوال في سورية «أن إيرادات الشركة سجلت خلال عام ٢٠٠٥، ١،٧% من الناتج المحلي الإجمالي لسورية».

وأضاف خلال حديثه في الاجتماع السنوي للهيئة العامة لمساهمي سيرياتيل «إن مدفوعات الشركة إلى الجهات الحكومية بلغت ما نسبته ٣% من إجمالي إيرادات الدولة»، مشيرا إلى الدور الذي لعبته سيرياتيل في تطوير قطاع الاتصالات في سورية ليحتل المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد قطاع النفط.

وأوضح أن الشركة دخلت في استثمارات عبر مساهميها بنسبة ٢٤% من الشركة الألمانية السورية لإنشاء مصنع هو الأول من نوعه لأجهزة الاتصال الرقمية المتكاملة وأجهزة النفاذ اللاسلكية. وأكد مخلوف أن «سيرياتيل» قامت بتأسيس غرفة لتداول الأسهم، ما أدى تفعيل حركة التداول على سهم «سيرياتيل» وإلى زيادة سعره ١١٠% خلال عام ٢٠٠٥.

والسؤال الحقيقي الذي يطرق الواقع بقوة بعد إعلان السيد مخلوف هذا، هو: ما هي أرباح السيد مخلوف التي دخلت خزائنه وجيوبه في مقابل ذلك؟..

ولا يخفى على أحد أن آلية تلزيم الهاتف الخلوي لشركتين في سورية جاءت مخالفة للقوانين ومن دون أي مقابل، في حين يعلم الجميع أن الشركات العالمية تدفع مئات ملايين الدولارات لشراء رخصة الخليوي في أي بلد حتى ولو كان من أفقر البلدان الأفريقية.

فالترخيص لـ«سيرياتيل» تم بدون مقابل لعلاقة القرابة التي تربط آل مخلوف بآل الأسد، فيما أهديت رخصة التشغيل الثانية لشركة «أريبا» التي يرتبط أصحابها بعلاقة صداقة مع الرئيس بشار الأسد..

لا بد من الإشارة إلى أن هذه الشركة (أريبا) باعت أسهمها في الفترة الأخيرة كما ذكرت الصحف العالمية إلى شركة أخرى بمبلغ ٥،٥ مليارات دولار.

ومن يقرأ عنوان إعلان إحدى شركات الخليوي والذي يحتل نصف صفحة في أحدى الصحف الرسمية أمس يظن بأن هذه الشركات تقدم أو تعلن فعلا عن تخفيضات وخدمات جديدة .

إضافة لما أعلنوا عنه سابقا خلال المؤتمر الصحفي لوزير الاتصالات بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٤ والتي كان من المقرر أن يكون تاريخ ٢٠٠٦/٧/١٥ بدء تنفيذ هذه التخفيضات؟

وقد ظن الناس وللوهلة الأولى ونحن منهم حيث جذبني عنوان الإعلان ولكوننا تابعنا المؤتمر الصحفي السابق أنهم على الأقل وبدلا من احتساب كل ثانية دقيقة قد بدؤوا بأسلوب جديد أو طريقة لاحتساب الثواني التي وعدوا بها في المكالمات على اعتبار أن الطريقة الحالية ترفع كلفة المكالمات بشكل كبير وتشكل عبئا ثقيلا على المشتركين إلا أنهم خيبوا آمال المشتركين بالخليوي وبات الإعلان الجديد يمعن بالاستهتار بعقول الناس أكثر من الإعلان السابق وهو أيضا أكثر من ضحك على اللحى!!

فالتخفيضات التي أعلنوا عنها خلال المؤتمر الصحفي السابق ومن خلال الإعلان الجديد هي ذاتها التي تتعلق بالاشتراك الشهري ورسائل المالتيميديا وأجور مكالمات يوم الجمعة والاتصال من خليوي إلى ثابت والمجموعات المغلقة وزيادة أرقام حبايب وأقارب ولم يأتوا بجديد من خلال الإعلان الذي خطف الألباب بحجمه وعنوانه والذي وصفوا من خلاله التخفيضات بالجديدة محاولين من خلاله الإيحاء للناس بأنها تخفيضات إضافية جديدة، ومحاولين مرة أخرى تمرير هذه الإيحاءات خلال الفترة العصيبة الحالية؟؟

جاء الإعلان الجديد ليضرب مرة أخرى بمطالب الناس عرض الحائط حيث ينتظرون تخفيضاً آخر في الاشتراك الشهري بنسبة معينة بحيث ينخفض على الأقل إلى النصف وتخفيض قيمة المكالمة الواحدة والتعرفة الخاصة بمناطق الريف واحتساب الثواني وخدمات وعروض أخرى وعدت بها وزارة الاتصالات ولكن حسابات رامي مخلوف لم تتطابق مع الوزارة ولا مع قدرة المواطن فكان القرار بالإبقاء على الأمور خوفاً من انخفاض ميزانية آل مخلوف .

وعلى عكس ذلك فقد تأخرت شركات الخلوي عن تنفيذ ما أعلنت عنه في المؤتمر الصحفي السابق مدة شهرين حيث سيبدأ بتنفيذ ما أعلنوا عنه سابقاً وأكرر ما أعلنوا عنه سابقاً بدءاً من

٢٠٠٦/٨/٩ وحسب كل دورة لما بعد هذا التاريخ أي أن المواطن سيلمس ذلك في منتصف الشهر التاسع بدلاً من منتصف الشهر السابع الماضي وكان يفضل ألا يعلنوا عن ذلك.

وبالعودة إلى ما أعلنه رامي مخلوف نكتشف بعملية حسابية بسيطة أنه أدخل إلى خزينة الدولة السورية نحو ٦٦٠ مليون دولار في حين دخلت جيوبه أرباح تفوق الـ١،٥ مليار دولار، هذا من دون احتساب الأرباح الرأسمالية التي أضيفت إلى أرصدته جراء ارتفاع أسعار أسهم شركته.

إذاً، فالدولة السورية تفقد سنوياً مليارات الدولارات التي تذهب لجيوب أقرباء وأصدقاء عائلة الأسد الكريمة.

فأن رامي مخلوف قد استولى على شركة الاتصالات (سيريا تيل) وأرسيت عليه بمبلغ عشرة آلاف ليرة هي عبارة عن ثمن دفتر الشروط إذ كان عرضه إعطاء الدولة ٣٠%من المدخول وبينما كان هناك عرض آخر من شركة أخرى تبلغ تكاليفه بليوني دولار مع إعطاء نسبة ٣٠% من المدخول كما يذكر أن النائبين في مجلس الشعب السوري رياض سيف ومأمون الحمصي قد تساءلا لماذا تفضيل العرض الأعلى على الأدنى وترسيه المشروع على رامي مخلوف ولاحظا فرق بليوني دولار، لكن بعد هذا التساؤل المشروع، والمتصل بمصلحة المال العام تم اعتقال النائبين وأسقطت عنهما حصانتهما النيابية، وسيقا إلى المحكمة بأكبر التهم، ومنها إثارة الفتنة الطائفية وحكم عليهما بالسجن سبع سنوات، ليرتاح رامي مخلوف منهما ومن أسئلتهما.

فالكثير من الأشياء التي تحدث في سورية، تدفع المرء للتساؤل عن خلفياها، في ظل تكتم رسمي، لأنه يبدو أن هناك جوانب لا ينبغي للمواطن السوري أن يطلع عليها.

تحويل شركة كان مقرراً لها أن تعود إلى ملكية الدولة بعد أربع سنوات من الآن، بموجب عقد مثير للجدل وسُجن أناس اعترضوا عليه؛ إلى شركة مساهمة؛ ثم تلك الاجتماعات الحكومية التي تتسرب أخبارها من هنا وهناك، في ظل صمت رسمي مطبق؛ يعطي فكرة عن مدى اهتمام السلطة في سورية بـ "الرأي العام" المحلي، الذي لا بد له من صورة واضحة عما يجري.

فلماذا رفض وزير المالية الإجابة عن سؤال بسيط يفترض أن تكون إجابته "جاهزة" لدى المعنيين، لتبرير الموقف على الأقل وليس بالضرورة الإقناع؟ ثم لماذا لم تعلن وسائل الإعلام الرسمية، التي يقول عنها وزير الإعلام إنها ماضية في طريق التطوير، عن استمرار قانون الطوارئ الجاثم على صدور السوريين منذ أكثر من أربعة عقود؟

ربما لن تقدم "التوضيحات" الشيء الكثير، في ظل تجاهل واضح لرأي المخالفين، ولكن على الأقل لماذا لا توضح "القرارات" الرسمية لكي يكون المواطنون على بينة، فلا يقعون في "حفر" القرارات التي يجهلونها؟ هل تشعر السلطة بالخجل منها، أم أنها لا تملك ما تقوله بالفعل؟!

من الواضح أن الطريقة التي تم بها تمرير بعض القضايا يجري تكرارها الآن. فعقود الهاتف الخلوي "الاحتكارية" التي منحت لشركات بعينها، يجري الآن "الالتفاف" عليها، ومرة أخـــرى، دون أن يوضح كيف حصل ذلك، ولماذا؟

انتقل فساده إلى اليمن حيث اشترى رامي مخلوف عبر شركة سيرياتيل للهاتف الخلوي التي يملكها في سورية، ١٠ في المائة من أسهم شركة جديدة للهاتف الخلوي في اليمن.

وجاءت مساهمة مخلوف من خلال دخوله في تكتل "هيتس يونيتل" الذي تقوده شـــركة "الـــدار للاتصالات" السعودية، لتكمل الاستثمارات اللازمة للرخصة الثالثة للخلوي في اليمن. وتأسس تحالف "هيتس يونيتل" بعد استحواذ **HITS** على شركة يونيتل الحاصلة على تـــرخيص **GSM** الثالث في اليمن.

حيث نقلت صحيفة الشرق الأوسط اللندنية عن العضو المنتدب فهد بن عبد الرحمن الشميمري إنه خلال اليومين الماضيين انتهت المناقشات الخاصة بدخول شركة سيرياتل كشريك في تحـــالف هيتس يونيتل. وأوضح أن ذلك جاء بعد تسلم الشركة للرخصة رسمياً مـــن وزارة الاتـــصالات اليمنية خلال زيارة وفد شركة الدار لرئاسة الوزراء ووزارة الاتصالات وتقنية المعلومات اليمنية في الأسبوع الماضي لوضع اللمسات النهائية على الاتفاقية الـــتي تعتـــبر متممـــة لأحـــد أكـــبر الاستثمارات في اليمن حيث الترتيب، حيث استكملت الشركة قيمة الرخـــصة البالغـــة ١٤٩ مليون دولار.

ويشار إلى أن شركة سيرياتيل هي واحد من شركتين حصلتا على عقدين احتكـــاريين لتـــشغيل خدمة الهاتف الخلوي في سورية، وذلك في صفقتين ثارت حولهما شبه بالفساد وإهدار المال العام.

وفي الفترة الأخيرة بدأ مخلوف بتوسيع أعماله إلى دبي ومناطق أخرى في العالم.

وهذه هي المحاولة الرابعة لرجل الأعمال رامي مخلوف للاستثمار خارج سورية من خلال شـــركة سيرياتيل. وكانت المحاولة الأولى بعقد شراكة مع شركة اوراسكوم المـــصرية والتابعـــة لرجـــل الأعمال المصري نجيب ساويريس انتهت بمشاكل بين الطرفين عام ٢٠٠٢، والثانية في باكستان عندما فازت شركته سيرياتيل بعقد كثاني مشغل ولكن العقد سحب منه بعد شهر عام ٢٠٠٤، أما الثالثة في أوكرانيا حيث خسر عرضه كرابع مشغل بسبب تساؤلات حول مـــصادر أموالـــه وشبهات تبيض العملة وفق الصحف الأوكرانية عام ٢٠٠٥.

اليوم، وإذ يمر الأسد ونظامه بمحنة، ويضيق دائرة التشكيل الحاكم لتصبح عائلية بحتة تتمثـــل في الصهر والعم والخال وزوج ابنة الخال، وزوج ابنة عم الرئيس تعود نفس الأقلام ونفس الجوقـــة للكلام عن الإصلاح البشاري. والغريب في الأمر حقاً هو ترويج من هو خارج إطار محـــسوبيات

النظام عن "الانقلابات البيضاء" على يد الأسد نفسه وكأن الحل الوحيد للخلاص من النظام الدموي يأتي من النظام الدموي نفسه! ألهذه الدرجة وصلت ضحالة تفكير هؤلاء واستهتارهم بعقول شعبنا!؟ كنا نتوقع أن المثقف الذي يريد الخلاص لشعبه يحاول حض الشعب على البحث عن البديل خارج دائرة النظام القمعي الأسدي، وأن يشجع الشعب السوري على الخروج إلى الشارع للقول بصوت عال للطغاة: "كفى" بدلاً من الترويج لبشار الأسد مجدداً.

تأسست في سورية مؤخراً شركتان قابضتان سوريتان "شام" و"سوريا" لايفصل بينهما إلا يومان ... الأولى برأسمال قدره ٣٥٠ مليون دولار ، والثانية برأسمال ٨٠ مليون دولار ، الأولى عماد غريواتي و رامي مخلوف ، والثانية من كبار مؤسسيها هيثم جود وطريف الأخرس. إذاً الشركتان فعلاً قابضتان فهنيئاً لسوريا الانفتاح الاقتصادي الجديد المدروس بعناية...؟

وقد صرح رامي مخلوف إلى أن "شام القابضة" متفوقة على مثيلاتها ولا ندري إذا كان كلامه موجهاً إلى منافسته "سوريا" أو شركات أخرى بطريقها للولادة، حيث قال بعد لقاء السيد الرئيس لمؤسسي الشركتين لوسائل الإعلام : أن "شركة شام القابضة" تمتاز مع احترامنا للشركات الأخرى سواء كانت قابضة أم غير قابضة بأنها لا تفكر بماذا ستعمل ، فخطتها واضحة، وقال : على سبيل المثال ، ومن خلال البرنامج الاستثماري السياحي، لدينا برنامج غني جداً ومشروعات لا تقل عن ٥٠٠ مليون دولار، وهنالك مشروعات أخرى في مجال العقارات سنعلن عنها قريباً وستقام بتحالف مع شركات هامة وبقيمة مليارات، كما أن هناك مفاجآت كثيرة سيعلن عنها في وقت قريب، ولن نفاجئ السوريين فقط بل العالم العربي بهذه التحالفات .

وأضاف مخلوف أن "شام القابضة" عبارة عن فسيفساء سورية تضم الطيف السوري بكل ألوانه ومكوناته، وهي عملياً تجسيد للاقتصاد الوطني لذلك لن تواجه أي صعوبة في انطلاقتها و تعهد لرامي مخلوف في وقت سابق إنشاء مطار المزة وأن شركة راماك للمقاولات التي يملكها ابن خال الرئيس رامي مخلوف، الذي يملك شركات عديدة في البلاد أهمها شركة الهاتف الخلوي "سيرياتيل"؛ فازت بعقد تأهيل مطار المزة العسكري وتحويله إلى مطار مدني لخدمة التكسي الجوي الذي سيربط دمشق بعمان وبيروت، إضافة إلى ربطها بمدن اللاذقية وحلب ودير الزور والحسكة.

ووقعت كل من سورية والأردن ولبنان قبل أشهر قليلة اتفاقية إنشاء التكسي الجوي بينها، ما سيتيح تسيير رحلات متعددة بين هذه العواصم يومياً في أوقات محددة وبأسعار رمزية. ووقع اختيار السلطات المعنية في سورية على مطار المزة نظراً لقربه من مركز المدنية ولأنه عملياً لم يعد يعمل كمطار عسكري.

ويضم المطار حالياً مواقع عسكرية للمخابرات الجوية ومعتقلاً كبيراً ومركز تدريب. ومن المفترض أن تباشر الشركة السورية بأعمال التأهيل للمطار الجديد بمؤازرة شركات مقاولات صغيرة أخرى تعمل في فلك الشركة الرئيسية في فترة قريبة جداً.

لم يكتفي رامي مخلوف بشركات بادراه شركات بشار الأسد وماهر الأسد بل أراد أن يستولي أيضاً على شركات خاصة ليضمها إلى مجموعات الشركات الخاصة بآل الحاكم وما تزال المشكلة المستعصية بين شركة مرسيدس الألمانية والحكومية السورية قائمة رغم بوادر الانفراج التي حاولت وزار الاقتصاد أن توحي بها من خلال كتابها رقم / ٣٤٥٩/ إلى المؤسسة العامة للتجارة الخارجية ومديريات الاقتصاد والتجارة وكافة الجهات والوزارات المعنية حول موافقة رئيس مجلس الوزراء على السماح باستيراد كافة الآليات الهندسية والخدمية من نوع مرسيدس ما عدا السياحي أو ما في حكمها.

وأصل المشكلة يعود إلى محاولة رجل الأعمال السوري الشاب رامي مخلوف أخذ وكالة المرسيدس من شركة أبناء عمر سنقر، ما أدى إلى وقوف الشركة الألمانية إلى جانب شركة سنقر، وهذا أدى إلى التصعيد من جانب الحكومة السورية التي وقفت إلى جانب رامي مخلوف. فأصدرت قراراً بإلغاء الوكالات الحصرية بدعوى عدم الاحتكار، وفي حقيقة الأمر كان الموضوع موجهاً ضد شركة سنقر، فما كان من الشركة الألمانية إلا الإصرار على التمسك بالوكيل السوري الذي تعاملت معه منذ سنوات طويلة وهو شركة سنقر. فبدأت الحكومة بإصدار التشريعات العقابية ضد مرسيدس ومنها منع استيراد قطع التبديل.

وفي هذا السياق أكد الدكتور غسان الرفاعي وزير الاقتصاد والتجارة في تصريح لنشرة المركز الاقتصادي السوري "زون نيوز": أن الحوار قائم ومستمر مع شركة مرسيدس لحل الإشكال القائم معها حاليا والتوصل إلى الحل الأنسب للطرفين سواء ما يتعلق بموضوع الوكالة أو موضوع القطع التبديل.

وذكرت نشرة المركز الاقتصادي السوري أن الخلاف الذي حصل بشأن توريد القطع التبديل لصالح الشركة السورية للنفط قد أدى إلى صدور قرار بحرمان الشركة الألمانية من التعاقد مع الجهات العامة في سورية لمدة ثلاث سنوات وقد فسر القرار بأنه ينسحب على مختلف مستوردات مرسيدس إلى القطاعين العام والخاص.

وبعد سنوات من النقاش بين الطرفين استجابت الشركة الألمانية لمطالب وزارة الاقتصاد ومؤسسة التجارة الخارجية وأرسلت القطع التبديل إلى سورية ولكن حتى تاريخه لم يتم استلام القطع من قبل مؤسسة "سيارات" (الحكومية) ولم يصدر قرار إلغاء حرمان مرسيدس.

وكانت العديد من جهات القطاع العام قد أكدت حاجتها لآليات هندسية وخدمية من نوع مرسيدس، وآخرها طلب وزارة الإدارة المحلية والبيئية سيارات وصهاريج إطفاء من طراز مرسيدس، وأرسلت كتابا بهذا الشأن إلى وزارة الاقتصاد والتي أحالت الطلب بدورها إلى رئاسة مجلس الوزراء حيث صدرت موافقة رئيس مجلس الوزراء المذكورة أعلاه.

وتشير الأنباء إلى أن الدكتور إحسان عمر سنقر وكيل المرسيدس الأخير صفى أعماله التجارية في سورية قبل نحو عامين وهاجر إلى إحدى الدول الغربية هرباً من المضايقات التي كان يتعرض لها.

وبعد فشل رامي مخلوف بالاستيلاء على شركة مرسيدس استولى على شركة بي.إم.دبليو BMW وألزم وزارة الدفاع بشراء كافة السيارات التي تم بيعها إلى الضباط المسرحين والمتقاعدين برتبة لواء وعميد بتخصيص والتي تحمل لوحات (جيش) وتم بيع حوالي ٢٧٠٠٠ سيارة BMW. لم يكتفي بهذا فقد أراد محاصرة كافة وكالات السيارات في سورية وخاصة وكالة مرسيدس.

وفي خطوة رأى فيها مراقبون أنها تهدف إلى بسط سيطرته على سوق السيارات في سورية، وفي مشروع يضاف إلى احتكاراته السابقة في مجالات استثمارية عدة، أسس رامي مخلوف، ابن خال الرئيس السوري بشار الأسد، شركة خاصة لمراقبة تطابق السيارات المستوردة مع المواصفات الحكومية. وكان قد أعلن في وقت سابق عن تأسيس مثل هذه الشركة الخاصة، لكن لم يكن معلوماً الجهة التي تملكها.

ومعلوم أن رامي مخلوف حاول في الماضي السيطرة على وكالة مرسيدس في سورية، إلا أن إصرار الشركة الأم في ألمانيا على عدم تغيير وكيلها دفع الحكومة السورية إلى رفع الحظر عن الذي فرضته على شركة مرسيدس ووكيلها في سورية.

و قد أنشأ "رامي مخلوف " شركة خاصة مع إميل إميل لحود وشريكه السعودي لهذه الغاية أسوة بالشركة المملوكة لإميل لحود وشريكه السعودي في لبنان وستكون مهمة هذه الشركة إعطاء الموافقة الفنية على السيارات المستوردة والفحص الميكانيكي الدوري للسيارات لتجديد رخص السير. وبذلك يكون رامي مخلوف قد دخل إلى السيطرة الكاملة على تجارة السيارات في سورية وخاصة بعد فشله في وضع يده على وكالة مرسيدس والخلاف القضائي الذي منعت شركة مرسيدس من الدخول إلى الأسواق السورية" سنوات.

وستكون مهمة الشركة التي سيتم التعاقد معها "التأكد بشكل حقيقي من المواصفات السورية على بعض المواد مثل السيارات و العاب الأطفال والجرارات و الشاحنات، و قطع كمبيوتر و قطع التبديل".

وتجري حاليا في وزارة الاقتصاد السورية "دراسة متكاملة لإمكانية التعاقد مع شركة خاصة عالمية أو محلية تتمتع بخبرة للتأكد من العديد من المستوردات لجهة المواصفات المطابقة".

ودخل مؤخراً إلى صناعة الإسمنت فعندما نسمع أن رامي مخلوف يستثمر جزء صغيرا من أموال الشعب السوري في قطاع الاسمنت بقيمة ٢٠٠ مليون دولار وأيضا يستثمر ٢٧٠ مليون دولار في القطاعات الصناعية والسياحية والعقارية، كاشفا عن مشروع كبير للإسمنت برأسمال يتجاوز الـ ٢٠٠ مليون دولار ومشروع سياحي لإقامة فندق في مدينة اللاذقية الساحلية برأسمال ٤٠ مليون دولار.

وقد وافق وزير الصناعة السيد فؤاد جواني على منح صندوق المشرق الاستثماري، يملك السيد رامي مخلوف يمتلك ٥٨% من أسهمه، الترخيص بتأسيس شركة باسم "شركة الكورنيش السياحية المساهمة المغفلة" برأسمال /١٥٠/ مليون ليرة سورية، مركزها في مدينة اللاذقية، لمدة خمسة وعشرين سنة قابلة للتمديد، موزعة على /٣٠٠/ ألف سهم، قيمة السهم الواحد /٥٠٠/ ليرة سورية.

الترخيص يعطي الشركة الحق بتأسيس فروع لها في المحافظات، وخارج سورية أيضاً، وتهدف شركة الكورنيش إلى إقامة المشاريع التجارية والخدمية، والفندقية والسياحية، وإدارتها واستثمارها، وشراء وبيع وتأجير الأموال المنقولة وغير المنقولة، والمشاركة في مشاريع مماثلة، والحصول على أية حقوق، أو امتيازات أو تراخيص لتحقيق غاياتها.

وقد أوضح النظام الأساسي لشركة الكورنيش حول رأسمال هذه الشركة، بوجوب تسديد ٢٠% من قيمة الأسهم عند الاكتتاب والباقي على أقساط، وفقاً لما يقرره مجلس الإدارة، على أنه يجوز زيادة رأس المال عند الحاجة، عن طريق طرح أسهم جديدة على الاكتتاب، على أن يكون ذلك بقرار من الهيئة العامة غير العادية، وبالأكثرية، تُحدد فيه كيفية الاكتتاب على الأسهم الجديدة.

وأوضح نظام الكورنيش أن المؤسسين قد اكتتبوا على كامل رأسمال الشركة، فشركة صندوق المشرق الاستثماري المساهمة المغفلة القابضة، والتي يصل رأسمالها إلى "أربعة مليارات" ليرة سورية، اكتتبت في شركة الكورنيش بنسبة /٨١,٩٩٦٦%/ من الأسهم أي بعدد /٢٤٥/ ألفاً و/٩٩٠/ سهماً بقيمة ١٢٢/ مليوناً و/٩٩٥/ ألف ليرة سورية.

وإلى جانب الصندوق اكتتبت شركة راماك الاستثمارية بنسبة /١% /من الأسهم أي بعدد /٣٠٠٠ /سهم قيمتها /١,٥/ مليون ليرة سورية. كما اكتتبت السيدة كندة محمد مخلوف بنسبة /١٠%/ من الأسهم أي بما يعادل /٣٠/ ألف سهم قيمتها /١٥/ مليون ليرة سورية، وأكتتب

السيد قسورة عثمان بنسبة /٧%/ من الأسهم، تعادل /٢١/ ألف سهم قيمتها /١٠/ ملايين و/٥٠٠/ ألف ليرة سورية، أما السيد حسين الجيروي فقد اكتتب على عشرة أسهم قيمتها خمسة آلاف ليرة سورية.

شركة صندوق المشرق الاستثماري، المساهمة المغفلة القابضة، التي تأسست في عام ٢٠٠٤، في مدينة اللاذقية يملك السيد رامي مخلوف رئيس مجلس إدارة شركة سيرتيل ٥٨% من رأسمال الصندوق إلى جانب ٢٠% من الأسهم تمتلكها شركة لاديسا الخليج القابضة الإماراتية، و٢٠% من الأسهم لشركة روك أنفست القابضة اللبنانية، أما السهمان الباقيان فقد امتلكهما بالتساوي كل من إيهاب مخلوف، ونادر قلعي.

نشاطه الخارجي ابتدأ بعد مقتل الحريري حيث حول قسم من أمواله إلى دبي ليقوم باستثمارها حيث اشترى برجين في دبي أخيرا بالقرب من فندق «برج العرب»، سجل برجا منهما باسم زوجته والآخر باسم أولاده تحسبا لتطورات يرى أنها ستكون سلبية عليه، أما شريكه ومدير أعماله نادر قلعي، ابن العائلة الدمشقية السنية، فقد بدأ يتعرض لانتقادات أهله لأنه لا يريد أن يعرف مع من يتعامل، وان الذين يتعامل معهم (رامي مخلوف) معرضون لخطر السقوط، وان عليه أن يتدارك نفسه قبل حلول هذا الخطر، ويتجنب مساءلته كواحد من المتعاونين، ويلقى مصير كل الذين تعاونوا مع نظام الرئيس المخلوع صدام حسين في بغداد وفتح أيضا مكتب للاستثمارات المالية في البورصة في دبي مع شريك اسمه مرتضى الدندشي حيث يدير محفظة استثمارية في تداول الأوراق المالية بقيمة ٤٠٠ مليون دولار ومرتضى الدندشي كان شريك بإنشاء مباني ومحلات تجارية في حمص بقيمة ٨٠ مليون حيث أقدم مرتضى على شراء أراضي من ملاكينا كان الفلاحين قد استولى على هذه الأراضي فاشترى الأراضي بقيمة مالية بسيطة وتم إخراج الفلاحين ليتم إنشاء عليها مباني وأبراج تجارية في حمص وكلف مرتض الدندشي من قبل رامي مخلوف بالدخول بمشروع استيراد الدبوسية حمص بمبالغ هائلة (بدون الدخول بمناقصة) ومرتضى أيضا يدعم مدرسة دينية بحمص لإرضاء الإسلاميين في القصير فيقوم بتمويل جمعيات إسلامية ومدارس بقيمة ٣ مليون دولار سنوياً ؟

فساد رامي مخلوف في لبنان غسل أموال صدام حسين وتهريبها من العراق بعد اجتماعه مع عدي صدام حسين ومع رجل أعمال أردني اسمه يوسف الزعبي ومحمد ؟ ... حيث تم إدخال المبالغ إلى لبنان وتم تبيضها وتقلها إلى بنوك أخرى عربية وتم تبيضها عبر بنك المدينة وبنك الموارد وكان المشرف الأمني على هذه العملية " العميد رستم غزالة " حيث تم إدخال مبالغ هائلة بأسماء وهمية

وصفقات مشبوهة أو تسمى صفقات بدون أي أساس لها وعقود تصدير وهمية ليتم تبيض الأموال داخل هذه البنوك.

بالإضافة إلى عمليات تبيض أموال المخدرات ....

وقصص الأموال المهربة من بنك المدينة وخاصة الأموال التي سحبت وصدرت بأسماء مجهولة والأموال التي أيضا سحبت من قبل شقيق "العميد رستم غزالة" كلها أموال عراقية للبترول كانت قد تم تبيضها وبالإضافة إلى سرقة أموال مودعين بنك المدينة بالاشتراك أيضاً مع " العميد رستم غزالة " .

و بعد سقوط نظام صدام تم الاحتيال على الحكومة العراقية الجديدة بهذه العمليات حيث لم يتم التصريح عنهم وتم كشف عملية تهريب أموال عراقية بعد دخولها إلى لبنان مبالغ ضخمة بطائرة خاصة وكان مشرف على تهريبها رامي مخلوف ولكن الأقدار شاءت أن تكشفها الأجهزة الأمنية اللبنانية ويتم مصادرتها ... الأمنية اللبنانية وكان مشارك فيها ابن إميل لحود كثر فساد رامي مخلوف وكثر طمعه وخاصة بعد شراكة تجارية بين إميل إميل لحود حيث بداء مع إميل إميل لحود بتبييض الأموال وتهريب أموال عن طريق بنك المدينة وبمساعدة أشقائه وبعض أصدقاء من داخل البنك حيث تم تبيض أموال عراقية النفط مقابل الغذاء لصالح العقيد ماهر الأسد وتهريب أموال بشار الأسد وهذه الحسابات هي في سويسرا باسم بشار الأسد شخصيا ولكن لا تحمل اسم شخصي إنما حساب رقمي !!!

وقضية بنك الموارد التي لم تظهر للإعلام والتي تم التكتم عليها والضغط على وسائل الأعلام أثناء السيطرة الأمنية على لبنان بحيث أقدم رامي مخلوف وإميل إميل لحود ورستم غزالة بتبييض أموال صدام حسين وتهريبها للخراج وكانت تقدر بمبلغ ٨٠٠ مليون دولار قبل سقوط بغداد بحوالي سنة ونصف وهذه العملية تم التنسيق عليها بين ميرزا نظام وبين قصي صدام حسين وبين العقيد ماهر الأسد وتمت عملية تبيض الأموال وتهريبها خارج لبنان بموافقة ماهر الأسد بعد أن كانت له النسبة الأكبر من هذه العملية وقد أديرت هذه العملية من دمشق بتوجيه من ماهر الأسد وتم تنفيذها من قبل رامي مخلوف وإميل إميل و رستم غزالي للتغطية الأمنية والضغط الأمني بأسماء كل من طلال ارسلان وإميل إميل لحود ونقلها بأسمائهم للخارج وهم بالنهاية يمثلون العقيد ماهر الأسد وكان نصيب رامي مخلوف من هذه العملية ٣ مليون دولار أميركية وشقة سكنية للسيد إميل إميل لحود في برج غزال بالا شرفية أما السيد طلال ارسلان فكان له حصة مالية وضعت في حسابه في بنك دبي وبنك سويسري تقدر بحوالي ٢,٣مليون دولار حينها طلبت زوجة طلال ارسلان الطلاق منه لأسباب ؟؟؟!!!! حيث ضغط ماهر الأسد شخصيا على عائلة زوجة طلا ل

ارسلان (عائلة خير الدين أصحاب بنك الموارد)حيث استدع رستم غازلة أشقاء زوجة طلال ارسلان وضغط عليهم بعدم قبولهم لطلب زوجة طلال بالطلاق منه" خوفا من البوح والتكلم عن الفضائح والأسرار التي كانت تعرفها زوجته وخاصة الفضيحة الأخلاقية المنافية للطبيعة ؟؟؟ !!! للسيد طلال ارسلان " طبعا هذه المصالحة بين زوجة طلال وطلال لم تأتي بناء عن النخوة التي موجود لدى ماهر الأسد ورستم إنما خوفا على مصالحهم الخاصة ؟؟؟؟ وعلى أسرارهم وعلى أسرار أزلامهم ؟؟؟؟ للسائقين لهم قصة مع معلميهم كونهم هم بيت أسرارهم!!! بحركاتهم ومصالحهم الاقتصادية ومصالحهم ؟؟؟ تبيض وتهريب أموال مخدرات حيث تم سحب شيكات مسحوبة من بنك المدينة باسم أشقاء رستم غزالة وهم محمد عبده غزالة وبرهان غزالة وصولا إلى الدكتور ناظم غزالة حيث بدأت عملية السحب والإيداع على البنك المذكور من تاريخ ٢٠٠٢-١-١٩ وحتى ٢٠٠٢-١٢-٣١ وتجاوزت قيمة الشيكات ٨ ملايين دولار و٣٩٦ ألف دولار أميركي واستمرت عمليات الإيداع الغير معروف مصدره والسحب بعد ذلك ليصل إلى ٨٥ مليون دولار بعد موت قصي وعدي صدام حسين ؟؟؟

أملاكه التي موجودة في درعا والمزارع والاستراحة المشهورة على الطريق الدولي بين درعا والأردن سوى إنها من سرقات رستم الغزالي الأولى والتي الآن تحت وصاية شقيق زوجته !!!

حيث أقدم رئيس مجلس إدارة بنك المدينة وبنك الاعتماد المتحد، الموضوعين تحت الإدارة عدنان أبو عياش بإقامة دعوى جديدة شملت هذه المرة، إلى رنا عبد الرحيم قليلات، ورئيس جهاز الأمن والاستطلاع السابق للقوات السورية قبل انسحابها من لبنان العميد رستم غزالة وأشقائه محمد عبدو غزالة، وبرهان عبدو غزالة وناظم عبدو غزالة، وكذلك إيهاب عبد الرحمن حمية المتعامل مع المصرفين بواسطة قليلات، متهماً الأربعة بسرقة مئات الملايين من الدولارات الأميركية ومن المبالغ التي تم تحويلها إلى المصرفين والتي بلغ سقفها، بحسب الدعوى ٧٨٥،٥٨٠ مليون دولار أميركي.

حيث تم كشف عن ملف بنك المدينة وشقيقه بنك الاعتماد المتحد يتضمن سحوبات عبر الصراف الآلي، وتحويلات وشيكات صدرت بأسماء متعددة وتم تجييرها لمصلحة أشقاء غزالة ولمسؤولين سوريين كبار في مراكز حكومية على أعلى المستويات.

بعد الانسحاب السوري من لبنان، بدأت تظهر إلى العلن الممارسات غير الشرعية التي كانت تحصل.

لوحظ في "الوقائع" التي استهلت بها الدعوى إشارة إلى "إن بعض الأسماء هم من المسؤولين العسكريين في سوريا كي لا نقول في لبنان وسوريا". واللافت إن بعض الأسماء الضالعة بقوة في السحوبات التي حصلت من المصرف تم بواسطتها شراء مجموعة كبيرة من العقارات في يوم واحد

قد اختفت كلياً من الملف واللوائح التي تم تبادلها بين المصرفين ومصرف لبنان، بما في ذلك أسماء متهمة بعمليات تبييض أموال على نطاق واسع.

وتؤكد المصادر نفسها أن المعنيين بالملف، من سياسيين وأصحاب نفوذ في لبنان ، المقربين من رامي مخلوف وماهر الأسد واصف شوكت قد حصلوا على منافع بعشرات الملايين من الدولارات الأميركية من طريق سحوبات تم من خلالها شراء عقارات ما لبث أن أعيد بعضها إلى المصرفين بأسعار منفوخة، من دون أن يكون لهم أصلا أي ودائع أو حسابات دائنة حقيقية، فضلاً عن سرقات أموال موصوفة بمئات الملايين خرجت نقداً، وعبر بطاقات الدفع، وكانت تنتقل من حساب إلى آخر في غضون أيام معدودة بقصد التمويه.

و أن أسطولا من السيارات الفارهة من الطراز الحديث ذهب هدايا من المجموعة نفسها إلى زعماء ونافذين في سوريا !!!.

وتغمز الدعوى الموثقة بأرقام حسابات لآل غزالة وقليلات وحمية، من قناة أجهزة الرقابة في مصرف لبنان التي كانت على "علم وإطلاع على مخالفات المصرفين". وتعزو ذلك إلى احتمال "أن تكون هناك ضغوط سياسية أو أمنية حالت دون تحرك مصرف لبنان عند الاقتضاء".

وتطالب الدعوى الجهات القضائية بالتحقيق مع المدعى عليهم وتوقيفهم وإعادة الأموال المسروقة وكشف الأموال التي بيضت لصالح ماهر الأسد ورامي مخلوف واصف شوكت والأموال المسروقة والمبيض التي كانت عائداتها لقصي وعدي صدام حسين التي نهبت وتبخرت في ليلة واحدة بعد مقتل أبناء صدام حسين ؟؟؟

وإعادة رنا قليلات التي تم تهريبها من لبنان بعد حادثة مقتل رفيق الحريري ؟؟!!! التي تم تهريبها عن طريق رستم غزالة عن طريق الخط العسكري ومن ثمة تم تزويدها بجواز سفر مزور غادرت به إلى تركيا ومن ثمة إلى مصر ومنها إلى البرازيل هذه التنقلات لمطلوبة من الانتربول لا تتم إلا بتنسيق امني و "فهمكم كفاية " أن السلطات السورية تدرك الأثر السلبي الذي يتركه استمرار وجود مخلوف في السوق السورية، على استقطاب رجال الأعمال السوريين الآخرين، في ظل اعتقاد كثيرين أن رامي مخلوف يستفيد من كونه قريباً لرئيس الجمهورية الدكتور بشار الأسد في الحصول على صفقات، واحتكار بعض القطاعات الاقتصادية، أو التفوق فيها على منافسيه، الأمر الذي يعني غياب مناخ المنافسة النزيهة.

وبعد أن بدأت عائلة الأسد تشعر بارتفاع وتيرة الضغوط الخارجية عليها ،بسبب خطة بوش الجديدة في المنطقة وخصوصاً في العراق وبعد نجاح النظام السوري في إشعال الفتن والحرب في لبنان وإثارة الخلافات في فلسطين من خلال الفصائل المقيمة بدمشق ،كل ذلك ساهم في عزل

النظام من عدة دول أوروبية يريدون إيجاد حلول للاضطرابات في المنطقة ومحاولة فك الارتباط والتبعية في العلاقة السورية – الإيرانية لخطرها الكبير على كامل
الاستقرار في المنطقة والخليج العربي .

وكنتيجة لهذا العزل والخوف فقد اصدر الرئيس بشار الأسد امراً لخازن بيت المال السيد رامي مخلوف بأن يقوم باستثمارات كبيرة وشراء رجال الأعمال والمشاريع كي يسيطر على الحياة الاقتصادية في سوريا ويسخرها لمصلحة النظام مما يعطي النظام فسحة اكبر من المرونة بالسيطرة على البلد ليس فقط من خلال الجيش والمخابرات الكثيرة بل أيضا من خلال الاقتصاد ، وفعلاً فقد عاد رامي مخلوف من دبي التي كان قد ذهب إليها أثناء الحصار والعزلة التي كانت مفروضة على سورية وذلك كي يكون بعيداً إذا ما حصل أي شيء واضطرت العائلة للهرب فإنه سيكون موجوداً مع أمواله ليبدؤوا تجارتهم وعملهم بالأموال التي نهبوها من الشعب السوري .

وبدأ رامي بوضع خطة للسيطرة على كامل المناطق المفتاحية في البلد .

ففي حقل الإعلام فقد حصل على أول رخصة لصحيفة يومية سياسية " الوطن "وعين لها السيد وضاح عبد ربه كواجهة فالجميع يعلم بأن من يدفع الأموال للصحيفة هو رامي مخلوف وكذلك يقوم بدعم عدد من مواقع الانترنت التابعة للنظام .

وفي حقل المصارف لديه حصص في عدد من المصارف الخاصة وخاصة بنك بيبلوس .

وفي الصناعة يقوم حاليا بإنشاء مصنع كبير للاسمنت بقيمة ٢٥٠ مليون دولار .

وفي السياحة لديه حصص في عدد من الفنادق وقد حصل على رخصة تطوير كورنيش اللاذقية .

إضافة لملكيته لشركة سيرياتل للموبايل والحصة الأكبر من شركة اريبا والمناطق الحرة غير الشرعية والموجودة في مطار دمشق الدولي وفي كافة المعابر الحدودية .

وتكمن خطته الجديدة بأن يقوم باستقطاب التجار السوريين في تحالفات معه كي يكون هناك تشبيك مصالح ينعكس إيجابا على النظام ويمنع أي حركة مستقبلية تريد الإطاحة بالنظام من إيجاد قواعد لها وخصوصاً بين رجال الأعمال .

لذلك فقد تم استقطاب من دمشق الصناعي خالد محجوب وتم وضع عدد من المشاريع باسمه كعقود شركة " الأولى " السعودية للتطوير العقاري وكذلك باسم أخته رنا محجوب حيث تم وضع مشروع (avenue) باسمها ، وكذلك تم استقطاب رئيس غرفة صناعة دمشق بسام غريواتي حيث تم تعيينه كرئيس لاتحاد غرف الصناعة حيث تم إفشال خطة أسماء الأسد التي دفعت باتجاه إصدار مرسوم بتشكيل اتحاد لغرف الصناعة يكون مقره الرئيسي في مدينة حمص وذلك كي يكون رئيس الاتحاد من المحافظة المضيفة وهي حمص مما يعني أن يكون هو الدكتور

طريف الأخرس ابن عم السيدة أسماء الأسد ، ويتم حاليا التحضير لترشيح السيد بسام غريـــواتي لمجلس الشعب مدعوماً من السيد رامي مخلوف وبذلك يكون لرامي عدة مرشـــحين في مجلـــس الشعب يدافعون عن مصالحه ويغطون سرقاته .

واهم ما في الموضوع أنه بدأ يحاول التقرب من رجال الأعمال الكبار من مثل د.راتب الـــشلاح ود.عبد الرحمن العطار وصائب نحاس حيث قام بالاجتماع معهم بشكل فردي لأول مرة بتاريخه وطلب منهم أن يكونوا شركاء له في المشاريع والنشاطات التجارية وانه يمكن أن يضع بأسمـــائهم كميات كبيرة من الأموال ولكن يبدو أن تلك المحاولات حتى الآن باءت بالفشل فلا يمكـــن أن يلوث أمثال هؤلاء من ذوو السمعة الدولية المعروفة أنفسهم بالشراكة مع هذا الحرامي ســـارق أموال الشعب .

بالمقابل فإنه نتيجة لعداوات الكار ونكاية بالتجار السابقين فقد انضم لشلة رامي مخلوف بعـــض التجار السنة من مثل سامر الدبس " رئيس غرفة صناعة دمشق السابق وهيثم الجود حيث قاموا بتشكيل شركة قابضة برأسمال ٨٠ مليون دولار أميركي لتنفيذ العديد من المشاريع كلـــها مـــن الدولة وتحقق أرباح عالية نتيجة ضغوط رامي مخلوف مما يعني أن هؤلاء التجار أيضا يساهمون في إفقار الشعب السوري .

ويكفي أن نشير أن رامي مخلوف أيضا ومن خلال شركته الوهمية في الفيليبين قد حـــصل علـــى رخصة باستثمار حوالي نصف ساحات مرفأ طرطوس وبمبلغ لا يتجاوز عدة ملايين من الدولارات بينما كانت أرباح هذا الجزء وتحت الإدارة الحكومية عدة إضعاف هذا المبلغ ،والعقد قـــد أنجـــز رغم رفض الكثير من الوزراء تصديقه في اللجنة الاقتصادية ولكن أوامر من الرئيس شخصيا هي التي أجبرهم على التوقيع لاحقاً نكرر من جديد دعوتنا بمقاطعة شركات رامي مخلوف التي يملكها سواء بشكل مباشر أو من خلال واجهات تجارية متعددة ومقاطعة كذلك شركات رجال الأعمال الذين ينضمون ويشاركونه في المشاريع التي تسرق الشعب .

و تعاني سوريا الآن أزمة اقتصادية حادة تشكل خطورة كبرى على مـــستقبل الـــبلاد وأمنـــها واستقرارها ويمكن تحديد مظاهر هذه الأزمة بما يلي:

١ - الاختلال الكبير بين الموارد والإنفاق وبين الإنتاج والاستهلاك .

٢ - اتساع دائرة الفقر وانتشار البطالة لا سيما في أوساط الشباب.

٣ - ارتفاع الأسعار وعدم التوازن بين الأسعار ومدخول المواطن.

٤ - إهتراء البنية التحتية والتي مضى على إنشائها أكثر من ثلاثين عاماً وعدم تجديدها رغم مضي هذا الزمن والتطور الهائل العالمي في عناصر البنية التحتية.

٥ - انتشار الفساد في مختلف المواقع بالدولة من رأس الهرم مروراً بالقضاء إلى بقية الأجهزة الحكومية والمشكلة الكبرى بأن الفساد في سوريا له حماية خاصة من رأس الهرم في السلطة ومثال على ذلك: قررت القيادة القطرية منذ أكثر من أربع سنوات الطلب من الحكومة تسريح مدير مصفاة بانياس "غسان صقر"، كما طلب وزير النفط إحالته إلى هيئة الرقابة والتفتيش والتي طلبت إعفائه فرفع وزير النفط آنذاك مرسوماً بتسريحه وبعد أيام طلب رئيس الوزراء السابق مصطفى ميرو من وزير النفط بإيقاف مرسوم التسريح بناءً على توجيهات عُليا وتكرر الطلب مرة أخرى فرفع وزير النفط مرسوماً آخر إلى رئيس الوزراء ناجي عطري الذي طلب منه التريس بناءً على توجيهات من فوق "طبعا التوجيهات لا يكتب بها قرار رسمي".

إن ظاهرة الحماية وخاصة الحماية التي تأتي من "الحاكم الذي تربطه مصالح خاصة مالية أو من الأجهزة الأمنية التي تساعد في الفساد" وهذه الحماية هي من أخطر الظواهر السلبية المعيقة لمعالجة الأزمة الاقتصادية الحادة .

٦ - عدم الاستقرار الاجتماعي وانهيار الطبقة الوسطى وتوسع قاعدة الفقر وحصر الثروة بمجموعة قليلة من الفاسدين المقربين من السلطة أو شركاء بعض كبار المسئولين.

٧ - من ظواهر الأزمة الاقتصادية لجوء المدخرين للاستثمار في قطاعات غير منتجة كالاستثمار في تجارة العقارات.

إذا كانت هذه بعض مظاهر الأزمة الاقتصادية الحادة في البلاد لابد من الإشارة إلى الأسباب التالية :

١ - عدم وجود سياسة اقتصادية في البلاد لأن ليس للاقتصاد السوري هوية اقتصادية فهو ليس اقتصاد السوق أو اقتصاد الدولة أو اقتصاد اشتراكي بل هو اقتصاد منفلت تتجاذبه عدة اتجاهات وفق تجاذب المصالح الضيقة لبعض مراكز الفساد أو بسبب الرؤية الخاطئة للمسؤولين عن القطاع الاقتصادي أو عدم الشفافية بين الحاكم وحكومته وخاصةً عندما تكون المنفعة الاقتصادية للحاكم بدل الدولة .

٢ - ويلعب أصحاب المصالح "خاصة المقربين من الحاكم أو من تربطهم بعلاقة شراكة مالية واقتصادية مع الحاكم بسوريا" بمصالح البلاد بعدم وضع سياسة اقتصادية واضحة وصريحة لأن ذلك يتناقض مع مصالحهم المالية ولن يتمكنوا من زيادة ثرواتهم من الاقتصاد الوطني فالسياسة الاقتصادية تحدد الأهداف والطرق والوسائل التي يستطيع من خلالها الوطن بالازدهار وتأمين معيشة جيدة لأبنائه و تحد أيضا من ظاهرة الفساد "الرشاوي وسرقة الأموال العامة" ونهب الموارد.

كما أن السياسة الاقتصادية تحدد مسؤولية المؤسسات الدستورية والأجهـزة الحكوميـة ودور قطاعات المجتمع في تنمية البلاد ونهوضها.

وإذا استعرضنا تصرف الدول في المجال الاقتصادي نجد أن البلاد تنتقل من اختناق اقتـصادي إلى اختناق أشد قسوة من الذي قبله وبدأ ذلك يظهر بشدة مُنذ انهيار الليرة السورية أمام العمـلات الأجنبية إذ تحول سعر الدولار من أربع ليرات إلى خمسين ليرة خلال ستة أشهر في عـام ١٩٨٢ ومع الأسف لم تجري محاولة جديّة لدراسة أسباب هذا الانهيار وعدم معالجتها.

لو حسبنا حصة المواطن السوري من ميزانية الدولة في عامي ١٩٨٠ و١٩٩٨ علـى أسـاس الدولار نجد أن هذه الحصة انخفضت إلى الربع.

٣- عدم إدراك مركز القرار في البلاد إلى الأخطار المقبلة التي تهـدد سـوريا بـسبب أزمتـها الاقتصادية الحادة ومن هذه الأخطار انخفاض إنتاج النفط في سوريا وقد يصل إلى مـا يقـارب النضوب عام ٢٠١٠ وهذه المعلومات ليست جديدة بل تعرفها المؤسسات القيادية في الحـزب والدولة منذ أكثر من عشر سنوات وتأكدت منـذ خمـس سـنوات دون اتخـاذ الـسياسات والإجراءات والقرارات التي توفر البديل لنضوب النفط وهذا يعني أن العجز الاقتصادي سيزداد في السنوات القادمة ويأتي ذلك مع ازدياد عدد السكان والاحتياجات الأساسية للـبلاد وهـذا سيؤثر على الأوضاع العامة في البلاد ومنها "مجالات الصحة والتعلم ومستوى المعيشة والـدفاع الوطني" وسيبقى الفاسدون وحدهم خارج إطار التأثر بهذه التأثيرات وعوضا عن البحـث عـن موارد جديدة فقد ذابت هذه الموارد خارج إطار الدولة.

ومثال على ذلك امتياز "شركة الهواتف الخليوية" التي أعطيت إلى "رامي مخلوف و طه الميقـاتي"، وكذلك الأسواق الحرة على منافذ البلاد والتي أيضاً أعطيت "لرامي مخلوف"..!

وشركة "البراق لخدمات الاتصالات العامة" وشركة "هواتف الأقمار الـصناعية" أعطيـت إلى شريك ماهر الأسد.."محمد حمشو" .

وشركات تتعلق بالبترول والغاز الطبيعي أي بما يتعلق بالثروات الباطنية أعطيت إلى آل مخلـوف عن طريق "نزار الأسعد" وهم جباة عند الحاكم في سوريا.

وتهريب الآثار وتهريب موارد سوريا للخارج وبيعها للسوق السوداء..

واستثمارات وهمية ومناقصات وسمسرات بقطاعات الدولة مع شركات أوربية "الطيران السوري ، الخطوط الحديدية ، مقاسم الاتصالات الأرضية، البنية التحتيـة و محطـات توليـد الطاقـة الكهربائية... "

٤ - ضعف الكوادر وعدم وضع برامج لإعادة التأهيل لخريجي الجامعات بالإضافة إلى القصور في إصلاح برامج التربية والتعليم وإعداد الكوادر الفنية من أبناء الشعب و بالعكس مُنحت البعثات والكوادر الفنية من تربطهم علاقة بالسلطة ولم تتمكن الحكومة من الاستفادة منهم "البعض فضل البقاء في الدول التي درسوا بها والآخر مقيم بدول عربية للعمل".

٥ - عدم كشف الحقائق أمام الشعب بالصعوبات وعدم الشفافية بين الحكومة والشعب حيث استغلت الحكومة الإعلام لنشر أكاذيب الحكومة من رخاء اقتصادي ومشاريع استثمارية والغلاء والجوع مستشري في أنحاء سوريا وبالتالي لم تتمكن الحكومة بوضع سياسة اقتصادية كاملة تهدف إلى تحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي في البلاد .

٦ - عدم إتباع قاعدة تكافئ الفرص في اختيار الأشخاص لأشغال المراكز القيادية في جميع المؤسسات الاقتصادية والإدارية والخدمية وفقدان المعايير العلمية "قاعدة الاختيار تبنى على أسس وهي:

أ- الولاء للسلطة الحاكمة .

ب- درجة المحسوبية وبمعنى أصح وزن وساطته في السلطة .

ت- طائفته .

ج- موافقة الأجهزة الأمنية عليه "متفهم لدور الأجهزة الأمنية – متقبل لفكرة التعاون الأمني – مطيع لتنفيذ

أي أوامر أمنية – وضرورة كتابته للتقارير "

٧ - تخلف القوانين والنظم الإدارية من جهة والخلل القائم في القضاء من جهة ثانية "القضاء للأسف ممن بيده السلطة وممن هو قريب من الأجهزة الأمنية – وممن لديه الأموال الطائلة – وممن من لديه النساء..!".

ومثال على ذلك الدعوة التي ربحتها شركة "سيرياتيل لصاحبها رامي مخلوف" بمصادرة أموال الشركة المصرية "أوراسكوم للاتصالات لصاحبها نجيب ساويروس"ووضع حارسين قضائيين على الشركة المصرية "إيهاب مخلوف ومحمد حمشو " مما أضعف فرص الاستثمار في سوريا.

يتساءل البعض هل يمكن للسلطة إصلاح الاقتصاد ومعالجة الأزمة الاقتصادية في ضوء الوعود المتكررة من السلطة والحقيقة أن السلطة الفاسدة والمستبدة لا يمكن إصلاحها لأن الاستبداد والفساد والجهل أجزاء أساسية من مكوناتها وبالتالي فالبلاد بحاجة لأن تحكم بشرع الله عز وجل ويقوم عليها رجال يخافون الله عز وجل ويعملوا على تطوير البلاد وتقدمها بكل تفرعاته ومتطلباته.

هكذا وجد أبناء الأسد أنفسهم محكومين بالاستعانة بأقرباء آخرين، رغم بعض الخلافات معهم. فتحول أصف شوكت زوج بشرى الأسد أقوى الرجال في النظام السوري، وعلى النحو نفسه، يبدو أن رامي مخلوف ابن خال الرئيس بشار الأسد يمسك بأعنة الاقتصاد السوري بيديه.

" من دخل بيت البعث فهو آمن ، ومن دخل بيت رامي مخلوف وشركائه فهو آمن.. أيضا" !

لماذا من المستحيلات أن يفكر المواطن السوري في سيارة ومترل يملكه وحياة كريمة يعيشها دون قلق أو ترقب أو خوف وبطرق مشروعة ولماذا ذلك بات يشكل حلما لدى المواطن عبر أربعين عاما من حكم النظام السوري؟

إن هذا ما يقودنا إلى الحديث عن الفساد الذي استشرى إلى درجة لا يمكن السكوت فهذا يؤكد على أن مرحلة محاربة الفساد واعتماد مبدأ المحاسبة التي قال النظام انه يعمل عليها ويريد انتهاجها ما هي إلا أكذوبة كبيرة من ضمن أكاذيبه .

الحرامي فواز الأخرس*

اللص فواز الأخرس هو والد زوجة الطاغية النصيري بشار الأسد ، وهو من مدينة حمص ،ولقد زوج ابنته لهذا النصيري لكي يلحق بركب عصابة المافيا في سوريا .

جهود الدكتور فواز الأخرس تسابق الريح للكسب السريع قبل أن يتوقف قطار النهب .

إن الأحوال السياسية في سوريا ومنذ حركة البعثيين الثانية عام ١٩٦٦ تحولت إدارات الدولة ومؤسساتها إلى هياكل لا تقوم بأي دور سياسي ولا تملك أي سلطة ذاتية لكن هناك بالخفاء تشكلت حكومة خفية هي صاحبة السلطة الحقيقية ولا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة لكن بالمقابل يتشكل حولها كادر عسكري امني عدده بالعشرات القليلة يديرون أجهزة الحكم والفساد .

وبعد أن تربعت عائلة الدكتور فواز الأخرس إلى الصدارة والنفوذ اللامحدود الذي أضحى يتمتع به الدكتور فواز الأخرس في مجالات عدة بدأت بترؤسه للجمعية السورية للصداقة البريطانية إلى محرك فعال للسياسة السورية في لندن إلى تسلمه صفقات مصيرية تجلت بتكليفيه والسفير الخيمي بمتابعة أعمال المكتب المشبوه السمعة بإقناعه لأصحاب القرار في سوريا بان فواز الأخرس هو الذي يملك العصا السحرية التي من خلالها يستطيع أن يضمن حماية بريطانية لعرش ابنته غير أن

---

* هذا الملف عبارة عن مقال للكاتب: نورس عطا الله – منقول من موقع "سوريا الحرة" الإلكتروني على شبكة الإنترنت – والمقال بعنوان " جهود الدكتور فواز الأخرس تسابق الريح للكسب السريع قبل أن يتوقف قطار النهب" (بتصرف يسير) .

وصول تلك العائلة للمركز الذي مكنها من الاستحواذ بكل الاقتصاد السوري واستطاعت أن تقبض العائلة الأسدية على أرقاب العباد وتكرس هذا الطابع واضحي ظاهرا بعد مؤتمر حزب البعث في حزيران ٢٠٠٥.

لكن أن سيرة السيد رامي مخلوف الذي يقال انه وعائلته يملكون بين عشرة واثنا عشر ة مليون دولار أي ما يفوق ميزانية الدولة لعام كامل .

والهالك جميل الأسد لم يترك لورثته سوى خمسة مليارات دولار ما يقارب أكثر من نصف الناتج الوطني وهناك أل الأسد في الداخل والخارج وآل شاليش غير أن آل الأخرس دخلوا القسم متأخرين لكن لم يقصروا وجهود فواز الأخرس تسابق الريح للكسب السريع من خلال النفوذ الذي يتمتع بها ونظرا لوجوده في لندن فلم نعد نعرفه طبيب أم تاجر عقارات أم متعهد لتدريب دورات الشرطة السياحية التي جنا منها ٧٥٠ ألف جنيه إسترليني أو مقاول لبناء المطاعم والفنادق في دبي وآخر صفقة استيراد ٦٠٠ باص للحكومة السورية .

صف إلى نسبته التي يتقاضها من شراكته مع سامي الخيمي والذي أضحى للعيان بأنه هو الداعم لبقاء الخيمي سفيرا في لندن و غيث الارمنازي مديرا للمركز الإعلامي لغاية ٢٠١١ .كل هؤلاء لا يجسدون منطق الرأسمالية والاستثمار الرأسمالي بل منطق الاستيلاء والنهب واستغلال الفرص واستخدام السلطة لنيل امتيازات الروابط العائلية ومن خصخصة السياسة الخارجية هذه فشعار فواز الأخرس كما هو شعار آل الفساد في سوريا حيثية المال والنهب وتنطوي كل ذلك تحت مسمى اللجنة الوطنية العليا للنهب وتلك اللجنة تقوم بتوزيع الغنائم على اللصوص الرسميين في الحكومة الخفية للسلطة .

ألا يكفي نقاط الضعف التي لا تعد ولا تحصى للنظام في رعايته لفساد رامي مخلوف الذي أصبح نقطة ضعف النظام الذي يعجز عن مسائلته ويضاف في ضعف النظام وعدم قدرته على محاسبة الفساد الكبير دخول آل الأخرس ولو متأخرين لتقاسم الغنائم قبل أن يأتي يوم وتشرق فيه شمس الحرية .

أن كل السوريين أصبحوا على دراية بان انتخابات مجلس الشعب أو بالأصح مجلس الدمى المتحركة بالريمونت كونترول والنتائج مفهومة سلفا وهذا ما يؤكد استحالة تغيير سياسي أو اقتصادي في ظل تلك الحكومة واللجنة العليا للنهب .

نظرا لان النظام ليس مستعدا للتنازل عن شبر واحد أو حبة رمل واحدة لان ذلك يعتبر تخفيف قبضته على ثروة البلاد المتابع لعجلة الاقتصاد السوري التي تزداد ليبرالية ووزن ودور قطاع الدولة يتراجع فيه أما فيما يتعلق بالأنشطة الفتية والمجزية في القطاع الخاص الجديد تعود أما إلى

جيل أبناء المسؤولين أو إلى شركاء وأتباع لهم ويبقى الشعب السوري هو الغائب هذا هو المضمون الحقيقي للديكتاتورية والمحسوبية والنظام السوري القمعي يزرع الخوف ويحصد المال .

من هنا رأى الدكتور فواز الأخرس ما عليه إلا إتباع القول إذا هبت رياحك فاغتنمها (وما في حدا أحسن من حدا) .

وبما أن ابنته أصبحت السيدة الأولى ولو شكليا فما عليه إلا أن يستغل علاقته بصهره الطبيب العبقري واخذ الضوء الأخضر ليمتد نفوذه تجاريا بما يحلو له وحساب بنكي مفتوح ، فمن مشترياته مبنى في الهاي ستريت كنزنغتون بمبلغ ١٦ مليون جنيه إسترليني ومنزل جديد في ايلينغ بمبلغ ٢ مليون جنيه إسترليني ،أضف إلى نفوذه من خلال الجمعية السورية للصداقة البريطانية وهو الذي قام بتعيين غيث الارمنازي مديرا للمركز الإعلامي السوري ومدير تنفيذي للجمعية ومستشار إعلامي للسفير لكن وبمحض الصدفة منذ عشرون عام وأنا أقيم في لندن وتعاقب سفراء على الدبلوماسية السورية في لندن ولم أرى في يوم من الأيام بان هناك من ملاك السفارة من يمثل أو مسؤول عن الشؤون الإعلامية في السفارة السورية في لندن وليلة أمس بالتحديد ١٣-٠٣-٢٠٠٧

. شاهدت برنامج ضيف وحوار على قناة الحوار وكان الضيف الأستاذ جهاد مقدسي مسؤول شؤون الإعلام في السفارة السورية بلندن وعند سؤاله عن الإصلاح فجاوب مسرعا الإصلاح ليس بلمسة سحرية وأكد أن الشراكة السورية الأوربية المشتركة ستساهم في تأطير الفساد وقد لا تترك ثغرة للفساد.

من هنا نعود ونسأل السيد المقدسي إذا أردتم البحث عن اللمسة السحرية عودوا بنا إلى ما جاء بخطاب القسم الذي ألقاه بشار قي أول عهده عندما ورث العرش الملكي للأسرة الأسدية قال لا املك عصا سحرية كي أصلح البلد في يوم وليلة ومنذ ذلك الحين ونحن نقول انتقال السيدة سحر العطري من موظفة في السفارة السورية بلندن براتب كان آنذاك ٨٠٠ جنيه إسترليني وفي ليلة وضحاها وبلمسة سحرية أضيف صفر فأصبحت تتقاضى راتب ٨٠٠٠جنيه إسترليني حتى تاريخه .

وقد سميت اكبر ساحات مدينة حماه باسم السيدة سحر العطري فقد يستيقظ الشعب السوري بيوم من الأيام ليرى اللمسة السحرية ويشاهد تمثال فواز الأخرس في كل ساحات القطر العربي السوري وقد يستبدل تمثال يوسف العظمة بتمثال فواز الأخرس عم الدولة الفتية صدقوني لا حسد ولا ضيقة عين .

أين انتم من الإصلاح يا أيها المتأصلحون إصلاحكم في أن نفــرط في الكرامـــة أو نخـــون في أن يضاجع أمنا فواز الأخرس أو شارون .

والله اللي استحوا ماتوا .

الجزء الرابع

شهادات سجناء سابقين في سجون النظام النصيري البعثي

محتوى الجزء الرابع :

أولاً: شهادات السجناء في عهد الطاغية النصيري الهالك " حافظ الأسد " .

[الشهادة الأولى] تدمر شاهد ومشهود / بقلم: محمد سليم حماد (قضى ١١ عاماً في سجن تدمر) .

[الشهادة الثانية] خمس دقائق وحسب ! تسع سنوات في سجون سورية بقلم: هبة الدباغ .

[الشهادة الثالثة] شهادة المعتقل السابق عباس محمود عباس .

[الشهادة الرابعة] شهادة مهندس سوري يروي تجربة اعتقاله في تدمر .

[الشهادة الخامسة] الطريق إلى تدمر ياسين الحاج صالح .

[الشهادة السادسة] شهادة - ١١ عاما في السجن بجرم عدم الوشاية بالجار!! .

[الشهادة السابعة] المعتقل السابق أصلان عبد الكريم في حديث للعدالة عن تجربة اعتقاله .

[الشهادة الثامنة] شهادة العقيد توفيق الطيراوي عن العذاب الذي تعرض له في السجن .

[الشهادة التاسعة] شهادة خالد فاضل بعنوان "في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي" .

[الشهادة العاشرة] شهادة بعنوان " حمامات الدم في سجن تدمر " .

[الشهادة الحادية عشر] بقلم السجين سابقاً / حسن الهويدي – بعنوان " تدمر في الذاكرة " .

[الشهادة الثانية عشر] هل سيأتون الليلة ؟ بقلم : د. جميل قدري .

[الشهادة الثالثة عشر] بعض الذكريات من منزل الموتى - بقلم : آرام كربيت .

ثانياً: شهادات السجناء في عهد الطاغية النصيري " بشار الأسد " .

[الشهادة الرابعة عشر] الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي يروي قصة معاناته في أشهر سجون دمشق .

[الشهادة الخامسة عشر] واقعة أمنية سورية (المخابرات السورية تعتقل الشيخ حسين بن محفوظ (مواطن يمني) في عهد الطاغية بشار الأسد) .

[الشهادة السادسة عشر] شهادة شهادة سجين جزائري حاول العبور للعراق للجهاد في سبيل الله .

مقدمة الجزء الرابع :

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وأصلى واسلم على النبي المبعوث رحمة للعالمين ، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وبعد :

لقد تجرع الكثيرون كؤس الآلم والتعذيب على أيدي جلادي النظام النصيري ، حيث سبب النظام النصيري للمسلمين وللشعب السوري مآسي كثيرة ، حيث أنشئ السجون والمعتقلات ، وزج في السجون الآلاف من أبناء الشعب السوري ، وبعد خروج بعض هؤلاء الذين وقعوا ضحية في سجون النظام النصيري ، قام بعضهم بكتابة شهادته ، على ما جرى لهم داخل السجون من تعذيب وظلم ، ولقد قمنا في هذا البحث بجمع بعض هذه الشهادات لسجناء سابقين ، لكي يعرف الناس مدى حقد وإجرام هذا النظام النصيري البعثي .

قال الله تبارك وتعالى : {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ }إبراهيم : ٤٢ .

اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ، ودمر أعداء الدين ، وأنصر عبداك الموحدين .

[الشهادة الأولى]

تدمر شاهد ومشهود

بقلم السجين السابق / محمد سليم حماد

(قضى ١١ عاماً في سجن تدمر)

(هذه الشهادة عبارة عن كتاب كتبه محمد سليم حماد)

محمد سليم حماد، أردني، قضى ١١ عاماً في سجن تدمر الصحراوي في سورية، وذاق ورأى خلالها صنوف العذاب والهوان، الذي تُمارسه أجهزة القمع السورية بحق أبناء شعبها، محمد سليم حماد لم يكتم شهادته، بل أصدرها في كتاب، لتكون شهادة على وحشية هذا النظام .

مقدمة

كانت الحياة ضحى ذلك اليوم البارد من آخر أيام سنة ١٩٩١ تمضي في مدينة تدمر الصحراوية على غير ما جديد . فالأطفال مضوا مبكرين إلى مدارسهم . والأمهات في المنازل يلُكْن الأحاديث مع الجارات وقد أمنّ انصراف الرجال إلى أعمالهم وخلو البيت من المنغصات . والدكاكين في السوق الرئيسي للبلدة استقبلت روادها الذين اختلط النساء فيهم بالرجال ،

والمدنيون بالشباب المجندين ، والمترجلون بالراكبين ، والدواب بالسيارات .. وكلٌ ينفث من صدره هماً أو يرسل زفرة التياع . فهذا جندي متأخر في إجازته يريد اللحاق بوحدته العسكرية ولكن سائق السيارة الذي لا يزال يأمل في اصطياد راكب إضافي يماطل ولا يتحرك . وصاحب الدكان ضاق ذرعاً بزبونته التي أطالت معه الجدال من أجل أن يخصم لها من سعر الحاجيات التي اشترتها بضع ليرات هي كل ربحه من هذه الصفقة التافهة ، وما عادت تكف عن الرجاء والاستعطاف . وحتى الحمار الذي حمّله صاحبه من البرتقال أكثر من قدرته في هذا السن المتقدم صمم فجأة على تسجيل موقف مشرف .. فحرن وسط الطريق العام ، وأحدث أزمة سير سببت له ولصاحبه سيلاً من الشتائم بالألسنة أو الزمامير النزقة .. لكن الحمار وحده هو الذي لم يهتم !

وعلى هذا الطريق ومن حيث تدلف السيارات القادمة من جنوب المدينة فتعبرها باتجاه حمص ، كان أحد باصات "التويوتا" أحمر اللون يغذ بنا السير نحو الاتجاه نفسه ، من غير أن يلفت انتباه أحد من كل هؤلاء الناس أو يعني لهم أي شيء . لكننا نحن ركاب الحافلة الذين ارتدينا جميعاً ملابس عسكرية كاكية اللون تكاد تكون جديدة ، وقبعنا في مقاعدنا يلفنا صمت مطبق ، كنا اللحظة كالخارج من رحم أمه أول مرة ، أو كالقادم إلى الأرض من كوكب لم يكن فيه من البشر من قبل أحد . وحينما أطلق السائق النزق شتيمة سافلة للحمار وصاحبه ، وتخطاهما يكاد يحرق محرك الباص من غير سبب حقيقي أو مبالاة .. كنت وبقية الركاب الآخرين لا نزال نحملق في الحمار صاحب الموقف .. وببقية عباد الله حوله . ونتابع بعيون نهمة قدر ما هي وجلة كل شاردة وواردة تخطر حولنا . ثم لا نلبث أن نخفض رؤوسنا بانكسار .. ونرد الطرف وهو حسير .. وننصت متوجسين خشية أن يكون أمر ما قد صدر ونحن في سرحاننا هذا فأوجب علينا تلكؤنا بالإجابة العقاب !

ويمضي الباص بنا في اتجاه دمشق .. وتمضي بي الهواجس تسري من جديد ، وتنفجر في داخلي العبارة التي لا تزال تعصف في أذني كالبركان منذ أيام ثلاثة مضت ولا تكف عن الترداد تقول :

"سيادة الرئيس أصدر قراراً بالعفو عنكم .. وإن هي إلا أيام حتى تكونوا بين أهاليكم" .

لكنني أراني كالملسوع ومن غير مقدمات يقفز من أعماق أعماقي صوت آخر كحشرجة المحتضر يقول : بعد اثني عشرة سنة .. من يُصَدِّقْ ؟ ومن يثق بمن ؟ ثم ماذا إذا صَدَقُوا ؟ أي مستقبل لنا وأية حياة ؟ وأين سيكون موقعنا بين هؤلاء الذين فارقناهم في أعمارنا فصاروا الآن آباء ورجالاً لهم في الحياة مركز وموقع ؟ أو موقفنا من أولاء الذين خلفناهم وراءنا حتى من غير أن نقول لهم كلمة وداع !

وسرعان ما أنتبه من حواري الصامت هذا على أحد المرافقين يقهقه بصوت مجلجل من غـير أن أفهم السبب .. أتأمله من طرف عيني فكأنه بشعره النابت وشاربيه المتدليين وسحنته الـسمراء نوع من المخلوقات انقرض من عهد بعيد واختفى ، ثم ها هو ذا يعود الساعة إلى الوجود !

كان من أغرب المشاهد حقاً علي وعلى قرابة خمسة وثلاثين أخاً يستقلون الباص معي أن نبـصر رجلاً طبيعي الهيئة معافى البدن يقهقه ملأ شدقيه بلا خوف ولا وجل .. بعد أكثر من عشرة أعوام أمضيناها في سجن تدمر الصحراوي ، لا نبصر إلا وجوه المعتقلين صفراء ناحلة ، ورؤوس نزلاء الزنازين محلوقة كالبطيخة الملساء .. وهاماتهم مطأطئة من القهر على الدوام .. تتلقى كل أصناف العذاب ، ولا حق لها أن تنبس ولو ببنت شفة !

كانت تلك هي نهاية الكابوس المرعب أو مراحل نهايته الأخيرة . وكانت المـشاعر والهـواجس خليطاً من الفرح والوجوم .. والبشرى والتوجس .. والتشوف والتخوف . لكن البدايات كانت مذ كانت غير ذلك .. وفاتحة الرحلة ها هي كما ارتحلتُ بها من قديم الزمان .

سنوات الشباب

اسمي محمد سليم حماد . ولدت عام ١٩٦٠ في العراق رغم أن أهلي من فلسطين . فوالدي رحمه الله سليم حماد المفتش في وزارة التربية والتعليم بالأردن وقتذاك كان في مهمة عمل في العراق حين وضعتني أمي . ثم لم تلبث الأسرة أن عادت إلى مدينة نابلس ، فجرش . قبل أن تحط بنا الرحـال في مدينة الزرقاء بالأردن ، حيث نشأت وترعرعت وسط إخوتي الأربعة . وأمضيت عشر سنوات كاملات من سن التاسعة إلى التاسعة عشرة .

لم تكن أسرتي بالأسرة الملتزمة أو صاحبة الانتماء السياسي المحدد . الوالدان يصليان كعادة أهـل البلد ، لكن الدين عندهما لا يزيد عن ذلك بكثير . وحين بدأت أتردد على المسجد وأبدي وأنـا في المرحلة الإعدادية ما يمكن أن يسمى اهتماماً أكثر بالدين ، بدأت علامات التململ تظهـر في البيت . وحين تحول هذا الاهتمام إلى درجة أشد وأخذت أتفاعل مع الإسلام كقـضية وبـدأت أنشط في هذا الاتجاه ، انقلب التململ الخفي إلى معارضة وتحذير . لكننا تجاوزنا تلك المعارضـة بالتدريج بفضل الله . ولم أكن واقع الأمر أحاول إلا أن أطبق الكلام الذي أسمعه في مسجد عثمان بن عفان الذي اعتدت المداومة على الصلاة فيه والالتقاء بالشباب في رحابه من غير رابطة محددة إلى ذلك الوقت . كانت القضية مجرد عاطفة تجيش وتستعر ، لكن التفاعل مع الدعوة إلى الله أخذ يغمرني بشكل متزايد ، وتبليغ الناس هذا النور الذي بلغته أخذ يلح علي كهاجس دائم .

كنا مع مجموعة من الأصدقاء الأصفياء نتنافس في الخير . ولا أزال أذكر كيف كنت أستيقظ قبل أذان الفجر بساعة أو أكثر حتى في أشد أيام الشتاء برودة لأذهب إلى بيـوت أولاء وأوقظهـم

للصلاة . وبعد صلاة الجماعة في المسجد كانت لنا جلسة لقراءة المأثورات . وجلسات ولقاءات في المدرسة بين الصفوف ، وبعد المدرسة ، وفي الصلوات الأخرى . ولم تلبث الأفكار أن بـــدأت بالتبلور لدي وأنا أتدرج في مراحل الدراسة حتى ملكت علي كل كياني ، وصرت أنفـــق كـــل تفكيري في البحث عن مجال نطبق فيه هذه الأفكار إلى حيز الوجود ، ووصلت إلى قناعة تامة بأنه مهما بذلت في سبيل ذلك الهدف فسيرخص دونه . ولم ألبث أن وجدتني عضواً في جماعة الإخوان المسلمين التي تنشط في الأردن بشكل علني ، ويدخلها الناس وينتمون إليها بشكل طبيعي وعادي . وعندما بلغت المرحلة الثانوية كنت مسئولا عن الطلبة المنظمين في مدرستي ولم يكن ذلك بالأمر الذي أخفيه .

منهج ونظام

كانت الحركة الإسلامية في الأردن وقتذاك في بداية تشكيل جديد بعد محنة أيلول عام ١٩٧٠ . وكان إخواننا وموجهونا يُعْنَوْنَ بتربيتنا ويَجْهَدون لنقل الإسلام المتكامل إلى أذهاننا وعقولنـــا . فتعلمنا أن هذا الدين هو الطريق الذي تسعد البشرية من خلاله وحده ، وأنه نظام متكامل للحياة .. فهو منهج سياسي وحل اقتصادي وخلق وعبادة ونظام . هو دين الله وسعادة البشرية فيـــه ، وعلينا نحن الذين تبنيناه أن ننشره بين الناس ونجهد لتطبيقه على شكل نظام سياسي كامل . ولكم كان يحلو لي أن أنشد وقتها بكل جارحة كم جوارحي أبياتاً من قصيدة "شباب الإسلام" للشهيد هاشم الرفاعي يقول فيها وكأنه يتحدث بلسان حالي :

ملكنا هذه الدنيا قرونا

وأخضعها جدود صالحونا

وسطرنا صحائف من ضياء

فما نسي الزمان ولا نسينا

ثم إذا نظر إلى واقعنا ونظرت معه أنشدت أبياته التاليات :

وما فتىء الزمان يدور حتى

مضى بالركب قوم آخرونا

ترى هل يرجع الماضي فإني

أذوب لذلك الماضي حنينا

وتراني من ثم أهتف بانفعال أريد أن أسمع العالم كله أقول :

دعوني من أمان كاذبات

فلم أجد المنى إلا ظنونا

وهاتوا لي من الإيمان نوراً

وقووا بين جنبي اليقينا

أمد يدي فأنتزع الرواسي

وأبني المجد مؤتلقاً مكينا

انه لصعب حقاً أن أصف مشاعري وقتذاك ، لكن الإنسان إذا تبنى فكرة بهذا العمق وهذا القدر من الجدية فإنه يجند كل سكنة وحركة من حركاته في سبيلها . ويشعر أنه على استعداد كامل لانتزاع الرواسي من أجلها .

محيم النخبة

في عام ١٩٧٧ عقدت "الندوة العالمية للشباب الإسلامي" مخيماً لها في منطقة "دبين" بالأردن قدر لي أن أشارك فيه على الرغم من أنني كنت لا أزال في المرحلة الثانوية بعد والمخيم مخصص للجامعيين . وكانت العادة أن نشهد مخيماً أو اثنين في العام نتدرب فيهما على الحياة الخشنة واللياقة البدنية ، ونتلقى من خلالهما بعض المحاضرات والدروس التربوية . لكن الجديد في ذلك المخيم وقتذاك أنني التقيت وللمرة الأولى بنخبة من إخواننا السوريين ، وتعرفت عن كثب على قضيتهم ومعاناهم وجملة هامة من أفكارهم . الأمر الذي كان له وقع مختلف على نفسي لم تظهر آثاره إلا بعد سنوات .

معاناة مرة

كان مسؤول الخيمة التي نزلت فيها أخاً سورياً اسمه صبري غنام وكنيته أبو عمار . ولا أزال أحس بالأثر العميق الذي تركه هذا الأخ المربي في نفسي ، وأتذكر تماماً صور الإخوة الآخرين والمحبة التي قامت بيننا منذ ذلك الوقت . وعندما دخلت سورية بعد ذلك بسنوات عرفت أن الذين التقيتهم كانوا طليعة الإخوة السوريين ونخبتهم : عصام وعبد الله قدسي . جمال عقيل . جلال جلال . عدنان شيخوني .

كذلك حضر المخيم وقتها الشيخ سعيد حوى وألقى فينا محاضرة مطولة وقتها . لكن المحاضرة التي ألقاها الأخ عدنان شيخوني كانت أول كلام أسمعه عن النظام السوري وتركيبته الطائفية وتسلطه وطغيانه ، وكانت بداية اطلاعي على معاناة إخواننا المرة في سورية . وأتذكر أن أطرافاً من أحاديث وصلتني في المخيم أيضاً عن عمليات الشيخ مروان حديد وقتها . فلما تفجرت الأحداث في سورية بعد عامين كنت أحس أنني قريب من هؤلاء الإخوة ومن قضيتهم ، ووجدتني عندما أتى من أتى وسألني أن أساعد في هذا الإتجاه أَقْبَلُ بلا تردد .. وأُقْبِلُ بكل امتنان وسعادة .

حادثة المدفعية

كانت أيام المرحلة الثانوية قد انقضت وحصلت على المجموع الذي أهلني لدخول كلية العلـــوم بالجامعة الأردنية . وفجأة ومن غير مقدمات بلغتنا أواخر شهر حزيران عام ١٩٧٩ أنباء حادثة المدفعية بحلب ، والتي اتهم الإعلام السوري بها جماعة الإخوان المسلمين وأعلن الحرب عليها مـــن فوره . وسرعان ما انتقل صدى الحادثة إلى صفوف الإخوان الأردنيين ، وعاد الحديث عن طائفية النظام السوري ومظالمه وبطشه بالإسلاميين يسري بيننا ، في الوقت الذي أخذت الصحف المحلية والعربية تسلط الأضواء بطرق شتى على الحادثة ومنفذيها .. وعلى خلفيات الوضع الـــسياسي والطائفي في سوريا بشكل عام .

في ذلك العام كانت مشاعرنا الإسلامية مشدودة مع الثورة الإيرانية أيضاً ، وكانت العواطـــف الثورية آخذة في التنامي بين أوساط الإخوان الأردنيين . وعلى الرغم من أن العمل المسلح لم يكن وارداً في تربيتنا الإخوانية ، وكانت الجماعة كما أفهمونا دائماً مجرد حركة دعوية وحسب ، إلا أن الفكرة كانت تتشكل وفق نفسية كل فرد منا . ولذلك نشأت مدارس متعددة داخل التنظيم ، التزم بعضها بتوجيهات القيادة وتعليماتها ، ورأى البعض نتيجة حماســـته أن علينـــا أن نبـــادر ونتصرف بشيء عملي لخدمة هذا الدين ، وأنه لا منفذ لتحقيق ذلك وسط هـــذه الظـــروف إلا الاستعانة بالسلاح . وبعد تفجر الأحداث في سورية قوي هذا الاتجاه عموماً ، ولذلك وعنـــدما بدأت أقدم المساعدة للإخوة السوريين كنت في غاية السعادة أحس أنني أقوم الآن بعمل حقيقـــي جهادي لتطبيق الإسلام الذي حملته كفكرة طوال السنوات الماضية .

إلى دمشق

كانت طبيعة المساعدات التي قدمناها للإخوة السوريين اللاجئين إلى الأردن مجرد خدمات اعتيادية لتسهيل تنقلاتهم واستئجارهم للبيوت داخل البلد . لكننا كنا من خلال ذلك نتعرف أكثر على خلفية الأحداث ونحس المأساة التي تجسدها عوائل كريمة نزحت عن بلادهـــا خـــوف الملاحقـــة والاعتقال ، وشباب متفوقون تركوا جامعاتهم ومدارسهم ليعيشوا حياة الاغتـــراب والتـــشرد القسري . وكنا نسمع من هؤلاء روايات مثيرة عن البطولات التي تجري ، ونتفاعل مع قـــصص المواجهات التي يقوم بها حفنة من الشباب في مقابل نظام دكتاتوري كامل العدة والعتاد ، فكأنها ضرب من الخيال . ومن خلال ذلك تعرفت على الكثير من الشباب السوريين وقيـــاداتهم . ولم ألبث في خضم ذلك أن تلقيت رسالة من سوريا تتحدث عن قبولي في كلية الهندسة المدنية فيها ، والتي كنت قد تقدمت إليها خلال الفترة الماضية رغبة مني في دراسة هذا الفرع الذي أميل إليه . وبالفعل رتبت أموري وحزمت حقائبي ويممت مع بدايات عام ١٩٨٠ شطر دمشق ، تحـــدوني

الآمال بدخول الكلية التي تمنيتها ، والأمنيات بالإقتراب أكثر من تلك القضية الجهادية الساخنة هناك .

وواقع الأمر فإنني وبعد أن ازددت احتكاكاً بقيادة الإخوان السوريين من خلال تعاملي معهم في الأردن ، فقد تم وصلي بالإخوة السوريين في دمشق ، وحددت لي مهمة مبكرة بتوصيل تعليمات القيادة من الأردن إلى دمشق . وفي هذا السياق تم ربطي مع شخص آخر اسمه مازن كان سائق سيارة على الخط نفسه ، لنؤدي هذه المهمة بالتعاون والتنسيق . وفي عمان كان الأستاذ علي البيانوني "أبو أنس" والأستاذ أديب جاجة "أبو الطاهر" أكثر من كنت أتلقى منهم التعليمات والرسائل وأنقلها بمساعدة مازن ، لنسلمها هناك إلى الأخ سالم الحامد "أبو الفَرَج" أو خالد الشامي أو إخوة آخرين كانوا يأتون من مختلف المدن والمحافظات إلى مواعيد محددة لا نعرفهم إلا بأسمائهم الحركية .

بين الطليعة والإخوان

كان الوضع التنظيمي للإخوان في دمشق في بداية تأسيسه تلك الفترة . فالقيادة في الأردن قررت أن تُنْزِلَ مجموعات من شبابها لتأسيس قواعد جديدة . وتم اختيار أبي الفَرَج ليكون أمين سر مركز دمشق ، وفاروق أبو طوق مسؤولاً عسكرياً . وأما المسؤول العام لمركز دمشق فكان غالب الألوسي . ولم تكن طبيعة المرحلة تتعدى تأسيس القواعد وتأمين أماكن لمن ستختاره القيادة في الأردن للنزول . أما خارج هذا الإطار وبالنسبة للعمليات والأحداث الجارية والمتصاعدة على الساحة في دمشق أو في بقية المحافظات فلم تكن معلوماتي عنها كثيرة وقتها . كنا نسمع الأخبار كباقي الناس ، ولكننا لم نكن نعلم كثيراً عن وجود تنظيم آخر هو الذي ينفذ العمليات ، أو عن وجود خلاف تبين أنه لم يكن طارئاً ولا سطحياً بين قيادة الإخوان في الخارج وتنظيم الطليعة في الداخل . لكن خلافاً آخر نشأ لاحقاً بين صفوف قيادة مركز دمشق الجديدة هذه حينما أراد فاروق أبو طوق أن ينفذ عملية تستهدف مبنى للخبراء الروس في دمشق ، فاعترض سالم والإخوة الآخرون في القيادة لأن مخطط التنفيذ وطبيعته كانا يقتضيان استخدام كمية من المتفجرات كفيلة بتدمير المبنى وما جاوره من مبان سكنية لمدنيين عاديين . واشتد الخلاف حول الأمر حتى طلب سالم من الشيخ سعيد حوّى استبدال فاروق فتم له ذلك .

مراسلات

مضت الأمور على هذه الشاكلة . أداوم في كلية الهندسة بشكل عادي ، وأساعد بين وقت وآخر في نقل المراسلات وتبليغ المهمات بين عمان ودمشق ، إلى أن قدر الله في يوم من أيام شهر آذار كنت مسافراً وقتها من دمشق إلى الأردن حينما أوقفوني في مركز الحدود السورية من غير

مقدمات وأمروني بمغادرة السيارة والذهاب معهم . وكان من لطف الله أنني لم أكن أحمل معي أية رسالة أو أمر يثير الشك يومها . وبت ليلتها في سجن المخابرات بدرعا من غير أن توجه لي تهمة محددة . ولا أزال أذكر كيف اخترق البرد عظامي وجعلني أعاني الليل كله في الزنزانة وحـــدي تختلط الأفكار في ذهني وتتقلب على الهواجس قبل أن تأتي دورية للمخابرات صباح اليوم التـــالي فتأخذني إلى قيادة الأركان بدمشق .

ورغم أنني لم أشعر بالخوف مما حدث إلا أن الغموض بحد ذاته كان مخيفاً . وعلى الرغم من أنهم لم يعاملوني بشدة تذكر في الأركان وتبين لهم خلال يومين اثنين أنني لم أكن الشخص المطلوب ، إلا أن الفترة التي أمضيتها بين الزنازين وفي أقبية المخابرات حينذاك كانت كافية لأتبين فظاعة الوضع هناك ومقدار الرهبة والمعاناة التي يلاقيها السجناء : طريقة الأسئلة .. الكلمات البذيئة والمسبات .. الصفعات والإهانات .. وأصوات التعذيب واستغاثات المعذبين . وعندما خرجت وعدت إلى الأردن رأيت الأهل الذين علموا بالخبر مضطربين جداً ، وألحوا علي أن لا أعود . لكنني أصرت على العودة ، ورجعت بالفعل إلى كليتي ، وإلى تأدية مهمتي مراسلاً مثلما كنت بين القيـــادة في عمان وأبي الفرج في دمشق .

أبو الفَرَج

كان أبو الفرج رحمه الله العنصر القيادي الأنشط في مجموعة قيادة دمشق . وســـالم هـــو الإبـــن الأصغر للشيخ محمد الحامد رحمه الله أحد العلماء المشهورين في حماة . وربما كـــان ذلـــك أهـــم أسباب توليته المزيد من المسؤوليات . ولا أزال أذكر أنه طلب مني أواخر أيامه أن يستلم كـــل المراسلات القادمة من عمان ليوزعها على مراسلي المحافظات بنفسه . وعندما أبديت له خـــشيتي أن ترهقه المسؤولية أو أن تزداد نسبة انكشافه بازدياد الذين يلتقيهم أصر . وفي اللقاء التالي قال لي بأن الشيخ سعيد حوى يريد ذلك أيضاً ويأمر به . فلم يسعني إلا أن أجيب طلبه . وكان مـــن مفارقات الأمور أن اعتقال سالم أتى بعد فترة وجيزة عن طريق اعتقال أحد هـــؤلاء المراســـلين أنفسهم !

لم يكن سالم وهو أمين سر تنظيم دمشق يمشي مسلحاً ، وعندما سألناه عن ذلك مرة قال لنا : ان حدث شيء فلن يتمكنوا من اعتقالي ، فإما أن أموت أو أن أفلت منهم . لكن الظروف أتت على غير ما توقع سالم ، ففي شهر آب عام ١٩٨٠ تم اعتقال مراسل حمص ، ولم يكن بـــين اعتقالـــه وموعده مع سالم أكثر من ساعة ، لكن الأخ اعترف من شدة التعذيب على الموعد المقرر علـــى موقف باص الزبداني عند وكالة سانا للأخبار .

ولقد حدثني سالم بنفسه فيما بعد كيف وجد مجموعة من المخابرات الذين تنكروا بثوب البداوة وكمنوا في المكان ينقضون عليه فور حضوره ، فيمسكه اثنان منهم من يديه خشية أن يكون مسلحاً ، ويجتمع البقية عليه يوسعونه ضرباً حتى فقد الوعي ، فلما صحى وجد نفسه بين أيديهم في فرع المخابرات لا حيلة له ولا حول .

مفاتيح التنظيم

لم يعترف سالم في البداية إلا أنه مجرد مراسل عادي . لكن العذاب الذي انصب عليه طوال يوم كامل فاق قدرته على الإحتمال . وكانوا عندما اعتقل قد وجدوا مفتاح البيت الذ يتخذه قاعدة خاصة به في جيبه . وسرعان ما طوقوا المكان وداهموا البيت قرب جامع المنصور بدمشق . وكان سالم يستضيف وقتها أخاً مجاهداً اسمه طريف جعمور ، انبرى وتصدى للمداهمة ، وحدثت مقاومة بطولية من الأخ طريف استمرت ثلاث ساعات ، ولم يتمكنوا منه إلا عندما صعدوا مئذنة الجامع وضربوه بقاذفات الآر. بي . جي . واستشهد الأخ . فلما تم لهم ذلك ودخلوا البيت وجدوا فيه بين أوراق سالم رسالة من الأستاذ عبد الله الطنطاوي من عمان يكلفه فيها أمانة مركز دمشق رسمياً ، فعرفوا وقتها من هو سالم بالظبط . وفي نفس المكان عثرت المخابرات على الهويات المزورة التي يستخدمها التنظيم الناشيء والختم الذي كان يختم به سالم فوق الصور ، فتأكدت لهم الفروقات التي سبق واكتشفوها في الهويات من قبل ، وصار كل شاب يستخدم هذا النوع من الهويات في حكم المكشوف ، وسرعان ما جرى اعتقال الكثير من أولئك في الكمائن داخل دمشق وبقية المحافظات أو على الحدود ، كان من ضمنهم عدد من الإخوة السبعة عشر الذين هربوا من سجن كفر سوسة قبل عدة شهور . فإذا أضفنا إلى ذلك اعترافات سالم تحت التعذيب تأكد لنا أن اعتقال أبي الفرج كان ضربة قاسية للتنظيم ، وانكشافاً للمفاتيح الكثيرة التي كانت بيده رحمه الله .

حياة الشهيد !

لكن الأمر الذي ضاعف المصاب وكبد الإخوة مزيداً من الخسائر كان حقيقة الأمر في قيام نشرة "النذير" الناطقة باسم تنظيم الإخوان بالمسارعة إلى نشر موضوع عن حياة الشهيد سالم الحامد ، ربما سعياً لاستثمار اسم الشيخ محمد الحامد في تحريك الناس ، أو لتحقيق مزيد من الإلتفاف حول مجموعات الإخوان وقياداتهم التي نزلت الميدان من قريب . ومضت "النذير" تتحدث عن أبي الفرج الذي قاوم السلطة ساعات عديدة في بيته بدمشق قبل أن يلقى ربه ، ورسمت له قصة بطولية لا أساس لها من الصحة ! وسادت هذه القناعة بين الإخوة في دمشق وباقي المحافظات ، وظن الناس أنهم في مأمن من اعترافات سالم . وعاد كل منا لمتابعة مهمته بلا أدنى قدر من حذر .

وكذلك كان الحال معي ، وانتقلت صلتي من ثم إلى أخ آخر اسمه يحيى عبد الكـــريم الـــشامي ، وكان طالباً من مدينة حماة يدرس الصيدلة في جامعة دمشق .

الاعتقال

اعتقل سالم يوم ١٩٨٠/٨/٢٣ وشاع نبأ مقتله واطمأن أفراد التنظيم وقيـــادتهم . لكـــنني وفي بدايات شهر ١٠/١٩٨٠ وفي لقاء لي مع مسؤولي الجديد يحيى فاجأني بأن سالم لم يستشهد واقع الأمر وإنما اعتقل . فلما سألته عن مصدر هذه المعلومة غير المتوقعة قال لي إن عبد المعز شقيق سالم استدعي إلى فرع المخابرات بالعدوي وكان وقتها مجنداً بالخدمة الإلزامية وتم التحقيق معه ثم أفرج عنه . وأنه أحس خلال تلك الفترة بوجود أخاه سالم هناك على قيد الحياة ونقل له ذلك . ورغم أن يحيى طلب مني أن آخذ حذري واحتياطاتي إلا أنني لم أفعل ذلك ، وكأنني بعد أن تكرست في ذهني قصة الشهيد ورواية المقاومة التي نسجتها "النذير" لم أقتنع بما قال ، وأكملت مهمتي وحياتي بشكل عادي ونسيت الموضوع !

وفي يوم الخميس الموافق للثامن من الشهر نفسه ذهبت عند الظهيرة إلى كلية الهندســـة لحـــضور إحدى المحاضرات كالمعتاد . ولم تفاجئني في البداية مظاهر الحراسة المشددة وانتشار المسلحين على الأبواب لأن هذا الإجراء بات اعتيادياً هناك منذ شهور . لكن ما أن توقفت وقـــدمت بطـــاقتي لمسؤول الأمن حتى التف حولي عدد من المسلحين قاطعين علي أي تفكير بالهرب . وخلال دقائق لم أتمكن فيها من التقاط أنفاسي كانوا قد غطوا عينيّ وأوثقوا يديّ ودفعوني إلى سيارة انطلقت بي كالزوبعة لتقذفني في مكان لا أعرفه ، تبين لي بعدها أنه فرع قيادة مخابرات منطقة العدوي الذي يرأسه العقيد نزارالحلو .

وجهاً لوجه !

استقبلتني من فوري اللكمات والركلات من كل جهة وأنا في طريقي إلى قبو المبنى . وهناك ومع الإجراءات نفسها فتشوني وأخذوا في غرفة الأمانات كل ما كان في جيوبي علاوة على الـــساعة والحزام ، ومنحوني رقم "١٣" ليكون اسمي الجديد من الآن فصاعداً .

ودفعوني وأنا لا أزال مطمش العينين مكلبش اليدين إلى مهجع جماعي استطعت أن ألمح فيه العديد من المساجين على مثل حالتي ، والسجان يجلد ظهورهم بكبل في يده . ولم تمض علي دقائق حتى جذبتني الأيدي وأصعدتني مع الركلات والصفعات الدَرَجَ ثانية وأوقفتني فجأة ونزعت الغطـــاء عن عيني ، لأجد سالم الحامد واقفاً أمامي وقد طالت لحيته وشعره لا ينبس بشفة . ومـــن غـــير مقدمات أتاه السؤال :

أهذا هو ؟

قال : نعم .

وفُتح الباب فدلف صالح الخوجة الطبيب الدمشقي الذي كان أحد من أوصلت لهم الرسائل مرة . فسألوه السؤال نفسه ، فأجاب بما أجاب سالم ، وغاب الرجلان عن عيني بعد ذاك .

في الزنزانة

أسقط في يدي ، وأذهلتني المفاجأة بحق ، ومن غير أن يمسني أحد هذه المرة اقتادني عنصر إلى القبو كما أحضرني . وفي الزنزانة الموحشة حيث ألقاني هجمت علي التساؤلات والمخاوف والهواجس دفعة واحدة بلا رحمة : أمي وأبي .. أهلي .. ماذا يفعلون الآن ؟ كيف تراهم يتعذبون من أجلي ؟ يا للمساكين .. سيحاولون البحث عني والتوسط لي بلا شك .. ولن يجدوا إلا الفشل وخيبة الأمل ! لقد انتهيت هذه المرة .. والإعتراف الآن علي متحقق ودامغ . وماذا عن أولاء الذين لا يزالون على صلة معي في سورية ؟ هل تراهم انكشفوا ، أم أنني سأضطر لكشفهم بعد حين ؟ وماذا عن التعذيب الذي ينتظرني ؟ ماذا عن قصص الرعب التي سمعت الكثير عنها ورأيت ملامح بعضها في الأيام القليلة التي أوقفوني فيها المرة الماضية على الحدود ؟ هل انتهى كل شيء حقاً .. هل هي إلا مجرد أيام معدودة ثم تنتزع مني المعلومات وأنال المصير الذي ناله شهداء تدمر قبل أقل من عام !

إلى التحقيق

مضى الوقت علي كالطوفان أغرقني وأرعبني ، ولم تلبث الزنزانة أن فتحت من جديد ونادى المنادي :

١٣ ولا .. هيا .

وساقتني الأيدي القاسية ثانية إلى الأعلى . وعلى باب غرفة التحقيق وجدت الشخص الذي أحضرني يترع عني ملابسي كلها ويقذف بي من ثم إلى داخل الغرفة مغمض العينين مكبل اليدين عارياً كيوم ولدتني أمي ! ولم يلبث الصوت نفسه أن أمرني بالجثو على الأرض وخفض الرأس ، وحذرني أن أحاول رفع هامتي لأي سبب .

منذ متى وأنت تعرف أبا الفرج ولا ؟

جاءني السؤال هكذا بلا أي مقدمات . أحسست أن شخصاً آخر يطل علي من وراء مكتب في مواجهتي هو الذي طرح السؤال .

من زمن .

قلتها وأنا لا أعرف بعد كيف أخاطب هؤلاء الناس أو أرد عليهم . فالجو المرعب منذ اللحظات الأولى يلغي لدى المرء القدرة على التركيز أو التمييز .

وماذا عن الدكتور صالح خوجة ؟

قلت : أعرفه كذلك من زمن .

كان الدكتور صالح على علاقة مع سالم بالفعل ، وحدث أن قمت بإحضار رسائل إليه من القيادة في الأردن إلى عيادته بحي ركن الدين ، فلما اعتقل سالم كان الدكتور صالح أحد الذين اعترف عليهم كما يبدو ، وكان قد أقر أنه يعرفني كما مر ، ولذلك فلم تعد هناك جدوى من الإنكار .

طيب محمد .. قل لنا الآن لماذا أنت تعرف هذين الشخصين ؟

كانت اللهجة إلى الآن هادئة ، والحديث يدور بشكل عادي في ظاهره ، لكن ذلك كان يزيد من شعوري بالقلق من الآتي وترقب المجهول .

قلت : كان هناك شخص طلب مني أن أوصل لهما رسائل ففعلت .

وما هي هذه الرسائل ؟

لا أعرف . هذا الشخص كان سائقاً على الخط بين عمان ودمشق ، وكان يعمل معي معروفاً فيأتي لي بأغراض من أهلي ، ويأخذ أغراضي إليهم بعض الأحيان . وكان بين هذه المرات يطلب مني أن أوصل رسائل أو نقوداً لهذين الشخصين فكنت أرد له الجميل وأفعل .

كان مازن يوم اعتقالي مسافراً في الأردن ولله الحمد ، وتأكد لي أنه لن يعود بعدها . وكنا واقع الأمر قد اتفقنا على سرد مثل هذه الرواية إذا وقعنا بأيدي المخابرات . ولذلك بدت لي إجابتي منطقية ومترابطة . لكن الرجل تابع يسأل :

ألم تكن تعلم بمحتويات الرسائل ؟

قلت : لا .

قال : في اليوم الفلاني أنت ذهبت إلى الدكتور صالح وأعطيته مغلفاً فيه مجلة النذير ورسائل أخرى من الأردن ، وقلت له أن يأتي على موعد مع الشيخ سعيد حوى إلى عمان . ألا تذكر ذلك ؟

صحيح . أنا أوصلت إليه مغلفاً يومها لكنه كان مغلقاً ، وهو موجود عندكم ويمكنك أن تسأله . وأما مجلة النذير هذه فلا أدري ما هي . وأما بالنسبة للموعد فمازن قال لي أن أخبر الدكتور صالح بأن جماعتك ينتظرونك في الأردن بالتاريخ الفلاني ففعلت ، ولم أكن أعرف أن في الأمر تنظيماً أو ممنوعات

حفل التعذيب

لم يشأ الرجل القابع وراء المكتب أن يسمع مني المزيد كما يبدو ، وأدرك كما فهمت لاحقاً أن الأمر لم ينضج بعد . ولم ألبث أن سمعته يقول للعنصر الذي أحضرني من غير أن يدعني أنهي كلامي :

خذه هال.... اعمل كذا وكذا بأخته خليه يقر .

وسرعان ما انتزعني ذاك من مكاني وساقني في الممر الذي جئت منه إلى غرفة مجاورة ، وأنا لا أزال على حالتي عارياً مقيداً مغطى العينين . ووجدت أيدياً قاسية تتناولني من جديد فترفع القيد عن يدي من الخلف ، وتجذبهما للأمام وتعيد تقييدهما ، ثم تعود الأيدي التي تمتد من كل اتجاه فترفعني من وسطي عن الأرض ، وتتولى أيد أخرى جذب ساعديّ للأعلى . وفي لحظة واحدة أفلتني الجميع ، فوجدتني مشبوحاً كالذبيحة تماماً إلى السقف ، ورجلاي تخبطان في الهواء ليس تحتهما شيء .. وبدأت أولى حفلات التعذيب !

كنت أيامها في مقتبل الشباب ، وكانت عافيتي بحمد الله وافرة ، حتى أن أحدهم ناداني مع ابتداء التعذيب ساخراً يقول :

ولا .. هِنْت (أي أنت) بتلعب حديد ؟

لكن عملية الشبح وحدها كانت كافية لتمزق أعصابي وتتلف جَلَدي ، وتفقدني الوعي بعد عشر دقائق . غير أن الأمر ما كان كذلك وحسب ، فسرعان ما انطلقت تتناوشني مجموعة من الكبلات والعصي تجلدني كأسياخ النار ، تبعتها من حيث لا أدري لسعات الكهرباء تتخير أكثر مناطق الحساسية في الجسد فتصعقها بلا رحمة : في الأنف مرة ، ومرة في الشفتين .. في العورة .. في العينين .. في شحمة الأذن .. في كل مكان تتجمع فيه مراكز الإحساس ومواطن الشعور بالألم !

انفجرت بالصياح من شدة الألم المتفجر فكأنما ازداد الجلادون انتشاء بذلك ! وازدادت حدة اللسعات والصعقات من غير أن يسألني أحد أي شيء !

كنت أسمع وسط دوامة الألم صياحهم وهياجهم كالكلاب المسعورة حولي ، ومن غير أن أبصر شيئاً أحسست أنهم ربما كانوا قرابة العشرة ، ومع كل ضربة كانت تطرق أذني شتيمة جديدة وألفاظ كفر بالله تزلزل السماوات والأرضين . ولم ألبث أن وجدتني وقد فاق الألم قدرتي على الإحتمال وحتى على الصياح أغيب عن الوعي تماماً، لأصحو لا أدري متى فأجدني في زنزانة منفردة ينهش الألم أطرافي وتشتعل الأوجاع نيراناً في كل ثنية من ثنيات بدني .

أرقام وحسب !

كانت الزنزانة أشبه ما تكون بقبر مقفل : الجدران متقاربة لا أستطيع أن أتمدد بينها ، والرهبة مطبقة ، وليس ثمة شيء تحتي إلا الإسمنت البارد ، والسقف شاهق فوقي تتوسطه شراقة للتهوية (نافذة متشابكة القضبان) يتسلل منها ضوء خافت يزيد المشهد كآبة ووحشة . وسرعان ما تدهم

السكون صيحات استغاثة سجين آخر ينال العذاب في الطابق الأعلى ، وتخترق صرخاته الجدران الصم وأبواب الحديد ، فتنتفض من هولها كل ذرة في بدني وتستعر فيّ كل الجروح والكدمات .
ومضى الوقت بطيئاً ثقيل الوطء فكأنه الرحى تدور على جسدي المنهك ، لكنني سرعان ما فقدت معنى الزمن بعد هنيهة ، واختلطت علي معالم الليل والنهار . فلا ساعة معي تدلني على الوقت .. ولا صوت أحد أو همسة حي تنبي بما يجري .. والضوء الخافت لا يتغير ولا يتبدل . وعندما تذكرت الصلاة كانت وسيلتي الوحيدة لأدائها الإيماء . وعلى ذلك مضت السنون التالية علي ، لا أكاد أعرف الصلاة إلا بالإيماء وحسب !
وفتح الباب فجأة ، وتلقيت من غير مقدمات واحدة من أقذر المسبات قذفني السجان بها وهو يلقي إلي بنصف رغيف متيبس مرت عليه رائحة الحلاوة أو المربى في يوم من الأيام ! ولم ألبث أن اعتدت سماع مثل ما سمعت مع كل فتحة باب أو نداء للتحقيق أو خروج إلى الحمام . وكان خروجنا إلى الحمام مرة في اليوم يحددونها حسب أمزجتهم ، فيسوقون مجموعة من المساجين معصوبي العيون مكبلي الأيدي ، فإذا وقف واحدنا عند باب الحمام بعد أن مر على سيل من اللطمات واللكمات واللسعات فكوا يديه المكبلتين من الخلف ونقلوهما لتقيدا معاً من الأمام ! فلا يكاد يلج الحمام حتى تهوي الكبلات على الباب وتصله الشتائم والأوامر بالإسراع وبالإنتهاء . وفي كل تقلبات هذه الأحوال نظل مجرد أرقام تنادى ، لا شخصية لنا ولا أسماء . ليتكرس إحساسنا بالهوان ، ونزداد اضطراباً وضياعاً .

معجزة !

كانت حفلة التعذيب كما تقرر لي مرتين في اليوم . أخرج إلى غرفة التعذيب مكبلاً مغمض العينين .. أجرد من ملابسي بالكامل وأعلّق مشبوحاً من يدي .. وتكر الأحداث بعد ذلك : تبدأ بالشبح أحياناً ، فتتسلط الكبلات والسياط في هذه الحالة أكثر ما تتسلط على الظهر والصدر والرأس ، وتعمل ملاقط الكهرباء عملها في الوقت نفسه . لكن أسوأ ما يصيب الضحية وهو في هذه الحالة أثر القيد الحديدي الذي يشد على الرسغ ويحتك مع العظم بلا رحمة أو توقف . حتى التهبت يداي وتورمتا من جراء انغراس الحديد القاسي في اللحم واحتكاكه المباشر بالعظم الذي انكشف وتعرى . وظلت آثار القيد كالوشم على رسغي إلى اليوم ! وطوال خمسة أشهر تالية بقيت لا أحس براحَتَي يدي البتة ولا أقدر أن أحمل بهما أي شيء وكأنهما أصيبتا بالتنميل أو الخَدَر المزمن . وحكى لي طبيب التقيته في تدمر لاحقاً أن الأوتار في تلك المنطقة قد تهتكت بشكل كبير ، وأنها تحتاج إلى معجزة لتعود إلى حالتها الطبيعية من جديد .

بساط الريح

أما الحالة الأخرى من التعذيب فكانت على "بساط الريح" . وهو لوح من الخشب يشدون المعتقل عليه من كل أطرافه بسيور جلدية ، ثم يرفعون نصفه الأسفل الذي ارتصت عليه الساقان ولم تعودا تملكان أي فرصة للتحرك . وتبدأ الكبلات ذات النصال المعدنية تهوي على بطن الرجلين تنهشهما بلا شفقة ، وتترك مع كل لسعة لها أجزاء من نصال الحديد في ثنيات الجروح المتفجرة ، فإذا انتهى الضرب بقيت هذه النصال مع الدم المتجمد والجروح المفتوحة فتلتهب وتتعفن ، فيتضاعف الألم وتشتد الأوجاع والمعاناة . وأما الشتائم والكفر بالله فلم تكن تتوقف مع كل أنواع التعذيب . ولم أكن أنجو من هذه الحفلات الدامية إلا عندما يغمى علي ، لأستيقظ وأنا في الزنزانة عاري البدن ممزق الأوصال مبللاً أرتجف من شدة البرد . ولا أكاد ألتقط أنفاسي وألملم بقايا جَلَدي حتى يحين موعد التعذيب مرة أخرى ، وتعود الكَبْلات تنهش لحمي من جديد ، وتنقض ملاقط الحديد على أماكن متفرقة بالغة الحساسية من جسدي لتصعقني بالكهرباء .

ولأنهم كانوا يعرفون أن العورة لدينا أمر كبير فقد كانوا يتعمدون إهانتنا بالعبث بسوآتنا بطرف الكبل والعصي أثناء التعذيب ، أو الإطباق بملاقط الكهرباء على المحاشم وإطلاق صعقات الكهرباء فيها ، وكان ذلك في الحقيقة من أشد أنواع العذاب علي ، ويبدو أن ذلك ما كنت أفقد وقتذاك الوعي بسببه وأغيب عن الوجود .

دموع التماسيح !

وفي مرة من المرات وبعد أن مضى علي في العذاب عدة أيام أخرجوني كالعادة وعروني وعلقوني ، فوجدتني من قبل أن يبدأ الضرب أحس وكأنني فقدت الهواء في رئتي وما عدت قادراً على جذب النَفَس . وكان يلازم في غرفة التعذيب تلك طبيب متخصص كما يبدو ، سرعان ما اقترب مني فجس نبضي وطلب منهم أن يُنْزلوني ، ولم يلبث أن حقنني بإبرة جعلتني أفقد القدرة على النطق أو الحركة ، وأحس أنني أغادر هذا العالم وأموت بالفعل !

ووجدتني أغيب عن الوعي لأصحو بعد قليل فأراني في أحد أحد الأسرّة . عن طرفي من هنا حارس برشاشه الكلاشينكوف ، ومن هناك يتدلى أنبوب بلاستيكي يتصل بكمامة على أنفي أتنشق من خلالها الأوكسجين . وبعد ساعة أو ساعتين استعدت خلالهما أكثر وعيي وجدتهم يقودونني عبر ممرات المستشفى الذي نقلت إليه إلى سيارة كانت تنتظرني لتقلني إلى الفرع من جديد . وهناك أعادوني إلى الزنزانة من غير عذاب . وبعد خمس أو ست ساعات استعدت خلالها وعيي أخرجوني إلى غرفة التعذيب من جديد ، وعوضوني عن التعذيب الذي فاتني عذاباً مثله كاملاً غير منقوص !

وفي مرة أخرى مماثلة وبعد أن كاد التعذيب يقتلني بحق حضر الطبيب ثانية إلى زنزانتي فنظف لي جروحي المتقيحة ، وقدم لي كأس حليب لأستمر على قيد الحياة ، وأجدد قدرتي على تلقي المزيد من التعذيب .. ومضى !

اعترافات

ومضى أسبوع كما قدرت على هذا النمط من العذاب ، وصعدت من جديد إلى التحقيق بنفس الكيفية : مكلبشاً ومطمشاً وعارياً من كل شيء وجلست غصباً عني جلسة الخضوع . وأتاني الصوت من جديد يقول :

اسمع ولا .. نحن لدينا كل المعلومات عنك . ونعرفك من أول يوم أتيت فيه إلى هنا وكل مهمات القتل التي أحضرتها لهؤلاء المجرمين .. وكل واحد انقتل هو برقبتك . والآن قل لنا مع من كنت تتصل .

كانت اللهجة العلوية للمتحدث وللأشخاص الذين حوله هي الشيىء الوحيد الذي استطعت تمييزه حولي ، وكان الإعتراف على مسؤولي الجديد وخيوط الإتصال التي نَمَتْ بعد اعتقال سالم هي الأهداف التي يريدونني أن أصل بهم إليها بأسرع وقت . وعدا ذلك فالإرهاب والمجاهيل كانت تلفني من كل مكان . وعلى الرغم من هول موقفي إلا أنني استطعت أن التقط وسط هذه الدوامة المرعبة صوت امرأة يأتي من غرفة تحقيق أخرى كما يبدو وهي في موضع المساءلة والإتهام ، فزادني الأمر توتراً وتشتتاً ، لكنني استجمعت ما استطعت جَلَدي وقتها وقلت :

أنا لا أعرف أحداً إلا مازن . هو الذي كان يعطيني الرسائل ويطلب مني أن أوصلها لأبي الفرج .

قال : ألم يكن هناك إلا أبو الفرج ولا ؟

قلت وقلبي يكاد من طرقاته ينخلع من صدري خشية أن يكون سالم قد اعترف علي بالمزيد : أنا لا أعرف إلا أبا الفرج .

قال : والدكتور صالح ولا .. ماذا كان رده عندما أبلغته الرسالة ؟

قلت : استقبلني .. وضيفني فنجان قهوة ومضيت .

قال : وعندما ذهب إلى الأردن .. هل التقيته هناك ؟

قلت : أنا طالب في الجامعة هنا فكيف أذهب وألتقيه هناك !

وأتاني صوت سائل آخر : ألم تدخل سلاحاً ولا ؟

قلت بإصرار : أبداً .

قال : ولا أموال ؟

قلت : ولا قرش .

قال : طيب انقلع الآن .

ونزلت إلى الزنزانة ليلتها من غير أن يضربوني . ومضى يوم آخر من غير تعذيب أو تحقيق ، استدعوني بعدها وكانت الساعة بتقديري قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل .

مائدة اللئام

دخلت غرفة التحقيق مكلبشاً مكبلاً ومعرى ككل مرة ، وسرعان ما شممت رائحة خمر وطعام تملؤ المكان . وسألني أحدهم :

هل أنت جائع ؟ إذا أردت أن تأكل فتعال .

قلت وأنا لا أدري أهي دعابة منه أم محض سخرية :

لست جائعاً !

ومضى الجمع في تناول الطعام واحتساء الخمر وتبادل الحديث البذيء وأنا بين أيديهم جاثياً معرى تصلني أصوات المضغ وكركعة الشراب لا حول لي ولا قوة . لكنني تمكنت هذه المرة من أن أختطف نظرة على المكان ومن فيه من تحت تلك الطماشة التي انزاحت كما يبدو عن عيني برهة . وعلى الرغم من حالة الخوف التي تتملك السجين .. وبرغم الجو الإرهابي الذي أحاطني على مدار الأيام الخالية استطعت أن أحس من خلال تلك اللمحة العجلى ظلال الخوف والتوتر ترتسم على معالم الضباط المحققين . أحسستها من محاولاتهم الجاهدة إخفاء وجوههم وشخصياتهم عني وأنا المكبل الأسير وهم المتمكنون الطلقاء . ومن همهماتهم بعض الأحيان وإشاراتهم وتغامزهم مع بعضهم البعض . وأحسستها من ذلك السرير بطرف الغرفة الذي لا بد أنهم إذا أنهكتهم التحقيقات ناموا فيه من غير أن يجرؤوا في تلك الفترة على مغادرة الفرع خوفاً من أن تطالهم رصاصة واحد من المجاهدين .

لكن حالة الإنتشاء تلك لم تطل بي . ولم يلبث أن أتاني السؤال :

محمد ولا . هل تعرف أحداً من الإخوان الهاربين في الأردن ؟

قلت : لا .. لا أعرف أي أحد .

قال : أين تسكن هناك ؟

قلت : في الزرقاء . في العنوان الفلاني بشارع الفاروق .

فوجدت السائل يبادرني ويقول : بالقرب من المركز الإسلامي إذاً .

قلت وقد فاجأتني معرفته للمدينة وشوارعها بهذا التفصيل : نعم !

قال : ألم تر أياً منهم هناك ؟

أجبت : أنا لا أذهب إلى المركز .

قال : ألا تصلي ؟

قلت : نعم ، ولكن في المسجد .

قال : وهناك في المسجد ألم تر ناساً سوريين ؟

قلت : ربما ، لكنني لا أعرف اسم أي منهم .

وتبدل الحال هذه المرة ، وصاح المحقق بالعنصر ليأخذني إلى التعذيب ، وعادت الكبلات تهوي على بدني المنهك بلا رحمة ، ومزقتني صعقات الكهرباء من جديد ، وغبت ككل مرة عن الوعي آخر الأمر ، ووجدتني في الزنزانة حينما صحوت ملابسي مكومة بجانبي والدم يسيل من كل مكان كان قد اندملت الجروح فيه ، وسرعان ما أتى العنصر فساقني في الليلة نفسها إلى التحقيق ، ووجدت سالم معي في نفس المكان ، والمحقق يسألني من غير مقدمات :

متى التقيت بسالم أول مرة ولا ؟

قلت : في شهر شباط ١٩٨٠ .

قال : أين ؟

قلت : أظن أنه أتى مع مازن إلى بيتي .

ولم أكد أتفوه بذلك حتى أتتني ركلة من وراء ظهري أحسست أن عيني خرجتا معها من محجريهما ، وناداني أحدهم بتشفي :

زارك بالدار أم التقيته عند مسجد خالد ولا ؟

قلت : والله ما عدت أذكر .

قال موجهاً حديثة لسالم : ما رأيك يا أبو الفرج ؟

أجاب سالم : صحيح سيدي .. التقينا عند مسجد خالد وصلينا المغرب هناك .. وكان ذلك بداية تعرفنا عليه .

قال المحقق موجهاً الحديث لي من جديد : وإذا كنت زلمة بتعمل خير ولا .. ليش لتلتقوا بالجامع وانت تعرف أن هناك مخربين وعصابة مجرمين في البلد ؟

قلت : أنا ذهبت بطبيعة الحال مع مازن لنصلي ، وهناك التقينا مع أبي الفرج .

قال ولهجة التهديد المرعب ناطقة على نبرته هذه المرة : اسمع ولا .. إما أن تحكي الصحيح أو تنتهي .. فهمت ؟

أحسست أن الأمر بلغ حده ، وأن اعترافات سالم والمعلومات التي توفرت لهم لن تعفيني من الإصرار على الإنكار ، وأنه صار علي الآن أن أقدم لهم شيئاً ما يدفع عني شرهم .. فقلت :

الحقيقة أنا ليست لي علاقة بالموضوع من قريب ولا بعيد في البداية ، لكنني عرفت في الأخير أن هؤلاء من الإخوان وأنهم يقومون بشيء ما .. ولكن أنا ليست لي أي علاقة .

ومن غير أن أسمع تعليقاً على هذا الكلام أشار كأنما إلى الجلاد فجذبني بعنف ، ورماني في غرفة التعذيب المجاورة وأطلق عصيه وأدوات التعذيب علي ، لكنني نزلت هذه المرة إلى الزنزانة صاحياً ولم يغم علي ، وبعد قرابة الساعتين عادوا فاستدعوني إلى المحقق الذي ابتدرني بلهجة حازمة يقول :

اسمع ولا .. هلق بدك تحكي لنا من طق طق لسلام عليكم .. احك كل شيء تعرفه من ساعة ما طلعت من ... أمك !

صراع مع النفس

كانت رهيبة تلك اللحظات بشكل لا يتصوره أحد . أجثو بين أيدي هؤلاء الظلمة كشاة لا حول لها ولا قوة .. مكشوف العورة مفضوح الأسرار . وجسدي كله لعبة بأيديهم يلهون به ويَعْدون عليه بلا رحمة . ومن غرفة التعذيب المجاورة يصلني صوت أخ آخر يستغيث ويصيح .. وهتاف مرٌّ بداخلي يقول لي : تكلم وإلا فالدور عليك ، والصراخ سيخرج للتو من جوفك أنت ! ولا تلبث أنفاس الرحمة أن تنساب في روحي وتهمس بي أن الإعتراف لن يعفيك أيضاً ، فإدانة نفسك تعني المزيد من التعذيب لتعترف بالمزيد من الأسرار ، والمصير في النهاية هو الإعدام المحقق ، مثلما تعني أن إخوة آخرين سيأتون هنا ليلاقوا كل هذا الذي لاقيت وربما أكثر .. وستكر السلسلة ويزداد الضحايا من غير أن ينجو منكم أحد .

دارت هذه الخواطر كلها في خاطري كلمحة برق ، وبدأت أسرد على المحققين الرواية ذاتها موحياً إليهم أنني انهرت وهذا كل ما لدي . وعلمت فيما بعد أنهم كانوا قد استدعوا سالم والدكتور صالح وسألوهما إن كنت أعرف عن محتوى الرسائل شيئاً فنفى الإثنان . وساعدني ذلك كثيراً ولله الحمد .

غير أن الأمر لم ينته ، وتعطشهم لمزيد من الأسماء ومزيد من الضحايا جعلهم يعيدونني إلى غرفة التعذيب ، وأسلموني ثلاثة أيام متواليات إلى الجلادين من غير سؤال أو استفسار . ثم كانت جلسة التحقيق الأخير ، وحاولوا للمرة الأخيرة أن يعتصروا كل معلومة أو اسم ربما لا أزال أحتفظ به ، وألحوا على أسماء المراسلين بالتحديد ، فثبتني الله ولم أذكر اسم أي إنسان بفضل الله ، وأصررت على أن صلتي الوحيدة كانت مع سالم إضافة إلى لقائي بالدكتور صالح تلك المرة . فأرسلوني من جديد إلى غرفة التعذيب ، لأجد من الأهوال ما أنساني كل الذي لاقيت من قبل هناك !

وانقضت ربما خمس أو ست ساعات علي هذه المرة يتعاقب علي الجـلادون وأدوات التعـذيب بشكل وقاكم الله شره . وعندما صحوت على نفسي في الزنزانة وجدتني على حافة الهلاك بالفعل . لا أتحسس موضعاً في بدني إلا وجدته مدمى أو مصاباً يشتعل من الألم كما تشتعل في الرماد النار !

مسيرة الأرقام !

وحضر السجان من جديد ونادى من وراء الأبواب على مجموعة من الأرقام ليجهزوا أنفسهم .. وأتاني الصوت البغيض :

١٣ ولا جهز حالك .

وفيما أخذت الأقفال تصطك بالمفاتيح وترتطم المزاليج الثقيلة بزوايا الحديد التي تحوط مجاريها على الأبواب الصلدة ، وبدأ تدافع الأقدام المدماة تتكؤ عليها الأجساد المنهكة يسوقونها مع الصفعات واللكمات ولسعات الكبل إلى المجهول ، انتصبتُ مكاني لأنفذ الأمر ، وجذبت بنطالي المتراخي لأستعد ، فهالني أنه اتسع علي فكأنه أكبر من قياسي بعشر درجات ، وأدركت للمرة الأولى أنني فقدت بين عشرة وخمسة عشر كيلو غراماً من وزني خلال هذه الأيام . ولم أكد أكتشف ذلك حتى فتح الباب وجذبني أحدهم بقسوة ، ودخلت ضمن مسيرة الأرقام المتحركة تسوقها اللطمات والركلات والكرابيج .

وكأنما أحس الجلادون أن اللقاء لن يتكرر ، ولذة الإستمتاع بتعذيب هذه المجموعة ها هي ستنقضي ، فبادروا بالجهد لتعويض الشوق إلى سماع استغاثاتنا وصراخنا ، ثم أركبونا وقد شارفنا على الهلاك سيارة مغلقة ، ونحن قرابة العشرين شخصاً مكبلي الأيدي معصوبي العيون . حتى إذا بدأت بالتحرك سرت التكهنات في سرائرنا وعلى أطراف شفاهنا : هل هي النهاية ؟ أإلى تدمر الآن ؟ أم ربما إلى سجن القلعة ؟ ولم يكن لنا من حيلة إلا الإنتظار . وسرعان ما وجدنا أنفسنا تتوقف بنا السيارة من جديد ، ويأينا الأمر الفظ مع سيل من الشتائم والمسبات بالنزول . ولم تلبث الأيدي القاسية والأرجل والكرابيج أن استقبلتنا بمثل ما ودعونا به هناك ، وساقتنا آخر الأمر نزولاً إلى قبو آخر عميق جداً ، لم نلبث أن عرفنا بعد هنيهة أنه قبو فرع مخابرات التحقيق العسكري .

النوم بالتناوب !

أغلق علي باب المكان الذي دخلته وأنا لا أزال مطمش العينين ، لكن يداي كانتا مطلقتين . ولم ألبث أن سمعت همهمة تتزايد حولي ، وأحسست حركة من جهات شتى . وكأنما أتاني نداء خافت بأن أرفع الغطاء عن عيني الآن .. فاستجبت ببطء .. وبحذر . حتى إذا فعلت وكانت المرة الأولى

التي أفتح فيها عيني بلا طماشة منذ اعتقالي ، وجدتني وسط مهجع محتشد بالنزلاء ، يكاد عدد السجناء فيه يصل المائة ، في مساحة لا تزيد عن حجم غرفة عادية ! ولم ألبث أن أومأت لمن حولي .. وسلمت ، فتشاغل البعض وأشاح البعض .. ورد الآخرون بصوت منخفض .

وسرعان ما لمحت سالم بين الناس فاقتربت منه بالتدريج . فلما حاولت أن أكلمه همس لي وقال : لا تقترب مني كثيراً فربما كان هناك مخبرون بيننا !

لكن الحذر بدأ مع مضي الوقت يخف بالتدريج ، وبدأت أتعرف على الشباب ويتعرفون علي ، لنبدأ معاً مرحلة جديدة من هذه المحنة حافلة بالفواجع والأحداث .

كانت ظروف المهجع في غاية السوء . فمع هذا العدد غير المعقول من الناس لم يكن ثمة مكان لقادم جديد . وكنا إذا أردنا النوم تناوبنا على المكان فينام البعض ويظل الآخرون وقوفاً ينتظرون ! وكانت الأنفاس تختلط بنتانة العرق ، وتجتمع معها روائح جراحاتنا المتعفنة في هذا الجو السيىء . ولأن المهجع كان يحتوي على حمام بداخله ، فلم يكن هناك أي فرصة لمغادرته أبداً .

وبقيت على هذه الحال ثلاثة أسابيع تقريباً ، كان الباب يفتح خلالها لإدخال الطعام فقط ، والذي لم يكن يكفي ليقيتنا الكفاف . فنصيب الواحد منا صمونتان عسكريتان جافتان في اليوم ، تصحبهما بضع حبات زيتون أو شيىء من اللبنة أو الحلاوة في الصباح . وعلى الغداء يصلنا بعض الرز أو البرغل مصحوباً بمرقة حمراء . وفي المساء وعلى وجبة العشاء ننال نتفاً من البيض المسلوق أو البطاطس أو حب الحمص المسلوق . صنفاً واحداً فقط ، ومقدار دريهمات منه وحسب !

القمل والجرذان !

ولقد كان من المضحكات المبكيات أننا ونحن في هذه الحالة من الجوع والضيق والمعاناة كان قضاء محتماً علينا أن نشارك الطعام والمقام ضيوفاً من مخلوقات أخرى تؤمن أن كرم الضيافة حق مباح بلا حدود !

كانت الجرذان ، والتي أقسم أن واحدها كان أكبر من القط بلا مبالغة ، تربت على طعام المساجين الذي يحتجزه السجانون عنا ثم يرمونه في القمامة ! هذه الجرذان كانت تتنقل بين المهاجع من خلال قنوات التهوية رائحة غادية ، وأثناء عبورها فوق فتحة المروحة التي كانت أعجز من أن تقدم شيئاً لهذا الجو الموبوء ، كان بعضها يزلق فيسقط بيننا أو علينا ، فيصاب المهجع كله بهستيريا الذعر ، ويتراكض الناس يميناً وشمالاً يريدون أن ينجوا من عضة هذا المخلوق المرعب . ويتدافع الخلق .. ويعلو الصياح .. ولا تنتهي الغارة ويموت الجرذ تحت الأقدام إلا وقد نهش أرجل أربعة أو خمسة منا .

ومع احتشاد المهجع وتزاحم المعتقلين ، وبسبب بعض السجناء القادمين من مواطن موبوءة أو غير نظيفة بالأصل، بدأت تتفشى فينا أعرض مرض السل ، وانتشر فيما بيننا القمل . وإذا كان البلاء الأول قد أصاب بعضنا وقتذاك ولم يأخذ صفة الوباء ، فإن القمل لم يوفر أحداً من بيننا أبداً ، وانتشر في رؤوسنا وملابسنا وأمتعتنا حتى لم يعد من سبيل لتفاديه . وكنت أنا أكثر الناس الذين قملوا . وكان منظراً اعتيادياً ونشاطاً مشتركاً لسكان المهجع كل يوم أن نخلع ملابسنا ونتابع القمل فيها فنفقأه بأصابعنا كإجراء وحيد متاح للحد أو التخفيف من انتشاره !

إلى الحلاق

وذات يوم ، وبعد أن مضت أسابيع كثيرة على اعتقالنا فطالت شعورنا ولحانا حتى بدونا كالغيلان ، صدر الأمر لنا بالذهاب إلى الحلاق . ومضى الطابور بنا إلى غرفة قريبة يتوسطها كرسي وسجان بمهنة حلاق كان يتناول رؤوسنا كالماعز ويمر بآلة الحلاقة عليها حتى نخرج من بين يديه بالقرعة كرأس البطيخ ! ولم يكن هذا الشخص يوفر الفرصة ليمتع نفسه بشتمنا ولطمنا بين حين وآخر ، وكان واضحاً من لهجته أنه من طائفة النظام .

ولقد كان من المضحكات المبكيات أننا وبعد هذه المهزلة أمرونا أن ندفع للرجل خمس ليرات أجرة حلاقة الرأس الواحد . تولاها الإخوة الذين كانت معهم في أماناتهم بعض النقود ، أو الذين وصلتهم مع طول مدة اعتقالهم زيارات بالواسطة . وبعد ذلك جاء وقت الحمام الجماعي ، وساقتنا اللطمات والركلات وفرقعة الكرابيج على ظهورنا إلى قاعة مفتوحة أدخلوا كل عشرة فيها دفعة واحدة وأمروهم أن يتعروا من ثيابهم ويغتسلوا معاً . والجلادون على الباب يشتمون من شاؤوا ويضربون من اشتهوا ، والجرذان العملاقة تلك على المواسير فوقنا تترقب أن يغفل أحدنا لتنهش منه أو تنقض عليه !

واعتدت حياة المهجع نوعاً ما ، وألفت الإخوة وألفوني . وتعرفت على العديد منهم من محافظات شتى ، أذكر منهم الإخوة حسين رشيد عثمان ، وابن عمه أيمن عثمان من مدينة الباب قرب حلب . وطاهر جيلو من ادلب . وجمال عقيل وجلال الدين جلال من حلب . ومحمد أرمنازي وجهاد كلاس الحلبي و...... جعمور و..... نجار وأسامة فتوحي الجندي من حماة . وتيسير أبو الرز وجهاد حلاق ومأمون العظمة و .... الصفدي وعبد الإله بعلبكي من دمشق وضواحيها . إضافة إلى سالم الحامد والدكتور صالح خوجة . ولقد تم إعدام أكثر هؤلاء الإخوة فيما بعد . وشهدت إعدام بعضهم بنفسي ، وسمعت عن الآخرين من شهود عيان .

إلهي أغثني

ولم يكن هناك في تلك المرحلة تعذيب أو تحقيق بفضل الله ، أو أنه كان لا يذكر قياساً بما سبق في فرع المخابرات . فوجدناها فرصة لا تثمن لنسمع قصص بعضنا البعض ، ومشاهدات وخبرات كل منا ، وأنعم الله علينا فنظمنا برنامجاً للصلوات والأذكار والدروس وحفظ القرآن ، ووقتها أتيح لي أن أسمع الكثير من سالم ومن غيره ، مثلما كانت بداية إقباليعلى حفظ كتاب الله ، فكنت ألازم أخاً حافظاً لكتاب الله من حماة اسمه محمد صادق العون فأحفظ عنه ما تيسّر من سورة البقرة حتى جاوزت نصفها .

واستطعنا وقتها وللمرة الأولى منذ اعتقالي وللمرة الأخيرة ربما أن نصلي جماعة ، ورغم أن الحارس كان إذا فتح الشراقة ورآنا نصلي أخرج مجموعة منا وضربهم بلا رحمة ، إلا أننا كنا نعاود فعل ذلك ولله الحمد . ففي تلك الرحلة كانت معنوياتنا لا تزال عالية ، وثقتنا بالفرج وبالنصر كبيرة ، وكنا لا نزال نؤمل أن يأتي المجاهدون بين ساعة وأخرى فيقتحموا السجن علينا ويحررونا !

وأما سالم ، وبعد أن هدأت النفوس وأمِنّا المكان جلس وحدثني ، وروى لي كيف كان اعتقاله وكيف مضى التحقيق معه . وأكد لي أنه حاول أن يصرف عني ما استطاع ، واستسمح مني واعتذر إلي . وكان سالم حقيقة الأمر غير الشخص الذي عرفته من قبل ، فهو شخص بالغ التهذيب رقيق المشاعر بطبعه ، أصلح ما يكون مربياً . لكن قرار رميه في معترك هذه المعمعة لم يكن ليناسب مؤهلاته وشخصيته ، ولذلك كان دائم السهاد شديد الأسى ، يرقب هؤلاء الذين احتشد بهم المهجع بسبب اعترافاته ، ويرى أنه إلى الإعدام مصيرهم ، فلا يملك إلا أن يسكب الدموع وهو يدعو الله تعالى أن يخلصه . ولَكَمْ سمعته ينشد بحرقة ويقول : إلهي أغشني زماني عصيب !

اعترافات سالم

ولقد كان وضع سالم عصيباً بالفعل ، يلازمه هاجس أولئك الذين ينتظرون الإعدام ممن أتوا بسبب اعترافاته ، ويؤرقه آخرون قتلوا لنفس السبب . كان الأخ غالب آلوسي مسؤول دمشق وقتها من أبرزهم .

ولقد جرى كشف غالب حينما تم اعتقال مراسل إدلب طاهر عارف جيلو باعتراف من سالم أيضاً . فجرى تعذيبه ليعترف على موعده مع غالب ، فلما اشتد عليه العذاب ولم يكن بين اعتقاله والموعد إلا يومين أو ثلاثة أعطاهم مواعيد كاذبة ليشغلهم بها عنه . لكنهم كانوا إذا ذهبوا ولم يحضر أحد واكتشفوا الخديعة عادوا لينهالوا عليه بالضرب والتعذيب حتى كادوا يقتلونه .

وكان رحمه الله مصاباً بالقرحة وقتذاك ، إلا أن الله ثبته برغم ذلك كله ولم يعترف . ويبدو أنهم سألوا سالم عن الموعد فأخبرهم ، فأخذوا سالم وطاهر معاً وكمنوا له في المكان عند جامع المنصور . وعندما حضر غالب وتأكدوا أنه الشخص نفسه حاولوا اعتقاله ، لكنه اشتبك معهم - كما حدثني طاهر بنفسه - وأصاب أحد ضباط المخابرات بعينه قبل أن يقتل رحمه الله .

شَرَك جديد

ورغم أن سجل اعترافات سالم امتلأ إلى حافته سواء بما أدلى به تحت التعذيب أو ما توصلت المخابرات إليه عن طريق اكتشاف الهويات المزورة والمفاتيح الأخرى ، إلا أنهم كأنما أحسوا أن سالم لا يزال يخفي شيئاً . وكان هذا متوقعاً لاهتمام سالم - كما ذكرت - بتولي كل المسؤوليات بنفسه ومقابلة كل المراسلين شخصياً بأمر من القيادة في عمان . ولذلك رسموا له في فرع المخابرات بالعدوي شركاً جديداً أوقعوه فيه ، وأوقعوا معه مجموعة جديدة من الضحايا .

وكانت الحيلة حينما أمروا سجاناً من المنطقة الشرقية اسمه وائل أن يتودد إلى سالم ويتقرب منه بذكاء وحنكة . فأخذ ذاك يزيد له في الطعام يوماً ، أو يحضر إليه كوب حليب في خفاء مُدَّعَى . ومع الملاطفة في الكلام والرقة في التصرفات نمت العلاقة بينهما وتمت الخطوة الأولى . وفي يوم من الأيام جاء وائل هذا إلى سالم وقال له : أنا في الحقيقة واحد منكم .. ولست في هذا المكان إلا لأنني مجند في الخدمة الإلزامية . وأرى أنه لا بد وأن نستفيد من الفرصة ونحرركم مثلما حصل في كفر سوسة .

ومن المعلوم أن مجنداً آخر في سجن كفر سوسة كان سبق له وأن تعاون مع الإخوة السجناء هناك وتمكن في أيار من العام السابق ١٩٨٠من مساعدة سبعة عشر منهم على الهرب في حادثة غير مسبوقة . فلما بلع سالم الطعم وسأل وائل عن الكيفية طلب ذاك منه أن يؤمن له صلة بمجموعات مسلحة خارج السجن ليساعدونه ، فأعطاه سالم الأسماء . وفي ليلة واحدة تم اعتقال قرابة اثني عشر شخصاً لم يكونوا مكشوفين أبداً ، أذكر منهم عبد الكريم مهلهل من دير الزور الذي كان يدرس الطب في دمشق ، وآخر من بيت السراج من الدير أيضاً ، أظن اسمه الأول كان محمود . وتم للسلطة ما أرادت ، واطمأنوا إلى أن سالم أفرغ الآن ما في جعبته فنقلوه إلى فرع التحقيق العسكري ، لألتقيه مترعاً بالشجون والأسى هناك .

أحقاد الطائفيين

ومرت الأيام ، واستطعنا التعرف على بعض جلادينا وسجانينا . فرئيس الفرع هو العقيد مظهر فارس من الطائفة العلوية . وأما مدير السجن في هذا الفرع فضابط شركسي ينادونه أبا نزار مسلوب الإرادة كأكثر المسؤولين والضباط من غير طائفة النظام ، على العكس من نائبه المدعو

أبو منهل ، والذي كان نصيرياً حاقداً . فكان يقتحم علينا المهجع من غير سبب إلا أن يدلق علينا سيلاً من الشتائم والكلمات القذرة التي طفحت بها حوصلته ويمضي ! ومن السجانين عرفنا واحداً اسمه أحمد سالم وآخر اسمه أحمد غانم من طائفة النظام أيضاً وفي منتهى القسوة والتجبر . وكان هناك رقيباً أول بنفس المواصفات اسمه مالك لا حد لأحقاده وقسوته . فكان لا يدع أحداً يعبر أمامه من السجناء إلا ضربه ، ولا يفوت فرصة لتعذيب الناس إلا اغتمنها . وحتى السجناء الذين كانوا يخرجون من بيننا لإدخال الطعام إلى المهجع كانوا ينالون من بطشه وظلمه بلا حساب .

الكرسي الألماني !

وفي تلك الفترة نمى إلى علمنا أن أخوات من النساء معتقلات في نفس الفرع معنا ، ولكننا لم نلتق أياً منهن . كذلك علمنا أن في السجن شيوعيين من جماعة رياض الترك وبعثيين يمينيين أيضاً ، غير أنهم كانوا قد فرزوا كل اتجاه مسبقاً ولم يتيحوا لنا فرصة للقاء .

ومن المشاهد المؤلمة التي لا أنساها عن تلك الفترة حالة الأخ حسين رشيد عثمان الذي عذبوه بالجلوس على "الكرسي الألماني" في فرع المخابرات بالعدوي حتى أصيب بما يقارب الشلل . والكرسي الألماني هذا عبارة عن كرسي ذو أجزاء متحركة يوثق السجين عليه من ذراعيه وساقيه ثم يسحبون مسنده الخلفي للوراء ساحباً بذلك جذعه الأعلى معه ، فيما تظل قدماه مثبتتان مكانهما من الجهة الأخرى المضادة . فيتركز الضغط على صدره وعموده الفقري . فإذا ازداد هتكت الفقرات حتى تتكسر . وعندما التقيت الأخ أبا رشيد كان وضعه في غاية السوء . فلم يكن يستطيع تحريك ظهره البتة ، ولم يكن يرتاح لذلك لا في يقظة ولا في منام ، ولا يستطيع لا أن يجلس ولا أن يقف . وانتقل الألم إلى رجله أيضاً فزاد من عذابه ومعاناته . ومع ذلك كان رحمه الله يتحامل على الألم الذي لا يطاق ويصبر ويحتسب .

وكان الأخ حسين عثمان صحفياً في وكالة الأنباء السورية في غاية السرية والإنضباط ، لم ينكشف أمره رغم مضي قرابة العشرين سنة على عمله هناك ، حتى تم تكليفه بمسؤولية المكتب الإعلامي بدمشق في إدارة الأخ سالم الحامد . فلما اعتقل سالم اعترف عليه فيمن اعترف . ورغم ذلك كان أبو رشيد يردد بكل احتساب :

لا بأس .. الله يسامحهم ..كله في سبيل الله .

وعلى طيبه واحتسابه كان أبو رشيد مثال الأخ الصلب الذي ثبته الله في المعتقل ، فلم يعترف بأكثر مما اعترف عليه به سالم ، حتى أنهم أتوا له إلى السجن برئيس أركان الجيش السوري حكمت الشهابي في محاولة لإقناعه بالإعتراف . وكان الشهابي وأبو رشيد صديقان من أيام

الشباب ، خرجا من بلدهما معاً ومضيا إلى دمشق زميلين وصديقين رغم اختلاف إنتماء كل منهما . وعندما حضر الشهابي إلى أبي رشيد في سجنه حاول أن يحضه على الإعتراف . وجعل يقول له - كما أخبرني أبو رشيد بنفسه - :

اعترف يا حسين .. اعترف والباقي عندي .

وجعل يذكره كيف كان والده مختاراً للمدينة التي أتى منها الشهابي .. وكيف كان على علاقة طيبة بالناس ومن خيرة أهل البلد . وأخذ يمنيه بمساعدته إذا تعاون مع السلطة . لكنه لم يصل معه لشيء . وفيما بعد ، وعندما صرنا في تدمر وضمّنا أنا وحسين مهجع واحد حتى يوم إعدامه ، نال رحمه الله عذاباً شنيعاً على هذا اللقاء ، وحاولوا - كما سيأتي إن شاء الله - إقناع حسين بتوريط الشهابي نفسه استناداً إلى ذلك .. لكنه ورغم البون الكبير بين الرجلين فقد أبى أن يورطه بلا ذنب أو سبب ، ورفض التعاون معهم في هذه المؤامرة الرخيصة حتى ولو كان الثمن حياته .

إلى المنفردة من جديد

مضت قرابة ثلاثة أسابيع على وجودنا في المهجع الجماعي لنفاجأ صبيحة أحد الأيام بالسجان يفتح الباب ويطلب مجموعة من الشباب بأسمائهم . وعندما عادوا بعد فترة لم تطل سألناهم عم جرى فقالوا إنهم أمروهم أن يوقعوا على أوراق وحسب . ما الذي فيها ؟ لم يدر أحد . وتكرر الأمر وتتابع إخراج الشباب حتى شمل كل الذين اعترف عليهم سالم . وبعد يومين وما كدنا ننهي عشاءنا حتى جاءني الطلب مع ثلاثة أو أربعة إخوة آخرين ، فطمشونا وكبلونا من جديد ، ووجدناهم يقودون كل واحد منا إلى زنزانة منفردة ويقفلوا عليه .

مرت بضع ساعات علي أترقب أي جديد دون نتيجة . ولم يلبث البرد أن بدأ يزحف على جسدي ، وينخر مفاصلي وعظامي . ولم يكن في الزنزانة أية بطانية أو غطاء ، ساعتها افتقدت نعمة الإزدحام في المهجع التي أمنت لنا الدفء على أقل تقدير ! ولم أكد أتكور على نفسي محاولاً بث الدفء من جزء من بدني إلى الجزء الآخر حتى أخذ القمل ينشط فيّ ويبدأ عضاته التي لا ترحم ولا تُتَّقى ! ولم تلبث أصوات أخ يعذب أن انطلقت تشق ظلمة الليل ، فأدركت أنني قريب من غرفة التعذيب التي لم نكن نحس بوجودها في المهجع . وازداد الصراخ ، وطال العذاب ، عذاب الأخ يليه الأخ وعذابي أنا . وأخذت الهواجس تطبق علي وتنهش نفسي المنهكة . وعدت إلى مخاوفي التي سكنت بعض الشيء بملاقاة الإخوة والإستئناس بهم في المهجع ، وها أنا ذا هنا من جديد لا أنيس حولي آنس به ولا جليس أشكو مرارة حالتي إليه .

ومضت الأيام علي أسير هذه الزنزانة الموحشة .. يفتح السجان الباب علي الآن ثلاث مرات في اليوم للخروج إلى الحمام .. وليته لم يكن يفعل . فتلك كانت فرصة مالك السجان الموتور وأمثاله

ليسلخوا جلودنا بالكبلات من جديد ، ويفرغوا فينا من سموم أحقادهم ما وسعهم الجهد . فإذا عدت عادت إلي الأوجاع والبرد والجوع والكوابيس .. عرضة في أي وقت لنزوة سجان يفرغها في بدني المنهك من غير أي سبب أو تفسير . فلا أملك إلا البكاء والتضرع إلى الله تعالى أن يخفف عنا . وبعد مضي عدة أيام وجدهم يستدعونني إلى غرفة التحقيق ويسألونني عن أسماء وأشخاص لم أكن أعرفهم بالفعل . فرفعوا الطماشة عن عيني وعرضوهم أمامي . فقلت لا أعرفهم . وتكرر الأمر ، ثم وجدهم في المرة التالية يعرضونني أنا على أخ معتقل لا أعرفه ، لكنهم لما سألوه هل تعرفه قال نعم . ولقد علمت بعدها أن الأخ كان أحد من كشفتهم اعترافات سالم أيضاً ، لكنني لم أعرف لماذا قال أنه يعرفني رغم أنني لم أره من قبل بالتأكيد . ولم ألمه فيما قال وقدرت أن التعذيب لا بد وأن طاله مثلما طال البقية . لكن ذلك كان من أصعب الأمور حقاً . فالواحد لا يكاد يصدق أنه أغلق الأبواب عليه وانتهى من دوامة العذاب والتحقيقات ليأتي من يفتح عليه الباب ويعيده إلى مسلسل الرعب من جديد !

باب جديد !

وفتح الباب علي .. وعادت ليالي العذاب والجلد والسلخ والكهرباء . عشرة أيام أو ربما تزيد من التعذيب : أين هي المخابيء ؟ أين أماكن السلاح ؟ أين فلان ومن هو علان ؟ وأنا لا أعلم عما يتكلمون عنه شيئاً أبداً . والكبلات تأكل من جسدي وتشرب السياط من دمي ولا مغيث ! حتى أشرفت على الهلاك فعلاً ولم أعد أستطيع جذب النَفَس . ويبدو أنهم اقتنعوا ببراءتي هذه المرة وشعروا أنه ليس لدي شيء بالفعل فتركوني . وعدت إلى المنفردة ألعق جراحي وأستجمع كياني المحطم ثلاثة أو أربعة أيام تاليات ، لم يطلبوني فيهن إلى التحقيق أو يخرجوني إلى التعذيب .

ومن غير مقدمات وجدهم في ليلة تالية نادوا علي ضمن قائمة مطولة من الأسماء أذكر منهم إذا أسعفتني الذاكرة الإخوة : هيثم ملا عثمان وجمال عيار من حلب . ووضاح الدن من قرى حلب كذلك . وقاسم موسى من مدينة تدمر . وحسين رشيد عثمان من الباب . ومحمد ثابت ناعس و نديم منصور من ادلب . ومحمد طاهر مصطفى وابراهيم أحمدو من أريحا . ومصطفى الشر من جسر الشغور . وشريف البعث من ادلب . وعمر الحيدر وحزين قاسم المحاميد من معرة النعمان . وابراهيم طوبل وعمر حمزة من المعرة أيضاً . وشاكر مومه وكمال أندورة من دمشق . وأخ من حماة هو شقيق محمد فخري .

وانتهت تلاوة الأسماء . وأمرونا أن نجهز أنفسنا جميعاً لرحيل جديد . إلى أين ؟ لم يقل أحد بالطبع . ولم يكن لأي منا القدرة حتى على الهمس . ووجدناهم يفتحون علينا الزنزانات ويسوقوننا تحت السياط ولسعات الكبل واللكمات ككل مرة إلى الذاتية ، فنستلم أماناتنا ، ونكمل تحت وابل

اللكمات والركلات إلى سيارة النقل المغلقة ذاتها أو سيارة اللحمة كما كنا نـسميها . فنكبـل كالعادة ونطمش ، وتقيد رجل واحدنا برجل الآخر ويده بيده ، ويودع كل منا بلطمة أخـيرة منتقاة ، لنجد أنفسنا أكثر من أربعين شخصاً محشورين في تلك العلبة المغلقة .. تتحرك بنا تحـت جنح تلك الليلة نحو رحلة أخرى من المجهول !

أبو جهل !

لم يكن سهلاً علينا في البداية أن نتكهن إلى أين نمضي ، ولم يكن ممكناً لنا في نفـس الوقـت أن نتبادل الآراء أو أن ننبس ببنت شفة ، لكن الوقت الذي طال علينا والسرعة المنتظمة التي أخذت السيارة تحافظ عليها أوحت إلينا أننا الآن خارج العاصمة نتجه إلى مكان بعيـد ، لم نلبـث أن رجحنا هذه المرة أن يكون تدمر لا غير . وبالفعل وفي نهاية المطاف توقفت السيارة بنا وسـكن هدير محركها ، وفتح الباب الحديدي علينا وأتانا الأمر بالنزول .

سرت القشعريرة في بدني فور أن نزلت من السيارة ولسعتني قرصة البرد الصحراوي قبيل الفجر . ولم نلبث أن وجدنا العناصر الذين أتوا بنا يرفعون الطماشات عن أعيننا ويفكون القيـود مـن أيدينا وأرجلنا ويرموا بها في السيارة لأنها عهدة الفرع هناك . وبرغم الظلام الحالك إلا أن الأنوار التي تسلطت علينا كانت كافية لنرى أفراد الشرطة العسكرية يحيطون بنا ويجرون مـع عناصـر المخبرات إجراءات الإستلام والتسليم ، ولنعلم من ثم أنه سجن عسكري ذاك الذي وصـلناه .. وأنه لكل المعطيات التي اجتمعت سجن تدمر لا ريب !

لم يطل الأمر بنا لأكثر من ثوان معدودات حينما هجم عناصر الشرطة العسكرية علينا وبـدأوا يجذبون كل من تحرر من القيد منا فيركلونه ركلة يجد نفسه من فوره على باب صغير ، ينتظـره على جانبه شرطي آخر يجذبه بيديه كخروف تعس الحظ ويركله مرة ثانية ليلج الباب . وهنـاك وما أن دلفتُ حتى استقبلتني لطمة شرطي ثالث حولت وجهي إلى الجدار . وتتابع وصول الإخوة الآخرين إلى الجدار بنفس الطريقة ، حتى إذا اكتمل عددنا وانتهت الدفعة أحسسنا ووجوهنا إلى الجدار كلنا أن شخصاً مهماً قد حضر . ونادى أحدهم وفق الإجراء العسكري المتبع :

حاضر سيدي المساعد .

وانطلق من وراء ظهورنا صوت مساعد السجن أحمد كيساني كما علمنا لاحقاً أو أبو جهل كما سماه السجناء .. انطلق من غير مقدمات يلعن آباءنا وأجدادنا ويَفْجُرُ بحق أمهاتنا وأعراضنا وديننا .. كان مضحكاً مبكياً أن ينادينا هذا المجرم الوالغ في دماء الأبرياء يقول :

يا خَوَن (أي خونة) .. يا عملاء الصهيونية !

وانطلقت السياط من غير إنذار تسلخ جلودنا المكشوفة لهم ، فإذا صاح واحدنا أو تأوه ضاعفوا عليه العذاب . لكن حفلة التعارف ما كانت لتبدأ من قبل أن نتلقى أصول الإتيكيت السائد ! ولم ألبث أن طرق سمعي صيحة أبي جهل هذا ينادي عساكره :

أحضروا هذا العرص أبو الجينز .

وكنت وقت اعتقالي ألبس بنطال جينز قدراً ، فكأنما وجده نقطة علام تساعده على أداء مهمته . وجذبتني الأيدي كملاقط الحديد ورمتني أمام سيادة المساعد ، فلما رفعت عيني إليه أريد أن أستطلع الخبر صاح بي ملء صوته :

غمض عينيك ولا .

وهجم عناصر الشرطة علي فبطحوني أرضاً يركلونني ويجلدونني من كل اتجاه . وأتتني وسط هذه العاصفة لسعة كرباج على عيني رأيت الشرر والله خرج منها ! وأدركت لاحقاً أن هذا الذي أصابني كان مجرد درس تعليمي لنا وحسب ! فالقوانين هنا في سجن تدمر العسكري غيرها في أقبية المخابرات بدمشق . وإذا كانت التعليمات تقتضي هناك أن تبقى عيوننا معصوبة مطمشة على الدوام حتى لا نرى أحداً من المحققين أو الجلادين ، فإنها هنا توجب علينا أن نكشف عيوننا وأن نمتنع رغم ذلك عن رؤية أي أحد منهم ! ولو نزلت على واحدنا كبلات الأرض أو قطعت لحمه السياط فالواجب المحتم عليه أن يبقى مغمض العينين !

الذاتية

وتوقف الضرب فجأة بإشارة من أبي جهل ، وأتاني صوته القبيح :

راسك بالأرض ولا وغمض عينيك .

وساد المكان سكون رعيب لبرهة من زمن . فلما أدرك أن الدرس الأول وصل المجموعة كلها صاح من جديد :

قل حاضر سيدي ولا .

قلت ورأسي في الأرض وعيناي مغمضتان : حاضر سيدي .

قال : كم عملية إنت عامل ولا عرص ؟

قلت : ولا عملية سيدي .

قال وكأنني أنا الذي أشتمه : ولا عرص .. بتكذب ؟

وانهالت الكبلات والسياط علي من جديد . وجعلت أتلوى على الأرض كالذبيحة لا أدري أين المفر . والإخوة وجوههم كلهم إلى الجدار وصياحي وعواء الشرطة من حولهم وحولي يفتت أعصابهم ويفري قلوبهم . ولم يلبث الدور أن تحول ونادى أبو جهل من جديد :

واحد واحد من هون يا خَوَن اطلعوا لبرة .

وساقتنا اللطمات والكرابيج من جديد إلى باحة أخرى تتصدرها غرفة الذاتية ، أجلسونا خمسة خمسة أمامها وبدأوا يدخلوننا واحداً تلو الآخر إليها ، والشرطة خلفنا يركلوننا بأرجلهم أو يصفعون رؤوسنا بأيديهم ويلسعون ظهورنا بالكرابيج والكبلات وهم لا يكفون عن شتمنا وتوعدنا وتهديدنا :

هلق بنفرجيكم يا خَوَن .. هلق بس تخلصو يا ويلكم .. والله لنعمل ... بأمهاتكم واخواتكم .. والله الموت مصيركم يا ..

ولم يكن الزبانية كاذبون في ذلك ، فلقد اعتادوا قتل الناس بأنفسهم وفعلوا ذلك مرات لا تعد . ووفوا وعدهم في المستقبل وأزهقوا من أرواح الإخوة من نفس الدفعة عدداً ربما فاق من بقي منهم على الحياة !

التعليم !

لم يكن الفجر قد طلع بعد ، والبرودة التي أطبقت علينا من كل اتجاه ونحن في ملابسنا الصيفية الخفيفة التي اعتقلنا بها زادت عليها برودة الإسمنت الذي أجلسونا فوقه ننتظر أن نلج غرفة الذاتية تلك . فلما حان دوري وقد كدت أتجمد رغم السياط التي أصابتني دخلت فوجدتهم يسألونني كالعادة عن اسمي وسني وعنواني .. وعلمت أثناء ذلك أننا اليوم في العاشر من شباط عام ١٩٨١ . فلما علموا أنني أردني الجنسية ثارت ثائرتهم وانتفضت أوداجهم وانهالوا علي ضرباً ولكماً وشتماً بأقذع الألفاظ . ولم يكن معنى ذلك أنها غضبة ساعة وحسب . فلقد تبين لنا لاحقاً أن الشخص الذي يلقى معاملة خاصة من هذا النوع ساعة استقباله في الذاتية فقد "تعلّم" . و"التعليم" معناه أن الشرطة قد ميزوه عن غيره لسبب ما .. وأنه محتم عليه بالتالي الهلاك لا محالة .. في العاجل أو في الآجل القريب . غير أن الله سبحانه قدر ولطف ، وحدث أن تغيرت النوبة التي استقبلتنا في تلك الأثناء .. وذهبت مجموعة الشرطة التي كانت علّمتني وقتذاك وحضر آخرون فاتتهم هذه الملاحظة عني .. فأنجاني الله من موت محقق !

قصاص !

وانتهت إجراءات التسجيل ، وصرنا الآن جزء من عهدة تدمر رسمياً ، وعلينا أن نتلقى مراسيم الإستقبال الرسمي الآن .. فكل هذا الذي سبق تبين أنه لم يكن ضمن الحساب !

تجمع موكبنا الحزين خارج الذاتية ، فإذا بنا أمام باب كبير كفم الغول .. أخذتني لمحة من عيني إلى أعلاه فهالني أن أقرأ قول الله تعالى مخطوطاً هناك (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) تحوطه شعارات النظام المعروفة "أمة عربية واحدة . ذات رسالة خالدة " !

دخلنا الباب ونحن نقرأ على الدنيا وراءنا السلام ! ووجدنا أنفسنا في باحة اسمنتية تحيطها المهاجع التي أمرونا أن نصطف على جدرانها مُسْلِمين للوحوش رجال السَرِيَة كلهم ظهورنا بالإختيار ! ولم يلبث الزبانية أن بدأوا يسحبون الواحد منا تلو الآخر فيعرونه من ثيابه إلا الشورت ، ويفتشونه مرة أخرى من باب الإحتياط . وفي الوقت الذي يتولى قسم من الشرطة الإخوة المتجهين إلى الجدار بالضرب والجلد والركلات ، وبينما يعلو الصياح وترتفع أصوات الإستغاثة ولا مغيث ، تجذب الأيدي القاسية الأخ الذي تجرد من ثيابه وبات جاهزاً أو تدفعه فيختل توازنه ويقع على الأرض ، ليكون الدولاب في استقباله واثنان من الشرطة العسكرية على جانبيه يتزلانه فيه . فترتفع الرجلان في الهواء .. ويفقد واحدنا القدرة إذ ذاك على التحرك . لكن الجلادين ولزيادة الإحتياط وتحقيق مزيد من الإتقان يربطان الرجلين بجنزير من الحديد تعدم أية فرصة لهما للتحرك قيد أنملة .

ويبدأ الضرب من غير رحمة ومن غير عد .. فإشارة الإنتهاء لدى الوحوش أولئك أن تتفتح بطن الرجل وتسيل منها الدماء . فإذا تم ذلك فكوا القيد عن الرجلين وأخرجوا المعتقل من الدولاب وأمروه أن يفتح كفيه ليتلقى هدية أخرى . وتنهال على الراحات سياط من الجلد العريض سمعنا أنها صنعت من حزام مروحة الدبابات ! حتى إذا حل بالأيدي مثل الذي حل من قبل بالأرجل وتأكد الجلادون أن الدم الآن يسيل أمروا ضحيتهم بالإنبطاح . ولا يكون المسكين بحاجة لسماع الأمر لأنه منهار ومُنْتَهٍ بذاته ، فيستقبل الأرض لا حول له ولا قوة .. وتلحق به السياط والعصي تأكل الآن ظهره وجنبيه : خمسون .. مائة .. وربما مائتا جلدة قبل أن يتوقف الزبانية .

ويدخل الحفل مرحلته الأخيرة ، فيقفز أحدهم فوق ظهر الضحية ويلحقه ثان فيقلبه ويعلو صدره .. ويأخذ كلاهما يعفسانه ويركلانه ويمسحان به نعالهما العسكرية الغليظة .. حتى تتكسر الضلوع وتنهتك بقايا الجلد السليم . وتكون الدائرة قد مرت على الدفعة كلها ، وسالت دماء الإخوة جميعاً ونال كل واحد منهم نصيباً من العذاب غير موصوف . ولكم فُقِدَ في حفل الإستقبال ذاك من إخوة وماتوا من غير أن يأبه أحد . ولكم خرج من هذا الجحيم من خرج كسيراً أو صاحب عاهة من غير أن يزيد ذلك الزبانية إلا سروراً وغروراً .

المهجع ٢٦

مضت ثلاث أو أربع ساعات على حفل استقبالنا هذا وسطعت علينا الشمس فهالنا أن نبصر أنفسنا وكأننا سرب طيور منتوفة الريش ! ومن قبل أن نلتقط أنفاسنا صاح بنا أحدهم أن نلبس ثيابنا ونمشي . ومشينا .. نازفي الجروح مطأطئي الرؤوس . لكن السياط والكبلات لم ترحمنا .

ووجدنا أحدهم يهوي علينا بعصا لا أظنها والله إلا جذع شجرة .. إذا هوت على الظهر فلقته . فإذا أصابت الرأس أو الصدغ فالواحد ميت لا محالة !

وكان معنا أخ من ادلب اسمه نديم منصور أصيب أثناء اعتقاله بطلقات رصاص في ساقه وساعده ولم يكن يستطيع السير . فتقدمت أنا وأخ من حلب اسمه جمال عيار وحملناه . أنا أمسكه من كتفيه وجمال يرفعه من رجليه . وركضنا وركض الشرطة وراءنا يضاعفون علينا العذاب .. وكدنا مرات عديدة أن نقع ويقع الأخ معنا . ولم نكن ندري إلى أين سينتهي هذا الجري بنا .

وجعلنا ندخل من باحة إلى أخرى ونعبر من باب إلى باب حتى وصلنا آخر الأمر إلى الباحة السادسة من السجن ، ووجدنا أنفسنا نساق إلى مهجع كبير فيها هو المهجع السادس والعشرون . وهناك وبعد أن اكتمل وصولنا وجدناهم يصفوننا على الجدار من جديد ، ومضى الشرطة فختموا لكل منا بضربة عصا على ظهره الدامي لتهد ما يمكن أن يكون تبقى من جَلَد فيه . حتى إذا هدأت الأصوات وسكنت الحركات دخل المساعد أبو جهل المهجع .. وافتتح كلمة ترحيب جديدة حافلة بأقذع المسبات وألفاظ الكفر بالله .. وزف إلينا وسط عباراته الناضحة بشرى وصولنا سجن تدمر .. تدمر التي ستكون فيها نهايتنا .. نحن الخون العرصات العملاء ال.... .

وانتهت الكلمة الترحيبية بنا ، وخرج أبو جهل يتبعه الزبانية ، ووجدنا الباب يغلق علينا ، وصمت كصمت القبور يلفنا . وسرعان ما ألقى كل منا بدنه المنهك على الأرض .. يود لو أن مال الأرض كله بين يديه فيفتدي به ساعة من غير عذاب !

في انتظار المجهول !

أغلق الباب وظننا أننا نلنا اليوم نصيبنا كاملاً من العذاب ولن يكون هناك مزيد . غير أن الأمل تبخر لحظة أن نادى علينا صوت أجش من فوقنا يصيح :

الكل لم عالزاوية ولا .

أفزعتنا المفاجأة .. فلم نكن نتصور أن فوقنا داخل المهجع زبانية من الشرطة العسكرية أيضاً . وعندما رفع أحدنا رأسه يستطلع من أين جاء الصوت ناداه الشرطي وهو يشتمه :

أنت يا .. علّم حالك ولا . ولما أقول وين المعلّم بتطلع لبرة ..

وكالقطيع المرعوب انكمشنا نحن في زاوية من زوايا المهجع حيث أمر ، وأطرقنا برؤوسنا نترقب المجهول . وأخذنا نحاول بحواسنا المتوترة أن ندرك معالم هذا المهجع الذي ضمنا من حيث لم نحتسب . ولقد أدركنا لاحقاً أن البناء عبارة عن غرفة كبيرة مستطيلة ، ثمة دورة للمياه على يسار الداخل من الباب ، فيها حمامان تتوسطهما مغسلة وحوض . وأما بقية المهجع ففي حجم ثلاث غرف متتالية ، تحيط زاوية التقاء جدرانها الأربعة بالسقف نوافذ مفتوحة على الدوام ،

عليها قضبان من الحديد وحسب ، غير أنها من العلو بما يكفي لمنع وصولنا إليها أو مشاهدتنا لما يجري في الخارج عبرها . وفي السقف نفسه هناك فتحتان مساحة كل منهما متر بمتر تغطيهما قضبان من الحديد الغليظ أيضاً ، يستطيع عناصر الشرطة الذين يتناوبون فوقنا أربعاً وعشرين ساعة في اليوم أن يروا كل ما يدور بيننا من تلك النافذتين ، أو الشراقتين كما تسميان باصطلاح السجون .

السخرة

ومضيت أتحسس جراحي وألملم بدني المنهك في سكون .. وانشغل كل منا بحاله فلا تسمع إلا اضطراب الأنفاس وأنات الألم تنطلق بين تارة وأخرى فلا يلبث صاحبها أن يكتمها ويشد على الجراح بصمت .

وانقضت ساعتان أو أكثر بقليل ، وفتح الباب فجأة ودلفت دفعة جديدة من المساجين الجدد تجاوز السبعين أغلبهم شباب في مقتبل العمر من طلاب الثانوية العامة أو الجامعة .. علمنا لاحقاً أنهم كلهم من مدينة حمص ، وأنهم نالوا مثل العذاب الذي نلنا ، ولكننا لم نسمع أصواتهم لأن إجراءات الإستقبال تمت كذلك بعيداً في الباحة الأولى مثلنا . غير أن الشرطة لم يحرمونا من أن نتنعم بسماع صيحات الألم والعذاب ، فلم يلبث أحدهم أن فتح الباب ونادى فينا وكأن له ثأر قديم يريد أن يشتفي منه :

وين المعلّم ولا ؟

فعلمنا أن الأمر جد إذاً ، وأن الأخ لا بد وأن ينال عقوبة تلك النظرة الخاطفة . وخرج المسكين وكان اسمه صالح الوقاع أستاذاً لمادة العلوم من مناطق دير الزور . وانهال عليه الشرطي لطماً وصفعاً وجلداً ، وصراخه يصم آذاننا ويشوي قلوبنا ولكننا لا نملك له إلا الدعاء .

ولم يكد هذا المشهد أن ينتهي حتى فتح الباب مرة أخرى ونادى عنصر من الشرطة فينا :

من كان منكم عسكري ولا .

غير أن أحداً منا لم يجب . أعاد السؤال فسكت الجميع . وفي المرة الثالثة رفع أحدنا يده وكان اسمه وضاح الدن من قرى حلب وقال :

أنا سيدي .

قال الشرطي : أنت عسكري ولا ؟

أجاب نعم سيدي .

قال الشرطي وهو يرمقه بقرف : ماشي الحال .. قدم الصف لأشوف .

فوقف الأخ وفق الإجراءات العسكرية ونادى فينا :

انتب......ه . است......رح . است......عد .

وفي الوقت الذي لفنا الإضطراب ولم نعلم بم نتصرف صاح الشرطي فيه :

بتقول استرح استعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب . تفعل ذلك كل ما سمعت أي حركة على الباب يا ...

فطور بالإكراه !

وخرج حضرة الرقيب .. وجعلنا نحوقل في سرائرنا ونسأل الله اللطف والستر .. ولم يلبث أن فتح الباب من أجل إدخال الفطور . وقفز الأخ من مكانه وصاح بنا اللازمة التي تعلمها :

انتب......ه . است......رح . است......عد .

ولكنه تلعثم قبل أن يعلن جاهزية المهجع للتفتيش فلم نكن قد عرفنا بعد كيف يكون ذلك أو كيف ننفذ هذا الأمر في هذه الظروف . ونادى الرقيب وهو يكاد يزمجر :

السخرة .. وين السخرة ولا ؟

ولم يكن قد مضى على وجودنا في المهجع وقت يكفي لنلتقط فيه الأنفاس فكيف لنا أن نفكر بالسخرة وبالطعام ! فلما وجد الرقيب الحالة لم تنضبط والأمر لم ينفذ سحب الأخ وصاح إلى الخارج وانهال عليه صفعاً وركلاً ، فلما انتهى رمى به إلى الداخل ونادى من جديد :

من كان منكم عسكري يا ...... ؟

في تلك المرة خرج الأخ جمال عيار وأجاب . وكان جمال أو أبو الفضل كما كنا نناديه خريج المدرسة الشرعية بحلب يخدم الجندية الإلزامية حين اعتقل . وكان رحمه الله ممتلىء الجسم قصير القامة ، فناداه الشرطي سائلاً :

أنت عسكري ولا ؟

قال بثبات واحتراف : نعم سيدي .

قال له : أدخل الفطور الآن .

ودخل علينا جمال بطشت بلاستيكي فيه بعض قطع الجبن وأرغفة الخبز العسكري الجافة ذاتها . تبعها بسطل من الشاي يبعث منظرة على القرف . ولم يكن لأحد لا قدرة وقتها ولا شهية لتناول شيء ، لكننا وجدنا الشرطي ينادي من فتحة السقف فوقنا ويصيح :

الكل واقفاً ولا .

فانتفضنا وقوفاً كلنا .

وجهك عالحيط ولا .

استدرنا من غير أن ننسى هذه المرة أن نغمض أعيننا ونخفض رؤوسنا نحو الأرض .

رئيس المهجع . شيل قطعة الجبنة وطعميهن هالعرصات واحد واحد .

فأخذ أبو الفضل يطوف علينا ويدس في فم كل منا قضمة جبن . فلما انتهى ناداه الشرطي من جديد :

املأ قصعة الشاي وشرّب هال... بالتناوب .

ونفذ جمال ما أمر الشرطي به . وجلسنا من ثم في أماكننا صامتين واجمين . وقتذاك كانت الشمس قد سطعت وتسللت أشعتها الدافئة من نوافذ المهجع العليا فنشرت فينا الدفء والإرتياح لبرهة . غير أن الباب لم يلبث أن فتح من جديد فقفز جمال ونادى باللازمة . ودخل هذه المرة أبو جهل وبعض الزبانية حوله ونادى :

رئيس المهجع . ضب كل المساجين لجوه .

فاجتمعنا كلنا في زاوية داخل المهجع ، فيما دخل عدد من عناصر "البلدية" وفق مصطلح السجن الذي تعلمناه لاحقاً ، وهم المساجين غير السياسيين من العساكر الذين يقضون عقوباتهم في السجن . وأدخل أولئك كوماً من البطانيات المنتنة فكدسوها على مقربة من أقدام المساعد والشرطة العسكرية وخرجوا . فنادى أبو جهل من جديد :

الكل في صف واحد ولا .

فانتظمنا في صف واحد أخذ يمر أمامه وقد أغمضنا أعيننا كلنا وخفضنا هاماتنا . فجعل الشرطة يسلمون كلاً منا بطانيتين وكل اثنين منا عازلاً مشتركاً . والعازل عبارة عن خيمة بالية من خيام الجيش مغطاة بالبطانيات العتيقة . فلما تم الإستلام وفوق البَيْعَة ما لا يعد من اللعنات والشتائم قال أبو جهل يخاطب رئيس المهجع وبقية السامعين :

هذه البطانيات والعوازل عهدة .. وكل واحد مسؤول عن عهدته ولا .

وتلقينا العهدة والتعليمات والشتائم ونحن لا نزال مغمضي العيون خاشعي الحركة . وسمعنا المساعد وأزلامه ينسحبون ويغلقون الباب علينا .. فألقينا عهدتنا الثمينة تلك وألقينا فوقها أجسادنا المنهكة .. لا ندري ماذا نفعل أو نتوقع في الخطوة التالية .

التفقد

وبلغت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر . ووجدنا الباب يفتح من جديد . وانتفض الأخ جمال فقدم الصف . ودخل الرقيب وصاح فيه :

صفهم خمسة خمسة للتفقد .

ولم يكن علينا إلا التنفيذ . لكن الفزع الذي غمرنا جميعاً جعلنا نتدافع مضطربين كل منا يتحاشى أن يأتي إلى طرف الشرطي ، فلما طال الأمر ولم ينتظم الصف دخل الشرطة علينا وأوسعونا ضرباً

وجلداً ، وجمال رحمه الله يجهد في أن يساعدنا على الإنتظام في الصف قدر الإمكان . وتم الأمـــر أخيراً ، وعَدُّونا فكان العدد فوق المائة . وصار واضحاً لدينا الآن أن هنـــاك جـــزءاً أساســـياً في البرنامج اليومي يسمى التفقد ، الجلد والضرب والشتائم لوازم ضرورية لا بـــد وأن تلازمـــه .. مثلما هي لوازم لا تنفصل عن أي مناسبة أخرى تتاح للشرطة فيها أن يسفكوا دماءنا !

وخرج الشرطة .. وعدنا كل إلى ذاته مطرق الرأس مشتت الفؤاد . لا يكاد واحدنا يسمع أدنى حركة حول المهجع أو فوقه حتى ينتفض كالمحموم ! وكلما ود أحدنا أن يرفع الطرف لينظر حوله تذكر ما حل بالأخ صالح فيرتد إليه طرفه وهو حسير !

وهكذا مضى اليوم .. ومرت أيام أخر ، لا يجرؤ أحدنا أن يكلم جاره الذي ينام معه على عـــازل واحد ، أو يهمس حرفاً لأقرب الناس إليه . والبرنامج اليومي يتكرر كاللازمـــة : نـــستيقظ في السادسة ، فنضب العوازل والبطانيات ونقبع فوقها صامتين واجمين .. ولا يلبث أن يفتح البـــاب فننتفض جميعاً ونقف في حالة الإستعداد . وتخرج مجموعة منا لاستلام حفنة الطعام التي يعتبروهـــا الفطور مجازاً . فتزدردها بلا شهية ، أو نجمعها في ركن الحمام من غير أن يقربها أحد . وربما مرت على الواحد منا الوجبة والوجبتان والخمس وهو لا يمس من الطعام من قلة الشهية شيئاً . ولكم اضطر رئيس المهجع إلى رمي الطعام في الحمام لأن أحداً لم يأكله خشية أن يكتشف الشرطة ذلك فننال ما نحن بغنى عنه !

فإذا انتهى الفطور من غير مشاكل حان وقت التفقد . فنستعد ونأخذ حسبنا الله لساعة تعـــذيب لازم . وينال كل منا نصيبه المقدور .. ونعود إلى جلستنا مترقبين حذرين . ولا يلبث الشرطة أن ينادوا علينا للتنفس هذه المرة . فنخرج إلى الساحة مطرقي الرؤوس مغمضي العيون .. يمـــسك واحدنا أخاه الذي أمامه من وسطه ويتبعه كالأعمى .. لتتلقانا الكبلات والعصي فتقودنا بالإكراه إلى حيث يشاؤون . وترانا كقطيع مسعور نجري حول الساحة والكرابيج والكبلات والضربات تلاحقنا أنى اتجهنا . فإذا زلَّ أحدنا أو وقع تعثر به البقية وتكوم فوقه المتساقطون .. فتزداد فرصة الشرطة لزيادة الضرب ومضاعفة العذاب . ويعلو الصياح وأصوات الإستغاثة ، فتعلـــو عليهـــا عبارات الكفر والشتائم البذيئة .

فإذا انتهى وقت التنفس وقادتنا الكَبْلات صوب المهجع من جديد ، تكون على الباب ملحمـــة أخرى دامية . فمائة ونيف من هؤلاء البؤساء ليست أمامهم إلا فتحة هذا الباب لينفذوا منـــها . عيونهم مغمضة فلا يستطيعون مشاهدة موطىء أقدامهم ، والسياط والهراوات تلاحقهم من كل حدب وصوب . فتنحشر الأكتاف والرؤوس ، ويسقط من يسقط تحت الأقدام ، ويشج البعض

بعارضة الباب الحديدية . فلا تنتهي حفلة التنفس تلك إلا وقد دمي من بيننا أكثر ممن سلم ، وأصيب أضعاف من نجا .

طعام ومنام !

وهكذا كنا نعود إلى المهجع لنلعق جراحنا بصمت ، ونتأوه تخنقنا الحسرات والعبرات .. ويحين موعد الغداء بعد حين .. ولا يلبث أن يأتي من ثم العشاء . ونحصي إذا قدرنا نصيبنا الذي نلناه على مدار اليوم من الطعام فلا نراه يكفي لأن يسد رمق طفل صغير : صمونتان صغيرتان جافتان للوجبات الثلاث . ورشفة شاي على الفطور مع بضع حبات زيتون أو لحسة مربى أو حلاوة لا تملؤ ملعقة واحدة . ومرق أحمر للغداء لا يكاد يكفي لكي يبلل الصمونة التي فتتناها فيه . وبعض حبات الحمص المسلوق أو أجزاء من البطاطس المسلوقة للعشاء .. وحسب ! ولربما استُبْدِلَ البيض بالبطاطس مرات ، أو شوربة العدس بالحمص المسلوق . لكن قلة الكمية وسوء النوعية كانت تثير فينا الشعور بالجوع أكثر من أن تلبي حاجتنا إلى الشبع ! فنصيبنا من البيض إذا حضر لم يكن يتجاوز البيضة الواحدة لستة أشخاص . ومن الأرز ملعقة صغيرة واحدة للشخص . ومن اللحم أقل من رأس العصفور في المناسبات . وإذا أحضروا دجاجاً كان نصيب المهجع كله خمس أو ست دجاجات مقابل أكثر من مائة فم ! حتى أننا بتنا نعتبر الطعام نوعاً إضافياً من العذاب ليس إلا ! وصار اعتيادياً بيننا أن نأكل قشر البرتقال وقشر البيض والبطيخ ولا نرمي من الفضلات في القمامة شيئاً . ولكن النهار لا بد وأن ينتهي ، ويحل موعد النوم في السادسة ، لكنه النوم الذي يحرم على صاحبه أن يتنعم بالنوم فيه ! فالضوء داخل المهجع لا يطفؤ ليل نهار ، والشرطة على السطح يراقبوننا باستمرار . ولو نمى إلى سمعهم صوت همس أو حس حركة من بيننا علّموا صاحبها على الفور فكان نصيبه من العذاب في الصباح ما لا يسر !

ولقد كانت الصلاة وسط هذا الظرف نوعاً من التهلكة بالطبع ، ولكم أخرج الشرطة رئيس المهجع وانهالوا عليه ضرباً يسألونه عمن يصلي عنده من المساجين ليدلهم عليه . ولذلك كنا نصلي إيماء من أول يوم . كل بسرّه وحده من غير ركوع أو سجود . لكن النعمة التي وجدناها في ذلك المهجع كانت في الحمام . فلم يكن من رحمة الله للحمام شراقة تكشفه ، ولذلك كنا نتوضأ آمنين ، وننسحب إلى بطانياتنا فنستلقي تحتها ونصلي مومين بسكون وهدوء .

إلى الحلاق !

وانقضى قرابة أسبوع على هذه الحال .. وبدأنا نألف الوضع الجديد ونتأقلم معه . وأخذنا نجرؤ على النظر إلى بعضنا البعض والهمس فيما بيننا ولو بكليمات . وقام الأخ جمال رئيس المهجع فقسمنا إلى مجموعات صغيرة للسخرة ، فساعدنا ذلك على الخروج من حالة الوجوم تلك ،

وبدأنا نتعرف على الأفراد المحيطين بنا من غير أن نجانب أقصى أسباب الحذر . لكننا وبعد أن ظننا أن البرنامج استقر على هذه الحال فوجئنا بهم ينادوننا للخروج من المهجع مرة واحدة في غير موعد التنفس . ووجدناهم يسوقوننا مغمضي العيون إلى زاوية من زوايا الباحة تلاحقنا الجلدات والسياط كالعادة . وهناك صفونا على الجدار وجعلوا يخرجوننا خمسة وراء خمسة في صف واحد ، لنجد في انتظارنا ثلاثة من السجناء العسكريين الذين يسمون "البلدية" بلغة السجن يقومون بدور الحلاقين . وغالباً ما يتم اختيار أولئك من أبناء طائفة النظام الذين يقضون عقوبة ما في سجن تدمر ، فلا يقلون حقداً ومكراً عن بقية السجانين من الشرطة العسكرية . وعندما يصل واحدنا إلى أول الحلاقين يأتيه الإيعاز بلهجة الأمر :

وراء دُرْ .

فيستدير .

ارفع راسك .

فيرفعه من غير أن يفتح عينيه . ويمر الحلاق بالفرشاة والصابون على الذقن فيطريها . ويرسله إلى الحلاق الآخر فيفعل ما فعل الأول . وينتهزها "البلدية" فرصة لينفثوا فينا أحقادهم الطائفية . فشتيمة من هنا ، ودس للفرشاة في الفم أو الأنف من هناك ، ولطمة أو صفعة هنالك .. وأما المسبات فكلها بالمجان وعلى الحساب ! وعندما نصل للحلاق الثالث على الشاكلة نفسها ، يمر بالموس على الذقن فيحلقها ، والشرطة من ورائنا يصيحون فيه :

اذبحه هذا الكلب .. أو اسلخه هالعرص .

فيلبي الحلاق الطلب بكل امتنان ، فيضيف على الوجه جرحاً أو أكثر . ولا يبخل بمزيد من الصفعات والمضايقات . فإذا انتهى انتقل الصف إلى حلاقة الشعر ، فيجثو السجين على ركبتيه ، يداه وراء ظهره وعيناه مغمضتان . وأؤكد هنا أنني طوال السنوات التي أمضيتها في تدمر لم أشاهد وجه الشخص الذي كان يحلق لي قط إلا خلسة .. وكنت دائماً مثل الآخرين مغمض العينين مطبق الجفنين ! وعندما تنتهي حلاقة الرأس واللحية والشاربين التي تستخدم بها ماكينة يدوية بالطبع ربما انتزعت الشعر بدل أن تحلقه ، أو أصابت الوجنات فأدمتها لتبهج الحلاق .. عندما تنتهي يأتي الإيعاز من الشرطة خلفنا :

منبطحاً .

فننبطح .. ويتقدم واحد منهم أو أكثر ليقدموا لنا ما كنا نسميه "نعيماً" الحلاقة ! فيبدأوا بالقفز فوق ظهورنا ، أو يوسعونا جلداً وركلاً ، ولا ينسوا نصيبنا وافراً من الشتائم والمسبات . فإذا

انتهوا وقت أن يحلو لهم الإنتهاء ، عدنا محطمين إلى الجدار من غير أن يكف الشرطة عن جلـدنا وضربنا وركلنا ونحن ننتظر أن ينتهي المهجع كله من الحلاقة .

ولقد كانت مفاجأة لنا أول مرة حينما عدنا بعد هذه المعمعة إلى المهجع وأقفلوا علينا البـاب ، فوجدنا أنفسنا بالقرعة تلتمع رؤوسنا كثمر البطيخ .. فلم نتمالك أنفسنا من الضحك رغم الألم . ثم وجدنا أنفسنا بعد ذلك لا نألف إلا هذا الشكل فينا ، ولا نعرف إلا هذا النوع من الوجوه !

حمام الدم !

وانتهت الحلاقة ، لكن البرنامج لم ينته . ولم يلبث مناديهم أن نادى فينا :

الكل برة بالشورت ولا .

فظننا أنها حفلة تعذيب جديدة . وبدأنا نراجع أنفسنا علنا ندرك ما حدث . ووجـدتنا نـساق مغمضي الأعين عاريي الصدور مكشوفي الظهور حفاة نتبع واحداً من الشرطة كالنعاج لا صول لنا ولا قوة . تتناوشنا السياط من كل اتجاه ، وتهوي علينا الصفعات والركلات في كل خطوة . وعندما صادفنا "البلدية" الذين كانوا يوزعون الطعام على إحدى الباحات في طريقنا وجـدناهم يهجمون علينا فكأننا الطريدة العاجزة أمام كلاب الصيد ! وانتهت بنا المسيرة بعد قرابة الربـع ساعة إلى الباحة الأولى ليعلموننا هناك أنها ساعة الحمام أتت .

وعندما يذكر الحمام عادة يتبادر إلى الذهن الماء الدافىء أول ما يتبادر .. والـصابون والطيـب والإسترخاء .. لكن الأمر لم يطل بنا لنعرف الحقيقة . ووجدناهم يقسموننا قسمين : أبقوا الأول في الباحة وأمروهم أن يجلسوا جاثياً ، رأسهم إلى الأرض وظهرهم العاري مكشوف للـشرطة ، وساقوني مع القسم الثاني إلى الحمام .

ودلفنا أكثر من خمسين شخصاً على عدد من المقصورات لايتجاوز عدد أصابع اليدين ، وجاءنـا الإيعاز بالدخول تحت الدشات ، فكنا ستة أو سبعة أو ربما أكثر كلنا تحت دش واحد ! وانصب علينا الماء البارد مرة واحدة ، لكن صوت السياط التي أخذت تجلد ظهـور إخواننـا الـذين في الخارج أنستنا وكأنها طلقات الرصاص أحاسيس التجمد ، وأبدلت قشعريرة البرد التي سرت فينا رجفة الخوف من المصير المرتقب ! وجعل بعض أفراد الشرطة يدخلون وراءنا فينعمـون علينـا بلسعات الكرابيج مقدماً . وأمرنا بعضهم أن نخلع سراويلنا ونكشف عوراتنا زيادة لنا في الإهانة والعذاب .. ولم نجد بداً إلا أن ننفذ .. والزبانية بين ضاحك وساخر وشاتم .

وانتهى الأمر خلال خمس دقائق .. وخرجنا تتقاطر منا المياه لتتلقانا السياط التي سبق ونالت من ظهور الإخوة قبلنا . وزادنا ألماً وعذاباً أن عبرنا فوق مجاري الحمام المفتوحة فتعثر فيها من تعثـر وارتطم بحوافها القاسية من كان له نصيب لم ينته من البلاء .. فلما انتهت الدفعة الثانية خلنـا أن

دهراً بأكمله انقضى .. ومضينا تدفعنا السياط والصفعات إلى المهجع مغمضي العينين كما أتينا . وتدافعنا على الباب ككل مرة ، فتعثر من تعثر .. وشج من شج .. وارتض من ارتض . وكان الحمام حقيقة الأمر حمام دم بكل معنى الكلمة .

وارتمينا بعدما أغلق الباب علينا كالقتلى على الأرض . ما منا إلا من يئن أو يتأوه .. وليس فينا إلا جريح أو معنّى . لكن المأساة لم تكن انتهت بعد .. والمهزلة كانت تنتظر فصلها المضحك للختام . فما هي إلا دقائق حتى فُتِحَ الباب ، ودخل الشرطة فأبلغوا رئيس المهجع أن علينا أن ندفع أجرة الحلاقة والحمام .. فوراً وفي الحال !

وأتى الأخ ينتظر منا الجواب .. وليس لدينا من جواب إلا التسليم في كل مرة .. وتقدم من سَلِمَتْ نقوده في الأمانات فدفع .. واندفعنا بعدما هدأ الحال إلى حمام مهجعنا لنغسل ما كسى أجسادنا من دم وشعر وتراب ، فما كدنا ننتهي حتى كان اليوم قد انتهى .. وانتهت فينا كل ذرة من طاقة وجَلَد .. فارتمينا على بطانياتنا الرثة نلتمس ساعة نوم هادئ قبل أن تدهمنا مفاجأة جديدة .. أو تحل علينا من القوم نازلة لم تكن في الحسبان !

ولقد استمر نظام الحمام البئيس هذا مرة كل أسبوع حتي عام ١٩٨٤ حيث صدرت الأوامر وقتها بأن يتم الإستحمام في حمام المهجع نفسه . وأما الحلاقة فاستمرت حتى عام ١٩٨٦ حيث انتشر مرض اليرقان - كما سيأتي بأذن الله - فكان ذلك البلاء سبباً في رفع هذا البلاء !

من رحمات الله

ومرت أيام أخر .. نزداد اقتراباً من بعضنا وائتلافاً بمقدار ما يزداد الهم وتتنامى المعاناة . ومع تقادم الخبرة بدأنا ندرك كيف تمضي الأمور حولنا .. وتعلمنا أن الشرطة يتعاقبون على حراسة سطح المهجع . فصرنا ننتهز فرصة انشغالهم بالإستلام والتسليم لنتحدث بحرية أكثر أو نتحرك من غير خوف . ومع اعتياد المكان والحال بدأنا ومن نعمة الله علينا نسمع صوت الأذان الآتي من مدينة تدمر المجاورة . فلم يكن من أنيس لنا مثله أبداً . وكأنما أحس الزبانية بأثر هذه النعمة علينا ، فكان بعضهم إذا ارتفع الأذان علانا وأطل علينا من الشراقة وجعل يتبع كل تكبيرة بكلمة الكفر .. وكل تهليلة بمسبة فاحشة واستهزاء بالله تعالى . وكنا علاوة على الأذان تبلغنا حتى أصوات السيارات العابرة على الطريق في بعض الأحيان .. فنغتم من ذلك ونتحسر .. لا نتخيل كيف تسير الحياة طبيعية على بعد خطوات منا ونحن في هذا الجحيم لا يدري منهم بحالنا أحد !

ولقد كان من رحمات الله بنا أن أحضروا لنا في بدايات الأسبوع الثاني ممرضاً مجنداً طاف على المهاجع وسجل احتياجاتنا الضرورية من العلاجات . ووجدناه يحضر لنا بالفعل بعض ما طلبنا .. وكان أكثر ماكنا نريد مراهم الجروح والإلتهابات .. فمن بين هذا الجمع من البؤساء كان ثمة من

هو في أمس الحاجة لها قبل أن يصل هذا المكان .. مثلما كانت الحاجة إلى العلاجات متجددة على الدوام لدوام الضرب الوحشي والتعذيب والتشنيع .

جروح وقروح

ولقد كان من أكثر سكان مهجعنا سوءاً في حالته الصحية الأخ نديم منصور الذي حملته أنا وجمال عيار ساعة وصولنا كما ذكرت . وكان المسكين قد أصيب أثناء اعتقاله برصاصة في ساقه وأخرى في يده . وكان ثمة أخ آخر هو هيثم ملا عثمان مصاباً بالرصاص أيضاً في رجله . وهو أحد الإخوة السبعة عشر الذين هربوا من سجن كفر سوسة ثم اعتقل من جديد وأصيب أثناء ذلك . وتنقل الأخَوَان من فرع مخابرات إلى آخر حتى وصلوا تدمر من غير أن ينالا من العلاج شيء ! وكان أمراً عجيباً أن ظلا على قيد الحياة فعلاً . فالرصاصات التي مزقت اللحم وهشمت العظام استقرت هناك . وتقطعت كما يبدو أعصاب المنطقة فلم تعد الأعضاء تتحرك . ونمت العظام من جديد والتأمت بقدرة الله ولكن على غير وضعها السوي . ولذلك فلم يكن نديم أو هيثم يقدران على السير مطلقاً . وكنا نتعهدهما بأنفسنا في الحركة والسكنة . ولم يكن أمامنا ساعة التنفس أو الحمام إلا أن نتركهما في المهجع بعد الإستئذان من الرقيب . فإذا تلاءم ورفض حسب المزاج كان علينا أن نحملهما حملاً . وظل المسكينان في معاناة دائمة حتى كان إعدامهما عام ١٩٨٤ .

كذلك لم تكن معاناة الأخ حسين عثمان نتيجة تعذيبه بالكرسي الألماني أخف كما ذكرت . وكان رحمه الله دائم الإستلقاء منعدم الراحة . ولم يسلم برغم ذلك من التعذيب كما سيأتي .. حتى اختاره الله إليه ونال شرف الشهادة عام ١٩٨٢ .

وأما بقية الإخوة ، ورغم أنهم كانوا في حالة أفضل أو إصابات أخف ، إلا أن آلامهم لم تكن لتكف ، وجروح بعضهم التي خلفتها حفلات التعذيب الأولى في فروع المخابرات أو تلك التي زادت عليها في حفل الإستقبال بتدمر لم تشف إلا بعد شهور . وزاد علينا القمل الذي حملناه في أجسامنا من فروع المخابرات إلى تدمر ، فانتشر في المهجع وتفشى بين الجميع .. ولجأنا إلى نظام التفلية من جديد كإجراء وحيد نخفف منه من شر هذا البلاء !

كعبة الزبانية !

وبدأت نفوسنا تعتاد هذه الحياة القاسية يوماً بعد يوم . وجعلنا في حسابنا أمر التفقد وما يصاحبه من عذاب الإستفتاح كل يوم .. والتنفس والحلاقة والحمام . وجعل الإخوة الشباب الأصحاء يحرصون أن يقفوا من ناحية الشرطة ليفتدوا إخوانهم المسنين والضعفاء ويحموهم من أن تطالهم سطوة الظالمين . وكان معنا عدد من المعتقلين ممن جاوزوا الستين والخامسة والستين ، أذكر منهم

شريف البعث والحاج محمد غرير وكلاهما من ادلب ، وابراهيم طوبل وعمر حيدر الذي تــوفي رحمه الله بالسكتة القلبية عام ١٩٨٦ والرجلان من المعرة . كذلك كان معنا الحاج أحمد البربور من أريحا . وكان الزبانية يحرصون على تعذيب هؤلاء الرجال أكثر ويظنونهم لكبر سنهم ولإصابة بعضهم بالصلع الطبيعي أنهم من قيادات الإخوان ! فكنا نجنبهم التعرض للعذاب قدر الإمكان ، ونأخذ عنهم دورهم في سخرة الطعام . فينال الأخ المتطوع الجلدات واللطمات ويضحي بما قــد يكون حياته ذاتها فداء لإخوانه .

وكان الأخ جمال رئيس المهجع قد قسمنا إلى مجموعات كما ذكرت ، فكان ذلك سبباً في ضبط المهجع وتقليل المشاكل مع الشرطة من جهة ، وعاملاً في تآلفنا وتعارفنا من جهة أخرى . حــتى بتنا كأبناء أسرة واحدة يواسي بعضنا بعضاً ، ويساند أقوانا الضعيف فينا .. ويدخر كل منا وسعه للتخفيف عن أخيه . ولا أزال أذكر ممن كان في مجموعتي الأولى الأخ أبا رشيد حسين عثمــان . وأخاً آخر من حمص اسمه أمجد طيارة . والأخوين ابراهيم أحمدو ومحمد طاهر مصطفى من أريحا .

وإذا كانت الأحداث المرة وتعاقب السنين قد أنستني من الأسماء والحوادث الكثير فإنــه ممــا لا ينسى عن أحداث تلك الأيام وذكريات هؤلاء الإخوة المسنين يوم أن عرف واحد من الــشرطة اسمه شحادة الذي ينتمي إلى طائفة النظام أيضاً أن الحاج أحمد غرير قد ذهب لحج بيت الله في يوم ما ، فمد الزنيم قدمه أمام الناس وقال لهم هذه هي الكعبة . وأمر الرجل أن يقبل حذاءه مثلمــا قبّل الكعبة هناك . ولم يكن للمسكين إلا أن يطيع خشية ما لا تحمد عقباه .

همجية التعذيب

وانقضى أسبوع آخر .. ودخلنا أسبوعنا الثالث على تلك الحال . وفوجئنا ضحى أحــد الأيــام بدفعة جديدة من السجناء تجاوز الستين تدخل إلى المهجع قادمين من حلب هذه المرة . يحــضرني الآن من أسمائهم الإخوة رياض الشاوي وحسين ألطُنْجي وكلاهما من حلب . الأول مهندس مدني والثاني طالب ثانوي . وأحمد عنعن طالب هندسة مدنية ، وأحمد حمزة وهذان من من مدينة الباب . وكان الأخير مدرساً . فوصل عددنا الكلي قرابة المائة والثمانين .. وأصبحت حصة كل منا في النوم شبراً وأربع أصابع وحسب ! فكان الواحد منا إذا أراد التحرك في الليل أيقظ بحركته أكثر أهل المهجع . ولو أحس الشرطي فوقنا بأدنى حركة بيننا في الليل خاصة كان ذلك كافياً لــيعلّم من يشاء ويخرجه في الصباح التالي لينال نصيبه من القتل والتعذيب .

لكن وصول الإخوة الجدد كان نوعاً من التسرية المؤقتة لنا ، مثلما كان وجودنا من قبلهم عونــاً لهم على تفهم الوضع وتعلم الأنظمة الجائرة تجنباً لأي مزيد من العذاب . وسرعان مــا انــضم القادمون إلى مجموعات السخرة والطعام .. وجعلنا نسمع منهم أخبار الحياة خارج هذه الأسوار

.. ويسمعون منا ما وجدناه منذ وصولنا هنا .. فشغلتنا الأحاديث ونشطتنا .. ووثقت بيننا العرى وألفت بيننا . وكشفت لنا في نفس الوقت أوجهاً أخرى من جرائم النظام وممارسات مخابراته الوحشية ، وأطلعتنا على أساليب من التعذيب يمارسها أولئك الزبانية عافانا الله نحن منها وابتلى بها إخواننا في حلب . رأيت بنفسي نموذجين منها كان الأول هو الأخ حسين ألطنجي الذي استخداموا معه في فرع المخابرات بحلب الضرب المباشر بالبلطة على مشط قدمه لإجباره على الإعتراف السريع ، فكادت أن تقطعها ، وظل رحمه الله يتألم منها ولا يستطيع المشي عليها حتى إعدامه بعد عدة شهور . واستخدموا مع الآخر أسلوب الحرق بالمدفأة الكهربائية ، والتي بقيت آثارها محفورة على ظهره شاهداً على همجية هؤلاء الزبانية .. وكان طالباً اسمه مأمون كردي من حماة أعدم هو الآخر بعد مدة رحمه الله .

مع كتاب الله

انقضت أحاديث التعارف وروايات المعاناة وقصص الداخل والخارج واتجهنا قدر الإمكان إلى تنظيم أمور حياتنا بما يفيد . فالسجن الذي كتبه الله لنا يظل على فظاعته فترة انتقالية لا بد وأن تنتهي ، سواء بانتهاء الحياة أو بالفرج . وليس ثمة شيء نتزود منه أجلّ من كتاب الله تعالى . ولذلك دب فينا نشاط عجيب لحفظ أكبر قدر من القرآن الكريم ، حتى إذا شاءت إرادة الله ووافنا الأجل كان آخر عهدنا في هذه الدنيا مع كتابه الكريم . وسرعان ما نشأت بيننا حلقات الحفظ بالتلقي .. فلا مصاحف لدينا بالطبع نحفظ منها . ولذلك كنا نتبادل حفظ السور من بعضنا البعض ، فيجلس أحدنا إلى أخيه إذا هدأت الأمور وانتهت حفلات العذاب ليسمع منه ما يحفظ ، ويظل يردد وراءه الآية بعد الآية هامساً ويَعُدُّهُنَّ على سُلامات الأصابع . فإذا أنهى خمساً منهن وثبتهن في ذهنه عاد فأخذ خمساً تاليات . حتى إذا انتهى اليوم وحل الليل وهجع الخلق رأيتنا نتعاقب على الحمام خلسة فنتوضأ ونعود لنصلي ونحن مستلقين تحت البطانيات إيماءاً منفردين .. نعيد تلاوة ما حفظنا في النهار .

وعلاوة على ذلك وإذا سنحت الفرصة أخذنا نحاول أن نستفيد من كل علم يعلمه أخ بيننا ، أو رأي أو موضوع له فيه اطلاع . لكن ذلك ما كان يتم إلا بشكل فردي .. أو ربما بين أفراد المجموعة الواحدة وبمنتهى الحرص والحذر .

الكوليرا

ولم تكن بلاءات هذا المكان المريع لتتوقف .. فذات صباح في صيف عام ١٩٨١ استيقظنا على أصوات التقيؤ وصيحات الألم المكتومة في المهجع .. ووجدنا حالة من الإسهال الشديد أصابت الكثيرين بيننا . وأخذت العدوى تنتشر يوماً بعد يوم ، وجعل الإخوة يتساقطون من الإعياء

داخل المهجع أو في وقت التنفس . وكانت الفاجعة بأنها الكوليرا قد سرت . ولم نلبث وقد استشرى الأمر أن وجدنا طبيب السجن محمد يونس العلي يمر على المهاجع ويسأل عن عدد المصابين ويسجل ذلك عنده . وبعد ساعتين أو ثلاث عاد الشرطة وطلبوا من رئيس المهجع أن يخرج هؤلاء المصابين جميعاً لينتقلوا إلى مهجع ١٣ في الباحة الثالثة فتحوه للمصابين . فخرج من مهجعنا وحده حوالي الأربعين . وأمضى الإخوة في العزل عدة أسابيع قدمت لهم إدارة السجن وقتها علاجات مباشرة خشية أن ينتشر المرض فيشمل الشرطة والسجانين أنفسهم . أو أن يتعدى حدود السجن فينتقل عبر المجاري التي كانت تتصل مع شبكة مجاري بلدة تدمر وتنتهي في حقول المزارعين لترويها !

لكن المثير في الأمر أن هذه الحركة ساعدت العديدين على الإلتقاء بأقارب لهم أو أصدقاء كانوا في مهاجع أخرى والإطمئنان على أحوالهم . وكانت كذلك سبباً في وصول أخبار جديدة إلينا وتسريب أخبارنا إلى بقية الإخوة . ولقد بلغنا وقتها أن السجناء في بعض المهاجع اكتشفوا آثار إطلاق الرصاص وبقايا دم آدمي لا تزال موجودة على السقف والجدران من أيام مجزرة تدمر الكبرى في شهر حزيران من عام ١٩٨٠ . لكن الأهم من ذلك بالنسبة لنا كان تمكن عدد منا من حفظ آيات وسور من القرآن الكريم لم تكن في مهجعنا . علاوة على انخفاض نسبة التعذيب واعتداءات الشرطة الذين باتوا يتجنبون الإحتكاك بنا خشية العدوى ! ولقد علمنا بعد عودة الإخوة أن وفيات حدثت بالفعل بين مصابين من مهاجع أخرى ، أذكر من أسمائهم الأخ ناصح شنيطي من دمشق . لكن لطف الله تعالى ورحمته كانت واضحة في هذه المحنة . وبرغم انعدام العناية الصحية اللازمة وقلة التغذية وسوء الأحوال فقد مرت الأزمة بأقل الخسائر وقد كنا نتوقع أن تودي بحياة المئات .

مهجع النساء

لم يطل المقام بنا كثيراً في تدمر حتى تأكد لنا أن هذا المكان الرهيب يضم بين جدرانه أخوات سجينات أيضاً خصصوا لهن غرفة المستوصف السابقة وحولوها إلى مهجع للنساء .

ولقد تأكد لنا الأمر أول مرة حينما استدعوا إلى التحقيق أخاً من مهجعنا اسمه بسام سفّور من حمص كانت تهمته تأمين جواز سفر لبعض الأشخاص الملاحقين . ويبدو أن امرأة غير مسلمة اسمها أم طوني كانت قد باعته الجواز أو شاركت في عملية تزويره ثم اعترفت عليه . فلما استدعوه للتحقيق في السجن نفسه واجهوه بها . واستطاع بعدما انتهى التحقيق أن يراهم يدخلونها غرفة المستوصف التي سجنوا فيها النساء . وفي مرة تالية وبينما كنا في التنفس استطعنا أن نلمح عدداً

من النساء المحجبات في ذلك الجانب من الباحة فتأكد لنا وجودهن هناك . لكننا لم يكن ممكناً لنا أن نعرف عنهن أكثر أو أن نقدم لهن أي عون .

الإعدام

واستيقظنا في يوم من تلك الأيام ننتظر أن نبدأ البرنامج الذي اعتدنا عليه وتأقلمنا معه إلى حد كبير .. وبدأنا نضب بطانياتنا ونجمع العوازل من تحتها حين نادى علينا الشرطة من شراقة الباب فجأة وبشكل إيعاز :

الكل ضبوا لجوة ولا .

فسارعنا ونفذنا الأمر وتجمعنا كلنا في أقصى المهجع نستعيذ بالله من شر ما خلق ! وإن هي إلا برهة حتى بلغتنا من الباحة أصوات وضجيج غير مألوف .. وأحسسنا وكأنما هناك حمولة من الخشب ترمى على الأرض .. والنوافذ عالية لانستطيع أن نطل منها .. وبيننا وبين الباب مسافة لم نجرؤ أن نغادر زاويتنا ونسترق النظر من شقوق فيه خشية أن يرانا الشرطة من الشراقة فوق المهجع فيعاقبونا بما نحن في غنى عنه .

لكن الجلبة استمرت .. وتتابع صوت ارتطام الخشب بأرض الباحة الإسمنتية .. ورأينا ظلال الشرطة على جدران المهجع تعبر من النوافذ العليا كالأشباح .. فشعرنا بقلق وانقباض .. وبدأنا نتوقع شر الإحتمالات .. ونحسب أنهم سيدخلون الآن ويطلقون علينا النار كلنا كما فعلوا قبل أقل من عام في نفس المكان . ولم يطل بنا الإنتظار كثيراً .. فما هي إلا برهة حتى سمعنا أصوات التكبير تتعالى .. وسجناء ينادون أسماءهم ويقولون أخوكم فلان يوحد الله . ومن بين هؤلاء لا أزال أذكر اسم الأخ محمد ناصر البيك من حمص ، الذي بلغتنا تكبيراته وعبارته الأخيرة يقول :

أخوكم محمد ناصر البيك يوحد الله .

فعرفه إخوة من مدينته في المهجع معنا . وأيقنا أنها عملية إعدامات تجري الآن . وأن مجموعة من السجناء يعلقون على المشانق بالفعل . فاحتبست أنفاسنا جميعاً .. واختنقت فينا العبرات .. وتجمدت على ألسنتنا العبارات .. ولم تنقض أكثر من عشر دقائق حتى خفتت الأصوات .. وسكنت الحركة .. وبدأت الأمور خارج المهجع تعود إلى طبيعتها بالتدريج .. لكن التفقد تأخر وألغي التنفس في ذلك اليوم .. وأحضر الشرطة الطعام من غير أن يشيروا إلى ذاك الذي حدث بشيء .

وأغلق الباب علينا بعد ذلك لتلفنا دوامة القلق والتساؤلات . فها نحن الآن أمام الموت وجهاً لوجه .. والإعدامات التي كنا نسمع عنها ونتخوف منها حدثت على بعد خطوات منا وحسب .. وإذا كان شهداء المجزرة الكبرى قبل عام قد قضوا نتيجة نزوة كما ظن البعض أو ثأر بعد

محاولة اغتيال رأس النظام ، فإن ما نراه الآن ونسمعه يجعلنا نحس أن الأمر منظم في الحقيقة ومقرر ، وأن هناك برنامجاً لتصفية السجناء إذاً . ولم يعد مستبعداً بعد الآن أن نقف أنفسنا هذا الموقف وتلتف حبال المشنقة على أعناقنا نحن بعد حين !

تساؤلات .. وتأويلات

وأخذت التساؤلات تغادر السرائر بالتدريج وترتسم على شفاهنا تباعاً ، فتنتقل من فرد إلى آخر ومن مجموعة إلى غيرها .. وترسم معها معالم مختلف الناس الذين ضمتهم المحنة وجمعهم هذا المكان الرعيب . ورغم أن الحادثة هزتنا جميعاً إلا أن أكثر من اهتز حقيقة كان أولئك الذين لم يكونوا أهل انتماء بالأصل ، وجرفتهم المصلحة أو الحماسة فشاركوا بعمل ما وألقي القبض عليهم واعتبروا في منزلة واحدة كالمنظمين والمسلحين .. ومن هؤلاء كان بضعة نفر من المهربين وتجار السلاح .. ممن لم يكونوا مهيئين نفسياً لا للمحنة ولا للإعدام والموت ! وانتشرت بناء على حال كل فئة تأويلات المتأولين وتحليلات المحللين .. فاجتمع رأي البعض على أن الإعدامات إنما تنفذ في المسلحين الذين شاركوا في عمليات حقيقية وأدينوا فيها .. وأما المنظمون من غيرهم فمثلهم كمثل تلاميذ المشايخ لا خطر منهم ولا تثريب عليهم ! وذهب نفر إلى أن المسلحين أنفسهم قسمان : قسم تسلح ولكنه لم يَقْتُل أو يقاتل .. وهؤلاء أقرب للفئة السابقة إذاً . وفئة أخرى قاتلت وقَتَلت وثبت عليها العمل العسكري .. وهؤلاء هم الذين تنفذ فيهم الإعدامات وحسب .

وأحدثت هذه التقسيمات خلخلة غير منتظرة في الصفوف .. وظهرت بسبب هذه التخمينات مشادات وأخذ ورد .. ونادى العقلاء بأن الأمور بيد المولى سبحانه والأعمار مقدرة في علمه الأزلي لا تنقص ولا تزيد .. وقال الإخوة الذين أدينوا بالعمل العسكري بأن الشهادة شرف لكل مسلم .. فإذا كانت قد دنت فمرحباً بها .. ولكننا هنا جميعاً في نظر النظام أعداء .. وهم لا يفرقون بيننا لا في عذاب ولا في إعدام .

وحل الشتاء !

ومضت الأيام وحل الشتاء .. شتاء الصحراء الذي لا يرحم .. ونحن في مهجعنا لا نملك إلا بطانياتنا البالية ذاتها ، والنوافذ والشراقات فوقنا مفتوحة على حالها ، ويا بؤس من بات ليلته تحتها .. ويا سوء حظ من تأفف من مطر السماء حتى ولو انصب عليه طوال الليل ! ولذلك وبسبب هذه البرودة والرطوبة وسوء التغذية تفشت بيننا أمراض الزكام والروماتيزم والتهابات المفاصل .. ثم لم يلبث أن ظهر السل فينا بعد أقل من عام .. أو أنه كان قد ظهر بالفعل ولكننا لم نكتشفه إلا وقد استشرى وعم !

وهكذا عدنا إلى برنامج المعاناة نفسه .. أسرى جدران المهجع ٢٦ نتقلب بين عذاب وعذاب .. وتفقد وتنفس .. وحلاقة وحمام .. ولكننا كنا نغالب ذلك كله بحفظ كتاب الله وتلاوة آياته ما وسعنا الجهد . ولم يكن ذلك هيناً في هذا الجو العصيب ، لكننا ثابرنا بحمد الله وتابعنا . ولم يكن فقه السجون قد تبلور لدينا في تلك الفترة بعد ، فكان بعضنا يخاطر بالقيام للوضوء مع كل صلاة رغم أن التيمم كان مرخصاً لنا . وكان احتمال أن يكتشف الشرطة حركتنا في الليل خاصة معناه عذاب محقق في الصباح التالي ربما كلف المرء حياته ! كذلك كنا نغتسل من الجنابة بالماء البارد مع برودة الجو رغم أن التيمم كان وارداً أيضاً ، ونظن أنه لا حل لنا إلا بذاك . لكننا أخذنا من بعد نتتبع الرخص الشرعية ونخفف عن أنفسنا قدر المستطاع . ولم نعدم أن نجد بيننا من ظل يتشدد ويصر على الإغتسال وعلى الوضوء في كل مرة وعلى أداء الصلاة وقوفاً والمجاهرة بالصيام حينما منع في السنوات اللاحقة ، برغم المخاطر واحتمالات الأذى له وللآخرين .

محكمة !

وذات يوم .. وكان قد مضى على حادث الإعدام بضعة أسابيع دخل علينا الشرطة وسألوا عن أسماء بعينها ، ولم نكن قد عهدناهم ينادون أحداً باسمه من قبل . لكن أياً من هذه الأسماء لم يكن بيننا . وتكرر الأمر مرة بعد مرة .. فأحسسنا أن ثمة شيئاً مريباً يدور .. حتى كان صبيحة يوم جديد ، حينما دخل الحرس ونادوا مجموعة أسماء من مهجعنا هذه المرة وقادوهم معهم . وكانوا قرابة الخمسة عشر شخصاً كلهم من حمص .

ومضت حوالي خمس أو ست ساعات أحضر الشرطة خلالها الفطور والغداء معاً وأغلقوا الباب علينا من غير تفقد أو تنفس .. فلما عاد الإخوة وسألناهم أين كنتم قالوا في المحكمة . فتيقنا ساعتها أنها جد إذاً . وعلمنا منهم أن أحكاماً صدرت بالإعدام على أكثرهم . وسرعان ما وجدنا الإخوة المحكوم عليهم بالإعدام قد تغير حالهم .. وانصرفوا عن كل شؤون الدنيا انصرافاً تاماً .. وتوجهوا إلى الله سبحانه بكلياتهم يهيؤون أنفسهم للقاء رب العالمين حتى كأن أحدهم لم يكن من أهل هذه الدنيا أبداً . ولم ينقض شهران بعدها حتى طُلِبَ هؤلاء الإخوة للإعدام .. فكانت أول كوكبة من أهل الجنان إن شاء الله نودعهم من مهجعنا .. سائلين الله تعالى أن ينتقم لهم ويتقبلهم ويجعلهم في أعلى عليين .

مرحباً بلقاء الله

دخل الشرطة صبيحة ذلك اليوم المرير وقرؤوا أسماء المطلوبين فيما كانت إجراءات نصب المشانق وتهيئة مراسم الإعدام تتم في الباحة أمام مهجعنا مباشرة . وكانت مفاجأة لنا أن عدداً ممن تليت أسماؤهم كانوا قد خرجوا إلى المحكمة وقتها ولم يبلغوهم كالآخرين أنهم حكموا بالإعدام . فلما

سمع الإخوة أسماءهم وأيقنوا المصير تراكضوا إلى الحمام فتوضؤوا ومدوا شيئاً هناك وصلوا عليه تخفياً من الشرطة خشية علينا نحن لا على أنفسهم . وخرج الركب أكثر من عشرة كأنهم غير الذين عرفنا كل هذه الأيام .. مطمئني النفوس .. مشرقي القسمات .. مقبلين بكل جوارحهم على الله راضين بقضائه . واستطاع بعضنا أن يعانق عدداً منهم .. وخرج الآخرون حتى من غير كلمة وداع . لا زلت أذكر من أسماء تلك الدفعة الإخوة حسن الصغير ، وعبد الغني الدباغ ، وبسام كالو وكلهم من حمص . ولا زلت أذكر كأنه الساعة كيف أن الأخ بسام استيقظ صباح ذلك اليوم مبكراً وقال لإخوة حوله : رأيت اليوم مناماً . سألوه : خيراً إن شاء الله .. ماذا رأيت ؟ قال : رأيت قول الله تعالى في القرآن الكريم (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين) . ولم يلبث أن نودي للإعدام رحمه الله بعد ساعة أو أقل ، فأحسسنا أن الله سبحانه حقق له منامه وتقبله وغفر له وأنزله الجنان إن شاء الله .

أرجوحة الشهداء

وأقفل الجلاوزة الباب .. وساقوا الإخوة أول الأمر إلى مهجع في أقصى الباحة يسمى "الورشة" . وعلمنا من بعد أن سليمان الخطيب يأتي بنفسه ليتأكد من الأسماء والأشخاص ويتلو عليهم ديباجة الحكم ، ويأتي معه أو يتبعه مدير السجن الذي كنا نحس بقدومه من صوت المساعد يقدمه بالازمة المعتادة قائلاً :

است.....رح .. استع.....د . الباحة جاهزة للتفتيش سيدي اللواء أو سيدي العقيد .

وبعد هذا الإجراء يبدأ الشرطة بسوق الإخوة إلى المشانق تباعاً . وعندما بدأ ذلك هرعت من فوري إلى شق صغير في باب مهجعنا فرأيت المشانق منصوبة على امتداد الباحة .. والإخوة الآن وقد باتوا على حافة الردى يكبرون بأعلى صوتهم ويهللون .. ويساق أحدهم بعد الآخر مغمض العينين مكبل اليدين إلى المشنقة التي انتصبت على قوائمها الثلاث .. يتدلى منها حبل كحبال الغسيل البلاستيكية .. يخالف في هذه المواصفات وتلك الوضعية أبسط الشروط التي يفترض أن تتوفر في مشنقة الإعدام المخصصة للمجرمين ! ورغم ذلك يؤمر الأخ بالجثو أمام المشنقة دون أن يدري ماذا أمامه ، وعن جانبيه اثنان من "البلدية" ينتظران الإيعاز من الشرطي الذي يقف في مقابل الأخ . فإذا أشار إليهما تناولا حبل المشنقة فطوقا به رقبة السجين .. ثم تأخرا إلى الوراء فأمسكا بقائمة المشنقة . ولا يلبث الشرطي أن يصدر الإيعاز الأخير .. فيشد "البلدية" الخشبة .. وتنتصب المشنقة .. فيرتفع الأخ في الهواء بلمحة عين .. ويشهق شهقته الأخيرة وتزهق روحه خلال لحظات . فإذا بدت منه حركة تدل على احتمال استمرار الحياة فيه تقدم عنصرا "البلدية" ثانية فجذبا الأخ وتعلقا به حتى يشتد إطباق الحبل على رقبته إلى أبعد مدى .

ولا يلبث الطبيب يونس العلي أن يتقدم فيجس النبض ، ويتأكد من الوفاة .. فتعاد المشنقة إلى وضعها ، ويفك الحبل عن رقبة الشهيد .. ويرمي به القتلة جانباً بدم بارد ، فيما يعد الشرطة الأخ التالي للإعدام . حتى إذا اكتمل العدد ونفذت الجريمة وتكومت الجثث ، دخلت الساحة شاحنة عسكرية ، وتقدم "البلدية" فحملوا أجساد الإخوة واحداً بعد الآخر وقذفوهم فيها .. لتمضي إلى حيث لا يعرف بمصيرهم أحد إلا الله . وفي هذه الدفعة قدرت أن أكثر من خمسين أخاً قضوا نحبهم .. نحتسبهم في عداد الشهداء الأبرار إن شاء الله .

العزاء

غادر الإخوة إلى لقاء الله ، وبقينا نحن في كربتنا ووحشتنا تلفنا حالة من الكآبة خانقة ، والناس وكأن على رؤوسهم الطير .. ليس لنا إلا العبرات الحرى نطلقها بصمت وألم .. والتضرع إلى الله نرسله خافتاً مرتعشاً مع الزفرات .

وغاص كل منا في خواطر شتى .. فهؤلاء الذين كنا نأكل معهم قبل ليلة خلت .. ونصلي وإياهم الفجر قبل برهة . هؤلاء الذين كنا وإياهم في سباق على حفظ كتاب الله .. نسمع منهم أو يسمعوا لنا . وربما كان واحدهم قد بات ليلته الأخيرة بجانبنا ، أو أرسل آخر ابتسامة له من وجهه الطلق وغادر وتركنا . هؤلاء الذين نمت بيننا العلاقة عن غير سابق معرفة من قبل في أحلك الظروف وأقساها .. شهرين أو ثلاثة نتناوب على تلقي العذاب ومواجهة الهول معاً .. فكنا على قصر الأيام أكثر من إخوة وألصق من أشقاء . هؤلاء جميعاً خرجوا من بيننا ولن يعودوا أبداً . وغادروا الدنيا ولن نلقاهم إلى يوم الدين .

وترتد الخواطر إلى ذواتنا سريعاً ، ونبدأ نسترجع شريط حياتنا نحن الذين لا نزال أحياء . من طفولتنا البريئة .. إلى شبابنا الذي ما أن بدأ يزهر فينا حتى اقتطفته يد الظلمة من غير ما إنذار . ويتجه الحوار في ذواتنا إلى المستقبل الآتي .. وأي مستقبل ذاك والمشانق ها هي لم تُحَلَّ حبالها بعد ! وتختلط فينا مشاعر الشفقة بالشوق .. واللوعة بالخوف .. والإحباط بالرجاء . ولا نجد في خاتمة المطاف ما نعزي به أنفسنا ونواسي جراحنا ونخفف من هول المصيبة علينا إلا الإلتجاء إلى الرحمن الرحيم ، والرجاء بأن يكون ذلك في سبيله فيقبلنا في الآخرة ويعفو عنا .

مع كتاب الله

وترانا نهرع من جديد إلى كتابه جل وعلا أنيسنا وبلسم جروحنا ننكب عليه ونلتجيء إليه . ولقد أكرمنا سبحانه بعد أسابيع لم تطل بأخ حافظ لكتاب الله قدم إلينا مع حوالي خمسة عشر أخاً من دمشق كلهم من جماعة مسجد زيد بن ثابت . والأخ الحافظ اسمه محمد صنوبر من بلدة جديدة الذيباني قرب دمشق . فكان سرورنا به أكبر من أن يوصف . وأقبلنا نتلقى منه السور

والآيات ونحفظها . وكنت أنا والأخ هيثم عثمان برغم إصابته الشديدة نحفظ معاً .. ونراجع ما حفظنا باستمرار .. حتى بات كتاب الله شغلنا الشاغل . ومن شدة همتنا وعزيمتنا أذكر أنني بتوفيق الله حفظت سورة الأنعام كلها في أربعة أيام .. وكنت من قبل أن أعتقل أحفظ جزء عم وبعضاً من الجزء التاسع والعشرين وحسب . فلما رأينا الإعدامات وقدرنا أن المنية قد دنت أحببنا أن ننهي الحفظ فنلاقي به وجه ربنا . وفي عام ١٩٨٢ أنهيت والأخ هيثم ولله الحمد حفظ القرآن الكريم كله . وكنا أول من ينهي الحفظ من مهجعنا بفضل الله .

مؤامرة !

ومرت الأيام .. وفوجئنا بواحد من الشرطة العسكرية صبيحة يوم تال يطلب أبا رشيد ويمضي به إلى حيث لا ندري . وعندما عاد بعد بضع ساعات كان في حالة يُرثى لها من أثر التعذيب . ولم يكن من طبع أبي رشيد الإكثار من الحديث ، لكنه خصني رحمه الله بذكر ما جرى بحكم معرفتي السابقة به وصلتي الوثيقة معه . ووقتها أخبرني أن ضباطاً من المخابرات أتوا للتحقيق معه حول علاقته برئيس الأركان حكمت الشهابي الذي حضر إلى فرع المخابرات من قبل - كما ذكرت - وحاول دفعه للإعتراف ووعده بالمساعدة . وكانت إعادة التحقيق مع السجين من أصعب الأمور عليه وقد ظن أنه انتهى من هذه المرحلة وطويت أوراق ملفه . ورغم أن الشهابي حاول حقيقة الأمر أن يوقع أبا رشيد ويعين المخابرات عليه إلا أنه رفض الإعتراف بأمر يضره . ولعب المحققون لعبة الإغراء ثانية معه ووعدوه بأن ينقذوه من الإعدام إذا اعترف بوجود صلة للشهابي معه فأبى . وعذبوه على ذلك أشنع العذاب فأصر على موقفه .. وأحس أن ثمة مؤامرة داخل أجنحة النظام تريد استغلاله لتصفية خصومات بينهم .. فأبى بنزاهة المسلم أن يظلم حتى عدوه، وتحمل في سبيل ذلك أشد العذاب.

اليوم المقدور

وانقضت شهور أخر . وتحسنت صحة أبي رشيد والتأمت جراح حفلة التعذيب تلك .. ومضت حياتنا على نفس المنوال لا نخرج من هم حتى نقع في هم أشد .. ولا ننجو من تعذيب حتى يطولنا حفل تعذيب أشنع .. وفي شهر تشرين الأول أو تشرين الثاني من عام ١٩٨١ تم استدعاء دفعة جديدة للمحكمة الهزلية التي كانت أحد فصول التعذيب النفسي والجسدي معاً . وخرج في هذه الدفعة أبو رشيد ضمن حوالي أربعين أخاً من مهجعنا . ورغم أنه رجع من غير أن يبلغونه بالحكم إلا أنه أدرك أن الأمر انتهى .. واستشف ذلك من كلام سليمان الخطيب الذي تربع على كرسي القضاء جوراً وظلماً .. خاصة وأنه عاد وألح عليه لتوريط الشهابي .. ووعده بإنقاذه من الإعدام إن فعل .. وأصر أبو رشيد وقتها على الرفض مهما كانت النتيجة .

وعاد أبو رشيد من المحكمة وقد نوى أن يبدأ الصيام من ساعتها وإلى أن يلاقي ربه . وقال بأنه لن يفطر حتى يخرج إلى الإعدام . وعندما حل ذلك اليوم المقدور بعد قرابة الشهرين كنت قد رفعت له شاياً وبعض الطعام من وجبة الفطور ليتناولها عند الغروب . فلما دخلوا ونادوا على أسماء المطلوبين للإعدام من دفعته لم يذكروا اسمه .. وتدافع الإخوة لوداع الأحبة وأغلق من ثم الباب .. وبينما نحن نترقب ناداني أبو رشيد رحمه الله وقال لي :

أخي أبو سليم .. أراني اليوم متعباً .. هات ناولني الشاي والطعام لأفطر .

قلت له : هاك وتوكل على الله .

ووالله الذي لا إله إلا هو ، لم يرشف أبو رشيد من الشاي رشفة وبدأ بالثانية حتى فُتِحَ الباب من جديد ونادى الشرطي فينا :

حسين رشيد عثمان .

حاضر .

رد أبو رشيد وكأس الشاي لا يزال بين شفتيه .. فأيقنا سبحان الله كيف أن رزق الإنسان المقسوم لا بد وأن يبلغه .. وأنه كان لا بد وأن يأخذ رشفتي الشاي هاتين لا تزيدان ولا تنقصان !

ولم يلبث أن قفز رحمه الله إلى زاوية من زوايا المهجع وبدأ يخلع عنه ملابسه وهو يكبر ويهلل .. وحينما لم يبق عليه إلا الشورت والشرطة على الباب يكادون يجنون مما يفعل ألقى إلينا بكل ما كان يرتدي لنستفيد منه .. وخرج إلى الإعدام رحمه الله . ولم أستطع هذه المرة التلصص من ثقب الباب بعد الذي حصل . وسرعان ما انتهى تنفيذ الإعدام ، ودخل الشرطة علينا فأخرجونا إلى الساحة وأشبعونا جلداً ولطماً حتى يمسحوا عنا أي أثر إيجابي تركته فينا تكبيرات أبي رشيد رحمه الله .

أحداث حماة

وحل عام ١٩٨٢ ونحن بين أيدي الظلمة تمضي بنا الأمور من سيىء إلى أسوأ . ولم تلبث أن انفجرت الأحداث في حماة من غير أن نعلم بها بالطبع . لكننا تلقينا آثارها السلبية داخل السجن ورأينا الأهوال وقتها دون أن ندري بما يجري .

فابتداء من شهر شباط اشتد التعذيب نوعاً وكماً .. وبدأ ضحاياه يتزايدون باستمرار .. حتى أن واحدنا كان إذا حل دوره في سخرة الطعام وأراد الخروج لتناوله من باب المهجع قرأ الفاتحة ووضع في حسبانه احتمال أن تكون آخر سورة يتلوها قبل أن يموت ! وبلغتنا أنباء عدة عن إخوة قتلتهم ضربات تلك العصا الغليضة التي كانوا يهوون بها على رأس السجين مباشرة ولا يبالون .

وفي نفس الفترة ارتفعت نسبة المحكوم عليهم بالإعدام حتى كادت أن تشمل ٩٨% من كل دفعة تخرج للمحاكمة . وأصبحت الأحكام تنفذ كل يومين بعد أن كانت من قبل ثلاث مرات في الشهر على الأغلب . ووقتها كان إعدام أبي رشيد ودفعته رحمهم الله .

احتياطات !

وذات يوم ، وفي دفعة من دفعات الإعدام تلك ، طلب الزبانية أخاً من مهجعنا ٢٦ للإعدام اسمه عبد الكريم غانم من الزبداني كان طالباً في كلية الهندسة بدمشق . فلما سمعنا الخبر اندفعنا نودع الأخ وقد تفجرت من مآقينا الدموع . فوجدناه رحمه الله يقف في وجوهنا شامخاً راضياً يقول لنا : علام تبكون ؟ ابكوا على حالكم أنتم .. أما أنا فخلاص ارتحت من هذا العذاب .

ومما هو جدير بالتسجيل هنا أنه وأثناء هذه الموجة الطاغية من العنف والإجرام بلغنا ذات مرة أنهم أخرجوا دفعة من السجناء للإعدام فتمكن أحد الإخوة من بينهم من الإفلات ، وقام بضرب الجلادين ما وسعه الجهد قبل أن يطبقوا عليه ويعيدونه إلى حبل المشنقة . وبعد الحادثة اقتحموا كل المهاجع وأذاقونا كلنا قتلة من أشد ما رأينا خوفاً من أن تولد حادثة الأخ فينا نوعاً من أحاسيس التمرد والعصيان . ومن وقتها بدأ الشرطة يأخذون احتياطات أشد أثناء الإعدامات .

العميل !

تم اعتقالي مثلما ذكرت في البداية في الشهر العاشر من عام ١٩٨٠ بعد أن انتقلت صلتي من أبي الفرج إلى يحيى الشامي . ورغم التعذيب الفظيع الذي نلته في أقبية المخابرات العسكرية فإن الله ثبتني ولم أعترف على يحيى أو أي شخص آخر . لكنني فوجئت مع اشتداد موجات القتل والتعذيب في الشهر الثاني من عام ١٩٨٢ بخبر استشهاد يحيى في سجن تدمر . ثم لم تلبث الأقدار أن جمعتني مع إخوة من هنا وهناك التقوا يحيى في مراحل محنته المختلفة وعرفوا قصته .

ولقد تم اعتقال يحيى ابتداء بعد اعتقالي بزمن غير طويل . وكان ذلك حينما حضر يحيى إلى موعد مع شخص يسمى عبد الكريم رجب كان طالباً من حماة يدرس الطب في دمشق تمكنت أجهزة الأمن من تجنيده لصالحها واستفادت من علاقته مع شباب الإخوان ومعرفته بالكثير منهم أيما فائدة . ولا أزال أذكر كيف كان عبد الكريم هذا يحوم حولنا بشكل دائم من خلال معرفته بإخوة آخرين ، ويكثر من الأسئلة والإستفسارات بسبب ومن غير سبب . ولقد أوقع هذا العميل كما تأكد لي عدداً كبيراً من الإخوة بالفعل ، وتمكن من كشف العديد من قواعد المجاهدين في دمشق خاصة . وكان نشاطه في قمته بين صفوف الإخوة الذين توافدوا من خارج سورية إلى دمشق لتشكيل التنظيم الوليد الذي كان أبو الفرج أبرز قادته .

وهكذا وجد يحيى نفسه وسط عناصر المخابرات يطبقون عليه وعلى عبد الكريم عند المسجد الأموي ويقتادونهما إلى فرع التحقيق العسكري ، ليقاد يحيى منه إلى تدمر بعد انتهاء التحقيق معه ، وأطلق سراح عبد الكريم رجب ليستكمل مهمته التخريبية بين أفراد التنظيم .

ولقد بلغنا لاحقاً أن المجاهدين في حماة تمكنوا من كشف عبد الكريم واستدراجه إلى كمين محكم ، فاعتقلوه وحققوا معه وأخذوا منه اعترافات كاملة . وتم اعدامه بعد ذلك جزاء خيانته .

ولم ألتق يحيى في تدمر من بعد . لكنني التقيت من عاصره وعاش في المهجع معه . وبلغني أنهم في يوم من أيام شهر شباط عام ٨٢ حينما كانت أحداث حماة في ذروتها استدعوا يحيى إلى الذاتية للتحقيق معه ، وطلب المحقق القادم من فرع التحقيق من يحيى أسماء محددة ومعلومات لم تكن لديهم . فأبي يحيى ورفض . فأمر المحقق بالدولاب أن يُحْضِرَ وأنزلوا يحيى فيه وانهالوا عليه ضرباً وقتلاً في باحة الذاتية ثم توقفوا . فلما سأله المحقق عن الأسماء والمعلومات أصر على الإنكار . فأمر بتجريده من ثيابه إلا الشورت وأعاده إلى الدولاب . وعاد الضرب الوحشي ينهال عليه حتى أن واحداً من أظفاره طار من قدمه ووقع قريباً من سجين آخر كان ينتظر دوره في التحقيق في الباحة ذاتها . ولقد التقيت هذا الأخ وهو لا يزال يحتفظ بالظفر معه !

واشتد الضرب وانهالت الخيزرانات والعصي على قدمي يحيى وبقية جسده حتى أغمي عليه . فأمر المحقق الزبانية أن يشنقوه . ولم تكن المشانق جاهزة يومها ، فسحبوه حتى وصلوا به أمام باب مهجع ٥-٦ وقام الرقيب فيصل كحيلة والشرطيان سمير كوشري وشحادة - حسبما وردنا من شهود عيان - فلفوا حبلاً حول رقبة الأخ يحيى وشدوه بين أيديهم وهو لا يزال رحمه الله مغمى عليه حتى أزهقوا روحه !

مفاجأة !

ومما لا أزال أذكر من قصص الإعدامات المؤثرة - وأياً منها لا يؤثر في صم الحجر ! - قصة طبيب أسنان من حلب من بيت قره علي كان معتقلاً مع عديله . ولقد تم الإفراج عن هذا الأخير بعد واسطات شديدة كما يبدو ، وبقي الأول ينتظر ويرجو .

وفي صبيحة يوم من تلك الأيام التعسة نودي اسم الأخ فظن أن إذْنَ إخلاء سبيله قد تم . وأنه سيغادر الآن للقاء أهله من جديد . وكان المسكين يرتدي حين اعتقاله طقماً سارع حينما سمع اسمه فارتداه . وأخرج ساعته الذهبية فارتداها أيضاً . وجعل ينفض عن كتفيه الغبار ويحاول أن يمشط شعره ويحسن من هيأته وكل الظن أنه خارج إلى الحرية الآن . فلما خرج كانت المشنقة في انتظاره حقيقة الأمر . وكانت صدمة لنا جميعاً بقيت تؤرقنا ردحاً من الزمان .

الجرب

وطالت المحنة كل أوجه هذه الحياة المرّة . فمع ازدياد العذاب والإعدامات انخفضت كمية الطعام المقررة للسجناء رغم أنها لم تكن تكفي لتقيتنا بالأصل . وصارت إدارة السجن تتعمد قطع المـاء عنا حتى أننا عانينا خلال صيف ذلك العام شهراً كاملاً من غير ماء . وكان موردنا الوحيد عـن طريق بيدونات يملؤها الشرطة لنا وقتما شاؤوا وبالعدد الذي يريدون . وقتذاك عمت القـذارة المهاجع غصباً عنا وباتت رائحتها لا تطاق . ولم يلبث أن تفشى الجرب بيننا وانتشر انتشاراً كبيراً كنت أنا نفسي واحداً من ضحاياه .

والجرب كما هو معلوم مرض جلدي يصيب الإنسان بحكة شديد في جلده سرعان ما تـؤدي إلى تورمه وتقيحه .. وليس هناك مكاناً محدداً يكتفي به هذا الداء . فمن الممكن أن يصيب الـرجلين واليدين والصدر والظهر والمحاشم ذاتها . وعلاوة على الألم الشديد الذي يسببه الجرب فإن انتقاله بين الناس المتجاورين أمر محتم . ولو لم يعالج المصاب فقد يموت من المرض . ولقد حدث ذلك في مهجعنا ٢٦ الذي انتشر الجرب فيه مثلما انتشر ببقية المهاجع . ولا أزال أذكر كيف دهم هـذا المرض أخاً من دير الزور اسمه عبد الكريم الصالح ، فالتهب جلده كله وانتفخ ، وظل يعاني قرابة الشهر يصيح من شدة الألم وليس بيدنا شيء نقدمه لنخفف عنه إلا الدعاء . وعندما أبلغ رئـيس المهجع الشرطة بحاله وكرر عليهم البلاغ لم يزيدوا عن أن أمروه أن يكف عـن الـشكوى وأن يتركه في المهجع ليموت !

لكن تزايد الإصابات وانتشار المرض في المهاجع الأخرى جعل إدارة السجن بعد حـين تتنـازل وتحضر للمصابين دواء الجرب . وتم تعيين مسؤول صحي لكل مهجع من السجناء أنفسهم تكون مسؤوليته تقديم تقرير بالحالة الصحية إلى طبيب السجن حتى لا يضطر ذاك إلى فحص المرضـى بنفسه والتعرض لاحتمالات الإصابة بالعدوى منهم ! وفي هذا السياق عُيِّنَ الأخ الطبيب قاسـم موسى مسؤولاً صحياً لمهجعنا . ثم لما تزايدت الحالات أكثر فتحوا للمصابين مهجعاً خاصاً كمـا حدث أيام الكوليرا ، لا رحمة بهم بالتأكيد وإنما خشية أن تنتقل العدوى إليهم . ورغم ذلك فقد مات بسبب الجرب من مهجعنا وبقية المهاجع الأخرى عدد غير قليل من الإخوة ، وقدر لـلأخ عبد الكريم الصالح أن يتعافى بالتدريج ، حتى إذا شافاه الله بعد حين أتاه النداء ، وسيق مع دفعـة من دفعات الإعدام إلى الردى رحمه الله .

من سجل الضحايا

وكان الممرض وطبيب السجن قد توقفا عن الحضور للمهجع قرابة الخمسة أشهر خلال أحداث حماة وبعدها ، مما ضاعف الإصابات وأسرع في انتشار الجرب . وانتشرت معه أمراض أخـرى لم نستطع أن نعرف أسبابها أو نوعيتها بالتحديد . فكنا نحار في أمرنا ونفعل ما بوسـعنا لمـساعدة

المصابين . ولكم كان الإخوة يتسابقون لفداء إخوانهم المرضى من أي عذاب أو جهد وإيثارهم بحفنة الطعام المخصصة للواحد منهم . لكن ذلك لم يكن كافياً لوقف المرض أو إنقاذ المصابين . وقضى عدد من الإخوة نَحْبَهُم فريسة الأمراض والأوبئة فبلغوا قرابة الستة عشر ، لا زلت أذكر منهم كمال أندورة ومأمون الذهبي من دمشق . وهشام مجندف وبسام الهاشمي وسامي وحود من حمص .

وكان أول من مات بين أولئك جميعاً معتقل من قرية صوران قرب حماة اسمه عبد العزيز عوض السالم . أصابه السل كما يبدو حتى أصبح يبصق الدم . وعندما أخبر رئيس المهجع أبو الفضل الرقيب أن لدينا مريضاً في حالة خطرة أجابه بالحرف الواحد :

ولا .. بس يموت دق الباب !

وبعد شهرين من المعاناة وبعد ظهر أحد الأيام إتكأ الأخ على صدر شقيق له كان سجيناً أيضاً وأخذ يذكر الله ويردد الشهادتين حتى لفظ آخر أنفاسه رحمه الله . فلما تأكدنا من وفاته طلب شقيقه من الحضور أن يغسلوه قبل أن نخبر الشرطة بالأمر . لكن الإخوة خافوا أن تصيبهم العدوى أو أن تنزل بهم من الشرطة بلوى . فلما لم يتقدم أحد رأيت أن الأمر لا بد وأن يحسم . وتوكلت على الله وتقدمت . وأدخلته الحمام وغسلته وحدي . ومن يومها تعلم الإخوة علي وأوكلوا إلي هذه المهمة ما دمت فيهم . فغسلت كل الذين ماتوا من بعد ذلك في المهجع . بعدها قرع أبو الفضل الباب وأخبرهم بوفاة الأخ . فلم يزيدوا عن أن طلبوا منه أن يخرجه إلى الخارج . فتعاونت معه وحملناه ، وعدت أنا وبقي أبو الفضل لبرهة . وعندما عاد أخبرنا أنهم أرادوا أن يتأكدوا من موته فتقدم أحدهم منه وركله بقدمه وحسب .. وجاء "البلدية" فأخذوه ومضوا !

سحور !

ومضت الأيام .. وازدادت الأمراض وكثرت الوفيات .. حتى كنا نخرج في فترة من الفترات ميتاً من مهجعنا كل يوم ! ولا زلت أذكر أنني كنت أنام بجانب الأخ كمال أندورة في ليلة من تلك الليالي الرهيبة ، وكنت قد نويت صيام اليوم التالي ، فنهضت قبيل الفجر لأتسحر . وكان كمال بعد أن اشتد عليه المرض في الفترة الأخيرة لا يستطيع النوم مستلقياً وإلا اختنق . فكان يتربع في مكانه ويستند رحمه الله إلى الجدار ويظل يكابد طوال الليل ويتأوه ويعاني . فلما نهضت لأتسحر وجدته ساكتاً على غير عادته . فجعلت أناديه بصوت خافت . فلما لم يجبني وارتبت في الأمر دفعته براحتي ، فوجدته يسقط ميتاً على الطرف الآخر .

ولم يكن وارداً وقتها أن أقوم بأي حركة تكشفني أمام الشرطة على سطح المهجع ، فسحبت البطانية على وجهه بكل هدوء ، والتفت فسحبت صندويشة كنت قد وفرتها من عشاء الأمس

لتكون سحوراً لي ليلتها ، فجعلت أدس اللقيمات في فمي دساً وأغص بهن ، والأخ بجانبي مسجى لا روح فيه ! وعندما استيقظنا صباحاً ومضينا لنغسله قبل أن يعلم الشرطة بموته وجدناه رحمه الله تخشب جسده وقد مضت على وفاته بضع ساعات . حتى إذا انتهينا بعد جهد يكلله الرعب أخبرناهم بموته . فلم يزيدوا عن أن نادوا "البلدية" ليسحبوه .. وانتهى الأمر !

سُنّة طيبة !

ومما لا ينسى من مشاهد الأمراض والأوبئة التي دهمتنا قصة أخ من حمص اسمه عبد المعز العجمي . أصابه مرض اليرقان الكبدي عام ١٩٨٢ وأشرف على الموت بسببه . وجعل الأخ أبو الفضل رحمه الله يجهد نفسه ويجهدنا في توفير كمية من الطعام له من نصيبنا . وكان رحمه الله أول من سن هذه السنة الطيبة في إيثار المرضى على شدة حاجتنا وضآلة نصيبنا من الطعام . وجعلنا ندعو لأخ ونسأل الله له الشفاء . وسبحان من استجاب ومنّ على الأخ برحمته . فلم يمض شهر كنا نظن الأخ في أوله مودعاً حتى قام بيننا صحيحاً معافى . وكانت آية أخرى فيه أن طلب فيما بعد إلى الإعدام . ونال شرف الشهادة عام ١٩٨٤ بعد أن نجا من الموت بسبب اليرقان .

الطبيب القاتل !

وإذا كانت حكايات الأسى وروايات المعاناة في سجن تدمر لا تنتهي فإن مما لا ينسى من بينها حكاية الأخ زاهد داخل التي تجسد كل معاني الطائفية الحاقدة والهمجية التي مارسها النظام السوري على شعبه .. وتفسر أسباب ثورة تلك الفئة المؤمنة على جلادها ولجوئهم إلى القوة كحل وحيد لم يجدوا من دونه سبيلاً للنجاة .

كان زاهد رحمه الله طالباً متفوقاً في كلية الطب بجامعة حلب في سنواته الأخيرة .. جمعته الأقدار على طاولة الدراسة مع طالب آخر من طائفة النظام اسمه محمد يونس العلي . وفي أحد الأيام تعرّض يونس هذا لزميلة لهم في الصف من أسر حلب المحافظة ، وجعل يلاحقها بفظاظة ويتابعها بالتصريح وبالتلميح فلا يجد منها إلا الصدود .

ودارت الأيام وشاءت الأقدار أن يتقدم زاهد نفسه لخطبة الفتاة ذاتها وأن ينال موافقتها وموافقة أهلها معاً . وتم الزواج وعمت الفرحة قلوب كل الناس إلا يونس هذا .. الذي اعتبرها قضية كبرى وعدواناً على كرامته لا يغتفر . وجعل يهدد الفتاة وزوجها بشكل معلن .. وينذرهما بالويل والثبور وعظائم الأمور . وزاهد المؤدب الحيي لا يملك إلا أن يعرض عن الجاهلين .

وانتهت الدراسة ، وتخرج زاهد ويونس من كلية الطب ومضى كل منهما في طريق . حتى إذا اشتعلت الأحداث في سورية وأسفر النظام عن أقبح الوجوه وجد زاهد نفسه فريسة بين أيدي المخابرات يتنقل من عذاب إلى عذاب ومن سجن إلى آخر ، حتى انتهى به المقام في مهجع ٥ - ٦

بتدمر ! وشاءت الأقدار أن يكون طبيب هذا السجن - ويا للهول - محمد يونس علي نفسه !
أما الإجابة عن كيفية وصول زاهد ويونس كلاهما إلى هذا المكان .. وعلاقة ذلك بتهديدات يونس السابقة فذلك ما لم نعرفه . لكنا تأكدنا كلنا أن هذا الطبيب كان يبحث من أول يوم عن شخص محدد اسمه زاهد داخل بين السجناء في مختلف المهاجع . وجعل الشرطة العسكرية يدورون على مهاجع الباحة الأولى حيث تم فرز زاهد على واحد من مهاجعها ويسألون عنه مرة بعد مرة .. حتى تم للجاني ما أراد وشاهد زاهداً في يوم من الأيام أثناء التنفس فقال للشرطة ها هو ذا .
ومن لحظتها أخرجه الزبانية وأوسعوه ضرباً وجلداً ومسبات وقالوا لرئيس مهجعه : هذا معلّم .
ويبدو أن زاهد قد لمح يونس أو سمع بوجوده فأدرك ما يدور .. وعرف أن طبيب السجن هو جلاده وغريمه نفسه .. وأسر بذلك للإخوة في مهجعه وسأل الله الستر .
وجعل الشرطة يخرجون زاهداً بسبب ومن غير سبب ويذيقونه في كل يوم جرعة مضاعفة من العذاب .. ومضت أسابيع على هذه الحالة أيقن زاهد والإخوة معه أنه مقتول لا محالة . حتى إذا انهار ولم يعد يستطيع الخروج للتنفس وجلس في المهجع كما اعتاد من أصابهم مرض أو أقعدهم التعذيب أن يفعلوا أخذ الشرطة يبحثون عنه بين المرضى ويعذبونه هناك .
وفي يوم مكفهر أخذ الزبانية التفقد في مهجع ٥-٦ ولكن من غير أن يخرجوهم كما تقتضي العادة . وأتى الأمر من الرقيب فيصل كحيلة للإخوة أن يضبوا كلهم في زاوية المهجع . فلما فعلوا ولم يبق في ذلك الركن إلا زاهد المسكين وقد انتهت فيه كل قدرة على الحركة تقدم فيصل وعريف من الشرطة العسكرية اسمه شحادة وهوى كلاهما بالعصا على رأسه بكل قوته فانفلق من فوره ..
وسقط زاهد على أرض المهجع يتخبط دمه ، ومن غير أن تختلج في القتلة عضلة واحدة خرجوا وأقفلوا باب المهجع . ولم يلبث القتلة أن فتحوا نافذة الباب ونادوا رئيس المهجع وسألوه عم حدث . فأجاب المسكين بهلع : لا أعرف سيدي ، أظنه وقع على الأرض وأصيب بارتجاج في الدماغ ! فأقفل الجناة النافذة ومضوا غير عابئين ، وهرع الإخوة إلى زاهد فرأوه قد أسلم الروح ، فجعلوا يسحبونه إلى الحمام ليغسلوه . في تلك اللحظة فتح الباب من جديد وأمر الشرطة رئيس المهجع أن يخرج الجثة . فجعل المسكين يسأل الإخوة أن يساعدوه فأبوا . وأقعدهم الخوف وفظاعة المشهد عن أن يتقدموا خطوة واحدة . فلم يجد الأخ إلا أن يسحب جسد زاهد سحباً حتى باب المهجع . وجاء "البلدية" كالعادة فحملوه من بعد ومضوا به وكأن شيئاً لم يكن !
أمر بالفاحشة !

وأمعن الشرطة في إجرامهم وغيهم .. وزادوا في بطشهم وتفننوا في أساليب العدوان . فكم من مرة فوجئنا ونحن في ساعة النوم بواحد من هؤلاء السفهاء يطل علينا من الشراقة فوق السقف ويبول فوقنا عامداً متعمداً .. أو يبصق علينا مرة واثنتين وثلاث . والويل كل الويل لمن رفع رأسه أو تململ في مجلسه ! ولكم أخرج هؤلاء الظلمة واحداً أو أكثر من بيننا في منتصف الليل ليتسلوا بتعذيبه من غير أي سبب .. أو اجتمع عليه الجلادون في حر الظهيرة فأوسعوه لطماً وضرباً وسحلوه على أرض الباحة وهم يضحكون !

وعلاوة على الكبلات والعصي والسياط التي كانت تنهش الجلود وتحطم الأضلع وتشوه الوجوه ، عمد الزبانية إلى استخدام قضبان حديدية في ضربنا . ويا بؤس من ناله من هذه القضبان ضربة ! وإضافة إلى ذلك استخدم الشرطة القضبان ذاتها لتحطيم نفسياتنا . فكانوا إذا حان يوم الحلاقة مثلاً دخلوا من باب الساحة السادسة التي تبعد عن مهجعنا عشرات الأمتار ورموا القضبان الحديدية على أرضها الإسمنتية لينطلق صوت ارتطامها بالأرض فيصلنا كأنه نذير الموت ! ولم يكن الإخوة كلهم في درجة واحدة من الثبات وقدرة التحمل . فكان بعضهم ترتعد فرائصه إذا سمع ذاك الصوت ويبكي حتى من قبل أن يصل الجلادون !

غير أنه مما لا ينسى أبداً من مشاهد تلك الفترة يوم أن أطل أحد الحراس من شراقة السقف ونادى على أخوين شقيقين في مهجعنا وأمرهما بكل صفاقة وسفالة أن يخلعا ملابسهما ويفعلا الفاحشة ببعضهما البعض ! ومع الضحكات الفاجرة والمسبات الدنيئة أصر المجرم على تنفيذ الأمر .. ولم يجد الأخوان إلا أن يجاريانه خشية أن يحدث ما لا تحمد عقباه .. فخلعا ملابسهما بالفعل .. والسفيه يلاحقهما ليفعلا أكثر وأكثر .. وأطرقنا نحن وأغمضنا عيوننا لا نكاد نصدق هذا المدى من الخسة الذي بلغه أولئك الوحوش .. وجعلنا نبتهل في سرائرنا أن يصرف الله الأذى وينجي الأخوين وينجينا من هذا الخسيس . والكفر بالله والمسبات والشتائم تندلق علينا من فمه النجس ولا تكف . فلما أحس أنه ضحك بما يكفي وحقرنا بما يشفي غليل حقده ورحل .. أحسسنا وكأننا خرجنا من كابوس مرعب لا يوصف . وأطرقنا صامتين لا نستطيع أن ننظر في وجوه بعضنا البعض ساعات عديدة . ولم يفتح أحد منا سيرة ما جرى بعدها .. ستراً للأخوين وحفاظاً على شعورهما وكرامتهما ، وكرامة وشعور أبيهما الذي كان نزيل المهجع نفسه !

ولقد تكرر مثل هذا الحدث غير مرة . وأعاد هؤلاء السفهاء الطلب وأمثاله في أكثر من مهجع ..وكانوا يفتحون الباب علينا أو ينادون في التنفس واحداً منا ويقول الشرطي له :

أنت يا ... أنا بدي أعمل في أمك كذا .. شو ؟

فكان المنادى يسكت أول الأمر ولا يجد ما يجيب به . فتأتيه لطمة أو ضربة من جلاده وهو يصيح به :

كرر يا ... أنا بدي أعمل بأمك كذا . شو ؟

فلا يجد المسكين إلا أن يقول بذل وانكسار :

أنت تريد أن تعمل بأمي كذا وكذا سيدي .

فإذا أشبع ذلك من صلف المجرم تركه ، وإلا أمره أن يعيد ما قال ويُسمع به آخر من في الساحة أو في المهجع حتى تقر عينه الفاجرة وتسكن هواجسه الخبيثة !

المنفردات

وذات يوم من أيام عام ٨٢ القاسية دخل عناصر الشرطة العسكرية المهجع فجأة وأمرونا جميعنا بالإنبطاح . وما أن امتثلنا للأمر حتى أمرونا بالوقوف من جديد . ولم يكن لمثل هذه الأوامر من سبب إلا إرهاقنا وإذلالنا . لكنهم وعندما انتصبنا واقفين لحوا أخاً بيننا اسمه أحمد فطومة من حماة كان مشمراً قدراً عن ذراعيه . فقالوا له ولطمة من أيديهم المتعطشة للدماء تطاله :

هنت (أي أنت) بتتحدانا ولا ؟ قوم للسواليل .

وسحبوا الأخ سيىء الطالع من بيننا واقتادوه إلى واحدة من بضع زنازين منفردة قرب المطبخ يسمون الواحدة منها سالولاً بلغة السجن . واقتادوا أخاً آخر من حمص معه لسبب تافه مماثل . ولقد غادرت المهجع بعد قرابة العام والأخَوَان في السجن الإنفرادي لم يعودا بعد . وبلغني لاحقاً أن الأخ أحمد فطومة مات من التعذيب . ووصلتنا الأخبار بعدها كيف أن العذاب يتضاعف على الإخوة هناك ويجتمع الشرطة كلهم على السجين الواحد بدل أن تتوزع سياطهم واعتداءاهم على مهجع بأكمله . ولكن وحشة الإنفراد وهول الوحدة في هذا المكان الرهيب تظل في اعتقادي أشد من كل هذا العذاب وأقسى !

من لائحة الجناة

وعلى الرغم من أن أفراد الشرطة العسكرية والرتب التي تعلوهم كانوا يحرصون على عدم معرفتنا لشخصياهم وأسمائهم . ورغم الظروف القاسية التي كنا نواجهها عندما نكون أمام واحد منهم . إلا أننا وبمرور الأيام تمكنا من معرفة بعض منهم . وكان ذلك يتم على الأغلب من سماعنا واحدهم ينادي الآخر باسمه أو يتحدث عن ثالث منهم فيذكره ويسميه . وهكذا علمنا أن مدير السجن هو المقدم فيصل الغانم الذي نفذت على عهده مجزرة تدمر الكبرى في ١٩٨٠/٦/٢٦ . يساعده النقيب بركات العش ، وكلاهما من الطائفة العلوية ومن محافظة اللاذقية . وكان يقوم بمهمة ما يسمى إدارة الإنضباط المساعد أول أحمد كيساني أو "أبو جهل" كما كنّاه السجناء .

يساعده عريف عاصره من عام ٨٠ وبقي إلى عام ٨٤ اسمه فواز . ورقيب أول رافقنا من عام ٨١ إلى عام ٨٥ اسمه جهاد ، كان لا يجارى في شراسته ولا يفوقه قسوة في استخدام السوط أحد . وكان ثمة رقيب آخر لا يقل عنه لؤماً وبطشاً اسمه شعبان حسين . وهؤلاء جميعاً من طائفة الأقلية الحاكمة . وكان هناك شرطي آخر غاية في الإجرام كان يتفنن في ضرب المعتقلين خاصة أيام "الإستقبالات" اسمه نعيم حنا ، بلغنا أنه مسيحي آشوري .

وعندما غادر أبو جهل السجن عام ٨٢ ، وأشيع أنه هرب إلى العراق - وإن كنا لا ندري صحة تلك الإشاعة - خلفه في مهمته الرقيب فيصل كحيلة ، وهو علوي كذلك من اللاذقية ، وكان غاية في السادية والإجرام ، ولا يحلو له أن يعذب السجناء إلا بضربات العصا الغليظة التي يمكن أن تقصم الظهر أو تزهق الروح . ولقد أشيع كذلك أن فيصل هذا قتل فيما بعد ، وهي مجرد إشاعة تضم إلى كثير مما كنا نسمعه ولم نتأكد منه . وكان يساعده في مهمته عريف اسمه علي شعبان ترفع إلى رتبة رقيب أول لاحقاً . وعريف آخر من القتلة اسمه شحادة من نفس الملة والعلة . وكان من أبرز زبانية تلك المرحلة شرطي من الطائفة ذاتها اسمه سمير كوشري . وكنا نسمية "حيّو" لأنه كان لا يكف عن إطلاق هذه الكلمة كلما انتشى بتعذيب واحد منا !

وبعد فيصل كحيلة تولى مسؤولية إدارة الإنضباط الرقيب أول محمد الخازم الذي استمر في هذه المهمة حتى عزل مع المقدم فيصل الغانم عام ٨٤ ضمن عمليات تصفية مراكز القوى وتسوية الحسابات بين الرئيس حافظ الأسد وأخيه رفعت كما بلغنا ، إثر معافاة الأول من مرضته الشهيرة حينذاك . وقتها آلت مسؤولية السجن إلى النقيب بركات العش بشكل مؤقت . ثم لم يلبث أن استلم هذا الموقع المقدم غازي الجهني ، وهو علوي من قرية المخرّم بمحافظة حمص . فاختار الرقيب محمد نعمة ليكون مسؤول الإنضباط في السجن ، وهو علوي مثله من جب الجراح بمحافظة حمص أيضاً . واستمر العش نائباً للجهني إلى أن انتقل عام ١٩٨٧ إلى سجن صيدنايا وأصبح مديراً له .

رقابة صارمة

ولقد كان اختيار هؤلاء الزبانية انتقائياً واضحاً ، تجسيداً لهيكلية النظام الحاكم ذاتها القائمة على منهجية الفرز الطائفي البغيض وتمكين الأقلية الموتورة من حكم الأغلبية المغلوبة على أمرها . فالعلويون هم أصحاب الهيمنة الأكبر والعدد الأكثر المسيطر على مختلف مواقع المسؤولية والمراتب التي تدير السجن . وثمة عناصر معدودة فاسدة الضمير من أقليات أخرى طائفية أو عرقية تمارس دور المخلب الذي تتحكم فيه قبضة الطائفة العلوية وتسخره لخدمتها . علاوة على بعض من أبناء الأكثرية السنية ممن يقضون فترة خدمتهم الإلزامية في هذا الموقع . ويعيش هؤلاء

وكل المجموعات الأخرى تحت رقابة صارمة دائمة . ومثلما لا يسمح لهم أن يتحدثوا مع السجناء أبداً أو يسألوهم عن أسمائهم حتى لا يتعرف أحدهم على الآخر فيعرفه بالصدفة فيعطف عليه أو يتساهل معه . كذلك فإن أشد العقوبات مصير من يضبط في حالة كهذه . ولقد بلغنا أن رقيباً من حمص من آل السباعي كان يخدم جنديته الإلزامية في هذا الموقع قبل حضورنا أبدى بعض التسامح مع المعتقلين وتساهل معهم في أمور لا تذكر في هذا الجو المرعب . فلما تكرر ذلك منه تم ضبطه ومحاكمته ، وأعدم المسكين وعلقت صورته كما سمعنا في غرفة الذاتية ليتعظ بها العناصر والعسكريون الآخرون !

خصومات !

وكان من آثار أحداث حماة أيضاً أن حضرت مجموعات جديدة من السجناء من أهل المدينة . ومن هؤلاء بلغتنا أهوال ما حدث .. وتعرفنا على إخوة جدد صار بعضهم من أعز الناس إلى القلب . ومن هؤلاء لا أزال أذكر الأخ سحبان بركات الذي كان قد اعتقل حقيقة الأمر عام ٨١ ثم أحضر إلينا بعد الأحداث . ولقد جرى إعدامه فيما بعد رحمه الله . وكان معه ابن عمه صبحي بركات الذي كان طالباً في كلية الطب بجامعة دمشق ، وهو من الطلاب الأذكياء جداً . كذلك أذكر ممن حضر وقتها أحمد دعدع من حماة الذي أعدم بعد سنة أو سنتين . وغالب هؤلاء الذي أحضروهم اعتقلوا من بيوتهم أو جامعاتهم ولم تكن لهم كلهم صلة مباشرة بالأحداث . ومع هؤلاء حضرت نوعيات أخرى من المعتقلين من عامة الناس الذين انفعلوا بالأحداث واندفعوا للمشاركة فيها من غير تربية مسبقة أو انضباط كامل . ففاجأتهم المحنة من غير أن يستعدوا لها ، وكان بعضهم في بداية الأمر سبباً لنشوء المشاكل والخصومات في المهجع ، لكننا استطعنا استيعاب أكثرهم ولله الحمد ، وتمكنا من عبور تلك المرحلة . فتحسن خلقهم ، وأخذ أكثرهم في الإنضمام إلى إخوانهم والإندماج ببرامج المهجع من حفظ للقرآن ومداومة على الأذكار والعبادات .

فرز الأحداث !

ويبدو أن إدارة السجن لم تكن لتغفل عن هذا أو كأنها كانت تتوقع حدوثه ، ولذلك لم تلبث أن قامت بعملية فرز للسجناء صغار السن أو الأحداث كما يسمون ، فخصصت لهم مهجعا ٣١ و ٣٤ بالباحة السادسة . ثم لما فتحوا الباحة السابعة فيما بعد نقلوهم إلى هناك ووزعوهم على المهاجع ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ فيها ، لعزلهم عن إخوانهم الأكبر سناً فلا يتأثروا بأفكارهم أو يتقووا بوجودهم معهم .

جرعة لبن !

مضت قرابة سبعة أشهر لم نعد نسمع فيها عن تنفيذ أحكام إعدام حتى ظننا أن الأمر انتهى ولم يعد هناك المزيد . ورغم أننا لم نجد لذلك تفسيراً إلا أن مشاعرنا مع مرور الأسابيع والشهور جعلتنا نعتقد في أنفسنا توهماً وتأميلاً بأن الإعدامات انتهت ، وأن الفترة السوداء من سجننا قد ولت .

غير أن الأمل سرعان ما تبخر كالسراب ، وتكسرت أجنحة الحلم حينما فوجئنا ذات صباح بالمشانق تنصب من بعد الفجر بقليل ، وبالشرطة يجوبون المهاجع ويسألون عن أسماء بعينها . ولم تلبث أصوات التكبيرات أن علت من جديد .. فأسقط بأيدينا .. وانهارت آمالنا الواهية .. وعدنا يلفنا الوجوم والترقب . حتى إذا فتح الشرطي باب المهجع ٢٦ علينا انتفضنا كلنا وقد بلغت القلوب الحناجر واحتبست أنفاسنا .. وكل منا يتوقع أن يتلو الشرطي اسمه ويناديه للردى . لكن جلادنا لم يناد إلا اسم أخ واحد من بلدة سراقب اسمه عبد الحكيم العمر كما أعتقد . كان مدرس لغة عربية وملازماً مكلفاً حين اعتقل . وكان صاحب فضل علينا في المهجع بدماثة خلقه وحسن معشره ، وبحلقات البلاغة والنحو التي واظبنا عليها حتى تعلمنا منه الكثير . وقال له أن يضب أغراضه لأنه سينقل إلى مدرسة المدفعية بحلب حيث كان يقضي خدمته الإلزامية . ورغم استغرابنا من هذا الأسلوب الجديد إلا أننا قدرنا أنهم إنما أخروا إعدامه لأنه عسكري وحسب ، وأن دوره الآن قد دنا .

وأدرك عبد الحكيم أنها منيته ، وجعل رحمه الله يطوف علينا ويتفرس في وجه كل منا ويردد آخر كلمات له في هذه الدنيا سمعناها :

سامحوني يا شباب .. واللقاء إن شاء الله في الجنة .

فلما وصل بتطوافه إلى مجموعة من أهل بلده كانوا شركاء في مجموعة الطعام في المهجع أوصاهم بأهله وأولاده . لكننا فوجئنا به وعيوننا تتابعه وقلوبنا تطوف معه يستدير نحوهم فجأة ويطلب بعض اللبن كانوا قد وفروه لفطورهم عند المغرب ليأكل منه . وكانت آية والله رأينا فيها مصداق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : "نفث في روعي الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها" .

ووالله الذي لا إله إلا هو أخذ عبد الحكيم صحن اللبن وأكل منه . واتجه بعدها إلى الباب ونحن لا نصدق أنه مفارقنا ، ومضى إلى الإعدام ونفسه رحمه الله تفيض بالرضا والإطمئنان ، وكأنه ذاهب لملاقاة أحب الناس إليه !

لا خضوع !

وفي مهجع السل ٢٣ بالباحة الرابعة حيث كان قد اجتمع على إخواننا هناك كَـرْبُ السجن وكَرْبُ المرض أخرج الشرطة يومها أخاً مسلولاً من حلب اسمه يوسف عبارة للإعدام . وقتها لم أكن قد انضممت للمسلولين بعد ، لكنني سمعت القصة عندما صرت واحداً منهم بعد حين . فلقد نادوا الأخ رحمه الله إلى لقاء ربه قبيل صلاة الفجر . فهرع وصلى مع الإخوة الفريضة ثم ودعهم ومضى إلى منيته مقبلاً على الله . وكان من نزلاء المهجع نفسه أخ شاعر موهوب تفجرت مشاعره عندما أبصر الإخوة يساقون رتلاً طويلاً إلى المشانق ، وانسابت مع دموعه ودموع إخوانه قصيدة رقيقة له حفظناها جميعاً وأخذنا ننشدها منذ ذاك يقول فيها :

وسار موكب الجنازة في الصباح

مخلفاً وراءه الجراح

وراسماً مسيرة الكفاح

فلا حياة دونما سلاح

من قبلها نادى المنادي هاتفاً مجلجلاً

حي على الفلاح .. حي على الفلاح .

. . .

وسار موكب الشباب في خشوع

لم يعرفوا لغير ربهم خضوع

عيونهم تضيء كالشموع

تقول للأجيال لا خضوع

من قبلها نادى المنادي هاتفاً مجلجلاً

حي على الفلاح .. حي على الفلاح .

وداع الأشقاء

وتتابع نصب المشانق وتكرر مشهد الزهرات تساق إلى حتفها على أيدي الزبانية الطغاة . وكان من أشد المشاهد إيلاماً كما بلغني يوم أن سمع أخ من بيت العابدي من دمشق اسم أبيه يطلب للإعدام من مهجع مجاور . ورآه يساق أمام عينيه من خلال ثقوب الباب فتزهق روحه على حبل المشنقة . وكان الولد قد اعتقل مع أبيه وهو ابن خمسة عشر عاماً في مرحلة دراسته الإعدادية !

ولم يكن أقل إيلاماً يوم أن طلبوا فيما بعد اثنين من الشباب المعتقلين معنا للإعدام هما طريف حداد وملهم الأتاسي وكلاهما من حمص . وكان معهما في نفس المهجع شقيقاهما بشار حداد

ومطاع أتاسي . وعندما تقدم بشار ليودع أخاه طريف ثابت الجنان قال له : اثبت واصبر .. واللقاء في الجنة . والحمد لله أن رزقك الشهادة . ولا تنسانا من الشفاعة .
كذلك خرج من بيننا أخ آخر للقاء الله في تلك الأيام العصيبة هو عبد الغني دباغ من حمص . ثم لم نلبث أن سمعنا بأن أخوين اثنين له في مهجع آخر أعدما بعد مدة وجيزة من الزمان .

تبجحات !

وانتهت أحداث حماة .. وانتهى عام ١٩٨٢ الذي شهدنا فيه أقسى الظروف وأسوأ المعاملات . وبدأت ذيول تلك المحنة تنجلي شيئاً فشيئاً . ولم نلبث مع مرور الأيام أن وجدنا أنفسنا نتدرج نحو مرحلة جديدة مغايرة من المعاناة .
كانت البدايات حينما أخذ يتناهى إلى أسماعنا أن مدير السجن العقيد فيصل الغانم يقوم بزيارات تفقدية للمهاجع يزجر فيها السجناء ويهددهم مرة .. ويستفسر منهم عن احتياجاتهم ويسألهم عن أحوالهم مرة أخرى ويعدهم خيراً . وبلغنا ضمن هذا السياق أن أحد الإخوة تجرأ ذات مرة وسأله عن سبب منع المعتقلين من الصلاة ، فأجابه الغانم بكل تبجح أن إدارة السجن ليست ضد الصلاة ولا ضد التدين ، ولكن الأرض في المهاجع نجسة ولا تصح عليها الصلاة ! وزاد الراوي أن الشرطة عادوا بعد زيارة الغانم تلك فأوسعوا السائل ضرباً جعله يحرم وكل من بلغه الخبر السؤال والأخذ والرد مع هؤلاء إلى آخر العمر !
وتسارعت الأمور .. وبدأت المستجدات الغريبة تفاجؤنا مرحلة بعد مرحلة .. فلا نكاد نستوعب للأولى سبباً حتى يَجِدَّ على الساحة جديد . ونحن في ذلك كله لا نبصر إلا عشر معشار ما يدور ، ولا ندرك إلا الجزء الضئيل مما يدور أمام أعيننا .
وكانت البداية الظاهرة لنا حينما خرجنا ذات يوم من أيام سنة ١٩٨٣ إلى التنفس كالعادة وجعلنا نسير في خطنا كالمعتاد ، فوجدنا الشرطة يستدعون واحداً من سجناء مهجعنا اسمه خالد عوض السالم ، واقتادوه مغمض العينين إلى مساعد السجن الجديد محمد الخازم الذي خلف فيصل كحيلة وقتها فكان شر خلف لشر سلف ! ومن غير أن يفتح خالد هذا عينيه سمع المساعد يأمره أن يرفع رأسه ففعل . فسأله عن اسمه فأجاب . فاكتفى بأن صفعه على وجهه وأمره بالعودة . وعندما بلغنا ما حدث وجدناه تصرفاً طبيعياً طالما تكرر ما هو أسوأ منه بلا أي مبرر . لكن الرقيب جهاد ما لبث وأن عاد إلى المهجع مع عدد من أعوانه وطلبوا أبا عوض معهم . وعندما عاد بعد ساعة من زمن وجدناه غير الشخص الذي عرفنا .

أبو عوض !

كان خالد عوض السالم سجيناً من صوران مات شقيقه - كما ذكرت - على صدره بسبب السل قبل أقل من عام ولفظ أنفاسه بيننا وهو يذكر الله ويشهد له بالوحدانية . ورغم أن الأخوين اعتقلا بتهمة تجارة السلاح إلا أن الفارق بينهما كان كالفارق بين السماء والأرض . فخالد هذا كان معروفاً حتى من قبل اعتقاله بسوء الخلق وفساد الذمة . ولأنه كان فوق ذلك صاحب جسم ضخم وعضلات مفتولة فقد جعلوا خدمته الإلزامية قبل سنوات خلت في الوحدات الخاصة أو الشرطة العسكرية .

كانت أول مفاجأة في عودة أبي عوض أنه ذهب سجيناً وعاد بقدرة قادر رئيساً للمهجع ! وأمر الشرطة أبا الفضل الذي حافظ على مسؤوليته طوال هذه المدة أن يتنحى ويسلم رئاسة المهجع لخالد . ولم يكن على أبي الفضل إلا الإنصياع بالطبع . ووجدنا أبا عوض يتبدل بين ليلة وضحاها . وبدأت شخصيته المتنفذة تطفو على السطح الآن .. وتتبدى عنجهيته بسبب ومن غير سبب .

وصار لأبي عوض - وهو الذي طالما ضاعف الشرطة عليه القتل والتعذيب أثناء الحلاقة والتنفسات بسبب ومن غير سبب - استثناء خاص من الحلاقة .. فطال شعره من دون كل الألوف من هؤلاء السجناء جميعاً ، وأرخى شاربيه فكأنه واحد من الشرطة لا فرق ! ولم تلبث الأسرار أن تسربت من المقربين إلى أبي عوض إلينا ، فحدثهم كيف أنه كان سجيناً ذات يوم في سجن تدمر هذا أيام خدمته الإلزامية جزاء على مخالفة عسكرية فعلها . وكان محمد الخازم رقيباً في نفس السجن وقتها .. فقامت بينهما علاقة ومعرفة . واتفقا على أن ينشئا تجارة لصالحهما بين السجناء ، يقوم محمد الخازم بتأمين مادها ، ويتولى خالد ترويجها بين زملائه في المهاجع بأسعار مضاعفة مستغلاً حاجتهم لمثل تلك المواد . فلما شاهد الخازم أبا عوض الآن وجده الرجل الأمثل ليحقق به مطالب السيد الكبير مدير السجن الذي أوعز إليه كما تبدى ترويج نفس التجارة بين السجناء البؤساء في تدمر .

ورغم أن ذكرى أخيه لم تكن قد خفتت بعد .. وعلى الرغم من الإهتمام البالغ الذي أولاه الإخوة بخالد نفسه في أشد أيام المحنة مراعاة لوضعه وترقيقاً لقلبه ، حتى أهم كانوا يؤثرونه بطعامهم لضخامة جسمه ويوفرون له من فتات الطعام الذي يصلهم حصة مضاعفة له وحده . ويتقدمونه في التنفس والحلاقة معرضين أنفسهم لسياط الزبانية وعصيهم حماية له وإخفاء من الشرطة الذين علّموه وقتها بجسمه الضخم فأدمنوا مضاعفة العذاب عليه . برغم ذلك كله فإن أبا عوض لم يحفظ للإخوة ذاك . فها هو ذا يريد أن يتسلط عليهم ويتحكم فيهم وكأنه لم يعد سجيناً وبات هو السجان ! وجعل في سبيل تحقيق غايته يؤلب الناس على بعضهم ويوظف بيننا من ضعاف النفوس جواسيس ينقلون إليه ما الذي يدور بين الحلقات وبماذا يتحدث المساجين عنه

. وكان يريد أن يعرف كل صغيرة وكبيرة لينقلها إلى شريكه وسيده الجديد . وصار يسطو على طعام الآخرين ويأخذ ما شاء من الوجبات نوعاً وكماً .. ولم يتورع حتى عن استخدام يديه مع بعض الإخوة والإعتداء عليهم بالضرب تماماً كما يفعل بقية السجانين ! ولا أزال أذكر أن أحد ضحاياه كان الأخ محمد صنوبر حافظ كتاب الله الذي نال منه قتلة ذات مرة لم تقل عن أي من تلك التي يذيقنا إياها جلادونا قساة القلوب ذاتهم !

مهجع المدعومين !

وأخذت الأمور تتطور بالتدريج من حولنا ، فلم نلبث أن تبلغنا في شهر آذار ١٩٨٣ بتغيّر النظام العام للسجن ، وأنه بات مسموحاً لنا الآن أن نفتح أعيننا ونرفع رؤوسنا أمام الشرطة العسكرية بشكل طبيعي . وبدأنا نلحظ تغيراً نسبياً في تعامل الشرطة وإدارة السجن مع مهجعنا في ظل ولاية أبي عوض عليه . فخفت الضغوط بعض الشيء عنا ، وأوكلت مهام الأمر والنهي داخل المهجع إلى أبي عوض أغلب الأحيان . ولم يعد الشرطة يكثرون من الدخول علينا أو التنكيل بنا . فيما تتالت لقاءات أبي عوض مع محمد الخازم الذي كان يستدعيه إلى الذاتية بين حين وآخر ، فإذا عاد وسئل عما جرى لم يجب إلا بالقشور .

وأخذنا نسمع عن زيارات تتم لبعض السجناء يحضر أهلهم لمشاهدتهم فيحضرون لهم كميات من الهدايا والأموال غير قليلة . وكان ذلك لا يتم إلا للموسرين بالطبع . وبعد واسطات ورشاو فاحشة عرفنا بها من بعد . وفوجئنا من ثم بهؤلاء السجناء يتواردون على مهجعنا واحداً بعد الآخر ومجموعة إثر مجموعة . حتى بتنا نسمي مهجعنا ذاك مهجع المدعومين !

ومع هذه التطورات عاد الطبيب يجول على المهاجع ويقدم بعض العلاجات الأساسية للسجناء ، وتم تعيين مسؤول صحي من السجناء في كل مهجع ، تكون مسؤوليته تقديم تقرير بالحالة الصحية للسجناء إلى الطبيب حتى لا يضطر الطبيب نفسه إلى فحص المرضى والتعرض لاحتمالات الإصابة بالعدوى منهم !

أخوة بالإكراه !

وفي يوم من أيام شهر حزيران عام ١٩٨٣ فوجئنا بالشرطة يخرجوننا إلى الباحة ويخرجون معنا سجناء المهاجع الأخرى في باحتنا .. وإذ بمدير السجن المقدم فيصل الغانم الذي كان أحد المشرفين على مجزرة تدمر الكبرى عام ١٩٨٠ يقف فينا خطيباً لأول مرة ويكلمنا بلهجة ما اعتدنا أن نسمعها قط كل هذه الأيام التي خلت .

ولأكثر من أربعين دقيقة جعل يحدثنا أننا فعلنا كذا وكذا ، وأخطأنا بحق الوطن ، ولكننا برغم ذلك نظل إخوة ! ووسط إيعاز الشرطة لنا بين كل جملة من كلامه والجملة الأخرى بالتصفيق

تساءل الغانم عن الفرق بين العلوي والسني .. وأضاف فقال بملء فيه : أنا خَيّكُم (أي أخوكم) غصباً عنكم .

وبين الإستغراب المطلق والتحفظ المطبق من جانبنا أكمل الغانم محاضرته بالحديث عن اسرائيل التي قامت بمجزرة صبرا وشاتيلا . وقتلت من الأبرياء كذا وكذا . وأن سوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي تقف بوجه إسرائيل وأمريكا ! واتجه بالحديث نحونا مرة أخرى فقال : أما أنتم فقد غرر بكم لتقوموا بأعمال ليست في صالح البلد ، غير أن الإبن إذا أخطأ في حق أسرته فإنها تعاقبه ولكنها لا تتخلى عنه .. ولذلك فأنتم الآن تقضون فترة عقاب ، لكنكم ستخرجون بعدها وتحل الأمور .

وانتهت المحاضرة كما بدأت حافلة بالغموض والغرابة . وأخذت التساؤلات والتحليلات والتكهنات تتوالى . لكن شعوراً واحداً غمرنا جميعاً يوحي بأن ثمة تطورات جديدة في الأفق . ولم تلبث الأمور أن أخذت تتسارع لتتكشف على حقيقتها بعد حين .

كذلك طرأ على حال السجن تغيير جدير بالتسجيل وقتها . فلأول مرة وبعد هذا الصمت المطبق طوال الأعوام السابقة فوجئنا بالميكروفونات تنقل لنا بث إذاعة دمشق على الهواء مباشرة ١٢ ساعة في اليوم . فكانت لنا نافذة نتابع من خلالها أخبار العالم خارج الأسوار ، ومنفساً نخرج منه عن اعتيادية حياتنا القهرية بعض الشيء . وبالطبع فلم يكن مسموحاً لنا من قبل ولا من بعد أن ندخل جهاز راديو إلى مهاجعنا ولا أن نستخدم الورق والأقلام أو الكتب .. وأما المصاحف فكانت كما ذكرت واستمرت إحدى أكبر الممنوعات !

ذيل الثعبان !

غير أن هذه التطورات كلها كانت تخفي وراء وجهها المليح مؤامرة خسيسة .. كان المقدم فيصل الغانم رأسها المدبر وعرابها الخبيث . وكان أبو عوض من جانبنا أداتها القذرة وذيل الثعبان الذي يتحرك لمصلحة الرأس الخبيث بكل خسة ولؤم . ولم تمض مدة من الزمن حتى تبين لنا كيف أن الغانم هذا قد نظم خارج أسوار السجن شبكة من مصاصي الدماء ترأستها أمه نفسها التي كانت تتولى تنظيم زيارات لنخبة من أهالي المعتقلين الموسرين للإجتماع بأبنائهم في سجن تدمر مقابل مبالغ طائلة من المال . لكن ذلك لم يكن يشبع جشع الرجل ، وكان ينظر إلى الأموال التي يأتي الأهالي بها لأبنائهم المعتقلين عساها تدفع عنهم بعض الشر أو المعاناة .. فيراها غنائم مغرية يسيل لها لعابه . ولذلك وحتى يضمن الغنيمة كلها أنشأ شبكة ثانية من العملاء والأجراء داخل السجن مهمتها امتصاص تلك الأموال بطريقة أخرى . كان أبو عوض مخلبها القذر بيننا .. فعرف عن

طريقه احتياجاتنا ورغباتنا وحالتنا .. وفي سبيل ذلك كانت خطبته العصماء تلك ، وكانت سلسلة القرارات الإستثنائية التي أحاطت بها .

وهكذا اتجهت الحال بعمومها نحو تغير نسبي . فبات التعذيب نوعياً بدل أن يصيبنا في كل غدوة وروحة . وصار الشرطة يسمحون لنا بالخروج إلى التنفس مفتوحي الأعين نتنعم بالشمس من غير ضرب كثير ولا تعذيب . ثم لا يلبثوا وأن يقوموا بين كل أسبوع وآخر بتعويض السجن كله بحفل شديد مفاجىء من التعذيب ، بحيث يبقى الكل منضبطين يحسبون للحفل القادم ألف حساب . وأما المحاكمات والإعدامات فلم تتأثر بكل هذا الذي يجري ، وظل شبح الموت مخيماً علينا يتخطف الزهرات من بيننا ويطبق على أعناق الشباب الغر ونحن لا نملك في رد ذلك حولاً ولا قوة .

آخر الأنفاس !

وفي ليلة من تلك الليالي كنت أنام بجانب الأخ مأمون الذهبي . وكان المسكين قد أصيب بالمرض فتدهورت صحته بشكل متسارع ومريع . حتى بات وهو الذي كان لاعب كراتيه مفتول العضلات قوي البنية لا يقدر على مغادرة فراشه . ليلتها وفي ساعة متأخرة نام كل من في المهجع ونمت معهم ، مد مأمون يده الواهنة نحوي وجعل يهزني حتى استيقظت . فلما سألته ما به قال لي رحمه الله :

صدري يؤلمني .. اقرأ لي عليه .

فوضعت راحتي على صدره وجعلت أقرأ من الآيات والأدعية المأثورة . حتى إذا سكن وخلته نام عدت إلى النوم من جديد . فلما دنا الصباح صاح فينا أبو عوض كعادته :

الكل استيقاظ .

فقمنا كلنا وبقي مأمون في مكانه تغطي وجهه البطانية ولا يتحرك . فناداني أبو عوض لأوقظه ، فناديته فلم يرد . قال أبو عوض على مشهد من الجميع:

اخبطه برجلك ليفيق .

فكشفت عن وجهه وناديته لينهض . فلما حدقت وجدته قد فارق الحياة . قلت وأنا أكاد أحس آخر أنفاسه لا تزال تتسارع على راحتى :

هذا مات يا زلمه !

فلم يهتز لأبي عوض شعرة ، ولم يزد عن أن مضى ليخبر الشرطة بحالة وفاة جديدة في مهجعه . وهرعت أنا فسحبت مأمون بمساعدة الإخوة فأدخلناه الحمام وغسلناه . ولم يلبث "البلدية" أن حضروا فأخذوه ومضوا .

مملكة الوهم !

ونمت مملكة أبي عوض الواهية .. فخصصت له إدارة السجن مكاناً يديره كمتجر أو دكان بقالة كان يبيع فيه السجناء الشاي والخضار والفاكهة والإحتياجات الرئيسية التي كانوا محرومين من معظمها ويقبض على ذلك أفحش الأثمان ! وفي نفس الوقت كان فيصل الغانم يترصد الزوار فيخضعهم كالعادة للتفتيش . فإذا أرادوا أن يعطوا أبناءهم مبلغاً من المال كان له نصيب مباشر فيه . وإذا أحضروا لهم ملابس أو حاجيات أجاز دخول بعضها وصادر بعضها الآخر بحجة أو بأخرى . فيحمل أبو عوض الأشياء التي صودرت ويدور بها على المهاجع ويبيعها للمساجين أيضاً . وهكذا تصب كل الأموال التي أحضرها الزوار المساكين في جيب مدير السجن وشركاه . ولم تكن بيدنا حيلة لوقف هذا الإستغلال المكشوف . وكنا نشتري أغراضنا المسروقة من غير تردد . ففي حالنا البئيس ذاك كنا بحاجة لأي لقمة طعام نتقوى بها أو قطعة ملابس تقينا الحاجة والبرد وتخفف عنا ولو بعض تلك المعاناة .

وهكذا اغتنمنا جشع أبي عوض وحالة الرخاء الظاهر تلك ، فأقبلنا ابتداء على توثيق علاقاتنا داخل المهجع أكثر وقد أمنا مداهمات الشرطة من فوق الشراقة إلى حد ما . وصرنا نتعرف على أحوال بعضنا البعض ، ونتبادل الحكايا والخبرات والمعلومات . ونضاعف همتنا لحفظ سور القرآن الكريم وآياته . وفي هذا السياق صرنا نُخَرِّج حفظة كتاب الله مجموعة إثر مجموعة ، ونعد لذلك حفلاً كبيراً نوفر له من الطعام أو الحلوى التي تصلنا من الزيارات أو من مخصصاتنا اليومية طوال أسبوع أو اثنين . فينال أبو عوض حصة الأسد منه ليسكت عنا ويأذن لنا ، ونوزع البقية علينا احتفالاً بالإخوة الحفظة وتكريماً لهم .

سماح !

كذلك استفدنا من ظرفنا الإستثنائي ذاك فصرنا نشتري من بضائع أبي عوض المسروقة أشياء ما ونرسلها مع رسالة مختصرة إلى إخوة أعزاء في مهاجع أخرى . وكنا نتلقى بنفس الأسلوب ردودهم وهداياهم . وعن هذا الطريق صار الإخوة يتأكدون من وجود فلان أو إعدامه . وعن نفس الطريق وصلني إلى مهجع السل أواخر عام ١٩٨٣ إبريق شاي من أبي الفضل الذي انتقل إلى مهجع آخر بعد مدة يلمح لي به أنه حكم بالإعدام . وكان قد كتب لي على الإبريق يقول : إلى محمد سليم .. محمد جمال سماح . فعلمت أنه يطلب المسامحة لأنه راحل عما قريب . وبالفعل فلم تمض بضعة أسابيع حتى بلغنا أنه أعدم رحمه الله .

وفي المقابل كان أبو عوض ينتفخ وينتشي بالوهم وبعض سقط المتاع . ولقد سمعنا أنه طلب من المساعد أن يسمح لأهله بزيارته مرة فسمح لهم . وتردد أنه هرّب مع أخيه الذي زاره نقوداً من

تلك التي جمعها من تجارة الحرام التي امتهنها ، لكن علم ذلك عند الله . وأما ما علمناه نحن ورأيناه فكان آية من آيات الله بالفعل . فلم تمض على هذه المظالم مدة من زمن حتى رأينا الدائرة تدور على أبي عوض ، وينتقم الله من أفعاله الشنيعة شر انتقام . وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً بإذن الله .

الحزبية الإقليمية !

لم تكن حياتنا في السجن ملائكية أو مثالية . فبينما كنا أيام الشدة نزداد قرباً إلى الله وتجرداً وتلاحماً كنا إذا طال علينا العهد نرتد إلى أصولنا وخلفياتنا ومشاربنا الشتى . وبعد أن مضت هذي السنون علينا يضمنا مهجع موحش باطنه عذاب وظاهره أشد وأنكى . ومع اختلاط الإنتماءات وتعدد المشارب بدأت تظهر بيننا في فترة الإنفراج النسبي تلك اختلافاتنا المذهبية والتنظيمية والإقليمية معاً !

ولقد ظهر ذلك أول ما ظهر حينما استطعنا أن ننظم بعض الدروس الهادئة إذا سنحت الظروف وأمنا الحرس من فوقنا ومن حولنا . فوجدنا الإخوة لم يلبثوا أن أخذوا يتكتلون فرقاً وجماعات تتجادل في البداية حول قضايا المذهبية واللامذهبية .. والإتباع والإبتداع .. وما يندرج تحت هذا الباب من جدل أنهك الأمة قروناً ولم ينته لصالح أحد ! حتى أن الإخوة صاروا يختلفون على الأذان الذي يبلغنا من وراء أسوار السجن قادماً من منارة مسجد مدينة تدمر . وكان وجه الخلاف حول مشروعية الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام جهراً في خاتمة الأذان !

وسرعان ما أخذ الخلاف الذي استشرى مأخذ الحزبية التنظيمية . وطفت على السطح اختلافات تنظيم الإخوان التاريخية بين دمشق وحلب . أو بين جماعة الأستاذ عصام العطار وجماعة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . واستطاع الإخوة الحلبيون وفق ما رأيت أن يجرّوا الدمشقيين من دائرة الإختلاف التنظيمي إلى دوامة الخلاف المذهبي . وأشاعوا بيننا أن الدمشقيين سلفيون لا مذهبيين . وانعكست هذه الصراعات المقيتة على السجناء كلهم فآذتهم وأرقتهم . وآذت أكثر ما آذت الحياديين وغير المنظمين أصلاً . ورأى هؤلاء في هذا الخلاف أسوأ صورة للجماعات والتنظيمات الإسلامية كلها . ورأيتنا نعود بجدليات الطرفين المتعصبين إلى القرون الوسطى ونتفرق في قضايا لا يبنى عليها عمل أساساً .

وتطور الأمر بسرعة .. أو فقل ارتد الناس إلى خلفياتهم وتشوهاتهم التي أتوا منها ! فبعد أن انتقل الخلاف من الفكر والمذهبية إلى الحزبية التنظيمية انتهى الأمر بسقوط الأطراف جميعاً في وحل الإقليمية الضيقة ! فتكتل السلفيون الموالون للأستاذ عصام في تكتل دمشقي . وأخذ المذهبيون الحلبيون الموالون للشيخ عبد الفتاح طرفهم الإقليمي . واستغل الحمويون التابعون للأستاذ عدنان

سعد الدين القضية ليجمعوا الحمويين في كتلة ثالثة ! وانعكس ذلك على المهجع أسوأ انعكاس . وتفرقت القلوب شتى . وانعزلت كل كتلة في دائرة مغلقة تجاور الدائرة الأخرى والثالثة ولا تتداخل معها .. رغم أن المحنة لم تكن تفرق بين أي من هذه الكتل وأصحابها .

ولم تلبث أن تعقدت الأمور أكثر حينما نشأ تيار تكفيري فيما بعد نتيجة هذه الضغوط وتلك الفتن معاً ، فازداد الطين بلة .. واشتد التعصب والتعنت .. وامتدت أحكام التكفير لا لتشمل النظام وأركانه وأعوانه وحسب ، بل كل من لم يلتزم بالفكر التكفيري وقيادته ومنهجه !

السل

كانت أبدان السجناء قد أنهكت إلى أبعد الحدود بعد سنين من العذاب المستمر والجوع والحرمان والعيش في أسوأ الظروف الصحية والنفسية . وعلى الرغم من هذا الإنفراج الظاهر الذي حدث إلا أن الوقت كان قد فات . وبدأ عدد الضحايا يرتفع من جديد .. وتزايدت حالات الوفاة المرضية والإصابات المزمنة ، حتى مات من مهجعنا وحده قرابة الأربعة عشر أخاً لم ندر إلا بعد أن قضوا رحمهم الله أن الذي أصابهم حقيقة الأمر كان مرض السل . وعندما تطورت معرفتنا بهذا المرض الخبيث ووجدنا من يفقهنا في أعراضه وأشكاله علمنا أنه لا يصيب الرئة وحسب ، وإنما هناك سل يصيب الأمعاء وسل بالكلى وثالث بالعظام ورابع وخامس . ولم يكن في مهجعنا حتى تلك الفترة الطبيب المتخصص الذي يقدر على تشخيص الداء ، مثلما لم يكن لدينا العلاج المطلوب حتى إذا علمنا به واكتشفناه .

وواقع الأمر فإن مرض السل تم اكتشافه منذ عام ١٩٨٢ في المهجع ٥-٦ بالباحة الأولى . وهو واحد من أقدم مهاجع سجن تدمر . كبير المساحة مظلم الجنبات شديد الرطوبة . ولقد قدر أن يكون أحد نزلائه الطبيب محمود العابد من حماة ، الذي كان أحد أطباء قسم الأمراض الصدرية في إحدى مستشفيات حلب . لكن الإخوة وقتها ومن خوفهم من بطش الشرطة وإحساسهم بانعدام التجاوب أو الإهتمام لم يبلّغوا عن المرض . فلما لاحظت إدارة السجن ازدياد الوفيات وتوافق ذلك مع حالة الإنفراج العامة تلك فتحوا للمسلولين مهجعاً خاصاً في الباحة الرابعة هو المهجع ٢٣ .

ونعود إلى مهجعنا ٢٦ الذي بات الآن في عهد ولاية أبي عوض القسرية عليه أحد مهاجع السجن الخاصة إن لم يكن أخصها جميعاً . وأما السبب فكان - كما ذكرت - اتفاق إدارة السجن مع أبي عوض على تحويل السجناء الموسرين وأصحاب الزيارات والواسطات إلى مهجعنا ليكونوا تحت عينه ورقابته الدائمة .. وتكون الزيارات والنقود التي يرسلها أهاليهم المساكين أدنى إلى جيب أبي عوض وأسياده من جيوب أصحابها أنفسهم !

وفي هذا السياق وضمن عمليات النقل والتحويل جاء إلى مهجعنا مجموعة من الإخوة الدمشقيين أذكر منهم محمد الحوراني ، وسليم الأسد ، وعدنان المؤيد ، وأخ من بيت دبش وغيرهم . وكان سليم الأسد طبيباً من دمشق نقل من مهجع ٥ - ٦ بعد أن تعلم من الدكتور محمود العابد هناك فحص المسلولين وتشخيص إصابتهم . ونقل لنا وقتها نبأ اكتشاف إصابات سلية بين السجناء . وأخبرنا عن تخصيص مهجع ٢٣ للمسلولين ، وأن أخاً آخر هو زاهي عبادي من دير الزور والذي كان في سنته الرابعة بكلية الطب تطوع للذهاب إلى نفس المهجع والإشراف على إخوانه المسلولين ، ثم لم يلبث رحمه الله أن أصيب نفسه بالمرض عن طريق العدوى .

وفي يوم من الأيام كنا في التنفس أنا والأخ صبحي بركات أحد أفراد مجموعتي ففوجئت به يستند إلى ذراعي بادي الإجهاد ، وقال لي وهو لا يقوى على إخراج الكلمات أنه يحس بالغثيان وبالدوار ولا يقوى على الحركة . فطلبنا له من الرقيب إذناً بدخول المهجع . وهناك لم يلبث الأخ صبحي أن تقيأ وسقط محلول القوى . وعندما عدنا من التنفس فحصه الأخ سليم فتبين له أنه السل . وعندما حضر الشرطة وأخبرناهم أسرعوا ونقلوه إلى المهجع ٣٥ في الباحة السابعة والذي خصص بدوره في تلك الفترة للمسلولين بعدما ضاق بهم مهجع ٢٣ .

ومر شهر آخر وإذ بي أجدني أعاني من الأعراض نفسها : ارتفاع في الحرارة ، وقلة شهية للطعام .. وسعال وتعرق وإجهاد متزايد . وبعد أسبوع من المعاناة فحصني الأخ الطبيب سليم أسد فوجدني أصبت بالسل أيضاً . وعندما أخبر إدارة السجن بذلك نقلوني بدوري إلى مهجع السل ، وكان ذلك في الشهر السادس من عام ١٩٨٣ وبعد أيام قليلة من محاضرة فيصل الغانم العامة أمام السجناء .

جرعة العذاب !

دخلت المهجع ٣٥ في الباحة السابعة فوجدت ويا لهول ما وجدت ! أكثر من مائة من الإخوة ألقى المرض بكلكله عليهم فسلبهم نضارة الحياة وسمت العافية . فهذا لا يكف عن السعال وفي يده علبة صفيح صدئة يبصق فيها البلغم والدم . وذاك يتقيأ بين فينة وأخرى ولا يستطيع أن يمسك نفسه . وثالث أصاب السل كليتيه فانتفخ جوفه وكأنه امرأة حامل ! ووجدت المصاب بسل الخصيتين ، وسل العظام ، وسل السحايا ، وسل الرئتين .. وكان على كل أولئك وعلي أن نستخدم الحمام نفسه وأن ننام متجاورين نتبادل العدوى ونتلقاها شئنا أو أبينا .

ولقد كنت أظن أو أؤمل أن تكون ظروف مهجع المسلولين أفضل من غيرها ، لكنني وجدت الأمور كأنها لم تتغير . فالبطانيتان اليتيمتان والعازل على حالهم .. والشراقة والنوافذ المفتوحة كتلك التي في بقية المهاجع . والحرس على الباب وفوق المهجع يروحون ويغدون . وهناك برنامج

غير منقوص من التفقد إلى التنفس إلى سوء الطعام ورداءة الظروف . وعندما نكون في الساحة أو يرى الشرطة منا ما لا يسرهم كنا ننال من الضرب والجلد والعذاب ما لم يختلف عن ذاك الـذي يناله الإخوة الأصحاء في مهاجع أخرى . ولعل ميزة المهجع الوحيدة كانت في نزلائه المسلولين جميعاً .. وفي جرعة الدواء التي خصونا بها وحسب ! وحتى جرعة الدواء تلك كانت أداة تعذيب وابتزاز لنا .. فلا يكاد ينقضي شهر على توفرها حتى تنقطع وتغيب أسبوعين أو عشرة أيام . فإذا عادت جعلنا نتخوف انقطاعها ونترقب وصولها فتزداد قلقاً على قلق وعذاباً على عذاب .

وهكذا ، ومع اضطراب تعاطي الدواء واستمرار سوء التغذية وقساوة الظروف استمر الإخـوة يتساقطون موتى واحداً بعد الآخر حتى عددت أكثر من عشرين أخاً ماتوا من مهجعنا نحن فقط . ومن هؤلاء أذكر الآن أخاً من حمص اسمه عبد الرحمن فليطاني ، وآخر اسمه عبد الساتر مـصطفى من نفس المدينة . ومصطفى المصطفى من قرية منخ قرب مدينة حلب . وآخر اسمه الأول مصطفى من حلب أيضاً .

نوبة قلبية

ومن شهداء مهجع السل أيضاً تحضرني قصة الأخ محمد حسن عجعوج من حماة الذي كان مـن جماعة الشيخ مروان حديد الأوائل. والذي قامت المخابرات السورية باعتقاله من لبنـان بعيـد اعتقال الشيخ مروان ، وأودع سجن المزة مع بقية من اعتقل وقتها . ومـع تطـور الأحـداث وتصاعد موجات الإعتقال في بداية الثمانينات نقل الأخ حسن إلى سجن تدمر بعد المجزرة الكبرى التي حدثت هناك . وتنقل من مهجع ٩ إلى مهجع ١١ لألتقيه وقد أصابه السل آخر الأمـر في مهجع ٣٥ .

وهناك وفي يوم من الأيام وصل محمد حسن عجعوج نبأ استشهاد أسرته جميعاً أثناء أحداث حمـاة قبل أقل من عام . وسمع بأن واحداً من اخوته سُحِلَ في شوارع المدينة سحلاً . فلم يتمالك رحمه الله وأصيب بنوبة قلبية قضت عليه .

وصار أمراً اعتيادياً بيننا أن ننادي الشرطي صباح كل بضعة أيام ونخبره بوفاة أحد المرضـى ، ثم نلتفت إلى برنامجنا ذاته نكاد لا نحس تجاه الأخ الفقيد بالحسرة قدرإحساسنا بالغبطة أن قبضه الله إليه فاستراح من هذا العذاب

هستيريا

ومن مشاهد مهجع السل التي لا تنسى مشهد الأخ بسام الحافظ من حمص الذي فقد القدرة آخر الأمر على تحمل كل هذه العذابات والضغوطات النفسية وما عاد يقدر علـى تلقـي المزيـد .

فوجدناه في ليلة من الليالي ينهض وسطنا وقد احمرت عيناه فكأنما هما من دم أو نار وراح يطلق عقيرته بالصراخ والعويل . وكان الإخوة كلما حاولوا تهدأته ازداد انفعالاً وتأزماً .

ودخل الشرطي المناوب يستطلع الأمر ، وأمر المسؤول الصحي الأخ زاهي عبادي أن يسكته بالقوة . فلم يجد الأخ إلا أن يعطيه إبرة مسكنة هدأته بالتدريج . وفي الصباح نادى الشرطي المسؤول الصحي ليخرج هذا الأخ إليه . فلما خرج المسكين انهال الشرطة عليه ضرباً وجلداً وأعادوه يكاد يسلم الروح . لكنه وعندما حل المساء عاد وانتفض وكرر ما حدث ليلة الأمس . فعاد الأخ زاهي وأعطاه إبرة ثانية مهدئة . وعندما أتى الشرطي من جديد رجاه أن هذا السجين مصاب بالهستيريا ولا يملك من أمره شيئاً . ووعده أن يبذل أقصى جهده لتهدأته وعلاجه . بعدها طلب زاهي منا أن نكف عن محادثة الأخ بسام . ونصبوا له في زاوية من زوايا المهجع ما يشبه الخيمة وأجلسوه فيها . وظل المسكين قرابة الشهرين معزولاً عنا لا يكلمنا ولا نكلمه بشيء .. أخذ خلالها يتحسن بالتدريج . ثم جرى نقله بعدها إلى مهجع آخر ولم نعد ندري ما الذي انتهت به الحال إليه .

ألفية ابن مالك !

ومضت مسيرة العذاب .. تنهش المحنة من أجسادنا المنهكة وتقتات واحداً منا بعد الآخر ولا تشبع . ولم يكن أمامنا من باب نلتجىء إليه غير المولى تبارك وتعالى .. نتقوى به على محنتنا ونتعالى بالإلتجاء إليه على كل الجراح والعذابات .

ولقد كانت النفوس تضعف حيناً ، وتتقوى من ثم أحياناً أخر . لكن نفسياتنا تفوقت على أجسادنا ولله الحمد . وتمكنت من الثبات أغلب الأحيان حتى ولو انهارت الأبدان وتهتكت الأجساد . فكنا كلما خبت الهمم أو انتكأت الجراح نشد من عزم بعضنا البعض بالدعاء والصلاة والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى . ندعوه مع كل فتحة باب ، ونشكره كلما أغلقوا علينا الباب نفسه وبقينا سالمين ! وبعدها وإذا أحسسنا ببعض الأمان عدنا إلى برامجنا التي باتت غذاء أرواحنا ورواء قلوبنا .. درّها كتاب الله الكريم . حتى إذا أتقن واحدنا حفظه التفت إلى من حوله من إخوانه فتعلم منه ما لديه من علم مفيد . فقه كان أو تجويد أو لغة عربية أو متون . فإذا أنهاها مضى يلتمس تعلم اللغة الإنجليزية أو الفيزياء أو الكيمياء .. وكل ذلك عن طريق المشافهة .

وأما أنا وبعد أن أتقنت حفظ القرآن الكريم كله بفضل الله عكفت على دراسة المتون ، وكان شيخي في ذلك أخ من حلب جزاه الله خيراً كان متقناً لحفظ المتون . فأخذت عنه البيقونية والجزرية والرحبية .. ومن ألفية ابن مالك حفظت حوالي ٦٥٠ بيتاً ولله الحمد . وظهرت في هذا

السياق مواهب وعجائب .. فكان بعض الإخوة يحفظون سيرة ابن هشام ويدرسونها لإخوانهم الآخرين . فلما اتقنها جمع منهم حولوها إلى منظومة أيضاً بالغة الإتقان

التدمري الشهيد

ومن المواهب الفذة التي ظهرت بين السجناء أخ شاعر نظم مجموعة من القصائد الرائعة كنا نتناقلها بين المهاجع ونحفظها عن ظهر غيب . ولقد بلغنا أن الأخ حكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في كل المجموعة التي حوكمت معه ولم يصل الدور إليه .. ففجر ذلك كما يبدو موهبته الكامنة ، وجعله ينطق بمعاناتنا جميعاً من خلال قصائده الرائعة . ومما لا أنساه من تلك القصائد واحدة أهداها إلى إخوانه في مهجع السل يقول فيها :

سيشرق وجهك خلف الظلام

وصدرك يترف خلف الحديد

وما كاد يثنيك حقد اللئام

فيا أيها التدمريالشهيد

عليك السلام عليك السلام

. . .

أخي إنا بعد الأذى والهوان

سنعلو على الخلق إنساً وجان

لنا الصدر أو مترل في الجنان

وبعد الأعاصير والزلزلة

كأن فؤادي غدا قنبلة !

راحل عنك ..

كذلك فجرت المحنة موهبة شعرية أخرى في أخ من حلب كتب قصيدة يناجي فيها والدته من خلف القضبان . فتلقاها أخ آخر من مهجعنا برزت موهبته الفذة في تلحين القصائد وإنشادها . فصارت القصيدة لحناً يتنقل على شفاه السجناء من مهجع إلى آخر ومن قيد إلى قيد .. فتشتد بها العزائم وتعلو بكلماتها النفوس :

عندما جاءت يفيض الود منها والحنين

تطرق الباب وفي دقاتها لحن حزين

أتراها تطلب الوصل وترجو أن ألين

أم تراها ظنت القيد يهز الصامدين ؟

. . .

قلت والثورة في نفسي أعاصير تجول

حسبي الله ربي ونعم الوكيل

وحملت الزاد والرشاش وقررت الرحيل

وعلى الباب بقايا من عبارات تقول

. . .

راحل عنك أقاسي من جراحي وأسافر

لا أبالي بالمنايا وعلى الطغيان ثائر

أتحدى ظلمة الليل وأحيا لأقاتل

علمتني صحبة القيد وأنغام السلاسل

أن دين الله لا ينهض إلا بالقنابل

. . .

راحل عنك أغني للسواقي والبيادر

أملؤ البيداء نوراً ونشيداً وبشائر

ورصاصي للطواغيت إلى النار تذاكر

في سبيل الله ماض تابعاً نهج الأوئل

علمتني صحبة القيد وأنغام السلاسل

أن دين الله لا ينهض إلا بالقنابل .

أنا بعثي !

ولقد كان من ميزات مهجع السل أيضاً اختلاط انتماءات نزلائه وتعدد الإتجاهات التنظيمية والسياسية فيه . فبعد أن كان سجناء مهجع ٢٦ من تنظيمات إسلامية أو من المحسوبين عليهم جميعاً وجدنا أنفسنا في مهجع السل ٣٥ متجاورين مع سجناء من تنظيمات يمينية موالية للبعث العراقي . ورغم أنني وبقية الإخوة كنا ولا نزال نتعاطف مع أي مظلوم امتدت سطوة النظام فسلبته حقاً أو زادته رهقاً ، إلا أنني رأيت أولاء البعثيين في أغلبهم مجرد منتفعين مصلحيين من فلاحي منطقة الجزيرة . جاء البعثيون العراقيون إليهم فاستغلوا فقرهم وحاجتهم وبساطتهم وأمدوهم بالمال فأصبحوا يعبدون رب هذا المال ليس إلا ! ولقد تسبب لنا هؤلاء للأسف بمزيد من المعاناة ، وكانوا مصدر إزعاج حقيقي لبقية المهجع . ورغم أن عددهم تراوح بين عشرة وخمسة عشر إلا أنهم أساؤوا للمجموع مرات كثيرة . فرغم المحنة التي أصابتنا جميعاً إلا أنهم كانوا

لا يكفون عن النظر إلينا والتعامل معنا كأعداء تاريخيين .. وكانوا لا يتورعون عن وصفنا رغم كل الذي حصل ويحصل بالرجعية ! ولذلك استباحوا أن يفسدوا علينا للشرطة وإلى حد الإفتراء . فكان أحدهم إذا عنّ له خرج من المهجع وتوجه إلى الرقيب أو الشرطي وابتدره بالقول :

سيدي أنا بعثي .

وجعل بعد ذلك يخبره أننا ننظم داخل المهجع دروساً ولنا من بيننا شيخ نتبعه .. وأننا ندعو في دروسنا في المهجع إلى الجهاد ! ولطالما تسبب ذلك في إخراجنا جميعاً إلى الباحة لننال عقوبة جماعية بسبب هذه الإفتراءات .

ولا زلت أذكر من أسماء أولئك اليمينيين واحدا اسمه حسين الحافظ ، وآخر اسمه يعقوب يعقوب ، وثالث لقبه أبو علي .. كانوا كلهم من هذه الشاكلة . وأما من كان صاحب فكر ووعي من اليمينيين على قلته فقد تحول إلى الحق وأعرض عن سفاسف مجموعته منحازاً إلى الإسلام ، وشهدنا منهم من هذا النموذج من أحجم عن ذكر اسمه الآن سائلاً الله له السلامة والثبات .

الشيوعيون المدللون !

وإذا كان هذا هو حال البعثيين العراقيين معنا فإن الشيوعيين الذين أحسسنا بوجودهم عام ٨٤ كانوا في منزلة أخرى . ففي ذلك العام تم نقل الأخوات السجينات في مهجع المستوصف إلى سجن آخر . ولقد أحسسنا ذلك من خلال توزيع السخرة . فوقتذاك وفي ظل الإنفراج النسبي أوكلت إلينا مهمة توزيع الطعام على مهاجع الباحتين السادسة والسابعة ، وكان المستوصف ضمن هذا النطاق . لكن "البلدية" الموكلين بجلب الطعام أعلمونا في يوم من الأيام بالتوقف عن تقديم السخرة لمهجع المستوصف . وكنا قبل يوم مضى قد لمحنا رتلاً من النساء يغادر المهجع وقد قارب عددهن العشرين أو زاد عليه ، فأدركنا أنهن غادرن هذا المكان ، وسألنا الله تعالى لهن ولنا الفرج والنجاة . فلما خلا المكان أتوا بالشيوعيين إليه . فكنا نلمحهم بعض الأحيان ونسمع بوجودهم . ولما انتقلت إلى مهجع ٢٩ لاحقاً صرنا متجاورين على باحة واحدة . وأصبح من الممكن لي أن أراهم بشكل متواصل وأطلع على وضعهم مباشرة . وكان أمراً مثيراً للعجب أن حالتهم كانت تختلف عن كل بقية السجناء تمام الإختلاف . فكانوا يطلقون شعورهم .. ويخرجون للتنفس بشكل دائم . ويتحدثون فيما بينهم ومع الشرطة بحرية كاملة .. ويدخنون ويطبخون ويستقبلون الزيارات بشكل متواصل . ولم نرهم يعذبونهم أو يضربونهم أبداً .. ولم نسمع بتنفيذ أحكام بالإعدام فيهم . ولم يكن عددهم يجاوز الأربعين .

مصيدة الطليعة !

ومضت الأيام ظاهرها الإنفراج وحقيقتها لؤم صرف وجشع وخسة تعصرنا من كل جنب عصراً . وخلال ذلك لم تتوقف دفعات القادمين الجدد إلى المهاجع مثلما لم تتوقف عمليات الإعــدام . وكلما أخذوا من السجناء مجموعة للإعدام أحضروا مجموعة من المعتقلين الجدد بدلاً عنهم . لكن الحدث الجديد الذي زاد الطين بلة والعذاب عذاباً وقتها كان نجاح النظام في استدراج مجوعــات من تنظيم الطليعة إلى سورية واعتقالهم جميعاً في خطة محكمة أوقعت عدنان عقلة نفسه بين أيــدي المخابرات .

وكان استقبال شباب الطليعة غاية في الوحشية والفظاعة . وفي البداية تم عزلهم في مهجع خاص بهم صبوا عليهم فيه ما لا يوصف من العذاب .. حتى سلخوا جلــودهم وهــشموا أطــرافهم وتركوهم من غير علاج يعانون أشد المعاناة .. إلى أن تعفنت أرجلهم المتقيحة وتفتحت جروحهم المتعفنة وسرت فيهم الغانغرينا فقضت على عدد غير قليل منهم . وبعد مدة وزعوا من بقي مــن هؤلاء الإخوة على بقية المهاجع ، كان منهم أخ من حلب التقيته اسمه أيمن عنجريني تم إعدامــه فيما بعد . وآخر لم ألتقه ولكنني سمعت عنه وبلغني أنه أعدم بعدها وهو طاهر العلو مــن قــرى حلب . ومن هؤلاء سمعنا بما جرى .. وبلغتنا أخبار الأحداث بالترتيب .. بدءاً بالــشَرَك الــذي أوقعهم فيه النظام عبر عميل مدسوس في صفوف التنظيم اسمه محمد جاهــد دنــدش ، وانتــهاء بوحشية التعذيب الذي لاقوه قبل أن ينقلوا إلى مهاجعنا .

وملخص ما حدث مع تنظيم الطليعة الذي توزع أكثر أعضائه بين الأردن العراق بعد أحــداث حماة أن قيادته قررت العودة إلى الداخل لمعاودة بناء قواعدها وبدء مواجهة جديدة مع النظــام . فالتقط جاهد دندش هذا الخيط وأوحى للطليعة أنه قد أمن لهم الطريق الآمنــة والأدلاء الخــبراء لإيصال العناصر إلى حلب . وبدء نزول الشباب عن طريق الحدود التركية السورية مجموعة بعد أخرى يتقدمهم عدنان نفسه . كان جاهد والمخابرات السورية يستقبلونهم أولاً بأول دفعــة وراء دفعة ويرسلوا إلى قيادة الطليعة في الخارج الإشارة المتفق عليها فيما بين النازلين والقيادة إشــعاراً بسلامة الوصول . حتى اكتمل نزول قرابة السبعين أخاً سقطوا جميعاً بين أيدي النظام لا حول لهم ولا قوة .

ولم نعلم عن مصير عدنان عقلة نفسه شيئاً مؤكداً ، إلا أن بقية الإخوة تنقلوا من فرع العدوي إلى التحقيق العسكري فتدمر . وزاد من معاناتهم ومعاناتنا معاً أنهم كانوا شديدي الإنغــلاق علــى أنفسهم مثلما كانوا شديدين وجريئين في أحكامهم على قيادات الإخوان وتقييمهم لهم . وكانوا بعد هذا الإحباط الذي أصابهم والمشاكل التي عانوا منها من قَبْل مع قيادة الإخوان لا يتورعــون عن وصمهم بالخيانة والعمالة ، ويحملونهم مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع في حماة وفيمــا قبلــها

وبعدها . الأمر الذي استفز عناصر الإخوان في المهجع وهم يرون قيـاداتهم التاريخيـة ورمـوز تنظيمهم تجرّح على الملأ ، وأحدث بيننا سبباً جديداً للقلق وللتوترات .

تصفيات جماعية

وما لا ينسى من أيام عام ١٩٨٤ المريرة أننا شهدنا فيها أحد أكبر عمليات الإعدام الجماعي إن لم تكن أكبرها على الإطلاق . فبعد انقطاع تنفيذ الأحكام عدة أشهر في تلك الفتـرة فوجئنـا بالمشانق تنصب ذات يوم في الساحة السادسة بأعداد كبيرة ،وراح الزبانية يخرجون من الإخـوة المعتقلين فوجاً إثر فوج إلى حتفهم . يومها قدّر الإخوة الذين تمكنوا من مشاهدة جانب مما يجري من خلال شق في الباب عدد الذين أعدموا بمائتين من غير مبالغة ، كان من بينهم كما بلغنا الأخ يوسف عبيد من دمشق . ومع تسرب الأخبار فيما بعد قدرنا أن تلك الإعدامات ترافقـت مـع حالة النزاع التي حصلت بين رأسي النظام حافظ الأسد وأخيه رفعت ، والتي شهدت حشودات عسكرية حقيقية بينهما . وفسرنا ما حدث بأن رفعت كان يهيؤ نفسه لاستلام الحكم بعد المرض الذي ألم بأخيه ، ولذلك أراد أن يصفي أكبر قدر ممكن من السجناء وينهي كل خطر مـستقبلي محتمل .

المدير الجديد !

ولكن الأخ الأكبر تعافى بقدرة قادر ، وعاد يمارس سطوته على البلاد والعباد ، وهالـه أن يجـد النخر دبَّ في أركان النظام وبين رؤوسه المقربين ، فبدأ - مثلما تسرّب بعد ذاك - حملة تطهـير وإعادة توزيع للأدوار . وفي هذا السياق طالت التغييرات إدارة سجن تدمر ، ووجدنا الـشرطة العسكريين يطلبون رؤساء المهاجع لاجتماع مشترك في شهر تشرين الأول من عـام ١٩٨٤ . وذهب رئيس مهجعنا فيمن ذهب ، فلما عاد بعد قليل ونحن متلهفون لسماع الأخبار أخبرنا أن مدير السجن قد تغير ، ورحل معه مساعد الإنضباط وسمسار الضحايا محمد الخازم . وأن المـدير الجديد هو مساعده ونائبه النقيب زكريا العش . وأنه اجتمع بهم وهم مغمضو العيون وحـذرهم من أن التراخي الذي ساد في الفترة الماضية قد انتهى .. وعاد النظام الآن وعـاد الإنـضباط . ورجع نظام إقفال العيون أمام الشرطة .. والويل كل الويل للمخالفين!

ولم تمض برهة من الوقت ونحن لم نكد ننتهي من أسئلتنا وتساؤلاتنا بعد حتى حضر الشرطة لأخذ التفقد . فصاحوا فينا فور دخولهم أن نغمض أعيننا ونقف بوضع الإستعداد . وما لبثوا أن ساقونا إلى خارج المهجع وانقضوا علينا ضرباً وصفعاً وجلداً حتى سلخوا جلودنا . وبدأنا مـن يومهـا مرحلة جديدة من الشدة والعذاب . وعاد التفقد الصارم والتنفس المقيت والقتـل والتعـذيب

والإهانات . وكان الإعفاء الوحيد للمسلولين من الحمام رحمة تقينا عذاب تلك الساعة ، لكنهم سرعان ما عوضوها بمضاعفة العذاب علينا في التنفس !

وتوقف بث الإذاعة عنا من حينها . وصدر الأمر من ذلك الوقت بتكميم أفواه الخارجين للإعدام فلم يعد يسمع لواحدهم قبل أن يطوق عنقه حبل المشنقة صوت ولا تكبير . وعاد البطش أشـد علينا من السابق . ثم لم يلبث أن اشتد أكثر وتضاعف بحضور المدير الجديد اللواء غازي الجهـني لاستلام منصبه بعد قرابة شهرين . فارتفعت وتيرة البطش إلى أقصى درجاتها . وعاد الشرطة إلى ممارسة التعذيب الوحشي من جديد . حتى أنهم أخرجونا في أحد الأيام للتنفس مغمضي العيـنين كالعادة تلاحقنا السياط والعصي والكرابيج . فكان قدر أخ من حلب اسمه عبد الباسط دشق أن تصيبه ضربة من هؤلاء الزبانية على عينه مباشرة فتفقأها . فعاد المسكين عندما عدنا تغطي الدماء وجهه ، وهو لا يكف عن التقيؤ من شدة ألمه . وعندما دق مسؤول مهجعنا الصحي وقتها الأخ علي عباس من ادلب ليخبر الشرطة بحال الأخ ، لم يجرؤ أن يقول لهم أن أحداً منهم أنفسهم فقـأ عينه ، بل اعتذر وسألهم العفو وهو يقول لهم بأن أحداً من مهجعه سقط في الحمام ففقئت عينه ! لكن أحداً لم يبال ، ولم تسفر المحاولات المتكررة عن شيء . وحينما تكرم طبيب السجن وحضر لمعرفة سبب شكواه بعد يومين أو ثلاثة لم يزد عن أن أعطاه بضع حبوب مسكنة ومضى . وظـل المسكين يعاني عذاباً لا يوصف شهوراً عديدة من غير أن يهتم به من هؤلاء الزبانية أحد .

تأديب !

وعلى الرغم من هذا البطش أو ربما بسببه قام واحد من المعتقلين اليافعين من ادلب من بيت سيد عيسى نزيل مهجع الأحداث ٣٦ بالتصدي ذات يوم لواحد من الشرطة آذاه كما يبدو في الباحة أثناء التنفس فهجم عليه الشاب وضربه . ورغم أن الحادثة كانت عفوية لا تعدو أن تكـون ردة فعل انفعالية وحسب ، وعلى الرغم من أن الشرطي رد عليه وقتها وأشبعه ضرباً ، إلا أن الأمـر أخذ بعداً كبيراً . فأدخلوا السجناء إلى المهاجع كلهم ، وحضر مساعد السجن الجديد محمد نعمة بنفسه يحقق في الأمر . وأخرجوا الأخ المسكين فأجلسوه في الدولاب وانهالوا عليه ضرباً وجلـداً حتى كادوا يزهقون روحه . وبعدما انتهوا أخرجونا نحن سجناء الباحة السابعة كلنـا وضـربونا ضرباً مبرحاً حتى يؤدبوننا ويقتلون فينا أي مشاعر محتملة بالتمرد . ولذلك لم يكن الإخوة يردون على أذى الشرطة واعتداءات جلادينا لسببين : فهم يعلمون أولاً أن النتيجة محدودة إن لم تكـن منعدمة ، فيما سيكون الخطر متحققاً وغير محدود ، وربما أفضى بالشخص إلى الهلاك . ولخشيتهم ثانياً أن تتسبب أعمال كهذه في إيقاع الأذى ببقية السجناء من غير سبب ولا حاجـة . وكـان

الشعور السائد أننا وقعنا بأيدي الظلمة بقدر الله ، وأننا إذا احتسبنا وصبرنا فهو خير لنا من أن نتسبب لنا ولمن حولنا بمزيد من المفسدة والأذى .

آية الله في أبي عوض !

غير أن الرأي لدى بعض الإخوة كان مختلفاً بعض الشيء كما يبدو . والصبر على هذه الأهوال وقد فاض الكيل انتهى بهم إلى قرار الإنتقام من أجير الإدارة وكلبها الخسيس أبي عوض . الذي بلغ تطاوله مدى لا يسكت عنه .. وتجاوزت وقاحته حدود العفة والأخلاق . فاتفق عدد من شباب المهجع ٢٦ على تأديبه ونفذوا ما اتفقوا عليه . فاجتمعوا وانهالوا عليه ضرباً لم يكن له أن يرده . فلما قلب أبو عوض الأمور وفكر وقدر .. وجد نفسه قد انكشف وتحطمت هيبته الواهية . ورآها كأنما فرصة ترفع منزلته لدى المدير الجديد . فطلب مقابلة الرقيب فجأة وأخبره بأن لديه أخباراً مهمة يريد أن يوصلها للإدارة . ولما سأله عن نوع هذه الأخبار قال له أبو عوض إنه اكتشف وجود تنظيم للإخوان داخل المهجع . فكانت هذه العبارة أكثر من كافية لتستنفر الرقيب والمدير وكل الزبانية على هذه الحفنة من السجناء المساكين .

واقتحم الشرطة المهجع على الفور ينتظرون الإشارة ليفتكوا بالمساجين . فلما رأى الإخوة الأمر بهذه الخطورة قرروا أن يقفوا صفاً واحداً في وجه افتراءات أبي عوض وتسلطه . وجعلوا يخبرون الرقيب بكل مخالفاته وسرقاته والرشاوى التي أخذها والإنحرافات التي أحدثها . وأكدوا له أن اتهامات أبي عوض محض اختلاق . وأنهم أمامه جميعاً مستعدون لتحمل أشد أنواع العقوبات إذا ثبت من تلك الإتهامات شيء .

وسبحان من جعل الشرطة يصدقون السجناء هذه المرة . لا ندري أهي غيرة من أبي عوض الذي بات يتمتع بمزايا ويجمع من الأرباح والأموال ما لم يتح حتى للشرطة العسكرية أنفسهم .. أم أن الأمر أتى انسجاماً مع عهد المدير الجديد الذي أراد أن يساوي المساجين كلهم في العذاب والمعاناة ويفرض هيبته على رموز العهد البائد ! كل الذي دريناه وعلمناه أن الرقيب أمر أبا عوض وقد بُهِت أمام جرأة الإخوة أن يجمع أغراضه ويخرج . ومن رئاسة مهجع ٢٦ اقتيد أبو عوض إلى الحلاق هذه المرة فجز شعره وشاربيه ، ثم ألقي به في مهجع ٣١ مجرداً من كل صلاحياته السابقة .

ودارت الدائرة على أبي عوض . وجعل الشرطة منه هدفاً معلّماً يخرجونه إلى الباحة كل يوم لينال عذاباً مستقلاً . وصرنا نسمع صياحه وتوسلاته تصم الآذان .. وصراخه يملؤ السجن كله . حتى سلخوا جلده من القتل وحطموه من التعذيب . وظل ستة أو سبعة أشهر على هذه الحال يذوق

وبال أمره ويكتوي بسيف أسياده أنفسهم . وفي أواخر عام ٨٧ نقل أبـو عـوض إلى سـجن صيدنايا مع مجموعة من السجناء . فأنجانا الله من شره ومكره . وأرانا آية باهرة فيه لا تنسى .

المحكمة !

وانتهى العام .. ومضت أيام عام ٨٥ على نفس الوتيرة من العذاب والقهر والمعاناة .. لتمـضي قرابة خمس سنوات على اعتقالي .. حكم خلالها من كان من دفعتي بما حكم ، ونفذت الإعدامات بمن كان نصيبه حكم الإعدام ولم تتم محاكمتي أنا بعد . ولقد كان ذلك مصدر قلـق دائـم لي . فالمصير الواضح يظل في النهاية أخف من انتظار المجهول . والأعمار كلها بقدر الله أولاً وأخيراً .

وفي يوم ١٩٨٥/٣/٣٠ وحوالي الساعة العاشرة فتح الشرطي شراقة الباب في مهجع السل ٣٥ وتلى أسماء عدد من السجناء من لائحة بيده مطلوبين للمحاكمة ، كان من ضمنهم اسمـي أنـا واسم أخوين آخرين من مهجعنا . وخرجنا أنا والأخ حزين قاسم محاميد من المعرة وهو ابن دفعتي أيضاً ، وثالثنا أخ من قرى حلب خريج المدرسة الشرعية من بيت المصطفى فيما أذكر . وفي باحة الذاتية تم تجميعنا قرابة السبعين أو ثمانين شخصاً مغمضي الأعين مكبلي الأيدي وأمرونا أن نجلس القرفصاء وجوهنا للجدار وظهورنا كالعادة باتجاه الشرطة الذين لم يكفوا عن ضـربنا وركلنـا ولطمنا بالعصي والخيزرانات والكرابيج .

وبعد قرابة الساعتين من الضرب والشتم والتعذيب وصل دوري ونادى المنادي اسمـي فرفعـت يدي بالإجابة . وعلى باب الغرفة التي تتم فيها المحاكمة أمرني الرقيب أن أفتح عيني واقتـادني إلى كرسي أمام القاضي وأجلسني عليه . لكنني بقيت من خوفي وتحسبي مغمض العينين مطرق الرأس حسب التعليمات . فناداني هذا الرجل القابع وراء المكتب باسمي وقال لي أن أرفع رأسي وأنظـر إليه .

فعلت ما قال صاحب الصوت .. ونظرت فرأيت رجلاً قصير القامة أصفر الوجه لئيم النظرات .. يتدلى حول شفتيه شاربان رفيعان يخضبهما الشيب فكأنهما شاربا فأر عجوز . يتوسط شخـصين آخرين عن يمينه وشماله .. قدرت أنه سليمان الخطيب الذي طالما تحدث الإخوة عنه وقصوا مـن قصص لؤمه وخَبَله الكثير !

من نظمك ولا ؟

هكذا ابتدرني سليمان الخطيب بالسؤال .

قلت : سيدي أنا مش منظم .

قال : شو اسمك إنت ؟

محمد سليم حماد سيدي .

قال وهو يمعن النظر في إضبارتي : انت أردني ولا !

نعم سيدي .

ما بكفينا هالعرصات اللي عنا ولا .. انت جاي كمان هون تقاتل معهن ؟

قلت له : سيدي أنا ما قاتلت ولا عملت شيء .

وعاد يقرأ في الإضبارة للحظات ثم سألني :

شو علاقتك مع سالم الحامد ؟

قلت وقد تبين لي أنه لم يطلع على الملف من قبل : كنت أعرفه من الجامعة .

ومن غير أن يزيد أو ينقص عقد سليمان الخطيب حاجبيه وقطب جبينه ثم التفت نحوي وصاح :

نحنا عم نحكم الناس هون بالإعدام .. وإنت لازم نشنقك من بيضاتك !

واتجه بنظره إلى الرقيب وقال له وقد قضي الأمر : خذه .

وكانت تلك نهاية محاكمتي . ومضيت عائداً إلى الرقيب لا أكاد أحس لشيء من حولي بطعم أو معنى . فلما أعادني بدوره للشرطي أمرني ذاك ومن غير مقدمات أن أفتح يدي . فلما فعلت هوى بالكرباج عليهما ثم أمرني أن أجلس مكاني .

وتتابع دخول الإخوة إلى المحاكمة وخروجهم منها . حتى إذا انتهت الدفعة عادوا بنا كل إلى مهجعه . وأقبلت على الأخوين الذين خرجا من المهجع معي أسألهما عن الحكم فأخبراني أنه الإعدام أيضاً . لكن ذلك لم يكن بعد هذا الذي رأيناه طوال السنوات الخمس الماضيات يعني لنا الكثير . فالموت في هذا المكان متوقع في كل لحظة .. وهو إذا حدث خاتمة الأحزان وباب الفرج . ووالله ما رأيت أحداً ممن خرج إلى الإعدام كل هاتيك السنوات التي قضيتها هناك اختلجت له شعرة .. الكل كان إذا دنت ساعته مقبلاً غير مدبر . وإذا طلبوه بادر بنفسه يستبق إلى الباب رغبة منه بالشهادة ولقاء الله .

بقرة أبي سليمان !

ومن المضحكات المبكيات التي لا تزال عالقة بذاكرتي عن أيام المحاكمات وحكاياها أن أخاً ممن عرضوا على المحكمة كان طبيباً بيطرياً من منطقة الساحل السوري وكان يعمل في قرية دريكيش مسقط رأس سليمان الخطيب رئيس هذه المحكمة الهزلية . ولقد حدث أن أهل سليمان الخطيب كانوا يربون الأبقار كما يبدو . فلما مرضت إحداها أخذوها قدراً إلى ذلك الأخ ليعالجها . لكنها ماتت بقدر الله بعد ذلك . ودارت الأيام وإذ بالطبيب البيطري يقف أمام القاضي سليمان الخطيب نفسه . فلما عرفه اصفر واستفز وصاح فيه :

آبتذكر يوم جبنالك البقرة وقتلتها ولا ؟ روح بدي أعدمك .

ولقد تم إعدام الأخ المسكين بالفعل . وسمعنا القصة من عدد من الإخوة كانوا معه في نفس المهجع التقيناهم بعدها . سمعوا الرواية من الطبيب وشهدوا بأنفسهم إعدامه رحمه الله !

ومما كان يتداوله السجناء عن عبثية تلك المحكمة وسخافة رئيسها ومزاجيته أن أحد العسكريين الذين كانوا يخدمون في مدرسة المدفعية بحلب أيام استشهاد النقيب ابراهيم اليوسف الذي نفذ حادثة المدرسة قبل ذلك بشهور . هذا العسكري أُمِرَ مع بقية الضباط والجنود في المدرسة بالمرور على جثة النقيب المسجاة والبصق عليها . ويبدو أن الأخ امتنع عن التنفيذ أو أحجم أمام هيبة الموت .. فاعتقلوه من ساعتها وساقوه من سجن إلى آخر لينتهي به المطاف بين يدي النقيب سليمان الخطيب هذا في محكمة تدمر . فلما سأله لماذا امتنع عن تنفيذ الأمر العسكري أجاب الأخ بأنه لم يمتنع ولكن ريقه كان ناشفاً . فاتجه سليمان الخطيب إلى كاتب المحضر وأملاه ليكتب :

.. وبصق وكانت بصقته ناشفة . إعدام !

وأعدم الأخ كذلك .. وظلت القصة تدور على ألسنة السجناء واحدة من مهازل هذا النظام واستهتاره وظلمه . وشاهداً على سفاهة ذلك القاضي الدعي ومزاجيته وحقده .

في انتظار الموت !

ومضت الأيام .. وبات الموت الآن أدنى إلينا نحن الذين حكمنا بالإعدام . وبعد شهرين .. وكما جرت العادة دوماً نصبت المشانق مع إطلالة الصباح واستعد الجلادون ، وبدأت جموع الشباب المؤمنين تساق إلى حتفها . وفتح باب مهجعنا ونادى الشرطي اسم الأخ الذي كان ثالثنا في المحكمة . لكن الذي حدث أنه رحمه الله كان قد مات قبل أسابيع قليلة بين أيدينا بعد أن غلبه السل وقضى عليه . فعاد الشرطي ومن معه يخرجون سجناء آخرين من المهاجع المجاورة . وأما أنا وما أن نادى الشرطي اسم الأخ حتى خلت منيتي قد حضرت . وإذا كانوا قد نادوا عليه فأنا وإياه قد حكمنا في يوم واحد .. وتنفيذ الحكم لا بد وأن يكون في نفس اليوم أيضاً . وهرعت من فوري فصليت ركعتي الشهادة على عجل . وجعلت أخلع عني ملابسي ليستفيد منها الإخوة الآخرون من بعدي .. ووقفت عند الباب متوجساً أنتظر أن ينادوا علي . وجعل الإخوة يقتربون مني واحداً بعد الآخر يودعونني ويثبتونني .. وراحت الخواطر تأخذني يسرة ويمنة .. وعبرت صورة أهلي أمام ناظري فغصصت . وتوجهت إلى الله تعالى أدعوه بسري أن يلهمهم الصبر والسلوان .. وأن يجمعني معهم في الجنة . وأخذت أسأله سبحانه أن يغفر لي ويتغمدني برحمته .. وأنظر إلى الباب أنتظر أن يفتح اللحظة . فإذا مرت قلت هي اللحظة التالية . لكن الوقت مر .. وانتهى تنفيذ الأحكام .. وهدأت الأمور في الخارج ولم يأت أحد . فلم أجد إلا أن أرتد إلى مكاني كما يرتد الغريق من غيبوبة الإختناق إلى صحوة الحياة .

وأيقنت أن في العمر بقية لم تزل ، وأن الأجل لم يحن بعد . ومضت أسابيع أخـر .. واستعدت ساحتنا لتشهد مجموعة جديدة من أحكام الإعدام . وعاد الشرطي إلى مهجعنا فنادى الأخ الآخر حزين قاسم الذي حكم معي .. وساقوه إلى الموت وأنا عند الباب أنتظر دوري كما فعلت المـرة السابقة . لكن أحداً لم يحضر لطلبي . وانتهت عملية الإعدامات كذلك من غير أن أكون أحـد ضحاياها . وأخذت كلما سيقت إلى الإعدام دفعة من الإخوة أكرر ذات الموقف طوال السنوات الخمس التي تلت ! لا أشك في أي مرة منهن أن دوري قد حان الآن . وأحس أن خطأ مـا قـد حدث في المرات السابقات ولسوف يصححونه هذه المرة ويقودونني إلى أجلي لا ريب !

تقنين الطعام !

ومرت الأيام والشهور ولم يحن الأجل .. وخلال ذلك تم نقلي من مهجع ٣٥ إلى مهجع السل ٣٧ فالتقيت وجوهاً جديدة ، وتعرفت على إخوة لم يسبق لي أن التقيتهم من قبل . لكن الظروف كانت متماثلة ، والمعاناة ظلت واحدة . وزاد البلاء حينما طبق علينا نظام تقنين الطعام ابتداء من شهر أيلول ١٩٨٦ فصار نصيب أحدنا من الخبز نصف رغيف فقط بدل الرغيفين اللذين كنا نحصل عليهما في السابق ! وصرنا من جوعنا نأكل قشرة الصمونة مع واحدة من الوجبات ونوفر العجين بلبّها الذي لم ينضج للوجبة الثانية بعد أن اعتدنا في الفترة السابقة على رميه لأنه يصيب آكله بوجع البطن ولا يقي من الجوع . لكنا مع شدة الحاجة صرنا نعجنه مع البصل والملح ونوفره للوجبة التالية . ويوم أن كان يأتينا البرتقال كنا نقدمه على البصل فنمزجه بقشره مع العجين ، ونرش على الخليط ما توفر لنا من السكر ونحتفل به وكأنه طبق من الحلوى !

اليرقان

وهكذا انتشرت المجاعة في السجن وازدادت الأمراض وتزايد عدد الوفيات . حتى صرنا نودع في بعض الأحيان أخاً وأخوين كل يوم . وفي تلك الفترة وزيادة على البلاءات التي نحن فيها دهمنا عن غير ما موعد وباء اليرقان الكبدي .. فجعل الضحايا يتزايدون . ولخطورة هذا الوباء دعت إدارة السجن رؤساء المهاجع جميعاً إلى لقاء مشترك لتدارك الأمر . وكانت خشية الإدارة في مثل هذه الأحوال تنصب على المسؤولين وأفراد الشرطة بالدرجة الأولى . خوفاً على أنفسهم وخشية من أن تطولهم العدوى إذا انتشرت فينا . ولقد وفق الله أحد المسؤولين الصحيين وقتها فأبدى قناعته بأن الوباء إنما ينتشر عن طريق الدم بالدرجة الأولى . وأن ذلك يتم خلال الحلاقة الجماعية . ومن لطف الله أن إدارة السجن اقتنعت بكلامه . فتقرر من وقتها وقف الحلاقة الجماعية . وتم تسليم رئيس كل مهجع ماكينة حلاقة يدوية . يكون مسؤولاً عنها وعن أمر الحلاقة الدائمة لمهجعه . فرحمنا الله من عذاب الحلاقة من يومها . وخلصنا سبحانه من بعض هذا الضنك .

منع الصيام

واستمرت المحنة تدور رحاها من غير رحمة . ولم يعد للأيام ولا السنوات في حياتنا معنى .. فالبرنامج اليومي لا يكاد يتغير . والعذاب والمعاناة لا تترك لواحدنا فرصة التقاط الأنفاس . والقتل والإعدامات قتلت فينا شهوة الحياة وأطفأت معنى المستقبل لدينا . وهكذا حل عام ٨٦ متصلاً بمأساة الأعوام التي سبقته وواصلاً إياها لما بعده من أعوام تلت . وفي بداية ذلك العام كان قد جرى نقلي إلى مهجع المسلولين ٢٩ في الباحة السابعة وصرت رئيساً له منذ ذاك . ولم يكن في الساحة التي عليها المهجع إلا مهجع ثان فقط هو مهجع ٣٠ إضافة إلى المستوصف الذي تم تخصيصه للسجناء الشيوعيين كما ذكرت . فكان نصيبنا من التنفس مضاعفاً . وبدل أن يكون مرة في اليوم كما جرت العادة فقد أصبح مرتين الآن صبحاً ومساء . ساعة في كل مرة بدل أن تكون نصف ساعة كما سبق . وهذا يعني مزيداً من العنت والقتل والتعرض لأذى الشرطة المتربصين .

ولقد اشتد أذى الشرطة في تلك الفترة زيادة عما هو عليه وتمادوا في عدوانيتهم . فكنا إذا خرجنا إلى التنفس في الصباح أو في المساء جهزنا أنفسنا لحفل كامل من التعذيب ينتظرنا . ولكم كان يحلو لهؤلاء الزبانية أن يبطحوا واحداً منا على الأرض ويأخذوا بالقفز على ظهره أو على صدره بلا رحمة . ولكم تكسرت أضلاع إخوة منا في هذا النوع من التعذيب . ولا أنسى كيف قام واحد من هؤلاء الموتورين مرة بإخراج عضوه على مرأى الناس جميعاً وأخذ يبول علينا ونحن جالسين القرفصاء بين يديه في موعد التنفس ! وأما الجلد والضرب والمسبات البذيئة فهذه كلها لم تعد تدخل في الحساب لأنها جزء لازم من حياتنا على مدار السنوات التي خلت .

ومما لا يزال واضحاً في ذاكرتي عن ذلك العام أنهم منعوا فيه الصيام عنا في رمضان لأول مرة . فمن قبل كانوا يأتون لنا بالسحور والفطور بدل وجبات الطعام المعتادة . لكنهم وابتداء من رمضان عام ١٩٨٦ امتنعوا عن ذلك . وصارت الوجبات الثلاث على فقرها تأتينا في مواعيدها العادية . وصار ممنوعاً ادخار الطعام إلى الفطور أو السحور . فإذا أحسوا أن أحدنا صائم أخرجوه وقتلوه قياماً وقعوداً وأجبروه على الإفطار . وهكذا صرنا ممنوعين من الصلاة ومن الصيام معاً . وزادنا الزبانية بذلك هماً جديداً وقهراً وعذاباً من نوع آخر .

كذلك يحضرني من ذكريات عام ١٩٨٦ المريرة إعدام العميد أحمد غنوم الذي اعتقل منذ عام ١٩٨٠ وظل طوال تلك السنين يعاني عذاباً مضاعفاً من الشرطة الحاقدين الذين كانوا يتلذذون بتعذيبه رحمه الله ، ويحسون بالنشوة وهم يرون إنفسهم يتحكمون بهذه الرتبة العسكرية العالية وهم مجرد أفراد مجندين في التسلسل العسكري .

اختناق

ومع اشتداد الكرب وتوافد المزيد من السجناء على المهاجع التي اكتظت بنزلائها حدثت في شهر آب من عام ٨٧ حادثة مثيرة . ففي ذلك الشهر الذي يسمونه آب اللهّاب ارتفعت الحرارة بشكل غير معقول في الوقت الذي كانت التهوية في المهاجع منعدمة والشراقات والنوافذ تجلب المزيد من السخونة ولا تقي من وهج الشمس شيئاً ، مما تسبب في حادثة اختناق جماعي كادت تودي بأرواح العشرات .

ولقد بدأ الإختناق وقتها في مهجع السل ٣٦ قبيل المغرب وأخذ السجناء الذين شارفوا على الموت يقرعون الباب وينادون الحرس وقد طاشت منهم العقول وشارفوا على الهلاك . فلما أتوا يسألونهم عم حدث صاحوا فيهم أنهم يختنقون . لكن الشرطة لم يأخذوا الأمر مأخذ الجد وتلكأوا في الرد عليهم . ففقد السجناء المساكين عقولهم وقد قاربوا أن يفقدوا أرواحهم جميعاً ، وأخذوا يقرعون الباب ويدقون على الجدران ويرفعون أصواتهم بالصراخ والمسبات .

وسرعان ما صدرت الأوامر للشرطة فانتشروا على أسطحة مهاجع الباحة كلها ، وسلطوا الرشاشات الكبيرة ٥٠٠ مم على المهجع خشية أن يتطور الأمر إلى تمرد أو عصيان جماعي ، ثم فتحوا الباب للسجناء ليخرجوا إلى الباحة . وما أن فعلوا حتى اندفع الإخوة من غير وعي لا يلوون على شيء . وارتموا على الأرض يتلوون ويتقيأون . وحضر طبيب السجن وقتها وتأكد من جدية الأمر . ولم يلبث أن صدر الأمر بإخراج سجناء المهاجع كلهم إلى الباحات تفادياً لتكرار الأمر . وبقينا يومها في الهواء الطلق حتى قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل قبل أن يعيدونا إلى مهاجعنا . ومن يومها وعلى مدى أسبوعين تاليين ظللنا نخرج إلى التنفس مرتين في اليوم من غير ضرب أو تعذيب . وسمحوا لنا وقتها أن نرش أرض الباحة الإسمنتية بالماء للتخفيف من حدة الحر . ثم لم تلبث هذه الإستثناءات أن انتهت . وعدنا إلى برنامج المعاناة نفسه . فنجونا من الحر القاتل ومن الإختناق ولكن إلى حين !

تنقلات

مضت أيام قليلة على حادثة الإختناق تلك لأراني أنقل من مهجع السل ٢٩ إلى مهجع جديد للأصحاء بنوه أمام مهجع ٢٥ في الباحة السادسة أطلقنا عليه اسم "جديد ظهره" . فوجدتني في مساحة غرفة ونصف محشوراً مع مائة وعشرين سجيناً نكاد من شدة الزحام أن نجلس فوق بعضنا البعض !

ولقد تم اختياري رئيساً لهذا المهجع أول ما دخلناه . فلما رأيت الحالة على هذا الشكل اندفعت مع أول وجبة طعام يحضرونها إلينا وقلت للمساعد أن العدد كبير هنا . ومن غير أن يجيبني بشيء

مضى المساعد وأرسل الشرطة بعد قليل فأخرجوني وأطعموني قتلة قياماً وقعوداً رجعت منـــها إلى المهجع محملاً !

لكن الحر لم يكن ليرحمنا .. والمكان يطبق علينا بجدرانه الصماء فكأنه القبر . ولم تمض أيام قلائـــل حتى طفح الكيل بنا وفقدنا القدرة على التحمل . وجعلنا قرابة منتصف الليل ننـــادي الـــشرطة وندق الباب ونقفز نحو النوافذ نكاد نختنق . وعاد الشرطة فأخرجونا إلى الباحة ســـاعة زمـــن ثم أعادونا . ثم لم يلبثوا وأن عادوا وطلبوا عشرين شخص منا ليغادروا إلى مهجع آخر فكنـــت في طليعتهم . ووجدهم يقودوننا إلى مهجع ٢٨ في نفس الباحة . فكانت فرصـــة لي للنجـــاة مـــن الإزدحام من جهة ، والتعرف على إخوة جدد من ناحية أخرى . كان من أبرزهم الشيخ محمـــد سعيد عطا أحد تلاميذ الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي . فاستفدت من علمه ومن صحبته .

كذلك التقيت في مهجع ٢٨ رجلاً من بيت العطار من حلب وجدت الإخوة يجهدون في مداراته وخدمته والتخفيف عنه . ولم ألبث أن أعلموني أن المسكين شهد سَوْقَ ولديه الإثنين إلى الإعدام أمامه وهما في مقتبل العمر . وما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً

مغادرون .. وقادمون !

ولم تطل إقامتي في مهجع ٢٨ كذلك ، فلم ألبث أن نقلت من جديد إلى مهجـــع الـــسل ١٨ في الباحة الرابعة فكانت محطة قصيرة أخرى ، حدث خلالها أن قامت إدارة السجن بنقل الشيوعيين ومجموعة أخرى من السجناء الأحداث إلى سجن صيدنايا الذي بني حديثاً وقتها . فلمـــا خـــلا المستوصف من الشيوعيين نُقلت إليه مع مجموعة من السجناء الآخرين . ثم لم نلبث في هذه الفترة العصيبة أن تناهى لأسماعنا وصول دفعة جديدة من المعتقلين حلوا بدلاً عن المغادرين إلى صيدنايا . ولقد بلغنا أن الوافدين الجدد اتهموا بحوادث تفجير باصات وقطارات وقتها ، وأن عددهم كـــان بين الستين والسبعين ، عزلوهم كلهم في مهجع مستقل وسلطوا عليهم أشد أنواع العذاب حتى قضى عدد منهم حتفه . ولقد كنا نسمع أصواتهم وهم يعذبون ونتلقى نتفاً من أخبارهم من هنـــا وهناك ، غير أننا لم نلتق بهم ولم نعرف عن مصيرهم شيئاً مؤكداً بعد ذلك .

وبعد أن مكثت هناك فترة تم نقلي ثانية إلى مهجع ٢٩ . ثم لم ألبث أن نقلت مـــرة أخـــرى إلى مهجع ٢٨ . وبعد حوالي خمسة أو ستة أشهر تالية نقلت من جديد إلى مهجـــع ٢٢ في الباحـــة الرابعة . وفي هذا المكان تعرضت إلى محنة جديدة كدت أن أفقد حياتي بسببها وقتذاك . ورأيـــت من الأهوال هناك ما كاد ينسيني كل هذا الذي رأيت وعانيت من قبل !

حتى في المنام !

كانت الأسابيع الأولى التي أمضيتها في مهجع ٢٢ كالواحة التي فاجأت عابراً أنهكه العطش وهدّه التعب في صحراء قاحلة . فمن قبل كنا في المهاجع الأخرى معرضين ليل نهار لمراقبة الشرطة من فوق الشراقات . ولم نكن بذلك نأمن شرورهم بسبب كان أو من غير سبب . فلما جئت مهجع ٢٢ وجدته من غير شراقات . ووجدتنا على الرغم من الشدة المحيطة وسوء الأحوال نغتنم هذه الفرصة ونتنعم بها أيما تنعم . فوقتها استطعنا من أن نعود إلى صلاة الجماعة ونؤديها بشكل طبيعي بعد أن حرمنا ذلك كل هاتيك السنين . وصار أحدنا إذا أراد أن يتحدث في الأوقات التي لا يتردد الشرطة فيها علينا وقف وتكلم وأنصت له الباقون وحاوروه وشاركوه .

كذلك كانت تلك الفترة استثنائية بالنسبة لتوفر الطعام أيضاً . فلم يكن عددنا قد جاوز الستين ولكننا كنا نتلقى طعاماً مخصصاً لحوالي المائة والخمسين وفق ما اعتاد الشرطة أن يحشروا في هذا المهجع وفي سواه . ولقد تم اختياري رئيساً للمهجع ٢٢ أيضاً من أول ما وصلت إليه .

لكن هذه النعم لم تطل . ومع اشتداد الأحوال في السجن عام ١٩٨٨ وازدياد الأوامر صرامة وقسوة فوجئنا بالإدارة تقرر فتح شراقتين في سقف المهجع ٢٢ أسوة ببقية المهاجع الأخرى . وعاد التنفس ليصبح مرتين في الصبح وفي المساء . ومع كل موعد تنفس حفل تعذيب .. ومع كل فتحة باب للتفقد أو لإدخال الطعام حفل آخر . ولم تلبث أن صدرت إلينا الأوامر لأول مرة خلال فترة سجننا بالكامل أن نغطي أعيننا ونحن نيام ! وألزمونا أن يحتفظ كل منا بطماشة دائمة معه ليغطي بها عينيه حين النوم . علاوة على أن يكون النائم دائماً على جنبه باستمرار . فعدنا بذلك إلى وضعية الإنكشاف المستمر للشرطة الذين يتجولون فوق المهاجع باستمرار . وصار واحدهم إذا شاهد من الشراقة أحداً منا يتقلب في الليل خلال نومه أو يتحرك حتى ولو من غير إرادته صاح بالحرس الليلي أن يوقظه ويعلّمه . فإذا أصبح المسكين كان الشرطي وعذاب لا يعلمه إلا الله في انتظاره !

ولكم كان الشرطي يطل على المهجع بعد منتصف الليل يتصيد أحداً يشبع فيه تشهيه للقتل والتعذيب . فإن لم يجد كان أسهل ما يكون عليه أن ينادي على الحرس الليلي ويأمره أن يعلّم نفسه ! بل إنهم كانوا يحضرون في الصباح ويسألون رئيس المهجع أين المعلَّم . فإن لم يكن الشرطي قد علّم أحداً ليلتها قالوا له : أخرج الحرس الليلي من ساعة الثانية عشرة إلى الواحدة مثلاً . فيخرجونه ويتسلون بتعذيبه وضربه من غير أي سبب .

وضاعف الشرطة من ترصدهم للمصلين . وصار أمراً اعتيادياً أن يخرجوا رئيس المهجع ويسألونه عن أسماء الذين لا يزالون يصلون عنده . ولقد حدث ذلك معي مرات عديدة . فأخرجوني وسألوني وضربوني لأقدم لهم أسماء من يصلي أو يُدَرِّس في المهجع !

طلاق بالإكراه

ومن مشاهد تلك الفترة التي لا تزال تحضرني قصة طبيب أسنان من دمشق اسمه رضوان العمر استدعوه بعد حوالي تسع سنوات مضت على اعتقاله وأمروه في الذاتية أن يوقع على ورقة طلاق زوجته . وذعر الأخ .. ورفض أن يفعل . لكن جلسة التعذيب التي أتبعت رفضه جعلته يوافق مكرهاً . فكانت من ثم القاصمة له . ووجد نفسه بعد هذي السنوات يفقد زوجه وطفله من غير إرادته ومن دون أن يعرف السبب ، ومن قبلهما فقد شبابه وحريته مع ألوف من خيرة أبناء الوطن مثله . ولا أدري ما الذي حل بالأخ بعدها ، لكن آثار محنته الأخيرة تلك نزلت عليه كانت أثقل ربما من كل ما نزل به طوال سني اعتقاله . ولم يكن له ولا لنا أمام ذلك كله إلا التسليم والإحتساب

الفأرة !

ولقد كان أمراً شائعاً منذ بدايات أيامنا في تدمر أن يأمرنا الجلادون بتناول بقايا الطعام من بين القمامة وأكلها عنوة ، أو التقاط ذبابة أو صرصار يصادفنا في الباحة وابتلاعه . ولم يكن بعضهم ليتورع عن البصاق على الأرض وإجبار واحد من السجناء على لحس بصاقه بعده . لكننا وعندما حان موعد الطعام في يوم من أيام عام ١٩٨٩ ووصل الدور على مهجع ١٨ المقابل لمهجعنا على الباحة الرابعة سمعنا لغطاً من هناك أثار انتباهنا . فأسرعت كعادتي وجعلت أسترق النظر من شق في باب المهجع أستطلع الأمر . فرأيت الشرطة منكبين على رئيس المهجع من بيت خريطة من الزبداني - وكان نقيباً في الجيش قبل اعتقاله - يضربونه ويركلونه وهو عاري الصدر بين أيديهم ويأمرونه بابتلاع شيء بالإكراه يحمله بيده . فلما دققت النظر وجدتها فأرة ميتة ينهالون عليه ضرباً ويجلدونه واحداً بعد الآخر وهم يأمرونه أن يبتلعها . والأخ المسكين برغم كل هذا العذاب لا يستطيع أن يفعل . حتى إذا اشتد عليه الضرب وأرهقه الجلد وخارت قواه دسوا الفأرة في فمه دساً وبلعوه إياها ورموا به في المهجع . وكان يتولى كبر هذه العملية شرطي منهم كان يسمي نفسه أبا غضب . وكان أشد ما يحلو له أن يصفع الواحد منا بكفه التي تملؤ قدراً وتفيض فيكاد يخرق له طبلة أذنه وهو يقول بانتشاء : خذها من أبي غضب ولا !

ولم تمض من الزمن برهة حتى دق رئيس مهجع ١٨ الباب وأخبر الشرطة بشيء لم أفهمه تماماً . لكنني عدت وسمعت أصداء حديث يدور حول الفأرة . وفي المساء حضر أبو غضب إلى مهجعنا ونادى على المسؤول الصحي لدينا وكان الأخ غسان عبد الباقي من حماة ، وسأله ما الذي يمكن أن يحدث للإنسان إذا أكل فأرة .. هل يموت ؟ وقتها لم يجد الأخ إلا أن يتملص من الإجابة ويقول له لا . قال له أبو غضب : انقلع . وأقفل الباب ومضى . ولم نتبين ما الذي جرى للأخ

بالتحديد ، لكننا أدركنا أن ضرراً أصابه ، وأنه لم يكن بالضرر المعتاد . الأمر الذي جعلهم يعطون الأمر بعض الأهمية فيسألون ويستفسرون !

إلى المزبلة !

وهكذا لم ينقطع العذاب أبداً . ولم يتوقف الإرهاب والضغوطات النفسية لا في الليل ولا في النهار . ولم يعد واحدنا ينعم بأدنى حد من الراحة حتى ولو في المنام . فكادت النفوس أن تنهار ، وبلغ الصبر فينا منتهاه . وانتهى الحال ببعضنا أن فقد عقله أو كاد . وفي ليلة باردة من ليالي شهر كانون الأول من عام ١٩٨٩ صحونا على صوت أحد السجناء من مهجع ٢٠ القريب يصيح ويشتم الشرطي بملء فمه . وسرعان ما حضر عدد من الشرطة العسكرية نحس وقع أقدامهم ونسمع أصواتهم ونادوا عليه يسألونه :

شو مالك ولا ؟

ولم يكن الحوار كله واضحاً لنا ، لكننا سمعناهم يأمرون رئيس المهجع أن يربط الأخ ويضعه في "البخشة" وهو الحمام كما كانوا يطلقون عليه . وفي الصباح جاء مساعد السجن محمد نعمة فأخرجه ورماه إلى الزبانية الذين وضعوه في الدولاب أمام المهجع وانهالوا عليه ضرباً جعله يهز الباحة بصراخه واستغاثته . وعندما أتى وقت التفقد أخرجوه مرة ثانية وجعلوا يضربونه ويعفسونه حتى لم يعد يبلغنا منه لا صوت ولا حركة . ثم أمروا رئيس المهجع أن يدخله . وبعد قليل قرع رئيس المهجع الباب وأبلغهم - ونحن نسمعه بآذاننا - أن واحداً في مهجعه قد توفي . فلم يزيدوا أن قالوا له - والله - :

خذوه وكبوه في الزبالة !

ورأيتهم من شق الباب يسحبون الأخ ويمضون به .. فيما مضى القتلة إلى برنامجهم المعتاد من غير أن يهتز لهم طرف أو تختلج فيهم عضلة !

انهيار

ومع تزايد الضغوط وبلوغ البطش الذي نناله من الشرطة حداً لا يوصف ظهرت بيننا حقيقة الأمر حالات من الإنهيار النفسي لم تكن تدل على ضعف أصحابها قدر دلالتها على درجة التعذيب الوحشي والمعاناة المرة التي تتنزل علينا جميعاً حتى تفتن منا عن دينهم . وفي هذا الصدد أذكر تماماً أن واحداً من السجناء رفض ذات صباح أيقظوه فيه للصلاة أن يفعل . وأخذ الأخ - غفر الله له - الأمر موقفاً من يومها . وصار على الرغم من خلفيته الثقافية العالية يجيب سائليه بأن الله قال (إن تنصروا الله ينصركم) . وها نحن نصرناه فلم يجبنا وينتصر لنا فلماذا الصلاة إذاً ؟

وعلى الرغم من فظاعة القول وما تبعه ، ومع أن كل الذين لم يتزلزلوا عن إيمانهم بالله ولم يحيدوا عن إسلامهم كانوا يعانون نفس معاناة ذلك الأخ ويعيشون المحنة مثله ، إلا أننا عذرناه ودعونا له بالثبات والهداية . فإذا كان الفقر وحده كفراً أو يكاد ، فكيف بكل نــوازل الفقــر والقهــر والعذاب والجوع والرعب تتترل على تلك الفئة العزلاء من غير حول لها ولا قوة طيلــة عــشر سنوات !

٣٥٠ جلدة !

لم يمض أسبوع على الجريمة الأخيرة للزبانية في مهجع ٢٠ حتى وقعت محنتي أنا . فبينمــا كنــت وباقي الإخوة في المهجع حوالي الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٨٩/١٢/٢٠ حضر واحد مــن الشرطة العسكرية وناداني وقال :

رئيس المهجع لهون .

قلت : حاضر سيدي .

قال : شو هالصوت عندك ولا ؟

قلت : ما في عندي صوت سيدي .

قال : لأ الصوت عالي عندك .

قلت : حاضر سيدي بِنْوَطي الصوت .

ومن غير أن يزيد الكلام عن هذه العبارات حرفاً واحداً وجدته يبادرني ويقول :

أنا بدي أعمل هيك وهيك من أمك . شو ؟

فلما أردت أن ألتزم الصمت وأدع الإستفزاز يمر عاد وسألني باستفزاز أشد يريــدني أن أجيــب فأقع في حبال مكره :

شو ؟

قلت ولم يعد أمامي بد من الإجابة مكرراً ما قال حرفياً : أنا بدي أعمل هيك وهيك من أمك .

فصعق الزنيم وصاح وهو لا يكاد يصدق ما يسمع : أنت عم بتسبني يا ....

قلت أحاول أن أطفىء جهنم هذه التي اشتعلت في قلبه الأسود : لا سيدي . أنت قلــت لي أن أعيد وراءك ففعلت !

فتركني هكذا مكاني وذهب مهرولاً إلى الذاتية ، ليعود بعد بضع دقائق ومعه المساعد وجمع مــن الشرطة يحمل أحدهم الدولاب . وتقدم الرقيب مني وسألني عم حــدث فأخبرتــه . فقــال لي مستهزئاً :

انزل في الدولاب إذاً فهذا لن يضرك .

فلم أجد مفراً من الإنصياع . وما أن نزلت في الدولاب حتى نزلت العصي والسياط علي . وبدأت أصيح وأصيح وأصيح .. والألم ينهش جلدي ولحم قدمي اللتين تفتحتا تحت الضرب حتى لم أعد أحس بهما آخر الأمر . وعندما بلغت الضربات حوالي ٣٥٠ جلدة أطلقوني . فلم أستطع العودة إلى المهجع إلا زحفاً . وارتميت على أقرب جدار وصلت إليه وأنا أكاد أغيب عن الوعي .

"فرخ راتب" !

غير أن وقت التفقد في المهجع لم يلبث أن حان . وكان المفروض أن أنهض وأقدم الصف باعتباري رئيس المهجع . فلما لم أقدر تولى نائبي الأخ عماد ذلك وقدم الصف . لكنهم ولما لم يجدوني أمامهم سألوه عني فأخبرهم أنني مريض . فأمروه أن يخرجني إليهم . فحملني الإخوة حملاً ووضعوني أمام الشرطة لينهال الزبانية علي ضرباً وركلاً من جديد . ويأمرونني أن أخرج لمثل هذا اللقاء كل يوم .

ومن يومها صار لزاماً علي أن أنال ثلاث وجبات من العذاب يومياً على أقل تقدير . وفق عدد المرات التي يفتح علينا الباب فيها . وعدا ذلك تولى في الليل أمري شرطي آخر كنا نسميه "فرخ راتب" لأنه أتى في صوته وشراسته على شاكلة شرطي آخر سبق وعانينا من عدوانيته وجبروته عام ٨٤ اسمه راتب . فجاء "فرخ راتب" هذا أول ما جاء ليلتها وسأل أين رئيس المهجع . فقالوا له أنه مريض ونائم . فأمرهم بإيقاظي . فلما وقفت بين يديه أمرني أن أتولى الحراسة الليلية حتى الصباح . وكانت العادة أن يوزع رئيس كل مهجع هذه المهمة على عدد من السجناء ليكون نصيب الواحد منهم ساعة أو ساعتين من الحراسة وحسب . لكنه ألزمني بتولي المهمة كلها طوال الليل . وانتهت نوبة "فرخ راتب" عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وبقيت أنا أغالب النوم وأجتر الألم وأسأل الله الفرج . وعند الساعة الرابعة حضر "فرخ راتب" لنوبته الجديدة ونادى :

حرس ليلي .

فقفز قلبي من مكانه وناديت مجيباً : حاضر .

قال : اشلح بالشورت .

ففعلت وأنا أستعيذ الله بسري من شره ومكره . فلما فعلت أمرني أن أوقظ مساعدي ، فأيقظته .

فقال "فرخ راتب" لي :

اجلس جاثياً .

فجلست . وأمر نائبي عماد أن يملأ بيدوناً بالماء ويصبه فوقي . فلم يجد الأخ إلا أن يطيع . وتكرر الأمر ، ونفّذ الأخ . وفي تلك الليلة الباردة من شهر كانون الثاني صب "فرخ راتب" علي سبعة

بيدونات من الماء البارد ملأت أرض المهجع وبللت بطانيات كل من كان قريباً من مكاني . فلما انتهى أمرني أن أعاود الحراسة حتى الصباح فنفذت الأمر . وعند الساعة السادسة صباحاً سلم "فرخ راتب" نوبته ومضى . ولم يلبث أن عاد في السابعة وفتح الباب . وأمرني أن أبقى مكاني بالشورت حتى يطلبني من جديد .

وعندما حان وقت الإفطار ناداني إلى الخارج وانهال علي جلداً بالسوط حتى كاد يهلكني . ولم يخفف صراخي ورجاءاتي وتوسلاتي من الأمر شيء . حتى إذا أحس أنه أطفأ ظمأ الهمجية التي لديه أرسلني . فزحفت إلى المهجع زحفاً . وارتميت على الأرض أقرب للغيبوبة مني إلى الصحو . غير أن وقت التفقد لم يلبث أن حل . وخرج مساعدي يريد أن ينوب عني من جديد . لكنهم عادوا وسألوه عني . فلما أخبرهم أنني مريض ضربوه هو الآخر وأمروه أن يناديني لأقدم الصف . وهكذا مضت الأيام والليالي على هذه الشاكلة أربعة أشهر أو ربما أكثر . حاول الإخوة خلالها أن يساعدونني في مناوبة الليل . فكنت إذا دنت نوبة "فرخ راتب" قمت وحرست . فإذا انتهى قام أحد غيري وسد مكاني . فإذا عادت نوبته أيقظوني لأقف من جديد . لكن الخبيث أرسل في يوم من الأيام شرطياً آخر ليتأكد من سهري . فلما وجد سجيناً غيري يقوم بالمهمة أخرجني وأخرج الحرس الليلي كلهم وجلدنا جميعاً . فصرت أضطر للوقوف الليل كله من جديد . وعندما وجدهم قد علقوا على الأخ عماد أيضاً وكادوا أن يُجْمِلُونَه بالعذاب معي رأيتني أولى بذلك منه لأنني أنا الذي شتمت الشرطي . فصرت أخرج أغلب الأحيان إلى التفقد وتقدم الصف وتناول نصيبي المقدر من الضرب والتعذيب . حتى ساءت حالتي وأُنْهِكَ بدني وعدت فانتكست بالسل بعد أن شفيت منه . فكان ذلك - سبحان الله - الضارة النافعة . إذ لم يلبث المسؤول الصحي زاهي عبادي أن حضر للكشف على المرضى ، فلما رأى حالتي تلك طلب نقلي إلى مهجع المسلولين . فتم ذلك في شهر نيسان من عام ١٩٩٠ وأنجاني الله من هذه المحنة وأنا على آخر نفس !

مزيد من المعلومات!

ومما هو جدير بالتسجيل عن عام ١٩٩٠ هذا أن إدارة السجن أرسلت في شهر شباط تسأل في المهاجع عن آخر شخص جاءته زيارة من أهله أو أقاربه ، فأخبر كل مهجع عن الشخص المقصود . وفي اليوم التالي تم استدعاء هؤلاء جميعاً إلى الإدارة وعُرِضَ عليهم استئناف الزيارات وبعض الميزات مقابل التعامل مع الإدارة بشكل واضح . وطلبوا منهم معلومات محددة عن حال السجناء في كل مهجع ، وعن الأفكار التي يتداولونها ، والقناعات التي لا زالوا يحملونها ، وهل ثمة من يدعو إلى الجهاد من بينهم ، وما مدى استعدادهم للتعامل مع قياداتهم السابقة ، ورأي كل

منهم في هذه القيادات . ورغم أن الحدث كان مثيراً وقتها ، وعلى الرغم من بعض اللغط الخافت الذي ساد حينذاك ، إلا أن محن السنين الخوالي جعلتنا نألف أي جديد ونتقبل كل قـضاء نـازل بالصبر وبالإستسلام .

وفاة زاهي عبادي

عدت إلى مهجع السل ٣٥ مرة أخرى فابتعدت عن "فرخ راتب" ومكره وعن العذاب والقهـر بعض الشيء . وبدأت أتلقى علاج السل المتاح من جديد . حتى إذا تحسنت حالتي واسـتعدت قواي نقلت ثانية إلى مهجع ٢٨ مع الأصحاء . ولم نلبث أن بلغنا على غير موعد نبـأ مفـاجيء بوفاة الأخ الحبيب زاهي عبادي بعد كل هذه السنوات التي أمضاها في خدمة إخوانه المـسلولين والمعلولين صابراً محتسباً . وكانت الرواية التي بلغتنا أنه أصيب بخراج مفاجيء في قدمه فأخـذوه إلى مستشفى خارج تدمر فعاد ميتاً ! لكن ذلك زاد الأمر غموضاً ، وجعلنا نرجح أنه قتل عمداً بعدما أمضى كل هاتيك السنوات متنقلاً بين المهاجع واطلع على الكثير من حـالات الـسجن والسجناء . ولم يكن أي شيء في تلك الغابة مستغرباً .. ولم يكن أي حادث بشع أمراً مـستبعداً بين قوم أسهل ما اعتادوا عليه سفك الدماء !

شاهد على مجزرة تدمر

قلت أن بعضاً من المهاجع كانت حينما وصلنا تدمر قبل أكثر من عشر سنوات لا تزال تحـتفظ على جدرانها وأسقفها بآثار من مجزرة تدمر الكبرى في حزيران عام ١٩٨٠ . ولقد حدث فعـلاً وأن سمعت كباقي الناس عن المجزرة وأنا لا أزال في دمشق قبل اعتقالي ببضعة أشهر . ولقد تمكن وقتها أحد الإخوة من بيت وطفة من دمشق من أن يحصل على قائمة بأسماء الضحايا من ملفـات وزارة الدفاع حيث كان يخدم جنديته الإلزامية ، وأوصلها للإخوة في قيادة دمشق الناشئة وقتذاك . وتم كشف الأخ من بعد وإعدامه في سجن تدمر نفسه . وكان العدد الرسمي كمـا أذكـر في حدود الثمانمائة قتيل . لكنني طوال السنوات التي أمضيتها في سجن تدمر لم أجد بنفسي شـاهداً على المجزرة ، حتى جمعتني الأقدار في تلك الفترة بسجين يميني من حماة توطدت علاقـتي معـه . فقص علي أنه كان معتقلاً منذ عام ١٩٨٠ مع مجموعة من البعثيين العراقيين . وأن إدارة السجن فرزتهم منذ ذاك ووضعته في أحد مهاجع الباحة الرابعة بشكل منفصل عن سجناء الإخـوان أو الإتجاه الإسلامي .

وذات ليلة صدرت الأوامر إليهم كلهم لينقلوا إلى مهجع ٢٩ في الباحة السابعة بشكل مفاجيء . وصبيحة اليوم التالي بلغت أسماعهم أصوات طائرات مروحية تحلق فوق المهاجع وتنزل في مكان قريب . ولم تمض برهة حتى بدأوا يسمعون أصوات الرصاص وانفجارات القنابـل وصـيحات

التكبير في الباحات المجاورة . ثم لم تلبث الأصوات أن هدأت . وعادت المروحيات فغادرت المكان . ولم يتمكن أي من السجناء الآخرين وقتها من معرفة ما حدث . حتى تسربت أخبار المجزرة إليهم مع سجناء جدد حضروا بعدها وسمعوا بها من خارج الأسوار قبل اعتقالهم . وظل هذا الشخص على قيد الحياة حتى قدر لي أن ألقاه وأسمع شهادته . ورغم أنني لا أدري ما الذي حل بهذا الأخ ، إلا أنني أتمنى أن أراه يوماً على منصة الشهادة يروي قصته أمام محكمة عادلة . تعيد فتح ملفات الفظائع التي شهدتها جدران مهاجع تدمر وبقية أوكار المخابرات وسجونها وأقبيتها ، وتطبق في كل الجناة حكم الحق . عل أرواح الأبرياء التي أزهقت من غير ذنب تقر .. وترتفع عن هذا الوطن غباشة الطائفية المقيتة والظلم والجبروت .

آخر الوافدين !

مضت الأمور في السجن بعمومها نحو الهدوء النسبي . فالتعذيب الجماعي خفت حدته ، والضرب الوحشي قلت نسبته . ثم لم نلبث أن وجدنا الإدارة تقوم بفرز جديد للسجناء في شهر نيسان ١٩٩١ تم بموجبها تقسيمنا وتوزيعنا على مهاجع جديدة وباحات مختلفة . ووجدتني في هذا السياق أنقل هذه المرة إلى مهجع رقم ٧ في الباحة الرابعة . وهناك أمضيت قرابة سنة أخرى خفت فيها المعاناة نوعاً ما ، وبدأنا نلحظ خلالها تحسناً نسبياً في الطعام ، كانت مادته الأساسية زيادة كمية الثوم !

ومن باحة مهجعنا السابع تلك كان على لجنة الإعدامات التي لم تتوقف أعمالها أبداً أن تمر من أمامنا مضياً في طريقها إلى الباحة السادسة لتنفذ الأحكام . وكنا نسمع أصواتهم ونتمكن أحياناً من التلصص عليهم من شقوق الباب . وفي نفس الوقت كنا نحس وصول الدفعات الجديدة من المعتقلين التي لم تتوقف أيضاً ونسمع أصوات استغاثاتهم وصياحهم من ساحة الذاتية المجاورة والباحة الأولى القريبة منا . وفي شهر تشرين الثاني عام ١٩٩١ كانت آخر دفعة جديدة من السجناء تصل تدمر على عهدي لتستقبلهم حفلة الإستقبال الرعيبة ذاتها .. وتبلغنا أصوات استغاثاتهم وصيحات الألم تزلزل المكان ولا تحرك في قلوب الزبانية شعرة ! وحتى لا تنتقل الأخبار ويطلع السجناء القدامى على مستجدات الأحداث في الخارج كان يتم عزل السجناء الجدد في مهاجع مستقلة فلا نلتقيهم ولا يلتقونا ، ولكن أصوات استغاثاتهم كانت أكثر من كافية لنعلم بوصولهم إلى هذا المكان الرعيب .

نعم للقائد !!

وذات يوم من نهايات تشرين الثاني أو بدايات كانون الأول عام ١٩٩١ . وبينما نحن في المهجع نجرع الأسى ونغص بالحسرات أقبل علينا مساعد السجن محمد نعمة وأبلغنا أن انتخابات لرئيس

الدولة أوشكت أن تجري خلال أيام .. وأن علينا أن نظهر محبتنا وتقديرنا للقائد الأسد فنقول له "نعم" بالفم الملآن والصوت العالي .

ولم يكن من خيار أمام أحد في كل سورية إلا أن يقول تلك الـ"نعم" . تماماً كتلك التي قلناها لسليمان الخطيب حين أبلغنا بأحكام الإعدام أمام محكمته الهزلية . أو كتلك التي قالها الطبيب المسكين بعد حفل العذاب ليطلق زوجته . أو كالنعم التي كنا نقولها للشرطي إذا قال لنا أنه يريد أن يفعل كذا وكذا بأمهاتنا وأخواتنا . أو كآلاف وآلاف مثلها يقولها كل مواطن مقهور لا يملك لرد ظلم زبانية النظام وسفاهاتهم عوناً ولا سنداً .

وكتب رئيس المهجع قائمة بأسمائنا كلنا . ووقعنا وقلنا "نعم" . وكان الأنكى أن قام بعض من هدته المحنة وأنهكته المعاناة فاقترح أن نكتب العبارة "نعم للقائد" على واحد من قمصاننا البيضاء لا بالحبر أو بالدهان وإنما بدمنا ! وهرع البعض فاستجابوا وأحضروا من مسؤول المهجع الصحي إبرة وجعلوا يسحبون من أوردتهم ما يكفي من الدم ليكتبوا به على القميص !

بشارات !

وفي ليلة من ليالي شهر كانون الأول من عام ١٩٩١ وجدتني أستغرق في النوم فأرى في المنام الشرطة العسكرية يدخلون علينا في المهجع بملابسهم الكاكية وطاقياتهم الحمراء وسحناتهم البغيضة ويخبروننا بقرار انتقالنا من هذا المكان . ورأيتني أمضي إلى زاوية من زوايا المهجع اعتدنا أن نكدس فيها حقائبنا البالية فأحمل من بين الأكداس حقيبتي وتأتي مجموعة من الشباب فيفعلون ما فعلت . ورأيت علي دوبا رئيس فرع المخابرات العسكرية يمضي معنا أو نمضي معه فننطلق إلى باص كان بانتظارنا ونركب فيه جميعنا ونمضي . وبعد أن غادر الباص سجن تدمر وقطعناه بمسافة بعيدة انتهى المنام . فلما استيقظت وقصصت الرؤيا على الشباب حولي تفاءلوا وقالوا لي إن شاء الله يفرجها الله عليك .

ولم يمض يومان فقط حتى وجدت الشرطة ينادون اسمي بعد صلاة العصر وكان يوم أربعاء . فلما خرجت إليهم سألوني عن اسمي الكامل واسم أبي وأمي فأجبتهم . فلم يزيدوا أن قالوا لي من غير أي تعليق :

ضب أغراضك وجهز حالك لبرة .

وكنا جميعاً متعودين أن يأتينا مثل هذا الإيعاز في أي لحظة . سواء للإنتقال من مهجع إلى آخر أو للخروج إلى الإعدام ! ووجدت الإخوة يلتفون حولي ويودعونني ولا يدري أحد منا إلى أين المصير . وخرجت وقد وضعت الطماشة على عيني وعقدت يدي خلف ظهري كالعادة ومضيت أتبعهم . فأدركت أنهم يقودونني باتجاه الساحة السادسة التي تنفذ فيها أحكام الإعدام . فجعلت

أتقلب بين هواجس اقتراب النهاية وأحاسيس غامضة تبشرني من أعماقي بدنو الفرج . وجعلت أتساءل بيني وبين نفسي عن سبب اقتيادي إلى الباحة السادسة إذا كان هناك إفراج . ولماذا لم يأخذوني إلى الذاتية في الباحة الأولى لأخرج من حيث دخلت قبل عشرة أعوام أو أكثر !

ولم تطل بي التساؤلات التي قطعها توقف الركب وصوت باب يفتح ونداء واحد من الشرطة يقول لي :

أدخل ولا .

وأغلق الباب ورائي .. وأحسست أن الشرطة تركوني وذهبوا .. وأن ثمة من يشاركني هذا المكان الجديد ويهمهم حولي . وبحذر شديد أرسلت يدي من وراء ظهري إلى وسطي . فلما تأكدت أن أحداً لم ينتهرني أو يصرخ في رفعتهما إلى وجهي وفككت الطماشة عن عيني . فوجدتني محاطاً بعدد من السجناء يتطلعون في وأتطلع فيهم .

خير يا شباب شو في ؟

سألتهم متوجساً ومستغرباً .. فقالوا ببشاشة وبشر :

ان شاء الله خير . هناك إخلاء سبيل .

ماذا ؟

قلتها وأنا لا أكاد أصدق أو أستوعب ما قالوا . فكرروا علي وأكدوا لي . ولم يلبث أن أطل علينا من فوق الشراقة أحد الشرطة وقال لنا من غير أن نعرف السبب الشيء نفسه . ولم تمض نصف ساعة أخرى حتى فتح الباب من جديد فهرعنا من فورنا حسب العادة واتجهنا برؤوسنا إلى الجدار . وتقدم واحد ممن سبقوني فقدم الصف . وأحسسنا بدخول أشخاص عديدين وراءنا ، فتوجست خيفة وأنا أتوقع كل شر ولا أستغربه . وأتانا الإيعاز مرة واحدة :

وراء در .

فاستدرنا وعيوننا لا تزال مغمضة حسب التعليمات . لكن الإيعاز أتانا مرة أخرى يقول :

ارفع راسك ولا وفتح عينيك .

مفاجآت !

فتحت عيني يكاد يشلهما الخوف فراعني أن أنظر فأرى لأول مرة طوال تلك السنوات سحنة جلادينا بوجوه آدمية من لحم ودم . ولم يكن مألوفاً لي ولا لأحد ممن معي أبداً أن نبصر شخصاً في هذا المكان معافى في بدنه متأنقاً في ملبسه ، نبت الشعر في رأسه وشاربيه بشكل طبيعي وطال من غير أن تجرده آلة الحلاقة أو تشوهه الصفعات واللطمات !

وأمعنا النظر ونحن كالطفل الذي يطلع على العالم من حوله لأول مرة فرأينا مساعد السجن محمد نعمة ورئيس السجن نفسه غازي الجهني يقفان في مواجهتنا ومن ورائهما وعن أيمانهما وشمائلهما الزبانية يترصدوننا بنظراتهم الماكرة . وبعبارات مقتضبة أخبرنا العقيد الجهني أن سـيادة رئـيس الدولة أصدر عفواً عنكم .. وإن هي إلا أيام وتكونوا بين أهليكم . وأمرنا من ثم أن نخلع ملابسنا جميعاً ونبقى بالشورت فقط . والتفت إلى كومة من الملابس والأحذية العسكرية الجديـدة فـأمر الشرطة أن يوزعوها علينا ثم مضى ومعه المساعد والشرطة وأغلقوا علينا الباب .

عقدت المفاجأة ألسنتنا جميعاً وأصابتنا بالربكة إلى حين . حتى إذا هدأت النفوس واستقرت اتجهنا إلى بعضنا البعض نتساءل ونتداول ونحاول أن نجد تفسيراً لما يجري فلم نفلح . وأخذت أتملـى في رفاق هذا المهجع الجديد فوجدتهم قرابة الخمسة والثلاثين شخصاً عركتهم المحنة وناءت بكلكلها عليهم مثلما فعلت بي ، فلم تترك فيهم إلا سحناً مصفرة وعيوناً ذابلة وأجساداً واهنة ..

وانقضى يوم الأربعاء ونحن في هذا المهجع الذي يسمى مهجع ٦ على ٢ الجديد نتجاذب أطراف الحديث ونتعرف على بعضنا البعض . وجاء الخميس وانقضى كما جاء ونحن نقطع الوقت بتبادل أخبار المهاجع وروايات العذاب والأسى . وكذلك حدث في اليوم التالي ونحن نقترب من الشك ونكاد ننتكس من التفاؤل إلى التشاؤم من جديد . حتى إذا كان صباح السبت وجدناهم ينادوننا للخروج من المهجع والإنتظام في صف في الخارج أمامه . فخرجنا كذلك مغمضي العيون منكسي الرؤوس يلتصق واحدنا بأخيه خشية أن يتعثر . لكن الإيعاز جاءنا كذلك بأن نفتح عيوننا ونتطلع بشكل طبيعي . فلما فعلت وفتحت عيني هالني أن أنظر إلى هذا المكان الرعيب الـذي ضـمتني جدرانه وحملتني أرضه وأكلت عصي زبانيته وسياطهم من جسدي ما شاء الله أكثر مـن عـشر سنوات فكأنني أراه الآن لأول مرة !

كان كل جدار أقابله كطود جاثم على صدري عشر سنوات من غير أن أراه . وكل باب غلـيظ مشبك بالحديد كشوكة في حلقي أبصرها الآن لأول مرة . وهـذه الوجـوه الكالحـة وتلـك القسمات الطاغية وهذه المهاجع المقفلة كالتوابيت كم مرة لطمتني أو عركتني أو حملتني وأنا رهين المحبسين ترهقني ذلة الأسر ورهبة الظلام وقد أطبقت أجفاني على نوافذ الضياء بالإكراه فلا أرى خارج المهجع إلا الظلام وحسب !

بوابة المغادرين !

وسار ركبنا نحن الذين صدر العفو عنا كخط النمل يتجه نحو الباحة الخامسة وأنا أتوقع أن نمضي الآن إلى الذاتية لنتسلم أماناتنا ونسجل أسماءنا ونخرج من الباب الذي دخلنا منه . لكني وجدت الركب ينعرج بنا باتجاه المطابخ نحو باب خلفي للسجن اعتادت سيارات الجيش أن تدخل الطعام

والمشانق منه وتخرج عائدة بالقدور الفارغة وجثث الموتى والمعدومين بنفس الوتيرة ونفس البرود ! وعلى مقربة من الباب وجدنا باص تويوتا أحمر اللون بانتظارنا فصعدنا إليه لا ننبس ببنت شفة . ورافقنا في باصنا الذي توزعنا على مقاعده واجمين ثلاثة عناصر من المخابرات العسكرية لم يكن يبدو عليهم الإكتراث بأمرنا . وكنت عندما أتملى فيهم أحس أنهم ربما لم يدروا أين أمضينا آخر عشر سنوات من أعمارنا أو حتى أنهم كانوا عندما دخلنا زنزانات الفرع الذي أتوا منه قبل اثنتي عشرة سنة خلت مجرد طلاب في المرحلة الإعدادية أو الثانوية على أبعد تقدير !

دمعة شكر

ومضى الباص بنا يزمجر على هذا الخط الضيق يسرع ساعة ويبطؤ أخرى . ونحن فيه كأننا الأطفال في أرحام أمهاتهم نشاهد العالم في الخارج من غير أن ندرك علاقتنا به أو مصيرنا فيه . والمشاهد من حولنا تتسارع وتتغير وتتبدل . والوجوه والبيوت والبهائم والسيارات والغيوم والسماوات كلها كالكلمات الغريبة في قاموس لغة نسيناها منذ أكثر من عقد خلى !

وارتددت إلى نفسي لحظة فجعلت أتذكر المنام الذي شاهدته قبل بضعة أيام وحسب . وجعلت أقارن الباص الذي ركبته في المنام وهذا الباص الذي يقلنا الآن . والجمع الذين هرعوا في الرؤيا لمرافقتي وجمع الإخوة الذين معي . ورئيس المخابرات العسكرية هناك وجنده هنا . ووجدتني من غير إرادة مني أتبسم وقد نسيت كيف تفتر الشفاه عن ابتسامة سعد . وأتجه بجوارحي كلها إلى الله العلي الرحيم أود أن أسجد له كل عمري شاكراً . فلم تجبني من كل هاتيك الجوارح المأخوذة بتسارع الأحداث وقتها إلا دمعة حرى طفرت من عيني على وجل .

وأسرع السائق بالحافلة .. وأسرعت بنا الخواطر والخيالات والتساؤلات والأماني والمخاوف كلها تتراكض فينا معاً . وعبرنا تدمر المدينة من غير أن نلفت فيها نظر أحد . وتخطينا حمص مرقد خالد بن الوليد تغشاها كآبة ووحشة .. وأشرفنا على دمشق عاصمة الأمويين والمجد والفتوحات بالأمس .. ومهد المظالم والقهر ووكر الطائفية اليوم . وأكمل الباص بنا إلى فرع المخابرات العسكرية من جديد . وتسلمنا الزبانية كالعادة تغيرت وجوههم وأسماؤهم ولم يتغير من عدوانيتهم شيء . وبعد أن أخذوا أسماءنا وتسلموا أماناتنا أدخلونا على واحد من المهاجع تحت الأرض لنقضي ليلتنا هناك .

صفحة جديدة !

وفي اليوم التالي الثامن والعشرين من كانون الأول جمعونا كلنا في قاعة محاضرات واسعة ووزعونا على كراسيها الوثيرة . واعتلى مجموعة من الضباط المدنيين المنصة . وتقدم أحدهم منا فألقى فينا كلمة مقتضبة استهلها بالثناء على الرئيس القائد الذي يعرف الناس كل الناس أن الكرم من سماته

.. وأنه ينظر إلى الشعب بعين الرأفة والعطف على الدوام .. ولذلك أصدر أمراً بـالإفراج عنـا بمناسبة إعادة انتخابه ! وقال لنا المتحدث أن بعضنا ربما لم يكن يستحق كل هذا الإعتقال الطويل .. وأن بعضنا الآخر نال الآن جزاءه . ودعانا أن ننسى كلنا الماضي ونبدأ صفحة جديـدة مـن اليوم . فيذهب الطالب إلى مدرسته . والعامل إلى مصنعه . والموظف إلى وظيفته . ويعود الكـل إلى حياتهم الطبيعية وينسوا الماضي . وختم المتحدث كلمته منوهاً أن الفرع سيوصل كلاً منا إلى محافظته ومدينته .

وانفض الاجتماع .. وجعل رجال المخابرات يقتادون كل مجموعة من المعتقلين إلى زاوية حسب محافظاتهم . ولما كنت الأردني الوحيد فقد اقتادوني مع أربعة عناصر منهم إلى سيارة اتجهت بنا إلى الحدود السورية الأردنية مباشرة . وعندما وصلنا مدينة درعا بعد منتصف الليل سلموني للشرطة المدنية هناك . وتقدم هؤلاء فسلموني بدورهم إلى المخابرات الأردنية على الطرف الآخـر مـن الحدود ، ولم يزيدوا عن أن قالوا لهم أنني كنت موقوفاً لديهم . فلما استلمني الأردنيون وسألوني عن جوازي أو وثيقة تثبت شخصيتي لم أجد شيئاً أقدمه لهم . فعاد واحدهم وسألني منذ مـتى تم توقيفي . سألته : ما اليوم ؟ قال : ٢٩ كانون الأول ١٩٩١ . قلت أرد على سؤاله : منذ أكثر من إحدى عشرة سنة إذاً . منذ الثامن من تشرين الأول عام ١٩٨٠ . فكاد الرجل يصعق مـن المفاجأة . وعندما وصلت والدتي ووالدي وأختي بعد ساعات لاستلامي لم تكن مفاجأتهم أقل منه وهم يرون ولدهم الذي غادرهم ابن تسع عشرة سنة عاد إليهم اليوم ابن إحدى وثلاثين . ناحل الوجه ، حليق الرأس ، منهك القوى ، يرتدي ملابس العسكريين الكـاكي وحـذاء الجـيش . ووجدتني أمام أهلي الذين غادرتهم أصحاء أشداء أنهكتهم بدورهم السنون وهدتهم اللوعة .

وهرعت إلى يدي والدي رحمه الله أقبلهما وإلى أمي أحضنها وأطلب منهما السماح . وجعلـت والدتي تنظر في وجهي تتفرس فيه وتقول لي : أنت محمد ؟ أكيد أنت محمد ! وتناولت يدي تقلبها وتُبَحِر فيها ولا تكاد تصدق ! وتناولت أنا يديها ألثمهما وأطلب منها مجدداً الرضا والـسماح . وتدفقت عبراتنا جميعاً وخنقنا النشيج . واحدودب بعضنا على بعض وكأننا نتقي جورة الزمـان وتربص المتربصين .

وأقفلت بنا السيارة تعود بي إلى بيت أهلي الغوالي بعد غيبة عقد ونيف من الزمـان .. وكـرت الأسئلة وتدفقت الحكايات .. وانفجرت الأحزان والآلام والحسرات حبيسة دهر من الزمـان . دهر كل لحظة فيه كانت أثقل من الدهر كله .. وكل زفرة أو شهقة من أيامه لها حكاية تحكى .. ولوعة تفري الكبد .. وذكريات وشجى . لا توفي وصفها قواميس الأرض .. ولا تسبر أغوارها من الكلمات شيء .. ولا يمسح حرها إلا الرحمن الرحيم .

وبعد ..

فها هي ذي صفحات من ذكريات المحنة التي قدر لي أن أعيشها في سجون النظام السوري قد باتت جاهزة للتو تنتظر دورة المطبعة تأخذ مجراها . وإني إذ أحمد الله تعالى الذي يسر لي إخراج هذه الذكريات على شكل كتاب .. وأشكره من قبل ومن بعد أن نجاني وفرّج عني ومنّ بالحرية علي .. أود أن أسجل بعض نقاط أراها جديرة أن أختتم بها كتابي هذا ، سائلاً الله تعالى النفع والقبول .

١ - مرت عدة سنوات على خروجي من سجن تدمر مررت فيها بظروف عديدة متغيرة ، مما جعلني أنسى الكثير مما شاهدت ورأيت وسمعت في تلك المحنة الرهيبة . ولقد حاولت فيما كتبت أن أتحرى الدقة قدر المستطاع ، وأن أوثق المعلومات التي سجلتها ما وسعني الجهد . لكني أعلم أن الكمال لله وحده ، وأن كل بني آدم خطاء . وللزمن حكمه كما يقولون . ولذلك أرجو أن يسامحني القارىء الكريم إن وجد أي نقص أو عجز أو خطأ فيما قرأ ، وليصحح لي كل من ملك معلومة مكملة أو إضافة مفصلة .

٢ - وفي هذا السياق ومن هذا المنطلق ، أدعو كل أخ مسه من فيح تلك المحنة جانب أو ناله من لظاها أذى ، وأدعو كل مواطن شهد على ممارسات النظام السوري القمعية مشهداً أو عرف خبراً أن يبادر ويسجل تجربته ويكتب مشاهداته وشهادته . ولو لم يكن لدى المرء فرصة للنشر اليوم أو كانت ظروفه لا تسمح الآن فغداً ستختلف الموازين وتتغير الأحوال إن شاء الله . لكن الأمانة تظل في أعناقنا والشهادة حق لا يقبل أن نكتمه . والذاكرة لن تدوم فيها المعلومات والذكريات كما هي اليوم . والعمر بيد الله لا ندري متى ينقضي . وإذا كان جيلنا قد عاصر جانباً من الأحداث واطلع على بعض أوجه النظام الديكتاتوري الطائفي في سورية ، فإن أجيالاً تالية وشعوباً أخرى تحتاج أن تعرف الحقيقة وتدرس ما حدث . ولا بد لكل من أراد أن يخطو على طريق الدعوة إلى الله أن يرصد تجارب سابقيه وخبرة المتقدمين عليه . أما أن تتكرر التجارب متماثلة متشابهة لا تستزيد واحدها من أخراها ولا يتعلم لاحقها من سابقها فتلك علة معلة وجمود مهلك . وسبب كاف لتكرار النوازل والمآسي والنكبات .

٣ - وحتى لا تتكرر النكبات وحتى تكتمل الفائدة من تسطير هذا الكتاب أراني واجباً علي أن أسجل خلاصة ما وصلنا إليه من قناعات ورؤى بعد سنوات محنتنا تلك . وإنني إذ أتحدث بضمير الجماعة هنا فإنما أقصد الغالبية من إخوة المحنة الذين جمعتني وإياهم على مدار سنوات متتالية القيود المطبقة والأبواب المغلقة .. وجلسات المصارحة والنقد الموضوعي والتقييم البناء . فوصلنا من بعد جدال وأخذ ورد إلى أن الإسلام الذي اعتنقناه واعتقدناه وحملناه في قلوبنا وامتحنا في

سبيله وابتلينا .. هذا الإسلام لا زال من بعد كل هذه المحنة والعذاب والمشانق والمجازر هو الحق لم يتغير ، وهو الهدف لم يتبدل ، وهو الطريق لم نحد بإذن الله عنه . ولا زلنا حقيقة على قناعة خالصة بوجوب العمل لدين الله ونشر دعوته ، وحتمية تبليغ رسالته الخالدة لأنها الأمل الوحيد لنجاة البشرية جمعاء .

٤ - أما الذي توقفنا عنده وانكببنا على النظر إليه فهو الكيفية والوسيلة التي يمكن أن نحقق بها ما اعتقدناه . فمن خلال محنتنا وكربتنا .. وبعد الثمن الباهظ الذي دفعناه دماً وأرواحاً وزهرات من شباب الدعوة ورصيد من النجاح انهار وانقضى .. تبين لنا وتأكد وتحقق أن أول ما نحتاجه قبل أن نخطو أي خطوة تالية هو الصف المنظم الموحد . فوالله لم يؤت إخواننا المجاهدون في سورية - ولا في غيرها - من قلة مال أو سلاح أو عتاد ، ولم يهزمهم استبداد عدوهم أو قوة تسليحه أو شدة بطشه . ولكن التجربة أثبتت وأكدت أن الشر أتي من التنازع والإختلاف ، والبنيان تهدم من الفرقة قبل كل شيء .

٥ - أما القضية التالية التي وجدنا البدء من غيرها معناه التهلكة ، والمسير من غير أن تترسخ فينا نذير الضياع فهي التربية . ولقد كان أمراً عجباً أن تنفق كل الحركات الإسلامية جل جهدها وأكثر وقتها في الحديث عن التربية وتطبيقاتها ، ثم إذا فاجأتنا المحنة وجدنا أنفسنا أبعد ما نكون عن التربية الحقيقية وأكثر من يفتقدها !

وعندما أذكر التربية هنا فأنما أعني كل ما يندرج تحت هذا المسمى من أبواب : التربية الروحية .. والسلوكية .. والبدنية .. والعسكرية .. والتنظيمية .. والأمنية . وحتمية أن تجتمع كل هذه الأبواب في بناء شخصية الداعية . وإلا فما معنى أن يحضر شخص واحد باعترافاته مائة أخ من تنظيم سري ناشيء ؟ وكيف يفسر أن يضطلع فرد في هذا التنظيم بمسؤوليات تمكنه من معرفة كل الصف القيادي في التنظيم وعناصره الفاعلة وأسراره الخطيرة ومخابيء سلاحه ومواقع قواعده ورموز اتصالاته وكل صغيرة وكبيرة فيه !!

٦ - ان قناعتنا بعد كل هذه المحنة في وجوب مقاومة الظلم لم تتغير بفضل الله ولن تتغير . والعمل للإسلام لما يزل كيوم دخلنا المحنة واجباً حتمياً وأمانة ملزمة ، لكنا إذا أردنا أن نحمل هذه الأمانة فلنحملها بوعي كامل وكفاءة كافية .. أو نتنحى لمن هو أقدر وأكفأ .

إنني ومن بعد التجربة أؤمن اليوم أننا إذا تخلينا فسيهيؤ الله تعالى من هو أقدر وأكفأ وأجدر على حمل الأمانة . أما إذا صممنا على تقدم الصفوف من غير إعداد كاف وكفاءة وحنكة فقد جنينا

على أنفسنا وتجنينا على دين الله ودعوته . وهيهات هيهات أن ينصر قوم هذا حالهم وذاك الطريق الذي اختاروه .

هذه بعض ملاحظات أردت أن أختتم بها ذكريات المحنة وشهادة التجربة . سائلاً الله تعالى الرحمة والمغفرة وحسن الخواتيم . والحمد لله رب العالمين .

محمد سليم حماد

آب/١٩٩٦

من سجل الشهداء :

ليس من السهل أبداً أن يصدر إحصاء حقيقي عن عدد شهداء سجن تدمر أو أسماء أولئك الشهداء . فالإرهاب الذي يحيط حياة المعتقلين ابتداء ، والسرية التي تتم بها الإعدامات من بعد ، وانقراض الشهود تلو الشهود ، والتوتر والخوف والتنقلات ، وانتظار الموت الدائم .. كل ذلك يجعل المعتقل ذاهلاً عن كثير مما يدور حوله ، جاهلاً بما يحدث حتى خلف باب المهجع الذي يقبع فيه .

ومما رسخ في الذاكرة ، وبعد تمحيص وتدقيق ومراجعة متكررة ، أستطيع أن أثبت فيما يلي أسماء من شهدت إعدامهم بنفسي ، أو سمعت أسماءهم تتلى من سجل المطلوبين للإعدام ، أو بلغني من مصادر ثقة أن إعدامهم قد تم تنفيذه فعلاً . وغالب أولئك قضوا في سجن تدمر ، وقليل منهم أعدموا في سجن المزة وحمل إلينا الخبر القادمون ممن عاصروا إعدامهم هناك . وإني وأنا أسأل الله تعالى الرحمة والقبول للشهداء ، أؤكد ما هو معلوم من الأمر بالضرورة ، بأن عدد الذين قضوا على أعواد المشانق أو بأيدي الجلاوزة والزبانية . أضعاف أضعاف هذا الرقم . وأعود لذلك فأهيب بكل أخ شهد هذه المحنة أو علم عنها مهما علم ، أن يسجل ذاك الذي شهد ، ويوثق ما علم وما وعى ، عسى أن تكمل أمثال هذه الأعمال بعضها البعض ، وتكمل الجهود المتعددة صورة الفاجعة ، وتحفظ للأجيال مدى الشناعة التي اقترفتها الأيدي الآثمة ، بحق أبناء القطر السوري المنكوب

من سجل الشهداء

رقم	الاسم	المدينة	المهنة	التاريخ	الكيفية
١	غالب حداد	حماة		١٩٨٠	شنقاً

٢	حسن الصغير	حمص	مجند	١٩٨١	شنقاً
٣	عبد المجيد الدباغ	حمص	معلم رياضيات	١٩٨١	شنقاً
٥	حسين الطنجي	حلب	طالب ثانوي	١٩٨١	شنقاً
٦	أمين الأصفر	حماة	خريج المدرسة الشرعية	١٩٨١	شنقاً
٧	محمد فخري	حماة	مهني	١٩٨١	شنقاً
٨	مأمون كردي	حماة	طالب جامعي	١٩٨١	بالتعذيب
٩	ناصح شنيطبي	دمشق		١٩٨١	الكوليرا
١٠	جهاد حلاق	دمشق		١٩٨١	بالتعذيب
١١	ناصر الدين البيك	حمص	طالب هندسة	١٩٨١	شنقاً
١٢	نعيم صيام	الأردن	طالب تجارة بحلب	١٩٨١	شنقاً
١٣	حسين رشيد عثمان	الباب/حلب	صحفي في وكالة الأنباء السورية	١٩٨١ أو ١٩٨٢	شنقاً
١٤	أيمن عثمان	الباب/حلب	نقيب متطوع		شنقاً
١٥	جمال عقيل	حلب	طالب هندسة	١٩٨٢	شنقاً
١٦	جلال الدين جلال	حلب		١٩٨٢	شنقاً
١٧	محمد صادق العون	حماة	كلية الشريعة	١٩٨٢	شنقاً
١٨	عبد الكريم غانم	دمشق	طالب هندسة	١٩٨٢	شنقاً
١٩	كمال أندورة	دمشق	طالب كهرباء	١٩٨٢	المرض
٢٠	هشام مجندف	حمص	مجند بالآمرية	١٩٨٢	المرض

٢١	بسام الهاشمي	حمص	طالب ثانوي	١٩٨٢	المرض
٢٢	سامي وحود	حمص	طالب ميكانيك	١٩٨٢	المرض
٢٣	زاهد داخل	حلب	طبيب	١٩٨٢	بالتعذيب
٢٤	حسان طرابيشي	حمص	طالب ميكانيك	١٩٨٢	شنقاً
٢٥	توفيق دراق السباعي	حمص	طبيب أعصاب	١٩٨٢	شنقاً
٢٦	عبد العزيز عوض سالم	صوران/حماة	مجند عسكري	١٩٨٢	السل
٢٧	يحي عبد الكريم الشامي	حماة	طالب صيدلة	١٩٨٢	بالتعذيب
٢٨	عبد الوهاب حلموشي	حمص	طالب جامعي	١٩٨٢	شنقاً
٢٩	يوسف عبارة	حلب		١٩٨٢	شنقاً
٣٠	بسام سباعي	حمص	مهندس	١٩٨٢ أو ١٩٨٣	شنقاً
٣١	محمد صنوبر	دمشق	طالب بكالوريا	١٩٨٣	شنقاً
٣٢	عبد الحكيم	سراقب / إدلب	مدرس لغة عربية وملازم مكلف	١٩٨٣	شنقاً
٣٣	عبد الرحمن فليطاني	حمص	موظف	١٩٨٣	السل
٣٤	مصطفى	حلب	تاجر	١٩٨٣	السل
٣٥	عبد الساتر مصطفى	حمص		١٩٨٣	السل

٣٦	محمد حسن عجعوج	حماة		١٩٨٣	السكتة القلبية
٣٧	عبد الكريم الصالح	دير الزور	طالب هندسة	١٩٨٣	شنقاً
٣٨	مأمون الذهبي	دمشق	طالب بكالوريا	١٩٨٣	المرض
٣٩	أحمد دعدع	حماة	مهني	١٩٨٣ أو ١٩٨٤	شنقاً
٤٠	عبد الكريم الصالح	الباب/حلب	طالب هندسة	١٩٨٣ أو ١٩٨٤	شنقاً
٤١	حسين العدم	الأردن	سائق سيارة	١٩٨٣ أو ١٩٨٤	شنقاً
٤٢	عبد المعز العجمي	حمص	طالب هندسة	١٩٨٤	شنقاً
٤٣	نديم منصور	ادلب	خريج جامعي	١٩٨٤	شنقاً
٤٤	جمال عيار	حلب	خريج المدرسة الشرعية	١٩٨٤	شنقاً
٤٥	سحبان بركات	حماة	طالب زراعة	١٩٨٤	شنقاً
٤٦	.... العابدي	دمشق	تاجر	١٩٨٤	شنقاً
٤٧	ملهم الأتاسي	حمص	طالب جامعي	١٩٨٤	شنقاً
٤٨	طريف حداد	حمص	طالب بكالوريا	١٩٨٤	شنقاً
٤٩	هيثم ملا عثمان	دمشق	طالب هندسة	١٩٨٤	شنقاً
٥٠	عمر بدر	حمص	أعمال حرة	١٩٨٤	شنقاً
٥١	يوسف عبيد	دمشق		١٩٨٤	شنقاً

٥٢	ضياء أسود	حلب	طالب هندسة	١٩٨٤ أو ١٩٨٥	شنقاً
٥٣	عبد الكريم مهلهل	دير الزور	طالب طب	١٩٨٤ أو ١٩٨٥	شنقاً
٥٤	.... سراج	دير الزور	طالب طب	١٩٨٤ أو ١٩٨٥	شنقاً
٥٥	حزين قاسم	المعرة	مدرس ابتدائي	١٩٨٥	السل
٥٦	مصطفى المصطفى	منخ/حلب	خريج المدرسة الشرعية	١٩٨٥	السل
٥٧	.... عطار	حلب	طالب ثانوي	١٩٨٥	شنقاً
٥٨	...... عطار	حلب	طالب ثانوي	١٩٨٥	شنقاً
٥٩	أيمن عنجريني	حلب	طالب	١٩٨٥ أو ١٩٨٦	شنقاً
٦٠	أحمد غنوم	حلب	عميد في الجيش	١٩٨٦	شنقاً
٦١	عمر حيدر	المعرة	مدرس	١٩٨٦	السكتة القلبية
٦٢	طاهر العلو	حلب		١٩٨٦	شنقاً
٦٣	زاهي عبادي	دير الزور	طبيب	١٩٩٠	غير واضحة
٦٤	.... وطفة	دمشق	مجند عسكري		شنقاً
٦٥	عبد الإله بعلبكي	قدسيا/ دمشق	مهندس		شنقاً
٦٦	أحمد فطومة	حماة	مهني		بالتعذيب

٦٧	طاهر عارف جيللو	سلقين/ادلب	مدرس ديانة	شنقاً
٦٨	محمد أرمنازي	حماة		شنقاً (بالمزة)
٦٩	مطاع أتاسي	حمص	طبيب	شنقاً

[الشهادة الثانية]

خمس دقائق وحسب !

تسع سنوات في سجون سورية

ديسمبر ١٩٨٠ – ديسمبر ١٩٨٩

بقلم السجينة السابقة/ هبة الدباغ

(هذه الشهادة عبارة عن كتاب كتبته هبة الدباغ)

محتويات الشهادة /

تقديم بقلم زينب الغزالي الجبيلي
مقدمة (وتلك الأيام نداولها بين الناس)
الفصل الأول: خمس دقائق و حسب
الفصل الثاني: كفر سوسة، رحلة خارج الزمن، يناير ١٩٨١ - أكتوبر ١٩٨٢
الفصل الثالث: سجن قطنا، الموت البطيء، أكتوبر ١٩٨٢ - أغسطس ١٩٨٥
الفصل الرابع: سجن التحقيق العسكري، في غيابة الجب، أغسطس ١٩٨٥ - أكتوبر ١٩٨٥
الفصل الخامس: سجن دوما، معركة مع الزمن، نوفمبر١٩٨٥ - أكتوبر ١٩٨٩
الفصل السادس: الفرج و الإفراج ــ ديسمبر ١٩٨٩

مقدمة بقلم زينب الغزالي الجبيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم

من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران و تغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلغ للناس ولينذروا به ليعلموا أنما هو إله واحد و ليذكر أولوا ألالباب).

وبعد . . فهذه سطور من كتاب الحياة المعاصرة ، عاشتها صاحبته ورفيقات سجنها ألما وعذابا ، ومرارة وأهوالا يشيب لها الولدان . . إنها سطور كتبت بالدموع والدماء ، والسياط والقهر والعذاب ، تحكي قصة الظلم الطغيان فوق أرضنا وفي أوطاننا المسلوبة الإرادة ، والتي عشعش فيها الظلم زمنا طويلا حتى باض وأفرخ وصار ظلمات فوق ظلمات !

ماذا يريد الظالمون ؟ هل يريدون ملكا يتيهون فيه ويسرحون ويمرحون دون رقيب أو حسيب ؟ فإذا كان لهم ذلك هل يبقى ويخلد أم يزول ويهلك وينتقل إلى غيرهم ، فلو دام لأحد لما وصل إليهم . . أم يريدون مالا ينفقون منه على شهواتهم وملذاتهم ، فهل أسعدهم المال حقا ، وهل شفاهم من أمراض نفوسهم وجعل الطمأنينة في قلوبهم ؟ أم يريدون أن يتخلى أصحاب المبادئ عن مبادئهم ، وأصحاب العقائد عن عقائدهم ، فهل تحقق لهم ذلك ؟ أم أن أهل الإيمان ازدادوا تمسكا وصلابة ، وعزيمة ومضاءا ، وهم يعلمون أنه في سبيل الله ترخص الأرواح والأنفس والدماء (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) . إن الله حرم الظلم على نفسه ، وجعله بين عباده محرما ، فما أقساه وما أشد مرارته ، خصوصا عندما يتسمى الظالم بأسمائنا ، ويأكل من أرضنا ، ويشرب من مياهنا ! ثم يكون أشد قسوة من أعدى الأعداء! لقد قاسيت وعانيت وعشت مرارة السجن والتعذيب في سجون الطاغية عبد الناصر ، وهذا الكتاب هو صورة متكررة وقعت في سجون طاغية آخر ، وما أكثر الطغاة في هذا العصر.. لكن الله يمهل ولا يهمل.. ولا أريد المزيد، فوقائع هذا الكتاب أبلغ من أي استزادة ، والله غالب على أمره..

زينب الغزالي

مقدمة

(وتلكم الايام نداولها بين الناس)

حياتنا حلقة ألوان متفاوتة . . تطبع أيام الإنسان بالبياض المشرق تارة . . وتصبغها بقتامة الظلام تارة أخرى.. وأنا أشرقت حياتي أبهى من الورد النضر ، وتنسمت أيام طفولتي حنان الأبوين

المحبين ودفء الأسرة الرضية فأورقت بالبر والرضا ، وأزهرت بالسعادة والحبور . . وعشت في هذا الروض أثيرة أبي وسر أمي ، وأميرة إخوتي السبعة وأخواتي الأربعه ونجيتهم . . فما كانت أحلامي الوردية تغفو إلا على وسادة الأمل . . ولم تكن تصحو إلا على راحات الرضا والأنس . لم أنتم إلى أي حزب من الأحزاب في يوم من الأيام . . وعلى الرغم من نشأتي الدينية وتعلقي بدروس الفقه والتجويد وحرصي على حفظ كتاب الله . . ورغم انتسابي إلى كلية الشريعة فيما بعد ، إلا أن ذلك لم يكن مبررا لتصنيفي ضمن أي تنظيم أو حزب . . ولم يكن عدم انتظامي أو تحزبي سببا في الوقت نفسه لأعمى عن ممارسات النظام السوري الظالم وأعماله التعسفية ضد أبناء الشعب من كل الإتجاهات والطبقات والإنتماءات . . وما أكد لي ذلك شيئ قدر مشاهدتي ومعايشتي لأصحاب الإتجاهات السياسية المختلفة وأصحاب اللا إتجاه من المواطنين والمواطنات الذين كانوا مثلي ضيوفا بالإكراه على زنازين النظام وسجونه . . لم يستثن من ذلك حتى أبناء طائفة النظام نفسه

عشت على هذه الصورة كألوف من بنات وطني حتى أقبلت مسيرة حياتي على المرحلة الجامعية فكانت لوعة مفارقتي أهلي ومفارقتهم لي أول غصة . . ولم تنفصل صورتي وينأى جسدي عنهم إلا بقوة قوي . . لكن هذا البون المؤقت والفراق المقرر أتبعه غياب قسري وفراق قاهر قذف بي في أعماق الظلام وسجن الظلام . . ومضى بأكثرهم فانتزعهم من دنيا الشقاء إلى مستقر رحمة الرؤوف الرحيم . . وشط بالبقية في أصقاع الأرض وصقيع الإغتراب . . فتكدرت الصورة . . وأظلمت الدنيا . . وذوت زهور الأمل من قبل أن تعقد الثمار . . وأنا في غيابة السجون رهينة عن أخي "الناشط سياسيا ".

تنسلخ سنوات العمر مني وتتفطر جوارحي وتشيخ روحي لأجل وشاية كاذبة فندها تحقيقات الظلام أنفسهم ، لكنهم اثروا أن يتجاوزوا الحقيقة ولا يدعوا جهود مخبريهم الأجراء وجلبة سياراتهم التي شقت هدوء الليل لتقبض علي تذهب سدى ! فلبثت أتنقل بين زنزانة ومهجع وسجن واخر تسع سنوات عجاف . . أقفلت فيهن كل أبواب الرحمة لدى البشر . . وماتت على أعتابهن اخر امال أملتها ورجاءات بأحد من بني الإنسان علقتها وظل الرجاء بالله وحده حيا بقلبي لا تنطفئ شعلته وإن خبت . . ولا تحده حدود وان حجبته الآلام برهة من زمن . . وكانت مناجاتي لربي منجاي وملاذي إذا غفا الخلق وسكنت السياط . . أدعوه سبحانه بقلبي ولبي: اللهم يا من إذا أظلم ليل اليأس في القلوب أنار بنور جلاله ظلام الحزن وأزاله من غير ضر . . يا من إذا ما اشتد الكرب فرجه عن المكروبين . . يا من إذا ما سدت طرق النجاة أرسل سفنه لإنقاذ

الغرقى من حيث لا يحتسبون . . يا رب يا من به الأمان . . وفي رحابه الطمأنينة والإستقرار . . وفي ظله السلام .

اللهم إذا ابتلينا فأعنا على الصبر . . واذا أردت فاجعل إرادتنا رهن مشيئتك . . واذا قضيت فهيىء قلوبنا لتقبل قضائك .

اللهم أعنا على الحمد والشكر في السراء والضراء . . ففي الصبر تربية نفوسنا ، وفي الشكر اعتراف بنعمتك علينا وانسلاخ من الأنانية والكبر . . وفي كل خير .

فجد علينا بطيب الأخلاق وسلامة الصدور إنك على كل شيء قدير

من المنان علي بنعم لا تعد ولا تحصى . . فثبتني وحفظني . . وأرسل لى من بين العصاة من خفف بلواي ونفس كربي . . وأكرمني بشريكة السجن وشقيقة الروح "ماجدة" . . فكانت أشد مني صبرا واطمئنانا وأبلغ في التضحية والعطاء . . ورحمنا كلانا بأخوات بارات محسنات . . لا ننسى فضلهن ولهفتهن وعونهن . . وقد كن معنا شريكات الهم والقيد والمعاناة . . أشكرهن هنا وأسأل الله لي ولهن المغفرة والمثوبة . . وأسالمهن المسامحة والعفو إن كنت ذكرت بين طيات الكتاب ما قد ينكأ جراح نفوسهن أو يكدر عليهن . . لكنني أرى واجب الحديث عن مظالم النظام وانتهاكات الحقوق أخ وأجل . . وضرورة توثيق هذه المرحلة أمانة ملزمة . . يهون أن نبذل في سبيلها بعض العنت والتكدر حتى لا يضيع الكثير الذي بذلناه والكرب الجلل والعذاب الشنيع الذي نلناه . . لقد عشت في جحيم سجون النظام السوري تسع سنوات رهينة بلا ذنب . . لا أقدر أن أصف كيف تكون السنوات التسع من العمر حبيسة قمقم ملعون . . ويكل القلم عن أن يسجل حقيقة كل ما جرى . . لكنني وقد عشت التجربة على أي حال وأنجاني الله في الختام أستطيع القول بأن الأيام سوداء أو بيضاء . . هنية أو عصية . . مقبلة أومدبرة . . هي كلها مقادير مقدرة وأجل مسطور . . فبينما كان الظلمة يظنون أنهم ملكوا بجبروتهم البلاد والعباد كان قدر الله أغلب وأبقى . . وبينما هم اليوم يسومون الناس سوء العذاب فإنهم في الغد وإيانا على العرض بين يدي الحكم العدل مقبلون . . وإذا كان قد ساءني سجني والمني أن أفقد تسع سنوات في غيابة الزنازين بلا ذنب . . فإنني وأنا أعيش نعم الله اليوم أحس أن الكريم قد مسح برحمته جرح القلب ، وأبدل هلع النفس طمأنينة ، وحرمان الأيام السوداء نورا وعطاء وفضلا . . أحس ذلك وألمسه في زوجي الحبيب الذي كان على العهد يزرع الأمل في نفوس المحرومين نورا وأملا أشرق في نفسي فعوضني عن كثير مما فقدت وحرمت . . وأراه في ابنتنا الأنسة "وفاء" التي أفاءت على حياتنا بالسعادة والحبور . . وفي ولدي الاخرين "جابر" وسارة" الذين تركتهما أمهما "حنان " أمانة لنا وقد حملت من قبل أمانة الجهاد وشرف الدعوة فكانت خير أسوة في الدين والدنيا معا .

. وأحس من قبل ومن بعد أن النهاية لم تحن بعد . . وفصل الحساب لم يزل مقبلا . . والظلمة المتجبرون اليوم هم بين يدي الله في الغد موقوفون . . ومن كرب العالمين نصير ومجير . . ومن مثله جل وعلا وكيل بالظالمين ؟

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذ اب جهنم ولهم عذاب الحريق)

ذلك هو العزاء . . وبالله وحده الرجاء . . عليه توكلت واليه أنبت . . والحمد لله رب العالمين .

هبة الدباغ

ابريل ١٩٩٥

خمس دقائق وحسب ! تسع سنوات في سجون سورية ، ديسمبر ١٩٨٠ – ديسمبر ١٩٨٩

بقلم: هبة الدباغ

الفصل الأول

خمس دقائق وحسب

كانت ليلة الأربعاء الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٨٥ ليلة بالغة البرودة في دمشق . . وفيما هجع أكثر أهل البيت وغبن في عالم الأحلام ، كنت وقد دنا منتصف الليل لا أزال أطارد السطور المتراقصة على كتاب الفقه وأجهد في استيعاب المعلومات استعدادا لامتحان اخر السنة صباح الغد . . والنعاس والبرد وإغراءات الفراش الوثير تطاردني بدورها وتشتت قدرتي على التركيز بين الحين والحين . . لكن هواجس أشد كانت تصرفني عن ذلك كله ، ومخاوف تنبعث من أعماقي بلا وضوح تجذبني هنا وهناك . . وتدفعني لاسترجاع صور الأيام الماضية وسجل ذكرياتي بشيء من القلق والرهبة والتوتر . . كانت أموري في كلية الشريعة طوال العام على ما يرام . . أو لعلها كانت كذلك حتى أنهيت الفصل الأول وعدت إلى حماة مدينتي أزور أسرتي وأقضي فترة العطلة بين الأهل والأحباب . . فخلال ذلك فاجأتني والدتي بطلب من أخي صفوان يلح علي وعليها أن أترك الدراسة وحتى البلد وأذهب إلى عمان عاصمة الأردن حيث يقيم منذ شهور هربا من ملاحقة الحكومة له بتهمة الإنتساب إلى تنظيم الإخوان المسلمين ونقلت أمي رحمها الله عن صفوان عندما التقته بنفسها هناك في عمان مخاوف تنتابه من أن يقوم رجال الأمن باعتقالي نيابة أو رهينة عنه . . لكنني لم أجد في نفسي مبررا لإجابته ، ولا عهدت في حياتي احتمالات كتلك ، فاعتذرت لأمي . . وأكملت إجازتي كالمعتاد . . وعدت إلى دمشق ثانية مع ابتداء الفصل الثاني . . لأستأجر مع عدد من البنات نفس الشقة التي اخترناها في الفصل الأول في حي البرامكة . . وأستأنف دوام الجامعة من جديد ، وكدت أنسى الأمر كله لولا أن التوتر الأمني بدأ يتصاعد من حولنا ، ومظاهر المسلحين وحواجز التفتيش التي اعتدنا مشاهدتها خلال

الشهور الماضية في حماة بدأت تظهر في العاصمة دمشق ، لتمتد إلى محيط الحرم الجامعي نفسه . . ويفاجؤنا عناصر الأمن على باب الكلية يطلبون البطاقات ويدققون في الأسماء . . وتنتشر الهمسات وتسري الإشاعات عن اعتقال فلان وقتل اخر واشتباك وعراك . . وما لبث الأمر أن زاد إلى العلانية . . وصار سماع رشقات الرصاص وانفجارات القنابل أمرا شبه يومي في دمشق . . وبلاغات الإذاعة وواجهات الصحف الرسمية ما عادت تكف عن أحاديث القبض على " المجرمين " ومداهمة "أوكارهم " وملاحقة عناصرهم هنا وهناك . . وفي زحمة ذلك كله . . وقد امتد التوتر إلى كل نخس وسرى الرعب في كل قلب . . بدأت أحس حركة غير طبيعية بالقرب مني أنا !

الله بيعين !

كنت على سبيل المثال قبل يومين قد اصطحبت صديقتي المقربة وزميلتي في الكلية ماجدة ل . إلى سوق الحميدية لنشتري هدية ملائمة لعمتي المريضة ، فشعرت وكأن ثمة من يتبعنا من محل إلى محل ومن شارع إلى آخر . . فلما ركبنا الباص إلى "الخيم " حيث تسكن عمتي تأكدت أن الشخص نفسه قد ركب وراءنا فتملكني الخوف جدا . . وهمست وأنا لا أكاد أقدر على تحريك شفتي بمخاوفي لماجدة . . فتبسمت وقالت : أنت موهومة وحسب ! وصباح هذا اليوم . . وعندما كنت أدخل الكلية كالعادة استوقفني عناصر الأمن فأخذوا بطاقة هويتي ودققوا فيها كما يفعلون كل يوم ثم أعادوها . . لكنني ولما انتهت المحاضرات وقفلت راجعة إلى البيت مع ماجدة شعرت ثانية وكأن أحدا ما يلحق بنا . . فلما أخبرتها بما أحس عادت فأكدت لي أنني موهومة . . وأن الأمور كلها طبيعية من حولنا ولا داعي للقلق . لكن القلق ها هو لا يزال يتملكني . . وسكون الليل البارد كأنما يزيده فيه ويؤججه . . ولم يطل الأمر بي أكثر من ذلك بعد ذاك . . فخبطة أبواب السيارات المفاجىء في الشارع أسفل منا . . والجلبة التي تميز وصول رجال المخابرات مكانا ما ، كانت كافية لتطرد كل وهم عن ذهني ، وتدفعني وقد حسبت أن مداهمة جديدة أو اعتقالا لأحد المطلوبين سوف يشهده الحي الذي نحن فيه . . تدفعني لأهرع إلى النافذة أشع الخبر وأستجلي الحقيقة ، لكنني لم أكد أبلغها حتى بلغ مسمعي طرق على باب بيتنا أشد ما يكون . . وبينا كنت ألقي نظرة خاطفة من النافذة فألمح عددا أصعب من أن أحصيه ساعتها من سيارات المخابرات تملأ الشارع . . أتاني الصوت على باب البيت يصيح : إذا لم تفتحوا فسنكسر القفل بالرصاص ! وبحركةآلية تناولت غطاء صلاتي فوضعته على رأسي وركضت باتجاه الباب بادئ الأمر . . لكنني لم أعرف ما أفعل ! أأفتح لهم والبنات كلهن نائمات ؟ أصابني الإضطراب بالحيرة . . ثم وجدتني أهرع إلى فاطمة أكبرنا سنا وهي معلمة تشاطرنا السكن ، فأيقظتها أولا وأنا أقول

لها بلا وعي : -هيا . . كأن المخابرات أتوا عليك ! ثم لمح في خيالي أن شريكة أخرى في البيت معنا اسمها سوسن س . (خريجة كلية طب الأسنان وتكمل سنتها التدريبة في دمشق) قد نفذوا حكم الإعدام بأخيها صباح اليوم في سجن تدمر كما بلغها وأبلغتنا ، فظننت أنهم إنما أتوا من أجلها . . خلال ذلك كان رجال المخابرات قد بدأوا بخلع الباب والضرب عليه بالبواريد ، فأسرعت فاطمة إلى حجابها فوضعته على رأسها وفتحت لهم . . ودخلوا يا لطيف ! شيء غيرمعقول ! قفزواحد منهم إلى السقيفة فورا يفتشها . . واندفع اخرإلى الشباك . . وثالث في المطبخ . . ورابع . . وعاشر . . ولم نجد إلا أحدهم يقتحم الغرفة علينا ، وما أن رأى مصحفا معلقا على الجدار حتى انتزعه ورماه على الأرض وصار يدوسه بقدميه كالمهووس . . فيما راح اخرون ينبشون أمتعتنا وينقبون كل زاوية في خزائننا ونحن لا نكاد نستوعب لماذا أو ما الذي كانوا عنه يبحثون ! وفي غمرة المفاجأة سمعت واحدا منهم يصيح من الصالة : -وهيبة دباغ . فتقدمت وكأنني ألج كابوسا مرعبا بالرغم عني وقلت له : ما عندنا هذا الإسم.

لكن قلبي انقطع من الرعب ، وتأكدت ساعتها أنهم أتوا علي . . فقال لهم رئيس المجموعة : - أرجعوا كل واحدة إلى غرفتها وفتشوا الهويات . فامتثلنا للطلب . . ودخلنا غرفنا ونحن نرتعد . . وتقدم عنصر مني وكأنه عسكري في الخدمة - ليفحص هويتي ، فلما نظر إلى اسمي فيها ثم إلى وجهي اغرورقت عيناه بالدموع ، وقال بتأثر وهو يبكي : -أنت بنت بلدي . . والله يعين . سألته : لماذا ؟هل هناك شيء ! أجاب : الله بيصبر . . ماذا يمكن أن تفعلي ؟ الله بيعينك . سألته وكأنني أهوي في بئر مظلم : لماذا ؟ هل أتوا من أجلي ؟ قال وهويشيح بناظريه عني : نعم . . وذهب وأعطى الهوية لرئيس الدورية الذي كان ينادي "وهيبة دباغ " . . فنظر هذا إلي بحنق وقال : - بتقولي بكل عين وقحة أنه لا يوجد لديكم هذا الإسم ! والتفت إلى عنصر اخر وقال له : - خذها إلى غرفة لوحدها وفتشها جيدا

قهوه . . أم شاي !

أخذني العنصر إلى غرفة ثانية وأخذ واحدة أخرى من البنات وقال لها : فتشيها.. قلت له : ماذا يمكن أن تجد معي ؟ لقد فتشوا البيت كله وفتشونا منذ أن دخلوا . . لكن صوت رئيس الدورية كان يغطي على صوتي المرتجف وهو يتحدث باللاسلكي مع شخص اخرسمعته يقول له : أحضروها . فقال لي : هيا ارتدي ملابسك. ستذهبي معنا خمس دقائق وحسب

لبست جلبابي فوق غطاء صلاتي ، وكانت معي بعض النقود فأردت أن أعطيها لصديقاتي ، فقال لي : لا . . دعيهم معلك فربما تحتاجينهم . قلت وقد بدأت أستعيد بعض توازني : لن يلزموا لي ، أنت تقول خمس دقائق فكيف سأحتاجهم ؟ لكنه عاد وأكد أنني سأحتاجهم ، فلم أكترث بما قال

، ودفعت النقود لإحدى البنات بقربي ، فيما وجدتهم يدفعونني إلى الخارج ورئيس الدورية يقول لأ حد العناصر : -أمسكها من يدها . كان الدرج معتما والكهرباء مقطوعة فما رضيت أن يمسك لي يدي . قال : هذا أمر . قلت له : كلبشني ولا تمسك يدي . فتركني أنزل حتى باب البناية ليعود فيدفعني نحو باب سيارة كأنما هي غول فتح فاه ينتظر افتراسي ! وسمعت أحدا يسأل باللاسلكي من جديد: من معها في الغرفة ؟ أجاب : فلانة وفلانة. قال : أحضروهم معها . فصعد ثانية وأحضر شريكتي في الغرفة ماجدة وملك غ . ولم تلبث السيارة أن تحركت وسط جمع من رجال المخابرات انتشروا على طول الشارع ، وأطلت سياراتهم المرعبة من كل زاوية ومفرق طريق . . وفي غمضة عين وجدنا أنفسنا قرب ملعب تشرين بالعباسية في فرع المنطقة المسمى "السادات ". . وهناك أدخلونا إلى غرفة مملوءة بأجهزة كهربائية فيها أضواء كثيرة حمر وخضر تشتعل وتنطفئ باستمرار كأنها أجهزة اتصالات أو لاسلكي . . وما أن جلسنا حتى سالنا أحد العناصر الموجودين فيها: -ماذا تشربون . . قهوة أم شاي ؟

ولما لم ننبس من خوفنا ببنت شفة تطوع بالإجابة عنا وقال : - ساتي لكم بقهوة مرة لتصحوا رأسكم . . وذهب فأحضر فنجانا لكل منا وجلس يراقبنا ، فلما لاحظ أننا لا ندنيها من أفواهنا سأل : - لماذا لا تشربين ؟ هيا صحي رأسك . . الساعة الآن الثانية وأنت نعسانة بالتأكيد . قلت وشفتاي ترتجفان : أنا أشرب . قال : لا . . أناشايفك . قلت له : وهل تراقبني ؟ لا أشتهيها الآن . قال بسخرية : لازم تشربي ليصحى رأسك وتعرفي تحكي جيدا . كففت عن الكلام . . وأدنيت الفنجان من فمي وتظاهرت بالشرب . . وكنت أعود فأدنيه ثم أعيده وجسمي كله يرتجف . . وأنا لا أدري ما الذي يمكن أن يحدث في اللحظات التالية !

إلى التحقيق !

لم يطل المقام بي في الغرفة الأولى كثيرا فماهي إلا دقائق حتى سمعت مناديا يهتف باسمي ، وسرعان ما اقتادني عنصر اخر إلى مكتب رئيس الفرع نفسه ، وهو كما علمت بعدها ابن أخت رئيس الدولة واسمه معين ناصيف . دخلت هناك فوجدت رجلا عيناه جاحظتان وحمراوان كالدم ، يرتدي "جلابية" شفافة ورقيقة ويلف رجلا على رجل فتنكشف ساقاه من تحتها بشكل مقزز . اجلسي هنا . قالها لي بلهجة بادية الخشونة وأضاف قبل أن أبلغ الكرسي الذي يتوسط الغرفة فيكشفني من كل جانب : أنت منظمة أليس كذلك ؟ قلت : لا.

قال : إذا فما علاقتك بالإخوان ؟ قلت : لا توجد لي أي علاقة بهم . قال وقد.بدأ يتململ في كرسيه : وإذا فكيف تقومين بتوزيع كل مجلات النذير ؟ ثم هذه الرسالة من أين أخرجناها ولمحت بين أصبعيه ورقة صغيرة عرفت أنها الرسالة التي كان أخي صفوان قد كتبها قبل مغادرته سورية

كتوصية بأبي عندما ذهب الأخير مع شقيقي الأكبر إلى عمان للعلاج هناك بعدما أصابه مرض انحلال الدم إثر ملاحقة صفوان حزنا وخوفا عليه ، ولكن مسؤولي الحدود أعادوهم وقتها لأن أخي لم يكن قد أدى خدمته الإلزامية ، وأحببت أن أحتفظ بالرسالة كذكرى من أخي . . فلما فتشوا البيت عثروا عليها وكان مكتوب فيها "حامل هذه الرسالة هو والد أحد المجاهدين فاعتبروها شيئا كبيرا ، وجعل رئيسى الفرع يقرأ لي منها بسخرية ويقول : - والد أحد المجاهدين أليس كذلك أبوك هذا عامل نفسه إشتراكي وهو من زعماء الإخوان . . لكن أنا بعرف أفرجيه . . والله لأعمل جسده مصفاية ! وظلت هذه العبارة محفورة في ذاكرتي حتى سمعت عن أحداث حماة بعد سنوات . . وعلمت أنهم عذبوا أبي أشد العذاب قبل أن يرشوه أكثر من مرة ، حتى صار جسده كالمصفاة بالفعل !

وضاع الدليل !

أنا لست منظمة ولا من الإخوان . قلتها وقد سرت القشعريرة في جسدي خوفا على أبي وعلى نفسي . قال : وماذا عن الرسالة ؟ قلت : لا أعرف . . ربما نسيها أحد هناك أو وضعها لي أحد . وكأنما أراد أن يلج إلى غايته من مدخل اخر ، فجعل يقلب الملف الذي بين يديه وسأل : من تعرفين من أصدقاء أخيك ؟

- لا أحد . . لم أر أخي من زمن ولا علاقة لي بأصدقائه ؟ قال وقد اشعت عيناه : وماذا عن عبد الكريم رجب ؟ قلت : من هذا . . لا أعرفه . فعاد إلى الصراخ من جديد وصاح بي : إذا فلن تعترفي أنك منظمة . قلت : لا . .أنالست منظمة فكيف أعترف بذلك ؟ فتناول "شحاطته " من قدمه ورماني بها ، لكنني تنحيت برأسي قليلا فتجاوزتني وأصابت الكاتب ورائي . . فقال وهو يشتمني : - وتقولين أنك لست من الإخوان . . هذه التصرفات كلها تصرفات إخوان ! ثم عاد يتحدث عن الرسالة ويلوح بها أمام وجهي . . ولم يلبث أن غادر الغرفة لبرهة فظننت أنه ذهب ليأتي بجلاد أو أحد ما ليعذبني ، فلما عاد أراد كأنما أن يريني الرسالة أو يستخدمها من جديد ، فجعل يقلب بين مجموعة أوراق كانوا قد أخرجوها من سلة المهملات ببيتنا ، وقاموا بكيها وتلصيقها جميعا أملا في أن يجدوا بينها دليل إدانة ضدي ، فلما لم يجد الرسالة سأل الكاتب ورائي : - هل دخل الغرفة أحد ؟ أجاب الكاتب بانتباه : لا سيدي . قال له : هل تحركت هذه ال . . من مكانها ؟ هل غادرت أنت الغرفة؟ أجابه ثانية : لا . فجعل يقلب وينقب أمامه وحوله وبين يديه فلم يجد شيئا . . وضاعت الرسالة أين . . لا أدري ! فازداد التآمه وعلا صراخه ، وجعل يهددني بعبارات بذيئة ويقول : - رفيقتك هنا في الملف أمامي اعترفت بأنك منظمة ، وإذا لم

تعترفي بنفسك فلدينامايجعلك تفعلين ! قلت له وقد جرحتني الكلمات البذيئة واستفزني التهديد : مهما كان لديكم من وسائل فأنا لست منظمة . . وسأبقى أقول أنا لست منظمه

سجل الاتهام

أخرجوني من غرفة التحقيق إلى غرفة كالأولى التي استقبلتنا مملوءة بأجهزة مشابهة كلها أضـــواء ملونة دائمة الوميض . . وأخذوا صديقتي ماجدة إلى غرفة رئيس الفرع . . ولم أكد ألتقط أنفاسي حتى عادوا فنادوني وأخذوني إليه من جديد ، لأجد قائمة بالإتهامات تنتظرني تكفي أن توزع على ثلاثة رجال أنت متهمة بأنك منظمة : توزعين مجلة النذير ، وتعطين دروسا لسيد قطب في مساجد دمشق ،وقمت بشراء بيت للتنظيم ، ونقلت سيارة ذخيرة فيها جهاز إعلامي بنفـــق في منطقـــة المهاجرين . . وهناك اعتراف ثابت من واحدة من صديقاتك بكل ذلك . . ورفيقتك هذه متأكدة تماما من كل المعلومات وهي تعرفك جيدا ودرستك وعاشرتك ولا تكذب أبدا .

هي كاذبة ، وأنا ليست لي علاقة بما قالت ولم أفعل أي شيء أو أشارك بأي مما ذكرت . قلـــت ذلك وقد بدأت الأمور تتضح في ذهني بعض الشيء ، واستطعت من ثنايـــا كلامـــه أن أدرك أن شخصا بعينه قد نقل هذه الوشايات لهم وملأ ملفي بكل هذه الأكاذيب . . الشخص الذي طالما كنت أسمع تحذيرات عنه رغم أن عيناي لم ترياه طوال حياتي . . إنه عبد الكريم رجب : جاسوس المخابرات والمتعامل معهم من داخل صفوف الإخوان . . أو دسيـــستهم داخـــل الـــصفوف ! تشجعت لهذا الذي وصلت إليه ، وأدركت أنها تهم رخيصة أراد أن يملأ بها الصفحات وحسب ، وازددت إحساسا مع كل الظروف بالثقة . . فلم أجب تهديدات المحقق رئيس الفرع وهو يكرر علي من جديد : -إذا لم تعترفي يا . . . فلدينا ما يجعلك تعترفين !

في انتظار الاعدام !

إلى الغرفة الغامضة أعادني عنصر من المخابرات بأمر من المحقق ، ولم يلبث وأن أحضر رفيقتي ملك لتنضم إلي ، وكانت المسكينة في أيامها الأولى بدمشق وفي أول سنة لها بالكلية معي ، فلم تكـــن تعرف لا عن البلد ولا من الأشخاص أحدا غيري . . وبعد أن أودعانا تحت رقابـــة العنـــصر في الغرفة أخذوا ماجدة وبدأوا معها التحقيق . . فلما انتهى دورها عاد فطلبني وقد مض من الليـــل أكثره وأعاد نفس الكلام علي : -

رفيقتك الأولى يقصد عبد الكريم رجب اعترفت عليك اعترافا أوليا ، وهذه ماجدة اعترفت الان بنفس الكلام ، وقالت بأنك منظمة ومسلحة وقمت بأعمال كثيرة للتنظيم وتوزعين مجلة النذير . . ومن غير أن ينتظر جوابا مني أمر عنصرا فأخرجني من الغرفة واقتادني إلى الممر ثم وجهني باتجاه

الجدار وأمرني أن أرفع يدي وإحدى رجلي إلى أعلى . . فقلت في نفسي : خلاص . . ها هم أكملوا صياغة التهمة لي . . والان سيرشوني أو يعدموني !

وما هي إلا برهة حتى وجدت رفيقتي ملك بجانبي يأمرها العنصر أن تفعل مثلي ، فازداد إحساسي أنهم سوف يرشوننا لا ريب ، ولم أعد أحس ساعتها بنفسي . . كان كل شعوري مركزا حول النهاية التي دنت . . وكيف ستكون : رشا من الخلف أم إعداما بالمشنقة أم ماذا ؟ وكأنني وقد تملكني الشعور بتحقق المنية استجمعت بقايا جلدي والتفت "بحلاوة الروح " إلى العنصر المكلف بمراقبتنا فسألته : - لماذا أوقفتمونا بهذا الوضع . . ما الذي فعلناه ؟ قال بلا مبالاة : أنتم تعرفون ماذا فعلتم . قلت : تقصد أنهم سيعدموننا ! أجاب هازئا : لا . . هل تظنين الإعدام يأتي بهذه السرعة والسهولة !

إلى الفلق !

مرت نصف ساعة أو ربما أكثر ، فالوقت في مثل هذا الموقف لا معنى له . . أدخلونني بعدها على غرفة الأجهزة وأمروني أن أجلس فجلست . . ولم يلبثوا أن أحضروا ملك فأجلسوها على كنبة أمامي في مواجهة الباب الذي كان مفتوحا بعض الشيء ، فما كادت المسكينة تلامس الكنبة حتى نامت . . ولم تعد تحس بشيء . . وأنا أكاد من توتري أتقطع ، وصوت ماجدة في غرفة التحقيق يبلغ أذني مرة ويغيب مرة . . فلا أدري ماذا تقول ولا أعلم أي نوع من العذاب الآن تنال . . وألتفت إلى ملك وأهمس وبودي أن أصيح لتسمع : -ملك . . ملك . . حاولي فقط أن تنظري من طرف الباب وتعلمي ما الذي يجري . . . ولكنها في غفوتها لا تجيب ! وظلت على هذه الحال حتى الصباح أراقبها وأحاول أن أحادثها ولا فائدة ، وأنا على أعصابي لا أستطيع حتى أن أستقر على الكرسي تحتي ، وقد اجتمع علي النعاس والتعب والخوف معا . . وبين كل فينة وأخرى عنصر قادم وأخر عائد . . هذا يلقي سؤالا بلا معنى واخر يكتفي بالنظر والتبسم . . حتى أطل أحدهم مع إطلالة الصباح يسأل : - هل تريدون أن تفطروا ؟ ألم تجوعوا؟ قلت له :لا. قال : ماذا تشربين ؟ أجبت : لا شيء . . شكرا . قال : سأتي لك بكأس شاي تصحين به رأسك . وذهب فأحضر الكأس ووضعه أمامي ، ولكنني لم أستطع من توتري وتعبي أن أدنيه من شفتي . . وعندما بلغت الساعة الثامنة دخلوا من جديد فأيقظوا ملك ، وأخرجونا إلى تحقيق جديد في القبو هذه المرة ،

وبينما هم ينزلوننا درجات السلم قلت هامسة لملك : - اخ . . الان سيأخذوننا إلى الفلق لا محالة ! فانتفضت المسكينة تقول : لا تقولينها ! قلت : ومن الذي قال لك أن تنامي طوال الليل ؟ لماذا لم تسمعي ماذا قالوا لماجدة ؟ كنا استفدنا بعض الشيء أو فهمنا ما الذي سيحدث .

أنا . . ضد الوطن !

عبر ممر كئيب في القبو أخذوني إلى غرفة أخرى للتحقيق وجدت في صدارها وجها جديدا هو الرائد تركي . . أجلسني على طرف سرير عسكري في طرف الغرفة وجعل على مدى نصف ساعة تقريبا يعيد تلاوة نفس الإتهامات علي بشكل سؤال وجواب ، ويدونها في سجل معه . كنت من تعبي وارهاقي لا أستطيع متابعة كلامه أو حتى فتح عيني . . فكنت أكبو قليلا ثم أنتبه فأشد نفسي . . وعندما كان يبلغني صوته الأجش بعربيته الثقيلة أحس وكأن أمعائي توشك أن تخرج كلها من فمي . . فلما انتهى كان أملي الوحيد في كل الدنيا وقتها أن أجد ولو بلاطة ألقي عليها جسمي المنهك وأنام . . لكن العنصر عاد واقتادني عبر الممر نفسه إلى غرفة أخرى في القبو وجدت فيها ضابطا اخر برتبة رائد استقبلني من فوره بعبارات بذيئة وكلام قذر . . واللهجة العلوية واضحة عليه . . واستمر حوالي الساعة يسمعني العبارات ذاتها : - أنت من الإخوان . . وأنت منظمة اعترف الجميع عليك . . وأنت قمت بأعمال كثيرة تضر بالوطن ولا تستحقين أقل من عقوبة اللإعدام . . كان كلامه أقرب إلى شريط تسجيل منه إلى الحديث . . يعيده بحرفيته ويكرره فلا أميز انتهاء المقطع من بداية مقطع جديد إلا من اختلاف الشتيمة أو تغير عبارات السخرية والإستفزاز . . ووجدتني وكأنما تحول رأسي إلى جرس كبير يقرع هذا الرجل عليه كل لحظة بكلماته فيرتج ولا يستقر . . وتتكرر فيه العبارات فيزداد اهتزازا وضجيجا : - الجميع اعترف عليك . . الجميع اعترف عليك . . أنت منظمة . . ضد الوطن . . إلى الإعدام . . إلى الإعدام . . إلى الإعدام ! وكأنما غبت عن الوجود اخر الأمر ، فما وجدتني إلا وعنصر اخر يدخل الغرفة وملك وماجدة في طرف اخر منها ويسأل : - ألم تجوعوا يا بنات ؟ قلنا له : لا ،لم نجع . فرد بلهجة ذات مغزى : الآن سنطعمكم فروجا مشويا على أية حال ! قلت له وقد فهمت أنه يقصد التعذيب : نحن بغنى عن طعامكم . جذبنا نحن الثلاثة ، ووجدهم يقتادوننا عبر الممر نفسه فالسلم حتى بوابة الفرع ، ولما سألته وقد دب في القلق من جديد : - إلى أين ؟ قال : الان سترون . أصعدونا في سيارة عسكرية نحن الثلاثة قبالة بعضنا البعض ، وصعد عنصران مسلحان وراءنا ، ولم تلبث السيارة أن انطلقت بسرعة مجنونة كأنما تريد أن تقفز فوق بقية السيارات التي كانت تخلي لها الطريق من بعيد ، وأمامنا سيارة أخرى تطلق الصفير المدوي ، وثالثة من خلفنا للحماية أو المراقبة . . ولم نكد نبدأ مع انعطافات السيارة العنيفة في الصعود والهبوط حتى تملك ملك الدوار وأخذت في الإستفراغ ، فملأت السيارة من مخلفات جوفها ، وجعلتنا ونحن في حالتنا المبكية نكاد نختنق ، فأملنا رأسها للوراء باتجاه الباب الخلفي بين العنصرين ، فجعلت تكمل

تقيؤها بينهما طوال الطريق ، من فرع التحقيق العسكري بالعباسيين إلى سجن أمن الدولة بكفر سوسة.

الفصل الثاني

كفر سوسة : رحلة خارج الزمن يناير ١٩٨١ -١أكتوبر ١٩٨٢

كفر سوسة : رحله خارج الزمان

عبرت السيارات الثلاث بوابة السجن العامة مضيا نحو المبنى الرئيسي الذي انتصب أمامنا بطوابقه الثلاث ، والتفط السائق حوله بين ممرات ومداخل معقدة حتى بلغ بابا كهربائيا توقف بنا عنده ، واجتذبتنا الأيادي مرة أخرى فاقتادتنا عبر ساحة المبنى الداخلية إلى باب اخر تنزل خمس درجات منه إلى القبو المعتم ، فإذا هو عالم اخر من عوالم الرعب التي قطعناها خلال اليومين الماضيين عن غير ما اختيار . مضت الأيدي القاسية عبر ممر القبو المظلم فالتفت بنا جهة إليسار وليس في طريقنا إلا الصمت والأ بواب الحديدية الكئيبة ووحشة المكان ، ولم يلبث أن قطع لهاثنا المتدفق صوت أجش أتانا من وسط العتمة ينادي : -منيرة! فما كدنا نلمح المنادي حتى بدت من الجهة المقابلة في اخر الممر فتاة مضفورة الشعر ترتدي "جلابية" شاعت موضتها وقتذاك ، وجعلت تتقدم نحونا متمايلة يوحي مظهرها أنها سجانة أو موظفة هناك . . فلما اقتربت ومن غير أن يلتفت إلينا قال لها أبو عادل رئيس نوبة السجانين وقتذاك : - هيا فتشيهن واحدة واحدة . ودفع بي أول الجميع إلى غرفة علمنا بعدها أنها غرفة التحقيق والتعذيب ، ودخلت منيرة هذه ورائي وسألتني ؟ - ما اسمك ؟ قلت وقد بلغ التوتر بي مبلغا : وماذا تريدين من اسمي ؟ أحسست وقتها أن بامكاني أن أقتلها من شدة توتري بيدي . . لكنها قالت ببرود : -وليش معصبة؟ .

قلت : والله لا أدري ! ماذا تريدينني أن أفعل ؟ هل يمكن للإنسان أن يكون مبسوطا هنا ! أجابت بنفس برودها ورتابة صوتها : بس لا تعصبي . . أنا سجينة مثلك. قلت بحدة : لماذا تكذبين على ؟ شكلك هذا ليس كشكل السجينات . قالت : والله العظيم أنا سجينة وقاعدة في مهجع مملوء بنسوان من الإخوان . لم أجرؤ أن أزيد معها وظننتها سجانة تريد أن تستدرجني في الكلام خاصة وأنها تتحدث بالقاف العلوية ، لكنها عادت وقالت لي : ما صدقتيني ؟ بكره بنلتقي بالمهجع وبذكرك . أحسست لهجة صدق في حديثها فاستأنست بعض الشيء وسألتها دون أن أغادر الحذر : - ومن معك من الإخوان هناك ؟ قالت : هناك واحدة حاجة من حلب وأخرى اسمها أم شيماء و جلست تعد لي أسماء وألقاب لا أعرفها وأضافت : وأنا الشيوعية الوحيدة في المهجع والبقية كلهن من الإخوان فتشتني منيرة بعد ذلك ، وفعلت الشيء نفسه مع ماجدة وملك

بالتتابع ، وكان العنصر في انتظاري حينما انتهت ، فأخذني وأصعدني ثانية من القبو ، واقتادني عبر سلالم وممرات عديدة إلى المبنى الجنوبي للفرع ، ليبدأ التحقيق معي حسب الأصول !

بين يدي الجلاد !

كان كل ما حولي يثير الفزع والإضطراب : هذا داخل وذاك خارج . . باب يقفل واخر من أين لا أدري يفتح . . وكل قادم أو عابر يحمل بيده جهاز لاسلكي أو كبلا أو أداة أخرى للتعذيب . . وفي البداية أدخلوني على مكتب رئيس الفرع ناصيف خير بك ، فأحسست وكأنني انتقلت إلى عالم اخر . . فالغرفة واسعة دافئة أنيقة التأثيث ، يمتد السجاد الفاخر على أرضهما بمهابة وقد توزعت عليه كنبات وثيرة ومكتبة ومكتب فاخر يحتل تمثال لرأس الرئيسس الأسد ركنا منه ، بينما ينتصب في زاوية الغرفة القصوى تمثال برونزي آخر لرأس الرئيس بالحجم الطبيعي . وأما المقدم ناصيف الذي كان منهمكا بمحادثة لاسلكية وقتها فلم يعرني أكثر من نظرة ازدراء بطرف عينه ، وأومأ للعنصرأن يعيدني إلى مكاني وأكمل حديثه . . ولم ألبث أن اقتادني ذاك ثانية إلى غرفة أخرى مقابل مكتب ناصيف ، فوجدت مجموعة أشخاص مجتمعين على شاب مقيد يعذبونه ويحققون معه ، وناصيف ممسك جهاز اللاسلكي بيده يتحدث فيه مرة ومع الشاب المسكين والعناصر مرة . ولم يلبث أن أشار بيده إلى العنصر الذي أحضرني فجذبني ذاك من منكبي وأمرني أن أنتظر خارج الغرفة من جديد ، وأنا كالنائمة لا أكاد أقدر على متابعة المشاهد المتجددة والوجوه المتعاقبة والأصوات التي تختلط الشتائم فيها بالإستغاثات والآهات ! وسرعان ما عاد العنصر فأدخلني الغرفة ذاتها لأحضر تعذيب الشاب نفسه لعلي أخاف وأتكلم ما يريدون . كانوا أربعة أو خمسة يشتركون في التعذيب أمامي بالكابل والعصي والخيزران والكهرباء : ناصيف خير بك رئيس الفرع ، والرائد عبد العزيز ثلجة وهو رجل ضخم الجثة بالغ الجلافة ، وعناصر آخرون كان أحدهم لم يبلغ العشرين بعد مجندا من درعا كما عرفت لاحقا ينادونه حسين ، ولم أعرف من كان ذاك الشاب ولماذا يعذبونه ، لكنه كان يصيح طوال التعذيب ويستغيث مناديا : - والله العظيم موأنا . . ثم اعترف اخر الأمر لا أدري ليتخلص من مزيد من العذاب أم لسبب اخر فأقرأنه قتل أحد الضباط . . وعندما اشتد التعذيب عليه وكاد صراخه يصيبني بالإنهيار التفت إلى العنصر معي وسألته : -لماذا أتيتم بي هنا ؟ قال بسخرية : لا أعرف . . إسأليهم. قلت بانفعال : لا أريد أن أسألهم ولكن أنا ما عندي شيء لأعترف به ويضعوني في هذا الموقف فأتفرج على تعذيب الناس . ولم يزد العنصر عن أن هز كتفيه وابتسم متهكما وهو يقول : -لا أعرف . . لا علاقة لي بأي شيء هنا ! واستمر الضرب والتعذيب حوالي نصف الساعة أنهضوا الشاب بعدها مضرجا بالدماء والكدمات فكبلوا يديه ورجليه ، وفيما اقتادني العنصر وراءه لأكمل كما

يبدو رؤية المشهد ، سحب الرائد ثلجة الشاب إلى رأس الدرج ، ثم ركله برجله بكل قسوة ، فتدحرج هاويا يئن ، ونادى على أحد ما هنالك ليترله إلى المنفردة في القبو أسفل المبنى ، وعاد فأمر العنصر ليدخلني إلى الغرفة مرة أخرى ، فأوقفني في زاويتها ، وجعل ناصيف وثلجة يتحدثان باللاسلكي لا أدري مع من ، ثم خرج الجميع فجأة ، ليعود الرائد ثلجة وحده ويغلق الباب كهربائيا بضغطة زر ، فاستوى الباب بالجدار حتى لم أعد أدري من أين دخل ولا أين كان هذا الباب . . ومن غير أن يلفظ أي كلمة أو يسألني أي سؤال لم أحس إلا وصفعة مفاجئة تأتيني على حين غرة اصطدم رأسي من عزمها بالجدار وارتد ، وصارت الدنيا تدور كلها في ، وصرت أرى الرائد أمامي أربعة أشخاص معا ، وأرى رأسي أسفل مني ورجلاي فوق الرأس وفوقي ! لم يزد عن أن قال : - انظري . . إذا ما بدك تحكي ما بتعرفي ما الذي سيحصل لك .

بساط الريح !

خروج الرائد ثلجة برهة لم أكد أتمالك فيها نفسي حتى عاد مع ناصيف ورئيس الدورية التي أحضرتنا من البيت وشخص رابع لم أعرف من كان . وابتدرني ناصيف يقول : -وليك . . شو ما بدك تحكي ؟ ما بدك تقري وتدلينا فين أخوك ؟ قلت له :أخي ليس هنا . قال : إذا أين هو ؟ قلت : لا أعرف الظاهرأنه ذهب ليكمل دراسته . وواقع الأمر فإن أخي صفوان كان قد أخبر أمي عندما زارته في الأردن وقال لها : إذا سألك أبي أين أنا فقولي له ذهب ليكمل دراسته في الباكستان . تذكرت ذلك بمجرد أن سألني عنه ، ولم أكن أدري وقتها بأن أمي كانت معتقلة في نفس السجن معي ، وأنه سألها قبل دقائق عن أخي فأجابت الجواب نفسه ، والتقى كلامي مع كلامها في هذه النقطة ، الأمر الذي أعفاني من التعذيب على ذلك السؤال ، ولكنه سألني بلؤم : -أنت تعرفين بأن أخاك هنا ، وسوف تأخذيننا وتدليننا عليه ، أو على رفاقه والبيت الذي يجلسون فيه . قلت : لا أعلم أي شيء من هذا . . فنادى على أحدهم وقال له : إذهب وأحضر لها بنطالا وأعطها إياه خليها تنستر وضعها على بساط الريح . تقدم العنصر مني وطرحني على لوح من الخشب له أحزمة طوق بها رقبتي ورسغي وبطني وركبي ومشط رجلي ، ولما تأكد من تثبيتي رفع القسم السفلي من لوح الخشب فجأة فبات كالزاوية القائمة ، ووجدتني وأنا بين الدهشة والرعب مرفوعة الرجلين في الهواء وقد سقط الجلباب عنهما ولم يعد يغطيهما إلا الجوارب والسروال الشتوي الطويل ، ولا قدره لي على تحريك أي من مفاصل جسمي . . وبكل وقاحة صاح العنصر يقول : - انظر سيدي .. أرأيت ؟ قالت إنها ليست من الإخوان . . ولكن انظر كيف أنها منهم ومجهزة نفسها للفلقة ولا حاجة لها للبنطلون ! حاولت دفع أي من القيود الجلدية عن مفاصلي فما استطعت . . وقبل أن أحاول إعادة لوح الخشب إلى استقامته طلبا

للستر كانوا قد علقوه من جنزير مثبت به إلى السقف ، وتقدم رئيس الدورية التي اعتقلنا وبيده خيزرانة طويلة رفيعة وسألني بلهجة تهديد صريح : -شوما بدك تحكي ؟
قلت :ليس لدي أي شيء لأحكيه . في نفس الوقت كان الرائد ثلجة فوق رأسي يجهز مولدا كهربائيا مربع الشكل موصولا بالفيش وله يد يدار بها وملاقط قربها مني وأطبقها فجأة على أصابع يدي . . وفيما هوى ذاك بالخيزرانة على بطن رجلي أطلق هذا شحنة من الكهرباء سرت كالنار في بدني ، فقال دون أن يلتفت لصرختي : -هه إلسه مابدك تحكي ؟ صرخت : قلت لكم ماعندي شيء للحكي . قال ببرود : أرأيت كم كانت الكهرباء قوية؟ هذه أخف الموجود لدينا! قلت : حتى ولو كان ، هل أعترف بأشياء أنا لم أفعلها ! قال : لا . . أنت تكذبين وتخبين علينا . . بدك تقومي الآن تأخذينا وتدلينا على البيت الذي يسكن فيه أخوك ورفاقه والا فسنأخذك إلى تدمر ! وأقبل ثلجة هنا بصورة قربها من وجهي وسألني : - هل تعرفين هذا الشاب ؟ قلت :لا. قال : كيف ؟ ألا تعرفين رفاق أخيك ؟ قلت :لا. قال : لكن هذا رفيق أخيك الحميم . . هذا عبد الكريم رجب . . ألا تعرفينه ؟ قلت بحزم وقد تأكدت لي الوشاية الرخيصة التي حيكت لي : لا . . لا أعرفه . تبسم الرائد ثلجة ابتسامة صفراء وشرع يقرأ من مجموعة أوراق بين يديه بعين ، وعينه الأخرى تتاج انفعالات وجهي : - هبة الدباغ : منظمة مع الإخوان وتتعامل معهم . . اشترت لهم بيتا ، وتعطي دروسا لسيد قطب في مساجد دمشق و . . صرخت بانفعال وأنا أسمع قائمة الإتهامات الكاذبة للمرة الألف : كذب . . كذب . . لا أعرف أي شيء تتحدث عنه . دس الرائد ثلجة الأوراق بوجهي وهو يقول : -ألا تري ؟ هذا كله مكتوب هنا . . كله من اعترافات الرجب . . هو الذي تكلم عنك بهذا ، وهو من الإخوان مائة في المائة ويعرف عنك كل شيء ولا بدوأنك تعرفينه أيضا . . عدت إلى قولة كلا . . وعاد التعذيب من جديد ، وصار رئيس الدورية يضرب قدمي بكل عزمه ، حتى أصبحت الخيزرانة عندما تهوي عليهما تشق الهواء بصوت كالصفير ، وجاء عنصرآخر بخيزرانة ثانية وجعل يشارك معه الضرب ، فيما عاد عبد العزيز ثلجة فقبع فوق رأسي وجعل يكوي أصابعي بالكهرباء من جديد . كان الألم أشد من أن يوصف . . وكنت في البداية أصيح : يا الله . . لكنني لم أعد أستطيع اخر الأمر أن أخرج صوتي ، فصرت ألوح برأسي فقط ولم أعد أحس بشيء . . ووجدتهم بعد عشر دقائق تقريبا من الضرب المتواصل يتوقفون فجأة ، ومع الشتائم والعبارات البذيئة طرق سمعي عبارة : - إلى تدمر! وسرعان ما انفكت القيود عن مفاصلي ، وسحبني عنصر من غرفة التعذيب عبر الممرات والسلالم ثانية إلى سيارة متوقفة عند الباب ، ففوجئت برفيقتي ماجدة قد سبقتني إليها بحراسة عنصر آخر . أركبانا معا ولكنني لم أجرؤأن أتحدث معها بشيء . . وانطلقت السيارة بحركة مسرحية إلى أن

بلغت الباب الخارجي ، فسألني من جديد : -لسه ما بدك تحكي ؟ أحسست وكأن أعصابي المشدودة تصيح كلها معي بصوت واحد : -ما عندي أي شيء أحكيه . . أنا لا علاقة لي بأحد . . هل تريدون أن أكذب عليكم فقط ؟ هل تريدون ! توقفت السيارة ، ولم يلبث السائق أن عاد بنا إلى المبنى من جديد، وأعادوني مرة أخرى إلى التعذيب . . وعادت نفس الأسئلة والإتهامات تطرح علي ، لكن الضرب والتعذيب اشتد أكثر ، وزاد عدد المشاركين بتعذيبي حتى لم أعد أستطيع أن أعرف عدد من حولي أو عدد المحصي والخيزرانات التي تهوي على رجلي . . وبدأت أرى الغرفة كلها عصيا وخيزرانات . . والناس فيها من كثرة أسئلتهم كالضفادع تنق وتنق بصوت واحد غامض . . فلم أعد في النهاية أجيب على أحد ! وأتاني صوت الرائد ثلجة من جديد يقول : - ها . . أنت إذا مسلحة . . انظروا إليها . . تدعي البراءة وتنفي أنها منظمة وهي ليست من الإخوان وحسب . . ولكنها مسلحة أيضا! أحسست أن تهمة أكبر تلفق لي هذه المرة فصرخت بعصبية : لا . . .أنا لا علاقة لى بأحد . . وأنا لست مسلحة . قال : ولكن رفيقتك ماجدة هي التي قالت ذلك عنك . قلت : لا تصدقها . . أحضرها لتقول ذلك أمامي . . ربما قالت ذلك من خوفها حتى تنجو من الضرب . قال : لا . . رفيقتك لا تكذب . . هى أصدق منك . . تكلمت عن كل شيء وما تعذبت ، وأنت أذا لم تتكلمي فستبقي تأكلي ضربا حتى تحكي . وتقدم ثلجة من جديد نحوي وبيده بطارية كهرباء وضعها على فمي مباشرة وقال بلهجة التهديد : -الن تتكلمي ؟ قلت : ما عندي شيء أحكيه . . مهما وضعت لي الكهرباء أو أطعمتني ضربا فما عندي شيء أحكيه ولن أكذب على نفسي . وهنا صاح ناصيف بضجر : - هيا أنهضها وأعطها ورقة لتكتب ما لديها من معلومات وسنرى بعدها . والتفت نحوي مهددا يقول : -إذا لم تتحدثي بكل شيء هذه المرة فاعلمي أن لدينا عناصر الواحد منم كالوحش يسد الباب . وأضاف : - هل تعرفين ألشوايا الديرية كيف يكون شكلهم ؟ إذا لم تعترفي فسأدخلهم عليك وسنرى بعدها !

الموت راحة المؤمن !

أنهضوني عن "بساط الريح " فوجدت نفسي مبللة من غير أن أشعر، وكنت كأنما أغمي علي أثناء التعذيب فدلقوا علي سطل ماء حتى أصحو . تلفت حولي كالسكرى فرأيت الغرفة خلت تقريبا من الناس ، وأدركت من خلال نافذة كانت فوق رأسي أن الدنيا قد أصبحت ليلا ، فقدرت أن ساعتين أو ثلاث انقضت علي وأنا في التعذيب ! وبينا أنا لا أزال أحاول استعادة توازني جاء أحد العناصر بورقة وقلم وجلس أمامي يقول : - انظري . . إذا حكيت فستساعدي نفسك ، وإلا فستطمسي أكثر مما أنت طامسة . قلت له : ماعندي أي شيء أحكيه . قال : لا أحد يأتون به إلى

هنا وما عنده شيء . . ولا أحد يصل هنا إلا إذا كان مذنبا . قلت له : ولكن أنا ليس لـــدي أي شيء . قال : أنت حرة . وأعطاني استمارة معلومات عامة عن دراستي ومدارسي ثم عن علاقتي بتنظيم الإخوان . . أجبت بما أعرف وأعطيت الورقة للعنصر فذهب بها ، ولم يلبث أن عاد الرائد ثلجة يلوح بها وملامح الغضب بادية على وجهه وهو يصرخ في : - هل هذه أجوبة تلك الـــتي أجبت بها يا أخت ال . . . واندلقت كل الشتائم والعبارات البذيئة دفعة واحـــدة مـــن لـــسانه وكأنها كانت تنتظرفرصتها للإفلات وفى آخرعبارة أطلقها سمعته يقول :أنت تعرفين هذا البيـــت الذى يسكن فيه أخوك ورفاقه وبدك تدلينا عليه الآن لكن أنا أعرف لماذا لا تريـــدين ذلـــك . . تريدين أن تماطلى بالوقت حتى يهربواوسجل دون أن أرد عليه بعض الكلمات على الاوراق التى معه وخرج ولم يلبث أن عاد وقالوخرج ، ولم يلبث أن عاد وقال : - إذالم تتكلمي فسنترلك إلى القبو ،والقبوإذا نزلت إليه لا تخرجى منه حتى تموتى قلت له : أحسن. . الموت راحة المؤمن !

قال بغيظ :وتجيبين بكل وقاحة وكل عين يخرب بيتك الم تحسي كم أكلت من قتل ؟ ألا تفكري في أن ترحمى نفسك وتعترفى لتخلصىمن هذا العذاب. قلت له :لكن أناليس لدي أي شيء حتى أعترف به . . قلت لكم ماعندى شىء : في تلك اللحظة دخل ناصيف خير بك من وسمعنى أقول ذلك جديد للرائدثلجة،فابتدرني بتكشيرة ونظرة مرعبة وقال والشتائم البذيئة تسبق كلماته- إذا الم تعترفي بكل شيء الان .. مباشرة . .فسوف أعريك من ثيابك صحت وقدهزني التهديد:لكن اناماعندي شيء احكيه . قال بلهجة الأمر:إخلعي جلبابك .وقفت هنا ونظرت إليـــه والخـــوف الحقيقي يغمرقلبي لأول مرة . ل قال ألاتريدين أن تخلعيه؟ أناسأخلعه لك. وتقدم مني فمد يـــده يريد أن يفك أزرار الجلباب فما وجد شيئا . ففي تفصيلة ذلك الجلباب كانت الأزرار مخفيـــة ، فحول يده وأنا أحاول مدافعته إلى رأسي ليترع حجابي فلم يستطع . . أمسكني من شعرى تحت الحجاب وكان طويلا وقتها وملفوفا للخلف أمسكني منه وبدأ يشده فينجذب رأسي كلـــه مـــن غيرإرادة مني إليه ،ثم يعود ويخبطه بالجدار . .وسيل الشتائم البذيئة يرافق ذلك كلـــه ،لكنـــه لم يتمكن رغم ذلك من نزع الحجاب لأن غطاء الصلاة كان قد نزل في أكمامي عنـــدما لبـــست الجلباب فوقه ساعة الإعتقال . .فصاح بي : وتقولي عن نفسك أنك لست من الإخوان وثيابك كلها ملتصقة ببدنك التصاقا والجلباب أزراره سرية ومخفية ومجهز اخر تجهيز! .

ومع استمرار صمتى وسيل الشتائم منه نادى أحدهم ليعطيه الكبل أو الخيزرانة ليجدد ضربي . . ووقتها كانت قدماي قد تورمتا من الضرب ولم يعدبإمكاني لبس الحذاء، فقال وهويتناول ماطلب :لا تريدين الكلام ؟ أنا سأريك " وتقدم ليبدأ ضربي ، فركضت بعفوية منـــه والتجـــأت وراء الطاولة فركض ورائي . . وبدأت أركض وأدورحولها وهويركض ورائي ليمسك بى ويـــصيح :

يخرب بيتك كل هذا التعذيب والضرب ولازال فيك روح لتنطي وتركضى ونادى الحاجب وقال له : أمسكها من عندك فلماتقدم العنصروأمسكني صاح ناصيف فيه : خذها . . خذها تنقلع من وجهى . . خذها إلى المنفردة . . لا أريد أن أراها أكثر من ذلك. لم أصدق أن حفل التعذيب قد انتهى ولم أعي مامعنى أن أذهب الى المنفرده إلا عندما دفع العنصر حذائى الى وجذبنى خارج الغرفه وجعل يقودنىعبرالسلالم والممرات ثانية نزولاهذه المرة وهويقول لى: لماذا؟ لماذا لم تتكلمي ؟ أما كان ذلك أفضل لك ؟ كنت على الأقل رأفت بحالك . . أنظري كيف انتفخ وجهك وازرقت يداك وتورمت رجلاك وأكلت قتل الدنيا حتى لم تعودي تستطيعين أن تلبسي حذائك . قلت : ماعندي شيء أحكيه . وأضفت وقد فاض بي الأمر ولم أعد ألقي بالا لكلماتي : الله لا يعطيهم العافية هؤلاء الظلام . . لكنه وكأنما كان يؤدي دورا مرسوما لم يلتفت لعبارتي وأكمل يقول : لكن لوأنك كذبت عليهم كنت خلصت حالك. قلت :- أنا لا أكذب وأعلم أن الذي يصدق هنا أو يكذب فنتيجته واحدة . سألنى بدهاء: وكيف عرفت ذلك ؟ قلت : - لأنهم لم يصدقونني . . قلت لهم الحقيقة فلم يصدقوا فكيف سيفعلون إن أنا كذبت عليهم ! كنا قد وصلنا باب القبو أخيرا ، فوجدت حسين . . العنصر الذي كان يشارك قبل قليل في تعذيب الشاب في الأعلى يطل علينا بوجه مظلم وقد فتح فمه على ابتسامة سخرية تكشف سنا مقلوعة فى الوسط فكأنها نافذة في بيت خرب . . استقبلني وبيده كبل يتلوى مثلما تلوت كلمات الترحيب الساخر على فمه وهو يقول : -أهلا . . أهلا وسهلا . . والله نورت !

قن الدجاج !

أمسكني حسين من كتفي وأنزلني الدرجات الخمس إلى أسفل ، واقتادني من جديد عبر الممر المعتم إلى ثاني زنزانة منفردة في ممر آخر لا يكاد يبدو آخره ، وقال وهو يشير إلى الداخل -هذا مكانك . . غرفتك العامرة . . وان شاء الله نومة هنية ! أحسست بالنفور من الظلمة ووحشة المكان وكنت لا أزال متوترة الأعصاب جدا فقلت بلا وعي : - لا والله . . لا أدخلها أبدا ! قال وهو يدفعني إلى الزنزانة بغلظة : -إي بدك تدخلي بكسر رأسك . التفت إلى أبواب الغرف الأخرى فلمحت صديقاتي زميلات السكن معي يطللن بوجوههن من طاقات الزنازين التي وزعوهن عليها ، فركضت نحوهن وأنا أصيح : فاطمة . . فلانة . . فجذبني بقوة وهو يقول : تعالي . . تعالي . . هل تظنين نفسك في فندق أو في زيارة ! وفجأة سمعت من آخر الزنازين (رقم ٢٤) صوت أمي التي يبدو أنها سمعت صوتي أيضا فبدأت تدعو عليهم بصوت عال وتصيح : -هؤلاء حريمات تتقوون عليهن يا ظلام . . ما عندكم رحمة ! والله أنا طول عمري أسمع أنه لا رحمة في قلوبكم ولكنني أرى ذلك الآن بعيني ! بهرتني المفاجأة . . وركضت ثانية باتجاه مصدر الصوت وأنا أصيح

بدوري : -أمي هنا ؟ الله يخرب بيتكم . . ماذا تفعلون بها ؟ إخوتي صغار وأبي مريض . . ولا حول جميعا لهم ولا قوة . فناداني حسين وهو يقهقه بسخرية : -وما حاجتنا لأبيك وإخوتك ؟ نحن نريد أمك فقط ! وذهب فأغلق نوافذ المنفردات جميعا ثم عاد يدفعني إلى المنفردة وأنا أحاول المقاومة وأتكىء على زاوية الباب ، فقال لي مهددا : -إذا لم تدخلي الان فسأحضر كل عناصر الفرع ليدخلوك. قلت : المكان معتم جدا ! أجاب بسخرية : أنت الآن ستنورينه . . هيا ادخلي . نظرت فإذا بعلبتين من الصفيح في زاوية الزنزانة واحدة فيها خبيص من أرز أو برغل مع مرق وفي الثانية ماء . . قلت له : والله هذا مثل قن الدجاج . . وهذه والله مثل معاملة الحيوانات ! قال : هذا عشاؤك الليلة داذا كان لك نفس لتأكلي فكليه . قلت وقد تملكني الغيظ : أنتم تعرفون أن الذي يدخل إليكم لا تعود له نفس ليأكل ! وهنا حضر عنصر اخر متقدم في السن كان يحسن معاملتي فيما بعد قدر المستطاع . . تقدم مني وقال بصوت منخفض : - يالله يا أختي ادخلي وتوكلي على الله ولا تتركي له مزيدا من الفرص ليسخر منك. فدخلت المنفردة وصوت أمي لا يزال يبلغ مسمعي . . ثم لم يلبث صوتها أن غاب وسط قهقهات العناصر وصياحهم وهذرهم ، وعمت المكان رائحة الخمر وصيحات المجون احتفالا بليلة رأس السنة إ! فيما لفتني في وحدتي الظلمة ووحشة المكان فازدادت أعصابي توترا ولم أستطع حتى أن أغير جلستي ، خاصة وأنهم أخذوا ماجدة بعدي إلى التحقيق وكان من الممكن أنها تعذب في تلك الساعة مثلما كان محتملا أن تقول عني أي شيء . وبقيت على هذا الحال إلى ما بعد منتصف الليل ، حينما حضر أحد العناصر واقتادني إلى غرفة التحقيق من جديد .

لون الليمون !

في غرفة التحقيق وجدت الرائد ثلجة في انتظاري يستقبلني قائلا : - لست من الإخوان أليس كذلك ؟ ولم تقومي بأي عمل لهم ولا تريدين الإعتراف . . ولكن هناك من أرسله الله ليعترف عليك الليلة . هذه رفيقتك - يقصد ماجدة - قالت بأنك مسلحة وأنها رأت السلاخ معك بعينها . قلت له بتحد : أحضرها لأفقأ لها عينها . . هيا أحضرها لتقول ذلك أمامي . قال : هي لا تكذب ،أنا قلت لك هي لا تكذب . . هي أصدق منك ، والدليل على كذبك لونك الذي أصبح أصفر مثل الليمون . قلت له : لي ليلتان كاملتان لم أنم ولم آكل ولم أدخل الحمام مع القتل والتعذيب ولعيان القلب ، فكيف لا يصفر لوني ! هز برأسه وهو يمط شفتيه بلا معنى وصاح للحاجب كي يعيدني للمنفردة ، فعدت إلى جلستي القلقة ذاتها وعاد إلي التوتر والأرق ، حتى أنني لم أمد البطانيات خوف أن يأتي أحد العناصر فيفتح نافذة الباب أو يدخل علي وأنا نائمة . . وبينما أنا متكورة على نفسي وسط الزنزانة أرمق الصراصير في تلك الظلمة تتسلق الجدران حولي

دونما اكتراث بالنزيل الجديد . . شق جدار السكون فجأة صوت مزلاج الباب الخارجي وصياح السجانين وتدافع أقدام تتخبط مهرولة فوق الدرجات وعلى الممر باتجاه منفردة قريبة . أدركت بحدسي أن دفعة من المعتقلين الجدد قد وصلت ، وعلمت لاحقا أنهم ستة أو سبعة شباب بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر جمعوهم من مسجد واحد وحشروهم معا في هذه المنفردة التي لا تزيد بمساحتها عن متر بمتر ونصف ! والذي يبدو أن واحدا منهم أصابه إسهال من الخوف أو التعذيب فجعل يصيح طالبا الخروج إلى الحمام ، فلا يجيبه إلا صوت العناصر الغارقين في متعة الإحتفال برأس السنة : -سد حلقك ! لكن الفتى لم يكن يستطيع الصبر ، فيعيد الرجاء وينادي : -والله بطني بتوجعني . . يا عالم . . لم أعد أستطيع ضبط نفسي . . عندها جاءه عنصر منهم وفتح النافذة وتناوله بضربة بالكبل وهو يكرر -سد حلقك واخرس يا . . . وسكت الفتى لبرهة يا حرام ، بدأنا نشم بعدها رائحة من زنزانتهم خنقتنا . . فعاد العنصرإليه يكفر ويلعن ويقول له : -فعلتها هنا يا ابن ال . . . وأخرجه إلى الممر وانهال عليه ضربا كالمجنون ، وتعالى صراخ أمي من منفردتها ثانية تدعو عليهم وتقول له : -يخرب بيتك . . مالك قلب بشر؟ سألك أن تخرجه فلم تفعل ففعلها تحته . .ماذا يفعل المسكين بنفسه ؟ وعاد الأمر بعد هذه المهزلة إلى ما يشبه الهدوء من جديد . . ومضت ساعات الليل المتبقية تمر علي أثقل من الجبال ، وعلى الرغم من أنني لم يطرق لي النوم جفنا ليلتها إلا أنني بدأت أفقد الإحساس بما حولي ، وأتخيل ربما من شدة البرد أن الثلج قد غطى المكان كله ، وأن العناصر تستعد لاقتحام الزنزانة علي ليسحبوني في هذا الثلج فيعروني ويعذبوني للمرة الأخيرة قبل أن يرشوني وأغادر الحياة ! لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ولم ألبث وقد دنا وقت الفجر أن أحسست بما يشبه الطرق الخافت على الجدار من الزنزانة الأخرى المجاورة حيث وضعوا ماجدة ، فعلمت أنها تنبهني إلى موعد الصلاة ، ولم نكن خلال الفترة السابقة من الإعتقال كلها قد تمكنا من الصلاة ، فتيممت وهممت أن أبدأ ، لكنني لم أستطع معرفة اتجاه القبلة فطرقت الباب ، ولم يلبث أن حضر حسين من جديد فسألته ، فقال بسخرية : - كيف وضعت رأسك على الفلقة فهذا اتجاه القبلة ! كررت عليه السؤال مع الرجاء ، فقال بتبرم : - أنا لا أصلي . . لا أعرف ، لكنني أشاهد الشباب في المنفردات يصلون بهذا الإتجاه . فصليت إلى حيث أشار وظهري إلى الباب ، فكان قلبي ينتفض من الرعب طوال الصلاة خشية أن يفتح أحد العناصر علي فيراني وأنا أصلي! فيحدث ما لا تحمد عقباه ! وبالفعل . . وبينما أنا في صلاتي فتح السجان ابراهيم الطاقة ليعطيني الإفطار ، فلما رآني أصلي قال بما يشبه السخرية : -شو . . عم بتصلي ؟ فلم أجب ، ولكنني أحسست أن قلبي قد سقط بين يدي ، غير أن الله سلم ، ومضى إبراهيم فأكمل توزيع الفطور على الزنزانات الأخرى ثم عاد ففتح وسألني

باستهزاء : -خلصتي ؟ الله يتقبل ! هززت برأسي دون أن أجيب ، فاكتفى بدفع طبق الطعام إلي والذهاب . . ولم يكد يفعل حتى فتحت الطاقة من جديد وكان القادم هذه المرة أبو محمد . . الرجل الذي ترفق بي لأدخل الزنزانة ليلة الأمس ، فسألني : - ألا تريدين الخروج إلى الحمام ؟ أشرت بالإيجاب ، فلما فتح باب المنفردة أطللت على الممر برأسي فما وجدت أحدا . . سألته : - مالي لا أسمع صوتا هنا ؟ وهذه صديقتي ملك ألم تنزل من التحقيق ؟ قال : خرجوا . . كلهم خرجوا ، وما بقي إلا أنت ورفيقتك الثانية - يقصد ماجدة - . قلت بدهشة واضطراب : وأمي ؟ قال : أنت ورفيقتك وأمك فقط . . صفوكم ! أحسست أنها النهاية وأنها راحت علينا . . خرج الجميع وبقينا نحن . . إذا فهي النهاية! سألته وأنا أشهق بالبكاء : - ولماذا أخرجوهم ولم يخرجونا نحن ؟ أنا لم يثبت أي شيء علي . . أنا بريئة . أطرق وهو يقول : والله لا أعلم . . إسأليهم ، أنا هنا مجرد موظف. ثم غير مجرى الحديث وقال : - أتريدين أن تأكلي .. ألست جائعة؟ أنا أحضرت فطوري الخاص معي : زبدة ومربى وأشياء أخرى . . أكلت منهم وزاد معي قطعة . تذكرت وقتها أنني لم أكن قد أكلت شيئا إلى ذلك الوقت من قبل ، لكنني لم أشأ أن آكل طعام غيري أيضا ، فشكرته واعتذرت . . ثم لما اشتد علي الجوع في اليوم الثاني بدأت آكل القشرة الخارجية للصمون الذي يحضرونه لأن الداخل عجين كله . . وقطعة الجبن التي لا يحضرونها إلا نادرا بطبيعة الحال ، وعلى هذه الحال بقيت طوال فترة بياتي في المنفردة ثمانية أيام بالتمام والكمال !

"الخط "ورعاه البقر !

طلع صباح أول أيامي في سجن كفر سوسة وأنا لا أزال قابعة أترقب في زنزانتي المجهول بوجل ، وأطل على أحداث الأيام التي مضت مصدقة ومكذبة! تلفت أتأمل "مسكني " الجديد فإذا به أشبه بالقبر منه إلى أي شيء اخر ، وعدا الصراصير التي كانت لا تزال تبحث بمجساتها المقرفة عن شيء رطب تقتات عليه لم أستطع في البداية أن أجد على الجدار القاتم شيء ، لكن تسرب بعض الضوء واعتياد عيناي على الظلمة جعلني أبصر خطوطا مميزة بعض الشيء وشعار "الله أكبر ولله الحمد" محفورة أكثر من مرة وحولها أسماء أشخاص عديدين مروا على هذا المكان التعس قبلي . . وكان ثمة نقش لمسجد كتب حوله "لا إله إلا الله محمد رسول الله " وأسفل منه اسم الشخص الذي نقشه على الأغلب . . كذلك نحت خريطة لفلسطين وتحتها عبارة "الله أكبر ولله الحمدا ا! لم تكن أكثر من ساعتين على صلاة الفجر قد مضتا حين بدأت دورة يوم جديد من أيام السجن تأخذ مجراها . . فكما الكلاب تفعل كان المحققون والجلادون والسجانون لا ينامون إلا إذا دنا الفجر ويستيقظون وقت الضحى! وسرعان ما بدأت الشتائم واللعنات وعبارات الكفر بالله

تختلط بفرقعة الكبلات على ظهور السجناء يقتادونهم إلى الحمامات أو إلى "الخط " بلغة السجن المتداولة . كان (ياسين) المجند العلوي المتطوع أحد أجهل خلق الله وأغباهم يتصدر لهذا العمل على الدوام ، فتراه يمسك بالكبل بيده ويتفرس في طابور المعتقلين المتجه نحو الحمامات لبرهة ، ثم لا يلبث أن ينقض على المساكين لطما ولسعا يسلخ جلودهم كالدواب . . والويل كل الويل لمن كان يجرؤ ويصيح من الألم . . فجزاء ذلك مضاعفة العذاب حتى لا يعيدها ثانية! وسرعان ما انطلق صوت أمي من زنزانتها تنادي عليه : يا ولدي . . هل تظن أنك لا تزال في الضيعة التي جئت منها وهؤلاء قطيع من البقر الذي كنت ترعاه ! ولم يكن ياسين ليرضى أن يقطع متعته الصباحية شيء فاستمر يجلد الشباب ويتلذذ في خلق هذا المشهد الرهيب . . وأمي تطرق الباب بأيديها وأرجلها وتبكي ألما عليهم وحسرة وليس من مجيب ! ولم تكد تنته هذه المأساة ويهدأ المكان بعض الوقت حتى كان موعد التحقيقات قد جاء ، وعاد صراخ المعذبين وصيحات العناصر وشتائم المحققين تقرع اذاننا وتذيب منا القلوب ، ثم وكما بدأت بلا مقدمات خفتت الأصوات من جديد ، ولم ألبث أن وجدت باب الزنزانة يفتح وأحد العناصر يدعوني للذهاب إلى الحمام ، فلما أصبحت هناك وحدي وبدأت الوضوء وكل ظني أنني قد أغلقت الباب بإحكام على فوجئت بوالدتي أمامي ، فأدهشتها المفاجأة مثلما أدهشتني . . واندفعت من فورها تحيطني بذراعيها وتسألني وهي بادية الإضطراب : - قتلوك ؟ عذ بوك ؟ قلت أريد أن أخفف المصاب عنها : لا . . أنا بخير . لكنني كنت وقتها أضع رجلي على الحوض وأغسلها للوضوء ، فأشارت مفجوعة إليها تقول :ولكن ما هذا ؟ رجلك كلها زرقاء وأصابعك مزرقة أيضا ولا تكاد تظهر ! هل أذاك أحد؟ هل مسك أحد ؟ قلت من جديد : لا . . الحمد لله ما مسني أحد . سألتني وكأننا في سباق مع الزمن : ولماذا أمسكوك إذا ؟ قلت : والله لا أعرف . . يريدون أخي صفوان ويريدونني أن أدلهم عليه . فأخبرتني هنا أنها أجابت في التحقيق كما أجبت بأنه يدرس في الباكستان ، فشعرت بارتياح لتطابق كلامي مع كلامها ، ولكنني وجدتها تتركني وتخرج إلى الممر ندعو عليهم بأعلى صوتها ، فحضر حسين راكضا وهو يصيح بالعنصر الآخر : - كيف جعلتها تدخل والأخرى لا تزال هناك ؟ ألا تعلم أن اجتماع أكثر من شخص هناك ممنوع ؟ أجاب العنصر الذي أحضر أمي : لم يكن لي عالم بوجود أحد اخر . . لماذا أغلقت أنت باب المنفردة التي كانت فيها ولم تتركه مفتوحا لأعلم أنها لا تزال في الخارج ؟ واقتاد كلاهما والدتي وهي لا تكف عن إطلاق دعواتها عليهم ، ولم تتح لي رؤيتها ثانية إلا بعد أيام ، ولم تتح لي معرفة سبب وكيفية اعتقالها إلا حينما اجتمعنا في المهجع بعد انتهاء التحقيق . . فقصت علي - رحمها الله - ما جرى بالتفصيل .

الكمين !

كانت والدتي - علية الأمير - قادمة من حماة لتحضر لي بعض أغراض كنت قد نسيتها أثناء الإجازة هناك ، ولتكمل بعدها إلى الأردن حيث استقر أخي صفوان مع كثير من الشباب الملاحقين بتهمة معارضة الحكومة والإنضمام إلى تنظيم الإخوان . . ومع والدتي حضرت أسرة ال مرقة ترافقها لزيارة ابنهم المقيم في عمان لنفس السبب . قالت والدتي - استيقظ أبوك ليلة اعتقالك على منام مزعج أوله شرا أصاب أخاك صفوان ، فقال لي اذهبي وا نظري أحواله ، فمضيت يرافقني ال مرقة وقد اتفقنا على المبيت عندكم ليلتها والتحرك إلى عمان في اليوم التالي . ، ولما وصلنا قرب بيتكم في دمشق وبت على خطوات من مدخل البناية سمعت صوتا يأتيني ويقول برجاء ظاهر : يا خالتي ارجعي . . لا تدخلي ! كان أحد الجيران ينادي من جهة لا أراها ويحذرني من الصعود بعد أن تم اعتقالكم قبل ليلة ، ولكنني لم أرد وما ظننت النداء كان لي ، فما أن طرقنا الباب حتى استقبلتنا الرشاشات وأيادي جذبتنا إلى الداخل بغلظة ، ووجدنا أنفسنا بعد ساعة زمن في سجن كفرسوسة !

أحكم الأحكمين . .

كنت وأمي تحدثني عن اعتقالها لا أقل تأثرا وحزنا على حالها من تأثري وألمي على حال هؤلاء المساكين أسرة عمر مرقة الذين اعتقلوا معها ، فوالدتهم لم تكن قد أفاقت بعد من صدمة مقتل ابنها أيمن ١٨ سنة وأخته مجد ١٤ سنة حينما رشهما الخابرات في الشارع انتقاما من أهالي الملاحقين وحسب ! وكانت الأم حتى هذه الفترة فاقدة لتوازنها العقلي وقد نزعت حجابها وعصبت رأسها بعصابة تشد بها على الألم . . فلما وجدت نفسها قيد الإعتقال المفاجيء انهارت المسكينة . . وكنت وأنا في أول ليلة لي في المنفردة أسمع المحقق يصرخ في أذنها بأعلى صوته فيصل الصوت عندي وهي كالبلهاء لا تجيب . . وأما الزوج فكان أسوأ حالا وقد جاوز المسكين السبعين من عمره . . تجره والأم ابنتاهما اللتان اعتقلتا معهما وأغمي عليهما على باب المحقق ، فاضطرت والدتي أن تصفعهما لتفيقا ! وعندما لم يجدوا ما يهمهم من التحقيق مع هؤلاء البؤساء أرسلوهم للمبيت في القبو تلك الليلة ، لكن ولاغتصاص المكان ليلتها بالمعتقلين لم يجدوا مساحة يضعون العجوز فيها فتركوه بهرمه وشيخوخته ينام على أرض الممر أمام منفردتي ، فكنت أدعو الله أن يخفف عنهم المصائب التي تتوالى عليهم واحدة بعد الأخرى . . وأما والدتي فقد جابهتهم من البداية ما شاء الله بحزم . . قال لها المحقق : -خبرينا عن ابنك المجرم . . أين هو؟ فقالت : أنا ماعندي ابن مجرم . . دير بالك ها ! قال لها : ماذا لديك إذا ؟ مجرم ومغرر بإخواته أيضا على طريق ا لإجرا م . قالت : أنا لا أعرف نفسي إلا أنني ربيت ابني من الجامع إلى البيت ومن البيت

إلى الجامعة. فقال لها ساخرا : الله يعطيك العافية . . تعيشي وتربي ! إذا لا تريدي أن تحكي . . والتفت إلى أحد العناصر وقال له : ضعها على الفلقة . فقالت له : كتر خيرك . . أنـا في سـن أمك وتضعني على الفلقة ؟ قال لها : ولكنك ما تكلمت . قالت : وماذا تريـدني أن أقـول ؟ لا الذي يصدق يسلك معكم ولا الذي يكذب ! فتركها - سبحان الله - ولم يعذبها . . وكانت لا أدري كيف تقوم طوال فترة اعتقالها فتشد معهم وتواجههم وتدعو عليهم وكانوا مـع ذلـك يراعونها من دون جميع السجينات والسجناء الآخرين . . وكانت لا تكاد تنام لا في الليل ولا في النهار ، وتراقب كل صغيرة تجري وكبيرة فلا يفوتها شيء ! وفي بداية اعتقالها في المنفردة كانـت تنادي أبا عصام مدير السجن - وهومن درعا - وتسأله : - ماذا فعلت أنا . . ولماذا تعتقلونني ؟ فيجيبها : أنا لا علاقة لي بذلك .

فترد عليه وتقول : بل بيدك كل العلاقة . . أنا أريد أن أرفع كتابا لرئيس الفرع ، أعطني ورقـة وقلما . فينهرها وهو يكرر عليها : -ممنوع . . لا تصل . . مخالفة للأوامر . . . فيصيبها القهـر ويشتد بها الغيظ وتنادي داعية عليه : شكيتك لواحد أحد . . لأحكم الحاكمين . . وإن شاء الله تقعد قعدتي وما بتصبر صبري . وسبحان الله لم يمر شهر أو شهران حتى قتل هذا الرجل كما بلغنا حادث سيارة . . ودخل المقود في بطنه . . وسمعت أمي بموته قبل أن تموت

رهائن !

ولقد استمر الكمين من بعد اعتقال أمي ومرافقيها ، فاعتقلوا من زميلات السكن ومن الزائرات من غير أي تهمة أو علاقة أكثر من عشر أشخا ص : -فاطمة : من قارة ،طالبة تسكن معنا . - سوسن س : خريجة طب أسنان من حلب كانت في سنة التدريب بعد التخرج وتـسكن معنـا . أختين من ال جاموس إحداهما كانت تسمى منى فيما أذكر ، وهما طالبتا علوم من التل وتسكنان معنا أيضا . - يسرى ح : وهي أردنية كانت تدرس في جامعة دمشق كليـة العلـوم الطبيعيـة وتسكن معنا ، وقد اعتقلوا والدها أيضا التي كانت في زيارة لها أيام الإمتحان . مهـا أ : طالبـة طب في دمشق وهي فلسطينية لبنانية . طالبة أخرى من اللاذقية من ال درويش . كذلك اعتقلوا غادة ع طالبة جامعة تسكن معنا كما اعتقلوا أخاها وصديقا له حضرا لزيارتها فـاعتقلا معـا . والذي حدث أنهم أخذوهم إلى التحقيق جميعا بعدما انتهوا مني ومن ماجدة واحدة بعد الأخرى ، فلما لم يجدوا فائدة من احتجازهم أطلقوهم . . لكنني ومن شدة تعبي وآلامي لم أحس ساعتها بما حدث رغم أنني كنت يقظة متنبهة طوال الليل

أمي والإضراب

لم ينته اليوم الثاني علي من غير تحقيق جديد . . كنت خلال ساعاتي التي مضت في السجن قـد أدركت مجمل ما يدور حولي ، وتذوقت في أول قدومي أشد العذاب وأبشع التهديدات ، فلما نادوني للتحقيق من جديد لم يكن هناك ثمة جديد ! أعادوا طرح نفس الأسئلة وتوجيـه نفـس الإتهامات بنفس الطريقة ونفس الأسلوب . . وعلى مدار أسبوع كامل استمر البرنامج نفـسه ، ولم يتغير فيه إلا طريقة الضرب بعض الشيء ! فمع الضرب بالخيزران والعصي أرادوا مـرة أن يضعوني على الدولاب فلم يكن على مقاسي ، فصار المحقق يعوض عن ذلك بالضرب بالخيزرانة وأنا واقفة ، فطال بذلك كل جسدي ، وزاد من بقع الألم وآثار المعاناة ، ولكن شيئا في الأسـئلة أو الإجابات لم يتغير ! أما في المنفردة فكانت المتغيرات مستمرة هنـاك . . والمـشاهد المفجعـة والحوادث المحزنة لم تتوقف : كانت استغاثات السجناء لا تكاد تكف ليلا أو نهارا . . والويل كل الويل لمن يضبطه العناصر وهو يصلي ! كانوا يمرون عليهم بلا ميعاد ، فإذا ضبطوا أحدهم مـن الطاقة يصلي أخرجوه فأوسعوه ضربا وتعذيبا بلا رحمة ، وأما الكفر بالله والشتائم البذيئة فكانت ديدنهم حتى عندما يتخاطبون فيما بينهم ، لكنهم لم يكونوا ولله الحمد يضربوننا نحن النساء على ذلك ، وكنا نتمكن من الصلاة حتى تحت مراقبتهم . وكنت في بعض الأحيان أعطي ماجدة بعض الإشارات بالضرب على الجدار بيني وبينها ، واذا تأكدنا من خلو المكان من العناصـر كنـت أكلمها وتكلمني عبر الجدار ، وأذكر أن عنصرا أحس بنا مرة نتحدث في الليل فنهض بـسرعة وأتى نحونا يصيح : -أنا أسمع صوتا . . من هذا الذي يتكلم ؟ وحتى لا تكون سببا في تعـذيب أحد من الشباب قالت ماجدة بثقة : - أنا . فسالها بغضب : مع من ؟ قالت : مع صـديقتي . . أهو حرام؟ ومرت الحادثة ولله الحمد بسلام . وأما والدتي فلم تكن تدخر فرصة للإتـصال بي إلا واغتنمتها . . حتى ولو كلفها ذلك الكثير . كانت كلما أرادت أن تخرج إلى "الخط" توقفت عند زنزانتي وتعلقت بقفلها لا تريد أن تتزحزح حتى يفتحوا لها فتراني وتحدثني ولو كلمتين ، فإذا ملوا أحيانا من سحبها ومدافعتها فتحوا لها الطاقة وقالوا : - هيا شوفيها ولكن بلا كلمتين . . فترفض وتطلب أن يفتحوا الباب لها . . فيقولوا : ممنوع . ولم تلبث في اليوم الثاني من اعتقالهـا وبعـد خروج بقية البنات من دوننا أن أضربت عن الطعام وعن الخروج إلى الحمام وحتى عن النوم حتى تراني . . ولم أدر بذلك إلا عندما حضر أبو عادل رئيس النوبة يقول لي : -إذا التقيت أمك مرة ثانية فأعطيها دروسا في الدين . . قولي لها إن لجسدك عليك حقا . . ألم تدرسي ذلك في الشريعة؟ خليها تأكل . قلت له : هي أم وأنت تعرف كيف يكون قلب الأم . . والحق معها . وفي اليـوم الثاني ومع استمرارها بالإضراب أتى الأمر بالسماح لها أن تراني وأراها ، فجاء أبو عادل ثانيـة وأخذني إلى زنزانتها وهو يذكرني بحديث الأمس ، وقال وهو يدفعنى إليها : -مثلما اتفقنا . .قولي

لها . . قلت له : ماذا أقول ؟ هي حرة . قال : ألا تريدين أن تساعدينا لتفك إضرابها ؟ قلت : ماذا يمكن أن أفعل . . ألا ترى وضعها ؟ الله يعينها ويساعدها . فالتفت إليها بغيظ وسالها : هل رأيت ابنتك ؟ ولم تكن رفعت نظرها إلي طوال ذلك الوقت لتقهرهم . . فقالت : لا . فقال : إذا ماذا تريدين ؟ والله حيرتينا ! قالت : أنت تعرف ماذا أريد . . وحتى يأذن الله . . هو أحسن منكم جميعا وهو أحكم الحاكمين . . وهو قادر على أن يقصف رقابكم ! فلم يجد ما يفعله إلا أن يضحك بغباء ويقفل الزنزانة عليها ويعيدني أنا لزنزانتي من جديد ، لكن إضرابها كان - والله أعلم - سببا للتعجيل بإنهاء التحقيق معنا ونقلنا بعد ثمانية أيام قضيناها في المنفردة إلى المهجع ،لننضم هناك إلى بقية النساء المعتقلات .

إلى المهجع

لم نكن خلال الأيام الثمانية قد رأينا أيا من المعتقلات أو اتصلنا بهن باستثناء منيرة التي فتشتنا أول وصولنا ، لكنهن كن قد رأيننا من شق صغير في طاقة باب المهجع وعرفن بوجودنا كما أخبرننا لاحقا ، وذات مرة وأنا في طريقي إلى الحمام رأتني الحاجة مديحة إحداهن بجلبابي الأسود أعبر من أمام مهجعهن فدقت الباب تنادي أحدا من العناصر ، فلما جاءها حسين بادرته قائلة : -أريد أن أنفض البطانية . . افتح لي ! فأدخلني الحمام بسرعة ليخرجها ، فصارت تتحدث بصوت عال لنسمع صوتها ونعلم بوجود نساء وتصيح :فلانة . . هيا تعالي نظفي البطانية معي . . ثم مضت كعادتها تحاول استدراج حسين وسألته : - كأن هناك أحدا في الحمام . . أنا أسمع صوت نساء ! أجابها وقتذاك : لا . . لايوجد أحد . . لوأن هناك نساء لأتينا بهن إليكن . لكنها استمرت تلح عليه حتى ضجر وسألها : -خبريني أنت . . ماذا على بطانيتك ؟ لك ساعة تنفضين فيها ! قالت : صرصور . . ووالله ماعرفنا وين راح ! قال لها : إي يالله ادخلي وخلصيني . . فعادت وهي تلم البطانية تسأله بصوت خافت : - هناك نسوان أليس كذلك ؟ فأجابها أخيرا : نعم . . وبكرة سيأتون إليكم فاطمئني . لكنها عادت تسأله : ألا تعرف من أين ؟ فأجابها : بكرة جايين لعندكم وستعرفي . . وتجلسوا تتحدثوا معا حتى تشبعوا حكي ! ثم أدخلها وأرجعني المنفردة ، لكنني كنت أسمعهما وأنظر بين حين واخر إليهما بدوري من شق باب الحمام ، فاستأنست بذلك بعض الشيء واطمأننت إلى أن هناك نساء غيرنا في هذا المكان الموحش . . وفي اليوم الثامن وبينما أنا في المنفردة جاء مدير السجن وأعطاني استمارة معلومات عامة عن الإسم وتاريخ الإعتقال وسببه وعدد الأيام التي أمضيت في المنفردة . . فأجبت بشكل عادي وكتبت أنني اهمت بالإنتماء إلى تنظيم الإخوان ووقعت ، وبعد حوالي نصف الساعة حضر حسين وفتح الباب بسرعة وطلب مني القيام ، فسألته وقد ظننت أنها جولة أخرى من التحقيق والتعذيب والأ خذ والشد والإتهامات :

- إلى أين ؟ إلى التحقيق ؟ قال :لا . قلت : إلى الإعدام ! قال : الان سترين . قلت له : إذا كان الإعدام فسيكون أريح ! فأجابني ساخرا : لا . . لن نعدمك الان . قلت : واذا فمتى ؟ قال بلؤم : حتى تعترفي أنك منظمة . قلت له : طيب . . هل تعدمونني فعلا إذا اعترفت ؟ قال : اعترفي أولا والأمر بعد ذلك بينك وبين رئيس التحقيق ! أخرجني من المنفردة وساقني عبر الممر إلى باب اخر كبير وأسود فقلت لنفسي : خلاص . . رحت فيها . . إلى التعذيب من جديد ! فلما فتح الباب ودفعني باتجاه الداخل مددت رأسي بحذر فرأيت المكان مليئا بالنساء وكلهن يضعن شاشيات صلاة بيض على رؤوسهن فارتحت قليلا وخطوت نحوهن سلمت ،ولكن الخوف كان لا يزال يتملكني ،فيما أغلق السجان الباب ورائي وعاد بعد هنيهة بأمي وماجدة فأدخلهما وعلقها إلى السقف من يديها المكبلتين خلف ظهرها ،ومضى يعذبها على ومضى، وجعلنا في البداية نتلفت حذرات خشية أن يكون بين هؤلاءالنسوة جاسوسة أو مخبرة ،ولم تلبث أمي أن انفجرت بالبكاء في اللحظة التي اندفعت أنا نحوها وعانقتها ، وكأنها أحست أنهم وضعونا في المهجع ولن يخرجونامنه إلى الأبد. . فجعلت تزدادبكاءوتدعوعليهم بحرقة وتجهربالدعاء. . في تلك اللحظة تقدمت واحدة من النساءوهي تمدإليهايدهاوتقول : ابوي . . لا تبكي ولا على بالك . . حطي إيديك ورجليك بمي باردة واقعدي .. ولاراحة لمؤمن إلابلقاءربه ! كانت هذه هي الحاجة مديحة أ.أول من دخل السجن من النساء كانت الأيام التي أمضيناها معها أكثرمن كافية لنسمع منهاومن بقيه السجينات حكاية اعتقالهن وقصص تعذيبهن ومآسيهن .

تعرية . . وتعذيب . . وقص اللسان!

كانت الحاجة مديحة في الأربعينيات من عمرها ، وهي امرأة معروفه في حلب تدرس النساء دروسافي الدين على الرغم من أنها تكادتكون أمية لاتقرأ أوتكتب وكانت قد جعلت من بيتهاقاعدة سكن فيها بعض الملاحقين ،وبينما كانت ذاهبة إلى موعدخارج البيت لتسليم رسالة ألقوا القبض عليها نتيجة فسادة من سامح كيلاني - عميل المخابرات الآخروجاسوسهم داخل تنظيم الإخوان - وحملوها مباشرة إلى فرع مخابرات أمن الدولة ، وهناك ازدادت نقمة رئيس الفرع عمرحميدة عليها حينما استطاعت رغم التعذيب الشديد أن تراوغهم فترة كافية تمكن الشباب في بيتهامن الهرب بعدمضي فترة أمان كانوامتفقين عليها فيما بينهم . . ونتيجة جرأتها وصلابة ردودها ازداد حميدة غيظا منها فختم لها حفلة التعذيب بأن قص لها طرف لسانها بالمقص . . وفقدت قطعة منه بالفعل ! ولقد قصت علينا أن حميدة عراها في البداية من ملابسها وعلقها إلى السقف من يديها المكبلتين خلف ظهرها ، ومضى يعذبها على هذه الحالة ويسمعها أقذع الشتائم وأبشع العبارات . . ثم أمر بإحضار أخيها الأصغر وعرضها عليه بهذه الحالة وساله :هل

عرفتها؟ قال الولد بصدق : لا . . من هذه ! أجاب حميدة بتشفي : أختك مديحة . فأغمي على الولد فورا ولم يعد يحس بشيء ، وأعادوه إلى البيت وهو لا يزال في غيبوبته . . واستمرت حفلة التعذيب ساعات عديدة تأكدت بعدها أن الشباب غادروا البيت كما يفترض فدلتهم عليه ، ولما لم يجدوا هناك إلا آثارهم وحسب عاد حميدة غاضبا يقسم أنه سيقص لها هذا اللسان الذي كذب عليهم وخدعهم . . وقصه بالفعل ! لكنها ولله الحمد شفيت بسرعة وعاد اللسان فنما بشكل طبيعي ، بل إن مدير السجن المدني بدوما المقدم عماد وكان سيىء الخلق جدا قال لها بعد ذلك بسنوات : - قطعنا لك لسانك ليقل كلامك فلا أراه إلا ازداد طولا ! وبعد اعتقالها الذي كان قد مضى عليه نحو الشهرأتوا بها إلى كفر سوسة مرورا بسجن المسلمية بحلب مع مجموعة السجينات الأخريات : أم شيماء ، وزوجة عبد العزيز سيخ ، وعائشة ق . فيما أفرجوا عن عدد اخر من البنات والنساء كانت بينهن - فيما روين لنا - سناء . . . . . ، و . . . . وكانت تسكن مع الحاجة مديحة وتلازمها في بيتها ، ولذلك كانت تدعوها الحاجة ابنتها ، وزوجة عبد القادر حربلي ووالدها من بيت القطان ، وسيدة أخرى وكانت عروسا في شهرها السادس وفي السادسة عشرة من عمرها ، أمسكوا زوجها نتيجة وشاية من سامح كيالي أيضا وجعلوا يعذبونه ليعترف بمكان القاعدة التي اتهم أنه يديرها ، فلما لم يفعل أحضروا الزوجة بأمر من حميدة أيضا واعتدوا عليها أمامه قبل أن يرسلوه إلى تدمر فيقتل لاحقا هناك في المجزرة الكبيرة التي جرت . . وأفرجوا عن المرأة وقد سقطت عنها كل الإتهامات !

وترك لها جوربان

تقدمت الحاجة مديحة تخفف عن أمي وعنا ، وتبعتها بقية البنات : أم شيماء ، وعائشة ق . ومن ورائهما كانت منيرة التي فتشتني أول دخولي تنظروتبتسم ! وأما عائشة فهي طبيبة من حلب قامت بعلاج جريح من الشباب الملاحقين فبلغ النبأ المخابرات واعتقلوها من بيتها ، وقالت لهم وقتها إن أشخاصا أتوا إليها كأي طبيب وسألوها أن تعالج جريحا ففعلت ، ولم تسألهم عن هويتهم لأن مهمتها الإنسانية خدمة الناس لا التحقيق معهم ، لكن جوابها لم يرق لهم ، واعتقدوا أنها تداوي كل جرحى الملاحقين ومصابيهم ، وقد تولى التحقيق معها مصطفى التاجر أول الأمر فسألها في البداية : -أترضي أن تبقي بلا حجاب ؟ قالت : لا طبعا . . قال : فما رأيك إذا أن تبقي بلا جلباب ؟ فانتفضت تتطلع إلى مكان تلتجئ إليه ، لكن المجرم لم يترك لها فرصة وهجم عليها كالوحش يصفعها ويضربها وهو يمزق ثيابها قطعة بعد قطعة وهي مكبلة تقاوم بكل ما أوتيت من قوة دون أن تستطيع الدفع . . فلما مزق كل شيء ووصل إلى جواربها قال لها : -سأتركهم عليك حتى لا تبردي ! وأمر فمددوها على "بساط الريح " ومر عليها بكافة أنواع التعذيب :

الخيزران والعصي والكهرباء . . علاوة على نزع نظارتها الطبية وحرمانها من استعمالها فترة من الزمن . . ثم أتى دور عمر حميدة فأجلسها على كرسي وقد كبل أيديها وأرجلها من الخلف ببعضهم البعض وجعل يطفيء أعقاب السجاير فى اعف منطقه ببدنهاليطفيء بعضا من نيران حقده الاسود ويودعها الزنزانه من ثم بضعه ايام قبل ان تنقل مع بقيه المجموعه الى كفر سوسه

فنون التعذيب !

كانت إيمان ت . "أم شيماء" راجعة إلى بيتهم مع زوجها وابنتها الرضيعة شيماء وكانت في الشهور السبعة أو الثمانية من عمرها ، وعندما بلغوا مدخل البناية لاحظوا مؤشرات غير طبيعية في المنطقة ، فتقدمت ايمان ووضعت المفتاح في القفل لتفتح ، فيما كان الزوج والطفلة معه ينتظر أسفل الدرج ، فما أن فعلت حتى أحست كما روت من بعدصوت تلقيم السلاح من الداخل ، فأعطته إشارة سريعة بالهرب ، في الوقت الذي فتح عناصر المخابرات الباب بسرعة وأمسكوا بها وسحبوها إلى الداخل ، وفي إحدى غرف البيت دخل عليها رئيس الدورية يسألها عن زوجها وعن الشباب الذين كانوا معها في البيت لأ نهم دخلوه ولم يكن فيه أحد ، وهؤلاء جميعا أبلغ عنهم سامح كيالي ، فقالت إنها لا تعرف شيئا ولا تعرف أين ذهب زوجها ولا من كان معه ، فجعل يهددها بالإعتداء عليها إن لم تبلغه المعلومات فأصرت على الإنكار ، فنفذ تهديده بالفعل وحاول فعل ذلك ، لكنها قاومته بشدة وراحت تتصارع معه فأنجاها الله وألقى في قلبه الرعب فلم يتمكن منها كما أراد . . وبعد ذلك نقلوها إلى الفرع عند عمر حميدة الذي اتبع نفس الطريقة معها ، فشبحوها في السقف بأن كبلوا أيديها خلف ظهرها وعلقوها منهما مرفوعة عن الأرض فكأنما هي الذبيحة بين يدي الجزار ، وجعلوا يضربونها ويعذبونها وهي على هذه الحالة لا حول لها ولا قوة ، ثم وضعوا لها الكهرباء في صدرها والحليب يقطر منه زيادة في التعذيب والإهانة . . وبعد انتهاء التحقيق ومن غيرأن تدان المسكينة بشيء نقلوها إلى كفر سوسة مع عائشة والحاجة مديحة ، لنجتمع واياهن في هذا المهجع المقيت !

سحل القتلى

أما رابعة نزيلات المهجع وقتها فكانت أما من إدلب لأربعة أو خمسة أولاد من إدلب اسمها فوزية ح . هذه السيدة استشهد زوجها وهو يقاوم أثناء مداهمة قاعدتهم بحلب ، وقامت السلطة بعد مقتله بسحل جثته أمامها بالدبابة في شوارع المدينة ثم اقتادوها للسجن وعذبوها أشد العذاب . وعلى الرغم من أنها لم تتحدث عن ذلك كثيرا وكانت من النوع الذي يؤثر الصمت إلا أننا بقينا نرى اثار التعذيب على أرجلها والزرقة مكان أظافرها المقلوعة إلى حين ، وبقيت فوزية في الشهور

الأولى معتدة على زوجها لا تكاد تكلم أحدا وتسارع كلما فتحوا الباب أو الطاقة فتغطي رأسها بالبطانية وتدير وجهها إلى الجدار .

أبناء النظام ضد النظام !

هؤلاء كن السجينات الأربع المتهمات بالإنتساب أو ألتعاون مع الإخوان ، وأما الخامسة منيرة كامل مصطفى فكانت من تصنيف اخر وحال مختلف : كانت البنت التي لم تجاوز الثامنة عشرة من عمرها واحدة من بنات القرى الساحلية العلويات ، شكل والدها وأخوها وبعض أصدقائهم تنظيما ضد الدولة شيوعي التوجه وصاروا يصدرون منشورات تحض على كراهية النظام ، وكانت معتقلة مع أخيها أيضا الذي لم يكن يجاوز السادسة عشرة من عمره ، فاعتبروهما مجرد مراهقين يقومان بأعمال طائشة ، وقالوا بأنهم سيتركونها في السجن حتى يكتمل عقلها وينضج تفكيرها ، لكنهم كانوا متساهلين معها إلى أبعد الحدود ، فسمحوا لها بالزيارات ، وبإحضار جهاز راديو إلى زنزانتها ، وبزيارة أخيها في القسم الجنوبي من السجن ومقابلته ، وعندما عرف الشباب المعتقلون معه بذلك صارون يقسمون زياراتهم (أي الأ غراض التي تأتي لهم في الزيارات المتاحة) ويرسلون قسما منها مع منيرة إلينا وكنا فى البدايه نشك بها جميعا ونحذر أن تكون متعاملة مع المخابرات ، لكنها كانت لطيفة جدا وطيبة القلب ، حتى أن الحاجة مديحة سالتها مرة بين المزاح والجد : - نحن لن نبين لك أي شيء ولن نتكلم أمامك عن وضعنا لأننا نخاف أن تذهبي إلى المقدم وتحكي له . . فأجابتها منيرة بطيب خاطر : تأكدي تماما أنني لست من هذا النوع ، ولو كنت لما وجدتني معكم هنا . وعلى الرغم من أنها ظلت متمسكة بشيوعيتها بعد العديد من المناقشات بينها وبين البنات ، إلا أنها كانت تحترم تديننا ، فكانت تخفض صوت الراديو إذا كنا في صلاتنا أو تلاوتنا وتراعي مثل هذه الأمور ، وعندما أضربنا في وقت لاحق شاركت معنا ووقفت إلى جانبنا حتى النهاية .

هافي طاقة !

هؤلاء كن صحبة المهجع الأوائل ولشهور عدة قبل أن يفد نزلاء جدد ويغادر البعض من بعد . . وأما المهجع نفسه وهو الثاني في التسلسل العددي لمهاجع القسم فكان عبارة عن غرفة متوسطة الحجم ثمة حمام على يسار الداخلين إليها فوقه دوش ولكن من غير باب ، ولحل ذلك مددنا حبلا استخرجناه من وسط إحدى "التنورات " التي معنا وعلقنا عليه إحدى البطانيات القليلة التي أعطونا إياها كحاجز . وكان الحمام يحتوي أيضا على سخان كهربائي خصوا به مهجع النساء فقط ، فلم تكن لمهاجع الشباب لاحمامات ولاسخانات ولا حتى صنابير ماء ! ولكن ذلك كان سببا لكي يخرج الشباب مرتين أو ثلاث إلى "الخط " أو إلى الحمامات بعد كل موعد طعام ، وأما

باب مهجعنا فلم يكن بابه يفتح غالب الأوقات ، ولم يكن له منفذ اخر غير فتحة تسمى نافـــذة اصطلاحا وهي في الحقيقة مجرد فراغ بين أعلى الجدار من الداخل قريبا من السقف وبوابة السجن الرئيسية من طرفه الآخر على مستوى الأرض فيها ، وبين الجهتين ثمه طبقـــات مـــن القـــضبان الحديديه والشباك الخشن والناعم إلى درجة لاتسمح حتى بمرور الهواء نفسه وتحجب وصول أي شعاع ضوء ! ولذلك كنا في عز البرد نستغيث من الحرارة وانعدام الهواء النقي ، ونرجـــوهم أن يفتحوا لنا طاقة الباب أو أن يأتوا لنا بمروحة تحرك الأ نفاس الراكدة على أقل تقـــدير ، فكـــان السجان ياسين على الأخص يرفض أن يفتح لنا الطاقة لنتنفس ، فإذا رجته إحـــدانا ازداد تعنتـــا وجعل يكرر كالآلة على مسامعنا عبارة واحدة أثيرة لديه : - هافي - أي لا توجـــد - طاقـــة . فتقول له الحاجة : طيب أحضر لنا مروحة أو أي شيء يمكن أن يغير جو الغرفة فإنا نكاد نختنق . فلا يجيب إلا بنفس الإجابة : - هافي طاقة . . هافي مروحة . . هافي باب ! وكان يوم عيد لنا يوم أن سمحوا لنا بعد ثمانية أشهر من الإعتقال بالتنفس خارج جدران المهجـــع مـــرة أو مـــرتين في الأسبوع . . فيما لم يجيبوا طلبنا الثاني بشأن المروحة إلا بعد انقضاء أكثر من سنتين على الإعتقال . . وامتلاء المهجع بالنزيلات حتى غص بهن ، وكدن من فرط المعاناة وشدة الإزدحام أن يقضين نحبهن !

الهمس ممنوع . . والزمن معدوم . . والشكوى مذلة !

كانت الأيام تمر بطيئة ورتيبة . . وبدأنا لذلك نعتاد أن ننسى الوقت ونغفل عن جريان الـــزمن ! كنا لا نستطيع التفريق بين الليل والنهار ونصلي على التقدير . . ونحسب الأيام بتبدل دفعـــات السجانين وبتباعد تاريخ اعتقال كل واحدة منا ، وأما ضوء المهجع الذي كان يشعل ويطفؤ من الخارج فكان يزيد تعميق الشعور لدينا بتساوي الليل والنهار . . وبالطبع فلم تكن النافذة لتسمع عمقهما وتعدد طبقات القضبان والشبك فيها بالاشارة إلى أي تبدل في المواقيـــت أو الزمـــان ، علاوة على الظلمة التي تسود بطبيعة الحال في فصل الشتاء . وزيادة في إشـــاعة القلـــق الـــدائم والتوتر فينا لم يكن مسموح لنا بالكلام إلا همسا ، ومجرد أن يسمع أحد العناصر صوت واحـــدة منا كان يخبط الباب بالكابل خبطة مرعبة وهو يصيح بنا أن نخـــرس أو أن نخفـــض الـــصوت ! وعلاوة على ذلك كانوا إذا أرادوا مناداتنا لأمر ما خاطبونا باسم رجل لا بأسمائنا . . فكنت على سبيل المثال أنادى غالب الأحيان باسم محمد !! ويبدو أن أمي قررت بعد أسبوعين تقريبـــا مـــن اجتماعنا في المهجع أن تكسر هذا الجو المرعب بطريقتها وتخترق أسوار الارهـــاب . . فطرقـــت الباب بلطف في البداية وسألت حسين أن يحضر لنا مصحفافقال لها باستغراب : -وهل تظـــنين أنك في بيتك أو في قصرلتطلبي على كيفك ! ألا تعلمين أن المصحف ممنوع هنا؟ فسألته وهي لا

تزال محافظة على هدوئها : لماذا ؟ قال بشراسة : لأنه لا توجد مصاحف هنا في الفرع . فقالت له : رأيتهم بعيني مكدسين في غرفة التحقيق وأصحابهم جالسين في المنفردات . وكانت تتحدث عن الشباب الذين أحضروهم يوم اعتقالنا الأول من المسجد دفعة واحدة ووجدوا معهم مصاحف حفاظ صغيرة فصادروها . . فأجابها بصلف : -لكن تلك المصاحف للحرق لا للقراءة ! فعادت ترجوه بلطف وتقول له : أعطنا واحدا منهم فقط ولن يراك أحد أو يحاسبك . . وحتى لو كان صغيرا فليست مشكلة . . فقال لها ممنوع وأغلق الطاقة . فعادت ودقت وكررت عليه الرجاء فأجابها نفس الجواب وصفق الطاقة بوجهها من جديد . فعادت ودقت بقوة فحضر عنصر أخر علوي اسمه ابراهيم فسألته نفس الطلب ، وكانت أجابته كما أجاب من قبله : ممنوع . . المصحف هنا ممنوع . . . فقالت له إذا أعطني ورقة لأقدم طلبا إلى رئيس الفرع . فقال لها:لايوجدلدي ورق .. وبعدمماطلات ومشادات كل ومل وأعطاها ورقة قدمت عليها طلبا للمقدم ،فأرسل ذاك وراءها وبهدلها وقال لها: لاتوجد مصاحف هنا. وأضاف: لماذا تريدينها لتقرأى وتدعى علينا فلما عادت وأخبرتنا بذلك قررنا الإضراب عن الطعام . . وامتنعناعن استلام وجبتي الإفطار والغداء . .فهددونا إن لم نفك الإضراب بالعودة إلى المنفردات ، وقطعوا الماء عن المهجع زيادة في الضغط ، وكانت أول تجربة لنا فتوقفنا عن المطالبة وما عدنا تكلمنا بشيء وفي اليوم الثاني عادت أمي فطلبت ورقة وقلما لتقدم طلبا اخر للمقدم فحضرأبوعصام مديرالسجن وسألها ماذا تريدين فقالت اننانعاني ضيق الخلق ونريد أن نتسلى بالمصحف فقال لها ولماذا لا تتسلي بأشياء ثانية . قالت : مثل ماذا ؟ قال :كمايتسلى الشباب . . بشغل العجين قالت له : طيب علمنا . فقال لها:سأذهب فأسألهم لك وأعودبالجواب وبالفعل لم تمض حوالي الساعة حتى عادأبوعصام ومعه مصحف قديم جدا لا أدري من أين أتى به ولكنه جيد وكبير فقسمناه من فورنا أجزاء أجزاء،وكانت لدينا كرتونة لا أدري من أين أيضا فغلفنا الأجزاء بها ورقمناهم وصرنا نتلو ونحفظ منهم ، وعاد عنصربأمرمن أبي عصام إلينا فعلمنا كيف يشتغل الشباب بالعجين .

اوراد وأذكار وتسالى

كان الشباب السجناء ياكلون من الخبز وجهها الناضج وحسب ويجمعون العجين من قلبه فيعجنونه مره ثانيه اذا تكدست كميه كافيه منه ويخمرونه بلعابهم ثم يعيدون عجنه حتى يصبح متماسك القوام فيصنعون به اشكالا وتماثيل مختلفه ومسابيح جميله جدا حتى ان رئيس الفرع احتفظ بطائره من صنع الشباب فى مكتبه ظننتها اول ما رايتها هناك مصنوعه من الفضه وكان العناصر يحضرون للشباب الوانا يستخدمونها ايضا فى تجميل انتاجهم لياخذوه منهم آخرالامر

بالتاكيد وهكذا دخل حياتنا الرتيبه عنصر جديد وبدانا بصنع المسابيح اول الامر فكنا نمضى ساعات نعرك فيها العجين ونخمره ونكوره ثم انتقلنا بعدها الى صنع الاطواق وعلاقات المفاتيح والاشغال البسيطه وعندما تطورت خبرتنا ادخلنا التلوين بطريقتنا الخاصه فصرنا نطلب من بعض العناصر ان يعطونا طحل القهوه او بقايا لنلون به ثم لما سمحوا لنا بالادويه فى الفتره الاخيره استخدمنا بعضها بعد اذابته اوسحقه كعنصرتلوين وكانت المفاجاه بحق حينما وجدنا الحاجه مديحه د تمكنت من تهريب اسياخ لشغل الصوف حينما حضرت من سجن المسلميه وكانت واحده اخرى من البنات قد احضرت قطعه ملابس صوفيه قديمه معها فكررنا وجعلنا نتسلى بشغل الصوف ايضا وبدانا فى فتره لاحقه بجمع نوى الزيتون اذا حصلنا عليه وحفها وصنع مسابيح منها لكن احد العناصر عندما اكتشف اننا نحفها على جدار المهجع لخشونته نهانا عن ذلك خشيه ان تكون اشارات نكتبها لاحد فصرنا نجمعها وناخذها معنا فنحفها على ارض الساحه وقت التنفس وصارت امى تبتكراشياء جديده بسيطه ومسليه لنا وتعلمنا من الالعاب مالم نكن نعلم فعلمتنا مثلا لعبه الكاس وكان لدينا واحده من البلاستك فكنا نتحلق حولها وندبرها الى ان تتوقف عند احدى البنات فكان عليها ان تجيب على اى سؤال يوجه اليها بسرعه وصراحه وكنا نجتمع على هذه الالعاب ونستمتع بها لا يشذ عنا إلا الحاجة مديحة التي كانت تسخر منا ولا ترتاح كأنما لاتفاقنا . . وترانا دائما أقل منها سنا ومنزلة وخبرة وتحسنا وكأننا ضد طباعها في كل شيء ! وبرغم المعاناة والتوتر استطعنا أن ننظم أوقاتا لتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتلاوة الأوراد والمأثورات والتهجد . . حتى صارت البنات يتبارزن من تستطيع أن تصلي أكبر قدر من القران في تهجدها . . فإذا قدرنا دخول وقت الفجر صلينا وجلسنا إلى المأثورأت - والضوء مطفؤ بالطبع لنبدأ بعدها بقراءة ياسين أربعين مرة وحزبا من القرأن على نية الفرج وتيسير الأمور ، ونكرر الشيء نفسه في المساء . وكنت أبقى مع ماجدة بعد انتهاء ورد الصباح نراجع حفظنا من القران حتى ننعس فننام أو نكمل اليوم بلا نوم . وكانت والدتي تظل صاحية بعد الفجر حتى يدخل وقت الضحى فتصليها وتنام بعدها برهة من زمن .

أحاديث عبر الجدار !

وخارج جدران مهجعنا كان لأكثرنا تسلية وتسرية من نوع اخر ، فكنا نترقب وقت خروج الشباب بعد الإفطارإلى الخط فيقبل بعضنا إلى شق في طاقة بابنا تراقب ما يجري وتترقب بعضهن أن ترى أخا لها أو قريبا بينهم . . ولم تكن هذه هي الصلة الوحيدة بيننا وبين الشباب ، فلقد اكتشفت البنات قبلنا وجود فراغ بسيط حول انبوب التدفئة بين مهجعنا والمهجع المجاور فطلبن من العناصر خرطوما بحجة استعماله في الحمام فأحضروه لهم ، فمددوه عبر الفراغ وصرن يحادثن

الشباب عبره أو يمررن لهم الماء من خلاله لأن المهاجع الأخرى باستثنائنا لم تكن فيها حمامـــات أو صنابير مياه كما قلت ، ولم يكونوا يسمحون لأحد بطلب ماء أو الذهاب للحمام إلا في المواعيد . . ولقد حدث بعدها أن واحدة من السجينات الجدد متهمة بالتعامل مع العراق اسمها أم كامل فسدت علينا ، فقام العناصر بسد الفتحة بالإسمنت ، فلجأنا إلى التخاطب عبر الأ نبوب المعـــدني نفسه بالطرق عليه كإشارة أولى ، وكانت الحاجة تتولىالحديث بعدها أغلب الأحيان لأن مكانها كان مجاورا للأنبوب ، فكانت تنتظر هدوء الأحوال ونوم الحرس لتقرع على الأ نبوب وتحـــادث الشباب بصياح مكتوم تخفيه قدر ما تريد أن تبديه خشية أن يسمعها أحد من العناصر ! وكـــانوا في تلك الفترة يتعمدون معاملة الشباب أسوأ ما يمكن ، وينقلون دفعات منهم إلى تدمر كل يوم ، وكان الشخص الموكل بذلك وينادونه أبا طلال يأتي قبل صلاة الصبح فيقرع باب المهجع الذي فيه المطلوبون بكلبشات يحملها بيديه ثم يبدأ بتلاوة أسمائهم واحدا بعد الاخر ، وبعد أن ينتهي من سرد القائمة التي كانت تبالغ عشرين أو ثلاثين اسما كل يوم يصطف الشباب المساكين في الظلام فيكلبش كل اثنين منهم من أيديهما وأرجلهما معا . . فمنهم من يتجلد فيمضي ،ومنـــهم مـــن يصيح ويستغيث ، ومنهم من يغمى عليه وقد أحس بدنو منيته ، فيشحطون هؤلاء علـــى أرض السجن إلى سيارة بانتظارهم كالذبائح تماما تقاد إلى المسلخ . . وربما استفرغ بعضم أو فعلها تحته من هول الخبر ، فلا نستطيع ونحن نسمع هذه المأساة كل فجر يوم إلا البكاء والدعاء . . وكانوا كلما نقلوا دفعة إلى تدمرأتوا بثلاث أو أربع دفعات جديدة مـــن المعـــتقلين مكانهـــا ! فكانـــت الزنزانات والمهاجع محشورة أيامها بالشباب حشرا ، حتى لجأوا إلى استخدام الحمامات كزنـــازين في بعض الأحيان !

لوعة الام. . ومأساه الولد !

ولقد كان من عجائب مشاهدات السجن وقتذاك أن والدتي أخبرتني يوم لقائنا الأول في المهجـــع بأن أخي وارف سيغادر سورية حسب معلوماتها إلى لبنان ، وسيخرج من هناك إلى بلد اخر ولن يعود ، ويبدو أنه أخبرها بذلك حتى لا تقلق عليه وحسب ، وحقيقة الأمرأنه كـــان لا يـــزال في سورية . . ففي يوم من الأيام صلت أمي التهجد ثم الفجر ، وانتظرت فصلت الضحى ثم اتكأت لتنام على عادتها ، فما وجدتها إلا وقد انتفضت فجأة من نومها تقول لي :- سمعت صوت مشي أخيك وارف في السجن ! وكان السجن وقتها في غاية الهدوء ، فالشباب عادوا من الخـــط . . والعناصر نائمة على الأغلب . . فلا تسمع أي حس . . فقلت لها : - ما هذا الكلام ؟ لا يوجد أي صوت . . وتقدمت من شق الطاقة لأتأكد فوجدتهم يقودون أخي وارف بـــالفعلمن طـــرف سترته البنية التي أعرفها وقد طمشوا له عينيه وكبلوا يديه للوراء . . ورأيت حـــذاءه الرياضـــي

الأبيض وحسين يسوقه ويقول له : - هيا إلى المنفردة . لكنني قلت لأمي وكأنني أحدثها من عالم آخر : لا أحد هناك . غير أن قلبي كان كأنما هبت النار فيه . . وغمرتني رغبة في البكاء وحاجة لإخبارأحد ، لكنني لم أستطع فعل أي شيء أمام أمي . . وبعد فترة وعندما أضربنا إضرابنا الثاني وأخرجونا إلى المنفردات فعلا عقوبة لنا تصادف أن وضعوا أمي وأم شيماء في زنزانة واحدة معا ، لى اذ بها نفس الزنزانة التي كان وارف معتقلا فيها ، في تلك اللحظات كانت أمي تتــصنع وأم شيماء البكاء لترقفا قلوب السجانين علينا ،لكنهما كانتا لا تكادان تتمالكــان نفــسيهما مــن الضحك . . فأخذتا منشفة ووضعتاها بين أسنانهما لإخفاء الضحكات ، والتفتت أمي كأنها تريد أن تدق الباب على السجان فرأت على الجدار رسم مسجد محفور وقد كتب تحته بنفس الطريقة : لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد . . الشهيد محمد وارف دباغ . فانقلب البكاء الذي كانــت أمي تتصنعه حقيقيا ، وصارت تنادي عليهم تريد أن تعرف أين ولدها ومتى اعتقال . . لكن أحدا لم يجبها . . وظلت تعذبها الظنون وتقتلها الحيرة ولا من مجيب . . وتبين لي فيما بعد أنهم اعتقلوا وارف وغسان أول مرة في حماة وأفرجوا عنهما بعد أيام دون أن يثبت شيء على أي منهما ، ثم كان اعتقال وارف الثاني واحضاره إلى كفر سوسة والإفراج عنه من غير أن يدان بشيء أيضا ، وعندما استشهد بعد مدة استدعى المقدم ماجدة وقال لها ضمن ما قال :- أمــسكناه في المــرة الأولى لما ظننا أنه مجرم ، فلما تبين لنا أنه بريء أخرجناه . . وفي المرة الثانية ظنناه بريئا فأطلقنــاه أيضا ولكنه طلع مجرما غرر به أخوه فنال جزاءه بعد ذلك . . وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين !

نصف بلاطة للنوم !

وتستمر معاناة السجن وتزداد . . ووجدتني بعد فترة في المهجع قد ابتليت بالام شديدة في ظهري حتى لم أعد أستطيع رفعه ، وترافق ذلك مع حالة تقيؤ مستمر واسهال . . حتى كــدت أمــوت يومها بالفعل ! كان نومي وقتها بجانب أنبوب السخان المركزي الذي كان عاطلا عــن العمــل بالطبع فلا نتلقى منه إلا برودته ورطوبة الماء المتكثف عليه ، ولم يكن لي خيار في المكان لأ ننا كنا لازدحام المهجع لا يكاد يجاوز نصيب الواحدة منا وقت النوم أكثر من نصف بلاطة وحــسب ، ولو أرادت إحدانا أن تتقلب لاستدعى ذلك تحريك المهجع بأكمله لم أحس بالبرودة في البداية ، لكنني وجدتني فجأة لا أقدر على تحريك ظهري مع الأعراض المؤلمة الأخرى الــتي ذكــرت . . فقامت البنات يطرقن الباب جميعا ويسألن العناصر أن يحضروا طبيبا لعلاجي لكنهم لم يجيبــوا ، فطلبت الدكتورة عائشة منهم طستا من البلاستيك أحضروه لها بعد إلحاح وطول رجاء ، فجعلت تعمل لي مغاطس ماء ساخن متتالية خفت عليها الأوجاع بحمد الله بعد يومين .

اضراب جديد

ومرت الأيام ، وفي كل يوم كانت لنا قصة جديدة وتجربة وعبرة . . وكانت أمي لا تفوت فرصة تحقق لنا فيها بعض السلوى أو تؤرق فيها السجانين والعناصر إلا واغتنمتها ، وباتت سياسة واضحة عندها أن تبتكر مطاليب لنا أو باسمنا تحقق منها إحدى الغايتين أو كلاهما . . وذات يوم وبعدما رأيناهم سمحوا لمنيرة بتقديم امتحان الثانوية خطر على بال بعض البنات المطالبة بالمثل ، فكتبن إلى رئيس الفرع يسألنه السماح لنا بالكتب الجامعية التي ندرس بها وبتوفير جو ملائم للدراسة . . وبالطبع قوبل الطلب بالرفض والسخرية والتقريع ، فاقترحت أم شيماء أن نضرب عن الطعام حتى يستجيبوا ، وسرعان ما شجعتها أمي وأيدت أكثريتنا الفكرة ، فلما أتوا بطعام العشاء رفضنا استلامه . سألونا : - لما ذ ا ؟ قلنا : مضربين . -السبب ؟ أجبنا : نريد أن نقدم امتحاناتنا أيضا . رد العنصر ابراهيم : إذا لم تأخذوا العشاء فسنأخذكم إلى المنفردات . فأجابته أمي : سيكون أحسن . . ستتنفس كل واحدة لوحدها على الأقل ! أغلق ابراهيم الباب بلؤم وذهب ليعود بعد قليل بضحكة صفراء يقول : - المعلم - أي رئيس الفرع يريدكم أن تتجهزوا لننقلكم إلى المنفردات بعد نصف ساعة . وبالفعل لم تمض الفترة التي تحدث عنها حتى حضر وأخذ كل اثنتين منا إلى زنزانة من المنفردات ، فوضع أمي وأم شيماء في واحدة ، وماجدة وعائشة في أخرى ، ووضعني وفوزية حجازي في الثالثة ، وأما الحاجة مديحة فسألها ساخرا : - وماذا عنك أنت ؟ ألن تقدمي الثانوية أيضا ؟ فأجابته : أبوي . . أنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة ! فتركها في المهجع . . وبقينا بضع ساعات شاهدت أمي خلالها اسم أخي وارف على الجدار فازدادت ثورتها وعلا صياحها . . ولم يلبثوا أن أعادونا إلى المهجع اخر الليل ، ولم يستجيبوا لطلبنا بالطبع ، لكننا كنا سعداء بهذا الأثر الذي تركناه والحركة التي أحدثناها رغم كل الضغوط والترهيب .

رصاص بعد منتصف الليل !

وفي يوم من الأيام وبعدما انتهى العشاء وهجع أكثر السجناء والسجانين مزق السكون عن غير سابق إنذار صوت الرصاص يلعلع على مقربة من السجن وكأنه فوق رؤوسنا . . واستنفر الفرع كله وهرع العناصر فأغلقوا الطاقات كلها وأطفؤوا الأ نوار ، وصاحوا بالمساجين وصوتهم يكاد لا يسمع مع أصوات خرطشة الأسلحة وأزيز الرصاص : - ولا حركة ! لم نفهم ما الذي يجري بالتحديد هل كان اشتباكا أم هجوما على الفرع ، لكن الرصاص كان يصل إلينا فيصيب حتى جدار المهجع من الخارج ولم يكن بينه وبين الشارع إلا فسحة صغيرة يليها السور فنحس وكأنما اخترقه . . حتى أن أمي نهضت فتوضأت وصلت صلاة الشهادة ثم احتمت وإيانا بالجدار خشية أن تبلغنا الطلقات ! وبلغنا فجأة من بين الأصوات المختلطة صرخة كالزعيق تبعها صياح العناصر المضطرب ينادي : فلان قتل . . تعالوا . . فقدرنا أنه أحد عناصر الحماية على الباب . . وبعد

حوالي الساعة من بدء الإشتباك هدأت الأمور بالتدريج كما بدأت ، وحاولت الحاجة الإستعلام عما حدث من ابراهيم الذي كانت نوبته وقتها فنهرها وحذرها من إعادة السؤال ، وعدنا إلى ما كنا عليه لأيام قليلة أخر دون أن نعرف حقيقة ما جرى بالتحديد . .

إفراج . . ولكن إلى تدمر !

وذات يوم . . وبينما كانت الحاجة تحادث الشباب في الزنزانة المجاورة عبر الأنبوب أتاها من وراء الجدار صوت سائل منهم يسأل إن كان بيننا حمويات . فقالت له نعم . . فقال لها : - يا خالتي نحن من حماة أيضا وسنخرج غدا إفراج ، فلو كانت لدى أي من الحمويات رسالة لأهاليهن اكتبوها وضعوها في شق الطاقة ونحن سنسحبها بإذن الله أثناء خروجنا إلى الخط بطريقة لا تشعر العناصر ونوصلها لهم . والذي تبين بعدها أن هؤلاء الشباب المساكين وعدوا بالخروج في اليوم التالي بالفعل ولكن الخروج كان في الحقيقة إلى تدمر ! وفوجئنا عند الصباح بالمحقق يرسل وراء أمي بلا مقدمات أو سبب . . فتعود والدموع ملء عينيها تحدق في وتبكي . . فتملكني القلق والخوف عليها وهجمت أحضنها وأسألها ماذا حدث . . فقالت : - أخبرني أنهم سينقلونني إلى فرع اخر اليوم ولكنني أظنه كاذبا . . وأحس أنهم سيطلقونني اليوم . وقصت علينا أن المحقق لما استدعاها ابتدرها يقول لها : - جهزي نفسك وأحضري أغراضك بسرعة . فسألته : وابنتي ؟ قال : ستبقى رهينة عن أخيها صفوان ولن تخرج حتى يسلم نفسه . . أو فاعتبري أنك لم تلدي هذه البنت وانسيها ! وجعلت أمي وهي تقص علينا ذلك تخلع ملابسها عنها وتعطينا إياها قطعة بعد قطعة ، وما أبقت إلا ما يسترها وحسب لعلمها أنه ليس لدينا ما يكفينا . . وسألتنا إن كان أي منا يريد إرسال رسالة أو توصيل خبر عنه ، فسارعت ماجدة وأخذت قلما من منيرة وكتبت رسالة لأهلها على ورق المحارم دستها أمي في كم سترتها ، وأخذت تعانقنا وتقبلنا وتدعو لنا وندعو لها وخرجت . . ولم تكد تبلغ الباب عند السلم وهي تستحلف العنصر أن يخبرها بموعد خروجنا لى اجابته الساخرة ورجاؤها المتكرر يبلغ مسامعنا فيزيدنا ألما وحسرة حتى انفلتت من بين يديه وقفلت راجعة ، ففتحت طاقة الباب وسألت بسرعة تقول : - نسيت هؤلاء الشباب جيراننا من بيت من كانوا ؟ ولم نكد نخبرها حتى كان حسين قد وصل إليها فأمسكها من ياقة جلبابها وجذبها مغلظا لها في الكلام . . وهي ترد عليه الكلمة بأخرى والعبارة بأشد منها حتى خرجت . . وكانت اخر مرة أراها فيها رحمها الله . وأما رسالة ماجدة فعلمنا بعدها أن أمي توجهت أولا إلى بيتنا في دمشق الذي اعتقلنا فيه وقصت أخبارنا على البنات اللاتي كن معنا فسألنها أن يرين الرسالة ، لكنهن اجتهدن أن ينقلنها على ورقة عادية خشية أن تتمزق المحرمة ، فلما ذهبت أمي بها إلى أهل ماجدة لم يصدقوها لأنهم رأوا الخط مختلفا . . وظنوا وقد فقدوا الأمل

بابنتهم أنها إنما تسري عنهم وحسب ، وظلوا في شكهم حتى فتحت الزيارات في سجن قطنا بعد سنين فرأتهم هناك ورأوها بعد طول فراق .

معززات مكرمات !

وتم الإفراج عن أمي في السادس عشر من شباط . . وتأكد لنا الخبر حينما استدعى المقدم ماجدة بعد أسبوع تقريبا لأنها قدمت طلبا له تسأل فيه حلا للوضع ، فقال لها بكل صلافة واستعلاء : - انظري . . لا توجد أحسن من جلستكن هذه أبدا . . أنتن هنا معززات مكرمات . . ومثل هذا الفرع لن تجدوا ! وأضاف يقول : هذه أم هبة أخرجناها فجلست هنا على الباب فترة طويلة تبكي ولا تعرف كيف تتصرف حتى أعطيتها أجرة الطريق من جيبي أنا . . وبالتأكيد كان ناصيف يكذب لأن أمي ظلت جالسة عند الباب ترفض التحرك قبل أن تعرف مصيرنا وتأمل أن تسمع قبل ذهابها ولو إشارة بقرب الإفراج عنا وإلى أين ستتجه الأمور ، لكن الإفراج لم يتم . . وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، فلم تلبث أن انضمت دفعة جديدة من المعتقلات إلينا . . لتنفتح علينا قصص أخرى من الماسي والآلام . . ونبدأ فصلا جديدا من الكرب والمعاناة .

مزيد من الضيو ف . . مزيد من المآسي !

لم تكن يومان أو ثلاثة من الإفراج عن أمي قد انقضت حينما قرع علينا أبو عادل مدير السجن باب المهجع ضحى ذلك اليوم ودفع إلينا بسيدة تضع منديلا أسود انقلب لونه من الأعلى إلى الصفار الباهت . . وترتدي بالطو من الجوخ الأسود أيضا وتحمل في يدها بقجة جمعت فيها حاجياتها كما يفعل الشحاذون تماما ! أطلت ثم ارتدت للوراء لبرهة كانت كافية أن نلمح هيأتها الرثة وبقايا جدري أصابها منذ الطفولة فترك مع أصابع الزمن ندبا على وجهها المرهق . . فتبادر إلى أذهاننا أنها متسولة ألقوا القبض عليها وأحضروها لتشاركنا المكان ! فحوقلنا وقلنا لأ نفسنا ونحن بين النفور والإشفاق : وهل ينقصنا عذاب من هذا النوع مع كل الذي نلقاه . . روائح ومناظر الشحاذين ! لكن الباب فتح على اخره مرة ثانية واندفع أبو عادل يصيح بنا : -هيا . . انهضوا واستقبلوهن . . ودخلت السيدة نفسها تتبعها أخريات لا يختلفن في الهيئة الرثة عنها كثيرا : فهذه كالخادمة . . والأ خرى أشبه بالمتسولات . . وتلك تلبس مانطو ممزقا . . ورابعة ترتدي تنورة أطول منها وقد عقدت إيشاربها على رأسها أوثق ما تستطيع ، وعليها كنزة ضيقة تلتصق على جسدها وقد عفا عليها الزمن ، وفقدت أزرارها من الخلف فبقيت مفتوحة بعض الشيء . . ولم نكد نستوعب النظر إلى النساء الست القادمات حتى اندفعت أولاهن نحو الحاجة مديحة تعانقها وهي تصيح : - أبوي . . أنت هون ؟ وانفجرت السيدة في البكاء ، وبادرتها الحاجة

بالدموع تقول : - حاجة رياض . . الحمد لله على سلامتك . أخيرا . . أخيرا وجدت ونيسا لي في هذا المكان .

وبحركة غير متكلفة دفعت الحاجة مديحة البنت التي كانت تجاورها في المجلس وأفسحت لصديقتها الحاجة رياض المكان فأجلستها فيه وما عادت تحركت عنه أبدا ! وتحركت بقية القادمات الجدد نحونا بتوجس طبيعي بادئ الأمر . . ثم لم تلبث النفوس أن استراحت . . وانفتحت جعب الحكايات . . وغص المهجع بالعدد الذي زاد عن سعته . . لتزداد المعاناة وتتوالى أيام العذاب .

باب الحديد !

كانت القادمات من سجن المسلمية بحلب خمس هذه المرة : الحاجة رياض د. ولمى ع. ورغداء خ. ومنتهى ج. وإيمان ق. وكانت مهزلة إحضارهن إلى كفر سوسة لا تقل ألما عن مأساة اعتقالهن وتعذيبهن . . فلقد أركبوهن السيارة من سجن المسلمية بحلب وقد كبلوا كل اثنتين منهما معا والخبر يقول إنه إفراج ، وكان قد سبق بالفعل إطلاق سراح حوالي ١٦ سيدة أخرى كن معهن ، لكن السائق اتجه بهؤلاء الخمس على الطريق الموصل إلى دمشق ، فلما عبرت السيارة الكرة الأرضية مغادرة حلب لاحظت الحاجة رياض ذلك رغم أن الوقت كان مساء فقالت للسائق ببراءة : -أنا بيتي عند باب الحديد خيو . . يمكن ضيعت الطريق ! فأجابها بلؤم وسخرية : لا . . طولي بالك . . ما وصلنا باب الحديد بعد . . أريد أن أعمل لكم دورة حول حلب وأوصلكم بعدها كلكم إلى باب الحديد ! فلما فهمت الحاجة المقصود أغمي عليها . . واصفر وجه لمى وقد ظنت أنهم سيأخذوهن الان إلى غرفة الإعدام . . وجعل العناصر يسخرون منهن طوال الطريق ويزيدون قلقهن قلقا ورعبهن رعبا . . فلما وصلن إلينا كن في غاية التوتر والإجهاد . . لكن دقائق تالية مرت كانت كافية لتغير الحال . . ولتفتح كل منها جعبتها وتروي قصتها في رحلة الآلام .

تحويشة العمر !

كانت الحاجة رياض من النساء الطيبات البسيطات ، خرجت من المدرسة في الصف السادس ولم تكمل تعليمها ، ولم تتزوج رغم بلوغها الأربعينات ، لكنها - كالحاجة مديحة - من أسرة متدينة وأخت لأشقاء ملتزمين كانت لديهم منجرة في حلب ففتحوا فيها مخبأ للملاحقين قبل أن تنكشف فيعتقل واحد منهم ويهرب الآخر إلى عمان ، وفي مرة كانت الحاجة رياض ذاهبة إلى هناك لتزور أخاها في عمان قدمت لها إحدى السيدات بعض المال لتوزعه على أبناء الشباب الذين أعدموا ولا يكادون يجدون في هذا الظرف الصعب معينا أو مصدرا للكسب ، وبالفعل أخذت رياض المبلغ ووزعته كجزء من واجب أحسته نحو هؤلاء المساكين ، لكن اعترافا أتى عليها لا تدري من أين

فاعتقلوها وجعلوا يعذبونها أشد العذاب ، وبعدما فتشوا بيتها ولم يجدوا شيئا جعلوا يهددونها لتخرج النقود التي أحضرتها من عمان ، لكنها كانت قد وزعت المبلغ كله ، فزادوا عليها التعذيب حتى اضطرت أن تخبرهم عن مبلغ من المال كانت قد جمعته على مدار حياتها وخبأته للطوارئ تحت أحد الكراسي ، فأعطتهم إياه مرغمة لتنجو بنفسها ، وكانت كلما تذكرت ذلك بعدها تبكي وتقول للحاجة مديحة بحسرة : - أخذوا تعبي وعرق جبيني يا حاجة وعملوهم من الإخوان . . إي ولي على الإخوان وساعتهم ! وكانت تنشد أحيانا بين الحسرة والطرافة تقول : - إلهي قد غدوت هنا سجينا . . لأني وزعت مصرات الإخوان المسلمينا إ! وروت الحاجة رياض عن تعذيبها الأهوال بحق ، فلقد تمت تعريتها مثل أكثر المعتقلات بحلب ، وجعل عمر حميدة يسحبها من شعرها على الأرض فيرتطم رأسها بالأرض والجدار ، مما تسبب في كسر عظمة أنفها . . وأصابها بعسر دائم في التنفس ، فكانت المسكينة بعد ذلك دائمة التشخير . . وزاد حميدة على ذلك العذاب الوحشي فسلط على وجهها خرطوم ماء شديد لتصحو من الإغماء فخرق لها طبلة أذنها ، وكان من المضحكات المبكيات أنها اعتادت بعد ذلك أن تنام على أذنها السليمة فلا تعود تسمع شخيرها الذي كان يؤرق نوم المهجع كله ، فنضطر إلى إيقاظها آخر الأمر لتعدل من وضعي

الفصل الثالث

سجن قطنا ، الموت البطيء

أكتوبر ١٩٨٢ - ١٩٨٥

سجن قطنا ، الموت البطئ

أخذت السيارة تنهب الأرض نهبا وتكاد في كل انعطافة لها تلفظنا إلى الخارج لولا أن تتلقانا القضبان الصماء تارة وأجساد بعضنا البعض المنهكة تارة أخرى . . وفيما جلس اثنان من الحرس بيننا وبين حجرة القيادة واثنان اخران بين القفص الذي أغلق علينا بإحكام والباب الخلفي مدججين كلهم بالسلاح ، بقي أبو طلال في المقدمة بجوار السائق وحده . كنا أنا وماجدة وأم شيماء والحاجتان ومنتهى وايمان ورغداء ومنى وحليمة وأم محمود وأمل . . وفي بداية المشوار الذي استغرق قرابة الساعة أصابني الدوار ، فلما تلفت لأستنجد بأحد حولي وجدت أكثر البنات مغمى عليهن ! فقد اجتمع علينا الجوع والإرهاق والرعب والهم . . وكانت شهور قد مضت علينا لم نركب فيها سيارة ولا سطعت علينا الشمس بهذا الطول . . وأما أنا وبعد أن بدأت استعادة وعيي حاولت أن أحرك يدي في القيد فشد عليها أكثر ، فلما حاولت تخفيف هذا الضغط ازداد واشتد حتى ازرقت أناملي وأحسست أنها ستنقطع ! ولم نلبث وقد بلغ الكرب

مداه أن توقفت بنا السيارة عند حاجز للشرطة المدنية ، وتقدم أحدهم ففتح الباب الخلفي لبرهة وكأنما أرادوا أن يترلونا . . وقتها استطعت أن ألمح قوسا معدنيا فوقنا مكتوب عليه بخط عريض "سجن قطنا المدني " لكن الباب عاد فأقفل ، وعادوا فساروا بنا إلى الداخل ليتوقفوا عند بـــاب اخر جرت عنده كما تبدى عملية التسليم والإستلام ، وبعد انتظار ربع ساعة تقريبـــا ريثمـــا سلموا الأوراق واستلموها جاء أحد أفراد الشرطة ففتح باب السيارة ودعانا للترول . كنـــا لا نزال كالخارجين من القبور لا نستوعب ما يدور ولا نقوى من الإعياء أن نتحرك . . وأذكرأنني سحبت نفسي سحبا وجاء الشرطي فأسندني ثم أمسكني من يدي وأنزلني . . وارتمينا جميعا مـــن فورنا على الأ رض وافترشناها كالشحاذين ! فيما تحلق بعض رجال الشرطة حولنا يتهامـــسون ويحوقلون ، وأخذ آخرون يطلون من شبابيك المخفر علينا وكأننا مخلوقات من كوكب اخر !

كان منظرنا محزنا مثلما كان غريبا ورهيبا . . فالوجوه مصفرة من الهزال باهتة من اعتياد الظلمة والبعد عن ضوء الشمس ، والثياب رثة ممزقة تراخت فوق أجسادنا المنحولة وقد تغيرت ألوانهـــا واختلطت الرقع عليها فكادت أن تغطيها . . وفوق ذلك كنا لا نزال مقيدات الأيادي نتحرك - إذا استطعنا - أزواجا بالكلبشات ! وتبين فوق ذلك أن أبا طلال قد نسي مفاتيح الكلبشات في كفر سوسة عمدا لا ندري أم سهوا ، فتركنا على حالنا في القيود فوق الرصيف ومض ليحضرها . . لكن وما أن تحركت سيارة المخابرات حتى أقبل الشرطة علينا يدعوننا للدخول إلى غرفتـــهم إكراما لنا ، ولما لم نقو حتى على الإنتقال سحبونا سحبا وأجلسونا هناك في انتظار عودة أبي طلال بالمفاتيح . كانت غرفة الخفر بسيطة المحتويات تضم طاولة مكتب وخزانـــة الـــسلاح وبعـــض الكراسي ، وكان العناصر يطلون من الباب بين الحين والآخر ينظرون إلينا نظرات يختلط الإشفاق فيها بالإستغراب ، ولا تالبث أن تدمع عيونهم ويبكون مثل النساء ! وأقبـــل واحـــد منـــهم في الخمسينيات من عمره وحاول أن يفك الكلبشات من أيدينا مرات عديدة فلم يستطع . . فجعل يواسينا والدموع تسيل على خديه ويقول : اطمئنوا أخـــواتي اطمئنـــوا . . الان ســـتنتقلون إلى الداخل وتعيشون عيشة طبيعية من جديد . . وجعل يشير من النافذة ويقول وهو لا يتمالك نفسه من البكاء : انظروا . . يوجد أولاد هناك . . وشجر . . ونسوان . . هناك واحدة من حماة اسمها غزوة . . وهناك غيرها فلانة وفلانة ، يالله إن شاء الله الآن تتنشطوا وتعودوا إلى حياتكم الطبيعية . . وعندما لمحت أم محمود ولدا هناك تنهدت وقالت له : وهل إذا وجدنا أولادا هنا سيعوضوننا عن أولادنا ؟ فقال لها : منشان الله . . والله إن شاء الله سيأتي أولادك وترينهم وتطمئني عليهم . . ومض الرجل الطيب مسرعا فأحضر لنا شايا نشربه ونحن لا نكاد نصدق ما يجري ، ولم يلبـــث مدير السجن المساعد أبو مطيع أن جاء مع وصول أبي طلال بالمفاتيح بعد قرابة الساعتين ، ففك

لنا الكلبشات واحدة بعد الأخرى ، ومن غير أن يقول لنا أية كلمة مضى بالعناصر والسيارة . . فيما أخذ أبو مطيع يهدئ من روعنا ويؤكد لنا أن هذا المكان مختلف جدا، ولن يكون هنـــاك أي تعذيب ولا خوف بعد اليوم . . ودخل إلى منطقة المهاجع ونحن نتبعه ، فلما دخلـــت أولانـــا - وكانت أم شيماء - وجدنا السجينات جميعا هجمن عليها يعانقنها ويحملنها إلى المهجع حمـــلا . . وهي تناديهم ولا يسمعون ترجوهم أن يتركوها لتمشي بنفسها . . والذي تبين أن أبا مطيع دخل على السجينات وأخبرهن بأن نساء خارجات من أحداث حماة أتين إليكن . . منهن المكـــسورة والمجروحة والمصابة ، . وهن في أسوأ حال . ولم يكن الرجل متصنعا ولا كاذبا وقتـــها ، وظنننـــا كذلك فعلا نتيجة الحالة المزرية التي كنا عليها بعد ثلاث سنوات من العيش في قبو لا يشبهه من بقاع الدنيا شيء إلا حفرة القبر!

أحكام شكلية : عشر سنوات فقط !

كان سجن قطنا عبارة عن بناء حجري أشبه ما يكون بالبيوت العربية القديمة تتوزع الغرف فيـــه على محيط باحته ، وتفصل بين هذه الباحة وبينهم القضبان الحديدية فتجعل من كل حجرة مهجعا مستقلا بذاته . وعلاوة على مهجع مخصص من قبل للسجينات الـــسياسيات كانـــت المهـــاجع الأخرى موزعة حسب القضايا التي حبست السجينات على ذممها ، فثمة مهجعـــان للمتـــهمات بالقتل ، وآخر للحشيش والمخدرات ، والرابع للدعارة . . وثمة غرفة خامسة أشبه بـــالزنزا نـــة المنفردة كانت والدة مهدي علواني الذي أعدم مع مجموعة من الـــشباب في أواخـــر عـــام ٧٩ مسجونة فيها وحدها ثم أفرج عنها قبل أن نأتي . . لكن وبرغم المجاورة فـــإن الإخـــتلاط بـــين السياسيات والقضائيات كان ممنوعا ، وكانوا ساعة أن وصلنا قد سمحوا للسياسيات بـــالخروج لاستقبالنا ، لكن بعضا ممن كن يعرفننا لم تتمكن من التعرف علينا بادئ الأمر ! فسناء س . التي كانت معي في الجامعة جعلت تحملق في وتقول : -غيرمعقول . . هل هذا أنت ؟ ماذا حصل . . هل جففوكم في العلب ! وأقبلت غزوة ك . أيضا تستقبلنا بضحكتها وفكاهاتهـــا . . وغمـــرت الفرحة قلوبنا وقلوبهن وكأننا التقينا في بيوتنا معززات مكرمات ! وبين خلـــيط مـــن القـــبلات والدمعات والتنهدات جلست كل واحدة تقص قصتها . . ولم يلبث أن حضر العقيـــد موفـــق السمان قائد المنطقة ورئيس السجن فسلم علينا ورحب بنا وقال لنا أنتم هنا في أمانتنا ولن تجدوا إلا خيرا ، وجعل يؤكد علينا أنه لم تعد للمخابرات أية علاقة بنا ، وأنه لم يعد لـــذلك أي معـــنى للاستمرار في الإضراب ، راجيا إيانا أن ننهيه للتو ونصبر ونحتسب حتى يـــأذن الله بـــالفرج . . وحضر أحد رجال الشرطة بكرسي للعقيد فجلس عليه أمامنا ، ولم يلبث أن أخرج أوراقا بيـــده وقد ارتسمت معالم الجدية أكثر على قسمات وجهه وقال لنا دون أن تختفي ظلال الحـــرج عـــن

نبرته : - اسمعوني الآن . . لا أريد بكاء ولا نواحا . . اسمعوا فقط . فسألته الحاجة : ليش إيش في ؟ قال : هذه ورقة الأحكام التي بلغتنا سأقرأها عليكم لتعلم كل منكم حكمها. ومن غير أن يترك لنا فرصة لاسترداد الأنفاس شرع يقرأ : حكمت محكمة أمن الدولة على المتهمة هبة دباغ بعشر سنوات مع الأشغال الشاقة . . فصاحت الحاجة رياض : اه . . ولي على قامتي ان شا الله يا هبة . وهجمت علي وضمتني وهي تبكي وتنوح . . وردت الحاجة مديحة معها: -ولي على قامتي ان شالله . . عشرسنين ! لكن أثر المفاجأة والتأثر بما سمعوه لم يلبث أن تقلص عندما تذكرت كل منهن نفسها وجال بخاطر كل منهن عدد السنين التي حكمت بها أيضا ، وسرعان ما اتجهت الأنظار إلى المقدم ثانية وقد بدأ يكمل قراءة بقية الأحكام : حكمت محكمة أمن الدولة على المتهمة رياض د. بعشرين عاما مع الأشغال الشاقة ! فصاحت به بانفعال : وقف أبوي ليكون دبانة عملت نقطة هنا بالغلط ! ماذا ؟ هل قلت ٢٥ عاما ؟ غير معقول فتركوني واتجهوا إليها وقد تضاعف حكمها يواسونها ويخففون ما وسعهم عنها . . ثم تتابعت قراءة الأحكام : منتهى ج . عشرون سنة . الحاجة مديحة عشر سنوات . رغداءخ . ومنى ع . أربع سنوات (لكنهما جلستا معنا السنين العشرة) ! أم شيماء ٤ سنين . عائثة ق . أربع سنوات . حورية أم محمود عشرة . منى ف . وأختها عشرة . ماجدة ل . عشرون . هالة عشرة . ترفة عشرة سنين . . ولما انتهى من الأسماء كلها ورأى حالة الوجوم التي كستنا وتأثرنا وبكاء من يبكي منا ونحن مضربات بالأصل وحالتنا حالة قال لنا مواسيا: هذه مجرد أحكام شكلية وحسب ، وان شاء الله تخرجوا قبل ذلك ولا تطولوا ، ولا أحد جاء هنا إلا وخرج . . ثم جعل يحدثنا عن حقوقنا هنا والمزايا المتحققة لنا ، وأخذ يشجعنا هنا لكي نتناول الآن طعام الإفطار ونعود إلى حياتنا الطبيعية . . وخلال ذلك أعدت البنات لنا مائدة طويلة على طول المهجع الذي خصصوه من فورهم لنا نحن القادمات الجدد ، فالتفت إلى ماجدة وأنا أصيح ولا أكاد أصدق نفسي : - بندورة . . خيار . . بقدونس . . وبيض إ! لكننا وعلى الرغم من الجوع الشديد والطعام الشهي إلا أننا وما أن ابتلعنا اللقمة الأولى بعد سبعة أيام من الإضراب حتى أصبنا جميعا بمغص في المعدة وعجزنا عن الإستمرار . . لكننا أنهينا إضرابنا واستعدنا بعضا من حيويتنا ، وكانت سعادتنا غامرة وقد لمسنا نجاح إضرابنا ولو إلى حد ، وبدأنا وقد حدثتنا سابقاتنا عن نظام الزيارة الأسبوعي لكل الأهالي . . بدأنا نعد الأيام انتظارا ليوم الجمعة الآتي . . وننسج الأحلام من ظهيرة يوم الأربعاء الذي وصلنا فيه ترقبا لهذا اللقاء الذي طال .

أشغال شاقة !

كان مهجعنا عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل لا يجاوز طولها خمسة أمتار تقع في زاوية السجن اليسرى، وبعد أن يتجاوز الداخل درجة حجرية في البداية تنخفض أرضية المهجع بما يسمى "العتبة" ثم تعود لترتفع إلى المستوى الأ ول من جديد . وفي الزاوية اليسرى هناك حجرة الحمام ، وثمة نافذتان تطلان على باحة السجن على يمين الباب . وبعد أن استلمنا المهجع وعلمت كل منا حكمها عاد مدير السجن فسلمنا فرش إسفنج ومخدات وبطانيات على عددنا ، لكنهما كانت كلها قديمة ومستعملة ومنتنة ، وسرعان ما دب الخلاف بين القادمات وهن يتسابقن للفوز بأحسن الفرش والبطانيات وأفضل الأماكن ، وبالطبع لم تتسع الغرفة لنا جميعا ، وحسما للخلاف صارت فرشتى انا وأختي على العتبة ونصفها الآخر على الخلاء ! وبعد أن مرت الأزمة على خير واستطعنا آخر الأمر الإستقرار على حال جعلنا ننظف المكان معا ونعد مسكننا الجديد فيه . وخلال ذلك لاحظنا أن بعض زوايا الغرفة متآكلة من القدم ، وجانبا من الدرجة التي على الباب مكسور بما يهدد أي عابر بالزلق ، فسالنا مدير السجن أبا مطيع إن كان بالإمكان السماخ لنا ببعض الإسمنت لترميمها فوافق ، وفي اليوم الثاني جاءنا مبكرا وفتح علينا الباب فخرجت الحاجة رياض أول من خرج ، فما أن راها وناداها حتى وجدناها وقد أغمي عليها ، وأسرعت الحاجة مديحة فسكبت عليها الماء وصحتها ،فلما فتحت عينيها تشبثت بها وهي تقول : - أبوي يا حاجة ، يريدون أن يأخذونني إلى الأشغال الشاقة! من شان الله تكلمي معه . . قولي له لا أستطيع . . ضغطي يرتفع . . ونفسي والله يضيق ولا أتحمل . . وصارت المسكينة تبكي كالممسوس . . فخرجت الحاجة مديحة وقد تملكتها الدهشة وسالته : -ما الذي حدث . . إلى أين ستأخذها ؟ قال الرجل باستغراب واضطراب : والله لم أفعل لها أي شيء . . لم أزد عن أن أقول لها تعالي يا حاجة وخذي الإسمنت . لكنها وكما علمنا بعده ، ولضعف سمعها من جهة ورواسب الخوف التي لا تزال تملؤ نفسها من جهة أخرى ظنت أنه يريد أخذها لتبدأ تنفيذ حكم الأشغال الشاقة . . فأغمي عليها !

ولاده "معقل " في المعتقل !

كان مهجع السياسيات قبلنا غاصا كذلك بنزيلاته القادمات من شتى المحافظات : غزوة ك . من حماة ، وسناء د . من دمشق ، وأم معقل وولدها الذي ولدته في السجن أيضا ، وأم هيثم من جسر الشغور ، وأم عبد الباسط وابنتها عائدة وهما من الجسر أيضا ، وسنيحة وفاطمة من اللاذقية ، وأم محمود كامل من اللاذقية أيضا . ولكل من هؤلاء كانت قصة . . ولكل منهن مأساة وغصة . كانت غزوة طبيبة أسنان من حماة ساعدت بشراء بيت في دمشق للشباب الملاحقين ، ولكن عبد الكريم رجب اكتشف ذلك وأبلغ عنها فاعتقلوها من عيادتها في صوران ،

وفي البداية أحضروها إلى فرع الأمن السياسي بحماة ثم نقلوها إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق ، وبقيت هناك حوالي ٦ - ٨ أشهر أحضروها بعدها إلى قطنا لتبقى معنا إلى النهاية . أما سناء ر . فيبدوأن أحدا ما قد استعمل هويتها في شراء بيت وهي لا تدري ، وانكشف البيت بعدما تبين أنه باسمها فاعتقلوها وأتوا بها ، وسناء من مواليد١٩٦٥ وكانت معنا في كلية الشريعة ، وقد اعتقلوها في نفس اليوم الذي اعتقلت فيه ولكن الجهة التي فعلت ذلك كانت التحقيق العسكري ، وأثناء التحقيق معها سألوها عني ثم طلبوا منها أن تأخذهم إلى بيتي في دمشق ، وبالفعل ذهبوا معها إلى البيت وقدموها أمامهم لتقرع الباب ، فلما فعلت خرجت لها أمي وكنت بالطبع قد اعتقلت الليلة السابقة ولا يزال العناصر كامنين في البيت ، فلما رأتها أمي قالت لها إذهبي ولا تعودي ثانية في محاولة لإنقاذها من الإعتقال ، لكن الدورية التي وراءها والعناصر في الداخل سرعان ما اتصلوا معا وعلموا أن جهة أخرى اعتقلتني فعادوا بها إلى الفرع من جديد . وأما ثالثة السجينات مطيعة ح . أم معقل فكانت معلمة مدرسة شملها قرار تحويل المدرسين المشكوك في ولائهم للنظام وتحويلهم أواخر السبعينات إلى الوظائف الإدارية ، فمنعت من التدريس وتم تحويلها إلى أحد المستوصفات كموظفة إدارية . . وأثناء ذلك لوحق زوجها ولكنه تمكن من الهرب ، فأتوا واعتقلوها مكانه إضافة إلى اعتقال والده كرهينة! وكانت مطيعة أيام اعتقالها في أواخر الثلاثينات من عمرها وأما لأربعة أولاد، وتحمل الخامس في اخر شهور الحمل ، لكن ذلك كله لم يشفع لها ، فأتوا وأخذوها رهينة عن زوجها ووضعوها مؤقتا في مستوصف عسكري تابع للأمن السياسي بالجسر ، وهناك وفي الحجرة التي اعتقلوها فيها ونتيجة الخوف والتهديدات التي أسمعوها إياها جاءها الطلق على غير موعد ، فجعلت تدق الباب عليهم وتستغيث وهي تخبرهم أنها تضع مولودا دون أن يجيبها أحد ، فلما خرج المولود وعلا بكاؤه سمحوا لإحدى الممرضات بالدخول إليها لمساعدتها . . لكن كل شيء كان قد تم ! وبعد ذلك نقلوها والمولود إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق وبقيت هناك عدة شهور قبل أن ينقلوها إلى سجن قطنا فنلتقيهما هناك ولم يكن معقل قد جاوز شهوره السبعة أو الثمانية بعد . . ولقد أطلقت حليمة عليه اسم معقل تيمنا بالصحابي معقل بن يساراضافة إلى أنه ولد في المعتقل . . وعلى الرغم من أنها كانت غاية في الصبر إلا أنها ذاقت المر كثيرا من أجله ، وعلاوة على لوعتها المستمرة وهي ترى ابنها يقضي طفولته الغضة في السجن من غير ذنب ولا سبب ، وترى مستقبله مجهولا كمستقبلها رهن المهاجع والزنازين والسجون . . علاوة على ذلك الإحساس المؤلم فقد كانت أشد ما تعاني بشأنه وهي تراه بين أيدي الجميع ووفق هواهن . . وكل منهن تفرغ فيه شوقها لبنيها أو تسلي به مللها من رتابة الحياة حولها فتحاول أن تعلمه ما يروق لها حتى

ولو لم يرق للأم ! وتجذبه إليها أو تستبقيه معها حتى ولو لم يرضها ذلك ! ولقد تسبب لها بعض من ذلك بكثير من المشاكل والحرج . . فمن أين لا تدري بالتحديد تعلم الولد أول ما تعلم النطق أن يقول "طظ أسد". . فكان كلما سمع اسمه أو رأى صورته قال ذلك . . وذات مرة مرض معقل وازدادت شكاته فسمحوا بنقله إلى المستوصف للكشف عليه ، وهناك وهو بحالته تلك رأى صورة الرئيس معلقة ، فما أن راها حتى صاح "طظ أسد بين الناس . . ولم تدر أمه وقتها كيف نجت لكنها وفي مرة تالية وعندما أخذوها إلى المحكمة الميدانية كان لا بد وأن تصطحبه معها ، فلما كانوا أمام اللجنة التفت معقل فرأى تمثال رأس الأسد في زاوية الغرفة قريبا منه فبصق عليه وقال نفس العبارة ، فأمر الضابط باقتياد الأم وابنها فورا إلى المنفردة للتأديب ، فجعل معقل يبكي وهو يصيح "طظ أسد". . وصارت أمه كلما حاولت أن تسكته أو تسد له فمه ازداد صياحا وتردادا للعبارة . . وكان عليها أن تتحمل المعاناة في المنفردة من جديد بسببه أو بسبب من لقنوه العبارة وحملوها الثمن !

إثاره الشغب إ!

وممن سبقننا إلى قطنا أيضا كانت أم هيثم من جسر الشغور أيضا ، وهي أم لأربعة أطفال شارك زوجها في إيواء بعض الملاحقين ببيتهم فداهمته الخابرات واشتبكت معهم ، فقتل البعض وفر اخرون واعتقل أبو هيثم وزوجته وذاقا معا أشد أنواع العذاب . . وفيما تم إعدام الزوج فيما بعد كما ترجح أم هيثم فقد تم استبقاؤها في السجن بتهمة إثارة الشغب . . وهي نفس التهمة التي وجهت لأم معقل وأم عبد الباسط وابنتها عائدة في المحكمة الميدانية ولم يخرج هؤلاء جميعا إلا أواخر عام ٨٥ . وأماسميحة وفاطمة ، وهما بنات خال وبنات عمة من مرج خوخة بمحافظة اللاذقية فقد خرجتا مع مجموعة من أقربائهما الملاحقين الذين التجأوا إلى الجبال حول قريتهم . وكان عمر فاطمة وقتها١٥ سنة وسنيحة ١٦ سنة ، وكانت معهم بنت ثالثة اسمها غنية عمرها ١٨ سنة . وهناك في الجبل جلست البنات مع المجموعة الهاربة يطبخن لهم ويساعدنهم في بعض الأمور حتى جاءت عليهم فسادة فداهمتهم الخابرات وحصلت مقاومة انتهت باستشهاد غنية وبعض الشباب الآخرين ، واعتقال سميحة وفاطمة . وقد أخذوهما بادئ الأمر إلى سجن الشيخ حسن بدمشق ليومين أو ثلاثة لم تسلما خلالها من التعذيب ثم أحضروهما إلى قطنا . وفيما لم يسلموا غنية لأهلها ودفنوها بأنفسهم فقد تم نقل الشباب الذين اعتقلوا معهما إلى تدمر جميعا . وكان من نزيلات المهجع الثاني قبلنا أيضا سيدة من اللاذقية اسمها أم محمود كامل في الخمسينيات من عمرها ، ومي جدة وأم لأربعة أو خمسة أبناء . وكان اعتقال أم محمود قبل اعتقالنا بأيام فقط بتهمة مساعدة الملاحقين بتأمين وثائق سفر لهم عن طريق أحد أقربائها . وفي البداية تم سجنها في

كفر سوسة قبل أن نأتي هناك ولكنهم نقلوها بسرعة إلى قطنا . وقد تحدثت أهم عذبوها وضربوها دونما أية مراعاة لسنها ، وظلت في السجن بعد ذلك ولم تخرج إلا معنا .

تجسس مزدوج !

ومن نزيلات قطنا كانت أسماء الفيصل زوجة رياض الترك الزعيم الشيوعي المعروف ، وهي طبيبة في الخمسينيات من عمرها ، وكانت موجودة هناك في المهجع الثاني من قبل أن نأتي ، وأظن أنها كانت قد أمضت في السجن ثلاث سنين قبلنا ، لكنه تم الإفراج عنها بعد أشهر قليلة من لقائنا بها ، وبرغم قصر الفترة إلا أنها تركت في نفوسنا انطباعا حسنا عنها ولمسنا طيبها وحسن تصرفاتها معنا ، وذلك على العكس من أميرة زركلي التي كانت شريكتها في المهجع عند وصولنا أيضا ، وهي سيدة دمشقية كردية الأصل في الخامسة والأربعين من عمرها ، متزوجة من عراقي وتشتغل معه في السفارة العراقية ومتهمة بالتجسس المزدوج لصالح العراق وسورية معا ! وبعد اكتشافها سجنت في سورية فيما صدر عليها الحكم في العراق بالإعدام غيابيا وطلقها زوجها بعد ذلك ، وخرجنا من السجن وهي لا تزال فيه . وكانت هذه السيدة لا تكف عن إيذائنا وإثارة المشاكل معنا والحديث بالسوء دوما عن الإخوان ، وكانت لا تكف عن ترديد قولها على مسامعنا : - بكره شوفوا . . ستخرج كل السجينات وسجينات الإخوان جالسات ينظرن مساكين بأعينهن . . والذي حصل أننا خرجنا جميعا في النهاية وبقيت هي تنظر إلينا بأعينها سبحان الله . . ولم يفرجوا عنها إلا بعدنا بسنة أو ربما سنتين !

ضحايا!

كانت حياة السجن في قطنا مختلفة عن سابقتها بكفرسوسة لا ريب ، والميزات والتحسن الذي وجدناها نعمة كبرى ، لكن السجن يظل في كل الإعتبارات هو السجن . . والقيد قيد حتى ولو كان من ذهب . . وبعد أن يفقد الإنسان في السجن طعم الحرية تمتد بين ناظريه من ثم قائمة أطول من أن تعد من أصناف المشاكل والالام والمعاناة المتنوعة . . وعلى العموم كنا في النتيجة مجبرين على التكيف والتعايش . . نحاول كلما ضاقت علينا الحال أن نجد منفسا جديدا يعيننا ويهون علينا الخطوب . لم نكن نختلط في البداية مع السجينات القضائيات لأن الأبواب كانت تفتح لنا بالتناوب ، مجموعة في الصباح والأخرى في المساء ثم يعكسون الآية في اليوم التالي ، لكننا كنا نتكلم معهن من وراء القضبان ونستمع إلى قصصهن فنجد في ذلك بعض التسلية والترويح . . وكنا ننصحهن أحيانا ونريهن أغلاطهن ، لكننا وجدنا الكثيرات منهن كن ضحايا سوء تربية الأهل أو ظروف السوء التي أحاطت بنشأتهن . ولقد نجحنا ذات مرة في المساعدة على استنقاذ إحداهن من واقعها السيء ومستقبلها المظلم ، فنتيجة لخلاف معهم قام أهل هذه الفتاة

بطردها من البيت بلا رجعة ، فلم تجد من يؤويها إلا امرأة قوادة أخذتها إلى بيتها ومضت بها في هذا الطريق ، فلما أحسسنا أنها ضحية تدفع ثمن سوء تصرفات الغير سعينا للإتصال بباحثة اجتماعية كانت تأتي ضمن مجموعة من الباحثات لتعمل وسط السجينات ، وعلى الرغم من أن الإتصال كان محظورا بيننا وبين هؤلاء الباحثات أو حتى مع طلاب الحقوق الذين يحضرون دوريا لدراسة حال السجن والسجناء القضائيين ، إلا أننا وفقنا في الإتصال معها بطريقة ما ، وبعدما أطلعناها على رأينا ومعلوماتنا تفاعلت الباحثة معنا ومع السجينة ، ولم تلبث أن أخذتها إلى المحكمة وعالجت لها وضعها هناك ووجدوا لها من ثم شابا زوجوها إياه .

القروانة !

وإذا كان المقام هنا هو الحديث عن مواصفات سجن قطنا فإن من الطريف الإشارة إلى وضع الطعام الذي كنا نتناوله في هذا المترل الجديد ! فلقد كانت الوجبات الرئيسية تأتينا من سجن القلعة بحلل أو صواني معدنية ، لكن "القروانة" ما كانت تصل إلا وقد كدنا نموت كلنا من الجوع . . فلقد كان على السيارة أن تقل السجينات القضائيات إلى المحكمة وترجعهن وتأتي بالطعام في الطريق . . فإذا وصل أنزله الشرطة في باحة السجن وفتحوا للسجينات ليتجمعن ويتوزعنه بينهن . . لكن المشاكل والخناقات سرعان ما كانت تندلع : وضعتي لها أكثر . . وأقل . . ونريد هذه أن توزع لنا . . ولا نريد تلك . . ولا ينتهي الأمر إلا وقد تفرقت القلوب واشمأزت النفوس . . فلما ازدادت المشاكل عين مدير السجن غزوة لهذه المهمة ، وظلت المسكينة حتى خروجها موكلة بتوزيع وجبات الطعام على كل السجينات ! واذا كانت هذه كيفية توزيع الطعام فإن نوعيته كانت قصة أخرى . . فكثيرا ما كنا إذا حضرالطعام وبدأنا نحركه طفت الصراصير على سطحه أو تمهلت حتى نلتقطها بين الأسنان ! وكان اعتياديا أن تصلنا الصواني وآثار أقدام المرافقين منطبعة عليها وقد وطأتها أثناء النقل . . واذا بكر السائق في الوصول لسبب ما رمى "القروانة" على باب السجن الخارجي فتسبقنا الكلاب والقطط إلى الطعام قبل أن يحضر مدير السجن ويفتح الباب ! وصرنا لذلك نطلب من إحدى السجانات أن تشتري لنا - سرا بالطبع - مع طعامها شيئا نأكله . . وبعد ذلك سمحوا لنا رسميا بذلك فصارت أم ديبو السجانة الأخرى - تأتي بالأغراض وتبيعها لنا ولكن بأسعار مضاعفة إ! كذلك كانت هناك مشكلة أخرى في الماء الذي لم يكن يصل عبر الحنفيات في المهاجع ، وإنما كان علينا أن ننتظر وصولها إلى المهاجع بالتناوب من حنفية رئيسية في السجن مددوا منها خرطوما متفرعا على كل الغرف ، وكانوا يديرونه على المهاجع بالساعة ، ويتحكم كل مهجع بالمهجع الذي يليه إذا شاء . . وكان الماء لذلك أحد أسباب المشاكل بيننا ! وعندما حضر جهاز التلفزيون إلى المهجع بمرسوم من إدارة المخابرات

لتثقيفنا "ثوريا" وإطلاعنا على منجزات النظام الرائدة إ! حضر سبب جديد للخلاف بين النزيلات . . وكان من طرائف التلفزيون أن الحاجة رياض تصر على أن يلتزم الجميع الهدوء والسكينة ويصغوا باهتمام إلى كل نشرات الأخبار لعل خبرا يصدر بالعفو عنا فتكون أول من يتلقاه ! ولقد حصل فيما بعد وأثناء ما سمي ببيعة الأبد للرئيس الأسد عام ٨٥ أن صدر عفو بالفعل ولكن عن المتخلفين عن الخدمة العسكرية فقط ، لكن الحاجة رياض التي واظبت على سماع الأخبار انتظارا لمثل هذا النبأ سقطت فور سماع الموجز مغشيا عليها وهي تصيح : - الحمد لله سأرى أمي . . فلما سمعنا التفاصيل أسقط في نفوسنا وسقطنا مكسوري الخاطر ، لكنها كانت فاجعة بالنسبة للحاجة رياض . . بقيت أياما على اثرها غارقة في لجج الدموع والأحزان !

حريق !

ومما لا يغيب عن البال من أيام سجن قطنا النار التي شبت أكثر من مرة هناك شاهدا جديدا على قساوة الحياة التي نحياها وعنصرا اخر من عناصر الألم والتوتر والإضطراب التي تلفنا باستمرار . . ففي المرة الأولى اشتعلت النار في حمام مهجع القتل فالتهمت سجينة متهمة بقتل زوجها اسمها فاطمة . . وامتدت النار إلى المهجع كله فأحرقته وكادت تودي بحياة السجينات الأخريات . . ووقتها كنت أنا وماجدة على شباك مهجعنا المطل عليهن نقرأ القرآن بعد المغرب . . فجعلن ينادين علي وقتها ويستغثن بي ، لكن الأبواب كانت مقفلة علينا جميعا ، فجعلنا ننادي بدورنا على السجانة أم ديبو لتفعل شيئا ، لكنها لم تكن ترد علينا في العادة بعد إقفال المهاجع ولا تستجيب . . فلما وصلت ألسنة النار إلى ساحة السجن وغطى الدخان المكان كله وكاد الحريق يطال أشرطة الكهرباء وأوعية الغاز في المطبخ المجاور . . قرعت أم ديبو جرس الإنذار آخر الأمر . . وحضر العناصر يحاولون في ظلمة الليل تبين مصدر الحريق دون جدوى . . وفي النهاية وأثناء الهرج والمرج قامت إحدى سجينات المهجع نفسه فأطفأت ببطانيتها النار عن السجينة التي شبت بها النار وعن المكان . . لكن الناركانت قد التهمت جزءا كبيرا من جسد فاطمة فأسلمت الروح بعد أسبوع . . وكان أنين المسكينة طوال ذلك وهي في غيبوبتها يمنعنا النوم ويزيد من عذابنا النفسي . . ورائحة لحمها المتقيح تزكم الأنوف وتزيد في معاناتنا وألمنا . . وأما المرة الثانية فكانت في مهجعنا نفسه عندما اندلعت النار في "البابور" أثناء استحمام واحدة من البنات ، فقامت من اضطرابها بقفل الباب بدلا من فتحه والتجأت إلى الزاوية التي تقابله من الحمام ، فصارت النار بينها وبين الباب وكادت الأخرى تحترق ، لكن لطف الله تداركها وتداركنا . . فاضطررنا إلى كسر القفل ، ودخلت ماجدة جزاها الله خيرا فحملت البابور لا تبالي بالنار المشتعلة فيه ، فأخرجته إلى العتبة وألقته هناك ، واحترقت يدها بسبب ذلك .

رحمهم الله !

واذا كانت ميزات سجن قطنا المدني الإيجابية لا تعد قياسا بكفر سوسة ، إلا أن السماح بالزيارات كانت في طليعة ذلك كله . ولقد تنعمنا في فترة من الفترات بحرية المراسلة ، فكتبت إلى بيت أخي بحلب وبيت عمتي وحتى أم شيماء بالسعودية . . وكنت أتلقى البريد منهم جميعا ، لكن ذلك لم يدم أكثر من شهرين أو ثلاثة ثم عاد نظام الرقابة الصارم على الرسائل وعلى الكتب والمطبوعات ، فيما استمرت الزيارة الأ سبوعية كل يوم جمعة ولم تتوقف. كان الاهالى يتوافدون من شتى المحافظات الى سجن قطنا منذ الفجر يترقبون ساعة اللقاء . . وبعد أن يتجمعوا على البوابة ساعات طوالا ويعن على بال المسؤول يومها السماح لهم بالدخول يكون النهار قد انتصف عى أحسن الأحوال . . فيسوقونهم إلى قاعة الزيارة كأول خطوة ، وبعد أن يتم تفتيش "الزيارات " أو الهدايا والأغراض التي جلبها الزائرون فيستبعد ما قد يخالف التعليمات أو لا يوافق هوى العنصر القائم على التفتيش ، ويجاز المسموح أو ما يمكن أن ينال العنصر نفسه نصيبا منه أو عطاء عليه . . بعد ذلك يطل الزوار علينا وبيننا وبينهم حاجزان من القضبان بينهما ممر يبقى رجال الشرطة يتسكعون فيه يراقبون أحاديثنا ويتدخلون فيها بعض الأحيان وفينا إ! وكانت ليلة لا توصف ونحن ننتظر أول يوم جمعة بعد وصولنا لنطلب من أهالي السجينات قبلنا الإتصال بأهالينا وإخبارهم بانتقالنا وبمكاننا ، فلما حضر أهل غزوة حينها رجوهم أن يفعلوا ذلك مع أهلي لعلهم يحضرون الجمعة التالية ، ولم أكن أعلم أن أحدا منهم لم يعد على قيد الحياة وأنهم قد قضوا نحبهم قبل حوالي ثمانية أشهر في أحداث حماة ، لكن أهل غزوة كانوا يعلمون بالطبع ، علاوة على أن والدها نفسها استشهدت في الأحداث ، لكنهم عادوا في الأسبوع التالي واعتذروا بأنهم لم يعرفوا مكان أهلي بعد التغيير الكبير الذي حصل في المدينة . . وجعلوا يحدثونني عن الأحداث ولكن أحدا لم يذكر شيئا عن أهلي وعائلتي . . وفي الزيارة التالية حضر أهل رفيقتي سناء فرجوهم أن يذهبوا إلى دار عمتي في دمشق ويخبروها بانتقالي ، فلما اجتمعوا معها وعلموا أخبار أهلي منها أشفقوا علي ولم يتاؤوا إخباري ، وأجابوني في زيارتهم التالية أنهم لم يستدلوا على البيت ، وفي الزيارة التي تلتها قالوا أنهم ذهبوا فوجدوها مريضة ولم يسالموها عن أهلي ، وبدأت أحس أن في الأمر شيئا غيرطبيعي ،فلما ذهبوا قلت لسناء مواجهة : - تعالي لأقول لك . . أمك ذهبت إلى عمتي وعمتي قالت لها شيئا . . فماذا هناك ؟ هل مات أبي فلم تتمالك نفسها وردت بصوت خافت : الله يرحمه . قلحت : الله يرحمه . . إذا كان مات فالله يرحمه . فقالت لي : هكذا بكل سهولة الله يرحمه ؟ قلت لها وكأن ألم السجن يسهل على الإنسان كل شيء : الله يرحمه . . ماذا يمكن أن أفعل له إذا مات ؟ لو نطحت رأسي بالجدار فلن يرجع ! فوجدتها تبكي وبقايا كلام لا

تزال على شفتيها ، فقلت لها : هل مات أحد اخر معه ؟ فأشارت لي نعم برأسها . قلت لها : أمي ماتت ؟ قالت : الله يرحمها . صحت : ولي . . وأين إخوتي إذا ؟ فقالت لي : ذهبوا مع أمك . . لم ترض بأن تتركهم فأخذهم معها ! قلت لها : بماذا تخرفين . . هل تمزحين ؟ كل إخوتي ماتوا ! قالت : إي كلهم . . الله يرحمهم . . أليس ذلك أحسن من أن يبقى أحد منهم وينشغل بالك عليه ! قلت وأنا كمن يتخبط في كابوس مرعب : إي طيب خلاص . . لا تزيدي . وما عدت أريد أن أفهم أي شيء أو أسمع المزيد . . ولم تلبث عمتي وعمي أن حضرا في الزيارة التالية فلفت نظري أن وجدتها تلبس السواد وساكتها مستغربة : -عمتي . . لماذا تلبسين الأسود ؟ فقالت لي : هيك والله جاي على بالي الأسود ! قلت لها : هل توفيت جدتي ؟ قالت لي : لا . قلت : إذا لماذا تلبسين الأسود ! غمزني عمي بطرف عينه لأغير الموضوع ، لكنني لم أتمالك نفسي وقلت له : - عمي . . لماذا تغمزني ! هل هناك شيء ؟ قال لي وهو لا يريد إعادة القصة أمام عمتي التي صدمت جدا بما حدث : -لاشيء . . للأشيء حدث . فقلت لها من جديد : صحيح لماذا تلبسين الأسود؟ ترى نقز قلبي ! فابتسمت لي ابتسامة حزن وابتدرني عمي بقوله : - كيف تسالينها هذا السؤال . . ألا تعرفين الخبر ؟ قلت وكأني عدت إلى ذاكرتي تلك اللحظة وحسب : نعم . . عندي خبر بأن أهلي استشهدوا ، لكن أنا أسالها لماذا هي لابسة الأسود . . ولم يخطر لي أنها تلبسه على أهلي . . ونسيت أنها متشحة بالسواد حزنا على بيت أخيها ! فقال لي عمي وهو يراني أمامه أتصرف ببلاهة : إي حزنانة على أهلك . . هل فهمت ! قلت لها : أنظري ، إذا مرة ثانية ستأتين لابسة أسود لعندي فلا تأتي . . لأن الشهيد حي مو ميت ، واذا أردت أن تحزني عليهم لأنهم أحياء فلا تأتي لعندي.

وشاب الشهود !

كانت العبارة قاسية على عمتي ، لكن الحالة كانت أقسى على نفسي وأشد ، ورغم أن عمتي انفجرت وقتها في البكاء وأخذ عمي يهدىء من روعها فما سكتت إلا بصعوبة ، إلا أنها تفهمت حالتي لا ريب ، ولما عادت في المرة التالية أتت وقد غيرت السواد بالفعل . . لكنني لم أسمع قصة أهلي بالتفصيل إلا من أم ماجدة التي حضر والدها أول مرة فلم تكد تعرفه من الشيب الذي غطى رأسه والكرسي المتحرك الذي أقعده نبأ اعتقالها عليه ، فلما تأكدت أنه أباها جعلت تقفز من فرحتها وقد عقدت الفرحة لسانها فلا تستطيع الكلام ، فلما استدركت نفسها قالت لأبيها وكأنها تعتذر : - والله ما عرفتك . . تاري شايب . . فقال لها : والله شيبتيني يا بنتي ! وكان والدها حزبيا ضد الإخوان فتوقعت أن تكون لديه ردة فعل ضدها أيضا ، لكنه لما راها أول ما حضر بكى وهو يقول : - انظري . . أنا ات ورافع رأسي ولي الشرف والحمد لله . وفي الزيارة

التالية حضرت أم ماجدة فكانت فرحتنا معا بها لا توصف ، وأبلغتني أم ماجدة أول ما أبلغتني باستشهاد أخي وارف ، وقصت علي القصة من بداياتها ، فقالت بأن الخابرات كانوا بعد خروج أمي من السجن قد استبقوا كمينا في بيتنا وفي ظنهم أن إخوتي سيأتون للسلام على أمي بعد خروجها فيعتقلونهم ، فلما لم يجدوا جدوى من ذلك ولم يحضر أي منهم جعلوا يعتدون بالتعذيب على أبي ، فيخرجونه بين فينة وأخرى إلى حديقة كبيرة كانت أمام بيتنا على طرف العاصي ويعذبونه أمام الناس فيها ، فيضربونه مرة ، ويحرقون له ذقنه مرة ، ويجرجرونه في الشارع أخرى ، إهانة وإذلالا له وتخويفا لغيره . . وكانت أمي تخرج عليهم وهي تصيح وتدعو ، فيقول لها مسؤول الدورية : - سلمينا أولادك لنكف عن زوجك ونعطيك ابنتك . . فترد عليه بتحد كعادتها : سلمني إياها بيدي . . حتى أراها بعيني وأمسكها بيدي لأقول لك أين بقية أولادي ، لكن والله طالما أنها غير موجودة أمام عيني فلن تأخذ شيئا ولو قتلتني . ثم كانت الفاجعة التالية حينما استشهد أخي وارف في حلب (وكان عمره ١٨ عاما وحسب) أثناء مداهمة بيت أوت إليه مجموعة من الملاحقين كان من بينهم وذلك قبل ١٦ يوما فقط من استشهاد أهلي ، وبرغم الفاجعة فإن أمي اثرت أن تكتم الخبر عن أبي وهو بحالته تلك فكانت تذهب عند أم ماجدة وتخرج صورة وارف هناك وتبكي عليها ما شاءت حتى تطفىء حرقة قلبها فتعود إلى البيت . . لكن ذلك لم يمنعها أن تحاول زيارتي في السجن بأي وسيلة ، ولم تمنعها النوازل أن تمضى إلى كفر سوسة مع أم ماجدة مرة فتقابل ناصيف من جديد وتساس إذنا بزيارتي ، فكان كل الذي أجابها به : - والله آسفين ، هذا الإسم غير موجود عندنا ! فكادت أمي - كما روت لي أم ماجدة أن تجن . . وعندما تركت مكتبه وقفت أمام نافذة مهجعنا المطلة على ساحة الفرع الداخلية والتفتت إلى أحد العناصر من لهفتها تساله راجية أن يخبرها ولو بإشارة من طرف عينه إن كنت لا أزال هناك أم لا ، لكنها لم تحظ حتى بتلك الإشارة وغادرت ملوعة القلب دون أن تراني أو تسمع عني أي شيء . . وظلت وظلوا جميعا على حالتهم تلك حتى كانت بداية الأحداث في حماة .

شهداء أحياء

كنا لا نزال في سجن كفر سوسة حينما تفجرت أحداث حماة الشهيرة في شباط ٨٢ لكننا في عزلتنا المفروضة وقتذاك لم نسمع بأدنى خبر عنها ، وعلى الرغم من تسرب بعض الأنباء لبعض البنات بيننا إلا أن المقدم ناصيف حذرهن أشد التحذير من أن يتحدثن عنها أو أن يعلمنني بشيء عن مصيرأهلي ، فلما نقلنا إلى قطنا بدأ الخبر يصل إلي والقص التي لا تصدق والفاجعة الرهيبة تبلغني من هنا وهناك ، فلما حضرت أم ماجدة روت لي المزيد من تفاصيل ما جرى وخاصة فيما يتعلق بأهلي رحمهم الله ، وقالت بأن البداية كانت حينما رأت في منامها أن إخوتي الصغار ينامون

على سرير واحد ولكنهم غارقون في الماء ، وأحسست أهم برغم غرقهم فقد كانوا يتمايلون في الماء الصافي وهم أحياء . . ثم رأت أمي تدخل وترقي عليها فتنقسم في حجرها إلى قسمين . . فلما استيقظت حدثها قلبها بأن أهلي في خطر، فقامت من فورها ورجت زوجها أن يذهب ويستطلع أمرهم ، ويجهد لكي يعود بهم معه إلى البيت ، ولما كان أهل ماجدة قد انتقلوا من "حي الطوافرة" الذي جاورونا فيه طويلا إلى حي جديد على طريق حمص ، مما جعلهم عمليا من سكان الضواحي ، فقد كان عليه أن يقطع مسافة طويلة حتى يبالغ محيط المدينة القديم ، فلما خرج بعد صلاة صباح ذلك اليوم وشارف حماة وجدها مطوقة من كل مداخلها ، فلم يستطع التقدم أكثر وعاد ناجيا بنفسه . . وانفجرت الأحداث . . وعم القتل والتدمير . . وانقطعت حماة عن العالم بينما المذابح تجري في شوارعها وأهلها يموتون بالمئات . . وأثناء ذلك حاولت عمتي من جهتها الذهاب من دمشق إلى حماة لاستطلاغ حال أهلي ومساعدتهم في شيء ، ورغم أن محاولتها تلك كانت انتحارية لم يوافقها عليها حتى زوجها ، إلا أنها أصرت على المحاولة ، وتمكنت من دخول المدينة بالفعل حتى شارفت على الحي الذي نسكن فيه ، إلا أن القوات العسكرية ردتها من هناك وما سمحوا لها بالإستمرار ، ووقتها كانت أربعة أيام قد مضت على أبي وهو ملقى في الشارع لا يجرؤ أحد حتى على رفع جثته !

كسره خبزو حسب !

أما حادثة استشهادهم فبدأت عندما اعتصم أفراد من المقاومة في حينا واستعصى على القوات الحكومية اقتحامه ، فأحكموا الحصار حوله ومنعوا المؤن والكهرباء والماء عن الحي كله ، واستمر الحصار لسبعة أيام كما سمعت حتى لم يبق في بيتنا من الطعام أو الماء شيء ، فخرج أبي وجعل يسأل طليعة القوات المحاصرة بعض ما يقيت الأطفال ، وروى لي خالي الذي كان يشهد الحادثة من شباك بيته المطل على المكان أن الجندي انتهر أبي وأمره بالعودة من حيث أتى ، لكن أحدا لم يكن ليستطيع أن يسكت جوع الأطفال ، فخرج أبي مرة أخرى يقول للجنود : -فقط نريد قطعة خبزللصغار. فأجابه الجندي منتهرا : إرجع أحسن ما أرشك وأرميك بالأرض . لكن ذلك لم يرد أبي إلا لبرهة ، عاد للمرة الثالثة بعدها يسالهم خبزا فالأولاد يكادون يموتون . . في تلك المرة لم يجبه الجنود إلا بزخة رصاص أردته على باب بيته . . وصاح خالي من بيته المقابل وسقط من هول المنظر مغشيا عليه ، فلما ركضت زوجة ابنه لتحمله لمحها الجنود فالقوا على البيت قنبلة ضوئية لتكشف كل ما فيه واقتحموا عليهم وانتشروا في كل مكان فيه متدرعين بالنساء والأطفال فيه . . في تلك اللحظات وعندما سقط أبي برصاص الجنود سمع أخي ماهر الصوت من قبو البيت حيث كان الجميع قد التجأ فخرج ليستطلع الأمر ، فلما رأى أباه صريعا أمامه ارتد إلى

حجرته وتناول سلاحا كان "شبيبة الثورة" قد سلموه إياه ليدافع عن أمن الثورة" ولم يكن عمره قد جاوز الثالثة عشرة بعد ! واندفع ماهر خارج البيت يطلق النار على الجنود الذين قتلوا أباه ، فأصاب منهم من أصاب قبل أن يردوه هو الآخر قتيلا . . ولقد قال ناصيف خير بك لماجدة ولبقية رفيقاتي بعد ذلك عنه بكل صراحة : -أعطيناه السلاح ليحمينا به فقتلنا به . . هؤلاء كلهم خونة . . ولذلك جعلنا الصغير فيهم أربع قطع لأن بذرته إخوان وكان سيطلع إخوان ! بعد ذلك خرجت أمي تدعو عليهم وتبكي وتستنزل اللعنات ، فأكملوا جريمتهم ورشوها أمام الباب أيضا . . ثم دخلوا على البيت فأجهزوا على كل من بقي فيه : ياسر ابن أربعة أعوام ، وقمر ابنة خمسة ، ورنا في السادسة ، وصفا التي كانت قد دخلت المدرسة في أول سنة لها وقد بلغت لتوها السبعة أعوام ، ثم أختي ظلال التي كانت في العشرين تقريبا . . وأما أخوتي الثلاثة المتبقين فكان صفوان أولهم خارج سورية ، وغسان وسامر متخفيان في حلب ، فكانوا الناجين من بين بقية الأسرة التي قضت جميعا ، وبالطبع فقد تم جمع جثث الجميع مع بقية القتلى في البلد ودفنوا في مقابر جماعية دونما تمييز وذلك قبل أن يتم رفع حظر التجول ووقف القتل والتدمير بأيام . . وعندما تمكن الناس من الخروج من مخابئهم اخر الأمر وتوجه عمي وزوجته ليروا ما حدث لم يجدوا إلا غطاء رأس أمي عند بوابة البيت وسط بقعة كبيرة من الدم ، ووجدوا على جدران القبو وفوق أرضه دم إخوتي البقية ولا أثر لجثة أي منهم .

حي على الجهاد

وأما أخي عامر الذي كان في الرابعة عشر من عمره فقد استشهد في نفس الفترة بعيدا عن أهلي في شارع ٨ اذار . وكانت أمي قد أرسلت عامر ليجلس مع جدته في بيت أخيها المسافرإلى السعودية حتى لا يأتي المخابرات ويجدوا البيت خاليا فيسرقونه كعادتهم ، لكنهم لما أتوا للتفتيش فعلوا ما هو أسوأ . . فعندما وجدوا عودا من ممتلكات خالي جلسوا يدقون عليه وقد انهمك بقيتهم في العبث بمحتويات الغرف الأخرى بلا رقيب أو حسيب ، ثم طلبوا من جدتي وسط قهقهاتهم الفاجرة أن تقوم فترقص لهم ، في الوقت الذي اختبأ عامر تحت السرير فما وجدوه ، ومن رعبها وخشية منها أن يتمادوا معها أو أن يعثروا على أخي قامت جدتي بسنها الذي قارب السبعين فامتثلت ورقصت بهيبتها ووقارها وتقاها لهم . . فلما انصرفوا وقد نهبوا ما أرادوا وحطموا أكثر مما نهبوا نادى مناد في المآذن ا احي على الجهادا ا . . فخلع أخي ساعته وتوضأ وصلى ركعتين سنة الشهادة ودفع إليها بالساعة وقال لها : - هذه الساعة ذكرى مني خليها معك وأعطيها لأمي ذكرى وادعي لي .. وخرج راكضا وجدتي تناديه أن يا عامر تعال وهو لا يستجيب . . ورأته آخر ما رأته وقد دخل سوق الطويل حيث كان الإخوان يعتصمون بداخله ،

ولم يخرج بعدها إلا مرة واحدة طرق الباب فيها على إحدى القريبات حافي القدمين ممزق الثياب يسالها أن تمنحه أي نوع من الطعام أو اللباس لديها ، وأخبرها بأن رفاقه يكادون يموتون من الجوع والبرد . . ولم يكن لدى هذه العائلة من الأولاد إلا البنات ، فاحتارت أول الأمر ، ثم أعطته ما توفرمن جاكيتات وكنزات كبيرة الحجم يمكن للشباب أن يستخدموها ، وأعدت له بعض الطعام وأشياء أخرى أخذها وذهب ، وفي اليوم التالي وجدوه مستشهدا في نفس الشارع ، فأتى رفاقه ودفنوه مكان مسجد هدمته المخابرات ، وبعد انتهاء الأحداث حفروا ثانية ونقلوا الجثة إلى المقبرة ، ولكننا لم نعرف للأسف أين بالتحديد لأن الذي دفنه استشهد أيضا ! وهكذا تلقيت نبأ استشهاد والدي وخمسة من إخوتي مرة واحدة ، وبلغني الخبر الذي كانت البنات تخفينه عني طوال شهور رحمة بحالي وإشفاقا على ، إلا أنني سبحان الله لم أحس الخبر مفجعا كما ظن الآخرون ، ولم أحزن عليهم حزني على أحبة فقدهم لأنهم في حالتهم هذه شهداء إن شاء الله . . وكل منا يدعو الله متمنيا أن يرزقه الشهادة كرما منه سبحانه وفضلا ، فكيف يحزن إن أكرم الله بها أحب الأحبة وأقرب الناس إليه ؟ إننا نخاف من الموت فقط حيث الحساب والسؤال والإمتحان. . وأما الشهادة فهي الحياة الحقيقية ، وهي النعمة التى لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

إبر للعقم . . لا للألم !

ومرت الأيام . . وعادت دورة الحياة المملة ومعاناتها تجثم على الصدور أثقل من الصخر الأصم . . ثم لم ألبث أن سقطت فريسة أمراض متتالية لم أعهدها في نفسي من قبل . . ووجدتني أسقط من ثم بيد طبيب حاقد من أبناء طائفة النظام أسوأ من قطاع الطرق . . اتخذ المرض ذريعة ليفعل بي ما لايخطرعلى قلب إبليس ! كان الدكتور سمير كما ينادونه طبيبا زائرا مكلفا بعلاج القضائيات في الأصل ، فلما ازداد عدد السجينات السياسيات وتزايدت مشاكلهن الصحية جعل يخصص بضع دقائق من وقته بين الحين والاخر لمقابلة أصحاب الحالات الشديدة منهن ، ولا يزيد عن أن يعطي أسوأهن حالا بعض حبوب مسكنة لا تنفعهم بشيء ! وكان سميرهذالئيما جدا نحس أنه يعاملنا معاملة مخابرات لاطبيب وعندما نشكوله شيئا لا يزيد عن أن يهزأ بنا ويكرر علينا عبارة واحدة بشكل آلي "ما فيكم شيء ! ! . . حتى أننا لكثرة ما سمعنا عبارته تلك لم نعد نساله شيئا اخر الأمر . وكنت في البداية وعندما أخذت القرحة التي ورثتها من كفر سوسة تشتد علي الامها قد طلبت مقابلته وشرحت له حالتي وحدثته بما أعاني ، لكنه قاطعني في نصف حديثي ولم يزد عن أن قال لي : - هذه الأعراض لا دواء لها ، وعليك أنت أن تعالجي نفسك بنفسك ! وأكرمنا الله وقتها حين بدأ قريب إحدى السجينات معنا وهو طبيب متمرن بالتردد علينا وتقديم الأدوية والعلاجات اللازمة لنا بالسر غالب الأحيان ، والتي وجدت عليها تحسنا كبيرا وبدأت أتعافى من قرحتي شيئا

فشيئا ، لكن أعراضا أخرى بدأت تنتابني خلال ابتداء دورتي الشهرية تصحبها الام شديدة ، فاضطررت من شدتها مرة أن أطلب مقابلة الدكتور سمير مرة أخرى وأساله ولو نوعا من المسكنات يخفف عني الألم ، ولم يلبث بعد أيام أن استدعى الحاجه مديحة وقال لها أنهم شكلوا لي لجنة للنظر في هذا الوجع الذي يأتيني وقرروا لي العلاخ ، ووجدته يرسل لي علبة إبر أخذت اثنتين منهما بالفعل قبل أن يأتي الطبيب من جديد فتحدثه قريبته بالموضوع ، فلما سالها أن يرى الإبر وأتت بها إليه لم يصدق ما يرى ، وصاح فيها وقد تملكه الذهول : -هذه إبرللعقم لا للالم وهرع غاضبا ذهب إلى موفق السمان مدير المنطقة ورئيس السجن وحكى له ما حدث ، ومن غير أية مقدمات انقطع الدكتور سمير عن الحضور إلى السجن وانقطعت أخباره . . لكن أحدا لم يأت ليحقق في تلك الجريمة أو يستفسر عن حالتي . . مثلما لم يأت طبيب اخر مكانه ولم يحضروا أي بديل .

بول أم دم !

ذهب الدكتور سمير إلى حيث لا أعرف . . لكن الألم لم يذهب . . والبلاء لم ينته . . وسرعان ما بدأت أحس أعراضا مغايرة في منطقة أخرى من جسدي . . وبازدياد نوبات الألم الذي استمر شهورا أغالبه ويغالبني حتى غلبني في النهاية تبين لي أنه التهاب الكلى . . فصار الدم يخرج مع البول مني وحصل معي استفراغ متواصل واسهال مستمر ، ومع استمرار الظروف الصحية السيئة تفاقمت الحالة حتى فاقت أي احتمال . . وأمضيت شهر رمضان من عام ١٤٥٤ (يونيو ٨٤) كله على هذه الحال لم أستطع بالطبع أن أصوم يوما واحدا منه ولا حتى أن أصلي . . ولم تكن زميلاتي في المهجع يستطعن النوم من كثرة تأوهي ونحيبي ، ولم أعد أستطيع من شدة ضعفي القيام حتى إلى الحمام ، فكانت البنات يحملنني إليه حملا . . وفي تلك الفترة انتشر الفسفس في السجن فكان ابتلاء آخر زيادة على ما أنا عليه ، وكان إذا سكنت الامي لحظة تقدمت هذه الحشرات المقيتة لتذيقني بعضاتها طعما جديدا من الألم ! وكانت ماجدة جزاها الله خيرا وأجزل ثوابها تسهر الليل عند طرف وسادتي لتلتقطهم عني بيديها ما وسعها الجهد والجلد . . وفي النهاية وعندما قاربت بالفعل على الموت تدخل العميد موفق السمان وسمح بإخراجي على مسؤوليته الخاصة وعرضي على طبيب مختص ، وأخذوني بالفعل بسيارة الشرطة وداروا بي في قطنا حتى وجدوا طبيبة أخصائية أمراض الكلى فحصتني وأعطتني إبرة مسكن وقالت لهم أنني أحتاج إلى تحليل ، فلما أخذوا البول ليحللونه سأل المحلل السجانة التي أخذته : - هل هذا دم أم بول . . أو أن الزجاجة لونها بني ؟ وبعد ظهور النتيجة وصفت لي الطبيبة ست إبر كل اليوم كانت تعطيني إياهم أم معقل بنفسها ، لكن أجنابي تعقرت ولم أشعر بأي تحسن . . فقامت إدارة السجن أخيرا

بإرسال كتاب إلى أمن الدولة بكفر سوسة شرحوا لهم فيها حالتي وطلبوا إذنا لأخذي إلى مستشفى المواساة ، فأتت الإجابة بالموافقة المبدئية معلقة على تقرير الطبيب هناك ، ووجدتني في اليوم التالي محمولة في سيارة الشرطة إلى هناك وأنا أقرب للغيبوبة مني إلى الصحو . . وهناك وجدت جمعا من الطلاب التفوا حولي كأنما يريد كل منهم أن يتدرب فيَّ ، وتقدمت طبيبة من بينهن فخلعت عني جلبابي وفحصتني بشكل سريع ثم أعطتني إبرة مسكن في الوريد لم أعد أحس بعدها بشيء . . وعندما استعدت وعيي وجدتني في المهجع من جديد تتحلق البنات حولي وكأنني في النزع الأخير ! وسرعان ما انتهى مفعول إبرة المسكن دون أي تحسن ، فعادوا بعد يومين أو ثلاثة وأنزلوني إلى المستشفى مرة ثانية ، وتكرر ذلك ثلاث مرات أو أربع لم أزدد فيهن إلا رهقا وثقوبا في أوردة الساعدين ! وفي المرة الأخيرة أبلغت صديقتنا السجينة قريبها الطبيب فوجدته يستقبلني هناك ومعه أخي وابنة عمي التي كانت تتدرب في نفس المستشفى ، وقاموا فور استلامي فأخذوني إلى الطابق العلوي حيث تشتد العناية وتأخذ الفحوصات مسارا جادا هناك . . وهناك وجدت من عجائب الأقدار أحد الأطباء يهرع إلي فينتحي بي جانبا ويسالني بانفعال : - ألست أخت صفوان دثغ ؟ قلت له :نعم . قال والكلمات ترتجف على شفتيه من التأثر والإرتباك معا : ماذا حدث له . . ولماذا أنت مسجونة؟ ولم يدع لي الفرصة للجواب الذي لا يخفى فقال وهو دامع العينين : -معليش بيعين الله . . وأسر لي وهو يكمل فحوصاته بأنه كان وصفوان زملاء في الكلية ، وأنه لذلك سيجهد لكي يبقيني في المستشفى لاستكمال العلاج . . إذا تمكن . ولما كتب ذلك في تقريري ومضى به إلى مدير المسمتشفى وافق عليه شريطة موافقة الجهات الأمنية . . وبكل طيب وحسن خلق تقبل الخبر الشرطي الذي كان مكلفا بمرافقتي ، وطلب مني الإنتظار على باب المستشفى مع أخي ريثما يمضي فيحضر الموافقة من سجن القلعة .

فرصة ذهبية للهرب !

مضت سيارة الشرطة ووجدتني من شدة ضعفي لا أستطيع أن أرى الدرج أمامي وأصبت بالدوار ، فجرني أخي من يدي وأنزلني وكأنني عمياء ! وجلسنا في الخارج على كرسي للإنتظار وحيدين لا رقيب علينا ولا حسيب ، عندها سالني أخي : - ما رأيك لو أهربك الآن ؟ قلت له وأنا لا أكاد أجد للحرية مع السقام والإعياء معنى : - لا أريد . . سيلقطوننا من على الحدود ويرجعوننا فيزيد بلاؤنا بلاء . ولم تمض دقائق حتى عادت سيارة الشرطة وأطل العناصر من نافذتها يسالوننا إن كنا نفضل الذهاب معهم بدل الإنتظار الممل فوافقنا . . وجعلت السيارة تخترق أحياء دمشق متجهة نحو قلعتها التي تتوسط أحياءها القديمة ، ووجدت الناس كل في شغله بين بائع و مشتري ، وطالب وعامل ، وموظف وتاجر . . كلهم غارقون في دوامة الحياة يشغلهم تأمين احتياجاتهم

الأولية عن ذاك الذي يجري بينهم دون أو يبصروه أو يسمعوه . . وترهقهم مشقة الحياة عن أن يلتفتوا ليتفكروا إلى أين تمضي قاطرة الظلم بالوطن ! فلما وصلنا سجن القلعة وهرع أحد عناصر الشرطة الذين يرافقوننا بيده الأوراق يأمل أن يجد لها توقيع الموافقة ارتد بعد هنيهة مكسور الخاطر وقد نال الطلب الرفض . . لكن نفسي التي اعتادت الإحباطات باتت تتقبلها بدون انفعال . . وقفلنا راجعين إلى سجن قطنا أكمل مع نزيلات المهجعين أيام الأسر والمعاناة . . وكثف الطبيب قريب زميلتنا زياراته محملا بالأدوية والعلاجات ، وبالمواظبة على تناولها تحسنت حالتي شيئا فشيئا ، وبعد مضي شهر كامل تمكنت من الخروج إلى الحمام أول مرة بدون مساعدة من أحد ، وبقيت سنتين تاليتين لا أشتغل أي شيء في الغرفة مثلما يتوجب علي ، وظلت رفيقاتي يجزيهن الله الخير يحمنني خلال ذلك ويغسلن لي ملابسي . . ويستتفدن من أية فرصة متاحة ليحضرن لي ااالطعام الصحي والعصير والمقويات .

الولد الضائع

كانت حياة السجن مزيجا من المعاناة والغرابات ، ففي هذا المجتمع الفريد تتوقع أي شيء في أي وقت ، وتقابل من أصناف المشاهد غير المعتادة ما لا يعد . . وتظل الأيام حبلى والمغيبات أسرار وألغاز حتى يحين الميعاد ! وعلى غيرميعاد وخارج كل التوقعات بدأت قصة ذلك الغلام الضائع الذي التقطه الشرطة من حي من أحياء دمشق . . وبما يفوق شتى التوقعات انتهت من غير ميعاد قصته الغريبة ! كان منظرا مؤذيا للشعور أن ترى غلاما لم يمد يبلغ السادسة من عمره سجينا على غير إرادة منه في غرفة المتهمات بالدعارة إ! لكن الشرطة الذين التقطوه تائها في دمشق وضعوه هناك انتظارا للعثور على أهله ،غير أن شهورا خمسة انقضت دون أن يظهر له أهل أو أقارب ، وكان مما يزيد في الحسرات أن الفتى أخرس لا ينطق ولا يتكلم حتى باسمه . . فصار الجميع ينادونه أحمد . وكأنما وجدت السجينات في أحمد هذا الخادم المطيع ، فكن يأمرنه وينتهرنه ويضربنه في بعض الأحيان . . وذات مرة وأنا جالسة بعد الإفطار في رمضان اكل بعض الحلوى على شباك المهجع - وكانوا يفتحون كل المهاجع للتنفس بعد الإفطار - وجدت أحمد يقترب مني محملقا في الصندوق وهو يمد يده ويقول : - أعطيني واحدة . لم أصدق أذني في البدء . . فطوال الشهور المنصرمة لم نسمع الولد ينطق ببنت شفة . . وها هو ذا الآن يتكلم ! فلم أتمالك نفسي ووحدتني أصيح : -يابنات . . أحمد حكى . فلما قلنا ذلك للشرطي تأثر وقال : - اتركوه إذا عندكم . يبدو أن جو الغرفة هناك لم يعجبه. فلما التففنا حوله وجدناه يتكلم بشكل طبيعي ، وجاءت الحاجة فسالته أول ما سالته عن اسمه ، فقال : -أحمد بدر الدين . سالته : من أين أنت أبوي ؟ قال : أنا من حماة . قالت وقد تعجبنا كلنا من الجواب : وماالذي أتى بك إلى

الشام ؟ قال الفتى ومسحة انكسار جلي ترتسم على ملامحه: أنا لموني مع الأولاد الذين لموهم في حماة بعد الأحداث وأتوا بي ووضعوني في الجامع الأموي ثم لم أعرف أين أذهب . سالته الحاجة : وأين أهلك ؟ فصاريكي ثم قال لها : ماتوا . سالته : كيف ؟ قال : أرسلتني أمــي عنــد أبي إلى الدكان فوجدت الحائط واقعا فوقه وهو ميت والدم طالع منه . . ذهبت إلىالبيت أبكى أريد أن أخبر أمي فوجدتها مقتولة أيضا ! والتفت الفتى نحو الحاجة باضطراب وقال لها : لا تقولي لأحد . . إذا سمعت أحدا يذكر اسمي فهذا معناه أنك أنت التى تكلمت . . أرجــوك لا تقــولي لأحــد وتفهمنا جميعا حالة الطفل وتفطرت عليه القلوب . . وصارت له الحظوة والمترلة بين البنـــات . . وذات يوم وبينما كنت أخيط مرة على ماكينة يدوية كان أهل رغداء قد تمكنوا من إدخالهـــا الى السجن بعد جهد كبيروجدته يقول لي :منشان الله شيلي هالماكينه من وجهى لا أحـــب أن أرى أحدا يخيط . ". قلت له : لماذا ؟ فبكى . . فجعلت الحاجة تسايره وتلح عليه حتى تكلم وقال : - لأن أمي كانت خياطة ، وكانت لديها ماكينة تشبه هذه الماكينة التي مع هبة . . وكانت أمـــي تضع غطاء صلاة مثلها أيضا وتجلس لتخيط وفي مرة ثانية وكنا ننادي عاشة بعيشة فقال للحاجة :منشان الله لا تنادوها عيشة . قالت له : وماذا تريد أن نناديها ؟ قال : نادوها أم النظـــارات . سالته : ولماذا ؟ قال : لأن أمي اسمها عائشة . قالت له : وأبوك . . ماذا يشتغل ؟ قال : عنـــده مكتبة قرآن بالحاضر . سالته :أين ؟ فوصف لها المحل وصفا دقيقا كأنه يراه فازددنا تـــأثرا عليـــه وتعاطفا معه . . وجلس أحمد معنا وهو يبدع يوما بعد يوم على غير كل الأولاد . . كان ولـــدا عبقريا بالفعل . . لا توجد طبخة ولا خياطة ولا شغلة إلا وتعلمها . . وكان يؤذن أجمـــل أذان ويتلو القران أحلى تلاوة . . واذا دعا بعد الصلاة يقول : اللهم أنزل قنبلة على ســـجن تـــدمر! وسمع المقدم موفق السمان مدير السجن بقصة الفتى ، فلما التقآه عطف عليه وصار يأخذه معـــه إلى البيت فيحممه ويدلله أيما دلال ، وكان للمقدم بنت وصبي متقاربان في العمر مع أحمد ، فصار يأخذه معهما إلى المسبح ، ووضع له سائقا خاصا ليتنقل به بين السجن والبيت ، وأخذه مرة إلى المحل الذي يشتري منه احتياجات بيته ، لكن الولد تعلم على المكان فصار يـــذهب إلى البـــائع وحده يقول له أعطني كذا وكذا على اسم العقيد ، ثم يضع هذه الأشياء بصندوق ويـــذهب إلى محطة القطار فيبيعهم فيه ويرجع إلى السجن عندنا ، فإذا حضر المقدم يسأل عليه رآه بيننا ، وإذا غاب عنا نظنه عند المقدم . . حتى إذا حان اخر الشهر وجد المسكين فاتورة كبيرة عليه لم يدر من أين ، فلما استعلم أخبره البائع أن أحمد كان يشتري على اسمه . . فسكت !

شخصيتان . . وصفعتان !

وانتشر صيت أحمد وذاع حتى بين الأهالي ، فصاروا إذا حضروا لم يغب نصيبه من الهدايا ، واذا انصرفوا تنافسوا من سيأخذه ليزور عنده . . وصار أحمد حكاية وتنعم إلى حد البطر . . وصار إذا قالت له واحدة منا : لم فعلت هذا؟ رعف بسرعة وأغمي عليه وأخذمع الأيام يحب أناسا ويكره اخرين ! ولا يتورع أن يرمي العداوة بين واحدة وأخرى وتكشفت له قدرات رهيبة في هذا السياق . وذات مرة لم يعجبه في عائشة شيئا ما فمضى إلى الشرطي وقال له : -عيطت علي . فانفعل الشرطي حنوا على الولد وقال لها : إذا تكررت الحادثة مرة ثانية فسأمنع عنك الزيارات ! وكأن قلبها كان دليلها بالفعل ، فلقد قالت لنا مبكرا إن لهذا الولد شخصيتان . . وهو غير طبيعي . لكن الأمورلم تتكشف حتى ظهيرة يوم كان مقررا أن يذهب أحمد فيه ليزور أقارب للحاجة في حمص ، وبينما كانت الحاجة تلبسه البوط الجديد وقد أجلسته في حضنها وقف أحد الشرطة في الخارج ونادى : - سمير جفان . فما وجدنا الولد إلا وقد تفجر الرعاف من أنفه وأغمي عليه . . فقالت له الحاجة مستغربة : -على من كنت تصيح ؟ قال لها : ألم تري كيف وقع صاحبكم على الأرض ؟ قالت له : لماذا ؟ قال : هذا ليس اسمه أحمد . . هذا اسمه الحقيقي سمير جفان . . ألم تروا صورته قبل مدة في التلفزيون ؟ وتذكرنا وقتها أنهم أعلنوا بالفعل عن ولد ضائع وعرضوا صورته ورأيناها ، ولكن أحدا لم يخطر على باله وقتها أنه هو نفسه . . وتذكرنا كذلك أنه عندما رآها حينذاك أسرع فأطفأ التلفزيون وكأنه يلعب " وبين الحيرة والعجب جعلوا يغسلون له وجهه والدم يدلق من أنفه دلقا ، ثم لم نجد إلا رجلا كبيرا في السن يقف على الشبك وهو يبكي ويطرق رأسه عليه . . فعلمنا أنه أباه ! وهنا دخل الشرطي فأخذ الولد للمقدم ، فلما ساله : - من علمك أن تقول أن اسمي كذا وتدعي بأن أهلك استشهدوا في الأ حداث ؟ قال له : هبة . قال له : أكيد هبة ؟ قال له : نعم . . أنا ما الذي يدريني ؟ هي كانت تعلمني وتقول لي إحك كذا واعمل كذا . ولم أجد إلا وقد ناداني المقدم لمقابلته ، ومن غير أن أعي ما الذي يجري نزل بي بهدلة يقول : - الله لا يعطيك العافية . . تريدي أن تسيئى إلى سمعة الدولة . . أنت حاقدة . . لئيمة . . أنا فكرتك غير ذلك . . فقالت له الحاجة مديحة التي تبعتني : طول بالك أبوي . . ماذا حدث ؟ فقال لها : هي تريد أن تترع سمعة الدولة . . هذه حاقدة . . قلبها مليان . . سالته : لماذ ا ؟ قال لها : هي علمت الولد يقول كل هذا . . . قالت له الحاجة : تعال أقول لك . . كل البنات قربوا صوبه إلا هي لا سايرته ولا شيء . فردني المقدم إلى مكاني وقد ازداد تعجبه وحيرته . . وعادت الحاجة معي تهدئ من روعي . . فلما قابلت الشرطي أثناء رجوعنا سالته أن يشرح لها ما الذي يجري . . فقال لها : -هذا الولد يخرب بيته . . عمال يلعب علينا كلنا كبيرنا وصغيرنا ويدعي اليتم وهو له أهل . . وأضاف : وهذه أمه وهذا أبوه المسكين يقولان الآن بأنه

يعمل فيهم مثل هذا الفصل بين كل فترة وفترة . . فيهرب من البيت ويختلق القصص الغريبة ليخدع بها الناس ! وهنا اقتاد المقدم الولد إلى غرفة التحقيق وساله بحضورأبيه عمن علمه ذلك حقيقة ، فاعترف الولد أنها فعلته وحده وأنني لم أعلمه أي شيء ، فما تمالك المقدم نفسه وصفعه من الغيظ صفعتين على وجهه كادتا تقضيان عليه . . ومع ذلك فلم يغير الولد من تصرفاته أو يبدي ندما ولا اعتذارا . . ومضى مع أهله يقدم رجلا ويؤخر أخرى ونحن كلنا كأننا في مشهد من مشاهد الأفلام السينمائية بين مصدق ومكذب !

إ فرا ج

كان عام ٨٤ قد انتصف وانسلخت من العمر سنون وشهور ما عدنا نبالي حتى بعدها . . وكان يوما عاديا كمئات من أيام السجن المملة غيره يوم أن دخل أبو مطيع مدير السجن علينا فجأة وصاح على باب المهجع : -إيمان ت .إيمان ق .عائشة ق . حليمة . . فلما التفتن إليه وتقدمن يستطلعن الخبر ألقى إليهن العبارة كالقنبلة وقال -هيا . .جهزن أنفسكن . . إفراج ! لم تستوعب البنات العبارة بادئ الأمر . . وظن أن ثمة خطأ ما . . في النقل أو في التلقي . . فلما عاد وأكد ما قال احتبست الكلمات واختلجت في الصدور القلوب . . ولم تلبث أم شيماء وايمان أن ردتا دامعتي العينين : -لا نخرج إلا مع كل السجينات . . - وتقدمت إيمان فجثت عند رأسي وكنت لا أزال مريضة وقتها وصارت تبكي وتقول لهم : -لن أخرج إلا أن تخرجوا هبة معي . فقال لها أبومطيع : - بإمكانك أن تبقي هنا على الرحب والسعة لولا أن الأمر أتى بالإفراج ، لكن بإمكانك أن تخرجي وتجلسي تنتظرينها على باب السجن ماشاء الله ! قالت له : لا لن أخرج . . لن أخرج . . ووقفت أم شيماء تبكي من جهتها وتقول لي : -كيف سأخرج وأنت لا تزالين هنا ؟ وأخيرا لم يجد إلا أن يسحبهما سحبا وهما تحاولان التشبث بالشبك وبالقضبان ولا تكفا عن النحيب حتى خرجتا . . وعلمنا بعدها أنهم أخذوهن إلى أمن الدولة في البداية ثم أفرجوا عنهن من هناك وما عدت رأيتهن بعدها . لكن خروج هذه الدفعة ثم الإفراج عن سناء بعد أسابيع قليلة وبمناسبة الحركة التصحيحيئ فيما أذكر أحيا فينا الأمل ، وظننا بأن باب الفرج قد فتح وأن أيام خروجنا قد دنت أيضا . . غيرأن الأيام التالية كذبت ظنوننا . . فمات الأمل من جديد . . وعاد مزيد من السجينات يفدن علينا دفعة وراء دفعة ، فيحرك فينا الألم الراكد ، ويزيد فينا الشعور بأنها حياة ها هنا بين المهاجع والزنازين إلى الأ بد ! في السبعينات وأحرقوا لحيته ! كانت أم خالد أمية أ . وأم زهير أ . قد أمضيتا عاما كاملا في سجن التحقيق العسكري بدمشق قبل أن يأتوا بهما إلى قطنا أواخر عام ٨٤ ، لكن كلتيهما كانتا قد فقدتا أحب الأحباب من عائلتيهما وعانتا في سبيلهم الكثير . وأما أمية فهي ابنة عالم شهيرمن علماء دمشق هو الشيخ أحمد أ . الذي استشهد

اثنان من أبنائه (علاء ومصطفى) واعتقل الثالث والأكبر (شهاب) ويقال أنهم أعدموه بتدمر فيما بعد . . ولقد تم اعتقال أفراد العائلة كلهم مرتين أو ثلاث بما فيهم إحدى حفيدات الشيخ أحمد الطفلة شيماء وكان عمرها سنتين فقط ، فيما كان الشيخ أحمد في السبعينات من عمره ! ولا أزال أذكر كيف قال الرائد عبد العزيز ثلجة في التحقيق : - انظري . . هذا الشيخ أحمد عامل حاله شيخ أنا أحرقت له لحيته بالنار ! وكانوا قد اعتقلوهم أول مرة ثم أطلقوا سراحهم ، فلما استشهد ولداه أعادوهم إلى الإعتقال ! وأما أمية فقد نالت نقمة مضاعفة مرة بسبب والدها وإخوتها والثانية بسبب زوجهاوهو طبيب من حلب اسمه صالح خ . - اعتقل قبل أن نعتقل نحن بعام كامل بتهمة التعامل مع الإخوان ومدهم بالمال ، وفي البداية اعتقلوا ابنهم معه وكان عمره ١٦ سنة فقط ثم أطلقوا سراحه لاحقا على أساس أن يتعامل معهم ، لكن أمه هربته إلى تركيا مباشرة لتنجو به ، فلما عادت تم اعتقالها ، وبقيت قرابة العام في سجن التحقيق العسكري قبل أن تنقل إلى قطنا . وفيما تم الإفراج عن أم خالد بعد بذل وساطات كبيرة في العام التالي ، فإن زوجها لم يخرج إلا بعد خروجنا بأكثر من عام . ولا أزال أذكر أنها لما دخلت المهجع في قطنا ورأتني أمامها شهقت وهي تقول لي : - أنت هنا ؟ ألم يرموك من الطائرة ؟ قلت وقد تملكني الدهشه . ماذا ماذا تقصدين : قالت : سمعنا والله أنهم رموك من الطائرة وبكينا عليك وقتها أشد البكاء إ! وأما أم زهير التي كانت في الأربعينات من عمرها فقد استشهد أخواها أيضا مع بدايات الأحداث في مواجهات مع المخابرات بدمشق ، وصارت لهما شهرة وصيت وقتذاك ، وكا نت أم زهير قد ذهبت لتأدية فريضة الحج بشكل عادي ، فلما عادت اعتقلوها أيضا من غير سبب واضح ، وأمضت قرابة السنة في سجن التحقيق العسكري قبل أن ترافق أم خالد إلى قطنا وتخرج معها عام ٨٥ .

سنوات عجاف

كانت ثلاثة أيام وحسب قد مضت على زواج السيدة ابتسام ع . من زوجها الطبيب الذي يؤدي خدمته الإلزامية في اللاذقية حينما تم اعتقاله وشقيقه لسبب لا تعرفه ابتسام إلى اليوم . . فبذلت المسكينة وعائلتها الكثير من النقود ووسطوا وهم من عائلة معروفة في اللاذقية الوساطات الكبيرة حتى تمكنت من زيارته في تدمر خمس دقائق فقط لم تكن كافية حتى لتلتقط أنفاسها وهي تراه بحالة من التعذيب والهوان مزرية . . وبعد أقل من شهر واحد على تلك الزيارة وجدت ابتسام نفسها مكبلة الأيدي ، يقتادها عناصر المخابرات العسكرية إلى فرع التحقيق العسكري في اللاذقية ثم إلى الفرع الرئيسي في دمشق . . لتمضي سبعة أو ثمانية أشهر من الضياع هناك قبل أن تحط بها الرحال بيننا بعد بضعة أسابيع وحسب من وصول مجموعة أمية ، فتمضي معنا من غير ما

سبب تعرفه بضع سنوات عجاف ، وأما الزوج فظلت أخباره منقطعة عنها حتى بعدما خرجت من السجن ، وكان اخر ما بلغها من أنباء تسربت عن حالته المؤلمة أنه أصيب بالسل ، ونقل من مهجع كان فيه في سجن تدمرإلى مكان مجهول!

شو الك بالقصر

لم تمض أسابيع قليلة من وصول ابتسام حتى أطلت ضيفة جديدة علينا هي أمل ل . قادمة من سجن الأمن السياسي بحماة . وكانت أمل قد خرجت أثناء الأحداث إلى الإمارات حيث يقيم إخوة لها هناك ، فلما عادت عام ٨٥ لزيارة أهلها وبلدها ألقوا القبض عليها في المطار واقتادوها مباشرة إلى الأمن السياسي بحماة ، وتم تعذيبها هناك بشكل قاس لتعترف بعلاقاتها التنظيمية وبأحوال إخوتها الملاحقين ونشاطاتهم ، ولقد حدثني زوج عمتي وكان وقتها في السجن نفسه أنهم كانوا لا يستطيعون النوم عند سماع صوتها في التعذيب وبعد ذلك نقلت أمل إلى قطنا وظلت هناك حتى خرجت معنا بعد قرابة خمس سنوات . . ورغم ذلك وعندما انعقدت لجنة النظر في أمرنا في الفترة الأخيرة برئاسة حسن الخليل رمقها من عليائه بنظرة امتهان وقرف وهو يقول : - شو إلك بالقصر . . مبارح العصر وجاية لتطلعي معهم !

الطفلة العجوز !

وانقضت أسابيع قليلة أخر . . وحضر ضيوف جدد لينضموا إلينا في رحلة الشقاء . . وكأن هذا الوطن ضاق بالصالحات فما عاد يرى لهن مكانا فيه إلا هذين المهجعين المتكدسين ! كانت القادمتان هذه المرة أختين شقيقتين من حلب أولاهما رغيدة ق . وهي مدرسة تربية إسلامية والأخرى عائشة مدرسة لغة انجليزية . ولقد ابتدأت حكاية الأختين المنكوبتين حينما لوحق زوج رغيدة وهو مهندس ولها منه ولدان وبنت وانقطعت عنها أخباره ، ثم لم تلبث وأن بلغها نبأ استشهاده في دمشق ، فلم تجد من وسيلة لإعالة أسرتها إلا أن تذهب إلى السعودية وتتعاقد هناك كمدرسة ، وذهبت معها أختها عائشة وزوجها ، وأمضوا هناك بضع سنين قبل أن يقرروا العودة لأول مرة وزيارة الأهل والبلد وحضور زفاف واحدة من بنات أخيها . . وحملت الأسرتان أفرادهما في سيارة جيمس مليئة بالهدايا والتحف النادرة وبجهاز كامل للعروس . . فلما وصلوا حدود درعا أوقفهم أمن الجمارك فهالهم ما معهم من متاع ثمين ، ولم يلبثوا أن غابوا عنهم لحظات ثم عادوا يخبرونهم بأنهم مطلوبون لمخابرات أمن الدولة . . فأخذوا السيارة بما فيها واقتادوا الأختين والزوج إلى سجن كفر سوسة ، وأرسلوا وراء أهلهم فسلموهم أولاد عائشة التسعة وابناء رغيدة الثلاثة ! وفي كفر سوسة لم يتورع المحققون هناك عن تعذيب الأختين رغم أن عائشة كانت حاملا في شهرها السادس أو السابع ، وكان من المضحكات المبكيات أنهم أرادوا من

رغيدة معلومات عن زوجها الذي استشهد قبل سنوات ! ثم لم يلبثوا وأن اهموا كــلا الأخــتين بالتنظيم . . وبعد شهرين من المعاناة والعذاب حولوهما إلى قطنا . . فلما وصلتا كانت عائشة في شهرها التاسع وقد سلم الله لها الحمل . . ولما دنا ميعاد الولادة رجونا المقدم مدير الــسجن أن يسمح لرغداء س . القابلة أن تأتي لتزور الليلة عندنا من مهجعها الثاني . . فوافق دون أن يعلــم السبب . . وظلت رغيدة تعاني ألم الطلق حتى ولدت مع تباشير الفجر بنتا سمتها تــسنيم . . ولا أزال أذكر أنها كانت صباحية العيد الكبير . . فلما جاءت المولودة أحسست حينما نظرت إليها أن شعر رأسي قد وقف من كثرة ما كانت هزيلة مجعدة الجلد كعجوز في اخر العمر ! وبقيــت رغيدة معنا إلى اخر فترة فيما خرجت عائشة قبل انتقالنا إلى دوما . . وأما زوجها فلم يخرج إلا بعدنا بشهور . . وعندما طالبوا بالسيارة وما كان فيها ورغم وساطات وسطوها لذلك فــإنهم لم يحصلوا حتى على جواب !

الشيوعية الغامضة !

وفي تلك الفترة وضمن النزيلات الجدد حضرت ذات يوم سيدة من التل اسمها هند قهوجي وهي ابنة عمة فاديا لاذقاني ومسؤولتها وزعيمة في التنظيم الشيوعي . وهند مهندسة متزوجة لم تكــن قد بلغت الثلاثين بعد ،وأغلب الظن أن زوجها كان معتقلا كذلك ، لكننا لم نعرف كيف اعتقلت بالتحديد فقد كانت في المهجع الثاني وكانت غامضة وكتومة . وقد خرجت مع بقية الشيوعيات في دفعة واحدة بعد الإفراج عنا بعدة أشهر .

نزيلات تدمر !

كان سجن تدمر حتى ذلك التاريخ كالقبر المقفل . . الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ! فلما خرجت مجموعة من النساء منه وقدمن إلينا كانت حادثة أشبه بالمعجزات وسرعان ما بلغنــا أن سبب إحضارهن هو انتشار السل والجرب هناك ، إضافة إلى الإنتهاء من بناء سجن جديد دشنوه لخدمة الوطن هو سجن "صيدنايا! ولهذه الأسباب قاموا أولا بتصفية المعتقلين لديهم ، فأعــدموا الذين قرروا إعدامهم ، ونقلوا بقية من يريدون الإبقاء عليهم وجرى نقل النساء إلى قطنا ضــمن هذا السياق وتجميعهن في نفس المكان . وضمن السياق نفسه وصلت خمس نسوة إلينا في دفعــة واحدة فيما تم التصرف مع بقية النساء المعتقلات هناك بطرق مختلفة .

مأساه "أم حسان"

كانت ثلاث من القادمات من أسرة واحدة : أم حسان خديجة س . التي كانت في الخمسينات من العمر ومعها ابنتاها سلوى ويسرى ح . وكان زوج أم حسان ووالد البنتين قد شارك في إيــواء مجموعة من الملاحقين في بيتهم بحماة قبل الأحداث ثم قدم الأب ابنتيه عروسين لاثنين راقا له من

هؤلاء الشباب ، فلما قامت الأحداث واجتيحت حماة خرجت العائلة إلى القرى المحيطة نجاة بأنفسهم مثلما فعل ألوف الناس وقتذاك لكن يسرى إحدى البنتين - اثرت البقاء وزوجها في قاعدة ثانية مع مجموعة من الملاحقين الآخرين ، غير أن أمرهما اكتشف وداهمت المخابرات المكان فقاومت المجموعة لفترة تمكن زوج يسرى خلالها من الهرب ، فيما قتل شاب كان معهم اسمه أبو خالد ، روت يسرى أنه كان مصابا بشلل نصفي من قبل ، وأصيبت في الإشتباك زوجته ليلى ب . وابنته التي لم يتجاوز عمرها ٢٠ يوما ، وتم في النهاية اعتقال يسرى وليلى فيما لفظت الطفلة أنفاسها دون أن يعنى بأمرها أحد . وسرعان مما اضطرت يسرى أمام وحشية المحققين والجلادين أن تعترف على مكان أهلها في القرية وتدلهم عليها ، فاعتقلت أم حسان وسلوى وتمكن الأب وقتها من الفرار ، لكن أخت أم حسان وزوجها اعتقلا في نفس البيت ، وقيل بأن الأخت وزوجها قتلا نفسيهما بابتلاغ السم في الزنزانة قبل أن يبدأ التحقيق معهما ، وأما أم حسان فقد تمكن المخابرات من ادراكها واخراج حبة مماثلة من فمها قبل أن تبتلعها ، وجلست المسكينة في السجن موزعة البال بين حالها الرعيب وحال أختها وزوجها وأبنائهم السبعة في الخارج لا معيل لهم ، وأبنائها هي البقية فواز الذي لم يبلغ ثلاث سنوات بعد وأمل ونرجس وغزوان الذي دخل صفه السادس حينذاك . . ثم كانت مصيبتهم التالية حينما اعتقل الزوج عام ٨٥ فاضطر غزوان إلى ترك الدراسة والعمل في محل تصليح سيارات ليقيت نفسه وإخوته ولم يعبث الوالد أن أفرج عنه بعد تعذيب وحشي ليسلم أنفاسه بسبب ذلك بين أولاده بعد أيام ! وكثيرا ما كانت أم حسان وقد اجتمعت على كاهلها هذه الهموم تفقد أعصابها فتصيح في وجوهنا وتقذف ما يصل إلى يديها في كل اتجاه وأكثر ما كانت المسكينة تفعل ذلك يوم أن يأتي أولادها لزيارتها يجر بعضهم بعضا ويحمل واحدهم أخاه أو أخته بالتناوب ليقفوا على الشباك ويستطيعوا رؤية أمهم . . فإذا ذهبوا ازدادت لوعتها وتفجرت الامها فتراها تلطم خديها وتمضي ساعات وأياما ربما في البكاء . وعندما أفرج عنا وخرجت أم حسان وابنتاها معنا وجدت المسكينة أنهم سرقوا لها الذهب الذي أخذوه منها في الأمانات ، وأنهم دمروا بيتهم فى حماة بحجة أنه كان قاعدة للمجاهدين ، فلم يجدوا بعد كل هذه الماسي إلا أن يسكنوا بيتا طينيا من غرفتين ضيقتين كان المطر إذا نزل اخترق السقف الرث وفاض عليهم بلا استئذان !وأما أولاد أخت أم حسان السبعة فلم يجدوا من حظ الدنيا إلا أن يأخذهم بعض المشفقين إلى عمان ليقيموا مع الأسر السورية الملتجئة هناك ، ولم يلبث الولد الأصغر المعوق أن مات لانعدام العناية ، وأسرع من قام بالإشراف على هؤلاء المساكين فزوج البنتين الكبيرتين يوم أن بلغتا إحدى عشرسنة . . وحسب !

السيلون !

لكن مأساة هذه العائلة الممتحنة لم تتوقف عند هذا الحد ، بل ربما كان ذلك كله الجانب الأسهل منها ، فبعد أن أنهى فرع الأمن السياسي استجوابهم في حماة أرسلوهم ومعهم ليلى ب . إلى تدمر وقد اعترفن بالمشاركة في مساعدة شباب ملاحقين بايوائهم . . وهناك في هذا المكـــان المرعـــب الذي كن يرين منه مواكب المعتقلين تساق صباح كل يوم إلى الإعدام حان موعد ولادة ســـلوى دون أن تكون لديهن أية وسيلة لذلك أو حتى أي ملابس للمولود القادم ، لكـــن الله رحمهـــن بوجود قابلة من حماة معتقلة معهن اسمها رغداءس . فلما جاء سلوى الطلق كتمن الخبر وصياحها معه خشية أن يكون ذلك سبب عذاب جديد لها أو حتى لهن حتى إذا ولدت سمع أحد الحـــرس على السطح بكاء المولودة فسأل فأخبرنه ، فجاء هذا الشاب الذي لم تمت فيه بقايا الإنسانية بعد وأدلى لهن علبة صفيح فارغة وعود كبريت فأشعلن من ثيابهن فيها ما يكفي لتسخين ماء حمموا به المولودة ، وروت الأم بنفسها أنهن قصصن لها الحبل السري بقطعة تنك اقتطعنها من علبة الصفيح تلك ! غيرأن المأساة لم تنته أيضا ، والخطر لم يبتعد عن هذه المولودة البريئة التي أسمتها الأم سمية . . فلقد قامت إحدى المعتقلات معهن وهي مسيحية اسمها أم طوني متهمة ببيع جـــوازات ســـفر للملاحقين ، فلما اعتقلت تحولت تماما مثل فاديا الشيوعية إلى مخبرة لتنال حظـــوة في الـــسجن وبعض المزايا الرخيصة ، وقامت بالإبلاغ عن هذا العنصر الذي ساعدهن بالتنكة الفارغة وعـــود الكبريت . . فحضر مدير السجن المقدم فيصل غانم وجعل يسمعهن سيلا من الشتائم والإهانات والتهديدات كعادته ، ثم أخرج عائدة ك . - إحدى المعتقلات - فنزع عن رأســـها الحجـــاب وجعل يدوسه بقدميه والشتائم لا تزال تتدفق من فمه المنتن . . فلما انتهى وهدأت نفـــسه أمـــر بمعاقبة المهجع كله ونقله إلى "السيلون ا ا إ! و"السيلون " هذا عبارة عن قبو كبير رطب ومعتم لا منفس فيه ، مسكون بالعناكب والصراصير والحشرات ، وقتها كان عمر سمية عشرين يوما فقط ، وكان عليها أن تنتقل إلى "السيلون " مع بقية السجينات ، فأصيبت المسكينة من حينها . بربو مزمن لم تشف منه إلى الآن . لا أزال أذكر أنهم يوم أتوا إلى قطنا بعدما أمضوا سنتين قي تـــدمر وبضع أسابيع بعدها في سجن حمص وبينما وقفت النساء تفتشهن الشرطيات وتتسلمن أمانـــاتهن تسللت سمية ببراءة الأطفال من بينهن ودخلت بين أرجل الشرطة نحونا ، فركضت أنـــا فرحـــة بمولود صغير بيننا لأحملها ، فلما رفعتها أحسست أنها طارت من خفتها وضعفها من يدي وكادت أن تفلت مني في الهواء !

التهاب في الاعصاب

حضرت أم حسان وابنتاها ومع هؤلاء حضرت أيضا رغداء س . ومنى ب . وأما مجموع النساء في تدمركما روين فكان قد وصل أيامهن إلى إحدى عشرة : الخمس اللاتي وصلن قطنا وســـت

أخريات هن : عائشة أ . ونهلة ز . وعائدة ك . وسلسبيلة أ . وليلى ب . وأم طوني . . وأما عائدة وعائشة فقد نقلوهما بعدها إلى سحن حلب لنعود فنلتقيهما في مراحل سجننا الأخيرة ، فيما نقلوا سلسبيلة مع مجموعة أم حسان إلى سجن حمص في البداية ، ولكنهم نسوها هناك كما تبين لاحقا ، ولم يفطنوا لغيابها إلا بعد سنين ! وأفرجوا عن ليلى ونهلة وأم طوني من تدمر مباشرة نتيجة واسطة وتدخلات ثقيلة للأولى ، وبعدما اشتد المرض بالثانية حتى قاربت الهلاك وأحسنت الثالثة التعامل معهم فتخرجت من السجن مخبرة محترفة كانت رغداء ومنى صديقتين حميمتين كلاهما من حماة أما رغداء فكانت قابلة وأما منى فخريجة كلية الشريعة ومدرسة ديانة . وكانت منى وزوجها قد شاركا في تأمين مأوى لمجموعة من الملاحقين تم اكتشافه بعد أحداث حماة فهرب زوجها والشباب جميعا واعتقلت المسكينة ، وهناك في الأمن السياسي بحماة عذبوها كثيرا لتعترف أنها منظمة وتدلهم على مكان زوجها ومن كان معهم في القاعدة ، ونتيجة التعذيب بالكهرباء أصيبت المسكينة بالتهاب في أعصاب أرجلها فلم تعد تستطيع حتى النوم إذا لم تسلط المروحة عليهما من شدة الألم . . وبعد العذاب والتحقيق أرسلوها إلى تدمر . . وأرسلوا معها رغداء التي اعتقلت في نفس الفترة من مكان عملها كقابلة في المستشفى لكن رغداء لم تتكلم عن تعذيبها أو الظروف التي مرت بها وكانت من النوع الكتوم والهادئ تحتسب ما أصابها عند الله .

سجينة طي النسيان !

هؤلاء كن الخمس الذين حضرن من تدمر والتقيناهن في قطنا ، وأما الست الأخريات فقد التقينا ثلاثا منهن في مراحل سجننا الأخيرة هن : عائدة ك . وعائشة أ . وسلسبيلة أ . وسمعنا قصص الأخريات الباقيات ولكننا لم نرهن . كانت عائدة مهندسة عاملة من حلب أتى الطلب عليها في بدايات الأحداث ولكنها نجت ، ولأنها وحيدة أهلها وخشية عليها أحضرها والدها الى بيتنا في دمشق لتسكن مع صديقات لها بيننا ، ثم لم تلبث أن اطمأنت فعادت إلى حلب وبقيت بسلام هناك إلى أن اشتدت الأحداث فعادوا واعتقلوها بوشاية من سامح كيالي أيضا . . ولقد بلغنا أنها عذبت عذابا شديداً في فرع المخابرات ولاقت كأكثر اللاتي لاقين على أيدي عمر حميدة ومصطفى التاجر ولكنها كانت تؤثر الكتمان ولا تتحدث بشيء ولم يكن لقاؤنا إلا في الأسابيع الأخيرة من سجننا حينما جمعنا في سجن التحقيق العسكري بدمشق قبل أن يتم الإفراج عنا . كذلك كان لقائي مع عائشة أ . في نفس الفترة وفي نفس المكان . وعائشة معلمة مدرسة من حلب اعتقلت في نفس الفترة مع عائدة ولكنني لم أعرف السبب ولا التفاصيل . وأما سلسبيلة أ . فهي سيدة مربية من حمص كانت في الستينات من عمرها اعتقلت لعلاقة أخيها بالإخوان واعتقلوا معها ابنها وكان عمره حوالي ١٦ سنة وقتذاك . . وعلمت أنها تعذبت أيضا ولكني لا

أعرف التفاصيل لأني لم أجلس معها إلا الأسابيع الأخيرة . وكانوا قد نسوها في سجن حمص بعد أن نقلوها مع الأخريات من تدمر ، وعندما قرروا الإفراج عنا ورد اسمها في القائمة ولكنهم لم يعودوا يعرفوا في أي فرع هي وفي اخر الأمر جاء مدير سجن التحقيق العسكري إلينا وسالنا : - هل تعرفون هذا الإسم وأين هي ؟ فقالت له البنات : نعم ، كانت في سجن حمص وربما لا تزال هناك . وبالفعل ذهبوا فوجدوها باقية هناك في الزنزانة وحدها ! وبعد الإفراج عنها وجدهم قد صادروا لها البيت ، ولم يسمحوا لها حتى الان بالخروج من سوريا رغم أن زوجها وأولادها يقيمون في السعودية ، وأما أخوها الذي اعتقل معها فلا يعلمون عنه شيئا إلى الان !

على لوح الخشب !

كانت نهلة ز . إحدى النساء الثلاث اللاتي أفرج عنهن من تدمر مباشرة مهندسة كهرباء من زميلات عائدة ، وكان زوجها قد فتح بيته مأوى لبعض الشباب المطلوبين ، لكن السلطة علمت بالأمر فداهم رجال الخابرات البيت وكمنوا فيه ، وخشية على نفسها من هؤلاء الوحوش وصيانة لعرضها وشرفها ركضت فور اقتحامهم البيت وألقت بنفسها منشرفته بالطابق الثالث ، فلما سقطت أصيبت بكسور عديدة لكنها ظلت على قيد الحياة ، وظن الناس أن سيارة صدمتها فركضوا وخبروا الشرطة المدنية لإسعافها ، فلما حضروا وسألوها عم حدث وجدت نفسها تخبرهم بأن الإخوان أتوا إلى البيت وأصروا على الدخول وحبسوني فرميت نفسي ، فجاءت دورية مخابرات أخرى وحصل اشتباك بينهم وبين العناصر الكامنة في البيت وكل يظن الأخرين من الإخوان ، فلما اكتشفوا الأمر كانت إصابات عديدة قد وقعت بينهم فحقدوا عليها أكثر ، وتركوها طوال فترة اعتقالها بدون علاج ممددة على لوح خشبي لا تستطيع التحرك عنه بسبب كسر رئيسي أصاب حوضها ، حتى كاد عظمها المهشم أن يصاب بالتسوس . . وزاد من معاناتها المسكينة حينما اكتشفت في تدمر أنها كانت حاملا في شهورها الثلاثة الأولى تقريبا ، لكنها وبسبب حالتها المفجعة أصيبت بتريف مستمر

الفصل الرابع

سجن التحقيق العسكرى

فى غيابة الجب

أغسطس ١٩٨٥ أكتوبر ١٩٨٩

سجن التحقيق العسكرى

كانت سيارة المخابرات المدنية التي أقلتني تنهب الأرض نهبا فيما كانت رجلي ترتجف من شدة اضطرابي فتصعد وتترل بشكل لا إرادي حتى اضطررت أن أثبتها بيدي الإثنتين فلا تفضحني !

كنت أحس السيارة تقفز بنا قفزا فوق باقي السيارات من سرعتها ، ورأسي يرتطم بالسقف مع كل انعطافة منها أو لفتة ويعود فيرتج بين كتفي . . فيما تطلق سيارة المرافقة الأمامية أضـــواءها الباهرة وبوقها المرعب فتنفر السيارات والناس من حولنا مذعورين ، وتكمل ســـيارة الحمايـــة الخلفية المشهد فتزمجر بمحركها لتزيد الناس إرهابا وخوفا . . وحينما مر موكبنا على "جديـــدة عرطوز" حيث المكان المخصص لإعدامات العسكريين قلت لنفسي : - إذا هـــم اخـــذيني إلى الإعدام . لكننا تجاوزنا وقد أطبقت ظلمة الليل علينا حتى وصلنا فرع التحقيق العسكري بـــالمزة فاستقبلتنا الأبواب مفتوحة بالإنتظار ، وسرعان ما ولجت السيارات الـــثلاث داخــــل الأســـوار الشاهقة فلم تعد لي من وقتها صلة بالعالم في الخارج .

توقفت السيارة أمام باب المبنى وتقدم المقدم مني فعصب لي عيني وكبل يدي إلى الخلف وأنـــا لا أزال مكاني، فقلت له : لكنني حتى أثناء التحقيق الأصلي لم أطمش ولم أكلبش . فقال وهو يجذبني من كتفي : القوانين هنا غيرها هناك . ووجدته يصعدني على درج طويل ثم لم يلبث أن أنزلني ثانية وعاد يصعد بي وذلك حتى أفقد القدرة على معرفة المكان أو تمييز الإتجاهات . . وبعد رحلة من الصعود والهبوط زادت من توتري واجهادي وأنا لم أتناول شيئا بعد الإفطار أدخلني في ممر طويل وأدارني باتجاه الجدار وقال لي انتظري ، وبعد خمس دقائق فتح الباب الذي يليني وسمعت صـــوتا يقول : أدخلها. فدخلت لا أكاد أدري إلى أين ، ويد المقدم تقودني إلى كرسي أجلـــسني عليـــه فجلست ، ومن طرف العصابة التي انزلقت عن عيني بعض الشيء استطعت أن ألمح ظل طاولـــة أمامي وهيئة رجل ما يجلس خلفها ويسالني : - ماذا ترين أمامك ؟ قلت له : لاشـــيء . كـــان محدثي هو العقيد كمال يوسف رئيس الفرع ، وكان أشد ما يخاف على نفسه ربما لأنه مسيحي لا تحميه طائفته كأكثر الضباط الاخرين ، فكان يشدد على أن لا يعرف صورته أحد . . ووجدتـــه يلتفت على عنصر معنا ويسأله : - وأين ذاك الآخر ؟ فأجابه من غـــير أن أدري عمـــن كانـــا يتحدثان : إنه تحت في المنفردة ٢٤ سيدي .. لكن الرعب تملك قلبي من جديد ، وقلت لنفـــسي إنه أخي إذا وقع بأيديهم وكانوا يحققون معه للتو . وعاد العقيد فسأل : - وكيـــف وضـــعيته ؟ أجاب الاخر : جالس على الأرض ومكلبش من يديه ورجليه للوراء ومطمش ســـيدي . فلمـــا أحس أنني تلقيت الرسالة المطلوبة وأصابني الرعب التفت إلي يقول : -إي يا ست هبة . . شوفي . . إذا بدك تحكي معنا الصدق فهناك أمل أن نخرجك ، واذا بدك تكذبي فلا مجال أن تخرجي أبدا . قلت له : بكون أحسن. قال ببرود : وليش بكون أحسن ؟

قلت : لأن أي شيء ستسالني عنه ليست لدي أي معلومة عنه ، فأنا في السجن منذ خمس سنوات ، وعلى علمك أن السجين لا تدخل إليه أخبار ولا تخرج عنه أخبار . . وأنا حتى التلفزيـــون لا

أراه . قال : ولا تعاشري أحدا من السجينات ؟ قلت له :لا . قال : ليش ؟هل أنت شيء مختلف عنهم ! قلت له : لا لكن الله أعطى لكل إنسان طبيعة وأنا لا أحب أن أتكلم مع أحد . قال : ولا حتى مع القضائيات ؟ قلت له : أصلا أنا القضائيات لا أتكلم معهن . قال :ليش غيرخلقة ! قلت له : لا ، لكن أنا طبعي هكذا لا أحب أن أتكلم حتى مع رفيقاتي اللاتي معي في المهجع .
فقال لي : لا . . بدك تقولي لي من هو بيت سرك . قلت : ليس لدي بيت للسر ولا أحتاجه . ثم ما هو هذا السر الذي سأخبؤه هنا وهناك . فقال لي : لا لك . . لا تظني أنني لا أعرف شيئا عن السجينات . . صحيح وضعناكم في سجن مدني لكن أنا أعرف كل شيء عنكم . قلت له : إذا من هو بيت سري يا شاطر إذا بتعرف؟ فقال لي : ماجدة . فلما ذكر اسمها تذكرت للتو كيف كان ابن خالتي يتضايق منها عندما يأتي في زيارته السمجه لأنها كانت تقف قريبا مني وتشجعني على صده ورده وتجيبه أحيانا بنفسها وتسال أن يدعني وشأني. فيتضايق جدا ، ومن أجل هذا نقل لهم أنها بيت سري ، ومن هنا عرفت أنه ذهب وفسد علي . . فلما تلمحت ذلك في ذهني قلت للمقدم : -هذه لا بيت سري ولا شيء . . فقط مجرد واحدة جالسة بجانبي
ألا أتكلم معها أكثر من البعيدة عني خاصة وأنها كانت زميلتي في الجامعة؟ ثم ما هو السر الذي تتوقع أن أخبئه عنك ؟ فقال لي : لا أعرف وأنت التي ستقولين لي . قلت له : أنا ما عندي سر واذا بدك رجعني إلى السجن فأنا أحب إلى قلبي أن أجلس في السجن طول عمري ولا تتهمني همة ليس لها و جود . فقال لي : طيب أنت من يأتي لزيارتك ؟ قلت له : تأتي ابنة عمي - وكانوا يعلمون أنها تدرس الطب بدمشق وتأتي لزيارتي أحيانا - وأحيانا في السنة مرة تأتي عمتي أو عمي. فسالنى : فقط . . لا أحد اخر؟ قلت :لا. قال لي ساخرا : وهذا حسني . . ألم يحضر لزيارتك ؟ ولأن اللعبة لم تكن قد اتضحت لي تماما ولم أتبين نواياهم وقتها والدور الذي يؤديه كل منهم فقد أشفقت أن أذكر اسمه في زيارته الوحيدة لي فأضره ، لكنه لما ذكره أمامي قلت له : - أظن أنني نسيته لأنها المرة الوحيدة التي زارني فيها . فقال لي : طيب سأعطيك ورقة لتكتبي فيها من يأتي ليزورك بدون كذب . قلت له ؟ أنا لا أكذب .إن شاء الله . فأشار إلى عنصر منهم وقال له: خذها إلى الغرفة الثانية . وهناك أعطاني العنصر ورقة وقلما قبل أن يرفع الغطاء عن عيني ويمضي . وبعد عشر دقائق كتبت خلالها نفس الكلام الذي قلته عاد العنصر ثانية فعصب لي عيني ثانية وقادني إلى المقدم الذي سألني : -خلاص ما عندك أي شيء اخرتقولينه ؟ قلت له : لا. فقال له : خذها إلى المنفردة . ووجدت العنصر يجذبني من جديد وينزل بي الدرج مطمشة ومكلبشة إلى الطابق الأرضي ، وهناك عاد فأخرجني من المبنى وأركبني السيارة وجعلوا يلفون بي حول المبنى قبل أن يعيدوني إلى الباب نفسه وينزل بي إلى القبو هذه المرة بأربعين درجة !

ليلة عيد . . وقبرسعيد !

كان الدرج حجريا متآكلا من كثرة ما تعاقبت عليه الأرجل متقعرا من شدة ما وطأته الأقـدام ! وعندما بلغنا أسفله أدخلوني أول الأمر على غرفة الإستعلامات ، وهناك أخذوا مني الساعة التي جاوز الوقت فيها منتصف الليل والمشط والنقود التي كانت معي ووضعوهم في ظرف كتبوا عليه اسمي والتهمة "إخوان مسلمين " . . بعدها أدخلني غرفة مكتب صغيرة وأجلسني على كرسـي فيها وهم بالذهاب ، فقلت له : - ممكن أن أرفع الطماشة الان ؟ قال : لا . قلت لـه : لكـنني عندما أضعها أصاب بضيق شديد في التنفس . قال : وما دخل الطماشة بنفسك ؟ قلت :ولو . . حالة نفسية . فلم يجبني وذهب . . وبعد قليل دخل عنصر اخر فسألته السؤال نفسه وقلت لـه السبب فقال لي : -بإمكانك أن تلحلحيها قليلا إذا أحسست بضيق النفس فعلا . كانت الساعة قد جاوزت الواحدة ليلا ، لكنني ورغم الإرهاق والتعب الشديدين فإن النوم جفاني ، وأعـادني السهاد إلى أحاسيس أول أيام اعتقالي قبل خمس سنوات ، والتوتر والتوجس والخوف من المجهول عادت فبسطت أرديتها الكئيبة على قلبي الأن من جديد فأثقلته . كنت أحسهم أمـام الغرفـة يروحون ويغدون وهم يحيون ليلة العيد على طريقتهم مثلما أحيوا ليلة رأس الـسنة وقتـذاك ، وأصداء ضحكاتهم الفاجرة وكلماتهم البذيئة تطرق أذني طوال الوقت . وكان السؤال لا يكف عن الدوران على محيط رأسي : لماذا أحضروني وحدي وبعد كل هذه الـسنوات . . ولمـاذا لم يسألوني عن أي شيء جاد إلى الآن . . وماذا ينوون أن يفعلوا بي . . فلما طلع الصباح وبدأ يوم جديد من الحياة طلبت أن أذهب إلى الحمام فأخذوني إلى مرفق يستعمله العناصر أنفسهم ، لكنني وجدت بابه مرتفعا عن الأرض بمقدار شبر وهم يجلسون أمامه ، فخفت ولم أحس بالإرتياح وقلت له : - لم أعد أريد . وعدت إلى الكرسي نفسه وبقيت على نفس الحال إلى وقت العصر دون أن يعيرني أحد انتباها أو يسالني سؤالا أو حتى يتذكرني بوجبة طعام . فلما كان العصر أتـاني أحـد العناصر وأخذني عبر الممرات المتعرجة إلى المنفردة التي خصصوها لي ، وفي الطريـق إلى هنـاك وجدت مجموعة من السجناء أخرجوهم من المهجع بملابس خفيفة وقام عليهم طبيب وأظنه كان سجينا أيضا كان يفحص لهم دمهم ، ولا أدري ما الذي كان منتشرا فيهم من مرض أو فقر دم ، لكنهم وما أن دنوت منهم حتى انفجرت صيحة السجان فيهم : - وجهك إلى الجدار . . وفرقع الكرباج في نفس اللحظة التي التصقت فيها وجوههم بالجدار دون أن أقدر على اسـتيعاب مـا حدث . . وعندما وصلنا المنفردة وفتح السجان بابها الثقيل ساكته : - هل سأبقى هنا ؟ قـال وعلى ناظريه ترتسم ملامح السخرية : - نعم . . هذه أحسن منفردة وأعلى درجات المنفردات . . إحمدي ربك أنك هنا ! قلت : ماذا ! أجابني : نعم . . هذه المنفردات جديدة كلها لم يجلـس

فيها أحد من قبل . . فاحمدي ربك وأدخلي. ورمى لي ببطانيتين رثتين ثم أغلق علي الباب الحديدي الثقيل ومضى . . وما أن فعل حتى أحسست نفسي أنني اختنقت . . متر ونصف بمتر ونصف من الأرض وحسب . . الجدران سميكه جدا . . والسقف منخفض إلى درجة أنني كنت أستطيع لمسه . . وفي وسطه فتحة للتهوية لكنها كانت عاطلة عندي وليس هناك أي فتحة غيرها أو شباك . . وبين الباب والجدار الذي يليه توجد طاقة عميقة في آخرها لمبة ضعيفة الضوء بيني وبينها طبقتان من الشبك فلا تكاد تنيرإلا نفسها ! فلما أغلق الباب أحسست أنه قبرني وذهب . . وشعرت أنني على بوابة الموت بالفعل . . ولم أعد أستطيع جذب النفس . . كانت لحظة صعبة جدا لم أستطع تحملها ، ولم أعد أستطيع استيعاب ما يجري . . أو لماذا يفعلون بي كل هذا ! ومن تعبي ورعبي كأنما ارتخت أعصابي وخارت قوتي فما شعرت بنفسي إلا وباب المنفردة مفتوحا والدنيا ظلام جدا والعنصر واقف على الباب يلكزني بعصا يمسكها بطرف يده ويقول : - قومي . . قومي. فلما استجمعت نفسي وحاولت استرجاع الأحداث أدركت أن الليل قد حل وقد حضر وقت الخروج إلى الخط . . وقدرت أنني كأنما أغمي علي ، لكنني وعندما استيقظت ووجدته أمامي أحسمت كأنه عزرائيل . . ولم أعد أستطيع حتى أن أدرك حقيقة شعوري : هل أنا متضايقة . . زعلانة . . خائفة ؟ كله مع بعض ! لم أعد أحس لا بالزمان ولا بالمكان فلم تكن معي ساعة ولم أعد أعرف الليل من النهار . . فلما ناداني نهضت وأعصابي على أشد ما تكون توترا . . فلم أكن أعرف ما الذي يجري هنا ، ولا طبيعة هؤلاء العناصر . . وتبعته إلى الحمام حيث اقتادني فوجدته كبيرا جدا . . ووسخأ إلى أبعد الحدود ، لكنني تمالكت نفسي وغسلت وجهي وعدت . . فوجدته أحضر لي طعاما رددته بلا شهية ، فلم تكن لي نفس وقتذاك لتناول أي شيء ، فأدخلني ثانية وأقفل علي . . فلم أكد أبلغ الأرض وأنا أتلمس موضي كالعميان حتى انطلق عنين صاخب خلف الجدار عن يمين زنزانتي جعل بدني ينتفض كالملسوع ، لكنني سرعان ما أدركت أنه صوت جهاز التكييف المركزي الذي لم يلبث أن توقف بعد خمس دقائق كما بدأ فعم السكون المكان من جديد ، ثم عاد فانطلق بعنينه الهادر مرة أخرى فكأنما هو وحش سجين يشتكي عنت السجن مثلي ، وبقي الهدير على هذه الدورة المتناوبة يطرق أذني تارة بعد أخرى فكأنه في كل دورة له يخرز فيهما خرزا . . حتى بت لا أكاد أسمع إلا الطنين ، ووجدتني بذلك ومع عتمة الزنزانة وكأنما فقدت الحواس ، فعدت إلى ما يشبه الإغماء ، ولم أصح إلا صباح اليوم التالي على تكبيرات العيد !

تكبيرات العيد من زنزانة رياض الترك!

كانت التكبيرات تنطلق من جهاز راديو جلس جاري في الزنزانة المقابلة الزعيم الشيوعي المعارض رياض الترك يستمع إليه ضمن بعض الإستثناء ات التي نالها في منفردته التي أمضى فيها أكثر من عشر سنين ! كان الممر الذي تقع فيه زنزانتي يضم أربع منفردات كل اثنتين منهما تقابلان الإثنتين الأ خريين ، فكانت زنزا نتي الأ ولى من اليسار ، ومجاورتي التي تليها فارغة ، وفي مقابلها كانت زنزانة رياض الترك ، بينما كانت الزنزانة التي في مقابل زنزانتي فارغة في البداية ثم أتوا بعدها بشاب وضعوه فيها ، ولم أره إلا مرة واحدة عندما كان باب زنزانتي مفتوحا للتنفس وأتوا بقصعة الطعام له فمد رأسه ليأخذه ، ولم أعلم أي شيء عنه إلا أنه كان يطلب الخروج للوضوء . وأما رياض الترك فكانت له بعض الميزات عن السجناء الآخرين ، فبين حين وآخر كانت تأتيه زيارات من الخارج ، كما سمحوا له بإحضار الراديو ، وبطهي بعض الطعام لنفسه ، وكثيرا ما كان العناصر يجلسون عنده ليطبخ لهم أو يأخذونه ليجلي لهم الصحون ! وبعد مدة جعل رياض الترك كلما طبخ طبخة سكب لي لقيمات منها ، لكنني لم أكن اكلها وأعيدها مع العنصر إليه . كذلك كان يرسل لي محارم وشايا وأشياء مشابهة . وفي إحدى المرات التي كان باب زنزانتي فيها مفتوحا رأيته وكأنما طلب من العنصر أن يراني فأذن له ، فذهب وعاد مرتين من أمامي استطعت خلالها أن ألمحه لمحا لكنه لم يقل أي شيء . . ولأنه كان صباح العيد فقد انطلقت التكبيرات من الراديو فصحوت عليها . . لكن البشريات التي يحملها العيد للناس انقلبت حسرات في قلبي وضيقا وكآبة ، ووجدتني أنخرط في البكاء دون إرادة مني . . الناس في الخارج تعيش بهجة العيد وكل هؤلاء الذين في السجن لا يحسون للعيد وجودا ولا معنى . . ولا يعرفون حتى الليل من النهار وما هي إلا برهة حتى فتح الباب علي ووجدت عنصرا اخر قصير القامة طويل الشاربين لا يبعث شكله على الإرتياح ابتدرني بالسؤال : -أنت ما اسمك ؟ قلت له : لماذا ؟ قال : أريد أن أعرف لأن واحدة كانت هنا تشبهك كثيرا . . ربما هي أنت ! هل سبق لك وأتيت إلى هنا ؟ قلت له : لا . وكانت رفيقتي ابتسام التي أحضروها إلى قطنا قبل شهور قليلة قد مرت على هذا السجن من قبل فرجحت أنه يقصدها ، ولما سألته عن اسمها تأكد ذلك ، فسالني من جديد : - وما اسمك أنت ؟ قلت له وقد أحسست أنه يريد أن يتسلى بي وحسب : - وماذا يلزمك اسمي ؟ إذا أردت فاذهب وانظر إليه عندكم . فلم يلبث وأن غاب قليلا ثم عاد ففتح الباب ثانية لأجد أمامي المقدم عمر مدير السجن الذي أحضرني وحوله عناصر بيد أحدهم طبق فيه برغل ، أدناه من الأرض فدفعه المقدم برجله نحوي وهو يقول لي : -وقفي على حيلك . قلت له :لا أستطيع . . فقال : ما اسمك ؟ أجبته : ألم تأخذه بالأمس ؟ قال : جاوبيني . . ما أوقحك . وجعل يشتمني ويصيح في ، فتملكني الغضب وصحت فيه : - هل لي أن أعرف لماذا وضعتموني هنا. قال :

بكره بتعرفي من نفسك. قلت له :لكنني لم أفعل شيئا. قال ببرود : إن لم تفعلي شيئا غدا يخرجوك. قلت له راجية : قل لي فقط ما هي تهمتي . . وإلى متى سأبقى هنا . . كنت أحس أنني سأجن فعلا إذا بقيت هنا . . وجاء جوابه ليعمق في هذا الشعور . . فقال وهو يغلق الباب علي :ألا تعرفي حالك أنك مجرمة . ومضى ليكمل جولة التعبيد على بقية السجناء في الوقت الذي أحسست أنني على حافة الإنهيار تماما ، ولم أجد من سلوى إلا أن أنفجر بالبكاء في عتمة هذا القبر الكئيب ، وأتجه إلى الله بقلبي أتطلع إلى فرجه الكريم . ولم تمض دقائق إلا والباب يطرق من جديد . . وأطل على عنصر اخر يقول لي هامسا : لا تخافي يا أختي فأنا مثل أخيك . . قولي لي . . كم تريدينني أن أفتح لك الباب ؟ قلت وأنا لا أكاد أصدق : لو كان اختياري لقلت طول الوقت . . فأنا على هذه الحالة لا أستطيع أن أتنفس ، والمكيف الذي يعن طوال اليوم بجانب رأسي لا يصلني من هوائه شيء . فقال لي : كرمال عينك راح أفتح لك الباب طول الليل ، لكن لو سألك أي أحد لا تقولي من فتحه . ثم أعطاني ليرة معدنية وقال لي : خذي هذه الليرة ، واذا احتجت أي شيء وقت دفعتي فلا تدقي إلا دقة واحدة بها على الباب أكون موجودا بعدها عندك ومضى هذا السجان الذي سأدعوه هنا (س) وترك باب الزنزا نة مفتوحا علي ، فكأنما هي طاقة فتحت بين رحمة الله وبيني ، وصار "س " يطل علي في كل نوباته فيفتح لي الباب ويسالني عن احتياجاتي ، ولم يلبث أن جعل يحضر لي زجاجات حليب يوزعونها على العناصر فيضعها عند طرف الباب ويذهب ، فصرت لا أطلب شيئا من أحد غيره أبدا ، وعندما يحين وقت نوبته أدق الدقة كما قال لي فيأتي وأخبره إن كنت أريد الحمام أو الطعام . . ولما أحسست بالفعل أنه ادمي وأمين رجوته مرة أن يحضر لي مشطا وقصاصة أظافر ، فسالني : -ألا يوجد معك مشط ؟ قلت له :أخذوه مني . فقال لي قدمي كتابا للمقدم . فلما قدمت الكتاب وجدتهم يحضرون لي مشطا اخر كأنه من قذارته قد تمشط به كل المساجين قبلي . . ولكثرة الوسخ المحشو بين أسنانه لم أتمكن من تنظيفه بأي وسيلة . . فلما تقدمت بطلب اخرأتاني الجواب بالمنع ، لكن حوالي عشرة أيام كانت قد مضت علي وقتذاك وأنا لا أستطيع في هذا المكان الإغتسال أو حتى تمشيط شعري المغطى طوال الليل والنهار تحت الحجاب حتى خشيت أن أصالب بالقمل بالفعل ، فوجدتني أتجرأ وأسأل "س " عن الإغتسال وأرجوه أن يحضر لي مشطا وقصاصة أظافر معه ، فتأسف لي في البداية واعتذر بأن ذلك الطلب ممنوع ، لكنه ذهب بعدها وأحضر لي على مسؤوليته مشطا رجاليا صغيرا من عند رياض الترك وقراضة الأظافر التي طلبت ، وأحضر لي صابونة أيضا وشحاطة بلاستيك . . وحوالي الثانية ليلا وجدته يطرق علي الباب ويسالني أن أتبعه إلى الحمام التي كانت في منتصف ممر طويل يحتوي كله على زنزانات ومهاجع متتالية ، فأحسست وهو يأخذني والسكون

يغمر المكان بالرهبة والرعب ، فلما بلغنا الحمام وجدت على بابه عنصرا اخر اسمه ياسين أمـــره "س " أن يجلس على الباب فيغلقه من الخارج ولا يترك أي إنسان يدخل إليه . ولما دخلت الباب الحديدي وجدت مجموعة مغاسل وتواليتات تليها مقاسم لثلاثة حمامات لها أبواب ولكنها مرفوعة عن الأرض أيضا . . فلما دخلت أحسست بقلبي أن هذا العنصر سيتبعني فلم أخلع ثيـــابي ، ولم ألبث وأن سمعت حسيس خطوات تتقدم نحوي ، فلما نظرت أسفل الباب رأيت حذاءه بالفعل ، ففتحت بسرعة وجريت خارج المكان كله إلى الممر وهو يناديني : -أين . . إلى أين ؟ قلت لـــه وأنا أصيح : - أريد رئيس السجن حالا . . ماذا تفعل أنت هنا يا قليل الأدب . . فجعل يجـــري ورائي ويناديني لأرجع ويقول : - تعالي . . أنت الآن تخالفين نظام السجن . . قلت له وأنا أرفع صوتي أكثر وأتجه نحو زنزانتي : أحضر لي مدير السجن حتى لا أخالف النظام فيه . وكأنما سمـــع "س " الصوت فحضر يسأل ماذا حدث ، فلما أخبرته صاح فيه بغضب : - بدل أن تحرسها كما قلت لك عملت هذا العمل يا حقير . . واتجه إلي يعتذر ويقول : - إمسحيها بذقني هذه المرة يا أختي وعودي فتحممي . . وأعادني من جديد فدخلت وأقفلت الباب من الداخل وبقيت قرابـــة الساعة لا أجرؤ أن أخلع ثيابي ، حتى إذا أحسست بالإطمئنان وتأكد لي أن لا أحد هناك فتحت الماء علي ، فلما انتهيت وخرجت وجدت ياسين هذا مكانه على الكرسي ، ورأيته ينظر إلي مـــن جديد ويقول بكل وقاحة : - ألا تريدين رؤية هذا الوجه الحلو بالمراة . . إذا أردت أنـــا معـــي واحد ة . أجبته باحتقار: الله لا يعطيك العافية. ولم يكن أمامي إلا أن أعود إلى منفردتي تتعاقـــب علي الأيام من غير أن أدري سببا لوجودي هناك أو نهاية لحالي . وبعد حوالي عشرة أيـــام مـــن وصولي وفي ظهيرة يوم اشتد فيه الحر في القبو وازدحمت الأ نفاس وأطبقت علينا رائحة العفونـــة مختلطة بالعرق وبالأنفاس حضر المقدم عمر فناداني ووضع الطماشة على عيني ثانية وكلبشني إلى الوراء وجعل يقودني بين المتاهات هناك فأحسست أنه خنقني ، فلما سألته أن يمنحني فرصة أتنفس فيها من غير هذه العصابة لأنني أكاد أختنق بالفعل قال لي : -حتى لو مت بحق فلن أرفعها لك . . هكذا يقول النظام ! ثم أخذني إلى رئيس الفرع كمال يوسف مرة ثانية معصوبة ومكبلة ، لكن ذاك لم يزد عن أن سالنى : -هل لديك شيء تقولينه ؟ قلت باستغراب : لا . . لماذا . فقال له من غيرأن يأبه لسؤالي : خذها . . وأعادوني إلى المنفردة كما جئت لأكمل فيها عشرين يوما لا أرى فيها الشمس ولا القمر . . ولا أعرف الليل من النهار ولا الصباح من المساء إلا من تبدل الحرس ومن صوت إذاعة لندن التي تبلغنى من زنزانة رياض الترك عصر كل يوم !

عسرويسر. .

وتظل رحمة الله أكبر وأوسع ، فما هي أيام حتى أرسل سبحانه إلي مجندا اخر في النوبة الثانية يؤدي خدمته العسكرية ، صار يعاملني بشكل جيد أيضا ويحضر لي أشياء خاصة ويسمح لي بالخروج إلى الحمام مرات أكثر لأغسل وأشرب . . وعندما أخبرته أن التكييف في زنزانتي لا يعمـــل ذهـــب وأصلحه حتى اشتغل اخر الأمر ، وكان عندما أخرج إلى الحمام في نوبته يأتي بسجين اخر ليمسح لي المنفردة وينظفها وينفض لي البطانيات ويرتب الزنزانة لي قدرالمستطاع . لكن هذه النمـــاذج كانت الإستثناء في هذا المكان الظالم أهله ، وكان سوء الخلق وانعدام المروءة والكرامـــة والأدب هو الأصل الأصيل . . فالعناصر دائما يحملون عصيا أو خيزرانات أو كابلات ، وكـــان المقـــدم عمر يحمل كلبشات وطماشات باستمرار ، لكنني لم أكن أسمع أصوات تعذيب هناك لأن غرفـــة التحقيق كانت كما يبدو بعيدة . وفي إحدىالمرات جاءني عنصر من هؤلاء ببقايـــا صندويتـــشة فلافل أكل أكثرهاوأبقى الجزء الأخيرلي . . فجاءيقول لي : - ألست جائعة ؟ قلت : لا . . لكن وقبل أن تسالني هذا السؤال أريد أن أسألك أنا إلى متى سأبقى أنا جالسة هنـــا؟ قـــال : والله لا أعرف . . هذه ليست شغلتنا . قلت له : طيب . . حسبي الله . لكنه بدل أن ينـــصرف تقـــدم فجلس القرفصاء أمامي وهو يرتدي جلابية بيضاء رقيقة تكشف مظهره المقرف وقال لي : - هل تحبين أن تخرجي إذا أراد أحد أن يخرجك ؟ قلت له : لا . قال : عجيب . . لم أرأحدا يحب قعدة السجن غيرك . قلت له : الحمدلله . قال : لكن والله أنا مستغرب . . لماذا أحضروك إلى هنا بعد خمس سنوات من اعتقالك . . ألم تعرفي السبب ؟ قلت له : لا ،لم أعرف ، هكذا كتب الله . فقال لي : طيب إذا أخرجوك الآن . . أنت والله مثل أختي وأنا أعيش لوحدي عـــسكري . . وأنـــت تعرفي حياة العسكري . . مستأجر غرفتين بالمهاجرين ، أعطيك غرفة لك وأنام أنـــا في الغرفـــة الأخرى . قلت له أنتهره وقد بدا لي أنه يتمادى : وما هي المناسبة؟ قال : حسبما دريت أنـــه لا أحد لك . قلت له : ومن قال لك ؟ قال : أهلك قتلوا بأحداث حماة . قلت لـــه : وإذا لم يكـــن للواحد أهل أما له الله ؟ أنا لي الله . . فقال لي وكأنما التأم مني لأني لا أسايره : يعني مـــا بـــتحبي تطلعي . قلت له : لا . فخرج وأغلق باب المنفردة علي وجعل يلعب بزر الضوء الذي ينير الكوة في زنزانتي حتى أحرقه ، فأحسست أن في نيته أن يطفئ الضوء علي ليدخل في العتمة . ووقتـــها كانوا قد أعطوني وجبة الطعام في طبق من بلاستيك ميلامين ثقيل الوزن ، فأفرغت الطعام منـــه وحملته بيدي وصحت : -من هناك . فلم يرد . . وما وجدته إلا وهو يفتح باب المنفردة بـــبطء ويحاول الإنسلال للداخل . . فطبقته بوجهه بقوة وصحت له : - والله العظيم إذا لم تترك الباب فسأجمع عليك العناصر الموجودة . قال بخبث : ولماذا ؟ أنا أريد أن أدخل وأصلح لك الـــضوء . قلت له : وما الذي أدراك أن الضوء عندي احترق ؟ بقيت تلعب به حتى حرقتـــه يـــا ســـفيه !

وصرت أنادي على "س " وظللت أصيح وأصرخ وأطرق بالصحن الذي بيدي على الباب حتى حضر وعدد اخر من العناصر يسألونني ماذا حدث . . قلت : - هذا الحقير ظل يلعب بالـضوء حتى حرقه وقال يريد أن يدخل بعدها في العتمة ليرى ما حدث . فأخذوه عني وهم لا يكتمـون شتائمهم له ، لكنهم ذهبوا في نفس الوقت إلى الزنزا نة المقابلة وأخذوا اللمبة منها فركبوها لي ، وتركوا ذاك السجين المسكين هناك في الظلام !

وساطة فاشلة

وفي نفس ذلك اليوم كانوا قد أخرجوا كل بطانيات الفرع ليعقموها لا أدري أين ثم أعادوها إلى الممر ليوزعوها على السجناء من جديد ، فجاءني أحد العناصر المناوبة وقال لي : - سـأخرجك الان لتختاري البطانيات التي تريدينها . وبعد أن أخذتها وعدت لحق بي وناداني : -أريد أن أقول لك شيئا . . إن شاء الله ستخرجي قريبا لأنهم لا يأتون بأحد هنا إلا إذا كان على وشك الخروج ، وأنت حسبما علمت أتتك واسطة وسيفرجون عنك . قلت له :إن شاء الله . قال : لكـن لا تقولي لأحد لإنهم إذا دروا أنني أخبرتك والله بيخربوا بيتي . قلت له : الله يجزيك الخـير . فلمـا انصرف وانتهت نوبته وحل الصباح حضر عنصر اخر كبير الشاربين جاحظ العينين قصير القامة اعتدت مشاهدته بين حين وآخر بين بقية العناصر فأنفر من مرآه ، ووجدته ومن غير استئذان ولا إعلام يفتح الباب علي ويسالني : - لماذا تبكين ؟ قلت وقد أربكتني المفاجأة : - ماذا ؟ أنـا لا أبكي . . ثم كيف تفتح علي الباب من غيرأن تعطيني خبرا بذلك ! قال : كنت مارا مـن هنـا فأردت أن أرى إن كان أحد قد ضايقك ! أجبت : لا شكرا ، ولو سمحت أغلق الباب فأنـا لا أريد رؤية أحد . فقال وهو يدنو مني خطوة بعد خطوة : - لا والله أنا حابب أطمئن عليـك . . والله أنا قلبي مشغول عليك . . كنت جالسة وقتها في زاوية الزنزانة متكومة على نفسي ، فلمـا أحسست بنيته العاطلة نهضت بسرعة أريد أن أقفل الباب ، لكنه أمسك بيدي يريد أن يتمادى ، فاستجمعت نفسي ودفعته وأطبقت الباب في وجهه وأنا أصيح : -إذا لم تخرج فسأجمع عليك أهل السجن جميعا . . فانصرف لبرهة لم تكن كافية حتى لالتقاط أنفاسي ، ولم يلبث أن عاد يقول لي :

- هيا جهزي نفسك والبسي . . هذا آخر يوم لك هنا . . سيفرجون اليوم عنك . فجمعت ما لدي من أغراض وكنت بطبيعة الحال لا أملك إلا الملابس التي علي ، ولما خطوت خارج الزنزانة لم أجده إلا خلفي بين الجدار وبيني يحاول أن يحيط رأسي بذراعيه ، فانتفضت برعـب وغـضب ودفعته عني بقوة وركضت إلى الأمام وأنا أشتمه وأحقره وهو لا يبالي يقول لي ببلاهـة : - والله كنت حابب أشرب معاك كاسة شاي . . والله هلقا سخنة إذا بتحبي . فلما دنونا من أحـد الأ بواب دفعني إلى الداخل ومضى ، وهناك وجدت عنصرا اخر برتبة مساعد اسمه جلال أجلـسني

وقال لي : - هناك واسطة أتتك من التحقيق العسكري للإفراج عنك لكن فرع أمن الدولة الذي اعتقلك مانع . . ولذلك فسوف نعيدك الان إلى قطنا. ومن غير أن أجيب بكلمة واحدة نـــادى عنصرا آخر أعادني إلى الغرفة الأولى التي وضعوني فيها أول ما وصلت القبو . . وبقيت هناك من الظهر إلى قرابة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا ، أخرجوني اخر الأمر فسلموني أماناتي وأركبـــوني السيارة إلى قطنا . . والذي يبدو أنهم كانوا ينوون الإفراج عني بالفعل ضمن مخططهـــم ، فلمـــا أحسوا أنه سيفشل ألغوا الفكرة وأعادوني من حيث أتيت.

إشاعات المغرضين

عدت إلى قطنا كما جئت بسيارة تنهب الأرض نهبا في ظلمة الليل وتكاد تفتـــرس العـــابرين في جريانها الأرعن ، فلما وصلنا وسلموني للشرطة هناك أحست رفيقاتي بوصولي فعـــلا صـــراخهن وارتفعت زغاريدهن وتسلقن الشبابيك والأ بواب مقفلة عليهن - كالعصافير يتقـــافزن فـــوق بعضهن البعض ، ولم يهدأن حتى هددهن الشرطي بأخذي إلى مكان اخر إن لم يستجيبوا ، فترلن يتطلعن إلي بشوق ومحبة ، فلما أدخلني السور صرن ينادينني من كلا المهجعين : - تعالي هنا . . تعالي إلينا . . وأخذن في كل مهجع يسألن الشرطي أن يفتح لهن أولا ليستقبلنني ، فلم يجد إلا أن يفتح المهجعين اخر الأمر معا ، وتركنا نجتمع ليلتها في واحد من اللقاء ات الجميلة التي لا أنساها أبدا . . ولا أزال أذكر كيف اندفع معقل وسمية نحوي وركضا مع البنات لاستقبالي وقد أخـــذا حفاضتيهما ووضعاها على رأسيهما مثلما فعلت البنات بحجاباتهن وركضا يستقبلانني بالأحضان والقبلات ! ولم ينغص علي فرحة اللقاء إلا ما سمعته من أن أميرة زركلي والسجانة أم جميل الـــتي كانت دائبة الإساءة لنا قد أشاعتا بعد مغادرتي بأنني أدنت بالإتصال مع الإخـــوان مـــن داخـــل السجن وبتلقي رسائل ونقودا منهم . . ولذلك كانت البنات في غاية القلق علي طوال هذه المدة ، ولم يصدقن أنني سأعود إليهن من جديد . . لكنني عدت بمشيئة الله .

البقره الزرقاء !

عدت إلى قطنا حيث تخف المعاناة مقارنة بالسجن الذي أتيت منه ولكنها لا تنتهي . . ولم يجـــدد من رتابة حياتنا المملة إلا حدث الإفراج عن دفعة أخرى من السجينات كن أم معقل وأم هيـــثم وأم عبد الباسط وابنتها عائدة . . ثم لم تلبث وأن لحقت بهن أم خالد وأم زهير بعد عدة أشهر . . وكان الإفراج عنهن جميعا بنفس الطريقة والترتيب ، فقد قرأوا أسماءهن عند الصباح وأعطـــوهن فرصة ليجمعن حاجياتهن ، ثم أخذوهن إلى التحقيق العسكري ليفرج عنهن من هناك . . وكـــان منظرا مؤثرا بالفعل خروج معقل الذي ولد في المعتقل وشب وترعرع فيه حتى قارب من العمـــر خمس سنين ! ولا أزال أذكر حين غادر حدود السجن لأول مرة عندما أخرجه أخي غـــسان في

إحدى زياراته بإذن من مدير السجن ، فلما عاد جعل يحكي لأمه مشاهداته الأولى في عالم الإنسان الطبيعي ويقول لها بانفعال : " - ماما . . ماما . . أنا رأيت واحدا يمشي على أربع أرجل . . فلما سألت أخي عما يعنيه قال لي ضاحكا : لقد رأى الحمار ! وقال لي أنه وضع رجله على الأرض ليمشي فتحركت حجرة تحت رجله فغشي في البكاء ! وعندما أراد مدير السجن أن يحرك دراجته النارية خاف واضطرب والتصق بأخي كأنما يستغيث به ! - وفي المرة الثانية وعندما بلغ ثلاث سنوات أرسلوه إلى الضيعة عند بيت جده حتى يتأقلم قليلا مع الناس ويرى إخوته ، لكنهم ومن كثرة ما رأوا منه لم يصدقوا كيف أعادوه ! ولقد روت جدته أنه كان يتناول الأحجار فيرمي بها إخوته ويشج رؤوسهم وهو لا يدرك أن الحجارة يمكن أن تؤذي ! ولما ساكناه عم رأى هناك قال : -رأيت بقرة زرقاء بتبش حليب ! وفهمنا بعد الشرح والإستقصاء أنه شاهد كيف تحلب البقرة فظنها تبول حليبا ، ولعدم معرفته بالألوان ظنها زرقاء ! ومثلما كان وداع معقل مؤثرا فقد كان استقباله بعد بضعة أشهر حينيما أتى في زيارة مع والدته مؤثرا أيضا . . فلقد تجمعت البنات حوله ينتظرن أن يسمعن منه كلمته الأثيرة "طظ أسد . . " لكن أمه بادرت وسألته لتسمعنا الفارق وترينا أثر الحرية عليه : قل لهم حبيبي ماذا تعلمت في المدرسة . فجعل مقبل الذي أنفق سنوات عمره الخمس الأولى وراء القضبان بسبب هذا النظام الظالم يسمعنا أغنيات المديح والتمجيد للثورة وللقائد الأسد ! ولقد روت لنا أمه أنها لما أخبرته عن زيارتنا أخذ يبكي . . فلما سألته عن السبب قال لها : الان أبو مصطفى يدخلني المهجع ويقفل علي . ولم يدخل مقبل علينا إلا بثق الأنفس رغم تطمينات أمه وأبي مصطفى نفسه ، وعندما صار بيننا جعل وقد ذاق بعض معاني الحرية في الخارج يوزع علينا نظرات التحسر والأسف ، ولا يكف عن مراقبة الباب خشية أن يغلق عليه من جديد !

الفصل الخامس

سجن دوما

معركة مع الزمن

نوفمبر١٩٨٥أكتوبر ١٩٨٩

سجن دوما ، معركة مع الزمن

مرت أسابيع أخر ونحن في قطنا نمضغ الأيام ونزدرد الأسى . . ونحس كلما تطاول العهد وتباعد الزمان أنها رحلة إلى النهاية ليس عنها من فكاك ! وبرغم الأنباء التي كانت بدأت تتسرب إلينا من قبل عن نية نقلنا إلى سجن آخر . . ورغم إشارات من بعض مسئولي السجن لنا بتخفيف الأغراض والإستعداد لرحيل قريب ، إلا أننا وكأننا ألغينا كلمات الإفراج والخلاص وحتى

الإنتقال من قواميسنا . . وبتنا نعيش يومنا وحسب في هذا القمقم الذي ضاق حتى بالأنفاس ! لكننا وفي صباح تشريني بارد وجدنا مدير السجن ومجموعة من الشرطة معه يدخلون من غير مقدمات علينا ويقولون لنا جهزوا أنفسكن للنقل صباح الغد ! كان السؤال الأول الذي قفز إلى أذهاننا : إلى أين ؟ فلما بلغنا الجواب : إلى سجن دوما المدني حضر بداهة إلينا السؤال التالي : لماذا ؟ وكانت الإجابة حينها بأن السجن هنا ضاق بتريلاته ، وأن الحكومة انتهت من بناء سجن جديد في "عدرا" فنقلوا سجناء دوما إليه لينقلونا إلى هناك ويحولوا قطنا إلى مجرد مخفر . لكن إشاعة سرت وقتذاك - ولكنني لم أدر بها إلا بعد الإفراج عنا روجت بأن النقل كان بسببي أنا ! وأن أخبارا تسربت عن اعتزام اخوتي القدوم واختطافي من السجن ، وأن زوجة أخي غسان علمت بذلك وأخبرتهم فقاموا بنقلنا بناء على ذلك إ! ولم أفاجأ حينما سمعت القصة حينها لأنني كنت قد وجدت من زوجة أخي ما يؤكد تعاملها مع المخابرات . . مثلما وجدت عددا غيرها من الأقارب وأبناء البلد تحولوا إلى صف النظام وجندوا أنفسهم جواسيس لديه طمعا بمكاسب رخيصة ينالوها أو خوفا من مشاكل ومتاعب قد يواجهوها إ! وعلى كل حال تم الإشعار بالنقل ، ووجدتنا نهرع لنلملم ما تكدس لدينا من متاع وحاجيات . . وفي صباح اليوم التالي انتشر الحرس على الأسطحة وتوزعوا على المداخل والأ بواب . . وتقدمت شاحنة كبيرة في البداية لنقل الأمتعة والأكياس وغالونات الكاز التي كنا قد اشتريناها لنملأ بها وقود الحمام . . حتى إذا امتلأت الشاحنة وكادت أن تفيض تحركت باتجاه مترلنا الجديد ، أخرجونا بعدها اثنتين اثنتين فكبلونا وأصعدونا واحدا من باصات النقل الداخلي ، وصعدت مجموعة من الشرطة المسلحين فجلسوا عند البابين الأمامي والخلفي ، ومضوا بنا قرابة العشرين سجينة نحو دوما من طريق خارج المدينة ، تتقدمنا سيارة شرطة وتتبعنا اثنتان أخريان للحماية والحراسة . . وزاد من كآبة الحال الغيوم الداكنة التي كست السماء يومها فحجبت الشمس وأحالت الدنيا من حولنا كئيبة مظلمة . . وعندما وصلنا اخر الأمر كنا متعبين جدا وجائعين وقلقين . . ووجدناهم وقد ألقوا أمتعتنا في ساحة السجن فاختلط منها وتداخل قدر ما تكسر أو فقد ! وكان أكثر السرقات وضوحا جالونات الوقود التي كانت عزيزة علينا لأننا لم نحصل عليهم إلا بشق الأنفس . . وعندما طالبنا الشرطة بها نفوا مسؤوليتهم عنها وتلعثموا في الإجابة . . ووعد بعضهم بالمساعدة في استرجاع بعض منها ولكن شيئا لم يرجع . . ووجدتنا من ثم نقاد إلى مترلنا الجديد ، فأعطونا مهجعين للسياسيات دب الخلاف كالعادة حول التوزع عليهما وتقاسم الأماكن فيهما رغم أن ذلك تقرر من إدارة السجن قبل أن نحضر !

إضراب جديد

كان سجن دوما أشبه ما يكون في بنائه بالبيوت العربية القديمة . . فالجدران الحجرية وبركة الماء في منتصف الباحة تحيطها أحواض الزراعة من كل جوانبها . . وطريقة بناء الغرف نفسها كلها تقول ذلك . . وعدا عن مطبخ وحمام وغرفة طبابة وأخرى لبيع الحاجيات الرئيسية كنا نسميها ندوة السجن . . واضافة إلى ثلاث غرف صغيرة كانت تستعمل كزنزانات منفردة ، كانت ثمة ست مهاجع رئيسيه : الأول من اليمين لمتهمات الدعارة ، والثاني بعده للقتل ، والأول من اليسار للحشيش ، تليه غرفة القتل والسرقة ، وبينهما غرفة كانت لمحو الأمية ثم ألغي هذا البرنامج فتحولت إلى غرفة عامة . وفي صدارة البناء كان مهجعا السجينات السياسيات وجدت مكاني في المهجع الأيسر منهما ، وهو بناء طويل وضيق بعض الشيء ، ترتفع فيه مصطبتان عن اليمين والشمال تتوزع الفرش فوقهما بانتظام ، وبينهما ممر على ضفتيه خزائن صغيرة تحت المصطبتين خصصت لاستيعاب حاجيات كل شخص من النزيلات .

مخبرة كل العهود !

كان ثمة مفاجأة تنتظرنا في دوما ، ففي أواخر أيام قطنا تم نقل المقدم موفق السمان بسبب تقرير مغرض اهمه بالتعاون مع الإخوان ! فلما وصلنا دوما وجدنا الشخص نفسه هناك ، لكن استئناسنا لم يطل ، واستبشارنا انحل مكانه ، فالمقدم مدير السجن الذي يليه وهو درزي من عائلة السبع أذاقنا السم بالفعل ! فلم يمض الأسبوع الأول على وصولنا حتى أصدرمجموعة قرارات صارمة حرمتنا من كثير من الحقوق المهمة التي اكتسبناها من قبل . . ففي البداية وبينما كنا خارج مهاجعنا وقت التنفس حضر المقدم السبع وأمرنا أن نخرج إلى الساحة كل ما لدينا من مواقد غاز لأنها ممنوعة ، ولأننا لا نستطيع إلا الإمتثال فقد أخرجنا ما طلب ولكننا رفضنا دخول المهاجع احتجاجا على القرار . . وبعد مداولات لم تطل سمح لنا بإعادة المواقد ، لكنه وبعد أيام قليلة قام أثناء وجودنا في المهجع بجولة تفتيشية مفاجئة صادر عناصر الشرطة خلالها مواقدنا وكل الأدوات المعدنية والزجاجية التي لدينا بعدما أحكموا إقفال الأ بواب علينا ير لا نعاود الإعتصام في الخارج . . فلم نجد بدا إلا أن نرسل كتابا من خلال إحدى السجانات لرئيس السجن المقدم موفق السمان نخبره بالأمر . . فتدخل المقدم وأعاد لنا الأغراض . . لكن المقدم السبع لم يتوقف عن مساعيه في التضييق علينا . . ووجد في أميرة زركلي - مخبرة كل العهود خير معين له على نبش أسرارنا ورصد تحركاتنا ، وما هي إلا أيام حتى فاجأنا بقرار أقسى وأغرب ، فأمر بمنع الزيارات عن اللاتي لم تصدر أحكام بحقهن من "المحكمة الميدانية" . . وكانت أكثرية السجينات واقع الحال تجهلن أحكامهن رغم مرورهن على المحكمة التي اعتبرت أحكامها سرية ! وسرعان ما سرت فينا روح المقاومة من جديد ، وقررنا بالإتفاق أن تبدأ المتضررات إضرابا عن الطعام حتى

يتراجع عن هذا القرار ، فبلغ عدد المضربات حوالي العشرين كن جميعا من المسجلات تحت اسم الإخوان هذه المرة ، لأن الزيارات لم تمنع عن الشيوعيات بالأصل رغم أنهن لم تكن محكومات . . وأما نحن اللاتي نعلم أحكامنا فلم نشاركهن الإضراب بالإتفاق فيما بيننا حتى لا يمنع زياراتنا أيضا ويقفل الباب الذي كنا نتصل نحن وهن جميعا بأهالينا عبره . . لكنه رغم ذلك أصدر أمرا بمنعنا من الإقتراب من الشباك أثناء الزيارات حتى لا نوصل الخبر للخارج . . واستمر الإضراب واحدا أو إثنين وعشرين يوما كادت المضربات في أواخرها أن يمتن بالفعل . . وصرنا حينها نحملهن إلى الحمام حملا ونغير لهن ثيابهن وننظف أماكن نومهن وقد فقدن كل مقدرة على الحركة والتنقل . . فتعبنا كما لو كنا مضربات معهن تماما ، خاصة وأننا كنا نأكل أقل القليل وبالسر احتراما لشعورهن . . وصارت منهن من يرتفع ضغطها أو تأتيها حركات عصبية . . فأحضروا طبيب الفرع المخصص للشرطة والضباط بالطبع للكشف الدوري عليهن ، فكنا نحملهن إليه في البطانيات حملا كأنهن قتيلات !

سم ودم!

لم ينقض شهر على ممارسات المقدم السبع الذي لم يكترث بما حصل حتى صدرقرار مفاجىء لم ندر سببا له يقضي بنقله ،لكن فرحتنا لم تتم ومأساتنا معه لم تنته ، فلقد أحضروا مكانه مقدما اسماعيليا من السلمية اسمه عماد لم يكن أقل لؤما منه . . وكان عماد هذا إذا التأم انقلب وجهه إلى لونين : أصفر كالسم وأحمر كالدم ! لكننا وقد فاض بنا الكيل وما عاد لدينا جلد على احتمال الظلم قررنا التصدي له أيضا ، ويبدو أنه بطياشته وعنجهيته أراد أن يخضعنا بالطريقة التي اعتادها وأمثاله مع السجينات القضائيات ، فأقبل علينا صباح أحد الأيام وأراد أن يضرب إحدى السجينات من بيننا لتمتثل لأوامره ، فما كان منها إلا أن ردت عليه بصفعه على وجهه جعلته يرتد مبهونا وقد تهاوى انتفاخه الزائف . . وصار يهددها بالجزاء وبالعقوبات ، فقمنا كلنا عليه نقول له إن هذا ليس بحقك ولا بصلاحياتك . . وهذا القرار بمنع الزيارات كله من عندك . . وعندما أسقط من يده وأحس خطورة ما يجري وقد شارفت بعض المضربات على الموت بالفعل وعد أن يكتب إلى إدارة المخابرات ليطلب الأحكام ويتحقق من وضعنا ، لكن الأهالي كانوا أسرع بالإتصال معهم والحصول على أذونات بالزيارة ، فأنهت المضربات إضرا بهن ، وخفت الضغوط والقيود بعض الشيء وإن لم تنته ، ولكنه استمر يضايقنا أيام الزيارات ولا يسمح للأهالي بالدخول إلا بعد أن تدنو الساعة من الثانية أو الثالثة . . ولقد حدثتنا أم ماجدة فيما بعد أنها كم وكم قبلت الأرض على باب السجن تقول له أو لمسؤول الزيارات : دعني أقبل رجلك وأدخل هذه الأغراض لابنتي فقط . . فيرفض . . فإذا أسقط في يدها كتبت ورقة صغيرة تطمئن

ابنتها فيها ببضع كلمات وترجوه أن يوصلها لها ، فكان يأخذها ويمزقها أمامها ويطؤها بقدميه أمامها دونما رحمة !

من السياسة إلى الى الاقتصاد !

كانت فاتحة الوافدات الجدد علينا في دوما فتاة فلسطينية الأصل في الثلاثينات من عمرها اسمها جميلة البطش ، كانت تدرس في سوريا واتهمت مع مجموعة من تنظيم شيوعي بتفجير الفندق السياحي بحلب وإحدى السفارات بدمشق وبأشياء أخرى . وكان قد ألقي القبض عليها عام ٧٩ وحكمتها محكمة أمن الدولة العليا بالسجن المؤبد . . وبعد أن أمضت قرابة السبع سنوات في سجن المسلمية بحلب نقلت إلى دوما مع بداية انتقالنا عام ٨٦ ولم تخرج إلا بعدنا بسنتين . . وبرغم مشاركتها السجن معنا لأكثر من سنتين إلا أنها كانت تميل إلى العزلة ولا تختلط حتى مع الشيوعيات الأخريات . . وبعد جميلة بأسابيع أحضروا طالبة أدب فرنسي من دمشق اسمها هلال معتقلة بتهمة تخريب الإقتصاد ! فقد كان أبوها كبير صرافي دمشق ولوحق أثناء التضييق على الصرافين فهرب خارج سوريا . . ولم يلبث بعد فترة وأن أرسل سبعة ملايين ليرة ونصف من الأردن وطلب من ابنته أن تعطيها لصراف اخر في دمشق . . فلما ذهبت إلى البيت المطلوب تصادف ذلك مع قيام الإخوان بتوزيع منشورات في المنطقة فظنوها واحدة منهم ، فلما فتشوا سيارتها ووجدوا هذا المبلغ الكبير نسوا الإخوان والمنشورات وأخذوا النقود والسيارة . . ولم يعيدوا لها من ذلك شيئا حتى بعد الإفراج عنها بعد ثلاث سنوات !

رهينة الجنباء !

وتتالت الأيام وحلت علينا ضيفة جديدة هي عزيزة جلود زوجة النقيب إبراهيم اليوسف . . وكانت عزيزة قد اعتقلت أول مرة بعد حادثه المدفعية نالت فيها أشد العذاب ، ثم أفرجوا عنها لتكون طعما يمكنهم من اصطياد زوجها ، فلما لم يصلوا إلى شيء من خلالها أعادوا اعتقالها ثانية فوجدوها حاملا ، فقالوا لها إذا فأنت تعرفين مكان زوجك وتقابلينه ، وكان عمر حميدة يضربها على بطنها وينادي كالممسوس على الجنين يقول له :إنزل . . إنزل واشهد اللهم إني بعثي ! لكن الله حفظ لها الطفل وعادوا فأفرجوا عنها بعد أن سجنوها في ثكنة هنانو وعذبوها هناك أيضا . . وعندما خرجت وضعت مولودها اسماعيل قبل أن يعتقلوها للمرة الأخيرة واسماعيل معها في شهره الأول أو الثاني ، وبقيا معا في المنفردة بسجن المسلمية أربع سنوات . . وهناك ، وعلاوة على معاناة السجن المرة فقد مرت عزيزة بظرف رهيب جعلها تعيش كابوسا مرعبا لا مثيل له ، فخلال تلك الفترة حدثت عملية تمرد قام بها بعض السجناء . . فاعتصموا في مهجعهم احتجاجا على التعذيب والإرهاب وسوء المعاملة وأحرقوا فرشهم ورفضوا الإنصياع لأوامر المخابرات

بإخلاء المكان . وقتها ظن أولاء أن مجموعة من المسلحين تسللت إلى داخل السجن وقامت بالتمرد فما عادوا يجرؤون على الإقتراب . . فبادروا بخستهم إلى جذب عزيزة من زنزانتها وقدموها كرهينة وصاروا يساوموا الشباب عليها : إذا لم تسلموا أنفسكم فسنقتلها . . فعاشت المسكينة على أعصابها يومين من الرعب كاملين . . أتوا خلالها بقناص قتل المعتصمين أمام عينيها واحدا بعد الآخر حتى أنهوا الموضوع ! وعندما نقلوها من بعد إلى دمشق تمكن أهلها من أخذ إسماعيل معهم ليعيش مع إخوته في بيت والدها طوال الفترة القادمة ، حيث ظل أهل أبيهم كلهم في السجن ! وقد مكثت عزيزة في سجن التحقيق العسكري ثمانية أشهر ثم نقلوها إلى دوما والتقينا معها هناك لنبقى معا حتى الإفراج عنا . . ورغم أنهم تلوا اسمها مع قائمة الذين شملهم العفو فقد نقلوها إلى سجن المسلمية من جديد واحتفظوا بها هناك لمدة سنتين إضافيتين في زنزانة منفردة سيئة جدا تحوطها معاملة أسوأ . . فلم يسمحوا لها في البداية برؤية أحد أبدا من أهلها حتى أصيبت المسكينة بانهيار عصبي . . وبعد فترة طويلة سمحوا لأبنائها فقط بزيارتها وظل الحظر على بقية الأهل قائما . . وكانت عزيزة في قلق دائم على أولادها خاصة بعد تهديدات العميد حسن خليك رئيس اللجنة التي قابلتنا قبل الإفراج ، والذي قال لها بلسان ينفث الحقد والمقت : - ثأر الذين قتلهم زوجك المجرم ما نسى واهل القتلى نار قلوبهم تخمد . . وهم مستعدون في أية لحظة لكي يأخذوا به . . وأضاف يقول لها : أنت يجب ألا تعيشي قريبا من أولادك . . لازم تبقي بعيدا عنهم حتى لا تشربينهم الحقد والإجرام ! ولذلك كانت المسكينة في خوف دائم عليهم من نقمة العلويين وهاجس مستمر أين ستخفيهم . . ولقد سلم الله لها إياهم وأتى اسماعيل فزارنا في دوما مع جده في العيد وقد بلغ سبع أو ثماني سنين ، وكان ما شاء الله ذكيا جدا . . وعندما أدخلناه ووضعنا لهم إفطارا وأردت أن أضع له عيدية بجيبه نظرإلي دامع العينين وقال : - نحن في الخارج نستطيع أن نأتي بنقود ، ولكنكم لا تستطيعون وأنتم هنا أن تأتوا بشيء ! وأقسم ألا يأخذها أبدا إ!

مع الشيوعيات . . في فراش واحد !

كان عدد نزيلات مهجعنا قد وصل إلى قرابة الأربعة والعشرين حينما أصبحنا ذات يوم وحوالي ١٤ معتقلة من الشيوعيات على الباب . . ومدير السجن يأمرنا أن نستوعبهن معنا . . وأن تقتسم كل سجينة من الإخوان الفراش مع أخرى شيوعية ! . كانت القادمات قد اعتقلن دفعة واحدة بعد انكشاف تنظيمهن وتورطه بالعمل المسلح ضد النظام . . وروت القادمات أنهن أتين من التحقيق العسكري بعد أن ذاقوا هناك العذاب الشديد شبابا وبنات معا ، وروين أن الكثير من المعتقلين معهن أصيبوا بالشلل النصفي نتيجة تعذيبهم على الكرسي الذي يتسبب بعد طي

الإنسان بداخله في كسر عموده الفقري . وعلى الرغم من تعاطفنا مع كل سجين وترحيبنا بكل قادم بغض النظر عن اتجاهه أو تنظيمه إلا أن التعايش مع الشيوعيات وقد قارب عددهن الثلاثين وصل إلى نقطة الإستحالة ! فأكثرهن لم يكن ابتداء متعاونات ولا يتورعن عن إظهار العداوة وعدم الإحترام . . ولم يكن يبالين بالطهارة والنجاسة مثلنا ، ولا يعتنين بالنظافة مثلما نفعل ، وكنا حينما نستيقظ لنصلي في الليل لا نستطيع ذلك إلا إذا طوينا فرشتنا وفرشة التي بجانبنا حتى يتسع المكان للإثنتين معا ، فصار ذلك غاية في الصعوبة وهن معنا على فراش واحد ! ولقد حاولنا تحملهن في الليالي الأولى فأعطينا إحداهن فراشا وبت أنا وماجدة في الفراش الاخر ، لكننا وبمرور الأيام لم نعد نحتمل ، وخاصة أن منهن شديدات الوساخة تفوح الرائحة السيئة منهن أنى التفتن أو تقلبن! فاتفقنا معهن اخر الأمر أن نعطيهن قسما من المهجع يتقاسمنه فيما بينهن ونجتمع نحن على بعضنا في القسم الاخر . . فوافقن على ذلك وسررن له جدا، لكن المشاكل كانت تندلى كل مساء حول الأمكنة والفرش التي تأخذ مكان فرش أخرى . . وكنت أنا وماجدة ننتظر إلى الأخير حتى تستقر الأمور وننال ولو جزءا من المكان ننام عليه ، وكثيرا ما كانت المشاكل تتصاعد فتقلب هذه فراش تلك أو ترمي لها أغراضها . . حتى تتدخل الشرطة ولا تنتهي المشكلة برغم ذلك !

(الخلية)!

واستمتعت الشيوعيات بالوضع الجديد ، وصرن يعقدن في هذه المنطقة اجتماعهن الذي يسمينه "الخلية" . . حتى أقلقونا أيامها وصرعونا بماركس ولينين . . وأذكر أنني كنت مريضة مرة بحمى التيفوئيد وتصادف ذلك أثناء اجتماع خليتهن ، وكنت أتأوه من ألمي ولا أستطيع تحمله . . فأحسوا وكأنني أعطل عليهن الإجتماع . . فاقترحت إحداهن وكانت طبيبة متخرجة اسمها تماضر العبد الله أن يعطوني مسكنا . . فوافقت البنات وذهبن إلى الممرض وأحضرن منه إبرة مسكن أخذتها تماضر وحقنتني بها في الوريد مرة واحدة وبشكل سريع ، فوجدتني خلال لحظات أفقد الإحساس بفكي ولا أستطيع تحريكه ولو بكلمة . . ثم غبت عن الوعي و لم اعد احس بشيء فقامت كل البنات من قسمنا عليها يشتمونها ويحقرونها وصاحت فيها الحاجه غاضبه لم لم تقولى انك تريدين قتلها من اجل اجتماعكم الملعون ومع الايام ازداد التوتر بيننا وبينهن يزيد فيه ضيق المكان وبؤس الحال وكثيرا ما كانت النقاشات معهن تتطور الى خناقه يختمها وهن يقلن لنا : بكره ياخوان اذا استلمنا الحكم فسنعلق مشانقكم فى وسط دمشق

الحج اليومى

ولقد كان تعليق المشانق اهون ربما من الحياه الرتيبيه المملة بلا هدف ولاأمل ومع ازديادالأعـــداد ومجاورة الشيوعيات وكثرة التضييق والتشديد من إدارة السجن ومديريه ازداد إحساسنا بنفـــاذ الصبر فدبت الفوضى واختلطت الأمور وصار اعتياديا قيام المشاحنات وسماع المشاجرات وكان الماء ينقطع أحيانا فلا يصل دور الحمام لواحده منا الا مره فى الشهر وأما الزيارات فكانت لاتمر دوما على خير فإما أن يمنعوا الزياره عن الجميع أو يؤخروا اللقاءات الى آخر الوقت وكثيرا مـــا كانو يبالغون فى تفتيش الطعام حتى يفسدونه ويمدون أيديهم فيه ويقلبونه حتى تنفر منه النفـــوس ولقد وصل الامر بنا الى شدة الضجر أن ابتكرنا فى الفتره الأخيره حجا نؤدى مناسكه كل يـــوم فاتخذنا من البركه وسط الباحه مااعتبرناه الكعبه وحددنا أماكن أخرى حولها للسعى وكنا نندفع كلنا بلا إستثناء صباح كل يوم فنطوف ونسعى ونلبى وفى إحدى المرات دخل علينا عنصر مـــن الشرطه ونحن بهذا الحال فسأل مستغربا ما الذى يجرى فقالت له إحـــدانا وكلنـــا منـــهمكات فىالتلبيه والهروله إننا نحج فقال الرجل محولقا يبدو والله أن نهايتكن جميعا فى مستشفى ابن سيناء للمجانين

ريمى

وإذا كانت ذكريات دوما كباقي السجون التى نزلنا فيها محفوره فى القلب لا تنسى فإن ريمى أحد معالم تلك المرحلة التى لا تغيب عن البال وريمى فى الحقيقة قط أنيس أتـــى بـــه أهـــل إحـــدى القضائيات لها وهو صغير جدا فاشتريناه فكان كأنما أرسله الله لنل رحمة وسلوى فى هذا المكـــان الموحش وعدا عن متعة اللعب فيه والفرجه عليه والإستئناس بوجوده كان ريمى غاية فى النظافـــه وفى الذكاء وكنا إذا أردنا غرضا من المهجع الثانى ربطنا له ورقه بما نريد على رقبتـــه وأرســـلناه فيذهب ويوصلها للمهجع الثانى ويعود بالطلب وكان أيام الزياره يساعدنا فى نقل الأغرض مـــن مكان استقبال الزولر الى المهجع ينقلها قطعه بعد أخرى بفمه وكثيرا ما كان يوقظنا للتهجد إذا لم نستيقظ وينام عند أقدامنا فى الليل كالحارس الأمين وذات مره حضر قائد شرطة دمشق للتفتيش على السجن فلمح ريمى بيننا فثارت ثائرته لأن الحيوانات ممنوعه فى هذا المكـــان ونـــادى أحـــد العناصر وقال له تضعه فى كيس وتأخذه فترميه خارج دمشق فنفذ الشرطى الأمر وذهب بريمـــى ونحن فى حزن عليه ولوعة وكأننا فقدنا أخا أو قريبا لكننا وبعد ثلاثة أيام وحسب وجدناه وقت الضحى يعود متسللا الى المهجع وقد اتسخ جلده وساءت حالته فلما رأينـــاه عمـــت الفرحـــه وركضت البنات نحوه وكأنما هو أمهم وأبوهم وبعد خروجنا عادت واحـــده منـــهن الى دومـــا خصيصا وأخذته معها الى حلب.

الفصل السادس

الفرج والإفراج

ديسمبر ١٩٨٩

مرت قرابة أربع سنين أخرى انسلخت من أعمارنا دون أن نحس لهن بمعنى أو أثر . . وحل الشتاء من جديد في دوما ونحن لا نكاد نميز بين فصل وفصل أو عام وآخر . . وبينا نحن في حياتنا الرتيبة الخامدة كسر حاجز الصمت ذات يوم من أيام أكتوبر الباردة عام ٨٩ نداء مناد علـــى عزيـــزة جلود وغزوة ك . أن تجمعا حاجياتهما وتستعدان للمغادرة . إلى أين . . ولماذا ؟ وما الذي حصل ؟ لم يجبنا أحد . . فظننا أن تحقيقا جديدا قد فتح أو محكمة ميدانية عادت للعمل وأنهما عائـــدتان إلينا خلال أيام . . لكن أسبوعا مر دون خبر . . ولم يلبث المنادي أن نادى من جديد علـــى أم حسان وابنتيها سلوى ويسرى . . ومضت بهما سيارة المخابرات ولم تعد أخبارهم تصل إلينا مثل من سبق . .

حلم وبشاره!

كنت في تلك السنوات التي انقضت لا أنفك أرى أمي في المنام حاملا باستمرار وقد حان موعـــد ولادتها وأتاها الطلق ولا تلد . . لكنني وفي ليلتي تلك رأيتها رحمها الله تطلق ثم تلـــد . . فلمـــا رويت الرؤيا للحاجة استبشرت بدنو الفرج . . وكان ما قالته سبحان الله . . إذ لم يلبث مـــدير السجن أن حضر إلى المهجع في الصباح وقرأ أسماء حوالي ١٢ منا : أنا وماجدة وأم ياســـر ولمـــا ورغداء ومنتهى وهالة ونجوى والحاجتين . . وأتبع قراءة الأسماء بكلمة واحدة : إفراج ! لكننـــا ومن كثرة ما كان يفعل ذلك دائما ويعدنا بالعفو وبالخروج ولا يحدث شيء بعدها لم نتحرك من أماكننا . . وأذكر أنني كنت وماجدة جالستين على طرف البركة نقرأ القران حينما حضر مـــن جديد وهو يصيح فينا : - قوموا بقا . . تحركوا . لكننا لم نحرك ساكنا وقلنا له : -يكفي كـــذبا علينا . . لا نحتاج هذا المزيد من الكذب ! لكنه أقسم أنه صادق اليوم . . وأرانا قائمة الأسمـــاء مطبوعة في قرار رسمي . . ورغم ذلك فلم نغير من جلستنا ونحن لا نزال نظنه كاذبا . . فقال لنا بانفعال : - سأدخل لكم دورية المخابرات التي أتت لتأخذكم حتى تصدقوني . فلمـــا رأينـــاهم بالفعل وتحققنا من جدية الخبر هذه المرة انفجرنا بالتكبير الذي اختلطت الزغاريد فيه مع الدموع والنحيب وفرقعة القبلات إ! وتنشطنا جميعا وقمنا نجمع أغراضنا مثلما اتفق . . وأذكـــر أنـــني وماجدة جمعنا كل أغراضنا في كيس كبير بلا وعي وسحبناه وراءنا ، فكانت الأشياء تتساقط منه ولا نبالي . . ولا نكاد نستوعب ما يجري ونحن بين التصديق والتكذيب . . وقام الـــسجن كلـــه على سماع الخبر ولم يقعد ، وخرجت كل السجينات القضائيات يهنئننا ويناد ين : - خرجـــت السياسيات . . وتقدم منا رجال الشرطة وموظفو السجن الطيبون هذا يسألنا عن صحة النبأ . .

وذاك يهنؤنا بحرارة ودموعه تجري من الفرحة كالنساء . . ساعة لا يستطيع المرء أن يصف شعوره فيها . . وكأنني لم أعد بوعيي . . ولم أعد أذكر حتى كيف خرجنا إلى السيارة . . أو ماذا كـان شكلها . . أو كيف تسلسلت الأحداث . . لكنني لا أنسى كيف لحق بنا القط "ريمي " يبكـي والله وتنهمر دموعه وكأنه إنسان ! وأركبونا السيارة في النهاية لنجد أنفسنا أمام بوابـة فـرع التحقيق العسكري ونحن أشبه ما نكون نسبح في حلم غريب !

نحن هنا !

من بوابة الفرع إلى غرفة الاستعلامات قادنا العناصر ونحن لا نزال مكبلين حتى نسلم أماناتنا ونملأ بيانات القدوم ، ثم أنزلونا إلى القبو عبر الدرج المقيت نفسه ، ووضعونا في مهجع واحد في القسم الشمالي هذه المرة ، وبينما كنا نعبر الممر سمعت البنات اللاتي سبقننا أصواتنا كما يبدو فـصرن يضربن على الباب ويقلن لنا: نحن هنا. وقتها لم نعد نأبه بالعناصر الذين كانوا يـصيحون فـيهن وفينا لنسكت . . وأخذنا نتبادل عبارات الترحيب والشوق والتبريك . . ووجدنا أنفسنا أخـيرا في مهجعنا الجديد أربعة عشر سجينة نكاد لا نجد مكانا للنفس . . فقرعنا الباب وقلنا لهم ذلك ، فأجابنا العنصر : - هذا المهجع الذي تقولون أنه لا يتسع لكن كان اتسع قبلكن لاثنين وتـسعين شخصا من الشباب ! وكنا لما رفعنا رؤوسنا نستطلع المكان لمحنا في سقف المهجع رغم ارتفاعـه الشاهق رسما لمسجد كما اعتاد سجناء الإخوان أن يفعلوا وتحته اسم شخص ما . . واسـتغربنا وقتها كيف وصل هذا الشخص إلى أعلى وتمكن من رسمه . . فلما أجابنا جوابه ذاك الذي تقشعر له الأبدان قالت له الحاجة مديحة : - الآن فهمنا خيو . . معنى ذلك أنهـم كـانوا وصـلوا إلى السقف فوق بعضهم البعض !

مزاح فقط !

مرت الليلة الأولى والثانية . . والثالثة ونحن نبيت وراء الباب جميعا ننتظر الإفراج كل لحظة ونظنه بات قاب قوسين أو أدنى . . فلما لم ننل إلا السراب وعدنا نتقلب بين التسويف والتجاهل خبت فرحتنا من جديد اين وانتكست أمالنا . . وعادت رتابة نظام السجن تلفنا مرة أخرى زاد عليها أننا عدنا إلى أيدي المخابرات مباشرة وخضعنا من جديد لأجواء الرعب والارهاب . كانت أيامنا في التحقيق العسكري كما فهمنما لاحقا أقرب ما تكون إلى فترة تأديب . . عاملونا فيها بقسوة بالغة ، وضيقوا فيها علينا أشد مما كان التضييق حتى أيام كفرسوسة . . فالطعام أقل مما يكفـي لنصف عددنا ، والزنزانة مقفلة الأ بواب فلا نغادرها إلا للتنفس حسبما يقتضي مزاج العنـصر وقتذاك : عشر دقائق أو ربع الساعة في اليوم وحسب ، نمضيها في باحة داخلية ضـيقة تحيطهـا الجدران المرتفعة من كل الإتجاهات ، لكن الجوع والقلق والأ بواب المغلقة لم تكن لتفعل فينما ما

تفعله صيحات الإستغاثة وصراخ المعذبين من حولنا . فعندما يحين وقت تنفس الشباب كانوا يخرجونهم راكضين لا ينتعلون في أرجلهم رغم شدة البرد شيئا . . يهرولون حفايا تتبعهم الكرابيج والكابلات وكأنهم قطيع غنم ! ومن شدة اصفرارهم كنا نحس وكأن شعلة ضوء تخرج من كل فرد منهم . . ولا أزال أذكرأن أحد السجناء تأخر في إحدى المرات داخل الحمام بضع ثوان . . وكان بابه مجاورا لباب سجننا ، فأخرجه العنصر المكلف بمراقبته وصار يعذبه عذابا أسوأ من عذاب العبيد. . فبعد اللسعات التقليدية بالكابل جعل هذا العنصر يأمره ونحن نسمع مايدور ويقول له: إحمل الشحاطة بفمك . فيمتثل المسكين لاحيلة له ويحملها . . فيقول له ثانية : - إزحف بها إلى التواليت . . والتواليت هناك يقرف الواحد من الإقتراب أو النظر إليه . . لكن هذا المجرم كان يقوده والشحاطة في فمه إلى هناك فيطمس له رأسه في الحفرة ثم يخرجه ، ويعود بعدها فيأمره أن يحمل الشحاطة ثانية بفمه . . ليعود ويسوقه في اتجاه آخر وهو لا يكف عن لسعه وسلخه بالكابل . . وذاك يصيح ويستغيث وليس من مجيب . . وعندما فاض بنا الصبردقت الحاجة الباب وهي تصيح فيه : -هل أنتم يهود ؟ ألا توجد رحمة في قلوبكم ؟ وجعلنا ننادي جميعا ونقول له : - منشان الله إذا ما بدك ترحمه إرحمنا نحن وخذوه إلى مكان آخر عذبه فيه ! فقال السفيه وظل ابتسامته الساخرة يتراءى لنا من وراء باب ا لحديد : -ليش شوفي ؟ نحن نمزح مع بعضنا فقط ! . وفي مرة أخرى كانوا يوزعون الطعام ، وهناك في فرع التحقيق العسكري كانت الطاقة أسفل باب المهجع ، فكان أحد السجناء يحمل الطعام ويضعه عند الطاقة تم يأتي العنصر من ورائه فيفتح الطاقة لنسحب القصعه . . وذات يوم سألتنا عزيزة أن نحاول السؤال عن بيت أهل زوجها إن كانوا معنا في نفس السجن . . فلما جاء السجين وكان دوري يومها دفعت الطاقة فوجدتها مفتوحة ، فمددت رأسي وسألته : -هل سمعت ببيت اليوسف ؟ فقال لي : نعم . . أتوا بهم جميعا إلى المهجع الجنوبي . . ولم يكد المسكين يتم جملته حتى كان العنصر وراءه ، فأمسكه وسحبه وبدأ يضربه ويعذبه على باب مهجعنا وذاك يصيح ويستغيث : -لم يكن ذنبي . . هي التي كلمتني . . ولم أرد عليها . . وقامت الحاجة فصاحت عليه وقالت له لعله يغفل عنه قليلا : -فعلا لم يكن ذنبه . . هذه مقروفة العمرساءلته عن الطعام فقط . . لكنه لم يتوقف أو يلتفت إليها . . ومضى يتابع الضرب والتعذيب حتى شبع !

الرئيس ما كان له خبر !

ومرت أيام أخر . . وبدأت ملامح أكثر جدية تتبدى عن اقتراب أيام الفرج والإفراج . . فبدأوا يخرجوننا إلى المكاتب في القبو نفسه ويعطوننا استمارات لنملأها بمعلومات مفصلة عن تاريخ حياتنا . . وصورونا مرات عديدة بأوضاع واتجاهات مختلفة ونحن نمسك بأيدينا لوحة الأرقام . .

وبعد١٥ يوما تقريبا أبلغونا عن صدور العفو بشكل رسمي . وقتها سألت الحاجة مديحة رئيس الدفعة وقتها : - خيو . . وليش تذكرتونا الآن بعد كل هذه السنين . . ما هي ا لمنا سبة ؟ فقال لها : والله الرئيس ما كان له خبركم . قالت له : يعني الآن وصله خبرنا ؟ قال لها : نعم . قالت : بالله عليك مض علينا تسع سنين وماله خبر! قال : إي والله . . والله يا حاجة لو له خبركم من زمن كان طالعكم . . لكن من أول ما دري قال طالعوهن إ! فقالت له الحاجة : وما الذي يمنعكم من إخراجنا إذا ! فأخبرها أن سورية الآن حزينة تضامنا مع لبنان الذي قتل رئيسه رينيه معوض قبل أيام . . وقد صدر الأمر لذلك بتنكيس الأعلام وإغلاق الدوائر الرسمية لهذه المناسبة . . وبالفعل فقد بقينا في الإنتظار أسبوعين أو ثلاثة أخر . وخلال ذلك أخرجونا مرتين إلى لجنة شكلوها من أجل إبلاغنا النبأ وتوديعنا بما يليق كانت برئاسة العميد حسن الخليل ومعه كمال يوسف رئيس الفرع وضباط آخرون . . فلما حان دوري قابلني كمال يوسف وأنا مثل الأخريات معصوبة العينين وقال لي : - لا تظني أننا أخرجناك وتأخدي راحتك . . أنا من أهلك حاطط لك مخابرات. قلت له : وحتى . .أنا أصلا لم أعمل شيئا . . فقام يشتمني بكلام قبيح ويقول لي أنني مجرمة ولا زلت أنكر . . وقال لي أيضا أن علي الإبلاغ عن أي شخص مطلوب يتصل بي أو حتى أراه . . وكذلك قسى على عزيزة جلود وحدثها عن أولادها ما سبق وذكرته . . وقال لأمل : - شو إلك بالقصر مبارح العصر وجاية لتطلعي ! وكانت كل مهمة اللجنة أن تؤكد لنا أننا لا نستاهل الطلعة ، وإننا لا نزال في دائرة الإدانة . . ولكن كرم الرئيس وعفوه وحده هو الذي أخرجنا إ!

تأهيل أم تجميل !

وضمن مظاهر الكرم الحاتمي الذي تدفق علينا من أصحاب الفضل . . جلادينا المحترمين أنهم بدأوا قبيل الإفراج عنا بما يمكن تسميته تأهيلا لسمية ابنة سلوى التي ولدت في تدمر وترعرعت بين سجون حمص وقطنا ودوما . . وحلت آخر الأمر في العسكري وقد بلغت سن المدرسة ، ولكنها تبدو لمن يراها لا تزال في سنوات عمرها الأولى من الهزال . . ولربما أصابت الرعدة ناظرها لأول مرة من شدة ضعفها واصفرار وجهها . . وتحاشيا لمزيد من الأدلة اليقينية على جرائم النظام ، وحتى لا تخرج هذه البنت إلى المجتمع فيراها الرائح والغادي بهذه الصورة فيسألوا ويعرفوا عن الفاجعة كان برنامج التأهيل هذا . . فكانوا يأخذونها وأمها كل يوم إلى باحة الفرع خارج القبو ويتركونها تتعرف على العالم من حولها ، ويقدمون لها طعاما إضافيا وحلوى وألعابا تستعيد بهم بعضا من طفولتها السليبة . . وفي يوم من الأيام حضر رئيس الفرع وهي هناك فوقفت سيارته ونزل السائق ففتح له الباب وتناول الحقيبة منه وتبعه بعدما نزل إلى مكتبه . .

فلما لمح سمية قبل أن يدخل ناداها وأدخلها معه وجعل يداعبها ويتحدث معها ، فلما عادت من عنده قالت لأمها : ٢٢٧

- ماما أنا غدا عندما أكبر أريد أن أصبح عقيد ! فسالتها سلوى : ولماذا ؟ قالت لها : حتى تكون عندي سيارة وشوفير أي شوفير - يسوق لي السيارة ويحمل لي سنتايتي - شنتايتي - ويدخلني إلى غرفتي مثل غرفة هذا العقيد كمال ! ولما سالتها : كيف مثل غرفته ؟ قالت سمية : يعـني فيهـا سجاد ممدود بالأرض وأضواء وأشياء حلوة ما في منها عندنا ! وكانت سمية تقليدا للسجناء قـد كتبت اسمها على الجدار للذكرى . . ولكم كان مؤثرا أن يقرأ المرء ما كتبت هذه الطفلة البريئة تحته تقول : أنا من مواليد تدمر . . سكنت في سجن كذا . . وسجن كذا . . وكذا . . مسجلة كل اسم وتاريخ كل سجن تنقلت مع والدهما إليه !

المقدم المخمور !

وكان رئيس الفرع كمال اليوسف على عنجهيته وتجبره يتصرف إذا جن الليل وحـان موعـد الكاس والطاس أسفه من الأطفال ! وكثيرا ما كان يرسل وراء غزوة فيأمرها بالجلوس في مكتبه ويمضي يحدثها وهو في نصف وعيه يهدر بما لا يقيم أي معنى . . أو يترل بنفسه إلى القبو فيقـف على طاقة المهجع ويناديها لتتكلم معه . . فكانت المسكينة تمتنع أكثر الأحيان ولا تستجيب . . وأذكر أننا كنا نياما مرة وقد جاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . . فمـا وجـدنا إلا وطاقة الباب قد فتحت وأطل أحد ما برأسه علينا ، وكانت العادة التي جرت أن يدق أولا لنضع على رؤوسنا ، لكن هذا الطارق المجهول فتح الطاقة على حين غرة وأطل يحملـق فينـا بعيـنين محمرتين كالدم ، فما وجدنا أنفسنا ألا ونحن ننادي بصوت واحد: الله لا يعطيك العافية . . ومنا من بصقت بوجهة ومنا من صاحت فيه : -أغلق الطاقة وانقلع . . من سمح لك . . ياقليل الأدب . . يا قليل الذوق . . فقام من المفاجأة بشكل غير إرادي وسحب نفسه قليلا ، ثم كأنما تذكر أنه هو رئيس الفرع فمد رأسه وقال : - من هذه قليلة الأدب التي ترفع صوتها . . لكنه وبـسبب لهجته المثقلة من السكرلم نعرفه . . وعدنا فسحبنا باب الطاقة وأغلقناه في وجهه . . وفي الصباح خرجت الحاجة تقول للعنصر : - خيو . . نريد أن نقدم طلبا لرئيس الفرع . قال لهـا : بأيـة مناسبة ؟ قالت : هناك عنصر قليل الأدب فتح الطاقة علينا بالأمس ومد رأسه . سالها : أية ساعة . فلما أجابته قال لها : - دعني أقول لك شيئا . . لا تتكلمي بما حصل لأن الذي تتحدثين عنـه كان رئيس الفرع نفسه ! فشهقت الحاجة وقالت : الله يلعنه ! وعلمنا من البنـات في التـنفس بعدها أنه بعدما غادرنا أمضى الليلة على باب المهجع الثاني يحاول محادثة غزوة والمسكينة مقطوعة من الرعب لا تدري كيف تتهرب منه !

مد. . وجزر !

ومضت الأيام ونحن كأنما نتقلب على السفود . . حتى دنت أواخر ديسمبر فأتوا صباح يوم منه وقرأوا أسماءنا جميعا وقالوا جهزوا أنفسكم . . تجهزنا أسرع من البرق ، ودبت الفرحة من جديد . . لكن النهار مضى ولم يحدث شيء . . قرعنا الباب وسالناهم: ماذا جرى ؟ فقالوا من غير أن يذكروا السبب : تأجلت للغد . . وفي الصباح التالي حضروا ونادوا أم حسان وابنتيها سلوى ويسرى ومعهم سمية ، وكانوا قد جمعوهن معنا عند وصولنا لضيق المهجع الذي كانوا فيه ، فلما خرجن لم يذكروا لهن عن الإفراج شيئا . . وظننا أنهن ستنقلن إلى المهجع الآخر من جديد ،لكننا لما سالمنا عنهن بعدها . . قالوا لنا : خرجوا . فقلنا لأنفسنا إذا هؤلاء اللاتي صدر العفو عنهن وخرجن ، وأما نحن فقد فاتنا القطار! وقطعنا الأمل وعدنا للتشاؤم . . وجعلت عزيزة تبكي سبحان الله و تقول :أن قلبي يحسسني أني لن أخرج معكن . . وسترون ! وبالفعل خرجنا نحن وبقيت المسكينة من غير ذنب ولا سبب سنتين تاليتين بعدنا . وبعد يومين نادوا على غزوة من المهجع الثاني وحدها وأطلقوا سراحها . . وأخيرا ونحن نصارع الهواجس ونتقلب بين المد والجزر أتوا صباح الرابع والعشرين من ديسمبر وأبلغونا أن ساعة الإفراج قد حانت هذه المرة . . وأخرجونا ونحن بين مصدق ومكذب لتسلم الأمانات وملء الإستمارات . . لكننا لم نكد نغادر المهجع حتى تراجعوا وقالوا أن الأمر تأجل للمساء ! وعادوا فكرروا نفس الأمر في الليل ، فأخرجونا إلى غرفة الأمانات وأوقفونا في طابور طويل . . وبينما نحن ننتظر على أعصابنا طفح الكيل بأمل فمالت على بنت بجانبها وقالت لها : - والله كأننا واقفين بانتظار بطاقات التموين في المؤسسة! فالتقط أحد العناصر العبارة واهتبلها فرصة فقال للمقدم عمر : - سيدي . . أتسمع ما تقوله ؟ فسأله ذاك : ماذا قالت ؟ قال : سيدي هؤلاء لا يتوبون . . ويبقون يتحدثون في السياسة ونقل له العبارة مثلما يحلو له . . فجاء المقدم وكأنما لسعته أفعى يرغي بالشتائم ويزيد وهو يصيح : - والله أنتو ما لازم تخرجو . . لا زم تنقبروا هون حتى الموت . . حتى إذا أكمل قاموس الشتائم التي يحفظها عن ظهر قلب وتسلمنا آخر الأمر أماناتنا وملأنا كل الإستمارات ووقعناها قالوا لنا بأن الأمر تأجل إلى صباح الغد بسبب الضباب . . وأعادونا إلى المهجع الثاني الذي كانت البنات فيه ، فتكومنا كلنا وراء الباب مترقبات متحفزات لا نستطيع النوم . . وعدنا إلى التشاؤم من جديد ، وتذكرنا كيف وعدوا الشباب بالإفراج في كفر سوسة ثم نقلوهم إلى تدمر! وبقينا طوال الليل نستسلم لهذه المشاعر المرة حينا . . وحينا لمداعبات الأمل ولمحاته اللذيذة والتفكر فيما يمكن أن نفعله إذا خرجنا . . لكنني كنت واقع الأمر أحس نفسي عاجزة عن تصور ما الذي يمكن أن أفعله إذا خرجت . . وكأن العقل لدي قد توقف قبل هذه المرحلة وما عاد

يستطيع استيعاب معنى الخروج أوالى أين يمكن أن يكون . . كانت البعض تقلن : أنـا سـأعود لأكمل دراستي . . أو إلى وظيفتي من جديد . . ومنهن من كانت تقسم أنها لن تعود إلى الوظيفة الحكومية أبدا. . وستمضي العمر بين الأهل والأحباب . . وأما أنا فلم أعد أستطيع حتى أن أفكر في هذا الإتجاه . . وأراه حتى اللحظة شيئا مقطوعا منه الأمل ولا يتصوره العقل . . ذاك الـذي كان بيننا وبين أن نبلغه مجرد مطلع الفجر!

حتى مطلع الفجر!

واذا كانت ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ديسمبر تلك ليلة لا تنسى فإن مما لا ينسى فيهـا أولئك الشباب السجناء الذين أحيوا الليلة معنا في مهجعهم المقابل يتلون القـران والتـسابيح والأذكار وقد بلغهم قرب الإفراج عنا على نية الفرج والتسهيل ، وكنا نتلمس من إشارات منهم أهم يعيشون همنا ومشغولون بنا أكثر من أنفسهم . . وعلى الرغم من الخـاطرة البالغـة فقـد استمروا يجهرون بالتلاوة والدعاء ليبلغنا في ظلمة الليل فكأنما هو النور يتزل من الـسماء . . وسلمهم الله من الحرس فاستمروا في دأب ونشاط حتى مطلع الفجر . ودنا الفجر وكنـا كلنـا ميتات من التعب والنعاس والجوع . . لكن ترقب الإفراج كان يغلب كل الأحاسيس والمعـاني والمعاناة الأخرى . . فجعلنا نطرق الباب مرة بعد مرة نسأل الحرس ما الذي حـصل . . ومـتى سيفتح هذا الباب بيننا وبين الحرية من غير رجعة . . حتى فاض الصبر بالعنصر فقال لنـا آخـر الأمر : توقفوا عن الطرق . . عندما نريد أن نخرجكم فسنفتح لكن الباب ونقول لكن اخرجوا . . فلما فتحوا الباب وقالوها كنا كالموج المختزن خلف سد تفجرت بوابته . . وانـدفعنا فـوق بعضنا البعض وكأننا خائفات أن يغلقوه علينا من جديد . . ولما تجمعنا في الممروقد تثبتت عيوننا على الباب بين القبو وساحة السجن في الأعلى قرأوا أسماءنا جميعا ، ووجـدناهم قـد أخـذوا الحاجتين مديحة ورياض ومعهما نجوى وسلسبيلة إلى المهجع الثاني دون أن نعلم لمـاذا ، وهنـاك أخبروهم بأن دورهم في الإفراج لم يحن بعد فكدن أن يمتن بأرضهن . . وأصيبت الحاجة رياض بما يشبه الإنهيار العصبي وقد كانت تظن أنها ستكون أول الخارجات . . وأما نحن الذين بقينا أربعـة عشر امرأة - سبع من حلب وسبع أخريات من حماة - فأخرجونـا وقتـها إلى باحـة الفـرع والشمس لا تزال تتسلق السماء في أول إشراقتها . . فكنا ونحن نعبر مـن العتمـة إلى الـضوء مهلهلات الثياب صفر الوجوه كالخارجات من القبر إلى دنيا الناس بعد غيـاب ! ولم نتمالـك أنفسنا جميعا فوقفنا كلنا نتأمل الشروق الدافئ ونتلو الشهادتين وقد انفجرت بعضنا في البكاء ، فنظر رئيس الدورية إلينا مستغربا وقال : - ماذا هناك ؟ لماذا وقفتم كلكم ؟ فقالت له أم زهير : بعد تسع سنين هذه أول مرة نرى فيها الشمس وقت شروقها . . ماذا تريدنا أن نفعل وسـرعان

ما وجدناه أحضر الكلبشات وعاد ، فسألناه وقد غاصت قلوبنا بين الضلوع من جديد : -لم هذه الكلبشات ؟ قال : هذا القانون . . لازم تتكلبشوا حتى تقطعوا ضواحي دمشق . كمـــدنا مـــرة أخرى بعد شعور الفرح الذي لا يوصف . . وبدأنا تراودنا المخاوف مجددا من أنهم سينقلوننا إلى سجن اخر وحسب . . لكن الأحداث مضت متسارعة . . فتلوا أسماءنا مرة أخرى . . وتحققـــوا من عددنا وشخصياتنا ، ثم أصعدونا إلى "الميكرو" ونحن مكبلات . . وصعد معنا ثلاثة عناصر من المخابرات جلس اثنان منهم في الأمام وأخذ الثالث مكانه عند الباب في الخلف . وعندما تحركنا سالمت ماجدة أقرب العناصر إليها إن كنا خارجات إلى بيوتنا بالفعل أم أنه مجرد نقل من مكان إلى اخر . . فطمأنها وأكد لها أنه إفراج حقيقي . . فساكته وهي تستحلفه : -قل لي . . هناك طلعة للشباب ؟ قال لها : والله لا أعرف . لكنها ظلت تلح عليه حتى قال لها : نعم هناك أمل ولكـــن ليس الآن . . لكنهم أخرجوكم أولا ليتخلصوا من همكم !

هاني العام الجديد !

ومض الباص بنا نريده أن يطير أسرع من السحاب ويبلغنا بيوتنا للتو . . لكننا كنـــا في نفـــس الوقت وكأننا نفكر بعقل واحد في الأتي المجهول : كيف سنفترق اليوم ونصحو في الغد بعيـــدين عن بعضنا البعض بعد تسع سنوات من صحبة العسر واليسر؟ إلى أين سنذهب . . ومن سنلتقي . . وماذا عمن مات أو قتل . . ماذا عن حماة التي هدمت . . والأحياء التي سويت بالأرض . . والأحباب الذين واراهم الثرى وقد كانوا بهجة العمر كله إ! وظلت دوامة التساؤلات تعصف بنا حتى بلغنا مشارف حماة وفكوا لنا الكلبشات من أيدينا وقالوا للحمويات أن يستعددن للمغادرة . . فالركب سيكمل بالبقية إلى حلب . وجعلنا نقبل الحلبيات ويقبلننا ويستسمح بعضنا الـــبعض ونتواصى بالزيارة القريبة والإتصال المستمر . . وتوقف الباص أخيرا أمام فرع الأمن العـــسكري على مشارف المدينة ، وتخطى السائق البوا بة ونزل رئيس الدورية التي رافقتنـــا فتبـــادل بعـــض الكلمات مع مسؤولي الفرع قبل أن يأمرننا بالنزول . . وعاد وبقية العناصر معه إلى الباص وهم يهنؤوننا على الإفراج ويقولون وهم يبتسمون : -الحمدلله خلصنا منكم ومن نقكم . .

كل عام. . وأنتم بخير!

وذهب الركب باتجاه حلب . . ووجدنا عناصر أخرى تستقبلنا هناك بلا اكتراث . . ولم نلبث أن طرق أسماعنا عبارات التهنئة بالعام الجديد يتبادلونها بينهم . . فتـــذكرنا أن رأس الـــسنة علـــى الأبواب. . ولكننا لم ندرك أننا ينبغي لذلك أن ننتظر مزيدا من الوقت ليحضر رئيس الفرع مـــن مراسم التعييد ! وفي غرفة من غرف الفرع الباردة تكومنا واحدة تلو الأخرى ليست لنا من حيلة إلا الإنتظار . . وبعد ساعات كنا لا نملك إلا التحديق بوجوه بعضنا البعض وارسال الزفـــرات

حضر أحد العناصر وسأل كل واحدة أن تعطيه رقم هاتف ولي أمرها الذي تريد أن يستلمها .؟. وكان الأهالي قد سمعوا قبل أيام عن نبأ الإفراج فذهب الآباء إلى دوما أولا ليسألوا فقال لهم المقدم هناك بأننا نقلنا إلى سجن(عدرا) ! فلما ذهبوا هناك لم يجدوا عنا أي خبر . . ولم يعودوا يعرفوا عنا أي شيء . فلما اتصلوا بهم بدأوا يتوافدون على باب الفرع بين مصدق ومكذب . . واجتمع أكثر آباء البنات واخوانهن وأنا لم يحضر لاستلامي أحد ! وعندما حضر العنصر وسالنى عن هاتف ولي أمري لم أدر بم أجيب . . ولم أجد شيئا أعطيه أو اسما من الأحياء أذكره ! وكانوا قد اتصلوا بوالد ماجدة وقالوا له مثلما قالوا للآخرين -تعال واستلم ابنتك . . فظنها مداعبة من أحد ما وأقفل الخط ! فذهبوا إلى البيت وأحضروه بأنفسهم وهو لا يزال يظن الأمر لعبة . . فلما راها بعينيه كاد أن يغشى عليه . . وأخذ وهو يحتضنها ينظرإلي ويبكي وهو يتمتم : - وأنت من الذي سيأتي ويأخذك ! فلما عاد العنصر يسالنىوقد كاد ينفض الجميع - مع من أريد الذهاب ، قلت مع أبي ماجدة . وأثناء ذلك حضر شقيق واحدة أخرى من البنات وعرض أن يصحبني برفقتها . . فلما اخترت والد ماجدة اتصل ذاك ببيت عمي بعدما أخرج رقمهم من الدليل، لكن عمي وزوجته كانا في حمص وبقيت خالة الأولاد معهم في البيت ، فلما أبلغها بالنبأ اتصلت بخالي هناك وأخبرهم أن شخصا اتصل وقال بأن هبة طلعت واذهبوا لتأخذوها . فقالت لها عمتي : يكفي كذبا واذا اتصل ثانية أغلقي الخط بوجهه ! فاتصل مرة ثانية وقال لها : - هبة عند بيت رفيقتها ماجدة . . اذهبوا وأتوا بها . فأعطته رقم حمص ليحدثهم مباشرة ، فلما اتصل سألته عمتي : - من حضرتك ؟ قال : فاعل خير. فخافوا من ذلك وارتابوا . . لكنها وبعدما أقفلت الخط رأت أن تتصل ببيت أهل ماجدة فتأكد لها الخبر ، لكنها ولما طلبت أن تتكلم معي حتى تصدق ونادوني لأحدثها وجدتني وكأنما نسيت كيف يكون الحديث على التلفون ! ولم تكد تسمع صوتي حتى وجدتها حضرت أسرع مما أتخيل ! ودخلت فاحتضنتني ورجعت تقبلني وأنا جامدة مكاني وكأنني لم أعد أميز بين الفرح والحزن ! اختلط الشعوران عندي فلم أعد أعرف ماذا أفعل أو الى أين ينبغي أن أذهب ! وكان أهل الحي قد اجتمعوا رجالا ونساء وأطفالا يهنئون بسلامتنا ويباركون لنا . . لكن ظلال التوجس كانت بادية على الوجوه وهم يحملقون فينا ولا يزيدون على أن يحمدوا الله . واقتادتني عمتي من يدي . . وأم ماجدة من ورائنا ترقبنا دامعة العينين وقد أرادتني أن أبيت عندهم الليلة . . وكنت أود ذلك أيضا وأحسها بمنزلة أمي رحمها الله . . وكانت قد رأتني قبل يوم في نومها أنني أرسلت لها بطاقة عليها رسم المسجد الأقصى وكتبت لها تحتها : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد ا لأقصى) فتفاءلت بذلك وذهبت للشيخ ففسر لها المنام وبشرها بقرب فك أسرنا . . وكان ذلك في اليوم الثاني بالفعل ..

ظلال الفاجعة!

وفي تلك الليلة الباردة أواخر عام ٨٩ ولجت سيارة عمتي وقد قاربت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . . وتكورت على نفسي أتقي البرد القارس والقادم المجهول . . وبينما كانت السيارة تعبر بنا المدينة من طرف إلى طرف ، كانت المشاهد أمامي تنطق بالوحشة أنى اتجهت . . فالدمار الذي مضت عليه سبع سنوات لا تزال ظلاله تنطق بالفاجعة . . والشوارع المقفرة تحكي حال القلوب المقفرة . . والنواعير التي طالما حركت بأنينها شجى القلوب أراها جامدة خامدة . . وقد جـف من تحتها العاصي وتيبست حولها الأشجار والحقول . كان كل شيء عهدته في المدينة قد تغـير ، وماتت على شفاه المشاهد هيئة الحياة . . وحدها سيارات المخابرات لم تتغير برغم السنين . . ها هي ذي تحتل مفارق الطرقات أو تطل مقدماها من بين الأزقة تترصد الساعة ربما أحلام النائمين ! وقتها ارتد بي البصر إلى دمشق عام ٨٥ وعدت بالذاكرة إلى ليلة رأس السنة في بيتنا بالبرامكـة قبل تسع سنوات بالتحديد . . ليلة أن اصطفت سيارات المخابرات علـى طـول الـشارع في منتصف الليل . . وسألني رئيسهم أن أذهب معه خمس دقائق وحسب ، فانتزعوني من الحياة تسع سنوات كاملات . . دون أن أعرف سببا لذلك إلى اليوم !

[الشهادة الثالثة]

شهادة المعتقل السابق عباس محمود عباس

الاسم: عباس محمود عباس

مواليد: حماة - دير ماما ١٩٥٢

متزوج، اسم الزوجة: فائزة ونوس

لديهما ابنة: ديمة عباس مواليد ١٩٨٤ - سنة أولى تجارة واقتصاد جامعة دمشق

توارى عام ١٩٨٤ بعد ملاحقته من قبل المخابرات العسكرية فرع فلسطين

اعتقل في نيسان ١٩٨٧.

كان موظفاً حتى آب ١٩٨٤.

أفرج عنه قبل انتهاء تنفيذ حكمه بخمسة أشهر وذلك في ٢٠٠١/١١/١٨ كان قد حكم عليـه بالأشغال الشاقة مدة خمسة عشر عاماً مع حجره وتجريده مدنياً، وصدر قرار المحكمـة بتـاريخ ١٩٩٥/٦/٢٧ بعد توقيفه عرفياً منذ ١٩٨٧/٤/١٤.

تقول الحكاية:

"إن أحد الخانات وقع في غابر الأزمان أسيراً بيد خان آخر. فقال هذا الأخير للخان الأسـير: إذا أردت، فستحيا لديَّ عبداً رقيقاً، وإلاّ فسأجيبك إلى أحبّ الأماني إلى قلبك، ثم أقتلك بعدها.
فكّر الأسير الخان مليّاً ثم قال: لا أريد أن أحيا عبداً، والأفضل أن تقتلني، على أن تدعو لي قبـل مقتلي أوّل راعٍ تلقاه من وطني.
ما حاجتك إليه؟ سأل الخان.
فأجاب الأسير: أريد أن أستمع منه قبل موتي كيف يغنّي!!".
قبل أن تمضي بي الطريق، وشت لي دون مواربة:
"إنني شائكة ووعرة ومتعرِّجة ما أمكن، إنني موقوتة البغتات ككلِّ الدروب المناوئة للعسف!!"
كذا شرع العمل السياسي المعارض، أشبه بالسير في حقل ألغام حين تكـون بعـض حقوقـك الدستورية معلّقة إلى أجل يحدِّده أولياء حياتك.
إن "حرية التعبير" و"الإسهام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية" وسواهما، كلها حقوق نصَّ عليها الدستور السوري الدائم لعام ١٩٧٣، وقد عُهد للمشّرع بسنِّ القوانين والتشريعات التي تكفل ممارسة هذه الحقوق. أما واقع الحال فإن مفهوم "الحرية حق مقدّس" كما صيغَ في متن الدستور ظلَّ خارج القاموس السياسي السائد ولم يرَ الحياة. ومع غياب قانون تشكيل الأحـزاب وتنظيم الحياة السياسية، والحضور المطلق لقوانين الطوارئ والأحكام العرفية منذ عـام ١٩٦٣، كان يسيراً جداً أن يعتبر النظامُ قوى المعارضة بأسرها خارج القانون، أو خارجة علـى قـوانين الاستثناء سارية المفعول. وبالتالي فقد تمَّ إطلاق العنان لقانون القوة، خـصماً وحكمـاً في آن، واعتبرت كل هذه الأحزاب محظورة.
في ظل ظروف كهذه ولدت رابطة العمل الشيوعي (حزب العمل الشيوعي لاحقـاً)، بـصفتها تنظيماً سياسياً معارضاً، واختارت العمل السري مكرهة، شأنها شأن جميع التنظيمات الـسياسية المعارضة، وكانت الجريدة السياسية وسيلتها الوحيدة في التعبيرعن مصالح الطبقـات الـشعبية وتطلعاتها نحو مجتمع يسود فيه القانون والعدالة. وقد رافقتها حملات القمع والملاحقة والاعتقـال على نحو مستمر منذ نشوئها كرابطة ومن ثم كحزب، إلى أن شهدت أعوام التسعينات من القرن الماضي انتصار النظام بشكل ساحق على كل الأصوات الوطنية التي لم تندرج تحت مظلته.
في أوائل عام ١٩٧٨ انتميت إلى رابطة العمل الشيوعي وكنت آنئذ موظفاً وطالباً جامعياً. وقـد عملت في عدد من الهيئات الحزبية، وحين اعتقلت كنت عضواً في اللجنة المركزية لحزب العمـل الشيوعي.

في عام ١٩٨٤ لوحقتُ من قبل الجهات الأمنية ولم تكن ابنتي قد بلغت الأشهر الخمسة من عمرها. وبقيت متوارياً لثلاث سنوات تقريباً، كنت متفرِّغاً خلالها للعمل السياسي إلى أن جرى اعتقالي في مدينة حمص بتاريخ ١٩٨٧/٤/١٤ من قبل فرع فلسطين.

وهناك تعرّضت لشتى صنوف التعذيب النفسي والجسدي، واستمرّت هذه الحال نحو أحد عشر شهراً في ظروف تحقيق بالغة السوء.

* * *

في ١٩٨٨/٣/٢ رُحلّت إلى سجن تدمر مع خمسة عشر رفيقاً لا نحمل سوى أقلّ القليل مما بخس وزنه وثمنه، بما في ذلك أجسادنا التي استُبيحت هناك أيّما استباحة، ضرباً وتنكيلاً، بينما كانت في أمسّ الحاجة إلى الترميم واستعادة بعض قواها.

كنا نعتقد أن اعتقالنا، رغم لا مشروعيته، هو إقصاء عن العمل السياسي أي إخراج من ساحة النشاط اليومي، لنكتشف أن معتقل تدمر يعني الإقصاء عن كل ما يصلك بالحياة وتقطيع أواصرك معها. يعني تفكيك الذات الإنسانية عبر العزلة المطلقة والعطالة وتعطيل الحواس. يعني الترقّب المريع، والهلع من المجهول، والعيش في حمأة التوتر اليومي. يعني الشحّ في كل شيء ما عدا التعذيب متعدد الضروب. يعني، باختصار شديد، جهنم من صنع البشر!!!

ما من شك في أن الشروط التي تتوافر عليها السجون العسكرية الثلاثة: (تدمر، المزة، صيدنايا) متفاوتة بين سجن وآخر، بيد أنها جميعاً لا تتناسب والمعايير الدولية؛ ولكن فيما يتعلق بسجن تدمر فإنه يمتاز بافتقاره لأدنى الشروط الإنسانية، حيث أن الطقوس الفظيعة التي تمارس فيه كفيلة بإماتة القطط.

ففي المرحلة الأولى من وجودنا فيه، كنا كمن يقف في حلق هاوية، بلا قرار، عرضة للضرب والتعذيب والإهانات، يكفي أن يُفتح باب المهجع حتى تنهال العصي واللكمات والركلات والقضبان من كل حدب وصوب. ومن يشهد إدخال الطعام أو لحظة الخروج إلى "التنفس" في الباحة يعتقد أنه في ساح الوغى. وما من شك في أن ظروف المعتقلين الآخرين ممن ينتمون إلى حركة الإخوان المسلمين وحزب البعث الموالي للعراق كانت أكثر سوءاً بما لا يقاس. فالاختلاف في التعامل يبرز ليس فقط بين سجن وآخر، وإنما أيضاً بين جماعة وأخرى داخل السجن الواحد، وفقاً للتقديرات السياسية والأمنية والتوصيات العقابية الخاصة بكل مجموعة على حده. كما أن هنالك هامشاً كبيراً يمكن لمدير هذا السجن أو ذاك التحرّك داخله بحرية، ناهيكم عن أن السجّان بحدِّ ذاته - وهو أداة التنفيذ المباشرة - قادر على التحكّم بهذا الهامش دون حسيب أو رقيب، فهو المعني أصلاً بابتداع وسائله الخاصة في التعذيب وتطبيقها على المعتقلين جسدياً ونفسياً. وليس

مهماً بالنسبة له أن يرتكب السجين خطأ ما، لأن النتيجة تكاد تكون واحدة في ظل غياب حقوق السجين، وجهله لواجباته التي ينبغي أن يكتشفها بنفسه، ولكن ليس قبل أن يدفع ثمنها غالياً من دمه وروحه.

إن عددنا القليل جنَّبنا الآثار المرعبة للازدحام الذي كان يعانيه باقي المعتقلين: التوتّر والضغط النفسي وعدوى الأمراض وكميات الطعام التي توزّع على المهاجع دون الأخذ في الاعتبار عدد نزلائه.

بعد معاناة قاسية دامت أشهراً لم يكن من الصعب خلالها التوصل إلى حقيقة مفادها أن ليس ثمة قرار سياسي بتصفيتنا جسدياً، ولكن كل ما عدا ذلك كان متاحاً ضدنا إلى ما لا نهاية. وكانت وسائلنا الدفاعية شبه الوحيدة التململ الجزئي والصبر ونزع الذرائع. ومع استمرار دورة الآلام اليومية لم يبق أمامنا سوى خيار واحد وحيد: الرفض الواضح لهذه السياسة العقابية والاحتجاج على كل تلك الممارسات المجنونة. وفعلاً خرجنا تدريجياً من وطأة القهر والخوف، وارتفعت أصواتنا، وبدأت مطالبنا تتزايد، وكذلك حاجاتنا، مدركين في الوقت نفسه أن ما نطالب به لا يعدو كونه أدنى متطلبات وحقوق السجين السياسي، من قبيل: وضع حد للضرب العشوائي، رفع الرأس وفتح العينين لدى خروجنا إلى باحة التنفس، تحسين الطعام، إيقاف الشتائم والإهانات، تلقّي المعالجة الطبية، الحصول على كمية من المنظفات كافية (الصابون العسكري طبعاً)، توفير الصحافة والكتب من مكتبة السجن - وهذا المطلب الأخير لم يتحقق إلا بعد خوضنا الإضراب الأول (ليوم واحد) في ١٩٨٩/٦/٦، ولم ينتظم وصول الصحف المحليّة والكتب إلاّ بعيد إضرابنا الثاني عن الطعام (١٢ يوماً) وذلك في ١٩٨٩/١٠/١٢، حيث تمّ نقلنا إلى مكان آخر كجزء من مطالبنا الجديدة. مع ذلك كله كانت مطالبنا، على الرغم من تحققها النسبي، تواجه بالتطنيش والتسويف والتقطّع. ولعلّ الهدنة الوحيدة التي عشناها هي تلك الفترة التي سبقت إضرابنا الثالث (١٧ يوماً) في ١٩٩١/٢/١٦، الذي كنا نسعى من ورائه إلى تكريس ما حققناه خلال المرحلة الفائتة وانتزاع حقوق ومطالب جديدة. وفي هذا الإضراب كنا قد ازددنا ثلاثة، وصار عددنا تسعة عشر رفيقاً، وعلى الرغم من أن أوضاعنا باتت أقل سوءاً إلاّ أننا بقينا معزولين كلياً عن العالم الخارجي، محرومين من الزيارات لمدة خمس سنوات ومن الأوراق والأقلام والراديو والثياب وعدة النوم الكافية.

* * *

في تدمر كان ثمة سؤال مصيري انبرى أمامنا من تلقائه: كيف سنحافظ على قوانا الذهنية والنفسية والجسدية بأقل الخسائر؟

حاولنا منذ البداية الاحتيال على الشرطين، الخارجي والداخلي، من خلال ابتداع وسائل مناوئة للوقت والأسر: كنا نتحاور، نتبادل الخبرات، نخلق وسائل تسلية من شأنها إزاحة كابوس المشاهد اليومية المريعة عن نفوسنا، كنا جميعاً نتعلّم من ونعلّم بعضنا بعضاً: قمنا بدورات تعليمية شفهية في الاقتصاد واللغات والعروض وما إلى ذلك، نحفظ الشعر كجزء من تمرين الذاكرة، ونتبارى شعرياً، ونحكي القصص والروايات والسِّيَر الشخصية. اغتنت تعارفاتنا، وصرنا أكثر إحاطة وتفهّماً، واتضحت سماتنا بكل ما فيها من سجايا حسنة أو غير مستحبة، ومن تناقضات .. وأصبح الكل مرئياً في مرايا الكل. باختصار كوّنا بدائل حقيقية ولو متواضعة، وكنا نسعى إلى إدخال الفرح من أي كوةٍ متاحة. نحتفل بأعياد ميلاد أولادنا ومناسبات زواجنا، ولدى رؤية حمامة تحطُّ مصادفة فوق غصن شجرة السرو البعيدة، أو حين عصافير الدوري تقيم أعراسها الموسمية. في المعتقل تعابثك الذكريات فقط لكي تؤكد لك أن وجدانك ما يزال على قيد الحياة، وأن قدرتك على تحديد جهات أربع وسط هذه الدائرة الصوانيّة ما تزال حاضرة.

في بؤر عسف كهذه يضربك الجلاّد وهو يقهقه، ويتلو القاضي حكمه عليك وهو أشبه بمومياء ضاحكة، ويجلدك السَّجان فارضاً عليك أن تعدَّ العصي، حتى إذا سها عقلك تحت وطأة الألم، يعيدك إلى البداية، مستنسراً إلى أقصى الجبروت والانفلات من عناصره البشرية. في لحظات كهذه كنت أتذكّر نُعَرَةَ الخيل، تلك الذبابة الزرقاء الكبيرة التي تعذّب ضحيتها. تناور، تئز، تخاتل، إلى أن تنسلَّ إلى أنف الحصان. يتململ، يراوح، يدور في مكانه، يضرب برأسه صعوداً وهبوطاً، ينخر. تخرج. تعاوده، تداور، تنقض، تلدغ، تفرّ، تلتصق تحت الذيل. يركل الأرض بقوائمه، يتحرك بعشوائية المهتاج، يفتل عنقه، يضرب بذيله، يحمحم ألماً وغيظاً، يحتكّ بجذع شجرة، يسقط يتقلّب، تفرّ، تدوّم، تئز تنتصر. وما إن يشرع بالوقوف ثانية على قدميه، حتى تستنسر من جديد: البغاث البشري زرقته سوداء قاتمة!!!

هذا العالمُ الأسري اللامتوازن، اللاعقلاني يريدك ألاّ تكفَّ عن عدِّ الخسائر، وألاَّ يخرجَ عقلك أو ذاكرتك من حمأة هذه المظلمة، الأمر الذي يفرض عليك تحدّياً ثنائياً، أوَّلهما إزاء الظرف المحيط بك وثانيهما إزاء كينونتك الداخلية. تنشأ لديك معايير خاصة لحبّ الحياة، تفترض بك خلق توازن يليق بذاتك الإنسانية، ونسج صراط لحمتهُ الفعل وسداته الإرادة الواعية.

إنها لحاجة ماسة أن يصير أحدُنا العقل البلسمي للآخر وصمّام أمانه على الرغم من جسامة الضريبة المترتّبة على مهمة كهذه.

أحياناً تكفي تمريرة يد على رأسك كي تنسيك الدم النازف من هامتك، تكفي ابتسامة خافقة، أو دمعة وارفة الرحمة كي تحيل اليأس بأساً، قل تكفي طرفة على سبيل التأسِّي كي تخلق مهزلة من

كل هذه الدراما الجهنمية!! تلك هي الضمادات الإنسانية التي كانت ناجعة لجراحاتنا. وما دامت تندرج في إطار السلوك الجمعي فإن ضمانتها فيها، وكذلك عناصر استمرارها، ذلك أن القوى الذاتية لكل فرد تكون، والحالة هذه، محصلة لطاقات المجموعة البشرية التي تحتويك بين ظهرانيها.

بدءاً من محطة تدمر وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام خصمٍ وصديق في آن: الوقت. كنت مدركاً أنه في مكان كهذا، يمكن للوقت أن ينطوي على نقيضي الخصومة والصداقة، ولذلك فقد خضت الرهان معه، وربما جميعنا خاض الرهان نفسه، كل بطريقته الخاصة: من سيمتطي صهوة الآخر؟ كنت على يقين من أنه مزوّد بما تقتضيه عدّة الفارس أما أنا فكنت موثقاً بكل دواعي المطيّة. هذا الرهان يتطلّب من السجين أن يشغل نفسه ما أمكن، أن يتخلّى عن بعض العادات المانعة أسرية ويجترح لنفسه أخرى بديلة. أن يسأل نفسه كل ليلة: ما الذي فعلتهُ سحابةَ هذا النهار؟ أن يتأكد من أن عوامل تكيّفه مع الأسر فعّالة. فالتكيّف سيف ذو حدين، أحدهما ضدّك والآخر لك. أحدهما يودي بك إلى مهاوي كهفك الجوّاني فتتآكل ذاتياً وببطء، فيما الآخر يشدّ أزرك، ويعلو بك فوق الأسر، ويمنحك القدرة على إيفاء ذاتك حقّها، وعلى إنصاف الآخر، الذي يشاركك المصير نفسه، ويجعلك أكثر اتساعاً للعطاء والتواصل والصدر، أي يقرّبك من كينونتك أكثر.

* * *

قد يسأل سائل: هل أضافت لك شيئاً هذه التجربة، هل أغنتك، هل أفقدتك شيئاً، وهل تركت آثارها عليك؟!

بين معتقل تدمر وسجن صيدنايا بضع مئات من الكيلومترات، وحلمٌ أو بعض حرية مبتغاة. البون بينهما خرافي في المحتوى. وصفرٌ عن متناول الحرية الحقيقية، وكلاهما استمرار للتجربة.

حين قالوا لنا: "ضبّوا أغراضكم"، تقمّصتنا ملامح الأطفال صبيحة "العيدية"! وعاودتنا قسمات الأمل بصورة مغايرة، كذا الأحلام ومشاريع الفرح. لم ننم طوال تلك الليلة التي سبقت ترحيلنا. إذن كان الخامس من أيار ١٩٩٢ معلماً لا يُضاهى. خلع المكان عنه حياديته فتوادعنا مذ أصبح في ذمة الماضي. وهناك في صيدنايا السجن بدأنا نشهد آثار الزمن والشوق على وجوه رفاقنا، ثم أهلينا لاحقاً، ونشهد طلوع الشمس وغروبها، ومحكاماتنا في محكمة أمن الدولة العليا التي أحِلنا إليها في ١٩٩٢/٥/٧، أي بعد وصولنا إلى سجن صيدنايا بيومين، واستمرت جلسات المحكمة حتى ١٩٩٥/٦/٢٧ يوم صدور الحكم بحق مجموعتنا.

في سجن صيدنايا تعرّفنا الأوراق والأقلام والأصوات والوجوه والزيارات والراديو والثياب، وكل هذه الأشياء كانت مستحيلة في تدمر وتعتبر "ترفاً"!!

أبدأ من السؤال الفرعي الأخير لأقول: ما من شك في أن التجربة قد خلّفت آثاراً متنوعة قد يحتاج بعضها إلى وقت طويل كي يتم تجاوزها. ولكن ما مقدار هذه الآثار وكيف ستتمظهر؟، فهذا سؤال في عهدة الآخرين ممن يحيطون بي، وكذلك في قدرتي على غربلة ذاتي بصورة واعية وقصدية، بل تنخيلها حين ينبغي.

لا أدري بالضبط إلى أي حدٍ أصبحت متفارقاً مع أناي السابقة، لكنني أقدّر أنني تجاوزتُني في مواضع ومواقف وآراء عديدة. وأفترض أن هويتي ذات الأثافي الثلاث - الماضي والحاضر والغد - قد اتسعت إنسانياً، واحتدمت ربما، بصراعات ذاتية المنشأ أكثر بكثير من السابق. ولعلّ الآخر، بوصفه المرآة الأنجع، يمكنه أن يعكس ما تغيّر لدي، تعديلاً أو إلغاءً أو تطويراً بصورة أقلّ خداعاً، وذلك أن مرآة الذات قد تشتمل على غبشٍ مردّه نزعة التصالح مع الذات أو التستّر الضمني، وأحياناً على النقيض من ذلك: جلد الذات المبالغ فيه!! أستطيع الزعم بأنني بتُّ أرى الألوان بكل اتساعها الطيفي، محترماً تدرجّها القاضي بالتباين لا الإلغاء. وربما استطعت أن أنزع عني الميل إلى التفتيش عن إيمان تحصيني واهم، وترسخَّت قناعتي في أن تخليد المعتقدات أو محاولة إكسابها طابعاً مناعياً أمر مردّه التهيّب النفسي والخوف الفطري من كل ما هو جديد على المرء، ولذلك فغالباً ما نمارس تصفيات حقيقية لما يخالف قناعاتنا.

إن ضريبة من "كعب الدست" طولها خمسة عشر عاماً من السجن وثلاثة أعوام ملاحقة لا يمكن إلاّ أن تكتنف، شأنها شأن أي تجربة بشرية، لحظات ضعف وقوة، خسائر عامة وفردية، بقعاً مضيئة وأخرى، معتمة. والأمر الأكيد من بين هذه القضايا كلها، أنني أصبحت أكثر تشبثاً بأهداب الحرية التي تستحق أن يبذل الكثير من أجلها. فلو أخذنا بعين الاعتبار الفروقات في الخصائص الفردية بين الناس من حيث التجربة والوعي وتفرعاتهما، لحريٌّ بنا أن نضيف أيضاً عوامل الإضعاف المباشرة وغير المباشرة، وأن نرى إلى عناصر القوة أيضاً.

أولاً: ماذا يعني أن يُحكم على صديق سياسي لحزب معارض بـ ١٥ سنة أو بعشر سنين أو حتى بسنة واحدة؟ إنها الروح العقابية الردعية التي أرادت أن تجعل منه عبرة لشعبٍ بأكمله، وفزّاعة تقطع دابر القول ناهيكم عن الفعل السياسي. وقد نجحت هذه الروحية في ترويع الناس عموماً وتفريغ النخبة الثقافية والفكرية السياسية من أضعف إيمانها. وإلاّ ما معنى أن تزجَّ قوى المعارضة الوطنية في السجون وتجرجَر إلى المحاكم بالجملة دون أن نسمع صوتاً على سبيل المؤازرة أو الإنصاف من قبل مواطنينا من الساسة والمثقفين؟! أوليست فداحة أن يختزلَ العدد الهائل للمحامين السوريين إلى مجرّد كوكبة صغيرة من أكباش الفداء الذين تطوعوا للدفاع عن المئات من المعتقلين السياسيين، على الرغم من إدراكهم أن هذه المحاكمات سياسية وأمنية أصلاً؟!!! ما

معنى أن يكون هؤلاء الذين قضوا ربع أعمارهم أو خمسها أو سدسها في السجن مجردّين الآن من حقوقهم المدنية من دون أن تهتز شعرة لنقابة المحامين، أو تنبري جماعة من الأطباء لمعالجتهم صحياً أو .. إلخ؟!!! إنها أسئلة برسم الجميع. ليست تحسّراً على ما فات، وليست استجداء لصدقة. فهذه التجربة بكل ما لها وما عليها ما عادت ملكاً حصرياً لمن خاضها. وما ذكرته ليس سوى عيّنة لا نهائية من الأسئلة المرَّة التي انتابتنا داخل السجن وخارجه على السواء، هي أمثلة شبه نموذجية عن بعض عوامل الخذلان والإضعاف، وبالتالي فإن الشفاء من تداعيات الأسر الطويل يرتهن بعناصر عدة منها، الطبيعة الذهنية والنفسية للفرد، وطبيعة التجربة، وكذلك مجمل الشروط التي تلي محطة "الانعتاق"؛ أقصد ألاّ يكون ما ينتظرك هو مجرد حريّة مجازيّة أو انتقال جغرافي. أنا أؤمن بالنسيان الرحيم، لكنني لا أعتبر الماضي ماضياً إلاّ بمقدار التنكّر له، أو حذفه من تقويم الكائن البشري، أما تجاوزه على نحو إيجابي وفعال فهذا هو التحدي المطلوب.

من لحظات الضعف الأخرى، والتي تشكل في حدّ ذاتها شحنة إنسانية عارمة، أن يعتريك وجه أمّك أو زوجك أو ابنك!! أو أن تبادرك طفلتك على نحو مفاجئ وربما متوقع، قائلة: "أبي! لم أستطع أن أتذكّر منك شيئاً، على الرغم من صورك الموزّعة حول سريري!!!".

حين خرجت من المعتقل استقبلني والدي متوكئاً على عكازه الذي ورثه عن أبيه وقال وهو يغمرني بشيخوخته ذات العقد التاسع: هل تذكر يا بني تلك الخلاصة التي دونها النبي يوسف عليه السلام على جدار سجنه لحظة إطلاقه "هنا مقبرة الأحياء .. هنا تجربة الأصدقاء؟!".

* * *

قاصر كل قول عن الإحاطة بفيض المشاعر التي انتابتني لحظة عناقي "الحرية". ما من شك في أن رئتيَّ اتسعتا عن حاجتي بمقدار صراخ، على الرغم من إصابتي الرّبوية. أوجعني النور من جرّاء مديد الظلمة التي أُودعناها. وكان الاختبار الأوّل، قل الانتشال الأول، صوت ابنتي على الطرف الآخر من الخط الهاتفي. صوتٌ لم أتبيَّن من حشرجاته وفوضاه سوى موعدٍ على مفترق الجادة المؤديّة إلى بيت لا أعرف موقعه إلاّ في خارطة البال. دوّامة من الأحاسيس المتناقضة والأسئلة المشرعة كانت تتناهب الروح والعقل آنئذ. بعد قليل ستلتقي بكل منتظريك على قارعة الغياب، يرفعونك إلى السماء السابعة من انعدام الوزن، ويجرِّدونك من الزمان والمكان في طرفة عين. لكنْ، ما إن تقع عيناك على أمٍ ترى فيك ابنها الأسير بعدُ، حتى يستبدّ بك البكم فتطرق رأسك لكأنك المسؤول عن إبقائه رهن الأسر. تطالعك وجوه من ودعوك عند الباب الأوّل وشيّعوك حتى الباب الأخير المؤدي إلى "حريتك" وأنت أعجز عن التفاتة إلى الوراء. تزدرد شهقةً أملوها لك صعدَاء، فتنكمش خلايا الفرحة منذ تلك اللحظة. إذ ذاك تتأكد للمرة الألف من أن لا شيء بلغ منتهاه

بعد: لا الفرح ولا الحزن، لا المكتسبات الصغيرة ولا الخسائر، حتى أن اسمك الذي كان لك ذات ولادة، يعود إليك متوجّساً، قبل أن يستجمع شجاعته وينزع عنك الرقم الذي منحته خلال سني أسرك.

أنت خارج من "العالم الآخر" إلى عالم لا يشبهك، كأن كلاً منكما غريب عن الثاني. تقتحم الحياة وأنت مدرك تماماً أن الكثير من معاييرك الأسرية صارت في عهدة الماضي وأن صراعاً، من نوع آخر، سوف تكون معنياً بخوضه، ليس أقلّه ردم تلك الهوّة الزمنية التي تفصلك عن البشر، بكل ما انطوت عليه من تغيرات. إذ ذاك، أيضاً، تترسّخ لديك حقيقة أن القدَر الذي اخترته طواعية ذات يوم لا يتوقّف ثمنه عند الشريحة الزمنية التي سدّدتها من عمرك، بل يتعدّاها عمقاً واتساعاً. فالتصورات والأفكار التي كنت تجهد في صوغها داخل الأسر لم تكن تُمتحن على محك الواقع بما يكفي لتجنيبك المفاجآت اللاحقة على مسرح الحياة.

* * *

لا يكفي القول إن اعتقالي، بوصفي سجين رأي، كان مظلمة كبيرة. فالظلم الأكبر هو ما يتصل بظروف الاعتقال والتحقيق وشروط السجن الرديئة، خاصة في السنوات الخمس الأولى، ناهيكم عن شروط المحاكمة وآثارها الكارثية التي لحقت بنا خارج السجن: كالتجريد من الحقوق المدنية، وكذلك ما يترتب عليها من نتائج اقتصادية واجتماعية وحقوقية. ففي ظل غياب العدالة، بل في غياب القانون أصلاً، ليس ثمة حام أم مرجع يمكن أن يفزع إليه المرء، وهذا ينطبق على مساحة زمنية امتدت لعقود كانت خلالها قوانين الاستثناء والأحكام العرفية - وما تزال بالطبع - سيفاً مسلطاً على رقابنا.

إن ظروفاً كهذه شكلت مع الزمن واقعاً استثنائياً هو الآخر، يستمد قوته واستمراريته من الخوف والمصلحة، ومن القناعات الايديولوجية والسياسية التي تستميت في الدفاع عن كل ما قائم من ظلم وفساد وتغييب للقانون وانتهاك للحريات، العامة والفردية على السواء، وتسيّد مطلق على الجميع. وهنا بالضبط يصبح الاحساس بالظلم مزدوجاً - بماضيه وراهنيته - وما دام الحاضر مقروناً إلى نير الماضي وينوء بثقله وتركاته إلى حد الجهالة. وهنا بالضبط لا يعود ممكناً أصلاً فصل المعاناة الفردية عن تلك التي يكابدها المجتمع بأسره. وبالتالي فإن الحديث عن الأمل أو فقدانه، عن التفاؤل أو التشاؤم، يكف قطعاً عن أن يكون مجرد نتاج طبيعي للنزعة الفردية. بوسعي الزعم أن طبعي التفاؤلي قد زودني بالأمل والصبر طوال سنوات الأسر، بيد أن ذلك لا يغير كثيراً من حقيقة أن ما واجهناه من إحباطات وآلام وفداحات كان فظيعاً.

قبيل خروجنا بعام كنا - نحن النظّارة عن بعد - نسمع ونقـرأ ونراقـب ونتأمـل الأحـداث والتفاعلات الجارية في ساحتنا السورية ونحن بين مصدق ومستغرب، ليس لأن ما يحدث غريـب من حيث المبدأ، وإنما لأنه يحدث في سورية على وجه التحديد، مدركين في الوقت نفسه أن المناخ العام الذي رافق تلك المتغيرات قد سمح لنوع الحراك السياسي الجزئي بالظهور وذلك تعبيراً عـن التوق المزمن إلى الحرية والرغبة في مواكبة التطورات العالمية المتسارعة والمتلاحقة، وربما أيـضاً انطلاقاً من إحساس البعض أن ملامح جديدة قد ترتسم في الأفق القريب. وقد أطلقت تسميات عديدة على هذه الأجواء: "ربيع دمشق"، "الحرية أخيراً"، "بشائر الإصـلاح" .. إلخ، مـستمدة فحواها من مقابلات الرئيس وخطاب القسم وما تلاها من نشاطات عامة مختلفة: مقابلات إذاعية وتلفزيونية، بيانات وتصريحات، حوارات على صفحات الجرائد المحلية والعربية، منتديات ثقافيـة وسياسية. بيد أن لجوء النظام إلى مواجهة هذه النشاطات الديمقراطية، وعلى الرغم من طابعهـا السلمي - الإصلاحي الصرف - بطرائق قديمة جديدة (أمنية) يؤكد اسـتمرار البنيـة العقليـة والنفسية ذاتها للنظام السياسي. كما أن الخطاب السياسي للنظام لا يزال يتجه إلى الخارج أصلاً وليس إلى الداخل.

ما من شك في أن الضرورة الموضوعية هي الباعث الفعلي لأي تغيرات، نوعية كانت أم كميـة، وإذا كان "الإصلاح" في سورية ابناً شرعياً لهذه الضرورة، وهو كذلك حقاً، وإذا كانت الأزمـة العامة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية جاثمة ومستفحلة إلى حد لا يمكن معـه إنكارها فإن السؤال الأهم يرتبط أولاً بالاعتراف بوجود الأزمة ثم بالبحث عن جذورها ومعاينتها وتشريحها دون أي خداع للذات، أي بطرائق كفيلة بأن يبعث "بعل" من عالمه السفلي ليس بصفة موسمية وإنما كضرورة فعلية لإعادة الروح إلى الجسد المجتمعي برمته.

* * *

أما بصدد سير المحاكمة وتوجيه التهم إليَّ من قبل محكمة أمن الدولة العليا وصولاً إلى جلسة النطق بالحكم فيمكن إيراد ما يلي:

في ١٩٩٢/٥/٧، أي بعد يومين من وصولنا إلى سجن صيدنايا، جرت إحالتي إلى محكمـة أمـن الدولة العليا، وكانت الجلسة الأولى في هذا التاريخ، والجدير بالذكر أن أكثر من خمس سـنوات كان مضى على اعتقالي عرفياً، وهناك معتقلون آخرون كانوا قد أمضوا أكثر من عشر سنين قبل إحالتهم إلى هذه المحكمة. ولعلَّ قراراً كان قد اتخذ بإحالة معتقلي الرأي جميعاً، شمل أحزاباً سياسية أخرى: الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي، حزب البعث الديمقراطي، حزب العمـال

الثوري، حزب العمال الكردستاني **P.K.K**، إضافة لمعتقلي لجان الدفاع عن حقوق الإنسان وقوى قومية وإسلامية أيضاً.

وبصفتي عضواً في حزب العمل الشيوعي في سورية، ومؤيداً لبرنامجه السياسي وشعاراته التي أقرّها المؤتمر التأسيسي، وممارساً لحقي الذي مُنحتهُ أصلاً من قبل الدستور السوري - على الأقل نصّاً - فقد تمت ملاحقتي ومن ثم اعتقالي فمحاكمتي.

رفضت الإجابة على جميع الأسئلة التي وجَّهها إليَّ قضاة التحقيق، اللهم ما خلا تأكيد عضويتي وموقعي التنظيمي في الحزب وقد طالبتُ على غرار الكثيرين، بإحالتنا إلى محكمة مدنية عادية علنية وعادلة بديلاً عن محكمة أمن الدولة العليا الاستثنائية واللادستورية، ولّما كان ذلك مستحيلاً فقد طالبنا بعلنية الجلسات مراراً، وكان ثمة استجابة جزئية من قبيل السماح لذوينا ومحامينا بالحضور. وخلال هذه الفترة تقدّمت بطلب رسمي إلى رئاسة محكمة أمن الدولة العليا ذكرت فيه:

"السيد رئيس محكمة أمن الدولة العليا:

سبق لي وقبلت أن أوكّل محامين للدفاع عني، كما تهيأت للدفاع عن نفسي شخصياً، أملاً أن تتيح لي المحكمة ولو حدّاً أدنى من الشروط والحقوق التي تسمح لي على الأقل بإيصال صوتي إلى المعنيين والمهتمين من أبناء شعبي وقواه السياسية، والهيئات المختصة بحقوق الإنسان محلياً وعربياً وعالمياً.

وإذا ظهر بعض الإيجابيات المحدودة جداً في بداية سير المحاكمة، والتي كان يمكن لها، لو استمرت في التصاعد إيجابياً، أن توفّر جزءاً بسيطاً من شروط المحاكمة العادية المعروفة لديكم جيداً. إلاّ أن الوقائع اللاحقة لم تكن متناسبة حتى مع الوعود التي قدّمت في الجلسات الأولى، لذلك أرى لزاماً عليّ إبلاغكم أنني أرهن استمراري في توكيل المحامين بتوفّر شروط المحاكمة العلنية والتي ألخصها بما يلي:

١ - السماح لكل من يرغب بحضور الجلسات.

٢ - السماح للمحامين وللمتّهمين بتقديم مرافعاتهم شفهياً.

المعتقل بسبب الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي في سورية - عباس محمود عباس".

بالطبع لم تجد مطالبنا هذه أذناً صاغية، زد على ذلك أننا حُرمنا كمتهّمين من حيازة لائحة الاتهام التي تُليت على مسامعنا شفهياً. وقد تضمنت اللائحة الموجهة ضدي التهم التالي:

١ - جناية الانتساب إلى جمعية أنشئت بقصد تغيير كيان الدولة وفق المادة ٣٠٦ من قانون العقوبات العام.

٢ - جناية مناهضة أهداف الثورة عن طريق القيام بالتجمّعات والتحريض على أعمال الشغب وبنشر الأخبار الكاذبة بقصد البلبلة وزعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة وفق المادتين ٣ و٤ من المرسوم التشريعي رقم ٦ لعام ١٩٦٥.

٣ - جناية القيام بأعمال مخالفة لتطبيق النظام الاشتراكي.

خلال الفترة اللاحقة كانت الجلسات تتواصل بين تأجيل وانعقاد شكلي إلى أن تبيّن لي بما لا يقبل الشك أن جميع المطالب المطروحة كانت تتبخّر تدريجياً، الأمر الذي دفعني إلى تقديم بيان مقاطعة في إحدى جلسات الدفاع التسويفية، بعد أن كنت قد حضّرت مرافعتي الشخصية، وكذلك المرافعة الجماعية التي شاركت في إعدادها وصياغتها، كما كنت قد أبلغت المحامين الموكّلين بالدفاع عني بموقفي هذا وسحبت التوكيل. وقد جاء في بيان المقاطعة، الذي سلمتّه إلى المحكمة ما يلي:

"منذ البداية كان واضحاً لي، وكنت مدركاً تماماً ماذا يعني أن أمثل أمام محكمة استثنائية تشكّل في الأصل امتداداً عضوياً للسلطة التنفيذية التي هي من وجهة نظري سلطة ديكتاتورية استثنائية لا شرعية، مثلما كان واضحاً لي بالقدر نفسه أن القوانين التي أحاكَم في ظلها هي أيضاً قوانين الطوارئ الإستثنائية، والأمر نفسه فيما يتعلق بالمرسوم ٦ الذي أحاكم بالاستناد إليه. ومع ذلك قبلتُ أن أوكل محامين عني كما هيأت للدفاع عن نفسي شخصياً أملاً في أن تثبت المحكمة بالملموس قدراً من الاستقلال الكافي عن توجيهات السلطة التنفيذية وأجهزة الأمن، خصوصاً بعد ظهور بعض الإيجابيات المحدودة جداً في بداية المحاكمة التي كان من المقدَّر لها، لو استمرت في التصاعد إيجابياً، أن توفر جزءاً ولو بسيطاً من شروط المحاكمة العادية.

ولأن الوقائع اللاحقة لم تكن متناسبة مع الآمال، والوعود التي قُدمت سابقاً، ولأن جميع جلسات الدفاع تنعقد دون أن يسمح لمن يرغب بحضورها الدخول إلى قاعة المحكمة، دون أن يتاح لي أو للمحامين تقديم المرافعة بصورة شفهية، لا سيّما أن مقابلتي الوحيدة مع المحامي لم تتح لي الاطلاع على دفاعه عني، ولأنني اضطررت أيضاً لإعداد دفاعي الشخصي دون تسلُّم نصّ الاتهام مكتوباً .. أقول لأن كل ذلك كذلك .. ولأن المحكمة لم تثبت بالملموس استقلاليتها عن السلطة التنفيذية مما جعلها تفقد هي الأخرى أي شرعية، فإنني أسحب توكيلي من جميع المحامين الذين سبق لي أن وكلتهم وأعتبر أن أي محام تعيِّنه المحكمة لا يمثلني إطلاقاً، وأعلن مقاطعتي لمحكمتكم، وأعتصم بالصمت، محتفظاً بما أعتبره حقي في حجب دفاعي عن هيئة المحكمة، وتقديمه إلى أعلى مرجعية في وطني .. أعني شعبي.

المعتقل بسبب الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي في سورية - عباس محمود عباس".

قررت المحكمة بتاريخ ١٩٩٥/٦/٢٧ وبموجب القرار رقم ٣٣ تجريمي بـــ:

١ - جناية الانتساب إلى جمعية والحكم عليَّ بالأشغال الشاقة مدة خمس عشرة سنة.

٢ - جناية مناهضة أهداف الثورة والحكم عليّ بالأشغال الشاقة مدة ست سنوات ولكون هـــذا الجرم مشمولاً جزئياً بقانون العفو رقم ١١ لعام ١٩٨٨، تمّ تنزيل العقوبة إلى أربع سنوات ودغم هاتين العقوبتين، وتنفيذ الأشد، وهي أشغال شاقة مدة خمس عشرة سنة وفق المـــادة ٢٠٤ مـــن قانون العقوبات العام.

٣ - جرى تجريدي مدنياً عملاً بأحكام المادتين ٥٠ و٦٣ من قانون العقوبات العـــام، علـــى أن تُحسب لي المدة اعتباراً من ١٩٨٧/٤/١٤.

٤ - براءتي من جناية مخالفة تطبيق النظام الإشتراكي.

والتعقيب الوحيد الذي يمكن قوله بصدد هذه الأحكام هو أنها خارج نطاق المعقول، وأنها أحكام سياسية أمنية لا تمت إلى المشروعية القانونية بصلة.

أحكام رادعة عقابية مطابقة للتهم التي فُصِّلت سلفاً على قدّها، مجرِّدة المتهم وجهة الدفاع مـــن وسائل الطعن أو النقض لدى أي مصدر قضائي.

وهذا بحد ذاته ما يؤكد لا دستورية تشكيل محكمة أمن الدولة العليا، ومجافاة مرسوم تـــشكيلها لقواعد العدالة والحق والقانون، وتناقضها الصارخ مع المادة ١٨ الفقرة ٤ من الدستور السوري: "حق التقاضي وسلوك سبل الطعن والدفاع أمام القضاء وصونه بالقانون". ناهيكم عـــن المـــواد والفقرات الدستورية الأخرى!!!

[الشهادة الرابعة]

شهادة

مهندس سوري يروي تجربة اعتقاله في تدمر: أطباء معتقلون أجروا عملية زائدة دودية في المهجع

تنشر مجلة "العدالة" هذه الشهادة دون توقيع صاحبها مراعاة لظروفه الخاصة

عرّفني أحد الأصدقاء على الدكتور رامز طباع في مهجرنا العربي الذي اخترناه رغماً عنا لأن وطننا ضاق صدره بنا. كان لقائي مع الدكتور الطباع عفوياً وحدثته فيه عن معانـــاتي أنـــا وآلاف غيري في سجن تدمر الذي لم يكن يتصور عقل آدمي أنه موجود علـــى هـــذه الكـــرة الأرضية.

أصر عليّ الدكتور رامز أن أكتب فقلت له أنا لا أجيد فن الكتابة، لكنه أصر وحدثني عن عامل الصدق والحرارة في كتابة المذكرات وهي ما تتوفر في كلماتي.

وعدته خيراً وبدأت بكتابة جانب من مذكراتي في سجن تدمر، فوجدت أنها تتقاطع مع شهادات أخرى كتبها غيري، بل وكانوا أقدر مني في فن التصوير ونقل الحالة كما شعروا بها، فاستشرت الدكتور رامز الذي أصرّ على أن أكتب دون أن أضع شيئاً في اعتباراتي .. فبدأت ولم أنته حتى هذه اللحظة. وطلبت منه أن ينشر شهادتي المختصرة هذه في مجلة "العدالة" على أن أستكملها وأتوسع فيها في فترة لاحقة وكان هذا الوعد بيننا.

مناضل شبيبي

لم أتخيل في يوم من الأيام أن أكون سجيناً سياسياً، ولم يخطر في بالي مجرد خاطر أنني سأكون حبيس أشد معتقلات العالم قسوة، دون أي سبب مقنع. فأنا حتى هذه اللحظة ومنذ خروجي من المعتقل قبل نحو عشر سنوات لم استطع أن أجد سببا واحدا مقنعا يجعلني أمضي زهرة شبابي في مهجع بين أعدائي الطبقين والأيديولوجيين (الإخوان المسلمون) الذين حاربتهم في الجامعة وكنت قائداً لإحدى الكتائب البعثية المسلحة التي كانت مهمتها قتالهم قتال شوارع؟!!

أنتمي لأسرة فلاحية نصف بدوية من منطقة الفرات، ومنذ أن وعيت على هذه الدنيا كان البعث والقائد يلازمان حياتي. قضيت معظم فتوتي وشبابي في رابطة الشبيبة حيث كنت أقود الاجتماعات وأذهب إلى المعسكرات ألقي على الرفاق الشبيبيين المحاضرات التي تشرح فكر القائد، وتهيئ الأجيال للانضواء في هذه الدورة النضالية، التي لم أكن أعرف من الدنيا غيرها.

كنت أقضي بعض الأيام والليالي في مقر الرابطة الشبيبية أعد الأعلام، أنا والرفاق، واللافتات التي سننصبها في مفارق الطرق، أو نوزعها على المسيرات التي كنا نهيؤها في الأسبوع مرة أو مرتين، فبلدنا مهدد والمؤامرة الداخلية في قمة أوجها ولا بد من حشد التأييد للقائد والثورة.

نحن أبناء الريف درع الثورة، قاعدتها الخلفية وعمقها الاستراتيجي، والذخيرة المخبأة لوقت الشدائد. هكذا كنا نفهم الأمور وهكذا تعلمنا، والمؤامرة كبيرة كبر الوطن العربي ولا بد من التصدي لها.

في عام ١٩٨٢ لم يمض يوم إلا وخرجنا فيه بمسيرة تأييد ومبايعة، لم أكن أذهب إلى البيت إلا لماماً، فقد كلفت بقيادة كتيبة بعثية مسلحة، وكنا نقيم الدورات في معسكرات الصاعقة وبعض الثانويات نتدرب على السلاح والاستعداد لاقتحام أوكار "الخُوّان" المسلمين، كما كنا نسميهم.

في هذا العام كنت في السنة الثالثة في كلية الزراعة، وأميناً لفرقة حزبية، وعضو قيادة شعبة حزبية، ومرشحاً قوياً صاعداً لمناصب أعلى، أقربها عضو في قيادة فرع الحزب.

كان الحزب محور حياتي ووالدي ووالدتي يستنكران علي ذلك قائلين: ماذا سيفيدك الحزب طالما أن دراستك مؤجلة؟ وكنت أرد عليهم بكل صدق أن التحديات التي تواجه الوطن كبيرة ولا بد من التضحية!

مضت السنوات على هذه الحال إلى أن تخرجت عام ١٩٨٤ مهندساً زراعياً وتم تعييني في مشروع استصلاح الأراضي في الفرات، وكان هذا أقصى ما أطمح إليه على صعيد العمل، فيما واصلت مهماتي الحزبية التي كنت مرشحا فيها كما أسلفت لمناصب ومهمات أرفع.

ضالع في مؤامرة لليمين المشبوه

وفجأة، ودون سابق إنذار أتت فجراً سيارة مخابرات إلى بيت أهلي واقتادتني وسط ذهولي وذهول والدي ووالدتي إلى فرع الأمن، الذي رحلني إلى فرع التحقيق العسكري في الليلة التالية.

ما أذكره الآن بعد هذه السنوات أنني كنت أشبه بالإنسان المخدر لا أعرف ما الذي يجري بالضبط ولا السبب الذي يجعلني أقف هذا الموقف الذي كان خارج تصوراتي.

مضى علي أكثر من أسبوع في إحدى المنفردات لا أحد يكلمني ولا أكلم أحداً. كانت المنفردة بحجم القبر وأصوات الأنين والشكوى تنبعث من المنفردات المجاورة وأصوات السجانين تشتم وتلعن.

خلال هذا الأسبوع طالت ذقني وهزل جسدي وكأنني قد قضيت دهراً في أحد الكهوف.

اقتادني عناصر الفرع إلى غرفة التحقيق "مطمشاً" وكان هناك رقيب أو مساعد بانتظاري، بعد ساعة من الانتظار وأنا واقف طلب من أحد العناصر أن يترع الغطاء عن عيني، وألفيته يضع دستة من الأوراق أمامه. قال لي بسخرية: أرى أن سيرتك حسنة فما الذي ورطك هذه الورطة؟ قلت له أي ورطة؟ نهض من مكانه وصفعني بيده على وجهي وهو يقول: قول سيدي ولا وعامل حالك مالك دريان.

قلت: سيدي أقسم بالله العظيم أنني لا أعرف عن ماذا تتكلم؟

قال: وعم تحلف بالله وبدأ بالتجديف على الله والأنبياء والرسول.

مضت جلسة التحقيق على هذا المنوال وضربت ضرباً مبرحاً في كل أنحاء جسدي ووضعوني على الدولاب وضربوني حتى تورمت قدماي ولم أعد أستطيع المشي عليهما، وهنا أمرني "سيدي" أن أعدو داخل غرفة التحقيق الكبيرة نسبيا كي لا يتجمع الدم بقدمي.

بعد أسبوع من التحقيق العبثي والعذاب المنهجي الجسدي والنفسي اقتادني السجانون إلى غرفة الضابط، كالعادة كنت مطمشاً بقطعتي جلد على عيني.

تظاهر الضابط باللين وحدثني عن تاريخي البعثي المشرف وأشفق على حالي لأنني ورطت نفسي مع اليمين المشبوه!

لأول مرة أسمع كلمة اليمين المشبوه. فقلت له ماذا تقصد سيدي؟ وهنا انفجر غضبه وانهال علي لكماً وشتماً وضرباً وهو يقول: وعم تغشم حالك يا ابن الكلب؟ وهنا تدخل عناصر كانوا موجودين دون أن يبدر منهم صوت وأخذوني وأعادوني إلى زنزانتي المنفردة.

في الزنزانة لم أستطع أن أجد علاقة بيني وبين اليمين المشبوه الذي سمعته للتو.

أنا أعرف أن صفة اليمين المشبوه تطلق على جناح البعث العراقي وأنا شخصياً لم أكن على علاقة مع أي عراقي حتى خلال دراستي الجامعية، وكانت جامعتنا مليئة بالطلبة العراقيين، حتى الدكتور العراقي الذي كان يدرس في كليتنا واسمه على ما أذكر محمد الحبوبي لم ألتق به بشكل منفرد طيلة فترة دراستي، فمن أين أتتني هذه التهمة؟

بعد أسبوع من العذاب اليومي والتحقيقات الشكلية طلبني الضابط مرة أخرى، وذكر على مسمعي عدداً من الأسماء، وطلب أن أوضح علاقتي بها. كان من بين الأسماء ابن عم لي كانت علاقتنا متينة، وكان ضابطاً في الجيش وأنا أعرف أنه لا علاقة له بالسياسة، لا من قريب ولا من بعيد.

أخبرني الضابط بعد سيل من الشتائم والضرب والركل أن تهمتي هي الاشتراك بمؤامرة للبعث العراقي لتنفيذ عمليات تخريبية في البلاد والسعي لتأسيس تنظيم حزبي معاد.

بعد ذلك جرت محاكمتي أمام المحكمة العسكرية لأن في القضية طرفاً عسكرياً، وحُكم علي بالسجن عشر سنوات. وما هي إلا لحظات وكانت سيارة شرطة عسكرية تأخذني إلى معتقل تدمر، إذ علمت فيما بعد أن ابن عمي الضابط الذي اتهم هذه التهمة الباطلة مات تحت التعذيب في فرع التحقيق العسكري.

في مملكة تدمر

الآن وبعد هذه السنوات تبدو ذكريات تدمر أشبه بلحظة واحدة متشابهة، فقد اكتشفت أن ذاكرتي لعبت في المكان ومسحت أشياء كثيرة منه، وربما تناستها لأن الزمن الذي دخلت فيه المعتقل يكاد أن يكون خارج سياق حياتي ولا أستطيع أن أضمه لسني عمري.

في معتقل تدمر أنت لا شيء، وخصوصاً إذا كنت متهما ببعث العراق أو الإخوان المسلمين، فنحن دمنا مهدور، وهذا يعني أن الذي يموت منا تحت الضرب والتعذيب لا أحد يسأل عنه أو يحاسب من أجله .. بخلاف المعتقلين الشيوعيين الذين كانت لهم مهاجع خاصة مختلفة ومعاملة أقل قسوة، وطبعا بخلاف المعتقلين الجنائيين الذي كانوا يعذبوننا أيضاً ويطلق عليهم اسم البلدي.

في مهجعك أنت مكشوف مراقب من خلال فتحة في السقف طوال ليلك ونهارك وحتى الكلام ممنوع عليك.

في السنة الأولى لاعتقالي وكان نزلاء مهجعي كلهم من الإخوان المسلمين أو من يسمون كذلك، لأن الكثير منهم كما اكتشفت فيما بعد لم تكن لهم علاقة بالتنظيم لا من قريب ولا من بعيد، وساقتهم أقدارهم العاثرة بفعل تقرير كيدي أو دسيسة من أحدهم إلى هذا الجحيم.

أقول في السنة الأولى كانت علاقتي بنزلاء المهجع علاقة سيئة، لم أكن أحبهم وكنت أنظر إليهم بريبة وأتحاشى الحديث معهم إن سمحت الظروف بذلك، إلى أن مرضت مرضاً أقعدني أسبوعاً كاملاً طريح الفراش.

ارتفعت حرارتي ولم تهبط، وأُصبت بنزلات برد متوالية ولم أعد أستطيع النهوض. وقام رئيس المهجع بإبلاغ الرقيب بالأمر فحولني إلى الطبيب، الذي أشك في أنه ليس أكثر من ممرض فذهبت إليه محمولاً، فأعطاني قمعاً ورقياً فيه حبوب بيضاء لا أعرف ما هي، ولكن المعتقلين الآخرين أكدوا أنها تعطى للجميع وطلبوا مني أخذها دون تردد.

لم تتحسن أحوالي وكان بعض العناصر المكلفين بعقابنا اليومي يطلبون إخراجي من المهجع للشروع بتعذيبي لكنني كنت لا أقوى على النهوض، وهذا لم يكن يمنع البعض منهم من ضربي وشتمي.

في إحدى الليالي كنت أرتعش من البرد وأنا أصرخ من الألم فقام أحد عناصر الحراسة الذين يتواجدون على سطح المهجع "بتعليمي"، أي أنه يقول لي: علّم حالك، وفي الصباح يخرج الشخص "المعلّم" لينال عقابه المميز وإلا فإن العقاب سيكون من نصيب الجميع.

في اليوم التالي خرج بدلاً مني أحد المعتقلين من الإخوان المسلمين وكان رجلاً متوسط العمر ويعاني من الأمراض المزمنة، ومع ذلك نهض وحاول آخرون ثنيه والخروج بدلاً عنه، إلا أنه أصرّ قائلاً إنهم سيراعون سنه ويكون العقاب خفيفاً.

لم يكن العقاب أخف من المعتاد وعاد إلينا أشبه بخرقة بالية. نال الضرب بالكابل الرباعي والركل والشتم، كله بدلاً عني. عند هذه الحادثة بدأت أنظر بعين مختلفة إلى رفاق السجن وبدأت مشاعر الود تنمو بيننا يوماً بعد يوم، واكتشفت أن أكثر من طبيب يعيش بيننا وصيدلي وطبيب أسنان.

تحسنت صحتي بفضل العناية التي لقيتها من زملاء المعتقل الذين كانوا يدخرون الطعام لي وحتى الدواء الذي يتكون كما قيل لي من المضادات الحيوية لا غير.

بدأت أقترب من رفاق المهجع وبدأنا نختلس الأوقات لتبادل الأحاديث وعرفت قصص أغلبهم ومعظمهم كما قلت كانوا لا علاقة لهم بتنظيم الإخوان المسلمين وإنما بسبب تقارير أو صلات

قربى أو انتماء فكري فقط .. فالذين ثبت انتماؤهم العسكري كانوا قـد أُعـدموا في سلـسلة محاكمات استمرت عدة أعوام وعندما وصلت إلى تدمر كانت شبه منتهيـة اللـهم إلا بعـض الطوارئ.

كان برنامجنا اليومي يبدأ منذ الصباح بحفلة تعذيب تستمر إلى أن يحين موعد الإفطـار فنتنـاول فطورنا المكون من بضع حبات من الزيتون وشاي لا لون فيه وخبز مليء بالأخـشاب. وهنـاك حفلة تعذيب على الغداء وأخرى قبل العشاء، هذا غير الذي يقترحه علينا رقيـب غـضبان أو عريف مصاب بحالة عصبية.

أحد زملاء المهجع له زيارة يستطيع أن يجلب له أهله مسحوقاً من الحمص يُضاف إليه الماء فيصبح حمصاً ناعماً نأكله كوجبة نادرة نظراً لنوعية الطعام التي تُقدم لنا كالبطاطا المـسلوقة أو شـوربة حمراء وبرغل مليء بالحصى أو رز خالٍ من الدسم.

ذات يوم كان المعتقلون يتحدثون عن رقيب ديري هو الوحيد الذي لا ينتمي للطائفة العلويـة، فكل السجانين والحراس والضباط وصف الضباط في تدمر هم من الطائفة العلوية. كـان هـذا الرقيب ويدعى جاسم يبالغ في تعذيبه للمعتقلين، وصيته وصل إلى كل المهاجع.

سمعت عنه ولم أره، وكم فوجئت وفوجئ حتى كاد أن يقع من طوله عندما رآني. لقد كان أحـد الرفاق الشبيبيين الذين كنت أجتمع بهم. تدارك الأمر وصفعني على وجهي طرحني أرضاً وهمس في أذني ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ودار حديث بيننا وهو يعذبني لكي لا يلفت نظر أحد.

كان يركلني ويسألني ماذا تريد؟ ويطرحني أرضاً ويعتذر مني قائلاً إنه مضطر لذلك.

لم أستوعب هذا الموقف إلا بعد أن أخبرني بعض رفاق المهجع ممن سبقوني بأن رقيبـاً في الـسابق شوهد يتحدث مع أحد المعتقلين بشكل ودي فجرى إعدامه وأصبح اسمه وقصته مصدر خـوف لأي عنصر أو سجان أو رقيب في سجن تدمر.

مضت الأيام والسنوات على هذا الروتين واستطعت أن أحفظ القرآن خلال عـامين، إذ كـان المعتقلون قد ابتكروا طريقة للكتابة تتكون من أكياس نايلون يضعونها بطريقة معينة فوق بعـضها ويستخدمون بعض دهون الطعام للصقها ثم الكتابة عليها وعندما تتعرض لمصدر نور يستطيع المرء قراءتها بسهولة وبهذه الطريقة حفظت القرآن إضافة لمساعدة الحافظين مـن جماعـة الإخـوان المسلمين.

كان حفظ القرآن مغامرة كبرى إذ قد تودي بالحافظ والمحفظ إلى المنفردة التي تعني جنوناً حقيقياً. أما تدريس فكر الإخوان في المهجع فيعني حكماً مباشراً بالإعدام ينفذه أصـغر رقيـب وبقـرار شخصي منه.

ذات مرة آلمني ضرسي فكشف علي أحد زملائنا المعتقلين وكان طبيب أسنان وقال لي لا بد من قلعه. وأخرج من تحت فراشه أداة خشبية وثبتها بطريقة محترفة وقلع الضرس بسهولة لم أتوقعها.

وفي أحد الأيام أصيب زميل لنا بآلام شديدة في الخاصرة ولم يستجب له السجانون، وقد أكد أحد زملائنا الأطباء بأنه يحتاج إلى عملية زائدة دودية فوراً وإلا انفجرت ومات.

وبدأ إعداد غرفة العمليات في المهجع.

كان زملاؤنا الأطباء قد ادخروا بعض الخيطان والأبر وصنعوا مشرطاً من ليرة سورية قاموا بحفها.

وبدأت عملية الزائدة الدودية دون مخدر أو أدوات، وكان مطلوباً من البعض مراقبة الجو والبعض الآخر مساعدة المريض على عدم الصراخ بوضع كتلة من اللباس على فمه.

وجرت العملية بيسر وتم استئصال الزائدة الدودية التي تبين أنها كانت على وشك الانفجار. وتمت خياطة جرح المريض وأعطي لعدة أيام مضادات حيوية مدخرة وعاش وخرج من السجن .. فسبحان الذي بيده تقدير الأعمار.

هذا عن وضعي البائس. أما وضع أهلي فلم يكن أفضل من ذلك. ففي الفترة الأولى من اعتقالي طافوا على جميع معارفهم من المتنفذين ولم يستطيعوا أن يعثروا على خبر عني ولا أي شيء عن تهمتي. وقد ربطوا بين اختفاء ابن عمي الضابط وبين اعتقالي وشكوا في أن الموضوعين على علاقة ببعضهما، فابن عمي اختفى في ثكنته العسكرية، وأحد ما أخبر أهله بأنه اعتقل، ولكن لم يعلموا بأنه مات تحت التعذيب في فرع التحقيق العسكري. وقد أخبرني أثناء التحقيق معي رقيب من مناطقنا بهذه المعلومة محذراً إياي من إفشاء هذا السر الخطير الذي قد يودي به.

خرجت من تدمر بعفو رئاسي ووجدت والدتي ووالدي مريضين، فقد فقدت والدتي عيناً من شدة البكاء، وفارقت وجه والدي الابتسامة التي كانت تلازمه أينما حل.

وبدأت معاناتي الحقيقية فور خروجي من السجن فأنا ممنوع من العمل ومجرد مدنياً، والكثير من الأصدقاء باتوا يخافون من الحديث معي أو زيارتي وأصبحت شبه منبوذ.

بعد أن وسّط أهلي وساطات كُبرى مُنحت إذناً بالسفر بعد ثلاث سنوات من خروجي، ووجد لي شقيقي الصغير فرصة عمل في دولة خليجية.

[الشهادة الخامسة]

الطريق إلى تدمر

ياسين الحاج صالح

نقلا عن النهار اللبنانية ٢٠٠٣/٧/١

تروي هذه الأسطر تجربة مثقف سوري أمضى في السجن ١٥ عاما يروي فيها وقائع حياته اليومية في سجن تدمر ويدعو إلى تحويله نصباً يكرّم عذابات ضحاياه، ويسمّيه نصب التوبة.

دمشق...

لعلي لا اختلف عن سوريين كثيرين في النفور من أي تذكّر تفصيلي لوقائع من "سنوات الموت"، مثل مذبحة تدمر ،١٩٨٠ أو تاريخ سجن تدمر كله بين أواخر السبعينات حتى إغلاقه عام ،٢٠٠١ أو مأساة حماة ،١٩٨٢ أو حتى المحطات الرئيسية في تاريخ حبسي الشخصي. لا يختلف هذا النفور عن موقف من يغيّر دربه كي يتجنب رؤية جثة مشنوق تتدلى في مكان عام. وبعد كل هذه السنوات، مَن لا يريد اليوم ان يوفر على نفسه رؤية جثة القتيل المشوهة، المنفسخة!؟ لكننا أهل الميت، والجثة جثتنا ولا مفر من تعرفنا عليها وغسلها وإكرامها بالدفن. التذكر صعب حقا، لكن النسيان مستحيل.

في كل عام حين يقترب الشهر الأخير وتقترب ذكرى اعتقالي وذكرى الإفراج عني، يلحّ علي من جديد الشعور بضرورة ان اكتب حكايتي، اكتبها لا لأرث ارض الكلام واملك المعنى كما زعم محمود درويش، ولكن لأكف عن الهرب وأتخفف من عبء الحكاية. لكن كل عام، وقد قاربت سبعة يتكرر الهرب وتتأجل المواجهة من جديد.

وتمر السنوات وأشعر أكثر واكثر انني اخون نفسي وأخون أصدقائي الذين ماتوا في السجن أو بعيد خروجهم منه، وأخون الامهات والآباء الذين ماتوا في الانتظار أو ربما اترك جثثهم في العراء. ولم يساعد احد السجين ان ينسى، وبخاصة لم تقدم السلطات الرسمية في البلاد أي مساعدة على النسيان للألوف ممن اكتووا بنار المحنة التي دامت طويلا طويلا. بل كأنها وهي تتحدث عن "الاستقرار والاستمرار" تريد ابقاء ذاكرة الخوف حية في النفوس. أو لعلها تريد لنا من الذاكرة ما يكفي لأن نبقى خائفين ومن النسيان ما يكفي لعدم مطالبتها بشيء. والا فتهمة الثأرية ونزعة الانتقام جاهزة. وامر هذا الاتهام عجيب بالفعل في درجة انعدام الامانة والاستقامة فيه. فكأن المظالم رُدّت لأهلها، وكأن الحقوق عادت لأصحابها، وكأن كلمة واحدة قيلت لتطييب خواطر الضحايا، وكأن احدا اعتذر من "المذلين المهانين"، وكأن السجون فُرّغت من سكانها، وكأن منفيا واحدا عاد بكامل حريته، وكأن محكمة امن الدولة الغيت، والاعتقالات السياسية باتت شيئا من الماضي.... كأن ذلك كله تحقق لكن الضحايا السابقين مصرون على ركب رؤوسهم ولا يرضون بأقل من ان يسجنوا من سجنهم وينفوا من منفاهم... ويستبدوا.. ويتحكموا.

عبور مستنقعنا

لكني باستعادة تدمري الخاصة هنا احتفل بذكرى مذبحة ٢٦ حزيران ١٩٨٠ بطريقة ربما تتسع لمشاركة آخرين، واحاول التدرب على الانفصال عن تجربة ما انفكت ممسكة بتلابيبي. اريد ان اتركها في الماضي لأنال استقلالي عنها أو لأتحرر منها. لأستطيع ان اتذكر وانسى باختياري. فاذا كنت لا استطيع النسيان الآن فلأن الماضي لم يمض ولأني لا ازال موضوعا للتجربة وليست هي موضوعي. ولذلك ايضا لا استطيع ان اتذكر بحرية ماضيا لم ينفصل عني. ولعل كثيرين مثلي حاولوا ويحاولون السيطرة على شوك تجربتهم، ولعله لم تتح لمعظمهم فرص اتيحت لي لمقاومة الاستسلام. انا اعرف ان كثيرين استسلموا، تركوا انفسهم لاختلاط نسيان مشوش أو لتثبت الذاكرة على عذاب الماضي ومهانته، ترك بعضهم جرح روحه يندمل من دون ان ينظفه ويطهره، ويرعى بعضهم جرحه كأعز ما يملك، يتركه يترف كي يدخر شراسة طازجة لمستقبل ينتقم فيه. لكن الاستسلام بشكليه، ليس خطيرا عليهم وحدهم، ولن اقول انه خطير على هذه البلاد الحزينة والمجهولة، انه خطير على أي فرص محتملة لنا لأن نتصالح مع انفسنا ونستحق حريتنا، كل واحد منا وحريتنا جميعا. الآن اضحى فك قيد الحكاية عنصرا اساسيا من أي تجربة ممكنة للتحرر من قيودنا. هذا المستنقع مستنقعنا نحن، لا نستطيع التحليق فوقه ولا توكيل غيرنا باقتحامه بدلا منا، لكن يمكن ان نعبره بحرص أو بطيش. الخيار لنا.

اللجنة

في الشهر الأخير من عام ١٩٩٥ كنت قد انهيت ١٥ عاما من الحبس قضت بها عليّ "محكمة امن الدولة العليا" في دمشق، وهي المحكمة التي احلت عليها بين ٦٠٠ آخرين في ربيع عام ١٩٩٢ أي بعد قرابة ١١ عاما ونصف عام من اعتقالي أو "توقيفي الاحترازي" (شيء شبيه بمذهب "الضربات الاستباقية"، اصاب عشرات الالوف بين أواخر السبعينات واوائل التسعينات"). وبدلا من ان يُطلق سراحي عُرضتُ على "لجنة امنية" من النوع الذي سبق لي ان خبرته اكثر من مرة. الشيء الذي تفعله اللجنة اسمه "مساومة" أي صفقة "يتعاون" السجين فيها مع اجهزة الامن (يقول اعضاء اللجنة، وهم ضباط كبار في اجهزة الامن، إن التعاون تعبير عن "حسن نية" السجين ازاء... الدولة!) فيشي بأصدقائه ورفاقه أو "يكتب التقارير" عنهم، أو على الاقل يتعهد عدم "العمل بالسياسة"، مقابل الإفراج عنه، والا يبقى في السجن الى ما شاء الله (ليس هناك أي زلل في اعتبار "المساومة" تدريبا على الخيانة).

قلت للعميد الذي طرح العرض: اني صاحب حق الآن. فقد اعتقلتموني اكثر من ١١ عاما من دون تهمة، ثم قدمتموني الى محكمة استثنائية غير علنية لا دفاع فيها ولا شهود، ثم من دون ان يجبركم احد حكمتم عليّ بالسجن ١٥ عاما. انا صاحب حق الآن.

بالحرف الواحد قال الرجل الذي سيشغل منصبا وزاريا في حكومة ميرو الاولى: ما الك حق عندنا!

وبعد ثلاثة اسابيع، في بداية عام ١٩٩٦ نُقلنا ثلاثين سجينا، الى سجن تدمر الرهيب الذي يستحق سمعته الشنيعة واكثر. وكان "أعدل" ما في الامر ان بيننا اناسا وافقوا على شروط "المساومة" كلها الى درجة انهم وعدوا بأنهم سيبيتون ليلة الغد في بيوتهم. لكن الغد لم يأتِ بالنسبة للبعض منهم الا بعد خمس سنوات تدمريات ونصف سنة. ولم يفرج عن شخص واحد عند انتهاء المدة التي وجدتها "محكمة امن الدولة العليا" عادلة. وحين كان يفرج عنا بعد الحاق هزيمة حزيرانية كاسحة بنا في سجن تدمر كانت تجري "مفاوضات" مساومة جديدة ليقطف المنتصرون ثمار نصرهم المؤزر. اذ يجب الا يخرج احد من السجن فرحا طليقا!

لا اعرف أي حدس ومض في ذهن صنع الله ابرهيم حين كتب روايته الصغيرة "اللجنة". لكن ليس حدثا روائيا ولا مفاجأة درامية ان انتهت لجنته الى اجبار بطل الرواية على ان يأكل نفسه، لا، هذا الامر هو جزء من تعريف اللجنة بالذات. فاللجنة لا تكون لجنة الا لأنها تملك هذا السلطان: كلوا انفسكم!

هناك دائما ما هو اسوأ!

لطالما تملكني خلال الايام التالية لموعد الإفراج المفترض عني شعور غامر بالقلق، ولم احتج الى كثير من الجهد لأعرف ان هذا القلق مصنوع من الخوف المحض. كانت اللجنة قد توعدت بارسالي الى تدمر ان لم "اوقع" عقدا بأكل نفسي، لكن رأسي بقي "يابسا". وليس في هذا اليباس أي بطولة، فبكل بساطة لم اصدق التهديد. وكان لديّ من الاسباب "العقلانية": ما يجعل عدم تصديقي معقولا. غير ان اسبابي العقلانية لا تدل الا على عدم استيعابي للعقلانية "غير المتوازية" للسلطة المطلقة والاعتباطية، اعني قدرتها دائما على اختراق سقف العقل، على مفاجأتك بما لا يخطر لك ببال، نفورها من أي قاعدة مطردة أو قانون مستقر يتيح لضحاياها درجة من التوقع الرشيد والتكيف المعقول. وطوال خمسة عشر عاما كان "القانون" الوحيد ان هناك دائما ما هو اسوأ من اسوأ مخاوفنا: في السجن العرفي الذي سيدوم سنوات تراوح بين أي مدة واحد عشر عاما ونصف عام، كانت المساومات المتطرفة المبنية على فلسفة كل شيء لـــ"الدولة" مقابل لا شيء للسجين. كانت قبلها فنون القسوة في التعذيب، كان قطع الزيارات بلا سبب، كان رفض التعامل معنا كسياسيين وكمجموعات، كانت محكمة امن الدولة،... فلماذا لا تكون تدمر ممكنة بعد ١٥ عاما؟

كان شعوري يعرف احسن من عقلي، وكان يعبّر عن نفسه بنوع من القلق الكتيم الثقيل. وفي تلك الفترة فقط، وحتى قبل الشحن الى تدمر، عرفت معنى الزلزلة الجذرية للأمن وخبرت تقصّف الركب، وامام اللجنة عرفت ما معنى نشفان الريق. لكن قد لا يكون السبب الخوف من اللجنة نفسها لأني بالفعل لم اكن خائفا، بل الخوف اني عدت من جديد ريشة في مهب الريح بعدما ظننت انني اقتربت من المرسى. في ذاكرتي تمثل الاسابيع الثلاثة بين "مساومة" اللجنة في ١٩٩٥/١٢/١٠ وموعد نقلنا الى سجن تدمر فترة الافتقار العميق للأمن وعودة كل توقعاتي وخططي للاهتزاز. ورغم اني طمأنت زملائي بأن تدمر مجرد تهديد فان عقلي الباطن لم يطمئن. في تلك الاسابيع الثلاثة كتبت ٤٠ صفحة متوترة عن الحرية والامن، لكن السجانين لم يسمحوا لي بأخذ دفتري حين افرج عني بعد قرابة عام، وكنت في وضع الناجي المستعد لخلع قميصه ليملص من المأزق.

زيارة في الفجر

اطبقت المجلد الاول من كتاب محمد عابد الجابري عن فلسفة العلوم عند الصفحة ١٢٠ في الساعة الرابعة والنصف صباحا من فجر يوم ١٩٩٦/١/٣. تقلبت في فراشي مثل دجاجة تشوى طوال ساعة تقريبا. كنت نهبا للقلق والرعب. كنت قلقا من هذه القسوة التي لا حدود لها التي يمكن ان تسحقني مثل قملة. قلقا من استحالة توقع المصير. قلقا من اني عدت الى نقطة الصفر في الشهر الأخير من عام ١٩٨٠، عدت موقوفا "عرفيا" أو "احترازيا" ولا تزال صفحات الدفتر الجديد بيضاء كلها.

حوالى الخامسة والنصف صباحا سمعت صوت مفتاح في قفل المهجع الاول من جناح السياسيين في سجن دمشق المركزي المعروف بسجن عدرا. اختلجت امعائي بقوة حيال كسر العادة الاستثنائي هذا (تفتح ابواب المهاجع عادة في الثامنة صباحا) فُتحت الابواب كلها، وطُلب منا ان نضب اغراضنا الشخصية. الى اين؟ منذ البداية تسرب الينا اننا منقولون الى سجن تدمر، لكن كان للرجاء والتوهم رواياتهما: ذاهبون الى فرع الامن من اجل مساومة جديدة، ذاهبون الى سجن صيدنايا حيث سيتم جمع كل السجناء في البلد قبل الإفراج...

في "العادة" يؤخذ سجناء الرأي من امثالنا الى تدمر اما بعيد اعتقالهم واما عقابا لهم على مشكلة تسببوا بها في سجنهم الاصلي: اضراب عن الطعام مثلا (اما الاسلاميون فسجن تدمر هو "مكانهم الطبيعي"). اما بعد سنوات طويلة من الحبس، وبعد الاحالة على محكمة امن الدولة، وعند نهاية النصف الاول من التسعينات، فهذا يتجاوز حد تخيلنا، ويبلغ الامر في حالتي حدا وسخا لأنني أنهيت سنوات حكم محكمة امن الدولة الخمس عشرة. لكن حالتي لم تكن فريدة جدا، فقد كانت

مجموعتنا المشحونة الى تدمر في عز مربعانية الشتاء تضم سجناء انهوا ١٤ عاما، أو اقتربوا من نهاية احكامهم التي كانت بين ثماني سنوات وخمس عشرة سنة.

وصلنا السجن ظهرا، ولاحظنا درجة من الدهشة عند ادارة السجن لوصول سجناء جدد. تجاوز كثيرون منهم عشر سنين سجنا. ثم تلقينا بروتوكول السجن بسرعة" الرؤوس منكسة دائما، الكلام همسا، الشعر والذقن والشاربان حليقة دائما. وتم اقتيادنا من الادارة الى المهجع المخصص لنا ورأس كل منا عند اسفل ظهر متقدمه وعلى عيني كل منا قميص داخلي أو بشكير. وكانت قافلتنا تتحرك بايعازات تبلغنا ان هناك درجة أو بابا، وربما صاحبت الايعاز رفسة على المؤخرة أو لكمة على الظهر.

تكسير خشب

اظن ان شعورنا في يومنا الاول لا يختلف عن شعور من وقع في بئر عميقة في منطقة مقطوعة عن العالم. اختاروا احدنا رئيسا للمهجع وابلغوه ان النوم في السابعة مساء والاستيقاظ في السابعة صباحا، وشرحوا "نظـــام التعليم" باختصار، وحددوا مواعيد الطعام وكيف نستقبله. وحين احيل عليــ"هم" بصفة جمعية غير محددة فليس رغبة مني في ان اشملهم بهوية اتميز عنها، بل لأنهم غارقون فعلا في غفلية لا تتمايز. فلم ار ولم ير احد من زملائي تعابير وجه احد منهم ابدا ولم ننظر قط في عيني أي منهم. ممنوع. فالعين ليست مغرفة الكلام فقط كما يقول المثل الشعبي، وانما هي قناة التراسل والتعرف والتواطؤ والتنبؤ، أي العلاقة الانسانية. مرة طلب رئيس المهجع من المساعد اول، المسؤول المباشر عنا، ان نرفع رؤوسنا حين نتحدث الى السجانين، رد البطل: وماذا فعلتم مما يرفع الرأس لترفعوا رؤوسكم؟

صباح اليوم التالي سمعت اصوات تكسير خشب آتية من بعيد. لكنها كانت تقترب بين حين وآخر. في التاسعة والنصف فتح باب مهجعنا وتم استقبالنا رسميا. "الاستقبال" أو "التشريفة" حفلة "فلقة" من ١٠٠ "كابل" في "الدولاب" لكل واحد منا (قد "يأكل" الاسلاميون ٥٠٠ كابل) ونحن عراة الا من الكلاسين. والهدف منها "كسر العين".

استغرق تكسير خشبنا نحن الــ١١ نحو ساعة (قسمنا ٢٢ شيوعيا موزعين على مهجعين، وفصل عنا ٨ من البعثيين العراقيين اخذوا الى مهجع مستقل). وحين كان بعض عناصر السجن "يدولبوننا" تولى آخرون منهم تفتيش اغراضنا. سمح لنا بالالبسة الشخصية فقط.

طوال اسابيع ظل السجانون مستغربين ارسالنا اليهم، لكنهم ارتاحوا في النهاية الى فكرة انه لو لم نكن اولاد قحبة لما نقلنا الى تدمر. وبالفعل يصعب ان يجود احد منا بشهادة تدمر ابلغ من هذه.

اقترح احد السجناء ان يكون شعار سجننا الجديد شعار جحيم دانتي: ايها الداخل الى هذا المكان، تخل عن كل امل!

الغريب اني لم اصب بالرشح أو الكريب هناك قط رغم جو تدمر الصحراوي القارس شتاء، ورغم انعدام التدفئة وقلة الاغطية والالبسة، ورغم حمام الماء البارد دائما، ورغم اني كنت سهل الاصابة بأمراض البرد في ظروف احسن بكثير في سجن عدرا وقبله في سجن المسلمية في حلب. اظن ان الجسم يستنفر كل طاقاته للتكيف مع وضع طارئ صعب.

"نظام التعليم"

طوال شهر ونصف شهر لم اتعرض لأي اذى جسدي يتجاوز بضعة "كفوف" على الوجه، بينما اصاب معظم زملائي عقاب اشد، خصوصا "المعلمين" منهم. و"التعليم" هو تمييز بعض السجناء بعلامة محددة (ابو البيجاما الخضراء أو صاحب الفرشة الثالثة من اليمين مثلا) ليعاقبوا حين يفتح باب المهجع، أو غالبا صباح اليوم التالي، بعد تسلم الفطور أو عند اخراجنا الى الباحة. ويُطلب عادة من رئيس المهجع ان "يعلّم" أي عدد من السجناء يخطر على بال السجان ولأية اسباب يرتأيها. والعقاب يراوح بين بضعة "كفوف" أو عشرات منها الى "دولبة" المعلم المنكود. الاشنع من العقاب هو انخلاع قلب المعلَّم في انتظار العقاب، والشعور المقيت بدبيب ملايين ديدان الخوف في الاحشاء والعضلات. والهدف من نظام التعليم التدمري غرس المنعكسات الشرطية المناسبة، ومنع "روح" الاستقبال أو التشريفة من التقادم، أو ببساطة انعاش كسر العين. ولديّ شبهة بأن مصدر "نظام التعليم" هذا هو نفسه مصدر ديموقراطيتنا الشعبية: اوروبا الشرقية. اذ يروي كثيرون ان سوريا استوردت، منذ بداية الازمة السورية أواخر السبعينات خبراء اوروبيين شرقيين في شؤون التحقيق وانتزاع المعلومات و"تربية" السجناء.

لكن في احدى الليالي كنت "ليلياً"، أي اقوم بنوبة حراسة لزملائي النيام مدة ساعتين اكون مسؤولا فيهما عن كيفية نومهم (على جنباتهم حصرا) وعن وضع "الطماشات" على عيونهم وعدم انزياحها الى الاعلى أو الاسفل، وعن عدم وجود أي منهم في دورة المياه، وعن أي شيء يخطر على بال "حضرة الرقيب اول" (هكذا كنا نخاطب أي سجان خشية ان يكون رقيبا اول بالفعل) فوق سطح السجن (الوان فُروج امهاتنا مثلا). من "الشرّاقة"، الشباك المفتوح دائما في سقف المهجع والتي تنزل منه اوامر التعليم عادة، لاحظ الحارس ان احذية زملائي وشحاطاتهم ليست مرتبة في زاوية محددة من المهجع. وهكذا عثر لي على ما يسليني لبعض الوقت في "ليليتي" المملة: نقل الاحذية والشحاطات بفمي الى احد اركان المهجع .

مر علينا صيف ١٩٩٦ فظيعا من شدة الخوف وغزارة التعليم وسوريالية افانين الترويع. في احد ايام ذلك الصيف، وبينما كنا جالسين منكّسي الرؤوس وايدينا خلف ظهورنا تحت شمس آب الحارقة في حوش المهجع امر السجان بأن يضع كل منا "شرفه" في فمه. كززنا على فردات احذيتنا بأسناننا وابقينا ايدينا خلف ظهورنا المحدودبة. وكان حضرة الرقيب اول متسامحا حين تبين له ان الشخص الستيني الذي كان يسند شرفه بيده انما كان يؤازر طقم اسنانه في الإطباق على فردة الحذاء.

في ذلك الصيف عرفت الخوف كشعور جسدي محسوس، لا كقلق. كنت اعرف انه الخوف، ذلك الشعور الذي لا يوصف ولا يطاق، شعور الوهن والتآكل الذي احس به يدب في خاصرتي وفي عضلات عضدي، كدت افقد وعيي مرة من الخوف وانا ليليّ لو لم اوقظ رئيس المهجع ليتولى دقائق قليلة باقية من مناوبتي.

التوبة!

لم اكن انوي الدخول في اية تفاصيل، لكن شيطان التفاصيل يدخل نفسه في كل شيء.

افرج عني أواخر عام ١٩٩٦ بعدما اكملت قرابة عام في السجن الفظيع. وحين تخرجت من الجامعة عام ٢٠٠٠ التقيت فيها بزميلين سابقين لي كان قد افرج عنهما قبل اسابيع فقط. امضى احدهما ١٩ عاما في سجن تدمر والآخر ١٨ عاما. ومع ذلك كانا يبدوان شخصين طبيعيين وبصحة جيدة، وأحدهما هو الذي تذكر اننا عملنا معا في مخبر الكيمياء في سنتنا الجامعية الاولى. ينبغي ان يكون هذا مذهلا: فسنة تدمرية واحدة في الثمانينات تعادل سنوات في التسعينات، وبتدويني هذه الشهادة اجازف ان اكون "نقاقا" قياسا الى ما شهده الوف قبلي. ولا شك ان الفضل في سلامة زميليّ الدراسة يعود الى الايمان. فلحسن الحظ لا احد يستطيع منع السجين من اللجوء الى ربه وإسلام روحه وقلبه له حتى لو كانت الصلاة والصيام ممنوعين اطلاقا في تلك البقعة "المحررة" من الغيبيات والعقائد الدينية. ولعله الايمان ايضا ما كان يدفع كثيرين الى التطوع لتلقي العقاب التعليمي المربع فداء لسجناء مرضى أو مسنين.

اود في الختام ان استعيد خاطرا الح علي في باستيلنا المريعة: هذا سجن لا يجوز هدمه أو إغلاقه. لم لا نقلبه متحفا لأدوات التعذيب، ونشيد فيه نصبا يكرم عذابات ضحاياه ويعلن اننا لن ننساهم. ونسمي هذا النصب نصب التوبة، توبتنا جميعا. هذا جزء من عملية اوسع، سياسية وثقافية وقانونية وانسانية، تهدف الى ضمان تسامي السوريين على اية دوافع ثأرية ممكنة وقطع الدائرة الجهنمية لتبادل مواقع القاتلين والمقتولين. فالضحية الدائمة لهذه الدائرة هي الجميع وبلاد الجميع.

سجن تدمر عار سوريا، وبتكريم ضحاياه نوزع هذا العار علينا جميعا وبالتساوي، لا لأننا متساوون في المسؤولية عن الماضي ولكن تعبيرا عن استعدادنا لتحمل المسؤولية معا في المستقبل.

نقلا عن النهار اللبنانية ١/٧/

اللجنة السورية لحقوق الإنسان

١/٧/٢٠٠٣

[الشهادة السادسة]

شهادة

١١ عاما في السجن بجرم عدم الوشاية بالجار!!

إعداد: سليم الحسن

قال محدثي مستذكراً الماضي المأساة: "كنا مجموعة مؤلفة من حوالي خمسين معتقلاً في ذلك اليوم من ربيع ١٩٨١ عندما عرضنا أمام القاضي سليمان الخطيب لمحاكمتنا. لم تستغرق الأحكام علينا جميعاً أكثر من ٤٥ دقيقة. حُكمت سنتين لكنني أمضيت في سجن تدمر ١١ عاماً. جرمت بتهمة إخفاء معلومات. كان لنا في الحي جار معروف بانتمائه للإخوان المسلمين من الأربعينيات، اعتقل فترات عديدة في فترة حكم البعث. وهو معروف للقاصي والداني بتوجهاته وأفكاره التي لم يكن يخفيها عن أحد. وجريمتي أنه كان يسكن في نفس الحي والشارع الذي كنت فيه ولم أبادر بكتابة التقارير عنه .. هكذا ألصق بي وبآخرين من أهل الحي جريمة إخفاء معلومات وعدم المسارعة إلى إخبار السلطات عن حركات وسكنات هذا الجار (الطيب). بنفس التهمة وبنفس الملابسات والظروف اعتقل جار آخر، وكانت محاكمته في نفس اليوم الذي مثلت فيه أمام المحكمة المهزلة، وحكم عليه القاضي بستة أشهر. قال للقاضي: هل سيطلقون سراحي فقد مضى على اعتقالي عشرة أشهر. نظر قاضي محكمة أمن الدولة إليه بهزء واستخفاف وأمره أن ينصرف، ولم يطلق سراحه إلا معنا في عام ١٩٩١.

سألت محدثي عن المحكمة والقاضي والقانون والإدعاء والدفاع والشهود. قال مختصراً التفاصيل المملة: لا يوجد إلا القاضي وكان يومها سليمان الخطيب، ومعه مساعد يسجل ما يمليه عليه. ملف المعتقل وهو جملة ما يرد من فرع المخابرات أو التحقيق وما يحتويه هذا الملف من اعترافات انتزعت تحت التعذيب أو أثبتها المحقق حتى دون أن يعترف بها المعتقل. أما القانون والأحكام فكانت على مزاجية القاضي. كثير من الذين لم تثبت عليهم تهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين ألصق بهم تهم أخرى، مثل إخفاء معلومات وعدم المسارعة لإخبار الأجهزة الأمنية عن

أشخاص يشتبه بصلتهم بالإخوان المسلمين. وكانت الأحكام في هذه الحالة تتراوح بين البراءة والسجن لمدد مختلفة قد تصل إلى المؤبد. لكن هذه الأحكام لم تكن تعني شيئاً أكثر من التعذيب النفسي للمعتقل إذ لم يفرج عن أحد في تلك الفترة، واستمر الجميع بمن فيهم الذين حكم ببراءتهم حتى أول دفعة من الإفراجات عام ١٩٩١. حكم على الأستاذ الجامعي (س) بالمؤبد بتهمة إخفاء معلومات عن أشخاص مطلوبين للتحقيق. وقضى تحت التعذيب. كثير من الذين حكم ببراءتهم ماتوا تحت التعذيب في ساحات وزنزانات سجن تدمر.

قلت لصاحبي: حدثني عن الحريات المتاحة في سجن تدمر والحقوق التي كنتم تتمتعون بها؟

هز رأسه قائلاً: لا توجد حريات ولا حقوق، حتى حرية النظر كانت ممنوعة، وحرية التفكير أو الشرود الذهني كانت ممنوعة. كم من سجين عذب حتى وصل إلى شفير الهلاك لأنه نظر إلى أحد الحرس أو السجانين بدون قصد منه، كان مطلوب منا أن نطأطأ الرأس دائما ولا ننظر إلى الحرس والسجانين. وكم من سجين تلقى وجبة دسمة من التعذيب وسالت دماؤه لأنه عثر عليه متلبثا بشرود الذهن أو على وضعية توحي بالتفكير. حتى حرية العبادة كانت ممنوعة: كان في مهجعنا رجل مسن وأولاده الأربعة من ميسوري الحال من محافظة إدلب، وذات يوم جمعنا مدير السجن الرائد فيصل الغانم وسألنا عن طلباتنا. قال له الرجل المسن: تعلم يا سيدي أني جاوزت الخامسة والستين وأنا في صحة عليلة ومشرف على الموت في أي لحظة أناشدك بالسماح لي بالصلاة. أجابه الغانم: ومن يمنعك من الصلاة! استغل آخر المناسبة، وقال: يمكننا إذن أن نصلي. قال فيصل الغانم محاولاً توضيح الأمر من وجهة نظر شرعية: إن الصلاة تحتاج إلى طهارة ونقاء وأنتم تعيشون في نجاسة ودماء، كل المكان نجس: الأرض نجسة والبطانيات نجسة والماء قليل وهذا لا يليق بمقام الصلاة. وبعد مغادرة مدير السجن، قام الرجل المسن فتوضأ وشرع في الصلاة بناء على الإذن الذي حصل عليه من فيصل الغانم، لكن أحد الحراس رآه وعلّمه من خلال نافذة سطح المهجع. وفي صباح اليوم التالي نودي على من كان متلبساً بجريمة الصلاة فخرج الرجل المسن لينال قسطاً كبيراً من التعذيب، وعندما أعيد مسحوباً بعد ساعتين إلى المهجع كان مغشياً عليه والدماء تسيل من أنحاء جسمه، ثم ما لبث أن مات متأثراً بهذه الوجبة التي لا تحتمل من التعذيب - رحمه الله.

سألت صاحبي: هل يفهم من هذه الحادثة أن الدين كان المستهدف؟

أجاب من فوره: هذا ما تأكدنا منه. إنهم كانوا يتقصدون إيذاءنا في ديننا، وكانوا يفصحون عن كراهيتهم للإسلام والمتدينين، بل وكانوا واضحين في التعبير عنها بصور شتى من

التعذيب والشتم والتحقير المستمر لكل المقدسات. كان جميع حرس السجن من الذين باعوا ضمائرهم وعقولهم لإرواء غريزة التعذيب والقتل والولوغ في الإيذاء. كثير من المعتقلين مثلي لم يكن لهم علاقة بالإخوان المسلمين، لكن كان يصب فوق رؤوسنا حمم من العذاب لا طاقة للجبال بها. كان حقدهم لا حدود له، وكراهيتهم لا حدود لها وهمجيتهم لا حدود لها. إن ما نسمعه عن غوانتانامو لا يعدو أن يكون نقطة صغيرة في متاهات تحقير الإنسان وتعذيبه في سجن تدمر! هذا السجن الذي سيبقى ما حدث في جنباته وزواياه المظلمة وصمة عار لا تمحى في جبين نظام الأسد على مدار الزمان، مهما ابتعد الزمان.

صف لي حياتكم في سجن تدمر؟

قال والأسى يغطي محياه الواهن: لقد حولوا مظاهر الحياة وأنشطتها إلى ألوان شتى من التعذيب: النوم تعذيب، واليقظة تعذيب، والطعام تعذيب، والحمام تعذيب، والحلاقة تعذيب، والتعذيب تعذيب، حتى هانت الحياة على الكثير وتمنى بعض السجناء الموت من شدة التعذيب. أصبح منظر الدماء مألوفا، ومنظر الرؤوس المفتوحة مألوفاً ومنظر الذين يموتون تحت التعذيب مألوفاً. في كل يوم هناك موت في المهجع وموت في ساحات الإعدام وموت في باحات التنفس. وفي كل يوم هناك ترقب لما هو أسوأ. أما إن أردت تفصيلا فاقرأ كتاب "تدمر شاهد ومشهود" لزميل السجن "محمد سليم حماد" ففيه وصف دقيق موثق لبعض ما كان يجرى، وهناك ما هو أكثر هولاً لم يضمنه دفتي الكتاب، ربما نسي أو أشفق على القارئ.

وهل رأيت محمد سليم حماد في السجن؟

نعم اجتمعت معه سنتين في مهجع واحد، وكان شاباً لامعاً لماحاً صاحب ذاكرة قوية، وكتابه مما يعتمد عليه في توثيق سيرة العذاب والمهانة التي عاناها المعتقلون في سجن تدمر.

كيف كانت حياتك بعض إطلاق سراحك؟

بعد الخروج من السجن عام ١٩٩١، كان عليّ أن أبدأ حياتي من قبل نقطة الصفر، فقدت عملي وحقوقي المدنية. كانت أسرتي في حالة مزرية من الحاجة والفاقة .. بحثت عن أي عمل، وعلى الرغم من التعاطف الضمني من كثير من الناس فلم أجد العمل المناسب. ثم لجأت للحصول على جواز سفر للعمل في الدول المجاورة. تعثر الحصول على جواز السفر عدة سنوات، ثم استطعت أن أحصل على جواز سفر لمدة سنتين، وبعد انتهاء السنتين لم يوافق على تجديده مرة أخرى، وها قد مضى وقت وأنا مخالف في الإقامة هنا بسبب انتهاء صلاحية جواز السفر، وعلى الرغم من المراجعات والمناشدات يرفضون تجديد جواز سفري هنا في السفارة السورية ويقولون: تقضي التعليمات الواردة بعودتك الفورية إلى البلد. وهذا يعني بالنسبة لي فقدان مصدر المعيشة،

وقد يكون وراء العودة مضايقات أخرى. فالذين أطلق سراحهم مطلوب منهم مراجعة فروع الأمن التي اعتقلتهم وتقديم تقارير ومعلومات، ومن لا يفعل ذلك يلقى عنتاً ومضايقة تصل إلى الاعتقال مرة أخرى في بعض الأحيان.

أراك تنظر إلى الحياة بسوادوية؟

لا أبداً فأنا منسجم تماماً مع ما قدر لي وأحتسبه عند الله. لكنها الورطة الرهيبة التي أوقع النظام فيها البلاد وشرخ فيها الناس وصنفهم، وعاملهم على أساس هذا التصنيف الظالم. دمر سورية وإعادة البناء ليست سهلة. لقد كنا نحس ذلك في السجن. كانوا يقولون لنا: ادع ربكم ينجيكم منا. نحن قدركم المحتوم سنفعل كذا وكذا بكم وبدينكم وبأمهاتكم وأخواتكم. لم يكن بيدنا حيلة أن نقول حرفاً واحدا لهم، لكنهم كانوا يلحون على فكرة الانقسام الطائفي والاستعلاء الطائفي وإذلالنا على أساس طائفي. وكلما حاولنا استبعاد هذه الفكرة ونسيانها كانوا يؤكدون عليها.

لماذا تحفظت على ذكر اسمك وتفصيلاتك الشخصية في هذه المقابلة؟

إذا ذُكر اسمي فهذا يعني عودتي المؤكدة إلى السجن. لا توجد حريات في سورية للتعبير عن الرأي، ولا توجد حريات لكتابة سيرة المعاناة. ولا يوجد من ينصف المظلوم ويعين الكل. الحياة الرسمية هي ممارسة القهر فوق المواطنين ولم أجد وجهاً إنسانياً لنظام الحكم في بلدنا المغلوب على أمره.

[الشهادة السابعة]

حوار

المعتقل السابق أصلان عبد الكريم في حديث للعدالة عن تجربة اعتقاله: السجن نمّا لدي روح التسامح

أجرى الحوار: د. رامز طباع

أصلان عبد الكريم أحد قياديي رابطة العمل الشيوعي المؤسسين، وقد اعتُقل على خلفية آرائه السياسية المعارضة للنظام السوري حوالي عقداً من الزمن. وفي هذا الحوار الخاص بـ "العدالة" يروي رحلته في السجن التي غيّرت مجرى حياته.

هل تحدثنا عن نشاطك السياسي قبل الاعتقال؟

أعتقد أنه لا حاجة لتحويل الجواب إلى بيوغرافيا ذاتية، ولذلك أقول: إن أول تنظيم انتسبت إليه هو رابطة العمل الشيوعي في سورية والتي تحولت لاحقاً إلى حزب العمل الشيوعي في سورية، ويمكن تلخيص نشاطي السياسي في إطار الحزب المذكور ببضع كلمات: النضال في سبيل حل جذري للقضية الفلسطينية والوطنية بشكل عام، وفي سبيل حل جذري للصراع الطبقي في سياق ثورة اجتماعية صائرة إلى الاشتراكية، وفي سبيل ثورة سياسية جوهرها قيام نظام سياسي ديمقراطي.

كيف تصف لنا عملية التحقيق معك؟

الكل تقريباً يعرف القليل أو الكثير عن أساليب التحقيق والتعذيب الجسدي والنفسي التي يلاقيها المعتقل السياسي، وبوسعي القول بكل بساطة أن مثلي في ذلك مثل الآلاف من أبناء الوطن بانتماءاتهم المختلفة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التيارات الإسلامية هي التي تعرضت لأبشع وأحط أنواع التعذيب في التحقيق أولاً وفي السجون لاحقاً، ولذلك هي التي يجب أن تسأل بهذا الخصوص. لقد تحول الكثيرون منهم بسبب التعذيب الجسدي والنفسي المستمر وبسبب المرض والجوع و.. إلخ إلى مجرد كائن حي غريزي همه الوحيد الحفاظ على البقاء، وذهب الإنسان بما هو ذلك الكائن المعنوي بامتياز أدراج الرياح. إن اختزال الإنسان إلى هذا القاع البيولوجي يمكن أن يشكل في رأيي الجريمة الكبرى والنتاج المأساوي الأكثر انحطاطاً لآلة القمع والقهر في كل زمان ومكان.

هل تنقلت بين أكثر من سجن؟ وما هي انطباعاتك عن المعتقلين من التيارات الأخرى؟

لقد عرفت غير سجن، وانطباعي عن المعتقلين من التيارات الأخرى يحتاج إلى حديث طويل وشاق، إلا أن الأهم من ذلك هنا تلك الفائدة العميقة للتواصل بين التيارات المختلفة حتى لو كان في أضيق الحدود الأمر الذي يوفر معرفة عن كثب (فالإنسان عدو ما يجهل) وهي ضرورية لمراجعة الأفكار المسبقة، أيديولوجياً وسياسياً، وقد تم التقدم على هذه الطريق وكانت هناك مراجعة عند الجميع تقريباً، وإن يكن بدرجات مختلفة بالتأكيد، سواء في العمق أم في الاتساع لأسباب كثيرة لست بصددها الآن.

ماذا أكسبتك تجربة الاعتقال؟

التخلص من أوهام السوبرمان، ورؤية الإنسان على حقيقته كمركب من القوة والضعف والعقل والغريزة، والطيب والسوء .. إلخ، وقد نمت لدي روح التسامح والإيمان بقدسية الإنسان الحي الماثل أمامنا واعتبار كرامته وحريته وقبل كل شيء حقه في الحياة، وحرية الضمير والرأي والتعبير هي مربط الفرس، واعتبار ذلك كله حقاً مطلقاً وغير مشروط للجميع بدون استثناء في

نطاق قانون يستحق اسمه، وهو الشيء المختلف عما يسمى قوانين لدينا، وهي ليست أكثر من فرمانات سلطانية متعسفة إلى الحد الأقصى والى حد اللامعقول. على صعيد آخر توفر لي في المعتقل ما يكفي من الوقت (بعيداً عن مشاغل الحياة والعمل والسياسة) لإعادة النظر بكل شيء والتأسيس الفكري للانطلاق من جديد على أرض أرسخ من منظوري فكرياً وسياسياً وعملياً. ويقع الآخر في مركز هذا التأسيس باعتبار الموقف منه محك كل مراجعة وكل إنسانية وكل قيمة، وقد استدعى ذلك التخلي عن كثير من الأفكار القديمة التي كان من الضروري تجاوزها حتى لو كان ذلك بصعوبة قلع الضرس. وآمل ألا يدفع ما قلته أحداً إلى التخفيف بأي قدر كان من درجة الرفض التام للاعتقال السياسي، فالآثار المدمرة لذلك لايمكن الالتفاف عليها بأي شكل كان وبأية ذريعة تكن من مثل ما ذكرت قبل قليل.

هناك من يخرج من المعتقل وهو ناقم على تجربته السابقة وقد رأينا الكثير من الحالات وخصوصا معتقلي حزب العمل .. إلام تعزو ذلك؟

من الطبيعي أن يحصل ذلك، وقد أشرت قبل قليل إلى الدمار النفسي الكارثي في الاتجاه العام، وهذا ما تعلمه كل التجارب التاريخية وفي كل مكان، وليس حزب العمل الشيوعي في سورية بدعاً في ذلك وخاصة إذا تذكرنا الموت المعنوي للقوى الاجتماعية الحية في سورية طيلة ما يزيد عن ربع القرن الأخير. يمكن للسجن في حالات خاصة أن يكون له مفعول إيجابي معاكس بدرجة ما، وذلك عندما يترك السجين وراءه حركة شعبية وسياسية قوية، وعندما يكون شيئاً ذا معنى ليس مجرد حلم وعندما تكون شروط السجن مقبولة وعندما يكون زمانه غير متطاول، وعندما .. إلخ. ولما كان لا شيء يذكر من ذلك في سورية، فإن القوى جميعها وليس حزب العمل فقط قد آلت إلى ما آل إليه بهذه الدرجة أو تلك، وعلى الأقل على الصعيد السياسي، حيث لا قوة سياسية لم يدمر نفوذها السياسي بما في ذلك حلفاء النظام. لقد ظهر ذلك بوضوح في حزب العمل الشيوعي لأسباب كثيرة من بينها طبيعة الصدام الذي انخرط فيه ضد السلطة وما ترتب على ذلك من قبل النظام، ومنها أنه حزب لم يخف صراعاته وخلافاته وتراجع الكثير من رفاقه على قاعدة تبني مناهج جديدة في التفكير والعمل السياسي وليس على قاعدة الطلاق مع السياسة فقط، كما لعب دوراً في إظهار هذا الوضع التركيز الدائم عليه في إطار تاريخية الصراع السياسي في سورية وأخلاقياته بما في ذلك بالطبع الألعاب الناتجة عن الإعلام والعلاقات العامة، وقد كان ذلك واضحاً قبل السجن وأثناءه وبعده، ولا يحتاج من قبل المتابع إلى جهد كبير للامساك به. ولا أقول تشكيكاً أو دفاعاً آلياً عصبوياً، وإنما لأنني أزعم أنه واقع الحال.

هل تحدثنا عن بعض اللحظات الإنسانية التي تتذكرها في المعتقل ولا تغيب عن ذاكرتك؟

إن المأساة الإنسانية التي عايشتها سورية داخل وخارج المعتقل الصغير والكبير لم تطـرح بعد بكامل حجمها وعمقها المأساوي، ومن المستحيل طرحها في سياق هكـذا مقابلـة، لـذلك سأختار مشهدين "بسيطين" وأترك للقارىء استكناه ما يقولان بالعمق:

١ - جمعني السجن مع شاب (لا داعي لذكر اسمه فالمهم المشهد) جيء به مـن جحـيم تدمر (فتدمر ليست سجناً) فاقداً القدرة على المشي (وفي العادة كان يؤتى ببعض المرضى المزمنين أو العضال أو العجزة إلى سجن صيدنايا من أجل العلاج ولزمن ما قد يمتد شهوراً أو سـنوات). لقد تحسن السجين المذكور بالتدريج وأصبح قادراً على المشي الطبيعي، وقد تحول لـذلك نحـو الأحسن على كل الأصعدة وبخاصة نفسياً بالقياس إلى ما كان عليه، وذات ليلة نودي عليه وعلى أمثاله للعودة إلى جحيم تدمر، فانهار كلياً إلى درجة عجز فيها عن السير وراح يزحف على يديه ورجليه ومقعده نحو باب الخروج.

٢ - في السنتين الأخيرتين نقل سجناء تدمر إلى صيدنايا على دفعات وقد جرت الحادثة التالية مع دفعة منهم: لقد دخلت إلى ما يسمى ساحة الاستقبال وهي الساحة التي يقـوم فيهـا الجلادون بما يسمى التشريفة، وهو وصف مفارق ومهين إلى حد القرف، لأن المقصود بالتشريفة هو تعريض القادم الجديد لنوبة تعذيب جسدي ونفسي كفيلة بإخضاعه التام من خلال قتل روحه بالرعب والإهانة، أقول دخلت الدفعة المذكورة هذه الساحة ولأن التشريفة كانت قد خفّفـت أو ألغيت فقد طلب إلى القادمين رفع رؤوسهم والنظر إلى الأمام (في سجن تدمر كان ذلك محرماً) ثم طلب إليهم بعد قليل القعود بانتظار نقلهم إلى الهاجع، ولما كان القادمون قد تشجعوا قليلاً على ضوء ما سبق فقد تناقلوا بضع كلمات بهمس ويبدو أن الصوت قد تجاوز الهمـس قلـيلاً وإذا بالحراس يخاطبونهم قائلين: يا شباب بلا صوت!! وهنا كانت المفاجأة، حراس يستخدمون كلمة يا شباب وهي كلمة لم يسمعوها منهم قبل الآن قط، وذاكرتهم مملوءة بالشتائم فقط، ثم لا يطلـب قطع الصوت نهائياً، بل تجاوز الهمس فقط، لقد كان ذلك أكثر مما يمكن أن تتحملـه أعـصابهم، فكلمة يا شباب كان لها مفعول السحر وراحت عيونهم وكلماتهم الهامسة المتقاذفة بينهم تعبّر عن فرحة اللامعقول واللامتوقع الذي حدث!

ما كان شعورك حيال سجانيك ومعذبيك؟ كره أم شفقة أم مزيج بين الاثنين؟

لا أحد يحق له أن يطلب من أحد سجن تعسفاً ولهذا الزمن الطويل ألا يعـيش المـشاعر المذكورة لفترة مؤقتة قد تطول أو تقصر، ولذا فإنني كنت أمر بشكل عام وبين فتـرة وأخـرى بمزيج من مشاعر الغضب والرفض والكره والسخرية والاحتقار والـشفقة وبدرجـة مختلفـة

باختلاف مستوى المسؤول ومع ذلك فإنني أزعم أن المطلوب منا جميعاً هو تنمية روح التسامح الأصيلة في نهاية المطاف حتى لو كان في ذلك إهانة للعدل والحق.

هل تعتقد أن هناك تأثيراً نفسياً لتجربة الاعتقال على المجتمع ككل وما آثار ومظاهر ذلك التأثير إن وجد؟

يتضافر الاستبداد والسجن بصفته أحد الوسائل لتكوين مجتمع مسلوب الإرادة خائف مذعور ومزر إلى الحد الأقصى، إن أحد المظاهر الأكثر سلبية لما ذكرت هو قتل الفاعلية والقيم والإنسان في نهاية المطاف وتخفيض حياته وحياة المجتمع إلى القاع، إلى درجة الموت المعنوي.

برأيك كيف يمكن لسورية أن تخرج من أزمتها الديمقراطية بعد الانقلاب على حركة المجتمع المدني؟

إن ذلك يمكن ويمر بالضرورة عبر تفكيك النظام السياسي الشمولي وقيام نظام ديمقراطي ومن أجل ذلك لا بد من تضافر كل الجهود دون استثناء ولأن حجم المخاوف والمصالح والمغانم السلطوية كبير إلى حد مذهل، ولأن الذاكرة التاريخية قريبة العهد لا تزال حاضرة، ولخصوصية البنية الاجتماعية للسلطة والمجتمع بشكل عام فان سياق التفكيك سيكون معقداً وعسيراً وبعيد المدى وبطيئاً إلى حد كبير، ولا شيء يمكنه أن يغير بشكل نوعي من ذلك إلا حدوث تغيرات عميقة مفاجئة ليست منظورة أبداً ولا يمكن التكهن بها منذ الآن ومثل هذه المفاجئات قد تكون رجماً بالغيب أكثر من أي شيء، ولذا من الجوهري وحدة المعارضة الديمقراطية وتمركزها حول الهدف الرئيس الذي هو الديمقراطية، والعمل بأقصى ما يمكن من الموضوعية والعقلانية والمسؤولية وبالقدر الضروري من الإصرار والدأب والروح الكفاحية.

[الشهادة الثامنة]

شهادة العقيد توفيق الطيراوي عن العذاب الذي تعرض له في السجن السوري

هذا توثيق لما يجري للفلسطينيين في السجون السورية

أحمد مطر

إلى كافة منظمات حقوق الإنسان : هذا توثيق لما يجري في السجون السورية !! * شهادة حيّة للعقيد توفيق الطيراوي ، مدير المخابرات العامة في رام الله. د. أحمد أبو مطر ، أوسلو

لا أعتقد أن مايجري في السجون السورية ، وما يرتكب من جرائم ، بحق السجناء الفلسطينيين تحديدا ، يجري واحد من المليار مثله معهم في السجون الإسرائيلية . إن ملف

السجناء الفلسطينيين في سجون النظام البعثي في سورية ، ستظل لعقود قادمة من أبشع الصفحات في تاريخ هذا الحزب الدموي ، فهم منذ عام ١٩٦٥ ، عام إنطلاق المقاومة الفلسطينية بدون رغبة سورية ، كان مجرد الإنتماء إلى المقاومة الفلسطينية تهمة ، الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو الطريق إلى السجن . وكان من أوائل السجناء الفلسطينيين المناضل الفتحاوي المعروف(عبد المجيد الزغموت)، الذي أعتقل عام ١٩٦٦ ، وظل في السجن أربعة وثلاثين عاما ، إلى أن مات في فبراير من عام ٢٠٠٠ ، وقد أرسل آنذاك أبو اللطف ، رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ،في العشرين من فبراير للعام ذاته ، برقية لياسرعرفات ، نعاه فيها قائلا : (أنعي لكم بمزيد من الأسى وفاة المناضل الشهيد عبد المجيد الزغموت ، بعد أن أمضى أربعة وثلاثين عاما في غياهب السجن وجدرانه المغلقة...مضى عبد المجيد رحمه الله يحمل شهادة البراءة ، بعد أن حرره الموت من ظلم الإنسان وقسوته ، بعد أن حرره الموت وأنقذه من حياة السجون).
أما الذين ماتوا في السجون السورية من الفلسطينيين ، فقد رصدت الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان في غزة ، حتى حزيران عام ٢٠٠٠ ، عد د ثمانية وعشرين ، منهم : النقيب أبو الفخر ، أبو رمزي قدورة ، المقدم أحمد أبو عيشة ، الرائد حسام البعلبكي ، الرائد علي فتحي كريمة ، الدكتور محي الدين الأسطل ، الرائد نبهان الشيخ ، و علي يوسف زعيتر . (وقائمة الأسماء كاملة وبرقية أبو اللطف منشورتان في العد الخامس والسادس من مجلة (النشرة) ، حزيران ٢٠٠٢ ، الصادرة عن الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان . وفي العدد نفسه رصدت الجمعية الفلسطينية ونشرت أسماء أربعمائة وأربع وتسعين سجينا فلسطينيا ، كانوا في السجون السورية ذلك التاريخ ، ونشرت أمام كل سجين ، تاريخ سجنه وعمره ومسقط رأسه وعنوان وهاتف أسرته ، للاتصال بها إن تجمعت معلومات لدى أي مصدر .

شهادة العقيد توفيق الطيراوي عن العذاب الذي تعرض له في السجن السوري

إلى كافة منظمات حقوق الإنسان في العالم...إلى كل ضمير إنساني..إلى العدد القليل جدا ممن يدافعون عن النظام البعثي المجرم في سورية...إقرأوا شهادة العقيد الطيراوي ، وحكّموا ضمائركم إن كانت ما تزال حيّة تنبض ...هل صاحب هذه الشهادة لديه أحقاد شخصية ، أم يروي الموت والعذاب الذي عاشه...والشهادة منشورة حسب رواية العقيد توفيق الطيراوي في نفس العد من مجلة (النشرة) ، الصادرة عن الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان ، التي مقرها في مدينة غزة ....

* العقيد توفيق الطيراوي

من قيادة منطقة بيروت ومن القيادات المؤسسة لإتحاد طلبة فلسطين. إختطفته المخابرات السورية يوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٨٥ من بيروت ، بتهمة الإنتماء لحركة فتح. أفرج عنه يـوم الثاني من نوفمبر لعام ١٩٨٩ ، بعد إعتقال وسجن دام أكثر من أربع سنوات ، قضاها في سجن فرع فلسطين بدمشق ، وقد اصيب من جراء التعذيب بكسور في العمود الفقـري وضـعف في البصر . يحمل شهادة ليسانس في اللغة العربية ، وليسانس فلسفة وعلم إجتماع ، وهم من مواليد الطيرة في فلسطين عام ١٩٤٨ ، متزوج وله ثلاثة أولاد .

يقول توفيق الطيراوي في شهادته عن فترة سجنه في السجون السورية :

(بداية أود القول أن كل ما سأرويه في شهادتي هذه ، لا يعطي إلا صورة موجزة عـن حقيقـة مايعانيه جميع المعتقلين داخل زنازن وأقبية سجون النظام السوري . في تاريخ الثالث والعشرين من يوليو ١٩٨٥ ، إختطفتني المخابرات السورية من بيروت إلى معتقل (عنجر) ، وبقيـت هنـاك أربعة أيام تعرضت خلالها لأقسى أنواع التعذيب والإضطهاد والإهانة ، ثم نقلوني مع العـشرات من المعتقلين الآخرين إلى فرع المخابرات السورية االمعروف ب (فرع فلسطين) رقـم ٢٣٥ في العاصمة السورية دمشق ، وبقيت في سجن هذا الفرع قرابة إحدى عشر شهرا ، في قبو صـغير تحت الدرج ، ويعتبر زنزانة إنفرادية ، بعد ذلك نقلوني إلى مهجع أكبر قليلا من الزنزانة الأولى ، وبقيت فيه حوالي ثلاث سنوات ، ثم قاموا بنقلي إلى مهجع أكبر ، وبقيت فيه إلى حين خروجـي من المعتقل ، يوم الثاني من نوفمبر عام ١٩٨٩ ، حيث أبعـدوني إلى لبنـان . الـشهور الأولى لإعتقالي التي أمضيتها في زنزانة منفردة ، كانت الأقسى والأصعب خاصة الأشهر الثلاثـة الأولى منها ، هي الأشهر التي يخضع فيها السجين للتحقيق اليومي المكثف على مدار الأربع والعـشرين ساعة ، يتعرض خلالها لأقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي...إضافة إلى ما يعانيه الـسجين داخل الزنزانة (القبر) ، حيث البرد القارص الذي لا يحتمله إنسان في الشتاء ، والحرارة الأشد في الصيف ، ولا يوجد فيها أي متنفس سوى فتحة صغيرة في الأعلى ، والزنزانة خالية من دورة المياه ، وهذا يعني أنه إذا رغبت في قضاء حاجتك في غير الأوقات المسموح لك بالخروج فيهـا ، فما عليك إلا أن تتبول في ملابسك ، وهذا حصل معي أكثر من مرة .

وسائل التعذيب الجسدي

كثيرة هي الطرق و وسائل التعذيب التي يمارسها الجلادون في السجون السورية ضد المعـتقلين ، ولديهم أكثر من ثلاثين طريقة تعذيب ، ولكن سأتحدث فقط عن الطرق التي مورست في تعذيبي شخصيا داخل السجن :

أولا : (الدولاب) ، وهذه الوسيلة يستقبل بها السجين منذ اليوم الأول لوصوله ، ويتم خلالها وضع السجين داخل إطار سيارة ، بحيث يكون غير قادر على الحركة ويصبح ظهره مقوسأ ، وتكون رجليه قريبة من رآسه ، ويبدأ ضرب السجين ب (الكرباج) ، وهو عبارة عن كابل كهربائي مؤلف من عدة أسلاك معدنية ، ويستمر الضرب حتى الإغماء ، ويطال الضرب كل أعضاء الجسم بما فيها الأعضاء الحساسة .

ثانيا : (الفلقة) ، ويتم فيها ربط رجلي السجين ورفغهما إلى أعلى ، ويبدأ الضرب بالكابلات الكهربائية والهراوات ، ويستمر الضرب حتى يفقد السجين وعيه ، وهذه العملية تستعمل أكثر من مرة في اليوم .

ثالثا: الوسيلة التي عذبوني بها كثيرا ، وتكاد تكون الأصعب وهي (الكرسي) ...وهو كرسي خاص مجهز بمفاصل حديدية في منطقة إتصال المسند بالمقعد ، ويربط عليه السجين من القدمين والأكتاف واليدين خلف مسند الكرسي ، حيث تفتح بعد ذلك المفاصل بما لا يتيح للسجين أي شكل من أشكال الحركة ، حيث أية حركة تضغط على العمود الفقري ، وهذا يعني أن أي سجين إذا زاد عليه الضغط لثوان معدودة يمكن أن يؤدي ألى كسر عموده الفقري...وقد تعرض أحد السجناء لكسر في عموده الفقري جراء هذا التعذيب ، وسجين آخر ينتمي إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، أصيبت يديه الإثنتين بالشلل التام جراء تعذيب (الكرسي) ، وهناك وسائل تعذيب أخرى إستعملت ضد سجناء آخرين ، وتضاهي (الكرسي) في وحشيتها ، وهي (البلانكو و السلّم)...بالإضافة إلى وسيلة جديدة إبتكرها الجلادون ، وهي (الدفاية) ، ويقوم خلالها الجلادون بفتح رجلي السجين ، ويأتون بدفاية كهربائية ذات درجة حرارة عالية جدا ، ويقومون بتقريبها من أعضائه الجنسية ، مما يسبب له آلاما لايمكن إحتمالها .

التعذيب النفسي

في الحقيقة ، كان للتعذيب الفسي والمعنوي طوال فترة السجن التأثير الأكبر عليّ وعلى باقي السجناء ، حيث أن التعذيب الجسدي ، كان ينتهي بعد نهاية الآلآم والأوجاع التي كنّا نعاني منها بعد كل عملية تعذيب ، أما التعذيب النفسي ، فكانت آثاره تستمر طوال اليوم والشهر والسنة ، خاصة وأنت لاتعرف أين أنت ، ولماذا أنت في السجن ، وما هو مصيرك وما يمكن أن تتعرض له...والسؤال الأقسى الذي كان يضغط علينا هو : هل أهلك يعرفون عنك شيئا ، حيّا كنت أم ميتا ؟. والتعذيب النفسي كان يأخذ أشكالا مختلفة...على سبيل المثال ، وهذا السؤال وجهوه لي منذاليوم الأول لإعتقالي : ما رأيكم أن توقعوا على بيان تشتمون فيه ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ونفرج عنكم ؟. وقد عرضوا عليّ أيضا أن ألتحق بصفوف المنشقين عن

حركة فتح ، كي يفرجوا عني!!!. أنا شخصيا تعرضت لمساومات عديدة للخروج من السجن مقابل التوقيع على بيان ضد الأخ ياسر عرفات وضد منظمة التحرير أو الإنضمام للمنشقين ، وآخر مرة تعرضت فيها للمساومة من هذا النوع ، كانت أيام حرب المخيمات ، حين أتاني محمود عيس (أبو عيسى) ، وهو أحد قيادات المنشقين إلى السجن ، وقابلته بوجود العقيد (بسام) ، وهو نائب رئيس فرع فلسطين في المخابرات السورية ، وساومني الإثنان على الخروج من السجن شريطة الإنضمام إلى المنشقين...إضافة إلى العديد من السجناء ، كانوا يضغطون عليهم من خلال أقاربهم واهلهم، مثل (عادل الصغير) وكان مصابا بالربو وهو إبن عم (زياد الصغير) أحد المنشقين ، وقد جاءه أحد أقاربه ليقول له : إن إبن عمك سيتدخل للإفراج عنك ، فردّ عليه (عادل) : لن أخرج من السجن عن طريق المنشقين حتى لو بقيت عشر سنوات أخرى في السجن ، وكانوا يهددوننا على الدوام بالإتصال بأهلنا وعائلاتنا للضغط علينا ، أو يمنعون عنا الزيارة التي كانت تتم بالمناسبة .

وأريد أن أذكر قصة تعطي الدليل على فظاعة التعذيب النفسي والمعنوي الذي يمارسه النظام السوري بحق جميع السجناء والمعتقلين . عندما وصلت في اليوم الأول إلى السجن في دمشق ، بادرني أحد المحققين بالقول : إن إسمك ليس (توفيق الطيراوي) ، وإنما (عصام ثابت) ، و بمجرد أن سمعت هذا الإسم ، حتى تملكني الرعب وتبادر لذهني على الفور إسم (أمين ثابت) وهو الجاسوس الإسرائيلي الذي أعدم في سورية ، وكان إسمه الحقيقي (كوهين) . وتبادر إلى ذهني أن (عصام ثابت) هذا ، ربما إرتكب عملا ما ، وستم بالتالي إتهامي بهذا العمل ، وربما قاموا بعد ذلك بتصفيتي جسديا ، ثم عرفت أن هذه أسماء وهمية يطلقونها على بعض السجناء الذين ينوون إنكار وجودهم في السجن اصلا ، حتى لا يطالب بهم أحد ، وأمام هذا الوضع كان لا بد من الإصرار على موقفي مهما كانت التبعات ، فرفضت أمامهم وبشدةهذا الإسم ، وأصريت على أني إسمي هو (توفيق الطيراوي) ، ورفضوا هم ذلك ، وأصروا على إنكار إسمي الحقيقي بالتهديد حينا وبالضرب والشائم أحيانا عديدة ، ثم أخذوني إلى شخص آخر مهمته إستلام أغراضي الشخصية التي سرقوها فيما بعد ، وعندما سألني هذا الشخص عن إسمي ، قلت له : (توفيق الطيراوي) ، فقام على الفور بضربي وشتمي قائلا : ياكلب يا إبن الكلب ، إسمك الحقيقي يجب أن تنساه وإياك أن تذكره ، وإن إسمك الآن هو (عصام ثابت) . وقد كان هذا الإسلوب من أقسى اساليب التعذيب النفسي الي يتعرض لها السجناء ، لأنهم لا يعرفون لماذا يطلقون عليهم هذه الأسماء تحديدا ، وما هو المصير الذي ينتظرهم من وراء تغيير أسمائهم !!.

الشيء الآخر الذي كان يسبب لنا ضغطا نفسيا كبيرا ، إنك تكتشف بأنك مسجون ضمن

ظروف لا تفهم عنها شيئا ، خاصة بعد أن إتهموني بأنني كنت وراء وضع متفجرات في سورية ، وهذا غير صحيح ، وبمجرد أن سمعت بهذا الإتهام الباطل حتى تبادر لذهني بأنهم يودون إعدامي ، مما جعل ظروفي النفسية صعبة للغاية . ومن ضمن وسائل التعذيب الأخرى ، نظام (الرهائن) ، حيث يتم إعتقال زوجة أو شقيقة أو والدة أو والد أو شقيق أو إبن أحد المطلوبين الذين لم يتمكنوا من إعتقالهم ، ويستمر إعتقال هؤلاء حتى يسلم المطلوب نفسه ، وعلى سبيل المثال تمكن سجين من الهروب من السجن ، فقاموا على الفور بإعتقال زوجته وضربوها حتى أجهضت ، ورفضوا الإفراج عنها إلى أن سلّم السجين الهارب نفسه...في الحقيقة إن المعاملة السيئة التي تعرضنا لها ، وما يزال باقي السجناء يتعرضون لها ، لا يمكن وصفها ، حيث كان الواحد منّا يشعر بأنه (إسرائيلي) مسجون عند النظام السوري .

النساء السجينات

يوجد في السجن العشرات من السجينات الفلسطينيات واللبنانيات والسوريات ، ممن أعتقلن من لبنان وسوريا ، والعديد منهن أعتقلن مع أطفالهن ممن تتراوح أعمارهم بين السنتين والأربعة سنوات...وكنّا نسمع دائما أصوات بعض النساء وهن يصرخن في وجوه السجانين ، قائلات لهم : (نريد حليبا وماءا لأطفالنا) . وقد تعرضت أولئك النسوة للتعذيب الجسدي والنفسي ، و أيضا كان العديد من النساء اللواتي أعتقلن مع أزواجهن مثل زوجة الأخ (عطية) ، وهو عضو لجنة منطقة في مخيم شاتيلا (ما يزال معتقلا حتى الآن) ، وبقيت زوجته معتقلة أكثر من عام ، وزوجة المحامي (ياسين) بقيت في السجن أكثر من عام ، وكان هناك إمرأة مسنّة إسمها (أم عصام) ، بقيت معتقلة مع ولديها الإثنين ، وما يزالا في السجن...وهماك ثلاثة فتيات فلسطينيات ، أفرجوا عنهن ، وتم تسليمهن للمنشقين الذين وضعوهن في السجن لأكثر من ثلاثة شهور، بعد أن رفضن التوقيع على بيان التعاون والعنل معهم .

العدد الحقيقي للمعتقلين الفلسطينيين في سجون النظام السوري

في الحقيقة ، إن العدد الحقيقي للمعتقلين الفلسطينيين في سجون النظام السوري ، يتعدى الستة آلاف ، ولكنني لا أستطيع أن أعطي رقما دقيقا لعدد السجناء للأسباب التالية :

أولا : هناك مابين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ سجين مفقودين ، لا يعرف عن مصيرهم شيئا.

ثانيا : توجد أماكن عديدة للإعتقال والسجن ممنوع عنها الزيارة ، وبالتالي من الصعوبة معرفة عدد المعتقلين داخلها .

ثالثا : العدد الكبير للسجون وأماكن الإعتقال .

رابعا : صعوبة الإتصال مع غالبية السجون والمعتقلات .

لهذه الأسباب ، لا أستطيع أن أعطي رقما دقيقا عن عدد المعتقلين الفلسطينيين في سجون النظام السوري ، وعلى سبيل المثال ، فإن ما يسمى (سجن فرع فلسطين) الذي كنت مسجونا فيه ، وصل عدد السجناء الفلسطينيين فيه إلى أكثر من ١٠٠٠ سجين ، في الوقت الذي لا يتسع فيه لأكثر من ٥٠٠ سجين .

في الختام ، وأنا أضع شهادتي هذه بين أيديكم ، أرجو من جميع الهيئات والمؤسسات والمنظمات العربية والدولية المهتمو والمدافعة عن حقوق الإنسان ، أن تضاعف جهودها من أجل الإفراج عن جميع المعتقلين في سجون النظام السوري : فلسطينيين ولبنانيين وعربا آخرين .)

هذه هي شهادة العقيد توفيق الطيراوي ، مدير المخابرات الفلسطينية العامة في رام الله ، عن عذاباته في سجون البعث السوري ، وبعد كل هذه الجرائم المرتكبة في سجون هذا النظام ، هل يبقى هناك من يقول (فضّ الله فوه) ، بأننا نتحامل على (النظام الوطني العروبي البعثي الصامد الذي يعد العدة لتحرير الجولان والإسكندرونة) ؟. لا مصلحة لي في التحامل على أي نظام عربي ...هذه هي الحقائق على لسان من عاشوها...وعندما نتحول ككتاب عرب لصف شعوبنا المضطهدة المظلومة ، ونكفّ عن مهنة خدمة المستبدين والديكتاتوريين والدفاع عنهم ، نسهم عندئذ في تحرر شعوبنا من هؤلاء الطغاة !!!.

[الشهادة التاسعة]

في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي

بقلم: خالد فاضل

المقدمة

- ١ -

- لماذا هذا الكتاب المخيف؟

قال بعض الناس: إنه كتاب مخيف رعيب، بعد أن سمعوه يذاع على حلقات من صوت المجاهدين (إذاعة التحالف الوطني لتحرير سورية).. وسمعنا لقولهم واحترمنا رأيهم، ومع ذلك أذعناه في مائة حلقة وحلقة، وها نحن أولاء نصدره في كتاب.

- لماذا؟

- حتى يعلم الناس كل الناس، يساريهم ويمينهم، عربيّهم وأعجميهم، أبيضهم وأسودهم.. المتعاملون مع أسد ونظامه، والساخطون على أسد وسياسته الطائفية.. حتى يعلم كل هؤلاء، أي نظام ملعون هذا النظام الأسدي الذي رمانا به الصهاينة وأعداء هذه الأمة، ليعزلوا الشعب

السوري وجيشه الأبي عن معركة تحرير فلسطين الأسيرة، وليخضدوا شوكة هذا الشعب وهـذا الجيش، فهما كانا مصدر قلق وتوجس من قبل دهاقنة بني صهيون، ولم يستطع الاستعمار وظلمه وسياساته المتفاوتة في الشدة، أن يفعلوا شيئاً تجاه هذا الشعب، ولاتجاه الجيش السوري المنبثق من هذا الشعب..

وحتى يعلم سائر العرب والمسلمين ما يلاقي أبناؤهم العرب المسلمون السوريون من ألوان القهر والاضطهاد حتى الموت في سجون ابن الأفاعي حافظ أسد... فلعل اطلاعهم هذا يحفزهم علـى الثورة بهذا النظام، أو لعله يحفز هممهم لمساعدة الشعب السوري الذي طالما قدّم لهم المـساعدات في أيام المحن التي مروا بها، لعلهم يقدّمون شيئاً ذا بال لهذا الشعب المنكوب بأسد ونظامه الطائفي الأجير، يخفف عنه بعض بلواه، ويعينه على التخلص من ظالمة الجزار حافظ أسد.. ولعله يـشير نخوة الرجال فينهضوا لتخليص هؤلاء المعتقلين الأسرى من براثن هذا العقور الذي أطلقوا عليـه اسم: حافظ أسد..

كما أن إخواننا المعتقلين في سجن تدمر، كان يوصي بعضهم بعضاً بأن ينقل المحكومين بالبراءة ما يجري لهم في سجن تدمر، في حال الإفراج عنهم، ومن يتمكن من تسريب بعض المعلومات عـن الجرائم التي ترتكب بحقهم في سجن تدمر، فليفعل، وقد أذن الله بالإفراج عن الأخ صاحب هذا الذكريات، وهو لا يزال يذكر وصية إخوانه المعتقلين له، بأن يعمل على فضح هـذه المخـازي والجرائم، في سائر الأماكن التي يمكنه الوصول إليها، وبشتى الطرائق والأساليب، حتى غدت تلك الوصية هماً يومياً طالما عانى منه الأخ صاحب هذه الذكريات، إلى أن يأذن الله بنشرها وإخراجها إلى الناس، بعد أن شرح صدورنا لنشرها.

نحن كنا نعلم مدى الحزن الذي ستخلفه كل حلقة مذاعة في نفس سامعها، ولكننا كنا نعلم أيضاً التأثير الإيجابي الذي سيكون لهذا الحلقات على الساحة السورية خاصة، وعلى الساحة العربيـة عامة.. فقد قامت كوكبة كريمة من سيدات حمص -على أثر سماعهن البعض هـذه الحلقـات- بالتظاهر أمام مبنى المحافظة، وطفن في شوارع حمص، ووقفن طـويلاً أمـام مبـاني المخـابرات العسكرية، والعامة والشعبة السياسية، وطالبن بأزواجهن وأبنائهن وأخواتهن وآبائهن وإخـوانهن المعتقلين والمعتقلات منذ بضع سنين.. ثم تلتها مظاهرة نسائية أخرى في دمشق.

ثم ذهبت كوكبة من نسوة حمص الحرائر إلى دمشق، لمقابلة الشيطان الأكبر حافظ أسـد الـذي رفض استقبالهن، وأرسل أزلامه مهددين متوعدين، وقد تمكنوا من (الانتصار) الساحق على هؤلاء الحرائر، فشتتوا شملهن، وأعادوهن حزينات مهزومات إلى حمص..

فليهنأ الجيش الفخور بنصره وبكسر هنه..

إننا بإصدار هذه الذكريات عن سجن الموت في تدمر، ونقل معاناة أولئك الأحرار الأسرى، نريد أن نشهد العالم أجمع، نريد أن نشهد الدنيا بأسرها، على جرائم هذا الملعون ابن الأفاعي، لعل الحسّ الإنساني يتحرك فيهم، فيبادروا إلى فعل حاسم يجتث هذا السرطان من جسم أمة العرب، لينقذوا العرب والمسلمين من خبائثه وجرائمه..

وقد توخينا تقديم هذه الذكريات بهذا الأسلوب العفوي البعيد عن التزويق والتشذيب، لأننا رأيناه ينبثق من أعماق القلب، ليقع في قلب من يصل إليه، وإن كان ما يحزننا أننا حذفنا بعض مناجياته على الرغم من عفويتها ورقتها ونعومتها وتأثيرها لاعتبارات لا مجال لذكرها الآن.

- ٢ -

ولعل قارئ هذه الذكريات المحزنة المؤلمة، الذكريات التي تجعل نفس قارئها تطفح بالرعب.. لعله يلاحظ معنا عدداً كبيراً من المعاني الإسلامية والإنسانية والتنظيمية نذكر منها:

١ - إن الأمل لم يفارق هؤلاء الأحبة حتى وهم يعانون أقسى أنواع التعذيب، ويعيشون أحلك اللحظات، فقد كان الأمل لديهم ينبثق من بين أسداف الظلم والظلام، وإذا هم شاكرون حامدون، وصابرون محتسبون، يملأ الإيمان قلوبهم، وينير أبصارهم وبصائرهم، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير.. إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له..

كان لجوؤهم إلى الله الملجيء المنجي، هو الذي يجعلهم في هذا الصفاء العجيب.. يسحقون وتسحق معهم أجسامهم وإنسانيتهم، وهم في حالة عروج روحاني عجيب، تصحب حالة السحق والطحن.

٢ - وقد نتج عن ذلك ثبات الفتية الشباب كثبات قاسيون، ورجولة بزت رجولة الفحول، إلى جانب التقوى الحقيقية والإيثار الذي علّم الكبار.. إنهم فتية آمنوا بربهم، وارتضوا أن يكونوا جيلاً استشهادياً فريداً.. وأنا أذكر الفتية الأشبال، لأن الشيوخ لا تستغرب منهم هذه المواقف التي تمليها عليهم تجاربهم الطويلة وثقافتهم الشرعية، وعبادتهم الخالصة لوجه الله على مدى السنين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لنبين الفوارق الكبيرة بين هؤلاء الفتية المؤمنين، وبين أترابهم وزملائهم، أولئك الذين ما يزالون تائهين في دروب المراهقة، يلاحقون الفتيات ويمضون أعمارهم، في الخزعبلات والترهات..

كنا ذات يوم في السجن المركزي الكبير في حلب... كان في مهجعنا رقم (١) حوالي خمسين أخاً معتقلاً، وكان من بينهم فتى مهذب، وكلهم..

كل الفتيان كانوا مهذبين، اسمه فهد تاج الدين من حلب.. شاب في عمر الورود، لم يتجاوز ربيعه السادس عشر، تقي نقي ذكي، لحني أقف على (البلاط) أرض المهجع، أكلم أحد السجانين، وإذا هو (فهد) يسرع بجلب بطانيته ليمدها تحت قدمي كيلا أتأثر بالبرد في الدقائق التي أحدث فيها ذلك السجان..

أعجب السجان أيما إعجاب بفعل الفتى فهد تاج الدين وقال: اطمئن يا أستاذ، المستقبل لكم، وسوف تحكمون العالم، ما دام عندكم أمثال هؤلاء الشباب..

وكانت هذه الحادثة أحد الأسباب في هداية ذلك السجان... أذكر أن الشهيد وليد حماد -رحمه الله تعالى- دخل السجن وهو بريء لا علاقة له بالجماعة.. اعتقل لقرابته من الأخ الحبيب النقيب إبراهيم اليوسف -تغمده الله، وسائر إخواننا الشهداء بفيض رحمته ورضوانه-.. وقد ثبت لدى المحققين والجلادين هذا عن وليد.

وكان يوم حاول أحد السجانين الاعتداء على أحد الأخوة المعتقلين في السجن المركزي بحلب، فضج الإخوان، وكانت أيامنا أيام عز، وقد كان إخواننا المجاهدون يصلون أسداً وأزلامه نيراناً حامية.

فما كان من عناصر المخابرات إلا أن يشتطوا على إخواننا، فتصدى لهم وليد، فأخرجوه من المهجع ليعذبوه، فهاجمهم وليد -وكان قويّ البنية، مفتول العضلات- وتمكن من صرع ثمانية سجانين.. واستنفرت أجهزة المخابرات، وهاجمت السجن عدة سيارات محملة بالعناصر، واستاقوا الأخ البطل وليداً إلى فرع المخابرات العسكرية بحلب..

وفي فرع المخابرات العسكرية هذا قال له رئيسها آنذاك، العقيد عدنان رام حمداني: يا وليد.. ألم تقل لنا: أنك لا علاقة لك بالإخوان؟

فأجابه وليد بحزم: صحيح قلت لكم هذا، ولكني أدعوك إلى الذهاب إلى السجن، والعيش مع الإخوان مدة أسبوع فقط، وسوف ترى نفسك أنك صرت (خلق) أي صرت إنساناً مسلماً مهذباً لا كما أنت الآن.

وابتلعها العقيد وخرس، ثم أعاده إلى السجن المركزي وقد حقق انتصاراً على السجانين، وانتصاراً على رئيس المخابرات العسكرية بحلب، وانتصاراً على نفسه وانتصاراً لإخوانه على الظالمين، إذ حفظ لهم هيبتهم وكرامتهم..

وكان من نتيجة ذلك، أن أخلوا سبيل وليد وأفرجوا عنه، قبل أن يتأثر بشباب الإخوان وبفكرهم... ولكنه خيّب ظنهم، فقد خرج من السجن إلى العمل المسلح، ولقد شاهدته بعد خروجه وخروجي من السجن، وإذا هو شاب مرهق، وقد خفّ وزنه وشحب لونه، وعندما

سألته أمام الأخ النقيب عن سبب هذا الضعف وهذا الشحوب أجابني النقيب: انظر إلى كفيـــه.. إنه يقاتل في الليل، ويبني القواعد في النهار.. ثم ما لبث أن استشهد في القاعدة التي داهمتها مئات العناصر الأسدية فقتل منها وليد مقتلة عظيمة..

مما يلفت نظر القارئ هذا الجيل الاستشهادي الفريد من أشبال الإخوان المسلمين، فقـــد طلّقـــوا دنياهم طلاقاً بائناً، وأقبلوا على آخرتهم مخلصين منيبين، فكانوا نماذج حيّة للـــشبان الناشـــئين في طاعة الله المقبلين على جنته، ليكونوا من الذين يظلهم عرش الرحمن بظله يوم لا ظل إلا ظلّه.

٣ - ولعل ظاهرة الإيثار الذي تميز به الشباب، من أقوى الإيجابيات في حيـــاة هـــؤلاء الأحبـــة الأسرى.. فأي إيثار أعظم من هذا الإيثار؟.. أن يتقدم الفتية الشباب ليكونوا في الصفوف الأولى التي تتلقى أعنف الضربات، وأقسى ألوان التعذيب على أيدي جلاوزة أسد، بينما يبعدون المرضى والعاجزين والكهول والشيوخ إلى الصفوف الخلفية، كيلا تنالهم الصدمة الأولى مـــن التعـــذيب الوحشي..

يا حسرة عليكم أيها الشباب.. فما أمسّ حاجة الدعوة إليكم وإلى أمثـــالكم في هـــذه الأيـــام العصيبة.

ترى.. أي عقوبة تلكم التي ستترل بهؤلاء الجلادين الذين فعلوا الأفاعيل بأولئك الأحبة؟..

اللهم أي لا أكاد أتصور عقوبة تشفي منهم الغليل..

اللهم مكنّا من هؤلاء الوحوش الأنذال، لنثأر منهم لدينك ولجندك ولنشفي بثأرنا صـــدور قـــوم مؤمنين...

- ٣ -

يا شباب.. هؤلاء هم إخوانكم الذين سبقوكم إلى الجنة.. هؤلاء هم.. محمود ورامز وهمام وعبد الله وعصام ووائل وفهد.. ادرسوا حياتهم جيداً، ثم اتخذوهم قدوة لكم، وسيروا على نهجهـــم، لتفوزوا في الدنيا والآخرة.. ودعوا السفلة ودعاة الفتنة والمزايدين في أسفاف.. دعـــوا رافعـــي الرايات البيض والمنبطحين والمستسلمين والمستفيدين من هذه الثورة، المثيرين على حسابها كمـــا أثرى عملاء أسد... دعوا هؤلاء فهؤلاء ليسوا منكم ولستم منهم... إنهم عمل غـــير صـــالح... هؤلاء ليسوا قدوتكم، ولا يستأهلون أن تنظروا إليهم إلا نظرات الإشفاق الحزين، ولا تـــشغلوا أنفسكم بهم.. لأنهم تافهون.. تافهون.. تافهون..

- ٤ -

يا هووووو..

ترى أي ثأر سيكون الثأر لأولئك الأطهار...؟

إن الآفاق ينبغي أن تصبغ بالحمرة القانية..

وعلى كل مجاهد أن يضع على عينيه نظارة حمراء، يرى مستقبل أولئك الأشرار الأسديين من خلالها..

وليكن شعاركم أيها المجاهدون:

ليقتل كلّ منكم أسدياً واحداً على أقل تقدير..

والموت والعار للجبناء والمستسلمين..

فالثأر الثأر لتدمر الحمراء..

ولن تطفى الحرائق في قلوبنا وأعصابنا إلا أنهار الدم تجري عبر الزمان..

فلنثأر نحن..

ولنربّ أولادنا وحفدتنا على الثأر..

فليس للعقرب حافظ أسد إلا الحذاء...

ولا يفهم غير لغة الحذاء الذي سندوسه به..

وليس لنا من مادة نتعامل بها مع تلك الوحوش الجبلية إلا الثأر والنار..

فانتظرونا أيها الجلادون مصيركم المحتوم..

فإننا منتظرون..

انتظر يا فيصل ويا سليمان ويا فواز ويا شعبان ويا ديوب..

هيه صواعق السماء..

هيه براكين الأرض..

تفجري حمماً، وطهري الأرض من هؤلاء الأوباش..

يا ثارات الله تحفزي..

يا استغاثات الأعراض استوفزي..

يا لوعات المنكوبين في سجن الموت قد جئناك..

ويا أعداء الله والإنسانية قد جئناكم بالذبح، فمدّوا الرقاب..

ويا شعراء العالم اقرؤوا سطوراً منه همجية هذه الوحوش الجبلية في سجن تدمر..

يا فناني العالم اقرؤوا قصة المأساة..

ثم خلّدوا إقدام هؤلاء الشباب..

خلّدوا هؤلاء الشباب الشهداء الأطهار..

واجعل اللهم دماءهم ناراً تلظى، تحرق الظالمين، وتنير الطريق للمجاهدين ولسائر المسلمين.. اللهم احصهم أسداً وقبيله وعبيده وأزلامه وأركان نظامه.. اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا.. اللهم اجعل قتلهم على أيدينا وبأيدنا يا منتقم يا جبار.. وسلام عليكم إخوة الجهاد في الخالدين.

١٩٨٥/٨/٢٥

"أسرة النذير"

في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي

توطئة

أخي القارئ الكريم.

قد يكون هذا الجهد قاصراً، وهذا العمل ناقصاً، والخبر غير مكتمل فالكمال لله وحده، والعذر أمام الله وأمامك، وأن أخاكم قد بذل جهده، وسعى طاقته، وإن لم يمكنه أن يحصي في هذا العمل كل هذه الأحداث، فقد ذكر جلها، وفي هذا غناء لمن وعى، أن يتذكر أولو الألباب.

أخي القارئ الكريم يمكنك أن تقول: إن هذه الصفحات إنما هي عصارة روح آضها ظلم فادح، ونزل بها بغي فاجر، وأحاطت بها محن وأهوال ومهالك بك ما في تلك الكلمات من معانٍ، وهكذا فإن صاحبها عاجز عن نقل كل ما عاناه وعاشه هو وزملاؤه المعتقلون من صنوف البلاء، ولكنه يرغب من صميم قلبه أن ينقل إلى الملأ كل ذي بصر وبصيرة، وإلى كل ذي همة ومروءة وشهامة، خبر ما عاناه وما عاينه في تلك الفترة، ما بين آب ١٩٨٠ وتموز ١٩٨٢ من أحداث رهيبة، وإنه يقول ويعلن بكل أسى وحرقة، أن هذه الأوضاع والأحداث الرهيبة مستمرة، بل إن وتيرة المكابدة في ازدياد.. فلئن كان نزلاء السجن سجن الموت تدمر في أواخر عام ١٩٨٢ ستة آلاف معتقل، فانهم الآن يجاوزون التسعة آلاف، سوى من هلك خلال ذلك الوقت.. ولئن كانت أحوال المعتقلين في سجن الموت في تدمر مؤسية منذ أول يوم وجدوا فيه، من جميع النواحي المعيشية والصحية، وخطيرة جداً بعد ذلك من النواحي المذكورة، حتى أواخر عام ١٩٨٢ فكيف هي أحوال هذه الألوف المؤلفة من المعتقلين الذين يكدسون أعداداً فوق أعداد؟ فكيف أحوالهم اليوم؟ ولئن كان الجوع يطحنهم والأمراض والتعذيب والإعدامات تفتك بهم في أواخر عام ١٩٨٠ وهم ستة آلاف، فكيف وقد تضاعفت أعدادهم؟ ومن أين لحياتهم المهلكة في سجن الموت أن تسمى حياة؟! إنها قتل بطيء عدا القتل وعدا الإعدامات وعدا الجوع والمرض.

فهل يطيب لذي ضمير أن يهنأ بالطعام والشراب، ويشرب قهوته، وينفث دخان سيجارته في تراخ وكسل، وهو يعلم يقيناً سوء ما يلاقيه إخوان له – في الإنسانية على أقل تقدير.

إنها صرخة أرجو أن لا تذهب في واد.

وإنه استصراخ لأصحاب الضمائر والمروءات.

وإنه نذير للساهين الساردين..

ونذير للممالئين للظالمين..

وإنه هزة للغافلين والمتغافلين..

وإنها صرخة المظلوم في وجه جلاده اللئيم..

ولكنها محنة ستنقضي، وليل سيعقبه – مهما طال – فجر مشرق وضاء، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

وعلى الله قصد السبيل

"خالد فاضل"

خرجت صباح يوم ١٠/٧/١٩٨٠ في السابعة والنصف صباحاً قاصداً مركز عملي في إحدى إدارات الدولة وقد تسحرنا هذا اليوم الأول من شهر رمضان المبارك. لقيت في طريقي بعض الناس فسلمت عليهم من بعيد. كان يوماً عادياً كسائر الأيام. مشاغل كثيرة، أفكار مختلفة، اليوم سوف أنطلق إلى العمل كالعادة، سوف أكون مجداً. يجب أن تثمر الجهود وأن نقدم أكبر خدمة ممكنة لهذا الوطن ونحصل على أفضل النتائج، لن أهاون مع المعطلين. ليكن الأمر جداً، فمصلحة العمل أولاً وأخيراً.

رمضان شهر الخير والبركة، لا بد من إفطار شهي مناسب ومن أنفق ووسع على عياله وسع الله عليه (أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا) من للأرامل واليتامى والمشردين في شهر الخير؟.

أصبح عمل الخير مخيفاً في هذه الأيام...

التقيت البارحة بصديق خرج حديثاً من السجن فهنأته بالسلامة. قال لي: لا تؤاخذني لا أجسر أن أدعوك لزيارتي...

عجيب أمر هذه الدنيا في هذه الأيام، سخرت من هذا الأمر في نفسي. قال الصديق: قد لا تصدق ولكن من جرب عرف...

مالي ولهذا الأمر لا أريد طبعاً أن أجرب. أمامي اليوم عمل كثير. العمل والإنتاج هما الأساس ولأن تكون عاملاً منتجاً فعالاً خير من أن تكون (سياسياً) متحذلقاً ترائي الحكام، ولا تعمل ولا تنتج إلا قليلاً. مررت بالسوق واشتريت بعض المواد ووضعتها في حقيبة الخضار، لا بأس أن ترسل هذه الأشياء إلى البيت ليفرح العيال بإفطار رمضاني شهي. أمر هام ومهمة جليلة أن تربي أطفالاً وتخرج للحياة وللوطن شباباً وأعين ورجالاً منتجين، وعلى خلق حسن أمناء في الفكر

والعمل، مررت بالبقال المواجه للدائرة فقد كان من العادة أن أمر به كل صباح لأشـرب معـه كأساً من الشاي، وهو يلقي بنكاته الساخرة ويضحك بمرارة، ويقسم أن بطن الأرض أصبح خيراً من ظهرها، لم أجده اليوم على خلاف العادة. وضعت حقيبة الأغراض أمام الدكان أمام بصر ابنه الصغير، نظرت إلى باب المحل المجاور.. كان خالياً تماماً، أنا لا أحب تضييع الوقت في الأسـواق، ولكني أجد هنا في الغالب أبا محمد موظف الزراعة وأمين أستاذ التاريخ الذي لا يجد عملاً وعبـد الله صاحب محل النوفوتيه، فقد اعتادوا أن يشربوا كأس شاي سريعة قبل الانطلاق إلى العمـل، وكنت أمر بهم في بعض الأحيان لأسمع أخبارهم الجديدة، عن المظاهرات والتمـشيط والمحـاكم الميدانية وغيرها، فقد كانوا ينفذون إلى دقائق الأمور وهم يحللون كل قضية، غريب أمـر هـذا اليوم.

تحدثت البارحة مع صديق لي معلم في إحدى المدارس قال: أنا خائف من الاعتقال فهؤلاء الحكام طائفيون وأنذال. قلت: ولم تعتقل وأنت بريء لم تفعل شيئاً يخالف القانون؟..

قال: هؤلاء لا يعرفون شيئاً اسمه قانون، ولا يهمهم ما إذا كنت عملت شيئاً مخالفاً أم لم أعمـل.. إنهم يضربون في الناس يميناً وشمالاً، حتى الحزبيون ليسوا في أمان.. بلادنا في محنة، تسلطت عليها هذه الفئة غدراً وقهراً، يأخذون الإنسان هكذا بالشبهة وإلى أن يتحققوا من براءته، يفقد نصف حياته أو كلها..

الاعتقال

وصلت إلى مكان عملي متأخراً بعض الشيء، وجدت على الباب جمعاً من الناس كالعـادة بـل وأكثر، إنهم لا ينتظرونني بل ينتظرون الموظف الكبير وكاتبه الأمير ولا حول ولا قـوة إلا بـالله العلي العظيم، وقام أحدهم إلي، فظننت أنه يريد مجرد استفسار مني، ولكن تـبين لي أن عملـه عندي وشعرت بالحرج والخجل، أتركت إنساناً ذا عمل ينتظرك؟ أيسامحك ربك؟ أسرع فاقض له حاجته وكفاك تعطيلاً له.

أسرعت إلى طاولة العمل، وبينما أنا أمسك بالقلم لأخط بعض الكلمات، اقترب مني زميل وأشار إلى ثلاثة أشخاص جالسين قريباً وقال هامساً: إنهم ينتظرونك. وبدت الوجوه غريبة علي وقـام أحدهم فسلم وسألني: أنت فلان؟

قلت: نعم..

قال: نريدك لخمس دقائق في الدائرة.. ودار سؤال في ذهني قلت: أهلاً وسهلاً، كتبـت شـيئاً، وناولته للرجل وكان آخر عمل، وخرجنا من المكان فإذا سيارة في طريق جـانبي فيهـا رجـال مسلحون. ركبنا السيارة وسارت بنا كانت كل خطوة تبعدني عن أهلي وعن حيـاتي وأولادي

وعملي لأعيش حياة كلها عذاب وقهر وموت، ولأشهد الظلم ليلاً حالك السواد يلف بلادنا الحبيبة، ويطيح بحياة الألوف من أبناء هذا الشعب ليلقيهم جثثاً هامدة مشنوقة بحبال رفيعة على خشبات رهيبة، وتلقيهم في حفر ضخمة في صحراء (تدمر) ويهيل عليهم البلدوزر التراب، وليترك آخرون أشباه بشر يعيشون حياة هي إلى الموت أقرب، ولولا إيمانهم ولولا صبرهم لماتوا قهراً، فالموت أهون بكثير من حياة يوم واحد في (تدمر) الظلم، حتى ليقسم الإنسان البسيط قائلاً: والله لولا أن قتل النفس حرام لما ذقت طعاماً حتى أموت.

كان في الدورية شاب نحيف أسمر تبدو عليه علامات الإشفاق والضيق، وبعد وقفة قصيرة في أحد فروع المخابرات انطلقت بنا السيارة إلى مركز مخابرات المحافظة. كانت السيارة قوية سريعة، وأنا جالس في المقعد الخلفي وبجانبي عنصر مسلح وفي الأمام آخر والسائق. تشجعت وسألت: ما هي القضية التي تريدونني فيها؟

قال الأسمر: لا بسيطة..

قلت: أرجو أن يكون ذلك سريعاً.

قال الأسمر: لا تستعجل..

حرت ماذا أقول.

معتقل أمن الدولة بإدلب

وفي بناء طويل ضخم كأنه مدرسة دخلنا من باب جانبي وسرنا في ممر طويل وأنا لا أكاد أشعر بشيء، وقد أنست إلى الأسمر ولكنه كان يبدو يائساً.. نزلنا درجاً إلى قبو البناء وسلمني هناك إلى رجل في يده رزمة مفاتيح وأوصاه بي قائلاً: دير بالك عليه. ومضى..

وقادني السجان إلى باب أفضى إلى ممر متعرج على جانبيه أبواب، فتح أحدها وأدخلني وقال: خذوا هذا لعندكم.. وأغلق الباب ومضى.. قلت لنفسي: هذا أول الغيث.. زنزانة مظلمة وأبواب حديدية فماذا بعد؟ ولو عرفت لقلت أنه أدهى وأمر. أين أنا من الوظيفة والعمل وتقديم الخدمات للناس والعيال وكيف يعيشون بعدي؟ وعلى الدنيا السلام، وناداني صوت من داخل الزنزانة: تفضل يا أخ. نظرت فإذا أناس جالسون وخجلت من نفسي، فألقيت عليهم السلام. كان قلبي يهفو إلى خارج هذا المكان فكيف أدخل؟ وأعادوا الكلام: تفضل يا أخ. هل أقول لهم أنا مستعجل؟ أنا مشغول؟ ورائي عمل أريد أن أعود، وهل ذلك بيدي؟ فماذا أعمل يا رب؟

ولكن.. يبدو أنه لابد من الجلوس. نزعت حذائي وجلست في طرف الغرفة كضيف خجول، فشددوا الطلب: تفضل إلى هنا. قلت لنفسي: يبدو أني حللت بين قوم كرام فليس من المناسب أن أخرج دفين قلبي فأزعجهم، ولكن لسان الحال كان ينبئ عما في الأعماق.

التحقيق والتثبيت

مضى الوقت وألفت الجلوس والنظر إلى الجدران الكالحة، ولكن شوقي إلى رؤية السماء كان حاراً، وألمي من الباب المغلق كان مراً. حلّ المساء وكانت أيام رمضان شهر الخير الذي طالما أمضيناه في حال من السرور حيث نجتمع على مائدة الإفطار الشهية بانتظار مدفع الإفطار، ونغرف للجيران حتى لا نؤذيهم بقتار قدورنا ويغرفون لنا فيكون خير على خير، وكانت مائدتنا اليوم عامرة بالنسبة لوضعنا حيث كنا نتوقع أن لا نجد ما نأكله فإذا بالمائدة وقد حوت ما يسد الرمق ويذهب ألم الجوع، فالحمد لله رب العالمين.

في هذا المعتقل (معتقل أمن الدولة) الذي هو قبو أرضي في بناء كان مخصصاً لمدرسة، كان هناك حوالي ثماني زنازين فيها حوالي ثلاثين معتقلاً، وسنحت فرصة في المساء حينما سمح لنا بالخروج إلى الدورة واحداً بعد واحد، وبمساعدة من الأخوة كلمت بعض من أعرفهم في الزنزانة المجاورة وخاصة "أبو بلال" وعلمت شيئاً عن سبب اعتقالي قال لي أبو بلال بالحرف الواحد: أنا حكيت عليك تحت التعذيب.. دبّر حالك.

قلت: كيف أدبر حالي يا أبا بلال؟

قال: لا أعرف.

قلت: ماذا قلت عني؟

قال: قلت سمعت أحد الأشخاص يقول عنك: ماشي حالو.

قلت: يعني؟ ماذا تعني بماشي حالو؟

قال: متعاطف أو شيء من هذا القبيل.

قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

طلبت في العاشرة ليلاً للتحقيق.. شجعني الأخوة قائلين:

توكل على الله.. قل لهم: مالي علاقة بأحد، علاقتي بالناس طيبة، لست ضد الوضع.

فتح السجان الباب وأمرني بالخروج واقتادني إلى غرفة جانبية وجاء بمنديل أسود فعصب به عيني جيداً واقتادني إلى ممر ثم دخل بي إلى قبو التحقيق وأوقفني فيه. شعرت أني أقف أمام إنسان ما، فألقيت السلام فلم يعجبه ذلك فقام إلي وانهال عليّ ضرباً فوجئت بهذه الهجمة المنكرة، وصدمت رغم أني كنت أتوقع ذلك وأكثر منه، ولم أكن أتصور كيف.. ثم أمرني أن أحدثه عن تنظيم الأخوان المسلمين بالتفصيل.

قلت: لا أعرف عنهم شيئاً.

قال: يا إما تحكي بالطيب وإلا والله بسلخك؟ احكي مين اللي نظمك؟..

قلت: أنا لست منظماً يا أستاذ. أنا موظف بسيط من بيتي لعملي وهذه هي حكايتي فعلاً وبكـــل صراحة.

قال: احكي مين اللي نظمك في الأخوان المسلمين؟ مين تعرف منهم وبدك تحكي كل شيء.. نحن نعرف كل شيء عنك لكن بدنا أنت تحكي..

قلت: صحيح.. أنتم تعرفون كل شيء وأنا لا أعرف شيئاً، أنا أقول الصدق ولا أكذب عليـــك. أنا لا أعرف شيئاً عن الأخوان المسلمين ولا بعمري التقيت بواحد منهم هذا هو الصدق.

قال: أنت ما بتفهم بالمعروف ولك..؟

واندفع يصفعني ويضربني وهجم عليّ شخص آخر وألقاني أرضـــاً ووضـــع رجلـــي في دولاب، وأدخل رأسي فيه فجمع رأسي إلى رجلي (يا رب ماذا فعلت)؟

صرخت: والله قلت الصدق..

فصرخ: كذاب ولك..

وانهالوا عليّ ضرباً بالخيزرانة على رجلي وعلى ظهري وجانبي، بدأت أشعر بألم في جسمي كله، وكأنه يكوى بالنار، وأن هذه النار تضرب في العظم وصرت أتأوه وأصرخ:

يا أستاذ يا سيد أنا بريء. أنا مالي علاقة بأحد اسأل عني..

فصرخ فيّ: كذاب ولك.. بدك تحكي غصباً عنك..

وصرخت رغماً عني. كان الألم رهيباً فارتفع صوتي بالصراخ والتأوه.. ودارت الخيزرانات تأكل من جسمي من الرجلين والجانبين والظهر ومن كل مكان، وأنا أستغيث ولا مغيث ثم وقفوا بعـــد أن تعبوا وكلوا.

ونهرني قائلاً: بتحكي ولك..؟

قلت: نعم بحكي ايش بتريدوا؟..

قال: هات لنشوف مين اللي نظمك وإيش بتعرف عن الأخوان المسلمون؟

قلت: والله ما بعرف شيء عن الأخوان.

فصرّ على أسنانه وقال: ما بتعرف يا... خود..

وعاد الفلم من أوله، وتوالت الضربات على رجلي كأنها النـــار تكـــوي العظـــام، وتنـــاولتني الخيزرانات تلدغ بسمها جميع بدني كأنها الأفاعي تنهش من لحمي وعدت أصرخ:

- دخيل الله يا الله أنا بريء.. أنا بريء..

وكأنهم حموا أكثر فكأن كلامي الزيت يلقى على النار فغبت عن الوجود.. وهدأت حمى عـــذابهم وعادوا إلى المحاورة:

- بتحكي ولك؟

قلت: نعم بحكي دخيلكم. أنا رب عائلة وأطفال صغار، ما عندكم أطفال، إيش بتريدوا مني؟

قال: مين اللي نظمك؟ ماذا تعرف عن الأخوان المسلمون؟

قلت: والله يا ناس ما بعرف شيء والله ما بعرف.. انتو بتعرفوا..

وعادت الخيزرانات تلعلع وتأكل من رجلي وجسمي وعدت أصرخ وقد جفّ حلقي وضعف صوتي وقال أحدهم:

- الكهرباء..

ووقف الضرب وجاؤوا بسلكين فربطوا كل واحد منهما بإصبع من إحدى رجلي وقالوا:

- بتحكي ولك وإلا منشويك بالكهرباء مثل العصفور؟...

فصرخت: يا سيدي والله حكيت وبحكي إيش بتريدوا..

وسرت الكهرباء في الأسلاك وكأنما هي العقارب تدب وتلسع في رجلي ثم اشتدت فأخذت جسمي رجفة شديدة والنار تسري في دمي وعظامي وتأخذ بقلبي تريد أن تخنقه وتقتله وصرت أصرخ ملء فمي بلا شعور وأنتفض كالمذبوح وكأن جسمي أصابه مسّ شيطاني، وكأنما ركب في رجلي زنبرك كما في لعب الأطفال، فهي تتحرك آلياً في انتفاضة مستمرة والنار تسري في دمي وجسمي حتى كللت ووقفت النار.

وصرخت بصوت ضعيف: والله بحكي يا سيدي بحكي..

فصرخ المحقق منتصراً: مين اللي نظمك وإيش بتعرف عن الأخوان المسلمين؟

قلت بألم: والله ما حدا نظمني يا ناس لا أعرف الأخوان، كل عمري ما شفت شخص من الأخوان المسلمين من أين أعرفهم ما حدا قال لي أنا من الأخوان.

وعادت النار تسري في جسمي ويغلي بها دمي، وأصبح صراخي ضعيفاً وصوتي لهاثاً لا يكاد يسمع وجسمي ينتفض كريشة تضربها رياح عاصفة من كل مكان، ووقفت النار وعادت المحاورة القاتلة ولا أدري كيف مرت ساعتان من حياتي كأنهما الدهر، وأخرجوني من غرفة التحقيق إلى الممر ثم إلى الغرفة الجانبية، ونزع السجان العصابة عن عيني وأعادني إلى الزنزانة وأنا أستند إلى الجدران وأجر نفسي جراً، وتلقاني الأخوة يواسونني ويهونون عليّ وقال أخ مهندس: شد حيلك هي ساعة وتزول..

وسألني آخر: هل تورطت في الكلام؟ وأشرت برأسي كالذي يناطح الصخر:لا.. وكانت الدموع تسيل من عيني ورجلاي متورمتان مشققتان، وساقاي مجروحتان في عدة مواضع. أردت أن أضطجع فما استطعت. كان جسمي يؤلمني أشد الألم، وجالت في نفسي خواطر، ما أحلى أن

يصاب الإنسان في سبيل مبدأ سام شريف، تذكرت أنا كنا منذ فترة نسعى لبناء جامع في حينا، وشاركت مع عدد من أهل الحي في العمل بهذا المشروع، وكان هناك الحاج معروف صاحب أرض البناء الذي تبرع بالأرض كلها والتاجر يونس الذي دفع مبلغاً كبيراً والبناء أبو خالد يشارك باستمرار في العمل والإشراف. وكنت أساعده.. وزلقت رجلي يوماً فوقعت وكشطت ركبتي وتألمت كثيراً ولكن هون علي ذلك أن هذا في سبيل الله واليوم يصيبني هذا العذاب: لَمَ يارب؟ إن لم أكن من تنظيم الأخوان فأنا مسلم وأنت يا ربي كريم، فإني أرجو أن تكون هذه الآلام في سبيلك، وأنها لظلم واقع بي من هؤلاء الطاغين، وأنت يا ربي لا تحب الظلم ولا يضيع عندك شيء.. اللهم انتقم منهم.

أبو اصطيف

كان دور المحقق يبدأ في العاشرة صباحاً ويستمر إلى الثانية بعد الظهر، ومن التاسعة ليلاً حتى آخر الليل. وكان لي في كل يوم جلسة تحقيق في الصباح وأخرى في المساء، وينشغلون عني بعض الأحيان، ويعيدون في كل مرة (فلم) العذاب بأكمله قاسياً مريراً رعيباً، وكانوا يطلبون مني أن أكتب لهم في كل مرة اعترافاتي ولا يعجبهم ما أكتب، فيضربونني عليه أشد الضرب.

فتح السجان باب الممر قبل الظهر وأدخل شخصاً فأوقفه في الممر وتركه ومضى.

قام أحد الأخوان فاسترق النظر من النافذة الصغيرة ثم قال: قادم جديد.. قمت استرق النظر وهالني ما رأيت يا الله.. إنه أبو اصطيف، كان يقف في طرف الممر يلبس بدلة رصاصية اللون مكوية، وكأنه جاء ليتفقد أحوال المعتقل، ناديته: أبو اصطيف. السلام عليكم..

أجاب: وعليكم السلام.

قلت: خيراً إن شاء الله يا أبو اصطيف؟

كان سؤالاً حائراً، وأقول في نفسي: وهل يحتاج الأمر إلى سؤال؟ ولكني لم أكن أصدق ما أرى.. ما جريرة هذا الإنسان الطيب الأديب الذي ما عرف حتى الكلمة الجارحة ولا اللفظة النابية كله أدب وأخلاق كريمة وعمل ونشاط دؤوب واستقامة.

وأجاب أبو اصطيف: لا ما في شيء سؤال وجواب خمس دقائق.

وكان عازفاً عن الكلام.. وكأنه مشغول أو مستعجل (نفس الحالة التي مررت بها) وكدت أصدق أنه كذلك (سؤال وجواب) خمس دقائق.. حتى لقد هممت أن أحمله سلامات للأهل.. وجاء السجان وأدخل أبا اصطيف الزنزانة المجاورة واستفهم أحدهم عن أبي اصطيف وأمره فقلت حائراً: يقول سؤال وجواب خمس دقائق فقط. فقال أحدهم: نعم إلى يوم يبعثون.

الطائفيون

قال لي الأخ (س) المهندس وأنا ذاهب إلى التحقيق: لا تخف (يا فلان) أنت أقوى منهم أنت أقوى منهم بإيمانك.. إنهم لم يستطيعوا أن يطاولوك فراحوا يعتدون عليك بالضرب.. اعرف ما تقول واذكره فأنت مسؤول عنه.

وأعود بعد التحقيق محطماً فيواسيني الأخوة بكلمات رقيقة مشجعة كالبلسم يمسحون بها الجراحات.

جاء أخ منقول من الفرع العسكري لبعض التحقيقات، كانت حاله سيئة جداً، رجلاه مضمدتان ويده متورمة من الكوع وفي وجهه كدمات مختلفة وحول عينيه هالتان سوداوان، وإذا هو يحسدنا على حالنا في معتقل أمن الدولة ويقول:

- أنتم بخير وعافية، تحقيقكم هنا (أسهل من شربة ماء) الطائفيون عندكم لا يعملون بأيديهم بل بصفة مراقب فقط، بينما عندنا يتولون العمل بأيديهم هناك يؤخذ المعتقل للتحقيق فإما أن يتكلم بما يريد المحقق (ما جرى وما لم يجر) وإلا فإن مصيره التحطيم أو الموت، وإذا لم يمت فسوف يعود إلى التحقيق من جديد.. شابان في شرخ الشباب في سن العشرين قتلا أمام عيني بعد عذاب رهيب استمر أربع ساعات متوالية أحدهما هو الأخ سيف الدين طرشه، رحمه الله، فترحمنا عليهما، وحمدنا الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

إلى دمشق

جاء السجّان وفي يده ورقة مكتوبة ونادى باسمي وأمرني أن أوقّع عليها وقد أخفى ما فيها.

قلت: على أي شيء أوقع؟

قال: مالك علاقة يا إما بتوقع يا إما باخدك إلى غرفة التحقيق.

نظرت إلى الأخوة حولي أستفهم منهم. قال (س): وقع. وأشار بيده: وليكن ما يكون واخلص من العذاب فوقّعت. عرفت في الورقة كلاماً يسيراً لحظته خلال التوقيع، كان اعترافاً ملفقاً بأشياء لا أعرفها.

وفي اليوم التالي كان في المعتقل حركة غير عادية، فقد جاء أشخاص آخرون ونودي بأسماء منها اسمي. قال بعض الأخوة: نقل. وتذكرت. لقد هددني المحقق في آخر جلسة تحقيق وآخر حفلة تعذيب وقد يئس مني فقال: (والله لأبعتك على الشام يا...) ولم أعر الأمر كبير اهتمام فماذا في الشام أو غيرها؟ ولكني عرفت فيما بعد معنى هذا التهديد، ولكن بعد فوات الأوان.

ففي (تدمر) الموت حدثني الأستاذ (ع) مدرس الرياضيات قال: طلبت من قبل المخابرات فهربت واختفيت خائفاً أترقب ومضت أيام صعبة قرابة شهر ولم أكن من المجرمين ولا ارتكبت أي ذنب يعاقب عليه القانون، ولكني متدين أصلي وأصوم وكان لي بعض الأصدقاء المتدينين، ولكن في

هذه الأيام الكل مجرم حتى ولو ثبتت براءته، ونحن نرى الذاهب (الذي تأخذه المخابرات) لا يعود، بريئاً كان أم مذنباً، إلا من رحم الله ليحدث عن العذاب والإرهاب.

ضاقت بي الحال وصعب علي مواصلة الاختفاء فتوسط لي بعض الأقارب لدى مسؤول كبير في المخابرات وأخبره بأمري فقال له بالحرف الواحد: ليس متهماً بشيء، ولكنه مطلوب إلى الشام ومن يذهب إلى الشام لا يعود فليهرب.

ويتابع الأستاذ (ع) ولم أقتنع، وقلت لنفسي: ما دمت لست متهماً بشيء فسوف يكون تحقيق يسير فبراءة فعودة.. فسلمت نفسي للمخابرات واقتادوني إلى دمشق ثم إلى تدمر الموت هذا ولم أرتكب والله جرماً.

إذن الرحلة اليوم إلى دمشق.. ودّعت الأخوة، وعزّ عليّ أن أترك هذا المعتقل الذي عشت فيه أياماً قليلة، اعتدت فيها عليه، حيث أنني هنا قريب من الأهل وإن لم أكن أراهم أو أسمع عنهم، ولو كنت أعرف تدمر وما ينتظرني فيها لوقفت وجلاً أمام هذه الرحلة.

كنا ستة أشخاص جمعونا من زنازين مختلفة وقيدونا بالسلاسل حتى أصبحنا كتلة واحدة، ووضعونا في سيارة لاندروفر وانطلقت السيارة بنا (وقد ملئت من الأمام والخلف حرساً شديداً) إلى دمشق. لم نودع أهلاً ولم نر قريباً. تركنا وراءنا حياتنا كلها وأهلينا.. هكذا كنت ألقي نظرة الوداع على تلك الربوع التي طالما سعيت فيها بآمالي وهمومي وأقول بحسرة: هل من عودة يارب فقلبي يحدثني أنها رحلة ليس من السهل الرجوع منها.

كانت أيام رمضان المبارك وصمنا نحن المعتقلين المنقولين رغم رخصة السفر.. وحرّاسنا مفطرون طبعاً. وصلنا إلى دمشق فسجن الحلبوني مع المساء، وكان السجانون في المحافظة من نوعيات مختلفة. كان أحد الجلادين يأتي فيتفقدنا في الصباح وقبل التحقيق ويسأل: (كيف حالكن)؟ وكنا نظن به خيراً، وإذا هو خبيث كزملائه يريد أن يتعرف على حال من سيجلدهم في التحقيق ليعرف مدى تحملهم، وكان السجّان سعيد مثال الغباء والقسوة.

كما سجن مع الأخوة في إحدى الزنازين عنصر مخابرات ارتكب مخالفة وكان شديد الإيذاء للأخوة جاهلاً متغطرساً ينظر إلينا باحتقار، فلما عايش الأخوة يومين إذا به ينقلب حملاً وديعاً وإذا بالندم على ما فات يقرع قلبه، فكان إذا خلا بنا بعد ذلك أو بعدت عنه عين الرقيب يقول: أنتم أعمامي وإخوتي ويبدي أسفه وحزنه على ما بدر منه تجاهنا..

في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي

في معتقل الحلبوني

معتقل الحلبوني قصر قديم مؤلف من طابقين وملحق صغير وقبو وأمامه حديقة واسعة ويحيط بــه سور عال وأسلاك شائكة، وعلى يمين الداخل في الحديقة قبو طويل فوقه غرف وأمام بابه فسحة يسيرة ٣×٢م مشبكة بالحديد كالقفص،وعلى اليسار الدخل في أقصى غرفتان أيضاً.

أدخلتنا الدورية إلى مكتب في زاوية البناء اليمنى وتلقانا هناك عنصر من المخابرات سلمه رئيس الدورية أوراقاً لا شك أنها تخصنا فاستلمها منه على مضض والتفت إلينا فعدّنا بالخيزرانة وســبنا وشتمنا وهمّ بضربنا. كان فارغ الدماغ، قد حشي ذهنه بأشياء غريبة عبر عنها بقوله: (انتو يا... لو شفتوني بره قتلوني) ونحن لا قتلنا ولا نقتل أحداً. كان في ذهنه أن المعتقلين مجرمون هكذا قبل أن تثبت التهمة أو حتى قبل أن توجه التهمة.

سلمنا بعد ذلك إلى سجان آخر يدعى (أبو سميح) فقادنا إلى القفص فوضعنا فيه وســألنا: أنتــو صايمين؟ قلنا: نعم. فجاء بوعاء كبير فيه شوربة مليئة بالحصى وقال: كلوا. طلبنا مــاء فقــال: بعدين. وهكذا أكلنا من الشوربة ما يسر الله. وجاء بعد ذلك السجان أبو سميح فادخل أربعة منا في القبو وقادني وآخر إلى البناء الرئيسي وسار بنا في ممر طويل وفتح باباً حديدياً ونزلنــا درجــاً ضيقاً إلى صالة صغيرة جداً على جانبها أربعة أبواب أدخلني من الباب الأول الذي أفضى بي إلى زنزانة ضيقة معتمة وأدخل الآخر الثانية وكان يبدو من خلال باب مغلق آخر (شودير) جهــاز تدفئة مركزي قديم متروك تراكم عليه الغبار وبعد ذهاب السجان سمعت أصواتاً. وفتح شــخص النافذة الصغيرة وأطل وجه فتى جميل بلحية شقراء فحياني بقوله: السلام عليكم. ورددت عليــه بود: وعليكم السلام.

قال: نحن جيرانك في الغرفة الجماعية، كيف حالك، وماذا تحتاج؟

فشكرته وطلبت منه شيئاً من الماء فأحضر لي ماءً وطعاماً (خبز وحلاوة) وشكرته ثانية وجلست أتمتع بالوحدة وأستأنس بذكر الله. وجاء السجان في حوالي منتصف الليل فأخــذني إلى الطــابق العلوي وعصب عيني وأدخلني على محقق باشرني بالتهديد والوعيد. يقول: أنت منظم في الإخوان هذا أكيد وأنت معترف هنا (ويشير إلى أوراق أمامه) ولم يترك لي فرصة للكلام أو المعارضــة ثم أعادني السجان إلى الزنزانة.

الزنزانة رقم (٤)

وفي اليوم التالي جاء السجان فأخذني من الزنزانة وسار بي في الممر الطويل إلى الحديقة ثم إلى القبو فدخلنا فيه وقادني في ممر على جانبيه غرف وأبواب حتى أدخلني زنزانة ذات باب واطئ في آخر الممر ضيقة كانت هذه هي الزنزانة رقم (٤) أغلق الباب ومضى كانت الزنزانة كالعلبة واطئــة

السقف ليس لها نوافذ سوى باب صغير من خشب سميك وفي وسطه فتحة صغيرة مشبكة بالحديد.

الجماعية في قبو الحلبوني

وجاء السجان بعد ثلاثة أيام فأخرجني وأعادني إلى قبو المبنى قرب (الشويدر) ولكنه في هذه المرة وضعني في الغرفة الجماعية وبابها في الزاوية إلى اليسار مع الأخ الأشقر صاحب اللحية وجماعة من المعتقلين كان أكثرهم بالثياب العسكرية رحبوا بي أنست بهم.

كان أول ما لفت نظري – وأنا داخل إلى الزنزانة الجماعية كتابات على الجدران تحتوي على أسماء وتواريخ وشعارات. كنت نشطاً قد ملأت قلبي مشاعر الصبر والاحتمال والاحتساب أنه لن يمسكني عن لقاء ربي شيء.

الوحدات

كان الشاب الأشقر ذو اللحية قصير القامة ضاحك الوجه أديباً سلس الحديث ودوداً وهو طالب في الجامعة (جامعة دمشق كلية الهندسة) ويدعى (م – ع) ومعه شاب آخر طويل نحيل ذكي القلب وهو طالب جامعي أيضاً، وكان في الجماعية أربعة عشرة شخصاً آخرون باللباس العسكري المبرقع الخاص (بالوحدات الخاصة) جيش الطائفي علي حيدر. وكان في هذا الجمع سلوى، وتحدث العساكر فقالوا: نحن من الوحدات، أتعرف الوحدات يا أخ؟ قلت: ومن لا يعرف الوحدات؟ جيش ظالم غاشم يفعل في شعبنا كما فعل جيش هولاكو وجنكيز خان في البلاد المفتوحة قهراً فهي حلال له بأهلها ومالها وكل شيء فيها، أعرف أن القاتل في هذا الجيش لا يحمد على ما فعلته فقط بل يعطى مبلغاً ضخماً من المال (١٠) عشرة آلاف ليرة سورية فوراً لمن يقتل أي واحد من الشعب فعل شيئاً أم لم يفعل ولأورد الدليل كشاهد عيان: كان سمير الدج يعمل مع أبيه في مقهى صغير بجانب سوق الميكانيك في مدينة جسر الشغور على اليمين الدخل إلى المدينة من جهة طريق حلب.وهو شاب لطيف طيب القلب عمره (١٦) سنة لم يتمرس بشقاوات الأولاد. كان طيباً بكل ما في الكلمة من معنى ذهب مع أبيه إلى المقهى صباحاً وقبيل المغرب حمل غلة المقهى ولحق بأبيه إلى البيت فقد كانت خطة معروفة لأبي سمير أنه لا يفتح مقهاه في الليل أبداً ولا يسمح للمقامرين أن يقامروا فيه مهما كان الأمر.وفي الطريق لمح الشاب عساكر الوحدات ذوي البدلات المبرقعة تقطع الطريق وكان الجو العام في البلدة قاتماً فأحداث الجسر لم يكن قد مضى عليها إلا قليل، فانفتل الشاب عائداً ليغير طريقه بعيداً عنهم ورآه أحدهم فصرخ به فأرعبه وأربكه فأراد الابتعاد ولكن الروسية كانت ملقمة واليد على الزناد فبادرته برشة من الطلقات النارية، فسقط الغلام مضرجاً بدمائه، وضحك المجرم ضحكة السعادة الفاجرة، وجاء ينظر إلى

الضحية ويغنم غلة المقهى التي تعب الغلام وأبوه فيها طوال النهار، ويتساءل الضابط شـامتاً: ألم يمت بعد؟

ويقرر من عنده (مات وشبع موتاً) فيأتيه اثنان منهم فيجرونه من رجليه إلى السيارة الشاحنة الواقفة غير بعيد، فيلقونه فيها ويقف القاتل واضعاً رجله على جثة الطفل الضحية في وضع بطولي يحتاج إلى صورة تذكارية، والروسية مهيأة والإصبع على الزناد وتنطلق السيارة.

مزقت الأم ثيابها وقطعت شعرها واعولت وألقت نفسها على الأرض وهي تبكي.. ووضع الأب يديه على رأسه وانهد باكياً في حزن يهد الجبال: يا سمير يا ولدي يا سمير.. يا سمير.. وقبض القاتل المكافأة (١٠) آلاف ليرة كاملة لا تنقص قرشاً، ورفض ضابط الوحدات الإجابة عن أي سؤال، ورفض تسليم الجثة إلى ذوي القتيل بل سلموها لمكتب دفن الموتى في المحافظة ليتولى دفنها سـراً، وسارع الوالدان إلى مكتب الدفن وأشفق عليهما المسؤولون وسمحوا لهما برؤية ولدهما القتيل فألقيا النظرة الأخيرة على طفلهما وأكبا يقبلانه ويشمانه وهو جامد بارد فاغر الفم وفي صدره ينابيع دم متجمدة.. ماذا تفعل الأحزان؟ وماذا تفعل الآلام؟ لن تفعل شيئاً إلا أن تحفر في القلب جروحاً غائرة لا يمحوها إلا عدل إلهي يعاقب المجرم على جريمته، بل لقد ارتفع ثمن القتل كما عرفت مؤكداً فأصبح (٢٠) ألف ليرة بدل عشرة آلاف، ففي جامعة حلب وبالذات كلية الهندسة، والطلاب في امتحان يكتبون ويعملون وإذا بالمخابرات تقتحم قاعة الامتحان لتوقفه ولتأخذ الطالب الجامعي (محمود) وتقتاده إلى سجونها المظلمة، أمسكوا بتلابيبه وهو الشاب الرقيق الغض الإهاب الحيي الخجول. حدث محمود نفسه: (يا رب إليك ألجأ – أهكذا يجرونني إلى الموت وأنا مستسلم كالخروف- وخاطب نفسه: أنت بريء وأي براءة عندهم لا تشفع، يكفي أنك تصلي وأنك مسلم وأنك لست عميلاً) وعند الباب انفلت محمود من آسريه وانطلق هارباً كالسهم فامتدت اليد المجرمة إلى سلاحها المهيأ إلى المسدس الملقم فوجهته إليه وأطلقت عليه طلقات متلاحقة ضربت إحداهما ظهره، ونفذت من تحت الثدي الأيمن، ووقع محمود على الأرض ولكنه قام مغالباً الألم يقول في نفسه: فلأمت بعيداً عن أيدي المجرمين وأبتعد، ولكن النزيف لم يتركه يبتعد كثيراً فوقع غير بعيد، وجاءته قوى (الأمن) لا بل قوى الإرهاب والإجرام فحملته لتلقي به إلى مكتب الدفن ليدفن سراً وصدر الجاني يهتز أملاً وفرحاً فها هي عشرون ألف ليرة قريبة جداً من يده تكاد تدخل الجيب الفارغ الذي خوى بعد سكرة الأمس ولعبة قمار البارحة، ولكن الشاب كان لا يزال حياً وحمل إلى المستشفى وكتب الله له عمراً فعاش ليدخل سجون الظالمين، سجون المخابرات ولكمته اليد الجانية المجرمة ويقول له صاحبها: (ما كنت تموت يا كلب، ضيعت عليّ عشرين ألف) فالتسعيرة عندكم رخيصة يا وحدات.

كثيرون جداً نالهم ما نال سمير ولم ينج مثل محمود إلا القليل لينقل إلينا النبأ الذي لم يعد سراً وقال أحد العناصر: يا أخ نحن لسنا مثل هؤلاء نحن لا علاقة لنا بما يجري.. نحن لا نعرف شيئاً وحينما نذهب في مهمة يبقوننا بعيداً عن مكان الحادثة.

سألتهم: أحضرتم تفتيش حماة /١٩٨٠؟

قالوا: نعم حضرنا ولكنا والله لم نؤذ أحداً بينما كان النصيرين شديدي البطش، كل ما يقال لنا في مثل هذه الأحوال: إن هناك خونة مخربين يجب القضاء عليهم.

وكان حديث طويل وتنصلوا من كل مسؤولية، وقالوا: يا أخي علمونا نحن أمانة في أعناقكم.

إلى كفر سوسة

ولم يطل بنا المقام في قبو الحلبوني، فقد جاء السجان (أبو سميح) فاستدعاني مع معتقل آخر فأخذنا ووضعنا في القفص الحديدي أمام القبو وأخرج بضعة أشخاص من القبو فوضعهم معنا. لم نكن تعلم لماذا أخرجونا إلى هذا المكان، وظن البعض أنه إفراج خاصة وأن قضايانا كانت تافهة وليس علينا أي تهمة ذات بال، وكان لبعض زنازين القبو نوافذ صغيرة على القفص فرآني أبو اصطيف وأوصاني بإبلاغ سلامه إلى أهله، وكل الظن أنه الإفراج.. كم كنا حسني الظن ولم نكن ندري عن الحقد الطائفي ومكره وكيده شيئاً ولم يخطر ببال أحد منا أن يعاقب إنسان على غير جريمة أو جريرة أو أن يقتل إنسان هكذا لمجرد نزوة من إنسان شاذ حتى صرنا لعباً عند من يتسلون بقتل البشر وقد ماتت في صدورهم القلوب.

وضعونا في سيارة اللاندروفر ذات القفص الحديدي، وسارت بنا خلال شوارع مدينة دمشق، وإذا الناس في غدو ورواح لا يشعر بنا أحد، وإذا المحال مفتوحة والأبواب والحياة الطبيعية لم تقف ولم تتعطل.. كان البعض يفكر: ماذا سيعمل إن أفرج عنه، وإلى أي مكان سيذهب؟

وصلنا إلى بناء عرفة أحد الموجودين فقال: هذا هو المركز الرئيسي للمخابرات العامة المسمى (كفرسوسة) إنه الفرع (٢٨٥) ودخلت السيارة ضمن حواجز وحراس وأبواب ضخمة، ثم وقفت في باحة واسعة واقتادونا إلى بناء ذي طابقين فأدخلونا فيه، وفي مكان واسع في المدخل وضعت طاولة وسرير وكرسي وتلقانا شخص أسود الوجه شديد السمرة متوسط القامة ممتلئ الجسم، بل بدين له سحنة مغبرة وصوت مبحوح قال بجفاء: وقفوا هون..

صفنا وفتشنا جميعاً وهو مكشر جامد الوجه وكأنه يعامل أدوات سيئة يجب الحذر منها، ومن ثم أدخلنا في ممر طويل قادنا إلى الزنزانة رقم (٥).

وجدنا هناك ثمانية أشخاص من المعتقلين، وكان البناء الذي دخلناه ذا طابقين وطابق أرضي، وكانت صورة المكان الذي دخلته كالآتي: هناك باب يفضي إلى ممر طويل وعليه تفتح مجموعة

غرف ولكل غرفة منافع في داخلها إلا الغرفتين (٥، ٦) فإن لهما منافع مشتركة يفتح لهما بالتناوب في أكثر الأحيان، وفي الغرفة (٣) كان يوجد المحامون وبعض المهندسين، وفي الطابق الأرضي يوجد غرفتان (١، ٢) وثلاث مزدوجات ومجموعة من الزنازين الانفرادية وفي الغرفة (٢) كان يوجد المهندسون وما لبثنا إلا قليلاً حتى جيء ببقية الأخوة الذين كانوا في الحلبوني وقد أفرغ من كل من فيه إلا الشاب الشيوعي وأخاه وشخصاً آخر له علاقة بهما، وتاجر سلاح كردي وسائق براد أجنبي، كان يقود سيارة مليئة بالسلاح، ورجل سوداني كان يقسم أن يذهب فور الإفراج عنه إلى أفخر مطعم ليشرب خمراً حتى السكر، وذلك بعد وجبة ثقيلة مما لذ وطاب.

وكان في الحلبوني أربع نساء على الأقل، إحداهن حامل ومعها أطفال ولا أدري إن كانت هؤلاء النسوة قد نقلن إلى كفرسوسة أم لا، ولكن تبين لي أن في معتقل كفرسوسة نساء أيضاً، وأنهن يفتشن أدق تفتيش من قبل رجال المخابرات، وقد عثر مع إحداهن عند الإفراج عنها قصاصة ورق فيها سلام من أحد المعتقلين إلى ذويه، فأوقف الإفراج عنها ولا أدري ماذا جرى بعد ذلك.

ولما استقر بنا المقام في الغرفة رقم (٥) سلمنا على الجميع وممن تعرفت عليه: المعتقل القديم أبو سعيد، وكان سياسياً عريقاً لذلك كنت تراه خبيراً بالأمور والأحداث يجيد الحديث ويتقن الاستدلال والاستنباط وعنده الشواهد والأمثلة، ولا يعوزه على ما يريد الدليل، ولطالما حدثنا عن مخازي الحكام النصريين.

وكان أبو سعيد قد أمضى في الحلبوني وكفرسوسة زهاء سنتين، فسألناه عمن مرّ به من أشخاص فذكر لنا بعض الشخصيات التي مرت به، فكان منهم الأستاذ أحمد كيالي مدرس اللغة الإنكليزية الشاعر الإسلامي النابغة، وقد بقي معه في غرفة واحدة عدة شهور، وكان وقتها مسموح بالقلم والورق، فكان أحمد كيالي (أبو إياس) يكتب الشعر الجميل يعبر به عما هو فيه وعن مشاعره ورؤاه، وكان أبو سعيد يحفظ بعض مقاطع من شعره، وأرشدني إلى شباب في غرف أخرى يحفظون بعضاً من قصائده، ولم أتمكن من رؤيتهم في وقتها، وكان أبو سعيد ولوعاً به يتمنى أن يفرج الله عنهما ليصحب هذا الشاب وأمثاله. وحدثنا عن والد لعدة شهداء (وهو موظف كبير في مدينة حلب رجل في الخمسين من العمر، مكتمل الرجولة والأدب، نيّر الفكر لم ير له مثيلاً، كان له ولدان استشهدا في غارة من غارات قوات السلطة في مدينة حلب، ولم يكن الوالد يدري حتى ذلك الوقت بالأمر، فقد كانوا يخففون الأمر ويكتمونه عنه خشية عليه وكان أبو خالد يعاهد ربه (لئن فرج الله عنهما) أن يحج في نفس السنة مع أبي الشهداء هذا، وحدثنا عن أمين الأصفر الشاب القوي في جسمه وخلقه ودينه صاحب اللحية السوداء الذي لا يخشى في الله لومة لائم، وأن شعار الإخوان المسلمين كان ملصقاً على دعامة السقف رسمه الأستاذ أمين وألصقه نكاية في

المخابرات، وعن عبد الله الطنطاوي وكيف اتفق مع الدولة هو ورجال الإخوان الآخرون على إيقاف سفك الدماء وأنه لما أفرج عنه مرّ بجميع الغرف فودع الجميع وأنه قال لجميع المساجين: نحن اتفقنا مع الدولة على إخراج المساجين المعتقلين، وعلى أن نحول السجون إلى مدارس، وحدثنا عن إبراهيم عاصي وتقاه وأدبه وفكره النيّر. يقول أبو سعيد: كل الإخوان كانوا هنا رجالاً، ولا كل الرجال شباباً مهندسين وأطباء ومدرسين بناة أمة ومربي أجيال هم الناس هم صنعوا هذه الرفوف التي ترون. هنا كانت الكتب تملأ هذا المكان، وهنا جرائد اليوم وهناك جرائد الأمس وهذا برنامج الدروس ملصق على الباب وفيه من كل علم وفن.. وإن المخابرات أخذوا كل ذلك دفعة واحدة في غضبة عارمة لا ذنب لنا فيها.. أخذوا الكتب والدفاتر الشخصية والأقلام وديوان شعر لأبي إياس وغير ذلك.. أخذوا كل ذلك فما أبقوا منه شيئاً، ومنعوا عنا كل شيء حتى المشتريات بقيت ممنوعة فترة طويلة وحتى الآن لم تعد إلى ما كانت عليه، فلا خضار ولا فواكه، ولا شيء إلا ثياب وسكر وشاي.

وسألناه: وأين أولئك الرجال يا أبا سعيد؟

فقال: أخذوهم إلى تدمر كلهم كل أسبوع كانت تذهب من هنا دفعتان إلى تدمر وعندما طلب أبو إياس إلى رئيس الفرع حيث سأله: ما رأيك يا أحمد في الحكام الحاليين؟ قال: جناة. كلمة واحدة نقل بعدها إلى تدمر مع المنقولين.. دفعات كانت تأتي إلى هنا تبقى أياماً قليلة ثم ترحل إلى تدمر.. يا ليتهم أخذوني معهم حتى أموت كما ماتوا.

قلت: صفهم لنا يا أبا سعيد.

قال: هم ليسوا بشراً بل ملائكة أطهار.

قلت: كيف إذا استلموا زمام الأمور والحكم كيف تكون الحال؟

قال: يمشي الذئب مع الغنم.. لا.. أستغفر الله، يحرس الذئب الغنم.

ثم تابع: أصحيح مجزرة تدمر أنت كنت طليقاً وتعرف، هل صحيح حدثت مجزرة تدمر؟

قلت: نعم حدثت.. فيما أعلم..

سأل: وكم قتل فيها؟

قلت: كل من كان في تدمر من المعتقلين هكذا الأخبار..

فزفر بحرقة وقال: أكلّ أولئك الناس قتلوا؟ لئن جرى ذلك فإن تدمر أصبحت مكة ويجب أن نزورها ونحج إليها، ألا تعلم الاسم الجديد لسجن تدمر؟ لقد سموه مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين.

وتابع يقول: لقد تركنا السجانون مرة يوماً كاملاً بلا طعام، وشعرنا أنهم هكذا في اعتباط وحركة غير عادية وسمعنا بعد ذلك أنه كانت هناك محاولة لاغتيال حافظ أسد وبعدها أتت الأخبار عن مجزرة تدمر وتوقف إرسال المعتقلين إلى هنا.

الشيوعيون

يبدو أن الشيوعيين وقد طال بهم المقام في معتقل كفرسوسة، وطاب وللقدم دور لا ينكر في الإلفة وخاصة في المعتقلات والسجون، لذا دعينا بعد وصولنا بفترة يسيرة إلى جلسة تفاهم لتنظيم أمور الغرفة حيث أن عدد نزلائها قد بلغ ثلاثين معتقلاً بينما مساحتها (٢٥) متراً مربعاً.

وتكلم أحد الشيوعيين عن ضرورة النظام والحاجة الماسة إليه حتى تكون في حال مناسبة وراحة تامة، لذا فلابد من رئيس للغرفة ودعا إلى اختبار أحد الموجودين لهذا الأمر، واقترح رئيس الغرفة السابق (شيوعي ديري) فوافقنا وتقدم الديري للكلام وتحديد النظام فقال: حيث أن الوقت شهر رمضان وأنتم مصرون على الصيام فإن عندكم بالتالي سحوراً ونحن لا نمانع في مثل هذه الأمور مع أن النظام في المعتقل يمنع السهر في الليل ومع أن السجانين لا يشددون في ذلك الوقت من الليل إنما هو وقت راحة ونوم (عز النوم) لذلك نأمل أن يكون سحوركم بدون ضجة ولا صوت وإن تعودوا فور ذلك إلى النوم على أن من يصلي التراويح الطويلة ويزعج بصوته الآخرين، وهذا شيء غير مرغوب فيه، ويجب أن يراعي كل منا شعور الباقين، فإن كل واحد في هذه الغرفة له حق فيها مثل غيره، ومن حقه أن يرتاح أو ينام ولا يزعجه إنسان، وخاصة في صلاة الصبح فإن بعضهم يرفع صوته بالقراءة ليرى الناس جودة ترتيله وحسن تجويده ويقلق بذلك راحة النائمين ويزعجهم أجمعين، فهذا أمر غير صحيح ولا نريد أن يحدث، ومن أراد الصلاة فليصل بعد الاستيقاظ في الضحى أو (وعلى مضض) يتيمم على البطانيات بهدوء وليس ضرباً قوياً يرتج له المكان ويصلي في مكانه بدون صوت (وظهر بعض الوجوم والضيق).

وقال أبو اصطيف: معك حق الواجب على الجميع في السحور مراعاة مثل هذه الأمور وعدم إحداث أي صوت بالمرة، وسوف نتيمم إذا كان باب الغرفة مقفلاً عن المنافع، ونصلي دون رفع الصوت إلا بقدر الحاجة (وهكذا وضعت النقاط على الحروف).

وقال الشيوعي الديري: لا تؤاخذوني هذه أمور يجب أن نتفق عليها. ومن ناحية الطعام فإنه يصعب أن نأكل جميعاً لأن عددنا كبير كما ترون لذلك يفضل أن تكون هناك مجموعات طعامية، ونحن القدماء وحيث أننا لن نصوم طبعاً فإننا سوف نكون مجموعة طعام ومن أراد أن يفطر فلا مانع لدينا أن يأكل معنا أما أنتم (الصائمون) فكما تريدون إما أن تأكلوا في مجموعة أو مجموعتين وكل مجموعة تنظم موضوع الخدمة بينها بالتناوب.

قال أبو اصطيف: لا بأس أما نحن فسوف نأكل سوية إن شاء الله.

وفي المساء جلسنا إلى مائدتين طويلتين كل منهما عبارة عن قطعة نايلون استعرناهما من الشيوعيين ووضعنا عليهما ما يسر الله من طعام قليل (برغل مطبوخ بالحصى والقش ومرقة بندورة فيها قليل جداً من حبات الفاصولياء وشيء من الحلاوة والخبز) وهكذا أفطرنا بشهية وحمدنا الله على نعمه وأفضاله، وتكرّم علينا الشيوعيون بإبريق ضخم من الشاي الساخن فشرب كل منا كوباً كبيراً وشكرنا لهم هذا الكرم الحاتمي، وحمدنا الله على هذه النعمة، وكان هذا أول كوب من الشاي الساخن منذ زمن طويل. ويبدو أن حكاية الكوب الأول هذه ملحوظة تماماً لدى الشيوعيين، فلقد جاءهم قبلنا أفواج عديدة من المعتقلين من معتقلات ليس فيها شاي ساخن بل (علقات ساخنة) وكهرباء محرقة وعذاب وإرهاب، فكانوا يعرفون ما لهذا الكوب الأول من قيمة فيحرصون على تقديمها..

وتابع الشيوعيون في اليوم الثاني في الإفطار اثنان من العساكر أغرقهما الشاي الساخنة والسيكارة.

شهيد الرأي: المهندس بسام النابلسي

ماذا يعني أن تقول رأيك هكذا بصراحة في النظام وفي الفساد والظلم. كنا نعلم أن ذلك أمر بالغ الخطورة بل وقد يعني أن تهيأ نفسك للموت، ولم يكن ذلك خافياً على أحد، وهناك كثيرون قضوا شهداء الرأي الصريح، وكلمة الحق التي قالوها ولأستبق الأمور وأحدثكم عن واحد منهم إنه الأخ المهندس بسام نابلسي الشاب الساذج البسيط الذي لم يكن في تفكيره أن يواري شيئاً أبداً، ولم يفعل ذلك وهو ما ارتكب جريمة ولا خالف قانوناً ودستوراً. كان مهندس ميكانيك يعمل بجد ونشاط واستقامة. عاش هكذا يفعل ما يؤمن به ويلتزمه باستقامة، ليس في حياته أسرار ولا أشياء يخفيها، كل أموره هكذا واضحة جلية فلا خفاء ولا تستر يرى أنه إن كان من عيب فيجب كشفه لا ستره حتى يصلح. وهكذا وجد نفسه يوماً في غرفة التحقيق والدولاب يلفه ويضم الرأس إلى الرجلين. كان يسأل ماذا أجرمت؟ ماذا اقترفت؟ وبعد عذاب وكهرباء لم يكن هناك شيء أبداً إلا وجود اسم أخينا هذا في فهرس الهواتف في مفكرة أحد الأخوان المسلمين، وكانت حصيلة التحقيق المر انتزاع اعتراف منه بمعرفة ذلك الشخص وأنه جلس معه في بعض المناسبات وتحادثا في بعض الأمور التي لا يذكرها بل وقرأ مرة في القرآن الكريم وأثبت المحقق ذلك في ضبطه وأرسله مع المعتقل من مقر المخابرات في حمص إلى مقر المخابرات في دمشق كما جرى لنا جميعاً، وعرض علي ما قيل بعد ذلك أنه القاضي العسكري (إنسان شاذ حاقد يحكم بهواه وحقده الطائفي) فلا ممثل اتهام ولا دفاع حتى ولا يعرف المتهم أنه في محكمة بل يعرف أنه أمام محقق يهدد بالدولاب والعصي والكهرباء وبالرش والقتل رمياً بالرصاص، ومثّل المهندس

بسام أمام (القاضي) فسأله بعض أسئلة فأجاب عنها ثم قال له الأخ بسام: لم تعتقلوني وتعذبونني؟ ألأنني قرأت بضع آيات من القرآن؟ ماذا أجرمت؟ هذه هي جريمتي إن كانت جريمة. ففكر القاضي ملياً ثم سأله: ما رأيك في الإخوان المسلمين؟ قال بسام: جماعة صالحين مستقيمين، وإن كنت لا أوافقهم في بعض الأمور.

فقال له القاضي: هكذا إذن فما رأيك في الحكام الحاليين؟

قال بسام: أنتم أدرى؟

قال القاضي: لا لابد..

قال بسام: إنهم غير صالحين ولا مستقيمين.

قال القاضي: آخدين عقلك الإخوان أليس كذلك؟ قم إلى مكانك.

جاء الأخ بسام يحدثنا بما جرى معه، فلامه بعضهم على هذه الشجاعة التي في غير محلها وقالوا له: عرّضت نفسك للخطر (ولم نظن أبداً أن يصل الأمر إلى ما وصل إليه) كان رأي الأخ بسام الذي يعلنه بصراحة أنه يجب علينا أن ندعو هؤلاء الحكام إلى الإسلام وإلى الخير والصلاح، وإذا عرفنا كيف نفهمهم أحقية هذا الدين وخير الإسلام فلن يتوانوا عن التزامه، وعلى كل ندعوهم ونصبر عليهم ونتحمل كل أذى ينالنا في سبيل الدعوة، فهو لا يرى ولا يوافق على مجابهتهم.

ومضت الأيام ونقل بسام إلى (تدمر الموت) وعاش الأيام الكالحات وذاق من العذاب ألواناً، ثم سيق إلى الإعدام شنقاً في فجر يوم من أيام تشرين الثاني ١٩٨٠، وقضى شهيد الرأي والصراحة والصدق فعليه رحمة الله. كان رحمه الله تقياً ورعاً أراد أن يصوم إضافة إلى رمضان شوال وذي القعدة وعشرة ذي الحجة، وهكذا ثابر على صيامه في الحل والترحال، وفي العذاب ورغم كل الظروف البيئية التي كنا نعيشها.. تسحر قطعة خبز وقطعة جبن ثلاثية ابتلعها مع قليل من الماء، وتوضأ ومضى إلى ربه صائماً. طلب قبيل الفجر مع نفر آخرين فعصبوا عيونهم وأوثقوا أيديهم إلى الخلف وساقوهم إلى المشانق ليصرخ والحبل في عنقه (الله أكبر الله أكبر) ومضى إلى ربه صائماً. كان ذا شعور رقيق ونفس حساسة ولقد شهدته يوماً بعد حفلة تعذيب رهيبة اكتوت فيها أجسامنا العارية بلسعات الكرابيج وبحداتها وتركت فيها خطوطاً عريضة سوداء نافرة بعضها فوق بعض، وجلداً ممزقاً ودماً نازفاً ودخلنا المهجع نلهث من التعب والإرهاق والرعب، ونشكو إلى ربنا ما يسومنا هؤلاء المجرمون من ظلم وقهر وعذاب. ويقول بسام: وعلى وجهه إمارات الاستغراب الشديد (يا رب عجيب أمرهم. يا رب ما هذا الظلم؟؟ ما هذا؟.. أيستمتعون بالعذاب.. بعذابنا؟) نعم يا بسام وبموتنا يفرحون وينتشون فتعساً لهم وخزياً إلى يوم الدين.

كانت هذه هي نتيجة التعبير عن الرأي بصراحة لدى هؤلاء الوحوش الأسديين.

كان بين الشيوعيين نقاش مرة فقال أحدهم: أنا مستعد إن طال السجن أو ضاق بي الحال أن أترك العمل السياسي وأخلص وأخرج من السجن فوراً.. وعلى كل فللشيوعية مواقف متعددة الوجوه في الوقت الواحد، فالشيوعيون الأمميون (البكداشيون) مؤيدون للدولة وشيوعيو رابطة العمل الشيوعي معارضون وشيوعيو مالا أدري قدموا طلبات انتساب لحزب الرئيس وقدموا أنفسهم جنوداً له.

فالسيد الديري المتلبس بموقف المعارض ما أسهل عليه كما صرح هو أن يطلب مواجهة المحقق أو رئيس مركز المخابرات ويتعهد له بترك العمل السياسي وبتغيير الموقف، بل ويخلع الفكرة كلها.. والمحقق أو رئيس المركز يجد في هذا حلاً مناسباً وجيداً بل وكسباً، فقد غيّر الرجل فكرته وحوّل وجهته.

أما بالنسبة للمسلمين فالأمر يختلف جداً، فالموقف المتلبس به أصيل وليس هكذا يسهل تغييره، إنه عقيدة لن تبرح الإنسان المسلم حتى الموت.

وقد حدث أحد رؤساء فروع المخابرات في حلب بعض المتوسطين لديه بشأن شاب معتقل فقال: (أنتم لا تعرفون هؤلاء الشباب الإسلاميين إنهم لا يتركون نشاطهم ولا يقبلون أي تنازل عن أفكارهم أو عقيدتهم. كم من مرة جاءنا أمثالكم يشفعون في بعضهم فنترك له سجينهم بعد التعهد بترك العمل الإسلامي، فلا يمضي وقت قصير حتى نراه أو نصطدم به وقد صعّد من نشاطه أو حمل السلاح ضدنا (ولهذا أسبابه) لذلك فالمحقق ورئيس المركز والجميع يعلمون حق العلم أن الموقف الإسلامي موقف عنيد لا يوقفه شيء ولا يحوله عن طريقه عذاب أو إرهاب أو سجن.

المرض والسجانون

كنت مريضاً من ثلاثة أيام بالتهاب اللوزتين الحاد، مثلت أمام طبيب المعتقل البارحة وجاء الممرض اليوم يوزع بعض الدواء. سألني عن رقمي فلم أعرفه، فبحث عنه حتى وجده فقال (بدي قلع عينيك إذا نسيت رقمك) أزعجني هذا الكلام ولم يدر بخلدي أن أتمناه وأتحسر عليه فالأمور نسبية.

حدثنا أحد المعتقلين عن السجانين وأنهم عناصر من سرايا الدفاع المشهورة يؤتى بهم إلى هنا وهم قساة غلاظ الأكباد لا شفقة عندهم ولا رحمة، وما يمضي إلا القليل حتى تلين قلوبهم بما يعرفونه من حقيقة أحوال المعتقلين، فتخف حدتهم إلا الطائفيين مثل سعيد، فنراه ووجهه يقطر سماً وحقداً، ومن يجسر أن يكلمه فيده سريعة إلى الضرب الأليم وإلى كل أذى ويا ويل من يقع تحت يده. وإلا أبا محمد الطويل الكالح (وهو نصيري) فلم يؤثر فيه طول المدة ولا أحوال المعتقلين التي تدمي القلوب، فهو شرس شديد الحقد يستعمل يديه ورجليه وأسنانه إضافة إلى العصي والكبلات ولقد

دخل قبل مجيئنا بيومين على مجموعة من الإخوة الحلبيين قدموا حديثاً وكانوا هنا في غرفتنا هذه، دخل والخيزرانة في يده فأوقفهم على الحائط وأوسعهم ضرباً حتى شفى غيظه وما اكتفى..
ولما جيء بحسني عابو إلى هذا المكان قبل بضعة أشهر كان أبو محمد هذا يدخل عليه الزنزانة وينقض عليه بالضرب والرفس واللكم وما يتركه إلا بين الموت والحياة. أبو محمد هذا لا يقدر سناً ولا يرحم بريئاً ولا يأبه لخلق أو مبدأ. وأضاف في سخرية: ومن طباعه أنه شره أكول دنيء، فإذا جيء بالطعام بعد الظهر انقضّ على كمية اللحم القليلة أصلاً فصال فيها وما ترك هبرة جيدة إلا أتى عليها يأكل أكل الفيلة يبلع وما يشبع، ويخبئ ما لم يستطع أكله في الظهر إلى المساء، وإذا كانت اللحمة دجاجاً مسلوقاً ولمئة وخمسين شخصاً يكون هناك بضع دجاجات فوق الأرز المطبوخ فإن أبا محمد يهاجم الدجاجات المسكينات فيدعهن جميعاً بلا أفخاذ، فهنا ظهر معقور وصدر منزوع وعظام خاوية مجردة.

أشبال في المعتقل

وجيء إلى الغرفة رقم (٦) المجاورة والمشتركة معنا في المنافع، جيء بحوالي اثني عشر شاباً لا يتجاوز أكبرهم السابعة عشرة، لم ينبت في وجوههم الشعر بعد، أحدهم طالب في الثالث الإعدادي، وآخر طالب أول ثانوي والباقون حول ذلك، وكانت لديهم أخبار كثيرة ومثيرة ووجودهم نفسه كان مثيراً، فقد تجمع حولهم عناصر المخابرات والسجانون فور وصولهم يتفحصونهم بدهشة وخوف واستغراب، فقد بلغهم أن هؤلاء من التنظيم المسلح للإخوان المسلمين من المجاهدين (هكذا قيل لهم) تشجع أحد السجانين وسأل أحدهم:

- كم عمرك أنت؟
- ١٦ سنة.
- أنت إخوان مسلمين (وقد غلظ صوته)؟
- لا أنا طالب تاسع..
- إيش جابكم لهون؟
- المخابرات.
- ولك إيش قضيتك؟ أنت قاتل؟
- لا..

وانتشر الخبر الغريب في المعتقل وأخذ كل واحد منا خلال فتح باب الغرفة يتسلل إلى نافذة الغرفة (٦) لينظر إلى الشباب الصغار وحاول البعض التسرية عنهم ولكن ابتساماتهم كانت توحي

بأن ليس فيهم هذا الهم، وكانوا ينشدون الأناشيد الإسلامية الجميلة في إيقاع حلو وأصوات ندية.

وكان في الغرفة (٦) معتقل مقطوع الرجل اليمنى تعرفت عليه خلال اختلاطنا النادر، وعجبت للأمر، ولم ألبث أن رأيت شاباً مشلولاً نصفياً.. مشلول اليد والرجل وعلمت أنه متهم بحمل السلاح ضد الدولة مع أنه لا يكاد يستطيع المشي، واكتملت برجل أمي الفكر واللسان مقطوع اليد وكلهم من جهات الساحل السوري وكان هناك الطفل الضاحك أبو عبد وابن الثالثة عشرة يتيم يعمل في مطعم ليعول نفسه.. يا بلد الغرائب.. وجيء إلى الغرفة (٦) بشيخ وقور كنت أرى هؤلاء الناس من بعيد وتثور في نفسي تساؤلات حول هؤلاء الذين جيء بهم إلى المعتقل؟ ما جريمتهم؟

حركة في المعتقل

كانت أفواج المعتقلين تتوالى إلى معتقل كفرسوسة باستمرار، وكان هناك إضافة إلى البناء القديم عدة مبان مماثلة بعضها جاهز مستعمل والآخر في طور البناء، كان يعرض القادمون على محقق بعد أن تدرس إضبارائهم فإما عودة إلى التحقيق أو تأكيد له. ويحوّل المعتقلون خلال ذلك من مكان لآخر حتى لا يعلم الأخير اللاحق ما جرى للأول السابق، وكانت إشاعة المحكمة العسكرية هكذا مجرد كلام ولا يعرف المعتقلون إلا أنهم بين أيدي المخابرات وعصيهم ودواليبهم.. اكتظت الغرفتان (٥، ٦) وخاصة الغرفة (٦) وفي ليلة ١٩٨٠/٨/١٩ أغلقوا باب الغرفة (٥) في المساء دون أن نعلم لهذا سبباً أو معنى معيناً ولكن أبا سعيد كان لخبرته وطول إقامته في المعتقل يلحظ ذلك بعين الخبير العارف، وفي منتصف الليل جاء السجانون فأخرجوا نزلاء الغرفة (٦) جميعاً وكانوا حوالي (٣٥) شخصاً وتجاسر بعضهم فاقترب من باب الغرفة (٥) وفتح النافذة الصغيرة وودع من رآه. قال: لا ندري أين يذهبون بنا.. نستودعكم الله.

وفي الصباح كانت الغرفة رقم (٦) خالية تماماً. قال أبو سعيد: إلى تدمر.

قال البعض: أكيد يا أبا سعيد؟

قال: أكيد ما في غيرها.. مستكلبين على الناس..

وبلغ التأثر مبلغه بنا، وأخذ أبو سعيد يخاطب نفسه:

- كان الرئيس يحكم سنة أو سنتين أو ثلاث سنين، فإذا وجد الناس فيه تقصيراً أو انحرافاً أو ضعفاً تعاونوا عليه وأقالوه إلا هذا الولي.. إلا هذا الدعي.. لا يريد أن يترك الكرسي، يمسكه بيديه ورجليه.. كل هؤلاء الناس تريد أن تقتلهم يا حافظ أسد.. أطفال أبرياء ورجال طيبون

كرام، وعلماء وأطباء.. أذكر لكم المدرس أبا إياس شاب كله رجولة وأدب وفكر وعلم، طلبه رئيس المركز يوماً وسأله:

- ما رأيك في الحكام الحاليين يا أحمد؟

فردّ أبو إياس بالجواب الشجاع المعبر: أراهم بغاة تجاوزوا كل حدّ.

قال: أهذا رأيك؟

قال: نعم..

وبقي أحمد بعدها يومين ثم أخذ..

- إلى أين يا أبا سعيد؟

- إلى تدمر.. إلى الموت.. ثم تابع:

- هكذا يقتل رجل أمة ومربي جيل لأنه قال كلمة حق..

وانطلق يحاور حافظ أسد وكأنه أمامه:

- هل جئت بهؤلاء الناس من بيت أبيك وأمك يا حافظ أسد حتى تعدمهم وتقتلهم هكذا دون حساب؟ ما طيب الحياة بعد هؤلاء الناس؟.. لن أذوق طعاماً حتى أموت وألحق بهم..

ومضى يومان وثلاثة وهو لا يذوق طعاماً..

المحقق بل القاضي المستتر

طلبت في ظهر يوم ١٩٨٠/٨/٢٤ جاء السجان فوقف بباب الغرفة ونادى باسمي وأمرني بالقيام معه دون تلكؤ أو إبطاء، واقتادني إلى الطابق العلوي وأدخلني بعد انتظار يسير مكتباً في آخر الممر إلى اليسار كانت هناك طاولتان إحداهما كبيرة وعريضة، ووراءها يجلس رجل نحيف كأنه قزم وفي يديه كانت تلمع خواتم ذهبية وعلى لوحة في مقدمة الطاولة كان اسمه بأحرف كبيرة (النقيب سليمان حبيب) وبجانب تلك الطاولة منضدة أخرى أصغر منها يجلس إليها آخر، وأمام الطاولة الأولى كرسي أجلسوني عليه وطلب مني النقيب أن أحدثه فأخبرته بأمري: موظف بسيط في بلد غريب، علاقاتي بالناس محدودة، ليس عندي ما أخفيه. وتابعت:

- عذبني رجال المخابرات كثيراً وأجبروني على التوقيع على أوراق لا أدري ما فيها.

- وبعد بضعة أسئلة سألني إياها قال لي: لاصت معكن..

- ثم أخذني السجان فأعادني إلى الطابق الأول وأنا في (شبه ذهول) وأدخلني الغرفة رقم (٣) غرفة المحامين التي سمعت بها قبلاً، وإن فيها محامين ومهندسين، وقد سألت يومها مستغرباً عن سبب اعتقالهم ووجودهم هنا؟ ولم أحظ بجواب يفسر هذا الأمر المعضل. وفكرت في القضاء وحرمته والمحامين ودفاعهم واختصاصاتهم بالدفاع عن الناس فلم لا يدافعون عن أنفسهم والقانون في

عقولهم وهم أخبر الناس به وبالحقوق التي يصعب على غيرهم من البشر معرفتها.. ولهم أصدقاء كثر من القضاة ورجال القانون أفلا ينصفوهم؟.

قال أحدهم: هذا لما كان هناك قضاء وقضاة، أما الآن فأصبح كل ذلك صورة فقط، فالمحاكمات صورية والقضاء ممثلون بل أجراء يقرؤون صحيفة فيها كلام جاءهم من فوق..

استغربت ذلك كثيراً ولكن ما اطلعت عليه بعد ذلك وما سأرويه لكم يكشف الستار عن مهزلة القضاء والقضاة في دولة اللا قانون الأزلام والمحسوبيات والطائفية..

كان الأخ (م..) من إحدى المحافظات البعيدة كان زميل السجن في الأيام التي مرت بي ولا يزال هو يعيشها، إن كان لا يزال حياً. قال: قبض علي في العاصمة وأودعت زنزانة في سجن المزة العسكري، وتعرضت لبرنامج طويل من التعذيب والضرب الرهيب، فاعترفت بما أرادوا وقلت كل ما طلب مني، وقدمت بعدها إلى محكمة في نفس المكان فيها رتب عالية (لواء عميد) نظن فيها الفعالية والقدرة ولكن رتبة صغيرة كانت تسيطر على أمور المحكمة كلها (نقيب) فيستجوب المتهمين ويكتب ما يروق له من أقوال سواء أراد اللواء (رئيس المحكمة) ذلك أم لم يرده. يقول الأخ المعتقل: لما أحضرت مع آخرين إلى هذه المحكمة تكلمت بما عندي وأخبرتهم بجلاء ووضوح أني بريء لم أرتكب أي ذنب وأني تعرضت لعذاب رهيب مدة طويلة وإن ما في هذه الأوراق غير صحيح (مع أنه غير ذي بال) ولكن النقيب أبى أن يكتب كلامي بل كتب أشياء أخرى وسخر مني ونهرني ورفض طلب رئيس المحكمة في أن يكتب أقوالي هذه، وجيء بآخر (ن) إلى المحكمة في ذلك اليوم معنا ولما حقق معه واستجوب، راح ينفي التهم الموجهة إليه، وإذا بالقاضي يوقفه ليقول له: يكفي أنت ماشي حالك ويسجل له النقيب عبارات الإنكار من عنده وكنا نعرف قضيته كان متهماً بالتعامل مع تاجر سلاح ويبرأ (ن..) واحترت في أمري وجلست في الجماعية ساهماً.. كيف يجري ذلك ولم؟ ولكن الأخوة هونوا عليّ الأمر وعزوني وقالوا لي هذا هو القضاء الأسدي ومن يعش رجباً يرى عجباً، فالأحكام تأتي جاهزة من فوق، والقاضي ليس له من الأمر شيء، فاترك الوساوس وتوكل على الله.

وذكرت قولة القاضي للسيد (ن..) (يكفي أنت ماشي حالك) كيف يمشي حاله رأساً من أول الاستجواب ولا يمشي حال كثيرين غيره من الأبرياء؟ أبرياء لم يرتكبوا ذنباً ولا جريمة وإذا بالأحكام توزع علينا وفيها من العشر سنوات إلى المؤبد إلى الإعدام برصاصة في القلب في زنزانة من زنازين المزة.

سلمت على الموجودين من محامين ومهندسين وغيرهم، وكان منهم الأساتذة أبو معروف وجورج بدرة وأبو سعيد ورئيس لجنة هامة في الدولة هي لجنة الإشراف على السجون والمساجين، وهو

يحمل دكتوراه في الحقوق ولما تعرفت إلى رئيس اللجنة المذكورة نظرت إليه مستغرباً فعلم حالي فقال: من بديهيات الإشراف على السجون دخولها!!

قلت: ولكن للإشراف لا للإقامة؟.. وضحك الجميع..

وتلقوني بجملة من الأسئلة عن أحوال البلد والأحداث والمجازر التي سمعوا شيئاً ما عنها وكان أهم سؤال: ماذا تعرف عن مجزرة جسر الشغور ومجزرة أريحا؟

فوجئت بهذه الأسئلة التي نقلتني من أجواء مصيبتي ومحنتي إلى أجواء ماضية ليست بالبعيدة كلها محنة وعذاب وإرهاب. لقد كنت شاهد عيان في أحداث هذين البلدين الطيبين: أريحا وجسر الشغور.. شهدت المأساة كاملة ورأيت الدماء الحارة تتدفق على الأرض مهدرة قد أراقتها أيد مجرمة تتصرف برعونة وطيش وحقد وتزهق أرواح الناس بلا حساب وكأنما تقتل ذباباً.. وها أنا أمام جمع من المحامين رجال القانون ومهندسين مثقفين.. كم كنت أود أن أصرخ وأحكي هذه القضية لهؤلاء الرجال ولكن ها هي يد الظلم قد جمعت القاضي والمجني عليه في سجن واحد، وركلت القانون وطبقت على رجاله قانون الغاب وشريعة الوحوش.

وأقبل أحدهم يحدثنا عن اجتماع المجلس العام لنقابة المهندسين الذي حدث قبل بضعة شهور، وكيف اتخذ عدة قرارات منها المطالبة بإطلاق الحريات العامة والإفراج عن المعتقلين وإيقاف العمليات اللاقانونية وإعادة المسرحين وغيره، ولدى عرض القرارات على المجلس صوّت المجتمعون كلهم مؤيدين لهذه المقررات إلا واحداً رفع يده معارضاً ومحتجاً، فاستغرب موقفه كثيرون ممن يعرفونه ويعرفون شجاعته ومواقفه.. وسأله رئيس المجلس:

- ما هو اعتراضك على هذه المقررات؟..

فأجاب: لا اعتراض لديّ إنما أريد أن نحافظ على نسبة ٩٩% التي جرت العادة أن تكون نتيجة كل تصويت أو انتخاب في بلادنا.. وضجت القاعة بالضحك وكتمه بعض من يحسبون حساب العواقب.

مضت ثلاثة أيام ثم نقلت مع مجموعة إلى الغرفة (٦).

الغرفة (٦) غرفة التجمع

كان في الغرفة (٦) بضعة وعشرون شخصاً من مختلف محافظات القطر، فيهم الصغار وفيهم الكبار في السن. كان موضوع التجميع يطرح نفسه ويشغل ذهن البعض. وكنت أريد أن أعلم بعض أمور كان أولها مدى ذنب هؤلاء الذين يجمعون في هذه الغرفة معي، هل هم أبرياء أو مذنبون؟ لعلي أعرف من ذلك طبيعة المرحلة القادمة. كل من قابلتهم حتى الآن أبرياء فعلاً.. لم يكن أحد منهم قد حمل السلاح أو قام بعملية عسكرية كما كنا نسمع، فإن كان هؤلاء كذلك،

فلعلي إذن لا أكون في وضع حرج.. وكنت كل يوم أزداد يقيناً ببراءة هؤلاء الناس وأقـــول في نفسي معارضاً أي فكرة أخرى لابد أننا نجمع في هذه الغرفة ليطلق سراحنا ولنعـــاد إلى بيوتنـــا وأهلينا، فما يستفيد النظام من اعتقال الأبرياء وسجنهم؟ واطمأن بالي وغدوت قرير العـــين مـــا دمت مع هؤلاء الناس وهم معي فلابد أنه الإفراج القريب.. ولعلهم ينتظرون مناسبة ما لذلك؟

إلى تدمر

امتلأت الغرفة (٦) إلى آخرها وصعب التحرك والعيش، ففيها (٣٧) شخـــصاً رغـــم صـــغرها (٥×٥م) وفي منتصف ليلة ٨/٣٠ – ١٩٨٠/٩/١ جاء السجانون فأخرجونا من الغرفـــة مـــع أغراضنا القليلة إلى ساحة المعتقل حيث وضعوا في أيدينا القيود. تمكنت خلال خروجنا من رؤية أبي سعيد، فودعته ومن رأيت من الشباب، وكأنما أودع العالم كله، فلا ندري إلى أيـــن مكـــان سوف يذهب بنا.

وضعنا في باص صغير (٣٧) شخصاً حشرنا فوق بعضنا البعض، وتربع في المقعد الأمامي شخصان مسلحان وفي آخر الباص آخرون والويل لمن يقترب منهم، وانطلقت بنا السيارة تحت الحراســـة المشددة حيث كانت تتقدمها سيارة أو اثنتان وتتبعها أخرى. وتعطلـــت إحـــدى الـــسيارات في الطريق، فتوقف الركب حتى أبدلت ثم انطلقوا بنا.. كنا نرى الـــشاحنات وبعـــض الـــسيارات الأخرى منطلقة في الليل ومع الفجر إلى هدفها، ونظرت باستغراب وأسى إلى هذه الدنيا أهي لا تزال كما هي؟ الناس يغدون ويروحون لا يدري بحالنا أحد، ألا يدري هؤلاء السائقون بما يحمل هذا الباص الصغير من بشر حجزوا عن الدنيا ومنعوا من كل شيء، وعذبوا أشد العذاب وهاهم ذاهبون إلى المجهول ربما إلى تدمر ألا تدرون؟ هكذا في جنح الظلام يتحرك الركب المسلح يقـــود أشخاصاً ليسوا والله بمجرمين، هل من مخبر للأهل بما جرى ويجري؟ هل من قائل إلى أين يـــذهب بنا؟ تجرأ أحد المعتقلين وسأل: إلى أين تذهبون بنا؟

فقال له عنصر المخابرات مشفقاً: بعدين بتعرف، وتذكر أبا سعيد فقد قال بعد عـــودة عناصـــر المخابرات من توصيل المجموعة السابقة: إنهم كانوا متضايقين جداً من إعادة تسفير المعـــتقلين إلى تدمر، وأنه بدا عليهم الوجوم والحزن وأسر بعضهم بعد العودة لأحد المعتقلين: اليـــوم الواحـــد بستين.. ولم أحفل بالأمر كثيراً كما لم أعره كبير اهتمام (ويا خبر بفلوس بكره يجيك ببلاش) كما يقول المثل الشعبي، فغداً نعرف وإن غداً لناظره قريب.

اليوم الأول

أشرقت الشمس ونحن سائرون وقد تحول اتجاه السير من شمال شرقي إلى شرقي تمامـــاً، وغـــزا الأرض نور الصباح، فأي صباح صباحنا؟ (رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) أي حال

سوف تكون عليه بقية اليوم؟ أبداً لم نكن نتوقع ما كان ينتظرنا من أهوال.. وهكذا بدت المعسكرات على الطريق، ثم شارفنا تدمر ودخلناها مع أول النهار، وشاهدنا عن بعد الآثار الرائعة لمدينة تدمر التاريخية، وذكرت زيارة بعيدة لهذه الأماكن أين أنا الآن منها؟ مررنا بسوق تدمر وإذا الناس يغدون ويروحون وقد فتحت المحال أبوابها والمقاهي وغيرها، وكنت أنظر من نافذة السيارة (وهذا أمر نادر الحدوث ومعاملة لم يحلم بها المعتقلون بعد ذلك، حيث كانوا يجبرونهم طول الطريق على طأطأة رؤوسهم حتى يضعوها على أرض المقعد الذي يجلسون عليه وضرب الخيزرانة والكبل مستمر طوال الطريق، وقد بقي رأس أحدهم يترّ قيحاً ودماً شهرين كاملين بعد تلك الرحلة الرهيبة. كنت أنظر إلى الناس يغدون ويروحون وكأني أقول لهم: ألا تعرفون ما تحمل هذه السيارة؟ نحن معتقلون جدد قادمون إلى سجن مدينتكم هذه.

ووصلنا إلى مدخل يحرسه عسكري بالقبعة الحمراء والسلاح الكامل.. أوقفت السيارات ولم يسمح لهذا بالتقدم حتى تقدم مساعد يضع القبعة الحمراء ويزيّن عضده بثلاث نجوم على رقعة حمراء كالدم، فتفحصّ الأوراق ثم ذهب إلى الحرس فأمره بفتح الباب وركب في السيارة الأمامية، ودخل رتل السيارات معتقل تدمر العسكري أو مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين.

كانت لحظات فاصلة بين مرحلتين مرحلة الاعتقال والتحقيق وسجون المخابرات وزنازينهم الرهيبة، ومرحلة السجن العسكري الذي لم نكن ندري عنه شيئاً (والذي فاق بهوله كل وصف) سمعت من البعض ومن أبي سعيد (وما أدراك ما أبو سعيد) إن المعتقلين في سجن تدمر يوضعون في مهاجع ضخمة في كل مهجع (١٠٠) معتقل وقال: إذا كان الأمر كذلك ففي هذا تسلية لنا حيث نتعرف على الناس ونسمع مشاكلهم فيمضي الوقت، وما درى أبو سعيد أن الكلام في سجن الموت جريمة لا تغتفر، وأنه سوف يجلس بل نجلس جميعاً صامتين وجلين يشغلنا الرعب والفزع والعذاب عن كل أمر سواه..

كانت هناك قوات عسكرية تحيط بالسجن من الخارج، معها المصفحات والأسلحة والعتاد وحولها الأسلاك الشائكة، وهم باللباس المبرقع الخاص بسرايا الدفاع.

مع العذاب في سجن تدمر العسكري

دخل رتل السيارات باب الثكنة العسكرية بعد أن أذن لهم ورافق السيارة الأولى المساعد ذو القبعة الحمراء وسارت السيارات إلى الأمام شمالاً مسافة (١٥٠م) ثم دارت نصف دورة إلى اليسار ووقفت أمام باب ضخم حائل اللون. كانت الأرض أمامه مفروشة بالإسفلت الأسود والجدران ترابية مغبرة ومن الباب الحديدي كانت تبدو درجات نازلة وأمام الباب كان يقف نفر

من الجنود بالقبعات الحمر (لباس الشرطة العسكرية) أمرونا بالنزول فقمنا إلى مصيرنا نحمل أغراضنا القليلة.

وقف عناصر دورية المخابرات التي قدمت بنا وأخذ مسؤول منهم بمفتاح صغير وأخذ يفك قيودنا ويوجهنا إلى مدخل السجن، فيشير لنا الشرطة بالدخول (كانت لحظات حاسمة ودعنا فيها الدنيا والناس والحياة خارج السجن.. ونحن لا ندري).

انطلقنا راكضين حتى دخلنا غرفة إلى يسار المدخل، ووقفنا نتأمل في هذه الغرفة في جدرانها التي كانت بيضاء، فإذا هي كأنما طليت بألوان شتى: السواد – القذارة، وهناك شعارات منها: نعم لبطل تشرين والجولان.. وصرخ أحدهم بصوت قاس وتلاه بسباب وأمر حاسم بالوقوف إلى جانب الجدران، فوقفنا..

ودخل نفر من الشرطة وأخذوا يضربوننا ضربات عنيفة كانت تسمع هبداتها، كما رأينا بعض إخواننا يقعون على الأرض، وأخذنا الألم والرهبة من هذه البداية الرعيبة.

تكامل دخول الدفعة وصرخ فينا صوت يقول بحقد وزجر وسباب: ولك يا.. كل واحد يسمع اسمه يقول (حاضر) ويرمي أغراضه لهون (وأشار إلى الجهة اليمنى) ويخرج فوراً وبسرعة.

وبدأت قراءة الأسماء، وسمعت اسمي.. واندفعت ألقي بأغراضي إلى الجهة التي أشار إليها، وعدوت خارجاً. كان هناك جلاد على الباب وبيده كرباج يوجه به ضرباً إلى غرفة مقابلة. دخلت الغرفة المقابلة، كان هناك اثنان من المساعدين أمام كل منهما دفتر، ومع أحدهما ورقة يقرأ فيها الأسماء، وسجل أحدهما اسمي وعملي وعنواني، وكان قبلي شاب طالب هندسة وقد سأله المساعد الثاني عن مهنته فقال: طالب هندسة بالجامعة، فأغاظه ذلك وأثاره، وقام يزعق، فدخل عسكري بكرباج وانهال على الشاب ضرباً، وخرجت أعدو كما أمروني ووجهني حامل الكرباج إلى باب في زاوية المكان ضمن سياج حديدي وعليه جلاد كان يضرب بكرباجه كل داخل وأكلت نصيبي من الكرباج ودخلت، فإذا نفر من الجلادين إلى يمين الباب يتلقون الداخل وبأيديهم الكرابيج فيصرخون فيه ويضربونه ويأمرونه: غمض عيونك، افتح ايديك، ويغلظ فيضربونه أكثر، ثم يصفونه مع غيره إلى الحائط، ويتناولون القادم الجديد. لم أفهم شيئاً، كان رأسي يدور بألف سؤال: لم كل هذا الزعيق والأوامر: أغمض عينيك مد ايديك.. روح تعال.. وكيف يتحرك الإنسان وهو مغمض عينيه؟ هذا ما يجب أن نتعلمه، وكيف يكون التعلم؟ بالضرب الرهيب والصراخ المرعب، كانت الضربات أليمة قاسية ولكن.. والخوف من المجهول كان أكبر من الألم.. كنت أقول: (يا رب ماذا يريدون ولم كل هذا؟) ويا ويل من يأتي بحركة أو ينبس بحرف يا ويله..

ولجهلي حركت رأسي ومددت يدي أمسح عيني فانقضّ عليّ عسكري يصرخ بي مـالا أفهمـه وكلما نظرت إليه زاد في الصراخ، وتناولوني بالكرابيج ضرباً، وصراخاً.

حفل عذاب الاستقبال

ولما اكتمل العدد ساقونا في صف طويل متعرج لا يتركونه يسير إلا بالضرب حتى دخلنا إلى باحة كبيرة مفروشة بالإسفلت وصفونا على الجدار واحداً واحداً، وأمرونا أن نخلع ملابسنا كنا في آب فصل الحر الشديد، لذلك كانت الثياب خفيفة جداً فنزعناها بسرعة..

وجاء شخص يسمونه (البلدية) فجمع أحذيتنا وأخذها وبدأ عندها التفتيش أمسك أحدهم بشعر لحيتي ينتف منه ومن صدري الخصلة تلو الخصلة، ولما تأوهت لكمني على وجهي.

أمرونا بإنزال اللباس الداخلي ففعلنا وسلقونا بالكرابيج على مؤخراتنا مـع البـصق والكـلام الفاجر، وبدأت الحفلة الرهيبة تشكلت مجموعتان للتعذيب وفرقـة جوالـة والكـل مـزودون بالكرابيج. أوقفونا واحداً واحداً ووجوهنا إلى الجدار وتنقض المجموعة على الواحـد بالـضرب الرهيب وتقوده إلى الدولاب فيضعونه فيه ويضبطون رجليه بعصا الفلقة ومن ثم ينهال عليه ثلاثة جلادين بالضرب الشديد على رجليه فكأنها النار المحرقة تكوي العظام، ويشتد الألم ويتعالى صراخ المعذب ويتأوه متألماً شاكياً، ولكن الضرب يشتد على المعتقل في دولاب التعـذيب والكـرابيج تطحنه فيصيح ملء الفم زعيقاً وعويلاً هو أبعد ما يكون عن صوت البشر وينفتح الفم إلى آخره فيقلمونه الحذاء ويدسونه في فمه، فإذا أبعد وجهه ركلوا رأسه وداسوا رقبته، ويعلـو الزعيـق والصراخ من شدة الألم والعذاب في تلك الباحة حتى يضج به المكان فينبري الرقيب العتيد يصرخ زاجراً ناهياً بصوت مدو يأمر بالسكوت: (سكوت ولك) وكأنه قائد أوركسترا يضبط الـنغم في حفلة صاخبة يستعمل الصراخ الناهر بدل عصا الأوركسترا فيلجم الخـوف الأفـواه وتختنـق صرخات الألم.

تذكرت في ذلك الموقف أصحاب الأخدود والنار ذات الوقود وإلقاء المؤمنين في وقدة النار ومـا نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، كانت عناصر الفرقة الجوالة تطوف على الـواقفين المنتظرين بسيل من الضربات العارمة تجعل الواحد يحن إلى دولاب الموت أن يدركـه، فـسمع صوت الكرباج الثقيل (وهو عبارة عن قشاط دبابة) ينهدّ على ظهر المعذب أو على رأسه فيرتجف ويكاد يصعق، ويئن ويصرخ بالصوت المخنوق المرة تلو الأخرى.

كنت أقف ووجهي إلى الجدار أنتظر دوري في الدولاب الرهيب، وأناجي ربي: يا سميع يا بصير يا من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يا رب رحمتك غوثك.. هاهم الجلادون المجرمون جنود الشيطان ينقضون على عبادك المستضعفين بالعذاب.. يا الله يا الله..

وجاء دوري وطحنني الجلادون بكرابيجهم وأنزلوني في الدولاب واشتد البلاء بضرب رهيب وثلاثة من الجلادين عاري الصدور والظهور وبأيديهم الكرابيج كأنها اللهب، يقف الواحد منهم مباعدا رجليه جاثياً على ركبتيه رافعاً يده بالكرباج إلى الأعلى والوراء، حتى ترى عفرة إبطه، وينزل به كأنه الصاعقة الماحقة، تريد أن تدمّر وتحطّم ولكن لطف الله أعظم.

ويصرخ الواحد منهم بأعلى صوته وكأنه يحارب في معركة قد حمي فيها الوطيس، واحمرت الحدق، ونحن، عبيد الله المستسلمين لقضائه، لا ترحمنا سياطهم ولا ترأف بنا قلوبهم/ وكأنهم جنوا وركبتهم العفاريت والشياطين فانقضّوا علينا وقد فقدوا العقول فلا عقول.

كان الشاب الصغير إسماعيل يصرخ متألماً باكياً شاكياً مستغرباً يقول: إيش بتريدوا دخيلكن؟ أما نبيل فقد كان يعلن براءته مالي علاقة والله ما عملت شيء دخليكن أنا بريء، وهم يزودونه بالكرابيج ويلكمونه ويرفسونه ثم ألقوه أرضاً وأوسعوه ركلاً وضرباً حتى سالت الدماء من وجهه وشفتيه وغاب عن الوعي أو كاد فأدخلوه في الدولاب وأذاقوه من العذاب ثم أقاموه بعد أن تعبوا وكلّوا وأنهكوه ووجهوه إلى الجدار حيث العصا الرهيبة في الانتظار تفلق الرؤوس وتحطم الظهور وتدفع من انتهى أجله إلى القبور.

صبرت قليلاً على الضرب والتعذيب ولكن رجلي أصبحتا وكأن فيهما جمر نار يحرق العظام، فنفد الصبر وضاق بي الأمر وكدت أغيب عن الصواب وصرخت مرة ومرات ثم انفتح فمي الزعيق فما شعرت إلا وحذاء ضخم يصك أسناني ويكاد يسد حلقي ولكني كنت في شغل عنه وغبت عن الوجود، فما دريت إلا وأنا أساق دفعاً وركلاً إلى مكان ما وأبصرت أمامي نفراً من إخواني بعضهم واقع على الأرض، والبعض يقفز أو يتحرك في حال مأساوية، دماء نازفة ووجوه ملأى بالجروح وأرجل قد تمزقت وسالت منها الدماء وصراخ يقطع الأكباد.

وصرخ فيّ عسكري جلاد، وانقض آخر بعصاه فحطم بها ظهري فوقعت بين الموت والحياة وصرخت صرخة انطلقت مخنوقة من صدري الذي ظننته قد انشق نصفين (يا الله يا الله) وبادرني آخر بالزعيق لكي أستجيب وأقوم فما استطعت ولكن الركل والضرب أجبراني على القيام فقمت وكنت أظنني لا أقوم. وجاء شخص بالماء فرشقنا به وإذا بي قرب نبيل وهو يبكي ويتمسك بي قائلاً:

- سلّم لي على أهلي أنا بدي أموت..

فقلت: اصبر يا رجل..

وإذا بالصراخ يأخذنا من كل جانب.. واستدعانا الرقيب الكبير فإذا به جالس على كرسي في الظل بارز الصدر مستقيم الظهر منفوش كالديك فأخذ يستجوبنا:

- إيش كنتو عم تحكو يا...؟

كان عقله المريض يصوّر له أشياء غريبة، لابد أننا نتآمر عليهم أو على سلامة النظام. قلت: إنــه يقول لي أنا بدي موت سلّم على أهلي.

فصرخ بغضب: (كذاب ولك) إيش كنتو عم تحكوا؟

قال نبيل: والله يا سيدي هيك قلتلو..

- كذابين ولك حقراء..

ثم أشار للجلاد وقال:

(سلخن لها الكلاب..) وانهال علينا مارد عاري الصدر نحيل الوجه مليء الجسم، فكان وجهــه وجه فأر وجسمه جسم حمار وإنها لسحنة معروفة ولهجة غير خافية وهو يقول: (متحكــوا يــا حقيرين يا...) وانهال عليّ ضرباً حتى وقعت على الأرض أصرخ، فلم يتركني حتى شفى غيظــه وحقده مني وأعادني إلى مكاني مع نبيل بعد أن ضربه أيضاً ضرباً شديداً.

وجاء من يرش الماء علينا ويسمونه (البلدية) كان كما علمنا بعد ذلك، سجيناً قضائياً من سجن العسكريين يعمل هنا في الخدمة التي يسمونه (البلدية) ولا أدري ممن بدرت بادرة خير ولعلها من نوع الرأفة بالحيوانات فقال أحدهم للبلدية: اسقيه.

كانت شفتاي مشققتين من الضرب، وحلقي جافاً من العطش، والصراخ واللهاث وحالي بالغــة السوء، فناولني (البلدية) سطلاً من البلاستيك فيه ماء قذر وسخ قائلاً: تفضل.. فاندفعت أشرب منه بضع جرعات ولم أعده إليه بل ناولته لنبيل فشرب وسقى شخصاً آخر أو شخصين. ثم أخذوا الماء ولم يسقوا الباقين، وكنا بلا طعام ولا شراب منذ أربع عشرة ساعة تقريباً. كانــت كلمــة (تفضل) ترن في سمعي وصوت واجف يقولها وكأنه يقول: اشرب يا أخي فداك روحي.

أربع ساعات من القهر والعذاب والتحطيم لا يعلم ما قاسينا فيها إلا الله والذي عاشها من نزلاء تدمر، وكل معتقل يأتي تدمر لابد أن يطبق له الاستقبال اللعين فتطحنه رحى العــذاب ويــذوق الموت في ذلك الدولاب، وينظر بوحشية بني البشر التي فاقت وحشية وحوش الغــاب ســوءاً وضراوة وغدراً.

أربع ساعات مرت والموت يحوم فيها فوقنا تصكح آذاننا أصوات غريبة رهيبة، كرابيج تعــوي وتصفع الأقدام والرؤوس والظهور بلطمات هائلات يلقي صوتها الرعب والهلع في قلب أشــجع الشجعان.

وساقونا بعد ذلك في صف طويل متموج واحداً واحداً ونحن منكسو الرؤوس محنيو الظهور، وهم يضربوننا بالكرابيج. أدخلونا بعد سين وجيم مهجعاً طويلاً فاندفعنا فيه إلى أقصى مكان نتــزاحم

على الحائط أو الزوايا البعيدة بعد أن وضعنا الجرحى جانباً، وأغلق الباب وسمعنا صوت قفله وتنفسنا الصعداء وثبنا إلى أنفسنا وأخذنا نجول بأبصارنا في أجسامنا وفي جنبات المكان. وتعالت تنهدات وآهات وتوجعات وتكلم البعض، وإذا بصراخ مخيف يأتي من جهة الباب:

- ولك يا حقيرين يا... بدون صوت ولك يا... بلا صوت والله لندبحكن ونشرب دمكن يا.. بلا صوت..

وانكفأنا مبتعدين خائفين، وخمد الكلام في الأفواه وصبرنا وقتاً أطول واجمين هلعين. نظرت فيمن حولي.. كان كل فرد في حالة رهيبة من الألم والتعب والإرهاق، وإذا بأحدهم يضم آخر ويبكي بكاء مراً فانهمرت من عيني الدموع، وأمسكت بمن كان قربي ونظرت في وجهه، كان وجهاً دامياً باكياً فناديته هامساً:

- يا أخي..

كان ذاهلاً فأخذته وضممته إلى صدري. إنها الرحمة التي أودعها الله في قلوب عباده..

وناجيت ربي قائلاً:

- يا رب إن كانت عواطف الخير والرحمة قد عدمت وجفّت ينابيعها في قلوب الناس، فها هي قلوبنا تملأ الدنيا بحب الخير والشوق إليه وإلى عدالتك.. يا رب السماء وإلى رحمتك يا إله العالمين، وإن غفلت عنا الدنيا ولم يعرف بأمرنا الناس ولم يرحمنا البشر فأنت يا رب بحالنا عليم، ورحمتك أوسع لنا يا أرحم الراحمين.

التعليمات.. أو خطبة المساعد

لم نلبث إلا قليلاً حتى جاؤوا.. سمعنا صوت المفتاح في قفل الباب، فاندفعنا إلى أقصى المكان نحتمي ببعضنا بعضاً وقد أخذ الخوف مأخذه منا، وفتح الباب واندفع الجلادون إلينا يصرخون بحقد وجنون وانهالوا علينا ضرباً رهيباً بالكرابيج حتى كلّت أيديهم وحتى علا الصراخ واشتدّ الكرب وجاء صوت رفيع يأمر قائلاً:

- يكفي شرطة ثم تابع: الجميع واقفاً.

فوقف كل من له رجلان فالخوف فوق الألم، وكنا ندير وجوهنا إلى الحائط وظهورنا إليهم، وجاء الأمر: وراء در، وأمر آخر لم نطعه لغرابته: فتح عاينك، تطلع لهون، ولكن مع تكرار الأمر فتحنا عيوننا ونظرنا فإذا بضعة عشر جلاداً باللباس العسكري والقبعات الحمراء والكرابيج في أيديهم وكان المتكلم يلبس بدلة عسكرية مكوية وعلى رأسه القبعة الحمراء أيضاً وعلى عضده نجمات ثلاث، وتكلم بصوت مدو فقال:

- انتو جيتو لهون باجريكن ما حدا جابكن يا حقراء يا... بتعرفوا وين هون؟ ما بتعرفوا.. هـون سجن عسكري، يعني نظام عسكري يعني بدنا نفطركم قتل، ونغديكم قتل، ونعشيكم قتل، مسموح لنا نقتل (٢٠) منكم (كان هذا فعلاً على أقل تقدير كما تبين لنا فيما بعد) يا حقراء.. يا.. ممنوع الكلام الصوت ممنوع، الكلام مع الشرطة ممنوع، تفتيح الأعين ممنوع، السهر ممنوع، بدكن تستلموا الحكم ما هيك استلموا البطانيات يا حقراء، لولا سباط الحزب (يعني حذاء الحزب) ما شبعتوا الخبز.

- ثم أعطى بعد ذلك تعليمات معينة مؤادها أن نرفع رؤوسنا ووجوهنا إلى السقف وأن نغمض أعيننا ونقف باستعداد كلما فتح باب المهجع، وفي حضرة الشرطة والرقباء. ووضعوا لنا رئيس مهجع من العسكريين المعتقلين معنا. فإذا سمع صوت المفتاح في القفل فإنه يصرخ: انتبه.. وعندها يسارع كل واحد إلى مكانه بأقصى سرعة ويقف بحالة انتباه ويعطي رئيس المهجع إيعاز: استاعد.. فيستعد الجميع، فيقدم رئيس المهجع الصف قائلاً: المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب، ويكون الجميع بوضعية الاستعداد والوجه مرفوع للسقف والأعين مغمضة.

أنهى المساعد خطبته والتفت إلى ما حوله فأيده الجلادون بكرابيجهم وزمجرتهم وسبابهم ثم خرجوا.. كنا في موقف لا نحسد عليه، ولم يكن لنا إلا خيار الانفلاق على حسب رأيه ولكني كنت أفكر: هل مات الضمير؟ هل فقد العقل وتحطم المنطق؟ هل انعدمت القيم كل القيم؟ ولم يبق شيء.

بعد مضي حوالي الساعتين تقريباً، عاد إلينا الجلادون أيضاً وصرخ أحدهم بصوت مرعب: ولك حقراء.. وأخذوا يسبون ويشتمون.

وسارعنا نطبق تعليمات رئيس الجلادين، وذلك بأن سارعنا إلى أماكننا ووقفنا باستعداد، ورفعنا رؤوسنا إلى الأعلى وأغمضنا أعيننا!! وسلمنا أمرنا لمن بيده الأمر.

وقدم أحد المعتقلين وهو الذي سموه (رئيس المهجع) الصف قائلاً: استارح.. استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.. وهكذا بدأت في حياتنا تلك الجملة المكررة الرهيبة حين دخول الجلادين وحين خروجهم، ورافقت هذه الجملة بعد ذلك طوال مدة وجودنا في سجن تدمر الرهيب تتكرر في الصباح والمساء، والضحى والظهر والعصر والليل والنهار.. وما أن نسمعها من بعيد حتى يسيطر علينا الخوف ويهيمن الرعب والفزع، فننطلق ضارعين متوسلين مستغيثين.. كان معنى هذه اللازمة أن جلادي سجن الموت قد جاؤوا أو قل جاء الشر والقهر والعذاب في صور غير معلومة.

ثم ما لبث أن اندفع الجلادون إلى الداخل كالوحوش الضارية يصرخون ويشتمون ويأمروننا بفتح أيدينا للضرب، ويضربوننا عليها بالكرابيج بقسوة، مع الأمر بتغميض العيون. وتعالى الصراخ من الجلادين بالنهر والسباب والزجر، ومن المعذبين بالشكاية. وكان الجلادون خلال ذلك لا يرحمون مريضاً أو طريحاً لا يستطيع القيام بل يضربونه بالكرباج بقوة وقسوة ويأمرونه بالقيام مع السباب فإذا رأوه بين الموت والحياة زادوا عليه ضرباً وركلاً وأظهروا التشفي ويصرخون:

- موت يا حقير.. الله لا يرحكم.. فطوس يا كلب..

ووقع بعض المعذبين على الأرض فلم يتركوهم بل اندفعوا يضربونهم ويرفسونهم ويأمرونهم بالقيام.

وقرع الباب.. قرعة الرقيب حامل المفاتيح، واستدعى الجلادين، فخرجوا وهم يشتمون ويكفرون ويسبون الله ومحمداً والدين والإسلام والمسلمين، وقبل أن يخرجوا عادوا وكأنهم تذكروا شيئاً فطلبوا رئيس المهجع وأمروه بالوقوف باستعداد رافع الرأس مغمض العينين، فوقف أمامهم كذلك، فاندفع إليه العسكري الجاهل الحاقد فصفعه على وجهه بقسوة ولكمه في بطنه، وانقضّ الجلاد الآخر عليه بالكرباج يضربه بقسوة حتى ألقوه أرضاً، حدث ذلك في وقت قصير، حيث أنهم اندفعوا يضربونه بسرعة وقسوة وهم يصرخون ويزمجرون وتركوه ملقى على الأرض وخرجوا فرحين هازئين. وكان هذا الشاب مثقفاً يحمل شهادة عالية في الأدب الإنكليزي، وهو أيضاً ضابط مجند في الجيش، أديب كريم ذو رجولة وأخلاق، ولكن ماذا أقول؟ إنما هي محنة وبلاء من الله يمتحن به هذه الأمة. كان هناك طعام قد أدخل ولكن لم يلتفت إليه أحد.

حالات

بعد خروج الجلادين كان الأخ (م ع) أبو أنس مغمى عليه ملقى في الزاوية وهو طالب جامعي في فرع الهندسة الكهربائية وفي السنوات الأخيرة.. وعمره (٢٣) عاماً وقد خصوه بأكبر قسط من العذاب، ويبدو أنهم فطنوا لما ذكره عند تسجيل الأسماء عن عمله، فكان ذلك دافعاً لزيادة العذاب عليه وهذه فلتة من فلتات عبقرية الجلادين.. لا أحد يدري من أي مبدأ استوحوا القاعدة التي يتبعونها في معاقبة وتعذيب حملة الشهادات دون غيرهم، لذلك كان الأخ المهندس (ش س) يجيب إذا سأله الجلادون عن عمله بعد ذلك يقول: نصاب عواميد كهرباء.. ولم يكن ذلك ليصرف عنه العذاب، ولكنه كان ينجيه من غضبة الجلادين. دعاني بعضهم أن أقوم لأنظر حال الأخ أبي أنس..

فقمت إلى الأخ أغالب ما بي.. كان أبو أنس قد استفاق لتوّه من إغماءته وكان منهكاً مرهقاً.. قلت:

- كيف حالك يا أخي..؟

قال: الحمد لله..

وجاء شاب كان يجلس قريباً منه كان في حالة سيئة جداً: وجه متعب مشوّه، وجسم منهك وكشف القميص عن منظر مثير، ظهر تمعط جلده وتسلخ وظهرت فيه جروح غائرة ولحوم مشرشرة، وكان يترف قيماً ودماً.. حتى صبغ القميص بل غمره..

كان هذا الشاب يدعى (ع) وهو من جهات الساحل السوري، وعمره ستة عشر عاماً..

قال: شفلي ظهري أستاذ..

ورأيت ظهره واعتصر الألم قلبي، لأني لم أكن أستطيع له شيئاً.

الطعام

وجاء أحد الأخوة يدعوننا إلى الطعام، فرد عليه سليم: أنا ما بدي آكل بدي موت.. فعاتبته: لا يا أخي قتل النفس حرام، قم وكل ومن يوم إلى يوم بيفرجها الحي القيوم.

وكان الطعام عبارة عن وعاءين في أحدهما أرز مسلوق (مطبوخ) وفي الآخر مرقة ماء البندورة وفيها نوع من الخضار وبعض الخبز.

ولما لم يلتفت أحد إلى الطعام، ولم يقم أي واحد إليه، رأى بعض الأخوة أنه لابد من أن يتقوى كل أخ بشيء من طعام يسد به رمقه ويقيم به صلبه، فقام اثنان من الأخوة يتحاملان وأخذا يدعوان الأخوة بالدور إلى الطعام وكانا يقابلان بالاستغراب والزهادة والرفض، فيؤكدان الطلب ويصران عليه: لابد من الطعام ولو لقمة واحدة، ولم يكن لدينا صحون ولا ملاعق ولا أي نوع من الأوعية، فقد أخذت منها الصحون البلاستيكية والملاعق والأكواب البلاستيكية، وفراشي الأسنان وكل شيء.

الأذان

وفي هذه المرة.. جاءت الرحمة على صورة صوت غير غريب انطلق من مكان غير بعيد.. صوت مدو مجلجل.. راسخ كالجبال عظيم ليس له مثال إلا أن يكون ترتيلاً من تنزيل.. وهو يعلن أمراً بدا في ذلك الوقت والمكان غريباً رغم بداهته.. وهائلاً رغم وضوحه وفصاحته..

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.. نداء رباني سماوي إلهي يأتينا من العالم الآخر من دنيا بعدت عنا، دنيا يكاد يصعب علينا تصورها دنيا الحرية، ومن جو العبادة المسجدي النوراني ينطلق هذا الصوت في أجواء سجن تدمر الملتهبة بالحقد والغل والكيد والغش والبذاءة

والأذى والعذاب، فيطعن الباطل في الصميم، ويشفي صدور قوم مؤمنين، ويسقي الظامئين الذين كاد يهلكهم العطش رشفات باردات عذاباً.. صوت أرق وأندى من مناغاة الأم لطفلها، وأحلى من صوت الحمامة للحزين..

المهجع

كان منع النظر وتفتيح الأعين يحول بيننا وبين معرفة ما حولنا من أشياء، كنا لا نعرف سوى المهجع، وكان المهجع بطول (١٤) م وعرض (٤م) وله أربع نوافذ من كل جهة سعة كل نافذة ٨٠ × ٨٠سم ترتفع عن الأرض حوالي (٣م) وهناك فتحتان في السقف ١×١م وكل النوافذ والفتحات مشبكة بالحديد بكثافة، وكانت أرض المهجع مغطاة بطبقة من الغبار الرملي كثيفة وهي محفرة في كثير من المواضع، وقد أمرنا الرقيب محقراً ومتعالياً:

- كنسوه بلحاكم يا...

وكانت لنا بالفعل لحى طويلة حيث أننا لم نحلق منذ مدة طويلة، لأن عناصر المخابرات كانوا يمنعون عنا أدوات الحلاقة والحلاقين..

وكانت جدران المهجع مطلية بطلاء أخضر فاتح إلى مستوى (١,٥)م ثم بطلاء أبيض حتى السقف، وقد بدا واضحاً أن عملية تنظيف وتعزيل وطلاء قد جرت حديثاً للمهجع وأنه لم يستعمل بعدها أبداً، فهناك آثار وبقايا الطلاء على الأرض.

وكان للمهجع دورة مياه أخذت من طوله بعرض (٢م) فيها مرحاضان أحدهما معطل ومغسلة صنبورها معطل أيضاً، والأرض في دورة المياه مشققة وكسرة.

كنت قد سمعت قبل اعتقالي بفترة وجيزة بمجزرة تدمر الرهيبة التي قتل فيها مالا يقل عن (١٠٠٠) معتقل من الأخوان المسلمين، وذلك في سجن تدمر العسكري هذا، فقمت أنظر في نواحي المهجع لعلي أرى آثار ذلك الحدث الذي سمعت عنه، فكان أول ما لفت نظري الجدران. كان في الجدران وعلى مستوى (١٥٠)سم وما دون وخاصة الجهات الداخلية البعيدة عن الباب حفر صغيرة متناثرة متجمعة أو متباعدة بقطر (١)سم وقد بدا واضحاً أنها قد حشيت بالجبس وطليت بعد ذلك، وعثرت في أحد الشقوق في المنافع القريبة من الباب على ظرف فارغ لطلقة رصاص، وفي اليوم الثاني وخلال إزالتي للغبار وتنظيف المكان وجدت في الأرض المحفرة لوناً داكناً بين الأسود والرمادي، تفحصته ملياً وشممته، إنه لم يكن بعيداً عما توقعت، بل كان شاهداً حقيقياً عما جرى في هذا المكان من جريمة.. بل كل الشواهد تحكي قصة رهيبة ليست أحداثها بعيدة، ولا غابرة بل هي قريبة العهد.

إذا هذه الأيدي التي تمتد إلينا بالأذى أيد آثمة، إنها ملطخة بالدماء.. وما يدريك ماذا يخبئون لنا؟ وهذه أفعالهم وهذه جريمتهم وهذا حقدهم..

حالات صعبة

في ذلك الوقت كان عندنا بعض الحالات الصعبة منها: حالة الأخ عزام الحمصي كان مصاباً بمرض القلب، فما أن جاء دوره في حفل الاستقبال وأنزل في الدولاب حتى ضاق صدره وتسارع نبضه وخف ضغطه وغاب عن الوعي، ولم يشفهم ما به فأنزلوه في الدولاب وضربوه ونهروه وزجروه وسبوه، ولكنهم كانوا يضربون في حديد بارد وقد أنجاه الله ولكنه لم يكن يستطيع المشي ولا الحركة مما كان يضطرنا إلى حمله، فكنا نحمله أينما ذهبنا كما نحمله إلى دورة المياه ونعيده منها، فإذا جاء الجلادون ودخلوا علينا هجموا عليه يضربونه وهو مضطجع لا يستطيع القيام ويسبونه ويحقرونه ويستعجلون موته.

وكان هناك أخ يدعى عثمان من جهات الساحل مصاب بمرض الربو، فكان إذا اشتد العذاب حوله أو باشر الجلادون بضربه أصيب بحالة اختناق فيقع على الأرض وقد تشنج جسمه وضعف تنفسه وشخصت عيناه وظهر الزبد على فمه مع ارتجاف كلي في جسمه وأطرافه، ويفقد الحس والحركة.

وكان هناك الأخ عصام وكان مشوّه الجسم والوجه، وكان ظهره خاصة في حالة مؤلمة للغاية، وقد تقيح وتورم كما ظهر الورم في أنحاء مختلفة من جسمه في قدميه ويديه ووجهه، فكان ممن يخشى عليهم من الموت.

وكان الأخ أبو سعيد مصاباً في رجليه بتمزق شديد إضافة إلى رضوض مختلفة في نواحي جسمه نتيجة التعذيب الوحشي الذي تعرض له، وقد حاولنا علاج جروحه ولكن لم يؤد ربطها بقطع الثياب إلى أن تعفن الجروح وتورمها واشتداد آلامها، حتى غدت كريهة الرائحة.

وكان الأخ أبو بدر الرجل المؤمن الصابر الذي أمره الجلادون بأن لا يفتح فمه أبداً خلال عذاب الاستقبال، فوضع يده في فمه وعض عليها وأخذوا يضربونه يقول: وأنا صامت وهم مندفعون قد أعجبهم الأمر وارتاحوا له حتى عددت ثمانين ضربة ثم همت في العد وغبت عن الوعي، فكان أبو بدر لا يستطيع المشي على قدميه المنتفختين ورماً وقد تمزق الجلد في كثير من نواحيهما، أما يداه فكانتا زرقاوين متورمتين حتى الكوع، وكان الوجه الأنسي للساعد أسود كالحاً منتفخاً وقد تمزق جلد الرسغين وأخذ ينز بالماء والدم، فكان أن جهز قطعتي قماش يلف بهما رسغيه ليحميهما من الضربات الجديدة. تألمت لحاله وغلبني القهر والألم وهو يروي لي قصته وقلت في نفسي: حتى الصراخ في حال الألم ممنوع؟ أيمنع الإنسان أن يصرخ متألماً؟

وهناك الأخ أبو مالك الذي كان أشد ما أثارهم أنه طالب هندسة في الجامعة، ولم يكن الوحيد ولكن آذان الجلادين التقطت هذا التعريف دون غيره، ولكننا بعد ذلك كنا حريصين على أن نبتعد تماماً عن أي تعريف حقيقي بأعمالنا، وقد ساعدنا في ذلك نظام السجن ذاته الذي كان يمنع كل الجلادين من رقباء وعرفاء وشرطة الكلام مع المساجين إلا بالنهر والضرب، وكان ذلك لغايات أخرى هي منع أية علاقة أو معرفة بالمعتقلين وظروف اعتقالهم وماهية تهمهم.

ومن ناحية أخرى حتى لا يتأثر بهم الجلادون (ويعدون) بآرائهم المتطرفة، كما أن إغماض الأعين جعل له مبرر يزيد في حقد الجلادين وهو أن هؤلاء المعتقلين مجرمون وربما ينجو منهم أحد فلا يجوز أن يروكم ولا يعرفوكم حتى لا تتعرضوا لانتقامهم.

كان الأخ أبو أنس مريضاً بعد كل ذلك العذاب، وإن كان يستطيع السير بصعوبة جداً..

وكان الأخ أسامة الشاب ابن الثامنة عشرة في حالة سيئة من التشويه والجروح.

كذلك كان المعتقل نبيل ينزف الدم من فمه وأنفه، وقد تورم وجهه حتى غابت عيناه، إضافة إلى ورم رجليه ويديه وآلام شديد في سائر جسمه.

وفي اليوم الثاني لم يكن أحد يستطيع السير إلا بصعوبة كبيرة، وكانت حبات الرمل في أرض المهجع نحس كأنها حسك الحديد ولم يكن أحد يستطيع إطباق أي من يديه لما كان فيهما من ورم ووجوهنا كانت ملأى بالخطوط الزرقاء والحمراء والهالات السوداء.

وكان الأخ المعتقل أبو نجيب مكسور الكاحل بضربة عصا، فكان لا يستطيع المشي، فإذا أجبر حجل على رجل واحدة مستنداً إلى كتف معتقل آخر.

أول ليلة في تدمر

جاء المساء ونحن جالسون كل في مكانه، يذكر الله ويدعوه ويسبحه.. وفي السابعة مساء جاء الجلادون يصرخون، دخلوا علينا المهجع وضربونا بالكرابيج وأشبعونا سباباً وشتائم وتهديداً وكفراً.. وخرجوا يغنون ويصخبون، وأدخل خلال ذلك طعام العشاء ولكن لم يلتفت إليه أحد..

اضطجعنا على الأرض دون أي وطاء أو غطاء ووضع كل واحد منا حذاءه تحت رأسه.. أخذت أفكر في حصيلة يومي من أين أبدأ؟ وأين ينتهي؟ كانت صورة سجن تدمر غير واضحة في ذهني، وكنت أول المستهينين به. أقول لمن يبدي قلقه وخوفه من سجن تدمر: وهل هو إلا سجن كباقي السجون؟ خلوة مع الله..

لم أكن أعلم أي غدر فيه وأي كيد؟ لم نكن نظن أنه يمكن أن توجه إلينا كلمة سيئة، فإذا بنا الآن في حالة أقل ما توصف به أنها سيئة جداً من نواح كثيرة صحية ومعاشيه وأمنية وإنسانية.. كنت أشك كثيراً في أنه يمكن أن أوخذ هكذا بالظنة.

كنت أشك في أن تأخذ الدولة الناس فتعاقبهم وتسدهم هكذا بالشبهة والظنون، على غير ذنب واضح معروف أو ثابت، ولكن التاريخ يذكر لنا أن ظلم الحكام الطاغين كان بلا حدود لا يفرقون بين برئ أو مذنب، فها هو صاحب الأخدود يلقي المؤمنين في النار وكل ذنبهم أنهم آمنوا بالله رب العالمين، ليس ذلك صورة ماضية ولكنه خط فرعوني نمرودي أبو جهلي متجدد يسير عليه كل عتل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب..

كم كنت حسن الظن بل كم كنا حسني الظن بل لم نأخذ العبرة من فعل الطغاة السابقين، ولا من القرآن الكريم وهو يقول: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة).

فهاهم يظهرون وها هي أيديهم المجرمة وخططهم الماكرة لا تراعي عهداً ولا قانوناً ولا مبدأ، بل تتبع قانون الحقد ومبدأ الغدر، وتتخذ سبيل الظلم والفجور.. لو درسنا كتاب الله لعرفنا ذلك من قبل..

فلا يجب أن نخدع بكلامهم اللين وبهرجهم الزائف، وها نحن نلمس النتيجة وهاهم يطعنوننا في الظهر، اللهم خذ على أيديهم وأذلهم واصرف عنا كيدهم وأخذت أدعو..

انطلق فجأة صوت يصرخ بقوة.. في وسط ظلام الليل: هوووه هوووه هوووه.. ينطلق صارخاً بقوة فيدوي في جنبات سجن تدمر العسكري الرهيب، فتجاوبه أصوات أخرى بصراخ أقوى: هييه هييه هييه.. هوووه هوووه.. هييه..

تساءلنا في استغراب ما هذا؟.. ماذا فيك بعد يا سجن تدمر من سوء تظهره؟.. وتكررت الأصوات وكثرت في أذهاننا التساؤلات..؟

وكان أحد الأخوة قد تأخر عن أداء صلاة العشاء فقام يصليها والوقت لم يجاوز العاشرة مساء.. وإذا بصوت يصرخ فيه بقسوة وحقد ولؤم: ولك حقير شو متسوي يا.. والله لأفعل.. وكأنه ضبطه في جرم رهيب.

تدمر وسجنها

تدمر مدينة تاريخية عريقة، أشهر ملوكها أذينة وزوجته زنوبيا وآثارها من أجمل الآثار في الدنيا بمعابدها الرومانية وأعمدتها الرائعة التي لا تزال قائمة على مرور الأيام.

أما الآن فهي مدينة صغيرة لا يزيد سكانها عن (١٠) آلاف نسمة، وتقع إلى الجنوب الشرقي من الآثار المذكورة، وفي الجهة الشرقية الشمالية من تدمر توجد ثكنة عسكرية واسعة يحرسها رجال الشرطة العسكرية ذوو القبعات الحمر، وإن السائر في جنبات تدمر التاريخية إذا اتجه شرقاً جاعلاً المدينة عن يمينه فلن يسير طويلاً حتى يجد أمامه مدرسة وملعب كرة في العراء بجانبها، ومن ثم جدراناً عالية ذات لون ترابي طويلة، ومن وراء هذه الجدران تبدو أبنية ممتدة كثيرة تساير الجدران

الخارجية، وسوف يرى على أسطح هذه الأبنية التي لها سياج بارتفاع متر واحد تقريباً حارسين يتجولان أحدهما في الزاوية الجنوبية، والثاني على بعد (١٠٠م) إلى الشمال منه. ولكل منهما غرفة صغيرة يأوي إليها بعض الأحيان

ولكن أحداً لا يستطيع الاقتراب من هذه الجدران، فحولها يتمركز عدد كبير من العساكر من سرايا الدفاع ذوي اللباس المموّه وهي تابعة لرفعت أسد، وقد أقامت خيامها وأحاطت نفسها بالأسلاك الشائكة، وهيأت المتاريس ومعها المصفحات بمدافعها الرشاشة.

فما هي الأبنية الطويلة الممتدة؟ وماذا يوجد فيها؟ إنها مهاجع سجن تدمر وفيها الآلاف من المعتقلين المساكين وهم في وضع بائس رهيب، يعيشون تحت ضغط الرعب والإرهاب والقسوة، مهددين بالموت من كل جانب.

هذا هو سجن تدمر العسكري أو ما سمي مؤخراً بـ : مركز التطهير الوطني لتصفية الأخوان المسلمين. وداخل هذه الجدران والمهاجع حدثت بتاريخ ١٩٨٠/٦/٢٧ أفظع مجزرة في العصر الحديث لأنها تميزت بقتل السجناء العزل المستسلمين، وقد استغرقت ساعة من الزمن، قتل فيها ألف معتقل تقريباً دفعة واحدة وأكثر هؤلاء من العلماء والأطباء والمهندسين والمحامين والمدرسين، وهم من خيرة رجال سوريا علماً ودراية.. وفيها الطلاب والأحداث الذين اتهموا بحمل السلاح في وجه حافظ أسد.

ويستقر اليوم في مهاجع سجن تدمر العسكري هذا أكثر من (٥٠٠٠) خمسة آلاف معتقل من كل أنحاء سوريا فيهم كبار السن (٦٠ – ٧٠) سنة والعجزة من مقطوعي الأطراف والمشلولين والأحداث دون سن (١٨) سنة وهو عدد كبير يزيد على (٤٠٠) حدث وفيهم المرضى بل كلهم مرضى بمختلف الأمراض والأوبئة وأولها نقص التغذية والجرب والإسهالات والسل وغيرها.

وهؤلاء المعتقلين يعذبون في الصباح والمساء، في الليل والنهار، في كل دقيقة، بمختلف الأشكال والصور ويعيشون في رعب دائم وقهر شديد ولولا الإيمان بالله والثقة برحمته لقتلهم ما هم فيه.

على كل حال فمن أراد أن يتأكد من الأمر فإني أؤكد أنه لو أنصت وحبس أنفاسه وهو يقف في ملعب الكرة الموجود قرب المدرسة غربي السجن وفي أي وقت لسمع من بعيد من داخل جدران المعتقل السميكة صرخات وآهات وزعيقاً عميقاً يدل على آلام شديدة ورعب كبير، مما يدل على استمرار العذاب في كل الأوقات في سجن تدمر الرهيب، وخاصة في الصباح الباكر أو الضحى أو المساء، ومع ذلك فهذا ليس كل شيء، ففي صباح الاثنين من كل أسبوع وبالتحديد فيما بين الساعة السابعة والتاسعة يمكنك أن تسمع أصواتاً قوية تنطلق بين الفينة والأخرى من

داخل الجدران: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر، وقد تسمع الصوت يخمد في منتصف الكلمة فتخرج مبتورة هكذا الله أكبـ..، ولكنك لن تسمع الحشرجات الرهيبة، لأنها ليست قوية بما فيه الكفاية لتخترق جدران السجن العالية السميكة التي تحيط بسجن تدمر العسكري أو مركز التطهير الوطني لتصفية الأخوان المسلمين. وفي مكان الإعدامات يجري إعدام مجموعة كبيرة من المعتقلين يقدر عددها ما بين (٣٠ – ٨٠) معتقلاً في يومي الاثنين والأربعاء من كل أسبوع على الغالب.

وسوف نسمع بكل تأكيد بعد ذلك صوت محرك السيارة من نوع (زيل الروسية الصنع) وهي تتحرك حاملة الجثث إلى حفرة في صحراء تدمر ليهيل عليها البلدوزر التراب ويخفيها إلى الأبد.

فهل سيبقى ما يجري في سجن تدمر خفياً مكتوماً؟

وهل سيخرج أولئك المقهورين من سجن الموت في يوم من الأيام؟

سجن تدمر

الأصل في سجن تدمر أنه ثكنة عسكرية أقيمت أيام الفرنسيين، وقد استعمل قسم منها بعد ذلك كسجن للعسكريين المخالفين للأنظمة العسكرية كما وضع في هذا السجن أيضاً في بعض الفترات سجناء سياسيون.. وتوسّع سجن تدمر أكثر من مرة حتى بلغ عدد مهاجعه في عام ١٩٧٩ (٣٤) مهجعاً موزعة على سبع باحات ومستوصف وبه أربع غرف عادية، والمهاجع الأرضية وهي اثنان أو ثلاثة ولها مدخل خاص ومجموعة زنازين عددها عشرة وساحة خاصة للمكاتب، ومجموعة من الغرف عند المدخل الرئيسي للسجن، كما بنيت مهاجع أخرى عددها سبعة في أوائل عام ١٩٨٢ فأصبح عدد مهاجع السجن (٤٤) مهجعاً عدا المستوصف وغرفه.

وهناك المطبخ في الجهة الجنوبية الشرقية للسجن.

ويمتد سجن تدمر على رقعة مربعة من أرض الثكنة، ضلعها (١٢٥م) وتشكل الزاوية الغربية الجنوبية من أرض الثكنة.

باحات السجن منفصلة تماماً عن بعضها البعض، ويصل بينها أبواب حديدية ما عدا الباحتين (٥ – ٦) فهما متصلتان بممر واسع.

ومهاجع السجن من حيث البناء على نوعين الأول: قديم مبني بالحجر واطئ السقف ضيق النوافذ، معتم. والثاني حديث البناء فيه فتحات في السقف واسعة (١×١م) كانت في الأصل مغطاة بأقفاص زجاجية ولكن زجاجها تكسّر فبقيت مكشوفة تعرض نزلاء المهجع لمختلف الظروف الجوية.

ومن حيث السعة فالمهاجع على نوعين: الكبير وهو الغالب وأطواله ١٤×٤م وفيه دورة مياه مأخوذة من طوله وعلى عرضه ٢×٤م فيها مرحاضان ومغسلة.

والنوع الآخر: إما صغير يتألف من نصف المهجع السابق مثل المهجعين (٩ و ١٣) أو كبير عبارة عن مهجعين متصلين مثل (٥ – ٦) ويحيط بأبنية السجن جدار سميك مرتفع (٤م) تقريباً من الجهات الجنوبية والغربية، وجزء من الجهة الجنوبية بينما تشكل جدران المهاجع الجدار نفسه من الجهة الشرقية وهي ليست جدراناً خارجية بل داخلية يحيط بها سور الثكنة.

وفي مربع السجن بابان فقط الأول في الجهة الجنوبية وهو واسع وصالح لدخول السيارات ولا يستعمل للمساجين إنما للأعمال الأخرى.

والباب الثاني في الجهة الشمالية الشرقية وهو بعرض (١,٥)م تقريباً وينزل درجتين حيث مستوى أرض السجن أدنى من مستوى الأرض الخارجية وهذا الباب الأخير هو المستعمل لإدخال المساجين وإخراجهم، فهو باب السجن الرسمي.

فإذا دخلنا منه فسوف يقابلنا باب آخر يفضي إلى صالون، وعن يسارنا باب غرفة الانتظار ذات الجدران القذرة والعفن والشعارات (الثورية) مكتوبة بخط عريض وسوف ترى في غرفة الانتظار هذه إلى اليمين شبكاً حديدياً مزدوجاً من الأرض إلى السقف ومن جهته الثانية غرفة أخرى فهذا مكان الزيارات التي كانت سابقاً ويواجه غرفة الزيارات غرف مكاتب متصلة ببعضها وفي زاوية الغرفة الأولى طاولتان من الخشب فإذا سرنا إلى الأمام وجدنا باباً حديدياً ضمن سياج من قضبان الحديد المتشابكة، فإذا ولجناه وجدنا باحة كبيرة فيها أشجار وأزهار وبركة ماء صغيرة في الوسط وعلى جوانب الباحة التي تبلغ أبعادها ٢٠×٢٠م غرف مكاتب السجن والمحكمة وغيرها، وتدعى هذه الباحة باحة المكاتب وفيها غرفة الرائد فيصل غانم مدير سجن تدمر ونائبه النقيب، وفي زاوية هذه الباحة الجنوبية الشرقية نجد باباً حديدياً يفضي إلى ممر واسع طوله ٤م يوصل إلى الباحة الأولى.

الباحة رقم (١) باحة الاستقبال

باحة كبيرة ٢٥×٢٠م وفي ضلع المستطيل الشرقي منها تنفتح أبواب المهاجع ١-٢- ٣ ولها شرفة (٢م) وفي الضلع الشمالي مهجعان متصلان تمتد نهايتهما غرباً خارج حدود الباحة ولها باب واحد وهما المهجع (٥ – ٦) المزدوج وطوله حوالي (٣٠) متراً، وأن السجناء العسكريين الذين شغلوا هذا السجن فترة طويلة سابقة قد أطلقوا تسميات معينة شاعت بعد ذلك ومنها أنهم سموا هذا المهجع (المطار) لطوله، أما ضلع المستطيل الغربي فهو عبارة عن جدار فقط يفصل هذه الباحة عن الباحة رقم (٣) وفي وسطه باب حديدي. وأما الضلع الجنوبي ففيه مهجع واحد هو رقم (٤)

ويدعى (السينما) وكأنه استخدم سابقاً لغرض من هذا القبيل، وبين نهاية المهجع (٤) والمهجع (٣) في الزاوية الجنوبية الغربية ممر بعرض (٤م) وفي آخره باب حديدي موصل إلى الباحة الثانية، ونزلاء مهاجع الباحة الأولى هذه هم الذين يعيشون القهر والألم كل حين، وهم يسمعون (النشيد المر) وهو صراخ الجلادين نهراً وزجراً وسباباً بأصوات قاسية عنيفة وحشية، وأصوات الكرابيج ضاربة هابدة قارعة، وصراخ المعذبين الذي يمزق نياط القلوب وذلك على مدى ساعات طوال تشمل غالب النهار وخلال عدة أيام في الأسبوع فيما يسمونه (الاستقبال) أو حفل تعذيب الاستقبال.

الباحة الثانية

وتتألف من مستطيلين يلتقيان ليشكلا زاوية قائمة رأسها في الجهة الجنوبية الشرقية للسجن، وهي تحيط بمهاجع الباحة الأولى من الجانبين الشرقي والجنوبي تقريباً.

وتشمل هذه الباحة على أربعة مهاجع وحمام السجن وهي المهجع رقم (٨) ثم الحمام ثم المهاجع (٩و ١٠ و ١١) وهناك جدار من البلوط الإسمنتي يحجز المهجع (١١) مع جزء من الباحة ويفصله في حيز بمفرده.

الباحة الثالثة

وفي وسط الجدار المرتفع الذي يشكل الضلع الغربي في باحة الاستقبال يوجد باب حديدي يؤدي إلى الباحة رقم (٣) والتي تساوي في أبعادها أبعاد باحة الاستقبال نفسها تقريباً.

ففي الجهة الغربية من الباحة بدءاً من الشمال الغربي نجد مجموعة من الزنازين عددها (١٠) ثم المهاجع (١٨ – ١٧ – ١٦ – ١٥ – ١٤) ومن الجنوب نجد المهجعين (١٢ – ١٣) ولهما شرفة نجد امتداد المهجع الطويل (٥ – ٦) ثم باباً حديدياً يوصل إلى الباحة (٤) وفي زاوية هذه الباحة الجنوبية الغربية ممر واسع يمتد حوالي (١٥م) وعلى يساره مدخل إلى المهاجع الأرضية وفي نهاية الممر جنوباً باب حديدي واسع (٣م) يوصل إلى ممر عريض (٤م) يقود يميناً إلى الباحة (٥-٦) ويساراً إلى باب حديدي كبير (٤م) مغلق هو المدخل الثاني للسجن.

الباحة الرابعة

ومن الباب الموجود وسط الجدار الشمالي في الباحة الثالثة نصل إلى الباحة الرابعة وهي واسعة وفي وسطها بركة دائرية ليس فيها ماء وفيها المهاجع (١٩-٢٠-١٢-٢٢-٢٣-٢٤).

الباحتان الخامسة والسادسة

ومن الباب الواسع في زاوية الباحة الثالثة الجنوبية الغربية نصل إلى ممر عريض (٤م) يتجه يميناً بعد (١٠) أمتار نجد باحة بعرض (٢٠م) وطول (٥٠م) وينفتح على الباحة (٥) ثلاث مهاجع هي

ذوات الأرقام (٣٢ - ٣٣ - ٣٤) وعلى الباحة رقم (٦) المجاورة لها تفتح خمسة مهاجع أربعة منها على خط طول مواز لجدار الثكنة الخارجي ابتداء من الزاوية الغربية الجنوبية ويمتـد شمالاً وهي ذوات الأرقام (٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨) وأخيراً وفي صدر الباحة المهجع رقـم (٣١) ثم مهجع كبير في أول صف المهاجع المذكورة في الزاوية الغربية الجنوبية تماماً يدعى الورشة عـرض الباحة السادسة هذه (٢٠م) ولأسطحة المهاجع سياج يزيد ارتفاعه على متر وهناك أضواء كاشفة موجهة على السطح ذاته وعلى الباحة من الزوايا.

المستوصف

ومن باب حديدي عرضه (١,٥)م في زاوية الباحة السادسة الشمالية الغربية نصل إلى ممر عريض يوصلنا إلى باب باحة المستوصف والذي يوجد فيه أربع غرف ثلاث منها بأبعاد (٤×٤) وواحدة بأبعاد (٤×٨م) واقعة بين المهجع (٢٨) وغرف المستوصف الممتدة على سويته، وكان هذا فارغاً ثم استعمل بعد ذلك كسجن للنساء.

الباحة السابعة

وفي نفس الباب في الباحة السادسة يقودنا الممر إلى باب آخر غير باب المستوصف علـى جهـة اليمين إلى باحة مستطيلة فيها المهجعان (٢٩) وهو ملاصق لجدار المهجع (٣١) الخلفي والمهجع (٣٠) يقابله وبينهما باحة عرضها (١٥م) ومن بين غرف المستوصف والمهجع (٣٠) فتح ممر إلى باحة أحدثت فيما بعد وأنشئ فيها أربعة مهاجع إضافة إلى إنشاءات أخرى ستذكر في حينـها إن شاء الله.

اليوم الثاني في سجن تدمر

نعمة عظيمة من نعم الله التي لا تعد هي نعمة النوم، ارتاحت أجسامنا المنهكة واستراحت أعصابنا المتوترة وصفت أذهاننا المكدودة المرهقة بل عاش الجميع أحلاماً جيدة لا مثيل له مـن العـذاب والرعب.

صليت الصبح في خشوع واستغراق وجلست أذكر الله وأدعوه، وأشرقت الشمس بنـور ربها وغمرت الأرض بنورها الوضاء، وتسللت حزم من أشعتها المشرقة إلى داخل المهجع من النوافـذ الشرقية. تذكرت نسمات الصباح الندية وأنا أخرج كل يوم من بيتنا لصلاة الـصبح وأعمـال البكور.. فأي عذاب ينتظرنا اليوم.. إنه اليوم الثاني لنا في سجن تدمر.

تساؤل

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً حين خيّم علينا جو من الترقب والتـوجس والخـوف.. الآن يأتي الجلادون كالكلاب المسعورة ومعهم آلات العذاب وكلهم حقد وسعار ولا يرحمـون

صغيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يشفقون على مريض (إن المجرمين في ضلال وسعر) وليس لنا إلا الدعاء ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله ونلوذ به وندعوه.

وكنت أتساءل بألم وحيرة فأقول لنفسي: ما هؤلاء الناس؟ أي قسوة ركبت فيهم؟ أي بلادة وسماجة خالطت نفوسهم؟ أفي صدورهم قلوب ذات إحساس ومشاعر؟ أم أحجار صلدة قاسية؟..؟ أماتت في صدورهم القلوب؟

بل صدق الله وصدق رسوله: لهم قلوب لا يشعرون بها..

أهكذا يعمي الهوى والطمع والجشع أهكذا يعمي الدينار والدرهم..؟ أهكذا يغترّ الإنسان بالزعامة الفارغة.. بحطام الدنيا؟ أهكذا تفعل خزعبلات الكاذبين في نفوسهم الجاهلية؟

وهذا الحقد الرهيب.. على المعتقلين الأبرياء ما الذي أثاره فيهم..؟ أجبت نفسي بحسرة: ما أثاره إلا عقيدة بل عقائد باطلة فاسدة.. باطنية مكتومة.. أخفاها أهلها.. يخافون عليها من نور الشمس.. وحرارة الحق.. ولا مهرب..

إدخال الفطور

وفجأة صرخ صوت هستيري من النافذة الصغيرة في الباب: (ولك عرصات) وانتفض المهجع قائماً وصرخ رئيس المهجع (باللازمة): انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب. ووقف كل ذي قدرة على ذلك ورفعنا الوجوه إلى السقف وأغمضنا أعيننا وسرت كهرباء القلق في الأعصاب ولج القلب بالدعاء والاستغاثة.

وفتح الباب ودخل الجلادون وهم بفاحش السباب يصرخون ويشتمون وهجموا علينا يضربوننا ويرفسوننا بأرجلهم، وبدأ صوت الكرباج يلعلع في جو المهجع، وأخذت الأصوات ترتفع، واستغاث أحد المعذبين بالله قائلاً: دخيل الله، فثار الحقد الكافر في نفس الجلاد فقال له: (الله.. خذ.. هاي لألله) ثم استنكر عليه استغاثته بالله، قائلاً: إنت بتعرف الله يا كلب؟ واستغربت في نفسي لهذه المراوغة والمخاتلة السمجة وذكرت المثل: رمتني بدائها وانسلت، يرموننا بالكفر وهم الكافرون، يصموننا بالإجرام وهم والله المجرمون، وإن كنا لا نستطيع دفاعاً عن أنفسنا فإن الله يدافع عنا: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وعزموا أن يخرجوا أخيراً بعد أن أذاقونا صنوف العذاب ثم طلبوا رئيس المهجع فأخذوه وبادره أحدهم بالكرباج يضربه وآخر يرفسه حتى وقع بين أيديهم مغمى عليه، وخرجوا أخيراً وصرخ رئيس المهجع بصوت ضعيف: استارح استاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب. ولقد أدخل خلال هذه الحفلة من العذاب طعام الإفطار وهو عبارة عن صحن زيتون وكمية قليلة من الشاي.

ترقب

عزفت النفوس عن الطعام فلم يأكل أحد إلا قليلاً، وعزفت عن الكلام وانشغل كل واحد بدعاء أو ذكر أو تسبيح يتسلى عن آلامه ويتقوى على محنته والرعب ينشر ظلاله القاتمة في ذلك الجو المكفهر جو الجدران الكالحة والأبواب الحديدية الموصدة والنوافذ المشبكة بألف قضيب حديدي جو الصراخ الهستيري والأوامر الصارمة والعذاب والعقاب لغير ما جريرة أو ذنب، ما عرفنا ذلك قبلاً ولا سمعنا أن يعذب الإنسان لأجل العذاب.. وأن يكون هناك نظام.. للسجن يتفنن في تعذيب نزلائه. كنا في ترقب فما تكاد تسمع نأمة حتى تسري الكهرباء في جو المكان. البارحة وفي مثل هذا الوقت كنا نعيش كابوس العذاب البشع فهل انتهت محنتنا؟ إني لأشعر أن كل دقيقة بل كل ثانية تمر إنما هي محنة وعذاب لكل إنسان هنا. كنا نتساءل ما يخبئ لنا اليوم عباقرة سجن تدمر؟ الذين حكموا باستحقاقنا للعذاب والموت لأننا كما يقول كبير الزبانية: (انتو جيتوا لهون باجريكم) كيف أستنبط ذلك وعلى أي أساس أطلق حكمه وبأي منطق يتكلم؟ الله وحده يعلم.

كان بعض المتفائلين من إخوتنا قد اهتدوا إلى فكرة مؤداها: إن التعذيب يتم خلال اليوم الأول وربما بضعة أيام أخرى بعده، وبعد ذلك تعود الأمور طبيعية عادية.. ولكن صورة البغي والحقد والجهل الذي عرفناه ولمسناه في هؤلاء القوم كان يجعلنا نتوقع أسوأ الاحتمالات خاصة وأنه لا يردعهم عن ظلمهم خلق ولا دين ولا ضمير، بل هناك حقد يؤجج الشر في نفوسهم وأولياؤهم هم يمدونهم في الغي ولا يقصرون.

إرهاب ورعب

في العاشرة سمعت أصوات بعيدة أولها أصحاب الترقب وتوقعوا من ورائها أشياء وأشياء ولكني تركت كل هذه التصورات المخيفة جانباً وقلت: نسلم أمرنا لمن بيده الأمر.

ومزق جو السكون والترقب صوت غريب رهيب آثار الرعب في النفوس، كان صوت الكرباج يضرب جدار المهجع بقوة يتردد صداها الرهيب في جنبات المكان. لا ريب أنه الإرهاب الحاقد. تهيأت النفوس للموت وبلغت القلوب الحناجر كاظمين ما للمعتقلين من شفيع يطاع فقدوا الحق في الراحة والأمان، وأصبح الاطمئنان أبعد منالاً من العنقاء وفقدوا الحق في الحياة.

ودوى باب المهجع الحديدي بضربة هائلة من الكرباج الثقيل، وازدادت ضربات القلوب وأصبحت تضج في الصدور وكأنها مطارق ثقيلة (اللهم أنت القوي المعين نجنا من القوم الظالمين، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم).

من النافذة الصغيرة في الباب صرخ صوت هستيري بحقد مجنون: ولك حقراء.. ولك يا.. ولك يا.. وصك آذاننا بأبشع ما في معجمهم من شنيع الألفاظ وفاجر القول مع التهديد والوعيد.

تحرك المفتاح في القفل وصرخ رئيس المهجع: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب. ووقفنا حيارى مستسلمين لقضاء الله مغمضي العيون رافعي الوجوه إلى السقف وأمرونا بالخروج قائلين:

(اثنين اثنين لبرا ولك كلاب.. بسرعة يا..) واندفعنا مسرعين مطأطيء الرؤوس والأوامر التي تتوالى مع لسع الكرباج: (أسرع يا كلب.. غمض عينيك يا حقير يا..)

وأمرونا أن نسير رملاً على أطراف الباحة ثم دخل نفر من الجلادين إلى الباقين في المهجع وهم من المرضى والمصابين العاجزين عن السير وأخذوا يضربوهم ويعذبوهم.

وأمرنا الجلاد بصوته الكريه أن ننبطح على الأرض ونرفع أرجلنا قائلاً: (منبطحاً.. ارفع رجليك) وهجم علينا الجلادون بالكرابيج يضربون أرجلنا وظهورنا ورؤوسنا بضربات شديدة وهم يصرخون مزمجرين ويسبوننا بأقذع السباب، ويكفرون بالله ويشتمون النبي صلى الله عليه وسلم. وصبرنا على الضرب ولكن الضرب كان شديداً والألم رهيباً، فانطلق صراخ المعذبين يملأ المكان بأصوات متألمة شاكية تنفطر لها القلوب القاسية، أصوات منكرة غريبة لا تعرف فيها صوت أحد ولا تميزه كأنها آهات ثكلى أو زفرات محترقين أو صرخات متردين في هاوية.

وينبري الجلاد يصرخ بالصوت الزاجر الرهيب يأمر بالسكوت: (سكوت. سكوت يا حقير يا حقراء سكوت..) فتخمد الأصوات كلها إلا أصوات الكرابيج، ولكن الآلام لا تحتمل والموت مرّ فتعود الأصوات المتألمة إلى الارتفاع والناس بين واقع به العذاب فهو يتقلب تحت الكرباج ظهراً لبطن وبطناً لظهر وبين منتظر أن يأتيه الجلادون بالكرابيج فهو في رعب وكرب وعذاب قبل العذاب.

ويمر الوقت متباطئاً لا يريد أن ينقضي، والشمس ترسل أشعتها فتغمر المكان: ويدور في نفسي حوار: كم يتكتمون علينا ويضيقون؟ ولكن أمرهم مكشوف وسرهم مفضوح، والأرض تشهد والجدران والشمس تشهد على ما يجري تحتها من ظلم ومن ظلام، وجاء الأمر من الرقيب الجلاد: واقفاً، رملاً ثم جاء الأمر من جديد: منبطحاً ارفع رجليك يا.. وعاد الفلم وعادت الأصوات ترتفع إلى رب السماء شاكية إليه تخلي الناس عن بشريتهم وارتدادهم إلى أدنى دركات الحيوانية والوحشية، فها هم يلغون في الدم كأي وحش كاسر (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل) ولكل شيء نهاية. انتهت حفلة العذاب وجاء الأمر من الرقيب: واقفاً رملاً إلى المهجع، وعلى الباب وقف الجلادون يودعون الداخلين بضربات الكرباج الثقيل يصبون فيها كل حقدهم ووحشيتهم. ودخلنا نحمل بعضاً ممن انهاروا أو أغمي عليهم أو أصيبوا، وقد ردد رئيس المهجع اللازمة وأغلق الباب وقذفونا بأشنع ما سمعناه من شتائم وسباب وفحش ووعيد بالقتل والشنق وغيره.

(وانطلقت حسرات حرة وخرّ البعض ساجدين، وتبعهم الآخرون يحمدون الله الذي لا يحمد على مكروه سواه).

كانت حصيلة حفلة العذاب عدداً كبيراً من المشوهين والجرحى أصيب أبو أحمد في صدره فحُمل وكان رجلاً ضخماً ممتلئاً في العقد الرابع من عمره، وقع مغشياً عليه بين أيديهم، فلم يرحموه، ولما حُمل إلى الداخل أمرونا أن نسعفه فبادر بعض القريبين ليسعفوه، فانقضّ عليهم الجلادون يضربونهم.

وأصيب أبو سيد وقد تمزقت رجلاه ودهاه من العذاب أمر عظيم، فكان في حالة دنف وإرهاق لما أصاب رأسه وجسمه من ضرب وركل.

وأصيب أبو (ن..) فقد كسرت رجله قرب الكعب خلال وقوعه تحت أيديهم، ولكنه رغم الكسر قام يحجل على رجل واحدة حتى دخل المهجع، لا يكاد يشعر من الخوف بألم رغم أنه يعاني من ألم شديد.

وأصيب الأخ عزام الذي أقعده عن الخروج مرض القلب الذي ثار عليه يوم الاستقبال، فلم ينج اليوم منهم رغم عدم استطاعته الخروج، حيث دخلوا عليه وعذبوه وضربوه حتى غدا بين الموت والحياة.

وأصيب عصام.. ضربوه على ظهره حتى سال منه الدم وانتكأ ما كان قد التأم من جروحه.

ولم يكن هناك أحد إلا وأصيب إصابات مختلفة.

ترى: ما هذه الحفلة التعذيبية. إنهم يقولون أنها تنفس!!

ربنا إننا مسّنا الضر وأنت أرحم الراحمين..

استلقى كل في مكانه مرهقاً في حالة شديدة من الألم والسوء، وكنت أدعو ربي قائلاً: (ربنا إننا مسنا الضر وأنت أرحم الراحمين).

وأخذ كل واحد يتفقد من حوله ويتعرف على حال إخوانه، كان الكلام قليلاً جداً إلا عبارات ضرورية للاطمئنان عن الحال، ولكن أية حال صعبة أو احتياج إلى معونة أي أخ لا يتوانى عن مد العون لإخوانه، يتبادر الجميع إلى ذلك ويحرصون عليه.

فتحنا أعيننا وأخذ كل منا يلملم نفسه ويتلمس مواضع الألم ويتعرف على الإصابات، ومع ذلك كان كل منا يردد الكلمة الفاصلة الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله رب العالمين.. يا رب إنا لك حامدون وبنعمتك وعنايتك ولطفك معترفون.. يا رب فاجعلنا من الصابرين المحتسبين.

وبادر بعض الإخوة إلى السجود وأخذت أذكر بعض من حولي قريباً كان أو بعيداً: أن يسجد لله رب العالمين..

تقف عقارب الساعة فلا تكاد تتحرك، والزمن لا يسير إلا ببطء شديد ونحن نستعجل الدقائق والثواني لتمضي ولينقضي النهار ويأتي الليل، فنحن نعيش كل دقيقة من النهار في ترقب وتوجس ورعب، وينهك أعصابنا ويضنينا أكثر من آلام أجسادنا الممزقة، ويكاد يقضي على ما نتمسك به من صبر وثبات، وكان ذكر الله البلسم الشافي والدواء الناجع لقلوبنا، ومولاه ما استطعنا الحفاظ على قوانا النفسية.

فأصوات المعذبين وهم يصطرخون تقرع الأسماع وتقري في الأعصاب طول الوقت..

كان أجمل صوت في الوجود نسمعه بل أحلى دقائق تمر بنا ونستروح فيها رائحة الجنة، ونجد فيها متعة عظيمة وهناءة وسعادة إيمانية غامرة إنما كانت دقائق الآذان ذلك الصوت الندي الذي كانت ترتاح له أسماعنا وتحن إليه قلوبنا وهو يردد نداء الله أكبر الله أكبر..

وننصت خاشعين متبتلين نتملى كلمات الآذان ونرددها بخشوع لا نود أن تنتهي، إنه الصوت الوحيد الذي يخترق حواجز السجن ويتجاوز الجدران والحراس ليصل إلينا رقيقاً رخيماً كأنه الندى، فتشربه قلوبنا العطشى ونستشف منه أحوالاً ونتخيل صوراً ومواقف غالية في قلوبنا..

دخلات تعذيب

جاء الجلادون بعد الثانية ظهراً بقليل، فطافوا علينا بالعذاب وسبونا وحقرونا كالعادة، لا يرحمون مريضاً ولا عاجزاً وأدخلوا إلينا ما يدعونه طعام الغداء..

ثم عادوا في المساء وفي ظلام الليل فدخلوا المهجع وضربونا وعذبونا وهم يضحكون ويهزؤون ويلعبون وبعذابنا يستمتعون، ويمضي النهار ونحن على حال أليمة لا تهدأ رغم أنا ساكنون، ولا نستريح كان الهم كبيراً والقهر قد فاق التصور..

جاء الليل وثار التساؤل والخوف من جديد: ما هذه الأصوات المرعبة؟ التي تفلق ليلنا وتنغص علينا ساعات نومنا، ولكن كشف بعد ذلك سرها فهان أمرها، فقد عرف أنها ليست إلا وسيلة اتخذها الحرس فيما بينهم ليحافظوا على اليقظة والانتباه والحذر (وهم يحرسون مكاناً هاماً خطيراً) فكانت هذه الأصوات الهستيرية..

الظلم

أي ظلم هذا الذي نعانيه في سجن تدمر..

إنه ظلمات.. يوم القيامة.. مقيت وكريه، مر ممجوج لا ترضاه النفوس السليمة ولا القلوب الحيّة والحقد عمى وضلال وتيه.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم مرجعه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وإنا لا نجد لنا ملجأ إلا إلى الله، فنحن نضرع إليه وندعوه بالدعوة التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب، يرفعها الله فوق الغمام.. ويقول: وعزتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين..

اليوم الثالث: (الأحلام)

اليوم هو اليوم الثالث في سجن تدمر العسكري..

الأحلام هنا من نوع آخر.. صافية وضيئة معجبة، إنها نافذة لنا إلى الدنيا –التي فقدناها- إلى الحياة التي كنا نعيشها.. وأبدلنا الظالمون بها هذا الجحيم البشري، ففي هذه الأحلام نستشعر الراحة التي حرمنا منها، ونلمس السعادة التي فقدناها، فنجد في الأحلام سلوى وبشرى. في هذه الليلة رأيت والدي وبعض أهلي وأخذت يد والدي فقبلتها، وكلي احترام وحب له، وهو يدعو لي.. كان ذلك في وضوح عجيب..

ويحدث الإخوة في المهجع كل بما رآه من طيب الأحلام والرؤى. قال أحدهم: "جئت الآن من بيتنا من عند أمي والأولاد، كنت بينهم سعيداً هانئاً. قبلت أمي ورأسها وبكيت سروراً".

هنأت هذا الأخ على رؤياه: قلت عسى أن يجعلها ربك حقاً، وما ذلك عليه بعزيز، وأمسكت دمعة ترقرقت في عيني، فإني مشتاق إلى رؤية أمي الحنون المصابرة، مشتاق أن أقبل يديها وأبللهما بالدموع.

قال الأخ أبو عبدو ساخراً: ما هي إلا أحلام، لم يبق لنا في هذه الدنيا شيء (مستحب مقبول) سوى الأحلام، فعيشوا في الأحلام فموتكم والله قريب، على أيدي هؤلاء المجرمين في هذا المكان اللعين.

فقلت له: يا أبا عبدو لئن كانت أحلاماً فإنما هي –وبحمد الله أحلام جميلة، ورؤى صادقة صافية مبشرة، وإنها لنعمة عظيمة من الله- ولن نموت حتى ينتهي أجلنا وإنا نؤمن بقدر الله ونثق أن لنا آجالاً لن نجاوزها ولكن ثقتنا الأكيدة بالله: إن لنا عودة إلى الحياة والجهاد، وأن لنا مع الظالمين حساباً..

الفطور – وبالحذاء

وفجأة جاء الجلادون يفتحون أبواب المهجع ووصلوا إلى الباب فأسرع رئيس المهجع يصرخ باللازمة: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.

ووقفنا باستعداد جامدين رافعي الوجوه إلى الأعلى، مغمضي العيون كالعادة.

واندفع الجلادون إلى الداخل وبدؤوا يضربوننا والويل لمن فتح عيناً أو تحرك حركة..

وكان صوت صفع غريب يدوي في المهجع مع آهات مكتومة، ووصلني الدور فأخذت صفعة.. بل خبطة هائلة على وجهي وهكذا سار الصفع والضرب للجميع بالترتيب مع السباب والشتائم حتى انتهوا وخرجوا وهم يهددون.. فتحنا أعيننا ننظر ما حلّ بنا.. كان على وجه كل واحد منا خطوط ودوائر حمراء وزرقاء.. بم كانوا يضربوننا؟ وجاء الجواب: بالحذاء رأى بعضهم أحد الجلادين (وهو بثياب مدنية) يحمل بيده حذاءً سميكاً ويضرب به الوجوه بأقصى ما يستطيع من قوة، وقد حفظ من كلامه خلال ذلك قوله (وهذا أشرف من لحاكم يا..) وكان لنا جميعاً لحى طويلة لأننا لم نحلق منذ شهور، فالحلاقة ممنوعة في معتقلات المخابرات وكان (الحذاء) قد ترك بصماته واضحة على وجوهنا فما هي حفلة العذاب الصباحية هذه؟

لقد تبين لنا أنه الفطور.. نعم الفطور، فبحجة إدخال كمية يسيرة جداً من الطعام، كانوا يدخلون علينا ويعذبوننا كل يوم في مثل هذا الوقت من الصباح الباكر، فياله من فطور!!

التنفس

الأصوات في سجن تدمر العسكري غريبة، صراخ قاس يتنادى به الجلادون من عناصر جهاز السجن مع السباب الفاحش والشتيمة والتجديف، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لهم –وكأنهم كما يقول المثل العامي: (محط كلام) وصوت الكرابيج المرعب وصراخ الألم وعويل المعذبين، كل ذلك كان يشكل الجو العام للسجن.. كان ذلك غريباً غير مفهوم لدينا ماذا يجري في هذا المكان؟ وعلى أي نظام تسير الأمور؟ وماذا ينبغي أن يفعل؟ كان ذلك كله معميات.. مجهولات مخيفة.. ليس لها أي جواب..

وفي التاسعة والنصف تقريباً نشطت حركة في الباحة تنبه لها ذو الحذر والترقب، وقام رئيس المهجع بسرعة يصرخ "باللازمة" انتبه.. استاعد.. المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب..

وفتح الباب وصرخ فينا صوت منكر يأمرنا بالخروج قائلاً: لبرا ولك.. ولك يا.. تنفس.. بسرعة يا.. رملاً يا.. لم نكن ندري ما التنفس..

خرجنا مسرعين ونشطوا لعذابنا كالبارحة (منبطحاً.. ارفع رجليك) وهجم علينا الجلادون يضربوننا بالكرابيج على أرجلنا ومختلف أنحاء أجسامنا..

كان هناك صوت رفيع عرفناه.. إنه صوت المساعد أحمد.. صاحب الخطاب الشهير.. وكان له غرام بأن يدع التعذيب يشتد أوره، وهو يحرض الجلادين سراً ويشير إليهم خفية بتشديد الضرب وقوة الجلد.. فاذا ارتفعت حمى العذاب واشتدّ أوارها وصلينا بها صرخ بصوت مدو: (يكفي شرطة) فيقفون يسيراً ثم يشير إليهم أن يبدؤوا من جديد ليقوم دائماً بدور المنقذ.. ومع ذلك كان خوفنا أقل واحتمالنا أكثر.. إلا المرضى والعاجزين فإن حالهم قد ساءت كثيراً..

وهكذا تبين لنا أنه حفل يومي فها هو يتكرر معنا للمرة الثانية، وهم يسمونه (التنفس) لم أسمع في حياتي عن مثل هذا التنفس..؟ والتعذيب هنا لا ينقطع عنا، وأي تعـذيب؟!! لا نكـاد نـودع الجلادين غير مأسوف عليهم حتى نستقبلهم من جديد، فلا أهلاً ولا سهلاً بل: أخزاكم الله..

في الحادية عشرة والربع دخلوا علينا وضربونا وعذبونا وأدخلت خلال ذلك كمية من الخبـز ثم مضوا، وفي الثانية جاؤوا فدخلوا علينا يضربوننا ويعذبوننا وطلبوا اثنين لإدخال الطعام، فضربوهما وعذبوهما أيضاً..

وأدخل بعض طعام قليل، كنا نتمنى أن لا يأتوا إلينا وننجو من حفلات العذاب هذه ونستغني عن طعامهم وخبزهم (والله الغني) لا نريد كل ذلك ولينصرفوا عنا، وتراهم نشطين دائماً لتعـذيبنا مندفعين كأنهم في حفل جنوني.

الحلاقة في سجن تدمر

في الساعة الثالثة تقريباً، وفي وقت ظننا فيه الأمان ولما يمض على العذاب حين إدخال طعام الغداء إلا قليل، جاءنا الجلادون فجأة..

وصرخ رئيس المهجع باللازمة: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.. لم نستطع أن نصدق أنهم جاءوا هكذا بسرعة ولكن الباب فتح.. وقذف الرقيب بأوامره مع السباب الشنيع.. (برا ولك حقراء.. برا بسرعة يا.. كللكم.. ولا واحد يبقى في المهجع)..

ودون مخالفات كنا نعاني من العذاب والضرب وغيره، فكيف مع المخالفـة؟!! فنفـذنا الأمـر، وأسرعنا خارجين، نحمل المرضى والمصابين.

وأخذ الجلادون يسلقوننا بالكرباج.. من لدن الباب ثم قادونا في رتل أحادي يمسك كل منا بظهر الذي أمامه ويسير مطأطئ الرأس محني الظهر.. والضرب شديد والجلادون حولنـا كـالكلاب المسعورة يصرخون (هنت متطلع يا حقير.. هنت مترفع راسك يا.. ولك لك) وأدخلونـا مـن أبواب وأخرجونا من أخرى، ونحن مغمضو الأعين لا نعرف أين نذهب، وكلما وصلنا باباً اشتد الضرب علينا عنده ومررنا بعدة أبواب، ولم نكن ندري نهاية المطاف ولا أين المستقر..

سلمنا الأمر إلى الله سبحانه، والتجأنا إليه وتوكلنا عليه..

حتى جاؤوا بنا مكاناً ضيقاً.. متطاولاً فيه من جهة اليمين أعمدة وشرفة واسعة قدرنا ذلك مما لمحناه من ظل، وأجلسونا دون الشرفة في مكان كأنه ساقية إسمنتية، وأخذ نفر من الجلادين يطوفـون علينا ويضربوننا بالكرابيج على رؤوسنا وظهورنا بقسوة وحقد.. وكان نفر آخر من الجلادين من ناحية أخرى يقومون بعمل آخر، فكنا نسمع أصوات التعذيب والضرب لنفر منهم بصورة أقسى وأرهب.. والجلادون يصرخون بوحشية..

كانوا يأخذون الواحد فيضربونه ويعذبونه ويحقرونه، وهو صامت أو متأوه متحسر، أو صارخ مستغيث ،إذا اشتد العذاب- وبعد أن ينهكوه يسلمونه لآخرين.. كنا نسمع أوامر تملى على هؤلاء مثل: قعود.. قرفصة.. قرب.. لا تتحرك.. أغمض عينيك يا.. وقف.. وأوامر: تعال لهون.. وكلمات ساخرة هازئة: سلقاه.. عطرو لها الحقير.. بودرو لها الكلب.. مع ألفاظ بذيئة ويعقبها صراخ التألم والاستغاثة من المعتقل وتوسل وعويل..

وأخذ الشيخ أبو سيد، فكان يضرب ويعذب. عرفنا ذلك من صوته المميز، وكان له لحية طويلة.. وسأله الجلادون عن عمله: فأجاب بشيء لم أسمعه عرفت بعد ذلك أنه قال لهم إن عمله إمام مسجد، فأحنقهم ذلك وأحفظهم، فأخذوا يضربونه ويسبونه ويشتمونه، ثم وصموه بأنه يعمل عمل قوم لوط وأمروه أن يقول ذلك عن نفسه –أي يقوم بعمل قوم لوط في مكان كذا لمكان الجامع الذي سماه- وما زالوا يعذبونه ويضربونه حتى قال ما أرادوا فسبوا المساجد ووصموا روادها بالفاحشة مما يعف اللسان عن ذكره.

وسمعت صرخات وآهة من الشيخ أبي سيد وكلمات هزءوا وسخرية من الجلادين مثل (شوى – ولعت..) وانتشرت رائحة الشعر المحترق، علمتا بعدها أن الجلادين قد أحرقوا لحية الشيخ بقداحات الغاز، وأخذ أيضاً شاب صغير فعذب حتى تعالى صراخه واستغاثاته..

وجاء دوري فأخذني اثنان من الجلادين فضرباني على ظهري ورأسي بالكرباج وعلى يدي ورجلي.. ثم دفعا بي إلى مقعد محطم فأجلسوني عليه ويداي خلف ظهري وعيناي مغمضتان، وأخذ شخص يحلق لي شعر رأسي بعنف وبسرعة ثم دفعني وأمرني بالقيام، فما كدت أتحرك حتى تلقاني جلاد، فضربني ووجهني دفعاً إلى حائط قريب حيث وقفت وعيناي مغمضتان، ويداي خلف ظهري، وما لبث أن تناولني شخص آخر، وضع على وجهي معجون حلاقة، وأخذ يدلكه بالفرشاة وهو يسب ويجدف ثم دفعني دفعة شديدة إلى الحائط وجذبني آخر وهو يصرخ في وأخذ يحلق لي لحيتي بسرعة غريبة كنت أشعر معها أن شيئاً غير قليل من جلد وجهي قد كشط أو اقتطع، عدا الجروح في هذه الجهة أو تلك، وفرغ مني سريعاً، فأخذني نفر من الجلادين وعملوا لي حفلة (نعيماً) وهي ضرب شديد بالكرابيج على اليدين وغير اليدين إلى آخره..

كلنا نعرف الحلاقة عملية محببة كلها لطف وأدب، فإذا بالحلاقة في تدمر عملية غامضة مرعب فيها العذاب والضرب والإيذاء، وفيها التنكيل والجرح والتشويه والإذلال.

لما كنا في (كفرسوسة) في معتقل المخابرات العامة، طلبنا أكثر من مرة أن يسمحوا لنا بالحلاقة سواء بأدوات نحلق بها أو حلاق يقص شعورنا، فماطلوا وسوفوا ومنعوا ذلك عنا..

وكان نصيبنا وقدرنا أن تكون لنا أعظم حلاقة عرفناها في حياتنا، حيث نالنا من العذاب والألم ما الله وحده به عليم، وقصّ شعرنا جميعه وحلق لحانا سوى نتف هنا وهناك، وجروح غائرات وهكذا عدنا إلى المهجع حالقين مشوهين.

ولم نكن قد رأينا بعضنا ونحن بغير تلك اللحى الشقراء والسوداء، فإذا بنا نصبح جرداً مرداً لم يكد أحدنا ليعرف أخاه، وفي غمرة هذا الاستغراب نسينا ألمنا ومتاعبنا وعذابنا وحمدنا الله على النجاة والسلامة من تحت أيدي الجلادين والحلاقين، وأخذنا نتذكر ما جرى لكل منا من آلام وأهوال وعذاب وجروح.

لكن الأمر العجيب هو ذلك اللطف الإلهي فقد كان أكثر من أحرق شعره وجهه وهو أبو سيد يبدو وكأنه لم يصب بشيء.

الانتقال إلى مهجع جديد

بعد عودتنا إلى المهجع من الحلاقة التي استمرت ثلاث ساعات تقريباً، لم يمض إلا ساعة من الزمن حتى عاد إلينا الجلادون.. ونحن في حيرة وألم لا ندري متى يذهبون ولا حتى يعودون ولا ماذا يريدون؟ والأنكى من ذلك والأشد سوءاً هو أنهم دائماً ساخطون غاضبون.

فتح الجلاد باب المهجع وأمرونا أن نخرج بسرعة مع أغراضنا، فحملنا أغراضنا وحملنا المرضى والمصابين، وخرجنا بسرعة وقادونا ونحن مغمضو العيون وهم يصرخون فينا ويشددون علينا ويضربوننا بشدة بتهمة تفتيح أعيننا.

مررنا بعدة باحات، وولجنا عدة أبواب ثم أدخلونا مهجعاً جديداً يشبه سابقه إلا أنه معتم واطئ السقف قليل النوافذ ضيقها.. وغاب الجلادون قليلاً ثم عادوا وأدخلوا علينا عدداً من المعتقلين الجدد وقد بلغ عددنا في المهجع حينذاك (٦٠) معتقلاً ولم يكن هؤلاء المعتقلون الذين انضموا إلينا بأحسن حالاً منا.

اليوم الرابع

أية سكينة تتنزل في القلوب، وأية حياة وروح وراحة، من خلال النوم والأحلام يفوز بها المعتقل المعذب في سجن تدمر العسكري. إنها النعمة العوض، خوف ورعب وعذاب واستغاثة ولجوء، والنتيجة سكينة وصفاء وروحانية وإيمان، شاهدت في الرؤيا والدتي الحنون فقبلت يديها، وكانت راضية تدعو لي.

كنت سعيداً بهذه الرؤيا التي تسعد القلب وتثير فيه الحنين والشجن، وأملت من هذه الرؤيا خيراً.. فإني أعرف بركة دعاء أمي ورضاها.. كم من مرة نجوت من ورطات ومآزق ببركة دعائها. توهمت كثيراً أن الحلم حقيقة فكنت مغضباً متحسراً أريد أن أعود إلى الحلم الجميل

وأبتعد عن الواقع المرير، فأية رحمة إلهية هذه؟! إنها تثبيت للنفس وتقوية للروح.. بل هي كرامة اختص الله بها من عاشوا المحنة من أمثالنا..

في الساعة السادسة والنصف صباحاً سمعنا صوت حركة الجلادين وصراخهم، فتسمّر كل منا في مكانه، وضم عليه ثيابه، ووقف رئيس المهجع وحضّر نفسه للقاء غير المبارك وبحث كل واحد عن أي شيء يلوذ به من الجلادين والعذاب، فلم يجد له ملاذاً إلا الله، فانطلق يدعوه ويلهج بذكره: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم. وأخذ آخرون يقرؤون آية الكرسي وقل هو الله أحد وياسين.. يتعوذون بها من شر الجلادين، واقتربت خطا الجلادين من المهجع وصرخ رئيس المهجع باللازمة (انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب) وفتح الباب..

كنا نقف صفاً متصلاً على جوانب جدران المهجع ووجوهنا مرفوعة إلى الأعلى والأعين مغمضة، وكانت دماؤنا تغلي ترقباً وتوجساً وخوفاً من هذه الوحوش الجبلية التي تحمل لنا أطواداً من الأحقاد التاريخية.

خرج اثنان منا بناء على أمر الجلادين، فأدخلا طعام الإفطار بعد أن أخذا نصيبهما من الضرب خلال ذلك، ثم دخل الجلادون باندفاع وأخذوا يضربوننا بكرابيجهم بقسوة وعنف وسباب فاحش طاف الجلادون علينا بالضرب الشديد ونحن مغمضو العيون لا يدري أحدنا متى يأتيه الدور..

وأتاني الدور، وهبدني الجلاد بالكرباج على صدري فانطويت على نفسي وملت إلى الجدار، فضربني مرة ثانية وثالثة ورفسني بقسوة على بطني، ولما كدت أقع على الأرض صرخ بي وأمرني بالوقوف.

وخرجوا أخيراً وهم يسبون ويشتمون ويهددون ويمرحون، وأغلق الباب وصرخ رئيس المهجع باللازمة المفروضة: استارح استاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب..

خرّ البعض ساجدين لله وحرك البعض الآخر أيديهم محتجين وأشاروا إلى أن الجلادين في الساحة قريبون فماذا بأنفسكم وبنا تصنعون..؟

في التاسعة والنصف استنفرنا في المهجع، فقد قرب موعد التنفس اليومي، كنت لا أبالي كثيراً بمثل هذه الاستعدادات ولكن كثيراً من الأخوة المعتقلين في المهجع كانوا مرهفي السمع ينصتون ويتأولون ما يسمعون.. وفي مهجعنا الجديد تبدو الأصوات أقرب.. قال بعضهم: هناك فتح مهاجع هناك تعذيب.. أنصت مع المنصتين فسمعت فعلاً صراخاً بعيداً إنه في الساحة الأخرى.. كما سمع كثيرون بل الكل سمعوا ما سمعنا.. فتلفت بعضنا إلى بعض وتفاهمت النظرات بصمت..

يعبر عن ألم وقهر.. كان أمراً غير معقول.. لم يستطع أي منا أن يجد له مبرراً.. إلا صورة من الظلم والحقد والانحراف لم نعرف لها مثيلاً..

تحدث بعض المتنصتين هامساً.. فقال: (بلشوا) أي ابتدأوا بالتعذيب. أنكر البعض على المتخوفين هذا مستهينين، وقالوا هذا شيء بعيد، فأجابوهم: إنكم ترونه بعيداً ونراه قريباً. دخلت الأصوات باحتنا، وسمعت بعض التحركات الغريبة، فعم الخوف والقلق والتوجس نفوسنا.. لقد جاء الجلادون.. الفاجرون..

وسمع صوت دبيب الأرجل العارية الحافية راكضة على أرض الباحة، ولعلع صوت الكرباج اللعين.. في ضرب المعذبين.. يتألمون ويصرخون ويستغيثون. ما أفظع وأشنع ما يفعل هؤلاء الحاقدون الفاجرون..

وما أصعب وما أقسى أن تكون شاهداً على تلك الجريمة، وها نحن نعيشها بدقائقها وننتظر دورنا في السحق والتقتيل لا تملك دفعاً ولا ممانعة.

ونشطت عملية التعذيب واشتدت.. وملأ جو المكان صراخ جماعي أليم يفتت الأكباد والجلادون ماضون في صراخهم وضربهم وهزئهم..

ومضى الوقت بطيئاً زاخراً بالألم، وكأن اللقطة أعجبت المشاهدين فهي تعاد ببطء شديد وتعاد وتعاد وأدخل نزلاء المهجع رقم (٨) وأخرج الجلادون نزلاء المهجع رقم (٩) المجاور لنا فعذبوهم أيضاً ثم أدخلوهم..

كان كل واحد من المعتقلين في المهجع في تحفز وخوف يتلفظ بأحر ما في قلبه من دعاء واستغاثة..

صرخ رئيس المهجع: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.

فتح الباب.. ووقفنا كالعادة.. باستعداد جامدين مغمضي العيون.. ننتظر قضاء الله..

وصرخوا فينا بقسوة: (لبرا ولك حقرا.. لبرا ولك كلاب.. تنفس..) وخرجنا مسرعين واحداً واحداً..

اللهم لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. عليه توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون..

استرقت النظر وأنا أخرج من الباب.. كان رئيس المهجع في أول الرتل الراكض رملاً.. كان مطأطئ الرأس محني الظهر ووراءه الجميع، كل واحد يدفن رأسه في ظهر الذي أمامه، صورة من الذل والمهانة لم أرها ولم أسمع بها.. لا بين الأسرى لدى إسرائيل ولا لدى هولاكو ولا في حال العبيد لدى نيرون والرومان..

ولعلع صوت الكرباج.. مع أول خارج من باب المهجع.. ولما تكامل خروجنا جاء الأمر: منبطحاً ارفع رجليك.. وبدأ حفل العذاب.. بين هدوء واحتدام..

وهجم الجلادون علينا يضربوننا بالكرابيج ويسبوننا ويشتموننا ويدوسوننا بأرجلهم ويرفسوننا في صور مريعة من القسوة والعنف وعدم الرحمة.. وعلا صراخ الألم، وأصوات المعذبين، وهجم علي جلاد كالبغل، فنالني من أذاه ما الله به عليم، وصرخت بصوت مبحوح، حتى كللت ثم أذن الله بالفرج، وجاء الأمر بدخول المهجع.. ووقف اثنان من الجلادين على الباب يضربون الداخلين..

دخلنا المهجع.. وأغلق الباب.. وصرخ رئيس المهجع باللازمة.. استلقى كل منا في ناحية أو تكوم في زاوية، فكتم التنهدات والحسرات والآلام حتى ابتعدوا عن الباب.. وخر البعض ساجدين وتبعهم الباقون، وسجدت لله أحمده وأشكره..

كنت أمثل لحالنا وحالهم: بصورة شعبية معروفة في منطقتنا، تحكي تبجح الجبان حيث يقول متحسراً ومتفاجراً يظهر بطولته في تأديب الخصم:

أخ لو كتفوا لي إيديه ورجليه.. وأعطوني عصا غليظة.. وقالوا لي ميل عليه.. فكنت أعجب من هؤلاء المتبجحين بالرجولة والشجاعة.. وهم من أجبن الناس، ومن أخس الأوباش، أهكذا الرجولة تكون؟..

ولكن التنفس هكذا يكون في نظام سجن التصفية الجسدية للأخوان المسلمين..

ذهب الجلادون بعد ذلك إلى المهجع الذي يلينا، ففتحوا بابه وأخرجوا نزلاءه فأخذوا يعذبونهم ويضربونهم ونحن نستمع في إشفاق وألم وقهر، ولا نملك سوى الدعاء بحرقة إلى الله.. نسأله أن يرحم المعذبين ويشل أيدي الظالمين، في أي زمان وأي مكان، تحدث هذه المظالم وهذه الوحشية؟ وفي ظل أي قانون أو دستور؟ (إنه زمن الضياع).

شغل كل منا بنفسه وتصوراته، وذكره ودعائه كان البعض ينصتون ويحسبون.. وآخرون يقرؤون ويرتلون.. وآخرون يسبحون.. وأبو بدر ماض في قراءته وترتيله لا يلتفت إلى شيء.

شكا البعض أنهم لا يستطيعون قراءة القرآن الكريم.. في ظل هذه الأجواء المكهربة بالرعب والإرهاق، ونحن لا ندري ما يحدث لنا بعد ساعة.. وأصوات المعذبين التي تذيب القلوب القاسية.. وأصوات الجلادين الكريهة.. وصوت الكرباج المرعب لحن جهنمي لا يكاد ينقطع، ونحن نجلس في سكون، حائرين، مترقبين، خائفين، ساهين، والمتنصتون يؤولون الأصوات.. ويحللون.. ويتصورون ما يحدث وما سيحدث؟ يقولون سيأتي الجلادون.. ويصدقون.. وكل لقاء لنا مع الجلادين حار فعواطفهم الملتهبة تجاهنا يترجمها الكرباج بقوة وشراسة بعد اللسان السليط..

التفقد

في الساعة الثانية بعد الظهر جاء نفر كبير من الجلادين وأخذوا يدخلون مهاجع الباحة، وكانوا يبقون في المهجع حوالي ربع ساعة حيث تعلو الأصوات ويعلو صراخ المعذبين والجلادين معاً، ثم جاؤوا إلينا ففتحوا الباب وصرخ رئيس المهجع باللازمة المعروفة ودخلوا كالأبالسة هذا يصرخ من هنا وذا من هناك، فما فهمنا إلا أمراً واحداً من صراخهم وضربهم وهو أن نصطف اثنين اثنين، فانطلقنا بين الضرب والركل نصطف، وكلما كاد الصف ينتظم بعثره الجلادون، فكان وقتاً عصيباً رهيباً حتى جاء الفرج من الله وعدّنا الرقيب على ما يبدو ثم انطلقوا خارجين لم نفهم لهذه العملية معنى سوى أنها نوع من العذاب ولكن أحد المعتقلين وهو عسكري سابق كان قد أمضى مدة من الزمن في سجن تدمر هذا، قال: هذا هو التفقد.. تساءلنا وما هو التفقد؟ قال: كل يوم يأتون في الساعة الثانية حيث يجب أن نكون جميعاً مصطفين اثنين اثنين فيعدنا الرقيب.. تساءل أحد الأخوة قائلاً: ولماذا كل يوم ما دام لا يأتينا جديد، ولا يذهب من عندنا أحد والباب مغلق؟ هل يخافون أن يخترق أحدنا الجدار ويخرج؟

وهكذا كانت أيامنا في سجن تدمر ملأى بالعذاب والقهر والإرهاب، لا يدعنا زبانية السجن نرتاح أو نهدأ، إلا بضع ساعات من الليل، فكنا نطلبها حثيثاً قائلين: أدركنا يا ليل الأمان. كما كان أحد الأخوة المعتقلين يقول إذا حلّ الظلام وأمنا إغارة الجلادين: يا سلام يا ليت الأيام كلها ليل، ولن يبدو هذا غريباً إذا علمنا ما حلّ بهذا الأخ وما أصابه نتيجة العذاب والإرهاب.

أبو مازن في فخ المخابرات

كان أبو مازن نموذج الإنسان الوادع المسالم الأديب، مخلصاً في عمله، محبوباً بين زملائه ورؤسائه، يزينه خلق كريم ولطف ودماثة، كان موفقاً في اختيار الزوجة الصالحة، الودود الولود وله منها الآن أربعة أولاد وكان لا يغيب عن بيته ولا يسهر خارج المنزل إلا نادراً..

قام بخدمة إنسانية من خلال عمله في مشفى الدولة بإدلب، حيث نقل رسالة من معتقل محطم جيء به إلى المستشفى للعلاج إلى أهله، ثم فوجئ بالمخابرات تطلبه فسلّم نفسه إليهم دون أي تردد، وإذا به يقع في فخ التحقيقات والتعذيب حتى وصل أخيراً إلى سجن تدمر، وهنا أصيب الأخ بمرض عصبي يفقده إمكانية السيطرة على نفسه وخاصة حين حضور الجلادين، وخلال حفلات التعذيب..

الثقة بالله

ومع كل ذلك ورغم حالنا الصعبة هذه وما كنا فيه من عذاب وإرهاب فإن ثقتنا بالله كانت بلا حدود، وكان كثير من المعتقلين يقولون بثقة واطمئنان: لا تراعوا فإن الفرج قريب، فكلما

اشتدت المحنة كان الفرج أقرب، فما يأتي الفجر إلا بعد اشتداد الظلام، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا) فمهما اشتد ظلم زبانية سجن تدمر وطغيانهم فإن لكل شيء نهاية، وسوف تأتي نهاية كل ذلك قريباً بإذن الله..

كنس الباحة

في يوم ١٩٨٠/٩/١٧ تسللت بعد الفجر إلى المنافع (المرافق) من أجل الوضوء نعم تسللت لأن الزبانية يراقبوننا وخاصة عند الفجر، ويحظرون علينا الحركة أو الذهاب إلى المرافق لمنعنا من الوضوء والصلاة.. وكانت هذه أقسى مشكلة، أن نمنع من الصلاة بالإكراه وبالإرهاب وبالعذاب، لماذا هذا الإصرار على محاربة الصلاة والعبادة؟

لقد أجبرتنا حفلات العذاب الرهيبة التي أنزلت بنا جراء الصلاة على الحرص على التخفي بصلاتنا.. قال الأستاذ أبو أسامة: إن هؤلاء قد أعلنوها من قبل حرباً على الله.

منذ يومين كان أحد الزبانية يراقبنا سراً دون أن ندري، واستطاع أن يضبط أحد الأخوة وهو يصلي فأخذ يصرخ فينا ويسبنا ويهددنا بالويل والثبور.. ورغم أن الوقت كان عصراً وليس من عادة الزبانية الحضور في مثل هذا الوقت، فقد جاء عدد منهم وهم في أشد الغيظ والحمية وبأيديهم الكرابيج، فصرخوا فينا وسبونا ثم فتحوا باب المهجع وأخرجونا إلى الباحة تحت الضرب الشديد، وأمرونا بكنس الباحة بأيدينا العارية، وكانت هذه حجة ووسيلة لتعذيبنا وضربنا، فبينما كنا نقوم بكنس الباحة المحفورة والملأى بالرمل والأوساخ كان الزبانية يجولون ويصولون وينقضون علينا ويضربوننا أعنف ضرب، وكان من الزبانية عريف طويل القامة ممتلئ الجسم ذو صوت أجش منكر يدعونه (شعبان) كان أكثرهم وأنشطهم في الضرب والعذاب، وكان يظهر واضحاً من لهجته أنه نصيري.

حفلات التعذيب

في يوم ١٩٨٠/٩/٢٢ ورغم مرور أكثر من عشرين يوماً على وجودنا في سجن تدمر، فإننا لم نكد نعرف شيئاً عن أمور هذا السجن المليء بالغرائب والأهوال..

اليوم ومنذ الصباح الباكر التقطت آذاننا أصوات أشياء تلقى على أرض الباحة، وبعد مدة يسيرة سمعنا من جديد حركة في الباحة وأصوات الجلادين وهم يصرخون ويضربون في همجية كالعادة.. ورغم كل الظنون والافتراضات فقد بقي الأمر مجهولاً.. واستمرت الحركة والضرب والعذاب في الباحة، وكنا نعيش دقائق الضرب والتعذيب والآلام رغم أننا ضمن المهجع لا نرى ما يجري ولا نعلم عنه إلا تلك الأصوات التي نسمعها، فندرك منها قسوة العذاب وشدة وقع الضربات

على المعذبين بل ونعرف المعذبين أنفسهم، ويشتد بنا القهر والحرقة لما يحل بهم ونشرع في الدعاء لهم ونبكي وتنهمر دموعنا ألماً لما يصيب هؤلاء الأطهار من ظلم وبغي وعذاب..

وبدا لنا أنهم يأتون بنزلاء بعض المهاجع بالتتابع وقد استمر العذاب طوال هذا اليوم..

الجمعة ١٩٨٠/٩/٢٣

أي ظلم هذا وأي بغي فقد عاد الزبانية اليوم إلى ما كانوا عليه بالأمس من تعـــذيب المعـــتقلين، وعدنا نعايش هذا القهر والألم وكنا ننتظر أيضاً أن يحين دورنا في العذاب، وهل نحن إلا بعض من هؤلاء المعتقلين الذين يعذبون؟

استمر العذاب رغم أن اليوم جمعة وهو يوم العطلة الرسمية، ولكن الزبانية على ما يبدو لا عطلـــة لديهم ولا يراعون حرمة يوم الجمعة المبارك، وبينما كان صوت القراء والمؤذنون ينطلق من مآذن مدينة تدمر إيذاناً بحلول وقت صلاة الجمعة كان الزبانية يهزؤون بالتلاوة وبالآذان، ويثابرون عل غيهم في ضرب المعتقلين وتعذيبهم، واختلطت أصوات ضرب الكرابيج وصراخ المعذبين وتجديف الزبانية مع أصوات تلاوة آيات القرآن الكريم ومع الآذان المنطلق من مآذن مدينة تدمر، فيا غيرة الله.

١٩٨٠/٩/٣٠

تبين لنا أن حفلات العذاب الرهيبة التي كانت تنشط طوال يومي الخميس والجمعة ويوم السبت في بعض الأحيان، ويستمر فيها تعذيب المعتقلين منذ الصباح وحتى المساء، تبين لنا أنها عمليـــات حلاقة تتم لنزلاء مهاجع سجن تدمر بالتناوب.

رجال الغد

يوم ١٩٨٠/١٠/١ كنا نسمع في المهجع المجاور عند تقديم الصف وترديد اللازمة صوت غـــلام صغير دون الخامسة عشرة وهو يصرخ بصوته الرفيع باللازمة انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب، ثم نسمعه يردد وهم خارجون بصوت باك استارح استاعد المهجع انتـــهى مـــن التفتيش حضرة الرقيب، فيهفو قلبي إلى ضم هذا الغلام إلى صدري وحمايته مـــن كيـــد هـــؤلاء الظالمين، كان يثير في قلوبنا الحنان والعطف، وكان الجميع يثيرهم هذا الصوت الرقيق الذي مـــا كان يجب أن يسمع بسيرة هذا المكان حتى لا تؤذي مشاعرها الرقيقة وأحاسيسه الطفولية البريئة، ولكن الجلادين كانوا يهوون ضرب هؤلاء الأطفال بقسوة وعنف، ويهوون تعذيبهم وتقتيلـــهم، ففي فترة الحلاقة البارحة كانت هناك أصوات مختلفة تصرخ متألمة شاكية، وكان بينها الـــصوت الطفولي الرقيق لعله هذا أو غيره فالأطفال هنا كثيرون.. كان الطفل يبكي ويـــصرخ والجـــلاد يضربه، وسكت فترة ليعاود الصراخ من جديد ثم يتبعه بعد ذلك صوت طفولي آخر يتوســـل إلى

الجلاد بلهجة حلبية كنت أحدث نفسي والدموع تنساب من عيني: أي مرارة تزرعونها أيها الظالمون في قلوب هؤلاء الصغار الأبرياء؟ ثم ماذا ستحصدون بعد ذلك..؟

يوم ١٩٨٠/١٠/٣

العذاب في سجن تدمر مستمر لا ينقطع، يبدأ منذ الصباح الباكر وربما من الفجر، ويستمر هنا وهناك بصورة أو بأخرى وصوت الكرباج اللعين وصراخ المعذبين وعويلهم لا تغيب عن الأسماع في هذا المكان الرهيب.

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم وبينما كنا نسمع أصوات العذاب ونحن في خوف وألم حصل ما كنا نتوقعه، فقد شعرنا بالزبانية وهم يدخلون باحتنا ويبدؤون بتعذيب نزلاء المهاجع المجاورة، وكانت صورة العذاب اليوم غير ما ألفناه سابقاً في صورة عذاب التنفس والحلاقة أو غيره.. وجاء دورنا أخيراً بعد أن عشنا مع عذاب إخواننا وقتاً طويلاً، وضرب الجلادون الباب الحديدي ضربة قوية ارتجّ لها المكان ثم فتحوه وصرخ أحد الجلادين بصوت هستيري: ولك حقراء.. أنذال.. والله لأفعل.. وتلفظ بأشنع السباب ثم صرخ: بالشورت يا حقراء..

وبعد تردد يسير استوعبنا معه الأمر. بادرنا بنزع ثيابنا بعد أن كان كل منا قد لبس كل ما لديه من ثياب لتدفع عنه شيئاً من أذى الكرباج، ودخل الجلادون علينا فضربونا ضمن المهجع في هجمة عذاب منكرة ثم أخرجونا إلى الباحة ونحن عراة وأخذوا يعذبوننا بالكرابيج اللعينة، يضربوننا على أجسامنا العارية، وطلب الجلادون رئيس المهجع فأخذه كبير الجلادين (المساعد أحمد) ودخل به إلى المهجع واستمر العذاب والضرب بمختلف الأشكال والصور.. منه أنهم أمرونا أن نجلس القرفصاء وننظف أرض الباحة وأخذوا يطوفون علينا ويضربوننا أشد الضرب على أجسامنا العارية.. وكانوا يأمروننا أن لا نصرخ وإلا ضاعفوا لنا العذاب، وكان ممن شددوا عليه الضرب والعذاب، المعتقل أبو الورد فاستغاث بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم قائلاً: (دخيل محمد) فأخذت الجلاد حمية الجاهلية، وصرخ غاضباً مستهيناً: مين هادا محمد يا كلب؟ وانقض على المعتقل يضربه بقسوة بالغة، دخلنا المهجع أخيراً ونحن منهكون، فوجدنا كل ما في المهجع من حاجيات قد نبشت وقلب عاليها سافلها، وتكومت هنا وهناك في صورة غريبة من اللخبطة مما أدهشنا وحيرنا.. وقام كل منا يبحث عن ثيابه وسط هذا الخليط ليستر جسده، وبصعوبة كبيرة تمكن كل منا من جمع حاجياته..

أخبرنا رئيس المهجع أن المساعد قام بعملية تفتيش دقيقة شملت كل المهجع وتسببت في هذه الفوضى، ولما تفقدنا حوائجنا تبين لنا سرقة مبالغ كبيرة من النقود وعدد كبير من الساعات أذكر منها:

- مبلغ ١٣٥٠ ل. س + ساعة يد إلكترونية للمعتقل محمد سعيد.

- مبلغ ٩٠٠ ل. س + ساعة يد عادية للمعتقل أبو إبراهيم، كانت النقود في دفتر صغير أحمر اللون.

- مبلغ ٥٠٠ ل. س للمعتقل أبو عبيدة.

- مبلغ ٣٢٥ ل. س + ساعة يد أورينت للمعتقل مالك.

ولم يعثر لها على أثر رغم البحث الشديد، وبدا واضحاً أن فقدان هذه الأشياء ضمن المهجع مستحيل ونحن محصورون ضمن جدران أربعة، وفطن رئيس المهجع إلى أن المساعد كان خلال عملية التفتيش يدس يده في الثياب ويدقق في الجيوب، وأنه –أي رئيس المهجع- لم يكن يجسر على أن يرفع بصره إليه ليدقق ويعرف ماذا يفعل، ولكنه تذكر أنه شاهد الدفتر الأحمر الخاص بالمعتقل أبي إبراهيم في يد المساعد خلال التفتيش.. إذن فقد وضح الأمر وعرف السارق، ولكن دون أية فائدة فمن يستطيع الاعتراض على شيء تجاه كبير الجلادين؟

ولكن كبير الجلادين كان يعرف على ما يبدو أننا سنكتشف أمره، لذلك بادر هو وزبانيته إلى الهجوم علينا، فما شعرنا إلا والزبانية قد حضروا وفتحوا باب المهجع ودخلوا علينا وأخذوا يجلدوننا بعنف وقسوة.. كان على رأسهم كبير الجلادين يحمل بيديه الاثنتين عصاً غليظة طويلة أخذ يضربنا بها.

الحلاقة

فوجئنا اليوم ١٩٨٠/١٠/٨ بالزبانية وقد أتوا إلى مهجعنا وهم ثائرون، فصرخوا فينا وفتحوا باب المهجع وأمرونا بالخروج بسرعة.. فخرجنا نعدو ونحن لا ندري أي مصيبة تنتظرنا.. وفي الباحة وقفنا في صف عند أحد الجدران واحداً واحداً ووجوهنا إلى الجدار، وأخذوا ينقضون علينا ويضربوننا ويأخذون بعضنا فيوقعون بهم أشد العذاب، خلال ذلك وقع أحد المعتقلين على الأرض مصاباً بحالة تشنجية عصبية فهو يضطرب ويختلج.. وجاءه أحد الجلادين وأخذ يضربه ويرفسه ويصرخ فيه ويسبه، ثم صرخ فينا قائلاً: مين كلب منكم دكتور؟ فلم يرد عليه أحد، ثم صرخ قائلاً: اثنين يشيلوه عالمهجع.. فحملناه إلى المهجع وأخذنا نحاول إنعاشه، ثم جيء بمعتقل آخر مغمى عليه فوسد إلى جانب الأول وبقيت مع اثنين آخرين نعتني بهما حتى انتهت حفلة العذاب، وجيء بزملائنا فأدخلوهم إلى المهجع، فلما رأيناهم تبين لنا أنه قد حلقت رؤوسهم ووجوههم، وأي حلاقة! فقد كانوا مجرحين منهكين من الحلاقة والعذاب، فذهب كل يغسل جروحه ويداوي إصاباته..

وبعد أن هدأت الحال قليلاً أخذ كل يحدث بما لقي من العذاب والضروب وبما عانى من آلام.

قال الصيدلي (ع. م) ضربوني على يدي (١٥) كرباجاً وعلى رجلي مثـــل ذلـــك، ثم أخـــذوا يرفسونني، وأخيراً صعد على ظهري وأنا منبطح على الأرض جلاد ثقيل كالبغل وأخذ يقفز فوق ظهري ويدعس عليه.. أيقنت أن ظهري قد تحطمت عظامه وأنني لن أقوم بعدها أبداً، وكان هذا الأخ قصير القامة نحيف الجسم رقيق الحاشية يقول: ولكنني قمت بعد ذلك وأنا لا أكاد أصـــدق نفسي.

وقال الأخ المعتقل الأستاذ (أ. ع) تولاني جلاد فاجر أمرني أن أمد يديّ الاثنتين إلى الأمام وأخـــذ يضربني عليهما.. ولم أحص عدد الضربات لأنها كانت كثيرة، وكنت رغم الألم الرهيـــب أجـــبر نفسي وأمد يدي إلى الضرب حتى ملّني الجلاد ورفسني وضربني وقال: انصرف بقى يا كلـــب. ويقول الأخ المعتقل: ولكن يدي قد عطبتا وأراني يديه فإذا هما متورمتان زرقاوان مجرحتان.

وحدثني الأخ (م. خ) من قرب دمشق قال: ابتليت بجلاد رهيب ضربني على يدي حتى كـــلّ ثم ألقاني أرضاً، فضربني بالكرباج على رجلي حتى كلّ أيضاً، ثم صعد على ظهري يرفسني برجليه، فلما ضقت بذلك تحركت من ألمي فألقيته عن ظهري فاغتاظ مني وجاء يرفسني ويرفـــع رجلـــه "بالبوط" الضخم ويوجه الكعب الحديدي وينزل به بقوة في منتصف ظهري حتى لقد ظننـــت أن ظهري قد كسر وأني لن أقوم حياً، ولكن لطف الله هو الذي أنجاني..

وكان زملاؤنا يتساءلون: لماذا لم تحلقوا أنتم الثلاثة؟ فنتبسم ونلوح بأيدينا ونقول: أنجانا الله مـــن هذه المصيبة.. قال بعض الأخوة: ولكن كيف إذا شاهدكم الجلادون وأنتم بلا حلاقـــة، مـــاذا تقولون؟وكثرا الاقتراحات علينا كما أننا أخذنا نقلب الأمـــر علـــى وجوهـــه مـــاذا ســـنقول للجلادين؟؟ وأي حجة تنفع عند هؤلاء المجرمين؟؟ ولكن المعتقل المهندس "بسام" اندفع يقول راداً كل الاقتراحات: لن نقول شيئاً.. "إن الله يدافع عن الذين آمنوا" فالله يدافع عنا..

وكان الرأي الفصل، وسلمنا أمرنا إلى الله، وقد أنجانا الله سبحانه.. ومـــضت الأيـــام ولم ينتبـــه الجلادون إلينا ولم يسألونا شيئاً عن هذا الموضوع.

يوم ١٩٨٠/١٠/١١ أبو بدر ورأسماله

كان أبو بدر لا يتوانى عن متابعة قراءة آيات القرآن الكريم، فهو يرتلها باستمرار مشغولاً بها عن كل شيء.. يرجو بها ويأمل ويدعو ويستغيث، وفي مختلف الظروف والأحوال تـــراه مـــستغرقاً مشغولاً بها عن كل شيء حوله.. مما يشغل الناس من خوف ورعب يشل التفكير.. والحـــواس.. وكانت الأحوال قاسية والأمور صعبة.. فالمهجع في حميا خوف ورعب دائمين، لا يكـــاد يهـــدأ أوراهما..

يبدأ الرعب قبل الفطور الذي تحدث فيه أمور أليمة وصور قاسية من العذاب والضرب، ثم تتوالى دخلات العذاب فلا تكاد تنقضي واحدة حتى تنتظر الثانية.. ولا تكاد تنقطع أصوات التعــذيب وضرب الكرابيج وعويل المعذبين، فلا نسمع شيئاً من ذلك إلا اشتد علينا الأمـــر وأخــذنا الألم والقهر وتهيأنا للمصيبة في أنفسنا..

ولا يكاد الشيخ أبو بدر (أسامة خواشكية) ينتهي من فطوره ويرد على بعض السائلين حتى يأخذه ما يأخذ الجميع من التحفز والقلق والخوف، فيبادر إلى لف معصميه بقطعتي قماش للوقاية مـــن آثار الكرابيج وإلى آيات الله يتلوها.. وهكذا يعرض أبو بدر عن كل ما حوله من أحداث.. ومن خوف وقلق ورعب وينشغل بما هو فيه من تلاوة، فإذا جاءنا الجلادون، قام ولــسانه لا يــزال مشغولاً بالذكر والدعاء والاستغاثة، فإذا انقضى العذاب وذهب الجلادون وثبنا إلى أنفسنا، نرى أبا بدر ثابتاً على قراءته وتلاوته فإذا أخرجته من جو القرآن بسؤال لم يبخل عليك بـــالجواب.. وتراه مطمئناً إلى رحمة الله.

قلت له مرة: ماذا تفعل طوال الوقت يا أخي أبا بدر؟..

قال: أشتغل برأس مالي..

قلت: وما رأس مالك هذا؟..

قال: ياسين، والواقعة، وتبارك ونوح وعم والنازعات.. وغيرها..

قلت: بارك الله لك في هذا الرأسمال، ورزقك منه أكثر وأكثر..

قال: أما الآن فلا أستطيع الحفظ في هذه الحال.. نسأل الله اللطف.

وقال أبو مصطفى: جيد أنك تستطيع القراءة يا أبا بدر، فإنني والله لا أستطيعها خاصة في حالات الشدة والخوف ولكني أسبّح الله وأدعوه دون انقطاع..

الحمام

كل شيء في سجن تدمر العسكري مسخر لتعذيب المعتقلين وإرهابهم حتى الحمام! فبعد أن مضى علينا في سجن تدمر هذا قرابة شهر ونصف لم نر فيه الحمام ولم نتمكن من الاغتسال إذا بزبانيـــة السجن يأتوننا في ١٩٨٠/١٠/١٣ ليقودونا إلى الحمّام، فتحوا باب المهجع وصـــرخوا فينـــا: "بالشورت يا كلاب" ثم أمرونا بالخروج وبعد أن قاموا بتعذيبنا وضربنا مدة طويلـــة في الباحـــة أجبرونا على كنس أرضها المحفرة بأيدينا العارية تحت الضرب الشديد أخذونا إلى مـــا يدعونـــه (الحمّام) وهو مكان في زاوية الباحة التي تقع مهجعنا فيها، وكان هناك عدد مـــن الكابينـــات لا يجاوز عددها العشرة فوقها صنابير مياه، فأمرونا بالدخول إليها للاستحمام، ولكنهم لم يتركونـــا

سوى دقيقتين أو ثلاث ثم صرخوا فينا آمرين بالخروج، وهجموا علينا يضربوننا ونحن نركض باتجاه المهجع، وقد وقع بعضنا على الأرض تحت سياط الجلادين فياله من حمّام؟

يوم ١٩٨٠/١٠/١٢

جاء الزبانية وفتحوا باب المهجع لإدخال الفطور فلما خرج اثنان من المعتقلين لإدخال طعام الفطور انقضوا عليهما وضربوهما، ثم دخل الزبانية إلى المهجع وضربوا عدداً من المعتقلين وهم يسبون ويشتمون بألفاظ قبيحة، ولم يكن طعام الفطور سوى بضع علب جبنة محفوظة وكمية قليلة من الشاي كانت حصيلة أحدنا منه لا تتجاوز قطعة واحدة مثلثية من جبن (لافاجكيري) وكأس صغير من الشاي البارد.

وكنا نود لو تركنا الزبانية من شرهم فلا نريد منهم أي طعام..

زيارة

زار مهاجع السجن اليوم ضابط ذو رتبة كبيرة رجح بعض المعتقلين أن يكون مدير السجن نفسه، وكان محاطاً بعدد كبير من الحرس الخاص، وما كانت زيارته إلا لضرب المعتقلين وتعذيبهم بنفسه.

فتح باب المهجع ودخل المساعد رئيس الجلادين ومعه عدد كبير من الجلادين، توزعوا في أرجاء المهجع ثم دخل الضابط وحوله عدد كبير من الحرس الخاص يحيطون به، وتولى المساعد تقديم الصف منادياً: (استارح، استاعد، تهيأ).

وأخذ الضابط يمر بالمعتقلين فيسأل كلاً منهم عن سبب اعتقاله ثم يشتمه ويضربه، بينما يقوم اثنان من الحرس الخاص بالإمساك به والمعتقل مغمض العينين، جامد مستسلم لقدر الله.

وكان نموذجاً من القسوة والدموية، حيث كان يهدد المعتقلين بالشنق والقتل.

يوم ١٩٨٠/١٠/١٦

وقع المحذور الذي كنا نتوقاه جهدنا، فقد ضبط الرقيب عدداً من الأخوة المعتقلين وهم يذهبون تباعاً إلى المرافق، فصرخ فيهم وسب وشتم وتوعدهم قائلاً: (الصبح بفرجيكن يا.. يا حقراء).

وجاء الزبانية فأخرجونا جميعاً إلى الباحة، وضربونا وعذبونا طويلاً كان الأمر خطيراً أنمنع من الصلاة؟

يوم ١٩٨٠/١٠/١٧

خلال حفلة عذاب التنفس هجم عليّ الجلاد وأخذ يضربني على رجلي وجسمي وكان بجانبي أبو عبدو، وإذا بعدد من الجلادين ينقضون عليه ويضربونه ويعذبونه ويتناوبون على ضربه، فإذا وقع أقاموه وكلما ضربه واحد منهم تلقاه آخر.. حاول الفرار منهم ولكنهم أمسكوا به وما زالوا به حتى أنهكوه وحينما دخلنا المهجع بعد نهاية حفلة عذاب التنفس، كان الأخ أبو عبدو في حالة

سيئة.. كان يلهث بقوة والكدمات تملأ وجهه، كما تبين لي أن الزبانية قد ضربوا الأخ المعتقل أبا أحمد حتى وقع مغشياً عليه، وأدخل محمولاً بأيدي زملائه.

وكان من الزبانية عريف يدعى (شعبان) كان يحمل بكلتا يديه عصا ضخمة يحطم بها المعتقلين، وقد ضرب المعتقل أبا موسى وهو شاب رياضي مفتول العضلات بالعصا على صفحة وجهه ضربة قاسية ألقت به أرضاً.

النقيضان

أمر يشتد له العجب ويثير في النفس الاستغراب والتساؤل كيف؟ ولم؟.. كيف يتواءم الضدان ويتوافق المختلفان؟ ضيق وكرب وعذاب نعيشه نحن المعتقلين هنا في سجن تدمر العسكري الصحراوي منقطعين عن الدنيا جميعها وعن الناس كلهم ضمن المهجع.. والباب الحديدي مغلق أربعاً وعشرين ساعة في اليوم لا يفتح إلا لهجمة شرسة أو حفلة عذاب رهيبة، وقد آلى جهاز السجن على نفسه أن لا يترك للمعتقلين ساعة من الراحة والأمان في ليل أو نهار، وأن يملؤوا حياتهم عذاباً وإرهاباً وقهراً، حتى عششت الرهبة والقلق والتوتر في جو المكان وفرخت، وعاد السجن وباحاته ومهاجعه ميدان عذاب وإرهاب لا ينقضي، تنبض نسماته بالعذاب وتصطفق أبوابه بالرعب ويمتلئ جوه بعويل المعذبين وأنات البائسين.. فما تنقضي محن المعتقلين فيه، كأن أيامه ظلمات بعضها فوق بعض والمنقذ الوحيد للنجاة هو الموت.

في هذا المكان الرهيب وفي هذا الجو القاتم توجد طيور صغيرة الحجم ندية الصوت كثيرة الحركة والتنقل، إنها العصافير تستيقظ باكراً لتسعى وراء رزقها دون هم ولا غم، تشدو بأصواتها الجميلة مع بعضها ويعلو صياحها ثم يتفرق كل إلى حالة آمنة مطمئنة سعيدة فرحة تبني أعشاشها وتضع بيضها وتربي أفراخها، فهي في اجتماع وانتشار وتناج وصياح وغدو ورواح في حياة هانئة وأصوات فطرية وحركات ممتعة مسلية.

كيف يجتمع المتناقضان ويأتلف الضدان: الخوف والأمان، في هذا المكان؟ إلا أن الله في خلقه شؤوناً!

أيتها الطيور الصغيرة الوادعة، ما أسكنك في هذا المكان.. العاتي الرهيب حيث القهر والآلام والأحزان لا تنقضي، حيث الظلم والتجبر، حيث الموت بصورته الكالحة.. حيث انقلب بعض بني البشر ذئاباً ووحوشاً مفترسة وحيوانات مؤذية، أفاعي وعقارب تلدغ وتعض وتنهش أليس لك أيتها الطيور الوادعة في غير هذا المكان حياة؟ أم أنك لنا سلوى وتعزية؟

غارات وقمل

لم يكتف زبانية سجن تدمر بما يوقعونه بنا من عذاب طوال ساعات النهار، بل تفتقت أذهانهم عم صور أخرى للعذاب يترلونها بنا في أواخر الليل وتحت جنح الظلام.

فوجئنا ليلة البارحة بأصوات صراخ وعويل جماعي ينطلق فجأة من أحد مهاجع السجن القريبة، رغم أن الوقت كان بعد منتصف الليل، وغلت الدماء في عروقنا غضباً وقهراً من هـــذا البغـــي والعدوان الذي يمارسه الزبانية الأنذال، الذين لم يكتفوا بكل حفلات العذاب اليومية فجـــاؤوا في الليل يعذبوننا وينغصون علينا هذا الوقت القليل الذي نرتاح فيه من بغيهم وفجورهم.. وكـــان الأعجب من كل ذلك ما ذكره أحد المعتقلين من أن أحد الجلادين قال مهدداً: (ظبطوا يا كلاب بدنا نجيكم غارة ليلية).

اكتشفنا منذ بضعة أيام أن القمل منتشر بين المعتقلين في مهجعنا وبكثافة كبيرة.. كان ذلك مقرفاً حقاً ولكنه واقع حاصل لا يمكن إنكاره، كثر الحديث بيننا عن أسباب وجود القمل ومـــصدره، وتبين لنا أن السبب هو ما نحن فيه من تضييق وحرمان من وسائل وإمكانيات النظافة والاغتسال، وأن هذه الحال تحتم وجود القمل وانتشار مختلف الأمراض السارية.

وكانت الوسيلة الوحيدة الممكنة لمكافحة القمل هي "التفلية" حيث يقوم كل منا بخلع ملابـــسه والبحث عن القمل فيها والتخلص منه، وكنا نجد القمل وقد تغلغل في طيات الثياب وهو منتفخ البطن بما امتص من دم، ثم تبين لنا انتشار نوع آخر من القمل بيننا هو قمل العانة (ضبوع) وهو قمل من نوع آخر لا يصيب إلا منطقة العانة وما حولها، حيث يلتصق بأصول الـــشعر ويـــضع بيوضه عليها، ولم يكن من السهل معالجة هذا النوع من القمل، لأنه كان أشد سوءاً من سابقه.

العيد

كان يوم ١٩٨٠/١٠/٢٠ هو أول أيام عيد الأضحى المبارك، أمل بعض المعتقلين أن يذكر العيد بمعانيه السامية طغاة بلادنا بلزوم وضرورة الصفح عن المعتقلين الأبرياء، ولكن خاب فألهم، فهـــا هم الزبانية لا زالوا على ماهم فيه من بغي وشر لم يلتفتوا إلى العيد، ولم يفهموا من معانيه السامية شيئاً.

وفي الساعة الثانية ظهراً جاء زبانية السجن إلى مهجعنا لإجراء التفقد اليومي ولإدخـــال طعـــام الغداء، وحينما خرج اثنان منا لإدخال طعام الغداء ويسمونهما (السخرة) ضربوهما بعنـــف، ثم دخل الزبانية المهجع، وبينما كان الرقيب يعدنا كان نفر من الزبانية مندفعين في تعذيبنا ثم أخذوا اثنين من المعتقلين: الأول رقيب سابق في الجيش ويدعى مبارك، والآخر فران في مدينة ســـاحلية، وأخذوا يتفننون في تعذيبهما، ثم أجبروهما على غمس رأسيهما في (الشاكرية) وهي لبن مغلي كان لا يزال شديد الحرارة، وبعد خروج الزبانية بادرنا إليهما وغسلنا رأسيهما بالماء، فأما الأول فقد

سلق جلد رأسه باللبن المغلي وتنفط ثم أخذ بعد ذلك ينز بالماء والقيح وكان الأخ المعتقل يـــشعر بآلام شديدة وبقي مع ذلك دون علاج.

أما المعتقل الثاني فقد أصيب وجهه ببعض الحروق، وحمى الله عينيه من الأذى، كانت الإصـــابات التي تقع بنا من الكثرة بحيث اعتدنا أن نتوقعها في كل حين، ونبادر إلى تشجيع المصاب وتثبيتـــه، وكنا نعتبر أن هذه الإصابات أوسمة فخار لا ينالها أي واحد، هكذا بسهولة، وأنه ســـيكون لهـــا الوزن الراجح في ميزان العدالة الربانية، فهي الأجر في الآخرة والعافية والسلامة في الدنيا بـــإذن الله.

بعد تناول طعام الغداء البسيط، جلس كل منا في مكانه وقام بعض الأخوة يوزعـــون "دوســـير العيد" وهو مقدار يسير من الفاكهة شبه الفاسدة، وكانت حصة المعتقل حوالي نصف موزة وبضع حبات من العنب وجزء من تفاحة.. كان هذا يذكرنا بالفاكهة المحرمة علينا في هذه الأيام والتي لا نرى منه إلا ما يذكرنا بها فقط، أو ما يمكن أن يستعمل للشم (شم ولا تذوق).

ورغم كثرة وإحاطة البلاء بنا في سجن الموت في تدمر، ورغم بعدنا عن أهلينا في هذه المناســـبة الكريمة، التي يلتقي فيها الأحباب، فإننا شعرنا بالرضى والاطمئنان يغمران قلوبنا، حتى كنا نشعر أننا في كنف الله وتحت ظل رحمته، مغمورين بلطفه وكرمه، محاطين بعنايته سبحانه، وشعرنا كـــأن فيضاً من السعادة يحيط بنا، حتى تمثلت بقول الله سبحانه: "إخواناً على سرر متقـــابلين) دون أن أستطيع تحديد مبعث ذلك أو مصدره، أهو السعادة بمجالسة الأخوة والأحباب أم هو الـــشعور بالأمان أم هو روح من عند الله غمر ذلك المكان التعيس البائس، فأحال وحشته أنساً، وظلمتـــه ضياء، وضيقه سعة ورحابة، فالحمد لله على كل حال..

الظلم والغيرة الإلهية

الجلادون في سجن تدمر العسكري لا يقيمون للخير والصلاح وزناً.. ولا يعيرون انتباهاً لكرامة كريم أو كبر مسن.. أو ضعف مريض.. أو حرمة بريء مسكين، فهم قساة، غـــلاظ.. عتـــاة.. وأسيادهم يؤزوهم ويمدوهم في الغي ويزينون لهم عمل الشر والفساد.. سلبوا إرادهم وشـــوهوا أفكارهم، ووجوههم إلى ما يريدون من أغراض دنيئة.. والحكام المتسلطون على رقـــاب العبـــاد بالقهر يعبثون في الأرض والبلاد ظلماً وفساداً، لا إيمان يضبطهم ولا أخلاق تردعهم، ولا شرف ولا ضمير ولا مروءة.. همهم الكرسي.. والمال.. والزيف.. والضلال.. والمعتقل المسكين ليس له –في سجن تدمر العسكري- قيمة أو اعتبار ولا حرمة ولا كرامة ولا حقوق، فلا حق للمعتقـــل في التملك ولا في العيش ولا الطعام ولا الأمان، ولا حق للمعتقل في أي شيء..

فقد كل ذلك على عتبة السجن، وهو داخل ومجرد بقائه حياً إنما هو تفضل (غير مقصود) لأنه لم يمت حتى الآن.. ولأن جهاز السجن والمسؤولين، غير مهتمين أصلاً بقتله فوراً.. لأنه ليس مثيراً له من جهة.. (ولو كان لقتل رغم أنفه.. شنقاً حتى الموت أو عذاباً).. ومن جهة أخرى أنه يبقى رقماً في الحساب.. الذي يجب أن يصفى.. عن قرب، التصفية هي الأساس تصفية هؤلاء وهذه الرؤوس وما تحتوي من أفكار.. لقد كان هؤلاء المعتقلون يرفعون الرأس عالياً.. ويتحدون.. بأفكارهم ومنطقهم وإيمانهم.. معتزين.. متفاخرين، فلئن لم يستطع الطغاة قهر الفكرة بالفكرة فسيقهرونها بالكرباج والبطش حتى تنمحي وتزول.. هكذا يظنون.

إن الطغاة يعبدون المادة ويرون أن القوة هي الأصل فيجب أن تحترم وتقدس.. أما ذلك المسكين الذي أوقعه سوء حظه في أيدي الطغاة ولم يعرف كيف يتملقهم ويسبح بحمدهم ويمجد سلطانهم، فسيعرفه الكرباج قيمته وسيعلمه العذاب والخوف والجوع هنا في سجن الموت كيف ينحني ذليلاً صاغراً أمام القوة الغاشمة وليأكل مبادئه وليخلصه تدينه وربه، لقد قالها الطغاة وأعلنوها بكل صفاقة وتبجح وغل.

قالوا: سنجعل المعتقل حيواناً أعجم تحركه الغرائز فقط فيها وحدها يجب أن يعيش.

أحد الرقباء النابهين، حفظ عن أسياده حديثاً شجياً، ففي الحلاقة وبينما هو وزملاؤه الجلادون في أوج انبساطهم يضربون ويعذبون المعتقلين، قدح زناد فكره وأخرج للمعتقلين مكنون سره فقال يبين لهم كيف سيعيشون وكيف يتصرفون.. وما يراد بهم ومنهم. فقال: (لا نريد منكم عقولاً ولا أفهاماً إنما نريد غرائز فقط.. سيدكم هنا أبو سمرة الكرباج وأخوه الدولاب).. ثم أمر عدداً من المعتقلين أن يقبلوا الكرباج باحترام وتقديس..

نظام سجن تدمر العسكري لا يعترف للمعتقلين فيه إلا بأنهم أرقام لا أسماء لها، ويهتم بإعطائهم قسطاً وافراً من العذاب يومياً في الصبح والضحى والظهر والمساء وما بين ذلك لا يقر نظام السجن للمعتقلين بأنهم بشر أحياء ولا أنهم متهمون أبرياء حسب القاعدة التي يرددها بعض الأغبياء في العالم من أن (المتهم بريء حتى تثبت إدانته)!! بل هو قد طور هذه القاعدة إلى (أن المتهم مدان يجب تصفيته) نظام تدمر يحرم على نزلائه الأمان والراحة.. ويحرم عليهم الكلام والنظر ويحرم السؤال والحركة ويحرم الاحتجاج على تصرف الجلادين.. فتصرف الجلادين قانون نافذ.. ونظام السجن يعتمد على الكرباج والدولاب والعذاب والإرهاب وغاية نظام السجن.. المعلنة الواضحة هي تحطيم السجناء وتصفيتهم، بعيداً عن الأعين، ومن ناحية أخرى فإن نظام السجن ثوري استمد ثوريته من بين صخور الجبال الساحلية العالية، فهو لا يلتفت إلى كل ما

وهبه الله للإنسان من كرامة وما حباه من نعم، وما جعل له من حقوق وحرمات، فكلها في اعتبار الطغاة من المخلفات والمعوقات حتى غدا التنفس في سجن تدمر (قطعاً للنفس).

يخرج الجلادون المعتقلين للتنفس في الباحة بالدور ومهجعاً وراء مهجع ومدة التنفس من ٢٠ – ٣٠ دقيقة ومعلوماتنا عن التنفس والنظام والجلادين والعذاب تجعلنا حتى في وقت الهدوء خائفين قلقين كيف لا.. والكرباج لا يغيب من أيدي الجلادين.. فإذا أخرجنا إلى الباحة سارعنا راكضين مطرقين ندور (حسب الأوامر) في جنبات الباحة أو نجلس القرفصاء متراصين منحني الظهور دون حركة أو همسة.. الجلادون يضربوننا بقسوة لا يرحمون.. ومن أصيب فبقدره ومن قتل فقد انتهى أجله، وينال القاتل الثناء ويحيا بالإكرام والمنح..

وفي هذا الوقت تطول الدقائق والثواني ويصبح لها قيمتها ذكراً واستغاثة عذاباً وإرهاباً وصبراً واحتساباً..

أتأمل الأرض أمامي وأرى حبات الرمل وأطراف الجدران السفلى، أي وضع غريب نحن فيه؟ وأي ظلم هذا الذي يقع بنا؟ ولكني أشعر أن الله معي، بل إن كل شيء في هذا الكون معي.

حبات الرمل معي.. تحدثني وتؤيدني وتغضب لي بل لنا أجمعين، فحبات الرمل هذه ليست ظالمة لو كانت مخيرة لما رضيت أن تكون في جدار يحجز الناس عن حياتهم وعن معاشهم ظلماً وغشماً ولكنها مسيرة، فلو نطقت لاحتجت ولملأت الدنيا صراخاً وأعلنت احتجاجها على الظالمين، وتأييدها للأبرياء المستضعفين، ولو استطاعت أن تكون قذيفة حق قاتلة، لوجهت نفسها إلى رؤوس الجلادين وأسيادهم المجرمين فحرقتها، وقامت بواجبها في ضرب الباطل المتبجح حتى تذيقه الصغار والمحق.

وهذه الجدران والأحجار التي فيها تحتج على ما استخدمت فيه من طعن الأبرياء تحتج على موقعها.

يوم ١٩٨٠/١٠/٢٧

في الساعة الثامنة صباحاً بدأت عمليات الحلاقة في باحتنا، وباحتنا هي المكان الذي اختاره الزبانية لهذه العمليات، حيث يجلبون إليها نزلاء المهاجع على التوالي، فيجرون لهم الحلاقة وعذابها في هذا المكان، لأن باحتنا هذه بعيدة عن أطراف السجن المواجهة لمدينة تدمر، وبالتالي فإن أصوات العذاب وصراخ المعذبين يكون أبعد عن أسماع الناس في الخارج.

ولكن دور الحلاقة وصل اليوم إلى مهاجع باحتنا، وبدئ بالمهجع رقم (٨) ونشطت عمليات التعذيب وأخذنا نسمع أصوات المعذبين وهم يصرخون متألمين مستغيثين بأصوات تمزق القلوب، وكنا نعيش معهم في قهر وعذاب شديدين، وكان الدعاء هو متنفسنا الوحيد، فكنا ندعو الله

سبحانه ونفزع إليه ونستغيث به، نستعجل قضاءه في الظالمين وانتقامه منه المجرمين، وفرجه للمستضعفين، وكان جميع الأخوة في المهجع على لسان واحد، يدعون ويستغيثون في إلحاح وتبتل، كما أننا هيأنا أنفسنا للعذاب، فلبسنا كل ما لدينا من ثياب، ولف الأخ أبو بدر معصميه بقطعتي قماش، كل ذلك استعداداً لحفلة العذاب التي تقترب منا. أخذت أتجول في أطراف المهجع وأنظر من خلال قضبان النوافذ الحديدية إلى السماء الزرقاء بألم، وكنت أقول لنفسي: ها هنا يصنع الرجال فكما تصهر النار المعدن وتنقيه من خبثه، فإن المحن والشدائد تصقل القلوب وتنقيها من خبثها وتخرجها نقية صافية..

كان حفل العذاب في الباحة لا يزال على أشده، وصراخ المعذبين ونهر الجلادين مستمران، وصوت الكرباج اللعين كأنه مطارق ثقيلة تدق برتابة، وكانت أيدي الأخوة المعتقلين مرفوعة إلى الله يدعونه بحرارة، ودموع الرحمة والألم والقهر تنهل من عيونهم وتداعى إلى ذهني شطر بيت من الشعر انطلق به لساني: دأبي التوسل حاشا أن تخيبني، فأخذت أردده في استغراق..

بدا في السماء صفاء غريب أخذ يظهر من بعيد كأنه نور يطل على الوجوه، شعرت بالسكينة تغمر كل شيء، وأحسست بالرضا والطمأنينة بذكر الله.

كان في الباحة فتى يعذب وهو يصرخ: (أنا بدي أموت) ورجل كبير السن يصرخ متألماً مستغيثاً: (دخيل الله، دخيل الله) وفجأة سكتت الأصوات وانقطع صوت الكرباج وتوقف حفل العذاب..

وجاء دورنا في الحلاقة فأتى الزبانية إلينا وأخرجونا إلى الباحة وقال أحد الجلادين: لا تخافوا ما في قتل. ولم نصدق آذاننا، وقد عشنا أكثر من ثلاث ساعات مع عذاب إخواننا، ولكننا شاهدنا الكرابيج ملقاة على الأرض ودسناها بأرجلنا العارية، وكبرنا في سرنا (الله أكبر، الله أكبر) ومرت تلك الحلاقة بسلام دون عذاب لأول مرة ولآخر مرة أيضاً دون أن ندري لذلك سبباً.

يوم ١٩٨٠/١١/١

تبدلت عمليات التعذيب وتباعدت شيئاً ما وأخذنا نراقب ما يجري، كان هناك تبدل في المعاملة، ولكن عمليات التعذيب لم تقف إنما تبدلت صورها، حيث صار الزبانية يتخيرون من يروق لهم من المعتقلين خلال التنفس أو غيره، فيضربونه ويعذبونه أو ينقضون علينا في هجمات منكرة فيضربون هنا وهناك. وكان بطل عمليات التعذيب في هذه الأيام العريف الحاقد الجلاد "شعبان" صاحب الصوت الأجش الذي لا يهدأ له أوار، ولا ينطفئ له حقد، وكان يتخير من بين المعتقلين كل من يعتقد أن له مكانة أو فضلاً، ويوقع به أشد العذاب، وهذا جزء من خطة غسيل الدماغ والتصفية الجسدية في سجن تدمر.

يوم ١٩٨٠/١١/١١

أيقنا أن ما يجري في السجن من تبدل في المعاملة ومن شدة عذاب وقسوة إنما هو وليـــد أهـــواء متقلبة يسيطر عليها حقد غريب ومرض نفسي عجيب، فبعد هدوء نسبي اشتدت حميا الزبانيـــة للعذاب وللإيذاء فجأة، فما سنحت لهم فرصة إلا وانقضوا علينا كالوحوش الكاسرة يـــضربوننا أشد الضرب غير السباب الفاحش البذيء والتهديد والوعيد.

ليلة البارحة جاء الزبانية في أول الليل ودون أن يفتحوا باب المهجع صرخوا فينا وسبونا وشتمونا وأمرونا بأن نقف باستعداد ونرفع أيدينا إلى الأعلى ونبقى كذلك والويل لمن يخالف هذه الأوامر، وهكذا أمضينا الليل كله ونحن على تلك الحالة، والزبانية يمرون ليراقبونـــا وليوســـعونا ســـباباً وفحشاً.

وكانت تلك الوقفة عملية تعذيب شديدة مؤلمة تورمت بسببها أرجلنا وأنهكت أجسامنا، ولكننـــا انتهزنا الفرصة لتلاوة القرآن، والإكثار من ذكر الله ومن الدعاء والاستغاثة.

وفي الليلة التالية منعنا الزبانية من النوم أيضاً، وأجبرونا على الوقوف في صف خماســـي وســـط المهجع، وأخذوا يراقبوننا ويتجسسون علينا ليضبطوا من يجسر على الجلوس، وقبل منتصف الليل شعرنا بالزبانية يتلصصون علينا، فلم نعبأ بهم، فاندفع أحد الزبانية يصرخ من النافـــذة الـــصغيرة الموجودة في الباب (الشراقة): ولك حقراء والله لأفعل، وأخذ يقذف بالكلام الفاحش الـــرخيص ويهدد ويتوعد (والله لأعدمكن يا منحطين يا كلاب، ولك والله لأشرب مـــن دمكـــن.. ولـــك المشانق جاهزة يا حيوانات، ولك الكلاب ما عم تأكل جثثكم يا حقراء) وكان يشدد في كلامـــه ويصر على أسنانه وهو يقذفنا بهذا الكلام مظهراً ما في قلبه الأسود من الغل والحقد الـــرخيص! كان بريق الدم يلمع في نبرات صوته كأنه وحش جائع يبحث عن فريسة.

يوم ١٩٨٠/١١/٢٠

كان اندفاع الزبانية إلى الشر وما يظهر منهم من حقد وغل وفجور يوحي بأن وراء الأكمة مـــا وراءها، ولكن مهما بيتوا لنا من شر وغدر فإنا لم نكن نبالي بهم ولا بما يبيتون، لأننا وطّنا أنفسنا على التسليم لقدر الله، وصار الموت في سبيل الله هو أقصى ما نتمناه خاصة وأن فيه الخلاص من بلاء السجن وبغي الزبانية الأنذال.

جاء زبانية السجن في أول الليل والظلام قد خيم على الوجوه، فقرعوا باب المهجع بضربة كرباج قوية دوى لها المكان، وصرخ أحدهم: (ولك عرصات، اسمعوا، اللي بيطلع اسمو بقول حاضر)، وقرأ قائمة طويلة من الأسماء تزيد على ستين اسماً، كان من بينها أسماء ثمانية من الأخوة المعتقلين في مهجعنا، وأسماء سبعة وثلاثين معتقلاً من المهجع المجاور (كما علمنا بعد ذلك) وقال الجلاد لمـــن نودي بأسمائهم: (حضروا حالكن ولك، بكرة عندكن محاكم).

فالتبس الأمر علينا لأننا فيما نعلم قد عرضنا جميعاً على المحكمة الميدانية في معتقـل كفرسوسـة بدمشق والتي كان قاضيها النقيب سليمان حبيب، ولكنه لم يبلغ أياً منا أي حكم إنما كان كلامه مجرد تهديدات خفية، وإشارات عابرة، حتى ظننا أنه ربما تجري محاكمتنا هذه المرة بصورة أخـرى تكون أكثر واقعية، ولعله أن يكون فيها شيء من الإنصاف والعدالة. كانت الوصية الأولى لهؤلاء الأخوة هي أن يكشفوا للمحكمة المزعومة ما جرى معهم سابقاً من عذاب، وما استخلص عناصر المخابرات منهم من اعترافات بالإكراه، ثم ما يجري هنا في سجن تدمر من ظلم وبغي وإجـرام، كما أوصيناهم أن يسربوا ما استطاعوا من أخبار السجن وما يجري فيه، إلى النـاس، ليعرفـوا وليدركوا ما يرتكب في حق أبنائهم من سوء.

حضر أولئك الأخوة المطلوبون أنفسهم ولبسوا ثيابهم وصرّوا الأغراض القليلة التي كانت لديهم استعداداً للرحلة المجهولة.. تسحّر أغلبهم ونووا الصيام وقاموا يصلون..

وفي الساعة الرابعة صباحاً قبيل الفجر جاء الزبانية ففتحوا باب المهجع وطلبوهم، فربطوا أيديهم وعصبوا أعينهم واقتادوهم خارج المهجع.

ومع أنه بدا لنا في حينه أن هؤلاء الأخوة مأخوذون للمحاكم من أجل محاكمتهم، ومثل هذا يعد نصراً كبيراً خاصة إذا كان في المحكمة ظل عدالة، إلا أن قلوبنا كانت منقبضة جداً، وبكينا لفراق هؤلاء الأخوة وللمجهول الذي كان ينتظرهم.

كانت هذه المحاكم لغزاً لم نكتشفه إلا بعد مدة طويلة، وبعد أن حاول كثير من الأخوة المعـتقلين التغطية عليها إشفاقاً على إخوانهم، ولكن الحقيقة المرة تكشفت وظهرت بجلاء ووضوح، فكـان من يطلب بعد ذلك باسم "محاكم" يدرك أنه ذاهب للقاء ربه، فيودع إخوانه وهو ثابت الجنـان ووجهه مشرق بالابتسام، ولسانه يترجم عن قلبه: يا مرحباً بلقاء الله.

يوم ١٩٨٠/١١/٢٣

ثلاث دفعات من المعتقلين تصل إلى سجن تدمر أسبوعياً على الأقل، ويتلقاهم زبانيـة الـسجن بوسائلهم الجهنمية، فينظمون لهم حفلات العذاب والتحطيم، ويرتفع صراخ المعذبين واستغاثتهم على مدى ساعات طوال تشمل أحياناً غالب النهار وبعضاً من الليل.

اليوم ومنذ الفجر بدأت حفلة العذاب لمجموعة من المعتقلين القادمين حـديثاً إلى سـجن تـدمر، واستمرت حفلة العذاب حتى منتصف النهار، والزبانية ماضون في سوء ما يـصنعون، لا تـصل أصوات المعذبين واستغاثاتهم إلى آذانهم ولا تؤثر في قلوبهم المتحجرة بل على قلـوبهم أكنّـة وفي آذانهم وقر، وفي بصائرهم عمى فهم لا يبصرون، فقدوا طبعهم البشري وحـسّهم الإنـساني، وغدوا آلات صماء عمياء، فكم حطموا من فتى ماجد مؤمن، وكم اعتدوا على رجل مسن كريم

فاضل، وكم عذبوا من طفل أو غلام رقيق وادع، وكم أهانوا من عالم جليل وكسروا عظامه وأحرقوا لحيته، وكل ميزة خيرة يتميّز بها المعتقل سواء أكانت هذه الميزة شهادة عالية أم منصباً رفيعاً أو درجة علمية أو صفة صلاح وتقى، فإن لها عند زبانية سجن تدمر تأثيراً عكسياً، فبدلاً من تقدير صاحب الميزة واحترامه عليها فإنهم ينقضون عليه ويعذبونه أشد العذاب، وكأن ميزته هذه ذنب اجترحه حتى أن الزبانية يزيدون في عذاب المعتقل الطويل لطوله والقصير لقصره، والبدين لبدانته وعلى هذا فقس، مما لا يفطن له إلا إبليس في أحكامه.

كنا ننتهز فرصة ابتعاد الزبانية عنا فنتحدث فيما بيننا همساً، ويتعرف كل منا على قصة أخيه وكيف اعتقلته المخابرات، وعن السبب الذي أدى به إلى الاعتقال، ورغم أن أسباب الاعتقال كانت متفاوتة كثيراً وأن أغلبها تافه بسيط، فإن النتيجة كانت الإرسال إلى سجن التحطيم سجن تدمر.

ورغم تباين مستويات المعتقلين في مهجعنا من النواحي الفكرية والعلمية والنفسية والاجتماعية وغير ذلك، فقد صهرتنا المحنة في بوتقة الألم والقهر والعذاب والإرهاب، فصفت قلوبنا من الأكدار وتقاربت أرواحنا وتألفت وتلاحمت في شعور واحد ونبض واحد، وهمّ واحد، فهي تعاني حرقة الألم ومرارة الظلم وحسرات القهر، وتعمرها حرارة الإيمان وعزيمة الثبات وصدق الإنابة إلى الله، مع الشعور بعناية الله ولطفه. واستمطار رحمته والتطلع إلى عدالته والأمل بفرجه ونصره.

يوم ١٩٨٠/١٢/٤

قام زبانية سجن تدمر بعملية تجميع ضموا فيها نزلاء كل عدة مهاجع إلى بعضهم البعض، وذلك لأن أعداد المعتقلين في المهاجع قد تضاءلت بعد أخذ تلك الأعداد الكبيرة باسم (محاكم) ولأن زبانية السجن بحاجة إلى مهاجع فارغة يضعون فيها الأعداد الكبيرة من المعتقلين الذين يؤتى بهم إلى سجن تدمر لأنهم يحرصون أن لا يخلطوهم بنزلاء السجن السابقين مدة من الزمن حتى يطبقوا عليهم برامج العذاب والتحطيم المقررة لهم.

وهكذا فقد ضم نزلاء مهاجع الباحة الثانية إلى بعضهم بعضاً، ووضعوا في مهجع واحد هو المهجع رقم عشرة، فارتفع العدد فيه من أربعين معتقلاً إلى مئة وخمسة عشرة معتقلاً، وقلّت حصة المعتقل من أرضية المهجع، ولم يعد هناك إمكانية للراحة في النوم أو غيره نتيجة الزحام الشديد.

زادت الكثافة كثيراً بعد عملية التجميع، وضاقت المهاجع بساكنيها، وفي مهجعنا كما في كل المهاجع نبتت مشاكل مختلفة وأشدها كان مشكلة المنافع والمراحيض، فكان الوصول إلى المرحاض أمراً صعباً، فكانت تحدث أزمات شديدة على المراحيض ابتداء من الاستيقاظ في الساعة السادسة.

من بداية الوقت يكون قد اصطف عدد كبير للوصول إلى المراحيض، ويمضي الوقت الساعة والساعتين وقد لا يصل الدور لكثيرين مما جعل الأمر مشكلة حقيقية ملحة.. حتى غسل الوجه واليدين أصبح مشكلة تحتاج إلى نظام وترتيب وانتظار.

وبات النوم عسيراً في هذا الزحام الشديد (ولم ندر أن ذلك الوضع على ما فيه من سوء وضيق ومشاكل يعد نعمة كبرى، لما سيصير إليه الحال بعد ذلك، وبالتحديد بعد نصف عام..).

وكان بعض الأخوة المعتقلين يقومون بضبط أمور المهجع وتنظيمها بروح أخوية خالصة، فهم يقومون بترتيب الدور للمنافع وتحديد صورته، كما يقومون بتوزيع الطعام، بعد أن تدخله السخرة من خارج الباب، وينظفون الأواني ويرتبون عمليات الغسل والتنظيف وغيره، وكان انضباط الأخوة وتعاملهم الأخوي وتحملهم لمختلف المضايقات والصعوبات آية في التعامل الحسن، فقد كانت روح الأخوة تحل جميع المشاكل وتتجاوزها.

١٩٨١/١/٢

هلّ عام ١٩٨١ جعله الله عام خير وفرج ورحمة لبلادنا العزيزة وللمعتقلين في سجن تدمر وفي غيره من المعتقلات والسجون؟

الزبانية هذه الأيام لم يعودوا قادرين على التوغل داخل المهجع لضربنا وتعذيبنا، كما كانوا يفعلون سابقاً، وذلك بسبب ازدحام المهجع بالمعتقلين، ولكنهم كانوا يضربون السخرة التي تخرج لإدخال الطعام والمعتقلين القريبين من باب المهجع، كما ينتهزون مناسبات التنفس والحلاقة للاعتداء علينا بالضرب والعذاب، وصار التنفس يومين في الأسبوع والحلاقة أسبوعياً للوجه، وشهرياً للرأس، والحمّام أسبوعياً ولكنه كان حماماً بالاسم فقط.

١٩٨١/١/١٢

جاء زبانية سجن تدمر فطلبوا المعتقلين الأحداث مواليد ١٩٦٣ وما بعد، فجمع هؤلاء الشباب أو الغلمان الصغار من بيننا، وكان في مهجعنا منهم حوالي خمسة عشرة غلاماً منهم عماد طالب في الصف التاسع، وأبو عبدو وعمره اثنا عشرة عاماً، وكانوا نشيطين مندفعين يتولون غالب أعمال الخدمة في المهجع، ويقدمون أنفسهم فداء لإخوانهم في حال العذاب، وكان هذا التقدير منهم لإخوانهم الكبار، وهذه الشجاعة والفداء مثار إعجابنا وفخرنا، حتى كنا ننظر إلى أنفسنا خجلين ونحن نراهم بهذا الثبات وهذه القوة، فأحزننا وأهمنا أن يؤخذ هؤلاء الأحباب من بيننا، وخاصة حينما علمنا أنهم سوف يوضعون في مهاجع خاصة وحدهم، فخشينا عليهم أن يصيبهم جراء ذلك مكروه في حياتهم ومعيشتهم أو في أفكارهم، وليس بينهم كبير ذو خبرة يرجعون إليه

ويسترشدون برأيه، ولما لم يكن بأيدينا أن نصنع لهم شيئاً فقد سلمنا أمرنا إلى الله وسألناه سبحانه أن يتولاهم برحمته ويحوطهم بلطفه وعنايته، ويحفظهم من كل سوء.

١٩٨١/١/٢٠

ظهرت منذ أيام إسهالات شديدة بين عدد كبير من الأخوة المعتقلين دون أن نعرف لها سبباً، سوى أن الطعام ملوث وغير نظيف..

أبلغنا مسؤولي السجن بما نعانيه، فكان رد الزبانية: (خليكن تموتوا يا كلاب) واشتد أخيراً المرض على عدد من المعتقلين منهم المعتقل مصطفى قاسمو، وهو رهينة عن أخيه المتواري، والأخ مصطفى راشد ذي النون الدمشقي وغيرهما، وغدا هؤلاء الأخوة نحيفي الأجسام شاحبي الوجوه.

١٩٨١/١/٢١

ترافق الإسهال الشديد بقيء متكرر لدى الأخ مصطفى راشد منذ البارحة، وساءت حاله أكثر واشتد عليه الدوار والدوخة حتى لم يعد يستطع القيام، فكان الأخوة يحملونه باستمرار إلى المراحيض ليتمكن من قضاء الحاجة، ولما أبلغ رئيس المهجع زبانية السجن عن حالة الأخ الخطيرة، كان جوابهم السابق ذاته: (خليكن تموتوا كلكم يا عرصات) وتفاقمت المشكلة أكثر حين لم يعد الأخ المريض يتمالك نفسه من التقيؤ والتبرز لا شعورياً ملوثاً ثيابه وأغراضه، وكان يشعر بألأم وتيبس في مفاصله وأطرافه.

وفي المساء وحينما حلّ الظلام كان الأخ المعتقل مصطفى راشد ذي النون في سكرات الموت، وبلغ بنا الألم مبلغه فضربنا باب المهجع حتى حضر الحارس الذي على السطح فأبلغناه بأن أحد المعتقلين يموت، فسبنا وشتمنا وجاء الزبانية بعد مدة فأخبرناهم عن حالة الأخ فطلبوا إخراجه إلى الباحة، فحملناه على بطانية وأخرجناه إليهم وراقبناهم من وراء الباب المغلق، فتبين لنا أنهم لم يحاولوا إسعاف الأخ أو معالجته، وأنه ترك حتى مات ثم حمل من هناك إلى مثواه المجهول، فعليه رحمة الله ورضوانه، في الوقت نفسه كان معتقل آخر قد اشتد عليه القيء والإسهال حتى أنه لم يعد يتماسك نفسه تماماً.

أثارت وفاة المعتقل مصطفى راشد واشتداد مرض الإسهال والقيء على أخوة آخرين الأسى والقلق في نفوسنا، فها هو ذا الموت قد اختطف واحداً منا وهو في سبيله لاختطاف آخرين ما دام هذا المرض مستفحلاً بيننا دون أن يسمح لنا زبانية تدمر بأي علاج.

١٩٨١/١/٢٤

إن وزر ما يجري في سجن تدمر ليس على الزبانية بشكل أساسي، بل إنه من تخطيط رجال السلطة الطائفيين، وما هؤلاء الزبانية إلا أدوات منفذة فقط.

أول البارحة وبعد أن اشتد مرض الإسهال والقيء على عدد من المعتقلين في مهجعنا، قرر بعض ذوي الخبرة الطبية من الأخوة المعتقلين أن ما نعاني منه ما هو إلا جائحة وباء الكوليرا، وأننا معرضون جميعاً لخطر الموت بهذا الوباء.. فقرر الأخوة إبلاغ مسؤولي السجن عن الوضع صراحة، متحملين ما قد ينالهم من بغي الزبانية واعتداءاتهم، ولكن الزبانية الجبناء أرعبهم وباء الكوليرا فلم يترددوا هذه المرة في استدعاء طبيب السجن وهو طبيب شاب حديث التخرج قليل الخبرة، فاستعان بطبيب آخر أكبر سناً وأكثر تجربة، وهو طبيب مستوصف مدينة تدمر، فجاءا وكشفا على المرضى واستجوبا عدداً منهم، وكانت كل الدلائل (التشخيص السريري) تشير إلى أن هذه الحالات وباء الكوليرا..

بادر الطبيبان باتخاذ بعض الإجراءات، فعزل المصابين بالإسهال مباشرة، وأعطى للمدنفين منهم - أكياس السيروم - إضافة إلى الدواء المناسب، كما أخذت مسحات شرجية لهؤلاء وأرسلت للمختبر ولكن توقفت اليوم كل هذه الإجراءات فجأة..

لماذا حدث ذلك؟ لم نكن نحتاج إلى كثير تفكير لندرك أن مدير سجن تدمر لم يرضه أن يعامل المعتقلون معاملة إنسانية، فأمر بإلغاء كل صورة من صور المعالجة الواقعية، والاكتفاء بالمعالجة الشكلية وبما يوزعه الممرض من علاج بسيط.

١٩٨١/٢/٩

كان من ألوان العذاب التي أنزلها بنا زبانية سجن تدمر خلال الحلاقة أمس، إن الزبانية كانوا ينقضون على مجموعة المعتقلين الواقفين قرب الحائط للحلاقة، فيضربونهم بالكرباج واحداً واحداً ثم يتخيرون واحداً وراء الآخر فيأخذونه ويلقونه أرضاً ويتزلون به ألوان العذاب والضرب، وقد أخذ الزبانية الأخ المعتقل أبا أنس فضربوه بقسوة حتى أغمي عليه نتيجة إصابته بضربات قوية على رأسه وجبهته، فأمر الزبانية بحمله إلى المهجع.

وأخذ الزبانية المعتقل أبا جميل وعمره (٥٠) عاماً فضربوه وعذبوه ثم أخذوا المعتقل أبا عبد الرحمن وعمره (٤٠) عاماً فضربوه أيضاً، ثم أوقفوهما تجاه بعضهما، وأجبروهما على أن يصفع كل منهما الآخر بالتناوب، وكان أبو جميل أصلع الرأس، فكانوا يجبرون أبا عبد الرحمن على ضربه على صلعته، ومن قصّر في ضرب الآخر فيا ويله.

وكان الزبانية يطفئون أعقاب السكائر في رقابنا ووجوهنا، ويحرقون أصابعنا وآذاننا بقداحات الغاز.

وقد أطفأ أحد الزبانية سيكارته في عين الأخ المعتقل أبي مصطفى.

بعد انتهاء الحلاقة، أبلغ رئيس المهجع الرقيب (رئيس الزبانية) بأن المعتقل المصاب في حالة خطيرة، فصرخ فيه الرقيب بغضب: (خلي يموت.. لبوطي..) وكان الأخ أبو أنس لا يزال مغمى عليه، ولما صحا من إغماءته بعد مدة طويلة كان يردد بصوت ضعيف "الحمد لله.. الحمد لله" ولكنه بقي فاقداً للذاكرة مدة من الزمن، حتى منّ الله عليه بالشفاء رحمة منه سبحانه ومع كل ما نالنا في عمليات الحلاقة المرعبة الرهيبة، فإننا مطالبون بأن ندفع عليها أجرة محددة حسب العدد وإلا..

الكفر البواح

ألفاظ السباب الفاجر، والكفر والتجديف شيء عادي متداول لدى زبانية سجن تدمر وهم على ذلك معتادون، فهم لا يتخاطبون بينهم إلا بهذه الطريقة، بل أكد أحد الأخوة أن هذه الصورة من التعامل منتشرة في كثير من المواطن والبيئات في بلادنا، وخاصة في كثير من قطعات الجيش، فهذه خطة من الإفساد يرعاها ويدعهما طغاة بلادنا.

كان الزبانية خلال عمليات العذاب يسوموننا بها يجدفون ويسبون ويستهينون بالذات الإلهية وبمحمد صلى الله عليه وسلم، فقد سمع أحد الزبانية معتقلاً يستغيث بالله، فصرخ فيه باستهانة: (مين هادا الله) فرد عليه المعتقل: (هو الخالق الرازق، هو الكريم العظيم، هو العزيز الجبار القهار، هو رب السماوات والأرض مالك الملك وملك الملوك ذو الجلال والإكرام) وفوجئ الجلاد بهذا الجواب، فصرخ بالمعتقل وأمره بالسكوت وكان بعض الزبانية خلال مناسبات العذاب يصمنا بإدعاء الشرف فيقول: (مستهزئاً) أشراف مكة يا عرصات).. وكان ينقض (بالكبل) فيضرب حرّ وجوهنا فهذا الانحلال الخلقي والفساد ناتج عن فقدان القيم وتزعزع العقيدة وفسادها، لدى هؤلاء الناس وأمثالهم.

القيم التي ينادي بها طغاة بلادنا عبر عنها نفر من شبابهم الذي يعد نفسه مثقفاً أنه مبهور بالغرب وحضارته الزائفة، يراها مثله الأعلى حتى في زيفها وفجورها وإلحادها وتحللها من كل الفضائل والأخلاق، إنها قيم عبادة المال والنساء والكأس والمتع الحرام.

تراهم يلبسون جميل الثياب، فيعجبك مظهرهم فإذا تكلموا تأسفت لما ترى من انحطاط أخلاقهم وتدني أفكارهم، وإذا أدركت سوء طويتهم وبشاعة أعمالهم وتصرفاتهم صدمت، فأي سوء في حسن، ترى فيهم مصداق قوله تعالى "ثم رددناه أسفل سافلين" وإذا قلت لأحدهم: اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

السخرة الشهرية – سرقات نظامية ١٩٨١/٢/٢٠

جاء الزبانية يصرخون بحقد وأبلغوا تعليماهم لرئيس المهجع، طلبوا منه أن يجمع فوراً مبلغ (٢٠) ل. س عن كل معتقل في المهجع، ولم يعطوا أي توضيح أو تعليل لهذا الطلب، بل أشفعوا طلبهم بمزيد من السباب والشتائم.

وقام رئيس المهجع بجمع المبلغ المطلوب، وكان كثيرون لا يملكون أي نقود، ومع ذلك فقد أجبرنا على الدفع عن الجميع، فكان يدفع الذي معه نقود عن المفلس، وهكذا قبض الزبانية المبلغ كاملاً (٢٠٠٠) ألفي ليرة سورية عن مائة معتقل هم نزلاء مهجعنا، وكثر التساؤل حول هذه النقود، والغاية من جمعها. قال بعضهم مستنداً إلى معلومات سابقة: إنه النقل من سجن تدمر إلى سجن آخر، وهذه أجرة السيارة (وهذه إشاعة انتشرت في السجن، أشاعها جهاز السجن ذاته) ولكن أحداً لم يشعر بالأسف لأنه سيفارق سجن تدمر رغم ما هوّل بعضهم عن سجن القامشلي العسكري وسوء المعاملة فيه.

وجاء الزبانية مرة ثانية فطلبوا مبلغ ليرتين عن كل معتقل، فجمع لهم المبلغ تفادياً لشرهم وأذاهم.

نصيري في سجن تدمر

كان من المعتقلين معنا في سجن تدمر العسكري معتقل نصيري، وكانت قضيته عبارة عن نقل سلاح بقصد الكسب والربح، ونتيجة وصول بعض هذا السلاح إلى مجاهدي الأخوان المسلمين فقد غضب عليه المسؤولون من جماعته، وحكموا عليه بالمؤبد في محكمة المزّة، ثم ساقوه إلى سجن تدمر، وتعرف عليه أبناء طائفته هنا فجعلوه رئيس مهجع، وتعاون معهم في نقل أخبار المعتقلين وتصرفاهم وخاصة مراقبة المصلين والوشاية بهم، وقد منع المعتقلين في مهجعه رقم (١٠) من الصلاة وتسبب لعدد منهم في تعذيب وضرب موجع، بل خطر مهالك، ولما طال به الأمر لان جانبه قليلاً.

١٩٨١/٣/٤ عقوبة على الصلاة

جاء الرقيب فواز.. من على السطح يراقب المعتقلين، ويضبط المصلين في الرابعة والنصف صباحاً، وضبط بعض الذاهبين إلى الدورة، فاستشاط غضباً.. وصرخ بحقد وسبّ وشتم: (ولك حقراء.. ولك شو متسوي هنت.. ولك..).

وبادر كل منا إلى الاضطجاع، وهدد فواز وتوعد: الصبح بتشوفوا يا حقراء والله لربيكم يا.. يا حقيرين يا..

كان بعض الأخوة يرون أن نصلي جهراً، وأن لا نلتفت إلى تهديدات الجلادين.. وكان معلوماً لدينا أن عقوبة الصلاة رهيبة، ولا يمكن التكهن بنتائجها، وكنا موقنين أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولكن ترك اتخاذ الأسباب عجز وغباء..

وفي الصباح حين إدخال الفطور جاء فواز مع نفر من الجلادين ومعهم الكرابيج مدلاة فدخلوا علينا، وطافوا بيننا وأخذوا يضربوننا ضربات شديدة رهيبة، وحيث أننا كنا مغمضي الأعين حسب التعليمات، فلم نكن ندري بما يحدث إلا أننا كنا نسمع الأصوات والجلبة والصرخات الوالهة، وصوت الكرباج وهو يدق جسماً صلباً، كان لهذه الضربات صوت مختلف.

فلا هي من الهابدة على الظهر ولا الصافعة على اليد أو الجسد العاري، بل كأنها ضرب على الجدار الكتيم، وأتاني الدور فدار رأسي بضربة هائلة وغامت عيناي ودار بي المهجع، فتهاويت على الأرض تلتها (كما عرفت بعد ذلك) ضربات أخرى.

مضى بعض الوقت حتى صحوت إلى نفسي، كان أحد المعتقلين يمسح وجهي بالماء، فحاولت أن أجلس فشعرت برأسي يضج بألم شديد، وأذناي قد فقدتا حاسة السمع، فهما تدويان بطنين مستمر، علمت أن كثيرين من المعتقلين مصابون أكثر مني، وقد شجّت رؤوسهم فهي تنزف بالدم، فالحمد لله على كل حال. فقلت في نفسي مخاطباً الجلادين: ما تضركم صلاتنا؟ وما يزعجكم منها..؟ أين حرية العقيدة، أين الحرية الشخصية؟ يا من تتبجحون بالحرية؟!!

١٩٨١/٣/٩

مع بداية الشهر الجديد آذار، جاء الرقيب أيضاً يطلب جمع مبلغ (١٠) ل.س عن كل معتقل فيما سماه (بالسخرة الشهرية) وفهمنا أننا يجب أن ندفع في رأس كل شهر مبلغ (١٠) ليرات سورية أتاوة لزبانية سجن تدمر.

وفي السابع من آذار جاء الرقيب وطلب جمع مبلغ ليرتين عن كل معتقل للزينة، ولم يرض بإعفاء المفلسين، فدفع المبلغ تاماً، وهكذا نشطت عمليات جمع النقود من المعتقلين نشاطاً عجيباً، وعجزت بعض المهاجع عن تأمين كل هذه الطلبات وأعلنت إفلاسها، فكان الجلادون يتشددون في الطلب ويهددون بالتفتيش لاستخراج النقود، وقال الرقيب مرة وهو يشتم: إن كل هذه المبالغ تذهب "لتحسين الطعام" للسجين فأي تحسين وأي طعام؟ وقال بعض المعتقلين: الدولة أفلست فلم تعد تستطيع تقديم الطعام، فهي تجمع هذه النقود لتأمين الطعام.. وقال آخرون غير ذلك.. ولكن الرأي الصحيح أنها سرقات منظمة تحت ظل الكرباج وأن حاميها حراميها.

العجيب في الأمر أن جهاز السجن بعد جمع مبلغ (٢) ل.س من كل معتقل في السجن للزينة.. وزعوا على كل مهجع من مهاجع السجن صورة لحافظ أسد مع حبل من حبال الزينة، وكان لابد من لصق الصورة في مكان ظاهر، وكان أمراً مضحكاً مبكياً فقد كانت هذه الصورة مثار تذكير للناسين من المعتقلين في كل حين، فكنا نصب على صاحب الصورة وأخيه، قسماً كبيراً من خالص دعائنا، ولا ننساه من اللعنات كلما رأينا الصورة في ليل أو نهار..

اجمعوا أموالكم

رأى أحد الأخوة رؤيا جميلة بديعة مبشرة حرنا في تأويلها: رأى الأخ النبي صلى الله عليه وسلم يطل عليه من الفتحة الموجودة في سقف المهجع، فكلمه الأخ وسلّم عليه وسأله ملهوفاً: يا رسول الله متى الفرج؟ يا رسول الله متى النصر صلى الله عليك؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم: الفرج قريب والنصر قريب، اجمعوا أموالكم..

فأولها بعض الأخوة أن نجمع ما عندنا من مال فنصرف منه بشكل جماعي لأغراض المهجع وحاجات المحتاجين، وقد فعلنا في مهجعنا ذلك، فجمعنا غالب المال الموجود وجعلناه في أيدي نفر من الأخوة ليصرفوا منه.. ولكن السخرة الشهرية أتت عليه ولم يبق منه شيء.

وهكذا بدا يقيناً أن المال مهما كان مبلغه فسوف يستهلك خلال فترة يسيرة (في ظل نظام السرقة المنظمة هذه) حيث أن من لديه مال كان مجبراً على دفع مبلغ (١٠) ل.س شهرياً عن نفسه، وأن يدفع عن كل من ليس معه نقود في المهجع، وكان أغلب الأخوة بعد شهرين أو ثلاثة من (السخرة الشهرية – السرقة المنظمة) بغير مال..

وفطن بعض الأخوة إلى تأويل الرؤيا، فوعوا أمر النبي أنه يوصيهم بحفظ أموالهم وعدم التفريط بها، فأمسكوا أيديهم وأخفوا بعض المال بعد أن ذهب أكثره ولم يبق إلا أقله، وعملية السخرة الشهرية (السرقة) مستمرة، وهكذا استخلص الرقباء كل ما استطاعوه من أموال المعتقلين.

١٩٨١/٣/١٧ مرض الجرب يغزو معتقلي سجن تدمر العسكري

ظهر مرض الجرب وانتشر بين المعتقلين في سجن تدمر العسكري الصحراوي منذ مدة ليست قصيرة، وكان ذلك نتيجة لأمور كثيرة لعل أهمها: عدم إمكانية النظافة، من اغتسال وغسيل ثياب بشكل واف، وعدم نشر الغسيل وتجفيفه تحت أشعة الشمسي والهواء الطلق.. حيث أن الباب مغلق طوال اليوم علينا وعلى المعتقلين في جميع مهاجع السجن، والكثافة التي اشتدت أخيراً بدرجة كبيرة.

إضافة إلى جو الإرهاب والخوف الذي كان يشلّ حركتنا خلال غالب النهار، فنبقى جاثمين كل في مكانه نسمع أصوات العذاب والمعذبين، وننتظر دورنا.. ونفكر في مصيرنا. شكا أبو جميل أنه لا يستطيع النوم في الليل من الحكة، وأراني مواضع من جسمه كانت مليئة بالبثور الصغيرة، وكان الجلد أحمر مخدشاً، كما شكا قبله معتقل آخر من إصابة فطرية وتمعط والتهاب بين أعلى فخذيه، ولم يكن هناك أي علاج.. اليوم جاء ممرض السجن فطلب مرضى الجرب لأول مرة.. وتجاسر بعضهم فأعلنوا عن أنفسهم. كان مهجعنا خمسة من المصابين.. جمع مرضى الجرب من جميع المهاجع، فوضعوا في المهجعين ٩ – ١٠ بعد إفراغهما وعولجوا بمادة تسمى بتروات البتروبل

فدهنوا بها أجسامهم مرتين ثم أخذوا إلى الحمام ثم أعيد كل معتقل إلى مهجعه بعد ذلك، وقد تحسنت حالهم إلى حد كبير كان في جعبة القادمين من مهجع الجرب في المرة الأولى هذه أخبار كثيرة مثيرة مع أنها لم تكن بذات أهمية ولكن (الغريق يتعلق بحبال العرمط) كما في المثال الشعبي، ولم يكن في هذه الأخبار جديد إنما هي أمور كان يتسلى المعتقلون بتداولها ومع ذلك كان بعضها مثيراُ إلى حد بعيد. كان الأخ ابن الخمسين عاماً بعد عودته من مهجع الجرب يحمل في حقيبته رؤيا جميلة.. كان يحدثنا بها والدموع تملأ عينيه، وتنهمر على وجنتيه في تأثر شديد وسرور وإيمان وتسليم بقول أحد الأخوة الصالحين إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وتحدث إليه فقال له: (يا فلان بشروا أهل تدمر (معتقلي سجن تدمر) بالجنة) يقول أبو جميل رضينا يا رسول الله، رضينا يا رسول الله، تكفينا هذه البشرى.

١٩٨١/٤/١٥

أخذت دفعات تالية من مرضى الجرب فوضعوا هذه المرة في المهجع ٢٨ في الباحة السادسة، وكانت عدة مهاجع في هذه الباحة لا تزال فارغة.

وأخذ الممرض يمر في كل شهر على المهاجع، فيأخذ المرضى إلى مهجع الجرب فيعالجون هناك ويعودون إلى مهاجعهم، وكانت الإصابات تتوالى فإذا عولج بعض المصابين ظهرت الإصابات في أعداد أخرى.. وقد أصبت بهذا المرض فغزا الجرب جسمي ولم أعد أطيق الغطاء في الليل، حيث تثور الحكة وتشتد مع الحرارة والدفء، فكان يكشف الغطاء عني لا شعورياً دون إرادتي، مما أدى إلى إصابتي بمرض في الكلى جعلني أبول دماً، أعلمت رئيس المهجع فنقل الأمر إلى الرقيب، فلم يرد عليه إلا بالسباب.. كالعادة.. فخرجت مع المصابين بمرض الجرب فأخذنا الممرض إلى المهجع (٢٨) مهجع الجرب في ذلك الحين وهناك عرضنا على طبيب نصيري شاب حديث التخرج، فردّ كثيرين لأنه لم يكن يهتم بفحصهم أو علاجهم، وكنت من هؤلاء، وقد شكوت إلى الطبيب ما بي من مرض الكلى فلم يردّ عليّ.. وقال لي بعض الجلادين الذين كانوا مع الطبيب (بعدين ولك).. وأعدت إلى المهجع بدون علاج، وخرجت مرة أخرى للمعاينة والكشف، وكانت بثور عديدة قد ظهرت في أماكن كثيرة من جسمي.. فقبل الطبيب أن أعالج، وكان الذي يشرف على علاج المعتقلين هو الممرض الذي يدعى أبو بسام.

كان بعض المعتقلين يشكون من إصابات شديدة من الجرب، وقد امتلأت أجسامهم بالدمامل المتوزمة المقيحة في الساعدين والرجلين والأماكن المستورة مثل منطقة العانة، كما رأيت أحد المصابين بالجرب وهو حلبي ويدعى (م-ص-ج) كان يعاني من إصابة جرب لم يعرف لها مثيل قبلاً، فقد كانت منطقة الآليتين وما فوقها دملاً واحداً متصلاً متقيحاً نازفاً.. وحدثني أنه منذ أكثر

من شهر ونصف لا يستطيع النوم ليلاً من الحكة الشديدة الحارقة، فهو يدلس باستمرار ويكشط في هذه الدمامل حيث يسيل منها القيح والدم، ورأيت يديه فإذا أصابعه مبرية ملساء مصقولة لماعة قد براها الحك المتواصل.

وكان هناك عدد كبير من الأحداث قد جيء بهم من مهجعي الأحداث (٣١ – ٣٢) اللذين وضعوا فيهما وكانت إصابات الجرب فيهم كثيرة وقوية.

عولجنا من مرض الجرب وأعدنا إلى مهاجعنا، ولكن المرض لم يغادرني رغم أنه هدأ عدة أيام ولكنه عاد كأنشط ما يكون.

كانت طريقة العلاج كالتالي: يدور الممرض أبو بسام مع نفر من الجلادين على المهاجع، فيخرج مرضى الجرب ويرسلهم إلى مهجع الجرب رقم (٢٨) وهناك يخرجون بالشورت إلى الباحة حيث يجري الكشف والمعاينة عليهم من قبل الطبيب غالباً، وبعض الأحيان من قبل الممرض وحده فقط، ويعاد من تكون إصابته غير واضحة، ثم يؤخذ المرضى بالشورت إلى الحمام في الساحة الثانية فيتركون في الحمام ما بين ٤ – ٧ دقائق ثم يعيدونهم إلى المهجع، ويأتي الممرض فيأمر بإخراجهم بالشورت إلى الباحة حيث يوزع عليهم زجاجات الدواء وهو (محلول بتزوات البتزويل) ويعطي لكل زجاجة (٤ – ٥) أشخاص، فيدهنون أجسامهم بما فيها خلال وقت يسير ثم يدخلهم إلى المهجع ويأخذونهم إلى الحمام في اليوم التالي ويعاد الدهن مرة ثانية مع حمام آخر، وبعض الأحيان يعاد الدهن مرة ثالثة بعد بضعة أيام، وفي تمام الأسبوع يعادون إلى مهاجعهم. لقد عشت في مهجع الجرب أياماً لا زلت أذكرها في نفسي، كانت مليئة بالغرائب والمشوقات، والتقيت فيها بمجموعة طيبة من الدعاة الإسلاميين والرجال الطيبين، والمربيين والنوابغ، وضباط مسرحين وطلاب أخذوا من مدارسهم، ومهندسين وأطباء وعمال.

المكيدة تنقلب على أصحابها

وكان مما علمت وسرني كما سرّ غيري.. أخبار مهجعي الأحداث فقد علمت أن الأحداث قد وضعوا في مهجعين هما (٣١ – ٣٢) وأن هؤلاء الشباب قد صعب عليهم الأمر للوهلة الأولى واضطراب الحال بعض الوقت، ولكن قام من بينهم من ضبط الأمور ونظموا الأعمال وشدوا العزائم، وقووا الهمم حتى انتظم أمر الأحداث في كلا المهجعين، وصلح حالهم وظهرت فيهم أخلاق الإيثار والتضحية والبذل، ففي الطعام يؤثر بعضهم بعضاً، وفي التعذيب يفتدي بعضهم بعضاً، وفي الشجاعة ينافس بعضهم بعضاً، بل وفي التقى والصلاح والحكمة حتى فاقوا الشيوخ في كل شيء.

١٦/٤/١٩٨١ تقييم لإجراءات علاج الجرب في سجن تدمر العسكري الصحراوي

لاشك أن مهجع الجرب والعلاج الذي قدم فيه، كان له تأثير لا بأس به في تهدئة المرض ووقفه جزئياً، كما خفف من آلام المعتقلين الرهيبة في ناحية واحدة على الأقل من نواحي معيشتهم الملأى بالآلام في سجن تدمر العسكري، وهي ناحية الأمراض عامة ومرض الجرب خاصة، ولكن العلاج كان قاصراً لا يعالج المرض بشكل جذري صحيح بل يعالج أعراض المرض ويترك كافة النواحي الهامة الأخرى، مثل وقف سريان المرض، التأكد من إجراءات النظافة والتطهير أو تأمينها، تأمين البيئة الصحية السليمة.

وهذه الأمور هي أساس العلاج في مرض الجرب خاصة.. وفي الأمراض السارية عموماً.. ومع ذلك فما زالت الظروف البيئية والنظافة سيئة جداً، والمعتقلون محجوزون في المهاجع الضيقة في زحام شديد يسهل معه بل يتأكد سريان مرض الجرب وغيره من الأمراض المعدية، حيث يتم انتشارها بأكثر من وسيلة، ولا يتأمن في هذه المهاجع أي شيء من وسائل النظافة إضافة إلى عدم إمكانية تطبيق النظافة والتطهير اللازمين لذلك كانت بيئة صالحة لمرض الجرب مسهلة لانتشاره وقوته.

ولعل أهم شيء أن يستمر العلاج بشكل دائم لاستمرار العدوى وعدم توقفها، وهذا ليس مجهولاً لدى جهاز السجن العسكري أو الطبيب.. حتى لقد سمعت بأذني الطبيب يكفر ويجدف لأن أحد المرضى الذي عولج قبل شهر فقط، يأتي الآن مصاباً بالجرب من جديد.. ولو درى هذا الطبيب لكفر بعمله وعلاجه القاصر الناقص الفاشل، وعلم أنه إنما يضحك بذلك على نفسه.

لذلك لما توقف العلاج في منتصف عام ١٩٨١ لم تمض سوى فترة بضعة أشهر حتى رأينا مرض الجرب وقد أصاب كل المعتقلين في المهجع بل وكل نزلاء السجن بدرجات متفاوتة، علماً بأن عدد المعتقلين في ذلك الحين كان يقارب خمسة آلاف معتقل رغم أن مرض الجرب هذا مرض قديم وسيط وسهل العلاج.

ومع ذلك فإن الألوف المؤلفة من المعتقلين في سجن تدمر العسكري تعاني منه آلاماً رهيبة تقضّ مضاجعهم وتذيقهم العذاب في الليل والنهار..

والإنسانية المغفلة غافية على هدهدات السلام والحرية والأمان.

قد يكون ما يجري إهمالاً أو نكاية ولكنه يبدو دائماً في صورة القصد مع سبق الإصرار والتصميم، وليس مرض الجرب بالمرض الوحيد الذي يعاني منه نزلاء سجن تدمر، بل هو حلقة من سلسلة من الأمراض السارية وغير السارية والإصابات.. ويبقى كل ذلك دون علاج.. أو يعطى بعد ذلك علاج قاصر لا يسمن ولا يغني من جوع..

من أخبار مهجع الجرب.. الإعدامات

كان من أخبار مهجع الجرب خبر بدا غريباً غير معقول أو مقبول في حينه، وكـان مفـاده أن عمليات إعدام تتم هنا في سجن تدمر.. وإن ما يسمونه (المحاكم) حينما يطلبون بعض المعـتقلين عند الفجر، ويأخذونهم مع أغراضهم ويقولون لهم أنتم مطلوبون (محاكم) فهذا الطلب إنما هـو الإعدام.. وكان معنى هذا الكلام رهيباً.. فسارعت كما سارع كثيرون غيري إلى ردّه وتكذيبـه في الحال.

كان معناه أن كل أولئك الذين أخذوا باسم محاكم وهم عدد ضخم قد استشهدوا ومـضوا إلى بارئهم، وهذا ما حاولنا نفيه واستبعاده، ولكن كان هناك أدلة تؤيده أهمها:

- التكبير الذي يسمع بعد أخذ هؤلاء المطلوبين (محاكم) بفترة ساعة أو سـاعتين، وقـد سمعـه المعتقلون في عدد من المهاجع..

- وهناك حادثة أخرى مؤيدة، ففي أحد المهاجع تواعد أحد الأخوة المعتقلين مع إخوانه، وهـو يعلم أنه معرض للإعدام: إن كان هناك إعدام، على أنه إذا طلب (محاكم) كالعادة، ووجد أنـه الإعدام، فسوف يعلن لهم عن ذلك بأن يصرخ بأعلى صوته: أنا فلان بن فلان أموت في سـبيل الله..

وقد طلب هذا الأخ بعد ذلك (محاكم) قبيل شروق الشمس، فلما أخذ تنصت زملاؤه في المهجع، فلم يلبثوا بعد ذلك أن سمعوا صوته ينادي بقوة: أنا فلان ابن فلان أموت في سبيل الله.

- ومن الأدلة على ذلك أن الجلادين كانوا يعصبون أعين المطلوبين (محاكم) ويوثقون أيديهم إلى الخلف.

- كان الأمر خطير جداً، ولم يكن من السهل تصديقه، لذلك كنت أبحث عن مبرر لرفضه، وقد حاول آخرون أن يموهوا على الأمر كله.. ولكن الأمر كان يتوضح أكثر وأكثر حتى غدا جليـاً ظاهراً.

واعتذر المموهون بأنهم خافوا من تأثير الخبر.. على الشباب.. وما يثيره من رعـب واسـتفظاع، وجاء هذا الخبر مكملاً لكأس الظلم المريرة.. فها هم الطغاة يسفكون الدم الطاهر البريء ظلمـاً وجوراً وراء الجدران السميكة، وفي سرية وخفاء.. شأن الجبناء.

كشف هذا الأمر وزال عنه الخفاء واللبس، تفصيلات دقيقة واضحة، فبدا كريهاً مرعبـاً، إنـه الموت يتخطفنا، يتخطف المعتقلين في سجن تدمر.. شباب وادعون، طاهرون، مستقيمون، ورجال كرام أبرار صالحون، رحمكم الله أيها الشباب الغض إنكم كالبراعم لما تتفتح أكمامها بعد فجاءتها اليد المجرمة فاقتطعت الغض الرطب واعتسفت الحياة الثرة الغنية الطاهرة، وأراقت الدم الزكـي، فرحمكم الله أيها الشباب المؤمنون.

كم تفاءلنا أن تكون هناك محاكمات فعلية يحاكم فيها أولئك الذاهبون فتنصفهم، وكنا ننتظر أوبتهم ونتواعد معهم على اللقاء، ونأخذ العناوين فإذا هو ذهاب لا أوبة بعده ولا لقاء مع أولئك الأحباب في الدنيا، ولكن اللقاء في الآخرة في جنة الخلد إن شاء الله.

وكان ممن أخذ في الفترة السابقة عدد كبير من الأخوة أذكر منهم:

١ – الشيخ محمد خير زيتوني/ حلب – إمام مسجد – ٤٠ عاماً.

٢ – الأستاذ رياض جعمور/ حماة – ٣٠ سنة – مهندس.

٣ – حسن الصوراني/ معرة النعمان – ٣٠ سنة.

٤ – عمر حوا/ اللاذقية – ٣٠ سنة.

٥ – محمد مصدق طرابلسي/ حمص – مدرب رياضي – ٢٥ سنة.

٦ – عزام خزندار/ حمص – طالب – ٢٨ سنة.

٧ – أسامة خواشيكة/ دمشق – إمام مسجد – ٤٠ سنة.

٨ – عبد المعطي حلموشي/ حمص – طالب – ١٨ سنة.

٩ – عرفات يونس/ دمشق – طالب – ٢٠ سنة.

١٠ – محمد رنكوس/ دمشق – موظف – ٣٥ سنة.

١١ – أسامة لبابيدي/ حلب – طالب – ١٩ سنة.

١٢ – بسام نابلسي/ حمص – مهندس – ٣٠ سنة.

مذبحة تدمر الكبرى في حزيران ١٩٨٠

كان من أخبار مهجع الجرب أيضاً خبر مفاده اعتقال ضابط طائفي كبير في الأردن يدعى عدنان بركات مع بعض عناصر سرايا الدفاع، الذين ذهبوا إلى هناك بقصد اغتيال رئيس الوزراء الأردني مضر بدران، وخلال التحقيق معهم اعترفوا بأنهم مرسلون من قبل رفعت أسد لهذه الغاية، واعترفوا بأنهم شاركوا في مجزرة تدمر بأنفسهم، وأنهم قبضوا على ذلك مبلغاً من المال، وقد أخبرنا بهذه الحادثة أخ دمشقي، وأخبرنا أن هذه الاعترافات عرضت في التلفزيون الأردني وأن السلطة الحاكمة في سوريا قطعت التيار الكهربائي لمدة ساعتين عن مدينة دمشق وما حولها في وقت إذاعة هذه الاعترافات، وعرضها التلفزيون الأردني ولكن الكثيرين كانوا قد استحضروا مولدات كهربائية خاصة لتلافي مثل هذه الحالة المتوقعة، كما سجلت المقابلة التلفزيونية هذه على أشرطة الفيديو وأخذ الناس يتناقلونها بينهم.

نحن هنا في تدمر لسنا بحاجة إلى مزيد من التفاصيل، فإن الأخبار والشواهد ظاهرة حاضرة تحكي تلك القصة الرهيبة.

في آخر شهر حزيران وبالتحديد في يوم ٢٦/ حزيران ١٩٨٠ جرت محاولة لاغتيال حافظ أسد من قبل عناصر الحماية الخاصة به، وأذيع بعدها أنه أصيب في رجله اضطربت الأحوال بشدة في دوائر المخابرات والمعتقلات والسجون، وقف كل شيء بانتظار نتيجة الحادثة.

في زنازين المخابرات كان المعتقلون في شك مما يجري وفي عجب من هذه الحالة الغريبة التي هيمنت على دوائر المخابرات، وفي معتقل كفرسوسة بقي المعتقلون دون طعام على مدى أربع وعشرين ساعة لا يلتفت إليهم أحد ولا يسأل عنهم، والأبواب مغلقة والكل صامت، حتى أفاق المذهولون إلى أنفسهم.

وفي سجن تدمر بدا الاضطراب واضحاً في تصرفات جهاز السجن في ذلك اليوم، وصدرت الأوامر بتعذيب المساجين واندفع الزبانية وأغلبهم من النصيريين يسومون المعتقلين صنوف الضرب والإيذاء بشكل وحشي، أدى إلى حدوث إصابات كثيرة بين المعتقلين.

كما جرى تعذيب عدد من المهاجع خلال عملية الحلاقة، وقد كان التعذيب خلالها رهيباً، فكانوا يأخذون كل معتقل على حدة فيعذبونه ويستعملون أدوات الحلاقة فيصلمون الآذان أو يشقونها، ويقطعون الأنوف وغير ذلك، فيدخل المعتقل المهجع وهو في حالة سيئة بل بالغة السوء، وقد يحمل حملاً حيث يجري له رفاقه بعض الإسعافات.

وكان المعتقلون في حالة اندهاش وحيرة ورعب بالغ لما رأوه من عنف دموي، وهكذا بات المعتقلون شر ليلة وقد جاءهم الجلادون في الليل فضربوا بعض المعتقلين وأوقفوهم جميعاً على رجل واحدة والأيدي مرفوعة إلى الأعلى، وأسمعوهم شنيع الكلام والسباب، وأجبروهم على هذه الوقفة طوال تلك الليلة.

وقد اتخذت الاستعدادات ووضع مخطط لصلي المعتقلين بعذابات رهيبة في اليوم التالي.

وفي اليوم الثاني وصلت إلى المطار القريب مجموعة من الطائرات المروحية حوالي عشر طائرات تحمل عناصر من سرايا الدفاع المسلحين بلباس الميدان الكامل، وكانوا حوالي (٢٠٠) عنصر مع ضباطهم، وكان لديهم الصلاحيات التامة بأن يدخلوا سجن تدمر العسكري ويقتلوا كل من فيه من المعتقلين الذين يبلغ عددهم حوالي (١٠٠٠) معتقل ومعهم أمر صريح بذلك وجاء (٨٠) عنصراً إلى السجن للقيام بالمهمة وترك الباقون كاحتياط.

كان مدير السجن على علم مسبق بالأمر وقد اتخذ التدابير اللازمة، فأمر بإجراء تفقد لموجود السجن وضبط عددهم، وقد قال أحد الرقباء من زبانية السجن للمعتقلين في بعض المهاجع هازئاً بهم: (حضروا حالكن بدنا نفرج عنكن) وهو يعلم أن الموت سيحصدهم بعد قليل.

كان عدد مهاجع سجن تدمر في ذلك الوقت حزيران ١٩٨٠ (٣٤) مهجعاً موزعة على سبع باحات، ولكن لم تكن جميع هذه المهاجع ملأى بالمعتقلين، بل كان المشغول منها (٢٠) مهجعاً وفي كل مهجع ما بين (٣٠ – ١٠٠) معتقل، وكان مجموع المعتقلين في السجن (١٠٠٠) معتقل تقريباً.

وهكذا استلمت قوة سرايا الدفاع مفاتيح السجن فور وصولها دون أي صعوبات.

وفي الممر الواسع بعد باب السجن الرئيسي الثاني المجاور للمطبخ في أقصى الجهة الجنوبية من السجن وقفت سرايا الدفاع هناك وأخذ قائدها يوزع المهمات على عناصره، وقسّمهم إلى مجموعات عدد أفراد المجموعة حوالي (١٥) عنصراً وانطلقت المجموعات لتنفيذ عملية قتل المعتقلين الموجودين في سجن تدمر..

كان المعتقلون في حالة سيئة بعد عمليات التعذيب التي جرت لهم في اليوم السابق، وكانوا في حالة قلق وتوجس ورعب، كان الأمر بالغ الخطورة وقد رأوا من حقد الجلادين النصيريين وشراستهم وتمتعهم بالعذاب ومناظر الدم ما هالهم.. فانطلقوا يدعون الله ويستغيثونه ويسألونه حسن الختام.

بدأت عملية الإبادة والقتل للمعتقلين في مهاجع الباحات (٣ – ٥ -٦) وهو القسم الجنوبي الغربي من السجن، فكان عناصر السرايا يفتحون باب المهجع ويأمرون المعتقلين بالابتعاد عن الباب إلى آخر المهجع، ثم يدخلون ويبدؤون بإطلاق النار عليهم، وارتفعت حينئذ أصوات المعتقلين في هذه المهاجع بالتكبير مع صراخ التألم مختلطاً بأصوات إطلاق الرصاص.. في أحد هذه المهاجع انقض معتقل كان يختبئ في المرافق القريبة من باب المهجع على العساكر من الخلف، واستخلص من أحدهم بندقيته فقتله بها وأصاب اثنين آخرين بجراح، ولكن العساكر الآخرين تكاثروا على المعتقل وأخذوا يطلقون النار عليه حتى قضوا عليه.

وانطلق جنود سرايا الدفاع يفرزون المعتقلين المكومين في المهاجع ويقضون على من يجدوا فيه بقية حياة حتى أفنوهم عن آخرهم.. وتجمعوا أخيراً ثم انطلقوا إلى الباحات الثلاث الباقية وهي ذات الأرقام (١ – ٢ – ٤) وهي تشكل القسم الشمالي الشرقي من السجن، وفيها عشرة مهاجع على الأقل ملأى بالمعتقلين..

وكان بعض المعتقلون في مهاجع هذه الباحات قد سمعوا أصوات إطلاق النار وبعض الصراخ والاستغاثات، ولكن لبعد المسافة وانفصال الباحات بعضها عن بعض لم يتأكد لديهم شيء، وإن كانوا على خوف وحذر لما لمسوه من شراسة الجلادين ومظاهر الحقد في تصرفهم، ولم يكن في إمكانهم لأن يعملوا شيئاً سوى الالتجاء إلى الله سبحانه بالدعاء والاستغاثة، وطلبوا من الله سبحانه أن يقبلهم شهداء في سبيله.

وقال بعضهم لبعض: الملتقى في جنة الخلد إن شاء الله، وبكى بعضهم وهم يدعون الله أن ينصر المسلمين ويخزي الظالمين المجرمين.

وحيث أن المهاجع في هذه الباحات معتمة واطئة السقف فقد خشي جنود السرايا دخولها على المعتقلين، خاصة بعد ما جرى معهم في المهاجع السابقة، فقاموا بإخراج المعتقلين مع أغراضهم الشخصية إلى الباحة رقم واحد وجمعوهم في زاويتها الشمالية الشرقية، ثم انقضوا عليهم وأصلوهم وابلاً من رصاص بنادقهم الرشاشة حتى قضوا عليهم، وتعالت خلال ذلك الاستغاثات وصراخ التكبير وكلمات الشهادة، ولكن عدداً من المعتقلين هؤلاء تمكن رغم الرصاص المنهمر من مغادرة الباحة إلى داخل أحد المهاجع، فلحق بهم جنود السرايا إلى داخل المهجع وقتلوهم عن آخرهم.

وفي الباحة رقم (٤) أخذوا يفتحون أبواب المهاجع ويلقون بقنبلة إلى داخلها ثم يدخلون عليهم ويقتلون من بقي حياً من المعتقلين. وفي الباحة رقم (٢) أخرج جنود السرايا المعتقلين من المهاجع الأربعة وجمعوهم مع أغراضهم في زاوية من الباحة محصورة ليس لها منفذ وذلك مقابل نهاية المهجع رقم (٨) ذي الشرفة الواسعة، ثم انقض العساكر عليهم فأصلوهم وابلاً من رصاص بنادقهم، وألقوا عليهم قنابل حارقة فاشتعلت النار في ثياب المعتقلين وأجسادهم وهكذا حتى أفنوهم عن آخرهم.

واندفع عساكر سرايا الدفاع المملوءين بطولة زائفة هم وضباطهم اندفعوا إلى أكوام الأجساد البشرية يقلبونها ويبحثون عمن فيه بقية حياة فيقتلونه ذبحاً أو طعناً بالحراب، حتى اصطبغت أيديهم وثيابهم بالدماء، ثم غادروا السجن أخيراً إلى المطار عائدين.

وهكذا وخلال ساعة واحدة من عمر الزمن في صباح ١٩٨٠/٦/٢٧ قتل قرابة (١٠٠٠) معتقل.

وامتلأت مهاجع وساحات سجن تدمر برائحة الدم والموت، والمئات من الضحايا مكومين مضرجين بالدماء، فقام جهاز سجن تدمر باستحضار سيارات عسكرية شاحنة ضخمة، واشتركت عناصر الخدمة في السجن (البلدية) مع عناصر جهاز السجن في عملية تحميل الجثث ووضعها في السيارات مع الأغراض وسرقوا خلال ذلك كل ما وجده معهم من ساعات ونقود، ونقلت الجثث إلى صحراء تدمر حيث أفرغت في حفر كبيرة، ردمت بواسطة البلدوزر وكان بعضها لا يزال فيه بقية حياة.

ولكن بقي الدم الزكي يغمر الأرض في كثير من نواحي السجن، ويتجمد فوقها إضافة إلى آثار كثيرة مختلفة.. فأحضر جهاز السجن مجموعات من عناصر الخدمة (البلدية) قامت بتنظيف مهاجع

السجن وساحاته من الدماء وبإزالة كل ما يمت إلى الجريمة بصلة، وقد جرى ترميم عام لمهاجع السجن وطليت جدران المهاجع بطلاء مناسب يستر ما تحته من آثار الجريمة ولكن هيهات.. فحتى الدماء أبت أن تزول في كثير من الأماكن في الحفر والزوايا، لتبقى شاهداً على الجريمة لا ينمحي.

وقدر الله أن ينجو من هذه المجزرة الرهيبة بضعة عشر معتقلاً أعمى الله بصر المجرمين عنهم.

الدفعات ١٩٨١/٤/٢٥

في استمرارية مرعبة تأتي أفواج المعتقلين من كل أنحاء سوريا حيث ترسل فروع المخابرات العسكرية من تجمع ما لديها من المعتقلين الذين انتهى التحقيق معهم ترسلهم مباشرة إلى سجن تدمر العسكري، وقد تبين لنا أن هذا الإرسال يتم دورياً ولكل محافظة يوم معين ترسل فيه المعتقلين إلى سجن تدمر كالتالي:

السبت: محافظة حلب.

الاثنين: محافظة اللاذقية.

الثلاثاء: محافظة دمشق.

الأربعاء: محافظة حمص.

الخميس: محافظة إدلب.

ومع ذلك قد تتغير المواعيد عند الضرورة، وكان المعتقلون القادمون من مختلف الأعمار والفئات، ففيهم الصغير والكبير، والطالب والموظف، ورجل الأعمال والعامل، وكان يغلب عليهم فئة المثقفين من الطلاب وحملة الشهادات، ويتراوح عدد المعتقلين في الدفعة ما بين ٢٥ – ٨٠ معتقلاً، وكان حفل تعذيب الاستقبال الرهيب ينظم لهم سريعاً، وغالباً يبدأ التعذيب مع الصباح الباكر، فيتجمع الجلادون بعدد مناسب ويأخذون هؤلاء القادمين إلى باحة الاستقبال أو التعذيب الباحة رقم (١) المشهورة، وهناك يعرونهم من ثيابهم تحت الضرب الشديد، ثم يضربون كل واحد في الدولاب حتى ينهكوه ثم يضربونه بالعصا الرهيبة فيحطمونه، وهكذا حتى تنتهي الدفعة، وخلال التعذيب الفردي يتم تعذيب جماعي حيث يطوف نفر من الجلادين بالكرابيج فيضربون المعتقلين دون كلل.

وخلال هذا الحفل التعذيبي الرهيب تشتد الأصوات أصوات الصراخ والعويل من المعذبين، والاستغاثات وطلب الرحمة وتشتد بالتالي أصوات الزجر والسباب والتجديف، وتكون أصوات الكرابيج اللاسعة كصوت المطر المتساقط لا تقف ولا تهدأ.

وكنا نسمع من مهجعنا أصوات العذاب والعويل طوال اليوم، وبعد هذا العذاب الشديد كانوا يأتون بالمعتقلين المعذبين فيضعونهم في المهجع رقم (١) ويتركونهم فيه عدة أيام وهم في حالة مؤلمة

من الإنهاك، ويتعاورونهم بالعذاب والضرب بين الحين والحين، وقد مات أحد هؤلاء المعتقلين بعد حفل تعذيب (الاستقبال) بيوم واحد وكان عمره حوالي أربعين سنة، ويبدو أنه قد نال يوم الاستقبال عذاباً شديداً، وضرباً أليماً حيث أنه لم يكن قادراً على السير، فحمله رفاقه لأنه كان في حالة شديدة من الانهيار، وكان يتساءل: لوين..؟ فإذا ضربه الجلادون استغاث بالله، فيزيدون عليه ويشتدون.. وقد أبلغ زملاؤه عن موته زبانية السجن وأخرجوه لهم على بطانية، وكانوا يحسدونه على هذا المصير وهذه النجاة من بغي الظالمين.

كانت الكثافة تشتد في مهاجع سجن تدمر حتى استغرقت كافة المهاجع الفارغة في السجن.. وملئت المهاجع (٢٦ – ٢٧ – ٢٨) وكان يستعمل الأخير منها في شهري شباط وآذار الماضيين كمهجع للمصابين بالجرب.

وبعد امتلاء كل المهاجع الفارغة أخذ جهاز السجن يجمع المعتقلين فيبقيهم في المهجع (١١) بضعة أيام تحت وطأة العذاب الشديد ثم يوزعونهم على المهاجع.

الناجون من المجزرة

في الفترة ما بين أواخر عام ١٩٨٠ وأوائل ١٩٨١ كان في أحد مهاجع الباحة السابعة ستة عشر معتقلاً فقط لم يخلطهم جهاز السجن بغيرهم من المعتقلين لذا لم يعرف تماماً من هم (وإن كانت هناك إشاعة تقول أنهم هم الذين نجوا من مجزرة تدمر الكبرى) وقد نقلوا بعد ذلك إلى جهة غير معلومة.

نساء في سجن تدمر

وضع في غرف المستوصف المعتقلات من النساء، وكان عددهن حوالي عشرين امرأة، وقد كن قبل ذلك في المهجع رقم (١١) وبقين فيه شهرين أو ثلاثة ثم نقلن إلى المستوصف في الباحة السابعة، وخلال وجود النساء في المهجع (١١) ولدت إحداهن وهي امرأة حلبية وزوجها معتقل وموجود في سجن تدمر أيضاً، وهو في المهجع المزدوج (٥ و ٦) ومن السجينات فتاة نصرانية كانت موظفة في السفارة العراقية وامرأة مسنة من الساحل السوري، وطبيبة دمشقية مع أمها، وأبوها معتقل في مهاجع الرجال أيضاً، والمهاجع التي لا توجد فيها معتقلون هي (١ – ٢ – ٣ – ١٤) ويبدو أنها تستعمل كمستودعات.

وفي محاولة قمنا بها لإحصاء عدد المعتقلين تبين لنا أن المهاجع المشغولة بالمعتقلين هي حوالي (٣٠) مهجعاً، وفي كل منها ما بين (١٠٠ – ١٣٥) معتقل تقريباً، فكانت النتيجة كالتالي ٣٠×١١٥= ٣٤٥٠ معتقلاً.. كما سمعنا أحد الرقباء يقول في معرض كلامه مع زملائه: (عندنا في هالسجن (٣٥٠٠) معتقل).

١٩٨١/٥/٤

انتشر مرض الإسهال في مهجعنا واشتد بحيث كان ٦٠ معتقلاً من أصل ١٠٠ في المهجع مصابين بالإسهال الشديد.. وكان يعالج إما بالامتناع عن الطعام أو شرب الشاي (وكمية الشاي قليلة جداً ولا تتجاوز كوباً واحداً من الشاي البارد) وكانت بعض الحالات تهدأ وبعضها يسكن تماماً رحمة من الله سبحانه، ولم يكن يظهر للطبيب في السجن أي أثر.

١٩٨١/٥/١١

قبيل منتصف الليل جاء الزبانية على عادتهم وفتحوا باب مهجعنا وطلبوا خروج المصابين بالإسهال، وحيث أني كنت مصاباً بإسهال شديد منذ أيام، فقد خرجت مع عدد من الأخوة المعتقلين المرضى، ثم أخرجوا مرضى الإسهال من المهاجع الأخرى في الباحة، وأخذونا إلى المهجع (١٣) في الباحة الثالثة فوضعونا فيه وتابعوا عملهم في جمع المرضى (المصابين بالإسهال والقيء) من مهاجع السجن الأخرى، كان بعضهم يسير على قدميه وبعضهم يسندهم زملاؤهم وآخرون يحملون بالبطانيات لعدم استطاعتهم السير، وكانوا يضعونهم أمام باب المهجع ومن ثم نقوم نحن بإدخالهم وخدمتهم والعناية بهم رغم ما نحن فيه من مرض.

المهجع (١٣) عبارة عن غرفتين متجاورتين يصل بينهما باب في الوسط، وفي زاوية الغرفة الداخلية مساحة محاطة بحافة من الإسمنت وفيها مرحاض (ملئ بالشقوق والشروخ في أرضيته) ومغسلة، وكان في هذا المهجع أربعون معتقلاً منهم الأخ أمين الأصفر، وقد أخرجوا قبل مجيئنا فوزعوا على المهاجع الأخرى..

علمنا هنا أن مرض الإسهال والقيء لم يكن محصوراً في مهجع أو مهجع معينة، بل هو وباء عام منتشر بين المعتقلين في مهاجع السجن كافة، وأن الطبيب أعلن انتشار وباء الكوليرا في المعتقل، وذلك بعد أن كثرت الإصابات والوفيات في العديد من المهاجع، واضطرت إدارة السجن إزاء ذلك إلى الاعتراف بالأمر الواقع والعمل على معالجته، ولكن زبانية سجن تدمر أصروا على عدم السماح بإخراج أي معتقل من سجن تدمر مهما كانت الأسباب ومهما كانت حالته المرضية وأنه يتحتم معالجة المصابين ضمن السجن حصراً، ووافق طبيب السجن النصيري الطائفي على هذه الخطة الجهنمية، رغم علمه باستحالة هذه المعالجة ضمن السجن من الناحية الطبية.

وحين يتم مسلسل المتناقضات كان طعام الغداء الذي أحضر لنا عبارة عن برغل مطبوخ إضافة إلى حب الفاصوليا المطبوخ بماء البندورة (الطماطم) والدوسير (حلويات سيئة الصنع) وكانت هذه المواد الغذائية هي مما يزيد مرض الإسهال أكثر لدينا، وقد طلب أحد المرضى من الطبيب تأمين طعام مناسب مع شيء من الحمضيات مثل الليمون، وأنه مستعد لدفع ثمن هذا الطعام من

حسابه الخاص ولكن الطبيب لم يلتفت إلى كلامه رغم علمه بأن مثل هذا الطعام ضروري جـــداً لهؤلاء المرضى، ولذلك لم يتمكن المرضى من تناول أي طعام، وخاصة المرضى الـــذين أصـــيبوا بالتقيؤ، مما زاد حالتهم سوءاً وكان زبانية السجن خلال التفقد اليومي وخلال إدخـــال الطعـــام يفتحون الباب بسرعة وهم يحبسون أنفاسهم ثم يقفون بعيداً وعلى وجوههم إمارات الخوف من المعتقلين في مهجع الكوليرا، وحينما خرج أحدنا لإدخال الطعام واقترب صدفة من الجلاد صرخ الجلاد بفزع وابتعد وهو يسب ويشتم.

١٩٨١/٥/١٢

امتلأ مهجعنا رقم (١٣) والذي يدعونه حالياً (مهجع الكوليرا) عن آخره وبلغ عدد المصابين فيه (٤٠) مصاباً كان عدد منهم في حالة خطرة والإسهال والتقيؤ شديد لديهم، وبعضهم عاجز عن الحركة تماماً لشدة ضعفه وهزاله وقوة إصابته وهؤلاء فقط كانوا يحتاجون إلى مستشفى كاملـــة لكي يمكن إسعافهم وتقديم الخدمة والعلاج اللازم لهم خاصة وأن عدداً منهم كان يتقيأ ويتبرز لا شعورياً ملوثاً ثيابه.

وهكذا فإن المهجع (١٣) كان عبارة عن مستشفى غريب أو محجز كوليرا من نوع عجيب، قال أحد الأطباء المعتقلين: إنه من الناحية الطبية فإن كل نزلاء سجن تدمر يعتبرون مخالطين حـــاملين لجرثوم الوباء ويجب أن يحجزوا ويعالجوا وتجري لهم التحليلات حتى تثبت سلامة أجسامهم مـــن جرثومة الوباء.

كانت الطريقة التي تتبع لعلاج الوباء في سجن تدمر تلغي جميع المبادئ والنظم والأعراف الطبية، وكأن المهجع (١٣) إنما هو (غرفة النزع) المعروفة في المستشفيات هذا دون الالتفات إلى طـــرق الموت الأخرى في سجن تدمر وإلا عد السجن كله (سجن الموت)!

أحضر لنا الزبانية فطوراً كان مؤلفاً من مربى وشاي بارد فخصصنا المرضى المدنفين بمعظم الشاي ولكن دون فائدة فما كان يستقر في أجوافهم شيء بل كانت معداقم تقذف كل طعـــام يـــدخل إليها –قيئاً- خلال دقائق.

وكانت الحالة الصحية للمرضى لا تصل مرحلة الخطر حتى يبدأ معهم القيء، فإذا بدأ القيء لدى المريض تدهورت حالته الصحية وضعفت قوته وتلاشت مقاومته، وتنعدم إمكانية استفادته مـــن الطعام أو الشراب عن طريق الفم، لأنه لا يستقر في جوفه شيء فهو يقيء كل بضع دقائق سواء كان في معدته شيء أم لم يكن، فهو يقيء مادة رغوية مائية، ثم يشتد عليه الدوار والدوخة، ويقع إذا ما حاول الوقوف.

لذلك كان يحدث بل يكثر وقوع المصابين خلال ذهابهم إلى المرحاض، مما يؤدي إلى مشاكل أخرى عسيرة، هي تلوث ثيابهم مع عدم وجود ثياب أخرى بديلة خاصة، وأن إمكانية الغسيل والتجفيف معدومة في المهجع، فكنا نضطر أن نترع شيئاً من ثيابنا ونتركه لهم ونحرص على معاونتهم خلال حركتهم، كما قد يعجل القيء المريض فلا يتمكن من الذهاب إلى المرافق أو أخذ وعاء القيء فيقيء على ثيابه وأغراضه، أو يتبرز دون أن يشعر في ثيابه.. كل ذلك كان محنة جديدة وموتاً وهلاكاً محققاً يحق للمعتقلين في سجن تدمر تحت سمع المسؤولين وبصرهم وهم غير آبهين أو ملتفتين.

في الساعة العاشرة من صباح اليوم جاء الطبيب ينظر إلينا عن بعد وهو كاره قرف بينما الممرض يدور حوله ويقوم بإلقاء بعض الأسئلة وقياس ضغط لبعض المرضى المدنفين، ثم وزع علينا الممرض بعض الحبوب وطلب (سطلاً) من الماء فحلّ بعض المواد فيه، وطلب منا أن نشرب منه بكثرة وأخرج له المدنفون إلى الباحة فأخذ يعلق لهم أكياس السيروم في العراء بواسطة بعض الأوتاد التي كانت في الجدران.

١٩٨١/٥/١٣

نظم بعض الأخوة المعتقلين من ذوي الخبرة الطبية، مناوبة ليلية للسهر على المرضى من ذوي الحالة الخطيرة والعناية بهم طوال الليل، وفي منتصف ليلة البارحة توفي الأخ المعتقل ناصح شنطيبي وهو من مدينة دمشق، وذلك بعد خمسة أيام من الإسهال والقيء الشديدين.

ضربنا الباب حتى حضر الحرس الموجود على السطح، فأبلغناه بالحادثة وبعد قليل جاء رئيس الجلادين المساعد أحمد مع نفر منهم، ولما علموا بالأمر أظهروا الشهامة، وتمنوا الموت لنا جميعاً، بينما كان المساعد أحمد رئيس الزبانية يقف بعيداً عن باب المهجع وقد لفّ رأسه بـ (اللفاحة) وغطى بها فمه وأنفه خوفاً من هواء مهجع الكوليرا، وهو صامت من الخوف، وطلب الزبانية إخراج المتوفى فأخرجناه على بطانية ووضعناه في الباحة ومن ثم حمل إلى مثواه المجهول في حفرة في صحراء تدمر.

في الوقت نفسه كان مريض آخر في مرحلة الخطر وقد غاب عن الوعي، فسارعنا بإبلاغ الزبانية عن حالته ولكن رغم مضي الوقت لم يأت الطبيب فاضطررنا إلى ضرب الباب الحديدي وإبلاغ الحرس بالأمر، وبعد مدة من الزمن جاء الطبيب غاضباً حانقاً لأننا قطعنا عليه نومه، وأطل علينا من النافذة الصغيرة الموجودة في الباب وصرخ بحدة (إيش بدكن ولك حقراء..) فأخبرناه بالمريض المغمى عليه فقال: هاتوه لهون، فحملنا المريض إلى أمام الباب حتى أبصره فخاطبه: إيش فيك ولك؟ للصبح بداويك..! ثم أغلق النافذة الصغيرة ومضى.. أحد الأطباء المعتقلين لم يحتمل هذا

الموقف المخزي من طبيب مثله، فتفل جهة الباب وقال: أين اليمين التي أقسمتها يا دكتـــور؟ أن تكون إنسانياً وأن تسارع إلى إسعاف المرضى، وأين شرف المهنة؟..

وتابع الزبانية اليوم جلب المصابين من مختلف مهاجع السجن وتابع الطبيب طريقته في النظر إلينا من بعد، بينما يقوم الممرض بالعلاج القليل القاصر، ولكن عدد المصابين قد زاد كثيراً ولم يعـــد المهجع (١٣) يستوعب هذا العدد الكبير من المرضى، فأفرغ الزبانية قسماً من المهجع (١٢) ذي الحجم الكبير ونقلونا إليه، فحملنا المرضى المدنفين على البطانيات ونقلناهم إلى المهجع الجديد.

١٩٨١/٥/١٥

قام الزبانية البارحة بنقلنا من المهجع (١٢) إلى المهجع (٣٤) في الباحة الخامسة بعد أن ضاق عن استيعاب من فيه من المصابين بوباء الكوليرا وغيرهم، وخلال الليلة الماضية توفي معتقل آخـــر لم أعرف اسمه وضربنا الباب فلما جاء الزبانية أخرجناه إليهم وأخذ إلى مثواه المجهول.

١٩٨١/٥/٢٠

كان واضحاً أن الزبانية في سجن تدمر يشعرون بخوف شديد من وباء الكـــوليرا المستـــشري في السجن، فما عادوا يقتربون من المعتقلين بأي حال بل وما عادوا يجسرون على دخول المهـــاجع، بل صار يرعبهم هواؤها وكان هذا بالنسبة لنا أمراً غريباً، فبعد أن كنا نخاف مجيء الزبانية ونرهبه ونحسب له ألف حساب، إذا بالأمر ينعكس بقدرة الله سبحانه فكنا نشعر بالأمان من كيد الزبانية وفجورهم، وإذا حدث مرة واقترب أحد المعتقلين من الزبانية فإنهم كانوا يهربون منـــه فـــزعين، ويبدو أن المسؤولين أحسوا بأن الأمر يكاد يفلت من أيديهم، فسارعوا إلى اتخـــاذ الإجـــراءات المناسبة ليعيدوا إلى الزبانية ثقتهم بأنفسهم، فكثرت إجراءات العلاج وعمليات التنظيف الصورية في المهاجع والباحات، والتي كانوا يجبرون المعتقلين على القيام بها يومياً وتستمر من الصباح حتى الظهيرة إلى أن عادت الثقة والعنجهية شيئاً ما إلى نفوس الزبانية المنهارة.

١٩٨١/٦/٦ (عودة العذاب)

دفع المسؤولين في سجن تدمر العسكري بعض الجلادين إلى العمل على ضرب المعتقلين وتعذيبهم في محاولة منهم لتنشيط عمليات التعذيب، وتشجيع الزبانية ليتغلبوا على عقدة وباء الكوليرا التي أرعبتهم زمناً.. فكان الجلاد سمير والملقب بـــ (حيو) لا يكف عن ضرب المعتقلين وتعذيبـــهم في كل مناسبة حتى تشجع آخرون واندفعوا يضربون المعـــتقلين ويعـــذبونهم في التفقـــد والحلاقـــة والتنفس.. ويتفننون في ذلك (والعذاب في القسوة والحقد) ففي كل تفقد ما أن ينتهي الرقيب من عدنا (ونحن نقف في صف خماسي في الباحة) ويعطي الأمر بدخول المهجع واحداً واحداً حتى يقف واحد أو اثنان من الجلادين بالكرابيج يضربوننا قرب الباب بقسوة ويصرخون فينا ويستعجلوننا:

(بسرعة ولك) وحيث أن الباب ضيق ولا يتسع مع السرعة لدخول أكثر من واحد، فتحدث الأزمة على الباب ويشتد التدافع بحيث يتأخر الدخول.

ولم يكن ذلك في صالحنا.. وكنا نتواصى بأن ندخل بالترتيب والنظام واحداً واحداً ولكن ما إن يسير الرتل الأول ويهجم الجلادون بالضرب على الأرتال الباقية حتى يضطرب الأمر فالضرب والعذاب لم يكن أمراً سهلاً ومع ذلك كان كثيرون يقفون ببرودة أعصاب لا يغادرون مكانهم ولا يتحركون إلا بنظام.. فلا يلقون إلا الضرب والعذاب ليكونوا الفداء لإخوانهم.

البارحة خلال التفقد وقف الجلادون قرب الباب يضربون واحتدمت المدافعة والضرب قرب الباب وعلى الصفوف وتصايح الجلادون.. ودخلت إلى المهجع بعد ضربتين قويتين إحداهما على الرأس.. (الخوف غريزة إنسانية) فيأبى الخوف إلا أن يثور في الصدر، ووقفت داخل المهجع حائراً.. متألماً لا أدري ما أفعل لإخواني الذين تكاثروا على الباب وغص بهم، وكانوا يدخلون خائفين مرعوبين أو مصابين.. ودخل أبو عبد الرحمن من الباب كان وجهه البريء الصادق التعبير يرسم صورة معبرة للخوف والرعب لا يمكن لأي فنان أن يصوره على حقيقته.. تذكرت إكرام الله للمسلم وأن النبي صلى الله عليه نهى عن ترويع المسلم.

اليوم رأينا ابتكاراً جديداً في التعذيب لم نعرفه من قبل، فما إن انتهى الرقيب من ضبط العدد وأصدر أمره بالدخول.. حتى اندفع بعض الجلادين يضربوننا كالعادة ولكن أحد الجلادين اندفع بحمية جاهلية وغل شيطاني فحمل سطلاً كان قرب الباب وأخذ يضرب بحافته السفلى الحادة والتي تبرز عن أرضيته بحوالي ٣ – ٤ سم يضرب بحافة السطل رؤوسنا فلا يصيب واحداً إلا شجّه وجرحه.. وكان يصرخ بوحشية.. واندفعنا إلى باب المهجع نحاول أن ندخله بسرعة كبيرة فكنا نقذف بأنفسنا فيه معرضين أنفسنا للاصطدام بالباب نفسه وله يد كبيرة تبرز مسافة (٨)سم فكانت تشكل نتوءاً حديدياً مرعباً يمكن أن يكسر اليد أو يجرح الجسم.. وكنا معرضين للاصطدام بالحائط أو الوقوع في الباب لسبب ما.. وقد اصطدمت بالباب الحديدي وجرحت يدي.. وكان في المهجع بعد التفقد أكثر من عشرين جريحاً..

المحاكم الميدانية

كانت نتائج محاولة اغتيال حافظ أسد بتاريخ ١٩٨٠/٦/٢٦ رهيبة إلى حد كبير، فبعد (مجزرة تدمر) التي دبرها رفعت أسد في غضبة عارمة وذهب ضحيتها مئات المعتقلين، اتخذت إجراءات أخرى صارمة وشديدة الوطأة لاجتثاث الإخوان المسلمين خاصة والمعارضين عامة، ولعل أشد هذه الإجراءات (القانون ٤٩ الذي صدر بتاريخ ١٩٨٠/٧/٧) والذي نص على اعتبار الانتماء إلى الإخوان المسلمين خيانة عظمى عقوبتها الإعدام، وترك مدة شهر واحد اعتباراً من تاريخ

صدوره ونشره لكل من كان من الإخوان أو له علاقة معهم، ليتقدم منسحباً ويقدم تقريراً مفصلاً عن ما يعرفه عن التنظيم، مع عدم شمول هذه المهلة للمعتقلين.

ويقال أن المعتقلين قبل صدور هذا القانون يخضعون لقوانين أخرى مثل قانون الطوارئ الكثيفة، التي صدرت على المعتقلين (من قبل ومن بعد..) وشكلت لتنفيذ مضمون القانون (٤٩) ثلاث محاكم على الأقل.

المحكمة الأولى: برئاسة غازي كنعان (نصيري – ٣٥ سنة) ممتلئ الجسم متوسط الطول أسود الأسنان كثير التدخين، وهو يشغل إضافة إلى ذلك منصب رئيس فرع المخابرات العسكرية بحمص، وهو قريب لحافظ أسد.

واختصت محكمته بمحاكمة المعتقلين في فروع المخابرات العسكرية في المحافظات، وكان مقرها في مركز فرع المخابرات العسكرية بحمص، مدة من الزمن ثم انتقلت إلى سجن تدمر.

المحكمة الثانية: برئاسة ضابط سني كبير وعضوية ضباط آمرين، أحدهم نصيري وكان النصيري يتصرف بأمور المحكمة كما يحلو له، وكان رئيس المحكمة اسمياً فقط، ومقر هذه المحكمة هو سجن المزة العسكري، وتختص بمحاكمة المعتقلين الواردين إليها من فروع المخابرات العسكرية المختلفة.

المحكمة الثالثة: برئاسة النقيب سليمان حبيب (٣٢) سنة نصيري متوسط الطول، نحيف الوجه، ضئيل الجسم، معقد الشخصية، لا يدل ظاهره الهادئ على نفسيته القاسية، ولكن محاوراته ومداوراته للمعتقلين، ومحاولته الإيقاع بهم تكشف عما يحمله من كره شديد للإخوان المسلمين.

وتختص هذه المحكمة بمحاكمة المعتقلين الواردين عن طريق مخابرات أمن الدولة، وكان مقرها في مركز مخابرات أمن الدولة (٢٨٥) كفرسوسة في بناء المعتقل القديم الطابق العلوي الغرفة قبل الأخيرة، في الممر إلى اليمين، ثم انتقل مقرها إلى سجن تدمر العسكري.

اشتد الإصرار على معتقل تدمر العسكري وزادت الثقة به (بعد المجزرة) وبدت له أهمية كبيرة.. خاصة وأنه مهيأ لدور جديد هام.. نعرفه من الاسم الذي أطلق عليه، وهو مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين (ومن والاهم من المعارضين جميعاً) كما استحدث للسجن نظام جديد.. أشد قسوة وسوءاً عن ذي قبل، ويتلاءم مع الهدف منه.. وهو التصفية الجسدية والفكرية، وأعطيت الأوامر لأجهزة المخابرات وفروعها المختلفة لتجهيز المعتقلين لديها بالتحقيقات اللازمة، وإرسالهم إلى سجن تدمر العسكري لصالح (المحكمة الميدانية) هذا بالنسبة للفروع العسكرية في المحافظات، أما في دمشق فإن المعتقلين الموجودين لدى جهاز المخابرات العسكرية بدمشق أو الواردين إليها بصورة من الصور أو سبب من الأسباب، يحاكمون لدى المحكمة العسكرية الثانية في سجن مزّة العسكري.. أما جهاز مخابرات أمن الدولة فيجمع المعتقلين من فروعه في المحافظات،

ليعرضوا على القاضي العسكري في المركز الرئيسي، معتقل كفرسوسة بدمشق، ويرسلوا إلى سجن تدمر للتنفيذ ثم بعد ذلك تغير الأمر وأخذوا يرسلون المعتقلين فوراً إلى سجن تدمر لإجراء محاكمتهم هناك.

أفواج المعتقلين الأولى إلى سجن تدمر

أخذت أفواج المعتقلين تأتي إلى سجن تدمر العسكري (بعد المجزرة) وقد نظف ودهن وهيئ، فكانت أول دفعة وصلت سجن تدمر بتاريخ ١٩٨٠/٧/١٦ (٣ رمضان) ثم دفعة في منتصف الشهر الكريم أي ١٩٨٠/٧/٢٧ ودفعة بتاريخ ١٩٨٠/٨/٩ وكان عددها (١٠٠) معتقل ملء باصين كبيرين جيء بهم من مدينة حلب من سجن المسلمية وغيره وصلوا إلى سجن تدمر في السابعة صباحاً، وهُيأ لاستقبالهم وتعذيبهم جهاز السجن فأخذوهم ووضعوهم في الباحة رقم (١) باحة الاستقبال أو التعذيب، وتجمع لتعذيبهم أكثر من (١٠٠) جلاد، ونظم لهؤلاء المعتقلين المساكين حفل من العذاب الرهيب، استمر من الساعة السابعة صباحاً وحتى السابعة والنصف مساء، وكان جميع المعتقلين في هذه الدفعة صائمين في تلك الأيام المباركة الأخيرة من شهر رمضان.. ثم وضعوا في المهجع المزدوج (٥ و ٦) في الباحة الأولى.

وكان نتيجة هذا اليوم الهائل (والذي كان يتكرر مع مجيء كل دفعة من المعتقلين إلى سجن تدمر) إن خروج هؤلاء المعتقلون من حفلة التعذيب مشوهي الوجوه ممزقي الظهور والأرجل والأيدي، متورمي الرؤوس مع كسور متبدلة كاملة وكسور في العمود الفقري وغيره.. وحتى بعد عام ونصف كان اثنان من هذه الدفعة لا يستطيعان الوقوف والمشي، بل يسير أحدهما على يديه ورجليه، ويسير الآخر محني الظهر بشكل زاوية حادة. وجاءت دفعة صباح العيد بالذات (عيد الفطر) وكان عدد أفرادها (٦٠) معتقلاً، واستمر تعذيبهم غالب النهار (نهار العيد) وجاءت أول دفعة من مركز مخابرات أمن الدولة (كفرسوسة) بدمشق إلى سجن تدمر يوم ١٩٨٠/٨/١٩ وكان تعداد أفرادها (٧٠) معتقلاً كان منهم الشيخ محمد خير زيتوني (٤٥) عاماً من علماء حلب، والذي يحفظ القرآن كله، والأستاذ المهندس رياض جعمور، من حماة وهو الوحيد الذي نجا من المجموعة التي أعدمت بتاريخ ١٩٧٩/٦/٢٨ وهو يحفظ القرآن الكريم كله.

جاءت الدفعة الثانية بتاريخ ١٩٨٠/٨/٣٠ وعدد المعتقلين المنقولين فيها (٣٧) معتقلاً منهم إمام مسجد الشيخ فتوح بإدلب: الشيخ وليد شعبان، وهو مدرّس في المدرسة الشرعية. ومنهم الشيخ أسامة خواشكية (٤٠) سنة من دمشق حي الميدان، وهو خطيب ومدرس في سجن القلعة بدمشق، ومنهم مدرب الكاراتيه في الكلية الحربية بحمص، محمد مصدق طرابلسي.. وغيرهم..

ودفعة بتاريخ ١٩٨٠/٩/١٠ كان فيها مجموعة من تلاميذ المدارس (الأحداث) ومن معتقل المزة العسكري أخذت تفد دفعات من المعتقلين أيضاً وهم الذين جرت محاكمتهم هناك وضاق بهم سجن المزة، فحولوا إلى سجن تدمر العسكري.

ثم وصلت دفعة بتاريخ ١٩٨٠/٨/٢٢ من ثمانية أشخاص منهم الأستاذ أحمد سالم – دير الزور، ودفعة بتاريخ ١٩٨٠/٨/٢٩ من (١٥) معتقلاً عسكريين ومدنيين وفلسطيني ولبناني..

وتتابعت الدفعات.. فكانت تأتي الدفعات إلى سجن تدمر على مدى خمسة أيام من كل أسبوع.. ولكل محافظة موعد تحضر فيه المعتقلين لديها وكان عدد المعتقلين في الدفعة ما بين (٢٠ – ٨٠) معتقلاً، وحيث أن كلاً من المهاجع (٤ و ٥ و ٦) تطل على الباحة رقم (١) باحة الاستقبال (التعذيب) لذلك كان نزلاء هذه المهاجع في أيام وصول الدفعات يجلسون طوال الوقت وهم في هم وغم وكرب وعذاب، يستمعون إلى (النشيد المر) وهو صراخ المعذبين وهم يستغيثون ويتألمون بأصوات تفطر القلوب القاسية، وأصوات الكرابيج والعصي وهي تضرب وتهبد وتعوي في لحن مرعب رهيب لا يهدأ ولا ينقطع، وأصوات الجلادين وهم يصرخون في وحشية زاجرين آمرين منتشين/ هازئين يسبون ويجدفون.

المحاكمات

إن المحاكم الميدانية التي شكلت كردة فعل غاضبة عنيفة على نشاط مجاهدي الإخوان ومحاولة الاغتيال بشكل مباشر تهدف إلى أمور بعيدة الغور، وأن الأشخاص الذين سموا قضاة لتلك المحاكم هم في المحكمتين الأولى والثالثة ضابطان نصيريان من أشد المقربين من حافظ أسد، والغاضبين له والمتعصبين للطائفة، بل وكانا يلتهبان حماساً للدولة الطائفية النصيرية.. ويحملان كرهاً شديداً لجماعة السنة عامة والإخوان خاصة، لذلك كان بديهياً وقد أطلقت أيديهما –تحت اسم القانون- أن يقوما بالتنكيل بالإخوان ومن يواليهم، ولم يكن في هاتين المحكمتين العسكريتين الميدانيتين أي صورة للمحاكم المعروفة، إنما تتمثل المحكمة كلها في شخص الضابط الطائفي النصيري المتحمس..

ولعل المحكمة الثانية التي مقرها معتقل المزّة العسكري، هي الصورة التي أريد لها أن تبدو طبيعية للناس، فهي قريبة منهم مع أنها فعلاً (صورة فقط) تنفذ ما يمل عليها من أوامر، وتتلو ما يوضع لقضاياها من أحكام.

وعلى ضوء هذه المعطيات الغريبة كانت النتائج (كما هو متوقع) رهيبة لا تكاد تصدق ولا في الخيال وذلك بأن يعدم العشرات والمئات دورياً وباستمرار رتيب.. ولنبدأ القصة منذ أولها.

باشرت المحاكم الميدانية الثلاث أعمالها في محاكمة المعتقلين بعد عيد الفطر لعام ١٣٩٩هـ الموافق لشهر آب ١٩٨٠ ففي مقر المحكمة العسكرية الميدانية الأولى في سجن تدمر، طلبت قوائم طويلة من أسماء المعتقلين في سجن تدمر العسكري –للمحاكمة أمام المحكمة الميدانية الأولى، لدى العقيد غازي كنعان- واستخرج هؤلاء المعتقلين من المهاجع المغلقة، وأخذوا تحت الضرب الشديد إلى باحة المكاتب حيث غرفة المحكمة فأوقفوا في صف طويل ووجوههم إلى الحائط.. ليؤخذوا بعد ذلك واحداً واحداً إلى غرفة المحكمة فيسألهم العقيد بضعة أسئلة عن الاسم والعمر وعن بعض نواح من التحقيق، ولم يكن هناك مجال للمعتقل للكلام والإبانة فإن إجابته يجب أن تكون (نعم) دائماً، وإلا تعرض لما هو أشد من الموت من العذاب.. ويصرفه القاضي بكلمة سباب.. أو تهديد.. ولا يعلم المعتقل المسكين مدى صدق هذا التهديد.. وجديته.. حتى يجد نفسه، مساقاً إلى الإعدام، في الزاوية الجنوبية الغربية من سجن تدمر العسكري.

كان الجلادون المدربون على الجلد والتعذيب وغيره ينقضون على المعتقلين المساكين الواقفين بانتظار المحاكمة يضربونهم ويعذبونهم بقسوة طوال الوقت.. ومن أدوات العذاب (الكرباج الثخين – العصا الغليظة الطويلة، والمسلّة) والمسلة إبرة ضخمة من الحديد مدببة الرأس طولها (١٥)سم وقطرها (٣)مم تقريباً، يخزون بها المعتقلين في آلياتهم وخواصرهم ووراء آذانهم.

في المحكمة

عندما يطلب المعتقل للدخول إلى قاعة ما يسمونها المحكمة في سجن تدمر، يجذبه الجلاد ويضربه ويدفعه إلى باب الغرفة، فإذا دخل باب غرفة المحكمة تلقاه جلاد عنيف فيضربه بالكرباج على أم رأسه حتى يقف أمام القاضي.. أصم أبكم لا يجيب على كل سؤال إلا (بنعم.. نعم.. أنا سيدي) وإذا دفعه دافع ما أو تحرك في نفسه أمل بأن ينفي بعض التهم الفظيعة التي دبجت له في أقبية المخابرات تحت ظروف قاهرة رهيبة فيها العذاب والتحطيم والرعب.. غضب عليه القاضي وانتهره وسبّه وشتمه وهجم عليه الجلاد بإشارة من القاضي، فضربه فإن ثاب إلى الإذعان وإلا أخرج إلى الدولاب وسلق بضرب كثيف عنيف حتى يغمى عليه، فيصبون عليه الماء ويحاورونه فإن عاد عادوا.. حتى يضطر إلى الاعتراف بما فعل وما لم يفعل، ويسلم أمره لله.. ويترك الأمر لعدالة السماء.. عند من لا يضيع عنده حق، ولا يرضى بظلم..

عرف بيننا نحن المعتقلون أن التنصل من أي تهمة وردت في التحقيق أمر غير ممكن، فقررنا أن نجيب القاضي بالإيجاب على كل سؤال.. تخلصاً من العذاب، وكنا نقول فليكتبوا ما شاؤوا وليحكموا بما أرادوا، الموت ولا العذاب، وكان بعضهم يتمثل خلال المحاكمة بالآية الكريمة (فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا).. وكان كل همّنا بعد ذلك أن ندعو الله أن

يصرف عنا كيدهم وينقذنا من تحقيقهم وعذابهم، فكل ما يسألوننا عنه أو يتـــهموننا بـــه نحـــن مستعدون للموافقة عليه.. والاعتراف به.. وفي المحاكمة: لم يكن هناك أي أثر لإجراءات المحاكم المعروفة وطرائقها، فلا وقائع جريمة ولا إثباتات ولا شهود ولا دفاع.. بل اعتراف واعتراف.. ولم يكن هناك نطق بالحكم معلل محترم بل يتكرم القاضي ببصقة على المعتقل، مع كلمة سباب فاحشة ويقول له: بدي أعدمك يا (عرص).

ومن أحكام هذه المحكمة:

١ – الإعدام ويحكم به عل كل من اعترف على نفسه أو اعترف أحد عليه أنه منظم في تنظـــيم الإخوان العسكري، وكل من له علاقة خدمة أو عمل بهذا التنظيم، ولعل الأهـــم أنـــه: يحكـــم بالإعدام أولاً وأخيراً على كل واحد أثارت قضيته أو شخصيته أو كلامه – القاضي.. المحترم..

٢ – الحكم غير المبلغ: حيث لا يبلغ القاضي المحكوم شيئاً ويبقى الحكم مجهولاً، وهـــذا الحكـــم غالباً لكل من له علاقة (بتنظيم) الإخوان المسلمين في وقت ما، ولعل هذا الحكم إنما هو الإعدام المؤجل التنفيذ.. أو التصفية الجسدية بالمعاملة السيئة والعذاب الشديد والظروف البيئية القاتلة.

٣ – المؤبد والـــ (١٥) سنة لمن كانت له علاقة من قبيل التعاطف والتـــستر أو تأديـــة خدمـــة لمنظم.. أم كتم معلومات.

٤ – السجن (٦) سنوات للأحداث دون (١٨) سنة ويحكم على الحدث الذي له علاقة بالتنظيم المسلح بالإعدام، وينفذ فيه إذا بلغ سن الثامنة عشرة خلال مدة الاعتقال.

٥ – البراءة، وكان العقيد يصدر حكمه في كثير من الحالات بالبراءة إذا لم يشر من ناحية، ولعدم وجود أي تهمة يمكن أن توجه للمعتقل من ناحية أخرى.. ومع ذلك كـــان هـــؤلاء الأبريـــاء.. يضمون إلى الأبرياء الآخرين الذين حكموا ظلماً بمختلف الأحكام، ويخضع الجميع للاعتقال مدة غير معلومة تحت ظل المعاملة السيئة المميتة والعذاب.. في سجن تدمر الصحراوي.

ملاحظات:

١ – كانت مدة المحاكمة ما بين (٢ – ٥) دقائق.

٢ – أول دفعة سمعت أنها أخذت للإعدام كانت بتاريخ ١٩٨٠/٨/١٩ وكان مجموع من أعدم فيها (٦٠) شخصاً.

أعمال المحكمة الميدانية في سجن المزّة العسكري بدمشق..

وفي مقر المحكمة العسكرية الميدانية الثانية في معتقل المزّة العسكري بدمشق بدأ النشاط لمحاكمـــة دفعات متوالية من المعتقلين ضمن صورة معينة من الإجراءات الصورية، حيث يطلب المعتقلـــون أولاً للاستجواب من قبل المحكمة (وهو شكلي) والضابط المسؤول عن الاستجواب (نـــصيري)

يثبت ما يريده، ثم جلسة الحكم وفيها يوضع المعتقلون المحاكمون في قفص حديدي، ثم تقرأ عليهم الأحكام ويؤخذون بعد ذلك إلى مهاجعهم.

وكانت هذه المحكمة لدى الاستجواب تلين للبعض القليل، فتسجل لهم إنكارهم وتنصلهم وتثبت لهم ذلك في ضوابطها وتقسو على الباقين، وتعرض عما يقولون وترفض أن تسجل لهم أقوالهم وإنكار ما نسب إليهم من تهم وتنصلهم منها.. كما يجري التلميح للبعض بالحكم مسبقاً حتى أصبح معلوماً لدى المعتقلين هناك بالتجربة ونقلاً عن مصادر معينة أن (الأحكام هذه) توضع لهذه المحكمة من فوق، من قبل شخصين طائفيين كبيرين هما: علي دوبا رئيس المخابرات العسكرية، وعلى حيدر قائد الوحدات الخاصة.

ولم يكن في هذه المحكمة مناقشة للتهم والأدلة والإثباتات ولا دفاع ولا غيره من إجراءات المحاكم المعروفة.

وتتكرر في هذه المحكمة صورة الأحكام تقريباً فهناك من الأحكام:

١ – الإعدام: ويحكم به على العسكريين الموالين للإخوان، أو المنظمين في الإخوان وعلى تجار السلاح الموردين للإخوان، وكانت أحكام الإعدام أكثر ما تكون للضباط وكان هؤلاء يتلقون هذه الأحكام بصورة غريبة تدل على ما يعتمل في نفوسهم من ألأم وقهر، فكانوا يجهرون بالتكبير، ويعلنون للقاضي وللمحكمة وللملأ آراءهم في الدولة والتسلط الطائفي النصيري، والعداوة للدين، ويتهمون القاضي وهيئة المحكمة بأنهم أجراء قد باعوا ضمائرهم وتخلوا عن شرفهم، ومالئوا الباطل، فقد قال أحدهم وهو ضابط طيار: إنما أقتل هاهنا لأني رفضت أن أكون خائناً لضميري ووطني ولشرفي العسكري لأني رفضت كل هذا الزيف والباطل والسوء والفساد الذي يعشش في رؤوسكم ورؤوس أسيادكم، وإنما أقتل في سبيل الله. إن هذه الدولة كافرة عدوّة لله وللدين وإنما أنتم أيها الجالسون أمامي على كراسي القضاة أجراء لأسيادكم الظلمة، وقد بعتم ضمائركم في سبيل المال والمنصب.. وقام ضابط آخر: فأعلن بالأذان الله أكبر الله أكبر وكان حكم الإعدام ينفذ في زنازين سجن المزّة العسكري (للمدنيين ورمياً بالرصاص للعسكريين) فتعصب عينا المحكوم بالإعدام ويوضع في زنزانة انفرادية ويدخل عليه الجلاد (وهو يدعى أبو محمد) ومعه مسدس (٩) مم فيطلق عليه رصاصتين إحداهما في الرأس وأخرى في القلب.. ويقبض الجلاد المبلغ (٥٠ – ١٠٠) ل. س عن كل عملية..

٢ – الحكم المجهول: أو غير المبلغ نفسه ما يجري في المحكمة الأولى وهو لك من له علاقة بتنظيم الإخوان في أي وقت ولم يثبت له فعالية أو نشاط.

٣ – المؤبد وال (٢٥) سنة: وكان كثيراً جداً.

٤ – (١٠) سنوات و (٥) سنوات: وهو قليل وهو على الغالب لمن يشك في ذنبه وجريرته وكل المحكومين بهذين الحكمين أو الأحكام الأربعة ممن لا علاقة لهم بتنظيم الإخوان قطعياً (عملياً أو فكرياً) وإنما هم تجار وعمال ومهربون وسائقون وعسكريون وغيرهم.

ومن المحاكمين أمام هذه المحكمة (خاصة) عدد كبير من البعثيين (اليمنيين) وأعدم عدد منهم وحكم الباقون بأحكام مختلفة.

٥ – حكم البراءة ويحكم به على عدد محدود من المعتقلين.

وبعد تنفيذ أحكام الإعدام، في نفس سجن المزّة كانت تجرى إحالة المحكومين الذين عرضوا على المحكمة أو أغلبهم إلى سجن تدمر العسكري (سجن الموت) أو ما يسمى مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين ويساق هؤلاء بشكل مفاجئ إلى سجن تدمر، وكان شائعاً بين الجميع (قضاة وجهاز مخابرات وسجانين وغيرهم) أن من يؤخذ إلى سجن تدمر في تلك الأيام فقد ذهب بلا عودة، ويعتبر بعد ذلك بحكم الميت، لذلك كان السجانون (من عناصر جهاز سجن المزة العسكري) يسلبون هؤلاء المعتقلين المنقولين إلى سجن تدمر كل ما يملكون بشكل أو بآخر، ففي إحدى الدفعات وكان عددها خمسة عشر شخصاً، جاءهم السجان فجأة فطلبهم بالأسماء، وطلب منهم وصول الأمانات وكان لديهم نقود وأموال أخذت منهم فوضعت لدى جهاز السجن (أمانة) وأعطوا (وصولات) بذلك، فأخذت وصولات أو إشعارات الأمانة منهم واستخرجهم الجلادون فوراً من الزنزانة الجماعية وهم يقولون لهم: اخرجوا بسرعة.. بسرعة.. فيقول الواحد منهم حتى ألبس ثيابي أو أحمل حاجياتي وآتي بساعتي، فيرد عليه السجان ما في حاجة اتركها.. أو بعدين بعدين.. حتى إذا خرجوا إلى باحة السجن وأغلقت وراءهم الزنزانة، قيدوا وحملوا في سيارة عسكرية مغلقة، وجيء بهم إلى سجن تدمر العسكري، حيث أصبحوا في شغل عن حاجياتهم ونقودهم وساعاتهم بما هم فيه من عذاب وإرهاب ورعب..

بقيت كل (ساعاتهم) في عجالة النقل في سجن المزّة كما بقيت ثيابهم وكثير من نقودهم، سواء ما كان منها في الثياب أو ما كان أمانة لدى جهاز السجن، وكان لواحد منهم فقط وهو فلسطيني يدعى (أ. و. ع) مبلغ (٥٠٠٠) ل.س أمانة عند جهاز السجن في المزّة، إضافة إلى مبلغ (٨٠٠) ل.س وساعة يد وثياب.. ومبلغ ١٨٠ ألف لمعتقل آخر احتجزت كلها لقمة سائغة للسجانين في سجن المزّة العسكري.

(أعمال المحكمة العسكرية الميدانية الثالثة)

في مركز مخابرات أمن الدولة الرئيسي في كفرسوسة الفرع (٢٨٥) نشط النقيب سليمان لمحاكمة المعتقلين في مكتبه بالطابق العلوي من بناء السجن القديم، وهو الغرفة قبل الأخيرة في نهاية الممر

إلى اليسار، فجلب له المعتقلون من مختلف الفروع وقد زودوا بالتحقيقات اللازمة، وأخذ النقيب (القاضي) يطلب هؤلاء المعتقلين واحداً واحداً، وكانت صورة المحكمة أقرب إلى التحقيق منها إلى المحاكمة، فقد كان النقيب سليمان يحرص أن يوقع بالمعتقل وهو يفترض أن كل ما جاء في التحقيق أمر مسلم به ولا يجوز إنكاره، وإذا حاول المعتقل التنصل من الاعترافات التي أخذت منه بالإكراه وتحت التعذيب الشديد، كان النقيب يرفض ذلك، ويهدد المعتقل بالعذاب والدولاب، بل وبالقتل رمياً بالرصاص يقول له (والله برشّك) وقد ينفذ تهديده بإرسال المعتقل للعذاب، ولم يكن يبلغ أي معتقل عن الحكم الذي يحكمه به بل يعيده كما أتى دون أن يعلم حتى أنه أمام محكمة.

وكانت الأحكام على ثلاثة أنواع:

١ – الإعدام: لكل من كان له علاقة بالإخوان المسلمين وعملهم المناهض لنظام أسد.

٢ – الحكم المجهول: لكل من كان له صلة قريبة أو بعيدة بالإخوان المسلمين دون أي نشاط أو فاعلية.

٣ – براءة: لمن ليس له علاقة بشيء حتى معرفة ولو عنصر أخواني واحد فقط.

ويحال جميع المحاكمين المحكومين إلى سجن تدمر العسكري لتنفيذ الحكم وحتى المحكومين بالبراءة يحالون إلى سجن تدمر العسكري، حتى إشعار آخر.. ولقد رأى النقيب سليمان أن معتقل المخابرات ليس فيه الرهبة والاحترام اللازمان لمحكمة وهكذا انتقلت هذه المحكمة إلى سجن تدمر العسكري، وصدرت الأوامر بنقل جميع المعتقلين لدى مخابرات أمن الدولة إلى سجن تدمر العسكري، بعد تزويدهم بالضوابط اللازمة لمحاكمتهم هناك، وبدا النقيب بأعمال محاكمة المعتقلين في سجن تدمر منذ أواخر عام ١٩٨٠ على نفس منوال محكمة العقيد في تعذيب المعتقلين وإهانتهم واحتقارهم وسلبهم.

يلاحظ أن السرية التامة كانت تلف المعتقل منذ ساعة اعتقاله.. فلا يدري أهله ولا الناس ما يجري له من تحقيق وعذاب وغيره، وربما يموت تحت التحقيق ويدفن وأهله ينتظرون عودته، ولا يعلمون من أمره شيئاً، فإذا نقل المعتقل إلى سجن تدمر انقطعت أخباره تماماً وكأنه فارق الحياة.

أما المحاكمات ذاتها التي تتم في سجن تدمر العسكري مركز التطهير والتصفية فهي سر من الأسرار الغامضة.. ولا يجوز أن يعلم أحد عنها شيئاً في طول البلاد وعرضها، ولا في أي مكان ولا عما تحكم به ولا ما تنفذه، إلا أخبار يسيرة بين كبار رجال المخابرات والمسؤولين، وقد أكون نقلت صورة ما عن هذه المحاكم.. ولكن الأصل الواقع كان ولا يزال أشد سوءاً وشناعة.

٢٠ حزيران ١٩٨١ حقد على الصلاة والمصلين

في الرابعة والنصف صباحاً كان المعتقلون في مهاجع سجن تدمر نائمين فالحركة في ذلك الوقت ممنوعة حسب نظام السجن، وكان العريف "فواز" قد استيقظ في ذلك الوقت من الليل يريد أن يضبط حركة المعتقلين وأن يضبط المصلين خاصة فإن له معهم حساباً عسيراً، فتسلل في جنح الظلام إلى أسطحة المهاجع وأخذ يراقب المعتقلين في كل مهجع فترة من الزمن، وكان يقف في مكان متزو بحيث يراهم ولا يرونه، ويترقب من يتحرك منهم، وكان المعتقلون نائمين وقد اختلطت أجسادهم وتشابكت أطرافهم، وكان بعض المعتقلين يريدون الذهاب إلى دورة المياه لقضاء الحاجة، فيتحينون الفرصة المناسبة ويقومون إلى دورة المياه.

ضبط العريف تحرك هؤلاء فصرخ فجأة بصوت منكر: ولك رئيس المهجع، وكرر الصراخ حتى قام إليه رئيس المهجع، فأمره أن يخرج من دورة المياه من المعتقلين وأن يعرفهم ويقدمهم له في الصباح حين قدومه مع الزبانية، ثم سبّ وشتم وهدد وتوعد وحدد الجريمة فقال: (متصلوا يا عرصات.. الصبح بفرجيكن) وقبيل مجيء الجلادين في الصباح، كان في المهجع كمواقف إيثار رائعة، فقد طلب رئيس المهجع ثمانية معتقلين ليقدمهم للعريف فواز ليتحملوا العقوبة الرهيبة عن زملائهم، فتقدم المعتقلون الشباب في رجولة يقدمون إخوانهم الآخرين بأنفسهم، وجاء العريف مع عدد كبير من الزبانية وكلهم ممتلؤون حقداً وغلاً، وطلب من سمّاهم المجرمين (اللي ميصلو) فخرجوا إليه فانقضّ عليهم الجلادون وأخذوا يضربونهم ويعذبونهم بوحشية دونها وحشية وحوش الغاب، وظن بعض المعتقلين أن العريف "فواز" يشتط بدافع من حقده وأن الرقباء والمسؤولين الآخرين لا يقرونه على فعله وإجرامه، فتجرءوا وشكوا إلى أحد الرقباء ما جرى وما فعل العريف "فواز" بل سأل بعض المعتقلين الرقيب: هل الصلاة ممنوعة؟ فثار الحقد الأسود في قلب الرقيب وانقضّ مع الزبانية على المعتقلين هؤلاء وأخذوا يضربونهم حتى ألقوهم أرضاً، وأخذوا يدوسونهم ويرفسونهم بأكعاب أحذيتهم، ولم يشتفوا أو يكتفوا فأخذوا نزلاء المهجع مجموعة وراء مجموعة يعذبونهم أشد العذاب، ويضربونهم أعنف ضرب، وحمل الرقيب الفاجر قطعة ضخمة من الإسمنت يصل وزنها إلى حوالي (١٠كغ) وأخذ يهبد بها المعتقلين على ظهورهم في وحشية.. عرف المعتقلون الجواب على أسئلتهم، وكان نتيجة هذه الحفلة الرهيبة من العذاب إصابات كثيرة منها إصابة المعتقل أبو جليل الذي يبلغ من العمر السبعين عاماً، فقد تحطمت أضلاعه وأصيب ظهره، فحمل إلى المهجع حملاً وأصيب المعتقل "أبو أسعد" وهو موظف في العقد الرابع من عمره أصيب بضربة على كليته، فساءت حاله وأخذ يبول الدم، وارتفعت حرارته حتى غدا بين الموت والحياة.

١/٧/تموز ١٩٨١

منذ اقترب أوان الشهر الكريم رمضان، ونحن في حيرة وقلق لما سوف نلقاه من صعوبات خلال الشهر المبارك خاصة وأننا كنا مصرّين على الصيام مهما كانت الصعوبات. فنحن لسنا مسافرين ولا ندري هل نعيش إن أفطرنا حتى نقضي أم لا، وترقبنا أول يوم من رمضان فلما تأكدنا منه بواسطة المدافع الرمضانية التي أطلقت في مدينة تدمر تسحر البعض بلقيمات قليلة أو شرب جرعات من الماء، ونوى الصيام مضى أوان السحور وسمعنا أذان الفجر الندي، يرفعه المؤذنون في مساجد تدمر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله باللهجة البدوية والصوت الحنون العذب، فهفت القلوب إلى طهر المسجد ونور المحراب وقدس الصلاة العظيم، ولكن لم يجسر أحد أن يرفع رأسه عن وسادته أو يقوم إلى الوضوء أو الصلاة لأن هذا حرام، ممنوع في ظلام تدمر وفي نظام سجنها الرهيب.

١٩٨١/٧/١٠ الفرز – النقل

في اليوم الثالث من شهر رمضان ١٤٠١هـ ظهرت حركة غريبة في الباحة، الأصوات والحركات كانت تنبئنا بأن هناك مالا نعرفه! قالت بعض الإشاعات أن هناك تنقلات، كان أملنا جميعاً أن تكون قضية نقل المعتقلين من سجن تدمر حقيقة، وتمنينا ذلك اليوم الذي نغادر فيه هذا المكان بأي صورة.

ولفنا الانتظار والقلق والترقب..!

وصل إلينا الدور أخيراً، فأمرونا أن نخرج من المهجع مع أغراضنا الشخصية فقط، فحمل كل منا ما يملكه من متاع قليل (عبارة عن ثياب قليلة، وملعقة خشبية وصحن وكوب بلاستيكي) وخرجنا بسرعة، فكل الأمور تجري بسرعة هنا، فأخذونا جانباً وخلال وجودنا في الباحة سمعنا من أوامر المساعد ذي الشوارب وهو مسؤول عن (قلم السجن) ما عرفنا منه أنهم قسموا هؤلاء إلى ثلاث فئات:

١ – المحكومين بالمؤبد + من لا يعرف حكمه.

٢ – المحكومين بـ ١٠ سنوات – ١٥ سنة.

٣ – المحكومين بـ ٥ سنوات وما دونها إن وجد.

وعلمنا بعد ذلك أن كثيراً من هؤلاء كانوا من البعثيين (اليمينيين) وتجار السلاح، ومنهم من حكم بجريمة (سب الرئيس) فقط.

ووضع هؤلاء في المهاجع ٩ – ١٠ – ١١ في الباحة رقم ٢.

كان الجلادون في هستريا من الشراسة والحقد، فهم لا يفتئون يصرخون فينا ويضربوننا بقسوة ويسبوننا بفاحش الكلام، ويهددوننا أشنع تهديد.

ضاق بنا الأمر وصعب الحال وضاعت الأمنيات والآمال (ورضينا من الغنيمة بالإياب) وتمنينا أن نفارق الجلادين ولو إلى ضمن جدران مهجع من المهاجع، أو زنزانة انفرادية.. انقض أحدهم على شاب مهندس قصير القامة، نحيف الجسم، وأخذ يضربه بالعصا حتى أنهكه، وقد تبيّن لنا أن رجله قد كسرت خلال ذلك، فحملناه حملاً وسرنا به مسرعين وهم يلاحقوننا بالضرب والسباب.

وهكذا أدخل قسم منا المهجع رقم (٢٧) وقسم آخر المهجع رقم (٢٨) وكنت من القسم الأول.

ولدى دخولنا المهجع وجدنا نزلاءه يقفون في صف خماسي وسط المهجع بانتظار التفقد الذي أزف وقته والذي يتم في الساعة الثانية بعد الظهر.

وجرى (فيلم) آخر من العذاب والقسوة والقهر.

فقد كان يجلس أمام الصف ومقابل باب المهجع عدد من المعتقلين الذين لا يمكنهم الخروج للتفقد الذي يتم في الباحة أمام الباب، والذي نخرج إليه راكضين وندخل راكضين معرضين للضرب والعذاب، مضطرين للتدافع والتزاحم.

كانوا من المرضى المدنفين والمكسرين والعاجزين عن السير لعاهة جسدية، فأغاظ جلوسهم هذا الجلادين، فجاءوهم إلى الصف واحداً واحداً حتى أعادوهم جميعاً إلا ثلاثة تركوهم بعد أن عذبوهم، اثنان لم يقدرا على الحركة، وواحد كان مقطوع الرجل من الفخذ

الفرز الثاني في ١٩٨١/٧/١٧

وفي اليوم العاشر من شهر رمضان (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) جاء الفرز الثاني وكأنه بداية انفراج أو تهيئة لإطلاق سراح بعض المعتقلين، فقد طلب عدد كبير من المعتقلين وكنا نعرف أنهم أبرياء، فلما طلب إليهم إنهاء علاقتهم بمن في المهجع، أملنا الإفراج عنهم قريباً، فودعناهم على هذا الأساس، علمنا بعد ذلك أن جهاز السجن جمع حوالي (١٥٠) معتقلاً من المحكومين بالبراءة فوضعوهم بالمهجع رقم (٨) توطئة لإطلاق سراحهم، وعلمنا أنهم يعاملون معاملة حسنة نوعاً ما.

وكان المتوقع إطلاق سراح هؤلاء على العيد بعد بضعة عشر يوماً، وقد بدا من جهاز السجن كثير من التجاوز في معاملة المعتقلين، فالكرباج اختفى من أيدي الشرطة والضرب في التفقد والحمام أصبح نادراً، وكان التنفس النادر (غريباً) فقد وقف الشرطة جانباً وتركونا نسير في صف ثنائي على أطراف الباحة بل تجرأ بعضنا ورفع رأسه وشاهدت لأول مرة مئذنة المسجد القريب في مدينة تدمر، كانت ترتفع شامخة في الفضاء تناطح زرقة السماء في استعلاء وإباء وقوة، فملأت قلبي مشاعر الحنين إلى المساجد وإلى الحياة الكريمة، فترحمت على العدالة وعلى القوانين والدساتير

والأعراف، كيف ماتت ودثرت في سوريا الغالية وبقيت صورة لا حقيقة، وكيف غابت في تدمر غياباً تاماً.

ومع ذلك عادت المعاملة السيئة وظهر الكرباج من جديد، قبل العيد وعاد الضرب والتعـذيب كما كان، فالمعاملة هنا طبيعتها السوء والعذاب والتضييق فلن تغادر طبيعتها!

رمضان شهر الخير ١٩٨١/٧/٣٠

٢٣ من رمضان ١٤٠١هـ إنه أول رمضان يمر بنا في سجن تدمر، ولما كانت حياتنا قاسية مرة، وضيقنا كبيراً ومحنتنا شديدة فقد كان لنا في رمضان فرصة كبيرة وملاذ، فالتجأنا إلى الله بالتوبـة والإنابة والخضوع والخشوع والدعاء والاستغاثة والابتهال وقراءة القـرآن والـذكر في الليـل والنهار، في كل حين نسأل الله من فضله وكرمه، ونجد لذلك لذة وسعادة وروحانية وأملاً وثقـة وفرجاً.

كان الجلادون النصيريون يشعرون باستغراب كبير من صيامنا رغم العذاب والإرهاب، ورغـم التقتيل ورغم الموت المحيط بنا من كل جانب، رغم النظام الرهيب الذي يطبقونه علينا (بقـصد تحطيمنا فكرياً وجسمياً وإذلالنا مادياً ومعنوياً، وغسل دماغنا من كل شيء سوى الخوف والجوع والألم) فلا يزال في النفس عزيمة للصيام..!

لذا كان العساكر الجلادون من ذوي المرامي البعيدة يسألون المعتقلين في مختلف المهاجع، صائمين ولك كلاب؟.. ويأتيهم الجواب بالإيجاب: نعم، ويعودون للسؤال فهم لا يصدقون: كلكم ولك حقراء.. ؟ : نعم..

ويحيرهم الأمر فيجدفون ويسبون ويفحشون، ولو عرفوا صدق التوبة وعظمة الإيمان ونور اليقين في قلوب هؤلاء المعتقلين المعذبين لهالهم الأمر وأجفلهم وأرعبهم وأخذ بمجامع عقولهم هذا إن كان لهم عقول؟

لم يكن الصوم يثير حقد النصريين (كالصلاة) كانوا يرونه أمراً بسيطاً ليس لـه قيمـة (جـوع وعطش) فكأن لسان حالهم يقول لنا مستهزئاً: (فجوعوا واعطشوا يا كلاب..!).

الكثافة ومشاكلها

٥ آب ١٩٨١.. اشتدت الكثافة في مهجعنا وأصبح عددنا فيه (١٤٣) معتقلاً، كما اشـتدت الكثافة في كل مهاجع السجن، فقد كنا نسمع صوت رؤساء المهاجع الآخرين خلال التفقد حين يسألهم الرقيب السؤال التقليدي: قديش عنك ولك؟ أي كم عدد المعتقلين في هـذا المهجـع، فيجيبه رئيس المهجع: كذا وكذا يا سيدي الرقيب.

وظهرت مشاكل كثيرة وصعوبات جمة نتيجة هذه الكثافة، فقد تضاءلت حصة الفرد من أرضية المهجع (٣٥٠سم٢) فقط.

وحيث أنا مجبرون حسب نظام السجن الذي يفرض علينا أن ننام من الساعة السادسة مساء وحتى الساعة السادسة صباحاً دون أي حركة أو قيام، فقد كنا نظل مضجعين هذه الفترة متلاصقين متدافعين على أرض المهجع التي ضاقت على من فيها أشد الضيق، حتى كنا نعاني من مزعجات هذه النومة أكثر مما نرتاح، وكان لهذه النومة سلبيات وأخطار أخرى منها عدم إمكانية استعمال المنافع والمراحيض إلا بشكل محدد خلال مدة الـ (١٢) ساعة هذه، فالنظام المفروض يمنع أن لا يتواجد في المنافع أكثر من شخص واحد لا غير خلال فترة النوم هذه.

ولم يكن إلا للتضييق على المعتقلين والإعنات عليهم، وقيل أن هذا الإجراء له أصل في نظام السجن سابقاً، حينما كان يستعمل كسجن للعسكريين الناشزين على أنظمة الجيش والمرتكبين لمختلف المخالفات والجرائم، وأنه كان يقصد به منع اللواطة بين أولئك المساجين حيث البيئة الفاسدة.

ولكن على فرض ذلك فأي مبرر لهذا الإجراء في بيئة المعتقلين هذه التي تسيطر عليها الأخلاق الفاضلة ويعمرها الصلاح والعفاف والتقى، ومن أخطار هذه النومة الإجبارية تيسير سبل العدوى بالأمراض المختلفة وخاصة مرض الجرب العين، حيث تكون الأجساد متلاصقة متدافعة فينتقل مرض الجرب من شخص إلى آخر حتماً.

ومن مشاكل الكثافة أيضاً أنه أصبح من العسير علينا أن نغسل ثيابنا وأيدينا ووجوهنا أو أدوات الطعام مثل الملعقة والكوب والصحن، وكان أصعب شيء قضاء الحاجة، وخاصة مع وجود حالات الإسهال الشديدة المتكاثرة، إضافة إلى أن أحد المرحاضين ضيق الفتحة كثير الانسداد والتعطل، مما أوجب علينا ضبط نظام دقيق لكافة استعمالات المنافع ودور منظم ولا يتجاوز هذا النظام إلا في حالات الضرورة القصوى.

مشكلة محرجة

كان للأخ أبو جميل مشكلة محرجة، كنت من القلائل الذين يعلمون خفاياها، كان مصاباً بفتاق كبير في أسفل البطن، وقد صنعت له حزاماً خاصاً في فترة سابقة، كان يؤلمه كثيراً وكان أشد ما يؤلمه حين يكون بحاجة إلى (قضاء الحاجة) فلا يستطيع الانتظار، وقد يكون اصطف قبل على دور المراحيض عدد كبير.

لذا سمح له بتجاوز الدور ودخول المراحيض حين الحاجة، فكان يجاوب من يعترضه وهو يتجاوز الدور أن يسأله عن السبب فيقول: (معي فرمان مراحيض) فكان لا يفوت النكتة رغم ما فيها من ملابسات.

ومن مشاكل الكثافة أن الطعام لم يزد عندما زاد عدد المعتقلين (حسب الحاجة) فوقع النقص في الطعام حتى أن الفطور والعشاء كانا من القلة، بحيث غدوا رمزيين فقط.

دفعات المعتقلين تتوالى إلى سجن تدمر

١١ من آب ١٩٨١.. دفعات المعتقلين القادمين إلى سجن تدمر يتلو بعضها بعضاً، فهي تأتي عدة مرات في الأسبوع دون انقطاع.

وحفلات عذاب الاستقبال الرهيبة تنظم لهم فوراً، والعذاب في هذه الأيام أقسى وأعنف وأرهب، ويبدو أن جهاز الجلد والعذاب في سجن تدمر يكتسب مع الوقت والزمن خبرة وتفننا.. ويزداد جلادوه مع الأيام قسوة وعنفاً.

كان جهاز السجن يتسلم الدفعة القادمة من المعتقلين ويأخذهم إلى باحة الاستقبال، ويعريهم من ثيابهم ثم يعذبهم العذاب الشديد بالكرباج والدولاب والعصا بعنف وقسوة، وبعد نهاية حفل التحطيم يودعونهم في غرفة الورشة ويثابرون على تعذيبهم وإرهابهم في كل حين، وبعد ثلاثة أيام يوزعونهم على المهاجع بمعدل (١٠) معتقلين لكل مهجع تقريباً، وكنا نجد هؤلاء القادمين الجدد (بعد ثلاثة أيام من الاستقبال هذا) في حالة فظيعة من الإنهاك والتشويه والسوء، ولدى سؤالهم عما رأوه في الورشة، رووا لنا أنهم رأوا هناك أكياساً صغيرة فيها أغراض يسيرة مثل ألبسة داخلية وغيرها..

ولم يعرفوا لوجود هذه الأغراض معنى في ذلك المكان؟ فأنبأهم بما خفي عنهم.. إنها تخص الشهداء الذين يمضون إلى ربهم في خفاء سجن تدمر.

أمراض وعلاجات

١٧ من آب ١٩٨١.. في المهجع (٣٤) حدثت حالات من المرض، كان أصعبها حصر بول أصيب بها أخ محام من مدينة اللاذقية في الأربعين من العمر، واشتد عليه المرض حتى خشي على حياته، فقرر رئيس المهجع وبعض الأخوة المخاطرة بنقل الموضوع إلى جهاز السجن -وليكن ما يكون- فقرع رئيس المهجع الباب الحديدي، ولما حضر الحرس الموجود على السطح أخبره عن الحالة الخطيرة.. فأفلحت المساعي للمرة الأولى وحضر الممرض "أبو بسام" وشاهد المريض وأجرى له عملية التمييل حتى أفرغ ما في مثانته.. ولكن المشكلة لم تنته، فقد اشتد المرض على الأخ من جديد في اليوم التالي، فحضر "أبو بسام" ثانية وميله.

وعادت المشكلة تلح في اليوم الثالث، ومنع الزبانية الممرض رغم طلبه من الحرس والإبلاغ عن الحالة.. وانشغل الناس في المهجع بحال أخيهم المريض وارتفعت الأكف الطاهرة تدعو الله له.. وكان في المهجع عدد من الأطباء المختصين، ولكن لم يكن لديهم من الوسائل والإمكانيات ما يستطيعون معه تقديم أي عون للمريض المشرف على الهلاك.

ولكن الضرورة الملحّة أوحت لأحدهم بالمحاولة لإيجاد حل ما.. فتمكن من أن يصنع ميلاً من شريط لاصق مستعمل انتزعه من علبه الكرتون التي كانت تحوي بعض الصابون، ومن ثم أجرى عملية التمييل للأخ المريض المخطر، ونجحت العملية ونجا المريض من موت محقق بالتسمم الدموي.. وأعيدت العملية مرات ومرات..

وكانت هناك حالات نخر أسنان والتهاب جذور الأسنان وتقيحها، فأجرى أحد أطباء الأسنان المعتقلين عمليات قلع الضرس بما تيسر من خيوط النايلون.

السارقون يختلفون على الغنيمة

٢٠ آب ١٩٨١ استمرت جباية (السخرة الشهرية) ١٠ ليرات سورية لكل معتقل أو ما يمكن تحصيله بالتهديد والوعيد والسباب، ثم ٢ ليرة سورية لكل معتقل أيضاً (سخرة عادية) وأخذ الرقباء يتسابقون في جبايتها.

جاء المساعد (أبو جهل) أحمد فطلب مبلغ السخرة الشهرية من عدد من المهاجع، وقدم له رئيس مهجعنا مبلغ (٢٥٠) ليرة سورية، فاضطر رئيس المهجع إلى جمع مبلغ آخر حتى بلغ المجموع (٤٠٠) ليرة سورية، فأخذها المساعد ومضى وجاء رقيب آخر يطلب السخرة الشهرية ولم يقتنع إلا بصعوبة أننا قد دفعناها لغيره.

فترة هدوء

توافق موضوع التطاحن على السرقة بين الرقباء مع وقت أرادت فيه السلطة أن تخفف من إجراءات التعذيب والتنكيل على المعتقلين، فظهرت إجراءات جديدة.. فقد طلب رؤساء المهاجع (وهم من المعتقلين) فجمعوا عند مدير السجن وتحدث إليهم الرائد المجرم فيصل غانم مدير السجن (وقائد سجن الموت) فأعلن لهم أن الضرب ممنوع، وأن السخرة الشهرية ممنوعة منذ الآن، وأن أجرة الحلاقة قد خفضت.. و.. و.. وسألهم إن كان لهم أي طلب، فتجاسر أحدهم وطلب بطانيات لأن عدد البطانيات قليل جداً في المهجع ولا يفي بالحاجة، فوعده بتأمين طلبه وكذا تشجع آخرون وطلبوا نفس الطلب مع طلبات مثل زيادة كمية الطعام. وعاد رئيس مهجعنا يعلن ما جرى.

ولم يصدق أحد أن زبانية سجن تدمر يمكن أن يكونوا رحماء منصفين، فلا بد أن وراء ذلك غايات أخرى.

وجاء الرقيب "علي دوبا" (يثبت مواقف)، ويظهر الحرص على نقود المعتقلين، فطلب منا أن لا ندفع نقوداً لأحد إلا أن نراه، ونعرف من هو، ولأي شيء ندفع النقود.. وقال: إذا أخذ منكم أي واحد مصاري بدون ما تعرفوا ليش، وتتأكدوا منو، بلغوني.. ثم أمر رئيس المهجع أن يفتح عينيه وينظر من يأخذ منه النقود، وأن يفتح عينيه حتى خلال التفقد والحلاقة وغيرهما..

وأثارت هذه الأمور فينا كثيراً من الذكريات والآلام، وتساءلنا: أتعود إلينا قيمتنا كبشر، ولو في المعاملة؟

كان هذا الأمر مستحيلاً في تدمر..

وتوقعنا افراجات قريبة وربطها بعضهم بالمناسبة، وكانت أقرب مناسبة هي عيد الأضحى.

الزيارات

في ٢٣ من آب ١٩٨١ بدأت تأتي لعدد من المعتقلين زيارات ولكن بعدد قليل ومحدود، فقد جاء لحوالي سبعة معتقلين من مهجعنا زيارات، وجاء أهلوهم ومعهم المآكل والثياب والنقود، ولكن الزيارة كانت غريبة في صورها، كان المعتقل يؤمر بأن يلبس أحسن ثيابه، ثم يؤخذ ويوصى بعدم الكلام عن أي شيء من أمور السجن أو المعتقلين فإذا وصلوا به إلى الغرفة التي تتم فيها الزيارة، أمروه بأن يرفع رأسه ويفتح عينيه ويدخل وكأنه إنسان طبيعي، محفوظ الكرامة..

فإذا جاء يسلم على أهله وقفوا معهم لا يتركون همسة تبدر من أحدهم إلا وعوها، ويمنعون كل كلام غير السلامات والسؤال عن الصحة والأهل والأولاد.

وخلال دقائق تنتهي الزيارة التي قد تكون من بعد سجن طويل، سنة أو سنتين ذليلاً مطرقاً والجلادون لا ينسون أن ينالوه خلال الطريق بالضرب والإهانة بعد أن يكون الرقيب قد نبش الأغراض وسمح، ومنع.

وكان الزبانية يمنعون الخضار، ويقولون للأهل: عندهم كثير.. ولو عرف الأهل القضية لما أحضروا الخضار! ومع ذلك فإن الرقيب والزبانية لا يتركون هذه الأشياء دون تلويثها أو تشويهها، وقد انقض الرقيب أمام بصرنا على بطيخة ضخمة (جبسة) يحملها المعتقل، فرماها منه أرضاً ورفسها حتى تناثرت قطعاً..

وقد توقفت الزيارات بعد فترة الهدوء فما عادت أبداً..

عيد الأضحى المبارك

يوم ٢٨ من آب ١٩٨١ يوم كسائر الأيام، الباب مغلق، الطعام والمحنة قاسية والأمر لله. ونحن جامدون في جلستنا اليومية ندعو الله ونسأله، ونستغيث به، كنت أحتفظ بتفاحة صغيرة هي حصة أيام وفرتها بالجهد للعيد، فقمت أقسمها وأوزعها فحظيت بالرضى والإعجاب، حتى تساءل بعضهم من أين لك هذا؟.. قلت رزق ساقه الله، وأكل منه بضعة عشر إنساناً، عايدنا بعضنا وتمنينا العيد القادم في عرفات إن شاء الله والإسلام قد انتصر والكفر قد انخذل، وقد فرّج الله عن سجناء تدمر، وقال بعضهم: (العيد القادم وهؤلاء الجلادين بيكونوا هم السجناء إن شاء الله).

في اليوم الثالث للعيد (٢ أيلول ١٩٨١) ظهر الكرباج الرهيب في الباحة من جديد، وهجم الجلادون بشراسة وحقد يضربوننا وبعذبوننا، وضربوا رئيس المهجع وأمروه بإغماض عينيه في اليوم التالي وخلال التفقد أيضاً هجم نفر من الجلادين علينا يضربوننا خلال الدخول إلى المهجع بعد انتهاء التفقد، واشتدت شراسة الجلادين في ضربنا.

وهجم علي جلاد بحجر كان يحمله بيده، فأخذ يضربني به على رأسي والدم بتفجّر بين يديه وهو يصرخ هازئاً: احمر يا جبس..!

وأمام مشاهد المتألمين والصارخين والمصابين صرخ أحد الجلادين: (الله أكبر والنصر للشرطة العسكرية) كان الجلادون يضربوننا بعنف ودموية وقسوة مرعبة، ولم ندر لهذه الأفاعيل سبباً وتأوّل بعضهم أن مدير السجن قد حلم ورأى مناماً سيئاً.

ولكن آخرين أكدوا أنه لابد أن أموراً تحدث في الخارج.. وذهبت آمال الإفراج مع الرياح.

التنفس

في ٣ أيلول ١٩٨١ توقف التنفس أو كاد، فلا يوجد لدينا تنفس هذه الأيام، ونادراً ما يفطن جهاز السجن إلى إجراء تنفس للسجناء في يوم الجمعة، حيث تأتي دورية مؤلفة من رقيب وعدد من العساكر وتخرج نزلاء المهاجع مهجعاً وراء الآخر بالتسلسل فيخرجون نزلاء المهجع مع أغراضهم حيث يضعونها في الباحة أو يمدونها ويجلسون عليها متقاربين، ويستمر هذا التنفس من ١٥ – ٢٠ دقيقة، وخلال ذلك يتصرف الرقيب والعساكر كما يحلو لهم، فيضربون المعتقلين ويعذبونهم بدون أي ضابط، ويبدو أن أكثر من دورية تقوم بعملية إخراج المعتقلين للتنفس في السجن.

وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي نخرج فيها للهواء الطلق والشمس، ولكن الرعب من العذاب الذي ينتظرنا كان يهيمن عليها، ويقلب مفعولها، فتصبح بدل التنفس (قطع النفس) كما سماها المعتقلون.

الأمراض

٢٢ أيلول ١٩٨١ كانت الأمراض بمختلف أنواعها ما عرفنا وما لم نعرف تغزونا بكثرة وشدة، وكان منها مرض الإسهال والكريب، والالتهابات: التهاب اللثة، التهاب الأسنان، والتهاب الظفر، الالتهابات المفصلية (الروماتيزم) والدسك والجرب والقمل والفتاق، والتهابات الكلى والمجاري البولية وسوء التغذية وفقر الدم.. وغيره، وكان الأطباء يلاحظون علائم سوء التغذية وفقر الدم على جميع المعتقلين، وقد سقط نتيجة هذا المرض بعض الأخوة مدنفين، وظهرت لديهم أعراض الدوخة والإقياء، وكان مرض الجرب لا يزال منتشراً بشكل واسع، ولكن أعراضه في هذا الحين كانت خفيفة نوعاً ما.

الممرض يمر بالمهاجع برفقة عناصر من جهاز السجن أسبوعياً تقريباً، فيقف أمام باب المهجع المغلق، ومن خلال النافذة الصغيرة (الشرّاقة) كما يدعونها هناك: يسأل رئيس المهجع: كام واحد عندك إسهال ولك..؟

فيلتفت رئيس المهجع إلى نزلاء المهجع الذين يكونون واقفين باستعداد في أماكنهم دون حركة ويصرخ: مين معو إسهال يرفع إيدو.. فترتفع الأيدي ويعد الأيدي ويستعجله الممرض.. مرة بعد مرة، ويقول (٣٥) واحد سيدي.

فيسأله الممرض من جديد: كام واحد لثة (أي التهاب لثة)؟ ويستحثه بسرعة (ولك بسرعة) ويحاول رئيس المهجع ضبط العدد ٢١ – ٢٢ – ٢٥ فيشدد عليه بالسرعة ليبادر إلى القول (٢٦) واحد سيدي، وكان منتشراً بشكل كبير بين المعتقلين وخاصة (اللثة النازفة) ثم يسأله: كام واحد سنية؟ (أي التهاب أسنان).

وهكذا يبادر رئيس المهجع إلى الجواب، يقدر العدد وينطق بالجواب فوراً، وهكذا يدور الممرض على المهاجع فإذا انتهى ذهب ثم عاد بعد ساعتين أو ثلاث يقذف من النافذة الصغيرة في باب المهجع بلفافات ورق صغيرة مكتوب عليها سنية أو معدة أو روماتيزم أو غيره من الأمراض، ونفتح اللفافة فنجد فيها بضع حبات كنا نأخذها وكأنها للتسلية أو للضحك على الذقون، ونقول: الشفاء من الله.

ولقد كان عدد المرضى كبيراً فعلاً ولم يكن هذا علاجاً بأي معنى، ومع ذلك حسدنا زبانية السجن على هذه المعالجة واستكثروها علينا فانقضوا على رؤساء المهاجع يضربونهم ويعذبونهم ويقولون حانقين: إسهال (٣٠) لثة (٤٠) سنيّة كلب.. يا.. كذا وكذا..

وهكذا انكمش رئيس المهجع وبدأ يعطي (ميكرو) أرقام كالتالي:

إسهال (٣)، لثة (٢)، روماتيزم (٢) معدة (١)، أسنان.. لا يوجد لا يوجد..

ومع ذلك لم يكتف زبانية السجن بهذا، بل أنهم تولوا معالجة المرضى بأنفسهم، يجرحون ويداوون ولا حاجة لطبيب ولا لممرض.

وبالفعل أخذ الرقيب فواز مع نفر من الزبانية أبرزهم الجلاد سمير (المقلب حيّو) يطوفون على المهاجع ومعهم الكرابيج حيث يطلبون المرضى ويحققون معهم بدل المعاينة أو الكشف الطبي: شبك، شو ميجعك.

ويقول (حيّو) للمريض: عمتكذب ولك حقير، ويضربه أو يرفسه فيتمنى المريض من العلاج السلامة، وهكذا تضاءل عدد المرضى ثم انقطع العلاج تماماً، وغاب الممرض فلم نره بعدها.

١٩٨١/١٠/٥ المحاكمات تعود وتشتد

... طلب عدد كبير من المعتقلين وقرأت الأسماء على أبواب المهاجع في الساعة السابعة والنصف صباحاً.. وعرفنا من وقت الطلب وطريقته ومن تصريح العساكر أنهم مطلوبون إلى المحكمة، وكنا قد سمعنا من قبل عن المحاكمات وما يجري فيها.

خرج من مهجعنا حوالي (٢٥) معتقلاً "للمحاكمة" وجمع المطلوبون للمحكمة من مختلف المهاجع ومضوا بهم، وكنا نسمع صراخ الجلادين ونهرهم وهبدات الكرابيج على أولئك الأخوة، فأخذنا ندعو لهم أن يرد الله عنهم كيد الظالمين المجرمين وينقذهم من هؤلاء القضاة الفاجرين ولم يكن أي واحد من المعتقلين يأمل أن ينصف أو يجد عدالة لدى هذه المحاكم الصورية.

كنا نعلم مسبقاً ما يجري فيها وإن كان كل هؤلاء الذاهبين سوف يعودون إلى هنا وسيبقون في السجن سواء منهم المحكومون بالإعدام بالبراءة وما بينهم.

وأننا سوف نبقى للعذاب والتحطيم والتصفية في سجن الموت هذا، ولن ينجو إلا الذاهبون إلى الإعدام، فهؤلاء يفوزون بالنجاة تماماً من الظلم ومن عظيمة النجاة، ونغبط من فاز بالشهادة وهو يحمل السلاح مقاتلاً هؤلاء الظالمين المجرمين ونتحسر على أننا لم ننل مثل هذا الإكرام.

طال غياب الذاهبين إلى المحاكمة فلم يعودوا حتى الساعة التاسعة ليلاً حتى آيسنا من رجوعهم إلينا هذا اليوم، وكنا قد احتفظنا ببعض الطعام تحسباً من أن يعودوا جائعين وقد رأى بعض الأخوة أنه لابد أن يكونوا أعطوا شيئاً من الطعام خلال هذه المدة وأنه لا لزوم للاحتفاظ بأي طعام فتصرفوا بشيء من الطعام وبقي القليل منهم، وجيء بهم فجأة، فإذا بهم يسارعون إلى المرافق وإذا هم جائعون لم يذوقوا أي طعام منذ الصباح..

وحدثني بعضهم عما جرى معهم فقال: أخذنا تحت الضرب إلى باحة المكاتب ونحن منكسو الرؤوس حسب العادة، وهناك في طرف تلك الباحة وجدنا عدداً كبيراً من المعتقلين قد جيء بهم قبلنا، كانوا يجلسون على الأرض منكسي الرؤوس جميعاً دون أي حركة أو صوت، فضمونا إليهم

ثم جيء بآخرين وآخرين حتى تجمع عدد كبير يقدر بحوالي (٣٠٠) معتقل وكان عدد كبير من الجلادين يطوفون حولنا ويضربوننا، وبدأت المحاكمات في التاسعة فأخذوا ينادون على اسم المعتقل فيقوم إليهم فيضربونه بالكرباج ويصرخون فيه ويسبونه ويقودونه إلى غرفة المحكمة ويتلقاه على الباب جلاد عنيف معه كرباج ثقيل فيضربه على أم رأسه ويدخله على القاضي، حيث يسأله بضعة أسئلة ثم يطرده فيخرجه الجلادون ويضربونه ويعيدونه إلى مكانه.

توقفت المحاكمات في الساعة الواحدة والنصف للغداء، حيث يتغدى القاضي على ما يبدو، وعاد إلى العمل في الساعة الرابعة تقريباً ونحن لا نزال جلوساً في أماكننا دون أي حركة تحت حر الشمس اللاهبة، وقد تجمدت أطرافنا وتجمدت مفاصلنا وتصلبت رقابنا فكانت هذه الجلسة من أشد العذاب علينا.

كان كثير منا متضايقين يريدون الخروج إلى الخلاء، وقد تجاسر أحد الأخوة المعتقلين فرفع يده وطلب أن يسمح له بالذهاب إلى الخلاء فرفض طلبه وسبه الجلادون وشتموه وضربوه، وتجرأ آخرون وقد ضاق بهم الحال وصعب عليهم الصبر فرفعوا أيديهم وطلبوا أن يسمح لهم بالذهاب إلى الخلاء (المرحاض) لقضاء الحاجة فرفض طلبهم وانقض بعض الجلادين عليهم يضربونهم ويسبونهم.

وطلب أحد الأخوة للمحكمة وكان في أشد الضيق وهو مصاب بالإسهال الشديد، فلم يتمالك خلال وجوده في المحكمة فتبرز في ثيابه ولوّث قاعة المحكمة، فثار عليه القاضي والجلادون وانهالوا عليه ضرباً وأخرجوه من قاعة المحكمة حيث أخذ إلى مكان ما.. حينذاك اضطر الزبانية لمعالجة الوضع، فأظهروا أنهم يريدون أخذ المتضايقين إلى المراحيض فقام عدد بسيط (٥٠) شخصاً والواقع أن الكل متضايقون فأوقفوهم في صف طويل، وأخذ عدد من الجلادين يضربونهم في حمية وحقد، ومن أسعده الحظ بدخول المرحاض متحملاً أذاهم قبل الدخول وبعده منعوه أن يقضي حاجته مستريحاً وأجبروه على الخروج بعد دقيقة واحدة فقط.. ورد قسم من هؤلاء الواقفين دون أن يسمح لهم بدخول المراحيض.

قال محدثي: وكنت في أشد الضيق ولكن ما رأيت من عذاب وإهانة جعلني أصبر وأحتمل، مفضلاً آلامي على أذاهم وبغيهم، يقول: وبقينا كذلك في مثل هذا الحال دون أي راحة ودون أي طعام أو شراب حتى رجعنا ومع ذلك فإن كثيرين لم يحاكموا أيضاً ونحن منهم.

١٩٨١/١٠/١٦

وقد أخذ عدد آخر من المعتقلين في اليوم التالي للمحاكمة، واستمرت المحاكمات ما بين ٣ — ٥ أيام حوكم خلالها ما يقرب من ٣٠٠ — ٥٠٠ معتقل، وأخذ هؤلاء الأخوة فحوكموا أيضاً.

في المحكمة

كان ممن طلب للمحكمة وذهب في اليوم الأول والثاني، الأخ صالح بكور وهو معلم في بلدته معرة مصرين القريبة من إدلب عمره (٣٨) سنة، متوسط الطول، ترى فيه صورة كاملة للأدب والأخلاق الطيبة واللطف، فتشعر نحوه بالحب والود.

ولما عاد الأخوة في اليوم الثاني من المحاكمة، ولدى وصولهم رأينا الأخ صالح وهو في حالة إنهاك شديد، يسير بصعوبة مستنداً إلى بعض الأخوة، وهكذا اضطجع الأخ في ناحية وجئت مع بعض الأخوة نريد أن نطمئن عليه ونساعده ونرى ما به، فلما حاولنا لمسه نهانا وهو يئن ويتألم، مما أوقعنا في حيرة كبيرة سألنا من معه عما به؟ فقالوا: أخذه الجلادون فضربوه وعذبوه، فلم يشفنا ذلك ولما تحسنت حال الأخ صالح حدثني عن ما جرى معه، قال: حين دخلت إلى المحكمة وجدت القاضي كان غاضباً يشدد في الأسئلة ويسب ويشتم وقد زاد في ثورته ما في تقرير المخابرات عني.. وبعد بضعة أسئلة طردني من المحكمة مع بعض ألفاظ السباب وأعادني الجلادون إلى مكاني في الباحة مع الجالسين، ولم يمض وقت طويل حتى جاءني أحد زبانية السجن، وأنا مثل غيري مطرق إلى الأرض ممنوع من الحركة أو النظر أو الكلام/ فسألني: أنت تحاكمت؟ قلت: نعم. قال: أنت من أي مهجع؟ قلت: من مهجع (٢٧) قال: قوم حتى آخذك على مهجعك.. امش وراي.. فسرت وراءه، أفتح عيني قليلاً حتى أبصر مواطئ قدمي إلى أن وصلنا إلى نهاية الباحة رقم (٣) وعند الباب الواصل إلى الباحة رقم (٥) كان يقف عدد من العساكر الجلادين.. فأوقفني هناك، وأخذ كرباجاً ثقيلاً وانقض عليّ يضربني بقسوة على مختلف أنحاء جسمي كيفما اتفق، وكان أولئك الجلادون يهزأون ويضحكون، ويوجهونه قائلين: اضربوا على راسو، وكان يفعل ويضربني على رأسي ووجهي واستمر يضربني بشراسة وحقد واندفاع مدة طويلة، لا يكل، وقد بلغ مني الألم والإنهاك مداه، وهو ماض في ضربي حتى جاء جلاد آخر، فنهره وأوقفه، ليس إشفاقاً عليّ ولا رحمة ولكن لأنه خالف التعليمات بأخذي من ساحة المكاتب إلى الباحة (٣) أما ما حدث لي فهذا شيء لا قيمة له، فلا قيمة للمعتقلين كبشر، إنما قيمتهم كأرقام فقط، وهكذا أعادني الرقيب إلى حيث يجلس زملائي في باحة الإدارة فبقيت هناك حتى أعدنا إلى المهجع.

طالب في المحكمة

كان ممن طلب للمحاكمة شاب حلبي يدعى محمد عقيل وهو طالب ثانوي (١٩) عاماً قصير القامة، نحيف أسمر الوجه، حيي خجول، كثير الود.

كانت جريمته خطرة فهي (أكلة حمّص).. كما لخصها من عرف القصة واشتهرت بين المعتقلين بهذا الاسم فكانت أصدق تعبير واقعي عن قصة هذا الشاب البريء.

وتفصيل ذلك أن الأخ محمد خرج مع أستاذه مدرس اللغة العربية وطلاب آخرين في نزهة خلوية إلى قرية المسلمية التي تبعد عن مدينة حلب شمالاً مسافة (١٠كم) والمشهورة ببساتينها الخضراء ومياهها العذبة.. فتغدوا هناك حمصاً وزيتاً..!! والشيء الذي أثار عليه رجال الحكم وأقامهم فما أقعدهم، أن هذا المدرس من الإخوان المسلمين، وأنه استشهد في إحدى عمليات التفتيش، لذلك عدَّ الحمّص رابطة تنظيمية أكيدة، واحتسبت هذه الرحلة وهذا الغداء الحمصي جريمة ما بعدها جريمة، وعملاً رهيباً ضد النظام الأسدي النصيري، ودخل أخونا محمد عقيل المحكمة وانقض عليه الجلاد يقرعه بالكرباج على أمّ رأسه وفقدت أذناه حاسة السمع، وضاعت معالم الأشياء أمام بصره، وكاد يصرع وقدم للقاضي المحترم..! فسأله واستجوبه عن الرحلة والغداء فأجاب الأخ بالإيجاب على كل سؤال.. ولم يجد القاضي المحترم لهذه الجريمة سوى (الإعدام) عقاباً!!.. ولم يكتف بهذا الحكم ويسكت عن هذا المسكين فلا يبلغه هذا الحكم المريع كما يفعل مع أكثر المحاكمين، بل كان في أشد الغيظ من هذا الشاب الصغير آكل الحمّص، الهادئ المسكين، فوجهه بالحكم قائلاً: روح إعدام يا.. وأتبعها بكلمات من السباب الرخيص وخرج الأخ من المحكمة، فجلس مع إخوانه في الباحة تحت التعذيب حدثنا بعد مجيئه فقال: أبلغني القاضي حكم الإعدام واقتادني الجلاد إلى الباحة حيث أجلسني مع إخواني، ووالله إني لأشم رائحة الجنة منذ أن قال لي القاضي ما قال، فقد أيقنت أنني قد أصبحت قريباً من الجنة، وها أنا أشم ريحها وأجد أنسها فلا همني دنياكم هذا بشيء، لقد رأيت حلو هذه الدنيا ومرّها فكفاني منها ما رأيت وما علمت كفاني..

.. وحدثنا أخ آخر من حلب وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، طالب، يدعى عبد الغني قلاع، (جميل الطلعة، طيب الأخلاق، اشتهر بالشجاعة بين زملائه) أنه لما دخل المحكمة وضرب فيها ونهره القاضي وسبّه وسأله الأسئلة المعهودة يقول: فقرأت في سري قول الله سبحانه (فاقضي ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا).

شاب صغير آخر حكم عليه بالإعدام، فسأله بعضهم: بماذا حكم عليك؟.. فقال: حكم علي بدخول الجنة بعد شهرين من الزمان، وكان الإعدام يتم غالباً بعد شهرين من تاريخ الحكم.

١٩٨١/١١/٨ أحداث في المحكمة الميدانية

طلب للمحكمة الأستاذ محمد جميل بنشي وهو مدرس رياضيات في ثانوية سلقين الرسمية لسنوات طوال، في الأربعين من العمر، متوسط القامة، ممتلئ الجسم، أشيب الشعر، ولم تسأله الشرطة عن

متممات هويته، وسيق إلى المحكمة تحت الضرب والإهانة وهناك ضربه الجلاد على أم رأسه بالكرباج الثقيل حتى كاد يصرع، وأخذ القاضي يسأله بعض أسئلة وهو قرف منه، وتبيّن للأستاذ أنه ليس الشخص المطلوب، وكان يعرف أن هناك شخصاً آخر في سجن تدمر يوافق اسمه وهو محام من اللاذقية، فبادر وأوضح للقاضي أنه ليس الشخص المطلوب، وأنه ليس من اللاذقية.. فغضب القاضي، لا على الجلادين الذين أحضروه بل على الرجل المسكين وصرخ فيه: فلم أتيت إذن؟.. قال: هم أتوا بي.. فانقض عليه جلاد المحكمة وضربه مرة ثانية على أم رأسه ثلاث ضربات رهيبة عاد بعدها مريضاً.. وقد توفي الأستاذ بعد مرض استمر عدة أشهر، فعليه رحمة الله.

التهم

كانت أغلب التهم التي توجه إلى المعتقلين كالتالي:

١ – معرفة عنصر إخواني أو إطعامه أو حضور درس قرآن في المسجد، أو قراءة مجلة النذير التي تصدر عن الأخوان المسلمين، أو دفع مبلغ مالي معونة لزوجة معتقل أو ملاحق ذات أولاد تعيلهم، أو نقل رسالة من ملاحق أو سجين إلى أهله أو آخرين وعقوبتها من ١٥ سنة إلى المؤبد.

٢ – تهمة التنظيم المسلح، وتكون بتأييد أو إعلان الرضا بالمشاركة فيه أو اقتناء مسدس أو قطعة سلاح، أو له علاقة بعنصر ممن يحسبون من التنظيم المسلح، كأن يكون قد آواه وأطعمه وتستر عليه. ونتيجة هذه التهمة الإعدام.

٣ – تهمة التنظيم في الإخوان المسلمين، تنظيم سياسي وهؤلاء لا يبلغون أي حكم.

٤ – كتم المعلومات والمعرفة البسيطة ١٠ – ١٥ سنة.

١٨/١١/١٩٨١ الإعدامات صورة حيّة

... (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، أو ما تدري نفس بأي أرض تموت) صدق الله العظيم.. جاء الجلادون في الصباح الباكر قبل موعدهم اليومي المعتاد في السادسة والنصف، جاؤوا في الخامسة والربع، وسمعنا أصواتهم وهم يقرأون قوائم طويلة أسماء طويلة على أبواب المهاجع، كما سمعنا أصوات تقديم الصف، كان اليوم هو السبت (أحد يومي الإعدام) المعتادين المعروفين السبت والأربعاء..

جفلت قلوبنا لهول الأمر، وشعرنا أننا في قبضة مجنون لئيم لا يرعى حقاً ولا عهداً ولا قانوناً ولا دستوراً، ليس في قلبه ذرة خير ولا إنسانية ولا شرف ولا مروءة ولا رجولة، يقتل الأبرياء ظلماً ويسفك الدماء جزافاً بلا حساب ولا تقدير.. ولا.. ولا.. اقتربت خطاهم من باب مهجعنا وصرخ أحد الزبانية: مهجع (٢٧) ولك، فرد رئيس المهجع حاضر سيدي. فقال: استيقاظ ولك حقيرين.. فصرخ رئيس المهجع يطلب منا الاستيقاظ، فالاستيقاظ ممنوع في نظام السجن قبل

السادسة، فجلسنا وقدم رئيس المهجع الصف فوراً: انتبه استاعد، المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب..

ووقفنا باستعداد مطرقي الرؤوس، وصرخ الرقيب من نافذة الباب الصغيرة، (ولك كل واحد بيطلع اسمو يقول حاضر، ويأتي فوراً لعند الباب..) ثم أخذ يقرأ القائمة الطويلة، ولا شك أنها قد نقصت إلى النصف بل إلى الثلثين قبل أن تصل إلى مهجعنا، لأنها قد مرّت قبله بعشرين مهجعاً على الأقل ولم يبق إلا مهاجع معدودة.. ثمانية تقريباً.. واندفع أخ وقد صرخ باسمه يجيب حاضر، اتجه نحو ناحية الباب فوراً، فسأله الرقيب عن اسمه واسم والده ووالدته وتولده.. وأمره بالوقوف قرب الباب وتابع الرقيب القراءة، وخرجت أسماء خمسة أخوة آخرين من مهجعنا فوقفوا رتلاً أمام الباب، وكانوا جميعاً من الشباب الصغار من سن الـ (١٨) عاماً ولما انتهى الرقيب من القائمة وقد قدر عدد الأسماء فيها بحوالي الثلاثين اسماً قال لهؤلاء الأخوة: حضروا أغراضكم انتو مطلوبين محاكم..؟

وذهب الرقيب إلى المهجعين المجاورين ليقرأ قائمة الأسماء عليهما وترك هؤلاء الشباب أماكنهم أمام الباب إلى داخل المهجع، وكانت فرصة لم نحظ بها قبلاً لتوديع إخواننا، فقد كانوا يطلبون الإخوة ويأخذونهم فوراً، أو كنا لا نعلم شيئاً عن المصير كما حدث في أول مرة.

واندفع الأخوة يعانقون هؤلاء الشباب ويقبلونهم، وقد اضطرمت المشاعر في الصدور، فكان الجميع في حالة لا يعلمها إلا الله، من القهر والألم والحزن، لا يدري أحد ماذا يقول وتنهمل الدموع على الوجوه، وتأخذ الغصات بالحلوق، تكاد تمزق الحناجر، يقول بعضهم: الله معكم، والبعض الآخر: توكلوا على الله.

وكان كثيرون يعانقونهم ويقبلونهم ثم يوارون وجوههم عنهم ويجهشوا في بكاء شديد.

كان الأخ (بكري فتحي نحاس) شاباً طويلاً رقيقاً لم ينبت الشعر في وجهه بعد، وقد حفظ تسعة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم أبعد المتزاحمين حوله وقال: يا أخوة لا يقبلني أحد.. ولما رأى تكاثر الأخوة حوله وشديد حزنهم وألمهم عليه وعلى رفاقه، أخذته غضبة فاندفع يقول بشدة: (مالكم؟ لم أنتم حزينون؟ لا تحزنوا نحن ذاهبون إلى رب كريم، أما أننا قد شبعنا من طعامكم هذا من البرغل والرز والصمون، تركنا لكم هذا كله، إنّا مشتاقون إلى ربنا ولسنا آسفين على دنياكم هذه، فلم الحزن..).

وانطلق باسماً عريض الابتسامة، فوزع ما لديه من متاع قليل، ونزع ما عليه من ثياب جديدة، ولبس ثياباً خلِقة وهو يقول: الحي أولى بالجديد من الميت، ونزع ساعته وحزامه فأعطاهما لإخوانه وسارع يتوضأ هو وإخوانه المطلوبين للإعدام، ثم صلى كل واحد منهم ركعتين (ركعتي الشهادة)

آخر ركعتين من الدنيا، وجاء الرقيب يفتح الباب، وقدم رئيس المهجع الصف وطلبهم الرقيب فجاؤوا سراعاً لا يترددون، وطلب منشفة من كل واحد منهم وعصب عيونهم بها ثم أخرجوا من المهجع.

كنا نودعهم بقلوبنا ونخاطبهم بأفكارنا، ونتمنى أن نفديهم بأرواحنا.. كم نحن في شوق إلى الجهاد، إلى جهاد هؤلاء الظالمين المجرمين، نقول قد وضح الطريق، فالظلم كبير والظالمون فاجرون كافرون، قد انتهكوا كل حرمة وداسوا كل مقدس، ولم يلتفتوا إلى أي قيمة أو خلق أو مبدأ، فجهادهم هو الجهاد الفرض على كل مسلم، بل على كل إنسان حي الضمير، فيه شرف وفيه مروءة وفيه إنسانية، فالظلم تأباه النفوس، ومن الإنسانية أن يتألم الإنسان للظلم، يمارس على إخوانه وبني جنسه، وأن يسعى للإحقاق الحق ورفع راية العدل والإنصاف والرحمة.

كان مسئولو السجن يتخذون إجراءات عديدة مشددة للتكتم على موضوع الإعدامات خاصة، وعلى كل أخبار سجن تدمر عامة، ويظنون أننا لا نعرف عن الإعدامات شيئاً فقد منع الرقيب خلال إدخال الفطور في الساعة السادسة والنصف، منع السخرة من الخروج لإدخال الطعام أمام باب المهجع، وصرخ فيهم: لا حدا يطلع ولك..

وقام أحد عناصر البلدية بإدخال طعام الفطور، وتبين لهم أنهم قد وضعوا على النافذة الصغيرة الموجودة في الباب قطعة (كرتون) كبيرة تمنع النظر من خلالها.

وأوّلت هذه الإجراءات بأنهم قد نصبوا المشانق في الساحة (فهم لا يريدون أن نراها) لكي لا نعرف أن في سجن تدمر إعدامات بالجملة، وموت بالمفرق، ولم يدركوا أننا نحس بالأمر وأننا قد وعيناه تماماً وأدركنا صورته وأبعاده. وجاءت دورية من فوق السطح وصرخ أحدهم فينا: (ولك حقراء.. لجوا.. بعدوا عن الباب ولك لجوا يا كلاب يا أنذال يا..) فلما ابتعدنا إلى منتصف المهجع وتجمعنا في النصف الداخلي، أمرنا بالجلوس وهو يصرخ (جالساً ولك.. ما حدا بيوقف أبداً) وجلسنا متقاربين متراصين واجمين، فقد كنا نعلم أن معنى ذلك أن عملية الإعدام على وشك أن تتم، ومضت الدقائق ثقيلة بطيئة والكل مطرق متحير محزون مقهور، وبدا السجن هادئاً على غير العادة، هادئاً هدوءاً مريباً، فلا تسمع أي صوت فلا أبواب تفتح، ولا جلادون يصرخون أو يسبون ويشتمون، حتى ولا صوت بلدية ممن يعملون في جلي الطشوت أو إفراغ أوعية القمامة إلا حركة يسيرة كسير أحدهم مسرعاً في طرف الباحة البعيد..

كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا ربعاً، الجو مشمس والهواء ضعيف، والعصافير تغدو وتروح وأصوات بعيدة تأتي من المدينة تبدو واضحة، صوت سيارة مارة، نهيق حمار، نداء طفل.

وشق السكوت صوت جلي يصرخ بقوة وسرعة: الله أكبر وكأنه يستبق الزمن، تحفزت الأعصاب وأرهفت الآذان، وانقطعت كل نأمة في المهجع جميعه، وبدا الجميع مطرقين واجمين كأن على رؤوسهم الطير ولم نسمع إلا صوت نسمات الهواء الخفيفة وحفيفها، وشقّ السكون صوت آخر أقوى وأوضح صكّ أسماعنا وقرع قلوبنا: الله أكبر.. وأعقبه شخير حاد، وتتالى النداء العظيم: الله أكبر، الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. يتبع بعضها حشرجات النزع والحبل يشتد على العنق، وكانت كلمة الله أكبر تخرج مقطوعة بعض الأحيان حيث تعاجل الحبلة المسكين وتقطع عليه نداءه فيخرج مبتوراً.. الله أكبر.. وتسرع الحشرجات.

أي مشاعر كانت تصطرع في الصدور، وأي قهر، والكل مطرق ساهم يدعو ويضرع إلى الله السميع البصير أن لا تضيع هذه الدماء هدراً.. والقلب يندب العدالة بين البشر ويسخر من هذه الحياة الزائلة ومن أتباعها، وينعي على القاعدين السادرين في غيهم.

وبعد مضي ساعة ونصف تقريباً عاد السكون يخيم من جديد، كان آخر شيء سمعناه هدير محرك السيارة وهي تنطلق وصوت أخشاب تلقى.

فسرت هذه الأصوات بأنها صوت الشاحنة التي تنقل جثث الشهداء إلى مثواهم الأخير في صحراء تدمر، حيث يلقون في حفرة كبيرة ويهيل عليهم (بلدوزر) التراب وينتهي الأمر، أما الأخشاب فإنها خشبات المشانق تعاد إلى مستودعها بعد أن أدت مهمتها في انتظار مهمة جديدة

١٥ كانون أول ١٩٨١

عمليات الإعدام مستمرة بمعدل مرتين كل أسبوع، فنحن دائماً على صلة بالموت والآخرة، وأصبحت رحلة الموت شيئاً قريباً سهلاً وكأنها انتقال من مهجع إلى آخر، أو من سجن إلى الحرية ومن الخوف إلى الأمان، وكانت الدنيا هينة جداً على قلوبنا جميعاً لما نعانيه من ظلم ومن قهر ومن عذاب، فكانت عمليات الإعدام فرصة للخلاص، ولكن أعمالنا كانت بسيطة وذنوبنا كبيرة حتى تساءل الكثيرون هل هذه شهادة في سبيل الله؟.. ولكن آمالنا في رحمة الله الواسعة وكرمه العظيم كانت عظيمة، وشوقنا إلى عدالة السماء كان شديداً، وكل الأمل أن يرزقنا الله فيما بقي لنا من حياة أن نجاهد هؤلاء الظالمين ونقاتلهم في معارك فاصلة ينصر الله فيها من يشاء، ويخذل من يشاء والله على كل شيء قدير. وأن نموت شهداء في ميدان الجهاد، ونحن أعزاء نحمل سلاحنا ونقاتل عدونا والأمر لله من قبل ومن بعد.

١٦/١٢/١٩٨١ التنفس والتعذيب بالتمرينات الرياضية

كانوا يخرجوننا للتنفس الرياضي أو التعذيب بالتمرينات الرياضية ثاني يوم من كل عملية إعدام، فيخرجوننا دون أغراض ويصفوننا متباعدين ويجعلوننا نقوم ببعض الحركات الرياضية وخاصة

تمرين الضغط والتمرين السادس وهو ما يدعى بالرقصة الروسية، ومشي البطة، والزحـــف، ولا يخلو هذا التنفس من الكرباج والضرب بل الضرب مستمر فيه بالكرباج وغيره من قبل اثنين أو ثلاثة من الجلادين، وكان يتحول هذا التنفس الرياضي بعض الأحيان إلى عملية تعذيب قاســـية، حيث يرهقوننا بهذه التمرينات الصعبة غصباً وجبراً، حتى نكل وتنهار قوانا، وهم يجبروننا علـــى متابعة الرقصة الروسية أو الضغط أو الزحف أو مشي البطة، وكان ما نعانيه بعد ذلك من الآلام العضلية صعباً حيث تصبح عضلات أيدينا وأرجلنا وكأنها دمامل حقيقية.

إحصاء قرآني

أحصي ما في مهجعنا من القرآن فكان ثمانية عشر جزءاً متفرقة، وكانت هناك حاجة ماســـة إلى أجزاء وسور أخرى.. ويسر الله فكانت تأتي إلى مهجعنا السورة تلو السورة من طرق مختلفـــة.. وعن طريق القادمين الجدد، فكان أول ما يتلقى به القادم حديثاً إلى سجن تدمر سؤاله ماذا تحفظ من القرآن؟

ولما جرت عمليات الفرز وتغيير المهاجع، نقلنا إلى مهجع آخر.. فإذا فيه كميات كبيرة محفوظـــة من أجزاء القرآن وسوره، فتكامل ما معنا وما وجدناه عندهم حتى أصبح كل القـــرآن تقريبـــاً محفوظاً في المهجع، ونشط كثيرون للحفظ.. بغاية إتمام حفظ القرآن، ثم أخذ للإعدام الـــشخص الوحيد الذي كان يحفظ القرآن كله، غيباً وهو الأخ الشهيد محمد عطري رحمه الله.

وأكمل بعد ذلك كثيرون حفظ القرآن منهم الأخ (ي س) الأمي، والمعلـــم أبـــون والمهنـــدس الزراعي (م. ج) والدكتور (م. د).

وكان موضوع التفسير يتحرج منه الإخوة، وكان لابد من التفسير وكان للآيات والمقاطع إثارة في النفس، فكنت أتحدث عن هذه الآثار وهذا الانطباع الذي تتركه الآيات في النفس.. إضافة إلى معاني وبعض الإشارات إلى النواحي البلاغية والإعجازية، مما أعان الله به.

ولم أكن أدعي علم التفسير ولكني كنت أشحذ الهمة للفهم على ضوء معرفة سابقة.. ولا أبخـــل على أولئك الذين هم في شوق إلى الكلمة الإيمانية، فلا أحرمهم من حـــديث شـــجي وكانـــت الدموع تترقرق في عيني وتنساب منهما وأنا أحدث عن دعاء سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام، واستجابة الله له وعن محنة مريم البتول عليها السلام، وكان للأخ أبي أنس علم بتفسير "الجـــزء الثلاثون" قد استكمل ذلك وأجاده حفظاً وتفسيراً، وكان المهندس الزراعي (م. ح) قد ألهمه الله مما عرف من علوم زراعية ومعلومات علمية، ومما حفظه وفهمه من القرآن الكريم إلى اكتـــشاف روابط وموافقات رائعة يربط فيها بين آيات القرآن الكريم والعلوم والمعارف الإنسانية المختلفة، فكانت روائع من التفكير والتدبر.

وكانت تحصل لدينا إشكالات في بعض الكلمات القرآنية، أو الحروف أو التشكيلات نتيجة عدم وجود أي نسخة للقرآن، نرجع إليها في جميع مهاجع السجن، فكنا نرجع إلى جهابذة اللغة فيجتهدون أن يعطوا القول الصواب.

كان القرآن ممنوعاً منعاً باتاً في جميع مهاجع سجن تدمر، بل كل شيء من ورق وأقلام وكتب، ممنوع أيضاً، ويا ويل من يضبط لديه ورقة من القرى القرآن، فرؤية القرآن والقراءة فيه إحدى الأماني الكبيرة التي نراها في الأحلام، فنفرح وتنشرح قلوبنا بالحلم ويقول القائل متحسراً: هل نرى القرآن يوماً ونقرأ فيه ونرتل الآيات مطمئنين؟..

كنت أتحرج من كثرة الحفظ، بل قد توقفت تقريباً عنه، كنت خائفاً من أمر واحد هو النسيان.. والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: "أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة آية من كتاب الله أوتيها ثم نسيها".. فحدثت بخوفي هذا الأخ الكريم الشيخ (ح. ي) وهو من أرباب الفقه ورجاله، فقال لي: ألم تسمع ما قال الحفاظ؟ قلت: وما قالوا يا أبا محمد؟

قال: قالوا (من يقرأ الخمسة لا ينسى) يعني من يقرأ خمسة أجزاء في اليوم لا ينسى.. وعجبت للفكرة الجميلة ولكنها إذن مهمة جليلة، فكلف نفسك ما تطيق لذلك كان يرمي أن يكون هناك توازن وعدم طغيان أمر على أمر، وهكذا كنت أحفظ ولكن ببطء شديد مدققاً فيما أحفظه ومتقناً حفظه ما استطعت..

وبذلك كنت أنصح بعدم الاقتصار على حفظ القرآن، بل الأخذ بنواح أخرى هامة مثل حديث النبي صلى الله عليه وسلم، والفقه والسيرة.. وغيرها..

وعزم بعض الأخوة على حفظ حديث النبي ولم يكن في مهجعنا الكثير منه، وكنا نتداول هذا القليل دون ترتيب أو حصر وكنت أحفظ عدداً لا بأس به من الأحاديث النبوية الموجودة في كتاب الأربعين النووية، فكنت أرددها مع بعض الأخوة. جاء أحد الأخوة فطلب أن أعدد له الأحاديث وهو يثبتها.. حتى وصل بنا العدد إلى ثلاثة وعشرين حديثاً من أحاديث الأربعين النووية، وبهر كثيرون بما عند الأخ من عدد جيد، وجاء بعضهم إلي فنصحني أن أستعين بالأخ فلان لأن عنده عدداً كبيراً من أحاديث الأربعين النووية لعلنا نستكملها، ولكن تبين إنما هي الأحاديث التي أثبتناها سابقاً ومع ذلك وبالتعاون مع عدد من الإخوة، وصل معنا الرقم إلى ثمانية وثلاثين حديثاً ونشط كثير من الإخوة لحفظها ونشرها، ثم أتممناها بحديثين من غير الأربعين فتمت أربعين حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

١٩٨١/١/٣ - الشتاء –

الشتاء قارس، والأغطية قليلة والمطر غزير، وفتحات السقف غير مغطاة في الغالب بأي شيء مما يجعل أكثر من ثلث المهجع معرضاً للبلل، ومما يزيد الأمر سوءاً أن الحركة في الليل ممنوعة، ويجب أن ينام الجميع، ولا مكان إلا تحت المطر. فكانوا ينامون لتبتل بطانيتهم وثيابهم وأغراضهم.

حصة المعتقل بطانية واحدة كغطاء مع عوازل تمد على الأرض، ولم تكن كافية بأي شكل في جو كانون الثاني، حيث البرد القارس، فكنا نصاب بالزكام والإسهالات والأمراض المختلفة، ورأى البعض حلاً في الغطاء الجماعي، حيث يشارك عدد من المعتقلين في غطاء واحد مع النومة المتداخلة: رأس ورجلان وهذه عامة في المهجع لضرورة أن يجد كل واحد مكاناً بالكاد يمدد فيه جسمه،.

وكنا نجلس طوال النهار نرتجف من البرد، ويأتي الحارس من السطح ليأمرنا بأن لا نستعمل البطانيات لتدفئة أرجلنا وأجسامنا، ويقول بأن ذلك ممنوع -مع السباب طبعاً- ونتيجة للجلوس الطويل فقد كانت تتيبس مفاصلنا ونكون عرضة للإصابة بالروماتيزم والآلام العصبية..

وقد أصيب الكثيرون، وكان أحدنا إذا قام من جلسته يسمع لأعضائه طقطقة (كالضباع) على حد تعبير بعضهم.

ورغم أن أفواج المعدومين كانت تخفف كثيراً من الزحام الشديد في المهجع، فإن أفواج المعتقلين المستمرة كالسيل، كانت تعوض هذا النقص وتزيد وبالتالي فإن الكثافة كانت تشتد باستمرار، وقد قدرنا عدد معتقلي تدمر في هذه الأيام كالتالي: عدد المهاجع المستعملة ٣٢ مهجع × متوسط عدد المعتقلين في المهجع (١٤٠) = ٣٢ × ١٤٠ = ٤٤٨٠ معتقلاً في سجن تدمر.

وقد علمنا من المعتقلين الذين وصلوا إلينا أخيراً أنهم يوضعون بعد حفل الاستقبال التعذيبي الرهيب في أحد المهجعين ١ - ٢ في الباحة الأولى، فإذا امتلأ كلاهما وزع أحدهما على بقية المهاجع، وأن الدفعات: دفعات المعتقلين الآتية إلى سجن تدمر، تأتي مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، وعدد الدفعة يتراوح بين ٢٥ - ٥٠ معتقلاً.

الكثافة مرة أخرى

كنا نتساءل هل يمكن أن يستوعب مهجعنا أكثر مما فيه الآن وعددنا فيه الآن (١٥٠) معتقلاً بعد تأرجح بين الزيادة والنقصان، وهكذا فإن حصة المعتقل من أرض المهجع لا تتجاوز (٣٧٥) سم مربع، ولكن ما نلمسه هو اندفاع المسؤولين إلى كل ما من شأنه أن يزيد في عذابنا وإيذائنا بل وموتنا، وهذا يجعلنا نعتقد تماماً وبشكل واضح أنه ليس لشرهم وسوئهم وإجرامهم من حدود تقف عندها.

كانت أرض المهجع مستغرقة حتى آخر شبر فيها، ولم يبق فيها موطئ لقدم، حينما سمعنا حركة في المهاجع والزبانية يتنقلون بسرعة من مهجع لآخر، ولما وصل الدور إلينا فوجئنا بعدد من المعتقلين الجدد مطأطئي رؤوسهم يتدافعون على الباب، ولا أدري كيف جازف رئيس المهجـــع بـــالكلام فقال: سيدي ما في موضع، المهجع مليان، سيدي والناس عبتنام في الباب. فغضب المساعد (أبـــو جهل) وقال: خلي ينامو وين بدن، ولكنه أشار من طرف خفي إلى الجلادين ونحن مغمضو العيون لا نبصر المناورة، فاندفع الجلادون يصرخون: لجوا ولك لجوا يا كلاب... يا حقيرين.. يـــا.... وابتعدنا عن الباب فدخلوا وأخذوا يضربوننا بالكرابيج يميناً وشمالاً، وتراكمنا فوق بعضنا في آخر المهجع، وهم يتبعوننا بالضرب وصعد بعضهم فوق الكوم البشري فضرب ودعس فيه.... وعشنا وقتاً عصيباً.. نتيجة الاعتراض البسيط.

يوم ١٩٨٢/١/٦

جاء الزبانية ظهراً، ففتحوا باب مهجعنا وأدخلوا مجموعة من المعتقلين الجدد، وبعد ذهاب الزبانية كنا نود التعرف على هؤلاء المعتقلين الجدد، وقد هالنا ما كانوا فيه من حالة ســيئة، أرجلــهم وأيديهم متورمة ممزقة، ووجوههم ملأى بالجروح والكدمات، بينما كان رأس أحدهم قد شـــج شجة منكرة تحت وقع ضربات الكرباج الكثيرة، وقد تجمدت الدماء فوقه ولوثت ثيابه، وظهـــر معتقل آخر قد تمعط وتسلخ نتيجة الجلد الشديد بالكرباج وغيد ذلـــك ممـــا يـــصعب حـــصره والإطاحة به، ومع ذلك فإن شخصيات هؤلاء كانت أعجب من أحوالهم..

يوم ١٩٨٢/١/٧

معظم المعتقلين في المجموعة التي أدخلت مهجعنا البارحة، من كبار السن أو بالأحرى ممن تخطـــوا سن الشباب ودخلوا في سن الكهولة، وكانت أعمارهم بين الأربعين والستين عاماً، ومعظمهم من سكان الأرياف، فهم بسطاء طيبون كرماء أتقياء، ذوو عيال كثيرين وأراض زراعية يعملون فيها، ولقد علمت أن مجموع عيال أحدهم يصل إلى العشرين نفساً، ما بين امرأة وصـــغير وعـــاجز، وكلهم يعتمدون عليه في إعالتهم وإقامة أودهم، ولكوني ريفي الأصل فقد كنت من أشد المتألمين لحال هؤلاء الإخوة، وذكرتني حالهم وعيالهم بحالي وعيالي الذين تركتهم ولا معـــين لهـــم إلا الله سبحانه وتعالى، وكان ذنب هؤلاء هو كرمهم الذي دعاهم لا طعام أو إيواء المتوارين من الإخوان المسلمين صدمت بنبأ مؤلم مفاده أن الطبيب الاختصاصي والعلامة الكبير نزار الدقر كان أحـــد أفراد مجموعة المعتقلين الجدد، وصعب علي تصديق النبأ.

الدكتور محمد نزار الدقر حاصل على شهادات علمية اختصاصية عالية من معهد العلوم الطبيـــة والأمراض الجلدية في موسكو، وهو رئيس دائرة الأمراض الجلدية في وزارة الصحة بدمشق، وله

بحوث طبية وتجارب علمية مستفيضة في علاج عدد من الأمراض والحالات المستعصية، وخاصة فيما يتعلق بالعلاج بالعسل، وله كتاب طريف في هذا المجال عنوانه (العسل فيه شفاء للناس) وله علاقات فعالة مع عدد من المؤسسات العلمية الدولية.

يوم ١٩٨٢/١/٨

انتهزت فرصة غير سارة وجدت فيها الدكتور "نزار" بقربي وذلك خلال إحدى حفلات التعذيب، وفي غفلة من أعين الجلادين سلمت عليه تتجاذبني عاطفة الفرح بلقياه، والألم لحاله وما هو فيه من بلاء ومحنة، فلقد كان يوم مجيئه أول البارحة متسلخ الظهر، متورم الرجلين واليدين، ووجهه ورأسه مليئان بالجروح والكدمات.

واليوم ربما أنها أول حلاقة لهذه المجموعة الجديدة من المعتقلين، فقد خصهم زبانية سجن تدمر بعذاب شديد، وكان وجه الدكتور محمد نزار بعد حفلة العذاب هذه، مليئاً بالجروح والكدمات والدم يسيل من شفتيه، ولاحظت وأنا أراقبه أن سبابته اليمنى كانت ترسم في الفراغ كلاماً وكتابات مجهولة، هكذا يعامل العلماء والنوابغ البارزون، وهكذا يحطون في سجن تدمر.

والمعهود أن تكون السجون للأشرار المجرمين، لكن سجن تدمر هذا لا يحوي بين جدرانه إلا التقاة الصالحين والأبرار الطيبين، الذين ارتفعوا إلى هذه السوية، وارتقوا بأنفسهم رغم المحنة والبلاء وكلما ازداد والبلاء ازدادوا إقبالاً على الله ولجئوا إليه، ورغم أن كثيراً من المعتقلين لم يكونوا يميلون إلى التدين سابقاً، ولم يكونوا يؤدون الصلاة ويرتكبون شتى الموبقات، فقد أعلنوا هنا عن توبتهم وصلحت حالهم وسمت نفوسهم، وقد عزا رئيس فرع المخابرات في دمشق ما لمسه من تبدل سريع في سيرة أحد المعتقلين بعد مدة يسيرة من الاعتقال إلى تأثير المعتقلين من الإخوان المسلمين عليه وعلى غيره، ولكن أحد المعتقلين وهو من رجال الدولة السابقين قال حينما لمس هذا التأثير وهذه التغيرات الجذرية إنه يرى أن وضع عدد من المتدينين في السجون المدنية بين المجرمين والمنحرفين كاف لإصلاحهم وإعادتهم إلى الجادة الصحيحة.

علمت أن الدكتور محمد نزار الدقر معتقل منذ أكثر من عشرة شهور، وأنه كان في إحدى زنازين معتقل السادات بدمشق، وقد زاره هناك وزير الأوقاف محمد محمد الخطيب -وأنه لم يضع تلك المدة من عمره هباء رغم ما كان يعانيه من مضايقات، فصابر على بحوثه وألف كتاباً جديداً عن النحل سماه: النحلات صيدلانيات ملهمة- كما حفظ القرآن الكريم كله غيباً وقد جرده زبانية سجن تدمر من كتبه العلمية واحتجزوها مع كل ما بحوزته من أوراق وكتب.

وكان من أفراد هذه المجموعة من المعتقلين، نجل ضابط كبير من ضباط الجيش، أشقر الشعر، طويل القامة، جميل الطلعة، وقد جلبت له قامته الطويلة وشبابه الغض غضب الزبانية وأذاهم،

فكان يحتمل كل ذلك بصبر جميل، رغم رقته وعدم اعتياده على خشونة العيش، ويدعى هذا الشاب (شرف الدين شرف)..

يوم ١٩٨٢/١/١١

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً).

طلب عدد من المعتقلين الشباب في مهجعنا للإعدام وذلك في أوائل أيام شهر شباط ،١٩٨٢ وكنا نودعهم في ألم عميق ودموعنا تنهمر رغماً عنا ونحن نرى هؤلاء الشباب الذين هم كالزهور في رقتهم ولطفهم وأدبهم، وكالجبال الراسيات في ثباهم وصمودهم، نراهم أمام كل هذا الكيد والغل والغدر، يتواصون فيما بينهم بالثبات وعدم الخوف، والتكبير قبل تنفيذ الإعدام.

ثم يترعون ثيابهم الجيدة الجديدة وساعاقم ويخرجون نقودهم فيعطون كل هذه الأشياء لإخوانهم المعتقلين، الذين هم بحاجة إلى هذه الأشياء ويسارعون إلى الوضوء وإلى صلاة ركعتين سنة الشهادة، ولما جاء الزبانية لأخذهم للإعدام وسألوهم عن أغراضهم قال كل منهم: ما عندي أغراض.

جمع زبانية السجن في هذه المرة عدداً كبيراً من المعتقلين لإعدامهم، وفجأة ارتفعت أصوات التكبير: الله أكبر الله أكبر، وكانت تردد هذا النداء أصوات جماعية مختلطة متفقة، وتبع ذلك أصوات ضرب بالكرابيج وصراخ الألم.

وكان هذا الفعل المنكر أشنع تصرف لزبانية سجن تدمر الذين أخذوا يعتدون على هؤلاء الذين سيواجهون الموت بعد لحظات، ويلقون وجه ربهم شاكين متألمين.

عم السكون والصمت المطبق والهدوء الغريب جنبات سجن الموت، إنها السكينة تتترل على قلوب هؤلاء الذاهبين إلى الإعدام، وكان كل شيء في الدنيا قد وقف يرقب عملية الإجرام البشعة التي تقترفها أيدي الطغاة وزبانيتهم وأزلامهم في خفاء سجن الموت في تدمر.

حضر ضباط كبار للإشراف على العملية، وحضر مدير السجن الرائد فيصل غانم، وفي الثامنة والنصف صباحاً كان كل شيء جاهزاً تماماً، المشانق والجلادون والطغاة الكبار.. والمطلوبون للإعدام في غرفة الورشة يصلون ويتوجهون إلى ربهم ويدعونه: اللهم اجعل دماءنا ناراً على الظالمين، ونوراً للمسلمين وللدنيا أجمعين، اللهم إنهم يقتلوننا ظلماً وجوراً في سبيل تسلطهم وفسادهم، اللهم فتقبلنا في رحابك تائبين منيبين، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحدا.

وبدأت العملية الرهيبة تتم وسط السكون المخيم، ففتح باب الورشة وأخرج هؤلاء المعتقلون وصفوا في طرف الباحة قرب الجدار أرتالاً وهم معصوبو الأعين موثقوا الأيدي إلى الخلف، وكان يتقدم رجلان من الزبانية ليمسكا الأخ المعتقل من عضديه ويسيران به إلى المشتقة ويعلمونه خلال ذلك ويشاغلونه ويموهون عليه فيقولون ما اسمك؟ ومن أي مهجع أنت؟.. بدنا ننقلك إلى سجن آخر.. فإذا وصلا به إلى المشنقة قالا هذه هي السيارة ويضعان الحبل في عنقه.

ويكون اثنان من خدم السجن (البلدية) قد أمسكا بالمشنقة الثلاثية الأرجل وأمالاها جهة المعدم فإذا وضع الحبل في عنقه أقاماها بقوة حتى تقف على قوائمها الثلاث، ويرتفع المعدم محمولاً من عنقه ويصرخ في هذه اللحظات القصيرة بكلمة التكبير يسابق بها الزمن ويثبتها في سجل الحياة الله أكبر، وقد يعاجله الحبل عن إتمامها فيزفر ويحشرج حشرجات الموت ويسلم الروح، أما الزبانية فكانوا يمسكون المعدم من رجليه ويشدونه إلى الأسفل ليسرعوا عملية الموت وحتى بعد إنزال الجثث كان الزبانية يعتدون على أجسام الشهداء بالضرب والركل والدوس لا يحترمون ولا يقدرون الموت الذي حلّ بهم ومن أين للزبانية الفهم والعقل حتى يكون لديهم احترام وتقدير، وقد شوهد الجلاد "فواز" وهو يرفس جثة الشهيد يحيى الشامي ويدوس رأسه، والشهيد يحيى الشامي رحمه الله من كبار ضباط الجيش السوري. وبعد أن تمت عملية الإعدام حمل الزبانية والبلدية الجثث فوضعوها في سيارة زيل عسكرية ضخمة ثم انطلقت بهم إلى مثواهم الأخير... حفرة ضخمة في صحراء تدمر وهكذا تمت العملية الرهيبة وإعدام (٦٥) شهيداً دفعة واحدة في خفاء سجن تدمر.

الجرب الرهيب

لم يعد أحد يشكو بالمرة من الجرب أو القمل مرضي الوساخة، فقد أصبح أمراً مفروغاً منه ولا جدال فيه أن يصاب كل المعتقلين بالجرب وبالقمل والصيبان أيضاً حتى قال بعضهم مازحاً: (اللي ما بيقمل ما هو رجال) فلا إجراءات النظافة التي حاولناها أجدت شيئاً ولا الاحتراز ولا أي شيء أجدى أمام زحف القمل والجرب الرهيبين.. في هذه البيئة المساعدة المهيئة حيث الكثافة الشديدة وعدم إمكانية النظافة والغسيل والتطهير وعدم وجود أي علاج.

الدمامل المقيحة تنبت فجأة في الأماكن الحساسة من الجسم: القضيب والمقعدة والآليتين، وتثير هذه الدمامل حساسية شديدة وحكة حارقة، فإذا حكت (ولابد من ذلك) انفقأت وسال منها القيح والدم، ولوثت ونشرت عدواها سواء بالأيدي الملوثة أو الثياب أو البطانيات، وحتى بالأحذية (شحاطات) ويعقب الحكاك ألم رهيب شديد، فكان الأخ أبو عبدو (صاحب محل) يكاد

يبكي ألماً في الليل أو النهار من قضيبه الذي أصبح مليئاً بالدمامل النازفة بالدم والقيح، وقد تورم فإذا حكه تألم، وإن تركه تألم فكان يتمنى لو اقتطعه واستراح؟..!!

ولم يجد الأخ عبد الستار ما يداوي به نفسه سوى (رماد السجاير) وقد امتدت الدمامل المقيحة النازفة المتراصة لتأخذ مساحة واسعة امتدت من قمة آليتيه إلى محزمه بحيث لا يستطيع الجلوس ولا الاضطجاع على ظهره، فجمع كمية من رماد السجاير وجاء يطلب من أحد الأخوة أن يذر هذا الرماد فوق منطقة القيح والنزف، ففعل ولم يغن هذا العلاج شيئاً.

كان الأخ سالم ابن السابعة عشرة طالب الحادي عشر النحيف الجسم، ممتلئ الجسم بالدمامل المقيحة ذات الرؤوس الصفراء، والتي تثير حكة شنيعة فيضطر إلى حكها ونزع قشرتها ومن ثم تنزف بالقيح والدم امتلأت من هذه الدمامل ساقاه ثم اليتاه ثم بطنه وذراعاه وصدره، واشتد هجوم الجرب على الأخ سالم ففي كل يوم دمامل جديدة تنبت في مختلف أنحاء جسمه وهي مقيحة صفراء الرأس حتى وصل الأمر إلى حالة لم أرها ولم أسمع بها وحار بها الأطباء من الإخوة المعتقلين في المهجع، فقد نبتت الدمامل في راحتي كفيه برؤوسها الصفراء المقيحة..

كان الأخ سالم لا يستطيع النوم بتاتاً لا في ليل ولا نهار، إنما يسكن قليلاً ويعود إلى الحك والهرش، ولم تكن هذه الحالة الوحيدة في شدتها، بل كانت هناك حالات صعبة عديدة، فكان الأخ جابر يكشف عن ركبتين متورمتين منتفختين وقد تراصت فيها الدمامل حتى غدت كل منهما دملاً واحداً، وقد سميت تلك الحالة (ركبة الجمل) وكان يقشر الدمامل ويعتصرها ويجفف القيح والدم بقطعة قماش.

لم تكن هذه العملية المؤلمة تفيد شيئاً سوى أن المريض مضطر إلى فعل شيء لهذه الدمامل التي تثير الحكة الحارقة، وكان عدد الحالات الصعبة أكثر من (٤٠) حالة، وكنت منهم فكنت لا أستطيع نوم شيء من الليل ويدي تمتد لا شعورياً لتحك وتكشط الدمامل، وكان أصعب شيء موضوع التلوث وعدم إمكانية التنظيف والتطهير.. وكان معناه العدوى المستمرة، العدوى الذاتية أو العدوى للغير، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يوم ١٩٨٢/٢/٦

دور الحلاقة ذلك البلاء وتلك المحنة الأسبوعية الرهيبة أصبح قريباً منا وها نحن نسمع صوت الكرباج اللعين يمزق السكون، وهو يصفع ويهبد أجسام إخواننا المعتقلين في أحد المهاجع القريبة، برح الخفاء وتوضح الأمر.

واشتد بنا الألم والقهر فلذنا بالله سبحانه نشكو إليه بغي الفجار الأشرار، وبعد ساعات طويلة من القهر والعذاب مع تعذيب إخواننا لم نعهد له مثيلاً قبلاً جاء دورنا واستقر زبانية السجن مع

الحلاقين أمام باب مهجعنا بعد أن جرى تبديل الزبانية بآخرين، وخرج عشرة منا وراء عشرة للحلاقة حسب طلب الزبانية فاصطفوا ووجوههم إلى الجدار (حسب العادة التي درج عليها زبانية سجن تدمر أخيراً).

فقد حفظنا نظام الحلاقة هذا وأسلوبه كما حفظنا أساليب الضرب والإيذاء التي يمارسها الزبانية علينا لكثرة ما نالنا منها ولكن كما أن السمو والرفعة عند أهلها ليس له حد فإن بغي الظالمين والزبانية الفاجرين في سجن تدمر ليس له حد، وما يتوقع ممن ماتت ضمائرهم وسقطت مروءآتهم وامتلأت قلوبهم بالحقد البغيض، فلم يعودوا يستسيغون سوى الشر والفساد!!

جاء أحد الزبانية وهو يصرخ بحقد مسعور وانقض بكرباجه الثقيل يضرب رؤوسنا وظهورنا بقسوة، ومع غلوه وشدته في الضرب وفي الشتائم البذيئة والتهديد الرخيص الذي كان يكيله لنا فإن ذلك لم يشف غيظه فقال بحقد: (يا كلاب يا عرصات.. هلق بفرجيكن.. وقفوا لجيب العصاي.. يا حقيرين..)!!

وتمنينا أن يكون تهديده فارغاً ولكن لم نلبث إلا قليلاً حتى أخذنا نسمع صرخات ألم شديدة مفاجئة يتخللها صوت الجلاد اللعين فواز وهو يقود عملية الضرب والتعذيب الرهيبة.

وبينما كنت أحلق هجم علي الجلادون وضربني أحدهم بالكرباج الثقيل على أم رأسي عدة ضربات وأشفعه بالسباب والتهديد والوعيد، وكان المنتهون من الحلاقة يوجهون إلى زاوية الباحة حيث كانت عملية العذاب الرهيبة، فلما وصلت إلى هناك وبينما كان الجلاد فواز يصرخ بي انقض الجلاد حامل العصا فحطم ظهري بضربة شديدة وقعت على أثرها على الأرض وأنا أصرخ بصوت مخنوق يا الله يا الله، وهجم علي جلاد آخر وأخذ يضربني بالكرباج على رأسي.

استمرت الحلاقة واستمرت حفلة العذاب الرهيبة وضربات العصا الهائلة تحطم ظهور المعتقلين وتفلق رؤوسهم، وتكسر عظامهم ساعات طويلة هائلة، كانت حصيلتها إصابة أكثر الإخوة برضوض شديدة أو كسور وممن أصيب بكسر في الأطراف، الرجل الطيب ابن الخامسة والخمسين عاماً أبو جميل فقد كسرت يده قرب الكوع، وكسرت يد معتقل آخر يدعى أبا أحمد وهو صائغ حلبي، والأخ أبو إبراهيم كسرت يده من العضد، بينما كان عدد من الإخوة لا يستطيعون الحركة مما أصاب ظهورهم من التحطيم، وقد أصيب معتقل يدعى (صلاح) بضربة عصا على رأسه تسببت في حدوث ارتجاج في الدماغ أدى إلى إصابته بشلل تام فقد معه النطق والحركة، لم تكن هذه المرة الأولى التي نفاجأ فيها بمثل هذه الهجمة الرهيبة من التعذيب، ولكنها كانت هجمة رهيبة ومحنة قاسية مريرة على أي حال، ولكن هذا هو غدر الجلاد اللعين "فواز" ذي الحقد الأسود والسعار.

ومما زاد الأمر سوءاً وبشاعة عدم التفات إدارة السجن الظالمة إلى معالجة أي من هذه الإصـــابات التي عمت المعتقلين في سجن تدمر، بل كان الزبانية يمنعوننا من ربط هذه الإصابات أو تضميدها زيادة في النكاية بنا، كما تبين لمن من أحاديث الجلادين أن جلادين آخرين من خارج السجن من المخابرات وغيرهم يحضرون إلى سجن تدمر ويمارسون تعذيب المعتقلين بسادية غريبة.

يوم ١٩٨٢/٢/٨ التفقد

في الساعة الثانية بعد ظهر كل يوم نقف في صف خماسي في وسط المهجع استعداداً للتفقد الـــذي يتم في الباحة، حيث يفتح الزبانية باب المهجع حين حضورهم ونخرج فنصطف في الباحة، ويعدنا الرقيب ثم يعاد إدخالنا إلى المهجع، وكنا نتعرض خلال هذا التفقد اليومي لكثير مـــن الـــضرب والعذاب، ويخترعون منه أشكالاً وصوراً عديدة يوقعونها بنا، وكان شـــعارنا الـــصبر والثبـــات، وملاذنا وملجأنا إلى الله، وكان الرتل الأول والصف المواجه للجلادين مـــن الإخـــوة يتعـــرض للضرب والتعذيب بألوانه وأشكاله المختلفة، بعكس الأرتال والصفوف الأخرى، فقـــد كانـــت بمنجاة من تعديات الجلادين نوعاً ما، فكان الإخوة يبعدون كبار السن والمرضى عن الـــصفوف المقابلة للجلادين رحمة بهم، وكان الشباب يندفعون إلى هذه الصفوف بشجاعة منقطعة النظير.

تأخر التفقد اليوم عن موعده المعتاد!!.. وسمعنا من بعيد ضجة غريبة وأصوات صراخ مختلفـــة.. صراخ الجلادين وعويل واستغاثات المعذبين..! كانت هذه الضجة تعلو وتشتد حيناً ثم تـــسكن وتهدأ حيناً آخر، مع أننا نعلم أن العذاب بحفلاته وأشكاله لا ينقطـــع، وأن أصـــوات التعـــذيب وصراخ المعذبين حدث واقع مستمر، فإن ما جعلنا نستغرب الأمر ونرتاب فيه هو حدوثه في مثل هذا الوقت من النهار، مترافقاً مع تأخر زبانية السجن في إجراء التفقد الأمر الذي لم نعهده قبلاً.

لزمنا الصمت التام عسى أن نجد لهذا الأمر الذي أثار قلقنا تفسيراً.. ولكن ضجة التعذيب أخذت تقترب منا وبدأنا نسمعها بوضوح، وجاء الزبانية وأخذوا يخرجون نزلاء مهاجع باحتنا للتفقد.. وحسب العادة فإن مجموعة من الزبانية تفتح المهاجع بالترتيب وتخرج المعتقلين ليـــصطفوا أمـــام المهجع ثم يأتي الرقيب فيعدهم ثم يدخلهم الزبانية ثانية.

فتح الزبانية باب مهجعنا وأمرونا بالخروج بأصوات منكرة، مع ألفاظ التهديد والوعيد، وكـــان الجلاد فواز بلهجته الحاقدة يصرخ بنا بشماتة وتشف (طلعو يا كلاب لبرا لفـــرجيكن.. طلعـــوا لنشوف يا حقراء)..

وبينما كنا نقف في الصف أمام المهجع بانتظار التفقد ارتفعت ضجة التعذيب أمام باب المهجـــع القريب، ولمحنا باستغراب واستهجان ما كان يجري لنزلاء المهجع (٢٥) فقد انقض عليهم الزبانية

يضربونهم ويعذبونهم وهم يحاولون دخول المهجع، وعدّنا الرقيب بسرعة بينما كان نفر من الزبانية الأنذال ينقضون على الصف ويضربون بعض إخواننا.

وفي العادة أن الرقيب بعد أن ينتهي من العدد يسأل رئيس المهجع عن عدد المعتقلين في مهجعه ويجب أن يطابق بعد ذلك العدد الذي حصل عليه الرقيب، ثم يأمر المعتقلين بدخول المهجع.

وقد فعل الرقيب وأمرنا بدخول المهجع، لكن الجلاد فواز منعنا من دخول المهجع.. وصرخ يدعو الجلادين للحضور: (العصي لهون) وجاء الزبانية يتراكضون وبأيديهم العصي الرهيبة، واصطفوا على طريق دخولنا إلى المهجع، وهيأوا أنفسهم وحضروا عصيّهم، وصرخ الجلاد فواز بحقد وتشف: (واحد واحد عالمهجع يا كلاب..) وما أن سرنا نريد دخول المهجع حتى انقض علينا الزبانية يحطموننا بعصيّهم، واشتد الضرب وعلا الصراخ وحمي وطيس التعذيب وهاجم الزبانية أوائل الصف وأخذوا يضربونهم، فاضطرب النظام واندفع الأخوة يريدون دخول المهجع والزبانية يحيطون بهم ويضربونهم على أي مكان تصل إليه عصيّهم، واشتد الزحام والتدافع على باب المهجع، وبدأ المعتقلون يتساقطون على الأرض تحت وقع ضربات العصي، وتراكموا فوق بعضهم البعض حتى أغلق الكوم البشري باب المهجع أو كاد، وفشت الإصابات والجروح والكسور، وعلت ضجة العذاب وتمكن عدد من الأخوة من دخول المهجع رغم كل ذلك، فلم يقعدوا ولم يتوانوا عن مديد العون لإخوانهم المكومين على الأرض في باب المهجع، فاندفعوا يجذبون ويحملون منهم الواحد بعد الآخر ويدخلونهم المهجع، ويأخذون الأعلى فالذي يليه لعدم إمكانية تحريك أولئك الذين هم في أسفل الكوم، كل ذلك والضرب مستمر والزبانية ماضون في هجمتهم الفاجرة.

وأخذ الكوم البشري يتناقص شيئاً فشيئاً حتى تمكنا من إدخال جميع الأخوة المعتقلين، وأغلق الزبانية الباب ومضوا يهزأون ويضحكون. كان الاضطراب الشديد يعم المهجع جميعه، وصراخ المعذبين وأنينهم يملأ المكان، وكان عدد كبير من الإخوة المعتقلين قد استلقوا في جوانب المهجع بين مغمى عليه أو هو يغالب آلامه وإصاباته، كان ممن حولي من الإخوة المعتقلين واحد يضع يديه على جرح كبير في جبهته والدماء تسيل منه وقد ملأت يديه ووجهه وثيابه، وآخر يتلوى وهو يصرخ: ظهري. وثالث يضع كلتا يديه على رأسه فوق جرح كبير نازف تسيل منه الدماء. ورابع يمسك إحدى يديه حيث يبدو من تألمه أنها مكسورة وخامس وسادس.. هذا يصرخ: يدي، وذاك: رجلي، ولأول مرة، ارتفعت الأصوات في المهجع المصاب رغم تعليمات السجن بلزوم الصمت التام، وكان بيننا عدد من الأطباء لكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم وبإصاباتهم.

بدا المهجع وكأنه ميدان حدثت فيه معركة ضارية شديدة، نشط بعض الأخوة يسعفون المصابين ويربطون جروحهم ويضمدون إصاباتهم ببعض قطع الثياب الداخلية.

١٩٨٢/٢/٩

لم نستطع إدراك الأسباب الحقيقية لما جرى البارحة وكثرت التأويلات، فأوّل بعض الأخوة المعتقلين السبب إلى كثرة مخالفات الأحداث في مهجعيهم (٣١ – ٣٢) وأنهم لا يرهبون كرباجاً ولا عذاباً.

فأغضبت أفعالهم زبانية سجن تدمر.. وأوّل آخرون السبب فيما جرى بأنه التكبير القوي الذي ارتفعت به أصوات الذاهبين إلى الإعدام منذ يومين، وأكد بعض الأخوة أن نزلاء بعض المهاجع وخاصة الأحداث شاركوا في التكبير.. وقلت: احفظوا هذا التاريخ ٩ شباط ١٩٨٢ وتعلمنّ نبأه بعد حين..

لم يخطر ببالنا أن يتكرر حادث الأمس الرهيب، ومع ذلك فقد هيأنا أنفسنا لما قد يكون والتجأنا إلى الله سبحانه بالدعاء والاستغاثة، وفي موعد التفقد ذاته، كذبنا سمعنا، ولم نرد نصدق أن حفلة تعذيب البارحة ستتكرر اليوم أيضاً ولكن ذلك ما حدث..

فقد أعاد الزبانية هجمة العذاب مرة أخرى، ولما جاء دورنا وعدنا الرقيب كان الجلاد فواز مع نفر من الزبانية يقفون في طريقنا والعصي في أيديهم، وما لبثوا أن انقضوا بها علينا ونحن نحاول دخول المهجع، واستعر الضرب الشديد وتساقط الأخوة المعتقلون واحداً إثر الآخر، وتراكمت أجسادهم في باب المهجع في هرم ارتفع أكثر من مترين حتى سد باب المهجع أو كاد، وعلا الصراخ وأصوات الاستغاثة وضجيج العذاب، وكنت في هذه المرة من أول من وقع بهم الضرب، فوقعت في باب المهجع وتكوم فوقي عدد كبيراً من الإخوة وداست رجلي عشرات الأقدام ووقع بهما الكثير من الضرب والتجريح، ثم تغطتا بالأجساد البشرية، وكانت رقبتي على عتبة باب المهجع المرتفعة عن مستوى الأرض بحوالي ٢٠سم، ولها زاوية حديدية حادة، ومن لطف الله أني لم أتعرض لشيء من الضغط من هذه الجهة وإذن لقضي عليّ خنقاً.

حاول بعض الأخوة الذين تمكنوا من دخول المهجع جذبي من تحت الكوم البشري ولكن دون فائدة، فقد كنت مثبتاً إلى الأرض بقوة ورجوتهم تركي وشأني والاهتمام بالإخوة الآخرين.

أحد الأخوة الذين سقطوا فوقي جاء رأسه محصوراً بين ركيزة الباب وبيني وسقط فوقه آخرون، فكتمت أنفاسه حاول التملص ما وسعه فلم يستطع حتى أشرف على الهلاك اختناقاً وتشهد وزاغ بصره وأغمي عليه، ولكن تداركته رحمة الله فقد أنقذه الأخوة في آخر لحظة وحمل إلى المهجع.

كان لدينا اليوم كثير من الإصابات الشديدة والكسور والجروح النازفة، وقلّت الألبسة الداخلية الصالحة للربط والتضميد، وضاق الحال بنا ونحن نرى أن أغلبنا كان بين مكسور أو مجـــروح أو منهك.

يوم ١٠ شباط ١٩٨٢

ها هو ذا اليوم الثالث منذ تلك الهجمة الرهيبة من العذاب الذي فاجأنا به زبانية سجن تدمر.
تحضرنا للتفقد الرهيب فتسلحنا بالوضوء حتى نلق الله على طهارة إن قضينا، وتذرعنا بالـــدعاء والاستغاثة والتضرع، وحاربنا الظالمين بالذكر والتبتل، ووضعت بعض الخطط لتلافي الأزمة التي تحصل في الباب، وتحضر بعض أقوياء الأجسام ليقيموا الواقعين في الباب، وتواصينا بالـــشجاعة والثبات، وأن ندخل بنظام دون خوف لن ويصيبنا إلا ما قدر لنا.. ولأن يصاب بعض الأخـــوة وندخل سريعاً أفضل من أن نتراكم على الباب فلا نستطيع الدخول إلا بعد حين، وحفظ كل منا دوره في العمل وواجبه في التحرك السليم المنضبط، ووقفنا في الصف الخماسي بانتظار التفقـــد، وثارت الأصوات أصوات التعذيب من جديد، كانت محنة العذاب علـــى أشـــدها في المهـــاجع، وتحضر الأخوة المصابون أو المضمدون بضمادات ظاهرة فنزعوها (لأن وضع الضمادات ممنوع).
ووصل الدور إلى باحتنا وخرجنا إلى الباحة واستعرت معركة الضرب على باب المهجع الـــسابق (٢٦) كأشد ما تكون.
وجاء دورنا فأتى الجلادون راكضين يصرخون بأصوات منكرة، وانقضوا علينا بعـــصيّهم وبـــدأ الضرب والتحطيم واستعرت ملحمة العذاب من جديد، ودخل بعض الأخـــوة المهجـــع رغـــم الضرب الشديد، وحمل بعضهم حملاً إلى المهجع أو جروا جراً، ونشطت عمليات الإنقاذ ولكـــن الواقعين أمام الباب عادوا فتكدسوا من جديد لليوم الثالث.
لم أتمكن اليوم من الدخول وحصرت خارج الكوم أو الهرم البشري، حاولت أن أقف في مكـــاني قدر الإمكان حتى لا أوذي إخواني أو أدوس أحداً منهم، فوصل إلي أحد الجلاديـــن وحطمـــني بعصاه المرة بعد المرة، وسارعت أبتعد وأدافع بيدي عن رأسي ومن ثم أدس نفسي بين إخواني في الكوم محاولة للدخول فالكوم أرحم.. ومضت الدقائق والمعركة على أشدها، وقد بلغ الأمر مداه وضاق الحال، حتى أذن الله بالفرج.

١٥ شباط ١٩٨٢ أفواج إعدامات

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً) صدق الله العظيم.

نشطت عمليات الإعدام الجماعي بعد هدوء نسبي، وأخذ الجلادون يطلبون الأفواج إثر الأفواج، فيأخذونهم إلى الموت حتى كادت عمليات الإعدام تكون يومية، وغدت رحلة الموت تتم بسهولة ويسر وكأنها نزهة، يطلب المعتقل من مهجعه، ويقال له محاكم، ثم يؤخذ وهو معصوب العينين موثق اليدين فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يرفعوه على الخشبة معلقاً من رقبته، وخلال نصف دقيقة أو أقل يكون قد قضى وصعدت روحه إلى بارئها حيث الأمان والسلام وما يشعر بالألم إلا كمثل القرصة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة، وينجو من كيد هؤلاء الظالمين المجرمين فما يعود باستطاعته الجلاد فواز ولا زبانيته الوصول إليه بأي أذى أو عذاب..

تبدأ رحلة الموت هذه المرة بالرقيب يقف وراء باب المهجع المغلق وفي يده قائمة طويلة مدروزة بالأسماء.. ويصرخ بالأسماء من خلال الفتحة الصغيرة (الشراقة) والكل في المهجع وقوف مطرقون.. لا يدري أحد هل يصرخ باسمه؟ هل جاء دوره لرحلة الموت؟ إنها فرصة للنجاة من هذا السجن الرهيب، وهذا الموت البطيء على أيدي الجلادين، ودعنا الدنيا وأقبلنا على الآخرة نتصور ما فيها من راحة وأمان حيث تنعدم قدرات قوى الشر هذه أن تنال أحداً بأذىً.. وحيث ينال المعتقل العدالة التي مات محروماً منها.

كان كثير من الأخوة يتساءلون: هل هذه القتلة (شنقاً) شهادة في سبيل الله أم لا؟ وهم يرون أفواج الذاهبين إلى الإعدام وقد تتابعت وفيها من كان في حياته السابقة تقياً صالحاً، وفيهم من لم يكن كذلك إنما هو من تائبي سجن تدمر.. ومنهم من عمل لدينه وربه ومن لم يعمل وكان بعض المتسائلين من المهددين بالإعدام ولم يروا لهم كبير عمل أو صلاح يشفع لهم، فهم يريدون أن يطمئنوا على المصير وكانوا يقولون حائرين: نحن لم نقم بكبير عمل بل لم نعمل شيئاً يذكر في سبيل الله؟ وكان كثيرون قد أخذوا واعتقلوا على غرة فجيء بهم إلى هذا المكان حيث يواجهون الموت ويتعرضون للإعدام لعمل بسيط لم يعرفوا له قيمة.. أو لتهمة لم يتلبسوا بها.. أو لغير ما ذنب أو جريرة.. يقولون نحن ما جاهدنا في سبيل الله.

وكان بعض ذوي العلم يرجعون الأمر إلى مشيئة الله، ولكني أجد الأمر على صورة أوضح، فقلت لهم بصراحة يا إخوة أنتم تدعون أنكم لم تفعلوا شيئاً وتقولون لم نجاهد في سبيل الله.. وبالتالي فنحن لا ندري ما نتيجتنا عند الله، وهل يمكن أن نحسب شهداء في سبيله فإني أقول لكم لا تطميناً ولا رياء: أنتم مع سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه أسد الله وأسد رسوله، إنكم لم ترضوا بالظلم يقع ببلدكم وإخوانكم ولم تسكتوا عن الظالم ولم توافقوه على ظلمه وفجوره فمن قتل بيد هذا الظالم الفاجر فهو مع سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه في أعلى الجنة إن شاء الله، مصداق

قول النبي صلى الله عليه وسلم ووعده (سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه) ورجل قام إلى إمـــام جائر فوعظه ونهاه فقتله وأنتم كذلك فاطمئنوا وأبشروا رحمكم الله.

أخذنا نودع في كل يوم أو يومين عدداً من الإخوة الذين عشنا معهـــم وعرفنـــاهم وأحببنـــاهم وارتبطنا بهم برباط الأخوة في الله.. كان أكثرهم من الشباب الصغيرين في عمر الزهور.. أطهـــار كأكمام الورد حييون كالعذارى لم يعرفوا وهم في هذه السن انحرافات (المراهقـــة) لم يعرفـــوا إلا التقى والصلاح والنقاء والصفاء والطهور، دؤوبون على العمل والدراسة والمطالعة واكتـــساب المعارف والدعوة، فكانوا نعم الشباب ونعم الدعاة ونعم الرجال.

أعود بذاكرتي وأنا في محبسي إلى البارحة تماماً كان يجلس هنا بجانبي الشاب (م. ل) والشاب (ع. ق) و (م.ع) وقد عزم كل منهم أن ينمي ثقافته ويغذي أفكاره بالقرآن وعلومه وبالسيرة النبوية، وبالحديث النبوي، فهو مقبل على العمل مقبل على الله، مقبل على الخير ثابت الجنان، لن ترعبه أهوال السجن ولم تفقده سلامة تفكيره ولم تؤثر في هدوء أعصابه، وهو يعلم يقيناً أن أجله أصبح قريباً وأن أيامه أصبحت معدودة، بل كان يضحك لغباء الجلادين وهم يظنونه خائفـــاً أمـــامهم ويعجب لتعنت سادتهم الطاغين في عداء الحق والنور والخير، وفي الاعتداء على الأبرياء وفي الظلم والفجور والتعدي الصارخ وإلغاء كل الحقوق. بل كان بعض هؤلاء الشباب يعاند الجلاديـــن في سجن تدمر الرهيب في شجاعة فائقة واستهتار شديد بهم بسياطهم وبسادتهم، فإذا خوفه زملاؤه من الضرب والعذاب قال ساخراً: أنا أشتهي أن أضرب علقة ساخنة في سبيل الله..

يوم ٢١ شباط ١٩٨٢

نزلاء المهجع (٢٨) يعانون من مشكلة، فقد سمعناهم وهم يضربون الباب ويطلبون من الحـــرس الإبلاغ عن وجود مريض في خطر لديهم، وراقبنا ما يجري، جاء الزبانية وطلبوا منـــهم إخـــراج المريض على بطانية فلما أخرجوه إليهم وأغلق الباب وراءه، سأله أحد الزبانية عن المكان الـــذي يؤلمه فأشار المعتقل إلى صدره وبطنه، فانقض عليه وأخذ يضربه بعصا غليظة كانت معـــه علـــى صدره وبطنه والمريض ينتفض بين يديه ولن يتركه حتى أيقن أنه فارق الحياة.

٢٥ شباط ١٩٨٢

استمر سيل الإعدامات حتى لقد تمت عمليات الإعدام خلال أربعة أيام من هذا الأسبوع السبت والأحد والاثنين والأربعاء، ففي كل صباح ننتظر قائمة جديدة وذاهبين إلى الموت نودعهم بـــألم، ونجلس في صمت وقهر نناجي ربنا ونضرع إليه، ونستغيث به طوال ساعتين أو ثلاث حتى تنتهي عمليات الإعدام ولا تنقضي الأحزان، ولا الآلام، فأيامنا مليئة برائحة الموت والإعدامات، لم يكن بيننا وبين الآخرة إلا شيء يسير، ورحلة قصيرة من هنا حتى الورشة.. وخلال دقـــائق معـــدودة

يكون كل شيء قد تم وحدثت تلك النقلة التي يعدها الناس كبيرة وما هي إلا يسيرة هينة، فما إن يلتف الحبل الرفيع على العنق ويعلق المعتقل من رقبته، حتى يكون في الحياة الأخـرى.. خـلال دقائق أو ثوان يحيا حياة الأرواح عند رب الدنيا والآخرة، حيث الكرم الإلهي والعـدل الربـاني والرحمة. حيث لا ظلم لا بغي ولا كرابيج ولا عذاب ولا قهر ولا جوع ولا عطـش.. وتنتـهي الآلام وينجو المعتقل من معتقله وعذابه وجلاديه في سجن تدمر، لذلك كنا نناقش هذا الأمـر.. نقول ما أهونها رحلة وما أجملها من فرصة للنجاة والخلاص والراحة.. ولولا أن النبي صـلى الله عليه وسلم نهى أن يتمنى المسلم الموت عند الضر، لتمنينا هذه الموتة، خاصة وأنهـا شـهادة وأن وراءها رضوان الله ورحمته، وأن وراءها فوزاً وخلوداً وحناناً وجناناً.. لذلك كان البعض لا يريد أن يفرط في نعمة الله التي أنعم بها عليه مع ما في ذلكم من ضر وعذاب، ولكن بهدف وحيـد.. يسر به في مناجاته لربه فيقول ضارعاً يا رب.. يا رب.. يا رب.. لا تمتني هاهنا ولكن أمتني يـا رب شهيداً في ساحات القتال وأنا أحمل السلاح محارباً للظلم والظالمين.. الباغين المجرمين أعـداء الحق والدين..

كانت لنا ملاحظات في الأيام الأخيرة منها أن صوت التكبير قد خمد، فلم يعد يسمع بتاتاً خلال عمليات الإعدام حتى الزفير وحشرجة الموت، لم نعد نسمعها.. إلا نادراً وكأنما كتمـت أنفـاس هؤلاء المعدمين عند تنفيذ الإعدام.. وكان أمراً غريباً لم نجد له تفـسيراً إلا أن يكـون الزبانيـة يكممون أفواه المعدمين.

نبوغ الأميين

هناك من المعتقلين الأميين من نبغ في حفظ القرآن وتفهم معانيه. فهـا هـو الأخ (ي س) ابـن العشرين عاماً يحفظ حتى الجزء الخامس والعشرين حفظاً دقيقاً، بإصرار ومثابرة وتدقيق، وهـو الذي لا يعرف الألف من الياء ولا التاء من الخاء، عاش يتيماً من الأب، وتـربى علـى العمـل والشقاوة (شقاوة الأولاد) وكان له زميل ورفيق صبا يحبه ولا يفارقه.. تمازحا يوماً وهما في سـن الصبية المراهقين (١٦) سنة وكان المزاح (بالقندرجية) (وهي سكين فولاذية قاطعة) فشقت بطن الأخ (ي س) وكادت تقضي عليه، فحمل إلى المستشفى، وفر الزميل خائفـاً ولكنـها كانـت مزحة.. وعاد الزميلان إلى الصحبة وعزما على السفر في هذه السن، وسافرا مئات الكيلو مترات بعيداً عن الأهل والبلد، ولكنهما عادا.. ليلقيا قدرهما.. أو ما قدر الله لهما من محنـة.. واعـتقلا وحقق معهما وسيقا سوية إلى سجن تدمر العسكري، فهما اليوم غارقان في المحنة مقبلان على الله، مندفعان إلى القرآن.. ولكن (ي س) برّز الجميع بنشاطه وصبره ومثابرته فها هو يحفظ ويأخذ من معين القرآن بدأب ونشاط وتدقيق دون ملل وهو يرافق المعلم أبو.ن ويلزم المهندس الزراعي (م.

ج) وكلاهما من أنشط من في المهجع في حفظ القرآن.. وهو معهما الفارس المجلي حفظ كل ما في المهجع من قرآن، وفي المهجع الجديد الذي نقلنا إليه بعد ذلك، اندفع يحفظ ويحفظ، مما أفـــاء الله علينا من قرآن، كان محبوساً وغائباً عنا.. وهكذا حتى رأيته أخيراً وهو يحفظ الـــسورة الأخـــيرة ويكاد يكمل حفظ القرآن كله غيباً.. وهو يقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء مراجعة، ثم يحفظ من ١٠ – ١٥ آية يكررها ويرددها ويقرأها مع آيات قبلها من السورة نفسها.. فيومه كله قرآن وتـــلاوة وذكر وحفظ ومراجعة، ومع ذلك لم يكن يقتصر في سعيه وطلبه للعلم على القرآن وحده، كان يبحث هنا وهناك عن علوم إسلامية أخرى يغذي بها روحه، وينمي معرفته، وكان يعتب علي المرة بعد المرة وهو يراني أجالس بعض الشباب والطلاب فيقول: نحنا مالنا دور.. مالنا حق عليك..؟ فأقول له: لك حق وكل الحق.. وهكذا كان لي معه ومع إخوة آخرين مجلس يومي نتحدث فيـــه عن الأنبياء وسيرهم، وعن الابتلاء والمحنة والصبر والفرج والنصر في حياتهم.. وكان يغرم بهـــذه الأحاديث وسمع السيرة وأغرم بها، وأراد أكثر وكان له بعض ما أراد، فهو لا يريد أن يقف عـــن التعلم والتفقه وكان من طباعه الغضب، فقد كان غضوباً شديد الغضب، لا يكاد يقف في وجـــه غضبه شيء، فإذا غضب وثار وعربد، واضطرب جسمه، واحمرّ وجهه، وهدد وتوعد وأرغـــى وأزبد.. وكان غضبه والحق يقال: للحق يمتهن أو يضيع، فهو يثور للخـــير لا لنفـــسه، ولكـــن بطريقته الخاصة فإذا سوي الأمر واسترضي رضي وفاء وندم، فنعم الغضب ونعم الرضى، وهـــو بعد ذلك نشط دؤوب على العمل شجاع حين الخطر، وصبور على الشدائد، تراه صابراً علـــى البلاء محتسباً ما يناله عند الله، رغم المحنة التي طالت دون أي بصيص أمل في الفرج، إلا الأمـــل بالله، وإلا التوكل على الله.

٧ آذار ١٩٨٢

جاء الجلادون فجأة فسألوا عن عدد المصابين بالجرب، فلم يجسر رئيس المهجع على ذكر العـــدد الكامل للمصابين، لأنه كان يشمل كل من في المهجع، وخشي من غضب الجلادين فخفـــضه إلى الربع تقريباً، فذكر له أن العدد أربعون مصاباً، فطلبهم الزبانية وأخذوهم إلى الحمام ثم وزعـــوا عليهم كمية من دواء الجرب بمعدل زجاجة صغيرة لكل أربعة مصابين، فدهنوا بها أجسادهم ولم يسلم هؤلاء من تعديات الزبانية وضربهم.

١٩٨٢/٣/٨

تبين لنا أن العلاج أصبح من اختصاص الزبانية وحدهم، كما تبين لنا أيضاً أنهم يبدون شيئاً مـــن التساهل في المعاملة بالنسبة لما قبل، وقد عادوا أمس فطلبوا مصابين آخرين بالجرب، فقد كـــانوا يعرفون أن المصابين بالجرب أكثر من ذلك بكثير، فخرج عدد أكبر من السابق فعالجوهم أيضاً.

ورغم أن ذلك العلاج كان اعتباطياً فقد شعرنا بتحسن كبير، وتراجعت حدة المرض التي كنـا نعاني منه الأمرّين، ولكنه تحسن وقتي لا يلبث أن يزول لأن حشرة المرض لا زالت متمكنة منـا جميعاً من أجسامنا التي لم تعالج جيداً، ومن ثيابنا الملوثة وبطانياتنا التي لم تغسل أو تغلى مطلقـاً ولم تر الشمس إلا نادراً.

يوم ٩ آذار ١٩٨٢

علمنا أنهم يعملون على توسيع سجن تدمر اللعين هذا فهم يبنون عدة مهاجع جديدة في الجهـة الشمالية الغربية من السجن، لإضافتها إلى المهاجع الحالية، من أجل استيعاب الأعداد الكبيرة من المعتقلين التي يؤتى بها إلى السجن، بعد أن امتلأت المهاجع الحالية وغصّت بمن فيها من المعـتقلين، ولم يعد فيها موطئ قدم.

١٢ آذار ١٩٨٢

شهد سجن تدمر اليوم حركات غير عادية وتنقلات واسعة، وحيث أن هذه التنقلات ترافقت مع فترة انفراج وتحسن في المعاملة شيئاً ما فقد أملنا من ورائها خيراً.

جاء الزبانية إلى مهاجع باحتنا فطلبوا المعتقلين القدامى (كل من أتم سـنتين في سـجن تـدمر) وأخرجوهم مع أغراضهم (وكنت منهم) ثم وضعوهم في المهجع (٣٢) الذي وجدناه فارغاً.

وعلمنا من بعض الأخوة المعتقلين أن من التنقلات التي حصلت في السجن هي: نقـل المعـتقلين الأحداث الذين كانوا يشغلون المهجعين (٣١ – ٣٢) إلى المهاجع الجديدة في الباحة الـسابقة، ونقل نزلاء مهجع البراءة رقم (٨) إلى المهاجع الجديدة، ثم أخذ المعتقلون القـدامى فوضـعوا في المهاجع الفارغة، ونتيجة لهذه التنقلات فقد خفّت الكثافة عما قبل وأصبح عـددنا في مهجعنـا الجديد رقم (٣٢) (١١٠) معتقلين فقط!!

وجاء الرقيب الجلاد فطلب طلباً كانت له نتائج مثيرة أجبرته على العودة إلى أسياده لاستفسارهم من جديد.. فقد طلب الزبانية المحكومين بالبراءة في مهجعنا، ولقد رأيت أن قريباً مـن نـصف الأخوة المعتقلين في المهجع قد اصطفوا أمامه وكلهم قد حكم له بالبراءة من قبل جلادي المحـاكم الميدانية ذاتها.

وظهرت الحقيقة الدامغة فالمعتقلون أحد ثلاثة: إما حكم بالإعدام فأعدم أو حكم بالإعدام المؤجل التنفيذ، أو تبين براءته وهؤلاء المعتقلون المنتمون إلى الفئة الأخيرة يبقى عليهم للمـساومة بهـم واستخدامهم في إظهار سماحة المتسلطين في التفريج عن المعتقلين في المناسبات.

٢٤ آذار ١٩٨٢

كم من مرة يخيب ظننا في هؤلاء الزبانية الأنذال، ولكن هل يرجى من العقرب إلا اللدغ، فصفات السوء والشر متمكنة من نفوسهم، لا يرعوون، وعن غيهم وظلمهم لا ينتهون، ولكن الله يسمع ويرى ما يرتكب زبانية سجن الموت في تدمر بحق المعتقلين المسالمين الأطهار وهو الغيور.

فهذه المعاملة التي ظنناها تحسنت عادت أسوأ مما كانت عليه، والكرباج اللعين لا يغيب عن الساحة، أما المحن وحفلات التعذيب المعهودة فعادت كما هي، ففي الحلاقة التي تمت لنا البارحة كان هناك تعذيب شديد منتظم حرص عليه الزبانية، حيث كانوا يهجمون على الواقفين قرب الجدار ووجوههم إليه فيجلدونهم على ظهورهم، ثم يهجمون على المنتهين من الحلاقة فيضربونهم ويعذبونهم إضافة إلى تعديات الحلاقين وسبابهم وفحشهم الذي إن دل فإنما يدل على أنهم موتورون حاقدون، وكما تبين لنا من لهجتهم وفاحش كلامهم أنهم من العلويين، وكانوا يسحبون المعتقل على بطنه ويرفسونه على خصيته أو يمسكونه منهما ويعصرهما عصراً شديداً حتى يغمى عليه وهم يسبون بفاحش القول بذيء الكلام، وكان حلاق الرأس يضرب كل معتقل يحلق له رأسه بماكينة الحلاقة ذاتها فيفتح في رأسه جرحاً كبيراً نازفاً الدماء.

إضافة إلى كل ذلك فقد تبين لنا أن بعض الزبانية جواسيس على بعضهم الآخر، ويا ويل من يضبط فيه أية رأفة بالمعتقلين.

يوم ١٣ نيسان ١٩٨٢

في هذه الأوضاع القاسية والظروف الصعبة في سجن تدمر كانت الأمراض تنتشر بيننا بكثرة، والمعاناة من مختلف الأمراض تشتد يوماً بعد يوم، أما الجروح والإصابات التي كانت تصيب المعتقلين في السجن فإنها كانت تترك لتلتهب وتتقيح مسببة شتى أنواع الآلام وأسوأ النتائج دون أن تنال أي علاج، وكانت علائم وأعراض سوء التغذية وفقر الدم واضحة جلية على جميع المعتقلين إضافة إلى عد كبير من مختلف الأمراض والأوبئة.

١٧ نيسان ١٩٨٢

تظاهر زبانية السجن ضد المعتقلين بهذه المناسبة وطافوا باحات السجن وهم يصرخون بشعارات أسيادهم، فما هم إلا أدوات تنفذ تلك الأغراض البذيئة.

ولما جاء زبانية السجن لإدخال طعام الغداء إلى المهاجع وهو كمية قليلة من الأرز المطبوخ وفاصولياء بماء البندورة، أخذ الزبانية يمنون على المعتقلين بالطعام ويدلون عليهم بأمور الله أعلم ما هي..! وقال بعض الزبانية: خذوا لنشوف خلّي يبين معكن، وقال زبانية آخرون صراحة: منا نسمع كلامكن وإيش بدكن تقولوا..؟ أي أنهم يطلبون منا أن نمجد أسيادهم ونهتف بشعاراتهم،

فقال بعض المعتقلين راؤهم بشيء من الكلام حتى يخففوا من غلوائهم.. ورد معتقلون آخرون: لا.. إن ما يفعلونه يدل على أنهم منهارون ساقطون، فلا تأبهوا بهم.

يوم ٢٧ نيسان ١٩٨٢ الجرب يعود من جديد

وفي جو الازدحام الشديد في سجن تدمر الصحراوي يجد الجرب مرتعاً خصباً فيعيش ويفرخ، ولا تؤثر فيه إجراءات العلاج الموضعية، وعندما توقف توزيع دواء الجرب نشط المرض اللعين وغزا المعتقلين من جديد واستفحل في أجسامهم، فكنت ترى الحبوب والدمامل وسهر الليل وعذاب النهار وهناك صور من الإصابات العامة الشديدة التي لم يشهد الأطباء لها مثيلاً، وكان بيننا من هو طبيب مختص بهذه الأمراض وعلاجها، ولم يكن يستطيع لعلاجها شيئاً. اخترع بعض المعتقلين العلاج بالصابون العادي والطبي يذيبونه بالماء ويضيفون إليه الزيت والملح ويدهنون به أجسامهم يومياً، ولم يغن كل ذلك شيئاً.

وكنت مصاباً بالجرب أيضاً، وأخذت أستعمل قطعة صابون طبي أدلّك بها مكان الحكة حتى تهدأ، ولم يكن يفيد ذلك إلا في عدم خدش الجلد، وكان بعضهم يضع الملح العادي فيدلك به مكان الحكة حتى يترف الدم منه، وكان.. ولم يفد كل ذلك شيئاً..

يوم ٥ أيار ١٩٨٢

أحضر الزبانية مجموعة من المعتقلين فضموهم إلينا وتبين لنا أنهم من القادمين حديثاً إلى سجن تدمر، وكان عدد هذه المجموعة خمسة عشرة معتقلاً ثالث مجموعة تصل إلينا كانت الأولى (١٠) معتقلين، والثانية (٨) معتقلين، وعلمنا منهم أن زبانية السجن نظموا لهم فور وصولهم حفل عذاب رهيب استمر عدة ساعات (عذاب الاستقبال) ضرب فيه كل منهم في الدولاب (١٥٠) كرباجاً، كما ضرب على رأسه وظهره وغير ذلك مالا يحصى من الكرابيج والعصي، وقد وضعهم الزبانية بعد ذلك في المهجع رقم (١) فبقوا فيه شهراً كاملاً والزبانية يعذبونهم في الصباح والمساء ويذيقونهم ألوان العذاب في كل حين، كما علمنا أن دفعات المعتقلين مستمرة في القدوم إلى سجن تدمر بمعدل ثلاث دفعات أسبوعياً، وأن عدد دفعتهم كان ٢٢ معتقلاً، وأن المهجعين (١ و ٢) يستعملان لتجميع المعتقلين الجدد وبعد أن يمتلئا عن آخرهما يفرغ أحدهما بالتناوب ويوزع نزلاؤه على بعض مهاجع السجن، وأن الدفعات تأتي من مختلف فروع المخابرات في دمشق وغيرها من محافظات القطر.

١١ أيار ١٩٨٢

كانت حفلة عذاب الحلاقة البارحة رهيبة قاسية، تفنن الجلادون خلالها في تعذيب المعتقلين وضربهم وإيذائهم، حيث كانوا يأخذون كل بضعة عشر معتقلاً بعد أن ينتهوا من الحلاقة

ويجبروهم على نزع ثيابهم (بالشورت) ويجعلوهم يزحفون على أكواعهم وركبهم حتى تسيل منها الدماء، وهم يضربوهم ويجلدوهم بالكرابيج.

وقد أخذ الدكتور عبد العزيز الذي كان مصاباً من قبل في رجليه منذ حفلة عــذاب الاســتقبال وبالكاد استطاع المشي منذ بضعة أيام، فعذب وجلد حتى أغمي عليه وأدخل محملاً إلى المهجــع، وكان هناك خلال هذا الحفل من العذاب زبانية مميزون نشطون في الضرب والعذاب لا يكلــون ولا يملون يحركهم حقد أسود وتدفعهم شياطين الإنس والجن.

كما أن الحلاقين كانوا يملأون الوجه بالجروح، ويقطعون منه كثيراً من الجلد، ويتركون فيه كثيراً من خصل الشعر هنا وهناك.

يوم ١٤ أيار ١٩٨٢

في الساعة العاشرة صباحاً جاء الرقيب المجرم فواز وفتح باب المهجع وصرخ بصوت قاس يأمرنا بالخروج بالشورت إلى الباحة قائلاً: لبرا ولك كلاب تنفس يا عرصات.. بالشورت.. بادرنا إلى نزع ثيابنا والخروج فلا مجال ولا مناص، وما يفعل الأسير وهو في يد عدو لا يرحم، ووقفنــا في طرف الباحة وصرخ فواز وهو غاضب ساخط: ولك حقراء.. اثنين اثنين خلال ربع دقيقة وإلا، حاولنا أن نصطف حسب المطلوب فلم نتمكن خلال الوقت المحدد، فهجم فواز وزبانيته علينــا كأنهم الكلاب المسعورة يضربون أجسامنا العارية.

ثم أمرنا فواز أن نمسح أرض الباحة وننظفها بأيدينا، وباشرنا عملية التنظيف أو التعذيب المؤلمــة، نمسح الأرض ونجمع حبات الرمل والتراب وغيره.

ولكن فواز أخذ يصرخ من جديد بغضب: ولك لورا يا كلاب.. ويأمرنا أن ننظف الأرض جيداً لأنها كما يقول لا تزال وسخة. وينقض علينا هو وزبانيته يضربوننا ويرفسوننا مع السباب وشنيع الألفاظ، واستمر الحال هكذا في تقدم وتراجع وفواز لا يهدأ له أوار، كلما تقدمنا متراً أرجعنا إلى الخلف مترين حتى ملت الأسماع الصراخ وضاقت الأنفاس من القهر والألم..

وفي النهاية لا نهاية للعذاب والقهر في سجن تدمر تخير الجلادون بعض المعتقلين فأوقعوا بهم أشــد العذاب، هذه بعض فنون فواز وأساليبه المجرمة في تعذيب المعتقلين ساعة من العذاب وكأنها دهر لما جرى فيها من بغي وكيد.

"الجلادون"

(فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)

كأننا نحن المعتقلين في سجن تدمر أموات في حساب الأحياء، أو أحياء في حساب الأموات، نودع النهار وراء النهار، والليل وراء الليل، فلا نستقبل في كل صباح إلا القضبان والجدران، والزبانية

العتاة يمنون علينا باللقيمات القليلة ويعذبوننا ويعتدون علينا في كل وقت وفي كل مناسبة، قد أدمنوا معاملتنا بالكرباج والعصا والقسوة والعنف، فهم مثابرون على إيذائنا دون كلل أو ملل، ودون تفكير أو نظر كأنهم آلات ناطقة بالأذى والشر يعملون دون عقل أو فكر، لا يفهمون ولا يسمعون (صم بكم عمي فهم لا يبصرون) الزبانية من الكبير المنتفش حتى الصغير المنتفخ المغرور، ولكنهم معروفون موصوفون ولن تخطئهم يد العدالة الربانية، وسينتقم الله منهم عاجلاً أو آجلاً، كل نفس بما كسبت رهينة إنهم أساطين العذاب والبغي والعنف والفجور في سجن تدمر المندفعون إلى الاعتداء على المعتقلين حملة الكرابيج والعصي، أصحاب الدواليب ومن أبرزهم الرقيب الحاقد "فواز" فرعون عصره في تدمر الذي طغى وبغى فلم يسلم أحد من كيده وشره.

يوم ١٩ أيار ١٩٨٢

أستاذ ومدرس قدير ومرب فاضل من مربي الجيل يبلغ من العمر (٤٠) سنة متوسط القامة أسمر الوجه أمضى في التعليم بضعة عشر عاماً ، ذلك هو المعتقل (محمد جميل ب) من محافظة إدلب.

كان الأستاذ محمد جميل مريضاً منذ بضعة أشهر دون أن يكشف عليه طبيب أو يلتفت إليه أحد، وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، ومع انهيار قوته الجسمية فإن قوته الإيمانية كانت في الذروة، فهو مؤمن بأن هذه المحنة ما هي إلا أيام وستزول وسيعقبها فرج كبير ونصر عاجل بإذن الله، وإن لم تحتم أن يعيش ليرى هذا الفرج، فالآجال بيد الله.

ولما أقعده المرض عن الحركة وصعب عليه الأمر، بكى ألماً وقهراً ولكن الأخوة انتدبوا لخدمته واختص بالعناية به زميل له ومدرس رياضيات مثله، فهو يحوطه بالعناية ليل نهار، يحمله ويضعه ويهيئ له مضجعه الخشن، ويلبي طلباته في الليل والنهار، ويغسل ثيابه ويعتني به كما تعتني الأم بطفلها.

ولكن حالة الأخ زادت سوءاً يوماً وبعد يوم، فلما كان يوم أمس غاب عن الوعي وأخذ يردد كلمات غير مفهومة المعنى، وحزن الأخوة المعتقلون في المهجع جميعاً لحاله واهتموا لما به وأخذوا يدعون له بحرارة، ولكن روحه الطاهرة انتقلت إلى بارئها قبيل الظهر، فغسلناه وكفناه بثيابه وصلينا عليه ثم أخرجناه للزبانية حيث أخذ إلى مثواه الأخير.

كانت وفاة هذا الأخ الطيب رغم ما كان يتمتع به من صحة جيدة حين مجيئه إلى سجن تدمر صدمة قوية للمعتقلين، فهو مؤشر هام على ما ينتظر المعتقلين جميعاً من هلاك سواء بالتعذيب والضرب على أيدي الزبانية، أم بالشنق أم بغيره من الصور والأسباب.

كان الصيدلي (ع) وهو شاب دون الثلاثين، رقيق الحاشية، يجلس ويمد رجليه ويقشر الدمامل المقيحة أو يفقأها، ويعتصر القيح منها.

وكنت أتألم لحاله وأقول له مازحاً: الله يعينك..

فيتحسر ويقول أنا ما شفت ولا سمعت بمثل هذا الجرب.. فأقول له: وبشر الصابرين..

وبعد أن يهدأ يسألني بعد أن يطلب مني الجلوس: تعال لعندي.. نعم خبرني كيف شايف حالك؟.. كيف وضعنا في سجن تدمر؟.. وهل إلى خروج من سبيل؟.. فأقول له: أما أن الله كريم عظيم رحيم وسنخرج من هنا بإذن الله سالمين غانمين، رغم أنف الكافرين والحاقدين.. ولا يعجبه هذا الكلام فيقول: يا أبا محمد، لماذا نحن نتكلم في الآمال.. نعم أملنا بالله أننا سوف نخرج من السجن ولكن الواقع.. أنا أريد الواقع كيف ترى هذا الواقع؟ وهل سيفرج عنا حافظ أسد وإلا (بدو يموتنا هون) وأقول: هذه بيد الله وحده، ولا يحيي ولا يميت إلا الله على كل حال هذه ليست آمال بل يقين، فالله لن يتركنا ولن يتخلى عنا ونحن بحبله مستمسكون وببابه واقفون، ويرد قائلاً: والله الصحيح أنا شايف أن الموتة هون.. ما في طلعة.. إذا ما أعدمونا بدنا نموت مرض وجوع أو عذاب وقتل، وبعد وفاة الأستاذ محمد جميل كان يقول: كلنا بدنا نلحق الأستاذ محمد جميل.

يوم ٢٣ أيار ١٩٨٢

كان من الجلادين المشرفين على عملية الحلاقة اليوم اثنان من عتاة الجلادين الأول: الجلاد صلاح - طويل أبيض (٢٢ سنة) ابن مختار قرية ساحلية قريبة من بانياس حاد الصوت - كثير الحقد على المسلمين- شديد الكره للصلاة والمصلين. والثاني: جلاد مهذار لا يكف عن الهذر والسباب والفحش وكأنه مخمور في حانة وهو يتسلى خلال ذلك بتعذيب المعتقلين.

كان الجلاد الرهيب صلاح شديد الحماس كعادته للضرب والأذى، يستعمل يديه أحياناً فيلكم ويصفع، وأحياناً أخرى يستعمل الكرباج يضرب به الظهور والرؤوس. وقد اخترع مع نفر من الجلادين العتاة ممن هم على شاكلته، أسلوبا جديداً من أساليب العذاب وذلك منذ فترة من الزمن، فكان يأخذ المعتقل من الخارجين للحلاقة، فيلكمه ويرفسه ويصفعه ثم يلقيه أرضاً على ظهره، ويجثم على صدره ويضغط بركبته على عنقه، حتى يحطم حنجرته ويكاد يقضي عليه.

اليوم أخذ الجلاد صلاح شاباً من اللاذقية وهو محام في الخامسة والعشرين من العمر يدعى (ي) فضربه وعذبه ثم ألقاه أرضاً ودعس على عنقه وظل يضغط حتى أغمي على الرجل المسكين وانقطع نفسه، ولما رأى الرقيب ما جرى صرف صلاح رفيقه عن الرجل المسكين، ثم أمر اثنين من المعتقلين أن يحملوه إلى المهجع، وفي المهجع أخذ الرجل المغمى عليه يقيء وقد انقطع نفسه، فهو يشرق بريقه ولعابه وقيئه، حتى كاد يختنق، وجحظت عيناه، واصفر وجهه وظل كذلك فترة وغدا بعد ذلك عليلاً نحيفاً. وقد طبق صلاح هذه الطريقة على عدد من المعتقلين في المهاجع الأخرى، فقتل على يديه عدد من المعتقلين، وكان الجلاد الآخر الفاحش يتسلى بتعذيب المعتقلين

بصور أخرى منها: أنه يأمر المعتقل أن يضع إصبعة السبابة على الأرض ويدور حولها بسرعة - وهو يستحثه- وكان المعتقل بعد ذلك يحس بالدوار، فيقع على وجهه على الأرض، أو يصطدم بالجدار فيشج رأسه، أو تلتوي عنقه، ومع ذلك كان يضربه بالكرباج ويسخر منه ومن ألمه، وكان مع هذا الجلاد نفر من رفاقه الجلادين، يعاونونه ويتسلون معه، فما أبشعها من تسلية.

جلادون عتاة

سجن تدمر مركز رئيسي لتدريب الجلادين على التعذيب وأساليب القسوة والعنف، هذا ما أدركنا وجوده، فمنذ مدة من الزمن كان يأتي إلى السجن الجلادون العتاة في الأماكن الأخرى مثل: مراكز المخابرات وغيرها، يأتون إلى السجن ليمارسوا بعض أساليب التعذيب على المعتقلين، ويحلو للجلادين العتاة أن يظهروا قوة عضلاهم وشدة ضرباهم ليثبتوا لأنفسهم البطولة والمهارة في اللكم والرفس، وحيث أن أغلبهم أو عامتهم من العلويين الذين تمتلئ قلوبهم بالغل والحقد الدفين، الذي لم يجدوا له متنفساً إلا في مثل هذه الحالات داخل جدران السجون والمعتقلات، فهم يمارسون ساديتهم الجبانة على المعتقلين العزل.. ويصبون أحقادهم عليهم. فنراهم في كل مناسبة يندفعون بحمية جاهلية، يضربون ويرفسون وخاصة خلال التفقد اليومي.

يوم ٢ حزيران ١٩٨٢

ينالنا في كل يوم عدة هجمات من العذاب والضرب العنيف، ومن أقسى هذه الهجمات في هذه الأيام، ما يتم خلال التفقد اليومي الذي يجري في الساعة الثانية ظهر كل يوم، ونخرج فيه إلى الباحة حتى يعدنا الرقيب كالعادة، ثم ندخل المهجع وخلال ذلك يهجم علينا الزبانية وينالون منا.

منذ بضعة أيام وخلال التفقد المعتاد انقض أحد الزبانية وبيده كرباج ثقيل وأخذ يضرب به الأخوة المعتقلين خلال دخولهم إلى المهجع، بينما يضرب آخرين في جهات أخرى، وأصاب الأخ أبا مصطفى ضربة رهيبة من هذا الجلاد على رأسه، والتف رأس الكرباج فقرع صدغه من الناحية الأخرى، فصرع الأخ المعتقل أبو مصطفى وشج رأسه، ولكن تبين لنا بعد ذلك أنه أصيب بارتجاج دماغ شديد أفقده ذاكرته بالكامل، كما أفقده السيطرة على جسمه وأعضائه، وأبو مصطفى عالم جليل، ومدرس في إحدى المدارس الشرعية المعروفة.

وفي تفقد آخر منذ يومين هجم الزبانية على المعتقل الشاب عبد القادر (١٩ سنة) طالب ثانوي، فأخذوه وضربوه وحملوه على أيديهم ورفعوه أقصى ما يستطيعون، ثم ألقوا به على الأرض الإسمنتية الصلبة، فوقع الأخ مغمى عليه وحمله زملاؤه إلى المهجع.

أما البارحة فقد انقض أحد الجلادين العتاة ويبدو أنه زائر جديد انقض علينا ونحن في صف التفقد، وهو يصرخ بحقد ويسب ويجدف ويرفس برجله وجوه المعتقلين واحداً بعد الآخر، وهو

يتلفظ بأشنع ألفاظ السباب، فكان مما قال: ولك كلاب حقراء انتو بدكن قتل كلكـــن... والله لأضربكن برشاش الشميزر كل ١٦واحد، بدي اقتلن بطلقة يا كلاب.. وحينما وصـــل هـــذا الجلاد الحاقد إلى المعتقل الأخ "أبي إبراهيم" وهو بنّاء في الخمسين من عمره، وقد خالط الـــشيب شعره وجعل له مظهراً مهيباً، فغاظه مظهره وصورته الساكنة الهادئة، فانقض عليه ورفس وجهه بقوة جعلت الدم يتدفق من فمه وأنفه، وصرخ فيه وسبه: شو جاي تسوي هون.. ما وسعك بيت أمك وأبوك ما شبعوك الخبز جاي لعندنا..!!

وكان ممن نالهم الضرب والأذى، المعتقل الأخ أبو أنس الذي أصر على أن يقف بدل أحد كبـــار السن في الصف المواجه للزبانية، فأصابه ما أصابه ولكنه لم يأبه لما أصابه، وقال لمـــن حـــاول أن يشجعه أو يعزيه: يا أخي هذا الجسم يجب أن يفنى في سبيل الله.

يوم ٥ حزيران ١٩٨٢ حمام دم

كانت الساعة تقترب من الرابعة بعد الظهر، والحر شديد والجو خانق، ونحن نجلـــس في ظـــلام المهجع، نذكر الله ونسبحه وقد مال بعض المعتقلين على بعض يتهامسون بأصوات خافتة كالعادة، كان هذا يوم آخر يكاد يمضي وينقضي من أيام سجن تدمر الطويلة الحافلة.

كانت هذه حالنا بينما كان زبانية سجن تدمر من جهة أخرى يكيدون ويمكرون، فليس لـــدرك التردي الذي يساقطون فيه من قرار، فقد عميت بصائرهم وتسلطت أهواؤهم، وما عاد للنور إلى قلوبهم من سبيل.

وما لبثنا أن فوجئنا بمجيء الزبانية، وسمعنا صوت الجلاد الفاجر فواز، وهو يصرخ: (مهجع ٣٢) ولك حقراء.. بالشورت يا كلاب)، واتبع ذلك بسيل من السباب البذيء، لم يدع عندنا شكاً في أن ما سمعناه حقيقة وليس وهماً، فأسرعنا نترع ثيابنا ونخرج، لم يكن من المتوقع حضور الزبانية في مثل هذا الوقت الذي يكونون في كسالى متخمين بعد وجبة الغداء الدسمة التي حشوا بها بطونهم.

كان الجلاد الفاجر فواز في أشد ما عرف عنه من حقد وغل، فهو يصرخ ويسب وينقض علينا مع الزبانية الآخرين، يضربوننا بالكرابيج والعصي، ويتلاعبون بأرواح المعتقلين كما يحلو لهـــم.. وفي طريقنا إلى الحمام كان الجلاد الفاجر فواز مع الزبانية ينظمون لنا في كل باحة وعند كل زاوية أو باب تمر به هجمة عذاب شرسة، من ذلك النوع الذي برع الجلاد الفاجر فواز في شـــنها علـــى المعتقلين، فيهجمون علينا كأنهم الكلاب المسعورة، أو الوحوش الضارية، ويضربوننا حتى يكلوا، وفي الحمام ذاته أخذوا ينقضون على من تصل إليه أيديهم منا فيضربونه، فتناثرت الدماء في أنحاء الحمام نتيجة جروح وإصابات كثيرة، وأصبح الحمام "حمام دم".

وفي طريق العودة كان أشد ما يثير الزبانية ويزيد في أوار هجوهم علينا، هو أننا نحمل الأخوة المصابين الذي عجزوا عن متابعة السير.

يعجز القلم حقاً عن وصف أحداث ذلك اليوم المشهود وما جرى فيه، والذي شمل التعذيب المهلك فيه جميع المعتقلين في مختلف مهاجع السجن، وقتل فيه واستشهد عدد من المعتقلين أذكر منهم: الطالب الشهيد أحمد طوير: وهو شاب حدث لم يبلغ السابعة عشرة من عمره، من مدينة إدلب، ضربه الزبانية على رأسه بالعصي حتى سقطت إحدى عينه من محجرها، فحملها وهو يكبر، حتى استشهد وانتقلت روحه إلى بارئها.

وفي مهجعنا كان هناك عدد كبير من الأخوة المعتقلين، بعضهم مصاب بكسور في الأيدي أو الأرجل، وبعضهم مصاب بجروح شديدة قاطعة في الرأس، وآخرون مصابون برضوض وجروح مختلفة. كان ممن أصيب مهندس زراعي من مدينة إدلب في الخامسة والأربعين من عمره، ناله من الجلادين عذاب شديد، ورغم سقوطه مصاباً بكسر في الحوض، لم يتوقف الزبانية عن ضربه ومنعوا زملاءه من حمله، فاضطر أن يزحف تحت الضرب والعذاب حتى دخل المهجع.

وممن أصيب المعتقل أبو إبراهيم البالغ من العمر سبعة وستين عاماً فقد كسر ساعده وشج رأسه.

يوم ٩ حزيران ١٩٨٢

كان حر الصيف أشد علينا من برد الشتاء وأصعب، حيث تشتد حرارة شمس الظهيرة حتى تصلي الأرض ناراً ولهيباً، ويغدو كل شيء ساخناً الهواء والجدران والماء، ومع الباحات الواسعة المفروشة بالأسمنت، ينبعث اللهيب فيزيد في شدة الحر رغم انقضاء فترة الظهيرة، فيكون الحر آخر النهار أشد منه في وسطه، وفي جو المهاجع المحصور كنا نعاني من ذلك الحر اللاهب.. وكان الزحام الشديد في المهاجع يجعل الأمر مشكلة خطيرة فعلاً، هذا بالإضافة إلى أمور أخرى أيضاً مثل: عدم كفاية الغذاء من ناحية الكمية والنوعية، وفساد الهواء وتناثر غبار وأوبار البطانيات القديمة المهترئة، لذلك كان كل معتقل يعاني من مجموعة من الأمراض المختلفة، وكانت نتيجة تلك العوامل ظهور مرض الالتهاب الرئوي والسعال الشديد والبصاق المدمي أو الكدر، وقد أصيب بهذا المرض وبشكل قوي، بضعة عشر معتقلاً في مهجعنا.. وكنا نحاول التخفيف عن هؤلاء المرضى، فنخصهم ببعض الأغذية المناسبة التي تأتينا رغم قلتها.

وكان رأي الأخوة الأطباء المعتقلين، أن حالة الجميع من الناحية الصحية سيئة وتنذر بالخطر، وإضافة إلى أنهم يحتاجون إلى العلاجات الفعالة بشكل ضروري، فإنهم بحاجة ماسة إلى غذاء مناسب يرد إليهم شيئاً من القوة الجسمية، ويخفف من سوء التغذية وفقر الدم الذي يعانون منه، ولكن الإصابات القصبية والرئوية كانت منتشرة بين غالب المعتقلين في المهجع المزدوج (٥ - ٦)

الذي يبلغ طوله حوالي ثلاثين متراً والذي يعيش في ظلام حتى في النهار، إضافة إلى أن الحر في ذاك المهجع لا يطاق، وأن أجسام المعتقلين تتصبب عرقاً طوال النهار، وكأن في حمام شديد الحرارة، ورغم أن الأخوة المعتقلين حاولوا بكل الوسائل الممكنة وقاية أنفسهم وحمايتها والحفاظ على سلامة أجسامهم، لكن الظروف القاسية جداً التي كانت تحيط بهم والتي يعيشونها رغماً عنهم، وهم يعيشون في ظلام المهجع أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، والكثافة شديدة فقد كان في هذا المهجع وحده ما يقترب من (٣٠٠) معتقل، والهواء فاسد متغير الرائحة على الدوام، لأن نوافذ هذا المهجع على الدوام كالعديد من أمثاله ضيقة وقليلة.

فقد جاء الزبانية يوماً وطلبوا المرضى فجأة، وحيث أننا قد جربناهم وعرفنا أن ما يبغونه في العادة هو تعذيب المرضى، لذلك لم يخرج إليهم إلا عدد قليل جداً، فإذا بهم يأخذون هؤلاء المرضى ويعرضونهم على فحص ما صوري ليقولوا بعد ذلك.. ما فيكن شيء عم تكذبوا عم تتمارضوا.

وعرفنا أنهم أي الزبانية لا يرضون أن تتدخل أية جهة في موضوع المعتقلين هؤلاء حتى الأطباء مهما كانت الأسباب، لذلك عالج الزبانية الموضوع بنقل نزلاء المهجع المزدوج (٥ - ٦) ووضع قسم منهم في المهجع (٣١) والقسم الباقي في مكان آخر، ووضعوا معتقلين آخرين عوضاً عنهم في المهجع المزدوج.

كان الأطباء يتحرجون أن يسموا هذه الأعراض بأنها (مرض السل) لأن ذلك يجب أن يقرره المختبر، ولكن التطورات الأخيرة جعلت الأمر لا يثير أي خلاف، فقد اعترف الزبانية بأن عدداً كبيراً من المعتقلين مصابون بمرض السل الرئوي الشديد.

بما أن مهجعنا يقع في أول صف المهاجع في الباحتين (٥ و ٦) فإن حفلات العذاب كانت غالباً ما تبدأ به، فما نشعر إلا والزبانية على الباب يضربون بكرابيجهم الجدران ويصرخون فينا للخروج إلى ساحة العذاب. ورغم فظاعة هذا الأمر وشناعته، فقد كنا نحمد الله سبحانه ونسجد له شاكرين، فالمؤمن يحمد الله على السراء والضراء أولاً، وثانياً لأننا بهذه الطريقة ننجو من عذاب "انتظار العذاب" وترقبه، وهو عذاب يرهق الأعصاب ويؤلم أشد من ألم العذاب ذاته.

أما المميزات العكسية فهي:

أولاً: أن الزبانية يأتون إلى مهجعنا وهم في أوج اندفاعهم وحقدهم ونشاطهم، فننال أوفر قسط من العذاب من بين مهاجع الباحتين /٥ و ٦/ سواء في حفلات عذاب الحلاقة أو الحمام أو غيره. إضافة إلى أن بعض حفلات العذاب تبدأ وتنتهي في مهجع أو مهجعين، وغالباً ما يكون أول مهجع في الباحة الذي هو مهجعنا، كما أن نوعين من الأعمال المجهدة كان يتعرض لها المهجعان الأولان في الباحتين /٥ و ٦/ هما المهجعان (٢٥ - ٣٢) وأقسى هذين العملين هو توزيع أكياس

الخبز الثقيلة، وتوزيع جاطات الأرز المطبوخ أو البرغل، وسطول المرقة، كانت أكياس الخبز على ثقلها مما يمكن حمله من قبل الفتيان النشيطين، ولكن جاطات الأرز أو البرغل كانت أثقل وأصعب على الحمل، ومع ذلك كان الزبانية ابتداء من أوائل عام ١٩٨٢ يخرجون عدداً من المعتقلين من المهجع ٢٥ ما بين /١٠ - ٢٠/ معتقلاً ونادراً ما يجاوزونهم إلى غيرهم، وكان على هؤلاء أن يتحركوا بسرعة فائقة دون أي هدوء أو التفات، ويجب أن يركضوا حتى وهم يحملون الحمل الثقيل من خبز أو طعام، وكان الضرب بالكرباج أو العصا يلاحقهم دائماً، فما ينتهون من هذا العمل المضني إلا وهم في أشد حالات الإنهاك.

وكان الزبانية يوقعون بهم أو ببعضهم على الأقل أشد العذاب دون سبب أو لأتفه الأسباب.

والعمل الثاني: هو ما يدعونه تنظيف الباحة، حيث يخرج الزبانية أيضاً عدداً من المعتقلين ما بين /١٥ - ٢٥/ معتقلاً مع المكانس وأوعية الماء، ويجب أن يتحركوا بسرعة كبيرة، يكنسون وينظفون، ومع ذلك يعتدي عليهم الزبانية بالضرب والعذاب بسبب ودون سبب.

وغالباً ما تتحول عملية التنظيف إلى حفل عذاب مرعب.. ومضت مدة من الزمن وعملية العذاب هذه تكرر يومياً..

وكان هذان العملان من نصيب نزلاء المهجعين الأولين في الباحتين وهما المهجعان (٢٥ - ٣٢) ونادراً جداً ما يجاوزها الزبانية إلى غيرها، وخاصة إدخال الطعام فقد كان غالباً وخلال فترات طويلة من نصيب نزلاء المهجع (٢٥) وكان هذا عملاً مرهقاً، إضافة إلى ما يتعرض له المعتقل خلال ذلك من عذاب.

يوم ١٧ حزيران ١٩٨٢

وكعادة الرقيب فواز فقد جاء اليوم وهو غاضب حانق عرفنا ذلك من حدة صوته وهو يصرخ قائلاً: بالشورت ولك كلاب.... وتوقعنا السوء من هذا الفاجر، وتلقانا الزبانية ونحن نخرج إلى الباحة بالضرب والسباب.. كان فواز يصرخ كعاداته، وأجبرنا على كنس الباحة بأيدينا تحت ضرب السياط وصراخ الزبانية، وكان ممن عذب اليوم: مدرس تاريخ متقدم في السن، أشيب الشعر، قد هدّه المرض وما عاناه في سجن تدمر، أخذ الجلاد يرفسه بحذائه العسكري (البوط) على ظهره وبطنه بقسوة، والمعتقل المريض يتعطفه ويرجوه أن يشفق عليه، والجلاد مندفع إلى تعذيبه غير آبه.. وعذب معتقل آخر دمشقي (صاحب معمل) اتهمه فواز بأنه رفع رأسه وفتح عينيه، فضربه الجلادون حتى أنهكوه، وقد تورم وجهه وجسمه، وعذب آخرون وآخرون، وعلى مدى ساعة أو تزيد كان أوار العذاب والضرب والصياح على أشده.. حتى حين دخولنا المهجع أمسك الزبانية بعدد منا ثم ضربوهم بالكرباج على أجسامهم العارية أقسى الضرب، وكان من

نصيبي حوالي عشر ضربات هائلة من الكرباج، وخمس على يدي، وخمس على ظهري، وقد تورمت يداي وبقي أثر تلك الكرابيج في ظهري أياماً طويلة، ولقد ذهب الزبانية بعدها إلى غيرنا من المهاجع يعذبون نزلاءه، ورغم أن العذاب قد استعر في الباحة وقتاً هو أقصر ولا شك مما تعرضنا له نحن من عذاب، ولكنا كنا خلال ذلك مشغولين بأنفسنا، نداوي الجراح، ونطمئن على أعضائنا، ولم ننس مع ذلك الدعاء لإخواننا المعتقلين المعذبين.

كانت هذه إحدى مفاجآت العذاب الذي لا ندري إلا وقد حل بنا، فلا نعلم له موعداً ولا سبباً ولا مناسبة.

من جرائم الجلاد الرقيب فواز والزبانية في سجن تدمر - حزيران ١٩٨٢

الحديث عن جرائم زبانية سجن تدمر طويل لا يكاد ينتهي مليء بألوان الفساد والشر والقسوة والعنف والعبث بأرواح المعتقلين، وكأن هؤلاء المعتقلين ذباب فهم يقتلون فيهم بغير حساب بل بمتعة وانتشاء.

كان بطل حفلات التعذيب والقتل هو الرقيب الرهيب فواز، وهو متوسط القامة دون الثلاثين من عمره، له شاربان أسودان في وجه حنطي، وهو نصيري شديد الحقد، ويتميز بصوت رفيع حاد ولهجة جبلية، رغم أنه يحاول أن (يتفاصح) ومن ألفاظه كلمة (حوص) التي لقب بها (والدكتور) أحد ألقابه أيضاً، وهو كثير الصراخ والكفر والتجديف والسباب، لذا لقبه بعض المعتقلين بـ (عيطه) وقد حق له أن يحوز قصب السبق في ميادين التعذيب في سجن تدمر لما في نفسه من غل وكيد وسعار، فكان ينشط لمراقبة المعتقلين في المهاجع في الليل والنهار، ويقوم بضبط حركاتهم وضبط المصلين والمشتبه بأنهم يصلون خاصة، وينزل بهم بعد ذلك أقسى العقاب مع مهاجعهم كلها وذلك في هجمات عذاب رهيبة.

شنق بأيدي الزبانية

أول ما عرفت هذه القضية كان خلال الحلاقة التي جرت لنزلاء بعض المهاجع أواخر سنة ١٩٨١ ثم انتشرت بعد ذلك وتكررت وطبقت على الكثير من المعتقلين في مختلف المهاجع. في شباط ١٩٨٢جاءت دورية من زبانية السجن بإمرة الرقيب فواز مع الحلاقين لإجراء الحلاقة للمعتقلين في مهاجع الباحة الخامسة، وأخذ الزبانية مع الرقيب فواز يمسكون بالمعتقل ويضعون عنقه ضمن عصا الفلقة ويفتلونها حتى يشتد حبلها على رقبته، ثم يحملونه بها حتى يختنق، ثم يلقونه وهو بين الموت والحياة.

(وعصا الفلقة هذه عبارة عن عصا خشبية غليظة مثبت عليها حبل بطول (١,٥)م مربوط من نهايته على طرفيها. ويتدلى من الوسط، وعمل هذه العصا هو ما اشتق من اسمها (الفلقة) حيث

توضع رجلا المعذب في الحبل وتفتل العصا، ويشتد الحبل ويمسك بالرجلين إلى العصا التي يمسك بها اثنان من الجلادين يفتلونها ويرفعونها، فترتفع رجلا المعتقل لتلقي ضربات الجلاد عليهما دون أن يستطيع تحريكهما أو إبعادهما، ولكن الجلادين اليوم يريدونها لعمل آخر اسمه (لعبة الشنق) وهكذا اختاروا أحد المعتقلين ممن توخوا فيه الأهمية والمكانة، فوضعوه في وسط الباحة وأدخلوا رأسه ضمن الحبل المربوط إلى نهايتي العصا وفتلوا العصا حتى اشتد الحبل على عنقه، والعصا على رقبته وهكذا أعلن فواز للمعتقل المسكين: والله لنشنقك يا كلب..

ورفع اثنان من الجلادين المعتقل بالعصا إلى الأعلى محمولاً من رقبته، فزفر المعتقل واختنق وتخالج واضطرب بقوة، وحاول بيديه الضعيفتين تخليص رقبته من الحبل الذي يضغط عليها، ولكن يديه خانتاه وغامت عيناه وغاب عن الوجود ومات، كان الجلادون يصرخون في هستيريا يسبون ويلعنون ويجدفون ويضحكون بجنون، وألقوه أرضاً لا حراك به، ورفسه فواز اللعين ووصمه بالكذب قائلاً: عمتعمل حالك ميت يا كلب؟ ولكن أنى للميت أن يجيب، فأمر فواز اثنين من المعتقلين فحملاه إلى المهجع وجيء بآخر.. ثم آخر وآخر.

كان المعتقل (ش) هو ضابط صف أحد أولئك المشنوقين وقد ألقي في المهجع إلى جانب إخوانه أولئك، وأخذ بعضهم يمسح وجهه ويدلك له رقبته، وقد أحس الحرارة في الجسم، ولكن بلا طائل، وبعد ساعتين تقريباً صحا المعتقل (ش) من إغمائه وكأنه بعث من بعد موت، ولما سئل عما حدث له قال: لا أعلم سوى أني كنت في حلم جميل.

كانت لعبة الشنق إضافة إلى عذابات أخرى تجري أمام المهجع (٣٤) وفواز منتش بنجاحه في تسعير حمى العذاب، فهو يصرخ بصوت قاس ويسب ويجدف ويشارك في التعذيب بيديه، وفي المهجع (٢٥) في الباحة السادسة والذي انتقلت إليه الدورية مع الحلاقين بعد الانتهاء من مهاجع الباحة الخامسة، بدأت الحلاقة وفواز يغلي كيداً وغيظاً وما لبث أن تفاهم مع عناصره بالنظر والإشارات، وصرخ في المعتقلين وسب وشتم وجدف، ودار الكرباج يهبد به الجلادون على رؤوس المعتقلين وظهورهم في قسوة، وجيء بعصا الفلقة، فقد أعجبت لعبة الشنق فواز اللعين والطغاة الصغار، وهكذا أخذوا أحد المعتقلين وأدخلوا رقبته في الحبل وفتلوا العصا ورفعها اثنان منهم، واشتد الهرج والصياح والهزء، والمعتقل المسكين يغالب الموت والحبل يخنقه ويحطم حنجرته وألقوه جسداً هامداً لا حراك فيه، ولم يتحرك رغم رفسات الرقيب فواز وصراخه، فلما آيسوا منه أمر فواز اثنين من المعتقلين فحملاه إلي داخل المهجع والرجل السكين يغالب الموت، وبعد ساعة من الزمن فارق الحياة.. ولم يأبه فواز ولا الطغاة الصغار بالأمر.

وأما القتيل الشهيد فيدعى أبا محمد رجل حلبي في الثلاثين من عمره، وهو واحد من كثيرين استشهدوا تحت التعذيب بهذه الوسيلة أو بوسائل وطرق أخرى، وطبعاً لم يجر أي تحقيق أو سؤال للقتلة، بل كوفئوا على ما اقترفوه من جرائم.

٢٨ حزيران ١٩٨٢ رمضان

رمضان هذا العام أشد رمضان مر علينا في سجن تدمر وأقساه، ذلك أننا لم نكن نأبه بما أحاطنا من تضييق وعذاب، وما أصاب أجسامنا من أمراض وسوء تغذية، فجاء انقطاع الماء مكملاً لسلسلة العذاب، وقد كنا نعاني سابقاً من انقطاع الماء فترات طويلة تستمر أحياناً أغلب اليوم، ولكن هذه المرة كان الانقطاع مستمراً، فها قد مضت ثمانية أيام ولم تعد المياه (إلى مجاريها) ونحن لا نجد أقل الكفاية من الماء في هذا الحر اللاهب، خاصة وأننا صائمون، فعندما يحين موعد الإفطار لا نجد من الماء ما يروي ظمأ النهار الطويل، فكان ذلك بلاء رهيباً ومحنة جديدة مضافة إلى بلاءات ومحن السجن.

يوم ٧ تموز ١٩٨٢

كم من أرواح طاهرة انتقلت إلى بارئها تشكو ظلم الطغاة وبغيهم، وإجرام وعدوان الزبانية الأنذال وفجورهم، ودمويتهم. كم يستطيب هؤلاء الزبانية أجواء العذاب والتقتيل والدم، وكم لهم من صولات فاجرة على المعتقلين الأبرياء في سجن تدمر، ولئن ظنوا أن بغيهم هذا يخفى على الناس فإنه لا يخفى على الله (الذي لا تخفى عليه خافية) وأنه سبحانه سيفضحهم ولو اختبئوا في عقر دارهم أو أعمق أوكارهم..

البارحة وخلال عملية الموت الأسبوعي (الحلاقة كان الضرب والعذاب على أشده ولم يكد ينجو أي معتقل في مهجع، من الضرب والعذاب والإيذاء ولكن أحد الأخوة المعتقلين وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر طويل القامة أسمر الوجه، اشتط عليه الزبانية في عدوانهم المنكر، فما أدخل إلى المهجع إلا محملاً ووضع في ناحية من المهجع.

كان مشوه الوجه والدماء تنزف من وجهه، محطم الجسم منهكاً، وكأن هؤلاء الزبانية الأنذال وحوش غاب أو كلاب مسعورة لا عقل لهم ولا ضمير ولا مروءة ولا وجدان.

وممن أصيب يومها الشاب اللطيف الأديب ابن العشرين عاماً المعتقل (عبد الواحد) فقد عذبه الزبانية حتى أنهكوه وأدخل المهجع ذاهلاً وقد فقد ذاكرته جزئياً وراح ينظر إلينا وإلى المهجع باستغراب وكأنه يرى ذلك المكان للمرة الأولى في حياته، وأخذ يسألنا: ليش أنا هون؟ ليش ما بروح على بيتنا؟ ولما لم نستطع أن نرد عليه الجواب بغير النظرات التائهة انخرط في البكاء وأخذت الدموع تسيل على خديه بغزارة.

يوم ١٥ تموز ١٩٨٢

خلال التنفس الذي تم لنا اليوم بالبطانيات، كان يجلس قربي في طرف الباحة الأخ المعتقل "حسين" فوق بطانياته وقد أطرق رأسه وغض بصره وسكن نصف عار، كما كان كل منا جالساً عن نفس الصورة تقريباً، كانت هذه هي صورة التنفس الذي يتم بين فترة وأخرى، والذي لم يكن يخلو في الغالب من الضرب والعذاب.

كان المعتقل "حسين" مريضاً منذ مدة من الزمن وقد ارتفعت حرارته البارحة، فكان يهذي طوال الليل، وكان لمرضه يخاف البرد، لذلك لبس بعض الثياب الإضافية فكان يلبس بنطلوناً تحت بيجامته ومع أن الجو في الخارج كان ربيعياً، إلا أن جو المهاجع البعيد عن أشعة الشمس كان أقرب إلى البرودة، لذلك كان عدد غير قليل من المعتقلين يلبسون أيضاً بعض الثياب الإضافية لأنه لم يخطر ببال أي واحد منا أن الجلاد "جهاد" سيتخذ ذلك ذريعة لتنفيذ غاية في نفسه وأمر بيته من قبل ، خاصة وأن الجلاد "جهاد" كان قد قال لنا مرة: ولك لا تلبسو ثياب كثير حتى ما تقملوا. وقد عجبنا يومها من نظريته غير المنطقية.

قام هذا الجلاد المجرم إلى المعتقل حسين وصرخ فيه: ولك ليش لابس بنطلون.. وأخذ كرباجاً وانقض عليه يضربه ويهبد به ظهره العاري، والأخ المريض يئن ويصرخ ويرتجف تحت وقع الضربات حتى أنهك.

وبتوجيه هذا الجلاد أخذ الزبانية ينقضون على هذا المعتقل أو ذاك ويضربونه أقسى الضرب بحجة أنه يلبس ثياباً إضافية ثم عادوا يضربون الأخ حسين ويعذبونه حتى اضطر إلى خلع ذاك البنطلون وإلقائه بعيداً قدر ما يستطيع.

٢٤ تموز ١٩٨٢ (حفلة عذاب ليست الأخيرة في سجن تدمر)

اشتد الحال في سجن الموت وحمي وطيس العذاب حولنا، ولليوم الرابع على التوالي كان الزبانية يطوفون على المعتقلين في المهاجع المجاورة ويعذبونهم ونحن نسمع أصوات المعذبين وصرخاتهم الواهلة وهبدات الكرابيج على أجسادهم وغيره من أصوات العذاب.. فترتفع أيدينا إلى السماء وتتوجه قلوبنا إلى الله سبحانه ندعوه ونستغيثه ونستعينه ونستنصره ونتوكل عليه وحده.. وكنا نتوقع أن يأتي دورنا وأن يحل بنا العذاب بين لحظة وأخرى..

وفي صباح اليوم جاء الزبانية وعلى رأسهم الرقيب المسمى (جهاد) وصرخوا فينا أن نخرج إلى الباحة بالشورت.

كان ظناً رجونا أن يصدق وهو أن المقصود هو أخذنا إلى الحمام، ولكن الرقيب جهاد وجهنا إلى داخل الباحة ثم أمرنا أن نمشي مشي البطة.. ولمحنا عند ذلك العدد الكبير من الزبانية والكرابيج

في أيديهم.. فما لبث هؤلاء أن انقضوا علينا يضربوننا، فكانوا لا يتركون المعتقل حتى يتمزق ظهره وتسيل منه الدماء وينقلب لونه من الأبيض إلى الأسود الكالح والأحمر الكامد. وبعد ساعة من العذاب دخلنا المهجع مجرحين ممزقين فماذا نفعل لقد قررنا أن نسجد لله رب العالمين فله الحمد على كل حال.

وهذه الحفلات الدموية أمر روتيني في سجن تدمر.

٥ آب ١٩٨٢

طلب عدد كبير من المعتقلين للإعدام وأخذوا مع شروق شمس هذا اليوم ١٩٨٢ وكان مهجعنا أقرب ما يكون إلى مكان الإعدام، كان الصمت التام يلف المكان، وغابت جميع الأصوات والحركات المعهودة في باحات السجن سوى ركض بعض العساكر مسرعين يقرعون بأحذيتهم الثقيلة أرض الباحة، كان كل شيء يوحي بأن العملية الرهيبة على وشك أن تتم فعلاً.

أخذنا نسمع الحركات المعهودة حين الإعدام مثل تحركات الجلادين، ثم بعض الأصوات القليلة التي تبدأ بين الفينة والأخرى، وصوت آخر سمعناه قبل هذه المرة ولم نعرف له معنى! ولكن في هذه المرة أصبح لدينا تصور جديد عنه..

إنه صوت آلة جديدة للإعدام يستعملها جلادو سجن تدمر ويبدو أنها ليست بحاجة إلى كثير تعب، كانت تصدر حين تشغيلها صوتاً يشبه الضرب بالرجل على الأرض، وكان هذا الصوت يتكرر بين الفينة والأخرى. ونسمع بعض الأحيان ضحكة هستيرية مجنونة رغم رهبة الموت المسيطرة، إنهم المجرمون العتاة فقط الذي يضحكون، ومن يحلو له الضحك في مثل هذا الموقف غيرهم، كما كنا نلاحظ أيضاً أصوات اضطراب وارتطام وزفير شديد. وانطلقت صرخة واحدة شقت السكون ثم اختفت.

فما هذه الآلة الجهنمية الجديدة التي تختطف الأرواح...؟؟

وأمر آخر كان قد تكرر مرات ونحن في أشد الاستغراب والعجب منه هو اختفاء أصوات التكبير... من قبل المعدمين..

كان الذهول والحيرة يسيطران علينا، وكان الألم والقهر يعتصر قلوبنا، فلا ندري ماذا نقول ولا نفعل سوى التسليم إلى الله والدعاء له سبحانه والاستغاثة به.

وكان يحيرنا أكثر وأكثر موضوع انقطاع التكبير حتى نقل إلينا أحد المعتقلين الذين شاهدوا عمليات الإعدام، وكيف أن جلادي سجن تدمر قد أزعجهم وأقلق خاطرهم صوت تكبير الشهداء ساعة الإعدام، بل وأرعبهم بقوته وعظمته وبالإصرار الذي في، لذلك فإن الزبانية أخذوا منذ مدة، يضعون على أفواه المعدمين شريطاً لاصقاً (بلاستر) يسد أفواههم ويمنعهم من صراخ

التكبير، وحدثنا عن مشاهدات رآها في ساحة الإعدام، وكيف أن بعض زبانية السجن كانوا ينقضون على الشهداء بعد أن تفارق أرواحهم أجسادهم فيمثلون بهم، وكيف أن حبل المشنقة كانت عبارة عن حبل رفيع (مرسه) من خيوط النايلون، وإنها كانت تؤدي في بعض الأحيان إلى قطع حنجرة الأخ المعدم. والذي كان يتعذب حينذاك فترة طويلة، هو الذي يزفر من حنجرته المقطوعة..

تتالت أفواج الشهداء المعدمين في الباحة الخامسة في سجن تدمر وكأن الطغاة المجرمين يسابقون الزمن ليقضوا على أكبر عدد من المعتقلين (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

٧آب ١٩٨٢ هدوء معتقل

من ذا الذي يغتر ويلمس الثعبان اللين الناعم الأملس وينسى ذلك السم القاتل في أنيابه فإنه ذو طبع غدار لا يتغير ولا يتبدل، لم يمض إلا وقت يسير على الانتهاء من إعدام فوج كبير من المعتقلين في خفاء سجن تدمر حتى شعرنا أن الزبانية يريدون أن يغطوا على قضية الإعدام وعلى غيرها، فهاهم يبدون تساهلاً ولينا، ولكن هيهات فإن اليد الملوثة بالدم البريء لن تغسلها مياه الدنيا.

وفيما تلا ذلك من أيام كنا نشعر من معاملة الزبانية أن في الجو شيئاً، وأن يد الله تعمل في الخفاء.. فأكرم بموعود الله..

جاء الزبانية اليوم لإخراجنا للتنفس وفتح الرقيب الباب وقال: تفضلوا تنفس، إنها كلمة ما شبهناها إلا بالكلمة التي قالها عمر قبل إسلامه لزوجة المؤمن المهاجر عبد الله بن جحش حينما جابهته بإيمانها القوي غير ملتفتة إلى جبروته وعنجهيته.. فقال لها برقة (صحبتكم السلامة) ولكن. إنها عناية الله وإنها قدرته التي تذل الجبابرة وتقصم ظهور الأكاسرة والقياصرة.

١١ آب ١٩٨٢ المرضى

بعد شهور طويلة من المرض والعذاب جاء زبانية السجن وطلبوا مرضى الجرب، فخرج عدد منا للعلاج مع أن الجميع كانوا مرضى، وهكذا أعطي هؤلاء بعض العلاج مرتين أو ثلاثاً ولكن الشر المتأصل في نفوس زبانية سجن تدمر وطبيعة العقارب والأفاعي تأبى أن تغادرهم، فما لبثوا أن انقضوا على مرضى الجرب هؤلاء وأخذوا يضربونهم، وكان أول من وقع به العذاب في الباحة مهجعنا، فأجبرونا أن نمشي مشية البطة على جنبات الباحة مع الضرب، ولما عجز بعض المرضى من المسنين والمصابين بالفتاق مثلاً لم يرحموهم بل أجبروهم على السير تحت الضرب الشديد، وأخطأ الصيدلي المريض (ع) فكان نصيبه حفلة عذاب ساخنة، وأجبرونا جميعاً أن ندوسه بأقدامنا وهو ملقى على الأرض.. وقد حرم كثير من الأخوة المعتقلين على أنفسهم العلاج بعد ذلك،

ورضوا بالمرض فهو أرحم من تعذيب زبانية سجن تدمر، وذهب الزبانية يدورون على المهاجع يطلبون المرضى فإذا خرجوا إليهم أنزلوا بهم أشد العذاب، حتى إذا جاء الزبانية مرة ثانية يطلبون المرضى والكرابيج في أيديهم رد عليهم رئيس المهجع: ما في حدا مرضان ولا حدا جربان.. وانتشى الزبانية بانتصارهم.. وانتعشوا.

١٥ آب ١٩٨٢ "رؤى مبشرة"

إن الله سبحانه يتولى بعنايته ورعايته ولطفه وكرمه أولئك المعتقلين الأبرار المنيبين إلى الله اللائذين بحماه، فهم على نور ورضا وطمأنينة قد أنزل الله عليهم سكينته وحفتهم ملائكته وذكرهم في ملئه الأعلى. وقد أكرمهم الله سبحانه بالرؤى الصادقة بشرى وتثبيتاً وإكراماً لهم من الله تعالى. فقد رأى أحد الأخوة المعتقلين النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا واضحة جلية ولم يكن الأخ الكريم بالذي يريد الظهور فأخفى أمرها إلا أنه للترويح وتبشير إخوانه حدث بها أحد إخوانه المعتقلين وطلب منه عدم نسبتها إليه.

كان مضمون الرؤيا كالتالي: رأى الأخ المعتقل النبي صلى الله عليه وسلم وحادثه طويلاً وقال له النبي صلى الله عليه وسلم : الفرج قريب.. إن هي إلا أيام.. ثم أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: لا تكثروا من الكلام واللغو، وأكثروا من الذكر والتسبيح والدعاء وقراءة القرآن.. مع وصايا أخرى... وقد تفاءلنا كثيراً ببشارة النبي هذه، وأيقنا أنها لا بد أن تحدث فرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق.

الإفراج

في يوم الثلاثاء بعد الفطور من تاريخ ١٩٨٣/٨/١٨ كنت قد نويت الصيام وقمت إلى حصتي من الفطور - ربع كأس من الشاي. وست حبات من الزيتون فصررتها في قطعة صغيرة من النايلون ووضعت الشاي في كأس البلاستيك ووضعته في جانب من المنافع.

وكان الإخوة يتناولون طعام الإفطار والساعة تشير إلى السابعة صباحاً حين نودي في المهاجع البعيدة على بعض الأسماء وهذا في حد ذاته أمر غريب، ففي هذا الوقت أو ما قبله إنما ينادى على أسماء المعدمين.. فوقفنا وجلين وتنصتنا حذرين، فإذا بعض الأسماء تعرف من قبل بعض الإخوة المعتقلين وأن أصحابها ممن حكم القاضي ببراءتهم منذ زمن بعيد...؟ إذاً ما الهدف من طلب جهاز السجن لهؤلاء...؟ لعله الإفراج!!...

وتحفز الإخوة في المهجع وجاء الرقيب إلى باب مهجعنا ونادي بعض الأسماء، ونشط المهجع يريد أن يودعهم فرحاً لإفراج طال انتظاره حتى لمن حكموا بالبراءة من قبل القضاة الجلادين.

ونودي على اسمي فجأة لم أكد أصدق أذني فأسرعت بالإجابة - حاضر - وأسرعت إلى الباب فتثبت الرقيب من اسمي وأمر من نودي باسمه أن يجهزوا أنفسهم ولم يقل شيئاً. فأسرعت إلى مكاني جاء الإخوة يعانقونني ويودعونني: لا تنسنا أبا محمد، وقال أبو أنس: ادع لنا يا أبا محمد إنه يعني ما يقول.

وكيف أدعو لكم يا أبا أنس فهذه: الكلمات هي الدعاء وهي النداء وهي البيان: فلعل هذه الكلمات تكون دافعاً لكرة الظلم والظالمين بما تصف وتكشف من بغي وجور وظلم وظلام. ولعل هذه الكلمات تثير في الإنسان روحه الإنسانية ونفسه الخيرة وشهامته ومروءته، فيكون من مبعد ذلك مندفعاً إلى كل خير مندفعاً إلى خير نفسه ومجتمعه وبين جنسه، أما الكافرون بالحق والدين فلن تزيدهم هذه إلا فجوراً وضلالاً وعمي (فمثلهم كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث).

جمع عدد من المحكومين بالبراءة من مختلف المهاجع وساقونا إلى باحة المكاتب فأجلسونا في طرف منها، وأخذ كاتب هناك يتحقق من أسمائنا وأرسل في طلب من لم يحضره السجانون من المعتقلين، ثم أدخلنا الغرفة المشؤومة غرفة الانتظار قرب المدخل. فإذا هي قد طليت بدهان زيتي أبيض يخفي تحته سواداً وأوساخاً وآلاماً، وها هي الجدران الحجرية مشوهة غير مستقيمة تشي بأنها طليت طلاء زائفاً، من هنا مررت منذ عامين.. عامين من العذاب والقهر والآلام والموت.. عامين لم أمت فيهما لأنه لم ينته أجلي، وها أنا ذا شبح إنسان أنهكني المرض والنحافة والجرب والسعال والتهاب الرئتين الشديد والتهاب الكلي والبيلة الدموية، والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار، إن لله في رقابنا عهوداً قطعناه ولن نخونها: أن نكون لله عاملين وعلى دينه مستقيمين ولنبيه متبعين مقتدين لا نمالئ الظالمين المجرمين، نحارب الظلم والظالمين، نجاهد في الله حتى يأتينا اليقين شهداء، إن شاء الله رب العالمين.

خرجنا من باب سجن تدمر الكالح وتسلمنا عناصر المخابرات ونقلونا بسيارات مغلقة كل معتقل إلى المحافظة التي اعتقل فيها، وبعد بضعة أيام في زنزانة المخابرات جاء خلالها زبانية المخابرات ليتفقوا معنا على صيغة للوشاية بكل من يحمل أفكاراً لا توافقهم، فلم نلتفت إلى ذلك حقاً فنحن نعرف الحقيقة ونعيها. ثم أفرج عنا.

كاد الأهل يصعقون لتلك المفاجأة التي ما كانوا يتوقعونها، وضج الناس بالبكاء وهم يرون أمامهم شبح رجل عاد إليهم من العدم، ولقد رأيت أحد الشيوخ يحدق بي بعينيه الكليلتين وهو دهش، يتمتم لنفسه: "كأنه خارج من قبر".

كان منظري حينها مرعباً حقاً فوزني الذي كان قبل الاعتقال /٨٥/ كغ إذا بــه الآن ٤٥ كــغ فقط، ووجهي شاحب وعيناني غائرتان وخداي بارزان ويداي نحيفتان معروقتان، وبكى أبي الشيخ الكبير وبكى الناس من حولي، فأبكوني لبكائهم حتى ما عدت أتمالك نفسي.

فإذا كانت هذه حال عائلة واحدة فكيف هي أحوال آلاف العائلات المنكوبة بفقد أبنائها، وهل يهنأ لي عيش مع أهلي وعيالي وأنا أرى آلام الأهل والعيال على أبنائهم ومعيليهم، وأعرف مــا يعاني أبناؤهم في سجن الموت سجن تدمر العسكري الصحراوي؟؟

نظام الممنوعات في سجن تدمر

نظام الممنوعات في سجن تدمر وسيلة من أكبر وسائل العذاب في هذا الــسجن وهــو مؤيــد بالتعذيب وأجواء الرعب المسيطرة في ذلك المعتقل الرهيب. ويبدو أن الغاية من نظام الممنوعات هي إيقاع المعتقل المسكين في وحدة عميقة من الانقطاع التام عن الدنيا، وشل عقلــه بالعــذاب والرعب، لينضبط لهذه النظم من ناحية مع التكدير المستمر من ناحية أخرى، بحيث ينسى المعتقل كل شيء، فلا يفكر إلا فيما يلقاه من أهوال ويسيطر ذلك على فكره فيشوشه، وعلــى نفــسه فيعقدها، وعلى جسمه فيضعف ويهزل ويبقى صورة مهزوزة للإنسان، مع إعدام كل ذي خطر (في رأيهم).

أما الممنوعات في سجن التصفية الجسدية هذا فهي كثيرة جداً لذا فــإن الأســهل هــو ذكــر المسموحات ولكن بما أنها غير موجودة أصلاً ولا عرف منها شيئاً فلا بد من تعديد بعــض أهــم الممنوعات، إلا أن هناك مسموحات من نوع آخر، وهي خاصة بالجلادين ومسؤولي السجن فهم حائزون على الدعم الكامل في ممارسة كل ما يمكنهم من فنون العذاب والتقتيل التــضييق علــى المعتقلين.

وأهم الممنوعات في سجن تدمر هي:

١ - منع الكلام بتاتاً وخاصة مع العساكر الجلادين، كما أنه ممنوع على العساكر أنفسهم الكلام مع المعتقلين أو سؤالهم عن أسمائهم أو تهمهم.

٢ - ممنوع رفع الصوت والتكلم بشكل عادي في المهاجع، ولا يجوز أن يسمع مــن المهجــع أي صوت وإلا تعرض لأشد العقوبات.

٣ - ممنوع أن يتكلم المعتقلون مع بعضهم بعضاً حتى لو كان ذلك بصوت خفــيض لا يــسمعه أحد، ومن يضبط وهو يحادث جاره يعاقب الاثنان عقوبات شديدة، وقد تعم العقوبة المهجع كله.

٤ - ممنوع الحركة والتجول في المهجع نهاراً، إلا للحاجات الضرورية وكافة الحركات الرياضية منوعة. والتجمعات والحلقات ممنوعة.

٥ - ممنوع استعمال الأسماء سواء من قبل العساكر ومن قبل المعتقلين، إلا أن يكون طلباً من جهاز السجن.

٦ - يمنع وجود أي نسخة من القرآن الكريم منعاً باتاً.

٧ - الكتابة ومستلزماتها ممنوعة فالأقلام والدفاتر وسائر أنواع ورق الكتابة ممنوع.

٨ - الكتب والصحف المجلات وكافة أنواع المطبوعات ممنوعة منعاً باتاً.

٩ - الراديو والمسجلة وكافة الوسائل السمعية أو البصرية ممنوعة منعاً باتاً، ولا يجوز أن تجتاز جدران سجن تدمر بتاتاً.

١٠ - الزيارات: زيارة الأهل أو غيرهم للمعتقل ممنوعة منعاً باتاً، وقد دفع بعض الناس مبالغ خيالية ورشاوى للمسؤولين حتى تمكنوا من زيارة معتقليهم.

١١ - الرسائل من و إلى المعتقل وسائر أنواع الاتصال أو إرسال الأغراض أو الحاجيات ممنوعة منعاً باتاً.

١٢ - العبادة والصلاة (خاصة) والوضوء كل ذلك ممنوع منعاً باتاً. والعبادة هي الملاذ الروحي للمعتقل، يقصد بمنعها إفقاد المعتقل هذه الناحية الهامة التي تقوية وتثبته وتعينه على ما يلقاه من محن وآلام.

١٣ - فتح الأعين والنظر في وجوه الشرطة ممنوع، ويمنع النظر إليهم تحت طائلة التحطيم والتعذيب الشديد.

١٤ - يمنع السهر بالليل بل يجب أن يكون الجميع نائمين من السادسة مساء حتى السادسة صباحاً، ويمنع النوم أو الإضجاع نهاراً، وتمنع الحركة ليلاً ويتعرض من يتحرك لعقوبات شديدة.

١٥ - الإبر والخيطان ممنوعة وكذلك الدبابيس.

١٦ - الملاعق ممنوعة وكذلك كافة الأدوات المعدنية.

١٧ - ممنوع الحركة في وجود الشرطة، ويجب أن يكون الجميع واقفين باستعداد مغمضي العيون منكسي الرؤوس.

١٨ - الدخول للمنافع لأكثر من واحد ممنوع ليلاً.

١٩ - الاتصال مع المعتقلين في المهاجع الأخرى ممنوع.

٢٠ - كما يمنع نظام السجن المعتقلين من الحصول على أي مواد طعامية.

٢١ - ممنوع تجبير الكسور ومن شوهد أعيد فك الأربطة البدائية عن الكسر. وهكذا في سلسلة لا آخر لها من الممنوعات.

أسباب ومناسبات وأنواع العذاب في سجن تدمر

لا ادري بأي منطق يسوغ تعذيب الإنسان أو بأي سبب يرتكب التعذيب بحق المعتقلين في سجن تدمر.. حتى الموت بلا حدود وفي استمرارية منتظمة، نعم إن نظام سجن تدمر إنما هو برنامج عذاب وإرهاب وتقتيل يستغرق الليل والنهار يذيق المعتقلين أفانين القهر والموت والمرارة.

أما ما هي الأسباب لكل هذا فهذا ما لا يمكن الإجابة عليه، ولكن هناك نقاطاً يمكن تحديدها وتمييزها لأسباب العذاب، سواء ما كان منه داخلاً ضمن نظام سجن تدمر، أو هو من نوع آخر إضافي..

كما أن هناك المناسبات المستخدمة للعذاب وهي نقاط ومناسبات تزخر بها أيام سجن تدمر ولياليه.

أما أنواع العذابات فهي عديدة أيضاً ولندخل في التفاصيل.

أنواع التعذيب في سجن تدمر

١ - التعذيب بالجلد على الرجلين بالكرباج بعد وضع المعتقل في الدولاب وضبط رجليه بعصا الفلقة.

٢ - التعذيب بالجلد بالكرباج على الجسم العاري والظهر والصدر والجانبين، أو الضرب بالكرباج على الرأس.

٣ - التعذيب بالجلد بالكرباج على الأيدي وجهاً وقفا.

٤ - التعذيب بالخنق باليدين أو الشنق بعصا الفلقة المذكورة سابقاً، أو بالدوس بالحذاء على الرقبة أو الضغط على الحنجرة بالركبة.

٥ - التعذيب باللكم والرفس والدوس على مختلف أنحاء الجسم.

٦ - التعذيب بالضرب بالعصا الغليظة قطر (٧ - ٨سم) وطول (١,٢٥)م على الظهر أو الرأس أو الأطراف أو البطن.

٧ - التعذيب بالوخز بالمسلة وراء الأذن وفي الآليتين والكتفين والوجه وغيره.

٨ - التعذيب بالضغط على الخصيتين أو رفسهما.

٩ - التعذيب بالضرب بالحذاء على الوجه.

١٠ - التعذيب بوضعية الجلوس، حيث يجبر المعتقلون على الجلوس بأوضاع مرهقة فترات طويلة منها: جلسة السجود واليدان خلف الظهر، ومنها القرفصاء واليدان خلف الظهر والرأس محني بشدة والقدمان منصوبتان وغيره.

١١ - التعذيب بالأعمال الرياضية المجهدة: رقصة روسية (التمرين السادس) - مشي البطة – القرفصاء - سير القرد - الضغط وغيره.

١٢ - التعذيب بوضعية الوقوف على رجل واحدة واليدان مرفوعتان إلى الأعلى ساعات طوالاً.
١٣ - التعذيب بالتجويع وقلة الطعام كماً وكيفاً.

جهاز معتقل تدمر العسكري الصحراوي

يتألف جهاز سجن تدمر العسكري الصحراوي من سلسلة من الرتب العسكرية من ضباط وصف ضباط وجنود ومجندين وجميعهم من الشرطة العسكرية، ويتبع هذا الجهاز الطباخون وهم عساكر أيضاً. والبلدية وهم سجناء عسكريون قضائيون يستخدمون لأعمال الخدمة في السجن.

يتم انتقاء عناصر جهاز سجن تدمر من النصيريين الطائفيين أو من عناصر حزبية موالية تماماً، أو من البدو، وقد اخضع عناصر هذا الجهاز لدورات تدريبية على فن التعذيب كما يخضعون لعملية توجيه مستمرة تجعلهم في غفلة عن واقع الأمر الذي يعيشون فيه. وعلى رأس جهاز السجن هذا:

أ - مدير السجن: الرائد المجرم فيصل غانم "٣٤" سنة نصيري طائفي متوسط القامة ممتلئ الجسم حليق الشاربين.

الرائد فيصل يتميز بالقسوة البالغة الدموية يملأ قلبه حقد اسود على المعتقلين، لذا فهو مولع بحفلات التعذيب الصاخبة ومولع بصراخ المعذبين لا يرتاح إلا إذا سمع صوت ضرب الكرباج وعويل المعذبين من باحات السجن. وهو متكبر متغطرس لا يكلم مرءوسيه إلا باستعلاء واحتقار دون أن يلتفت إليهم. والرائد فيصل من المقربين من الطاغية أسد وممن يثق بهم كثيراً.

وقد هيئت له كافة الإمكانيات ليقوم بمهمته في ضبط معتقل تدمر والسيطرة عليه والتعتيم على ما فيه. وعززت إمكانية المجرم فيصل بأن أسند إليه منصب قيادة سرية التأديب الموجودة في نفس الثكنة التي يقوم فيها سجن تدمر، ومنصب ضابط أمن المطار العسكري الذي لا يبعد عن مدينة تدمر إلا ٢كم تقريباً، وزوّد أيضاً بهاتف خاص يتصل مباشرة مع مكتب الطاغية حافظ أسد.

ب – معاون مدير السجن: وهو برتبة نقيب. طويل القامة حنطي اللون، وهو ضالع أيضاً في جرائم سجن تدمر.

جـ - ضباط الصف ويبلغ عددهم حوالي (١٥) ضابط صف عرفنا منهم:

١ – المساعد الأول أحمد ٣٤ سنة، متوسط القامة، أسمر ملئ الجسم، له صوت رفيع حاد مميز، وهو من بلدة القريتين التابعة لمحافظة حمص.

ويتميز هذا المجرم بأنه شديد القسوة والجشع والمخادعة، فهو الذي يقود عمليات التعذيب، ويوجه الجلادين ويدفعهم، وكان لا يتوانى عن سرقة أموال المعتقلين. نقل من سجن تدمر في أواخر عام ١٩٨١ وخلفه الرقيب علي شعبان في منصب رئيس الانضباط، يعاونه الرقيب الأشقر.

٢ – الرقيب علي شعبان ٣٢ سنة، أسمر طويل القامة، نصيري طائفي، وهو معتز بنفسه، نــزق غضوب، وإذا غضب اشتد شره وأذاه.

٣ – الرقيب الأشقر: ٣٠ سنة، ممتلئ الجسم، نصيري طائفي.

٤ – الرقيب جهاد: ٣٠ سنة، متوسط القامة، ممتلئ الجسم أسمر، يلبس الثياب الضيقة، متعجرف لا يأبه بأرواح المعتقلين، مندفع إلى تطبيق برنامج التعذيب على المعتقلين.

٥ – الرقيب الأول فيصل: ٣٠ سنة، نصيري طائفي، متوسط القامة أسمر اللون، متكبر متبختــر نشيط في برنامج التعذيب.

٦ – العريف فواز حسين: عمره ٢٨ سنة، متوسط القامة، أميل إلى النحافة، له شاربان رفيعــان أسودان وصوت حاد، وهو نصيري متعصب مليء بالحقد، ميت الضمير. كان مولعــاً بتعــذيب المعتقلين وإيذائهم، وممارسة شتى صنوف البطش والإرهاب عليهم، لا يرعوي عن سفك دمائهم البريئة بشغف زائد، ولا يرعوي أمام جلال الموت الرهيب. وقد رقي فــواز بنــاء علــى هــذه المواصفات إلى رتبة رقيب.

٧ – الرقيب منير: (نصيري).

٨ – الرقيب علي ديوب: (نصيري).

٩ – العريف شعبان: ٢٥ سنة، طويل القامة ممتلئ الجسم، أسمر اللون، أجش الــصوت، وهــو نصيري ملحد فاجر شرير، مليء بالحقد. يتميز من بين جلادي سجن تدمر بأنه كثير العنجهيــة، بالغ القسوة والعنف على المعتقلين، فهو من عتاة الجلادين في سجن تدمر، وفي رقبته كــثير مــن الدماء والأرواح البريئة التي قضى عليها.

١٠ – الرقيب عادل: ٢٥ سنة، أسمر، نصيري.

١١ – العريف الأشقر: ٢٤ سنة، ممتلئ الجسم، أشقر نصيري حاقد شرير، قتل معــتقلاً صــغير السن يدعى أحمد طوير، أثناء الحمام.

١٢ – العريف (ولي): وهو لقب له لأنه يتلفظ بكلمة: ولك باللهجة الجبلية ولي، وهو في العقد الثالث من عمره، متوسط الطول أبيض ممتلئ الجسم، نصيري.

١٣ – المساعد ذو الشاربين الكبيرين وهو رئيس قلم السجن.

١٤ – المساعد أبو بسام (الممرض): وهو أسمر طويل القامة، يعمل بنشاط في مهنته، يخفــف آلام السجناء ومعاناتهم.

د – العساكر الجلادون، وهم من عناصر الشرطة العسكرية، ويبلغ عددهم حوالي ٣٠٠ عنصر.

أغلب هؤلاء من النصيريين، وبعضهم من الشوايا والبدو، وبعضهم من الحزبيين الموالين، وجميعهم يهيمن عليهم فكر خبيث موجه، وجهل بالحقائق مطبق.. ويغلب على أكثرهم أصلاً فجور وسوء خلق وانحلال ذاتي. استغله أسيادهم فتراهم مندفعين إلى عملهم الإجرامي بلا شعور أو تفكير..

من هؤلاء الجلادين نفر تميزوا بالعتو والإجرام، واشتهروا بنشاطهم واندفاعهم إلى إيذاء المعتقلين والإعنات عليهم، وممارسة شتى صنوف القمع والإرهاب عليهم ومن هؤلاء:

١ – الشرطي سمير المقلب (حيو): في العشرين من عمره، أسمر الوجه نحيف الجسم، له شاربان أسودان مبرومان في وجه متطاول وهو سكير فاجر، كان يردد دائماً مجون السكارى، ويكثر من ترديد كلمة (حيو) التي لقب بها بعد ذلك..

والجلاد (حيو) باطني حاقد يمقت المعتقلين أشد المقت، ويسبهم بألفاظ بذيئة، ويتوعدهم بالشر والسوء، وهو شرير مجرم ينتهز كل فرصة للانقضاض على المعتقلين وصليهم بصنوف الضرب والإيذاء بنذالة لا مثيل لها.

٢ – الشرطي صلاح: في الثانية والعشرين من عمره، متوسط القامة أبيض اللون أجش الصوت، وهو نصيري من قرية حريصون القريبة من بانياس على الساحل السوري، وهو كسابقيه من الجلادين معروف بالحقد فالغل والفجور والتجرد من كل الصفات الإنسانية، وحين يصرخ الجلاد صلاح في المعتقلين فإن صوته يشي بما في قلبه من غل وحقد وسعار على المعتقلين.. كما كان لا يتمالك نفسه فينفث ما في قلبه من حقد على المصلين إيذاءً وسباباً بذيئاً وتهديداً بشكل علني صريح، فكان يصرخ مهدداً وهو يغلي غيظاً وغضباً ويقول: "والله اللي ميصلي لفضي التلاتين ببطنو".

٣ – الشرطي نعيم: طويل القامة أسمر الوجه، عمره قريب من الخامسة والعشرين، موطنه الأصلي الجزيرة الفراتية، وهو من طائفة الآشوريين، فهو ملحد فاسد العقيدة وهو فظ الأخلاق ملئ بالشر، لا يقل عن أقرانه السابقين في السوء والإجرام.

٤ – الشرطي (وجيه) في العشرين من عمره، قصير القامة حنطي اللون، وهو نصيري حاقد لئيم، يندفع إلى تعذيب المعتقلين وإيذائهم في كل مناسبة، وكان مظهره يوحي بأن عمره لا يجاوز الخمسة عشرة عاماً لذا كان بعض الرقباء ينادونه قائلين: يا صغير. وكانت تصرفاته تتسم بالسخافة والصبيانية، منها أنه كان يجبر رئيس المهجع أن يلبس حذاء (شحاطة) ثم يقدم له الصف في المهجع، وهو يضرب رجله بالأرض وكانت مجمل تصرفاته توحي بالغرور والحقد والجهل الذي يملأ رأسه.

٥ – الشرطي النصراني: وكان يظهر أو يدعي كراهية للتعذيب ولا يتورع عن فعلـــه وتعـــذيب المعتقلين.

أما الجلادون الباقون، فمنهم من لم يبرز ولم يشتهر اسمه في مهجعنا، ومنهم من كان يحرص علـــى التعمية وعدم معرفة اسمه، حتى كان بعض هؤلاء الجلادين يغيّر صوته ويخاطبنا بأصوات مختلفة.

أعداد المعتقلين في سجن تدمر

صرح أحد الرقباء العاملين في سجن تدمر من الذين يقومون بضبط أعـــداد المعـــتقلين، خـــلال مناوباهم في معرض تسخطه أو تفاخره بعمله أنه يعمل في سجن يحوي أكثر من (٣٥٠٠) معتقل، كان ذلك في أواسط ١٩٨١ وكان متوسط عدد النزلاء في المهجع الواحـــد (١١٠) معـــتقلين تقريباً، وعدد المهاجع المستعملة في السجن (٣٢) مهجعاً، وكان الحساب التـــالي ٣٢×١١٠= ٣٥٢٠ معتقلاً. وفي نهاية عام ١٩٨١ كان معدل نزلاء المهجع الواحد ١٤٠ معتقلاً، وكان عدد المعتقلين في السجن كله يساوي ١٤٠ × ٣٢ = ٤٤٨٠ معتقلاً، أما في منتصف عـــام ١٩٨٢ وحتى بعد استغراق المهاجع الجديدة الأربعة فكان معدل نزلاء المهجع الواحد (١٧٠) معـــتقلاً، فأصبح العدد الكلي في السجن ١٧٠ × ٣٢ = ٥٤٤٠ معتقلاً، ومعنى هـــذا أن كـــل ثلاثـــة معتقلين حصتهم ١م٢ يعيشون عليه كل حياهم، التي يقضونها في سجن تدمر فالحياة في ســـجن تدمر وضمن مهاجعه المغلقة مشكلة في أساسها، فكيف إذا أضيفت إليها مشاكل أخرى، وهكذا نجد أن كثافة والازدحام بدأت كمشكلة منذ أوائل عام ١٩٨١ أي بعد بضعة شهور من بدايـــة استقبال السجن للمعتقلين بعد إفراغه في المجزرة الرهيبة.

أما بعد ذلك في أواخر عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٢ فإن الكثافة غدت رهيبة وأصبحت الحيـــاة في مهاجع سجن تدمر صعبة قاسية، ونبتت مشاكل عديدة وأخطار شديدة.

والله من وراء القصد

"خالد فاضل"

أخي يا من قرأت مذكراتي أو ذكرياتي هذه عن سجن الموت سجن تدمر العسكري الصحراوي.. ترى ما هي أحاسيسك ومشاعرك تجاه آلاف المعتقلين من خيرة أبنـــاء الـــشعب الـــسوري الأبي المجاهد؟

ترى ما هي أحاسيسك ومشاعرك تجاه القرامطة الجدد الذين يحكمون سورية الإباء مثـــل هـــذا الحكم الذي هو أخس حكم وألعن نظام ابتلي به شعبنا السوري المجاهد؟

ترى ما هو واجبك تجاه هذا الشعب.. تجاه هؤلاء الأحرار الأبرار الذين تصدوا للطاغية الجبـــان حافظ أسد الطائفي العميل؟

أليس من حق هذا الشعب عليك، وأليس من حق هؤلاء المعتقلين عليك، أن تكون إلى جانبهم، وأن تعمل على استئصال الطاعون الأسدي من أرض الشام، ظئر العروبة والإسلام؟..

لقد نقلت إليك –أخي- جزءاً يسيراً مما نالنا وما يزال ينال إخوانك المعتقلين من ألوان التعذيب والقهر والاضطهاد حتى الموت، في سجن تدمر العسكري الصحرواي.. فماذا أنت فاعل؟..

إن التاريخ يسجل على الحكام مواقفهم، كما يسجل على الشعوب مواقفهم.. فبماذا تريد أن يحكم عليك التاريخ؟

ألا أنني قد بلغت، فاشهد الله..

اللهم اشهد أنني قد بلغت..

الله اشهد أنني قد بلغت..

[الشهادة العاشرة]

حمامات الدم في سجن تدمر

(لم يذكر الشاهد اسمه)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فالذي كتب هذه المذكرات أو الذكريات عن سجن تدمر، بعيد من مهنة الكتابة والتأليف، فلا تزويق ولا تنميق، بل عبارات وجمل تحمل مشاعر وأحاسيس ملتهبة، من خلال سرد وقائع يعجب المرء لوقوعها على أيدي ناس. يزعمون أنهم بشر، لهم رؤوس وأدمغة وأعين وآذان وأرجل وألسن، وما إلى ذلك من شكل البشر، ولكن... شتان شتان بين ما يفكرون ويخططون وينفذون وبين سائر البشر.

إن إبليس يتعلم من أولئك الطواغيت أساليب الإجرام، وإن بني صهيون، أولئك الذين يعدون في الدرك الأسفل من العطاء الإنساني، هم تلامذة صغار في مدرسة الطائفية الحاقدة على كل ما يمت إلى العروبة والإسلام بصلة... وما أظن أبالسة بني صهيون يهبطون إلى الدركات التي هبط إليها حافظ أسد وجلاوزته وجلادوه وهراطقته...

وقد عبر مؤلف هذا الكتاب عن هذه الحقيقة المرة بكلمات جاءت عفو الخاطر، ولكنها مشحونة بما لقيته البشرية من ألوان العذاب والاضطهاد عبر القرون، فلا محاكم التفتيش، ولا مجاهل

سيبيريا، ولا جرائم الصهاينة، تعد شيئاً إذا قيست بما يجري في ذلك السجن الرهيب الرعيب القابع في عمق بادية الشام، في تدمر الحمراء الصفراء البتراء...

ولهذا جاءت كلمات المؤلف ذات تأثير من نوع خاص، لأنها محمولة على أجنحة الصدق الصدوق، بعيدة من كل غلو أو مغالاة أو تضخيم، فهو لم يكتب إلا عن بعض ما عانى أو شاهد ولمس أو سمع... فكان ما كتبه هو الصدق الصرف في التجربة المذبوحة، والمعاناة الملتهبة...

تبت يدا أبي لهب وتب... فقد أودى بحياة الآلاف المؤلفة من صفوة الشعب السوري المجاهد، في أقباء سجونه ومعتقلاته، في تدمر، في المخابرات العسكرية، في معتقلات سرايا الدفاع، في سجون الوحدات الخاصة، في جحيم مخابرات القوى الجوية، في أقباء أمن الدولة، في فرع فلسطين، في الفرع الداخلي، في سجون المخابرات العامة والأمن السياسي، في عشرات السجون التي ابتناها الطائفيون في سائر المدن السورية، لتتسع لعشرات الآلاف من أبناء الشعب السوري المصابر...

تبت يدا أبي لهب وتب... فقد سجلنا أكثر من خمسين ألف شهيد في حماة وحلب وحمص ودمشق وتدمر واللاذقية وإدلب وجسر الشغور ودير الزور والرقة والطبقة، وفي كل قرية سورية، فقد عمت المأساة الريف والمدن، ودخلت كل بيت، فرملت ويتمت وأثكلت وروعت، وما تزال تعتقل وتقتل وتروع، إرضاء لبني عمومة أبي الجهالات في تل أبيب وأوكار الماسونية الصهيونية اليهودية الصليبية الطائفية التي تتزّ أحقاداً سوداً على هذه الأمة... أحقادا تاريخية، تمثلت في ما جرى وما يزال يجري في سجن العذاب والموت في تدمر...

لقد توقف الكاتب عند سنة ١٩٨٤ وقد كانت المجزرة مستمرة، وكانت الكوارث والمآسي التي ينزلها الباطنيون بأسراهم في سجن تدمر خاصة، ما تزال على أشدها... فالبطش والتنكيل وألوان التعذيب ينزلها الباطنيون في كل لحظة، على أحبتنا المؤمنين هناك، وما سمعناه من بعض من أفرج عنهم في هذا العام (١٩٩١) يفوق كل تصور، بحيث يجعلني أزعم، أن ما ورد في هذا الكتاب كان- وهو يكتب عن معاناته فيه- يلحظ أعصاب القراء، فلا يريد تحطيم أعصابهم وأعصاب ذوي المعتقلين الذين لا يعرفون عنهم شيئاً منذ اثنتي عشرة سنة... لا يريد تحطيم قرائه بنقل الصور الفاجعة التي عاناها شخصيا، أو رآها تمثل أمامه في أقسى تراجيديا يمكن أن تخطر على بال الأبالسة... وربما كان يخشى ألا يصدقه الناس فيما يروي، وربما لاعتبارات أخرى لا نعلمها، ولا نرغب في أن نخمنها...

ما جرى وما يزال يجري في سجن تدمر أعصى من أن يحيط به وصف من شعر أو نثر، ولقد قرأت كتاب الأستاذ خالد فاضل: (في القاع... سنتان في سجن تدمر العسكري الصحراوي)، ولكن ما

سمعته منه، من الأستاذ خالد، كان يفوق كثيراً ما قرأته في كتابه... ومعاناة الذين جاءوا من بعده، كانت أقسى بكثير مما رواه مؤلف هذا الكتاب، ومؤلف (في القاع).

وأخيراً...

لابد لي من توجيه الدعوة إلى كل من كان يموت في ذلك السجن عشرات المرات في ليله ونهاره، إن كان في سجن تدمر نهارات، ثم من الله عليه بالفرج، أن يبادر إلى تسجيل ما مر به من ألوان النكال والعذاب على أيدي القرامطة الجدد، ورّاث الأحقاد التاريخية، وخونة هذه الأمة، من أجل التأريخ لهذه المرحلة العصيبة الدقيقة من حياة الشعب والأرض والوطن، لتكتمل الصورة، بتكامل الشهادات، وليس لأحد عذر في أن يكتم شهادته، مهما تكن ظروفه، إذ لا يمكن لواحد واثنين وعشرة وعشرين ممن كتب الله لهم الحياة وخرجوا من سجن الموت ذاك، أن يفوا الصورة حقها، أو أن يحيطوا بكل ما كان يجري...

لقد كانت المؤامرة على الشعب السوري خاصة، كبيرة ومتشعبة، لأن اليهود ومن يسير في ركابهم وتحت ألويتهم، يعرفون طبيعة هذا الشعب، وجهاده، وبذله وتضحيته، لذلك تآمروا عليه، وأغرقوه في حمامات الدم، وصولاً إلى تهجينه وتدجينه، وعندها، لم تقوم للعرب قائمة، فالشعب الذي لم يلق السلاح يوماً قد ألقاه، بعدما حكم الطائفيون على كل من توجد لديه قطعة سلاح بالإعدام...ظنوا أنهم قد دجنوه... وخسئوا... فهذا الشعب الذي يئن تحت وطأة الجزارين الطائفيين، سوف ينتفض من أوباش القرن العشرين ولن يكون مطية لمستعمر أو عميل.. ويسألون: متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً...

أليس الصبح بقريب؟.

٢٠/١٠/١٩٩٢ عبود بن الشيخ

كلمة شكر

ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين).

الحمد لله الذي من علي بالنجاة من أيدي الظالمين بعد سنوات عجاف من العذاب في سجونهم المظلمة، كما أحمده تعالى على إنجاز هذا العمل، كما لا يسعني أيضاً إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل لجميع إخواني الذين ساهموا معي سواء الذين شجعوني أو أمدوني بالمعلومات اللازمة والذين ساهموا بكتابة بعض الفصول وإعادة صياغة وتصحيح ما كتبته، والذين قاموا بتصحيح الأخطاء اللغوية والمطبعية، وإذا لمس القارئ مسحة احترافية بالكتابة فالفضل بذلك يعود بعد الله للأخوة الذين أسهموا بذلك.

كما أوجه شكري لإخواني الذين ساهموا بطباعة ونشر الكتاب لهم مني جميعاً جزيل الشكر سائلاً المولى أن يتقبل منهم جهودهم وأن يجعلها بميزان حسناقم يوم الفزع الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة المؤلف

الحمد لله، نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءا واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً).

أما بعد، فلا يخفى على أحد أن عالمنا الإسلامي يواجه أحداثاً يشيب لهولها الولدان، فقد افتتح القرن الحالي (القرن العشرون) بإسقاط الخلافة الإسلامية، ثم توسطته نكبة فلسطين، وأخيرا جاءت مأساة الخليج، وبين كل نكبة وأخرى العديد من النكبات والكوارث في شتى بلاد المسلمين.

وبلاد الشام كنانة الله في أرضه، قد نالت حظاً وافراً من تلك النكبات، فمأساة فلسطين ما تزال قائمة، والجرح اللبناني مازال ينزف، والباطنيون يسيطرون على عاصمة عمر بن عبد العزيز، لقد وصلت تلك العصابة إلى الحكم عام ١٩٦٣ ومع الأيام كانت تلك العصابة تزداد إجراماً، حتى إذا جاء عام ١٩٧٩ وجدنا تلك الفئة المارقة تشن حرباً مكشوفة لاستئصال الإسلام وأهله، فما كان من شباب المسلمين إلا أن يهبوا للدفاع عن دينهم وأعراضهم، فسقط آلاف الشهداء، واعتقلت آلاف أخرى، منهم من قتلهم الظالمون، ومنهم الذين مازالوا يعانون شتى صنوف التعذيب والقهر في أقباء السجون والمعتقلات الرهيبة.

لقد كنت أحد الذين قدر عليهم أن يتعرضوا للاعتقال في سجن تدمر، ذلك السجن الذي أصبح اسمه مشهوراً رعيباً لما ارتكبت داخل أسواره من مجازر بحق أبناء سورية، ولما تعرض له السجناء من ألوان التعذيب والقهر التي تفوق كل وصف.

لقد قدر الله علي أن أقضي عدة سنوات بذلك المعتقل ثم كتب الله لي السلامة من تلك المحنة إذ خرجت مع من خرج... لقد قررت أن أدون ما رأيته وعايشته مع إخواني في ذلك السجن الرهيب، وأنا به رهين، وعندما خرجت وجدت أن أخواني الذين أخلي سبيلهم قبلي قد قاموا بهذا العمل، لقد اطلعت على كتاب (في القاع) للأخ خالد فاضل وقرأت كتاب (تدمر المجزرة المستمرة) فوجدت أن الكتابين يتضمنان الكثير من المعلومات التي كنت أنوي نشرها، كما وجدت أيضا أنهما يفتقدان معلومات أخرى، إضافة لتحليل وتعليل تلك الأحداث. ومن جهة ثانية، فقد أحببت أن أضيف تجربتي وما تعلمته من تلك المحنة حول أجهزة المخابرات وطريقة عملها، لاعتقادي بأهمية هذا الموضوع لشباب الصحوة الإسلامية، مع تلخيص لبعض الدروس والعبر التي تعلمتها من المحنة.

لقد توخيت الدقة بكل ما كتبته، فلم أدون إلا المعلومات التي تأكدت من صحتها، وعند وجود أي شك بصحة تلك المعلومات فإنني أكتبها بطريقة تتيح للقارئ هامشاً من الشك، وبالنسبة لي فأنا لا أهدف من نشر هذه المعلومات فضح وتعرية ذلك النظام العفن، فهذا أمر مفروغ منه، لأن رائحته النتنة تزكم الأنوف، ويكفينا أن نعرف أن أنصار العدو الصهيوني يبررون جرائم الصهاينة بحق أهلنا داخل الأرض المحتلة وخارجها، من خلال الاستشهاد بجرائم القرامطة الجدد، فكلما وقعوا نتيجة لجريمة ما، فإنهم يبادرون إلى القول: في سورية يحصل كذا وكذا.

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وُفقت لتوثيق جزء من محنة المسلمين في سورية، وهو ما يتعلق بسجن تدمر، فإن أحسنت فبفضل الله وتوفيقه، وإن أخطأت فمن نفسي، وأسأله تعالى العفو المغفرة.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين). (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الاعتقال

الظلام حالك، الأيام تسير ببطء شديد، لقد تغيرت الدنيا حولنا فالوجوه لم تعد كما كانت بالأمس القريب واختفى معظم الشباب من المساجد كما توقفت الدروس وجلسات العلم، وغاب عدد كبير من الأخوة الذين أعرفهم منذ نعومة أظفاري، استشهد بعضهم في العمليات الاستشهادية، وآخرون فروا بدينهم خارج البلاد، وبعضهم توارى عن الأنظار، وربما التحقوا بالمجاهدين، لأنهم أصبحوا في قائمة الملاحقين، وقسم كبير آخر يغيب في قاع السجون، لا يعلم

أحد بحالهم إلا الله... لقد تحولت البلاد لسجن كبير، إذ لا يجرؤ أحد أن يزور إخوانه أو الاتصال بهم، فأجهزة الأمن ترصد حركات الناس وسكناهم، ومن يعلم؟ فلعل المخابرات يحتلون مترل ذلك الأخ الذي يرغب المرء في زيارته فيصطادوا كل من يأتي إليه؟.

وتمر الأيام وكأنها كابوس مخيف يجثم فوق صدور الناس، يا الله!! لقد طال ليل الظالمين، وادلهمّ الخطب، فعلميات الاعتقال شملت القاصي والداني، من له علاقة بالمجاهدين ومن ليس له علاقة، فالسلطة الباغية تأخذ الناس بالشبهات، ومن يعتقل لا يعلم أحد إلا الله بمصيره، دوريات المخابرات الراجلة والمحمولة موجودة في كل مكان، والحواجز الثابتة والطيارة تحيط المدن، وتنتشر بداخلها، الناس يعيشون بهاجس دائم، فشبح المخابرات، والاعتقال، وأعمال القتل، والمداهمات تسيطر على الجميع.

وسط هذا الجو المشحون بالخوف والرعب يفكر الإنسان فلا يرى طريقاً للخلاص إلا الفرار بدينه أو الالتحاق بالمجاهدين، حتى لا يقع رخيصاً بأيدي الظالمين كنت مثل غيري من الناس أعيش بوساوس وهواجس لا تفارقني في ليل أو نهار وأدعوا الله وأرجوه أن يعمي أبصار الظالمين عنا فلا ينالنا منهم شر. ولكن لا أحد يعلم ما تخبئه الأقدار وماذا ينتظرنا في مستقبل الأيام. وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }لقمان٣٤، وفجأة وقع المحذور عندما جاءت دورية المخابرات لمترلنا قبل آذان الفجر، واقتحموا المترل دون أي إنذار، فلم أجدهم إلا فوق رأسي، لقد اندفع أولئك الأوغاد داخل البيت، وباشروا بالتفتيش، استيقظت من نومي، فطلبوا مني رفع يدي مستسلماً، ثم فتشوا جميع الغرف جيدا، لعلهم يعثرون على كتر ثمين، لكن الله سلم لقد كنت في غاية الحذر؛ فقد عمدت إلى إتلاف كل ما من شأنه أن يجر علينا أو على غيرنا البلاء، وأخفيت جميع كتبي الإسلامية، كما أتلفت جميع الرسائل والصور وبطاقات التهاني، وأخفيت أشرطة التسجيل المتعلقة بالمجاهدين، ولم أترك أي شيء يثير الشبهة، أو يمكن أن يكون ممسكاً له دلالته عند أجهزة القمع.

بعد أن أنهوا التفتيش، طلبوا مني الخروج، وهكذا قادوني معهم. في هذه الأثناء أخذت تدور برأسي الكثير من الأفكار المختلفة والمتناقضة، وعبثاً حاولت إقناع نفسي أن فترة الاعتقال لن تدوم طويلا، ربما عدة أيام أعود بعدها إلى البيت، كما حصل مع بعض الناس. أليس كذلك؟ فأنا لا علاقة لي بالمجاهدين، وربما كان الأمر لا يعدو كونه تقريرا لأحد المخبرين. نعم إذا كان همّ السلطة اعتقال الناس كيفما اتفق، فالشوارع مليئة بالناس... ألا يستطيعون أن يفعلوا ذلك؟ ماذا يستفيدون لو فعلوه؟ وأخيرا سلمت أمري لله، وباشرت بقراءتي سورتي يس والواقعة، وتوجهت إلى الله بالدعاء، سائلاً إياه السلامة.

لقد أجلستُ بمقعد السيارة الخلفي، وجلس عن يميني ويساري اثنان من عناصر المخابرات، يحملان بنادقهما بينما جلس بالمقعد الأمامي السائق مع رئيس الدورية، وانطلقت سيارتنا بالمقدمة، ترافقها سيارة جيب، تحمل خمسة عناصر آخرين تمنيت أن تطول الرحلة فلا نصل إلى فرع المخابرات، أو نصطدم بسيارة أخرى فيموت الجميع، ولكن هيهات؟؟ هيهات؟؟

ما كل ما يتمناه المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

هاهي ذي القافلة تصل إلى فرع المخابرات الذي طالما سمعنا به والذي بات اسمه يثير الرعب والخوف في نفوس الناس، فكيف بمن يدخل ذلك المكان اللعين كمعتقل؟ عند ذلك توجهت إلى الله بالدعاء: (اللهم إني أعوذ بك من شر هذا المكان وشر ما فيه ومن فيه).

التحقيق

وصلت القافلة إلى فرع المخابرات الذي أحيط من جميع جوانبه بالحراسة المشددة، وأقيمت المتاريس والحواجز الإسمنتية، وتحصن الجنود خلف أكياس الرمل، وكأنهم في خط الدفاع الأول في الجبهة: نعم، لقد أصبحت الجبهة بالنسبة للنظام هذه الأيام هنا داخل البلاد وأصبح الشعب عدوا لذلك النظام، وما على السلطة الباغية إلا أن تعد للأمر عدته.

دخلت القافلة ذلك المكان المشؤوم، وهناك وقعت الطامة الكبرى، إذ ما إن نزلت السيارة حتى انهالت علي اللكمات، وأصبت بالذهول لهول المفاجأة، وطلبوا مني الوقوف جانبا متوجها للحائط. في هذه الأثناء، جاءني أحد العناصر يفتشني، متحسسا أماكن الجيوب... لقد سالت الدماء من أنفي وأسناني نتيجة الضرب، ومن الغرفة المجاورة كنت أسمع صوت أحد المعتقلين يصرخ ويستغيث من شدة التعذيب، بقيت على هذه الحالة مدة من الزمن، واقترب مني أحد الضباط، وسألني عن اسمي قائلا: (شو اسمك ولك حقير) فأعطيته اسمي، فنادى عناصره الذين أحضروا الغمامات(١). فوضعوها على عيني وجاءوا بالقيود الحديدية التي قيدوا بها يدي، وأدخلوني لإحدى الغرف وانصرفوا.

أنا الآن في غرفة التحقيق التي طالما سمعنا عنها هناك في الخارج، بادرني المحقق بالسؤال عن اسمي وعنواني ومهنتي وأفراد أسرتي، ثم انتقل بعد ذلك بسرعة سؤالي، فقال لي: (إيه يا فلان أنت إنسان بتفهم وأنت إنسان عاقل ومحترم وأعتقد أنك لن تحيج نفسك للإهانة ولن تحيجنا لتعذيبك).

فأجبته: كما تريد... قال لي: إذا عليك أن تخبرنا عن كل ما تعرفه عن أبي فلان وعلاقتك به، فسألته: من هو ابن فلان، قال لي: يبدو أن المعاملة الحسنة لن تجدي معك، فنادى كلابه، وطلب مني إخراجي من الغرفة قائلاً: خذوه.

لم أسمع أي كلمة أخرى، ولا أعلم إن قد أشار عليهم بشيء آخر. المهم: أمسكني أحدهم من رقبتي، كما تمسك الشاة التي تؤخذ للذبح، وأخرجني لغرفة أخرى في الجهة المقابلة، ورفعوا الغمامات عن وجهي... نظرت حولي ويا لهول ما رأيت!!! رأيت أحد المعتقلين قد عري من ملابسه ما عدا السروال الداخلي، قد افترش الأرض وجلده متصبغ باللون الأسود، الجروح والقروح ملأت جسمه حتى ظهر العظم من بعض الأماكن، والدم يترف من جروحه، وربما كان في حالة غيبوبة، ولم يكن يصدر منه أي صوت سوى التنفس. وجلس إلى جانبيه أحد العناصر يدهن له جسمه بقطعة من القطن عليها مادة مطهرة.

دخل الغرفة أحدهم، ويبدو أنه ضابط، فقال لي: انظر... ستصبح مثله إذا لم تعترف بالتي هي أحسن، فالأفضل لك أن تعترف، حتى لا ترى مالا تتوقعه، ولم تسمعه، ثم تعترف بعد ذلك بالقوة. وتابع بلهجة أقل حدة: لقد جئنا بك إلى هنا كي نسألك بضعة أسئلة، فإن أجبتنا فسنخلي سبيلك حالا، هي ربع ساعة أو نصف ساعة وتكون في بيتك. قلت له: كما تريدون.

نظرت إلى الأرض فرأيتها قد امتلأت ببقع الدم، ورأيت السياط من مختلف الأنواع، وأغلبها من الكبلات الكهربائية الغليظة، وقد برزت ضفائر الأسلاك المعدنية من أطرافها، وشاهدت الدولاب والسلم والحبال والخيزرانات وبساط الريح (عرفت اسمه فيما بعد) وغيرها من أدوات التعذيب الهمجية، فقلت في نفسي: لقد وقعت في الفخ. فقرأت قوله تعالى: (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة)، وطلب الضابط من زبانيته أن يدخلوني إلى غرفة التحقيق قائلا لهم: (خذوه لعند سيادة المحقق)(٢) فأعادوا وضع الغمامة على عيني وأخرجوني إلى الغرفة المقابلة التي يجلس فيها المحقق، فقال لي: (إيه يا فلان ما رأيك الآن)؟ فقلت له: كما تريد. قال: سوف نرى. ثم أعاد علي السؤال: ما علاقتك بأبي فلان؟ قلت له: عندنا في الحي شخص اسمه أبو فلان. سألني: من هو؟ قلت له: اسمه فلان الفلاني، أجابني ليس هو المطلوب قلت له: لا أذكر اسم شخص آخر اسمه هكذا... فقال لي: سوف نريحك، إننا نسألك عن فلان الفلاني الذي يعمل (.....) قلت له: أعرفه، قال لي: عليك أن تشرح لنا ما هي علاقتك به، منذ أن تعرفت عليه حتى اليوم. فأجبته: إنه جاري في الحي، وأشاهده كل يوم، وهو إنسان حسن السمعة، يعرفه كل سكان الحي عندنا، وعلاقتي به علاقة جوار، كما هي علاقتي بجميع سكان منطقتنا. فلم تعجبه الإجابة، قال لي: لا تتعب نفسك، ولا تحاول أن تخفي شيئاً، فإن فلان عندنا، وقد اعترف بكل شيء. هنا أخذت أتساءل: هل صحيح ما يقوله هذا الشيطان؟ هل الأخ فلان يكذب ويفتري علي كما يدعي هذا الأفاك اللعين؟ قلت له: وماذا اعترف فلان؟ فليس عندي ما أقوله..

قال لي: هل تريد أن تحقق معنا أم نحن الذين نحقق معك؟ وتابع يقول: يبدو أن (الآدمية لا تجدي معك)(٣) فنادى زبانيته وقال لهم: خذوه فاجلدوه... عند ذلك انقض علي الجلادون، ونزعوا ملابسي كلها، باستثناء السروال الداخلي، ووضعوني في الدولاب، وهو الإطار المطاطي الخارجي لدولاب السيارة، فحصروا جسمي فيه، ورفعوا رجلي للأعلى، ثم انهالوا علي بالضرب المبرح فرحت أصرخ، وأستغيث، والجلادون يرددون (بدك تعترف يا كلب) فقلت لهم: سأعترف بكل شيء أعرفه... فأخرجوني من الدولاب، وأدخلوني غرفة المحقق الذي أعاد السؤال، ورحت أتساءل: هل صحيح ما يقوله هذا اللعين من أن فلان قد اعترف علي؟؟ فالأمر لا يعدو كونه أحد احتمالين:

الأول : أن الأخ قد اعتقل وتحت التعذيب تعرّض لأسمي بأنه يعرفني أو أنه ألصق بي تهمة وهذا ما كنت أسمعه من الناس .

وأما الاحتمال الثاني : وهو الأرجح ، فهو أن الأخ فلان لم يعترف علي بأي شيء ، وأن المحقق قد حصل على تقرير من أحد المخبرين يتهمني فيه بمعرفتي لهذا الأخ ، فربما كان لي صلة تنظيمية به ، وأعرف عنه بعض المعلومات المهمة .

الوقت لا يساعد على التفكير وإجراء المحاكمات العقلية والتحليل والتركيب والاستقراء والاستنتاج ، فلابد للمرء أن يجهز نفسه لغرفة التحقيق قبل دخوله تلك الغرفة الجهنمية ، وعدت بذاكرتي لأقنع نفسي من جديد ، لمعرفتي مدى صلابة وشجاعة الأخ المذكور ، فهو لا يمكن أن يفتري علي كما يدعي هذا اللعين ، إذن فالقضية شبهة ، ولا تعدو أن تكون تقريرا لأحد كلاب السلطة ، فليس أمامي سوى الصبر وتحمل التعذيب ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، فإما أن يتوقف التعذيب ، بعد أن يقتنع المحقق بأنني لا أعرف شيئا ، أو أن أرزق الشهادة ، وفي كلتا الحالتين (فرج من الله) . نعم ليس لدى المحقق أية معلومات عني ، وعليّ أن لا أفيدهم بشيء، وأخيرا طلب المحقق من زبانيته إعادتي لغرفة التعذيب، وعاد الجلادون لضربي، حتى تورمت قدماي ، فطلبت منهم إعادتي للمحقق، ولكن دون جدوى . وبعد فترة قصيرة، جاء أحد الزبانية وفك القيود عن يديّ، وطلب مني أن ألبس ثيابي، وأمسكني من يدي وأنزلني درجا طويلا، وأدخلني إحدى الزنزانات المنفردة ، وبعد أن نلت نصيبي من الركل واللكم والشتائم . وبعد مدة قصيرة، جاء أحد الجلادين ، وأخرجني من زنزانتي، فارتعدت أوصالي، وقلت في نفسي : لقد أخرجت للتحقيق أي (للتعذيب) ولكن خاب ظني هذه المرة .

فقد أخرجت لغرفة صغيرة يجلس فيها أحد الجلادين الذي سألني عن اسمي وعنواني وبقية المعلومات الشخصية ، وأحضر مظروفا كتب عليه اسمي وعنواني وتاريخ الاعتقال ، ووضع

بداخله أغراضي ، وقال لي : إن أغراضك أمانة عندنا (وكأن القوم يعرفون معنى الأمانة) ويمكنك أخذها عندما تخرج من هنا إلى مكان آخر، وسجل قائمة بتلك الأغراض، وطلب مني التوقيع عليها، ثم أعادوني لزنزانتي، كانت بطول ١٨٠ سم أو أكثر قليلا، وعرض متر ونصف، وارتفاع حوالي ٣ أمتار، وعلى أحد جدرانها مصباح كهربائي محاط بأسلاك معدنية غليظة، كما تحوي على فتحة مرتبطة بجهاز التهوية المركزي، تصدر منها ضوضاء مستمرة، أما بابها فحديدي يحتوي على فتحة صغيرة بقسمه العلوي مربعة الشكل طولها حوالي ٣٠ سم، ولها باب يمكن فتحه وإغلاقه نحو الخارج، يسمونها (الشرّاقة)، ولا يوجد فيها مرحاض ولاصنبور ماء إنما يخرج المعتقلون كل يوم مرتين أو ثلاثة فقط لقضاء الحاجة ، وجلب المياه ، وينالون حظهم من الضرب والتعذيب والتحقير. أما محتويات الزنزانة فهي ثلاث بطانيات مع صحنين بلاستيك يستخدمان للطعام والماء وربما لقضاء الحاجة أيضا، كما حصل مع البعض .

الساعات تمر ببطيء متثاقل، تراودني فيها الكثير من الأمور المرعبة، وكلما سمعت صوتا أو حركة تدل على فتح إحدى الزنزانات المجاورة، سيطر عليّ الرعب، وتسارعت دقات القلب والتنفس، وسمعت قرقرة الأمعاء، وربما شعرت بالحاجة إلى للخروج إلي بيت الخلاء (ولكن لم أجرؤ على طلب ذلك منهم) وتوجهت إلى الله بالدعاء : أن يردّ عني كيد الظالمين وأذاهم، وتسلحت بسور القرآن التي أحفظها، أرددها وأعيدها طوال الوقت. لقد أنهكني التعب والجوع، لأنني لم أتناول طعاما قط .. الساعة الآن تقترب من الثانية بعد الظهر، عندما بدأ الجلادون بتوزيع الطعام للمعتقلين، وكنت من بعيد أسمع أصواتهم يسألون نزلاء الزنازين المجاورة عن عددهم، فيجيبونهم (خمسة وخمسون، سبعة وعشرون وهكذا) فعلمت بوجود الزنزانات الجماعية في هذا المكان اللعين، وعرفت أنه يضم عددا كبيرا من المعتقلين، فسألت الله الفرج للجميع .

وصل الجلادون للزنازين الانفرادية ، وباشروا توزيع الطعام على نزلائها، حتى وصلوا إلى زنزانتي وطلبوا مني أن أخرج لهم الصحون، فوضعوا فيها الطعام، وأعطوني رغيفين من الخبز، ثم انصرفوا فأكلت وحمدت الله على كل حال، وسألته السلامة والعافية، وأن يلهمني الصبر والثبات في محنتي . نظرت إلى جدران الزنزانة فوجدت عبارة كتب صاحبها فيها : القبلة لهذا الاتجاه فسررت بهما أي سرور، وعدت أتذكر محنتي والتحقيق وما يعده لي هذا المجرم من شباك وخداع ليوقعني فيها، فعزمت على الاستمرار بنفس الاعترافات السابقة، دون زيادة أو نقصان، والخير فيما اختاره الله. بعد الطعام بفترة قصيرة أخرجوني لقضاء الحاجة فتوضأت وصليت الظهر والعصر، ودعوت الله بما تيسر لي من الدعاء، وقرأت بعض السور التي أحفظها... وفي المساء، فتح أحد الحراس الشراقة، وسألني عن اسمي، فقد كان يحمل بيده ورقة صغيرة كتب عليها اسمي، فنادى السجان

المناوب (وهو ضابط صف) فجاءه بمفتاح، وفتح باب الزنزانة، فخرجت منها، وهنا لا أستطيع وصف مشاعري... لقد سيطر علي الرعب، واضطربت، فطلبت منهم أن يسمحوا لي بدخول دورة المياه فرفضوا، ووضعوا العصابة على عيني، وأمسكني أحدهم من رقبتي، وسار بي حتى وصلنا إلى الدرج فأخذ يقول لي: (اصعد) كلما وصلنا إلى درجة جديدة، حتى وصلنا إلى غرفة المحقق.

أدخلني السجان وانصرف... وها أنا ذا أقف أمام ذلك اللعين الذي أصبح صوته المنكر معروفاً لديّ (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)، أعاد علي كلامه السابق: فسألته: وبماذا تريد مني أن أعترف؟ فرد علي: إن الطريق أمامك طويل، وعليك أن تقول لي: متى تعرفت على فلان؟ ومن الذي عرّفك عليه؟وما اسم الأشخاص الذين عرّفك عليهم؟ وأين؟ وأسماء أفراد مجموعتك بالتنظيم؟ وما هي المهمات التنظيمية التي قمت بها؟ وأسماء الأشخاص الذين تعرفهم بالتنظيم؟ وتابع يقول: لك أن تبدأ بالإجابة حيث تشاء (فحرية الرأي مصونة عند القوم!!!!). ولا تظن أننا سنتركك بسهولة، ومازال الطريق أمامك طويلاً، وسوف تتحمل من التعذيب أكثر مما تتصور، وما تعرضت له حتى الآن ليس إلا دغدغة ومزحاُ، أمامك الآن خياران: إما أن تعترف وإما أن تموت هنا يا (.....). فقلت له: لا علاقة لي بالتنظيم ولا أعرف شيئا عن هذه الأسئلة.

أعاد علي نفس الصيغة قائلاً: لا تحاول التملص فلان قد اعترف بكل شيء، وعليك أن تعترف.

أجبته: إن فلان قد اعترف على نفسه وإن ذكر عني شيئا فأنا على استعداد لتكذيبه أمامك. عاد ليقول لي: هل تريد أن تحقق معنا أم نحن نحقق معك؟ يبدو أنك لا تريد أن تفهم، ويبدو أن العقل الرحماني لم يأتك بعد (وكأنهم يعرفون الرحمن).

ونادى زبانيته ليستأنفوا التعذيب بنفس الطريقة السابقة واستمروا بتعذيبي فترة من الزمن دخل المحقق بعدها لغرفة التعذيب، وتناول السوط بيده، وأخذ يضربني ويسألني.. فرحت في البداية عند دخوله، ظناً مني أنني أمام ضابط كبير، أي أمام إنسان عاقل، ربما يجدي معه العقل والمنطق والحجج، ولكن سرعان ما خاب ظني حين وجدته أسوأ من كلابه، فهو يستعمل أقذر الألفاظ والشتائم الموجودة بقاموسهم الهابط، والتي يعف اللسان عن ذكرها فضلا عن القلم. بعدها باشروا تعذيبي باستعمال الكهرباء فربطوا قطبي المولد بالإبهامين، وكنت أسمع صرير المولد وهو يديره بيده ورحت أرتجف وأصرخ وأستغيث، فانهالوا علي بالسياط، وراحوا يضربوني على ظهري كنت عارياً من جميع الملابس، باستثناء السروال، واستمروا على هذه الحال حتى منتصف الليل، ولكن الله سلم. طلب المحقق إحضار الطبيب الذي أجرى لي فحصاً عادياً، إذ قام بقياس

الضغط، وأصغى لدقات القلب، وعد النبضات، فقال لهم: إن حالته أصبحت سيئة، وليس بالإمكان أن يتحمل أكثر من ذلك، فتوقفوا عن تعذيبي.

كنت أعلم أن القوم لم يفعلوا ذلك حرصاً منهم على سلامتي، فسلامة المعتقل وحياته لا تساوي عندهم شيئاً، ولكنهم كانوا يظنون أنني أحمل معلومات هامة، وعليهم الحصول عليها بأي طريقة، وإن موتي أو إصابتي بعاهة قد تحول دون حصولهم على تلك المعلومات القيمة، وعرفت ذلك لاحقاً (ألا ساء ما يحكمون).

طلب المحقق من زبانيته إعادتي للزنزانة قائلا لي: (لنا معك حساب طويل، ولن تخرج من هنا إلا إلى المقبرة يا كلب إذا لم تعترف).

عدت إلى الزنزانة وقد أرهقني التعذيب، ولكن ما أزال أتمالك قواي العقلية، فرحت أفكر بحصيلة ذلك اليوم، فحمدت الله الذي ألهمني الثبات، فلم أتكلم بأي كلمة تكون ممسكاً أو طرف خيط لها ما بعدها ورددت ما أحفظه من كتاب الله، والتجأت إليه بالدعاء راجياً إياه أن يكف عني كيدهم وظلمهم، ويعينني على محنتي، ويرزقني الصبر والثبات وهكذا أعانني الله على قضاء تلك الليلة.

بزغت شمس يوم جديد بعيداً عنا في العالم الخارجي... أحضر الجلادون طعام الإفطار وكان قليلاً من الحلاوة مع وقطعة جبن مثلثة (لافاشكيري) مع كمية من الشاي، بعد الإفطار طلبوا مني الخروج لبيت الخلاء، ليأتي بعدها دور التحقيق. وفتحت زنزانتي، وحضر شخص يحمل الغمامة (والأصفاد) وكالعادة، وضعت الغمامة مع القيود، وساقوني إلى الطابق العلوي، بعدما نلت قسطا من الشتائم والإهانات والركل واللطم، وأسهل بها، مقارنة مع الذي واجهته في ذلك اليوم من تعذيب، ترك آثاراً لا تحصى على جميع أنحاء جسمي، وحفر آثاراً بذاكرتي بل وشخصيتي والتي ستبقى ملازمة لي مدى الحياة. إذ أدخلوني غرفة المحقق الذي بادرني بالسؤال: هل جاءك العقل الرحماني أم مازال الشيطان لابسك؟ فأجبته: لقد جاءني العقل الرحماني. قال لي: (احك لنا ماذا تعرف) قلت له: لا أعرف شيئاً. قال لي: إن تعترف نساعدك. أجبته: وبماذا أعترف؟ قال لي: سنسألك شيئاً آخر. فسألني: ماذا تعرف عن فلان؟ وما هي الأحاديث التي كان يتكلم بها بين الناس؟ وما هي الأحاديث التي فاتحك بها؟ ومتى التقيت به آخر مرة؟ وأين؟ ومن هم الأشخاص الذين يترددون عليه؟ وماذا تعرف عن انتماءاته الدينية والسياسية والاجتماعية؟ فأجبته: أعرف أنه إنسان عادي يسكن عندنا بالحي، وجميع أهل الحي عندنا يعرفون بعضهم بعضاً بحكم الجوار، وسمعته طيبة بين الناس، وأما الأحاديث التي كان يفاتح بها الناس، فإنه كان يحثهم على الصلاة دائما. فلم تعجبه الإجابة، كنت أعرف مقصده تماماً، فهو يريد مني أن أقول: إن صاحبي من

الإخوان المسلمين، ليقول لي: وكيف عرفت ذلك؟ وإذن أنت منهم؟ عند ذلك يدخل التحقيق مرحلة جديدة، لأنهم عثروا (على طرف خيط) ولكن الله خيب آمالهم.
طلب من زبانيته أن يأخذوني للتعذيب، وقال لهم بالحرف الواحد: خذوه اسلخوه لهذا (ال ع ر ص). هنا ساقني الجلادون وجروني على الأرض ونزعوا مني ملابسي، وأعادوا وضع القيود بيدي، ثم انهالوا عليَّ ضرباً بالكبلات الكهربائية كيفما اتفق وعلى جميع أنحاء جسمي من قمة رأسي حتى أخمص قدمي فأخذت أصرخ وأستغيث قالوا لي: (بدك تعترف يا....) فقلت لهم سأعترف بكل شيء.. سحبوني لغرفة المحقق بعد أن أصبحت عاجزاً عن الوقوف والمشي، سألني ما تقول الآن؟ فأجبته: كما تريد، اكتب ما تشاء وأنا على استعداد لأوقع. فقال: لا أريد منك شيئا سوى أن تقول لي ماذا تعرف، فنحن لا نتهمك بأي تهمة، فنحن نعرف الذين ضربوا وقتلوا وفعلوا، ولكننا نريد منك أن تساعدنا بما تعرفه من معلومات، فإذا قلت لنا الذي تعرفه فإننا سنخلي سبيلك، فنحن نعرف أنك إنسان آدمي وبريء ولا غبار عليك، فلماذا تتعب نفسك وتتعبنا معك؟ قل ما تعرف وخلصنا وخلص حالك.. قلت له: من أين آتيك بالمعلومات التي تريدها؟ لقد قلت لك على كل ما أعرف... صرخ بوجهي: يا... يبدو أنك لا تريد أن تفهم بالتي هي أحسن. ونادى كلابه الذين أمسكوا بيدي، وسحبوني على الأرض، وأدخلوني غرفة التعذيب، وانهالوا علي ضرباً مبرحاً حتى أشرفت على الموت، ولم أعد أقدر على الصراخ عند ذلك دخل المحقق وأمرهم بوقف التعذيب، فتركني الجلادون بعد أن أصبت بجراح كثيرة، ثم انصرف المحقق وحضر بعد ذلك أحد العناصر، وربما كان ممرضاً ومعاه قطنة تحوي مادة مطهرة، وراح يدهن الجروح، وما أكثرها، بعدها دخل المحقق ثانية وحاول هذه المرة أن يتكلم معي بلطافة قائلاً لي: لماذا أحجت نفسك لهذا التعذيب والإهانة، كل ما نحتاجه منك بعض كلمات تعود بعدها إلى بيتك وأهلك، فلماذا تعرض نفسك للتعذيب؟ وتابع يقول: نحن لسنا جلادين، والضرب والإهانة ليست هدفنا، وإن هدفنا هو حفظ الأمن في البلاد وحماية أرواح المواطنين، وأنت ترى الأعمال التي تقوم بها عصابة الإخوان المسلمين، وعلى كل مواطن يعرف أي شيء مساعدتنا في القضاء على المجرمين، وإلا فإنه متعاون معهم. وتابع محاضرته بتلك العبارات والمزايدات التي تثير الغثيان والاشمئزاز، وانتقل بحديثه إلى السادات وكامب ديفيد وإسرائيل وأمريكا وتآمرهم على جبهة الصمود والتصدي وسورية!!! والهجمة الإمبريالية الشرسة، وأخيرا قال لي: عليك أن تتعاون معنا، وتساعدنا. قلت له: ومن أين آتيك بالمعلومات؟ هل تريد مني أن أفتري على نفسي وعلى غيري؟ قال: لا!! فقط نريد منك أن تقول لنا ما تعرف، وبعدها نطلق سراحك. حاول أن يتظاهر باللين عندما طلب من الممرض أن يدهن لي الجروح، وأن يعطيني

الأدوية اللازمة، ففعل ذلك.. طلبت منهم الماء مرتين فأحضروه لي فشربت. تركوني فترة داخل غرفة التعذيب وحيدا أفترش الأرض، ثم جاء أحد الحراس، وفك قيودي والغمامات، وطلب مني أن ألبس ثيابي، فلبست بنطالي، ولم أتمكن من لبس القمصان (الداخلي والخارجي) وأعـــادوني إلى زنزانتي. هناك وجدت طعام الغداء قد تم توزيعه فلم أتمكن من أكل شيء. حالتي يرثى لها، لا يخلو مكان في جسمي من الأذى من رأسي حتى أسفل قدمي وما تزال علامات ذلك اليوم واضـــحة على جسمي حتى كتابة هذا الكلام، وفقدت حدة النظر من إحدى عيني، وقدماي متورمتان، لا أقوى على الوقوف والنوم، والألم موجود في كل مكان، والجلد متهتك، والدماء تلطخ جسدي، وظهري متسلخ... في المساء جاء السجان، طلب مني الخروج لقضاء الحاجـــة، فقلـــت لـــه: لا أستطيع... قال لي: لن تخرج بعد الآن، وستبقى حتى صباح الغد. وقلت له: وماذا أفعل؟ فأنا لا أقوى على المشي. قال لي (تصطفل)(٤) وانصرف.

لقد انتهت المرحلة الأولى من التحقيق المسمى مرحلة انتزاع الاعترافات وبعدها دخلت مرحلـــة جديدة هي تثبيت الاعترافات، جاء أحد السجانين في اليوم الثاني وأعطاني عـــدة أوراق وقلمـــا وطلب مني الكتابة فسألته: وماذا أكتب ؟ فأجابني: (اكتب من أجل ماذا جئت إلى هنا) فرددت عليه: ولماذا؟ فعقب: هذا يفيدك ومن أجل مساعدتك!!! فكتبت معلومات مختلفة وركزت خلال كتابتي على أن فلان قد افترى علي، وأنا بريء من أية تهمة...

في اليوم التالي عاد إلي السجان ومعه عدة أوراق وقلم، وقد وضعت على إحدى الأوراق مجموعة أسئلة طالبين مني أن أتكلم عن علاقتي بـــــ... متى وأين تعرفت عليه؟ ومن هم الأشخاص الذين عرفك عليهم؟ وماذا كان يتكلم معك ومع الناس؟ ومتى التقيت به آخر مرة؟ فأجبـــت علـــى الأسئلة، وفي مساء ذلك اليوم استدعيت للتحقيق، فارتعدت أوصالي، ورحت أدعو الله بالسلامة، وقفز قلبي إلى حنجرتي هلعاً بما لقيته وألاقيه، دخلت غرفة التحقيق فإذا بي أمام ذلك اللعين ثانية (طبعا كنت مغمض العينين فعرفته من صوته) قال لي: يبدو أنك لم تفهم حتى الآن بأننا أتينا بك إلى هنا من أجل فلان: وعليك أن تقول لنا كل شيء عنه، أجبته: كما تريد. ثم أمر زبانيته بإعادتي إلى الزنزانة. لم أتعرض لأي ضرب، فحمدت الله، وعلمت أن المحقق قد هزم في الجولـــة الأولى، وسألت الله الثبات حتى النهاية، وكانت هذه آخر مرة ألتقي بها بذلك الزنيم إذ تولى التحقيق بعد ذلك أشخاص آخرون (لا أعرف أسماؤهم).

استمر التحقيق على هذه الشاكلة أي الكتابة ثم الخروج للإجابة على الأسئلة حوالي ثلاثة أسابيع، وبعدها دعيت للإفادة النهائية، عندما أدخلت غرفة التحقيق، فتولاه شخص جديد لم أسمع صوته سابقا، كان يسألني ويصوغ إجاباتي لكاتبه الخاص، كانت الغرفة تحوي عدة أشخاص، تركـــوني

واقفاً طوال مدة التحقيق، وأما الأسئلة التي وجهت إلي، فهي تثير السخرية، كسؤاله إياي عن اسمي وعنواني وأسماء أفراد عائلتي ومهنتي الخ... بعد ذلك باشر بالأسئلة الآتية:

- من تعرف من الإخوان المسلمين؟

قلت له: أعرف الأشخاص الذين أذيعت أسماؤهم بوسائل الإعلام.

- من تعرف غيرهم؟

لا أحد فهم تنظيم سري وليس بإمكان أي إنسان أن يعرف عنهم شيئاً.

-هل فاتحك أحد بالتنظيم في جماعة الإخوان المسلمين؟

فأجبته بالنفي.

- هل أعطاك أحد شيئاً من منشوراتهم؟

لا.

- ما هي الأحزاب والنوادي والجماعات والاتحادات والهيئات التي انتسبت إليها؟

لاشيء.

- من هم أصدقاؤك، ومتى تعرفت عليهم، وما هي انتماءاتهم السياسية؟

ذكرت له أسماء بعض أصدقائي... بالطبع ليس لهم أي انتماء.

- هل قرأت منشورات للإخوان المسلمين؟

لا.

- ماذا تعرف عن تنظيم الإخوان المسلمين؟

ما سمعتُ من وسائل الإعلام.

- ما رأيك الشخصي بتنظيم الإخوان المسلمين؟

كما نسمع عنهم من الراديو ووسائل الإعلام بأنهم يقتلون الأبرياء فهم عصابة قتلة ومجرمين.

ثم انتقلوا بعد ذلك لسؤالي عن الشخص الذي اعتقلت من أجله، وهنا خرج المحقق عن طوره وبدأ يهددني: إذا لم تقل الحقيقة فالدولاب جاهز، وسنسجنك عشر سنوات، فالأفضل لك قول الحقيقة. قلت كما تريدون.

- متى تعرفت على فلان؟

منذ كذا مدة.

- ما هي علاقتك به؟

علاقة جوار. (لم تعجبه الإجابة فهددني).

لاشيء آخر عندي، إذا كان فلان يفتري علي، فأنا على استعداد لمقابلته، وعلى أي حال فهو عندكم ويمكنكم أن تتأكدوا من ذلك.

عاد وسأل: ما هي الأحاديث التي كان يتكلم بها بين الناس؟

- كان يتكلم دائما عن الصلاة.

-ماذا تعرف عن انتمائه السياسي؟

فسألته: الآن هنا أم قبل أن آتي إلى هنا؟

قال لي: (لما كنت بره من زمان)(ه).

قلت: أعرف أنه إنسان (كويس وآدمي) سمعته طيبة في الحي، وهو إنسان متدين، وهذا أمر يعرفه عنه جميع سكان الحي.

أخذ يسألني عن بعض الأسماء، لكني لم أعرف أكثر الأسماء التي سئلت عنها، فأجبته بالنفي. وهكذا انتهى التحقيق.

ظننت أنهم سيخلون سبيلي عما قريب، فلاشيء يستدعي الاعتقال. وقّعت على محضر التحقيق، وأعادوني إلى الزنزانة.

من الأحداث الغريبة التي مازلت أذكرها أثناء وجودي بالزنزانة الانفرادية بعد أن نلت قسطاً وافياً من التعذيب أصبت بعدم القدرة على التركيز فقد نمت ذات يوم فترة قصيرة وعندما استيقظت ظننت أن الوقت قد صار متأخراً أي قرب منتصف الليل وبالطبع فإن المرء لا يستطيع أن يميز الليل من النهار أثناء وجوده في أقباء المخابرات فجميع فروعها تتصف بنفس التصميم فالسجن يكون في الطابق السفلي تحت الأرض وأما بقية الطوابق فهي عبارة عن غرف ومكاتب للضباط وباقي الموظفين العاملين بالفرع. بالتالي فإن نزلاء تلك الكهوف المظلمة لا يختلفون عن سكان القبور.

بعد استيقاظي تيممت وصليت الظهر والعصر والمغرب والعشاء، عندها بدأ الجلادون بتوزيع طعام الغداء فعرفت عندها أن الوقت ظهر هكذا كنت أشعر أن الساعات تمر ببطء شديد حتى يخيل إلي أن الساعة تعادل نهاراً كاملاً.

في الزنزانة الجماعية

بعد ذلك أخرجوني من الانفرادية إلى إحدى الزنزانات الجماعية وهي عبارة عن غرفة مساحتها ٦١ متراً تقريباً ويحتجز بها حوالي ٢٥ سجيناً من مختلف الأعمار ومختلف الفئات السياسية، وإن كان أكثرهم من الإسلاميين. لا تحوي صنابير ماء أو مراحيض، إنما كنا نعامل بنفس الطريقة

الانفرادية، فكانوا يخرجوننا مرتين أو ثلاثاً لقضاء الحاجة. لقد فاحت منا الروائح الكريهة المتعفنة، لأننا لم نستحم طوال هذه المدة، ولم نعرف النظافة، ولا أشعة الشمس أيضا. لقد اغتنمت مـرة فرصة خروجنا لدورات المياه، فخلعت ملابسي، وصببت الماء البارد فـوق جـسمي، وعنـدما خرجت، كان أحد الجلادين في انتظاري، فانهال علي ضرباً بالسلك الكهربائي الغليظ، موقعا بي أشد الألم. وقال لي: يا (...) تريد التكلم مع السجناء الآخرين؟ لقد كان ذلك حجة تذرع بهـا لإهانتي وضربي وما أكثر تلك الفصول.

قضيت مدة في العذاب بالزنزانة الجماعية، عانيت خلالها من الآلام بسبب تقيح الجروح والتهاباتها نتيجة الإهمال والقذارة، فكنت لا أستطيع النوم نتيجة الازدحام، حتى دعوت الله أن يفرج عني، سواء من المعتقل أو إلى سجن آخر، عسى أن يكون أريح من هذا المكان.

وأخيراً نقلنا إلى سجن تدمر، لنتحسر على الأيام التي قضيناها بفرع المخابرات، رغم ما فيها من أهوال ومشقات، وأخذت أدعو الله بهذا الدعاء (اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير، اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه) فالأمور نسبية، ومهما تكن المحنة قاسية، فإن هناك ما هو أشد وأنكى.

قبل أن أنتقل للحديث عن سجن تدمر، لابد لي أن أتحدث قليلاً عن التحقيق وأساليب المحققـين للإيقاع بالمعتقل، ثم طرق التعذيب المتبعة، ليعرفها شباب الصحوة الإسلامية . لقد بين لنا القرآن أهمية معرفة أساليب الأعداء. إذ يقول تعالى: (ونفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) كما أفاض القرآن بوصف أحوال الكفار على اختلاف مللهم وكذلك المنافقين حتى يكون المسلمون علـى بينة من ذلك.

ملاحظات هامة حول التحقيق

يتظاهر المحققون عادة بأنهم يعرفون كل شيء عن المعتقل، فهم يحاولون إيهامه بأن جميـع أمـوره باتت معروفة، إلا إذا كان التظاهر بالجهل أكثر فائدة، وهذا قد يحصل في حالات نادرة جدا.

كما يسعى المحققون لتضليل الضحية أثناء التحقيق بشتى الطرق، وحقيقة الأمر أنهم لا يعرفـون شيئا في الغالب، وربما عرفوا شيئا يسيراً، أو لديهم بعض الشكوك، وهذا ما يعرف بالاشتباه.

وفي حالة كون المعتقل مشتبها به، فان الذي ينفي أو يثبت الشبهة، ويقود لمعرفـة المزيـد مـن المعلومات عن المعتقل، هي غرفة التحقيق، واعترافات المعتقل هي الفيصل النهائي في هذه الحالة . وقبل أن نمضي بعيد ا في هذا المجال، لابد لنا من ذكر بعض الحالات التي يكون فيهـا الـضحية مشتبها به.

دواعي الشبهة لدى أجهزة الأمن:

١ - معظم تقارير المخبرين حول الأشخاص، والتي ترد لإدارة فرع المخابرات، لأنه في حـالات نادرة يفلح المخبر في استدراج الضحية بالكلام، وأحيانـا بالحـصول علـى أدلـة ملموسـة، كالمنشورات أو السلاح أو أن يفاتح الضحية ذلك المخبر بأمر التنظيم، أو يـستدرجه للتـورط بعمل ما، فيلقي عليه القبض متلبسا بالتهمة.

٢ - وجود علاقة قربى أو صداقة بين الشخص المشتبه به، وبين أحد الناس المعروفين بانتمـاءاتهم السياسية المناوئة للسلطة.

٣ - إذا ذكر أحد المعتقلين أثناء التحقيق اسم شخص ما، ونسب إليه أية تهمة، خاصة في حالـة عدم وجود صلة تنظيمية بين الشخصين لأن المحققين يوجهون لكل معتقل السؤال التـالي : مـن تعرف من أفراد التنظيم؟ وذلك بعد الانتهاء من الأسئلة المتعلقة به، وعادة يلقي المعتقـل التـهم جزافا في هذه الحالة، ليتخلص من التعذيب، وهذا أمر يعرفه المحققون، لذلك يعتبر المعتقل في هذه الحالة (مشتبها به). وحتى في حالة وجود صلة تنظيمية بين الشخصين فيمكن للمتهم نفي التهمة، بثباته أمام التعذيب، فاعتراف أحد الأشخاص ليس دليلا قطعيا، إلا إذا تواترت الاعترافات، فان التهمة تصبح مثبتة ولا مجال لإنكارها.

٤ - عند العثور على بعض المستمسكات المادية، كوجود المنشورات أو الكتب الممنوعـة عنـد المتهم، أو وجود المتهم مع أحد الملاحقين، أو وجود صورته مع صور الناس المعروفين بانتماءاتهم السياسية والتنظيمية.

٥ - قيام الشخص ببعض الأمور المثيرة للشبهة أثناء الحـوادث، كالاشـتراك بالمظـاهرات، أو الوقوف بمكان يثير الشبهة، أو القيام ببعض الممنوعات الأمنية كالتصوير قرب المواقع العسكرية، أو وجود الشخص بمكان حصلت فيه بعض الأعمال المخلة بالأمن كالاغتيالات، وهكذا نرى أن دواعي الشبهة كثيرة، ولذلك لجأت المخابرات أثناء الحوادث، خاصة خلال الأعوام ٧٩ - ٨٠ - ٨١ لاعتقال الناس كيفما اتفق، كاعتقال أحد الناس من الشارع، لكونه ملتحيا أو لمجرد قدومه إلي المسجد، كما حدث ببداية حزيران عام ١٩٨٠ عندما قامت المخابرات العسكرية بمداهمـة مساجد دمشق(راجع فصل مداهمة مسجد دمشق).

ولجأت المخابرات والوحدات الخاصة لاعتقال كثير من سكان الحي، ومن يرد إليه، لمجرد وجـود قاعدة للمجاهدين في تلك المنطقة، وهذا ما حصل بمدينتي حلب، وحماة، وحتى في دمشق، عندما قامت المخابرات العسكرية بمحاصرة حي القزاز، واعتقال كثير من سكانه، وكل من وصل إليـه في صيف عام ١٩٨٠ وأما المجرم غازي كنعان(٦) فأمر زبانيته باعتقال الناس مـن الـشوارع اعتقالاً عشوائياً كل يوم للتحقيق، وتعرض الكثير من سكان حماة للاعتقال والتحقيق في الأعوام

الماضية، لذلك، لا مجال لحصر أسباب الشبهة، وما ورد هنا مجرد أمثلة فقط، ولابد للمعتقل من معرفة ظروف اعتقاله، (أي سبب الاعتقال، وماذا يعرف المحقق من أمره ليتمكن من الإجابة على الأسئلة التي تعرض عليه أثناء التحقيق).

كيف يعرف المعتقل دواعي اعتقاله:

قد يصعب ذلك في بعض الأحيان، فأجهزة الأمن تحرص على إخفاء تلك الأمور، وتضليل المعتقل، ليتسنى لهم انتزاع كل المعلومات التي يعرفها، والأمر في غاية السهولة، إذا كان الشخص لا يعرف شيئاً، ولا يرتبط بأي عمل تنظيمي، فتكون نتيجة التحقيق صفراً. أو يعترف نتيجة التعذيب باعترافات مضللة قد تتمسك بها المخابرات، وقد يعرف المحققون أنها لا أساس لها من الصحة، وإنما كانت نتيجة التعذيب، وقد ترفض الاعترافات عند وجود أدلة مؤكدة بنفيها. أضرب مثلاً لذلك أن أحد السجناء بفرع أمن الدولة بحلب، اعترف أنه نفذ عملية اغتيال لأحد رموز السلطة، وكانت تلك العملية قد نفذت أثناء فترة اعتقاله!!!.

أما في حالة كون المعتقل له علاقة ما، فهذا قد يُصعّب عليه أحياناً معرفة ظروف اعتقاله، خاصة إذا وجد التسيب الأمني والاستهتار ضمن الجماعة.

من صور التسيّب الأمني:

وجود علاقات جانبية بين أفراد الجماعة، بحيث يكون الشخص معروفاً لدى أفراد مجموعات أخرى غير مجموعته، إما بسبب الانتقال من أسرة لأخرى، أو بسبب مشاركة أفراد المجموعات الأخرى، في اجتماعاتهم أو نشاطاتهم المختلفة، أو المشاركة بالمناسبات الاجتماعية والحفلات والرحلات وحضور الدروس العامة.. إلخ..

ومما يزيد الطين بلّة (كما يقال) استعمال الكاميرات وتدوين الأسماء والعناوين، وحصول المراسلات بين أولئك الأشخاص، وتكون الطامة الكبرى إذا كان أولئك الأفراد الذين تعارفوا على بعضهم البعض، يسكنون في مدن بعيدة عن بعضها البعض، ومثل هذه العلاقات الفوضوية تحصل بين طلاب الجامعات أثناء فترة الدراسة، عندما يعتقل أحد الأشخاص في مدينة ما دون أن يعلم معارفه بالمدن الأخرى، ومما يزيد البلاء أو يجعل أو يجعل الكارثة أعظم، أن تتحول الأمور التنظيمية لمسائل عادية يفاتح بها الشخص كل من يعرفهم، ولمجرد ثقته بهم، لاعتقاده أن كونهم من المسلمين يبرر ذلك، فيصبح الشخص في هذه الحالة يعرف من أمور العمل الإسلامي الكثير من المعلومات، سواء كانت تعنيه أو لا تعنيه... وربما كانت فضولية بعض الأشخاص تدفعهم لمعرفة المزيد من الأمور، وكلما عرفوا شيئا فتحت لهم أبواب جديدة للتساؤلات عن أمور أخرى وهكذا...

ومن أشكال التسيب الأمني أيضا: ألا يضبط الشخص لسانه، فيتكلم بأسرار العمل الإسلامي هنا وهناك بقصد التفاخر.

ومما يسبب التسيب الأمني. أن يكلف الشخص بمهمات أكبر من قدراته، أو أن يكلف عدد كبير من الأفراد بمهمة يمكن إنجازها بعدد قليل من الناس.

ومن مظاهر التسيب الأمني أيضا أن يعرف الشخص الكثير من المعلومات والأشخاص ضمن الجماعة، خاصة إذا كان ذلك الشخص ممن يتوقع وقوعهم بيد الأعداء، كالملاحقين، أو الذين اعتقلوا سابقا، أو الأشخاص المعروفين لدى العدو بسبب بروزهم بمجال الدعوة أو الكتابة أو الخطابة.

ومن صور التسيب أيضا: عدم المحافظة على أمن الوثائق التي تخص العمل الإسلامي، ومنها أيضاً: علاقات وصلات قوية مع الفوضويين والمشبوهين الحمقى والسذج.

كيف يمكن تحقيق الانضباط الأمني: -

١ - عدم السماح بوجود علاقات جانبية بين أفراد الجماعة، أي أن تكون العلاقة التنظيمية محدودة، ومنضبطة، وذلك بمنع كل ما يؤدي إلى إيجاد العلاقات الفوضوية، مع توعية أفراد الجماعة بصورة مستمرة لمخاطر السلوك غير المنضبط.

٢ - أن تكون المعرفة بقدر الحاجة فقط، فلا يعرف الشخص أية معلومات لا تتعلق بمهنته. أي على الشخص ألا يعرف أن أمور الجماعة إلا ما يساعده على أداء عمله، فلا مجال للفوضوية ضمن العمل الإسلامي التنظيمي، آخذين بهذه القاعدة التنظيمية المهمة جداً: "تُعطى المعلومات حسب الحاجة، وليس حسب الثقة".

٣ - ضرورة حفظ اللسان أمام جميع الناس، ولو كانوا موثوقين، فقد يتعرضون للاعتقال والتعذيب، أو لا يضبطون ألسنتهم والمثل العربي يقول: من مأمنه يؤتى الحذر... لذا ينبغي الحذر في جميع الأحوال وعدم الركون إلى الاطمئنان.

٤ - تكليف الأشخاص بمهمات تناسب قدراتهم.

٥ - إبعاد الأشخاص الفضوليين والفوضويين والحمقى والسذج عن المراكز الحساسة بالعمل الإسلامي التنظيمي، مع تنبيه أفراد الجماعة بالابتعاد عن المشبوهين.

٦ - المحافظة على أمن الأشخاص، وخاصة الشخصيات القيادية، والرؤوس المدبرة للعمل، مع السعي الدائم لإخفاء تلك الشخصيات، وعدم كشفها، والاكتفاء بكشف بعض الرموز المعروفة والمكشوفة سابقاً، لضرورة العمل فقط؛ إذ لا يمكن لأي جماعة أن تكون جميع عناصرها سرية، ولابد للناس من معرفة بعض الرموز.

٧- الاعتماد على الحفظ والذاكرة ما استطاع الأخ إلى ذلك سبيلاً، وعدم اللجوء للكتابة إلا في حالات الضرورة القصوى، مع استعمال الشيفرات قدر المستطاع، خاصة في الظروف الحرجة.

٨- المحافظة على أمن الوثائق، وذلك باستعمال الشيفرات ما أمكن، مع وضع الوثائق في أماكن يصعب على العدو كشفها، كأن توضع عند أشخاص غير معروفين لدى أعضاء الجماعة، أو خارج البلاد، مع أخذ كافة الاحتياطات لإتلافها عند اللزوم، حتى لا تقع بيد العدو..

٩- عدم الاحتفاظ بالرسائل والصور والمذكرات اليومية، التي تحتوي أسماء لأشخاص أو عناوين أو أرقام الهواتف، فعند وقوع الخطر، تصبح تلك المواد صيداً ثميناً يمكن العدو من معرفة جميع الأشخاص الذين يتربصون بذلك الشخص.

ومن الأمور البسيطة التي ينبغي أن ينتبه إليها الجميع، عدم كتابة أي شيء على الكتب التي يقتنيها الشخص، مع عدم كتابة أي شيء على أي كتاب يقوم بإهدائه لغيره، لأنه في مثل هذه الحالات، يسهل على الشخص أن يرد ذلك الكتاب لنفسه دون أي إشكال.

١٠- ضرورة تدريب جميع أعضاء الجماعة على الانضباط الأمني، بدءاً من أبسط الأمور حتى أشدها تعقيداً، ليصبح ذلك عادة وملكة يتصف بها الجميع، مع توعية أفراد الجماعة لطرق المخابرات وأساليب عملها، للكشف عن خصومها واعتقالهم، والتحقيق معهم، حتى يسهل على أفراد الجماعة تجنب كل ما من شأنه أن يؤدي إلى وقوعهم بيد العدو، وإذا ما حصل ذلك، فإن الخسائر تكون في حدودها الدنيا التي لا تؤثر على سير العمل، إذ لا يمكننا أن نتوقع عملا ما دون أخطاء أو تضحيات، فوجود الخطأ يعتبر دليلاً على وجود العمل، ومن لا يعمل لا يخطئ ولا يصيب.

أساليب المحققين:

إن كل ما ذكرناه سابقا ليس إلا مقدمة لابد منها، وهي عوامل مساعدة ووقائية لتجنب كل ما من شأنه أن يفيد الطغاة. لو قدر الاعتقال على أحد لسبب ما، وهو أمر يجب افتراضه دائما، وخاصة إذا كان العمل الإسلامي يأخذ طابع المواجهة والجهاد(٧)، وهذا ما يجب أن يكون عليه العمل الإسلامي في هذه المرحلة في بعض البلاد الإسلامية كسورية، وحتى إذا كان العمل الإسلامي سلمياً، فيجب افتراض قيام الأعداء بعمليات الاعتقال لتحجيم العمل الإسلامي، فالطغاة لن يتركونا نكمل مسيرة الدعوة وإصلاح الأمة، فماذا ينبغي على المعتقل أن يفعله لتكون الخسائر في حدودها الدنيا؟

يجب على المعتقل أن يعرف ظروف اعتقاله، وما هي المعلومات التي يعرفها المجرمون عنه، فإذا تيقن من اعتقاله لسبب الشبهة، فعليه أن يعلم أن العدو لا يعلم من أمره شيئاً، وإن لاعترافه

القول الفصل، فإما أن تتحول الشبهة لذنب أو جريمة، أو تتحول لبراءة من الاتهام، ويتظاهر المحققون عادة بأنهم يعرفون كل شيء، فلا فائدة من الإنكار. ويقولون: إن تتكلم نساعدك. وربما ألقوا ببعض المعلومات المعروفة لديهم، كطعم لخداع المعتقل بأنهم يعرفون ويعرفون، وقد يوجهون أسئلة محددة لإقناع المعتقل بأنهم يعرفون من أمره شيئاً، كأن يقولوا له: حدثنا عن علاقتك بفلان، وتكون تلك المعلومات قد وصلت إليهم عن طريق المخبرين، أي أنهم غير متيقنين من صحتها، وربما احتوت على معلومات خاطئة، وهنا يسهل على المعتقل معرفة ما لدى المحقق من معلومات، ومصدرها، فعلى المعتقل في هذه الحالة: التسلح بالنفي لكل الأمور التي لا يعرفها المحققون، والعكس بالعكس أي عدم نفي شيء يعرفه المحقق بشكل أكيد، فلا فائدة من ذلك، فذلك يؤدي لإقناع المحقق أن الضحية يكذب، وهذا ما يقوده إلى استعمال التعذيب. كما أن على السجين اختصار الإجابات قدر المستطاع، فالكلمة أفضل من الكلمتين، والإشارة أفضل من العبارة، وإذا كان الصمت كافيا للإجابة فهو أفضل من الكلام، ومن الأفضل الإجابة على السؤال بسؤال آخر، لمعرفة ما لدى المحققين من معلومات. ويكون التعميم أحياناً أكثر فائدة، وربما يكون التخصيص أكثر فائدة في أماكن أخرى، وعلى المعتقل أن يعي تماما كل سؤال قبل أن يباشر الإجابة، فلكل كلمة مدلولها وخلفيتها لدى المجرمين.

وقد يتظاهر المحققون باعتقادهم أن المعتقل بريء، ولا يريدون منه شيئاً سوى أن يذكر كذا وكذا... كأن يقولوا: (عليك أن تدلنا على اسم شخص من الجماعة الفلانية) ليلتقطوا طرف خيط يعملون على جرّه لنهايته، كما يوحي المجرمون لبعض ضحاياهم بأن قضيتهم تافهة، ليشجعوه على أن يقول كل شيء يتعلق بتلك التهمة (كأن يقولوا: إن حضور الدروس بالمسجد مسألة (تافهة)). وبذلك يطمئن السجين فيبوح بكل شيء. وبالعكس، فقد يلجأ المجرمون لرمي المعتقل بتهمة أكبر بكثير من تهمته، مما يسهل عليه الاعتراف بقضيته، لينفي عن نفسه التهمة التي رمي بها.

وقد يبدأ المجرمون بتعذيب الضحية دون توجيه الأسئلة المحددة، قائلين بصورة مستمرة: عليك أن تعترف بكل شيء. وهنا تكون الطامة الكبرى إذا وجد التسيّب الأمني لدى أفراد الجماعة، لأن المعتقل سيسرد قصة حياته كاملة، وخاصة عندما يكون جاهلاً ظروف اعتقاله، فعلى السجين أن يتحمل التعذيب قدر استطاعته، ليعرف ماذا يريد المحقق؟ وما هي المعلومات التي يعرفها؟ وقد يلجأ بعض المحققين لتوجيه أسئلة عامة، يحاولون من خلالها التقاط بعض المماسك التي لها ما بعدها، هنا يجب الاحتراس من الاعترافات، مع اختصار الإجابات ما أمكن، والتسلّح بالنفي عند الضرورة (خاصة إذا كان المحقق لا يعرف شيئاً).

والأفضل للمعتقل: أن يتظاهر بالغباء والسذاجة والحماقة والجبن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن إظهار الشجاعة والعبقرية لا تفيد في هذه الظروف، والأمور نسبية، فلا يمكن لأي معتقل التظاهر بالجهل والسذاجة أو استغباء نفسه، خاصة إذا كان شخصية اعتبارية، أو يحمل مؤهلاً علمياً، ففي هذه الحالة، يعرف المحققون أن المعتقل يحاول خداعهم بادعائه السذاجة والغباء، وهذا أمر يجب وضعه بالحسبان عند توزيع المهمات.

وبالعكس: إذا كان المعتقل أميّاً لا يملك أية مؤهلات، فقناعة المحقق الأولية أن هذا الإنسان لا يعرف شيئاً، وتوجيه إليه الأسئلة بناءً على هذه القناعة، فيجب عليه إظهار نفسه وفق ذلك، وأن يخفي ذكاءه وعبقريته كإظهاره للمحققين أنه يدرك مغزى أسئلتهم، فمثلاً إذا سئل عن أسماء الأشخاص الذين يعرفهم من جماعة مناوئة للسلطة فعليه الإجابة بالنفي فقط دون أي تعليق كقوله مثلاً أن على الشخص أن يكون منتسباً لتلك الجماعة ليعرف أشخاصاً منها فهذه الإجابة أو نحوها توحي للمحقق أن المعتقل يعرف غايتهم من الأسئلة وهذا يدعوهم للاعتقاد أنه (المعتقل) يضللهم بإجاباته مما يدعوهم لاستعمال التعذيب.

وعليه أيضاً تجنب ذكر أي شيء يوحي للمجرمين بمعرفته ظروف اعتقاله أو استغبائه لهم وإدراكه لجهلهم بأمره. كأن يقول إذا كان لديكم دليل كذا وكذا، وعليه أن يوحي لهم بشكل مباشر أنهم يعرفون كل شيء، ولا يخفى عليهم شيء من أمور الناس، لأن ذلك يؤدي لزرع الثقة لدى المحققين باعترافات المعتقل، وبالتالي سيقودهم لتخفيف التعذيب.

ويجب تجنّب التناقض بالاعترافات، وأن يقول الإنسان ما يعتقد فيه النجاة والإفلات من قبضة الجلادين، تاركاً قناعاته الشخصية(٨) جانباً فمثلاً حينما يُسأل عن جماعة مناوئة للسلطة، فعليه ذم تلك الجماعة، مادحاً النظام في الحدود المعقولة، وبطريقة مقنعة عندما يكون ذلك ممكنا، كأن يعتقل بسبب الشبهة. وتحمل التعذيب والصبر والجلد ضروري إذا لجأ إليها المحققون لإثبات صدق الاعترافات وزرع الثقة في نفس الجلاد، وفي حالة كون المعتقل متلبساً بالتهمة يوجه المحققون الأسئلة الآتية: ما أسماء مجموعتك التنظيمية؟ من الذي نظمك؟ من المسؤول عن مجموعتك التنظيمية؟ وأين تعرفت على من نظمك ومن عرف عليه؟ ومن هم الأشخاص الذين عرفك عليهم؟ ما هي المهمات التي قمت بها؟ ما هي الرحلات والمعسكرات والجلسات التي شاركت بها؟ ما هي الكتب التي قرأتها؟ ما الموضوعات المطروحة أثناء الجلسات التنظيمية؟ من هم الأشخاص الذين نظمتهم؟ أين ومتى وكيف تعرفت عليهم؟ ما هي البلدان التي سافرت إليها؟ وماذا فعلت أثناء سفرك؟ وإذا كان الشخص ملاحقا فإنه يسأل إضافة إلى ذلك عن أسماء الأشخاص الذين آووه وساعدوه مادياً ومعنوياً خلال فترة ملاحقته؟

أما إذا كان من المجاهدين، فيسأل أيضاً عن العمليات التي نفذها أو شارك بتنفيذها، وأسماء الذين شاركوه في تلك العمليات، كما يسأل عن العلماء الذين أفتوا له للقيام بأعمال الاغتيالات، ويسأل أيضا عن المستمسكات المادية التي تم ضبطها أثناء اعتقاله، كالأسلحة والمنشورات وأجهزة اللاسلكي وبقية المستمسكات إن وجدت، ومن أين أتى بها؟ وفيم استعملها؟ ومن علمه على استعمالها؟ كما يسأل عن المكان الذي تدرب فيه على السلاح ومن دربه؟

والخلاصة:

إذن : أهم الأمور التي ينبغي أن يعرفها المعتقل، هي ظروف اعتقاله، وما يعرفه المحقق من أمره، فيسهل عليه تضليله ببعض الاعترافات، ويستطيع إخفاء قسم كبير من المعلومات الهامة التي يعرفها، وعلى المعتقل أن يرد كل شيء لنفسه ما أمكن، لتجنب توريط الآخرين، سواء أكانوا مرتبطين بالعمل أم لا.

المحققون والتعذيب:

تلجأ أجهزة المخابرات لتعذيب المعتقلين بغية انتزاع الاعترافات، ويحصل هذا عندما يقتنع المحققون أن المتهم يخفي بعض ما يعرف، وهذا لا ينطبق على (باطنيي) سورية، فالتعذيب هدف في ذاته. لقد شاهدت الكثير من السجناء خلال فترة اعتقالي لا يحملون أية معلومات تستحق الذكر، وغالباً التقطوا عشوائياً من الشوارع، دون أن يكونوا مطلوبين لتحقيق معين، إنما تم اعتقالهم بتصرف أهوج من دوريات المخابرات التي تجوب الشوارع، ورغم ذلك، فقد تعرضوا لأشد صنوف التعذيب والقهر، خاصة إذا تولى الزبانية الصغار التحقيق معهم، لأن الضباط الكبار مشغولون بقضايا أخرى، لقد كان أولئك المساكين يتعرضون للضرب والإهانة دون أي سبب، ودون أن يوجه لهم أي سؤال، فضلا عما شاهدناه في سجن الموت بتدمر، فالجلادون يتصرفون بدافع الحقد، بعيدين كل البعد عن العقل والمنطق والحق: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون)، ذلك هو شأنهم: طاغية حاقد لئيم تمكن من عدو يهدد وجوده وعرشه وسلطانه.

فالتعذيب والقهر هما القاعدة والعرف في حياة النظم المستبدة، وهي المتبعة في أكثر بلدان عالمنا الإسلامي المنكوب، بهدف انتزاع الاعترافات من المتهم، وإذا كان الشخص معتقلاً عشوائياً دون وجود أي أدلة ضده، فالمحقق يوجه إليه أسئلة عامة، يحاول من خلالها التقاط أطراف بعض الخيوط، فإن توصل من التحقيق المبدئي إلى ما يثير الشبهة، فالاستجواب يأخذ شكله المعروف، أي: التعذيب لانتزاع الاعترافات المطلوبة. وعند الفشل في الوصول لإثبات تهمة ما فالجلاد عادة ما يلجأ إلى التعذيب، والإهانة والقهر بعد ذلك ليس لهما سوى هدف واحد، هو المحافظة على

رهبة المكان، الذي يجب أن يحمل الرهبة دائماً في أذهان الناس، لأن هيبة النظام من رهبة أجهزته القمعية، التي يجب المحافظة عليها دوماً.

أما إذا كان المتهم متلبساً بالتهمة، وكانت قناعة المحقق أنه قد أفرغ كل ما عنده، فقلما يستعمل التعذيب، لئلا يقود ذلك إلى اعترافات تضليلية. وهناك بعض الملاحظات التي ينبغي الالتفات إليها في هذا المجال:

١ - إن معرفة المعتقل لظروف اعتقاله، وتضليل المحقق ببعض الاعترافات، يؤدي إلى تجنب التعذيب أو تخفيفه.

٢ - ليس هناك قاعدة ثابتة لتحمل العذاب، فبعض الأشخاص الذين يفترض فيهم تحمل الأذى لم يثبتوا أمام القهر، وباحوا بكل ما يعرفون من معلومات عند تعرضهم للعذاب، وربما أصيب المحققون بالدهشة نتيجة لتلك الاعترافات التي لم يتوقعوها، وبالعكس فهناك أشخاص قد تحملوا تعذيباً شديداً رغم أنهم لا يفترض فيهم ذلك، وهذا أمر يجب أن يوضع في الحسبان، مع أخذ كافة الاحتياطات الأمنية، وذلك بأن تكون المعلومات التي يعرفها الأخ بأقل قدر ممكن عملا بقاعدة (المعرفة على قدر الحاجة) مع السعي لقطع جميع الخيوط الموصلة للمعتقل، وتغيير الخطط التي يعرفها، تحسبا لأسوأ الاحتمالات.

٣ - وللتعذيب درجات متفاوتة، وكلما اقتنع المحققون أن المعتقل تحمل درجة دون أن يعترف، شددوا عليه، وهكذا... كما أن هناك طرقا مختلفة للقهر كما سنرى. وهذا أمر يجب أن يعرفه المعتقل، فإذا شعر أنه سينهار، ووصل إلى الدرجة التي لم يعد يطيقها، فعليه ترتيب بعض الاعترافات التي يستطيع بها تضليل المحققين بأقل خسارة ممكنة، حتى لا يبوح بكل ما عنده في حالة الانهيار، ويفتح أبوابا جديدة للتحقيق، بقاؤها موصدة أفضل وأرحم.

٤ - إن الأحداث وصغار السن لا يتحملون التعذيب، وغالبا ما يبوحون بكل ما يعرفونه عند تعرضهم لأخف درجاته، فليحذر من تحميلهم أية مهمات تتطلب الكثير من المعلومات، وإبعادهم عن العمل التنظيمي ما أمكن، وأن تكون العلاقات التنظيمية بعيدة عن أنظارهم وعن أنظار بقية أفراد العائلة، لأن السلطة قد تلجأ لاعتقال الأقارب (إخوة... أبناء.. الخ) للاستفادة مما يحملونه من معلومات عن المعتقل.

٥ - إن الأشخاص غير المعنيين بأمور الجماعة، سواء كانوا أقارب أو أصدقاء يبوحون بكل ما يعرفونه عند التحقيق، لقناعتهم بأن ذلك لا يعنيهم، وكل ما يهمهم أن يكونوا بأمن وأمان، ولو على حساب غيرهم، خاصة إذا كانوا من المستهترين، والذين يرضون لأنفسهم أن يعيشوا على الهامش في الأحداث وفي حاشية الحياة الكريمة.

٦ - يجب على الإنسان الملتزم بالصف الإسلامي أن ينزع من تفكيره أن الاعتراف هو نهاية التعذيب، وما عليه إلا الاعتراف ليتخلص من التعذيب، كما أن اعتقال الآخرين واعترافاتهم ستؤدي لفتح المزيد من الثغرات، والمزيد من التساؤلات التي تقود المحققين لزيادة التعذيب حتى يجد المعتقل نفسه قد أفرغ كل ما في جعبته للمجرمين.

٧ - هناك الكثير من الناس قد ماتوا تحت التعذيب وهم لا يعرفون شيئاً، فعلى المعتقل إقناع نفسه أنه لا يعرف شيئاً. كما أن هناك كثيرين ممن عذبوا حتى الموت دون توجيه أية أسئلة (مثلما حدث في سجن تدمر) عند ذلك يجد المعتقل نفسه مرغماً على تحمل العذاب الذي لا فكاك منه.

٨ - فإذا علم السجين أنه لن يتحمل التعذيب، واستطاع بنفس الوقت أن يعرف ظروف اعتقاله، وما يعرفه المحققون من أمره، فما عليه إلا ترتيب الاعترافات قبل تعرضه للتحقيق والتعذيب، وذلك برد الأمور لنفسه قدر استطاعته، وأن تكون بقية الاعترافات مضللة ومقنعة للمحققين، لتكون الخسارة بحدودها الدنيا، لأنه إذا لم يفعل ذلك، فإن المحققين سيلجئون للتعذيب الشديد، وبالتالي ينهار المعتقل فيبوح بما لديه.

٩ - على الشخص الملتزم بالعمل الجماعي أن يعي الغاية التي نذر نفسه لها، وأن يدرك أنه على ثغرة من ثغور الإسلام، فانهيار البعض يكون طامة كبرى على المسلمين، إذ تؤدي اعترافاتهم إلى جر العشرات وربما المئات إلى السجون أو إلى المقصلة. إن الثبات أمام التعذيب وتضليل المحققين يعتبران بطولة من نوع فريد، لأنها تؤدي إلى إنقاذ الكثيرين وربما أدت إلى نجاح الخطط، نتيجة فشل الطغاة في كشفها... كما أن علينا أن نعي أن طريق الدعوة مليء بالمحن والشدائد، وما على الذين نذروا أنفسهم لذلك إلا أن يتحملوا تبعات الطريق، فلا مكان للمنهزمين والمتخاذلين ضمن الدعوة، والذي يشعر بنفسه أنه غير قادر على تحمل تبعات الطريق، فما عليه إلا الابتعاد عنه، حتى لا يكون عثرة أو طامة كبرى على الدعوة وأهلها وقت الشدائد، وصدق الشاعر حيث قال:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

الانتهاء من التحقيق:

يوقف المجرمون التعذيب والاضطهاد عند اقتناعهم أن المعتقل قد باح بكل ما لديه من معلومات، أو عند وصول التحقيق إلى طريق مسدود، أي أن الطغاة لم يعد بإمكانهم الحصول على المزيد، بسبب ثبات المعتقل أمام التعذيب، أو عند نجاحه بتضليل المحققين ببعض الاعترافات.

وتوقف التعذيب لا يعني نهاية التحقيق، لأن للطغاة طرقا ووسائل أخرى لاسترسالهم في الإجرام.

- فقد يلجأ المجرمون إلى إعطاء السجين عدة أوراق يطلبون منه تدوين اعترافاته، فإذا عثروا على جديد عادوا لطرح الأسئلة. وربما لجئوا للتعذيب من جديد، وقد يسلك المحققون طرقاً أكثر دهاءً، وذلك باستخدام المخبرين الذين ينتشرون بين المعتقلين، ويتظاهرون بتعرضهم للتعذيب الشديد، وأن كذا وكذا... وأن المحقق قد سأله كيت وكيت، ويدلف بعد ذلك إلى أسئلة محددة، سواء داخل الزنزانة المنفردة أو الجماعية (بعد أن يحدد لهم سجين بعينه، ويعطونهم المعلومات التي تساعدهم على أداء مهمتهم) ويخرج المحققون كلابهم بين فترة وأخرى بحجة التحقيق ليسألوهم عما التقطوه من معلومات وأخبار خلال مهمتهم التجسسية بين المساجين.

- وقد يقوم الجلادون باستدعاء شخص ما (سواء كان مخبراً أو معتقلاً آخر) ويطلب منه الاعتراف على مسمع سجين، ناسباً إليه تهمة ما، كقوله: إن السجين الآخر قد نظمه، أو بالعكس ليوهموا الشخص الآخر أن هذا السجين هو أحد أصدقائه في الجماعة، والذي اعترف عليه كيت وكيت، وهذا الأسلوب قد يجر المعتقل للاعتراف، خاصة إذا كانت بعض الادعاءات التي سمعها صحيحة، وهو غير منتبه للتلقين في التمثيلية الإجرامية تلك.

- أو يلجأ إلى وضع المخبر في زنزانة منفردة، تواجه زنزانة سجين معين، فيفتح الشراقة الصغيرة، منادياً ذلك المعتقل برقم زنزانته، ويبادله السلام والكلام، وربما استطاع خداعه، وسحب بعض المعلومات منه، بعد اطمئنان الثاني الساذج.

- أو يرسل المخبر للمستشفى لينام على سرير مجاور لمعتقل معين، متظاهراً بأنه قد عذب، وأن تهمته كيت وكيت، محاولاً استدراج المعتقل، ليأخذ منه بعض المعلومات التي كلف من أجلها بمهمة التجسس والاستدراج.

- ولربما تظاهر ضباط المخابرات باللين لأبعد الحدود، حين يقومون باستدعاء المعتقل، ويجلسون معه، ويبادلونه أطراف الحديث، ويقدمون له بعض المأكولات الشهية، وربما سمحوا لأقاربه بزيارته، ويمنونه بالأماني العِذاب (كالإفراج)، ويظهرون اهتماما بمشاكله الخاصة داخل وخارج السجن، ويؤثر هذا الأسلوب على بعض الناس، فالمعاملة اللينة من ضباط المخابرات مع المعتقل الذي أنهك جسميا ونفسيا من التعذيب، تؤدي لانهيار الحاجز النفسي بين السجين وخصمه، فينطلق المعتقل بالكلام دون أي ضابط، فيبوح بما لديه من معلومات مشكلاً بذلك ظروفاً معقدة جديدة، وسلبيات لانهاية لها مع الناس والأحداث...والتحقيق.

وسبب ذلك: أن المعتقل يصل إلى حالة نفسية يشعر معها أن كل ما يكلمه بصورة طبيعية هو صديق حميم أعز عليه من أقرب الناس، فكيف إذا تظاهر المحقق باللين و.. و..؟ على أن هذا الأسلوب لن يخدع إلا ضعاف النفوس، أما أصحاب العقول النيرة الواعية، فلن تخدعهم جميع

أساليب العدو. وصدق الله العظيم حيث يقول: (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون)، وقال سبحانه أيضاً: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار)، ورحم الله الشاعر الحصيف عندما يقول:

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب

- وهناك أسلوب آخر يشبه الأسلوب السابق، وهو أن يتودد أحد عناصر المخابرات كطبيب الفرع أو الممرض أو أحد الضباط بالتكلم مع السجين، متظاهراً بالإشفاق عليه، ومبدياً أسفه لما تعرض له من تعذيب، ثم يقدم له النصائح بأن يقول كل ما يعرف ليخلص نفسه من التعذيب.

وهكذا نرى أن طرق المحققين متعددة، وعلى السجين أن يدرك أنه في تحقيق مستمر طوال فترة اعتقاله، وكلما فشل أسلوب استبدل به غيره، وهكذا حتى يصل الطغاة إلى غايتهم مهما كانت هذه الأساليب فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، ولا مكان للقيم الأخلاقية في عقيدتهم (وهذا ما سنراه عند الحديث عن أساليب التعذيب بشكل مفصل وموضوعي أكثر..).

وبعد التحقيق الشفهي والكتابي، توضع جملة أسئلة لطرحها عليه (حسب التهمة الموجهة إليه) من قبل أحد المحققين، تاركين للسجين الإجابة عليها بأسلوبه الخاص، ويقوم بعد ذلك المحقق بصياغتها هو بأسلوبه، وبما يناسب قناعته، وتدون تلك الاعترافات بمحضر التحقيق النهائي، والمسمى عندهم: الإفادة النهائية... وأخيراً يدون رئيس قسم التحقيق رأيه، وربما أضاف أموراً أخرى لم يعترف بها المعتقل، وسواء حصل عليها من اعترافات معتقلين آخرين أو من تقارير مخبرين سريين، مقترحاً إيقاف المعتقل احترازياً، انتظاراً لما تكشفه الأيام، ويحصل هذا عندما يفشل المحققون في إدانة المعتقل بأية تهمة، أو يقترح إخلاء سبيله، عندما تكون نتيجة التحقيق صفراً، مع عدم وجود داع للشبهة، وإما أن يطلب إحالة السجين إلى المحكمة إذا كانت نتيجة التحقيق تشير إلى تهمة ما.

وإذا زج المتهم في أحد السجون، فإن إخلاء سبيله يصبح من اختصاص السلطات العليا، وتخرج القضية من اختصاص رئيس الفرع، خاصة إذا ثبت بحق المتهم تهمة ما، ولربما أصبح ذلك من صلاحيات الصنم الأكبر، كما هو حال معتقلي سجن تدمر، وعلى أية حالة، فإن الاحتفاظ بالمعتقلين لفترات طويلة هي القاعدة المعمول بها هذه الأيام، مهما كانت نتيجة التحقيق. فما هو مبرر ذلك؟.

الاعتقال التعسفي:

كثيراً ما يعتقل الأشخاص ويحتفظ بهم لفترات طويلة، وأحياناً دون وجود أية تهمة تستوجب ذلك، وهذا ما يعرف دولياً بالاعتقال التعسفي. أما بالنسبة إلى أجهزة أمن الطغاة، فإن لهذا

الإجراء مبرراته، ويسمى عندهم بالتوقيف الاحترازي، أو الاعتقال لأسباب أمنية. فما هي أسباب ذلك؟.

١ - عجز المحققين عن نفي الشبهة تماما، لأن الجلادين لا يثقون بنتائج التحقيق واعترافات المتهمين، لذا يترك المعتقل في مثل هذه الحالات رهن الاعتقال في قاع الظلم والظلام، انتظاراً لما قد تكشفه الأيام، ويلجأ الجلادون لسؤال ضحاياهم الجدد حول أولئك المعتقلين، لاكتشاف أمور جديدة، كأن يقولوا للمعتقل الجديد: ماذا تعرف عن فلان؟ لقد اعترف أنه قد نظمك، أو اعترف أنك نظمته؟! وربما اعترف المعتقلون الجدد، بأمور تتعلق بآخرين اعتقلوا سابقاً، فيعاد التحقيق مع ذلك المعتقل، وبشكل أشد قسوة من المرة السابقة، لأن الجلادين باتوا مقتنعين بأن ذلك المعتقل قد نجح بتضليلهم فلابد من استخدام أبشع الوسائل لانتزاع تلكم المعلومات الخطيرة. ويصاب المعتقل بالانهيار أمام التعذيب، فيبوح بما لديه من معلومات تمكن من إخفائها سابقاً، لأن التحقيق السابق وفترة الاعتقال تضعفان كثيراً من معنويات المعتقل، فتجعله غير قادر على تحمل التعذيب من جديد، كما أن المحققين يملكون حساسية مفرطة جدا تجاه ورود اسم أي شخص قد اعتقل سابقا، سواء كان رهن الاعتقال أو حراً طليقاً، خاصة إذا ورد اسمه بنفس الفرع الذي اعتقل به سابقاً وربما أعيد اعتقاله مثل هؤلاء الناس لأتفه الأسباب التي لا تستوجب اعتقال غيرهم ممن لم يتعرضوا للاعتقال سابقا، فيجب تجاهل أسماء الأشخاص الذين اعتقلوا سابقا وخاصة إذا كانوا ما يزالون رهن الاعتقال، ولم يطلق سراحهم بعد، وإذا وقع المعتقل أثناء التحقيق في أية هفوة أو زلة تتعلق بأحد المعتقلين، فعليه رد الأمور إلى نفسه أو إلى أشخاص آخرين يصعب على المخابرات الوصول إليهم، كالمسافرين خارج البلاد، مع إبلاغهم بعد ذلك، إذا أمكن، لاتخاذ الحيطة والحذر.

٢ - اعتقال ناس معنيين تلافياً لما قد يقومون به من أعمال مناوئة للسلطة، إذا كانوا أحراراً طليقين، وخاصة في الظروف الحرجة، كالذين اعتقلوا سابقا بتهم سياسية، أو المهربين، خشية أن يقوموا بتهريب الأسلحة، لخبرتهم في هذا المجال، وربما لجأت المخابرات إلى تلفيق التهم لبعض المعتقلين لتبرير اعتقالهم، ومثال ذلك، ما لجأت إليه المخابرات في السنوات الأخيرة من اعتقال وتسريح ضباط الجيش السنيين الذين يشك في ولائهم للنظام بعد حبكة درامية فائقة الحقد والمكر لهم.

٣ - اعتقال رهائن من أقارب وذوي الملاحقين للضغط عليهم، كي يسلموا أنفسهم، أو للكف عن الأعمال المناوئة للسلطة، خوفاً على أقاربهم، وربما استمر اعتقال الرهائن لسنوات مديدة، وقد لجأت المخابرات لاعتقال ذوي الملاحقين الموجودين خارج البلاد حتى لا يساعدوهم مادياً أو

معنوياً، بإعلامهم أنهم مطلوبون للاعتقال، وليعودوا إلى البلاد فيقعوا في الفخ (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

٤ - الاحتفاظ بالمعتقلين، رغم قناعة الجلادين التامة ببراءتهم، خوفاً على المعلومات التي عرفوها خلال فترة اعتقالهم من أن تخرج فيعرفها الخصوم، لأن أجهزة الأمن تحرص على أن تبقى تلك الأمور سرية للغاية، ولا يعرفها أحد، لتتمكن من تضليل خصومها، ببث الإشاعات التي تريدها، وإخفاء الحقائق لذلك رأينا كيف كانت المخابرات تحيط المعتقلين بالسرية التامة منذ اللحظة الأولى لاعتقالهم، مع عدم السماح لأقاربهم بزيارتهم، وعدم السماح للمحسوبين على النظام وحتى بعض رموزه من التعرف على التهم الموجهة إليهم مهما كانت تافهة.

وربما كان سبب الاحتفاظ بالمعتقلين الأبرياء هو خوف السلطة مما قد يقومون به من أعمال مضادة لهم، بعد أن اعتقلوا وأصبحوا حاقدين على النظام، نتيجة الاضطهاد والظلم الذي لحق بهم، خاصة إذا كانت الظروف العامة في البلاد تساعد على ذلك، كما يحصل في حالات الانتفاضات الشعبية، كما حصل في سورية وعليه نرى أن دواعي التوقيف التعسفي متعددة، وتختلف باختلاف الظروف المحلية، وطبيعة الأنظمة القائمة، وطبيعة المعارضة التي تواجهها.

وأما التغطية القانونية لتلك التصرفات، فإن حالة الطوارئ واستخدام الأحكام العرفية، يؤديان لتعطيل جميع القوانين، وبالتالي تصبح الأجهزة الأمنية تمتلك صلاحيات واسعة، فهي السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، فهي التي تعتقل وتحقق وتقوم بالتحريات، وتحاكم، وهي التي تسجن وتنفذ حكم الإعدام، وليس من حق أي شخص مهما كان شأنه التدخل أو الاعتراض على تصرفات أجهزة القمع، لأن تلك القضايا أمنية بحتة، تتعلق بأمن البلاد (كما يدعون) وبتعبير أدق بأمن النظام الذي في سبيله تهدر كل القيم، وتهتك الأعراض، وتداس الكرامات، وترتكب الجرائم، وتنتهك الحرمات، فأمن النظام وسلامة رموزه فوق كل الاعتبارات والأعراف.

التعذيب في أقبية المخابرات

يقول الله تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)، ويقول أيضاً: (ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين).

قبل التحدث عن وسائل التعذيب المتبعة في معتقلات طغاة سورية لابد لنا من تقديم بعض الحقائق في هذا المجال:

١ - إن ما أقدمه هنا من معلومات هو نتيجة لتجربتي الشخصية فقط، أي أنني أقتصر على سرد طرق التعذيب التي واجهتها أو شاهدت آثارها على أجساد إخواني المعتقلين الذين قابلتهم

وتعرفت عليهم خلال فترة اعتقالي التي دامت عدة سنوات، وهي بالتأكيد ليست إلا جزءاً يسيراً من طرق التعذيب الموجودة عند أولئك المجرمين.

٢ - ولا أهدف من خلال وصف تلك الطرق الجهنمية المتبعة في سورية تعرية وفضح ذلك النظام الطائفي العفن، فهذا أمر بات معروفا للقاصي والداني، كيف لا ورائحة النظام النتنة تزكم الأنوف؟

٣ - قد يعتقد البعض أن ما أقدمه هنا من وصف ربما كان غير صحيح، وربما ظن آخرون أن فيه الكثير من المبالغة، وهنا أذكر هؤلاء وأولئك ببعض ما ارتكبه النظام من مجازر فاقت كل تصور، كمجزرة سجن تدمر، ومجازر حماة وحلب وجسر الشغور، والمعرة وسرمدا وطرابلس وغيرها وغيرها... فإذا تذكرنا ذلك، فإننا نستطيع أن نضع هذا الكلام وأكثر منه في إطار المعقولية والواقع.

٤ - وأهم شيء أقصده هنا، هو تذكير الشباب المسلم بما ينتظرهم وبما يعده لهم الطغاة الجلادون، ليكون شباب الصحوة الإسلامية عن بينة من أمرهم، ليعدوا أنفسهم لذلك الامتحان، فطريق الدعوة مفروشة بالأشواك، ومليئة بالآلام والمكاره، ولابد من الامتحان لتمحيص الصفوف (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين).

٥ - إن طرق التعذيب التي أتحدث عنها هي الموجودة في أقباء المخابرات، أما طرق التعذيب التي واجهها نزلاء سجن تدمر، فأترك الحديث عنها لاحقاً عند التكلم عن ذلك السجن الرهيب القابع في صحراء الشام.

وأهداف التعذيب: هي إهانة وتحقير وإذلال المعتقل، وتحطيم معنوياته وسحق كرامته وشخصيته، وتبدأ الإهانة من اللحظة الأولى للاعتقال، فيندفع أفراد الدورية المكلفون باعتقال الشخص المطلوب إلى داخل المنزل من دون أذن أو مراعاة لحرمة البيوت المتعارف عليها، ويفاجئون المتهم تحت جنح الظلام، وقد يداهمون المنزل بعد خلع الأبواب، وربما اقتحموه من الأعلى بتسلق الأسطحة، دون مراعاة لكرامة الإنسان وقيم المجتمع.

كيف لا والقاعدة المعمول بها عندهم: كل متهم مذنب حتى يثبت العكس.

وليتم ذلك، لابد أن يمر ذلك المتهم بمراحل الاعتقال والتحقيق وما فيهما من إهانة وتعذيب وقهر، وربما استمر الاعتقال سنوات طويلة، يتعرض خلالها ذلك المظلوم لشتى صنوف المرارة والقهر، كما تهدف الإهانة إلى تحطيم معنويات المعتقل وإرهابه، ليبوح بما لديه من معلومات، وبأقل التكاليف (أي بأقصر مدة زمنية ممكنة) ليتفرغ الجلادون لغيره من المعتقلين المضطهدين.

ولعل أهم سبب للتعذيب والإهانة، هو إرغام المعتقل على الاعتراف، كما يريدونه هـم، حتى ينسقوا تمثيليتهم ويصلوا بحبكها وعقدها إلى أعلى درجة من الواقعية.

ويهدف التعذيب والإهانة أيضا إلى الانتقام من المعتقل بسبب الحقد الأسود الذي يحكم تصرفات أولئك الأوغاد، لأن أكثر المحققين، إن لم يكونوا جميعهم من أطراف الطائفة النصيرية المستولية على مقاليد الأمور، والمتسلطة على رقاب الشعب، وكذلك حال الجلادين والسجانين، إن صدورهم تتدفق بالحقد الدفين، وقد وجدوا هؤلاء الشبان المسلمين أمامهم، فراحوا يشفون بهم أحقادهم التاريخية، وانحرافاتهم النفسية والعقائدية، وصدق الله العظيم: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألوكم خبالاً ودّوا ما عنتّم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر).

وسائل التعذيب الجسدية والنفسية:

وتختلف بتعدد الأجهزة الأخطبوطية، ومن طرق التعذيب الجسدية الفاجرة:

١ - التعذيب بالضرب: يبدأ الضرب منذ اللحظة الأولى للاعتقال، فينهال الزبانية على المعتقل لطماً ولكماً وركلاً، بهدف إهانته وإذلاله وإرهابه، وعندما يصل ذلك المسكين إلى فرع المخابرات، تبدأ فصول أخرى من التعذيب بالضرب، أهمها: الدولاب. وقد تحدثنا عنه سابقاً أثناء الحديث عن التحقيق.

٢ - استعمال السلم: يثبت المعتقل على سلم خشبي، وجهه للأسفل وظهره للأعلى بعد أن يعرى من ملابسه، ويجلد على ظهره بالكبلات الكهربائية المجدولة. كما يجلد على سائر أنحاء جسمه كالفخذين والإليتين والرأس وسواها...

٣ - استعمال بساط الريح: تستعمل هذه الطريقة في فروع المخابرات العامة (أمن الدولة) وهو عبارة عن قطعتين من الخشب تتمفصلان مع بعضهما البعض، بحيث يمكن طيها لتصبح بشكل زاوية قائمة، يوضع المعتقل عليها، ويثبت وترفع رجلاه للأعلى ليضرب عليهما باستعمال الضرب المختلفة.

٤ - وفي مدينة حلب استخدمت طرق وحشية أخرى للتعذيب منها ضرب السجناء على مفاصلهم (مفاصل الرجلين خاصة الركبتين) بالمطارق الحديدية، وسواطير اللحمة والفؤوس، كما استعملوا تلك الأدوات للضرب على الساقين والقدمين أيضا، إضافة للمفاصل مما يسبب آلاما مبرحة وكسورا بالعظام، وآفات دائمة بالمفاصل، ليصبح المعتقل بعد ذلك مقعداً كسيحاً.

٥ - التعليق إلى السقف بواسطة سلاسل حديدية من اليدين ويرفع السجين للأعلى، أو يعلق من رجليه ورأسه للأسفل، كما تعلق الذبيحة، ويضرب على جميع أنحاء جسمه بوحشية رهيبة،

وتستخدم هذه الطريقة بمعظم فروع المخابرات، أذكر منها فرع المخابرات العسكرية بحلب (فرع السريان) وفرع الخطيب أو ما يسمى بالفرع ٢٥١ التابع للمخابرات العامة، مــأوى وحــوش القرن العشرين.

٦- الضرب بوضعية الوقوف أو الركض وتستعمل هذه الطريقة بسجن الشيخ حــسن التــابع لشعبة الأمن السياسي بدمشق، ويوجد داخل المعتقل بحيرة صغيرة يلقى فيها الــسجين بعــد أن يعرى من ملابسه أثناء الشتاء، ويؤمر بالخروج منها والدوران حولها مسرعاً، والجلادون يحيطون به يلسعونه بسياطهم على ظهره أو أي مكان من جسمه، ويبقى التعذيب على هذه الصورة حتى يعترف المعتقل، وكلما سقط أرضاً اشتدّ عليه الضرب ليصاب بالإغماء، فيرش الماء على وجهــه ليقف ويستمر التعذيب على هذه الصورة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما: رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها وجــوه النــاس، ونــساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة).

أدوات الضرب:

١- الكبلات الكهربائية: وهي الأكثر استعمالاً في جميع الفروع، وتستخدم الخيزرانــات أيــضاً (عصي الخيزران).

٢- السلاسل الحديدية (الجنزير) واستعمل بفرع المخابرات العسكرية بحلب.

٣- البلطات والمطارق وسواطير اللحمة، وتستعمل بفروع المخابرات العامة خاصة بمدينة حلب، ولم يتوان أبداً أولئك الهمج الأوباش عن استخدام أي أداة أو وسيلة يتذكرونها.

طرق أخرى للضرب:

وتستعمل الأكف للطم الوجه مؤدية لثقب غشاء الطبل بالأذنين، وتستعمل قبــضات الأيــدي للكم، إضافة لاستعمال الأرجل بالرفس والركل على البطن والصدر والخصيتين، وذلــك أثنــاء إلقاء القبض على المعتقل، لأن هذه الطرق فيها من الإذلال والإهانة أكثر من تأثيراتها الجــسدية، وخاصة أن الضرب يتم أمام الأقارب والناس الآخرين.

ويضع الزبانية أقدامهم على رأس المعتقل ورقبته، وربما وضعوا نعالهم داخل فمه، إمعاناً بإذلالــه وإهانته، وكثيراً ما يتدرب الجلادون الجيدو والكراتيه بالمعتقلين الذين أنهكهم التعذيب والقهــر إرضاء لغرورهم وساديتهم.

التعذيب بالماء البارد:

يقوم الجلاوزة في فصل الشتاء بتعرية المعتقل من ملابسه ووضعه في حوض الحمام لمدة طويلة، ثم يخرج ويضرب على جسمه، أو يثبت على السلم ورأسه للأسفل، ويصب الماء البارد عليه مــن

الأعلى أو يغطس في البحيرة الموجودة داخل المعتقل، كما يحدث في سجن الشيخ حسن بدمشق، أو تغمر الزنزانة بالمياه، ويدخل المعتقل إليها، فلا يستطيع النوم أو الجلوس، خاصة أيام الشتاء، ثم يخرج بعد أن أعياه التعب والبرد ليعذب بهمجية ووحشية بالضرب والجلد.

التعذيب بالكهرباء:

وله أشكال عديدة: منها ربط الأقطاب الكهربائية بأصابع اليدين أو القدمين أو بالأذنين، وهذا ما يؤدي لأذيات بالدماغ، فيصاب المعتقل بآفات عقلية قد تصل إلى الجنون. ولعل أبشع هذه الوسيلة، هو وضع الأقطاب على الأعضاء التناسلية، وإدخال القطب الآخر بالدبر بواسطة الخازوق، وهذا ما يستخدم بفرع المخابرات العسكرية في حمص، وتؤدي هذه الطريقة لتريف من الشرج، وأحيانا توضع الأقطاب على العينين أو داخل الفم أو الأنف، أما التيارات المستعملة بالتعذيب، فهي المستعملة بالمنازل بعد تمريرها على محول للتحكم بها، وأغلب الأحيان يستخدم مولد كهرباء يدوي.

التعذيب بالنار:

كاستعمال الأدوات الكهربائية، مثل السخان الكهربائي الذي يستخدم بالمنازل، فيرغم المعتقل بالجلوس عليه بعد تسخينه، ويوضع على أماكن حساسة ومختلفة من الجسم، كالظهر والصدر، محدثاً حروقا شديدة وآلام فوق تحمل البشر.

واستعملت هذه الطريقة بفرع كفرسوسة (رقم ١٨٥) بدمشق، وتعرض الأخ الشهيد حسني عابو لهذه الطريقة من التعذيب، كما تستخدم المكاوي الكهربائية المستعملة لكي الملابس، فهي تمرر على جسم الضحية بعد تسخينها، وتستخدم كذلك قداحات الغاز لحرق الجسم موضعياً، وحرق اللحية والشوارب وشعر الجسم، وشعر العانة... وتستخدم أيضاً السجائر التي تطفأ بجسم المعتقل خاصة في الأماكن الحساسة كالرقبة والظهر والأعضاء التناسلية والصدر والإبط، وتستعمل أعواد الثقاب لحرق الأذنين، أو تستعمل قطعة قطنية مشربة بالبترين وتوضع على أماكن معينة من الجسم وهي ملتهبة.

ومن طرق التعذيب التي لا تطاق سكب البترين على قدمي المعتقل ثم إشعالها بعد ذلك.. وقامت بعض فروع المخابرات بصب البترين على جسم الضحية، وإحراقه ثم تسليم جثته لأهله، مدعين أنه قد أحرق نفسه.... وهذا ما حصل مع عدة أخوة أذكر منهم الأخ الشهيد التقي النقي حافظ القرآن: عمر سالم من حلب رحمه الله رحمة واسعة.

التعذيب بالأدوات الحادة:

كالسكاكين وأمواس الحلاقة والشفرات، وذلك بتشطيب الجلد وقضبان الحديد المدببة لوخز الجسم.

استعمال الخازوق:

وهو عبارة عن أداة معدنية لها رأس مدبب وقاعدة عريضة يؤمر السجين بالجلوس عليها ليدخل رأسه المدبب بالدبر، وقد يوصل بها تيار كهربائي.

واستخدمت الزجاجات ذات العنق المكسور لهذه الغاية مؤدية لتريف شديد من الشرج أو تبرز عفوي.

استعمال المواد الكاوية والأملاح:

وهي أن يذاب الملح بالماء ويسكب على جسم المعتقل الذي امتلأ بالجروح نتيجة طرق التعذيب الأخرى، وقد تستعمل المواد الكاوية (الحموض والقلويات) بدل ملح الطعام..

التعذيب بالكماشة:

تقلع أظافر اليدين والقدمين بواسطة الكماشات، وينتف شعر اللحية والشارب وشعر الجسم في مناطق حساسة أخرى إما اليدين أو بالكماشات وتستعمل هذه الطريقة مع المعتقلين الملتحين.

الشنق من القدمين:

ومن طرق التعذيب أيضا تقييد قدمي السجين بقيود خاصة، أو بالسلاسل، وتعليقه من قدميه، رأسه إلى أسفل كما تعلق الذبيحة، وتسمي هذه الطريقة (الشنق من القدمين) وتصاب الأقدام عند الكاحلين والكعبين بجروح عميقة في مكان التعليق، وتستخدم هذه الطريقة في فروع المخابرات العسكرية في اللاذقية وحلب ودمشق.

طرق التعذيب الأخرى:

كأن يؤمر السجين بالوقوف لفترة طويلة مع الحرمان من الطعام والشراب والخروج لبيت الخلاء يوما أو أكثر...

طرق التعذيب النفسي:

ذكرت أن إهانة السجين تبدأ منذ اللحظة الأولى لاعتقاله بشتى الطرق، وعندما يصل المعتقل إلى فرع المخابرات تبدأ فصول أخرى من الإهانات والقهر والبطش والإذلال:

١ - يرغم المعتقل على إغماض عينيه، كما ُيشتم وُيضرب فور وصوله إلى الفرع.

٢ - التهديد بالموت بطرق مختلفة، كغطس الرأس بالماء حتى درجة الاختناق.

٣ - إدخال المعتقل لغرفة التعذيب، ليشاهد التعذيب، وآثار العذاب المختلفة مع بقع الدم، وقد يشاهد معتقلاً آخر قد عذب بشدة، وفي بعض الحالات يشاهد جثة أحد الذين ماتوا تحت التعذيب، كل ذلك من أجل إرهابه.

كما يعمد الجلادون للتحقيق مع ذلك المسكين فور دخوله الفرع في غرفة قريبة من غرف التعذيب، ليسمع أصوات المعذبين المضطهدين من صراخ وأنين، وقد يترك فترة من الزمن أمام غرفة التعذيب، ثم يؤخذ بعد ذلك للتحقيق، بعد أن استولى عليه الهلع، نتيجة سماعه أصوات المعذبين ورؤية صورهم وحالتهم التي يشيب لهولها الولدان..

٤ - التهديد بالأهل: تقوم المخابرات السورية في كثير من الأحيان باعتقال أقارب السجين من النساء كزوجته وأخته وابنته، والتهديد باغتصابهن أمامه إذا فشلت طرق التعذيب الأخرى في إرغامه على الاعتراف، وقد يكون المعتقل بريئا من الأساس، لكن المحققين مقتنعون أن لديه معلومات لا يريد البوح بها، وقد تعرض الأخ أمين الأصفر من حماة لهذا الأسلوب الجهنمي، فقد اعتقلوا طفله وزوجته (وهي مسلمة من بلغاريا). أو تقوم المخابرات بتعذيب أحد أقارب المعتقل أمامه بغية إرغامه على الاعتراف وجعله ينهار أمام مشهد التعذيب الوحشي، وقد يهددون المعتقل أيضا بقتل أحد أبنائه.

ومن الطرق المتبعة أيضاً: سجن المعتقل في زنزانة منفردة ضيقة لأجل طويل: يقدم له فيها الطعام مخلوطا بالقاذورات (كالبول والبراز) كما حصل مع الشهيد القائد مروان حديد رحمه الله، مع حرمانه من العناية الطبية، وتعريضه للإصابة بالجرب والقمل المتوفر هناك كثيراً، فجميع مراكز الاعتقال السورية موبوءة بهذين المرضين.

٥ - التهديد بممارسة اللواطة (الشذوذ الجنسي) مع المعتقل وأحياناً أمام زوجته إذا أصر على عدم الاعتراف.

٦ - ومن الطرق المتبعة أيضاً: تقييد أيدي المعتقل طوال الوقت، ولا تفك إلا أثناء إخراجه لقضاء الحاجة، أو عند تناول الطعام، وهذه الطريقة موجودة بمديرية المخابرات العامة في دمشق، المعروف باسم سجن (كفر سوسة).

هذه هي أهم طرق التعذيب التي شاهدتها وعايشتها خلال فترة اعتقالي، وهذا لا ينفي وجود طرق أخرى لم أذكرها، إذ سمعت بطرق كثيرة، خاصة بفرع مخابرات القوى الجوية بدمشق، ومعتقلات سرايا الدفاع التابعة للمجرم رفعت أسد... فقد اشتهرا بوجود الطرق الجهنمية لديهما، ولكنني لم أدون تلك الطرق لعدم مقابلتي لأشخاص تعرضوا لها. وعلى أية حال فإن الذين يعرفون طبيعة ذلك النظام الإجرامية، يصدقون كل ما يسمعون من روايات، لأن تلك

الجرائم لها مبرراتها عند الجلادين وجلاوزتهم، وهذا هو شأن كل الطغاة عبر التاريخ حتى يرث الله الأرض ومن عليها وفي كل ديار الظلم، التي تجاوزها النظـام الأسـدي بمراحـل في إجرامـه وهمجيته...

الانتقال إلى سجن تدمر ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مـأواهم جهـنم وبئس المهاد﴾.

قبل الحديث عن سجن تدمر لابد من إشارة سريعة إلى بعض أحداث تلك الفترة، التي كانت سببا لإرسال المعتقلين إلى ذلك السجن الجهنمي الرهيب.

أهم أحداث النصف الأول من عام ١٩٨٠: الأحـداث تتـسارع حولنـا، والأيـام مليئـة بالمستجدات، فقد وقعت خلال عام ١٩٨٠ الكثير من الأحداث الجسيمة والتي تركت سـجلاً حافلاً يزخر بها تاريخ سورية المعاصر والتي لا تنمحي أبد الدهر.

فخلال الشهور الأولى من ذلك العام وصلت الأحداث ذروتها في بلدنا المنكوب سورية الجريحة، وواجه النظام النصيري منزلقاً خطيراً كاد يطيح بأركانه، مما دفع برموز السلطة إلى أن يتراجعـوا وبصورة خطيرة. لقد ظهر الطاغية الجبان حافظ أسد بمناسبة ٨ آذار من ذلك العام على شاشـة التلفزيون ليلقي خطاباً يعبر فيه عن مرارة قاسية، وكاد يبكي في ذلك الخطاب، وراح يقول بكل تأثر: إنني مسلم وأصلي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأعترف لأول مرة بأن أخطاء قد حـصلت، ونماذج أخرى من العبارات التي تعبر عن جبنه وخوفه مما يحدث في طول البلاد وعرضها.

في تلك الأثناء قام النظام بإخلاء سبيل عدد كبير من المعتقلين الذين كانوا يرزحون تحت نير قهر فرعون منذ بداية عام ١٩٧٩، لقد ظن الصنم الكبير وأزلامه أن هذه المبادرة (الإفـراج عـن المعتقلين) ستؤدي إلى تهدئة المشاعر وتطبيب الخواطر وبالتالي تنتهي المواجهة بين الشعب والنظام، تلك المواجهات التي أتعبت السلطة وأفقدتها صوابها، لكن النظام لم يصل إلى النتيجـة المرجـوة، فازداد بطشاً وتنكيلاً، وزج بالجيش والوحدات الخاصة في أتون المواجهة، فأرسلت الفرقة الثالثة بقيادة المجرم شفيق فياض مع عدة أفواج من الوحدات الخاصة بقيادة المجرم علي حيدر إلى مدينة حلب لتمشيطها، ونصب الحواجز الثابتة والطيارة في شوارعها، بعد أن عجزت المخابرات وسرايا الدفاع والوحدات الخاصة (التي أرسلت سابقاً) عن قمع الانتفاضة الشعبية الإسلامية التي عمت أرجاء المدينة وقراها. كما أرسلت السلطة المزيد من عناصر الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع إلى مدينة حماة وإلى محافظة إدلب بعد أحداث جسر الشغور ومعرة النعمان، عندما تمكن الأهالي مـن السيطرة على أحد مستودعات الأسلحة فقامت الوحدات الخاصة بمحاصرة المدينـة، فتـدخل وجهاء البلدة، وأعيدت الأسلحة إلى السلطة، وفي هذه الأثناء ارتكبت مجازر وحشية تقشعر لهولها

الولدان في الكثير من المدن والقرى، ففي حلب قتلت السلطة الدكتور أدهم سفاف الأستاذ بكلية الزراعة مع الأستاذ محمد نذير زرنجي (من كلية الزراعة أيضاً) والدكتور مصطفى عبود (طبيب جراح) وكذلك قتلت السلطة الدكتور حسن محمد الحسين الذي كان يعمل أستاذاً بكلية العلوم بجامعة حلب وكلية الهندسة الحربية وكان مختصاً بالفيزياء النووية، ولعله الشخص الوحيد الذي يحمل هذا الاختصاص في ذلك الوقت(٩).

وفي حماة قتلت الوحدات الخاصة العديد من وجهاء المدينة منهم الدكتور عمر الشيشكلي رئيس نقابة أطباء العيون، وخضر شيشكلي من زعماء الكتلة الوطنية والدكتور عبد القادر قنطفجي (طبيب جراح) مع المزارع أحمد قصاب وقد مثل المجرمون بجثث الشهداء شر تمثيل.

وفي اللاذقية قتلوا الدكتور الشيخ ممدوح جولحة، ورموا جثته في عرض الطريق بعد أن مثلوا بها.

وفي محافظة إدلب ارتكبت مجازر أخرى كمجزرة جسر الشغور وسرمدا.

ونتيجة للرعب الذي سيطر على رموز النظام في هذه الأثناء (بداية عام ١٩٨٠، وبالتحديد شهر آذار من ذلك العام) اتخذ النظام قراراً بسحب جزء من قواته من لبنان، ليتسنى له تصفية الانتفاضة الإسلامية في سائر المدن والقرى السورية. وقد أبلغ قادة المنظمات الفلسطينية والفصائل اللبنانية بهذا القرار.

وخلال هذه الفترة نفذ المجاهدون الكثير من العمليات الناجحة التي أفقدت النظام الجبان صوابه، وأهم تلك العمليات كانت تهريب ١٧ سجيناً من سجن المخابرات العامة بدمشق المسمى بسجن (كفر سوسة) في يوم ١٩٨٠/٥/٢٥، ونتيجة لهذه العملية ساءت المعاملة كثيراً في جميع السجون والمعتقلات، كما قرر النظام ترحيل جميع المعتقلين الإسلاميين لسجن تدمر.

وفي بداية شهر حزيران من ذلك العام استشهد الأخ عبد المعين السيد (قائد تنظيم الطليعة بمدينة حمص) مع ثمانية من إخوانه بعد معركة حامية مع المخابرات العسكرية وقد جن المجرم غازي كنعان وراح يقتل المسلمين ويرسلهم لسجن تدمر. كما استشهد بنفس الفترة (بداية شهر حزيران ١٩٨٠) الأخ النقيب إبراهيم اليوسف قائد عملية مدرسة المدفعية في أحد شوارع مدينة حلب، وقامت المخابرات العسكرية بحمل جثته لمدرسة المدفعية بالراموسة، وطلبوا من جميع طلاب المدرسة أن يمروا من أمام الجثة ويبصقوا عليها، وقد مثلوا بجثته شر تمثيل، كما أقام النصيريون احتفالاً لذلك، شربت فيه الأنخاب، وأطلقت فيه الأعيرة النارية في ذلك اليوم، وأصيب سكان مدينة حلب والقرى المحيطة بها بالهلع، وظنوا أن عمليات ضخمة قد وقعت.

مداهمة مساجد دمشق: ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم).

في بداية شهر حزيران من عام ١٩٨٠ قامت المخابرات العسكرية بالتعاون مع مخابرات القوى الجوية وسرايا الدفاع والوحدات الخاصة بمداهمة مساجد دمشق بعد منتصف الليل، وتم اعتقال جميع الموجودين فيها من مصلين وأئمة ومؤذنين وخدام، إضافة إلى طلبة العلم الشرعي الذين يقيمون في الكثير منها، وبينهم عدد كبير من غير السوريين من بلاد إسلامية مختلفة، ومن مسلمي أوربا، كما اعتقل عدد كبير من الأشخاص العاديين الذين صادفتهم دوريات المخابرات في طرقات وشوارع المدينة عشوائياً دون رحمة أو قانون، وانتهك المجرمون حرمات بيوت الله، عندما خلعوا الأبواب المقفلة ودخلوا بنعالهم إلى المساجد، وقاموا بتفتيشها، ورموا الكتب والمصاحف الموجودة بمكتباتها على الأرض، ونهبوا الكتب والسجاجيد(١٠)، وحطموا النوافذ عندما عجزوا عن تحطيم الأبواب الضخمة الأثرية القديمة(١١)، وفي اليوم التالي استدعى محمد محمد الخطيب وزير الأوقاف علماء دمشق لمكتبه في الوزارة، وبعد اجتماع قصير بينهم، حضرت سيارات المخابرات، وقادت جميع العلماء لمقابلة المجرم حافظ أسد يهوذا الذي فشل سابقاً في مقابلتهم، عندما استدعاهم عدة مرات أثناء موجة الأحداث العارمة في الشهور الماضية، لأنهم كانوا يرفضون ذلك بشدة، يومها أخذ الطاغية يهدد ويتوعد، وكان مما قاله: إن أمن البلاد فوق أي اعتبار، وما تم تخريبه ستقوم وزارة الدفاع بإصلاحه، وإن المساجد ملك للدولة. وأردف قائلاً: إن الحجاج قد هدم الكعبة في يوم من الأيام، فرد عليه أحد العلماء: بأن الحجاج قد فعل ما فعل فاستحق لعنة التاريخ إلى يوم الدين، فغضب المجرم وهاجم العلماء بألفاظ فظة وقال لهم: إنكم تسكتون عن الجرائم التي يرتكبها الإخوان المسلمون، أما إذا قامت الدولة بأي إجراء أمني ضروري فإنكم تنتقدون تلك التصرفات. وانفضّ الاجتماع بعد أن وعدهم بإخلاء سبيل جميع الأبرياء!!.

وتمادى النظام في تلك الأيام في طغيانه غير آبه للنتائج، وقرر أن يقطع طريق الإجرام حتى النهاية، لقد أحدثت جريمة مداهمة المساجد ردود فعل عنيفة، حتى بين رموز السلطة، فبعضهم عارض العملية قبل حدوثها كالعقيد محمد مسعود (رئيس فرع فلسطين التابع للمخابرات العسكرية بدمشق) والذي عارض العملية الهمجية، ورفض المشاركة بها، واقترح على علي دوبا (رئيس المخابرات العسكرية) أن يتم استدعاء بعض الأئمة ومستخدمي المساجد، وإغرائهم بالمال، ليكونوا مخبرين للسلطة ضمن مناطق عملهم، لأن ذلك أجدى من هذه العملية التي ستؤدي في النهاية إلى تجميع عدد كبير من المواطنين العاديين الذين يمكن جمعهم من الشوارع دون أي عناء (حسب رأيه)(١٢) لكن علي دوبا ورفعت أسد لم يلتفتا لهذا الرأي، وقررا القيام بتلك الجريمة، غير آبهين للنتائج الوخيمة، فالمهم عندهم: هو إسكات المعارضة، ولو كلفهم ذلك ذبح الشعب

بأكمله والظروف الدولية في تلك الأثناء كانت تشجع النظام على التمادي في طغيانه، فالتعتيم الإعلامي على جميع جرائمه ضد المسلمين من الشعب، مع الدعم المادي والمعنوي من مختلف الجهات العربية والعالمية، فعلى سبيل المثال قد تم التعتيم إعلامياً على جريمة مداهمة مساجد دمشق فلم تذكرها سوى إذاعة لندن وصوت أمريكا بطريقة عابرة، أما بقية الجرائم التي تقترف في المدن الأخرى والمناطق النائية، فلا يذكرها أحد ما دامت ضد المسلمين.

لكن، في هذه الأثناء، تمكن المجاهدون في مدينة حلب من قتل لجنة من المحققين التابعين للمخابرات العسكرية، ممن تم تدريبهم في روسيا، وكانت تضم أربعة أشخاص، ونفذت هذه العملية في قلب مدينة حلب أمام الفندق السياحي وقد أرسلت هذه اللجنة من دمشق لدراسة ملفات وقضايا المعتقلين الذين تم تجميعهم في ثكنة وفرع السريان ومدرسة المدفعية بالراموسة التي تحولت إلى سجن مؤقت، وكان القسم الأعظم منهم قد تم اعتقالهم بصورة عشوائية أثناء عمليات التمشيط والمداهمة التي قامت بها الوحدات الخاصة والفرقة الثالثة وعجز المحققون في فرع السريان عن القيام بإجراءات التحقيق المطلوبة من هذا العدد الضخم من المعتقلين (الذي يعد بالمئات) فطلبوا من دمشق تزويدهم بعدد من المحققين لهذا الغرض ليتسنى لهم فرز المعتقلين، وإرسال من يريدون لدمشق أو سجن تدمر والاحتفاظ بالباقين في مدينة حلب، وإخلاء سبيل من لا يوجد داع لاعتقالهم.

فقدت السلطة صوابها تلك العملية الكبيرة فقامت المخابرات العسكرية بإرسال جميع من تبقى من المعتقلين الموجودين في ثكنة هنانو إلى سجن تدمر، وعددهم ١٧٠ سجيناً، فكانت أكبر دفعة تدخل سجن تدمر في تلك الظروف، علماً أن معظمهم من عامة الشعب، بلا انتماء سياسي.

مجزرة سجن تدمر: واختتم النظام جرائمه خلال تلك الفترة بمجزرة سجن تدمر الكبرى، التي كانت بداية لمرحلة جديدة حالكة السواد في تاريخ سورية المعاصر، تميزت بالمجازر الجماعية بحق المسلمين، فقد تمادى النظام في جرائمه التي بلغت ذروتها بمجزرة حماة الكبرى خلال شهري شباط وآذار من عام ١٩٨٢.

من المعروف عن سجن تدمر أنه مخصص للعسكريين الذين يرتكبون جرائم عادية (غير سياسية) أثناء فترة الخدمة العسكرية فيحالون للقضاء العسكري ليصدر بحقهم عقوبات مختلفة ويتم تحويلها بعد ذلك إلى سجن تدمر لقضاء مدة العقوبة.

ولعل أكثر المخالفات شيوعاً بالنسبة للعسكريين، الفرار من الخدمة العسكرية، وأطلق عليه اسم (سرية التأديب) ويتبع لجهاز الشرطة العسكرية (لكونه سجناً عسكرياً) ومع ذلك فقد استخدم كمعتقل للسياسيين في عقود السنوات الماضية، وهذا ما عرفته أثناء فترة اعتقالي، لأن بعض

الأخوة التقوا أثناء فترة اعتقالهم ببعض الأشخاص الذين سجنوا فيه سابقاً بتهم سياسية، وكما ورد في كتاب تدمر الجزرة المستمرة (ص١٩) أن عدداً من قادة الإخوان المسلمين والأحزاب الأخرى قد دخلوا سجن تدمر بنهاية عام ١٩٦٦ وكان منهم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة والدكتور محمود بابللي، وعادل كنعان وأحمد بنقسلي وعبد الرحمن قره حمود والشيخ مروان حديد، وكذلك الأستاذ جودت سعيد، والأستاذ مصطفى الأعسر ورشدي كيخيا، ونصري كساب وقد أفرج عنهم بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧.

وفي نهاية عام ١٩٧٩(١٣) ومع اشتداد الأحداث عقد المؤتمر القطري السابع لحزب البعث في دمشق بالصالة الرياضية بحي المزرعة وتحدث المجرم رفعت الأسد مهدداً ومتوعدا بقتل عشرين بالمائة من الشعب ليعيش الباقون بأمن وأمان، واستشهد بالمجازر التي ارتكبها ستالين من أجل تثبيت أركان الشيوعية في الاتحاد السوفيتي (١٤)، كما تحدث عما أسماه بمشروع التطهير الوطني الذي يجب أن يطول كل معتنق للمبادئ الرجعية الهدامة. (حسب قوله) على أن تنشأ معسكرات خاصة لذلك المشروع في صحراء تدمر لتخضير الصحراء، مع وضع برامج تثقيفية قومية اشتراكية لأولئك الأشخاص، والذين عليهم أن يجتازوا امتحانات خاصة ليعاد إليهم اعتبارهم، وبالتالي يعودون لحياتهم العادية.

لقد تسربت كلمات رفعت الأسد لخارج المؤتمر، وأحدثت ردود أفعال عنيفة داخل البلاد وخارجها، وقام المجاهدون بنشر مقاطع من ذلك الخطاب بمنشوراتهم التي وزعوها في تلك الأيام، وربما كانت كلمات رفعت أسد بمثابة بالون اختبار للشعب تجاه هذا المشروع، أو ربما ارتكب حماقة كبيرة عندما أفصح عما كانوا يخططون له، لأنه (أي رفعت أسد) مشهور برعونته وحماقته، ولأن القضايا الأمنية الحساسة بالنسبة للنظام والطائفة العلوية تتم مناقشتها في اجتماعات سرية مغلقة بين حافظ أسد وأركان نظامه من الضباط النصيريين، ثم بينه وبين ما يسمى بالمجلس الملّي للطائفة النصيرية... ولا تجري مناقشتها في اجتماعات عامة، كمؤتمرات الحزب، واجتماعات الحكومة، وغيرها، ولا يتم إعلام الخدم والإمعات والدمى إلا بقدر وفي اللحظات الأخيرة (عند التنفيذ).. أو إذا تطلب الأمر أية حركات تمثيلية بهدف إضفاء الصفة القانونية على تلك الإجراءات التي يقررها القوم، وما على الإمعات والخدم إلا الموافقة، دون أي تردد أو مناقشة والدليل على صحة ما نقول، أنه بينما كان رفعت أسد يتكلم عن مشروعه المذكور، كانت ورشات البناء تقوم بتدشين سجن جديد في تدمر على مقربة من السجن القديم المعروف.

تصاعدت الأحداث كثيراً في الشهور الأولى من عام ١٩٨٠ مما أفقد السلطة صوابها ورشدها، وجاءت عملية تهريب الأخوة المعتقلين من سجن كفر سوسة يوم ١٩٨٠/٥/٢٥ لتخرج ذلك

المشروع المخطط له إلى حيز التنفيذ، وقبل أن يكتمل بناء سجن تدمر الجديد وكان القديم مكتظاً بالسجناء القضائيين صدر مرسوم جمهوري بالعفو عن سجناء تدمر العسكريين، وفيه تم تفريغ السجن القديم من جميع نزلائه، وأما الذين حكموا بعد صدور المرسوم المذكور، فقد نقلوا للخدمة في السجن القديم، ريثما يتم استكمال السجن الجديد، عندئذ صدرت الأوامر لفروع المخابرات بتحويل المعتقلين الإسلاميين بعد انتهاء التحقيق إلى سجن تدمر، وقد وصلت ثلاث مجموعات من المعتقلين قبل المجزرة وهم:

* المجموعة الأولى: وتضم المعتقلين الذين جمعوا في سجن القلعة في دمشق وهم من معتقلي المخابرات العامة وشعبة الأمن السياسي، وكانوا قد اعتقلوا عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ من جميع المحافظات، وأفرجت السلطة في بداية عام ١٩٨٠ (شباط - آذار - نيسان) عن عدد كبير ممن اعتقلوا عام ١٩٧٩ وهم من أعضاء التنظيم السياسي، أو ممن ليس لهم علاقة بالتنظيم أصلاً، وأما الذين لهم علاقة بالتنظيم المسلح والذين لم يمض على اعتقالهم مدة محددة (ستة أشهر) فلم يفرج عنهم، لأن التحقيق لما ينته بعد (راجع فصل الاعتقال التعسفي).

وعدد أفراد هذه المجموعة حسب أكثر الروايات يتراوح بين الـ ٥٠٠ و ٦٠٠ شخص، كان بينهم الشيخ محمد خير زيتوني ورياض جعمور اللذان نقلا إلى دمشق لأجل التحقيق قبل المجزرة بعدة أيام، ثم أعيدا بعدها، وتشكل هذه المجموعة القسم الأكبر من السجناء الذين كانوا في السجن أثناء المجزرة، أذكر منهم الأسماء الآتية:

١ - عبد الله حياتلة: معلم مدرسة وهو فلسطيني مقيم بحمص واعتقل عام ١٩٧٩.

٢ - محمد مهتدي كسحة (والد الشهيد باسل كسحة): موظف من مدينة حلب، اعتقل عام ١٩٧٩.

٣ - الأستاذ إبراهيم عاصي ويعمل مدرساً وله عدة مؤلفات وهو من جسر الشغور اعتقل ١٩٧٩.

٤ - حسان سعيد طبيب من حلب اعتقل عام ١٩٧٩.

٥ - محمود العابد طبيب من حماة اعتقل عام ١٩٧٩.

٦ - نائل عثمان: عامل من مدينة حلب اعتقل عام ١٩٧٩.

* أما المجموعة الثانية من المعتقلين، فكان مصدرها فرع المخابرات العسكرية في حمص، فقد باشر المجرم غازي كنعان بإرسال المعتقلين لسجن تدمر منذ وقت مبكر، وتحديداً منذ شهر أيار عام ١٩٨٠ لأن سجن البولوني الموجود في ثكنة خالد بن الوليد بحمص لم يعد يتسع للمعتقلين الذين زاد عددهم، كما اشتدت حملة الاعتقالات بعد استشهاد المرحوم عبد المعين السيد وإخوانه في

بداية شهر حزيران من ذلك العام، عندها فقد المجرم غازي كنعان صوابه، وراح يعتقل الناس خبط عشواء، ويرسلهم إلى تدمر.

ويمكننا تقدير عدد معتقلي هذه المجموعة بحوالي ٢٠٠ معتقل، لأن فرع حمص كان يرسل دفعة واحدة أسبوعياً، يتراوح عدد أفرادها بين عشرين وثلاثين شخص. وبذلك يمكننا أن نقدر عدد الذين أرسلوا خلال هذه المدة (حوالي شهر) بمئة معتقل، يضاف إلى ذلك المعتقلون الذين تم جمعهم سابقاً وهم ممن أخلي سبيلهم في بداية عام ١٩٨٠ وكان غازي كنعان قد أعاد اعتقالهم وعددهم حوالي ٨٠ شخصاً، ولا أعرف بالضبط عدد الذين تمكن غازي كنعان من إعادة اعتقالهم، إذ إن قسماً منهم قد نجح بالفرار من البلاد ويضاف إلى هذه المجموعة أيضاً: الأشخاص الذين تمكن من كشفهم واعتقالهم أول مرة، ويمكن تقدير هذه المجموعة بمئة معتقل، وبالتالي يصبح مجموع معتقلي مدينة حمص ٢٠٠ معتقل، أذكر منهم:

١ - الدكتور توفيق دراق السباعي: أخصائي بالأمراض العصبية من كندا.

٢ - محمد أدهم عضيم مهندس مدني.

* أما المجموعة الثالثة فكانت من معتقلي دير الزور: عندما اندلعت المظاهرات في شهر آذار من عام ١٩٨٠ وشارك طلاب المدارس في تلك المظاهرات، فأرسلت السلطة قوات البادية (الهجانة) لقمع المظاهرات، واعتقلت عدداً كبيراً من الطلاب الذين شاركوا فيها، وبعد التحقيق معهم أرسلوا إلى تدمر في شهر حزيران من نفس العام، وقد سمعت روايات مختلفة حول عدد هؤلاء المعتقلين، قال لي أحد الأخوة من أبناء مدينة دير الزور بأن عددهم ستون طالبا، ولدى منظمة العفو الدولية أسماء لثمانية وثلاثين شخصاً وقد عرفنا أنه لا يصل إلى علم تلك المنظمة سوى جزء يسير من عدد المعتقلين لا يساوي ربع العدد الحقيقي، وهذا ما عرفته من دراسة العديد من تقارير المنظمة الصادرة في فترات مختلفة، وتوصلت لتلك القناعة، وسببها أن المصدر الوحيد الذي تعتمد عليه المنظمة لمعرفة أسماء المعتقلين هو أقارب المعتقلين الذين يراسلون المنظمة، وهذا لا يتم إلا إذا كان للمعتقل أقارب يقيمون خارج سورية، ليتمكنوا من ذلك.. يضاف إلى هذا: أن المنظمة المذكورة لا تقبل ولا تتبنى تلك الأسماء، إلا إذا وصلت إليها معلومات متطابقة عنهم من عدة مصادر، أي يجب أن يراسل المنظمة عدد من أقارب المعتقل بنفس الوقت، وهذا أمر لا يتوفر لأغلب المعتقلين. لذلك يمكننا أن نقدر عدد معتقلي هذه الفئة بحوالي مائة شخص.

وبذلك يمكننا تقدير عدد شهداء مجزرة تدمر من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ معتقل.

وقبل أن أختم حديثي حول هذا الموضوع لابد أن أذكر رواية سمعتها أثناء فترة وجودي في تدمر، أن أحد الأخوة توصل لمعلومات من بعض أزلام السلطة مفادها أن عدد شهداء المجزرة كان

١١٨١ شخصاً، وأنا لا أستطيع رد أو قبول تلك الرواية، فليس لدي دليل على ذلـــك، إنمـــا سجلها دون تعليق.

وصف المجزرة: لم تتناه لعلمنا تفاصيل تلك المجزرة إلا في منتصف عام ١٩٨١ من إخوة وصـــلوا إلى السجن، وقد سمعوا إفادات اثنين من المجرمين الذين شاركوا بتلك الجريمة، وهما الرقيب عيسى إبراهيم فياض، والعريف أكرم بيشاني واللذان وقعا في قبضة السلطات الأردنية، بعد أن أرســـلا بهدف اغتيال مضر بدران رئيس وزراء الأردن عام ١٩٨١ وظهر المجرمان على شاشة التلفزيون وشرحاً بالتفصيل كيف تمت تلك المجزرة الوحشية، وسجلت تلك المقابلة على أشـــرطة فيـــديو، ونشرت خلاصة عنها في كتاب (تدمر المجزرة المستمرة) الذي استقينا منه تفصيلات هذه المجزرة وإليكموها كما نشرت:

في تمام الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٩٨٠/٦/٢٧ دعيت مجموعتان من سرايا الدفاع (التي يقودها الزنيم رفعت أسد) للاجتماع بلباس الميدان الكامل، فالمجموعة الأولى من اللواء ٤٠ والذي يقوده الرائد معين ناصيف زوج تماضر بنت رفعت أسد، والمجموعة الثانية من اللواء ١٣٨ والذي يقوده المقدم علي ديب، وكل مجموعة يزيد عددها عن مئة عنصر. اجتمعـــت المجموعـــة الأولى في سينما اللواء نفسه، وألقى المجرم معين ناصيف كلمة متقيئاً (راح تقوموا بهجـــوم علـــى أكبر وكر للإخوان المسلمين وهو سجن تدمر مين ما بدو يقاتل؟) لم يرفع أحد منهم يده أو صوته تعبيراً عن عدم رضاه بالقتال. في مطار المزّة التقت المجموعتان، كانت في انتظارهم عشر طائرات هليوكوبتر، كل طائرة تتسع لأربعة وعشرين عنصراً. كان قائد العملية المقدم سليمان مـــصطفى وهو قائد أركان اللواء ١٣٨ ومن الضباط المشاركين الملازم أول ياسر باكير، والملازم أول منير درويش، والملازم أول رئيف عبد الله، أقلعت طائرات الهيلوكبتر الـــساعة الخامـــسة صـــباحاً، ووصلت مطار تدمر الساعة السادسة وعقد اجتماع لضباط العملية تم فيه توزيع المهمات وتقسيم المجموعات، ثم أعطي العناصر استراحة لمدة ثلاثة أرباع الساعة، بعد ذلك دعي عناصـــر ســـرايا الدفاع للاجتماع وتم تقسيمهم لثلاث مجموعات:

١ - المجموعة الأولى (٨٠ عنصراً) كلفت بدخول السجن، وسميت مجموعة الاقتحام!!.

٢ - المجموعة الثانية (٢٠عنصراً) لحراسة الطائرات.

٣ - المجموعة الثالثة بقية العناصر للاحتياط في المطار.

ركبت المجموعة الأولى السيارات، وعند وصولهم للسجن تم تقسيمهم لمجموعات، تتـــألف كـــل واحدة من ٦ إلى ١٠ عناصر يقودها أحد الضباط.

كان مدير السجن على علم مسبق بالأمر فسلّم عناصر السرايا مفاتيح السجن وأرسل معهم بعض الجنود (من الشرطة العسكرية العاملين في السجن) مرشدين لهم (لأن عناصر السرايا لا يعرفون مداخل السجن والزنازين..)

يتألف سجن تدمر من ٣٢ زنزانة جماعية موزعة على خمس باحات عدد المعتقلين وقتها حوالي ٨٠٠ - ١٠٠٠ شخص ونفذت المجزرة على مرحلتين:

بالمرحلة الأولى تم إخراج المعتقلين من الزنازين المطلة على الباحة الأولى والثانية والثالثة، جمع معتقلو الباحة الأولى في زاوية من الباحة الشمالية الشرقية، أما نزلاء الباحة الثانية، فجمعوا في آخر الباحة مقابل نهاية المهجع رقم (٨) ذي الشرفة الواسعة (راجع فصل وصف سجن تدمر).

أما نزلاء الباحة الثالثة فجمعوا في الزاوية الشرقية الجنوبية من الباحة أمام المهجع رقم (١٢). تعرض المعتقلون في اليوم السابق لتعذيب شديد فأصيب الجميع بالذهول عندما فوجئوا بالشرطة يقتحمون الأبواب ويخرجونهم على هذه الصورة في ذلك الوقت (الساعة السابعة صباحاً) أعطيت الأوامر بإطلاق النار على جميع المعتقلين، فانهمر الرصاص يحصد أولئك الأبرياء، كما قام المجرمون بإلقاء عدة قنابل يدوية، وخاصة في الباحة الثانية، وتمكّن أثناءها بعض المعتقلين في الباحة الأولى من الهرب والدخول إلى المهجع رقم (٤) فتبعهم عدد من المجرمين وأطلقوا عليهم النار وقتلوهم، بعد ذلك قام القتلة بتقليب جثث الضحايا والإجهاز على كل من لاحظوا فيه بقية من حركة أو رمق، وهكذا أجهز المجرمون على المجموعة الأولى من المعتقلين، ثم انتقلوا إلى الباحة الرابعة، ففتحت المهاجع وطلب الشرطة من السجناء الابتعاد عن الأبواب وقام القتلة بإلقاء القنابل اليدوية على المعتقلين، وفتحوا عليهم أسلحتهم النارية، حتى أجهزوا على الجميع، وخرج القتلة بعد ذلك إلى الباحة الثالثة، ودخلوا الباحة السادسة وفعلوا بمعتقليها مثلما فعلوه بمعتقلي الباحة الرابعة، ولكن أحد الإخوة تمكن من الاختباء في دورة المياه القريبة من باب أحد المهاجع، وتمكّن من انتزاع البندقية من أحد القتلة، وأجهز عليه، ويدعى الرقيب إسكندر أحمد، وجرح شخصين آخرين، لكن أحد المجرمين أطلق عليه النار وقتله. ثم قلب القتلة جثث الضحايا، فأجهزوا على كل من وجدوا فيه بقية رمق، وتلطخت أيديهم وثيابهم بدماء الضحايا، وهكذا، وفي خلال دقائق أصبح جميع معتقلي سجن تدمر في عالم الآخرة..عاد المجرمون من حيث أتوا، ووصلوا مطار المزّة بتمام الساعة الثانية عشرة والنصف، وانصرفت كل مجموعة إلى لوائها... كان الرائد معين ناصيف بانتظار المجموعة التي خرجت من اللواء ٤٠ ليشكرهم على جهودهم، وقال لهم: (أنتم قمتم بعمل بطولة بعمل رجولة) ثم أمرهم بكتمان العملية وقال (ما لازم تطلع هالعملية خارج

منّا!؟ يعني لازم تظل سرية ومكتومة) وفي اليوم التالي وزعت السلطة مبلغ (٢٠٠ ل.س) على كل عنصر من العناصر الذين شاركوا بالمجزرة." أ هـ.

تسرّب أخبار المجزرة: رغم محاولة المجرمين إخفاء تلك الجريمة، فقد تسربت أخبارها منذ الأيام الأولى لوقوعها، وانتشرت الإشاعات في جميع أنحاء البلاد، لأن أجواء الكبت تساعد كثيراً على انتشار الإشاعات وتضخيمها(١٥)..

سمعنا بالمجزرة بعد شهر واحد من حدوثها، عندما وصلنا إلى السجن، واجتمعنا باخوة التقوا أثناء وجودهم بفرع المخابرات ببعض المعتقلين بعد المجزرة، كما سمعنا مرة ثانية في شهر تشرين الأول من عام ٨٠ عندما التقينا باخوة آخرين، وكان من بين الإشاعات التي سمعناها أن الشرطة العسكرية قد أخرجوا السجناء إلى الصحراء، وقاموا بقتلهم هناك، كما راجت إشاعة أخرى مفادها: أن السجناء حاولوا الفرار من السجن، فتصدى لهم حرس السجن، وقتلوا كثيراً منهم. وإشاعة ثالثة تقول: إن السجناء قد تمردوا داخل السجن، فأدى ذلك لتدخل الجيش، وبالتالي قتل عدد كبير من السجناء.

بالتأكيد... إن سكان مدينة تدمر قد علموا بتلك المجزرة، لأنه باستطاعة الناس الذين يسكنون قرب السجن أن يعلموا بما يجري داخل الأسوار، وهذا ما عرفناه أثناء وجودنا هناك، لأننا كنا نسمع أصوات الناس خارج السجن، كأصوات الأولاد أثناء اللعب، والزغاريد أثناء حفلات الزواج، إضافة لصياح الديكة، وبالتالي فإن المجاورين للسجن لا يصعب عليهم أن يعلموا بوقوع المجزرة في حينها، لسماعهم طلقات الأسلحة النارية، مع تفجير القنابل التي اختلطت مع صيحات الضحايا، وكذلك الأمر بالنسبة للقطع العسكرية المحيطة بالسجن، خاصة الوحدات الخاصة المكلفة بحماية السجن من الخارج، وهذا ما علمته بعد خروجي من السجن..

ومهما يكن من أمر، فقد حُسم الشك باليقين، وتأكدت تلك الإشاعات بصورة لا تدع مجالاً لأي شك أو التباس، بعدما عرض التلفزيون الأردني اثنين من عناصر سرايا الدفاع عندها أيقن جميع الناس بوقوع المجزرة، مما أحدث ردود فعل عنيفة داخل سورية وخارجها، وقام العديد من وجهاء المدن بمقابلة المجرم حافظ أسد الذي أجابهم كعادته بطريقة ملتوية (كباطنيته) فهو لم يفند تلك الأخبار ولم يؤكدها، واكتفى بالقول:" لقد شكلنا محاكم ميدانية لتبتّ في أمر المعتقلين في تدمر. واحتجّت العديد من المنظمات الإقليمية والدولية على تلك المجزرة، مما أربك النظام، فما كان من المخابرات النصيرية إلا أن دبّرت عملية اختطاف للسفير الأردني بلبنان في تلك الأثناء، ولكن أُرغم النظام النصيري على إطلاق سراحه نتيجة ردود الأفعال والضغوط التي تعرّض لها.

وكان لتسرّب أخبار المجزرة أسوأ الأثر على ذوي المعتقلين الذين سيطر عليهم القلق على مصير أبنائهم، وخاصة الذين اعتقلوا قبل المجزرة(١٦)، وهذا ما مكّن أزلام النظام من ابتزاز المزيد من الأموال من أولئك المساكين (راجع فصل الزيارات بسجن تدمر) إذ اتبع المجرمون طريقة في غاية الخبث والخسّة، لأنهم لم يفاتحوا أحداً من ذوي المعتقلين بمصير أبنائهم حتى ساعة كتابة هذه السطور (نهاية عام ١٩٩١) وما زال أولئك المساكين يعيشون بقلق دائم مشوب ببعض الأمل، وينتقلون من مدينة لأخرى، ويدفعون الرشاوى لأزلام النظام الذين يمنونهم بالوعود المعسولة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

آثار المجزرة: بعد المجزرة قام جهاز السجن بإزالة آثارها، فنقلت جثث الضحايا بالسيارات العسكرية، وتم دفنهم بصحراء تدمر بمقابر جماعية، ويقال بأنهم دفنوا بعض الأشخاص الذين ما زالوا على قيد الحياة، كما قاموا بإزالة آثار الدماء من باحات وزنازين السجن، وباشرت ورشات الدهان والبناء بترميم الجدران وطلائها، وعاد سجن تدمر لاستقبال المعتقلين بعد أقل من ثلاثة أسابيع من المجزرة وعندما دخلنا السجن (بشهر تموز) كانت ورشات الدهان والترميم تواصل عملها، ورغم جميع محاولات طمس آثار المجزرة، فقد بقيت آثارها ظاهرة على بعض الجدران، وهذه أمثلة على ذلك..

ففي المهجع ١٩ من الباحة الرابعة بقيت بعض بقع الدم على الجدران، إضافة لقطعة من فروة الرأس التي التصقت بالسقف، نتيجة لإلقاء القنابل اليدوية على السجناء، وكذلك الأمر في المهجع ١٨ في نفس الباحة، فهو يحتوي على بقع دم على جدرانه إضافة لبعض الحفر نتيجة لإطلاق النار، أما في المهجع الرابع في الساحة الأولى فقد تمكّن بعض السجناء من الاختباء داخل المهجع في دورات المياه القريبة من الباب فتبعهم عدد من المجرمين وأجهزوا عليهم، وبعد المجزرة وصلت أولى الدفعات للمهجع المذكور فلاحظوا انسداداً بدورات المياه فحاولوا فتحها دون جدوى فقام أحد المعتقلين بإدخال يده لإزالة الانسداد فحصل على عدد كبير من الخراطيش الفارغة.

سوء معاملة المعتقلين في جميع السجون بعد المجزرة: لقد كانت تلك الفترة (نهاية شهر حزيران من عام ١٩٨٠) عصيبة جداً على جميع المعتقلين في كل السجون، ولكن بلغت ذروتها بالنسبة لنزلاء سجن تدمر الذين تعرضوا للإبادة الجماعية (راجع فصل المجزرة).

لقد صدرت الأوامر من الجهات العليا بإساءة معاملة المعتقلين في جميع السجون، وهذا أمثلة على ذلك:

ففي سجن المزّة بدمشق دخل الجلادون إلى الزنازين المخصصة للإسلاميين وبأيـديهم الـسياط وانهالوا على السجناء ضرباً وإهانة، وبعد انتهاء (الحفلة) قالوا لهم: لقد جاءتنا الأوامر بهذا، ونحن أدينا واجبنا (أي بتنفيذ الأوامر الصادرة من الفراعنة إلى عبيـدهم) كمـا صـودرت الكتـب والمصاحف وأجهزة الراديو، ومنعت الزيارات(١٧) وتم نقل جميع الإسلاميين لسجن تدمر بعيـد المجزرة ومُنعت الصلاة منذ ذلك الحين وحتى الآن.

وفي سجن (كفر سوسة) تعرّض المعتقلون للإهانة والإيذاء، ومُنعت الصلاة وصودرت المصاحف التي كان مسموحاً بها قبل ذلك.

أما في السجن المركزي بحلب، فقد وصلت الوحشية ذروتها عندما دخلت عناصـر الوحـدات الخاصة إلى الزنازين يحملون بأيديهم الكبلات الكهربائية، وطلبوا من المعتقلين أن يخلعوا ملابسهم، وانهالوا عليهم ضرباً، وطلبوا منهم الخروج لساحة السجن.. بعد ذلك طلـب الجـلادون مـن السجناء أن ينقسموا إلى ثلاث مجموعات، الأولى أمرت بالاستلقاء على الأرض، والمجموعة الثانية أُمروا بالجلوس على بطون المطروحين أرضاً، والمجموعة الثالثة يمسك أفرادها بأقدام الذين استلقوا على الأرض، ويقومون بجرّهم، والسياط تنهال على الجميع، تلسع وتمزّق جلـودهم. إن المـرء يعجز عن أن يصف المشهد، فالحصى والأشواك تمزّق أجسام الأخوة الذين يستلقون على الأرض، أما البقية فالسياط تلهب أجسامهم، وبعد أن امتلأت الساحة ببقع الدم، طلب المجرمـون مـن الجميع أن يزحفوا على الأرض، والسياط تلسعهم، بل تشوّهم، والجلادون يدوسـون علـيهم بنعالهم، حتى تعب الأوباش من تلك المجزرة الهمجية، عند ذلك طلبوا مـن المعـتقلين الـدخول لزنازينهم، وقد امتلأت أجسامهم بالجروح والقروح، وبقيت آثار تلك الحفلة الرهيبة على أجسام البعض عدة سنوات، تشهد على همجية أولئك الأوباش وساديتهم.

وصف سجن تدمر:

لابد لنا قبل الحديث عن إرسالنا لسجن تدمر، وكيف قضينا تلك الأيام، من لحظة دخولنا وحتى ساعة خروجنا، من تقديم لمحة موجزة عنه، نصف فيها ذلك السجن، ليتمكن القارئ من تصوره، واستيعاب الأحداث، والأماكن التي وقعت فيها تلك الأحداث.

دخلنا سجن تدمر في شهر تموز من عام ١٩٨٠ وخرجنا منه بعد سنوات عجاف مريرة مـرارة الموت والعلقم، وكنا مغمضي الأعين عند دخولنا وخروجنا، لذلك لم نر شيئاً من معالم الـسجن الخارجية، أما معالمه الداخلية، فإنني أعلمها بكل تفاصيلها، لأننا تنقلنا خلال فترة وجودنا هنـاك بين مختلف الباحات، كما قمنا بأعمال السخرة، كتوزيع الطعام والماء والتنظيفات، خلال فتـرة طويلة من وجودنا فيه، مما أتاح لنا معرف معالم السجن الداخلية بكل تفاصيلها.

المواصفات: يتألف سجن تدمر العسكري من حوالي ٤٠ زنزانة جماعية، موزعة على ست باحات، مفصولة عن بعضها البعض بفتحات ضيقة نسبياً، لا تسمح بمرور أكثر من شخص واحد، وهذه الفتحات يمكن إغلاقها، لأنها تحوي أبواباً حديدية وأقفالاً، وذلك ليتم فصل الباحات عن بعضها البعض، وفتحة الباب محاطة بإطار حديدي سميك ذي حواف حادة نسبياً، وأما الجهة السفلى من الباب، فتحتوي على حافة إسمنتية ترتفع عن الأرض ٣٠ إلى ٤٠ سم لعرقلة اندفاع السجناء إلى الباحة المجاورة عند حدوث أي تمرد بالسجن، وعادة يقف الجلادون وبأيديهم السياط عند فتحة الباب من الداخل والخارج، ليستقبلوا السجناء الداخلين والخارجين، ويتجمع السجناء أمام تلك الأبواب، بسبب هذه العوائق، وكثيراً ما يحصل عند الحمام والحلاقة هذا الاختناق والتجمّع البشري للسجناء، فتنهال السياط متسارعة لإيقاع أكبر وأكثر كم من العذاب والآلام بهم.

تبدأ هذه الباحات بباحة الإدارة، وتسمى باحة القلم، وتقع عند مدخل السجن في الجهة الشرقية، وهي تضم عدداً من الأشجار والمكاتب، وتحوي في قسمها الداخلي المهجع رقم(١) الذي يضم عدداً من السجناء القضائيين، أي السجناء غير السياسيين من العسكريين، وهؤلاء يقومون بأعمال الخدمة، كتوزيع الطعام، والتنظيفات العامة، والحلاقة للمساجين، ويسمون بالبلدية، لأنهم يقومون بأعمال البلدية.

الباحة الأولى: وتأتي بعد باحة القلم، ويطلق عليها السجناء اسم باحة التعذيب، أو باحة الاستقبال، ويفصلها عن باحة الإدارة باب حديدي بمغلاق، وتضم أربعة مهاجع مرقمة بالتسلسل ٢، ٣، ٤ بالإضافة إلى المهجع المزدوج رقم (٥، ٦) وأرضها مفروشة بالإسفلت المتآكل، لتعاقب المساجين والزمان، إذ تحتوي الكثير من الحفر، وتجري فيها حفلات الاستقبال البشعة للقادمين الجدد، كما أنها استعملت للحلاقة في الأشهر الأولى بعد المجزرة الدموية، وقد مُلئ المهجعان ٤ و ٥ - ٦ المزدوج من الأيام الأولى التي تلت المجزرة البشعة، وأما المهجعان ٢، ٣ فقد ملئا في عام ١٩٨١ ويعتقد بعض الإخوة أن المهجعين المذكورين كانا يضمان سجناء سياسيين غير إسلاميين، لأن معاملتهم كانت أفضل (نسبياً) من معاملة من معاملة بقية السجناء الإسلاميين، وأما المهجع رقم (٤) فيقال: إنه كان في الماضي صالة للسينما أو للمسرح، لأن تصميمه الداخلي يدل على هذا الغرض، أما المهجع المزدوج رقم ٥ - ٦ فإنه كبير ولكنه مظلم ورطب، وقد انتشر مرض السل بين نزلائه عام ١٩٨٢.

الباحة الثانية: وتسمى أيضاً بباحة الحمام، وهي تتصل بالباحة الأولى بباب حديدي، وهي تضم أربعة مهاجع هي: المهجع رقم ٨ ويليه الحمام الذي يتألف من غرفتين، كما تحتوي الباحة على صنبور ماء قرب الحمامات، ثم المهجع رقم ٩ و ١٠ و ١١ وهذه الباحة على شكل زاوية قائمة،

والمهجع الأخير رقم ١١ تفصله عن بقية المهاجع باحة صغيرة لها باب مستقل، وقد استعملت هذه الباحة للحلاقة أيضاً والتعذيب في صيف عام ١٩٨٠ لذلك فإن الأخوة نزلاء الباحتين الأولى والثانية كانوا يعيشون في حالة دائمة من الخوف والذعر بسبب سماعهم صراخ المعذبين، خاصة نزلاء المهجع رقم ٤ الذي تطل نوافذه الخلفية على باحة الحمام، واستخدم المهجع رقم ١١ في البداية لتجميع الأخوات المعتقلات من حرائر المسلمين، استبدل في منتصف عام ١٩٨١ بغرفة المستوصف التي تقع عند مدخل الباحة السابعة، وفي شهر تموز من عام ١٩٨١ قام جهاز السجن بفرز المعتقلين، واستخدم المهجع رقم ٨ لتجميع المعتقلين الذين حكموا بالبراءة وكان عددهم حوالي مئة شخص.. وكانت المهاجع الأخرى تضم عدداً كبيراً من الأبرياء، ولكنهم اكتفوا بفرز السجناء القدماء والذين دخلوا السجن بعد المجزرة الدموية مباشرة.. وعومل هؤلاء في البداية بصورة أقل فظاظة من بقية السجناء نزلاء الزنازين الأخرى، ولكنها ما برحت أن ساءت المعاملة فيما بعد، ليستوي الجميع في الآلام. وأما المهجع رقم ٩ فاستخدم للمعتقلين الذين حكموا في سجن المزّة أحكاماً تتراوح ما بين العامين والخمسة، واستخدم المهجع رقم ١٠ لتجميع السجناء ممن حكموا أحكاماً أطول حتى ١٥ عاماً وما فوق.

أما المهجع رقم ١١ فقد استخدم لتجميع من حكم عليهم بالسجن المؤبد، وقام جهاز السجن في بداية عام ١٩٨٢ في شهر شباط بنقل نزلاء هذه الباحة إلى الباحة السابعة ماعدا نزلاء المهجع ١١ الذين أبقوا في مكانهم، وسقف الباحة تم تشبيكه بالأسلاك الشائكة احتياطاً.

الباحة الثالثة: وهي كبيرة ذات أرض إسفلتية تتصل بالباحة الأولى بباب حديدي صغير، كما تتصل بالجهة المقابلة بالباحة الرابعة بباب آخر، وتتصل بالباحة السادسة بفتحة واسعة تسمح بمرور السيارات منها، وتضم المهجع رقم ١٢ الذي يعتبر امتداداً للمهجع الثامن من الباحة الثاني، كما تضم أيضاً المهجع رقم ١٣ على نفس الصف، وأما الجهة الأخرى فتحوي المهاجع ذوات الأرقام ١٤ - ١٥ - ١٦ مع مجموعة الزنازين المنفردة، ويطلق عليها الجلادون اسم (السيلونات)(١٨).

وتقع بجانب المهجع رقم ١٦ كما تحتوي هذه الباحة على صنبور ماء يقع قرب المهجع رقم ١٣ وعند التقاء الباحة الثالثة بالسادسة يوجد مكان خاص لتوزيع الطعام وتجميع النفايات فتدخل السيارات المحملة بالطعام لذلك المكان، وتفرغ حمولتها، لتخرج محملة بالفضلات، واستحدث في هذه الباحة مهجع جديد عام ١٩٨٢ وحمل الرقم ٧ ويقع قرب الباب الذي يصلها مع الأولى.

الباحة الرابعة:

وتتألف من المهاجع ذات الأرقام بالتسلسل من ١٧ حتى ٢٤ ومساحتها ضيقة نسبياً رغم كثرة عدد مهاجعها، وأرضها إسمنتية مربعة الشكل، تحتوي على حفر كثيرة، ويقع في منتصفها حوض ترابي يستعمله الجلادون في الشتاء لزراعة البصل والفجل، ويستخدمون السجناء لري الحوض ورعايته، أما مهاجعها فمختلفة المساحة، منها الكبيرة مثل الرقم ١٨ و ١٩، ومنها الصغيرة كالمهجع رقم ٢٠ و٢١ وجدران هذه المهاجع منخفضة لأنها من القسم الذي بني قديماً(١٩) وجرى بناء جدران إضافية فوق جدرانها (فوق السقف) لتزيد من ارتفاعها، وتم تشبيك المسافات الواصلة بين الجدران بالأسلاك الشائكة، أي أن الباحة من الأعلى مسقوفة بشبكة من الأسلاك الشائكة كالباحة الثانية. هذا ويقال بأن المهجع رقم ١٧ كان يضم عدداً من المعتقلين السياسيين من غير إسلاميين كالبعثيين جناح العراق وجماعة صلاح جديد، وكانت معاملاتهم أقل سوءاً من معاملة بقية السجناء، وكان عددهم ٢٤ شخصاً عام ١٩٨٠ ثم زاد عددهم إلى ٤٩ شخصاً بعد اعتقال دفعة جديدة تضم ٢٥ شخصاً من مدينة حمص عام ١٩٨١.

أما المهجع رقم ٢٤ فيقع في مواجهة المهجع ١٧ عند مدخل الباحة، وضم عدداً قليلاً من السجناء (١٣ شخصاً) ولم يزد عددهم لأن جهاز السجن لم يضف إليهم أحداً من الوافدين الجدد، لأمر مهم يخافه الجلادون، ويظن بعض الأخوة أن هؤلاء المعتقلين هم البقية الباقين من السجناء الذين كانوا أثناء المجزرة الوحشية الآثمة، أي أنهم الناجون منها (والله أعلم) وباختلاطهم بالسجناء الآخرين تشيع وتنتشر أخبار المذبحة الهمجية، وأسماء وأحداث تلك الجريمة القذرة. إن المهجع رقم ٢٣ مظلم، رطب لذلك انتشر فيه مرض السل بعام ١٩٨٢.

الباحة الخامسة: عند التقاء الباحة الثالثة بالساحة السادسة يوجد باب يؤدي إلى الداخل بدهليز ينتهي بباب حديدي محصن كتب عليه (الباحة الخامسة) وتقع إلى جانبها غرفة المحرس(٢٠) إذ يتجمع الجلادون هناك دائماً ولم نستطع أن نعرف شيئاً عن هذه الباحة طوال فترة وجودنا بالسجن وبقيت سراً غامضاً ولغزاً مبهماً ويقول بعض الإخوة: إنها تضم عدداً من الزنزانات المنفردة، والتي كانت تستعمل للسجناء المتهمين بالتجسس، أو تستخدم للسجناء العسكريين الذين يرتكبون الكثير من المخالفات أو جرائم خطيرة أخرى أثناء فترة اعتقالهم، والله أعلم.

الباحة السادسة: وهي أكبر ساحات السجن على الإطلاق، كما أنها اكتسبت أهمية خاصة(كالأولى) حيث كانت تجري فيها عمليات الإعدام، راجع فصل عمليات الإعدام.. وهي تحتوي على مهاجع قديمة وغرفة الورشة، وهي المهجع رقم ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ والمهجع ٣١ أما القسم الآخر، فقد بني حديثاً، ويضم المهاجع المرقمة بالتسلسل ٣٢ و ٣٣ و ٣٤، وبني مهجع جديد أيضاً قرب المهجع ٣٤ في عام ١٩٨٢ فلم تعد السجون تتسع، لقد استعمل

المهجعان ٣١ و ٣٢ لتجميع الأحداث (القاصرين دون سن ١٨) عندما قـام جهـاز الـسجن بفرزهم عن بقية المعتقلين في نهاية عام ١٩٨٠ وكان عددهم كبيراً (حوالي ٤٠٠ حدث وقاصر) وهكذا جمعت الطغمة حتى الأطفال داخل السجون لتخرج حبل الخنوع والركـوع الأسـدي للصهاينة، ولكن... هيهات.

باحة المستوصف: وهي منفصلة عن الباحتين: السادسة والسابعة، وتقع بينهما، وتضمم إلى جهتها اليسرى غرفة المستوصف، والذي استخدم لتجميع الأخوات المسلمات المعـتقلات منـذ عـام ١٩٨١ بعد أن تم نقلهن من المهجع رقم ١١ وكان عددهن بضع عشرة امرأة، وكـان بينـهن طبيبة من دمشق اسمها فادية دهان، وهي متخرجة عام ١٩٧٩ اعتقلت مع جميع أفـراد أسـرتها (والدها واثنين من اخوتها أحدهم عمره ١٣ سنة وزوجة أبيها) بعد أن قتلت المخابرات اثنين من اخوتها هما الشهيدان فواز وبشار، وأخلي سبيلها مع والدها وخالتها وأحد اخوتها في نهاية عـام ١٩٨١ أما شقيقها الآخر فقد استشهد في منتصف عام ١٩٨١ على أعواد المشانق في ديـاجير الظلم والقهر والحقد الطائفي اللئيم.

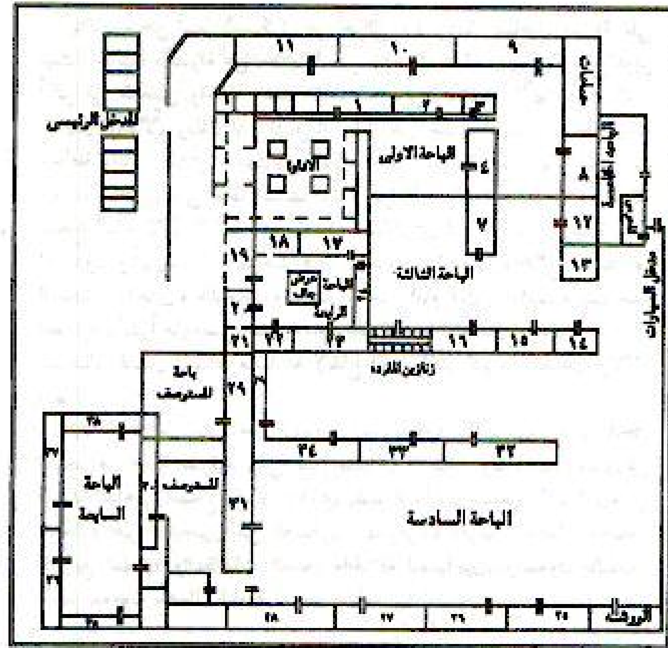
أما الجهة اليسرى لهذه الباحة فتضم باحة صغيرة تحتوي على المهجعين رقم ٢٩ و٣٠.

الباحة السابعة: تم استحداثها عام ١٩٨١ وهي تضم ٤ مهاجع كبيرة هي المرقومة بالتسلسل ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ واستخدم المهجع ٣٥ في بداية عام ١٩٨٢ لتجميع المعتقلين نزلاء المهجع رقم ٨ في الباحة الثانية والذين جرى فرزهم في شهر تموز من عام ١٩٨١ وهم ممن حكمت عليه المحاكم الميدانية بالبراءة.

وأما المهجعان رقم ٣٦ و ٣٧ فاستعملا للمعتقلين الأحداث نزلاء المهجعين رقم ٣١ و ٣٢ وأما المهجع رقم ٣٨ فاستخدم لتجميع المعتقلين نزلاء المهجعين رقم ٩ - ١٠وهم ممـن حكمـوا في سجن المزة لفترات تتراوح ما بين عامين و ١٥ عاماً.. وكان عددهم حوالي مائتي معتقل، بينهم عدد كبير من ضباط الجيش، كان من بينهم الرائد الطيار عثمان الأصفر (مواليد اللاذقية عـام ١٩٤٩) أسر في حرب رمضان عام ١٩٧٣ واشتهر باسم الصاروخ الخامس عندما سئل أثنـاء المقابلة الإذاعية في الأسر عن عدد الصواريخ التي تحملها طائرته (ميغ ٢١) فأجابه: إنهـا تحمـل خمسة صواريخ، فتعجب المحقق اليهودي من إجابته ولم يفهم مغزاها، فقال له: نحن نعلم أنها تحمل ٤ صواريخ فقط، فأجابهم: بأنها أربعة صواريخ فعلاً ولكنه هو ذاته الصاروخ الخامس في الطائرة، فاضطر المحقق إلى قطع المقابل الإذاعية التي كانت تبث على الهواء مباشرة، وهكذا انتقم العملاء من كل المستويات إرضاء لأسيادهم في تل أبيب وواشنطن.

لقد اعتقل هذا الأخ عام ٧٥ أي بعد عام واحد فقط من عودته من الأسـر، ومكـث عـامين ونصف العام في سجن المزّة بتهمة انتمائه للبعث العراقي، وأُعيد اعتقاله بنفس التهمة عام ١٩٨٠ وأدخل سجن المزة وحكم عليه بالسجن ١٥ عاماً، نقل بعدها إلى سجن تـدمر في نهايـة عـام ١٩٨٠.

وتم تسريحه من الجيش بعد أن اعتقل في المرة الأولى، ولم يسمح له بمغادرة البلاد، إذ عمل في مجال التجارة ليعول أسرته. وهكذا يكون مصير الشرفاء من أبناء سورية على أيدي الأوباش النصيريين الباطنيين.



(مخطط سجن تدمر)

وصف مهاجع سجن تدمر: إن أكثر المهاجع تم بناؤها قديماً، فهي ذات جـدران سميكـة مـن الحجارة، وأسقفها منخفض، وأبوابها حديدية رهيبة، يتم إغلاقها من الخارج بدقر حديدي غليظ، يوضع في نهايته قفل كبير، وتحتوي هذه المهاجع على نوافذ ضيقة، وفي جهة واحدة فقـط مـن الزنزانة، يضاف إلى ذلك الشرفات العريضة في واجهة المهاجع، حيث توجد النوافذ، ممـا يمنـع وجود تيارات هواء نقية، لذلك فهي مظلمة، ورطبة لوجود صنابير المياه بداخلها.

إن كل مهجع يحتوي على دورة مياه واحد مزدوجة مع صنبور للماء تنفصل عن بقيـة أجـزاء الزنزانة بجدار في منتصفه فتحة تشبه الباب، ولكن لا وجود له به: وقد لا تنفصل دورة المياه عن المهجع بأي حاجز، إنما تكون في إحدى الزوايا، محاطة بجدران يصل ارتفاعها إلى متر ونصف المتر

فقط، فتكون شبه مكشوفة الداخل، لأن الجدران لا تصل للسقف فتستر من في بالداخل، ولها باب وضعت عليه بطانية بالية لتستر من خلفها، ولذلك فإن رائحة البول والغائط تخرج للمهجع مباشرة، وتبقى فيه، بسبب سوء التهوية، وعند انقطاع الماء تكون الأوضاع لا تطاق، وهذا ينطبق على أكثر المهاجع القديمة، ويضاف إلى ذلك الرطوبة المنبعثة من صنبور الماء نتيجة عمليات الجلي والغسيل المستمرة. وأدت هذه الأوضاع إلى إصابة أكثر المعتقلين بأمراض شتى، لتزيد إلى عنائهم وشقائهم وآلامهم عاهات إضافية من السل والربو وأمراض الروماتيزم وغيرها.

الإنارة والتهوية: يحتوي كل مهجع على مصباحين كهربائيين أو أكثر تتمم إنارتها من قبل جهاز السجن، فلا وجود للمفاتيح داخل المهجع، وتبقى المصابيح مضاءة طول الوقت. ولأن الدفء منعدم أساساً في الزنازين، لذلك فالبرودة شديدة خلال فصل الشتاء، كما أن أكثر الزنازين تكف (ترشح) الماء من أسقفها عند هطول الأمطار في فصل الشتاء، لأنها قديمة متهالكة، ولم تجر عليها أية عمليات ترميم، ولزيادة العذاب طبعاً. أما المهاجع الحديثة، فتمتاز بارتفاع جدرانها، وبنوافذها الواسعة الموجودة في القسم العلوي، والنوافذ لا تحتوي على شبابيك، إنما تم تشبيكها بالأسلاك الحديدية فقط، فهي مفتوحة دائماً (وكذلك الحال في المهاجع القديمة) كما تحتوي المهاجع الحديثة على فتحات واسعة بسقفها (بمساحة متر مربع) ولم يتم تغطيتها بشيء، إنما تم تشبيكها بقضبان حديدية (تسمى الشراقات) لذلك فالتهوية جيدة والحالة مقبولة نسبياً في فصل الصيف، خاصة أثناء النهار، أما في الشتاء فالوضع سيء للغاية، فالبرد شديد، والمطر يسقط من الفتحات العلوية على المعتقلين مباشرة، وبما أن تدمر منطقة صحراوية، فالجو حار جداً في الصيف أثناء النهار، مع انخفاض ملحوظ في درجة الحرارة ليلاً، وأما في الشتاء، فالحرارة منخفضة هناك، ولانعدام التدفئة، إضافة إلى النوافذ المفتوحة مع الفتحات العلوية، في السقف، علاوة على الهواء الذي يتسرب من جوانب الأبواب الحديدية بسبب انكماشها الناتج عن برودة الجو، كل هذه العوامل تجعل درجة الحرارة داخل الزنازين لا تختلف عما هي خارجها.

الملابس والأغطية التي يملكها المعتقلون: أكثر المعتقلين لا يملكون سوى الملابس التي اعتقلوا بها، فحوالي ٩٥% منهم لم يسمح لأقاربهم بزيارتهم. ونتيجة لعمليات التعذيب المستمرة (من ضرب وزحف وجر على الأرض...) فإن الملابس قد تحولت لأسمال بالية بعد فترة قصيرة من دخول السجن، وقد قام المعتقلون بترقيع ملابسهم قدر استطاعتهم لترد عنهم غائلة البرد، والبقية أي ٥% من السجناء فقد سمح لبعض أقاربهم بزيارتهم، وكانوا يوزعون ما يحصلون عليه من الملابس والنقود والطعام على إخوانهم، وفي نهاية عام ١٩٨٠ سمح جهاز السجن لأول مرة بشراء بعض الحوائج، فقد وزع الجلادون ورقة وقلماً على كل زنزانة، وطلبوا من السجناء تسجيل حاجاتهم

من المواد الضرورية، لكنهم لم يحضروا جميع المواد التي سجلها السجناء، إنما اشتروا بعض الملابس والجوارب والصابون. وهنا كانت فرصة ثانية للحصول على بعض الملابس، ورغم ذلك، فقد ظلت كمية الملابس قليلة جداً لا تقي من البرد (لا يزيد عددها عن ٥ قطع للسجين الواحد) ويقوم الشخص بارتدائها جميعاً أيام الشتاء وأثناء النوم وفي النهار.

أما البطانيات فقد قام جهاز السجن بتوزيع ٣ بطانيات مع عازل خلال أيام الأولى لمجيئنا للسجن، والعوازل عبارة عن قطعة من شادر سيارة بطول مترين وعرض متر واحد، خيط على أحد وجوهه قطعة من بطانية بالية، وهي بدل الفراش، لذلك فهي قاسية ورقيقة لاتقي من برودة الأرض ولا ترد زمهرير الشتاء عن السجناء، لكن بعد ذلك، زاد عدد المعتقلين دون أن تزاد البطانيات والعوازل، فأصبحت حصة السجين الواحد بعد ذلك لا تزيد عن بطانيتين، يكون مقبولاً نسبياً خلال فصل الصيف، خاصة في المهاجع الحديثة، ورغم لك، فقد كنا نشعر بالبرد أثناء الليل (لأن الأغطية قليلة) أما في فصل الشتاء فالبرد شديد أثناء الليل والنهار، وكنا لا نستطيع النوم من شدة البرد ليلاً.

أما في المهاجع القديمة فالوضع أسوأ من ذلك بكثير، فهو غير مقبول صيفاً ولا شتاءً، وينطبق عليه المثل القائل (في الصيف حريق وفي الشتاء غريق)

ويسعى المعتقلون جاهدين لتلطيف الجو داخل الزنازين في فصل الصيف بتحريك الهواء، فيمسك اثنان بالبطانية، ويقومون بتحريكها باتجاه النوافذ، بغية طرد الهواء الفاسد إلى الخارج وتلطيف الجو، كما تفعل المراوح، ويتبادل المعتقلون الأدوار على هذا العمل ليلاً ونهاراً، حتى يصبح الوضع محتملاً خلال أيام الصيف.

وتمكن المعتقلون من ترقيع ملابسهم الممزقة، وذلك بانتزاع الخيطان من الملابس للترقيع، وكذلك استخدمت الخيطان المأخوذة من الأكياس البلاستيكية المستعملة للخبز (وهي أكياس الدقيق) أما إبر الخياطة فكانت في البداية قطعة قش قاسية كشوكة، أو من المكانس، وبما أن الملابس بالية، فيمكن خرقها بها، واستخدمت بعض الأسلاك المعدنية التي حصلنا عليها بطريق الصدفة، لصنع إبر الخياطة، التي لم يسمح لها بدخول السجن مع الخيطان إلا في عام ١٩٨٣ عندما سمح للمعتقلين بشرائها.

سجن تدمر يعاود نشاطه بعد المجزرة: بعد محاولة اغتيال المجرم حافظ أسد، وما سبقها من عمليات، وما لحق بها من أحداث، أفقدت تلك العمليات الجريئة السلطة صوابها، مما دفع بأجهزة القمع أن تتمادى في أساليب قمعها، فكان أن اشتدت عمليات الاعتقال، فلا يكاد يمر يوم واحد إلا وتستقبل فيه تلك المراكز أعداداً كبيرة من المعتقلين الجدد، مما جعل فروع المخابرات وبقية

مراكز الاعتقال المؤقتة في مختلف المحافظات، تضيق بسجنائها، عندها صدر قانون العار رقم (٤٩) والذي يقضي بإعدام كل منتسب لجماعة الإخوان المسلمين، وقد شكلت محاكم صورية لتتولى تنفيذ ذلك القانون الهمجي، والتي أطلق عليها اسم المحاكم الميدانية (راجع فصل محاكم التفتيش). وبدأت فروع المخابرات في جميع المحافظات بإرسال المعتقلين إلى سجن تدمر الجهنمي، بعد إزالة آثار المجزرة.

إن العادة المتبعة في هذا المجال، أن تقوم المخابرات العسكرية بإرسال معتقليها إلى تدمر مباشرة، ماعدا بعض الاستثناءات، حيث يرسلون المعتقلين إلى دمشق، ومن ثم إلى تدمر، أما المخابرات العامة (أمن الدولة) فجميع فروعها في مختلف المحافظات ترسل المعتقلين إلى سجن (كفر سوسة) بدمشق ليتم إعادة ضبط الاعترافات، ومن هناك يرسل السجناء إلى تدمر، وأما الشعبة السياسية، فإنها تحول معتقليها إلى دمشق، ومن هناك يتم تحويلهم إلى سجن تدمر أو المزة الرهيبين، وقد كان عدد معتقلي هذه الشعبة قليلا مقارنة بشعب المخابرات الأخرى، وما أنشئ من أجهزة أخطبوطية همجية أخرى. لقد كنت واحد من الذين قدر عليهم أن يدخلوا ذلك السجن المخيف بعد فترة قصيرة فقط من المجزرة الرهيبة، فكيف كان ذلك؟.

الخروج من فرع المخابرات: هنالك حلَّ رمضان شهر الرحمة والبركة، فاستبشر المعتقلون بقدومه خيراً، وتفاءلنا باقتراب الفرج، كنا نظن أن السلطة قد تقوم بإخلاء سبيل المعتقلين الأبرياء الذين لم يثبت التحقيق أية همة تستحق الذكر عليهم وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من المعتقلين أو الإفراج عن بعضهم، وكان أكثرنا يحسن الظن في أولئك الوحوش الخسيسة والجرذان المذعورة، لكن سرعان ما خابت الظنون، وتبددت الأحلام، وحدث ما لم يكن بالحسبان، وعرفنا بُعد الشقة ما بين الآدمية والوحشية.

حضر مدير السجن مع بعض الجلادين ذات ليلة، حاملاً معه قائمة، فيها بعض الأسماء، فظن أكثرنا في بداية الأمر، أنه إخلاء سبيل، إلا أن الوقت كان متأخراً (حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً)، كنا نصلي صلاة التراويح، وكان اسمي موجوداً في تلك القائمة المشؤومة وطلب منا الجلاوزة أن نجمع أغراضنا، وأن نهيئ أنفسنا، ثم أخرجنا من الزنازين، وتم تجميعنا في إحدى الصالات، وجاء الجلادون بالقيود الحديدية والسلاسل والغمامات، هنالك أصبنا بالانقباض، وسيطر علينا الخوف، وتبددت الآمال، وعرفنا أنهم يريدون نقلنا إلى سجن آخر، أو ربما إلى إحدى محاكم التفتيش، كما كانوا يرددون بتلك الأثناء، لأن اللغط حولها قد زاد في تلك الأيام المشؤومة من تاريخ بلدنا المنكوب. وقام الجلادون بوضع الغمامات على أعيننا، ووضعت القيود

الحديدية في الأيدي، وربطت بالسلاسل، حتى صار الجميع كتلة واحدة، فكل واحد منا مقيد الأيدي، ومربوط بالسلاسل إلى الذي يليه وهكذا.

أجلسنا على الأرض، وبدأ الجلادون ينهالون علينا بالسياط، فرحنا نصرخ ونستغيث ولا من مغيث إلا الله الذي يعلم السر وأخفى. كم تساءلت في تلكم الظروف الرهيبة: هل يعلم أحد بأحوالنا وما نقاسيه ونتحمله؟ الله أعلم. لقد مارس الجلادون إطفاء السجاير في وجوهنا ورقابنا ورؤوسنا وراح آخرون يبصقون علينا حتى امتلأت وجوهنا بالبصاق وآخرون راحوا يرفسوننا بأرجلهم على صدورنا وظهورنا، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فوضعوا نعالهم فوق رؤوسنا ناهيك عن الشتائم والألفاظ المنحطة والحقيرة التي يعف اللسان عن ذكرها.

قضينا وقتاً عصيباً على هذه الحالة، قاسينا خلالها من الإيذاء والقهر والإهانة ما لا يعلمه إلا الله، وما يعجز الإنسان عن وصفه، لأنني أجد نفسي عاجزا عن وصف مشاعرنا في تلك الأثناء، فهذا أمر لا يعلمه ولا يدركه إلا من عايش تلك الحالات بين أيدي الظالمين، وبعدها، طلب منا الزبانية الوقوف، لكن أنى لنا القدرة على ذلك بعد أن أخذ الإعياء منا والإنهاك كل ما أخذ؟! لقد تيبست مفاصلنا من الجلوس الطويل على الأرض، وأصيبت أطرافنا السفلية بالخدر والنمل، وسيطر علينا الخوف والهلع، فلم نعد نفكر بالآلام والهموم، وكنا في حالة انهيار شامل.

راح الزبانية يخرجوننا من القبو الأرضي، وطلبوا منا تسلق الدرج، وكثير منّا وقع على الأرض بسبب عصب العيون والإنهاك والإرباك الناشئ عن الرعب وساعدنا الجلادون على صعود الدرج، لينتهوا من المهمة بأسرع وقت.

أدخلنا بعدها سيارة باص أعدت لهذه المهمة، فسترت جميع النوافذ بالورق، لئلا يرانا أحد من الخارج أثناء ترحيلنا، جلسنا في مقاعد محددة، وأحاط الجلادون بنا من الأمام والخلف، وطلبوا منا حني رؤوسنا للأسفل، وكل من حاول رفع رأسه كانت السياط تنهال عليه وتلسعه كالجمر الحارق. انطلقت بنا قافلة العذاب، ورافقتنا أعداد أخرى من السيارات التي اكتظت بعناصر المخابرات المدججين بالسلاح خوفاً على صيدهم الثمين... فكرت... ودارت في مخيلتي الكثير من الأفكار والصور والتساؤلات: إلى أين نحن ذاهبون؟! طبعا إلى سجن آخر، أو إلى محاكم التفتيش العصرية التي تتناسب مع الحقد الطائفي الدفين، وإذا كان الأمر كذلك، فما هو الجرم الذي اقترفته حتى أجد هذه الوحشية، ولأدخل السجن، أو حتى لإرسالي إلى إحدى محاكمهم؟!

امتد الوقت وتطاول، والسيارة تنهب الطريق مسرعة، عندها علمت أن الرحلة طويلة، فسيطر علي الخوف أكثر فأكثر، ورافقتني أشباح للموت والكرب كثيرة... كنا نسمع أنهم يريدون تجميع الإخوان المسلمين في سجن تدمر، ولطالما صرح رفعت أسد النصيري بأنه سيخضر بادية

الشام بأيديهم، فذلك أنفع من وجودهم في المجتمع، لأن عزلهم ضروري. فأخذت أتساءل: مـا علاقتي بالإخوان المسلمين لأذهب إلى سجن تدمر؟ هل كتب المحققون في إفادتي أشياء أخـرى لم أعترف بها؟ هل لفقوا لي تهمة ما؟ وهل.. هل.... وهل..؟.

كنت أمنّي نفسي أثناء وجودي بفرع المخابرات، بأن الكثير من أقاربي يعرفون بعض رموز النظام والمحسوبين عليه، ولعل أحدهم يتدخل لي عندهم، فيتمكن من إخلاء سبيلي بطريقة أو بـأخرى، ولكن ذلك لم يحصل، هاأنذا في طريقي إلى السجن أو إلى المحكمة.. ورحت أتساءل ثانية وبمرارة: لماذا يحدث ذلك؟ هل تخلى عني أصحابي وأقاربي؟ هل يعلم أحد بحالي؟ هل صرت منسيا في هذه الدنيا فلا أحد يذكرني؟ أم تراهم (أي أقاربي) لا يتجرءون أن يفعلوا ذلك؟ هل تدخل بعـضهم وحاول مساعدتي ففشل في إقناع الجلادين ببراءتي، بل أقنعهم المجرمون بأني شخص خطير وفعلت كيت وكيت؟؟.

كيف تحلو لأقاربي الحياة هناك خارج أسوار السجون، وأنا هنا أعاني ما أعاني بعيداً عنهم؟؟ هـل كذا؟ كيف كذا؟ لماذا كذا؟!! وأخيراً قلت في نفسي: لقد انقطعت بنا كل أسـباب الأرض، ولم يبق لنا إلا حبل السماء نعتصم به، وكفى بالله وكيلاً، وكفى بالله حسيباً (وتوكل على الحي الذي لا يموت، وسبح بحمده، وكفى به بذنوب عباده خبيراً) حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وبالطبع إن ضعف الإنسان يظهر عند الشدائد والنوائب، حيث تسيطر عليه وساوس الـشيطان واليأس والقنوط، وربما ظن الإنسان بربه الظنون، كما ورد في القـرآن الكـريم: (وإذ زاغـت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا). ومهما يكن من أمر فإن تلك المحنة كانت فوق طاقة التحمل البشري. (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به). لقد سيطر علي الخوف، وغمـرني شعور بالرعب، لكني أسلمت أمري لله، ورحت أقرأ ما أحفظه مـن آيـات القـرآن الكـريم، والأذكار، والأدعية سائلاً المولى سبحانه وتعالى السلامة والمغفرة، مستمدا منه العون والتأييـد. وكم كنت أدعو الله بهذا الدعاء (اللهم يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف، اللهم إني لا أسـألك رد القضاء بل أسألك اللطف فيه، اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير) نعم لقد سيطر علينا الخوف لأن كل ما حولنا كان مجهولاً ومخيفاً، وكننا نتعامل مع طلاسم ومعميات ومجاهيل، كباطنية ذلك النظام العفن المتفسخ، وهذه حالتنا طوال فترة سجننا..

وبعد ساعات مريرة من الإرهاق في السفر، تعرضنا خلالها لشتى صنوف الإهانة والقهر والإيذاء، وصلنا إلى سجن تدمر، دون أن نرى شيئاً من الطريق أو من معالم ذلك السجن المخيـف مـن الخارج.

الوصول إلى سجن الموت: وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً).

عندما وصلت قافلتنا إلى مدخل السجن، علت الأصوات، وراح الزبانية يسحبوننا إلى خارج السيارة، بعد أن فكوا القيود والسلاسل والغمامات عنا، وما إن يترل أحدنا من السيارة، حتى يستقبله زبانية السجن بالضرب واللكم والرفس والدفع للداخل، وهناك اختلطت الأصوات بين عواء الزبانية، مع صراخ المعذبين، ولسعات السياط، حتى تم إدخالنا إلى السجن. أوقفنا، ووجوهنا متجهة إلى أحد الجدران، والسياط تنهال علينا من كل جانب، وبعد وجبة رهيبة من الضرب المبرح، راح الزبانية يدخلونا واحداً بعد الآخر إلى غرفة القلم (السجل) هناك يجلس (مساعد أول) مع دورية المخابرات التي أحضرتنا، أما الكيفية التي يدخلوننا بها لغرفة القلم، فقد ذكرتني بطريقة سحب الخراف إلى عتبة الذبح إلى المسلخ، وربما تكون عملية ذبح الخراف أقل قسوة؛ إذ يمسك أحد الجلادين من الشرطة العسكرية برقبة المعتقل، ويدفعه أمامه بعنف، وربما وقع المعتقل على الأرض مع الشتائم والنهر والضرب، حتى يقف أمام الطاولة التي يجلس المساعد عليها الذي يقوم بتوجيه الأسئلة لنا.

- ما اسمك؟ وما اسم والدك ووالدتك؟... تاريخ ومكان الولادة، المهنة، العنوان، الحالة العائلية... وهكذا.

والويل كل الويل لمن كان متعلماً، كأن يكون طبيباً أو مدرساً أو مهندساً... الخ إذا سيحفظ الجلادون شكله، ويصير معروفاً عندهم، ويخص بعذاب وإهانة شديدين. ففي هذه اللحظات لا يسمع الإنسان إلا أصوات السياط تلسع أجساد المعتقلين، والتي كانت تختلط مع نباح الشرطة والسباب والشتائم وصوت (افتح يديك واغمض عينيك ولك حقير..) والتي تعودنا سماعها فيما بعد في كل مناسبة نقابل بها أولئك الوحوش الآثمة من عبيد فرعون وجنود الحاخام حافظ أسد، من النصيريين.

ومن الحوادث التي حصلت معنا في تلك الأثناء أن أحد الجلادين أمسك بأحد إخوتنا وانهال عليه ضرباً، بينما وقف الجلاد الآخر واضعاً يديه حول عنقه، واستمر بالضغط عليها حتى أصيب ذلك الأخ بالإغماء وسقط أرضا، عندها تدخل المساعد، وطلب منهم أن يتركوه (أية أحقاد بل أية أنفس أشربت باللؤم والفجور!!!؟)..

قضينا في هذه الحالة فترة من الوقت، حتى انتهى (المساعد) من تسجيل جميع الأسماء، وقام بضبطها، مقارنة مع القائمة التي استلمها من دورية المخابرات التي أحضرتنا، واتصل بفرع

المخابرات التي أرسلنا إلى السجن: وهكذا انتهت عملية إدخالنا إلى سجن تدمر جميعاً، وبعد ذلك طلبوا منا الاصطفاف بطابور منفرد والرؤوس مطأطئة نحو الأسفل، والعيون مغمضة، وكل منا يمسك بملابس الذي أمامه، وأدخلنا إلى إحدى باحات السجن، وهي الباحة الأولى التي سميت بباحة التعذيب أو باحة الاستقبال، ويتم تنظيم حفلات الاستقبال فيها للقادمين الجدد من الذين قدر عليهم أن يدخلوا ذلك المكان اللعين.

حفلة الاستقبال: من الأشياء التي ما أزال أذكرها منذ اللحظات الأولى لدخولنا ذلك السجن، بعض الكتابات الموجودة في القسم العلوي للجدران، وأكثرها من الشعارات المكتوبة على جدران مؤسسات الدولة في بلدنا المنكوب مثل (وحدة حرية اشتراكية، أمة عربية واحدة...)، والذي لفت نظري، وبقي محفورا بذاكرتي، هو الآية الكريمة (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) فتعجبت من تلك المفارقة العجيبة، وتلك السماجة، بل وتلكم الوقاحة، فقلت في نفسي: هل يؤمن هؤلاء الأوباش بكتاب الله ليكتبوا آياته الكريمة على جدران هذا السجن اللعين؟ ومهما يكن من أمر، فنحن في نظرهم مجرمون، وما يقومون به من تعذيب وإيذاء وإهانة هي عدالتهم بعينها، لم ينقطع الضرب لحظة واحدة منذ نزولنا من السيارة، ولم تتوقف أصوات الجلادين وشتائمهم، فهم يستعملون أحط الألفاظ التي يعف اللسان عن ذكرها، وهذا هو شأن جميع الزبانية في ذلك النظام العفن والمهترئ، سواء أكانوا من الجرذان الصغار أو من الخنازير الكبار، وهذا ما شاهدناه وعرفناه قبل ذلك أثناء التحقيق وفي كل مكان وطئنا بأقدامنا في أقبيتهم ودهاليزهم..

وعندما أدخلنا إلى باحة التعذيب أحضر الدولاب المطاطي، وشاهدت أحد عناصر (البلدية) يحمله ويرميه على الأرض بعنف، ليزيد من هلعنا، كما سمعت صوت أحد ضباط الصف يقول للعناصر (تصرف كيفيا)، عندها طلبوا منا أن نخلع ثيابنا، وباشروا بتفتيشنا، ولم يكن عندنا من المتاع ما يستحق الذكر، اللهم إلا الملابس التي اعتقلنا بها، وكنت اشتريت منشفة صغيرة (وشحاطة) نايلون أثناء وجودي في فرع المخابرات، وهذا هو حال جميع السجناء معنا، فهم عزل من كل شيء، وهذه فرصة ثمينة لأولئك الوحوش أن نتعرى من ملابسنا، لتلسعنا سياطهم، ويمارسوا ساديتهم وانحرافهم الحاقد اللئيم ضدنا.

ثم جرجرونا بوضع قدمي المعتقل بعصا الفلقة، وهي عبارة عن عصا غليظة ربط طرفاها بوصلة من سلك كهربائي يلفونه عدة مرات حول القسم السفلي من الساقين، فتنحصر القدمان بشدة، دون أي إمكانية لسحبهما أو تحريكهما، ثم يقوم الجلاوزة برفع العصا، فترتفع الرجلان بدورهما، لينهال عليهما أربعة من الجلاوزة بالسياط، حتى تسيل منهما الدماء، وتتورم الأقدام، فيأمرهم

المساعد بأنه يكفي، فيخرج المعتقل، ويوقف جانباً أمام أحد الجدران، فيدفعه أحد الشرطة، بعد أن يمسكه من النقرة (القسم الخلفي من الرقبة) ثم يأتون بغيره، ويضعونه في الدولاب.... وهكذا، وأما الذين مازالوا ينتظرون دورهم، فالضرب ينهال عليهم باستمرار ودون انقطاع، يجلدون ظهورهم وأيديهم، وكذلك حال الذين أخرجوا من الدولاب، يتلقون ضربا إضافياً أيضاً على ظهورهم وأيديهم ورؤوسهم، وإذا أصيب أحد المعتقلين بالإغماء، رشوا على وجهه الماء حتى يصحو، كما يرشون الماء فوق أقدام الأشخاص الذين أخرجوا من الدولاب. وقتها كنا في شهر رمضان الموافق لشهر تموز من عام ١٩٨٠ حيث أصبت بالعطش الشديد، فطلبت من الشخص الذي يحمل دلو الماء أن يسقيني، فلم يلتفت لطلبي، إنما باشر برش الماء على قدمي وأقدام الأخوة الذين يقفون بجانبي.

استمر التعذيب على هذه الشاكلة حتى انتهى الزبانية منا جميعاً، ونال كل منا حظه من التعذيب، وكانت ساعات مريرة، ربما فاقت شدمًا ساعات التحقيق الأولى عند بعض الإخوة (لأن بعض الذين كانوا معنا لم يتعرضوا أثناء التحقيق للتعذيب الذي شاهدوه هنا) هناك رحت أتساءل وما أكثر التساؤلات المحيرة في تلك الأثناء:

لماذا الضرب؟ ما الهدف منه؟ لماذا نتعرض للتعذيب هنا؟ ألا يكفينا ما شاهدناه وما تعرضنا له في فرع المخابرات أثناء التحقيق؟ ألم ننته من التحقيق؟ ماذا يريدون منا؟

وغير ذلك من التساؤلات المحيرة التي لا أجد لها جواباً سوى أن هؤلاء الوحوش يعذبوننا بدافع حقدهم، قال الله تعالى (وما تخفي صدورهم أكبر)، لقد كادت آثار التعذيب التي تعرضت لها أثناء التحقيق أن تتماثل للشفاء، ولكنني أجد نفسي الآن أعاني من آثار أخرى، إضافة للآثار السابقة التي أصيبت بالتقرح والنزف، مما جعلني أعاني من الجروح والقروح مدة عام كامل، بعد دخولي سجن تدمر، بسبب حفلات التعذيب اليومية، وسوء العناية الصحية، مما ترك آثاراً دائمة في أماكن مختلفة من جسدي بعد اندمالها، وأنا الآن أحمد الله تعالى الذي منّ عليّ بالنجاة من تلك المحنة، حيث أشعر بعزّة الإيمان، عندما أنظر إلى تلك الآثار الموجودة في الأماكن التي أستطيع رؤيتها، وحينما أطلع عليها أي أخ أقابله ويسألني عن تلك المحنة فأبادر لإطلاعه على تلك الآثار قبل أن أتكلم شيئاً، فلا حاجة لي إلى الشرح، فجراحي هذه تحكي محنة المعذبين في أقباء السجون النصيرية الرهيبة... ومع ذلك فإنني أسأله تعالى أن يجعل ذلك كفارة لذنوبنا ورفعا لدرجاتنا في الدنيا والآخرة، وصدق الشاعر في تصويره:

وقروح جسمك وهي تحت سياطهم قسمات صبحٍ يتقيه الجاني

وأثناء حفلة الاستقبال مرت على مخيلتي أيام حياتي السابقة وكأنها فيلم سينمائي يختصر تلك السنوات الطوال بدقائق معدودة، وأخذت أتساءل: هل صحيح ما أتذكره الآن؟ هل صحيح أنه حصل معي كيت وكيت؟ لقد تذكرت في تلك الأثناء الذكريات الحلوة والذكريات المريرة وأكاد أكذب نفسي بأن شيئاً من ذلك لم يحصل، حينما أتساءل بمرارة أين كان ما أتذكره مما أنا فيه الآن؟ وأعود للتساؤل مرة أخرى وأكاد أكذب نفسي قائلاً: إنني لم أشاهد شيئاً في حياتي وإن حياتي كلها هي هذه الساعات الرهيبة التي أعيشها الآن وهذا التعذيب الذي أتعرض له ويصعد إلى مخيلتي قوله تعالى: (ويوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها).

وحينما أتذكر فصول التعذيب التي تعرضنا لها في تلك الأيام، واستعرض بعض الآيات الكريمة التي تصف حالة الكافرين يوم القيامة، يزداد إيماني أكثر فأكثر بكتاب الله عز وجل، إذ لا يمكن لأي إنسان، أن يصف تلك الأمور إلا الذي عانى تلك المحنة (التعذيب) (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون)..

وأثناء حفلة الاستقبال، سمعت صوت أحد الجلادين (وقد عرفنا اسمه فيما بعد ويدعى نعيم حنا (٢١) يقول لنا: (غير لعبدكن العجل يا حقراء..) وكان الضرب بقوة ولؤم، وقضينا عدة ساعات قاسينا خلالها من التعذيب والقهر والإهانة ما لا يعلمه أحد إلا الله، فالإنسان يجد نفسه عاجزاً عن وصف تلك المشاعر والأحاسيس التي لا يعرفها إلا من تعرّض لها، ولله الأمر من قبل ومن بعد وإليه المشتكى.

وبعد انتهاء حفلة الاستقبال قاموا بوضعنا في صف منفرد، مطأطئي الرؤوس، مغمضي الأعين يمسك كل منا بتلابيب الذي أمامه، حانياً رأسه على ظهره، وسرنا بطابور منفرد على هذه الحالة داخل السجن، حتى أوصلونا، إلى إحدى الزنزانات الفارغة، فأدخلونا فيها، وأغلقوا الباب وانصرفوا... إن حالتنا كانت تدعو للأسى والحزن، ولو قدر لأحد من أهلينا أن يرانا لأجهش بالبكاء، فالأرجل متورمة ومليئة بالجروح، والأجساد مغطاة بالكدمات والقروح، والإنسان لا يسمع إلا أصوات الأنين والتأوّه والتوجع من شدة الألم، فأحدنا لا يقوى على الوقوف من شدة الألم، والإعياء أخذ منا كل مأخذ، وإذا غالب أحدنا نفسه، واستطاع الوقوف، فإنه سرعان ما يصاب بالدوار الشديد، فيسقط على الأرض... كيف لا وقد قضينا مدة تزيد عن عشر ساعات في التعذيب والإهانة، منذ أن خرجنا من الزنزانة في فرع المخابرات حتى دخلنا زنزانة سجن تدمر.

عند ذلك توجه الجميع إلى الله بالدعاء، طالبين منه أن يفرج عنا ما نحن فيه، بعد أن خانتنا جميع أسباب الأرض.

لازمة سجن تدمر: كانت الساعة تقارب التاسعة صباحاً عندما جاء الجلادون يقودهم المساعد أول أحمد كسيبي (والذي لقبه السجناء فيما بعد بأبي جهل) فتح باب الزنزانة فاندفع أولئك الوحوش يلهبوننا بالسياط، فأصيب الجميع بالذهول.. ألم ننته من الضرب والتعذيب؟ بعدها قال المساعد للشرطة: (يكفي).. وأخذ يتكلم ليعطينا (لازمة السجن) أو بتعبير آخر (نظام السجن) فكان مما قاله لنا: أنتم الآن في سجن عسكري، كل شيء ممنوع هنا: الكلام ممنوع، فتح العينين ممنوع، النظر للشرطة ممنوع، السؤال ممنوع وهكذا... وأردف يقول: أنتم خونة للوطن، ليس لكم أية حقوق هنا، وقد جئتم لتموتوا في هذا المكان بما اقترفته أيديكم، نحن، لم نأت بكم من الشارع، إنما جرائمكم هي التي أتت بكم إلى هذا المكان، ولا بد للعدالة أن تأخذ مجراها.... إلى غير ذلك من الكلام الذي يدعو للسخرية ويثير الاشمئزاز والتقزز، ولم نكن نعلم: هل يقول ذلك الأحمق قناعته أو يتزلف لأسياده؟. بعد ذلك قام المساعد بتعيين أحد الإخوة رئيساً للمهجع، وعلمه (لازمة السجن) ليرددها، وهي بالشكل التالي: كلما جاءت الشرطة للزنزانة (سواء أفتحوا الباب أم لم يفتحوه) على رئيس المهجع أن يقدم الصف قائلاً: (انتـ..... به- استـ..... عد- است....رح- است.. عد.. المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب) وعلى الجميع أن يقفوا بحالة الاستعداد العسكري، منفذي إيعازات رئيس المهجع، ومغمضي الأعين . وبعد ذلك طلبوا من جميع السجناء أن يديروا وجوههم نحو الجدران، وعندما ينصرف الجلادون، يكرر رئيس المهجع نفس اللازمة، ولكن يقول: المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب.

ثم قام المساعد بإحصائنا، وقدموا لكل فرد منا ٣ بطانيات مع عازل، والعازل يستخدم بدل الفراش والبطانيات تستعمل كغطاء، وأما الوسادة فكنا نستعمل أحذيتنا، وهكذا بدأنا نعيش مرحلة جديدة مليئة بكل أشكال التعذيب والإهانة والذل، جعلتنا نترحم على الأيام التي قضيناها في فرع المخابرات رغم ما فيها من بلاء وعذاب.... لقد كنت متيقناً بأن ما نعانيه في تلك الأيام السود سيسجل في صفحات التاريخ وستكتب به المؤلفات وتدبج به القصائد وسينقل للأجيال القادمة وهذا ما ذكرته لإخواني أكثر من مرة.

أول رمضان في سجن تدمر: دخلنا سجن تدمر خلال شهر رمضان من عام ١٤٠٠هـ المصادف لشهر تموز من عام ١٩٨٠، وقدر الله علينا أن نكون من الدفعات الأولى التي وصلت إلى السجن بعد المجزرة الكبرى، وكان عدد المعتقلين في ذلك الوقت قليلاً (وربما لا يتجاوز الـ ٣٠٠ شخص) لكن الدفعات تتالت فيما بعد، حتى ارتفع العدد إلي ٤٠٠٠ معتقل في غضون ستة أشهر فقط..

أما كيف قضينا تلك الأيام فربما وجد الإنسان نفسه عاجزاً عن وصفها بكـل تفاصـيلها، إنمـا سأذكر هنا ما أحفظه في ذاكرتي، رغم أن ذاكرة الإنسان قد تخونه في كثير من الأحيان، عنـدما يكون في ظروف طبيعية، فكيف بذاكرة الذين يعيشون تلك الظروف القاسـية مـن التعـذيب والإهانة والقهر، والتي يقصد منها تحطيم الإنسان نفسياً وفكرياً وجسمياً، وقتل كل شيء فيـه؟ لقد نظم أحد إخواننا قصيدة بتلك الظروف الحالكة، وكان مطلع القصيدة البيت التالي:

يا صفوة الأحبابِ والخلانِ عفواً إذا استعصى عليّ بياني

لم أتمكن من حفظ تلك القصيدة، وإنما حفظت منها هذا البيت فقط...

وبرامج الإيذاء والتعذيب في تلك الأيام كانت على أشدها، حيث يداهمنا الجلادون بعد منتصف الليل لتوزيع طعام السحور، فنستيقظ من نومنا عندما يدخل الزبانية إلى باحتنا، ويباشرون فـتح أبواب الزنازين.. وكانت زنزانتنا هي الخامسة في الباحة، فيفتح المجرمون الباب فيقـدم رئـيس المهجع الصف (لازمة السجن) فيدفع الجلادون إلى الداخل وينهالون علينا بالـضرب واللكـم واللطم والرفس، عند ذلك لا يسمع الإنسان إلا أصواتاً لصراخ المعذبين الـتي اختلطـت مـع هبدات السياط وأصوات الشتم والسباب والصراخ من الجلادين الذين يكررون عبارات (افـتح يديك -أغمض عينك.. ولك حقير.. وو...).

وأخيراً يصرخ رئيس الدورية، وهو غالباً من ضباط الصف برتبة عريف أو رقيب: شرطة لـبره.. لبره شرطة: (أي اخرجوا من المهجع). فيخرج الجلادون من الزنزانة، ويغلق الباب، فيقدم رئيس المهجع الصف، لينتقل الزبانية بعد ذلك إلى الزنزانة المجاورة، حتى ينتهوا منها، فـالتي بعـدها ثم الأخرى، فالأخرى، وهكذا يفعلون بسائر الباحات. وبعد ذلك يبدأ المعتقلون بتناول الطعام، وأنى لنا أن نأكل بعد أن استولى علينا التعب والألم والخوف الذي أعجزنا عن تناول الطعام في الأيـام الأولى، رغم ذلك، فإننا كنا نجبر أنفسنا على تناول لقيمات نتقوى بهما على تحمل ما نحن فيه من كرب، حتى يأذن لنا الله بالفرج.. وبعد أن ننتهي من تناول الطعام، كنا ننتظر أذان الفجر الذي كنا نسمعه، فيهيج في أنفسنا الذكريات والحنين لبيوت الله، فنقوم للصلاة، وكنا نصلي جماعة في الأيام الأولى فلم نكن نعرف نظام السجن القاضي بعقاب كل من يقدم على الصلاة.

الصلاة في سجن تدمر: كنا في الأيام الأولى نصلي جماعة، وذات يوم جلس أحد الحراس يتجسس علينا، فسمع أننا نصلي الصبح جماعة، لأن زنزانتنا كانت مقسومة إلى قسمين: يـضم قـسمها الأول، المهجع الذي ننام فيه، وأما القسم الثاني، فيضم مكان الخلاء وصنبور الماء، مع قطعة أرض صغيرة تستخدم لوضع القمامة وبقية الأغراض، ويوجد في سقف تلك القطعة فتحـة (شـرّاقة) والقسمان متصلان بفتحة تشبه الباب ولكن لا وجود له بها وبالتالي فإن الشخص الذي يجلـس

فوق الشراقة يمكنه سماع ما يدور بالمهجع من أحاديث، بل ويمكنه أن يشاهد قسماً لا بأس به من الزنزانة ذاتها..

جلس ذلك المجرم يوماً (وكان نصيرياً) فوق الشراقة يتجسس علينا ونحن لا نراه، لأننا لم ننتبه للأمر، وبعد أن أنهينا الصلاة، جلسنا نقرأ الأوراد والأذكار، ثم بدأ الإمام يدعو وكنا نؤمّن على دعائه، عند ذلك نبهنا أحد الإخوة وكان يجلس قرب (الشراقة) بأنه يشم رائحة تدخين، وهذا يعني أن أحد الزبانية يقف فوق الشرّاقة. سكت الجميع، فنادى ذلك المجرم رئيس المهجع بصوت كفحيح الأفاعي قائلاً: (ولك يا.... عاملين جامع هون) ثم طلب منه أن يحضر الأخ الذي صلّى إماماً، فسأله (إنت اللي كنت تصلي إمام؟) فأجابه بالإيجاب، فشتمه بأقذع الألفاظ ، وتابع قائلاً: بكره منت حاسب غير لأسحقكن يا كلاب يا حقراء يا.....) فأخذنا ندعو الله و نسأله السلامة.

وفي اليوم التالي حوالي الساعة التاسعة، حضر الزبانية لباحتنا ومعهم الدولاب، وبأيديهم السياط، وجاءوا مباشرة لزنزانتنا بعد أن تجاوزوا الزنازين الأربع التي تقع عند مدخل الباحة، فتح الجلادون الباب، فقدم رئيس المهجع الصف كالعادة، فصرخ أحدهم: (لبره يا كلاب يا حقراء...) وخرج الجميع للباحة لتبدأ حفلة التعذيب... فانهالوا علينا ضرباً بالسياط، ثم أحضروا رئيس المهجع، وطلبوا منه أن يدلهم على الأخ الذي كان إماماً، فوضعوه في الدولاب، واستمروا بضربه حتى أصيب بالإغماء، فصبّوا عليه الماء، وأخرجوه من الدولاب، واستمروا بضربه على يديه وظهره حتى تعبوا منه، وكذلك فعلوا برئيس المهجع، أما البقية، فقد نالوا حظهم من التعذيب والإهانة بدرجات متفاوتة ومتقاربة، رغم أن آثار حفلة الاستقبال ما تزال موجودة على أجسادنا.

وانصرف الجلادون بعد إشباعنا إهانة وإيذاء وشتائم، وهكذا كان جزاء كل من يصلي بذلك السجن اللعين، أو يتجه إلى الله سبحانه كافراً بالطاغوت.. بعد ذلك قرر الإخوة أن نصلي خلسة حتى لا يشعر بنا أحد، أما الأخ الذي صلّى بنا إماماً فقد أصبح معروفاً لدى الجلادين الذين صاروا يخصونه بالإهانة والتعذيب في كل مناسبة، فراح يدعو الله أن يفرج عنه، فتقبّل الله دعاءه وتخلّص من التعذيب، فجاء الأوباش فسألوا عنه، فأخبرهم رئيس المهجع أنه خرج حيث لا ندري، فطالبوه أن يخرج لهم خليفته، حيث سأله المساعد أبو جهل بالحرف الواحد قائلاً: (من هو خليفته) فأجابهم رئيس المهجع: لا يوجد له خليفة، فانهال عليه الجلادون ضرباً، حتى اضطر لإخراج أحد المعتقلين بشكل عشوائي ليتخلص من التعذيب. فانهال الجلادون على ذلك الأخ ضرباً، فصار يصرخ ويستغيث وينفي التهمة الموجهة إليه!!!؟ بأنه لا يعرف الصلاة، وأنه لا

يصلي، وبعد ذلك أوقفوه عند باب المهجع، وطلبوا من جميع السجناء أن يبصقوا على وجهه احتراماً له لأنه كان إماماً.

وللصلاة في سجن تدمر قصة مؤلمة وطويلة، لقد كان الجلادون يسألون رؤساء المهاجع بكل مناسبة عن الأشخاص الذين يصلون، فيجيبهم رؤساء المهاجع بالنفي، فينهالون عليهم ضرباً ليعترفوا على الأخوة الذين يصلّون، وربما اضطر بعضهم تحت التعذيب إلى إخراج أحد السجناء، أو عدد منهم بصورة عشوائية، ليتخلص من التعذيب. ومن القصص التي انتشرت في سجن تدمر في نهاية عام ١٩٨٠ أن اثنين من الإخوة من محافظة إدلب، أحدهما مهندس مدني قد استشهدا تحت التعذيب، لأنهما ضبطا متلبسين بجريمة الصلاة!!!.

ومن الحوادث التي حصلت في زنزانتنا، أن أحد الإخوة ضبط متلبساً بجريمة الصلاة، إذ كان يصلي جالساً، فصرخ به رئيس الدورية وهو برتبة عريف اسمه عبود، فأنكر ذلك الأخ، لأنه كان يصلي مومئاً برأسه فقط، فهدده وشتمه وانصرف. وفي اليوم التالي، حضر ذلك المجرم ومعه عدد من الجلادين، فطلب من ذلك الأخ خلع ملابسه، والخروج للباحة، واستمر الجلادون في ضربه حتى تسلّخ جلده، وكذلك فعلوا برئيس المهجع، وسألوه عن أسماء الذين يصلون عندنا، ولكنه تحمل التعذيب دون أن يعترف بشيء، مع العلم أن ذلك المصلي كان في العقد السابع من عمره، ويمتاز بالخوف والهلع، وطالما أصيب بالانهيار عند مجيء الشرطة، لذلك أصيب الإخوة بالغم عندما شوهد ذلك الأخ من قبل الجلادين وهو يصلي، وتوقع الجميع أنه سيعترف بأن جميع السجناء يصلون عند أول سوط، ولكن الله سلّم، وقد شاهد الحرس نزلاء المهجع المجاور لنا يؤدون الصلاة ذات ليلة من شهر رمضان عام ١٤٠٢هـ، فحضر الجلادون منذ الصباح الباكر، وأخرجوا جميع المعتقلين، واستمروا بتعذيبهم فترة طويلة من الوقت، ونال رئيس المهجع قسطاً كبيراً من التعذيب والهوان، وعلمت من الإخوة الذين قدموا إلينا من السجون الأخرى من مختلف المحافظات، كسجن المزّة وكفر سوسة والشيخ حسن (بدمشق) والسجن المركزي بحلب وغيرها، أن الصلاة ممنوعة في جميع تلك السجون دون استثناء، والويل كل الويل لمن يقبض عليه متلبساً بجريمة الصلاة؟!.

وعندما تحسنت المعاملة نسبياً بسجن تدمر في نهاية عام ١٩٨٢ قام النصيري المجرم الرائد فيصل غانم مدير السجن بجولات تفقدية داخل السجن، وتحدّث إلى السجناء بنفس اللغة التي يتكلم بها سيده الصنم الكبير، فادعى أنه مسلم، وأنه يصوم ويصلي ويقرأ القرآن، فتجرأ أحد المعتقلين وسأله: طالما أنك مسلم وتصلي وتصوم، فلماذا لا تسمحون لنا بالصلاة؟ فأجابه: إن أرض الزنزانة وسخة لا تصلح للصلاة، فكيف تصلون على الأرض التي تأكلون عليها وتدوسون

عليها؟!! وكأنهم حريصون أن تكون صلاة المعتقلين مستوفية لكل شروطها وأركانها لتكون مقبولة. وصدق الله العظيم حيث يقول واصفاً حال هؤلاء المنافقين: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين).

نعم الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، وتلك هي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً: (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك، ثواباً وخيرٌ مرداً).

الحلاقة الأولى بسجن تدمر: بعد مضي عدة أيام من قدومنا إلى السجن، جاء المساعد ومعه عدد من السجانين، وفتحوا باب الزنزانة بعدما ضربوا الباب والجدران بسياطهم، وهذه عادتهم في كل مرة يفتحون بها أبواب الزنازين، ليرهبوا السجناء قبل أن يبدءوا بتعذيبهم، فالسياط كانت تسبب اهتزاز جميع أجزاء الزنزانة، إضافة للصوت الشديد الذي يشبه صوت الانفجار الشديد، والذي يمكن سماعه من مسافة بعيدة، طلب منا المساعد الخروج للباحة حفاة الأقدام- كالعادة- ونلنا حظنا من الجلد عند باب الزنزانة. ثم وقفنا بالرتل الأحادي مغمضي العيون، مطأطئي الرؤوس، يمسك كل منا بثياب الذي أمامه. سرنا داخل السجن والسياط تنهال علينا من كل جانب، وتجاوزنا عدة أبواب تفصل بين الباحات. وعند الأبواب استقبلنا الجلادون عند دخولنا وخروجنا، إضافة لاصطدامنا بحواف الأبواب، لأننا كنا مغمضي العيون، وهذا ما يؤدي إلى أذى بالأقدام، وربما وقع بعضنا على الأرض، فكان ذلك فرصة للجلادين ليعملوا سياطهم بأولئك المساكين الذين لا يدرون كيف وأين يسيرون، وغالبا ما يسقط عدد من الأخوة فوق الأخ الذي وقع على الأرض نتيجة لتعثرهم به، ولا يستطيع الجميع القيام ومتابعة المسير إلا بعد أن ينالوا حظاً وافراً من السياط.

وفي النهاية وصلنا إلى الباحة الثانية، أو باحة الحمام، فأوقفنا أمام أحد الجدران، وهو جدار المهجع رقم ٨ والسياط تنهال علينا من كل جانب.. قام الحلاقون بصفنا، ووجوهنا للأمام، وظهورنا للحائط، وأيدينا خلف ظهورنا، والعيون مغمضة، والرؤوس منحنية.... بعد ذلك بدأ الحلاقون عملهم، مقسمين العمل فيما بينهم.... بعضهم يقوم بوضع معجون الحلاقة، وآخر يقوم بتدليكه بفرشاة الحلاقة المبللة بالماء، وآخرون يقومون بحلاقة شعر الرأس، حيث يجلس السجين جاثياً على ركبتيه، حانيا رأسه للأمام، واضعاً يديه خلف ظهره، وآخرون يقومون بحلاقة اللحى بواسطة أمواس الحلاقة.

عملية الحلاقة هذه تتم بسرعة، لذلك كانت الرؤوس مليئة بخصل الشعر غير المحلوق، والحلاقون لا يستعملون شيئاً لمنع سقوطه على الملابس أو داخلها، فتسقط الأشعار على الرقبة، ومنها للأسفل (على ظهر المعتقل) فتمتلئ الملابس الداخلية بالشعر، كل ذلك يذكرني بالحلاقة التي يجريها الفلاحون للمواشي، وليت الأمر يقتصر على هذا الحد من الإهانة والذل، ولو كان كذلك لهان علينا كثيراً، لكن الجلادين كانوا يتجولون بين المعتقلين الذين ينتظرون دورهم، لينهالوا عليهم ضرباً، وبشتى الطرق والوسائل، بالأيدي والأرجل، وبالسياط، ويطلبون من المعتقل أن يفتح يديه لينهالوا عليهما ضربا، وقد يلطمون الوجه أو يرفسون البطن، أو يستعملون قبضات اليدين للكم السجين على بطنه أو صدره، وهكذا...

أما الوجوه فقد امتلأت بالجروح والقروح، إما بسبب السرعة أو عدم الخبرة وإما بسبب وجود عدد كبير من النصيريين الحاقدين، وبعض الحثالة بين الحلاقين الذين كانوا يعتمدون أن يسببوا لنا الجروح، وقام بعضهم بجدع الأنف والأذن من تلقاء أنفسهم، أو بتحريض من الجلادين، إذا أغاظهم مظهر أحد المعتقلين، كأن يدل مظهره على الحشمة والوقار، أو يكون شيخا مسنا، أو صغير السن، أو طويل القامة، أو وسيم الهيئة، وهكذا حيث يقول الجلادون للحلاق: (اذبحه لهذا الـ... أو اسلخه لهل ....) وإذا بكى المعتقل أو استغاث، فإن الجلادين يقولون له: (ما شفت شي يا حقير، هلق لما تخلص حلاقة بنورجيك يا...) فيسكت ذلك المسكين منتظراً ما هو أشد وأدهى.

وكلما انتهى أحد المعتقلين من الحلاقة، استقبله الجلادون بالسخرية قائلين له: (نعيما شرف لهون) فيطلبون منه أن ينبطح أرضاً، رافعا قدميه للأعلى، فينهالون عليه بالسياط، بينما يقوم آخرون برفسه بأقدامهم، ويدوس بعضهم فوق ظهره، بل أكثر من ذلك، فقد قفز بعضهم فوق ظهور بعض المعتقلين، مما سبب له كسورا بالأضلاع والعمود الفقري، وربما قام بعضهم بوضع نعاله فوق رأس المعتقل أو رقبته، وإذا ما صرخ ذلك المسكين أو استغاث فإنهم يلقمونه حذاءهم العسكري إمعاناً بإذلاله وإهانته..

بعد ذلك يطلبون من المعتقل الوقوف، وربما كان لا يقوى على ذلك، فيجلس جاثياً على ركبتيه، وقد فتح يديه، لينهال عليهما الجلادون ضرباً. وهكذا حتى يأتي غيره... لقد قضينا حوالي ساعتين، وربما أكثر على هذه الحالة، حتى انتهينا من الحلاقة، ثم وقفنا بالرتل الأحادي، وعدنا إلى الزنزانة بنفس الطريقة التي خرجنا منها. لقد أصابنا الذهول عندما أغلق باب الزنزانة، وفتحنا عيوننا، لأن ملامحنا تغيرت، وربما لم نعرف بعضنا البعض للوهلة الأولى.

ورحنا نغسل وجوهنا لنزيل آثار الجروح والصابون عنها، وأخذنا نزيل الشعر الذي علق بملابسنا وأجسادنا، وراح بعضنا يزيل الأوساخ عن ملابسه، لأن باحة الحمام تحتوي على مجار مكشوفة بشكل ترعة صغيرة لجر مياه الحمامات، وأحد صنابير المياه الموجودة هناك والذي يستعمله الشرطة والحلاقون. لقد وقع أكثرنا بتلك المجاري عندما كانوا مغمضي العيون، كما قام الجلادون بوضع بعضنا داخل تلك المجاري عندما كانوا يريدون ضربه على قدميه إمعانا بإيذائه وإهانته. وهكذا كانت الحلاقة في ذلك السجن الرهيب نوعا آخر من الإرهاب والقهر.

التعذيب في سجن تدمر: لسجن تدمر برنامج أعد خصيصاً لتعذيب المعتقلين وإهانتهم بكل مناسبة يلتقي فيها السجانون بأولئك المعتقلين، إضافة لتخصيص مناسبات أخرى يأتي فيها الجلادون للغاية نفسها، ليتفننوا بأساليب التعذيب. أما المناسبات اليومية التي يأتي بها السجانون للزنازين فهي:

١ - في الصباح الباكر يقوم السجانون بتوزيع طعام الإفطار.

٢ - التنفس.

٣ - توزيع الخبز مع الفاكهة أو الحلوى إن وجدت.

٤ - التفقد.

٥ - توزيع طعام الغداء.

٦ - توزيع طعام العشاء.

٧ - مناسبتا الحمام والحلاقة أسبوعياً.

وخلال هذه المناسبات يقوم السفلة بضرب المعتقلين وإهانتهم، لكن أهم المناسبات المستعملة خصيصا للتعذيب، هي التفقد والتنفس، والحلاقة والحمام.

التفقد: في الأسابيع الأولى من مجيئنا لسجن تدمر، كان الجلادون يحضرون حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، فيفتحون الباب، ويقوم رئيس المهجع بتقديم الصف، فيدخل ضابط الصف المناوب (عريف أو رقيب) للمهجع مع عدد من الجلادين، حاملا بيده ورقة يقوم بإحصاء السجناء، ثم يسأل رئيس المهجع بعبارات مختلفة مثل (قديش عندك ولك) وبعضهم يسأل (كم كلب عندك ولك حقير) وآخر يقول (قديش عندك ولك حقير)، فيجيبه رئيس المهجع، ويضرب الجلادون السجناء، منذ اللحظة الأولى لدخولهم المهجع وحتى ينتهي الضابط المناوب من عدّ السجناء وإحصائهم وتسجيل العدد الموجود بعد ذلك يخرج ضابط الصف طالباً من الشرطة الخروج قائلا: (شرطة لبره) لينتقلوا بعد ذلك المهجع لمهجع آخر، حتى ينتهي التفقد والعذاب. وعندما زاد عدد السجناء، أمرنا الجلادون بالوقوف برتل ثنائي داخل المهجع، ثم زاد عدد المعتقلين أكثر، فطلبوا

منا أن نقف برتل ثلاثي ثم رباعي ثم خماسي، وفي هذه الحالة، كان الأخوة الذين يقفون بالصف الخارجي هم الذين يتحملون القسم الأكبر من الإهانة والضرب، لذلك كان الأخوة الشباب يؤثرون إخوانهم المسنين والمرضى بالوقوف في الصفوف الداخلية، حتى لا ينالهم الإيذاء والضرب والجلد، وكان المعتقلون يستعدون للتفقد قبل مجيء المجرمين بوقت طويل، وقد يطول الانتظار فنقف الساعات الطوال دون أن يأتي الجلادون لانشغالهم بأمور أخرى، ويقضي السجناء تلك الساعات في اضطراب وقلق دائمين، ولطالما تمنينا قدومهم لنتخلص من أحد فصول التعذيب اليومي.

وكان بين السجانين أحد الرقباء المغرورين، ويدعى علي، ويتصف بالحقد واللؤم، وكلما انتهى من التفقد بصق على السجناء ثم ينصرف.

وفي شهر نيسان من عام ١٩٨١ انتشر مرض الكوليرا في السجن، فصار الجلادون يخافون من دخول المهاجع، فأمرونا للخروج من الباحة لنصطف بالرتل الخماسي، وعندما ينتهي الرقيب من إحصاء المعتقلين وتسجيلهم، يؤمرون بالدخول للمهجع قائلين لهم: (لجوا ولك) أو (للمهجع ولك حقراء) عندها يجتهد الجلادون بضرب المعتقلين الذين تزاحموا أمام الأبواب الضيقة التي لا تسمح بمرور أكثر من شخص واحد، ونتيجة للخوف والفوضى يندفع الجميع لدخول الزنزانة تفاديا للأذى، مما يؤدي ذلك لسد باب المهجع وعرقلة دخول البقية. وهنا يبادر الأخوة الذين صاروا داخل الزنزانة لسحب إخوانهم نحو الداخل، والجلادون يعملون سياطهم عشوائياً حتى يدخل الجميع، عندها ينصرف المجرمون، ويستعد السجناء لحفلة تعذيب جديدة ومأساة أخرى، وأصبحت هذه الطريقة من التفقد هي المتبعة بعد ذلك، وأصيب الكثير من السجناء فيها إصابات مختلفة نتيجة للسياط التي قد تصيب الرأس فتؤذي العيون، أو نتيجة لاصطدامهم بحواف الأبواب الجانبية، أو الحافة السفلية التي تحتوي على زاوية حديدية يمتد ضلعها القائم من بداية الباب حتى طرفه الآخر، أو نتيجة للضغط الناشئ عن اندفاع المعتقلين بصورة فوضوية، مما يؤدي لحصر البعض بين الجدران أو أحرف الباب، وبين المعتقلين الآخرين الذين يضغطون بهدف الدخول. وهكذا كانت مناسبة التفقد في سجن تدمر رعبا وبطشا وكثيراً ما تساءل الأخوة لماذا يتعبون أنفسهم ويتعبوننا معهم بالتفقد؟ يمكنهم حصر عدد المعتقلين بطرق أسهل من ذلك بكثير، ولكنها على أية حال كانت مناسبة لإيذاء المعتقلين وإهدار كرامتهم، وشفاء أحقادهم الطائفية التاريخية ليس إلا.

التنفس في سجن تدمر: ويعد من أشد فصول التعذيب إيلاما ومرارة، فكنا نصاب بالغم عندما نسمع كلمة تنفس!!! حتى سماه بعض السجناء (تفطّس). يدخل الجلادون للباحة، فيفتحون باب

الزنزانة الأولى قائلين: (اطلعوا ولك حقراء للتنفس) أو (تنفس ولك- الكل برا) بعد أن يصرخوا وينبحوا ويضربوا الأبواب والجدران والأعمدة بسياطهم، مما يؤدي لارتجاج الزنزانة من شدة الضرب، فيخرج السجناء حفاة الأقدام مغمضي العيون مطأطئي الرؤوس، وتبدأ عندها السياط عملها لسعاً، وبعد أن يكتمل خروج الجميع للباحة، يبدأ فصل التعذيب الذي يأخذ صوراً بشعة متنوعة، جلداً وبطشاً من شتى صور الهمجية الجاهلية. وقد يطلب الجلادون من السجناء أن يسيروا هرولة حول الباحة، ليباشر أحد الجلادين بإعطاء الإيعازات المختلفة... رملاً... منبطحاً... فينبطح الجميع على الأرض، التي امتلأت بالحفر والقاذورات وبالماء في أيام الشتاء، ثم يعطي إيعازاً آخر قائلاً: تابع رملا. فينهض الجميع راكضين، لتأتيهم إيعازات أخرى، ثم مستلقياً، فيستلقي الجميع على ظهورهم، أو يقول: جاثياً، فيجلس الجميع جثياً على ركبهم، ويحيط بالباحة عدد كبير من الجلادين وبأيديهم السياط، وربما زاد عددهم عن عدد المعتقلين وخاصة في الأشهر الأولى من دخولنا السجن، عندها كان عدد المعتقلين قليلاً نسبياً، وكلما مر أحد السجناء أمام أحد الجلادين ضربه بالسوط كيفما اتفق، وربما استوقفه وطلب منه أن يفتح يديه لينهال عليهما ضربا، أو يأمره بالانبطاح على الأرض رافعاً قدميه للأعلى ليجلده عليهما... وهكذا... حتى انتهاء مدة التنفس. والويل كل الويل لمن يتلكأ بتنفيذ أمر من الأوامر الصادرة للجميع أو له شخصياً.

نوع آخر من التنفس: يخرج السجناء للباحة فيطلب منهم أن يسيروا رمَلاً حول الباحة، ثم يطلب منهم الانبطاح على الأرض رافعين أقدامهم للأعلى من الخلف، فتصبح السيقان مع الأقدام عمودية على الأرض، فينهال الجلادون بسياطهم على الأقدام، وآخرون يدوسون فوق ظهور المعتقلين. وفي هذه الحالة، لا يسمع الإنسان إلا لسع السياط وصريرها المختلط مع صراخ وأنين المعذبين، والجلادون ماضون في حقدهم الغادر اللئيم.

لقد اتبع الجلادون هذه الطريقة من التنفس خلال الشهور الأولى من وصولنا إلى السجن، (آب، أيلول، تشرين الأول وتشرين الثاني من عام ١٩٨٠) فقد كان التعذيب على أشده خلالها، حتى أسماه المعتقلون بأيام التعذيب، تمييزاً لها عن غيرها من الفترات.

وخرجنا ذات يوم للباحة، فوجدنا أن أرضها قد امتلأت ببقع الدم، وكان الجو حاراً، ففاحت رائحة الدم التي اختلطت مع رائحة المطاط المنبعثة من السياط وإطارات السيارات الملقاة على الأرض، وكان بعض الجلادين يرمون تلك الإطارات الثقيلة على المعتقلين مع القهقهة الشديدة، وآخرون يقومون برفس المعتقلين، ويدوسون بأقدامهم على أجسامهم، وقام بعضهم بالقفز فوق ظهور المعتقلين مما سبب كسوراً ورضوضاً في عظام الصدر والعمود الفقري والأطراف... لقد

كان الكرب شديداً في تلك الأيام، كان عددنا قليلاً بالنسبة إلى عدد الجلادين، ولاحظت خلال تلك الفترة عدداً من الجلادين بثياب مدنية، وهم غالبا عناصر البلدية الذين يقومون بأعمال الخدمة في السجن، ولفت أنظارنا وقتها دخول دوريات المخابرات المتكررة، وكانوا يجلبون دفعات جديدة للسجن، ويقومون بتعذيب المعتقلين مع عناصر الشرطة العسكرية تنفيساً عن أحقادهم.

أما الحالة النفسية للسجناء، فلا يمكن وصفها، فالخوف والرعب قد أخذا منهم كل مأخذ، وهما أشد على النفس البشرية من لسعات السياط، والسجناء الآخرون ينتظرون دورهم، وقد تسمر كل في مكانه من الهلع. وهذه هي أشد لحظات التعذيب إذ تتسارع ضربات القلب مع قرقرات شديدة بالأمعاء. وقد أصيب أكثر السجناء بالإسهال، وتزاحموا أمام دورة المياه، فالكل مصاب بالغم والكرب، بعضنا تسلح بالوضوء، وراحت الألسنة تجأر إلى الله بالدعاء، وآخرون يقرؤون ما حفظوه من كتاب الله العزيز، حتى يأتي دورنا، هكذا كنا نقضي أوقاتنا على هذه الوتيرة من التوتر والقلق والعذاب كلما سمعنا أصوات التعذيب في الباحات الأخرى، وكلما انتهى فصل من فصوله كنا ننتظر الفصل الذي يليه، وكلما سمعنا صرير الأقفال وفتح الأبواب بالباحات الأخرى، سيطر علينا الغم والكرب والخوف. ولعل الألم النفسي الذي كنا نواجهه يفوق بشدته جميع أنواع التعذيب الجسدي الذي نتعرض له رغم وحشيته وفظاعته، وهكذا حتى يأتي الليل ليسدل علينا ستره وبعض الراحة النفسية. وكم كنا نتمنى ألا يطلع علينا الفجر، بل إننا كنا نصاب بالغم عندما نسمع المؤذن يرفع آذان الفجر هل يصدق المسلمون هذا الكلام؟.. أجل.. كنا نصاب بالهم والذعر عندما يتناهى إلى مسامعنا صوت المؤذن لصلاة الفجر، فيتساءل كل منا: ماذا ينتظرنا في هذا اليوم الجديد؟! وكم دعوت الله تعالى إذا حل الظلام أن نقبض فلا نصبح إلا جثثاً هامدة، نعم لكم تمنينا الموت في تلك الأيام الحالكة السواد. لقد قالها لي بعض الأخوة: قد يكون الموت فرجاً بالنسبة لنا. وكم تذكرت قوله تعالى عندما يصف حالة الكافرين الذين أدخلوا جهنم عندما يشتد عليهم العذاب فيتمنون الموت حيث يقول تعالى: (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك، قال إنكم ماكثون).

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا

نعم لقد وصل الكرب ذروته، فأصبح الموت أمنية غالية يتمناها أكثرنا إن لم يكن جميعنا، لأنه باب الخلاص الوحيد من بطش الجبناء الرعاديد فئران.

وتنفس ثالث للأوباش: وهي أن نتزع ثيابنا ونخرج إلى الباحة، فيبدأ الجلادون بضربنا، ويطلبون منا أن ننبطح أرضاً كذلك، ومرة طلبوا منا أن نخرج، وكان الجو بارداً وامتلأت الحفر الموجودة في أرض الباحة بالماء، بسبب هطول الأمطار خلال الليلة السابقة.. كان الوقت صباحاً عندما طلبوا منا الانبطاح على الأرض التي امتلأت بالماء والحصى والقاذورات، ولم يقتصر الأمر على هذا فقط بل راحوا يسلقوننا بسياطهم على أجسادنا العارية حتى انتهى التنفس.

ونمط رابع للتنفس: يخرج المعتقلون مع جميع أغراضهم من أسمال بالية وبطانيات وعوازل، ويضع كل معتقل أغراضه أمامه ويجلس، فيطلب الجلادون منا أن نخلع ثيابنا، ويتجولون وبأيديهم السياط يلهبون بها أجسادنا كما يحلو لهم، وقد يطلبون منا أن نقوم بإجراء التمارين الرياضية المرهقة مع الجلد والبطش، ويستعمل الجلادون هذه الطريقة من التنفس أيام الصيف الحارة، حيث الشمس المحرقة في صحراء تدمر. ونتيجة لإخراج الأغراض وتعريضها للشمس، فإنها تمتص معها كمية من الحرارة، وعندما ندخلها إلى الزنزانة تزيد الحرارة داخلها أكثر وأكثر، ليضاف ذلك إلى معاناتنا من ارتفاع درجة الحرارة بسبب الصيف وسوء التهوية والازدحام الشديد، فيكون ذلك كربا فوق كرب، ظلمات بعضها فوق بعض، ورغم ذلك كنا نفرح بانتهائنا من حفلة التنفس لذلك اليوم.

مدة التنفس عادة نصف ساعة أو أقل قليلاً أو أكثر، يقضيها السجناء بالتعذيب والإهانة والشتائم والهم والكرب، وكنا نحسبها يوماً كاملاً لما لها من وطء رهيب على النفس، والتنفس عادة يومي، ولكن قد تمر بعض الأيام دون أن نتعرض له، ولكن التعذيب لا يفارقنا لحظة واحدة من ساعات النهار الذي نقضيه بالترقب والحذر.

الحمام في سجن تدمر: وهو أيضا مناسبة أخرى لتعذيب المعتقلين، وأول مرة خرجنا إلى الحمام كانت في تشرين الثاني عام ١٩٨٠م بعد مضي أكثر من ثلاثة شهور من دخولنا السجن، ثم أصبح الحمام فيما بعد أسبوعياً. يأتي الجلادون فيفتحون باب الزنزانات قائلين: (الكل بالشورت للحمام) فيخرج السجناء كالعادة مطأطئي الرؤوس مغمضي العيون يمسك كل منهم بيد أحد إخوانه ثم يصطف الجميع في الباحة رتلا ثنائيا ثم يسيرون مسرعين نحو الحمام، ويقف الجلادون على طول الطريق وبأيديهم السياط يلسعون بها أجساد المعتقلين وخاصة عند المهجع والأبواب التي تفصل الساحات عن بعضها البعض. وأمام باب الحمام المكون من غرفتين منفصلتين، جرى تقسيمهما لعدة أقسام، يفصل بينهما جدران إسمنتية ترتفع حوالي متر ونصف المتر، وكل قسم يتسع لشخصين فقط، وهو مخصص عادة لشخص واحد ولكن يزدحم فيه عدد أكبر من المعتقلين حوالي ٥-٦ أشخاص على الأغلب وخاصة عندما زاد عدد المعتقلين بداية عام ١٩٨١.

الماء المستعمل في أكثر الأحيان هو الماء البارد، ونادراً ما يكون الماء مقبولاً، وأحياناً يكون الماء حار جداً، مما يسبب الحروق الجلدية، ولا مجال للاعتراض على تعذيب من نوع جديد، فالماء يسكب من صنابير موجودة في الأعلى، ويتحكم بها السجانة، وبعد عشر دقائق من دخولنا الحمام نؤمر بالخروج فنقف قليلاً بباحته لتلقّي كم هائل من لسعات السياط، ثم نعود بنفس الحفاوة التي استقبلنا بها عند دخولنا الحمام.

وللإنسان أن يتصور أي حمام ذلك، فكل شيء مخصص للتعذيب والإهانة، من خروج المعتقل عاريا ماعدا السروال الداخلي، والسير بهذه الصورة مسافة طويلة مع السياط والماء البارد وما بعد الحمام. ولو أن الأمر اقتصر عند هذا الحد لهان علينا كثيراً، ولكن سجناء تدمر تعرضوا لحمامات أكثر فظاظة وفظاعة مما وصفت، وتستحق أن تسمى حمامات الدم.

حمامات الدم في سجن تدمر: هذه العبارة معروفة في القسم السياسي، وهي تعني المجازر الدموية التي يرتكبها الطغاة. وسجن تدمر يعتبر حمام دم بهذا المعنى وهذا ما سنراه عند الحديث عن المحاكم الميدانية، لكن حمامات الدم التي نتحدث عنها هنا هي شيء آخر، ولعلها أشد إيلاما، لأن التعذيب أشد على النفس من الموت.

خلال شهر شباط عام ١٩٨٢ وبالتحديد أثناء مجزرة حماة الكبرى اشتدت حدة التعذيب في سجن تدمر، وتحولت مناسبة الخروج للحمام إلى مجزرة حقيقية فراح الجلادون يضربون المعتقلين بحقد وفظاعة لم يسبق لهما مثيل.

يتم تقسيم المعتقلين إلى دفعتين عند بلوغهم ساحة الحمام، فتدخل الأولى وأما الثانية فينتظر أفرادها في الباحة لينهال عليهم الجلادون بالسياط وبقسوة وعنف، فيتراكض المعتقلون، ويطاردهم الأبالسة الجلادون، عند ذلك لا يسمع الإنسان إلا لسع السياط التي اختلطت مع أنين واستغاثات المعذبين وأصوات وقع الأقدام على الأرض من شدة التدافع والركض، وبعد عذاب رهيب يطلب الجلادون ممن دخل الحمام الخروج ليدخل مكانهم الذين كانوا بالباحة، ليبدأ التعذيب من جديد لمن كانوا داخل الحمام، وبنفس الصورة السابقة على الأجساد العارية المبللة بالماء البارد.

وبعد ذلك يخرج الذين دخلوا الحمام، ليسير الجميع نحو المهجع والسياط تلهب أجسادهم. ويمكن للإنسان أن يتصور فظاعة ذلك الفصل من التعذيب، فالأجساد عارية ومبللة بالماء في شهر شباط (فبراير) وفي درجة حرارة متدنية في صحراء تدمر. لقد امتلأت أرض الباحات وخاصة باحة الحمام ببرك الدم.

واستشهد عدد من الأخوة تحت التعذيب، وأصيب آخرون بأذيات شديدة كالكسور والجروح والخلوع وفقد البصر نتيجة لفقء العيون، والتي أدت لعاهة دائمة، لأن الدواء والعلاج ممنوعان عند القرامطة.

وأما البرد فلم نكن نشعر به، رغم أننا نخرج عراة ونسير مسافة طويلة نحو الحمام، وقد تزيد المسافة عن مئتي متر أو أكثر ما بين المهجع والحمام، ورغم ذلك، فلم نكن نفكر بالبرد، خاصة بعد عودتنا مبللي الأجسام، لأن الخوف قد استولى علينا، وتفكيرنا يتجه نحو السياط فقط. وهكذا كانت حال الحمام في سجن تدمر.

طرق أخرى للتعذيب والتنكيل: فالجلادون لا يتركون مناسبة تمر دون التنكيل بأسراهم، ويتفننون في ذلك. ولو أراد المرء أن يحصي طرق التعذيب والبطش لاحتاج إلى عدة مجلدات، ولكن تبقى هنالك بعض طرق القهر التي يعف اللسان والقلم عن ذكرها، فلا أدونها هنا. ولعل ذهن القارئ في أبشع تصور يتقرب من أسهلها، وأكتفي هنا بإيراد عدة أمثلة من طرق أخرى للتعذيب والإهانة التي اتبعها أولئك الوحوش والتي لها مغزاها:

١ - كان الجلادون يستعملون العصا الغليظة للضرب، وأحدهم ويدعى سمير كوشري وهو نصيري حاقد، أسمر اللون، ذو شاربين رفيعين، وصوت غليظ، ويكثر من استعمال كلمة (حيو) فلقبه المعتقلون بهذا اللقب (حيو) والعصا التي يستعملها كانت بطول متر ونصف تقريباً، وأحياناً يستعمل عصا الفلق (الموصوفة سابقاً)، ويضرب بها المعتقلين على الظهر والفخذين والساقين والرأس، مما أدى إلى إصابة بعض المعتقلين بعاهة دائمة، كما استشهد آخرون. وكان الرقيب فيصل وهو نصيري حاقد مشهور باستعمال العصا الغليظة بالضرب، لأن السوط لم يكن ليشفي غله وحقده، وتسبب ذلك المجرم باستشهاد العديد من الاخوة، ففي إحدى حفلات الاستقبال، استشهد شخصان: أحدهما يدعى حسن شغيل والآخر من عائلة صافي من مدينة حمص.

ومن طرق التعذيب اللطم على الوجه، حيث يؤمر المعتقل برفع رأسه مع الوقوف بوضعية الاستعداد مغمض العينين، ليلطمه المجرم على وجهه، مما يؤدي لثقب غشاء طبلة الأذن. وكذلك اللكم بقبضة اليد على البطن. وكان بعض الجلادين من ذوي القامات الطويلة، والبنية الغليظة، يتدربون الجيدو والكراتيه بالمعتقلين الذين أتلفت أجسادهم سوء المعاملة وسوء التغذية، فيالها من شجاعة ورجولة وشهامة نصيرية!!! ولقد كان اللكم أشد إيذاء من السياط، حيث يضربون السجناء على البطن والمناطق الحساسة من الجسم . وقد يصاب البعض بالصدمة العصبية، فيسقط على الأرض مغميا عليه، وكذلك الأمر بالنسبة للرفس على المناطق الحساسة من الجسم.

ومن طرق الإهانة: حدثني أحد الإخوة أهم عندما وصلوا إلى السجن، كان أحدهم يخفي مصفحاً بين أغراضه، فقام الجلادون بانتزاعه منه وتمزيقه ورميه بأرض الباحة.

٢ - وفي إحدى مناسبات التنفس، جاء أحد ضباط الصف، ويدعى شعبان حسين (برتبة عريف)، كان طويل القامة، غليظ البنية، ذا صوت أجش، معروفا لدى جميع المعتقلين بفظاظاته وغلظة قلبه، وقف يومها يسألنا: من منكم ذهب إلى الحج (مين منكم حجي) فلم يجبه أحد، فتجول بين المعتقلين، وأمسك بأحد الاخوة المسنين، فسأله (أنت ولك حقير) (أنت مالك حجي) فأجابه بالنفي، فطلب منه الخروج جانباً وبعيداً عن بقية المعتقلين، حيث يجلس على كرسي مع بقية الجلادين في إحدى زوايا الباحة، فطلب من ذلك الأخ أن يقبل له حذاءه العسكري، فتردد ذلك المسكين في تنفيذ هذا الأمر، فقام من مقعده وانهال عليه ضرباً فما كان من ذلك المسكين إلا أن امتثل للأمر، فطلب منه أن يطوف حوله، وهو يقول له: هذه هي الكعبة (مشيراً لحذائه والعياذ بالله) ثم تابع قائلاً: أنت الآن ذهبت للحج، وفي المرة القادمة عندما نسأل: من ذهب إلى الحج؟ فإنك تجيب: أنا!! لأنك صرت الآن (حجي)؟!!!.

وكثيرا ما كان الجلادون يطلبون من بعض المعتقلين أن يمسحوا لهم أحذيتهم، إرضاء لغرورهم وساديتهم، وإمعاناً في إذلالهم وإهانتهم. وكان الجلادون يزرعون البصل في أحد الأحواض الموجودة في باحتنا ومرة اقتلعوا كمية من البصل الأخضر، وطلبوا من عدد من الإخوة أن يأكل كل منهم بصلة كاملة مع جذورها التي تحتوي على كمية من الطين، والرمل، وبقايا البصلة التي تم غرسها وقد تعفنت قشرتها ولحمتها، فأصبح طعمها مقززاً، علما بأن البصل المزروع هو من البصل الكبير الذي يأخذونه من المطبخ، فهم بحاجة للمقبلات كي يأكلوا جيداً، فتقوى بذلك أجسامهم، ليستطيعوا أداء واجبهم (الوطني) بتعذيب المعتقلين وإهانتهم!!! ويمهدوا الأرض للصهيونية. وكانوا إذا وجدوا أية قطعة من لحم أو حلوى أو غيرها في أرض الباحة، أجبروا المعتقلين على التقاطها وأكلها، لأن الطعام يوزع في أطباق مكشوفة، وكثيراً ما تتساقط قطع منه على الأرض بسبب الهرج والمرج أثناء توزيعه، وبسبب الضرب الذي يتعرض له السجناء الذين يقومون بالتوزيع، وأذكر أهم طلبوا من أحدنا أكل قطعة من الحلوى فقال: لقد شعرت بطعم كريه مقرف، لأنها كانت فاسدة ومملوءة بالرمل بسبب وطء حوافر وأظلاف الجلادين وأقدام السجناء عليها، وهكذا كان الزبانية يتفننون بتعذيب المعتقلين وإهانتهم كلما سنحت لهم الفرصة.

التعذيب المخصص لأناس معينين: يزداد سخط السجانة ويصبون جام غضبهم على نوعيات معينة من السجناء وهذه النوعيات هي:

١ - المعتقلون ذوو الكفاءات العلمية كالأطباء والمهندسين والمدرسين وطلبة الجامعة وضباط الجيش، ويتعرض هؤلاء المقهورون لقسط أكبر من التعذيب والإهانة، لذلك يتجنب السجناء ذكر ألقابهم وأعمالهم.

ومن الأمثلة: أن أحد الأخوة الأطباء من نزلاء المهجع المزدوج (٥ - ٦) بالباحة الأولى، ويدعى محمد زاهد داخل (من مدينة حلب) دخل سجن تدمر في شهر رمضان من عام ١٩٨٠ وحفظ السجانة اسمه وشكله ومهنته، فأصبح معروفا لديهم أنه طبيب، فكانوا يخصونه بالتعذيب أكثر من غيره، حتى استشهد تحت التعذيب عام ١٩٨٢ على يد المجرم (فواز) الذي استمر بضربه. حتى قضى عليه. وكذلك الأمر بالنسبة للعميد أحمد غنوم الذي اعتقل عام ١٩٨٠ بتهمة ملفقة، فعرفه الجلادون، فصاروا يخصونه بالتعذيب أكثر من غيره، حتى توفي في سجن تدمر في عام ١٩٨٦، لذلك كان الجلادون يسألوننا في كل مناسبة: من منكم أستاذ؟ من منكم دكتور؟ أيكم طالب جامعة؟ وهكذا... وذات مرة راح أحد الحاقدين يسأل: من منكم أستاذ مدرسة؟ أيكم مدرس تربية دينية؟ فلم يجبه أحد، فاختار أحد الإخوة وسأله عن عمله، فأجاب أن لا يعمل مدرساً، فقال له وما عملك؟ قال له: بائع صابون، فانهال عليه ضرباً بالسوط، وكلما لسعه سوطاً له: (خذ لوح هالصابون)، حتى شفى حقده من ذلك المسكين، وكذلك الأمر بالنسبة لكبار السن، وأغلبهم من الرهائن الذين ليس لهم أي قضية تستوجب اعتقالهم، وكان الجلادون يستعملون معهم ألفاظاً تنم عن درك سافل من المستوى الوضيع الذي وصل إليه أولئك الأوباش، كعبارة (شيبة الكلب) و(شيبة الخنزير) ويضربونهم بقسوة، مما أدى لاستشهاد عدد منهم نتيجة التعذيب، أذكر منهم: الحاج هاشم الحبال من حمص، وقد اعتقله المجرم غازي كنعان مع أحد أبنائه كرهائن، وهو في العقد الثامن من عمره، وأرسل لتدمر بعد المجزرة مباشرة (في شهر تموز من عام ١٩٨١) وضمه المهجع رقم ١٩ في الباحة الرابعة، وكان مصابا بأمراض مختلفة، نتيجة الشيخوخة، ومع ذلك، تعرض للتعذيب الشديد على أيدي المجرمين الذين كانوا يخصونه دون غيره في كل مناسبة بالجلد، فيصرخ ويستغيث، حتى صار صوته معروفاً لدى جميع المعتقلين نزلاء الباحة الرابعة.

ولسوء المعاملة والأوضاع المتردية في السجن، توفي في مطلع عام ١٩٨١ فسأل المجرم غازي كنعان بعض المعتقلين ممن أُعيدوا للفرع للتحقق أو لأمور أخرى عن سبب وفاة الشيخ هاشم حبال قائلاً لهم: هل كانت وفاته طبيعية أم لسبب آخر؟ وكأنه لا يعلم ما يعنيه ذهاب المعتقل لسجن تدمر. ولطالما ردد لكثير ممن معتقليه قوله (روح لتدمر لتموت هناك كالكلب) ولكن أنى

للمعتقلين قول الحقيقة؟ فأجابوه بأن الوفاة طبيعية، فهم يعرفون أن ذلك المجرم النصيري (غـازي كنعان) يريد استدراجهم من خلال السؤال، فيفتحون على أنفسهم كرم أخلاق ذلك الوغد!!!

وكذلك الأمر بالنسبة لصغار السن (الأحـداث) والـذين لقبـهم الجـلادون بالوظـاوظ أو الوظاويظ(٢٢)، وخصهم الجلادون بالتعذيب أكثر من غيرهم ليكسروا فيهم الرجولة والشهامة، فتأمن إسرائيل. وقد وصلت دفعة من الأحداث من فرع المخابرات العسكرية بإدلـب، وبلـغ عددهم ٢٧ شخصاً كلهم من طلاب المدارس، وتعرضوا لحفلة استقبال بشعة، وبعـدها صـار الجلادون يخصونهم بالتعذيب، فهم يحضرون إلى الباحة الرابعة مساءً على غير عادتهم، ليفتحـوا باب المهجع رقم ١٨ ويخرجوا أولئك الفتية، فيستمر المجرمـون في تعذيبـهم لمـدة طويلـة ثم ينصرفون، وعلمت أن ١٨ أخاً منهم قد استشهدوا نتيجة لمحاكم التفتيش التي حكمت بإعدامهم، لتقرّ عيون القرامطة الجدد من بني صهيون.

وفي نهاية عام ١٩٨٠ قام جهاز السجن بفرز الأحداث، وجمعوهم في زنزانتين هما: رقم ٣١ و٣٢ في الباحة السادسة ونقلوا فيما بعد في بداية عام ١٩٨٢ إلى المهجعين رقم ٣٦ و ٣٧ في الباحـة السابعة، وكان عددهم كبيراً، إذ ضمت كل زنزانة ما يقرب من مئتي شخص واستشهد عـدد منهم نتيجة التعذيب، وأذكر أحد الإخوة الذي استشهد في رمضان عام ١٩٨٢ وقبل عيد الفطر بيومين عندما أخرج المعتقلون للحمام مساء، وتعرضوا للتعذيب الشديد، وحينمـا عـادوا إلى مهاجعهم، كانت إصابة أحدهم بليغة، فطرق رئيس المهجع السجن باب الزنزانة، إذ كانت العادة أن يطرق السجناء الباب في مثل هذه الحالات والظروف، فيحضر الحرس الواقف على سـطح الزنازين، ويسأل عن السبب، وفي أغلب الأحيان يجيب المعتقلين بالشتائم ثم ينصرف، وما أكثر ما قال: (خلي يموت لأجري)(٢٣) أو أجاب بعضهم (عندما يموت تطرقوا الباب) أو يروح مهدداً وشاتماً متوعداً في حالات أخرى، ونادراً ما يحضر الرقيب المناوب محضراً معه المساعد أبو رشـيد (ممرض السجن) وأما الطبيب فمجيئه أندر من وجود الرحمة المفقودة في قلوب أولئك الوحوش، وهكذا لم يكترث الحارس للأمر قائلاً لهم (خليه يموت) وفي صباح اليوم التالي استيقظ الأخـوة ليجدوا أخاهم قد انتقل لرحمة الله وفارق حياة الظلم والذل وبهذه الحالة النفسية استقبل الأخوة عيد الفطر في ذلك العام.

برنامج التعذيب الليلي: يقضي معتقلو سجن تدمر نهارهم في حالة انتظار وترقّب دائمين، وكلما انتهى فصل من فصول التعذيب ينتظرون الذي يليه ثم التالي فالتالي، منتظرين بفارغ الصبر حلول الظلام مسدلاً ستره لينالوا قسطاً من الراحة بعد ذلك العناء من التعذيب والإرهاب الطويلين.

لكن المجرمون أبو أن يتركونا نهدأ لحظة واحدة، وتفننوا باختراع أساليب جديدة لإيذائنا وتعذيبنا، ففي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٨٠ راحوا يعذبوننا بطريقة جديدة، عندما طلبوا منا الوقوف على قدم واحدة طوال الليل، رافعي الأيدي، لأن ذلك أشد إيلاماً.

ولما كانت أغلب الزنازين تحوي فتحات كبيرة في السقف تمكن الحارس من مراقبة السجناء وفرض اللازم من العذاب والإيلام، فقد صار من المستحيل مع ذلك الموقف أن يخالف أحد أمر الوقوف طوال الليل، أما المهاجع الأخرى، فيمكن كشفها بواسطة النوافذ التي تساعد الحرس الموجود فوق سقف الزنزانة المقابلة أن يرى أكثر أجزائها الداخلية وما يعمله المعتقلون بالإضافة إلى الدوريات المتحركة بين الباحات لمراقبة جميع المهاجع، وهكذا كنا مجبرين أن نستمر بالوقوف حتى الصباح، عندما يبدأ الجلادون بتوزيع طعام الإفطار، فيجلس الجميع في حالة ترقّب من جديد، انتظاراً لفصول التعذيب النهاري. وبذلك نحرم من الراحة طوال الوقت، وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، فقد اتبع الجلادون فيما بعد طرقاً أكثر لؤماً مما سبق من أصناف العذاب، إذ طلبوا من المعتقلين في الزنزانات التي تحتوي شراقات علوية، أن يجمعوا البطانيات والملابس مع جميع الأغراض تحت الشراقة مباشرة، ثم يقوم الجلادون بصب الماء عليها، وذلك أيام فصل الشتاء، ولأن جميع المهاجع لا تحتوي على أية وسائل للتدفئة، إضافة لوجود النوافذ الكبيرة والفتحات بالسقف مما يجعل الحرارة داخل عنابر السجن لا تختلف عما هي عليه خارجها يضاف إلى ذلك عدم وجود الملابس الكافية لدى المعتقلين، فكان هذا العمل الإجرامي يزيد من الكرب والشدة التي يعاني منها السجناء أيام الشتاء الزمهريرية البرودة، والأنكى من ذلك كله أن حرس العنابر كانوا بكل لؤم وحقد يصبون الماء بغزارة ومباشرة من الشراقة على المعتقلين الذين ينامون تحتها، فكانوا يغرقون النائمين في منتصف الليل بالماء البارد. وهكذا لم يترك المجرمون أية وسيلة من وسائل التعذيب التي تفتقت عنها أفكارهم الشيطانية العفنة إلا وأتبعوها.

أدوات التعذيب في سجن تدمر(٢٤): وأهم التعذيب المستعملة هي:

١ - السوط وهو عبارة عن قطعة من المطاط السميك الأسود والقاسي، طولها ٨٠ سم وعرضها ٥ سم وسمكها ٣ سم وعلى الأغلب أنها سير دبابة (قشاط دبابة كما يقال بالعامية) فهي تجمع بين القساوة والمرونة والثقل مما يجعل لسعاتها مؤلمة جداً وحارقة مكهربة إذ تمزّق جلد الضحية، وكان المجرمون يضربون بلؤم وخسة الجبان التي تعبر عن حقد دفين، مما يؤدي لحدوث الكدمات والجروح والخدوش بالجلد وكما كنت ذكرت بأنهم كانوا يضربون الجدران والأعمدة والأبواب قبل فتحها، فتؤدي تلك الضربات لحدوث اهتزاز وصدى شديد داخل الزنزانة، فإذا كان تأثيرها

على الجمادات بهذا الشكل، فكيف يكون تأثيرها على أجساد المعتقلين، وبالخصوص إذا كانت عارية كما يحدث عند الحمام والتنفس.

٢ - ومن الوسائل الجهنمية أيضاً السلك الكهربائي المضفور، والذي كان مختصاً به المجرم (فواز) دون سواه من الجلادين خنازير السلطة النجسة.

٣ - العصا الغليظة خاصة عصا الفلق، وهي عصا غليظة تكفي ضربة واحدة منها لتهشيم العظم، واستعملت للضرب على الظهر والفخذين، وأحياناً على الرأس، مما سبب عاهات دائمة لكثير من الإخوة كالشلل، وكسور عظام الأطراف والصدر وخلع المفاصل، والتي تلاها تشوهات دائمة نتيجة إهمال المعالجة، وأسفرت تلك الإصابات أيضاً عن استشهاد العديد من الإخوة واشتهر المجرم (فيصل) بهذه الطريقة من التعذيب، وقتل بيديه العديد من المعتقلين.

٤ - التعذيب بأدوات الحلاقة، فكان الجلادون يحرضّون الحلاقين على جدع الأنف وتشطيب وتجريح الوجه بموس الحلاقة.

اختلاف حدة التعذيب: إن الحياة في سجن تدمر مآس وآلام ومصائب، ومع ذلك اختلفت شدة التعذيب بين فترة وأخرى، ففي الأشهر الأولى التي أعقبت المجزرة الدموية كانت همجية التعذيب على أشدها، لذلك أطلق المعتقلون الذين دخلوا السجن بعد المجزرة مباشرة على تلك الفترة اسم (أيام التعذيب) وهي شهور: (تموز - آب - أيلول - تشرين الأول - تشرين الثاني من عام ١٩٨٠) لتمييزها عن سائر الأيام.

وقد يشتد التعذيب ويصاب الجلادون بالهستيريا لمناظر الدم وعمليات القتل. وفي فترات معينة أخرى عند وقوع بعض الأحداث الكبيرة والمؤثرة على النظام داخل البلاد، وهذا ينطبق على جميع السجون السياسية، حيث يستولي اللؤم والحقد على أزلام النظام، فلا يجدون أمامهم إلا الأسرى الذين لا حول لهم ولا طول، فيصبون عليهم جام لؤمهم، مع إفراغ سمومهم وأحقادهم الدفينة، وهذه أمثلة على ذلك.

فانتقاماً لهذه الأحداث، وانتصاراً لأسد يهوذا الإسخريوطي:

١ - لجأ عبيد النظام للتنفيس عن حقدهم بإعدام الدفعة الأولى من الإخوان وكان عددهم ١٥ شهيداً في يوم ١٩٧٩/٦/٢٩ بعد حادثة مدرسة المدفعية التي وقعت يوم ١٩٧٩/٦/١٦.

٢ - بعد تهريب الإخوان الـ ١٧ معتقلاً من سجن كفرسوسة ساءت المعاملة في جميع السجون، وصودرت المصاحف والأوراق المسموح بها في بعض السجون، كما منعت الزيارات عن المعتقلين، وتم نقلهم إلى سجن تدمر ليبدأ زخم رهيب من شدة التعذيب

٣- إثر محاولة اغتيال الطاغية المجرم حافظ أسد يوم ١٩٨٠/٦/٢٦ ارتكبت مجزرة تدمر الخسيسة مباشرة، واشتد العذاب والهوان على السجناء في كل كهف مظلم من دهاليز القرامطة الجدد، بالإضافة إلى إصدار القانون ٤٩ وشكلت المحاكم الميدانية التي راحت تعدم بالجملة من المسلمين الشرفاء (راجع فصل محاكم التفتيش) كما يقضي ذلك الفرمان النصيري القاضي بذبح أبناء الإسلام، تجديداً لفرمان العهد البائد أيام الفرعون الهالك، وفي سجن تدمر حيث العزلة التامة عن العالم الخارجي، كنا نعرف أن حدثاً ما قد وقع داخل البلاد عندما يشتد العذاب، وتخيم غيوم الحقد علينا، وتشتد وتائر التعذيب، ويقوم الجزارون بتنفيذ عمليات الإعدام في ساحات السجن. وهذا ما كنا نعرفه فيما بعد من القادمين الجدد من العالم الخارجي.

ففي أيام عيد الفطر المبارك عام (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) أصيب المجرمون بالهستيريا، وجاءوا لتعذيبنا عند الصباح الباكر قبل توزيع طعام الإفطار على غير عادتهم، وعرفنا فيما بعد، أن سبب ذلك هو مجزرة حي المشارقة بحلب، ورغم ذلك، فقد مرت بعض الفترات التي هدأ فيها التعذيب نسبيا، وصدرت الأوامر من دوائر المخابرات بتخفيف التعذيب خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٨٠ فخرجنا يوم ١٣ تشرين الثاني للتنفس، فلم يتعرض أحد منا للضرب، على غير عادة أو عرف، ويومها دخل المساعد أبو جهل للمهجع، وتكلم معنا بطريقة تختلف عما سبق، إذ أظهر حرصه علينا، وطالبنا بالمحافظة على النظافة والنظام، حتى لا نسبب لأنفسنا التعذيب والإهانة. وقال: إنه قد رفع العقوبة عنا!! وأضاف: (وأنتم تعلمون ماذا يعني أن تحيجوا أنفسكم للأذى)! نعم لقد كان ذلك التعذيب الذي تعرضنا له عقوبة لنا لعدم محافظتنا على نظام السجن!!! ياللسخرية، إذا لم تستح فاصنع ما شئت والكفر ما بعده ذنب!!

وفي تلك الأثناء التزمت إدارة السجن بتنفيذ هذا الأمر (وقف التعذيب) وعرفناه من الإخوة الجدد، لأن حفلة الاستقبال لم تكن بتلك الصورة البشعة التي عرفناها قبلهم، ورميت السياط على الأرض، فصرنا ندوس عليها، وبدأ الجلادون يحضرون للباحات بدونها، وضباط السجن (المدير ومساعده وكان برتبة نقيب) يتجولون فوق الأسطحة، وإذا شاهدوا أحد كلابهم يحمل سوطاً سلقوه بألسنة حِداد ومهدد ينه ومتوعدينه، فالأمر عندهم يجب أن يطاع وينفذ بحذافيره، وكما ورد في أسس النظام العسكري التي يتعلمها كل من يدخل الجيش وتوابعه.... وبدأت إدارة السجن بمعالجة داء الجرب الذي استفحل واستشرى بين السجناء، وصرنا نذهب للحلاقة دون التعرض للضرب وتم فرز الأحداث وتجميعهم في مهاجع مستقلة عن مهجع الكبار.

واختلف الإخوة في تفسير تلك الظاهرة العابرة التي لم تدم سوى عدة أسابيع فقط، فبعضهم عزا ذلك لوجود احتجاج شديدة داخل البلاد وخارجها، لتسرب أخبار التعذيب في سجن تدمر إلى

الخارج، وهذا أمر وارد، فالمحيطون بالسجن من سكان المدينة يمكنهم سماع صراخ المعذبين، ولسع السياط طوال النهار، كما كنا نسمع أصوات الناس خارج أسوار السجن، وكذلك الآذان.

وآخرون أعادوا السبب لبدء انفراج (حلحلة المشكلة) حسب تعبير بعض الإخوة، نتيجة لوجود مفاوضات بين قيادة الإخوان والسلطة.

وآخرون أرجعوه لتوسط بعض أزلام السلطة ومطالبهم بذلك، حفاظاً على سمعة البلاد، مع النظر البعيد في المستقبل لمصير الطائفة النصيرية، وهم يعيشون في بحر من الناقمين على ظلمهم وفجورهم، كنا نعيش في عزلة تامة عن العالم الخارجي، فليس لدينا أية معلومات تساعدنا على تحليل ما يجري حولنا، إضافة إلى الجو الرهيب الذي نحن فيه، والذي يجعل الإنسان عاجزاً عن التفكير بصورة صحيحة، فالخوف يسلب من الإنسان لبه.

وكذلك الطوباوية (المثالية والخيالية المفرطة) عند أكثرنا، فقلما نتعامل مع الأحداث والوقائع بتعقل ومنطقية، فالعفوية والارتجال هما السمة الغالبة على أكثرنا، وعلى أية حال فقد تكون تلك الأمور أسباباً وراء وقف التعذيب، أو حصل منها شيء أدى لذلك، ولكن الذين يعرفون طبيعة النظام الطائفي البغيض، يدركون أن ما ذكرناه من أسباب لن تؤثر بشكل من الأشكال ولا بحال من الأحوال على طبيعته وتصرفاته القمعية، فالطغاة جميعا، والنصيريون منهم بوجه خاص، فقدوا الحياء تماما، فهم يفعلون ما يشاءون، دون التفات لأي اعتبار، والاعتبارات الوحيدة التي تعيرها الطغمة الفاسدة اهتمامها، هي الأسباب الأمنية أي أن التعذيب قد أوقف لاعتبارات أمنية فقط، فما هي تلك الاعتبارات؟

إن المخابرات كانت وراء وقف التعذيب، وعرفنا ذلك من الإخوة الذين أعيدوا للتحقيق في تلك الفترة، فكان ضباط المخابرات يسألونهم عن المعاملة في سجن تدمر، ويؤكدون بأنهم طلبوا وقف التعذيب من الجلادين الصغار، وسبب ذلك (والله أعلم) هو استشهاد عدد من الأخوة نتيجة التعذيب، فقد استطعنا أن نحصي سبعة منهم، والعدد الحقيقي أكبر من ذلك، وربما يكون بعض الأخوة الذين استشهدوا في تلك الأثناء قد احتاجت إليهم المخابرات لتحقيق جديد، لاكتشاف أشياء جديدة أثناء التحقيق مع أشخاص اعتقلوا بعدهم، فأدلوا بمعلومات حول الأخ، وأنه قد قام بتنظيمه حزبيا، أو كانت بينهما علاقة تنظيمية، أو حول أمور أخرى تمس الشهداء مباشرة، وإلا فالمخابرات على علم بكل ظروف التعذيب الموجودة في سجن تدمر، إذ توجد مفرزة تابعة للمخابرات العسكرية هناك بصورة دائمة، وعلمت المخابرات بالأخوة الذين استشهدوا، لأن إدارة السجن تعيد أولئك الأشخاص إلى الفروع التي اعتقلتهم، فالمخابرات مسؤولة أولا وأخيرا عن السجناء الموجودين في سجن تدمر الذي يعتبر مستودعاً لتجميع السجناء المضطهدين

فحسب، ومع ذلك، فإن المخابرات لم تطلب وقف التعذيب إلا عندما شعروا بخطأ هذا التصرف وضرره من الناحية الأمنية، فاستشهاد أولئك الإخوة أدى لضياع بعض المعلومات التي يمكـــن أن تفيد النظام... لابد إذن أنهم يريدون تصفية المعتقلين في سجن تدمر..

وقد أطلقوا عليه اسم مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين، سواء تمت هذه التـــصفية بالتعذيب أو بواسطة محاكم التفتيش الوحشية، فكلاهما سيان، لكن المهم أن يموت المعتقل بعد أن يفرغ كل ما في جعبته من معلومات يجب أن يعرفوها، لكن أن يموت قبل ذلك وعلى أيـــديهم، فهذا ما لا ينبغي أن يتم أبداً؟! وغالباً ما تكون الشهور الستة الأولى من الاعتقال كافية لكـــشف كل ما لدى المعتقل، وفي حالة عجز المخابرات عن اكتشاف جديد في تلك الفترة، فلن يكـــشفوا شيئاً بعدها على الأغلب، لانقطاع خيوط الارتباط بين الأشخاص والأحداث، لذلك كان الطغاة يتصرفون على ضوء القاعدة التالية: يتم اعتقال الشخص ويحقق معه ثم يودع السجن لأمد مـــن زمان احترازياً، ويعرض بعد ذلك على المحكمة الميدانية ليؤخذ للمقصلة بعد أن اطمأنوا أنه قـــد أفضى بكل ما عنده، أو أصبح من المستحيل كشفها (ألا ساء ما يحكمون).

أما إذا كان المعتقل لا يعرف شيئاً، أو لم يستطع التحقيق والمحققون إدانته، فيجري الاحتفاظ بـــه معتقلا لفترة طويلة لأسباب أمنية، لعلهم خلالها يكتشفون جديدا يدفع بالتحقيقات إلى الأمـــام، ويساعد على تثبيت أركان الظلم والكفر... نعم... هكذا كان تصرفهم وعقليتهم، أمـــا حيـــاة المعتقلين وإنسانيتهم فهي لا تساوي عندهم شيئاً، ومع ذلك، فقد عاد التعذيب ثانيـــة بعـــد أن توقف ليبلغ ذروته في نهاية ذلك العام وبداية عام ١٩٨٢ وبالتحديد أثناء مجزرة حماة الوحشية.

استمر التعذيب بهذه الحالة حتى شهر آب من نفس العام، عندما أخلي سبيل ٦٧ معـــتقلاً مـــن معتقلي المخابرات العامة، وخففت حدة التعذيب، وفي شهر تشرين الثاني من العام المذكور، أطلق سراح مجموعة أخرى من معتقلي المخابرات العسكرية والعامة، وخف حجم التعـــذيب حينـــها، وتحسنت المعاملة قليلاً، وسمح لبعض أقارب المعتقلين بزيارة أبنائهم، وقام المجرم فيصل غانم (مدير السجن) بالتجول داخل زنزانات السجن، وتكلم داخل بعضها وقال: إن الدولة ستفرج عن كل الأبرياء، وأما الذين ارتكبوا جرائم وخانوا الوطن (حسب تعبيره) فسوف ينالون جزاؤهم العادل (يقصد بذلك الأخوة الذين تثبت عليهم تهمة التنظيم) وقتها أصبح التعذيب مقتصراً على حفلـــة الاستقبال، أو عند وجود شكاية، لكن الأوضاع العامة في السجن لم تتغير، فالزيارات ممنوعة إلا لعدد قليل ممن لهم وساطات والتماسات لدى أزلام السلطة، وممن دفع ذووهم رشاوي خياليـــة (راجع فصل الزيارات في سجن تدمر). والسجناء ما يزالون معزولين عن العالم الخارجي تمامـــا، فالراديو والصحف والمجلات ممنوعة، والكتب والقرطاسية وحتى المـــصاحف (عـــدوهم الأول)

ممنوعة، والصلاة (هدفهم الخطير) ممنوعة، أما الدروس والمحاضرات، فقد عرّضت بعض الأخوة للعقوبة والتعذيب لقيامهم بذلك، والطعام لم تتبدل كميته ونوعيته (وهذا ما نراه لاحقاً)، بالإضافة إلى مرض الجرب الذي مازال مستشريا بين السجناء وكذلك القمل، ولا أمل بمكافحته والقضاء عليه، فالازدحام شديد داخل الزنزانات، والسجناء ينامون متداخلي الأجساد، فالمساحة المخصصة للسجين الواحد لا تزيد عن نصف متر مربع تستعمل للنوم والطعام والجلوس، والعناية الصحية ما تزال دون الحد الأدنى المطلوب إذ كانت جميع الحالات تعالج داخل السجن ومن قبل طبيب السجن الجلاد.

عدد المعتقلين في سجن تدمر: بدأت الطغمة الغاشمة ترسل المعتقلين إلى سجن تدمر في نهاية النصف الأول من عام ١٩٨٠ أي قبل وقوع المجزرة الرهيبة بأسابيع قليلة، فالمجزرة وقعت يوم الجمعة ١٩٨٠/٦/٢٧ وعندها تم تصفية جميع المعتقلين الموجودين في السجن في تلك الأثناء (راجع فصل مجزرة سجن تدمر) ثم قامت إدارة السجن بإزالة جميع آثار المجزرة، وتم دفن الشهداء في صحراء تدمر في أخدود جماعي، كما أزيلت بقع الدم عن الجدران بإعادة طلائها من جديد، وعندما وصلنا إلى السجن في شهر تموز من عام ١٩٨٠ كانت ورشات العمل ما تزال تعمل لإزالة معالم الجريمة البشعة.

وبدأت فروع المخابرات تحويل المعتقلين إلى ذلك السجن اللعين مع بداية شهر رمضان عام ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م وبعد أسبوعين فقط من المجزرة تحديداً في النصف الأول من شهرت تموز من عام ١٩٨٠وإلى نهاية رمضان من ذلك العام وصلت الدفعات الآتية إلى السجن.

١ - أربع دفعات من المخابرات العسكرية بدمشق، تضم حوالي مئتي معتقل، تم تحويلهم إلى سجن تدمر من سجن المزة وقسم التحقيق العسكري، وأكثرهم ممن اعتقلوا فيما بين عامي (١٩٧٥- ١٩٨٠).

٢ - دفعة من المخابرات العسكرية في حلب تضم ١٧٠ معتقلاً اعتقلوا عام ١٩٨٠ وكانوا محتجزين في ثكنة هنانو العسكرية لامتلاء الثكنات بعد السجون والمعتقلات.

٣ - دفعتان من المخابرات العسكرية في حمص اعتقلوا عام ١٩٨٠ بعد المجزرة التاريخية، والدفعات التي اعتقلت قبل المجزرة، كان المجرم غازي كنعان قد أرسلهم إلى تدمر، واستشهدوا حينها.

٤ - دفعة من المخابرات العسكرية في إدلب تضم ٧٢ معتقلاً معظمهم من الأحداث، وقد تحدثنا عنهم وعن الأهوال التي لاقوها، واستشهاد بعضهم تحت التعذيب.

٥ - دفعة من المخابرات العامة في حلب تضم ٦٧ معتقلاً جرى تحويلهم مباشرة من السجن المركزي في حلب إلى سجن تدمر، وقد اعتقلوا في عام ١٩٧٩ و١٩٨٠.

٦ - دفعة من مركز كفر سوسة في دمشق يبلغ عددهم حوالي ٥٠ معتقلاً اعتقلوا ما بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٠ وكان بينهم الشيخ محمد خير زيتوني من حلب والأخ المهندس رياض جعمور من حماة رحمهم الله.

وكان هؤلاء المعتقلون يتوزعون في مختلف باحات السجن ماعدا الباحة السادسة التي كانت مهاجعها فارغة في تلك الفترة الرهيبة الحالكة الظلمات والظلم.

وهكذا استمرت عمليات إرسال المعتقلين إلى تدمر حتى ارتفع عددهم في نهاية عام ١٩٨٠ إلى ثلاثة آلاف معتقل، رغم عمليات الإعدام المستمرة والدورية، وقد وصل عدد المعتقلين ذروته في نهاية عام ١٩٨٢ ليصبح حوالي ٥ آلاف معتقل، ولتخف بعد ذلك حدة الاعتقالات ولتبقى الطغمة الظالمة على الغالبية العظمى من ضحاياها في قاع السجن إلا ما ندر من عمليات إفراج فردية نادرة لا تذكر (راجع فصل الإفراج).

مساحة الزنزانات:

وهنا لابد من الحديث عن مساحة الزنازين التي كانت تضم هذا العدد الضخم من المؤمنين، فمساحة الزنزانات مختلفة من واحدة لأخرى، فهناك بعض المهاجع التي لا تزيد مساحتها عن ٢٠ متراً مربعاً كالمهجع ٢١ في الباحة الرابعة، ومهاجع أخرى تصل مساحتها إلى ١٠٠ متر مربع أو أكثر كمهاجع الباحتين السادسة والسابعة، ورغم عمليات الإعدام المستمرة والتي شملت عدداً كبيراً من المعتقلين، فإن العدد الإجمالي للسجناء كان في ازدياد مستمر، نتيجة للاعتقالات الكثيرة ما بين عام ١٩٨٠ و١٩٨٢ التي بلغت ذروتها في عامي ١٩٨٠ و١٩٨١ ولم يطلق سوى سراح القليل من المعتقلين بنفس الفترة. وكما علم القارئ الكريم، فإن المساحة المخصصة للسجين الواحد لا تزيد عن نصف متر مربع، تستخدم للنوم والجلوس والطعام وكل شيء من الحاجات الإنسانية والشخصية والطارئة.

الطعام في سجن تدمر: يستغل الجلادون مناسبة توزيع الطعام لتعذيب وإهانة المعتقلين، ويوزع الطعام مرتين إلى أربع يوميا حسب ظروف السجن، ففي شهر رمضان يوزع مرتين بأغلب الأحيان، وفي بقية أيام السنة يوزع أربع مرات وقد تختصر لمرتين عند انشغال الجلادين بالمحاكمات وعمليات الإعدام (كما سنرى لاحقاً).

وكانت أمنية صعبة للسجناء ألا يحضر الطعام تجنباً لأذى الزبانية، والزيارات في سجن تدمر ممنوعة وإدخال الطعام ممنوع أيضاً، ولم يسمح للسجناء بشراء بعض المواد الغذائية (سكر - ملح -

زعتر - زيت - طحينة) إلا في عام ١٩٨٢ وما بعده، وبالتالي فإن السجناء مرغمون على تناول الطعام الذي يقدم إليهم على عجره وبجره وما فيه من أسواء...

أما الأصناف المقدمة للسجناء فهي:

١ - طعام الإفطار: ويشتمل على الشاي مع أحد الأصناف الآتية (لبنة، جبنة، زيتون، حلاوة، مربى المشمش، البيض المسلوق).

٢ -طعام الغداء: ويتضمن الرز أو البرغل المطبوخ مع الحمص أو العدس أو الشعيرية ويقدم معهما المرق، والمرق عبارة عن أحد أنواع الخضار المطبوخة برب البندورة أو الفول الأخضر المطبوخ بالماء، وكذلك السبانخ، ويقدم أيضا اللبن المحلول بالماء أو المخلوط بأوراق الخس أو الخيار المفروم.

٣ - طعام العشاء: ويتضمن فاصولياء مطبوخة برب البندورة أو بطاطا مسلوقة أو باذنجان أو كوسا مسلوق، أو سلق مطبوخ أو شوربة عدس، وأحياناً مفركة كوسا أو حمص مسلوق.

كمية ونوعية الطعام: قد يخيل للمرء لأول وهلة أن سجناء تدمر يعيشون بنعمة كبيرة عند استعراض أصناف الطعام المقدم لهم.. والسؤال المطروح هو: ما كمية ونوعية تلك الأطعمة؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال، يجب ألا ننسى أن سجن تدمر مخصص لتعذيب وتصفية نزلائه بكل شيء، وهذا ينطبق على الطعام أيضا.

فكمية الشاي المقدمة مع طعام الإفطار لا تزيد عن ٥٠ سم مكعب للشخص الواحد، وتقدم باردة، وتحتوي على شوائب من مخلفات الأطعمة الأخرى كالبرغل والرز ورب البندورة، لأن الزبانية يستعملون الأواني ذاتها لتحضير جميع الوجبات دون أن تخلى من بقايا الطعام السابق، ويكتفون بغسلها بالماء البارد فقط، والأنكى من ذلك، أنهم يحضرون الشاي عند المساء ويتركونه حتى صباح اليوم التالي في أوان مكشوفة عند التقاء الباحتين الثالثة مع السادسة فيتساقط فيها الغبار والشعر والحشرات (ذباب - صراصير) لتوزع في اليوم التالي بعد أن امتلأت بتلك الأوساخ.

وأما الأصناف المقدمة لوجبة الإفطار فهي فاسدة، فالزيتون فاسد والمربى كذلك لأنها من المعلبات التي انتهت مدة صلاحيتها فأصبح طعمها كريها نتيجة لصدأ العلب المعدنية التي حفظت بها.

وأما البيض، فهو فاسد في أغلب الأحيان، إضافة لاختلاط قشر البيض مع البيضة، نتيجة تهشم البيضات قبل وأثناء سلقها.

وبصرف النظر عن نوعية الطعام، فإن كميته قليلة جداً لا تسد غائلة الجوع، مثلاً خمس حبات زيتون أو ملعقة من المربى أو الحلاوة. وبالنسبة للجبنة فإن حصة السجين أقل من قطعة مثلثة من الجبنة الصفراء.

وأما طعام الغداء فهو عبارة عن الرز أو البرغل المطبوخ مع الشعيرية، أو العدس أو الحمص، ويطبخ بغليه بالماء دون أية مواد دسمة، ويحتوي على جميع أنواع الشوائب، كالزيوان والحصى والقش، وهو غير ناضج في أغلب الأحيان، والمرقة عبارة عن الخضار المفرومة بقشورها، والمطبوخة برب البندورة، ماعدا الفول الأخضر الذي يطبخ بالماء فقط، والسبانخ تفرم بجذورها، والخيطان المستعملة برزمها هو من سعف النخيل.

وأما اللحم فكميته لا تستحق الذكر، ومع ذلك فإن الجلادين لا يبقون للسجناء غير العظم والدهن والجلد، وكنا نقدمه للمرضى والمسنين لاستحالة تقسيمه على جميع نزلاء الزنزانة، وكمية الفواكه والخضار الطازجة زهيدة جدا، مثلا بطيخة واحدة لمئة سجين، أو عشر حبات برتقال أو تفاح لمائة سجين لذلك كنا نخصصها للمرضى والمسنين.

وأما الخبز، فهو المخصص للجيش، وحصة السجين أقل من رغيفين من الخبز المعروف باسم العامية باسم (الصمون)، وطعام العشاء هو أسوأ الأصناف المقدمة رغم رداءة الأنواع الأخرى، فالحمص والعدس المسلوقان غير ناضجين، إضافة لخلوهما من المواد الدسمة والملح، مع وجود الشوائب والأوساخ كالحصى والقش، وأما متبل الكوسا والباذنجان فهما عبارة عن حبات الكوسا والباذنجان المسلوقة والمفرومة لتقدم كطعام دون إضافات!؟ فكان السجناء يسخرون دائماً من السجانين فيقولون طعام صاغ خال من أي غش؟! والأنكى من كل ذلك، توزيع الطعام بأوعية مكشوفة أمام باب المهجع، ويترك لساعات طويلة، معرضاً للغبار والحشرات، ولا يدخل للزنزانات إلا بعد أن امتلأ بالشعر والغبار والحشرات وإلا بعد أن تأكل منه الجرذان التي تخرج من فتحات المجاري، وهذا يؤدي بدوره لإصابة السجناء بأمراض مختلفة كالإسهالات والكوليرا لتزيد من عذابهم ومحنتهم.

وأذكر ذات مرة عندما كنّا نوزع طعام الغداء، وكان الجو حاراً، والرياح شديدة تثير الغبار، وعملية الحلاقة تجري بباحتنا، تم توزيع أواني الطعام أمام أبواب الزنازين، فلاحظ أحد الحلاقين أن الطعام قد امتلأ بالشعر المتطاير مع الغبار، فقال لأحد الجلادين: إن الطعام قد امتلأ شعراً، فأجابه ذلك المجرم (لجهنم).. وأما أوقات توزيع الطعام فهي مختلفة، فأحياناً يوزع في وقته المحدد، وأحياناً يوزع بعد مضي عدة ساعات عن الوقت المحدد، وخاصة طعام الإفطار الذي يتأخر الجلادون في

توزيعهم بسبب انشغالهم بعمليات الإعدام التي كانت تتم صباحاً، لإنشغال المجـرمين بواجبـهم الوطني الأكثر أهمية؟؟!!

وطعام الغداء يتأخر توزيعه عن الموعد المحدد عندما ينشغل المجرمـون بالمحـاكم.. وأمـا الأواني المستعملة لتوزيع وتناول الطعام فلم نكن نملك منها شيئاً في الشهور الأولى، فكنا نأكل مباشـرة من الأواني التي يستعملها الجلادون واستطعنا الحصول على قطعة نايلون فصرنا نستعين بها بتناول الطعام حيث نخلط البرغل أو الرز مع المرق على تلك القطعة لنتناوله بأيدينا، وبعد ذلك احتفظنا بصحن بلاستيكي من التي يستعملها الجلادون لتوزيع الطعام، فصرنا نستعين بها عند تناول الطعام ولبيت الخلاء أيضاً!!

وفي بداية عام ١٩٨١ سمح لنا بشراء بعض الصحون البلاستيكية والملاعق الخشبية والأكـواب البلاستيكية فصرنا نستعين بها.

لقد كانت كمية الطعام قليلة جداً لا ترد غائلة الجوع، لذلك كنا نأكل كل البقايا والفـضلات كقشور الفواكه (قشر البرتقال -الموز) وأكل بعضنا قشر البيض والبطـيخ ممـا أدى لإصـابة الكثيرين منا بآفات بالفم نتيجة لذلك، وكذلك عندما نخرج لتوزيع الطعام، كنا نلـتقط بقايـا الطعام الملقاة على الأرض، فنأكلها كما تفعل المخلوقات الأخرى، وأذكر أن أحد الأخوة التقط ذات مرة قطعة من اللحم، وقد امتلأت بالأوساخ، حتى إنها سويت بالأرض من كثرة الأقدام التي داستها، ومع ذلك فقد أكلها!! وكنا نلتقط بقايا الطعام الذي يوزع للجلادين رغم احتوائه على نفايات وأكدار مختلفة، وكنا نأكل الطعام رغم أننا نرى الأوساخ والحشرات التي تساقطت فيه، خاصة المرق الذي يمتلئ بالذباب والصراصير في أكثر الأحيان، بل إننا كنا نبحث بـين أكـوام القمامة كلما سنحت لنا الفرصة لنلتقط بقايا الطعام الذي يأتي للـسجناء القـضائيين (عناصـر السخرة والبلدية) من ذويهم أثناء زيارتهم، إلى هذا الحد وصل بنا الحال في باستيل سورية، بـل إنني أكاد أكذّب نفسي حينما أتذكر تلك الأيام السوداء، لأن ما حصل لا يمكن تصوره، ويفوق كل وصف وخيال، لقد عرفت حينها معنى قوله تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وعرفت قيمة النعم التي منَّ الله علينا بها ولكننا لا نعرف قدرها، فيا ربّ، عرّفنا على نعمك بـدوامها لا بزوالها يا كريم.

سجن تدمر أثناء المناسبات القومية والأعياد: في هذه المناسبات وخاصة مناسبة ما يسمى بالحركة التصحيحية وذكرى ٨ آذار تزداد كمية الطعام وخاصة اللحم لكنها تكون فاسدة وقد فاحـت رائحتها الكريهة ولا ندري ما هو سبب ذلك وعلى الأرجح (والله أعلم) أن السبب عدم حفظها صحياً، فلا ثلاجات لذلك، فهم يحفظون اللحم المخصص للقطعات العسكرية بالثلاجات، وأمـا

حصة السجناء فتهمل خارج الثلاجات فتفسد، وتأكدنا من صحة ذلك عندما أكلنا فضلات الطعام المخصص للجلادين، لنجد أن اللحم ناضج صحيح، كيف لا وهم يرون أن المعتقلين يجب أن تستنفد في حقهم جميع فرص ووسائل التعذيب لتمكين أركان النظام من التنفيس عن أحقادهم التاريخية، لذلك كانوا يرون وجوب تأديب المعتقلين بكل وسيلة، بل إنهم كانوا يعتبرونهم دون مستوى الآدميين، ولطالما استعملوا كلمات تدل على ذلك مثل: حشرات، أوباش، علف(٢٥).. وكثيراً ما أصيب المعتقلون بالإسهال جراء تناول اللحم الفاسد، لذلك كان معظمهم يعف عن تناوله تجنباً لمخاطره، أما الآخرون، فكانوا يأكلونه، لأن الجوع والحرمان كانا شديدين، بل إن الأخوة الذين يأكلون تلك اللحوم، يفرحون بتلك المناسبات، لأنها كانت فرصتهم الوحيدة لتناول شيء من اللحم، وإن كان فاسداً!!

الحالة الصحية بسجن تدمر: وتختلف عن السجون الأخرى لكثرة العوامل المؤدية للأمراض والأوبئة. وأهم هذه العوامل: التعذيب والقهر اللذان يتعرض لهما المعتقلون، والازدحام الشديد، والجو غير الصحي الذي تتصف به أكثر الزنزانات. فالبرد الشديد شتاء مع قلة الملابس والأغطية وانعدام الدفء، بالإضافة إلى الفتحات في السقف في كثير من الزنزانات، علاوة على ذلك: النوافذ المفتوحة في جميع الزنزانات، وانتشار القاذورات والأوساخ والحشرات، كالصراصير والذباب، والجرذان والطعام الفاسد المتفسخ، وحرارة الجو الرهيبة في أيام الصيف التي تجعل الزنزانة خانقة، وفوق كل ذلك، عمليات الجلي والغسيل داخل الزنزانات التي تسبب الرطوبة فيها دوماً، ولأن دورات المياه كانت داخل الزنازين، فقد ملئت بالروائح الكريهة، مما جعل الجو داخل الزنزانة يشبه المراحيض أو الزرائب، يضاف إلى ذلك: نقص التغذية، وانعدام النظافة، مع الإجهاد الجسمي والنفسي الذي يتعرض له المعتقلون نتيجة التعذيب والإهانة. وفوق كل هذا وذاك، شح المياه في أكثر أيام الصيف. كل هذه العوامل مجتمعة جعلت من الذين دخلوا ذلك السجن الرهيب مرضى تحيط بهم الأمراض والأوجاع من كل جانب وأهمها:

١ - إصابات التعذيب: ومنها ما كانت موجودة مع السجناء قبل دخولهم سجن تدمر نتيجة للتعذيب في فروع المخابرات (أثناء التحقيق) (٢٧) مثل الجروح والحروق والكسور بل إن بعض الإخوة كانوا مصابين بعاهات دائمة كتيبس المفاصل، وعندما يدخل المعتقلون سجن تدمر فتلك الإصابات تتفاقم وتزمن، ولا تشفى إلا بعد مدة طويلة جدا، إن لم تتحول إلى عاهات دائمة أو تتطور نحو الأسوأ نتيجة الإهمال وسوء المعاملة، أما الإصابات الناشئة عن التعذيب داخل السجن، فهي غالباً الجروح الناشئة عن الضرب بالسوط والكابلات، ونتيجة للإهمال المتعمد للمعالجة، فإن

الجروح تصاب بالالتهاب والتقيح، وقد ينتشر الالتهاب لأعضاء أخرى كالعظم والمفاصل، مؤدياً لعاهات خطيرة، فأمراض مزمنة ومعقدة.

٢ -كسور العظام وخلع المفاصل: نتيجة الضرب بالعصا الغليظة أو بسبب القفز والرقص فوق أجساد المعتقلين، وهي كثيرة الحدوث، خاصة كسور الأطراف وعظام الظهر والصدر، وقد تؤدي لحدوث عاهات دائمة كالشلل وتيبس المفاصل وتشوه العظام.

٣ - انثقاب طبلة الأذن: نتيجة للصفع على الوجه، ليفقد السجين حاسة السمع جزئياً أو كلياً.

٤ - فقد حاسة البصر بدرجة متفاوتة: نتيجة الضرب بأدوات التعذيب على الوجه، مؤدياً إلى عاهات مستديمة في الرؤية والعيون.

٥ - الشلل: نتيجة الضرب على الرأس والعمود الفقري بالعصا الغليظة وقد أصيب أحد الإخوة عندنا بالشلل النصفي، وخرج من السجن متوكئاً على إخوانه.

حضر الطبيب لأول مرة بعد دخولنا السجن بمدة طويلة، يرافقه المساعد أول أبو رشيد (ممرض) وأمر بإخراج المصابين والمرضى وأعطيت لهم المعالجات الأولية كتضميد الجروح مع بعض المسكنات ولم يرسل أي سجين إلى المستشفى رغم أن أكثر الإصابات تستوجب ذلك، وكان للإخوة الأطباء المعتقلين معنا دور كبير في تخفيف الآلام عن كثير من المرضى، رغم قلة الإمكانيات.

انتقلنا في نهاية عام ١٩٨٠ إلى مهجع آخر، كان يضم عدداً كبيراً من المعتقلين الأحداث الذين تعرضوا لتعذيب شديد حتى أصيب أكثرهم بجروح بليغة، ونتيجة لسوء الحالة وتدهورها، فإن تلك الجروح أصيبت بالالتهاب والتقيح، وكانت رائحة القيح الكريهة تنبعث في أرجاء الزنزانة فتزكم الأنوف. وكانت إصابة أحد الأخوة خطيرة، ولم تفلح المعالجة البدائية التي تلقاها بتخفيف الإصابة لأنها لم تكن كافية طبياً... وما يغني المطهر في دفع الجراثيم الخطيرة التي دخلت الجسم؟ وساءت حالة الأخ أكثر وأكثر، وقال الإخوة وقتها: إنه مصاب تجرثم الدم، وطلبوا منا أن نجأر إلى الله في الدعاء لدفع خطر تلك الإصابة. وقام الإخوة بمساعدته في حدود الإمكانات المتاحة، فمن الله عليه بالشفاء، بعد أن وصل إلى حافة الموت، فكانت كرامة من الله، في الوقت الذي رفض المجرمون تقديم أي نجدة أو إسعاف..

ومثل هذه الحالات كثيرة في سجن تدمر، وهي تتناسب طرداً مع واقع واسم المكان ونفسية الطغمة الطاغية الغاشمة.

٦ -مرض الجرب: عرفنا هذا المرض بعد شهرين من نزولنا سجن تدمر، عندما نقلنا إلى زنزانة موبوءة فيه، وعلمنا من الإخوة فيها أنهم أصيبوا بهذا المرض قبل مجيئهم إلى تدمر. وعلمنا بعد

ذلك أن معظم فروع المخابرات في مختلف المحافظات موبوءة بالجرب والقمل، حيث ينتقل سجناؤها إلى تدمر الأسد فينقلونها إلى المعتقلين الملازمين لزنزاناتهم، وهذا ما حدث في بقية السجون والمعتقلات ومراكز تجميع المعتقلين، فقد أصبحت جميع فروع المخابرات العامة المسمى بسجن كفر سوسة بدمشق وفرع التحقيق العسكري في دمشق أيضاً، وسجن أمن الدولة في حلب أيضاً، والسجن المدني في إدلب، وكل سورية معتقل وإرهاب ماعدا قصر القرد الأعظم، وقصور أزلامه وجلاوزته خونة الشعب والدين والأرض.

ولمرض الجرب في سجن تدمر قصة مؤلمة لم تخل من بعض الإيجابيات رغم مرارتها، فالجرب مرض جلدي يؤدي للحكة الشديدة، خاصة أثناء الليل، مما يحرم المصاب من النوم والراحة. وهو مرض معد ينتقل من شخص لآخر نتيجة الملامسة واستعمال الملابس والأغطية المشتركة، كما علل أحد الأطباء ذلك، وهذه أمور لا يمكن تجنبها بين سجناء تدمر، فوسائل الوقاية من المرض معدومة تماما. ونتيجة للحكة الشديدة المستمرة، يصاب الجلد بالتقرح الشديد، وبعد ذلك يصاب بالالتهاب والتقيح، مؤديا لاستفحال المرض أكثر فأكثر، مع صعوبة التشخيص والمعالجة. وعندما انتشر الجرب في جميع المهاجع بنسب متفاوتة بدأت المعالجة، ولا نعرف سبب عدم بدء المعالجة قبل ذلك، أهو بسبب جهل الجهاز الصحي (الطبيب والممرض)، بالمرض أم بسبب عدم استجابة إدارة السجن لما يقترحه الطبيب في ذلك الوقت؟ (٢٨) أم أنهم يريدون جعل الجرب وسيلة أخرى لتعذيب السجناء؟ وبعد أكثر من أربعة شهور على انتشار المرض بين المعتقلين، بدأت المعالجة، وكان ذلك في شهر كانون أول من عام ١٩٨٠.

أعجب وكالة أنباء في التاريخ: أخرج الجلادون المصابين، وجمعوهم في زنزانة واحدة في الباحة السادسة المرقومة ٢٨ والعنبر الثامن في باحة الحمام، كان يترك المصابون هناك مدة أسبوع تقريباً، ويعادون إلى مهاجعهم بعد ذلك.

ولمهجع الجرب قصة أخرى طريفة يعرفها السجناء تدمر في ذلك الوقت، وهي وجود ظروف جديدة من جراء تجميع الإخوة المعتقلين من شتى المهاجع، مما أدى إلى معرفة مزيد من المعلومات والحقائق والإشاعات والأخبار الخارجية التي كانت غير معروفة بسبب العزلة المفروضة، كما عرف الكثير من المعلومات عن التحقيق والمحققين، وتعرف بعض الإخوة بإخوان لهم ممن يعرفونهم خارج السجن، بل عرف بعض الإخوة أسماء المعتقلين من أقاربهم ومعارفهم من خلال مهجع الجرب، وأكثر من ذلك، أن أحد الإخوة التقى بابنه هناك، وكان الأب قد اعتقل تاركا أبناءه، فاعتقل أحدهم بعده ليلتقيا معا في سجن تدمر، وفي مهجع الجرب(!!!) فياله من لقاء!! على عهد

قرود القرامطة المعاصرين!!!.... وبات مهجع الجرب محطة نقل الأخبار ووكالة للأنباء عند سجناء تدمر المعزولين تماما عن العالم الخارجي، المصفدين بقيود المجهول.

وساعد على انتقال حفظ القرآن بين مختلف الزنازين، فيتبادل الإخوة السور التي يحفظونها شفهيا، ليعود الأخ إلى مهجعه حافظاً سورة جديدة لا يوجد بين إخوانه من يحفظها. وهكذا زاد عدد من يحفظ القرآن، وكمية القرآن المحفوظة، وأصبح في كل زنزانة عدد من الإخوة يبلغ مجموع ما يحفظونه مصحفاً كاملاً، مما ساعد الإخوة في العبادة، وشغل أوقاتهم بحفظ القرآن.

وعن طريق مهجع الجرب علمنا بعمليات الإعدام التي كانت تتم في الباحة السادسة، وعلمنا بالمحاكم الميدانية التي كانت تجري هناك (كما سنرى لاحقاً)، وعلمنا باستشهاد عدد من الإخوة تحت التعذيب، وبوفاة عدد آخر نتيجة تردي الأحوال الصحية والعامة على السواء.

كان الإخوة نزلاء المهجع يحيطون بإخوانهم العائدين من مهجع الجرب، يسألونهم عن الأخبار الجديدة، والإخوة متفاوتون في درجة وعيهم وفهمهم، وفي كل مهجع عدد من الإخوة من أصحاب الرأي وأهل الدراية الذين يقومون بتجميع تلك الأخبار وتحليلها وإلقائها على الإخوة نزلاء المهجع إذا سمحت الظروف بذلك، ويميلون فيها إلى الأسلوب الترغيبي لرفع معنويات المستمعين. وكانت تحيلاتهم غالباً تجنح إلى المبالغة والخيال، للحد من الظروف القاهرة التي يحياها السجناء.

ومهما يكن من أمر، فلمهجع الجرب تأثير إيجابي ساعدنا كثيراً في تلك الفترة للتغلب على الظروف النفسية القاسية التي نعاني منها، نتيجة عزلنا التامة عن العالم، والتي جعلتنا نعيش في غياهب المجهول، إضافة للظروف الأخرى التي تحدثنا عنها، وكان يقضي الإخوة أياماً في الحديث عن تلك الأخبار وتحليلها والاستنتاج منها، حتى تأتي أخبار جديدة وهكذا.. فربّ ضارة نافعة.

وللأسف أُلغي مهجع الجرب بعد ذلك، فأصبحت المعالجة مقتصرة على إخراج المرضى للباحة، وإعطائهم الدواء لدهن أجسادهم، ورغم ذلك تعرضت مداواة المرضى لمد وجزر حسب الظروف العامة في السجن وأوضاع السلطة، فعندما تسوء المعاملة، توقف المعالجة، وإن وجدت فهي مترافقة بالسياط، مما يجعل أكثر المرضى يؤثرون المرض على السياط.

ولعل من أسوأ الفترات: تلك الممتدة بين نهايتي عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٢ عندما تولى المجرم فيصل إدارة السجن، بدل المساعد أبو جهل، وأُعفي المساعد أبو رشيد (ممرض السجن) من عمله، فأصبح ذلك المجرم الجلاد يتولى جميع أمور السجناء بعد ترقيته إلى رقيب أول، فانعدمت المعالجة، مع غياب طبيب السجن معها، وإذا وجدت أحياناً فهي مترافقة بالسياط اللاذعات، كما حدث في عام ١٩٨٢ عندما خرجنا للمعالجة (وكنت مع المصابين) فتعرضنا للضرب الشديد على

أجسادنا العارية، لأننا ندهنها بالدواء، وأصيب أحدنا إصابات بالغة، لتعرضه للضرب المبرح أكثر من غيره، ولولا رحمة الله ولطفه لتوفي ذلك الأخ بسبب التعذيب، وقضى بعدها فترة تزيد عن الشهرين يعاني من خروج الدم مع البول.

وبقي الجرب متفشياً في ذلك القبو اللعين، ليزيد من معاناة المعذبين والمضطهدين أصحاب الرسالة والدعوة الإسلامية، ولم يتمكن جهاز السجن من القضاء عليه لأن طريقة المعالجة بدائية ومخالفة لأبسط قواعد العلم والطب، وحق الإنسان، وبالتالي فهي عاجزة عن استئصال ذلك الداء.

القمل: وأصيب سجناء سجن تدمر بنوعين من القمل، هما قمل الجسم والعانة، ومنذ اليوم الأول لوصولنا السجن، قال لنا بعض الإخوة: إن الزنزانات التي كانوا فيها بالمخابرات موبوءة بالقمل، وبعد أيام قليلة من استقرارنا في المعتقل، أصبنا جميعاً بذلك الداء، ليضاف فصل جديد من الكرب والمقاساة.

وللظروف العصيبة التي نحن فيها ما كان يمكننا الوقاية من المرض، فاضطررنا إلى أن نعالج أنفسنا قدر المستطاع، وذلك بخلع الملابس عندما يكون الوقت ملائماً (مساء) وتفتيش الداخلية منها جيداً للقضاء على الحشرات وبيوضها بسحقها بين اظفري الإبهامين، ولم تكن هذه الطريقة كافية لاستئصال الداء، فالدفعات الجديدة من المعتقلين تحمل معها وباءي الجرب والقمل المستشرين في جميع فروع المخابرات.

وفتح علينا باب من التعذيب عندما بدأ الجلادون برش المهاجع بالمبيدات الحشرية الممزوجة بسوائل الوقود (كالكيروسين والمازوت) باستخدام أدوات الرش الآلية التي تملأ المهاجع برذاذ السائل وبخاره ويدفعون بنا فيها ويحكمون إغلاقها علينا لنبقى نهب السموم، ولأن تهوية الزنزانات رديئة جداً، فإن كثيراً من السجناء كانوا يصابون بالإغماء نتيجة الاختناق الناشئ عن استنشاق المواد السامة، ونتيجة لنقص الأوكسجين وكان ذلك كارثة مفجعة على المسنين والمصابين بأمراض مزمنة كالربو وأمراض القلب والصدر، لأنها تؤدي لإثارة نوبات حادة من الربو وضيق النفس عندهم، ونلجأ لتلطيف الجو بتحريك البطانيات داخل الزنزانة رجاء طرد المواد السامة من داخل المهجع، فكل شيء في سجن الموت يستغل في تعذيب المعتقلين وإهانتهم.

وانتشر أيضاً قمل العانة، الذي يصيب أشعار الجسم، وهو أكثر إيلاماً وإزعاجاً من قمل الجسم، لأن أعراضه تشبه أعراض الجرب، كالحكة الشديدة بالليل، وعالجناه بإزالة الشعر من الجسم بمختلف الطرق، حتى إننا أحرقنا الشعر بأعواد الثقاب، ونتيجة للجهود المضنية التي بذلناها لمكافحته، تمكنا من القضاء التام عليه، ولم نعد نرى له أثراً، وعند خروجي من السجن كان المهجع نظيفاً تماماً من القمل بعد أن عانينا منه سنوات طويلة..

الكوليرا: لقد أدت القذارة والأوساخ في السجن وترك الطعام نهب الحشرات والقاذورات مع سوء التغذية والتعذيب المستمر، أدى ذلك إلى ضعف مقاومة أبدان السجناء، وانهيار المناعة لديهم، مما سهّل إصابتهم بأمراض عديدة، منها مرض الكوليرا.

واجتاحت السجن عدة جائحات، بمعدل جائحة في كل عام. الأولى: كانت في نهاية عام ١٩٨٠ والحمد لله الذي جعل عدد الإصابات محدوداً، وعدد الوفيات لم يزد عن ثلاثة أشخاص، وبقي الوباء محصوراً بعدد من الزنازين.

والجائحة الثانية كانت أكبرهن، أصيب فيها معظم السجناء خلال شهر نيسان من عام ١٩٨١ والتي دامت ما يقرب من شهرين، وارتعدت فرائص جهاز السجن منها، وتسارعوا لمكافحتها ولم يكن ذلك خوفاً على المعتقلين، وإنما خوفاً من انتشاره بين زبانية العصابة، أو انتقاله إلى خارج السجن، فمياه المجاري الخاصة بالسجن تصب بالمجاري العامة، لبلدة تدمر، وتستعمل بدورها لري المزروعات، وهذا بدوره سيؤدي لانتشار الوباء في البلدة، ومن ثم للمدن الأخرى، نتيجة تناول الخضراوات المروية بمياه المجاري.

ومما يدعو إلى الضحك المبكي أسلوب المجرمين في معالجة هذا الحدث الخطير، إذ جمعوا المصابين دون السجناء في المهجع رقم ١٣ في الباحة الثالثة والذي يعتبر من أسوأ مهاجع سجن تدمر، فهو مظلم ورطب ورديء التهوية، يضاف إلى ذلك أنه لا يحتوي إلا على دورة مياه واحدة.. وسط هذا الجو تم تجميع مرضى الكوليرا، وياها من معالجة، وأما طبيب السجن، فقد هرب وولى الأدبار (وكان يومها من النصيريين) وبقي الأمر منوطاً بالمساعد الأول أبو رشيد ليقوم بهذه المهمة الخطيرة، فعلقت أكياس المصل لبعض المرضى بمساعدة الإخوة الأطباء، وساءت حالة أكثرهم بشدة أفقدهم القدرة على الاستواء أو القيام بسبب الإسهال الحاد والذي أدى أيضاً للازدحام الشديد أمام دورة المياه، مما جعل الكثيرين يتغوطون ضمن ملابسهم، وأصيب آخرون بالغثيان والإقياء على أنفسهم وإخوانهم، وأخرج المجرمون بعض المرضى من المهجع الذي ضاق بهم، ووضعوهم في الممرات الموازية له، والتي تقع بجانب المجاري المكشوفة التي تمر في باحة الحمام إلى الباحة الثالثة، وإذا تحسنت حالة أحدهم أعادوه إلى مهجعه، ونصح الأطباء جميع إخوانهم بعدم الذهاب إلى مهجع الكوليرا، إلا الذين ساءت حالتهم وأشرفوا على الموت، وكنا نخرجهم محمولين ببطانية كالموتى إلى مهجع الكوليرا، ووزع جهاز السجن الأدوية على بقية السجناء (كبسولات التتراسيكلين) ووزعوا أيضاً مساحيق السكر والملح لتذاب بالماء ويشربها المعتقلون.

أصاب هذا الوباء القسم الأكبر من المعتقلين (حوالي ٧٠%) وبدرجات متفاوتة، وكان للإخوة الأطباء دور كبير بمكافحته رغم انعدام الوسائل الأولية للإسعاف والوقاية، واتخذت كافة

الاحتياطات الوقائية ضمن حدود الإمكانيات المتاحة، وألقيت التعليمات حول ذلك المرض، فأصبح القسم الأعظم من المعتقلين مدركين تماماً طبيعة ذلك المرض، وطرق العدوى والوقاية المختلفة والعلاج.

واقتصرت التغذية في ذلك الحين على البطاطا المسلوقة مع الشاي، ولمدة تزيد عن الشهر. وتوقفت عمليات الحلاقة والحمام والتنفس أثناءها، وأصيب الجلادون الجبناء بالرعب والذعر، فكانوا يتجنبون المعتقلين عندما يحضرون للتفقد، فيهربون بسرعة دون التفكير بإيذائنا، وعشنا راحة حقيقية من العذاب الذي رده عنّا وباء الكوليرا، وغمرتنا الطمأنينة والهدوء اللذان حرمنا منهما طوال الشهور الماضية، رغم معاناتنا من الكوليرا وعذاباتها.

لقد تجلت عناية الله سبحانه لمعتقلي تدمر خلال تلك الفترة، بل أجزم على أنها كرامة من الله لأولئك المعذبين الذين يعيشون تلك الظروف القاسية على هامش الحياة الآمنة، وصرّح أحد الأطباء قائلاً: إني لا أستطيع أن أصدّق ما حصل.. كيف تجتاح الكوليرا هؤلاء المساكين في ظروفهم وأحوال السجن الرديئة بكل شيء ويكون عدد الوفيات فقط ثلاثة عشر أخاً، مقارنة بآلاف المصابين؟!!

وتعرض سجناء تدمر لوباء الكوليرا مرة ثالثة عام ١٩٨٢ لكن عدد الإصابات كان أقل من ذلك بكثير، وانحصر ببعض الزنزانات، وطبقت إجراءات وقائية صارمة في جميع مهاجع السجن، مما كان له أثر جيد لرد غائلة الأوبئة والجراثيم.

الإسهال الشديد:

نتيجة لتناول الأطعمة الملوثة والفاسدة، وخاصة اللحم الفاسد بالمناسبات، ونتيجة للانفعال الشديد الناتج عن التعذيب، إضافة للبرد الشديد بفصل الشتاء، فإن أكثر سجناء تدمر عانوا من الإسهال الشديد معظم أيام السنة، مما أدى للازدحام المستمر أمام دورات المياه ومع ذلك، فإن جهاز السجن لم يكترث بالأمر.

التيفوئيد والديزنطاريا والزحار:

وهذان المرضان موجودان بصورة دائمة في سجن تدمر، لانعدام أبسط متطلبات الصحة العامة واستحالة تطبيقها في ذلك المعتقل الرهيب.

الأمراض الفطرية:

انتشرت الأمراض الفطرية والجلدية بشدة بين المعتقلين خاصة في القدمين وما بين الفخذين، للرطوبة الشديدة والقذارة داخل الزنزانات، فقام جهاز السجن بتوزيع بعض المراهم لفترة والتي

أعانت على تهدئة الآلام مع بقاء المرض بصورة دائمة مسبباً للمعتقلين الحكة والحرقة المزعجة مع الالتهابات الجلدية المرافقة.

السل الرئوي: وانتشر هذا المرض في بعض الزنزانات خاصة المزدوجة ٥ -٦ وكذلك الزنزانة رقم ٢٣ في الباحة الرابعة ورقم ١٣ في الباحة الثالثة بسبب الظلمة والرطوبة والكثافة الشديدة وانهيار مناعة الأجسام للظروف الظالمة المفروضة على السجناء، وكان بعض المعتقلين مصابين بالمرض قبل دخولهم السجن مثل عبد الحميد ناصيف من حلب، وعلي عيد الخشل من دير الزور، والسؤال المطروح هو كيف أرسل هؤلاء السجناء إلى السجن رغم معرفة السلطة بأنهم مصابون بداء السل؟! أليس الواجب معالجتهم أولاً ثم إرسالهم للسجن إذا تعذر حجزهم في أماكن خاصة للمصابين بأمراض سارية؟! ويدل هذا على مدى استهتار تلك السلطات الباغية بحياة المعتقلين.

ورغم انتشار المرض بين السجناء، فإن المجرمين لم يتخذوا الإجراءات اللازمة لمكافحته، واكتفوا بتوزيع بعض الأدوية على المصابين، وتكتموا على ذلك المرض، ولم يتخذوا نفس الإجراءات التي اتخذت لمكافحة الجرب والكوليرا، ولعلهم عرفوا أن السل يمكنه أن يودي بحياة المرضى فتركوه يفترس السجناء بأنيابه ليقولوا بعدها: إن الوفاة طبيعية، يضاف إلى ذلك، أن المرض المذكور قد انتشر عام ١٩٨٢ بعد قيام جهاز السجن بفرز المعتقلين ومنع أي اختلاط بينهم.

الالتهابات المختلفة: ومنها التهاب اللوزات واللثة والمجاري البولية نتيجة البرد ونقص التغذية والإهمال.

ويضاف إلى ذلك فقر الدم والهزال الشديد، فقد أصبح أكثر السجناء أشباحاً بعدما تغيرت ملامحهم وضمرت أجسادهم، بعدما أصيبوا جميعاً بمختلف الأمراض.

وأذكر قصة هي أقرب إلى الخيال ملخصها: أن أم أحد المعتقلين قد تمكنت بعد عناء شديد من زيارته، فوقف مشدوهاً أمامها، لم يعرفها للوهلة الأولى، وهي بدورها لم تميزه، فكلاهما قد تغيرت ملامحه، فالأم قد تغيرت من شدة حزنها على ابنها المفقود، والابن قد تغيرت ملامحه من شدة ما يعانيه من قهر وتعذيب وتجويع، فانهمرت الدموع من عيونهما وأخبرنا بما حصل معه، وكأن ما حصل أسطورة حبكها خيال شاعر درامي.

إنني أكذب نفسي أو أكاد حينما أسترجع بذاكرتي تلك الأيام الحالكة السواد، وأتساءل: هل صحيح أنني واجهت ذلك التعذيب، وواجهت كل تلك الوقائع في باستيل سورية على عهد القرامطة الجدد؟ وهل صحيح أنني نجوت من تلك المحنة؟ نعم..!! لقد ولدت من جديد، ومنحني الله عمراً آخر، فالداخل لذلك المكان مفقود، والخارج منه مولود، والعاقبة للتقوى.

ولابد لي في نهاية حديثي عن الأمراض في سجن العذاب والموت، سجن تدمر من ذكر آفات أخرى أصابت بعض المعتقلين، وسببت لهم عاهات دائمة، كتيبّس المفاصل بسبب الضرب الشديد عليها وتركها دون علاج، والشلل الذي أصاب بعض المعتقلين نتيجة للضرب على الرأس أو العمود الفقري، وهناك أيضاً العمى الجزئي، أو الكلي نتيجة الضرب على الوجه وقد أصبت بعيني اليسرى فأصبحت حدة النظر فيها ١٠/١ بعد أن كانت سليمة تماماً، والصمم الجزئي نتيجة لانثقاب غشاء طبلة الأذن، أو نتيجة لالتهاب الأذن الوسطى دون وجود معالجة، ومن أخطرها الإصابات العقلية كالهستيريا والجنون وفصام الشخصية التي أصيب بها بعض السجناء نتيجة التعذيب والإرهاب.

واعتاد أحد الإخوة المصابين بالجنون أن يقف خطيباً بصوت عال، وكثيراً ما أدى ذلك لحضور المجرمين ليضربوه بشدة، وعندما عرفوا أمره صاروا يحضرون للاستهزاء والسخرية منه، وقبل ذلك أصيب أخ ثان بفصام الشخصية (كما ذكر الإخوة الأطباء) فكان ذلك الأخ يتسبب لنفسه ولإخوانه بالضرب والإيذاء، فكان الجلادون يتخذون كلامه مبرراً لذلك، وجعلوه مصدر ضحك لهم وتسلية، ومادة للتندر والسخرية، كلما سنحت الفرصة، إرضاءً لانحرافاتهم وحقدهم.

موقف الأطباء المعتقلين: كان الأطباء الذين اقتيدوا إلى سجن تدمر قد وزّعوا في جميع زنزانات السجن، سواء الذين أنهوا دراستهم أو ما زالوا في مرحلة الدراسة، إضافة لذوي التخصصات العالية، وكان بين المعتقلين عدد من أساتذة كلية الطب، أمثال الدكتور أبو الخير الخطيب رئيس قسم التشريح في جامعة دمشق والذي قضى أكثر من عام هناك بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨١ والدكتور مأمون العظمة الأستاذ بقسم الجراحة والذي قضى حوالي ثلاث سنوات في المعتقل، والدكتور نزار الدقر الأخصائي بالأمراض الجلدية(٢٩)، والدكتور عبد الرؤوف عبيد الأستاذ بقسم طب الأطفال في جامعة حلب.

إن معظم معتقلي سجن تدمر هم من خيرة أبناء سورية علماً وخلقاً جمعتهم تلك المحنة ووحدتهم الظروف القاهرة، لقد تكيّف الجميع مع تلك الأوضاع الشاذة، وتعاملوا معها على قاعدة الحاجة أم الاختراع، وراح الأطباء يساعدون إخوانهم بشتى الوسائل، فهم يصغون لدقات القلب دون استعمال السماعة بوضع الأذن على صدر المريض مباشرة، وقد اعترف بعضهم أنه اكتسب خبرات جديدة داخل السجن ما كان يعرفها ولن تتوفر له خارجه، وقاموا بتجميع حبات العنب الفاسدة في كيس نايلون وتركوها تتخمر لاستعمالها في تطهير الجروح، وأحياناً كانوا يضعون على الجروح رماد السجائر بهدف تشكيل طبقة عازلة فوقها لحمايتها من التعفن، وأجروا عمليات شق وتفجير الخراجات والدمامل الناشئة عن الجروح المتعفنة باستعمال بعض القطع المعدنية الحادة التي

أمكن الحصول عليها بطرق الصدفة، كأجزاء الساعات المهشمة أثناء التعذيب، والتي نجح السجناء بصنع حادة منها يمكن استعمالها، وغسلوا الضمادات وأعادوا استعمالها ثانية لعدم وجود الضمادات المعقمة، واستعملوا المسحوق الموجود داخل كبسولات المضادات الحيوية، برشه على الجروح لندرة الأدوية، وخلطوه مع بعض المراهم لدهن الجروح المتقيحة. وأما دورهم الوقائي، فكان ذا أهمية كبيرة عن طريق التوعية والشرح لطرق العدوى والوقاية من الأمراض، كما كان لنصائحهم الدور الكبير في الوقاية ومنع تدهور الحالة الصحية.

الزيارات لسجن تدمر: يختلف سجن تدمر تماماً عن غيره من السجون والمعتقلات، وبطش السلطة الغاشمة بالإسلاميين اختلف عن المعاملة المتبعة مع غيرهم من الفئات السياسية المناوئة للنظام، ويتفرد سجن تدمر عن غيره من المعتقلات بطابع القمع، ولما كان الهدف الأساسي من عمليات الاعتقال وغيرها من الإجراءات القمعية التي اتبعت منذ عام ١٩٧٩ هو تصفية المعارضة الإسلامية جسدياً ومعنوياً، فقد تطلب ذلك إلقاء القبض على كل من له علاقة بتلك المعارضة، لشلها تماماً عن الحركة، وكان ذلك السجن مجسداً لذلك الهدف، إذ تم بواسطته عزل المعتقلين عن المجتمع، حتى لا تصل أخبارهم إلى خارج أسواره، وتم اختياره لهذه الغاية، فموقعه بعيد عن جميع التجمعات السكانية، لأنه يقع وسط الصحراء، محاطاً بمنطقة عسكرية، واختير العاملون فيه من النصيريين والمنافقين، وبالتالي فإن الزيارات غير واردة بالنسبة لسجناء تدمر، ليتحقق هذا الهدف الأمني، ومع ذلك، فلا يخلو الأمر من بعض الاستثناءات لوجود علاقات بين ذوي بعض المعتقلين وبين بعض رموز السلطة.

ولقد كانت قرارات إدخال وإخراج المعتقلين من وإلى سجن تدمر ترتبط مباشرة بالصنم الأكبر (حافظ أسد) والذين نجح ذووهم بزيارتهم، على ندرة هذه الحالات، فقد جاءت بموافقة شخصية وخاصة منه، وتبقى حالات استطاع فيها بعض ضباط المخابرات تأمين زيارات لذوي المعتقلين، إذ يتم استدعاء المعتقل لفرع المخابرات بدعوى التحقيق، وهناك داخل الفرع يلتقي بأهله ثم يعود ثانية لسجن تدمر، وكان هذا يتم بعد تقديم رشوة كبيرة. وقام المجرم غازي كنعان بهذه التجارة الرابحة، وعن طريق فروع المخابرات العسكرية في المحافظات الأخرى ويكون فرع حمص في هذه الحالة صلة والوصل بين سجن تدمر وفروع المخابرات الأخرى، لأنه المسؤول المباشر عن سجن تدمر، لموقع مدينة تدمر ضمن محافظة حمص، وفي هذه الحالة، تحضر دورية من حمص مع أمر خطي بإحضار معتقل ما، ويتم نقله إلى حمص ليبقى هناك فترة من الوقت، ربما تستمر أياماً، يلتقي خلالها بأهله، وغالباً ما يتم اللقاء داخل غرفة غازي كنعان نفسه الذي لا تفوته هذه المناسبة لإلقاء

محاضرة في الإسلام والوطنية على المعتقل وأهله، مبرراً فيها تصرفات عصابته، ثم يعاد ذلك المسكين إلى مقبره الأول في زنزانته.

وفي حالات أخرى، توسط فيها أقارب المجرم فيصل غانم (مدير سجن تدمر) وخاصة أمه كسماسرة لتأمين زيارات مثمنة مادياً لبعض المعتقلين، وهنا يحضر أقارب المعتقل لمقابلته في السجن. وحقق أزلام النظام أرباحاً طائلة من هذه التجارة، إذ كانت تكلف زيارة المعتقل مبالغ طائلة، قد تصل إلى ٣٠,٠٠٠ ليرة سورية(٣٠)، وفي كثير من الحالات، كان ذوو المعتقلين يدفعون الرشاوى ويتكبدون عناء السفر إلى تدمر دون جدوى، نتيجة لتضليلهم من قبل أزلام النظام، وابتزازهم لهم، لأنهم يعرفون بأن هذا المعتقل غير موجود في تدمر بسبب استشهاده أو نقله لمكان آخر، أو قد يرفض القائمون على السجن تلك الوساطات. وهذا الأمر يكون معروفاً من قبل الذين قبضوا الرشاوى، وربما لا يعرف الجلادون مصير ذلك المعتقل ليرجع الأهل بعد ذلك مصدومين بعد فشلهم في البحث عن معتقلهم الغالي، ويظل أولئك المساكين يدفعون الرشاوي ويكابدون عناء السفر من مدينة لأخرى، ويسألون كل من يظنون أنه يعلم شيئاً عن أبنائهم، أو يستطيع مساعدتهم في الوصول إليهم، لكن الأيام تمر، وتتلوها السنون، وهم على تلك الحالة البائسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التقاء السجين بأهله: إذا كان المعتقل ممن قدّر الله له أن يظل على قيد الحياة حتى يقابل بعض أقاربه، وهذا يحصل مع ٥٠% (٣١)، من الحالات، يحضر السجانون لأخذ المعتقل، قائلين له: اخرج عندك زيارة. وقد لا يصدق المعتقل وإخوانه ذلك، لأنه سبق للسجانين أن أخرجوا بعض المعتقلين بحجة الزيارة، وكانت الغاية غير ذلك، كالمحكمة أو النقل لسجن آخر، أو مهجع آخر، أو العودة لفرع المخابرات من أجل التحقيق أو لإجراء مقابلة تلفزيونية، لذلك يستولي الخوف على السجين، ويبادر إخوانه بالدعاء والتضرع إلى الله أن يحفظه من كيد الأشرار، ويستخدم الزبانية الإهانات كعادتهم عندما يلتقون بالمعتقلين وقد يتعرض المعتقل للضرب.

يؤخذ السجين إلى ساحة الإدارة، وهناك شبك حديدي مزدوج يفصل بينهما فراغ، يقف الأهالي خلف الشبك الأول من ناحية باب السجن، ويقف السجين خلف الشبك الثاني داخل السجن، ويقابل السجين أهله بوجود الزبانية بين الشبكين يستمعون لأحاديث المعتقل مع أهله، ويتدخلون مقاطعين الأحاديث، وتنهى الزيارة قبل انتهاء مدتها إذا لم يعجبهم الكلام، وتكون مدتها عشر دقائق فقط، ويأمر الحرس المعتقل بالانصراف بعدها، وأحياناً يتم اللقاء بين المعتقل وذويه في غرفة مدير السجن وبحضوره شخصياً هو أو نائبه (وكان برتبة نقيب في ذلك الوقت) وللمحسوبية دور كبير في إنجاز ذلك، ويحصل مدير السجن على حصته من الرشاوى، وهنالك يجلس الجميع على

المقاعد الموجودة في غرفته، ويستغل مدير السجن أو نائبه تلك المناسبة للكلام عن الوطنية وعن المجرمين الذين ورطوا البلاد والعباد، واضطروا الدولة لاعتقال الناس، وكان للعدالة أن تأخذ مجراها، فيعاقب المذنب على إساءته، ويخرج البريء من السجن، وكان المجرم فيصل غانم يتظاهر أمام أهالي المعتقلين بأنه شخص متواضع ومؤدب، لأنه رجل مسؤول في دولة محترمة، وهذا سلوك المجرم غازي كنعان أيضاً. ومن يستمع لقوله ويقارنه بتصرفاته السادية مع نزلاء السجن من تعذيب وإهانة، وهو المسؤول الأول عنها، يدرك تماماً حقيقة القوم وباطنيتهم، ومدى التناقض الرهيب بين أقوالهم وأفعالهم، وهو ديدن أكثر حكام المسلمين في زماننا النكد، ولكن باطني سورية يتفوقون على الجميع.

عندما تنتهي الزيارة يقوم الجنود باستلام الهدايا المقدمة للسجين من أهله، فيأخذون منها ما يريدون، ويتركون الباقي، أما عندما تكون الزيارة بأمر من السلطات العليا، مع توصية خاصة، فإن مدير السجن يأمر كلابه بإعطاء كل شيء للسجين وعدم إيذائه أثناء عودته لزنزانته، لأنهم لا يعرفون إلا الضرب والإهانة، وهذا ما يحدث أيضاً في فروع المخابرات، إذ يوصي رئيس الفرع زبانيته بعدم ضرب السجين الذي حصل على زيارة بالفرع، وقد يأخذ الجنود كل شيء منه، أو يرمون الأغراض على الأرض ويتلفونها إذا كانت قابلة للإتلاف، كالمواد الغذائية، ليحرموا السجين منها، حتى قاموا بتبديل الملابس التي قدمها الأهل بأخرى بالية لسجناء آخرين خرجوا من السجن إلى ساحة الإعدام، أو نقلوا لسجن آخر، أو بقايا ملابس السجناء القضائيين من العسكريين الذين انتهت مدة سجنهم.

وفي أغلب الأحيان يمنعون إدخال المواد الغذائية إلا إذا وجدت توصية خاصة، وأثناء عودة المعتقل لزنزانته، يستقبل بالبطش وخاصة إذا كانت الزيارة في أحد فروع المخابرات، وبعد التفتيش يقومون بجلده، كالذي يحدث في استقبال النزلاء الجدد، فكنت أدعو الله ألا يزورني أحد من أقاربي تجنباً لذلك!! واعتاد الجلادون سرقة أموال السجناء جزئياً أو كلياً.

لم تزد نسبة المعتقلين الذين حصلوا على زيارات عن ١٠% من مجموع السجناء وغالباً ما تتكرر الزيارة لنفس السجناء، والتي شملت مصدراً حيوياً لنا للحصول على الأموال والملابس التي توزع على الجميع، وتستخدم لدفع أجرة الحمام والحلاقة والابتزاز الشهري، ولشراء بعض الحاجيات الضرورية كالملابس والأغذية والصابون والمنظفات.

فيصل غانم يزور المعتقلين أيضاً: جرت العادة في سجون العالم أن يقوم مدير السجن بزيارة السجناء داخل زنزاناتهم بين فينة وأخرى ليطمئن على أحوالهم، ويصغي لمشكلاتهم، خشية حدوث تجاوزات من قبل الموظفين الصغار داخل السجون، لأن إدارة السجن مسؤولة عن سلامة

المعتقلين أمام السلطات العليا في الدولة، كما أن معاملة السجناء داخل السجون تؤثر سلباً أو إيجاباً على سمعة الدولة أمام دول العالم وأمام المنظمات العالمية المختصة بالدفاع عن حقوق الإنسان، وأمام الرأي العام العالمي، ولذلك نرى أن الدولة المحترمة تراعي هذه النواحي، وتحاسب المسؤولين عن السجون عن أي تقصير يمس سمعة البلاد، وتحرص إدارات السجون على تلافي أي خطأ يعرضها للمساءلة أمام السلطات العليا في البلاد. وحتى في البلاد التي تحكمها أنظمة ديكتاتورية قمعية، ومنها سورية، كانت زيارات مديرو السجون للمعتقلين السياسيين داخل زنزاناتهم تتم بهدف الإطلاع على أوضاعهم، ورفع طلباتهم للسلطات العليا، لعل بعضهم يتقدم بطلبات استرحام، أو يعلن توبته وتراجعه أو تخليه عن أفكاره، أو انسحابه من المنظمة أو الحزب الذي ينتمي إليه.

أما بالنسبة لسجناء تدمر فالأمر مختلف تماماً، فلا توبة تقبل، ولا عفو عن أحد من قبل السلطة. لقد خلع القوم برقع الحياء عن وجوههم، وداسوا كل الأعراف والقيم، وراحوا يتصرفون بما تمليه عليهم أحقادهم الدفينة، فكان مدير سجن تدمر يأتي للمعتقلين من حين لآخر، ليفتح باب الزنزانة، فينطلق كلابه لاقتحام المهجع وبسرعة غير معتادة، وغالباً ما تكون الزيارة خارج أوقات المناسبات التي تحدثنا عنها، فيأمرون السجناء بالوقوف مغمضي الأعين، مطأطئي الرؤوس، و قد اصطفوا أمام الجدران، ووجوههم متجهة للأمام، يتجول ذلك المجرم داخل الزنزانة بينهم، متأملاً وجوههم، ويقف عند بعضهم يفرغ شيئاً من حقده وشذوذه، سائلاً إياه: (أنت ولك ما هو دورك بالتنظيم؟ أو ما هي رتبتك بالتنظيم؟ لماذا جئت إلى هنا؟ ما اسمك؟ من أنت؟ ما عملك؟) ويسمعه السباب والشتائم، ويبصق في وجه بعض السجناء ثم ينصرف.

كان هدف الزيارة التعرف على السجناء، عله يرى أحداً من المعروفين والمشهورين، سواء من الذين عرضوا في مقابلات تلفزيونية، أو تحدثت ونشرت عنهم وسائل الإعلام من العناصر القيادية النشطة جهادياً، فيشفي حقده منهم، ويالها من شجاعة ورجولة:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تهرب من صفير الصافر

وكان المجرم يقوم بزيارته تلك مع كل دفعة جديدة تدخل ذلك السجن الجهنمي، وتعرف مرة على شخصين من محافظة اللاذقية فأرسل جلاوزته لهما، وأخرجوهما ليذوقا من العذاب حظاً ومن الإرهاب نصيباً، وأصيب أحدهما بكسر في ظهره نتيجة التعذيب، واستدعى جميع أفراد تلك الدفعة للتحقيق، فقر في نفوسنا حقيقة إطلاعه على ملفات المعتقلين.

وكنا ننال حظاً من اللكم والرفس واللطم أثناء تلك الزيارات المشؤومة، لأن السياط غير موجودة مع الجلادين، لأن عليهم تأدية المراسم العسكرية من تحية وتقديم الصف أثناء حضور سيدهم، وكان برتبة رائد وتمت ترقيته فيما بعد لرتبة مقدم.

وبدءاً من نهاية عام ١٩٨٢ قام مدير السجن بزيارات للمهاجع، وتكلم بلغة خطابية في بعضها، وفي عام ١٩٨٣ جمع نزلاء الباحة السادسة، وتكلم إليهم أيضاً، فراح يكرر العبارات التي يرددها سيده، من أنه مسلم ويصلي ويقرأ القرآن. كما تحدث عن المجرمين وعن العدالة وقال: نحن لم نحضر أحداً من بيته أو من الشارع ظلماً وعدواناً، إنما أعمالكم هي التي أوصلتكم إلى هنا، وكل منكم سينال حقه، وإن المجرمين الذين خانوا الوطن سينالون جزاءهم العادل. كما تكلم عن كامب ديفيد والهجمة الإمبريالية الشرسة على القطر العربي السوري.. إلخ.

والمتتبع لأحاديث أزلام النظام يجدها متطابقة، فالكل يعزف على وتر واحد، ولا أعلم: هل القوم مقتنعون فيما يقولون أم أنهم كذبوا وكذبوا حتى صدقوا أنفسهم؟!! وهل يعتقدون أن أحداً يصدق تلك الأحاديث الممجوجة؟ لقد قال أحد أزلام السلطة ذات مرة إن الناس لا يثقون بأي شيء حتى نشرة الأحوال الجوية التي تذاع بوسائل الإعلام لا يصدقها أحد.

مقابلة وسائل الإعلام للمعتقلين: كانت أجهزة المخابرات ترتب مقابلات إذاعية وتلفزيونية مع بعض المعتقلين الذين توجه إليهم أسئلة محددة، بهدف الحصول على إجابات معينة لإقناع عوام الناس بما تريده السلطة الغاشمة، أو لتبرير بعض التصرفات القمعية التي تسلكها تلك الأجهزة الجهنمية.

ففي عام ١٩٧٩ و١٩٨٠ أظهرت السلطة عدداً من المعتقلين على شاشة التلفزيون، مثل الأخ الشهيد أمين أصفر رحمه الله رحمة واسعة، وكانوا يجبرون المعتقل على كلام يكون سبباً للانتقادات والشبه عند عوام الناس، والذين يعرفون الظروف التي تتم بها تلك المقابلات لا يسعهم إلا أن يعذروا أولئك المساكين فيما يقولون، فكيف تمت المقابلات؟

حضر الزبانية لمهجعنا أوائل عام ١٩٨١ وقرءوا اسمين لاثنين من الإخوة عندنا وقالوا لهما: عليكما أن تلبسا أحسن ما عندكما من الملابس (لكم زيارة) وفي اليوم التالي حضروا وأخرجوا الأخوين لساحة الإدارة، وحلقوا لهما ورتبوا هندامهما، ثم أخذوهما لغرفة المقابلة، ووقف المساعد أبو جهل وقال لهما: عليكما أن تقولا كل ما يطلب منكما، وإذا لم تفعلا فالدولاب جاهز بانتظاركما.

دخل الاخوة غرفة أعدت لهذه المهمة من حيث المقاعد والأنوار والديكور وكاميرات التصوير، وراح أحد الأشخاص يسألهما مستمعاً لإجابتهما، وكلما أجاب أحد الاخوة بصورة غير مقبولة،

قال له: عليك قول كذا وكذا، وطلبوا منهما أن يكونا طبيعيين أثناء الإجابة مع قليل من التبسّم؟!!

ثم أجريت مقابلة تجريبية (بروفا) حتى يطمئنوا إلى الإجابات الموافقة لأهوائهم، ثم قاموا بإعادة المسرحية مع تسجيلها بكاميرات الفيديو، هكذا كانت تتم المقابلة مع المعتقلين داخل السجون وفي أقبية المخابرات وسط أجواء الإرهاب، وبعد أن حطم المعتقل نفسياً وفكرياً وجسمياً ليجد نفسه مرغماً على قول ما يزيده الطغاة، ليبرروا لأنفسهم جرائمهم التي يرتكبونها بحق البلاد والعباد.

محاكم التفتيش: بعد محاولة اغتيال المجرم حافظ أسد والتي جرت يوم الخميس ١٩٨٠/٦/٢٦ ارتكبت مجزرة سجن تدمر في اليوم التالي مباشرة، وصدر القانون ٤٩ القاضي بإعدام كل منتسب لجماعة الإخوان المسلمين، بعد التصديق عليه من مجلس المهرجين (الشعب).

وحدد القانون المذكور فترة شهر لمن يريد الانسحاب من التنظيم (راجع نص القانون) وبناء عليه، فقد شكلت المحاكم الميدانية لمحاكمة المعتقلين بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين ولم تكن لتلك المحاكم صفة قضائية، إنما ضمت مجموعة من ضباط المخابرات والجيش الحاقدين والعملاء لإنجاز رغبة الطاغية.

باشرت تلك المحاكم أعمالها في شهر تموز من نفس العام، وكانت تنتقل بين فروع المخابرات والسجون في طول البلاد وعرضها، لتحاكم السجناء الذين تم التحقيق معهم. فمثلاً حاكمت بعض المعتقلين في سجن المزة بدمشق، وكذلك في فرع كفر سوسة، وحاكمت آخرين في فرع المخابرات العسكرية في حمص واللاذقية. وبعد ذلك شُكلت لجنتان ميدانيتان، تختص الأولى بمحاكمة معتقلي سجن تدمر ومقرها فرع المخابرات العسكرية في حمص، والمجرم غازي كنعان أحد أعضائها. أما المحكمة الثانية فتختص بمحاكمة معتقلي سجن المزّة (الإسلاميين فقط) وكانت برئاسة العقيد حسن قعقع (من اللاذقية ولم يكن سوى دمية) باشرت المحكمتان أعمالهما بصورة مستقلة، إذ يتم نقل المعتقلين من تدمر إلى حمص وحوكمتُ بهذه الطريقة. وفيما بعد نقلت المحكمة إلى سجن تدمر فكانت اللجنة تذهب إلى هناك مرة أو مرتين أسبوعياً من أجل المحاكمة وتنفيذ أحكام الإعدام.

والمحكمة الثانية كانت تحاكم معتقلي سجن المزة، والذين يحكم عليهم بالإعدام ينفذ فيهم هناك، أما الذين يحكمون بالسجن مدداً مختلفة، فينقلون لتدمر، وأما المبرؤون فيمكثون في سجن المزة حتى يمن عليهم الطاغية بالإفراج!!

مأساة المحاكمات الميدانية: وهي أكثر الفصول إثارة للسخرية المبكية وأشدها ظلماً. إن أكثر دول العالم اليوم تحكمها أنظمة مستبدة، ومع ذلك يستطيع المرء أن يلاحظ تمايز المؤسسات والسلطات، فالوزير مسؤول ضمن حدود وزارته، وقائد الجيش مسؤول ضمن مؤسسته، والسلطة القضائية كذلك. وهكذا.. أما في دولة القرامطة الجدد، فلا وجود لذلك، فالسلطة عبارة عن عصابة يتزعمها الصنم الأكبر، فهم يملكون ويقررون وينفذون كل شيء وما عداهم من رموز ومناصب فهم دمى لا يملكون من أمرهم شيئاً، وما عليهم إلا أن ينفذوا ما يؤمرون به بكل دقة وخنوع.

فالعصابة هي التي تأمر بالاعتقال، فهي النيابة العامة، وتعتقل، فهي جهاز الأمن، وتحقق وتحاكم وتنفذ الأحكام، فهي السلطة القضائية. لذلك نستطيع القول: إن تلك المحاكم ليست إلا محاكم صورية، لا تملك أية صفة من صفات المحاكم. فالقائمون عليها ليسوا قضاة، ولا يفقهون شيئاً من أمور القضاء. المتهم لا يحق له الدفاع عن نفسه، ولا أن يوكل من يدافع عنه، لا وجود للشهود، ولا حاجة لأية أدلة(٣٢) فالدليل الأول والأخير هو محضر التحقيق الذي وضعته المخابرات التي تنتزع الاعترافات بشتى طرق الإكراه، وربما لفق ضباط المخابرات التهم كما يشاءون، ودوّنوا المحضر النهائي للتحقيق كما يريدون، وعلى المتهم التوقيع على ذلك المحضر دون أن يعرف محتواه، وبه كانت العصابة هي السلطة القضائية المهيمنة على كل أقدار السجناء، ولعل بعض الدول تمر بظروف استثنائية تدعوها لتطبيق الأحكام العرفية، أو حالة الطوارئ، لكن القضاء يبقى محافظاً على هيبته ونزاهته. لأنه رمز العدالة(٣٣) بل هو جهاز العدالة الوحيد في البلاد.

وتقع التجاوزات من السلطة التنفيذية، وخصوصاً أجهزة الأمن التي تعتقل وتعذب بصورة تعسفية، أما القضاء فإنه يحق الحق وينصف الناس، ويحترم القانون، أما في دولة القرامطة الجدد، فالأحكام العرفية مطبقة على البلاد منذ عام ١٩٦٣ وزادت الحالة سوءاً في عام ١٩٨٠ عندما ارتكبت الكثير من التجاوزات التي جعلت بعض رموز السلطة يراجعون أنفسهم كرجال دولة(٣٤)، لأن الدولة تحمل معنى حضارياً لا تليق به تلك الأساليب الوحشية، والتي تشابه إلى حد بعيد سلوك عصابات الإجرام الخارجة عن كل القوانين والأعراف والقيم.

كيفية المحاكمة: مع مطلع شهر أيلول من عام ١٩٨٠ جاء الجلادون إلينا بقائمة أسماء، ليقولوا لهم: جهزوا أنفسكم، غداً عندكم محكمة. هناك اختلطت المشاعر والأفكار بين التشاؤم والتفاؤل، فقد كنا نسعى لتفسير كل شيء لصالحنا لكوننا محاطين بالمجهول من كل جانب، لا ندري ماذا يدور حولنا، بالإضافة للظروف التي كنا نعيشها، والتي تفرض علينا الشعور بالمرارة والإحباط، ورغم ذلك، كنا متفائلين، نفسر كل شيء بصورة إيجابية، بسبب إفراط بعضنا في

الخيال والخرافة، ولأننا اعتقلنا في فترة مبكرة من عام ١٩٨٠، ولم نسمع بمجزرة سجن تـدمر، ولا بالقانون ٤٩، لذلك لم نكن نعرف ماذا تعني المحكمة؟ وإلى ماذا تشير؟

قلنا: لعل هذه بداية الفرج ، فعسى أن تنهي المحكمة الوضع المأساوي الذي نحن فيه، فننقـل إلى سجن آخر نعامل فيه كجميع السجناء في كل بلاد العالم، أو يخلى سبيلنا فنعود لبيوتنا، ولكـن هيهات هيهات!!

رحنا نسأل بعض إخوتنا ممن سجنوا في فترات سابقة، والتقوا بإخوة ذهبـوا للمحاكمـة، عـن إجراءاتها، فكان ما نسمعه يطمئننا بعض الشيء ولكن، سرعان ما اصطدمنا بالواقع، فتبخـرت جميع الآمال وأصبنا بالإحباط.

نمنا تلك الليلة، ولكن عند منتصف الليل جاء السجانون وفتحوا باب الزنزانة، وتلـوا الأسمـاء ثانية، طالبين أن يحضر كل سجين قميصه الداخلي، لاستعماله كغمامة لعصب العيـنين، وعنـد خروج إخوتنا من الزنزانة، عصبت أعينهم، وأوثقت أيديهم بالحبال، وسيقوا لساحة القلم.

نقص عددنا في ذلك اليوم، وافتقدنا إخوتنا، وظننا أن لن نلتقي بهم ثانية، وافترقنا إلى غير لقـاء متوقع!! وسيطر علينا شعور غريب، هو شعور الخوف من المجهول، ورحنا نتساءل: ماذا سيحصل لإخواننا؟ وبيننا أحد الأخوة ممن اعتقلوا سابقاً، والتقى بأخوة أخذوا إلى محكمـة أمـن الدولـة بدمشق، فشرح لنا إجراءات المحاكمة للسياسيين، إذ يعاد استجواب المتهم مـن قبـل القاضـي بطريقة تختلف عن التحقيق في فرع المخابرات، فلا ضرب ولا إهانة، وإنما الحجة والمنطق والدليل، وتعاد كتابة الإفادة حسب معطيات الاستجواب والأدلة الموجودة، وحسب قناعـة القاضـي. وتسمى هذه المرحلة: بتبييض الإفادة، أو تثبيت الأقوال. وكانت تـستغرق عـدة جلـسات، ويستطيع المتهم أن يقول ما يشاء. وقال أيضاً: إن الأخ الشيخ محمد خير زيتوني قد انتقد النظـام أمام لجنة المحكمة بكلمات لاذعة، فتحولت الجلسة من محاكمة له كمتهم، إلى محاكمـة وإدانـة النظام.

مر علينا ذلك النهار كبقية أيام السجن العادية، وعند المساء، بدأت عمليات التعذيب في الباحـة الأولى، فظننا وصول دفعة جديدة من المعتقلين، وبعد انتهاء حفلة الاستقبال، أخذت الأصـوات تقترب مع أصوات الزبانية، وفتح باب باحتنا، فدخل الزبانية مع أخوتنا، وفجـأة فـتح بـاب زنزانتنا، واندفع إخوتنا للداخل بحالة يرثى لها من الإعياء والتعب والجوع والعطش، كما بـدت عليهم آثار التعذيب من جروح وقروح وكدمات، الجميع يصرخ ويستغيث مرتمياً على الأرض، لا يقوى على شيء. أسرعنا لأخوتنا نساعدهم ونخفف عنهم، أما أنا فقد صدمت لهول المفاجأة، ووقفت مشدوهاً عاجزاً أن أحرك ساكناً، فصاح بي أحد الأخوة (رحمه الله): مالك؟ قم وسـاعد

إخوانك. قلت في نفسي: ما هذا؟.. وعندها أدركت أننا نواجه فتنة كبرى، ولـــيس أمامنـــا إلا التسلح بالصبر، حتى يأذن الله بالفرج.

بادرت أحد أخوتي بالسؤال: ماذا حصل معكم؟ تردد بالإجابة ثم قال: (اتركها على الله)، وتحت الإلحاح أجابني قائلاً: أخذونا إلى فرع المخابرات في حمص، وأعادوا معنا التحقيق!! قلت يا الله ألم ننته من التحقيق والتعذيب؟ ألا يكفينا ما نحن فيه من البلاء؟! وهكذا رحت أدعو: اللهم الطــف بنا فيما جرت فيه المقادير. وكان هذا دعائي المفضل طول فترة اعتقالي، لأنني اعتقدت منذ البداية أن المحنة مهما كانت شديدة ومؤلمة، فإن هناك ما هو أسوأ، فالأمور نسبية.

وراح الأخ يسرد لي ما حصل معهم منذ خروجهم من المهجع الليلة الماضية، وحتى عودتهم إليه، وكيف تعرضوا للتعذيب أثناء خروجهم، وكيف استقبلهم زبانية فـــرع المخـــابرات، وزبانيـــة السجن، عندما عادوا بحفلة استقبال جديدة، ويا لهول ما سمعت، فرحت أوطن نفسي اســـتعداداً لفصل جديد من فصول المحنة، لأنني سأتعرض للشيء ذاته، وهذا ما حـــصل معـــي، وإن كـــان بصورة أقل مما تعرضوا له، فكيف كان ذلك؟

السفر لحمص: أصبحت كلمة (حمص) تحمل معها تأثيراً نفسياً خاصاً يشبه التأثير الـــذي تحدثـــه كلمة (تدمر) لما عانيناه في المدينتين من تعذيب، ولم ننتظر طويلاً، إذ بعد فترة قصيرة من وصـــول أخوتنا، حضر الجلادون، وفتحوا كوّة باب الزنزانة (الشراقة) وقرءوا أسماء مجموعة جديدة مـــن الإخوة كان بينهم اسمي. وقالوا لنا: جهزوا أنفسكم، غداً عندكم محاكمة. سيّطر عليّ الرعـــب وأخذت أقرأ القرآن وألهج إلى الله بالدعاء، لقد انقطعت بنا أسباب الأرض، فلا حـــول لنـــا ولا طول، وليس أمامنا إلا التوجه إلى الله بالدعاء والإنابة، نستمد منه العون والتأييد، سائلين إياه أن يلهمنا الصبر.

استلقينا للنوم، وأنى لنا ذاك، وعند منتصف الليل، عاد الزبانية ثانية وقرءوا أسماءنا، وأخرجونـــا من الزنزانة، بعد أن هيأ كل منا قميصه الداخلي لاستعماله كعصابة للعينين.

أمسك كل منّا بثياب الذي أمامه، وقد حنى رأسه للأسفل، والسياط تلسعنا من كل جانب، مـــع الكلمات الفاجرة، وسرنا نحو ساحة القلم، وأجلسنا على الأرض تحت إحدى الأشجار، وكانت شجرة (كينا) وعرفتها من رائحتها.

تجمّع الإخوة من بقية الزنزانات، وعددنا بضعة وعشرون شخصاً، أجلسونا على الأرض، بعد أن قيدوا أيدينا للخلف بالحبال التي شدّت بقسوة، مسببة لنا آلاماً مبرحة، وبعضنا أثر الحبل علـــى رسغيه، تاركاً تقرحاً دام لعدة أسابيع، نتيجة إصابته بالالتهاب.

بقينا على هذه الحالة عدة ساعات (حتى بزوغ الفجر) تيبست مفاصلنا، وأصيبت أطرافنا السفلية بالخدر والنمل، وفقدنا الحس بأقدامنا، وأما أيدينا، فليست بأفضل حالاً منها، ولكــن.. هــل في استطاعة أيّ منّا أن ينبس ببنت شفة؟ فالجلادون من حولنا يضربوننا بين وقت وآخر بالسياط.

ساقونا بعدها إلى داخل سيارة زيل عسكرية مخصصة لنقل السجناء، وهي عبــارة عــن ناقلــة عسكرية روسية الصنع، استبدلت خيمتها بصندوق حديدي له أبواب محكمة، وتحتوي على كوى مشبكة بالحديد.. وتشبه زنزانة السجن بهذا، والباب موجود بالخلف، وهو مخــصص لــدخول وخروج المعتقلين، وفي غرفة القيادة نافذة زجاجية تطل على صندوق السيارة الخلفي، ويستطيع الجالس في غرفة القيادة رؤية جميع السجناء خلفه، مقاعدها من الخشب (عدة قطع من الخــشب تفصل بينها فراغات) وتحتوي السيارة على ثلاثة صفوف من المقاعد، صفين على الجانبين، وصف في الوسط، ولذلك، فالجلوس على تلك المقاعد متعب جداً، لأنها قاسية، ويضاف إلى ذلك مشكلة الازدحام، والأعين المعصوبة، والأيدي الموثقة للخلف.

وأما سرعتها، فشأنها في ذلك شأن أكثر السيارات الروسية المتهالكة، إذ لا تتجاوز الــ ٦٠كــم في الساعة، يضاف إلى ذلك أن المسافة بين مدينتي حمص وتدمر تبلغ حوالي ١٦٠ كم، والطريــق مليئة بالحفر، بسبب الإهمال، فكانت السيارة تهتز كثيراً، لدرجة أنه ربما ارتفع أحدنا من مكانــه من شدة الاهتزاز، نازلاً بقوة على الكرسي بكل ألم وعذاب، ويضاف إلى ذلك، صوت المحــرك، وقرقعة صفائح الحديد التي تغطي صندوق السيارة، وصوت رياح الطريق، فكل شيء كان يتعبنا ويقلقنا، علاوة على ذلك القلق النفسي الذي نعاني منه، فنحن لا نعرف ماذا ينتظرنا هنــاك، في فرع المخابرات؟ وماذا ينتظرنا بعد عودتنا للسجن؟.

مرّت أربع ساعات ونحن على ذلك، شعرنا في البداية بالبرد لبرودة الجو النسبية ليلاً في الصحراء، وقلة الملابس، وتيار الهواء الناشئ عن حركة السيارة، وسيطر علينا الخوف والرعب، فراح كــلّ منّا يقرأ ما تيسر له من القرآن، ويدعو سراً، خشية أن يكون بيننا بعض الجنود، وجهــر أحــد الإخوة بقراءة القرآن والدعاء، فاطمأن الجميع لغياب المجرمين من بيننا، فراح كل منّا يحدّث من بجانبه عن اسمه وعمله وتاريخ اعتقاله، ويشكو له همومه، فقال لي أحد الإخوة ممــن جلــسوا إلى جانبي: لقد تلفنا من شدة التعذيب، كنّا بالسجن الفلاني الرهيب، فإذا هو كبيت المرء أو أعــز مقارنة بهذا السجن، فاستغل أحد الإخوة ممن كانوا معي بالزنزانة الفرصــة، فــراح يستــشيرني بالهرب. قلت له: ومن أين؟ أجابني من الفتحة العلوية الموجودة في السقف، حيث أشاهد الضوء، وأعتقد أنها فتحة كبيرة يمكن الهرب منها. فقلت له: لا فائدة من ذلك، فدورية الجنــود ترافــق السيارة من الأمام والخلف، والسيارة تسير بسرعة وسط الصحراء، فلا يمكنك الاختفــاء بــأي

مكان لو نجحت بتجاوز جميع العقبات. وأخيراً قلت له: إن العملية مغامرة انتحارية لا فائدة منها. فصرف النظر عن تلك الفكرة، وراح يتحدث في أمور أخرى.

وأخيراً وصلنا إلى فرع المخابرات العسكرية في حمص، ذلك الفرع الذي صار اسمه يرعب سكان المدينة، لما عرف عن رئيسه (غازي كنعان وكان برتبة مقدم في ذلك الوقت) من ظلم وتجبر في تلك الفترة. لقد لوّع سكان المدينة بكثرة الاعتقالات والمداهمات وأعمال التفتيش، وفي كل مرة تجري فيها عمليات المداهمة والتفتيش، كان كلابه مع جرذان الوحدات الخاصة، يمعنون في إيذاء الناس وإهانتهم، إضافة لأعمال السلب والنهب، ولم يترك بيتاً واحداً إلا واعتقل منه شخصاً أو أكثر. لقد أقسم مرة بأنه سيقطف ألفي زهرة من حمص، ليزرعها بصحراء تدمر (ويريد بذلك إعدام ألفي شاب من حمص ويدفنهم في صحراء تدمر) كان يعتقل الناس من الشوارع دون سبب أو جريرة أو تهمة ويقودهم إلى باستيل القرامطة، وحتى إنه تفقّد القبو يوماً فوجد أن زبانيته لم يعتقلوا أشخاصاً جداً، فراح يشتمهم ويقول لهم: ألم تستطيعوا أن تعتقلوا عدة أشخاص من الشارع وتحققوا معهم (لعله يطلع منهم شيء)؟

وفعل أكثر من ذلك، إذ أعاد اعتقال طليقي فروع المخابرات الأخرى (شعبة الأمن السياسي وشعبة المخابرات العامة) ليعيد فتح ملف التحقيق من جديد، ويرسلهم إلى سجن تدمر، ووصل الأمر به أن يعتقل أشخاصاً من محافظات أخرى، كما فعل مع المرحوم الشهيد العقيد محمد فيصل سيرجيه من حلب، الذي أخلي سبيله عام ١٩٨٠ فأعاد المجرم غازي كنعان اعتقاله من مدينة حلب، وبنفس التهمة السابقة، وأرسله إلى سجن تدمر، وحكم عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم يوم ١٩٨١/١٠/٢٤ مع ٢١ أخاً آخرين(٣٥).

بدأ الجنود بسحبنا خارج السيارة، ودفعنا داخل الفرع، ليستقبلنا زبانيته بالكبلات الكهربائية، وقاموا بتجميعنا في بهو يقع بين الممرات.. جلسنا على الأرض في مكان ضيق فترة من الزمن تقارب الساعة، عندما بدءوا بإخراجنا إلى غرفة المحكمة، وكنت أول من دخل إليها، قرءوا اسمي فوقفت، فتقدم حارس ليخرجني من بين السجناء، وفك الغمامة عن عيني، والحبال من يدي، وسلمني لشخص آخر، طلب مني أن أتبعه. وفي الطريق سألني عن اسم مدينتي قائلاً: (من وين أنت ولك) فسميت له مدينتي، فقال لي: (واضراطه) فسكتّ حتى دخلت غرفة المحكمة بصحبة ذلك الشخص، وأجلسني على كرسي مقابل للمقعد الذي يجلس عليه من سمي قاضياً، بينما جلس هو على كرسي يقع إلى جانب طاولة القاضي، وهي طاولة مكتب، تقع بأحد جوانب الغرفة، وفي الزاوية المجاورة لها، وجدت كومة كبيرة من الكتب، وضعت بصورة اعتباطية. تأملتها فلمحت كتاب الإسلام للشيخ سعيد حوى، وكان القاضي يمسك بيده ديوان الإمام الشافعي عندما

دخلت الغرفة، فعرفت أن الكتب هي من المواد التي تمت مصادرتها من بيوت المعتقلين والملاحقين، أثناء عمليات التفتيش والمداهمة والتمشيط البربري.. وضع القاضي الكتاب جانباً، وأمسك بإضبارتي، وراح يقلبها، وسألني: من هو فلان؟ (يعني اسم الشخص الذي اعتقلت لمعرفتي إياه) فقلت له: جاري في الحي.

قال لي: (أكيد أنت ليس لك علاقة بالإخوان المسلمين؟).

فأجبته: نعم. وإذا ثبت أن لي علاقة بهم، فأنا على استعداد لتحمّل أقسى العقوبات. وضع الإضبارة جانباً، والتفت لكاتبه قائلاً له: اكتب: لا علاقة له بتنظيم الإخوان المسلمين، ولم يشارك بأعمال الشغب (المظاهرات والاضطرابات التي حصلت ضد السلطة في بعض المحافظات) وأن علاقته بفلان علاقة شخصية فقط. ووضع الكاتب بصمة إبهامي الأيسر على محضر الاستجواب، لكنه عاد فسألني ثانية: إذا كان الأمر كذلك، فما الذي جاء بك إلى هنا؟

بالطبع الإجابة على هذا السؤال واضحة، وهو يعرفها أكثر مني، ولكنه يريد استدراجي. الإجابة أن المخابرات هي التي جاءت بي لذلك المكان، ولكن هل يمكنني قول ذلك؟ بالطبع: لا. إنما عليّ الإجابة بطريقة أظن أنها ترضيه، وإن كانت تخالف قناعتي. قلت له: إن البلاد تمر الآن بظروف استثنائية، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات أن يظلم بعض الناس بسبب ذلك، فليس شرطاً أن يكون كل من دخل السجن مذنباً. فلم تعجبه إجابتي، ونظر إليّ بشزر قائلاً لي: يبدو إن دماغكم لم يُغسل بعد.. إنكم ما تزالون تجرءون على الكلام. فأصابني الارتباك، قلت في نفسي: ماذا عساي أن أقول ما يرضي هؤلاء المجرمين وفيه السلامة والنجاة؟ قلت له: إن المجرمين هم الذين يتحملون المسؤولية عن كل ما حصل، فليس للدولة مصلحة في توقيف أي مواطن، وأنا على استعداد للتعاون معكم لمصلحة الوطن.

وهكذا انتهت المحاكمة وأخرجني الكاتب من الغرفة وسلمني لأحد عناصر المخابرات الذي بادر لتعصيب عيني، وإيثاق يدي، ودفعني أمامه، بعد أن أمسكني من النقرة (الناحية الخلفية من الرقبة) وأنزلني على درج حتى وصلت إلى القبو، وأجلست على البلاط في أحد الممرات الواقعة بين الزنزانات، فتلقفني أحدهم بالسؤال: ماذا حُكمت؟ قلت له: لا شيء فلم يصدقني، وراح يضربني. قلت له: اذهب واسأل القاضي.

كانت العادة أن يقدم الكاتب (توصية) بالمعتقل الذي حكم بقضية ما، كأن يكون المعتقل من التنظيم المسلح، أو ممن له دور ما، أو ممن شارك في المظاهرات أو غيرها، حيث يقول للزبانية: (توصوا بهذا الحقير.. إنه كيت وكيت) وغالباً ما يعطي المعتقل تهمة أكبر بكثير من تهمته الحقيقية، كأن يقول لهم: هذا رئيس التنظيم بالمدينة الفلانية، ولا يكون المتهم كذلك، فقد يكون مسؤولاً

عن أسرة (حلقة حزبية) واحدة، أو ممن يعطي درساً في أحد المساجد. وفي هذه الحالة، يستقبله الجلادون بالضرب والإهانة، لقد حاكموا شخصاً كتب قصيدة يهجو بها النظام، ويعدد خياناته وجرائمه، مادحاً المجاهدين، والذين شاركوا بالانتفاضة ضد النظام في تلك الأيام، فوقعت هذه القصيدة في أيدي المخابرات، واعتقلوه من أجلها، وتعرض لتعذيب شديد، وحاول المحققون عبثاً إلحاق تهمة تنظيم جماعة الإخوان المسلمين، إذ لم يكن له أية علاقة بهم، وبعدها أرسلوه إلى سجن تدمر، وسيق منه إلى المحكمة الميدانية، وعندما قرأ القاضي اضبارته، ووقع بصره على القصيدة، شتمه بألفاظ فاجرة حقيرة، وقال له: أتصفنا بأننا خونة؟ والله لو كان مسدسي بيدي لأفرغته برأسك يا... وحكم عليه بالإعدام، وعندما خرج من الغرفة قال الكاتب للجلادين: هذا يصفنا بالخيانة، وأننا بعنا القنيطرة. فانهال عليه الجلادون ينهشونه ضرباً بالأسلاك المعدنية (وكانت من الكبلات الكهربائية) حتى تسلخ جلده، وأصيب بجروح عميقة في جميع أنحاء جسمه. وهكذا كان يتصرف القاضي، إذا قرأ كلمة لا تعجبه غضب بشدة، وحكم على المتهم بالإعدام، والويل كل الويل لمن كان متعلماً، حتى لو كان بريئاً، ولطالما أوصانا إخواننا بتجنب ذكر المهنة والمؤهل العلمي (كما هو الحال في سجن تدمر) ومع ذلك، فالكاتب كان يذكر للجلادين ذلك، ليخصوا المعتقل بالضرب والإهانة(٣٦).

وكان بيننا وقتها أحد الأطباء، وقد برأته محكمتهم، فوعده القاضي بإخلاء سبيله بأسرع وقت، كما وعده بنقله إلى سجن آخر، وأوصى السجانين بأن لا يتعرضوا له بالضرب والإهانة، ومع كل هذا، نال حظه من العذاب، وإن كان دون حظ إخوانه.

من توفيق الله لنا في ذلك اليوم، أن المجرمين انشغلوا به، فراحوا يسألونه أسئلة مختلفة، بهدف التهكم والسخرية، إرضاء لانحرافهم وهمجيتهم، فهم جميعا دون مستوى الدراسة الإعدادية، فيتناول أسئلتهم بجدية، ويجيبهم. واستمروا معه على ذلك حتى انقضى ذلك النهار الأسود، وأخذنا حظنا من التعذيب والضرب دون ما نال إخواننا في اليوم السابق. ثم سمحوا لنا بالخروج لدورات المياه لقضاء الحاجة وشرب الماء، ولكن بقينا بدون طعام طوال ذلك اليوم، حتى انتهت المحكمة وعدنا إلى سجن تدمر.

العودة لسجن تدمر: تبادلنا أطراف الحديث خلال رحلة العودة، والحبال تكاد تقطع أيدينا، حتى شعرنا بالألم الشديد، كما تورمت أيدينا نتيجة الضغط، وفكرنا بطريقة تخفف بها الألم، فقررنا فك الحبال، وهذا ممكن، فالأيدي موثقة للخلف، والأصابع حرة، فراح بعضنا يفك الحبال لمن جلس إلى جانبه، ممن يشتكي من الألم، ولم نكن نعرف أن الجنود الذين يجلسون في غرفة القيادة يراقبوننا، وفجأة توقفت السيارة، وصاح بنا الزبانية وهم يصعدون إليها قائلين: تفكون الحبال يا

حقراء يا... تريدون أن تهربوا يا.. (والله نقوسكن هون) وضربونا بأعقاب البنادق كما ضربني أحدهم على رأسي بمخزن البندقية، وقال لرئيس الدورية: هذا ألـ (ع رص) هو الذي فك الحبال. وصرخوا بنا متوعدين عندما نصل إلى السجن (منورجيكن يا...) (٣٧)، وأعادوا ربط الحبال. عند ذلك رحنا نتوجه إلى الله بالدعاء أن يكف أذاهم وشرهم عنا، فاستجاب الله دعاءنا.

وصلنا إلى السجن بعد المغرب، وأنزلونا من السيارة لنسير داخلين إليه. في تلك الأثناء ضاعت إحدى فردتي نعلي دون أن أشعر، لأنني فقدت الحس تماما فيهما، فلم أعد أشعر، وكنت أجرهما وكأنهما أرجل صناعية بسبب الجلوس المديد على المقاعد الخشبية القاسية خلال رحلة العذاب تلك.

دخلنا السجن، وبدأت عملية التفتيش، ليعرى كل سجين من ثيابه، وتفتش ملابسه بدقة. وهذه فرصة يستغلها الجلادون للضرب على الأجساد العارية، ولم نشعر كثيرا بألم السياط، لانتظارنا ما هو أدهى وأمر، ولكن الله سلم إذ أمر المساعد أول أبو جهل دورية الجلادين التي رافقتنا بأخذ إجازة يقضونها بعيدا، لتحل مكانهم دورية جديدة، ممن كانوا داخل السجن، لا يعلمون ما حصل معنا أثناء الرحلة، فلهذا لم نتعرض لحفلة استقبال كالتي تعرض لها إخواننا في اليوم السابق. وكان حظنا من الضرب والإهانة أقل، وعدنا لمهجعنا، ليلاقينا إخوتنا بالعناق والفرح على نجاتنا من التعذيب.

وعندما دخلت المهجع نظرت لقدمي فوجدت أنني ألبس إحدى نعلي مع شحاطة بلاستيكية التقطتها من الباحة، ظناً مني أنها لي، دون الانتباه للشكل واللون، ودون أن أشعر أنها ليست نعلاً، للإرهاق الشديد، ولفقدان الإحساس بأقدامي.

المحاكمة في سجن تدمر: يتم تجميع المعتقلين المراد محاكمتهم من الزنازين في باحة القلم، أو في الباحة الأولى.. يجلس الجميع على الأرض مغمضي العيون، مطأطئي الرؤوس، يتعرضون للمطر والبرد في فصل الشتاء، ولحرارة الشمس المحرقة في فصل الصيف، مع الضرب والإهانة من الجنود. ويتم إدخالهم إلى غرفة المحكمة واحداً تلو الآخر حسب الأسماء. ولجنة المحكمة مؤلفة من عدة أشخاص، يقال: إن غازي كنعان كان رئيساً لها. وشوهد بعض ضباط الوحدات الخاصة أو سرايا الدفاع يشاركون في بعض المحاكمات(٣٨) تتم بنفس الإجراءات التي في حمص، إذ يدخل المعتقل إلى غرفة المحكمة، فتوجه إليه بعض الأسئلة، فيملي القاضي على كاتبه خلاصة لإفادة المعتقل، كقوله (كرر إفادته بأنه كذا)... (أو أقر إفادته بأنه...) أو لا علاقة له بالتنظيم... أو غير منظم أو لاشيء يستحق الذكر حسب محضر التحقيق من فرع المخابرات، فتختصر الإفادة ببضع كلمات، أو عدة أسطر، وإذا حاول المعتقل إنكار شيء يعاد للدولاب (أي للتعذيب) وهذا الأمر

لم يكن موجوداً في حمص، لأن القاضي يملي على كاتبه دون أي التفات لما يقوله المعتقل، سواء بالنفي أو الإيجاب، أما الآن في تدمر، فالأمر مختلف تماماً، فالمعتقل قد يواجه تحقيقاً جديداً، وخاصة إذا لم يثبت محضر التحقيق أية تهمة عليه، فالقاضي لا يأخذ بمضمون الإفادة، إنما عليه أن يحقق بنفسه، لينتزع اعترافات جديدة من المعتقل لتدوينها في الإفادة النهائية، لتصبح حيثيات للحكم الذي سيصدره. ويتناصح المعتقلون بأنه لا جدوى من الإنكار أو المناقشة، وما على المعتقل إلا أن يوافق ويبصم على كل ما يريده المجرمون، وإلا فالتعذيب، ثم الموافقة بعد ذلك.

ويقضي المعتقلون نهارهم بالصورة التي وصفت، أي جالسين على الأرض، رؤوسهم مطأطأة، وأعينهم مغمضة، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، مهما كان الطقس، فلا يسمح لهم بالخروج إلى دورات المياه، أو شرب الماء، وتناول الطعام، وربما مكثوا على هذه الحال طوال النهار، حتى تنتهي اللجنة من محاكمة الجميع، ليعادوا إلى زنزاناتهم. أما الحالة النفسية للمعتقلين فلا يمكن وصفها، فقد استولى الخوف والرعب على الجميع، بسبب إعادة التحقيق مع بعضهم، وهم يعذبون أمام إخوانهم.

الجميع ينتظرون دورهم، ظانين أن مصيرهم كمصير أخيهم الذي يعذب أمامهم. فالكل يلهج إلى الله بالدعاء، أن يخفف عن أخيهم المعذب، وأن يلطف بهم، أما بقية المعتقلين في الزنزانات، فأيام المحكمة قاسية عليهم، خاصة نزلاء الباحتين:الأولى والثانية، لسماعهم أصوات المعذبين، إضافة إلى شراسة التعذيب في تلك الأيام، وتوزيع الطعام يتأخر كثيراً عن وقته المحدد، وكذلك الأمر بالنسبة للتفقد، فيصطف السجناء ساعات طويلة بانتظاره دون أن يحضر المجرمون، ويبقى المعتقلون واقفين ينتظرون فصلاً جديداً من فصول التعذيب، فالجلادون مشغولون بواجبهم الوطني!! أما الحالة النفسية فسيئة جداً، فقد سيطر الخوف والرعب على الجميع، خاصة الذين لما تنته محاكمتهم بعد، فكل منهم ينتظر دوره، وهذا أشد على النفس من التعذيب.

انتقال المحكمة الميدانية لسجن تدمر: وفي الشهور الأخيرة من عام ١٩٨٠ بلغت الاعتقالات ذروتها، فزاد عدد سجناء تدمر كثيراً (حوالي ثلاثة آلاف معتقل) لذلك أصبح من المستحيل نقلهم إلى حمص من أجل المحاكمة بنفس الطريقة، فتقرر أن تحضر المحكمة الميدانية مرة أو مرتين أسبوعياً لمحاكمة المعتقلين، ويصل العدد في كل مرة حوالي ٦٠ معتقلاً أو أكثر لذا، فالذي يدخل السجن، عليه الانتظار مدة تتراوح بين ستة أشهر حتى السنة ليأتي دوره في المحاكمة. وأراح انتقال المحكمة الميدانية إلى تدمر السجناء من عذاب سفر، إنما أضيفت مآس جديدة لإعادة التحقيق مع بعض المعتقلين.

إعادة التحقيق مع بعض المعتقلين: سمي سجن تدمر بمركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين، لذلك كانت الغاية الأولى والأخيرة منه تصفية الإسلاميين جسدياً ومعنوياً، ولكي تتم هذه العملية كان لابد من بعض الإجراءات الصورية، لتعطي التمثيلية بعداً قانونياً، لذلك سن القانون ٤٩ وأنشئت المحاكم الميدانية لهذه الغاية... وتحرص فروع المخابرات على تلفيق التهم للمعتقلين قبل إرسالهم إلى السجن، واشتهرت بعض الفروع بذلك، كالمخابرات العسكرية في إدلب وحمص وجميع فروع اللاذقية، وهناك فروع أخرى لم تتحرى الدقة نسبياً في تحقيقاتها كفروع دمشق وحلب، ولم يدفعهم حرصهم على تحري الحقيقة وإقامة العدالة ورفع المظالم لتوخي الدقة في عملهم، إنما كان حرصهم على تجنب التضليل، والانشغال بقضايا لا طائل منها. وبالتالي تبقى الانتفاضة مستمرة لعدم كشف العناصر الفاعلة فيها أي أنهم يراعون مصلحتهم أولاً وأخيراً.

ورغم ذلك، تقع في كثير من الأحيان الأخطاء، ومنها تعرض بعض المعتقلين للتعذيب الشديد ولفترة طويلة، مما يفقدهم القدرة على المحاكمة العقلية، فيصابون بالانهيار النفسي والعقلي، فيرمون التهم جزافاً، ويعترفون على أشخاص لا تربطهم بهم أية علاقة تنظيمية، سوى أنهم يحفظون أسماءهم بسبب الجوار أو ما شابهه، وتقوم المخابرات باعتقال الذين وردت أسماؤهم للتحقيق معهم، وبما أنهم أبرياء لا يعرفون شيئاً، فإنهم يتعرضون لتعذيب شديد، ربما أدى لانهيارهم واعترافهم بأمور لا علاقة لهم بها، ويعترفون على آخرين، وهكذا، ليدخل التحقيق حلقة مفرغة، مما يضطرهم لإغلاق ملفه، لاكتشاف وقوعهم في التضليل، تاركين الأمور معلقة للمحكمة الميدانية لتبت فيها، وقد يذكر المحققون رأيهم، كأن يدونوا في محضر التحقيق أن فلاناً قد اعترف على هذا المعتقل كيت وكيت، وعند التحقيق معه لم تثبت التهمة، وقد نفى المعتقل ذلك. وربما أكدوا أن الشخص قد اعترف عاد ونفى التهمة التي نسبها إليه، وأقر أنه اضطر لذلك ليتخلص من التعذيب. ولا ننكر الحالات النادرة التي برأت المحكمة الميدانية فيها بعض الذين اعتقلوا بهذه الصورة، ولكن في أكثر الحالات يقوم القاضي بإعادة التحقيق مع المعتقلين ليلصق بهم التهم التي يريدها، خاصة إذا كان السجين عسكرياً، أو له علاقة بأحد المجاهدين. وبالطبع فلا حاجة للأدلة هنا، لأن التحقيق لا يهدف إلى كشف المزيد من المعلومات، واعتقال المزيد من الناس، كما هو الحال في فروع المخابرات، إنما يكفي اعتراف الشخص أنه منظم، أو أنه فعل كيت وكيت، ويوقع على ذلك، وينتهي كل شيء. فهدف التحقيق إدانة الشخص، ليرسل إلى حبل المشنقة. وذكر لي الأخوة قول القاضي له: (أريد أن آخذ منك كلمتين لأعدمك بعد ذلك).

ومن الأشخاص الذين يتعرضون للتعذيب الشديد ولفترة طويلة: العسكريون (ضباط الجيش) والمجاهدون، والذين لهم دور قيادي كالمسؤول عن عدة أسر، أو المراسل الذي يعرف عدداً كبيراً من الناس. وبالعكس، فقد يكون الشخص ليس له أي دور، ولا يعرف شيئاً، ويصر على النفي بإجاباته، فيظن المحققون أنه يكذب، فيستمرون في تعذيبه، فيقع التضليل بالتحقيق (أي يعترف الضحية اعترافات كاذبة).

وتحتفظ أجهزة المخابرات بالأشخاص الذين وقعوا ضحية لاعترافات كاذبة في أغلب الأحيان، خاصة إذا كانوا عسكريين، وأذكر أحد الطيارين من بلدة القريتين في محافظة حمص، قد أورد اسمه عسكري آخر بنفس الطريقة، وعندما وصل إلى المحكمة الميدانية، أصر على النفي، فما كان من القاضي إلا أن أمر زبانيته بضربه حتى الموت، فضربوه بالعصا الغليظة حتى قضوا عليه تماماً، وذلك في أوائل عام ١٩٨١.

التهم الموجهة للمعتقلين: يعتبر سجن تدمر وقفاً على الإخوان المسلمين، فغالبية نزلائه منهم، إما لارتباطهم المباشر، أو غير المباشر بالجماعة، سواء كانوا أعضاء، أو ممن تعاونوا معهم، أو شاركوا بأعمال ضد السلطة في تلك الأثناء. وحتى الرهائن والشهود أرسلوا لذلك السجن، وبالتالي فالتهم الموجهة للمعتقلين هي:

١ - الانتساب لجماعة الإخوان المسلمين (الفرع السياسي). وهنا يميز الشخص العادي عن الذي له دور ما، كالمسؤول عن أسرة واحدة أو أكثر، والمراسلين، والذين قاموا بنشاطات دعوية، كإلقاء الدروس العامة بالمساجد.

٢ - التنظيم المسلح: (الطليعة المقاتلة) سواء أشارك السجين بأي نشاط أو لم يقم بأي عمل.

٣ -الأشخاص الذين يحضرون دروساً في حفظ القرآن وتفسيره في المساجد، خاصة إذا كان الذي يلقي الدروس من الإخوان المسلمين، كالشيخ محمد علي مشعل بحمص. واشتهر المجرم غازي كنعان باعتقال أعداد كبيرة من الأشخاص بهذه التهمة، حتى أنه اعتقل الذين حضروا في السنوات الماضية، ثم انقطعوا، وربما لم يحضر بعضهم سوى مرة واحدة، لأنه (غازي كنعان) يعتبر حضور الدروس العام في المسجد مرحلة أولى للتنظيم (مرحلة الأسرة المفتوحة) لذلك يكفي اعتراف الشخص بأنه حضر درساً أو عدة دروس بالمسجد، لتوجه إليه تهمة التنظيم وعدد هؤلاء المعتقلين كبيراً جداً، ويشكلون ٨٠% من معتقلي مدينة حمص. أما في المدن الأخرى، وخاصة دمشق وحلب، ففروع المخابرات لم تعتقل هذه الفئة (بشكل عام) لاعتقادهم أن ذلك سيجرهم لاعتقال أعداد كبيرة من الناس دون طائل.

٤ - المتهمون بتقديم أي شكل من أشكال الدعم المادي أو المعنوي للتنظيم، كإيواء الملاحقين، أو جمع التبرعات لهم، أو مساعدة أسر المعتقلين والشهداء، أو توزيع أو طبع المنشورات... الخ.

٥ - الأشخاص المشتبه بعلاقتهم بالتنظيم، لعلاقتهم الشخصية بأفراد منه، كأن يكون الشخص بطريق الصدفة عند أحد أفراد التنظيم أثناء اعتقاله، أو يرد اسمه أثناء التحقيق بطريقة ما، دون أن توجه له أي تهمة، أو العثور على اسمه مع أحد أفراد التنظيم، أو ببيته، وكذلك الأشخاص المعتقلون بسبب تشابه الأسماء.

٦ - الأشخاص الذين قاموا بأعمال أدت لفائدة التنظيم، أو أحد أفراده، أو سهلت لهم مهمتهم دون أن يقصد هذا (مساعدة التنظيم) كأن يكون الشخص قد أجر مسكنه لأحد أفراد الجماعة، أو باع بيتاً أو أرضاً أو سيارة، وقامت أجهزة الأمن بإذاعة قرار حكومي، ينص على وجوب مراجعة دوائر الأمن عند بيع أو تأجير البيوت، وملء أوراق خاصة تسلم لمراكز الشرطة بنفس الحي. وقد يكون الشخص أصلح سيارة معطلة، أو قام بتوصيل أحد الناس بسيارته دون أن يعرفه، أو عالج أحد المرضى أو المصابين، أو كتب عقد زواج لشخص ما، فهذه الفئة تضم عدداً لا حصر له من التهم.

٧ - المشاركون في أعمال الانتفاضة ضد السلطة التي عمت جميع أرجاء البلاد في عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ خاصة في مدينتي حلب وحماة، أو الذين حرضوا عليها بالخطب وطبع المنشورات والبيانات وتوزيعها. وكانت العبارة المستعملة لدى السلطة، هي المشاركة أو التحريض على أعمال الشغب.

٨ -الأشخاص الذين تكتموا على أية معلومات تتعلق بالتنظيم، كمفاتحة أحد أفراده بالانتساب للجماعة، أو حصل على منشور من شخص يعرفه، أو سمع كلاماً يتعلق بذلك وتكتم عليه، أو سمع أحد الأشخاص يشتم السلطة وتكتم عليه، حتى الذين قرؤوا المنشورات كالنذير والنصر والمجاهد وغيرها من المنشورات التي وزعت في تلك الفترة، يعتبرون من هذه الفئة، إذ على الشخص أن يعلم أجهزة الأمن بكل ما يقع تحت يديه وسمعه وبصره من أمور تتعلق بأمن النظام، حتى يعتبر مواطناً صالحاً. وبتعبير أصح على كل مواطن أن يكون عميلاً ومخبراً للسلطة، وإلا فهو عدو خائن للنظام البوليسي الفاشي الطائفي.

٩ - الرهائن والشهود: وهم أقارب الملاحقين، سواء أكانوا من المجاهدين أم لا، وتعتقل السلطة الرهائن من أجل الضغط على الملاحقين لتسليم أنفسهم، ليتجنبوا القيام بأية أعمال جهادية، حرصاً على سلامة أقاربهم. وكلما كانت التهمة الموجهة للملاحق كبيرة، يزداد طرداً عدد الرهائن، فمثلاً قامت المخابرات العسكرية في حلب باعتقال ١٣ شخصاً من أقارب الشهيد

النقيب إبراهيم اليوسف، واعتقل المجرم غازي كنعان ٥ أشخاص من عائلة علواني مـن أقـارب المجاهد أكرم علواني. أما الشهود فهم الأشخاص الذين شهدوا حادثاً ما، أو يعتقد بـأن لـديهم معلومات يمكن الاستفادة منها، دون أن يكون لهم أي دور أو أية (نوايا) ضد السـلطة، مثـال ذلك، عند اعتقال أحد ضباط الجيش، تعتقل المخابرات حاجبه وسائقه ومرافقـه لاسـتجوابهم والاستفادة مما لديهم من معلومات، كأسماء الأشخاص الذين يترددون على ذلك الضابط. والأمر كذلك بالنسبة للأشخاص الذين شاهدوا عملية للمجاهدين بحكم وجودهم في مكـان العمليـة، فيعتقلون للاستفادة مما لديهم من معلومات، ويودعون السجن لاعتبارات أمنية، حتى لا تخـرج أخبار السجن للخارج (راجع فصل الاعتقال التعسفي).

١٠ -قدماء منتسبي الحركة الإسلامية، ممن كانوا منتسبين للدعوة في الماضي، ولم تعد لهم أية صلة منذ زمن بعيد. فقد اعتقل المجرم غازي كنعان المنتسبين للجماعة بعقـد الخمـسينات، والـذين انقطعت صلتهم منذ ثلاثين عاماً، وصار بعضهم أعضاء في حزب البعث، كما حصل مـع أحـد الأشخاص من عائلة صافي، والذي ترك الجماعة منذ عقد الستينيات، وانتسب لحـزب البعـث بعدها، ورغم ذلك، فلم يشفع له انتسابه لحزب السلطة، وولاؤه لها عند غازي كنعان، فلا مكان (للتوبة) و(التراجع عن الخطأ) عند الجلادين، كما تم اعتقال كل من سبق اعتقاله في الـسنوات الماضية، بتهمة حزب التحرير وبعض هؤلاء لم يواجه أي تحقيق، إنما أخذوا مباشـرة إلى سـجن تدمر.

الأحكام الصادرة عن المحاكم الميدانية: - الحكم بالإعدام:

نص القانون ٤٩ بإعدام كل منتسب لجماعة الإخوان المسلمين، على أن يطبق القانون بـصورة رجعية (أي على جميع المنتسبين قبل إصداره) واختلف تطبيقه بين فترة وأخرى، ففـي النـصف الأخير من عام ١٩٨٠ وبعد المجزرة الكبرى في سجن تدمر، كان حكم الإعدام هـو القاعـدة العامة، وما عداه من أحكام هي استثناءات أو شواذ. وحكم بالإعدام على كل منتسب للجماعة حتى تاريخ اعتقاله، سواء كان في التنظيم السياسي أو المسلح، وسواء أكان شخـصاً عاديـاً أم مسؤولاً. كما طبق القانون أيضاً على الأشخاص الذين اعتقلوا في السنوات السابقة للأحداث أي قبل عام ١٩٧٩ وبالتحديد منذ عام ١٩٧٥ إذ اعتقلت المخابرات العسكرية عدداً كبيراً مـن الأشخاص بعد اعتقال الشيخ مروان حديد وإخوانه في ذلك العام، ولم يتم الإفراج عنـهم مـع الذين أخلي سبيلهم عام ١٩٨٠ ونقلوا إلى تدمر بعد المجزرة، ومنه إلى المحكمة الميدانية في حمص، ليحكم على أكثرهم بالإعدام. وأما في عام ١٩٨٢ وما بعده، فقد اقتصر حكم الإعـدام علـى أعضاء التنظيم المسلح، وعلى كل من له علاقة به، كالذين قدموا مساعدات ماديـة، أو قـاموا

بتهريب الأسلحة، أو حيازتها، وإيواء الملاحقين، وعلى مسؤولي التنظيم السياسي فقط، كالمسؤول عن أسرة أو أكثر، أو المراسلين والعسكريين.. وطبق أيضاً على الأشخاص الذين نظموا أثناء الأحداث، لأن ذلك يدل على عدائهم للنظام، وسوء نيتهم، أي أن لديهم نوايا للقيام بأعمال مضادة للنظام (حسب تعبير الطغاة).

والفئة الثانية من المعتقلين الذين حكم عليهم بالإعدام، هم الأشخاص الذين شاركوا في المظاهرات وأعمال التمرد على السلطة التي عمّت البلاد عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ والتي سمتها العصابة الحاكمة أعمال الشغب. وقد اشتهرت بعض فروع المخابرات بتلفيق تلك التهم، وذلك عندما يجد المحققون أنفسهم عاجزين عن إلصاق تهمة التنظيم بأحد المعتقلين، فإنهم كانوا يرمونهم بهذه التهمة، لأن تهمة التنظيم لها ما بعدها، أما هذه التهمة فلا تحتاج إلى دليل أو شهود أو تفاصيل أو أي تحليل للدوافع، فقط يكفي أن يكتب المحقق في المحضر جملة (شارك بأعمال الشغب بمدينة كذا..) ليلقى المعتقل حتفه، وهذه بعض الحقائق شاهدة على ذلك:

١ - مالك الحكيم: سماه المعتقلون بمالك الحزين بعدما عرفوا قصته، ويلقب بمدينة اللاذقية بـ(شطي) يعمل بالبحر صياداً للأسماك، اعتقل أوائل عام ١٩٨٠ وهو من أبعد الناس عن السياسة وفعالياتها، وأخلي سبيله بعد مدة، ومن سوء حظه أنه كان يحمل مبلغ ٣٠٠٠ ليرة سورية أثناء اعتقاله، وصودرت تلك الأموال مع بقية أغراضه قبل دخوله قسم التحقيق، وعندما أخلي سبيله لم يسترجع أمواله المصادرة، لأنه لم يفكر بها، لفرحته بالخلاص من السجن الذي غطى على ما سواه، فالحرية والخلاص من الأسر والإهانة أعز على الإنسان مما سواها، وبعد مدة تزوج فاحتاج للمال، فنصحه بعض أصدقائه بالعودة إلى فرع المخابرات يطالبهم بأمواله المؤمنة لديهم منذ اعتقاله، كيف لا وهو بريء وأخلي سبيله على هذا الأساس، ورد له اعتباره، فليس لهم الحق بمصادرة أمواله، عاد مالك الحزين إلى فرع المخابرات يسأل عن أمواله، فأحيل للضابط المسؤول، وراح يناقشه في الأمر، والضابط يصر على أنهم لم يصادروا منه شيئاً، وأنهم أعادوا إليه جميع أغراضه، لم يكترث ذلك المسكين لأقواله، وظل يؤكد على حقه، فما كان من ذلك المجرم إلا أن قال له: (انتظر قليلاً.. هلق منجيب لك مصاريك) ونادى كلابه وقال لهم: خذوا هذا الحقير إلى التحقيق، وهناك وقعت الطامة الكبرى!!

قام الزبانية بجره لغرفة التعذيب، وجردوه من ملابسه، ثم وضعوه في الدولاب وراحوا يجلدونه وهو يصرخ ويستغيث، وجاء الضابط ولفق له تهمة المشاركة بأعمال الشغب، وأنه شارك في إحدى المظاهرات، وكان يحمل مسدساً وقنابل يدوية.. وأطلق عدة طلقات في الهواء، دون أن يكون له أية علاقة بذلك، ودون أي دليل.. وكتب ذلك المجرم بمحضر التحقيق: أن مالك الحكيم

قد رمى مسدسه والقنابل في البحر!؟؟ ثم أرسل ذلك المسكين بعد ذلك إلى كفر سوسة في دمشق، وأحيل منها إلى تدمر، ليحكم عليه بالإعدام بتهمة المشاركة بأعمال الشغب.

٢ - عبد الكريم النايف: كان يعمل إماماً بمسجد الأنصار في بلدة جسر الشغور بمحافظة إدلب. اعتقلته الوحدات الخاصة في شهر آذار من عام ١٩٨٠ عند اقتحام البلدة بسبب الانتفاضة الشعبية العارمة، تعرض للتعذيب الشديد حتى أشرف على الموت، فنقل للمستشفى العسكري بإدلب للمعالجة، وعندما تماثل للشفاء أرسل إلى فرع المخابرات العسكرية للتحقيق معه، وأعيد تعذيبه ثانية، ولم يكن لدى المحققين أية أدلة ضده، سوى تقارير المخبرين، ولم يعترف بالتهم الموجهة إليه، لكنهم لفقوا له تهمة التحريض على أعمال الشغب، والمشاركة بها، ونقل إلى سجن تدمر في نهاية عام ١٩٨٠ وحكمت عليه المحكمة الميدانية بالإعدام منتصف عام ١٩٨١.

٣ - عبد الكريم شخيص: من مدينة اللاذقية، وكان مجنداً بسرايا الدفاع أثناء اعتقاله في بداية عام ١٩٨١ إذ وردت ضده تقارير، مفادها أنه قتل أحد أعوان السلطة، وفجّر مؤسسة استهلاكية.. تولت مخابرات سرايا الدفاع التحقيق معه، فعُذّب بصورة وحشية، وتقطعت بعض أصابع رجليه نتيجة ذلك، فاضطر للاعتراف بالتهم الموجهة إليه.. فنقل إلى فرع أمن الدولة في اللاذقية، وتبيّن للفرع أن اعترافاته كانت (مضللة) فقد تمكنوا من كشف الفاعلين الحقيقيين، ومع ذلك لفقوا له تهمة المشاركة بأعمال الشغب، وأحيل إلى كفر سوسة، لينقل بعدها إلى سجن تدمر، فيحكم عليه بالإعدام في عام ١٩٨٢.

هكذا كانت تهمة المشاركة بأعمال الشغب أو التحريض عليها من التهم المطاطة التي يسهل إلصاقها بالمتهم عند العجز عن إدانته بتهمة محددة، وكانت نسبة المعتقلين الذين يحكمون بالإعدام في بعض المحافظات كإدلب تصل إلى ٨٠% من المجموع الكلي، بسبب هذه التهمة اللعينة التي يسهل إلصاقها بأي إنسان. ورب كلمة في حالة الغضب فسّرت على أنها تحريض على الشغب.

وكان القاضي يفصح للمعتقل عن الحكم الذي أصدره بحقه، كأن يقول له: (إعدام) أو (والله لأعدمك يا ع.. ر..ص) أو (بدنا نعلقك أو بدنا نصفيك أو يشير على رقبته أي سنقطع رقبتك) وقد لا يتكلم شيئاً إنما يكتفي بأن يقول للمعتقل: (انقلع) عند انتهاء المحكمة.

وبالنسبة لكلمة إعدام، تستعمل بكثرة أثناء المحاكمات، حتى للأشخاص الذين لم يحكموا بالإعدام، واستعملت لأشخاص حكموا بالبراءة، وذلك حسب حدة مزاج القاضي، إما لإعادة التحقيق مع بعض المعتقلين، أو عندما يكون لآخرين تهم كبيرة، فيحتدّ مزاجه بعد قراءة الإضبارة، فيحكم عليهم بالإعدام، ثم يوصي كلابه ليوقعوا بهم أشد الأذى بعد المحكمة، كما يصبحون معروفين لدى زبانية السجن الذين يخصونهم بتعذيب إضافي في كل مناسبة، لذلك كان القاضي يصاب

بالجنون ويفقد صوابه فلا يلفظ إلا كلمات فاجرة مع جميع المعتقلين أياً كانت تهمهم، والحكم الذي صدر ضدهم، لذا يظل أكثر المعتقلين لا يعرفون بالضبط الأحكام الصادرة بحقهم.

٢ - الحكم بالسجن ١٥ عاماً وحتى المؤبد:

ويحكم به كل من لهم علاقة سابقة بالتنظيم، أو يحضرون دروس حفظ وتفسير القرآن في المساجد، وتعتبر هذه المرحلة (مرحلة الحلقة المفتوحة) أولى مراحل التنظيم، فالشخص لديه رغبة في الانتساب، وهو مؤهل له، وأيضاً بالنسبة لمن انسحبوا من التنظيم حسب القانون ٤٩ ولكنهم قاموا بدور ما قبل انسحابهم، كالمراسلين أو المسؤولين عن أسرة أو عدة أسر.

٣ -الحكم بالسجن لمدة عامين فما فوق:

للأشخاص الذين تكتموا على أية معلومات تتعلق بالإخوان المسلمين، أو بأمن الدولة (حسب تعبير الطغمة) وحتى لو تكتم الشخص على آخر شتم السلطة أو أجهزتها القمعية، أو تكلم ضد النظام، ويعتبر المجرمون قراءة مجلة النذير وغيرها من النشرات المعادية للسلطة كتماً للمعلومات كما ذكرنا سابقاً.

- الحكم بالبراءة مع وقف التنفيذ: على الذين لم يثبت التحقيق إدانتهم بأي اتهام، كالرهائن والشهود، أو الذين اعتقلوا اعتباطياً، كمن أوقفوا بسبب تشابه الأسماء، ولم تثبت إدانتهم، أو الذين انسحبوا من التنظيم حسب القانون ٤٩ ولم يكن لهم أي دور يذكر قبل انسحابهم، سوى حضور الدروس بالمساجد، أو الذين كانت لهم علاقات سابقة بالتنظيم (بعقد السبعينات) ثم انسحبوا حسب القانون ٤٩، والأشخاص الذين تركوا التنظيم في عقد الخمسينيات، ومن قام بعمل معتاد فحصلت منه فائدة للتنظيم، كأن يكون باع بيتاً لأحد الناس، وهذا بدوره استعمله لإيواء الملاحقين، أو باع سيارة لشخص ما استعملها لأغراض التنظيم، أو باع أرضاً، أو قام بتوصيل أحد الناس بسيارته، أو صلح سيارة، وحتى أن بعضهم كتب عقد زواج لأحد أفراد الجماعة، فهذه الفئة لا يمكن حصرها، فالمخابرات كانت تعتقل كل من قام بعملٍ من ذلك، حتى أن المجرم غازي كنعان قال أكثر من مرة: إنه سيعتقل حتى الذين يلقون السلام على الإخوان المسلمين. وقد اعتقل فعلاً أشخاصاً بتهم مشابهة لذلك، فحصد بمناجل حقده الطائفي الذين سكنوا أثناء فترة دراستهم الجامعية مع زملاء لهم علاقة بالإخوان المسلمين، ولعل من أكثر الفصول ظلماً لهذه الفئة من الناس، والذين تبلغ نسبتهم حوالي ثلث المعتقلين، ويجب ألا يدخلوا السجن بتاتاً، وإذا دخلوا بقصد التحقيق والاستفادة مما لديهم من معلومات، وثبتت براءتهم، فالمفروض إخلاء سبيلهم، وإن تعذر ذلك لاعتبارات أمنية، فيفترض حجزهم في سجون مدنيّة لا يتعرضون فيها لأية إهانة، ويسمح لذويهم بزيارتهم، ويعاملون كغيرهم من السجناء في جميع بلاد

الدنيا، حتى تسمح الظروف الأمنية بإخلاء سبيلهم، ولكن الذي حصل، هو أن هؤلاء الأشخاص، ورغم براءتهم الواضحة في أكثر الأحيان، ومنذ اللحظات الأولى لاعتقالهم، فإنهم رحلوا إلى سجن الموت بتدمر، وتعرضوا لأسوأ أنواع المعاملات، واستشهد بعضهم تحت التعذيب، وهذه بعض نماذجهم:

١ -حسن شغيل: ذهب لزيارة أخته في بيتها، فحضرت دورية المخابرات لاعتقال صهره، فخرج لاستقبالهم، فسألوه عن صهره، فقال لهم: غير موجود ودعاهم لداخل المنزل، فسأله رئيس الدورية بعض الأسئلة، ودقق في هويته، ثم قال له تفضل معنا للفرع ربع ساعة، تعود بعدها للبيت!! فذهب معهم. وهناك في فرع المخابرات (عند غازي كنعان) لم يتعرض لشيء، لأنه ينتمي لأحد أجنحة الناصريين الموالين للسلطة. وأرسل فرع الحزب في حمص توصية به، ثم تعرّض لتحقيق لين، فسئل عدة أسئلة فقط، ونقل بعدها إلى سجن البولوني في حمص، ومنه إلى تدمر أوائل عام ١٩٨١ فتعرض لحفلة استقبال رهيبة. وكان الرقيب فيصل رئيساً للدورية المناوبة، فضربه بالعصا الغليظة على صدره وبطنه وظهره، مما أدى لكسور عديدة بعظام القفص الصدري، مع نزيف داخلي، نتيجة لتمزق الأحشاء (الكبد والطحال كما ذكر الأخوة الأطباء يومها) وبعد فترة قصيرة من إدخاله محمولاً إلى المهجع الرابع في الباحة الثانية، قرع باب المهجع، ليعلن رئيسه وفاة ذلك السجين، وبعد فترة وجيزة أخرى قرع الباب ثانية بسبب وفاة شخص آخر من عائلة صافي بحمص، ومن نفس الدفعة، ولنفس السبب السابق، فحضر مدير السجن (الرائد فيصل غانم) واكتفى بتوجيه بضع كلمات قاسية للرقيب فيصل وانتهى كل شيء.

وكما ذكرت سابقاً، كانت أجهزة الأمن حريصة على أرواح المعتقلين لاعتبارات أمنية (بهدف الاستفادة مما لديهم من معلومات قد تكشفها الأيام) وهذا أمر يعرفه مدير السجن، أما الجرذان الصغار أمثال الرقيب فيصل وغيره، فلا يفهمون هذه الأمور، ويتصرفون بدافع حقدهم فقط.

٢ - الحاج هاشم الحبال: وقد تعرضتُ لقصته سابقاً، وقد حكمته المحكمة الميدانية بالبراءة، ومع ذلك فقد مات نتيجة للتعذيب والإهمال.

٣ - عبد المهيمن شعار: من مدينة حمص، اعتقل عام ١٩٨٠ وكان عمره آنذاك ١٨ عاماً. لم تكن له أية تهمة سوى حضور دروس القرآن بالمسجد، وهو مصاب بأمراض عديدة، منها تشوهات بالعمود الفقري، والقدمين، ومرض السكري، إذ لا يقوى على الوقوف مدة طويلة، ولا يقوى على الركض، فهو بحكم العاجز. ومع ذلك، فقد أرسله المجرم غازي كنعان إلى سجن تدمر، وتوفي في بداية عام ١٩٨٦ نتيجة للإهمال وسوء المعاملة.

واعتاد القاضي تلخيص إفادة المعتقل في بضع كلمات، أو عدة جمل، يحدد بها التهمة التي تعتبر بمثابة حيثيات للحكم الذي سيصدره، ثم يكتب الحكم، وهو مقرر سلفا من قبل دوائر المخابرات، لأن ملفات المعتقلين ترفع إلى ما يسمى باللجنة الأمنية العليا (التي تضم رؤساء شعب المخابرات المختلفة) لوضع الأحكام، خاصة حكم الإعدام، ويعرض المعتقلون بعدها على المحكمة الصورية التي تحدثنا عنها لإصدار العقوبات المختلفة، وأما أحكام الإعدام فتجمع في قوائم مقرونة بأسماء المحكومين، وترسل للصنم الكبير، ليوقع عليها، فتصبح سارية المفعول، ثم تحضر لجنة من المحكمة الميدانية إلى السجن، للإشراف على تنفيذها، هذا وقبل التحدث عن عمليات الإعدام تلك، لابد لي من كلمة أخيرة حول أحكام تلك المحاكم.

الأحكام التعسفية المثيرة للسخرية: تحدثنا سابقاً عن تلفيق فروع المخابرات التهم للمعتقلين، كتهمة الشغب. والأمر لم ينته عند هذا الحد، فالمحاكم الميدانية تلفق التهم للسجناء، بغية إنزال أشد العقوبات بهم. وإذا لم يتمكنوا من تلفيق التهم بالصورة التي تحدثنا عنها سابقا، فإنهم ابتدعوا تهمة أسموها العداء للاشتراكية أي كره الاشتراكية؟؟!! يا للسخرية؟ هل يوجد بلد في العالم يحاسب الإنسان على مشاعره؟ ومثال آخر على الأحكام المثيرة للسخرية، قضية الأخ المرحوم أحمد غنوم، كان عميداً بالجيش اعتقل عام ١٩٨٠ لأن أحد إخوانه من المجاهدين ويدعى محمود جربان، وقد ادعت المخابرات العسكرية وقتها أنهم وجدوا اسمه مع المرحوم حسني عابو، والتهمة باطلة لأن المرحوم حسني عابو اعتقل من قبل المخابرات العامة، ومن المعروف أن كل شعبة مخابرات تعمل بصورة مستقلة عن غيرها وضمن جميع قطاعات الشعب (أي بين الجيش والمدنيين) وكل فرع يتولى التحقيق بالقضايا التي تتناهى إليه واعتقال المتهمين والمشبوهين أيا كانوا مع التنافس الشديد بين تلك الأجهزة الأخطبوطية لإثبات وجودها، عُرض الأخ المذكور على المحكمة الميدانية في سجن المزة فحكم بالسجن المؤبد أما حيثيات الحكم فكانت كما يلي: يشتبه بانتمائه لعصابة الإخوان المسلمين لأن شقيقه المجرم (محمود جربان) من عصابة الإجرام (من المجاهدين) عثر على اسمه مع المجرم حسني عابو، فسخر منهم المرحوم أحمد غنوم وسألهم هل يوجد بلد في العالم يصدر حكماً على أي متهم لمجرد الشك؟ افعلوا ما بدا لكم. والأمثلة على ذلك كثيرة. وهذا هو شأن الظالمين في كل زمان ومكان، ولكن القرامطة الجدد قد تفوقوا على غيرهم من الطغاة.

عمليات الإعدام بسجن تدمر: وتتم بعد حوالي شهر ونصف من صدور الحكم بحق المتهم، إذ يقوم الجلادون بعد منتصف الليل، أو في الصباح الباكر غالباً، وأحياناً بوضح النهار، يقوم الجلادون بقراءة أسماء معينة، قائلين لهم: جهزوا أنفسكم، واجمعوا جميع أغراضكم، وأنهوا كل

شيء فإنكم ستخرجون من السجن إلى مكان آخر. فيخرج السجناء إلى الباحة، لتكبل أيـــديهم، وتوضع العصابات على أعينهم، ويؤخذون إلى حيث لا نعلم.

في البداية كنا نجهل عمليات الإعدام، لأننا بعيدون عن ساحة الإعدام، نعيش المجهول فكـــل مـــا حولنا طلاسم ومعميات، كما اعتدنا تفسير كل شيء بصورة إيجابية لحسن نوايانا، وكمـــنعكس إضافي يضاف إلى ذلك، أننا اعتقلنا قبل إصدار القانون ٤٩ ولم نعلم به إلا بعد أن قضينا عـــدة شهور في تدمر. وقد وصلتنا أخبار عمليات الإعدام من خلال مهجع الجرب، وعلمنا بالتفاصيل بصورة أدق بعد عمليات الفرز التي تمت بين السجناء، فمكثنا مدة طويلة مع أخوة لنا كـــانوا في مهاجع الباحة السادسة (حيث تتم عمليات الإعدام) فرووا لنا المأساة بكل تفاصيلها المؤلمة.

يجمع المعتقلون في غرفة الورشة الواقعة بجانب المهجع ٢٥ ببداية الباحة الـــسادسة مـــن الجهـــة الغربية، ويقوم رئيس الدورية المناوبة بتلاوة قرار المحكمة (المرفق بقائمة الأسماء) على الـــضحايا، واستطاع نزلاء المهجع ٢٥ سماع ذلك في الشهور الأخيرة من عام ١٩٨٠ ويقوم الجلادون بجر السجناء واحد تلو الآخر حسب القائمة، بعد التأكد من ذاتياهم، ليتم تعلـــيقهم علـــى أعـــواد المشانق.

كانت التكبيرات تدوي في أرجاء الباحة السادسة، واتفق بعض الشهداء مـــع إخـــوالهم داخـــل الزنازين على ترديد جمل معينة عند وضع أنشوطه الشنق في أعناقهم، لإبلاغهم تنفيذ عمليـــات الإعدام، ويختفي صوت الضحية تدريجيا، ليسلم روحه إلى بارئها.

وتشكك السجناء من حقيقة الإعدام، وخاصة نزلاء الزنازين البعيدة نسبياً عن مكـــان المـــشانق (ضمن باحة الإعدام) ولم يعرفوا حقيقة ما يجري، لأنه يتم توزيع عناصر الحراسة أثناءها على جميع النوافذ الموجودة بأسطح مهاجع الباحة، ويؤمر السجناء بالتجمع في القسم الداخلي من الزنزانة، وقد أداروا أظهرهم للأبواب حتى لا ينظر أحدهم من طرف الباب فيرى أعواد المشانق، ولم يخل الأمر من بعض المصادفات التي أتاحت للسجناء رؤيتها، خاصة نزلاء المهجعين ٢٥ و٣١ وشاهد نزلاء الباحتين الأولى والثالثة لجنة المحكمة مع المساعد وزبانيته يحملون الحبال بأيـــديهم، وقائمـــة الأسماء، كما رأوا طبيب السجن معلقاً سماعته الطبية حول رقبته لفحص الشهداء بعـــد تنفيـــذ الحكم، للتأكد من وفاهم، كما سمع نزلاء الباحتين المذكورتين المساعد يصرخ بزبانيتـــه، طالبـــاً إحضار الحبال.

بعد أن يتم إعدام الشهداء، يتقدم الطبيب ليؤكد وفاة الضحايا، وتترل الجثث من أعواد المشانق، وتلقى على الأرض بوحشية، وتدخل سيارة نقل عسكرية من نوع زيل (يعرفها الـــسجناء مـــن صوهّا المميز) لنقل الشهداء، فتحفر لهم أخاديد بواسطة البلدوزرات ليدفنوا بها، وبعدها يقـــدم

المساعد (أبو جهل) الصف لرئيس اللجنة الذي حضر إلى السجن للإشراف على تنفيذ تلك الجريمة قائلاً: (نفذ الأمر سيدي اللواء...)، وتنصرف لجنة المحكمة، فيشاهدهم في طريقهم نزلاء الباحتين الثالثة والأولى، كما شاهدوهم أول مرة عند دخولهم الباحة السادسة، ويأمر المساعد زبانيته بالانصراف، فتجمع أدوات الإعدام بغرفة الورشة، ويعود الشرطة لمزاولة برنامجهم اليومي.

وأحيطت عمليات الإعدام في البداية بسرية تامة، لكنها لم تبق كذلك، فالرقيب فيصل قالها للسجناء أكثر من مرة، بأنهم خارجون للإعدام، وسبب ذلك يعود لقناعة المجرمين بأن جميع نزلاء تدمر سيساقون لأرجوحة الموت أو لاعتقادهم بأن السجناء باتوا يعرفون حقيقة الأمر فلا داعي للكتمان.

وفي النصف الثاني من عام ١٩٨٢ اتخذت احتياطات مشددة لتتم العملية بسرية تامة، وفرز السجناء، ووزعوا على الزنزانات حسب أقدميتهم في السجن، ليبقى المعتقلون الجدد معزولين عن القدامى، وبعد المحاكمات تعاد عملية الفرز. وهكذا يذهب الجلادون مباشرة إلى زنزانة الأسماء المطلوبة، فلا يعلم بقية السجناء بالذين سيقوا لحبل المشنقة، وقاموا أثناء عمليات الإعدام بتكميم أفواه الضحايا، أيضاً حتى لا يخرج منهم صوت، مع اتخاذ بقية الإجراءات. ورغم ذلك تمكن السجناء من إحصاء العديد من عمليات الإعدام في تلك الفترة، ففي النصف الأول من عام ١٩٨٣ أحصيت ٣ عمليات.

أما الحالة العامة في السجن أيام الإعدام، فقد سيطر هدوء واجم غير مألوف على السجن، لانشغال الجلادين (بواجبهم الوطني) بإزهاق أرواح الأبرياء!!! ونتيجة لوجود لجنة المحكمة داخل السجن(٣٩) ينشغل الجلادون بالمراسم العسكرية، كتقديم الصف، والتحية العسكرية، إضافة لذلك، لا يسمح لأحد منهم برفع صوته أثناءها حتى تنصرف اللجنة.

ويتأخر توزيع طعام الإفطار عن موعده المحدد، فلا يصل إلا قرب الظهيرة، كما يزداد الجلادون وحشية وشراسة أيضاً، لسماعهم ما يغيظهم من بعض الشهداء، حيث يردد الشهداء كثيراً التكبير مع عبارة (النصر للإسلام) ومرة وقف أحد الأخوة ويدعى عبد العزيز تجار (مهندس زراعي من بلدة دير عطية) مردداً دعاء الصحابي الشهيد خبيب بن عدي رضي الله عنه، قبل أن يقتله كفار قريش (اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحداً)، كما وقف أحد الفتيان أيضاً وهو من مدينة حمص يدعى: نصر البيك، مردداً التكبير، ثم قال لإخوانه: أخوكم نصر البيك يوحد الله (وفق اتفاق مسبق مع إخوانه لإعلامهم نبأ تنفيذ الإعدام).

ونشبت مشاجرات أكثر من مرة بين بعض الضحايا وبين الجلادين، كما حدث في يوم ١٩٨١/١٠/٢٤ عندما تم إعدام دفعة مؤلفة من ٢٢ شهيداً منهم العقيد محمد فيصل سيرجيه

(من حلب) وحسان طرابيشي وعبد الوهاب حلموشي وهيثم القاضي (فلسطيني) من حمص، ومحمد حسين فخري وأمين الأصفر (من حماة) والإخوان الأخيران من نزلاء المهجع ١٦ بالباحة الثالثة وعند خروجهما من الزنزانة اشتبكا مع الجلادين، وكانت أرض الباحة مليئة بالأخشاب والقضبان الحديدية بسبب عملية البناء لزنزانة جديدة في تلك الباحة، وتمكنا من إصابة عدد من الشرطة بأذى، لأن الأخ محمد حسين فخري كان ضابط صف بالوحدات الخاصة، وكان الأخ أمين الأصفر شديداً قوياً، فازداد الجلادون شراسة بعدها، وبدءوا يحضرون لمامهم حاملين العصي الغليظة، تحسبا لأي طارئ. وقتل في تلك الأثناء نتيجة للتعذيب الأخ الدكتور محمد زاهد داخل (من مدينة حلب) وكان من نزلاء المهجع المزدوج (٥- ٦) في الباحة الأولى، يضاف إلى ذلك وحشية سحب وجر وتعليق الشهداء، ثم دناءة وإنزال ورمي ودفن الجثث، والتي تعطي صورة حقّة عن المستوى الوضيع الذي وصله أولئك الأوباش، وخاصة ساديتهم المتزايدة، مع رؤيتهم لعمليات القتل الجماعية، فتزداد شراستهم وبطشهم لانحراف جبلتهم وإنسانيتهم.

تواتر عمليات الإعدام: كما هي حال جميع عمليات التنكيل التي يتعرض لها سجناء تدمر، فإن عمليات الإعدام أيضاً تخف حدتها أو تزداد تبعا للحالة العامة في البلاد، فالسجناء ليسوا إلا رهائن بيد عدو لئيم، وصرح المجرم علي دوبا (رئيس المخابرات العسكرية) أمام بعض وجهاء اللاذقية بأن لديهم (أي المخابرات) ١٥ ألف رهينة (ويعني المعتقلين) لذلك كانت عمليات الإعدام على أشدها بعد مجزرة سجن تدمر وحتى نهاية عام ١٩٨١ لأن عمليات الاعتقال بلغت ذروتها في تلك الأثناء.

أما تواترها، فقد بلغ مرة أو مرتين أسبوعياً، وعدد الضحايا في كل مرة يتراوح بين ٣٠-٨٠ ضحية. ومما عرفه سجناء تدمر أنه بعد قيام المجاهدين بتنفيذ عملية جهادية، فالنظام يكثر من عمليات الإعدام، كعمل انتقامي، إضافة لسوء المعاملة مع بقية السجناء. وهكذا وجدنا شجاعة القوم ورجولتهم تظهر على السجناء الذين لا حول لهم ولا طول، وليتهم (أي زبانية نظام القرامطة) أرونا رجولتهم وشجاعتهم على العدو الإسرائيلي في جميع حروبهم التآمرية المخجلة معه، وهذا ما قاله أحد الإخوة بفرع المخابرات العسكرية في إدلب، ويدعى عبد المعين كامل للمحققين، بعدما انهالوا عليه ضرباً، علماً بأنه كان بريئاً من أية تهمة، فما كان من المحققين إلا أن لفقوا له تهمة المشاركة بأعمال الشغب، ودفعوه لسجن تدمر (لينال جزاءه العادل؟؟!!).

وبعدها خفّت وتيرة عمليات الإعدام في النصف الثاني من عام ١٩٨٢ وما بعدها حتى أصبح بالإمكان عدها، لأنها صارت محدودة، عملية واحدة كل شهر أو شهرين.

عمليات الإعدام في سجن المزة: وتناهي لعلمي من إخوة كانوا في سجن المزة بدمشق، أن عمليات الإعدام كانت تنفذ هناك بنفس إجراءات سجن تدمر، وخلال نفس الفترة، إلا أن جهاز سجن المزة، معتاد على المحاكمات وأحكام الإعدام (بعكس سجن تدمر) لكنها لم تكن تتم في الماضي، إنما ينقل السجناء إلى سجن القلعة في دمشق لتنفيذ الحكم هناك.

وفي النصف الثاني من عام ١٩٨٠ جهز الجلادون سجن المزة بالأدوات اللازمة للقتل، من أعواد ومنصات وحبال، وباشروا بتنفيذ أحكام الإعدام التي تترافق بمراسيم شكلية خاصة، فعندما تحضر اللجنة من أجل ذلك، يصرخ رئيس الدورية المناوبة، أو مدير السجن، معطياً الإيعاز العسكري قائلاً: محـ... ـكـ..ـمـ...ـة، فيصطف الجنود، ويقدم رئيس الدورية الصف لرئيس اللجنة، وبعدئذ يجمع المحكومون مصفدي الأيدي، ومعصوبي الأعين، في غرفة خاصة تسمى قفص الإتهام(٤٠) ويقرأ أحد الجلادين قرار المحكمة الذي يستفتح ببعض الديباجات الإنشائية مثل: باسم العدالة، وباسم الوطن، قررت المحكمة الميدانية.. مع إلصاق مختلف التهم بالضحايا، كخيانة الوطن، والتآمر على الثورة والتخريب، وبموجبها يساق المعتقلون إلى أعواد المشانق المنصوبة في إحدى الباحات، ليغتالوا ظلما، وينقلوا بهمجية بالسيارات للخارج، لدفنهم في أخاديد جماعية.

وترافقت عمليات التصفية بإجراءات وحشية ضد الضحايا، ففي يوم ١٩٧٩/٦/٢٩ وبعد عملية مدرسة المدفعية نفذت السلطة جريمة اغتيال الكوكبة الأولى من الشباب المسلم، وكان عددهم ١٥ شهيداً (مهدي علواني وإخوانه) بعد تعذيب وحشي شديد طيلة الليلة السابقة لتنفيذ الحكم، إذ أجبروهم على الوقوف طوال الليل بالزنزانات المنفردة، وتركوهم دون طعام ولا ماء، مع الضرب المبرح المستمر، والإهانة حتى الصباح. عندها ساقوهم إلى سجن القلعة لتنفيذ الحكم الجائر.

وفي منتصف عام ١٩٧٦ هاجمت مجموعة مسلحة من جماعة أبي نضال (وكان يومها عميلاً للمخابرات العراقية) فندق سمير أميس في دمشق، وألقي القبض عليهم، وأودعوا سجن المزة، وبعد تحقيق قصير، حكموا عليهم بالإعدام من خلال محكمة صورية، وتعرض أولئك الأشخاص لتعذيب شديد طوال الليل، حتى ماتوا تحت التعذيب، وتساءل سجناء المزة يومها، وهم يسمعون صراخ المعذبين: لقد حكموا عليهم بالإعدام، فلماذا التعذيب إذن؟!!! هذا حال سجن المزة، ويقدر الإخوة عدد الشهداء الذين أعدموا في سجن المزة بحوالي ألف شهيد.

عدد شهداء عمليات الإعدام بسجن تدمر: ويقدر الإخوة نزلاء الباحة السادسة (حيث تجري عمليات الإعدام) عدد الشهداء بحوالي ١٠٠٠- ١٥٠٠ شهيد حتى منتصف عام ١٩٨١ وبعد ذلك خفّت حدّة عمليات الإعدام نسبياً.

ويصعب على المرء أن يضع رقماً دقيقاً لعدد الشهداء، لأن نسبة الذين حكموا بالإعدام تختلف من دفعة لأخرى، ففي بعضها تصل نسبتهم إلى ٩٥% وفي أخرى تصل إلى ٣٠% وأخرى لم يحكم منها أحد بالإعدام مثل الدفعات التي حوكمت في سجن المزة، ونقلوا بعدها إلى سجن تدمر. وقدر بعض الإخوة عدد الشهداء بحوالي ٧- ٨ آلاف وآخرون قدروا عددهم بخمسة آلاف ولكن هذه الأرقام مبالغ فيها ويمكن تقدير عدد الشهداء بحوالي ألفي شهيد حتى منتصف عام ١٩٨٣ حيث أعدم القسم الأكبر منهم بالسنتين الأوليتين (١٩٨٠- ١٩٨١) وبعد ذلك خفت حدة عمليات الإعدام. ولدي أسماء لمائة شخص استشهدوا على أعواد المشانق، إضافة لحوالي خمسين شخصاً أشك بأنهم قد أعدموا أيضاً.

وأما عدد الشهداء نتيجة للتعذيب والإهمال فيبلغ حوالي ٥٠ شهيداً أذكر منهم:

١ -حسن شغيل: من حماة استشهد تحت التعذيب.

٢ - عبد الناصر عباسي من دمشق استشهد نتيجة التعذيب..

٣ - زاهد داخل طبيب من حلب استشهد نتيجة التعذيب.

٤ -هاشم حبال من حمص استشهد نتيجة التعذيب والإهمال.

٥ - عز الدين أبو خريش معلم مدرسة فلسطيني من دمشق توفي بمرض الكوليرا.

٦ - شدهان نعمو من مدينة دمشق توفي بمرض الكوليرا.

وهكذا يصبح العدد الإجمالي لشهداء سجن تدمر حوالي ثلاثة آلاف شهيد حسب تقديري واجتهادي.

الاستثناءات من أحكام الإعدام: استثنى الجلادون بعض الحالات من تنفيذ الإعدام وفق قانونهم الهمجي الجديد ٤٩ ومن هذه الحالات:

١ -الأحداث الذين اعتقلوا دون سن ١٨ عاماً وحكم عليهم بالسجن، وقيل إن بعضهم حكموا بالإعدام لبلوغهم سن الرشد عند محاكمتهم.

٢ - محافظة طرطوس: استثني معتقلوها من عقوبة الإعدام لأن العمليات الجهادية كانت قليلة، ولم يترتب أية خسائر بالأرواح. وأما السبب باستثناء محافظة طرطوس من تلك العقوبة، فلا أملك تفسيراً دقيقاً لذلك، إلا ما سمعته من بعض الإخوة أبناء تلك المحافظة، معللين ذلك بأن بعض أزلام النظام من أبناء المحافظة ومنهم الخدام (عبد الحليم خدام) من بلدة المرقب قرب بانياس، تمكنوا من الحصول على استثناءات من الصنم الكبير لذلك. وهناك من يعلل ذلك بأن النصيريين جبناء، ويخافون كثيرا من جيرانهم أهل السنّة المقيمين هناك، عندما تدور عليهم الدوائر، فيكون بينهم وبين جيرانهم ثارات وأحقاد، لذلك توسط بعض وجهاء القوم من النصيريين بالتعاون مع بعض

وجهاء المنطقة من أهل السنّة، وتمكنوا من الحصول على الاستثناء المذكور. ويبدو أن هذا السبب فيه وجاهة، لكنه أضعف من السبب السابق، لأن مدينة اللاذقية تنطبق عليها نفس المواصفات، ومع ذلك، فالسلطة نفذت أحكام الإعدام بالكثيرين من أبنائها، رغم الخسائر البشرية القليلة بجانب السلطة، وقد يكون السببان وراء هذا الاستثناء، وقد توجد أسباب أخرى لا أعرفها.

العقوبات الإضافية: لم تنته أحقاد باطني سورية عند محاكم التفتيش بحق المعتقلين، بل إنهم اقتدوا بأسيادهم قتلة الأنبياء، باقتراف جرائم أخرى، وتفوقوا عليهم عندما صادروا أملاك الملاحقين، والبيوت التي آووا إليها، بل أحضروا الأشخاص الذين باعوا تلك العقارات وسلبوهم الأموال التي قبضوها، رغم قانونية البيع (عن طريق السجل العقاري أو كاتب العدل ولأشخاص غير ملاحقين). والأنكى من ذلك أن الطغاة قد برعوا بحبك مسرحية ساخرة، وذلك بإحضار كاتب العدل لفرع المخابرات، ليبرم تلك الصفقة بين صاحب العقار الأصلي، وبين رئيس الفرع، بعد نهب الأموال منه. وهل يجرؤ ذلك المسكين على رفض ذلك العقد الذي أعطى صفة قانونية فوق العادة، ليرحل بعدها ذلك المغلوب على أمره إلى سجن تدمر لإتمام الصفقة!! (تعيش الثورة القرمطية ويحيا العدل النصيري) وهذا ما حصل في حمص. وبطل التمثيل في تلك المسرحية الهزلية هو المجرم غازي كنعان، أما في المدن الأخرى، فقد صودرت أملاك الملاحقين، وأملاك ذويهم.

وأذكر شخصاً من مدينة حمص اسمه محمد جميل زهران، اعتقل كرهينة عن أبنائه (الشهيد عبد الرزاق زهران وعبد القادر زهران الذي تمكن من النجاة والسفر لأحد البلدان العربية المجاورة)، وعندما خرج ذلك المسكين من السجن في نهاية عام ١٩٨٢ بعد أن قضى فيه قرابة ثلاث سنوات، وجد أن جميع أملاكه قد صادرها المجرم غازي كنعان، فاضطر للفرار لأحد البلدان العربية المجاورة، ليلتحق بأفراد أسرته هناك.

وقامت السلطة أيضاً بتدمير منازل بعض المعتقلين، رغم كونهم من الناس العاديين (أي ليسوا ملاحقين ولا مجاهدين ولم يستخدموا بيوتهم لإيوائهم) وهذا ما فعلته الوحدات الخاصة عند مداهمة بلدة جسر الشغور عام ١٩٨٠ عندما دمرت منازل الأشخاص الذين اعتقلوا، وكان منهم الأخ الشهيد عبد الكريم النايف (الذي ذكرناه سابقاً).

أما الأشخاص الذين لم يكن في استطاعة السلطة اعتقالهم لاعتبارات كثيرة، كشهرتهم خارج سورية، مع عجز الطغاة عن تلفيق مسرحية ناجحة، فعمدت السلطة إلى نفيهم خارج البلاد، كما حصل مع الشيخ محمد عوض والشيخ جمال السيروان وبقية إخوانهما مسؤولي جامع زيد بن ثابت بدمشق. وبذلك تمكنت السلطة من حل الجماعة، والتخلص منها بطريقة هادئة.

وأما الذين أخلي سبيلهم بعد أن براءهم المحكمة الميدانية، فأكثرهم لم يعودوا إلى وظائفهم السابقة، ولم تدفع لهم رواتبهم عن الفترة التي قضوها في السجن، رغم براءهم، إنما خرجوا من السجن هائمين على وجوههم، بعد أن فقدوا وظائفهم، وتراكمت عليهم الديون، نتيجة لاستدانة عائلاتهم الأموال لتدبير أمور معاشهم خلال تلك الفترة السوداء، بل الأنكى من هذا كله، أن معظمهم لم يتمكن من الحصول على جوازات سفر للخروج والبحث(٤١) عن عمل في بلدان أخرى، أليست هذه تصرفات العدو الصهيوني مع إخواننا في الأرض المحتلة؟ بل إن القرامطة الجدد قد تفوقوا عليهم في الكثير الكثير من المظالم، حتى صارت جرائمهم يستدل بها أنصار العدو الصهيوني لتبرير جرائمه بحق أهلنا في الأرض المحتلة، وليبرهنوا من خلالها، على أن الكيان اليهودي دولة متحضرة وسط محيط من الأنظمة البربرية الفاشية.

المنامات: من نعم الله التي منَّ بها على سجناء تدمر، الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها أكثر السجناء، رغم ما يقاسونه من شدائد تنوء بحملها الجبال الراسيات. والمنامات هي إحدى المكرمات التي منَّ الله بها علينا، لترفع من معنوياتنا، وتعيننا على تحمّل ما نحن فيه من البلاء. ورغم مخالفتي إخواني كثيراً في أمرها وتفسيرها، فإنني عندما أفكر الآن في الموضوع، أجد أن المنامات كان لها دور كبير لا يستهان به في تخفيف معاناتنا وكروبنا. فالسجن يفرض على الإنسان أن يعيش ظروفاً غير عادية، فأول ما يعانيه السجين العزلة عن العالم الخارجي، والتي كانت عزلة تامة في تدمر، وهذه تجعل الإنسان يعيش مع ذاته، مستغرقاً بالتأمل والتفكير، يسترجع الكثير من منسياته التي يستحيل على المرء تذكرها أثناء الحياة العادية، وفوق ذلك، فكلّ منّا يحمل في نفسه الكثير من الآمال والآلام، سواء العامة كانتصار المسلمين وقيام دولة الإسلام واندحار الكفر وأهله، والآمال الشخصية كالحرية والعودة للأهل والأصحاب والحياة العادية خارج أسوار السجن، يضاف إليه الخيال الخصب، وربما الطوباوية (الإفراط في المثالية والخيال) عند الكثيرين منّا، كل ذلك جعل من السجناء أسرى لكثير من الأحلام والخيالات التي لا تفارقهم لحظة واحدة، كلما هجع أحدهم للنوم، وربما كانت أحلام اليقظة جزءاً من تلك الخيالات.

كنّا نستيقظ صباحاً، وأكثرنا قد رأى أحلاماً شتى، وأكثرها يتعلق بحياتنا خارج السجن واللحظات الأولى بعد الاستيقاظ من أحرج الفترات وأكثرها ألماً، وهذا ما كنت أشعر به، إذ يصحو الإنسان من نومه بعد تلك الأحلام الجميلة، ليرى نفسه أسير واقعه المؤلم، إنه ما زال داخل السجن، حيث العذاب والقهر، وقد سيطر علينا التشاؤم والخوف. يا الله ماذا ينتظرنا في هذا اليوم؟ هل يوجد حلاقة؟ هل يوجد حمام؟.. تنفس؟.. إلخ.. وكل مهجع يضم عدداً من الأخوة ممن اختصّوا بتفسير المنامات، يتحلق حولهم الإخوة عند الصباح، كلّ يقصّ رؤياه، وهم يصغون

إليه، حتى إذا انتهى منها حاولوا تفسيرها، وربما دار جدل ونقاش حولها، وتعدى الأمر هذا الحد إلى درجة نقل الأخوة لأخبار المنامات بين المهاجع من خلال مهجع الجرب، وتضاف المنامات إلى الأخبار الأخرى، ليقوم الأخوة (أهل الرأي) بتحليلها جميعاً، وتقديم صورة وردية مع التعلق الشديد بتفسير المنامات والاستعانة بها لتحليل الأخبار مع المبالغة والخرافية بنقل الأخبار وتحليل الأخبار المختلفة، ويتعلق الأخوة كثيراً بالمنامات، ويبنون عليها مالا تحتمله، مثال على ذلك رؤية بعض الأخوة لمنامات ذات مدلول محدد، مثل أنّ الفرج لجميع المعتقلين سيكون بتاريخ كذا وكذا، أو أن النصر سيكون عند العيد الفلاني، وهكذا. وربما خيّل لبعض الأخوة أنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهم كيت وكيت، وتمر الأيام المحددة، وتعقبها أيام وأسابيع دون أن يحصل شيء، فماذا يعني ذلك؟!

كنت أتصدى لإخواني في كثير من الأحيان، قائلاً لهم: عليكم أن تميزوا بين الرؤى الحقيقية وبين الرؤى الكاذبة التي وصفها القرآن بـ (أضغاث أحلام) وهذه الأخيرة هي أوهام وخيالات، فإن الإنسان إذا أكثر من ذكر شيء ما خيّل له ذلك الأمر، وهذا ما يسمى بالوسواس.

وأذكر أن أحد إخواننا، وكان رجلاً مسناً اعتقله الظالمون كرهينة، وكان ذا خيال خصب، فهو ينام فترة قصيرة، وربما لا تتجاوز عدة دقائق، يصحو بعد ذلك (لسبب ما كمجيء الشرطة) ليروي مناماً طويلاً تزيد مدة روايته عن أضعاف الوقت الذي نامه(٤٢). ،حدث أثناء مجزرة حماة وما بعدها أن اشتد التعذيب على المساجين، بعد أن خفّ (نسبياً) فقام أحد الإخوة المختصين بتفسير المنامات ليقول لنا: لقد قلت لكم على من يرى منكم في منامه طعاماً أو مالاً أو ذهباً أو عرساً فلا يذكره، لأن ذلك شر، ولكنكم لم تسمعوا لكلامي.. انظروا نتيجة ذلك.. لقد اشتدّ علينا التعذيب، لأنكم ترون تلك المنامات!!

فصار ذلك الكلام مادة للتندر والسخرية عند الأخوة الذين لم يكونوا ممن يتعلق بالمنامات وتفسيرها، فراح بعضهم يسأل متفكهاً: هل عرفتم آخر الأخبار؟؟ فقيل له: ماذا؟ قال: (كل الحق على المنامات) أي أن المنامات هي المسؤولة عما نحن فيه؟!!! وأنا لا أقصد من كلامي هذا أن أنتقص من شأن إخواني أو ألومهم على تلك المنامات وما كانت تجرّ إليه، فهذه ظاهرة عامة في العمل الإسلامي، وثغرة خطيرة ينبغي الالتفات إليها وتصحيحها، وهي أن إيماننا بالغيبيات (وهي جزء هام من عقيدتنا لا نقاش حولها) لا ينبغي أن يكون سبباً لتعطيل تفكيرنا الذي منحنا الله إياه، فنصبح خرافيين نتعلق بالأوهام، وهذا ما يريده لنا أعداؤنا، بل يجب أن تكون هناك حدود واضحة وفاصلة بين الأمور الغيبية الثابتة في الكتاب والسنة، وبين غيرها من الأمور التي تخضع للعقل والتفكير والأسباب والمسببات وسنن الله الثابتة في الكون.

السجانون والسجناء: ومعظم السجانين في تدمر وفروع المخابرات من النصيريين الحاقدين، وبعضهم من أبناء الأقليات الطائفية الأخرى (نصارى - رافضة - إسماعيليين -دروز) ويتصرف بعضهم بحقد ولؤم، وقسم منهم غرر بهم، فهم ينفذون الأوامر الصادرة إليهم، وأما الباقون فهم أعراب المنطقة الشرقية والبادية، ويسمون بالشوايا، وعددهم كبير نسبياً بين الجلادين في تدمر وسائر السجون والمعتقلات الأخرى.. واختارتهم السلطة لجهلهم وسهولة التغرير بهم، فلذلك كانوا يضربون بقسوة، إرضاءً لغرورهم وأسيادهم، أما أبناء المدن، فعددهم قليل، وهم مغلوبون على أمرهم، ينفذون الأوامر خشية أن يتعرضوا للعقوبة. وما أهون الاتهام والتلفيق.. وأسهل به سلوكاً نصيرياً..!!!

والحديث مع السجناء ممنوع، ورغم ذلك لم ينته الجنود عن الحديث معهم، فأحياناً يسأل الجلادون بعض السجناء: لماذا جئت إلى هنا؟ وسأل جلاد إعرابي سجينا مرة : ما جاء بك إلى هنا؟ فأجابه: دروس القرآن، فلم يفهم الإجابة فقال له: هل مزقت القرآن؟ فأجابه السجين: لا بل كنت أقرأ القرآن في المسجد. فسكت وبدا عليه التفكير في إجابة ذلك المعتقل.

وسوء المعاملة هي القاعدة العامة التي يعامل بها السجناء، وربما كان سببها ما يقال للجنود بأن هؤلاء السجناء قتلة مجرمون، يقتلون الأبرياء وغير ذلك مما يذاع بوسائل إعلام النظام والتلقين اليومي للجنود. ومع الأيام غيّر بعض الجنود معاملتهم بعد تبرئة ساحة الكثير من السجناء من قبل المحاكم الميدانية، والذين كانت أعدادهم ملحوظة، وأذكر أن العريف علي شعبان وشعبان حسين صارا يكفان أذاهما عمن برأتهم محاكم النظام، والذين فرز بعضهم في مهجع مستقل هو رقم ٨ في باحة الحمام. وبلغ عددهم مائة شخص، وكان المساعد الأول (أبو جهل) والعريفان المذكوران مع بعض الجلادين الآخرين يكفون أذاهم عن هؤلاء السجناء، أما الرقيب فيصل والعريف فواز فلم تتغيّر معاملتهما وظلا على لؤمهما وحقدهما المتأصل في نفوسهما الخبيثة.

السجناء والسجن: ليس سجن تدمر كغيره من المعتقلات، ذلك أنه أعد خصيصاً لتصفية المعتقلين جسدياً بالإعدام أو نتيجة التعذيب والإهمال، ونفسياً وفكرياً بالتعذيب الجسدي والقهر النفسي. ومن دخل ذلك المكان اللعين فكأنما دخل عالماً آخر..

وفي ذلك الجو الرهيب استطاع المعتقلون تكييف أنفسهم مع تلك الأوضاع المأساوية، وأوجدوا عالماً مليئاً بالجد والنشاط والفائدة والمرح أحياناً، والغريب أن كل زنزانة في السجن كانت صورة طبق الأصل عن غيرها، وهذا ما عرفته عندما التقيت إخوة من زنزانات مختلفة، ونقل السجناء من خلال مهجع الجرب تجاربهم لبعضهم البعض ليستفاد منها، فكل مهجع في سجن تدمر هو عبارة عن مجتمع صغير منظم، فهناك رئيس المهجع وهو المسؤول أمام الجلادين، وقد يكون هو

نفسه أميراً أيضاً. وقد يختار الأخوة أخاً آخر ليكون أميراً للمهجع، يطيعه الجميع بمن فيهم رئيس المهجع. وهناك لجان مختلفة لتنظيم شؤون المهجع، كلجنة الطعام التي تشرف على توزيعه، ولجنة التنظيف، ومهمتها غسل الأواني بعد الطعام، ولجنة الإصلاح ومهمتها إصلاح ذات البين ومنع حصول الخلافات والمشاجرات، واللجنة العلمية وتقوم بإلقاء الدروس، وأعجب تلك اللجان تلك التي أطلق عليها أخوتنا في بعض المهاجع اسم الفرقة الانتحارية، وتضم الإخوة الشباب ذوي البنية القوية، والشجاعة النادرة، ومهمتها التقدم إلى مواضع الخطر، ليفتدوا بقية إخوانهم، ويدفعوا عنهم الأذى.

كيف يقضي سجناء تدمر أوقاتهم؟ يستيقظ الجميع عند أذان الفجر، فيدخلون خلسة لدورات المياه بانتظام، لأجل الوضوء، بعد ذلك يؤدون صلاة الفجر فرادى أو جماعات، حسب وضع المهجع، وذلك باختيار الزوايا غير المكشوفة، حتى لا يراهم السجانون، ويعودون بعد ذلك للنوم، أو يقومون بترتيب أغراضهم، فتطوى البطانيات والعوازل، وترفع عن الأرض استعداداً للطعام، وبعدها تبدأ جلسة تفسير المنامات، وربما شغل آخرون بحفظ القرآن الكريم، وراح بعضهم يتبادلون أطراف الحديث، حتى وقت الإفطار، حيث يقوم في البداية عمال البلدية بتوزيع الأواني أمام أبواب المهاجع، ويفتح الشرطة بعد ذلك الأبواب لإدخالها، وهنا يتقدم الشباب (ونعم الشباب) أعضاء الفرقة الانتحارية لإدخال الطعام، فيتحملوا نصيبهم من الضرب والإهانة، وقد يدخل الشرطة لداخل المهجع، لضرب البعض، ثم ينصرفون، وتقوم اللجنة المخصصة بتوزيع الطعام بتقسيمه على المجموعات، فقد جرى تقسيم السجناء لمجموعات، كل واحدة تضم عشرة أشخاص، تزيد أو تنقص (حسب العدد الكلي لنزلاء المهجع) وتأخذ كل مجموعة حصتها لتوزع بعد ذاك على أعضائها، ويأتي بعد ذلك دور لجنة التنظيفات بعد انتهاء الجميع من طعام الإفطار بتنظيف الأواني، بينما يقوم السجناء بتنظيف أرض المهجع من آثار الطعام على الأرض التي ينامون عليها.

وهناك شخص أو أكثر متخصص بتنظيم الدخول لدورات المياه من أجل الاستحمام وقضاء الحاجة، ويحين أوان التنفس، فيخرج السجناء لينالوا حظهم من التعذيب والإهانة، ثم يدخلون المهجع. وإذا كان موعد الحلاقة والحمام طال، مكثنا مترقبين تالين لكتاب الله، ضارعين إليه بالدعاء أن يرد عنّا كيد المجرمين.

وبالنسبة لحفظ القرآن، فإن أكثر الإخوة قد نظموا لأنفسهم برنامجاً محدداً يحفظون السور بالتتابع شفهياً ممن يحفظون، ثم يوزع الجنود الخبز وربما بعض الفواكه والحلوى إن وجدت، فيتلوه التفقد، ويتهيأ السجناء له. وكم من مرة وقفوا منتظرين فترة طويلة، متوجسين، وهنا أيضاً يتقدم الأخوة

الشباب للاصطفاف بالأماكن المعرضة للخطر، تاركين الأماكن الأكثر أمناً لإخوانهم المرضى والمسنين، ثم يوزع طعام الغداء، وإذا لم ننته من الحلاقة أو الحمام، فإننا ننتظر دورنا، وبعضنا يقرأ القرآن، أو يحفظه، وآخرون يقرؤون الأوراد والأدعية، وإذا لم يكن الأمر كذلك (أي أن دورنا بالحلاقة والحمام قد انتهى) فإننا نشعر بانفراج نسبي فالجلادون لن يأتوا إلا عند توزيع طعام العشاء فقط، عند ذلك تبدأ النشاطات الجماعية التي تشمل دروساً يلقيها أصحاب الكفاءات، وقد تشمل أيضاً مسابقات بحفظ الأحاديث، أو بعض التمثيليات والفقرات الهادفة والمسلية.

ويحين وقت صلاة المغرب بعد غياب الشمس، وبمغيبها يستروح الناس نسيم الاطمئنان والراحة، إذا كان المهجع لا يحوي على فتحة بالسقف، تُمكّن المجرمين من رصد حركات السجناء وسكناتهم، فيقوم المعتقلون ببعض النشاطات الجماعية حتى وقت النوم.

وإذا كان المهجع يحوي فتحات علوية، فلا مجال للنشاطات الجماعية إلا على نطاق محدود جداً، مع الحيطة والحذر، حتى لا يسمع المجرمون أي صوت، فيكون ذلك مبرراً لتعذيبنا وإهانتنا. وهكذا يقضي السجناء أوقاتهم، وأهم شيء يملأ عليهم وقتهم، هو حفظ القرآن وتلاوته، وخرج بعض السجناء حافظاً لكتاب الله العزيز. وهكذا فلا مكان للشعور بالفراغ، يضاف إليه الأحاديث التي تدور بين الأخوة حول مختلف الأمور.

هذا هو البرنامج اليومي للسجناء في الأحوال العادية، وقد يطرأ عليه بعض التغييرات في بعض الحالات، فمثلاً عند وصول دفعة جديدة للمهجع، يطلب من بعض أفرادها أن يقف ويتكلم بشكل عام أمام إخوانه عما لديه من أخبار، ويقوم أحد الإخوة بالتحليل والتعليق على تلك الأخبار، وكذلك الأمر أثناء المحاكمات، أو إجراء المقابلات التلفزيونية والإذاعية مع بعض السجناء، أما بالنسبة لمهجع الجرب إذ يعود الإخوة بعد أسبوع أو أكثر يلتقون خلالها بنزلاء المهاجع الأخرى، بعد أن سمعوا منهم بعض الأخبار أو المنامات، فيتولى الإخوة أهل الدراية وذوو الخبرة والمراس تحليل الأخبار والمنامات، والتعليق عليها، وأحياناً تكون هذه التحليلات والتعليقات واقعية متزنة، ولكنها في أغلب الأحيان تحوي الكثير من المبالغة والخيال، وربما الأوهام، وعلى كل حال، فإن سجناء تدمر معزولون تماماً عن العالم الخارجي، ومحاطون بالمجهول، والظروف الصعبة، كل ذلك يجعلنا كالغرقى الذين يتعلقون بقشة، كي ينجوا، لذلك كان أكثر الأخوة يتجهون لأهل الدراية، طالبين منهم إبداء رأيهم فيما سمعوه، ويتحفظ أصحاب الآراء المتزنة عن إبداء رأيهم، لأن المعلومات غير كافية، ولا بد ليستطيع الإنسان التحليل والتعليق من أن يرى الصورة من جميع جوانبها، ولكنهم أمام إلحاح إخوانهم، كانوا يضطرون لإبداء رأيهم، وربما تعمّد بعضهم إعطاء صورة مشجعة لرفع معنويات إخوانه.

هموم المعتقلين: يمكن تصنيف معتقلي سجن تدمر إلى نوعين:

١ - النوع الأول: وهم الذين حشروا في المحنة حشراً، أي الذين دخلوا السجن دون أن يكون قد خطر ببال أحدهم يوماً أنه سيتعرض للاعتقال كسجين سياسي. وهؤلاء هم الغالبية العظمى من السجناء، كالرهائن، والشهود، والذين اعتقلوا بسبب حضورهم دروس القرآن بالمسجد، أو بطريق الخطأ، عندما طاش عقول أركان النظام الملعون، فصاروا كما وصفهم القرآن (يحسبون كل صيحة عليهم) يعتقلون الناس عشوائياً، وهكذا دخل السجن كم هائل من عباد الله المظلومين.

٢ - وأما النوع الثاني: فهم كل من نوى أو قام بنشاط ما، واضعين في حسابهم ما يمكن أن يتعرضوا له من سجن وتعذيب وإهانة، وحتى الشهادة فوطنوا أنفسهم لتلك المحنة، بخلاف من لم يكن بهذا المستوى من التصور والهمة العالية، فقد أصيب باللجاجة والاستياء فلا يفكر إلا بالنجاة والعودة للحياة العادية فكانت عيونهم ترنو إلى ما وراء الأسوار، حيث الحياة الدنيا ونعيمها الزائل.

وهذا لا ينفي وجود هموم مشتركة لجميع المعتقلين، والهمّ المشترك للجميع، هو التخلص من السجن وما يحويه من تعذيب وإهانة، إذ لا أحد من الناس يتمنى لنفسه المحنة، وحتى الأخوة الذين وطنوا أنفسهم لأسوأ الاحتمالات، لم يتصوروا السجن بهذا المستوى الرهيب من الظلم والوحشية، وكثير من الأخوة قرأ وسمع عن السجون، ويعلمون أن السجين السياسي يتعرض للتعذيب والإهانة في الفترة الأولى من اعتقاله، وبالتحديد أثناء التحقيق، وأما بعده، فلا وجود للإهانة والتعذيب، مهما كانت تهمة المعتقل، إنما يبقى رهن الاعتقال، ويسمح لذويه بزيارته.

وفي السجون أجهزة راديو وكتب للمطالعة وغيرها، والكل يعرف أن بعض المعتقلين قد كتبوا بعض كتبهم داخل السجن، كما هو حال الشيخ سعيد حوى، والشهيد سيد قطب، أما سجن الموت في تدمر، فلا شيء من هذا، إنما الموجود فقط هو التعذيب والإهانة بشتى أنواعهما، مع الموت بشتى الوسائل (الموت تحت التعذيب أو علي أعواد المشانق أو الموت البطيء) لذلك كان الهم الوحيد الذي يفكر به الجميع، هو التخلص من التعذيب والإهانة، وهذا الهم غطى على ما سواه لدى أكثر المعتقلين. ومع ذلك، فقد كان غالبية المعتقلين يتمتعون بروح معنوية عالية، يرفعون بها من معنويات إخوانهم، ويخففون عنهم الكثير من همومهم.

والهم الثاني للجميع هو الخوف من المجهول الذي يحيط بنا، فنحن لا نعرف مصيرنا، متى سيخلى سبيلنا؟ كم سنمكث في السجن؟ ما هي الأحكام التي صدرت بحق أكثرنا؟ هل سنساق لحبل المشنقة؟ أم سنبقى بالسجن؟ أم سننقل لسجن آخر؟ فنحن أشبه ما نكون بأسرى الحرب الذين لا

يعرفون مصيرهم، هل سيرفع عنا التعذيب؟ أم سنبقى على هذه الحالة؟ هل سنتعرض للتعـذيب أثناء المحاكمة أم لا؟ فكل شيء حولنا مجهول ومرعب يدعو للخوف، حتى الزيارة، كنا نخاف منها، ماذا ينتظرنا في المستقبل من صنوف جديدة للتعـذيب تتفتق عنها قرائح المجـرمين وعبقريتهم؟!! ماذا يدور خارج أسوار السجن؟ وما تأثير ذلك علينا؟ فالكل يذكر مجزرة سجن تدمر، ويعرف أسبابها، وكلنا مقتنعون بأننا رهائن في يد عدو لئيم حاقد. وهكذا.. فكل شيء يثير علامات الاستفهام، دون أن يكون عندنا الإجابة، والخوف من إعادة التحقيق هو أكثر الأمور التي تقلق بال المعتقلين، سواء أكان ذلك في سجن تدمر أم في فرع من فروع المخابرات، إذا كشف أي جديد لم يعترف به المعتقل أثناء التحقيق سابقاً، وقد يكون هذا الأمر سخيفاً آو افتراءً من بعض المعتقلين الجدد الذين ظنوا أخاهم قد توفي ولا ضير من إلصاق التهم به لأن ذلك هو أفضل الطرق التي لا تفيد العدو بشيء، أو يكون الافتراء من أحد المخبرين الذي كُلّف بمهمة معينة فراح يستقصي فتوصل لمعلومات تتعلق بأحد المعتقلين، وهذه أمثلة على أشخاص اعتقلوا بطريقة الخطأ وبرأهم المحاكم الميدانية ثم أُعيدوا للتحقيق نتيجة للافتراء.

١ - كتب أحد المخبرين تقريراً كاذباً حول أحد الأشخاص، زاعماً أنه من الإخوان المسلمين، فقامت المخابرات باعتقال ذلك الشخص، وباشرت التحقيق معه. وكالعادة، راحوا يعذبونه حتى يعترف، فاعترف تحت التعذيب بتلك التهمة، وتابع المحققون التعذيب والتحقيق، ليعرفوا اسم الشخص الذي نظمه، وأعضاء أسرته التنظيمية، فاعترف على أحد أقاربه وكان معتقلاً، وعلى عدد آخر من أقاربه على أنهم أعضاء مجموعته بالتنظيم.

قامت المخابرات بإعلام مفرزة سجن تدمر بالأمر، فتولى جهاز السجن التحقيق مع ذلك المسكين الذي تعرّض لتعذيب شديد، حتى أشرف على الموت، فاعترف بتلك التهمة (أي أنه هو الذي نظم قريبه) فأرسل لفرع المخابرات ببلده، وعندما وصل للفرع، كان قسم التحقيقات هناك قد أجرى التحريات اللازمة حول تلك القضية، فتبيّن لهم أن القضية كلها ملفقة، ولا أساس لها من الصحة، فأسقطت جميع الاعترافات، وتم إغلاق ملف القضية، وقابل رئيس الفرع ذلك المسكين معتقل سجن تدمر، واطلع على آثار التعذيب، فجنّ جنونه، لأن جلاوزة السجن تجاوزوا صلاحياتهم، وقاموا بالتحقيق معه، وهذه حال جميع مراكز القوى بذلك النظام العفن، فكل منهم يسعى لإثبات وجوده، وأنه فعل وفعل، وله الحق أن يفعل ويفعل، وقال أيضاً: نحن الذين نحقق لا الشرطة العسكرية، ثم طلب من زبانيته إرساله إلى المستشفى للمعالجة، وعندما تماثل للشفاء أعيد إلى السجن، وبعد فصل من التعذيب أدخل الزنزانة، ليخرجوه منها بعد عدة أيام، ليتعرض لحفلة

جديدة، حيث حصروه بالدولاب، وانهال عليه أربعة وحوش بالسياط، حتى سالت الدماء من قدميه دون جريرة أو ذنب.

٢-وشخص ثان أعيد التحقيق بعد عامين من اعتقاله، بسبب تقرير كاذب من أحد المخبرين بتهمة تهريب أسلحة، نقل ذلك المسكين إلى فرع المخابرات بمدينته، وبقي مدة أربعين يوماً تحت التعذيب، دون أن تثبت بحقه تلك التهمة الباطلة. وتأكد المحققون من كذب تلك التهمة من أدلة عثروا عليها، فأعيد المعتقل ثانية للسجن، وأصيب إخوانه بالغم عندما رأوه يدخل الزنزانة، وقد تغيرت ملامحه، نتيجة التعذيب البشع في فرع المخابرات، وحفلة الاستقبال، بعدما ظنوا أنه قد أخلي سبيله لبراءته من أية تهمة.

وأما الأخوة الذين كان لهم علاقة ما، أو دور ما، فقد تعرض الكثيرون منهم لإعادة التحقيق عدة مرات عديدة، فالأخ الشيخ محمد خير زيتوني من حلب أعيد للمخابرات العامة بدمشق قبيل مجزرة سجن تدمر، وتعرض لتعذيب شديد، وعاد للسجن في بداية شهر آب من عام ١٩٨٠ وقد أصيب جسمه بجروح كثيرة منعته من وضع الملابس على صدره، فكان يخرج للتنفس عاري الصدر، ليتعرض للتعذيب من قبل جلاوزة السجن في تلك الحالة السيئة، وكذلك الأخ المهندس رياض جعمور (من حماة) أعيد للتحقيق برفقة الأخ الشيخ محمد خير زيتوني، وأعيد معه للسجن بنفس الدفعة، وأعدما في يوم واحد رحمهم الله، والأخ بسام سباعي من حمص (مهندس معماري) أعيد أيضاً مرات عديدة للتحقيق، والأخ حسان طرابيشي (طالب هندسة ميكانيك من حمص) فقد تعرض لتعذيب شديد، وكلما تماثل للشفاء أعيد للتحقيق والتعذيب ثانية، حتى جأر إخوانه إلى الله، طالبين منه أن يرزقه الشهادة، ليتخلص من التعذيب، وكذلك الأخ أمين أصفر ومحمد حسين فخري من حماة، والأمثلة كثيرة لا يمكن حصرها ولا يتسع المجال لذكرها(٤٣).

لذلك كان هذا الهم من أكثر الهموم لدى المعتقلين، والذي يحسب له الجميع ألف حساب، ويسألون الله أن يعمي أبصار المحققين عنهم، وأن يُنسي إخوانهم أسماءهم، فلا يتعرضون لها أثناء التحقيق.

وأما الهموم الأخرى، فهي كثيرة، منها التفكير بالأهل والأولاد خارج السجن (بالنسبة للمتزوجين) والتفكير بالأمهات والآباء والأخوة والأصحاب (لغير المتزوجين) ومنها القلق النفسي الناشئ عن التفريط الذي أدى لإيقاعه الأخ في براثن السلطة، وكان سبباً لإيقاع غيره، والقلق الناشئ عن الخطأ الذي ارتكب أثناء التحقيق والذي كان بالإمكان تلافيه، والحزن بسبب الوقوع في يد العدو قبل أن يتمكن الأخ من إنجاز أي عمل يستحق الذكر، فالبعض هيأ نفسه لمهمات

جسيمة، ولكنه وقع واحترق قبل أن يؤدي المهمة التي نذر نفسه لها، وهذا ما عبر عنه أكثر الأخوة بأنه وقع رخيصاً بيد السلطة.

تعامل السجناء مع بعضهم: الشدائد تظهر معادن الرجال. يقول تعالى: (ولنبلونكم لنعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم). ومحنة سجن تدمر من أشد المحن التي تعرض لها الناس في بلدنا المنكوب، لأنها تعني الكثير من المكاره، فهناك التعذيب وآلامه، والإهانة، والخوف، والمرض والجوع والعطش، وفقدان الحرية، والبعد عن الأهل والأحباب، وفقدان الراحة.. إلخ.

هنا تظهر الحاجة ماسة لأصحاب الشجاعة والمروءة والصابرين من أهل الإيثار، فحيثما يسيطر الخوف والفزع على السجناء، يأتي دور أهل الشجاعة، ليرفعوا من معنويات إخوانهم، وليفتدوا إخوانهم عند الحاجة، وإذا سيطر الهم والحزن واليأس على بعض السجناء، تظهر الحاجة ماسة للصابرين المحتسبين المتوكلين على الله، ليذكّروا إخوانهم بهذه المعاني، فيزيلوا عنهم ما هم فيه، أو يخففوا عنهم كربتهم، وقد يبدوا هذا الكلام من الناحية النظرية سهلا، لأننا اعتدنا على تلك المعاني في حياتنا العادية، عندما يصاب أحد الناس بفاجعة، فيقوم الآخرون بمواساته، أما الوضع في سجن تدمر، فمختلف تماما، فالكرب عم الجميع، وهنا يظهر التفاوت بين الناس بتحملهم لتلك الشدائد، فمنهم من استسلم للمصيبة وراح يبكي، ويدعو الله، ويسأله الفرج، أما أصحاب العزائم الصابرون المحتسبون، فلهم موقف آخر... إنها رجولة من نوع فريد، وعندما تنعدم ضرورات الحياة من مأكل وملبس ومشرب ودواء وغطاء وحتى مكان النوم غير متوفر، هنالك تظهر الحاجة ماسة لأمثالهم من أهل الإيثار الذين قال فيهم القران الكريم: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) لقد عرفتُ معنى هذه الآية الكريمة بشكل عملي في سجن تدمر، عندما ألحت الحاجة لهم؛ فحصة السجين لا تزيد في أكثر الأحيان عن خمس حبات زيتون، أو خمس حبات عنب، أو نصف بيضة مسلوقة، وكنا نتناول وجبة الطعام دون أن نشعر بزوال ألم الجوع، فكل شيء عزيز على النفس بسبب الحرمان، فقطعة الخبز حاجة عزيزة على كل سجين، وحتى حبة الزيتون وحبة العنب وهكذا. وهنا يظهر أهل الإيثار الذين مدحهم القرآن الكريم، وما يقال عن الطعام يقال عن الضروريات الأخرى من لباس وأغطية وغيرها، وحتى الماء يشح في بعض الفترات، خاصة في فصل الصيف، فلا تزيد حصة السجين عن (٧٥٠سم٣) ثلاث أرباع زجاجة عادية أو أقل من ذلك في اليوم والليلة، ولعل تلك الفترة كانت من أشد الفترات على السجناء (صيف عام ١٩٨٢)، وعندما تنعدم الراحة ووسائلها، فالكل قد أعياه التعب نتيجة التعذيب وظروف السجن القاسية... هنالك تبدو الحاجة الأكيدة لأصحاب الهمم العالية، والعزيمة الصادقة، الذين يرهقون أنفسهم، ويحملونها فوق طاقتها

من أجل راحة إخوانهم... إنه نوع فريد من التضحية والإيثار التي كان يتعامل بها سجناء تدمر مع بعضهم.

الكرامات في سجن تدمر: تحدث الأخوة في السجن كثيرا عن الكرامات، ويعنون بها المنامات ورؤية الملائكة، ورؤية الرسول صلى الله عليه وسلم، وكنت أتحفظ على هذا الأمر، وخاصة عند الحديث عن المنامات، وكنت أقول لهم: إن الكرامات واضحة للعيان، فلا حاجة للخيال، ولا حاجة لنذهب بعيداً. إن العناية الإلهية تحيط بنا من كل جانب... لقد جمع سجن تدمر جميع أنواع المكاره والشدائد، مما جعل أكثر السجناء أشباحا وهياكل عظمية، لا تقوى أجسادهم على شيء. لقد انهارت المناعة الطبيعية ضد الأمراض، فكانت الجروح تصاب بالالتهاب والتقيح، ويحار المرء كيف اندملت تلك الجروح؟ وكيف استطاع سجناء تدمر تحمل ذلكم العذاب الرهيب؟ حتى إن الجلادين يتعجبون، ويسألوننا باستمرار: (بعدكن ما متوا يا كلاب) ويضربوننا بحقد، يريدون القضاء علينا، ولكن العناية الإلهية كانت تحيط بنا من كل جانب.

من يصدق أن أحدنا يضرب بالعصا الغليظة التي تكفي ضربة واحدة منها لتهشيم العظام، لأن الأوباش يضربوننا بها على العمود الفقري بشكل خاص، أثناء جلوس السجناء للحلاقة أو في التنفس، وربما ضربوا الساقين والفخذين وأماكن أخرى، ومع ذلك، فالسجناء لا يصابون بأذيات كبيرة، سوى بعض الرضوض، وإذا أصيب أحدهم بكسر في أحد الأعضاء، فإنه يترك دون علاج إلا من بعض المعالجات البسيطة الأولية، كربط العضو المكسور. ومع ذلك، يتعرض هذا المصاب للتعذيب والضرب باستمرار، لكنه يشفى في أغلب الحالات. وهذا أمر يكاد يكون خيالاً.

ومن يصدق أن بعض السجناء ممن أصيبوا بجروح عميقة، ونتيجة للإهمال وظروف السجن السيئة، فإن تلك الجروح تقيحت حتى فاحت منها رائحة كريهة تزكم الأنوف، وساءت حالة بعضهم حتى أشرف على الموت، نتيجة لانتشار الجراثيم بالدم، ومع ذلك، شفاه الله دون علاج.

ومن يصدق أن تنتشر الأمراض المعدية والخطيرة بين السجناء، كالتيفوئيد والكوليرا والسل والتسمم نتيجة تناول الطعام الفاسد، ومع ذلك، كانت حالات الوفاة محدودة جدا.

لقد التقيت إخوة سجنوا سابقا في سجون أخرى (سجن المزة- سجن القلعة بدمشق- والسجن المركزي بحلب وغيرها) والتقوا سجناء سياسيين من الفئات الأخرى (غير الإسلاميين) ورغم الفارق الكبير بين سجن تدمر وتلك السجون، فإن أولئك السجناء العلمانيين كانت تسيطر عليهم الكآبة والحزن ولا ينفك البعض منهم عن البكاء ليل نهار كالأطفال، أو كالنساء، وربما شتموا قياداتهم، وتبرأوا من أحزابهم، عندما تسمح لهم الظروف، كأن يكتب أحدهم طلب

استرحام لرئيس الفرع الذي اعتقله، ليرفعه للصنم الكبير، مقترحاً إخلاء سبيله، أو يقدم كتابا يعلن فيه ندمه وتوبته على انتسابه لذلك الحزب، ويعلن تخليه عن مبادئه، عسى أن يخلي سبيله.
أما هنا في سجن تدمر، فالصورة مختلفة تماماً... صحيح أن بعض السجناء كانوا على هذه الشاكلة من وهن العزيمة، ولكن القسم الأعظم يتمتعون بمعنويات عالية، رغم كل الشدائد التي تحدثنا عنها. وهذه كرامة عظيمة من الله لأولئك السجناء.
ظلمات بعضها فوق بعض: لقد اشتدت المحنة على سجناء تدمر عام ٨٢ وبالتحديد أثناء مجزرة حماة (راجع فصل حمامات الدم) واشتد التعذيب مؤدياً لاستشهاد عدد من الإخوة، نتيجة ذلك، وانعدمت العناية الصحية، لانتهاء خدمة المساعد أبو رشيد (ممرض السجن) والمساعد أول أحمد كسيبي (أبو جهل) وتولى الرقيب أول فيصل جميع شؤون السجن، وكان من أشد المجرمين لؤماً وحقداً. وأما المعتقلون، فقد أنهكت أجسادهم، نتيجة معاناة سنوات السجن السابقة (عامين تقريبا) ولم تعد تقوى على شيء، وبلغت المحنة ذروتها صيف ذلك العام، إذ أضيفت محنة جديدة، هي انقطاع الماء خلال أيام الصيف، فكانت إدارة السجن تحضر صهريجاً ليوزع على جميع المعتقلين. وباع السجانون عدة غالونات بلاستيكية لكل مهجع، لتملأ بماء الشرب، ولا تزيد حصة السجين الواحد عن ٤/٣ لتر من الماء، أو أقل من ذلك في أغلب الأحيان. وبالطبع، توقفت الحمامات، وجميع عمليات التنظيف والغسيل. وليتصور المرء بعد ذلك: كيف أصبحت حالة المعتقلين؟.
وازداد الازدحام داخل المهاجع في تلك الفترة، فلا تزيد حصة السجين عن نصف متر مربع في أغلب المهاجع، وأصبح السجناء ينامون وقد تداخلت أجسامهم تحت الصدر، وإذا استيقظ أحدهم وخرج لقضاء الحاجة، أو لأي أمر آخر، ثم عاد لمكانه، لا يجد مكاناً ينام فيه، فيبادر لإيقاظ إخوانه، وإبعادهم، ليأخذوا وضعا يساعده على النوم ثانية؟!
وفي ذلك العام جرى فرز السجناء، فجمع القدامى منهم الذين حوكموا بمهاجع خاصة. وهكذا ضرب علينا دون العالم الخارجي سور غليظ من الظلم والعزلة، فنحن لا ندري ما يدور خلف أسوار السجن، نتيجة عدم احتكاكنا بالمعتقلين الجدد، وأذكر أننا سمعنا خطاب المجرم حافظ أسد بمناسبة ٨ آذار من ذلك العام، ولم يكن الصوت واضحا بسبب بعد مكبرات الصوت عنا، واستطعنا أن نفهم من خطابه، ترديده لكلمة حماة مرات عديدة فاستقر في أذهاننا هاجس وقوع حادث رهيب هناك، دون أن نعرف التفاصيل، كما وصل إلينا خبر الاجتياح الإسرائيلي للبنان بمنتصف ذلك العام، من خلال أحد الأخوة الذي حصل على زيارة من أهله . وكان لذلك الأخ

التماسات ووساطات، وجلس مع أقاربه في غرفة مدير السجن، وقال له أقاربه: إن الوضــع في لبنان سيء جداً.

وفي نفس العام تم تبديل العديد من الكوادر السجن (الشرطة وضباط الصف) واشــتد الكــرب على السجناء من كل جانب، فكان ذلك إيذاناً ببدء الفرج، وكنت أتذكر دائماً قوله تعالى: (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) وأتذكر تفسير تلك الآيات الكريمات كما أتذكر قوله تعالى: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا، جاءهم نصرنا، فنجي من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وأتذكر قوله تعالى واصفاً حال المسلمين بغزوة الأحزاب: (وإذ زاغت الأبــصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلــزالاً شــديداً)، وحفظت شيئاً من الشعر الذي ردده الإخوة:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن صبحك بالبلج

وبيت آخر يقول:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

الانفراج: إن إرسال المعتقل لسجن تدمر يعني إرساله للمقصلة. هذه هي القاعدة العامــة الــتي تنطبق على سجناء تدمر، لذلك سمي بمركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين، لقد قالهــا المجرم غازي كنعان ذات مرة لأحد معتقليه الذي احتج على إرساله لتدمر قائلاً: ماذا فعلت حتى ترسلوني لتدمر؟ ألست بريئاً؟ ألم تعدوني بأنكم ستخلون سبيلي؟ (وكان ذلك المسكين بريئاً وقــد أخلي سبيله بعد أكثر من عامين)؟ فأجابه ذلك الزنيم:

(انقلع روح لتدمر لتموت هناك كالكلب عندك بيت حقه ٥ ملايين ما بتستأهله)(٤٤). وكمــا ذكرت سابقاً فقد أخذ ذلك الزنيم على نفسه عهداً بأن يقطف ألفي زهرة مــن مدينــة حمــص ليزرعها بصحراء تدمر.

والموت سواء كان على أيدي الجلادين، أو بواسطة محاكم التفتيش، أو نتيجة للإهمــال وســوء الأحوال العامة، كله سواء، ومع ذلك، فلكل قاعدة شواذ، والقرآن يقول: (وما كان لــنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً)، ويقول أيضاً: (فإذا جاء أجلــهم لا يــستأخرون ســاعة ولا يستقدمون) فالحياة والموت بيد الله وحده.

إن عمليات الإفراج عن السجناء كانت نادرة ومحدودة في السنتين الأوليين (أي عام ١٩٨٠ – ١٩٨١) وأول دفعة تم الإفراج عنها كانت بمناسبة عيد الفطر عام ١٩٨٠ عندما أخلي ســبيل عدد محدود من المعتقلين (ربما لا يتجاوز عددهم الــ ٣٠ شخصاً من الــذين دخلــوا الــسجن لتوّهم.. وذلك بمناسبة صدور القانون ٤٩ حيث تعمدت السلطة إظهار أولئك السجناء علــى

شاشة التلفزيون معلنين براءهم من جماعة الإخوان المسلمين، وتنديدهم بجرائمها، ليشجعوا غيرهم (ممن هم خارج السجون) على الانسحاب، فيقعوا في أيدي المجرمين، وهذا ما حصل فعلاً، علماً بأن أولئك الأشخاص لم يكن لهم أية علاقة بالإخوان المسلمين، بل إن بعضهم كان من الرهائن، وآخرين ممن تركوا الجماعة قبل سنوات طويلة من اعتقالهم، ومع ذلك، يمكننا اعتبار هذه العملية بأنها أول عملية إفراج جماعية من سجن الموت، وبعدها توقفت الإفراجات الجماعية، واقتصرت على حالات فردية، ممن لديهم حظوة أو وساطات والتماسات لدى أزلام السلطة، وبنفس الوقت لم يكن لهم أية أسباب تستوجب اعتقالهم أصلاً.

ففي تشرين الثاني من عام ١٩٨٠ أخلي سبيل عدد محدود من المعتقلين، وفي منتصف عام ١٩٨١ أفرج عن عدد آخر، ثم توقفت الإفراجات حتى النصف الثاني من عام ١٩٨٢ وبالتحديد في شهر آب من ذلك العام، عندما أفرجت المخابرات العامة عن ٦٧ معتقلاً من نزلاء سجن تدمر.

وتأثرت معاملة السجناء بعملية الإفراج المذكورة، فتحسنت نسبياً فخفت شدة التعذيب، بعد أن بلغت ذروتها في الأشهر الماضية، وتحسنت نفسية أكثر المعتقلين الذين استبشروا خيراً، فقال بعضهم: (بدأت الأمور بالتحلحل) يعني بالانفراج.

كان أكثر المعتقلين القدامى من الأبرياء (حسب محاكم الظالمين) وقسم منهم قد حكم مدداً قصيرة (عامين فما دون) وحتى الذين حكموا أكثر من ذلك، فإن بعضهم قد قضى في السجن مدة الحكم وزيادة، وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٩٨٢ تم الإفراج عن دفعة جديدة من معتقلي أمن الدولة والمخابرات العسكرية، ويبلغ عددهم حوالي ٢٠٠ من سجن تدمر، وحوالي ١٠٠ من بقية السجون، وهي أكبر دفعة من المعتقلين تم الإفراج عنها منذ شهر آذار عام ١٩٨٠ ويعتبر ذلك التاريخ نقطة تحوّل جذرية في تاريخ سجن تدمر، إذ توقف التعذيب تماماً، وبقي مقتصراً على حفلة الاستقبال (وبشكل أقل مما كان سابقاً) أو في حالة وجود شكوى ضد أحد السجناء من رئيس المهجع، أو من سجين آخر (وهذا الأمر لم يكن موجوداً سابقاً).

أما الأمور الأخرى، فبقيت على حالها، فالزيارات ما تزال ممنوعة عن أغلب السجناء (حوالي ٩٠% من السجناء لم يحصلوا على زيارة) وإن كانت قد زادت نسبتها قليلاً عما مضى، والممنوعات الأخرى ما تزال قائمة، فلا وجود للكتب والقرطاسية والنشرات الدورية، وأجهزة الراديو وغيرها، والطعام ما زال على حالته، والعناية الصحية ما تزال رديئة، فمرض الجرب والقمل وغيرها من الأمراض ما تزال مستشرية في جميع المهاجع، والصلاة بقيت من الممنوعات أيضاً وغيرها...

وفي منتصف عام ١٩٨٣ أخلي سبيل ٣٤ سجيناً آخر من تدمر، وفي نهاية عام ١٩٨٤ أخلـي سبيل عدد آخر من السجناء، ومنذ ذلك الحين تقوم السلطة بإخلاء سبيل عدد محدد من المعتقلين بين الحين والآخر(٤٥).

وقبل أن أشرح كيف أخلي سبيلنا سأتعرض لموضوع عابر، وهو المشاكل الجديدة الـتي بـدأت تواجه المعتقلين بعد تشرين الثاني عام ١٩٨٢.

مشاكل جديدة طارئة تواجه المعتقلين: إلى جانب الصورة المشرقة لسجناء تدمر، طرأت صـورة معاكسة لها تماماً بعد عام ١٩٨٢ وكانت لقليل من المعتقلين، فسجن تدمر كان مقتـصراً علـى الإسلاميين، وهذا لا يعني بالضرورة أن جميع المعتقلين كانوا كذلك، لقد راحت أجهزة المخابرات تعتقل الناس عشوائياً، سواء أكان الشخص له صلة قرابة أو جوار أو علاقة صداقة عابرة بحكـم العمل أو الدراسة أو الخدمة العسكرية، والأنكى من ذلك أن أجهزة الظلم لفقت تهمـاً مزيفـة لكثير من الأشخاص كي تبرر اعتقالهم، فمثلاً قامت المخابرات باعتقال الكثير من المهربين بمنطقة الساحل خشية أن يقوموا بتهريب الأسلحة للإخوان المسلمين، واعتقلت المخابرات بإدلب الناس بهذه الهمجية.

والعسكريون أيضاً قامت السلطة بتلفيق التهم لكل من يشكّون بولائه لهم. واجتمعنا بعدد مـن المعتقلين ممن كانوا مدمنين على المخدرات في منطقة الساحل إذ اعتقلت السلطة جميع أصـحاب السوابق الجنائية (مخدرات.. سرقة.. تهريب.. إلخ) خشية انضمامهم لمجموعة (أبو علي الجنـدي) الذي كان على هذه الشاكلة (من أصحاب السوابق الجنائية) واستطاع أن يجمـع حولـه ممـن يسمون بمنطقة الساحل (عقداً – زكرتية) ومنَّ الله عليهم بالهداية وراحوا يقاومون السلطة.

بل وجد بين سجناء تدمر بعض النصيريين، أذكر منهم شخصين: أحدهما متطـوع بالوحـدات الخاصة ويدعى سجيع الناصر، وهو متهم ببيع أسلحة للإخوان المسلمين، والآخر علـى علاقـة بمجموعة من المهربين وأصحاب السوابق في منطقة الساحل، ويدعى عصام سلوم، وكان موجوداً بمهجع الأحداث، ووجد أيضاً بعض النصارى، منهم شخص من بيروت الـشرقية متـهم ببيـع أسلحة للإخوان، وشخص آخر من لبنان وكان في المهجع ١٩ لم أعرف تهمته، بل وحتى سـيدة نصرانية من مدينة حمص، متهمة بتأمين جواز سفر لأحد الأشخاص، مما ساعده على الفرار خارج البلاد، ومع الوقت كانت تتناقص نسبة الإسلاميين نتيجة عمليات الإعدام، وبالعكس تزداد نسبة من كانوا على هذه الشاكلة من السجناء. ولا ننكر أن الكثيرين منهم قد تـابوا وأنـابوا إلى الله خلال فترة سجنهم، وتغيرت أحوالهم، وصقلتهم وهذبت أخلاقهم المحنة، وظل بعضهم على حالته السابقة، وإن كان يصلي ويصوم ويحفظ القرآن، وأثناء فترة التعذيب الممتدة من منتصف عـام

١٩٨٠ وحتى نهاية عام ١٩٨٢ كانت المحنة توحد جميع السجناء، لذلك لم يكن لحظوظ النفس أي اعتبار عند الجميع، أما الآن، وبعد زوال التعذيب، فقد تغيرت الأحوال، يضاف إلى ذلك الظروف القاسية التي تتطلب صبراً وخلقاً رفيعاً، فالازدحام الشديد داخل الزنزانات، وقلة لوازم الحياة الضرورية، وغيرها من الشدائد التي تتطلب التحلي بالصبر والتضحية والإيثار، كل ذلك أدى لكشف عيوب البعض من ضعاف النفوس، وظهرت حظوظ النفس عند البعض، كالأنانية، وحب الزعامة، وحب الشهرة، وغيرها.. وهذه أمور قد تكون عادية، لكن المخيف نسيان بعضنا بين عشية وضحاها كل ما لحق بنا من ظلم وقهر على أيدي زبانية السلطة، وكأنهم تعرضوا لعملية غسل دماغ، والجلادون ربما يقصدون ذلك، كما قال لي القاضي أثناء المحاكمة، ولكن تصرفاتهم كانت تنم عن حقد ولؤم.

ودخل السجناء مرحلة جديدة لم تكن متوقعة، فراح البعض يشي بإخوانه لزبانية السجن دون تكليف أو دفع منهم، لأنهم أساساً لا يثقون بأي سجين مهما أظهر ولاءه لهم، كما ظهرت رعونة الآخرين الذين تسببوا بإيذاء إخوانهم، فمثلاً قال أحدهم ذات مرة للشرطة: إن فلاناً يلقي محاضرة دينية في المهجع، فكان ذلك سبباً لإيذائه، وآخر قال للجلادين: إن فلاناً قال لي عليك أن تعاملنا معاملة إخوانية، فنحن هنا إخوان.. وهكذا، وفي كل مرة كانت الوشايات تتسبب بجر الأذى لعدد من السجناء، وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، بل هدد أحد الزبانية عندما سمع (معاملة إخوانية) بأنهم على استعداد لإعادتنا لفروع المخابرات للتحقيق معنا ثانية، وكم نصحنا إخواننا بالكف عن تلك التصرفات الرعناء، فأكثرنا دخل السجن بسبب كلمة قالها، أو قيلت أمامه، أو قيلت بحقه، فنحن سجناء سياسيون، والكلمة لها اعتبار كبير، ولكن دون جدوى، فصار لزاماً علينا أن نحترس من العدو الداخلي، ومن هو ذلك العدو؟ أنفسنا نحن، إنهم إخوة منّا، يشاركوننا آلامنا وأحزاننا منذ عدة سنوات، وكم قلت لإخواننا: إن كل واحد منّا قد قضى مع إخوانه ردحاً من الوقت، فنحن نقضي مع بعضنا ٢٤ ساعة متواصلة، نأكل ونشرب وننام ونجلس ونتحدث ونذهب للحمام والحلاقة، ونتلقى التعذيب مع بعضنا، وهكذا، كل شيْ والله تعالى يسأل عن صحبة ساعة، كما ورد في الحديث الشريف: (والساعة مطلق من الوقت) فكيف بهذه الصحبة التي تساوي آلاف الساعات، وانقلبت الموازين فصار العدو صديقاً والأخ عدواً بين عشية وضحاها، كل ذلك جعلني أتساءل: هل نحن مزاجيون لهذا الحد؟ هل تهزمنا المظاهر فتنسينا حقائق الأمور؟ هل صحيح أن ذاكرتنا ضعيفة أو معدومة فلا نعرف إلا يومنا، وننسى الماضي القريب؟ هل يستطيع أعداؤنا تحقيق أهدافهم بسهولة؟ بل أبعد من ذلك، يستطيعون الوصول

لأهداف لم يفكروا بها أصلاً؟ ما سبب ذلك؟ هل هو نفسيتنا أم انعدام الـوعي عنـد بعـضنا أم الاثنان معاً أم عوامل أخرى؟

كنت أفكر بعمق، وأكاد أتمزق من الغيظ، وأتساءل: كيف يفكـر إخواننـا أصـحاب تلـك التصرفات؟ هل وصلت بهم الحماقة إلى هذا الحد؟ وكم كنت أصارح إخواني الموثوقين، وأقع في الغيبة، عندما أصف أولئك الناس بالحماقة والرعونة؟ وكم حذرني إخواني قائلين: اتق الله يا رجل ودعك من الغيبة. وأتذكر قوله تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً).

الإفراج: أ – الخروج من سجن تدمر:

رغم ظلام المحنة وانعدام الأمل بالإفراج عنـا خـلال الـسنوات الأولى (١٩٨٠ -١٩٨١ - ١٩٨٢) كان يتملكني شعور داخلي بأن الله سيفرج عني يوماً ما، واستقرت في نفسي ضـرورة تأريخ تلك الفترة والمحنة، لتدخل تاريخ أمتنا الإسلامية المعاصر من أوسع الأبواب، ولكم قلـت لإخواني معزياً عند اشتداد الكرب: لا تحزنوا، فإنكم تكتبون التاريخ، إن ما يجـري معنـا الآن سيدوّن يوماً ما في سجله، وستضيفه الأجيال من بعدنا إلى رصيدها الجهادي.

وما مرّت مناسبة إسلامية كعيد الفطر أو عيد الأضحى المبارك، أو أي مناسبة إجراميـة أخـرى كمناسبة ٨ آذار أو ١٦ تشرين ثاني ذكرى ما يسمى بالحركة التصحيحية النصيرية إلا توقعنـا الفرج، ولكن.. طال الانتظار، مما جعلني أوطّن نفسي على أن المحنة قاسية، وسـنوات الـسجن ستطول، رغم شعوري الداخلي بأنني سأخرج يوماً ما.

ومع تباشير الانفراج، ذهبت بأخوتنا التعليقات والتلميحات كل مذهب، وتوقع أكثرنا إرهاصات فرج قريب، وتصرف أولئك الأحبة على هذا الأساس، لكنني لم أتجاوز حد التـصرف المعقـول، خشية أن أصاب بالإحباط، إذ تعلقت بآمال لا تتحقق بهذه المناسبة أو تلك.

ومع إخلاء سبيل بعض الأخوة، كانت أنظار البقية تتعلق بفرج قريب، ولربما كفّ بعضهم عـن تناول الطعام في ذلك اليوم، أو بقي مستيقظاً طوال الليل، منتظراً قدوم الحراس ليقرءوا اسمه، أما أنا، فكنت أتصرف بصورة عادية، لأنني ما أزال رهن الاعتقال، وأسأل الله الفـرج العاجـل لي ولبقية إخواني.

وأخيراً، وبعد طول انتظار، جاء الجنود بقائمة أسماء، منها اسمي، ودّعت إخواني وخرجـت مـن المهجع، لألتقي عدداً آخر من السجناء، جمعوا من المهاجع الأخرى، وأخذنا السجانون إلى ساحة القلم (ساحة الإدارة) وهنا فوجئنا بدورية المخابرات، مع دفعة جديدة من المعـتقلين، في حفلـة استقبال رهيبة في باحة التعذيب!! أوقفنا جانباً ننتظر، ونحن نسمع صراخ المعذبين، فتذكرنا يـوم دخولنا هذا المكان اللعين، قبل عدة سنوات، وسألنا الله لإخواننا الفرج.

فتشنا زبانية السجن بدقة، وبنفس الطريقة عند دخولنا السجن، وأوقفونا جانباً في انتظار أن ينتهي المساعد المسؤول عن السجل من تخريجنا من السجلات، وقرأت أسماؤنا، وجاء رجال المخابرات يحملون القيود والعصابات (الطماشات) التي قتلت في نفوسنا أمل الخروج من السجن بشكل مشرف، وسيطر الغم على بعضنا، ولكنه أمراً اعتيادياً لي.

كانت القيود هذه المرة أخف من المرات السابقة، فقد ربطت يد أحد السجناء بيد سجين آخر، وبقيت الأخرى حرّة، ووضعت العصابات على وجوهنا بشكل ضاغط.

صعدنا السيارة العسكرية الخاصة بنقل السجناء، وجلسنا في داخلها، وجلس شخصان من عناصر المخابرات، (ويبدو أنهما من المجندين المغلوبين على أمرهم) خارج صندوق السيارة، على مقعدين متقابلين بمؤخرتها، وكانا في غاية اللطف، وبدا عليهما إشفاقهما علينا، لذلك بادلناهما مشاعر الشفقة، لما نالهما من البرد أثناء تلك الرحلة، لأنهما يجلسان في مكان مكشوف في مؤخرة السيارة.

كان الجو بارداً، لأن الحرارة تنخفض ليلاً في الصحراء، قال لنا أحدهم: يمكنكم فكّ الطماشات عن عيونكم، لأنها تضغط كثيراً، ففعلنا ذلك. وبجانبي جلس شيخ عجوز، أعلمني أنه مزارع، ومنظره يثير الشفقة والتساؤل: لماذا أقدم المجرمون على اعتقال هؤلاء المساكين الذين لا يعرفون من أمور السياسية شيئاً.

أخذ ذلك المسكين يسألني: إلى أين نحن ذاهبون؟

قلت له: من أجل إخلاء سبيلنا إن شاء الله.

قال لي: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا القيود والعصابات إذاً؟

أجبته: إننا ما نزال رهن الاعتقال، وهؤلاء (أفراد دورية المخابرات) لا يعرفون إلى أين نحن ذاهبون.

عاد فسألني بالتحديد: إلى أين ذاهبون؟

قلت له: إلى فرع المخابرات الذي اعتقلنا، وربما مكثنا هناك بعض الوقت، ثم يخلى سبيلنا.

كان ذلك المسكين خائفاً، لأنه ظن أننا ذاهبون إلى سجن آخر، أو لإعادة التحقيق معنا، أو للإعدام، وكرر عليّ نفس الأسئلة، وحول نفس الموضوع، فأعدت شرح الإجابات السابقة.

لقد فقد أكثر السجناء القدرة على التفكير الصحيح، والتوجّه السليم، كما فقد أكثرنا أي بارقة أمل، فلا يرى الأمور إلا منظار التشاؤم، نتيجة ما لاقيناه خلال سنوات السجن، وظن بعضنا أن الذين يخرجون لإخلاء سبيلهم، إنما يؤخذون للإعدام، وظن آخرون العكس.

رحنا نتحدث عن السجن، وأسباب اعتقالنا، والمدة التي قضيناها، حتى وصلنا إلى المدينة، بعد أن عانينا الكثير نتيجة البرد والآلام التي سببتها تلك المقاعد المزعجة.

أثناء الطريق، توقف الموكب عدة مرات، ليترل رئيس الدورية مع بعض عناصره لاحتساء الخمر، ثم كانوا يتابعون السير بعد أن يكونوا قد شربوا حتى الثمالة، وعندما وصلنا إلى مدينتنا، بدأنا نشاهد الأنوار والأبنية، فتدافعت عندها الأفكار إلى أذهاننا، واختلطت بالمشاعر المتناقضة، فنحن خائفون، لأنه عما قريب سندخل فرع المخابرات، ذلك المكان اللعين الذي لا نعلم ما ينتظرنا فيه، ونحن متفائلون، فلدينا أمل كبير بأننا سنكون أحراراً، نسير في هذه الشوارع طلقاء.

قلت لإخواني داخل السيارة: ها نحن وصلنا إلى مدينتنا.. عليكم أن تعيدوا العصابات كما كانت، وإلا تعرضنا لما لا تحمد عقباه من زبانية الفرع.

ب – الوصول لفرع المخابرات: أعدنا وضع العصابات قبل دخول السيارة إلى الفرع بفترة وجيزة، وسيطرت الرهبة على الجميع، هناك دعوت الله في نفسي: (اللهم إني أعوذ بك من شر هذا المكان وشر ما فيه).

أوقفت السيارة، وراح زبانية الفرع يترلوننا منها، ليستقبلونا باللكم واللطم والرفس، فرحنا نصرخ قائلين لهم: نحن أبرياء، جئنا إلى هنا كي يفرج عنّا. فيكون جوابهم مزيداً من الضرب، مع الشتم بأقذع الألفاظ وأفجرها، فهم لا يعرفون غير ذلك (قل كل يعمل على شاكلته، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً).

بعد ذلك، قام الزبانية بتفتيشنا، وأصيب بعضنا بالجروح والتريف (من الأنف والفم) وهذه أمور اعتدنا عليها كثيراً خلال سنوات سجننا، فدعونا الله أن تكون هذه آخر مرة نضرب فيها ونهان، وبعدها نزلنا للقبو (السجن) فأدخلونا إحدى الزنزانات الفارغة، وتركونا وانصرفوا.

الساعة تقارب الثالثة بعد منتصف الليل، المكان بارد، لا وجود للبطانيات أو أية مفروشات على الأرض، فرشنا بعض ملابسنا البالية التي نحملها معنا من السجن، وحاولنا أن نرقد قليلاً بعد أن أعيانا التعب والضرب، وأنّى لنا ذلك؟

في صباح اليوم التالي أحضر لنا الزبانية عدة بطانيات، ففرشناها على الأرض، ثم أحضروا لنا طعام الإفطار، فأكلنا وحمدنا الله، وسألناه أن يقطع نصيبنا من ذلك المكان.

ج – العودة إلى التحقيق: إن الذي يتعرض للاعتقال لأسباب سياسية، يبقى ضمن دائرة التحقيق ما دام معتقلاً، وكلما انتهى من فصل، واجه فصلاً جديداً. وهكذا حتى يخرج من السجن، ليبدأ نوع آخر من التحري والاستقصاء. أي أن الذي اعتقل ولم تثبت إدانته بأية تهمة، فالمجرمون لا يثقون بتلك النتيجة التي توصلوا إليها، فالأصل عندهم: أن كل متهم مدان حتى يثبت العكس،

وهذا لا يتحقق إلا إذا أثبت الشخص ولاءه لهم (أي إذا أثبت أنه مواطن صالح حسب تعبيرهم) وهذا لا يكون إلا إذا أصبح مخبراً لهم، عندها ترفع عنه التهمة، وإلا فهو ضمن دائـرة الاتهـام، وعليهم أن يجتهدوا لإيجاد أية شبهة يتمسكون بها لإيقاعه، سواء من خلال التحقيـق، أو جمـع المعلومات عنه من الآخرين المخبرين، أو المعتقلين الجدد.

وإذا لم يتوصلوا لأية نتيجة بجميع الطرق، فالشبهة قائمة مدى الحياة على من اعتقلوا، لتكون لهم سابقة تبرر إعادة اعتقالهم عند حدوث أية اضطرابات بالبلاد، وهم المعروفون بأصحاب السوابق، وبناء على تلك القاعدة، أقام الطغاة جميع تصرفاتهم مع الشعب.

نحن الآن ما نزال بين أيديهم، وما عليهم إلا أن يعيدوا التحقيق معنا وبأساليب أخـرى، لعلـهم يعثرون على جديد، وبالطبع لن يكون التحقيق هذه المرة بنفس أسلوب المرة الأولى، قد يكـون أكثر معقولية ورحمة.

أحضر لنا الزبانية عدة أوراق، تتضمن عدداً من الأسئلة للإجابة عليها، وتتعلق بأسباب الاعتقال، مثل: ما هي الأسباب التي أدت لتوقيفك؟ (إذ الكلمة المستعملة بدل الاعتقال هي التوقيف) ومتى وأين وكيف أوقفت؟ من هم الأشخاص الذين كانوا معك بنفس القضية؟ متى ذهبت للـسجن؟ وكيف قضيت هذه الفترة هناك؟ ماذا تنوي أن تعمل بعد إخلاء سبيلك؟

والمجموعة الثانية من الأسئلة تتضمن المعلومات الذاتية المتعلقة بالشخص، مثل: الاسم والعنـوان والمهنة ومحل وتاريخ الولادة، مع استمارة بجميع أسماء الأقارب حتى الدرجة الثالثة، مع عناوينهم وأعمالهم وانتماءاتهم السياسية.. إلخ..

بدأت بالإجابة على الأسئلة، ولكني توقفت عند السؤال الأول، فأنا لا أعرف بالضبط لمـاذا تم اعتقالي؟ وأخيراً كتبت: إن فلاناً افترى عليّ (الشخص الذي اعتقلت بسبب معرفتي به) وكذلك كتبت اسم ذلك الشخص بأنه كان معي بنفس القضية، لأن المحققين قالوا لي: إنه معتقل، وإنه قد اعترف علي.

أما بقية الأسئلة، فقد أجبت عليها دون صعوبة، وقدمت الأوراق لهم، بعدها جاء دور التحقيـق الشفهي، وراح الزبانية يتلون أسماءنا واحداً تلو الآخر، ويدخلوننا إلى غرفة التحقيق، ولم تكـن علينا الأصفاد والعصابات ذلك الوقت، وكان يجلس السجين مقابل المحقق، أمام طاولة المكتـب، فينظر المحقق إليه ويسأله حسب قضيته، وربما استرسل بالكلام مع بعضنا، واختصره مع الآخرين، وقد شجّع البعض بكلامه معهم أو ثبط الآخرين مظهراً حقيقته القمعية كرجل مخابرات، وذلـك حسب نوعية المعتقل، وفي كل الحالات يحاول التلاعب بأعصاب المعتقل، فالمسألة هـي حـرب نفسية بحتة، ومن الذي يدير الحرب النفسية؟ أليست هي أجهزة المخابرات؟

بالنسبة إليّ فقد وجهت لي الأسئلة التالية:

- متى أوقفت؟ أجبته منذ...

- لماذا أوقفت؟ قلت له: لا أعرف، ولكنكم قلتم لي: إن فلاناً قد اعترف عليّ، وأنا لا أعرف ماذا اعترف عليّ.

- من هم الأشخاص الذين أوقفوا معك؟ قلت له: فلان.

فكّر ملياً وقلّب الأوراق الموجودة أمامه، ثم قال: نعم..

- وعاد وسألني: أين هو فلان الآن؟ قلت له: موجود عندكم.

- نظر إليّ بشزر قائلاً: وكيف عرفت ذلك؟

قلت: أنتم قلتم لي ذلك، وأنني قد أوقفت لاعترافه عليّ.

فعاد يقلّب الأوراق أمامه لإيهامي بمعرفتهم لكل شيء، وربما كان لا يعرف القضية أساساً، لعدم مشاركته بالتحقيق، فصوته لم يكن مألوفاً لديّ، أو أن القضية قد صارت من منسياته لتقادمها.

قال لي: طيب هل ذهبت إلى المحكمة؟

قلت: نعم.

قال: وماذا حكمت؟

قلت: لا أعرف.

قال: كيف ذلك؟ قلت: إن القاضي لم يقل شيئاً، بل طلب مني الانصراف فقط.

تأملني ملياً وقال: تفضل. أي اخرج إلى زنزانتك.

وهكذا انتهت المقابلة، وانتهى التحقيق، وكان آخر ما تعرضت له، ولم أعرف تقييمهم للموقف، فهم يريدون مقارنة اعترافاتنا أثناء التحقيق أول مرة، مع اعترافاتنا الآن، لعلهم يعثرون على أي جديد.

لقد بدا على المحقق الغبط والحنق والحيرة، لذلك اختصر الكلام معي كثيراً، وربما شعر أنه لن يستطيع خداعي، فيستفيد مني، بل على العكس فكل كلمة يقولها لي قد تفيدني، وهذه هي عادة ضباط المخابرات، فكل شيء عندهم له حسابه، فإذا احتاجوا لرمي الطعم كي يحصلوا على صيد ثمين، فعلوا، وإلا فإنهم لا يرمونه إذا شعروا أن الضحية ستأكله دون الوقوع في الفخ، وهكذا كان تقييمي.. قلت في نفسي (موتوا بغيظكم).

دامت المقابلة عدة دقائق، خرجت بعدها لإخواني أحدثهم بما حصل، وقد سيطرت علي الرهبة، لأن الجلادين ما زالوا عند قناعتهم، ولكنهم لم يستطيعوا استخراج ما عندي، فما الذي يمنعهم من إعادتي للسجن(٤٦).

سألت الله السلامة، وطلبت من إخوتي الدعاء، فطمنني الإخوة قائلين: إن هذا أمر عادي، فأجواء المخابرات كلها إرهاب، هل تنسى أنك أمام أحد الجلادين؟ وهل يستطيع المجرمون تغيير طبيعتهم الإجرامية، هل يصبح الذئب حملاً أو الثعلب غزالاً؟ وهل تصبح الأفاعي والعقارب حمامات مسالمة؟ كلا!... ثم قال لي: ألا تسمع أصوات المعذبين التي لا تنقطع في ليل أو نهار؟ هذه هي طبيعة المجرمين، ولن يغيروا من طبيعتهم مهما حاولوا، فهم يريدون أن يمنّوا علينا بالإفراج، ويريدون إقناعنا بأنهم يفعلون ذلك تكرماً.

وبعد أيام من المقابلة، استدعيت ثانية، وطلب مني التوقيع على ورقة لم أعرف محتواها (وهذه هي عادتهم) وفي اليوم التالي استدعيت لتسلم أغراضي التي سرق بعضها في قسم الأمانات، وتلك هي أمانتهم!! قال لي أحدهم: ندفع لك ثمن الأغراض المفقودة؟ فشكرتهم على أريحيتهم!! فالحرية والخلاص منهم لا يعدلهما شيء.

جاء الحلاق يومها، وحلق لنا جميعاً، لأن حلاقة سجن تدمر تشبه حلاقة الماعز والغنم، وعندها صرنا جاهزين للخروج إلى العالم من جديد.

الخروج من السجن: وفي المساء، قرأ أحد الجنود أسماءنا، وأخبرنا بإخلاء سبيلنا، قائلاً: اجمعوا أغراضكم لتخرجوا من هنا، فخرجنا إلى غرفة كبيرة خارج السجن، لنجتمع هناك بأهلنا الذين كانوا في انتظارنا، وحضر رئيس الفرع (وهو من الدمى المعروفة ببلدنا، لأنه لا يملك سوى الإجراءات الشكلية) وألقى كلمة تثير السخرية والاشمئزاز والتي اعتدنا سماعها في ظل مناسبة نلتقي فيه بأزلام السلطة، سواء أكانوا ضباط مخابرات أم ضباط شرطة أو غيرهم. الكلمات نفسها يرددها الجميع دائماً، وبعدها خرجنا من الفرع، فكان في انتظارنا جمع كبير من الناس عند الباب، لأن المخابرات أعلموا ذوينا بذلك، فجاءوا لاستقبالنا، وانتشر الخبر بالبلد، فجاء ذوو المعتقلين ينتظرون عند الباب، وسمح لعدد محدد من ذوي المعتقلين المفرج عنهم بالدخول، أما الباقون فظلوا واقفين في الشوارع مدة طويلة، وربما منذ الصباح، ولكن الظالمين خيبوا آمالهم، فكان عددنا لا يستحق الذكر، مقارنة بعدد المعتقلين من أبناء مدينتنا.

ها أنذا أجد نفسي حراً طليقاً أسير في الشارع، لا يستطيع الإنسان وصف مشاعره في تلك اللحظات، فقد اختلطت مشاعر الفرح بالحزن، فأنا فرح بأن الله منَّ عليّ بالحرية بعد سنوات من الأسر، عانينا خلالها ما لا يعلمه إلا الله، ونحتسب ذلك عنده، وبنفس الوقت، أنا متألم على إخواني الذين ما زالوا أسرى بيد عدو لئيم حاقد.. وأما الذين استشهدوا، فقد تخلصوا من ظلم الأرض وجورها، ونحسبهم إن شاء الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولكن، أليس لهم أهل وأولاد وإخوة وآباء وأمهات؟ ما حال أولئك المساكين وقد حرموا أبناءهم وهم يجهلون

مصيرهم؟ ما ذنبهم أن يعيشوا سنوات عجافاً طويلة ينتظرون وينتظرون، يتجرعون مرارة الأسى، دون نهاية لتلك الأحزان؟ إنها مأساة حقاً.. وراودني شعور بالخوف، فالطغاة لا أمان لهم، وقد نعاد للسجن بين عشية وضحاها، فالعصابة الحاكمة لم تتغير، والظلم والجور ما زالا قائمين فوق رقاب العباد، ومن يمنعهم من اعتقالنا ثانية؟ (لا أحد إلا الله).

وأعود فأسال نفسي: هل أسمح للظالمين باعتقالي ثانية؟ أما يكفينا ما شاهدناه؟ لقد تعلمت الدرس، وقرأت على جدران السجن مرات ومرات العبارة الآتية: (قد يدخل العاقل السجن مرة، ولكن لا يدخله مرتين).

من السجن الصغير إلى السجن الكبير:

عند باب الفرع ركبنا السيارة التي اتجهت بنا إلى البيت، وكان في انتظاري عدد كبير من أقاربي الذين جاءوا لمعانقتي، والسلام عليّ، فحذرتهم.. مهلاً.. مهلاً.. قالوا لماذا؟ قلت: لا تلمسوني حتى لا تصابوا بالجرب!! ثم تداركت، فلعل بين الحاضرين أحد المخبرين.. تمهل تمهل (قلت في نفسي) لا تتكلم.. ألم تتعلم الدرس؟!

فطلبت منهم إحضار الدواء من الصيدلية المناوبة، وعليّ أن أدخل الحمام لاستبدال ملابسي، ووضعه على الجسم بعد الاستحمام(٤٧)، فاستحممت ثم وضعت الدواء، وخرجت فجلست جانباً وطلبت التعرّف على الحاضرين حتى أطمئن لخلو البيت من المخبرين، فعرفت أن الجميع أقاربي، وأدركت أيضاً أن الزمن قد سبقني كثيراً، وتغيرت الدنيا من خلال فترة غيابي في السجن، إذ مات من مات، وولد آخرون، وتزوج غيرهم وهكذا..

إذن لا وجود للغرباء، الجميع متلهفون ليسمعوا مني، وبادرني بعضهم بالأسئلة عن مجزرة سجن تدمر، وعن التعذيب، والأمراض المنتشرة بين السجناء وعمليات الإعدام وغيرها وغيرها.

وباتت جميع أخبار السجن معروفة للجميع، بسبب أخوتنا الذين أفرج عنهم قبلنا، فقلت لهم: إنكم تعرفون كل شيء، محاولاً التملّص من الإجابة، وأمام إلحاحهم الشديد، أخذت أقصّ عليهم ما حصل معنا، الجميع جلسوا مشدوهين، وكلما تعرضت لإحدى المنعطفات المؤلمة، وما أكثرها (حفلة استقبال، تعذيب، إعدام، موت بعض السجناء تحت التعذيب) رأيت الجميع يدعون إلى الله أن ينتقم من الظالمين، وبعضهم يحوقل ويسترجع، وربما راح بعضهم يبكي. حتى أنهيت كلامي، وجاء دور الأسئلة المحرجة: هل التقيت فلاناً من المعتقلين؟ هل صحيح أن فلاناً قد أعدم؟ ماذا أجيبهم؟ إذا كنت متأكداً أن ذلك المعتقل قد انتقل إلى الدار الآخرة؟ هل ألجأ للفّ والدوران (كما يقال) أم أكون صريحاً أم أتملّص من الإجابة؟ ومن يدري فقد تجر عليّ الإجابة كارثة جديدة؟ صحيح أن الجميع من أقاربي، وأنا مطمئن من هذه الناحية، ولكن من يدري أن الجميع

يستطيع حفظ لسانه؟!! وأعود فأتذكر ما تعرضت له قائلاً في نفسي: ألم أتعلم من تجربتي؟ أم تراني أكون ممن قال فيهم الشاعر:

من لم تفده عبر الأيام كان العمى أولى به من الهدى

صحيح أنني مطمئن للحاضرين، ولكن ألا تقول القاعدة (يؤتى الحذر من مأمنه) إذاً لا ينبغي الاطمئنان، بل يجب الحذر في جميع الأحوال.

رحت أجيب على الأسئلة بحذر، مع شيء من التورية أحياناً، ومع ذلك، فلقد عزمت أن أقول الحقيقة كاملة، عندما تتهيأ لي الظروف المناسبة، كما حصل مع إخواني الذين أخلي سبيلهم قبلي..

طلبت من الحاضرين ألا يحرجوني بالأسئلة، فإن ما شاهدته وما عانيته يفوق الوصف، كما رجوتهم مراعاة ظروفي، وكأنما كانت كلماتي بمثابة ضوء أخضر لجدتي التي كان الجميع يهابون سطوة لسانها (شأن كل العجائز ببلادنا) فراحت تتكلم بقسوة مع الذين وجهوا إليّ الأسئلة، قائلة لهم: هل تريدون أن يعود ثانية للسجن؟ لماذا تسألونه عن زيد وعبيد؟ ما شأننا بهم؟ دعوه، فهذه أمور لا تعنينا.

وبالطبع أنا لا أؤيدها فيما ذهبت إليه، فكل شأن يعنيني، فأنا لست محايداً بالنسبة لتلك الأمور، ولكني كنت أود الاستفادة مما تعلمته، أي أن أقول ما أريد بقدر وحذر. لقد علمني السجن كيف أتصرف.

وهكذا مرت الأيام الأولى، فالزيارات الكثيرة من الأقارب والمعارف وذوي المعتقلين الذين يريدون معرفة مصير أبنائهم المغيبين في غياهب السجون منذ سنوات، وكم كنت محرجاً عندما أسأل عن أخ قد استشهد، فماذا أقول لأقاربه؟ خاصة إذا كان بين السائلين والدته أو زوجته؟ هل يمكنني قول الحقيقة فتكون الطامة الكبرى؟! طبعاً لا.. كنت أتلافى الإجابة المباشرة بالتورية، وكأن أقول لهم: لم ألتق به، أو لم يكن معي بالمهجع، ورغم ذلك، كنت أقول الحقيقة، عندما تسمح لي الظروف، كأن ألتقي بأحد أقاربه البعيدين، أو معارفه، أو إذا كان السائل رجلاً.

وهكذا قضيت أسبوعين تقريباً، كنت خلالهما مدللاً محمولاً على الأكف كما يقال، وأجريت خلالها العلاج الطبي لبعض الأذيات التي أصبت بها خلال السجن، وإن كان بعضها قد خلقت آفات دائمة، ولكني والحمد لله ما أزال أتمتع بكامل صحتي وقواي العقلية والآن جاء وقت الجد، وعليّ أن أعود لعلمي ثانية، حتى تسنح لي الفرصة بالخروج من السجن الكبير.

وعندما بدأت بالذهاب للعمل، وممارسة حياتي العادية، شعرت أنني في سجن كبير فعلاً، أكثر الأخوة الذين أعرفهم غابوا، إما داخل السجون، أو استشهدوا، أو فروا خارج البلاد، والذين ما

زالوا داخلها قد سيطر على أكثرهم الخوف، فهم يحاولون تجنب الاتصال بي، ولو بطريق الصدفة، وكأنهم لا يعرفونني، فأحسست بالعزلة، فكأنني صرت منبوذاً.

المخبرون يحيطون بي من كل جانب، وهذا ما كشفته بنفسي، وعرفه الآخرون أيضاً، وأعلموني به، حيثما أذهب أعاني من هاجس المخابرات، كلما سمعت ضجيج الأبواب أتذكر ساعة اعتقالي، وهنا أذكر ثلاث حوادث جرت لي في تلك الفترة:

الحادثة الأولى: عندما كنت أسير في أحد الشوارع، توقفت عند بقال من معارفي، سلمت عليه، وسألني بضعة أسئلة، ثم طردني قائلاً: تفضل انصرف من هنا، كمن يطرد لصاً، فانصرفت دون معرفة السبب، هل خيل له أن أحد المخبرين يلاحقني؟ أم شاهد شخصاً يشكّ أنه من المخبرين؟ أم فكّر ملياً فعرف خطورة الاتصال بي؟ أم أسباب أخرى؟. ومع ذلك فقد تأثرت كثيراً دون أن أجرؤ على أن أنبس ببنت شفة!!

وحادثة ثانية مشتبهة، جلست عند أحد معارفي في داخل حانوته أحدثه عما حصل معنا، وكان متشوقاً ليسمع مني تلك الأخبار، وبينما هو يحضر لي كوباً من الشاي إذ شاهد فجأة أحد الأشخاص يقترب من محله، فطلب مني الخروج والانصراف بسرعة، فسألته عن السبب، قال لي: إن ذلك الشخص من المخابرات، أرجوك ألا تؤذيني، وأي أذية تلك!! فخرجت من محله وابتعدت.

الحادثة الثالثة: عدت مساءً إلى البيت ذات يوم قافلاً من السوق في حاجة لي، فإذا بي بسيارة السجن المخصصة لنقل السجناء تقف عند مدخل الشارع الذي أسكن فيه، وعلى بعد ٣٠ متراً من بيتنا، قلت في نفسي: أنا المطلوب، لقد جاءت هذه السيارة إلى هنا لاعتقالي، فابتعدت عن البيت، ورحت أراقبها حتى غادر جميع أفراد الدورية المنطقة، وانصرفوا (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) فدعوت الله أن يصرفهم عني، فلا أراهم بعد اليوم.

وأما عن المخبرين الذين كانوا يتعمدون مقابلتي، والحديث معي، وخاصة بمكان العمل، فحدّث عن ذلك ولا حرج، فلا يكاد يمر يوم واحد دون مقابلة أحدهم، وكل شخص منهم يأتي إلي يحدثني بقصة جديدة.. فهذا يدعي أنه كان بالسجن الفلاني بتهمة كذا وكذا، وأنه قضى هناك عدة أشهر.. وادعى بعضهم أنه قضى بالسجن خمس سنوات، وذاك كان نزيل سجن تدمر في الزنزانة رقم كذا، وآخر كذا وكذا، وبالطبع فقد أصبحت ألاعيب القوم وتمثيلياتهم مكشوفة لي، بل إنني صرت خبيراً بها، فكنت أستمع لأولئك الناس، وأشاركهم الحديث، حتى لا يفهموا أني كشفت أمرهم، وكنت أحترس في الكلام، فلا أتكلم أية كلمة يمكن أن تكون ممسكاً علي.

وصار عليّ أن أحترس بتعاملي مع الناس، وأن أجامل أولئك الأوباش، لئلا يستاء مني أحدهم، فيكتب ضدي تقريراً كاذباً يقودني إلى السجن ثانية، فهم ينتظرون أن يسمعوا مني كلمة، لأنهم حساسون جداً، إذ يكفي أن يذكر اسمي عندهم، ليأمروا باعتقالي، لذلك كنت أدعو الله أن أكون من المنسيين عندهم.

شعرت خلال الشهور الأولى من خروجي أنني أعيش سجناً كبيراً، فعلي أن أزن كل كلمة أو حركة أو سكنة، يضاف إلى ذلك، الهاجس الذي أعاني منه، لكن ذلك لم يمنعني من مزاولة أمور حياتي المعتادة، وزيارة أكثر أقاربي، وبعض معارفي، ناقلاً لهم ما رأيته وعانيته داخل السجن، كما أعلمتهم ما أعرفه عن مصير بعض المعتقلين، ورغم ذلك، فقد كنت مقتنعاً أن ذلك ليس كافياً، فقد أصبحتُ ورقة محترقة، لا أستطيع فعل شيء ذي بال، لخدمة الرسالة التي نذرت نفسي لها، فما الحل؟

لقد نصحني أكثر الذين التقي بهم بمغادرة البلاد، بل وأوضح لي بعضهم طريق الخروج منها، فلا أمان لي بعد اليوم.

لقد تعرفت خلال فترة اعتقالي على العديد ممن أخلي سبيلهم، ثم أعيد اعتقالهم، كما أن الخروج من البلاد قد يتيح للإنسان ظروفاً أفضل، والله تعالى يقول: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيرة وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً) وهكذا أعانني الله على الخروج من السجن الكبير، لأستنشق نسمات الحرية، ونجوت من القوم الكافرين، لقد قالها أحد الأخوة عندما قابلني بعد الإفراج عني، وعندها شعرت أن نجاتي ما زالت منقوصة، فما أزال بين أيديهم، وباستطاعتهم اعتقالي متى شاءوا، أما الآن، فلا سلطان لهم عليّ فالحمد لله الذي نجاني منهم، والحمد لله على نعمة الحرية. (ربِّ بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين).

انتهى.

الملاحق: الملحق الأول

الملحق الأول نص القانون ٤٩ مع محضر اجتماع مجلس المهرجين لإقراره، من كتاب قانون العار ٤٩ - طبع دار النذير

أقر مجلس الشعب القانون التالي :

المادة ١ - يعتبر مجرما ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم الأخوان المسلمين.

المادة ٢ -

أ-يعفى من العقوبة الواردة في هذا القانون أو أي قانون آخر، كل منتسب إلى هذه الجماعة، إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون.

ب- يتم إعلان الانسحاب بموجب تصريح خطي يقدم شخصيا إلى المحافظ أو السفير لمـــن هـــم خارج القطر بتاريخ صدور هذا القانون.

المادة ٣- تخفض عقوبة الجرائم الجنائية التي ارتكبها المنتسب إلى تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، قبل نفاذ هذا القانون تحقيقا لأهداف هذه الجماعة، إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تـــاريخ نفاذ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه وفقا لما يلي :

أ- إذا كان الفعل يوجب الإعدام أو الأشغال المؤبدة أو الاعتقال المؤبد، كانت العقوبة الأشغال الشاقة خمس سنوات على الأكثر.

ب- إذا كان الفعل يؤلف إحدى الجنايات الأخرى كانت العقوبة الحبس من ســـنة إلى ثـــلاث سنوات .

المادة ٤- يعفى من عقوبة الجرائم الجنوحية المرتكبة قبل نفاذ هذا القانون، تحقيقا لأهداف تنظيم جماعة الأخوان المسلمين كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه.

المادة ٥- لا يستفيد من التخفيض والعفو الواردين في هذا القانون الذين هم قيـــد التوقيـــف أو المحاكمة .

المادة ٦- ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ صدوره .

رئيس مجلس الشعب

محمود حديد

نص المناقشات التي تمت داخل مجلس الشعب حول القانون (العار)/٤٩/

مجلس الشعب

الدورة العادية التاسعة

الجلسة العشرون

المنعقدة في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء يوم الاثنين السابع عشر مـــن شـــعبان /١٤٠٠/ والثلاثين من حزيران/١٩٨٠/

مذكرات مجلس الشعب

أولا: افتتاح الجلسة :

في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء يوم الاثنين السابع عشر من شعبان /١٤٠٠/ والثلاثين من حزيران ١٩٨٠، اجتمع مجلس الشعب علنا برئاسة رئيسه السيد محمود حديد وعضوية أميني السر السيدين سعيد سليمان وتوفيق النقري وحضور أكثرية الأعضاء .

السلطة التنفيذية :

وقد حضر الجلسة السيد وليد حمدون نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الخدمات، والسيد عبد القادر قدورة نائب رئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية والسادة : أحمد اسكندر أحمد وزير الإعلام، اللواء ناصر الدين ناصر وزير الداخلية، الدكتور المهندس أحمد عمر يوسف وزير الكهرباء، محمد نجيب السيد أحمد وزير التربية، عبد الكريم عدي وزير شؤون رئاسة الجمهورية، الدكتور أحمد درقاوي وزير التعليم العالي، محرم طيارة وزير النقل، الدكتور سليم ياسين وزير الدولة لشؤون التخطيط، الدكتور محمد الأطرش وزير الاقتصاد والتجارة الداخلية، نايف طعاني وزير دولة لشؤون مجلس الشعب، الدكتور عبد الجبار ضحاك وزير النفط والثروة المعدنية .

ثانيا: تلاوة أسماء الغائبين والمجازين :

الغائبون السادة :

أحمد عيد الأحمد، إسماعيل اليوسفي، جمعة عبدون، جميل الأسد، حامد حسن رجب، رشيد عيسى، رضا أصفهاني، سعيد السلمان، ضياء الحاج علي، محمد نور عبد المجيد التجار، عبود جدعان ، عصمت غباري، محمد حمدي عرب، محمد هشام، محمد عبد الله العلي، محمد العمادي، مصطفى العايد، نزيه السعيد، نور الدين خضور سيفو، مصطفى الحاج موسى .

المجازون السادة:

البير عبد الله، جمال عبد الله، محمود السعدي، محمود ملوك، موريس صليبي، عبد الرزاق هويدي، علي تلجبيني، فيصل سماق، محمود الجمعة، محمد خربوطلي، حسن ظافر خير الله، محمد فندي أبازيد، خليل محمود خليل، عبده هدلة وزير دولة، فاروق الشرع وزير دولة للشؤون الخارجية، خالد المالكي وزير العدل، المهندس رأفت الكردي وزير المواصلات، الدكتور غضوب الرفاعي وزير الصحة.

الرئيس:

لحضور الأكثرية أعلن افتتاح الجلسة ويتلو أمين السر أسماء الغائبين والمجازين .

مشروع قانون محال من السيد رئيس الجمهورية بتشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.

السيد رئيس مجلس الشعب

نحيل إليكم مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء لعرضه على المجلس .

دمشق في ١٦/٨/١٤٠٠ هـ و٢٩/٦/١٩٨٠ م .

رئيس الجمهورية

حافظ الأسد

مشروع القانون

المادة ١ - يعتبر مجرما ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم الأخوان المسلمين.

المادة ٢

أ-يعفى من العقوبة الواردة في هذا القانون أو أي قانون آخر، كل منتسب إلى هذه الجماعة، إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون.

ب- يتم إعلان الانسحاب بموجب تصريح خطي يقدم شخصيا إلى المحافظ أو السفير لمن هم خارج القطر بتاريخ صدور هذا القانون.

المادة ٣- تخفض عقوبة الجرائم الجنائية التي ارتكبها المنتسب إلى تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، قبل نفاذ هذا القانون تحقيقا لأهداف هذه الجماعة، إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه وفقا لما يلي :

أ-إذا كان الفعل يوجب الإعدام أو الأشغال المؤبدة أو الاعتقال المؤبد، كانت العقوبة الأشغال الشاقة خمس سنوات على الأكثر.

ب-إذا كان الفعل يؤلف إحدى الجنايات الأخرى كانت العقوبة الحبس من سنة إلى ثلاث سنوات .

المادة ٤ - يعفى من عقوبة الجرائم الجنوحية المرتكبة قبل نفاذ هذا القانون، تحقيقا لأهداف تنظيم جماعة الأخوان المسلمين كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه.

المادة ٥ - لا يستفيد من التخفيض والعفو الواردين في هذا القانون الذين هم قيد التوقيف أو المحاكمة .

المادة ٦ - ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ صدوره .

الرئيس : يحال هذا المشروع بقانون إلى لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية، ولدي اقتراح من السيد غازي خضرة يقول فيه : أرجو استعجال النظر في مشروع القانون الخاص بعصابة الأخوان المسلمين. والكلمة للسيد عبد الله موصلي .

السيد عبد الله موصلي : إن طلب استعجال النظر لهذا المشروع هو في غير محله وذلك للأسباب التي سأبينها : لقد نص النظام الداخلي على أنه يجوز للسلطة التنفيذية أو لأي عضو كان أن يطلب استعجال النظر في أي موضوع يراه مستعجلا، فيحال إلى اللجان المختصة وعلى هذه اللجان أن تبت في هذا الموضوع خلال خمسة أيام، فكما تعلمون سيدي الرئيس فان دورتنا الحالية تنتهي في منتصف هذا الليل أي بعد خمس ساعات ونصف، فكيف يحق للجنة أن تتريث وتنظر في هذا الموضوع في خمسة أيام، هذا من جهة كما يجب أن تقوم اللجنة الدستورية أولا البحث في دستورية أو عدم دستورية هذا المشروع فيحال إلى المجلس وتجري المناقشة بشأنه فإما أن يقر دستوريا أو يرفض دستوريا على ضوء الملاحظات التي ستبديها اللجنة، ثم يحال إلى اللجان المختصة لدراسته موضوعيا، وعلى هذه اللجنة كما أسلفت أن تقدم تقريرها خلال مدة خمسة أيام .

سيدي الرئيس: إن جميع الندوات العالمية التي جرت ولاسيما الندوة الأخيرة العربية التي جرت في القاهرة عام ١٩٧٦ والتي اشتركت فيها سورية قد طلبت جميعها إلغاء عقوبة الإعدام .

سيدي الرئيس: من هذا المنطلق وحيث أن الدستور قد نص على أن السيادة للقانون، فكيف يمكن أن نعطي سيادة لقانون يقر في ظرف خمس ساعات؟ إن الموضوع خطير جدا أطلب من الأخوة الأعضاء عدم الموافقة على الاستعجال فيه وأن يبحث عن ترو وبإمعان لمعرفة الأسباب الاجتماعية والسياسية والإنسانية والنفسية لإقرار مثل هذه العقوبة، وانسجاما مع المبادئ الأساسية التي حافظت عليها عشرين سنة وأنا في هذه المجالس التشريعية وذلك للحفاظ على النظام والدستور، وسوف أعلن أمام الجميع بأنني لن أحضر جلسة اللجنة الدستورية التي أنا عضو فيها كما أنني لا أناقش في هذا المشروع حال إقرار استعجال النظر فيه وشكرا.

الرئيس: هل من ملاحظة على استعجال جواز النظر؟ (سكوت) إذن الموافقون على استعجال النظر يشيرون برفع الأيدي (رفعت الأيدي) أكثرية، وأدعو لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية للاجتماع فوراً الآن .

الكلمة للسيد هشام الساطي:

السيد هشام الساطي:

أرجو أن يذكر عدد الحضور والعدد الذي صوت مع المشروع تمشيا مع ما قاله الزميل موصلي في الحفاظ على النظام الداخلي ولمعرفة الأكثرية وشكرا.

الرئيس: مرة ثانية، الموافقون على استعجال جواز النظر يشيرون برفع الأيدي(رفعت الأيـــدي) أرجو من العضو الأستاذ هشام أن يعد معنا وهل هناك أكثرية أم لا..

السيد هشام الساطي: أرجو إعلان العدد الذي افتتحت به الجلسة والعدد المطلوب للتـــصويت الآن وأن يعلن العدد الذي صوت لكي يكون سجلا في تاريخ هذا المجلس.

الرئيس: إن عدد الحضور هو /١٣٠/ عضوا وأرجو الآن من السادة المـــراقبين عـــد أصـــوات الموافقين على الاقتراح باستعجال جواز النظر بمشروع القانون كما أرجو من الأخوة رفع أيديهم لفترة قصيرة لأن المسألة دقيقة جدا (وهنا بدأ أمناء السر بعد أصوات الموافقين على اســـتعجال النظر).

الرئيس: إن العدد المطلوب هو /٦٦/ وعدد المصوتين الآن /٦٨/عضوا، وأدعو لجنة الـــشؤون الدستورية والتشريعية إلى الاجتماع الآن فورا على أن نتابع نحن جدول أعمالنا، والكلمة للسيد وحيد مصطفى.

السيد وحيد مصطفى: قبل أن ننتقل لمتابعة جدول الأعمال وبعد أن صوت المجلس على استعجال النظر هذا أريد أن أسأل: هل هذا القانون سيحل المشكلة في بلدنا؟

الرئيس: عندما نبدأ بمناقشة المشروع يمكن أن تسأل هذا السؤال والكلمة للسيد هشام الساطي.

السيد هشام الساطي: أرى أن ترفع الجلسة حتى عودة اللجنة وحتى يكون لأعضائها نـــصيب في المساهمة بالتقارير الواردة ومناقشتها.

الرئيس: لا بأس عندنا أكثرية، ويتلو أمين السر التقرير الأول.

مجلس الشعب

الدورة الاستثنائية الخامسة

الجلسة الثانية

المنعقدة في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء يوم الأحد الثالث والعشرين من شـــعبان ١٤٠٠هـــ والسادس من تموز ١٩٨٠ م .

أولا : افتتاح الجلسة:

في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء الأحد الثالث والعشرين مـــن شـــعبان ١٤٠٠ والسادس من تموز ١٩٨٠ اجتمع مجلس الشعب علنا برئاسة رئيسه السيد محمود حديد وعضوية أميني السر السيدين توفيق النقري ووفيق عرنوس بالإنابة، وحضور أكثرية الأعضاء.

السلطة التنفيذية :

وقد حضر الجلسة الوزراء السادة : نايف طعاني وزير دولة لشؤون مجلس الشعب، المهندس رأفت الكردي وزير المواصلات.

الرئيس : لحضور الأكثرية أعلن افتتاح الجلسة ويتلو السيد أمين السر أسماء الغائبين والمجازين .

ثانيا: تلاوة أسماء الغائبين والمجازين:

الغائبون السادة:

أحمد دشو، حسان جمعة، رئيس فرحان الفياض، رشيد عيسى، شعبان شاهين، ضياء الحاج علي، طريف كيالي، عبد العزيز الملحم، عصمت غباري، علي تلجبيني، فيصل النجرس، ثابت المهايني، محمد حمدي عرب، محمد شيخ إسماعيل، محمد ظافر خير الله، محمد علي الحلبي، محمد العمادي، محمد هشام سيفو، مصطفى العايد.

المجازون السادة :

عبد المعين الفطراوي، محمد ميهوب، نصر اليوسف.

الرئيس: وردني تقرير لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية في مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، الموافقون على إدراجه في جدول أعمال هذه الجلسة يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية، ويتلو أمين السر هذا التقرير.

السيد رئيس مجلس الشعب

عقدت لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية اجتماعا في الساعة العاشرة من صباح يوم الأحد ١٩٨٠/٧/٦ برئاسة رئيسها الدكتور فؤاد ديب وعضوية مقررها السيد علي ملحم وحضور الأعضاء السادة:

إسماعيل اليوسفي، إسماعيل عبد الغني، البير عبد الله، عبد الله الموصلي، بوغوص سراج، جمعة عبدون، سعيد سليمان، الدكتور عارف حمدان، نجم الدين الصالح ، هادي أقبيق، مقطع طويسان، شفيق وهدان، حمدي المحمود.وغياب بقية الأعضاء.

بحثت اللجنة بحضور السيدين وزير العدل والداخلية من الناحية الدستورية في مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.

وبعد الاطلاع على مشروع القانون وأسبابه الموجبة وعلى قرار المجلس الكريم باستعجال النظر في جواز النظر فيه وعلى مضمون مواده مادة مادة. وبعد إجابة السادة الوزراء على كافة تساؤلات السادة الأعضاء قررت اللجنة بالأكثرية جواز النظر فيه لعدم مخالفته لأحكام الدستور.

في حين رأت الأقلية أن المادة (٥) من المشروع تخالف المادة (٣٠) من الدستور التي تقول بعدم رجعية القوانين في الأمور الجزائية.

واللجنة إذ ترفع تقريرها لمقامكم ترجو عرضه على المجلس الكريم للموافقة على رأيها، ودمتم باحترام.

مقرر اللجنة رئيس اللجنة

علي ملحم الدكتور فؤاد ديب

الرئيس: سمعتم التقرير وهو مطروح للمناقشة العامة(سكوت) الموافقون عليه يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية. قُبل ويحال إلى لجنتي الشؤون الدستورية والتشريعية والأمن القومي مجتمعين، وقبل أن ترفع الجلسة أدعو لجنتي الشؤون الدستورية والتشريعية والأمن القومي للاجتماع الآن كما أذكر الأخوة الأعضاء باجتماعات اللجان ليوم غد الاثنين حسب الجدول المعلن بانتهاء جدول أعمالنا أرفع الجلسة إلى السادسة من مساء غد الاثنين السابع من تموز ١٩٨٠ وشكرا.

مجلس الشعب

الدورة الاستثنائية الخامسة

الجلسة الثالثة

المنعقدة في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة من مساء يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان ١٤٠٠هـ والسابع من تموز ١٩٨٠ م .

أولا : افتتاح الجلسة:

في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة من مساء الاثنين الرابع والعشرين من شعبان ١٤٠٠ والسابع من تموز ١٩٨٠ اجتمع مجلس الشعب علنا برئاسة رئيسه السيد محمود حديد وعضوية أميني السر السيدين سعيد سليمان وتوفيق النقري وحضور أكثرية الأعضاء.

السلطة التنفيذية :

حضر الجلسة رئيس مجلس الوزراء الدكتور المهندس محمد عبد الرؤوف الكسم، والسيد عبد القادر قدورة نائب رئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية.

والوزراء السادة :

أحمد اسكندر أحمد وزير الإعلام، اللواء ناصر الدين ناصر وزير الداخلية، محمد غباش وزير التموين والتجارة الداخلية، محمد نجيب السيد أحمد وزير التربية، الدكتور أسعد درقاوي وزير التعليم العالي، يوسف جعيداني وزير الشؤون الاجتماعية والعمل، نايف طعاني وزير دولة لشؤون

مجلس الشعب، عبد الجبار الضحاك وزير النفط والثروة المعدنية، فاروق الشرع وزير دولة للشؤون الخارجية، الدكتور المهندس نورس الدقر وزير الإسكان والمرافق، ميخائيل نقول وزير دولة، المهندس رأفت الكردي وزير المواصلات، أحمد سليم درويش وزير دولة، نايف جربوع وزير الأشغال العامة والثروة المائية،الدكتور جورج رضوان وزير السياحة.

الرئيس : لحضور الأكثرية أعلن افتتاح الجلسة، ويتلو أمين السر أسماء الغائبين والمجازين.

ثانيا: تلاوة أسماء الغائبين والمجازين:

الغائبون السادة:

إبراهيم حيدر، أسعد حرب، حسان جمعة، رئيس فرحان الفياض، رشيد عيسى، شعبان شاهين، ضياء الحاج علي، طريف الكيالي، عبد العزيز الملحم، عبود حداد، عبد المجيد الزعيم، عصمت غباري، علي تلجبيني، محمد أبو النور طيارة، محمد ثابت المهايني، محمد حمدي عرب، محمد ظافر خير الله، محمد العمادي، محمد مراد، محمد هشام سيفو، مصطفى شاكوش، مصطفى العايد.

المجازون السادة:

إبراهيم بكاري، عبد المعين فطراوي، محمد ميهوب، نصر اليوسف، مروان حموي.

الرئيس: والآن يتلو عليكم أمين السر خلاصة أعمال الجلسة السابقة.

٥ -تقرير لجنتي الأمن القومي والشؤون الدستورية والتشريعية حول مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.

السيد رئيس مجلس الشعب

عقدت لجنتا الأمن القومي والشؤون الدستورية والتشريعية اجتماعا مشتركا في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الأحد الواقع في ١٩٨٠/٧/٦ برئاسة السيد عبد الرزاق أيوب رئيس لجنة الأمن القومي وعضوية المقرر المنتدب السيد جمعة عبدون وحضور الأعضاء السادة:

حسين أبو عمشة، محمد حسن لطوف، جمال عبد الدين، عبد الوهاب الحسن، محمود ناصيف، محمد زاهد استانبولي،محمد حاج أيوب، محمود ملوك، زويع الناصر، جميل الأسد، محمود عجيل، يحيى عرنوس، فؤاد ديب، بوغوص سراج، مقطع طويسان،اسماعيل عبد الغني، حمدي المحمود، شفيق وهدان، عارف حمدان، نجم الدين الصالح، إسماعيل اليوسفي. وغياب بقية الأعضاء

بحثت اللجنة المشتركة بحضور السيد وزير العدل في مشروع القانون المتضمن عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.

وبعد الاطلاع على مشروع القانون وقرار المجلس الكريم بالموافقة على جواز النظر فيه استمعت اللجنة المشتركة إلى الإيضاحات التي قدمها السيد الوزير موضحا أن هذا المشروع يهدف إلى

الرغبة في ترك فرصة أخيرة أمام من تورط في تنظيم جماعة الأخوان المسلمين إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر من تاريخ نفاذ هذا القانون وتخفيض عقوبته أو الإعفاء منها.

وبنتيجة المناقشة المستفيضة بين السيد الوزير والسادة الأعضاء تبين لهم أن الهدف من هذا المشروع هو الميل إلى الرأفة بالمغرر بهم وبخاصة من الذين هم دون سن الرشد وكذلك الذين ندموا على القيام بالأعمال التي تهدد الوحدة الوطنية لقطرنا الذي واجه التحديات المصيرية والذي يقف بصلابة في وجه الهجمة الإمبريالية والصهيونية التي تهدف إلى النيل من مقدسات شعبنا وأمتنا قررت اللجنة الموافقة على مشروع القانون معدلا على الشكل المرفق:

واللجنة إذ ترفع تقريرها لمقامكم ترجو عرضه على المجلس الكريم للموافقة على رأيها مع وافر الاحترام.

المقرر المنتدب رئيس اللجنة المشتركة

جمعة عبدون عبد الرزاق أيوب

الرئيس : سمعتم التقرير وهو مطروح للمناقشة العامة. والكلمة للسيد محمود كللو.

السيد محمود كللو: سيدي الرئيس. السادة الزملاء.

أرجو أن تسمحوا لي بأن أضع أمام مجلسكم الموقر بعض النقاط:

١ -مما لاشك فيه أن القطر العربي السوري يحتل موقع خط المواجهة الأول ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية، وهذا الموقف مستوحى من ضمير الأمة العربية والتي حمل حزبنا حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادة الرفيق القائد حافظ الأسد راضيا عبء النضال والتصدي لكل من يحاول مس القضايا العربية تصريحا أو تلميحا.

وفي الوقت الحاضر الذي نشهد فيه سقوط العديد من الأنظمة في المنطقة في مستنقع المخططات الإمبريالية نشهد تصعيد الهجمة الشرسة من جهات مختلفة ومتعددة الأطراف ضد قطرنا، وهذا لم يزد قطرنا العربي السوري إلا إيمانا بمصلحة جماهير الأمة العربية وقضاياها المصيرية.

٢ - لقد مارست الإمبريالية والصهيونية ومن يسير بفلكها في الوطن العربي وسائل مختلفة ومتعددة للنيل من صمود وشموخ هذا القطر، ولما شعرت باليأس ينتابها لعبت بورقتها الأخيرة فزجت باحتياطها وأدواتها المأجورة المتمثلة بالرجعية وعصابة الأخوان المسلمين، وراحت الإمبريالية وعملاؤها يغدقون بالعطاء على عصابة الأخوان المسلمين التي أخذت على عاتقها تنفيذ مخططات أسيادها.

لهذا كان من العدل والإنصاف وانسجاما مع كل القيم الدينية والقومية والوطنية والأخلاقية وحفاظا على أمن المواطنين أن ينال عقوبة الموت كل من يقدم أو يصمم أو يخطط لقتل الأبرياء.

ولما ثبت بما لا يدع مجالا للشك ضلوع تنظيم جماعة الأخوان المسلمين بالمؤامرة التي تستهدف كل القيم والمثل فقد بات من الضروري إصدار نص تشريعي من مجلسكم الموقر يقضي بإنزال عقوبة الإعدام على كل منتسب لهذه الجماعة لاقتلاع كل الأعشاب الطفيلية الضارة واجتثاث كل البذور الفاسدة من أرضنا الخيرة المعطاء.

إن القيادة التي تسعى لإزالة الخلل الاستراتيجي الذي أحدثه انتقال السادات من الخندق العربي إلى الخندق المعادي وهي بهذا تهيئ كل أسباب القوة ، لهي رحيمة حريصة على ألا يؤخذ مواطن قام بعمل مشوب بعيب من عيوب الإرادة كالتغرير ونقصان الأهلية، ففسحت له المجال ليراجع نفسه ويعود مواطنا شريفا يأخذ دوره في بناء الوطن فيتخلص من وخزات الضمير وينقذ نفسه من شرور وآثام ورطة وقع فيها نتيجة تغرير أو تزيين.

أيها السادة : من أجدر منا نحن ممثلي الشعب من أن نفسح المجال أمام أولئك الذين جنحوا إلى الجريمة ليعودوا إلى رشدهم وصوابهم فينظفوا أنفسهم ويبدلوا وجهتهم من طريق الأجرام إلى طريق الخير وحب الوطن، أرجو الزملاء أعضاء مجلس الشعب الموافقة على مشروع القانون كما ورد من اللجنة وشكرا لإصغائكم.

الرئيس : الكلمة الآن للسيد جمال عبد الدين.

السيد جمال عبد الدين : السيد الرئيس. السادة الزملاء، إنني مع تقرير اللجنة ومشروع القانون وانطلاقا من مسئوليتنا وحرصنا الأكيد على الوقوف في وجه الهجمة الاستعمارية الشرسة التي يتعرض لها قطرنا المناضل فإنني أعلن تأييدي المطلق لهذه الخطوة الجريئة المتمثلة بمشروع القانون الذي نحن بصدده.

سيدي الرئيس، السادة الزملاء:

إنني أعلن أنا وزملائي النواب ممثلي العمال في هذا المجلس تأييدي وتأييد زملائي النواب العمال لمشروع القانون هذا الهادف إلى بتر جذور الخيانة والتخريب من قطرنا وأهيب بكم جميعا إعلان تأييدكم على بقاء قطرنا صخرة صامدة تتكسر عليها حراب الاستعمار والصهيونية والرجعية، وحرصا على وحدتنا الوطنية المتماسكة التي يبذل الأعداء كل جهودهم من أجل تفتيتها والعبث بها ومن أجل متابعة مسيرة الكفاح والتحرير تحت قيادة الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية وشكرا لإصغائكم.

الرئيس : الكلمة الآن للسيد وحيد مصطفى.

السيد وحيد مصطفى: سيدي الرئيس، السادة الزملاء.

بديهي أن شعبنا يجابه في هذه الفترة حالة خطيرة ودقيقة بسبب الهجمة الإمبريالية الأمريكية الصهيونية والرجعية التي تتعرض لها بلادنا لتمرير صفقة كامب ديفيد وإخضاعنا للهيمنة الاستعمارية الأمريكية.

ونحن واثقون بأن شعبنا سيحبط حتما هذه الهجمة العدوانية الشرسة. ومجلسنا الكريم يقف اليوم ليعطي رأيه في تدبير ملموس تقترحه الحكومة من أجل مجابهة النشاط المعادي الذي تقوم به الرجعية الداخلية وقوتها الصدامية حزب الأخوان المسلمين.

واضح لنا – نحن الشيوعيين- أن هذا الحزب الذي يسمي نفسه جماعة الأخوان المسلمين ، يقف تاريخيا في موقف العداء للمصالح الوطنية العليا وللتقدم الاجتماعي وللاشتراكية . ويذكر الجميع أننا خضنا جنبا إلى جنب مع سائر القوى الوطنية والتقدمية معارك سياسية معروفة ضد نشاط هذا الحزب. ومن هنا فمن المشروع جدا ومن الضروري أن يبحث شعبنا وقواه الوطنية والتقدمية والسلطة السياسية ومجلس الشعب التدابير اللازمة لوضع حد لجرائم هذا التنظيم والقوى الرجعية التي تقف وراءه.

إننا نقف إلى جانب تدبير جدي يحقق هذا الهدف ومن أجل ذلك نعطي رأينا في مشروع القانون المقترح منطلقين من شعور عال بالمسؤولية تجاه شعبنا ووطننا.

١ - في نص المشروع والأسباب الموجبة نحن نرى بأن يميز القانون بين المنتسب غير المرتكب فيخفف عليه العقوبات وبين المرتكب للجريمة الذي يمكن تشديد العقوبات بحقه.

وأن تكون المحاكم المدنية هي الجهة التي تتولى ذلك وأن تجري للمرتكبين محاكمات علنية لأنها هي التي تقنع الجماهير وتثقفها وتعبئها ضد المجرمين، كما أنها تعطي قوة لبلادنا أمام الرأي العام العربي والعالمي.

ونتساءل : أليس الأفضل الاعتماد على القوانين العادية النافذة؟.

أما إذا كان المقصود بالمشروع فتح المجال للتراجع أمام المضللين والمغرر بهم ولمن يرغبون في التبرؤ والتحرر من النهج الإجرامي الذي يقوم به هذا التنظيم، في هذه الحالة، ليكون من الأفضل أن يأخذ المشروع منحى آخر يوضح ويؤكد الضمانات لهؤلاء ويشجعهم على التخلص من عار الجريمة.

لماذا يستثني المشروع الموقوفين ومن هم قيد المحاكمة من إمكانية العفو وتخفيض الحكم ويسد بذلك الباب أمام من يريد التراجع منهم، وبذلك يعطل كل المفعول الإيجابي الذي يمكن أن توحي به النصوص الأخرى للعفو عن المتراجعين.

ويثير التساؤل النص الوارد في الأسباب الموجبة الذي يشير إلى ضلوع الأخوان المسلمين في تنفيذ مخططات أعداء الأمة العربية دون أن يحدد النص الإمبريالية والصهيونية والرجعية الـذين هـم تحديدا أعداء الأمة العربية. فمثل هذا النص العام يمكن أن يطلق في أي بلد عربي آخر بما فيها تلك البلاد التي تسودها أنظمة رجعية معروفة.

أيها الزملاء، نحن أمام مشروع قانون لا يعالج جريمة عادية وإنما نهجا إجراميا تخريبيا واسع النطاق، يشكل جزءا أساسيا من مخطط سياسي إمبريالي صهيوني رجعي. ومكافحة مثل هذا المخطط يتطلب معالجة جذرية للعوامل والأسباب التي يستفيد منها العدو لتنفيذ جرائمه وخدمة مخططه.

ومن هنا ألا يجدر بنا أن نتوقف قليلا لمعرفة العوامل الأخرى التي ساعدت على توسيع النشاط الإجرامي التخريبي للجريمة التي دفعت عددا من الطلبة والشباب والمثقفين للتورط في الأعمال الإجرامية والتخريبية التي تقوم بها الرجعية السوداء؟.

لقد توسعت في السنوات الماضية الأرضية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للرجعية في البلاد، وآن الأوان لضرب هذه الأرضية ولسحب البساط من تحت أقدامها، وشكل النمو الهائل للرأسمالية الطفيلية وانتشار نفوذها بما في ذلك داخل السلطة، واحتلال عدد من ممثليها مقاليد هامة اقتصادية وإدارية في حياة البلاد، شكل مناخا مواتيا للنشاط المعادي الذي تقوم به الرجعية، فمن المعروف أن نمو البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية جرى ويجري على حساب قوت الشعب وميزانية الدولة والاقتصاد الوطني وتعمل البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية لتحويل القطاع العام بل والاقتصاد الوطني إلى بقرة حلوب لمصالحها الطبقة الرجعية الجشعة.

وقد آن الأوان لوضع حد لجشع هذه الفئات الطبقية الرجعية كذلك وتحرير الاقتصاد الوطني والجماهير الشعبية من تسلطها واستغلالها.

وقد استفادت الرجعية كثيرا في نشر أضاليلها من التضييقات التي كانت تمارس ضد الشيوعيين والتقدميين في المؤسسات والمدارس وبعض الجوانب من الحياة العامة، بينما ظلت الرجعية طوال سنوات تسرح وتمرح وتنشر أضاليلها في أوساط من الطلبة والشباب والمثقفين.

وأصبح الآن من التدابير الضرورية إزالة هذه المؤسسات والأساليب ووقف كل شكل من أشكال التضييق على الوطنيين التقدميين وإشاعة الحريات الديمقراطية للجماهير الشعبية. ومنظماتها وأحزابها الوطنية والتقدمية.

وفي هذا المجال أيضا نرى من الضروري أن تميز مؤسسات السلطة شكل دقيق وحازم بين النشاط المعادي للنظام الذي تقوم به الرجعية وقوتها الصدامية. وبين الآراء الانتقادية والمطلبية التي تصدر

من أوساط الجماهير الشعبية أو من القوى الوطنية المعادية للإمبريالية والصهيونية والرجعية. ومن المفيد أن يستمع المسؤولون بانتباه وبصدر رحب إلى هذه الآراء الانتقادية والمطلبية التي تصدر من أوساط الجماهير الشعبية أومن القوى الوطنية المعادية للإمبريالية والصهيونية والرجعية . ومن المفيد أن يستمع المسؤولون بانتباه وبصدر رحب إلى هذه الآراء وأن يتوجهوا نحو القوى والشخصيات الوطنية بروح إيجابية أخوية بناءة ويتحاوروا معهم للوصول إلى مواقف مشتركة رغم اختلاف وجهات النظر في عدد من القضايا حاليا.

السيد الرئيس.. السادة الزملاء:

إن حصر المعالجة للوضع الخطير الذي نجابهه بالتدابير القمعية المشددة وحدها، دون اتخاذ تدابير اقتصادية واجتماعية وسياسية لمصلحة الجماهير الشعبية والتقدم الاجتماعي، هو توجه وحيد الجانب ولا يحقق الهدف المطلوب في نشر الأمن والاستقرار في البلاد، بل ويمكن أن يؤدي مثل هذا التوجه إلى نتائج سلبية تضر بمصالح الشعب والوطن.

وإذا كان المقصود من إصدار هذا القانون هو القيام بخطوة حاسمة لوضع حد لعمليات الإجرام والتخريب وجو الإرهاب الذي بدأ يتوسع ولإعادة الاطمئنان والاستقرار إلى المواطنين، فهذا أمر إيجابي وينبغي أن تعبر نصوص القانون عن هذه الروح، كما أن ذلك يتطلب أيضا حسب اعتقادنا أن يسبق القانون أو يترافق معه جملة من التدابير الضرورية المتكاملة التي تؤدي إلى وضع حد للغلاء وارتفاع الأسعار وأزمة السكن وغيرها من المشاكل التي تكوي بنارها الجماهير يوميا ونشر الحريات الديمقراطية للعمال والفلاحين والمثقفين ومنظماتهم النقابية وأحزابهم وقواهم الوطنية والتقدمية، وإشاعة الحوار الديمقراطي الأخوي بين كافة القوى والشخصيات الوطنية والتقدمية وإطلاق سراح الموقوفين السياسيين الوطنيين أو إحالتهم إلى محاكم عادلة، وتحقيق المساواة والعدالة للمواطنين، وإزالة مظاهر التمييز بينهم وكذلك مظاهر الفساد والرشوة في دوائر الدولة .

إن بلادنا وشعبنا لهما موقف تاريخي محدد إلى جانب الحرية والديمقراطية وضد أنظمة الإرهاب والديكتاتورية، وهو موقف معروف عربيا ودوليا، وطالما أعطى لسورية مكانة محترمة بين البلدان ولدى الشعوب، ومن المفيد والضروري أن نظهر جميعا أقصى درجات الحرص على التقاليد والمفاهيم المرتبطة بهذا الموقف المشرف وأن تعزز مكانة بلادنا إلى جانب قوى الحرية والديمقراطية في العالم وشكرا.

الرئيس: الكلمة الآن للسيد تحسين الصفدي.

السيد تحسين الصفدي: سيادة الرئيس، السادة الزملاء:

لا يوجد إنسان على وجه الأرض يقر بالجريمة أو يوافق عليها أو ينفذها، لأن مجرد حمله كلمة إنسان أصبح مكلفا شاء أم أبى أن يحافظ على أخيه الإنسان ويرعى ذمته وعهده . إذن نحن جميعا ضد كل الجرائم التي ترتكب في هذا الوطن خاصة وفي العالم أجمع.

نحن مع كل القوانين التي من شأنها الحفاظ على هذا الوطن والحفاظ على هذا الشعب الكريم وكرامته ودينه وجميع معتقداته.

من هذا المنطلق أتأمل هذا القانون الذي هو مطروح أمامنا وأتساءل : هل هذا سيكون الحد الفاصل لما يحصل، هل نستطيع أن نرضي ضميرنا ولا نظلم أحدا عند تطبيق هذا القانون أو نقضي على ما يحدث، هل السادة الذي سيطبقون هذا القانون معصومون عن الأخطاء ؟.

وأضرب مثلا:

أحد أفراد الشعب دعا صديقه لقضاء بعض السهرات لديه وهو يعلم أن ذاك الصديق له صلة بالإخوان ولا علم له بماذا يبحث فلبى الدعوة عدة مرات ولم يبحث شيء أمامه إلا استعراض ما يحدث أو ما يرى.

وفجأة قبض على بعض من كان يجتمع وله بعض المواقف المناوئة لهذا العهد وبعد التحقيق سئل عن الاجتماعات التي كان يحضرها ومن كان يحضر وبعد الضغط أفاد بأسماء جميع من كان يحضر الاجتماعات وأفاد بأنهم جميعا من الأخوان وطبعا يلقى القبض على جميع من كان يحضر الاجتماعات فكيف يستطيع هذا البريء والمغرر به أن يثبت بأنه ليس من الأخوان؟.

وهل ستطبق عليه مادة الإعدام؟.

" دخل جحا مرة بيته مسرعا وقال لزوجته أغلقي الباب دوني، ولما استفسرت عن السبب قال : انهم يمسكون بالحمير، فقالت زوجته: ولكنك لست حمارا فلماذا الخوف؟ فقال لها: حتى يتبين لهم أني لست حمارا سيسلخ جلدي".

سيدي الرئيس، السادة الأعضاء:

أنتم أمام قانون غير كل القوانين فأناشدكم الله وأناشد ضميركم بأن تناقشوا كل مادة مناقشة حكيمة مخلصة لوجه الله وأن تعطوها حقها من الدراسة الكاملة وليعلم كل منكم بأنه المسؤول أمام الله عن كل حرف وكل كلمة تقرونها وتوضع موقع التطبيق فلا يوافق أحدكم على شيء إلا بعد قناعته التامة بأنه أرضى الله وأرضى ضميره وهو راض عنها.

كما أناشد جميع العلماء والمفكرين والعاملين في حقل السياسة والوجهاء ورجال الفعاليات الفكرية والاقتصادية ورجال الأحياء ليعاهدوا الله على السعي للوصول للطريق السليم ومناقشة الوضع الحاضر وتشخيص المرض الذي نحن فيه وإيجاد الدواء بالحكمة المخلصة. إن شعبنا طيب

مؤمن لذلك عندما نجد من يستطيع دراسة أوضاعه وإيجاد الحل لها والسير جميعا لخدمة هذا الوطن والحفاظ على ترابه الغالي والحفاظ على دم الأبرياء والحد من الفوضى والسعي لتطبيق سيادة القانون على الجميع. فأنا مقتنع كل القناعة عندما نتعاهد جميعا للوقوف صفا واحدا ضد عدو يريد بنا شرا وعندما يأخذ كل فرد ممن ذكرتهم دوره في المعالجة والإصلاح لا من الزاوية التي ينظر إليها حسب رأيه فقط، بل من كل الزوايا التي تخص هذا الوطن عند ذلك سنرى بأن الشعب كله مواطن واحد مخلص يضحي بكل غال ورخيص في سبيل وطنه وأمته.

إذن المسؤولية لحماية هذا الوطن والوقوف في وجه كل من يريد الأذى له هي أمانة بعنق كل من يستطيع المساهمة ولو بكلمة طيبة في سبيل تحقيق الوحدة الوطنية وصياغة الحقوق لكافة أفراد الشعب والوقوف صفا واحدا متراصا في وجه كل أعداء هذا الوطن وشكرا لإصغائكم.

الرئيس: الكلمة الآن للسيد محمد جمعة تفتنازي.

السيد محمد جمعة تفتنازي: إن عقوبة الإعدام في رأيي تكون لمجرم أقدم على قتل عالم أو طبيب أو عسكري ناجح أو أي مواطن وهي أقل بقليل مما يستحق هذا المجرم. في كل بلدان العالم يحافظون على علمائهم وعلى خبرائهم وعلى مواطنيهم، ونحن في بلدنا ومنذ أكثر من خمس سنوات ونحن نعاني من عمليات إرهابية مجرمة تقوم بها عصابات ما يسمى بالإخوان المسلمين، لم يتعود هذا البلد على مثل هذه العمليات الجرمية إذ لهذه العمليات خلفيات تهدد وحدتنا الوطنية وتستهدف فئة محددة من مواطنينا وكان الاستعمار وراء التخطيط لها بغية تفتيت هذا الشعب، الشعب الذي أحب حافظ الأسد، الشعب الذي أحب الحركة التصحيحية الشعب الذي استقبل حافظ الأسد وحمله وصحبه على الراحات ليس لأنه رئيس الجمهورية، فقد توالى على هذا القطر عدد كبير من رؤساء الجمهوريات ولم يلاقوا ما لاقاه حافظ الأسد بل لأنه رئيس أحب الشعب فأحبه شعبه واحترم المواطن علنا وصان له كرامته وحريته كما جاء في الدستور، فبادله المواطن هذا الحب بحب وهذا التقدير بالتقدير،لقد أرادت الإمبريالية والصهيونية ومن وراءها تفتيت هذا الحب وإبعاد هذا القائد عن شعبه فلجئوا إلى المضللين من عملائهم وأوكلوا لهم مهمات غايتها تفتيت وحدتنا الوطنية وتفتيت هذا القطر، نحن كل ما نرجوه بأن لا يستغرب أحد ورود عقوبة الإعدام في هذا القانون لأنها وردت في مجال قوانين سبق وأن أقرت في هذا المجلس فالمجرمون يجب أن يعدموا، ولكن المجرمون فقط، ويجب أن نسلك طريق تحديد المجرمين ومن هم المجرمون فنقدم على إعدامهم ويجب أن نتثبت من صحة ما يقال عنهم، أي أنهم منتسبون إلى تنظيم الأخوان المسلمين، وحتى لا يدخل في عداد هذه الجماعة أبرياء بسبب وشاية من واش، وكل ما نرجوه أن تلجأ الحكومة عند التطبيق إلى أسلوب التدقيق في معرفة هوية المنتسبين إلى الأخوان المسلمين، لأنه كما

نرى ومن خلال عمليات عصبية سقط بعض الأبرياء، لذلك نرجو أن نكون جميعا مع مشروع هذا القانون وأن نلفت نظر وزارة العدل وكل الحكومة والقيادة السياسية إلى ضرورة الحرص على التدقيق في معرفة هوية الأخوان المسلمين وشكرا.

الرئيس: هل من متكلم آخر(سكوت) الموافقون على الانتقال لمناقشة مواد المشروع مادة مادة يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، ويتلو عليكم أمين السر المادة الأولى.

المادة ١ - يعتبر مجرما ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم جماعة الأخوان المسلمين.

الرئيس: سمعتم المادة هل لأحد من ملاحظات عليها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة ٢

أ-يعفى من العقوبة الواردة في هذا القانون أو أي قانون آخر، كل منتسب إلى هذه الجماعة، إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون.

ب- يتم إعلان الانسحاب بموجب تصريح خطي يقدم شخصيا إلى المحافظ أو السفير لمن هم خارج القطر بتاريخ صدور هذا القانون.

الرئيس: سمعتم المادة هل لأحد من رأي فيها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة ٣ - تخفض عقوبة الجرائم الجنائية التي ارتكبها المنتسب إلى تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، قبل نفاذ هذا القانون تحقيقا لأهداف هذه الجماعة، إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه وفقا لما يأتي :

أ- إذا كان الفعل يوجب الإعدام أو الأشغال المؤبدة أو الاعتقال المؤبد، كانت العقوبة الأشغال الشاقة خمس سنوات على الأكثر.

ب- إذا كان الفعل يؤلف إحدى الجنايات الأخرى كانت العقوبة الحبس من سنة إلى ثلاث سنوات .

الرئيس: سمعتم المادة فهل من ملاحظة بشأنها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة ٤ - يعفى من عقوبة الجرائم الجنوحية المرتكبة قبل نفاذ هذا القانون، تحقيقا لأهداف تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه.

الرئيس: سمعتم المادة فهل من رأي حولها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة ٥- لا يستفيد من التخفيض والعفو الواردين في هذا القانون الذين هم قيد التوقيف أو المحاكمة .

الرئيس سمعتم المادة؟ الكلمة للسيد نجم الدين الصالح.

السيد نجم الدين الصالح: أحب أن أسأل الحكومة عن هؤلاء الموقوفين، فهل تطبق عليهم أحكام هذا القانون أم أحكام القوانين السابقة لهذا القانون وشكرا.

الرئيس: الكلمة للسيد وزير الداخلية.

وزير الداخلية اللواء ناصر الدين ناصر: السيد الرئيس تطبق القوانين السابقة النافذة وشكرا.

الرئيس: هل من ملاحظة أخرى(سكوت) الموافقون على المادة الخامسة يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية. قُبلت . وننتقل إلى المادة السادسة يتلوها أمين السر.

المادة ٦- ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ صدوره .

الرئيس: هل من ملاحظة على مادة النشر؟ (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت. والآن الموافقون على مجمل مواد مشروع القانون... وردني اقتراح من السيد جميل الأسد يقول بإضافة مادة إلى القانون تنص على مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة لكل منتسب لحزب الأخوان المسلمين.

نحن نعاقب المجرمين ولا نعاقب أولادهم. والآن الموافقون على مجمل مواد مشروع القانون يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية. قُبل المشروع وأصبح قانونا.

الرئيس: الكلمة للسيد مقرر اللجنة.

مقرر اللجنة السيد جمعة عبدون: السيد الرئيس أخذت المادة الخامسة منا دراسة في اللجنة الدستورية، وكانت هناك تساؤلات حول شبهة هذه المادة، وكنت أحد الذين تحفظ على هذا النص، ومن مجمل ما تحدث به السيد وزير الداخلية والسيد وزير العدل أن القانون قد استهدف حوارا مفتوحا لكل الناس المضللين وأعطاهم فرصة للرجوع عن غيهم وذلك بمنحهم العفو أو التخفيض. وقد وجدت أن هذا العفو والتخفيض هو أشمل مما ورد في هذا القانون العام بنص المادة رقم /٢٤٣/ من قانون العقوبات العام، كما أنني أجد أيضا أن نص القانون العام فيما يتعلق بالأسباب المخففة التقديرية والأعذار القانونية ينطبق أيضا على هذا القانون الخاص، لأن نص المادة/٢٤٣/ تخفض عقوبة الإعدام حتى /١٢/سنة، أما فيما يتعلق بمن هو قيد التوقيف أو المحاكمة وكذلك التساؤل الذي أثاره نجم الدين الصالح أو غيره من الزملاء فقد وجد بنص المادة

التاسعة من قانون العقوبات العام التي تفيد في فقرته الأولى بما يلي: كل قانون جديد يقضي بعقوبات أشد لا يطبق على الجرائم المقترفة قبل نفاذه. أي أن القانون الأرحم هو الذي يطبق وبالتالي فان هذا النص دستوري، والقوانين النافذة قبل ارتكاب الجريمة هي التي ستطبق. هذا ما أردت توضيحه وشكرا لإصغائكم.

إحداث المحاكم الميدانية

المرسوم التشريعي رقم /١٠٩/

تاريخ ١٩٦٨/٨/١٧

رئيس الدولة

بناء على أحكام القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث العربي الاشتراكي رقم ٢ تاريخ ١٩٦٦/٢/٢٥ وعلى قرار مجلس الوزراء رقم ١٠٩ تاريخ ١٩٦٨/٨/١٤

يرسم ما يلي

مادة ١ - تحدث محكمة أو أكثر تسمى محكمة الميدان العسكرية.

تتولى هذه المحكمة النظر في الجرائم الداخلة في اختصاص المحاكم العسكرية، والمرتكبة زمن الحرب أو خلال العمليات الحربية التي يقرر وزير الدفاع إحالتها إليها.

يسري اختصاص هذه المحكمة اعتبارا من ١٩٦٧/٦/٥.

مادة ٢ - يقصد في هذا المرسوم التشريعي ما يلي:

أ- زمن الحرب: هو المدة التي تقع فيها اشتباكات مسلحة بين الجمهورية العربية السورية وبين العدو ويحدد بدؤها وانتهائها بمرسوم.

ب- العمليات الحربية : الأعمال والحركات التي يقوم بها الجيش أو بعض وحداته في الحرب أو عند وقوع اصطدام مسلح مع العدو .

مادة ٣ - تؤلف المحكمة بقرار من وزير الدفاع من رئيس وعضوين. ولا تقل رتبة الرئيس عن رائد كما لا تقل رتبة كل من العضوين عن نقيب ، ولا يجوز محاكمة أحد ضباط القوات المسلحة أمام محكمة يكون رئيسها أدنى منه رتبة.

مادة ٤ -

أ- يقوم بوظائف النيابة العامة لدى المحكمة قاض أو أكثر من النيابة العامة العسكرية تجري تسميتهم بقرار من وزير الدفاع.

ب- تتمتع النيابة العامة لدى المحكمة بجميع السلطات والصلاحيات الممنوحة للنائب العام وقاضي التحقيق العسكريين .

ت- تصدر قرارات النيابة العامة قطعية لا تقبل أي طريق من طرق الطعن.

مادة ٥ - يجوز للمحكمة أن تتقيد بالأصول والإجراءات المنصوص عليها في التشريعات النافذة .

مادة ٦ - تطبق المحكمة العقوبات المقررة قانونا ولا تقبل الأحكام التي تصدرها أي طريق من طرق الطعن.

مادة رقم٧- لا تنفذ أحكام محكمة الميدان العسكرية إلا بعد التصديق عليها من السلطة المختصة، وتنفذ وفقا للتشريعات المرعية.

مادة ٨ -

أ- تخضع أحكام الإعدام لتصديق رئيس الدولة، أما باقي الأحكام فيجري تصديقها من وزير الدفاع.

ب- لرئيس الدولة ووزير الدفاع كل بحسب اختصاصه أن يخفف العقوبة أو يستبدل بها عقوبة أخرى، أو يلغيها كلها مع حفظ الدعوى. ويكون لحفظ الدعوى مفعول العفو العام كما يجوز له أن يأمر بإعادة المحاكمة أمام محكمة ميدان عسكرية أخرى، ويجب أن يصدر القرار في هذه الحالة معللا، فإذا صدر الحكم في المحاكمة الثانية بالبراءة وجب التصديق عليه في جميع الأحوال، وينفذ فورا.

ت- لوزير الدفاع ضمن اختصاصه أن يوقف تنفيذ العقوبة المقضي بها، وفي هذه الحالة تطبق قواعد وقف تنفيذ الأحكام المنصوص عليها في قانون العقوبات العام.

ث- لرئيس الدولة أو وزير الدفاع كل بحسب اختصاصه بعد التصديق على الأحكام بالإدانة أن يمارس الصلاحيات المنصوص عليها في الفقرتين السابقتين.

مادة٩- ينشر هذا المرسوم التشريعي في الجريدة الرسمية .

دمشق في ١٣٨٨/٥/٢٣و ١٩٦٨/٨/١٧

رئيس الدولة

الدكتور نور الدين الأتاسي

الملحق الثاني

الملحق الثاني بعض مجرمي مجزرة تدمرمع اعترافات بعضهم من كتاب تدمر المجزرة المستمرة - طبع دار النذير.

أ-بعض مجرمي مجزرة تدمر من المخططين والمنفذين وكلهم من طائفة واحدة هي الطائفة (العلوية).

١ - المجرم حافظ أسد – رئيس الدولة .

٢ - المجرم رفعت أسد – قائد سرايا الدفاع .

٣ - المجرم المقدم فيصل غانم - مدير سجن تدمر.

٤ - المجرم المقدم علي ديب - قائد اللواء ١٣٨ من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية.

٥ - المجرم الرائد معين ناصيف - قائد اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع.

٦ - المجرم المقدم سليمان مصطفى - قائد أركان اللواء ١٣٨ من سرايا الدفاع - محافظة اللاذقية.

٧ - المجرم الملازم أول ياسر باكير – من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة حماة.

٨ - المجرم الملازم منير درويش - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية .

٩ - المجرم الملازم رئيف عبد الله – من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة اللاذقية.

١٠ - المجرم الرقيب محمد عمار - من حراسة منزل معين ناصيف - محافظة اللاذقية.

١١ - المجرم الرقيب علي موسى - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة حمص.

١٢ - المجرم الرقيب همام أحمد – من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - جبلة.

١٣ - المجرم الرقيب نزيه بلول – من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة حمص.

١٤ - المجرم الرقيب طلال محي الدين أحمد - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة اللاذقية.

١٥ - المجرم الرقيب عيسى ابراهيم الفياض - من حراسة منزل معين ناصيف - محافظة اللاذقية.

١٦ - المجرم الرقيب بدر منصور - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - منطقة جبلة.

١٧ - المجرم العريف أكرم بيشاني - من حراسة منزل معين ناصيف - محافظة طرطوس.

١٨ - المجرم العريف ابراهيم يونس - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة حمص.

١٩ - المجرم العريف ابراهيم مكنا - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - منطقة جبلة.

٢٠ - المجرم العريف طاهر زباري - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة اللاذقية.

٢١ - المجرم العريف علي صالحة - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - منطقة مصياف.

٢٢ - المجرم العريف عبد الرحمن هدلان - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع.

٢٣ - المجرم العريف ناصر عبد اللطيف - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة طرطوس.

٢٤ - المجرم العريف غسان شحادة - من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة اللاذقية.

٢٥ - المجرم العريف حسين عيسى، من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع – محافظة حمص.

٢٦ - المجرم العريف بشير قلو – من اللواء ٤٠ من سرايا الدفاع - محافظة حمص.

المطلوب من المجتمع الدولي معاملة هؤلاء الأشخاص كمجرمين دوليين.

وفيما يلي النص الحرفي لاعتراف بعض المجرمين الذين اشتركوا في مجزرة تدمر الكبرى.

ب -اعترافات المشتركين في مجزرة تدمر

إفادة المجرم عيسى إبراهيم فياض:

س: ممكن تقدم نفسك؟

ج: عيسى إبراهيم حامد فياض، بلدتي قويقة تابعة لمحافظة اللاذقية، تاريخ الولادة ١٩٦٠. أعزب، علوي، والدي إبراهيم حامد فياض، مزارع، والدتي جميلة صقر مربية بيت، ثقافتي الحادي عشر، درست بالقرية، بقرية قويقة حتى الثالث الإعدادي، والتحقت بقرية عين العروس، مدرسة ثانوية، تابعة لمحافظة اللاذقية.

تركت المدرسة، اشتغلت مع أبي، مزارع عادي لمدة سنة، والتحقت بسرايا الدفاع في ١٠ /٣/ ١٩٧٩ وأنا الآن رقيب بسرايا الدفاع رقمي ٩٥٦٩٨٢.

س: سيد عيسى وضّح لنا خدمتك العسكرية بشيء من التفصيل.

ج: التحقت بسرايا الدفاع بمعسكر اسمه القابون / كدورة أغرار ظلت دورة الأغرار شي ٤٥ يوم والتحقت بدورة ثانية بنفس المعسكر دورة صاعقة استمرت حوالي ثلاثة أشهر وأكثر وانتقلنا من معسكر القابون لمعسكر يعقوب الواقع في دمشق، كدورة قتال عادي للكتيبة لدورة يعني كتيبة مشاة هنيك تدربنا على السلاح على بارودة كلاشن، رشاش، قاذف قنابل، رمي قنابل، وتدريبات عادية ككل التدريبات. أي كتيبة مشاة استمرت هالدورة حوالي ثلاثة أشهر رجعنا لمعسكر قابون وهنيك عملنا مظلات حوالي ٢٥ يوم لثلاثين يوم بعدها التحقت باللواء أربعين اللي قائده الرائد معين ناصيف زوج بنت العقيد رفعت أسد، (تماضر الأسد) علوي من محافظة اللاذقية واستمريت على هالشي يعني تدريب عادي في الكتيبة ٣٠٢ بنفس اللواء مشاة حتى تم التحاقي بحراسة مترل الرائد معين ناصيف اللي هو قائد اللواء، عدد مجموعة الحراسة كان ٢٥ عنصر مسؤول عنا الرقيب أول صلاح إبراهيم - علوي وهو وجميع عناصر الحراسة علويين.

س: عيسى.. إيش المهمات اللي كلفت فيها أثناء خدمتك بسرايا الدفاع؟

ج: كلفت في مهمتين:

س: إيش المهمة الأولى؟

ج: المهمة الأولى مهمة سجن تدمر في ٢٦ / ٦ /١٩٨٠ تعرض سيادة الرئيس حافظ الأسد لمحاولة اغتيال فجر اليوم الثاني ٢٧ / ٦ /١٩٨٠ فيقونا الساعة الثالثة بالليل الصبح وقالوا لنا: اجتماع في لباس الميدان الكامل مع الأسلحة. واجتمعنا بالساحة وأخذونا إلى سينما في اللواء /٤٠/ وهناك كان منتظرنا الرائد معين ناصيف قائد اللواء ألقى فينا كلمة.. قال هدول العرصات الإخوان المسلمين ما عم بفرقوا بين مسلم علوي ومسلم سني ومسيحي عم بقتلوا في الشعب وامبارح حاولوا اغتيال الرئيس. لذلك اليوم راح تقوموا بهجوم على أكبر وكر لهم وهو سجن

تدمر. قال مين ما بده يقاتل؟ ما حدا رفع إيده، الآمر العسكري قال لنا اطلعوا بالسيارات، طلعنا بالسيارات مجموعة قدرها ٨٢ واحد تقريباً ووصلنا لمطار المزة القديم وكان في انتظارنا مجموعة من اللواء ١٣٨ أحد ألوية سرايا الدفاع اللي قائده المقدم علي ديب –علوي- من اللاذقية وكـان موجود في انتظارنا عشر طائرات هليكوبتر. طلعنا بالطائرات بقيادة قائد أركـان اللـواء ١٣٨ المقدم سليمان مصطفى –علوي- وكان معنا ضباط الملازم أول ياسر باكير –علوي- من حمـاة والملازم منير درويش –علوي- والملازم رئيف عبد الله – علوي – يعني الثلاثة هذول من لـواء أربعين. طلعنا بالطائرات اتجاه تدمر ووصلنا حوالي الساعة ستة ونصف الصبح بنفس اليوم وهناك نزلنا من الطائرات وفرقونا إلى مجموعتين مجموعة اقتحام ومجموعة ظلت بالمطار. المجموعة اللـي راحت على السجن إجت سيارة دوج تراك يعني ونقلتنا للسجن. بالسجن توزعنـا لمجموعـات حوالي شي ست مجموعات وأكثر يعني كانت مجموعتي أنا حوالي أحد عشر واحد يعني المجمـوع الكلي اللي تحرك للسجن حوالي ستين واحد هيك شي مجموعتي كانت بقيادة الملازم منير درويش وفتحوا لنا باب المهجع يعني الباب بتاع المهجع اللي دخلنا حوالي ستة لحد السبعة قتلنا اللي فيه كان مجموع اللي فيه حوالي ستين واحد ..سبعين واحد سمعت أنا أنه فيه قتيل أخذ بـارودة مـن زميلي من السرايا اسمه إسكندر أحمد رقيب رحت أنا لعنده وشفته وإلا واحد بناديلي قلت له شو بدك قال أعطيني مخزن قلت له ليش قال لي في واحد لسه ما مات بدنا نموته قلت لـه أعطـيني بارودتك بما أنا أعطيت بارودتي لزميلي بارودته كانت خربانه. أخذت بارودته ورشيته يعني كان مجموع اللي رشيتهم حوالي ١٥ واحد.

ومجموع اللي قتلوا في السجن من الإخوان المسلمين كان حوالي ٥٥٠ واحد والمجموع اللي قتلوا منا السرايا كان واحد واثنين جرحى طلعنا عاد صار كل واحد منّا يغسل ايديـه ورجليـه ..في كانوا ملطخين بالدماء وكان معنا الملازم رئيف عبد الله. لّما طلعنا سألوه للملازم رئيف عبـد الله ليش كنت تفرق المساجين هيك كل واحد لوحده. قال امبارح كانوا يقتلوا إخوانـا في حلـب بكلية المدفعية.

س: كيف كان يفرق بين المساجين؟

ج: يعني اللي ما مات يموته.

س: يتفقد فيهم؟

ج: أ آه، قلت في كمان ضابط أطلق نار على واحد ما قتل قال له تعال نكّفي عليه مـا قتلـت واحد من عصابة الإخوان المسلمين. فطلعنا بسيارة واحدة ونقلتنا للمطـار وكـان في انتظارنـا المجموعة التي ظلت بالمطار وطيارات الهليكوبتر.

س: كم استغرقت المهمة هذه؟

ج: استغرقت حوالي نص ساعة. كان في دوي قنابل وصيحات الله أكبر وطلعنا بالطائرات واتجهنا باتجاه الشام لمطار المزة القديم ومن هنيك مجموعة اللواء ١٣٨ اللي تابعة لسرايا الدفاع طلعت على لوائها ومجموعتنا لواء ٤٠ طلعت على لوائها كان بانتظارنا الرائد معين ناصيف قائد اللواء قال لنا شكرنا على جهودنا وعزانا بوفاة زميلنا وقال لنا كل واحد يلتحق بعمله فالتحقنا بعملنا.

س: أنت بينت لنا إيش كان دورك، ما بينت لنا أدوار زملائك اللي اشتركوا في العملية هذه؟

ج: مثلاً في محمد عمار قتل اللي قتل إسكندر أحمد هذا الرقيب اللي قتل معنا خلصوه البارودة قتلوه وقالوا لي أنه رش كمان في المهجع نفسه. محمد عمار بحراسة مترل الرائد معين ناصيف - علوي- إبراهيم مؤنس - علوي - عريف مجند من منطقة مصياف وكمان قال لي رشيت ما بعرف شو رش بس قال لي انه رشيت.

س: ما حدد عدد معين من اللي رشهم؟

ج: أبداً ما قال لي في إبراهيم مكنا كان مع الملازم رئيف عبد الله. إبراهيم مكنا علوي عريف مجند من منطقة جبلة محافظة اللاذقية كان يفرد مع الملازم رئيف عبد الله المساجين.

س: وين ذكروا لك هذا الشي عن أدوارهم؟

ج: إبراهيم مكنا أنا شفته، شفته مع الملازم رئيف عبد الله في السجن . إبراهيم يونس حكى لي بالسكن. كنت نازل أنا وياه عالبلد حكى لي. محمد عمار قال إنه أنا قتلته.

س: طيب لما رجعتم من السجن جرى أي توجيه لكم أمر؟

ج: الرائد معين قال إنه ما لازم يعني تطلع هالعملية خارج منا يعني لازم تظل مكتومة وسرية.

س: بالنسبة لسجن تدمر كيف كان جو السجن قبل قيامكم بهذه العملية؟

ج- كان هادئ ما في أصوات ما في شيء بعدين طلعت الأمور مرتبة قبل دخولنا يعني ما حدا اعترضنا بالدخول الشرطة كانت حرس واقفة في جماعة حرس على الباب ورئيس حرس وفي شرطة بالساحة. أخذوا التفقد قبل العملية تفقد للمساجين.

س: تفقد للمساجين؟

ج: قبل بدء العملية.

س: طيب رقيب عيسى بالنسبة لزملائك في سرايا الدفاع في حد منهم كلف في مهمات أخرى؟

ج: والله بعرف بمفرزتي مفرزة الرائد معين ناصيف لحراسة مترله اللي رافقوا السيد عبد الحليم خدام وزير الخارجية. علي موسى رقيب.

س: وين رافقه؟

ج: رافقه على عمان على مؤتمر القمة العربي.. بعرف علي موسى رقيب من حمص علوي بعرف همام أحمد رقيب من منطقة جبلة، بدر منصور رقيب من منطقة جبلة علوي، وعلي صالحة عريف من منطقة مصياف علوي، عبد الرحمن هدلان علوي عريف، نزيه بلول عريف علوي، بشير قلو وعلي موسى شاركوا في عملية تدمر.

س: شاركوا في عملية تدمر ورافقوا السيد عبد الحليم خدام لعمان؟

ج: نعم.. وفي علي صالحة وطاهر زباري راحوا بمهمة سرية لروما وإسبانيا.

إفادة المجرم أكرم بيشاني

س: ممكن تقدم نفسك؟

ج: أنا أكرم علي جميل بيشاني من محافظة طرطوس قرية يحمور مواليد سنة ١٩٦٢ أعزب شهادتي الصف السادس الابتدائي علوي. اسم والدي علي جميل بيشاني علوي. اسم أمي حليمة يعقوب والاثنين حالياً بقيموا في قرية يحمور.

س: إيش عملك يا أكرم؟

ج: حالياً عريف في سرايا الدفاع.

س: شو خدمتك العسكرية؟

ج: في ٢٣ / ٣ / ١٩٧٩ التحقت في صفوف سرايا الدفاع ونقلت إلى معسكر التدريب وهو معسكر القابون في دمشق. وهناك التحقنا في دورتين الأولى وهي دورة لغة والثانية دورة الصاعقة ومن بعدها نقلت إلى كتيبة مدفعية رقمها ١٤٩ من لواء ٤٠ تابع للواء ٤٠ سرايا الدفاع بالضبط هيك في شهر ٥ سنة ١٩٨٠ نقلت ضمن مجموعة الحراسة لمفرزة حراسة بيت الرائد معين ناصيف والمجموعة هاي حوالي ٢٥ عنصر.

س : إيش مركزه الرائد معين ناصيف؟

ج: قائد، هوه معين ناصيف قائد لواء ٤٠ من سرايا الدفاع علوي من قضاء اللاذقية وتزوج ابنة العقيد رفعت الأسد، تماضر الأسد، والعقيد رفعت الأسد شقيق الرئيس حافظ الأسد وقائد سرايا الدفاع.

س: إيش المهمات اللي كلفت للقيام بها أثناء خدمتك في سرايا الدفاع؟

ج: كلفت في مهمتين الأولى هي مهاجمة سجن تدمر والمهمة الثانية في داخل الأردن.

س: إيش المهمة الأولى؟

ج: المهمة الأولى هي مهاجمة سجن تدمر حيث إنه بعد محاولة اغتيال الرئيس حافظ الأسد بالشهر السادس السنة الماضية أيقظونا بعد بيوم يعني حثونا من المهجع حوالي الساعة الثالثة والنصف

صباحاً وقالوا لنا اجتماع بالسينما في قاعة السينما الموجودة في اللواء مع فيه السلاح الميداني الكامل وطلعنا وصلنا على السينما بلشت المجموعات تتوافد اللي قادنا بالسينما كان عدد المجموعة حوالي المجموعة الموجودة في السينما من اللواء ٤٠ حوالي ١٠٠ عنصر مع ثلاث ضباط وبعدين اجا قائد اللواء اجتمع فينا وألقى كلمة. بعد الكلمة قال هوه أنه الإخوان المسلمين قتلوا ضباط قتلوا المشايخ قتلوا الأطباء وبالنهاية حاولوا اغتيال الرئيس حافظ الأسد وهلأ بدنا نكلفكوا بأول مهمة قتالية وطلعنا بعدين من اللواء ٤٠ بسيارات وصلتنا إلى مطار المزة. كان موجود هناك بالمطار هناك مجموعة من اللواء ١٣٨ يقدر عددها بحوالي ١٠٠ عنصر واللواء ١٣٨ قائده المقدم على ديب علوي قضاء اللاذقية.

هناك كمان كان موجود (٩) طائرات هليكوبتر، جمعونا هناك على شكل مجموعات وكل مجموعة سلمها ضابط وطلعونا على الطائرات الموجودة هناك وكانت كل طائرة تسع لحوالي ٢٤ عنصر. وطلعنا من مطار المزة كان قائد العملية هناك يعني اللي هو قائد أركانه للمقدم على ذيب علوي من قضاء اللاذقية بس ما بعرف شو اسمه أقلعنا إلى مطار تدمر هناك يعني أقلعنا حوالي الساعة الخامسة وصلنا حوالي الساعة السادسة أو السادسة وعشر دقائق. جمعونا هناك وطلب قائد العملية المقدم اجتماع للضباط، جمع الضباط وقال لهم أعطوا العناصر استراحة حوالي ثلاثة أرباع الساعة وبعد الاستراحة ثلاثة أرباع الساعة قسمونا على شكل مجموعات فاللواء ٤٠ كان على شكل ثلاث مجموعات وكل مجموعة استلمها ضابط وأخذوا ينتقوا العناصر اللي بدها تدخل إلى سجن تدمر بشكل عشوائي مثلاً الواحد بيعرف اسمه بيقول له فلان انته تعالى أو ما بيعرف اسمه يأشر له بإيده أنه تعال. انتقوا حوالي ٨٠ عنصر كذلك حوالي كمان انتقوا ٢٠ عنصر لحراسة الطائرات والباقي خلوهم على شكل احتياط في المطار. بعدين توجهت العناصر اللي انتقوهم يطلعوا حوالي ٨٠ عنصر هذا اللي بدهم ينفذوا العملية داخل السجن توجهوا على شكل مجموعات بسيارة نقلتهم إلى داخل السجن بعد ثلاثة أرباع الساعة من دخولهم إلى باب السجن الخارجي بدأنا نسمع صوت إطلاق نار دوي انفجار صوت قنابل، يقدر عدد القنابل بحوالي ٧ قنابل تفجرت هناك. ودام إطلاق النار حوالي ثلاثة أرباع الساعة كمان بعد طلع العناصر من السجن مثل ما دخلوا طلعوا على شكل مجموعات.

س: انته كنت مع أي مجموعة؟

ج: أنا كنت مع مجموعة الاحتياط ياللي ظلت هناك في المطار، بقى لما طلعوا العناصر من السجن كان فيه بعض الناس ملطخين بالدماء، ملطخين ثيابهم بالدماء، بعرف أسماء ياللي تلطخوا ثيابهم

بالدماء هوه الملازم رئيف عبد الله، الملازم منير درويش، الرقيب علي محمد موسى وطلعنا كل واحد على الطائرة.

س: من اللواء ٤٠ وإلا؟

ج: لا.. من اللواء ٤٠ هدول، طلعنا بعدين على الطائرات مثل ما اجينا ورجعنا إلى مطار المزة وصلنا إلى مطار المزة حوالي الساعة الثانية عشرة الظهر. كان منصاب معنا واحد والشي اللي خلاني أعرف أنه انصاب معنا واحد فيه الملازم ياسر باكير من اللواء ٤٠ قال وجه كلامه لكافة العناصر أنه قائد اللواء بده يجتمع فينا هلأ في السينما إذا سأل عن الإنسان اللي انصاب قولوا له أنه طلقة مرتدة ضربت في الحائط ورجعت عليه بعدين انصاب. قلنا له ماشي الحال. وطلعنا بالسيارات واتجهنا اتجاه اللواء ٤٠ واجتمعنا في قاعة السينما.

س: جميعكو اتجهتوا مع بعض انتو وأفراد اللواء ١٣٨ وإلا ٤٠ لوحده؟

ج: اللواء ٤٠ لحاله وهذولاك راحوا على المعسكر تبعهم فاللواء ٤٠ ناس يعني ياللي اشتركوا من اللواء ٤٠ اجتمعوا في السينما واجا قائد اللواء ألقى فيهم كلمة شكر.

س: اللي هوه الرائد معين ناصيف؟

ج: الرائد معين ناصيف ألقى فيهم كلمة شكر بذكر منها أنه: انتو قمتوا هلأ بعمل بطولة بعمل رجولة مع العلم أنه لأول مرة بنكلفكوا بهيك مهمة.. بعدين طلعنا من قاعة السينما وأخذ يعني كل إنسان يتحدث مع زميله فالتقيت أنا مع أحد زملائي هناك وهو الرقيب علي محمد موسى من مفرزة حراسة الرائد معين ناصيف سألته لأنه هو من الجماعة ياللي دخلوا على السجن نفسه انه اشلون هناك تمت العملية.. قال لي إنه قسمونا على شكل مجموعات، وكانت كل مجموعة حوالي ٨ عناصر وكل مجموعة تسلمها ضابط كانوا يفوتوا يعني -حسب ما قال لي- كانوا يفوتوا إلى الغرفة ياللي فيها السجناء يفتحوا الباب ويطخوهم مباشرة بدون سؤال بدون أي كلام. فقلت له طيب هذولاك ما كانوا يستنجدوا. قال كانوا يستنجدوا ويقولوا الله أكبر كانوا يقولوا لنا منشان الله.. منشان محمد.. مشان أمك.. مشان أختك ما تقتلنا. قال لي إنه ما كانوا يستمعوا لها لحكي هاي نهائياً.

وطخّوهم بعدين طلعوا قلت له طيب قديش تقدر عدد القتلى ياللي داخل السجن من السجناء. قال لي عدد القتلى يطلعوا ٥٠٠ أو ٦٠٠ قتيل من السجناء هذول ياللي في السجن وفي اليوم الثاني وزعوا لكل الناس هاللي اشتركوا لكل الزملاء ياللي اشتركوا بالمهمة كل واحد ٢٠٠ ليرة سوري.

س: مين تعرف من اللي اشتركوا بهالعملية؟

ج: بعرف العريف ناصر عبد اللطيف من قضاء طرطوس أو اللاذقية ما بعرف بالضبط علوي بعرف العريف غسان شحادة من قضاء اللاذقية علوي بعرف الرقيب علي محمد موسى من قضاء حمص اللاذقية بعرف العريف طاهر زيادي من قضاء اللاذقية علوي والرقيب طلال محي الدين أحمد علوي من اللاذقية والرقيب نزيه بلول علوي من قضاء حمص والعريف حسين عيسى علوي من قضاء حمص والرقيب همام أحمد علوي من اللاذقية. هذول هنه الناس اللي بعرفهم من اللي اشتركوا.

س: من تعرف من الضباط اللي اشتركوا؟

ج: هم الملازم رئيف عبد الله من كتيبة المشاة التابعة للواء ٤٠ سرايا الدفاع قضاء اللاذقية علوي، والملازم منير درويش كمان من كتيبة المشاة تابع للواء ٤٠ سرايا الدفاع قضاء اللاذقية علوي، والملازم أول ياسر باكير من اللواء ٤٠ كمان علوي من قضاء حماة.

س: انته يا أكرم كشاب في بداية شبابك شو اللي ورطك في هيك مهمات وليش اخترت سرايا الدفاع؟

ج: أولاً في أقول أنه الشي اللي خلاني أختار سرايا الدفاع هوه سوء حالتي المادية والرواتب اللي يتقاضاها جنود سرايا الدفاع أعلى من الرواتب في أي قطعة من قطعات الجيش الثانية، حيث إنه جندي في سرايا الدفاع يتقاضى حوالي ١٢٠٠ ليرة سوري، أما أي جندي في بقية قطعات الجيش يتقاضى حوالي ٥٠٠ ليرة أو ٦٠٠ ليرة سوري أما بالنسبة لورطتي في هذه العملية إنه بستطيع أن أقول أنهم استغلوا ظروفي كإنسان حالتي المادية سيئة وأغروني بالفلوس واستغلوا صغر سني كما استغلوا كوني عسكري مأمور وما في أرفض هيك أوامر.

س: بالنسبة للضباط تعرف شي يعني من تميزهم عن الضباط الآخرين يعني ضباط السرايا سرايا الدفاع يتميزوا بشي عن ضباط آخرين في الجيش السوري؟

ج: والله ما بعرف عن الضباط ككل بس بعرف عن الضابط اللي أنا عنده موجود.

س: اللي هوه؟

ج: الرائد معين ناصيف موجود عنده حوالي ٨ سيارات يعني.

س: خاصة فيه؟

ج: خاصة فيه، وحالته المادية كويسة يعني.

س: كيف عايش هذا الضابط اللي انته تقوم بحراسته؟

ج: عايش إنسان مرفه يعني بشكل.

من إفادة المجرم طه الخالدي

س: مجزرة تدمر

ج: بسيارة أبو شلحة وخلال رجعتنا للشام دار حديث بين الاثنين هذول اللي جبناهم من الفندق ماجد أبو شلحة ودار حديث بيننا عن الأوضاع الداخلية والمشاكل اللي بسوريا حول قال واحد منهم يمكن اذكر إنه اسمه عبد المنعم قال إنه اشتركت في إحدى المجازر وهي مجزرة تدمر فحدث علي فقال ٨ طائرات ركبنا هليكوبتر حملونا فيهم ونزلنا بقرب سجن تدمر ودخلنا على المساجين وقتلناهم كلهم.. روّحناهم كلهم بعد ما قتلوا المساجين سولف عبد المنعم كان أخوه رفيقه هذا أو زميله يآزره في الحكي في الحديث فأسأله قديش كان العدد سأله ماجد أبو شلحة فقال له فوق الـ ٧٠٠ قتيل بعد أن اجت تركّات جرافات بسيارات قلاب شالوا الجثث وشالوها إلى وادي شرق تدمر دفنوها هناك ووصلنا الشام.

الهوامش (١) الغمامة وتسمى بفروع المخابرات الطماشة وهي المستعلمة لتغطية العيون.

(٢) كان المجرمون يخافون أن يعرف المعتقلون أسماءهم لذلك طلبوا من زبانيتهم عدم ذكر الأسماء والألقاب والرتب العسكرية للاحتياط.

(٣) الآدمية: الإنسانية والعقل والمنطق.

(٤) تصطفل: كلمة عامية تستعمل ببلاد الشام تعني افعل ما تريد. أنت وشأنك، وهذا شأنك.

(٥) أي عندما كنت خارج السجن قبل الاعتقال.

(٦) رئيس فرع المخابرات العسكرية بحمص حتى عام ١٩٨٣ وأصبح رئيساً للمخابرات السورية في لبنان بعد ذلك.

(٧) وليس بالضرورة أن يكون مواجهة مسلحة فكلمة الحق في وجوه الطغاة تعتبر من أعظم الجهاد كما ورد في الحديث الشريف.

(٨) وهذه القاعدة غير صحيحة إذا كان المعتقل شخصية مرموقة بالعمل الإسلامي، عندها يجب الأخذ بالعزائم لأن الترخيص يترتب عليه ضرر معنوي كبير بالدعوة الإسلامية لا مكان لسلامة الفرد ونجاته أمامها، وقد ضرب بعد الدعاة المجاهدين أمثلة يقتدى بها من عصرنا الحاضر كالشهيدين سيد قطب ومروان حديد رحمهما الله، وكذلك الأمر بالنسبة للشيخ أحمد ياسين الذي أصر على الاعتراف بالتهم الموجهة له والتي تعني إصراره على الجهاد لإزالة الكيان اليهودي الدخيل من أرضنا المقدسة لإدراكه التام لما يترتب على الاعتراف بما يرضي قتلة الأنبياء من أضرار.

(٩) وهكذا قدم القرامطة الجدد خدمة مجانية لأعداء الأمة بقتلهم علماء الأمة.

(١٠) وما لبنان ببعيد.

(١١) هكذا فعل هولاكو ببغداد.

(١٢) وهكذا نرى أن الخلافات بين أزلام النظام حول أجدى الطرق وأنفعها لبقاء النظام.

(١٣) عقد مؤتمر المذكور في الفترة الواقعة بين ١٩٧٩/١٢/٢٢، وحتى ١٩٨٠/١/٦.

(١٤) الحمد لله لقد شاهد رفعت أسد مصير الشيوعية التي ثبت أركانها ستالين ولكن الطغاة لا يتعظون. وصدق الله العظيم حيث يقول واصفاً حالهم: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف: ١٧٩). وقال أيضاً: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" (الحج: ٤٦).

(١٥) تتعلق شدة الإشاعة بعاملين هما: الأهمية والغموض، وهذان العاملان متوفران فالخبر في غاية الأهمية بل انه يتعلق بقضية مصيرية إضافة للغموض الذي يحيط بالمعتقلين منذ اللحظة الأولى لاعتقالهم كما شرحنا سابقاً.

(١٦) وكنت من الذين اعتبرهم ذووهم في عداد الشهداء لأنني اعتقلت قبل المجزرة.

(١٧) الكتب والمصاحف والراديو موجودة في سجن المزة، لأن المعتقلين هناك من الإسلاميين وغيرهم محكومون في المحاكم الميدانية والاستثنائية، وقد أمضوا سنوات طويلة في هذا السجن، أما في السجون والمعتقلات المخصصة للإسلاميين، فليس فيها كتب ولا أجهزة راديو ولا أقلام ولا دفاتر.

(١٨) الكلمة مأخوذة من الفرنسية.

(١٩) إن معظم مهاجع السجن التي بناها الفرنسيون فيه من آثار الاستعمار الفرنسي البغيض في بلادنا وقد بني فيما بعد المهاجع ٣٢- ٣٣- ٣٤ في الباحة السادسة أما أثناء فترة اعتقالنا فاستحدث الظالمون الباحة السابعة مع مهاجع أخرى، وهكذا ازدهرت عملية بناء السجن في عهد القرامطة الجدد.

(٢٠) هكذا يسميها الجلادون وهي مخصصة لتجميع العناصر الذين سيقومون بأعمال الحراسة طوال النهار.

(٢١) وهو نصراني آشوري من منطقة القامشلي وبذلك تلاقى الحقد النصيري مع اللؤم الصليبي.

(٢٢) وظاوظ تعني فراخ الطيور والعصافير الصغيرة.

(٢٣) يعني لحذائي تحقيراً.

(٢٤) قد يصاب القارئ بالدهشة عندما يقرأ عن أدوات التعذيب إذ لا وجود للكثير منها ولكن السجن المذكور ليس مركزاً للتحقيق وبالتالي يجب ألا توجد به أدوات التعذيب أصلاً.

(٢٥) كل إناء بما فيه ينضح.

(٢٦) العدد الحقيقي للجيش في تلك الأيام أكثر من أربعمائة ألف يضاف إليه توابع الجيش من مخابرات وشرطة وتدريب جامعي وجيش شعبي وميليشيات حزبية وسرايا دفاع ومعتقلين.. وغيرها.

(٢٧) وبعض السجناء كان يحمل إصابات لطلقات نارية حيث التقط من الشوارع بعد المجازر التي ارتكبها المجرمون وأرسل إلى السجن دون معالجة شافية.

(٢٨) لم يكن طبيب السجن وقتها من النصيريين.

(٢٩) من مدينة دمشق وعائلته مشهورة بالعلم والتقوى، وله كتاب عن التداوي بالعسل كما كتب كتاباً آخر أثناء وجوده بفرع المخابرات العامة بدمشق لكن المجرمين صادروا المخطوط عند دخوله سجن تدمر، أخلي سبيله في نهاية عام ١٩٩١ بعد أن قضى قرابة الإثني عشر عاماً بالسجن.

(٣٠) أي ما يعادل ثمانية آلاف دولار في ذلك الوقت (بداية عقد الثمانينات).

(٣١) مع ٥٠% من ذوي المعتقلين الذين حصلوا على إذن بالزيارة لأن الباقين يفشلون بمقابلة أبنائهم للأسباب التي شرحناها.

(٣٢) كالأدلة المادية الملموسة.

(٣٣) الجهاز القضائي يسمى في كثير من دول العالم: جهاز العدالة ويتبع في وزارة العدل.

(٣٤) لقد صرح بعضهم أكثر من مرة بأنه يخجل من نفسه كرجل دولة.

(٣٥) حيث يستطيع أي فرع من فروع المخابرات اعتقال أي شخص من المدن الأخرى، وذلك بأن يرسل في طلبه من نفس شعب المخابرات في تلك المحافظة، ليقوموا باعتقاله وإرساله إلى الفرع الذي طلبه.

(٣٦) إذ يكفي أن يقول الكاتب للجلادين هذا دكتور دون ذكر تهمته ليشبعوه ضرباً وإهانة.

(٣٧) أي سترون العقوبة.

(٣٨) وعرفهم المعتقلون من ملابسهم العسكرية المميزة (المموهة).

(٣٩) وهي مجموعة من ضباط المخابرات والجيش وسرايا الدفاع.

(٤٠) ويجمع المحكومون بالإعدام بزنزانات منفردة قبل تنفيذ الحكم بعدة أيام.

(٤١) ما عدا الذين تمكنوا من الحصول على جوازات بعد دفع رشاوى خيالية.

(٤٢) لا مانع من ذلك فقد أثبت تخطيط الدماغ أن الأحلام تستمر فترة قصيرة جداً.
(٤٣) وعلى كل أخ قدر الله له النجاة أن يكتب ما يعرفه حتى تكتمل الصورة ويؤرخ لهذه الفترة العصيبة.
(٤٤) أي عندك بيت ثمنه خمسة ملايين ليرة وأنت لا تستحقه.
(٤٥) في نهاية عام ١٩٩١ أخلي سبيل مجموعة كبيرة من المعتقلين بلغ عددهم ٢٨٦٤ شخصاً فكانت أكبر دفعة من المعتقلين يفرج عنها خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخ بلدنا.
(٤٦) وقد حصل مع بعض إخواننا الذين أعيدوا للسجن، بل أن أحدهم أعيد بعد أسبوع من إخلاء سبيله، وبعضهم أعيد اعتقاله في نفس اليوم الذي أفرجوا عنه.
(٤٧) من عادة بلدنا أن يعالج الصيدلي بخبرته الكثير من الأمراض.

[الشهادة الحادية عشر]

بقلم السجين سابقًا : حسن الهويدي[3] – بعنوان " تدمر في الذاكرة "[4]

الثمن الباهظ

مرتان رأى فيهما العالم مشهداً مهيباً، مرة عندما عاد الخميني منتصراً إلى وطنه ومرة عندما رحل إلى جوار ربه، ولكن عندما ألقى بظلاله في سجن تدمر لم يشهده إلا السجناء ..
في السادس من حزيران ١٩٨٩ شهد سجن تدمر مشهداً متميزاً من مشاهد التعذيب التي وصلت إلى ذروتها، ففي صباح اليوم التالي وعلى غير العادة سمعنا في الإذاعة الداخلية للسجن صوت قارئ القرآن يتلو من آيات الذكر الحكيم ما تيسر له!!، دهشنا بهذا ولكننا لا نعلم شيئا مما يحصل خارج تلك الأسوار ساد السجنَ السكونُ والهدوء وتأخر طعام الإفطار بالمجيء، ترقّب حذر وخوف من المجهول، بعض السجناء ترتعش أطرافهم، والبعض الآخر أصابته حالة من الهستيريا، وآخرون يعقدون جلسات في داخل المهجع لتقيم الأوضاع: ماذا يجري في الخارج وما المصير الذي سنلقاه؟؟
ولكن وبعد برهة من الزمن متزامنةً مع صمتنا علمنا عندما كان احد الحراس يتكلم مع أحدهم في الجهة المقابلة له من الطرف الآخر، (الخميني في ذمة الله مترحما عليه)، باتت الصورة تتضح لنا

---

[3] حسن الهويدي - معتقل سياسي سوري سابق .
[4] هذه الشهادة منقولة من موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنترنت .

داخل المهجع ومن عادة السجناء التقاط الكلمات التي تصدر أحياناً من بعض العناصر المحـددين الذين يحاولون إيصال بعض الرسائل،

مرت دورية راجلة على سطح المهجع وأمرونا بالانبطاح .. بقينا على هذه الحالة حوالي سـاعة وبعدها سمعنا رئيس المهجع ينادي على الجميع الخروج إلى الباحة وبدون اسـتثناء (والاسـتثناء للذين لهم علاقات وشاية لإدارة السجن) خرجنا جميعا إلى أرض الباحة وكانت حرارة الـشمس مرتفعة جداً، أمرونا بالانبطاح أرضاً وأيدينا خلف ظهورنا، القضبان المعدنية تصدر صوت رنـين عندما اصطدمت بالأرض والدواليب المطاطية والعصي والكابلات الفولاذية، صاح أحدهم مـن أعلى السطح الجميع تابع الزحف، زحفنا وكل منا يحاول أن يضع رأسه تحت قدمي الذي أمامـه خوفا من الضرب الذي أنهال علينا كالمطر والقضبان المعدنية تقع على ظهورنا كأنهـا الـصواعق والشيء الذي فاجئنا هو رمي الصخور والقرميد (البلوك) علينا من أعلى سطح المهجع، لم نعـد نعلم من أين نتلقى الضربات سقط العديد منا بحالة إغماء نتيجة الضرب العـشوائي وسـقوط البلوك والحجارة من الأعلى على رؤوسنا، والذين فقدوا الوعي جلدوهم حتى تفجّرت أقدامهم؛ اختلطت الدماء بالتراب وحاصرونا في زواية ضيقة وبقينا على هذا والضرب بنا من كل ناحية.

دخلنا إلى المهجع ولا ندري متى دخلنا وكيف أدخلنا الذين كانوا بحالة غيبوبة، المسؤول الصحي رأسه مشوه ويداه متورمتان لا يستطيع معالجة نفسه حتى، الجميع من حولي لا يستطيعون الحركة، الكل يئن ويتألم.

لم يكن من السهل التعرف إلى ملامح أي من السجناء نتيجة التشوهات؛ ضمدت جراح الـبعض منهم وبمساعدة الذين يستطيعون ان يقوموا بحركة بسيطة.

وفي الطرف الآخر سجين في أرض المهجع يئن ويتألم ثيابه ممزقة تماما، نظرت اليه رأيت على ظهره كتلة تشبه البالون كلما تنفس تعلو وتهبط، وعندما تحسن وضع المسوَول الصحي فحصه وتـبين من خلال الفحص بأن رئتة ممزقه ويحتاج إلى عملية جراحية اسعافية وإلا فقد حياته.

طبعا هذا غير متاح في (سجن تدمر) ونقله إلى خارج السجن من المستحيلات أمـا إذا تكرمـت إدارة السجن بإرسال أحد السجناء المرضى إلى المشفى وهذا لا يحدث الا مصادفة كل سـنة أو سنتين واحد من الألف؛ فما علينا إلا أن نفكر بطريقة قد تنقذ حياته فقام المسؤول الصحي بربط قطعة قماش ولفها حول صدر وظهر المريض لعدة مرات.

وأما من كسرت يده أو ساقه فتبرع بعض السجناء بحصتهم من الخبز وإعادة عجنها مرة ثانيه مع قطع من الثياب المهترئه ومن ثم لفها حول الساق أو اليد المكسورة للمرضى.

في المساء وحوالي الساعة الواحدة ليلا قدمت دورية من على سطح المهجع وطلبوا من الحـارس الليلي أن ينادي على رئيس المهجع وطلبوا منه أن يجمع جميع السجناء في دورات الميـاه عـراة ويمنعوا من النوم حتى الصباح، وهكذا بقي حالنا ولمدة خمسة عشر يوماً التعذيب في الليل والنهار وقلة النوم وطعام أقل من القليل، وسجن تدمر يتأثر مباشرة بأي حدث أو حتى عَرَضٍ سياسـي داخليا كان أم خارجيا وخاصة الحرب العراقية الإيرانية حيث دفع سجناء تدمر ثمناً باهظا خلالها فكلما اشتدت المعارك على تلك الجبهة أشتد التعذيب داخل السجن، التعذيب في سجن تـدمر مبرمج وممنهج وكل حركة فيه مدروسة وحتى الضرب العشوائي مدروس بطرق فنيـة ومنـها الضرب على الرئة والكلية والمعدة والرأس وذلك في أغلب الأحيان يؤدي إلى النزيف الـداخلي ومن يشفى ويكتب له عمرا جديداً فما عليه الا إن يستعد ليوم جديد ومن يرحل فرحيله رحمـة من رحلة العذاب.

هكذا تسير الأمور .. ما مرت علينا ولو لحظة واحدة من الأمان حتى نشعر بهـا أو نعيـشها في الذاكرة، فالموت والحياة عدوان لنا وفاتورة السجن باهظة الثمن والكل يدفعها حتى أولئك الذين يحاولون التقرب من إدارة السجن (الاستثناء) عندما تصل الأمور إلى هذا الحد يـدفعون الـثمن أيضاً

نحزن كثيراً على الذين يفارقوننا

نحسدهم أحيانا

لولا حبنا للحياة والحرية المفقودة.

العيد في سجن تدمر

لم أستغرب ما فعله الأمريكان في "أبو غريب"

كثيراً ما يخطر ببالي أن ما مضى من العمر يكاد أن يساوي ما بقي منه، إذا لم تنته الحيـاة انتـهاء طبيعياً، وأن العمر الذي عشته خارج دائرة الزمن بدأ في صبيحة الثـامن مـن آذار مـن عـام ١٩٨٨عندما قيدوا أرجلنا وأيدينا بسلاسل من حديد، وعصبوا أعيننا، ووضعونا في سـراديب تحت الأرض بحالة استعداد للرحيل إلى المجهول. وفي ذات الوقت كنا نسمع صراخ الذين يُعذبون تحت التحقيق، حيث تزكم المكان رائحة الدماء والعفن. وصلت الأوامر للذين يحيطون بنا مـن رجالات الأمن بالتحرك، وساقونا كالقطيع لا ندري إلى أين، فكل ما استطعت أن أفسره أننا في باحة كبيرة وأصوات الهتافات بعيد الثورة تنطلق منها، إنها الأصوات نفسها التي كانت بـالأمس تهين إنسانيتنا وكرامتنا بالسب والشتم علينا وعلى نسائنا وأمهاتنا وأخواتنا. وفي تلك الأثناء تابعنا المسير لخطوات تجاوزت أمتاراً قليلة، ثم جاءتنا الأوامر بالصعود إلى الحافلات، فهمت من ذلـك

أننا سنغادر المكان. صعدنا مقيدين مكبلين معصوبي الأعين، ولكن وقبل انطلاق الحافلات هددونا بإطلاق النار إن نحن أتينا بأية حركة في داخل الحافلة أثناء مسيرها. ومرت الساعات أياماً وسنين طوالاً، واللكم و"الرفس" والشتم والضرب بأخمص البنادق ينهالُ علينا طوال الطريق الــذي لم ترتسم معالمه بعد؛ فإلى أي عالم سنذهب، وفي أي واد ستكون قبورنا؟؟

- أماه سامحيني وادعِ الله لي بأن يحميني لقد حملتِ هماً كبيراً، هم الفراق الذي لا تعلمين ولا أعلم نهايته.

وسمعت أحد العناصر المرافقين يسأل زميله عن ساعة الوصول، فردّ عليه قائلاً: بعد عشرة دقائق، ها نحن نستعد للوصول هذه محطتنا الأخيرة، قلتها في سريرتي التي تناجي أمي، فإذا بأحدهم يزمجر بصوت عال:

هذه تدمر، وما أدراك ما تدمر الداخل مفقود والخارج مولود وهذا اليوم مشهود.

وصلنا وأوقفت الحافلات محركاتها المزمجرة وتوقفت معها عجلة الزمن، كثرت الأصــوات مــن حولنا، وفكّوا قيودنا، وفتحت عيني ونظرت من حولي إلى المكان، فإذا بشمس آذار الدافئة يفوح منها عبق الصحراء. وفي الطرف الآخر قريباً من بوابة صغيرة عدد لا بأس به من عناصر الشرطة العسكرية قد يتجاوز الأربعين شرطياً مقسمين إلى مجموعات، يحملون العصيّ والكابلات الفولاذية وقضبان معدنية يتراوح قطرها (٢ انش).

صدرت إلينا الأوامر بالنزول من الحافلات والاصطفاف رتلاً خماسياً - هذا حالنا نفعل ذلك كلما انتقلنا من مركز اعتقال لآخر - لاحظت شخصاً في الأربعينات من عمره يرتدي بزة عــسكريه يرتديها عادة الضباط وضباط الصف، تقدم نحونا برفقة عدد من الجنود وبيده سيجارة تبغ مــن النوع الفاخر، ضخم الجثة أسمر اللون صوته أبح أشار بإصبعه لأحد مرافقيه: "عدّهم"، وبدأ بالعد وانتهى: سِيْدِيْ عددهم (٩٦)، فرد عليه قائلاً: هذا جيد باشروا بأخذ الإجراء اللازم - لكن لم ألاحظ أي رتبة عسكرية على كتف أحد منهم- واقترب إلينا شاب وبرفقته عدد من الجنود أيضاً وباشر بإعطاء الأوامر لنا بالتحرك خلفه دون أي فعل مخالف للأوامر الصادرة منه، وبدأنا بالمسير إلى أن وصلنا بوابة متوسطة الحجم ودخلنا إلى باحة ليست كبيرة والجنود الذين يحملون العــصي وغيرها هم أيضاً برفقتنا، وضعونا في زاوية وطلبوا منا الجلوس على الأرض دون أي حركــة أو التفاتة أو النظر إليهم حتى، أعطوا كل واحد منا رقماً دون ذكر اسمه، وبدأنا بالدخول كل فــرد منا على حدة إلى غرفة صغيرة فيها بعض الرفوف المعدنية والأوراق والمصنفات ومدفئة، تــسيل منها مادة المازوت على الأرض، وطاولة معدنية فوقها لوحة خشبية مكتوباً عليها قلــم الموقــع، وعسكري يجلس خلفها شعره أشيب يوجه بعض الأسئلة كنوع التهمة، وعندما ينتهي من الأسئلة

ينادي على أحدهم "بلدية .. خذْ هَالكلب" - ويعرف "البلدية" بأنه شخص بلا أخــلاق، كــان يخدم في الجيش متطوعاً أو مجنداً، وفرّ منه لعدة مرات أو قام بجريمة قتل أو اغتصاب وحُكم عليه حكماً قاسياً - وهذا يتم اختيار للخدمة في السجن السياسي، إذ يتمتع بصلاحيات واسعة فيمــا يخص التعذيب ومساعدة الشرطة في ذلك.

يمسك بنا من شعر الرأس، ثم يمضي مسرعاً باتجاه باب صغير مثبت على جــدار عــال وطويــل ويدفعنا بقوة لداخله، وعندما ندخل من هذا الباب إلى باحة كبيرة مربعة الشكل تحيط بها غــرف كبيرة ذات جدران عالية وأبواب ونوافذ صغيرة لا تتناسب مع حجم البناء، والعــشرات مــن العناصر المدججين بالعصي والكابلات الفولاذية، صاح بنا أحدهم وهو من عناصر الشرطة يحمل بيده قضيباً معدنيا طوله حوالي ٢ متر وقطره ٢ إنش، أهلاً بكم في الباحة الأولى - مخاطباً إيانا - في هذه الباحة سوف نأتي ببناتكم وأخواتكم وزوجاتكم ونجعل البلدية يفعلون بهن العجب وأمام أعينكم يا أولاد (..) يا أولاد (..) يا أبناء (..) يا خونه سنعلق رقابكم على أعواد المشانق قريبــاً جداً إن شاء الله. وصاح بنا ثانية: الكل إلى الزواية رَمَلاً. لا ندري كيف وصلنا الزاوية، وهل هي الزاوية التي يعنيها، وصاح مرة ثالثة: منبطحاً على الأرض يا أولاد الــ (..)، انبطحنــا أرضــاً والعمر دائب في المسير لا يلوي على شي والثواني كأنها ساعات، غاضت الينابيع أمامنا، وتراجع اليم، وقد زلزلت الأرض تحتنا، وتداعت الجبال على رؤوسنا، نصرخ صراخاً تبكي له النائحات بكاء فوق بكاء، نصرخ طالبين السماء، فيذهب صوتنا بدداً، حيث تمطر علينا السماء العــصي والكابلات الفولاذية والحديد والنار و"الأبواط" العسكرية ونحن عراة حفاة وكأنه يــوم الحــشر العظيم، أفواهنا مفتوحة لتفريغ قذاراتهم، سرقوا منا كل شي الساعات والنقود ومحابس الخطبــة والزواج وحتى الجوارب سرقوها، وبعدها قادونا مجموعات كل سبعة على حدة، حفــاة عــراة، وبطحونا أرضاً ووضعوا في أرجلنا حبلاً من النايلون السميك، وفي رأسه قضيب معدني وشــدوه بقوة، وحمله اثنان من البلدية وشحطونا في الباحة لعدة مرات على أرضاً أسمنتية فيها كتــل مــن حجر الصوان الحاد، مما أدى إلى نزف الدماء من ظهورنا وبعض الكسور، وبعــدها وضــعونا في الدولاب، وقال أحد عناصر الشرطة: الآن بدأ حفل الاستقبال. ولا ندري بعدها ما الذي حصل؛ لأن معظمنا فقد الوعي، وعند المساء انتهت الحفلة وأخذونا إلى المهجع ودخلنا وأقفلــوا علينــا الباب.

وبعد عشر دقائق عادوا إلينا مجدداً، وقبل فتح الباب من جهتهم طلبوا منا الانبطاح على الأرض، ظننا أنهم جاؤوا لتصفيتنا، فتح الباب وتكلم معنا الصوت الذي سمعناه في المرة الأولى قائلاً: الكل يسمع، هذا المكان الذي أنتم فيه الآن .. أطهر من بيوتكم، ومساجدكم، بالنسبة لنا، فهو مكان

مقدس وعليكم احترامه واحترام أصغر رتبة تخدم فيه، ومن يحاول أن يلعب بذيله سوف نقطعه له، هذا أولاً، أما ثانياً: من بينكم رتبة عسكرية؟ فرد أحد السجناء: أنا سيدي، قال له: ما هي رتبك العسكرية؟ فرد عليه قائلاً: مقدم سيدي، قال: هذا جيد، أنت الآن رئيس المهجع، وتعين نائباً لك وتعين أيضاً مديراً "للبخشة .. هي دورات المياه" وتعين أيضاً سخرة طعام إذا فُتح الباب أو صاح بك أحد العناصر تقدم له الصف كالتالي: المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب أول، وأثناء ذلك كل الموجودين في المهجع يستدير باتجاه الحائط دون النظر إلى باب المهجع، ومن يحاول أن ينظر سوف نقلع له عينه. أنهى وخرج، وخرجت معه الحرية التي لا يعرف معناها.

نظرت حولي، رأيت الناس يستولي عليهم حزن عميق وقد وهنت قواهم ولا يدرون ما هم فاعلون، بالرغم من كل ما حصل من تعذيب وضرب، حيث أصبحت أجسادنا مشوهة وأرجلنا منفوخة من الضرب عليها بالعصي والكرابيج ووجوهنا متورمة، حيث أصبحت عين أحدنا بحجم الليمونة، أما الآذان فطول إحداها يتجاوز ورقة التين بالحجم واللون، الأنف والفم والخد جفت جميعاً، فإذا نزلت بنا حارقة لم تجد منا إلا الرماد، لقد تعبنا وكل شي فينا تعب، وكانت أصداء الليل تدور من حولنا ومعها شبح العزلة والموت. نحن الآن داخل المهجع، همّ بعض السجناء الذين كابروا على جراحهم وبدأوا بترتيب المكان (من توزيع البطانيات المهترئة الموجودة سابقاً في أرض المهجع، مليئة بالقمل والصراصير والفئران والجرذان والدماء الجافة) وُزعت علينا بالتساوي، بحيث حصل كل فرد منا على بطانية واحدة فقط وعازل، بالنسبة لبرودة الطقس هذا لا يكفي، قسّمنا أنفسنا إلى مجموعات، كل مجموعة ثمانية أفراد، فرشنا الأرض بالعوازل، ثم حددنا لكل مكانه الذي ينام فيه ويجلس عليه ويأكل، بحيث أصبحت الحصة الواحدة لكل فرد حوالي ٢٥ سم. إنه مكان واسع قياساً بأماكن الاعتقال الأخرى التي مررنا بها.

وفي صبيحة اليوم التالي، استيقظ الجميع في الساعة السادسة صباحاً حسب التعليمات الصادرة من إدارة السجن، وبعد قليل سمعنا صوتاً ينادي بنا: الجميع منبطحا أرضاً، ونفذنا الأمر بسرعة بالرغم من أجسادنا المتورمة التي لا تستطيع الحراك. قال لنا أحد العناصر من الشرطة: أدخلوا طعام الفطور، خرجنا ثمانية من الذين يستطيعون، خرجنا إلى الباحة لإدخال الطعام، قال لنا أحدهم: ما زلتم أحياء يا أولاد الـ (..) يا خونة يا عملاء يا جواسيس، وبدأ الرفس والدفس على صدورنا وبطوننا وظهورنا بالأبواط العصي، ولا ندري كيف أدخلنا الطعام إلى داخل المهجع. نظرت إلى طعام الفطور، فإذا به (شاي بحدود ٢٠ لتر موضوعة في أناء من البلاستيك والإناء الثاني فيه حبة زيتون واحدة والإناء الثالث فيه بيضة واحدة)، ضحكنا كثيراً عندما شاهدنا ذلك، إنه شيء مضحك حقاً، هل هذا معقول؟ إنه طعام لـ ٩٦ سجيناً. سمع البقية من السجناء

عن كمية الطعام، فأصروا على مشاهدتها، بالرغم من أنهم لا يستطيعون السير على أقدامهم، مما جعلهم مضطرين للتحقق من ذلك زحفاً على بطونهم للوصول. فقال أحد السجناء: هـذا أهـم إنجاز تحققه الثورة لنا، طعام أقل من القليل والعصي والكابلات والقضبان المعدنية والشتائم، والله لو كنت أسيرا عند العدو لن يفعلوا بنا كل هذا.

خيم الصمت .. رأيت رجالاً فقدوا كل شيء، فهل يقضي الزمان بأن يفترس منا كل شي، لقـد ناجيت قلبي فلتنعم بهذا واجعله هدفاً للحياة، لا استسلام، فإذا بصراخ عالٍ صادر مـن دورات المياه يدعو ويطلب أن يفك عنه كربته، فذهب إليه البعض مسرعاً لتفقد أمره، فإذا به يحاول أن (يتبول) فلا يستطيع، نظرنا إليه متورماً، وهو يحاول جاهداً أن يفعلها، ماذا جرى؟ فنظر إلينـا، وهز رأسه قائلاً: ما جرى لي لم يجر لإنسان على وجه البسيطة، لقد ضربوني عليـه بالكـابلات والعصي بدلاً من قدمي، ولهذا السبب لا أستطيع. وكان إلى جوارنا سجين طـاعن في الـسن، نظرت إليه والدموع تسيل على خديه، قال له: يا بني اقرأ سورة الفلـق، وإن شـاء الله تفـرج عليك. ضحك السجين المريض ضحكاً من القلب، وقال له: ماذا تقول يا رجل، كل الذي أنا فيه من فعل "الفلق"؟! قالها عن طيب نية طبعاً، ولم يقصد الإساءة، ضحكنا جميعاً رغم الجراح وسوء الحال.

صمتنا .. وأثناء صمتنا سمعنا سجيناً أخر يئن ويزحر ويتأفف من داخل المرحاض يحاول أن يتغوط ولا يستطع، خرج منهكاً متعباً متعجباً لأمره، قال: هل يعقل يا رجل؟ دمدم بعض الشيء .. هل يعقل أن الإنسان دون فتحة شرج؟ تبين أنه أيضاً تعرض للضرب المبرح على مؤخرته، وعنـدما ضربوه كان عارياً تماماً، ولا شي يستر له عورته سوى الكابلات الفولاذية والعصي، إنه تعـرض للخوزقة دون أن يعلم ذلك، وبقي نحو ثلاثة أيام لا يستطيع التغوط. وكثير هم على هذه الحال، وغيرهم من امتنعوا عن تناول الطعام؛ لأنهم لا يستطيعون الخروج إلى دورات الميـاه، الجميـع تعطلت حركاتهم الجسدية، منا من يبكي على نفسه ومنا من يبكي على رفيقه، وما زال الطريق في أوله، والأعظم على الأبواب، الويل .. الويل فلقد ساءت الحال، "هل سقط العالم إلى مثل هـذه الدركة قبل اليوم"؟ قالها أحد السجناء وهو يتكئ على ركبتيه.

وعند الظهيرة، تكرر السيناريو نفسه معنا عند إدخال طعام الغداء والعشاء. وفي العشاء الليـل مظلم، والبطون خاوية، والجسد منهك، والعقل سيطر عليه الأخذ والعطاء .. بالأمس القريـب كنا هناك، واليوم بين أرباب الهلاك، الجسد قطع رجاءه من (الروح) وذهب يلتمسها مـن وراء الحواجز القائمة على مسافات بعيدة. والقمر أطل في مدينتنا ليلة أمس؛ خُيّل إليّ أنه أنثى أثقلـها

الحمل، وكوكب النهار أحب الحياة .. لقد جلست وروحي الجائعة أعياها الجفاء وبكاء كبكاء النساء، لقد أتعبني هذا المكان.

في المساء، خرجنا عراة حفاة وجموعنا في دورات المياه بعضنا فوق بعض، وحرارة أجسادنا العارية المتلاصقة ورائحتها التي لم يمسسها الماء الساخن منذ شهور. هنالك فتحة في الأعلى قطرها ١,٥ متر، تجمع حولها عناصر الدورية، وبدأت حفلة التعذيب بصب الماء البارد، وأمرونا بضرب البعض بخرطوم المياه والشحاطات البلاستكية، وكل من لا ينفذ ذلك مصيره الموت المؤكد في الصباح عند الخروج الى الباحة. وهذا هو حالنا من المساء حتى أشرقت شمس الصباح دون أن تعرف أعيننا النوم، لقد سطا الهرم على قلوبنا الفتية التي تسلط عليها النعاس تنشد نفسها صامتة لا تزقزق .. لا تنسوا هذه الليلة وهذا العيد.

في صبيحة اليوم التالي أخرجونا إلى الباحة الساعة الحادية عشر صباحاً ونحن عاجزين عن المسير أو حتى الجلوس، خرجنا مغمضي الأعين مطأطئي الرؤوس ندور حول الباحة بنسق خماسي، وعند الانتهاء من عدة دورات أُمرنا بالجلوس أرضاً ووجوهنا باتجاه الجدار المقابل.

قال لنا أحد العناصر هذا هو التنفس ومدته ساعة لشم الهواء النقي، وهو يسير خلفنا نسمع خطاه دون أن نراه ذاهباً وآيباً وهو يرفسنا بالبوط العسكري من الخلف على الظهر والرأس، مخلفاً وراءه ألماً لا يحتمل. وبعد لحظات أمرنا بالوقوف، ثم اختار أحدنا وأخرجه من الصف، ليكون هو من أهداه القدر لهم، هم الذين غادروا الزمان واحتفظوا بالمكان، وجعلوا من لغة التعذيب أداة تواصل وتفاهم؛ غادري يا صرخات المكان واجعلي تراب الأرض ندياً ليطهر وجعه ووجعنا، أبكي على تراث نمجده حين نعجز عن تجاوزه.

أبو محمود مولود في عمره الجديد يناشد صباه يتوسل من الألم والعذاب مخاطباً الزمان وفي صراخه كل التراتيل التي تمجد الأنبياء، قفي يا سطوة الجلاد فجسدي أتعبته السنون وحفيدي الصغير الذي ينتظرني في طرف الحي يعشق فوضى المكان، سلامي إلى كل الأنبياء والرسل عساهم أن يخففوا عني مسيرة الذلّ؛ قالها وفي نفسه أمنية لرؤية من هم أعزاء على قلبه، هذا الشيخ المسنْ ذو الجسد الصغير أبى على نفسه أن يسقط ذليلاً إلى أن ساقته قدماه لنلتقي في "باستيل" سورية.

نظراتنا حزينة، وأصابع الريح التي تغازل "الشيح" و"العوسج" حزينةٌ هي علينا، ابكي أيتها الجدران إن كنت قادرة على التحدي، واقتلعي من بقايانا الشظايا، فالضحايا من قبلنا هم زوار هذا المكان صورهم معلقة على الجدران، أسماؤهم مكتوبة بدمائهم، طائر جراحه أثقلت جناحاه.

وأمه الحزينة تذرف الدموع بانتظار المولود الجديد وريثاً لاسم جده أبي محمود. غاب الزمان تماماً، وبقي المكان تماماً جاثماً ثقيلاً مثقّلاً بالسياط، وجلسنا نتأمل القادم إلينا من خارج الأسوار، قد

يحمل أقبح الصور وأسوأ الأخبار التي لم يعد يسمعها البعض منا؛ لأنَ الكثيرين منا قد فقدوا السمع نتيجة الصفع على الآذان.

وعند الظهيرة أدخلنا طعام الغداء (حساء الجزر) الممزوج بدمائنا، وبرغلٌ مطبوخ بالرمل والحصى، وخبز (صمون) مطلي بمادة المازوت، كانت بالنسبة لنا وجبة جيدة. بدأنا نفكر بكيفية التأقلم مع المكان، حيث باشرنا بتوزيع الطعام على أكياس من النايلون محاصصةً بين الجميع، وطلبنا منهم منظفات وصابون فلم يوافقوا إلا على مادة الصابون، ولكل سجين قطعة من الصابون العسكري الحجم الصغير (التي توزع مجاناً) دفعنا ثمنها غالياً من دمنا، فرحنا كثيراً بمجيء الصابون، وباشرنا بتناول الطعام، حيث كنا مجموعات، نظرت إلى المجموعة التي بجوارنا، رأيت أبا محمود يلتهم الطعام بطريقة عجيبة، بحيث أنني كنت أسمع تحت أسنانه صوت كصوت الرحى يطحن الحصى، فهز رأسه نحوي وضحك وقال: لوز وصنوبر، يرحم أيامك يا أم محمود.

وعند الانتهاء من تناول الطعام وقف أحد السجناء قائلاً: تدمر هذا هو حالها، ولن تتغير، وأنا لي تجربة سابقة فيها، لذا على كل سجين أن يتعامل معها، والمهم والاهم أن نعتني بنظافة المكان. وخيم الصمت على الجميع، في أعينهم حزن شديد وألم، وفي دواخل نفوسهم أسئلة كثيرة هل يبقى حالنا هكذا: جوع، وخوف، ومرض، وقمل، وجرب، وتعذيب ..

صمتنا أعطى المكان هدوءاً، بحيث استطعنا أن نسمع جوقة من الأصوات البعيدة جوقة تلاميذ المدرسة التي لا نعلم أين موقعها بالنسبة لموقع السجن، والأهم أننا نسمع ذاك الصوت البعيد، صوت الأبرياء القادم إلينا من خارج الأسوار ليبعث فينا أمل الحياة من جديد.

أصوات فرحة تغرد في مسامعنا لحن الحرية، ليضفي على صمتنا لحظة تأمل وتذكرْ، نظرت من حولي فإذ دموعٌ تذرفَ كأنها أنهار وسيول عبرت الحدود، وصدور مليئة بالشوق على أطفال تُركوا هناك لا يعلم أحدٌ عن أحوالهم شيئاً، تلاشى الصوت، وتبددت معه الأحلام الجميلة حتى العصافير التي كانت تدنوا من الشبابيك الصغيرة غادرت المكان وتركت أعشاشها مهاجرة، كل شيء غادر إلا الصوت القادم إلينا من داخل السجن، يحمل الصراخ والألم وأصوات الأقفال والمصاريع تفتح وتغلق تقترب منا، شيئاً فشيئا دب الرعب والخوف في قلوبنا، وجوهٌ أصفرت وأطراف ترتعش والقلوب تكاد أن تخرج من بين الأضلاع، أحسست إن رأسي يتمدد تحت ضغط داخلي وأن طبولاً تقرع وشياطين ترقص وتسخر منا. قرر أحد السجناء أن يخرج إلى الباحة إذا طلب منه ذلك، كان قراراً صائباً للشد من عزائم السجناء والخوف من الانهيار الذي إذا حصل يسبب لنا كارثة، جاءنا الصوت منادياً "مهجع" .. "يا عرصات منبطحاً جميعاً"، وبعد لحظات وصلت الدورية وفتح الباب، وطلب منا الخروج إلى الباحة مغمضي الأعين، وأفهمنا رئيس

الدورية إخراج جميع محتويات المهجع إلى الباحة من أجل تفتيش المكان. خرجنا ودخلوا، وبقي البعض منهم في الباحة، سرقت النظر فإذا بهم يحملون قضبان معدنية كبيرة وفي مؤخرتها قرص معدني مثبت بشكل دائري، وبدأوا الدق في أرض المهجع خوفاً أن نكون فكرنا أن نحفر أنفاقاً للهروب. وبعد الانتهاء من التفتيش، خرجوا إلينا جميعاً إلى الباحة وأمرونا بالانبطاح أرضاً، وبدأوا بالدق على ظهورنا بالقضبان المعدنية والصعود عليها والدعس عليها بالأبواط والعصي، ونادى أحدهم رئيس المهجع وطلب منه إخراج "ختيار الزفت أبو محمود والحرس الليلي"، ودخل البقية إلى المهجع، وبدأوا بضرب أبا محمود وبقية السجناء الذين كانوا في حراسة المهجع ليلاً، واتهموهم بأنهم كانوا يمارسون اللواط، وصرخاتهم التي كانت تنشد نشيد الأطفال في عرس الحي ..

قد توقفت تماماً، ولم نعد نسمع شيئاً، وطلبوا منا ثمانية للخروج إلى الباحة، أدخلناهم والدماء تنزف وأجسادهم لا تتحرك، تجمعنا حولهم نضمّد لهم جراحهم، منا من خلع ثيابه الداخلية، والآخرون جاؤوا بقطع قماش وربطناها على الجروح النازفة لوقف النزيف الحاد، حزنا كثيراً على هؤلاء العزل الذين خرجوا من الباب ودخلوا من الباب، وما خلفه جنة القلب أشياؤنا باب الحكاية باب النهاية. السلام للذين على حائط الصوت والموت أسماؤهم، ندخل ونخرج كأهل الكهوف في عالم النسيان، وآذار يخرج مودعاً ليأتي شهر نيسان ..

حمامات الدم الساخن

خرج شهر نيسان كل شيء فينا يعاني، الجرب أكل من أجسادنا وأصبحت كخلية نحل. سنابل القمح الخضراء يقترب موعد حملها ورائحة التراب تبشر بمواسم العطاء، والحرمل البري تهز أغصانه نسمات نيسان المودّعة، وصوت الخراف القادم ألينا يصحبه مزمار الراعي ينشد أغاني الحزن والفراق، وطفلاً حافي القدمين يركض وراء فراشات يحمل بيده منديلاً أبيض، وحمار ينهق يحمل على ظهره قربة ماء وكيس خبز وعباءة صفراء، والكلب باسط ذراعية يسعى للنوم بعد سهر ليل طويل ونباح أتعب صوته، وشجرة الكينا البعيدة القريبة التي تهز الرياح قمتها تترنح ذات اليمين وذات الشمال يحوم حولها الغراب الأسود (..). وبعد لحظات انتابني ألم شديد لا يطاق يصحبه شعور بالبرد والعرق الشديدين، هذا السجن المرض والقمل والجرب والتعذيب، هل يعقل أن نقضي حياتنا هكذا إذا كتبت لنا الحياة؟! نظرت من حولي، هناك من يغسل رسغه بالبول لكي يخفف عنه الألم، وهناك من يضع قطعة قماش على أذنيه التي أصبحت كالعنقود المتدلي، وهناك من تسيل من فروة شعر رأسه القصير ماء صفراء اللون تحمل معها بيض القمل،

أخرجونا إلى الباحة لتفقدنا كما هو المعتاد، فإذا بأحد السجناء يطلب الإذن من حضرة الرقيب أن يتكلم، فلم يسمح له بذالك إلا أن السجين أصر على ذلك:

فقال له: إننا جميعاً مصابون بالجرب والقمل وأمراض جلدية متعددة ونحتاج إلى علاج وحمامات بالماء الساخن. فرد عليه حضرة الرقيب: حاضر، وماذا بعد؟ هل هذا كل ما عندكم؟ فأدخلونا إلى داخل المهجع دون أن يلمسوا أحداً منا أو يضربوه، وبعد نصف ساعة تقريباً فتح علينا باب المهجع دون أن نشعر أو نحس بقدومهم إلينا، وطلبوا أن نخرج جميعاً إلى الباحة عراة حفاة. خرجنا وساد الباحة هدوء تام، لم نسمع سوى وقع الخطوات المنتظمة ورائحة التبغ الفاخر، نادى بصوت عالي: المسؤول الصحي إلي ..

- حاضر سيدي.
- كم عدد المصابين بالجرب يا أبن ..
- كامل المهجع سيدي.
- كامل المهجع يا ابن القوادة .. بلدية .. بلدية .. هات الدولاب.

وجاء الدولاب بسرعة.

قال: علقوا هذا الكلب الأجرب.

وعلقت آمالنا بالشفاء والعلاج، وبدأت أنشودة الموت تعزف ألحانها، والعباءة الحمراء والناي وفتاة الوشاح الأبيض من حوله ترقص ترسم دوائرها، والذي يجلس بجانبي إلى اليمين يرتل ما تيسر له، لعله أن يُسمع منه ويخفف عن أخيه الذي ما زالت قدماه معلقةً في الهواء والسياط تحرث بقايا اللحم السليم التي لم تطلها جرثومة الجرب، والذي يجلس بجانبي إلى اليسار يعد عدد الجلدات التي عرفتها من خلال عده حوالي "أربعمائة جلدة" وأفق الخلاص من بين أيديهم في تلك اللحظة بات وشيكاً، صاح صاحب الصوت قف .. توقف كل شيء وطلبوا منه أن يسير على قدميه إلى داخل المهجع، ودخلنا جميعاً، وكل واحد منا أكل ما تيسر من الرفس والضرب إلى أن دخلنا بداخل المهجع وأغلقوا الباب. ودائماً عندما ندخل نشعر بجزء من الآمان النسبي؛ لأن التدافع على الدخول إلى المهجع نتيجة الضرب الذي نتعرض له أثناء دخولنا، ما يسبب سقوط البعض على الأرض، وهؤلاء هم الذين يتعرضون للضرب المبرح، ناهيك الكسور التي تنتج، وخاصة كسور في عظام القفص الصدري بسبب التزاحم للدخول إلى المهجع، فالباب الذي ندخل منه لا يتجاوز عرضه (٦٠ سم) وارتفاعه (١٥٠ سم) مما يضطرنا للدخول وظهورنا منحنية. وعلاوة على ذلك، عتبة الباب التي يزيد ارتفاعها عن (٤٠ سم) .. كل شيء في هذا السجن أتقن عمله لأجل التعذيب. طاف ناظري بداخل المهجع، هناك من يحك رأسه الممتلئ

بالقمل، وذاك يحك مؤخرته ومن يحك بطنه .. والكل يعمل والكل مشغول بالحك، وكأنها آلات تعمل دون توقف وقودها الجرب، وقفت أتأمل وأنظر إلى الجميع بالأمس كـان عـددنا (٩٦) واليوم أصبح العدد (١٣٦) المكان بدا مزدحماً جداً، هل يعقل أن يضاعفوا العدد مرة أخرى؟ لا ندري.

أوشكت الشمس على المغيب وبعد ساعة ونصف سوف نخلد إلى النوم والكل منـشغل البـال والجسد، وإذا بقيت هناك أجساد سوف يرهقها الليل القادم إلينا والذي يحمل معه أسراراً لا نعلم بها شيئاً، سوى أننا معرضون لأي شيء سيء يخطر أو لا يخطر ببالنا. هكذا قضينا الليلـة ونحـن ننتظر ونفزع من كل حركة من حولنا، إلى أن بان الشفق، فبدأت أجسادنا بحركة بطيئة تأخـذ الاستعداد لليوم الجديد. وفي الساعة العشرة صباحاً فتح باب المهجع، وطلبوا منـا الخـروج إلى الباحة باللباس الداخلي، وكل واحد منا يجلب معه صابونة ومنشفة. خرجنا فارغي الأيـدي، لا صابون لدينا ولا هم يحزنون. وكان عددنا (١٣٦) فرداً، فقادونا إلى الباحة الثانية، حيث وصلنا إلى المكان الذين طلبوا منا التوقف فيه، وأمرونا بالجلوس على الأرض باتجـاه الجـدار المقابـل ورؤوسنا منحنية نحو الأرض دون النظر إليهم، ومن يحاول النظر بالتأكيد قد يخسر إحدى عينيه.

ظهورنا عارية وكذلك صدورنا، وبدأت العصي والكابلات الفولاذية تمزق ظهورنا، والـدعس والعفس بالأبواط العسكرية تقع على رقابنا وكأنها صواعق. قسمونا إلى قـسمين للـدخول إلى الحمام. صدرت ألينا الأوامر بالتوجه إلى الحمام رملاً، والسياط والضرب بالعصي على أجسادنا إلى أن وصلنا المدخل، دخل القسم الأكبر منا إلى الداخل، وبقي القسم الآخر بالخـارج، إلا أن مساحة الحمام لا تستوعب العدد، وأدخلونا بقوة الضرب من الخارج والداخل، دخلنا ولم نشعر بوقع الماء البارد على أجسادنا، ومن كثرة الازدحام استطعت أن أسرق النظر، فـإذا بعناصـر الشرطة وبرفقتهم البلدية يحملون العصي والقضبان المعدنية معلقين على الجدران المحيطة بالمكـان وبدأوا بإطلاق أصوات يرافقها الضرب على رؤوسنا ووجوهنا وهم يطلقون كلمـات القهـر والإذلال بنا، ومنهم من يطلق كلمات السب والشتم. شعرت بأن المياه التي تنصب على أجسادنا هي مياه دافئة بعض الشيء؛ لأنها اختلطت بالدماء وهي تسيل على الأرض وبحكم موقعي عنـد المدخل شاهدت المياه تسيل إلى الخارج ممزوجة بالدماء بكثافة. سقط منا الكثير على الأرض نتيجة الضرب، ومنا من كسر فكه، ومنا من كسرت يداه، وآخر كسرت ساقه. وقـع المـاء علـى أجسادنا ترافقه ضربات السياط ونزيف الدماء من أجسادنا يبشر بالموت، وما أكثـر المنـذرين بالموت في هذا المكان.

ما شهوة هؤلاء إلا التعذيب. إنهم لأشد الناس حقداً، وأخرجونا إلى الباحة وطلبوا منا الانبطاح في ساقية أسمنتية من الطرف الآخر للباحة تمر فيها مياه آسنة، وأدخلوا الدفعة التالية ونحن نسمع صراخهم ينطلق من داخل الحمام، ونحن نتابع الزحف إلى المهجع على بطوننا العارية التي مزقتها الأرض والمياه الآسنة والفئران الميتة ...

طبابة متميزة

يتعب الجسد أحياناً، وجسد السجين متعب ومتألم دائماً، وعندما يكبر الألم فما عليك سوى أن تستجيب له أو تتخلص من مسبباته. والعيادات الخارجية في تدمر تكلف السجين الكثير من الدماء، وغالباً ما تكلفه حياته التي هي رهينة للموت. وآلام الأسنان التي تصيب السجناء في سجن تدمر تتعبهم كثيراً، وخاصة الألم الناتج عن اللكم والرفس على الوجه والفكيين من قبل عناصر الشرطة وأعوانهم "البلدية"، وأغلبهم يرتدون أبواط عسكرية تحمل في مقدمتها "نضوة" وهي قطعة معدنية على شكل هلال ويحملون في أيديهم قضباناً معدنية، وعندما يتعرض السجين للضرب بها يحدث تهشم في الأسنان وكسور في الوجه والفكين، وأحياناً تحدث جروح عميقة ينتج عنها انسلاخ اللحم عن العظام.

مرة من كل عام تتكرم إدارة السجن بالخروج للسجناء لمراجعة العيادة السنية، صاح أحدهم بنا من الخارج بمراجعة العيادة السنية يكون مستعداً، وطلب من رئيس المهجع عددهم، وكنا خمسة سجناء نستعد للخروج بالرغم من نصائح البعض بعدم الخروج؛ لأننا لن نستفيد شيئاً سوى العذاب. خرجنا كما هي العادة المتبعة في تدمر أعيننا مطمشة وتقودنا البلدية برتل أحادي مروراً بمهاجع أخرى، إلى أن وصل عددنا إلى ٢٥ سجيناً. وطلب أحدهم من البلدية أخذنا إلى باحة الطعام، جمعونا هناك إلى أن وصل عددنا إلى حدود ٦٠ سجيناً، وطلبوا منا الركوع على الأرض باتجاه الحائط وعدم النظر إليهم. ركعنا وركع كل شيء من حولنا.

بدأ أحدهم برفسنا من الخلف، ويطلق بنا من الألفاظ كل ما حفظه في حياتة البذاءات والألفاظ الدنيئة، مرة ينعتنا بالخونة ومرة أخرى بالزناة والصراصير، وهذا كان من ألطف الألفاظ التي سمعتها في سجن تدمر، من سوء حظي الطميشة التي وضعوها على عيني كانت مثقوبة من العين اليمنى بقدر ٤ ملم، بحيث استطعت أن أشاهد بعض الأشياء (الطميشة هي عبارة عن قطعة من البلاستك الأسود المطاطي مصنوعة من أطار عجلات السيارات يضعها السجين على عينيه طوال فترة وجوده في السجن وخاصة أثناء النوم ليلاً، وهذه تجعل السجين في حالة متوترة بشكل دائم، وهي من الأساسيات بالنسبة للسجين والسجان، وشيء مقدس لا يمكن الاستغناء عنه أبداً، حيث

أصبحت جزءاً من حياة السجين، وعندما تضعها تنقلك إلى عالم الظلمات وتعزلك عن كل شيء صامت ومتحرك من حولك، ومحاولة إزالتها أو تحريكها تكلف السجين الكثيرمن الدماء ولأيـام طويلة، وفقد العديدون أعينهم نتيجة تبلي عناصر الشرطة بتحريكها).

أمرنا أحدهم بالوقوف والاصطفاف رتلاً أحادياً. ومن المضحك المبكـي أن يكـون السـجين معصوب العنين أن يصطف برتل أحادي، وكيف يستطيع أن يميزالجهات الأربعة أو يدرك ما يدور من حوله؟! البعض منا ذهب يساراً وآخرون يميناً وإلى الوراء والأمام. أشـتد غـضبهم علينـا، وغضبت السياط والعصي معهم، ومن سوء حظي أيضاً بما أنني أرى بعض الأشياء الـتي تحـدث انتابني خوفٌ مزدوج، إذ كيف لي ان أتصدى لأحدهم وهو قادم إليّ ويرفع سوطه إلى الأعلى.

طلبوا منا الجلوس أرضاً كلّ في مكانه دون حركة، طلب أحدهم من البلدية بأن يـساعد علـى اصطفافنا في رتل الموت. نظرت من ذلك الثقب اللعين، فشاهدت أحدهم يرتدي ثياباً أنيقة يجلس على كرسي وأمامه طاولة خشبية يضع فوقها حقيبة سوداء، ونادى به أحدهم: الكل جاهز يـا دكتور. هذا هو الطبيب، وقف وهو يضع يديه حول خصره، وقال: كلكم يـا أولاد "القحبـة" مصابين بألم الأسنان؟ صاح بالممرض، فذهب إليه وسلمه ملقطاً معدنياً. وقال له: ابدأ مـن أول الصف. بدأ والصراخ ملأ المكان، حاولت أن أسترق النظر قدر المستطاع، وأن أجـس بعـض الأشياء بالرغم من حالة التوتر التي أعيشها، فشاهدت السجين الأول من الصف مقيداً من قبـل عناصر البلدية، والممرض يدس ملقطه المعدني داخل فم السجين بطريقة متوحشة، وعندما ينتهي من قلع ضرسه تجره البلدية الى الجدار المقابل وتأمره بالجلوس وعدم الحركة، ويأتي دور من بعده. وأنا أنتظر ولا أعرف كيف سأعيش تلك الحالة وكيفية التعامل معها، فوجدت الممرض قريباً مني. بقيت بالانتظار إلى أن وصل إليّ وطلب مني فتح فمي إلى أقصى حد، فعلت ذلك وأنا أرتجف من الخوف، وخوفي أن يدس ملقطه في عنقي، ونادى بالبلدية فبصق بفمي وقال: هذا هـو المخـدر، ومسك بذراعي بشدة من الخلف، وطلب أن أرفع رأسي إلى الأعلى، وهذه هي المرة الأولى الـتي أرفع فيها رأسي في سجن تدمر. ثم جاء آخر وأطفأ سيجارة على رقبتي، وقال لي هـذا سـحب العصب ولن تؤلمك أسنانك بعد اليوم يا ابن الزانية. أحسست بآلة معدنية تتحرك داخـل فمـي يصدر منها أصوات الطقطقة، أحسست بألم شديد جداً، بحيث أجبرت للقيام بـبعض الحركـات الممنوعة لأتخلص من الذي أنا فيه، ولكن شعرت بضربة قوية على رأسي من الخلـف، ولم أعـد أحس بأي ألم ولم أعد أسمع شيئاً من قوة الضربة التي تلقيتها، وبعد ذلك وجدت نفسي جالساً بين البعض من السجناء مقابل جدران أحد المهاجع. حركت لساني داخل فمي للتأكد من الـضرس الذي آلمني، ولكن اكتشفت أن هناك مساحة كبيرة من الفك السفلي خالية مـن الأضـراس تم

قلعها. وبعدما استعدت جزءاً بسيطاً من وعيي، أدركت بأنه قد تم قلع أضراس الذين من قبلي بالملقط ذاته بدون تخدير للمنطقة المصابة، وهذه كارثة؛ لأن أغلب السجناء مصابين بداء السل الرئوي والتهاب الكبد المعدي!! همس أحد الذين يجلسون بجانبي يسألني من أي مهجع أنا، فلم أرد عليه، تصورت أنه من عناصر الشرطة أو البلدية يجلس معنا ليتجسس علينا، فرد قائلاً لطمأنتي: أنا من الباحة السادسة، البارحة كان عندنا في الباحة تنفيذ أحكام، هل خرج أحد من مهجعكم؟ رددت عليه بهمس شديد: لا. وحوّل حديثة إلى الذي بجانبه، وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث وبصوت مسموع أحياناً، وبدا لي يسأله عن البعض هل يعرفهم، ومن ثم انتقل إلى الآخر. وتبين لي أنه قادم للتعارف والتقاط الأخبار، وليس كما ظننتة لمرة الأولى، وها هو يضحي بحياته من أجل خبرٍ أو معلومة قد تفيده، وفهمت أيضاً أنه سجين قديم منذ عام ١٩٨١. وفجأة وبشجاعة مني سألته: ماذا يعني تنفيذ الأحكام؟ فرد من أين انت؟ قلت له: من الباحة الثانية، فقال: هل مجيئك إلى السجن حديث؟ قلت له نعم، فقال: تنفيذ الأحكام .. لقد أعدم البارحة شنقاً حوالي خمسة سجناء كلهم من الإخوة، والحمد لله الجنة لهم خالدين فيها بإذن الله، وأن يطعمنا الشهادة جميعاً. وبدا لي مسروراً جداً عندما يلفظ كلمة الشهادة. وانتقل بكلامه الى الذي أمامنا، وبدأ يطرح عليه بعض الأسئلة وقد ارتفع صوته بعض الشيء، مما جعل أحدهم يتنصت عليه وطلب منه الخروج من الصف وسلمه إلى الرقيب، وأعلمه أنه كان يتبادل الحديث مع الذي بجانبه. بطحوه أرضاً، وتجمعوا من حوله والعصي الغليظة والقضبان المعدنية بدأت تعزف له لحنها التدمري وهو صامت لم يصرخ أو يتوسل لهم، مما جعلهم يستشيطون غيظاً، إذ شعروا بأنه يتحداهم بصمته، ووضعوه ضمن دائرة هم يشكلون محيطها بحيث يتنابون على ضربه إلى أن فقد وعيه وهم ما يزالون ينهالون عليه ضرباً، وطلبوا من البلدية أن يأتوا ببطانية وحملوه لا ندري إلى أين!

لحظة صمت، الخوف أبعدني عن اللحظة التي كنت أناجي فيها الخلاص علّها تبعدني عن هذا المكان الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً، وقد لا نجد في تاريخنا الحديث مثالاً لتدمر، وقد لا نجد قصة أكثر وحشية وبربرية من قصصها.

ها قد انتهى الجميع من "المعالجة". واقفاً .. صاح أحدهم .. الباحة الأولى إلى هنا الثانية .. الثالثة .. إلخ. كنت في أول الرتل ماشياً، وصاحب البيجامة الزرقاء يقودني ماسكاً بي من عنقي الذي لف حوله السوط ليجرني كما يُجَّر الكلب المريض .. يرتدي بقدمه بوط عسكري مليء بالشحار الأسود وتفوح منه رائحة المازوت، ويطلق عليّ من الألفاظ ما ربّاه عليه "الجيش العقائدي" إلى أن وصلنا إلى باحة المهجع، وصاح برئيس المهجع: يا ابن العرصة يا ابن "الشلكة" ألم تسمع كم

عرصة خرج من عندك، فرد رئيس المهجع المسكين قائلاً: خمسة حضرة الرقيب أول. عدهم يـــا ابن .. ابن .. العدد كامل حضرة الرقيب. عدّنا رئيس المهجع وما زلنا خارج المهجع، وكأنه فخ نصب لرئيس المهجع على خروجنا .. كامل يا ابن القوادة تعال إليّ. هنا فتح البـــاب، دخلنـــا وخرج رئيس المهجع وبدأو بضربه على جسده المنهك، وكان ضربهم له رفساً بأرجلهم وثم رطمه بجدار المهجع، وهم يحذرونه من عدم تكرار ذلك أو إبلاغهم عن أي مريض كان. أدخلوه صريعاً بين الحياة والموت. الموت في تدمر أمنية في كثير من الأحيان كما أنه قريب منك جـــداً، ولكـــن عندما تشتهيه يبتعد، وعندما يغادر أحدهم نحزن ونفرح، وكلما سمعنا صوت أبو غـــضب وأبـــو كاسر في الباحة نحسب في حساباتنا أنه قد يرحل واحد منا، وهم يستخدمون أرجلهم للـــضرب، وضربه واحدة بقدم أحدهم كافية لتجعلك في عداد الأموات.

ويأتي يوم جديد تدمى فيه الجراح وتثقل الثواني ويصبح عدها مستحيلاً، حيث لا حساب للزمن عندما تتحرك السياط وصوت الجلاد يصطدم مع صوت الحريه، وأجسادنا الفقيرة الدامية ستظل ملكهم المشاع وغبار القوافل ما يزال يمر بنا دون أن يذكرنا أحد سوى الأحبة، حيث الأبـــواب موصدة، وحريتنا الوحيدة أن نوسّع مكان نومنا وليس لنا أمل بالخروج مـــن تلـــك الأبـــواب المتراكمة، وكلما حل بنا الدور لمواجهتهم تتشكل من حولنا دوائر ضيقة ننظر من خلالها الى بئر محفور لا ندري الى أي عمق ويهبط العالم على صدورنا والدموع تحاول ألا تذرف.

هنا نعيش جميعاً في ذعر وخوف وليس جبن، إلا من سولت له نفسه وسلمها رخيـــصة ليحقـــق مكاسب ضيقة على حساب دماء الآخرين، هم في أغلب الأحيان يعيشون كنعامة الصحراء ..

ليلة من ٢٠٠٠ يوم وليلة

شارفت الشمس على المغيب، والبرد القارس يقتحم الشبابيك التي تلفها القضبان المعدنية متقاطعة بشكلها العشوائي، حيث يأتي دون أن يستأذن الدفء، ليجلس بين الجسد الهزيل، ليخبرنا عـــن يومٍ الحزن الشريك. والموت رفيق الأحياء يتربع بين جدران المهاجع يرعبنا بين الفينة والأخـــرى، وصوت الجلاد صارخاً ترتعد المهاجع بسجنائها مر تعبة تتراعش أطرافها وتهتز، وكأنه الزلـــزال المنذر بالدمار .. ليل قادم من ليالي تدمر التي بيننا وبينها المجهول، قف أيها النهار واجعل نـــورك سراجاً لنا في عتمة الدهاليز المجهولة يد البطش، والموت فوق رؤوسنا في اللحظة التي تليها لحظـــة أخرى، أما قلبي فقد انثالت عليه نفسي الذكر وأجهشت عينيّ بالبكاء، لا ترحلي ودعيني أنـــام على ذراعيك وأتوسد الأمان، فأنا مرتعب حتى الموت من ذلك الغول الذي يسكن الـــصحراء، يختبىء تحت الرمل ليفزعني في عتمة الليل، وجسدي هزيل لا يقاوم وقلبي يكاد أن يخرج من بين أضلعي، بينما كنا نودع أبا الحارث الذي عذبوه حتى عمده المرض وأضـــنته العلـــة .. وعينـــاه

الشاردتان شاخصتان إلى السماء، وجبينه الشاحب من عرق الموت بين المد والجزر، وأنت واقف عاجز حيال ذلك، لا تستطيع أن تفعل له شيئاً فتذهب نفسك حسرات.

ارحل أيها الملاك الكريم، فإنك جليل عظيم، نعم أنا شاكٍ باكٍ حزين .. اذهب أنت بسلام أيها النور الصامت الهادئ فمرقدك مضيء .. وداعاً يا أيها الرجل، فلنتذكر أغانيك وأناشيدك الصوفية .. أخرجوك يحملونك على بطانية عسكرية، ويتهمونك لأنك أنت السبب في موتك، بينما كنت تغتسل في الحمام، حيث قدمك زلت بالماء والصابون ووقعت صريع الموت على رأسك! لن ترى بعد اليوم الحارس الملثم الذي يراقبنا من على سطح المهجع يتربص بنا ليختار فريسته، لن يرعبك طعام العشاء .. بطاطا مسلوقة بماء عكر ومعجون بالوحل ليضف الكثرة على القلة، حصتك سنوزعها على المرضى، وقد تكون من نصيب أخيك العليل الحزين، وأما ثيابك المهترئه فستكون من نصيب العراقي الذي هو بحاجة إليها، والذي سيترحم عليك لسترة عورته.

صوت مؤذن نكاد نسمعه بلهجة مكية ينادي لصلاة المغرب، ويخبرنا بمغيب الشمس التي قد لا تشرق غداً. انتهى الجميع مما بين أيدهم استعداداً للنوم، والكل يتضرع إلى الله كي يحميهم من المجهول، والحرس الليلي بداخل المهجع تبدأ مناوبته عند الساعة الخامسة مساءً .. كان دور "اللبناني" أبو محمد الذي سلمه رئيس المهجع المسؤولية كاملة، وأمر الجميع أن يعصب عينيه ويمتنع عن أية حركة، ويمنع الخروج ليلاً لدورات المياه مهما كانت الأسباب. الجميع جمد في مكانه، حيث الأنفاس شبه مقطوعة، والأجساد ترتجف من البرد، ففصل الشتاء لن يرحم العراة، والشرطي الملثم المكلف بحراسة المهاجع يسب ويشتم كلما مّر بنا على سطح المهجع. وعند الساعة السابعة مساءً، جاءت الدورية وطلبوا الحارس الليلي، وأمروه بخلع ثيابه كاملة ثم الانبطاح على الأرض المبللة بمياه الصقيع، فدرجة حرارة طقس منخفضة جداً. ونادى أحدهم برئيس المهجع وأمره بصب الماء على جسد الحارس الليلي الممدد الذي اتهمه بالنوم، وكلف رئيس المهجع أن يبقى على وضعه حتى الصباح. وبعد أن تُسلّم حارس آخر مكانه في الساعة الثامنة، وابتعدت الدورية تسلل البعض منا إلى دورات المياه والتناوب على مكانه كي نخفف عنه البرد الذي نتقاسمه كما نتقاسم العذاب، قف .. قف .. صاح بصوته .. إنه "أبو كاسر" الشرطي الجلاد الذي لايمكن أن تكون بعد ضربته الحياة إلا من رحمه ربه. وقف عند "الشراقة"، وهو يزمجر غاضباً، ونادى بالحرس الليلي وهو يطلق عنان كلماته البذيئة عليه، ثم طلب فصيلة الحيوانات، وهي عبارة عن مجموعة من السجناء أوكل لكل واحد منهما دور حيوان يقلده السجناء .. "الجدي" هو العجوز أبو محمود .. "الحمار" هو العجوز أبو فيصل .. ثم القط .. الكلب .. الخروف .. والديك .. الفأرة والجردون .. وأبو الحصين .. تم تجميعهم في دورات المياه، وطلب

من الجميع أن يقلدوا الأصوات مجتمعين، وأخذت الأصوات المقلدة تخترق الجدران في سكون الليل الوحشي، وأحد السجناء ممدد على الأرض، وجسده عارٍ يرتجف، والشرطي يسلط ضوء مصباحه على مؤخرة السجين الممدد، ثم يأمر الحمار العجوز أن يتقدم نحو السجين العاري، ويطلب منه خلع ثيابه، وأمر الآخر بتصحيح وضعيته، وأن يقف على رجليه ويديه كما يفعل الحمار، وطلب من العجوز الحمار أن يضاجع الحمارة، والاثنان معاً عراة. امتنع العجوز في بداية الأمر عن فعل ذلك، ولكن أدرك في النهاية أنه إن لم يفعل فسيكون الموت المؤكد نصيبه، كونه يرفض الامرالمقدس الصادر من الشرطي الذي يتلذذ بما يفعل وضوء مصباحه مسلط نحو الأعضاء التناسلية للعراة!

كان منظراً تقشعر له الأبدان، ومن في داخل المهجع دموعهم الخفية تكاد تفجر الأعين التي لا تستطيع رؤية ذلك .. السماء تبكي غاضبة .. بدأت الرياح تعصف بشدة، ونأمل أن يغادر الحرس "الشراقة" ويختبىء بمحرسه، ولكنه أصر على البقاء مستمتعاً بالمشهد، وتحمل تساقط المطر والريح العاصفة شديدة البرودة على جسده، وطلب خمسة سجناء من داخل المهجع إلى دورات المياه لينضموا إلى مجموعة الحيوانات، وأعطاهم دور الصيصان، وأمر الدجاجة أن تجر صيصانها الخمسة نحو فتحة المرحاض وإخراج "البراز" من الفتحة وإطعامها لصغارها، والديك أمره أن يصعد على الحائط الذي يعزل الحمام عن مدخل المهجع، ثم يصيح بأعلى صوته، ثم ينقض بعد ذلك على الدجاجة ونقرها على رقبتها تمهيداً لمعاشرتها جنسياً، والصغار مازالوا يتناولون طعامهم من الأوساخ. وبقي حال الجميع هكذا حتى منتصف الليل. وقبل نهاية مناوبته، أمر الجميع بالدخول إلى المهجع والنوم شبه عراة، بما فيهم الحرس الليلي الذي أقدم حارس آخر على تعذيبه. وفي الساعة الواحدة ليلاً على وجه التقدير، قدم أحد الحراس إلى الشراقة المطلة على ساحة المهجع، وطلب من رئيس المهجع الذهاب إلى دورات المياه ومعه "الجدي العجوز أبو محمود" وعندما وصل إلى هناك بدأ يكلم الجدي بصوت هادئ. وبينما كان الشرطي مشغول بحديثه، اندفع البعض منا (الذين أماكنهم بالقرب من دورات المياه) للتنصت على الحديث الذي يدور بين "الجدي" والحارس الشرطي، وهو يأمره أن يقلد له كيف كان يمارس الجنس مع زوجته! ولكن أبا محمود استطاع أن يقنع الشرطي أنه أعزب، ثم طلب رئيس المهجع لتأكيد ذلك فأكد له. لكن الشرطي طلب من رئيس المهجع أن يقلد له كيف يمارس الجنس مع زوجته، بالرغم من أن حارس المهجع ليس متزوجاً، ولكن الخوف دفع به أن يقلد ذلك وبدأ .. يتأوه .. ويتنهد ويتأفف .. أوه .. أه .. وكأنه بحالة جماع جنسي حقيقي، وهذا جعل الشرطي يطلب تكرار ذلك لعدة مرات منه. وتبين لنا أن الشرطي كان يمارس العادة السرية بالتوازي مع تأوهات رئيس المهجع الجنسية!

وبعدها أمره بمغادرة المكان والاحتفاظ "بالجدي"، وطلب منه خلع ثيابه كاملة، ثم الاستلقاء على ظهره باتجاه الشراقة، وبدا لنا أن الشرطي يسلط ضوء مصباحه نحو "عضو أبي محمود الذكري" .. هكذا نتبادل الأدوار طوال الليل وهم يتبادلون الأماكن. وكان صوت المؤذن البدوي الذي ينقطع أحياناً كلما اشتدت سرعة الرياح؛ ليخبرنا بقرب طلوع النهار .. الدماء تجمدت في عروق العراة تستنجد بدفء خلايا النور لتستمر الروح في البقاء ليوم جديد يحدد قد مصيرنا.

وبقي الكلب من فصيلة الحيوانات ينبح، حتى أمر رئيس المهجع الجميع بالنهوض ورفع البطانيات، والجلوس ضمن نسق موازي لجدران المهجع، ورؤوس الجميع منحنية نحو الأرض، بناء على التعليمات الصادر من إدارة السجن وحراسه، والعجوز الذي أكلت من عمره السنين ها هو بين أعمدة التاريخ يصرخ للحرية، الأوامر دائماً نافذة .. الأبيض أسود والعكس تماماً .. صوت الحارس الذي يعذبنا قوي دائماً وأصواتنا بالكاد تسمع، وأيدينا مجتمعة رغم كل الجراح التي أصابت خوالج الكرامة، جسد بلون صحراء المنفى نتقاسم رغيف الذل والعذاب، يسحب العريف العملاق مصراع الباب الذي يرسم ويصدر صوتا راعداً والبرق فيه مجهول .. وإن الضربة الاولى على رأسك بسوطه القاسي تنتشر في جميع تضاريس جسدك نمشاً ورعباً، لتصبح بين الحاضر والماضي وتختلط الأزمنة.

وغداً يوم آخر ..

محاكم استثنائية

ليس إحساسي كمن يذوب في ثلج، إنما جمر النار يحرقني شوقا إلى الحرية، كل الأيام في تدمر ظلم وظلام، الليل والنهار متساويان، الساعات والثواني، بينك وبين الموت شعرة تبحث بين ثنايا جسدك عن لحظة أمان كي تستطيع أن تحلم بماض كنت فيه، حتى العصافير التي كنت تراها بالأمس تطير وتحط، هربت من هذا المكان لكثرة الصراخ وأصوات الجلادين المرعبة كرائحة الدم، فكل شيء في عقيدة الجلاد مباح ..

في عام ١٩٨٩ شهد سجن تدمر عملية تسريع المحاكمات وإعادة محاكمة من حوكموا قبل سنوات، ترافقت تلك المحاكمات أيضا بالإسراع في عملية تنفيذ الأحكام القاسية كالإعدام ومضاعفة بعض الأحكام الأخرى ورفع سوية التعذيب إلى درجة لا يمكن ان يتصورها عقل انسان.

في العاشر من حزيران عام ١٩٨٩ كنا نستعد لسخرة الطعام عددنا ثمانية مهمتنا إدخاله مخاطرين بحياتنا، كنت استرق النظر في الجزء المهترئ من الباب المعدني الذي تلفة قضبان معدنية قطر كل واحدة منهما ٢٠ ملم متقاطعة بشكل عشوائي، لأحصي عدد الأواني البلاستكية التي سنضع فيها

الأطعمة من (البلاو العسكري) والتي غالباً ما تكون ممزوجة بمادة المازوت والـذباب والفئـران الميتة، إناءان فيهما مادة "الشاي" وآخر شبه فارغ وآخر فيه "حلاوة" تلك المادة التي ان وجدت من بين مخصصات الطعام يصاب السجناء بحالة من التشاؤم، فهي بالنسبة لهم طعام النقمة وليس النعمة، حيث دفع الكثير منا فاتورة باهضة الثمن لملعقة حلاوة صغيرة، فقد تعرض جسد أكثر من سجين للعطب.

ما زال "البلدية" يجلب بقية الطعام ويضعه في الباحة، انحرف ناظري قليلاً رغم صعوبة التحرك في المكان للنظر في الاتجاه الآخر شاهدت احد عناصر البلدية يرتدي بنطالاً عسكرياً مموهـاً حليـق الرأس وهو يحاول فك رباط بنطاله المتسخ وأخرج "قضيبه" وتقدم إلى إناء الشاي وتبول فيه ومن ثم إلى الأواني الأخرى باستثناء الإناء شبه الفارغ، وكان الشرطي المكلف بحراسة الباحـة يبادلـه الحديث والضحك، لم أفاجأ بما شاهدت من ذلك العمل، وكنت حريصاً على أن لا أخبر أحدا من داخل المهجع لتخوفي من أن البعض قد يمتنع عن تناول الطعام الذي نحن بأمسّ الحاجة إليه، ذهب وهو يسبنا ويشتم بأعلى صوته.

حلاوة .. يا أولاد الشرموطة .. حلاوة .. وخياله يرتسم على جدران المهجع ذهاباً وإياباً، وعاد بعد قليل يحمل على كتفه بطانية عسكرية يوجد فيها خبز عسكري (صمون) ونشـره في الباحـة حيث توزعت قطع الصمون في كامل الباحة وهذا ليس في صالحنا كسخرة اذ يعرضنا للتعـذيب والضرب المضاعف ويحتاج منا وقتاً إضافياً للبقاء في الباحة والتماس المباشر مع عناصر الـشرطة والبلدية ..

تزامن مجيء الرقيب مع تواجد البلدية في الباحة وصاح بصوته المرعب رئيس المهجع يا ابن القحبة .. يا ابن القوادة .. الكل يسمع، تتوقف دورة الحياة وينعكس مسارها عنـدما نـسمع ذلـك الصوت، اسمعوا يا زنات كل كلب نقرأ اسمه يقول حاضر، وبدأ يتلوا الأسماء وكان نصف المهجع قُرئت أسماؤهم وطلب من رئيس المهجع أن يخبر كل من ورد اسمه أن يستعد للخروج ويغـادر، حصلت فوضى عارمة في المهجع حيث بدأ البعض يوضب حاجاته ويجمعها في أكياس من النايلون والبعض الآخر في حالة إرباك والذين قرئت أسماؤهم يودعون الذين لم تُقـرأ أسمـاؤهم بالبكـاء والدعاء لهم بأن يحميهم الله ويفرّج عنهم ويلهمهم الصبر وكان البعض يوصي بزيارة أهله والآخر يبلغ سلامه لزوجته وابنه وذاك لوالده ووالدته كي يطمئنوا عليه وكان ذلك بأقل من دقائق مـن عودة الرقيب مرة ثانية لإخراجنا ..

فتح الباب وهو يحمل بيده قضيباً معدنياً وعند خروج أول السجناء إلى الباحة ضربه بين كتفيـه وهو يسبنا قائلاً (من قال لكم يا أولاد الشرموطة طالعوا وسخكم معكم) وأمر الجميع أن يضعوا

الأشياء والأغراض التي حملناها معنا في الباحة وأمرنا ان نصطف برتل أحادي وبدأ يعدنا، كنا ٨٧ سجينا، وكان تواجد الشرطة والبلدية في المكان كثيفاً، وتم سوقنا إلى حيث لا ندري، نـــدخل في أبواب ونخرج من أخرى إلى أن وصلوا بنا وأمرونا بالجلوس أرضاً باتجاه الجدران دونما أية حركة ثم انحناء رؤوسنا باتجاه الأرض والامتناع عن التكلم مع الآخرين الذين بجانبنا، وهم ما زالوا يأتون بمزيد من السجناء من الباحات الأخرى ثم يصطفون من ورائنا على نفس النسق وهذا يشكل لنا بعض الحماية من الرفس والضرب، سمعت البعض من السجناء يتبادلون أطراف الحديث بهمـــس شديد يتعارفون على بعض وهم حريصون على ألا يسمعهم أحد من عناصر الشرطة أو البلديـــة، وهمس الذي بجانبي مع الذي من خلفه لماذا نحن هنا فقال له الآخر هذه محكمة، الآن سوف تمثـــل أمام القاضي والبعض من ضباط المخابرات وسوف تراهم بعينك ولكن كل هذا شـــكلي فأنـــت محكوم منذ لحظة اعتقالك، وهذه المحكمة لتنفيذ الأحكام القاسية، فرد عليه كيف يعني ذلك فرد عليه ما هي تهمتك (يمين عراقي) لا تخف أقسى عقوبة لك هي الحكم المؤبد .. فرد عليه أنا لست منظماً لا أنتمي إلى أي تنظيم سياسي، رد قائلاً .. سواء كنت أو لم تكن اقل حكم سيصدر بحقك ليس أقل من خمسة سنوات ولن تخرج من تدمر إلى أن يأذن الله لك بذالك والأفضل لك أن تنام في السجن على جنب واحد وإذا تعبت نم على الجنب الآخر، ولا تفكر بالخروج، ومع انتـــهاء الحديث بدأ أحد العناصر يتلو البعض من الأسماء وطلب منهم الوقوف ووضع "الطميشة"[5] على أعينهم وقادهم لا ندري إلى أين وبعد أقل من نصف ساعة من الوقت تلا قائمة أخرى من الأسماء وكان اسمي من بينهم وطلب منا كما طلب من الذين من قبلنا ووضعنا الطميشة على أعيننا وجاء احدهم وأمسك بيدي وقادني حيث لا أرى شيئاً وبعدها أوقفني أمام جدران إحدى الغرف وجاء أحدهم ولكمني من الخلف بضربة قوية على ظهري ما اضطرني للركوع على الأرض من شـــدة الألم وانهال عليّ بالرفس واللكم وتوعدني بدولاب ونهضت من شدة الخوف وقد نـــسيت ألمـــي لحظات، استعدت فيها جزءاً من توازني وبدأت أميز بعض الأشياء، واستطعت ان اسمع ما يجـــري من أحاديث في تلك الغرفة .. نعم قوس المحكمة حيث سمعت أحدهم يكـــذّب احـــد الـــسجناء ويشتمه وتوعده أن يعدمه ومن ثم طرده، وأمر بعد ذلك من الشرطة أن يتولوا أمره. أدركت ماذا يعني بكلامه من إنزال أقصى العقوبة بالسجين وطلبوا منه رفع رأسه بحيث حفظوا ملامح وجهـــه وسألوه من أي مهجع وطلبوا من البلدية أن يقوده إلى مكان بعيد عن السجناء ويراقبوه بينمـــا

---

[5] الطميشة: قناع مطاطي سميك أسود اللون يعصب به السجين عينيه بشكل دائم مصنوع من إطار السيارت.

كان احد عناصر الشرطة يسبه ويشتمه وهو يقول حتى تعرف يا ابن الشرموطة .. وتتعلم كيف يجب أن تقف أمام أسيادك باستعداد.

أمسك أحدهم بيدي فجأة تفوح منه رائحة التبغ ممزوجة بعطر فاخر وصوته متزن وتلك الأشياء تخص مساعد انضباط السجن وهمس في أذني ما اسمك .. ثم جرني من يدي وأدخلني إلى غرفة، تتعالى فيها أصوات عديدة.

هم يتداولون "مواد وقوانين" وطلب احدهم من آخر أن يكتب ويسجل استنادا إلى المادة .. من قانون رقم .. يحكم السجين لمدة خمسة عشر عاماً أشغال شاقة لانتمائه لتنظيم سياسي محظور ومناهضة لأهداف الثورة، ورد آخر وقال يا سيادة اللواء هذا قليل يجب تكون عقوبة أكثر من ذلك، فرد عليه أعتقد أن هذا الحكم مناسب حسب رأيي ..

ما اسمك؟ قال ها أنت .. ما اسمك؟ فلم يرد احد، وطلب من المساعد قائلاً يا "مساعد" ارفع الطميشة، أحسست بيد تنزع عن عيني الطميشة أدركت بأنني المقصود، ما زالت عيناي مغمضتان قال أحدهم:

افتح عينك يا ابني ..

أنا سيدي ..

قال نعم أنت ..

في حدا غيرك، ضحك البعض منهم وأنا لا زلت مغمضا عينيّ

فرد آخر نعم أنت ..

فتحت عيني أحسست بظلام الغرفة لفترة وجيزة بدأت الصورة تتضح أمام ناظري والأشخاص المتواجدون اتضحت لي ملامح وجوههم، نظرت نحو اليمين يجلس شخص يرتدي بزة عسكرية عمره يتجاوز الأربعين عاما يجلس خلف طاولة ممتلئة بالأوراق والمصنفات قال لي اسمك قلت "حسن" وبدأ يفتش من بين المصنفات وأخذ مصنفاً لونه أخضر وسلمه للذي يجلس بجواره ونظرت إلى الشخص الذي استلم المصنف، يجلس إلى يساره يرتدي سترة بيضاء وقميصاً ملوناً رغم سن عمره المتقدم وإلى اليسار منه شخص آخر يرتدي بذلة مدنية وآخر يرتدي بزة عسكرية وهيئته هيئة ضابط والذي بجانبه يرتدي أيضاً بزة عسكرية وآخر يرتدي زياً مدنياً والجميع أعمارهم بين متوسطة ومتقدمة في السن، واحد فقط منهم بين على كتفيه رتبة عكسرية برتبة عقيد ركن ..

كلمني الذي يرتدي السترة البيضاء قائلاً أنت امام محكمة يا بني، كذب لا تكذب .. وقل الحقيقة والكذب ليس في صالحك ونحن نعرف عنك كل شيء مفهوم ..

مفهوم سيدي ..

هذه محكمة، أنا رئيس المحكمة وأشار بيده إلى الآخرين مساعد رئيس المحكمة سـيادة العميـد. وأعضاء المحكمة (كلهم ضباط في الجيش والمخابرات على ما بدا لي كون احدهم يضع على كتفيه رتبة عسكرية وهذا يؤكد كلام السجين الذي كان يتبادل أطراف الحديث مع الذي من خلفه)، الصورة واضحة ..

واضحة سيدي ..؟؟؟

كما قلت لك لا اريد منك أن تكذب ..

حاضر سيدي ..

وقف الذي يرتدي بذلة مدنية ثم قال ..

اسمع يا ابني كما ذكر لك نحن نعرف عنك وعن كل مواطن في هذا البلد كل شـيء وبـشكل خاص لدينا معلومات عنك منذ أن ولدتك أمك حتى هذه اللحظة.

شعرت أنني أمام مجموعة من المحققين ولست امام محكمة، جلس وتناول فنجان القهوة التي تفوح منه رائحة الهيل، التي لم أشمها منذ سنوات والتي تذكرني بطفولتي عندما كنت اذهب إلى ديـوان القرية لأسمع صوت المهباش الذي يطربني وأرتشف القهوة العربية أتدفأ على جمر الموقد المتـوهج وأسمع حكايات من العجوز حج قادر رحمه الله بصوته المتحشرج دائما عن الاحـتلال الفرنـسي لسورية، وعن سفربرلك و(العصملية) (المجيدة) وأحصنة الدرك ورحلته إلى الحج مـشياً علـى الأقدام التي استغرقت شهور مروراً بالقدس الشريف ومنتهياً ببيت الله الحرام وحروب القبائـل العربية فيما بينها وغزو البدو والشوايا والغنائم التي كان يحصل عليها كي يطعم أبنائه.

حسن .. نعم والدتك خود .. نعم تولد ١٩٦٤ ..

متى وأي عام التحقت بالتنظيم ومن الذي نظمك ..

انا سيدي .. لا انتمي لأي تنظيم سياسي ولم يعرض لي أحد التنظيم ..

تكذب أنا بين يدي ضبط منظم مدونٌ فيه اعترافك أثناء التحقيق ..

سيدي .. احلف لك بالله أنني لست منظما .. وأنا لم يكن اعترفي اثناء التحقيق انني انتمـي لأي تنظيم سياسي ..

هل تعني بكلامك هذا أنهم اتهموك والقوا القبض عليك افتراء، هكذا لله ..

نعم سيدي ..

وقف من على الطاولة متزعجاً يسبني ويشتم ويتهمني بالكذب بالرغم أنني تكلمت الحقيقية

من أين لك السلاح ..

السلاح سيدي متوفر بكثرة وكل مواطن يحمله وهذا جزء من التقاليد الشائعة في المنطقة ورغبت في الحصول عليه للمشاركة في الأعراس ..

من أين حصلت عليه ..

من احد أقربائي سيدي ..

أقربائك كلهم موالون لهذا التنظيم ..

لا ادري سيدي ..

لا تدري .. الا تعلم أن القانون لا يحمي المغفلين ولماذا لم تخبر السلطات الأمنية عن ذلك ..

كما ذكرت لك سيدي كل الناس تحمل السلاح وتطلق العيارات النارية في الأعراس ..

هؤلاء أسلحتهم مرخصة حزبياً .. لو أبلغت السلطات لكان وضعك أفضل من ذلك وكان عندك رخصة سلاح والآن في بيت اهلك ..

سيدي لست لدي الرغبة بحمل السلاح مهما كانت صفتي وهذا يدل على أنني قد بعت قطعة السلاح التي كانت بين يدي لأحد أقربائي ..

أنت تكذب ..

حاضر سيدي ..

يلعن أبوك وأبو سيدك يا ابن العرصة والله إن لم تقل الحقيقة سوف اجعل عظامك تأكلها ضباع الصحراء ..

سيدي .. قسماً بالله العظيم الذي ذكرته هو الحقيقة ..

خونة كلاب عملاء ..

كم مرة ذهبت إلى العراق ..

ولا مرة سيدي ..

صمت سيادته بعض الشيء وأخذ يسند ظهره بقوة على مسند الكرسي وطقطقت فقرات ظهره مسموعة ويتفحصني بنظراته من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي وأخذ كأس الماء التي بجانبه وشرب منها. وقال لي:

شوف ولاك أنا طولت بالي معاك أكثر من اللازم واعترافاتك مدونة على الورق وعليها بصمة ابهامك وكل ما قلت لا ينفعك بشيء وإذ لم تقل الحقيقة سوف اعرضك للتحقيق مرة أخرى ..

سيدي .. هذا كل ما لدي وأنا تعرضت للتعذيب اثناء التحقيق وليس لدي ما أضيفه وأنا ادفع ثمن جرم لم اقترفه ولا استحق ان أكون بهذا المكان ولا زلت اتعرض للتعذيب في هذا المكان وبشكل يومي ..

ردّ من احدهم ماذا تتوقع يا ابن الزانية نأخذك لفندق مرديان ..

لم استطع الالتفات نحوه ..

صمتُ ..

أحدهم: سيدي اصرفوه ..

صمت الجميع ..

الخوف يقطع أوصال جسدي، وجهلي لما يحدث جعل مني قوياً وخائفاً ولكن الموت قادم على كل الأحوال إذا لم أمت بقرار منه سوف أموت في هذا المكان وتحت سوط الجلاد أو رفساً ببوطه ..

سيدي لماذا ألقى هذا المصير أنت قاضٍ فأنصفني ..

أنت مجرم كاذب وخائن ..

سيدي أرجوك ..

شدني أحدهم بقوة من ذراعي الأيسر، وصاح مساعد أول (..) خذ هذا الكلب ..

أمسك رقبتي بكفه من الخلف وشدني وضغط عليها بقوة وشعرت انها قد انفصلت عن باقي الجسد وخرج بي من باب الغرفة إلى ممر ضيق وبعد أمتار قليلة وقف وضرب رأسي بالحائط بقوة وعلى أثرها شاهدت كل شيء يدور من حولي وأشياء تلمع أمام ناظري ورائحة الدم تفوح من انفي، وطنين مزعج في أذني وكأنني قد هويت من قمة جبل شاهق، رغم كل هذا وذاك الهلاك الذي أنا فيه حاولت جاهداً وأنا اضغط على نفسي كي استعيد جزءاً من وعيي الذي أنا بحاجة إليه في تلك اللحظة، سمعت صوتاً وكأنه قادم من بعيد يطلب مني النهوض لم استطع كلما حاولت الوقوف يفقد جسدي توازنه وترتسم أمام عيني صورة غيمة سوداء، ألمٌ تحسست به بعض الشيء في ظهري وبدا لي بأن احدهم يرفسني من الخلف، كم من الوقت استغرق ذلك لا أعرف. حين بدأت ذاكرتي تعود إلي بعض الشيء من الوعي تحت ضغط الخوف نهضت وشاهدت عددا من عناصر الشرطة يطوقون جسدي من كل الجهات ..

نادى أحدهم .. بلدية شرموط .. تعال بسرعة.

خذ الكلب .. أمسك البلدية بي من ظهري وجرني بقوة، ثم طلب منه الوقوف، وصاح هيه أنت .. هناك شرطي .. تعال شعرت بقدوم الشرطي وأنا منحني الرأس باتجاه الأرض شاهدت البوط العسكري ومقدمة السوط الأسود العريض الذي يحمل مؤخرته بيده ..

هذا (معلّم) طلب مني الشرطي أن أغمض عيني وأرفع رأسي عالياً وصفعني على وجهي وقال لقد حفظت ملامحه جيداً وقادني البلدية دون أضع الطميشة على عيني وهي ما زالت معلقة حول رقبتي إلى الباحة حيث شاهدت جمعاً كثيراً من السجناء ..

قف يا عرصة قال لي البلدية ..

من أي مهجع أنت ..

من المهجع ١١ ..

ثم جرني ثانية حيث يتواجد سجناء المهجع وطلب مني أن أتوقف مرة أخرى وشعرت أنني قد تكومت على أجساد من البشر حيث تراجع إلى الخلف من ثم رفسني بقوة باتجاه الحشد البشري الذي يلتحف الأرض ينتظر كل واحد منهم الدور للمثول أمام القاضي ..

كلما يأتي احد من عناصر البلدية والشرطة يضربني ويهددني، وحرارة الشمس المحرقة تلسع جسدي والدماء تنزف من أنفي وأمنيتي أن أعود إلى المهجع لأنني بحاجة للنوم تحت أي ظرف لأريح جسدي المتعب ..

ضحايا تشابه الأسماء

بينما كنت أتناول طعام الإفطار، وهو ملعقة صغيرة من مربى المشمش وربع بيضة مسلوقة تفوح منها رائحة العفن، دفعت سخرة الطعام الثمن الباهظ لإدخالها، حيث نزفت دماء الرفيق أبو صقر (الديري) نتيجة ضربه من قبل احد عناصر الشرطة العسكرية على رأسه بقضيب معدني، دخل باسماً رغم الألم الناتج عن قوة الضربه يتكلم بلهجته الديرية: "شكون .. بالريش ول أخوي لا عاش عمر الردي"، ضحكت منه وقلبي يعتصر ألماً على كل قطرة دم تنزف من جبينه الشامخ. هرع الشيخ أبو حذيفة إليه مسرعاً، ووضع كفه على رأسه حيث الدماء تنزف من بين أصابعه وهو يقرأ من ذكر الله ما تيسر له، إيماناً منه بأن الله قد يخفف عنه الألم وينقطع النزيف.

إنه صباح تدمري آخر، دائماً هو ممزوج بالموت والتعذيب الذي لا يمكن أن يتحمله بشر على وجه هذه البسيطة، ضيق المكان كهوف مظلمة، سوط الجلاد وعصاه المعدنية، كلها في الذاكرة اليومية، ننام مجبرين مبكراً ونستيقظ كذلك، طبول كثيرة تقرع في رؤوسنا وأصوات المعذبين في الباحات الأخرى تنذر بقدومهم إلينا. ما يدهشني أننا نصمد من الصباح حتى المساء، والصمت لغتنا، ذلك الذي يسكنه الخوف والترقب، الكل حزين وبائس وصامت. بعضنا يقرأ القرآن في سريرته دون أي حركة من الشفاه خوفاً من أن يراه الحراس، آخرون يضعون رؤوسهم بين أرجلهم، حيث تذرف الدموع من أعينهم خجلاً من أن يراهم أحد من الداخل .. إنه الجحيم، وألسنة اللهب تطال الجميع شاباً وكهلاً، معافى ومريضاً، مجنوناً وصاحياً.

هرع الجميع فجأة إلى الزاوية ووجههم باتجاه الحائط ورئيس المهجع إلى الباب .. حاضر سيدي، حاضر. الرقيب كان حاضراً إلى الباب دون أن يشعر أحد بقدومه رغم الصمت الذي كان يخيم على المكان الرقيب .. اسمع ولاك ليش كل هذا الصوت طالع من عندك يا رئيس المهجع يا ابن

الشرموطة .. حاضر سيدي. تعال يا شرموط اخرج إلى الباحة حتى تتأدب ويتـأدب كلابـك. خرج رئيس المهجع ولم نسمع صوته الذي اختفى تحت صوت الكرابيج الغليظة التي تطلق صوتاً قوياً. لقد عرّوا ظهره وجلدوه ما يقارب مائتي جلدة وأدخلوه بعدها إلى المهجع .. فقال له: اسمع .. اسم هذا الكلب موجود عندك في المهجع، شنهو[6] الاسم سيدي .. حسن .. نعـم سـيدي موجود. هرعت إلى الباب مسرعاً لا أدري ماذا أفعل، وعزائمي قد انهارت وتسارعت دقات قلبي الذي يكاد أن يخرج من بين أضلعي، وارتفعت حرارة جسدي، ولكن سأخرج على كل حال.

صاح بي .. اخرج يا ابن القحبة دوختني عليك، الآن تعرف شو راح نعمل فيـك .. يـا ابـن الشرموطة .. خرجت ووضع السوط في رقبتي وأنا منحني الرأس والظهر، جرني كما يجر كلبـاً مصاب بالجرب، يهددني بالموت وأنه سوف يضع حبل المشنقة حول رقبتي، ويتهمني بأنني كنـت مختبأ وهم يبحثون عني منذ الصباح، وأنا الذي حفرت قبري بيدي، وكأن لي يدين في هذا الظلام. خوف اللحظة قد اختفى وحضر الخوف القادم الذي لا أعلم عنه شيئاً، إن قال الإعدام شنقاً أو ضرباً بالعصي فهو صادق .. إن جسدي ملعون بالنسبة لهم، وكل خلية فيه هي ملك لهم وفناءه ليس مستحيلاً. ونحن في الطريق أوقفه احدهم وسأله:

- هل وجدته.

فقال له: نعم.

- في أي مهجع .. المهجع ١١.

- بسيطة .. يا ابن القوادة ..

قالها في نية مبيته لي وكأنه يريد الانتقام مني في تلك اللحظة، ولكن لا أعلم ما الذي منعـه مـن ذلك.

أدخلني من باب حديدي سميك وضيق، طلب مني أن احني راسي الذي هو منحي اصلاً وقفـت بمكان تفوح منه رائحة البيض المقلي، ورائحة الشاي والتبغ، وصوت المطرب فؤاد غازي الـذي ينطلق على ما بدا لي من الراديو، وأحدهم يردد من ورائه، طلب مني الرقيب الجلوس أرضاً وأن أغمض عيني، ووجهي باتجاه الجدار، وقيد يدي خلف ظهري بسلاسل من حديد، رفسني أحدهم من الخلف وهو يسبني ويضربني على رأسي ويقول:

---

[6] شنهو: من اللهجة الفراتية (للاستفسار) .

"بدي أذبحك يا ابن المهيفة يا ابن الديوسة، مجرمين خونة والله إلا أقطع روؤسكم، بدي أجيب امك وأختك .. أكيد أختك حلوة .. بدي ألعب عليهن الطسة[7] ".

انتابني غضب شديد وألم يمزق أحشائي، وكنت أتمنى أت أموت في تلك الساعة دون أسمع ذلك. شعرت بقدوم أحدهم، وطلب من الشرطي أن يأخذني إلى المكتب، وجرني وهرع بي مسرعاً. أحسست أنني في غرفة لا يوجد فيها أحد. طلبا مني الوقوف باتجاه الحائط، هددني كالعادة إن اتيت بأي حركة سوف تكون تلك الحركة نهايتي. خرج على ما بدا لي لم .. يعد في الغرفة أصوات، ساد المكان الصمت المخيف، يمرون بك كالأشباح وأحياناً كثيرة يقفون من ورائك دون تشعر وتفاجأ بضربات قوية على رأسك.

إعدام .. نعم. قلتها في سريرتي .. من الذي يمنعهم من فعل ذلك؟ صممت كثيراً وأنا متعب الآن، وآن الآوان كي أرتاح، ليستسلم قلبي لذلك، أنا لم أعد أستطع يا أسياد الموت أن أحييكم، لن أصفق لكم بعد اليوم قهراً، لن أضحي بقطرة دم بعد الآن كي يرسلوها ببرقية "عهد وولاء بالدم"، أنا مسافر بلا حقائب .. بلا كلمة سيدي .. بلا توسل، فمرحباً بالموت الذي لم أختره، والدموع تسيل لتنساب نحو فمي، لأتذوق طعمها الذي قد ينقذني من مّر العذاب.

لحظة أخرى وجاء أحدهم وبصحبته آخر، هذا ما تبين لي من تبادل الحديث فيما بينهما. طلب مني أن أرفع رأسي وأغمض عيني، وهمس بالذي بجانبه هذا مش هو؟؟ هو يا رجل .. ثم سألني ما اسمك .. اسمي .. انا سجين .. شو يا حيوان شو اسمك .. أنا سيدي .. إيه إنت .. اسمك والكنية تبعك .. حسن الهويدي، سيدي .. يلعن قوط أمك .. حاضر سيدي .. أنا سيدك غصب عن اللي خلفك يا ابن القحبة. ثم رفع رأسي بيده وصفعني بقوة على خدي عدة مرات حتى خدر تماماً ولم أعد اشعر من ضرباته بشيء .. لكن رسمت أصابعه أثراً على خديّ، فردّ عليه الذي بجواره قائلاً: "خلص يا زلمة المعلم يحكي على الهاتف، أجلها بعد ما يخلص المعلم من المكالمة، أشو هذا من العصابة المجرمة وعميل لأمريكا وإسرائيل وقتله حلال".

سرعان ما خطر في بالي أنني اعتقلت أثناء تأدية خدمة العلم، هل يعقل ان يتهموني بالتجسس لصالح إسرئيل؟ ممكن .. أكدت لنفسي ذلك وكل الاحتمالات مفتوحة.

شعرت بألم لا يحتمل في عنقي دون أن يمسني أحد، ولكن شممت رائحة التبغ المشتعل، وبعد لحظة زاد الألم وجس عنقي شيء لا أعلم ما هو، وبدأ عنقي يحترق وتفوح منه رائحة اللحم المشوي .. يا إلهي، هل صب احداً مادة "الأسيد" على عنقي، هل أصدق الرواية التي حكاها لي أحد

[7] الطسّة: هي لعبة مشينة، وكثيراً ما تضر بالجسد والكرامة الانسانية (وتلك من اللهجة الفراتية).

السجناء عن وجود هذه المادة لدى فروع المخابرات، نعم شاهدت سجناء ماتوا نتيجة الضرب بالعصي والقبضان المعدنية والرفس، وشاهدت سجناء ماتوا نتيجة إسقاط القرميد (البلوك) على رؤسهم من الأعلى. ومات البعض نتيجة المرض وعدم توفر الأدوية والخوف والبرد، ولكن أن تذوب بمادة الأسيد لم أشاهد، ولكن سمعت عدة روايات. هل أكون من الذين سوف يطالهم ذلك؟ من شدة الألم حاولت أن أمد يدي، ولكن كانتا مقيدتين خلف ظهري، لا أستطيع فعل أي شيء. في تلك اللحظة، والموت اقترب أكثر، شعرت بعدم الخوف، لأنني لا أعلم الطريقة التي سأموت بها، ولكن انصب تفكيري حول أسرع وأسهل طرق الموت التي يتبعونها. وبعد لحظات، شعرت بيد اقتربت إلى عنقي أكثر، وأدركت أن أحدهم كان يحرق عنقي بسيجارة وأطفأها فيه. وأنا في تلك الحال، جرني البلدية على ما يبدو، وأخذني إلى مكان مظلم، أحسست ذلك بالرغم من أنني معصب العينين؟ وسمعت باباً يُفتح، وقد تراكم عليه الصدأ وتآكلت البعض من أجزائه. إنها الزنزانة التي يتم تحضير بعض السجناء فيها لتنفيذ حكم الإعدام. أجل هي هكذا، جزمت على نفسي الأمر.

سمعت صوتاً يخاطبني:

- أنت حسن؟ ..
- نعم سيدي ..
- أين كنت تخدم بالجيش قبل اعتقالك؟
- "قوات خاصة" سيدي ..
- قلت قوات خاصة ..
- نعم .. هل حاولت قتل أحد من الضباط في وحدتك العسكرية ..
- أنا سيدي؟ ..
- إلا أنا! ..
- لا سيدي ..

فرد بصوت هادئ: هل انت متأكد .. متأكد سيدي .. يلعن بيك .. والله والله وحق الرب يا كلاب سوف تموتون موت الجرادين بالسم، كلب ولا .. حين توقفت كم بقي لديك من الخدمة .. شهران وأتسرح. صاح بي اقترب، لا أدري في أي اتجاه، ولكن اتجهت نحو مصدر الصوت، واصطدمت بشيء صلب ووقفت، قال لي:

- عمال تبصبص يا ابن القحبة .. هلق بقلعلك عيونك .. بلدية .. بلدية حمار ..
- نعم سيدي ارفع الطميشة عن هل العرصة ..

البلدية: ارخي رأسك يا ابن الشرموطة .. وفك الرباط عن عيني، ونظرت باتجاه الشخص الذي كان يكلمني .. اقترب يا عرصة. اقتربت .. هل هذا دفتر خدمة العلم لك؟ نعم سيدي. قلتها ولا أدري. فتحه على صفحة معينة ونظر في الصورة الملصوقة عليه والاسم والعنوان ثم وجهه نحوي، وقال لي تأكد. نظرت إلى الصورة التي لم أر صورة وجهي من خلالها منذ سنوات .. هل يعقل هذا أنا .. شعر طويل وشباب مرح ونظرة متفائلة بالحياة ..

- نعم سيدي إنه لي.

وضعه على الطاولة، وأخرج بعض الأوراق ودون البيانات الموجودة في الدفتر، وفتح ظرفاً آخر وأخرج منه أوراقاً وبدأ يقرأ البعض منها. نظر إليّ بطرف عينيه وقال لي:

- مين كان ضابط الأمن في وحدتك ..

- لا أعرف من هو سيدي.

- آ .. آ .. لا تعرف .. نعم .. وضع بعض الأوراق في مقدمة الطاولة وحولها باتجاهي وطلب مني أن أتقدم خطوة واحدة ..

- ابصم.

- حاضر سيدي ..

- ولكن إيدي ..

- شو .. شوبها إيدك؟ مربوطة .. مربوطة بدي أحطها في قوط أمك .. بلدية يا ابني يا حمار خذ الأوراق وضع عليها بصمة حافره.

- المفتاح سيدي ..

- ليش المفتاح؟

-عشان أفتح "الكلبشة" سيدي ..

- المفتاح يا ابن العرص بدي أخلي "بدري بيه أبو كلبشه يحط (..) بقوط أختك وأختو ويفتحن". وصاح به بصوت عال: "امسك إبهامه وبصموا وهي مكلبشة يا حمار" .. ما حلك تفهم يا ابن الحمار؟! حاضر سيدي. أمسك البلدية إصبع الإبهام بقوة باتجاه معاكس شعرت بألم فيه، ولكن لا أستطيع سحبه من يده القوية، ووضعه على ما يبدو في الحبر ومن ثم نحو الأوراق، وكرر ذلك عدة مرات والألم يشتد حتى شعرت بكسر العظم.

أنهى عمله وناوله الأوراق ثم نظر فيها. قال لي: لقد سرحوك من الجيش "لأنو ما بدنا كلاب من أمثالك يخدموا فيه".

رن جرس الهاتف، رفع السماعة بيده القوية، فرد قائلاً .. احترامي سيدي .. حاضر سيدي .. لا سيدي ليس هو .. فقط الأسماء تتشابه .. حاضر. ثم وضع راحة كفه على السماعة ونظر إليّ وسألني من أي مهجع؟ .. من مهجع ١١ سيدي. ولادتك من نفس المدينة التي تقيم فيها؟ .. نعم سيدي ثم واصل حديثه على الهاتف .. لا سيدي أنا متأكد، ليس هو، ومتأكد من فارق السن أيضاً هذا ما زال في خدمة العلم ومن مواليد ١٩٦٤، ومكان الولادة يختلف أيضاً .. حاضر سيدي متأكد مائة في المائة .. أمرك سيدي. ثم أغلق سماعة الهاتف وصاح بصوته النشاز: بلدية .. خذ الحمار .. حاضر .. وجرني البلدية كعادته، وأخرجني من الغرفة دون ان يعصب عيني. وحين وقف كان رأسي منحياً نحو الأسفل، وضربني بقوة عليه، وقال لي: "رافع الطميشة يا ابن الشرموطة". وصاح بالرقيب: حضرة الرقيب .. هذا الكلب كان رافعها .. "أخ علق، بدي ارفع رجلو ورجل خيتو"، قال هذا الكلام وهو قادم نحوي. وقبل أن يصل رفسني ببوطه العسكري بقوة على وجهي وسالت الدماء من أنفي .. "تبصبص يا ابن القحبه ما هيك، والله لقلع عيونك" .. سيدي أنا لم أرفع الطميشة، ولكن هم رفعوها وتأكد حضرتك من ذلك، كيف لي رفعها وأنا مقيد اليدين. ثم رفسني ثانية وقال لي: "اخرس يا ابن الشرموطة وتحكي كمان .. هذا أصدق من بيك وبي إللي خلفوك". بلدية جر هالكلب وقعدوا في الباحة الأولى لحين مجيئي .. حاضر حضرة الرقيب. وجرني بلدية مسرعاً، ودفعني من خلال عتبة الباب التي أوصلني إليها ووقعت على الأرض، ولم استطع النهوض كون يداي مقيدتين خلف ظهري، وهو يصيح بي: "قوم وقف يا عرصة". ثم سحلني إلى الباحة الأولى، ووقف وقلب ظهري إلى الأعلى، ومن ثم داس على ظهري بقوة وبدأ يدبك ويغني "لزرع لك بستان ورود وشجرة زغيرة تفييك، بدي أحط (..) فيك يا ابن الشرموطة".

ثم جاء الرقيب وطلب من البلدية أن يأتي بالكرباج. من أول ضربة تقع على ظهري صدر منه صوت وكأنه الانفجار، وأمعائي تكاد تخرج من فمي، وكلما استدرت على جهة ما، كان الضرب ينهال على جسدي بشكل عشوائي من كل ناحية. ورأسي الذي تعرض للضرب لا أستطيع حمايته بيدي المكبلتين بسلاسل الحديد. هكذا حتى فقدت الوعي كلياً، صحوت وأنا بداخل المهجع.

نظر إلي الجميع بحزن وهم يحاولون أن يفهموا ماذا حصل لي في الإدارة، وماذا كانوا يريدون مني، ولمَ تعرضت لهذا الضرب الذي شوّه كل أعضاء جسدي. اقترب مني الشيخ أبو حذيفة، ومد لي رجلي نحوه وهو يمسدهن برفق وشفتاه تتحرك ببطء شديد، كأنه يطلب من الله شيئاً من الرحمة لي وعيناه مغرورقتان بالدمع، إن رف طرفه سرعان ما تسيل، لكنه أصرّ على أن لا ترف حتى يمدني

بالشجاعة التي هي جزء لا يتجزأ من شخصيته، ثم سألني وهو يضع يده على جبيني: ماذا كانوا يريدون منك؟ رددت عليه بصوتي الذي أحاول أن يكون قد تخطى مرحلة الألم: طلبوني من أجل التسريح من خدمة العلم .. الحمد لله .. قالها بعمق وصدق .. المهم ليس تحقيق من جديد .. قلت له: لا .. من أجل الجيش. طلب لي الماء من أحد السجناء، وبلّ قطعة قماش ومسح أثر الدماء الجافة حول أنفي ووجهي.

وبقي حالي هكذا لأيام، حتى استعدت نشاطي من جديد، وعليّ أن أخرج من فترة النقاهة التي نعطيها لبعض في الداخل، وأخرجوا من المهجع حوالي عشرة سجناء لا ندري إلى أين. وبعدها بساعات أحضروا إلينا حوالي خمسة عشر سجيناً من الباحة الثالثة والرابعة كانوا موزعين قبل أشهر في الفروع الأمنية التي قضوا فيها سنوات طويلة، وتم تجميعهم في سجن تدمر تمهيداً لمحاكمتهم. تم توزيعهم من قبل رئيس المهجع على المجموعات، وطلب منهم أن يعرفوا على أنفسهم على الملأ ومن أي مدينة وما هي التهمة الموجه لكل واحد منهم، فمعظمهم من تيار الإخوان المسلمين. وطلب منهم رئيس المهجع أن يقف من كل مهجع واحد، ويعلم الناس بأهم الأخبار، إن كانت هناك أخبار جديدة، وهذا عرف بين السجناء داخل تدمر. وقف أحدهم يحمل خبراً جديداً عن طريق أحد السجناء الذي ذهب إلى مشفى التل العسكري لإجراء عمل جراحي هناك، أبلغهم هناك بنية لصدور عفو رئاسي وهذا الخبر سمعه من أحد المرضين في المشفى، وهكذا أخبار من النوع الذي سرعان ما تلقى انتشاراً في السجن، وسرعان ما ظهر على وجوه الكثيرين بارقة أمل.

وقف سجين من مهجع آخر، فقال ليس لدي أخبار مطمئنة، الخبر الوحيد المزعج تم اعتقال القيادي في تنظيم الإخوان الدكتور "حسن الهويدي". ظهرت بادرة الاستنكار والحزن على تنظيم الإخوان، ووقف أحد السجناء وطلب منه ان يوضح من أين مصدر الخبر. فقال: منذ فترة قرأوا اسمه عندنا في المهجع وبقية المهاجع الاخرى. وسأل متعجباً: ألم يقرأوا اسمه في مهجعكم؟ أدرك رئيس المهجع ذلك، ووقفق قائلاً: بلا، وموجود عندنا في المهجع. وقف جميع الذين جاؤوا مندهشين: أين هو؟ ارتفع الصوت في الداخل ويكاد يسمعه الحرس، تدخل المسؤول الصحي حتى يلتزم الناس الهدوء. ضحك الجميع وهم ما زالوا مندهشين ومتشوقين لرؤيته .. حسن الهويدي قوم وقف .. قال ذلك رئيس المهجع، وقفت وهم ينظرون إليّ بدهشة: هل يعقل أن هو، ولكن؟؟ جلسوا، وما زالوا ينظرون إليّ بتمعن. فقال لهم رئيس المهجع: هذا هو حسن الهويدي الذي قرأوا اسمه من فترة، وهو موجود في هذا المكان من أكثرمن سنة، وليس الذي تقصدونه، والحمد لله هذا ولا ذاك. ردّ أحدهم: كيف نعلم البقية في المهاجع الأخرى لأنهم مستنكرين

ومتوترين جداً، وحدثت مصادمات بين السجناء وكل السجن متوتر؟ ردّ رئيس المجهع نحن هنـــا منعزلون عن العالم، وليس لدنيا أي وسيلة اتصال، ولكن الذين خرجوا من عندنا شـــيء مؤكـــد أخذوهم إلى مهاجع أخرى وسوف تتوضح الصورة عند البقية.

هكذا كدت أن أقع ضحية هذا التشابه بالأسماء، كما وقع الكثيرون وراحـــوا ضـــحايا لأسمـــاء متشابه .

شهادات عن التعذيب

التعذيب في سجن تدمر مؤلم وموجع، ولكنه ليس اقل سوءا من التعذيب في أقبيـــة المخـــابرات، فعندما أُلقي القبض عليّ من قبل عناصر المخابرات، والتي كانت عبارة عن عملية اختطاف عالية الدقة والتصميم، فجأة وبلا أي إنذار أو إشارة وجدت نفسي محاطاً بمجموعـــة مـــن العناصـــر المدججين بالسلاح، وكأنما ينوون تحرير الجولان في عملية عسكرية خاطفة، ولكن تلك الأسلحة كانت موجهة نحوي، وأمروني بالصعود إلى السيارة بلا أية حركة قد تكلفـــني حيـــاتي. لا أدري كيف صعدت إلى السيارة ومتى ومن دفعني بداخلها. حشروني في مكان ضيق بين المقعد الأمامي والخلفي، وانطلقت السيارة بسرعة جنونية وهي تشق عنانها في شوارع المدينة متجهة إلى مفـــرزة الأمن العسكري، والعناصر فرحين بإلقاء القبض عليّ دون أن أبدي أي مقاومة، وهم يتكلمـــون عن إنجازهم البطولي الذي حققوه إزاء ذلك وفي زمن قصير. توقفت السيارة، وأخرجوني منـــها، وضعوني في زنزانة ضيقة مليئة بالأوساخ نتيجة تغوط وتبول الذين دخلوها من قبلي. وبعد ربـــع ساعة شعرت بأنني أختنق رغم برودة الطقس؛ نتيجة تصاعد تلك الروائح الكريهة التي لم أعتـــد عليها. تركوا كل أشيائي التي بحوزتي، لم يأخذوها مني (بعد)، مثل الساعة والهويـــة العـــسكرية وبعض النقود، وهي مبلغ بسيط لم يتجاوز المائة وخمسين ليرة سورية. لم أعد أحتمل تلك الرائحة، وأخذت أدق على باب الزنزانة، فتح لي أحدهم فتحة صغيرة متداخلة في الباب الرئيسي للزنزانة:

- شو ولا .. شو بدك؟

- شوو .. شو، بدي أشم الهوا .. إنني أكاد أن اختنق.

فرد بلهجة المستهزئ: إي طول بالك كلها عشر دقائق ويأخذونك إلى صلنفة مشان تشم الهواء النقي على راحتك. وأغلق الفتحة وغادر. نظرت إلى الساعة حوالي الثانية بعد الظهر، وها قـــد مرت عليّ كل تلك الفترة دون أن يأتي أحد من عناصر الأمن يسألني أو يستجوبني. دققت على باب الزنزانة مرة أخرى بقوة، وفتح أحدهم الفتحة الضيقة ذاتها، قلت إنني بحاجـــة لـــذهاب إلى دورات المياه، نظر إليّ بتمعن كأن عنيه تريد أن تقول أشياء قد لا أفهمها، قال ليختصر عليّ ذلك التساؤل: أنا شايفك بس وين لا اعرف ..

- أنت من المدنية؟ نعم ..

أنت من بيت فلان؟ نعم أنا منهم. فقلت له أريد أن اذهب إلى دورات المياه لأنني بحاجة لذلك .. فرد عليّ: طوّل بالك شوي .. بس ليش جابوك لهون؟ .. قلت: له لا أدري .. فقال: ماشي راح أطالعك، بس تطلع بسرعة لأنو هذا ممنوع وإذ شافنا أحدهم يخربوا بيتي .. فتح باب الزنزانة وذهب إلى آخر الممر ونظر في عدة جهات، ومن ثم أشار إليّ بيده: أخرج بسرعة .. خرجت مسرعاً، ودخلت إلى المرحاض وقضيت حاجتي في أقل من دقيقة وعدت إلى الزنزانة وأغلق الباب، ونظر إليّ وفي قلبه حسرة كأنه يعلم أنني ذاهب بدون عودة ..

بضع لحظات، انفتح باب الزنزانة، وإذ به يُطلب مني الخروج وأن لا أنسى حاجياتي داخلها. أمسك بيدي وأخذني إلى غرفة واسعة وكبيرة وخرج وأقفل الباب وراءه. جال ناظري داخلها، آثار دماء ودولاب وكرسي بدون حشوة، وعصي وكابلات معلقة على الجدران وسطل ماء وطاولة خشبية، منظر الغرفة يحتوي بداخله منظر الموت، أطراف أصابع يدي ترتجف من البرد والخوف من المجهول وساقيّ لا يكادان يحملاني ليستند جسدي عليهما وهو ينتظر .. أيتها الجدران أنا مفارق وقلبي يعتصر الألم، والوجع في أعماقي يثقلني أكثر، تلك مفارقها، والهواء حسرة على الروح، الجروح نازفة آثارها على المكان .. أيها الإله ارحمني حياً أو ميتاً، فالذين تعرضوا للتعذيب - أثناء التحقيق - قد نزفوا ليتركوا آثار دمائهم على الجدران، حتى ليشعر الداخلُ أنه مجرد رقم بلا رصيد. فتح الباب رجل أسمر قصير القامة يرتدي زياً مدنياً و آخرون، أحدهم معه كلبشة وآخر بعض الأوراق. طلب مني أن أخلع ثيابي (وأبقى) عارياً والرب يشهد .. خلعتها كما ولدتني أمي، كفاي يستران عورتي وهم ضاحكون للجسد ضحكة البطش والطغيان. وأخذ ملابسي، وبدأ يفتش بها النطاق وبعض النقود التي بحوزتي وجواربي ووضعهن في سلة من البلاستيك. نظرت إلى تلك الجوارب التي اشتريتها حديثاً وهم يرمونها في تلك السلة، عيناي تطلبها ولساني عاجز عن الكلام. وعندما انتهى من التفتيش طلب مني ارتداء ملابسي باستثناء تلك الأشياء: الساعة والنقود والجوارب. قيدوا يديّ إلى الخلف، وجاء أحدهم بقطعة قماش وعصب لي عينيّ. أمسك بي من كتفي وأخرجني، وأحسست بأنني أصعد إلى سيارة. وكان بجانبي واحد لا أعرف من هو، معتقل أم أحد عناصر الدورية. وأمروني بالانبطاح داخل السيارة، وانطلقت مسرعة وهي تترنح من السرعة والضغط المفاجئ على الفرامل. كنت أجهل وجهتها، مررنا بمدن وبلدات، لا أعرف كم استغرقت، أحسست أنني في مدينة كبيرة، شعرت بذلك لكثرة ضجيج الناس والباعة وصوت محركات السيارات التي نمر بجانبها، والتوقف المفاجئ للسيارة نتيجة الضغط على الفرامل، وسماع أحدهم يسب ويشتم أحد المارة الذي حاول من

إعاقة سيرهم، قال للسائق: "كان صدمت هالكلب هدول نصهم أولاد المعلم". وبعد وقت قصير توقفت السيارة عن الحركة، ولم يتوقف محركها عن الدوران، صاح الذي يجلس في المقعد الأمامي افتح الباب، وكأنه يخاطب أحداً بالخارج، ويقصد باباً كبيراً وليس باب السيارة، عرف عن نفسه بأنه دورية وتقل المعتقلين. أدركت حينها أنني لست الوحيد، بل كان معي معتقلون آخرون. دخلت السيارة المكان الذي أجهله تماماً، أين أنا وفي أي فرع للمخابرات؟ .. (عسكري .. أم جوية .. أم سياسية، أم فرع افتتحوه خصيصاً لي، أم .. ؟). فتح باب السيارة .. قال .. استلم واحد .. اثنان .. وصل ..؛ وصل .. وصل والله يعطيكم العافية .. صاح أحدهم .. عريف علي يا عريف تعال لهون وخذ هالكلاب الاثنين هدول على السجن الشرقي، والكلب هذا على المنفردة، ويقصدني بكلامه؛ لأنني أحسست بيده تلمس كتفي. قادني كما يقاد المجرم الخائن لوطنه ينعتني بالمجرم الخائن العميل الذي باع وطنه من أجل حفنة دنانير. فهمت قصده ولم أفهم ما أنا فيه. الرعب والمجهول عطلا كل حواسي، دخلت إلى الزنزانة التي دخلتها رغماً عني وأقفل الباب من ورائي، القفل الذي هزه عدة مرات ليتأكد من إقفاله، زنزانة مظلمة لا أرى فيها شيئاً من شدة العتمة. جلست مقرفصاً منتظراً بصيص ضوء لا أعرف المكان الذي سأجلس فيه. وبعد فترة من الزمن بدأت تتضح أمام ناظري صور أشياء وخيالات، وقفت وتقدمت بخطوة نحو مؤخرة الزنزانة، شعرت أن قدميّ قد اصطدمتا بشيء، تابعت المسير سمعت أحداً يتألم .. آه لقد ذبحتني، دبّ الرعب في قلبي .. من معي في هذا المكان المظلم الضيق. سمعت همساً يقول بصوت موجع مبكي تهتز له الدنيا من ألمه .. يا أخي طلّع قدامك لقد وجعتني .. قدمي .. ما تشوف .. أنا أسف يا أخي لم أقصد ان إيذاءك، ولكن المكان مظلم. أحسست بألم لا يطاق لأنني قد تسببت بأذى لأحدهم، أسمع أصواتاً ولا أرى وجوهاً، من هؤلاء؟ عليّ أن لا أتكلم، ربما يكون هؤلاء من عناصر الأمن، يجب أن آخذ الحيطة والحذر. كل عشرة ساعات يفتحون الباب لنخرج لقضاء الحاجة، وعندما يحصل ذلك يطلبون منا أن ندير وجوهنا باتجاه الحائط ولا نعلم من خرج منا ومن دخل إلى الزنزانة وبالرغم من فتح الباب لا تزال مظلمة، لا نستطيع رؤية احد وكل منا يخاف من الثاني فلذلك لا نستطيع التكلم مع بعضنا، مر عليّ يومين في الزنزانة ولم يطلبني احد وفي ١٩٨٧/٢/١٧/ في ساعة متأخرة من الليل (على ما أظن) فتح احدهم باب الزنزانة وهو يحمل بيده "قداحة" ونادى بصوته أنت الذي تلبس بذلة جينز تعال اخرج، خرجت وهمس في أذني ماهو اسمك .. أنا سيدي نعم .. حسن؛ أي حسن .. ؟ حسن الهويدي .. عصب عيني وشدني من يدي ولا اعلم إلى أين يذهب بي وبعد خطوات قليلة أوقفني وقيد يدي وامرني بالجلوس أرضا في فناء واسع وكأنني أما مكتب يطل مباشرة على باحة، كان البرد شديدا والأمطار تهطل والرياح الباردة

تخترق ثيابي لتجس في بردها عظامي التي كانت متعبة من جلسة القرفصاء التي كنــت أجلــسها داخل الزنزانة المزدحمة، أصوات صراخ امرأة تخرج من الغرفة التي أجلسوني امامهاوهي تتوسل ان يبقوا ثيابها على جسدها وان تبوح لهم بكل ما تعرف، ومن خلال الصوت المرتفع كان احــدهم ينعتها بالعاهرة ويهددها بالاغتصاب وان الرقيب أبو هارون مستعد لفعل ذلك .. اسمعها جيــداً وكأني معها في الغرفة تقول .. يا سيدي والله سوف أقول لكم ما عندي ولكن لا تجرحوا كرامتي .. قال لها احدهم طيب من جاء لك برسالة من العراق .. قالت والله لا احد .. فرد عم تكــذبي والله .. إذا لم تقولي الحقيقة سوف آمر عناصر الفرع ان (يغتصبوك كل العناصر) لا .. يا سيدي أنا حرمة وداخلة على عرضك .. بس يا قحبة لا تجيبي سيرة عرضي على لسانك .. أنا يا سيدي داخلة على محمد .. بدي اخلي محمد تبعك يا شرموطة .. أنا داخلة على .. بس .. بس، لامس السوط جسدها وهي تناجي ربها وتقول .. بالله يارب دخيكلم أنا ما إلي علاقة والله ما الي علاقة .. ولاك شرموطة من له علاقة مساعد يحى هات الكهرباء وحطها في (قوطها) انا داخــل علــى ولادك يا سيدي .. كل تريده انا مستعدة ان أجيب عليه، ها .. هيك الحكي منك حلو من جاء إليكم من العراق يوم ١٢/١/ من العراق جاء زوجي وكم بقي في البيت يومين .. شو جاب معه لادري ولكن ونام في البيت يومين الم يجلب معه رسائل من العراق وطلب منك ان توزيعها لا .. والله يا سيدي انا أمية لا اقرأ ولا اكتب وكيف ان اعرف إنهــا رســالة .. ولكــن الم يكلفــك بتوزيعهن .. لا وما جابلي "طاري". ولك يا قحبة شو بس بدو ينــ (..) ويرجع صممت تلــك المرأة التي لا تعي ما تقول ولكن كي تحافظ عل أنوثتها تريد ان تقول أي شيء لعل ذلــك قــد يخلصها من قضيتهم، نعم سيدي كل شيء ذكرته هو صحيح، طيب السلاح الــذي جــاء بــه زوجك أين خبائه، سلاح (يا مصخمة ياني) سلاح! والله ما شفت لا سلاح ولا سخام .. والله. بكت وهي تنوح من الألم ومن شدة الظالم، وتقول: والله .. والله اللي هو أكبر مني ومنك إنو ما شفت حدا وما جاء لا زوجي ولا سخام البيت، بس ش سوي يا ربي، قلتم جا، قلناكم جا، قلتم جاب رسايل قلنا جاب سخام، بس والله ولا شفت حدا ولا مر بيا حدا، ومن راح مهدوم البيت وأنا لا شفت لا صديج ولا قرابة. بكيت عندما سمعت تلك العبارة، وهي تعبر عن أنها وحيــدة وكل من حولها قد تخلى عنها نتيجة الخوف على أنفسهم.

الألم يعتصر قلبي الذي أدماه الكلام، امرأة بدون رجل، بدون معيل، أكلها الزمن ووضعها تحت رحمة الجلاد. ابكِ أيتها العصافير، امرأة من بلادي تستغيث، تدفع ثمن ما لم ترتكبه، تبكي علــى أطفالها الذين شردهم الزمن وأبعد عنهم حنان الأبوين. بكيت ولم أفكر في نفسي، لعلها رحمة من السماء، أن أسمع وأنسى ما أنا فيه من البرد الذي ترتجف أوصالي منه وانتظار المجهــول لأســتمد

الشجاعة من ذلك الصوت الأنثوي الذي صمد ليصمد قلبي. مباركة أيتها الأنثى، ليكن في عونك كل حر شريف. فزعت من صوت السوط الذي هبط على جسدها، لا أدري هل هو عارٍ؟ ولكن وقْع الصوت يوحي بذلك. صرَخَت .. تقول: دخيلك يا وليدي (ولدي) أنا مثل أمك .. أنا حرمة .. والله ما أعرف شي .. والله يا قحبة إن ما حكيتي لتشوفين شي ما شفتيه بحياتك .. والضرب ينهال عليها وصراخها يملأ المكان، وهم يريدون منها أن تعترف عن ذنب لم ترتكبه. الوقت يمر ببطء، وصراخها الليلي يبعث برسائل لأهل تلك المدينة النائمة ليفزع جسدي من دقات الجرس، فسرعان ما فتح الباب وكأن أحدهم يقف أمامه .. احترامي سيدي .. خذ هل القحبة وإذا لم تعترف شوف شغلك معها. أنين وألم صوتها الذي خرج .. يطلب منها المسير وهي تقول: لا أقدر، قدماي متورمتان .. .امشي يا قحبة بتعرفي بس تاخذي مصاري من صدام .. يلعن أبوك على أبو صدام .. والله هلق لخلي الشباب ينبسطوا عليك .. امشي عاملة حالك ما تحسني، والله لو بتشوفي (..) كان انبسطتي. خرجت تسير ببطء من أثر السوط الذي حرث جسدها واستباحه، رائحة الخمر تفوح من المكان، وضحكات الجلادين تملؤه هم سكارى، وأرواح الناس بين أقداحهم مصائرها، فتلك المرأة كانت رقماً ونحن الأرقام الأخرى.

شهادات عن التعذيب

أبقوني جالساً بعدما أنهوا التحقيق مع تلك المرأة التي أخذوها .. وأبو هارون الذي هددها بالاغتصاب منتصب خلفي بصوته الذي يرعب الكثيرين .. ينتظر، رفسة من الخلف على جسدي كادت أن تودي بي حيث توزع الوجع على جميع أنحاء جسدي وبتُّ لا أستطيع التنفس، وتم سحلي إلى داخل مكان شعرت راحتا قدمي بدفئه إضافة إلى أجزاء جسدي المكشوفة؛ لأنهم سرقوا حذائي وجواربي وبت أمشي حافي القدمين .. الصمت يخيم على المكان ورائحة التبغ ممزوجة بعطر المكان الذي بدا لي أنه مكتب لأحد الضباط ..

أنتظر المجهول القادم وأنا مقيد اليدين، معصوب العينين، فزعت بمكاني حينما رن جرس الهاتف الذي طالت رنته، ألو .. ألو حاضر سيدي، ذهب إلى الحمام وسوف يعود بعد عشر دقائق وأقفل الخط من الطرف الآخر دون أن ينهي هذا كلامه. بدا لي أن المتحدث هو برتبة عسكرية كبيرة.

لا أدري كم هو الوقت وكم سأبقى في هذا المكان الذي لا صوت فيه ولا حركة ..

وبعد برهة من الوقت شعرت بدخول أحدهم، وهذا من توجس جسدي بلفحة البرد القادمة من الخارج.

رن جرس معلق على مدخل المكتب على ما بدا لي بصوت بلبل .. احترامي سيدي احترمناك .. ابعث لي المساعد يحيى والملازم أول .. والرائد .. حاضر سيدي ..

وبعد مضي قليل من الوقت فتح باب المكتب ثانية احترامي سيدي .احترامي سيدي ووو .. هلا اقعدوا،

فرد بصوته الذي بدا انه يبحث في أوراق على مكتبه ورن جرس المكتب ثانية: احترامي سيدي .. روح ابعث لي الرقيب الحيوان علي بسرعة .. حاضر سيدي.

بعد ذلك بقليل دخل ..

احترامي سيدي .. أهلاً، قالها بصوت عال .. وين إضبارة الحيوان هيدا .. قدامك على المكتب سيدي .. شو مالها موجودة. عفواً سيدي لحظة، ذهب إلى أمام الطاولة على ما أظن وفتش بين الأوراق ووجدها وقال تفضل سيدي .. انصرف .. احترامي سيدي.

ثم وجه سؤاله نحوي: اسمك يا ابن القحبة.

حسن .. حسن شو .. بيّك شو اسمو؟ عمر الهويدي.

أمك .. خود .. شو .. شو .. خود، سيدي اسمها خود.

سنك؟ ٢٣ سنة.

لأي تنظيم تابع؟ لست منظماً.

ارفع رأسك .. ارفع رأسك يا حمار.

رفعت رأسي، وقال احدهم هذا شكل مجرم سيدي .. كم واحد قتلت ولاك ؟

لم اقتل أحدهم سيدي.

اسكت ياعرص .. حاضر سيدي.

فرد آخر لا هذا الشكل يدل على أنه كان يمول الإخوان بالسلاح ..

كم سيارة سلاح بعثت للإخوان؟ ..

أنا ليست لي علاقة لا مع الإخوان ولا غيرهم.

تكذب.

أنا احكي الصدق ولم أكذب.

ضربة قوية على رأسي من الخلف لا أدري كم من الوقت فقدت بها وعيي. وعندما صحوت وجدت ثيابي وشعر رأسي مبللين بالمياه، ولكن في رأسي ألم لا يطاق .. وجسدي ممدد على الأرض، والمكان شديد البرودة وكأنني في العراء ..

صحيت .. يا ابن القحبة، عامل حالك ميت والله بدي أموتك هلق بجد ..

ونادى على بعض العناصر وأمرهم بضربي رفساً وبالعصي، وصراخي يملأ المكان الذي تفوح منه رائحة الموت المؤكد .. وبعد تعذيب طال أكثر من نصف ساعة، أمسك بي اثنان من ذراعي وتم سحلي إلى المكان الذي كنت فيه.

أمرني أحدهم أن أنبطح أرضاً ففعلت دون أن أدري أين.

جاء صوت من خلف ظهري وأنا منبطح .. اسمع يا حسن .. في حديث للرسول يقول ألف أم تبكي ولا أمي. قول الحقيقة أفضل إلك ومباشرة نطالعك عل البيت .. وعدا ذلك والدك موجود ينتظرك عند الباب الرئيسي وإذا تكلمت سوف نسمح له أن يأخذك معه ..

صعقت لكلامه هذا لأنه يكذب؛ لأن والدي مقعد ومصاب بالشلل ولا يستطيع الكلام أو المسير ..

ها حسن شو .. قلت والدك كان يحكي معي من شوي .. وحلفت له وحياة عشرة رسول الله أنني سوف أطلق سراحك بمجرد إنك تعترف ..

سيدي ليس عندي شيء أقوله ..

ما عندك .. وصب جام غضبه علي، وأخذ بضربي بكبل وآخر يضربني بعصى على ظهري وآخر يصب الماء كلما حاولت أن أكتم صراخي، وتقدم نحو رأسي ودهسه بحذائه ووضعه على رقبتي يهددني بقتلي إن لم أتكلم،

وأمرني أن أستلقي على ظهري وهم لا زالوا يعذبونني بسياطهم والعصي وأصواتهم العالية بالسب والشتم علي. لم أستطع أن أحس بأن لي جسد وهم يحرثون به بسياطهم وعصيهم وأحذيتهم ..

هكذا حتى بدأت أصواتهم تختفي شيئاً فشيئاً عن أذنيّ اللتين بدأتا تنزفان الدماء، وأنفي الذي كسر عندما رفسني بحذائه .. ولم أدر بشيء إلى ان وجدت نفسي ثانية في مكان بارد والمياه تغطي كل أنحاء جسدي وبردوة الطقس التي لا تطاق.

وبدأت أحرك بعضاً من أجزاء جسدي للتأكد من سلامتها. فرد أحدهم: شو صحيت يا ابن القحبة؟ وأخذ يعذبني بكبل، وكلما ضربني ضربة تأتي التي تليها بقوة، ومن ثم أمر واحداً بجانبه أن يكشف عن ظهري وهو يقول له: اكشفلي عن ظهره بدي أحرثه حرث لهل العرص حتى يعترف ..

اعترف عن شو سيدي ما عندي شيء اعترف عنه، أحلفلك بالله ومحمد رسوله انني لا أملك أي معلومة حتى أعترف لك .. كان ذاك قد انتهى من خلع قميصي الداخلي الذي مزقه، ثم أمرني أن أنبطح على بطني، وأطلق لسوطه العنان غاضباً على ظهري الذي انفصل عن روحي، وآخر يضربني على راحة قدمي الحافيتين المبللة بالمياه ..

شو ما بدك تعترف؟ اعترف أحسن ما تموت يا ابن الكلب. وكما في المرة السابقة أرجعـــوني إلى تلك الغرفة اللعينة ..

شو يا ابن القحبة ما بدك تعترف؟ ابو هارون تعال هون .. شوف تأخذ ها الكلب وتعلمو كيف يعترف وبطريقتك ..

أين انا؟ كم الوقت وكم أصبحت الساعة وهل حان وقت بزوق الفجر؟

الطريق إلى تدمر .. مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق

لا أدري أين انا من بين الأصوات التي تهددني بالموت، أبو هارون امسك بيدي وجـــرني لا أدري إلى أين؛ لكنني خائف أن ينفذ ما طُلب منه بأن يغتصبني، أدخلني إلى غرفة وطلب مني أن اتجه نحو الحائط، وطلب من الذين يتواجدون في المكان أن يخرجوا .. وبسرعة. تلقيت رفسة قويـــة بـــين رجلي وشعرت بعدها بألم قوي بالخصيتين وأصابني تعرق شديد .. اضطرت بعده للركوع أرضاً لم استطع الكلام .. شو ولاه خايف .. ليش عم ترجف صراصير أنذال ..

- بأمرك سيدي.

- علي .. اخلع ملابس هالكلب النجس. أمسكني من كتفي وطلب مني الوقوف، انـــه فـــصل الشتاء البارد يزداد شدة وألماً بترافقه مع هذا العذاب على يد أبي هارون. فك رباط بنطالي ومن ثم سروالي الداخلي ومسك قضيبي بيده وربط به شيئاً لا أعلمه، وربط شيئاً آخر بسبابة إصـــبع يدي، وطلب مني الجلوس ركوعاً ..

إنها الصاعقة اجتاحت جميع أنحاء جسدي، وسرى في دمي شوك وألم لا يطاق، ولا ادري مدى قوة الصراخ الذي أصدرته إلا أنني شعرت بألم لا يطاق .. ها شو ما بدك تعترف يا كلب .. رددهـــا احدهم .. دخيل الله يا سيدي والله مالي علاقة مع احد يستر على حريماتك .. اخرس ابن القحبة، دير بالك تجيب اسمهن على لسانك لأنهن أشرف من امك .. بأمرك حضرة الرقيب ..

هل أنت منظم لصالح النظام العراقي؟ لم أجاوب؛ لأن الألم أقوى من أن أرد على السؤال، و كرر المحاولة ثانية وكادت أن تزهق حياتي والألم يقوى شيئاً فشيئاً ولم اعد أحس بقضيبي، بل الوجع من رأسي حتى أخمص قدمي ..

وكلما حالوا تكرار ذلك توسلت إليهم وكررت أنني لا املك أي معلومة، ولا اعرف ما معـــنى تنظيم ولن أتكلم مهما حصل. ورد أحدهم قائلاً: شوف ولاك يا كلب، والله إن لم تعترف سوف احرق جسدك بالكهرباء .. حالياً الكهرباء وبعدين أحط الخازوق في مؤخرتك، هذا بشرف أمي إذا لم تعترف .. اعترف عن شو سيدي؟ عن أي شيء يا ابن القحبة، أي شيء المهم انك تعترف .. ضربة أخرى .. نعم إنها الكهرباء .. وكرر المحاولة مرة أخرى وأخرى أفقـــدتك الإحـــساس

بأعضاء جسدي .. ألم .. ألم في دماغي يا إلهي رحماك إنني متألم .. دخيلك يا سيدي .. أخ .. يا الله .. الله يلعن بيك وبي اللي تحلف بيه، خلي ربك يجي ينقذك من إيدي، وما راح حدا ينقــذك إلى أن تعترف ..

أعترف على ماذا سيدي؟ .. عن علاقتك بنظام صدام حسين .. بل بالشياطين المهم انك تعترف .. سيدي ليس لي علاقة لا مع صدام أو غيره لا من قريب ولا من بعيد.

- ماشي علي دور .. أخ انه الألم دخيل الله يا سيدي مشان الله .. دور آه .. أخ دخيلك .. يــا الله .ألم لا يطاق يخترق جميع أنحاء جسدي .. شوف ولاك يا كلب هذا ما هــو شــيء، ســوف أشوفك شيء لسه ما شفتو .انا يا سيدي ما عندي شيء أحكيه .. ضربة قوية بسوطه على رأسي رافقها طنين بأذني ونجوم من أمام عيني وألم لا يكاد أن يهدأ ..

والله يا كلب إن لم تعترف سوف أذبحك كما يذبح الخروف .. علي دور، ودارت معــه رائحــة الموت .. نعم انه الموت الحقيقي كلما ترافق الألم مع صعقة الكهرباء الذي يتعرض لها جسدي .. وهذا استمر إلى أن فقدت كامل ووعي ولا ادري كم استغرق ذلك من الوقت، وتبلل بنطــالي الذي شعرت به بعد أن صحوت .. وجدت احدهم يخز إبرة في يدي المقيدة استعدت بعدها جزءاً من الوعي، وباشر المساعد يحيى باستجوابي ..

- شوف يا حسن أنت إنسان جيد ومهذب ما راح تروح ببلاش مشان صدام حسين .. صدام .. يا حسن قتل من الشعب العراقي الكثير وأجهزة المخابرات عنده تقتل الناس، وناهيك عن حربه المجنونة ضد إيران الدولة المسلمة التي تدافع عن فلسطين .. هذا شيء، والــشيء الآخــر انــه خدعكم، انه عميل للمخابرات الأمريكي .. وإن اعترفت سوف نسامحك، والسيد رئيس الفرع أعطاني الصلاحية أن أخرجك من السجن الآن إذا اعترفت

.. ها شو قلت؟

قلت ما عندي شيء أقوله.

صرخ احدهم وضربني عدة ضربات قوية على كامل أنحاء جسدي، ويصرخ يا ابن القحبة بــدي (..) أمك وأختك يا عديم الشرف يا خائن.

هيه خلاص وقف .. حسن كويس وراح يعترف .. مو هيك يا حسن

بأمرك سيدي ..

شو راح تعترف؟

لم أرد بحرف واحد، كنت أفضل الموت من الذل الذي انا فيه، ارحمني يا إلهي بضربة وأفارق الحياة من بعدها.

صوت السيد المساعد يزمجر من جديد: أبا هارون شوف شغلك .. معك ربع ساعة .. وخرج علي .. بريق المتة جاهز ..

أبا هارون أعطي الصوبيا على الآخر أشعر بالبرد.

علي يقرقع متة.

شوف يا حسن .. سكت ولم أرد بحاضر .. غضب وصرخ: قول حاضر يا ابن الكلب.

حاضر سيدي.

بدي (..) لأمك وخيتك وخالتك وعمتك وعشيرتك كلون ولاك كلب بدي (..)ـــهن علـــى دفتر العيلة

وبدي هلق بعد ما اشرب المتة (..)ـــك أنت بالأول وبعدين هنه.

امك أول وإلا اختك .. شو ولاك ما ترد ..

كيف أرد وأنا مهان من الذين هم دروع الوطن وحماة الديار؟

كيف وجرحي يترف وعرضي يهتك؟

كيف والذين انا بين ايدهم طغاة لا يرحمون؟

لموت على أرض عدوي اشرف من أموت على ارض وطني.

ابا هارون يتوعد أن يغتصبني إن لم اعترف .. والتعذيب بكل الوسائل مباح .. ولا ادري ماذا بعد لحظة.

مد احدهم يده نحو مؤخرتي وبدأ ..

في الطريق إلى تدمر: مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق

بعد ساعات من التعذيب والشتم والوعيد باغتصابي، شعرت بضربة قويه على الرأس وبعـــدها لا أدري ماذا حصل، فعندما استقيظت .. مددت يدي إلى مؤخرتي ظنا مني أن أبا هارون قد فعلها. ولكن المكان الذي أنا فيه مظلم إلى درجة أني لا أرى أي شيئ، الصمت والهدوء يخيمـــان علـــى المكان ..

سبقتني أصوات أبواب تفتح .. لتصبح قريبة مني، قبل أن يتاح لي مجرد التفكير: أين أنا؟ صـــوت احدهم يعلو صارخا طالع أواعي الأكل يا ابن الشـــ .. ، وصوت الكبل مسموع يجلد به مـــن يخرج وهكذا إلى أن فتح باب زنزانتي التي أدركت أنها خالية فلا احد سواي فيها ..

- طالع أواعي الأكل يا ابن الشـــ ..
- حاضر سيدي

وصب لي في الإناء الأول شاياً والآخر بيضة واحدة مسلوقة .. ، وطلبت منه أن أخرج إلى دورات المياه، فقال لي أمرك يا ابن القـ .. اطلع ولكن قبل ذلك مد يدك، مددت يدي، وضربني بالكبل الذي يحمله إلى إن تورمت يدي، وقال:

- روح على قـ .. أمك، ثم أعد ألك للعشرة تكون خارج دورات المياه مفهوم ولاك يا عرصة.

- مفهوم سيدي.

- واحد .. اثنان .. ثلاثة .. لم أجب ودخلت إلى دورة المياه، وحاولت أن أفك أزرار بنطالي، لم استطع، حيث بدأت يداي تؤلماني وتنتفخان شيئا فشيئا، انتزعت الأزرار عنوة رغم الألم الذي يتنازعني، أخرجت قضيبي لأتبول ولكني لم استطع حيث شاهدته متورما نتيجة لصعقه بالكهرباء، حاولت ولم أستطع رغم الصراخ الذي كان يصدر مني نتيجة الألم المرافق لقطرات البول التي كانت تخرج ببطء شديد، شو يا ابن القـ .. ما خلصت .. ثم نادى عليَّ بصوت عال اخرج يا ابن القـ .. أحسن ما أطلّعك بالقوة .. خرجت وانهال علي ضربا بسوطه على كافة أنحاء جسدي ويداي تحاولان تصديا لتلك الضربات دون جدوى، دخلت إلى زنزاتي وادخل الذي برفقته لي الطعام إلى داخل الزنزانة وأغلق الباب، مددت يدي أتوجس المكان الذي وضع فيه الطعام إلى إن عثرت باللمس على الإناء الأول، وضعته على فمي وشممت منه رائحة كالبول القديم ولكن كنت بحاجة لأن اشرب وشربت الشاي الذي كنت أظنه يدفعني إلى التبول أو يساعدني على ذلك، وجدت الإناء الثاني التي توجد فيه البيضة وأكلتها بدون تقشير ولكنها كانت سيئة المذاق، أو أنها فاسدة. إنه طعام عسكري يجلبونه لنا من القطعات العسكرية العاملة في مدينة دير الزور، شربت وأكلت وجلست وبعد أن انتهيت جلست على الأرض التي لا يوجد فيها لا بطانية ولا "عازل" إنها خالية من كل شيء عدا جسدي الذي سوف يفترش الأرض، وبقيت على هذه الحال إلى إن أدركني النعاس ونمت رغم برودة الطقس، ولا ادري كم من الوقت استغرق ذلك عندما صحوت على صوت مؤذن ينادي الله اكبر ..

اقتربت من باب الزنزانة، بصيص ضوء بدا لي، ونظرت بجهد لأتبين انه ضوء مصباح كهربائي.

فكّرت في أن أحدد موقعي، ولكن سرعان ما خطر ببالي أن أبا هارون الذي توعدني بالاغتصاب، قد يفعلها كما طلب منه أن يفعلها مع المرأة التي كانت في اليوم الأول، ولكنها امرأة وأنا رجل، هكذا خطر ببالي هل من المعقول؟! إنها مغرية أكثر مني للرجل، عودوه على الفعل المشين وانتهاك حرمات الناس، هؤلاء الناس ليست لديهم ضوابط أخلاقية ولا احترام للإنسان ويمكنهم فعل أي شيء، ووصلت في النهاية إلى أنه إن فعلها بي فسوف انتحر ..

فتح الباب وفزعت حيث إنني لم اشعر بقدوم أحد إلى المكان، اخرج يا بن القـــــ .. ووجهــك باتجاه الحائط، فعلت ذلك ثم قيد لي يدي وعصب عيني، وطلب مني المسير، جسدي يرتجف بردا وخوفا .. ، قال لي: ترتجف يا ابن العرص، بعد شوية ادفيك وأخليك ساخن مثل قـــ .. أمك .. وسار بي إلى المكان الذي يقصده وطلب مني الركوع أرضا، ركعت وكل من يمـــر مـــن حـــولي يرفسني بقوة على ظهري او على خاصرتي أو على ما تيسر لهم الا ان احدهم شاط رأسي بقـــوة وكأنه يضرب كرة قدم، ما سبب لي ألما شديدا، حاولت التماسك كي أعي ما يحـــصل لي مـــن بعدها، وكل ذلك على حساب اعصابي المشدودة والمتوترة والافكار الـــتي كانـــت تـــشدني إلى الانتحار فيما لو تعرضت لأكثر من ذلك ..

أمسكني احدهم من شعر رأسي وجرني بقوة: أوقف .. وقفت وسرت معه إلى مكانه الذي يقصده وارتطم رأسي بشيء قاس مما جعل النجوم التي تدور في برامج الاطفال حقيقة.

وقال لي اجلس يابن القـــ .. إلى ان يأتي دورك بالإعدام. شعرت كأن صـــوته كـــان بعيـــداً .. جلست ومثانتي تكاد تنفجر ..

في الطريق إلى تدمر: مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق

استيقظت من نومي، لا ادري كم دامت ساعات الألم العميقة رغم النوم .. كانت ليلة صعبة في غرف التحقيق، منتقلا من محقق إلى آخر، بدا لي انه النهار حيث بدأت أذناي تـــسمع أصـــوات أجراس كنسية تقرع، وجوقة من أصوات أطفال صغار وكأنهم في باحة مدرسة، أذنـــاي اللتـــان فقدتا السمع بهما من كثرة الصفع عليها بدأتا تستعيدان عافيتهما رويداً رويداً..

فتح احدهم الباب الرئيسي، وهو يدمم بصوت منخفض قائلاً:

- حط البلاو هون يا ابن القحـــ(..).

وبدأ بفتح باب الزنزانات إلى أن وصل إلى الزنزانة التي أنا فيها، وطلـــب مـــني إخـــراج الأواني ليوضع لي الطعام المخصص فيها، ولأتمكن من الخروج إلى دورات المياه.

طلب من كل سجين أن يذهب لقضاء حاجته في أقل من دقيقة واحدة، وهي الزمن الذي يتوجب عليك فيه أن تقضي فيها حاجتك من التبول أو لتغوط وغسل الأواني التي تضع فيهـــا الطعـــام وتكون في أغلب الأحيان مليئة بالبول نتيجة لعدم السماح لنا بالخروج إلى دورات المياه الا مـــرة كل ٢٤ ساعة، الامر الذي يضطرنا للتبول فيها أوالتغوط أحياناً نتيجة الإسهال المفاجئ الـــذي كان يصيبنا، ثم افراغها عند الصباح ووضع الطعام فيها بأوقاته.

ضرب بسوطه باب الزنزانة..

- اخرج يا ابن القحـــ(..) معك دقيقة ونصف تذهب إلى دورة المياه وتأخذ الطعام مفهوم!

نظر إلى يده ومن ثم إلى الساعة وصاح: انطلق.
خرجت مسرعاً ودخلت إلى دورة المياه قضيت حاجتي وغسلت الأواني التي بيـــدي وخرجـــت.
طلب مني أن أضع الأواني على الأرض كي يضع السخرة فيها طعام الفطور.
صاح بي قائلاً: يا ابن الشرمو(..) لقد تأخرت عشرة ثواني ولازم تتعاقب على التأخير، مد يدك.
مددت يدي وطلب مني أن أعكسها ورد قائلاً: كل ثانية بكرباج .. عشر ثواني عشرة كرابيج ..
رفع يده إلى الأعلى وبدأ يضربني بقوة إلى أن انتفخت يداي وازرق الجلـــد وخاصـــة أظـــافري، وبخششني بضربة أخيرة على الرأس وطلب مني حمل الطعام والدخول إلى الزنزانة، دخلت وأغلق الباب، وفتح نافذة صغيرة متداخلة ضمن الباب وهمس لي قائلاً:
"اليوم يا ابن العر(..) راح تكون نهاية حياتك، جاسوس وعميل، ولك حرام هاالأكل يـــدخل في بطنك والله اليوم أوريك شي ما شفتوا من يوم ولدتك أمك"..
وأغلق النافذة وتابع عمله. لكن شرد ذهني في الكلام الذي قاله عما كنت قد فعلـــت شـــيئاً في حياتي، والرعب والخوف من تهديده اجتاح كل جسدي ولم استطع أن أكل لقمة واحدة.
بقيت أفكر بكلامه..
الوقت يمر بطئياً، هو يوم الأحد وقد عرفته من خلال أجراس الكنسية التي كانت تقرع وجوقـــة الصغار
والظهيرة. من خلال صوت المآذن في المسجد القريب من المكان استطعت أن احدد الوقت ما بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء.
طول النهار والساعات الماضية من الليل، وبعد أذان العشاء، فتح احدهم باب الزنزانة وقال:
- شو اسمك؟..
- حسن.
- دير وجهك باتجاه الحيط وأيديك ورا ظهرك.
قيد يدي وعصب عيني وأمسك بي من يدي وسرت معه وأنا متجه عكسه إلى إن وصـــل بي إلي المكان الذي يريد. طلب مني الجلوس على الأرض .. كان الجو بارداً بعض الشيء قياســـاً علـــى الأيام الثلاثة الماضية، كنت اسمع أصوات أناس يعذبون في الداخل، والضرب والـــصراخ يمـــلآن المكان، كانوا يحققون مع احد الأشخاص الذين اعرفهم، وكان السؤال عني وعلاقـــتي بتنظـــيم العراق .. انه صوت احد أقاربي، كان يقدم الاعترافات لهم وعلاقته بي، ولكن ما أراحـــني مـــن الكلام الذي سمعته منه هو أنني لست على علاقة بتنظيم "اليمين المشبوه" حسب قوله. اخذ ذلك بعض الوقت، ثم جاء احدهم ومسك بيدي وجرّني إلي داخل الغرفة، وبدأ يسألني عـــن علاقـــتي

بالتنظيم والجناح العسكري من التنظيم. أكّدت له أنني من المستحيل أن انتمي إلى تنظيم حزب البعث سواء كان في سورية أو العراق. طلب مني أن أوضح معنى ذلك، فقلت له دون أي سبب. فرد علي قائلاً: هذا الكلام لا ينفع، هنالك أشخاص اعترفوا عليك بعلاقتك بتنظيم العراق. طلبت منه أن يقابلني بهم وأنا مستعد أن أواجه أي شخص يعترف بهذا الكلام..

رد قائلاً: اسكت يا عر(..) نحن من يقدر ذلك.

رقيب محمد هات الدولاب وحط ها العر(..) فيه حتى يعترف. أمسك بي اثنان من كتفي وبطحوني أرضاً، وأدخلوا رأسي وقدمي بالعكس، وربطوا رجلي بحبل من النايلون مربوط على ما أظن بعصى، ولفّ الحبل حول قدمي بقوة حتى شعرت أن الحبل بدأ يغرز في اللحم، وبدؤوا بضربي بكابل رباعي مصنوع من البلاستيك والفولاذ والنحاس. وهذا الكبل عادة يستخدم في القطاعات العسكرية لوصل التيار الكهربائي ويسمى الكبل الرباعي. وكان احدهم يطلب مني أن اعترف بأنني منظم لصالح العراق، وأنني نقلت أسلحة من العراق إلى سورية، ومن ثم نقلها إلى حماة عن طريق الصحراء. أدركت أن ذلك الكلام خطير رغم الوجع والعذاب الذي أنا فيه. وهذا فعلاً ليس لي به علاقة لا من بعيد ولا من قريب. وصممت أن لا أتكلم. رفسني أحدهم بحذائه على وجهي وهو يقول لي: والله يا ابن الشرمو(..) بدك تعترف غصباً عن ر(..).

- شوف ولاك أموتك اليوم إذا ما اعترفت..
- سيدي ما عندي شيء اعترف من أجله.
- شو يا ابن القحـ(..).

صاح أحدهم: إنه لي.

أحسست أن صاحب الصوت قد اقترب مني، تلقيت منه ضربة على وجهي ووضع حذائه داخل فمي وطلب مني الاعتراف، بينما كان آخر يجلدني بالكرباج على أسفل قدمي. كان الوقت يمر ولا أدري عنه شيئاً إلا أنني أرغب في الخلاص من هذا العذاب والألم الذي أنا فيه..

طلب أحدهم من الذين يعذبونني أن يخروجوني من الدولاب، وخلع ثيابي التي تغطي ظهري. فكوا لي القيود ونزعوا كل الثياب التي تغطي ظهري، وبدأو بجلدي على الظهر إلى أن فقدت جزءاً من الوعي الذي كنت أحاول أن أبقيه كي أدرك ماذا أفعل، إلا أن ذلك خرج عن أرادتي وفقدت كامل وعيي.

استيقظت وأنا ارتجف من البرد، أحسست أن شيئاً رطباً يسيل من تحت جسدي المفروش على الأرض. لا أدري هل هو بول أم انه الماء الذي ربما صبوه على جسدي لأستعيد وعيي، وكي أتأكد من ذلك ممدت يدي إلي شعر رأسي وجدت انه مبلل بالماء، ارتحت لأنني لم افعلها.

بقيت ممداً على الأرض والأصوات من حولي. سمعت صوتاً يبدو أنه صوت المساعد يحيى .. قال لي: "شو يا حسن اعترف ما أحسن إلك من أن تموت وأنت ما زلت شاباً والحياة أمامك .. تعترف الآن أطلق سراحك .. وحياة رسول الله. حسن في مثل يقول "ألف أم تبكي ولا أمي"، اعترف على هؤلاء الكلاب وتخلص من التعذيب الذي أنت فيه".

رددت عليه: يا سيدي عن شو أعترف، أنا لستْ على علاقة مع أحد لا من بعيد ولا من قريب. ليش سيادتك مصرّ على أنني منظم أنا لست منظم.

رد قائلاً: "شوف إذا أنت مصدق أنك ما إلك علاقة هذه صعبة شوية عليَ، لأنو أنا مش مصدق إنك غير منظم.

يا حمار ربعك اللي هون كلهم اعترفوا ولا واحد منهم أكل كف وأسالهم إذا ردت .. عم نضيفهم شاي ودخان ليش ما تكون مثلهم؟".

- أحلفلك يا سيدي ويا حياة الله ومحمد والرسل إنني لست منظماً.

- "آها .. معناه أحدهم عرض عليك التنظيم أو طلب منك إيصال أموال أو سلاح.

- سيدي، لا أعرف أي شيء مما تتكلم عنه.

- "اسكت يا كلب يا ابن القحـ(..) عم تكذب علينا يا ابن الشرمو(..)".

- والله يا سيدي وحياة محمد لم أكذب.

وبدأ يسب ويشتم الله ومحمد بكلمات نابية وبذيئة أستحي الآن والله من تذكرها فكيف بكتابتها.

"عرصات خونة عملاء، ولاك انتم تبيعوا وطنكم مشان كم دينار من عميل الصهيونية صدام .. ولاك انتم عائلة خونة عملاء لصدام حسين ..

خالك وينوا هلأ؟

ابن عمك الدكتور محمد وينوا هلأ؟

عمك اللي مات الله لا يرحموا ما كان عميل لصدام، انتم كلكم عملاء لصدام وأسياده.

لسّاتك تقول ما لي علاقة؟..

أبو علي اضبط أقواله وخلي عظامه تختخ بالسجن".

ثم ساد الصمت في تلك الغرفة اللعينة..

الطريق إلى تدمر: مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق

بعدها وفي نفس جلسة التحقيق العينة تلك طلب مني احدهم قائلاً لي:

- خود البس ثيابك يا ابن العر(..). لبستها، وقيد لي يدي ولكن هذه المرة من الأمام وطلب مني الوقوف، وجرني من كتفي خارجاً بي من تلك الغرفة.

ولكن لم استطع السير عل قدمي بشكل جيد نتيجة الضرب على أسفلها، إلى أن وصلنا المكـــان، وطلب مني الجلوس، جلست، ولكن ليس على الأرض إنما على ما بدا لي أنه سرير عـــسكري، ورفع عن عيني الطميشة

وأبقى يدي مقيدتين. إنه مكان دافئ، حيث كانت المدفأة مشتعلة. نظرت في الغرفة ومحتوياتهـــا فيها خزانة معدنية وأربعة أسرة عسكرية وخزانة صغيرة من الخشب على ظهرها عدة كؤوس فيها بقايا من المتة ومصاصات وسكر، وعلبة من الورق فيها المتة وقطعة من الورق على شكل ملعقـــة موضوعة في علبة السكر. وفي الزاوية الأخرى عند الباب هيكل كرسي ودولاب وعصي وكابل اسود وعصا مربوط فيها حبل من النايلون الرفيع.

لم استطع النظر إلى وجه المحقق الذي جاء بي إلى الغرفة بشكل جيد، ولكن كنت أسترق النظر إليه بين الفينة والأخرى، كان يضع ورق الكربون بين صفحات من الورق ويخرزها، وعندما انتهى من ذلك طلب مني أن أجاوبه على كل سؤال يطرحه. ارتحت بعض الشيء لذلك المحقق الذي بدا لي أنه لطيف.

كما هي العادة سألني عن تاريخ حياتي منذ ولادتي حتى هذه اللحظة. باشرت بالجواب وهو يكتب ما أقول.

ونحن في هذه الحالة دخل احدهم وقال للمحقق: شو هذا؟ قال له: سجين.

اتجه نحوي وصاح وهو غاضب: ليش بارك عل السرير يابن الشل(..) أنزل أقعود على (..) يـــا حيوان.

فرد عليه المحقق: شو خلاص مالك علاقة فيه، اطلع برا وأنت خليك قاعد محلك. وطلـــب منـــه المحقق أن يغادر الغرفة ويترك له المجال يشوف شغله.

وقف عند الباب ونظر إلي وقال: بسيطة يا ابن الشرمو(..) راح تخلص وبعدين أشـــوف شـــغلي معك يا مجرم.

أنت اللي فجر خط النفط، والله لفجر رأسك ورأس بيك .. وين بدك تطير مصيرك عندي.

أحسست أنه يريد أن يثأر مني رغم أنني لا أعرفه. كرر المحقق طلبه منه أن يخرج ودفعه وأغلـــق الباب وأكمل معي الأسئلة. وطلب مني إن كنت أشعر بالبرد أن أقترب أكثر نحو المدفأة. نعم في تلك اللحظة كنت أشعر بشيء من البرد، ولكن لم أجرؤ على الاقتراب منها رغم أنني أطمأنيـــت بعض الشيء له.

دخل اثنان ومعهم بعض الأوراق وجلسوا على السرير المقابل لي، ووضعوا الأوراق على الطاولة ثم نهض أحدهم وحمل الإبريق وصب فيه الماء من وعاء بلاستكي مهترئ بعض الشيء ووضـــعه

على المدفأة، وبقي الآخر ينظر في الأوراق التي بين يديه. أمّا المحقق الذي كان معي فقد كان ينظر إلي متوقفاً عن السؤال مراقباً نظراتي التي تجوب الغرفة، ثم تابع معي التحقق. أما المحققان الآخران الجالسان في الغرفة فكان أحدهما يقرأ في ورقة مكتوبة والأخر يدون على ورقة بيضاء ما يقرؤه ذاك. انه خرج من سورية في عام كذا وذهب إلى بلجيكا لدراسة الطب ثم عاد بعد سنوات إلى سورية وعمل مدرساً لمادة اللغة الفرنسية ثم ذهب إلى السعودية للعمل ومن هنالك غادر إلى العراق لإكمال دراسة الطب، وبعدها غادر العراق إلى الأردن، وعندما أنهى دراسته فتح عيادة في مدينة المفرق ومارس عمله كطبيب، ويرجح أنه منظم لليمين المشبوه كونه درس على نفقة الحكومة العراقية.

أحسست أن بعض هذا الكلام الذي تقصد أحدهم أن يسمعني إياه هو ما يخص أحد أقاربي الذي لم أره طوال حياتي إلا بالصورة، وصدق ظني عندما قال أحدهم: مزبوط هذا الكلام يا حسن؟

قلت له: لا ليس لي علاقة عما تتكلم عنه يا سيدي.

قال: الدكتور محمد مشا ابن عمك؟

قلت له: نعم انه ابن عمي، ولكن لم أره في حياتي.

قال: بسيطة مش مشكلة بس ابن عمك نحن نعرف عنه كل شيء وعامل حالو شيخ بالأردن.

رد عليهم المحقق: خلصتوا شيلوا بريق المتة واخرجوا من الغرفة، وخلونا ننهي شغلنا.

لملموا أوراقهم وحملوا إبريق المتة والكاسات وخرجوا، وتابع معي التحقيق بكل لطف. وعندما انتهي طلب مني الوقوف وخرج بي إلى أن وصلنا إلى أمام باب وطلب مني الانتظار ثم عاد مرة أخرى بعد مرور بعض الوقت، وعصب عيني وأدخلني إلى الغرفة التي كنت أنتظر أمامها وقدم التحية:

- احترامي سيدي، هذا هو حسن.

فرد: شو هالكلام هذا يا حسن.

- ما بعرف ما لي علاقة.

- هذا الكلام ما يفيد، بدي أبعثك على تدمر وهنيك قول ما بعرف ومالي علاقة.

وطلب منه ان يقربني إليه، فجرني المحقق إلى أمامه، وقال له: فك الكلبشة عن يديه، ففعل. وقال: تعال ابصم على أقوالك يا حسن.

بصمت وأنا معصوب العينين دون أن أعرف ماذا كتب في المحضر. وقال المحقق: إلى أين أخذه سيدي. قال له: شوف المساعد يحيى.

أمسك بي من يدي وجرني إلى مكان آخر، والمقصود مكتب المساعد يحيى. ودخلنا وقال له لقد أنهيت معه التحقيق وعرضته على سيادة العميد وبصم على أقواله.

قال لي المساعد: أين كنت من قبل، في أي سجن؟ قلت له: لا أعرف، ولكنني كنت في الزنزانة. قال: جيد خذه إلى سجنه الجديد.

قدم له التحية، وأخذني وسلمني إلى أحدهم في الطريق، وطلب منه أن يضعني في المكان الذي حدده المساعد.

وكنت في تلك الأثناء متعباً والألم بدأ يتسع في جميع أنحاء جسدي، وخاصة ظهري الذي جلدوني عليه. جرني كما يجر الخروف إلى النحر، وهو يسب بي ويشتم أمي وأختي ويطلق عليهن من الألفاظ التي لا يمكن أن تحتمل. وفتح الباب ودفعني من الخلف إلى الداخل ثم أغلق الباب، رفعت عن عيني الطميشة ونظرت داخل الغرفة فوجدت عدة أشخاص معصوبي الأعين.

نظرت في إحدى الزوايا وشعرت بأن هذا الشخص قد أعرفه رغم الوجع الذي أنا فيه. اقتربت منه ونزعت عن عينيه الطميشة، فإذا هو عبد الخلف الذي كنت اعرفه منذ سنوات الطفولة في القرية والمدرسة. دار بيني وبينه بعض الحديث، كان يحدثني هامساً خائفاً، ولكنه شعر بالاطمئنان بعض الشيء.

قلت: لماذا أنت هنا؟ ضحك وقال: مثل ما أنت هنا بالضبط. قلت: غريب أنت بعثي وعضو عامل في الحزب، ليش جابوك لهون، أنت معهم مش ضدهم؟ ضحك وهز رأسه وقال: هاذول ما بيعرفوا أحد .. لا معهم .. ولا ضدهم. وضرب مثلا: "هاذول مثل القط أول ما يأكل أبناؤه إذا شعر بالجوع".

وقال: على كل حال هون في بالغرفة علي الفهد وشباب آخرون، ومحمد وفيصل في الزنزانة عند المدخل. البارحة طلب مني الرقيب أن أوزع الطعام وشفتهم موجودين، ونحن هون من الرقة حوالي أربعين سجيناً كلنا نفس التهمة. ومنذ يومين كانت في بنت من الرقة في الزنزانة الأولى اسمها شمسة، ولكن على ما أظن أطلقوا سراحها لأنوا ما عاد أسمع عنها شيئاً.

وفي تلك اللحظة شعرت بألم في أمعائي لا يحتمل، وجسدي كأن إبراً توخز فيه، مما اضطررني لخلع ملابسي.

وسمعت صوت بكاء عبد، وتجمع الآخرون من حولي وهم ينظرون إلى ظهري الذي حرثته السياط، فأجهشوا جميعهم بالبكاء.

بقيت على هذه الحال والمكان نفسه لعدة أيام، ثم نقلوني إلى مهجع آخر مليء بالسجناء عرفت أكثرهم، فمنهم من أقاربي ففهموا لماذا أنا هنا. المكان مزدحم ومليء بالقمل، والجميع يتبولون

داخل المهجع وعلى البطانيات أو في أواني بلاستكية كما هو الحال في الزنزانات. الأواني للتبول والتغوط، وبنفس الوقت نضع فيها طعامنا.

ومن تلك الغرفة أصبحت الطريق سالكة إلى تدمر مروراً بأقبية التحقيق التي لا زالت تنتظرنا.

في الطريق الى تدمر.. مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق

توقفت الحافلات التي تقلنا عن المسير وتوقف هدير محركاهٓا، وبدأت أصوات هٓنئهم بالوصول بالسلامة. أما بالنسبة لي فقد بدأت الرحلة مع انتهاء مرحلة السجن الأولى التي مررت بها بفرع المخابرات العسكرية ولم اعد أتذكر الجحيم الذي مررت به، وأنا أتنقل من محقق إلى آخر، بل وإني نسيت معظم الألم والتعذيب، وأنا الآن اجلس في الحافلة انتظر أمر النزول، النزول الى عالم مجهول آخر قد يكون اصعب وأشد مما كنت فيه.

أبو هارون لم يعد يهددني بالاغتصاب وصعق الكهرباء الذي أذاب أطراف أصابع يدي وعضوي الذكري الذي بدأ يتماثل للشفاء مع بقية أجزاء جسدي، فظهري الذي حرثتة الكرابيج اصبح كما قطعة من الخشب.

فجأة ارتعش جسدي وتعطلت كل حواسي على صوت مرعب مخيف فيه نبرة الموت والدم .. انزلوا يا اخوات الشرمو(..) .. هنا نهايتكم، نهاية كل خائن وعميل، عملاء .. الموت بانتظاركم، نزلت من الحافلة ومعي ثلاثة من السجناء معصوبي الأعين ومقيدي الأرجل واليدين مع بعضنا بعض، ضربات الكرابيج ترافقها صيحات الذين نزلوا من قبلنا، كنت انتظر الأوامر كي أتوجه إلى الصوت الذي اسمعه ولا أرى صاحبه، ما ان وطأت قدامي الارض حتى تلقيت ضربت قوية على الرأس تلتها ضربات أخرى أكثر واشد قوة مما جعلني لا اعلم ما أنا فاعل، يداي ورجلاي مقيدة ولا استطيع ان احمي رأسي الذي يصدع من شدة الألم ولا استطيع الهرب، اخذنا نجر بعضنا بعضاً لا ادري لأي جهة بينما ترافقنا الضربات المبرحة والأصوات التي تشتم أمهاتنا وأخواتنا وينعتوهن بأقذع ما يمكن أن يسمعه بشر، هكذا الى ان نزل الجميع، وساقونا الى امتار قليلة وأمرونا بالجلوس. طنين في أذني يتصاعد ورائحة الدم الذي يسيل من انفي على خدي يحسسها بحرارة العذاب، هذا كان مصير الجميع الكل تعرض للضرب والتعذيب وكثر هم من فقدوا وعيهم نتيجة الضرب المبرح على الرأس منهم من كان يستخدم العصي للضرب والبعض الآخر كابلات فولاذية والبعض الآخر سلاسل معدنية، بقينا هكذا لوقت طويل. بعدها طلب احدهم عدنا وكان عددنا حوالي ٥٨ سجينا .. هؤلاء كلهم همة واحدة .. رد احدهم نعم سيدي (يمين مشبوه) فكوا عن أعينهم وأرجلهم وأدخلوهم إلى تحت .. حاضر سيدي .. واقفا يا عر(..). وقفنا وفكوا عنا الأشياء التي كانت تقيد أرجلنا وأعيننا وتركوا أيدينا مقيدة، توجه السجناء

الذين هم في المقدمة نحو أحد العناصر يرتدي الزي المدني بينما الآخرون الذين يحيطـون المكـان مدججين بالعصي والكرابيج الغليضة، وبعض العناصر يحمل السلاح وجعبة من المخازن مصوبين فوهة بنادقهم نحونا ولكنهم يبعدون عنا عدة أمتار.

سرقت ناظري من حولي إلى من كان معي قبل الصعود إلى الحافلات وجدت منهم البعض، منهم من تورم رأسه نتيجة الضرب ومنهم لا يزال يسيل الدم من انفه، والبعض الآخر وجهه متورم.

الموت أصبح اقرب لنا من العين وجفنها وكم أتمناه واشتهيه في تلك اللحظات، قدمي تسير ببطء نحو مدخل ضيق يحاط بعناصر على جنباته، وسرعان ما ثاروا علينا بصرخاتهم وضرباتهم مما جعلنا نتدافع نحو المدخل الذي يليه درج مباشرة نحو الأسفل، نتيجة التعذيب والضرب تـدافعنا عنـد المدخل، سقط العديد تدعسه أقدام المرعوبين من الضربات المميته، فجأة وجدنا أنفسنا أمام باب معدني تلفه قضبان طولانية من المعدن على شكل شبك، وقفنا أمامه بينما كانت مجموعة كبيرة من العناصر بداخل الشبك يحملون بأيدهم العدة والعتاد، ارجعوا الى الوراء يا اخوات الشرمو(..). تدافعنا الى الوراء ولكن لضيق المكان لم نستطع واصحبنا بين نار الشبك الذي ننتظر ان يفتح لنا، وضربات العناصر الذي هم من خلفنا، كثُر صراخنا يرافقه صدى المكان .

من شدة الضرب تدافعنا من زاوية الى اخرى، حتى نتيح مجالا أمام الشبك لفتحه، رغـم ضـيق المكان اتسع بنا فتح الباب وأمرونا بالدخول وبدأنا ندخل وأرشدونا إلى زنزانة جماعية مجاورة لهـا باب من الشبك المعدني كبير وواسع

.. رد احدهم قائلا الكل يجلس ووجهه باتجاه (الحيط يا اولاد البعنوصة)؟؟؟ مصطلح جديد مـن الألفاظ لم اسمع به من قبل.

جلست بل كان حظي جيدا انني في الصف الاول وهذا يجعلني اسلم من الضرب والجلد قلتها في سريرتي ولكن سرعان ما تلاشت تلك الفرحة عندما تلقيت ضربة قوية على رأسي .

أنت يا ابن الشلك(..) تعا لهون. لم أتحرك متظاهرا بأني لم اسمعه .. وتلتها ضربة ثانية. وقال شـو بتعرف انو ما أحكي معك، وقف يا صرصور. وقفت وأمرني بالخروج من الصف، خرجـت، لا تكاد قدماي تحملانني، وصلت الى الجانب الاخر، جرني احدهم بسرعة الى خارج الزنزانة وامرني ان اغمض عيني وارفع رأسي، وسرعان ما تلقيت صفعة على وجهي وبعـدها لكمـة قويـة ولم استطع ان أغمض عيني حتى ينتهي من التعذيب بل فتحتهما، ومن شدة رهبة المنظـر والخـوف رجعت وأغمضتهما، ثم فتحتهما ثانية وشاهدت من حولي أكثر من خمسة عشر عنصرا من عناصر الأمن قادمين نحوي منهم من يركض ومنهم من يلوح بعصاه وآخرون بكرابيج.

أين المفر مما انا فيه، نزلت الصاعقة على جسدي، وانهالوا علي بضربات لا تحتمل قوية ومؤلمة لدرجة الجنون، وكنت اتطلع حولي وبقع الدم على ارض المكان بينما كنت انزف ولا ادري من أين مكان النزف. وانا في تلك الحالة مددت يداي المقيدتين الى رأسي، لم استطع ووقعت على الأرض بعدها .. لا أدري ربما فقدت كامل وعيي.

استيقظت بعدها وجدت نفسي ممداً على الأرض لا أقوى على الحركة، خدي ملتصق بها، وبركة من الدم المتجمد بعض الشيء، تحسست جسدي ومددت يدي على وجهي ووجدت الذي بدا أنه متورم، بينما أصوات من مكان آخر فالبعض ما زال تحت التعذيب..

أصوات القائمين على المكان مجهولة، اسمائهم مجهولة، وأشكالهم مجهولة. حقا انه مكان مجهول ومعزول عن العالم، انه لا يشبه فرع المخابرات الذي كنا فيه، رغم انه تم عزلنا هنالك ومنعنا من الاتصال مع احد وخاصة مع بعضنا بعض حتى نهاية التحقيق..

مملكة الرماد .. مجرد موت واحد

قبل أيام كان جسده يتحرك صامدا، بعد مجيئه من جلسة" المحكمة" سقط جسد ابو الحارث ممددا في الأرض، ينتظر الوداع، وجوه شاحبة ودموع من احبوه تسيل، والشيخ ابو حذيفة يجلس عند رأسه يمسح له جبينه، باكياً تارة وأخرى يمد ذراعيه إلى ربه متوسلا أن يرحم من سيرحل إليه.

كان يوما صعبا للغاية نزفت دماء كثيرة، تشوهت وجوه وكسرت أضلاع، كل جسَد ينتظر الرحيل، وإخوته صامتون عاجزون قد جفت أعينهم بانتظار لحظة الوداع.

ساعات تمر بنا ببطء، الموت والخوف رفيقان في السجن يتربصان بنا، أما نحن فموعدنا إذا لم يكن اليوم فغدا، جسده تلفه قماشة بيضاء رائحته كالمسك طيبة كطيبة قلبه، كان يحلم بالحرية، ويبكي على رفقة العمر: زوجة أحبها وأطفال تركهم هناك ينتظرون، يترقبون ظلا يفرحهم، نحيل الجسد قوي الإرادة مؤمن صادق يحب الله كثيرا ويخاف منه. كان لينا وقاسياً، مزّاحا وباكياً تشده الرجولة إلى الموت وترجعه الحياة لحبها، كان كورقة "الغرب": مزهراً ومخضراً ومتبسماً دائما، وعند الشدائد يشدنا متقدما كرجل، فلتبك أيتها السماء، واذرفي الدمع يا أيتها "الناطرة" عند مدخل الحي واصرخ أنت من هناك وناد لمحب أثقله طول انتظار، عيناه مكحلتان بأثر الكرابيج والعصي .. شاخصتان إلى سقف المهجع يلوح يهما يبحث عن ثغرة في ذاك السقف المحصن راجيا أن ينعم برؤية السماء، متشفعاً ثم يسدلها، تستفيق ثم تغفو، العرق يتصبب من جبينه الشامخ المتورم، جلست بجانبه، نظر إلي وتبسم، وسالت قطرة الدمع من طرف عينه وتوقفت عند منتصف خده الذي تعرض لصفعات الجلاد حيث ارتسمت معالم أصابع كفه لترسم خطوطا ملونة ما بين زرقاء وحمراء وصفراء وعلى أطرافها لون بني داكن، إنها أجمل من ألوان قوس قزح،

صديقي رفيقي، لا تودعني وابق عينيك مفتوحتين، سنخرج معا، نفرح بالحرية ونتسامر كما وعدتني، سنجلس على ضفاف الفرات، بين شجيرات الغرب والحور، وكأس الشاي التي سنشربها معاً، وعدتني أن نمر من أمام بيوتنا، اصبر أيها الجميل ابق معنا لليلة أخرى، فأنا محتاج إليك، كما تحتاج صحراء قاحلة إلى قطرة ماء، ابو الحارث يا وجعا، يا ألما، انتظر حتى بزوغ الفجر، لا تتركني مع صرخات الجلاد وبوطه العسكري وتهديدات الموت، بالأمس كنا نتبادل أطراف الحديث، كنت تناديني بالأحمر، وأناديك بالأخضر، كنت أغني لك من أغاني أحمد قبور، كنت تنشد لي في حب الرسول، لا استطع أن أقاوم لحظة الفراق، سالت الدمعة وأنا أمسك بأطراف أصابع يده المنتفخة، أزيل منها بقع الدم المتجمد، فسقطت قطرة الدمع والحل القليل منه، ثم سالت بين حبيبات الشعر الذي تكسو أطراف معصمه النحيل، كنت أحس بحرارة جسده تتلاشى شيئا فشيئا، جلس بجانبي المسؤول الصحي واخذ مني معصمه، ثم وضع عليه أطراف أصابعه ليجس نضبه الذي يقاوم في لحظاته الأخيرة، سحب يده من يد المسؤول الصحي ووضعها في يديه هامساً كالقمر يعبر السهوب ويجتاز الأنهار، كان ينطق من عينيه بكلمات، الرجاء، الحب، الحياة، كان ينطق بشفاه مرتعشة صوت الرقيب في الخارج ينادي بالمسؤول الصحي..

- افتح شراقة الباب يا عرصة .. فأسقط منها علبتين من الدواء، وهي عبارة عن ظرفين ملبس واحد مسكن للألم والآخر مضاد حيوي وفي كل ظرف عشرة حباتز

فرح المسئول الصحي جدا بعد خمس عشر يوما من المطالبة به، كم من الدماء سفحت من أجل علبتين من الدواء، فتح علبة الدواء وطلب كأس من الماء ثم جلس إلى جانب ابو حارث كي يعطيه جرعته وعندما اسند رأسه إلى قدميه، لوّح بعينيه وودع الجميع .. وبقيت حبة الدواء بيد المسؤول الصحي، وكأس الماء التي تتناثر منها القطرات مرتجفة، خائفة، وحزينة.

عند المساء جاؤوا إلينا .. فتحوا الباب دون أن نشعر بقدومهم بينما كان الصمت يخيم على المكان قبل قدومهم

طلبوا رئيس المهجع والمسؤول الصحي وسألوه عن سبب الوفاة فقال لهم لقد وقع في الحمام على رأسه ومات

وهذه هي العبارة التي حفظّونا اياها كلما رحل من بيننا سجين، دخل مساعد السجن إلى داخل المهجع تفوح من بين خطواتة رائحة الموت الممزوجة بعطره المميز ودخان سيجارتة التي لا تنطفئ .. صوته ردد في أسماعنا يا أبنائي ديروا بالكم على حالكم وخاصة في الحمام لا تضعوا قطع الصابون على الأرض تسبب لكم الموت حتماً، وخاصة من بينكم سجناء عاجزين وكبار في السن وعميان كمان..

وعلى كل حال غسلوه وكفنوه واربطوا الكفن جيدا وبعد عشر دقائق سيخرج .. مفهوم رئيس المهجع يا كلب .. مفهوم سيدي .. ثم خرج.

وبعد اقل من نصف ساعة كان جثتة جاهزة. للخروج ربطناه في شرشف ابيض تبرع بـه احـد السجناء وهو الغطاء الوحيد لديه، ادخله معه عندما جاء من فرع التحقيق ولم يصادروه منه عند دخوله إلى السجن.

وضعناه على بطانية عسكرية ومددناه قرب الباب، وتركنا الغطاء من ناحية الوجه شبه مفتـوح، حيث مر السجناء يلقون عليه نظرة الوداع الأخيرة وفي تلك الأثناء صاح الرقيـب .. رئـيس المهجع ابن القح(..) .. الكلب جاهز ..

صاح نعم أنا جاهز سيدي .. بينما كانت خشخشة المفاتيح تحاول إيجاد ثقب القفل فتح المـزلاج المعدني الذي يصدر صوتا مدويا يبعث في نفوسنا الخوف والرجفان.

يللا .. يا عرص طالعوه..

أمسكت بطرف البطانية من ناحية قدميه بينما امسك الآخرون الأجزاء الأخرى وخرجنا بـه إلى الباحة. طلب احدهم أن نضع جثته على الأرض، وطلب المسوؤل الصحي، وقال فك عن الرباط من ناحية الوجه، ففعل المسئول الصحي ذلك. ثم نادوا رئيس المهجع، وعندما كشف وجه ابـو الحارث تماما وضع احدهم حذائه على وجهه، ورد قائلا: مسوؤل صحي هـذا هـو؟ اقتـرب المسئول الصحي من الجثة بينما هو لا زال يضع أسفل حذائه على وجهه .. قال تأكد يا عـرص انه هو..

- نعم سيدي هو.

رفع حذاءه ثم استدار ورفس المسؤول الصحي على وجهه.

سالت قطرات الدم من انفه مباشرة على أطراف الكفن الأبيض، ثم حملوه وذهبوا ولا أحد منـا يعلم أين سيكون مثواه الأخير.

[الشهادة الثانية عشر]

هل سيأتون الليلة[8] ؟ بقلم : د. جميل قدري[9]

---

[8] هذه الشهادة منقولة من موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنترنت .

[9] كاتب سوري

هذه أحداث حقيقية حدثت معي في عام ١٩٨٠ وقد تم تغيير الأسماء للضرورة فقط .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً؛ عندما بدأ قلبي بالانقباض كسائر أفراد العائلة، حيث أخذت أمي بالتساؤل برعب: هل سيأتون هذه الليلة؟ .. كعادتهم في منتصف الليل يدقون الباب كالوحوش ويدهم على جرس الباب، آه من صوت ذلك الجرس اللعين كم أكره صوته عندما يدق ولا يتوقف، حيث أعرف أن عناصر المخابرات ستتدفق إلى بيتنا كالبغال بمجرد أن نفتح الباب. قلت لأمي: إن شاء الله لن يأتوا، فقد كانوا هنا منذ يومين عندما جاؤوا يسألون عن أخي كمال، وقبلها بأيام ثلاثة كانوا للسؤال عن أخي جمال. ولتغيير مجرى الحديث، قام والدي بتشغيل التلفاز (وكان عرض آنذاك مسرحية "المتزوجون" المصرية لسمير غانم) وها هي الضحكات تنطلق من مشاهدي المسرحية، لكن بالتأكيد حتى ابتسامة لم تصدر عن أمي التي كانت تنظر إلى الساعة لحظة بعد أخرى، ويدها تمسك بحجابها الذي اعتادت أن تلبسه بسرعة الريح قبل أن دخول الوحوش إلى بيتنا. ومضت ساعتان .. وفجأة دق جرس الباب اللعين كالعادة في مثل هذا الوقت بلا توقف، يصاحبه طرق عنيف على الباب باليد وركل بالأقدام .. ارتعدت أمي وصاحت جاؤوا! واندفع أخي سعيد ليفتح الباب، وخلال ثانية واحدة كان بيتنا مليء بوحوش المخابرات السورية بكامل عتادهم، وكأنهم على خط الجبهة الأول. انطلقوا يفتشون البيت زاوية زاوية، في حين كنا أنا وأمي وأبي، وأخي سعيد وأختي الصغيرة ذات الخمسة أعوام؛ نقف بجانب الجدار ممنوعين من الحركة. وبعد دقيقة كأنها سنة؛ سألوا أبي: أين جميل؟ سقط قلبي بين قدمي من هول المفاجأة بالرغم أنني قد شهدت خلال الشهور الماضية أكثر من ٢٠ مداهمة ليلية لبيتنا كان السؤال فيها عن أخوتي كمال وجمال، لكن الوضع هذه المرة مختلف فالسؤال عني أنا!

كنت أبلغ من العمر آنذاك ١١ عاماً، نعم يا سادتي أحد عشر عاماً، وها أنا ذا أكتبها كتابة ورقماً حتى لا تظنوا أن في الأمر خطأ مطبعي. أعاد الوغد السؤال ثانية وهو يصرخ: "ولك قل لي أين جميل؟"، فأشار أبي إلي بإصبعه وقال لهم: هذا جميل ماذا تريدون منه، إنه طفل صغير. ونظر الضابط إلّي مصدوماً حائراً وابتعد عنا خطوات باتجاه المطبخ، وأخرج جهاز اللاسلكي واتصل برئيسه قائلاً: سيدي جميل هذا ولد صغير!! وجاءه الجواب مباشرة: عندما قلت لك أحضر جميل لم أقل لك جميل ولد كبير أو ولد صغير، قلت لك أحضر جميل "يالله جيبو بسرعة".

كان الحوار مسموعاً واضحاً، فبدا أبي يتوسل إلى الضابط ويرجوه أن يأخذه بدلاً عني، إلا أن الضابط دفعه جانباً وتقدم باتجاهي قائلاً: "البس برجلك وامشِ معي، يالله بسرعة تحرك". عاد أبي يتوسل وأمي تبكي وتصيح، إلا أن الضابط قال لهم وهو يظن أنه يطمئنهم: "لا تخافوا رح يروح

معنا ٥ دقائق وبنرجعو لعندكم"، ناسياً هذا الوغد أن الصغير والكبير في بلدنا أصبح يعرف خمس دقائقهم تلك التي لا تنتهي أبداً.

لم يسمحوا لي بتغيير ملابس النوم بنطلون البيجاما وفوقه فانيلا صيفية، فقط سمحـوا لي بلـبس "شحاطة" بلاستيكية، انظروا إلى هذا الكرم. ونزلت معهم إلى السيارة بلها السيارت، والدهـشة تعقد لساني وعيوني تلتفت في كل الاتجاهات. وبدأ عناصر المداهمة بالتجمع حـول الـسيارات، وانطلقت إشارات مصابيح بطارياتهم ترسل إشارات خاصة إلى سطح عمارتنا تشير لمـن فوقهـا بالنزول، فقد انتهت الحرب، عفواً المهمة. كان عددهم كبيراً جداً، كانوا منتشرين في كل مكان، فهم قد جاؤوا للقبض على "الزعيم الأوحد" (هذا ما قاله صديق ابن عمي، حيث قال له: كنت ماراً في منتصف الليل في حارتكم ووجدت المخابرات في كل مكان وعلى أسطح ٣ عمـارات، و٤ سيارات، والوضع غير طبيعي. فقلت في نفسي: إنهم سيقبضون على "الزعيم الأوحد"، فرد عليه ابن عمي: نعم .. نعم لقد قبضوا فعلاً على الزعيم الأوحد، وهو ابن عمي جميل ابن الأحد عشر عاماً).

اندست العناصر داخل سياراتهم ووضعوني في سيارة "بيجو ستيشن ٥٠٤" والتي مجرد رؤيتها لأي سوري تزيد من دقات قلبه، جلس في المقعد الأمامي رئيسهم وبجواره السائق. وحـشروني بـين وغدين على اليمين واليسار في المقعد الأوسط، بينما جلس ٣ عناصر في الستيشن وبابها مفتـوح وهم يمسكون برشاشاتهم (هذا التوصيف لمن لا يعرف المخابرات السورية، أما من رآهـم فهـو يعرف كيف يجلسون ويتجولون في أرجاء المدينة). أما السيارات الثلاثة الأخرى فقد كانت عبارة عن بيك آب (شاحنة صغيرة) جلس فيه اثنان بجانب الـسائق وواحـد في الـصندوق الخلفـي والسيارة الثالثة من نوع "رنج روفر" إحدى أشهر سيارات المخابرات، وكانت مليئة، حيث تتسع لـ ١٠ عناصر، وخلفنا كانت تسير السيارة الرابعة، وهي سيارة "جيمس" لـ ١٢ عنصر أيضاً. وتحرك الموكب ومعه "الزعيم الأوحد" الذي دوخ البلاد والعباد، والذي احتاج لـ ٤ سـيارات مليئة بـ ٣٣ عنصر للقبض عليه.

وانطلقت السيارات تهوي باتجاه مبنى المخابرات العسكرية في حلب، وفي الطريق انطلق صـوت لاسلكي الضابط طالباً منه المرور بمنطقة شارع العزيزية لإحضار ضحية أخرى، وانعطف الموكب وتكررت العملية أمام ناظري، وتدافع الوحوش إلى الأسطح والعمارات، وعادوا برجل معصوب العينين وأدخلوه سيارة البيجو ليرموه بجانبي. ومضى الموكب إلى فرع المخـابرات العـسكرية في السريان، وحال وصولنا أخذني رئيس المداهمة إلى ضابط كبير، وبدأ يسألني عن أهلي وعن إخوتي جمال وكمال وأين هم الآن، وأنا أجيبه: لا أعرف .. ضاق بي ذرعاً، وبعد قليل رن هاتف بجانبه،

ومن ثم ضغط جرساً بجانبه ليأتي عنصر طلب منه أن يأخذني لـ "المعلم"، وانطلق بي عبر سلالم حتى وصلنا إلى جناح فاخر، طرق على الباب وأدخلني، شعرت برجفة اجتاحت عظامي، فقد كان المكتب مكيفاً بارداً وأنا بملابس النوم. تمالكت نفسي، دارت عيناي في أرجاء المكتب، كان واسعاً جداً، طويلاً جداً يجلس في صدره رجل ضخم أصلع أمامه مكتب ضخم وبجانبه أكثر من ١٠ تلفونات، أما المفاجأة الكبرى فقد كانت لوحة ضخمة فوق رأسه مكتوب عليها آية قرآنية كريمة: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" يا للمهزلة، صدقوا أو لا تصدقوا، فوق رأس هذا المعلم - الذي علمت فيما بعد أنه (..) مصطفى التاجر الذي يعرف جميع الحلبيين ظلمه، وفيما بعد كثير من السوريين والعرب بعد ترؤسه فرع فلسطين – فوق رأسه آية قرآنية كريمة عن الحكم بالعدل!

أعاد عليّ التاجر كل الأسئلة السابقة، وأجبته بأني لا أعرف شيئاً، فعلاً أنا لا أعرف شيئاً، وماذا يعرف طفل في الحادية عشر من عمره إلا اللعب والمدرسة؟ لم يعجبه جوابي، فقال لرجل يجلس عنده في المكتب: يبدو أن هذا الولد يحب أن يجرب الدولاب. ونظر إليّ، ولّما لم يبد عليّ التأثر، أدرك بذكائه الخارق أنني لا أعرف حتى ما هو الدولاب، فأردف قائلاً: "شوف ولك كلب يا بتحكي كل شي بتعرفوا يا بقول للعناصر يعلقوك بالفلق ساعتين". وهنا بدأت أبكي، فالآن عرفت ماذا يقصد، فالفلق وسيلة تعليمية رائجة في مدرستنا، وأغلب الطلاب يعرفون طعمها بمن فيهم أنا. بدأت أصيح: "يا عمو والله ما بعرف شي ولا بعرف وين إخوتي .. يا عمو الله يخليك، والله ما عملت شي". وبدا له أنني فعلاً لا أعرف شيئاً، فرن جرساً بجانبه، وقال للحرس: خذوه.

أخذوني وأدخلوني إلى الزنزانة الجماعية، كانت مزدحمة بعدد كبير جداً من الرجال، الجميع يجلس وقدميه تحته حتى يفسح المجال، وسط الغرفة مليء أيضاً. لا تزيد مساحتها عن ٤×٣ أمتار؛ تحوي أكثر من ٥٠ رجلاً، كما عددتهم فيما بعد.

بقيت فيها ٥ أيام، كانت كألف ليلة وليلة بالنسبة لي، من حيث الزمن كانت ألف ليلة، ومن حيث المشاهدات والغرائب كانت كقصة ألف ليلة وليلة الشهيرة. كان فيها طالب الطب الذي كان يدرس في تركيا وعاد متخرجاً ليستقبل من المطار إلى الزنزانة، المشكلة تشابه أسماء .. المدة التي قضاها حتى سماعي قصته شهرين! فيها المهندسون والطلاب وشباب سوريون دفعهم الحماس للتطوع في لبنان ووجدوا أنفسهم في قبضة المخابرات السورية. كان معنا شخص إيراني أذكر أنني صعقت لرؤية قدمه اليسرى وقد حفرت بتأثير الضرب عليها، حتى بانت عظام القدم والقيح يفيض منها، كان منظراً مؤلماً. كل واحد فيهم كان له قصة أكثر غرابة من أخيه.

أول ما رموني في الجماعية حاول السجناء أن يخففوا عني والسؤال عن سبب وجـودي، ولكـن سرعان ما فُتحت طاقة صغيرة من الباب الحديدي؛ ليزمجر سجان متوحش: "ممنوع حدا يحكي مع الولد، وإذا شفت حدا بيحكي معو رح أطالعو لعندي" .. وبدأ بذكر سباب لم أسمع لـه مثـيلاً. كان هذا التهديد كافياً ليرعبهم ويجلسهم صامتين، ويبدو أن الخروج إلى عند ذلك المتوحش يعني الكثير، وهذا ما عرفته فيما بعد.

أذكر قصة لواحد من هؤلاء المساكين، كان يقف على المخبز يتزاحم مع الناس عله يفوز بـشراء كيلوغرام من الخبز، ذلك الخبز الذي جعل حافظ الأسد شراءه بعد الساعة ٩ صباحاً حلمـاً .. كان يقف ذلك الرجل، وإذا بعنصر مخابرات يقف خلفه ويلمح في جيب هذا المسكين محفظتـه، فمد هذا العنصر يده سارقاً المحفظة، وانتبه صاحبها، وبدأ يصيح: حرامـي حرامـي، إلا أن ذاك العنصر كان حاضر الشيطان – عفواً البديهة – فأفصح عن هويته قائلاً: "ولك يا حرامي بـدك تسرق رجل أمن"؟ وبلحظات انقلب الحق إلى باطل، وأصبح المسروق سـارقاً، ولم يكتـف ذاك العنصر بذلك، بل صاح بالمسروق: "قدامي عالفرع يا حرامي يا ابن ..". وسـاق المـسكين إلى الفرع، وتناوب هو ورفاقه على ضرب ذاك المسكين حتى أنهم – وأذكر ذاك جيـداً – قـشروا جزءاً من جلد ظهره على آلتهم الجهنمية "بساط الريح"، والأسوأ من ذلك أنهم سـجلوا اسـم الرجل في دفتر التفقد اليومي بـ "الحرامي"، فكان الرجل يقول حاضر سيدي عندما ينادى على الحرامي.

وقصة أخرى لعجوز يبلغ من العمر ٧٥ عاماً، وكان يشبه جدي، حين دخل السجان "مين منكم ما راح عالحمام؟"، فرفع العجوز إصبعه دون أن يقف على قدميه، فجن جنون السجان، وصاح: "بترفع إصبعك دون أن تقف يا ابن ال ..."، وانهال عليه ضرباً، "ما بدك توقف على رجليك يا .. أنا بعرف شلون أخليك تقف على رجليك".

أما ما لا أنساه أبداً، فهو صراخ تلك المرأة في منتصف الليلة الثانية لقدومي وهي تستغيث مـن شدة التعذيب، وتقول لجلادها: "ما عندك أم، ما عندك أخت، منشان الله"، وما يزيد ذلك اللئيم إلا أن ينهال عليها ضرباً وشتماً وسباً. لا أنسى تلك الصرخات التي تدوي في رأسي مـستغيثة، وما من أحد يملك أن يساعدها إلا الله.

في اليوم الثالث طلبوا مني، وبما أنني صغير السن ولا أقدّر الأمور ولا أعرف الأشخاص، طلبـوا مني أن أقوم بالمساعدة بتوزيع الطعام على زنازين المهجع الذي كان يضم حـوالي ٢٠ زنزانـة انفرادية وواحدة جماعية.

كنت أساعد سجيناً آخر يقوم بمهمة توزيع الطعام، ويبدو أن لهذا السجين واسطة قوية ليقوم بأعمال السخرة من تنظيف للحمامات وتوزيع للطعام، لكن بعد انتهاء مهامه يعود إلى زنزانته ليقفل الحرس عليه الباب، يطلق عليه في السجون السورية عادة لقب "الخزمجي". الطعام عبارة عن برغل منقوع ولا أظنه مطبوخاً من شكله وطعمه. بدأنا بالتوزيع، أنا أحمل الصحون والخزمجي يدق الباب ويفتح الشباك مناولاً الصحن للسجين، وعند الزنزانة رقم ٨ فتحت نافذتها، فإذا بوجه امرأة يطل منها، فقالت للخزمجي: "أرجوك بنتي بدها تروح الحمام"، فهمس قائلاً: "منشان الله بسرعة وبدون صوت أحسن ما أتبهدل". وفتح لها الباب، فإذا بفتاة تبلغ من العمر حوالي ١٥ عاماً تقف خلف أمها، يا إلهي كان منظراً لا ينسى، أم وابنتها في زنزانة انفرادية! انطلقت الفتاة بسرعة، وبقينا نحن ننتظرها، وحين عادت أغلق الخزمجي عليهما الباب، وتابعنا توزيع الطعام إلى الزنزانة رقم ٩، وكانت امرأة أيضاً، لكن هذه المرة كان وقع المفاجأة أكبر، فهذا الوجه وجه خالة أم وليد، جارتنا في العمارة المجاورة لنا، إلا أن وقع المفاجأة كان أكبر عليها لتراني في السجن، قالت لي: جميل ماذا تفعل هنا؟ ما لذي أتى بك إلى هنا؟ فسرت فيني موجة من البكاء والخزمجي يتوسل لي: "منشان الله اسكت أحسن ما يجي جاسم ويعذبنا"، قلت لها: "خالة أم وليد الله يخليك خلصيني من هون". طلبت من الخزمجي أن يفتح لها الباب لتراني وتتكلم معي للحظات، قالت لي: "والله يا ابني عذبوني عذاب شديد بنص الليل يا ابني هادول ما بخافوا الله، خلعوا كل ملابسي وتركوني عارية وهم يضربونني بالكابلات، ربطوا أسلاك الكهرباء بكاحلي انظر إلى أقدامي" (كانتا مليئتين بالبقع البنية بسبب حروق الكهرباء) تابعت قائلة والخزمجي يرجوها أن تسرع لزنزانتها .. قالت لي: "صحت بالسجان واستنجدت به وذكرته بأن له أختاً وأما، إلا أنه سب أمه وأخته وأمي ولم يستثنِ أحداً". قلت في نفسي: إذاً كانت تلك الأصوات في الليلة الماضية أصوات واستغاثات خالة أم وليد التي طلبت مني قبل أن يدخلها الخزمجي إلى زنزانتها أن اخبر زوجها أبو وليد عن مكان وجودها، حيث أنهم أخذوها في منتصف الليل دون أن يدري أحد إلى أين.

اختنق صوتي وأنا أنظر إليها فأرى صورة أمي فيها، والتي كان إحساسها لا يخطئ في توقع قدوم المخابرات، والتي سقطت مغشياً عليها – كما علمت بعد خروجي – عندما بدأ أهلي يسألون عن مكان وجودي، ونجحت إحدى الوساطات في إخبارهم أنني موجود في فرع المخابرات العسكرية السريان، وعند وصول أهلي عند الحرس، قالت لهم أمي: أريد أن أرى ابني الصغير جميل، فرد عليها وغد منهم ببرودة أعصاب: "مين ابنك إن شاء الله هذا الولد الصغير اللي جابوه من ٤

أيام؟"، فقالت أمي وقد تهلهل وجهها: نعم إنه هو، فتابع الخنزير كلامه: لقد أعدموه البارحة فقط. فسقطت أمي مغشياً عليها على درجات فرع المخابرات.

في اليوم الخامس وبعد اتصالات مضنية قام بها والدي، جاء الجلاد منادياً عليّ فقمت مسرعاً، فأخذني إلى غرفة الضابط المسؤول حيث قال لي: "الآن رح نطلعك، بس إذا بتحكي لحدا شو شفت أو سمعت ترى بجيبك لهون وما بتطلع مرة ثانية فهمت ولك ..".

قال لأحد العناصر: خذه وأوصله إلى بيته، وأخذني ذلك العنصر إلى غرفة ثانية وقال لي: "اجلس كمان شوي بتجي السيارة بوصلك"، وتأخرت السيارة، ونظرت إليه فقال لي: "بتعرف تروح لحالك؟ قلت له: نعم"، والحقيقة أنني لا أعرف أين أنا ولا كيف أصل لبيتنا، إلا أنني أريد أن أخرج من عندهم وبعدها "الله بيفرجها".

مد يده في جيبه وأخرج ليرة سورية أعطاني، إياها وقال لي "اركب بالباص وروح على بيتكم"، أخذني من يدي حتى أوصلني إلى آخر نقطة حراسة في الفرع، وبعدها انطلقت راكضاً أبحث عن شارع تزدحم فيه السيارات فيكون شارعاً رئيسياً يقودني إلى بيتنا، وسألت أول رجل قابلته في الشارع: كيف أصل إلى منطقة السبيل؟ فقال لي بعيدة من هنا وتحتاج ركوب باصين.

ركبت الباص الأول فالثاني حتى وصلت حارتنا، كانت الساعة حوالي التاسعة مساء، ركضت إلى البيت حيث كان الجميع في بيتنا يواسي أمي المفجوعة بولدها، وكان لقاء، وكانت لحظات فرح سرعان ما تبددت عندما اقتربت عقارب الساعة من أن تتعانق عند الثانية عشرة ليلاً حينها نظرت إليّ أمي، وقالت: هل سيأتون الليلة؟ ولم أستطع أن أنفي لها قدومهم، فقد أخطأت قبل ٥ أيام عندما أكدت لها عدم زيارتهم!

[الشهادة الثالثة عشر]

بعض الذكريات من منزل الموتى[10]

بقلم : آرام كربيت[11]

من أين أبدأ. الذاكرة زاخرة بالمتاعب والليالي المثقلة بالمآسي، باللحظات المؤلمة التي يصعب الإلمام بها والتعبير عنها بالكتابة أو السرد الشفهي. كما لا أعرف بالتحديد من أين أبدأ، من التحقيق بالقامشلي أم من سجن الحسكة أو سجن عدرا في دمشق أو سجن تدمرالعسكري في البادية.

---

[10] هذه الشهادة نقلاً عن موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنترنت .

[11] سجين سياسي سابق .

سأبدأ من سجن تدمر في البادية السورية..

السقف مفتوح، الشبابيك مفتوحة، شقوق في الحيطان، من حول ملابن الباب.

كل شيء قديم، الجدران، المرحاض الوحيد والمكسور، الحنفيات الصدئة وماؤها الاصفر الملوث.

البرد يتسلل من جميع الاطراف دون استئذان، دون رحمة أو شفقة. لا تدفئة أو مـاء سـاخن أو شاي أو ما شابه ذلك .. عزلة قاتلة عن كل شيء .. لا زيارات، لا قلم أو ورق، لا موسيقى أو صوت فيروز يبعد عنا المساحات المغلقة والحزن المزنر بالكآبة. الاستثناء الوحيد كان صوت زقزقة العصافيربين الفينة والاخرى، كانت تعيش معنا في الفترات الاولى من وجودنا في سجن تدمر، بعد الشتاء الاول لم يبق إلا الذكور منها، لأن المتزوجين منهم رحلوا إلى امكاكن أكثر أمنا لصغارهم من مهجعنا.

صوت عواء الشرطة كان يكسر الصمت في الليالي الطويلة.

يبدأ النوم في الساعة السابعة مساء وينتهي في الساعة السادسة صباحا، على الطـرف الأيمـن أو الأيسر من الجسم، معصوبي الأعين.

النوم متقطع. الاسباب كثيرة، نتيجة الخدر أو التنميل من النوم على طرف واحد أو من كثـرة الدق على السطح:

- ابن الشرمو .. أبن المنيو .. أمك قحب .. شتائم كثيرة لا تعد ولا تحصى.. هل لديك أحد في المرحاض، هل الجميع نيام. رتابة الدق على السطح بكعب البندقية، او بحجر كبيرة أو بـالبوط العسكري بشكل رتيب كل عشر دقائق، يجعل الاعصاب مستفزة، مرهقة، متعبة لدرجة تخيلـت أنني لن أصمد أكثر من بضعة أيام وبعدها ربما أجن أو أموت.

في الأيام الأولى كانت تقودني ذاكرتي إلى الذين كانوا هنا ورحلوا .. كنت أقول كيف صـبروا، تحملوا واجتازوا هذه الأماكن السوداوية الصعبة.

في سجن عدرا بدمشق، في المهجع ١٢ كنت مع مجموعة من القادمون من سجن تدمر. اعتقلـوا أطفال صغار، في الرابعة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، أمضوا ستة سنوات أو أكثر فيه.

أتذكر .. الكثير .. الكثيرعنهم.

شعرهم أبيض .. سمعهم ثقيل .. ينفعلون بسرعة، بسبب أو دونه، يتقاتلون ثم يتصالحون لكـن قلوبهم بيضاء كالحليب، طيبون للغاية ودمثوا الاخلاق .. كنت صديقهم وكانوا اصدقائي.

في السنة الثامنة لاعتقال مصطفى الشيخ حسن. وكان التاريخ صيف ١٩٨٨ جاءته أول زيارة، كان مرتبكا، جسده كله يرتعش، اليدان والقدمان، الشفاه ورموش العين .. وكنا مرتبكين. كل

واحد يقوم بدور، أحدنا يجهز ثيابه النظيفة والآخر يمشط شعره وغيره يهدأ خاطره ويخفف انفعاله من مفاجأة الزيارة الأولى ولقاء الأهل والأحبة بعد سنوات طوال من الفراق.

مصطفى الآن في الخامسة والعشرين من العمر. كان في السابعة عشرة من العمر أثناء الاعتقال.

مشى مصطفى برفقة الشرطة وراء الشبك المعدني ينتظر وفي الجهة الاخرى والدته تنتظر.

سألت أمه الشرطة: أين ابني مصطفى، لدي بطاقة زيارة لرؤيته، أين هو؟

- إنه أمامك، ألا تريه؟ رد أحد الشرطة.

- وقفت مترددة لحظات: لكني لا أرى إلا الشرطة ورجلاً عجوزاً معهم .. أين ابني.

كان مصطفى يبكي من وراء الشبك بحسرة وألم وهي تبكي. قال: أمي، يوُم، يا أمي، أنا مصطفى.

حدقت في وجهه .. ملياً. قالت: لا .. لا لا يمكن أن تكون ابني .. مصطفى. فمصطفى شاب صغير لا يتجاوز السابعة عشرة من العمر .. أنت عجوز .. لست ابني .. لا أقبل أن تكون ابني.

كانت تصرخ وتولول بصوت عال: هاتوا ابني الحقيقي .. أين ولدي، لماذا تكذبون علي وتعطوني رجلاً عجوزاً .. شعره أشيب، أبيض كالحليب.

كلاهما كان يبكي بحرقة ومرارة .. مصطفى يصرخ ويقول لها: أنا مصطفى ابنك، وهي ترد من الطرف الآخر .. لا .. لا لست الذي تركني ومضى إلى غير رجعة.

قال لي في إحدى جلساتنا:

في المرة الأولى عندما قرأ الشرطي اسمي، ودعت اخوتي ورميت لهم جميع ثيابي وخرجت والبشكير على كتفي. وضعوا الحبل حول رقبتي، كنت أقرأ الشهادة وأكررها مرات وأستعد لملاقاة ربي، خائفاً، حزيناً لعدم رؤيتي لأمي وأخوتي وشقيقاتي. في اللحظة الأخيرة، أنزلوا الحبل من حول رقبتي أعادوا قراءة اسمي، قالوا هناك خطأ في اسم الأم. ثم أعادوني إلى المهجع بين أخوتي من جديد.

كنت قد حفظت القرآن عن ظهر غيب، اتلوه يومياً وعلى مدار الساعة لأبعد عن نفسي مرارة الألم والخوف، الحرمان والفراق.

بعد سنة من الحادثة جاؤوا مرة اخرى وقرأوا اسمي، قلت حان وقت إعدامي، جهزت نفسي مرة اخرى وودعت الجميع. التف الحبل حول عنقي وأنا في كامل استعدادي لملاقاة ربي. انزلوا الحبل في اللحظات الأخيرة.

ثلاث مرات، يضعون الحبل حول رقبتي ويستعدون لشنقي ثم يعيدوني إلى المهجع ويقولون لي لم يحن دورك بعد.

- سألته، ما هي اسباب سجنك؟

- لقد رميت الحجارة على الشرطة في محافظة اللاذقية. واستطرد: لقد سجلوا في اضبارتي، أحداث شغب.

- اثنتا عشرة سنة قضاها الأطفال في السجن لأنهم رموا الشرطة بالحجارة.

عندما كان يغزوه الكابوس، عندما كان يصرخ في انصاف الليالي، كنا نجتمع خمسة أو ستة من المهجع من أجل ايقاظه، وعندما كان يفيق كان جسده كله يهتز ويرتعش، يتصبب عرقاً وصوت ضربات قلبه يمكن أن يسمع لمسافة متر.

كانت الكوابيس جزءاً من طقوس الليالي الطويلة في السجن، في هذا المهجع.

الرهينة نزار موسى ابن الأربعة عشر ربيعاً. اقتادوه مع والدته إلى سجن تدمر بعد أن قتلوا والده أمام عينيه. فاقد السمع إلى حد كبير، من الصفع على الرأس والوجه والأذن. مرات كثيرة .. كنت أقول: نزار .. يا نزار. كان يشتغل بالابرة والخرز ولا يرد، اربت على كتفه، ترتعد فرائصه من الرعب، يرفع رأسه بسرعة .. باستجابة سريعة .. يصيح: ماذا .. ماذا تريد.

- الشاي .. نسيت الشاي .. يا نزار، يهرع إلى كأسه ثم يعود إلى خرزه مرة ثانية.

كانوا حوالي ثمانية في المهجع رقم ١٢. وكنا خمسة شيوعيين، أنا ومحمد خير ومزيد سلوم، نبيل جولاق وإبراهيم ولي عيسى .. وهم أخرى لا علاقة لها بالسياسة .. قضائيون.

عندما اعتقل عمار عرب، كان في الثالثة عشرة من العمر، يبكي في انصاف الليالي، يقول: أريد أمي، خذوني إلى أمي، لماذا اغلقتم الباب علي وتركتوني بين دفف الحيطان الرمادية العجوز.

عمار كان متهماً بالانتماء إلى حزب البعث العربي الديمقراطي" صلاح جديد".

لم يراعوا طفولته .. كانت سطوة السلطة اقسى من استغاثاته..

كان عمار في الثالثة والعشرين من العمر عندما خرج من السجن، لكن ملامحه بقيت طفولية .. وروحه أيضاً.

ناموس الخوف في تدمر كان جزءاً من طقوس الحياة اليومية، نشرها مع اندلاق الشمس إيذاناً بمجيء نهار مكرر .. زمن مكرر بإيقاع كريه ومقرف.

انظر إلى الجدران المصبوغة بلون دموع ودماء الذين تعرشوا بين دفاتها، أحسها تنطق، أرى مصطفى ونزار موسى وبسام حمزة ومحمد نحلوس وحمامة، صورهم مرسومة على التوريقة القديمة من الحيطان العتيقة .. بكاءهم، صراخهم.

نظام العجزة .. نظام (..) حافظ الأسد .. لم يسمع استغاثاتهم، تركهم في السجن دون محاكمة..

خاف من براءة الاطفال وبريق الضحك في عينيهم .. خاف من ظلال الوقت وتغيرات الزمن، أو كان مشغولاً في حروبه التحريرية الكاذبة.

السجن يقزم الروح ويعطب الجسد والعقل..

قزمنا وأبقانا عند زمن الاعتقال، بقي عقلنا يستجر الماضي ويدور في فلكه.

عندما كانوا يضربوني، على الوجه والظهر، اليدين والقدمين .. كنت اخاف من شيء آخر .. من الشلل التام ومن فقدان السمع والنظر .. في تدمر .. هذا الشيء جزء من طقوس المكان.

في عدرا .. السنوات الثلاث الأولى، الفطور .. يومياً لبنة مع زيت وفي المساء بطاطا مسلوقة، والغداء مرق دون دسم.

كنت أضحك من مزيد سلوم عندما يناديني للعشاء، يقول بلغة مفخمة: تعال تعشى. أرد عليه مبتسما: قل تعال كلّ بطاطا مسلوقة فهذا أجدى.

في تدمر..

عند فتح الباب الرئيسي، مع انزلاق المزلاج على الحديد الصدئ، تتحفز غرائز القلق، من خوف ورعب، تتوثب الذاكرة باستباط اشياء، متنوعة وكثيرة، تنطلق على جناح السرعة وتضع التوقعات القادمة، تتساءل، ماذا ينتظرنا هذا اليوم .. الآخر، ماذا يخبئ لنا القدرفي جعبته من امزجة عكرة ومواويل غامضة.

أنظر إلى العصفور القابع فوق رأسي، لا مباليا، مسترخيا، نافشا ريشه ويغط في نوم عميق، احسده على هذا الخلود لملكوت الحرية والفرح: لو استطيع أن أكون مثله، اطير من النافذة المفتوحة إلى مكان أقل قسوة واكثر أمناً.

كان ينام فوق مسمار منبهق من الجدار، على قدم واحدة .. وعندما يباشر النهار في قرع بابه، يفتح عينيه ينظر إلينا من فوق، بزاوية حادة، يهز جسمه بدلع وغنج، ينفش ريشه، يودع اثار النوم، بعدها يرحل إلى المياه النائمة فوق اطراف البادية ويبقى إلى الهزيع الأخيرمن النهار.

عند حلول المساء يعود، يزقزق بايقاع سريع، يميل برأسه قليلا، ينظر إلينا ثم يلتفت نحو اليمين ثم اليسار، عندما يتأكد من أننا لا نؤذيه، وأننا سجناء لا حول لنا ولا قوة، يرفع رأسه إلى الأعلى ويغمض عينيه بسعادة بالغة وينام.

خمسة اعوام في هذا الكهف لم ارفع رأسي، نكسته تحت سطوة القوة واذلال السلطة، أرى احذية الجلاد الثقيلة، لامعة وقاسية، طويلة وزواياها حادة ومذببة .. مرات كثيرة يقولون لي: افتح يديك، ابسطهم يا منيك .. إلى الأمام ورأسك منكسا، لا ترفعه أبداً .. كيبلاتهم المطاطية المغلفة بالاسلاك المعدنية تلسع يدي وتمزق انسجتها، اصرخ وابكي من الوجع .. يكثر ضحكهم ونكاتهم البذيئة .. ثبت يديك يا ابن الزانية .. تنهال علي بمزيد من القوة والفرح، على هذا الجزء مني، كثيرة هي المرات التي لا استطيع رفعهم، تهتز يدي دون ارادة مني وتنزل إلى الاسفل. اقول

للشرطة بصوت خافت ومستسلم بينما الكبل يلسع يدي: لم أعد اقوى على حملـهم، يعـودون للضحك .. زبط .. زبط يا قحب .. زبط يديك بلا دلال .. أنتم مدللون..

نعم كنا مدللون في تدمر .. هذه حقيقة لا لبس فيها.

في عام ١٩٩٦ كانت معاملتنا مثل معاملة بقية القوى السياسية في سجن تدمر، الضرب اليومي والشتائم والتعليم (عندما يقول الشرطي لأحدنا أنت معّلم، عند مجيئهم في اليوم التالي يقولـون ليخرج المعّلم، عند خروجه ينهالون عليه بالضرب سواء بالدولاب أو غيره) الإهانات والـشتائم والبصق وبوس الأحذية، منعنا من النوم، والطعام قليل، بقي هذا الامر إلى منتصف العام ١٩٩٧.

في ٢٤ نيسان عام ١٩٩٧. تغير كل شيء.

دخلت الشرطة إلى المهجع، قالوا ليخرج الجميع إلى الباحة، ابق معنا يا رئيس المهجـع (رئـيس المهجع في سجن تدمر هو اكثر من يتعرض للضرب) اسمع صوت الدولاب وهو يلـسع اقـدام رفاقي، جاثمين كالأسرى على ركبهم وايديكم فوق رؤوسكم بشكل منكس.

سألني الشرطي: هل تدخن؟ قلت: لا .. لا أدخن. صفعني على وجهي. كان الشرطي طـويلا، هكذا قدرت ذلك من خلال حذائه. كلما كان يصفعني كلما ركزت نظري على طول حذائه: ما اضخم هذا القدم وهذا البوط. يعود ثانية ويقول: هل لديكم تواصل مع أحد. أرد: لا .. لا يـا سيدي ليس لنا تواصل مع أحد، ليس لدينا زيارات أبداً. مشى داخل المهجع وكان يتولى الـذين معه في صفعي كلما مشيت بمحاذاتهم مع الركل والرفس.

حدود ضربنا بالدولاب يمتد من عشرة كيبلات واقصاها مائة وعشرة كيبلات.

أما مهاجع الإخوان المسلمون وبعث العراق فكان شيئا مختلفا تماما. الحد الأدنى للضرب كان مائة وخمسين كبلاً ويصل في حدوده النهائية إلى ستمائة وخمسة وثلاثين كيبلاً.

هذه حقيقة ولا مبالغة فيها، يجري الأمر يوميا. يبدأ التعليم ليلا، أثناء هجوعنـا إلى النـوم، وفي الصباح يخرجون المعّلمون، اثنان أو ثلاثة من كل مهجع.

في إحدى المرات رفعني رفاقي فوق اكتافهم ورأيت: حلقة دائرية قطرها ثمانية امتارمن الـشرطة والبلدية، في وسط هذه الحلقة سجين مربوط موضوع في الدولاب والقارس والمرسة تشد علـى قدمه ومرفوعة في الهواء. جلبوا الماء ورشوها على قدميه حتى تصدر صوتا أقوى. كـان عـدد الشرطة العسكرية بحدود العشرين وكلاهم المدربة من البلدية بحدود العشرة.

كان السجين يصرخ ويستغيث..

المكان: الباحة ٢ القريب من حمام الشرطة، المهجع ٣.

تناوب عليه اثنا عشر شرطي، كلما تعب أحدهم من الضرب يتولى الآخر المهمة. في البدء كـان يصرخ من الألم والخوف ثم تقطع صوته إلى أن خمد تماما..

يرفعون أيديهم إلى الأعلى وينهالون عليه بالضرب بمنتهى القوة والحقد..

ضربوه ستمائة وخمسة ثلاثين كيبلاً، كان التاريخ في ٣ أيار عام ١٩٩٨.

عندما انتهوا منه اخذوا يركلونه بأقدامهم ويدفعونه إلى داخل المهجع وهو ينزف، يبدو أنه لم يعد يحس بشيء، ربما اغمي عليه .. لا أدري..

لكنني كنت عارياً .. ذليلا، أحس بالقهر يأكل ثيابي وجلدي، عندما كنت اشاهده واسمع صراخه واستغاثاته..

جميع الكيبلات التي تناوبت على ضربه كانت حمراء، ينقط الدم من اطرافها.

عندما عاد الشرطة من اكمال مهامهم، من ضرب وتعذيب واذلال، كانوا يضحكون ويكملون على الحيطان يضربونها بأكبالهم ليخيفوا السجناء ويعبروا عن نشوة انتصارهم.

هذ ه.. كانت معارك (..) حافظ الأسد .. لا بارك الله فيه وهو في قبره .. وإلى ذلك اليوم الذي نرى فيه شعبنا يخرجه من قبره ويحاكمه ويحاكم الذين على شاكلته.

لكل شيء ثمن .. هذه حقيقة لا مراء فيها.

هل كنا ضحايا..

لا..

وأنا أيضاً اخترت غاندي .. لا غيفارا مع اختلاف الوقت والزمن ونوعية الصراع وشكل العدو، ولكن من موقع الفاعل .. لا من موقع الوصي والمنفعل..

في زمن غاندي كانت الامبرطورية البريطانية في حالة أفول، وكان زمن الانفكاك عـن الهيمنـة القديمة، تحول غاندي إلى قديس وراهب ومناضل بامتياز. لنتساءل: لو كان غاندي في هذه الأيام من منا كان سيعرفه؟

الكثير من الحثالة .. تاجروا بأوجاعنا .. أوجاع وقهر الذين ضحوا من أجل خلاص بلادنا مـن الاستبداد والعهر السياسي .. وكثير منهم استفاد من دمائنا النازفة .. فرضوا انفسهم علينـا، بالرغم منا، زاودوا في الدفاع عنا، كانت غاياتهم المال والمؤتمرات والتلفزيونات والاستعراضـات الفارغة، هؤلاء من احط الناس سلوكاً وخلقاً وقيماً..

بالطبع لا أقصد أدونيس إطلاقاً .. فهو اكبر من هؤلاء بكثير.

[الشهادة الرابعة عشر]

الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي يروي قصة معاناته في أشهر سجون دمشق

نشرت صحيفة القدس العربي التي تصدر في لندن، في عدد الجمعة ١٣ – ٠٧ – ٢٠٠١م، مقابلة مع الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي (٤٤ عاما)، والذي يحمل الجنسية البريطانية، وهو لاعب كرة سلة محترف، شارك بالعديد من البطولات العربية والآسيوية، تعاقد مع نادي الجماهير الرياضي في حماة للإشراف على فريق النادي لكرة السلة، اعتقل في سورية بتاريخ ٢٠٠٠/٧/٢٣، لوجود اسمه في دليل هاتف احد المتهمين، وبقي في السجن إلى أن أفرج عنه بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٠، هلال عبد الرزاق رفض الاستجابة للتهديد بوجوب السكوت، وقرر أن يؤدي الأمانة التي حمله أياه المعتقلون هناك، ليوصل معاناتهم إلى العالم، ونحن بدورنا يسرنا أن نعيد نشر المقابلة (التي أجراها د. بشير زين العابدين).

الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي يروي قصة معاناته
في أشهر سجون دمشق

- طوله ١٩٠ سم وطول الزنزانة ١٨٠سم ولم يكن قادرا علي التمدد لمدة ستة اشهر فانحني ظهره
- الكلام ممنوع.. وأي محاولة لقراءة القرآن أو الدعاء كانت تقمع بأسلوب وحشي
- أحد المساجين اعتقل لامتناعه عن التصويت لبشار الأسد في الانتخابات وآخر لإشادته بأهل حلب وحماه
- لا يسمح للمساجين بالزنزانة باستخدام المرحاض اكثر من نصف دقيقة... وإلا هدد بأكل الخـ ...
- السجانون يتنافسون علي تعذيب المساجين مستخدمين الكرسي الألماني والدولاب والتعليق والسحل
- اشد انواع التعذيب كانت من نصيب مجموعة حاولت تهريب الاسلحة لدعم الانتفاضة الفلسطيني
- آخر ما اوصاني به زملائي المساجين ان ابلغ العالم بمعاناتهم.. الا هل بلغت؟
- وآخر ما قاله لي السجان: اذا فتحت تمك منعرف شلون نجيبك

في سورية جريمة كبيرة ترتكب علانية وبشكل جماعي، ولكن لا يجرؤ أحد أن يتحدث عنها، لأن الخوض فيها ـ بعرف النظام ـ جريمة أخري، فخلف حاجز الإرهاب والخوف

الجماعي الذي شيدته أجهزة المخابرات عبر أربعة عقود من الزمان؛ يقبع آلاف المواطنين داخل السجون السورية في عزلة كاملة عن العالم الخارجي يتجرعون مرارة الظلم والقهر ويعانون من التعذيب اليومي ويسامون الذل والاضطهاد والحرمان... أغلب هؤلاء لا يعرفون تهمتهم ولا يعلمون مصيرهم، بل إن كثيراً منهم قد فقد الأمل بلقاء أهله وأصبح ـ بالرغم من وجوده ـ في عداد المفقودين.

هذه قصة شاهد عيان علي الممارسات القمعية التي ترتكبها أجهزة الأمن في سورية ضد المواطنين، وقد وقعت أحداثها خلال الفترة ٢٢/٦/٢٠٠١ ـــ ٢٣/٧/٢٠٠٠، من عهد الرئيس الجديد بشار الأسد الذي كان يتحدث قبل أيام قليلة من اعتقال صاحب هذه القصة عن الحريات العامة و الشفافية و كرامة المواطن السوري .إنها لا تختلف كثيراً عن قصص آلاف المعتقلين، ولكنها تتميز بأن صاحبها قد امتلك الجرأة ليخرج من الصمت ويتحدث عن معاناته التي استمرت ١١ شهراً في أقبية فرع فلسطين .

· تعريف

السيد هلال عبد الرزاق علي عراقي الأصل من مواليد مدينة كركوك عام ١٩٥٧ متزوج من سيدة سورية ولديه أربعة أطفال. يعرفه الكثير من الرياضيين؛ فهو لاعب كرة سلة محترف شارك في العديد من البطولات العربية والآسيوية... يتحدث باعتزاز عن مواهبه والشهادات التي حصل عليها كمدرب لكرة السلة من أمريكا وإيطاليا. يعيش هلال علي منذ فترة طويلة مع أسرته في بريطانيا، حيث كان يعمل مدير مبيعات في إحدى الشركات العقارية في مدينة لندن، وكلما حانت فترة الصيف كان يصطحب زوجته وأطفاله إلي مدينة حماة لقضاء الإجازة مع أقاربهم هناك. في هذه الأثناء توثقت علاقة هلال مع عدد من الرياضيين الذين تعرفوا عليه أثناء مشاركتهم في البطولات الدولية، وعندما علمت إدارة نادي النواعير في مدينة حماة (أصبح اسمه فيما بعد نادي الجماهير) بخبرته الطويلة في مجال التدريب تعاقدوا معه للإشراف علي فريق كرة السلة لديهم، وسرعان ما صعد النادي إلي الدرجة الأولي لأول مرة منذ ١٣ عاماً مما شد انتباه محرري صفحات الرياضة في جريدة الفداء بحماة، وظهرت صور المدرب هلال علي خلال شهر آذار (مارس) عام ٢٠٠٠ كذلك في جريدة الرياضة الأسبوعية، وفي جريدة الثورة التي أجرت معه مقابلة مطولة حول تاريخه الرياضي.

كان هذا النجاح سبباً في تفكير هلال بالإقامة في سورية لتطوير فريقه الذي أصبح ينافس علي المركز الأول في الدرجة الأولي علي مستوي القطر، ولذلك فقد تقدم بطلب الإقامة لمدة سنة وأرسل أوراقه إلي مديرية الأمن العام.

هنا يتوقف السيد هلال عن الحديث، وقد اغرورقت عيناه بالدموع فقد كان من الصعب أن يقتنع الناس بأن ذلك الشبح الذي غارت عيناه في وجه شاحب قد كان رياضياً في يوم من الأيام. كان هناك تعارض كبير بين وضعه الصحي وتاريخه الرياضي؛ فقد اصفر وجهه وظهرت عليه التجاعيد، مع أنه لا يزال في ريعان الشباب، وفقد أكثر من ٤٥ كيلو غراماً من وزنه وأصبح ظهره محنياً لأنه لم يكن قادراً علي التمدد طوال ستة شهور.

إنه يحتاج لسنوات طويلة حتى يسترجع صحته، أما الآلام النفسية فإنها تلازمه بشكل دائم ولا يعلم إن كان سيستطيع التخلص منها في يوم من الأيام، فهو يعاني من فقدان التركيز، ويعاني كذلك من النسيان المزمن الذي كان رحمة له كلما تذكر أبناءه وأقاربه في السجن الانفرادي.

ــ سألته: ماذا حصل بعد تقدمك بطلب الإقامة؟

تذكر بأنه كان يروي قصة اعتقاله، وعاد ليقول:

· المخابرات العسكرية بحماة

في يوم الأحد ٢٣/٧/٢٠٠٠ اتصل بي شخص من إدارة المخابرات العامة وطلب مقابلتي بخصوص أوراق الإقامة التي تقدمت بها، فقابلته في النادي حيث طلب مني جواز سفري وهوية زوجتي، وفي هذه الأثناء وصل ستة عناصر مسلحين من الأمن العسكري وطلبوا مني مرافقتهم فامتثلت لأمرهم، وعندما هممت بصعود السيارة صرخ ابني عبد الله:

وين رايح بابا؟

لم أكن أملك إجابة واضحة ولكن أحد المسلحين تطوع بالإجابة عني:

ــ بابا بده يغيب شي ساعتين زمان وراجع .

صاحبت العناصر إلي مركز المخابرات العسكرية بحماة والذي يترأسه العميد أحمد حلوم وهو عبارة عن ثلاثة طوابق دونها بوابة كبيرة لا تجاورها أي عمارات أخري في الطريق إلي دمشق، وعندما توقفت السيارة ترجلنا منها وأدخلني المسلحون إلي غرفة مقفرة لا توجد فيها غير طاولة واحدة، وبقيت أنتظر لفترة طويلة وأفكر في سبب وجودي هنا، فقبل أيام قليلة داهمت المخابرات منزل أحد أقارب زوجتي لعلاقة كانت تربطه برجل كردي اسمه (ج) اعتقل بسبب نشاطه في صفوف الشباب في مدينة حماة، ولكنني لم أكن أعرف المدعو (ج) ولم أكن أعلم أي شيء عن نشاطه، بل كان اهتمامي محصوراً بالتدريب في نادي النواعير وكثير من تلاميذي أعضاء في حزب البعث وأجهزة الأمن، ولم يكن لدي كثير من المعارف في مدينة حماة. ثم أخذت أفكر لبرهة بأن احتجازي في هذه الغرفة قد يكون بسبب تشابه في الأسماء أو خطأ وقع فيه أحد المخبرين فلم أرتكب ــ في علمي ــ أي مخالفة للقانون، وترجح الظن لدي بأنهم يريدون أن يسألوني عن

قريب زوجتي المدعو (أ). في هذه الأثناء كان الحراس يستفزونني بحمل أسلحتهم وينظـرون إلي بأعين ملؤها التحدي والاستخفاف. ثم انقطع الصمت الطويل بدخول رجل متوسط الطول لـه شارب كبير، يلبس زياً مدنياً وقد علمت فيما بعد أنه العميد محمد الشعار.

نظر إلي العميد بازدراء ثم سأل الحراس:

- هادا هو هلال؟
- فقالوا: نعم سيدي
- عند ذلك سألني بفظاظة: بتعرف (ج)؟
- فأجبته: لا ما بعرف (ج) .

ثم خرج دون تعليق وبقيت أنتظر حتى طلبني العميد إلي مكتبه الواسع، فجلست قريباً منه، ولكنه انتهرني بعنف وأمرني بالجلوس بعيداً عنه في آخر الغرفة فامتثلت، وجلست حيث أراد. ثم أومأ إلي الحراس فأدخلوا قريب زوجتي وهو يرتجف من شدة الخوف، وقد قيدت يداه وغطيت عيناه بقماشة (يسمونها طماشة)، ودار بينهما الحوار التالي:

- ــ بتعرف هلال؟
- ــ نعم سيدي
- ــ شو علاقته بـ (ج)
- ــ ماله علاقة سيدي
- ــ طلعوه لبره

وهنا التفت إلي الضابط وقد نفد صبري، وقلت له ليس لي أي علاقة بالمدعو (ج) فما هو الداعي لاحتجازي هنا؟

فقال لي بأنني لست الشخص المطلوب، ولكنني سأبقي عندهم الليلة لاستكمال التحقيق، فذكرته بأن لدي أطفالاً وأقارب وهم قلقون علي ولا يعرفون مكان وجودي الآن، فلم يزد أن قال: اتفضل وبكرة منشوف شو بيصير

وفي حركة سريعة اقتادني الحراس خارج الغرفة وقيدوا يدي وأخذوني إلي سجن الفرع حيث استقبلني سجان مرعب اسمه عمران، وكان صوته غاية في الخشونة فصرخ في وجهي بقصد التخويف: حقير... وقف منيح ولا ، ثم جرني إلي الزنزانة المنفردة رقم (٤)، وأقفل من خلفي الباب.

تلفت حولي فإذا هي زنزانة ضيقة في غاية القذارة وفيها مرحاض تنبعث منه روائح كريهة، فجلست علي الأرض وقد أسقط في يدي وعدت أسترجع الساعات الأخيرة التي مرت علي كأنها كابوس مزعج وكلي أمل أن تنتهي في الصباح.

كانت هذه هي المرة الأولي التي أسجن فيها، فقد أمضيت اغلب حياتي في الملاعب وفي طريق الاحتراف، بل إنني لم أذهب مرة واحدة إلي مركز شرطة ولم يكن لدي أي سبب لمخالفة القانون أو ارتكاب الجرائم، فقد كنت ميسور الحال وعندي أربعة أطفال أرغب في تربيتهم أحسن تربية، وأخذت الهواجس تنتابني حتى غلبني النوم فافترشت الأرض والتحفت بطانية قذرة ونمت حتي الصباح. في صباح يوم الاثنين ٢٤/٧/٢٠٠٠، ابتدأ مسلسل الرعب الذي استمر دون توقف لمدة ١١ شهراً فقد استيقظت علي أصوات مختلطة من الضرب والشتائم والأنين والاستغاثة، وعلمت بأنها أول نوبات التعذيب الوحشي الذي كان يتعرض له المعتقلون داخل الفرع. كان السجانون يأتون في الصباح الباكر ويفتحون أبواب الزنازين بعنف ويخرجون ضحاياهم مقيدين ومغمضي العيون ثم يسوقونهم كالخراف وأنا أنظر إليهم، وقد ارتعدت مفاصلي من شدة الرعب، ثم يبدأ الجلد بالأسلاك الكهربائية (الكيبلات) علي ظهورهم وسائر أنحاء الجسد دون تمييز، ويرتفع صوت الجلادين وهم يكررون نفس الأسئلة: مين بتعرف؟ ، شو علاقتك بفلان؟ ، إيمتي شفته؟ . وأخذت أفكر كيف كان اعتقالي مثل اعتقال الكثير من هؤلاء؛ بناء علي دليل الهاتف الذي عثروا عليه عند قريب زوجتي فاتصلوا بي وأحضروني إلي الفرع، هذه الطريقة الجائرة نفسها هي التي أودت بحياة كثير من الأبرياء وغيبتهم لسنوات طويلة في غياهب السجون لا لجرم إلا أنهم وجدت أسماؤهم وأرقام هواتفهم مكتوبة في دليل أحد المشبوهين.

كنت أنتظر أن يأتي الجلادون ويأخذونني إلي التعذيب في أي لحظة، وبالفعل جاء أحدهم فأخرجني من الزنزانة و طمش عيني وقيدني وجرني إلي غرفة التحقيق حيث دخل أحد المحققين وأمر بفك القيد عني وأعطاني ورقة وقلماً لأكتب قصة حياتي كاملة! وعندما كتبت له قصة حياتي تناول الأوراق وأخذ يصحح ويشطب علي بعض السطور، ويضيف من عنده فاعترضت علي هذا الأسلوب، وعند ذلك قال لي:

بدك تعلمني شغلي؟

وخرج من الغرفة ثم عاد ليخبرني بأن العميد قد انزعج لإصراري علي عدم الاعتراف، فأخبرته بأنه ليس لدي ما أعترف به، وهذا ما عندي، فأمرني أن أبصم علي ما كتبت، ثم عاود السؤال علي (أ) مرة أخري عن علاقتي بالمدعو (ج) فأجابه بأنه ليس هناك أي علاقة، وعندما تأكدوا من ذلك أعادوني إلي الزنزانة المنفردة وجلست هناك لمدة ثمانية أيام لم يكلمني فيها أحد. كان

التعذيب يبدأ يومياً من الساعة الثامنة صباحاً ويتوقف عند الثانية، ثم يبدأ مرة أخري في الثامنة مساء حتي الحادية عشرة، ومع أنني لم أتعرض للتعذيب فإن صرخات المعتقلين وأنينهم كانت أشد من لسع السياط التي تصدر صفيراً مرعباً قبل أن تحط علي ظهور المساجين وهم يئنون من شدها، ومع أنني كنت متماسكاً فقد لازمتني حالة عجيبة من الهلع، خاصة عندما أصيبت إحدي السجينات في زنزانتها الانفرادية بانهيار عصبي وأخذت تصرخ بأعلي صوتها قبل أن ينقلوها إلي المستشفي.

وفي يوم السبت ٢٩/٧/٢٠٠٠ جاء رئيس المحققين في الفرع الرائد غسان الجواد وأخذ يمر علي الزنازين وينظر إلي المساجين بداخلها حتى وصل إلي زنزانتي ففتح الباب وقال لي:

ابني نحنا عارفين أنك بريء ومنتظرين خبر من الشام حتى نفرج عنك اليوم أو بكرة .

وعرض علي الانتقال إلي السجن الجماعي ففرحت لذلك وشكرته، ثم نقلوني إلي حيث أشار فوجدت نفسي مع خمسة من المساجين وأخذنا نتبادل أطراف الحديث فسألت كل واحد منهم عن تهمته، وإليكم الجرائم التي ارتكبوها:

ــ كان الأول قد امتنع عن التصويت لبشار الأسد في انتخابات الرئاسة فجروه إلي السجن وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً لتمرده!

ــ أما الثاني فقد ورد في إحدى تقارير المخابرات أنه قال: أهل حلب وحماة قبضايات، لأنهم قاوموا ، كان شاباً صغيراً ولم يكن سنه قد تجاوز أربع سنوات عندما اندلعت أحداث حماة، ومع ذلك فكان يتعرض للصعقات الكهربائية حتى يعترف بالذي علمه هذا الكلام!

ــ وتحدث الثالث بحزن عن مكالمة هاتفية دارت بينه وبين أقاربه قال فيها بأنه سيذهب إلي القرداحة في وفد رسمي لزيارة قبر الرئيس الراحل، ولما سأله قريبه ماذا سيلبس، أجاب: كلسون أحمر ، ولم يكن يعلم بمراقبة المخابرات لمكالمته الهاتفية فاعتقل في ذلك اليوم. وكان الجلادون ينفذون تعهدهم له بتحويل لون كلسونه إلي الأزرق من شدة التعذيب حتي يتوب!

ــ وكان الرابع مسجوناً بسبب العثور علي جهاز للتنقيب عن الآثار في أرض يملكها.

ــ واتهم الخامس ببيع السجائر المهربة.

كانوا قد تعرضوا جميعاً لشتي أصناف التعذيب من الجلد والصعق الكهربائي، أما أنا فقد نجوت من التعذيب ربما بسبب توسط إدارة النادي لصالحي.

بعد ثلاثة أيام في السجن الجماعي أخبرت بوصول البرقية من دمشق، وكنت أترقبها علي أحر من الجمر حتى أعود لأطفالي الذين افتقدوني ولم يعلموا أين ذهبت، وسرعان ما تلاشت آمالي عندما أخبرني المحقق بأنني قد طلبت في الشام وأن علي الذهاب إلي هناك لاستكمال التحقيق.

عند ذلك أخرجت مقيداً مع ثلاثة آخرين وأركبونا داخل سيارتين في كل واحدة منها أربعة عناصر مسلحين ببنادق كلاشنكوف، ولما وقع الرائد علي أوراق تسليمنا بعد طول انتظار تحركت السيارتان باتجاه دمشق، وكان علينا أن نخفض رؤوسنا طول الرحلة، وكلما رفع الواحد منا رأسه كان الحارس يهوي علي رقبته بكل ما أوتي من قوة ويقول: نزّل راسك ولك كلب ، وبقينا علي هذه الحالة حتي وصلنا إلي فرع فلسطين.

- فرع فلسطين

توقفت السيارتان عند بوابة كبيرة وسط سور عال، وانطلقت لمسافة ٧٠ متراً عندما استطعت أن ألمح عمارتين كبيرتين، ثم اعترضتنا بوابة أخري استوقفنا عندها الحرس وجردوا رجال الأمن من أسلحتهم، ثم أنزلونا نحن الأربعة من السيارتين وأدخلونا إلي مكتب مدير السجن وهو رجل بذيء اللسان ممتلئ الجسم حنطي اللون برتبة مساعد أول، اسمه أحمد، ويمتاز بصوت شديد الخشونة. تفرس فينا المدير بنظرات ملؤها الحقد وصرخ فجأة: وقف منيح ولا حمار ... ثم أمر بنقلنا إلي غرفة مجاورة، حيث جلسنا ننتظر ونحن نعاني من حرارة الشمس وكثرة الصراصير، فطرقت الباب وطلبت أن أذهب إلي الخلاء فأجابني أحد الحراس هازئاً: استني شوي راح نحولك عالميريديان !

بقينا ننتظر أربع ساعات بطولها ثم دخل علينا رجل لا يقل خشونة عن مدير السجن ليكتب بياناتنا الكاملة، ويأخذ أغراضنا إلي صندوق الأمانات، وعندما وصل إلي دار بيننا الحوار التالي:

- ــ شو اسمك ولا؟
- ــ هلال عبد الرزاق علي
- ــ شو جنسيتك؟
- ــ جنسيتي ولا أصلي؟
- ــ جنسيتك ولك كلب
- ــ بريطاني

فسكت لبرهة ثم ذهب إلي مكتب المدير الذي استدعاني إلي مكتبه مرة أخري وسألني:

- ــ شو جنسيتك ولا؟
- ــ بريطاني
- ... م ..ك، أنت عراقي ، ثم خاطب الحراس: نزلوا هالكلب علي المنفردة

(١١) !

· عند ذلك فقدت صبري وقلت له: أي منفردة؟ وما هي تهمتي، ولماذا تعاملوني بهذا الأسلوب؟

ففوجئت به يصرخ بأعلى صوته: ولك خدو هالحمار علي المنفردة (١١) ، ولم يكد ينتهي من عبارته حتي هجم علي عدد من الحراس وجروني بعنف خارج المكتب وهم يصرخون بي: نزل راسك ولا ، خليك ماشي عالحيط ، وأنزلوني بالسلالم إلي القبو حيث رأيت عدداً من الأبواب الحديدية علي جانبي الممر، وكانوا يركضون أمامي وخلفي حتى انتهينا إلي آخره ففتحوا أحد هذه الأبواب ورموني في المنفردة (١١).

· المنفردة (١١)

أطرق السيد هلال علي لفترة وحاول أن يفهمني بجمل مبعثرة بأن كل الذي حكاه لي كان مقدمة قصيرة لفصول المعاناة الطويلة التي أمضاها في الزنزانة المنفردة لستة أشهر متوالية. كان طول الزنزانة ١٨٠ سم وعرضها ٨٠ سم تنبعث منها رائحة كريهة ولا تصل إليها سوي كمية ضئيلة من التهوية والنور، ولذلك فقد أصبحت مرتعاً للقمل والصراصير. ولأن طول هلال ١٩٠ سم فلم يكن قادراً علي التمدد لمدة ستة أشهر فانحني ظهره وأصبح يمشي مشية عجوز تجاوز الثمانين من العمر.

كان يتذكر الأحداث بصعوبة لأنه يريد أن ينسي هذه الحقبة السوداء من حياته، ولكن أنين المعذبين ومعاناة المعتقلين كانت تدفعه لأن يستحضر كل شاردة وواردة لأنه عاهدهم أن يخبر العالم بما رآه ويستصرخ أصحاب الضمائر الحية للمساعدة في رفع المعاناة عن مئات المساجين الذين تم اعتقالهم ــ مثله ــ عن طريق دليل الهاتف دون سابق تهمة أو اشتباه.

ارتمي هلال علي أرض الزنزانة وجلس علي بطانية رطبة نتنة، وأخذت الهواجس تتلاعب به، فتذكر رحلته البائسة من حماة إلي دمشق، وطول الانتظار في فرع فلسطين وخشونة التعامل التي لقيها من الحراس. لقد أصبح اسمه من الآن فصاعداً: منفردة (١١) والويل له إذا ذكر اسمه الحقيقي، وصار بين عشية وضحاها سجيناً مسلوب الإرادة لا يملك من أمره شيئاً، بل إنه فقد اسمه وأصبح رقماً آخر في عداد المفقودين داخل فرع فلسطين. لقد لازمه الشك بأن هنالك خطأ ما وسيفرج عنه حال تبين هذا الخطأ، ولكن لم يكن لديه أي قرينة تدعوه إلي التفاؤل ... وبقي علي هذه الحالة من التفكير العميق حتي غلبه الإعياء فتكوم في أرض الزنزانة ونام.

· أول يوم في الانفرادية:

استيقظت وقد قرصتني حشرة في وجهي فتورمت عيني اليسرى ولم أكن أعرف نظام السجن بعد، فطرقت الباب طرقاً متتالياً حتى جاءني سجان ضخم اسمه المعلم حسن، ففتح الباب وقال: شو

بدك ولا؟ ، فقلت له: شوف عيني ، فنظر نظرة لم تكن تبعث علي الاطمئنان، وقال لي: قرب ولا، وعندما اقتربت منه سدد لكمة قاسية علي عيني اليمني فسقطت علي أرض الزنزانة من شدة الألم، وأقفل الباب ورائي وهو يتمتم بأقذع الشتائم. ولم ينقض اليوم الأول حتي عرفت نظام السجن كاملاً، فلم يكن لنا أي حق في طرق الأبواب، وكانت الفرصة الرئيسة للسجانين كي يشفوا نزعتهم السادية هي خروج المساجين من الزنازين الانفرادية إلي الخلاء... كان هناك ١٩ زنزانة منفردة و ٤ مزدوجة وكان يتناوب ٤٢ سجيناً علي حمامين ثلاث مرات في اليوم فيخرجنا الحراس واحداً واحداً بالركل والجلد ولم يكن يسمح للواحد منا أن يبقي أكثر من نصف دقيقة في بيت الخلاء. ولا بد من الاعتراف بأنني عندما خرجت للمرة الأولي أكلت نصيباً وافراً من الركل واللكم من قبل المعلم حسن، ولم أكن أجد أي مبرراً لذلك فاعترضت بصوت مرتفع وذكرته بأنني إنسان مثله، فصرخ في وجهي صرخة منكرة قائلاً:

ـ خراس ولك كلب، هلق بخليك تاكل الخ ـــ تبعك !

وبسبب هذا التضييق وانعدام الماء والصابون فقد أصيب أكثرنا بالبواسير وكانت الدماء تغطي المرحاض، وإذا تأخر الواحد منا في الخلاء كان يخرج بالقوة ويجر إلي زنزانته بالركل والضرب. كانت كل زنزانة انفرادية قد زودت بوعاء (طاسة) للأكل والشرب، وبسبب الأذي الذي كان يصيبنا من السجانين في دخول الخلاء فقد اضطر الكثير منا لقضاء الحاجة في طاسته كلما اشتد المرض عليه، ثم يغسلها ويعاود استخدامها لطعامه من جديد.

ولأنني لم أكن متهماً بالدرجة الأولي فلم أكن أتعرض لوجبات التعذيب التي كانت من نصيب السجناء الآخرين، ولكن سماع أصوات المعذبين كان أشد إيلاماً علي النفس من وقع السياط في كثير من الأحيان. كانت نوبات التعذيب تبدأ في الساعات المبكرة من الصباح وتستمر حتي الواحدة والنصف وهناك نوبة ليلية تبدأ من السابعة مساء حتي العاشرة، وقد تستمر حتي الثالثة بعد منتصف الليل. كنا نسمع شتائم الجلادين واستغاثة المعذبين وتوسلاتهم، وكنا نميز طريقة التعذيب من تتابع أنين المعتقلين الذين يخضعون للتعذيب بواسطة الكرسي الألماني الذي يهشم العمود الفقري، والتعليق من أيديهم وضربهم علي سائر أنحاء الجسد وهم عراة، وكذلك الجلد بالأسلاك الكهربائية السميكة.

لازمتني حالة رعب شديد وكنت أخاف أن يأتي الجلادون في أي لحظة ويجرونني إلي غرفة التعذيب، وكلما سمعت وقع أقدام بالقرب من زنزانتي كانت ترتعد فرائصي، حتي أمضيت ١١ يوماً علي هذه الحالة، ولم يفتح باب زنزانتي خلال هذه الفترة إلا لدخول الخلاء. كنت أنام وأجلس علي البطانية المتعفنة بفعل الرطوبة وانعدام التهوية حتي اسودت ملابسي وأصابتني

الالتهابات الجلدية والأورام، حتي إن السجانين كانوا يتأففون من رائحتي كلما مروا بالقرب من زنزانتي، ولم تجد توسلاتي لهم بتغيير تلك البطانية القذرة. بعد انقضاء اليوم الحادي عشر في المنفردة جاء الجلادون وأصعدوني إلي غرفة التحقيق مطمشاً ، ثم دخل أحد المحققين فأمر بفك الطماشة، وأعطاني ورقة وقلماً لأكتب قصة حياتي من جديد! وعندما انتهيت من الكتابة ابتسم المحقق وبشرني بأنني لن أبقي في الفرع عندهم أكثر من أسبوعين، فرجوته أن يأمر بنقلي إلي المهاجع الجماعية لأنني لم أعد أحتمل السجن الانفرادي، فطلب مني الصبر، وقال لي: المنفردة أحسن لك. ثم أرجعت علي نفس الهيئة التي أتيت بها إلي زنزانتي المنفردة، ومكثت بها الشهور الستة التالية دون أن يكلمني أحد أو يحقق معي من جديد.

كنت مريضاً بالقولون وأعاني من مرض الربو المزمن، وانتشرت الحساسية في جسدي كله، ومع ذلك فقد كان العلاج ممنوعاً عنا طوال فترة السجن. ونتيجة للمرض وفقدان الشهية فقد انخفض وزني ٤٥ كيلو، وطال شاربي حتي غطي فمي، ولم يسمح لي بحلق شعري طوال هذه الفترة سوي مرة واحدة، أما اللحية فكانت تحلق أسبوعياً ولكن قص الشارب كان ممنوعاً، وكانت الحلاقة من أبرز المناسبات عند الجلادين لممارسة هواية التعذيب، فكانوا يضربون المساجين علي رؤوسهم ورقابهم والويل لمن يجرؤ علي فتح عينيه أثناء الحلاقة. وبالإضافة إلي هذه الحالة المزرية فلم يكن يسمح لنا بالاغتسال أكثر من مرة كل شهرين وكانت المياه حارة في الصيف شديدة البرودة في الشتاء، أما الملابس فلم يسمح لنا غسلها سوي مرتين طوال فترة السجن الانفرادي، ولذلك فقد تشققت بفعل تراكم العرق وكثرة الضرب.

كان الكلام ممنوعاً طوال الوقت، وأي محاولة لقراءة القرآن كانت تقمع بأسلوب وحشي، وذات مرة تشجع السجين في منفردة (١٧) بقراءة بعض السور، ولما سمعه السجان حسن اقتحم عليه زنزانته وتناوله بالضرب المبرح وهو يقول له: والله ما تعيدها مرة ثانية لشخ بتمك ، وكذلك كان نصيب السجين الذي أخذته العبرة وهو يلح في الدعاء فسمعه أحد السجانين وأخذ يضربه علي سائر أنحاء جسده ويقول له: إذا سمعتك عم تدعي مرة ثانية لح أكسر راسك يا عرص .

أما أنا فقد دفعت ثمن نزعتي الإنسانية غالياً، عندما سمعت استغاثة مخنوقة من امرأة مصابة بالربو في مهجع النساء فطرقت باب زنزانتي حتي سمعت وقع أقدام السجان حسن وهو يصرخ: شو بدك ولا كلب ، فأعطيته بخاخ الربو الذي أحضرته معي من حماة وقلت له أعطه للمرأة المسكينة، ولم أكد أنتهي من قولي هذا حتي لكمني علي رأسي ثلاث لكمات أسقطتني علي الأرض وتتابعت بعدها الركلات والشتائم المقذعة، ولم أعد أعي شيئاً حولي إلا أنني سمعت المعلم حسن يقفل باب الزنزانة وهو يقول: ولك عامل حالك شريف يا عرص، نحنا ما عنا إنسانية هون !

أما صيغة الإعلان عن وصول الطعام فلم تكن تتغير أبداً... كان السجان رفيق يــصرخ في أول الممر: يا كلاب ... الأكل اليوم (ويمد الواو) شوربة ورز ... كل واحد يدير وجهه علي الحــيط ... واللي بشوفه مو داير وجهه لح (فعل قوم لوط) . كان الطعام غاية في القذارة وسوء الطبخ، وكنا نأكل مرق الدجاج دون أن نري الدجاج لأن السجانين ومساعدي مدير الــسجن كــانوا يأخذونه قبل أن يصل إلينا، وكثيراً ما كنت أرفع الصراصير والحشرات الأخري عن الــشوربة والمرق وأشربــها، أما إذا كانت الوجبة بطاطس مسلوقة، أو إذا قدم لنا التفاح (في المناســبات) فكانوا يرمونه علي رؤوسنا الموجهة نحو الجدار، وكنا نحظي ببيضتين طوال الأســبوع. وكــان السجانون يخبئون الفواكه والخبز الطري فوق سقف المنفردة (١) لإخفائها عن المدير ويأخذونها معهم بعد انتهاء الدوام.

كنا نعاني من البرد الشديد في الشتاء ومن الحرارة الخانقة في فصل الصيف ولم تتغير البطانيــات القذرة التي ورثناها عن السجناء قبلنا طوال فترة الإقامة في السجن الانفرادي. وبالإضــافة إلي انتشار القمل والصراصير، فقد كنا نعاني كثيراً من الجرذان التي كانت تقتحم عزلتنا هربــاً مــن القطط الجائعة التي كانوا يرسلونها للقضاء علي هذه الجرذان، وكثيراً ما كانت القطــط تظفــر بصيدها في فتحات التهوية ونعلم بوفاة الجرذ حين يتقاطر دمه علي رؤوسنا ونحن نيام .

ــ ابتسم هلال عندما سألته كيف كان يقضي وقته في السجن الانفــرادي لمــدة ١٨٠ يومــاً متواصلة، وقال لي بأن: الشهر في الزنزانة مثل الشهرين والثلاثة والأربعة... تمر الساعات الطويلة ويتعاقب الليل والنهار ونحن علي حالنا. كنت أقاوم وأبحث في خلجات نفسي عن بصيص أمــل وأعد الأيام عن طريق الحفر علي حائط الزنزانة، ولا أنسي عندما دخلت علي فراشة فأنست لها كثيراً وأخذت أكلمها وهي لا تجيب، وقد أصبت عدة مرات بهياج عصبي وكنت أصرخ بأعلي صوتي: لماذا تفعلون بي هكذا؟ ما هي تــهمتي بالتحديد؟ أنا ضيف عندكم في هذه البلد أهذه هي الطريقة التي تعاملون بها الضيوف؟

وكنا نختلس الساعات التي ينام فيها السجانون في آخر الليل فنتكلم فيما بيننا همساً، وبــــهذه الطريقة استطعت التعرف علي عدد من المساجين في الانفرادية، وكنت آنس للحــديث إلــيهم كثيراً.

- من قصص الزنازين المنفردة

طلبت من هلال أن يحدثني عن بعض السجناء الانفراديين الذين جاورهم لمدة ستة أشهر، فكــان يتذكر بحزن شديد معاناة السجين في الزنزانة رقم (١٩)، ومن سوء المعاملة التي لقيها من السجان (محمد) الذي كان يستمتع بضربه كلما جاء دوره للخروج إلي الخلاء، فقد كان يأمره أن يــضع

يديه خلف ظهره ويغمض عينيه ويرفع رأسه ... ثم تتردد أصداء صفعة قوية تنخلع لها قلوبنـــا، ولكن السجان الآخر في نوبته (رفيق) كان يضحك ويقول له: محمد ... ما سمعت !، فيتميز محمد غضباً ويشتم السجين قائلاً: يلعن أبوك يا ابن الكلب، ولك شلون هيك بتخجلني قدام صحابي؟ ، ويصفعه صفعة أخري لا تعجب صاحبه (رفيق) فيأتي هو ويقوم بنفس الطقوس السابقة، فيـــأمر السجين بوضع يديه خلف ظهره، وإغماض عينيه ورفع رأسه فيمتثل وهو يئن من شـــدة الألم، ثم يصفعه صفعة أشد من سابقتيها، ويضحك رفيق ضحكة المنتصر ويقول: هيك بدي ياك... روح شخ . وكانت هذه العملية تتكرر مع عدد من المساجين كلما جاء دورهم لدخول الخلاء.

ـــ أما السجين في المنفردة (١٣) فكان مصاباً بـــمرض السكري ولم يكن يستطيع النوم دون أن يأخذ إبرة في المساء، وكان المسكين يتوسل إليهم يومياً لعدة ساعات أن يـــأتوه بـــالإبرة ولكـــن السجانين كانوا يتعمدون التأخر عن ذلك، ثم يأتي أحدهم آخر المطاف مصراً علـــي أن يعطيـــه الإبرة بنفسه فنسمع صرخات شديدة من جراء الطعنة التي يلقاها من السجان وهو يقـــول لـــه: خود... يلعن أبوك عرص ، وقد استمرت هذه المأساة بصفة يومية طـــول إقـــامتي في الـــسجن الانفرادي.

ـــ المنفردة (١٦) كانت هذه الزنزانة تتميز عن غيرها برائحة نتنة تزكم الأنوف، ولم يكن يسمح لنزيلها أن ينظف زنزانته أو حتي أن يغتسل أو يغسل ملابسه، وكان كلما خرج للخـــلاء يعـــيره السجانون برائحته الكريهة ويبصقون علي وجهه وهو صامت لا يتكلم.

ـــ المنفردة (١٧) نزيلها المدعو (ج) نفسه، كان الجلادون يخرجونه للتحقيق يوميـــاً ويتعـــرض لـــمختلف أنواع التعذيب الذي لم ينقطع عنه يوماً واحداً طوال الأشهر الستة التي قـــضيتها في الانفرادية.

في (يناير) عام ٢٠٠١، ساقني الجلادون إلي غرفة التحقيق مرة أخري، ولما دخل المحقق ســـألته: ألـــم ينته التحقيق بعد؟ ، فأجابني ببرود بأنني لست متهماً ولذلك فقـــد ابتـــدأوا بالأشـــخاص المهمين، وقد احتاجوا لوقت طويل حتي يأخذوا جميع أقوالهم، ولكنه طمأنني بأنني سأخرج عـــن قريب. كانت هذه هي المرة الأولي التي أخرج فيها من قبو فرع فلسطين، وكان شكلي مرعبـــاً للغاية، فقد طال شاربي حتي غطي فمي بأكمله، ونقص وزني وتغيرت ملامح وجهي، وماتت كثير من خلايا جسمي فلم أعد قادراً علي المشي أو حتي الوقوف، فاستأذنت المحقق أن أجلس علـــي الأرض، وجلس هو علي الكرسي فسألني نفس الأسئلة التي وجهت لي قبل ستة أشـــهر: اسمـــي وعملي وعلاقتي بـــ (ج)، ولما لم يجد عندي جديداً قال بهدوء: يالله روح ، فتوســـلت إليـــه أن ينقلني علي المهاجع الجماعية لأنني لـــم أعد أحتمل السجن الانفرادي، فأخذ رقم زنزانتي وأمـــر

بإعادتي إلي المنفردة، وبعد تسعة أيام صدرت الأوامر بنقلي إلي المهجع رقم (٤) فخرجت مع السجانين إلي المهجع المذكور، ولما فتح الباب خرجت رائحة كريهة ونظرت داخل الزنزانة فإذا هي مملوءة عن آخرها، وتضايق المساجين الستة والأربعون من رؤيتي لأنني كنت سأشاركهم هذا المكان الضيق (٤ ــ ٥م). ولم أتمالك نفسي من الصراخ: رجعوني علي المنفردة... رجعوني علي المنفردة ، فدفعني السجانون إلي الداخل وأغلقوا الباب. كان المنظر في الداخل كئيباً للغاية، فلم يكن المكان يتسع لجلوس الجميع فاضطر بعضهم للوقوف، ولكنني فرحت كثيراً عندما علمت بوجود حمام داخل الزنزانة، فاغتسلت ثم حشرت نفسي داخل هذه المجموعة، وكان أول سؤال يوجه إلي هو سبب سجني، فأجبتهم بأنني لم توجه إلي تهمة، وسأخرج خلال أسبوعين علي أبعد تقدير، ولم أكن أعلم بأنني سأقضي الأشهر الخمسة القادمة في هذا المهجع الكئيب.

تغير حالي كثيراً في المهجع فصرت آكل وأشرب وآنس إلي المساجين وأقضي الساعات الطويلة في التحدث والاستماع إلي المآسي التي يروونها

- من قصص المهجع

ــ طلبت من السيد هلال أن يحدثني عن التهم الموجهة إلي المساجين في فرع فلسطين، فأطرق لبرهة وأخذ يذكر قصصهم بالتفصيل، وقال لي:ــ أتذكر سليمان الذي قضي أحد عشر شهراً في المهجع، ولم يكن وحده فقد كانت معه والدته (عمرها سبعون عاماً) في مهجع النساء. كانت تهمتهم أن أحد أقاربهم في الخارج اتصل بهم هاتفياً وسألهم عن حالهم بعد موت حافظ الأسد، أجابوا بديهة: مكيفين ، وكانت هذه الكلمة كفيلة بجرهم إلي السجن.

ــ أبو أيمن من اللاذقية، رجل كبير في السن عمره ٦٧ عاما، كانت تهمته أنه قابل أحد المنتسبين إلي جماعة الإخوان المسلمين أثناء رحلته إلي الحج في أوائل الثمانينيات وأعطاه ذلك الرجل مبلغ ٥٠٠ ريال لإحدى الأسر المحتاجة في سورية، وبعد مرور سنوات طويلة قرر ذلك الشخص أن يعود إلي سورية فذهب إلي السفارة في الدولة التي يقيم فيها وسجل جميع اعترافاته وذكر اسم أبو أيمن في اللاذقية، وأنه طلب منه توصيل المبلغ المذكور. وعندما أبرقت السفارة إلي دمشق كان المسكين أبو أيمن يعالج في المستشفي جراء جلطة أصابته، ولم يكن المرض ليشفع له، فقد تم جره من المستشفي إلي فرع فلسطين لاستكمال التحقيق!

ــ محمد شاهر شاب من مدينة حماة متزوج ولديه سبع بنات، وكانت تهمته الدعوة إلي الكتاب والسنة في صفوف الشباب. عندما رأيته كان قد قضي سنة ونصفاً، وكان أحد الجلادين قد دأب علي وضع رأسه في المرحاض وتمريغ وجهه بحذائه العسكري ومسح شعره بالنجاسة، ونتيجة

لتكرر هذا الأسلوب الوحشي فقد جرحت وجنته ولم يعد ينبت الشعر في أجزاء من لحيته وشاربه.

ـ وكانت هنالك مجموعة (حوالي ٢٨) من الشباب السوريين والفلسطينيين الذين تجاوبوا مع الانتفاضة الفلسطينية فقاموا بمحاولة فاشلة لتهريب بعض الأسلحة إلي الأرض المحتلة عبر الحدود الأردنية، حيث ألقي القبض عليهم، وكنا نستغرب أن يتميز هؤلاء عن غيرهم بأشد أنواع التعذيب في قلعة الصمود والتصدي، وتحديداً في فرع فلسطين !

ـ وكانت هنالك أيضاً مجموعة من العراقيين الذين حاولوا التسلل عبر الحدود السورية ليذهبوا إلي لبنان، ومنه إلي أوروبا، وقد فر هؤلاء المساكين من الحصار والضيق الاقتصادي في بلدهم ليعانوا من الويلات في بلدهم الشقيق.

ـ وأذكر من المساجين أيضاً رجلاً تم القبض عليه بتهمة بيع أشرطة إسلامية أمام أحد المساجد، وبالرغم من أن الأشرطة مصرح بها فقد تم اعتقاله، وكان يتعرض كذلك للتعذيب.

ـ ولا أستطيع أن أنسي رجلاً كان معنا اسمه نعيم، وكانت رجله مقطوعة، وتهمته أنه قد ساعد في محاولة تهريب الأسلحة عبر الحدود السورية إلي الأردن، ومنها إلي فلسطين. لقد كان الجلادون يضربونه علي رجله المتبقية، ولقد رأيت بأم عيني اللحم يتساقط منها عندما يعود من حفلة التعذيب، وكنا نحمله إلي الخلاء، وبالرغم من تورم رجله وانتفاخها فقد كان يستدعي المرة تلو الأخرى لسحب المزيد من الاعترافات منه، ولم يكن هناك شيء أشق علي نفوسنا من حمله كل يوم وتسليمه إلي الجلادين الذين كانوا يسحلونه إلي غرفة التعذيب، ثم نسمع صياحه وتوسلاته واستغاثته.

وكان معنا عقيد سابق في الجيش السوري، وكان كبيراً في السن ومصاباً بضعف في القلب، وقد منع السجانون عنه الدواء فكان يتوسل إليهم بأن يحضروا له نوعاً من الحبوب التي يضعها تحت لسانه ولم يكونوا يستجيبون له، وذات مرة سقط علي أرض الزنزانة وخرج الزبد من فمه فطرقنا الباب وأخرجناه محمولاً إلي الممر، فكان السجانون يركلونه ويقولون له: قوم يا عرص ... لو عملت شو ما عملت ما في دوا ، ولما طال به الحال أحضروا الممرض الذي فحص ضغطه فوجده في حالة خطيرة فرفعوه، وجاءوا بعد فترة فطلبوا ملابسه وأغراضه، وقيل لنا بعد ذلك أنه قد انتقل إلي رحمة الله، وبالرغم من حزننا عليه فلم نجد أي شعور بالشفقة أو الذنب عند هؤلاء الجلادين الذين كانوا يقولون لنا بعد ذلك والله غير تموتوا كلكم هون متل هالكلب .

هذه هي الحالة التي كنا عليها طوال الأشهر الخمسة التي قضيتها في المهجع؛ كنا نزدحم مثل قطيع من الأغنام في زنزانة لا تتسع لنصفنا نتبادل الأدوار في النوم فيقف بعضنا وينام الآخرون، وفي

فصل الصيف كان يتطوع بعضنا للقيام بعملية التهوية بملابسهم القذرة، وكان الجلادون يـــأتون بين الفينة والأخري وينادون باسم الضحية فيتقدم من بيننا خائفاً مرتعشاً، ولا نلبث أن نـــسمع صياحه وأنينه من غرفة التعذيب، ومن سوء حظنا أن فتحة تـــهوية المهجع كانت تطل علي غرفة التعذيب فكنا من خلالها نتمكن من معرفة ما يقع علي إخواننا من البلاء.

- صور من التعذيب

ثم ينتقل هلال للحديث عن التعذيب في فرع فلسطين، وما يسببه ذلك له من كوابيس مفزعـــة، فقد كان الجلد بأسلاك الكهرباء الرباعية (الكيبلات) أمراً اعتيادياً، ولم ينج منه أحد قط، ولكن أصحاب التهم الخطيرة كانوا يتعرضون لنوع آخر من التعذيب أبرزها الكرسي الألمـــاني الـــذي يثبت عليه السجين ثم يرجع به إلي الخلف حتي يصبح رأسه قريباً من رجليه فيفقد وعيه من شدة الألم، وكثيراً ما أصيب المساجين من جراء ذلك بآلام مزمنة في الظهر، وعندما يعود إلينا زملاؤنا في المهجع بعد جلوسهم علي هذا الكرسي كنا نمددهم علي الأرض وندلك ظهورهم، ويبقـــون متمددين علي حالهم أياماً طويلة بسبب عجزهم عن الوقوف أو المشي.

وكان الجلادون يستخدمون الدولاب فيخرجون رأس السجين مع يديه ورجليه ويبقي في الطرف الآخر ظهره ومؤخرته ويضرب بعد ذلك بالعصي حتي يعترف علي نفسه بكل ما يملي عليه.

وكثيراً ما كان يشتكي زملاؤنا في المهجع من تعليقهم مثل الخراف وتعريتهم وضربهم علي جميـــع أنـــحاء الجسد، ولم يكن الضرب أشد إيلاماً من تحمل الرسغ لسائر ثقل الجسم، فيعود السجين إلي زنزانته وهو غير قادر علي تحريك يديه وقد يستمر علي هذه الحالة لبضعة أيام.

كنا نعرف طريقة التعذيب من تتابع صياح الضحية، ثم ينزل المسكين ويحكي لنا مـــا فعـــل بـــه الجلادون، وكثيراً ما كانوا يأخذون المعتقل ويبقونه واقفاً طول النهار وهو مقيد ومغمض العينين خارج غرفة التحقيق، ثم يخرج المحقق ويقول له: انزل ولك كلب، بكرة منشوف شـــغلنا معـــك فينـــزل مرة أخري تحت ضرب الجلادين وركلهم حتي يدخل الزنزانة.

- مهجع النساء

يقدر هلال بأن عدد السجينات في مهجع النساء كان حوالي ١٤ امرأة، وكان بعـــض النـــساء يصطحبن أطفالـــهن فكان في المهجع طفل عمره خمس سنوات وبنت عمرهـــا أربـــع ســـنوات وأخري عمرها ١١ سنة كانوا يرون أمهاهم يشتمن بأقذع الألفاظ الفاحشة التي يندي لها الجبين ويسمعون أصوات التعذيب، وكنا نرق لبكاء الأطفال الذين يذكروننا بأبنائنا فلم يكن أحد منـــا يعرف حال أهله بعده لانعدام الصلة والانقطاع عن العالم الخارجي.

كانت هناك طفلة عمرها ١٦ سنة حافظة للقرآن الكريم وأخري عمرها ١٧ سنة جيء بهما مع والدهما، وكانت هناك امرأة متزوجة منذ خمسين يوماً جيء بها وهي حامل، وأذكر أنني سمعت صوت ثلاث نساء يسقطن، وكانت النساء تصرخ بطلب الطبيب، فيجيبهن السجان: شو دخلني أنا... هاي شغلتكن أنتو النسوان... اتصرفوا ، ولم تكن تجدي فيه الاستغاثة والولولة والعويل الذي يستمر لفترة طويلة ثم ينقطع بالتدريج.

لقد ماتت الشفقة والرحمة في قلوب هؤلاء السجانين الذين لم يكونوا يميزون بين رجل وامرأة وطفل، فقد وضعت البنت ذات الستة عشر ربيعاً في إحدي الزنازين المنفردة، وكان أحد السجانين يفتح عليها الباب دون إذن فتصرخ لكرامتها، ولما تكررت هذه الحادثة هب المساجين من الزنازين المنفردة والمهاجع وأخذوا يطرقون بأيديهم العارية علي الأبواب الحديدية غضباً لهذا الاستهتار حتي نزل العميد وعدد من الضباط ونقلوا البنت إلي مكان آخر. وعندما استطعنا التواصل مع مهجع النساء عن طريق أنابيب التمديدات الصحية كانت هذه البنت المسكينة تطلب والدها وتبكي بكاء حاراً يقطع قلوبنا وتشتكي له من السجان (شادي) الذي كان يصفعها علي وجهها ويفحش في السب والشتم، ولا يزال صوتها يرن بأذني وهي تقول بصوت طفولي بريء: بابا... بابا... هدا الحارس (شادي) عمبيضربني وكل المساجين يشاركون والدها البكاء من قلة الحيلة والهوان.

وقد حدثني بعض المساجين بأنهم رأوا إحدي النساء في غرفة التحقيق وقد عراها الجلادون وهي تستر ما تستطيع بيديها وتولول وتستغيث. وكان مهجع النساء يستقبل بين الفينة والأخري بعض النساء المتهمات بالدعارة وتلقي النساء الأخريات من سوء خلقهن الكثير، وكان السجانون يفتحون باب المهجع النسائي ليتلذذوا بمشاهدة رقص هؤلاء النساء ونحن نسمع كل شيء، وإذا اشتكت أي امرأة محتشمة من ذلك كان الحارس يصرخ بهن: اخرسوا يا كلبات، هي أشرف منكن كلكن . بل كانوا يتعمدون الإساءة إلي المرأة التي تحافظ علي سترها وينعتونها بأقذع الشتائم، وكنا نسمع ولا نستطيع أن نحرك ساكناً.

• الفساد

يتكون قبو سجن الفرع من ممر طويل فيه ١٠ مهاجع جماعية (٤ ــ ٥م)، و١٩ زنزانة انفرادية (٨٠ ــ ١٨٠)، و٤ زنازين مزدوجة بحجم المنفردة مرتين، وكان توضع في بعضها ٨ سجناء، ولا ندري كيف كانوا يجلسون أو ينامون فيها، بل إن أحد المساجين قد قضي في المزدوجة سنة ونصف يشاركه سبعة آخرون في كثير من الأحيان. وكان هناك عدد من المهاجع في الطابق الأرضي.

كان مدير السجن برتبة مساعد أول واسمه أحمد، وله ثلاثة نواب: شادي وحاتم وأبو عصام، وكانوا غاية في السوء والفظاظة ولم تكن الألفاظ البذيئة والفاحشة تغادر ألسنتهم على الإطلاق، أما الحراس فكانوا ثلاث مجموعات من خمسة سجانين، تسمى نوبات، مرتبة
علي النحو التالي:

ـ نوبة المعلم أبو سومر ومعه: رامز، وعلي، وخصيم (أبو غضب)، وسامر.

ـ نوبة المعلم حسن ومعه: إبراهيم، ورفيق، ومحمد، وأحمد.

ـ نوبة المعلم محسن ومعه: سامر، وعلي، وحسام، وجمال.

وقد كانت هذه المجموعات الثلاث تتناوب علي حراسة الزنازين. وقد تم اختيار هؤلاء السجانين بدقة متناهية فكانوا جميعاً من أبناء الطائفة الحاكمة ومن أصحاب السوابق الذين يمتهنون الأعمال الدنيئة، وكانوا علي درجة عالية من الغلاظة وسوء الخلق فيشتمون بعضهم البعض بألفاظ نابية ويتلذذون بتعذيب المساجين ويتسابقون في أذيتهم. لقد كان السجن هو مصدر رزقهم الوحيد، ونشأت عن هذه الحاجة سوق رائجة لا يعرفها إلا من دخل فيها والعياذ بالله:

ففي المرحلة الأولي يتعاون المدير مع عصابات أمنية في الخارج لمساومة أهالي السجين علي أغلى ثمن لقاء زيارته، وكانوا يقتسمون هذه المبالغ فيما بينهم كل حسب النسبة المتفق عليها. وقد علمنا بأن المدير كان يحصّل ٥٠٠٠ ليرة سورية عن كل زيارة من خلال عصابة تتعاون معه خارج السجن.

ثم يسلم الأهالي مدير السجن الأموال والألبسة والمأكولات التي أحضروها لأبنائهم فيقتسم الغنيمة مع الحراس ولا يصل للسجين من ذلك إلا القليل؛ فإذا ترك الأهالي خمسة آلاف ليرة يقتطع المدير منها ثلاثة آلاف ويقول للسجين بابتسامة خبيثة: تركولك أهلك ألفين ليرة ، ولا يستطيع السجين أن ينبس ببنت شفة. وطالما كنا ننظر إلي السجانين وهم يتخاطفون الكباب والحلويات ويأكلونها بشره وهم يتضاحكون بينما لا يصل إلي السجناء منها شيء.

وكان يسمح لنا بشراء بعض المواد الغذائية مرة في الشهر فنشتري الجبن والشاي والسكر والسجائر والصابون، وكانوا يسمون هذه المناسبة: ندوة ، ثم نوقع تخويلاً للمدير بصرف المبلغ المطلوب من أموالنا في عهدته، وتسمي: الأمانات ! وكانت هذه فرصة كبيرة للنهب والسرقة فهناك نحو ٥٠٠ سجين في فرع فلسطين، فيعمد مدير السجن الي تسجيل البضائع بأسعار مضاعفة ويأخذ الفرق علي حساب المعتقلين.

أما السجانون فكانوا يرغموننا علي شراء ما يحتاجونه هم، وعند تسليم البضائع كان السجانون يتجمعون علي باب الزنزانة ويتخاطفون ما يريدونه والويل لمن

يعترض عليهم من المساجين، وأذكر أنني اشتريت علبتين من جبنة البقرة الضاحكة ولم يصلني منها عند التسليم سوي ثلاث مثلثات من العلبة الثانية! بل إن السجانين كانوا يشربون الشاي ويستخدمون السكر والصابون الذي نشتريه ويقولون لنا: إزا جعتوا أنتو نحنا منجوع .

أما المحنة التي مرت بها أسرتي فهي خير مثال لما يتعرض له أهالي آلاف المعتقلين في سورية، فقد استطاع أحد السجانين أن يتعرف علي عنوان أهلي في حماة، فكان يذهب إليهم بنفسه ويدعي بأنني طلبت منه أن يحضر إلي بعض الأموال، واستطاع بهذه الطريقة أن يسرق منهم أكثر من مائة ألف ليرة سورية حتي اضطرت زوجتي لبيع حليها، وأخذ منهم كميات كبيرة من الأجبان والزيتون والمرتديلا والأدوية والملابس، وكان كلما تأخر عليه أقاربي في الدفع يلفق الأكاذيب عن حالتي في السجن ليستدر عطفهم ويحثهم علي بذل المزيد، ولم يكن يخجل من زيارتهم وهو يرتدي الملابس التي أرسلوها لي في زيارته السابقة لهم، ولما علموا بفساد نيته وسرقته انقطعوا عنه، فجاء إلي واعترف لي ببعض ما فعل فغضبت لذلك وصرخت، ولكن لم يكن لي حيلة وأنا خلف القضبان، أما سبب اعترافه فهو رغبته في تعاوني معه لأخذ المزيد، فقد أعطاني ورقة وقلماً وطلب إلي أن أكتب رسالة لزوجتي حتي تتأكد أنه مرسل من قبلي، ولما امتنعت أخذ يخبرني أخباراً سيئة عن زوجتي وأولادي. وعندما فقد الأمل من الاستمرار في لعبته انتقم لكرامته المهدورة عن طريق إخبار زوجتي بأنني قد قتلت تحت التعذيب فخرت مغشياً عليها وقضت في المستشفي عدة أيام.

ولكن التجارة الحقيقية كان يمارسها رجال أكبر من السجان، فقد عرض بعضهم علي والد زوجتي الإفراج عني لقاء مبلغ مليوني ليرة سورية، فاجتهد في جمع المبلغ، ولكنه انتقل إلي رحمة الله بعد أن أصابته سكتة قلبية من شدة الحزن، وكان ضعيف الجسم لا يقوي علي مواجهة الضغوط التي كانت تمارس عليه. وللقارئ الكريم أن يتصور حالة أسرة واحدة من آلاف الأسر نكبتها أجهزة الأمن السورية؛ فالزوجة في المستشفي ووالدها في القبر وزوجها في السجن وأولادها يبكون في الليل والنهار لا يعرفون سبب ما حل بهم من بلاء، ومع ذلك فالعصابات الأمنية تبتزهم إلي آخر لحظة، وكل واحد منهم يطلب نصيبه من الغنيمة دون أن تعرف الشفقة والرحمة سبيلاً إلي قلوب هؤلاء. أما في المهجع فقد كان علينا تحمل نفقات سفر المساجين الذين أفرج عنهم فكان المساعد أول أحمد يطلب منا أن نتبرع بثمن توصيل زميلنا إلي منزله، فيجمع المدير عشرة أضعاف ثمن التوصيل ويحتفظ بالباقي لنفسه. ولما اشتد علي مرض الربو جاء المعلم محسن وهو يوبخ المساجين علي قسوة قلوبهم وعدم تبرعهم لي بالدواء، وهب المساجين كل

يدفع ما يستطيعه من صندوق الأمانات، ومع ذلك فلم يصلني أي دواء وعلمت فيما بعد بـأن المعلم محسن كان يأخذ هذه الأدوية ويتاجر بـها في الخارج!

ويمكن سرد مجلدات من قصص المآسي المروعة التي كانت تحدث في وقت الزيارة، فبعد انقطـاع أشهر طويلة بل وسنوات يسمح مدير السجن للأهالي برؤية ذويهم شريطة أن يـدفعوا المبـالغ اللازمة، وعندما يصل الأهالي لا يسمحون لهم برؤية أبنائهم أكثر من دقائق معـدودة، وكانـت النساء يتعرضن للإساءة والمهانة من قبل الحراس الذين لا يمكن اتقاء شرهم إلا بدفع المبالغ المجزية لهم، وقد أصيب أحد نزلاء المهجع واسمه خليل محسن بانهيار نفسي بعد زيارة أهله له، فقد كـان والده المقعد يتوسل إلي الحراس أن يسمحوا له بتقبيل ابنه للمرة الأخـيرة قبـل أن يمـوت، ولم يسمحوا له بذلك بل جروا ولده الماثل أمامه من خلف الشبك إلي مهجعه.

· الإفراج

مرت خمسة أشهر في المهجع دون أن أقابل أحداً من المحققين، وفي أواسط شهر حزيران (يونيـو) الماضي استدعيت إلي إدارة السجن وأخبرني المحقق بأن السفارة البريطانية قـد تـدخلت بقـوة للإفراج عني وبأن السفير قد اتصل بهم عدة مرات وتحدث إلي مجلس الأمن القومي وضغط عليهم ليفرجوا عني ما دمت لم أرتكب أي مخالفة للقانون. غمرتني سعادة عارمة وهرعت إلي زملائي في المهجع وأخبرتهم الخبر ففرحوا لي فرحاً شديداً وأخذ بعضهم في البكاء لقرب مغادرتي لـهم. وفي يوم الأربعاء ٢٠/٦/٢٠٠١ استدعيت إلي الإدارة من جديد ولقيني محقق كبير في السن فتحدث معي بلطافة لم أعهدها، ودار بيننا الحوار التالي:

· ــ لا تكون زعلان علينا ؟

· ــ هلكتوني والله

· ــ وأنت لا تقول أنك مو غلطان !

· ــ وشو غلطي؟

· ــ ليش بتتعرف علي هيك أشكال؟ !!!

· ــ والله ما بعرفه

· ــ فقال بضجر: خلص ... خلص ... اليوم منطلعك، لا تخاف .

· ثم نزلت إلي المهجع، وقال لي الحرس: ضب غراضك ، وبعد ساعتين نادوا باسمي وأصعدوني مرة أخري، حيث بصمت علي مجموعة أوراق لا أدري ما هي، ورمي إلي مدير الـسجن جـواز سفري وهوية زوجتي وحوالي ١٥٠ ليرة، وصرخ بالحراس بغيظ وكأنه قد انقطع رزقه بخروجي:

ارموه بالتشميسة ، ثم وصلت السيارة التي ستقلني إلي الجوازات، وجاء السجان أحمد بوجه يختلف عن الذي عرفته به خلال الأشهر الماضية قائلاً بلطف:

شو هلال ... ما بدك تعطينا شي؟!

· فأجبته ما بقي عندي شيء

· فتفحصني إلي أخمص قدمي وقال بوقاحة منقطعة النظير: طيب هات هالساعة من إيدك لشوف ! فتمنعت عنه، ولم يغادرني حتى جاء أحد المحققين ليبلغني الرسالة الأخيرة، فأعلن لي بصوت مرتفع وبكل ثقة:

· إزا فتحت تمك منعرف شلون نجيبك مرة تانية !!!

ثم غادرت السيارة إلي قسم الهجرة والجوازات، حيث أدخلت مقيداً إلي غرفة العميد وكان القنصل البريطاني وبعض أعضاء السفارة حاضرين، فسألتهم بحرقة: لماذا تأخرتم طوال هذا الوقت؟ فقال لي القنصل: كنا نبحث عنك ونسأل السلطات السورية، ولكنهم كانوا ينفون وجودك عندهم وأخرج لي ملفاً كبيراً فيه مراسلات تثبت بأنهم كانوا مجتهدين في البحث عني، ثم طمأنني بأن زوجتي وأولادي قد غادروا إلي لندن.

لم أكن أعرف أن منظري كان مرعباً، ولم أدرك مقدار التغير الذي حل بي إلا عندما رأتني والدة زوجتي فسقطت مغشياً عليها في الشارع أمام الناس.

ولا بد أن أعترف بأنني لم أشعر بالأمان إلا عندما غادرت الطائرة مطار دمشق، وكان يتجاذبني حزن وفرح؛ أما الفرح فكان للقاء أطفالي الذين لم أرهم منذ حوالي سنة، وأما الحزن فكان للذين ذرفوا الدموع المحرقة عندما ودعوني في المهجع، فقد أمضينا أشهراً طويلة في السجن، ولم يكن أحد منا يعرف ما هي تهمته وما هو مصيره. وكان آخر ما أوصوني به وأنا خارج من الزنزانة: أن أبلغ العالم بمعاناتهم وأستصرخ أصحاب الضمائر الحية ليعملوا علي رفع البلاء عن هؤلاء المظلومين.

ألا هل بلغت؟

[الشهادة الخامسة عشر]

واقعة أمنية سورية (المخابرات السورية تعتقل الشيخ حسين بن محفوظ (مواطن يمني) في عهد الطاغية بشار الأسد)

مجلة المجتمع العدد ١٤٣٤ - ٢١شوال ١٤٢١هـ ١٦ / ١ / ٢٠٠١م

واقعة أمنية سورية

بقلم: محمد الحسناوي (كاتب وأديب سوري)

منذ إلقاء الرئيس السوري بشار الأسد خطاب القسم، والناس - داخل سورية وخارجها - ينتظرون مرتسم هذه الوعود والأفكار التي أطلقها، هل تتحقق كلها أو بعضها، متى وكيف؟

يختلف المحللون في تقويم ما صدر عن الرئيس من مراسيم وإجرائات داخلية وخارجية، اقتصادية وسياسية. سبب الاختلاف يرجع في الحقيقة إلى عوامل غير الرغبة بالدعاية أو التهوين. منها قابلية الإجراء الواحد لأكثر من تفسير، مثل قرار إغلاق سجن المزة الشهير - وهو قرار متخذ منذ عهد الرئيس السابق، هذا التنفيذ للإغلاق هل يعد بداية نهج جديد في التعامل مع حقوق الإنسان، تصل إلى حد إلغاء حالة الطوارئ وإطلاق الحريات العامة، والتعددية السياسية، وتبييض السجون السياسية كلها، أم هو جزء من تسويق النظام لنفسه بإجرائات تحسينية انفتاحية محدودة محسوبة؟!

وإذا كانت هذه الإجراءات جزءاً من فتح صفحة جديدة في السياسة والاقتصاد والحريات والتعددية والتداول السلمي للسلطة ، فلماذا يغلب عليها البطء والتردد ونظام التقسيط أو (الجرعات)؟ وهل للحرس القديم، ومراكز القوى دور في (الفرملة) أو التقسيط أو حتى الإجهاض أو الإحباط؟

أيّاً كانت التفسيرات ، فلابد من تقويم الخطوات الإيجابية التي حصلت، والتشجيع على استكمالها، وطلب التأسيس عليها، وهذا لا يمنعنا من إبداء النقد للمظاهر السلبية أو لفت النظر إلى الأمور التي تستدعي المعالجة أو إعطاء الأولوية لمسائل محددة بعينها قبل غيرها حتى تتم معالجتها والسيطرة عليها، منها قضية ((حقوق الإنسان)) وهي قضية القضايا التي لا تتأخر ، ولا يمكن الانتظار طويلاً من أجل حلها وإزالة آثارها الكارثية .

وفي هذا السياق نعرض واقعة من الوقائع المذهلة ، تعين على الاستبصار ، وعلى تقدير حجم المشكلة، وعلى مدى خطورة آثارها المحلية والقومية والإنسانية والسياسية، وهي تذكرنا بأن كل ماقيل ويقال عن حقوق الإنسان عامة وفي سورية خاصة .. أقل من حقيقة المعاناة الرهيبة التي يرزح تحت وطأها المواطن أو الشقيق المعتقل سياسياً، وأقل من حقيقة الخروق والتجاوزات تتحدث عنها الأدبيات والجداول والقوائم التي تصدر عن أطراف المعارضة السورية أو المنظمات المختصة بالدفاع عن حقوق الإنسان لأن ((الحكي غير الشوف)) و ((الذي يأكل العصي ليس مثل الذي يعدها)).

اعتقال حسين بن محفوظ ((مواطن يمني)).. بتاريخ ٢٠٠٠/٦/٢٦م أي بعد وفاة الرئيس حافظ الأسد بستة عشر يوماً، وصل مواطن يمني من صنعاء على طائرة ((الخطوط الجوية

السورية)) إلى ((دمشق)) اسمه الشيخ حسين بن محفوظ، وهذه هـي زيارتـه الأولى للقطـر السوري، ولعلها تكون الأخيرة، وفي مطار دمشق تقدم بجواز سفره للتأشير عليـه بالـدخول، فاستُدعي على حدة، ونُقل فوراً إلى حيث التحقيق معه في أحد أجهزة المخابرات .

سبب زيارة هذا المواطن اليمني هو العمل بنصيحة بعض الأصدقاء الذين أشاروا عليه بأن في سورية كتباً ومراجع علمية تفيده في تحضير رسالة الماجستير المُكلف بها .

لما طال غياب المواطن اليمني على أهله وعلى رواد مسجده - وهو خطيب ومـدرس في أحد مساجد صنعاء - بدأ تململ ذويه وتساءلوا عن مصيره ، فتحرك نفر منهم، وقابلوا الـشيخ عبد الله الأحمر ((رئيس مجلس الشورى اليمني)) بصفته وجهاً بارزاً من وجوه السياسة، وهو في الوقت نفسه ((شيخ مشايخ قبيلة حاشد)) التي ينتمي إليها المواطن اليمني المفقود .

طلب الوفد مساءلة القائم بالأعمال في السفارة السورية عن مصير قريبهم، فكان جواب الجهات السورية بعدم وجود حسين اليمني على الأراضي السورية! حينذاك طلب الشيخ عبد الله الأحمر من الوفد مراجعة سلطات مطار صنعاء للتأكد من الجهة التي ذهب إليها، فأكدت سلطات مطار صنعاء بأنه سافر إلى دمشق تحديداً وعلى الطائرة السورية منذ ٣٥ يوماً، فما كان من أهل المواطن المفقود إلا أن حملوا الشيخ الأحمر تهديداً صريحاً إلى القائم بأعمال الـسفارة الـسورية ، مفاده: التهديد بإحراق السفارة السورية في صنعاء أو قتل القائم بالأعمال السوري أو اعتـراف المسؤولين السوريين بحقيقة مصير المواطن اليمني خلال مدة حددوها له.

رجع القائم بالأعمال السوري ثانية إلى السلطات المعنية في سـورية وأبلغهـا حقيقـة التهديدات وجديتها، فكان أن اعترفت الجهات الأمنية السورية بوجود المواطن اليمني ، ووعدت بالإفراج عنه بعد استكمال التحقيقات معه، وفعلاً تم إطلاق سراحه بعد ٣٥ يوماً أُخر قضاها في ضيافتها، وكان مجموع أيام الاعتقال ٧٠ يوماً سعيداً .

ماذا جرى مع الأخ اليمني؟

من خلال اعتقال هذا المواطن اليمني الضيف وإطلاق سراحه.. رشحت بعض المعلومات الجديدة المفيدة عن سجون الرأي والسياسة في سورية .

١ - سبب اعتقال الشيخ حسين بن محفوظ - وهو ليس من الإخوان المسلمين - هو أنه تناول في سلسلة خطب له في اليمن المذاهب الإسلامية الباطنية، وضرب مثلاً بإحدى الطوائف في سورية، فأُدرج اسمه على الحاسوب في قائمة الأعداء المطلوبين، حـتى جـاء بنفـسه إلى الفـخ المنصوب، وليس يعفيه كونه مواطناً غير سوري، لكن بوسعه بعد اعتقاله أن يصحح مزاعمه، وأن يعطي صورة حسنة عن الجنة السورية.

كانت الأيام الأولى من اعتقال المواطن اليمني في زنزانة انفرادية يتعرض يومياً للتعـذيب المبرح، أما النصف الثاني لمدة الاعتقال فقد قضاها في زنزانة جماعية طولها وعرضها ٤ في ٤ متراً تضم عشرين مواطناً سياسياً معتقلين في إحدى زنزانات سجن (فرع فلسطين).

٢ - هؤلاء السجناء السوريون الذين صادفهم المواطن اليمني، كلهم معتقلون حديثاً.

٣ - أحد المعتقلين في هذه الزنزانة كان صبياً عمره ١٢ سنة، ذنبه أنه متهم بتمزيق صورة المرشح لرئاسة الجمهورية الرئيس الحالي.

كان يطلب من الصبي المعتقل أن يعترف بأن والده هو الذي أمره بتمزيق صورة المرشح حتى يُطلَق سراحه، قال المواطن اليمني المعتقل للصبي: اعترف لهم بأن أباك هو الـذي حرّضـك على ذلك، كي يُطلق سراحك، فما كان جواب الصبي إلا أن قال : إذا كنتُ أنا صـبياً المتـهم أتعرض لهذا العذاب، فكيف يكون حال أبي إذا اعترفت عليه؟!.

إذا كان الرئيس الجديد نفسه أمر - كما قيل - بإنزال الصور والـتخلص مـن هـذه المظاهر، فلماذا تعاقب الأجهزة الأمنية طفلاً حصل منه ما يوافق موقف الرئيس نفسه؟!.

[الشهادة السادسة عشر]

شهادة سجين جزائري حاول العبور للعراق للجهاد في سبيل الله

الفدائيون الجزائريون في بلاد الرافدين: يباعون في العراق، يُنكل بهم في سوريا ويُعتقلون في الجزائر؟!

نقلاً عن مجلة العصر

مراسلة خاصة من الجزائر

صورة أخرى من صور الخيانة تعلق نياشين المذلة والخضوع على صدور دعاة العروبـة والقومية، ومشهد آخر من مشاهد الغدر. تجتمع في هذا الحوار المأساة مع "الدراما" لتخيط بيتـا للعنكبوت (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) يروي تفاصيلها عائد من أرض "الميعاد"، ويتكلم بلغة الذي فقد كرامته وكبريائه بفقدانه إنسانيته....شاب كان يحلم في يوم من الأيام أن يكتـب بدمه أروع مشاهد البطولة في بلد الخلافة. العصر ترجع بقرائها قليلا إلى الوراء لتجلي الحقـائق وتميط اللثام عن سر حير عقول المتتبعين، وتستنطق لسان شاب جزائري كادت الأيادي الملوثـة بالغدر والمخضبة بدماء المكر والخداع أن تسكته إلى الأبد، وهي إذ تنقل إليكم تفاصيل الأحداث

المروعة التي تعرض لها هذا الشاب الجزائري، فهي تفتح نافذة أخرى للقراءة والتحليل. واعتـذر المحاور عن ذكر اسمه.

العصر : كيف تخمرت في ذهنكم فكرة الذهاب إلى العراق للجهاد؟

** البدايات كانت وسط حالة الإحباط والشعور بالمذلة والهوان التي تسيطر على الأمـة الإسلامية بسبب الهيمنة الأمريكية وحالة الخنوع التي ضربت أطنابها عمق المواقف العربية، وقـد أخذ القرار في غمرة العدوان خاصة بعد اتفاق جمهور العلماء المسلمين علـى ضـرورة الجهـاد والمشاركة في دحر الغزاة.

العصر : هل اتخذت القرار فرديا أو في إطار مجموعة منظمة؟

** قرار الذهاب إلى العراق للجهاد أخذته فرديا دون مشاركة أحد ودون علم العائلـة، وهذا لتجنب أي معوق يحول دون الوصول إلى الهدف الذي وضعته وهو تحقيق أمنية الجهاد.

العصر: الأكيد أن الوصول إلى العراق يمر بداية عبر إجراءات قانونية تتم مـن مكـان الانطلاق، كيف كانت البداية مع السفارة العراقية بالجزائر؟

** تم الإتصال بسفارة العراق في الجزائر التي منحتني بدورها تأشيرة الدخول، مع كـبير من الجزائريين الذين يقدر عددهم بـ ٩٠٠ جزائري دون أن يعرف أحد منا الآخـر، وكـان أغلبيتهم حسبما رأيت لا يتعدى متوسط أعمارهم ٣٠سنة، أما الذين غادروا معي أرض الـوطن فعددهم ٧٠ فرد.

العصر: هل كانت هناك إجراءات خاصة بالجزائريين الذين عقدوا العزم على الجهاد؟

** الذين يذهبون لغرض الجهاد لا تمنح لهم تأشيرة بل وثيقة خاصة عليهـا معلومـات المتطوع والغرض من الذهاب.

العصر: كيف كان الاستقبال في مطار دمشق الدولي؟

** غادرنا باتجاه العراق، وحين نزولنا بمطار دمشق الدولي وجدنا في اسـتقبالنا عراقيـا وجزائريا، أوهمانا بأنهما متواجدين في مهمة إيصالنا إلى العراق دون أن تكون لنا معلومات عـن هويتهما أو طبيعة عملهما، وقد تبين لنا فيما بعد بأنهما يظهران مالا يبطنان وهي بداية الخيانة في نظري، فقد قاما بابتزازنا، حيث أخذا منا كتكلفة للحافلة ما قيمته ٢٠٠٠ ليرة في الوقت الذي تقدر تكلفة الذهاب إلى الحدود العراقية ٢٥٠ ليرة، وهذا باشتراط مسبق على أن توضع كـل الوثائق في حوزهما. لم نكن نحن الجزائريين فقط الذين تعرضنا للابتزاز بل كان برفقتنا تونـسيين وليبيين ويمنيين، وفقط اليمنيون هم الذين تفطنوا لعملية الابتزاز، وقرروا تأجيـل رحلتـهم إلى العراق، أما نحن فسافرنا في الصباح الباكر في الحافلة التي اكتراها لنا الجزائري والعراقي، وبعـد

حوالي ٢٠ كلم من دمشق غادرنا العراقي، ولم نفهم سبب مغادرته لنا، وواصلنا السير وبرفقتنـــا الجزائري إلى الحدود السورية في مكان يسمى "نقطة حدود"، بعد توقفنا توجه الجزائري النـــاطق باسمنا إلى حراس الحدود، ليرجع بعد دقيقتين ويخبرنا بأن الحدود مغلقة ولا يمكننا مواصلة الرحلة، عندها فقط تأكدنا من أن الجزائري لا يود في النهاية إلا الابتزاز.

العصر: هل يمكن أن تصف لنا أول لقاء مع الشرطة السورية، وماذا قررتم بعد إبلاغكم أن الحدود مغلوقة؟

** كانت رغبتنا كبيرة في الدخول إلى الأراضي العراقية والمشاركة في الجهاد، ولهذا قررنا البقاء في المركز الحدودي، فلجأنا إلى مسجد كان قريبا منا ومكثنا بداخله، وفي حدود منتـــصف الليل بدأنا نسمع أصوات الصواريخ والقنابل، وبدأت الأخبار تصلنا عن سقوط بغداد وتفاصيل الخيانة مع مجموعات المقاومين التي كانت تتوافد على المسجد من حين لآخر، فقد روى ســـوريان كانا في أرض المعركة عن المهازل التي حصلت وتفاصيل الخيانة التي جرت، حيث أكدا لنا تسليم الجيش العراقي أسلحة مغشوشة للمتطوعين، ومساهمة مجموعات من الكـــويتيين والعـــراقيين في إيقاف المجموعات المتوجهة إلى بغداد.

العصر: هل تعتقدون حقيقة أن العراقيين ساهموا بشكل فعال في إسقاط بغداد وأن الخيانة كانت من عندهم؟

** ليس كل العراقيين بالطبع، بل أنا أؤكد أن "السنة" كانوا يبكون وهم يسمعون نبـــأ سقوط بغداد

العصر : بعدما علمتم أن الخيانة أصبحت مؤكدة، كيف كان موقفكم وماذا قررتم بعد ذلك؟

** قررنا الدخول رغم كل الصعاب، واتجهت مع جزائري آخر و سوريين وفلسطيني إلى مركز شرطة الحدود التي رفضت بدروها السماح لنا بالدخول إلى أراضي العراق، ومع ذلك فقد تغاضوا عن دخولنا بشكل غير رسمي ودلونا على طريق جانبي يسهل علينا عملية الـــدخول دون جلب الانظار، وهو ما حدث فعلا، فقد دخلنا عبر هذا الطريق الذي يأخذنا مباشرة إلى منطقـــة الحصيبة التي وجدناها خالية من السكان، وكأنها غير مأهولة، وفي حدود الساعة ١١ صـــباحا، عادت إليها الحياة وكأن سكانها خرجوا من تحت الأرض، وعلى عكس ما كنا نتـــصور، فقـــد استقبلنا الأهالي بنظرات الحقد والكره وعدم الرضا حتى ظننا بأننا سنقتل على أيديهم، وأننا نحن الغزاة بدل الأمريكان، ذهبنا بعد ذلك إلى مسجد البلدة لنستريح قليلا، فوجدنا أفواجا أخـــرى من المقاتلين العرب داخل المسجد، وتأكدنا من أننا لسنا الوحيدين في هذا المكان، مكثنا داخلـــه

مدة ليدلنا بعد ذلك إمام المسجد على مسجد آخر يبعد حوالي ١٥ كلم والذي وجدناه كـذلك آهلا بأعداد كبيرة من المقاتلين.. تعرفت داخل هذا المسجد بطالب عراقي، ومن خلال حـديثي معه أكد لي بحسرة ممزوجة بالأسف والأسى أن الخيانة وقعت من طرف العـراقيين وأن الجهـاد أصبح في خبر كان، وطلب مني أن أرجع إلى وطني وأن لا أخوض مغامرة الدخول إلى بغداد.

العصر: هل بدأ التفكير في الرجوع أم أن الإصرار كان اكبر ؟

** لا أخفيك أنني شعرت بنوع من المقت على الذين خانوا وطنهم وباعوا القضية، لكن هذا لم يزدني إلا إصرارا على دخول بغداد خاصة وأن القصف بدأ يتوقـف وسمعنـا أن حـرب العصابات بدأت في الشوارع، وأسررت إلى صديقي الطالب العراقي بذلك، وأكـدت لـه أني سأذهب رغم كل الظروف، ونصحني للمرة الثانية أن أتراجع عن موقفي هذا، وليقنعني بوجهـة نظره أخذني مع الجزائري الآخر إلى موقف السيارات التي كانت تعج بسائقي الأجرة، وحينمـا تقدمنا إلى أحد الناقلين وسألناه عن مبلغ أجرة الذهاب إلى بغداد طلب منا قيمـة ٢٥٠ دولار، على الرغم من أن المتكلم كان صاحبي العراقي، فقررنا بعد ذلك استعمال الحافلة الـتي كانـت أجرها أقل بكثير، وبعد اجتيازنا الـ ٢٠كلم توقفت الحافلة، عندما رأى السائق قوات أمريكية على بعد أمتار، ليترل صديقي العراقي وطلب مني أن أمكث مكاننا ونراقب المشهد.

بعد دقيقتين من نزولنا شاهدنا عسكري عراقي يرتدي بدلة عسكرية ويـسوق سـيارة مدنية يتجه إلينا بسرعة البرق، ومن ورائه مجموعة من الكويتيين، فتكلم مع صـديقي باللهجـة العراقية وطلب منه معلومات حولنا، فأكد له أننا عراقيون نريد فقط الدخول إلى أحد البلـدات المجاورة، هذا الحادث أكد لنا أن هناك تواطؤ بين بعض العسكريين العـراقيين والكـويتيين مـع القوات الامريكية، وهو المشهد الذي جعلنا نصاب بحالة الذهول، وعلى الفور قررنـا العـودة أدراجنا، فرجعنا مباشرة إلى مسجد "الحصيبية"، أين لم نجد أحدا من الـذين تركنـاهم، وأخـذا بنصيحة إمام المسجد بضرورة المغادرة والعودة من حيث جئنا، فقررنا العودة إلى الحدود السورية، وأثناء السير وجدنا أنفسنا في قبضة قوات سورية، تقدّم إلينا قائد الفرقة طالبا منا وثائق إثبـات الهوية، وبعد تأكده من هويتنا طلب منا أموالا مقابل ترك سبيلنا وكان المبلغ الذي طلبه منا ٥٠٠ دولار، وهو الأمر الذي لم نقبل به ليس لكونه "رشوة" لكن لعدم توفره لدينا، فلم يتوانى في أخذنا إلى مركز للاستخبارات وبه سجن عقابي وجدنا من بين نزلائه عدد كبير من الجزائريين، وفي تمييز ظاهر، يطلق المسجون بمجرد إظهاره الوثائق السورية دون مساءلة، أما المساجين من جنـسيات أخرى فيعاملون وكأنهم أعداء لا أشقاء، أما أنا فلم أكن أعرف أنني بداخل سجن بمستوى هـذه الخطورة، لولا أن أحد الأصدقاء السعوديين طلب من أحد الأعوان سجادة للصلاة، فانهال عليه

السجان ضربا وأسمعه من أنواع السباب الممزوج بكلمات التطاول على الذات الإلهية، هنا انتبهت إلى حقيقة ما يدور حولي، بعدها تم تكبيلنا، وزجوا بنا داخل ناقلات ضيقة مغلقة النوافذ في حدود الساعة العاشرة ليلا، حيث سرنا ونحن مكدسين كالبهائم بداخل الناقلات المعززة بحراسة شديدة، وقد جردنا من كل وثائق تثبت هويتنا وكذا من أموالنا وممتلكاتنا، وتحت جنح الليل الدامس سرنا حوالي ١٠٠كم حتى استلمتنا قوات أخرى استخبارية، وكأني بها أرسلت خصيصا لاستقبالنا، يتقدمهم شخص في زي مدني طلب منا مباشرة أن لا نظهر " الكلبشات " التي تقيد أيدينا متى مررنا بأي حاجز من حواجز شرطة الحدود، وعلى هذا الحال سرنا حتى وجدنا أنفسنا داخل أسوار سجن آخر، وجردنا من كل ممتلكاتنا بما في ذلك هذه المرة الساعات والألبسة الخارجية والخواتم، وأذكر هنا حال ذلك الشخص الذي يستعين بنظارة طبية جرد منها وترك كالأعمى لا يقدر على الحراك، ووجدنا عددا من "النزلاء" كانوا كثيرين ولا أحد منا يعرف مصير الآخر.

قضينا الليل داخل هذا السجن نفترش الإسمنت الخشن، ونلتحف السقف، ولما أقض مضاجعنا الجوع طلبنا من حراس السجن بعض الأكل لكي نقتات به، فما أجابتنا إلا جدران الزنزانات، وهكذا بقينا على هذه الحال إلى وقت الظهر من يوم الجمعة ولم نكن ندري بالوقت لولا سماعنا آذان وخطبة صلاة الجمعة تنبعث من أحد المساجد المجاورة. في هذه الأثناء بدأت عملية تحقيق دقيقة كل واحد على حدة، وأخيرا جاء دوري وبدأت المساءلة، سألوني عن انتمائي الحزبي والسياسي وعن حزب البعث، فنفيت أي انتماء وأكدت لهم عدم انخراطي في السياسة، وأثبت لهم بالوثائق الرسمية بأني رياضي ولا أهتم بالسياسة، سألني بإلحاح: لو خلينا سبيلك ماذا ستفعل؟.

فأجبت لن أتأخر في العودة إلى بلدي، وأعاد سؤالي بتبجح ممزوج بكثير من المكر، كيف أنتم الجزائريون تقتلون بعضكم البعض وتتدعون الدفاع عن العراق؟. في هذه الأثناء كانت الساعة الرابعة مساء، جيء لنا بطعام تعافه "الكلاب" قدّم لنا بطريقة ذكرتني بالأيام الخوالي التي كنت أقدم فيها العلف لأبقاري، كانوا يقسمون ١كغ من الخبز بين أربعة أشخاص أي أقل من ٥٠غ خبز للفرد الواحد، هذا في جو يسوده الابتزاز والمزايدة في سعر شراء الخبز، ناهيك عن سرقة الممتلكات والأمتعة وحتى الأحذية لم تسلم، بعدها تقدم أحد أعوان الأمن، ليفك قيدنا ويترك سبيلنا، لم أصدق ما رأيت، وغادرت سريعا.

خرجت من السجن وتوجهت إلى أحد المواطنين يقطن البلدة، سألته عن اسم المكان فأجابني بأن المكان يدعى "دير الزور"، وأما مكان السجن، فهو "حي الجبل" وهما تابعان لمحافظة حلب، توجهت مسرعا إلى محطة نقل المسافرين، هنا أيضا طُلب مني جواز السفر ودون تفكير

وجهني العون إلى مصلحة استخبارات وسئلت هناك عن سبب وجودي أنا ومن معي في هذا المكان ؟ كل منا نفى أن يكون قد قدم من العراق، وأكدنا أن قدومنا إلى سوريا كان بغرض السياحة، الشيء الذي شفع في إطلاق سراحنا، وقضينا الليلة في براري دمشق.

في اليوم الموالي توجهت إلى المطار لغرض الحجز في الطائرة والعودة إلى الجزائر أين وجدت جزائريين آخرين كنت قد رأيتهم بالسجن السابق، ومحجوزين بالمطار تذكرت صورة رجل كهل، هو الوحيد ممن عرفت، كان قد شارك في الحرب، حدثني عن فضاعة ما جرى لهم بالسجن المذكور من شرور الجوع والسرقة والشتائم. صديقي الذي كان برفقتي في رحلة الذهاب وجدته هو الآخر محجوزا بأرضية المطار وطلب مني أن أعمل شيئا حال وصولي إلى الجزائر والإبلاغ بما جرى له وللجزائريين الآخرين. وعدت وكلي ألم وحسرة ولن يهدأ لي بال، حتى أسعى في قضية الجزائريين ممن تركتهم رهن الحجز وفي السجونن، ولعلمكم أيضا أنه في هذا اليوم تم توقيف ما يقارب ١٥عشر شخصا بالمطار أثناء عودهم من سوريا إلى الجزائر.

العصر: لو منحت لكم فرصة أخرى للذود والدفاع عن الشعوب والبلدان الإسلامية، فهل ستلبي؟

** ما رأيت في العراق دفعني إلى إعادة النظر في الكثير من قضايا التحرر التي يتحدث عنها العرب ودعاة القومية والوحدة العربية، وأقول هنا أنا على علم وواثق مما أقول، بأن الجزائريين الذين ذهبوا لنصرة الشعب العراقي هم من طينة الوطنيين المخلصين ولا أحد منهم ذهب لمساندة نظام أو الانتصار لحزب أو سياسة معينة، إنما هو الانتصار للشعب والبلد، واتهام هؤلاء بالإرهاب يعني غرس ثقافة الخيانة في ذهنية الشعوب وتهيئتها نفسيا لخيانة دولها وأنظمة حكمها!.

مصادر الكتاب :

- التفسير الميسر .
- تفسير الجلالين .
- موقع "النصيرية" على شبكة الإنترنت .
- موقع "الشيخ أبو بصير الطرطوسي" على شبكة الإنترنت .
- موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنترنت .
- موقع "اللجنة السورية لحقوق الإنسان" على شبكة الإنترنت .
- موقع "تدمر" على شبكة الإنترنت .
- موقع " صيد الفوائد " الإلكتروني على شبكة الإنترنت .
- موقع " سورية المسلمة " الإلكتروني على شبكة الإنترنت .
- موقع "سوريا الحرة" على شبكة الإنترنت .
- موقع " إسلام أون لاين.نت " على شبكة الإنترنت .
- موقع "ويكيبيديا" على شبكة الإنترنت .
- موقع " المنظمة السورية لحقوق الإنسان " على شبكة الإنترنت .
- موقع " الجزيرة نت " على شبكة الإنترنت .
- موقع " شام برس " الإلكتروني على شبكة الإنترنت .
- موقع "مجلة العصر" الإلكتروني على شبكة الإنترنت .
- بالإضافة لبعض البحوث التي جمعتها منذ فترة طويلة ويتعذر علي ذكر مصادرها .

تم بحمد الله وتوفيقه